

عُمْدَةُ النَّفْسِيرِ

عَنْ الْحَافِظِ ابْنِ كَثِيرٍ

مَخْضَرٌ نَفْسِيرِ الْقُرْآنِ الْعَظِيمِ

لِلْعَلَّامَةِ الْمُحَقِّقِ

السَّيِّدِ أَحْمَدَ شَاكِرًا

أَعَدَّهُ

أَفْرَاقُ الْبَازِ

الْجُزْءُ الثَّانِي

تَارِخُ الْوَقْفَاءِ



عُمْدَةُ النَّفْسِيرِ

عَنْ الْحَافِظِ ابْنِ كَثِيرٍ

مُجْتَمِعٌ مِنْ نَفْسِيَةِ الرَّأْيِ الْعَظِيمِ

جميع الحقوق محفوظة
الطبعة الثانية
١٤٢٦ هـ - ٢٠٠٥ م

دار الوفاء للطباعة والنشر والتوزيع - ج.م.ع. - المنصورة
الإدارة: ش الإمام محمد عبده المواجه لكلية الآداب ص.ب: ٢٣٠
ت: ٢٢٥٦٢٢٠ / ٢٢٥٦٢٣٠ - فاكس: ٢٢٦٠٩٧٤ / ٥٠
المكتبة: أمام كلية الطب ٢٢٤٩٥١٣ / ٥٠
E-Mail: DAR ELWAF@HOTMAIL.COM



تفسير سورة الاعراف

وهي مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ ١ ﴾ الْمَصَّ كَتَبْتُ أَنْزِلَ إِلَيْكَ فَلَا يَكُنْ فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِنْهُ لِئُنذِرَ بِهِ وَذِكْرَى
لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿ ٢ ﴾ اتَّبِعُوا مَا أَنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ قَلِيلًا مَّا
تَذَكَّرُونَ ﴿ ٣ ﴾

قد تقدم الكلام في أول «سورة البقرة» على ما يتعلق بالحروف وسطه، واختلاف الناس فيه. «كِتَابٌ أَنْزِلَ إِلَيْكَ» أى: هذا كتاب أنزل إليك، أى: من ربك ﴿فَلَا يَكُنْ فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِنْهُ﴾ قال مجاهد، وقتادة والسدّي: شك منه. وقيل: لا تتحرج به فى إبلاغه والإنذار به، واصبر كما صبر أولو العزم من الرسل؛ ولهذا قال: ﴿لِئُنذِرَ بِهِ﴾ أى: أنزل إليك لتنذر به الكافرين ﴿وَذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ﴾.

ثم قال تعالى مخاطباً للعالم: ﴿اتَّبِعُوا مَا أَنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ﴾ أى: اقتفوا آثار النبى الامى الذى جاءكم بكتاب أنزل إليكم من رب كل شىء ومليكه، ﴿وَلَا تَتَّبِعُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ﴾ أى: لا تخرجوا عما جاءكم به الرسول إلى غيره، فتكونوا قد عدلتم عن حكم الله إلى حكم غيره. ﴿قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ﴾ كقوله: ﴿وَمَا أَكْثَرَ النَّاسَ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ [يوسف: ١٠٣]، وقوله: ﴿وَأَنْ تَطْعَ أَكْثَرَ مَنْ فِي الْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾ [الانعام: ١١٦]، وقوله: ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ﴾ [يوسف: ١٠٦].

﴿ ٤ ﴾ وَكَمْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا فَجَاءَهَا بَأْسُنَا بَيِّنًا أَوْ هُمْ قَائِلُونَ ﴿ ٥ ﴾ فَمَا كَانَ دَعْوَانَهُمْ
إِذْ جَاءَهُمْ بَأْسُنَا إِلَّا أَنْ قَالُوا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ ﴿ ٦ ﴾ فَلَنَسْتَأْذِنَ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ
وَلَنَسْتَأْذِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿ ٧ ﴾ فَلَنَقْصِنَ عَلَيْهِمْ بِعَلْمٍ وَمَا كُنَّا غَائِبِينَ ﴿ ٨ ﴾

يقول تعالى: ﴿وَكَمْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا﴾ أى: بمخالفة رسلنا وتكذيبهم، فاعقبهم ذلك خزي الدنيا موصولاً بذل الآخرة، كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ اسْتَهْزَيْتُمْ بِرُسُلٍ مِنْ قَبْلِكَ فَعَاقَ بِالَّذِينَ سَخَرُوا مِنْهُمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ [الانعام: ١٠]، وقال تعالى: ﴿فَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ فِيهَا خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا وَيَبْعَثُ مَعْطِلَةٌ وَقَصْرٌ مَشِيدٌ﴾ [الحج: ٤٥]، وقال تعالى: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْيَةٍ بَطَرَتْ مَعِيشَتَهَا فَلَمَّا سَأَلْتَهُمْ لَمْ تَسْكُنْ مِنْ بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيلًا وَكُنَّا نَحْنُ الْوَارِثِينَ﴾ [القصص: ٥٨].

وقوله: ﴿فَجَاءَهَا بَأْسُنَا بَيِّنًا أَوْ هُمْ قَائِلُونَ﴾ أى: فكان منهم من جاءه أمر الله وبأسه ونقمته ﴿بَيِّنًا﴾ أى: ليلاً ﴿أَوْ هُمْ قَائِلُونَ﴾ من القيلولة، وهى: الاستراحة وسط النهار. وكلا الوقتين

وقت غَفَلَةٌ وَلَهُوَ ، كما قال : ﴿ أَقَامِنَ أَهْلَ الْقُرَىٰ أَنْ يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا بَيَاتًا وَهُمْ نَائِمُونَ . أَوْ آمِنَ أَهْلَ الْقُرَىٰ أَنْ يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يُلْعَبُونَ ﴾ [الأعراف: ٩٧ ، ٩٨] ، وقال : ﴿ أَقَامِنَ الَّذِينَ مَكَّرُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ يَخْسِفَ اللَّهُ بِهِمُ الْأَرْضَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ . أَوْ يَأْخُذَهُمْ فِي تَقْلِبِهِمْ فَمَا هُمْ بِمُعْجِزِينَ . أَوْ يَأْخُذَهُمْ عَلَىٰ تَخَوُّفٍ فَإِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ ﴾ [النحل: ٤٥ - ٤٧] .

وقوله : ﴿ فَمَا كَانَ دَعْوَاهُمْ إِذْ جَاءَهُمْ بَأْسُنَا إِلَّا أَنْ قَالُوا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ ﴾ أى : فما كان قولهم عند مجيء العذاب إلا أن اعترفوا بذنوبهم ، وأنهم حقيقون بهذا . كما قال تعالى : ﴿ وَكَمْ قَصَمْنَا مِنْ قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً وَأَنْشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْمًا آخَرِينَ . فَلَمَّا أَحْسَوْا بِبَأْسِنَا إِذَا هُمْ مِنْهَا يَرْكُضُونَ . لَا تَرْكُضُوا وَارْجِعُوا إِلَىٰ مَا أُتْرِفْتُمْ فِيهِ وَمَسَاكِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَسْأَلُونَ . قَالُوا يَا وَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ . فَمَا زَالَتْ تِلْكَ دَعْوَاهُمْ حَتَّىٰ جَعَلْنَاهُمْ حَصِيدًا خَامِدِينَ ﴾ [الانبيا: ١١ - ١٥] . قال ابن جرير: فى هذه الآية الدلالة الواضحة على صحة ما جاءت به الرواية عن رسول الله ﷺ . ثم روى عن أبى سنان ، عن عبد الملك بن ميسرة الزرّاد قال : قال عبد الله بن مسعود: قال رسول الله ﷺ : « ما هلك قوم حتى يُعذروا من أنفسهم » . قال : قلت لعبد الملك : كيف يكون ذلك؟ قال : فقرأ هذه الآية : ﴿ فَمَا كَانَ دَعْوَاهُمْ إِذْ جَاءَهُمْ بَأْسُنَا إِلَّا أَنْ قَالُوا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ ﴾ (١) .

وقوله : ﴿ فَلَنَسْتَلْنَ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ ﴾ الآية ، كقوله : ﴿ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَا أَجَبْتُمُ الْمُرْسَلِينَ ﴾ [القصص: ٦٥] ، وقوله : ﴿ وَيَوْمَ يَجْمَعُ اللَّهُ الرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَا أَجَبْتُمُ قَالُوا لَا عِلْمَ لَنَا إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ ﴾ [المائدة: ١٠٩] ، فالربُّ تبارك وتعالى يوم القيامة يسأل الأمم عما أجابوا رسله فيما أرسل به ، ويسأل الرسل أيضا عن بلاغ رسالاته ؛ ولهذا قال ابن عباس فى تفسير هذه الآية : ﴿ فَلَنَسْتَلْنَ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْتَلْنَ الْمُرْسَلِينَ ﴾ قال : عما بلغوا . وروى ابن مردويه عن ابن عمر قال : قال رسول الله ﷺ : « كلكم راع ، وكلكم مسؤول عن رعيته ، فالإمام يسأل عن الرجل ، والرجل يسأل عن أهله ، والمرأة تسأل عن بيت زوجها ، والعبد يسأل عن مال سيده » . ثم قرأ : ﴿ فَلَنَسْتَلْنَ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْتَلْنَ الْمُرْسَلِينَ ﴾ . وهذا الحديث مُخَرَّجٌ فى الصحيحين بدون هذه الزيادة . وقال ابن عباس فى قوله : ﴿ فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيْهِمْ بِعِلْمِهِ وَمَا كُنَّا غَائِبِينَ ﴾ : يوضع الكتاب يوم القيامة ، فيتكلم بما كانوا يعملون ، يعنى : أنه تعالى يخبر عباده يوم القيامة بما قالوا وبما عملوا ، من قليل وكثير ، وجليل وحقيق ؛ لأنه تعالى شهيد على كل شىء ، لا يغيب عنه شىء ، ولا يغفل عن شىء ، بل هو العالم بخاتنة الأعين وما تخفى الصدور ﴿ وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٌ فِي ظِلْمَاتِ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٌ وَلَا يَابِسٌ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ ﴾ [الأنعام: ٥٩] .

﴿ وَالْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ وَمَنْ حَقَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَٰئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ يَمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَظْلِمُونَ ﴿١﴾

(١) الطبرى (١٤٣٢٣) . وذكر السيوطى (٣ / ٦٧) رواية ابن أبى حاتم بنحوه ، وقد جزم الطبرى هنا بصحته ! وما نراه صحيحا ، فإن عبد الملك بن ميسرة الزرّاد يروى عن صغار الصحابة ، ولا نراه أدرك ابن مسعود . عبد الملك مات بعد سنة ١١٠ ، وابن مسعود مات سنة ٢٢ أو ٣٣ .

يقول تعالى: ﴿وَالْوِزْنَ﴾ أى: للأعمال يوم القيامة ﴿يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ﴾ أى: لا يظلم تعالى أحداً، كما قال تعالى: ﴿وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئاً وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ﴾ [الأنبياء: ٤٧]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِنْ تَكَ حَسَنَةً يَضَاعِفْهَا وَيُؤْتِ مِنْ لَدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ٤٠]، وقال تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ . فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ . وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ . فَأُمُّهُ هَاوِيَةٌ . وَمَا أَدْرَاكَ مَا هِيَةٌ . نَارُ حَامِيَةٍ﴾ [القارعة: ٦ - ١١]، وقال تعالى: ﴿فَإِذَا نَفَخَ فِي الصُّورِ فَلَا أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَاءَلُونَ . فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ . وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ فِي جَهَنَّمَ خَالِدُونَ﴾ [المؤمنون: ١٠١ - ١٠٣].

فصل : والذي يوضع فى الميزان يوم القيامة ، قيل: الأعمال وإن كانت أعراضاً، إلا أن الله تعالى يقبلها يوم القيامة أجساماً . قال البغوى: يروى نحو هذا عن ابن عباس ، كما جاء فى الصحيح من أن « البقرة » و « آل عمران » يأتیان يوم القيامة كأنهما غمامتان - أو: غيأتان - أو فرقان من طير صوّاف^(١) . وكذلك فى الصحيح قصة القرآن ، وأنه يأتى صاحبه فى صورة شاب شاحب اللون، فيقول: من أنت؟ فيقول: أنا القرآن الذى أسهرت ليلك ، وأظلمات نهارك^(٢). وفى حديث البراء، فى قصة سؤال القبر: «يأتى المؤمن شاباً حسن اللون طيب الريح، فيقول: من أنت؟ فيقول: أنا عمك الصالح». وذكر عكسه فى شأن الكافر والمنافق.

وقيل: يوزن كتاب الأعمال، كما جاء فى حديث البطاقة، فى الرجل الذى يؤتى به ويوضع له فى كفه تسعة وتسعون سجلاً، كل سجل مدّ البصر، ثم يؤتى بتلك البطاقة فيها: «لا إله إلا الله» فيقول: يارب، وما هذه البطاقة مع هذه السجلات؟ فيقول الله تعالى: إنك لا تُظلم. فتوضع تلك البطاقة فى كفة الميزان. قال رسول الله ﷺ: «فَطَاشَتِ السَّجَلَاتُ، وَثَقُلْتُ البطاقة» . رواه الترمذى بنحو من هذا ، وصححه .

وقيل: يوزن صاحب العمل، كما فى الحديث: «يُؤْتَى يوم القيامة بالرجل السمين، فلا يزِن عند الله جناح بعوضة». ثم قرأ: ﴿فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْنًا﴾ [الكهف: ١٠٥]. وفى مناقب عبد الله بن مسعود، أن رسول الله ﷺ قال: «أتعجبون من دقة ساقيه ! والذى نفسى بيده لهما فى الميزان أثقل من أحد» .

وقد يمكن الجمع بين هذه الآثار بأن يكون ذلك كله صحيحاً، فتارة توزن الأعمال، وتارة توزن محالها، وتارة يوزن فاعلها، والله أعلم.

(١) هو جزء من حديث رواه أحمد ومسلم ، من حديث أبى أمامة الباهلى ، وقد مضى عند فضل سورة البقرة ، ومضى نحوه أيضاً من حديث بريدة ، عند أحمد .

(٢) ليس فى واحد من الصحيحين ، بل رواه - بنحوه - أحمد فى المسند (٥ / ٣٥٢ حلى) وابن ماجه (٣٧٨١) كلاهما من حديث بريدة . وقال البوصيرى فى زوائده : « إسناده صحيح ، رجاله ثقات » . ومعناه ثابت ضمن حديث بريدة الماضى عند فضل سورة البقرة .

﴿ وَلَقَدْ مَكَّنَّاكُمْ فِي الْأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعِيشًا قَلِيلًا مَا تَشْكُرُونَ ﴾ ﴿١٠﴾

يقول تعالى ممثنا على عبيده فيما مكن لهم من أنه جعل الأرض قراراً، وجعل لها رواسي وأنهاراً، وجعل لهم فيها منازل وبيوتاً، وأباح لهم منافعها، وسخر لهم السحاب لإخراج أرزاقهم منها، وجعل لهم فيها معيش، أي: مكاسب وأسباباً يتجرون فيها، ويتسبون أنواع الأسباب، وأكثرهم مع هذا قليل الشكر على ذلك، كما قال: ﴿ وَإِنْ تَعْدُوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تَحْصُوهَا إِنْ الْإِنْسَانُ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ ﴾ [إبراهيم: ٣٤].

وقد قرأ الجميع ﴿ معايش ﴾ بلا همز، إلا عبد الرحمن بن هرْمَزُ الأعرج فإنه همزها. والصواب الذي عليه الأكثر بلا همز؛ لأن معايش جمع معيشة، من «عاش يعيش عيشاً ومعيشة» أصلها «معيشة» فاستقلت الكسرة على الياء، فنقلت إلى العين فصارت معيشة، فلما جمعت رجعت الحركة إلى الياء لزوال الاستتقال، فقيل: معايش. وورنه مفاعل؛ لأن الياء أصلية في الكلمة. بخلاف مدائن وصحائف وبصائر، جمع مدينة وصحيفة وبصيرة من: مدن وصحف وأبصر، فإن الياء فيها رائدة، ولهذا تجمع على فعائل، وتهمز لذلك، والله أعلم.

﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ لَمْ يَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ ﴾ ﴿١١﴾

ينبه تعالى بنى آدم في هذا المقام على شرف أبيهم آدم، ويبين لهم عداوة عدوهم إبليس، وما هو منطوق عليه من الحسد لهم ولأبيهم آدم، ليحذروه ولا يتبعوا طرائقه، فقال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ ﴾ . وهذا كقوله تعالى: ﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ . فَإِذَا سَوَّيْتَهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ ﴾ الآية [الحجر: ٢٨] ، وذلك أنه تعالى لما خلق آدم، عليه السلام، بيده من طين لازب، وصوره بشراً سوياً ، ونفخ فيه من روحه، وأمر الملائكة بالسجود له تعظيماً لشأن الرب تعالى وجلاله، فسمعوا كلهم وأطاعوا، إلا إبليس لم يكن من الساجدين. وقد تقدم الكلام على إبليس في أول تفسير «سورة البقرة» (١) . وهذا الذي قررناه هو اختيار ابن جرير: أن المراد بذلك كله آدم، عليه السلام.

وعن ابن عباس: ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ﴾ قال: خلُقوا في أصلاب الرجال، وصوِّروا في أرحام النساء. رواه الحاكم، وقال: صحيح على شرطهما ، ولم يخرجاه . ونقله ابن جرير عن بعض السلف أيضاً: أن المراد بخلقناكم ثم صورناكم: الذرية. وقال الربيع بن أنس، والسدي، وقتادة، والضحاك في هذه الآية: ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ﴾ أي: خلقنا آدم ثم صورنا الذرية. وهذا فيه نظر؛ لأنه قال بعده: ﴿ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ ﴾ ، فدل على أن المراد بذلك آدم، وإنما قيل ذلك بالجمع لأنه أبو البشر، كما يقول تعالى لبنى إسرائيل الذين كانوا في زمن

الرسول ﷺ: ﴿وَوَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْغَمَامَ وَأَنزَلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّانَ وَالسَّلْوَى﴾ [البقرة: ٥٧]، والمراد: آباؤهم الذين كانوا فى زمان موسى ، ولكن لما كان ذلك منةً على الآباء - الذين هم أصلٌ - صار كأنه واقع على الأبناء . وهذا بخلاف قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سَلَالَةٍ مِنْ طِينٍ﴾ [المؤمنون: ١٢ ، ١٣]، فإن المراد منه آدم المخلوق من سلالة من طين ، وذريته مخلوقون من نقطة، وصح هذا لأن المراد من ﴿خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ﴾ الجنس، لا معينا، والله أعلم.

﴿قَالَ مَا مَنَّكَ إِلَّا أَنْتَ إِذْ أَسْجُدُ إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ﴾

قال بعض النحاة فى توجيه قوله تعالى: ﴿مَا مَنَّكَ إِلَّا أَنْتَ إِذْ أَسْجُدُ إِذْ أَمَرْتُكَ﴾: « لا » ههنا زائدة. وقال بعضهم: زيدت لتأكيد الجحد، كقول الشاعر:

ما إن رأيتُ ولا سمعتُ بمثله

فأدخل «إن»، وهى للنفى، على «ما» النافية؛ لتأكيد النفى، قالوا: وكذلك ههنا: ﴿مَا مَنَّكَ أَنْ لَا تَسْجُدَ﴾ مع تقدم قوله: ﴿لَمْ يَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ﴾. حكاها ابن جرير وردهما، واختار أن «منك» مضمّن معنى فعل آخر تقديره: ما أخرجك والزمك واضطرك أن لا تسجد إذ أمرتك، ونحو هذا. وهذا القول قوى حسن، والله أعلم.

وقول إبليس لعنه الله: ﴿أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ﴾ - من العذر الذى هو أكبر من الذنب ! كأنه امتنع من الطاعة لأنه لا يؤمر الفاضل بالسجود للمفضول ! يعنى لعنه الله: وأنا خير منه، فكيف تأمرنى بالسجود له؟ ثم بين أنه خير منه، بأنه خلق من نار، والنار أشرف مما خلقت منه، وهو الطين ! فنظر اللعين إلى أصل العنصر، ولم ينظر إلى التشريف العظيم، وهو أن الله تعالى خلق آدم بيده، ونفخ فيه من روحه، وقاس قياساً فاسداً فى مقابلة نص قوله تعالى: ﴿فَقْعُوا لَهُ سَاجِدِينَ﴾ [ص: ٧٢]، فشذ من بين الملائكة بترك السجود؛ فلهذا أبليس من الرحمة، أى: أوبس من الرحمة، فأخطأ قبّحه الله فى قياسه ودعواه أن النار أشرف من الطين أيضاً، فإن الطين من شأنه الرزانة والحلم والأناة والثبوت، والطين محل النبات والنمو والزيادة والإصلاح ، والنار من شأنها الإحراق والطيش والسرعة؛ ولهذا خان إبليس عنصره، ونفع آدم عنصره فى الرجوع والإنابة والاستكانة والانقياد والاستسلام لأمر الله، والاعتراف وطلب التوبة والمغفرة. وفى صحيح مسلم، عن عائشة، قالت: قال رسول الله ﷺ: «خُلِقَتِ الْمَلَائِكَةُ مِنْ نُورٍ، وَخُلِقَ إِبْلِيسُ مِنْ مَارِجٍ مِنْ نَارٍ، وَخُلِقَ آدَمُ مِمَّا وُصِفَ لَكُمْ» (١). وروى ابن جرير عن الحسن فى قوله: ﴿خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ﴾ قال: قاس إبليس، وهو أول من قاس . إسناده صحيح. وعن ابن سيرين قال: أول من قاس إبليس، وما عبّدت الشمس والقمر إلا بالمقاييس. وإسناده صحيح أيضا.

﴿ قَالَ فَاهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَنْ تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَاخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ الصَّاغِرِينَ ﴿١٣﴾ قَالَ أَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٤﴾ قَالَ إِنَّكَ مِنَ الْمُنظَرِينَ ﴿١٥﴾ ﴾

يقول تعالى مخاطباً لإبليس بأمر قدرى كونه: ﴿ فَاهْبِطْ مِنْهَا ﴾ أى: بسبب عصيانك لأمرى، وخروجك عن طاعتي، ﴿ فَمَا يَكُونُ لَكَ أَنْ تَتَكَبَّرَ فِيهَا ﴾ . قال كثير من المفسرين: الضمير عائد إلى الجنة، ويحتمل أن يكون عائداً على المنزلة التى هو فيها فى الملكوت الأعلى. ﴿ فَاخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ الصَّاغِرِينَ ﴾ أى: الذليلين الحقيرين، معاملة له بنقيض قصده، مكافأة لمراده بضده، فعند ذلك استدرك اللعين وسأل النظرة إلى يوم الدين، فقال: ﴿ أَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ. قَالَ إِنَّكَ مِنَ الْمُنظَرِينَ ﴾، أجابه تعالى إلى ما سأل، لما له فى ذلك من الحكمة والإرادة والمشيئة التى لا تخالف ولا تمنع، ولا مُعَقَّبَ لحكمه، وهو سريع الحساب.

﴿ قَالَ فِيمَا أُغْوَيْتَنِي لأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ ﴿١٦﴾ ثُمَّ لَآئِيَنَّهُمْ مِن بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَنِهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ ﴿١٧﴾ ﴾

يخبر تعالى أنه لما أنذر إبليس ﴿إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾، واستوثق إبليس بذلك، أخذ فى المعاندة والتمرد، فقال: ﴿ فِيمَا أُغْوَيْتَنِي لأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ ﴾ أى: كما أغويتنى. قال ابن عباس: كما أضللتنى. وقال غيره: كما أهلكتنى لأقعدن لعبادك - الذين تخلقهم من ذرية هذا الذى أبعدتنى بسببه - على ﴿صِرَاطِكَ الْمُسْتَقِيمِ﴾ أى: طريق الحق وسبيل النجاة، فأضلنهم عنها لثلاثا يعبدوك ولا يوحدوك بسبب إضلالك إياى . وقال بعض النحاة: الباء ههنا قسمية، كأنه يقول: فبإغوائك إياى لأقعدن لهم صراطك المستقيم . قال مجاهد: ﴿صِرَاطِكَ الْمُسْتَقِيمِ﴾ يعنى: الحق. وقال عون بن عبد الله: يعنى طريق مكة. قال ابن جرير: والصحيح أن الصراط المستقيم أعم من ذلك .

قلت: لما روى الإمام أحمد عن سبرة بن أبى فاكه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن الشيطان قعد لابن آدم بطرقه، قعد له بطريق الإسلام، فقال: أتسلم وتذر دينك ودين آبائك؟». قال: «فعصاه وأسلم». قال: «وقعد له بطريق الهجرة، فقال: أتهاجر وتدع أرضك وسماءك، وإنما مثل المهاجر كالفرس فى الطول؟ فعصاه وهاجر، ثم قعد له بطريق الجهاد، وهو جهاد النفس والمال، فقال: تقاتل فتقتل، فتتكح المرأة ويقسم المال؟». قال: «فعصاه، فجاهد». قال رسول الله ﷺ: «فمن فعل ذلك منهم فمات، كان حقاً على الله أن يدخله الجنة، أو قُتِلَ كان حقاً على الله، أن يدخله الجنة، وإن غرق كان حقاً على الله أن يدخله الجنة، أو وقَصته دابة كان حقاً على الله أن يدخله الجنة» (١) .

(١) المسند (١٦٠٢٤) ، وكذلك رواه البخارى فى التاريخ الكبير (١٨٨/٢/٢) ، وأشار إليها الحافظ فى الإصابة (٦٤/٣) ونسبه للنسائى «بإسناد حسن، إلا أن فيه اختلافاً». وذكره الطبرى فى التفسير (١٤٣٦٤) بدون إسناد. و «الأطرق»: جمع طريق، مثل «يمين وأيمن» .

وقوله: ﴿ثُمَّ لَآتِيَنَّهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ﴾ الآية قال ابن عباس: ﴿ثُمَّ لَآتِيَنَّهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ﴾: أشككهم فى آخرتهم ﴿وَمِنْ خَلْفِهِمْ﴾: أرغبهم فى دنياهم ﴿وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ﴾: أشبه عليهم أمر دينهم ﴿وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ﴾: أشهى لهم المعاصى. وقال قتادة: أتاهم ﴿مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ﴾ فأخبرهم أنه لا بعث ولا جنة ولا نار ﴿وَمِنْ خَلْفِهِمْ﴾ من أمر الدنيا فزيتها لهم ودعاهم إليها و﴿وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ﴾ من قبل حسناتهم بطأهم عنها ﴿وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ﴾: زين لهم السيئات والمعاصى، ودعاهم إليها، وأمرهم بها. أنك يا ابن آدم من كل وجه، غير أنه لم يأتك من فوقك، لم يستطع أن يحول بينك وبين رحمة الله. وقال مجاهد: من بين أيديهم وعن أيانهم حيث يبصرون، ومن خلفهم وعن شمائلهم حيث لا يبصرون. واختار ابن جرير أن المراد جميع طرق الخير والشر، فالخير يصددهم عنه، والشر يحسنه لهم. وقال ابن عباس: ﴿وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ﴾ قال: موحدين. وقول إبليس هذا إنما هو ظن منه وتوهم، وقد وافق فى هذا الواقع، كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ صَدَقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُ فَاتَّبَعُوهُ إِلَّا قَلِيًّا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ. وَمَا كَانَ لَهُ عَلَيْهِمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا لَنَعْلَمُ مَنْ يُوْمِنُ بِالْآخِرَةِ مِمَّنْ هُوَ مِنْهَا فِي شَكٍّ وَرَبِّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ﴾ [سبا: ٢٠، ٢١].

ولهذا ورد فى الحديث الاستعاذة من تسلط الشيطان على الإنسان من جهاته كلها، كما روى البزار عن ابن عباس قال: كان رسول الله ﷺ يقول: «اللهم إنى أسألك العفو والعافية فى دىنى ودنياى، وأهلى ومالى، اللهم استر عورتى، وآمن روعاتى، واحفظنى من بين يدى ومن خلفى، وعن يمينى وعن شمالى، ومن فوقى، وأعوذ بك اللهم أن أغتال من تحتى». تفرد به البزار، وحسنه. وروى الإمام أحمد عن عبد الله بن عمر قال: لم يكن رسول الله ﷺ يدع هؤلاء الدعوات حين يصبح وحين يمسى: «اللهم إنى أسألك العافية فى الدنيا والآخرة، اللهم إنى أسألك العفو والعافية فى دىنى ودنياى وأهلى ومالى، اللهم استر عوراتى، وآمن روعاتى، اللهم احفظنى من بين يدى ومن خلفى، وعن يمينى وعن شمالى، ومن فوقى، وأعوذ بعظمتك أن أغتال من تحتى». قال وكيع: يعنى الخسف. ورواه أبو داود، والنسائى، وابن ماجه، وابن حبان، والحاكم وقال: صحيح الإسناد (١).

﴿قَالَ أَخْرَجَ مِنْهَا مَذْمُومًا وَمِمَّا مَذْحُورًا لَمَنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكُمْ أَجْمَعِينَ﴾

أكد تعالى عليه اللعنة والطرْدَ والإبعاد والنفى عن محل الملا الأعلى بقوله: ﴿أَخْرَجَ مِنْهَا مَذْمُومًا وَمِمَّا مَذْحُورًا﴾. قال ابن جرير: أما المذموم فهو المعيب، والذام غير مشدد: العيب. يقال: ذامه يذامه ذاماً فهو مذموم. ويتركون الهمز فيقولون: «ذمته أذيمه ذيمًا وذامًا»، والذام والذيم أبلغ فى العيب من الذم. قال والمدحور: المُقْصَى. وهو المبعد المطرود. وقال ابن عباس: ﴿أَخْرَجَ مِنْهَا مَذْمُومًا وَمِمَّا مَذْحُورًا﴾ قال: صغيرا مقبىتا.

وقوله تعالى: ﴿لَمَنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ كقوله تعالى: ﴿قَالَ أَذْهَبَ لَمَنْ تَبِعَكَ

(١) المسند (٤٧٨٥). وذكره الحافظ ابن كثير فى التاريخ أيضا (١ / ٦٨) وخرجه كهذا التخرىج.

مَنْهُمْ فَإِنْ جَهَنَّمَ جَزَاءُكُمْ جَزَاءً مَوْفُورًا. وَاسْتَفْرَزَ مَنْ اسْتَفْرَزَ مِنْهُمْ بِصَوْتِكَ وَأَجْلَبَ عَلَيْهِمْ بِخَيْلِكَ وَرَجَلَ
وَشَارَكَهُمْ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ وَعِدَّتَهُمْ وَمَا يَعْدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا. إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ وَكَفَى
بِرَبِّكَ وَكِيلًا ﴿الإسراء: ٦٣ - ٦٥﴾.

﴿١١﴾ وَتَقَادِمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ فَكُلَا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا
مِنَ الظَّالِمِينَ ﴿١١﴾ فَوَسَّوَسَ لَهَا الشَّيْطَانُ لِيُبْدِيَ لَهَا مَا وُورِيَ عَنْهَا مِنْ سَوْءِ تَيْهَمَا وَقَالَ مَا
نَهَىٰ رَبُّكُمَا عَنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ إِلَّا أَنْ تَكُونَا مَلَكَتَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ ﴿١٢﴾ وَقَاسَمَهُمَا
إِنِّي لَكُمَا لَئِنِ التَّصَحَّيْتُمَا

يذكر تعالى أنه أباح لآدم، عليه السلام، ولزوجته حواء الجنة أن يأكلا منها من جميع ثمارها إلا شجرة واحدة. وقد تقدم الكلام على ذلك في «سورة البقرة»، فعند ذلك حسدهما الشيطان، وسعى في المكر والخديعة والوسوسة ليلسبا ما هما فيه من النعمة واللباس الحسن، وقال كذبا وافتراء: مانهاكما ربكما عن اكل هذه الشجرة إلا لتلا تكونا ملكين خالدين ههنا، ولو أنكما أكلتما منها لحصل لكما ذلك، كقوله: ﴿قَالَ يَا آدَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَى شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبُؤُا﴾ [طه: ١٢٠] أى: لتلا تكونا ملكين، كقوله: ﴿يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ الْكُورِ﴾ [النساء: ١٧٦]، أى: لتلا تضلوا، ﴿وَأَلْقَى فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيًا أَن تَمِيدَ بِكُمْ﴾ [النحل: ١٥] أى: لتلا تميد بكم. وكان ابن عباس ويحيى بن أبى كثير يقرآن: ﴿إِلَّا أَنْ تَكُونَا مَلَكَتَيْنِ﴾ بكسر اللام. وقرأه الجمهور بفتحها. ﴿وَقَاسَمَهُمَا﴾ أى: حلف لهما بالله: ﴿إِنِّي لَكُمَا لَئِنِ التَّصَحَّيْتُمَا﴾، فإنى من قبلكما ههنا، وأعلم بهذا المكان، وهذا من باب المفاعلة والمراد أحد الطرفين، أى: حلف لهما بالله على ذلك حتى خدعهما، وقد يخدع المؤمن بالله. وكان بعض أهل العلم يقول: «من خادعنا بالله خدعنا».

﴿١٣﴾ فَدَلَّيْنَاهُمَا يُغْوِرُونَ فَلَمَّا ذَاقَا الشَّجَرَةَ بَدَتْ لهُمَا سَوْءَاتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ
الْجَنَّةِ وَنَادَيْتُهُمَا رَبُّهُمَا أَلَمْ نَنْهَيْكُمَا عَنْ تِلْكَ الشَّجَرَةِ وَأَقُلْ لَكُمَا إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُبِينٌ
﴿١٤﴾ قَالَ رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿١٥﴾

قال مجاهد: جعلوا يخصفان عليهما من ورق الجنة، قال: كهيئة الثوب. وقال الضحاک بن مزاحم فى قوله: ﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾: هى الكلمات التى تلقاها آدم من ربه .

﴿١٦﴾ قَالَ اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴿١٦﴾ قَالَ
فِيهَا حَيَوْنٌ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ ﴿١٧﴾

قيل: المراد بالخطاب بـ ﴿اهْبِطُوا﴾: آدم، وحواء، وإبليس، والحية. ومنهم من لم يذكر

الحية، والله أعلم . والعمدة في العداوة آدم وإبليس؛ ولهذا قال تعالى في سورة «طه» ، قال : **﴿أَهْبِطْنَا مِنْهَا جَمِيعًا﴾** الآية [رقم ١٢٣] ، وحواء تبع لآدم . والحية - إن كان ذكرها صحيحا - فهي تبع لإبليس . وقد ذكر المفسرون الأماكن التي هبط فيها كل منهم، ويرجع حاصل تلك الأخبار إلى الإسرائيليات، والله أعلم بصحتها . ولو كان في تعيين تلك البقاع فائدة تعود على المكلفين في أمر دينهم، أو دنياهم، لذكرها الله تعالى في كتابه أو رسوله ﷺ .

وقوله : **﴿وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَىٰ حِينٍ﴾** أى : قرار وأعمار مضرورية إلى آجال معلومة ، قد جرى بها القلم، وأحصاها القدر، وسطرت في الكتاب الأول .

وقوله : **﴿قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ﴾** كقوله تعالى : **﴿مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ﴾** [طه : ٥٥] ، يخبر تعالى أنه جعل الأرض داراً لبنى آدم مدة الحياة الدنيا، فيها محياهم وفيها مماتهم وقبورهم، ومنها نشورهم ليوم المَعَادِ ، الذى يجمع الله فيه الأولين والآخرين، ويجازى كلا بعمله .

﴿يَبْنِيْٓءَ آدَمَ قَدْ أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ لِبَاسًا يُورِي سَوَءَ تِكْمٍ وَرِدِيْشًا وَرِبَاسَ النَّقْوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌ ذَٰلِكَ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ﴾

يمتن تعالى على عباده بما جعل لهم من اللباس والرياش . فاللباس - المذكور ههنا : لستر العورات - وهى السوآت - والرياش والريش : هو ما يتجمل به ظاهراً ، فالأول من الضروريات ، والريش من التكميلات والزيادات . قال ابن جرير : «الرياش» فى كلام العرب : الأثاث ، وما ظهر من الثياب . وقال ابن عباس - وحكاه البخارى عنه : الريش : المال . وكذا قال مجاهد ، وعُروة بن الزبير ، وغيرهم . عن ابن عباس : «الرياش» : اللباس ، والعيش ، والنعيم . وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم : «الرياش» : الجمال . وروى الإمام أحمد عن أبى العلاء الشامى قال : لبس أبوأمامة ثوباً جديداً ، فلما بلغ ترقوته قال : الحمد لله الذى كسانى ما أوارى به عورتى ، وأتجمل به فى حياتى . ثم قال : سمعت عمر بن الخطاب يقول : قال رسول الله ﷺ : «من استجد ثوباً فلبسه ، فقال حين يبلغ ترقوته : الحمد لله الذى كسانى ما أوارى به عورتى ، وأتجمل به فى حياتى ، ثم عمد إلى الثوب الخلق فنصدق به ، كان فى ذمة الله ، وفى جوار الله ، وفى كنف الله حيا وميتا . رواه الترمذى ، وابن ماجه ، وأبو العلاء الشامى : لا يعرف إلا بهذا الحديث ، ولكن لم يجرِّحه أحد ، والله أعلم (١) . وعن أبى مطر ؛ أنه رأى علياً أتى غلاماً حدثاً ، فاشتري منه قميصاً بثلاثة دراهم ، ولبسه ما بين الرسغين إلى الكعبين ، يقول ولبسه : الحمد لله الذى رزقتى من الرياش ما أتجمل به فى الناس ، وأوارى به عورتى . فقيل : هذا شئء ترويه عن نفسك أو عن النبى ﷺ ؟ قال : هذا شئء سمعته من رسول الله ﷺ يقول عند الكسوة : «الحمد لله الذى رزقتى من الرياش ما أتجمل به فى الناس ، وأوارى به عورتى» . رواه الإمام أحمد (٢) .

وقوله تعالى: ﴿وَلِبَاسُ التَّقْوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌ﴾: قرأ بعضهم: «ولباس التقوى»، بالنصب. وقرأ الآخرون بالرفع على الابتداء، و ﴿ذَٰلِكَ خَيْرٌ﴾ خبره. واختلف المفسرون في معناه، فقال عكرمة: يقال هو ما يلبسه المتقون يوم القيامة. رواه ابن أبي حاتم. وقال قتادة، وابن جريج: ﴿وَلِبَاسُ التَّقْوَىٰ﴾: الإيمان. وقال ابن عباس: العمل الصالح. وعن ابن عباس: هو السميت الحسن في الوجه. وعن عروة بن الزبير: ﴿وَلِبَاسُ التَّقْوَىٰ﴾: خشية الله. وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: ﴿وَلِبَاسُ التَّقْوَىٰ﴾: يتقى الله، فيواري عورته، فذاك لباس التقوى. وكلها متقاربة.

﴿يَنْبَىٰ آدَمَ لَا يَفِينَنَّكُمْ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ الْجَنَّةِ يَنْزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْآتَهُمَا إِنَّهُ يَرَئِكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ إِنَّا جَعَلْنَا الشَّيْطِينَ أَوْلِيَاءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٧﴾﴾

يقول تعالى محذراً بنى آدم من إبليس وقبيله، مبيناً لهم عداوته القديمة لأبي البشر آدم، عليه السلام، في سعيه في إخراجه من الجنة التي هي دار النعيم، إلى دار التعب والعناء، والتسبب في هتك عورته بعدما كانت مستورة عنه، وما هذا إلا عن عداوة أكيدة، وهذا كقوله تعالى: ﴿اتَّخَذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلًا﴾ [الكهف: ٥٠].

﴿وَإِذَا فَعَلُوا فَحِشَةً قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَا وَاللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا قُلْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِالْفَحِشَاءِ اتَّقُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿١٨﴾ قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ وَأَقِيمُوا وُجُوهَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ ﴿١٩﴾ فَرِيقًا هَدَىٰ وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ الضَّلَالَةُ إِنَّهُمْ اتَّخَذُوا الشَّيْطِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُّهْتَدُونَ ﴿٢٠﴾﴾

قال مجاهد: كان المشركون يطوفون بالبيت عراة، يقولون: نطوف كما ولدتنا أمهاتنا. فتضع المرأة على فرجها النُّسْعَةَ (١)، أو الشيء، وتقول:

اليوم يبدو كله أو بعضه وما بدأ منه فلا أحله

فانزل الله تعالى: ﴿وَإِذَا فَعَلُوا فَحِشَةً قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَا وَاللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا﴾ الآية. قلت: كانت العرب - ماعدا قريشاً - لا يطوفون بالبيت في ثيابهم التي لبسوها، يتأولون في ذلك أنهم لا يطوفون في ثياب عصوا الله فيها، وكانت قريش - وهم الخمس - يطوفون في ثيابهم، ومن أعاره أحمسي ثوباً طاف فيه، ومن معه ثوب جديد طاف فيه، ثم يلقيه فلا يتملكه أحد، فمن لم يجد ثوباً جديداً ولا أعاره أحمسي ثوباً، طاف عرياناً. وربما كانت امرأة فتطوف عريانة، فتجعل على فرجها شيئاً يستره بعض الشيء وتقول:

(١) «النُّسْعَةُ» - بكسر النون وسكون السين: القطعة من «النسج»، وهو سير يضر على هيئة أعنة النعال.

اليوم يبدو كلُّه أو بعضه وما بدأ منه فلا أحله

وأكثر ما كان النساء يظفن عراة بالليل، وكان هذا شيئاً قد ابتدعه من تلقاء أنفسهم، واتبعوا فيه آباءهم ، ويعتقدون أن فعل آبائهم مستند إلى أمر من الله وشرع، فأنكر الله تعالى عليهم ذلك، فقال: ﴿وَإِذَا قَالُوا فَاحِشَةً قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَا وَاللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا﴾، فقال تعالى رداً عليهم: ﴿قُلْ﴾ أى: قل يا محمد لمن ادعى ذلك: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ﴾ أى: هذا الذى تصنعونه فاحشة منكورة، والله لا يأمر بمثل ذلك ﴿أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ أى: أنسندون إلى الله من الأقوال ما لا تعلمون صحته.

وقوله: ﴿قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ﴾ أى: بالعدل والاستقامة ﴿وَأَقِيمُوا وُجُوهَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ أى: أمركم بالاستقامة فى عبادته فى محالها، وهى متابعة المرسلين المؤيدين بالمعجزات فيما أخبروا به عن الله ، وجاؤوا به من الشرائع، وبالإخلاص له فى عبادته، فإنه تعالى لا يتقبل العمل حتى يجمع هذين الركنتين: أن يكون صواباً موافقاً للشريعة، وأن يكون خالصاً من الشرك.

وقوله تعالى: ﴿كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ . فَرِيقًا هَدَىٰ وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ الضَّلَالَةُ﴾ اختلف فى معنى قوله تعالى: ﴿كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ﴾ فقال مجاهد: ﴿كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ﴾: يحييكم بعد موتكم. وقال الحسن البصرى: كما بدأكم فى الدنيا، كذلك تعودون يوم القيامة أحياء. وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: كما بدأكم أولاً، كذلك يعيدكم آخرًا. واختار هذا القول ابن جرير، وأيده بما رواه عن ابن عباس قال: قام فىنا رسول الله ﷺ بموعظة ، فقال: «يا أيها الناس، إنكم تمشرون إلى الله حفاة عراة غرلاً» ﴿كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُ وَعَدْنَا عَلَيْنا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ﴾ [الانبيا: ١٠٤] . وهذا الحديث مخرج فى الصحيحين (١).

وعن مجاهد: ﴿كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ﴾ قال: يبعث المسلم مسلماً، والكافر كافراً . وقال ابن عباس قوله: ﴿كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ . فَرِيقًا هَدَىٰ وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ الضَّلَالَةُ﴾ قال: إن الله تعالى بدأ خلق ابن آدم مؤمناً وكافراً، كما قال: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ لَمِنكُمْ كَافِرٍ وَمِنكُمْ مُّؤْمِنٍ﴾ [التغابن: ٢]، ثم يعيدهم يوم القيامة كما بدأ خلقهم ، مؤمناً وكافراً.

قلت: ويتأيد هذا القول بحديث ابن مسعود فى صحيح البخارى: «فوالذى لا إله غيره، إن أحدكم ليعمل بعمل أهل الجنة، حتى ما يكون بينه وبينها إلا باع - أو: ذراع - فيسبق عليه الكتاب، فيعمل بعمل أهل النار، فيدخل النار، وإن أحدكم ليعمل بعمل أهل النار، حتى ما يكون بينه وبينها إلا باع - أو: ذراع - فيسبق عليه الكتاب ، فيعمل بعمل أهل الجنة ، فيدخل الجنة». . وروى البغوى عن سهل بن سعد قال: قال رسول الله ﷺ: «إن العبد ليعمل - فيما

(١) الطبرى (١٤٥٠٢) . ورواه أحمد فى المسند - مطولا ومختصر (١٩٥٠ ، ، ٢٠٢٧ ، ٢٠٩٦ ، ٢٢٨١ ، ٢٢٨٢) والبخارى (٨ / ٣٣٢ ، ١١ / ٣٣١ فتح) . و « الغرل » - بضم الغين المعجمة وسكون الراء : جمع « أغرل » ، وهو الأتلف الذى لم يختن .

يرى الناس - بعمل أهل الجنة ، وإنه من أهل النار . وإنه ليعمل - فيما يرى الناس - بعمل أهل النار ، وهو من أهل الجنة ، وإنما الأعمال بالخواتيم . هذا قطعة من حديث رواه البخارى . وروى ابن جرير عن جابر ، عن النبي ﷺ أنه قال : «تَبِعْتُ كُلَّ نَفْسٍ عَلَى مَا كَانَتْ عَلَيْهِ» . وهذا الحديث رواه مسلم وابن ماجه من غير وجه ، عن الأعمش ، به . ولفظه : «يبعث كل عبد على ما مات عليه» . وعن ابن عباس مثله .

قلت : ولا بد من الجمع بين هذا القول - إن كان هو المراد من الآية - وبين قوله تعالى : «فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا» [الروم : ٣٠] ، وما جاء فى الصحيحين ، عن أبى هريرة أن رسول الله ﷺ قال : «كل مولود يولد على الفطرة ، فأبواه يهودانه وينصرانه ويمجسانه» . وفى صحيح مسلم ، عن عياض بن حمار ، قال : قال رسول الله ﷺ : «يقول الله تعالى : إنى خلقت عبادى حنفاء ، فجاءتهم الشياطين فاجتالتهم عن دينهم» الحديث (١) . ووجه الجمع على هذا أنه تعالى خلقهم ليكون منهم مؤمن وكافر ، فى ثنائى الحال ، وإن كان قد فطر الخلق كلهم على معرفته وتوحيده ، والعلم بأنه لا إله غيره ، كما أخذ عليهم الميثاق بذلك ، وجعله فى غرائزهم وفطرتهم ، ومع هذا قدر أن منهم شقياً ومنهم سعيداً : «هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ فَمِنْكُمْ كَافِرٌ وَمِنْكُمْ مُؤْمِنٌ» [التغابن : ٢] ، وفى الحديث : «كل الناس يغدو ، فبائع نفسه فمعتقها ، أو موبقها» (٢) . وقدر الله نافذ فى بريته ، فإنه هو «الَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى» [الاعلى : ٣] ، و«الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى» [طه : ٥٠] ، وفى الصحيحين : «فأما من كان منكم من أهل السعادة فسييسر لعمل أهل السعادة ، وأما من كان من أهل الشقاوة فسييسر لعمل أهل الشقاوة» (٣) ؛ ولهذا قال تعالى : «فَرِيقًا هَدَىٰ وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ الضَّلَالَةُ» ، ثم علل ذلك فقال : «إِنَّهُمْ اتَّخَذُوا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُّهْتَدُونَ» . قال ابن جرير : وهذا من أبين الدلالة على خطأ من زعم أن الله لا يعذب أحداً على معصية ركبها أو ضلالة اعتقدها ، إلا أن يأتيها بعد علم منه بصواب وجهها ، فيركبها عناداً منه لربه فيها ؛ لأن ذلك لو كان كذلك ، لم يكن بين فريق الضلالة الذى ضل وهو يحسب أنه مهتد ، وفريق الهدى فرق . وقد فرق الله تعالى بين أسمائهما وأحكامهما فى هذه الآية .

﴿ يَبْنَى ۙ ءَادَمَ ۙ حُدُوًا زَيْنَتُهُ ۙ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ ۙ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا ۚ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ ﴾

ربع

هذه الآية الكريمة ردٌ على المشركين فيما كانوا يعتمدونه من الطواف بالبيت عراً ، كما رواه مسلم والنسائى وابن جرير - واللفظ له - عن ابن عباس قال : كانوا يطوفون بالبيت عراً ،

(١) مضى كاملاً عند الآية ١٩ من سورة المائدة .

(٢) من حديث رواه مسلم (١ / ٨٠) ، من حديث أبى مالك الأشعري .

(٣) انظر البخارى - بنحوه - من حديث على (٣ / ١٧٩ فتح) .

الرجال والنساء: الرجال بالنهار، والنساء بالليل. وكانت المرأة تقول:

اليوم ييدو بعضه أو كله وما بدأ منه فلا أحله

فقال الله تعالى: ﴿خُذُوا زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ﴾ . وقال ابن عباس : الزينة: اللباس، وهو ما يوارى السوءة، وما سوى ذلك من جيد البزِّ والمتاع - فأمرُوا أن يأخذوا زيتهم عند كل مسجد. وكذا قال مجاهد، وسعيد بن جبَّير، وقتادة ، وغير واحد من أئمة السلف في تفسيرها: أنها نزلت في طواف المشركين بالبيت عراة.

ولهذه الآية، وما ورد في معناها من السنة، يستحب التجمل عند الصلاة - ولا سيما يوم الجمعة ويوم العيد - والطَّيبُ لأنه من الزينة، والسواك لأنه من تمام ذلك . ومن أفضل الثياب البياض، كما روى الإمام أحمد عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «البسوا من ثيابكم البياض، فإنها من خير ثيابكم، وكَفَنُوا فيها موتاكم، وإن من خير أكحالكم الإثمِد، فإنه يجلو البصر، وينبت الشعر». هذا حديث جيد الإسناد، رجاله على شرط مسلم. ورواه أبو داود، والترمذى، وابن ماجه، وقال الترمذى: حسن صحيح (١). وللإمام أحمد أيضا، وأهل السنن بإسناد جيد، عن سَمْرَةَ بن جُنْدَب قال: قال رسول الله ﷺ: «عليكم بالثياب البياض فالبسوها؛ فإنها أطهر وأطيب، وكفنوا فيها موتاكم» .

وقوله تعالى: ﴿وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ﴾ قال بعض السلف: جمع الله الطب كله في نصف آية: ﴿وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا﴾ . وقال البخارى: قال ابن عباس: كل ما شئت، والبس ما شئت، ما أخطأتك خصلتان: سرف ومخيلة. وروى ابن جرير عن ابن عباس قال: أحل الله الأكل والشرب، ما لم يكن سرقا أو مخيلة. إسناده صحيح. وروى الإمام أحمد عن عمرو بن شعيب، عن أبيه، عن جده، أن رسول الله ﷺ قال: «كلوا واشربوا والبسوا وتصدقوا، فى غير مخيلة ولا سرف، فإن الله يحب أن يرى نعمته على عبده». ورواه النسائى وابن ماجه ، بنحوه (٢). وروى الإمام أحمد عن المقدم بن معد يكرب الكندى ، قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «ما ملأ ابن آدم وعاء شرا من بطن ، حَسْبُ ابن آدم أكلات يُقْمَنَ صُلْبُهُ، فإن كان فاعلا لا محالة، فثلث طعام، وثلث شراب، وثلث لنفسه». ورواه النسائى والترمذى، وقال الترمذى: حسن - وفى نسخة: حسن صحيح (٣) .

وقال السُّدِّى: كان الذين يطوفون بالبيت عراة، يحرمون عليهم الودك ما أقاموا فى الموسم؛ فقال الله تعالى لهم : ﴿كُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ﴾ يقول: لا تسرفوا فى التحريم . وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: ﴿وَلَا تُسْرِفُوا﴾ يقول: لا تاكلوا حراما، ذلك الإسراف . وقال ابن جرير: وقوله: ﴿إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ﴾ يقول الله تعالى : إن الله لا يحب

(١) المستد (٢٠٤٧) .

(٢) المستد (٦٧٠٨) . وقد مضى بعضه وتخرجه عند الآيات : ٣٧ - ٣٩ من سورة النساء .

(٣) المستد (١٧٢٥٢) .

المتعدين حده في حلال أو حرام، الغالين فيما أحلّ، بإحلال الحرام أو بتحريم الحلال، ولكنه يحب أن يحلل ما أحلّ، ويحرم ما حرم، وذلك العدل الذي أمر به.

﴿ قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَذَلِكَ نَفَصَلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾ ﴿٣٢﴾

يقول تعالى رداً على من حرّم شيئاً من المأكّل والمشرب، والملابس، من تلقاء نفسه، من غير شرع من الله: ﴿قُلْ﴾ يا محمد، لهؤلاء المشركين الذين يحرمون ما يحرمون بأرائهم الفاسدة وابتداعهم: ﴿مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ أي: هي مخلوقة لمن آمن بالله وعبدته في الحياة الدنيا - وإن شركهم فيها الكفار حباً في الدنيا - فهي لهم خاصة يوم القيامة، لا يشركهم فيها أحد من الكفار، فإن الجنة محرمة على الكافرين.

﴿ قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّي الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَنْ تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزَّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا نَعْلَمُونَ ﴾ ﴿٣٣﴾

روى الإمام أحمد عن عبد الله قال: قال رسول الله ﷺ: «لا أحد أغبر من الله، فلك ذلك حرّم الفواحش ما ظهر منها وما بطن، ولا أحد أحبُّ إليه المدح من الله». أخرجاه في الصحيحين، وتقدم الكلام في سورة الأنعام على ما يتعلق بالفواحش ما ظهر منها وما بطن (١).
وقوله: ﴿وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾ قال السدّي: أما الإثم فالمعصية، والبغى أن تبغى على الناس بغير الحق. وقال مجاهد: الإثم المعاصي كلها، وأخبر أن الباغي بغية كائن على نفسه. وحاصل ما فُسر به الإثم: أنه الخطايا المتعلقة بالفاعل بنفسه، والبغى: هو التعدى إلى الناس، فحرم الله هذا وهذا.

وقوله تعالى: ﴿وَأَنْ تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزَّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ أي: تجعلوا له شريكا في عبادته، وأن تقولوا عليه من الافتراء والكذب من دعوى أن له ولداً ونحو ذلك، مما لا علم لكم به كما قال تعالى: ﴿فَاجْتَبُوا الرَّجْسَ مِنَ الْأَوْثَانِ وَاجْتَبُوا قَوْلَ الزُّورِ. حُنَفَاءَ لِلَّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِ﴾ [الحج: ٣٠، ٣١].

﴿ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ فَإِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴾ ﴿٣٤﴾ يَبْقَى
﴿إِنَّمَا يَأْتِيَنَّكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا فَمَنْ أَتَقَىٰ فَمَنِ اتَّقَىٰ وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفَ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ ﴿٣٥﴾ وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا
خَالِدُونَ ﴿٣٦﴾

يقول تعالى : ﴿ وَكُلُّ أُمَّةٍ ﴾ آى : قَرْنٌ وَجِيلٌ ﴿ أَجَلٌ لِّإِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ ﴾ آى : ميقاتهم المقدر لهم ﴿ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً ﴾ آى : عن ذلك ﴿ وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴾ .

ثم أنذر تعالى بنى آدم أنه سيبعث إليهم رسلا، يقصون عليهم آياته، وبشر وحذر ، فقال : ﴿ فَمَنْ أَتَقَى ﴾ آى : ترك المحرمات وفعل الطاعات ﴿ فَلَا خَوْفَ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ . وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا ﴾ آى : كذبت بها قلوبهم ، واستكبروا عن العمل بها ﴿ أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾ آى : ماكنون فيها مكثا مخلدا .

﴿ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ أُولَئِكَ يَنَالُهُمْ نَصِيبُهُم مِّنَ الْكُذْبِ حَتَّىٰ إِذَا جَاءَتْهُمْ رُسُلُنَا يَتَوَفَّوهُمْ قَالُوا أَإِنَّا مَا كُنْتُمْ تَدْعُونَا مِن دُونِ اللَّهِ قَالُوا ضَلُّوا عَنَّا وَشَهِدُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا كَافِرِينَ ﴾

يقول تعالى : ﴿ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ ﴾ آى : لا أحد أظلم ممن افترى الكذب على الله ، أو كذب بآيات الله المنزلة . ﴿ أُولَئِكَ يَنَالُهُمْ نَصِيبُهُم مِّنَ الْكِتَابِ ﴾ : اختلف المفسرون فى معناه ابن عباس يقول : نصيبهم من الأعمال ، من عمل خيرا جزى به ، ومن عمل شرا جزى به . وقال مجاهد : ما وعدوا به من خير وشر . وكذا قال قتادة ، والضحاك ، وغير واحد . واختاره ابن جرير . وقال محمد بن كعب القرظى : عمله ورزقه وعمره . وكذا قال الربيع بن أنس ، وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم . وهذا القول قوى فى المعنى ، والسياق يدل عليه ، وهو قوله : ﴿ حَتَّىٰ إِذَا جَاءَتْهُمْ رُسُلُنَا يَتَوَفَّوهُمْ ﴾ ويصير المعنى فى هذه الآية كما فى قوله : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَقْتُرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكُذْبَ لَا يَفْلِحُونَ . مَتَاعٌ فِي الدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ نُنْفِخُ الْعَذَابَ الشَّدِيدَ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ ﴾ [يونس : ٦٩ ، ٧٠] ، وقوله : ﴿ وَمَنْ كَفَرَ فَلَا يَحْزَنُكَ كُفْرُهُ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ فَنُنْفِخُ بِمَا عَمِلُوا إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ . نُمَتِّعُهُمْ قَلِيلًا ثُمَّ نُنْظِرُهُمْ إِلَىٰ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴾ [لقمان : ٢٣ ، ٢٤] .

وقوله تعالى : ﴿ حَتَّىٰ إِذَا جَاءَتْهُمْ رُسُلُنَا يَتَوَفَّوهُمْ قَالُوا أَإِنَّمَا كُنْتُمْ تَدْعُونَا مِن دُونِ اللَّهِ ﴾ يخبر تعالى أن الملائكة إذا توفت المشركين بنزعهم عند الموت وقبض أرواحهم إلى النار ، يقولون لهم : أين الذين كنتم تشركون بهم فى الحياة ، وتدعونهم وتعبدونهم من دون الله ادعوهم يخلصونكم مما أنتم فيه . قالوا : ﴿ ضَلُّوا عَنَّا ﴾ آى : ذهبوا عنا ، فلا نرجو نفعهم ، ولا خيرهم ﴿ وَشَهِدُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ ﴾ آى : أقروا واعترفوا على أنفسهم ﴿ أَنَّهُمْ كَانُوا كَافِرِينَ ﴾ .

﴿ قَالَ ادْخُلُوا فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُم مِّنَ الْجِنِّ وَالإِنسِ فِي النَّارِ كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَعَنَتْ أُخْتَهَا حَتَّىٰ إِذَا آدَارَكُوا فِيهَا جَمِيعًا قَالَتْ أُخْرِيَهُمْ لِأَوْلِيَهُمْ رَبَّنَا هَؤُلَاءِ ضَلُّونَا فَانصُرْنَا عَذَابًا ضِعْفًا مِّنَ النَّارِ قَالَ لِكُلِّ ضِعْفٌ وَلَكِن لَّا نَعْلَمُونَ ﴾ وَقَالَتْ أَوْلِيَهُمْ لِأَخْرِيَهُمْ فَمَا كَانَتْ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ ﴾

يقول تعالى مخبراً عما يقوله لهؤلاء المشركين به، المفترين عليه، المكذبين بآياته: ﴿ادْخُلُوا فِي أُمَمٍ﴾ أى: من أشكالكم وعلى صفاتكم ﴿قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ﴾ أى: من الأمم السالفة الكافرة ﴿مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ فِي النَّارِ﴾ يحتمل أن يكون بدلاً من قوله: ﴿فِي أُمَمٍ﴾ ويحتمل أن يكون ﴿فِي أُمَمٍ﴾، أى: مع أمم.

وقوله: ﴿كَلِمًا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَعَنَتْ أُخْتَهَا﴾ كما قال الخليل، عليه السلام: ﴿ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا﴾ [المنكوت: ٢٥]. وقوله تعالى: ﴿إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا وَرَأَوْا الْعَذَابَ وَتَقَطَعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ. وَقَالَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا لَوْ أَنَّا كُنَّا نَدْرِكُهُمْ لَسَخَّطْنَا لَهُمْ أَسْلِحَتَنَا كُلَّهَا مَا أَضَلُّوا إِلَّا ضَلالًا بَعِيدًا. وَقَالَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةٌ فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّأُوا مِنَّا كَذَلِكَ يُرِيهِمُ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ حَسَرَاتٍ عَلَيْهِمْ وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ﴾ [البقرة: ١٦٦، ١٦٧].

وقوله: ﴿حَتَّى إِذَا دَارَكُوا فِيهَا جَمِيعًا﴾ أى: اجتمعوا فيها كلهم ﴿قَالَتْ أَخْرَاهُمِ لَأَوْلَاهُمْ﴾ أى: أخراهم دخولا - وهم الأتباع - لأولاهم - وهم المتبعون - لأنهم أشد جرماً من أتباعهم، فدخلوا قبلهم، فتشكروهم الأتباع إلى الله يوم القيامة؛ لأنهم هم الذين أضلهم عن سواء السبيل، فيقولون: ﴿رَبَّنَا هَؤُلَاءِ أَضَلُّونَا فَأَتَيْنَاهُمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِنَ النَّارِ﴾ أى: أضعف عليهم العقوبة، كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ تَقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ يَقُولُونَ يَا لَيْتَنَا أَطَعْنَا اللَّهَ وَأَطَعْنَا الرَّسُولَ. وَقَالُوا رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكِبَرَاءَنَا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلًا. رَبَّنَا آتِنَاهُمْ صِغْفِيرًا مِنَ الْعَذَابِ وَالْعَنَتُمْ لَنَا كَبِيرًا﴾ [الأحزاب: ٦٦ - ٦٨].

وقوله: ﴿قَالَ لِكُلِّ ضِعْفٍ وَلَكِنْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ أى: قد فعلنا ذلك وجازينا كلا بحسبه، كما قال: ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ زِدْنَاهُمْ عَذَابًا فَوْقَ الْعَذَابِ بِمَا كَانُوا يُفْسِدُونَ﴾ [النحل: ٨٨]، وقال تعالى: ﴿وَلِيَحْمِلُوا أَثْقَالَهُمْ وَاتَّقِلَالًا مَّعَ أَثْقَالِهِمْ﴾ [المنكوت: ١٣] وقال: ﴿وَمِنَ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ أَلَا سَاءَ مَا يَزُرُونَ﴾ [النحل: ٢٥]. ﴿وَقَالَتْ أَوْلَاهُمْ لَأَخْرَاهُمْ﴾ أى: قال المتبعون للأتباع: ﴿فَمَا كَانَ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ﴾ قال السدى: فقد ضللتكم كما ضللنا ﴿فَدَعَوْا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ﴾ وهذا الحال كما أخبر تعالى عنهم فى حال محشرهم، فى قوله تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَى إِذِ الظَّالِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِندَ رَبِّهِمْ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ الْقَوْلَ يَقُولُ الَّذِينَ اسْتَضَعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لَوْلَا أَنْتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ. قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لِلَّذِينَ اسْتَضَعِفُوا أَنْتُمْ صَدَدْتَنَا كَمِ عَنِ الْهُدَى بَعْدَ إِذْ جَاءَكُمْ بَلْ كُنْتُمْ مُجْرِمِينَ. وَقَالَ الَّذِينَ اسْتَضَعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا بَلْ مَكْرَ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَا أَنْ نَكْفُرَ بِاللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُ أَندَادًا وَأَسْرَأُوا النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ وَجَعَلْنَا الْأَغْلَالَ فِي أَعْقَابِ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [سبا: ٣١ - ٣٣].

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ وَلَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّى يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُجْرِمِينَ﴾ ﴿٤٠﴾ هُمْ مِّنْ جَهَنَّمَ وَهَادٍ وَمِنْ قَوْمِهِمُ عَوَاشِرٌ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ﴾ ﴿٤١﴾

قوله: ﴿لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ﴾ قيل: المراد: لا يرفع لهم منها عمل صالح ولا دعاء. قاله مجاهد، وسعيد بن جبيرة. وروى عن ابن عباس. وقيل: المراد: لا تفتح لأرواحهم أبواب

السماء. روى عن ابن عباس. وقاله السُّدِّي وغير واحد، ويؤيده ما روى ابن جرير:

عن البراء؛ أن رسول الله ﷺ ذكر قبض روح الفاجر، وأنه يُصعد بها إلى السماء، قال: «فيصعدون بها، فلا تمر على ملاء من الملائكة إلا قالوا: ما هذه الروح الخبيثة؟ فيقولون: فلان، بأقبح أسمائه التي كان يُدعى بها في الدنيا، حتى ينتهوا بها إلى السماء، فيستفتحون بابها له فلا يفتح له». ثم قرأ رسول الله ﷺ: «لَا تُفْتَحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ وَلَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّى يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ» (١). هكذا رواه، وهو قطعة من حديث طويل رواه أبو داود والنسائي وابن ماجه، وقد رواه الإمام أحمد عن البراء ابن عازب قال: خرجنا مع رسول الله ﷺ فى جنازة رجل من الانصار، فانتبهنا إلى القبر ولَمَّا يُلْحَد. فجلس رسول الله ﷺ وجلسنا حوله كأن على رؤوسنا الطير، وفى يده عود ينكت به فى الأرض، فرفع رأسه فقال: «استعيذوا بالله من عذاب القبر» مرتين أو ثلاثاً، ثم قال: «إن العبد المؤمن إذا كان فى انقطاع من الدنيا، وإقبال إلى الآخرة، نزل إليه ملائكة من السماء بيض الوجوه، كأن وجوههم الشمس، معهم كفن من أكفان الجنة، وحنوط من حنوط الجنة، حتى يجلسوا منه مدَّ البصر. ثم يجيء ملك الموت، حتى يجلس عند رأسه، فيقول: أيتها النفس المطمئنة، اخرجى إلى مغفرة من الله ورضوان». قال: «فتخرج تسيل كما تسيل القطرة من فى السقاء، فيأخذها، فإذا أخذها لم يدعها فى يده طرفة عين، حتى يأخذوها فيجعلوها فى ذلك الكفن، وفى ذلك الحنوط. ويخرج منها كأطيب نفحة مسك وجدت على وجه الأرض. فيصعدون بها فلا يمرون - يعنى - بها على ملاء من الملائكة إلا قالوا: ما هذا الروح الطيبة؟ فيقولون: فلان بن فلان، بأحسن أسمائه التي كانوا يسمونه بها فى الدنيا، حتى ينتهوا به إلى السماء الدنيا، فيستفتحون له، فيفتح له، فيشيعه من كل سماء مقربوها إلى السماء التي تليها، حتى ينتهى به إلى السماء السابعة، فيقول الله، عز وجل: اكتبوا كتاب عبدى فى عليين، وأعيدوه إلى الأرض، فإنى منها خلقتهم، وفيها أعيدهم، ومنها أخرجهم تارة أخرى». قال: «فتعاد روحه، فيأتيه ملكان فيجلسانه فيقولان له: من ربك؟ فيقول: ربي الله. فيقولان له ما دينك؟ فيقول: دينى الإسلام. فيقولان له: ما هذا الرجل الذى بعث فيكم؟ فيقول: هو رسول الله. فيقولان له: وما علمك؟ فيقول: قرأت كتاب الله فأمنت به وصدقت. فينادى مناد من السماء: أن صدق عبدى، فأفرشوه من الجنة، وألبسوه من الجنة، وافتحوا له باباً إلى الجنة. فيأتيه من روحها وطيبها، ويفسح له فى قبره مدَّ بصره». قال: «ويأتيه رجل حسن الوجه، حسن الثياب، طيب الريح، فيقول: أبشر بالذى يسرك، هذا يومك الذى كنت توعده. فيقول له: من أنت؟ فوجهك الوجه يجيء بالخير. فيقول: أنا عمك الصالح. فيقول: رب أقم الساعة، رب أقم الساعة، حتى أرجع إلى أهلى ومالى».

قال: «وإن العبد الكافر، إذا كان فى انقطاع من الدنيا وإقبال من الآخرة، نزل إليه من السماء ملائكة سود الوجوه معهم المسوح، فيجلسون منه مدَّ البصر، ثم يجيء ملك الموت حتى

يجلس عند رأسه، فيقول: أيتها النفس الخبيثة، اخرجى إلى سخط من الله وغضب». قال: «فَتَفَرَّقَ فِي جَسَدِهِ، فَيَنْتَزِعُهَا كَمَا يَنْتَزِعُ السَّقُودُ مِنَ الصُّوفِ الْمَبْلُولِ، فَيَأْخُذُهَا، فَإِذَا أَخَذَهَا لَمْ يَدَعُوهَا فِي يَدِهِ طَرْفَةَ عَيْنٍ حَتَّى يَجْعَلُوهَا فِي تَلْكَ الْمَسْوَحِ، وَيُخْرِجُ مِنْهَا كَأَنَّ رِيحَ جِيْفَةٍ وَجَدَتْ عَلَى وَجْهِ الْأَرْضِ. فَيَصْعَدُونَ بِهَا، فَلَا يَمْرُونَ بِهَا عَلَى مَلَأَ مِنَ الْمَلَائِكَةِ إِلَّا قَالُوا: مَا هَذَا الرُّوحُ الْخَبِيثَةُ؟ فَيَقُولُونَ: فَلَانِ ابْنِ فَلَانٍ، بِأَقْبَحِ أَسْمَائِهِ الَّتِي كَانَ يُسَمِّي بِهَا فِي الدُّنْيَا، حَتَّى يَنْتَهَى بِهِ إِلَى السَّمَاءِ الدُّنْيَا، فَيَسْتَفْتَحُ، فَلَا يَفْتَحُ لَهُ. ثُمَّ قَرَأَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «لَا تُفْتَحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ وَلَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّى يَلْبَسَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ»، فيقول الله، عز وجل: اكتبوا كتابه في سبعين في الأرض السفلى. فتطرح روحه طرحاً». ثم قرأ: «وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتُخَفِّفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ» [الحج: ٣١]. «فتعاد روحه في جسده. ويأتيه ملكان فيجلسانه فيقولان له: من ربك؟ فيقول: هاهاه! لا أدري! فيقولان: ما دينك؟ فيقول: هاهاه! لا أدري! فيقولان: ما هذا الرجل الذي بعث فيكم؟ فيقول: هاهاه! لا أدري. فينادى مناد من السماء: أن كذب، فأفرشوه من النار، وافتحوا له باباً إلى النار. فيأتيه من حرها وسمومها، ويضيق عليه قبره حتى تختلف فيه أضلعه، ويأتيه رجل قبيح الوجه، قبيح الثياب، منتن الريح، فيقول: أبشر بالذي يسوؤك، هذا يومك الذي كنت توعده فيقول: من أنت؟ فوجهك الوجه يجيء بالشر. فيقول: أنا عمك الخبيث. فيقول: رب لا تقم الساعة». وروى أحمد أيضاً عن البراء بن عازب قال: خرجنا مع رسول الله ﷺ إلى جنازة، فذكر نحوه. وفيه: «حتى إذا خرج روحه صلى عليه كل ملك بين السماء والأرض، وكل ملك في السماء، وفتحت له أبواب السماء، ليس من أهل باب إلا وهم يدعون الله، عز وجل، أن يعرج بروحه من قبلكم». وفي آخره: «ثم يقبض له أعمى أصم أبكم، في يده مرزبة لو ضرب بها جبل كان تراباً، فيضربه ضربة فيصير تراباً، ثم يعيده الله، عز وجل، كما كان، فيضربه ضربة أخرى فيصبح صيحة يسمعها كل شيء إلا الثقلين». قال البراء: «ثم يفتح له باب من النار، ويمهد له من فرش النار» (١).

وفى الحديث الذى رواه الإمام أحمد، والنسائى، وابن ماجه وابن جرير - واللفظ له - عن أبى هريرة ، أن رسول الله ﷺ قال: «الميت تحضره الملائكة، فإذا كان الرجل الصالح قالوا: اخرجى أيتها النفس المطمئنة كانت فى الجسد الطيب، اخرجى حميدة، وأبشرى بروح وريحان، ورب غير غضبان، فيقولون ذلك حتى يُعْرَجَ بِهَا إِلَى السَّمَاءِ، فَيَسْتَفْتَحُ لَهَا، فَيَقَالُ: مِنْ هَذَا؟

(١) الرواية الأولى فى المسند (٤ / ٢٨٧ ، ٢٨٨) والثانية فيه (٤ / ٢٩٥ ، ٢٩٦ حلى) وهو فى أبى داود (٤٧٥٣ ، ٤٧٥٤) . ورواه الحاكم (١ / ٣٧ - ٣٩) بأسانيد ، وصححه على شرط الشيخين ، ووافقه الذهبى . وأطال الحافظ ابن القيم القول فى تصحيحه والرد على من أعله - فى تهذيب السنن (٤٥٨٦) (٧ / ١٣٩ - ١٤٦) . ونقله قاضى القضاة ابن أبى العز فى شرح الطحاوية (ص ٣٣١ - ٣٣٣) ونسبه أيضا لابن أبى عوانة وابن حبان .

فيقولان: فلان. فيقال: مرحباً بالنفس الطيبة التى كانت فى الجسد الطيب، ادخلى حميدة، وأبشرى بروح وريحان، ورب غير غضبان، فيقال لها ذلك حتى ينتهى بها إلى السماء التى فيها الله، عز وجل. وإذا كان الرجل السوء قالوا: اخرجى أيتها النفس الخبيثة كانت فى الجسد الخبيث، اخرجى ذميمة، وأبشرى بحميم وغساق، وآخر من شكله أزواج، فيقولون ذلك حتى تخرج، ثم يعرج بها إلى السماء فيستفتح لها، فيقال: من هذا؟ فيقولون: فلان. فيقولون: لا مرحباً بالنفس الخبيثة كانت فى الجسد الخبيث، ارجعى ذميمة، فإنه لم يُفتح لك أبواب السماء، فترسل بين السماء والأرض، فتصير إلى القبر» (١).

قال ابن جرير فى قوله: ﴿لَا تُفْتَحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ﴾ قال: لا تفتح لأعمالهم، ولا لأرواحهم. وهذا فيه جمع بين القولين، والله أعلم.

وقوله: ﴿وَلَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّى يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ﴾ هكذا قرأه الجمهور (٢)، وفسروه بأنه البعير. قال ابن مسعود: هو الجمال ابن الناقة. وفى رواية: زوج الناقة. وقال الحسن البصرى: حتى يدخل البعير فى خرق الإبرة. وكذا قال أبو العالية، والضحاك. وكذا روى عن ابن عباس. وقال مجاهد، وعكرمة، عن ابن عباس: أنه كان يقرؤها: «يلج الجمل فى سم الخيام» بضم الجيم، وتشديد الميم، يعنى: الحبل الغليظ فى خرق الإبرة. وهذا اختيار سعيد بن جبير. وفى رواية أنه قرأ: «حتى يلىج الجمل» يعنى: قُلُوس السفن، وهى الحبال الغلاظ.

وقوله: ﴿لَهُمْ مِنْ جَهَنَّمَ مِهَادٌ﴾ قال محمد بن كعب القرظى: الفرش ﴿وَمِنْ فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ﴾ قال: اللحف. وكذا قال الضحاك بن مزاحم، والسدى ﴿وَكَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ﴾.

﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٤١﴾ وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غَلٍّ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَا أَنْ هَدَانَا اللَّهُ لَقَدْ جَاءَتْ رَسُولَنَا بِالْحَقِّ وَنُودُوا أَنْ تِلْكَمُ الْجَنَّةُ أَوْرَثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٤٢﴾﴾

لما ذكر تعالى حال الأشقياء عطف بذكر حال السعداء، فقال: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ أى: آمنت قلوبهم وعملوا الصالحات بجوارحهم، ضد أولئك الذين كفروا بآيات الله، واستكبروا عنها.

وينبئ تعالى على أن الإيمان والعمل به سهل؛ لأنه تعالى قال: ﴿لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ. وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غَلٍّ﴾ أى: من حسد وبغضاء، كما جاء فى

(١) مضى فى هذا الجزء مخرجاً عند الآيات : ٤٠ - ٤٥ من سورة الأنعام .

(٢) فى المطبوعة : « هكذا رواه الجمهور . وفى المخطوطتين : « هكذا فسر الجمهور » . وكلاهما غير جيد ، فكتبتاها « قرأه » لأنه أضبط فى المعنى وأجود .

الصحيح للبخارى عن أبي سعيد الخدري ، قال : قال رسول الله ﷺ : « إذا خُصَّ المؤمنون من النار حُبسوا على قنطرة بين الجنة والنار ، فاقتص لهم مظالم كانت بينهم في الدنيا ، حتى إذا هُذبوا ونُقوا ، أذن لهم في دخول الجنة ؛ فوالذي نفسى بيده ، إن أحدهم بمنزلة في الجنة أدل منه بمسكنه كان في الدنيا » . وقال قتادة : قال عليّ : « إنى لأرجو أن أكون أنا وعثمان وطلحة والزبير من الذين قال الله تعالى فيهم : ﴿ وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غَلٍ ﴾ . رواه ابن جرير . وروى عبد الرزاق عن عليّ قال : « فينا والله أهل بدر نزلت : ﴿ وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غَلٍ ﴾ . وروى النسائي وابن مردويه - واللفظ له - عن أبي هريرة ، قال : قال رسول الله ﷺ : « كل أهل الجنة يرى مقعده من النار فيقول : لولا أن الله هداني ، فيكون له شكرًا . وكل أهل النار ، يرى مقعده من الجنة ، فيقول : لو أن الله هداني ، فيكون له حسرة » (١) . ولهذا لما أورشوا مقاعد أهل النار من الجنة : ﴿ نُودُوا أَنْ تُلْكُمُ الْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ أي : بسبب أعمالكم نالتكم الرحمة فدخلتم الجنة ، وتبوأتم منازلكم بحسب أعمالكم . وإنما وجب الحمل على هذا لما ثبت في الصحيحين عنه : « واعلموا أن أحدكم لن يدخله عمله الجنة » . قالوا : ولا أنت يا رسول الله ؟ قال : « ولا أنا ، إلا أن يتعمدني الله برحمة منه وفضل » (٢) .

﴿ وَآدَىٰ أَحْسَبُ الْجَنَّةِ أَحْسَبَ النَّارِ أَنْ قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبَّنَا حَقًّا فَهَلْ وَجَدْتُمْ مَا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا قَالُوا نَعَمْ فَأَذْنُ مُؤَذِّنٌ بَيْنَهُمْ أَنْ لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ ﴿١٤﴾ الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُمْ بِالْآخِرَةِ كَافِرُونَ ﴿١٥﴾ ﴾

يخبر تعالى بما يخاطب به أهل الجنة أهل النار إذا استقروا في منازلهم - وذلك على وجه التقرير والتوبيخ : ﴿ أَنْ قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبَّنَا حَقًّا ﴾ « أن » ههنا مفسرة للقول المحذوف ، و« قد » للتحقيق ، أي : قالوا لهم : ﴿ قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبَّنَا حَقًّا فَهَلْ وَجَدْتُمْ مَا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا قَالُوا نَعَمْ ﴾ كما أخبر تعالى في سورة « الصافات » عن الذي كان له قرين من الكفار : ﴿ فَاطَّلَعَ فَرَآهُ فِي سَوَاءِ الْجَحِيمِ . قَالَ تَاللَّهِ إِنْ كِدْتَ تُفْرِدِينَ . وَتَوَلَّى نِعْمَةً رَبِّي لَكُنْتُ مِنَ الْمُحْضَرِينَ . أَلَمْآ نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ . إِلَّا مَوْتَنَا الْأُولَىٰ وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴾ [الآيات : ٥٥ - ٥٩] أي : ينكر عليه مقالته التي يقولها في الدنيا ، ويقرعه بما صار إليه من العذاب والنكال ، وكذلك تفرعهم الملائكة يقولون لهم : ﴿ هَذِهِ النَّارُ الَّتِي كُنتُمْ بِهَا تُكذِّبُونَ . أَفَسِحْرٌ هَذَا أَمْ أَنْتُمْ لَا تُبْصِرُونَ . اصْلَوْهَا فَاصْبِرُوا أَوْ لَا تَصْبِرُوا سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ [الطور : ١٤ - ١٦] . وكذلك قرع رسول الله ﷺ قتلى القلب يوم بدر ، فنادى : « يا أبا جهل ابن هشام ، يا عتبة بن ربيعة ، يا شيبه بن ربيعة - وسمى رؤوسهم - : هل وجدتم ما وعد ربكم حقًا؟ فإني وجدت ما

(١) ورواه أحمد في المسند (١٠٦٦٠) . وذكره الهيثمي في الزوائد (١٠ / ٣٩٩) ثم رواية أخرى له ، ثم قال :

« رواه كله أحمد ، ورجال الرواية الأولى (يريد هذه الرواية) رجال الصحيح » .

(٢) هو بمعناه ثابت من حديث أبي هريرة . انظر المسند (٧٢٠٢ ، ٧٤٧٣ ، ٧٥٧٧) والبخارى (١٠ / ١٠٩ ،

١١ ، و ١١ / ٢٦٢ - ٢٦٥) .

وعدنى ريبى حقاً. قال عمر: يا رسول الله، تخاطب قوماً قد جيئوا؟ فقال: «والذى نفسى بيده، ما أنتم بأسمع لما أقول منهم، ولكن لا يستطيعون أن يجيبوا» .

وقوله: ﴿فَأَذِّنْ مُؤَذِّنٌ بَيْنَهُمْ﴾ أى : أعلم معلّم ونادى مُناد : ﴿أَنْ لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ﴾ أى : مستقرة عليهم .

ثم وصفهم بقوله: ﴿الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَنِ سَبِيلِ اللَّهِ وَيَعْتَرِفُونَ عِوَجًا﴾ أى : يصدون الناس عن اتباع سبيل الله وشرعه وما جاءت به الأنبياء، ويعتدون أن تكون السبيل معوجة غير مستقيمة، حتى لا يتبعها أحد ﴿وَهُمْ بِالْآخِرَةِ كَافِرُونَ﴾ أى : وهم لبقاء الله فى الدار الآخرة كافرون، أى : جاحدون مكذبون بذلك لا يصدقونه ولا يؤمنون به . فلهذا لا يبالون بما يأتون من منكر من القول والعمل؛ لأنهم لا يخافون حساباً عليه ، ولا عقاباً، فهم شر الناس أعمالاً وأقوالاً .

﴿وَبَيْنَهُمَا حِجَابٌ وَعَلَى الْأَعْرَافِ رِجَالٌ يَعْرِفُونَ كُلًّا بِسِيمَتِهِمْ وَنَادُوا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَنْ سَلِّمُوا عَلَيْهِمْ لَمْ يَدْخُلُوهَا وَهُمْ يَطْمَعُونَ﴾ ﴿٤٦﴾ وَإِذَا صُرِفَتْ أَبْصَارُهُمْ تِلْقَاءَ النَّارِ قَالُوا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٤٧﴾

لما ذكر تعالى مخاطبة أهل الجنة مع أهل النار، نبه أن بين الجنة والنار حجاباً، وهو الحاجز المانع من وصول أهل النار إلى الجنة . قال ابن جرير: وهو السور الذى قال الله تعالى: ﴿فَضْرِبْ بَيْنَهُمْ سُورًا لَبِيبًا بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَاهِرُهُ مِنْ قِبَلِهِ الْعَذَابُ﴾ [الحديد: ١٣] . وهو الأعراف الذى قال الله تعالى: ﴿وَعَلَى الْأَعْرَافِ رِجَالٌ﴾ . ثم روى بإسناده عن السدى أنه قال فى قوله تعالى : ﴿وَبَيْنَهُمَا حِجَابٌ﴾ وهو «السور»، وهو «الأعراف» . وقال مجاهد: الأعراف: حجاب بين الجنة والنار، سور له باب . قال ابن جرير: والأعراف جمع «عُرف»، وكل مرتفع من الأرض عند العرب يسمى «عُرفاً»، وإنما قيل لعرف الديك عرفاً لارتفاعه . وعن ابن عباس: الأعراف، تل بين الجنة والنار، حبس عليه ناس من أهل الذنوب بين الجنة والنار . وفى رواية عنه: هو سور بين الجنة والنار . وكذلك قال الضحاك وغير واحد من علماء التفسير .

واختلفت عبارات المفسرين فى أصحاب الأعراف من هم، وكلها قريبة ترجع إلى معنى واحد، وهو: أنهم قوم استوت حسناتهم وسيئاتهم . نص عليه حذيفة، وابن عباس، وابن مسعود، وغير واحد من السلف والخلف، رحمهم الله . وقد جاء فى حديث مرفوع رواه ابن مردويه عن جابر بن عبد الله قال: سئل رسول الله ﷺ عن استوت حسناته وسيئاته؟ فقال: «أولئك أصحاب الأعراف، لم يدخلوها وهم يطمعون» . وهذا حديث غريب من هذا الوجه ، ورواه من وجه آخر عن محمد بن المنكدر عن رجل من مزينة قال: سئل رسول الله ﷺ عن استوت حسناته وسيئاته وعن أصحاب الأعراف؟ فقال: «إنهم قوم خرجوا عصاة بغير إذن آبائهم، فقتلوا فى سبيل الله» . وعن يحيى بن عبد الرحمن المزنى، عن أبيه قال: سئل رسول الله ﷺ عن

«أصحاب الأعراف» فقال: «هم ناس قتلوا فى سبيل الله بمعصية آبائهم، فمنعهم من دخول الجنة معصية آبائهم ومنعهم من النار قتلهم فى سبيل الله».

هكذا رواه ابن مَرْدُويَه، وابن جرير، وابن أبى حاتم وكذا رواه ابن ماجه مرفوعاً، من حديث أبى سعيد الخدرى وابن عباس ، والله أعلم بصحة هذه الأخبار المرفوعة وقصارها أن تكون موقوفة وفيه دلالة على ما ذكر. وروى ابن جرير عن حذيفة؛ أنه سئل عن أصحاب الأعراف، قال: فقال: هم قوم استوت حسناتهم وسيئاتهم، فقعدت بهم سيئاتهم عن الجنة، وخلقت بهم حسناتهم عن النار. قال: فوقفوا هنالك على السور حتى يقضى الله فيهم .

وقوله تعالى: ﴿يَعْرِفُونَ كُلًّا بِسِيمَاهُمْ﴾ قال ابن عباس : يعرفون أهل الجنة ببياض الوجوه، وأهل النار بسواد الوجوه . وقال: أنزلهم الله بتلك المنزلة، ليعرفوا من فى الجنة والنار، وليعرفوا أهل النار بسواد وجوه ، ويتعوذوا بالله أن يجعلهم مع القوم الظالمين. وهم فى ذلك يحيون أهل الجنة بالسلام، لم يدخلوها، وهم يطعمون أن يدخلوها، وهم داخلوها إن شاء الله. وكذا قال مجاهد، والضحاك، وغيرهم . وعن الحسن: أنه تلا هذه الآية: ﴿لَمَّا يَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَهُمْ يَطْمَعُونَ﴾ قال : والله ما جعل ذلك الطمع فى قلوبهم ، إلا لكرامة يريد بها بهم. وقال قتادة : أنباكم الله بمكانهم من الطمع.

وقوله: ﴿وَإِذَا صُرِفَتْ أَبْصَارُهُمْ تِلْقَاءَ أَصْحَابِ النَّارِ قَالُوا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ قال ابن عباس: إن أصحاب الأعراف إذا نظروا إلى أهل النار عرفوهم ، قالوا: ﴿رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ . وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم فى قوله: ﴿وَإِذَا صُرِفَتْ أَبْصَارُهُمْ تِلْقَاءَ أَصْحَابِ النَّارِ﴾ فرأوا وجوههم مسودة، وأعينهم مزرقة ﴿قَالُوا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ .

﴿وَنَادَى أَصْحَابُ الْأَعْرَافِ رِجَالًا يَعْرِفُونَهُمْ بِسِيمَتِهِمْ قَالُوا مَا أَغْنَىٰ عَنْكُمْ جَمْعُكُمْ وَمَا كُنْتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ ﴿٤٨﴾ أَهْلَؤَلَاءِ الَّذِينَ أَقْسَمْتُمْ لَا يَنَالُهُمُ اللَّهُ بِرَحْمَةٍ أَدْخُلُوا الْجَنَّةَ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمْ وَلَا أَنْتُمْ تَحْزَنُونَ ﴿٤٩﴾﴾

يقول تعالى إخبارا عن تقريع أهل الأعراف لرجال من صناديد المشركين وقادتهم، يعرفونهم فى النار بسيماهم: ﴿مَا أَغْنَىٰ عَنْكُمْ جَمْعُكُمْ﴾ أى: كثرتكم ﴿وَمَا كُنْتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ﴾ أى: لا ينفعكم كثرتكم ولا جموعكم من عذاب الله، بل صرتم إلى ما أنتم فيه من العذاب والنكال ﴿أَهْلَؤَلَاءِ الَّذِينَ أَقْسَمْتُمْ لَا يَنَالُهُمُ اللَّهُ بِرَحْمَةٍ﴾ قال ابن عباس: يعنى: أصحاب الأعراف ﴿أَدْخُلُوا الْجَنَّةَ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمْ وَلَا أَنْتُمْ تَحْزَنُونَ﴾ . وروى ابن جرير عن ابن عباس: ﴿قَالُوا مَا أَغْنَىٰ عَنْكُمْ جَمْعُكُمْ﴾ الآية، قال: فلما قالوا لهم الذى قضى الله أن يقولوا - يعنى أصحاب الأعراف لأهل الجنة وأهل النار - قال الله لأهل التكبير والاموال: ﴿أَهْلَؤَلَاءِ الَّذِينَ أَقْسَمْتُمْ لَا يَنَالُهُمُ اللَّهُ بِرَحْمَةٍ أَدْخُلُوا الْجَنَّةَ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمْ وَلَا أَنْتُمْ تَحْزَنُونَ﴾ .

﴿ وَنَادَىٰ أَصْحَابَ النَّارِ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَنْ أفيضُوا عَلَيْنَا مِنَ الْمَاءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ حَرَمَهُمَا عَلَى الْكَافِرِينَ ﴿٥٠﴾ الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَهْوًا وَلَعِبًا وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَوةُ الدُّنْيَا فَالْيَوْمَ نَنسِفُهُمْ كَمَا نَسُوا لِقَاءَ يَوْمِهِمْ هَذَا وَمَا كَانُوا بِتَابِعِينَ ﴿٥١﴾ يَجْحَدُونَ ﴾

يخير تعالى عن ذلة أهل النار وسؤالهم أهل الجنة من شرابهم وطعامهم، وأنهم لا يجابون إلى ذلك . قال السُّدِّي : ﴿ وَنَادَىٰ أَصْحَابَ النَّارِ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَنْ أفيضُوا عَلَيْنَا مِنَ الْمَاءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ ﴾ يعني : الطعام . وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم : يستطعمونهم ويستسقونهم . وقال عبد الرحمن بن زيد ابن أسلم : ﴿ إِنَّ اللَّهَ حَرَمَهُمَا عَلَى الْكَافِرِينَ ﴾ يعني : طعام الجنة وشرابها . ثم وصف تعالى الكافرين بما كانوا يعتمدونه في الدنيا من اتخاذهم الدين لهوا ولعبا، واغترارهم بالدنيا وزينتها وزخرفها عما أمروا به من العمل للدار الآخرة .

وقوله : ﴿ فَالْيَوْمَ نَنسَاهُمْ كَمَا نَسُوا لِقَاءَ يَوْمِهِمْ هَذَا ﴾ أى : تعاملهم معاملة من نسيتهم ؛ لأنه تعالى لا يشذ عن علمه شيء ولا ينساه ، كما قال تعالى : ﴿ فِي كِتَابٍ لَا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنسَى ﴾ [طه : ٥٢] . وإنما قال تعالى هذا من باب المقابلة ، كما قال : ﴿ نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ ﴾ [التوبة : ٦٧] ، وقال : ﴿ كَذَلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيَتْهَا كَذَلِكَ الْيَوْمَ تَنسَى ﴾ [طه : ١٢٦] ، وقال تعالى : ﴿ وَقِيلَ الْيَوْمَ نَنسَاكُمْ كَمَا نَسَيْتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا ﴾ [الجنائى : ٣٤] . وقال ابن عباس فى : نسيتهم الله من الخير ، ولم ينسهم من الشر . وقال ابن عباس : نتركهم ، كما تركوا لقاء يومهم هذا . وقال مجاهد : نتركهم فى النار . وقال السُّدِّي : نتركهم من الرحمة ، كما تركوا أن يعملوا للقاء يومهم هذا . وفى الصحيح أن الله تعالى يقول للعبد يوم القيامة : « ألم أزوجك ؟ ألم أكرمك ؟ ألم أسخر لك الخيل والإبل ، وأذرك ترأس وتربع ؟ فيقول : بلى . فيقول : أظننت أنك ملاقى ؟ فيقول : لا . فيقول الله تعالى : فاليوم أنساك كما نسيتنى » (١) .

﴿ وَلَقَدْ جِئْتَهُمْ بِكِتَابٍ فَصَّلْنَاهُ عَلَىٰ عِلْمٍ هُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٢﴾ هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُ يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلَهُ يَقُولُ الَّذِينَ نَسُوهُ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَاءَتْ رُسُلٌ مِنَّا بِالْحَقِّ فَهَلْ لَنَا مِنْ شُفَعَاءَ فَيَشْفَعُوا لَنَا أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلْ غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ قَدْ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴾

يقول تعالى مخبراً عن إعداده إلى المشركين بإرسال الرسول إليهم بالكتاب الذى جاء به

(١) مضى عند الآية : ٤٧ من سورة البقرة مختصراً هكذا . وهو جزء من حديث طويل فى المسند (١٠٣٨٣) وصحيح مسلم (٢ / ٣٨٦) من حديث أبى هريرة .

الرسول، وأنه كتاب مفصل مبين، كما قال تعالى: ﴿كِتَابٌ أَحْكَمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ لُفِّتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾ [هود: ١]

وقوله: ﴿فَصَلِّنَاهُ عَلَىٰ عِلْمٍ﴾ أى: على علم منا بما فصلناه به، كما قال تعالى: ﴿أَنْزَلْنَاهُ بِعِلْمِهِ﴾ [النساء: ١٦٦]. قال ابن جرير: وهذه الآية مردودة على قوله: ﴿كِتَابٌ أَنْزَلَ إِلَيْكَ فَلَا يَكُنْ فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِنْهُ لِتُنذِرَ بِهِ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأعراف: ٢]. ﴿وَلَقَدْ جِئْتَاهُمْ بِكِتَابٍ﴾ الآية. وهذا الذى قاله فيه نظر، فإنه قد طال الفصل، ولا دليل على ذلك، وإنما لما أخبر بما صاروا إليه من الخسار فى الدار الآخرة، ذكر أنه قد أراح عليلهم فى الدار الدنيا، بإرسال الرسل، وإنزال الكتب، كقوله: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ [الإسراء: ١٥]؛ ولهذا قال: ﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُ﴾ أى: ما وعد من العذاب والنكال والجنة والنار. قاله مجاهد وغير واحد. وقال الربيع: لا يزال يجيء من تأويله أمر، حتى يتم يوم الحساب، حتى يدخل أهل الجنة الجنة، وأهل النار النار، فيتم تأويله يومئذ.

﴿يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلَهُ﴾ أى: يوم القيامة، قاله ابن عباس ﴿يَقُولُ الَّذِينَ نَسُوهُ مِنْ قَبْلُ﴾ أى: تركوا العمل به، وتناسوه فى الدار الدنيا ﴿قَدْ جَاءَتْ رُسُلٌ رَبِّنَا بِالْحَقِّ فَمَنْ لَنَا مِنْ شَفْعَاءٍ فَيَشْفَعُوا لَنَا﴾ أى: فى خلاصنا مما صرنا إليه مما نحن فيه ﴿أَوْ نُرَدُّ﴾ إلى الدار الدنيا ﴿فَنَعْمَلْ غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ﴾، كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ وَقَفُوا عَلَى النَّارِ فَقَالُوا يَا لَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبُ بآيَاتِ رَبِّنَا وَنَكُونُ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ . بَلْ بَدَأَ لَهُمْ مَا كَانُوا يُخْفُونَ مِنْ قَبْلُ وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ [الأنعام: ٢٧، ٢٨]، كما قال هاهنا: ﴿قَدْ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ أى: خسروا أنفسهم بدخلوهم النار وخلودهم فيها ﴿وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ أى: ذهب عنهم ما كانوا يعبدونهم من دون الله، فلا ينصرونهم، ولا يشفعون فيهم، ولا يتقذونهم مما هم فيه.

﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى السَّمَوَاتِ وَيُقْبِضُ إِلَيْهِ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَيْثُ شَاءَ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ مَسْحُورَاتٌ بِأَمْرِ رَبِّهِ آيَةٌ لَهُ الْخَلْقِ وَالْأَمْرِ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾

يخبر تعالى أنه خلق هذا العالم: سماواته وأرضه، وما بين ذلك فى ستة أيام، كما أخبر بذلك فى غير ما آية من القرآن. والستة الأيام هى: الأحد، والإثنين، والثلاثاء، والأربعاء، والخميس، والجمعة - وفيه اجتمع الخلق كله، وفيه خلق آدم، عليه السلام. واختلفوا فى هذه الأيام: هل كل يوم منها كهذه الأيام كما هو المتبادر إلى الأذهان؟ أو كل يوم كالف سنة، كما نص على ذلك مجاهد، والإمام أحمد بن حنبل، ويروى ذلك من رواية الضحاك عن ابن عباس؟ فأما يوم السبت فلم يقع فيه خلق؛ لأنه اليوم السابع، ومنه سُمى السبت، وهو القطع.

فأما الحديث الذى رواه الإمام أحمد عن أبى هريرة قال: أخذ رسول الله ﷺ بيدي فقال: «خلق الله التربة يوم السبت، وخلق الجبال فيها يوم الأحد، وخلق الشجر فيها يوم الاثنين، وخلق المكروه يوم الثلاثاء، وخلق النور يوم الأربعاء، وبث فيها الدواب يوم الخميس، وخلق

آدم بعد العصر يوم الجمعة آخر الخلق، في آخر ساعة من ساعات الجمعة ، فيما بين العصر إلى الليل. فقد رواه مسلم والنسائي ، وفيه استيعاب الأيام السبعة، والله تعالى قد قال في ستة أيام؛ ولهذا تكلم البخارى وغير واحد من الحفاظ فى هذا الحديث، وجعلوه من رواية أبى هريرة، عن كعب الأحبار، ليس مرفوعا، والله أعلم (١) .

وأما قوله تعالى: ﴿ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ﴾ فللناس فى هذا المقام مقالات كثيرة جدا، ليس هذا موضع بسطها، وإنما نُسلك فى هذا المقام مذهب السلف الصالح: مالك، والاوزاعى، والثورى، والليث ابن سعد، والشافعى، وأحمد، وإسحاق بن راهويه وغيرهم، من أئمة المسلمين قديما وحديثا، وهو إمرارها كما جاءت من غير تكييف ولا تشبيه ولا تعطيل. والظاهر المتبادر إلى أذهان المشبهين منفى عن الله، فإن الله لا يشبهه شيء من خلقه، و﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١] ، بل الأمر كما قال الأئمة - منهم نعيم بن حماد الخزازى شيخ البخارى ، قال : « من شبه الله بخلقه كفر، ومن جحد ما وصف الله به نفسه فقد كفر». وليس فيما وصف الله به نفسه ولا رسوله تشبيه، فمن أثبت لله تعالى ما وردت به الآيات الصريحة والأخبار الصحيحة، على الوجه الذى يليق بجلال الله ، ونفى عن الله تعالى النقائص، فقد سلك سبيل الهدى.

وقوله تعالى: ﴿يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثًا﴾ أى: يذهب ظلام هذا بضياء هذا، وضياء هذا بظلام هذا، وكل منهما يطلب الآخر طلباً حثيثاً، أى: سريعاً لا يتأخر عنه، بل إذا ذهب هذا جاء هذا، وإذا جاء هذا ذهب هذا، كما قال تعالى: ﴿وَأَيَّةٌ لَهُمُ اللَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ فَإِذَا هُمْ مُظْلَمُونَ. وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ. وَالْقَمَرَ قَدَرْنَا مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ. لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ [يس: ٣٧ - ٤٠]. فقله: ﴿وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ﴾ أى: لا يفوته بوقت يتأخر عنه، بل هو فى أثره لا واسطة بينهما؛ ولهذا قال: ﴿يَطْلُبُهُ حَثِيثًا وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ﴾ منهم من نصب، ومنهم من رفع، وكلاهما قريب المعنى، أى: الجميع تحت قهره وتسخيره ومشيتته؛ ولهذا قال منبها: ﴿أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ؟﴾ أى: له الملك والتصرف، ﴿تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾، كما قال: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي جَعَلَ فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَاجًا وَقَمَرًا مُنِيرًا﴾ [الفرقان: ٦١].

﴿ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً إِنَّكُمْ لَا تُحِبُّونَ الْمُعْتَدِينَ﴾ ﴿٥٥﴾ وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ
بَعْدَ إِصْلَاحِهَا وَادْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِنَ الْمُحْسِنِينَ ﴿٥٦﴾

أرشد تبارك وتعالى عباده إلى دعائه، الذى هو صلاحهم فى دنياهم وأخراهم، فقال :

(١) المسند (٨٣٢٣) . والتعليل بأنه مما أخذ أبو هريرة عن كعب الأحبار - ليس بجيد ولا مستقيم مع السياق ؛ بقوله فى أوله : « أخذ رسول الله ﷺ بيدي . وإنما الخطأ من بعض الرواة . وقد مضى الحديث والكلام عليه عند الآية : ٣٠ من سورة البقرة .

﴿ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً﴾ قيل : معناه: تذللًا واستكانة، كما قال: ﴿وَأَذْكُرُ رَبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً وَذُونَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ وَلَا تَكُنْ مِنَ الْغَافِلِينَ﴾ [الأعراف: ٢٠٥]، وفي الصحيحين، عن أبي موسى الأشعري ، قال: رفع الناس أصواتهم بالدعاء، فقال رسول الله ﷺ: «أيها الناس، اربعوا على أنفسكم؛ فإنكم لا تدعون أصمًّا ولا غائبًا، إن الذي تدعونه سميع قريب» . الحديث. وقال ابن عباس في قوله: ﴿تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً﴾، قال: السر. وقال ابن جرير: ﴿تَضَرُّعًا﴾: تذللًا واستكانة لطاعته ﴿وَخُفْيَةً﴾ يقول: بخشوع قلوبكم، وصحة اليقين بوحدانيته وربوبيته فيما بينكم وبينه، لا جهارًا ومראה. وقال الحسن: «إن كان الرجل لقد جمع القرآن، وما يشعر به الناس. وإن كان الرجل لقد فقهه الفقه الكثير، وما يشعر به الناس. وإن كان الرجل ليصلي الصلاة الطويلة في بيته وعنده الزُّور وما يشعرون به. ولقد أدركنا أقواماً ما كان على الأرض من عمل يقدر أن يعملوه في السر، فيكون علانية أبداً. ولقد كان المسلمون يجتهدون في الدعاء، وما يُسمع لهم صوت، إن كان إلا همسا بينهم وبين ربهم، وذلك أن الله تعالى يقول: ﴿ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً﴾، وذلك أن الله ذكر عبداً صالحاً رَضِيَ فعله فقال: ﴿إِذْ نَادَى رَبَّهُ نِدَاءً خَفِيًّا﴾ [مريم: ١٣]. وقال ابن جرير: يكره رفع الصوت والنداء والصبح في الدعاء، ويؤمر بالتضرع والاستكانة، ثم روى ابن عباس في قوله: ﴿إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾ في الدعاء ولا في غيره. وقال أبو مجلز: ﴿إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾: لا يسأل منازل الأنبياء. وروى أحمد عن مولى لسعد؛ أن سعداً سمع ابنا له يدعو وهو يقول: اللهم، إني أسألك الجنة ونعيمها وإستبرقها ونحوها من هذا، وأعوذ بك من النار وسلاسها وأغلالها. فقال: لقد سألت الله خيراً كثيراً، وتعوذت بالله من شر كثير، وإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إنه سيكون قوم يعتدون في الدعاء». وقرأ هذه الآية: ﴿ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾، وإن بحسبك أن تقول: «اللهم إني أسألك الجنة وما قَرَّبَ إليها من قول أو عمل، وأعوذ بك من النار وما قرب إليها من قول أو عمل». ورواه أبو داود (١). وروى أحمد: أن عبد الله بن مَعْقِلَ سمع ابنه يقول: اللهم، إني أسألك القصر الأبيض عن يمين الجنة إذا دخلتها. فقال: يا بني، سل الله الجنة، وعُدَّ به من النار؛ فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «يكون قوم يَعْتَدُونَ في الدعاء والطَّهْر». رواه ابن ماجه، وأبو داود، وهو إسناد حسن لا بأس به، والله أعلم (٢).

وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا﴾: ينهى تعالى عن فسَادِ في الأرض، وأضره بعد الإصلاح؛ فإنه إذا كانت الأمور ماشية على السداد، ثم وقع الإفساد بعد ذلك، كان أضرَّ ما يكون على العباد. فنهى تعالى عن ذلك، وأمر بعبادته ودعائه والتضرع إليه والتذلل لديه، فقال: ﴿وَأَدْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا﴾ أى: خوفاً مما عنده من وبيل العقاب، وطمعاً فيما عنده من جزيل الثواب.

ثم قال: ﴿إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِنَ الْمُحْسِنِينَ﴾ أى: إن رحمته مُرْصَدَةٌ للمحسنين، الذين

(١) المسند (١٤٨٣)

(٢) المسند (١٦٨٦٧) ورواه أيضا الحاكم في المستدرک (١/٥٤٠) وقال: «صحيح الإسناد ولم يخرجاه» ووافقه الذهبي.

يتبعون أوامره ويتركون زواجره، كما قال تعالى: ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ﴾ [الأعراف: ١٥٦، ١٥٧]. وقال: ﴿قَرِيبٌ﴾، ولم يقل: «قريبة»؛ لأنه ضمن الرحمة معنى الثواب، أو لأنها مضافة إلى الله، فلهذا قال: قريب من المحسنين. وقال مطر الوراق: تَنَجَّرُوا موعود الله بطاعته، فإنه قضى أن رحمته قريب من المحسنين، رواه ابن أبي حاتم.

﴿هُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ حَتَّىٰ إِذَا أَقَلَّتْ سَحَابًا نِّقَالًا سَقَنَّهُ لِبَلَدٍ مَّيْتٍ فَاَنزَلْنَا بِهِ الْمَاءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ كَذَٰلِكَ نُخْرِجُ الْمَوْتَىٰ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٥٧﴾ وَالْبَلَدُ الطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَالَّذِي خَبثَ لَا يَخْرُجُ إِلَّا نَكِدًا كَذَٰلِكَ نُنصِرُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يُشْكُرُونَ ﴿٥٨﴾﴾

لما ذكر تعالى أنه خالق السموات والأرض، وأنه المتصرف الحاكم المدبر المسخر، وأرشد إلى دعائه؛ لأنه على ما يشاء قادر - نبه تعالى على أنه الرزاق، وأنه يعيد الموتى يوم القيامة، فقال: ﴿هُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيحَ نَشْرًا﴾ أي: ناشرة بين يدي السحاب الحامل للمطر، ومنهم من قرأ ﴿بُشْرًا﴾ (١) كقوله: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ يُرْسِلَ الرِّيحَ مُبَشِّرَاتٍ﴾ [الروم: ٤٦].

وقوله: ﴿بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ﴾ أي: بين يدي المطر، كما قال: ﴿هُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ الْغَيْثَ مِنْ بَعْدِ مَا قَنَطُوا وَيَنْشُرُ رَحْمَتَهُ وَهُوَ الْوَلِيُّ الْحَمِيدُ﴾ [الشورى: ٢٨]، وقال: ﴿فَانظُرْ إِلَىٰ آثَرِ رَحْمَتِ اللَّهِ كَيْفَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ ذَٰلِكَ لَمَحْيَى الْمَوْتَىٰ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [الروم: ٥٠] (٢).

وقوله: ﴿حَتَّىٰ إِذَا أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا﴾ أي: حملت الرياح سحاباً ثقالاً، أي: من كثرة ما فيها من الماء، تكون ثقيلة قريبة من الأرض مدلهمة. وقوله: ﴿سَقَنَاهُ لِبَلَدٍ مَّيْتٍ﴾ أي: إلى أرض ميتة، مجدبة لا نبات فيها، كما قال: ﴿وَآيَةٌ لَهُمُ الْأَرْضُ الْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَاهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ﴾ [يس: ٣٣]؛ ولهذا قال: ﴿فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ كَذَٰلِكَ نُخْرِجُ الْمَوْتَىٰ﴾ أي: كما أحيينا هذه الأرض بعد موتها، كذلك نحى الأجساد بعد صيرورتها رَمِيمًا يوم القيامة، ينزل الله، سبحانه وتعالى، ماء من السماء، فتمطر الأرض أربعين يوماً، فتنبت منه الأجساد في قبورها كما ينبت الحب في الأرض. وهذا المعنى كثير في القرآن، يضرب الله مثلاً للقيامة بإحياء الأرض بعد موتها؛ ولهذا قال: ﴿لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾.

وقوله: ﴿وَالْبَلَدُ الطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُ بِإِذْنِ رَبِّهِ﴾ أي: والأرض الطيبة يخرج نباتها سريعاً حسناً، كما قال: ﴿فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنْبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا﴾ [آل عمران: ٣٧]. ﴿وَالَّذِي خَبثَ لَا يَخْرُجُ إِلَّا نَكِدًا﴾

(١) قراءة «بشراً» بالياء المضمومة مع سكنون الشين - هي قراءة عاصم، وهي التي في قراءة حفص عن عاصم. وقرأها ابن عامر: «نشراً» بضم النون مع سكنون الشين. وقرأها حمزة والكسائي بفتح النون وإسكان الشين. وقرأ باقي السبعة بضم النون والشين معاً.

(٢) «إلى أثر رحمة الله»: ثبتت كلمة «أثر» بالإنفراد في المخطوطتين. وقراءة حفص وابن عامر وحمزة والكسائي: «آثار» بالجمع. وقرأ باقي السبعة بالإنفراد. وهي التي قرأ بها المؤلف وأثبتها في تفسيره.

قال مجاهد وغيره: كالسباخ ونحوها. وقال ابن عباس في هذه الآية: هذا مثل ضربه الله للمؤمن والكافر. وروى البخارى عن أبى موسى ، قال: قال رسول الله ﷺ: «مثل ما بعثنى الله به من الهدى والعلم، كمثل الغيث الكثير أصاب أرضاً، فكانت منها نقيعاً قبلت الماء، فأنبتت الكلاً والعشب الكثير. وكانت منها أجادب أمسكت الماء، فنفع الله بها الناس، فشربوا وسقوا وزرعوا. وأصاب منها طائفة أخرى، إنما هي قيعان لا تمسك ماء ولا تنبت كلاً، فذلك مثل من فُتِه في دين الله ونفعه ما بعثنى الله به، فَعَلِمَ وَعَلَّمَ، ومثل من لم يرفع بذلك رأساً، ولم يقبل هدى الله الذى أُرْسِلْتُ به». رواه مسلم والنسائى .

﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِن إِلَهِ غَيْرُهُ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٥٩﴾ قَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرِيكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٦٠﴾﴾
 قَالَ يَا قَوْمِ لَيْسَ بِي ضَلَالَةٌ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٦١﴾ أَبْلَغِكُمْ رَسُولَاتِ رَبِّي وَأَنْصَحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦٢﴾﴾

لما ذكر تعالى قصة آدم في أول السورة، وما يتعلق بذلك ويتصل به، وفرغ منه - شرع تعالى في ذكر قصص الأنبياء، عليهم السلام، الأول فالأول، فابتدأ بذكر نوح ، عليه السلام ، فإنه أول رسول إلى أهل الأرض بعد آدم، عليه السلام، قال ابن إسحاق: ولم يلق نبى من قومه من الأذى مثل نوح إلا نبى قتل. قال ابن عباس وغير واحد من علماء التفسير: وكان أول ما عبدت الأصنام، أن قوماً صالحين ماتوا، فبنى قومهم عليهم مساجدَ وصوروا صورة أولئك فيها، ليتذكروا حالهم وعبادتهم، فيتشبهوا بهم. فلما طال الزمان، جعلوا تلك الصور أجساداً على تلك الصور. فلما تمدى الزمان عبدوا تلك الأصنام وسموها بأسماء أولئك الصالحين **يَعْبُوثُ وَيَعُوقُ** ونسراً. فلما تفاقم الأمر بعث الله ، سبحانه وتعالى - وله الحمد والمنة - رسوله نوحاً يأمرهم بعبادة الله وحده لا شريك له، فقال: **﴿يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِن إِلَهِ غَيْرُهُ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾** أى: من عذاب يوم القيامة إن لقيتم الله وأنتم مشركون به **﴿قَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِهِ﴾** أى: الجمهور والسادة والقادة والكبراء منهم: **﴿إِنَّا لَنَرَاكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾** أى: فى دعوتك إيانا إلى ترك عبادة هذه الأصنام التى وجدنا عليها آباءنا. وهكذا حال الفجار إنما يرون الأبرار فى ضلالة، كما قال تعالى: **﴿وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوا إِنَّ هَؤُلَاءِ لَضَالُونَ﴾** [المطففين: ٣٢]، **﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا لَوْ كَانَ خَيْرًا مَا سَبَقْنَا إِلَيْهِ وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُوا بِهِ فَسَيَقُولُونَ هَذَا إِفْكٌ قَدِيمٌ﴾** [الحاقف: ١١]، إلى غير ذلك من الآيات.

﴿قَالَ يَا قَوْمِ لَيْسَ بِي ضَلَالَةٌ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ﴾ أى: ما أنا ضال، ولكن أنا رسول رب كل شىء ومليكه **﴿أَبْلَغِكُمْ رَسُولَاتِ رَبِّي وَأَنْصَحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾**. وهذا شأن الرسول، أن يكون بليغاً فصيحاً ناصحاً بالله، لا يدرکہم أحد من خلق الله فى هذه الصفات، كما جاء فى صحيح مسلم: أن رسول الله ﷺ قال لأصحابه يوم عرفة، وهم أوفر ما كانوا

وأكثر جمعا: «أيها الناس، إنكم مسؤولون عني، فما أنتم قائلون؟» قالوا: نشهد أنك بلغت وأديت ونصحت، فجعل يرفع إصبعه إلى السماء وينكتها عليهم ويقول: «اللهم اشهد، اللهم اشهد» (١).

﴿ أَوْ عَجِبْتُمْ أَنْ جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ وَلِتَتَّقُوا وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾
﴿١٦﴾ فَكَذَّبُوهُ فَأَنْجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا عَمِينَ ﴿١٧﴾

يقول تعالى إخباراً عن نوح : أنه قال لقومه : ﴿أَوْ عَجِبْتُمْ أَنْ جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ وَلِتَتَّقُوا وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ أي: لا تعجبوا من هذا، فإن هذا ليس بعجب أن يوحى الله إلى رجل منكم، رحمة بكم ولطفا وإحسانا إليكم، لإنذاركم ولتتقوا نعمة الله ولا تشركوا به ﴿ولعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾.

قال الله تعالى: ﴿فَكَذَّبُوهُ﴾ أي: تمادوا على تكذيبه ومخالفته، وما آمن معه منهم إلا قليل، كما نص عليه تعالى في موضع آخر ﴿فَأَنْجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ﴾، وهى السفينة، كما قال: ﴿فَأَنْجَيْنَاهُ وَأَصْحَابَ السَّفِينَةِ﴾ [العنكبوت: ١٥] ﴿وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا﴾ كما قال: ﴿ثُمَّ خَطَّأَهُمْ أُغْرُقُوا فَأَدْخَلُوا نَارًا فَلَمْ يَجِدُوا لَهَا مِن دُونِ اللَّهِ أَنْصَارًا﴾ [نوح: ٢٥] (٢).

وقوله: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا عَمِينَ﴾ أي: عن الحق، لا يبصرونه ولا يهتدون له. فبين تعالى في هذه القصة أنه انتقم لأوليائه من أعدائه، وأنجى رسوله والمؤمنين، وأهلك أعداءهم من الكافرين، كما قال: ﴿إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ. يَوْمَ لَا يَنفَعُ الظَّالِمِينَ مَعَذِرَتُهُمْ وَلَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ﴾ [غافر: ٥١، ٥٢]. وهذه سنة الله في عباده فى الدنيا والآخرة. أن العاقبة فيها للمتقين والظفر والغلب لهم، كما أهلك قوم نوح بالغرق، ونجى نوحا وأصحابه المؤمنين.

﴿ وَإِلَّا عَادِ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يُقَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِن إِلَهٍ غَيْرُهُ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴾
﴿١٥﴾ قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرْنَكَ فِي سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنُظَنُّكَ مِنَ الْكَاذِبِينَ ﴿١٦﴾ قَالَ يُقَوْمِ لَيْسَ بِي سَفَاهَةٌ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٧﴾ أُنبِئْكُمْ رَسُولَاتِ رَبِّي وَأَنَا لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ ﴿١٨﴾ أَوْ عَجِبْتُمْ أَنْ جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ وَأَذْكُرُوا إِذْ جَعَلْنَاكُمْ خُلَفَاءَ مِن بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِي الْخَلْقِ بَضْطَةً فَادْكُرُوا آيَةَ اللَّهِ لَعَلَّكُمْ تَتْلِحُونَ ﴿١٩﴾

(١) هو جزء من حديث جابر الطويل، فى صفة حجة النبى ﷺ فى صحيح مسلم (١ / ٣٤٦ - ٤٣٨).

(٢) ثبت فى المخطوطين (عما خطاياهم)، فاثبتناها كذلك، وهى قراءة أبى عمرو. وقرأ باقى السبعة (عما خطياتهم).

يقول تعالى: وكما أرسلنا إلى قوم نوح نوحاً، كذلك أرسلنا إلى عاد أخاهم هوداً. قال ابن إسحاق: هم ولد عاد بن إرم بن عوص بن سام بن نوح. قلت: وهؤلاء هم عاد الأولى، الذين ذكرهم الله، وهم أولاد عاد بن إرم الذين كانوا يأوون إلى العمدة في البر، كما قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ. إِرْمَ ذَاتِ الْعِمَادِ. الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ﴾ [الفجر: ٦ - ٨] وذلك لشدة بأسهم وقوتهم، كما قال تعالى: ﴿فَأَمَّا عَادُ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ﴾ [فصلت: ١٥]. وقد كانت مساكنهم باليمن بالأحقاف، وهي جبال الرمل^(١). روى ابن إسحاق عن أبي الطفيل عامر بن واثلة: سمعت علياً يقول لرجل من حضرموت: هل رأيت كثيباً أحمر يخالطه مدرة حمراء ذا أراك وسدر كثير بناحية كذا وكذا من أرض حضرموت؟ هل رأيت؟ قال: نعم يا أمير المؤمنين. والله إنك لتنتعته نعت رجل قد رآه. قال: لا، ولكني قد حدثت عنه. فقال الحضرمي: وما شأنه يا أمير المؤمنين؟ قال: فيه قبر هود، عليه السلام. رواه ابن جرير. وهذا فيه فائدة أن مساكنهم كانت باليمن، فإن هوداً، عليه السلام، دفن هناك، وقد كان من أشرف قومه نسبا؛ لأن الرسل إنما يبعثهم الله من أفضل القبائل وأشرفهم، ولكن كان قومه كما شدد خلقهم شدد على قلوبهم، وكانوا من أشد الأمم تكذيباً للحق؛ ولهذا دعاهم هود، عليه السلام، إلى عبادة الله وحده لا شريك له، وإلى طاعته وتقواه.

﴿قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ﴾ والملاء هم: الجمهور والسادة والقادة منهم ﴿إِنَّا لَنَرَاكَ فِي سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ الْكَاذِبِينَ﴾ أى: فى ضلالة حيث دعوتنا إلى ترك عبادة الأصنام، والإقبال إلى عبادة الله وحده، كما تعجب الملاء من قريش من الدعوة إلى إله واحد، فقالوا: ﴿أَجْعَلِ الْأَلِهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عَجَابٌ﴾ [ص: ٥]. ﴿قَالَ يَا قَوْمِ أَيْسَ بِي سَفَاهَةٌ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ أى: لست كما تزعمون، بل جئتكم بالحق من الله الذى خلق كل شىء، فهو رب كل شىء ومليكه ﴿أُبَلِّغُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَأَنَا لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ﴾ وهذه الصفات التى يتصف بها الرسل: البلاغ والنصح والأمانة. ﴿أَوْ عَجِبْتُمْ أَنْ جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَلَى رَجُلٍ مِنْكُمْ لِيُنذِرَكُمْ﴾ أى: لا تعجبوا أن بعث الله إليكم رسولا من أنفسكم لينذركم أيام الله ولقائه، بل احمداوا الله على ذاكم ﴿وَإِذْ كُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ﴾ أى: واذكروا نعمة الله عليكم إذ جعلكم من ذرية نوح، الذى أهلك الله أهل الأرض بدعوته، لما خالفوه وكذبوه، ﴿وَإِذْ كُرْتُمْ فِي الْخَلْقِ بَسْطَةً﴾ أى: زاد طولكم على الناس بسطة، أى: جعلكم أطول من أبناء جنسكم، كما قال تعالى: فى قصة طالوت: ﴿وَإِذْ بَسَّطْنَا فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ﴾ [البقرة: ٢٤٧]. ﴿فَإِذْ كُرُوا آيَاءَ اللَّهِ﴾ أى: نعمه ومنته عليكم ﴿لَعَلَّكُمْ تَفْلِحُونَ﴾ و «الآلاء» جمع

(١) «جبال الرمل»: بالحاء المهملة، جمع «حبل». وهى المستطيل من الرمل، الضخم منه. والجبال فى الرمل كالجبال فى غير الرمل.

«إلى» ، وقيل: «إلى» (١).

﴿ قَالُوا أَجِئْنَا لِنُعْبُدَ اللَّهَ وَحْدَهُ وَنَدْرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا فَأِنَّا بِمَا
تَعَدُّنَا إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٧٠﴾ قَالَ قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ رِجْسٌ
وَعَظْبٌ أَتَجِدَلُونِنِي فِي أَسْمَاءِ سَمَيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَأَبَاؤُكُمْ مَا نَزَّلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ
سُلْطَانٍ فَأَنْظِرُوا إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْتَظِرِينَ ﴿٧١﴾ فَأَجْحِبْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ بِرَحْمَةٍ
مِنَّا وَقَطَعْنَا دَابِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَمَا كَانُوا مُؤْمِنِينَ ﴿٧٢﴾ ﴾

يقول تعالى مخبرا عن تمردهم وطغيانهم وعنادهم وإنكارهم على هود، عليه السلام: ﴿قَالُوا
أَجِئْنَا لِنُعْبُدَ اللَّهَ وَحْدَهُ وَنَدْرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا فَأِنَّا بِمَا تَعَدُّنَا إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ ، كما قال الكفار من
قريش: ﴿وَإِذْ قَالُوا اللَّهُمَّ إِن كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِنَ السَّمَاءِ أَوْ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾
[الأنفال: ٣٢] . ولهذا قال هود، عليه السلام: ﴿قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ رِجْسٌ وَعَظْبٌ﴾ أى: قد وجب
عليكم بمقاتلتكم هذه من ربكم رجس ، قيل: هو مقلوب من « رجز » . وعن ابن عباس: معناه
السخط والغضب. ﴿أَتَجَادِلُونِنِي فِي أَسْمَاءِ سَمَيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَأَبَاؤُكُمْ﴾ أى: أتجاجونى فى هذه الأصنام
التي سميتموها أنتم وأبائكم آلهة، وهى لا تضر ولا تنفع، ولا جعل الله لكم على عبادتها
حجة ولا دليلا؟! ولهذا قال: ﴿مَا نَزَّلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ فَأَنْظِرُوا إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْتَظِرِينَ﴾ وهذا تهديد
ووعيد من الرسول لقومه؛ ولهذا عقب بقوله: ﴿فَأَجْحِبْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَقَطَعْنَا دَابِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا
بِآيَاتِنَا وَمَا كَانُوا مُؤْمِنِينَ﴾ .

وقد ذكر سبحانه، صفة إهلاكهم فى أماكن آخر من القرآن، بأنه أرسل عليهم الريح
العقيم، ما تذر من شىء أنت عليه إلا جعلته كالريم، كما قال فى الآية الأخرى: ﴿وَأَمَّا عَادٌ
فَأَهْلَكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ. سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَى كَأَنَّهُمْ أُعْجَازُ نَخْلٍ
خَاوِيَةٍ. فَهَلْ تَرَى لَهُمْ مِنْ بَاقِيَةٍ﴾ [الحاقة: ٦ - ٨] . لما تمردوا وعتوا أهلكهم الله بريح عاتية، فكانت
تحمل الرجل منهم فترفعه إلى الهواء ثم تنكسه على أم رأسه فتتلغ رأسه حتى تُبينه من جسده؛
ولهذا قال: ﴿كَأَنَّهُمْ أُعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ﴾ .

وقال محمد بن إسحاق: كانوا يسكنون باليمن ، بين عمان وحضرموت، وكانوا مع ذلك
قد فشوا فى الأرض وقهروا أهلها، بفضل قوتهم التي آتاهم الله، وكانوا أصحاب أوثان يعبدونها
من دون الله، فبعث الله لهم هوداً، عليه السلام، وهو من أوسطهم نسبا، وأفضلهم موصعاً،
فأمرهم أن يوحدوا الله ولا يجعلوا معه إلها غيره، وأن يكفوا عن ظلم الناس، فأبوا عليه

(١) «الآلى»: مقصور، بفتح الهمزة وكسرها، وجمعها آلاء، كسبب وأسباب - فى حالة الفتح . ومثلها «الإلى» :

بكسر الهمزة وسكون اللام وآخره ياء .

وكذبوه، وقالوا: من أشد منا قوة؟! واتبعه منهم ناس - وهم يسير يكتمون بإيمانهم، فلما عتت عاد على الله وكذبوا نبيه، وأكثروا في الأرض الفساد وتجبروا، وبنوا بكل ريع آية عينا بغير نفع، كلمهم هود فقال: ﴿ أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ آيَةً تَعْبَثُونَ . وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلَدُونَ . وَإِذَا بَطَشْتُمْ بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ . فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا ﴾ [الشعراء: ١٢٨ - ١٣١] . ﴿ قَالُوا يَا هُوْدُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِي آلِهَتِنَا عَنْ قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ . إِنْ نَقُولُ إِلَّا اعْتَرَاكَ بَعْضُ آلِهَتِنَا بِسُوءٍ ﴾ أى: بجنون ﴿ قَالَ إِنِّي أَشْهَدُ اللَّهَ وَأَشْهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ . مِنْ دُونِهِ فَكَيْدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنظِرُونَ . إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ مَا مِنْ دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾ [هود: ٥٣ - ٥٦] .

روى الإمام أحمد عن أبي وائل، عن الحارث البكرى قال: خرجت أشكو العلاء بن الحضرمي إلى رسول الله ﷺ، فمررت بالريذة، فإذا عجوز من بني تميم منقطع بها، فقالت: يا عبد الله، إن لى إلى رسول الله ﷺ حاجة، فهل أنت مبلغى إليه؟ قال: فحملتها فأتيت المدينة، فإذا المسجد غاص بأهله، وإذا راية سوداء تخفق، وإذا بلال متقلد سيفاً بين يدي رسول الله ﷺ، فقلت: ما شأن الناس؟ قالوا: يريد أن يبعث عمرو بن العاص وجهاً. فقال: فجلست، قال: فدخل منزله - أو قال: رحله - فاستأذنت عليه، فأذن لى، فدخلت وسلمت، قال: هل بينكم وبين تميم شيء؟ قلت: نعم، وكانت لنا الدبيرة عليهم، ومررت بعجوز من بني تميم منقطع بها، فسألتنى أن أحملها إليك، وما هى بالباب. فأذن لها، فدخلت، فقلت: يا رسول الله، إن رأيت أن تجعل بيننا وبين تميم حاجزاً، فاجعل الدهناء. فحميت العجوز واستوفزت، فقالت: يا رسول الله، فإلى أين يُضطرُّ مُضطرُّك؟ قال: قلت: إن مثلى ما قال الأول: معزى حمَلت حتفها، حملت هذه ولا أشعر أنها كانت لى خصماً، أعوذ بالله وبرسوله أن أكون كوافد عاد، قال لى: وما وافد عاد؟ - وهو أعلم بالحديث منه، ولكن يستطعمه - قلت: إن عاداً قُمحطوا فبعثوا وافداً لهم يقال له: قَيْل، فمر بمعاوية بن بكر، فأقام عنده شهراً يسقيه الخمر وتغنيه جاريثان، يقال لهما: الجرادتان، فلما مضى الشهر خرج إلى جبال مهرة، فقال: اللهم إنك تعلم أنى لم أجيئ إلى مريض فأداويه، ولا إلى أسير فأفاديه. اللهم أسقِ عاداً ما كنت تسقيه، فمرت به سحابات سود، فنودى: منها اختر. فأوماً إلى سحابة منها سوداء، فنودى منها: خذها رماداً رمداً، لا تبقى من عاد أحداً. قال: فما بلغنى أنه بُعث عليهم من الريح إلا قدر ما يجرى فى خاتمى هذا، حتى، هلكوا - قال أبو وائل: وصدق، قال: وكانت المرأة والرجل إذا بعثوا وافداً لهم قالوا: لا تكن كوافد عاد. ورواه الترمذى نحوه. ورواه النسائى وابن ماجه (١).

(١) المسند (١٦٠٢٠). ورواه الطبرى (١٤٨٠٥، ١٤٨٠٦) بنحوه. وقصة هذه المرأة - وهى قبيلة بنت مخزومة - فى الإصابة (٨ / ١٧١) ومجمع الزوائد (٦ / ٩ - ١٢).

﴿ وَإِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ قَدْ جَاءَ تَكْثُفًا مِنْ رَبِّكُمْ هَذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةٌ فَذُرُّوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللَّهِ وَلَا تَمْسُوهَا يَسُوءَ فَيَأْخُذْكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٦﴾ وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلْنَا خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأْنَاكُمْ فِي الْأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِنْ سُهولِهَا قُصُورًا وَنَنْحِتُونَ الْجِبَالَ بُيُوتًا فَاذْكُرُوا آيَةَ اللَّهِ الَّتِي لَا تَعْتَوْنَ فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٧٧﴾ قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لِلَّذِينَ اسْتَضَعُّوا لِمَنْ آمَنَ مِنْهُمْ أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَالِحًا مُرْسَلٌ مِنْ رَبِّهِ قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلَ بِهِ مُؤْمِنُونَ ﴿٧٨﴾ قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا بِالَّذِي آمَنْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ ﴿٧٩﴾ فَعَقَرُوا النَّاقَةَ وَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ وَقَالُوا يُصَلِّحُ اثْنَتَا يَمَاعَتِنَا إِن كُنْتَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿٨٠﴾ فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جِثِيمِينَ ﴿٨١﴾ ﴾

قال علماء التفسير والنسب: ثمود وكذلك قبيلة طسم، كل هؤلاء كانوا أحياء من العرب العاربة قبل إبراهيم الخليل، عليه السلام، وكانت ثمود بعد عاد، ومسكنهم مشهورة فيما بين الحجاز والشام إلى وادي القرى وما حوله، وقد مر رسول الله ﷺ على قراهم ومسكنهم، وهو ذاهب إلى تبوك سنة تسع.

روى الإمام أحمد عن نافع، عن ابن عمر قال: لما نزل رسول الله ﷺ بالناس على تبوك، نزل بهم الحجر عند بيوت ثمود، فاستقى الناس من الآبار التي كانت تشرب منها ثمود، فمجنوا منها ونصبوا منها القدور. فأمرهم النبي ﷺ فأهرقوا القدور، وعلفوا العجين الإبل، ثم ارتحل بهم حتى نزل بهم على البئر التي كانت تشرب منها الناقة، ونهاهم أن يدخلوا على القوم الذين عذبوا وقال: «إني أخشى أن يصيبكم مثل ما أصابهم، فلا تدخلوا عليهم» (١). وروى أحمد عن عبد الله بن عمر، قال: قال رسول الله ﷺ وهو بالحجر: «لا تدخلوا على هؤلاء المعذبين إلا أن تكونوا باكين، فإن لم تكونوا باكين، فلا تدخلوا عليهم، أن يصيبكم مثل ما أصابهم». وأصل هذا الحديث مُخْرَجٌ فِي الصَّحِيحِينَ مِنْ غَيْرِ وَجْهٍ (٢). وروى الإمام أحمد عن أبي كبشة الأثمري، قال: لما كان في غزوة تبوك، تسارع الناس إلى أهل الحجر، يدخلون عليهم، فبلغ ذلك رسول الله ﷺ، فنادى في الناس: «الصلاة جامعة». قال: فأتيت رسول الله ﷺ وهو ممسك بعنزة وهو يقول: «ما تدخلون على قوم غضب الله عليهم». فناداه رجل منهم: تعجب منهم يا رسول الله قال: «أفلا أنبئكم بأعجب من ذلك: رجل من أنفسكم ينبتكم بما كان قبلكم، وبما هو كائن بعدكم، فاستقيموا وسددوا، فإن الله لا يعاب بعدابكم شيئاً، وسيأتى قوم لا يدفعون عن أنفسهم شيئاً». لم يخرج أحد من أصحاب السنن، وأبو كبشة: اسمه عمرو ابن سعد، ويقال: عامر بن سعد، والله أعلم (٣). وروى الإمام أحمد عن جابر قال: لما مر

(٢) المسند (٥٤٤١).

(١) المسند (٥٩٨٤). ورواه أيضا الشيخان، كما بينا هناك.

(٣) المسند (٤ / ٢٣١ حلى). وإسناده صحيح.

رسول الله ﷺ بالحجر قال: «لا تسألوا الآيات، فقد سألتها قوم صالح فكانت - يعنى الناقة - ترد من هذا الفج، وتصدر من هذا الفج، فعتوا عن أمر ربهم فعقروها، وكانت تشرب ماءهم يوماً ويشربون لبنها يوماً، فعقروها، فأخذتهم صيحة، أهدم الله من تحت أديم السماء منهم، إلا رجلاً واحداً كان فى حرم الله». فقالوا: من هو يا رسول الله؟ قال: «أبو رغال. فلما خرج من الحرم أصابه ما أصاب قومه». وهذا الحديث ليس فى شىء من الكتب الستة، وهو على شرط مسلم^(١).

فقوله تعالى: ﴿وإلى ثمود أخاهم صالحاً﴾ أى: ولقد أرسلنا إلى قبيلة ثمود أخاهم صالحاً ﴿قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾، جميع الرسل يدعون إلى عبادة الله وحده لا شريك له، كما قال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء: ٢٥]، وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ [النحل: ٣٦].

وقوله: ﴿قَدْ جَاءَكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ هَذِهِ نَاقَةٌ لِلَّهِ لَكُمْ آيَةٌ﴾ أى: قد جاءكم حجة من الله على صدق ما جئتكم به. وكانوا هم الذين سألوا صالحاً أن يأتيهم بآية. فأقامت الناقة وفصيلها - بعد ما وضعته بين أظهرهم - مدة تشرب من بئرها يوماً، وتدعه لهم يوماً، وكانوا يشربون لبنها يوم شربها، يحتلبونها فيملؤون ما شاؤوا من أوعيتهم وأوانيهم، كما قال فى الآية الأخرى: ﴿وَنَبِّهَهُمْ أَنْ الْمَاءُ قِسْمَةٌ بَيْنَهُمْ كُلُّ شَرْبٍ مُحْتَضَرٌ﴾ [القمر: ٢٨]، وقال تعالى: ﴿هَذِهِ نَاقَةٌ لَهَا شَرْبٌ وَلَكُمْ شَرْبٌ يَوْمَ مَعْلُومٍ﴾ [الشعراء: ١٥٥]. وكانت تسرح فى بعض تلك الأودية ترد من فج وتصدر من غيره ليسعها؛ لأنها كانت تتصلع من الماء، وكانت - على ما ذكر - خلقاً هاتلاً ومنظراً رائعاً، إذا مرت بأنعامهم نفرت منها. فلما طال عليهم ذلك واشتد تكذيبهم لصالح النبى، عليه السلام، عزموا على قتلها، ليستأثروا بالماء كل يوم، فيقال: إنهم اتفقوا كلهم على قتلها. وهذا هو الظاهر؛ لأن الله تعالى يقول: ﴿فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُم بِذَنبِهِمْ فَسَوَّاهَا﴾ [الشمس: ١٤]، وقال: ﴿وَأَتَيْنَا ثَمُودَ النَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا بِهَا﴾ [الإسراء: ٥٩]، وقال: ﴿فَعَقَرُوهَا النَّاقَةَ﴾ فأسند ذلك إلى مجموع القبيلة، فدل على رضى جميعهم بذلك، والله أعلم.

قال علماء التفسير: ولم يبق من ذرية ثمود أحد، سوى صالح، عليه السلام، ومن اتبعه، رضى الله عنهم، إلا أن رجلاً كان يقال له: «أبو رغال»، كان لما وقعت النقمة بقومه مقيماً إذ ذاك فى الحرم، فلم يصبه شىء، فلما خرج فى بعض الأيام إلى الحل، جاءه حجر من السماء فقتله. وقد تقدم فى أول القصة حديث «جابر بن عبد الله» فى ذلك، وذكروا أن أبا رغال هذا هو والد «ثقيف» الذين كانوا يسكنون الطائف. عن جبير بن أبى بجير قال: سمعت عبد الله ابن عمرو يقول: سمعت رسول الله ﷺ يقول، حين خرجنا معه إلى الطائف، فمرنا بقبر فقال: «هذا قبر أبى رغال، وهو أبو ثقيف، وكان من ثمود، وكان بهذا الحرم يدفع عنه، فلما خرج، أصابته النقمة التى أصابت قومه بهذا المكان، فدفن فيه. وآية ذلك أنه دفن معه غصن من ذهب، إن أنتم نبيستم عنه أصبتموه، فابتدره الناس فاستخرجوا منه الغصن». رواه أبو داود،

من طريق ابن إسحاق . قال شيخنا أبو الحجاج المزني : وهو حديث حسن عزيز . قلت : تفرد بوصله «بُجَيْرُ بن أبي بجير» هذا، وهو شيخ لا يعرف إلا بهذا الحديث . قال يحيى ابن معين : ولم أسمع أحداً روى عنه غير إسماعيل بن أمية .

قلت : وعلى هذا، فيخشى أن يكون وهم في رفع هذا الحديث، وإنما يكون من كلام عبد الله ابن عمرو، مما أخذه من الزاملتين . قال شيخنا أبو الحجاج، بعد أن عرضت عليه ذلك : وهذا محتمل، والله أعلم .

وقوله تعالى :

﴿ قَتَلْنَا عَنْهُمْ وَإِقْدَافًا يَنْقُورًا لَقَدْ أَرْسَلْنَاكُمْ رَسُولًا مِّن رَّبِّكُمْ فَذَكَرْتُمْ وَلَٰكِن لَّا تَتُوبُونَ إِلَىٰ النَّاصِحِينَ ﴾

هذا تقرير من صالح، عليه السلام، لقومه، لما أهلكهم الله بمخالفتهم إياه، وتمردهم على الله، وإبائهم عن قبول الحق، وإعراضهم عن الهدى إلى العمى - قال لهم صالح ذلك بعد هلاكهم تقريراً وتوبيخاً وهم يسمعون ذلك، كما ثبت في الصحيحين : أن رسول الله ﷺ لما ظهر على أهل بدر، أقام هناك ثلاثاً، ثم أمر بإراجلته فشدت بعد ثلاث من آخر الليل، فركبها، ثم سار حتى وقف على القلب، قلب بدر، فجعل يقول : «يا أبا جهل بن هشام، يا عتبة بن ربيعة، يا شيبه بن ربيعة، ويا فلان بن فلان : هل وجدتم ما وعد ربكم حقاً؟ فإني وجدت ما وعدني ربي حقاً» . فقال له عمر : يا رسول الله، ما تكلم من أقوام قد جفوا؟ فقال : «والذي نفسى بيده، ما أنتم بأسمع لما أقول منهم، ولكن لا يجيبون» . وفي السيرة أنه، عليه السلام، قال لهم : «بئس عشيرة النبي كنتم لنيكم، كذبتوني وصدقني الناس، وأخرجتموني وآواني الناس، وقاتلتوني ونصرني الناس، فبئس عشيرة النبي كنتم لنيكم» .

وهكذا صالح، عليه السلام، قال لقومه : «لَقَدْ أَرْسَلْنَاكُمْ رَسُولًا مِّن رَّبِّكُمْ فَذَكَرْتُمْ» أي : فلم تنتفعوا بذلك، لأنكم لا تحبون الحق ولا تتبعون ناصحاً؛ ولهذا قال : «وَلَٰكِن لَّا تَتُوبُونَ إِلَىٰ النَّاصِحِينَ» . وقد ذكر بعض المفسرين أن كل نبي هلكت أمته، كان يذهب فيقيم في الحرم، حرم مكة، فالله أعلم . وقد روى الإمام أحمد عن ابن عباس قال : لما مر رسول الله ﷺ بوادي عسفان حين حج قال : «يا أبا بكر، أي وادي هذا؟» قال : هذا وادي عسفان . قال : «لقد مر به هود وصالح، عليهما السلام، على بكرات حمر خطمها الليف، أزرهم العباء، وأرديتهم النمار، يلبون، يحجون البيت العتيق» . هذا حديث غريب من هذا الوجه، لم يخرج أحد منهم^(١) .



﴿ وَلَوْ طَآءَ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفَحِشَةَ مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ الْعَالَمِينَ ﴾

﴿ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِّنْ دُونِ النِّسَاءِ ۗ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ ﴾

(١) ومع هذا فهو ضعيف الإسناد، في المسند (٢٠٦٧)، في إسناده زمعة بن صالح، وهو ضعيف . ونقله المؤلف الحافظ في التاريخ (١ / ١٣٨) وقال : «إسناده حسن» .


يقول تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا لُوطًا﴾ ، أو تقديره: ﴿وَوَ﴾ اذكر ﴿لُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعَالَمِينَ﴾ . ولوط هو بن هاران بن آزر، وهو ابن أخى إبراهيم الخليل، عليهما السلام، وكان قد آمن مع إبراهيم، عليه السلام، وهاجر معه إلى أرض الشام، فبعثه الله إلى أهل «سَدُومَ» وما حولها من القرى، يدعوهم إلى الله، عز وجل، ويأمرهم بالمعروف وينهاهم عما كانوا يرتكبونه من المآثم والمحارم والفواحش التي اخترعوها، لم يسبقهم بها أحد من بنى آدم ولا غيرهم، وهو إتيان الذكور . وهذا شيء لم تكن بنو آدم تعهده ولا تألفه، ولا يخطر ببالهم، حتى صنع ذلك أهل «سَدُومَ» عليهم لعائن الله .

قال عمرو بن دينار: قوله: ﴿مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعَالَمِينَ﴾ قال: مانراً ذَكَرَ عَلَى ذَكَرٍ، حتى كان قوم لوط . وقال الوليد بن عبد الملك الخليفة الأموي، باني جامع دمشق: لولا أن الله، عز وجل، قص علينا خير لوط، ما ظننت أن ذكراً يعلوا ذكراً . ولهذا قال لهم لوط، عليه السلام: ﴿اتَّاتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعَالَمِينَ . إِنَّكُمْ لَأَتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِنْ دُونِ النِّسَاءِ﴾ أى: عدلتم عن النساء، وما خلق لكم ربكم منهن إلى الرجال، وهو إسراف منكم وجهل؛ لأنه وضع الشيء فى غير محله؛ ولهذا قال لهم فى الآية الأخرى: ﴿قَالَ هَؤُلَاءِ بَنَاتِي إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ﴾ [الحجر: ٧١]، فأرشدهم إلى نساءهم، فاعتذروا إليه بأنهم لا يشتهونهن، ﴿قَالُوا لَقَدْ عَلِمْتَمَا لَنَا فِي بَنَاتِكُمْ مِنْ حَقٍّ وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ﴾ [هود: ٧٩] أى: لقد علمت أنه لا أرب لنا فى النساء، ولا إرادة، وإنك لتعلم مرادنا من أضيافك . وذكر المفسرون أن الرجال كانوا قد اغتنى بعضهم ببعض، وكذلك نساؤهم كن قد استغنين بعضهن ببعض أيضاً .

﴿وَمَا كَانَتْ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَخْرِجُوهُمْ مِّنْ قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أَنَاسٌ يَّتَطَهَّرُونَ﴾  

أى: ما أجابوا لوطاً إلا أن هموا بإخراجه ونفيه ومن معه من بين أظهرهم، فأخرجه الله تعالى سالماً، وأهلكهم فى أرضهم صاعيرن مهانين .

وقوله تعالى: ﴿إِنَّهُمْ أَنَاسٌ يَّتَطَهَّرُونَ﴾ قال قتادة : عابوهم بغير عيب . وقال مجاهد : إنهم أناس يتطهرون من أدبار الرجال وأدبار النساء . وروى مثله عن ابن عباس أيضاً .

﴿فَأَنجَيْنَاهُ وَأَهْلَهُ إِذْ أَمَرْنَا نِسَاءَهُمْ أَنْ يَأْتِيَنَّاهُنَّ وَلَا يَرْجِعْنَ إِلَيْكُمْ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِنَّ مَطَرًا شَدِيدًا﴾  

يقول تعالى: فأنجينا لوطاً وأهله، ولم يؤمن به أحد منهم سوى أهل بيته فقط، كما قال تعالى: ﴿فَأَخْرَجْنَا مَنْ كَانَ فِيهَا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ . فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ [الذاريات: ٣٥، ٣٦]، إلا امرأته فإنها لم تؤمن به، بل كانت على دين قومها، فمآلتهم عليه وتعلمهم بمن يقدم عليه من ضيفانه بإشارات بينها وبينهم؛ ولهذا لما أمر لوط، عليه السلام، أن يسرى بأهله أمر ألا يعلمها

ولا يخرجها من البلد. ومنهم من يقول: بل اتبعتم، فلما جاء العذاب التفتت هي فأصابها ما أصابهم. والأظهر أنها لم تخرج من البلد، ولا أعلمها لوط، بل بقيت معهم؛ ولهذا قال هاهنا: ﴿إِلَّا امْرَأَتُهُ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ﴾ أى: الباقيين، وقيل: من الهالكين، وهو تفسير باللام.

وقوله: ﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا﴾ مفسر بقوله: ﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مُنْضُودٍ. مُسَوِّمَةً عِنْدَ رَبِّكَ وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بَعِيدَةٌ﴾ [هود: ٨٢، ٨٣]، ولهذا قال: ﴿فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ﴾ أى: انظر - يا محمد - كيف كان عاقبة من يجترئ على معاصي الله ويكذب رسله (١).

وقد ذهب الإمام أبو حنيفة، رحمه الله، إلى أن اللائط يلتقى من شاطئ، ويتبع بالحجارة كما فعل بقوم لوط. وذهب آخرون من العلماء إلى أنه يرجم سواء كان محصناً أو غير محصن، وهو أحد قولى الشافعى، رحمه الله، والحجة ما رواه الإمام أحمد، وأبو داود، والترمذى، وابن ماجه عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «من وجدتموه يعمل عمل قوم لوط، فاقتلوا الفاعل والمفعول به». وقال آخرون: هو كالزانى، فإذا كان محصناً رجم، وإن لم يكن محصناً جلد مائة جلدة. وهو القول الآخر للشافعى.

وأما إتيان النساء فى الأدبار، فهو اللوطية الصغرى، وهو حرام بإجماع العلماء، إلا قولاً شاذاً لبعض السلف، وقد تقدم الكلام عليها فى سورة البقرة (٢).

﴿وَإِلَى مَدِينٍ أَنَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَتَقَوَّمُ أَعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِن إِلَهٍ غَيْرُهُ قَدْ جَاءَتْكُمْ بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا ذَلِكَ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنْتُمْ مُّؤْمِنِينَ﴾

مدین تطلق على القبيلة، وعلى المدينة، وهى التى بقرب «معان» من طريق الحجاز، قال الله تعالى: ﴿وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنٍ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ النَّاسِ يَسْقُونَ﴾ [القصص: ٢٣]، وهم أصحاب الأيكة، كما سنذكره إن شاء الله، وبه الثقة. ﴿قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِن إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾: هذه دعوة الرسل كلهم ﴿قَدْ جَاءَتْكُمْ بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ أى: قد أقام الله الحجج والبيّنات على صدق ما جئتكم به. ثم وعظهم فى معاملتهم الناس بأن يوفوا المكيال والميزان، ولا يبخسوا الناس أشياءهم، أى: لا يخونوا

(١) وقد شاعت هذه الفاحشة القذرة، فى كثير من البلاد. وأكثر ما شاعت فى الأمة الإنجليزية الملعونة، حتى صارت عندهم شيئاً هيناً لا يعاب به، بل شيئاً لا ينكر. وزاد الأمر أن كثيراً من قساوستهم - لعنهم الله - أعلنوا أن ليس فى هذا العمل المنكر جريمة، إذا ما كان بالتراضى! فكانوا خزيّاً لدينهم ولامتهم.

ونحن نبشر تلك الأمة الفاجرة القذرة الطاغية بأن ستكون عاقبتهم كمثل عاقبتهم قوم لوط، يدمر الله عليهم، بما اجترؤوا على هذا المنكر، ثم على ذبوعه، ثم على التصريح بإباحته، أخزاهم الله وأراح العالم من شرورهم وطغيانهم.

(٢) عند الآية رقم (٢٢٣).

الناس فى أموالهم ويأخذوها على وجه البخس، وهو نقص المكيال والميزان خفية وتدليساً، كما قال تعالى: ﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ الَّذِينَ إِذَا أَكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ. وَإِذَا كَالُوا لَهُمْ أَوْ وَزَنُوا لَهُمْ يُخْسِرُونَ. أَلَا يَظُنُّ أُولَئِكَ أَنَّهُمْ مَبْعُوثُونَ. لِيَوْمٍ عَظِيمٍ. يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [المطففين: ١ - ٦]، وهذا تهديد شديد، ووعيد أكيد، نسأل الله العافية منه.

ثم قال تعالى إخباراً عن شعيب، الذى يقال له: «خطيب الأنبياء»، لفصاحة عبارته، وجزالة موعظته :

﴿وَلَا تَقْعُدُوا بِكُلِّ صِرَاطٍ تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ مَن ءَامَنَ بِهِ وَتَبْغُونَهَا عِوَجًا وَأذْكُرُوا إِذْ كُنْتُمْ قَلِيلًا فَكَثَرَكُمُ ۖ وَأَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ ﴿٨٦﴾ وَإِن كَانَ طَآئِفَةٌ مِّنْكُمْ ءَامَنُوا بِأَلَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ وَطَآئِفَةٌ لَّمْ يُؤْمِنُوا فَاصْبِرُوا حَتَّىٰ يَحْكُمَ اللَّهُ بَيْنَنَا وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ ﴿٨٧﴾﴾

ينهاهم شعيب، عليه السلام، عن قطع الطريق الحسى والمعنوى بقوله: ﴿وَلَا تَقْعُدُوا بِكُلِّ صِرَاطٍ تُوعِدُونَ﴾ أى: تتوعدون الناس بالقتل إن لم يعطوكم أموالهم. قال السدى وغيره: كانوا عشارين. وعن ابن عباس ومجاهد وغير واحد: أى تتوعدون المؤمنين الآتين إلى شعيب ليتبعوه. والأول أظهر؛ لأنه قال: ﴿بِكُلِّ صِرَاطٍ﴾ وهى الطريق، وهذا الثانى هو قوله: ﴿وَتَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ مَن ءَامَنَ بِهِ وَتَبْغُونَهَا عِوَجًا﴾ أى: وتودون أن تكون سبيل الله عوجاً مائلة ﴿وَأذْكُرُوا إِذْ كُنْتُمْ قَلِيلًا فَكَثَرَكُمُ﴾ أى: كنتم مستضعفين لقلنتكم فصرتم أعزة لكثرة عددكم، فاذكروا نعمة الله عليكم فى ذلك ﴿وَأَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ﴾ أى: من الأمم الخالية والقرون الماضية، ما حل بهم من العذاب والنكال باجترائهم على معاصى الله وتكذيب رسله.

وقوله: ﴿وَإِن كَانَ طَآئِفَةٌ مِّنْكُمْ ءَامَنُوا بِأَلَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ وَطَآئِفَةٌ لَّمْ يُؤْمِنُوا﴾ أى: قد اختلفتم على ﴿فَاصْبِرُوا﴾ أى: انتظروا ﴿حَتَّىٰ يَحْكُمَ اللَّهُ بَيْنَنَا﴾ أى: يفصل ﴿وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ﴾ فإنه سيجعل العاقبة للمتقين، والدمار على الكافرين.

﴿قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِن قَوْمِهِ لَنُخْرِجَنَّكَ يَشْعِيبُ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَا أَوْ لَنَعُودَنَّ فِي مِلَّةِنَا قَالَ أُولُو كُنَا كَرِهِينَ ﴿٨٨﴾ قَدْ أَفْتَرْنَا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا إِن عُدْنَا فِي مِلَّتِكُمْ بَعْدَ إِذْ بَخَّسْنَا اللَّهُ مِنهَا وَمَا يَكُونُ لَنَا أَن نَّمُودَ فِيهَا إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّنَا وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا أَفْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ وَأَنْتَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ ﴿٨٩﴾﴾

هذا إخبار من الله تعالى عما واجهت به الكفار نبيه شعيباً ومن معه من المؤمنين، فى توعدهم إياه ومن معه بالنفى عن القرية، أو الإكراه على الرجوع فى ملتهم والدخول معهم فيما

هم فيه . وهذا خطاب مع الرسول والمراد أتباعه الذين كانوا معه على الملأ .

وقوله : ﴿أَوْ لَوْ كُنَّا كَارِهِينَ﴾ يقول : أو أنتم فاعلوا ذلك وإن كنا كارهين ما تدعوننا إليه ، فإننا إن رجعنا إلى ملتكم ودخلنا معكم فيما أنتم فيه ، فقد أعظمتنا الفرية على الله في جعل الشركاء معه أندادا . وهذا تنفير منه عن اتباعه ﴿وَمَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَعُودَ فِيهَا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّنَا﴾ وهذا رد إلى المسبب ، فإنه يعلم كل شيء ، وقد أحاط بكل شيء علما ﴿عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا﴾ أى : فى أمورنا ما نأتى منها وما نذر ﴿رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ﴾ أى : افصل بيننا وبين قومنا ، وانصرنا عليهم ﴿وَأَنْتَ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ﴾ أى : خير الحاكمين ، فإنك العادل الذى لا تجوز أبداً .

﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لَئِنِ اتَّبَعْتُمْ شُعَيْبًا إِنَّكُمْ إِذًا لَخَيْرُونَ ﴾ ٩٠ فَأَخَذْتَهُمُ الرَّجْفَةَ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جاثِمِينَ ﴿٩١﴾ الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْبًا كَانُوا لَمْ يَفْنَوْا فِيهَا الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْبًا كَانُوا هُمُ الْخَاسِرِينَ ﴿٩٢﴾

يخبر تعالى عن شدة كفر قوم شعيب وتمردهم وعتوهم ، وما هم فيه من الضلال ، وما جبلت عليه قلوبهم من المخالفة للحق ، ولهذا أقسموا فقالوا : ﴿لَئِنِ اتَّبَعْتُمْ شُعَيْبًا إِنَّكُمْ إِذًا لَخَاسِرُونَ﴾ ، فلهذا عقب ذلك بقوله : ﴿فَأَخَذْتَهُمُ الرَّجْفَةَ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جاثِمِينَ﴾ أخبر تعالى هاهنا أنهم أخذتهم الرجفة ، وذلك لما أرفجفوا شعيباً وأصحابه وتوعدوهم بالجلاء ، كما أخبر عنهم فى سورة هود فقال : ﴿وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَأَخَذَتِ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةَ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جاثِمِينَ﴾ [هود: ٩٤] . والمناسبة فى ذلك - والله أعلم - أنهم لما تهكموا بنبى الله شعيب فى قولهم : ﴿أَصْلَاتِكَ تَأْمُرُكَ أَنْ تَتْرَكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا أَوْ أَنْ نَفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاءُ إِنَّكَ لَأَنْتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ﴾ [هود: ٨٧] فجاءت الصيحة أسكتهم . وقال تعالى إخبارا عنهم فى سورة الشعراء : ﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمْ عَذَابٌ يَوْمَ الظُّلَّةِ إِنَّهُ كَانَ عَذَابٌ يَوْمَ عَظِيمٍ﴾ [الشعراء: ١٨٩] ، وما ذاك إلا لأنهم قالوا له فى سياق القصة : ﴿فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسْفًا مِنَ السَّمَاءِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ [الشعراء: ١٨٧] ، فأخبر أنه أصابهم عذاب يوم الظلة ، وقد اجتمع عليهم ذلك كله : أصابهم عذاب يوم الظلة ، وهى سحابة أظلتهم فيها شرر من نار ولهب ووهج عظيم ، ثم جاءتهم صيحة من السماء ورجة من الأرض شديدة من أسفل منهم ، فزهقت الأرواح ، وفاضت النفوس وخمدت الأجساد ﴿فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جاثِمِينَ﴾ .

ثم قال تعالى : ﴿كَانَ لَمْ يَفْنَوْا فِيهَا﴾ أى : كأنهم لما أصابتهم النقمة لم يقيموا بديارهم التى أرادوا إجلاء الرسول وصحبه منها . ثم قال مقابلا لقيلمهم : ﴿الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْبًا كَانُوا هُمُ الْخَاسِرِينَ﴾ .

﴿ فَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَاقَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ فَكَيْفَ آسَأْتُمْ عَلَى قَوْمٍ كَافِرِينَ ﴾ ٩٢

أى : فتولى عنهم «شعيب» عليه السلام بعد ما أصابهم ما أصابهم من العذاب والنقمة

والنكال، وقال مقرعاً لهم وموبخاً: ﴿يَا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ﴾ أى: قد أديت إليكم ما أُرسلت به، فلا آسف عليكم وقد كفرتم بما جئتكم به، فهذا قال: ﴿فَكَيْفَ آسَى عَلَى قَوْمِ كَافِرِينَ﴾ .

﴿وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرِيَةٍ مِّن نَّبِيٍّ إِلَّا أَخَذْنَا أَهْلَهَا بِالْبِأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ لَعَلَّهُمْ يَضَّرَّعُونَ﴾
 ﴿٩٤﴾ ثُمَّ بَدَلْنَا مَكَانَ السَّيِّئَةِ الْحَسَنَةَ حَتَّى عَفَوْا وَقَالُوا قَدْ مَسَّ آبَاءَنَا الضَّرَّاءُ وَالسَّرَّاءُ فَأَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾
 ﴿٩٥﴾

يقول تعالى مخبراً عما اختبر به الأمم الماضية، الذين أرسل إليهم الأنبياء بالبأساء والضراء، يعنى ﴿بِالْبِأْسَاءِ﴾: ما يصيبهم فى أبدانهم من أمراض وأسقام ﴿وَالضَّرَّاءِ﴾: ما يصيبهم من فقر وحاجة ونحو ذلك ﴿لَعَلَّهُمْ يَضَّرَّعُونَ﴾ أى: يدعون ويخشعون ويبتهلون إلى الله تعالى فى كشف ما نزل بهم . وتقدير الكلام: أنه ابتلاهم بالشدة ليتضرعوا، فما فعلوا شيئاً من الذى أراد الله منهم، فقلب الحال إلى الرخاء ليختبرهم فيه؛ ولهذا قال: ﴿ثُمَّ بَدَلْنَا مَكَانَ السَّيِّئَةِ الْحَسَنَةَ﴾ أى: حولنا الحال من شدة إلى رخاء، ومن مرض وسقم إلى صحة وعافية، ومن فقر إلى غنى، ليشكروا على ذلك، فما فعلوا .

وقوله: ﴿حَتَّى عَفَوْا﴾ أى: كثروا وكثرت أموالهم وأولادهم، يقال: عفا الشيء: إذا كثر ﴿وَقَالُوا قَدْ مَسَّ آبَاءَنَا الضَّرَّاءُ وَالسَّرَّاءُ فَأَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ يقول تعالى: ابتلاهم بهذا وهذا ليتضرعوا ويئيبوا إلى الله، فما نجح فيهم لا هذا ولا هذا، ولا انتهوا بهذا ولا بهذا، بل قالوا: قد مسنا من البأساء والضراء، ثم بعده من الرخاء مثل ما أصاب آباءنا فى قديم الدهر، وإنما هو الدهر تارات وتارات، ولم يتفطنوا لأمر الله فيهم، ولا استشعروا ابتلاء الله لهم فى الحالين . وهذا بخلاف حال المؤمنين الذين يشكرون الله على السراء، ويصبرون على الضراء، كما ثبت فى الصحيحين: «عجباً للمؤمن، لا يقضى الله له قضاء إلا كان خيراً له، إن أصابته ضراء صبر فكان خيراً له، وإن أصابته سراء شكر فكان خيراً له» (١) . فالمؤمن من يتفطن لما ابتلاه الله به من الضراء والسراء؛ ولهذا جاء فى الحديث: «لا يزال البلاء بالمؤمن حتى يخرج نقياً من ذنوبه، والمنافق مثله كمثل الحمار، لا يدري فيم يربطه أهله، ولا فيم أرسلوه» (٢) ، أو كما قال . ولهذا عقب هذه الصفة بقوله: ﴿فَأَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ أى: أخذناهم بالعقوبة بغتة، أى:

(١) مضى بنحوه مع تخرجه عند الآية : ١٥٣ من سورة البقرة .

(٢) أوله ثابت من حديث أبى هريرة ، فى المسند (٧٨٤٦) : « لا يزال البلاء بالمؤمن أو المؤمنة فى جسده وفى ماله وفى ولده حتى يلقى الله وما عليه من خطيئة » . ورواه الترمذى والحاكم ، كما بينا هناك . وفى حديث أبى هريرة أيضا ، فى الترغيب والترهيب (٤ / ١٤٥) : « مثل المؤمن كمثل الزرع ، لا تزال الرياح تفيثه ، ولا يزال المؤمن يصيبه بلاء ، ومثل المنافق كمثل شجرة الأرز ، لا تهتز حتى تستحصد » . رواه مسلم والترمذى وصححه . وأما اللفظ الذى هنا فلم أجده .

على بغتة منهم، وعدم شعور منهم، أى: أخذناهم فجأة ، كما جاء فى الحديث: «موت الفجأة رحمة للمؤمن ، وأخذة أسف للكافر» (١) .

﴿ وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَٰكِن كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٩٦﴾ أَفَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَىٰ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا بَيِّنَاتٍ وَهُمْ نَائِمُونَ ﴿٩٧﴾ أَوْ آمِنَ أَهْلُ الْقُرَىٰ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يَلْعَبُونَ ﴿٩٨﴾ أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ ﴿٩٩﴾ ﴾

يقول تعالى مخبراً عن قلة إيمان أهل القرى الذين أرسل فيهم الرسل، كما قال تعالى : ﴿ فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ آمَنَتْ فَنَفَعَهَا إِيمَانُهَا إِلَّا قَوْمٌ يُّؤَسُّوْنَ لَمَّا آمَنُوا كَشَفْنَا عَنْهُمْ غِظَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَىٰ حِينٍ ﴾ [يونس: ٩٨] أى: ما آمنت قرية بتمامها إلا قوم يونس، فإنهم آمنوا، وذلك بعد ما عاينوا العذاب، كما قال تعالى: ﴿ وَأَرْسَلْنَاهُ إِلَىٰ مِائَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ . فَآمَنُوا فَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَىٰ حِينٍ ﴾ [الصافات: ١٤٧ ، ١٤٨] ، وقال تعالى : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ ﴾ [سبأ: ٣٤]

وكذا قال تعالى: ﴿ وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ آمَنُوا وَاتَّقَوْا ﴾ أى: آمنت قلوبهم بما جاءتهم به الرسل، وصدقت به واتبعته، واتقوا بفعل الطاعات وترك المحرمات ﴿ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ ﴾ أى: قطر السماء ونبات الأرض. قال تعالى: ﴿ وَلَٰكِن كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾ أى: ولكن كذبوا رسلهم، فعاقبناهم بالهلاك على ما كسبوا من المآثم والمحارم.

ثم قال تعالى مخوفاً ومحذراً من مخالفة أوامره، والتجرى على زواجره: ﴿ أَفَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَىٰ ﴾ أى: الكافرة ﴿ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا ﴾ أى: عذابنا ونكالنا ﴿ بَيِّنَاتٍ ﴾ أى: ليلاً ﴿ وَهُمْ نَائِمُونَ . أَوْ آمِنَ أَهْلُ الْقُرَىٰ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يَلْعَبُونَ ﴾ أى: فى حال شغلهم وغفلتهم، ﴿ أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ ﴾ أى: بأسه ونعمته وقدرته عليهم وأخذه إياهم فى حال سهوهم وغفلتهم ﴿ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ ﴾ ؛ ولهذا قال الحسن البصرى، رحمه الله: المؤمن يعمل بالطاعات وهو مُشْفِقٌ وَجِلٌ خائف، والفاجر يعمل بالمعاصى وهو آمن.

﴿ أُولَٰئِكَ يَهْدِي لِلَّذِينَ يَرِثُونَ الْأَرْضَ مِن بَعْدِ أَهْلِهَا أَن لَّوْ نَشَاءُ أَصَبْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ ۗ وَنَطْبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴾ ﴿١٠٠﴾

قال ابن عباس فى قوله: ﴿ أَوْ لَمْ يَهْدِ لِلَّذِينَ يَرِثُونَ الْأَرْضَ مِن بَعْدِ أَهْلِهَا ﴾ : أو لم نبيّن لهم أن لو نشاء أصبناهم بذنوبهم. وكذا قال مجاهد وغيره . وقال ابن جرير : يقول تعالى: أو لم

(١) رواه أحمد فى المسند (١٣٦/٦ حلى)، من حديث عائشة ، وإسناده ضعيف، ولكن فيه : « للفاجر » بدل « للكافر » .

نبيين للذين يستخلفون في الأرض من بعد هلاك آخرين قبلهم كانوا أهلها، فساروا سيرتهم، وعملوا أعمالهم، وعتوا على ربهم: ﴿أَنْ لَوْ نَشَاءُ أَصْنَأَهُمْ بِذُنُوبِهِمْ﴾، يقول: أن لو نشاء فعلنا بهم كما فعلنا بمن قبلهم ﴿وَنَطْبَعُ عَلَى قُلُوبِهِمْ﴾ يقول: ونختم على قلوبهم ﴿فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ﴾ موعظة ولا تذكرياً.

قلت: وهكذا قال تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسَاكِينِهِمْ إِنْ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّأُولِي النُّهَى﴾ [طه: ١٢٨]، وقال تعالى: ﴿أَوْ لَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسَاكِينِهِمْ إِنْ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ أَفَلَا يَسْمَعُونَ﴾ [السجدة: ٢٩]، وقال: ﴿أَوْ لَمْ تَكُونُوا أَقْسَمْتُمْ مِنْ قَبْلِ مَا لَكُمْ مِنْ زَوَالٍ. وَسَكَنْتُمْ فِي مَسَاكِينِ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ وَضَرَبْنَا لَكُمْ الْأَمْثَالَ﴾ [إبراهيم: ٤٤]، وقال تعالى: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْنٍ هَلْ تُحِسُّ مِنْهُمْ مِنْ أَحَدٍ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْوًا﴾ [مريم: ٩٨]، أى: هل ترى لهم شخصاً أو تسمع لهم صوتاً؟ وقال تعالى: ﴿أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ قَرْنٍ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ مَا لَمْ نُمْكِنْ لَهُمْ وَأَرْسَلْنَا السَّمَاءَ عَلَيْهِمْ مِدْرَارًا وَجَعَلْنَا الْأَنْهَارَ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمْ فَأَهْلَكْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ وَأَنْشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قَرْنًا آخَرِينَ﴾ [الانعام: ٦]، وقال تعالى بعد ذكره إهلاك عاد: ﴿فَأَصْبَحُوا لَا يَرَى إِلَّا مَسَاكِينَهُمْ كَذَلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ. وَلَقَدْ مَكَّنَّاهُمْ فِيمَا إِنْ مَكَّنَّاكُمْ فِيهِ وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَارًا وَأَفْئِدَةً فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَا أَبْصَارُهُمْ وَلَا أَفْئِدَتُهُمْ مِنْ شَيْءٍ إِذْ كَانُوا يَجْحَدُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ. وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا مَا حَوْلَكُمْ مِنْ الْقُرَى وَصَرَّفْنَا الْآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [الاحقاف: ٢٥ - ٢٧]، وقال تعالى: ﴿وَكَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَمَا بَلَّغُوا مَعْشَرَ مَا آتَيْنَاهُمْ فَكَذَّبُوا رُسُلِي فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ﴾ [سبا: ٤٥]، وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ﴾ [الملك: ١٨]، وقال تعالى: ﴿فَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ فَبَقِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا وَيَثُرُ مَعْطِلَةٌ وَقَصْرٌ مَشِيدٌ. أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونُ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾ [الحج: ٤٥، ٤٦]، وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ اسْتَهْزَيْتُمْ بِرُسُلٍ مِنْ قَبْلِكَ فَحَاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ [الانعام: ١٠] إلى غير ذلك من الآيات الدالة على حلول نقمه بأعدائه، وحصول نعمه لأوليائه؛ ولهذا عقب ذلك بقوله، وهو أصدق القائلين ورب العالمين:

﴿تِلْكَ الْقُرَى نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِهَا وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا مِنْ قَبْلُ كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِ الْكَافِرِينَ ﴿١٠١﴾ وَمَا وَجَدْنَا لِأَكْثَرِهِمْ مِنْ عَهْدٍ وَإِنْ وَجَدْنَا أَكْثَرَهُمْ لَفَاسِقِينَ ﴿١٠٢﴾﴾

لما قص تعالى على نبيه ﷺ خبر قوم نوح، وهود، وصالح، ولوط، وشعيب، وما كان من إهلاكه الكافرين وإنجائه المؤمنين، وأنه تعالى أعذر إليهم بأن بين لهم الحق بالحجج على السنة الرسل، صلوات الله عليهم أجمعين - قال تعالى: ﴿تِلْكَ الْقُرَى نَقُصُّ عَلَيْكَ﴾ أى: يا محمد ﴿مِنْ أَنْبَاءِهَا﴾ أى: من أخبارها ﴿وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ﴾ أى: بالحجج على صدقهم فيما

أخبروهم به، كما قال تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ [الإسراء: ١٥]، وقال تعالى: ﴿ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْقُرَىٰ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْهَا قَائِمٌ وَحَصِيدٌ. وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ﴾ [هود: ١٠١، ١٠٢].

وقوله تعالى: ﴿فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا مِنْ قَبْلُ﴾ الباء سببية، أى: فما كانوا ليؤمنوا بما جاءتهم به الرسل بسبب تكذيبهم بالحق أول ما ورد عليهم. حكاه ابن عطية، رحمه الله، وهو متجه حسن، كقوله: ﴿وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَا إِذَا جَاءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ. وَنَقَلَبُ أَمْعِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أُولَٰئِمْ فَتَرَاهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ يَمْشُونَ﴾ [الانعام: ١١٠، ١١١]؛ ولهذا قال هنا: ﴿كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ الْكَافِرِينَ. وَمَا وَجَدْنَا لِأَكْثَرِهِمْ﴾ أى: لاكثر الأمم الماضية ﴿مِنْ عَهْدٍ وَإِنْ وَجَدْنَا أَكْثَرَهُمْ لَفَاسِقِينَ﴾ أى: ولقد وجدنا أكثرهم فاسقين خارجين عن الطاعة والامتثال. والعهد الذى أخذه هو ما جبلهم عليه وفطرهم عليه، وأخذ عليهم فى الأصلاب. أنه ربهم ومليكهم، وأنه لا إله إلا هو، وأقروا بذلك، وشهدوا على أنفسهم به، فخالفوه وتركوه وراء ظهورهم، وعبدوا مع الله غيره بلا دليل ولا حجة، لا من عقل ولا شرع، وفى الفطر السليمة خلاف ذلك، وجاءت الرسل الكرام من أولهم إلى آخرهم بالنهى عن ذلك، كما جاء فى صحيح مسلم: «يقول الله تعالى: إني خلقت عبادى حنفاء، فجاءتهم الشياطين فاجتالتهم عن دينهم، وحرمت عليهم ما أحللت لهم» (١). وفى الصحيحين: «كل مولود يولد على الفطرة، فأبواه يهودانه وينصرانه ويمجسانه» الحديث (٢). وقال تعالى فى كتابه العزيز: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء: ٢٥]، وقال تعالى: ﴿وَأَسْأَلُ مَنْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مَنْ رُسُلُنَا أَجَعَلْنَا مِنْ دُونِ الرَّحْمَنِ آلِهَةً يُعْبَدُونَ﴾ [الزخرف: ٤٥]. وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ [النحل: ٣٦]، إلى غير ذلك من الآيات.

﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَظَلَمُوا بِهَا فَأَنْظَرْنَا كَيْفَ كَانَتْ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ﴾

يقول تعالى: ﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ﴾ أى: الرسل المتقدم ذكرهم، كنوح، وهود، وصالح، ولوط، وشعيب، صلوات الله وسلامه عليهم وعلى سائر أنبياء الله أجمعين ﴿مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا﴾ أى: بحججنا ودلائلنا البينة إلى ﴿فِرْعَوْنَ﴾ وهو ملك مصر فى زمان موسى ﴿وَمَلَئِهِ﴾ أى: قومه، ﴿فَظَلَمُوا بِهَا﴾ أى: جحدوا وكفروا بها ظلما منهم وعناداً، كما قال تعالى: ﴿وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ﴾ [النمل: ١٤] أى: الذين صدوا عن سبيل الله وكذبوا رسله، أى: انظر - يا محمد - كيف فعلنا بهم، وأغرقتناهم عن آخرهم، بمرأى من موسى وقومه. وهذا أبلغ فى النكال بفرعون وقومه، وأشفى لقلوب أولياء الله موسى وقومه من المؤمنين به.

(١) هو جزء من حديث عياض بن حمار، مضى كاملاً وتخريجه عند الآية: ١٩ من سورة المائدة.

(٢) مضى عند الآيات: ١١٦ - ١٢٢ من سورة النساء.

﴿ وَقَالَ مُوسَىٰ يُفْرِعُونَ فِي رَسُولٍ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٠٤﴾ حَقِيقٌ عَلَىٰ أَن لَا أَقُولَ عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ قَدْ جِئْتُكُمْ بِبَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَرْسِلْ مَعِيَ بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴿١٠٥﴾ قَالَ إِنْ كُنْتَ جِئْتَ بِآيَةٍ فَأْتِ بِهَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿١٠٦﴾ ﴾

يخبر تعالى عن مناظرة موسى لفرعون، وإلجامة إياه بالحجة، وإظهاره الآيات البيّنات بحضرة فرعون وقومه من قبط مصر، فقال تعالى: ﴿ وَقَالَ مُوسَىٰ يَا فِرْعَوْنُ إِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ أى: أرسلنى الذى هو خالق كل شىء وربى ومليكه ﴿ حَقِيقٌ عَلَىٰ أَن لَا أَقُولَ عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ ﴾ فقال بعضهم: معناه: حقيق بأن لا أقول على الله إلا الحق، أى: جدير بذلك وحرى به. وقالوا: «الباء» و«على» يتعاقبان، يقال: «رمت بالقوس» و«على القوس»، و«جاء على حال حسنة» و«بحال حسنة». وقال بعض المفسرين: معناه: حريص على ألا أقول على الله إلا الحق. وقرأ آخرون من أهل المدينة: ﴿ حَقِيقٌ عَلَىٰ ﴾ بمعنى: واجب وحق على ذلك، إلا أخبر عنه إلا بما هو حق وصدق، لما أعلم من عز جلاله وعظيم سلطانه.

﴿ قَدْ جِئْتُكُمْ بِبَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ ﴾ أى: بحجة قاطعة من الله، أعطانيها دليلاً على صدقى فيما جئتكم به ﴿ فَأَرْسِلْ مَعِيَ بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴾ أى: أطلقهم من أسرك وقهرك، ودعهم وعبادة ربك وربهم؛ فإنهم من سلالة نبي كريم: إسرائيل، وهو: يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم خليل الرحمن ﴿ قَالَ إِنْ كُنْتَ جِئْتَ بِآيَةٍ فَأْتِ بِهَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴾ أى: قال فرعون: لست بمصدقك فيما قلت، ولا بمطيعك فيما طلبت، فإن كانت معك حجة فأظهرها لنراها، إن كنت صادقاً فيما ادعيت.

﴿ فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ ﴿١٠٧﴾ وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ لِلنَّاظِرِينَ ﴿١٠٨﴾ ﴾

قال ابن عباس فى قوله: ﴿ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ ﴾: الحية الذكر. وكذا قال السدى، والضحاك.

وقوله: ﴿ وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ لِلنَّاظِرِينَ ﴾ أى: أخرج يده من درعه بعد ما أدخلها فيه، فخرجت بيضاء تتلألاً من غير برص ولا مرض، كما قال تعالى: ﴿ وَأَضْمَمُ يَدَكَ إِلَىٰ جَنَاحِكَ تَخْرُجُ بَيْضَاءٌ مِّنْ غَيْرِ سُوءٍ آيَةً أُخْرَىٰ ﴾ [طه : ٢٢] .

﴿ قَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ ﴿١٠٩﴾ يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُمْ فَأَمَّا تَأْمُرُونَ ﴿١١٠﴾ ﴾

أى: قال الملأ - وهم الجمهور والسادة - من قوم فرعون، موافقين لقول فرعون فيه، بعد ما رجع إليه روعه، واستقر على سرير مملكته بعد ذلك، قال للملأ حوله: ﴿ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ ﴾، فوافقوه وقالوا كعقالته، وتشاوروا فى أمره، وكيف يصنعون فى أمره؟ وكيف تكون حيلتهم فى إطفاء نوره وإخماد كلمته، وظهور كذبه وافتراءه، وتخوفوا من معرفته أن يستميل الناس إليه بسحره فيما يعتقدون، فيكون ذلك سبباً لظهوره عليهم، وإخراجه إياهم من أرضهم. والذى

خافوا منه وقعوا فيه، كما قال تعالى: ﴿وَنُرِيَ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُمَا مَا كَانُوا يَحْذَرُونَ﴾ [القصص: ٦٠] فلما تشاوروا في شأنه، واتمروا فيه، اتفق رأيهم على ما حكاه الله تعالى عنهم في قوله تعالى:

﴿ قَالُوا أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَأَرْسِلْ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ ﴿١١١﴾ يَا تُوكَّ بِكُلِّ سَاحِرٍ عَلِيمٍ ﴿١١٢﴾ ﴾

قال ابن عباس: ﴿أَرْجِهْ﴾: أخره. وقال قتادة: احبسه ﴿وَأَرْسِلْ﴾: أى: ابعث ﴿فِي الْمَدَائِنِ﴾: أى: فى الأقاليم ومدائن ملكك ﴿حَاشِرِينَ﴾: أى: من يحشر لك السحرة من سائر البلاد ويجمعهم. وقد كان السحر فى زمانهم غالبا كثيرا ظاهرا. واعتقد من اعتقد منهم، وأوهم من أوهم منهم، أن ما جاء به موسى، عليه السلام، من قبيل ما تُشعَبِدُ به سحرتهم؛ فلهذا جمعوا له السحرة ليعارضوه بنظير ما أراهم من البنات، كما أخبر تعالى عن فرعون حيث قال: ﴿أَجْتِنَّا لَتُخْرِجَنَا مِنْ أَرْضِنَا بِسِحْرِكَ يَا مُوسَى . فَلَنَأْتِيَنَّكَ بِسِحْرٍ مِثْلِهِ فَاجْعَلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِدًا لَا نُخْلَفُهُ نَحْنُ وَلَا أَنْتَ مَكَانًا سُوًى . قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمَ الزَّيْنَةِ وَأَنْ يُحْشَرَ النَّاسُ ضُحًى . فَتَوَلَّى فِرْعَوْنُ فَجَمَعَ كَيْدَهُ ثُمَّ أَتَى﴾ [طه: ٥٧- ٦٠] وقال تعالى هاهنا:

﴿ وَجَاءَ السَّحَرَةُ فِرْعَوْنَ قَالُوا إِنَّكَ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ ﴿١١٣﴾ قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ لَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ ﴿١١٤﴾ ﴾

يخبر تعالى عما تشارط عليه فرعون والسحرة الذين استدعاهم لمعارضة موسى ، عليه السلام: إن غلبوا موسى ليُثبِتَهُمْ وليعطينهم عطاء جزيلا. فوعدهم ومناهم أن يعطيهم ما أرادوا، ويجعلهم من جلسائه والمقربين عنده، فلما توثقوا من فرعون لعنه الله .

﴿ قَالُوا يَكْفُؤُكُمْ إِيْمًا أَنْ تُلْقَى وَإِمًا أَنْ تُكُونَ نَحْنُ الْمُلْقِينَ ﴿١١٥﴾ قَالَ أَلْقُوا فَلَمَّا أَلْقَوْا سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ وَاسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَاءُوا بِسِحْرٍ عَظِيمٍ ﴿١١٦﴾ ﴾

هذه مبارزة من السحرة لموسى، عليه السلام، فى قولهم: ﴿إِمًا أَنْ تُلْقَى وَإِمًا أَنْ تُكُونَ نَحْنُ الْمُلْقِينَ﴾ أى: قَبْلِكَ. كما قال فى الآية الأخرى: ﴿وَأِمًا أَنْ تُكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَى﴾ [طه: ٦٥]. فقال لهم، عليه السلام: ﴿أَلْقُوا﴾: أى: أنتم أولا قيل: الحكمة فى هذا - والله أعلم - ليرى الناس صنعهم ويتأملوه، فإذا فُرغ من بهرجهم ومحالهم، جاءهم الحق الواضح الجلى بعد التطلب له والانتظار منهم لمجيئه، فيكون أوقع فى النفوس ، وكذا كان. ولهذا قال تعالى: ﴿فَلَمَّا أَلْقَوْا سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ وَاسْتَرْهَبُوهُمْ﴾ أى: خيلوا إلى الأبصار أن ما فعلوه له حقيقة فى الخارج، ولم يكن إلا مجرد صنعة وخيال، كما قال تعالى: ﴿فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيَّهُمْ يُخِيلُ إِلَيْهِ مِنْ سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَى . فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةَ مُوسَى . فَلَمَّا لَا تَخَفُ بَلَغَ أَنْتَ الْأَعْلَى . وَأَلْقَى مَا فِي يَمِينِكَ تَلْقَفَ مَا صَنَعُوا إِنَّمَا صَنَعُوا كَيْدُ سَاحِرٍ وَلَا يَفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَى﴾ [طه: ٦٦ - ٦٩].

﴿ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ ﴿١١٧﴾ فَوَقَعَ الْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١١٨﴾ فَغَلَبُوا هُنَالِكَ وَانْقَلَبُوا صَغِيرِينَ ﴿١١٩﴾ وَأَلْقَى السَّحْرَةَ سَاحِدِينَ ﴿١٢٠﴾ قَالُوا أَمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٢١﴾ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَارُونَ ﴿١٢٢﴾ ﴾

يخبر تعالى أنه أوحى إلى عبده ورسوله موسى، عليه السلام، في ذلك الموقف العظيم، الذي فرق الله تعالى فيه بين الحق والباطل، يأمره بأن يلقي ما في يمينه وهى عصاه ﴿فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ﴾ أى: تاكل ﴿مَا يَأْفِكُونَ﴾ أى: ما يلقونه ويوهمون أنه حق، وهو باطل. قال ابن عباس: فجعلت لا تمر بشيء من حبالهم ولا من خشبهم إلا التقمته، فعرفت السحرة أن هذا أمر من السماء، وليس هذا بسحر، فخرروا سجدا وقالوا: ﴿أَمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ. رَبِّ مُوسَىٰ وَهَارُونَ﴾.

﴿ قَالَ فِرْعَوْنُ ءَأَمِنْتُمْ بِهِ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ إِنَّ هَٰذَا لَمَكْرٌ مَّكْرْتُمْهُ فِي الْمَدِينَةِ لِتُخْرِجُوا مِنْهَا ءَأَهْلَهَا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿١٢٣﴾ لَأَقْطَعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِّنْ خَلْفٍ ثُمَّ لَأَقْصِبَنَّكُمْ أَمْجِيعًا ﴿١٢٤﴾ قَالُوا إِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا مُنْقَلِبُونَ ﴿١٢٥﴾ وَمَا نَنفِقُ مِنَّا إِلَّا أَن تَأْتِيَنَا رَبِّنَا لَمَّا جَاءَ تَنَارًا فَرِحَ عَلَيْنَا صَبْرًا وَوَفَّانَا مُسْلِمِينَ ﴿١٢٦﴾ ﴾

يخبر تعالى عما توعد به فرعون، لعنه الله، السحرة لما آمنوا بموسى، عليه السلام، وما أظهره للناس من كيد ومكره في قوله: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَمَكْرٌ مَّكْرْتُمْهُ فِي الْمَدِينَةِ لِتُخْرِجُوا مِنْهَا ءَأَهْلَهَا﴾ أى: إن غلبه لكم في يومكم هذا إنما كان عن تشاور منكم ورضا منكم لذلك، كقوله في الآية الأخرى: ﴿إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمْ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ﴾ [طه: ٧٠]، وهو يعلم وكل من له لب أن هذا الذي قاله من أبطل الباطل؛ فإن موسى، عليه السلام، بمجرد ما جاء من «مدين» دعا فرعون إلى الله، وأظهر المعجزات الباهرة والحجج القاطعة على صدق ما جاء به، فعند ذلك أرسل فرعون في مدائن ملكه ومعاملته سلطنته، فجمع سحرة متفرقين من سائر الأقاليم ببلاد مصر، ممن اختار هو والملا من قومه، وأحضرهم عنده ووعدهم بالعباء الجزيل. وقد كانوا من أحرص الناس على ذلك، وعلى الظهور في مقامهم ذلك والتقدم عند فرعون. وموسى، عليه السلام، لا يعرف أحدا منهم ولا رآه ولا اجتمع به، وفرعون يعلم ذلك، وإنما قال هذا تسترا وتديسا على رعاع دولته وجهلتهم، كما قال تعالى: ﴿فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فَاطَّاعُوهُ﴾ [الزخرف: ٥٤]، فإن قوما صدقوه في قوله: ﴿أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى﴾ [التازعات: ٢٤] من أجهل خلق الله وأضلهم !!

وقوله: ﴿لِتُخْرِجُوا مِنْهَا ءَأَهْلَهَا﴾ أى: تجتمعوا أنتم وهو، وتكون لهم دولة وصوله، وتخرجوا منها الأكابر والرؤساء، وتكون الدولة والتصرف لكم ﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ أى: ما أصنع بكم.

ثم فسر هذا الوعيد بقوله: ﴿لَأَقْطَعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِّنْ خَلْفٍ﴾ يعنى: يقطع يد الرجل اليمنى ورجله اليسرى أو بالعكس ﴿وَأَقْصِبَنَّكُمْ أَمْجِيعِينَ﴾. وقال في الآية الأخرى: ﴿فِي جَذْوَعٍ

النَّخْلِ ﴿ طه : ٧١ ﴾ أى : على الجذوع .

وقول السحرة : ﴿ إِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا مُنْقَلِبُونَ ﴾ أى : قد تحققنا أننا إليه راجعون ، وعذابه أشد من عذابك ، ونكاله على ما تدعوننا إليه وما أكرهتنا عليه من السحر أعظم من نكالك ، فلنصبرن اليوم على عذابك لنخلص من عذاب الله ؛ ولهذا قالوا : ﴿ رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا ﴾ أى : عمنا بالصبر على دينك ، والثبات عليه ، ﴿ وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ ﴾ أى : متابعين لنبيك موسى ، عليه السلام . وقالوا لفرعون : ﴿ فَأَقْضِ مَا أَنْتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِي هَذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا . إِنَّا آمَنَّا بِرَبِّنَا لِنَغْفِرَ لَنَا خَطَايَانَا وَمَا أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ السِّحْرِ وَاللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَى . إِنَّهُ مِنْ يَأْتِ رَبَّهُ مُجْرِمًا فَإِنَّ لَهُ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَى . وَمَنْ يَأْتِهِ مُؤْمِنًا قَدْ عَمِلَ الصَّالِحَاتِ فَأُولَٰئِكَ لَهُمُ الدَّرَجَاتُ الْعُلَىٰ ﴾ ﴿ طه : ٧٢ - ٧٥ ﴾ ، فكانوا فى أول النهار سحرة ، فصاروا فى آخرة شهداء برة .

﴿ وَقَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَنْذَرُ مُوسَىٰ وَقَوْمَهُ لِيُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَآلِهَتَكَ قَالَ سَنْقَتِلُ أَبْنَاءَهُمْ وَنَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَاهِرُونَ ﴾ ﴿ ١٢٧ ﴾ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ اسْتَعِينُوا بِاللَّهِ وَأَصْبِرُوا إِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿ ١٢٨ ﴾ قَالُوا أُوذِينَا مِنْ قَبْلِ أَنْ تَأْتِيَنَا وَمِنْ بَعْدِ مَا جِئْتَنَا قَالَ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَنْ يُهْلِكَ عُدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴿ ١٢٩ ﴾

يخبر تعالى عما نالوا عليه فرعون وملؤه ، وما أضمره لموسى ، عليه السلام ، وقومه من الأذى والبغضة : ﴿ وَقَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ ﴾ أى : لفرعون ﴿ أَتَنْذَرُ مُوسَىٰ وَقَوْمَهُ ﴾ أى : أتدعهم ﴿ لِيُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ ﴾ أى : يفسدوا أهل رعيك ويدعوهم إلى عبادة ربهم دونك ! يا الله العجب ! صار هؤلاء يشفقون من إفساد موسى وقومه ! ألا إن فرعون وقومه هم المفسدون ، ولكن لا يشعرون ؛ ولهذا قالوا : ﴿ وَيَذَرَكَ وَآلِهَتَكَ ﴾ قال بعضهم : «الواو» هنا حالية ، أى : أنذره وقومه يفسدون وقد ترك عبادتك؟! وقال آخرون : هى عاطفة ، أى : أتدع موسى يصنع هو وقومه من الفساد ما قد أقررتهم عليه وعلى تركه آلتهك . وقرأ بعضهم : «إلاهتك» أى : عبادتك ، وروى ذلك عن ابن عباس ومجاهد وغيره . وعلى القراءة الأولى قال بعضهم : كان لفرعون إله يعبده . قال الحسن البصرى : كان لفرعون إله يعبده فى السر .

فأجابهم فرعون فيما سأله بقوله : ﴿ سَنْقَتِلُ أَبْنَاءَهُمْ وَنَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ ﴾ ، وهذا أمر ثان بهذا الصنيع ، وقد كان نكل بهم به قبل ولادة موسى ، عليه السلام ، حذراً من وجوده ، فكان خلاف ما رامه وصد ما قصده فرعون . وهكذا عومل فى صنيعه أيضاً لما أراد إذلال بنى إسرائيل وقهرهم ، فجاء الأمر على خلاف ما أراد : أعزهم الله وأذله ، وأرغم أنفه ، وأغرقه وجنوده .

ولما صمم فرعون على ما ذكره من المساءة لبنى إسرائيل ﴿ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ اسْتَعِينُوا بِاللَّهِ وَأَصْبِرُوا ﴾ ، ووعدهم بالعاقبة ، وأن الدار ستصير لهم فى قوله : ﴿ إِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَنْ يَشَاءُ مِنْ

عِبَادِهِ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ . قَالُوا أُرِيدُوا مِنْ قَبْلِ أَنْ تَأْتِيَنَا وَمِنْ بَعْدِ مَا جِئْتَنَا ﴿١٣٠﴾ أى : قد جرى علينا مثل ما رأيت من الهوان والإذلال من قبل ما جئت يا موسى ، ومن بعد ذلك . فقال منبها لهم على حالهم الحاضر وما يصيرون إليه فى ثانى الحال : ﴿عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَنْ يُهْلِكَ عُدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴾ ، وهذا تخصيص لهم على العزم على الشكر عند حلول النعم وزوال النقم .

﴿١٣١﴾ وَلَقَدْ أَخَذْنَا آلَ فِرْعَوْنَ بِالسِّنِينَ وَنَقَصْنَا مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَذْكُرُونَ ﴿١٣٢﴾ فَإِذَا جَاءَتْهُمْ الْحَسَنَةُ قَالُوا لَنَا هَذِهِ وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا بِمُوسَىٰ وَمَنْ مَعَهُ ۗ أَلَا إِنَّمَا طَائِرُهُمْ عِنْدَ اللَّهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٣٣﴾ ﴿١٣٤﴾

يقول تعالى : ﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَا آلَ فِرْعَوْنَ﴾ أى : اختبرناهم وامتحانهم وابتليناهم ﴿بِالسِّنِينَ﴾ وهى سنى الجوع بسبب قلة الزروع ﴿وَنَقَصْنَا مِنَ الثَّمَرَاتِ﴾ قال مجاهد : وهو دون ذلك ﴿لَعَلَّهُمْ يَذْكُرُونَ . فَإِذَا جَاءَتْهُمْ الْحَسَنَةُ﴾ أى : من الخصب والرزق ﴿قَالُوا لَنَا هَذِهِ﴾ أى : هذا لنا بما نستحقه ﴿وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ﴾ أى : جَدْبٌ وَقَحْطٌ ﴿يَطَّيَّرُوا بِمُوسَىٰ وَمَنْ مَعَهُ﴾ أى : هذا بسببهم وما جاؤا به ﴿أَلَا إِنَّمَا طَائِرُهُمْ عِنْدَ اللَّهِ﴾ قال ابن عباس : إلا من قبل الله .

﴿١٣٤﴾ وَقَالُوا مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِ مِنْ آيَةٍ لِنَسْحَرَنَّ بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ يَمُومِينَ ﴿١٣٥﴾ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ وَالْجُرَادَ وَالْقُمَّلَ وَالضَّفَادِعَ وَالِدَّمَ ۗ آيَاتٍ مُفَصَّلَاتٍ فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا مُجْرِمِينَ ﴿١٣٦﴾ وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ الرِّجْزُ قَالُوا يَا مُوسَىٰ ادْعُ لَنَا رَبَّكَ ۖ إِنَّمَا عَهْدُ عِنْدَكَ لِئِنَّ كَشَفْتَ عَنَّا الرِّجْزَ لِنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴿١٣٧﴾ فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمْ الرِّجْزَ إِلَىٰ أَجَلٍ هُمْ بَلَّغُوهُ إِذَا هُمْ يَنْكُتُونَ ﴿١٣٨﴾ ﴿١٣٩﴾

هذا إخبار من الله ، عز وجل ، عن تمرد قوم فرعون وعتوهم ، وعنادهم للحق وإصرارهم على الباطل فى قولهم : ﴿مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِ مِنْ آيَةٍ لِنَسْحَرَنَّ بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ يَمُومِينَ﴾ يقولون : أى آية جئتنا بها ودلالة وحجة أقمتها ، رددناها فلا نقبلها منك ، ولا نؤمن بك ولا بما جئت به ، قال الله تعالى : ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ﴾ . اختلفوا فى معناه ، فعن ابن عباس فى رواية : كثرة الأمطار المغرقة المتلفة للزروع والثمار . وبه قال الضحاك بن مزاحم . وعن ابن عباس فى رواية أخرى : هو كثرة الموت . وكذا قال عطاء . وقال مجاهد : ﴿الطُّوفَانَ﴾ : الماء ، والطاعون على كل حال . وقال ابن عباس فى رواية أخرى : هو أمر من الله طاف بهم ، ثم قرأ : ﴿فَطَافَ عَلَيْهَا طَائِفٌ مِّن رَّبِّكَ وَهُمْ نَائِمُونَ﴾ [القلم : ١٩] .

وأما الجراد فمعروف مشهور ، وهو مأكول ؛ لما ثبت فى الصحيحين عن أبى يعفور ، قال : سألت عبد الله بن أبى أوفى عن الجراد ؟ فقال : غزونا مع رسول الله ﷺ سبع غزوات ناكل الجراد . وروى الشافعى ، وأحمد بن حنبل ، وابن ماجه عن ابن عمر ، عن النبى ﷺ

قال: «أحلت لنا ميتتان ودمان: الحوت والجراد، والكبد والطحال». ورواه البغوي . وروى أبو داود عن سلمان قال: سئل رسول الله ﷺ عن الجراد فقال: «أكثر جنود الله، لا أكله، ولا أحرمه». وإنما تركه، عليه السلام، لأنه كان يعافه، كما عافت نفسه الشريفة أكل الضب، وأذن فيه . وقد كان أمير المؤمنين عمر بن الخطاب يشتهيهِ ويحبه، فعن ابن عمر: أن عمر سئل عن الجراد فقال: ليت أن عندنا منه قَفْعَةٌ (١) أو قفعتين نأكله. وروى ابن ماجه عن أنس بن مالك قال : كان أزواج النبي ﷺ يتهادين الجراد على الأطباق .

وأما «القُمَّلُ» : فعن ابن عباس: هو السوس الذي يخرج من الحنطة. وعنه أنه الدبا - وهو الجراد الصغار الذي لا أجنحة له. وبه قال مجاهد، وعكرمة، وقتادة. وعن الحسن وسعيد ابن جبير: «القُمَّلُ»: دواب سود صغار. وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: «القُمَّلُ»: البراغيث. وقال ابن جرير: «القُمَّلُ»: جمع واحدتها «قُمَّلَةٌ»، وهى دابة تشبه القُمَّل، تأكلها الإبل، فيما بلغنى . وقال زيد ابن أسلم: يعنى بالدم: الرعاف. رواه ابن أبى حاتم.

﴿ فَانْتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ ﴾
﴿ ١٣٦ ﴾ وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضَعُونَ مَشْرِقَ الْأَرْضِ وَمَغْرِبَهَا الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ الْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ بِمَا صَبَرُوا وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ وَمَا كَانُوا يَعْرِشُونَ ﴿ ١٣٧ ﴾

يخبر تعالى أنهم لما عتوا وتمردوا - مع ابتلائه إياهم بالآيات المتواترة واحدة بعد واحدة - انتقم منهم بإغراقه إياهم فى اليم، وهو البحر الذى فرقه لموسى، فجاوزه وبنو إسرائيل معه، ثم ورده فرعون وجنوده على أثرهم، فلما استكملوا فيه ارتطم عليهم، فغرقوا عن آخرهم، وذلك بسبب تكذيبهم بآيات الله وتغافلهم عنها.

وأخبر تعالى أنه أورث القوم الذين كانوا يستضعفون - وهم بنو إسرائيل - «مَشَارِقَ الْأَرْضِ وَمَغْرِبَهَا» كما قال تعالى: «وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتَضَعُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ. وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَنُرِي فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم مَّا كَانُوا يَحْذَرُونَ» [القصص: ٥، ٦]، وقال تعالى: «كَمْ تَرَكُوا مِنْ جَنَّاتٍ وَعَيْونَ. وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ. وَنِعْمَةَ كَانُوا فِيهَا فَآكِهِينَ. كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَا قَوْمًا آخَرِينَ» [الدخان: ٢٥ - ٢٨]. وعن الحسن البصرى وقتادة، فى قوله: «مَشَارِقَ الْأَرْضِ وَمَغْرِبَهَا الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا» يعنى: الشام.

وقوله: «وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ الْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ بِمَا صَبَرُوا» قال مجاهد وابن جرير: وهى قوله تعالى: «وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتَضَعُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ. وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَنُرِي فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم مَّا كَانُوا يَحْذَرُونَ».

(١) القفعة - بفتح القاف وسكون الفاء : شىء كالقفعة ، واسع الأسفل ضيق الأعلى .

وقوله: ﴿ وَذَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ ﴾ أى: وخربنا ما كان فرعون وقومه يصنعونه من العمارات والمزارع، ﴿وَمَا كَانُوا يَعْرِشُونَ﴾ قال ابن عباس ومجاهد: بينون.

﴿ وَجَنَوْزَنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتَوْا عَلَى قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَى أَصْنَامٍ لَهُمْ قَالُوا يَمْسُوا آجَعَل لَنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴿١٣٨﴾ إِنَّ هَؤُلَاءِ مَثَبٌ مَّا هُمْ فِيهِ وَيَطَّلُ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٣٩﴾ ﴾

يخبر تعالى عما قاله جهلة بنى إسرائيل لموسى، عليه السلام، حين جاوزوا البحر، وقد رأوا من آيات الله وعظيم سلطانه ما رأوا ﴿فَأَتَوْا﴾ أى: فمروا ﴿عَلَى قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَى أَصْنَامٍ لَهُمْ﴾ قال بعض المفسرين: كانوا من الكنعانيين . وقيل: كانوا من لحم . قال ابن جريج: وكانوا يعبدون أصناما على صور البقر، فلهذا أثار ذلك شبهة لهم فى عبادتهم العجل بعد ذلك، فقالوا: ﴿يَا مُوسَى اجْعَل لَنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ﴾ أى: تجهلون عظمة الله وجلاله، وما يجب أن ينزه عنه من الشريك والمثيل . ﴿إِنَّ هَؤُلَاءِ مَثَبٌ مَّا هُمْ فِيهِ﴾ أى: هالك ﴿وَيَطَّلُ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ . وروى ابن جرير عن أبى واقد الليثى: أنهم خرجوا من مكة مع رسول الله ﷺ إلى حنين، قال: وكان للكفار سدرة يعكفون عندها، ويعلقون بها أسلحتهم، يقال لها: «ذات أنواط»، قال: فمررنا بسدرة خضراء عظيمة، قال: فقلنا: يا رسول الله، اجعل لنا ذات أنواط كما لهم ذات أنواط !! فقال: «قلتم والذى نفسى بيده، كما قال قوم موسى لموسى: ﴿اجْعَل لَنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ﴾ إِنَّ هَؤُلَاءِ مَثَبٌ مَّا هُمْ فِيهِ وَيَطَّلُ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ (١).

وروى الإمام أحمد عن أبى واقد الليثى قال: خرجنا مع رسول الله ﷺ قَبْلَ حَنِينٍ، فمررنا بسدرة، فقلت: يا نبى الله، اجعل لنا ذات أنواط، كما للكفار ذات أنواط ! وكان الكفار ينطون سلاحهم بسدرة، ويعكفون حولها. فقال النبى ﷺ: «الله أكبر، هذا كما قالت بنو إسرائيل لموسى: ﴿اجْعَل لَنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ﴾ إنكم تركبون سنن من قبلكم» (٢). ورواه ابن أبى حاتم، من حديث كثير بن عبد الله بن عمرو بن عوف المزنى، عن أبيه، عن جده مرفوعا .

﴿ قَالَ أَعْيَرَ اللَّهُ آبِغِيكُمْ إِلَهًا وَهُوَ فَضَّلَكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴿١٤٠﴾ وَإِذْ أُنجَيْنَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ يَقْتُلُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَلِكُمْ بَلَاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴿١٤١﴾ ﴾

يذكرهم موسى، عليه السلام، بنعمة الله عليهم، من إنقاذهم من أسر فرعون وقهره، وما كانوا فيه من الهوان والذلة، وما صاروا إليه من العزة والاشتقاء من عدوهم، والنظر إليه فى حال هوانه وهلاكه، وغرقه ودماره. وقد تقدم تفسيرها فى البقرة (٣).

(١) الطبرى (١٥٠٥٦، ١٥٠٥٧، ١٥٠٥٨) . وتفصيل تخريجه هناك .

(٢) المسند (٥ / ٢١٨ حلى) . (٣) عند الآيتين (٤٩، ٥٠) .

﴿ وَوَعَدْنَا مُوسَىٰ ثَلَاثِينَ لَيْلَةً وَأَتَمَمْنَاهَا بِعَشْرِ فِتْمٍ مِيقَتُ رَبِّهِ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ﴾
 وَقَالَ مُوسَىٰ لِأَخِيهِ هَارُونَ أَخْلِفْنِي فِي قَوْمِي وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ الْمُفْسِدِينَ ﴿١٤٢﴾

يقول تعالى ممتنا على بنى إسرائيل بما حصل لهم من الهداية، بتكليمه موسى، عليه السلام، وإعطائه التوراة، وفيها أحكامهم وتفصيل شرعهم، فذكر تعالى أنه واعد موسى ثلاثين ليلة. ثم أمره الله تعالى أن يكمل العشر أربعين.

وقد اختلف المفسرون في هذه العشر ما هي؟ فالأكثر على أن الثلاثين هي ذو القعدة، والعشر عشر ذى الحجة. قاله مجاهد، ومسروق، وابن جريج. وروى عن ابن عباس وغيره . فعلى هذا يكون قد كمل الميقات يوم النحر، وحصل فيه التكليم لموسى، عليه السلام، وفيه أكمل الله الدين لمحمد ﷺ، كما قال تعالى: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتَمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾ [المائدة: ٣].

فلما تم الميقات عزم موسى على الذهاب إلى الطور، كما قال تعالى: ﴿يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ قَدْ أَنجَيْنَاكُم مِّنْ عَدُوِّكُمْ وَوَعَدْنَاكُمْ جَانِبَ الطُّورِ الْأَيْمَنِ﴾ الآية [طه: ٨٠]، فحيثئذ استخلف موسى على بنى إسرائيل أخاه هارون، وأوصاه بالإصلاح وعدم الإفساد. وهذا تنبيه وتذكير، وإلا فهارون، عليه السلام، نبي شريف كريم على الله، وله وجاهة وجلالة، صلوات الله وسلامه عليه، وعلى سائر الأنبياء.

﴿ وَلَمَّا جَاءَ مُوسَىٰ لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ قَالَ رَبِّ أَرِنِي أَنظُرْ إِلَيْكَ قَالَ لَن تَرَانِي وَلَكِنِ أَنظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِي فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَىٰ سُجَّدًا فَلَمَّا أَفَاقَ قَالَ سُبْحٰنَكَ بُتُّ إِلَيْكَ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ ﴿١٤٣﴾

يخبر تعالى عن موسى، عليه السلام، أنه لما جاء لميقات الله تعالى، وحصل له التكليم من الله، سأل الله تعالى أن ينظر إليه فقال: ﴿رَبِّ أَرِنِي أَنظُرْ إِلَيْكَ قَالَ لَن تَرَانِي﴾.

وقد أشكل حرف «لن» هاهنا على كثير من العلماء؛ لأنها موضوعة لنفى التأيد، فاستدل به المعتزلة على نفى الرؤية فى الدنيا والآخرة. وهذا أضعف الأقوال؛ لأنه قد تواترت الأحاديث عن رسول الله ﷺ بأن المؤمنين يرون الله فى الدار الآخرة، كما سنوردها عند قوله تعالى: ﴿وَجُوهٌ يُّوْمِتِد نَاصِرَةٌ . إِلَىٰ رَبِّهَا نَظِرَةٌ﴾ [القيامة: ٢٢، ٢٣]. وقوله تعالى إخباراً عن الكفار: ﴿كَلَّا إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَّحْجُوبُونَ﴾ [المطففين: ١٥]. وقيل: إنها لنفى التأيد فى الدنيا، جمعا بين هذه الآية، وبين الدليل القاطع على صحة الرؤية فى الدار الآخرة. وقيل: إن هذا الكلام فى هذا المقام كالكلام فى قوله تعالى: ﴿لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾ وقد تقدم ذلك فى الأنعام (١).

فى الكتب المتقدمة أن الله تعالى قال لموسى، عليه السلام: «يا موسى، إنه لا يرانى حتى إلامات، ولا يابس إلا تدهده» ؛ ولهذا قال : «فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا». وروى الإمام أحمد فى مسنده: حدثنا أبو المثنى، معاذ بن معاذ العنبرى، حدثنا حماد بن سلمة، حدثنا ثابت البنانى، عن أنس بن مالك، عن النبى ﷺ فى قوله : «فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُ لِلْجَبَلِ» : قال: قال هكذا - يعنى أنه أخرج طرف الخنصر - قال أحمد: أرانا معاذ، فقال له حميد الطويل: ما تريد إلى هذا يا أبا محمد؟ قال: فضرب صدره ضربة شديدة وقال: من أنت يا حميد؟! وما أنت يا حميد؟! يحدثنى به أنس ابن مالك عن النبى ﷺ، يقول: ما تريد إليه؟! ورواه الترمذى ثم قال: هذا حديث حسن صحيح غريب، لا نعرفه إلا من حديث حماد. ورواه الحاكم وقال: هذا حديث صحيح على شرط مسلم، ولم يخرجاه. ورواه أبو محمد الحسن بن محمد الخلال، وقال: هذا إسناد صحيح لا علة فيه.

وقال ابن عباس فى قول الله تعالى: «فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُ لِلْجَبَلِ» قال: ما تجلى منه إلا قدر الخنصر «جَعَلَهُ دَكًّا» قال: ترابا «وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا» قال: مغشىا عليه. رواه ابن جرير. والمعروف أن «الصعق» هو الغشى هاهنا، كما فسره ابن عباس وغيره، لا كما فسره قتادة بالموت، وإن كان ذلك صحيحاً فى اللغة، كقوله تعالى: «وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَبَقَ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَمَن فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَن شَاءَ اللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنْظُرُونَ» [الزمر: ٦٨]، فإن هناك قرينة تدل على الموت كما أن هنا قرينة تدل على الغشى، وهى قوله: «فَلَمَّا أَفَاقَ» ، والإفاقة لا تكون إلا عن غشى. «قَالَ سُبْحَانَكَ» تنزيها وتعظيما وإجلالا أن يراه أحد فى الدنيا إلامات. وقوله: «تَبَّتْ إِلَيْكَ» قال مجاهد: أن أسألك الروية «وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ»، قال ابن عباس ومجاهد: من بنى إسرائيل. واختاره ابن جرير. وفى رواية أخرى عن ابن عباس: «وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ» أنه لا يراك أحد. وكذا قال أبو العالية: قد كان قبله مؤمنون، ولكن يقول: أنا أول من آمن بك أنه لا يراك أحد من خلقك إلى يوم القيامة. وهذا قول حسن له اتجاه.

وقال البخارى فى صحيحه وقوله: «وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا»، فيه أبو سعيد وأبو هريرة، عن النبى ﷺ: فأما حديث أبى سعيد، فأسنده البخارى عن أبى سعيد الخدرى، قال: جاء رجل من اليهود إلى النبى ﷺ قد لطم وجهه، فقال: يا محمد، إن رجلا من أصحابك من الأنصار لطم فى وجهى. قال: «ادعوه». فدعوه، قال: «لم لطمت وجهه؟» قال: يا رسول الله، إنى مررت باليهود فسمعتهم يقول: والذى اصطفى موسى على البشر. قال: قلت: وعلى محمد؟ فأخذتني غضبة، فلطمته، قال: «لا تخيرونى من بين الأنبياء، فإن الناس يصعقون يوم القيامة، فأكون أول من يفيق، فإذا أنا بموسى أخذ بقائمة من قوائم العرش، فلا أدري أفاق قبلى أم جوزى بصعقة الطور». ورواه مسلم وأبو داود.

وأما حديث أبى هريرة فروى الإمام أحمد عن أبى هريرة، قال: استب رجلا من رجل من المسلمين، ورجل من اليهود، فقال المسلم: والذى اصطفى محمداً على العالمين. وقال اليهودى:

والذى اصطفى موسى على العالمين، فغضب المسلم على اليهودى فلطمه، فأتى اليهودى رسول الله ﷺ، فسأله فأخبره، فدعاه رسول الله ﷺ، فاعترف بذلك، فقال رسول الله ﷺ: «لا تخيرونى على موسى؛ فإن الناس يصعقون يوم القيامة، فأكون أول من يفيق، فإذا موسى ممسك بجانب العرش، فلا أدرى أكان ممن صعق فأفاق قبلى، أم كان ممن استثناه الله، عز وجل». أخرجاه فى الصحيحين .

والكلام فى قوله، عليه السلام: «لا تخيرونى على موسى»، كالكلام على قوله: «لا تفضلونى على الأنبياء ولا على يونس بن متى»، قيل: من باب التواضع. وقيل: قبل أن يعلم بذلك. وقيل: نهى أن يفضل بينهم على وجه الغضب والتعصب. وقيل: على وجه القول بمجرد الرأى والتشهى، والله أعلم.

وقوله: «فإن الناس يصعقون يوم القيامة» - الظاهر أن هذا الصعق يكون فى عرصات القيامة، يحصل أمر يصعقون منه، والله أعلم به. وقد يكون ذلك إذا جاء الرب تبارك وتعالى لفصل القضاء، وتجلي للخلائق الملك الديان، كما صعق موسى من تجلى الرب تبارك وتعالى، ولهذا قال، عليه السلام: «فلا أدرى أفاق قبلى أم جوزى بصعقة الطور» .

﴿ قَالَ يَمْسُوحٌ لِي أَصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالَتِي وَبِكَلِمِي فَخُذْ مَا آتَيْتُكَ وَكُنْ مِنَ الشَّاكِرِينَ ﴾ [١٤٤] وَكَتَبْنَا لَهُ فِي الْأَلْوَابِ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْعِظَةً وَتَفْصِيلًا لِكُلِّ شَيْءٍ فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا بِأَحْسَنِهَا سَأُرِيكُمْ دَارَ الْفَاسِقِينَ ﴿١٤٥﴾

يذكر تعالى أنه خاطب موسى بأنه اصطفاه على عالمى زمانه برسالاته وكلامه، ولا شك أن محمداً ﷺ سيد ولد آدم من الأولين والآخرين؛ ولهذا اختصه تعالى بأن جعله خاتم الأنبياء والمرسلين، الذى تستمر شريعته إلى قيام الساعة، وأتباعه أكثر من أتباع سائر الأنبياء والمرسلين كلهم، وبعده فى الشرف والفضل إبراهيم الخليل، عليه السلام، ثم موسى بن عمران كليم الرحمن، عليه السلام؛ ولهذا قال له: «فخذ ما آتيتك» أى: من الكلام والمناجاة «وكن من الشاكرين» أى: على ذلك، ولا تطلب ما لا طاقة لك به.

ثم أخبر تعالى أنه كتب له فى الألواح من كل شىء موعظة وتفصيلاً لكل شىء، وكانت هذه الألواح مشتملة على التوراة التى قال الله تعالى: «ولقد آتينا موسى الكتاب من بعد ما أهلكنا القرون الأولى بصائر للناس» [القصص: ٤٣]. وقيل: الألواح أعطاها موسى قبل التوراة، فإله أعلم. وعلى كل تقدير فكانت كالتعويض له عما سأل من الرؤيا ومنع منها، والله أعلم.

وقوله: «فخذها بقوة» أى: بعزم على الطاعة «وأمر قومك يأخذوا بأحسنها» قال عن ابن عباس: أمر موسى - عليه السلام - أن يأخذ بأشد ما أمر قومه.

وقوله: «سأريكم دار الفاسقين» أى: سترون عاقبة من خالف أمرى، وخرج عن طاعتي، كيف

يصير إلى الهلاك والدمار والتباب . قال ابن جرير: وإنما قال: ﴿سَأْرِيكُمْ دَارَ الْفَاسِقِينَ﴾، كما يقول القائل لمن يخاطبه: «سأريك غدا إلى ما يصير إليه حال من خالف أمرى»، على وجه التهديد والوعيد لمن عصاه وخالف أمره . نقل معنى ذلك عن مجاهد، والحسن البصرى . وقيل: معناه ﴿سَأْرِيكُمْ دَارَ الْفَاسِقِينَ﴾ أى: من أهل الشام، وأعطيتكم إياها . وقيل: منازل قوم فرعون، والأول أولى، والله أعلم؛ لأن هذا كان بعد انفصال موسى وقومه عن بلاد مصر، وهو خطاب لبنى إسرائيل قبل دخولهم التيه، والله أعلم .

﴿سَأْصِرُفٌ عَنَّا آيَاتِي الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَإِن يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لَا يُؤْمِنُوا بِهَا وَإِن يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِن يَرَوْا سَبِيلَ الْعَنَاءِ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ ﴿١٤٦﴾ وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَلِقَاءِ الْآخِرَةِ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٤٧﴾﴾

يقول تعالى: ﴿سَأْصِرُفٌ عَنَّا آيَاتِي الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾ أى: سأمنع فهم الحجج والأدلة على عظمتى وشريعتى وأحكامى قلوب المتكبرين عن طاعتى، ويتكبرون على الناس بغير حق، أى: كما استكبروا بغير حق أذلهم الله بالجهل، كما قال تعالى: ﴿وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوْلَ مَرَّةٍ﴾ [الأنعام: ١١٠]، وقال تعالى: ﴿فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾ [الصف: ٥] . وقال بعض السلف: لا ينال العلم حياً ولا مستكبر . وقال آخر: من لم يصبر على ذل التعلم ساعة، بقى فى ذل الجهل أبداً . وقال سفيان بن عيينة فى قوله: ﴿سَأْصِرُفٌ عَنَّا آيَاتِي الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾ قال: أنزع عنهم فهم القرآن، وأصرفهم عن آياتى . قال ابن جرير: وهذا يدل على أن هذا خطاب لهذه الأمة . قلت: ليس هذا بلازم؛ لأن ابن عيينة إنما أراد أن هذا مطرد فى حق كل أمة، ولا فرق بين أحد وأحد فى هذا، والله أعلم .

وقوله: ﴿وَإِن يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لَا يُؤْمِنُوا بِهَا﴾ ، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ . وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّى يَرَوْا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ﴾ [يونس: ٩٦ ، ٩٧] . وقوله: ﴿وَإِن يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا﴾ أى: وإن ظهر لهم سبيل الرشد، أى: طريق النجاة لا يسلكوها، وإن ظهر لهم طريق الهلاك والضلال يتخذوه سبيلاً .

ثم علل مصيرهم إلى هذه الحال بقوله: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا﴾ أى: كذبت بها قلوبهم، ﴿وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ﴾ أى: لا يعملون شيئاً مما فيها .

وقوله: ﴿وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَلِقَاءِ الْآخِرَةِ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ﴾ أى: من فعل منهم ذلك واستمر عليه إلى المات، حبط عمله . وقوله: ﴿هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ أى: إنما تجازيهم بحسب أعمالهم التى أسلفوها، إن خيراً فخير وإن شراً فشر، وكما تدين تدان (١) .

(١) هنا بهامش المخطوطة العتيقة ما نصه: «آخر الجزء الأول من تفسير سورة الأعراف، من خط المؤلف عفا الله عنه» .

﴿ وَأَخَذَ قَوْمَ مُوسَىٰ مِنْ بَعْدِهِمْ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجَلًا جَسَدًا لَّهُمْ خَوَارٌ أَلَمْ يَرَوْا أَنَّهُ لَا يَكْلِمُهُمْ وَلَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلًا أَخَذُوهُ وَكَانُوا ظَالِمِينَ ﴿١٤٨﴾ وَلَمَّا سَقَطَ فِي أَيْدِيهِمْ وَرَأَوْا أَنَّهُمْ قَدْ ضَلُّوا قَالُوا لَئِن لَّمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا وَيَغْفِرْ لَنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿١٤٩﴾ ﴾

يخبر تعالى عن ضلال من ضل من بنى إسرائيل فى عبادتهم العجل، الذى اتخذه لهم السامرى من حلى القبط، الذى كانوا استعاروه منهم، فشكل لهم منه عجلا، ثم ألقى فيه القبضة من التراب التى أخذها من أثر فرس جبريل، عليه السلام، فصار عجلا جسدا له خوار، و«الخوار» صوت البقر. وكان هذا منهم بعد ذهاب موسى لميقات ربه تعالى، وأعلمه الله تعالى بذلك وهو على الطور، حيث يقول تعالى إخباراً عن نفسه الكريمة: ﴿قَالَ فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِنْ بَعْدِكَ وَأَضَلَّهُمُ السَّامِرِيُّ﴾ [طه : ٨٥] . وقد اختلف المفسرون فى هذا العجل: هل صار لحما ودما له خوار؟ أو استمر على كونه من ذهب، إلا أنه يدخل فيه الهواء فيصوت كالبقرة؟ على قولين، والله أعلم . قال الله تعالى: ﴿أَفَلَا يَرَوْنَ أَلَّا يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلًا وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا﴾ [طه : ٨٩] . وقال فى هذه الآية الكريمة: ﴿أَلَمْ يَرَوْا أَنَّهُ لَا يَكْلِمُهُمْ وَلَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلًا﴾ ينكر تعالى عليهم فى ضلالهم بالعجل، وذوولهم عن خالق السموات والأرض ورب كل شىء ومليكه، أن عبدوا معه عجلاً جسداً له خوار ولا يكلمهم، ولا يرشدهم إلى خير. ولكن غطى على أعين بصائرهم عمى الجهل والضلال .

وقوله: ﴿وَلَمَّا سَقَطَ فِي أَيْدِيهِمْ﴾ أى: ندموا على ما فعلوا، ﴿وَرَأَوْا أَنَّهُمْ قَدْ ضَلُّوا قَالُوا لَئِن لَّمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا وَيَغْفِرْ لَنَا﴾ وقرأ بعضهم: «لئن لم ترحمنا» بالياء المثناة من فوق، «ربنا» منادى، «وتغفر لنا»، «لنكونن من الخاسرين» أى: من الهالكين وهذا اعتراف منهم بذنبهم والتجاء إلى الله عزوجل .

﴿ وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَىٰ إِلَىٰ قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِيفًا قَالَ بِسْمِ اللَّهِ حَلَفْتُ لَكُمْ مِنْ بَعْدِي أَنْ أَعْلَجْتُ أَمْرَ رَبِّكُمْ وَأَلْقَى الْأَلْوَابَ وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُ إِلَيْهِ قَالَ ابْنَ أُمَّ إِنَّ الْقَوْمَ اسْتَضَعَفُونِي وَكَادُوا يَقْتُلُونَنِي فَلَا تُشْمِتْ بِيَ الْأَعْدَاءَ وَلَا تَجْعَلْنِي مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿١٥٠﴾ قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلاِخِي وَأَدْخِلْنَا فِي رَحْمَتِكَ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴿١٥١﴾ ﴾

يخبر تعالى أن موسى، عليه السلام، رجع إلى قومه من مناجاة ربه تعالى وهو غضبان أسف . قال أبو الدرداء «الأسف»: أشد الغضب . ﴿قَالَ بِسْمِ اللَّهِ حَلَفْتُ لَكُمْ مِنْ بَعْدِي﴾ يقول: بش ما صنعتكم فى عبادتكم العجل بعد أن ذهبت وتركتكم .

وقوله: ﴿أَعْلَجْتُ أَمْرَ رَبِّكُمْ﴾ يقول: استعجلتكم مجيئى إليكم، وهو مقدر من الله تعالى .

وقوله: ﴿وَأَلْقَى الْأَلْوَابَ وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُ إِلَيْهِ﴾ فى هذا دلالة على ما جاء فى الحديث :

«ليس الخبر كالمعاينة» (١) . ثم ظاهر السياق أنه إنما ألقى الألواح غضباً على قومه، وهذا قول جمهور العلماء سلفاً وخلفاً .

وقوله: ﴿وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُ إِلَيْهِ﴾ خوفاً أن يكون قد قصر في نهيهم، كما قال في الآية الأخرى: ﴿قَالَ يَا هَارُونَ مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوا . أَلَا تَتَّبِعُنَ أَقْصَيْتَ أَمْرِي . قَالَ يَبْتَنُونَ لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي وَلَا بِرَأْسِي إِنِّي خَشِيتُ أَنْ تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي﴾ [طه: ٩٢ - ٩٤]، وقال هاهنا: ﴿ابن أمّ إن القوم استضعفوني وكادوا يقتلونني فلا تشمت بي الأعداء ولا تجعلني مع القوم الظالمين﴾ أي: لا تسوقني مساقهم، ولا تجعلني معهم . وإنما قال: ﴿ابن أمّ﴾؛ ليكون أرقاً وأنجع عنده، وإلا فهو شقيقه لأبيه وأمه .

فلما تحقق موسى، عليه السلام، براءة ساحة هارون عليه السلام، كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ قَالَ لَهُمْ هَارُونَ مِنْ قَبْلِ يَأْ قَوْمٍ إِنَّمَا فُتِنْتُمْ بِهِ وَإِنَّ رَبَّكُمُ الرَّحْمَنُ فَاتَّبِعُونِي وَأَطِيعُوا أَمْرِي﴾ [طه: ٩٠] فعند ذلك قال موسى: ﴿رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِأَخِي وَأَدْخِلْنَا فِي رَحْمَتِكَ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾ . وروى ابن أبي حاتم عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «يرحم الله موسى، ليس المعاین كالمخبر؛ أخبره ربه، عز وجل، أن قومه فتنوا بعده، فلم يلتق الألواح، فلما رآهم وعابنهم ألقى الألواح» (٢) .

﴿إِنَّ الَّذِينَ أَخَذُوا الْعَجَلَ سَيَنَالُهُمْ غَضَبٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَذَلَّةٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُفْتَرِينَ﴾ ﴿١٥١﴾ وَالَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ ثُمَّ تَابُوا مِنْ بَعْدِهَا وَآمَنُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١٥٢﴾

أما الغضب الذي نال بنى إسرائيل في عبادة العجل، فهو أن الله تعالى لم يقبل لهم توبة، حتى قتل بعضهم بعضاً، كما تقدم في سورة البقرة: ﴿فَتُوبُوا إِلَى بَارِيكُمْ فَاقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ ذَلِكَ خَيْرٌ لَكُمْ عِنْدَ بَارِيكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ [البقرة: ٥٤] . وأما الذلة فاعقبهم ذلك ذلاً وصغاراً في الحياة الدنيا .

وقوله: ﴿وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُفْتَرِينَ﴾ نائلة لكل من افتري بدعة، فإن ذل البدعة ومخالفة الرشد، متصلة من قبله على كتفيه، كما قال الحسن البصرى: إن ذل البدعة على آكتافهم، وإن همّلت بهم البغلات، وطقطقت بهم البراذين . وهكذا روى أيوب السخيتاني، عن أبي قلابة الجرّمي، أنه قرأ هذه الآية: ﴿وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُفْتَرِينَ﴾ قال: هي والله لكل مفتر إلى يوم القيامة . وقال

(١) رواه أحمد في المسند مطولاً ومختصراً (١٨٤٢ ، ٢٤٤٧) من حديث ابن عباس . ورواه الحاكم مطولاً (٢ /

٣٢١) وصححه على شرط الشيخين ، ووافقه الذهبي . ورواه ابن حبان في صحيحه (٢ / ٢٩٨) (من

المخطوطة المصورة) . وستأتي الرواية المطولة في آخر تفسير هذه الآية .

(٢) هذه هي الرواية المطولة للخبر السابق . وهي في المسند (٢٤٤٧) . ونسبها السيوطي (٢ / ١٢٧) أيضاً لعبد

ابن حميد ، والبخاري ، وابن السخيتاني ، وابن مردويه .

سفيان بن عيينة: كل صاحب بدعة ذليل.

ثم نبه تعالى عباده وأرشدهم إلى أنه يقبل توبة عباده من أي ذنب كان، حتى ولو كان من كفر أو شرك أو نفاق أو شقاق؛ ولهذا عقب هذه القصة بقوله: ﴿وَالَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ ثُمَّ تَابُوا مِنْ بَعْدِهَا وَأَمَّوْا إِنَّ رَبَّكَ﴾ أي: يا محمد، يا رسول التوبة ونبي الرحمة، ﴿مِنْ بَعْدِهَا﴾ أي: من بعد تلك الفعلة ﴿لَفَقُورٌ رَحِيمٌ﴾. وروى ابن أبي حاتم عن علقمة، عن عبد الله بن مسعود؛ أنه سئل عن ذلك، يعني عن الرجل يزني بالمرأة، ثم يتزوجها؟ فتلا هذه الآية: ﴿وَالَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ ثُمَّ تَابُوا مِنْ بَعْدِهَا وَأَمَّوْا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَفَقُورٌ رَحِيمٌ﴾، فتلاها عبد الله عشر مرات، فلم يأمرهم بها ولم ينههم عنها (١).

﴿وَلَمَّا سَكَتَ عَنْ مُوسَى الْغَضَبُ أَخَذَ الْأَلْوَابُ فِي نُسُخَتِهَا هُدًى وَرَحْمَةً لِّلَّذِينَ هُمْ رَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ﴾ ﴿١٥٤﴾

يقول تعالى: ﴿وَلَمَّا سَكَتَ عَنْ مُوسَى الْغَضَبُ﴾ أي: غضبه علي قومه ﴿أَخَذَ الْأَلْوَابُ﴾ أي: التي كان ألقاها من شدة الغضب على عبادتهم العجل، غيرة الله وغضبا له ﴿وَفِي نُسُخَتِهَا هُدًى وَرَحْمَةً لِّلَّذِينَ هُمْ رَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ﴾. فقد أخبر تعالى أنه لما أخذها بعد ما ألقاها وجد فيها ﴿هُدًى وَرَحْمَةً﴾. ﴿لِّلَّذِينَ هُمْ رَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ﴾: ضمن الرهبة معنى الخضوع؛ ولهذا عدّها باللام.

﴿وَاخْتَارَ مُوسَى قَوْمَهُ سَبْعِينَ رَجُلًا لِّمِيقَاتِنَا فَلَمَّا أَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ قَالَ رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُمْ مِنْ قَبْلِ وَرَأَيْتُ أَتَهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ السُّفَهَاءُ مِنَّا إِنْ هِيَ إِلَّا فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَنْ تَشَاءُ وَتَهْدِي مَنْ تَشَاءُ أَنْتَ وَلِيُّنَا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنْتَ حَيُّ الْغَفِيرُ﴾ ﴿١٥٥﴾ ﴿وَكَتَبْنَا لَنَا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ إِنَّا هُنَا وَإِنَّكَ

قال ابن عباس في تفسير هذه الآية: كان الله أمره أن يختار من قومه سبعين رجلا، فاختار سبعين رجلا فبرز بهم ليدعوا ربهم، فكان فيما دعوا الله قالوا: اللهم أعطنا ما لم تعط أحدا قبلنا ولا تعطه أحدا بعدنا! فكره الله ذلك من دعائهم، فأخذتهم الرجفة، قال موسى: ﴿رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُمْ مِنْ قَبْلِ وَرَأَيْتُ أَتَهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ السُّفَهَاءُ﴾ الآية. وقال السدي: إن الله أمر موسى أن يأتيه في ناس من بني إسرائيل، يعتذرون إليه من عبادة العجل، ووعدهم موعدا، ﴿وَاخْتَارَ مُوسَى قَوْمَهُ سَبْعِينَ رَجُلًا﴾ على عينه، ثم ذهب بهم ليعتذروا. فلما أتوا ذلك المكان قالوا: لن نؤمن لك يا موسى حتى نرى الله جهرة، فإنك قد كلمته، فأرانا. فأخذتهم الصاعقة فماتوا، فقام موسى يبكي ويدعو الله ويقول: رب، ماذا أقول لبني إسرائيل إذا أتيتهم وقد أهلكت خيارهم ﴿رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُمْ مِنْ قَبْلِ وَرَأَيْتُ﴾.

وقال ابن عباس وقتادة ومجاهد وابن جرير: إنما أخذتهم الرجفة لأنهم لم يزايلوا قومهم في عبادتهم العجل ، ولا نهوهم ، ويتوجه هذا القول بقول موسى: ﴿ أَتَهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ السُّفَهَاءُ مِنَّا ﴾ . وقوله: ﴿ إِنَّ هِيَ إِلَّا فِتْنَتُكَ ﴾ أى: ابتلاؤك وامتحانك واختبارك . قاله ابن عباس، وسعيد ابن جبير، وغير واحد من علماء السلف والخلف . ولا معنى له غير ذلك؛ يقول: إن الأمر إلا أمرٌ، وإن الحكم إلا لك، فما شئت كان، تضل من تشاء، وتهدى من تشاء، ولا هادى لمن أضللت، ولا مُضِلٌّ لمن هدَّيت، ولا مُعْطَىٰ لمن مَنَعْتَ، ولا مانع لما أعطيت، فالملك كله لك، والحكم كله لك، لك الخلق والأمر.

وقوله: ﴿ أَنْتَ وَلِيْنَا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الْغَافِرِينَ ﴾: العَفْرُ هو: الستر، وترك المؤاخذة بالذنب، والرحمة إذا قرنت مع الغفر، يراد بها ألا يوقعه فى مثله فى المستقبل ﴿ وَأَنْتَ خَيْرُ الْغَافِرِينَ ﴾ أى: لا يغفر الذنوب إلا أنت ﴿ وَأَكْتَبْنَا لَنَا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ ﴾ ها ذاك الفصل الأول من الدعاء فى دفع المحذور، وهذا لتحصيل المقصود ﴿ وَأَكْتَبْنَا لَنَا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ ﴾ أى: أوجب لنا وأثبت لنا فيهما حسنة . ﴿ إِنَّا هَدَيْنَاكَ إِلَيْكَ ﴾ أى: تبنا ورجعنا وأبنا إليك . قاله ابن عباس، وسعيد بن جبير، ومجاهد وغير واحد . وهو كذلك لَعَنَهُ .

﴿ قَالَ عَذَابِي أُصِيبُ بِهِ مَنْ أَشَاءُ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ ﴾ (١٥١)

يقول تعالى مجيباً لموسى فى قوله: ﴿ إِنَّ هِيَ إِلَّا فِتْنَتُكَ ﴾ الآية، قال: ﴿ عَذَابِي أُصِيبُ بِهِ مَنْ أَشَاءُ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ ﴾ أى: أفعل ما أشاء، وأحكم ما أريد، ولى الحكمة والعدل فى كل ذلك، سبحانه لا إله إلا هو .

وقوله تعالى : ﴿ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ ﴾ : آية عظيمة الشمول والعموم، كقوله تعالى إخباراً عن حملة العرش ومن حوله أنهم يقولون : ﴿ رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَحْمَةً وَعِلْمًا ﴾ [غافر: ٧] . وروى الإمام أحمد عن جندب - هو ابن عبد الله البجلي، رضى الله عنه - قال: جاء أعرابى فأناخ راحلته ثم عقَّ لها ، ثم صلى خلف رسول الله ﷺ . فلما صلى رسول الله ﷺ أتى راحلته فأطلق عقَّالها، ثم ركبها ! ثم نادى: اللهم، ارحمنى ومحمدًا، ولا تشرك فى رحمتنا أحداً !! فقال رسول الله ﷺ: «أتقولون هذا أضل أم بعيره؟ ألم تسمعوا ما قال؟!» قالوا: بلى . قال: «لقد حظرت رحمة واسعة؛ إن الله، عز وجل، خلق مائة رحمة، فأنزل رحمة واحدة يتعاطف بها الخلق؛ جنبها وإنسها وبهائمها، وأخرَّ عنده تسعاً وتسعين رحمة، أتقولون هو أضل أم بعيره؟!» . ورواه أبو داود (١) .

وروى أحمد عن سلمان ، عن النبي ﷺ قال: «إن لله، عز وجل، مائة رحمة، فمنها

رحمة يتراحمُ بها الخلق ، وبها تعطف الوحوش على أولادها ، وأخر تسعاً وتسعين إلى يوم القيامة . تفرد بإخراجه مسلم . وروى الإمام أحمد عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال : « إن لله مائة رحمة ، عنده تسعة وتسعون ، وجعل عندكم واحدة تتراحمون بها بين الجن والإنس وبين الخلق ، فإذا كان يوم القيامة ضمها إليه . تفرد به أحمد من هذا الوجه . وروى أحمد عن أبي سعيد ، قال : قال رسول الله ﷺ : « لله مائة رحمة ، فقسم منها جزءاً واحداً بين الخلق ، فيه يتراحم الناس والوحش والطير » . ورواه ابن ماجه .

وقوله : ﴿ فَسَأَكْتَبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ ﴾ إلى آخرها ، يعنى : فسأوجب حصول رحمتي منه منى وإحسانا إليهم ، كما قال تعالى : ﴿ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ ﴾ [الأنعام : ٥٤] .

وقوله : ﴿ لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ ﴾ أى : سأجعلها للمتصفين بهذه الصفات ، وهم أمة محمد ﷺ ﴿ الَّذِينَ يَتَّقُونَ ﴾ ، أى : الشرك والعظائم من الذنوب ﴿ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ ﴾ قيل : زكاة النفوس . وقيل : الأموال . ويحتمل أن تكون عامة لهما ؛ فإن الآية مكية ﴿ وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ ﴾ أى : يصدقون .

﴿ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَاَلَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنزِلَ مَعَهُ ۗ أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾

﴿ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ ﴾ : وهذه صفة محمد ﷺ فى كتب الأنبياء بشروا أمهم ببعثه ، وأمروهم بتابعته ، ولم تزل صفاته موجودة فى كتبهم يعرفها علماءهم وأخبارهم كما قال الإمام أحمد عن أبى صخر العقيلي ، حدثنى رجل من الأعراب ، قال : جلبت جلوبية إلى المدينة فى حياة رسول الله ﷺ ، فلما فرغت من بيعى قلت : لألقين هذا الرجل فلاسمعن منه ، قال : فتلقانى بين أبى بكر وعمر يمسون ، فتبعتم حتى أتوا على رجل من اليهود ناشر التوراة يقرؤها ، يعزى بها نفسه على ابن له فى الموت كأجمل الفتيان وأحسنها ، فقال رسول الله ﷺ : « أنشدك بالذى أنزل التوراة ، هل تجد فى كتابك هذا صفتى ومخرجى ؟ » فقال برأسه هكذا ، أى : لا . فقال ابنه ، أى : والذى أنزل التوراة إنا لنجد فى كتابنا صفتك ومخرجك ، وإنى أشهد أن لا إله إلا الله ، وأشهد أنك رسول الله ، فقال : « أقيموا اليهودى عن أحيكم » . ثم تولى كفته وجنته والصلاة عليه . هذا حديث جيد (١) ، قوى له

(١) المسند (٥ / ٤١١) . وذكره الهيثمى فى الزوائد (٨ / ٢٣٤) وقال : « رواه أحمد ، وأبو صخر لم يعرفه ، وبقيت رجاله رجال الصحيح » . و « أبو صخر العقيلي » : صاحبى ، جزم البخارى ومسلم وابن حبان وغيرهم أن له صحبة . فالإسناد صحيح . وانظر الإصابة (٧ / ١٠٤) وتعجيل المنفعة (ص ٤٩٥ ، ٤٩٦) . وقوله : « وجنته » - بفتح الجيم والنون ، أى : ستره ودفنه . وفى هامش المخطوطة العتيقة : « جنت الميت واجنته ، أى واريته ، ومنه سمي القبر جنتنا ؛ لأنه وارى صاحبه » .

شاهد في الصحيح، عن أنس. وروى ابن جرير عن عطاء بن يسار، قال: لقيت عبد الله بن عمرو، فقلت: أخبرني عن صفة رسول الله ﷺ في التوراة. قال: أجل والله، إنه لموصوف في التوراة كصفته في القرآن: «يأيها النبي إنا أرسلناك شاهداً ومبشراً ونذيراً وحرزاً للأمينين، أنت عبدى ورسولى، اسمك المتوكل، ليس بفظ ولا غليظ، ولن يقبضه الله حتى يقيم به الملة العوجاء، بأن يقولوا: لا إله إلا الله، ويفتح به قلوباً غُلُفاً، وآذاناً صمماً، وأعيناً عمياً» قال عطاء: ثم لقيت كعباً فسألته عن ذلك؟ فما اختلفا حرفاً، إلا أن كعباً قال بلغته، قال: «قلوباً غُلُوفياً وآذاناً صمومياً وأعيناً عمومياً». وقد رواه البخارى نحوه، وزاد بعد قوله: «ليس بفظ ولا غليظ»: «ولا صحاب في الأسواق، ولا يجزى بالسيئة السيئة، ولكن يعفو ويصفح» (١). وذكر حديث عبد الله بن عمرو، ثم قال: ويقع في كلام كثير من السلف إطلاق «التوراة» على كتب أهل الكتاب. وقد ورد في بعض الأحاديث ما يشبه هذا، والله أعلم.

وقوله تعالى: ﴿يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ﴾ هذه صفة الرسول صلوات الله وسلامه عليه في الكتب المتقدمة، وهكذا كانت حاله، عليه السلام، لا يأمر إلا بخير، ولا ينهى إلا عن شر، كما قال عبد الله بن مسعود: إذا سمعت الله يقول: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ فأرعها سمعك، فإنه خير تؤمر به أو شر تُنهر عنه. ومن أهم ذلك وأعظمه، ما بعثه الله تعالى به من الأمر بعبادته وحده لا شريك له، والنهي عن عبادة من سواه، كما أرسل به جميع الرسل قبله، كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ [النحل: ٣٦]. وروى الإمام أحمد عن أبى حميد وأبى أسيد، أن رسول الله ﷺ قال: «إذا سمعتم الحديث عنى تعرفه قلوبكم، وتلين له أشعاركم وأبشاركم، وترون أنه منكم قريب، فأنا أولاكم به. وإذا سمعتم الحديث عنى تنكره قلوبكم، وتنفر منه أشعاركم وأبشاركم، وترون أنه منكم بعيد، فأنا أبعدكم منه». هذا حديث جيد الإسناد، لم يخرج أحد من أصحاب الكتب. وروى الإمام أحمد عن على، قال: إذا حدثت عن رسول الله ﷺ حديثاً، فظنوا به الذى هو أهدى، والذى هو أهيا، والذى هو أتقى (٢).

وقوله: ﴿وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ﴾ أى: يحل لهم ما كانوا حرموه على أنفسهم من البحائر، والسوائب، والوصائل، والحامى، ونحو ذلك، مما كانوا ضيقوا به على أنفسهم، ويحرم عليهم الخبائث. قال ابن عباس: كل لحم الخنزير والربا، وما كانوا يستحلونه من المحرمات من المأكَل التي حرمها الله تعالى. قال بعض العلماء: كل ما أحل الله تعالى، فهو طيب نافع فى البدن والدين، وكل ما حرمه، فهو خبيث ضار فى البدن والدين.

وقد تمسك بهذه الآية الكريمة من يرى التحسين والتقبيح العقليين، وأجيب عن ذلك بما لا يتسع هذا الموضوع له. وكذا احتج بها من ذهب من العلماء إلى أن المرجع فى حل المأكَل التي

(١) الطبرى (١٥٢٢٥ - ١٥٢٢٧). ورواه أحمد فى المسند (٦٦٢٢) وفضلنا تخريجه هناك.

(٢) المسند (٩٨٥).

لم ينص على تحليلها ولا تحريمها، إلى ما استطابته العرب في حال رفاهيتها، وكذا في جانب التحريم إلى ما استخشته. وفيه كلام طويل أيضا.

وقوله : ﴿ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ ﴾ أى : إنه جاء باليسير والسماحة ، كما ورد الحديث من طرق عن رسول الله ﷺ أنه قال : « بعثت بالحنيفية السمحة » (١). وقال ﷺ لأمريره معاذ وأبى موسى الأشعري، لما بعثهما إلى اليمن: « بشرا ولا تنفرا، ويسرا ولا تعسرا، وتطاوعا ولا تختلعا». وقال صاحبه أبو برة الأسلمي: صحبت رسول الله ﷺ وشهدت تيسيره. وقد كانت الأمم الذين قبلنا فى شرائعهم ضيقٌ عليهم، فوسع الله على هذه الأمة أمورها، وسهلها لهم؛ ولهذا قال رسول الله ﷺ: «إن الله تجاوز لأمتى ما حدثت به أنفسها، ما لم تقل أو تعمل». وقال: «رفع عن أمتى الخطأ والنسيان وما استكرهوا عليه»؛ ولهذا أرشد الله هذه الأمة أن يقولوا: «رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِنْ نُسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إَصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِنَا رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ وَاعْفُ عَنَّا وَارْحَمْنَا أَنْتَ مَوْلَانَا فَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ» [البقرة: ٢٨٦]. وثبت فى صحيح مسلم أن الله تعالى قال بعد كل سؤال من هذه : « قد فعلت، قد فعلت » .

وقوله : ﴿ فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ ﴾ أى : عظموه ووقروه ، وقوله : ﴿ وَأَتَّبِعُوا النَّورَ الَّتِي أَنْزَلْنَا مَعَهُ ﴾ أى : القرآن والوحي الذى جاء به مبلغاً إلى الناس ﴿ أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ أى : فى الدنيا والآخرة.

﴿ قُلْ يَتَّيِبُهَا النَّاسُ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِمَاتِهِ وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴾

يقول تعالى لنبىه ورسوله محمد ﷺ: ﴿ قُلْ ﴾ يا محمد: ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ ﴾، وهذا خطاب للأحمر والأسود، والعربى والعجمى ﴿ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ﴾ أى : جميعكم، وهذا من شرفه وعظمته أنه خاتم النبيين، وأنه مبعوث إلى الناس كافة، كما قال تعالى: ﴿ قُلْ اللَّهُ شَهِيدٌ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَذَا الْقُرْآنُ لِأُنذِرَكُمْ بِهِ وَمَنْ بَلَغَ ﴾ [الانعام: ١٩]، وقال تعالى: ﴿ وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ مِنَ الْأَحْزَابِ فَالنَّارُ مَوْعِدُهُ ﴾ [هود: ١٧]، وقال تعالى: ﴿ وَقُلْ لِلَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْأُمِّيِّينَ أَسْلَمْتُمْ فَإِنْ أَسْلَمُوا فَقَدِ اهْتَدَوْا وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ ﴾ [آل عمران: ٢٠]، والآيات فى هذا كثيرة، كما أن الأحاديث فى هذا أكثر من أن تحصر، وهو معلوم من دين الإسلام ضرورة : أنه، صلوات الله وسلامه عليه، رسول الله إلى الناس كلهم. روى البخارى عن أبى الدرداء ، قال : كانت بين أبى بكر وعمر محاوراة، فأغضب أبو بكر عمر، فانصرف عنه عمر مغضبا، فاتبعه أبو بكر فسأله أن يستغفر له،

(١) مضى مختصرا عند الآية : ٢٨١ من سورة البقرة ومضى كاملا عند الآية : ٣١ من سورة الأعراف .

فلم يفعل حتى أغلق بابه في وجهه، فأقبل أبو بكر إلى رسول الله ﷺ ، فقال أبو الدرداء: ونحن عنده ، قال رسول الله ﷺ: «أما صاحبكم هذا فقد غامر» أى: غاضبٌ وحاقدٌ - قال: وندم عمر على ما كان منه، فأقبل حتى سلم وجلس إلى النبي ﷺ، وقص على رسول الله ﷺ الخبر - قال أبو الدرداء: فغضب رسول الله ﷺ وجعل أبو بكر يقول: والله يا رسول الله ﷺ لانا كنت أظلم، فقال رسول الله ﷺ: «هل أنتم تاركو لى صاحبي؟ إني قلت: يأبها الناس، إني رسول الله إليكم جميعا، فقلتم: كذبت. وقال أبو بكر: صدقت». انفرد به البخارى . وروى الإمام أحمد عن ابن عباس ، أن رسول الله ﷺ قال: «أعطيت خمسا لم يعطهن نبي قبلى - ولا أقوله فخرا: بعثت إلى الناس كافة: الأحمر والأسود، ونصرت بالرعب مسيرة شهر، وأحلت لى الغنائم ولم تحل لأحد قبلى، وجعلت لى الأرض مسجداً وطهوراً ، وأعطيت الشفاعة فأحرتها لأمتى يوم القيامة ، فهى لمن لا يشرك بالله شيئا » . إسناده جيد ، ولم يخرجوه (١) . روى الإمام أحمد عن عمرو بن شعيب، عن أبيه، عن جده، أن رسول الله ﷺ عام غزوة تبوك، قام من الليل يصلى، فاجتمع وراءه رجال من أصحابه يحرسونه، حتى إذا صلى انصرف إليهم فقال لهم: «لقد أعطيت الليلة خمسا ما أعطيهن أحد قبلى، أما أنا فأرسلت إلى الناس كلهم عامة ، وكان من قبلى إنما يرسل إلى قومه، ونصرت على العدو بالرعب، ولو كان بينى وبينهم مسيرة شهر لمئى منى رعبا، وأحلت لى الغنائم أكلها ، وكان من قبلى يعظمون أكلها، كانوا يحرقونها، وجعلت لى الأرض مسجداً وطهوراً، أينما أدركتني الصلاة تمسحت وصليت، وكان من قبلى يعظمون ذلك، إنما كانوا يصلون فى بيعهم وكنائسهم، والخامسة هى ما هى، قيل لى : سل؛ فإن كل نبي قد سأل . فأخرت مسألتي إلى يوم القيامة، فهى لكم ولمن شهد أن لا إله إلا الله». إسناده جيد قوى أيضا ولم يخرجوه (٢) . وروى أيضا عن أبى موسى الأشعري، عن رسول الله ﷺ قال: «من سمع بى من أمتى أو يهودى أو نصرانى، فلم يؤمن بى، لم يدخل الجنة » . وهذا الحديث فى صحيح مسلم من وجه آخر، عن أبى موسى قال: قال رسول الله ﷺ: «والذى نفسى بيده، لا يسمع بى رجل من هذه الأمة: يهودى ولا نصرانى، ثم لا يؤمن بى إلا دخل النار » . وروى الإمام أحمد عن أبى هريرة، عن رسول الله ﷺ ، أنه قال: «والذى نفسى بيده، لا يسمع بى أحد من هذه الأمة: يهودى أو نصرانى، ثم يموت ولا يؤمن بالذى أرسلت به، إلا كان من أصحاب النار». تفرد به أحمد . وروى الإمام أحمد عن أبى موسى، قال: قال رسول الله ﷺ: «أعطيت خمسا: بعثت إلى الأحمر والأسود، وجعلت لى الأرض مسجداً وطهوراً، وأحلت لى الغنائم ولم تحل لمن كان قبلى، ونصرت بالرعب مسيرة شهرا ، وأعطيت الشفاعة - وليس من نبي إلا وقد سأل الشفاعة، وإنى قد اختبأت شفاعتى، ثم جعلتها لمن مات من أمتى لم يشرك بالله شيئا » . وهذا أيضا إسناده صحيح، ولم أرهم خرجوه، والله أعلم، وله مثله من حديث ابن عمر بسند

(١) المسند (٢٧٤٢) . وهو فى مجمع الزوائد (٨ / ٢٥٨) ونسبه أيضا للبخارى والطبرانى بنحوه ، وقال : « ورجال

أحمد رجال الصحيح ، غير يزيد بن أبى زياد ، وهو حسن الحديث » .

(٢) المسند (٧٠٦٨) . وذكره الهيثمى فى الزوائد (١٠ / ٣٦٧) مختصرا قليلا، وقال : «رواه أحمد، ورجاله ثقات» .

جيد أيضا . وهذا الحديث ثابت في الصحيحين من حديث جابر بن عبد الله قال: قال رسول الله ﷺ: «أعطيت خمسا لم يعطهن أحد من الأنبياء قبلي: نصرت بالرعب مسيرة شهر، وجعلت لى الأرض مسجدا وطهورا، فأما رجل من امتى أدركته الصلاة فليصل، وأحلت لى الغنائم، ولم تحل لأحد قبلى، وأعطيت الشفاعة، وكان النبى يبعث إلى قومه، وبعثت إلى الناس عامة» .

وقوله: ﴿الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ﴾ صفة الله تعالى فى قوله: ﴿رَسُولُ اللَّهِ﴾ أى: الذى أرسلنى هو خالق كل شىء وربى ومليكه، الذى بيده الملك والإحياء والإماتة، وله الحكم .

وقوله: ﴿فَأَمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ﴾: أخبرهم أنه رسول الله إليهم، ثم أمرهم باتباعه والإيمان به ﴿النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ﴾ أى: الذى وعدتم به وبشرتم به فى الكتب المتقدمة، فإنه منعوت بذلك فى كتبهم؛ ولهذا قال: ﴿النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِمَاتِهِ﴾ أى: يصدق قوله عمله، وهو يؤمن بما أنزل إليه من ربه ﴿وَاتَّبِعُوهُ﴾ أى: اسلكوا طريقه واقتفوا أثره ﴿لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ أى: إلى الصراط المستقيم .

﴿ وَمِنْ قَوْمِ مُوسَى أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ ﴾

يقول تعالى مخبرا عن بنى إسرائيل أن منهم طائفة يتبعون الحق ويعدلون به، كما قال تعالى: ﴿مَنْ أَهْلُ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللَّهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ﴾ [آل عمران: ١١٣]، وقال تعالى: ﴿وَإِنْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَمَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَا أَنزَلَ إِلَيْهِمْ خَاشِعِينَ لِلَّهِ لَا يَشْتُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَئِكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ [آل عمران: ١٩٩]، وقال تعالى: ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِهِ هُمْ بِهِ يُؤْمِنُونَ . وَإِذَا بَتُلَىٰ عَلَيْهِمْ قَالُوا آمَنَّا بِهِ إِنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلِهِ مُسْلِمِينَ . أُولَئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُمْ مَرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا﴾ [القصص: ٥٢ - ٥٤]، وقال تعالى: ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلَاوَتِهِ أُولَئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ﴾ [الآية البقرة: ١٢١]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهِ إِذَا بَتُلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا . وَيَقُولُونَ سُبْحَانَ رَبِّنَا إِنْ كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا . وَيَخِرُونَ لِلْأَذْقَانِ يَكُونُ بَيْنَهُمْ خُشوعًا﴾ [الإسراء: ١٠٧ - ١٠٩] .

﴿ وَقَطَعْنَاهُمْ اثْنَتَيْ عَشْرَةَ أَسْبَاطًا أُمَمًا وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ إِذِ اسْتَسْقَنَهُ قَوْمُهُ: أَنْ أَضْرِبَ بِعَصَاكَ الْحَجَرَ فَانْبَجَسَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَشْرِبَهُمْ وَظَلَلْنَا عَلَيْهِمُ الْعَنَمَ وَأَنْزَلْنَا عَلَيْهِمُ الْمَنَّانَ وَالسَّلْوَىٰ كُلُّوا مِنْ طَبِيبٍ مَا رَزَقْنَاهُمْ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَكِنْ كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾

﴿ وَإِذْ قِيلَ لَهُمْ اسْكُونُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ وَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ وَقُولُوا حِطَّةٌ وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا نَعْفِرْ لَكُمْ خَطِيئَتَكُمْ سَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ ﴾

﴿ فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِجْزًا مِنْ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَظْلِمُونَ ﴾

تقدم تفسير هذا كله في سورة «البقرة»، وهي مدنية، وهذا السياق مكى، ونبهنا على الفرق بين هذا السياق وذاك بما أغنى عن إعادته، والله الحمد والمنة .

﴿ وَسَأَلْتُهُمْ عَنِ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ حَاضِرَةَ الْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِي السَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِثَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرْعًا وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ لَا تَأْتِيهِمْ كَذَلِكَ نَبِّئُهُمْ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴾

هذا السياق هو بسط لقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ عَلَّمْتُمُ الَّذِينَ اعْتَدُوا مِنْكُمْ فِي السَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ﴾ [البقرة: ٦٥] ، يقول تعالى، لنبية صلوات الله وسلامه عليه: ﴿وَأَسْأَلْتُهُمْ﴾ أى: وأسأل هؤلاء اليهود الذين بحضرتك عن قصة أصحابهم الذين خالفوا أمر الله، ففاجأتهم نقمته على صنيعهم واعتدائهم واحتيالهم فى المخالفة، وحذر هؤلاء من كتمان صفتك التى يجدونها فى كتبهم؛ لتلا يحل بهم ما حل بإخوانهم وسلفهم. وهذه القرية هى «أيلة»، وهى على شاطئ بحر القلزم. قال ابن عباس فى قوله: ﴿وَأَسْأَلْتُهُمْ عَنِ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ حَاضِرَةَ الْبَحْرِ﴾ قال: هى قرية يقال لها «أيلة» بين مدين والطور. وكذا قال عكرمة، ومجاهد، وقتادة . وقال عبد الله بن كثير القارئ: سمعنا أنها أيلة. وقيل: هى مدين، وهو رواية عن ابن عباس .

﴿ إِذْ يَعْدُونَ فِي السَّبْتِ ﴾ أى: يعتدون فيه ويخالفون أمر الله فيه لهم بالوصاية به إذ ذاك ﴿إِذْ تَأْتِيهِمْ حِثَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرْعًا﴾ قال ابن عباس: أى ظاهرة على الماء. قال ابن جرير: وقوله: ﴿وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ لَا تَأْتِيهِمْ كَذَلِكَ نَبِّئُهُمْ﴾ أى: نختبرهم بإظهار السمك لهم على ظهر الماء فى اليوم المحرم عليهم صيده، وإخفائها عنهم فى اليوم الحلال لهم صيده ﴿كَذَلِكَ نَبِّئُهُمْ﴾ نختبرهم ﴿بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾ يقول: بفسقهم عن طاعة الله وخروجهم عنها . وهؤلاء قوم احتالوا على انتهاك محارم الله، بما تعاطوا من الأسباب الظاهرة التى معناها فى الباطن تعاطى الحرام. وقد قال الفقيه الإمام أبو عبد الله بن بطة عن أبى هريرة؛ أن رسول الله ﷺ قال: « لا ترتكبوا ما ارتكب اليهود، فتستحلوا محارم الله بأدنى الخيل ». وإسناده جيد، ويصحح الترمذى بمثل هذا الإسناد كثيراً.

﴿ وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَدِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا قَالُوا مَعذِرَةٌ إِيَّايَ رَبِّكَرُ وَلَعَلَّهُمْ يَنْتَفُونَ ﴾ ﴿١٦٤﴾ ﴿ فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ أَجْبَنَّا الَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ السُّوءِ وَأَخَذْنَا الَّذِينَ ظَلَمُوا بِعَدَابِ بَعِيسٍ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴾ ﴿١٦٥﴾ ﴿ فَلَمَّا عَتَوْا عَنْ مَا نُهُوا عَنْهُ قُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ ﴾ ﴿١٦٦﴾

يخبر تعالى عن أهل هذه القرية أنهم صاروا إلى ثلاث فرق: فرقة ارتكبت المحذور،

واحتالوا على اصطياد السمك يوم السبت، كما تقدم بيانه في سورة البقرة. وفرقة نهت عن ذلك، وأنكرت واعتزلتهم. وفرقة سكتت فلم تفعل ولم تنه، ولكنها قالت للُنكْرَة : ﴿لِمَ تَعْطُونَ قَوْمًا اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا﴾ أى: لم تنهون هؤلاء، وقد علمتم أنهم قد هلكوا واستحقوا العقوبة من الله؟ فلا فائدة فى نهيكم إياهم؟ قالت لهم المنكرة: ﴿مَعَذِرَةٌ إِلَىٰ رَبِّكُمْ﴾. قرأ بعضهم بالرفع، كأنه على تقدير: هذا معذرة. وقرأ آخرون بالنصب، أى: نفعل ذلك ﴿مَعَذِرَةٌ إِلَىٰ رَبِّكُمْ﴾ أى: فيما أخذ علينا من الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ﴿وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ يقولون: ولعل بهذا الإنكار يتقون ما هم فيه ويتركونه، ويرجعون إلى الله تائبين، فإذا تابوا تاب الله عليهم ورحمهم.

قال تعالى: ﴿فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ﴾ أى: فلما أبى الفاعلون المنكر قبول النصيحة، ﴿أَجْمِنَا الَّذِينَ يَبْهَوْنَ عَنِ السُّوءِ وَأَخَذْنَا الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ أى: ارتكبوا المعصية ﴿بِعَذَابٍ بَئِيسٍ﴾، فنص على نجاة الناهين وهلاك الظالمين، وسكت عن الساكتين؛ لأن الجزء من جنس العمل، فهم لا يستحقون مدحا فيمدحوا، ولا ارتكبوا عظيما فيذموا، ومع هذا فقد اختلف الأئمة فيهم: هل كانوا من الهالكين أو من الناجين؟ على قولين:

وقال ابن عباس: ﴿وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِنْهُمْ لِمَ تَعْطُونَ قَوْمًا اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا﴾ هى قرية على شاطئ البحر بين مصر والمدينة، يقال لها: «أيلة»، فحرم الله عليهم الحيتان يوم سبتهم، وكانت الحيتان تأتيهم يوم سبتهم شرعاً فى ساحل البحر، فإذا مضى يوم السبت لم يقدروا عليها. فمضى على ذلك ما شاء الله، ثم إن طائفة منهم أخذوا الحيتان يوم سبتهم، فهتتهم طائفة وقالوا: تأخذونها وقد حرمها الله عليكم يوم سبتكم؟! فلم يزدادوا إلا غياً وعتواً، وجعلت طائفة أخرى تنهاهم، فلما طال ذلك عليهم قالت طائفة من النهاة: تعلمون أن هؤلاء قوم قد حق عليهم العذاب ﴿لِمَ تَعْطُونَ قَوْمًا اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ﴾، وكانوا أشد غضبا لله من الطائفة الأخرى، فقالوا: ﴿مَعَذِرَةٌ إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾، وكل قد كانوا يبهون، فلما وقع عليهم غضب الله نجحت الطائفتان اللتان قالوا: ﴿لِمَ تَعْطُونَ قَوْمًا اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ﴾، والذين قالوا: ﴿مَعَذِرَةٌ إِلَىٰ رَبِّكُمْ﴾، وأهلك الله أهل معصيته الذين أخذوا الحيتان، فجعلهم قردة. وقال عكرمة، عن ابن عباس فى الآية، قال: ما أدرى أنجى الذين قالوا: «أنعطون قوما الله مهلكهم»، أم لا؟ قال: فلم أرل به حتى عرفته أنهم قد نجوا، فكسانى حلة.

وقد قدمنا فى سورة «البقرة» من الآثار فى خبر هذه القرية ما فيه مقنع وكفاية، والله الحمد. القول الثانى: أن الساكتين كانوا من الهالكين.

وقوله تعالى: ﴿وَأَخَذْنَا الَّذِينَ ظَلَمُوا بِعَذَابٍ بَئِيسٍ﴾ : فيه دلالة بالمفهوم على أن الذين بقوا نجوا. و ﴿بَئِيسٍ﴾ فيه قراءات كثيرة، ومعناه فى قول مجاهد: الشديد، وفى رواية: أليم. وقال قتادة: موجه. والكل متقارب، والله أعلم. وقوله: ﴿خَاسِئِينَ﴾ أى: ذليلين مهانين.

﴿ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَى يَوْمِ الْفَيْصَةِ مَن يَسُومُهُمْ سُوءَ الْعَذَابِ ﴾

﴿ إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ ﴿١٦٧﴾

﴿تَأَذَّنَ﴾: تَفَعَّلَ من الأذان ، أى: أَعْلَمَ ، قاله مجاهد. وقال غيره: أَمَرَ. وفى قوة الكلام ما يفيد معنى القسم من هذه اللفظة، ولهذا أتبعت باللام فى قوله: ﴿لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ﴾ أى: على اليهود ﴿إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَن يَسُومُهُمْ سُوءَ الْعَذَابِ﴾ أى: بسبب عصيانهم ومخالفتهم أوامر الله وشرعه واحتيالهم على المحارم. فيقال: إن موسى، عليه السلام، ضرب عليهم الخراج سبع سنين ، وقيل: ثلاث عشرة سنة، وكان أول من ضرب الخراج. ثم كانوا فى قهر الملوك من اليونانيين والكشديانيين والكلدانيين، ثم صاروا إلى قهر النصارى وإذلالهم إياهم، وأخذهم منهم الجزية والخراج، ثم جاء الإسلام، ومحمد ﷺ ، فكانوا تحت قهره وذمته يؤدون الخراج والجزية. وقال ابن عباس : هى الجزية، والذين يسومونهم العذاب: محمد رسول الله ﷺ وأمه، إلى يوم القيامة . وكذا قال سعيد بن جبيرة، وابن جرير، وقتادة.

قلت: ثم آخر أمرهم أنهم يخرجون أنصاراً للدجال، فيقتلهم المسلمون مع عيسى ابن مريم، عليه السلام، وذلك آخر الزمان.

وقوله: ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ الْعِقَابِ﴾ أى: لمن عصاه وخالف شرعه ﴿وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ أى: لمن تاب إليه وأتاب . وهذا من باب قرن الرحمة مع العقوبة، لئلا يحصل اليأس، فيقرن تعالى بين الترغيب والترهيب كثيراً؛ لتبقى النفوس بين الرجاء والخوف.

﴿ وَقَطَعْنَا فِي الْأَرْضِ أُمَّمًا مِّنْهُمْ الْأَصْلِحُونَ وَمِنْهُمْ دُونَ ذَلِكَ وَبَلَوْنَاهُمْ بِالْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾ ﴿١٦٨﴾ فَخَلَفَ مِنْ بَعدِهِمْ خَلْفٌ وَرِثُوا الْكِتَابَ يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَذَا الْأَدْنَى وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا وَإِنْ يَأْتِهِمْ عَرَضٌ مِّثْلُ مَا أَخَذُوهُ آتَرُوا يُؤْخَذَ عَلَيْهِمْ مِّمِثُّ الْكِتَابِ أَنْ لَا يَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ وَدَرَسُوا مَا فِيهِ وَالِدَارُ الْأُخْرَى حَيْرٌ لِلَّذِينَ يُتَّقُونَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٦٩﴾ وَالَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِالْكِتَابِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُصْلِحِينَ ﴿١٧٠﴾

يذكر تعالى أنه فرقهم فى الأرض أُمَمًا، أى: طوائف وفرقًا، كما قال : ﴿وَقَلْنَا مِنْ بَعدِهِ لِبَنِي إِسْرَائِيلَ اسْكُنُوا الْأَرْضَ فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفًا﴾ [الإسراء: ١٠٤] . ﴿مِنْهُمْ الصَّالِحُونَ وَمِنْهُمْ دُونَ ذَلِكَ﴾ أى: فىهم الصالح وغير ذلك ، كما قالت الجن: ﴿وَأَنَا مِثْلُ الصَّالِحِينَ وَمِثْلُ دُونَ ذَلِكَ كُنَّا طَرَاتِقَ قَدَدًا﴾ [الجن: ١١] ﴿وَبَلَوْنَاهُمْ﴾ أى: اختبرناهم ﴿بِالْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ﴾ أى: بالرخاء والشدة، والرغبة والرهبه، والعافية والبلاء ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾.

ثم قال تعالى: ﴿فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ وَرِثُوا الْكِتَابَ يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَذَا الْأَدْنَى وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا وَإِنْ يَأْتِهِمْ عَرَضٌ مِثْلُ يَأْخُذُوهُ﴾، يقول تعالى: فخلف من بعد ذلك الجيل - الذين فيهم الصالح والطيح - خلف آخر لا خير فيهم، وقد ورثوا دراسة الكتاب وهو التوراة، وقال مجاهد: هم النصارى، وقد يكون أعم من ذلك ﴿يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَذَا الْأَدْنَى﴾ أى: يعتاضون عن بذل الحق ونشره بعرض الحياة الدنيا، ويسوقون أنفسهم ويعدون بها بالتوبة، وكلما لاح لهم مثل الأول وقعوا فيه؛ ولهذا قال: ﴿وَإِنْ يَأْتِهِمْ عَرَضٌ مِثْلُ يَأْخُذُوهُ﴾ كما قال سعيد بن جبير: يعملون الذنب، ثم يستغفرون الله منه، فإن عرض ذلك الذنب أخذوه. وقال مجاهد: لا يشرف لهم شيء من الدنيا إلا أخذوه، حلالاً كان أو حراماً، ويتمنون المغفرة، ويقولون: ﴿سَيُغْفَرُ لَنَا﴾ وإن وجدوا عرضاً مثله يأخذوه. وقال قتادة فى: ﴿فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ﴾: أى والله، لخلف سوء، ورثوا الكتاب بعد أنبيائهم ورسلمهم، ورثهم الله وعهد إليهم، وقال الله فى آية أخرى: ﴿فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلَاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهْوَاتِ﴾ [مريم: ٥٩]، قال: ﴿يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَذَا الْأَدْنَى وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا﴾، تمنوا على الله أمانى، وغرة يغترون بها، ﴿وَإِنْ يَأْتِهِمْ عَرَضٌ مِثْلُ يَأْخُذُوهُ﴾ لا يشغلهم شيء عن شيء، ولا ينههم شيء عن ذلك، كلما هف لهم شيء من الدنيا أكلوه، لا يبالون حلالاً كان أو حراماً.

قال الله تعالى: ﴿أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِمْ مِيثَاقُ الْكِتَابِ أَنْ لَا يَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ وَدَرَسُوا مَا فِيهِ﴾ يقول تعالى منكرأ عليهم فى صنعهم هذا، مع ما أخذ عليهم من الميثاق ليبين الحق للناس، كما قال تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُ فَنَبَذُوهُ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ وَأَشْرَوْا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَبَسَّ مَا يَشْتَرُونَ﴾ [آل عمران: ١٨٧]. قال ابن عباس: ﴿أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِمْ مِيثَاقُ الْكِتَابِ أَنْ لَا يَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ﴾ قال: فيما يوجبون على الله من غفران ذنوبهم التى لا يزالون يعودون فيها، ولا يتوبون منها. وقوله تعالى: ﴿وَالدَّارُ الْآخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلَا يَعْلَمُونَ﴾ (١): يرغبهم تعالى فى جزيل ثوابه، ويحذرهم من وبيل عقابه، أى: وثوابى وما عندى خير لمن اتقى المحارم، وترك هوى نفسه، وأقبل على طاعة ربه ﴿أَفَلَا تَعْلَمُونَ﴾ يقول: أفليس لهؤلاء الذين اعتاضوا بعرض الدنيا عما عندى عقل يردعهم عما هم فيه من السفه والتبذير؟! ثم أثنى تعالى على من تمسك بكتابه الذى يقوده إلى اتباع رسوله محمد ﷺ، كما هو مكتوب فيه، فقال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِالْكِتَابِ﴾ أى: اعتصموا به، واقتدوا بأوامره، وتركوا زواجره ﴿وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُصْلِحِينَ﴾.

﴿وَإِذْ نَقَعْنَا الْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَانَهُمْ ظِلَّةٌ وَظَنُوا أَنَّهُ وَقِعَ بِهِمْ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ (١٧١)

قال ابن عباس: قوله: ﴿وَإِذْ نَقَعْنَا الْجَبَلَ فَوْقَهُمْ﴾ يقول: رفعناه، وهو قوله: ﴿وَرَفَعْنَا فَوْقَهُمْ﴾

(١) « أفلا يعقلون »: قراءة حفص - التى عليها مصاحفنا - ونافع وابن عامر: « تعقلون ». وقرأ باقى الأربعة عشر: « يعقلون » بياء الغيبة، وهى الثابتة فى تفسير ابن كثير، وهى التى فسر المعنى عليها.

الطُّورِ بِمِثْقَالِهِمْ ﴿النساء: ١٥٤﴾ .

﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ شَهِدْنَا أَن تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ ﴿١٧٢﴾ أَوْ تَقُولُوا إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِنْ بَعْدِهِمْ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ ﴿١٧٣﴾ وَكَذَٰلِكَ نَفْصِلُ الْآيَاتِ وَلَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿١٧٤﴾﴾

يخبر تعالى أنه استخرج ذرية بنى آدم من أصلابهم، شاهدين على أنفسهم أن الله ربهم ومليكمهم، وأنه لا إله إلا هو. كما أنه تعالى فطرهم على ذلك وجبلهم عليه، قال تعالى: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ﴾ [الروم: ٣٠]، وفي الصحيحين عن أبي هريرة، رضى الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «كل مولود يولد يولد على الفطرة - وفي رواية: على هذه الملة - فأبواه يهودانه، وينصرانه، ويمجسانه، كما تولد البهيمة بهيمة جمعاء، هل تحسون فيها من جدعاء» وفي صحيح مسلم، عن عياض بن حمار قال: قال رسول الله ﷺ: «يقول الله: إني خلقت عبادي حنفاء فجاءتهم الشياطين فاجتالتهم، عن دينهم وحرمت عليهم ما أحللت لهم». وروى ابن جرير عن الحسن عن الأسود بن سريع من بنى سعد، قال: غزوت مع رسول الله ﷺ أربع غزوات، قال: فتناول القوم الذرية بعد ما قتلوا المقاتلة، فبلغ ذلك رسول الله ﷺ، فاشتد عليه، ثم قال: «ما بال أقوام يتناولون الذرية؟» قال رجل: يا رسول الله، أليسوا أبناء المشركين؟ فقال: «إن خياركم أبناء المشركين، ألا إنها ليست نسمة تولد إلا ولدت على الفطرة، فما تزال عليها حتى يبين عنها لسانها، فأبواها يهودانها وينصرانها». قال الحسن: ولقد قال الله في كتابه: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ﴾ الآية . قد رواه الإمام أحمد والنسائي، ولم يذكر قول الحسن البصرى واستحضاره الآية عند ذلك (١) .

وقد وردت أحاديث في أخذ الذرية من صلب آدم، عليه السلام، وتمييزهم إلى أصحاب اليمين وأصحاب الشمال، وفي بعضها الاستشهاد عليهم بأن الله ربهم. روى الإمام أحمد عن أنس بن مالك، رضى الله عنه، عن النبي ﷺ، قال: «يقال للرجل من أهل النار يوم القيامة: أرايت لو كان لك ما على الأرض من شيء أكننت مفتديا به؟» قال: «فيقول: نعم». فيقول: قد أردت منك أهون من ذلك، قد أخذت عليك في ظهر آدم ألا تشرك بى شيئاً، فأبيت إلا أن تشرك بى». أخرجاه في الصحيحين . وروى الإمام أحمد عن ابن عباس عن النبي ﷺ قال: «إن الله أخذ الميثاق من ظهر آدم، عليه السلام، بنعمان يوم عرفة، فأخرج من صلبه كل ذرية

(١) الطبرى (١٥٣٥٣) . وتفصيل تخريجه هناك . وقوله: «ذرياتهم» هو الثابت في المخطوطتين، فهى القراءة التى اختارها الحافظ ابن كثير بالجمع، وهى قراءة نافع وأبى عمر . وقرأ باقى السبعة: «ذريتهم» بالإنفراد .

ذراها فشرها بين يديه، ثم كلمهم قبلاً، قال: ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ شَهِدْنَا أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ أَوْ تَقُولُوا﴾ إلى قوله: ﴿الْمُبْطِلُونَ﴾. ورواه النسائي. ورواه ابن جرير وابن أبي حاتم، إلا أن ابن أبي حاتم جعله موقوفاً. وأخرجه الحاكم وقال: صحيح الإسناد ولم يخرجاه، وقد احتج مسلم بكلثوم بن جبر. وهكذا قال، ورواه عن ابن عباس موقوفاً فهذا أكثر وأثبت، والله أعلم (١). وروى الطبري عن جوبير قال: مات ابن للضحك بن مَرْحَم، ابن ستة أيام. قال: فقال: يا جابر، إذا أنت وضعت ابني في لحده، فأبرز وجهه، وحلّ عنه عقده، فإن ابني مُجَلِّسٌ، ومسؤول. ففعلت به الذي أمر، فلما فرغت قلت: يرحمك الله، عمّ يسأل ابنك؟ من يسأله إياه؟ قال: يسأل عن الميثاق الذي أقر به في صلب آدم. قلت: يا أبا القاسم، وما هذا الميثاق الذي أقر به في صلب آدم؟ قال: حدثني ابن عباس: أن الله مسح صلب آدم فاستخرج منه كل نسمة هو خالقها إلى يوم القيامة، فأخذ منهم الميثاق: أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئاً، وتكفل لهم بالأرزاق، ثم أعادهم في صلبه. فلن تقوم الساعة حتى يولد من أعطى الميثاق يومئذ، فمن أدرك منهم الميثاق الآخر فوفى به، نفعه الميثاق الأول. ومن أدرك الميثاق الآخر فلم يقر به، لم ينفعه الميثاق الأول. ومن مات صغيراً قبل أن يدرك الميثاق الآخر، مات على الميثاق الأول، على الفطرة (٢). فهذه الطرق كلها مما تقوى وَقَفَ هذا على ابن عباس، والله أعلم (٣).

وروى الإمام أحمد عن مسلم بن يسار الجهني: أن عمر بن الخطاب سئل عن هذه الآية: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ﴾ الآية، فقال عمر ابن الخطاب: سمعت رسول الله ﷺ، سئل عنها؟ فقال: «إن الله خلق آدم، عليه السلام، ثم مسح ظهره بيمينه، فاستخرج منه ذرية، قال: خلقت هؤلاء للجنة، وبعمل أهل الجنة يعملون. ثم مسح ظهره فاستخرج منه ذرية، قال: خلقت هؤلاء للنار وبعمل أهل النار يعملون». فقال رجل: يا رسول الله، فقيم العمل؟ قال رسول الله ﷺ: «إذا خلق الله العبد للجنة، استعمله بعمل أهل الجنة، حتى يموت على عمل من أعمال أهل الجنة، فيدخله الجنة. وإذا خلق العبد للنار، استعمله بعمل أهل النار حتى يموت على عمل من أعمال أهل النار، فيدخله به النار». وهكذا رواه أبو داود والنسائي والترمذي وابن أبي حاتم وابن جرير. وأخرجه ابن حبان في صحيحه، قال الترمذي: وهذا حديث حسن، ومسلم بن يسار لم يسمع عمر. وكذا قال أبو حاتم وأبو زرعة. زاد أبو حاتم: وبينهما نعيم بن ربيعة (٤).

وهذا الذي قاله أبو حاتم، رواه أبو داود عن مسلم بن يسار الجهني، عن نعيم بن ربيعة

(١) بين ابن كثير هنا من روه موقوفاً على ابن عباس. والمرفوع في المسند (٢٤٥٥). وقد بينا هناك أن الموقوف لا يكون علة للمرفوع، والرفع زيادة من ثقة، فهي مقبولة.

(٢) الطبري (١٥٣٥٢). وإسناده جيد.

(٣) وهو في حكم المرفوع؛ لأن مما لا يعلم برأى. ثم الرفع زيادة من ثقة، فهو مقبول.

(٤) المسند (٣١١)، وهو في الموطأ (٩٢ / ٢) والترمذي (١٠٧ / ٤) وصحيح ابن حبان (٢ / ٢٨٦) (من المخطوطة المصورة). وذكره البخاري في التاريخ الكبير (٩٧ / ٤ / ٢ / ٩٦، ٩٧).

قال: كنت عند عمر بن الخطاب ، وقد سئل عن هذه الآية: «وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ» ، فذكره . وقال الحافظ الدارقطنى: وقد تابع عمر بن جُعْثَمَ يزيد بن سنان أبو قَرَوَةَ الرَّهَّأوى، وقولهما أولى بالصواب من قول مالك، والله أعلم . قلت: الظاهر أن الإمام مالكا إنما أسقط ذكر «نعيم بن ربيعة» عمداً؛ لما جهل حال نعيم ولم يعرفه، فإنه غير معروف إلا فى هذا الحديث، ولذلك يسقط ذكر جماعة ممن لا يرتضيهم؛ ولهذا يرسل كثيراً من المرفوعات، ويقطع كثيراً من الموصولات، والله أعلم .

روى الترمذى عن أبى هريرة ، قال: قال رسول الله ﷺ: «لما خلق الله آدم مسح ظهره، فسقط من ظهره كل نَسْمَةٍ هو خالقها من ذريته إلى يوم القيامة، وجعل بين عيني كل إنسان منهم وَبَيْصًا من نور، ثم عرضهم على آدم، فقال: أى رب، من هؤلاء؟ قال: هؤلاء ذريتك . فرأى رجلاً منهم فأعجبه وَبَيْص ما بين عينيه، قال: أى رب، من هذا؟ قال: هذا رجل من آخر الأمم من ذريتك، يقال له: داود . قال: أى رب، وكم جعلت عمره؟ قال: ستين سنة . قال: أى رب، زده من عمرى أربعين سنة . فلما انقضى عمر آدم، جاءه ملك الموت قال: أو لم يبق من عمرى أربعون سنة؟ قال: أو لم تعطها ابنك داود؟ قال: فجحد آدم فجحدت ذريته، ونسى آدم فنسيت ذريته، وخطيء آدم فخطئت ذريته » . ثم قال الترمذى: هذا حديث حسن صحيح ، ورواه الحاكم وقال: صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه . ورواه ابن أبى حاتم فذكر نحو ما تقدم، إلى أن قال: «ثم عرضهم على آدم فقال: يا آدم، هؤلاء ذريتك . وإذا فيهم الأجدم والأبرص والأعمى، وأنواع الأسقام، فقال آدم: يا رب، لم فعلت هذا بذريتي؟ قال: كى تشكر نعمتى . وقال آدم: يا رب، من هؤلاء الذين أظهَرَ الناس نورا؟ قال: هؤلاء الأنبياء يا آدم من ذريتك» . ثم ذكر قصة داود، كنحو ما تقدم . وعن هشام بن حكيم : أن رجلاً سأل النبى ﷺ فقال: يا رسول الله، أم قد قضى القضاء؟ قال: فقال رسول الله ﷺ: «إن الله قد أخذ ذرية آدم من ظهورهم، ثم أشهدهم على أنفسهم، ثم أفاض بهم فى كفيه» ثم قال: «هؤلاء فى الجنة ، وهؤلاء فى النار، فأهل الجنة مُسَرَّون لعمل أهل الجنة، وأهل النار مُسَرَّون لعمل أهل النار» . رواه ابن جرير (١) . وروى عن مجاهد، وعكرمة، وسعيد بن جبیر، وغير واحد من علماء السلف، سياقات توافق هذه الأحاديث، اكتفينا بإيرادها عن التطويل فى تلك الآثار كلها، وبالله المستعان .

فهذه الأحاديث دالة على أن الله، عز وجل، استخرج ذرية آدم من صلبه، وميز بين أهل الجنة وأهل النار . وأما الإشهاد عليهم هناك بأنه ربهم، فما هو إلا فى حديث كلثوم بن جبر ، عن سعيد بن جبیر، عن ابن عباس ، وفى حديث عبد الله بن عمرو ، وقد بينا أنهما موقوفان لا مرفوعان، كما تقدم . ومن ثم قال قائلون من السلف والخلف: إن المراد بهذا الإشهاد إنما هو

فَطَرَهُمْ عَلَى التَّوْحِيدِ، كما تقدم في حديث أبي هريرة وعياض بن حمّار المُجَاشَعِي، ومن رواية الحسن البصري عن الأسود بن سَرِيح. وقد فسر الحسن البصري الآية بذلك، قالوا: ولهذا قال: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ﴾، ولم يقل: «من آدم»، ﴿مِنْ ظُهُورِهِمْ﴾، ولم يقل: «من ظهره» ﴿ذُرِّيَّاتِهِمْ﴾ أى: جعل نسلهم جيلا بعد جيل، وقرناً بعد قرن، كما قال تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ خُلَافَاءَ الْأَرْضِ﴾ [الأنعام: ١٦٥]، وقال: ﴿وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ﴾ [النمل: ٦٢]، وقال: ﴿كَمَا أَنْشَأَكُمْ مِنْ ذُرِّيَةِ قَوْمٍ آخَرِينَ﴾ [الأنعام: ١٣٣].

قال: ﴿وَأَشْهَدُهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ﴾ أى: أوجدتهم شاهدين بذلك، قائلين له حالاً وقالاً. والشهادة تارة تكون بالقول، كقوله: ﴿قَالُوا شَهِدْنَا عَلَىٰ أَنْفُسِنَا﴾ [الأنعام: ١٣٠]، وتارة تكون حالاً، كما قال تعالى: ﴿مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَنْ يَعْمُرُوا مَسَاجِدَ اللَّهِ شَاهِدِينَ عَلَىٰ أَنْفُسِهِم بِالْكَفْرِ﴾ [التوبة: ١٧] أى: حالهم شاهد عليهم بذلك لا أنهم قائلون ذلك، وكما قال تعالى: ﴿وَأِنَّهُ عَلَىٰ ذَلِكَ لَشَهِيدٌ﴾ [العاديات: ٧]، كما أن السؤال تارة يكون بالمقال، وتارة يكون بالحال، كما في قوله: ﴿وَأَتَاكُمْ مِنْ كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ﴾ [إبراهيم: ٣٤]، قالوا: ومما يدل على أن المراد بهذا هذا: أن جعل هذا الإشهاد حجة عليهم في الإشراك، فلو كان قد وقع هذا كما قاله من قاله، لكان كل أحد يذكره، ليكون حجة عليه. فإن قيل: إخبار الرسول ﷺ به كاف في وجوده؟ فالجواب: أن المكذبين من المشركين يكذبون بجميع ما جاءت به الرسل من هذا وغيره. وهذا جعل حجة مستقلة عليهم، فدل على أنه الفطرة التي فطروا عليها من الإقرار بالتوحيد؛ ولهذا قال: ﴿أَنْ تَقُولُوا﴾ أى: لثلاثا تقولوا يوم القيامة: ﴿إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا﴾ أى: التوحيد ﴿غَافِلِينَ﴾. أو تقولوا إنما أشرك آبائنا ﴿الآية﴾.

﴿وَأْتَلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَاسْلَخَ مِنْهَا فَأَتَبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ﴾ (١٧٥) ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِنْ تَحَمَّلَ عَلَيْهِ يَلْهَثُ أَوْ تَرَكَهٗ يَلْهَثُ ذَٰلِكَ مِثْلَ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا فَاقْصِصْ الْقِصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ (١٧٦) ﴿سَاءَ مَثَلًا الْقَوْمُ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَأَنْفُسُهُمْ كَانُوا يَظْلِمُونَ﴾ (١٧٧)

روى عبد الرزاق عن عبد الله بن مسعود، في قوله تعالى: ﴿وَأْتَلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَاسْلَخَ مِنْهَا﴾ الآية، قال: هو رجل من بنى إسرائيل، يقال له: بلعم بن باعوراء. وقال ابن عباس: هو صيفى بن الراهب. وقال مالك بن دينار: كان من علماء بنى إسرائيل، وكان مجاب الدعوة، يقدمونه في الشدائد، بعثه نبي الله موسى إلى ملك مدين يدعو إلى الله، فأقطعاه وأعطاه، فتبع دينه وترك دين موسى، عليه السلام. وروى سفيان بن عيينة عن ابن عباس: هو بلعم بن باعوراء. وكذا قال مجاهد وعكرمة. وعن عبد الله بن عمرو في قوله: ﴿وَأْتَلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا﴾ الآية، قال: هو صاحبكم أمية ابن أبي الصلت. وقد

روى من غير وجه، عنه وهو صحيح إليه، وكأنه إنما أراد أن أمية بن أبي الصلت يشبهه، فإنه كان قد اتصل إليه علم كثير من علم الشرائع المتقدمة، ولكنه لم ينتفع بعلمه، فإنه أدرك زمان رسول الله ﷺ، وبلغته أعلامه وآياته ومعجزاته، وظهرت لكل من له بصيرة، ومع هذا اجتمع به ولم يتبعه، وصار إلى موالاة المشركين ومناصرتهم وامتداحهم، ورثى أهل بدر من المشركين بمرثاة بليغة، قبحه الله . وقد جاء في بعض الأحاديث: «أنه ممن آمن لسانه، ولم يؤمن قلبه»؛ فإن له أشعاراً ربانية وحكما وفصاحة، ولكنه لم يشرح الله صدره للإسلام.

وأما المشهور في سبب نزول هذه الآية الكريمة، فإنما هو رجل من المتقدمين في زمان بني إسرائيل، كما قال ابن مسعود وغيره من السلف.

[وقوله: ﴿فَاتَّبَعَهُ الشَّيْطَانُ﴾ أى: استحوذ عليه وغلبه على أمره، فمهما أمره امتثل وأطاعه؛ ولهذا قال: ﴿فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ﴾ أى: من الهالكين الخائرين البائسين] (١). وقد ورد في معنى هذه الآية حديث رواه الحافظ أبو يعلى عن جندب الجلى : أن حذيفة - يعنى ابن اليمان، حدثه قال: قال رسول الله ﷺ: «إن مما أتخوف عليكم رجلٌ قرأ القرآن، حتى إذا رؤيت بهجته عليه وكان ردء الإسلام اعتره إلى ما شاء الله، انسلخ منه، ونبذه وراء ظهره، وسعى على جاره بالسيف، ورماه بالشرك». قال: قلت: يا نبى الله، أيهما أولى بالشرك: المرمى أو الرامى؟ قال: «بل الرامى». وإسناده جيد .

وقوله تعالى: ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ﴾ يقول تعالى: ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا﴾ أى: لرفعناه من التدنس عن قاذورات الدنيا بالآيات التى آتيناها إياها ﴿وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ﴾ أى: مال إلى زينة الحياة الدنيا وزهرتها، وأقبل على لذاتها ونعيمها، وغرته كما غرت غيره من غير (٢) أولى البصائر والنهى.

وقوله: ﴿فَمِثْلَهُ كَمِثْلِ الْكَلْبِ إِنْ تَحْمِلَ عَلَيْهِ يَلْهَثُ أَوْ تَتْرَكُهُ يَلْهَثُ﴾ قيل: معناه: فصار مثله فى ضلاله واستمراره فيه، وعدم انتفاعه بالدعاء إلى الإيمان وعدم الدعاء، كالكلب فى لهيئه فى حالتيه: إن حملت عليه وإن تركته، هو يلهث فى الحالين، فكذلك هذا لا ينتفع بالموعظة والدعوة إلى الإيمان ولا عدمه؛ كما قال تعالى: ﴿سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أُنذِرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْتَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [البقرة: ٦]، ﴿اسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِنْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ﴾ [التوبة: ٨٠]، ونحو ذلك . وقيل: معناه: أن قلب الكافر والمنافق والضال ضعيف فارغ من الهدى، فهو كثير الوجيب، فعبر عن هذا بهذا، نقل نحوه عن الحسن البصرى وغيره .

وقوله تعالى: ﴿فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ يقول تعالى لنبىه محمد ﷺ: ﴿فَاقْصُصِ

(١) هذه الفقرة ساقطة من المطبوع من «عمدة التفسير»، وأثبتناها من المخطوطة الأزهرية . (الباز) .

(٢) سقط كلمة «غير» من المطبوع من «عمدة التفسير»، وأثبتناها من المخطوطة الأزهرية . ولا يستقيم المعنى بدونها . (الباز) .

الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ ﴿١٧٨﴾ أى : لعل بنى إسرائيل العالمين بحال بلعام ، وما جرى له فى ضلال الله إياه وإيعاده من رحمته ، بسبب أنه استعمل نعمة الله عليه - فى تعليمه الاسم الأعظم الذى إذا سئل به أعطى ، وإذا دعى به أجاب - فى غير طاعة ربه ، بل دعا به على حزب الرحمن ، وشعب الإيمان ، أتباع عبده ورسوله فى ذلك الزمان ، كلهم الله موسى بن عمران ، عليه السلام ؛ ولهذا قال : ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ أى : فيحذروا أن يكونوا مثله ؛ فإن الله قد أعطاهم علماً ، وميزهم على من عداهم من الأعراب ، وجعل بأيديهم صفة محمد ﷺ يعرفونها كما يعرفون أبناءهم ، فهم أحق الناس بأولاهم باتباعه ومناصرتة ومؤازرتة ، كما أخبرتهم أنبياءهم بذلك وأمرتهم به ؛ ولهذا من خالف منهم ما فى كتابه وكتمه فلم يعلم به العباد ، أحل الله به ذلاً فى الدنيا موصولاً بذل الآخرة .

وقوله : ﴿سَاءَ مَثَلًا الْقَوْمُ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا﴾ : يقول تعالى : ساء مثلاً مثل القوم الذين كذبوا بآياتنا ، أى : ساء مثلهم أن شبهوا بالكلاب التى لا همة لها إلا فى تحصيل أكلة أو شهوة ، فمن خرج عن حيز العلم والهدى وأقبل على شهوة نفسه ، واتبع هواه ، صار شبيهاً بالكلب ، وبئس المثل مثله ؛ ولهذا ثبت فى الصحيح أن رسول الله ﷺ قال : «ليس لنا مثل السوء ، العائد فى هبته كالكلب يعود فى قيئه» (١) .

وقوله : ﴿وَأَنْفُسُهُمْ كَانُوا يَظْلَمُونَ﴾ أى : ما ظلمهم الله ، ولكن هم ظلموا أنفسهم ، بإعراضهم عن اتباع الهدى ، وطاعة المولى ، إلى الركون إلى دار البلى ، والإقبال على تحصيل اللذات وموافقة الهوى .

﴿مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِىُّ وَمَنْ يُضِلِّ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ (١٧٨)

يقول تعالى : من هداه الله فإنه لا مضل له ، ومن أضله فقد خاب وخسر وضل لا محالة ، فإنه تعالى ما شاء كان ، وما لم يشأ لم يكن ؛ ولهذا جاء فى حديث ابن مسعود : «إن الحمد لله ، نحمده ونستعينه ونستغديه ونستغفره ، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا ، من يهده الله فلا مضل له ، ومن يضلل الله فلا هادى له ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله » . الحديث بتمامه رواه الإمام أحمد ، وأهل السنن ، وغيرهم .

﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَئِكَ هُمُ الْعَقِلُونَ﴾ (١٧٩)

(١) رواه أحمد والبخارى والترمذى والنسائى ، من حديث ابن عباس ، كما فى الفتح الكبير (٣ / ٦٥) . وهو فى المسند (١٨٧٢) .

لها، ويعمل أهلها يعملون، فإنه تعالى لما أراد أن يخلق الخلق، علم ما هم عاملون قبل كونهم، فكتب ذلك عنده في كتاب قبل أن يخلق السموات والأرض بخمسين ألف سنة، كما ورد في صحيح مسلم، عن عبد الله بن عمرو، أن رسول الله ﷺ قال: «إن الله قَدَّرَ مقادير الخلائق قبل أن يخلق السموات والأرض بخمسين ألف سنة، وكان عرشه على الماء». وفي صحيح مسلم عن عائشة أم المؤمنين، أنها قالت: دُعِيَ رسول الله ﷺ إلى جنازة صبي من الأنصار، فقلت: يا رسول الله، طوبى له، عصفور من عصافير الجنة، لم يعمل السوء ولم يدركه. فقال رسول الله ﷺ: «أو غير ذلك يا عائشة، إن الله خلق الجنة، وخلق لها أهلاً، وهم في أصلاب آبائهم، وخلق النار، وخلق لها أهلاً، وهم في أصلاب آبائهم». وفي الصحيحين من حديث ابن مسعود: «ثم يبعث إليه الملك، فيؤمر بأربع كلمات، فيكتب: رزقه، وأجله، وعمله، وشقى أم سعيد». وتقدم أن الله لما استخرج ذرية آدم من صلبه وجعلهم فريقين: أصحاب اليمين وأصحاب الشمال، قال: «هؤلاء للجنة ولا أبالي، وهؤلاء للنار ولا أبالي». والأحاديث في هذا كثيرة، ومسألة القدر كبيرة ليس هذا موضع بسطها.

وقوله تعالى: «لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا» يعنى: ليس ينتفعون بشيء من هذه الجوارح التي جعلها الله سبباً للهداية، كما قال تعالى: «وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَارًا وَأَفْئِدَةً فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَا أَبْصَارُهُمْ وَلَا أَفْئِدَتُهُمْ مِنْ شَيْءٍ إِذْ كَانُوا يَجْحَدُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ» الآية [الاحقاف: ٢٦]، وقال تعالى: «صُمُّ بَكْمٌ عُمِّي فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ» [البقرة: ١٨]، هذا في حق المنافقين، وقال في حق الكافرين: «صُمُّ بَكْمٌ عُمِّي فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ» [البقرة: ١٧١]، ولم يكونوا صمًا وبكمًا وعميًا إلا عن الهدى، كما قال تعالى: «وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَأَسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُعْرِضُونَ» [الأنفال: ٢٣]، وقال: «فَإِنَّمَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ» [الحج: ٤٦]، وقال: «وَمَنْ يَعِشْ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ تَقِيضُ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ. وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُهْتَدُونَ» [الزخرف: ٣٦، ٣٧].

وقوله تعالى: «أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ» أى: هؤلاء الذين لا يسمعون الحق ولا يعون ولا يبصرون الهدى، كالأنعام السارحة التي لا تنتفع بهذه الحواس منها إلا في الذي يُقَيِّتُها من ظاهر الحياة الدنيا، كما قال تعالى: «وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دَعَاءً وَنِدَاءً» [البقرة: ١٧١] أى: ومثلهم - في حال دعائهم إلى الإيمان - كمثل الأنعام إذا دعاها راعيها لا تسمع إلا صوته، ولا تفقه ما يقول؛ ولهذا قال في هؤلاء: «بَلْ هُمْ أَضَلُّ» أى: من الدواب؛ لأنها قد تستجيب مع ذلك لراعيها إذا أَسَّ بها، وإن لم تفقه كلامه، بخلاف هؤلاء؛ ولأن الدواب تفقه ما خلقت له إما بطبعها وإما بتسخيرها، بخلاف الكافر، فإنه إنما خلق ليعبد الله ويوحده، فكفر بالله وأشرك به؛ ولهذا من أطاع الله من البشر كان أشرف من مثله من الملائكة في معاده، ومن كفر به من البشر، كانت الدواب أتم منه؛ ولهذا قال تعالى: «أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ».

﴿ وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾

عن أبي هريرة، رضى الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «إن لله تسعة وتسعين اسما مائة إلا واحدا، من أحصاها دخل الجنة، وهو وتر يحب الوتر». أخرجاه فى الصحيحين . وأخرجه الترمذى مثله، وزاد بعد قوله: «يحب الوتر»: هو الله الذى لا إله إلا هو الرحمن الرحيم، الملك، القدوس، السلام، المؤمن، المهيمن، العزيز، الجبار، المتكبر، الخالق، البارئ، المصور، الغفار، القهار، الوهاب، الرزاق، الفتاح، العليم، القابض، الباسط، الخافض، الرافع، المعز، المذل، السميع، البصير، الحكيم، العدل، اللطيف، الخبير، الحليم، العظيم، الغفور، الشكور، العلى، الكبير، الحفيظ، المقيت، الحسيب، الجليل، الكريم، الرقيب، المجيب، الواسع، الحكيم، الودود، المجيد، الباعث، الشهيد، الحق، الوكيل، القوى، المتين، الولى، الحميد، المحصى، المبدئ، المعيد، المحيى، المميت، الحى، القيوم، الواجد، الماجد، الواحد، الأحد، الفرد، الصمد، القادر، المقتدر، المقدم، المؤخر، الأول، الآخر، الظاهر، الباطن، الوالى، المتعالى، البر، التواب، المنتقم، العفو، الرؤوف، مالك الملك، ذو الجلال والإكرام، المقسط، الجامع، الغنى، المغنى، المانع، الضار، النافع، النور، الهادى، البديع، الباقي، الوارث، الرشيد، الصبور . ثم قال الترمذى: هذا حديث غريب وقد روى من غير وجه عن أبى هريرة ، ولا نعلم فى كثير من الروايات ذكر الأسماء إلا فى هذا الحديث . ورواه ابن حبان فى صحيحه ، وقد رواه ابن ماجه عن أبى هريرة مرفوعا ، فسرد الأسماء كتحو مما تقدم بزيادة ونقصان . والذى عول عليه جماعة من الحفاظ أن سرد الأسماء فى هذا الحديث مدرج فيه ، وإنما ذلك كما رواه الوليد بن مسلم وعبد الملك بن محمد الصنعانى ، عن زهير بن محمد: أنه بلغه عن غير واحد من أهل العلم أنهم قالوا ذلك، أى: أنهم جمعوها من القرآن كما روى عن جعفر بن محمد وسفيان بن عيينة وأبى زيد اللغوى، والله أعلم .

ثم ليعلم أن الأسماء الحسنى ليست منحصرة فى التسعة والتسعين، بدليل ما رواه الإمام أحمد عن عبد الله بن مسعود، عن رسول الله ﷺ ، أنه قال: «ما أصاب أحدا قط هم ولا حزن فقال: اللهم إني عبدك، ابن عبدك، ابن أمتك، ناصيتي بيدك، ماض فى حكمك، عدل فى قضاؤك، أسألك بكل اسم هو لك سميت به نفسك، أو علمته أحدا من خلقك، أو أنزلته فى كتابك، أو استأثرت به فى علم الغيب عندك، أن تجعل القرآن ربيع قلبي، ونور صدري، وجلاء حزني، وذهب همي، إلا أذهب الله همه وحزنه وأبدله مكانه فرحاً». فقيل: يا رسول الله، أفلا نتعلمها ؟ فقال: « بلى ، ينبغى لمن سمعها أن يتعلمها ». وقد أخرجه الإمام أبو حاتم بن حبان البستى فى صحيحه بمثله . وذكر الفقيه الإمام أبو بكر بن العربى أحد أئمة المالكية فى كتابه: «الأحوذى فى شرح الترمذى» أن بعضهم جمع من الكتاب والسنة من أسماء الله ألف اسم، فالله أعلم .

وقال ابن عباس فى قوله تعالى: ﴿وَذَرُوا الَّذِينَ يَلْحُدُونَ فِيْ اَسْمَائِهِ﴾ قال: إلحاد الملحدين: أن دَعَوْا اللات فى اَسْمَاءِ الله. وقال مجاهد: ﴿وَذَرُوا الَّذِينَ يَلْحُدُونَ فِيْ اَسْمَائِهِ﴾ قال: اشتقوا اللات من الله، واشتقوا العزى من العزيز. وقال قتادة: ﴿يَلْحُدُونَ﴾ يشركون فى اَسْمَائِهِ. عن ابن عباس: الإلحاد: التكذيب. وأصل الإلحاد فى كلام العرب: العدول عن القصد، والميل والجور والانحراف، ومنه اللحد فى القبر، لانحرافه إلى جهة القبلة عن سمت الحفر.

﴿ وَمَنْ خَلَقْنَا أُمَّةً يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ ﴾ (١٨١)

يقول تعالى: ﴿وَمَنْ خَلَقْنَا﴾ أى: وبعض الأمم ﴿أُمَّةً﴾ قائمة بالحق، قولاً وعملاً ﴿يَهْدُونَ بِالْحَقِّ﴾، يقولونه ويدعون إليه ﴿وَبِهِ يَعْدِلُونَ﴾: يعملون ويقضون. وقد جاء فى الآثار: أن المراد بهذه الأمة المذكورة فى الآية، هى هذه الأمة المحمدية. قال قتادة فى تفسير هذه الآية: بلغنا أن نبي الله ﷺ كان يقول إذا قرأ هذه الآية: «هذه لكم، وقد أعطى القوم بين أيديكم مثلها: ﴿وَمِنْ قَوْمِ مُوسَى أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ﴾ [الاعراف: ١٥٩]».

وعن الربيع بن أنس فى قوله تعالى: ﴿وَمَنْ خَلَقْنَا أُمَّةً يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ﴾ قال: قال رسول الله ﷺ: «إن من أمتى قوماً على الحق، حتى ينزل عيسى ابن مريم متى ما نزل». وفى الصحيحين عن معاوية بن أبى سفيان قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تزال طائفة من أمتى ظاهرين على الحق، لا يضرهم من خذلهم، ولا من خالفهم، حتى تقوم الساعة»، وفى رواية: «حتى يأتى أمر الله وهم على ذلك»، وفى رواية: «وهم بالشام».

﴿ وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ (١٨٢) وَأَمْلِي لَهُمْ إِنْ كَيْدِي مَتِينٌ ﴿١٨٢﴾

يقول تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ﴾ ومعناه: أنه يفتح لهم أبواب الرزق ووجوه المعاش فى الدنيا، حتى يغتروا بما هم فيه ويعتقدوا أنهم على شىء، كما قال تعالى: ﴿فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ. فَقَطَّعَ دَائِرَ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الأنعام: ٤٤، ٤٥]؛ ولهذا قال تعالى: ﴿وَأَمْلِي لَهُمْ﴾ أى: أطول لهم ما هم فيه ﴿إِنْ كَيْدِي مَتِينٌ﴾ أى: قوى شديد.

﴿ أَوْلَمْ يَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِهِمْ مِنْ جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ مُبِينٌ ﴾ (١٨٤)

يقول تعالى: ﴿أَوْلَمْ يَتَفَكَّرُوا﴾ هؤلاء المكذبون بآياتنا ﴿مَا بِصَاحِبِهِمْ﴾ يعنى محمداً - صلوات الله وسلامه عليه ﴿مِنْ جِنَّةٍ﴾ أى: ليس به جنون، بل هو رسول الله حقاً دعا إلى حق ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ مُبِينٌ﴾ أى: ظاهر لمن كان له لب وقلب يعقل به ويعبى به، كما قال تعالى: ﴿وَمَا صَاحِبِكُمْ

بِمَجْنُونٍ ﴿التكوير: ٢٢﴾، وقال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَعْظَمُكُمْ بِوَاحِدَةٍ أَنْ تَقُومُوا لِلَّهِ مِثْلَى خِزْفٍ ثُمَّ تَذْكُرُوا مَا بِصَاحِبِكُمْ مِنْ جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَكُمْ بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ ﴿سبأ: ٤٦﴾، يقول: إنما أطلب منكم أن تقوموا قياماً خالصاً لله، ليس فيه تعصب ولا عناد ﴿مِثْلَى خِزْفٍ﴾ أى: مجتمعين ومتفرقين، ﴿ثُمَّ تَذْكُرُوا﴾ فى هذا الذى جاءكم بالرسالة من الله: به جنون أم لا؟ فإنكم إذا فعلتم ذلك، بأن لكم وظهر أنه رسول الله حقاً وصدقاً. وقال قتادة ابن دعامة: ذكر لنا أن نبي الله ﷺ كان على الصفا، فدعا قريشاً فجعل يُفخِّذهم فخذاً فخذاً: «يا بنى فلان، يا بنى فلان»، فحذرهم بأس الله ووقائع الله، فقال قائلهم: إن صاحبكم هذا لمجنون. بات يصوت إلى الصباح، أو: حتى أصبح، فأنزل الله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِهِمْ مِنْ جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ مُبِينٌ ﴿١٨٥﴾

﴿أَوَلَمْ يَنْظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ وَأَنْ عَسَى أَنْ يَكُونَ قَدِ اقْتَرَبَ أَجَلُهُمْ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ ﴿١٨٥﴾﴾

يقول تعالى: أو لم ينظر هؤلاء المكذبون بآياتنا - فى ملك الله وسلطانه فى السموات والأرض، وفيما خلق من شىء فيهما، فيتدبروا ذلك ويعتبروا به، ويعلموا أن ذلك لمن لا نظير له ولا شبيهه، ومن فعل من لا ينبغى أن تكون العبادة والدين الخالص إلا له، فيؤمنوا به، ويصدقوا رسوله، وينبوا إلى طاعته، ويخلعوا الأنداد والأوثان، ويحذروا أن تكون آجالهم قد اقتربت، فيهلكوا على كفرهم، ويصيروا إلى عذاب الله وأليم عقابه.

وقوله: ﴿فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ﴾؟ يقول: فبأى تخويف وتحذير وترهيب - بعد تحذير محمد وترهيبه، الذى آتاهم به من عند الله فى آى كتابه - يصدقون، إن لم يصدقوا بهذا الحديث الذى جاءهم به محمد من عند الله، عز وجل؟ ثم قال تعالى:

﴿مَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ فَلا هَادِيَ لَهُ وَيَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١٨٦﴾﴾

يقول تعالى: من كُتِبَ عليه الضلالة فإنه لا يهديه أحد، ولو نظر لنفسه فيما نظر، فإنه لا يجزى عنه شيئاً ﴿وَمَنْ يَرِدِ اللَّهُ فِتْنَتَهُ فَلا تَمَلِكُ لَهُ مِنْ اللَّهِ شَيْئاً﴾ [المائدة: ٤١]، وكما قال تعالى: ﴿قُلْ انظُرُوا مَاذَا فِى السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا نَعْنِىَ الْآيَاتِ وَالذَّرُّ عَنْ قَوْمٍ لَأُؤْمِنُونَ﴾ [يونس: ١٠١].

﴿يَسْتَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّى لا يَجْلِيهَا لَوْفَهَا إِلَّا هُوَ نُقِلَتْ فِى السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً يَسْتَلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ اللَّهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ ﴿١٨٧﴾﴾

يقول تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ﴾، كما قال تعالى: ﴿يَسْأَلُكَ النَّاسُ عَنِ السَّاعَةِ﴾ [الأحزاب: ٦٣]

فقيل : نزلت في قريش . وقيل : في نفر من اليهود . والأول أشبه ؛ لأن الآية مكية ، فكانوا يسألون عن وقت الساعة ، استبعاداً لوقوعها ، وتكديماً بوجودها ؛ كما قال تعالى : ﴿ وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ [الأنبياء : ٣٨] ، وقال تعالى : ﴿ يَسْتَعْجِلُ بِهَا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا وَالَّذِينَ آمَنُوا مُشْفِقُونَ مِنْهَا وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا الْحَقُّ أَلَا إِنَّ الَّذِينَ يُمَارُونَ فِي السَّاعَةِ لَفِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ ﴾ [الشورى : ١٨] .

وقوله : ﴿ أَيَّانَ مُرْسَاهَا ﴾ قال ابن عباس : «متهاها» أى : متى محطها؟ وأيان آخر مدة الدنيا الذى هو أول وقت الساعة ؟ ﴿ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَا إِلَّا هُوَ ﴾ : أمر تعالى رسول ﷺ إذا سئل عن وقت الساعة ، أن يردَّ علمها إلى الله تعالى ؛ فإنه هو الذى يجليها لوقتها ، أى : يعلم جلية أمرها ، ومتى يكون على التحديد ، لا يعلم ذلك إلا هو تعالى ؛ ولهذا قال : ﴿ نُقِلْتُ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ . قال عن قتادة فى قوله : ﴿ نُقِلْتُ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ قال : ثقل علمها على أهل السموات والأرض إنهم لا يعلمون . قال الحسن : إذا جاءت ثقلت على أهل السموات والأرض ، يقول : كُبرت عليهم . وقال الضحاك ، عن ابن عباس فى قوله : ﴿ نُقِلْتُ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ قال : ليس شيء من الخلق إلا يصيبه من ضرر يوم القيامة . وقال ابن جرير : إذا جاءت انشقت السماء ، وانثرت النجوم ، وكورت الشمس ، وسيرت الجبال ، وكان ما قال الله ، عز وجل ، فذلك ثقلها . واختار ابن جرير ، رحمه الله : أن المراد : ثقل علم وقتها على أهل السموات والأرض ، كما قال قتادة . وهو كما قاله ، لقوله تعالى : ﴿ لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً ﴾ ، ولا ينفى ذلك ثقل مجيئها على أهل السموات والأرض ، والله أعلم . وقال السدى : يقول : خفيت فى السموات والأرض ، فلا يعلم قيامها حين تقوم ملك مقرب ، ولا نبى مرسل .

﴿ لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً ﴾ قال : بيغتهم قيامها ، تأتيمهم على غفلة . وروى البخارى : عن أبى هريرة ؛ أن رسول الله ﷺ قال : « لا تقوم الساعة حتى تطلع الشمس من مغربها ، فإذا طلعت فرآها الناس آمنوا أجمعون ، فذلك حين لا ينفع نفساً إيمانها لم تكن آمنت من قبل أو كسبت فى إيمانها خيراً ، ولتقومن الساعة وقد نشر الرجلان ثوبهما بينهما ، فلا يبايعانه ولا يطويانه . ولتقومن الساعة وقد انصرف الرجل بلبن لقحته فلا يطعمه . ولتقومن الساعة وهو يليب حوضه فلا يسقى فيه . ولتقومن الساعة والرجل قد رفع أكلته إلى فيه فلا يطعمها » . وروى مسلم عن أبى هريرة يبلغ به ، قال : «تقوم الساعة والرجل يحلب لقطته ، فما يصل الإناء إلى فيه حتى تقوم الساعة . والرجلان يتبايعان الثوب فما يتبايعانه حتى تقوم . والرجل يلوط حوضه فما يصدر حتى تقوم » .

وقوله : ﴿ يَسْأَلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْهَا ﴾ : اختلف المفسرون فى معناه ، فقيل : معناه : كما قال ابن عباس : ﴿ يَسْأَلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْهَا ﴾ يقول : كأن بينك وبينهم مودة ، كأنك صديق لهم . قال ابن عباس : لما سأل الناس محمداً ﷺ عن الساعة ، سأله سؤال قوم كأنهم يرون أن محمداً حفى بهم ، فأوحى الله إليه : إنما علمها عنده ، استأثر به ، فلم يطلع الله عليها ملكاً مقرباً ولا

رسولاً . وقال قتادة: قالت قريش لمحمد ﷺ: إن بيننا وبينك قرابة، فأسرّ إلينا متى الساعة. فقال الله، عز وجل: ﴿يَسْأَلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْهَا﴾. وكذا روى عن مجاهد، وعكرمة، وأبي مالك، والسدي . هذا قول . والصحيح عن مجاهد قال: اسْتَحْفَيْتَ عَنْهَا السُّؤَالَ، حتى علمت وقتها. وكذا قال الضحاک، عن ابن عباس يقول: كأنك عالم بها، لست تعلمها ﴿قُلْ إِنَّمَا عَلَّمَهَا عِنْدَ اللَّهِ﴾. وقال معمر عن بعضهم: ﴿كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْهَا﴾: كأنك عالم بها. وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: ﴿كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْهَا﴾: كأنك عالم بها، وقد أخفى الله علمها على خلقه، وقرأ: ﴿إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ﴾ الآية [لقمان: ٣٤]. وهذا القول أرجح في المعنى من الأول، والله أعلم؛ ولهذا قال: ﴿قُلْ إِنَّمَا عَلَّمَهَا عِنْدَ اللَّهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾.

ولهذا لما جاء جبريل، عليه السلام، في صورة أعرابي، يعلم الناس أمر دينهم، فجلس من رسول الله ﷺ مجلس السائل المسترشد، وسأله عن الإسلام، ثم عن الإيمان، ثم عن الإحسان، ثم قال: « فمتى الساعة؟ » قال له رسول الله ﷺ: « ما المسؤول عنها بأعلم من السائل » أي: لست أعلم بها منك ولا أحد أعلم بها من أحد، ثم قرأ النبي ﷺ: ﴿إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ﴾ الآية . وفي رواية: فسأله عن أشراف الساعة ، فبين له أشراف الساعة ، ثم قال: « في خمس لا يعلمهن إلا الله ». وقرأ هذه الآية وفي هذا كله يقول له بعد كل جواب: « صدقت »؛ ولهذا عجب الصحابة من هذا السائل يسأله ويصدقه، ثم لما انصرف قال رسول الله ﷺ: « هذا جبريل أتاكم يعلمكم أمر دينكم » . وفي رواية قال: « وما أتاني في صورة إلا عرفته فيها، إلا صورته هذه ». ولما سأله ذلك الأعرابي وناداه بصوت جهورى فقال: يا محمد، قال له رسول الله ﷺ: « هاؤم ، على نحو من صوته ، قال: يا محمد، متى الساعة؟ فقال له رسول الله ﷺ: « ويحك! إن الساعة آتية، فما أعددت لها؟ » قال: ما أعددت لها كبير صلاة ولا صيام، ولكني أحب الله ورسوله. فقال له رسول الله ﷺ: « المرء مع من أحب ». فما فرح المسلمون بشيء فرحهم بهذا الحديث . وهذا له طرق متعددة في الصحيحين وغيرهما عن جماعة من الصحابة، عن رسول الله ﷺ؛ أنه قال: « المرء مع من أحب »، وهي متواترة عند كثير من الحفاظ المتقين .

ففيه أنه، عليه السلام، كان إذا سئل عن هذا الذي لا يحتاجون إلى علمه ، أرشدهم إلى ما هو الأهم في حقهم، وهو الاستعداد لوقوع ذلك، والتهيؤ له قبل نزوله، وإن لم يعرفوا تعيين وقته. ولهذا روى مسلم عن عائشة، قالت: كانت الأعراب إذا قدموا على رسول الله ﷺ، سألوه عن الساعة: متى الساعة؟ فينظر إلى أحدث أسنان منهم فيقول: « إن يعيش هذا لم يدركه الهرم حتى قامت عليكم ساعتكم » . يعني بذلك موتهم الذي يقضى بهم إلى الحصول في برزخ الدار الآخرة .

ثم روى مسلم عن أنس؛ أن رجلاً سأل رسول الله ﷺ عن الساعة، وعنده غلام من الأنصار يقال له محمد، فقال رسول الله ﷺ: « إن يعيش هذا الغلام فعسى ألا يدركه الهرم حتى

تقوم الساعة». انفرد به مسلم . وعن أنس بن مالك، أن رجلاً سأل النبي ﷺ قال: متى الساعة؟ فسكت رسول الله ﷺ هنيهة، ثم نظر إلى غلام بين يديه من أزد شنوءة، فقال: «إن عمر هذا لم يدركه الهرم حتى تقوم الساعة» - قال أنس: ذلك الغلام من أترابي . وروى عن أنس قال: مر غلام للمغيرة بن شعبة - وكان من أترابي - فقال النبي ﷺ: «إن يؤخر هذا لم يدركه الهرم حتى تقوم الساعة» . ورواه البخاري عن أنس؛ أن رجلاً من أهل البادية قال: يا رسول الله، متى الساعة؟ فذكر الحديث، وفي آخره: «فمر غلام للمغيرة بن شعبة»، وذكره . وهذا الإطلاق في هذه الروايات محمول على التقييد بـ «ساعتكم» في حديث عائشة . وعن جابر بن عبد الله : سمعت رسول الله ﷺ يقول قبل أن يموت بشهر : «تسألوني عن الساعة، وإنما علمها عند الله . وأقسم بالله ما على ظهر الأرض اليوم من نفس منفوسة، تأتي عليها مائة سنة» رواه مسلم . وفي الصحيحين، عن ابن عمر مثله، قال ابن عمر: وإنما أراد رسول الله ﷺ انخراط ذلك القرن .

وروى الإمام أحمد عن ابن مسعود، عن النبي ﷺ قال: «لقيت ليلة أسرى بي إبراهيم وموسى وعيسى ، فتذاكروا أمر الساعة»، قال: «فردوا أمرهم إلى إبراهيم، عليه السلام، فقال: لا علم لي بها. فردوا أمرهم إلى موسى، فقال: لا علم لي بها. فردوا أمرهم إلى عيسى، فقال عيسى: أما وجبتُها فلا يعلم بها أحد إلا الله، عز وجل، وفيما عهد إلى ربي، عز وجل، أن الدجال خارج»، قال: «ومعنى قضيبان، فإذا رأيتي ذاب كما يذوب الرصاص»، قال: «فيهلكه الله، عز وجل، إذا رأيتي، حتى إن الحجر والشجر يقول: يا مسلم، إن تحتي كافراً فتعال فاقتله». قال: «فيهلكهم الله، عز وجل، ثم يرجع الناس إلى بلادهم وأوطانهم»، قال: «فعند ذلك يخرج يأجوج ومأجوج، وهم من كل حدب ينسلون، فيطؤون بلادهم، لا يأتون على شيء إلا أهلكوه، ولا يميرون على ماء إلا شربوه»، قال: «ثم يرجع الناس إلى فيسكونهم، فأدعو الله، عز وجل، عليهم فيهلكهم ويميتهم، حتى تجوى الأرض من نثر ريحهم - أي: تئنن - قال: «فينزل الله عز وجل المطر، فيجترف أجسادهم حتى يقذفهم في البحر». قال الإمام أحمد: قال يزيد بن هارون: ثم تنسف الجبال، وتمد الأرض مد الأديم - ثم رجع إلى حديث هشيم قال: ففيما عهد إلى ربي، عز وجل، أن ذلك إذا كان كذلك، فإن الساعة كالحامل المتيم لا يدري أهلها متى تفجأهم بولادها ليلاً أو نهاراً . ورواه ابن ماجه ، نحوه (١) .

فهؤلاء أكابر أولى العزم من المرسلين، ليس عندهم علم بوقت الساعة على التعيين، وإنما ردوا الأمر إلى عيسى عليه السلام، فتكلم على أشراتها؛ لأنه ينزل في آخر هذه الأمة منفذاً لأحكام رسول الله ﷺ، ويقتل المسيح الدجال، ويجعل الله هلاك يأجوج ومأجوج ببركة دعائه، فأخبر بما أعلمه الله تعالى به .

(١) المسند (٣٥٥٦) وابن ماجه (٤٠٨١) . ورواه أيضا الحاكم في المستدرک (٤ / ٤٨٨ ، ٤٨٩ ، ٤٤٥ ،

٥٤٦) وقال : « صحيح الإسناد ولم يخرجاه » ووافقه الذهبي .

وروى الإمام أحمد عن حذيفة قال: سئل رسول الله ﷺ عن الساعة فقال: «علمها عند ربي لا يُجلبها لوقتها إلا هو، ولكن سأخبركم بمشاريطها، وما يكون بين يديها: إن بين يديها فتنة وهرجاً»، قالوا: يا رسول الله، الفتنة قد عرفناها، في الهرج؟ قال بلسان الحبشة: «القتل». قال: «ويبقى بين الناس التناكرُ، فلا يكاد أحد يعرف أحداً». لم يروه أحد من أصحاب الكتب الستة من هذا الوجه. وعن طارق بن شهاب، قال: كان رسول الله ﷺ لا يزال يذكر من شأن الساعة حتى نزلت: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا﴾ الآية [النازعات: ٤٢]. ورواه النسائي وإسناده جيد قوى.

فهذا النبي الأُمي سيد الرسل وخاتمهم محمد، صلوات الله عليه وسلامه، نبي الرحمة، ونبي التوبة، ونبي الملحمة، والعاقب والمُفقى، والحاشر الذي تحشر الناس على قدميه، مع قوله فيما ثبت عنه في الصحيح من حديث أنس وسهل بن سعد: «بعثت أنا والساعة كهاتين»، وقرن بين إصبعيه السبابة والتي تليها. ومع هذا كله، قد أمره الله تعالى أن يرد علم وقت الساعة إليه إذا سئل عنها، فقال: ﴿قُلْ إِنَّمَا عَلِمَهَا عِنْدَ اللَّهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾.

﴿قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ وَلَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لَاسْتَكْتَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾

أمره الله تعالى أن يفوض الأمور إليه، وأن يخبر عن نفسه أنه لا يعلم الغيب المستقبل، ولا اطلاع له على شيء من ذلك إلا بما أطلعه الله عليه، كما قال تعالى: ﴿عَالِمُ الْغَيْبِ فَلَا يَظْهَرُ عَلَىٰ غَيْبِهِ أَحَدًا. إِلَّا مَنِ ارْتَضَىٰ مِنْ رَسُولٍ فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَدًا﴾ [الجن: ٢٦، ٢٧].

وقوله: ﴿وَلَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لَاسْتَكْتَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ﴾ قال مجاهد: لو كنت أعلم متى أموت، لعملت عملاً صالحاً. وقال مثله ابن جرير. وفيه نظر؛ لأن عمل رسول الله ﷺ كان ديمة. وفي رواية: كان إذا عمل عملاً أثبته. فجميع عمله كان على منوال واحد، كأنه ينظر إلى الله، عز وجل، في جميع أحواله، اللهم إلا أن يكون المراد أن يرشد غيره إلى الاستعداد لذلك، والله أعلم. والأحسن في هذا ما رواه الضحاك، عن ابن عباس: ﴿وَلَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لَاسْتَكْتَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ﴾ أى: من المال. وفي رواية: لعلمت إذا اشتريت شيئاً ما أربح فيه، فلا أبيع شيئاً إلا ربحت فيه، ولا يصيبني الفقر. وقال ابن جرير: وقال آخرون: معنى ذلك: لو كنت أعلم الغيب لأعددت للسنة المجدة من المخصة، ولو وقت الغلاء من الرخص، فاستعددت له من الرخص. وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: ﴿وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ﴾ قال: لاجتنبت ما يكون من الشر قبل أن يكون، واتقيته.

ثم أخبر أنه إنما هو نذير وبشير، أى: نذير من العذاب، وبشير للمؤمنين بالجنات، كما قال تعالى: ﴿فَإِنَّمَا يَسْرُنَا بِلسَانِكَ لِشَيْءٍ نُنذِرُ بِهِ قَوْمًا لُدًّا﴾ [مريم: ٩٧].

﴿ هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا فَلَمَّا تَغَشَّاهَا حَمَلَتْ حَمْلًا خَفِيًّا فَمَرَّتْ بِهِ فَلَمَّا أَثْقَلَتْ دَعَا اللَّهَ رَبُّهُمَا لِيُنزِلَ بَيْنَهُمَا صُلْحًا صُلْحًا لَنُكُونَ مِنَ الشَّاكِرِينَ ﴿١٨٩﴾ فَلَمَّا آتَاهُمَا صُلْحًا جَعَلَا لَهُ شُرَكَاءَ فِيمَا آتَاهُمَا فَتَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿١٩٠﴾ ﴾

ينبه تعالى على أنه خلق جميع الناس من آدم، عليه السلام، وأنه خلق منه زوجته حواء، ثم انتشر الناس منهما، كما قال تعالى: ﴿يَأْيُهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾ [الحجرات: ١٣]، وقال تعالى: ﴿يَأْيُهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً﴾ الآية [النساء: ١]. وقال في هذه الآية الكريمة: ﴿وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا﴾ أي: ليلفها ويسكن بها، كما قال تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً﴾ [الروم: ٢١]، فلا ألفة بين روحين أعظم مما بين الزوجين؛ ولهذا ذكر تعالى أن الساحر ربما توصل بكيدته إلى التفرقة بين المرء وزوجه. ﴿فَلَمَّا تَغَشَّاهَا﴾ أي: وطئها ﴿حَمَلَتْ حَمْلًا خَفِيًّا﴾، وذلك أول الحمل، لا تجد المرأة له الماء، إنما هي النطفة، ثم العلقة، ثم المضة.

وقوله: ﴿فَمَرَّتْ بِهِ﴾ قال مجاهد: استمرت بحمله. وقال أيوب: سألت الحسن عن قوله: ﴿فَمَرَّتْ بِهِ﴾؟ قال: لو كنت رجلاً عربياً لعرفت ما هي. إنما هي: فاستمرت به. وقال ابن جرير: معناه: استمرت بالماء، قامت به وقعدت.

﴿فَلَمَّا أَثْقَلَتْ﴾ أي: صارت ذات ثقل بحملها. وقال السدي: كبر الولد في بطنها. ﴿دَعَا اللَّهَ رَبَّهُمَا لِيُنزِلَ بَيْنَهُمَا صُلْحًا﴾ أي: بشرا سويا، كما قال ابن عباس: أشفقا أن يكون بهيمة. ذكر المفسرون هاهنا آثاراً وحديثاً سأوردها وأبين ما فيها، ثم تتبع ذلك ببيان الصحيح في ذلك، إن شاء الله وبه الثقة.

قال الإمام أحمد في مسنده: حدثنا عبد الصمد، حدثنا عمر بن إبراهيم، حدثنا قتادة، عن الحسن، عن سمرة، عن النبي ﷺ قال: « لما ولدت حواء طاف بها إبليس - وكان لا يعيش لها ولد - فقال: سمّيه عبد الحارث؛ فإنه يعيش، فسمته عبد الحارث، فعاش وكان ذلك من وحى الشيطان وأمره ». ورواه ابن جرير، ورواه الترمذي وقال: هذا حديث حسن غريب لا نعرفه إلا من حديث عمر بن إبراهيم، عن قتادة، ورواه بعضهم عن عبد الصمد، ولم يرفعه. ورواه الحاكم مرفوعاً ثم قال: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه. ورواه الإمام أبو محمد بن أبي حاتم مرفوعاً. وكذا رواه الحافظ أبو بكر بن مردويه. والغرض أن هذا الحديث معلول من ثلاثة أوجه: أحدها: أن عمر بن إبراهيم هذا هو البصري، وقد وثقه ابن معين، ولكن قال أبو حاتم الرازي: لا يحتج به. ولكن رواه ابن مردويه من حديث المعتمر، عن أبيه، عن الحسن، عن سمرة مرفوعاً، فالله أعلم. الثاني: أنه قد روى من قول سمرة نفسه، ليس مرفوعاً، كما روى

ابن جرير: حدثنا ابن عبد الأعلى، عن سمرة بن جندب ، قال: سمى آدم ابنه «عبد الحارث» .
الثالث: أن الحسن نفسه فسر الآية بغير هذا، فلو كان هذا عنده عن سمرة مرفوعاً، لما عدل عنه .

روى ابن جرير عن الحسن: ﴿جَعَلَا لَهُ شُرَكَاءَ فِيمَا آتَاهُمَا﴾، قال: كان هذا في بعض أهل الملل، ولم يكن بآدم . وقال الحسن: عنى بها ذرية آدم، ومن أشرك منهم بعده - يعنى: ﴿جَعَلَا لَهُ شُرَكَاءَ فِيمَا آتَاهُمَا﴾ . وكان الحسن يقول: هم اليهود والنصارى، رزقهم الله أولاداً، فهو دوا ونَصَرُوا . أسانيدنا صحيحة عن الحسن، رحمه الله : أنه فسر الآية بذلك، وهو من أحسن التفاسير وأولى ما حملت عليه الآية، ولو كان هذا الحديث عنده محفوظاً عن رسول الله ﷺ ، لما عدل هو ولا غيره عنه ، لا سيما مع تقواه الله وورعه، فهذا يدل على أنه موقوف على الصحابي، ويحتمل أنه تلقاه من بعض أهل الكتاب، من آمن منهم، مثل: كعب أو وهب بن منبّه وغيرهما، كما سيأتى بيانه إن شاء الله ، إلا أننا يرثنا من عهدة المرفوع، والله أعلم .

وأما الآثار فروى ابن إسحاق عن ابن عباس قال: كانت حواء تلد لآدم، عليه السلام، أولاداً فيعبدهم لله ويسميهم : «عبد الله» و«عبيد الله»، ونحو ذلك، فيصيبهم الموت ، فاتاها إبليس وآدم فقال: إنكما لو سميتما بغير الذى تسميان به لعاش ، قال: فولدت له رجلاً فسماه «عبد الحارث»، ففيه أنزل الله، يقول الله: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ﴾ إلى قوله: ﴿جَعَلَا لَهُ شُرَكَاءَ فِيمَا آتَاهُمَا﴾ إلى آخر الآية .

وقد تلقى هذا الأثر عن ابن عباس جماعة من أصحابه، كمجاهد، وسعيد بن جبير، وعكرمة . ومن الطبقة الثانية: قتادة، والسدى، وغير واحد من السلف وجماعة من الخلف، ومن المفسرين من المتأخرين جماعات لا يحصون كثرة، وكأنه - والله أعلم - أصله مأخوذ من أهل الكتاب، فإن ابن عباس رواه عن أبي بن كعب، كما رواه ابن حاتم عن ابن عباس، عن أبي بن كعب قال: لما حملت حواء آتاه الشيطان، فقال لها: أطيعيني ويسلم لك ولدك؟ سميه «عبد الحارث»، فلم تفعل، فولدت فمات، ثم حملت فقال لها مثل ذلك، فلم تفعل . ثم حملت الثالث فجاءها فقال: إن تطيعيني يسلم، وإلا فإنه يكون بهيمة ! فهيهما فاطاعا .

وهذه الآثار يظهر عليها - والله أعلم - أنها من آثار أهل الكتاب، وقد صح الحديث عن رسول الله ﷺ أنه قال: «إِذَا حَدَّثَكُمْ أَهْلَ الْكِتَابِ فَلَا تَصَدِّقُوهُمْ وَلَا تَكْذِبُوهُمْ»، ثم أخبرهم على ثلاثة أقسام: فمنها: ما علمنا صحته بما دل عليه الدليل من كتاب الله أو سنة رسوله . ومنها ما علمنا كذبه، بما دل على خلافه من الكتاب والسنة أيضاً . ومنها: ما هو مسكوت عنه، فهو المأذون فى روايته، بقوله، عليه السلام: «حدثوا عن بنى إسرائيل ولا حرج» وهو الذى لا يصدق ولا يكذب ، لقوله: « لا تصدقوهم ولا تكذبوهم» . وهذا الأثر هل هو من القسم الثانى أو الثالث؟ فيه نظر . فأما من حدث به من صحابى أو تابعى، فإنه يراه من القسم الثالث، وأما نحن فعلى مذهب الحسن البصرى فى هذا ، وأنه ليس المراد من هذا السياق آدم وحواء، وإنما المراد من ذلك المشركون من ذريته؛ ولهذا قال الله: ﴿فَتَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ فذكر آدم وحواء

أولا كالتوطئة لما بعدهما من الوالدين وهو كالاستطراد من ذكر الشخص إلى الجنس ، كقوله : ﴿ وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ ﴾ الآية ، ومعلوم أن المصابيح - وهى النجوم التى زينت بها السماء - ليست هى التى يرمى بها ، وإنما هذا استطراد من شخص المصابيح إلى جنسها ، ولهذا نظرنا فى القرآن ، والله أعلم .

﴿ أَيَشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلِقُونَ ﴿١٩١﴾ وَلَا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْرًا وَلَا أَنفُسُهُمْ يَنْصُرُونَ ﴿١٩٢﴾ وَإِنْ تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَىٰ لَا يَتَّبِعُوكُمْ سِوَاءَ عَلَيْكُمْ أَدَعَوْتُمُوهُمْ أَمْ أَنْتُمْ صَمِيمُونَ ﴿١٩٣﴾ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ عِبَادٌ أَمْثَلُكُمْ فَأَدْعُوهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُوا لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٩٤﴾ أَلَمْ تَرَ أَنزَلْنَا بِطُورِ سَيْنَاءَ إِذْ نَادَىٰ بِرَبِّكَ رَبُّكَ أَنْقُضْ الذَّابِقَ وَأَتِ الْبَيْتَ الْوَعْدِ وَأَنْصِرْ أُمَّ الْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا وَأَخْرِجْ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٩٥﴾ إِنَّ إِلَهَ اللَّهِ الْأَحَدُ الْقَدِيمُ الْقَدِيمُ الَّذِي لَا يَأْتِيهِ الْهَوْلُ وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَكُمْ وَلَا أَنفُسُهُمْ يَنْصُرُونَ ﴿١٩٦﴾ وَإِنْ تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَىٰ لَا يَسْمَعُوا وَتَرَاهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ﴿١٩٨﴾ ﴾

هذا إنكار من الله على المشركين الذين عبدوا مع الله غيره، من الأنداد والأصنام والأوثان، وهى مخلوقة لله مربية مصنوعة، لا تملك شيئا من الأمر، ولا تضر ولا تنفع، ولا تبصر ولا تنتصر لعابديها، بل هى جماد لا تتحرك ولا تسمع ولا تبصر، وعابدها أكمل منها بسمعهم وبصرهم وبطشهم؛ ولهذا قال: ﴿أَيَشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلِقُونَ﴾ أى: أيشركون به من المعبودات ما لا يخلق شيئا ولا يستطيع ذلك، كما قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضَرْبٌ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُوا لَهُ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوْ اجْتَمَعُوا لَهُ وَإِنْ يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لَا يَسْتَفِيدُوا مِنْهُ ضَعْفَ الطَّالِبِ وَالْمَطْلُوبِ. مَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ [الحج: ٧٣، ٧٤] ، أخبر تعالى أنه لو اجتمعت ألهتهم كلها ، ما استطاعوا خلق ذبابة ، بل لو سلبتهم الذبابة شيئا من حقير المطاعم وطارت، لما استطاعوا إنقاذه منها ، فمن هذه صفته وحاله، كيف يعبد ليرزق ويستنصر؟! ولهذا قال تعالى: ﴿لَا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلِقُونَ﴾ أى: بل هم مخلوقون مصنوعون ، كما قال الخليل: ﴿أَتَعْبُدُونَ مَا تَحْتُونَ وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾ [الصفات: ٩٥، ٩٦].

ثم قال تعالى: ﴿وَلَا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْرًا﴾ أى: لعابديهم ﴿وَلَا أَنفُسُهُمْ يَنْصُرُونَ﴾ يعنى: ولا لأنفسهم ينصرون ممن أرادهم بسوء، كما كان الخليل يكسر أصنام قومه ويهينها غاية الإهانة، كما أخبر تعالى عنه فى قوله: ﴿فَرَأَىٰ عَلَيْهِمْ ضَرْبًا بِالْيَمِينِ﴾ [الصفات: ٩٣]، وقال تعالى: ﴿فَجَعَلَهُمْ جَذَاذًا إِلَّا كَبِيرًا لَهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ﴾ [الأنبياء: ٥٨]، وكما كان معاذ بن عمرو بن الجموح ومعاذ بن جبل - وكانا شابين قد أسلما لما قدم رسول الله ﷺ المدينة - فكانا يعدوان فى الليل على أصنام

المشركين يكسرانها ويتلفانها ويتخذانها حطباً للأرامل، ليعتبر قومهما بذلك، ويرتؤوا لأنفسهم، فكان لعمرو بن الجموح - وكان سيداً في قومه - صنم يعبده ويطيبه، فكانا يجيثان في الليل فينكسانه على رأسه، ويلطخاناه بالعدرة، فيجىء عمرو بن الجموح فيرى ما صنع به فيغسله ويطيبه ويضع عنده سيفاً، ويقول له: «انتصر»!! ثم يعودان لمثل ذلك، ويعود إلى صنيعة أيضاً، حتى أخذاه مرة فقرنا معه جرو كلب ميت، ودلياه في حبل في بثر هناك! فلما جاء عمرو بن الجموح ورأى ذلك، نظر فعلم أن ما كان عليه من الدين باطل، ثم أسلم فحسن إسلامه، وقتل يوم أحد شهيداً، رضى الله عنه وأرضاه، وجعل جنة الفردوس مأواه.

وقوله: ﴿ وَإِنْ تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَىٰ لَا يَتَّبِعُكُمْ سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ أَدَعَوْتُمُوهُمْ أَمْ أَنْتُمْ صَامِتُونَ ﴾ . يعنى: أن هذه الأصنام لا تسمع دعاء من دعاها، وسواء لديها من دعاها ومن دحأها، كما قال إبراهيم: ﴿ يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئًا ﴾ [مريم: ٤٢] ؟

ثم ذكر تعالى أنها عبيد مثل عابديها، أى: مخلوقات مثلهم، بل الأناسى أكمل منها، لأنها تسمع وتبصر وتبطن، وتلك لا تفعل شيئاً من ذلك.

وقوله: ﴿ قُلِ ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ كِيدُونِ فَلَا تُنظِرُونِ ﴾ أى: استنصروا بها على، فلا تؤخرونى طرفة عين، واجهدوا جهدكم! ﴿ إِنْ وَلِيَ اللَّهُ الَّذِي نَزَلَ الْكِتَابَ وَهُوَ يَتَوَكَّلُ الصَّالِحِينَ ﴾ أى: الله حسبي وكافيني، وهو نصيرى، وعليه متكلى، وإليه ألقأ، وهو ولى فى الدنيا والآخرة، وهو ولى كل صالح بعدى. وهذا كما قال هود، عليه السلام، لما قال له قومه: ﴿ إِنْ نَقُولُ إِلَّا اعْتَرَاكَ بَعْضُ آلِهَتِنَا بِسُوءٍ قَالَ إِنِّي أُشْهِدُ اللَّهَ وَاشْهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ . مِنْ دُونِهِ فَكِيدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنظِرُونَ . إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ مَا مِنْ دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنْ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾ [هود: ٥٤ - ٥٦]، وكقول الخليل: ﴿ أَفَرَأَيْتُمْ مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ . أَنْتُمْ وَأَبَاؤُكُمْ الْأَقْدَمُونَ . فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِي إِلَّا رَبَّ الْعَالَمِينَ . الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ ﴾ [الشعراء: ٧٥ - ٨٠]، وكقوله لأبيه وقومه: ﴿ إِنِّي بَرَاءٌ مِمَّا تَعْبُدُونَ . إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُ سَيَهْدِينِ . وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقْبِهِ لَعَلَّهُمْ يُرْجَعُونَ ﴾ [الزخرف: ٢٦ - ٢٨].

وقوله: ﴿ وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ ﴾ إلى آخر الآية، مؤكد لما تقدم، إلا أنه بصيغة الخطاب، وذلك بصيغة الغيبة؛ ولهذا قال: ﴿ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَكُمْ وَلَا أَنْفُسُهُمْ يَنْصُرُونَ ﴾ . وقوله: ﴿ وَإِنْ تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَىٰ لَا يَسْمَعُوا وَتَرَاهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ﴾ كقوله تعالى: ﴿ إِنْ تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ ﴾ [فاطر: ١٤]. وقوله: ﴿ وَتَرَاهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ﴾ : إنما قال: ﴿ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ ﴾ أى: يقابلونك بعيون مصورة كأنها ناظرة، وهى جماد؛ ولهذا عاملهم معاملة من يعقل؛ لأنها على صور مصورة كالإنسان، فقال ﴿ وَتَرَاهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ ﴾ فعب عنها بضمير من يعقل. وقال السدى: المراد بهذا المشركون وروى عن مجاهد نحوه. والأول أولى، وهو اختيار ابن جرير، وقاله قتادة.

﴿ خُذِ الْعَقْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ ﴾ ﴿ وَإِنَّمَا يَنزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْعٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾

قال ابن عباس قوله: ﴿خُذِ الْعَفْوَ﴾ يعنى: خذ ما عفا لك من أموالهم، وما أتوك به من شىء فخذهُ. وكان هذا قبل أن تنزل «براءة» بفرائض الصدقات وتفصيلها، وما انتهت إليه الصدقات. قاله السدى . وقال الضحاك، عن ابن عباس: ﴿خُذِ الْعَفْوَ﴾: أنفق الفضل. وقال سعيد بن جبیر عن ابن عباس: ﴿خُذِ الْعَفْوَ﴾ قال: الفضل . وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم فى قوله: ﴿خُذِ الْعَفْوَ﴾: أمره الله بالعفو والصفح عن المشركين عشر سنين، ثم أمره بالغلظة عليهم. واختار هذا القول ابن جرير. وقال غير واحد، عن مجاهد فى قوله تعالى: ﴿خُذِ الْعَفْوَ﴾ قال: أخلاق الناس وأعمالهم بغير تجسس. وقال هشام بن عروة، عن أبيه: أمر الله رسوله ﷺ أن يأخذ العفو من أخلاق الناس. وفى رواية قال: خذ ما عفا لك من أخلاقهم. وفى صحيح البخارى عن عبد الله بن الزبير قال: إنما أنزل: ﴿خُذِ الْعَفْوَ﴾ من أخلاق الناس. وفى رواية سعيد بن منصور، عن أبى الزبير: ﴿خُذِ الْعَفْوَ﴾ قال: من أخلاق الناس، والله لآخذنه منهم ما صحبتهم. وهذا أشهر الأقوال .

وقال البخارى : قوله: ﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾ «العرف»: المعروف. روى أن ابن عباس قال: قدم عيينة بن حصن بن حذيفة، فنزل على ابن أخيه الحر بن قيس - وكان من النفر الذين يدينهم عمر - وكان القراء أصحاب مجالس عمر ومشاورته - كهُولاً كانوا أو شبانا - فقال عيينة لابن أخيه: يا ابن أخى، لك وجه عند هذا الأمير، فاستأذن لى عليه. قال: سأستأذن لك عليه. قال ابن عباس: فاستأذن الحر لعيينة، فأذن له عمر، فلما دخل عليه قال: هى يا بن الخطاب، فوالله ما تعطينا الجزل، ولا تحكم بيننا بالعدل!! فغضب عمر حتى هم أن يوقع به، فقال له الحر: يا أمير المؤمنين، إن الله لنبيه ﷺ: ﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾. وإن هذا من الجاهلين! والله ما جاوزها عمر حين تلاها عليه، وكان وقافاً عند كتاب الله، عز وجل. انفرد بإخراجه البخارى . وروى ابن أبى حاتم: أن سالم بن عبد الله بن عمر مر على غير لأهل الشام وفيها جرس، فقال: إن هذا منهى عنه، فقالوا: نحن أعلم بهذا منك، إنما يكره الجلجل الكبير، فأما مثل هذا فلا بأس به! فسكت سالم وقال: ﴿وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾. وقول البخارى: «العرف»: المعروف» - نص عليه عروة بن الزبير، والسدى، وقتادة، وابن جرير، وغير واحد. وحكى ابن جرير أنه يقال: أوليته معروفاً، وعارفاً، وعارفة، كل ذلك بمعنى: «المعروف». قال: وقد أمر الله نبيه ﷺ أن يأمر عباده بالمعروف، ويدخل فى ذلك جميع الطاعات، وبالإعراض عن الجاهلين، وذلك وإن كان أمراً لنبيه ﷺ فإنه تأديب لخلقه باحتمال من ظلمهم واعتدى عليهم، لا بالإعراض عن جهل الحق الواجب من حق الله، ولا بالصفح عن كفر بالله وجهل وحدانيته، وهو للمسلمين حرب.

وقال بعض العلماء: الناس رجلان: فرجل محسن، فخذ ما عفا لك من إحسانه، ولا تكلفه فوق طاقته ولا ما يحرجه. وإما مسيء، فمره بالمعروف، فإن تمادى على ضلاله، واستعصى عليك، واستمر فى جهله، فأعرض عنه، فلعل ذلك أن يرد كيده، كما قال تعالى:

﴿ادْفَعْ بِالَّذِي هِيَ أَحْسَنُ السَّيِّئَةِ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ . وَقُلْ رَبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَاتِ الشَّيَاطِينِ . وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَنْ يَحْضُرُوا﴾ [المؤمنون: ٩٦ - ٩٨] ، وقال تعالى : ﴿وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّذِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ . وَمَا يُلْقَاهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلْقَاهَا إِلَّا ذُرٌّ حَظًّا عَظِيمٌ﴾ أى : هذه الوصية ﴿وَأَمَّا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ [فصلت: ٣٤ - ٣٦] ، وقال فى هذه السورة الكريمة أيضا : ﴿وَأَمَّا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ فهذه الآيات الثلاث فى «الأعراف» و«المؤمنون» و«حم السجدة» ، لا رابع لهن ، فإنه تعالى يرشد فيهن إلى معاملة العاصى من الإنس بالمعروف والذى هى أحسن ، فإن ذلك يكفه عما هو فيه من التمرد بإذنه تعالى ؛ ولهذا قال : ﴿فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ﴾ . ثم يرشد تعالى إلى الاستعاذة به من شيطان الجن ، فإنه لا يكفيه منك الإحسان ، وإنما يريد هلاكك ودمارك بالكلية ، فإنه عدو مبين لك ولأبيك من قبلك (١) .

قال ابن جرير فى تفسير قوله : ﴿وَأَمَّا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ﴾ : وإما يُغْضِبَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ غضب يصدك عن الإعراض عن الجاهل ، ويحملك على مجازاته ﴿فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ﴾ ، يقول : فاستجر بالله من نزغه ﴿سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ سميع لجهل الجاهل عليك ، والاستعاذة به من نزغه ، ولغير ذلك من كلام خلقه ، لا يخفى عليه منه شىء ، عليم بما يذهب عنك نزغ الشيطان ، وغير ذلك من أمور خلقه .

وقد تقدم فى أول الاستعاذة حديث الرجلين اللذين تسابا بحضرة النبى ﷺ ، فغضب أحدهما حتى جعل أنفه يتمزج غضباً ، فقال رسول الله ﷺ : «إنى لأعلم كلمة لو قالها لذهب عنه ما يجد : أعوذ بالله من الشيطان الرجيم» . فقل له ، فقال : ما بى من جنون (٢) .

وأصل «الترغ» : الفساد ، إما بالغضب أو غيره ، قال الله تعالى : ﴿وَقُلْ لِعِبَادِي يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ الشَّيْطَانَ يَنْزَغُ بَيْنَهُمْ﴾ [الإسراء: ٥٣] ، و«العياذ» : اللجوء والاستناد والاستجارة من الشر ، وأما «الملاذ» ففى طلب الخير ، وقد قدمنا أحاديث الاستعاذة فى أول التفسير ، بما أغنى عن إعادته ها هنا .

﴿إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَافٍ مِّنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ﴾
﴿١٠١﴾ وَإِحْوَانُهُمْ يَمُدُّوهُمْ فِي الْغَيِّ ثُمَّ لَا يُقْصِرُونَ ﴿١٠٢﴾

يخبر تعالى عن المتقين من عباده الذين أطاعوه فيما أمر ، وتركوا ما عنه زجر ، أنهم ﴿إِذَا مَسَّهُمْ﴾ أى : أصابهم «طيف» وقرأ آخرون : «طائف» ، وقد جاء فيه حديث ، وهما قراءتان مشهورتان ، فقليل : بمعنى واحد . وقيل : بينهما فرق ، ومنهم من فسر ذلك بالغضب ، ومنهم من فسرهم من فسرهم بالشرع وبالصرع ونحوه ، ومنهم من فسرهم بالهم بالذنب ، ومنهم من فسرهم بإصابة الذنب .

وقوله: ﴿تَذَكَّرُوا﴾ أى: عقاب الله وجزيل ثوابه، ووعده ووعيده، فتابوا وأنابوا، واستعاذوا بالله ورجعوا إليه من قريب ﴿فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ﴾ أى: قد استقاموا وصحوا مما كانوا فيه .

وقد روى الحافظ أبو بكر بن مردويه عن أبي هريرة، قال: جاءت امرأة إلى النبي ﷺ وبها طيف، فقالت: يا رسول الله، ادع الله أن يشفينى. فقال: «إن شئت دعوتُ الله فشفاك، وإن شئت فاصبرى ولا حساب عليك». فقالت: بل أصبر، ولا حساب على. ورواه غير واحد من أهل السنن، وعندهم: قالت: يا رسول الله، إنى أصرع وأتكشف، فادع الله أن يشفينى. فقال: «إن شئت دعوتُ الله أن يشفيك، وإن شئت صبرت ولك الجنة؟» فقالت: بل أصبر، ولى الجنة، ولكن ادع الله ألا أتكشف، فدعا لها، فكانت لا تتكشف. وأخرجه الحاكم، وقال: صحيح على شرط مسلم، ولم يخرجاه .

وقوله: ﴿وَإِخْوَانُهُمْ﴾ أى: وإخوان الشياطين من الإنس، كقوله: ﴿إِنَّ الْمُبْذَرِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ﴾ [الإسراء: ٢٧]، وهم أتباعهم والمستمعون لهم القابلون لأوامرهم ﴿يَمْدُونَهُمْ فِي الْغِيِّ﴾ أى: تساعدهم الشياطين على المعاصى، وتسهلها عليهم وتحسنها لهم. قال ابن كثير: المد: الزيادة . يعنى : يزيدونهم فى الغي، يعنى: الجهل والسفه. ﴿ثُمَّ لَا يُقْصِرُونَ﴾ قيل: معناه: إن الشياطين تمد الإنس لا تقصر فى أعمالهم بذلك. كما قال ابن عباس فى قوله: ﴿وَإِخْوَانُهُمْ يَمْدُونَهُمْ فِي الْغِيِّ ثُمَّ لَا يُقْصِرُونَ﴾ قال: لا الإنس يقصرون عما يعملون، ولا الشياطين تمسك عنهم. وقيل: معناه كما رواه العوفى، عن ابن عباس قال: هم الجن، يوحون إلى أوليائهم من الإنس ﴿ثُمَّ لَا يُقْصِرُونَ﴾ يقول: لا يسأمون. وكذا قال السدى وغيره: إن الشياطين يمدون أولياءهم من الإنس ولا تسأم من إمدادهم فى الشر؛ لأن ذلك طبيعة لهم وسجية، لا تفتقر فيه ولا تبطل عنه، كما قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَا أَرْسَلْنَا الشَّيَاطِينَ عَلَى الْكَافِرِينَ تَوَزُّهُمْ أَزْأًا﴾ [مریم: ٨٣] قال ابن عباس وغيره: تزعجهم إلى المعاصى إزعاجا.

﴿وَإِذَا لَمْ تَأْتِهِمْ بَيِّنَةٌ قَالُوا لَوْلَا اجْتَبَيْتَهَا قُلْ إِنَّمَا أَتَّبِعُ مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ مِنْ رَبِّي هَذَا بَصَآئِرٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾

قال ابن عباس فى قوله تعالى: ﴿قَالُوا لَوْلَا اجْتَبَيْتَهَا﴾ يقول: لولا تلتقيتها. وقال مرة أخرى: لولا أحدثتها فأشأتها. وقال مجاهد: لولا اقتضيتها، قالوا: تخرجها من نفسك. وكذا قال قتادة، والسدى، واختاره ابن جرير. قال العوفى، عن ابن عباس: ﴿لَوْلَا اجْتَبَيْتَهَا﴾ يقول: تلتقيتها من الله تعالى. وقال الضحاک: يقول: لولا أخذتها أنت فجننت بها من السماء.

ومعنى قوله تعالى: ﴿وَإِذَا لَمْ تَأْتِهِمْ بَيِّنَةٌ﴾ أى: معجزة وخارق، كما قال تعالى: ﴿إِنْ نَشَأْ نُزِّلْ عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ آيَةٌ فَظَلَّتْ أَعْنَاقُهُمْ لَهَا خَاضِعِينَ﴾ [الشعراء: ٤]، ويقولون للرسول ﷺ: ألا تجهد نفسك فى طلب الآيات من الله حتى نراها ونؤمن بها؟! قال الله تعالى له: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَتَّبِعُ مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ مِنْ

رَبِّي ﴿ أَى : أَنَا لَا أَتَقَدَّمُ إِلَيْهِ تَعَالَى فِي شَيْءٍ ، وَإِنَّمَا أَتَّبِعُ مَا أَمَرَنِي بِهِ فَأَمْتَثِلُ مَا يُوحِيهِ إِلَيَّ ، فَإِن بَعَثَ آيَةً قَبْلُهَا ، وَإِن مَنَعَهَا لَمْ أَسْأَلْهُ ابْتِدَاءً إِيَّاهَا ؛ إِلَّا أَن يَأْذَنَ لِي فِي ذَلِكَ ، فَإِنَّهُ حَكِيمٌ عَلِيمٌ .

ثم أرشدهم إلى أن هذا القرآن هو أعظم المعجزات ، وأبين الدلالات ، وأصدق الحجج والبيّنات ، فقال : ﴿ هَذَا بَصَائِرٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ .

﴿ وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾

لما ذكر تعالى أن القرآن بصائر للناس وهدى ورحمة ، أمر تعالى بالإنصات عند تلاوته إعظافاً له واحترافاً ، لا كما كان يعتمده كفار قريش المشركون في قولهم : ﴿ لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَأَنْفُوا فِيهِ ﴾ [فصلت : ٢٦] ، ولكن يتأكد ذلك في الصلاة المكتوبة إذا جهر الإمام بالقراءة كما ورد الحديث الذي رواه مسلم في صحيحه ، من حديث أبي موسى الأشعري ، قال : قال رسول الله ﷺ : « إِنَّمَا جَعَلَ الْإِمَامَ لِيُؤْتِمَّ بِهِ ، فَإِذَا كَبَّرَ فَكَبِّرُوا ، وَإِذَا قَرَأَ فَأَنْصِتُوا » ، وكذا رواه أهل السنن من حديث أبي هريرة أيضاً ، وصححه مسلم ولم يخرج في كتابه . وروى ابن جرير عن المسيب بن رافع ، قال ابن مسعود : كنا يسلم بعضنا على بعض في الصلاة ، فجاء القرآن : ﴿ وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾ (١) . وروى أيضاً عن يسير بن جابر قال : صلى ابن مسعود ، فسمع ناساً يقرؤون مع الإمام ، فلما انصرف قال : أما أن لكم أن تفهموا ؟ ! أما أن لكم أن تعقلوا ؟ ! ﴿ وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا ﴾ ، كما أمركم الله (٢) .

وقد روى الإمام أحمد وأهل السنن عن أبي هريرة ؛ أن رسول الله ﷺ انصرف من صلاة جهر فيها بالقراءة ، فقال : « هل قرأ أحد منكم معي آتفا ؟ ! » قال رجل : نعم يا رسول الله . قال : « إني أقول : ما لي أنزع القرآن ؟ ! » قال : فانتهى الناس عن القراءة مع رسول الله ﷺ فيما جهر فيه رسول الله ﷺ بالقراءة من الصلوات ، حين سمعوا ذلك من رسول الله ﷺ . وقال الترمذي : « هذا حديث حسن » . وصححه أبو حاتم الرازي .

وقال الزهري : لا يقرأ من وراء الإمام فيما يجهر به الإمام ، تكفيهم قراءة الإمام وإن لم يسمعهم صوته ، ولكنهم يقرؤون فيما لا يجهر به سراً في أنفسهم ، ولا يصلح لأحد خلفه أن يقرأ معه فيما يجهر به سراً ولا علانية ، فإن الله تعالى قال : ﴿ وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾ .

قلت : هذا مذهب طائفة من العلماء : أن المأموم لا يجب عليه في الصلاة الجهرية قراءة فيما جهر فيه الإمام لا الفاتحة ولا غيرها ، وهو أحد قولى الشافعى ، وهو القديم ، كمذهب مالك ،

(١) الطبرى (١٥٥٨١) . وإسناده منقطع بين المسيب بن رافع وابن مسعود .

(٢) الطبرى (١٥٥٨٤) . ووقع فيه : « بشير بن جابر » ، وهو تصحيف . وقد بينا صوابه في تمة التخرىج (٣ / ٥٨٦)

ورواية عن أحمد بن حنبل، لما ذكرناه من الأدلة المتقدمة. وقال في الجديد: يقرأ الفاتحة فقط في سكنات الإمام، وهو قول طائفة من الصحابة والتابعين فمن بعدهم. وقال أبو حنيفة وأحمد بن حنبل: لا يجب على المأموم قراءة أصلاً في السرية ولا الجهرية، لما ورد في الحديث: «من كان له إمام فقراءته قراءة له». وهذا الحديث رواه الإمام أحمد في مسنده عن جابر مرفوعاً، وهو في موطأ مالك، عن جابر موقوفاً، وهذا أصح. وهذه المسألة مبسطة في غير هذا الموضوع، وقد أفرد لها الإمام أبو عبد الله البخاري مصنفاً على حدة، واختار وجوب القراءة خلف الإمام في السرية والجهرية أيضاً، والله أعلم.

وقال ابن عباس : قوله: ﴿وَأِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا﴾ يعنى: فى الصلاة المفروضة. وكذا روى عن عبد الله بن المغفل. وعن مجاهد قال: لا بأس إذا قرأ الرجل فى غير الصلاة أن يتكلم. وعن مجاهد قال فى هذه الآية: ﴿وَأِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا﴾ قال: فى الصلاة والخطبة يوم الجمعة. وكذا روى ابن جريج، عن عطاء، مثله. وعن سعيد بن جبیر فى قوله: ﴿وَأِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا﴾ قال: الإنصات يوم الأضحى، ويوم الفطر، ويوم الجمعة، وفيما يجهر به الإمام من الصلاة. وهذا اختيار ابن جرير: أن المراد الإنصات فى الصلاة وفى الخطبة؛ كما جاء فى الأحاديث من الأمر بالإنصات خلف الإمام وحال الخطبة. وعن مجاهد: أنه كره إذا مر الإمام بأية خوف أو بأية رحمة أن يقول أحد من خلفه شيئاً، قال: السكوت. وروى الإمام أحمد عن أبى هريرة، أن رسول الله ﷺ قال: «من استمع إلى آية من كتاب الله، كتبت له حسنة مضاعفة، ومن تلاها كانت له نوراً يوم القيامة». تفرد به أحمد.

﴿وَأَذْكُرْ رَبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ وَلَا

تَكُنْ مِنَ الْغَافِلِينَ ﴿١٠٥﴾ إِنَّ الَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَسَبِّحُونَهُ وَلَهُ

يَسْجُدُونَ ﴿١٠٦﴾

سجدة

يأمر تعالى بذكره أول النهار وآخره كثيرا، كما أمر بعبادته فى هذين الوقتين فى قوله: ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ الْغُرُوبِ﴾ [ق: ٣٩]. وقد كان هذا قبل أن تفرض الصلوات الخمس ليلة الإسراء، وهذه الآية مكية. وقال هاهنا بالغدو - وهو أوائل النهار ﴿وَالْآصَالِ﴾: جمع أصيل، كما أن الأيمان جمع يمين.

وأما قوله: ﴿تَضَرُّعًا وَخِيفَةً﴾ أى: اذكر ربك فى نفسك رغبة ورهبة، وبالقول لا جهراً؛ ولهذا قال: ﴿وَدُونَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ﴾. وهكذا يستحب أن يكون الذكر لا يكون نداء وجهراً بليغاً؛ ولهذا لما سألوا رسول الله ﷺ فقالوا: أقرب ربنا فنناجيه أم بعيد فنناديه؟ فنزل الله: ﴿وَأِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾ [البقرة: ١٨٦]. وفى الصحيحين عن أبى موسى الأشعري قال: رفع الناس أصواتهم بالدعاء فى بعض الأسفار، فقال لهم النبى ﷺ:

«أيها الناس، اربعوا على أنفسكم، فإنكم لا تدعون أصمَّ ولا غائباً؛ إن الذي تدعونه سميع قريب ، أقرب إلى أحدكم من عنق راحلته .» .

وقد يكون المراد من هذه الآية كما في قوله تعالى: ﴿وَلَا تُجْهَرُ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتُ بِهَا وَابْتَغِ بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا﴾ [الإسراء: ١١٠]، فإن المشركين كانوا إذا سمعوا القرآن سبوه ، وسبوا من أنزله، وسبوا من جاء به؛ فأمره الله تعالى ألا يجهر به، لئلا ينال منه المشركون، ولا يخافت به عن أصحابه فلا يسمعونهم، وليتخذ سبيلاً بين الجهر والإسرار. وكذا قال في هذه الآية الكريمة: ﴿وَدُونَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ وَلَا تَكُنْ مِنَ الْغَافِلِينَ﴾ .

وقد زعم ابن جرير وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم قبله: أن المراد بهذه الآية: أمر السامع للقرآن في حال استماعه بالذكر على هذه الصفة ! وهذا بعيد مناف للإنصات للمأمور به، ثم المراد بذلك في الصلاة، كما تقدم، أو الصلاة والخطبة، ومعلوم أن الإنصات إذ ذاك أفضل من الذكر باللسان، سواء كان سراً أو جهراً، فهذا الذي قالاه لم يتابعا عليه، بل المراد الحض على كثرة الذكر من العباد بالغدو والآصال، لئلا يكونوا من الغافلين؛ ولهذا مدح الملائكة الذين يسبحون الليل والنهار لا يفترون، فقال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيُسَبِّحُونَهُ وَلَهُ يَسْجُدُونَ﴾ . وإنما ذكرهم بهذا ليتشبه بهم في كثرة طاعتهم وعبادتهم؛ ولهذا شرع لنا السجود هاهنا لما ذكر سجودهم لله، عز وجل، كما جاء في الحديث: «أَلَا تَصْفُونَ كَمَا تَصَفُّ الْمَلَائِكَةُ عِنْدَ رَبِّهَا، يَتَمَوَّنُ الصَّفُوفَ الْأَوَّلَ فَالْأَوَّلَ ، وَيَتَرَاوُونَ فِي الصَّفِّ » . وهذه أول سجدة في القرآن، مما يشرع لتاليها ومستمعها السجود بالإجماع. وقد ورد في حديث رواه ابن ماجه، عن أبي الدرداء، عن النبي ﷺ أنه عدّها في سجّدات القرآن (١) .

(١) رواه - بنحوه - أحمد في المسند (٥ / ١٠١) ومسلم (١ / ١٢٧) كلاهما من حديث جابر بن سمرة .

تفسير سورة الأنفال

وهى مدنية . آياتها سبعون وست آيات (١) . كلماتها ألف كلمة، وستمائة كلمة، وإحدى وثلاثون كلمة . حروفها خمسة آلاف ومائتان، وأربعة وتسعون حرفا ، والله أعلم .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿سَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفَالِ قُلِ الْأَنْفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ فَأَتَقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾

ربع

قال البخارى: قال ابن عباس: الأنفال: الغنائم وروى عن سعيد بن جبير، قال: قلت لابن عباس: سورة الأنفال؟ قال: نزلت فى بدر . أما ما علقه عن ابن عباس، فكذلك رواه على ابن أبى طلحة، عن ابن عباس أنه قال: الأنفال: الغنائم، كانت لرسول الله ﷺ خالصة، ليس لأحد منها شيء . وكذا قال مجاهد، وعكرمة، وعطاء، والضحاك، وقتادة، وغير واحد : أنها المغنم .

وروى ابن جرير عن القاسم بن محمد ، قال : سمعت رجلا يسأل ابن عباس عن الأنفال ؟ ، فقال ابن عباس : الفرس من النفل، والسلب من النفل . ثم عاد لمسألته، فقال ابن عباس ذلك أيضا . ثم قال الرجل: الأنفال التى قال الله فى كتابه، ما هى؟ قال القاسم: فلم يزل يسأله حتى كاد يُخرجه، فقال ابن عباس: أتدرون ما مثل هذا، مثل صبيغ الذى ضربه عمر بن الخطاب . وروى عبد الرزاق عن القاسم بن محمد قال: قال ابن عباس: كان عمر بن الخطاب إذا سئل عن شيء قال: لا أمرك ولا أنهاك . ثم قال ابن عباس: والله ما بعث الله نبيه ﷺ إلا زاجرا أمرا ، مُحلّا مُحَرِّمًا . قال القاسم: فسُلِّطَ على ابن عباس رجل فسأله عن الأنفال، فقال ابن عباس: كان الرجل ينفل فرس الرجل وسلاحه . فأعاد عليه الرجل، فقال له مثل ذلك، ثم أعاد عليه حتى أغضبه، فقال ابن عباس: أتدرون ما مثل هذا؟ مثل صبيغ الذى ضربه عمر بن الخطاب، حتى سألت الدماء على عقبه وعلى رجله، فقال الرجل: أما أنت فقد انتقم الله لعمر منك . وإسناده صحيح إلى ابن عباس: أنه فسر النفل بما ينفله الإمام لبعض الأشخاص من سلب أو نحوه، بعد قسم أصل المغنم، وهو المتبادر إلى فهم كثير من الفقهاء من لفظ النفل، والله أعلم .

وروى ابن المبارك وغير واحد عن عطاء بن أبى رباح: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفَالِ﴾ ، قال: يسألونك فيما شذ من المشركين إلى المسلمين فى غير قتال، من دابة أو عبد أو أمة أو متاع، فهو

(١) فى المخطوطتين: «آياتها ست وأربعون آية» . وهو خطأ يقينا ، مخالف للواقع فى عدد آياتها . وهى فى عد مصحفنا ٧٥ آية ، على عد المصحف الكوفى ، وهى ٧٦ آية فى عد المصاحف المدنى والمكى والبصرى .

نَقَلَ لِلنَّبِيِّ ﷺ يصنع به ما يشاء . وهذا يقتضى أنه فسر الأنفال بالفىء ، وهو ما أخذ من الكفار من غير قتال . قال ابن جرير : وقال آخرون : هى أنفال السرايا ، وقد صرح بذلك الشعبى ، واختار ابن جرير أنها الزيادة على القَسَم ، ويشهد لذلك ما ورد فى سبب نزول الآية ، وهو ما رواه الإمام أحمد عن سعد بن أبى وقاص قال : لما كان يوم بدر ، وقتل أخى عُمَيْرٌ ، وَقَتْلُ سَعِيدِ بْنِ الْعَاصِ وَأَخَذَتْ سَيْفَهُ ، وكان يسمى «ذا الكتيفة» ، فَأَتَيْتُ بِهِ نَبِيَّ اللَّهِ ﷺ ، فَقَالَ : «أذهب فاطرحه فى القبض» . قال : فرجعت وبى ما لا يعلمه إلا الله من قتل أخى وأخذ سلبى . قال : فما جاوزت إلا يسيرا حتى نزلت سورة الأنفال ، فقال لى رسول الله ﷺ : «أذهب فخذ سَلْبَكَ» .

وروى الإمام أحمد أيضا عن سعد بن مالك قال : قلت : يا رسول الله ، قد شفانى الله اليوم من المشركين ، فهب لى هذا السيف . فقال : «إن هذا السيف لا لك ولا لى ، ضعه» قال : فوضعتة ، ثم رجعت ، فقلت : عسى أن يعطى هذا السيف اليوم من لا يبلى بلائى ، قال : رجل يدعونى من ورائى ، قال : قلت : قد أنزل الله فى شيئا ، قال : «كنت سألتنى السيف ، وليس هو لى وإنه قد وهب لى ، فهو لك» قال : وأنزل الله هذه الآية : ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفَالِ قُلِ الْأَنْفَالُ لِلَّهِ وَالرُّسُولِ﴾ . ورواه أبو داود ، والترمذى ، والنسائى . وقال الترمذى : حسن صحيح . وهكذا رواه أبو داود الطيالسى عن سعد قال : نزلت فى أربع آيات : أصبت سيفا يوم بدر ، فأتيت النبى ﷺ فقلت : نَقَلْتَنِيهِ . فقال : «ضعه من حيث أخذته» مرتين ، ثم عاودته ، فقال النبى ﷺ : «ضعه من حيث أخذته» ، فنزلت هذه الآية : ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفَالِ﴾ . وتمام الحديث فى نزول : ﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حُسْنًا﴾ [العنكبوت : ٨] ، وقوله تعالى : ﴿إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ﴾ [المائدة : ٩٠] ، وآية الوصية . وقد رواه مسلم .

وروى الإمام أحمد عن أبى أمامة قال : سألت عبادة عن الأنفال ، فقال : فىنا - أصحاب بدر - نزلت ، حين اختلفنا فى النَّقْلِ ، وساءت فيه أخلاقنا ، فانتزعه الله من أيدينا ، وجعله لى رسول الله ﷺ ، فقسمه رسول الله ﷺ بين المسلمين عن بَوَاءٍ - يقول : عن سواء .

وروى الإمام أحمد عن أبى أمامة ، عن عبادة بن الصامت قال : خرجنا مع النبى ﷺ ، فشهدت معه بدرًا ، فالتقى الناس ، فهزم الله تعالى العدو ، فانطلقت طائفة فى آثارهم يهزمون ويقتلون ، وأكبت طائفة على العسكر يحوزونه ويجمعونه . وأحدقت طائفة برسول الله ﷺ لا يصيب العدو منه غِرَّةٌ ، حتى إذا كان الليل ، وفاء الناس بعضهم إلى بعض ، قال الذين جمعوا الغنائم : نحن حويناها ، فليس لأحد فيها نصيب . وقال الذين خرجوا فى طلب العدو : لستم بأحق به منا ، نحن نفينا عنها العدو وهزمناهم . وقال الذين أحدقوا برسول الله ﷺ : خفنا أن يصب العدو منه غرة ، فاشتغلنا به ، فنزلت : ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفَالِ قُلِ الْأَنْفَالُ لِلَّهِ وَالرُّسُولِ فَانقُضُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ﴾ ، فقسمها رسول الله ﷺ بين المسلمين - وكان رسول الله ﷺ إذا غار فى أرض

العدو نَقَلَ الربيع، فإذا أقبل راجعا نفل الثلث، وكان يكره الأنفال . ورواه الترمذى وابن ماجه نحوه، وقال الترمذى: هذا حديث حسن. ورواه ابن حبان فى صحيحه، والحاكم فى مستدركه، وقال الحاكم: صحيح الإسناد على شرط مسلم ولم يخرجاه. وروى أبو داود والنسائى، وابن جرير، وابن مردويه - واللفظ له - وابن حبان، والحاكم عن ابن عباس قال: لما كان يوم بدر قال رسول الله ﷺ: «من صنع كذا وكذا فله كذا وكذا، فتسارع فى ذلك شبان الرجال، وبقي الشيوخ تحت الرايات، فلما كانت المغانم، جاؤوا يطلبون الذى جعل لهم، فقال الشيوخ: لا تستأثروا علينا، فإننا كنا رداء لكم، لو انكشفتم لفتنتم إينا. فتنازعوا فأنزل الله تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفَالِ﴾ إلى قوله: ﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ (١).

وقال الإمام أبو عبيد القاسم بن سلام، رحمه الله، فى كتاب «الأموال الشرعية وبيان جهاتها»: أما الأنفال: فهى المغانم، وكل نيل ناله المسلمون من أموال أهل الحرب، فكانت الأنفال الأولى إلى النبى ﷺ، يقول الله تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفَالِ قُلِ الْأَنْفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ﴾ فقسما يوم بدر على ما أراه الله من غير أن يُخَمِّسها على ما ذكرناه فى حديث سعد، ثم نزلت بعد ذلك آية الخمس، فنسخت الأولى . قلت: هكذا روى على بن أبى طلحة، عن ابن عباس، سواء. وبه قال مجاهد، وعكرمة والسدى. وقال ابن زيد: ليست منسوخة، بل هى محكمة.

قال أبو عبيد: فى ذلك آثار، والأنفال أصلها جماع الغنائم، إلا أن الخمس منها مخصوص لأهله على ما نزل به الكتاب، وجرت به السنة. ومعنى الأنفال فى كلام العرب: كل إحسان فعله فاعل تفضلا من غير أن يجب ذلك عليه، فذلك النفل الذى أحله الله للمؤمنين من أموال عدوهم وإنما هو شيء خصه الله به تطولا منه عليهم، بعد أن كانت المغانم محرمة على الأمم قبلهم، فنفلها الله تعالى هذه الأمة، فهذا أصل النفل. قلت: شاهد هذا ما فى الصحيحين عن جابر: أن رسول الله ﷺ قال: «أعطيت خمسا لم يعطهن أحد قبلى» فذكر الحديث، إلى أن قال: «وأحلت لى الغنائم ولم تحل لأحد قبلى»، وذكر تمام الحديث. ثم قال أبو عبيد: ولهذا سمى ما جعل الإمام للمقاتلة نفلا، وهو تفضيله بعض الجيش على بعض بشيء سوى سهامهم، يفعل ذلك بهم على قدر العناء عن الإسلام والنكايه فى العدو .

وقوله تعالى: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ﴾ أى: اتقوا الله فى أموركم، وأصلحوا فيما بينكم ولا تظالموا ولا تخاصموا ولا تشاجروا؛ فما آتاكم الله من الهدى والعلم خير مما تختصمون بسببه ﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ أى: فى قسمة بينكم على ما أراه الله، فإنه إنما يقسمه كما أمره الله من العدل والإنصاف . وقال ابن عباس: هذا تحريج من الله ورسوله أن يتقوا ويصلحوا ذات بينهم . وكذا قال مجاهد . وقال السدى: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ﴾ أى :

(١) رواه الطبرى بثلاثة أسانيد صحاح إلى ابن عباس (١٥٦٥٠ - ١٥٦٥٢) ورواه بإسناد رابع (١٥٦٥٣) إلى عكرمة فقط - وهو فى أبى داود (٢٧٣٧) والحاكم (٢ / ١٣١ ، ١٣٢) ، وقال الذهبى: «هو على شرط البخارى» . ورواه مرة أخرى مطولا من وجه آخر (٣٢٦/٢) وصححه على شرط مسلم ، ووافقه الذهبى .

لا تستبوا .

﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿١﴾ الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ ﴿٢﴾ أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَهُمْ دَرَجَاتٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٣﴾ ﴾

قال ابن عباس فى قوله: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ قال: المنافقون لا يدخل قلوبهم شىء من ذكر الله عند أداء فرائضه، ولا يؤمنون بشىء من آيات الله، ولا يتوكلون، ولا يصلون إذا غابوا، ولا يؤدون زكاة أموالهم، فأخبر الله تعالى أنهم ليسوا بمؤمنين، ثم وصف المؤمنين فقال: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ فأدوا فرائضه ﴿وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا﴾ يقول: تصديقاً ﴿وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ يقول: لا يرجون غيره. وقال مجاهد: ﴿وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ فَرَقَتْ ، أى: فزعت وخافت. وكذا قال السدى وغير واحد.

وهذه صفة المؤمن حق المؤمن ، الذى إذا ذكر الله وجل قلبه ، أى : خاف منه ، ففعل أوامره ، وترك زواجره ، كقوله تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَنْ يَغْفِرِ اللَّهُ لَنْ يَسُدَّ لَهُمُ الدُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَىٰ مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ [آل عمران: ١٣٥]، وكقوله تعالى : ﴿ وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَىٰ . فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى ﴾ [النارعات: ٤٠ ، ٤١] ولهذا قال سفيان الثورى: سمعت السدى يقول فى قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ قال: هو الرجل يريد أن يظلم - أو قال: يهجم بمعصية - فيقال له: اتق الله ، فيجل قلبه . وقوله: ﴿وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا﴾ كقوله: ﴿وَإِذَا مَا أَنْزَلْنَا سُورَةً فَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَذِهِ إِيمَانًا فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَرَأَدَتْهُمْ إِيمَانًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾ [التوبة: ١٢٤].

وقد استدلل البخارى وغيره من الأئمة بهذه الآية وأشباهها، على زيادة الإيمان وتفاضله فى القلوب، كما هو مذهب جمهور الأمة، بل قد حكى الإجماع على ذلك غير واحد من الأئمة، كالشافعى، وأحمد بن حنبل، وأبى عبيد، كما بينا ذلك مستقصى فى أول شرح البخارى، والله الحمد والمنة. ﴿وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ أى: لا يرجون سواه، ولا يقصدون إلا إياه، ولا يلوذون إلا بجنابه، ولا يطلبون الحوائج إلا منه، ولا يرغبون إلا إليه، ويعلمون أنه ما شاء كان، وما لم يشأ لم يكن، وأنه المتصرف فى الملك، وحده لا شريك له، ولا معقب لحكمه، وهو سريع الحساب؛ ولهذا قال سعيد بن جبير: التوكل على الله جماع الإيمان.

وقوله: ﴿الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ﴾: ينبه تعالى بذلك على أعمالهم، بعد ما ذكر اعتقادهم، وهذه الأعمال تشمل أنواع الخير كلها، وهو إقامة الصلاة، وهو حق الله تعالى. وقال قتادة: إقامة الصلاة: المحافظة على مواقيتها، ووضوئها، وركوعها، وسجودها. وقال مقاتل ابن حيان: إقامتها: المحافظة على مواقيتها ، وإسباغ الطهور فيها، وتمام ركوعها وسجودها،

وتلاوة القرآن فيها، والتشهد والصلاة على النبي ﷺ، هذا إقامتها. والإنفاق مما رزقهم الله يشمل إخراج الزكاة، وسائر الحقوق للعباد من واجب ومستحب، والخلق كلهم عيال الله، فأحبهم إلى الله أنفعهم لخلقه. قال قتادة في قوله: ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾: فأنفقوا مما أعطاكم الله، فإنما هذه الأموال عواري وودائع عندك يا بن آدم، أو شككت أن تفارقها.

وقوله: ﴿أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا﴾ أى: المتصفون بهذه الصفات هم المؤمنون حق الإيمان. وقال عمرو بن مرة في قوله: ﴿أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا﴾: إنما نزل القرآن بلسان العرب، كقولك: فلان سيد حقا، وفى القوم سادة، وفلان تاجر حقا، وفى القوم تجار، وفلان شاعر حقا، وفى القوم شعراء.

وقوله: ﴿لَهُمْ دَرَجَاتٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾ أى: منازل ومقامات ودرجات فى الجنات، كما قال تعالى: ﴿هُمُ دَرَجَاتٌ عِنْدَ اللَّهِ وَاللَّهُ بِصِيرٍ بِمَا يَعْمَلُونَ﴾ [آل عمران: ١٦٣]. ﴿وَمَغْفِرَةٌ﴾ أى: يغفر لهم السيئات، ويشكر لهم الحسنات. وقال الضحاک فى قوله: ﴿لَهُمْ دَرَجَاتٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾: أهل الجنة بعضهم فوق بعض، فىرى الذى هو فوق فضله على الذى هو أسفل منه، ولا يرى الذى هو أسفل أنه فضل عليه أحد. ولهذا جاء فى الصحيحين أن رسول الله ﷺ قال: ﴿إن أهل عليين ليراهم من أسفل منهم كما ترون الكوكب الغابر فى أفق من آفاق السماء﴾، قالوا: يا رسول الله، تلك منازل الأنبياء، لا ينالها غيرهم؟ فقال: «بلى»، والذى نفسى بيده، لرجال آمنوا بالله وصدقوا المرسلين» (١). وفى الحديث الآخر الذى رواه الإمام أحمد وأهل السنن، عن أبى سعيد قال: قال رسول الله ﷺ: ﴿إن أهل الجنة ليرآون أهل الدرجات العلى، كما ترون الكوكب الغابر فى أفق السماء، وإن أبا بكر وعمر منهم وأنعمًا﴾ (٢).

﴿ كَمَا أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنْ بَيْتِكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ لَكُرِهُونَ ﴿٥﴾
يُجَادِلُونَكَ فِي الْحَقِّ بَعْدَمَا بَيَّنَّ كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى الْمَوْتِ وَهُمْ يَنْظُرُونَ ﴿٦﴾ وَإِذْ يَعِدُكُمُ
اللَّهُ إِحْدَى الظَّالِمِينَ أَنَّهَا لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ الشُّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ وَيُرِيدُ اللَّهُ
أَنْ يُحِقَّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَيَقْطَعَ دَابِرَ الْكَافِرِينَ ﴿٧﴾ لِيُحِقَّ الْحَقَّ وَيُبْطِلَ الْبَاطِلَ وَلَوْ كَرِهَ
الْمُجْرِمُونَ ﴿٨﴾

قال الإمام أبو جعفر الطبرى: اختلف المفسرون فى السبب الجالب لهذه «الكاف» فى قوله: ﴿كَمَا أَخْرَجَكَ رَبُّكَ﴾، فقال بعضهم: شبه به فى الصلاح للمؤمنين اتقاؤهم ربهم، وإصلاحهم ذات بينهم، وطاعتهم لله ورسوله. ثم روى عن عكرمة نحو هذا.

(١) انظر البخارى (٦ / ٢٣٣ ، ٢٣٤ فتح) ومسلم (٢ / ٣٤٩).

(٢) «وأنعمًا»: أى زادا وفضلا، ويقال: قد أحسنت إلى فى الإحسان وأنعمت، أى: زدت على الإحسان. وقيل: معناه: صارا إلى النعيم ودخلا فيه. قاله فى اللسان.

ومعنى هذا : أن الله تعالى يقول: كما أنكم لما اختلفتم في المغامر وتشاحتم فيها فانترعها الله منكم، وجعلها إلى قسمة وقسم رسوله ﷺ، فقسمها على العدل والتسوية، فكان هذا هو المصلحة التامة لكم، وكذلك لما كرهتم الخروج إلى الأعداء من قتال ذات الشوكة، وهم النفيير الذين خرجوا لنصر دينهم، وإحراز غيرهم، فكان عاقبة كراحتكم للقتال بأن قدره لكم، وجمع به بينكم وبين عدوكم على غير ميعاد - رشداً وهدى، ونصراً وفتحاً، كما قال تعالى : ﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾ [البقرة: ٢١٦].

قال ابن جرير: وقال آخرون: معنى ذلك: ﴿ كَمَا أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنْ بَيْتِكَ بِالْحَقِّ ﴾ على كره من فريق من المؤمنين، كذلك هم كارهون لقتال، فهم يجادلونك فيه بعد ما تبين لهم، ثم روى نحوه عن مجاهد أنه قال: ﴿ كَمَا أَخْرَجَكَ رَبُّكَ ﴾ قال: كذلك يجادلونك في الحق. وقال السدي: أنزل الله في خروجه إلى بدر ومجادلتهم إياه فقال: ﴿ كَمَا أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنْ بَيْتِكَ بِالْحَقِّ وَإِنْ فَرِيقًا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ لَكَارِهُونَ ﴾ لطلب المشركين ﴿ يُجَادِلُونَكَ فِي الْحَقِّ بَعْدَ مَا تَبَيَّنَ ﴾. وقال بعضهم: يسألونك عن الأنفال مجادلة، كما جادلوك يوم بدر فقالوا: أخرجتنا للغير، ولم تعلمنا قتالا فنستعد له.

قلت: رسول الله ﷺ إنما خرج من المدينة طالبا لغير أبي سفيان، التي بلغه خبرها أنها صادرة من الشام، فيها أموال جزيلة لقريش، فاستنهض رسول الله ﷺ المسلمين من خف منهم، فخرج في ثلاثمائة وبضعة عشر رجلا، وطلب نحو الساحل من على طريق بدر، وعلم أبو سفيان بخروج رسول الله ﷺ في طلبه، فبعث ضمضم بن عمرو نذيرا إلى مكة، فنهضوا في قريب من ألف مقلع، ما بين التسعمائة إلى الألف، وتيامن أبو سفيان بالغير إلى سيف البحر فنجأ، وجاء النفيير فوردوا ماء بدر، وجمع الله المسلمين والكافرين على غير ميعاد، لما يريد الله تعالى من إعلاء كلمة المسلمين ونصرهم على عدوهم، والتفرقة بين الحق والباطل، كما سيأتي بيانه.

والغرض: أن رسول الله ﷺ لما بلغه خروج النفيير، أوحى الله إليه يعده إحدى الطائفتين: إما العير وإما النفيير، ورغب كثير من المسلمين إلى العير؛ لأنه كسب بلا قتال، كما قال تعالى: ﴿ وَتَوَدُّونَ أَنْ غَيْرَ ذَاتِ الشُّوْكَةِ تَكُونَ لَكُمْ وَيُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُحِقَّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَيَقْطَعَ دَابِرَ الْكَافِرِينَ ﴾. روى الحافظ أبو بكر بن مردويه عن أبي أيوب الأنصاري، قال: قال رسول الله ﷺ ونحن بالمدينة: « إني أخبرت عن عير أبي سفيان أنها مقبلة فهل لكم أن نخرج قبل هذه العير لعل الله يُغنمناها؟ » فقلنا: نعم، فخرج وخرجنا، فلما سرنا يوما أو يومين قال لنا: « ما ترون في قتال القوم؟ فإنهم قد أخبروا بخروجكم؟ » فقلنا: لا، والله ما لنا طاقة بقتال العدو، ولكننا أردنا العير، ثم قال: « ما ترون في قتال القوم؟ » فقلنا مثل ذلك فقال المقداد بن عمرو: إذا لا نقول لك يا رسول الله كما قال قوم موسى لموسى: ﴿ فَأَذْهَبَ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ ﴾ [المائدة: ٢٤]، قال: فتمنينا - معشر الأنصار - أن لو قلنا كما قال المقداد أحب إلينا من أن يكون

لنا مال عظيم، قال: فأنزل الله على رسوله ﷺ: ﴿ كَمَا أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنْ بَيْتِكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ لَكَارِهُونَ ﴾ وذكر تمام الحديث . ورواه ابن أبى حاتم بنحوه . ورواه ابن مردويه أيضاً عن علقمة ابن وقاص الليثى ، قال: خرج رسول الله ﷺ إلى بدر ، حتى إذا كان بالروحاء، خطب الناس فقال: « كيف ترون؟ » فقال أبو بكر: يا رسول الله، بلغنا أنهم يمكن كذا وكذا . قال : ثم خطب الناس فقال: « كيف ترون ؟ » فقال عمر مثل قول أبى بكر . ثم خطب الناس فقال: « كيف ترون؟ » فقال سعد بن معاذ: يا رسول الله إيانا تريد؟ فوالذى أكرمك وأنزل عليك الكتاب، ماسلكتها قط ولا لى بها علم، ولئن سرت حتى تأتى «برك الغماد» من ذى يمن لنسيرن معك، ولانكون كالذين قالوا لموسى: ﴿ فَاذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ ﴾ ، ولكن اذهب أنت وربك فقاتلا إنا معكما متبعون، ولعلك أن تكون خرجت لأمر، وأحدث الله إليك غيره، فانظر الذى أحدث الله إليك، فامض له، فصل حبال من شئت، واقطع حبال من شئت، وعاد من شئت، وسالم من شئت، وخذ من أموالنا ما شئت، فنزل القرآن على قول سعد: ﴿ كَمَا أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنْ بَيْتِكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ لَكَارِهُونَ ﴾ الآيات .

وقال العوفى، عن ابن عباس: لما شاور النبى ﷺ فى لقاء العدو، وقال له سعد بن عبادة ما قال وذلك يوم بدر، أمر الناس أن يتهيؤوا للقتال، وأمرهم بالشوكة، فكره ذلك أهل الإيمان، فأنزل الله: ﴿ كَمَا أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنْ بَيْتِكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ لَكَارِهُونَ . يُجَادِلُونَكَ فِي الْحَقِّ بَعْدَ مَا تَبَيَّنَ كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى الْمَوْتِ وَهُمْ يَنْظُرُونَ ﴾ . وقال مجاهد: يجادلونك فى الحق: فى القتال . قال ابن جرير: وقال آخرون: عنى بذلك المشركين . ثم روى عن ابن زيد ، قال: هؤلاء المشركون، جادلوه فى الحق ﴿ كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى الْمَوْتِ ﴾ حين يدعون إلى الإسلام ﴿ وَهُمْ يَنْظُرُونَ ﴾ قال: وليس هذا من صفة الآخرين، هذه صفة مبتدأة لأهل الكفر . ثم قال ابن جرير: ولا معنى لما قاله؛ لأن الذى قبل قوله: ﴿ يُجَادِلُونَكَ فِي الْحَقِّ ﴾ خبر عن أهل الإيمان، والذى يتلوه خبر عنهم، والصواب قول ابن عباس وابن إسحاق أنه خبر عن المؤمنين . وهذا الذى نصره ابن جرير هو الحق، وهو الذى يدل عليه سياق الكلام، والله أعلم . وروى الإمام أحمد عن ابن عباس قال: قيل لرسول الله ﷺ حين فرغ من بدر: عليك بالعبير ليس دونها شيء ، فناداه العباس بن عبد المطلب وهو أسير فى وثاقه: إنه لا يصلح لك ، قال : ولم ؟ قال : لأن الله عز وجل إنما وعدك إحدى الطائفتين ، وقد أعطاك الله ما وعدك . إسناده جيد، ولم يخرجوه (١) .

ومعنى قوله تعالى: ﴿ وَتَوَدُّونَ أَنْ غَيْرَ ذَاتِ الشُّوْكَةِ تَكُونَ لَكُمْ ﴾ أى: يحبون أن الطائفة التى لا حد لها ولا منعة ولا قتال، تكون لهم وهى العبير ﴿ وَيُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُحِقَّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ ﴾ أى: هو يريد أن يجمع بينكم وبين الطائفة التى لها الشوكة والقتال، ليظفركم بهم ويظهركم عليهم، ويظهر دينه، ويرفع كلمة الإسلام، ويجعله غالباً على الأديان ، وهو أعلم بعواقب الأمور، وهو

الذى يدبركم بحسن تدبيره، وإن كان العباد يحبون خلاف ذلك فيما يظهر لهم، كما قال تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ﴾ [البقرة: ٢١٦].

وقال محمد بن إسحاق: حدثني محمد بن مسلم الزهري، وعاصم بن عمر بن قتادة، وعبد الله ابن أبي بكر، ويزيد بن رومان، عن عروة بن الزبير وغيرهم من علمائنا، عن عبد الله ابن عباس - كل قد حدثني بعض هذا الحديث، فاجتمع حديثهم فيما سقت من حديث بدر - قالوا: لما سمع رسول الله ﷺ بأبى سفيان مقبلا من الشام ندب المسلمين إليهم، وقال: «هذه غير قريش فيها أموالهم، فاخرجوا إليها لعل الله أن ينفلكموها». فانتدب الناس، فخف بعضهم وثقل بعضهم، وذلك أنهم لم يظنوا أن رسول الله ﷺ يلقي حربا، وكان أبو سفيان قد استنفر حين دنا من الحجاز يتجسس الأخبار، ويسأل من لقي من الركبان، تخوفا على أمر الناس، حتى أصاب خيرا من بعض الركبان: أن محمداً قد استنفر أصحابه لك ولعيرك، فحذَرَ عند ذلك، فاستأجر ضمضم بن عمرو الغفاري، فبعثه إلى أهل مكة، وأمره أن يأتي قريشا فيستنفرهم إلى أموالهم، ويخبرهم أن محمداً قد عرض لها في أصحابه، فخرج ضمضم بن عمرو سريعا إلى مكة، وخرَج رسول الله ﷺ في أصحابه حتى بلغ واديا يقال له «ذفران»، فخرج منه حتى إذا كان ببعضه نزل، وأتاه الخبر عن قريش بمسيرهم ليمنعوا غيرهم فاستشار رسول الله ﷺ الناس، وأخبرهم عن قريش، فقام أبو بكر، رضى الله عنه، فقال فأحسن، ثم قام عمر فقال فأحسن، ثم قام المقداد بن عمرو فقال: يا رسول الله، امض لما أمرك الله به، فنحن معك، والله لا نقول لك كما قالت بنو إسرائيل لموسى: ﴿اذهب أنت وربك فقاتل إنا ههنا قاعدون﴾ [المائدة: ٢٤] ولكن اذهب أنت وربك فقاتل إنا معكما مقاتلون، فوالذى بعثك بالحق، لو سرت بنا إلى «برك الغمام» - يعنى مدينة الحبشة - لجالدنا معك من دونه حتى تبلغه، فقال له رسول الله ﷺ خيرا، ودعا له بخير، ثم قال رسول الله ﷺ: «أشيروا على أيها الناس» - وإنما يريد الأنصار - وذلك أنهم كانوا عدد الناس، وذلك أنهم حين بايعوه بالعقبة قالوا: يا رسول الله، إنا برآء من ذمامك حتى تصل إلى دارنا، فإذا وصلت إلينا فأنت في ذمنا نمنعك عما نمنع منه أبناءنا ونساءنا، فكان رسول الله ﷺ يتخوف ألا تكون الأنصار ترى عليها نصرتة إلا بمن دهمه بالمدينة، من عدوه، وأن ليس عليهم أن يسير بهم إلى عدو من بلادهم، فلما قال رسول الله ﷺ ذلك، قال له سعد بن معاذ: والله لكأنك تريدنا يا رسول الله؟ قال: «أجل» قال: فقد آمنا بك، وصدقناك، وشهدنا أن ما جئت به هو الحق، وأعطيناك على ذلك عهدنا وموآثقتنا على السمع والطاعة، فامض يا رسول الله لما أمرك الله. فوالذى بعثك بالحق، إن استعرضت بنا هذا البحر فخضته لخضناه معك، ما يتخلف منا رجل واحد، وما نكره أن تلقى بنا عدونا غدا، إنا لصبرٌ عند الحرب، صدقٌ عند اللقاء، ولعل الله يريك منا ما تقرّ به عينك، فسرّ بنا على بركة الله. فسّر رسول الله ﷺ بقول سعد، ونشطه ذلك، ثم قال: «سيروا

على بركة الله وأبشروا، فإن الله قد وعدني إحدى الطائفتين، والله لكأني الآن أنظر إلى مصارع القوم .

وروى العوفي عن ابن عباس نحو هذا، وكذلك قال السدي، وقتادة، وعبد الرحمن بن زيد ابن أسلم، وغير واحد من علماء السلف والخلف، اختصرنا أقوالهم اكتفاء بسياق محمد بن إسحاق .

﴿ إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُمْ بِأَلْفٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُرَدِّفِينَ ﴿٩﴾ وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِ قُلُوبُكُمْ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿١٠﴾ ﴾

(*) روى الإمام أحمد عن عمر بن الخطاب ، قال: لما كان يوم بدر نظر النبي ﷺ إلى أصحابه، وهم ثلاثمائة ونيف، ونظر إلى المشركين فإذا هم ألف وزيادة، فاستقبل النبي ﷺ القبلة ، وعليه رداؤه وإزاره، ثم قال : « [اللهم أين ما وعدتني] (١) ، اللهم أنجز لى ما وعدتني، اللهم إن تهلك هذه العصابة من أهل الإسلام فلا تعبد فى الأرض أبدا»، قال: فما زال يستغيث ربه ويدعوه حتى سقط رداؤه عن منكبيه ، فاتاه أبو بكر فأخذ رداءه فرداه، ثم التزمه من ورائه، ثم قال: يا نبي الله، كفاك (٢) مناشدتك ربك، فإنه سينجز لك ما وعدك، فأنزل الله، عز وجل: ﴿ إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُمْ بِأَلْفٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُرَدِّفِينَ ﴾ ، فلما كان يومئذ التقوا ، فهزم الله المشركين ، فقتل منهم سبعون رجلا، وأسر منهم سبعون رجلا، واستشار رسول الله ﷺ أبا بكر وعمر وعلياً ، فقال أبو بكر: يا رسول الله، هؤلاء بنو العم والعشيرة والإخوان، وإنى أرى أن تأخذ منهم الفدية، فيكون ما أخذناه منهم قُوَّةً لنا على الكفار، وعسى أن يهديهم الله فيكونوا لنا عَضُدًا، فقال رسول الله ﷺ : « ما ترى يا بن الخطاب ؟ » قال : قلت: والله ما أرى ما رأى أبو بكر، ولكنى أرى أن تُمكنننى من فلان - قريب لعمر - فأضربَ عنقه، وتمكنَ علياً من عقيل فيضربَ عنقه، وتمكن حمزة من فلان - أخيه فيضربَ عنقه، حتى يعلم الله أن ليس فى قلوبنا هواده للمشركين، هؤلاء صنابيرهم وأئمتهم وقادتهم، فهوى رسول الله ﷺ ما قال أبو بكر، ولم يهو ما قلت، وأخذ منهم الفداء، فلما كان من الغد - قال عمر - فغدوت إلى النبي ﷺ وأبى بكر وهما يبكيان ، فقلت : ما يبكيك أنت وصاحبك، فإن وجدتُ بكاءً بكيتُ، وإن لم أجد بكاءً تَبَاكَيْتُ لِبَكَائِكُمَا! قال النبي ﷺ: « للذى عَرَضَ عَلَى أَصْحَابِكَ مِنْ أَخْذِهِمْ الْفِدَاءَ ، لَقَدْ عَرَضَ عَلَى عَذَابِكُمْ أَدْنَى مِنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ » لشجرة قريبة من النبي ﷺ ، وأنزل الله عز وجل : ﴿ مَا كَانَ لِنَبِيِّ أَنْ يُكُونَ لَهُ أُسْرَىٰ لَوْ كَانَتْ فِي الْأَرْضِ ﴾ إلى قوله: ﴿ فَكُلُّوا مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَالًا طَيِّبًا ﴾ [الأنفال: ٦٧-٦٩] ، فأحل لهم الغنائم، فلما كان يوم

(*) من هنا بداية عملنا من حيث التخريج وتحقيق النص (أنور الباز) .

(١) ساقطة من المخطوطة والمطبوعة ، وأثبتناها من المسند .

(٢) فى المخطوطة : « كذلك » ، والمثبت كما فى المسند .

أحد من العام المقبل، عوقبوا بما صنعوا يوم بدر، من أخذهم الفداء فقتل منهم سبعون، وقرَّ أصحابُ النبي ﷺ عن النبي ﷺ، وكسرت رباعيته، وهُشمت البيضة على رأسه، وسال الدم على وجهه، فأنزل الله : ﴿ أَوْ لَمَّا أَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُمْ مِثْلِهَا قُلْتُمْ أِنَّا هَذَا قُلْ هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ إِنْ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [آل عمران: ١٦٥] ، بأخذكم الفداء. ورواه مسلم ، وأبو داود ، والترمذى ، وابن جرير ، وابن مردويه ، وصححه على بن المدينى والترمذى، وقالوا : لا يعرف إلا من حديث عكرمة بن عمار اليمانى (١) . وروى البخارى عن ابن عباس قال: قال النبي ﷺ يوم بدر: « اللهم أنشدك عهدك ووعدك ، اللهم إن شئت لم تُعبد » ، فأخذ أبو بكر بيده ، فقال : حسبك ! فخرج وهو يقول: ﴿ سَيَهْزِمُ الْجَمْعُ وَيُولُونَ الدُّبُرَ ﴾ [القمر: ٤٥] . ورواه النسائى (٢) .

وقوله تعالى : ﴿ بِأَلْفٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُرَدِّينَ ﴾ أى : يُرَدُّ بِبَعْضِهِمْ بَعْضًا ، كما قال ابن عباس : ﴿ مُرَدِّينَ ﴾ : متتابعين . ويحتمل أن المراد ﴿ مُرَدِّينَ ﴾ لكم ، أى : نجدة لكم ، عن ابن عباس : ﴿ مُرَدِّينَ ﴾ ، يقول المدد ، كما تقول : ائت الرجل زده كذا وكذا . وهكذا قال مجاهد ، وابن كثير القارئ ، وابن زيد : ﴿ مُرَدِّينَ ﴾ : مُمَدِّينَ . وقال أبو كُدَيْبَةَ ، عن قابوس (٣) ، عن أبيه ، عن ابن عباس : ﴿ مُمَدِّكُمْ بِأَلْفٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُرَدِّينَ ﴾ قال : وراء كل ملك ملك . وفى رواية بهذا الإسناد : ﴿ مُرَدِّينَ ﴾ قال : بعضهم على أثر بعض . وكذا قال أبو ظبيان ، والضحاك ، وقتادة . وروى ابن جرير : عن على ، قال : نزل جبريل فى ألف من الملائكة عن ميمنة النبي ﷺ وفيها أبو بكر ، ونزل ميكائيل فى ألف من الملائكة عن ميسرة النبي ﷺ ، وأنا فى الميسرة . وهذا يقتضى - لو صح إسناده - أن الألف مردفة بمثلها ؛ ولهذا قرأ بعضهم : « مُرَدِّينَ » بفتح الدال ، فالله أعلم . والمشهور عن ابن عباس قال : وأمد الله نبيه ﷺ والمؤمنين بألف من الملائكة ، فكان جبريل فى خمسمائة من الملائكة مُجَنَّبَةً ، وميكائيل فى خمسمائة مُجَنَّبَةً . وروى البخارى عن معاذ ابن رِفَاعَةَ بن رافع الزُرْقَى ، عن أبيه - وكان أبوه من أهل بدر - قال : جاء جبريل إلى النبي ﷺ فقال : ما تعدون أهل بدر فيكم؟ قال : « من أفضل المسلمين » - أو كلمة نحوها - قال : وكذلك من شهد بدرا من الملائكة . انفرد بإخراجه البخارى (٤) . وفى الصحيحين : أن رسول الله ﷺ قال لعمر لما شاوره فى قتل حاطب بن أبى بلتعة : « إنه قد شهد بدرا ، وما يدريك لعل الله قد اطلع على أهل بدر فقال : اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم » (٥) .

قوله تعالى : ﴿ وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَى ﴾ الآية ، أى : وما جعل الله بعث الملائكة وإعلامه إياكم بهم إلا بُشْرَى ، ﴿ وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِ قُلُوبُكُمْ ﴾ وإلا فهو تعالى قادر على نصركم على أعدائكم بدون ذلك ، ولهذا قال : ﴿ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ ﴾ ، كما قال تعالى : ﴿ فَإِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا

(١) المسند (٢٠٨) ، ورواه مسلم (١٧٦٣) ، وأبو داود (٢٦٩٠) ، والترمذى (٣٠٨١) ، والطبرى (١٢٧/٩) .

(٢) البخارى (٣٩٥٣) ، والنسائى فى الكبرى (١١٥٥٧) .

(٣) فى المطبوعة : « قابس » ، والمثبت من المخطوطة . (٤) رواه البخارى (٣٩٩٢) .

(٥) رواه البخارى (٣٩٨٣) ، ومسلم (٢٤٩٤/١٦١) . (٦) فى المخطوطة : « وإذا » وهو خطأ واضح .

فَضْرَبَ الرِّقَابَ حَتَّى إِذَا أَتَخْتَمُوهُمْ فَشُدُّوا الْوَتَاقَ فَمَا مَنَّا بَعْدُ وَإِنَّا فِدَاءٌ حَتَّى تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا ذَلِكَ وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَانْتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَكِنْ لِيَبْلُوَ بَعْضَكُمْ بِبَعْضٍ وَالَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَلَنْ يُضِلَّ أَعْمَالَهُمْ . سَيَهْدِيهِمْ وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ . وَيُدْخِلُهُمُ الْجَنَّةَ عَرَفَهَا لَهُمْ ﴿ [محمد: ٤-٦] ، وقال تعالى : ﴿وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نَدَاوَلَهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنْكُمْ شُهَدَاءَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ . وَلِيُمَحِّصَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَمْحَقَ الْكَافِرِينَ ﴾ [آل عمران : ١٤٠ ، ١٤١] ، فهذه حكم شرع الله جهاد الكفار بأيدى المؤمنين لأجلها، وقد كان تعالى إنما يعاقب الأمم السالفة المكذبة للأنبياء بالقوارع التي تعم تلك الأمة المكذبة، كما أهلك قوم نوح بالطوفان، وعاداً الأولى بالدبور، وثمود بالصيحة ، وقوم لوط بالخسف والقلب وحجارة السجيل (١) ، وقوم شعيب بيوم الظلة ، فلما بعث الله تعالى موسى وأهلك عدوه فرعون وقومه بالغرق في اليم، ثم أنزل على موسى التوراة ، شرع فيها قتال الكفار ، واستمر الحكم في بقية الشرائع بعده على ذلك ، كما قال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ مِنْ بَعْدِ مَا أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ الْأُولَى بَصَائِرَ ﴾ [القصص : ٤٣] ، وقَتْلُ الْمُؤْمِنِينَ لِلْكَافِرِينَ أَشَدُّ إِهَانَةً لِلْكَافِرِينَ ، وأشفى لصدور المؤمنين، كما قال تعالى للمؤمنين من هذه الأمة : ﴿ قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبَهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَبْصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُؤْمِنِينَ ﴾ [التوبة: ١٤]؛ ولهذا كان قتل صناديد قريش بأيدى أعدائهم الذين ينظرون إليهم بأعين ازدرائهم، أنكى لهم وأشفى لصدور حزب الإيمان. فقتلُ أبي جهل في معركة القتال وحومة الوغى، أشد إهانة له من موته على فراشه بقارعة أو صاعقة أو نحو ذلك، كما مات أبو لهب - لعنه الله - بالعدسة (٢) بحيث لم يقربه أحد من أقاربه، وإنما غسلوه بالماء قدفاً من بعيد، ورجموه حتى دفتوه؛ ولهذا قال تعالى: ﴿ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ أى: له العزة ورسوله وللمؤمنين بهما في الدنيا والآخرة، كما قال تعالى: ﴿ إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ ﴾ [غافر: ٥١] ، ﴿حَكِيمٌ﴾ فيما شرعه من قتال الكفار، مع القدرة على دمارهم وإهلاكهم، بحوله وقوته، سبحانه وتعالى.

﴿ إِذْ يَفِشِكُمْ الْعُتَاسَ أَمَنَةً مِنْهُ وَيُنزِلُ عَلَيْكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لِيُطَهِّرَكُمْ بِهِ وَيُذْهِبَ عَنْكُمْ رِجْسَ الشَّيْطَانِ وَلِيَرْبِطَ عَلَى قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ الْأَقْدَامَ ﴾ ﴿١١﴾ إِذْ يُوحَى رَبُّكَ إِلَى الْمَلَكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبَّتُوا الَّذِينَ ءَامَنُوا سَأَلَتْنِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا أَلرُّعْبَ فَاضْرِبُوا فَوْقَ الْأَعْنَاقِ وَاصْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ ﴿١٢﴾ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَمَنْ يُشَاقِقِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿١٣﴾ ذَلِكَمُ فَذَوْقُهُ وَأَنَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابَ النَّارِ ﴿١٤﴾

يذكرهم الله بما أنعم به عليهم من إلقائه النعاس عليهم، أماناً منهم به من خوفهم الذى

(١) فى المخطوطة « السجين » ، والمثبت من المطبوعة ، وهو الموافق لما فى القرآن الكريم .

(٢) هى بثرة تشبه العدسة تخرج فى مواضع من الجسد ، من جنس الطاعون ، تقتل صاحبها غالباً . انظر : النهاية

حصل لهم من كثرة عدوهم وقلة عددهم، وكذلك فَعَلَ تعالى بهم يوم أحد ، كما قال تعالى : ﴿ ثُمَّ أَنْزَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ بَدَدِ الْغَمِّ أَمَنَةً نُّعَاسًا يَفَشِنُ طَائِفَةً مِنْكُمْ وَطَائِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنْفُسُهُمْ ﴾ الآية [آل عمران : ١٥٤] . قال أبو طلحة: كنت ممن أصابه النعاس يوم أحد، ولقد سقط السيف من يدي مرارا يسقط وأخذه، ويسقط وأخذه، ولقد نظرت إليهم يميدون وهم تحت الحَجَفِ (١) .

وروى أبو يعلى عن علي ، قال : ما كان فينا فارس يوم بدر غير المقداد ، ولقد رأيتنا وما فينا إلا نائم إلا رسولُ الله ﷺ، يصلى تحت شجرة ويبكى حتى أصبح (٢) .

قلت: أما النعاس فقد أصابهم يوم أحد، وأمر ذلك مشهور جدا ، وأما الآية الشريفة إنما هي فى سياق قصة بدر، وهى دالة على وقوع ذلك أيضا وكان ذلك كان كائن للمؤمنين عند شدة البأس لتكون قلوبهم آمنة مطمئنة بنصر الله . وهذا من فضل الله ورحمته بهم ونعمته عليهم، وكما قال تعالى : ﴿ فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا . إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ﴾ [الشرح : ٥ ، ٦] ؛ ولهذا جاء فى الصحيح : أن رسول الله ﷺ لما كان يوم بدر فى العريش مع الصديق ، وهما يدعوان ، أخذت رسول الله ﷺ سنة من النوم ، ثم استيقظ متبسما فقال : « أبشر يا أبا بكر ، هذا جبريل على ثنياه التنع » ثم خرج من باب العريش ، وهو يتلو قوله تعالى : ﴿ سَيُهِزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ ﴾ [القمر : ٤٥] (٣) .

وقوله : ﴿ وَيُنزِلُ عَلَيْكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً ﴾ : قال ابن عباس : نزل النبى ﷺ حين سار إلى بدر والمشركون بينهم وبين الماء رملة دعصة (٤) ، وأصاب المسلمين ضعف شديد، وألقى الشيطان فى قلوبهم الغيظ، يوسوس بينهم: تزعمون أنكم أولياء الله تعالى وفيكم رسوله، وقد غلبكم المشركون على الماء، وأنتم تصلون مجنبيين ! فأمطر الله عليهم مطرا شديدا ، فشرب المسلمون وتطهروا ، وأذهب الله عنهم رجز الشيطان ، وثبت الرمل حين أصابه المطر ومشى الناس عليه والدواب ، فساروا إلى القوم وأمد الله نبيه ﷺ والمؤمنين بألف من الملائكة، فكان جبريل فى خمسمائة مُجَنَّبَةٍ، وميكائيل فى خمسمائة مُجَنَّبَةٍ. وكذا قال ابن عباس: إن المشركين من قريش لما خرجوا لينصروا العير وليقاتلوا عنها ، نزلوا على الماء يوم بدر، فغلبوا المؤمنين عليه. فأصاب المؤمنين الظمأ، فجعلوا يصلون مجنبيين محدثين، حتى تعاضموا ذلك فى صدورهم، فأنزل الله من السماء ماء حتى سال الودادى، فشرب المؤمنون، وملؤوا الأسيقية، وسقوا الركاب ، واغتسلوا من الجنابة ، فجعل الله فى ذلك تطهورا، وثبت به الأقدام . وذلك أنه كانت بينهم وبين القوم رملة، فبعث الله المطر عليها ، فضرها حتى اشتدت ، وثبتت عليها الأقدام . ونحو ذلك روى

(١) الحَجَفِ : التروس من جلود ، واحدها : حَجَفَةٌ . (القاموس) .

(٢) أبو يعلى (٢٨٠)، وهو فى المسند (١٠٢٣) ، وقال الشيخ أحمد شاکر : « إسناده صحيح ، وقد ذكره الحافظ ابن كثير فى التفسير (٢٢/٤) ، ولكن نسبه لأبى يعلى عن زهير عن عبد الرحمن بن مهدى ، فلعل الحافظ نسى أنه فى المسند فلم ينسبه إليه » .

(٣) الدر المنثور (١٦٨/٣) ، وعجز الحديث رواه البخارى (٢٩١٥) .

(٤) أى سهلة .

عن قتادة، والضحاك، والسدى.

والمعروف أن رسول الله ﷺ لما سار إلى بدر، نزل على أدنى ماء هناك أى: أول ماء وجده، فتقدم إليه الحباب بن المنذر فقال: يا رسول الله، هذا المنزل الذى نزلته منزل أنزلك الله إياه فليس لنا أن نجاوزه، أو منزل نزلته للحرب والمكيدة؟ فقال: «بل منزل نزلته للحرب والمكيدة». فقال: يا رسول الله، إن هذا ليس بمنزل، ولكن سر بنا حتى نزل على أدنى ماء يلى القوم ونغور ما وراءه من القلب، ونستقى الحياض فيكون لنا ماء وليس لهم ماء. فسار رسول الله ﷺ ففعل كذلك .

وأحسن ما فى هذا ما رواه ابن إسحاق عن عروة بن الزبير قال : بعث الله السماء - وكان الوادى دهباً (١) فأصاب رسول الله ﷺ وأصحابه ما لبد لهم الأرض ولم يمنعهم من المسير، وأصاب قريشا ما لم يقدروا على أن يرحلوا معه (٢) . وقال مجاهد: أنزل الله عليهم المطر قبل النعاس، فأطفأ بالمطر الغبار ، وتلبدت به الأرض، وطابت نفوسهم ، وثبتت به أقدامهم .

وقوله: ﴿ لِيُطَهِّرَكُمْ بِهِ ﴾ أى: من حدث أصغر أو أكبر، وهو تطهير الظاهر ﴿ وَيُذْهِبَ عَنْكُمْ رِجْزَ الشَّيْطَانِ ﴾ أى: من وسوسة أو خاطر سيئ، وهو تطهير الباطن ، كما قال تعالى فى حق أهل الجنة : ﴿ عَلَيْهِمْ ثِيَابٌ سُنْدُسٌ خُضْرٌ وَإِسْتَبْرَقٌ وَحُلُّوا أَسَاوِرَ مِنْ فِضَّةٍ ﴾ فهذا زينة الظاهر ﴿ وَسَقَاهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا ﴾ [الإنسان : ٢١] أى: مطهراً لما كان من غل أو حسد أو تباغض ، وهو زينة الباطن وطهارته ﴿ وَلِيُرَبِّطَ عَلَى قُلُوبِكُمْ ﴾ أى: بالصبر والإقدام على مجالدة الأعداء ، وهو شجاعة الباطن ﴿ وَيُثَبِّتَ بِهِ الْأَقْدَامَ ﴾ وهو شجاعة الظاهر، والله أعلم.

وقوله: ﴿ إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبَّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا ﴾ : وهذه نعمة خفية أظهرها الله تعالى لهم، ليشكروه عليها، وهو أنه تعالى أوحى إلى الملائكة الذين أنزلهم لنصر نبيه ودينه وحزبه المؤمنين، يوحى إليهم فيما بينه وبينهم أن يثبتوا الذين آمنوا . قال ابن إسحاق : وآزروهم. وقال غيره : قاتلوا معهم . وقيل : كثروا سوادهم . وقيل : كان ذلك بأن الملك كان يأتى الرجل من أصحاب النبى ﷺ فيقول: سمعت هؤلاء القوم - يعنى المشركين - يقولون: «والله لئن حملوا علينا لننكشفن» ، فيحدث المسلمون بعضهم بعضا بذلك ، فتقوى أنفسهم . حكاها ابن جرير، وهذا لفظه بحروفه.

وقوله: ﴿ سَأَلْتَنِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرَّعْبَ ﴾ أى : ثبتوا أتم المؤمنين وقوا أنفسهم على أعدائهم ، عن أمرى لكم بذلك ، سألتى الرعب والذلة والصغار على من خالف أمرى، وكذب رسولى ﴿ فَأَضْرِبُوا فَوْقَ الْأَعْنَاقِ وَأَضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ ﴾ أى: اضربوا الهام ففلقوها، واحتزوا الرقاب فقطعوها، وقطعوا الأطراف منهم، وهى أيديهم وأرجلهم .

وقد اختلف المفسرون فى معنى: ﴿فَوْقَ الْأَعْنَاقِ﴾ فقيل: معناه : اضربوا الرؤوس. قاله

(١) الدَّهْسُ : المكان السهل ليس برمل ولا تراب. (القاموس) .

(٢) سيرة ابن هشام (٢/٢٦٩) .

عكرمة . وقيل : معناه : على الأعناق ، وهى الرقاب . قاله الضحاك ، ويشهد لهذا المعنى أن الله تعالى أرشد المؤمنين إلى هذا فى قوله تعالى : ﴿ فَإِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقَابِ حَتَّىٰ إِذَا أَتَخْتَمُوهُمُ فَشَدُّوا الرِّقَابَ ﴾ [محمد : ٤] . واختار ابن جرير أنها قد تدل على ضرب الرقاب ولفق الهام .

وقوله : ﴿ وَأَضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ ﴾ قال ابن جرير : معناه : واضربوا من عدوكم أيها المؤمنون كل طرف ومفصل من أطراف أيديهم وأرجلهم . و « البنان » : جمع بنانة ، وقال ابن عباس : يعنى بالبنان : الأطراف . وكذا قال الضحاك وابن جريج . وقال السدى : البنان : الأطراف ، ويقال : كل مفصل . وقال العوفى ، عن ابن عباس - فذكر قصة بدر إلى أن قال : فقال أبو جهل : لا تقتلوهم قتلا ، ولكن خذوهم أخذا ، حتى تعرفوهم الذى صنعوا من طعنهم فى دينكم ، ورجبتهم عن اللات والعزى . فأوحى الله إلى الملائكة : ﴿ أَنِّي مَعَكُمْ فَنِيْتُوا الَّذِينَ آمَنُوا سَأَلْتِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرَّعْبَ فَأَضْرِبُوا فَوْقَ الْأَعْنَاقِ وَأَضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ ﴾ الآية فقتل أبو جهل لعنه الله ، فى تسعة وستين رجلا ، وأسر عقبة بن أبى معيط فقتل صبورا ، فوفى ذلك سبعين - يعنى : قتيلا . ولهذا قال تعالى : ﴿ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ ﴾ أى : خالفوهما فساروا فى شق ، وتركوا الشرع والإيمان به واتباعه فى شق - وهو مأخوذ أيضا من شق العصا ، وهو جعلها فرقتين - ﴿ وَمَنْ يَشَاقِقِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴾ أى : هو الطالب الغالب لمن خالفة وناواه ، لا يفوته شىء ، ولا يقوم لغضبه شىء ، تبارك وتعالى ، لا إله غيره ، ولا رب سواه ﴿ ذَلِكُمْ فَذُوقُوهُ وَأَنَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابَ النَّارِ ﴾ : هذا خطاب للكفار أى : ذوقوا هذا العذاب والتكال فى الدنيا ، واعلموا أيضا أن للكافرين عذاب النار فى الآخرة .

﴿ يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا زَحْفًا فَلَا تُوَلُّوهُمُ الْأَدْبَارَ ﴾ ﴿١٥﴾
 وَمَنْ يُؤَلِّمِهِمْ يُؤَمِّدُ دُبُرَهُ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّرًا إِلَىٰ فِتْنَةٍ فَقَدْ بَكَءَ بِعَضْبٍ مِّنْ
 اللَّهِ وَمَا وَنَهُ جَهَنَّمَ وَيَسُ الْمَصِيرُ ﴿١٦﴾

يقول تعالى متوعدا على الفرار من الزحف بالنار لمن فعل ذلك : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا زَحْفًا ﴾ أى : تقاربتم منهم ودنوتهم إليهم ، ﴿ فَلَا تُوَلُّوهُمُ الْأَدْبَارَ ﴾ أى : تفروا وتركوا أصحابكم ﴿ وَمَنْ يُؤَلِّمِهِمْ يُؤَمِّدُ دُبُرَهُ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِقِتَالٍ ﴾ أى : يفر بين يدى قرنه مكيدة ؛ ليريه أنه خاف منه فيتبعه ، ثم يكر عليه فيقتله ، فلا بأس عليه فى ذلك . نص عليه سعيد بن جبير ، والسدى . وقال الضحاك : أن يتقدم عن أصحابه ليرى غرة من العدو فيصيبها . ﴿ أَوْ مُتَحَيِّرًا إِلَىٰ فِتْنَةٍ ﴾ أى : فر من هاهنا إلى فتنة أخرى من المسلمين ، يعاونهم ويعاونونه ، فيجوز له ذلك ، حتى ولو كان فى سرية ففر إلى أميره أو إلى الإمام الأعظم ، دخل فى هذه الرخصة . روى الإمام أحمد عن عبد الله بن عمر ، قال : كنت فى سرية من سرايا رسول الله ﷺ ، فحاص الناس حيصة - فكنت فى من حاص - فقلنا : كيف نصنع وقد فررنا من الزحف وبؤنا بالغضب ؟ ثم قلنا : لو دخلنا المدينة ثم بتنا ؟ ثم قلنا : لو عرضنا أنفسنا على رسول الله ﷺ ، فإن كانت لنا توبة وإلا ذهبنا ،

فأتيناه قبل صلاة الغداة ، فخرج فقال : «من القوم ؟» فقلنا : نحن الفرارون . فقال : « لا ، بل أنتم العكَّارون ، أنا فتتكم ، وأنا فئة المسلمين » قال : فأتيناه حتى قبَلنا يده . وهكذا رواه أبو داود ، والترمذى ، وابن ماجه ، من طرق عن يزيد بن أبي زياد ، وقال الترمذى : حسن لا نعرفه إلا من حديثه (١) .

قال أهل العلم : معنى قوله : «العكَّارون» أى : العطافون . وكذلك قال عمر بن الخطاب ، فى أبى عبيد لما قتل على الجسر بأرض فارس ، لكثرة الجيش من ناحية المجوس ، فقال عمر : لو تحيَّز إلى لكنت له فئة . وقال مجاهد : قال عمر : أنا فئة كل مسلم . وقال الضحاك فى قوله : «أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَى فِئَةٍ» المتحيِّز : الفار إلى النبى وأصحابه ، وكذلك من فر اليوم إلى أميره وأصحابه . فاما إن كان الفرار لا عن سبب من هذه الأسباب ، فإنه حرام وكبيرة من الكبائر ، لما رواه البخارى ومسلم عن أبى هريرة ، قال : قال رسول الله ﷺ : « اجتنبوا السبع الموبقات » . قيل : يا رسول الله ، وما هن؟ قال : «الشرك بالله ، والسحر ، وقتل النفس التى حرم الله إلا بالحق ، وأكل الربا ، وأكل مال اليتيم ، والتولَّى يوم الزحف ، وقذف المحصنات الغافلات المؤمنات » (٢) . ولهذا قال تعالى : «فَقَدْ بَاءَ» أى : رجع «بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ وَمَأْوَاهُ» أى : مصيره ومنقلبه يوم مياعده «جَهَنَّمَ وَبَسَّ الْمَصِيرُ» . وقد ذهب ذاهبون إلى أن الفرار إنما كان حراما على الصحابة ؛ لأنه [يعنى الجهاد] كان فرض عين عليهم . وقيل : على الأنصار خاصة ؛ لأنهم بايعوا على السمع والطاعة فى المنشط والمكره .

وقيل : المراد بهذه الآية أهل بدر خاصة ، يروى هذا عن عمر ، وابن عمر ، وابن عباس ، وعكرمة ، وقتادة ، والضحاك ، وغيرهم . وحجتهم فى هذا : أنه لم تكن عصابة لها شوكة يفيؤون إليها سوى عصابتهم تلك ، كما قال النبى ﷺ : « اللهم إن تهلك هذه العصابة لا تعبد فى الأرض » (٣) ؛ ولهذا قال الحسن فى قوله : « وَمَنْ يُؤَلِّمُ يَوْمَئِذٍ دُبْرَهُ » : ذلك يوم بدر ، فاما اليوم : فإن انحاز إلى فئة أو مصر - أحسبه قال : فلا بأس عليه .

وقال يزيد بن أبى حبيب : أوجب الله تعالى لمن فر يوم بدر النار ، قال : « وَمَنْ يُؤَلِّمُ يَوْمَئِذٍ دُبْرَهُ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَى فِئَةٍ فَقَدْ بَاءَ بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ » ، فلما كان يوم أحد بعد ذلك قال : « إِنَّ الَّذِينَ تَوَلَّوْا مِنْكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ » إلى قوله : « وَلَقَدْ عَفَا اللَّهُ عَنْهُمْ » [آل عمران : ١٥٥] ، ثم كان يوم حنين بعد ذلك بسبع سنين ، قال : « ثُمَّ وَلَيْتُمْ مُدْبِرِينَ » [التوبة : ٢٥] ، « ثُمَّ يُتُوبُ اللَّهُ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ عَلَى مَنْ يَشَاءُ » [التوبة : ٢٧] . وهذا كله لا ينفى أن يكون الفرار من الزحف حراما على غير أهل بدر ، وإن كان سبب نزول الآية فيهم ، كما دل عليه حديث أبى هريرة المتقدم ، من أن

(١) المسند (٥٣٨٤) ، وقال الشيخ أحمد شاكر : « إسناده صحيح » ، وفيه بحث للشيخ انظره فى المسند ، وأبو داود (٢٦٤٧) ، والترمذى (١٧١٦) ، وابن ماجه (٣٧٠٤) .

(٢) رواه البخارى (٢٧٦٦) ، ومسلم (١٤٥/٨٩) .

(٣) مسلم (٥٨/١٧٦٣) ، والمسند (٢٢١) .

الفرار من الزحف من الموبات، كما هو مذهب الجماهير، والله أعلم.

﴿ فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ قَتَلَهُمْ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَىٰ
وَلِيَسْبِيَ الْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلََاءٌ حَسَنًا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٧﴾ ذَلِكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ
مُوهِنٌ كَيْدِ الْكَافِرِينَ ﴿١٨﴾ ﴾

يبين تعالى أنه خالق أفعال العباد، وأنه المحمود على جميع ما صدر عنهم من خير؛ لأنه هو الذي وفقهم لذلك وأعانهم؛ ولهذا قال: ﴿ فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ قَتَلَهُمْ ﴾ أي: ليس بحولكم وقوتكم قتلتم أعداءكم مع كثرة عددهم وقلة عددكم، أي: بل هو الذي أظفركم عليهم كما قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ فَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ [آل عمران: ١٢٣] ، وقال تعالى: ﴿ لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ ﴾ [التوبة: ٢٥] ، يعلم - تعالى وتبارك - أن النصر ليس عن كثرة العدد ، ولا بلبس الامة والعدد ، وإنما النصر من عند الله تعالى ، كما قال: ﴿ كَمْ مِنْ فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴾ [البقرة: ٢٤٩] .

ثم قال لنبيه ﷺ أيضا في شأن القبضة من التراب ، التي حصب بها وجوه المشركين يوم بدر، حين خرج من العريش بعد دعائه وتضرعه واستكائه ، فرماهم بها ، وقال : « شأهت الوجوه » . ثم أمر الصحابة أن يصدقوا الحملة إثرها ، ففعلوا ، فأوصل الله تلك الحصباء إلى أعين المشركين ، فلم يبق أحد منهم إلا ناله منها ما شغله عن حاله ؛ ولهذا قال : ﴿ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ ﴾ أي : هو الذي بلغ ذلك إليهم ، وكتبهم بها لا أنت . عن ابن عباس: رفع رسول الله ﷺ يديه - يعنى يوم بدر - فقال: « يا رب ، إن تهلك هذه العصابة ، فلن تعبد فى الأرض أبدا » . فقال له جبريل: « خذ قبضة من التراب ، فارم بها فى وجوههم » فأخذ قبضة من التراب ، فرمى بها فى وجوههم ، فما من المشركين أحد إلا أصاب عينيه ومنخره وفمه تراب من تلك القبضة ، فولوا مدبرين (١) . وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: ﴿ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى ﴾ قال : هذا يوم بدر ، أخذ رسول الله ﷺ ثلاث حصبات فرمى بحصبة ميمنة القوم ، وحصبة فى ميسرة القوم ، وحصبة بين أظهرهم ، وقال : « شأهت الوجوه » ، فانهزموا .

وقد روى فى هذه القصة عن عروة بن الزبير ، ومجاهد وعكرمة ، وقاتدة وغير واحد من الأئمة: أنها نزلت فى رمية النبى ﷺ يوم بدر ، وإن كان قد فعل ذلك يوم حنين أيضا . وروى ابن إسحاق عن عروة بن الزبير فى قوله: ﴿ وَلِيَسْبِيَ الْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلَاءٌ حَسَنًا ﴾ أي: ليعرف المؤمنون نعمته عليهم ، من إظهارهم على عدوهم مع كثرة عدوهم ، وقلة عددهم ، ليعرفوا بذلك حقه ، ويشكروا بذلك نعمته . وهكذا فسره ابن جرير أيضا .

وقوله: ﴿ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ أي: سميع الدعاء ، عليم بمن يستحق النصر والغلب . وقوله:

(١) سبق تخريجه عند الآية: (٩) من السورة نفسها .

﴿ذَلِكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ مُوهِنُ كَيْدِ الْكَافِرِينَ﴾ : هذه بشارة أخرى مع ما حصل من النصر: أنه أعلمهم تعالى بأنه مُضْعَفُ كَيْدِ الْكَافِرِينَ فيما يستقبل، مصغراً أمرهم، وأنهم كل ما لهم في تبار ودمار، والله الحمد والمنة.

﴿إِنْ تَسْتَفْتِحُوا فَقَدْ جَاءَكُمْ الْفَتْحُ وَإِنْ تَنْهَوْا فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَإِنْ تَعُودُوا نَعُدْ وَلَنْ تُغْنِيَ عَنْكُمْ فِئَتِكُمْ شَيْئًا وَلَوْ كَثُرَتْ وَأَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ ﴿١٩﴾

يقول تعالى للكفار: ﴿إِنْ تَسْتَفْتِحُوا﴾ أى: تستنصروا وتستقضوا الله وتستحكموه أن يفصل بينكم وبين أعدائكم المؤمنين ، فقد جاءكم ما سألتهم ، كما روى ابن إسحاق عن عبد الله بن ثعلبة بن صعير؛ أن أبا جهل قال يوم بدر: اللهم أينما كان أقطع للرحم وآنانا بما لا نعرف ، فأحنه الغداة - وكان ذلك استفتاحا منه - فنزلت: ﴿إِنْ تَسْتَفْتِحُوا فَقَدْ جَاءَكُمْ الْفَتْحُ﴾ إلى آخر الآية. وروى الإمام أحمد عن عبد الله بن ثعلبة : أن أبا جهل قال حين التقى القوم : اللهم ، أقطعنا للرحم، وآنانا بما لا نعرف ، فأحنه الغداة ، فكان المستفتح . وكذا رواه الحاكم وقال: صحيح على شرط الشيخين ، ولم يخرجاه (١) . وقال السدي: كان المشركون حين خرجوا من مكة إلى بدر، أخذوا بأستار الكعبة فاستنصروا الله وقالوا: اللهم انصر أعلى الجندين، وأكرم الفئتين، وخير القبيلتين . فقال الله: ﴿إِنْ تَسْتَفْتِحُوا فَقَدْ جَاءَكُمْ الْفَتْحُ﴾ ، يقول : قد نصرت ما قلتم ، وهو محمد ﷺ . وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: هو قوله تعالى إخبارا عنهم: ﴿وَإِذْ قَالُوا اللَّهُمَّ إِنْ كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَابًا مِنَ السَّمَاءِ أَوْ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [الأنفال : ٣٢] .

وقوله: ﴿وَإِنْ تَنْهَوْا﴾ أى: عما أنتم فيه من الكفر بالله والتكذيب لرسوله ﴿فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ﴾ أى: فى الدنيا والآخرة ﴿وَإِنْ تَعُودُوا نَعُدْ﴾ كقوله: ﴿وَإِنْ عُدْتُمْ عَدُنَا﴾ [الإسراء : ٨] معناه: وإن عدتم إلى ما كنتم فيه من الكفر والضلالة، نعد لكم بمثل هذه الواقعة. ﴿وَلَنْ تُغْنِيَ عَنْكُمْ فِئَتِكُمْ شَيْئًا وَلَوْ كَثُرَتْ﴾ أى: ولو جمعتم من الجموع ما عسى أن تجمعوا، فإن من كان الله معه فلا غالب له ، فإن الله مع المؤمنين ، وهم الحزب النبوى ، والجناب المصطفى .

﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَوَلَّوْا عَنَّهُ وَاتَّبَعْتُمْ سَمْعَكُمْ وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ قَالُوا سَمِعْنَا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ﴾ ﴿٢١﴾ ﴿إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الصُّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ﴾ ﴿٢٢﴾ وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَأَسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُعْرِضُونَ ﴿٢٣﴾

يأمر تعالى عباده المؤمنين بطاعته وطاعة رسوله، ويزجرهم عن مخالفته والتشبه بالكافرين به المعاندين له؛ ولهذا قال: ﴿وَلَا تَوَلَّوْا عَنَّهُ﴾ أى: تتركوا طاعته وامتنال أوامره وترك زواجره

﴿وَأَنْتُمْ تَسْمَعُونَ﴾ أى: بعد ما علمتم ما دعاكم إليه ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ قَالُوا سَمِعْنَا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ﴾ قيل: المراد: المشركون. واختاره ابن جرير. وقال ابن إسحاق: هم المنافقون؛ فإنهم يظهرون أنهم قد سمعوا واستجابوا، وليسوا كذلك.

ثم أخبر تعالى أن هذا الضرب من بنى آدم سئى الخلق والخليقة، فقال: ﴿إِنَّ شَرَّ الدُّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الصُّمُّ﴾ أى: عن سماع الحق ﴿الْبِكْمُ﴾ عن فهمه؛ ولهذا قال: ﴿الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ﴾، فهؤلاء شر البرية؛ لأن كل دابة مما سواهم مطيعة لله فيما خلقها له، وهؤلاء خلقوا للعبادة فكفروا؛ ولهذا شبههم بالأنعام فى قوله: ﴿وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعُقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَاءٌ وَنِدَاءٌ﴾ الآية [البقرة: ١٧١]. وقال فى الآية الأخرى: ﴿أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ﴾ [الاعراف: ١٧٩]. وقيل: المراد بهؤلاء المذكورين نفر من بنى عبد الدار من قريش. روى عن ابن عباس ومجاهد، واختاره ابن جرير، وقال محمد بن إسحاق: هم المنافقون. قلت: ولا منافاة بين المشركين والمنافقين فى هذا؛ لأن كلا منهم مسلوب الفهم الصحيح، والقصد إلى العمل الصالح.

ثم أخبر تعالى بأنهم لافهم لهم صحيح، ولا قصد لهم صحيح، لو فرض أن لهم فهما، فقال: ﴿وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَأَسْمَعَهُمْ﴾ أى: لأفهمهم، وتقدير الكلام: ولكن لا خير فيهم فلم يفهمهم؛ لأنه يعلم أنه ﴿لَوْ أَسْمَعَهُمْ﴾ أى: أفهمهم ﴿لَتَوَلَّوْا﴾ عن ذلك قصدا وعنادا بعد فهمهم ذلك ﴿وَهُمْ مُعْرِضُونَ﴾ عنه.

﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾

قال البخارى: ﴿استجيبوا﴾: أجيبوا ﴿لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾: لما يصلحكم. وروى عن أبى سعيد ابن المعلّى قال: كنت أصلى، فمر [بى] (١) رسول الله ﷺ، فدعانى فلم آته حتى صليت، ثم أتيت فقال: «ما منعك أن تأتيني؟» ألم يقل الله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾ ثم قال: «لأعلمنك أعظم سورة فى القرآن قبل أن أخرج»، فذهب رسول الله ﷺ ليخرج، فذكرت له، وقال: «هى ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ السبع المثانى» (٢). وقال مجاهد فى قوله: ﴿لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾ قال: الحق. وقال قتادة: ﴿لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾ قال: هو هذا القرآن، فيه النجاة والبقاء والحياة. وقال السدّى: ﴿لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾: ففى الإسلام إحياءهم بعد موتهم بالكفر. وعن عروة بن الزبير: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾ أى: للحرب التى أعزكم الله تعالى بها بعد الذل، وقواكم بها بعد الضعف، ومنعكم من عدوكم بعد القهر منهم لكم.

(١) ساقطة من المخطوطة، وأثبتناها من المطبوعة والبخارى.

(٢) البخارى (٤٦٤٧).

وقوله تعالى: ﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ﴾ قال ابن عباس: يحول بين المؤمن وبين الكفر، وبين الكافر وبين الإيمان. رواه الحاكم موقوفاً، وقال: صحيح ولم يخرجاه (١). وكذا قال مجاهد، وسعيد، وعكرمة، وغيرهم. وقال السدي: يحول بين الإنسان وقلبه، فلا يستطيع أن يؤمن ولا يكفر إلا بإذنه. وقال قتادة هو كقوله: ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ﴾ [ق: ١٦]. وقد وردت الأحاديث عن رسول الله ﷺ بما يناسب هذه الآية:

روى الإمام أحمد عن أنس بن مالك قال: كان النبي ﷺ يكثر أن يقول: «يا مقلب القلوب، ثبت قلبي على دينك». قال: فقلنا: يا رسول الله، آما بك وبما جئت به، فهل تخاف علينا؟ قال: «نعم، إن القلوب بين إصبعين من أصابع الله تعالى يقليبها». وهكذا رواه الترمذي. ثم قال: حسن (٢). وروى أيضاً الإمام أحمد عن أم سلمة: أن رسول الله ﷺ كان يكثر في دعائه يقول: «اللهم يا مقلب القلوب، ثبت قلبي على دينك». قالت: فقلت: يا رسول الله، أو إن القلوب لتقلب؟ قال: «نعم، ما خلق الله من بشر من بنى آدم إلا أن قلبه بين إصبعين من أصابع الله، عز وجل، فإن شاء أقامه، وإن شاء أزاغه. فنسأل الله ربنا أن لا يزيغ قلوبنا بعد إذ هدانا، ونسأله أن يهب لنا من لدنه رحمة إنه هو الوهاب». قالت: فقلت: يا رسول الله، ألا تعلمنى دعوة أدعو بها لنفسي؟ قال: «بلى، قولى: اللهم رب النبي محمد، اغفر لى ذنبي، وأذهب غيظ قلبي، وأجرني من مضلات الفتن ما أحيتنى» (٣). وروى أيضاً الإمام أحمد عن عبد الله بن عمرو؛ أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «إن قلوب بنى آدم بين أصبعين من أصابع الرحمن، كقلب واحد يصرفها كيف شاء». ثم قال رسول الله ﷺ: «اللهم مُصَرِّفِ القلوب، صَرِّفْ قلوبنا إلى طاعتك». انفرد بإخراجه مسلم دون البخارى، فرواه مع النسائي (٤).

﴿وَأَتَقُوا فِتْنَةَ لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ

الْعِقَابِ ﴿١٥﴾

يحذر تعالى عباده المؤمنين ﴿فِتْنَةً﴾ أى: اختباراً ومحنة، يعم بها المسيء وغيره، لا يخص بها أهل المعاصى ولا من باشر الذنب، بل يعمهما، لم تدفع وترفع. كما روى الإمام أحمد عن مطرف قال: قلنا للزبير: يا أبا عبد الله، ما جاء بكم؟ ضيعتم الخليفة الذى قتل، ثم جئتم تطلبون بدمه؟ فقال الزبير: إنا قرأنا على عهد رسول الله ﷺ وأبى بكر وعمر وعثمان، رضى الله عنهم: ﴿وَأَتَقُوا فِتْنَةَ لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً﴾، لم تكن نحسب أنا أهلها حتى وقعت منا حيث وقعت (٥). وعن الحسن فى هذه الآية قال: نزلت فى على، وعثمان،

(١) الحاكم فى المستدرک (٢/٣٢٨).

(٢) المسند (٣/١١٢)، والترمذى (٢١٤٠)، وصححه الألبانى.

(٣) المسند (٦/٣٠١). ورواه الترمذى (٣٥٢٢) وقال: «حديث حسن»، وصححه الألبانى.

(٤) المسند (٦٥٦٩)، ومسلم (٢٦٥٤)، والنسائى فى الكبرى (٧٨٦١).

(٥) المسند (٤/١٦٥).

وظلحة والزبير ، رضى الله عنهم . وقال السُّدِّيُّ : نزلت في أهل بدر خاصة ، فأصابتهم يوم الجمل ، فاقتلوا .

وقال ابن عباس في تفسير هذه الآية : أمر الله المؤمنين ألا يقروا المنكر بين ظهرانيهم فيعمهم الله بالعذاب . وهذا تفسير حسن جداً ؛ ولهذا قال مجاهد في قوله تعالى : ﴿ وَأَتَقُوا فِتْنَةَ لَا تُصِيبُ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً ﴾ : هي أيضاً لكم ، وكذا قال الضحاك ، ويزيد بن أبي حبيب ، وغير واحد . وقال ابن مسعود : ما منكم من أحد إلا وهو مشتمل على فتنة ، إن الله تعالى يقول : ﴿ إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ ﴾ [التغابن: ١٥] ، فأيكم استعاذ فليستغذ بالله من مُضِلَّاتِ الفتن .

والقول بأن هذا التحذير يعم الصحابة وغيرهم - وإن كان الخطاب معهم - هو الصحيح ، ويدل على ذلك الأحاديث الواردة في التحذير من الفتن . روى الإمام أحمد عن حذيفة بن اليمان ؛ أن رسول الله ﷺ قال : « والذي نفسى بيده ، لتأمرن بالمعروف ، ولتنهون عن المنكر ، أو ليوشكن الله أن يبعث عليكم عقابا من عنده ، ثم لتدعنه فلا يستجيب لكم » (١) . وروى أحمد عن عامر ، قال : سمعت النعمان بن بشير يخطب يقول - وأوماً بأصبعيه إلى أذنيه - يقول : مثل القائم على حدو الله والواقع فيها والمدهن فيها كمثل قوم ركبوا سفينة ، فأصاب بعضهم أسفلها وأوعرها وشرها ، وأصاب بعضهم أعلاها ، فكان الذين في أسفلها إذا استقوا الماء مروا على من فوقهم فأدوهم ، فقالوا : لو خررقتا في نصيبنا خررقتا ، فاستقينا منه ، ولم نؤذ من فوقنا ، فإن تركوهم وأمرهم هلكوا جميعا ، وإن أخذوا على أيديهم نجوا جميعا . انفرد بإخراجه البخارى دون مسلم (٢) . وروى أحمد أيضاً عن أم سلمة زوج النبي ﷺ قالت : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « إذا ظهرت المعاصي في أمتي ، عمهم الله بعذاب من عنده » . فقلت : يا رسول الله ، أما فيهم أناس صالحون ؟ قال : « بلى » ، قالت : فكيف يصنع أولئك ؟ قال : « يصيبهم ما أصاب الناس ، ثم يصيرون إلى مغفرة من الله ورضوان » (٣) .

﴿ وَأَذْكُرُوا إِذْ أَنْتُمْ قَلِيلٌ مُسْتَضْعَفُونَ فِي الْأَرْضِ تَخَافُونَ أَنْ يَخَطَّفَكُمُ النَّاسُ فَآوَاكُمْ وَأَيَّدَكُمْ بِنَصْرِهِ وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾

ينبه تعالى عباده المؤمنين على نعمه عليهم وإحسانه إليهم ، حيث كانوا قليلين فكثروهم ، ومستضعفين خائفين فقوَّاهم ونصرهم ، وفقراء عالة فرزقهم من الطيبات ، واستشكرهم فأطاعوه ، وامثلوا جميع ما أمرهم . وهذا كان حال المؤمنين حال مقامهم بمكة قليلين مستضعفين مضطهدين ، يخافون أن يتخطفهم الناس من سائر بلاد الله ، من مشرك ومجوسى ورومى ، كلهم أعداء لهم

(١) المسند (٥/٣٣٨) ، والحديث رواه الترمذى (٢١٦٩) ، وقال : « حسن » .

(٢) المسند (٤/٢٦٩) ، والبخارى (٢٤٩٣) ، (٢٦٨٦) .

(٣) المسند (٦/٣٠٤) ، وإسناده صحيح .

لقتهم وعدم قوتهم ، فلم يزل ذلك دأبهم حتى أذن الله لهم في الهجرة إلى المدينة ، فأوهم إليها ، وقِيضَ لهم أهلها، أووا ونصروا يوم بدر وغيره وواسوا بأموالهم ، وبدلوا مَهْجهم في طاعة الله وطاعة رسوله ﷺ .

قال قتادة في قوله تعالى: ﴿وَأَذْكُرُوا إِذْ أَنْتُمْ قَلِيلٌ مُسْتَضْعَفُونَ فِي الْأَرْضِ﴾ : كان هذا الحى من العرب أذل الناس دُلاً ، وأشقاء عَيْشًا ، وأجوعه بطونًا ، وأعره جلودا ، وأبينه ضللا ، من عاش منهم عاش شقياً ، ومن مات منهم رُدَى في النار، يؤكلون ولا يأكلون، والله ما نعلم قَبِيلاً من حاضر أهل الأرض يومئذ كانوا أشر منزلا منهم، حتى جاء الله بالإسلام فمكن به في البلاد، ووسع به في الرزق، وجعلهم به ملوكا على رقاب الناس. وبالإسلام أعطى الله ما رأيتم، فاشكروا الله على نعمه ، فإن ربكم مُنِعِمٌ يحب الشكر، وأهل الشكر في مزيد من الله .

﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَخُونُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ وَتَخُونُوا أَمْنَتِكُمْ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١٧﴾ وَأَعْلَمُوا أَنَّ أَمْوَالَكُم مَّوَالِكُمْ وَأَوْلَادَكُمْ فَتَنَةٌ وَاللَّهُ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿١٨﴾﴾

قال الزهري: أنزلت في أبي لُبابة بن عبد المنذر، حين بعثه رسول الله ﷺ إلى بنى قُرَيْظَةَ لينزلوا على حكم رسول الله ﷺ ، فاستشاروه في ذلك، فأشار عليهم بذلك - وأشار بيده إلى حلقه - أى: إنه الذبيح، ثم فطن أبو لبابة، ورأى أنه قد خان الله ورسوله، فحلف لا يذوق ذواقا حتى يموت أو يتوب الله عليه، وانطلق إلى مسجد المدينة، فربط نفسه في سارية منه، فمكث كذلك تسعة أيام، حتى كان يخر مغيشا عليه من الجهد، حتى أنزل الله توبته على رسوله. فجاء الناس يبشرونه بتوبة الله عليه، وأرادوا أن يحلوه من السارية، فحلف لا يحلها منها إلا رسول الله ﷺ بيده، فحله، فقال: يا رسول الله، إني كنت نذرت أن أنخلع من مالى صدقة ، فقال : « يجزيك الثلث أن تصدق به » (١) .

وروى ابن جرير : عن المغيرة بن شعبة قال : نزلت هذه الآية في قتل عثمان : ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَخُونُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ﴾ الآية . وفي الصحيحين قصة « حاطب بن أبى بلتعة » أنه كتب إلى قريش يعلمهم بقصد رسول الله ﷺ إياهم عام الفتح، فأطلع الله رسوله على ذلك، فبعث فى إثر الكتاب فاسترجعه ، واستحضر حاطبا فأقر بما صنع ، فقام عمر بن الخطاب فقال : يا رسول الله، ألا أضرب عنقه، فإنه قد خان الله ورسوله والمؤمنين ؟ فقال: « دعه، فإنه قد شهد بدرا، وما يدريك لعل الله اطلع على أهل بدر فقال: « اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم » (٢) .

قلت: والصحيح أن الآية عامة ، وإن صح أنها وردت على سبب خاص ، فالأخذ بعموم اللفظ لا بخصوص السبب عند الجماهير من العلماء .

(١) سبل الهدى والرشاد فى سيرة خير العباد (١٦/٥ - ١٨) ، وفتح البارى (٤١٣/٧) .

(٢) سبق تخريجه عند الآية : (٩) من السورة نفسها .

والخيانة تعم الذنوب الصغار والكبار اللازمة والمتعدية . قال ابن عباس : ﴿ وَتَخُونُوا أَمَانَاتِكُمْ ﴾ : الأمانة الأعمال التي ائتمن الله عليها العباد - معنى الفريضة - يقول: لا تخونوا : لا تنقضوها . وقال في رواية: ﴿ لَا تَخُونُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ ﴾ يقول: بترك سنته وارتكاب معصيته . وقال السُّدِّيُّ : إذا خانوا الله والرسول ، فقد خانوا أماناتهم . وقال أيضا : كانوا يسمعون من النبي ﷺ الحديث فيفشونه حتى يبلغ المشركين .

وقوله تعالى: ﴿ وَأَعْلَمُوا أَنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ ﴾ أى: اختبار وامتحان منه لكم؛ إذ أعطاكموها ليعلم أشكرونها عليها وتطيعونها فيها ، أو تشتغلون بها عنه، وتعتاضون بها منه ؟ كما قال تعالى : ﴿ إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ وَاللَّهُ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴾ [التغابن: ١٥] ، وقال: ﴿ وَنَبَلُوكُمْ بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً ﴾ [الأنبياء: ٣٥] ، وقال تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَلْهَكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴾ [المنافقون: ٩] ، وقال تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن مِّنْ أَرْوَاجِكُمْ وَأَوْلَادِكُمْ عَدُوًّا لَّكُمْ فَأَحْذَرُوهُمْ ﴾ الآية [التغابن: ١٤] .

وقوله: ﴿ وَأَنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴾ أى: ثوابه وعطاؤه وجناته خير لكم من الأموال والأولاد، فإنه قد يوجد منهم عدو، وأكثرهم لا يغنى عنك شيئا، والله، سبحانه، هو المتصرف المالك للعالمين والآخر، ولديه الثواب الجزيل يوم القيامة. وفى الصحيح عن رسول الله ﷺ أنه قال: « ثلاث من كن فيه وجد حلاوة الإيمان: من كان الله ورسوله أحب إليه مما سواهما، ومن كان يحب المرء لا يحبه إلا لله، ومن كان أن يلقى فى النار أحب إليه من أن يرجع إلى الكفر بعد إذ أنقذه الله منه » (١) . بل حب رسوله مقدم على الأولاد والأموال والنفوس، كما ثبت فى الصحيح أنه ﷺ قال : « والذى نفسى بيده ، لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من نفسه وأهله وماله والناس أجمعين » (٢) .

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا وَيُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴾

قال ابن عباس، والسُّدِّيُّ، ومُجاهِد، وغيرهم : ﴿ فُرْقَانًا ﴾ : مخرجًا . زاد مجاهد : فى الدنيا والآخرة . وفى رواية عن ابن عباس: نجاة . وفى رواية عنه: نصرا . وقال ابن إسحاق : ﴿ فُرْقَانًا ﴾ أى: فصلا بين الحق والباطل . وهذا التفسير من ابن إسحاق أعم مما تقدم وقد يستلزم ذلك كله؛ فإن من اتقى الله بفعل أوامره وترك زواجه، وفق لمعرفة الحق من الباطل، فكان ذلك سبب نصره ونجاته ومخرجه من أمور الدنيا، وسعادته يوم القيامة، وتكفير ذنوبه وهو محوها، وغفرها: سترها عن الناس، سبباً لنيل ثواب الله الجزيل، كقوله تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَآمِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِنْ رَحْمَتِهِ وَيَجْعَل لَّكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ [الحديد: ٢٨] .

﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَكْرِينَ﴾

قال ابن عباس، ومجاهد، وقتادة: ﴿لِيُثْبِتُوكَ﴾ ليقيدوك. وقال عطاء، وابن زيد: ليحبسوك. وقال السُّدِّيُّ: «الإثبات»: هو الحبس والوثاق. وهذا يشمل ما قاله هؤلاء وهؤلاء، وهو مجمع الأقوال، وهو الغالب من صنيع من أراد غيره بسوء. ثم إن اجتماع قريش على هذا الاتجار والمشاورة على الإثبات أو النفي أو القتل، إنما كان ليلة الهجرة، وكان ذلك بعد موت أبي طالب بنحو من ثلاث سنين، الذي كان يحوطه وينصره ويقوم بأعبائه. والدليل على صحة ما قلنا: ما رواه الإمام محمد بن إسحاق عن ابن عباس؛ أن نفرا من قريش من أشرف كل قبيلة، اجتمعوا ليدخلوا دار الندوة، فاعترضهم إبليس في صورة شيخ جليل، فلما رأوه قالوا: من أنت؟ قال: شيخ من نجد، سمعت أنكم اجتمعتم، فأردت أن أحضركم ولن يعدمكم رأيي ونصحي. قالوا: أجل، ادخل فدخل معهم فقال: انظروا في شأن هذا الرجل، والله ليوشكن أن يواثبكم في أمركم بأمره. قال: فقال قائل منهم: احبسوه في وثاق، ثم تربصوا به ريب المنون، حتى يهلك كما هلك من كان قبله من الشعراء: زهير والتابعة، إنما هو كأحدهم، قال: فصرخ عدو الله الشيخ النجدى فقال: والله ما هذا لكم برأى، والله ليخرجنه ربه من محبسه إلى أصحابه، فليوشكن أن يثبوا عليه حتى يأخذه من أيديكم، فيمنعوه منكم، فما آمن عليكم أن يخرجكم من بلادكم قال: فانظروا في غير هذا. قال: فقال قائل منهم: أخرجوه من بين أظهركم تستريحوا منه، فإنه إذا خرج لن يضركم ما صنع وأين وقع، إذا غاب عنكم أذاه واسترحتم، وكان أمره في غيركم، فقال الشيخ النجدى: والله ما هذا لكم برأى، ألم تروا حلاوة قوله وطلاوة لسانه، وأخذ القلوب ما تسمع من حديثه؟ والله لئن فعلتم، ثم استعرض العرب، ليجتمعن عليكم، ثم ليأتين إليكم حتى يخرجكم من بلادكم ويقتل أشرافكم. قالوا: صدق والله، فانظروا باباً غير هذا. قال: فقال أبو جهل، لعنه الله: والله لأشيرن عليكم برأى ما أراكم بصرقموه بعد، ما أرى غيره. قالوا: وما هو؟ قال: ناخذ من كل قبيلة غلاما شابا وسيطا نهذاً، ثم يعطى كل غلام منهم سيفاً صارماً، ثم يضربونه ضربة رجل واحد، فإذا قتلوه تفرق دمه في القبائل، فلا أظن هذا الحى من بنى هاشم يقوون على حرب قريش كلها. فإنهم إذا رأوا ذلك قبلوا العَقْل، واسترحنا وقطعنا عنا أذاه. قال: فقال الشيخ النجدى: هذا والله الرأى. القول ما قال الفتى لا رأى غيره، قال: فتفرقوا على ذلك وهم مجمعون له. فأتى جبريل النبي ﷺ، فأمره ألا يبيت في مضجعه الذي كان يبيت فيه، وأخبره بمكر القوم. فلم يبيت رسول الله ﷺ في بيته تلك الليلة، وأذن الله له عند ذلك بالخروج، وأنزل الله عليه بعد قدومه المدينة «الأنفال» يذكر نعمه عليه وبلاءه عنده: ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ﴾، وأنزل في قولهم: تربصوا به ريب المنون، حتى

يهلك كما هلك من كان قبله من الشعراء: ﴿أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ تَتَّبِعُ بِهِ رَبِّبَ الْمُتُونِ﴾ [الطور: ٣٠] ، وكان ذلك اليوم يسمى «يوم الزحمة» ، للذي اجتمعوا عليه من الرأي .

وأَنْزَلَ اللهُ فِي إِرَادَتِهِمْ إِخْرَاجَهُ قَوْلَهُ تَعَالَى: ﴿وَإِنْ كَادُوا لَيَسْتَفِزُّوكَ مِنَ الْأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا وَإِذَا لَا يَلْبَثُونَ خِلاَفَكَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الإسراء: ٧٦] . وقال ابن إسحاق: فأقام رسول الله ﷺ ينتظر أمر الله ، حتى إذا اجتمعت قريش فمكرت به ، وأرادوا به ما أرادوا ، أتاه جبريل ، عليه السلام ، فأمره ألا يبيت في مكانه الذي كان يبيت فيه ، فدعا رسول الله ﷺ على بن أبي طالب ، فأمره أن يبيت على فراشه ويتسجى ببرد له أخضر ، ففعل . ثم خرج رسول الله ﷺ على القوم وهم على بابهِ ، وخرَجَ معه بحفنة من تراب ، فجعل يذرها على رؤوسهم ، وأخذ الله بأبصارهم عن نبيه محمد ﷺ وهو يقرأ: ﴿يَسْ . وَالْقُرْآنِ الْحَكِيمِ﴾ إلى قوله: ﴿فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ﴾ [يس: ٩-١٠] . قال الحافظ أبو بكر البيهقي: وروى عن عكرمة ما يؤكد هذا (١) .

وقد روى ابن حبان في صحيحه، والحاكم عن ابن عباس قال: دخلت فاطمة على رسول الله ﷺ وهي تبكي ، فقال : « ما يبكيك يا بنية ؟ » قالت: يا أبت ، وما لي لا أبكي ، وهؤلاء الملأ من قريش في الحجر يتعاهدون باللات والعزى ومناة الثالثة الأخرى ، لو قد رأوك لقاموا إليك فيقتلونك ، وليس منهم إلا من قد عرف نصيبه من دمك . فقال: «يا بنية ، اتنى بوضوء» . فتوضأ رسول الله ﷺ ، ثم خرج إلى المسجد . فلما رأوه قالوا: ها هو ذا . فطأطأوا رؤوسهم ، وسقطت رقابهم بين أيديهم ، فلم يرفعوا أبصارهم . فتناول رسول الله ﷺ قبضة من تراب فحصبهم بها ، وقال : « شامت الوجوه » . فما أصاب رجلا منهم حصاة من حصياته إلا قُتل يوم بدر كافرا . ثم قال الحاكم: صحيح على شرط مسلم ، ولم يخرجاه ، ولا أعرف له علة (٢) . وعن عروة بن الزبير في قوله: ﴿وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ﴾ أى: فمكرت بهم بكيدى المتين ، حتى خلصتكم منهم .

﴿وَإِذَا تَتَلَّى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا قَالُوا قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَاءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَذَا إِنْ هَذَا إِلَّا أَسْطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴿١١﴾ وَإِذْ قَالُوا اللَّهُمَّ إِنْ كَانَتْ هَذَا هُوَ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَابًا مِنَ السَّمَاءِ أَوْ آتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿١٢﴾ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴿١٣﴾﴾

يخبر تعالى عن كفر قريش وعتوتهم وتمردهم وعنادهم ، ودعواهم الباطل عند سماع آياته إذا تتلى عليهم أنهم يقولون: ﴿قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَاءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَذَا﴾ . وهذا منهم قول بلا فعل ، وإلا فقد تحدوا غير ما مرة أن يأتوا بسورة من مثله فلا يجدون إلى ذلك سبيلا . وإنما هذا قول منهم يغرّون به أنفسهم ومن اتبعهم على باطلهم . وقد قيل : إن القائل لذلك هو النضر بن الحارث

(١) دلائل النبوة (٢/٤٦٩ ، ٤٧٠) . (٢) ابن حبان في الموارد (٦١٩١) ، والحاكم (٣/١٥٧) .

- لعنه الله - كما قد نص على ذلك سعيد ابن جبير ، والسدى ، وابن جرير وغيرهم ؛ فإنه - لعنه الله - كان قد ذهب إلى بلاد فارس ، وتعلم من أخبار ملوكهم رستم واسفنديار ، ولما قدم وجد رسول الله ﷺ قد بعثه الله ، وهو يتلو على الناس القرآن ، فكان إذا قام ﷺ من مجلس ، جلس فيه النضر فحدثهم من أخبار أولئك ، ثم يقول : بالله أيهما أحسن قصصا؟ أنا أو محمد؟ ولهذا لما أمكن الله تعالى منه يوم بدر ووقع في الأسارى ، أمر رسول الله ﷺ أن تضرب رقبته صبورا بين يديه ، ففعل ذلك ، والله الحمد . وكان الذى أسره المقداد بن الأسود ، كما روى ابن جرير عن سعيد ابن جبير قال : قتل النبي ﷺ يوم بدر صبورا عقبه بن أبى معيط وطعيمة بن عدى ، والنضر بن الحارث . وكان المقداد أسر النضر ، فلما أمر بقتله ، قال المقداد : يا رسول الله ، أسيرى . فقال رسول الله ﷺ : « إنه كان يقول فى كتاب الله ، عز وجل ، ما يقول . » فأمر رسول الله ﷺ بقتله ، فقال المقداد : يا رسول الله ، أسيرى . فقال رسول الله ﷺ : « اللهم اغن المقداد من فضلك . » فقال المقداد : هذا الذى أردت . قال : وفيه أنزلت هذه الآية : ﴿ وَإِذَا تَلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا قَالُوا قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَاءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَذَا إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴾ (١) .

ومعنى : ﴿ أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴾ وهو جمع أسطورة ، أى : كتبهم اقتبسها ، فهو يتعلم منها ويتلوها على الناس . وهذا هو الكذب البحت ، كما أخبر الله عنهم فى الآية الأخرى : ﴿ وَقَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ اكْتَبَتْهَا فَبِئْسَ تُمَلِّئُ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا . قُلْ أَنْزَلَهُ الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا ﴾ [الفرقان : ٥ ، ٦] أى : لمن تاب إليه وأتاب ؛ فإنه يتقبل منه ويصفح عنه .

وقوله : ﴿ وَإِذْ قَالُوا اللَّهُمَّ إِنْ كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِنَ السَّمَاءِ أَوْ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ : هذا من كثرة جهلهم وشدة تكذيبهم ، وعنادهم وعتوهم ، وهذا مما عيَّبوا به ، وكان الأولى لهم أن يقولوا : « اللهم ، إن كان هذا هو الحق من عندك ، فاهدنا له ، ووفقنا لاتباعه . » ولكن استفتحوا على أنفسهم ، واستعجلوا العذاب ، وتقديم العقوبة كقوله تعالى : ﴿ وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَوْلَا أَجَلٌ مُّسَمًّى لَجَاءَهُمُ الْعَذَابُ وَلِيَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴾ [العنكبوت : ٥٣] ، ﴿ وَقَالُوا رَبَّنَا عَجِّلْ لَنَا قِطْنَا قَبْلَ يَوْمِ الْحِسَابِ ﴾ [ص : ١٦] ، وقوله : ﴿ سَأَلَ سَائِلٌ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ لِلْكَافِرِينَ لَيْسَ لَهُ دَافِعٌ مِنَ اللَّهِ ذِي الْمَعَارِجِ ﴾ [المعارج : ١-٣] ، وكذلك قال الجهلة من الأمم السالفة ، كما قال قوم شعيب له : ﴿ فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسْفًا مِنَ السَّمَاءِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴾ [الشعراء : ١٨٧] ، وقال هؤلاء : ﴿ اللَّهُمَّ إِنْ كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِنَ السَّمَاءِ أَوْ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ . وروى البخارى عن أنس بن مالك قال : هو أبو جهل بن هشام قال : ﴿ اللَّهُمَّ إِنْ كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِنَ السَّمَاءِ أَوْ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ ، فنزلت : ﴿ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَفْرِقُونَ ﴾ (٢) . وقال قتادة فى قوله : ﴿ وَإِذْ قَالُوا اللَّهُمَّ إِنْ كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِكَ ﴾ الآية ، قال : قال ذلك سفهة هذه الأمة وجهلتها ، فعاد الله بعائده ورحمته على سفهة هذه الأمة وجهلتها .

وقوله تعالى : ﴿ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴾ عن ابن عباس قال: كان المشركون يظفون بالبيت ويقولون: لييك اللهم لييك، لييك لا شريك لك . فيقول النبى ﷺ : « قَدْ قَدَّ » ويقولون: لييك اللهم لييك لا شريك لك، إلا شريكا هو لك ، تملكه وما ملك . ويقولون: غفرانك، غفرانك، فأنزل الله: ﴿ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴾ الآية ، قال ابن عباس: كان فيهم أمانان: النبى ﷺ، والاستغفار، فذهب النبى ﷺ وبقي الاستغفار (١) .

وقال الضحاك وأبو مالك: ﴿ وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴾ يعنى : المؤمنين الذين كانوا بمكة . وقال ابن عباس: إن الله جعل فى هذه الأمة أمانين لا يزالون معصومين مجارين من قوارع العذاب ما داما بين أظهرهم: فأمان قبضه الله إليه، وأمان بقى فيكم، قوله: ﴿ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴾ . وروى الإمام أحمد والحاكم عن أبى سعيد، أن رسول الله ﷺ قال : « إن الشيطان قال: وعزتك يا رب، لا أبرح أغوى عبادك ما دامت أرواحهم فى أجسادهم . فقال الرب: وعزتى وجلالى، لا أزال أغفر لهم ما استغفرونى » . ثم قال الحاكم: صحيح الإسناد ولم يخرجاه (٢) .

﴿ وَمَا لَهُمْ أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ اللَّهُ وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَمَا كَانُوا أَوْلِيَاءَهُ إِنْ أَوْلِيَائِهِمْ إِلَّا الْمُتَفُونُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ (٢٤)

﴿ وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِنْدَ الْبَيْتِ إِلَّا مُكَاءً وَتَصْدِيَةً فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ ﴾ (٢٥)

يخبر تعالى أنهم أهل لأن يعذبهم، ولكن لم يوقع ذلك بهم لبركة مقام الرسول ﷺ بين أظهرهم ؛ ولهذا لما خرج من بين أظهرهم ، أوقع الله بهم بأسه يوم بدر، فقتل صناديدهم وأسر سراتهم . وأرشد تعالى إلى الاستغفار من الذنوب، التى هم متلبسون بها من الشرك والفساد . وقال قتادة والسدى وغيرهما : لم يكن القوم يستغفرون ، ولو كانوا يستغفرون لما عذبوا . واختاره ابن جرير، فلولا ما كان بين أظهرهم من المستضعفين من المؤمنين المستغفرين، لوقع بهم البأس الذى لا يرد، ولكن دفع عنهم بسبب أولئك، كما قال تعالى فى يوم الحديبية: ﴿ هُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَالْهَدْيِ مَعْكُوفًا أَنْ يَبْلُغَ مَحَلَّهُ وَلَوْلَا رِجَالٌ مُؤْمِنُونَ وَنِسَاءٌ مُؤْمِنَاتٌ لَمْ تَعْلَمُوهُمْ أَنْ تَطَّوَّهُمْ فَنَّيَكُمْ مِنْهُمْ مَعْرَةَ بَعْضِ عِلْمٍ لِيَدْخُلَ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ لَوْ تَزَيَّلُوا لَعَذَّبْنَا الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴾ [الفتح : ٢٥] . روى ابن جرير عن ابن أبى عمير قال: كان النبى ﷺ بمكة، فأنزل الله: ﴿ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ ﴾ قال: فخرج النبى ﷺ إلى المدينة، فأنزل الله: ﴿ وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴾ قال: وكان أولئك البقية من المسلمين الذين بقوا فيها مستضعفين - يعنى بمكة - يستغفرون فلما خرجوا، أنزل الله : ﴿ وَمَا لَهُمْ أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ اللَّهُ وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ ﴾

وَمَا كَانُوا أَوْلِيَاءَهُ ﴿٣٤﴾ قال: فأذن الله في فتح مكة، فهو العذاب الذي وعدهم. وروى عن ابن عباس، والضحاك، وغير واحد نحو هذا.

وقد قيل: إن هذه الآية ناسخة لقوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾، على أن يكون المراد صدور الاستغفار منهم أنفسهم. قال عكرمة والحسن البصرى: قال في «الأنفال»: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ يُعَذِّبُهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾، فنسختها الآية التي تليها: ﴿وَمَا لَهُمْ أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ اللَّهُ﴾ إلى قوله: ﴿فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ﴾، فقوتلوا بمكة، فأصابهم فيها الجوع والضر. وعن ابن عباس: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ ثم استثنى أهل الشرك فقال: ﴿وَمَا لَهُمْ أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ اللَّهُ وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾.

وقوله: ﴿وَمَا لَهُمْ أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ اللَّهُ وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَمَا كَانُوا أَوْلِيَاءَهُ إِنْ أَوْلِيَاءُؤُهُ إِلَّا الْمُتَّقُونَ وَلَكِنْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أى: وكيف لا يعذبهم الله وهم يصدون عن المسجد الحرام أى الذى بمكة، يصدون المؤمنين الذين هم أهلهم عن الصلاة فيه والطواف به؛ ولهذا قال: ﴿وَمَا كَانُوا أَوْلِيَاءَهُ إِنْ أَوْلِيَاءُؤُهُ إِلَّا الْمُتَّقُونَ﴾ أى: هم ليسوا أهل المسجد الحرام، وإنما أهل النبي ﷺ وأصحابه، كما قال تعالى: ﴿مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَنْ يَعْمُرُوا مَسَاجِدَ اللَّهِ شَاهِدِينَ عَلَىٰ أَنْفُسِهِم بِالْكَفْرِ أُولَٰئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي النَّارِ هُمْ خَالِدُونَ. إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللَّهِ مِنْ آمَنِ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا اللَّهَ فَمَسَىٰ أُولَٰئِكَ أَنْ يَكُونُوا مِنَ الْمُهْتَدِينَ﴾ [التوبة: ١٧، ١٨]، وقال تعالى: ﴿وَصَدَّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَكَفَّرَ بِهِ وَالْمَسْجِدَ الْحَرَامَ وَإِخْرَاجِ أَهْلِهِ مِنْهُ أَكْبَرُ عِنْدَ اللَّهِ﴾ الآية [البقرة: ٢١٧]. وروى الحاكم عن إسماعيل ابن عبيد بن رفاعه، عن أبيه، عن جده قال: جمع رسول الله ﷺ قريشا فقال: «هل فيكم من غيركم؟» قالوا: «فينا ابن أختنا، وفينا حليفنا، وفينا مولانا.» فقال: «حليفنا منا، وابن أختنا منا، ومولانا منا، إن أوليائي منكم المتقون.» ثم قال: هذا صحيح، ولم يخرجاه (١). وقال السدى فى قوله تعالى: ﴿إِنْ أَوْلِيَاءُؤُهُ إِلَّا الْمُتَّقُونَ﴾ قال: هم محمد ﷺ وأصحابه، رضى الله عنهم. وقال مجاهد: هم المجاهدون، من كانوا، وحيث كانوا.

ثم ذكر تعالى ما كانوا يعتمدونه عند المسجد الحرام، وما كانوا يعاملونه به، فقال: ﴿وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِنْدَ الْبَيْتِ إِلَّا مُكَاءً وَتَصَدِيَةً﴾ : قال ابن عباس، ومجاهد، وعكرمة وغيرهم: هو الصفير - وزاد مجاهد: وكانوا يدخلون أصابعهم فى أفواههم. وقال السدى: المكاء: الصفير على نحو طير أبيض يقال له: «المكاء»، ويكون بأرض الحجاز. وعن ابن عباس فى قوله: ﴿وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِنْدَ الْبَيْتِ إِلَّا مُكَاءً وَتَصَدِيَةً﴾ قال: كانت قريش تطوف بالبيت عراة تصفر وتصفق. والمكاء: الصفير، والتصديّة: التصفيق. وكذا روى عن ابن عمر، ومجاهد، وقناة، وغيرهم نحو هذا. وعن ابن عمر أيضاً أنه قال: كانوا يضعون خدودهم على الأرض ويصفقون ويصفرون. قال مجاهد: وإنما كانوا يصنعون ذلك ليخلطوا بذلك على النبي ﷺ صلواته. وقال الزهرى: يستهزئون بالمؤمنين.

قوله : ﴿فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ﴾ قال الضحاك : هو ما أصابهم يوم بدر من القتل والسبي . واختاره ابن جرير ، ولم يحك غيره .

﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ فَسَيُنْفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ وَالَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ ﴾ ﴿٢٦﴾ لِيَمِيزَ اللَّهُ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَيَجْعَلَ الْخَبِيثَ بَعْضُهُ عَلَىٰ بَعْضٍ فَيَرْكُمُهُ جَمِيعًا فَيَجْعَلُهُ فِي جَهَنَّمَ أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴿٢٧﴾

قال ابن إسحاق : حدثني الزهري ، ومحمد بن يحيى بن حبان ، وعاصم بن عمر بن قتادة ، والحصين بن عبد الرحمن بن عمرو بن سعد (١) بن معاذ ، قالوا : لما أصيبت قريش يوم بدر ، ورجع فلهم إلى مكة ، ورجع أبو سفيان بعيره ، مشى عبد الله بن أبي ربيعة ، وعكرمة بن أبي جهل ، وصفوان بن أمية ، في رجال من قريش أصيب آباؤهم ، وأبناؤهم وإخوانهم ببدر ، فكلموا أبا سفيان بن حرب ومن كانت له في تلك العير من قريش تجارة ، فقالوا : يا معشر قريش ، إن محمدا قد وتركم وقتل خياركم ، فأعينونا بهذا المال على حربيه ، لعلنا أن ندرك منه ثاراً بمن أصيب منا ! ففعلوا . قال : ففيهم - كما ذكر عن ابن عباس - أنزل الله ، عز وجل : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ ﴾ إلى قوله : ﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ ﴾ (٢) . وروى عن مجاهد ، وقتادة ، والسدي وغيرهم : أنها نزلت في أبي سفيان ونفقته الأموال في أحد لقتال رسول الله ﷺ . وقال الضحاك : نزلت في أهل بدر .

وعلى كل تقدير ، فهي عامة . وإن كان سبب نزولها خاصا ، فقد أخبر تعالى أن الكفار ينفقون أموالهم ليصدوا عن اتباع طريق الحق ، فيسفلون ذلك ، ثم تذهب أموالهم ﴿ ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ﴾ أى : ندامة ؛ حيث لم تجد شيئاً لأنهم أرادوا إطفاء نور الله وظهور كلمتهم على كلمة الحق ، والله متم نوره ولو كره الكافرون ، وناصر دينه ، ومعلن كلمته ، ومظهر دينه على كل دين . فهذا الخزي لهم في الدنيا ، ولهم في الآخرة عذاب النار ، فمن عاش منهم رأى بعينه وسمع بأذنه ما يسوؤه ، ومن قتل منهم أو مات فإلى الخزي الأبدى والعذاب السرمدي ؛ ولهذا قال : ﴿ فَسَيُنْفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ وَالَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ ﴾ .

وقوله تعالى : ﴿ لِيَمِيزَ اللَّهُ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ ﴾ قال ابن عباس فيميز أهل السعادة من أهل الشقاء ، وقال السدي : يميز المؤمن من الكافر . وهذا يحتمل أن يكون هذا التمييز في الآخرة ، كقوله : ﴿ ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا مَكَانَكُمْ أَنْتُمْ وَشُرَكَائِكُمْ فَوَلَّيْنَا بَيْنَهُمْ ﴾ الآية [يونس : ٢٨] ، وقوله : ﴿ وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُنْفِقُونَ ﴾ [الروم : ١٤] ، وقال في الآية الأخرى : ﴿ يَوْمَئِذٍ يُصَدَّعُونَ ﴾

(١) في المطبوعة : « سعيد » وهو خطأ ، والثبت من المخطوطة .

(٢) في المطبوعة : « إلى قوله : « أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴾ » ، والثبت من المخطوطة .

[الروم: ٤٣]، وقال تعالى: ﴿وَأَمَّا زُوايَ الْيَوْمِ الْمُجْرِمُونَ﴾ [يس: ٥٩]. ويحتمل أن يكون هذا التمييز في الدنيا، بما يظهر من أعمالهم للمؤمنين، وتكون «اللام» معللة لما جعل الله للكافرين من مال ينفقونه في الصد عن سبيل الله، أى: إنما أقدراهم على ذلك ﴿لِيَمِيزَ اللَّهُ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ﴾ أى: من يطيعه بقتال أعدائه الكافرين، أو يعصيه بالنكول عن ذلك كقوله: ﴿وَمَا أَصَابَكُمْ يَوْمَ التَّقِي الْجَمْعَانَ فِإِذْنِ اللَّهِ وَلِيَعْلَمَ الْمُؤْمِنِينَ. وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ نَافَقُوا وَقِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا قَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ ادْفَعُوا قَالُوا لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا لَأْتَيْنَاكُمْ﴾ الآية [آل عمران: ١٦٦، ١٦٧]، وقال تعالى: ﴿مَا كَانَ اللَّهُ لِيُذِرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ حَتَّى يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُظْلِعَكُمْ عَلَى الْغَيْبِ﴾ الآية [آل عمران: ١٧٩]، وقال تعالى: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٢]، ونظيرتها في براءة أيضا. فمعنى الآية على هذا: إنما ابتليناكم بالكفار يقاتلونكم، وأقدراهم على إنفاق الأموال وبذلها في ذلك؛ ﴿لِيَمِيزَ اللَّهُ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَيَجْعَلَ الْخَبِيثَ بَعْضُهُ عَلَى بَعْضٍ فَيَرْكُمَهُ﴾ أى: يجمعه كله، وهو جمع الشيء بعضه على بعض، كما قال تعالى في السحاب: ﴿ثُمَّ يَجْعَلُهُ رُكَامًا﴾ [النور: ٤٣] أى: متراكما متراكبا ﴿فَيَجْعَلُهُ فِي جَهَنَّمَ أَوْلَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ أى: هؤلاء هم الخاسرون في الدنيا والآخرة.

﴿قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ يَنْتَهُوا يُغْفَرْ لَهُمْ مَا قَدْ سَلَفَ وَإِنْ يَعُودُوا فَقَدْ مَضَتْ سُنَّتُ الْأَوَّلِينَ﴾ ﴿١٨﴾ وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّهِ فَإِنْ آتَتْهُمُ آيَاتٌ مِنْ رَبِّهِمْ لِيُتَوَكَّأُوا عَلَيْهَا قَالُوا لَا تَنْزِيلٌ مِنَ اللَّهِ وَإِنْ نَحْنُ إِلَّا كَاذِبُونَ قُلْ اللَّهُ يُغْفِرُ مَا سَلَفَ وَأَعْتَدُ لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ ﴿٢١﴾ وَإِنْ تَوَلَّوْا فَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَوْلَانَكُمْ يَغْفِرُ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٤٠﴾

يقول تعالى لنبى محمد ﷺ: ﴿قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ يَنْتَهُوا يُغْفَرْ لَهُمْ مَا قَدْ سَلَفَ﴾ أى: عما هم فيه من الكفر والمشاقة والعناد، ويدخلوا فى الإسلام والطاعة والإنابة، يغفر لهم ما قد سلف، أى: من كفرهم، وذنوبهم وخطاياهم، كما جاء فى الصحيح عن ابن مسعود؛ أن رسول الله ﷺ قال: «من أحسن فى الإسلام، لم يؤاخذ بما عمل فى الجاهلية، ومن أساء فى الإسلام، أخذ بالأول والآخر» (١). وفى الصحيح أيضا: أن رسول الله ﷺ قال: «الإسلام يجب ما قبله، والتوبة تجب ما كان قبلها» (٢).

وقوله: ﴿وَأَنْ يَعُودُوا﴾ أى: يستمروا على ما هم فيه ﴿فَقَدْ مَضَتْ سُنَّتُ الْأَوَّلِينَ﴾ أى: فقد مضت سنتنا فى الأولين أنهم إذا كذبوا واستمروا على عنادهم، أنا نعالجهم بالعذاب والعقوبة. وقوله: ﴿فَقَدْ مَضَتْ سُنَّتُ الْأَوَّلِينَ﴾ أى: فى قريش يوم بدر وغيرها من الأمم. وقال السدى وابن إسحاق: أى: يوم بدر.

وقوله تعالى: ﴿وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّهِ﴾ : روى البخارى عن ابن

(١) هو فى البخارى (٦٩٢١)، ومسلم (١٨٩/١٢٠).

(٢) أحمد (٤/١٩٨)، وقال الهيمى فى الزوائد (٩/٣٥٤): «رواه أحمد والطبرانى ورجالهما ثقات».

عمر ؛ أن رجلا جاءه (١) فقال : يا أبا عبد الرحمن ، ألا تسمع (٢) ما ذكر الله في كتابه : ﴿ وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتُلُوا ﴾ الآية [الحجرات : ٩] ، فما يمنعك ألا تقاتل كما ذكر الله في كتابه ؟ فقال : يا بن أخي ، أُعيرَ بهذه الآية ولا أقاتل ، أحب إلي من أن أُعيرَ بالآية التي يقول الله ، عز وجل : ﴿ وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُتَعَمِّدًا ﴾ إلى آخر الآية [النساء : ٩٣] ، قال : فإن الله تعالى يقول : ﴿ وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ ﴾ ؟ قال ابن عمر : قد فعلنا على عهد رسول الله ﷺ إذ كان الإسلام قليلا ، وكان الرجل يُفتن في دينه : إما أن يقتلوه ، وإما أن يوثقوه ، حتى كثر الإسلام فلم تكن فتنة ، فلما رأى أنه لا يوافقها فيما يريد ، قال : فما قولك في علي وعثمان؟ قال ابن عمر : أما قولى في علي وعثمان؟ أما عثمان فكان الله قد عفا عنه ، وكرهتم أن يعفو الله عنه ، وأما علي فابن عم رسول الله ﷺ وختنه - وأشار بيده - وهذه ابنته - أو بنته - حيث ترون (٣) . وقال ابن عباس : ﴿ وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ ﴾ يعنى : حتى لا يكون شرك ، وكذا قال مجاهد ، والحسن ، وقتادة ، والسدى ، وقال عروة بن الزبير وغيره من علمائنا : حتى لا يفتن مسلم عن دينه .

وقوله : ﴿ وَيَكُونُ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ ﴾ قال ابن عباس : يخلص التوحيد لله . وقال الحسن وقتادة : أن يقال : لا إله إلا الله . وقال ابن إسحاق : ويكون التوحيد خالصا لله ، ليس فيه شرك ، ويخلع ما دونه من الأنداد . وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم : ﴿ وَيَكُونُ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ ﴾ : لا يكون مع دينكم كفر . ويشهد له ما ثبت في الصحيحين عن رسول الله ﷺ أنه قال : « أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا : لا إله إلا الله ، فإذا قالوها ، عصموا منى دماءهم وأموالهم إلا بحقها ، وحسابهم على الله ، عز وجل » (٤) . وفيهما عن أبي موسى الأشعري قال : سئل رسول الله ﷺ عن الرجل يقاتل شجاعة ويقاتل حمية ، ويقاتل رياء ، أى : ذلك في سبيل الله ، عز وجل؟ فقال : « من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا ، فهو في سبيل الله ، عز وجل » (٥) .

وقوله : ﴿ فَإِنْ انْتَهَرُوا ﴾ أى : بقتالكم عما هم فيه من الكفر ، فكفوا عنه ، وإن لم تعلموا بواطنهم ﴿ فَإِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ ، كقوله : ﴿ فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ ﴾ [التوبة : ٥] ، وفى الآية الأخرى : ﴿ فَأَخْوَأَكُمْ فِي الدِّينِ ﴾ [التوبة : ١١] .

وقال : ﴿ وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ فَإِنْ انْتَهَرُوا فَلَا عُدْوَانَ إِلَّا عَلَى الظَّالِمِينَ ﴾ [البقرة : ١٩٣] وفى الصحيح أن رسول الله ﷺ قال لأسماء - لما علا ذلك الرجل بالسيف ، فقال : « لا إله إلا الله » ، فضربه فقتله ، فذكرت ذلك لرسول الله - فقال لأسماء : « أقتلته بعد ما قال : لا إله إلا الله؟ وكيف تصنع بلا إله إلا الله يوم القيامة ؟ » فقال : يا رسول الله ، إنما قالها تعوذا . قال : « هلا

(١) وذلك في فتنة ابن الزبير .

(٢) في المطبوعة والمخطوطة : « تصنع » ، والمثبت من البخارى .

(٣) البخارى (٤٦٥٠ ، ٤٦٥١) . (٤) البخارى (٢٥) ، ومسلم (٣٦/٢٢) .

(٥) البخارى (٢٨١٠) ، ومسلم (١٤٩/١٩٠٤) .

شَقَّقَتْ عَنْ قَلْبِهِ؟»، وجعل يقول ويكرر عليه: «من لك بلا إله إلا الله يوم القيامة؟» قال أسامة: حتى تمنيت أنى لم أكن أسلمت إلا يومئذ (١).

وقوله: ﴿وَأَنْ تَوَكَّلُوا فَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَوْلَاكُمْ نِعْمَ الْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ النَّصِيرُ﴾ أى : وإن استمروا على خلافكم ومحاربتكم ﴿فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَوْلَاكُمْ﴾ : سيدكم وناصركم على أعدائكم ، فنعم المولى ونعم النصير .

﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَأَيَّتِمَّ وَالْمَسْكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ إِنْ كُنْتُمْ ءَامَنْتُمْ بِاللَّهِ وَمَا أُنزَلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا يَوْمَ الْفُرْقَانِ يَوْمَ الْتَفَىٰ الْجَمْعَانِ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ (٤١)

الجزء

١٠

يبين تعالى تفصيل ما شرعه مخصصا لهذه الأمة الشريفة من بين سائر الأمم المتقدمة، بإحلال الغنائم و«الغنيمة»: هي المال المأخوذ من الكفار بإيجاف الخيل والركاب. و«الفيء»: ما أخذ منهم بغير ذلك ، كالأموال التي يصالحون عليها ، أو يتوفون عنها ولا وارث لهم، والجزية والخراج ونحو ذلك. هذا مذهب الإمام الشافعي فى طائفة من علماء السلف والخلف. ومن العلماء من يطلق الفيء على ما تطلق عليه الغنيمة ، والغنيمة على الفيء أيضا .

وقوله تعالى: ﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ﴾ : توكيدا لتخميس كل قليل وكثير حتى الخيط والمخيط ، قال الله تعالى: ﴿وَمَنْ يَقُلْ يَأْتِ بِمَا غُلَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ [آل عمران: ١٦٦] .

وقوله: ﴿فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ﴾ : اختلف المفسرون هاهنا : فقال بعضهم : لله نصيب من الخمس يجعل فى الكعبة. وقال آخرون : ذكر الله هاهنا افتتاح كلام للتبرك، وسهمه لرسوله عليه السلام .

قال ابن عباس: كان رسول الله ﷺ إذا بعث سرية فغنموا، خَمَسَ الغنيمة، فضرب ذلك الخمس فى خمسة. ثم قرأ: ﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ﴾ ، ﴿فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ﴾ مفتاح كلام ، لله ما فى السموات وما فى الأرض، فجعل سهم الله وسهم الرسول واحداً. ويؤيد هذا ما رواه الإمام البيهقى بإسناد صحيح، عن عبد الله بن شقيق، عن رجل ، قال: أتيت النبی ﷺ وهو بوادى القرى ، وهو يعرض فرساً ، فقلت : يا رسول الله ، ما تقول فى الغنيمة ؟ فقال : « لله خمسها ، وأربعة أخماس للجيش». قلت: فما أحد أولى به من أحد ؟ قال : « لا ، ولا السهم تستخرجه من جيبك ، ليس أنت أحق به من أخيك المسلم » (٢) . وروى ابن جرير عن الحسن قال : أوصى أبو بكر بالخمس من ماله، وقال: ألا أرضى - من مالى بما

(٢) البيهقى فى السنن الكبرى (٦/٣٢٤) .

(١) البخارى (٤٢٦٩)، ومسلم (١٥٩/٩٦) .

رضى الله لنفسه (١) .

وقال عطاء : خمس الله والرسول واحد ، يحمل منه ويصنع فيه ما شاء - يعنى : النبى ﷺ . وهذا أعم وأشمل ، وهو أنه ﷺ يتصرف فى الخمس الذى جعله الله له بما شاء، ويرده فى أمته كيف شاء . ويشهد لهذا ما رواه الإمام أحمد عن المقدم بن معد يكرب الكندى : أنه جلس مع عبادة بن الصامت، وأبى الدرداء، والحارث بن معاوية الكندى ، فتذاكروا حديث رسول الله ﷺ ، فقال أبو الدرداء لعبادة : يا عبادة، كلمات رسول الله ﷺ فى غزوة كذا وكذا فى شأن الأخماس؟ فقال عبادة: إن رسول الله ﷺ صلى بهم فى غزوة إلى بغير من المغنم، فلما سلم قام رسول الله ﷺ فتناول وبرة بين أُمَّلتيه فقال: «إن هذه من غنائمكم، وإنه ليس لى فيها إلا نصيبى معكم الخمس، والخمس مردود عليكم، فأدوا الخيط والمخييط، وأكبر من ذلك وأصغر، ولا تغلوا، فإن الغلول عارٌ ونار على أصحابه فى الدنيا والآخرة، وجاهدوا الناس فى الله القريب والبعيد، ولا تبالوا فى الله لومة لائم، وأقيموا حدود الله فى السفر والحضر ، فإن الجهاد باب من أبواب الجنة عظيم ، ينجى الله به من الهم والغم » . هذا حديث حسن عظيم (٢) .

وقد كان للنبى ﷺ من المغنم شىء يصطفيه لنفسه عبداً أو أمة أو فرساً أو سيفاً أو نحو ذلك، كما نص على ذلك محمد بن سيرين وعامر الشعبي، وتبعهما على ذلك أكثر العلماء. وروى الإمام أحمد، والترمذى - وحسنه - عن ابن عباس: أن رسول الله ﷺ تنقل سيفه ذا الفقار يوم بدر، وهو الذى رأى فيه الرؤيا يوم أحد (٣). وعن عائشة ، قالت : كانت صفة من الصقلى . رواه أبو داود (٤) . وروى أيضاً بإسناده، والنسائى أيضاً عن يزيد بن عبد الله قال: كنا بالمربد إذ دخل رجل معه قطعة أديم، فقرأناها فإذا فيها: «من محمد رسول الله إلى بنى زهير بن أقيش، إنكم إن شهدتم أن لا إله إلا الله، وأن محمداً رسول الله، وأقمتم الصلاة، وآتيتم الزكاة، وأديتم الخمس من المغنم، وسهم النبى وسهم الصقلى، أنتم آمنون بأمان الله ورسوله». فقلنا: من كتب لك هذا؟ فقال: رسول الله ﷺ (٥) . فهذه أحاديث جيدة تدل على تقرر هذا وثبوته؛ ولهذا جعل ذلك كثيرون من الخصائص له صلوات الله وسلامه عليه.

وقال آخرون: إن الخمس يتصرف فيه الإمام بالمصلحة للمسلمين، كما يتصرف فى مال الفىء . وقال شيخنا الإمام العلامة ابن تيمية، رحمه الله: وهذا قول مالك وأكثر السلف، وهو أصح الأقوال.

فإذا ثبت هذا وعلم، فقد اختلف أيضاً فى الذى كان يناله عليه السلام من الخمس ، ماذا

(١) ابن جرير فى التفسير (٣/١٠)، وفى المطبوعة والمخطوطة : «أوصى الحسن» بدل «أوصى أبو بكر»، والمثبت من الطبرى .

(٢) المسند (٣١٦/٥) .

(٣) المسند (٢٤٤٥) ، وقال الشيخ أحمد شاکر : «إسناده صحيح» ، والترمذى (١٥٦١) .

(٤) أبو داود (٢٩٩٤) . (٥) المسند (٧٧/٥) ، وأبو داود (٢٩٩٩)، والنسائى (٤١٤٦) .

يُصنع به من بعده؟ فقال قائلون: يكون لمن يلي الأمر من بعده . وقال آخرون: يصرف في مصالح المسلمين . وقال آخرون: بل هو مردود على بقية الأصناف: ذوى القربى، واليتامى، والمساكين ، وابن السبيل، اختاره ابن جرير . وقال آخرون : بل سهم النبي ﷺ وسهم ذوى القربى مردودان على اليتامى والمساكين وابن السبيل .

وقيل: إن الخمس جميعه لذوى القربى . ثم اختلف الناس فى هذين السهمين بعد وفاة رسول الله ﷺ ، فقال قائلون : سهم النبي ﷺ تسليما للخليفة من بعده . وقال قائلون: لقراة النبي ﷺ . وقال قائلون: سهم القراة لقراة الخليفة . فاجتمع قولهم على أن يجعلوا هذين السهمين فى الخيل والعدة فى سبيل الله ، فكانا على ذلك فى خلافة أبى بكر وعمر، رضى الله عنهما .

وأما سهم ذوى القربى فإنه يصرف إلى بنى هاشم وبنى المطلب ؛ لأن بنى المطلب وازروا بنى هاشم فى الجاهلية وفى أول الإسلام ، ودخلوا معهم فى الشعب غضبا لرسول الله ﷺ وحماية له: مسلمهم طاعة لله ولرسوله، وكافرهم حَمِيَّةٌ للعشيرة وأئفة وطاعة لأبى طالب عم رسول الله . وأما بنو عبد شمس وبنو نوفل - وإن كانوا أبناء عمهم - فلم يوافقهم على ذلك، بل حاربهم وناذبوهم، ومالؤوا بطون قريش على حرب الرسول .

وقال جبير بن مطعم بن عدى : مشيت أنا وعثمان بن عفان إلى رسول الله ﷺ ، فقلنا : يا رسول الله ، أعطيت بنى المطلب من خمس خبير وتركتنا ، ونحن وهُم منك بمنزلة واحدة، فقال : « إنما بنو هاشم وبنو عبد المطلب شىء واحد » . رواه مسلم (١) . وفى بعض روايات هذا الحديث: «إنهم لم يفارقونا فى جاهلية ولا إسلام» (٢) . وهذا قول جمهور العلماء أنهم بنو هاشم وبنو المطلب . قال ابن جرير: وقال آخرون: هم بنو هاشم . ثم روى عن مجاهد قال : علم الله أن فى بنى هاشم فقراء ، فجعل لهم الخمس مكان الصدقة . وفى رواية عنه قال: هم قراة رسول الله ﷺ الذين لا تحل لهم الصدقة .

وقوله : ﴿ وَالْيَتَامَى ﴾ أى: يتامى المسلمين . واختلف العلماء: هل يختص بالأيام الفقراء، أو يعم الأغنياء والفقراء؟ على قولين . ﴿ وَالْمَسَاكِينَ ﴾ : هم المحاويج الذين لا يجدون ما يسد خللتهم ومسكتهم . ﴿ وَأَبْنِ السَّبِيلِ ﴾ : هو المسافر، أو المرید للسفر، إلى مسافة تقصر فيها الصلاة، وليس له ما ينفقه فى سفره ذلك . وسيأتى تفسير ذلك فى آية الصدقات فى سورة «براءة»، إن شاء الله تعالى، وبه الثقة، وعليه التكلان .

وقوله : ﴿ إِنْ كُنْتُمْ آمَنْتُمْ بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا ﴾ أى: امتثلوا ما شرعنا لكم من الخمس فى الغنائم، إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر وما أنزل على رسوله؛ ولهذا جاء فى الصحيحين، من حديث عبد الله ابن عباس، فى حديث وفد عبد القيس: أن رسول الله ﷺ قال لهم: «وأمركم

(١) الحديث فى البخارى (٣١٤٠)، ولم تقف عليه فى صحيح مسلم كما أشار الحافظ .

(٢) النسائى (٤١٣٧) .

بأربع وأنهاكم عن أربع: أمركم بالإيمان بالله ثم قال: هل تدرّون ما الإيمان بالله؟ شهادة أن لا إله إلا الله، وأن محمداً رسول الله، وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة، وأن تؤدوا الخمس من المغنم. الحديث بطوله^(١)، فجعل أداء الخمس من جملة الإيمان.

وقوله: ﴿يَوْمَ التَّقَىٰ الْجَمْعَانِ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾: ينبه تعالى على نعمته وإحسانه إلى خلقه بما فرّق به بين الحق والباطل ببدر، ويسمى «الفرقان»؛ لأن الله تعالى أعلى فيه كلمة الإيمان على كلمة الباطل، وأظهر دينه ونصر نبيه وحزبه. قال ابن عباس: يوم بدر، فرّق الله فيه بين الحق والباطل.

وقال عروة بن الزبير فى قوله: ﴿يَوْمَ الْفُرْقَانِ﴾: يوم فرق الله بين الحق والباطل، وهو يوم بدر، وهو أول مشهد شهده رسول الله ﷺ. وكان رأس المشركين عتبة بن ربيعة، فالتقوا يوم الجمعة لتسع عشرة - أو: سبع عشرة - مضت من رمضان، وأصحاب رسول الله ﷺ يومئذ ثلثمائة وبضعة عشر رجلاً، والمشركون ما بين الألف والتسعمائة. فهزم الله المشركين، وقتل منهم زيادة على السبعين، وأسر منهم مثل ذلك.

وعن على قال: كانت ليلة الفرقان ليلة التقى الجمعان، فى صبيحتها ليلة الجمعة لسبع عشرة مضت من شهر رمضان. وهو الصحيح عند أهل المغازى والسير.

﴿إِذْ أَنْتُمْ بِالْعُدْوَةِ الدُّنْيَا وَهُمْ بِالْعُدْوَةِ الْقُصْوَىٰ وَالرَّكْبُ أَسْفَلَ مِنْكُمْ وَلَوْ تَوَاعَدْتُمْ لِاخْتَلَفْتُمْ فِي الْمِيعَادِ وَلَكِن لِّيَقْضَىٰ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ وَإِنَّ اللَّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾

يقول تعالى مخبراً عن يوم الفرقان: ﴿إِذْ أَنْتُمْ بِالْعُدْوَةِ الدُّنْيَا﴾ أى: إذ أنتم نزول بعدوة الوادى الدنيا القريبة إلى المدينة ﴿وَهُمْ بِالْعُدْوَةِ الْقُصْوَىٰ﴾ أى: المشركون نزول ﴿بِالْعُدْوَةِ الْقُصْوَىٰ﴾ أى: البعيدة من المدينة إلى ناحية مكة ﴿وَالرَّكْبُ﴾ أى: العير الذى فيه أبو سفيان بما معه من التجارة ﴿أَسْفَلَ مِنْكُمْ﴾ أى: مما يلى سيف البحر ﴿وَلَوْ تَوَاعَدْتُمْ﴾ أى: أنتم والمشركون إلى مكان ﴿لَاخْتَلَفْتُمْ فِي الْمِيعَادِ﴾. قال عبد الله بن الزبير فى هذه الآية قال: ولو كان ذلك عن ميعاد منكم ومنهم، ثم بلغكم كثرة عددهم وقلة عددكم، ما لقيتموهم ﴿وَلَكِن لِّيَقْضَىٰ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا﴾ أى: ليضى الله ما أراد بقدرته من إعزاز الإسلام وأهله، وإذلال الشرك وأهله، عن غير ملا منكم، ففعل ما أراد. من ذلك بلطفه. وفى حديث كعب بن مالك قال: إنما خرج رسول الله ﷺ والمسلمون يريدون عير قريش، حتى جمع الله بينهم وبين عدوهم على غير ميعاد^(٢). وروى ابن جرير عن عمير بن إسحاق قال: أقبل أبو سفيان فى الركب من الشام، وخرج أبو جهل ليمنعه من رسول الله ﷺ وأصحابه، فالتقوا ببدر، لا يشعر هؤلاء بهؤلاء، ولا هؤلاء بهؤلاء، حتى

(٢) البخارى (٣٩٥١).

(١) البخارى (٥٣)، ومسلم (٢٣/١٧).

التَّقَتِ السَّقَاةَ ، وَنَهَدَ النَّاسُ بَعْضَهُمْ لِبَعْضٍ (١) .

وقال محمد بن إسحاق : حتى إذا رأى أبو سفيان أن قد أحرز غيره بعث إلى قريش فقال: إن الله قد نجى غيركم وأموالكم ورجالكم، فارجعوا. فقال أبو جهل: والله لا نرجع حتى نأتى بدرًا - وكانت بدر سوقًا من أسواق العرب - فنقيم بها ثلاثًا، فنطعمُ بها الطعام، وننحرُ بها الجُزُرَ ، ونُسقى بها الخمر، وتعزف علينا القيان ، وتسمع بنا العرب ويسيرنا، فلا يزالون يهابوننا بعدها أبدًا.

قال ابن إسحاق : وبعث رسول الله ﷺ - حين دنا من بدر - عليَّ بن أبي طالب، وسعدُ ابن أبي وقاص، والزبير بن العوام، في نفر من أصحابه، يتجسسون له الخبر فأصابوا سقاةَ لقريش: غلامًا لبنى سعيد بن العاص ، وغلامًا لبنى الحجاج، فأتوا بهما رسول الله ﷺ، فوجدوه يصلى، فجعل أصحاب رسول الله ﷺ يسألونهما: لمن أنتما؟ فيقولان: نحن سقاة لقريش، بعثونا نسقيهم من الماء. فكره القوم خبرهما، ورجوا أن يكونا لأبي سفيان، فضربوهما فلما ذلوهما قالوا: نحن لأبي سفيان. فتركوهما، وركع رسول الله ﷺ وسجد سجدتين، ثم سلم وقال: «إذا صدقاكم ضربتموهما، وإذا كذباكم تركتموهما. صدقا، والله إنهما لقريش، أخبراني عن قريش». قالوا: هم وراء هذا الكئيب الذي ترى بالعدوة القصوى - والكئيب: العَقَنُ - فقال لهما رسول الله ﷺ: «كم القوم؟» قالوا: كثير. قال: «ما عدتكم؟» قالوا: ما ندرى. قال: «كم ينحرون كل يوم؟» قالوا: يوما تسعاً، ويوما عشراً، قال رسول الله ﷺ: «القوم ما بين التسعمائة إلى الألف». ثم قال لهما: «فمن فيهم من أشرف قريش؟» قالوا: عتبة ابن ربيعة، وشيبة بن ربيعة، وأبو البختری بن هشام، وحكيم بن حزام، ونوفل بن خويلد، والحارث بن عامر بن نوفل، وطعيمة بن عدى بن نوفل، والنضر بن الحارث، وزمعة بن الأسود، وأبو جهل بن هشام ، وأمّية بن خلف ، ونُبَيْه ومُنْبَه ابنا الحجاج، وسهيل بن عمرو، وعمرو بن عبد ود . فأقبل رسول الله ﷺ وسلم على الناس فقال : « هذه مكة قد ألقت إليكم أفلاذ كبدها » .

قال ابن إسحاق : إن سعد بن معاذ قال لرسول الله ﷺ ، لما التقى الناس يوم بدر : يا رسول الله ، ألا نبني لك عريشاً تكون فيه، ونُنِخَ إليك ركائبك ، ونلقى عدونا، فإن أظهرنا الله عليهم وأعزنا فذاك ما نحب، وإن تكن الأخرى فتجلس على ركائبك، وتلحق بمن وراءنا من قومنا ، فقد - والله - تخلف عنك أقوام ما نحن بأشدَّ لك حبا منهم، لو علموا أنك تلقى حزبا ما تخلفوا عنك ، ويوادونك وينصرونك. فإثنى عليه رسول الله ﷺ خيراً، ودعا له به. فبني له عريش ، فكان فيه رسول الله ﷺ وأبو بكر ، ما معهما غيرهما .

قال ابن إسحاق: وارتحلت قريش حين أصبحت، فلما أقبلت ورآها رسول الله ﷺ قال : «اللهم هذه قريش قد أقبلت بفخرها وخيلائها تُحَادُّكَ وتكذب رسولك، اللهم أحنهم الغداة » .

وقوله: ﴿لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَن بَيْتِنَا وَيَحَيِّى مَنْ حَيَّ عَن بَيْتِنَا﴾ : قال ابن إسحاق: أى ليكفر من كفر بعد الحجة، لما رأى من الآية والعبرة، ويؤمن من آمن على مثل ذلك. وهذا تفسير جيد، وبَسَطُ ذلك أنه تعالى يقول: إنما جمعكم مع عدوكم فى مكان واحد على غير ميعاد، لينصركم عليهم، ويرفع كلمة الحق على الباطل، ليصير الأمر ظاهراً، والحجة قاطعة، والبراهين ساطعة، ولا يبقى لأحد حجة ولا شبهة، فحيثذ ﴿يَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ﴾ أى: يستمر فى الكفر من استمر فيه على بصيرة من أمره أنه مبطل، لقيام الحجة عليه ﴿وَيَحَيِّى مَنْ حَيَّ﴾ أى: يؤمن من آمن ﴿عَن بَيْتِنَا﴾ أى: حجة وبصيرة. والإيمان هو حياة القلوب، قال الله تعالى: ﴿أَوْ مَنْ كَانَ مِنَّا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ﴾ [الأنعام: ١٢٢] ، وقالت عائشة فى قصة الإفك: فى هلك من هلك أى: قال فيها ما قال من الكذب والبهتان والإفك.

وقوله: ﴿وَأَنَّ اللَّهَ لَسَمِيعٌ﴾ أى: لدعائكم وتضرعكم واستغاثتكم به ﴿عَلِيمٌ﴾ أى: بكم وأنكم تستحقون النصر على أعدائكم الكفرة المعاندين.

﴿إِذْ يُرِيكُمُ اللَّهُ فِي مَنَايِكٍ قَلِيلًا وَلَوْ أَرَادَكُمُ كَثِيرًا لَفَشَيْتُمْ وَلَتُنزِلَنَّهُمْ فِي الْأَمْرِ وَلَكِنَّ اللَّهَ سَلَّمَ إِنَّهُمْ عَلَيْهِمْ يَذَاتُ الصُّدُورِ ﴿٤٣﴾ وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ اتَّقَيْتُمْ فِي أَعْيُنِكُمْ قَلِيلًا وَيُقَلِّلُكُمْ فِي أَعْيُنِهِمْ لِيَقْضَى اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ ﴿٤٤﴾﴾

قال مجاهد : أراه الله إياهم فى منامه (١) قليلا، وأخبر النبى ﷺ أصحابه بذلك، فكان تثبيتا لهم .

وقوله: ﴿وَلَوْ أَرَادَكُمُ كَثِيرًا لَفَشَيْتُمْ﴾ أى: ليجتتم عنهم واختلقتم فيما بينكم ﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ سَلَّمَ﴾ أى: من ذلك: بأن أراكم قليلا ﴿إِنَّهُمْ عَلَيْهِمْ يَذَاتُ الصُّدُورِ﴾ أى: بما تجبه الضمائر، وتنطوى عليه الاحشاء، ﴿يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ﴾ [غافر] .

وقوله: ﴿وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ اتَّقَيْتُمْ فِي أَعْيُنِكُمْ قَلِيلًا﴾: وهذا أيضاً من لطفه تعالى بهم، إذ أراهم إياهم قليلا فى رأى العين، فيجرتهم عليهم، ويطمعهم فيهم ﴿وَيُقَلِّلُكُمْ فِي أَعْيُنِهِمْ﴾ : روى ابن أبى حاتم عن عكرمة: ﴿وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ اتَّقَيْتُمْ فِي أَعْيُنِكُمْ قَلِيلًا وَيُقَلِّلُكُمْ فِي أَعْيُنِهِمْ﴾ قال: حضض بعضهم على بعض . إسناده صحيح . ومعنى هذا : أنه تعالى أغرى كلا من الفريقين بالآخر، وقلله فى عينه ليطمع فيه، وذلك عند المواجهة. فلما التحم القتال وأيد الله المؤمنين بألف من الملائكة مردفين، بقى حزب الكفار يرى حزب الإيمان ضعفيه، كما قال تعالى: ﴿قَدْ كَانَ لَكُمْ آيَةٌ فِي فِتْنِى الثَّقَاتِ فَمَا تَقَاتُلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَأُخْرَى كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُمْ مِثْلِهِمْ رَأَى الْعَيْنِ وَاللَّهُ يُؤَيِّدُ بَصَرِهِ مَنْ يَشَاءُ إِنَّ فِي

(١) فى المطبوعة والمخطوطة : « أراهم الله فى منامه » ، وما أثبتاه من الطبرى ١٠ / ١٠ .

ذَلِكَ لَعِبْرَةٌ لِّأُولِي الْأَبْصَارِ ﴿٤٥﴾ [آل عمران : ١٣] ، وهذا هو الجمع بين هاتين الآيتين ، فإن كلا منهما حق وصدق ، والله الحمد والمنة .

﴿ يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ ﴿٤٥﴾ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَسْرِعُوا فَتَنَفْسُلُوا وَتَذَهَبَ رِيحُكُمْ وَأَصِيرُوا إِنَّا اللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴿٤٦﴾

هذا تعليم من الله لعباده المؤمنين آداب اللقاء ، وطريق الشجاعة عند مواجهة الأعداء ، فقال : ﴿ يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا ﴾ . ثبت فى الصحيحين ، عن عبد الله بن أبى أرفى ، عن رسول الله ﷺ : أنه انتظر فى بعض أيامه التى لقى فيها العدو حتى إذا مالت الشمس قام فيهم فقال : « يَأَيُّهَا النَّاسُ ، لا تمنوا لقاء العدو ، واسألوا الله العافية ، فإذا لقيتموهم فاصبروا ، واعلموا أن الجنة تحت ظلال السيوف » . ثم قام النبى ﷺ وقال : « اللهم ، منزل الكتاب ، ومُجرى السحاب ، وهازم الأحزاب ، اهزمهم وانصرنا عليهم » (١) .

وقال قتادة فى هذه الآية : افترض الله ذكره عند أشغل ما تكونون ، عند الضراب بالسيوف . وروى ابن أبى حاتم عن ابن جرير عن عطاء قال : وجب الإنصات والذكر عند الزحف ، ثم تلا هذه الآية ، قلت : يجهرون بالذكر ؟ قال : نعم . فأمر تعالى بالثبات عند قتال الأعداء والصبر على مبارزتهم ، فلا يفروا ولا ينكلوا ولا يجبنوا ، وأن يذكروا الله فى تلك الحال ولا ينسوه بل يستعينوا به ويتوكلوا عليه ، ويسألوه النصر على أعدائهم ، وأن يطيعوا الله ورسوله فى حالهم ذلك . فما أمرهم الله تعالى به اثتمروا ، وما نهاهم عنه انزجروا ، ولا يتنازعوا فيما بينهم أيضاً فيختلفوا فيكون سبباً لتخاذلهم وفشلهم . ﴿ وَتَذَهَبَ رِيحُكُمْ ﴾ أى : قوتكم وحدتكم وما كتتم فيه من الإقبال ﴿ وَأَصْبِرُوا إِنَّا اللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴾ . وقد كان للصحابة - رضى الله عنهم - فى باب الشجاعة والاثتمار بأمر الله ، وامتنال ما أرشدهم إليه ، ما لم يكن لأحد من الأمم والقرون قبلهم ، ولا يكون لأحد ممن بعدهم ؛ فإنهم ببركة الرسول ﷺ وطاعته فيما أمرهم ، فتحوا القلوب والأقاليم شرقاً وغرباً فى المدة اليسيرة ، مع قلة عددهم بالنسبة إلى جيوش سائر الأقاليم ، من الروم والفرس والترك والصقالبة والبربر والحبوش وأصناف السودان والقبط ، وطوائف بنى آدم ، قهروا الجميع حتى عكَّتْ كلمة الله ، وظهر دينه على سائر الأديان ، وامتدت الممالك الإسلامية فى مشارق الأرض ومغاربها ، فى أقل من ثلاثين سنة ، فرضى الله عنهم وأرضاهم أجمعين ، وحشرنا فى زمرتهم ، إنه كريم تواب .

﴿ وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بَطْرًا وَرِثَاءَ النَّاسِ وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَاللَّهُ يَمَّا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴾ ﴿٤٧﴾ وَإِذْ زَيْنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمْ الْيَوْمَ مِنَ النَّاسِ وَإِنِّي جَارٌ لَكُمْ فَلَمَّا تَرَأَتِ الْفِئَتَانِ نَكَصَ عَلَى عَقَبَيْهِ وَقَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِنْكُمْ إِنِّي أَرَى مَا لَا تَرَوْنَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿٤٨﴾ إِذْ يَكْفُلُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ غَرَّ هَوَاهُ دِينُهُمْ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٤٩﴾

يقول تعالى بعد أمره المؤمنين بالإخلاص فى القتال فى سبيله وكثرة ذكره، ناهياً لهم عن التشبه بالمشركين فى خروجهم من ديارهم ﴿بَطْرًا﴾ أى : دفعا للحق ﴿وَرِثَاءَ النَّاسِ﴾ وهو : المفاخرة والتكبر عليهم، كما قال أبو جهل - لما قيل له : إن العير قد نجا فارجعوا - فقال : لا، والله لا نرجع حتى نرد ماء بدر، وننحر الجزر، ونشرب الخمر، وتعزف علينا القيان ، وتحدث العرب بمكاننا فيها يومنا أبدا، فانعكس ذلك عليه أجمع؛ لأنهم لما وردوا ماء بدر وردوا به الحمام، ورُموا فى أطواء بدر مهانين أذلاء، صغرة أشقياء فى عذاب سرمدى أبدى؛ ولهذا قال : ﴿وَاللَّهُ يَمَّا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ﴾ أى : عالم بما جاؤوا به وله، ولهذا جازاهم عليه شر الجزاء لهم. قال ابن عباس فى قوله تعالى : ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بَطْرًا وَرِثَاءَ النَّاسِ﴾ قالوا : هم المشركون، الذين قاتلوا رسول الله ﷺ يوم بدر. وقال محمد بن كعب : لما خرجت قريش من مكة إلى بدر، خرجوا بالقيان والدفوف، فأنزل الله : ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بَطْرًا وَرِثَاءَ النَّاسِ وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَاللَّهُ يَمَّا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ﴾.

وقوله : ﴿وَإِذْ زَيْنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمْ الْيَوْمَ مِنَ النَّاسِ وَإِنِّي جَارٌ لَكُمْ﴾ الآية : حسن لهم - لعنه الله - ما جاؤوا له وما هموا به، وأطمعهم أنه لا غالب لهم اليوم من الناس، ونفى عنهم الخشية من أن يؤتوا فى ديارهم من عدوهم بنى بكر فقال : إني جار لكم، وذلك أنه تبدى لهم فى صورة سراقه ابن مالك، وكل ذلك منه، كما قال تعالى عنه : ﴿يَعِدُّهُمْ وَيُمْنِيهِمْ وَمَا يَعِدُّهُمْ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا﴾ [النساء : ١٢٠]. وقال ابن عباس : جاء إبليس يوم بدر فى جند من الشياطين، معه رايته، فى صورة رجل من بنى مدلج، والشيطان فى صورة سراقه بن مالك بن جعشم [١]، فقال الشيطان للمشركين : ﴿لَا غَالِبَ لَكُمْ الْيَوْمَ مِنَ النَّاسِ وَإِنِّي جَارٌ لَكُمْ﴾. فلما اصطف الناس أخذ رسول الله ﷺ قبضة من التراب فرمى بها فى وجوه المشركين، فولوا مدبرين وأقبل جبريل ، عليه السلام، إلى إبليس، فلما رآه - وكانت يده فى يد رجل من المشركين - انتزع يده ثم ولى مدبرا هو وشيعته، فقال الرجل : ياسراقه ، أتزعم أنك لنا جار؟ فقال : ﴿إِنِّي أَرَى مَا لَا تَرَوْنَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ وذلك حين رأى الملائكة. وقال محمد بن إسحاق عن عروة بن الزبير : لما أجمعت قريش المسير، ذكرت الذى بينها وبين بنى بكر من الحرب، فكاد ذلك أن

يشبههم، فتبدى لهم إبليس في صورة سراقه بن مالك بن جعشم المدلجى - وكان من أشرف بنى كنانة - فقال: أنا جار لكم أن تأتيكم كنانة بشيء تكرهونه، فخرجوا سراعا. قال محمد بن إسحاق: فذكر لى أنهم كانوا يرونه فى كل منزل فى صورة سراقه بن مالك لا يتكرونه، حتى إذا كان يوم بدر والتقى الجمعان، كان الذى رآه حين نكص الحارث بن هشام - أو: عمير ابن وهب - فقال: أين، أى سراق؟ (١) ومثل عدو الله فذهب - قال: فأوردهم ثم أسلمهم - قال: ونظر عدو الله إلى جنود الله، قد أيد الله بهم رسوله والمؤمنين فانتكص على عقبه، وقال: ﴿إِنِّي بَرِيءٌ مِنْكُمْ إِنِّي أَرَى مَا لَا تَرَوْنَ﴾ وصدق عدو الله، وقال: ﴿إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾. وقال قتادة: وذكر لنا أنه رأى جبريل، عليه السلام، تنزل معه الملائكة، فعلم عدو الله أنه لا يدان له بالملائكة فقال: ﴿إِنِّي أَرَى مَا لَا تَرَوْنَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ﴾، وكذب عدو الله، والله ما به مخافة الله، ولكن علم أنه لا قوة له ولا منعة، وتلك عادة عدو الله لمن أطاعه واستقاد له، حتى إذا التقى الحق والباطل أسلمهم شر مسلم، وتبرا منهم عند ذلك.

قلت: يعنى بعبادته لمن أطاعه قوله تعالى: ﴿كَمَثَلَ الشَّيْطَانَ إِذْ قَالَ لِلْإِنْسَانِ اكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِنْكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ﴾ [الحشر: ١٦]، وقوله تعالى: ﴿وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعَدَّ الْحَقِّ وَوَعَدْتُكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِي عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلَا تَلْمُزُونِي وَلُومُوا أَنْفُسَكُمْ مَا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنْتُمْ بِمُصْرِخِي إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِي مِنْ قَبْلِ أَنْ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [إبراهيم: ٢٢].

وقوله: ﴿إِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ غَرَّ هُوَلاءِ دِينِهِمْ﴾: قال ابن عباس فى هذه الآية: لما دنا القوم بعضهم من بعض قتل الله المسلمين فى أعين المشركين، وقلل المشركين فى أعين المسلمين فقال المشركون: ﴿غَرَّ هُوَلاءِ دِينِهِمْ﴾ وإنما قالوا ذلك من قلتهم فى أعينهم، فظنوا أنهم سيهزمونهم، لا يشكون فى ذلك، فقال الله: ﴿وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾. وقال قتادة: رأوا عصابة من المؤمنين تشددت لأمر الله، وذكر لنا أن أبا جهل عدو الله لما أشرف على محمد ﷺ وأصحابه قال: والله لا يعبدوا الله بعد اليوم، قسوة وعتوا. وقال مجاهد فى قوله، عز وجل: ﴿إِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ غَرَّ هُوَلاءِ دِينِهِمْ﴾ قال: فنة من قريش، خرجوا مع قريش من مكة وهم على الارتياب فحبسهم ارتيابهم، فلما رأوا قلة أصحاب رسول الله ﷺ، قالوا: ﴿غَرَّ هُوَلاءِ دِينِهِمْ﴾، حتى قدموا على ما قدموا عليه، مع قلة عددهم وكثرة عدوهم.

وقوله: ﴿وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ﴾ أى: يعتمد على جنبه ﴿فَإِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ أى: لا يُضام من التجأ إليه، فإن الله عزيز منيع الجناب، عظيم السلطان، ﴿حَكِيمٌ﴾ فى أفعاله، لا يضعها إلا فى مواضعها، فينصر من يستحق النصر، ويخذل من هو أهل لذلك.

﴿وَلَوْ تَرَى إِذِ يَتَوَفَّى الَّذِينَ كَفَرُوا الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ﴾ ﴿٥٠﴾ ذَلِكَ بِمَا قَدَّمْتُمْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلْمٍ لِلْعَبِيدِ ﴿٥١﴾

(١) فى المخطوطة: «أين أين سراق»، والمثبت من سيرة ابن هشام (١/٦٣٣).

يقول تعالى: ولو عاينت يا محمد حال توفى الملائكة أرواح الكفار، لرأيت أمرا عظيما هائلا فظيما منكرا؛ إذ يضربون وجوههم وأدبارهم، ويقولون لهم: ﴿ذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ﴾. قال مجاهد: ﴿وَأَدْبَارَهُمْ﴾ : أستاذهم ، قال : يوم بدر . وقال ابن عباس: إذا أقبل المشركون بوجوههم إلى المسلمين ، ضربوا وجوههم بالسيوف ، وإذا ولوا أدركتهم الملائكة فضربوا أدبارهم .

وهذا السياق - وإن كان سببه وقعة بدر - ولكنه عام فى حق كل كافر؛ ولهذا لم يخصه تعالى بأهل بدر، بل قال تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ يَتَوَفَّى الَّذِينَ كَفَرُوا الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ﴾ وفى سورة القتال مثلها (١) ، وتقدم فى سورة الأنعام قوله: ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الظَّالِمُونَ فِي غَمْرَاتِ الْمَوْتِ وَالْمَلَائِكَةُ بَاسِطُوا أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوا أَنفُسَكُمُ﴾ [الأنعام: ٩٣] . أى: باسطو أيديهم بالضرب فيهم، يأمرونهم إذا استصعبت أنفسهم، وامتنعت من الخروج من الأجساد أن تخرج قهراً. وذلك إذ بشروهم بالعذاب والغضب من الله؛ ولهذا أخبر تعالى أن الملائكة تقول لهم: ﴿ذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ﴾ .

وقوله تعالى: ﴿ذَلِكَ بِمَا قَدَّمْت أَيْدِيكُمْ﴾ أى: هذا الجزاء بسبب ما عملتم من الأعمال السيئة فى حياتكم الدنيا، جزاكم الله بها هذا الجزاء ﴿وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ﴾ أى: لا يظلم أحدا من خلقه، بل هو الحكم العدل، الذى لا يجور، تبارك وتعالى وتقدس وتنزه الغنى الحميد؛ ولهذا جاء فى الحديث الصحيح من رواية أبى ذر عن رسول الله ﷺ: «إن الله تعالى يقول: يا عبادى ، إنى حرمت الظلم على نفسى، وجعلته بينكم محرماً فلا تظالموا. يا عبادى ، إنما هى أعمالكم أحصيها لكم، فممن وجد خيراً فليحمد الله، ومن وجد غير ذلك فلا يلومن إلا نفسه» (٢) ولهذا قال تعالى:

﴿كَذَّابٍ ءَالَ فِرْعَوْنَ ۗ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ ۗ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾

يقول تعالى: فعل هؤلاء المشركون المكذبون بما أرسلت به يا محمد، كما فعل الأمم المكذبة قبلهم، ففعلنا بهم ما هو دأبنا ، أى: عادتنا وستتنا فى أمثالهم من المكذبين من آل فرعون ومن قبلهم من الأمم المكذبة بالرسل ، الكافرين بآيات الله ﴿فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ﴾ أى: بسبب ذنوبهم أهلكهم، فأخذهم أخذ عزيز مقتدر ﴿إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ أى: لا يغلبه غالب، ولا يفوته هارب .

﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُ مُغْتَبِئًا بِنِعْمَةِ أُنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ ۗ وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ ﴿٥٢﴾ كَذَّابٍ ءَالَ فِرْعَوْنَ ۗ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ فَأَهْلَكْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ وَأَغْرَقْنَا ءَالَ فِرْعَوْنَ ۗ وَكُلُّ كَانُوا ظَالِمِينَ ﴿٥٣﴾

يخبر تعالى عن تمام عدله، وقسطه في حكمه، بأنه تعالى لا يغير نعمة أنعمها على أحد إلا بسبب ذنب ارتكبه، كما قال تعالى: ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُ وَمَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ آلٍ ﴾ [الرعد : ١١] .

وقوله: ﴿ كَذَّابٌ آلِ فِرْعَوْنَ ﴾ أى: كصنعه بآل فرعون وأمثالهم حين كذبوا بآياته ، أهلكتهم بسبب ذنوبهم، وسلبهم تلك النعم التي أسداها إليهم من جنات وعيون، وزروع وكنوز ومقام كريم، ونعمة كانوا فيها فاكهين، وما ظلمهم الله في ذلك، بل كانوا هم الظالمين.

﴿ إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الَّذِينَ كَفَرُوا فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٥٥﴾ الَّذِينَ عَاهَدتَ مِنْهُمْ ثُمَّ يَنْفُضُونَ عَهْدَهُمْ فِي كُلِّ مَرَّةٍ وَهُمْ لَا يَتَّقُونَ ﴿٥٦﴾ فِيمَا تَشَفَقْتُمْ فِي الْحَرْبِ فَشَرِدَ بِهَمَّ مِنْ خَلْفِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَدْكَرُونَ ﴿٥٧﴾ ﴾

أخبر تعالى أن شر ما دب على وجه الأرض هم الذين كفروا فهم لا يؤمنون، الذين كلما عاهدوا عهدا نقضوه، وكلما أكدوه بالآيمان نكثوه ﴿ وَهُمْ لَا يَتَّقُونَ ﴾ أى: لا يخافون من الله في شيء ارتكبه من الآثام. ﴿ فِيمَا تَشَفَقْتُمْ فِي الْحَرْبِ ﴾ أى: تغلبهم وتظفر بهم في حرب ﴿ فَشَرِدَ بِهِمْ مِنْ خَلْفِهِمْ ﴾ أى: نكل بهم، قاله ابن عباس ومعناه: غلظ عقوبتهم وأتخنهم قتلا، ليخاف من سواهم من الأعداء، من العرب وغيرهم، ويصيروا لهم عبرة ﴿ لَعَلَّهُمْ يَدْكَرُونَ ﴾. وقال السدى: يقول: لعلمهم يحذرون أن ينكثوا فيصنع بهم مثل ذلك.

﴿ وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِنْ قَوْمٍ خِيَانَةً فَانْبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَى سَوَاءٍ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْخَائِبِينَ ﴿٥٨﴾ ﴾

يقول تعالى لنبية ﷺ: ﴿ وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِنْ قَوْمٍ ﴾ قد عاهدتهم ﴿ خِيَانَةً ﴾ أى: نقضا لما بينك وبينهم من المواثيق والعهود ﴿ فَانْبِذْ إِلَيْهِمْ ﴾ أى: عهدهم ﴿ عَلَى سَوَاءٍ ﴾ أى: أعلمهم بأنك قد نقضت عهدهم حتى يبقى علمك وعلمهم بأنك حرب لهم ، وهم حرب لك ، وأنه لا عهد بينك وبينهم على السواء، أى: تستوى أنت وهم في ذلك . وعن الوليد بن مسلم أنه قال فى قوله: ﴿ فَانْبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَى سَوَاءٍ ﴾ أى: على مهل، ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْخَائِبِينَ ﴾ أى: حتى ولو فى حق الكافرين، لا يحبها أيضا.

روى الإمام أحمد عن سليم بن عامر قال : كان معاوية يسير فى أرض الروم، وكان بينه وبينهم أمد ، فأراد أن يدنو منهم ، فإذا انقضى الأمد غزاهم ، فإذا شيخ على دابة يقول : الله أكبر ، الله أكبر ، وفاء لا غدرا ، إن رسول الله ﷺ قال : « ومن كان بينه وبين قوم عهد فلا يحلنَّ عقدة ولا يشدها حتى ينقضى أمدها، أو ينبذ إليهم على سواء » قال : فبلغ ذلك معاوية، فرجع، وإذا الشيخ عمرو بن عبسة، رضى الله عنه. ورواه الترمذى وقال : حسن صحيح (١) .

﴿ وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَبَقُوا إِنَّهُمْ لَا يُعْجِزُونَ ﴾ ﴿٥٩﴾ وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهَبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِنْ دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تُظْلَمُونَ ﴿٦٠﴾

يقول تعالى لنبية ﷺ: ﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ ﴾ (١) يا محمد ﴿ الَّذِينَ كَفَرُوا سَبَقُوا ﴾ أى : فاتونا فلا نقدر عليهم، بل هم تحت قهر قدرتنا وفي قبضة مشيئتنا فلا يعجزوننا، كقوله تعالى: ﴿ أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ أَنْ يَسْبِقُونَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴾ [العنكبوت: ٤] أى: يظنون، وقوله تعالى: ﴿ لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَمَا أُوْاهِمُ النَّارُ وَلَيْسَ الْمَصِيرُ ﴾ [النور: ٥٧]، وقوله تعالى: ﴿ لَا يَفْرُكُ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبِلَادِ مَتَاعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَا أُوْاهِمُ جَهَنَّمَ وَيَسُ الْمِهَادُ ﴾ [آل عمران: ١٩٦ ، ١٩٧].

ثم أمر تعالى بإعداد آلات الحرب لمقاتلتهم حسب الطاقة والإمكان والاستطاعة، فقال: ﴿ وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ ﴾ أى: مهما أمكنكم ﴿ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ ﴾. روى الإمام أحمد عن عقبه بن عامر قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول وهو على المنبر: ﴿ وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ ﴾ ، ألا إن القوة الرمي، ألا إن القوة الرمي . ورواه مسلم (٢) . وروى الإمام مالك عن أبى هريرة أن رسول الله ﷺ قال : « الخيل ثلاثة: لرجل أجر، ولرجل ستر، وعلى رجل وزر؛ فأما الذى له أجر فرجل ربطها فى سبيل الله ، فأطال بها فى مرج - أو: روضة - فما أصابت فى طيلها ذلك من المرج - أو: الروضة - كانت له حسنات، ولو أنها قطعت طيلها فاستنتت شرفاً أو شرفين كانت آثارها وأرواثها حسنات له، ولو أنها مرت بنهر فشربت منه، ولم يرد أن يسقى به ، كان ذلك حسنات له ؛ فهى لذلك الرجل أجر . ورجل ربطها تغنياً وتعففاً، ولم ينس حق الله فى رقابها ولا ظهورها، فهى له ستر . ورجل ربطها فخراً ورياء ونواء فهى على ذلك وزر . وسئل رسول الله ﷺ عن الحمر فقال: « ما أنزل الله على فيها شيئاً إلا هذه الآية الجامعة الفاذة: ﴿ فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ. وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ﴾ » [الزلزلة: ٧ ، ٨] . رواه البخارى - وهذا لفظه - ومسلم (٣) .

وقد ذهب أكثر العلماء إلى أن الرمي أفضل من ركوب الخيل، وذهب الإمام مالك إلى أن الركوب أفضل من الرمي، وقول الجمهور أقوى للحديث، والله أعلم. والأحاديث الواردة فى فضل ارتباط الخيل كثيرة ، وفى صحيح البخارى، عن عروة بن أبى الجعد البارقى: أن رسول الله ﷺ قال: « الخيل معقود فى نواصيها الخير إلى يوم القيامة: الأجر والمغرم » (٤).

وقوله : ﴿ تُرْهَبُونَ ﴾ أى: تخوفون ﴿ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ ﴾ أى: من الكفار ﴿ وَآخَرِينَ مِنْ

(١) كذا فى المطبوعة والمخطوطة بالتاء ، وهى قراءة سبعة .

(٢) المسند (٤/١٥٦)، ومسلم (١٩١٧/١٦٧) .

(٣) مالك فى الموطأ (٢/٤٤٤) ، والبخارى (٢٣٧١)، ومسلم (٩٨٧/٢٤) .

(٤) البخارى (٢٨٥٠) .

دُونِهِمْ ﴿ قَالَ مُجَاهِدٌ : يَعْنِي : قَرِظَةٌ ، وَقَالَ السُّدِّيُّ : فَارَسٌ ، وَقَالَ مِقَاتِلٌ ، وَعَبْدُ الرَّحْمَنِ ابْنُ زَيْدِ بْنِ أَسْلَمٍ : هُمُ الْمُنَافِقُونَ . وَهَذَا أَشْبَهَ الْأَقْوَالَ ، وَيَشْهَدُ لَهُ قَوْلُهُ : ﴿ وَمِمَّنْ حَوْلَكُمْ مِنَ الْأَعْرَابِ مُنَافِقُونَ وَمِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ مَرَدُوا عَلَى النِّفَاقِ لَا تَعْلَمُهُمْ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ ﴾ [التوبة: ١٠١] .

وقوله : ﴿ وَمَا تَنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تَغْلُمُونَ ﴾ أى : مهما أنفقتم فى الجهاد، فإنه يوفى إليكم على التمام والكمال .

﴿ وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلَامِ فَاجْتَنِحْ لَهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾
 ﴿ وَإِنْ يُرِيدُوا أَنْ يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ اللَّهُ هُوَ الَّذِي أَيْدِكَ بِتَصْرِهِ وَبِالْمُؤْمِنِينَ ﴾
 وَأَلْفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنْفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَّا أَلْفَتْ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ أَلْفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿

ربع

يقول تعالى: إذا خفت من قوم خيانة فانبد إليهم عهدهم على سواء، فإن استمروا على حريك ومنابدتك فقاتلهم ﴿وَإِنْ جَنَحُوا﴾ أى: مالوا ﴿لِلسَّلَامِ﴾ أى: المسالمة والمصالحة والمهادنة ﴿فَاجْتَنِحْ لَهُمْ﴾ أى: فمحل إليها، واقبل منهم ذلك؛ ولهذا لما طلب المشركون عام الحديبية الصلح ووضع الحرب بينهم وبين رسول الله ﷺ تسع سنين؛ أجابهم إلى ذلك مع ما اشترطوا من الشروط الأخر. وقوله: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ﴾ أى: صالحهم وتوكل على الله، فإن الله كافيك وناصرك، ولو كانوا يريدون بالصلح خديعة ليتقوا ويستعدوا ﴿فَإِنَّ حَسْبَكَ اللَّهُ﴾ أى: كافيك وحده.

ثم ذكر نعمته عليه بما أيده به من المؤمنين المهاجرين والأنصار؛ فقال: ﴿هُوَ الَّذِي أَيْدَكَ بِتَصْرِهِ وَبِالْمُؤْمِنِينَ . وَأَلْفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ﴾ أى: جمعها على الإيمان بك، وعلى طاعتك ومناصرتك وموازرتك ﴿لَوْ أَنْفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَّا أَلْفَتْ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ﴾ أى: لما كان بينهم من العداوة والبغضاء فإن الأنصار كانت بينهم حروب كثيرة فى الجاهلية، بين الأوس والخزرج، وأمور يلزم منها التسلسل فى الشر، حتى قطع الله ذلك بنور الإيمان، كما قال تعالى: ﴿وَأذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلْفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَاصْبِرْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنْتُمْ عَلَى شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٣] . وفى الصحيحين أن رسول الله ﷺ لما خطب الأنصار فى شأن غنائم حنين قال لهم: «يا معشر الأنصار، ألم أجدكم ضلالا فهداكم الله بى، وعالة فاعناكم الله بى، وكنتم متفرقين فالفكم الله بى» كلما قال شيئا قالوا: الله ورسوله آمن (١) .

ولهذا قال تعالى : ﴿ وَلَكِنَّ اللَّهَ أَلْفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ أى : عزيز الجناب ، فلا يخيب رجاء من توكل عليه ، حكيم فى أفعاله وأحكامه . روى النسائى والحاكم عن عبد الله بن مسعود قال : ﴿ لَوْ أَنْفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَّا أَلْفَتْ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ ﴾ الآية ، قال : هم المتحابون فى الله ، وفى رواية : نزلت فى المتحابين فى الله . وقال الحاكم : صحيح (٢) . وقال مجاهد : إذا تراءى

(١) البخارى (٤٣٣٠)، ومسلم (١٠٦١/١٣٩) . (٢) النسائى فى الكبرى (١٢١٠)، والحاكم (٣٢٩/٢) .

المتحابان في الله ، فأخذ أحدهما بيد صاحبه ، وضحك إليه ، تحاتت خطاياهما كما يتحات ورق الشجر . قال عبدة : قتلته له : إن هذا ليسير ! فقال : لا تقل ذلك ؛ فإن الله تعالى يقول : ﴿ لَوْ أَنْفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَّا أَلْفَتْ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ ﴾ ! . قال عبدة : فعرفت أنه أفاقه مني . وروى الطبراني عن سلمان الفارسي : أن رسول الله ﷺ قال : « إن المسلم إذا لقي أخاه المسلم ، فأخذ بيده ، تحاتت عنهما ذنوبهما ، كما يتحات الورق عن الشجرة اليابسة في يوم ريح عاصف ، وإلا غفر لهما ولو كانت ذنوبهما مثل زيد البحر » (١) .

﴿ يَأْتِيهَا النَّبِيُّ حَسْبُكَ اللَّهُ وَمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ ﴿١٤﴾ يَأْتِيهَا النَّبِيُّ حَرْصُ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتَالِ إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ عَشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتِينَ وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ يَغْلِبُوا أَلْفًا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ ﴾ ﴿١٥﴾ أَلْفَنَ حَقَّفَ اللَّهُ عَنْكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا فَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوا أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴿١٦﴾

يحرص تعالى نبيه ﷺ والمؤمنين على القتال ومناجزة الأعداء ومبارزة الأقران ، ويخبرهم أنه حسبهم ، أى : كافيتهم وناصرهم ومؤيدهم على عدوهم ، وإن كثرت أعدادهم وترادفت أمدادهم ، ولو قل عدد المؤمنين . قال الشعبي في قوله : ﴿ يَأْتِيهَا النَّبِيُّ حَسْبُكَ اللَّهُ وَمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ قال : حسبك الله ، وحسب من شهد معك . وعن عطاء الخراساني ، وعبد الرحمن بن زيد مثله .

ولهذا قال : ﴿ يَأْتِيهَا النَّبِيُّ حَرْصُ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتَالِ ﴾ أى : حثهم وذمهم عليه ، ولهذا كان رسول الله ﷺ يحرص على القتال عند صفهم ومواجهة العدو ، كما قال لأصحابه يوم بدر ، حين أقبل المشركون فى عددهم وعددهم : « قوموا إلى جنة عرضها السموات والأرض » فقال عمير ابن الحمام : عرضها السموات والأرض؟! فقال رسول الله ﷺ : « نعم » فقال : يخ ، يخ ، فقال : « ما يحملك على قولك يخ ، يخ ؟ » قال : رجاء أن أكون من أهلها! قال : « فإنك من أهلها » فتقدم الرجل فكسر جفن سيفه ، وأخرج تمرات فجعل يأكل منهن ، ثم ألقى بقيتهن من يده ، وقال : لئن أنا حييت حتى آكلهن إنها حياة طويلة! ثم تقدم فقاتل حتى قتل ، رضى الله عنه (٢) .

ثم قال تعالى مَبَشِّرًا لِلْمُؤْمِنِينَ وَأَمْرًا : ﴿ إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ عَشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ يَغْلِبُوا أَلْفًا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ ، كل واحد بعشرة . ثم نسخ هذا الأمر وبقيت البشارة . عن ابن عباس قال : لما نزلت : ﴿ إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ عَشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ ﴾ ، شق ذلك على المسلمين حين فرض الله عليهم ألا يفر واحد من عشرة ، ثم جاء التخفيف ، فقال : ﴿ الْآنَ خَفَّفَ اللَّهُ عَنْكُمْ ﴾ إلى قوله : ﴿ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ ﴾ ، قال : خفف الله عنهم من العدة ، ونقص من الصبر بقدر ما خفف عنهم (٣) .

(١) الطبراني فى الكبير (٢٥٦/٦) (٦١٥٠) ، وقال الهيثمى فى الزوائد (٤٠/٨) : « رجاله رجال الصحيح غير سالم ابن غيلان ، وهو ثقة » .

(٢) البخارى (٤٦٥٣) بنحوه .

(٣) رواه مسلم (١٤٥٠/١٩٠١) .

﴿ مَا كَانَتْ لِنَبِيِّ أَنْ يَكُونَ لَهُ أُسْرَى حَتَّى يُشْرَكَ فِي الْأَرْضِ تُرِيدُونَ عَرَصَ الدُّنْيَا وَاللَّهُ يُرِيدُ الْآخِرَةَ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٦٧﴾ لَوْلَا كِتَابٌ مِنَ اللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَا أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٦٨﴾ فَكُلُوا مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَالًا طَيِّبًا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٦٩﴾ ﴾

قرأ ابن عباس: ﴿مَا كَانَ لِنَبِيِّ أَنْ يَكُونَ لَهُ أُسْرَى﴾ حتى بلغ: ﴿عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ قال: غنائم بدر، قبل أن يحلها لهم، يقول: لولا أني لا أعذب من عصاني حتى أتقدم إليه، لمسكم فيما أخذتم عذاب عظيم. وكذا قال مجاهد. وقال الأعمش: سبق منه ألا يعذب أحدا شهد بدرا. وروى نحوه عن سعد بن أبي وقاص، وسعيد بن جبير، وعطاء. وقال ابن عباس في قوله: ﴿لَوْلَا كِتَابٌ مِنَ اللَّهِ سَبَقَ﴾ يعني: في أم الكتاب الأول أن المغانم والأسارى حلال لكم ﴿لَمَسَّكُمْ فِيمَا أَخَذْتُمْ﴾ من الأسارى ﴿عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾، قال الله تعالى: ﴿فَكُلُوا مِمَّا غَنِمْتُمْ﴾ الآية. وروى مثله عن أبي هريرة، وابن مسعود، وسعيد بن جبير، وعطاء وغيرهم، وهو اختيار ابن جرير، رحمه الله. ويستشهد لهذا القول بما أخرجاه في الصحيحين عن جابر ابن عبد الله قال: قال رسول الله ﷺ: «أعطيت خمسا، لم يعطهن أحد من الأنبياء قبلي: نصرت بالرعب مسيرة شهر، وجعلت لى الأرض مسجدا وطهورا، وأحلت لى الغنائم ولم تحل لأحد قبلي، وأعطيت الشفاعة، وكان النبى يبعث إلى قومه ويبعث إلى الناس عامة» (١).

ولهذا قال الله تعالى: ﴿فَكُلُوا مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَالًا طَيِّبًا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾، فعند ذلك أخذوا من الأسارى الفداء. وقد روى أبو داود عن ابن عباس: أن رسول الله ﷺ جعل فداء أهل الجاهلية يوم بدر أربعمائة (٢).

وقد استقر الحكم فى الأسرى عند جمهور العلماء: أن الإمام مخير فيهم: إن شاء قتل - كما فعل بنى قريظة - وإن شاء فادى بمال - كما فعل بأسرى بدر - أو بمن أسر من المسلمين - كما فعل رسول الله ﷺ فى تلك الجارية وابتتها اللتين كانتا فى سبى سلمة بن الأكوع، حيث ردهما وأخذ فى مقابلهما من المسلمين الذين كانوا عند المشركين، وإن شاء استرق من أسر. هذا مذهب الإمام الشافعى وطائفة من العلماء، وفى المسألة خلاف آخر بين الأئمة مقرر فى موضعه من كتب الفقه.

﴿ يَتَأْتِيهَا النَّبِيُّ قُلُوبٌ لَمَّا فِي أَيْدِيكُمْ مِنَ الْأَسْرَى إِنْ يَعْلَمِ اللَّهُ فِي قُلُوبِكُمْ خَيْرًا يُؤْتِكُمْ خَيْرًا مِمَّا أَخَذَ مِنْكُمْ وَيَغْفِرَ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٧٠﴾ وَإِنْ يُرِيدُوا خِيَانَتَكَ فَقَدْ خَانُوا اللَّهَ مِنْ قَبْلُ فَأَمْكَنَ مِنْهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٧١﴾ ﴾

(١) البخارى (٣٣٥)، ومسلم (٣/٥٢١).

(٢) أبو داود (٢٦٩١)، وقال الألبانى: «صحيح دون الأربعمائة»، وانظر: إرواء الغليل (١٢١٨).

روى ابن إسحاق عن عبد الله بن عباس، أن رسول الله ﷺ قال يوم بدر: « إني قد عرفت أن أناسا من بنى هاشم وغيرهم ، قد أخرجوا كرها ، لا حاجة لهم بقتالنا، فمن لقي منكم أحدا منهم - أى: من بنى هاشم - فلا يقتله ، ومن لقى أبا البختري بن هشام فلا يقتله، ومن لقى العباس ابن عبد المطلب فلا يقتله ، فإنه إنما أخرج مستكرها». فقال أبو حذيفة بن عتبة : أنقتل آباءنا وأبناءنا وإخواننا وعشائرنا ونترك العباس ؟ ! والله لئن لقيته لألجمنه بالسيف ؟ فبلغت رسول الله ﷺ ، فقال لعمر بن الخطاب: «يا أبا حفص» - قال عمر: والله إنه لأول يوم كنانى فيه رسول الله ﷺ - «أيضرب وجه عم رسول الله بالسيف؟» فقال عمر: يا رسول الله، ائذن لى فأضرب عنقه، فوالله لقد نافق. فكان أبو حذيفة يقول بعد ذلك: والله ما آمن من تلك الكلمة التى قلت، ولا أزال منها خائفا، إلا أن يكفرها الله عنى بشهادة. فقتل يوم اليمامة شهيدا، رضى الله عنه (١) .

قال ابن إسحاق : وكان أكثر الأسارى يوم بدر فداء العباس بن عبد المطلب ، وذلك أنه كان رجلا مؤسرا فافتدى نفسه بمائة أوقية ذهباً . وفى صحيح البخارى ، من حديث أنس بن مالك أن رجلا من الأنصار استأذنوا رسول الله ﷺ فقالوا: ائذن لنا فلنترك لابن أختنا عباس فداءه. قال : « لا ، والله لا تدرّون منه درهما » (٢) .

وقال محمد بن إسحاق : بعثت قريش إلى رسول الله ﷺ فى فداء أسراهم، ففدى كل قوم أسيرهم بما رضوا ، وقال العباس: يا رسول الله ، قد كنت مسلما ! فقال رسول الله ﷺ : « الله أعلم بإسلامك، فإن يكن كما تقول فإن الله يجزيك، وأما ظاهره فقد كان علينا ، فافتد نفسك وابنى أخيك: نوفل بن الحارث بن عبد المطلب، وعقيل بن أبى طالب بن عبد المطلب ، وحليفك عتبة بن عمرو أخى بنى الحارث بن فهر ». قال : ما ذاك عندى يا رسول الله ! قال : « فأين المال الذى دفتته أنت وأم الفضل؟ فقلت لها: إن أصبتُ فى سفرى هذا، فهذا المال الذى دفتته لبنى: الفضل، وعبد الله، وقُثم ». قال: والله يا رسول الله، إني لأعلم أنك رسول الله، إن هذا لشيء ما علمه أحد غيرى وغير أم الفضل ، فاحسب لى يا رسول الله ما أصبتم منى: عشرين أوقية من مال كان معى؟ فقال رسول الله ﷺ: « لا، ذاك شيء أعطانا الله تعالى منك ». ففدى نفسه وابنى أخويه وحليفه، وأنزل الله، عز وجل فيه: ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِمَنْ فِي أَيْدِيكُمْ مِنَ الْأَسْرَى إِنْ يَعْلَمِ اللَّهُ فِي قُلُوبِكُمْ خَيْرًا يُؤْتِكُمْ خَيْرًا مِمَّا أُخِذَ مِنْكُمْ وَيَغْفِرَ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ . قال العباس: فأعطانى الله مكان العشرين الأوقية فى الإسلام عشرين عبدا، كلهم فى يده مال يضرب به، مع ما أرجو من مغفرة الله، عز وجل.

وقال ابن عباس: ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِمَنْ فِي أَيْدِيكُمْ مِنَ الْأَسْرَى ﴾ : عباس وأصحابه. قال: قالوا للنبي ﷺ: آمنا بما جئت به، ونشهد أنك رسول الله، لنتصحن لك على قومنا. فأنزل الله:

﴿إِنْ يَعْلَمِ اللَّهُ فِي قُلُوبِكُمْ خَيْرًا يُؤْتِكُمْ خَيْرًا مِمَّا أَخَذَ مِنْكُمْ﴾ إيماناً وتصديقاً، يخلف لكم خيراً مما أخذ منكم ﴿وَيَغْفِرَ لَكُمْ﴾ الشرك الذي كنتم عليه . قال : فكان العباس يقول : ما أحب أن هذه الآية لم تنزل فينا، وأن لى الدنيا، لقد قال : ﴿يُؤْتِكُمْ خَيْرًا مِمَّا أَخَذَ مِنْكُمْ﴾ فقد أعطاني خيراً مما أخذ مني مائة ضعف، وقال : ﴿وَيَغْفِرَ لَكُمْ﴾، وأرجو أن يكون غُفر لى .

وقوله : ﴿وَأَنْ يُرِيدُوا حَيَاتِكَ﴾ أى : فيما أظهروا لك من الأقوال ﴿فَقَدْ خَانُوا اللَّهَ مِنْ قَبْلُ﴾ أى : من قبل بدر بالكفر به ﴿فَأَمَكَنَّ مِنْهُمْ﴾ أى : بالإسار يوم بدر ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ أى : عليهم بما يفعله، حكيم فيه . قال قتادة : نزلت فى عبد الله بن سعد بن أبى سرح الكاتب حين ارتد، ولحق بالمشركين . وقال ابن عباس : نزلت فى عباس وأصحابه ، حين قالوا : لننصحن لك على قومنا . وفسرها السُّدى على العموم، وهو أشمل وأظهر، والله أعلم .

﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ ءَاوَأُوا وَنَصَرُوا أُولَئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَلَمْ يُهَاجِرُوا مَا لَكُمْ مِنْ وَبَالٍ لِيَبْغِيَ الَّذِينَ ءَاوَأُوا وَنَصَرُوا وَإِنِ اسْتَنْصَرُوكُمْ فِي الدِّينِ فَعَلَيْكُمْ النَّصْرُ إِلَّا عَلَىٰ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَاقٌ وَاللَّهُ يَمَّا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾

ذكر تعالى أصناف المؤمنين ، وقسمهم إلى مهاجرين، خرجوا من ديارهم وأموالهم، وجاؤوا لنصر الله ورسوله ، وإقامة دينه ، وبذلوا أموالهم وأنفسهم فى ذلك . وإلى أنصار، وهم : المسلمون من أهل المدينة إذ ذاك، أووا إخوانهم المهاجرين فى منازلهم، وواسوهم فى أموالهم، ونصروا الله ورسوله بالقتال معهم ، فهؤلاء ﴿بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ﴾ أى : كل منهم أحق بالآخر من كل أحد ؛ ولهذا آخى رسول الله ﷺ بين المهاجرين والأنصار ، كل اثنين أخوان ، فكانوا يتوارثون بذلك إرثاً مقدماً على القرابة، حتى نسخ الله تعالى ذلك بالمواريث، ثبت ذلك فى صحيح البخارى، عن ابن عباس (١) ، وقاله مجاهد ، وعكرمة ، والحسن، وقتادة، وغيرهم .

وقد أثنى الله ورسوله على المهاجرين والأنصار فى غير ما آية فى كتابه، فقال : ﴿وَالسَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ الآية [التوبة: ١٠٠] ، وقال : ﴿لَقَدْ تَابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْمَسْرَةِ﴾ الآية [التوبة: ١١٧] ، وقال تعالى : ﴿لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا وَيَنْصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ . وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا وَيُؤْتُونَ عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾ الآية

[الحشر: ٨ ، ٩]

وأحسن ما قيل في قوله: ﴿وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّا أُوتُوا﴾ أى : لا يحسدونهم على فضل ما أعطاهم الله على هجرتهم، فإن ظاهر الآيات تقديم المهاجرين على الأنصار، وهذا أمر مجمع عليه بين العلماء، لا يختلفون في ذلك.

وقوله : ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يُهَاجِرُوا مَا لَكُمْ مِنْ وَلَايَتِهِمْ مِنْ شَيْءٍ حَتَّى يُهَاجِرُوا﴾ : هذا هو الصنف الثالث من المؤمنين، وهم الذين آمنوا ولم يهاجروا، بل أقاموا في بواديهم، فهؤلاء ليس لهم فى المغانم نصيب، ولا فى خمسها إلا ما حضروا فيه القتال، كما روى الإمام أحمد عن بريدة ابن الحُصيب الأسلمى قال: كان رسول الله ﷺ إذا بعث أميراً على سرية أو جيش، أوصاه فى خاصة نفسه بتقوى الله ومن معه من المسلمين خيراً، وقال : « اغزوا باسم الله فى سبيل الله، قاتلوا من كفر بالله، إذا لقيت عدوك من المشركين فادعهم إلى إحدى ثلاث خصال، فأيتهن ما أجابوك إليها فاقبل منهم، وكف عنهم: ادعهم إلى الإسلام، فإن أجابوك فاقبل منهم، وكف عنهم، ثم ادعهم إلى التحول من دارهم إلى دار المهاجرين، وأعلمهم إن فعلوا ذلك أن لهم ما للمهاجرين، وأن عليهم ما على المهاجرين. فإن أبوا واختاروا دارهم فأعلمهم أنهم يكونون كأعراب المسلمين، يجرى عليهم حكم الله الذى يجرى على المؤمنين، ولا يكون لهم فى الفئء والغنيمة نصيب، إلا أن يجاهدوا مع المسلمين، فإن هم أبوا فادعهم إلى إعطاء الجزية، فإن أجابوا فاقبل منهم وكف عنهم، فإن أبوا فاستعن بالله ثم قاتلهم». انفراد به مسلم، وعنده زيادات أخر (١).

وقوله : ﴿وَإِنْ اسْتَشْرَكْتُمْ فِي الدِّينِ فَلَعَلَّكُمْ النُّصْرَ لِأَعْلَىٰ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ : يقول تعالى: وإن استنصروكم هؤلاء الأعراب، الذين لم يهاجروا فى قتال دينى، على عدو لهم فانصروهم، فإنه واجب عليكم نصرهم؛ لأنهم إخوانكم فى الدين، إلا أن يستنصروكم على قوم من الكفار ﴿بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ﴾ أى: مهادنة إلى مدة، فلا تخفروا ذمتكم، ولا تنقضوا إيمانكم مع الذين عاهدتم. وهذا مروى عن ابن عباس .

﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُنْ فِتْنَةٌ فِي الْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ﴾

لما ذكر تعالى أن المؤمنين بعضهم أولياء بعض، قطع الموالاة بينهم وبين الكفار، كما روى الحاكم عن أسامة، عن النبى ﷺ قال: «لا يتوارث أهل ملتين، ولا يرث مسلم كافراً، ولا كافر مسلماً»، ثم قرأ: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُنْ فِتْنَةٌ فِي الْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ﴾ ثم قال الحاكم: صحيح الإسناد ولم يخرجاه (٢). قلت: الحديث فى الصحيحين من رواية أسامة بن زيد قال: قال رسول الله ﷺ: «لا يرث المسلم الكافر ولا الكافر المسلم» (٣).

ومعنى قوله تعالى: ﴿إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُنْ فِتْنَةٌ فِي الْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ﴾ أى: إن لم تجانبوا المشركين

(٢) الحاكم (٢/ ٢٤٠).

(١) المسند (٥/ ٣٥٢)، ومسلم (٣/ ١٧٣١).

(٣) البخارى (٦٧٦٤)، ومسلم (١/ ١٦١٤).

وتوالوا المؤمنين، وإلا وقعت الفتنة فى الناس، وهو التباس الأمر، واختلاط المؤمن بالكافر، فيقع بين الناس فساد منتشر طويل عريض.

﴿ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ ءَاوُوا وَنَصَرُوا أَوْلِيَّكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٧٤﴾ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مِن بَعْدِ وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا مَعَكُمْ فَأُولَئِكَ مِنكُمْ وَأُولُو الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٧٥﴾ ﴾

لما ذكر تعالى حكم المؤمنين فى الدنيا ، عطف بذكر ما لهم فى الآخرة ، فأخبر عنهم بحقيقة الإيمان ، كما تقدم فى أول السورة ، وأنه سيجازيهم بالمغفرة والصفح عن الذنوب إن كانت ، وبالرزق الكريم ، وهو الحسن الكثير الطيب الشريف ، دائم مستمر أبدا لا يتقطع ولا ينقضى ، ولا يُسأم ولا يملُّ لحسنه وتنوعه. ثم ذكر أن الاتباع لهم فى الدنيا على ما كانوا عليه من الإيمان والعمل الصالح فهم معهم فى الآخرة كما قال: ﴿وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ﴾ الآية [التوبة: ١٠٠] ، وقال : ﴿وَالَّذِينَ جَاءُوا مِن بَعْدِهِمْ﴾ [الحشر: ١٠] وفى الحديث المتفق عليه، بل المتواتر من طرق صحيحة، عن رسول الله ﷺ أنه قال: «المرء مع من أحب» (١) .

وأما قوله تعالى: ﴿وَأُولُو الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ﴾ أى: فى حكم الله ، وليس المراد بقوله: ﴿وَأُولُو الْأَرْحَامِ﴾ خصوصية ما يطلقه علماء الفرائض على القرابة، الذين لا فرض لهم ولا هم عصبه، بل يُدلون بوارث، كالحالة، والحال، والعمه، وأولاد البنات، وأولاد الأخوات، ونحوهم، كما قد يزعمه بعضهم ويحتج بالآية، ويعتقد ذلك صريحا فى المسألة، بل الحق أن الآية عامة تشمل جميع القرابات. كما نص ابن عباس، ومجاهد، وعكرمة، والحسن، وقتادة وغير واحد: على أنها ناسخة للإرث بالخلف والإخاء اللذين كانوا يتوارثون بهما أولا، وعلى هذا فتشمل ذوى الأرحام بالاسم الخاص. ومن لم يورثهم يحتج بأدلة من أقواها حديث: «إن الله قد أعطى كل ذى حق حقه، فلا وصية لوارث» (٢) ، قالوا: فلو كان ذا حق لكان له فرض فى كتاب الله مسمى، فلما لم يكن كذلك لم يكن وارثا، والله أعلم.

(١) البخارى (٦١٦٨)، ومسلم (٢٦٤٤/١٦٥) .

(٢) أبو داود (٢٨٧٠)، والترمذى (٢١٢٠) ، والنسائى (٣٦٤٣) ، وابن ماجه (٢٧١٣)، وصححه الألبانى .

تفسير سورة التوبة

مدنية

﴿ بَرَاءَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾ ﴿١﴾ فَسِيحُوا فِي الْأَرْضِ رِيعَ أَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ وَعَلَمُوا أَكْثَرَ غَيْرِ مُعْجِزِي اللَّهِ وَأَنَّ اللَّهَ مُخْزِي الْكَافِرِينَ ﴾ ﴿٢﴾

هذه السورة الكريمة من أواخر ما نزل على رسول الله ﷺ ، كما روى البخارى عن أبى إسحاق قال: سمعت البراء يقول: آخر آية نزلت: «يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِي الْكَلَالَةِ» [النساء: ١٧٦] ، وآخر سورة نزلت براءة (١) .

وإنما لا يسمل فى أولها لأن الصحابة لم يكتبوا بالبسملة فى أولها فى المصحف الإمام ، والافتداء فى ذلك بأمر المؤمنين عثمان بن عفان ، كما روى الترمذى عن ابن عباس قال: قلت لعثمان بن عفان : ما حملكم أن عمدتم إلى الأنفال ، وهى من المثانى ، وإلى براءة وهى من المثين ، وقرنتم بينهما ، ولم تكتبوا بينهما سطر «بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ» ، ووضعتموها فى السبع الطول ، ما حملكم على ذلك؟ فقال عثمان: كان رسول الله ﷺ مما يأتى عليه الزمان وهو يُنزل عليه السور ذوات العدد ، فكان إذا نزل عليه الشئ دعا بعض من كان يكتب ، فيقول: ضعوا هذه الآية فى السورة التى يذكر فيها كذا وكذا ، وكانت الأنفال من أول ما نزل بالمدينة ، وكانت براءة من آخر ما نزل القرآن ، وكانت قصتها شبيهة بقصتها ، وخشيت أنها منها ، وقبض رسول الله ﷺ ولم يبين لنا أنها منها ، فمن أجل ذلك قرنت بينهما ، ولم أكتب بينهما سطر «بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ» ، ووضعتها فى السبع الطول . رواه أحمد ، وأبو داود ، والنسائى ، وابن حبان فى صحيحه ، والحاكم وقال الحاكم: صحيح الإسناد ولم يخرجاه (٢) .

وأول هذه السورة الكريمة نزل على رسول الله ﷺ ، لما رجع من غزوة تبوك وهم بالحج ، ثم ذكر أن المشركين يحضرون عامهم هذا الموسم على عادتهم فى ذلك ، وأنهم يطوفون بالبيت عراة فكره مخالطتهم ، وبعث أبا بكر الصديق ، رضى الله عنه ، أميراً على الحج تلك السنة ، ليقم للناس مناسكهم ، ويعلم المشركين ألا يحجوا بعد عامهم هذا ، وأن ينادى فى الناس «بَرَاءَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ» ، فلما قفل أتبعه بعلى بن أبى طالب ليكون مبلغاً عن رسول الله ﷺ ، لكونه عصبته له .

فقوله: «بَرَاءَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ» أى: هذه براءة ، أى: تبرؤ من الله ورسوله «إِلَى الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ

(١). البخارى (٤٦٥٤) .

(٢) المسند (٣٩٩) ، وقال الشيخ أحمد شاكر : «إسناده صحيح» ، وأبو داود (٧٨٦) ، والترمذى (١٠٨٦) ، والنسائى فى الكبرى (٨٠٠٧) ، وابن حبان فى الإحسان (٤٤) ، والحاكم (٢/ ٣٣٠) .

مِنَ الْمُشْرِكِينَ فَمَسَحُوا فِي الْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ . اختلف المفسرون ها هنا اختلافا كثيرا ، فقال قائلون : هذه الآية لذوى العهود المطلقة غير المؤقتة ، أو من له عهد دون أربعة أشهر ، فيكمل له أربعة أشهر ، فاما من كان له عهد مؤقت فأجله إلى مدته ، مهما كان ؛ لقوله تعالى : ﴿ فَأَتِمُوا إِلَىٰ مَدَّتِهِمْ ﴾ الآية [التوبة : ٤] . ومن كان بينه وبين رسول الله ﷺ عهد فعهد إلى مدته . وهذا أحسن الأقوال وأقواها ، وقد اختاره ابن جرير ، وروى عن غير واحد . وقال ابن عباس فى قوله : ﴿ بَرَاءَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ . فَمَسَحُوا فِي الْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ ﴾ قال : حد الله للذين عاهدوا رسوله أربعة أشهر ، يسيحون فى الأرض حيثما شاؤوا ، وأجل أجل من ليس له عهد ، انسلاخ الأشهر الحرم ، من يوم النحر إلى انسلاخ المحرم ، فذلك خمسون ليلة ، فإذا انسلاخ الأشهر الحرم أمره بأن يضع السيف فيمن لا عهد له . وقال الضحاك بعد قوله : فذلك خمسون ليلة : فأمر الله نبيه إذا انسلاخ المحرم أن يضع السيف فيمن لم يكن بينه وبينه عهد ، يقتلهم حتى يدخلوا فى الإسلام . وأمر من كان له عهد إذا انسلاخ أربعة أشهر من يوم النحر إلى عشر خلون من ربيع الآخر ، أن يضع فيهم السيف ، حتى يدخلوا فى الإسلام . وقال مجاهد : ﴿ بَرَاءَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ ﴾ إلى أهل العهد : خزاعة ، ومُدَلَج ، ومن كان له عهد أو غيرهم . أقبل رسول الله ﷺ من تبوك حين فرغ ، فأراد رسول الله ﷺ الحج ، ثم قال : « إنما يحضر المشركون فيطوفون عرأة ، فلا أحب أن أحج حتى لا يكون ذلك » . فأرسل أبا بكر وعلياً ، رضى الله عنهما ، فطافا بالناس فى ذى الحجاز وبأمكناتهم التى كانوا يتبايعون بها بالمواسم كلها ، فأذنوا أصحاب العهد بأن يأمنوا أربعة أشهر ، فهى الأشهر المتواليات : عشرون من ذى الحجة إلى عشر يخلون من ربيع الآخر ، ثم لا عهد لهم ، وأذن الناس كلهم بالقتال إلا أن يؤمنوا . وهكذا روى عن السدى ، وقادة .

﴿ وَأَذِّنْ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى النَّاسِ يَوْمَ الْحَجِّ الْأَكْبَرِ أَنَّ اللَّهَ بَرِيءٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُ فَإِنْ تُبْتُمْ فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَأَعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ وَبَشِّرِ الَّذِينَ كَفَرُوا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾

يقول تعالى : وإعلام ﴿ من الله ورسوله ﴾ وتقدم وإنذار إلى الناس ﴿ يوم الحج الأكبر ﴾ : وهو يوم النحر الذى هو أفضل أيام المناسك وأظهرها وأكثرها جمعا (١) ﴿ أن الله بريء من المشركين ورسوله ﴾ أى : برىء منهم أيضا .

ثم دعاهم إلى التوبة إليه فقال : ﴿ فإن تبتم ﴾ أى : مما أنتم فيه من الشرك والضلال ﴿ فهو خير لكم وإن توليتم ﴾ أى : استمررتم على ما أنتم عليه ﴿ فأعلموا أنكم غير معجزى الله ﴾ ، بل هو قادر عليكم ، وأنتم فى قبضته ، وتحت قهره ومشيتته ﴿ وبشر الذين كفروا بعذاب أليم ﴾ أى : فى الدنيا بالخزي والنكال ، وفى الآخرة بالمقامع والأغلال .

روى البخارى عن أبى هريرة قال : بعثنى أبو بكر فى تلك الحجة فى المؤذنين ، بعثهم يوم

(١) فى المطبوعة : « جميعا » ، والمثبت من المخطوطة .

النحر، يُؤذّنون بمنى: ألا يحج بعد العام مشرك، ولا يطوف بالبيت عريان . ثم أردف النبي ﷺ بعلی بن أبی طالب، فأمره أن يُؤذّن ببراءة. قال أبوهريرة: فأذّن معنا على في أهل منى يوم النحر ببراءة وألا يحج بعد العام مشرك، ولا يطوف بالبيت عريان (١) . ورواه البخارى أيضا عن أبی هريرة قال: بعثنى أبو بكر فيمن يُؤذّن يوم النحر بمنى: لا يحج بعد العام مشرك، ولا يطوف بالبيت عريان، ويوم الحج الأكبر يوم النحر، وإنما قيل: «الأكبر»، من أجل قول الناس: «الحج الأصغر»، فنذّ أبو بكر إلى الناس في ذلك العام، فلم يحج عام حجة الوداع الذى حج فيه رسول الله ﷺ مشرك. وهذا لفظ البخارى فى كتاب «الجهاد» (٢) . وروى أحمد عن مُحَرَّر بن أبی هريرة، عن أبيه قال: كنت مع على بن أبى طالب، حين بعثه رسول الله ﷺ إلى أهل مكة بـ «براءة» ، فقال: ما كنتم تتادون؟ قال: كنا ننادى: ألا يدخل الجنة إلا نفس مؤمنة ، ولا يطوف بالبيت عريان ، ومن كان بينه وبين رسول الله ﷺ عهد فإن أجله - أو مدته - إلى أربعة أشهر، فإذا مضت الأربعة الأشهر فإن الله برىء من المشركين ورسوله، ولا يحج هذا البيت بعد عامنا هذا مشرك . قال: فكنت أنادى حتى صَحَل صوتى (٣) . وروى الإمام أحمد عن زيد بن يُثيغ - رجل من همدان : سألتنا عليا : بأى شيء بعُثت؟ يعنى: يوم بعثه النبي ﷺ مع أبى بكر فى الحجّة، قال: بعثت بأربع: لا يدخل الجنة إلا نفس مؤمنة، ولا يطوف بالبيت عريان، ومن كان بينه وبين النبي ﷺ عهد فعده إلى مدته، ولا يحج المشركون والمسلمون بعد عامهم هذا . ورواه الترمذى ، وقال: حسن صحيح (٤) .

وقال عطاء : يوم الحج الأكبر، يوم عرفة .

والقول الثانى: أنه يوم النحر. عن على قال: يوم الحج الأكبر يوم النحر. وروى عن ابن عباس، وسعيد بن جبّير ، والزهرى ، وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم وغيرهم أنهم قالوا : يوم الحج الأكبر هو يوم النحر. واختاره ابن جرير. وروى ابن جرير عن عبد الرحمن بن أبى بكرة ، عن أبيه قال : لما كان ذلك اليوم ، قعد رسول الله ﷺ على بعير له ، وأخذ الناس بخطامه - أو: زمامه - فقال: «أى يوم هذا؟» قال: فسكتنا حتى ظننا أنه سيسميه سوى اسمه، فقال: «أليس هذا يوم الحج الأكبر» . وهذا إسناده صحيح، وأصله مخرج فى الصحيح (٥) .

﴿إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنْقُصُوكُمْ شَيْئًا وَلَمْ يُظَاهِرُوا عَلَيْكُمْ أَحَدًا فَأَتِمُوا إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَىٰ مُدَّتِهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ﴾

هذا استثناء من ضرب مدة التأجيل بأربعة أشهر ، لمن له عهد مطلق ليس بمؤقت ، فأجله

(٢) البخارى (٣١٧٧) .

(١) البخارى (٤٦٥٥) .

(٣) المسند (٧٩٦٤)، وقال الشيخ أحمد شاکر : «إسناده صحيح» .

(٤) المسند (٥٩٤)، وقال الشيخ أحمد شاکر : «إسناده صحيح» ، والترمذى (٣٠٩٢) .

(٥) ابن جرير فى التفسير (٥٢/١٠)، والبخارى (٤٤٠٦)، ومسلم (٢٩/١٦٧٩) .

أربعة أشهر، يسبح في الأرض، يذهب فيها لينجو بنفسه حيث شاء، إلا من له عهد مؤقت، فأجله إلى مدته المضروبة التي عوهد عليها، وذلك بشرط ألا ينقض المعاهد عهده، ولم يظهر على المسلمين أحداً، أى: يمألى عليهم من سواهم، فهذا الذى يوفى له بذمته وعهده إلى مدته؛ ولهذا حرص تعالى على الوفاء بذلك فقال: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ﴾ أى: الموفين بعهدهم.

﴿فَإِذَا انْسَلَخَ الْأَشْهُرُ الْحُرْمُ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَأَحْضُرُوهُمْ وَأَقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصِدٍ إِن تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾

اختلف المفسرون فى المراد بالأشهر الحرم هاهنا، ما هى؟ فذهب ابن جرير إلى أنها المذكورة فى قوله تعالى: ﴿مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرْمٌ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ فَلَا تَظْلِمُوا فِيهِنَّ أَنْفُسَكُمْ﴾ الآية [التوبة: ٣٦]، قاله أبو جعفر الباقر. لكن قال ابن جرير: آخر الأشهر الحرم فى حقهم المحرم، وهذا الذى ذهب إليه حكاه على بن أبى طلحة عن ابن عباس، وإليه ذهب الضحاك أيضاً، وفيه نظر، والذى يظهر من حيث السياق ما ذهب إليه ابن عباس فى رواية العوفى عنه، وبه قال مجاهد، وعمرو بن شعيب وغيرهم: أن المراد بها أشهر التسيير الأربعة المنصوص عليها فى قوله: ﴿فَسِيحُوا فِي الْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ﴾ [التوبة: ٢]، ثم قال: ﴿فَإِذَا انْسَلَخَ الْأَشْهُرُ الْحُرْمُ﴾ أى: إذا انقضت الأشهر الأربعة التى حرمت عليكم فيها قتالهم، وأجلناهم فيها، فحيثما وجدتموهم فاقتلوهم؛ لأن عود العهد على مذكور أولى من مقدر؛ ثم إن الأشهر الأربعة المحرمة سيأتى بيان حكمها فى آية أخرى بعد فى هذه السورة الكريمة.

وقوله: ﴿فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ﴾ أى: من الأرض. وهذا عام، والمشهور تخصيصه بتحريم القتال فى الحرم بقوله: ﴿وَلَا تَقَاتِلُوهُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ حَتَّى يُقَاتِلُوكُمْ فِيهِ فَإِنْ قَاتَلُوكُمْ فَاقْتُلُوهُمْ﴾ [البقرة: ١٩١]. ﴿وَخُذُوهُمْ﴾ أى: وأسروهم، إن شئتم قتلا، وإن شئتم أسرا ﴿وَأَحْضُرُوهُمْ وَأَقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصِدٍ﴾ أى: لا تكتفوا بمجرد وجدانكم لهم، بل اقصدهم بالحصار فى معاقلمهم وحصونهم، والرصد فى طرقهم ومسالكهم حتى تضيقوا عليهم الواسع، وتضطروهم إلى القتل أو الإسلام؛ ولهذا قال: ﴿فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾.

ولهذا اعتمد الصديق، رضى الله عنه، فى قتال مانعى الزكاة على هذه الآية الكريمة وأمثالها، حيث حرمت قتالهم بشرط هذه الأفعال، وهى الدخول فى الإسلام، والقيام بأداء واجباته. ونبه بأعلاها على أدناها، فإن أشرف الأركان بعد الشهادة الصلاة، التى هى حق الله، عز وجل، وبعدها أداء الزكاة التى هى نفع متعد إلى الفقراء والمحاويج، وهى أشرف الأفعال المتعلقة بالمخلوقين؛ ولهذا كثيراً ما يقرن الله بين الصلاة والزكاة، وقد جاء فى الصحيحين، عن ابن عمر عن رسول الله ﷺ أنه قال: «أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله

وأن محمداً رسول الله، وقيموا الصلاة، ويؤتوا الزكاة» (١) الحديث. وعبد الله بن مسعود قال: أمرتم بإقام الصلاة وإيتاء الزكاة، ومن لم يزك فلا صلاة له. وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: أبى الله أن يقبل الصلاة إلا بالزكاة، وقال: يرحم الله أبا بكر، ما كان أفتقه. وروى الإمام أحمد عن أنس؛ أن رسول الله ﷺ قال: «أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، فإذا شهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، واستقبلوا قبلتنا، وأكلوا ذبيحتنا، وصلوا صلاتنا، فقد حرمت علينا دماؤهم وأموالهم إلا بحقها، لهم ما للمسلمين، وعليهم ما عليهم». ورواه البخارى، وأهل السنن إلا ابن ماجه (٢).

وهذه الآية الكريمة هى آية السيف التى قال فيها الضحاك بن مزاحم: إنها نسخت كل عهد بين النبى ﷺ وبين أحد من المشركين، وكل عهد، وكل مدة. وقال ابن عباس فى هذه الآية: لم يبق لأحد من المشركين عهد ولا ذمة، منذ نزلت براءة وانسلاخ الأشهر الحرم، ومدة من كان له عهد من المشركين قبل أن تنزل أربعة أشهر، من يوم أذن ببراءة إلى عشر من أول شهر ربيع الآخر. وقال [أيضاً]: أمره الله تعالى أن يضع السيف فيمن عاهد إن لم يدخلوا فى الإسلام، ونقض ما كان سمي لهم من العهد والميثاق، وأذهب الشرط الأول.

ثم اختلف المفسرون فى آية السيف هذه، فقال الضحاك والسدى: هى منسوخة بقوله تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ بَعْدَ وَإِنَّمَا فِدَاءٌ﴾ [محمد: ٤]، وقال قتادة بالعكس.

﴿وَإِن أَحَدٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلِمَ اللَّهِ ثُمَّ ابْلِغْهُ مَأْمَنَهُ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْلَمُونَ﴾

يقول تعالى لنبىه، صلوات الله وسلامه عليه: ﴿وَإِن أَحَدٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ الذين أمرتك بقتالهم، وأحللت لك استباحة نفوسهم وأموالهم، ﴿اسْتَجَارَكَ﴾ أى: استأمنك، فأجبه إلى طلبته ﴿حَتَّى يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ﴾ أى: القرآن تقرؤه عليه وتذكر له شيئاً من أمر الدين تقيم عليه به حجة الله ﴿ثُمَّ ابْلِغْهُ مَأْمَنَهُ﴾ أى: وهو آمن مستمر الأمان حتى يرجع إلى بلاده وداره ومأمنه ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أى: إنما شرعنا أمان مثل هؤلاء ليعلموا دين الله، وتنتشر دعوة الله فى عباده. وقال مجاهد فى تفسير هذه الآية: إنسان يأتيك ليسمع ما تقول وما أنزل عليك، فهو آمن حتى يأتيك فتسمعه كلام الله، وحتى يبلغ مأمنه، حيث جاء.

ومن هذا كان رسول الله ﷺ يعطى الأمان لمن جاءه، مسترشداً أو فى رسالة، كما جاءه يوم الحديبية جماعة من الرسل من قريش، منهم: عروة بن مسعود، ومكرز بن حفص، وسهيل ابن عمرو، وغيرهم واحداً بعد واحد، يترددون فى القضية بينه وبين المشركين، فرأوا من إعظام

(١) البخارى (٢٥)، ومسلم (٣٤/٢١).

(٢) المسند (١٩٩/٣)، والبخارى (٣٩٢)، وأبو داود (٢٦٤١)، والترمذى (٢٦٠٨)، والنسائى (٥٠٠٣).

المسلمين رسول الله ﷺ ما بهرهم وما لم يشاهدوه عند ملك ولا قيصر، فرجعوا إلى قومهم فأخبروهم بذلك، وكان ذلك وأمثاله من أكبر أسباب هداية أكثرهم. ولهذا أيضاً لما قدم رسول مسيلمة الكذاب على رسول الله ﷺ قال له: «أتشهد أن مسيلمة رسول الله؟» قال: نعم. فقال رسول الله ﷺ: «لولا أن الرسل لا تقتل لضربت عنقك» (١).

والغرض : أن من قدم من دار الحرب إلى دار الإسلام في أداء رسالة أو تجارة، أو طلب صلح أو مهادنة أو حمل جزية، أو نحو ذلك من الأسباب، فطلب من الإمام أو نائبه أماناً، أعطى أماناً ما دام متردداً في دار الإسلام، وحتى يرجع إلى مأمنه ووطنه. لكن قال العلماء: لا يجوز أن يمكن من الإقامة في دار الإسلام سنة، ويجوز أن يمكن من إقامة أربعة أشهر، وفيما بين ذلك فيما زاد على أربعة أشهر ونقص عن سنة قولان، عن الإمام الشافعي وغيره من العلماء، رحمهم الله.

﴿ كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ عِنْدَ اللَّهِ وَعِنْدَ رَسُولِهِ إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ فَمَا اسْتَقِيمُوا لَكُمْ فَاسْتَقِيمُوا لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ ﴾

يبين تعالى حكمته في البراءة من المشركين ونظرتة إياهم أربعة أشهر، ثم بعد ذلك السيف المرهف أين ثقفوا، فقال تعالى: ﴿كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ﴾ أي: أمان ويتركون فيما هم فيه وهم مشركون بالله كافرون به وبرسوله ﴿إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾ يعني يوم الحديبية، كما قال تعالى: ﴿هُمْ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَالْهَدْيِ مَعْكُوفًا أَنْ يَبْلُغَ مَحَلَّهُ﴾ الآية [الفتح: ٢٥]، ﴿فَمَا اسْتَقَامُوا لَكُمْ فَاسْتَقِيمُوا لَهُمْ﴾ أي: مهما تمسكوا بما عاهدتموهم عليه وعاهدتموهم من ترك الحرب بينكم وبينهم عشر سنين ﴿فَاسْتَقِيمُوا لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ﴾، وقد فعل رسول الله ﷺ ذلك والمسلمون، استمر العقد والهدنة مع أهل مكة من ذى القعدة في سنة ست، إلى أن نقضت قريش العهد ومالؤوا حلفاءهم وهم بنو بكر على خزاعة أحلاف رسول الله ﷺ، فقتلوهم معهم في الحرم أيضاً، فعند ذلك غزاهم رسول الله ﷺ في رمضان سنة ثمان، ففتح الله عليه البلد الحرام، ومكنه من نواصيهم، والله الحمد والمنة، فأطلق من أسلم منهم بعد القهر والغلبة عليهم، فسموا الطلقاء، وكانوا قريباً من الفين، ومن استمر على كفره وفر من رسول الله ﷺ بعث إليه بالأمان والتيسير في الأرض أربعة أشهر، يذهب حيث شاء: منهم صفوان بن أمية، وعكرمة بن أبي جهل وغيرهما، ثم هداهم الله بعد ذلك إلا الإسلام التام، والله المحمود على جميع ما يقدره ويفعله.

﴿ كَيْفَ وَإِنْ يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ لَا يَرْقُبُوا فِيكُمْ إِلَّا وَلَا ذِمَّةً يُرْضُونَكُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ وَتَأْبَى قُلُوبُهُمْ وَأَكْثَرُهُمْ فَاسِقُونَ ﴾

يقول تعالى محرضاً للمؤمنين على معاداتهم والتبري منهم ، ومبينا أنهم لا يستحقون أن يكون لهم عهد لشركهم بالله وكفرهم برسول الله ﷺ ، ولأنهم لو ظهروا على المسلمين وأدبوا عليهم ، لم يبقوا ولم يذروا ، ولا راقبوا فيهم إلا ولا ذمة . قال ابن عباس : «الإل» : القرابة ، و«الذمة» : العهد . وكذا قال الضحاك والسدي . وقال مجاهد : «لَا يَرْقُبُونَ فِي مُؤْمِنٍ إِلَّا» : الله . وفى رواية : لا يرقبون الله ولا غيره . والقول الأول أشهر وأظهر ، وعليه الأكثر .

﴿ اشْتَرَوْا بِآيَاتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَصَدَّوْا عَنْ سَبِيلِهِ إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٩﴾ لَا يَرْقُبُونَ فِي مُؤْمِنٍ إِلَّا وَلَا ذِمَّةٌ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُعْتَدُونَ ﴿١٠﴾ فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوْا الزَّكَاةَ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ وَنُفَصِلُ الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُعَلِّمُونَ ﴿١١﴾ ﴾

يقول تعالى ذمًا للمشركين وحثًا للمؤمنين على قتالهم : ﴿ اشْتَرَوْا بِآيَاتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا ﴾ يعنى : أنهم اعتاضوا عن اتباع آيات الله بما التهبوا به من أمور الدنيا الخسيسة ﴿ فَصَدَّوْا عَنْ سَبِيلِهِ ﴾ أى : منعوا المؤمنين من اتباع الحق ﴿ إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ . لَا يَرْقُبُونَ فِي مُؤْمِنٍ إِلَّا وَلَا ذِمَّةٌ ﴾ تقدم تفسيره ، وكذا الآية التى بعدها : ﴿ فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ ﴾ إلى آخرها .

﴿ وَإِنْ نَكَثُوا أَيْمَانَهُمْ مِنْ بَعْدِ عَهْدِهِمْ وَطَعَنُوا فِي دِينِكُمْ فَقَاتِلُوا أَيْمَةَ الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لَا أَيْمَانَ لَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَنْتَهُونَ ﴿١٢﴾ ﴾

يقول تعالى : وإن نكث هؤلاء المشركون الذين عاهدتوهم على مدة معينة أيمانهم ، أى : عهودهم ومواثيقهم ﴿ وَطَعَنُوا فِي دِينِكُمْ ﴾ أى : عابوه وانتقصوه . ومن هاهنا أخذ قتل من سب الرسول ﷺ ، أو من طعن فى دين الإسلام أو ذكره بنقص ؛ ولهذا قال : ﴿ فَقَاتِلُوا أَيْمَةَ الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لَا أَيْمَانَ لَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَنْتَهُونَ ﴾ أى : يرجعون عما هم فيه من الكفر والعناد والضلال . وقد قال قتادة وغيره : أئمة الكفر كأبى جهل ، وعتبة ، وشيبة ، وأميه بن خلف ، وعدد رجالا . والصحيح أن الآية عامة ، وإن كان سبب نزولها مشركى قريش فهى عامة لهم ولغيرهم ، والله أعلم .

﴿ أَلَا تَقَاتِلُونَ قَوْمًا نَكَثُوا أَيْمَانَهُمْ وَهَمُّوا بِإِخْرَاجِ الرَّسُولِ وَهُمْ بَدَءُوكُمْ أُولَئِكَ مَخَشَوْنَهُمْ فَأَلَّهَ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَوْهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿١٣﴾ قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبُهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِيهِمْ وَيَضْرِبْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُؤْمِنِينَ ﴿١٤﴾ وَيُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ وَيَتُوبَ اللَّهُ عَلَى مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٥﴾ ﴾

وهذا أيضا تهيج وتحضيض وإغراء على قتال المشركين الناكثين بأيمانهم ، الذين هموا بإخراج الرسول من مكة ، كما قال تعالى : ﴿ وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُبْتِلُواكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ

وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ ﴿ [الانفال : ٣٠] . وقال تعالى: ﴿يُخْرِجُونَ الرُّسُولَ وَإِنَّا لَهُمْ أَن تُوْمِنُوا بِاللَّهِ رَبِّكُمْ﴾ الآية [المتحنة: ١]، وقال تعالى: ﴿وَإِن كَادُوا لَيَسْتَفْرِزُونَكَ مِنَ الْأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا﴾ الآية [الإسراء: ٧٦] .

وقوله: ﴿وَهُمْ يَدُؤُوكُمْ أَوْلَ مَرَّةٍ﴾ : قيل: المراد بذلك يوم بدر ، حين خرجوا لنصر غيرهم ، كما تقدم بسط ذلك . وقيل : المراد نقضهم العهد وقتالهم مع حلفائهم بنى بكر لخزاعة أحلاف رسول الله ﷺ ، حتى سار إليهم رسول الله ﷺ عام الفتح ، وكان ما كان ، والله الحمد والمنة . وقوله: ﴿أَتَخَشَوْنَهُمْ فَأَلَّهْ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَوْهُ إِن كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ : يقول تعالى: لا تخشوهم واخشون، فإنا أهل أن يخشى العباد من سطوتى وعقوبتى، فبيدى الأمر، وما شئت كان، وما لم أشأ لم يكن .

ثم قال تعالى عزيمة على المؤمنين، وبيانا لحكمته فيما شرع لهم من الجهاد مع قدرته على إهلاك الأعداء بأمر من عنده: ﴿قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبَهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِيهِمْ وَيُنْصِرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ﴾ وهذا عام فى المؤمنين كلهم . وقال مجاهد، وعكرمة، والسدى : معنى: خزاعة . وأعادوا الضمير فى قوله : ﴿وَيُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ﴾ عليهم أيضا . ﴿وَيَتُوبُ اللَّهُ عَلَى مَنْ يَشَاءُ﴾ أى: من عباده ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ﴾ أى: بما يصلح عباده ﴿حَكِيمٌ﴾ فى أفعاله وأقواله الكونية والشرعية، فيفعل ما يشاء، ويحكم ما يريد، وهو العادل الحاكم الذى لا يجور أبدا، ولا يضيع مثقال ذرة من خير وشر، بل يجازى عليه فى الدنيا والآخرة .

﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُتْرَكُوا وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَلَمْ يَتَّخِذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَا رَسُولِهِ وَلَا الْمُؤْمِنِينَ وَلِجَنَّةٍ وَاللَّهُ خَيْرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾

يقول تعالى: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ﴾ أيها المؤمنون أن نترككم مهملين، لا نختبركم بأمر يظهر فيها أهل العزم الصادق من الكاذب؟ ولهذا قال: ﴿وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَلَمْ يَتَّخِذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَا رَسُولِهِ وَلَا الْمُؤْمِنِينَ وَلِجَنَّةٍ﴾ أى: بطانة ودخيلة ، بل هم فى الظاهر والباطن على النصح لله ولرسوله، فاكفى بأحد القسمين ، كما قال الشاعر:

وما أدرى إذا يممت أرضاً
أريد الخير أيهما يلينى

وقد قال الله تعالى فى الآية الأخرى : ﴿ أَلَمْ . أَحْسِبِ النَّاسَ أَنْ يَتْرُكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ . وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ ﴾ [العنكبوت : ٢ ، ٣] ، وقال تعالى: ﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ ﴾ الآية [آل عمران : ١٤٢] ، وقال تعالى : ﴿ مَا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ ﴾ الآية [آل عمران : ١٧٩] .

والحاصل أنه تعالى لما شرع لعباده الجهاد، بين أن له فيه حكمة، وهو اختبار عبيده: من يطيعه ممن يعصيه، وهو تعالى العالم بما كان وما يكون، وما لم يكن لو كان كيف كان يكون؟ فيعلم الشئ قبل كونه، ومع كونه على ما هو عليه، لا إله إلا هو، ولا رب سواه، ولا راد لما قدره وأمضاه .

﴿ مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَنْ يَعْمُرُوا مَسْجِدَ اللَّهِ شَاهِدِينَ عَلَىٰ أَنْفُسِهِم بِالْكَفْرِ أُولَٰئِكَ حِطَّتْ أَعْمَالُهُمْ فِي النَّارِ هُمْ خَالِدُونَ ﴾ ﴿١٧﴾ إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسْجِدَ اللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَءَاتَى الزَّكَاةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا اللَّهَ فَعَسَىٰ أُولَٰئِكَ أَنْ يَكُونُوا مِنَ الْمُهْتَدِينَ ﴿١٨﴾

يقول تعالى: ما ينبغي للمشركين بالله أن يعمرُوا مساجد الله التي بنيت على اسمه وحده لا شريك له، وهم شاهدون على أنفسهم بالكفر ، أى: بحالهم وقالهم، كما قال السدّي : لو سألت النصراني: ما دينك؟ لقال: نصراني، واليهودي: ما دينك؟ لقال يهودي، والصابئي، لقال: صابئي، والمشرك، لقال: مشرك. ﴿أُولَٰئِكَ حِطَّتْ أَعْمَالُهُمْ﴾ أى: بشرهم، ﴿وَفِي النَّارِ هُمْ خَالِدُونَ﴾، وقال تعالى: ﴿وَمَا لَهُمْ آلٌ يُعَذِّبُهُمُ اللَّهُ وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَمَا كَانُوا أَوْلِيَاءَهُ إِنْ أَوْلِيَٰهُ إِلَّا الْمُتَّقُونَ وَلَكِنْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الأنفال : ٣٤]؛ ولهذا قال تعالى: ﴿ إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللَّهِ مِنْ ءَمَنِ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾، فشهد تعالى بالإيمان لعمار المساجد.

وقوله: ﴿ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ ﴾ أى: التي هي أكبر عبادات البدن، ﴿ وَءَاتَى الزَّكَاةَ ﴾ أى: التي هي أفضل الأعمال المتعدية إلى بر الخلاق ﴿ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا اللَّهَ ﴾ أى: ولم يخف إلا من الله تعالى، ولم يخش سواه، ﴿ فَعَسَىٰ أُولَٰئِكَ أَنْ يَكُونُوا مِنَ الْمُهْتَدِينَ ﴾ قال ابن عباس: أولئك هم المفلحون، كقوله لنبيه ﷺ: ﴿ عَسَىٰ أَنْ يَخْتِكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَحْمُودًا ﴾ [الإسراء: ٧٩] وهي الشفاعة، وكل «عسى» في القرآن فهي واجبة. وقال ابن إسحاق : و«عسى» من الله حق.

﴿ أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ كَمَنْ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَجَاهَدَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا يَسْتَوُونَ عِنْدَ اللَّهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴾ ﴿١٩﴾ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِنْدَ اللَّهِ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ ﴿٢٠﴾ يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُمْ بِرَحْمَةٍ مِنْهُ وَرِضْوَانٍ وَجَنَّتٍ لَهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُّقِيمٌ ﴿٢١﴾ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٢٢﴾

عن ابن عباس قال: إن المشركين قالوا: عمارة بيت الله، وقيام على السقاية، خير ممن آمن وجاهد، وكانوا يفخرون بالحرم ويستكبرون به من أجل أنهم أهله وعماراه، فذكر الله استكبارهم وإعراضهم، فقال لأهل الحرم من المشركين: ﴿ قَدْ كَانَتْ آيَاتِي تُنَلِّىٰ عَلَيْكُمْ فَكُنْتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ تَنْكِبُونَ. مُسْتَكْبِرِينَ بِهِ سَامِرًا تَهْجُرُونَ ﴾ [المؤمنون: ٦٦، ٦٧] يعنى: أنهم كانوا يستكبرون بالحرم قال: ﴿ بِهِ سَامِرًا ﴾، كانوا يسمرون به، ويهجرون القرآن والنبى ﷺ، فخير الله الإيمان والجهاد مع النبى ﷺ، على عمارة المشركين البيت وقيامهم على السقاية ولم يكن ينفعهم عند الله مع الشرك به، وإن كانوا يعمرن بيته ويحرمون به .

قال الله تعالى : ﴿ لَا يَسْتَوُونَ عِنْدَ اللَّهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴾ يعنى: الذين زعموا أنهم أهل العمارة ، فسامهم الله «ظالمين» بشركهم ، فلم تغن عنهم العمارة شيئاً. روى مسلم وابن جرير - واللفظ له - عن النعمان بن بشير الأنصارى قال: كنت عند منبر رسول الله ﷺ فى نفر من أصحابه، فقال رجل منهم: ما أبالى ألا أعمل لله عملاً بعد الإسلام إلا أن أسقى الحاج. وقال آخر: بل عمارة المسجد الحرام. وقال آخر: بل الجهاد فى سبيل الله خير مما قلتكم. فزجرهم عمر بن الخطاب، رضى الله عنه، وقال: لا ترفعوا أصواتكم عند منبر رسول الله ﷺ - وذلك يوم الجمعة - ولكن إذا صليت الجمعة دخلت على رسول الله ﷺ فاستفتيته فيما اختلفتم فيه. قال: ففعل، فانزل الله، عز وجل: ﴿ أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ ﴾ إلى قوله: ﴿ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴾ (١).

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّخِذُوا ءَابَاءَكُمْ وَإِخْوَانَكُمْ أَوْلِيَاءَ إِنِ اسْتَحَبُّوا الْكُفْرَ عَلَى الْإِيمَانِ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ فَوَلَّيْتُمْ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴾ (١٤) قُلْ إِنْ كَانَ ءَابَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرٍ ءَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴾ (١٤)

أمر تعالى بمباينة الكفار به ، وإن كانوا آباء أو أبناء، ونهى عن موالاتهم إن «استحبوا» أى: اختاروا الكفر على الإيمان ، وتوعد على ذلك كقوله تعالى : ﴿ لا تجد قوماً يؤمنون بالله واليوم الآخر يوادون من حاد الله ورسوله ولو كانوا آباءهم أو أبناءهم أو إخوانهم أو عشيرتهم أولئك كتب في قلوبهم الإيمان وأيدهم بروح منه ويدخلهم جنات تجري من تحتها الأنهار ﴾ الآية [المجادلة: ٢٢].

ثم أمر تعالى رسوله أن يتوعد من آثر أهله وقربائه وعشيرته على الله وعلى رسوله وجهاد فى سبيله، فقال: ﴿ قُلْ إِنْ كَانَ ءَابَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا ﴾ أى: اكتسبتموها وحصلتموها «وتجارة تخشون كسادها ومسكن ترضونها» أى: تحبونها لطيبها وحسنها، أى: إن كانت هذه الأشياء «أحب إليكم من الله ورسوله وجهاد فى سبيله فتربصوا» أى: فانتظروا ماذا يحل بكم من عقابه ونكاله بكم، ولهذا قال: ﴿ حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴾. وروى الإمام أحمد عن زهرة بن مَعْبُد، عن جده قال: كنا مع رسول الله ﷺ، وهو آخذ بيد عمر بن الخطاب، فقال: والله لانت يارسول الله أحب إلى من كل شيء إلا من نفسى فقال رسول الله ﷺ: «لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من نفسه». فقال عمر: فانت الآن والله أحب إلى من نفسى. فقال رسول الله: «الآن يا عمر». انفراد بإخراجه البخارى (٢). وقد ثبت فى الصحيح عن رسول الله ﷺ أنه قال: «والذى نفسى بيده، لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من والده وولده والناس أجمعين» (٣).

(١) مسلم (١١١/١٨٧٩)، وابن جرير فى التفسير (٦٧/١٠).

(٢) المسند (٣٣٦/٤)، والبخارى (٦٦٣٢).

(٣) البخارى (١٤).

﴿ لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مَّدْيَنَ ﴾
 ﴿٢٥﴾ ثُمَّ أَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَنْزَلَ جُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ
 الَّذِينَ كَفَرُوا وَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ ﴿٢٦﴾ ثُمَّ يَتُوبُ اللَّهُ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ عَلَى مَنْ
 يَشَاءُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٢٧﴾

يذكر تعالى للمؤمنين فضله عليهم وإحسانه لديهم فى نصره إياهم فى مواطن كثيرة من غزواتهم مع رسوله ، وأن ذلك من عنده تعالى ، وتأييده وتقديره ، لا بعددهم ، ولا بعددهم ونبهم على أن النصر من عنده ، سواء قل الجمع أو كثر ، فإن يوم حنين أعجبتهم كثرتهم ، ومع هذا ما أجدى ذلك عنهم شيئا فولوا مدبرين إلا القليل منهم مع رسول الله ﷺ . ثم أنزل نصره وتأييده على رسوله وعلى المؤمنين الذين معه ، ليعلمهم أن النصر من عنده تعالى وحده ويأمداده وإن قل الجمع ، فكم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله ، والله مع الصابرين .

وقد كانت وقعة: «حُنين» بعد فتح مكة فى شوال سنة ثمان من الهجرة ، وذلك لما فرغ ﷺ من فتح مكة ، وتمهدت أمورها ، وأسلم عامة أهلها ، وأطلقهم رسول الله ﷺ ، فبلغه أن هوازن جمعوا له ليقاتلوه ، وأن أميرهم مالك بن عوف النَّضْرِي ، ومعه ثقيف بكما لها ، وبنو جشم وبنو سعد بن بكر ، وأوزاع من بنى هلال ، وهم قليل ، وناس من بنى عمرو بن عامر ، وعوف ابن عامر ، وقد أقبلوا معهم النساء والولدان والشاء والنعم ، وجاؤوا بَقَضَهُمْ وَقَضِيصِهِمْ فخرج إليهم رسول الله ﷺ فى جيشه الذى جاء معه للفتح ، وهو عشرة آلاف من المهاجرين والأنصار وقبائل العرب ، ومعه الذين أسلموا من أهل مكة ، وهم الطلقاء فى الفين أيضا ، فسار بهم إلى العدو ، فالتقوا بواد بين مكة والطائف يقال له «حُنين» ، فكانت فيه الوقعة فى أول النهار فى غلس الصبح ، انحدروا فى الوادى وقد كمنت فيه هوازن ، فلما تواجهوا لم يشعر المسلمون إلا بهم قد ثارورهم ، ورشقوا بالنبال ، وأصلتوا السيوف ، وحملوا حملة رجل واحد ، كما أمرهم ملكهم . فعند ذلك ولى المسلمون مدبرين ، كما قال الله ، عز وجل ، وثبت رسول الله ﷺ ، وهو راكب يومئذ بغلته الشهباء يسوقها إلى نحر العدو ، والعباس عمه أخذ بركابها الأيمن ، وأبو سفيان بن الحارث بن عبد المطلب أخذ بركابها الأيسر ، يثقلانها لثلا تسرع السير ، وهو ينوه باسمه ، عليه الصلاة والسلام ، ويدعو المسلمين إلى الرجعة [ويقول]: «أين ياعباد الله؟ إلى أنا رسول الله» ، ويقول فى تلك الحال:

«أنا النبى لا كذب أنا ابن عبد المطلب»

وثبت معه من أصحابه قريب من مائة ، ثم أمر ﷺ عمه العباس - وكان جهير الصوت - أن ينادى بأعلى صوته: يا أصحاب الشجرة - يعنى شجرة بيعة الرضوان ، التى بايعه المسلمون من المهاجرين والأنصار تحتها ، على ألا يفروا عنه - فجعل ينادى بهم: يا أصحاب السمرة ،

ويقول تارة: يا أصحاب سورة البقرة ، فاجعلوا يقولون : يالبيك ، يالبيك ، وانعطف الناس فجعلوا يتراجعون إلى رسول الله ﷺ ، حتى إن الرجل منهم إذا لم يطاوعه بعيره على الرجوع ، لبس درعه ، ثم انحدر عنه ، وأرسله ، ورجع بنفسه إلى رسول الله ﷺ . فلما رجعت شردمة منهم ، أمرهم ، عليه السلام ، أن يصدقوا الحملة ، وأخذ قبضة من التراب بعدما دعا ربه واستنصره ، وقال : « اللهم أنجز لى ما وعدتني » ثم رمى القوم بها ، فما بقى إنسان منهم إلا أصابه منها فى عينه وفمه ما شغله عن القتال ، ثم انهزموا ، فاتبع المسلمون أقباءهم يقتلون ويأسرون ، وما تراجع بقية الناس إلا والأسارى مجندلة بين يدى رسول الله ﷺ .

وفى الصحيحين عن البراء بن عازب ، أنه قال له رجل: يا أبا عمارة ، أفررتم عن رسول الله ﷺ يوم حنين ، فقال: لكن رسول الله ﷺ لم يفر ، إن هوازن كانوا قوماً رماً ، فلما لقيناهم وحملنا عليهم انهزموا ، فأقبل الناس على الغنائم ، فاستقبلونا بالسهم ، فانهزم الناس ، فلقد رأيت رسول الله ﷺ وأبو سفيان بن الحارث آخذ بلجام بغلة رسول الله ﷺ البيضاء ، وهو يقول:

« أنا النبي لا كذب أنا ابن عبد المطلب » (١)

قلت: وهذا فى غاية ما يكون من الشجاعة النامة ، إنه فى مثل هذا اليوم فى حومة الوغى ، وقد انكشف عنه جيشه ، هو مع ذلك على بغلة وليست سريعة الجرى ، ولا تصلح لكر ولا لفر ولا لهرب ، وهو مع هذا أيضاً يركضها إلى وجوههم وينوء باسمه ليعرفه من لم يعرفه ، صلوات الله وسلامه عليه دائماً إلى يوم الدين ، وما هذا كله إلا ثقة بالله ، وتوكلاً عليه ، وعلماً منه بأنه سينصره ، ويتم ما أرسله به ، ويظهر دينه على سائر الأديان ؛ ولهذا قال تعالى: ﴿ثُمَّ أَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ﴾ أى: طمأنينته وثباته على رسوله ، ﴿وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾ أى: الذين معه ﴿وَأَنْزَلَ جُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا﴾ وهم الملائكة .

وروى الحافظ أبو بكر البيهقى عن ابن مسعود : كنت مع رسول الله ﷺ يوم حنين ، فولى عنه الناس ، وبقيت معه فى ثمانين رجلاً من المهاجرين والأنصار ، قدمنا ولم نولهم الدبر ، وهم الذين أنزل الله عليهم السكينة . قال: ورسول الله ﷺ على بغلته البيضاء يمضى قدماً ، فحادت بغلته ، فمال عن السرج ، فقلت: ارتفع رفعك الله . قال: «ناولنى كفاً من التراب» . فناولته ، قال: فضرب به وجوههم ، فامتلات أعينهم تراباً ، قال: «أين المهاجرون والأنصار ؟ » قلت: هم هناك . قال: « اهتف بهم » . فهتفت ، فجاؤوا وسيوفهم بأيانهم ، كأنها الشهب ، وولى المشركون أديبارهم . ورواه الإمام أحمد نحوه (٢) .

قال جبير بن مطعم : إنا لمع رسول الله ﷺ يوم حنين ، والناس يقتتلون ، إذ نظرت إلى

(١) البخارى (٢٨٦٤)، ومسلم (١٧٧٦/٧٨) .

(٢) البيهقى فى دلائل النبوة (١٤٢/٥)، وهو فى المسند (٤٣٣٦)، وقال الشيخ أحمد شاکر : «إسناده صحيح» .

مثل البجاد الأسود يهوى من السماء، حتى وقع بيننا وبين القوم، فإذا غل منتور قد ملاً الوادى، فلم يكن إلا هزيمة القوم، فما كنا نشك أنها الملائكة. وقال سعيد بن السائب بن يسار، عن أبيه قال: سمعت يزيد بن عامر السؤائى - وكان شهد حيننا مع المشركين ثم أسلم بعد - فكنا نسأله عن الرعب الذىلقى الله فى قلوب المشركين يوم حنين، فكان يأخذ الحصاة فيرمى بها فى الطست فيطن، فيقول: كنا نجد فى أجوافنا مثل هذا. وفى صحيح مسلم عن أبى هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «نصرت بالرعب، وأوتيت جوامع الكلم» (١).

ولهذا قال تعالى: ﴿ثُمَّ أَنْزَلَ (٢) اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَنْزَلَ جُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَذَكَرَ جَزَاءَ الْكَافِرِينَ﴾.

وقوله: ﴿ثُمَّ يَتُوبُ اللَّهُ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ عَلَى مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾: قد تاب الله على بقية هوازن، وأسلموا وقدموا عليه مسلمين، ولحقوه وقد قارب مكة عند الجعرانة، وذلك بعد الواقعة بقریب من عشرين يوماً، فعند ذلك خيّرهم بين سبيهم وبين الأموال، فاخترأوا سبيهم، وكانوا ستة آلاف أسير ما بين صبي وامرأة، فرده عليهم، وقسم أموالهم بين الغانمين، ونفل أناساً من الطلقاء ليتألف قلوبهم على الإسلام، فأعطاهم مائة مائة من الإبل، وكان من جملة من أعطى مائة مالك بن عوف النضرى، واستعمله على قومه كما كان، فامتدحه بقصيدته التى يقول فيها:

مَا إِنْ رَأَيْتُ وَلَا سَمِعْتُ بِمِثْلِهِ
فِي النَّاسِ كُلِّهِمْ بِمِثْلِ مُحَمَّدٍ

﴿يَتَابِعُهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَذَا وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ إِنْ شَاءَ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ (٢٨) ﴿قِنَلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ﴾ (٢٩)

أمر تعالى عباده المؤمنين الطاهرين ديناً وذاتاً بنفى المشركين، الذين هم نجس ديناً، عن المسجد الحرام، وألا يقربوه بعد نزول هذه الآية. وكان نزولها فى سنة تسع؛ ولهذا بعث رسول الله ﷺ علياً صحبة أبى بكر، رضى الله عنهما، عامئذ، وأمره أن ينادى فى المشركين: «ألا يحج بعد العام مشرك، ولا يطوف بالبيت عريان» (٣). فأتى الله ذلك، وحكم به شرعاً وقدرأ. وقال الإمام الأوزاعى: كتب عمر بن عبد العزيز، رضى الله عنه: أن امنعوا اليهود والنصارى من دخول مساجد المسلمين، وأتبع نهيه قول الله: ﴿إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ﴾. وقال عطاء: الحرم كله مسجد، لقوله تعالى: ﴿فَلَا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَذَا﴾.

(٢) فى المخطوطة: «فأنزل»، وهو خطأ واضح.

(١) مسلم (٥٢٣).

(٣) البخارى (١٦٢٢)، ومسلم (٤٣٥/١٣٤٧).

ودلت هذه الآية الكريمة على نجاسة المشرك كما ورد في الصحيح: «المؤمن لا ينجس» (١).
وأما نجاسة بدنه فالجمهور على أنه ليس ينجس البدن والذات؛ لأن الله تعالى أحل طعام أهل
الكتاب، وذهب بعض الظاهرية إلى نجاسة أبدانهم.

وقوله: ﴿وَأَنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ﴾: قال ابن إسحاق: وذلك أن الناس
قالوا: لتنقطعنَّ عنا الأسواق، ولتهلكن التجارة، وليذهبن ما كنا نصيب فيها من المرافق،
فأنزل الله: ﴿وَأَنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ﴾ من وجه غير ذلك ﴿إِنْ شَاءَ﴾ إلى
قوله: ﴿وَهُمْ صَاغِرُونَ﴾ أى: هذا عوض ما تخوفتم من قطع تلك الأسواق، فعوضهم الله بما قطع
عنهم من أمر الشرك، ما أعطاهم من أعناق أهل الكتاب، من الجزية. وهكذا روى عن ابن
عباس، ومجاهد، وقتادة والضحاك، وغيرهم. ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ﴾ أى: بما يصلحكم ﴿حَكِيمٌ﴾
أى: فيما يأمر به وينهى عنه؛ لأنه الكامل فى أفعاله وأقواله، العادل فى خلقه وأمره، تبارك
وتعالى؛ ولهذا عوضهم عن تلك المكاسب بأموال الجزية التى يأخذونها من أهل الذمة، فقال:
﴿قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ
أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ﴾، فهم فى نفس الأمر لما كفروا بمحمد ﷺ لم
يبق لهم إيمان صحيح بأحد من الرسل، ولا بما جاؤوا به، وإنما يتبعون آراءهم وأهواءهم
وأبائهم فيما هم فيه، لا لأنه شرع الله ودينه؛ لأنهم لو كانوا مؤمنين بما بأيديهم إيمانا صحيحا
لقادهم ذلك إلى الإيمان بمحمد ﷺ، لأن جميع الأنبياء بشروا به، وأمروا باتباعه، فلما جاء وكفروا
به، وهو أشرف الرسل، علم أنهم ليسوا متمسكين بشرع الأنبياء الأقدمين لأنه من عند الله، بل
لحظوظهم وأهوائهم، فلهذا لا ينفعهم إيمانهم ببقية الأنبياء، وقد كفروا بسيدهم وأفضلهم
وخاتمهم وأكملهم؛ ولهذا قال: ﴿قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ
وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ﴾ .

وهذه الآية الكريمة نزلت أول الأمر بقتال أهل الكتاب، بعد ما تمهدت أمور المشركين
ودخل الناس فى دين الله أفواجا، واستقامت جزيرة العرب، أمر الله رسوله بقتال أهل الكتابين
اليهود والنصارى، وكان ذلك فى سنة تسع؛ ولهذا تجهز رسول الله ﷺ لقتال الروم ودعا
الناس إلى ذلك، وأظهره لهم، وبعث إلى أحياء العرب حول المدينة فندبهم، فأوعبوا معه،
 واجتمع من المقاتلة نحواً من ثلاثين ألفاً، وتخلف بعض الناس من أهل المدينة ومن حولها من
المتأففين وغيرهم، وكان ذلك فى عام جدب، ووقت قيظ وحر، وخرج، عليه السلام، يريد
الشام لقتال الروم، فبلغ تبوك، فنزل بها وأقام على مائها قريباً من عشرين يوماً، ثم استخار الله
فى الرجوع، فرجع عامه ذلك لضيق الحال وضعف الناس، كما سيأتى بيانه بعد إن شاء الله .

وقد استدللَّ بهذه الآية الكريمة من يرى أنه لا تؤخذ الجزية إلا من أهل الكتاب، أو من

أشبههم كالمجوس ، لما صح فيهم الحديث أن رسول الله ﷺ أخذها من مجوس هجر . وهذا مذهب الشافعي ، وأحمد - في المشهور عنه - وقال أبو حنيفة : بل تؤخذ من جميع الأعاجم ، سواء كانوا من أهل الكتاب أو من المشركين ، ولا تؤخذ من العرب إلا من أهل الكتاب . وقال الإمام مالك : بل يجوز أن تضرب الجزية على جميع الكفار من كتابي ، ومجوسى ، ووثنى ، وغير ذلك ، ولما أخذ هذه المذاهب وذكر أدلتها مكان غير هذا ، والله أعلم .

وقوله : « حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ » أى : إن لم يسلموا « عَنْ يَدٍ » أى : عن قهر لهم وغلبة « وَهُمْ صَاغِرُونَ » أى : ذليلون حقيرون مهانون . فلهذا لا يجوز إغزاز أهل الذمة ولا رفعهم على المسلمين ، بل هم أذلاء صَغْرَةٌ أشقياء ، كما جاء فى صحيح مسلم ، عن أبى هريرة ، أن النبى ﷺ قال : « لا تبدؤوا اليهود والنصارى بالسلام ، وإذا لقيتم أحدهم فى طريق فاضطروه إلى أضيقه » (١) . ولهذا اشترط عليهم أمير المؤمنين عمر بن الخطاب تلك الشروط المعروفة فى إذلالهم وتصغيرهم وتحقيرهم ، وذلك مما رواه الأئمة الحفاظ ، من رواية عبد الرحمن بن غنم الأشعري قال : كتبت لعمر بن الخطاب حين صالح نصارى من أهل الشام :

« بسم الله الرحمن الرحيم ، هذا كتاب لعبد الله عمر أمير المؤمنين من نصارى مدينة كذا وكذا ، إنكم لما قدمتم علينا سألناكم الأمان لأنفسنا وذرائعنا ، وأموالنا وأهل ملتنا ، وشرطنا لكم على أنفسنا ألا نحدث فى مدينتنا ولا فيما حولها ديراً ولا كنيسة ، ولا قلاية ولا صومعة راهب ، ولا نجد ما خرب منها ، ولا نحى منها ما كان خططاً للمسلمين ، وألا نمنع كنائسنا أن ينزلها أحد من المسلمين فى ليل ولا نهار ، وأن نوسع أبوابها للمارة وابن السبيل ، وأن ننزل من رأينا من المسلمين ثلاثة أيام نطعمهم ، ولا نؤوى فى كنائسنا ولا منازلنا جاسوساً ، ولا نكتم غشاً للمسلمين ، ولا نعلم أولادنا القرآن ، ولا نظهر شركاً ، ولا ندعو إليه أحداً ، ولا نمنع أحداً من ذوى قرابتنا الدخول فى الإسلام إن أرادوه ، وأن نوقر المسلمين ، وأن نقوم لهم من مجالسنا إن أرادوا الجلوس ، ولا نشبه بهم فى شىء من ملابسهم ، فى قلنسوة ، ولا عمامة ، ولا نعلين ، ولا فرق شعر ، ولا نتكلم بكلامهم ، ولا نكتنى بكنائهم ، ولا نركب السروج ، ولا نتقلد السيوف ، ولا نتخذ شيئاً من السلاح ، ولا نحمله معنا ، ولا نقش خواتمنا بالعربية ، ولا نبيع الخمر ، وأن نجزم مقادير رؤوسنا ، وأن نلزم زيننا حيثما كنا ، وأن نشد الزنانيير على أوساطنا ، وألا نظهر الصليب على كنائسنا ، وألا نظهر صلبنا ولا كتبنا فى شىء من طرق المسلمين ولا أسواقهم ، ولا نضرب نواقيسنا فى كنائسنا إلا ضرباً خفياً ، وألا نرفع أصواتنا بالقراءة فى كنائسنا فى شىء من حضرة المسلمين ، ولا نخرج شعانين ولا بعوثاً ، ولا نرفع أصواتنا مع موتانا ، ولا نظهر التيران معهم فى شىء من طرق المسلمين ولا أسواقهم ، ولا نجاورهم بموتانا ، ولا نتخذ من الرقيق ما جرى عليه سهام المسلمين ، وأن نرشد المسلمين ، ولا نطلع عليهم فى منازلهم » . قال : فلما أتيت عمر بالكتاب ، زاد فيه : « ولا نضرب أحداً من المسلمين ، شرطنا

لكم ذلك على أنفسنا وأهل ملتنا ، وقبلنا عليه الأمان ، فإن نحن خالفنا فى شىء مما شرطناه لكم ووظفنا على أنفسنا ، فلا ذمة لنا ، وقد حل لكم منا ما يحل من أهل المعاندة والشقاق .

﴿ وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ ذَلِكَ قَوْلُهُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ يُضَاهِيهِمْ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ قَسَلْنَا لَهُمُ اللَّهُ آتَى يُؤْفَكُونَ ﴿٣٠﴾ اتَّخَذُوا أَحْبَابَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا لَّا إِلَهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٣١﴾ ﴾

وهذا إغراء من الله تعالى للمؤمنين على قتال الكفار من اليهود والنصارى لمقاتلتهم هذه المقالة الشنيعة ، والفرية على الله تعالى ، فاما اليهود فقالوا فى العزير : « إنه ابن الله » ، تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا . واما ضلال النصارى فى المسيح فظاهر ؛ ولهذا كذب الله سبحانه الطائفتين فقال : « ذَلِكَ قَوْلُهُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ » أى : لا مستند لهم فيما ادعوه سوى افتراءهم واختلاقهم « يُضَاهِيهِمْ » أى : يشابهون « قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ » أى : من قبلهم من الأمم ، ضلوا كما ضل هؤلاء « قَاتَلَهُمُ اللَّهُ » قال ابن عباس : لعنهم الله « أَنَّى يُؤْفَكُونَ » ؟ أى : كيف يضلون عن الحق ، وهو ظاهر ، ويعدلون إلى الباطل ؟

وقوله : « اتَّخَذُوا أَحْبَابَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ » : روى الإمام أحمد ، والترمذى ، عن عدى بن حاتم ، أنه لما بلغته دعوة رسول الله ﷺ قرأ إلى الشام ، وكان قد تنصر فى الجاهلية ، فأسرت أخته وجماعة من قومه ، ثم من رسول الله ﷺ على أخته وأعطاهما ، فرجعت إلى أخيها ، فرغبت فى الإسلام وفى القدوم على رسول الله ﷺ ، فتقدم عدى إلى المدينة ، وكان رئيسا فى قومه طيئ ، وأبوه حاتم الطائى المشهور بالكرم ، فتحدثت الناس بقدمه ، فدخل على رسول الله ﷺ وفى عنق عدى صليب من فضة ، فقرأ رسول الله ﷺ هذه الآية : « اتَّخَذُوا أَحْبَابَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ » . قال : فقلت : إنهم لم يعبدوهم . فقال : « بلى ، إنهم حرموا عليهم الحلال ، وأحلوا لهم الحرام ، فاتبعوهم ، فذلك عبادتهم إياهم » . وقال رسول الله ﷺ : « يا عدى ، ما تقول ؟ أيفرك أن يقال : الله أكبر ؟ فهل تعلم شيئا أكبر من الله ؟ ما يفرك ؟ أيفرك أن يقال : لا إله إلا الله ؟ فهل تعلم من إله إلا الله ؟ » ثم دعاه إلى الإسلام فأسلم ، وشهد شهادة الحق ، قال : فلقد رأيت وجهه استبشر ثم قال : « إن اليهود مغضوب عليهم ، والنصارى ضالون » (١) . وهكذا قال حذيفة بن اليمان ، وعبد الله بن عباس ، وغيرهما فى تفسير : « اتَّخَذُوا أَحْبَابَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ » : إنهم اتبعوهم فيما حللوا وحرموا .

(١) المسند (٤/٣٧٨) ، والترمذى (٣٠٩٥) ، وقال : « غريب لا نعرفه إلا من حديث عبد السلام بن حرب ، وغطف بن أعين ليس بمعروف فى الحديث » ، وصححه الألبانى . و « يفرك » أى : يحمل على الفرار .

ولهذا قال تعالى: ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا﴾ أى: الذى إذا حرم الشيء فهو الحرام، وما حلله حل، وما شرعه اتبع، وما حكم به نفذ ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ أى: تعالى وتقدس وتنزه عن الشركاء والنظراء والأعوان والأضداد والأولاد، لا إله إلا هو، ولا رب سواه.

﴿يُرِيدُونَ أَنْ يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَيَأْبَى اللَّهُ إِلَّا أَنْ يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ﴾ ﴿٣٢﴾ هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ ﴿٣٣﴾

يقول تعالى: يريد هؤلاء الكفار من المشركين وأهل الكتاب ﴿أَنْ يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ﴾ أى: ما بعث به رسوله ﷺ من الهدى ودين الحق، بمجرد جدالهم وافتراءهم، فمثلهم فى ذلك كمثل من يريد أن يطفى شعاع الشمس، أو نور القمر بنفخه، وهذا لا سبيل إليه، فكذلك ما أرسل الله به رسول الله ﷺ لا بد أن يتم ويظهر؛ ولهذا قال تعالى مقابلا لهم فيما راموه وأرادوه: ﴿وَيَأْبَى اللَّهُ إِلَّا أَنْ يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ﴾. والكافر: هو الذى يستر الشيء ويغطيه، ومنه سمي الليل «كافرا»؛ لأنه يستر الأشياء.

ثم قال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ﴾: فالهدى هو ما جاء به من الإخبارات الصادقة، والإيمان الصحيح، والعلم النافع ودين الحق: هى الأعمال الصالحة الصحيحة النافعة فى الدنيا والآخرة ﴿لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ﴾ أى: على سائر الأديان، كما ثبت فى الصحيح عن رسول الله ﷺ أنه قال: «إِنَّ اللَّهَ زَوَى لِي الْأَرْضَ مَشَارِقَهَا وَمَغَارِبَهَا، وَسَيَبْلُغُ مَلِكٌ أُمَّتِي مَا زَوَى لِي مِنْهَا» (١). وروى الإمام أحمد عن تميم الدارى قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «لِيَبْلُغَنَّ هَذَا الْأَمْرُ مَا بَلَغَ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ، وَلَا يَتْرِكُ اللَّهُ بَيْتَ مَدَرٍ وَلَا وَبَرٍ إِلَّا أَدْخَلَهُ هَذَا الدِّينَ، بَعْرٌ عَزِيزٌ، أَوْ بِيْذٌ ذَلِيلٌ، عَزَا يَعِزُّ اللَّهُ بِهِ الْإِسْلَامَ، وَذُلًا يَذِلُّ اللَّهُ بِهِ الْكُفْرَ»، فكان تميم الدارى يقول: قد عرفت ذلك فى أهل بيتى، لقد أصاب من أسلم منهم الخير والشرف والعز، ولقد أصاب من كان منهم كافرا الذل والصغار والجزية (٢). وروى مسلم عن عائشة قالت: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «لَا يَذْهَبُ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ حَتَّى تُعْبَدَ اللَّاتُ وَالْعُزَّى». فقلت: يا رسول الله، إن كنت لأظن حين أنزل الله، عز وجل: ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ﴾ إلى قوله: ﴿وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ﴾ أن ذلك تام، قال: «إنه سيكون من ذلك ما شاء الله، عز وجل، ثم يبعث الله ريحا طيبة، [فيتوفى كل من كان فى قلبه مثقال حبة خردل من إيمان]، فيبقى من لا خير فيه، فيرجعون إلى دين آبائهم» (٣).

(١) مسلم (١٩/٢٨٨٩).

(٢) المسند (١٠٣/٤)، وقال الهيثمى فى الزوائد (١٤/٦): «رجال أحمد رجال الصحيح».

(٣) مسلم (٥٢/٢٩٠٧)، وما بين المعقوتين ساقط من المخطوطة الأهرية، والمثبت من المطبوعة وصحيح مسلم.

﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّ كَثِيرًا مِّنَ الْأَحْبَارِ وَالرُّهْبَانِ لِيَآكُلُونَ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ يَكْتَرُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يَنْفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢٤﴾ يَوْمَ يُحْمَىٰ عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وظُهُورُهُمْ هَذَا مَا كَفَرْتُمْ لَأَنْفُسِكُمْ فَذُوقُوا مَا كُنْتُمْ تَكْتَرُونَ ﴿٢٥﴾﴾

قال السدي: الأخبار من اليهود، والرهبان من النصارى. وهو كما قال، فإن الأخبار هم علماء اليهود، كما قال تعالى: ﴿لَوْلَا يَتَّهَمُ الرِّبَايُونَ وَالْأَحْبَارُ عَن قَوْلِهِمُ الْإِنَّمُ وَأَكْلِهِمُ السُّحْتِ﴾ [المائدة: ٦٣]، والرهبان: عباد النصارى، والقسيسون: علماءهم، كما قال تعالى: ﴿ذَلِكَ بِأَن مِّنْهُمْ قِيسِيْنَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾ [المائدة: ٨٢]. والمقصود: التحذير من علماء السوء وعباد الضلال، كما قال سفيان بن عيينة: من فسد من علمائنا كان فيه شبه من اليهود، ومن فسد من عبادنا كان فيه شبه من النصارى. وفي الحديث الصحيح: «لتركب سنن من كان قبلكم حدو القذة بالقذة». قالوا: اليهود والنصارى؟ قال: «فمن؟». وفي روايه: فارس والروم؟ قال: «ومن الناس إلا هؤلاء؟» (١).

والحاصل: التحذير من التشبه بهم في أحوالهم وأقوالهم؛ ولهذا قال تعالى: ﴿لِيَآكُلُونَ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ﴾ وذلك أنهم يأكلون الدنيا بالدين ومناصبهم ورياستهم في الناس، يأكلون أموالهم بذلك، كما كان لأخبار اليهود على أهل الجاهلية شرف، ولهم عندهم خراج وهدايا وضرائب تحبى إليهم، فلما بعث الله رسول ﷺ استمروا على ضلالهم وكفرهم وعنادهم، طمعا منهم أن تبقى لهم تلك الرياسات، فأطفاها الله بنور النبوة، وسلبهم إياها، وعوضهم بالذلة والمسكنة، وباؤوا بغضب من الله.

وقوله تعالى: ﴿وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ﴾ أى: وهم مع أكلهم الحرام يصدون الناس عن اتباع الحق، ويلبسون الحق بالباطل، ويظهرون لمن اتبعهم من الجهلة أنهم يدعون إلى الخير، وليسوا كما يزعمون، بل هم دعاة إلى النار، ويوم القيامة لا ينصرون.

وقوله: ﴿وَالَّذِينَ يَكْتَرُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يَنْفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾: هؤلاء هم القسم الثالث من رؤوس الناس، فإن الناس عالة على العلماء، وعلى العباد، وعلى أرباب الأموال، فإذا فسدت أحوال هؤلاء فسدت أحوال الناس، كما قال بعضهم:
وهل أفسد الدين إلا الملوك وأخبار سوء ورهبانها؟

وأما الكنز: فقال ابن عمر: هو المال الذى لا تؤدى منه الزكاة. وقال أيضاً: ما أدى زكاته فليس بكنز، وإن كان تحت سبع أرضين، وما كان ظاهرا لا تؤدى زكاته فهو كنز.

وروى البخارى عن خالد بن أسلم قال : خرجنا مع عبد الله بن عمر ، فقال : هذا قبل أن تنزل الزكاة ، فلما نزلت جعلها الله طهراً للأموال (١) . وكذا قال عمر بن عبد العزيز ، وعراك ابن مالك : نسخها قوله تعالى : ﴿ خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ ﴾ [التوبة : ١٠٣] . وروى الإمام أحمد عن ثوبان قال : لما نزل فى الفضة والذهب ما نزل قالوا : فأى المال نتخذ؟ قال [عمر : أنا أعلم ذلك لكم فأوضح على بعير فأدركه ، وأنا فى أثره ، فقال : يا رسول الله ، أى المال نتخذ؟ قال] : « ليتخذ أحدكم قلبا شاكرا ولسانا ذاكرا وزوجة تعين أحدكم فى أمر الآخرة » . ورواه الترمذى ، وابن ماجه ، وقال الترمذى : حسن (٢) .

وقوله تعالى : ﴿ يَوْمَ يُحْمَى عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَى بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وظُهُورُهُمْ هَذَا مَا كُنْتُمْ لَأَنْفُسِكُمْ فَذَوْقُوا مَا كُنْتُمْ تَكْتَبُونَ ﴾ أى : يقال لهم هذا الكلام تبيكيتا وتقريبا وتهكما ، كما فى قوله : ﴿ ثُمَّ صُبُّوا فَوْقَ رَأْسِهِ مِنْ عَذَابِ الْحَمِيمِ . ذُقْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ ﴾ [الدخان : ٤٨ ، ٤٩] أى : هذا بذاك ، وهو الذى كنتم تكتنون لأنفسكم ؛ ولهذا يقال : من أحب شيئا وقدمه على طاعة الله ، عذب به . وهؤلاء لما كان جمع هذه الأموال أثر عندهم من رضا الله عنهم ، عذبوا بها ، كما كان أبو لهب ، لعنه الله ، جاهداً فى عداوة رسول الله ﷺ ، وامرأته تعينه فى ذلك ، كانت يوم القيامة عوناً على عذابه أيضا ﴿ فِي جِيدِهَا ﴾ أى : عنقها ﴿ حَبْلٌ مِنْ مَسَدٍ ﴾ [المسد : ٥] أى : تجمع من الحطب فى النار وتلقى عليه ، ليكون ذلك أبلغ فى عذابه ممن هو أشفق عليه فى الدنيا ، كما أن هذه الأموال لما كانت أعز الأشياء على أربابها ، كانت أضر الأشياء عليهم فى الدار الآخرة ، فيحمرى عليها فى نار جهنم ، وناهيك بحرهما ، فتكوى بها جباههم وجنوبهم وظهورهم . قال عبد الله بن مسعود : والله الذى لا إله غيره ، لا يكوى عبد بكنز ، فيمس ديناراً ، ولا درهم درهما ، ولكن يوسع جلد ، فيوضع كل دينار ودرهم على حدته .

وفى صحيح مسلم عن أبى هريرة أن رسول الله ﷺ قال : « ما من رجل لا يؤدى زكاة ماله إلا جعل يوم القيامة صفائح من نار يكوى بها جنبه وجبهته وظهره ، فى يوم كان مقداره خمسين ألف سنة ، حتى يقضى بين الناس ، ثم يُرى سبيله إما إلى الجنة وإما إلى النار » وذكر تمام الحديث (٣) . وروى البخارى عن أبى ذر قال : كنا بالشام ، فقرأت : ﴿ وَالَّذِينَ يَكْتُمُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يَنْفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ فقال معاوية : ما هذه فينا ، ما هذه إلا فى أهل الكتاب . قال : قلت : إنها لفينا وفيهم (٤) .

قلت : كان من مذهب أبى ذر تحريم ادخار ما زاد على نفقة العيال ، وكان يفتى بذلك ، ويحثهم عليه ، ويأمرهم به ، ويغلظ فى خلافه . فنهاه معاوية فلم يته ، فخشى أن يضر بالناس

(١) البخارى (١٤٠٤) .

(٢) المسند (٢٨٢/٥) ، والترمذى (٣٠٩٤) ، وقال : « حسن » ، وابن ماجه (١٨٥٦) .

(٣) مسلم (٢٦/٩٨٧) .

(٤) البخارى (٤٦٦٠) .

فى هذا، فكتب يشكوه إلى أمير المؤمنين عثمان، وأن يأخذه إليه، فاستقدمه عثمان إلى المدينة، وأنزله بالربذة وحده، وبها مات فى خلافة عثمان. وقد اختبره معاوية، وهو عنده، هل يوافق عمله قوله؟ فبعث إليه بألف دينار، ففرقها من يومه، ثم بعث إليه الذى أتاه بها فقال: إن معاوية إنما بعثنى إلى غيرك فأخطأت، فهات الذهب! فقال: ويحك! إنها خرجت، ولكن إذا جاء مالى حاسبناك به.

وفى الصحيح أن رسول الله ﷺ قال لأبى ذر: « ما يسرنى أن عندى مثل أحد ذهباً يمر عليه ثلاثة وعندى منه شيء، إلا دينار أرصده لدين » (١). فهذا - والله أعلم - هو الذى حدا أبا ذر على القول بهذا.

﴿ إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِنْدَ اللَّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِي كِتَابِ اللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرْمٌ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ فَلَا تَظْلِمُوا فِيهِنَّ أَنْفُسَكُمْ وَقَتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً كَمَا يُقْتَلُونَكُمْ كَافَّةً وَعَلِمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ ﴾

روى الإمام أحمد عن أبى بكر، أن النبى ﷺ خطب فى حجته، فقال: « ألا إن الزمان قد استدار كهيته يوم خلق الله السموات والأرض، السنة اثنا عشر شهراً، منها أربعة حرم، ثلاثة متواليات: ذو القعدة، وذو الحجة، والمحرم، ورجب مضر الذى بين جمادى وشعبان ». الحديث. ورواه البخارى ومسلم (٢). وقال ابن عباس فى قوله: « مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرْمٌ » قال: محرم، ورجب، وذو القعدة، وذو الحجة.

وقوله ﷺ فى الحديث: « إن الزمان قد استدار كهيته يوم خلق الله السموات والأرض » تقرير منه ﷺ وتثبيت للأمر على ما جعله الله تعالى فى أول الأمر من غير تقديم ولا تأخير، ولا زيادة ولا نقص، ولا نسيء ولا تبديل.

فصل: ذكر الشيخ علم الدين السخاوى فى جزء جمعه سماه « المشهور فى أسماء الأيام والشهور »: أن المحرم سُمى بذلك لكونه شهراً محرماً، وعندى أنه سُمى بذلك تأكيداً لتحريمه؛ لأن العرب كانت تتقلب به، فتحله عاماً وتحرمه عاماً.

صفر: سُمى بذلك لخلو بيوتهم منه، حين يخرجون للقتال والأسفار، يقال: « صَفَرَ المكان »: إذا خلا.

شهر ربيع أول: سُمى بذلك لارتباعتهم فيه. والارتباع الإقامة فى عمارة الربيع.
ربيع الآخر: كالأول.
جمادى: سُمى بذلك لجمود الماء فيه.

(١) البخارى (٦٤٤٤).

(٢) المسند (٣٧/٥)، والبخارى (٤٦٦٢)، ومسلم (٢٩/١٦٧٩).

رجب: من الترجيب، وهو التعظيم .

شعبان: من تشعب القبائل وتفرقتها للغارة .

رمضان: من شدة الرمضاء ، وهو الحر، يقال: « رمضت الفصال » : إذا عطشت ، وقول من قال: « إنه اسم من أسماء الله »؛ خطأ لا يعرج عليه، ولا يلتفت إليه .

شوال: من شالت الإبل بأذنانها للطراق .

القعدة: بفتح القاف - قلت: وكسرهما - لعودهم فيه عن القتال والترحال .

الحجة: بكسر الحاء - قلت: وفتحها - سمي بذلك لإيقاعهم الحج فيه .

وقوله تعالى: ﴿ مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرْمٌ ﴾ : فهذا مما كانت العرب أيضا في الجاهلية تحرمه ، وهو الذى كان عليه جمهورهم، إلا طائفة منهم يقال لهم: « البسل »، كانوا يحرمون من السنة ثمانية أشهر، تعمقا وتشديداً .

وأما قوله: « ثلاث متواليات: ذو القعدة وذو الحجة والمحرم، ورجب مضر الذى بين جمادى وشعبان »، فإنما أضافه إلى مضر، لبيان صحة قولهم فى رجب أنه الشهر الذى بين جمادى وشعبان ، لا كما كانت تظنه ربعة من أن رجب المحرم هو الشهر الذى بين شعبان وشوال، وهو رمضان اليوم، فبين ﷺ أنه رجب مضر لا رجب ربعة. وإنما كانت الأشهر المحرمة أربعة، ثلاثة سرّدٌ وواحد فرد؛ لأجل أداء مناسك الحج والعمرة، فحرم قبل شهر الحج شهر، وهو ذو القعدة؛ لأنهم يقعدون فيه عن القتال، وحرم شهر ذى الحجة لأنهم يوقعون فيه الحج ويشتغلون فيه بأداء المناسك، وحرم بعده شهر آخر، وهو المحرم؛ ليرجعوا فيه إلى نائى أقصى بلادهم آمين، وحرم رجب فى وسط الحول، لأجل زيارة البيت والاعتما به، لمن يقدم إليه من أقصى جزيرة العرب، فيزوره ثم يعود إلى وطنه فيه آمنا .

وقوله: ﴿ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ ﴾ أى: هذا هو الشرع المستقيم، من امتثال أمر الله فيما جعل من الأشهر الحرم ، والحذو بها على ما سبق فى كتاب الله الأول ﴿ فَلَا تَظَلُّمُوا فِيهِ أَنْفُسَكُمْ ﴾ أى : فى هذه الأشهر المحرمة؛ لأنه أكد وأبلغ فى الإثم من غيرها، كما أن المعاصى فى البلد الحرام تضاعف ، لقوله تعالى: ﴿ وَمَنْ يُرِدْ فِيهِ بِالْحَادِ يَظْلَمْ نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ أَلِيمٍ ﴾ [الحج : ٢٥] ، وكذلك الشهر الحرام تغلظ فيه الآثام؛ ولهذا تغلظ فيه الدية فى مذهب الشافعى، وطائفة كثيرة من العلماء، وكذا فى حق من قتل فى الحرم أو قتل ذا محرم. وقال ابن عباس : قوله : ﴿ فَلَا تَظَلُّمُوا فِيهِ أَنْفُسَكُمْ ﴾ : فى كلهن، ثم اختص من ذلك أربعة أشهر فجعلهن حراما، وعظم حرّماتهن، وجعل الذنب فيهن أعظم، والعمل الصالح والأجر أعظم. وقال قتادة إن الظلم فى الأشهر الحرم أعظم خطيئة ووزرا، من الظلم فيما سواها، وإن كان الظلم على كل حال عظيما، ولكن الله يعظم من أمره ما يشاء. قال: إن الله اصطفى صفّايا من خلقه، اصطفى من

الملائكة رسلا ، ومن الناس رسلا ، واصطفى من الكلام ذكره ، واصطفى من الأرض المساجد ، واصطفى من الشهور رمضان والأشهر الحرم ، واصطفى من الأيام يوم الجمعة ، واصطفى من الليالى ليلة القدر ، فَعَظَّمُوا ما عَظَمَ اللهُ ، فإنما تُعَظَّمُ الأمور بما عَظَمَ اللهُ به عند أهل الفهم وأهل العقل . وقال ابن إسحاق : ﴿ فَلَا تَظَلِمُوا فِيهِمْ أَنْفُسَكُمْ ﴾ أى : لا تجعلوا حرامها حلالا ولا حلالها حراما ، كما فعل أهل الشرك ، فإنما النسئ الذى كانوا يصنعون من ذلك ، زيادة فى الكفر ﴿ يُضِلُّ بِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ الآية [التوبة : ٣٧] . وهذا القول اختيار ابن جرير .

وقوله : ﴿ وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً ﴾ أى : جميعكم ﴿ كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَافَّةً ﴾ أى : جميعهم ، ﴿ وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ ﴾ . وقد اختلف العلماء فى تحريم ابتداء القتال فى الشهر الحرام : هل هو منسوخ أو محكم ؟ على قولين : أحدهما - وهو الأشهر - أنه منسوخ .

وأما قوله تعالى : ﴿ وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَافَّةً ﴾ فيحتمل أنه منقطع عما قبله ، وأنه حكم مستأنف ، ويكون من باب التهيج والتحضيض ، أى : كما يجتمعون لحربكم إذا حاربوكم فاجتمعوا أنتم أيضا لهم إذا حاربتموهم ، وقاتلوهم بنظير ما يفعلون ، ويحتمل أنه أذن للمؤمنين بقتال المشركين فى الشهر الحرام إذا كانت البداءة منهم ، كما قال تعالى : ﴿ الشَّهْرُ الْحَرَامُ بِالشَّهْرِ الْحَرَامِ وَالْحُرُمَاتُ قِصَاصٌ ﴾ [البقرة : ١٩٤] ، وقال تعالى : ﴿ وَلَا تَقَاتِلُوهُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ حَتَّى يُقَاتِلُوكُمْ فِيهِ فَإِنْ قَاتَلُوكُمْ فَاقْتُلُوهُمْ ﴾ الآية [البقرة : ١٩١] .

﴿ إِنَّمَا النَّسِيءُ زِيَادَةٌ فِي الْكُفْرِ يُضِلُّ بِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا يُحِلُّونَهُ عَامًا وَيُحَرِّمُونَهُ عَامًا لِيُوَاطِئُوا عِدَّةَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ فَيُحِلُّوا مَا حَرَّمَ اللَّهُ زَيْنٌ لَهُمْ سَوْءَ أَعْمَالِهِمْ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ ﴾

هذا مما ذم الله تعالى به المشركين من تصرفهم فى شرع الله بآرائهم الفاسدة ، وتغييرهم أحكام الله بأهوائهم الباردة ، وتحليلهم ما حرم الله وتحريمهم ما أحل الله ، فإنهم كان فيهم من القوة الغضبية والشهامة والحمية ما استطالوا به مدة الأشهر الثلاثة فى التحريم المانع لهم من قضاء أوطارهم من قتال أعدائهم ، فكانوا قد أحدثوا قبل الإسلام بمدة تحليل المحرم فأخروه إلى صفر ، فيحلون الشهر الحرام ، ويحرمون الشهر الحلال ، ليواطئوا عدة ما حرم الله الأشهر الأربعة . قال ابن عباس فى قوله : ﴿ إِنَّمَا النَّسِيءُ زِيَادَةٌ فِي الْكُفْرِ ﴾ : النسئ أن جنادة بن عوف بن أمية الكنانى ، كان يوافق الموسم فى كل عام ، وكان يكنى «أبا ثمامة» ، فينادى : ألا إن أبا ثمامة لا يُحَاب ولا يُعَاب ، ألا وإن صفر العام الأول حلال . فيحله للناس ، فيحرم صفرًا عامًا ، ويحرم المحرم عامًا ، فذلك قول الله : ﴿ إِنَّمَا النَّسِيءُ زِيَادَةٌ فِي الْكُفْرِ ﴾ ، يقول : يتركون المحرم عامًا ، وعاما يحرمونه . وقال مجاهد ، كان رجل من بنى كنانة يأتى كل عام إلى الموسم على حمار له ، فيقول : يا أيها الناس ، إنى لا أعاب ولا أحاب ، ولا مرَدٌ لما أقول ، إنا قد حرّمنا المحرم ، وأخرنا صفر . ثم يجىء العام المقبل بعده فيقول مثل مقالته ، ويقول : إنا قد حرّمنا صفر ، وأخرنا

المحرم» فهو قوله: ﴿لِيُؤَاطِبُوا عِدَّةَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ﴾ قال: يعنى الأربعة ﴿فِيُحِلُّوْا مَا حَرَّمَ اللَّهُ﴾ لتأخير هذا الشهر الحرام. فإنهم لما كانوا يحلون شهر المحرم عاما يحرمون عوضه صفر، وبعده ربيع وربيع إلى آخر السنة بحالها على نظامها وعدتها وأسماء شهورها ثم فى العام القابل يحرمون المحرم ويتركونه على تحريمه ، وبعده صفر ، وربيع وربيع إلى آخرها فيحلونه عاما ويحرمونه عاما ؛ ليؤطبا عدة ما حرم الله ، فيحلوا ما حرم الله، أى: فى تحريم أربعة أشهر من السنة، إلا أنهم تارة يقدمون تحريم الشهر الثالث من الثلاثة المتوالية وهو المحرم، وتارة ينسئون إلى صفر، أى: يؤخرونه. وقد قدمنا الكلام على قوله ﷺ: «إن الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله السموات والأرض، السنة اثنا عشر شهراً منها أربعة حرم، ثلاثة متوالية: ذو القعدة، وذو الحجة، والمحرم، ورجب مضر»، أى: أن الأمر فى عدة الشهور وتحريم ما هو محرم منها، على ما سبق فى كتاب الله من العدد والتوالى، لا كما يعتمده جهلة العرب، من فصلهم تحريم بعضها بالنسيء عن بعض، والله أعلم.

وقال ابن إسحاق : كان أول من نساَ الشهور على العرب، فأحل منها ما حرم الله، وحرم منها ما أحل الله، عز وجل، «القلَمَس» وهو حذيفة بن عبد فُقَيْم ، ثم قام بعده على ذلك ابنه عبَّاد ، ثم من بعد عبَّاد ابنه قَلْع بن عبَّاد، ثم ابنه أمية بن قلع، ثم ابنه عوف بن أمية، ثم ابنه أبو ثمامة جُنَّاد بن عوف، وكان آخرهم، وعليه قام الإسلام. فكانت العرب إذا فرغت من حجها اجتمعت إليه، فقام فيهم خطيباً، فحرم رجباً، وذو القعدة، وذو الحجة، ويحل المحرم عاماً، ويجعل مكانه صفر، ويحرمه عاماً ليؤاطب عدة ما حرم الله، فيحل ما حرم الله، يعنى: ويحرم ما أحل الله ، والله أعلم .

﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمْ أَنْفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَتَأْتَلْتُمْ إِلَى الْأَرْضِ أَرْضَيْتُمْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الْآخِرَةِ فَمَا مَتَّعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ ﴿١٨﴾ إِلَّا أَنْفِرُوا يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْئًا وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٩﴾﴾

هذا شروع فى عتاب من تخلف عن رسول الله ﷺ فى غزوة تبوك، حين طابت شمار والظلال فى شدة الحر وحمارة القيظ، فقال تعالى: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمْ أَنْفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ أى: إذا دعيتم إلى الجهاد فى سبيل الله ﴿اتَّقِلْتُمْ إِلَى الْأَرْضِ﴾ أى: تكاسلتم وملتم إلى المقام فى الدعة والخفض وطيب شمار ﴿أَرْضَيْتُمْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الْآخِرَةِ﴾ ؟ أى: ما لكم فعلتم هكذا أرضاً منكم بالدنيا بدلا من الآخرة ؟

ثم زهد تبارك وتعالى فى الدنيا، ورغب فى الآخرة، فقال: ﴿فَمَا مَتَّعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ﴾ ، كما روى الإمام أحمد عن المستورد أخى بنى فهر قال: قال رسول الله ﷺ: «ما الدنيا فى الآخرة إلا كما يجعل أحدكم أصبعه هذه فى اليم، فلينظر بـم ترجع». وأشار بالسبابة. انفراد

بإخراجه مسلم (١) . وروى ابن أبي حاتم عن أبي عثمان قال: قلت: يا أبا هريرة، سمعت من إخواني بالبصرة أنك تقول: سمعت نبي الله يقول: « إن الله يجزي بالحسنة ألف حسنة » قال أبو هريرة: بل سمعت رسول الله ﷺ يقول: « إن الله يجزي بالحسنة ألف حسنة »، ثم تلا هذه الآية: ﴿فَمَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ﴾ (٢) ، فالدنيا ما مضى منها وما بقى منها عند الله قليل . ولما حضرت عبد العزيز بن مروان الوفاة قال: اتونى بكفى الذى أكفن فيه، أنظر إليه . فلما وضع بين يديه نظرت إليه فقال: أما لى من كبير ما أخلف من الدنيا إلا هذا ؟ ثم ولى ظهره فبكى وهو يقول : أف لك من دار . إن كان كثير لكليل ، وإن كان قليلك لقصير ، وإن كنا منك لفى غرور .

ثم توعد تعالى على ترك الجهاد فقال : ﴿الْأَتَقِفُوا يَعَذِّبُكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ قال ابن عباس: استنفر رسول الله ﷺ حياً من العرب، فتأقلوا عنه، فأمسك الله عنهم القَطْرَ فكان عذابهم ﴿وَيَسْتَبْدِلُ قَوْمًا غَيْرَكُمْ﴾ أى: لنصرة نبيه وإقامة دينه، كما قال تعالى: ﴿وَأَن تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَالِكُمْ﴾ [محمد: ٣٨] . ﴿وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْئًا﴾ أى: ولا تضروا الله شيئاً بتوليكم عن الجهاد، وتكولكم وتأقلكم عنه ﴿وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ أى: قادر على الانتصار من الأعداء بدونكم .

﴿إِنَّا نُنصِرُهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّا نَنصُرُكَ اللَّهُ مَعَنَا فَاَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَى وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾

يقول تعالى: ﴿الْأَتَضَرُّوهُ﴾ أى: تنصروا رسوله، فإن الله ناصره ومؤيده وكافيه وحافظه، كما تولى نصره ﴿إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ﴾ أى: عام الهجرة لما هم المشركون بقتله أو حبسه أو نفيه، فخرج منهم هارباً صحبة صديقه وصاحبه أبى بكر بن أبى قحافة، فلجأ إلى غار ثور ثلاثة أيام ليرجع الطلب الذين خرجوا فى آثارهم، ثم سيروا نحو المدينة، فجعل أبو بكر يجزع أن يطلع عليهم ، فيخلص إلى الرسول ، عليه الصلاة والسلام ، منهم أذى ، فجعل النبي ﷺ يسكنه ويثبتته ويقول: «يا أبا بكر، ما ظنك باثنين الله ثالثهما»، كما روى الإمام أحمد عن أبى بكر قال : قلت للنبي ﷺ ، ونحن فى الغار : لو أن أحدهم نظر إلى قدميه لأبصرنا تحت قدميه . قال : فقال : «يا أبا بكر ، ما ظنك باثنين الله ثالثهما » أخرجاه فى الصحيحين (٣) .

(١) المسند (٤/٢٢٨) ، ومسلم (٥٥/٢٨٥٨) .

(٢) مضى تخريجه عند الآية (٢٤٣) من سورة البقرة .

(٣) المسند (١١) ، والبخارى (٣٦٥٣) ، ومسلم (١/٢٣٨١) .

ولهذا قال تعالى: ﴿فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ﴾ أى: تأييده ونصره عليه، أى: على الرسول فى أشهر القولين: وقيل: على أبى بكر، وروى عن ابن عباس وغيره، قالوا: لأن الرسول ﷺ لم تزل معه سكينته، وهذا لا ينافى تجدد سكينته خاصة بتلك الحال؛ ولهذا قال: ﴿وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَمْ تَرَوْهَا﴾ أى: الملائكة ﴿وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَىٰ وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا﴾. قال ابن عباس: يعنى ﴿كَلِمَةُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾: الشرك، و﴿كَلِمَةُ اللَّهِ﴾ هى: لا إله إلا الله. وفى الصحيحين عن أبى موسى الأشعرى، قال: سئل رسول الله ﷺ عن الرجل يقاتل شجاعة، ويقاتل حمية، ويقاتل رياء، أى ذلك فى سبيل الله؟ فقال: «من قاتل لتكون كلمة الله هى العليا فهو فى سبيل الله» (١). وقوله: ﴿وَاللَّهُ عَزِيزٌ﴾ أى: فى انتقامه وانتصاره، منيع الجنب، لا يُضام من لاذ ببابه، واحتمى بالتمسك بخطابه ﴿حَكِيمٌ﴾ فى أقواله وأفعاله.

﴿انْفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾

أمر الله تعالى بالنفير العام مع الرسول ﷺ عام غزوة تبوك لقتال أعداء الله من الروم الكفرة من أهل الكتاب، وحتم على المؤمنين فى الخروج معه على كل حال فى المنشط والمكروه والعسر واليسر، فقال: ﴿انْفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا﴾. وقال أبو طلحة: كهولا وشبابا، ما سمع الله عذر أحد، ثم خرج إلى الشام فقاتل حتى قُتل. وفى رواية: قرأ أبو طلحة سورة براءة، فأتى على هذه الآية: ﴿انْفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ فقال: أرى ربنا يستنفرنا شيوخاً وشباباً، جهزونى يا بنى. فقال بنوه: يرحمك الله، قد غزوت مع رسول الله ﷺ حتى مات، ومع أبى بكر حتى مات، ومع عمر حتى مات، فنحن نغزو عنك. فأبى، فركب البحر فمات، فلم يجدوا له جزيرة يدفنه فيها إلا بعد تسعة أيام، فلم يتغير، فدفنوه بها. وهكذا روى عن ابن عباس وعكرمة والحسن البصرى وغير واحد أنهم قالوا فى تفسير هذه الآية: ﴿انْفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا﴾: كهولا وشبابا. وكذا قال عكرمة والضحاك، ومقاتل ابن حيان، وغير واحد. وقال مجاهد: شبابا وشيوخا، وأغنياء ومساكين. وقال الحكم بن عتيبة: مشاغيل وغير مشاغيل. وقال الحسن البصرى أيضاً: فى العسر واليسر. وهذا كله من مقتضيات العموم فى الآية، وهذا اختيار ابن جرير.

وقال الإمام الأوزاعى: إذا كان النفير إلى دُروب الروم نفرَ الناس إليها خفافا وركباناً، وإذا كان النفير إلى هذه السواحل نفرُوا إليها خفافا وثقالاً، وركباناً ومشاة. وهذا تفصيل فى المسألة. وقال السدى قوله: ﴿انْفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا﴾ يقول: غنيا وفقيرا، وقويا وضعيفاً، فجاءه رجل يومئذ، زعموا أنه المقداد، وكان عظيماً سمياً، فشكا إليه وسأله أن يأذن له، فأبى فنزلت يومئذ: ﴿انْفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا﴾، فلما نزلت هذه الآية اشتد على الناس، فنسخها الله، فقال:

(١) البخارى (٢٨١٠)، ومسلم (١٩٠٤/١٥٠).

﴿ لَيْسَ عَلَى الضُّعَفَاءِ وَلَا عَلَى الْمَرْضَى وَلَا عَلَى الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنْفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُوا لِلَّهِ وَرَسُولِهِ ﴾ [التوبة: ٩١] . وقال أبو راشد الحبراني : وافيت المقداد ابن الأسود فارس رسول الله ﷺ جالسا على تابوت من توابيت الصيارفة بحمص، وقد فضل عنها من عظمه، يريد الغزو، فقلت له: قد أعذر الله إليك ، فقال: أتت علينا سورة « البعوث » : ﴿ انْفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا ﴾ .

ثم رغب تعالى في النفقة في سبيله ، وبذل المهج في مرضاته ومرضاة رسوله ، فقال : ﴿ وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ أي: هذا خير لكم في الدنيا والآخرة، ولأنكم تغرمون في النفقة قليلا، فيغنمكم الله أموال عدوكم في الدنيا، مع ما يدخر لكم من الكرامة في الآخرة، كما قال النبي ﷺ : « وَتَكْفُلُ اللَّهُ لِلْمُجَاهِدِ فِي سَبِيلِهِ إِنْ تَوَفَّاهُ أَنْ يَدْخُلَهُ الْجَنَّةَ ، أَوْ يَرِدَهُ إِلَى مَنْزِلِهِ نَائِلًا مَا نَالَ مِنْ أَجْرٍ أَوْ غَنِيمَةٍ » (١) . ولهذا قال تعالى : ﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾ [البقرة : ٢١٦] .

﴿ لَوْ كَانَ عَرَضًا قَرِيبًا وَسَفَرًا قَاصِدًا لَاتَّبَعُوكَ وَلَكِنْ بَعَدَتْ عَلَيْهِمُ السُّفَّةُ وَسَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَوِ اسْتَطَعْنَا لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ يُهْلِكُونَ أَنْفُسَهُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴾

يقول تعالى موبخاً للذين تخلفوا عن النبي ﷺ في غزوة تبوك، وقعدوا بعد ما استأذنوه في ذلك، مظهرين أنهم ذوو أعدار، ولم يكونوا كذلك، فقال: ﴿ لَوْ كَانَ عَرَضًا قَرِيبًا ﴾ قال ابن عباس: غنيمة قريبة ﴿ وَسَفَرًا قَاصِدًا ﴾ أي: قريباً أيضاً ﴿ لَاتَّبَعُوكَ ﴾ أي: لكانوا جاؤوا معك لذلك ﴿ وَلَكِنْ بَعَدَتْ عَلَيْهِمُ السُّفَّةُ ﴾ أي: المسافة إلى الشام ﴿ وَسَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ ﴾ أي: لكم إذا رجعت إليهم ﴿ لَوِ اسْتَطَعْنَا لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ ﴾ أي: لو لم يكن لنا أعدار لخرجنا معكم، قال الله تعالى: ﴿ يَهْلِكُونَ أَنْفُسَهُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴾ .

﴿ عَفَا اللَّهُ عَنْكَ لِمَ أَذِنَتْ لَهُمْ حَتَّى يَتَّبِعَنَّ لَكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَتَعْلَمَ الْكَاذِبِينَ ﴾ ﴿ ٤٢ ﴾ لَا يَسْتَعِذُّنَكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ أَنْ يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ ﴿ ٤٤ ﴾ إِنَّمَا يَسْتَعِذُّنَكَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَأَرْتَابٌ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِي رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ ﴿ ٤٥ ﴾

عن عون قال: هل سمعتم بمعاتبه أحسن من هذا؟ بدأ بالعفو قبل المعاتبه فقال: ﴿ عَفَا اللَّهُ عَنْكَ لِمَ أَذِنَتْ لَهُمْ ﴾ . وقال قتادة: عاتبه كما تسمعون، ثم أنزل التي في سورة النور، فرخص له في أن يأذن لهم إن شاء: ﴿ فَإِذَا اسْتَأْذَنُوكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ فَأَذَنْ لِمَنْ شِئْتَ مِنْهُمْ ﴾ [النور : ٦٢] . وقال

مجاهد : نزلت هذه الآية في أناس قالوا : استأذنوا رسول الله ، فإن أذن لكم فاقعدوا ، وإن لم يأذن لكم فاقعدوا . ولهذا قال تعالى : ﴿ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْغَيْبُ مِنَ الْغَيْبِ ﴾ . في إبداء الأعذار ﴿ وَتَعَلَّمِ الْكَافِرِينَ ﴾ يقول تعالى : هلا تركتهم لما استأذنوك ، فلم تأذن لأحد منهم في القعود ، لتعلم الصادق منهم في إظهار طاعتك من الكاذب ، فإنهم قد كانوا مصرين على القعود عن الغزو وإن لم تأذن لهم فيه . ولهذا أخبر تعالى أنه لا يستأذنه في القعود عن الغزو أحد يؤمن بالله ورسوله ، فقال : ﴿ لَا يَسْتَأْذِنُكَ ﴾ أى : فى القعود عن الغزو ﴿ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ أَن يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ ﴾ لأنهم يرون الجهاد قربة ، ولما نديهم إليه بادروا وامتلوا ﴿ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ . إِنَّمَا يَسْتَأْذِنُكَ ﴾ أى : فى القعود ممن لا عذر له ﴿ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ﴾ أى : لا يرجون ثواب الله فى الدار الآخرة على أعمالهم ﴿ وَأَرْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ ﴾ أى : شكت فى صحة ما جتتهم به ﴿ فَهُمْ فِي رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ ﴾ أى : يتحIRON ، يُقَدِّمُونَ رجلا ويؤخرون أخرى ، وليست لهم قدم ثابتة فى شىء ، فهم قوم حيارى هلئى ، لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء ، ومن يضل الله فلن تجد له سبيلا .

ربيع ﴿ وَتَوَّأَرَدُوا الْخُرُوجَ لِأَعْدَاؤِهِمْ وَعَدَّةٌ وَلَكِنَّ كَرِهَ اللَّهُ انبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ اقْعُدُوا مَعَ الْقَاعِدِينَ ﴿٤٦﴾ تَوَّأَرَدُوا فِيكُمْ مَا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا وَلَا وُضِعُوا لِخَلَاكِكُمْ بَغْوَنَكُمْ أَلْفِتْنَةً وَفِيكُمْ سَمْعُونَ لَهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ ﴿٤٧﴾ ﴾

يقول تعالى : ﴿ وَتَوَّأَرَدُوا الْخُرُوجَ ﴾ أى : معك إلى الغزو ﴿ لِأَعْدَاؤِهِمْ ﴾ أى : لكانوا تاهبوا له ﴿ وَلَكِنَّ كَرِهَ اللَّهُ انبِعَاثَهُمْ ﴾ أى : أبغض أن يخرجوا معكم قدراً ﴿ فَثَبَّطَهُمْ ﴾ أى : أخرجهم ﴿ وَقِيلَ اقْعُدُوا مَعَ الْقَاعِدِينَ ﴾ أى : قدراً .

ثم بين الله تعالى وجه كراهيته لخروجهم مع المؤمنين ، فقال : ﴿ تَوَّأَرَدُوا فِيكُمْ مَا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا ﴾ أى : لأنهم جناء مخذولون ﴿ وَلَا وُضِعُوا لِخَلَاكِكُمْ بَغْوَنَكُمْ أَلْفِتْنَةً ﴾ أى : ولأسرعوا السير والمشى بينكم بالنميمة والبغضاء والفتنة ﴿ وَفِيكُمْ سَمْعُونَ لَهُمْ ﴾ أى : مطيعون لهم ومستجيبون لحديثهم وكلامهم ، يستنصحنونهم وإن كانوا لا يعلمون حالهم ، فيؤدى إلى وقوع شر بين المؤمنين وفساد كبير . وقال مجاهد ، وزيد بن أسلم ، وابن جرير : ﴿ وَفِيكُمْ سَمْعُونَ لَهُمْ ﴾ أى : عيون يسمعون لهم الأخبار وينقلونها إليهم . وهذا لا يبقى له اختصاص بخروجهم معهم ، بل هذا عام فى جميع الأحوال ، والمعنى الأول أظهر فى المناسبة بالسياق ، وإليه ذهب قتادة وغيره من المفسرين . وقال ابن إسحاق : كان الذين استأذنوا - فيما بلغنى من ذوى الشرف منهم : عبد الله بن أبى ابن سلول والجد بن قيس ، وكانوا أشرفاً فى قومهم ، فثبَّطهم الله ، لعلمه بهم : أن يخرجوا معه ، فيفسدوا عليه جنده . وكان فى جنده قوم أهل محبة لهم وطاعة فيما يدعونهم إليه ، لشرفهم فيهم ، فقال : ﴿ وَفِيكُمْ سَمْعُونَ لَهُمْ ﴾ .

ثم أخبر تعالى عن تمام علمه فقال : ﴿ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ ﴾ ، فأخبر بأنه يعلم ما كان ، وما

يكون ؛ ولهذا قال تعالى: ﴿لَوْ خَرَجُوا فِيكُمْ مَا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا﴾ ، فأخبر عن حالهم كيف يكون لو خرجوا ومع هذا ما خرجوا، كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ [الأنعام: ٢٨]، وقال تعالى: ﴿وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَأَسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُعْرِضُونَ﴾ [الأنفال: ٢٣]، وقال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنْ اقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ أَوْ اخْرَجُوا مِنْ دِيَارِكُمْ مَا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٌ مِنْهُمْ وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ وَأَشَدَّ تَبِيئًا. وَإِذَا لَاتَيْنَاهُمْ مِنْ لَدُنَّا أَجْرًا عَظِيمًا. وَلَهْدَيْنَاهُمْ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا﴾ [النساء: ٦٦ - ٦٨]، والآيات في هذا كثيرة.

﴿لَقَدْ ابْتِغَوْا الْفِتْنَةَ مِنْ قَبْلُ وَقَلَّبُوا لَكَ الْأُمُورَ حَتَّى جَاءَ الْحَقُّ وَظَهَرَ أَمْرُ اللَّهِ وَهُمْ كَارِهُونَ﴾

يقول تعالى محرضاً لنبية عليه السلام على المنافقين: ﴿لَقَدْ ابْتِغَوْا الْفِتْنَةَ مِنْ قَبْلُ وَقَلَّبُوا لَكَ الْأُمُورَ﴾ أى: لقد أعملوا فكرهم وأجالوا آراءهم فى كيدك وكيد أصحابك وخذلان دينك وإخماله مدة طويلة، وذلك أول مقدم النبى ﷺ المدينة رمته العرب عن قوس واحدة، وحاربتهم يهود المدينة ومنافقوها، فلما نصره الله يوم بدر وأعلى كلمته، قال عبد الله بن أبى وأصحابه: هذا أمر قد تَوَجَّه. فدخلوا فى الإسلام ظاهراً، ثم كلما أعز الله الإسلام وأهله غاظهم ذلك وساءهم؛ ولهذا قال تعالى: ﴿حَتَّى جَاءَ الْحَقُّ وَظَهَرَ أَمْرُ اللَّهِ وَهُمْ كَارِهُونَ﴾.

﴿وَمِنْهُمْ مَن يَقُولُ أُنذُن لِي وَلَا تَفْتِنِي أَلَا فِي الْفِتْنَةِ سَقَطُوا وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ﴾

يقول تعالى: ومن المنافقين من يقول لك يا محمد: ﴿أُنذُن لِي﴾ فى القعود ﴿وَلَا تَفْتِنِي﴾ بالخروج معك، بسبب الجوارى من نساء الروم، قال الله تعالى: ﴿أَلَا فِي الْفِتْنَةِ سَقَطُوا﴾ أى: قد سقطوا فى الفتنة بقولهم هذا، كما روى ابن إسحاق، عن الزهرى ، ويزيد بن رومان ، وعبد الله ابن أبى بكر، وعاصم بن قتادة وغيرهم قالوا: قال رسول الله ﷺ ذات يوم، وهو فى جهازه، للجد بن قيس أخى بنى سلمة: « هل لك يا جدُّ العام فى جلاذ بنى الأصفر ؟ » فقال: يا رسول الله، أو تأذن لى ولا تفتنى، فوالله لقد عرف قومى ما رجل أشد عجباً بالنساء منى، وإنى أخشى إن رأيت نساء بنى الأصفر ألا أصبر عنهن . فأعرض عنه رسول الله ﷺ وقال: «قد أذنت لك». ففى الجذ بن قيس نزلت هذه: ﴿وَمِنْهُمْ مَن يَقُولُ أُنذُن لِي وَلَا تَفْتِنِي﴾ الآية، أى: إن كان إنما يخشى من نساء بنى الأصفر وليس ذلك به ، فما سقط فيه من الفتنة بتخلفه عن رسول الله ﷺ والرغبة بنفسه عن نفسه، أعظم . وهكذا روى عن ابن عباس، ومجاهد، وغير واحد: أنها نزلت فى الجذ بن قيس. وقد كان الجذ بن قيس هذا من أشرف بنى سلمة، وفى الصحيح : أن رسول الله ﷺ قال لهم: « من سيدكم يا بنى سلمة ؟ » قالوا: الجذ بن قيس، على أنا نبخله . فقال رسول الله ﷺ: «واى داء أدوا من البخل، ولكن سيدكم الفتى الجذ

الأيض بشر بن البراء بن معرور « (١) » .

وقوله تعالى: ﴿وَأَنْ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ﴾ أى: لا محيد لهم عنها، ولا محيص، ولا مهرب.

﴿إِنْ تُصِيبَكَ حَسَنَةٌ فَسَبِّحْهُنَّ وَسُبِّحْهُنَّ فِي الْبُحُورِ وَالْأَرْضِ وَالسَّمَاوَاتِ فِي سُبْحَانَكَ وَمَا أَشْكُرُ بَعْدَكَ﴾
 ﴿قُلْ لَنْ يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَانَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾

يعلم تبارك وتعالى نبيه بعداوة هؤلاء له ؛ لأنه مهما أصابه من ﴿حَسَنَةٍ﴾ أى: فتح ونصر وظفر على الأعداء، مما يسره ويسر أصحابه، ساءهم ذلك ﴿وَأَنْ تُصِيبَكَ مُصِيبَةٌ يَقُولُوا قَدْ أَخَذْنَا أَمْرًا مِنْ قَبْلِكَ﴾ أى: قد احترزنا من متابعتك من قبل هذا ﴿وَيَقُولُوا وَهُمْ قَرِحُونَ﴾. فأرشد الله تعالى رسول الله ﷺ إلى جوابهم فى عداوتهم هذه التامة، فقال: ﴿قُلْ﴾ أى: لهم ﴿لَنْ يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا﴾ أى: نحن تحت مشيئة الله، وقدره ﴿هُوَ مَوْلَانَا﴾ أى: سيدنا وملجونا ﴿وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ أى: ونحن متوكلون عليه، وهو حسبنا ونعم الوكيل.

﴿قُلْ هَلْ تَرْتَضُونَ بِنَا إِلَّا إِحْدَى الْحُسَيْنَيْنِ وَنَحْنُ نَرْتَبِصُ بِكُمْ أَنْ يُصِيبَكُمُ اللَّهُ بِعَذَابٍ مِنْ عِنْدِهِ أَوْ بِأَيْدِينَا فَتَرَبَّصُوا إِنَّا مَعَكُمْ مُتَرَبِّصُونَ﴾
 ﴿قُلْ أَنْفِقُوا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا لَنْ يُتَقَبَلَ مِنْكُمْ إِتْكُمْ كُنْتُمْ قَوْمًا فَاسِقِينَ﴾
 ﴿وَمَا مَنَعَهُمْ أَنْ تُقَبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَتُهُمْ إِلَّا أَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَلَا يَأْتُونَ الصَّلَاةَ إِلَّا وَهُمْ كُسَالَى وَلَا يُنْفِقُونَ إِلَّا وَهُمْ كَارِهُونَ﴾

يقول تعالى: ﴿قُلْ﴾ لهم يا محمد: ﴿هَلْ تَرْتَضُونَ بِنَا﴾ أى: تنتظرون بنا ﴿إِلَّا إِحْدَى الْحُسَيْنَيْنِ﴾: شهادة أو ظفر بكم. قاله ابن عباس، ومجاهد، وقتادة، وغيرهم. ﴿وَنَحْنُ نَرْتَبِصُ بِكُمْ﴾ أى: نتظر بكم هذا أو هذا، إما ﴿أَنْ يُصِيبَكُمُ اللَّهُ بِعَذَابٍ مِنْ عِنْدِهِ أَوْ بِأَيْدِينَا﴾ بسبب أو بقتل ﴿فَتَرَبَّصُوا إِنَّا مَعَكُمْ مُتَرَبِّصُونَ﴾. وقوله تعالى: ﴿قُلْ أَنْفِقُوا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا﴾ أى: مهما أنفقتم من نفقة طائعين أو مكرهين ﴿لَنْ يُتَقَبَلَ مِنْكُمْ إِتْكُمْ كُنْتُمْ قَوْمًا فَاسِقِينَ﴾.

ثم أخبر تعالى عن سبب ذلك، وهو أنهم لا يتقبل منهم ﴿لأنهم كفروا بالله ورسوله﴾ أى: والأعمال إنما تصح بالإيمان ﴿وَلَا يَأْتُونَ الصَّلَاةَ إِلَّا وَهُمْ كُسَالَى﴾ أى: ليس لهم قصد صحيح، ولا همة فى العمل ﴿وَلَا يُنْفِقُونَ﴾ نفقة ﴿إِلَّا وَهُمْ كَارِهُونَ﴾. وقد أخبر الصادق المصدوق أن الله لا يمل حتى تملوا، وأنه طيب لا يقبل إلا طيباً؛ فلهذا لا يتقبل الله من هؤلاء نفقة ولا عملاً، لأنه إنما يتقبل من المتقين.

﴿ فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَتَرْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ ﴾ ﴿٥٥﴾

يقول تعالى لرسوله ﷺ ﴿ فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ ﴾ كما قال تعالى : ﴿ وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَكَ إِلَى مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا لِنَفْسِنَهُمْ فِيهِ رِزْقٌ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَى ﴾ [طه : ١٣١] ، وقال : ﴿ أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُمْ بِهِ مِنْ مَالٍ وَبَيْنَ . نَسَارِعَ لَهُمْ فِي الْخَيْرَاتِ بَلْ لَا يَشْعُرُونَ ﴾ [المؤمنون : ٥٥ ، ٥٦] .

وقوله : ﴿ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ﴾ : قال الحسن البصري : بزكاتها ، والنفقة منها في سبيل الله . واختاره ابن جرير ، وهو القول القوي الحسن . وقوله : ﴿ وَتَرْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ ﴾ أي : ويريد أن يميتهم حين يميتهم على الكفر ، ليكون ذلك أنكى لهم وأشد لعذابهم ، عياداً بالله من ذلك ، وهذا يكون من باب الاستدراج لهم فيما هم فيه .

﴿ وَيَخْلِفُونَ بِاللَّهِ إِيْتِمَانَكُمْ لِمَنْكُمْ وَمَا هُمْ بِبِرِّكُمْ وَلَكِنَّهُمْ قَوْمٌ يَفْرُقُونَ ﴾ ﴿٥٦﴾

﴿ لَوْ يَجِدُونَ مَلْجَأًا أَوْ مَغْرَبَاتٍ أَوْ مُدْخَلًا لَوَلَّوْا إِلَيْهِ وَهُمْ يَجْمَحُونَ ﴾ ﴿٥٧﴾

يخبر تعالى نبيه ﷺ عن جزعهم وفزعهم وفرقهم واهلهم أنهم ﴿ يَخْلِفُونَ بِاللَّهِ إِيْتِمَانَكُمْ ﴾ ميمناً مؤكدة ﴿ وَمَا هُمْ بِبِرِّكُمْ ﴾ أي : في نفس الأمر ﴿ وَلَكِنَّهُمْ قَوْمٌ يَفْرُقُونَ ﴾ أي : فهو الذي حملهم على الخلف . ﴿ لَوْ يَجِدُونَ مَلْجَأًا ﴾ أي : حصناً يتحصنون به ، وحرزاً يتحرزون به ، ﴿ أَوْ مَغَارَاتٍ ﴾ وهي التي في الجبال ﴿ أَوْ مُدْخَلًا ﴾ وهو السَّرْبُ في الأرض والنفق . قال ذلك في الثلاثة ابن عباس ، ومجاهد ، و قتادة : ﴿ لَوَلَّوْا إِلَيْهِ وَهُمْ يَجْمَحُونَ ﴾ أي : يسرعون في ذهابهم عنكم ، لأنهم إنما يخالطونكم كرها لا محبة ، وودوا أنهم لا يخالطونكم ، ولكن للضرورة أحكام ؛ ولهذا لا يزالون في هم وحزن وعم ؛ لأن الإسلام واهله لا يزال في عز ونصر ورفعة .

﴿ وَمِنْهُمْ مَن يَلْمِزُكَ فِي الصَّدَقَاتِ فَإِنْ أُعْطُوا مِنْهَا رَضُوا وَإِنْ لَمْ يُعْطَوْا مِنْهَا إِذَا هُمْ يَسْتَخْطُونَ ﴾ ﴿٥٨﴾

﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا مَا آتَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ سَيُؤْتِينَا اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَرَسُولُهُ إِنَّا إِلَى اللَّهِ رَاغِبُونَ ﴾ ﴿٥٩﴾

يقول تعالى : ﴿ وَمِنْهُمْ ﴾ أي ومن المنافقين ﴿ مَن يَلْمِزُكَ ﴾ أي : يعيب عليك ﴿ فِي ﴾ ﴿ الصَّدَقَاتِ ﴾ إذا فرقتها ، ويتهمك في ذلك ، وهم المتهمون المالبثون ، وهم مع هذا لا ينكرون للدين ، وإنما ينكرون لحظ أنفسهم ؛ ولهذا إن ﴿ أُعْطُوا مِنْهَا رَضُوا وَإِنْ لَمْ يُعْطَوْا مِنْهَا إِذَا هُمْ يَسْتَخْطُونَ ﴾ أي : يغضبون لأنفسهم . وقال قتادة في قوله : ﴿ وَمِنْهُمْ مَن يَلْمِزُكَ فِي الصَّدَقَاتِ ﴾ يقول : ومنهم من يطعن عليك في الصدقات . وهذا الذي ذكره قتادة شبيه بما رواه الشيخان عن أبي سعيد في قصة ذي الحويصرة - واسمه حرقوص - لما اعترض على النبي ﷺ حين قسم غنائم حنين ، فقال له : عدل ، فإنك لم تعدل . فقال : « لقد خبتُ وخسرتُ إن لم أكن أعدل » . ثم قال رسول الله

ﷺ وقد رآه مقفياً : «إنه يخرج من ضئضئ هذا قوم يحقر أحدكم صلاته مع صلاتهم، وصيامه مع صيامهم، يرقون من الدين مروق السهم من الرمية، فأينما لقيتموهم فاقتلوهم، فإنهم شر قتلى تحت أديم السماء» وذكر بقية الحديث (١) .

ثم قال تعالى مَبْنِيهَا لَهُمْ عَلَى مَا هُوَ خَيْرٌ مِنْ ذَلِكَ لَهُمْ، فقال : «وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا مَا آتَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ سَيُؤْتِينَا اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَرَسُولُهُ إِنَّا إِلَى اللَّهِ رَاغِبُونَ» فتضمنت هذه الآية الكريمة أدباً عظيماً وسراً شريفاً، حيث جعل الرضا بما آتاه الله ورسوله والتوكل على الله وحده، وهو قوله : «وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ» وكذلك الرغبة إلى الله وحده في التوفيق لطاعة الرسول ﷺ وامثال أوامره، وترك زواجه، وتصديق أخباره، والافتقار بآثاره.

رَبِيع ﴿ إِنَّمَا الصَّدَقَتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسْكِينِ وَالْعَمِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ فُلُؤْمِهِمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالْغَنَمِمْ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ وَأَبْنِ السَّبِيلِ فَرِيضَةً مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾

لما ذكر تعالى اعتراض المنافقين الجهلة على النبي ﷺ ولزهم إياه في قَسَمِ الصدقات، بين تعالى أنه هو الذي قسمها وبين حكمها، وتولى أمرها بنفسه، ولم يكل قَسَمَهَا إلى أحد غيره، فجزأها لهؤلاء المذكورين .

وقد اختلف العلماء في هذه الأصناف الثمانية : هل يجب استيعاب الدفع إليها أو إلى ما أمكن منها ؟ على قولين : أحدهما : أنه يجب ذلك، وهو قول الشافعي وجماعة . والثاني : أنه لا يجب استيعابها، بل يجوز الدفع إلى واحد منها، ويعطى جميع الصدقة مع وجود الباقي . وهو قول مالك وجماعة من السلف والخلف، منهم : عمر، وحذيفة، وابن عباس ، وسعيد بن جبيرة . قال ابن جرير : وهو قول عامة أهل العلم . وعلى هذا فإنما ذكرت الأصناف ها هنا لبيان المصرف لا لوجوب استيعاب الإعطاء .

وإنما قدم الفقراء ها هنا على البقية لأنهم أحوج من غيرهم على المشهور، لشدة فاقتهم وحاجتهم ، وعند أبي حنيفة أن المسكين أسوأ حالا من الفقير . وروى عن ابن عباس وغير واحد : أن الفقير : هو المتعفف الذي لا يسأل الناس شيئاً، والمسكين : هو الذي يسأل ويطوف ويتبع الناس . وقال قتادة : الفقير : من به زمانة، والمسكين : الصحيح الجسم . وقال عكرمة : لا تقولوا لفقراء المسلمين مساكين ، إنما المساكين مساكين أهل الكتاب . ولنذكر أحاديث تتعلق بكل من الأصناف الثمانية :

فَأَمَّا الْفُقَرَاءُ : فعن ابن عمرو قال : قال رسول الله ﷺ : « لا تحل الصدقة لغني ولا الذي مرَّ سَوَى » . رواه أحمد ، وأبو داود ، والترمذي (٢) .

(١) البخارى (٣٦١٠) ، ومسلم (١٠٦٤/١٤٣ ، ١٤٤) .

(٢) المسند (٦٥٣٠) وقال الشيخ أحمد شاكر : « إسناده صحيح » ، وأبو داود (١٦٣٤) ، والترمذي (٦٥٢) وقال : « حسن » ، وجاء خطأ في المطبوعة والمخطوطة الأزهرية أن الحديث من رواية « ابن عمر » .

وأما المساكين : فعن أبي هريرة ، أن رسول الله ﷺ قال : « ليس المسكين بهذا الطواف الذى يطوف على الناس ، فتردهُ اللقمة واللقمتان ، والتمرّة والتمرتان » . قالوا : فما المسكين يا رسول الله ؟ قال : « الذى لا يجدُ غنى يغنيه ، ولا يُفطنُ له فيتصدق عليه ، ولا يسأل الناس شيئاً » . رواه البخارى ومسلم (١) .

وأما العاملون عليها : فهم الجباة والسعاة ، يستحقون منها قسطاً على ذلك ، ولا يجوز أن يكونوا من أقرباء رسول الله ﷺ الذين تحرم عليهم الصدقة ، لما ثبت فى صحيح مسلم - عن عبد المطلب ابن ربيعة بن الحارث : أنه انطلق هو والفضل بن عباس يسألان رسول الله ﷺ ليستعملهما على الصدقة ، فقال : « إن الصدقة لا تحمل لمحمد ولا لآل محمد ، إنما هى أوساخ الناس » (٢) .

وأما المؤلفة قلوبهم : فأقسام : منهم من يعطى لئسلم ، كما أعطى النبى ﷺ صفوان بن أمية من غنائم حنين ، كما روى الإمام أحمد عن صفوان بن أمية قال : أعطانى رسول الله ﷺ يوم حنين ، وإنه لأبغض الناس إلى ، فما زال يعطينى حتى إنه لأحب الناس إلى . رواه مسلم والترمذى (٣) .

ومنهم من يُعطى ليحسن إسلامه ، ويثبت قلبه ، كما أعطى يوم حنين أيضاً جماعة من صناديد الطلقاء وأشرفهم : مائة من الإبل ، مائة من الإبل ، وقال : « إنى لأعطى الرجل وغيره أحب إلى منه ، مخافة أن يكبه الله على وجهه فى نار جهنم » (٤) . ومنهم من يُعطى لما يرجى من إسلام نظرائه . ومنهم من يُعطى ليجبى الصدقات ممن يليه ، أو ليدفع عن حوزة المسلمين الضرر من أطراف البلاد . وهل تعطى المؤلفة على الإسلام بعد النبى ﷺ؟ فيه خلاف ، فروى عن عمر ، والشعبى وجماعة : أنهم لا يُعطون بعده ؛ لأن الله قد أعز الإسلام وأهله ، ومكّن لهم فى البلاد ، وأذل لهم رقاب العباد . وقال آخرون : بل يُعطون ؛ لأنه ﷺ قد أعطاهم بعد فتح مكة وكسر هوازن ، وهذا أمر قد يحتاج إليه فيصرف إليهم .

وأما الرقاب : فروى عن الحسن البصرى ، ومقاتل وعمر بن عبد العزيز وغيرهم : أنهم المكاتبون ، وهو قول الشافعى . وقال ابن عباس والحسن : لا بأس أن تعتق الرقبة من الزكاة ، وهو مذهب الإمام أحمد ومالك ، وإسحاق ، أى : إن الرقاب أعم من أن يعطى المكاتب ، أو يشتري رقبة فيعتقها استقلالاً . وقد ورد فى ثواب الإعتاق وفك الرقبة أحاديث كثيرة ، وأن الله يعتق بكل عضو منها عضواً من معتقها حتى الفرج بالفرج ، وما ذاك إلا لأن الجزء من جنس العمل ﴿ وَمَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ [الصافات : ٣٩] . وعن أبي هريرة ، أن النبى ﷺ قال : « ثلاثة حق على الله عونهم : الغازى فى سبيل الله ، والمكاتب الذى يريد الأداء ، والناكح

(١) البخارى (١٤٧٩) ، ومسلم (١٠١/١-٣٩) .

(٢) المسند (٤٦٥/٦) ، ومسلم (٥٩/٢٣١٣) ، والترمذى (٦٦٦) .

(٤) البخارى (١٤٧٨) .

الذي يريد العفاف . رواه الإمام أحمد وأهل السنن إلا أبا داود (١) .

وأما الغارمون: فهم أقسام: فمنهم من تحمّل حمالة أو ضمن ديناً فلزمه فأجحف بماله، أو غرم في أداء دينه أو في معصية ثم تاب، فهؤلاء يدفع إليهم. والأصل في هذا الباب حديث قبيصة بن مخارق الهلالي قال: تحمّلت حمالة فأتيت رسول الله ﷺ أسأله فيها، فقال: «أقم حتى تأتينا الصدقة، فنأمر لك بها». قال: ثم قال: «يا قبيصة، إن المسألة لا تحل إلا لأحد ثلاثة: رجل تحمّل حمالة فحلّت له المسألة حتى يصيبها، ثم يمسك. ورجل أصابته جائحة اجتاحت ماله، فحلّت له المسألة حتى يصيب قواماً من عيش: أو قال: سداداً من عيش - ورجل أصابته فاقة حتى يقوم ثلاثة من ذوى الحج من قرابة قومه، فيقولون: لقد أصابت فلانا فاقة فحلّت له المسألة، حتى يصيب قواماً من عيش - أو قال سداداً من عيش - فما سواهن من المسألة سحت، يأكلها صاحبها سحتاً». رواه مسلم (٢) .

وأما في سبيل الله: فمنهم الغزاة الذين لا حق لهم في الديوان .

وكذلك ابن السبيل: وهو المسافر المجتاز في بلد ليس معه شيء يستعين به على سفره، فيعطى من الصدقات ما يكفيه إلى بلده وإن كان له مال. وهكذا الحكم فيمن أنشأ سفرًا من بلده وليس معه شيء، فيعطى من مال الزكاة كفايته في ذهابه وإيابه. والدليل على ذلك الآية، وما رواه الإمام أبو داود وابن ماجه عن أبي سعيد قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تحل الصدقة لغنى إلا لخمسة: العامل عليها، أو رجل اشتراها بماله، أو غارم، أو غاز في سبيل الله، أو مسكين تصدق عليه منها فأهدى لغنى» (٣) .

وقوله: ﴿فَرِيضَةٌ مِّنَ اللَّهِ﴾: أى حكماً مقدراً بتقدير الله وفرضه وقسمه ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ﴾: أى: عليم بظواهر الأمور وبواطنها وبمصلح عباده ﴿حَكِيمٌ﴾: فيما يفعله ويقوله ويشعره ويحكم به، لا إله إلا هو، ولا رب سواه.

﴿وَمِنَهُمُ الَّذِينَ يُؤْذُونَ النَّبِيَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أذُنٌ قُلٍّ أذُنٌ خَيْرٌ لَّكُمْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا مِنكُمْ وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾

يقول تعالى: ومن المنافقين قوم يؤذون رسول الله ﷺ بالكلام فيه ويقولون: ﴿هُوَ أذُنٌ﴾: أى: من قال له شيئاً صدقه فينا، ومن حدثه صدقه، فإذا جنتاه وحلفنا له صدقنا. روى معناه عن ابن عباس، ومجاهد، وقتادة. قال الله تعالى: ﴿قُلْ أذُنٌ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾: أى: هو أذن خير، يعرف الصادق من الكاذب ﴿يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾: أى: ويصدق المؤمنين ﴿وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا مِنكُمْ﴾

(١) المسند (٧٤١٠) وقال الشيخ أحمد شاكر: «إسناده صحيح»، والترمذى (١٦٥٥) وقال: «حديث حسن»، وابن ماجه (٢٥١٨) .

(٢) مسلم (١٠٩/١٠٤٤) .

(٣) أبو داود (١٦٣٥)، وابن ماجه (١٨٤١)، وصححه الألبانى .

أى: وهو حجة على الكافرين؛ ولهذا قال: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ .

﴿يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ لِيَرْضَوْكُمْ وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَنْ يُرْضَوْهُ إِنْ كَانُوا مُؤْمِنِينَ﴾ ﴿١٠﴾ أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّهُمْ مِنْ يُحَادِدِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَأَبَقَ لَهُمُ فِئَرٌ جَاهِلَةٌ خَلَدُوا فِيهَا ذَلِكَ الْخِزْيُ الْعَظِيمُ ﴿١١﴾

قال قتادة في قوله تعالى: ﴿يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ لِيَرْضَوْكُمْ﴾ الآية، قال: ذكر لنا أن رجلاً من المنافقين (١) قال: والله إن هؤلاء لخيارنا وأشرافنا، وإن كان ما يقول محمد حقاً، لهم شر من الحمير. قال: فسمعها رجل من المسلمين فقال: والله إن ما يقول محمد لحق، ولأنت أشر من الحمير. قال: فسعى بها الرجل إلى النبي ﷺ فأخبره، فأرسل إلى الرجل فدعاه فقال: «ما حملك على الذي قلت؟» فجعل يلتعن، ويحلف بالله ما قال ذلك. وجعل الرجل المسلم يقول: اللهم صدق الصادق وكذب الكاذب. فأنزل الله هذه الآية .

وقوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّهُمْ مِنْ يُحَادِدِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ أى: ألم يتحققوا ويعلموا أنه من حاد الله، أى: شاقه وحاربه وخالفه، وكان فى حدِّ والله ورسوله فى حدٍّ ﴿فَأَنْ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدًا فِيهَا﴾ أى: مهاناً معذبا، و﴿ذَلِكَ الْخِزْيُ الْعَظِيمُ﴾ أى: وهذا هو الذل العظيم، والشقاء الكبير.

﴿يَحْذَرُ الْمُنَافِقُونَ أَنْ تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُمْ بِمَا فِي قُلُوبِهِمْ قُلِ اسْتَهِزُّوا إِنَّ اللَّهَ مُخْرِجٌ مَا تُحْذَرُونَ﴾ ﴿١٤﴾

قال مجاهد: يقولون القول بينهم، ثم يقولون: عسى الله ألا يفشى علينا سرنا هذا. وهذه الآية شبيهة بقوله تعالى: ﴿وَإِذَا جَاءُوكَ حَيَّوكَ بِمَا لَمْ يُحَيِّكَ بِهِ اللَّهُ وَيَقُولُونَ فِي أَنْفُسِهِمْ لَوْلَا يُعَذِّبُنَا اللَّهُ بِمَا نَقُولُ حَسِبُوهُمْ جَهَنَّمَ يَصَلُّونَهَا فَمِنْ الْمَصِيرِ﴾ [المجادلة: ٨] وقال فى هذه الآية: ﴿قُلِ اسْتَهِزُّوا إِنَّ اللَّهَ مُخْرِجٌ مَا تُحْذَرُونَ﴾ أى: إن الله سينزل على رسوله ما يفضحكم به، ويبين له أمركم كقوله تعالى: ﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ أَنْ لَنْ يُخْرِجَ اللَّهُ أَضْغَانَهُمْ﴾ إلى قوله: ﴿وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ﴾ الآية [محمد: ٢٩، ٣٠]؛ ولهذا قال قتادة: كانت تسمى هذه السورة «الفاضحة»، فاضحة المنافقين.

﴿وَلَيْن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ قُلْ أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنْتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ﴾ ﴿١٥﴾ لَا تَقْمَدُوا قَدْ كَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ إِنْ تَعَفُّ عَن طَائِفَةٍ مِّنْكُمْ يُعَذِّبْ طَائِفَةٌ بِأَنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ ﴿١٦﴾

قال ابن إسحاق: وقد كان جماعة من المنافقين منهم ودیعة بن ثابت، أخو بنى أمية بن زيد، من بنى عمرو بن عوف، ورجل من أشجع حليف لبنى سلمة يقال له: مُحْشَن بن حُمَيْر يشيرون إلى رسول الله ﷺ وهو منطلق إلى تبوك، فقال بعضهم لبعض: اتحسبون جلاد بنى

(١) سيأتى عند شرح الآية (٧٤) من هذه السورة أنه: الجلاس بن سويد بن الصامت .

الأصفر كقتال العرب بعضهم بعضاً؟ والله لكأنا بكم غداً مقرّنين في الجبال، إرجافاً وترهيباً للمؤمنين، فقال مُحْشَنُ بن حَمِيرٍ: والله لوددتُ أنى أقاضى على أن يضرب كل رجل منا مائة جلدة، وإما نُنْفَلْتُ أن ينزل فينا قرآن لمقالتكم هذه. وقال رسول الله ﷺ - فيما بلغنى - لعمار بن ياسر: «أدرك القوم، فإنهم قد احترقوا، فاسألهم عما قالوا، فإن أنكروا فقل: بلى، قلتُم كذا وكذا». فانطلق إليهم عمار، فقال ذلك لهم، فاتوا رسول الله ﷺ يعتذرون إليه، فقال وديعة ابن ثابت، ورسول الله ﷺ واقف على راحلته، فجعل يقول وهو آخذ بحَبَّهَا: يا رسول الله، إنما كنا نخوض ونلعب، فقال مُحْشَنُ بن حَمِيرٍ: يا رسول الله، قعد بى اسمى واسم أبى. فكان الذى عفى عنه فى هذه الآية مُحْشَنُ بن حَمِيرٍ، فتسمى عبد الرحمن، وسأل الله أن يقتل شهيدا لا يعلم بمكانه، فقتل يوم اليمامة، فلم يوجد له أثر.

وقوله: ﴿لَا تَعْتَدِرُوا قَدْ كَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ﴾ أى: بهذا المقال الذى استهزأتم به ﴿إِنْ نَعْفُ عَنْ طَائِفَةٍ مِنْكُمْ نُعَذِّبُ طَائِفَةً﴾ أى: لا يعفى عن جميعكم، ولا بد من عذاب بعضهم ﴿بِأَنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ﴾ أى: مجرمين بهذه المقالة الفاجرة الخاطئة.

﴿الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ بَعْضُهُمْ مِنْ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمُنْكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾
 ﴿١٧﴾ وَعَدَّ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْكُفَّارَ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا هِيَ حَسْبُهُمْ وَلَعْنَةُ اللَّهِ وَاللَّهُمَّ عَذَابٌ مُقِيمٌ ﴿١٨﴾

يقول تعالى منكرًا على المنافقين الذين هم على خلاف صفات المؤمنين، ولما كان المؤمنون يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر، كان هؤلاء ﴿يَأْمُرُونَ بِالْمُنْكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ﴾ أى: عن الإنفاق فى سبيل الله ﴿نَسُوا اللَّهَ﴾ أى: نسوا ذكر الله ﴿فَنَسِيَهُمْ﴾ أى: عاملهم معاملة من نسيتهم، كقوله تعالى: ﴿الْيَوْمَ نَسَاكُمْ كَمَا نَسَيْتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا﴾ [الحائىة: ٣٤]، ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ أى: الخارجون عن طريق الحق، الداخلون فى طريق الضلالة.

وقوله: ﴿وَعَدَّ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْكُفَّارَ نَارَ جَهَنَّمَ﴾ أى: على هذا الصنيع الذى ذكر عنهم ﴿خَالِدِينَ فِيهَا﴾ أى: ماكثين فيها مخلدين، هم والكفار ﴿هِيَ حَسْبُهُمْ﴾ أى: كفايتهم فى العذاب ﴿وَلَعْنَةُ اللَّهِ﴾ أى: طردهم وأبعدهم ﴿وَاللَّهُمَّ عَذَابٌ مُقِيمٌ﴾.

﴿كَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْكُمْ قُوَّةً وَأَكْثَرَ أَمْوَالًا وَأَوْلَادًا فَاسْتَمْتَعُوا بِخَلْقِهِمْ فَاسْتَمْتَعْتُمْ بِخَلْقِكُمْ كَمَا اسْتَمْتَعَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ بِخَلْقِهِمْ وَخُضِعْتُمْ كَالَّذِينَ خَاضُوا أُولَئِكَ حِطَّتْ أَعْمَلُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْخَالِسُونَ﴾
 ﴿١٩﴾

يقول تعالى: أصاب هؤلاء من عذاب الله تعالى فى الدنيا والآخرة كما أصاب من قبلهم

وقوله : ﴿ بِخَلْقِهِمْ ﴾ : قال الحسن البصرى : بدنيهم . وقوله : ﴿ وَخُضْتُمْ كَالَّذِي خَاضُوا ﴾ : أى : فى الكذب والباطل ﴿ أَوْلَيْكَ حِطَّتْ أَعْمَالُهُمْ ﴾ : أى : بطلت مساعيهم ، فلا ثواب لهم عليها لأنها فاسدة : ﴿ فى الدنيا والآخرة وأولئك هم الخاسرون ﴾ ؛ لأنهم لم يحصل لهم عليها ثواب .

﴿ الَّذِينَ يَأْتِيهِمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ قَوْمٍ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَقَوْمِ إِبْرَاهِيمَ وَأَصْحَابِ مَدْيَنَ وَالْمُؤْتَفِكَاتِ أَنْتُمْ رُسُلُكُمْ يَا بَنِي إِدْرِسَ مَا كَانَ اللَّهُ لِيُظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾

يقول تعالى واعظا لهؤلاء المنافقين الكذابين للرسول : ﴿ أَلَمْ يَأْتِيهِمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ ﴾ : أى : ألم تُخبروا خبر من كان قبلكم من الأمم الكاذبة للرسول ﴿ قَوْمِ نُوحٍ ﴾ ، وما أصابهم من الغرق العام لجميع أهل الأرض ، إلا من آمن بعبدته ورسوله نوح ، عليه السلام ﴿ وَعَادَ ﴾ كيف أهلكوا بالريح العقيم ، لما كذبوا هودا ، عليه السلام ، ﴿ وَثَمُودَ ﴾ كيف أخذتهم الصيحة لما كذبوا صالحا ، عليه السلام ، وعقروا الناقة ﴿ وَقَوْمِ إِبْرَاهِيمَ ﴾ كيف نصره الله عليهم وأيده بالمعجزات الظاهرة عليهم ، وأهلك ملكهم نمرود بن كنعان لعنه الله ، ﴿ وَأَصْحَابِ مَدْيَنَ ﴾ وهم قوم شعيب ، عليه السلام ، وكيف أصابهم الرجفة والصيحة وعذاب يوم الظلة ، ﴿ وَالْمُؤْتَفِكَاتِ ﴾ قوم لوط ، وقد كانوا يسكنون فى مدائن ، وقال فى الآية الأخرى : ﴿ وَالْمُؤْتَفِكَةُ أَهْوَى ﴾ [النجم : ٥٣] ، أى : الأمة المؤتفكة ، وقيل : أم قراهم ، وهى « سدوم » . والغرض : أن الله تعالى أهلكهم عن آخرهم بتكذيبهم نبي الله لوطا ، وإتيانهم الفاحشة التى لم يسبقهم بها أحد من العالمين . ﴿ أَنْتُمْ رُسُلُكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ ﴾ : أى : بالحجج والدلائل القاطعات ﴿ فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُظْلِمَهُمْ ﴾ : أى : بإهلاكه إياهم ؛ لأنه أقام عليهم الحجة بإرسال الرسل وإزاحة العلل ﴿ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾ : أى : بتكذيبهم الرسل ومخالفتهم الحق ، فصاروا إلى ما صاروا إليه من العذاب والدمار .

﴿ وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾

لما ذكر تعالى صفات المنافقين الذميمة ، عطف بذكر صفات المؤمنين المحمودة ، فقال : ﴿ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ ﴾ : أى : يتناصرون ويتعاضدون ، كما جاء فى الصحيح : « المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضا » وشبك بين أصابعه ^(١) . وفى الصحيح أيضا : « مثل المؤمنين فى توادهم وتراحمهم ، كمثل الجسد الواحد ، إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالحلمى والسهر » ^(٢) .

وقوله : ﴿ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ ﴾ ، كقوله تعالى : ﴿ وَلَتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ ﴾ الآية [آل عمران : ١٠٤] .

(٢) البخارى (٦٠١١) ، ومسلم (٢٥٨٦/٦٦) .

(١) البخارى (٤٨١) ، ومسلم (٢٥٨٥/٦٥) .

وقوله تعالى: ﴿وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ﴾ أى: يطيعون الله ويحسنون إلى خلقه ﴿وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ أى: فيما أمر، وترك ما عنه زجر ﴿أُولَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ﴾ من اتصف بهذه الصفات ﴿إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ﴾ أى: يعز من أطاعه، فإن العزة لله ولرسوله وللمؤمنين، ﴿حَكِيمٌ﴾ فى قسمته هذه الصفات لهؤلاء، وتخصيصه المنافقين بصفاتهم المتقدمة، فإن له الحكمة فى جميع ما يفعله، تبارك وتعالى.

﴿وَعَدَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ أَكْبَرُ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾

يخبر تعالى بما أعدّه للمؤمنين به والمؤمنات من الخيرات والنعيم المقيم فى ﴿جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا﴾ أى: ماكنين فيها أبدا ﴿وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً﴾ أى: حسنة البناء، طيبة القرار، كما جاء فى الصحيحين عن عبد الله بن قيس الأشعرى قال: قال رسول الله ﷺ: «جنتان من ذهب آبيتها وما فيهما، وجنتان من فضة آبيتها وما فيهما، وما بين القوم وبين أن ينظروا إلى ربهم إلا رداء الكبرياء على وجهه فى جنة عدن» (١). وفى الصحيحين أيضا، عن أبى هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «من آمن بالله ورسوله، وأقام الصلاة وصام رمضان، فإن حقا على الله أن يدخله الجنة، هاجر فى سبيل الله، أو حبس فى أرضه التى ولد فيها». قالوا: يارسول الله، أفلا نخبر الناس؟ قال: «إن فى الجنة مائة درجة، أعدها الله للمجاهدين فى سبيله، بين كل درجتين كما بين السماء والأرض، فإذا سألتم الله فاسألوه الفردوس، فإنه أعلى الجنة وأوسط الجنة، ومنه تَفَجَّرُ أنهار الجنة، وفوقه عرش الرحمن» (٢).

وعن سهل بن سعد قال: قال رسول الله ﷺ: «إن أهل الجنة ليتراءون العُرفَةَ فى الجنة، كما ترون الكوكب فى السماء». أخرجه فى الصحيحين (٣).

وفى صحيح مسلم عن عبد الله بن عمرو بن العاص؛ أنه سمع النبى ﷺ يقول: «إذا سمعتم المؤذن فقولوا مثل ما يقول، ثم صلوا على، فإنه من صلى على صلاة واحدة صلى الله عليه بها عشرا، ثم سلوا لى الوسيلة، فإنها منزلة فى الجنة لا تنبغى إلا لعبد من عباد الله، وأرجو أن أكون أنا هو، فمن سأل لى الوسيلة حلت عليه الشفاعة يوم القيامة» (٤).

وقوله تعالى: ﴿وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ أَكْبَرُ﴾ أى: رضا الله عنهم أكبر وأجمل وأعظم مما هم فيه من النعيم، كما روى الإمام مالك عن أبى سعيد الخدرى، أن رسول الله ﷺ قال: «إن الله عز وجل، يقول لأهل الجنة: يا أهل الجنة، فيقولون: لبيك ربنا وسعديك، والخير فى يديك. فيقول: هل رضيتم؟ فيقولون: وما لنا لا نرضى يارب، وقد أعطيتنا ما لم تُعْطِ أحدا من

(١) البخارى (٤٨٧٨)، ومسلم (٢٩٦/١٨٠).

(٢) البخارى (٧٤٢٣)، ولم يعزه صاحب التحفة (٢٧٨/١٠) إلا للبخارى.

(٣) البخارى (٦٥٥٥)، ومسلم (١٠/٢٨٣٠). (٤) مسلم (١١/٣٨٤).

خلقك. فيقول: ألا أعطيكم أفضل من ذلك؟ فيقولون: يارب، وأى شيء أفضل من ذلك؟ فيقول: أحل عليكم رضوانى فلا أسخط عليكم بعده أبداً أخرجاه (١).

﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ وَمَأْوَهُمْ جَهَنَّمُ وَيَسَّرَ الْمَصِيرَ ﴿٧٣﴾ يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ مَا قَالُوا وَلَقَدْ قَالُوا كَلِمَةَ الْكُفْرِ وَكَفَرُوا بَعْدَ إِسْلَامِهِمْ وَهَمُّوا بِمَا لَمْ يَنَالُوا وَمَا نَقَمُوا إِلَّا أَنْ أَغْنَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ مِنْ فَضْلِهِ فَإِنْ يَتُوبُوا يَكُ خَيْرًا لَهُمْ وَإِنْ يَسْتَوُوا يَعَذِبُهُمُ اللَّهُ عَذَابًا أَلِيمًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمَا لَهُمْ فِي الْأَرْضِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿٧٤﴾﴾

أمر تعالى رسوله ﷺ بجهاد الكفار والمنافقين والغلظة عليهم، كما أمره بأن يخفض جناحه لمن اتبعه من المؤمنين، وأخبره أن مصير الكفار والمنافقين إلى النار في الدار الآخرة. عن أمير المؤمنين على ابن أبى طالب أنه قال: بعث رسول الله ﷺ بأربعة أسياف، سيف للمشركين: ﴿فَإِذَا نَسَلَخَ الْأَشْهُرُ الْحُرُمُ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ﴾ [التوبة: ٥] ، وسيف لكفار أهل الكتاب: ﴿قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ﴾ [التوبة: ٢٩] ، وسيف للمنافقين: ﴿جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ﴾ [التوبة: ٧٣، التحريم: ٩] ، وسيف للبعثة: ﴿فَقَاتِلُوا الَّذِينَ تَبِعُوا تَبِعِيَّ حَتَّى تَقِيءَ إِلَى أَمْرِ اللَّهِ﴾ [الحجرات: ٩] . وهذا يقتضى أنهم يجاهدون بالسيوف إذا أظهروا النفاق، وهو اختيار ابن جرير. وقال ابن عباس: أمره الله تعالى بجهاد الكفار بالسيف، والمنافقين باللسان، وأذهب الرفق عنهم. وقال الضحاك: جاهد الكفار بالسيف، واغلظ على المنافقين بالكلام، وهو مجاهدتهم . وقال الحسن وقتادة: مجاهدتهم إقامة الحدود عليهم. وقد يقال: إنه لا منافاة بين هذه الأقوال، لأنه تارة يؤاخذهم بهذا، وتارة بهذا بحسب الأحوال، والله أعلم.

وقوله: ﴿يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ مَا قَالُوا وَلَقَدْ قَالُوا كَلِمَةَ الْكُفْرِ وَكَفَرُوا بَعْدَ إِسْلَامِهِمْ﴾: قال قتادة: نزلت في عبد الله ابن أبى، وذلك أنه اقتتل رجلان: جهنى وأنصارى، فعلا الجهنى على الأنصارى، فقال عبد الله للأنصار: ألا تنصروا أخاكم؟ والله ما مثلنا ومثل محمد إلا كما قال القائل: «سمن كلبك يأكلك»، وقال: ﴿لَنْ رَجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لِيُخْرِجَنَا الْأَعْرَابُ مِنْهَا الْأَذَلَّ﴾ [المنافقون: ٨] . فسعى بها رجل من المسلمين إلى النبى ﷺ ، فأرسل إليه فسأله ، فجعل يحلف بالله ما قاله ، فأنزل الله فيه هذه الآية . وقال عروة بن الزبير: نزلت هذه الآية فى الجلّاس بن سويد بن الصامت، أقبل هو وابن امرأته مُصعب من قُباء، فقال الجلّاس: إن كان ما جاء به محمد حقا فنحن أشر من حُمُرنا هذه التي نحن عليها. فقال مُصعب: أما والله - يا عدو الله - لا أخبرن رسول الله ﷺ بما قلت: فأتيت النبى ﷺ ، وخفت أن ينزل فى القرآن، أو تصيبنى قارعة، أو أن أحلط بخطيئته، فقلت: يا رسول الله، أقبلت أنا والجلّاس من قُباء، فقال كذا وكذا، ولولا

مخافة أن أخلط بخطيئة أو تصيبنى قارعة ما أخبرتك. قال: فدعا الجلاس فقال: «يا جلاس، أقلت الذى قاله مصعب؟» فحلف، فأنزل الله: ﴿يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ مَا قَالُوا وَلَقَدْ قَالُوا كَلِمَةَ الْكُفْرِ وَكَفَرُوا بَعْدَ إِسْلَامِهِمْ﴾ الآية .

وقوله: ﴿وَهُمْ أَيْمَانًا ظَنُّوا﴾ قيل: أنزلت فى الجلاس بن سويد، وذلك أنه همّ بقتل ابن امرأته حين قال: لأخبرن رسول الله ﷺ، وقيل: فى عبد الله بن أبى، همّ بقتل رسول الله ﷺ. وقال السدى: نزلت فى أناس أرادوا أن يتوجوا عبد الله بن أبى وإن لم يرض رسول الله ﷺ. وقد ورد أن نفرا من المنافقين هموا بالفتك بالنبي ﷺ وهو فى غزوة تبوك فى بعض تلك الليالى فى حال السير وكانوا بضعة عشر رجلا. قال الضحاك: فىهم نزلت هذه الآية. وروى الإمام أحمد عن أبى الطفيل قال: لما أقبل رسول الله ﷺ من غزوة تبوك، أمر مناديا فنادى: إن رسول الله ﷺ أخذ العقبة فلا يأخذها أحد. فبينما رسول الله ﷺ يقوده حذيفة ويسوقه عمار، إذ أقبل رهط متلثمون على الرواحل فغشوا عمارا وهو يسوق برسول الله، وأقبل عمار، رضى الله عنه، يضرب وجوه الرواحل، فقال رسول الله ﷺ لحذيفة: «قد، قد» حتى هبط رسول الله ﷺ، نزل ورجع عمار، فقال: «يا عمار، هل عرفت القوم؟» فقال: قد عرفت عامة الرواحل، والقوم متلثمون. قال: «هل تدرى ما أرادوا؟» قال: الله ورسوله أعلم. قال: «أرادوا أن ينفروا برسول الله ﷺ فيطرحوه». قال: فسار عمار رجلا من أصحاب رسول الله ﷺ فقال: نشدتك بالله كم تعلم كان أصحاب العقبة؟ قال: أربعة عشر رجلا. فقال: إن كنت منهم فقد كانوا خمسة عشر. قال: فعذر رسول الله ﷺ منهم ثلاثة قالوا: والله ما سمعنا منادى رسول الله، وما علمنا ما أراد القوم. فقال عمار: أشهد أن الاثنى عشر الباقين حرب لله ولرسوله فى الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد (١).

ويشهد لهذه القصة بالصحة، ما رواه مسلم: عن أبى الطفيل قال: كان بين رجل من أهل العقبة وبين حذيفة بعض ما يكون بين الناس، فقال: أنشدك بالله، كم كان أصحاب العقبة؟ قال: فقال له القوم: أخبره إذ سألك. قال: كنا نخبر أنهم أربعة عشر، فإن كنت منهم فقد كان القوم خمسة عشر، وأشهد بالله أن اثنى عشر منهم حرب لله ولرسوله فى الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد، وعذر ثلاثة قالوا: ما سمعنا منادى رسول الله ﷺ، ولا علمنا بما أراد القوم. وقد كان فى حرة يمشى، فقال: «إن الماء قليل، فلا يسبقنى إليه أحد»، فوجد قوما قد سبقوه، فلعنهم يومئذ (٢). وما رواه مسلم أيضا عن عمار بن ياسر قال: أخبرنى حذيفة عن النبي ﷺ أنه قال: «فى أصحابى اثنا عشر منافقا، لا يدخلون الجنة، ولا يجدون ريحها حتى يلج الجمل فى سم الخياط: ثمانية تكفيهم الدُّبيلة: سراج من نار يظهر بين أكتافهم حتى ينجم من صدورهم» (٣). ولهذا كان حذيفة يقال له: «صاحب السر، الذى لا يعلمه غيره» أى: من

(١) المسند (٤٥٣/٥) وقال الهيمى فى الزوائد (١٩٥/٦): «رجال رجال الصحيح» .

(٢، ٣) مسلم (١١/٢٧٧٩) .

تعيين جماعة من المنافقين، وهم هؤلاء، قد أطلعهم عليهم رسول الله ﷺ دون غيره، والله أعلم.
 وقوله تعالى : ﴿وَمَا نَقَمُوا إِلَّا أَنْ أَغْنَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ مِنْ فَضْلِهِ﴾ أى : وما للرسول عندهم ذنب إلا أن الله أغناهم ببركته وبمن سفارته (١) ، ولو تمت عليهم السعادة لهداهم الله لما جاء به، كما قال للانصار: «لم أجدكم ضللاً فهداكم الله بى؟ وكنتم متفرقين فآلفكم الله بى؟ وعالة فأغناكم الله بى؟» كلما قال شيئاً قالوا: الله ورسوله آمن (٢) . وهذه الصيغة تقال حيث لاذب كما قال تعالى : ﴿وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلَّا أَنْ يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ﴾ الآية [البروج : ٨] .

ثم دعاهم الله تبارك وتعالى إلى التوبة فقال: ﴿فَإِنْ يَتُوبُوا يَكْ خَيْرًا لَهُمْ وَإِنْ يَتَوَلَّوْا يُعَذِّبُهُمُ اللَّهُ عَذَابًا أَلِيمًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ﴾ أى : وإن يستمروا على طريقهم ﴿يُعَذِّبُهُمُ اللَّهُ عَذَابًا أَلِيمًا فِي الدُّنْيَا﴾ أى : بالقتل والهيم والغم ﴿وَالْآخِرَةِ﴾ أى : بالعذاب والنكال والهوان والصغار ﴿وَمَا لَهُمْ فِي الْأَرْضِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾ أى : وليس لهم أحد يسعدهم ولا ينجدهم، ولا يحصل لهم خيراً، ولا يدفع عنهم شراً.

﴿وَمَنْهُمْ مَنَ عَاهَدَ اللَّهُ لَئِنْ آتَيْنَاهُ مِنْ فَضْلِهِ لَنُصَدِّقَنَّهُ وَلَنُكُونَ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾
 ﴿٧٥﴾ فَلَمَّا آتَاهُمْ مِنْ فَضْلِهِ بَخِلُوا بِهِ وَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُعْرِضُونَ ﴿٧٦﴾ فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِي قُلُوبِهِمْ إِلَى يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ بِمَا أَخْلَفُوا اللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ ﴿٧٧﴾ أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ وَأَنَّ اللَّهَ عَلَّمَهُ الْغَيْبِ ﴿٧٨﴾

يقول تعالى : ومن المنافقين من أعطى الله عهده وميثاقه : لئن أغناه من فضله ليصدقن من ماله، وليكونن من الصالحين. فما وفى بما قال، ولا صدق فيما ادعى، فأعقبهم هذا الصنيع نفاقاً سكن فى قلوبهم إلى يوم يلقون الله، عز وجل، يوم القيامة، عياداً بالله من ذلك. وقوله تعالى : ﴿بِمَا أَخْلَفُوا اللَّهَ مَا وَعَدُوهُ﴾ الآية ، أى : أعقبهم النفاق فى قلوبهم بسبب إخلافهم الوعد وكذبهم ، كما جاء فى الصحيحين ، عن رسول الله ﷺ أنه قال : « آية المنافق ثلاث : إذا حدث كذب ، وإذا وعد أخلف ، وإذا أؤتمن خان » (٣) .

وقوله : ﴿أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ﴾ الآية ، يخبر تعالى أنه يعلم السر وأخفى، وأنه أعلم بضمائرهم وإن أظهروا أنه إن حصل لهم أموال تصدقوا منها وشكروا عليها ، فإن الله أعلم بهم من أنفسهم؛ لأنه تعالى علام الغيوب، يعلم كل غيب وشهادة، وكل سر ونجوى، ويعلم ما ظهر وما بطن.

﴿الَّذِينَ يَلْمِزُونَ الْمُطَّوِّعِينَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فِي الصَّدَقَاتِ وَالَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ سَخِرَ اللَّهُ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ ﴿٧٩﴾

(١) فى المطبوعة : « سعاده » وهو تصحيف .

(٢) البخارى (٣٣) ، ومسلم (١٠٧/٥٩) .

(٣) البخارى (٤٣٣٠) .

وهذه أيضا من صفات المنافقين: لا يسلم أحد من عيهم ولمزهم فى جميع الأحوال، حتى ولا المتصدقون يسلمون منهم، إن جاء أحد منهم بمال جزيل قالوا: هذا مرء، وإن جاء بشيء يسير قالوا: إن الله لغنى عن صدقة هذا. كما روى البخارى عن أبى مسعود قال: لما نزلت آية الصدقة كنا نتحامل على ظهورنا، فجاء رجل فتصدق بشيء كثير، فقالوا: مرأى. وجاء رجل فتصدق بصاع، فقالوا: إن الله لغنى عن صدقة هذا، فنزلت ﴿الَّذِينَ يَلْمِزُونَ الْمُطَّوِّعِينَ﴾ الآية. وقد رواه مسلم (١). وقال ابن عباس فى هذه الآية: جاء عبد الرحمن بن عوف بأربعين أوقية من ذهب إلى رسول الله ﷺ وجاءه رجل من الأنصار بصاع من طعام، فقال بعض المنافقين: والله ما جاء عبد الرحمن بما جاء به إلا رياء. وقالوا: إن كان الله ورسوله لغنيين عن هذا الصاع. وقال ابن إسحاق: كان المطوعون من المؤمنين فى الصدقات: عبد الرحمن بن عوف، تصدق بأربعة آلاف درهم، وعاصم بن عدى أخا بنى العجلان، وذلك أن رسول الله ﷺ رغب فى الصدقات، وحض عليها، فقام عبد الرحمن بن عوف فتصدق بأربعة آلاف، وقام عاصم فتصدق بمائة وستى من تمر، فلمزوهما وقالوا: ما هذا إلا رياء. وكان الذى تصدق بجهدته: أبو عقيل أخو بنى أنيف الإراشى حليف بنى عمرو بن عوف، أتى بصاع من تمر فأفرغه فى الصدقة، فتضاحكوا به وقالوا: إن الله لغنى عن صاع أبى عقيل.

وقوله: ﴿فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ سَخِرَ اللَّهُ مِنْهُمْ﴾: هذا من باب المقابلة على سوء صنيعهم واستهزائهم بالمؤمنين؛ لأن الجزاء من جنس العمل، فعاملهم معاملة من سخر بهم، انتصارا للمؤمنين فى الدنيا، وأعد للمنافقين فى الآخرة عذاباً أليماً؛ لأن الجزاء من جنس العمل.

﴿اسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِنْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾

يخبر تعالى نبيه ﷺ بأن هؤلاء المنافقين ليسوا أهلاً للاستغفار، وأنه لو استغفر لهم سبعين مرة فلن يغفر الله لهم.

وقد قيل: إن السبعين إنما ذكرت حسماً لمادة الاستغفار لهم؛ لأن العرب فى أساليب كلامها تذكر السبعين فى مبالغة كلامها، ولا تريد التحديد بها، ولا أن يكون ما زاد عليها بخلافها. وقيل: بل لها مفهوم، كما روى العوفى عن ابن عباس أن رسول الله ﷺ قال لما نزلت هذه الآية: «أسمع ربي قد رخص لى فيهم، فوالله لأستغفرن أكثر من سبعين مرة، لعل الله أن يغفر لهم» فقال الله من شدة غضبه عليهم: ﴿سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ لَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾ [المنافقون: ٦].

﴿ فَرِحَ الْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خَلْفَ رَسُولِ اللَّهِ وَكَرِهُوا أَنْ يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَالُوا لَا تَنْفِرُوا فِي الْحَرِّ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا لَوْ كَانُوا يَفْقَهُونَ ﴾
 ﴿ ٨١ ﴾ فَلْيَضْحَكُوا قَلِيلًا وَلْيَبْكُوا كَثِيرًا جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿ ٨٢ ﴾

يقول تعالى ذاماً للمنافقين المتخلفين عن صحابة رسول الله ﷺ في غزوة تبوك، وفرحوا بمقعدهم بعد خروجه ﴿ وَكَرِهُوا أَنْ يُجَاهِدُوا ﴾ معه ﴿ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَالُوا ﴾ أى: بعضهم لبعض: ﴿ لَا تَنْفِرُوا فِي الْحَرِّ ﴾ وذلك أن الخروج في غزوة تبوك كان في شدة الحر، عند طيب الظلال والثمار ، فلماذا قالوا : ﴿ لَا تَنْفِرُوا فِي الْحَرِّ ﴾ قال الله تعالى لرسوله ﷺ : ﴿ قُلْ لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ ﴾ التى تصيرون إليها بسبب مخالفتكم ﴿ أَشَدُّ حَرًّا ﴾ مما فرتم منه من الحر، بل أشد حرا من النار، كما روى الإمام مالك عن أبى هريرة، أن رسول الله ﷺ قال: « نار بنى آدم التى يوقدون بها جزءٌ من سبعين جزءاً [من نار جهنم] فقالوا: يا رسول الله، إن كانت لكافية. قال: «إنها فضّلت عليها بتسعة وستين جزءاً » أخرجاه فى الصحيحين (١) . وروى الإمام أحمد عن أبى هريرة ، عن النبى ﷺ قال : « إن ناركم هذه جزء من سبعين جزءاً من نار جهنم ، وضربت بالبحر مرتين ، ولولا ذلك ما جعل الله فيها منفعة لأحد » . وهذا أيضا إسناده صحيح (٢) . وروى مسلم عن أبى سعيد الخدرى ، أن رسول الله ﷺ قال : « إن أدنى أهل النار عذابا يوم القيامة ينتعل بنعلين من نار، يغلى دماغه من حرارة نعليه » (٣) . وروى الإمام أحمد عن أبى هريرة ، عن النبى ﷺ قال: « إن أدنى أهل النار عذابا رجل يجعل له نعلان يغلى منهما دماغه » . وهذا إسناد جيد قوى، رجاله على شرط مسلم، والله أعلم (٤) .

والأحاديث والآثار النبوية فى هذا كثيرة، وقال الله تعالى فى كتابه العزيز: ﴿ كَلَّا إِنَّهَا لَأَنْزَاءٌ لِلشَّوْىِٕ ﴾ [المعارج : ١٥ ، ١٦] ، وقال تعالى: ﴿ يُصَبُّ مِنْ فَوْقِ رُءُوسِهِمُ النَّحْمِيمُ . يُصْهَرُ بِهِ مَا فِي بُطُونِهِمْ وَالْجُلُودُ . وَلَهُمْ مَقَامِعٌ مِنْ حَدِيدٍ . كُلَّمَا أَرَادُوا أَنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُوا فِيهَا وَذُوقُوا عَذَابَ النَّحْرِيقِ ﴾ [الحج : ١٩ - ٢٢] ، وقال تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا سَوْفَ نُصَلِّيهِمْ نَارًا كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ ﴾ [النساء : ٥٦] .

وقال تعالى فى هذه الآية : ﴿ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا لَوْ كَانُوا يَفْقَهُونَ ﴾ أى: لو أنهم يفقهون ويفهمون لنفروا مع الرسول فى سبيل الله فى الحر، ليتقوا به حرَّ جهنم، الذى هو أضعاف أضعاف هذا .

(١) الموطأ (٢/٩٩١)، والبخارى (٣٢٦٥)، ومسلم (٢٨٤٣/٣٠) ، وما بين المعقوفتين ليس فى المخطوطة ، وأثبتناه من المطبوعة والموطأ .

(٢) المسند (٧٣٢٣) ، وقال الشيخ أحمد شاکر : « هو بإسنادين أحدهما صحيح متصل ، والآخر مرسل ضعيف... » .

(٤) المسند (٢/٤٣٨) .

(٣) مسلم (٢١١/٣٦١) .

ثم قال تعالى جل جلاله ، متوعداً لهؤلاء المنافقين على صنيعهم هذا : ﴿فَلْيَضْحَكُوا قَلِيلاً وَتَبْكُوا كَثِيراً جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ قال ابن عباس : الدنيا قليل ، فليضحكوا فيها ما شاؤوا ، فإذا انقطعت الدنيا وصاروا إلى الله ، عز وجل ، استأنفوا بكاء لا ينقطع أبداً . وكذا قال الحسن ، وغيرهما .

﴿ فَإِنْ رَجَعَكَ اللَّهُ إِلَى طَائِفَةٍ مِنْهُمْ فَاسْتَدْتُوكَ لِلْخُرُوجِ فَقُلْ لَنْ تَخْرُجُوا مَعِيَ أَبَدًا وَلَنْ يُقَاتِلُوا مَعِيَ عَدُوًّا إِنَّكُمْ رَضِيتُمْ بِالْقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَاقْعُدُوا مَعَ الْخَائِفِينَ ﴾ ﴿٨٢﴾

يقول تعالى أمراً لرسوله ﷺ : ﴿فَإِنْ رَجَعَكَ اللَّهُ﴾ أى : ردك الله من غزوتك هذه ﴿إِلَى طَائِفَةٍ مِنْهُمْ﴾ قال قتادة : ذكر لنا أنهم كانوا اثني عشر رجلاً ﴿فَاسْتَدْتُوكَ لِلْخُرُوجِ﴾ أى : معك إلى غزوة أخرى ﴿فَقُلْ لَنْ تَخْرُجُوا مَعِيَ أَبَدًا وَلَنْ تُقَاتِلُوا مَعِيَ عَدُوًّا﴾ أى : تعزيراً لهم وعقوبة . ثم علل ذلك بقوله : ﴿إِنَّكُمْ رَضِيتُمْ بِالْقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ وهذا كقوله تعالى : ﴿وَنُقِلَبَ أَفْئِدَتُهُمْ وَأَبْصَارُهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ الآية [الانعام : ١١٠] ، فإن من جزاء السيئة السيئة بعدها كما أن ثواب الحسنة الحسنة بعدها ، كقوله فى عمرة الحديبية : ﴿سَيَقُولُ الْمُخَلَّفُونَ إِذَا انطَلَقْتُمْ إِلَى مَغَانِمٍ لِتَأْخُذُوهَا﴾ الآية [الفتح : ١٥]

وقوله تعالى : ﴿فَاقْعُدُوا مَعَ الْخَائِفِينَ﴾ قال ابن عباس : أى الرجال الذين تخلفوا عن الغزاة .

﴿ وَلَا تَصَلِّ عَلَى أَحَدٍ مِنْهُمْ مَاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَى قَبْرِهِ إِنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَمَاتُوا وَهُمْ فَاسِقُونَ ﴾ ﴿٨٤﴾

أمر الله تعالى رسوله ﷺ أن يبرأ من المنافقين ، وألا يصلى على أحد منهم إذا مات ، وألا يقوم على قبره ليستغفر له أو يدعو له ؛ لأنهم كفروا بالله ورسوله ، وماتوا عليه . وهذا حكم عام فى كل من عرف نفاقه ، وإن كان سبب نزول الآية فى عبد الله بن أبي ابن سلول رأس المنافقين ، كما روى البخارى عن ابن عمر قال : لما توفى عبد الله جاء ابنه عبد الله بن عبد الله إلى رسول الله ﷺ ، فسأله أن يعطيه قميصه يكفن فيه أباه ، فأعطاه ، ثم سأله أن يصلى عليه ، فقام رسول الله ﷺ ليصلى عليه ، فقام عمر فأخذ بثوب رسول الله ﷺ فقال : يا رسول الله ، تصلى عليه وقد نهاك ربك أن تصلى عليه؟! فقال رسول الله ﷺ : «إنما خيرنى الله فقال : «استغفر لهم أو لا تستغفر لهم إن تستغفر لهم سبعين مرة فلن يغفر الله لهم» . قال : إنه منافق ! قال : فصلى عليه رسول الله ﷺ . فأنزل الله ، عز وجل ، آية : ﴿وَلَا تَصَلِّ عَلَى أَحَدٍ مِنْهُمْ مَاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَى قَبْرِهِ﴾ . وكذا رواه مسلم (١) . ثم رواه البخارى عن عبيد الله - وهو ابن عمر العمرى - وقال : فصلى عليه ، وصلينا معه ، وأنزل الله : ﴿وَلَا تَصَلِّ عَلَى أَحَدٍ مِنْهُمْ مَاتَ أَبَدًا﴾ الآية (٢) .

(٢) البخارى (٤٦٧٢) .

(١) البخارى (٤٦٧٠) ، ومسلم (٣/٢٧٧٤) .

وهكذا رواه الإمام أحمد (١) .

وقد روى من حديث عمر بن الخطاب نفسه أيضاً بنحو من هذا، فروى الإمام أحمد عن ابن عباس قال: سمعت عمر بن الخطاب يقول لما توفى عبد الله بن [أبى] دعى رسول الله ﷺ للصلاة عليه ، فقام إليه ، فلما وقف عليه يريد الصلاة تحولت حتى قمت فى صدره ، فقلت : يا رسول الله ، أعلی عدو الله عبد الله بن [أبى] القاتل يوم كذا: كذا وكذا - يُعَدُّ أيامه - قال: ورسول الله ﷺ يتبسم، حتى إذا أكثرت عليه قال: «أخّر عنى يا عمر، إني خيّر فاخترت، قد قيل لى: ﴿اسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِنْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ﴾ [التوبة: ٨٠] ، لو أعلم أنى إن زدت على السبعين غفر له لزدت». قال: ثم صلى عليه، ومشى معه، وقام على قبره حتى فرغ منه - قال: فَعَجِبُ لى وجرأتى على رسول الله ﷺ، والله ورسوله أعلم! قال: فوالله ما كان إلا يسيراً حتى نزلت هاتان الآيتان: ﴿وَلَا تُصَلِّ عَلَى أَحَدٍ مِنْهُم مَاتَ أَبَداً وَلَا تَقُمْ عَلَى قَبْرِهِ إِنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَمَاتُوا وَهُمْ فَاسِقُونَ﴾. فما صلى رسول الله ﷺ بعده على منافق، ولا قام على قبره، حتى قبضه الله، عز وجل. وهكذا رواه الترمذى ، وقال: حسن صحيح (٢) . ورواه البخارى فذكر مثله وقال: «أخّر عنى يا عمر». فلما أكثرت عليه قال: «إني خيّر فاخترت، ولو أعلم أنى إن زدت على السبعين يُغْفَرُ (٣) له لزدت عليها». قال: فصلى عليه رسول الله ﷺ ثم انصرف، فلم يلبث إلا يسيراً حتى نزلت الآيتان من براءة: ﴿وَلَا تُصَلِّ عَلَى أَحَدٍ مِنْهُم مَاتَ أَبَداً وَلَا تَقُمْ عَلَى قَبْرِهِ﴾ الآية، فعجبت بعد من جرأتى على رسول الله ﷺ، ورسول الله ﷺ أعلم (٤) . وروى البخارى عن جابر بن عبد الله قال : أتى النبى ﷺ عبد الله بن أبى بعد ما أدخل فى قبره ، فأمر به فأخرج ، ووضع على ركبتيه ، ونفث عليه من ريقه ، وألبسه قميصه ، والله أعلم (٥) . وقد رواه أيضاً فى غير موضع مع مسلم والنسائى (٦) .

وقد ذكر بعض السلف : إنما كساه قميصه ؛ لأن عبد الله بن أبى لما قدم العباس طُلب له قميص ، فلم يُوجد على تفصيله إلا ثوب عبد الله بن أبى ؛ لأنه كان ضخماً طويلاً ، ففعل ذلك به رسول الله ﷺ ، مكافأة له ، فالله أعلم . ولهذا كان رسول الله ﷺ بعد نزول هذه الآية الكريمة عليه لا يصلى على أحد من المنافقين ، ولا يقوم على قبره ، كما روى الإمام أحمد عن عبد الله ابن أبى قتادة عن أبيه قال: كان رسول الله ﷺ إذا دعى لجنزة سأل عنها، فإن أتى عليها خيراً قام فصلى عليها، وإن أتى عليها غير ذلك قال لأهلها: «شأنكم بها» ، ولم يصل عليها (٧) .

(١) المسند (٤٦٨٠)، وقال الشيخ أحمد شاکر : «إسناده صحيح» .

(٢) المسند (٩٥) ، وقال الشيخ أحمد شاکر : «إسناده صحيح» ، والترمذى (٣٠٩٧) .

(٣) فى المطبوعة : «غفر» وفى المخطوطة : «لغفر» والمثبت من البخارى .

(٤) البخارى (٤٦٧١) . (٥) البخارى (٥٧٩٥) .

(٦) مسلم (٢٧٧٣)، والنسائى فى السنن (٤/٣٧، ٣٨) .

(٧) المسند (٢٩٩/٥)، وقال الهيمى فى الزوائد (٦/٣، ٧) : «رجالہ رجال الصحیح» .

وكان عمر بن الخطاب لا يصلى على جنازة من جهل حاله، حتى يصلى عليها حذيفة بن اليمان؛ لأنه كان يعلم أعيان منافقين، قد أخبره بهم رسول الله ﷺ؛ ولهذا كان يقال له : «صاحب السر» الذى لا يعلمه غيره أى من الصحابة.

ولما نهى الله، عز وجل، عن الصلاة على المنافقين والقيام على قبورهم للاستغفار لهم، كان هذا الصنيع من أكبر القربات فى حق المؤمنين، فشرع ذلك، وفى فعله الأجر الجزيل، لما ثبت من حديث أبى هريرة أن رسول الله ﷺ قال : « من شهد الجنازة حتى يصلى عليها فله قيراط، ومن شهدها حتى تدفن فله قيراطان ». قيل: وما القيراطان؟ قال: « أصغرهما مثل أحد » (١).

وأما القيام عند قبر المؤمن إذا مات فقد روى أبو داود عن عثمان قال : كان رسول الله ﷺ إذا فرغ من دفن الميت وقف عليه وقال : « استغفروا لأخيكم، واسألوا له التثبيت، فإنه الآن يسأل ». انفرد بإخراجه أبو داود (٢).

﴿ وَلَا تَعْبُجْكَ أَمْوَالُهُمْ وَأَوْلَادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِي الدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنْفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ ﴾

قد تقدم تفسير نظير هذه الآية الكريمة، والله الحمد (٣).

﴿ وَإِذَا أَنْزَلَتْ سُورَةٌ أَنْ آمَنُوا بِاللَّهِ وَجَاهِدُوا مَعَ رَسُولِهِ اسْتَأْذَنَكَ أُولُو الطَّوْلِ مِنْهُمْ وَقَالُوا ذَرْنَا نَكُنْ مَعَ الْمُتَعِدِينَ ﴾ ﴿٨٦﴾ رَضُوا بِأَنْ يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ وَطَمِعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ ﴾ ﴿٨٧﴾

يقول تعالى منكرأ وذاماً للمتخلفين عن الجهاد، الناكلين عنه مع القدرة عليه، ووجود السعة والطول، واستأذنوا الرسول فى القعود، وقالوا : «ذَرْنَا نَكُنْ مَعَ الْقَاعِدِينَ» ورضوا لأنفسهم بالعار والقعود فى البلد مع النساء، وهن الخوالف، بعد خروج الجيش، فإذا وقع الحرب كانوا أجبن الناس، وإذا كان أمن كانوا أكثر الناس كلاماً، كما قال تعالى، عنهم فى الآية الأخرى: «فَإِذَا جَاءَ الْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَالَّذِي يُغْشَى عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ فَإِذَا ذَهَبَ الْخَوْفُ سَلَقُوكُمْ بِالنِّسَاءِ حِدَادًا» [الاحزاب: ١٩]، أى : علت ألسنتهم بالكلام الحاد القوى فى الأمن، وفى الحرب أجبن شىء، وقال تعالى فى الآية الأخرى: « وَيَقُولُ الَّذِينَ آمَنُوا لَوْلَا نُزِّلَتْ سُورَةٌ فَإِذَا أَنْزَلَتْ سُورَةٌ مُحْكَمَةٌ وَذَكَرَ فِيهَا الْقِتَالُ رَأَيْتَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ الْمَغْشَى عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ فَأُولَئِكَ لَهُمْ طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَعْرُوفٌ فَإِذَا عَزَمَ الْأَمْرُ فَلَزَّوْا اللَّهَ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ » الآية [محمد : ٢٠، ٢١].

وقوله: «وَطَمِعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ» أى: بسبب نكولهم عن الجهاد والخروج مع الرسول فى سبيل الله، «فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ» أى: لا يفهمون ما فيه صلاح لهم في فعلوه، ولا ما فيه مضرة لهم فيجتنبوه.

(٢) أبو داود (٣٢٢١)، وصححه الالبانى .

(١) البخارى (١٣٢٥)، ومسلم (٥٣/٩٤٥).

(٣) وهى الآية (٥٥) من هذه السورة .

﴿ لَكِنِ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ جَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ وَأُوْلَآئِكَ لَهُمُ الْخَيْرَاتُ وَأُوْلَآئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٨٨﴾ اَعَدَّ اللهُ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿٨٩﴾ ﴾

لما ذكر تعالى ذم المنافقين، بين ثناء المؤمنين، وما لهم في آخرتهم، فقال: ﴿لَكِنِ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ جَاهِدُوا﴾ إلى آخر الآيتين من بيان حالهم ومآلهم. وقوله: ﴿وَأُوْلَآئِكَ لَهُمُ الْخَيْرَاتُ﴾ أي: في الدار الآخرة، في جنات الفردوس والدرجات العلى.

﴿ وَجَاءَ الْمُعَذِّرُونَ مِنَ الْأَعْرَابِ لِيُؤْذَنَ لَهُمْ وَقَعَدَ الَّذِينَ كَذَبُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ سَيُصِيبُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٩٠﴾ ﴾

ثم بين تعالى حال ذوى الأعدار فى ترك الجهاد، الذين جاؤوا رسول الله ﷺ يعتذرون إليه، ويبينون له ما هم فيه من الضعف، وعدم القدرة على الخروج، وهم من أحياء العرب ممن حول المدينة. عن ابن عباس أنه كان يقرأ: «وَجَاءَ الْمُعَذِّرُونَ» بالتخفيف، ويقول: هم أهل العذر. وهذا القول هو الأظهر فى معنى الآية؛ لأنه قال بعد هذا: ﴿وَقَعَدَ الَّذِينَ كَذَبُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ أي: لم يأتوا فيعتذروا. قال مجاهد وغيره: ﴿وَجَاءَ الْمُعَذِّرُونَ مِنَ الْأَعْرَابِ﴾ قال: نفر من بنى غفار، جاؤوا فاعتذروا فلم يُعذِّرهم الله. والقول الأول أظهر والله أعلم، لما قدمنا من قوله بعده: ﴿وَقَعَدَ الَّذِينَ كَذَبُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ أي: وقعد آخرون من الأعراب عن المجيء للاعتذار، ثم أوعدهم بالعذاب الاليم، فقال: ﴿سَيُصِيبُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾.

﴿ لَيْسَ عَلَى الضَّعْفَاءِ وَلَا عَلَى الْمَرْضَى وَلَا عَلَى الَّذِينَ لَا يَحْدُونَ مَا يُنْفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُوا لِلَّهِ وَرَسُولِهِ مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِنْ سَبِيلٍ وَاللَّهُ عَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٩١﴾ وَلَا عَلَى الَّذِينَ إِذَا مَا أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لَا أَجِدُ مَا أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوْا وَأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُوا مَا يُنْفِقُونَ ﴿٩٢﴾ إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ وَهُمْ أَغْنِيَاءُ رَضُوا بِأَنْ يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ وَطَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٩٣﴾ ﴾

ثم بين تعالى الأعدار التى لا حَرَجَ على من قعد معها عن القتال، فذكر منها ما هو لازم للشخص لا ينفك عنه، وهو الضعف فى التركيب الذى لا يستطيع معه الجهاد فى الجهاد، ومنه العمى والعرج ونحوهما، ولهذا بدأ به. ومنها ما هو عارض بسبب مرض عن له فى بدنه، شغله عن الخروج فى سبيل الله، أو بسبب فقره لا يقدر على التجهز للحرب، فليس على هؤلاء حَرَجَ إذا قعدوا ونصحوا فى حال قعودهم، ولم يرجفوا بالناس، ولم يُبْطِطوهم، وهم

محسنون في حالهم هذا ؛ ولهذا قال: ﴿ مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِنْ سَبِيلٍ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ . وقال الأوزاعي: خرج الناس للاستسقاء، فقام فيهم بلال بن سعد، فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال: يا معشر من حضر، أستم مقيرين بالإساءة؟ قالوا: اللهم نعم. فقال: اللهم، إنا نسمعك تقول: ﴿ مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِنْ سَبِيلٍ ﴾ اللهم، وقد أقرنا بالإساءة فاغفر لنا وارحمنا واسقنا. ورفع يديه ورفعوا أيديهم فسقوا. وقال ابن عباس في هذه الآية: وذلك أن رسول الله ﷺ أمر الناس أن ينبعثوا غازين معه، فجاءته عصابة من أصحابه، فيهم عبد الله بن مَعْقِلُ المِزْنِي ، فقالوا: يا رسول الله، احملنا. فقال لهم: « والله لا أجد ما أحملكم عليه ». فتولوا ولهم بكاء ، وعز عليهم أن يجلسوا عن الجهاد ، ولا يجدون نفقة ولا محملا. فلما رأى الله حرصهم على محبته ومحبة رسوله أنزل عذرهم في كتابه، فقال: ﴿ لَيْسَ عَلَى الضُّعَفَاءِ وَلَا عَلَى الْمَرْضَى وَلَا عَلَى الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يَنْفِقُونَ حَرَجٌ ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿ فهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ .

وقال ابن إسحاق في سياق غزوة تبوك: ثم إن رجالا من المسلمين أتوا رسول الله ﷺ ، وهم البكاؤون، وهم سبعة نفر من الأنصار وغيرهم، من بنى عمرو بن عوف: سالم بن عمير، وعليه بن زيد أخو بنى حارثة، وأبو ليلى عبد الرحمن بن كعب، أخو بنى مازن بن النجار ، وعمرو بن الحمام ابن الجموح أخو بنى سلمة، وعبد الله بن المغفل المِزْنِي ؛ وهَرَمَى بن عبد الله، أخو بنى واقف، وعرباض بن سارية الفزاري ، فاستحملوا رسول الله ﷺ ، وكانوا أهل حاجة، فقال: « لا أجد ما أحملكم عليه » فتولوا وأعينهم تفيض من الدمع حزنا ألا يجدوا ما ينفقون .

وروى ابن أبي حاتم عن الحسن قال: قال رسول الله ﷺ : « لقد خلفتم بالمدينة أقواما ، ما أنفقتم من نفقة، ولا قطعتم واديا، ولا نلتم من عدو نيلا إلا وقد شركوكم في الأجر، ثم قرأ: ﴿ وَلَا عَلَى الَّذِينَ إِذَا مَا اتَّوَكَّلْتُمْ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لَا أَجِدُ مَا أُحْمِلُهُمْ عَلَيْهِ ﴾ الآية. وأصل الحديث في الصحيحين : أن رسول الله ﷺ قال: « إن بالمدينة أقواما ما قطعتم واديا ، ولا سرتهم مسيرا إلا وهم معكم » . قالوا : وهم بالمدينة ؟ قال : « نعم ، حبسهم العذر » (١) . وروى الإمام أحمد عن جابر قال : قال رسول الله ﷺ : « لقد خلفتم بالمدينة رجالا ، ما قطعتم واديا ، ولا سلكتهم طريقا إلا شركوكم في الأجر ، حبسهم المرض » . رواه مسلم ، وابن ماجه (٢) .

ثم رد تعالى الملامة على الذين يستأذنون في القعود وهم أغنياء، وأنبهم في رضاهم بأن يكونوا مع النساء الخوالف في الرحال ﴿ وَطَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ .

(١) البخارى (٢٨٣٩)، ومسلم (١٥٩/١٩١١) .

(٢) المسند (٣/٣٠٠) ، ومسلم (١٥٩/١٩١١) ، وابن ماجه (٢٧٦٥) .

﴿بَعْدُ زُورٌ إِلَيْكُمْ إِذَا رَجَعْتُمْ إِلَيْهِمْ قُلْ لَا تَعْتَدُوا لَنْ تُؤْمِنَ لَكُمْ قَدْ
 بَيَّأْنَا اللَّهُ مِنْ أَخْبَارِكُمْ وَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عِلْمِ
 الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٩٤﴾ سَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ إِذَا
 انْقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لِنُعْرِضُوا عَنْهُمْ فَأَعْرِضُوا عَنْهُمْ إِنَّهُمْ رَجِسٌ وَمَآؤُهُمْ جَهَنَّمَ جَزَاءً بِمَا
 كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٩٥﴾ يَحْلِفُونَ لَكُمْ لِرِضْوَانِهِمْ فَإِنْ تَرَضُوا عَنْهُمْ فَلْيَنْ
 اللَّهُ لَا يَرْضَىٰ عَنِ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ ﴿٩٦﴾﴾

أخبر تعالى عن المنافقين بأنهم إذا رجعوا إلى المدينة أنهم يعتذرون إليهم ﴿قُلْ لَا تَعْتَدُوا لَنْ
 تُؤْمِنَ لَكُمْ﴾ أي: لن نصدقكم ﴿قَدْ بَيَّأْنَا اللَّهُ مِنْ أَخْبَارِكُمْ﴾ أي: قد أعلمنا الله أحوالكم ﴿وَسَيَرَى اللَّهُ
 عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ﴾ أي: سيظهر أعمالكم للناس في الدنيا ﴿ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا
 كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ أي: فيخبركم بأعمالكم ، خيرا وشرها ، ويجزيكم عليها . ثم أخبر عنهم
 أنهم سيحلفون معتذرين لتعرضوا عنهم فلا تؤنبوهم ﴿فَأَعْرِضُوا عَنْهُمْ﴾ احتقارا لهم ﴿إِنَّهُمْ
 رَجِسٌ﴾ أي: خبثاء نجس بواطنهم واعتقاداتهم ﴿وَمَآؤُهُمْ﴾ في آخرتهم ﴿جَهَنَّمَ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾
 أي: من الآثام والخطايا . وأخبر أنهم وإن رضوا عنهم بحلفهم لهم ﴿فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَرْضَىٰ عَنِ الْقَوْمِ
 الْفَاسِقِينَ﴾ أي: الخارجين عن طاعته وطاعة رسوله .

﴿الْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا وَأَجْدَرُ أَلَّا يَعْلَمُوا حُدُودَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ
 وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٩٧﴾ وَ مِنَ الْأَعْرَابِ مَنْ يَتَّخِذُ مَا يُنْفِقُ مَغْرَمًا وَيَتَرَبَّصُّ بِكُرِّ الدُّوَابِّ
 عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٩٨﴾ وَمِنَ الْأَعْرَابِ مَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ
 وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيَتَّخِذُ مَا يُنْفِقُ قُرْبَانًا حَتَّىٰ حَسِبَ أَنَّ الْوَسْوَءَ الرَّسُولِ أَلَّا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لَهُمْ
 سَيِّدٌ خَلَهُمُ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ إِنَّ اللَّهَ عَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٩٩﴾﴾

أخبر تعالى أن في الأعراب كفارا ومنافقين ومؤمنين، وأن كفرهم ونفاقهم أعظم من غيرهم
 وأشد، وأجدر، أي: أحرى ألا يعلموا حدود ما أنزل الله على رسوله، كما قال الأعمش عن
 إبراهيم قال: جلس أعرابي إلى زيد بن صوحان وهو يحدث أصحابه، وكانت يده قد أصيبت
 يوم نهاوند، فقال الأعرابي: والله إن حديثك ليعجبني، وإن يدك لترينني فقال زيد: ما يُريك
 من يدى؟ إنها الشمال. فقال الأعرابي: والله ما أدري، اليمين يقطعون أو الشمال؟ فقال زيد بن
 صوحان: صدق الله: ﴿الْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا وَأَجْدَرُ أَلَّا يَعْلَمُوا حُدُودَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ﴾ .

ولما كانت الغلظة والجفاء في أهل البوادي لم يبعث الله منهم رسولا، وإنما كانت البيعة
 من أهل القرى، كما قال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُوْحِي إِلَيْهِمْ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى﴾
 [يوسف: ١٠٩] . روى مسلم عن عائشة قالت: قَدِمَ نَاسٌ مِنَ الْأَعْرَابِ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَقَالُوا:

أَتَقْبَلُونَ صَبِيَانَكُمْ؟ قَالُوا: نَعَمْ. قَالُوا: وَلَكِنَّا وَاللَّهِ مَا نَقْبَلُ. فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «وَأَمَلْتُ أَنْ كَانَ اللَّهُ نَزَعَ مِنْكُمْ الرَّحْمَةَ؟» (١). وقوله: ﴿ وَاللَّهُ عَلِيمٌ ﴾ أى: عليم بمن يستحق أن يعلمه الإيمان والعلم ﴿ حَكِيمٌ ﴾ فيما قسم بين عباده من العلم والجهل والإيمان والكفر والنفاق، لا يسأل عما يفعل، لعلمه وحكمته.

وأخبر تعالى أن منهم ﴿ مَنْ يَتَّخِذُ مَا يُنْفِقُ ﴾ أى: فى سبيل الله ﴿ مَغْرَمًا ﴾ أى: غرامة وخسارة ﴿ وَيَتَرَبَّصُ بِكُمْ الدُّوَابُّ ﴾ أى: ينتظر بكم الحوادث والآفات ﴿ عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السُّوءِ ﴾ أى: هى منعكسة عليهم والسوء دائر عليهم ﴿ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ أى: سميع لدعاء عباده، عليم بمن يستحق النصر من يستحق الخذلان.

وقوله: ﴿ وَمِنَ الْأَعْرَابِ مَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيَتَّخِذُ مَا يُنْفِقُ قُرْبَاتٍ عِنْدَ اللَّهِ وَصَلَوَاتِ الرَّسُولِ ﴾: هذا هو القسم الممدوح من الأعراب، وهم الذين يتخذون ما ينفقون فى سبيل الله قربة يتقربون بها عند الله، ويتغنون بذلك دعاء الرسول لهم ﴿ أَلَا إِنَّهَا قُرْبَةٌ لَهُمْ ﴾ أى: ألا إن ذلك حاصل لهم ﴿ سَيُدْخِلُهُمُ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾.

﴿ وَالسَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴾

يخبر تعالى عن رضاه عن السابقين من المهاجرين والأنصار والتابعين لهم بإحسان، ورضاهم عنه بما أعد لهم من جنات النعيم، والنعيم المقيم. قال الشعبى: السابقون الأولون من المهاجرين والأنصار من أدرك بيعة الرضوان عام الحديبية. وقال أبو موسى الأشعري، والحسن، وقاتدة: هم الذين صلوا إلى القبليتين مع رسول الله ﷺ.

فقد أخبر الله العظيم أنه قد رضى عن السابقين الأولين من المهاجرين والأنصار والذين اتبعوهم بإحسان: فإيا ويل من أبغضهم أو سبهم أو أبغض أو سب بعضهم، ولا سيما سيد الصحابة بعد الرسول وخيرهم وأفضلهم، أعنى الصديق الأكبر والخليفة الأعظم أبا بكر بن أبى قحافة، رضى الله عنه، فإن الطائفة المخذولة من الرافضة يعادون أفضل الصحابة ويُبغضونهم ويسبونهم، عياداً بالله من ذلك. وهذا يدل على أن عقولهم معكوسة، وقلوبهم منكوسة، فأين هؤلاء من الإيمان بالقرآن، إذ يسبون من رضى الله عنهم؟ وأما أهل السنة فإنهم يترضون عن من رضى الله عنه، ويسبون من سبه الله ورسوله، ويوالون من يوالى الله، ويعادون من يعادى الله، وهم متبعون لا مبتدعون، ويقتدون ولا يبتدون ولهذا هم حزب الله المفلحون وعباده المؤمنون.

﴿ وَمِمَّنْ حَوْلَكُم مِّنَ الْأَعْرَابِ مُنْفِقُونَ وَمِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ مَرَدُوا عَلَى النِّفَاقِ لَا تَعْلَمُهُمْ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ سَنُعَذِّبُهُمْ مَّرَّتَيْنِ ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَىٰ عَذَابٍ عَظِيمٍ ﴾

يخبر تعالى رسوله ﷺ أن في أحياء العرب ممن حول المدينة منافقون، وفي أهل المدينة أيضاً منافقون ﴿مَرَدُوا عَلَى النِّفَاقِ﴾ أى: مرنوا واستمروا عليه: ومنه يقال: شيطان مريد ومارد، ويقال: تمرد فلان على الله، أى: عتا وتجبر.

وقوله: ﴿لَا تَعْلَمُهُمْ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ﴾ لا ينافى قوله تعالى: ﴿وَلَوْ نَشَاءُ لَأَرَيْنَاكُمَهُمْ فَلَعَرَفْتُمُ بِسْمَاهُمْ وَتَعَرَفْتُمُ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ﴾ الآية [محمد: ٣٠]؛ لأن هذا من باب التوسم فيهم بصفات يعرفون بها، لا أنه يعرف جميع من عنده من أهل النفاق والريب على التعيين. وقد كان يعلم أن فى بعض من يخالطه من أهل المدينة نفاقاً، وإن كان يراه صباحاً ومساءً. وقال قتادة فى هذه الآية أنه قال: ما بال أقوام يتكلفون علم الناس؟ فلان فى الجنة وفلان فى النار. فإذا سألت أحدهم عن نفسه قال: لا أدرى! لعمري أنت بنفسك^(١) أعلم منك بأحوال الناس، ولقد تكلفت شيئاً ما تكلفه الأنبياء قبلك. قال نبي الله نوح: ﴿قَالَ وَمَا عَلَّمِي بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [الشعراء: ١١٢]، وقال نبي الله شعيب: ﴿بَقِيْتُ اللَّهُ خَيْرَ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِيظٍ﴾ [هود: ٨٦]، وقال الله لنبيه ﷺ: ﴿لَا تَعْلَمُهُمْ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ﴾.

وقال مجاهد فى قوله: ﴿سَنُعَذِّبُهُمْ مُرَّتَيْنِ﴾ يعنى: القتل والسبأ، وقال - فى رواية: بالجوع، وعذاب القبر ﴿ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَىٰ عَذَابٍ عَظِيمٍ﴾. وقال ابن جرير: عذاب الدنيا، وعذاب القبر، ثم يردون إلى عذاب النار. وقال عبد الرحمن بن زيد: أما عذاب فى الدنيا فالأموال والأولاد، وقرأ قول الله: ﴿فَلَا تَعْجَبْ أَمْوَالَهُمْ وَأَوْلَادَهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِي الدُّنْيَا﴾ [التوبة: ٨٥]، فهذه المصائب لهم عذاب، وهى للمؤمنين أجر، وعذاب فى الآخرة فى النار ﴿ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَىٰ عَذَابٍ عَظِيمٍ﴾ قال: النار.

﴿وَأَخْرُونَ اعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا عَمَلًا صَالِحًا وَآخَرَ سَيِّئًا عَسَىٰ اللَّهُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّا اللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾

لما بين تعالى حال المنافقين المتخلفين عن الغزاة رغبة عنها وتكديباً وشكاً، شرع فى بيان حال المذنبين الذين تأخروا عن الجهاد كسلاً وميلاً إلى الراحة، مع إيمانهم وتصديقهم بالحق، فقال: ﴿وَأَخْرُونَ اعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ﴾ أى: أقرروا بها واعترفوا فيما بينهم وبين ربهم، ولهم أعمال آخر صالحة، خلطوا هذه بتلك، فهؤلاء تحت عفو الله وغفرانه. وهذه الآية - وإن كانت نزلت فى أناس معينين - إلا أنها عامة فى كل المذنبين الخاطئين المخلطين المتلوئين. وقال ابن عباس: ﴿وَأَخْرُونَ﴾: نزلت فى أبى لُبابة وجماعة من أصحابه، تخلفوا عن غزوة تبوك، فلما رجع النبي ﷺ من غزوته، ربطوا أنفسهم بسوارى المسجد، وحلفوا لا يحلهم إلا رسول الله ﷺ، فلما أنزل الله هذه الآية: ﴿وَأَخْرُونَ اعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ﴾ أطلقهم النبي ﷺ، وعفا عنهم.

(١) فى المطبوعة والمخطوطة: « بنصيبك » والثبت من الطبرى (٨/١١).

وروى البخارى عن سمرّة بن جندب : قال رسول الله ﷺ لنا: «أتانى الليلة آتيان فابتعثاني فانتھينا إلى مدينة مبنية بلبن ذهب ولبن فضة، فتلقانا رجال شطّر من خلقهم كأحسن ما أنت راء، وشطّر كأقبح ما أنت راء، قال لهم: اذهبوا ففَعُوا فى ذلك النهر. فوقعوا فيه، ثم رجعوا إلينا قد ذهب ذلك السوء عنهم، فصاروا فى أحسن صورة، قال لى: هذه جنة عدن، وهذا منزلك. قالوا: أما القوم الذين كانوا شطّر منهم حَسَن وشطّر منهم قبيح، فإنهم خلطوا عملاً صالحاً وآخر سيئاً، فتجاوز الله عنهم» (١).

﴿ حُذِّ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةٌ تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا وَصَلَ عَلَيْهِمُ إِنَّا صَلَوَاتِكَ سَكَنٌ لَهُمْ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٠٣﴾ أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَأْخُذُ الصَّدَقَاتِ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴿١٠٤﴾ ﴾

أمر الله تعالى رسوله ﷺ بأن يأخذ من أموالهم صدقة يطهرهم ويزكّيهم بها، وهذا عام وإن أعاد بعضهم الضمير فى «أموالهم» إلى الذين اعترفوا بذنوبهم وخلطوا عملاً صالحاً وآخر سيئاً؛ ولهذا اعتقد بعض مانعى الزكاة من أحياء العرب أن دفع الزكاة إلى الإمام لا يكون، وإنما كان هذا خاصاً بالرسول ﷺ؛ ولهذا احتجوا بقوله تعالى: ﴿ حُذِّ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةٌ ﴾ الآية، وقد ردّ عليهم هذا التأويل والفهم الفاسد الصديق أبو بكر وسائر الصحابة، وقاتلوه حتى أداوا الزكاة إلى الخليفة، كما كانوا يؤدونها إلى رسول الله ﷺ، حتى قال الصديق: والله لو منعونى عقالا - وفى رواية: عناقا - كانوا يؤدونه إلى رسول الله ﷺ لأقاتلنهم على منعه (٢).

وقوله: ﴿ وَصَلَ عَلَيْهِمْ ﴾ أى: ادع لهم واستغفر لهم، كما رواه مسلم عن عبد الله بن أبى أوفى قال: كان رسول الله ﷺ إذا أتى بصدقة قوم صلّى عليهم، فاتاه أبى بصدقته فقال: «اللهم صلّ على آل أبى أوفى» (٣). وقوله: ﴿ سَكَنٌ لَهُمْ ﴾: قال ابن عباس: رحمة لهم. وقال قتادة: وقار ﴿ وَاللَّهُ سَمِيعٌ ﴾ أى: لدعائك ﴿ عَلِيمٌ ﴾ أى: بمن يستحق ذلك منك ومن هو أهل له. وقوله: ﴿ أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَأْخُذُ الصَّدَقَاتِ ﴾: هذا تهيج إلى التوبة والصدقة اللتين كل منهما يحطّ الذنوب ويمحصها ويمحقها.

وأخبر تعالى أن كل من تاب إليه تاب عليه، ومن تصدق بصدقة من كسب حلال فإن الله تعالى يتقبلها بيمينه فيريها لصاحبها، حتى تصير التمرة مثل أحد. كما جاء بذلك الحديث، عن أبى هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله يقبل الصدقة ويأخذها بيمينه فيريها لأحدكم، كما يربى أحدكم مهره، حتى إن اللقمة لتصير مثل أحد»، وتصديق ذلك فى كتاب الله، عز وجل: ﴿ أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَأْخُذُ الصَّدَقَاتِ ﴾ وقوله: ﴿ يَمْحَقُ اللَّهُ الرَّبَا وَيُرْبِي

(٢) البخارى (٧٢٨٤ ، ٧٢٨٥).

(١) البخارى (٤٦٧٤).

(٣) مسلم (١٠٧٨ / ١٧٦).

الصَّدَقَاتِ ﴿البقرة: ٢٧٦﴾ (١) .

﴿ وَقُلْ أَعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ وَسَتُرَدُّونَ إِلَىٰ عِلْمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ ﴿١٠٥﴾

قال مجاهد: هذا وعيد من الله تعالى للمخالفين أوامره بأن أعمالهم ستعرضُ عليه تبارك وتعالى ، وعلى الرسول ﷺ ، وعلى المؤمنين . وهذا كائن لا محالة يوم القيامة ، كما قال : ﴿يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَىٰ مِنْكُمْ خَافِيَةٌ﴾ [الحاقة: ١٨] ، وقال تعالى : ﴿يَوْمَ تَبْلَى السُّرَائِرُ﴾ [الطارق: ٩] وقال : ﴿وَحَصِّلْ مَا فِي الصُّدُورِ﴾ [العاديات: ١٠] . وقال البخاري: قالت عائشة: إذا أعجبتك حُسن عمل امرئ، فقل: ﴿اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ﴾ (٢) .

وقد ورد في الحديث شبيه بهذا ، روى الإمام أحمد عن أنس ، أن رسول الله ﷺ قال : « لا عليكم أن تعجبوا بأحد حتى تنظروا بم يختم له ؟ فإن العامل يعمل زماناً من عمره - أو: برهة من دهره - بعمل صالح لو مات عليه لدخل الجنة ، ثم يتحول فيعمل عملاً سيئاً ، وإن العبد ليعمل البرهة من دهره بعمل سيئ ، لو مات عليه دخل النار ، ثم يتحول فيعمل عملاً صالحاً ، وإذا أراد الله بعبد خيراً استعمله قبل موته » . قالوا : يا رسول الله وكيف يستعمله: قال: « يوفقه لعمل صالح ثم يقضه عليه » . تفرد به أحمد من هذا الوجه (٣) .

﴿ وَآخَرُونَ مُّرْجُونَ لِمِ اللَّهِ إِمَّا يُعَذِّبُهُمْ وَإِمَّا يَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ ﴿١٠٦﴾

قال ابن عباس وغير واحد: هم الثلاثة الذين خلفوا ، أي: عن التوبة ، وهم : مرارة بن الربيع ، وكعب بن مالك ، وهلال بن أمية ، قعدوا عن غزوة تبوك في جملة من قعد ، كسلا وميلا إلى الدعة والحفظ وطيب الثمار والظلال ، لا شكا ونفاقا ، فكانت منهم طائفة رَبطوا أنفسهم بالسوارى ، كما فعل أبو ثبابة وأصحابه ، وطائفة لم يفعلوا ذلك وهم هؤلاء الثلاثة المذكورون ، فنزلت توبة أولئك قبل هؤلاء ، وأرجى هؤلاء عن التوبة حتى نزلت الآية الآتية ، وهى قوله : ﴿ لَقَدْ تَابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ ﴾ الآية [التوبة : ١١٧] ، ﴿ وَعَلَى الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ خَلَفُوا حَتَّىٰ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ﴾ الآية [التوبة : ١١٨] ، كما سيأتى بيانه في حديث كعب بن مالك .

وقوله : ﴿ إِمَّا يُعَذِّبُهُمْ وَإِمَّا يَتُوبُ عَلَيْهِمْ ﴾ أي: هم تحت عفو الله ، إن شاء فعل بهم هذا ، وإن شاء فعل بهم ذاك ، ولكن رحمته تغلب غضبه ﴿ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ أي: عليم بمن يستحق العقوبة ممن يستحق العفو، حكيم في أفعاله وأقواله، لا إله إلا هو، ولا رب سواه .

(١) الترمذى (٦٦٢) وقال : « حسن صحيح » .

(٢) البخارى معلقاً (الفتح ٥٠٣/١٣) .

(٣) المسند (٣/ ١٢٠) وقال الهيثمى فى الزوائد (٢١١/٧) : « رجاله رجال الصحيح » .

﴿ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِدًا ضُرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًا بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَادًا لِمَنْ حَارَبَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ مِنْ قَبْلُ وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا الْحَسَنَ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿١٠٧﴾ لَا تَقْعُدُوا فِيهِ أَبَدًا لِمَسْجِدٍ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَى مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَنْ تَقُومَ فِيهِ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَنْ يَتَّطَهَّرُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَهَّرِينَ ﴿١٠٨﴾ ﴾

سبب نزول هذه الآيات الكريمت: أنه كان بالمدينة قبل مقدم رسول الله ﷺ إليها رجل من الخزرج يقال له: « أبو عامر الراهب »، وكان قد تنصّر في الجاهلية وقرأ علم أهل الكتاب، وكان فيه عبادة في الجاهلية، وله شرف في الخزرج كبير. فلما قدم رسول الله ﷺ مهاجراً إلى المدينة، وصارت للإسلام كلمة عالية، وأظهرهم الله يوم بدر، شرّق اللعين أبو عامر بريقه، وبارز بالعداوة، وخرج فاراً إلى كفار مكة من مشركي قريش يمالئهم على حرب رسول الله ﷺ، فاجتمعوا بمن وافقهم من أحياء العرب، وقدموا عام أحد، فكان من أمر المسلمين ما كان، وامتنعهم الله عز وجل، وكانت العاقبة للمتقين. وكان هذا الفاسق قد حفر حفائر فيما بين الصفين، فوقع في إحداهن رسول الله ﷺ، وأصيب ذلك اليوم، فجرح في وجهه وكسرت رباعيته اليمنى السفلى، وشج رأسه ﷺ.

وتقدم أبو عامر في أول المبارزة إلى قومه من الأنصار، فخطبهم واستمالهم إلى نصره وموافقته، فلما عرفوا كلامه قالوا: لا أنعم الله بك عينا يا فاسق يا عدو الله، ونالوا منه وسبوه. فرجع وهو يقول: والله لقد أصاب قومي بعدى شر. وكان رسول الله ﷺ قد دعاه إلى الله قبل فراره، وقرأ عليه من القرآن، فأبى أن يسلم وتمرد، فدعا عليه رسول الله ﷺ أن يموت بعيداً طريداً، فنالته هذه الدعوة. وذلك أنه لما فرغ الناس من أحد، ورأى أمر الرسول ﷺ في ارتفاع وظهور، ذهب إلى هرقل، ملك الروم، يستنصره على النبي ﷺ، فوعده ومناه، وأقام عنده، وكتب إلى جماعة من قومه من الأنصار من أهل النفاق والريب يعدهم ويؤمنهم أنه سيقدم بجيش يقاتل به رسول الله ﷺ ويغلبه ويرده عما هو فيه، وأمرهم أن يتخذوا له معقلاً يقدم عليهم فيه من يقدم من عنده لأداء كتبه ويكون مرصداً له إذا قدم عليهم بعد ذلك، فشرعوا في بناء مسجد مجاور لمسجد قباء، فبنوه وأحكموه، وفرغوا منه قبل خروج النبي ﷺ إلى تبوك، وجاؤوا فسألوا رسول الله ﷺ أن يأتي إليهم فيصلى في مسجدهم، ليحتجوا بصلاته، عليه السلام، فيه على تقريره وإثباته، وذكروا أنهم إنما بنوه للضعفاء منهم وأهل العلة في الليلة الشاتية، فعصمه الله من الصلاة فيه فقال: «إنا على سفر، ولكن إذا رجعنا إن شاء الله».

فلما قفل ﷺ راجعاً إلى المدينة من تبوك، ولم يبق بينه وبينها إلا يوم أو بعض يوم، نزل عليه الوحي بخبر مسجد الضرار، وما اعتمده بانوه من الكفر والتفريق بين جماعة المؤمنين في مسجدهم مسجد قباء، الذي أسس من أول يوم على التقوى. فبعث رسول الله ﷺ إلى ذلك المسجد من هدّمه قبل مقدمه المدينة، كما قال ابن عباس في قوله: «وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِدًا ضُرَارًا»:

وهم أناس من الأنصار، ابتنوا مسجداً، فقال لهم أبو عامر، ابنوا مسجداً واستعدوا بما استطعتم من قوة ومن سلاح، فإني ذاهب إلى قيصر ملك الروم، فأتى بجند من الروم وأخرج محمداً وأصحابه. فلما فرغوا من مسجدهم أتوا النبي ﷺ فقالوا: قد فرغنا من بناء مسجدنا، فحب أن تصلى فيه وتدعو لنا بالبركة. فانزل الله، عز وجل: ﴿ لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَداً لِمَسْجِدٍ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَى مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ ﴾ إلى: ﴿ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴾ . وكذا روى عن سعيد بن جبير، ومجاهد، وعروة بن الزبير، وقتادة وغير واحد من العلماء. وقوله: ﴿ وَلِيَحْلِفُنَّ ﴾ أى: الذين بنوه ﴿ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا الْحُسْنَى ﴾ أى: ما أردناه بينانه إلا خيراً ورفقاً بالناس، قال الله تعالى: ﴿ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴾ أى: فيما قصدوا وفيما نوا، وإنما بنوه ضراراً لمسجد قباء، وكفراً بالله، وتفريقاً بين المؤمنين، وإرصاداً لمن حارب الله ورسوله، وهو أبو عامر الفاسق، الذى يقال له: «الراهب» لعنه الله. وقوله: ﴿ لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَداً ﴾: نهى من الله لرسوله ﷺ والأمة تبع له فى ذلك، عن أن يقوم فيه، أى: يصلى فيه أبداً.

ثم حثه على الصلاة فى مسجد قباء الذى أسس من أول يوم بنائه على التقوى، وهى طاعة الله، وطاعة رسوله، وجمعاً لكلمة المؤمنين ومَعقلاً وموثلاً للإسلام وأهله؛ ولهذا قال تعالى: ﴿ لِمَسْجِدٍ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَى مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَنْ تَقُومَ فِيهِ ﴾ والسياق إنما هو فى معرض مسجد قباء؛ ولهذا جاء فى الحديث الصحيح أن رسول الله ﷺ قال: « صلاة فى مسجد قباء كعمرة » (١). وفى الصحيح: أن رسول الله ﷺ كان يزور مسجد قباء راكباً و ماشياً (٢).

وقد صرح بأنه مسجد قباء جماعة من السلف: ابن عباس وعن عروة بن الزبير، وعبد الرحمن ابن زيد بن أسلم، والشعبى، والحسن البصرى، وسعيد بن جبير، وقتادة. وقد ورد فى الحديث الصحيح: أن مسجد رسول الله ﷺ الذى هو فى جوف المدينة، هو المسجد الذى أسس على التقوى. وهذا صحيح. ولا منافاة بين الآية وبين هذا؛ لأنه إذا كان مسجد قباء قد أسس على التقوى من أول يوم، فمسجد رسول الله ﷺ بطريق الأولى والأحرى؛ ولهذا روى الإمام أحمد عن سهل بن سعد الساعدى قال: اختلف رجلان على عهد رسول الله ﷺ فى المسجد الذى أسس على التقوى، فقال أحدهما: هو مسجد رسول الله ﷺ. وقال الآخر: هو مسجد قباء.

وقد قال بأنه مسجد النبي ﷺ جماعة من السلف والخلف، وهو مروى عن عمر بن الخطاب، وابنه عبد الله، وزيد بن ثابت، وسعيد بن المسيب. واختاره ابن جرير.

وقوله: ﴿ لِمَسْجِدٍ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَى مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَنْ تَقُومَ فِيهِ ﴾ فيه رجالٌ يُحِبُّونَ أَنْ يَتَّطَّهَرُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَهَّرِينَ: دليل على استحباب الصلاة فى المساجد القديمة المؤسسة من أول بنائها على عبادة الله وحده لا شريك له، وعلى استحباب الصلاة مع جماعة الصالحين، والعباد العاملين المحافظين

(١) الترمذى (٣٢٤) وقال: « حديث حسن صحيح »، وابن ماجه (١٤١١).

(٢) مسلم (٥١٥/١٣٩٩).

على إسباغ الوضوء، والتزهر عن ملابسة القاذورات.

وقال أبو العالفة فى قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَهَّرِينَ﴾: إن الطهور بالماء الحسن، ولكنهم المطهرون من الذنوب. وقال الأعمش: التوبة من الذنب، والتطهير من الشرك.

﴿أَفَمَنْ أَسَسَ بُنْيَانَهُ عَلَى تَقْوَىٰ مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٍ حَيْرٌ أَمْ مَنْ أَسَسَ بُنْيَانَهُ عَلَىٰ شَفَا جُرُفٍ هَارٍ فَانْتَهَارَ بِهِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿١٠٩﴾ لَا يَزَالُ بُنْيَانُهُمُ الَّذِي بَنَوْا رِيبَةً فِي قُلُوبِهِمْ إِلَّا أَنْ تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١١٠﴾﴾

يقول تعالى: لا يستوى من أسس بنيانه على تقوى من الله ورضوان، ومن بنى مسجدا ضرارا وكفرا وتفريقا بين المؤمنين، وإرصادا لمن حارب الله ورسوله من قبل، فإنما بنى هؤلاء بنيانهم ﴿على شفا جرف هار﴾ أى: طرف حفيرة ﴿فى نار جهنم والله لا يهذى القوم الظالمين﴾ أى: لا يصلح عمل المفسدين.

وقوله: ﴿لا يزال بنيانهم الذي بنوا ريبة في قلوبهم﴾ أى: شكا ونفاقا بسبب إقدامهم على هذا الصنيع الشنيع، أورثهم نفاقا فى قلوبهم، كما أشرب عابدين العجل حبه.

وقوله: ﴿إلا أن تقطع قلوبهم﴾ أى: بموتهم. قاله ابن عباس، ومجاهد، وقتادة، وعبد الرحمن ابن زيد بن أسلم، وغير واحد من علماء السلف. ﴿والله عليم﴾ أى: بأعمال خلقه، ﴿حكيم﴾ فى مجازاتهم عنها، من خير وشر.

﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَىٰ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنْ لَهُمُ الْجَنَّةُ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعَدَا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْبَةِ وَالْإِنجِيلِ وَالْفُرْقَانِ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ فَاسْتَبْشِرُوا بِيَعْيِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُمْ بِهِ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿١١١﴾﴾

يخبر تعالى أنه عاوض عباده المؤمنين عن أنفسهم وأموالهم إذ بذلوا فى سبيله بالجنة، وهذا من فضله وكرمه وإحسانه، فإنه قبل العوض عما يملكه بما تفضل به على عباده الطيعين له؛ ولهذا قال الحسن البصرى وقتادة: بايعهم الله فأعلى ثمنهم.

وقوله: ﴿يقاتلون فى سبيل الله فيقتلون ويقتلون﴾ أى: سواء قتلوا أو قُتلوا، أو اجتمع لهم هذا وهذا، فقد وجبت لهم الجنة؛ ولهذا جاء فى الصحيحين: «وتكفل الله لمن خرج فى سبيله، لا يخرج إلا جهاد فى سبيله، وتصديق برسلى، بأن توفاه أن يدخله الجنة، أو يرجعه إلى مسكنه الذى خرج منه، نائلا ما نال من أجر أو غنيمة» (١).

وقوله: ﴿ وَعَدَا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالْقُرْآنِ ﴾ : تأكيد لهذا الوعد، وإخبار بأنه قد كتبه على نفسه الكريمة ، وأنزله على رسله في كتبه الكبار ، وهي التوراة المنزلة على موسى ، والإنجيل المنزل على عيسى ، والقرآن المنزل على محمد، صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين .

وقوله : ﴿ وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ ﴾ فإنه لا يخلف الميعاد ، وهذا كقوله تعالى : ﴿ وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ حَدِيثًا ﴾ [النساء : ٨٧] ، ﴿ وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ قِيلًا ﴾ [النساء : ١٢٢] ؛ ولهذا قال : ﴿ فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُمْ بِهِ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴾ أى : فليستبشروا من قام بمقتضى هذا العقد ووفى بهذا العهد، بالفوز العظيم، والنعيم المقيم .

﴿ التَّكْوِينُ الْعَبِيدُونَ الْحَمِيدُونَ السَّائِحُونَ الزَّكِيمُونَ ﴾ السَّائِحُونَ الْأَمْرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّكَاهُونَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَالْحَافِظُونَ لِحُدُودِ اللَّهِ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١١٢﴾

هذا نعت المؤمنين الذين اشترى الله منهم أنفسهم وأموالهم بهذه الصفات الجميلة والخلال الجليلة ﴿ التَّائِبُونَ ﴾ من الذنوب كلها، التاركون للفواحش ﴿ الْعَابِدُونَ ﴾ أى : القائمون بعبادة ربهم محافظين عليها، وهى الأقوال والأفعال فمن أخصَّ الأقوال الحمد ؛ فلهذا قال : ﴿ الْحَامِدُونَ ﴾ ، ومن أفضل الأعمال الصيامُ ، وهو ترك الملاذِّ من الطعام والشراب والجماع ، وهو المراد بالسياحة هاهنا ؛ ولهذا قال : ﴿ السَّائِحُونَ ﴾ ، كما وصف أزواج النبي ﷺ بذلك فى قوله تعالى : ﴿ سَائِحَاتٌ ﴾ [التحریم : ٥] ، أى : صائمات، وكذا الركوع والسجود، وهما عبارة عن الصلاة، ولهذا قال : ﴿ الرَّائِعُونَ السَّاجِدُونَ ﴾ وهم مع ذلك يتفنون خلق الله، ويرشدونهم إلى طاعة الله بأمرهم بالمعروف ونهيهم عن المنكر، مع العلم بما ينبغى فعله ويجب تركه، وهو حفظ حدود الله فى تحليله وتحريمه، علما وعملا، فقاموا بعبادة الحق ونصح الخلق؛ ولهذا قال : ﴿ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ لأن الإيمان يشمل هذا كله، والسعادة كل السعادة لمن اتصف به . قال عبد الله بن مسعود : ﴿ السَّائِحُونَ ﴾ : الصائمون . وكذا روى عن ابن عباس . وهكذا قال مجاهد، وسعيد بن جبیر، وعطاء، وغيرهم : أن المراد بالسائحين : الصائمون . وهذا أصح الأقوال وأشهرها، وجاء ما يدل على أن السياحة الجهاد، وهو ما روى أبو داود فى سنته، من حديث أبى أمامة أن رجلا قال : يا رسول الله، ائذن لى فى السياحة . فقال النبي ﷺ : « سياحة أمتى الجهاد فى سبيل الله » (١) .

وليس المراد من السياحة ما قد يفهمه بعض من يتعبد بمجرد السياحة فى الأرض، والتفرد فى شواحق الجبال والكهوف والبرارى، فإن هذا ليس بمشروع إلا فى أيام الفتن والزلازل فى الدين، كما ثبت فى صحيح البخارى، عن أبى سعيد الخدرى أن رسول الله ﷺ قال : « يوشك أن يكون خير مال الرجل غَنَمٌ يَتَّبِعُ بِهَا شَعَفَ الْجِبَالِ، ومواقع القطر، يفر بدينه من الفتن » (٢) . وقال ابن عباس فى قوله : ﴿ وَالْحَافِظُونَ لِحُدُودِ اللَّهِ ﴾ قال : القائمون بطاعة الله . وكذا قال الحسن البصرى ،

وعنه رواية : ﴿ وَالْحَافِظُونَ لِحُدُودِ اللَّهِ ﴾ قال : لفرائض الله ، وفي رواية : القائمون على أمر الله .

﴿ مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أَوْلِيٰ قُرْبَىٰ مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّ لَهُمْ أَنَّهَا مَعَدَّةٌ وَأُولَئِكَ يَلْمِزُونَكَ بِمَا عَدَّتْهُمْ آبَاءُهُمْ مِنْ قَبْلُ وَأُولَئِكَ ظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴾ [١١٣] وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَنْ مَوْعِدَةٍ وَعَدَّهَا إِتْيَاءَهُ فَمَا بَيَّنَّ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ تَبَرًّا مِنْهُ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ ﴿ [١١٤]

روى الإمام أحمد عن ابن المسيب ، عن أبيه قال : لما حَضَرَت أبا طالب الوفاة ، دخل عليه النبي ﷺ وعنده أبو جهل ، وعبد الله بن أبي أمية ، فقال : «أى عمّ ، قل : لا إله إلا الله . كلمة أحاجّ لك بها عند الله ، عز وجل . فقال أبو جهل وعبد الله بن أبي أمية : يا أبا طالب ، أترغب عن ملة عبد المطلب ؟ [فقال : أنا على ملة عبد المطلب] . فقال النبي ﷺ : «لاستغفرن لك ما لم أنه عنك» . فنزلت : ﴿ مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أَوْلِيٰ قُرْبَىٰ مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّ لَهُمْ أَنَّهَا مَعَدَّةٌ وَأُولَئِكَ يَلْمِزُونَكَ بِمَا عَدَّتْهُمْ آبَاءُهُمْ مِنْ قَبْلُ وَأُولَئِكَ ظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴾ ، قال : ونزلت فيه : ﴿ إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ ﴾ [القصص : ٥٦] أخرجاه (١) .

وقال ابن عباس في هذه الآية : كانوا يستغفرون لهم ، حتى نزلت هذه الآية ، فلما نزلت أمسكوا عن الاستغفار لأمواتهم ، ولم ينههم أن يستغفروا للأحياء حتى يموتوا ، ثم أنزل الله : ﴿ وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ ﴾ الآية . وقال سعيد بن جبير : مات رجل يهودى وله ابن مسلم ، فلم يخرج معه ، فذكر ذلك لابن عباس فقال : فكان ينبغي له أن يمشى معه ويدفنه ، ويدعو له بالصلاح ما دام حيا ، فإذا مات وكّله إلى شأنه ثم قال : ﴿ وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَنْ مَوْعِدَةٍ وَعَدَّهَا إِتْيَاءَهُ فَمَا بَيَّنَّ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ تَبَرًّا مِنْهُ ﴾ لم يدع . وشهد له بالصححة ما رواه أبو داود وغيره ، عن علي بن أبي طالب قال : لما مات أبو طالب قلت : يا رسول الله ، إن عمك الشيخ الضال قد مات . قال : «أذهب فواره ولا تحذثن شيئا حتى تأتيني» . فذكر تمام الحديث (٢) .

وقوله : ﴿ فَلَمَّا بَيَّنَّ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ تَبَرًّا مِنْهُ ﴾ قال ابن عباس : ما زال إبراهيم يستغفر لأبيه حتى مات ، فلما تبين له أنه عدو لله تبرأ منه . وفي رواية : لما مات تبين له أنه عدو لله . وكذا قال مجاهد ، والضحاك ، وقتادة ، وغيرهم .

وقوله : ﴿ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ ﴾ قال عبد الله بن مسعود : الأواه : الدعاء . وقال قتادة : إنه الرحيم ، أى : بعباد الله . وقال ابن عباس : المؤمن التواب . وقال العوفي عنه : هو المؤمن بلسان الحبشة . وعن مجاهد : الأواه : الحفيظ الوجل ، يذنب الذنب سرا ، ثم يتوب منه سرا . قال ابن

(١) المسند (٥٣٣/٥) والبخارى (٤٦٧٥) ، ومسلم (٣٩/٢٤) ، وما بين المعوقتين من المطبوعة والمسند ، وليس فى المخطوطة .

(٢) أبو داود (٣٢١٤) ، وصححه الألبانى .

جرير: وأولى الأقوال قول من قال: إِنَّهُ الدَّعَاءُ، وهو المناسب للسياق، وذلك أن الله تعالى لما ذكر أن إبراهيم إنما استغفر لأبيه عن موعدة وعدها آياه، وقد كان إبراهيم كثير الدعاء حلوماً عن ظلمه وأناله مكروهاً؛ ولهذا استغفر لأبيه مع شدة أذاه في قوله: ﴿ قَالَ سَلَامٌ عَلَيْكَ مَا سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيًّا ﴾ [مريم: ٤٧]، فحلم عنه مع أذاه له، ودعا له واستغفر؛ ولهذا قال تعالى: ﴿ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ ﴾ .

﴿ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَهُمْ حَتَّىٰ بَِيِّنَ لَهُم مَّا يَتَّقُونَ ۚ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿١١٥﴾ إِنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿١١٦﴾ ﴾

يقول تعالى مخبراً عن نفسه الكريمة وحكمه العادل: إنه لا يضل قوماً إلا بعد إبلاغ الرسالة إليهم، حتى يكونوا قد قامت عليهم الحجة، كما قال تعالى: ﴿ وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ ﴾ الآية [فصلت: ١٧] . قال ابن جرير: يقول الله تعالى: وما كان الله ليقضى عليكم في استغفاركم لموتاكم المشركين بالضلال بعد إذ رزقكم الهداية ووقفكم للإيمان به وبرسوله، حتى يتقدم إليكم بالنهاي عنه فتركوا، فأما قبل أن يبين لكم كراهيته ذلك بالنهاي عنه، ثم تتعدوا نهيه إلى ما نهاكم عنه، فإنه لا يحكم عليكم بالضلال، فإن الطاعة والمعصية إنما يكونان من المأمور والمنهى، وأما من لم يؤمر ولم ينه فغير كائن مطعياً أو عاصياً فيما لم يؤمر به ولم ينه عنه .

وقوله: ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴾ : قال ابن جرير: هذا تحريض من الله تعالى لعباده المؤمنين في قتال المشركين وملوك الكفر، وأن يثقوا بنصر الله مالك السموات والأرض، ولا يرهبوا من أعدائه فإنه لا ولي لهم من دون الله، ولا نصير لهم سواه. وقال كعب الأحبار: ما من موضع خرمة إبرة من الأرض إلا وملك موكل بها، يرفع علم ذلك إلى الله، وإن ملائكة السماء لأكثر من عدد التراب، وإن حملة العرش ما بين كعب أحدهم إلى مَحَّة مسيرة مائة عام .

﴿ لَقَدْ تَابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ مِنْ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبَ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُ بِهِمْ رءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١١٧﴾ ﴾

قال مجاهد وغير واحد: نزلت هذه الآية في غزوة تبوك، وذلك أنهم خرجوا إليها في شدة من الأمر في سنة مُجْدَبة وحر شديد، وعسر من الزاد والماء. وقال قتادة: خرجوا إلى الشام عام تبوك في لَهْبَان الحر، على ما يعلم الله من الجهد، أصابهم فيها جهد شديد، حتى لقد ذكر لنا أن الرجلين كانا يشقان التمرة بينهما، وكان النفر يتداولون التمرة بينهم، يمصها هذا، ثم يشرب عليها، ثم يمصها هذا، ثم يشرب عليها، فتاب الله عليهم وأفضلهم من غزوتهم. وروى

ابن جرير عن عمر بن الخطاب قال : خرجنا مع رسول الله ﷺ إلى تبوك في قيظ شديد ، فزلنا منزلاً ، فأصابنا فيه عطش ، حتى ظننا أن رقابنا ستنقطع ، حتى إن الرجل لينحر بعيره فيعصر قرته فيشربه ، ويجعل ما بقى على كبده ، فقال أبو بكر الصديق : يا رسول الله ، إن الله عز وجل ، قد عودك في الدعاء خيراً ، فادع لنا . قال : « تحب ذلك » ؟ . قال : نعم ! فرفع يديه فلم يرجعهما حتى مالت السماء فأظلمت ثم سكبت ، فملؤوا ما معهم ، ثم ذهبنا نظنر فلم نجدها جاوزت العسكر (١) .

وقال ابن جرير في قوله : ﴿ لَقَدْ تَابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْمُسْرَةِ ﴾ أى : من النفقة والظهر والزاد والماء ﴿ مِنْ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبَ فُرَيْقٍ مِنْهُمْ ﴾ أى : عن الحق ويشك في دين رسول الله ﷺ ويرتاب ، بالذى نالهم من المشقة والشدة في سفره وغزوه ﴿ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ ﴾ يقول : ثم رزقهم الإنابة إلى ربهم ، والرجوع إلى الثبات على دينه ﴿ إِنَّهُ بِهِمْ رَءُوفٌ رَحِيمٌ ﴾ .

﴿ وَعَلَى الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ خَلَفُوا حَتَّىٰ إِذَا صَافَتْ عَلَيْهِمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَصَافَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ وَظَنُّوا أَن لَّا مَلْجَأَ مِنَ اللَّهِ إِلَّا إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَسْتُوْبُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ ﴿١١٨﴾

روى الإمام أحمد عن عبد الله بن كعب بن مالك قال : سمعت كعب بن مالك يحدث حديثه حين تخلف عن رسول الله ﷺ في غزوة تبوك ، فقال كعب بن مالك : لم أتخلف عن رسول الله ﷺ في غزاة غزاها قط إلا في غزاة تبوك ، غير أنى كنت تخلفت في غزاة بدر ، ولم يعاتب أحدٌ تخلف عنها ، وإنما خرج رسول الله ﷺ يريد غير قريش ، حتى جمع الله بينهم وبين عدوهم على غير ميعاد ، ولقد شهدت مع رسول الله ﷺ ليلة العقبة حين توافقنا على الإسلام ، وما أحب أن لى بها مشهد بدر ، وإن كانت بدر أذكر في الناس منها وأشهر ، وكان من خبرى حين تخلفت عن رسول الله ﷺ في غزوة تبوك أنى لم أكن قط أقوى ولا أيسر منى حين تخلفت عنه في تلك الغزاة ، والله ما جمعت قبلها راحلتين قط حتى جمعتهما في تلك الغزاة ، وكان رسول الله ﷺ قلماً يريد غزوة يغزوها إلا ورى بغيرها ، حتى كانت تلك الغزوة فغزاها رسول الله ﷺ في حرٍّ شديد ، واستقبل سفراً بعيداً ومفاوز ، وعدوا كثيراً ، فجلى للمسلمين أمرهم ليتأهبوا أهبة عدوهم ، فأخبرهم وجهه الذى يريد ، والمسلمون مع رسول الله ﷺ كثير ، لا يجمعهم كتاب حافظ - يريد الديوان - فقال كعب : فقل رجل يريد أن يتغيب إلا ظن أن ذلك سيخفى له ما لم ينزل فيه وحى من الله ، عز وجل ، وغزا رسول الله ﷺ تلك الغزاة حين طابت شمار والظل ، وأنا إليها أصعر . فتجهز إليها رسول الله ﷺ والمؤمنون معه ، وطفقت أغدو لكى أتجهز معهم ، فأرجع ولم أقض من جهازى شيئاً ، فأقول لنفسى : أنا قادر

(١) ابن جرير فى التفسير (١١/٤٠) . ورواه الحاكم فى المستدرک (١/١٥٩) ، وقال : « حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه » .

على ذلك إذا أردت، فلم يزل ذلك يتمادى بى حتى استمر بالناس الجِدِّ، فأصبح رسول الله ﷺ غاديا والمسلمون معه، ولم أقض من جهازى شيئا، وقلت: الجهاز بعد يوم أو يومين ثم ألحقه . فغدوت بعدما فصلوا لأتجهز، فرجعت ولم أقض شيئا من جهازى. ثم غدوت فرجعت ولم أقض شيئا، فلم يزل ذلك يتمادى بى حتى أسرعوا وتفارط الغزو، فهمت أن أرتحل فأدرتهم - وليت أتى فعلت - ثم لم يقدر ذلك لى، فطفقت إذا خرجتُ فى الناس بعد رسول الله ﷺ يحزننى ألا أرى إلا رجلا مغموصا عليه فى النفاق، أو رجلا بمن عذره الله، عز وجل، ولم يذكرنى رسول الله ﷺ حتى بلغ تبوك، فقال وهو جالس فى القوم بتبوك: «ما فعل كعب بن مالك؟» قال رجل من بنى سلمة: حبسه يارسول الله برُداءه، والنظر فى عطفه. فقال له معاذ بن جبل: بشما قلت! والله يا رسول الله ما علمنا عليه إلا خيرا! فسكت رسول الله ﷺ قال كعب بن مالك: فلما بلغنى أن رسول الله ﷺ قد توجَّه قافلا من تبوك حضرنى بئى، فطفقت أتذكر الكذب، وأقول: بماذا أخرج من سخطه غدا؟ أستعين على ذلك كلِّ ذى رأى من أهلى. فلما قيل: إن رسول الله ﷺ قد أظلمَ قادمًا، زاح عنى الباطل وعرفت أنى لم أتج منه بشيء أبدا. فأجمعتُ صدقه، وصبَّح رسول الله ﷺ، وكان إذا قدم من سفر بدأ بالمسجد فركع فيه ركعتين، ثم جلس للناس. فلما فعل ذلك جاءه المتخلفون فطفقوا يعتذرون إليه ويحلفون له - وكانوا بضعة وثمانين رجلا - فقبل منهم رسول الله ﷺ علانيتهم ويستغفر لهم، ويكل سرائرهم إلى الله تعالى، حتى جئت، فلما سلَّمت عليه تبسَّم تبسِّم الغضب، ثم قال لى: «تعال»، فجئت أمشى حتى جلستُ بين يديه، فقال لى: «ماخلفك، ألم تك قد اشترت ظهرك؟» قال: فقلت: يارسول الله، إنى لو جلست عند غيرك من أهل الدنيا لرأيت أن أخرج من سخطه بعذر، لقد أعطيتُ جدلا، ولكنه والله لقد علمتُ لئن حَدَّثتكَ اليوم حديث كذب ترضى به عنى، ليوشكن الله بسُخطك على، ولئن حدثتكَ بصدق تجدُّ علىَّ فيه، إنى لأرجو أقرب عقيبى ذلك من الله، عز وجل، والله ما كان لى عذر، والله ما كنت قط أفرغ ولا أيسر منى حين تخلفت عنك. قال: فقال رسول الله ﷺ: «أما هذا فقد صدق، فقم حتى يقضى الله فىك». فممت وبادرنى رجال من بنى سلمة واتبعونى، فقالوا لى: والله ما علمناك كنت أذنبت ذنبا قبل هذا، ولقد عجزتُ ألا تكون اعتذرت إلى رسول الله ﷺ بما اعتذر به المتخلفون، فقد كان كافيك من ذنبك استعفار رسول الله ﷺ لك. قال: فوالله ما زالوا يؤثبونى حتى أردت أن أرجع فأكذب نفسى: قال: ثم قلت لهم: هل لقى هذا معى أحد؟ قالوا: نعم، لقيه معك رجلان، قالا ما قلت، وقيل لهما مثل ما قيل لك. قلت: فمن هما؟ قالوا: مرارة بن الربيع العامرى، وهلال بن أمية الواقفى. فذكروا لى رجلين صالحين قد شهدا بدرا لى فيهما أسوة. قال: فمضيت حين ذكروهما لى - قال: ونهى رسول الله ﷺ المسلمين عن كلامنا - أيها الثلاثة - من بين من تخلف عنه، فاجتنبنا الناس وتغيروا لنا، حتى تنكرت لى فى نفسى الأرض، فما هى بالأرض التى كنت أعرف، فليثنا على ذلك خمسين ليلة. فأما صاحبى فاستكانا وقعدا فى

بيوتهما بيكيان، وأما أنا فكننت أشب القوم وأجلدهم، فكننت أشهد الصلاة مع المسلمين، وأطوف بالأسواق، فلا يكلمني أحد، وأتى رسول الله ﷺ وهو في مجلسه بعد الصلاة فأسلم، وأقول في نفسي: حرك شفتيه برد السلام على أم لا؟ ثم أصلى قريبا منه، وأسارقه النظر، فإذا أقبلت على صلاتي نظر إلي، فإذا التفت نحوه أعرض، حتى إذا طال على ذلك من هجر المسلمين مشيت حتى تسورت حائط أبي قتادة - وهو ابن عمي، وأحب الناس إلي - فسلمت عليه، فوالله ما رد علي السلام، فقلت له: يا أبا قتادة، أنشدك الله: هل تعلم أني أحب الله ورسوله؟ قال: فسكت. قال: فعدت فشدته فسكت، فعدت فشدته، فقال: الله ورسوله أعلم. قال: ففاضت عيناى وتوليت حتى تسورت الجدار. فبينما أنا أمشى بسوق المدينة إذا نبطي من أنباط الشام، ممن قدم بطعام يبيعه بالمدينة يقول: من يدل على كعب بن مالك؟ قال: فطفق الناس يشيرون له إلي، حتى جاء فدفع إلي كتابا من ملك غسان، وكنت كاتباً، فإذا فيه: أما بعد، فقد بلغنا أن صاحبك قد جفاك ولم يجعلك الله بدار هوان ولا مضيعة، فالحق بنا نواسك. قال: فقلت حين قرأتها: وهذا أيضاً من البلاء. قال: فتيممت به التنور فسجرت به، حتى إذا مضت أربعون ليلة من الخمسين، إذا برسول رسول الله ﷺ يأتيني، فقال: إن رسول الله ﷺ يأمرك أن تعتزل امرأتك. قال: فقلت: أطلقها أم ماذا أفعل؟ قال: بل اعتزلها ولا تقربها. قال: وأرسل إلي صاحبي بمثل ذلك، قال: فقلت لامرأتي: الحقى بأهلك، فكوني عندهم حتى يقضى الله في هذا الأمر. قال: فجاءت امرأة هلال بن أمية رسول الله ﷺ فقالت له: يا رسول الله، إن هلالاً شيخ ضائع ليس له خادم، فهل تكره أن أخدمه؟ قال: لا، ولكن لا يقربنك، قالت: وإنه والله ما به حركة إلى شيء، والله ما يزال بيكي من لدن أن كان من أمرك ما كان إلى يومه هذا. قال: فقال لي بعض أهلي: لو استأذنت رسول الله ﷺ في امرأتك، فقد أذن لامرأة هلال بن أمية أن تخدمه. قال: فقلت: والله لا أستأذن فيها رسول الله ﷺ، وأما أدرى ما يقول رسول الله ﷺ إذا استأذنته وأنا رجل شاب؟ قال: فلبثنا بعد ذلك عشر ليال، فكمّل لنا خمسون ليلة من حين نهى عن كلامنا قال: ثم صليت صلاة الفجر صباح خمسين ليلة على ظهر بيت من بيوتنا، فبينما أنا جالس على الحال التي ذكر الله تعالى منا: قد ضاقت على نفسي، وضاقت على الأرض بما رحبت، سمعت صارخاً أوفى على جبل سلع يقول بأعلى صوته: يا كعب بن مالك، أبشر. قال: فخررت ساجداً، وعرفت أن قد جاء الفرج من الله عز وجل بالتوبة علينا، فأذن رسول الله ﷺ بتوبة الله علينا حين صلى الفجر، فذهب الناس يشروننا، وذهب قبل صاحبي مبشرون، وركض إلى رجل فرساً، وسعى ساع من أسلم وأوفى على جبل، فكان الصوت أسرع من الفرس. فلما جاءني الذي سمعت صوته يبشرنى، نزعت له ثوبي، فكسوتهما إياه ببشارته، والله ما أملك غيرهما يومئذ، واستعرت ثوبين فلبستهما، وانطلقت أوم رسول الله ﷺ، يلقاني الناس فوجاً فوجاً يهتئونى بالتوبة، يقولون: ليهنك توبة الله عليك. حتى دخلت المسجد، فإذا رسول الله ﷺ جالس في المسجد

حواله الناس، فقام إلى طلحة بن عبيد الله يهرول، حتى صافحنى وهنأتى، والله ما قام إلى رجل من المهاجرين غيره، قال: فكان كعب لا ينساها لطلحة. قال كعب: فلما سلمت على رسول الله ﷺ قال وهو يبرق وجهه من السرور: «أبشر بخير يوم مرّ عليك منذ ولدتك أمك». قال: قلت: أمن عندك يارسول الله أم من عند الله؟ قال: «لا، بل من عند الله». قال: وكان رسول الله ﷺ إذا سرّ استنار وجهه حتى كأنه قطعة قمر، حتى يعرف ذلك منه. فلما جلست بين يديه قلت: يارسول الله، إن من توبتى أن أنخلع من مالى صدقة إلى الله وإلى رسوله. قال: «أمسك عليك بعض مالك، فهو خير لك». قال: فقلت: فإنى أمسك سهمى الذى بخير. وقلت: يا رسول الله، إنما نجانى الله بالصدق، وإن من توبتى ألا أحدث إلا صدقا ما بقت. قال: فوالله ما أعلم أحدا من المسلمين أبلاه الله من الصدق فى الحديث منذ ذكرت ذلك لرسول الله ﷺ أحسن مما أبلانى الله تعالى، والله ما تعدت كذبة منذ قلت ذلك لرسول الله ﷺ إلى يومى هذا، وإنى لأرجو أن يحفظنى الله فيما بقى. قال: وأنزل الله تعالى: ﴿لَقَدْ تَابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ مِنْ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبَ فَرِيقٍ مِنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُ بِهِمْ رَءُوفٌ رَحِيمٌ. وَعَلَى الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ خَلَفُوا حَتَّىٰ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنْفُسُهُمْ وَظَنُّوا أَنْ لَا مَلْجَأَ مِنَ اللَّهِ إِلَّا إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ. يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ﴾. قال كعب: فوالله ما أنعم الله على من نعمة قط بعد أن هدانى للإسلام أعظم فى نفسى من صدقى رسول الله ﷺ يومئذ إلا أكون كذبتة فأهلك كما هلك الذين كذبوه؛ فإن الله تعالى قال للذين كذبوه حين أنزل الوحي شر ما قال لأحد، فقال الله تعالى: ﴿سَيَخْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ إِذَا انْقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لَتَرْضَوْنَ عَنْهُمْ فَأَعْرِضُوا عَنْهُمْ إِنَّهُمْ رَجِسٌ وَمَآءُهُمْ جَهَنَّمَ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ. يَخْلِفُونَ لَكُمْ لَتَرْضَوْنَ عَنْهُمْ فَإِن تَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنَّا لَنَرْضَىٰ عَنِ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ﴾ [التوبة: ٩٥، ٩٦]. قال: وكنا خلفنا - أيها الثلاثة - عن أمر أولئك الذين قبل منهم رسول الله ﷺ حين حلفوا، فبايعهم واستغفر لهم، وأرجأ رسول الله أمرنا، حتى قضى الله فيه، فذلك قال الله عز وجل: ﴿وَعَلَى الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ خَلَفُوا﴾، وليس تخليفه إيانا وإرجاؤه أمرنا الذى ذكر مما خلفنا بتخلفنا عن الغزو، وإنما هو عمن حلف له واعتذر إليه، فقبل منه. رواه البخارى ومسلم بنحوه (١).

ولما ذكر تعالى ما فرّج به عن هؤلاء الثلاثة من الضيق والكره، من هجر المسلمين إياهم نحواً من خمسين ليلة بأيامها، وضاقت عليهم أنفسهم، وضاقت عليهم الأرض بما رحبت، أى: مع سعتها، فسددت عليهم المسالك والمذاهب، فلا يهتدون ما يصنعون، فصبروا لأمر الله، واستكانوا لأمر الله، وثبتوا حتى فرج الله عنهم بسبب صدقهم رسول الله ﷺ فى تخلفهم، وأنه كان عن غير عذر، فعوقبوا على ذلك هذه المدة، ثم تاب الله عليهم، فكان عاقبة صدقهم خيرا لهم وتوبة عليهم؛ ولهذا قال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ﴾، أى: اصدقوا والزموا الصدق تكونوا مع أهله وتنجوا من المهالك ويجعل لكم فرجا من أموركم، ومخرجا،

وقد روى الإمام أحمد عن عبد الله بن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ: «عليكم بالصدق؛ فإن الصدق يهدى إلى البر وإن البر يهدى إلى الجنة، وما يزال الرجل يصدق ويتحرى الصدق حتى يكتب عند الله صديقا، وإياكم والكذب، فإن الكذب يهدى إلى الفجور، وإن الفجور يهدى إلى النار، وما يزال الرجل يكذب ويتحرى الكذب، حتى يكتب عند الله كذابا». أخرجه فى الصحيحين (١). وعن عبد الله بن عمر: ﴿ اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ ﴾: مع محمد ﷺ وأصحابه. وقال الضحاك: مع أبى بكر وعمر وأصحابهما. وقال الحسن البصرى: إن أردت أن تكون مع الصادقين، فعليك بالزهد فى الدنيا، والكف عن أهل الملّة.

﴿ مَا كَانَ لِأَهْلِ الْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُمْ مِنَ الْأَعْرَابِ أَنْ يَتَخَلَّفُوا عَنْ رَسُولِ اللَّهِ وَلَا يَرْغَبُوا بِأَنْفُسِهِمْ عَنْ نَفْسِهِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلَا نَصَبٌ وَلَا مَخْمَصَةٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَطْئُونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ الْكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوِّ نَيْلًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ إِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ﴾ ﴿١١٤﴾

يعاتب تعالى المتخلفين عن رسول الله ﷺ فى غزوة تبوك، من أهل المدينة ومن حولها من أحياء العرب، ورجبتهم بأنفسهم عن مواساته فيما حصل من المشقة، فإنهم نَقَصُوا أَنْفُسَهُمْ مِنَ الْأَجْرِ؛ لأنهم ﴿ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ ﴾ وهو: العطش ﴿ وَلَا نَصَبٌ ﴾ وهو: التعب ﴿ وَلَا مَخْمَصَةٌ ﴾ وهى: المجاعة ﴿ وَلَا يَطْئُونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ الْكُفَّارَ ﴾ أى: ينزلون منزلا يرهبُ عدوهم ﴿ وَلَا يَنَالُونَ ﴾ منه ظفراً وغلبة عليه ﴿ إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ ﴾ بهذه الاعمال التى ليست داخلة تحت قدرهم، وإنما هى ناشئة عن أفعالهم، أعمالا صالحة وثوابا جزيلا ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ﴾ كما قال تعالى: ﴿ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا ﴾ [الكهف: ٣٠].

﴿ وَلَا يُنْفِقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً وَلَا يَقْطَعُونَ وَادِيًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ لِحَازِنِهِمْ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ ﴿١١٥﴾

يقول تعالى: ولا ينفق هؤلاء الغزاة فى سبيل الله ﴿ نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً ﴾ أى: قليلا ولا كثيرا ﴿ وَلَا يَقْطَعُونَ وَادِيًا ﴾ أى: فى السبيل إلى الأعداء ﴿ إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ ﴾ ولم يقل «به» لأن هذه أفعال صادرة عنهم؛ ولهذا قال: ﴿ لِحَازِنِهِمْ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾. وقال قتادة فى قوله تعالى: ﴿ وَلَا يَقْطَعُونَ وَادِيًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ ﴾ الآية: ما ازداد قوم من أهلهم فى سبيل الله بعدا إلا ازدادوا من الله قربا.

﴿ وَمَا كَانِ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنْفِرُوا كَافَّةً فَلَوْلَا نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِنْهُمْ طَائِفَةٌ لِيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ ﴾ ﴿١١٦﴾

ربع

هذا بيان من الله تعالى لما أراد من نفي الأحياء مع الرسول ﷺ في غزوة تبوك ، فإنه قد ذهبت طائفة من السلف إلى أنه كان يجب النفي على كل مسلم إذا خرج رسول الله ﷺ؛ ولهذا قال تعالى: ﴿انْفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا﴾ [التوبة: ٤١]، وقال: ﴿مَا كَانَ لِأَهْلِ الْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُمْ مِنَ الْأَعْرَابِ﴾ الآية [التوبة: ١٢٠] ، قالوا: فنسخ ذلك بهذه الآية. وقد يقال: إن هذا بيان لمراده تعالى من نفي الأحياء كلها، وشردمة من كل قبيلة إن لم يخرجوا كلهم، ليتفقه الخارجون مع الرسول بما ينزل من الوحي عليه، وينذروا قومهم إذا رجعوا إليهم بما كان من أمر العدو، فيجتمع لهم الأمران في هذا: النفي المعين وبعده، صلوات الله وسلامه عليه، تكون الطائفة النافرة من الحى إما للتفقه وإما للجهاد؛ فإنه فرض كفاية على الأحياء.

وقال ابن عباس : ﴿وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنْفِرُوا كَافَّةً﴾ يقول: ما كان المؤمنون لينفروا جميعا ويتركوا النبي ﷺ وحده، ﴿فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ﴾ يعني: عصابة، يعني: السرايا، ولا يسيروا إلا بإذنه، فإذا رجعت السرايا وقد نزل بعدهم قرآن تعلمه القاعدون من النبي ﷺ، قالوا: إن الله قد أنزل على نبيكم قرآنا، وقد تعلمناه. فمكث السرايا يتعلمون ما أنزل الله على نبيهم بعدهم، ويبعث سرايا أخرى، فذلك قوله: ﴿لِيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ﴾ يقول: ليتعلموا ما أنزل الله على نبيهم، وليعلموا السرايا إذا رجعت إليهم ﴿لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾. وقال مجاهد: نزلت هذه الآية في أناس من أصحاب محمد ﷺ، خرجوا في البوادي، فأصابوا من الناس معروفا، ومن الخصب ما ينتفعون به، ودعوا من وجدوا من الناس إلى الهدى، فقال الناس لهم: ما نراكم إلا وقد تركتم أصحابكم وجتتمونا. فوجدوا في أنفسهم من ذلك ترحجا، وأقبلوا من البادية كلهم حتى دخلوا على النبي ﷺ، فقال الله، عز وجل: ﴿فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ﴾ يبتغون الخير ﴿لِيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ﴾ وليستمعوا ما في الناس، وما أنزل الله بعدهم ﴿وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ﴾ الناس كلهم ﴿إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾ .

وقال قتادة في هذه الآية: هذا إذا بعث رسول الله ﷺ الجيوش، أمرهم الله ألا يعرفوا نبيّه ﷺ، وتقيم طائفة مع رسول الله ﷺ تتفقه في الدين، وتنطلق طائفة تدعو قومها، وتحذرهم وقائع الله فيمن خلا قبلهم. وقال عكرمة: لما نزلت هذه الآية: ﴿لَا تَنْفِرُوا يَعْذِبُكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ [التوبة: ٣٩] ، ﴿وَمَا كَانَ لِأَهْلِ الْمَدِينَةِ﴾ الآية [التوبة: ١٢٠]، قال المنافقون: هلك أصحاب البدو الذين تخلفوا عن محمد ولم ينفروا معه. وقد كان ناس من أصحاب النبي ﷺ خرجوا إلى البدو إلى قومهم يفقهونهم، فأنزل الله، عز وجل: ﴿وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنْفِرُوا كَافَّةً﴾ الآية ، ونزلت: ﴿وَالَّذِينَ يُحَاجُّونَ فِي اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا اسْتَجِيبَ لَهُ حُجَّتُهُمْ دَاحِضَةً عِنْدَ رَبِّهِمْ وَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾ الآية [الشورى: ١٦] . وقال الحسن البصرى في الآية : ليتفقه الذين خرجوا، بما يردهم الله من الظهور على المشركين، والنصرة، وينذروا قومهم إذا رجعوا إليهم.

﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُمْ مِنَ الْكُفَّارِ وَلْيَجِدُوا فِيكُمْ غِلظَةً وَعَلِمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ﴾

أمر الله تعالى المؤمنين أن يقاتلوا الكفار أولاً فأولاً، الأقرب فالأقرب إلى حوزة الإسلام؛ ولهذا بدأ رسول الله ﷺ بقتال المشركين في جزيرة العرب، فلما فرغ منهم وفتح الله عليه مكة والمدينة، والطائف، واليمن، وغير ذلك من أقاليم جزيرة العرب، ودخل الناس من سائر أحياء العرب في دين الله أفواجا، شرع في قتال أهل الكتاب، فتجهز لغزو الروم الذين هم أقرب الناس إلى جزيرة العرب، وأولى الناس بالدعوة إلى الإسلام لكونهم أهل الكتاب، فبلغ تبوك ثم رجع لأجل جهد الناس وجذب البلاد وضيق الحال، وكان ذلك سنة تسع من هجرته ﷺ. ثم اشتغل في السنة العاشرة بحجة الوداع. ثم عاجلته المنية ﷺ بعد الحجة بأحد وثمانين يوماً، فاختره الله لما عنده.

وقام بالأمر بعده خليفته أبو بكر رضى الله عنه، وقد مال الدين ميلاً كاد أن ينحفل، فثبته الله تعالى به فوطد القواعد، وثبت الدعائم، ورد شارذ الدين وهو راغم. ورد أهل الردة إلى الإسلام، وبين الحق لمن جهله، ثم شرع في تجهيز الجيوش الإسلامية إلى الروم وإلى الفرس، ففتح الله ببركة سفارته البلاد، وأرغم أنفس كسرى وقيصر ومن أطاعهما من العباد. وكان تمام الأمر على يدي ولى عهده الفاروق عمر بن الخطاب، فأرغم الله به أنوف الكفرة الملحدين، وقمع الطغاة والمنافقين، واستولى على الممالك شرقاً وغرباً. وحملت إليه خزائن الأموال من سائر الأقاليم بعداً وقرباً. ففرقها على الوجه الشرعى، والسبيل المرضى. ثم لما مات شهيداً أجمع الصحابة من المهاجرين والأنصار على خلافة أمير المؤمنين عثمان ابن عفان، فكسا الإسلام بجلاله رياسة حلة سابعة. وأمدت في سائر الأقاليم على رقاب العباد حجة الله البالغة، وظهر الإسلام في مشارق الأرض ومغاربها، فكلما علوا أمة انتقلوا إلى من بعدهم، ثم الذين يلونهم من العتاة الفجار، امثالاً لقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُمْ مِنَ الْكُفَّارِ﴾ .

وقوله تعالى: ﴿وَلْيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً﴾ أى: وليجد الكفار منكم غلظة عليهم فى قتالكم لهم، فإن المؤمن الكامل هو الذى يكون رفيقاً لأخيه المؤمن، غليظاً على عدوه الكافر، كما قال تعالى: ﴿فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةَ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ [المائدة: ٥٤] ، وقال تعالى: ﴿مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رَحِمَاءُ بَيْنَهُمْ﴾ [الفتح: ٢٩] ، وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ﴾ [التوبة: ٧٣، والتحريم: ٩] .

وقوله: ﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ﴾ أى: قاتلوا الكفار، وتوكلوا على الله، واعلموا أن الله معكم إن اتقيتموه وأطعتموه . وهكذا الأمر لما كانت القرون الثلاثة الذين هم خير هذه الأمة، فى غاية الاستقامة، والقيام بطاعة الله تعالى، لم يزالوا ظاهرين على عدوهم، ولم تزل الفتوحات كثيرة، ولم تزل الأعداء فى سَفَالٍ وخسار. ثم لما وقعت الفتن والأهواء والاختلافات بين الملوك، طمع الأعداء فى أطراف البلاد، فأخذوا من الأطراف بلدانا كثيرة، ثم لم يزالوا حتى استحوذوا على كثير من بلاد الإسلام، والله، سبحانه، الأمر من قبل ومن بعد. فكلما قام ملك من ملوك الإسلام، وأطاع أوامر الله، فتح الله عليه من البلاد، واسترجع من الأعداء بحسبه،

ويقدر ما فيه من ولاية الله .

﴿ وَإِذَا مَا أَنْزَلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُمْ مَن يَقُولُ آيَاتُكُمْ زَادَتْهُ هَلْدِيءَ إِيْمَانًا فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا فزَادَتْهُمْ إِيْمَانًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿١٢٤﴾ وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَّرَضٌ فزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا وَهُمْ كَافِرُونَ ﴿١٢٥﴾ ﴾

يقول تعالى: ﴿وَإِذَا مَا أَنْزَلَتْ سُورَةٌ﴾ فمن المنافقين ﴿مَنْ يَقُولُ آيَاتُكُمْ زَادَتْهُ هَذِهِ إِيْمَانًا؟﴾ أى: يقول بعضهم لبعض: أىكم زادته هذه السورة إيماناً؟ قال الله تعالى: ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا فزَادَتْهُمْ إِيْمَانًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾. وهذه الآية من أكبر الدلائل على أن الإيمان يزيد وينقص، كما هو مذهب أكثر السلف والخلف من أئمة العلماء، بل قد حكى الإجماع على ذلك غير واحد. ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَّرَضٌ فزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ﴾ أى: زادتهم شكاً إلى شكهم، وريباً إلى ريبهم، كما قال تعالى: ﴿وَنَزَّلَ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا﴾ [الإسراء: ٨٢]، وقال تعالى: ﴿قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى أُولَٰئِكَ يُنَادُونَ مِن مَّكَانٍ بَعِيدٍ﴾ [فصلت: ٤٤]، وهذا من جملة شقائهم أن ما يهدى القلوب يكون سبباً لضلالتهم ودمارهم، كما أن سئى المزاج لو غذى بما غذى به لا يزيده إلا خبالاً ونقصاً.

﴿ أَوْ لَا يَرَوْنَ أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ فِي كُلِّ عَامٍ مَّرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ لَا يَتُوبُونَ وَلَا هُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٢٦﴾ وَإِذَا مَا أَنْزَلَتْ سُورَةٌ نَّظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ هَلْ يَرَىٰكُمْ مِّنْ أَحَدٍ ثُمَّ انصَرَفُوا صَرَفَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ ﴿١٢٧﴾ ﴾

يقول تعالى: أو لا يرى هؤلاء المنافقون (١) ﴿أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ﴾ أى: يختبرون ﴿فِي كُلِّ عَامٍ مَّرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ لَا يَتُوبُونَ وَلَا هُمْ يَذَّكَّرُونَ﴾ أى: لا يتوبون من ذنوبهم السالفة، ولا هم يذكرون فيما يستقبل من أحوالهم. قال مجاهد: يختبرون بالسنة والجوع. وقال قتادة: بالغزو فى السنة مرة أو مرتين.

وقوله: ﴿وَإِذَا مَا أَنْزَلَتْ سُورَةٌ نَّظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ هَلْ يَرَىٰكُمْ مِّنْ أَحَدٍ ثُمَّ انصَرَفُوا صَرَفَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ﴾، هذا أيضاً إخبار عن المنافقين أنهم إذا أنزلت سورة على رسول الله ﷺ ﴿ظَرَّ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ﴾ أى: يلفتوا، ﴿هَلْ يَرَىٰكُمْ مِّنْ أَحَدٍ ثُمَّ انصَرَفُوا﴾ أى: تولوا عن الحق وانصرفوا عنه، وهذا حالهم فى الدين لا يشبتون عند الحق ولا يقبلونه ولا يقيمونه، كما قال تعالى: ﴿فَمَا لَهُمْ عَنِ التَّذْكَرَةِ مُعْرِضِينَ. كَأَنَّهُمْ حُمْرٌ مُّسْتَفْرِفَةٌ. فَرَّتْ مِن قَسْوَرَةٍ﴾ [المدثر: ٤٩ - ٥١]، وقال تعالى: ﴿فَمَالِ الَّذِينَ كَفَرُوا قَبْلَكَ مُهْطِعِينَ. عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ عِزِينَ﴾ [المعارج: ٣٦، ٣٧]، أى: ما لهؤلاء القوم يتفللون عنك يمينا وشمالا، هروبا من الحق، وذهابا إلى الباطل.

وقوله: ﴿ثُمَّ انصَرَفُوا صَرَفَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾ كقوله: ﴿فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾ [الصف: ٥] ﴿بِأَنَّهُمْ

(١) فى المخطوطة: «المنافقين» وهى خطأ .

قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ ﴿١﴾ أى: لا يفهمون عن الله خطابه، ولا يقصدون لفهمه ولا يريدونه، بل هم فى شدة عنه ونفور منه، فلهدا صاروا إلى ما صاروا إليه.

﴿ لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢٨﴾ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقَدْ حَسِبِ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ ﴿١٢٩﴾ ﴾

يقول تعالى ممتنا على المؤمنين بما أرسل إليهم رسولا من أنفسهم، أى: من جنسهم وعلى لغتهم، كما قال إبراهيم عليه السلام: ﴿ رَبَّنَا وَأَبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ ﴾ [البقرة: ١٢٩]، وقال تعالى: ﴿ لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنْفُسِهِمْ ﴾ [آل عمران: ١٦٤]، وقال تعالى: ﴿ لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنْفُسِكُمْ ﴾ أى: منكم وبلغتكم، كما قال جعفر بن أبى طالب للنجاشى، والمغيرة بن شعبة لرسول كسرى: إن الله بعث فينا رسولا منا، نعرف نسبه وصفته، ومدخله ومخرجه، وصدقه وأمانته.

وقوله: ﴿ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ ﴾ أى: يعز عليه الشىء الذى يعنتُ أمته ويشق عليها وفى الصحيح: «إن هذا الدين يسر» (١)، وشريعته كلها سهلة سمحة كاملة، يسيرة على من يسرها الله تعالى عليه. ﴿ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ ﴾ أى: على هدايتكم ووصول النفع الدنيوى والأخروى إليكم. روى الطبرانى عن أبى الطفيل، عن أبى ذر قال: تركنا رسول الله ﷺ وما طائر يقلب جناحيه فى الهواء إلا وهو يذكرنا منه علما. قال: وقال ﷺ: «مابقى شىء يُقرب من الجنة ويباعد من النار إلا وقد بين لكم» (٢).

وقوله: ﴿ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ كما قال تعالى: ﴿ وَأَخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ. فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ. وَتَوَكَّلْ عَلَى الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ ﴾ [الشعراء: ٢١٥ - ٢١٧].

وهكذا أمره تعالى فى هذه الآية الكريمة، وهى قوله تعالى: ﴿ فَإِنْ تَوَلَّوْا ﴾ أى: تولوا عما جنتهم به من الشريعة العظيمة المطهرة الكاملة الشاملة ﴿ فَقُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ ﴾ أى: الله كافى، لا إله إلا هو عليه توكلت، كما قال تعالى: ﴿ رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَاتَّخِذْهُ وَكِيلًا ﴾ [الزمر: ٩]. ﴿ وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ ﴾ أى: هو مالك كل شىء وخالقه، لأنه رب العرش العظيم، الذى هو سقف المخلوقات وجميع الخلائق من السموات والأرضين وما فيها وما بينهما تحت العرش مقهورون بقدرة الله تعالى، وعلمه محيط بكل شىء، وقدره نافذ فى كل شىء، وهو على كل شىء وكيل.

آخر سورة براءة، والحمد لله وحده

(١) البخارى (٣٩).

(٢) الطبرانى فى الكبير (١٥٥/٢)، ١٥٦ (١٦٤٧) وقال الهشمى فى الزوائد ٢٦٦/٨، ٢٦٧: «رجاله رجال

الصحيح غير محمد بن عبد الله بن يزيد المقرئ وهو ثقة».

تفسير سورة يونس

وهي مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿الرَّ تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ ﴿١﴾ أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَى رَجُلٍ مِّنْهُمْ أَنْ أَنْذِرِ النَّاسَ وَبَشِّرِ الَّذِينَ ءَامَنُوا أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِندَ رَبِّهِمْ قَالَ الْكٰفِرُونَ إِنَّ هَذَا لَسِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٢﴾﴾

أما الحروف المقطعة في أوائل السور، فقد تقدم الكلام عليها في أوائل سورة البقرة.

﴿تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْعَكِيمِ﴾ أى: هذه آيات القرآن المحكم المبين ، وقال مجاهد: التوراة والإنجيل ، وقال الحسن: التوراة والزبور .

وقوله: ﴿ أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا ﴾ الآية : يقول تعالى منكرا على من تعجب من الكفار من إرسال المرسلين من البشر، كما أخبر تعالى عن القرون الماضية من قولهم: ﴿ أَبَشِّرْ يَهُدُونَنا ﴾ [التغابن: ٦] ، وقال هود وصالح لقومهما: ﴿ أَوْ عَجِبْتُمْ أَنْ جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَى رَجُلٍ مِّنكُمْ ﴾ [الأعراف: ٦٣، ٦٩] وقال تعالى مخبراً عن كفار قريش أنهم قالوا: ﴿ أَجْعَلُ الْإِلَهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا إِنْ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ ﴾ [ص: ٥] . وقال ابن عباس : لما بعث الله تعالى محمداً ﷺ رسولا ، أنكرت العرب ذلك ، أو من أنكر منهم ، فقالوا: الله أعظم من أن يكون رسوله بشراً مثل محمد . قال: فأنزل الله عز وجل: ﴿ أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَى رَجُلٍ مِّنْهُمْ ﴾ .

وقوله : ﴿ أَنْ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِندَ رَبِّهِمْ ﴾ : اختلفوا فيه ، فقال ابن عباس : سبقت لهم السعادة في الذكر الأول . وقال : أجرا حسنا ، بما قدموا . وهذا كقوله تعالى: ﴿ لِيُنذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِّن لَّدُنْهُ وَيُبَشِّرَ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا . مَا كُنَّ فِيهِ أَبْدَاءُ ﴾ [الكهف: ٢ ، ٣] . وقال مجاهد: ﴿ أَنْ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِندَ رَبِّهِمْ ﴾ : الأعمال الصالحة صلاتهم وصومهم وصدقهم وتسيبهم . واختار ابن جرير قول مجاهد - أنها الأعمال الصالحة التي قدموها - قال: كما يقال: ﴿ له قدم في الإسلام ﴾ ، ومنه قول حسان رضى الله عنه :

لَنَا الْقَدَمُ الْعُلْيَا إِلَيْكَ وَخَلْفُنَا
لَأَوْلَانَا فِي طَاعَةِ اللَّهِ تَابِعُ

وقوله تعالى: ﴿ قَالَ الْكٰفِرُونَ إِنَّ هَذَا لَسِحْرٌ مُّبِينٌ ﴾ أى: مع أنا بعثنا إليهم رسولا منهم ، رجلا من جنسهم ، بشيراً ونذيراً ﴿ قَالَ الْكٰفِرُونَ إِنَّ هَذَا لَسِحْرٌ مُّبِينٌ ﴾ أى: ظاهر، وهم الكاذبون في ذلك .

﴿إِنْ رَبُّكُمْ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمٰوٰتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوٰى عَلَى الْعَرْشِ يُدِيرُ الْأَمْرَ مَا مِنْ شَفِيعٍ إِلَّا مِنْ بَعْدِ إِذْ يَبْدَأُ ذَلِكَ اللَّهُ رَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٣﴾﴾

يخبر تعالى أنه رب العالم جميعه، وأنه خلّق السموات والأرض في ستة أيام - قيل: كهذه الأيام، وقيل: كل يوم كالف سنة مما تعدون - ثم استوى على العرش، والعرش أعظم المخلوقات وسقفها. ﴿يَدْبِرُ الْأُمْرَ﴾ أى: يدبر أمر الخلائق ﴿لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ﴾ [سبا: ٣]، ولا يشغله شأن عن شأن، ولا تغلظه المسائل، ولا يتبرم بإلحاح الملحين، ولا يلهيه تدبير الكبير عن الصغير، فى الجبال والبحار والعرمان والقفار ﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا كُلٌّ فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾ [هود: ٦]. ﴿وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٌ فِي ظِلْمَاتِ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾ [الانعام: ٥٩].

وقوله: ﴿مَا مِنْ شَيْعٍ إِلَّا مِنْ بَعْدِ إِذْنِهِ﴾ كقوله تعالى: ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾ [البقرة: ٢٥٥]، وكقوله تعالى: ﴿وَكَمْ مِنْ مَلَكٍ فِي السَّمَوَاتِ لَا تُغْنِي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا إِلَّا مِنْ بَعْدِ أَنْ يَأْذَنَ اللَّهُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَرْضَى﴾ [النجم: ٢٦]، وقوله: ﴿وَلَا تَنْفَعُ الشَّفَاعَةُ عِنْدَهُ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ﴾ [سبا: ٢٣]. وقوله: ﴿ذَلِكُمْ اللَّهُ رِبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ﴾ أى: أفردوه بالعبادة وحده لا شريك له ﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ أى: أيها المشركون فى أمركم، تعبدون مع الله غيره، وأنتم تعلمون أنه المتفرد بالخلق، كقوله تعالى: ﴿وَلَمَّا سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾ [الزخرف: ٨٧]، وقوله: ﴿قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَوَاتِ السَّبْعِ وَرَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ. سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ [المؤمنون: ٨٦، ٨٧]، وكذا الآية التى قبلها والتى بعدها.

﴿إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا وَعَدَّ اللَّهُ حَقًّا إِنَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ بِالْقِسْطِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ﴾

يخبر تعالى أن إليه مرجع الخلائق يوم القيامة، لا يترك منهم أحدا حتى يعيده كما بدأه. ثم ذكر تعالى أنه كما بدأ الخلق كذلك يعيده ﴿وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾ [الروم: ٢٧]. ﴿لِيَجْزِيَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ بِالْقِسْطِ﴾ أى: بالعدل والجزاء الأوفى ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ﴾ أى: بسبب كفرهم يعذبون يوم القيامة بأنواع العقاب، من ﴿سُمُومٍ وَحَمِيمٍ. وَظِلٍّ مِّنْ يَحْمُومٍ﴾ [الواقعة ٤٢، ٤٣]. ﴿هَذَا فَلْيَذوقوه حَمِيمٌ وَغَسَّاقٌ. وَأَخْرَجْنَا مِنْ شَكْلِهِ أَزْوَاجَ﴾ [ص: ٥٧، ٥٨]، ﴿هَذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي يُكَذِّبُ بِهَا الْمُجْرِمُونَ. يَطوفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ ءَانَ﴾ [الرحمن: ٤٣، ٤٤].

﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسُ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا وَقَدَرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ مَا خَلَقَ اللَّهُ ذَلِكَ إِلَّا بِالْحَقِّ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾

﴿إِن فِي آخِزَاتِ النَّجْمِ وَالنَّهَارِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَّقُونَ﴾

يخبر تعالى عما خلق من الآيات الدالة على كمال قدرته، وعظيم سلطانه، وأنه جعل الشعاع الصادر عن جرم الشمس ضياء وشعاع القمر نورا، هذا فن وهذا فن آخر، ففاوت بينهما

لثلا يشبها، وجعل سلطان الشمس بالنهار، وسلطان القمر بالليل، وقدر القمر منازل، فأول ما يبدو صغيراً، ثم يتزايد نُوره وجرمه، حتى يستوسق ويكمل إبداره، ثم يشرع فى النقص حتى يرجع إلى حاله الأول فى تمام شهر، كما قال تعالى: ﴿وَالْقَمَرَ قَدْرَتْهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ﴾ [يس: ٣٩]، وقال: ﴿وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرَ حُسْبَانًا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾ [الانعام: ٩٦]. وقال فى هذه الآية الكريمة: ﴿وَقَدْرُهُ﴾ أى: القمر ﴿وَقَدْرُهُ مَنَازِلَ لَتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابِ﴾ فبالشمس تعرف الأيام، وبسير القمر تعرف الشهور والأعوام. ﴿مَا خَلَقَ اللَّهُ ذَلِكَ إِلَّا بِالْحَقِّ﴾ أى: لم يخلقه عبثاً بل له حكمة عظيمة فى ذلك، وحجة بالغة ﴿نَفْصِلُ الْآيَاتِ﴾ (١) أى: نبين الحجج والأدلة ﴿لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾.

وقوله: ﴿إِنَّ فِي اخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ﴾ أى: تعاقبهما إذا جاء هذا ذهب هذا، وإذا ذهب هذا جاء هذا، لا يتأخر عنه شيئاً، كقوله تعالى: ﴿يُغْشَى اللَّيْلُ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثًا﴾ [الاعراف: ٥٤]، وقال: ﴿لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ﴾ الآية [يس: ٤٠]، وقال تعالى: ﴿فَالِقُ الْإِصْبَاحِ وَجَاعِلُ (٢) اللَّيْلِ سَكِينًا﴾ الآية [الانعام: ٩٦].

وقوله: ﴿وَمَا خَلَقَ اللَّهُ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أى: من الآيات الدالة على عظمته تعالى، ما قال: ﴿وَكَايِنَ مِنْ آيَةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [يوسف: ١٠٥]، وقوله: ﴿قُلْ انظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا تُفْنِي الْآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَنْ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [يونس: ١٠١]، وقال: ﴿أَلَمْ يَرَوْا إِلَىٰ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾ [سبا: ٩]، وقال: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لآيَاتٍ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ [آل عمران: ١٩٠] أى: العقول، وقال ها هنا: ﴿لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَّقُونَ﴾ أى: عقاب الله، وسَخَطَه، وعذابه.

﴿إِنَّ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا وَرَضُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاطْمَأَنَّنُوا بِهَا وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ آيَاتِنَا غَافِلُونَ﴾ ﴿أُولَٰئِكَ مَاؤُهُمُ النَّارُ يَمَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾

يقول تعالى مخبراً عن حال الأشقياء الذين كفروا بلقاء الله يوم القيامة ولا يرجون فى لقائه شيئاً، ورضوا بهذه الحياة الدنيا واطمأننوا إليها أنفسهم. قال الحسن: والله ما زينوها ولا رفعوها، حتى رضوا بها وهم غافلون عن آيات الله الكونية فلا يتفكرون فيها، والشرعية فلا يأتمرون بها، بأن ماؤهم يوم معادهم النار، جزاء على ما كانوا يكسبون فى دنياهم من الآثام والخطايا والأجرام، مع ما هم فيه من الكفر بالله ورسله واليوم الآخر.

(١) «يفصل» - بضم الياء وكسر الصاد: قراءة ابن كثير (القارئ) وأبى عمرو وحفص ويعقوب، وقرأ ابن السَّمِيعِ:

«تفصل» - بضم التاء وفتح الصاد. وقرأ الباقون: «نفضل»، بضم النون وكسر الصاد، وهى قراءة الحافظ

ابن كثير.

(٢) هى قراءة سبعية، كما سبق.

﴿ إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ بِإِيمَانِهِمْ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ ﴿١١﴾ دَعْوَاهُمْ فِيهَا سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ وَآخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنْ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٢﴾ ﴾

وهذا إخبار عن حال السعداء الذين آمنوا بالله وصدقوا المرسلين، وامتلوا ما أمروا به ، فعملوا الصالحات ، بأنه سيهديهم بإيمانهم. يحتمل أن تكون «الباء» هائنا سببية، فتقديره: بسبب إيمانهم فى الدنيا يهديهم الله يوم القيامة على الصراط، حتى يجوزوه ويخلصوا إلى الجنة. ويحتمل أن تكون للاستعانة، كما قال مجاهد فى قوله: ﴿ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ بِإِيمَانِهِمْ ﴾ ، قال: يكون لهم نورا يمشون به .

وقوله: ﴿ دَعْوَاهُمْ فِيهَا سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ وَآخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنْ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ أى: هذا حال أهل الجنة. قال ابن جريج: أخبرت أن قوله: ﴿دَعْوَاهُمْ فِيهَا سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ﴾، قال: إذا مر بهم الطير يشتهونه، قالوا: سبحانك اللهم ، وذلك دعواهم فيأتيهم الملك بما يشتهونه، فيسلم عليهم، فيردون عليه، فذلك قوله: ﴿وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ﴾، قال: فإذا أكلوا حمدوا الله ربهم، فلذلك قوله: ﴿وَآخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنْ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾. وهذه الآية فيها شبه من قوله: ﴿تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُ سَلَامٌ﴾ الآية [الأحزاب: ٤٤] ، وقوله: ﴿ لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لِقَاءً وَلَا تَأْتِيًا. إِلَّا قِيلًا سَلَامًا سَلَامًا ﴾ [الواقعة: ٢٥، ٢٦]، وقوله: ﴿سَلَامٌ قَوْلًا مِنْ رَبِّ رَحِيمٍ﴾ [يس: ٥٨]، وقوله: ﴿وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ. سَلَامٌ عَلَيْكُمْ﴾ [الرعد: ٢٣، ٢٤].

وقوله: ﴿وَآخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنْ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾: هذا فيه دلالة على أن الله تعالى هو المحمود أبدا، المعبود على طول المدى؛ ولهذا حمد نفسه عند ابتداء خلقه واستمراره، وفى ابتداء كتابه، وعند ابتداء تنزيله، حيث يقول تعالى: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ﴾ [الكهف: ١]، ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾ [الأنعام: ١] إلى غير ذلك من الأحوال التى يطول بسطها، وأنه المحمود فى الأولى والآخرة ، فى الحياة الدنيا وفى الآخرة، فى جميع الأحوال ؛ ولهذا جاء فى الحديث : « إن أهل الجنة يُلهمون التسبيح والتحميد كما يُلهمون النفس » (١) . وإنما يكون ذلك كذلك لما يرون من تزايد نعم الله عليهم، فتكرّر وتعاد وتزاد، فليس لها انقضاء ولا أمد، فلا إله إلا هو ولا رب سواه .

﴿ وَلَوْ يُعَجِّلُ اللَّهُ لِلنَّاسِ الشَّرَّ اسْتَعْجَلَهُمْ بِالْخَيْرِ لَفُضِيَ إِلَيْهِمْ أَجْلُهُمْ ﴾ ربيع
فَنَذَرُ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١٢﴾

يخبر تعالى عن حلمه ولطفه بعباده: أنه لا يستجيب لهم إذا دعوا على أنفسهم أو أموالهم

أو أولادهم ، في حال ضجرهم وغضبهم، وأنه يعلم منهم عَدَم القصد بالشر إلى إرادة ذلك ،
 فلهذا لا يستجيب لهم - والحالة هذه - لطفًا ورحمة، كما يستجيب لهم إذا دعوا لأنفسهم أو
 لأموالهم أو أولادهم بالخير والبركة والنماء؛ ولهذا قال: ﴿وَلَوْ يُعَجِّلُ اللَّهُ لِلنَّاسِ الشَّرَّ اسْتِعْجَالَهُمْ
 بِالْخَيْرِ لَقَضَىٰ إِلَيْهِمْ أَجْلَهُمْ﴾ الآية أى: لو استجاب لهم كلُّما دعوه به في ذلك، لأهلكهم، ولكن
 لا ينبغي الإكثار من ذلك، كما جاء في الحديث . عن جابر قال: قال رسول الله ﷺ: «لا
 تدعوا على أنفسكم، لا تدعوا على أولادكم، لا تدعوا على أموالكم، لا توافقوا من الله ساعة
 فيها إجابة فيستجيب لكم» (١). وقال مجاهد في تفسير هذه الآية: هو قول الإنسان لولده وماله
 إذا غضب عليه: «اللهم لا تبارك فيه والعنه». فلو يعجل لهم الاستجابة في ذلك، كما
 يستجاب لهم في الخير لأهلكهم.

﴿وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ الضُّرُّ دَعَانَا لِجَنبِهِ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَائِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُ مَرَّ
 كَأَن لَّمْ يَدْعُنَا إِلَىٰ ضُرِّ مَسَّهُ كَذَلِكَ زَيْنٌ لِّلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾

يخبر تعالى عن الإنسان وضجره وقلقه إذا مسه الشر، كقوله: ﴿وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ فذُو دُعَاءٍ
 عَرِيضٍ﴾ [فصلت: ٥١] أى: كثير، وهما في معنى واحد؛ وذلك لأنه إذا أصابته شدة قلق لها
 وجزع منها، وأكثر الدعاء عند ذلك، فدعا الله في كشفها وزوالها عنه في حال اضطجاعه
 وقعوده وقيامه ، وفي جميع أحواله ، فإذا فرَّج الله شدته وكشف كربته، أعرض ونأى بجانبه،
 وذهب كأنه ما كان به من ذاك شيء ﴿مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَا إِلَىٰ ضُرِّ مَسَّهُ﴾ .

ثم ذم تعالى مَنْ هذه صفته وطريقته فقال: ﴿كَذَلِكَ زَيْنٌ لِّلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ ، فأما من
 رزقه الله الهداية والسداد والتوفيق والرشاد، فإنه مستثنى من ذلك، كما قال تعالى: ﴿إِلَّا الَّذِينَ
 صَبَرُوا وَعَمَلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ [هود: ١١] ، وكقول رسول الله ﷺ: «عجباً لأمر المؤمن ، لا يقضى
 الله له قضاء إلا كان خيراً له: إن أصابته ضراء صبر فكان خيراً له، وإن أصابته سراء شكر
 فكان خيراً له، وليس ذلك لأحد إلا للمؤمن» (٢) .

﴿وَلَقَدْ أَهَلَكْنَا الْقُرُونَ مِن قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ وَمَا كَانُوا
 لِيُؤْمِنُوا كَذَلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ﴾ ﴿١٣﴾ ثُمَّ جَعَلْنَاكُمْ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ مِن بَعْدِهِمْ
 لِنَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾ ﴿١٤﴾

أخبر تعالى عما أحلَّ بالقرون الماضية في تكذيبهم الرسل فيما جاؤوهم به من البينات
 والحجج الواضحات، ثم استخلف الله هؤلاء القوم من بعدهم، وأرسل إليهم رسولا لينظر
 طاعتهم له، واتباعهم رسوله، وفي صحيح مسلم عن أبي سعيد قال: قال رسول الله ﷺ: «إن

الدنيا حلوة خَضِرَة، وإن الله مستخلفكم فيها فانظر ماذا تعملون، فاتقوا الدنيا ، واتقوا النساء؛ فإن أول فتنة بنى إسرائيل كانت فى النساء (١) .

﴿ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا أَنْتَ بِشِرَارٍ عَصِيبٍ
هَذَا أَوْ بَدَلَهُ قُلْ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ مِنْ تَلْقَائِي نَفْسِي إِنْ أَتَيْتُ إِلَّا مَا يُوحَى إِلَيَّ إِنِّي
أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٥﴾ قُلْ لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا تَلَوْتُهُ عَلَيْكُمْ وَلَا
أَدْرَاكُمْ بِهِ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِنْ قَبْلِهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٦﴾ ﴾

يخبر تعالى عن تعنت الكفار من مشركى قريش الجاحدين الحقَّ المعرضين عنه، أنهم إذا قرأ عليهم الرسول ﷺ كتاب الله وحجته الواضحة قالوا له: ﴿أنت بقرآن غير هذا﴾ أى: رد هذا وجننا بغيره من غمط آخر، أو بدله إلى وضع آخر، قال الله لنبىه ﷺ ﴿ قُلْ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ مِنْ تَلْقَاءِ نَفْسِي ﴾ أى: ليس هذا إلى، إنما أنا عبد مأمور، ورسول مبلغ عن الله ﴿ إِنْ أَتَيْتُ إِلَّا مَا يُوحَى إِلَيَّ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾ .

ثم قال محتجا عليهم فى صحة ما جاءهم به : ﴿ قُلْ لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا تَلَوْتُهُ عَلَيْكُمْ وَلَا أَدْرَاكُمْ بِهِ ﴾ أى: هذا إنما جئتكم به عن إذن الله لى فى ذلك ومشيتته وإرادته ، والدليل على أنى لست أنقوله من عندى ولا افتريته أنكم عاجزون عن معارضته، وأنكم تعلمون صدقى وأمانتى منذ نشأت بينكم إلى حين بعثنى الله عز وجل، لا تنتقدون على شيئا تغمصونى به ؛ ولهذا قال : ﴿ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِنْ قَبْلِهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ أى: أفليس لكم عقول تعرفون بها الحق من الباطل؛ ولهذا لما سأل هرقل ملك الروم أبا سفيان ومن معه ، فيما سأله من صفة النبى ﷺ ، قال : هل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال ؟ قال أبو سفيان : فقلت : لا - وقد كان أبو سفيان إذ ذاك رأس الكفرة وزعيم المشركين، ومع هذا اعترف بالحق:

وَالْفَضْلُ مَا شَهِدْتُ بِهِ الْأَعْدَاءُ

فقال له هرقل : فقد أعرف أنه لم يكن ليدع الكذب على الناس ثم يذهب فيكذب على الله! وقال جعفر بن أبى طالب للنجاشى ملك الحبشة: بعث الله فينا رسولا نعرف نسبه وصدقه وأمانته، وقد كانت مدة مقامه، عليه السلام، بين أظهرنا قبل النبوة أربعين سنة. وعن سعيد بن المسيب: ثلاثا وأربعين سنة. والصحيح المشهور الأول.

﴿ فَمَنْ أَظْلَمُ (٢) مِمَّنْ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِعَايَاتِهِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ
الْمُجْرِمُونَ ﴿١٧﴾ ﴾

يقول تعالى : لا أحد أظلم ولا أعتى ولا أشد إجراما ﴿ مِمَّنْ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا ﴾ وتقول

(٢) فى المخطوطة : « ومن » وهو خطأ .

(١) مسلم (٩٩/٢٧٤٢) .

على الله ، وزعم أن الله أرسله ، ولم يكن كذلك ، فليس أحد أكبر جرماً ولا أعظم ظلماً من هذا، ومثل هذا لا يخفى أمره على الأغبياء ، فكيف يشبهه حال هذا بالأنبياء ؟ فإن من قال هذه المقالة صادقا أو كاذبا، فلا بد أن الله ينصب عليه من الأدلة على برِّه أو فُجُورِه ما هو أظهر من الشمس، فإن الفرق بين محمد ﷺ وبين مسيلمة الكذاب لمن شاهدهما أظهر من الفرق بين وقت الضحى ووقت نصف الليل في حُدس الظلماء، فَمَنْ سِما كل منهما وكلامه وفعاله يَسْتَدَلُّ من له بصيرة على صدق محمد ﷺ وكذب مسيلمة الكذاب، وسَجَّاح، والأسود العنسى .

قال عبد الله بن سلام: لما قدم رسول الله ﷺ المدينة أنجفل الناس، فكننت فيمن أنجفل، فلما رأيته عرفت أن وجهه ليس بوجه رجل كذاب، فكان أول ما سمعته يقول: «يا أيها الناس أفشوا السلام، وأطعموا الطعام ، وصلُّوا بالليل والناس نيام ، تدخلون الجنة بسلام» (١) .

ولما قَدَمَ ضمَامُ بن ثعلبة على رسول الله ﷺ في قومه بنى سعد بن بكر قال لرسول الله فيما قال له: من رفع هذه السماء ؟ قال : « الله » . قال : ومن نصب هذه الجبال ؟ قال : « الله » . قال : ومن سطح هذه الأرض ؟ قال : « الله » . قال : فبالذى رفع هذه السماء، ونصب هذه الجبال، وسَطَّحَ هذه الأرض: الله أرسلك إلى الناس كلهم ؟ قال : « اللهم نعم » ثم سأله عن الصلاة، والزكاة، والحج، والصيام، ويحلف عند كل واحدة هذه اليمين، ويحلف رسول الله ﷺ، فقال له: صدقت، والذي بعثك بالحق لا أزيد على ذلك ولا أنقص (٢) . فاكتمى هذا الرجل بمجرد هذا، وقد أيقن بصدقه، صلوات الله وسلامه عليه، بما رأى وشاهد من الدلائل الدالة عليه، كما قال حسان بن ثابت:

لَوْ لَمْ تُكُنْ فِيهِ آيَاتٌ مُّبَيَّنَةٌ كَانَتْ بَدِيهَتُهُ تَأْتِيكَ بِالْخَبَرِ

وأما مسيلمة فمن شاهده من ذوى البصائر، علم أمره لا محالة، بأقواله الركيكة التي ليست بفضيحة، وأفعاله غير الحسنة بل القبيحة، وقرآنه الذي يخلد به فى النار يوم الحسرة والفضيحة، وكم من فرق بين قوله تعالى : ﴿ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ لَا تَأْخُذُهُ سِنَّةٌ وَلَا نَوْمٌ ﴾ إلى آخرها [البقرة: ٢٥٥] . وبين قول مسيلمة قبحه الله ولعنه: «يا ضفدع بنت الضفدعين ، نقى كما تنقىن لا الماء تكدرين ، ولا الشارب تمنعين» ! . وقوله - قُبِّحَ ولعن: « لقد أنعم الله على الحبلى، إذ أخرج منها نَسْمَةٌ تسعى، من بين صفاقٍ وحشَى » . وقوله - خَدَّرَهُ اللهُ فى نار جهنم، وقد فعل : « الفيل وما أدراك ما الفيل ؟ له زُلُقُومٌ طويلٌ » وقوله - أبعده الله من رحمته: « والعاجنات عجننا ، والخابزات خبزنا، واللاقمات لقما ، إهالة وسمنا ، إن قريشا قوم يعتدون » إلى غير ذلك من الهذيان والخرافات التي يأنف الصبيان أن يتلفظوا بها، إلا على وجه السخرية والاستهزاء ؛ ولهذا أرغم الله أنفه ، ومزق شمله. ولعنه صحبه وأهله. وقدموا على الصديق تائبين، وجاؤوا

(١) المسند (٥/٤٥١) ، والترمذى - واللفظ له - (٢٤٨٥) وقال : « حديث صحيح » .

(٢) مسلم (١٢/١٠) عن أنس ، بنحوه .

فى دين الله راغبين، فسألهم الصديق خليفة الرسول، صلوات الله وسلامه عليه، ورضى عنه - أن يقرؤوا عليه شيئا من قرآن مسيلمة لعنه الله، فسألوه أن يعفيهم من ذلك، فأبى عليهم إلا أن يقرؤوا شيئا منه ليسمعه من لم يسمعه من الناس، فيعرفوا فضل ما هم عليه من الهدى والعلم. فقرؤوا عليه من هذا الذى ذكرناه وأشباهه، فلما فرغوا قال لهم الصديق، رضى الله عنه: ويحكم! أين كان يُدَّهَبُ بعقولكم!؟

وذكروا أن وفد عمرو بن العاص على مسيلمة، وكان صديقا له فى الجاهلية، وكان عمرو لم يسلم بعد، فقال له مسيلمة: ويحك يا عمرو، ماذا أنزل على صاحبكم - يعنى: رسول الله ﷺ - فى هذه المدة؟ فقال: لقد سمعت أصحابه يقرؤون سورة عظيمة قصيرة فقال: وما هى؟ فقال: ﴿وَالْعَصْرِ . إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ . إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَّصُوا بِالنَّحْيِ وَتَوَّصُوا بِالصَّبْرِ﴾ [سورة العصر]، ففكر مسيلمة ساعة، ثم قال: وقد أنزل على مثله. فقال: وما هو؟ فقال: «يا وبر، إنما أنت أذنان وصدر، وسائرک حقر نقر، كيف ترى يا عمرو؟» فقال له عمرو: «والله إنك لتعلم أنى أعلم أنك لتكذب»، فإذا كان هذا من مشرك فى حال شركه، لم يشبهه عليه حال محمد ﷺ وصدقه، وحال مسيلمة - لعنه الله - وكذبه، فكيف بأولى البصائر والنهى، وأصحاب العقول السليمة المستقيمة والحجى! ولهذا قال الله تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِيَ إِلَيَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ وَمَنْ قَالَ سَأُنزِلُ مِثْلَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ﴾ [الأنعام: ٩٣]، وقال فى هذه الآية الكريمة: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ﴾ [الأنعام: ٢١] ، وكذلك من كذب بالحق الذى جاءت به الرسل، وقامت عليه الحجج، لا أحد أظلم منه كما جاء فى الحديث: «أعتى الناس على الله رجل قتل نبيا، أو قتله نبي» (١).

﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَؤُلَاءِ شُفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللَّهِ قُلْ أَتُنَبِّئُونَ اللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ (١٨) ﴿وَمَا كَانَ النَّاسُ إِلَّا أُمَّةً وَاحِدَةً فَاخْتَلَفُوا وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ فِيمَا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ (١٩)

ينكر تعالى على المشركين الذين عبدوا مع الله غيره، ظانين أن تلك الآلهة تنفعهم شفاعتها عند الله، فأخبر تعالى أنها لا تنفع ولا تضر ولا تملك شيئا، ولا يقع شيء مما يزعمون فيها، ولا يكون هذا أبدا؛ ولهذا قال تعالى: ﴿قُلْ أَتُنَبِّئُونَ اللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ﴾. وقال ابن جرير: معناه: أتخبرون الله بما لا يكون فى السموات ولا فى الأرض؟ ثم نزه نفسه عن شركهم وكفرهم، فقال: ﴿سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾.

ثم أخبر تعالى أن هذا الشرك حادث فى الناس، كائن بعد أن لم يكن، وأن الناس كلهم كانوا على دين واحد، وهو الإسلام؛ قال ابن عباس: كان بين آدم ونوح عشرة قرون، كلهم

على الإسلام، ثم وقع الاختلاف بين الناس، وعُبدت الأصنام والأنداد والأوثان، فبعث الله الرسل بآياته وبياناته وحججه البالغة وبراهينه الدامغة، ﴿لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ﴾ [الأنفال: ٤٢] .

وقوله: ﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَقَّتْ مِنْ رَبِّكَ لَقَضَىٰ بَيْنَهُمْ فِيمَا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ أي: لولا ما تقدم من الله تعالى أنه لا يعذب أحدا إلا بعد قيام الحجة عليه؛ وأنه قد أجل الخلق إلى أجل معدود لقضى بينهم فيما فيه اختلفوا، فأسعد المؤمنين، وأعتت الكافرين.

﴿ وَيَقُولُونَ لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ فَقُلْ إِنَّمَا الْغَيْبُ لِلَّهِ فَانْتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْتَظِرِينَ ﴾



أى: ويقول هؤلاء الكفرة المكذبون المعاندون: لولا أنزل على محمد آية من ربه، يعنون: كما أعطى الله ثمود الناقة، أو أن يحول لهم الصفا ذهابا، أو يزيح عنهم جبال مكة ويجعل مكانها بساتين وأنهارا، أو نحو ذلك مما الله عليه قادر، ولكنه حكيم في أفعاله وأقواله، كما قال تعالى: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي إِنْ شَاءَ جَعَلَ لَكَ خَيْرًا مِنْ ذَلِكَ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَيَجْعَلْ لَكَ قُصُورًا. بَلْ كَذَّبُوا بِالسَّاعَةِ وَأَعْتَدْنَا لِمَنْ كَذَّبَ بِالسَّاعَةِ سَعِيرًا﴾ [الفرقان: ١٠، ١١] وكقوله: ﴿وَمَا مَعَنَا أَنْ نُرْسِلَ بِالْآيَاتِ إِلَّا أَنْ كَذَّبَ بِهَا الْأُولُونَ﴾ الآية [الإسراء: ٥٩] ، يقول تعالى: إن ستنى فى خلقى أنى إذا آتيتهم ما سألوا، فإن آمنوا وإلا عاجلتهم بالعقوبة. ولهذا لما خير رسول الله ﷺ، بين أن يعطى ما سألوا، فإن أجابوا وإلا عوجلوا، وبين أن يتركهم ويُنظرهم، اختار إنظارهم، كما حلم عنهم غير مرة ﷺ؛ ولهذا قال تعالى إرشادا لنبىه إلى الجواب عما سألوا: ﴿فَقُلْ إِنَّمَا الْغَيْبُ لِلَّهِ﴾ أى: الأمر كله لله، وهو يعلم العواقب فى الأمور، ﴿فَانْتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْتَظِرِينَ﴾ أى: إن كنتم لا تؤمنون حتى تشاهدوا ما سألتهم فانتظروا حكم الله فى وفىكم. هذا مع أنهم قد شاهدوا من معجزاته ﷺ، أعظم مما سألوا حين أشار بحضرتهم إلى القمر ليلة إبداره، فانشق باثنتين: فرقة من وراء الجبل، وفرقة من دونه. وهذا أعظم من سائر الآيات الأرضية مما سألوا ومالم يسألوا، ولو علم الله منهم أنهم سألوا ذلك استرشادا وتبئنا لأجابه، ولكن علم أنهم إنما يسألون عنادا وتعنتا، فتركهم فيما رابهم، وعلم أنهم لا يؤمن منهم أحد، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ. وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّىٰ يَرَوْا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ﴾ [يونس: ٩٦، ٩٧] ، وقال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّا نَزَّلْنَا إِلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ الْمَلَائِكَةُ وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قَبْلًا مَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ وَلَكِنْ أَكْثَرُهُمْ يَجْهَلُونَ﴾ [الأنعام: ١١١] ، ولما فيهم من المكابرة، كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا مِنَ السَّمَاءِ فَظَلُّوا فِيهِ يَمْرُجُونَ لَقَالُوا إِنَّمَا سُكَّرَتْ أَبْصَارُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَسْحُورُونَ﴾ [الحجر: ١٤، ١٥] ، وقال تعالى: ﴿وَإِنْ يَرَوْا كِسْفًا مِنَ السَّمَاءِ سَاقِطًا يَقُولُوا سَحَابٌ مَرْكُومٌ﴾ [الطور: ٤٤] ، وقال تعالى: ﴿وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَابًا فِي قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ﴾ [الأنعام: ٧] فمثل هؤلاء

أقل من أن يجابوا إلى ما سألوا؛ لأنه لا فائدة في جواب هؤلاء؛ لأنه دائر على تعنتهم وعنادهم، لكثرة فجورهم وفسادهم؛ ولهذا قال: ﴿فَانظُرُوا إِلَيَّ مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْتَظِرِينَ﴾.

﴿وَإِذَا أذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً مِن بَعْدِ ضِرَاءِ مَسْتَهْمِ إِذَا لَهُمْ مَكْرٌ فِي آيَاتِنَا قُلِ اللَّهُ أَسْرَعُ مَكْرًا إِنَّ رُسُلَنَا يَكْتُبُونَ مَا تَمْكُرُونَ ﴿٢١﴾ هُوَ الَّذِي يُسِيرُكُمُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ حَتَّى إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفُلِكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا بِهَا جَاءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَاءَهُمُ الْمَوْجُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ لَئِن أُنجَيْنَا مِنْ هَذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ ﴿٢٢﴾ فَلَمَّا أُنجَيْنَهُمْ إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ يَتَأَيَّبُوا النَّاسَ إِنَّمَا بِغِيْبِكُمْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ مَتَّعَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ثُمَّ إِنَّنَا مَرَجَعَكُمُ فَتَنِّيْكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٣﴾﴾

يخبر تعالى أنه إذا أذاق الناس رحمة من بعد ضراء مستهم، كالرخاء بعد الشدة، والخصب بعد الجذب، والمطر بعد القحط ونحو ذلك ﴿إِذَا لَهُمْ مَكْرٌ فِي آيَاتِنَا﴾. قال مجاهد: استهزاء وتكذيب. كقوله: ﴿وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ الضُّرُّ دَعَانَا لِجَنبِهِ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَائِمًا﴾ الآية [يونس: ١٢]، وفي الصحيح أن رسول الله ﷺ صلى بهم الصبح على أثر سماء - مطر - أصابهم من الليل ثم قال: «هل تدرون ماذا قال ربكم الليلة؟» قالوا: الله ورسوله أعلم. قال: «قال: أصبح من عبادي مؤمن بي وكافر، فأما من قال: مُطِرْنَا بِفَضْلِ اللَّهِ وَرَحْمَتِهِ، فَذَلِكَ مُؤْمِنٌ بِي كَافِرٌ بِالْكَوْكَبِ، وَأَمَّا مَنْ قَالَ: مُطِرْنَا بِنُورِ كَذَا وَكَذَا، فَذَلِكَ كَافِرٌ بِي مُؤْمِنٌ بِالْكَوْكَبِ» (١).

وقوله: ﴿قُلِ اللَّهُ أَسْرَعُ مَكْرًا﴾ أى: أشد استدراجا وإمهالا، حتى يظن الظان من المجرمين أنه ليس بمعذب، وإنما هو في مهلة، ثم يؤخذ على غرة منه، والكاثبون الكرام يكتبون عليه جميع ما يفعله، ويحصونه عليه، ثم يعرضونه على عالم الغيب والشهادة، فيجازيه على الحقيق والجليل، والنقى والقَطْمِيرِ.

ثم أخبر تعالى أنه: ﴿هُوَ الَّذِي يُسِيرُكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ﴾ أى: يحفظكم ويكلؤكم بحراسته ﴿حَتَّى إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفُلِكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا بِهَا﴾ أى: بسرعة سيرهم راققين، فبينما هم كذلك إذ ﴿جَاءَتْهَا﴾ أى: تلك السفن ﴿رِيحٌ عَاصِفٌ﴾ أى: شديدة ﴿وَجَاءَهُمُ الْمَوْجُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ﴾ أى: اغتلم البحر عليهم ﴿وَظَنُّوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ﴾ أى: هلكوا ﴿دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ أى: لا يدعون معه صنما ولا وثنا، بل يفرِّدونه بالدعاء والابتهال، كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَنْ تَدْعُونَ إِلَّا إِلَهُهُ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ ائْتَرَضْتُمْ وَكَانَ الْإِنْسَانُ كَفُورًا﴾ [الإسراء: ٦٧]، وقال هاهنا: ﴿دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ لَئِن أُنجَيْنَا مِنْ هَذِهِ﴾ أى: هذه الحال ﴿لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ﴾ أى: لانشرك بك أحدا، ولنفرِّدك بالعبادة هناك كما أفردناك بالدعاء هاهنا، قال الله تعالى: ﴿فَلَمَّا

أَمْجَاهُمْ ﴿٢٤﴾ أى : من تلك الورطة ﴿إِذَا هُمْ يَتَفَوَّنُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾ أى : كان لم يكن من ذلك شيء ﴿كَانَ لَمْ يَدْعُنَا إِلَىٰ ضَرْمِئِهِ﴾ .

ثم قال تعالى : ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا بَغَيْكُمُ عَلَىٰ أَنْفُسِكُمْ﴾ أى : إنما يذوق وبال هذا البغى أنتم أنفسكم ولا تضرون به أحدا غيركم ، كما جاء فى الحديث : «ما من ذنب أجدر أن يعجل الله عقوبته فى الدنيا ، مع ما يدخر الله لصاحبه فى الآخرة ، من البغى وقطيعة الرحم » (١) .

وقوله : ﴿مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ أى : إنما لكم متاع فى الحياة الدنيا الدنيئة الحقيرة ﴿ثُمَّ إِنَّا مَرْجِعُكُمْ﴾ أى : مصيركم ومآلكم ﴿فَنُنَبِّئُكُمْ﴾ أى : فنخبركم بجميع أعمالكم ، ونوفيكم إياها ، فمن وجد خيرا فليحمد الله ، ومن وجد غير ذلك فلا يلومن إلا نفسه .

﴿إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَالْأَنْعَامُ حَتَّىٰ إِذَا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِالْأَمْسِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢٥﴾ وَاللَّهُ يَدْعُوا إِلَىٰ دَارِ السَّلَامِ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿٢٦﴾﴾

ضرب تعالى مثلا لزهرة الحياة الدنيا وزينتها وسرعة انقضائها وزوالها ، بالنبات الذى أخرجه الله من الأرض بماء أنزل من السماء ، مما يأكل الناس من زروع وثمار ، على اختلاف أنواعها وأصنافها ، وما تاكل الأنعام من أب وقضب وغير ذلك ﴿حَتَّىٰ إِذَا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا﴾ أى : زينتها الفانية ﴿وَوَازَّيَّنَتْ﴾ أى : حسنت بما خرج من ربها من زهور نضرة مختلفة الأشكال والألوان ﴿وَظَنَّ أَهْلُهَا﴾ الذين زرعوها وغرسوها ﴿أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا﴾ أى : على جذاذها وحصادها ، فيبناهم كذلك إذ جاءتها صاعقة ، أو ريح باردة ، فأبيست أوراقها ، وأتلفت ثمارها ؛ ولهذا قال تعالى : ﴿أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا﴾ أى : يبسا بعد الخضرة والنضارة ﴿كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِالْأَمْسِ﴾ أى : كأنها ما كانت حسناء قبل ذلك . وقال قتادة : ﴿كَأَن لَّمْ تَغْنَ﴾ : كان لم تنعم . وقال تعالى إخباراً عن المهلكين : ﴿فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَائِعِينَ . كَأَن لَّمْ يَغْنُوا فِيهَا﴾ [هود : ٩٤ ، ٩٥] .

ثم قال تعالى : ﴿كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ﴾ أى : نبين الحجج والأدلة ﴿لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ فيعتبرون بهذا المثل فى زوال الدنيا عن أهلها سريعا مع اغترارهم بها ، وتمكنهم بمواعيدها وتفلتها منهم ، فإن من طبعها الهرب ممن طلبها ، والطلب لمن هرب منها ، وقد ضرب الله مثل الحياة الدنيا بنبات الأرض ، فى غير ما آية من كتابه العزيز ، فقال فى سورة الكهف : ﴿وَأَضْرِبْ لَهُم مَّثَلِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ الرِّيَّاحُ وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ مُّقْتَدِرًا﴾ [الكهف : ٤٥] ، وكذا فى سورة الزمر (٢) ، والحديد (٣) يضرب بذلك مثل الحياة الدنيا كماء .

(١) أبو داود (٤٩٠٢) ، والترمذى (٢٥١١) وقال : «حديث حسن صحيح» .

(٢) الآية (٢١) .

(٣) الآية (٢٠) .

وقوله: ﴿وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَى دَارِ السَّلَامِ﴾ الآية: لما ذكر تعالى الدنيا وسرعة زوالها ، رَغَّبَ فِي الْجَنَّةِ ودعا إليها، وسماها دار السلام أى: من الآفات، والنقائص والنكبات، فقال: ﴿وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَى دَارِ السَّلَامِ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾.

عن جابر بن عبد الله قال: خرج علينا رسولُ الله ﷺ يوماً فقال: «إني رأيت في المنام كأن جبريل عند رأسى، وميكائيل عند رجلى، يقول أحدهما لصاحبه: اضرب له مثلاً. فقال: اسمع سمعت أذنك، واعقل عقل قلبك، إنما مثلك ومثل أمك كمثل ملك اتخذ داراً، ثم بنى فيها بيتاً، ثم جعل فيها مادية، ثم بعث رسولاً يدعو الناس إلى طعامه، فمنهم من أجاب الرسول، ومنهم من تركه، فالله الملك، والدار الإسلام، والبيت الجنة، وأنت يا محمد الرسول، فمن أجابك دخل الإسلام، ومن دخل الإسلام دخل الجنة، ومن دخل الجنة أكل منها» (١).

رَبِيع ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلَا ذِلَّةٌ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾

يخبر تعالى أن لمن أحسن العمل في الدنيا بالإيمان والعمل الصالح : الحسنى فى الدار الآخرة، كقوله تعالى: ﴿هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَانِ إِلَّا الْإِحْسَانُ﴾ [الرحمن: ٦٠]. وقوله: ﴿وَزِيَادَةٌ﴾: هى تضعيف ثواب الأعمال بالحسنة عشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف، وزيادة على ذلك، ويشمل ما يعطيهم الله فى الجنان من القصور والحور والرضا عنهم، وما أخفاه لهم من قرة أعين، وأفضل من ذلك وأعلاه النظر إلى وجهه الكريم، فإنه زيادة أعظم من جميع ما أعطوه، لا يستحقونها بعملهم، بل بفضل ورحمته، وقد روى تفسير الزيادة بالنظر إلى وجه الله الكريم، عن أبى بكر الصديق، وحذيفة بن اليمان، وعبد الله ابن عباس، وقتادة، والسدى، وغيرهم من السلف والخلف.

وقد وردت فى ذلك أحاديث كثيرة، عن رسول الله ﷺ، فمن ذلك ما رواه الإمام أحمد عن صهيب؛ أن رسول الله ﷺ تلا هذه الآية: ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾، وقال: «إذا دخل أهل الجنة الجنة، وأهل النار النار، نادى مناد: يا أهل الجنة، إن لكم عند الله موعداً يريد أن ينجزكموه. فيقولون: وما هو؟ ألم يُثَقَّلَ موازيننا، ويبيض وجوهنا، ويدخلنا الجنة، ويزحزحنا من النار؟». قال: «فيكشف لهم الحجاب، فينظرون إليه، فوالله ما أعطاهم الله شيئاً أحب إليهم من النظر إليه، ولا أقر لأعينهم». وهكذا رواه مسلم وجماعة من الأئمة (٢).

وقوله تعالى: ﴿وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ﴾ أى: قنام وسواد فى عَرَصات المحشر، كما يعترى وجوه الكفرة الفجرة من القترة والغبرة ﴿وَلَا ذِلَّةٌ﴾ أى: هوان وصغار، أى: لا يحصل لهم

(١) البخارى (٨٢٨١) بنحوه .

(٢) المسند (٤/٣٣٢)، ومسلم (١٨١/٢٩٧)، والترمذى (٢٥٥٢)، وابن ماجه (١٨٧).

إهانة في الباطن، ولا في الظاهر، بل هم كما قال تعالى في حقهم: ﴿فَوَقَاهُمُ اللَّهُ شَرَّ ذَلِكَ الْيَوْمِ وَلَقَّاهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا﴾ [الإنسان: ١١] أى: نضرة في وجوههم، وسروراً في قلوبهم، جعلنا الله منهم بفضلِهِ ورحمته، آمين.

﴿وَالَّذِينَ كَسَبُوا السَّيِّئَاتِ جَزَاءُ سَيِّئَةٍ مِثْلَهَا وَتَرَهَقْتُمُ ذَلَّةٌ مَّا لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِرٍ كَانَمَا أَغَشِيَتْ وَجُوهُهُمْ قِطْعًا مِنَ اللَّيْلِ مُظْلِمًا أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ ﴿١٧﴾

لما أخبر تعالى عن حال السعداء الذين يُضاعف لهم الحسنات، ويزدادون على ذلك، عطف بذكر حال الأشقياء، فذكر تعالى عدله فيهم، وأنه يجازيهم على السيئة بمثلها، لا يزيدهم على ذلك، ﴿وَتَرَهَقْتُمُ﴾ أى: تعثر بهم وتعلوهم ذلة من معاصيهم وخوفهم منها، كما قال: ﴿وَتَرَاهُمْ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا خَاشِعِينَ مِنَ الدَّلِيلِ﴾ الآية [الشورى: ٤٥]، وقال تعالى: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهُ غَافِلًا عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ . مُهْطِعِينَ مُقْنِعِي رُءُوسِهِمْ﴾ الآيات [إبراهيم: ٤٢ - ٤٤]، وقوله: ﴿مَّا لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ﴾ أى: من مانع ولا واق يقيه العذاب، كما قال تعالى: ﴿يَقُولُ الْإِنْسَانُ يَوْمَئِذٍ أَيْنَ الْمَفْرُ . كَلَّا لَا وَزَرَ . إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمُسْتَقَرُّ﴾ [القيامة: ١٠ - ١٢].

وقوله: ﴿كَانَمَا أَغَشِيَتْ وَجُوهُهُمْ﴾ الآية: إخبار عن سواد وجوههم في الدار الآخرة، كقوله تعالى: ﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ وَجُوهٌُ وَسَوْدٌ وَجُوهٌُ فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وَجُوهُهُمْ أَكْفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ . وَأَمَّا الَّذِينَ ابْيَضَّتْ وَجُوهُهُمْ فَفِي رَحْمَةِ اللَّهِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٦، ١٠٧]، وقوله تعالى: ﴿وَجُوهُهُ يَوْمَئِذٍ مُسْفِرَةٌ . ضَاحِكَةٌ مُسْتَبْشِرَةٌ . وَوَجُوهُهُ يَوْمَئِذٍ غَيْرَةٌ﴾ الآية [عبس: ٣٨ - ٤٠].

﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا مَكَانَكُمْ أَنْتُمْ وَشُرَكَاءُكُمْ فَرَيْلْنَا بَيْنَهُمْ وَقَالَ شُرَكَاءُهُمْ مَا كُنْتُمْ إِتَانَا تَعْبُدُونَ﴾ ﴿١٨﴾ ﴿فَكَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ إِنْ كُنَّا عَنْ عِبَادَتِكُمْ غَافِلِينَ﴾ ﴿١٩﴾ ﴿هَٰنَالِكَ تَبَلَّوْا كُلُّ نَفْسٍ مَّا أَسْلَفَتْ وَرُدُّوْا إِلَى اللَّهِ مَوْلَاهُمْ الْحَقِّ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ ﴿٢٠﴾

يقول تعالى: ﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ﴾ أى: أهل الأرض كلهم، من جن وإنس، وبر وفاجر، كقوله: ﴿وَنَحْشُرَانَهُمْ فَلَمَّ نَعَادِرُ مِنْهُمْ أَحَدًا﴾ [الكهف: ٤٧]. ﴿ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا﴾ الآية، أى: الزموا أنتم وهم مكاناً معيناً، امتازوا فيه عن مقام المؤمنين، كقوله تعالى: ﴿وَامْتَازُوا الْيَوْمَ أَيُّهَا الْمُجْرِمُونَ﴾ [يس: ٥٩]، وقال: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُنْفِقُونَ﴾ [الرؤم: ١٤].

وقال الله تعالى في هذه الآية الكريمة إخباراً عما يأمر به المشركين وأوثانهم يوم القيامة: ﴿مَكَانَكُمْ أَنْتُمْ وَشُرَكَاءُكُمْ فَرَيْلْنَا بَيْنَهُمْ﴾ الآية، أنهم أنكروا عبادتهم، وتبرؤوا منهم، كقوله: ﴿كَلَّا سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ﴾ الآية [مريم: ٨٢]. وقوله: ﴿إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا﴾ [البقرة: ١٦٦]، وقوله: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُو مِن دُونِ اللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَهُمْ عَن دُعَائِهِمْ غَافِلُونَ . وَإِذَا

حُشِرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءً ﴿ [الاحقاف: ٥ ، ٦] . وقوله في هذه الآية إخباراً عن قول الشركاء فيما راجعوا فيه عابديهم عند ادعائهم عبادتهم: ﴿فَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ إِنْ كُنَّا عَنْ عِبَادَتِكُمْ لَغَافِلِينَ﴾ أى: ما كنا نشعر بها ولا نعلم، وإنما أنتم كنتم تعبدوننا من حيث لا ندري بكم، والله شهيد بيننا وبينكم أنا ما دعوناكم إلى عبادتنا، ولا أمرناكم بها، ولا رضينا منكم بذلك.

وفى هذا تبيكيت عظيم للمشركين الذين عبدوا مع الله غيره، ممن لا يسمع ولا يبصر، ولا يغنى عنهم شيئاً، ولم يأمرهم بذلك ولا رضى به ولا أراداه، بل تبرأ منهم فى وقت أحوج ما يكونون إليه، وقد تركوا عبادة الحى القيوم، السميع البصير، القادر على كل شىء، العليم بكل شىء وقد أرسل رسله وأنزل كتبه، أمراً بعبادته وحده لا شريك له، ناهياً عن عبادة ما سواه، كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ فَمِنْهُمْ مَنْ هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُمْ مَنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ﴾ [النحل: ٣٦] ، وقال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾ [الانبياء: ٢٥] ، وقال: ﴿وَأَسْأَلُ مَنْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رُسُلِنَا أَجَعَلْنَا مِنْ دُونِ الرَّحْمَنِ آلِهَةً يُعْبَدُونَ﴾ [الزخرف: ٤٥] . والمشركون أنواع وأقسام كثيرون، قد ذكرهم الله فى كتابه، وبين أحوالهم وأقوالهم ، ورد عليهم فيما هم فيه أتم رد.

وقوله: ﴿هَذَا كِتَابٌ تَجْلِسُ فِيهِ نَفْسٌ مِمَّا أَسْلَفَتْ﴾ أى: فى موقف الحساب يوم القيامة تختبر كل نفس وتعلم ما أسلفت من خير وشر ، كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ تُبْلَى السَّرَائِرُ﴾ [الطارق: ٩] ، وقال تعالى: ﴿يَبْنَؤُا الْإِنْسَانُ يَوْمَذٍ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ﴾ [القيامة: ١٣] ، وقال تعالى: ﴿ وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنشُورًا . افْرَأْ كِتَابَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا ﴾ [الاسراء: ١٣ ، ١٤] .

وقوله: ﴿ وَرَدُّوْا إِلَى اللَّهِ مَوْلَاهُمْ الْحَقِّ ﴾ أى: ورجعت الأمور كلها إلى الله الحكيم العدل، فصللها ، وأدخل أهل الجنة الجنة ، وأهل النار النار ﴿ وَضَلَّ عَنْهُمْ ﴾ أى : ذهب عن المشركين ﴿ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴾ أى: ما كانوا يعبدون من دون الله افتراء عليه .

﴿ قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَمَّنْ يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَرَ وَمَنْ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَمِيتِ وَيُخْرِجُ الْمَمِيتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَنْ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٢١﴾ فَذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ الْحَقُّ فَمَاذَا بَعَدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالَةُ فَإِنَّكُمْ تَصْرَفُونَ ﴿٢٢﴾ كَذَلِكَ حَقَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ فَسَقُوا أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٢٣﴾ ﴾

يحتج تعالى على المشركين باعترافهم بوحدانيته وربوبيته على وحدانيته الإلهية ، فقال : ﴿قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾ أى: من ذا الذى ينزل من السماء ماء المطر، فيشق الأرض شقاً بقدرته ومشيبته، فيخرج منها ﴿حَبًّا . وَعِنَبًا وَقَضْبًا . وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا . وَحَدائقَ غلبًا . وَفَاكِهَةً وَأَبًّا﴾ [عبس: ٢٧ - ٣١] ، إله مع الله ؟ فسيقولون: الله ، ﴿أَمَّنْ هَذَا الَّذِي يَرْزُقُكُمْ إِنْ أَمْسَكَ رِزْقَهُ﴾ [الملك: ٢١] ، وقوله: ﴿أَمَّنْ يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ﴾ أى: الذى وهبكم هذه القوة السامعة، والقوة الباصرة، ولو

شاء لذهب بها وسلبكم إياها، كما قال تعالى: ﴿ قُلْ هُوَ الَّذِي أَنْشَأَكُمْ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴾ [الملك: ٢٣] ، وقال: ﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ اللَّهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَارَكُمْ وَخَمَّ عَلَى قُلُوبِكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِهِ ﴾ [الانعام: ٤٦].

وقوله: ﴿ وَمَنْ يُخْرِجِ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجِ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ ﴾ أى: بقدرته العظيمة، ومنتته العجيبة، وقد تقدم ذكر الخلاف فى ذلك، وأن الآية عامة فى ذلك كله (١). وقوله: ﴿ وَمَنْ يُدَبِّرِ الْأُمْرَ ﴾ أى: من بيده ملكوت كل شىء وهو يجير ولا يجار عليه، وهو المتصرف الحاكم الذى لا معقب لحكمه، ولا يسأل عما يفعل وهم يسألون ﴿ يَسْأَلُهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلُّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ ﴾ [الرحمن: ٢٩] ، فالملك كله العلوى والسفلى، وما فيهما من ملائكة وإنس وجان، فقبيرون إليه، عبيد له، خاضعون لديه ﴿ فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ ﴾ أى: هم يعلمون ذلك ويعترفون به ﴿ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴾ أى: أفلا تخافون منه أن تعبدوا معه غيره بآرائكم وجهلكم؟.

وقوله: ﴿ فَذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ الْحَقُّ ﴾ أى: فهذا الذى اعترفتم بأنه فاعل ذلك كله هو ربكم وإلهكم الحق الذى يستحق أن يفرد بالعبادة ﴿ فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ ﴾ أى: فكل معبود سواه باطل، لا إله إلا هو، واحد لا شريك له ﴿ فَأَنَّى تُصْرَفُونَ ﴾ أى: فكيف تصرفون عن عبادته إلى عبادة ما سواه، وأنتم تعلمون أنه الرب الذى خلق كل شىء، والمتصرف فى كل شىء؟

وقوله: ﴿ كَذَلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ فَسَقُوا أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ أى: كما كفر هؤلاء المشركون واستمروا على شركهم وعبادتهم مع الله غيره ، مع أنهم يعترفون بأنه الخالق الرازق المتصرف فى الملك وحده، الذى بعث رسله بتوحيده؛ فلهذا حقت عليهم كلمة الله أنهم أشقياء من ساكنى النار، كقوله: ﴿ قَالُوا بَلَىٰ وَلَكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ الْعَذَابِ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴾ [الزمر: ٧١].

﴿ قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَبْدُوا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُمْ قُلْ اللَّهُ يَبْدُوا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُمْ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ ﴾ ﴿٤٤﴾ قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ قُلْ اللَّهُ يَهْدِي لِلْحَقِّ أَفَمَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ أَحَقُّ أَنْ يُتَّبَعَ أَمْ لَا يَهْدِي إِلَّا أَنْ يَهْدِيَهَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿٤٥﴾ وَمَا يَنْبَغُ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنًّا إِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴿٤٦﴾

وهذا إبطال لدعواهم فيما أشركوا بالله غيره، وعبدوا من الأصنام والانداد ﴿ قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَبْدُوا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُمْ ﴾ ؟ أى: من بدأ خلق هذه السموات والأرض ثم ينشئ ما فيهما من الخلائق، ويفرق أجرام السموات والأرض ويبدلها ببناء ما فيهما، ثم يعيد الخلق خلقاً جديداً؟ ﴿ قُلِ اللَّهُ ﴾ هو الذى يفعل هذا ويستقل به، وحده لا شريك له ﴿ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ ﴾ أى: فكيف تصرفون عن طريق الرشده إلى الباطل؟! ﴿ قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ قُلِ اللَّهُ يَهْدِي لِلْحَقِّ ﴾

أى: أنتم تعلمون أن شركاءكم لا تقدر على هداية ضال، وإنما يهذى الحيارى والضلال، ويقلب القلوب من الغى إلى الرشيد الله، الذى لا إله إلا هو ﴿ أَفَمَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ أَحَقُّ أَنْ يُتَّبَعَ أَمْ مَنْ لَا يَهْدِي إِلَّا أَنْ يَهْدَى ﴾ أى: أفيتبع العبد الذى يهذى إلى الحق ويُبصِّر بعد العمى، أم الذى لا يهذى إلى شيء إلا أن يهذى، لعماءه وبكمه؟ كما قال تعالى إخباراً عن إبراهيم أنه قال: ﴿ يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئًا ﴾ [مريم: ٤٢] ، وقال لقومه: ﴿ أَتَعْبُدُونَ مَا تَحْتُونَ . وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ﴾ [الصافات: ٩٥، ٩٦] إلى غير ذلك من الآيات.

وقوله: ﴿ فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴾ أى: فما بالكم يذهبُ بقولكم، كيف سويتم بين الله وبين خلقه، وعدلتم هذا بهذا، وعبدتم هذا وهذا؟ وهلا أفردتم الرب جل جلاله المالك الحاكم الهادى من الضلالة بالعبادة وحده، وأخلصتم إليه الدعوة والإنابة.

ثم بين تعالى أنهم لا يتبعون فى دينهم هذا دليلاً ولا برهاناً، وإنما هو ظن منهم، أى: توهم وتخيل، وذلك لا يغنى عنهم شيئاً ﴿ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴾: تهديد لهم، ووعيد شديد؛ لأنه تعالى أخبر أنه سيجازيهم على ذلك أتم الجزاء.

﴿ وَمَا كَانَ هَذَا الْقُرْآنُ أَنْ يُفْتَرَى مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ نَصَدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ الْكِتَابِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ (٣٧) **﴿ ٣٨ ﴾** أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ **﴿ ٣٩ ﴾** بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِطُوا بِعِلْمِهِ وَلَمَّا يَا تَهُم تَأْوِيلُهُ كَذَّابَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ **﴿ ٤٠ ﴾** وَمِنْهُمْ مَن يُوْمِنُ بِهِ وَمِنْهُمْ مَن لَا يُؤْمِنُ بِهِ وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِالْمُفْسِدِينَ **﴿ ٤١ ﴾**

هذا بيان لإعجاز القرآن، وأنه لا يستطيع البشر أن يأتوا بمثله، ولا بعشر سور، ولا بسورة من مثله، لأنه بفصاحته وبلاغته ووجازته وحلاوته، واشتماله على المعانى العزيزة الغزيرة، النافعة فى الدنيا والآخرة، لا يكون إلا من عند الله الذى لا يشبهه شيء فى ذاته ولا صفاته، ولا فى أفعاله وأقواله، فكلامه لا يشبه كلام المخلوقين؛ ولهذا قال تعالى: ﴿ وَمَا كَانَ هَذَا الْقُرْآنُ أَنْ يُفْتَرَى مِنْ دُونِ اللَّهِ ﴾ أى: مثل هذا القرآن لا يكون إلا من عند الله، ولا يشبه هذا كلام البشر ﴿ وَلَكِنْ تَصَدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ ﴾ أى: من الكتب المتقدمة، ومهيماً عليها، ومبيناً لما وقع فيها من التحريف والتأويل والتبديل. وقوله: ﴿ وَتَفْصِيلَ الْكِتَابِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ أى: وبيان الأحكام والحلال والحرام، بياناً شافياً كافياً حقاً لا مرية فيه من الله رب العالمين .

وقوله: ﴿ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ أى: إن ادعيتم وافترتيم وشككتكم فى أن هذا من عند الله، وقلتم كذباً وميناً: « إن هذا من عند محمد »، فمحمد بشر مثلكم، وقد جاء فيما زعمتم بهذا القرآن، فاتوا أنتم بسورة مثله، أى: من جنس القرآن، واستعينوا على ذلك بكل من قدرتم عليه من إنس وجان.

وهذا هو المقام الثالث فى التحدى، فإنه تعالى تحداهم ودعاهم، إن كانوا صادقين فى دعواهم، أنه من عند محمد، فليعارضوه بنظير ما جاء به وحده وليستعينوا بمن شاؤوا. وأخبر أنهم لا يقدرُونَ على ذلك، ولا سبيل لهم إليه، فقال تعالى: ﴿ قُلْ لئن اجتمعتِ الإنسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيراً ﴾ [الإسراء: ٨٨]، ثم تقاصر معهم إلى عشر سور منه، فقال فى أول سورة هود: ﴿ أم يَقُولُونَ اقْرَأْهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوْرٍ مِثْلِهِ مُفْتَرِيَاتٍ وَأَدْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ [هود: ١٣]، ثم تنازل إلى سورة، فقال فى هذه السورة: ﴿ أم يَقُولُونَ اقْرَأْهُ قُلْ فَأْتُوا بِسُوْرَةٍ مِثْلِهِ وَأَدْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾، وكذا فى سورة البقرة تحداهم بسورة منه، وأخبر أنهم لا يستطيعون ذلك أبداً، فقال: ﴿ إِنْ لَمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ ﴾ الآية: [البقرة: ٢٤].

هذا وقد كانت الفصاحة من سجايهم، وأشعارهم ومعلقاتهم إليها المنتهى فى هذا الباب، ولكن جاءهم من الله ما لا قبَلَ لأحد به، ولهذا آمن من آمن منهم بما عرف من بلاغة هذا الكلام وحلاوته، وجزالته وطلاوته، وإفادته وبراعته، فكانوا أعلم الناس به، وأفهمهم له، وأتبعهم له وأشدهم له انقياداً، كما عرف السحرة، لعلمهم بفنون السحر، أن هذا الذى فعله موسى، عليه السلام، لا يصدر إلا عن مؤيد مُسدّد مرسل من الله، وأن هذا لا يستطيع لبشر إلا بإذن الله. وكذلك عيسى، عليه السلام، بُعث فى زمان علماء الطب ومعالجة المرضى، فكان يرى الأكمه والأبرص، ويحى الموتى بإذن الله، ومثل هذا لا مدخل للعلاج والدواء فيه، فعرف من عرف منهم أنه عبد الله ورسوله؛ ولهذا جاء فى الصحيح، عن رسول الله ﷺ أنه قال: «ما من نبي من الأنبياء إلا وقد أوتى من الآيات ما آمن على مثله البشر، وإنما كان الذى أوتيته وحياً أوحاه الله إلى، فأرجو أن أكون أكثرهم تابِعاً (١)».

وقوله: ﴿ بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ ﴾ يقول: بل كذب هؤلاء بالقرآن، ولم يفهموه ولا عرفوه ﴿ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ ﴾ أى: ولم يُحصَلوا ما فيه من الهدى ودين الحق إلى حين تكذيبهم به جهلاً وسفهاً ﴿ كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ ﴾ أى: من الأمم السالفة ﴿ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ ﴾ أى: فانظر كيف أهلكناهم بتكذيبهم رسلنا ظلماً وعلواً، وكفراً وعناداً وجهلاً، فاحذروا أيها المكذبون أن يصيبكم ما أصابهم.

وقوله: ﴿ وَمِنْهُمْ مَنْ يُؤْمِنُ بِهِ ﴾ أى: ومن هؤلاء الذين بُعثَ إليهم يا محمد من يؤمن بهذا القرآن، ويتبعك ويتنفع بما أرسلت به ﴿ وَمِنْهُمْ مَنْ لَا يُؤْمِنُ بِهِ ﴾ بل يموت على ذلك ويبعث عليه ﴿ وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِالْمُفْسِدِينَ ﴾ أى: وهو أعلم بمن يستحق الهداية فيهديه، ومن يستحق الضلالة فيضلّه، وهو العادل الذى لا يجور، بل يعطى كلا ما يستحقه، تبارك وتعالى وتقدس وتنزه، لا إله إلا هو.

﴿ وَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقُلْ لِي عَمَلِي وَلكُمْ عَمَلُكُمْ أَنْتُمْ بَرِيْتُونَ مِمَّا أَعْمَلُ وَأَنَا بَرِيءٌ مِمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٤١﴾ وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ أَفَأَنْتَ تُسْمِعُ الصَّمَّ وَلَوْ كَانُوا لَا يَعْقِلُونَ ﴿٤٢﴾ وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْظُرُ إِلَيْكَ أَفَأَنْتَ تَهْدِي الصُّمَّ وَلَوْ كَانُوا لَا يَبْصُرُونَ ﴿٤٣﴾ إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ النَّاسَ شَيْئًا وَلَكِنَّ النَّاسَ أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٤٤﴾ ﴾

يقول تعالى لنبيه ﷺ: وإن كذبك هؤلاء المشركون، فبئراً منهم ومن عملهم ﴿فقل لي عملي ولكم عملكم﴾، كقوله تعالى: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ . لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ﴾ إلى آخرها [سورة الكافرون]. وقال إبراهيم الخليل وأتباعه لقومهم المشركين: ﴿إِنَّا بَرَاءُ مِنْكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ الآية [المتحنة: ٤].

وقوله: ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ﴾ أى: يسمعون كلامك الحسن، والقرآن العظيم، والأحاديث الصحيحة الفصيحة النافعة فى القلوب والأبدان والأديان، وفى هذا كفاية عظيمة، ولكن ليس ذلك إليك ولا إليهم، فإنك لا تقدر على إسماع الأصم - وهو الأطرش - فكذلك لا تقدر على هداية هؤلاء، إلا أن يشاء الله. ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْظُرُ إِلَيْكَ﴾ أى: ينظرون إليك وإلى ما أعطاك الله من التؤدة، والسمت الحسن، والخلق العظيم، والدلالة الظاهرة، على نبوتك لأولى البصائر والنهى، وهؤلاء ينظرون كما ينظر غيرهم، ولا يحصل لهم من الهداية شىء مما يحصل لغيرهم، بل المؤمنون ينظرون إليك بعين الوقار، والكافرون ينظرون إليك بعين الاحتقار، ﴿وَإِذَا رَأَوْكَ إِذْ يَتَخَذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا﴾ الآية [الفرقان: ٤١].

ثم أخبر تعالى أنه لا يظلم أحد شيئاً، فهو الحاكم المتصرف فى ملكه بما يشاء، الذى لا يُسأل عما يفعل وهم يسألون، لعلمه وحكمته وعدله؛ ولهذا قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ النَّاسَ شَيْئًا وَلَكِنَّ النَّاسَ أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾. وفى الحديث عن أبى ذر، عن النبى ﷺ، فيما يرويه عنه ربه عز وجل: «يا عبادى، إنى حرمت الظلم على نفسى، وجعلته بينكم محرماً فلا تظالموا» إلى أن قال فى آخره: «يا عبادى، إنما هى أعمالكم أحصيها لكم، ثم أوفىكم إياها، فمن وجد خيراً فليحمد الله، ومن وجد غير ذلك فلا يلومنَّ إلا نفسه». رواه مسلم بطوله (١).

﴿ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ كَأَن لَّمْ يَلْبَثُوا إِلَّا سَاعَةً مِّنَ النَّهَارِ يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْ قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِلِقَاءِ اللَّهِ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ ﴿٤٥﴾ ﴾

يقول تعالى مُدْكَرًا للناس قيام الساعة وحشرهم من أجدانهم إلى عَرَصات القيامة: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ﴾ الآية، كقوله: ﴿كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَاهَا﴾ [النازعات: ٤٦]، وقال تعالى: ﴿يَوْمَ يَنْفَخُ فِي الصُّورِ وَنَحْشُرُ الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا . يَتَخَفَتُونَ بَيْنَهُمْ إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا عَشْرًا . نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ إِذْ يَقُولُ أَمْثَلُهُمْ طَرِيقَةً إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا يَوْمًا﴾ [طه: ١٠٢ - ١٠٤]، وقال تعالى: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُقْسِمُ الْمُجْرِمُونَ مَا

لَبِثُوا غَيْرَ سَاعَةٍ ﴿٥٥﴾ الآيتين [الروم: ٥٥، ٥٦]. وهذا كله دليل على استقصار الحياة الدنيا في الدار الآخرة كقوله: ﴿ قَالَ كَمْ لَبِثْتُمْ فِي الْأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ . قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ فَاسْأَلِ الْعَادِينَ . قَالَ إِنَّ لَبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا لَوْ أَنَّكُمْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ [المؤمنون: ١١٢ - ١١٤].

وقوله: ﴿ يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْ ﴾ أى: يعرف الأبناء الآباء ، والقربات بعضهم لبعض ، كما كانوا فى الدنيا ، ولكن كل مشغول بنفسه ، ﴿ فَإِذَا نَفَخَ فِي الصُّورِ فَلَا أَنْسَابَ بَيْنَهُمْ ﴾ الآية [المؤمنون: ١٠١] ، وقال تعالى: ﴿ وَلَا يَسْأَلُ حَمِيمٌ حَمِيمًا ﴾ [المعارج: ١٠] الآيات .

وقوله: ﴿ قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِلِقَاءِ اللَّهِ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ ﴾ ، كقوله تعالى: ﴿ وَيَلَّ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ ﴾ [المرسلات: ١٥] ، لأنهم خسروا أنفسهم وأهلهم يوم القيامة، ألا ذلك هو الخسران المين. فهذه هى الخسارة العظيمة، ولا خسارة أعظم من خسارة من فرّق بينه وبين أحبته، يوم الحسرة والندامة .

﴿ وَإِنَّمَا تَرِيَّتِكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَقَّعُكَ فَإِنَّا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ اللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ ﴿٤٦﴾ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولٌ فَإِذَا جَاءَ رَسُولُهُمْ قُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٤٧﴾ ﴾

يقول تعالى مخاطبا لرسوله ﷺ: ﴿ وَإِنَّمَا تَرِيَّتِكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ ﴾ أى: نتقم منهم فى حياتك لتقر عينك منهم ﴿ أَوْ نَتَوَقَّعُكَ فَإِنَّا مَرْجِعُهُمْ ﴾ أى: مصيرهم ومنقلبهم، والله شهيد على أفعالهم بعدك .
وقوله: ﴿ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولٌ فَإِذَا جَاءَ رَسُولُهُمْ ﴾ : قال مجاهد: يعنى يوم القيامة ﴿ قُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ ﴾ الآية، كقوله تعالى: ﴿ وَأَشْرَقَتِ الْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا ﴾ [الزمر: ٦٩] ، فكل أمة تُعْرَضُ على الله بحضرة رسولها، وكتاب أعمالها من خير وشر وموضوع شاهد عليهم، وحفظتهم من الملائكة شهود أيضا أمة بعد أمة. وهذه الأمة الشريفة وإن كانت آخر الأمم فى الخلق، إلا أنها أول الأمم يوم القيامة يفصل بينهم، ويقضى لهم، كما جاء فى الصحيحين عن رسول الله ﷺ أنه قال: «نحن الآخرون السابقون يوم القيامة، المقضى لهم قبل الخلائق» (١) ، فأتمت إنما حازت قَصَبَ السِّبْقِ لشرف رسولها، صلوات الله وسلامه عليه إلى يوم الدين .

﴿ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَذَا الْوَعْدُ إِن كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٤٨﴾ قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي ضَرًّا وَلَا نَفْعًا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ إِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ فَلَا يَسْتَجِرُّونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴿٤٩﴾ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنِ اتَّكُمُ عَذَابُهُ بَيْنَنَا أَوْ نَهَارًا مَاذَا يَسْتَعِجِلُ مِنْهُ الْمُجْرِمُونَ ﴿٥٠﴾ أَتُمْ إِذَا مَا وَقَعَ ءَامَنْتُمْ بِهِ ءَالْتَنَ وَقَدْ كُنْتُمْ بِهِ تَسْتَعِجِلُونَ ﴿٥١﴾ ثُمَّ قِيلَ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذُوقُوا عَذَابَ الْخُلْدِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا بِمَا كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ ﴾ ﴿٥١﴾

يقول تعالى مخبراً عن كُفر هؤلاء المشركين في استعجالهم العذاب وسؤالهم عن وقته قبل التعيين، مما لا فائدة لهم فيه، كقوله : ﴿ يَسْتَعْجِلُ بِهَا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا وَالَّذِينَ آمَنُوا مُشْفِقُونَ مِنْهَا وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا الْحَقُّ ﴾ [الشورى: ١٨] أى: كائنة لا محالة وواقعة، وإن لم يعلموا وقتها وعينا، ولهذا أرشد رسول الله ﷺ إلى جوابهم فقال : ﴿ قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي ضَرًّا وَلَا نَفْعًا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ ﴾ أى: لا أقول إلا ما علمنى، ولا أقدر على شىء مما استأثر به إلا أن يُطعننى عليه، فإنا عبده ورسوله إليكم، وقد أخبرتكم بمجىء الساعة وأنها كائنة، ولم يطعننى على وقتها، ولكن ﴿ لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ ﴾، أى: لكل قرن مدة من العمر مُدَدَّة، فإذا انقضى أجلهم ﴿ فَلَا يَسْتَعْجِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴾، كقوله: ﴿ وَتَنْ يُؤَخِّرَ اللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَاءَ أَجَلُهَا ﴾ [المنافقون: ١١]، ثم أخبرهم أن عذاب الله سيأتيهم بغتة، فقال: ﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ آتَاكُمْ عَذَابُهُ بَيَاتًا أَوْ نَهَارًا ﴾ أى: ليلاً أو نهاراً، ﴿ مَاذَا يَسْتَعْجِلُ مِنْهُ الْمُجْرِمُونَ . أَمْ إِذَا مَا وَقَعَ آتَمْتُمْ بِهِ الْآنَ وَقَدْ كُنْتُمْ بِهِ تَسْتَعْجِلُونَ ﴾ يعنى: أنهم إذا جاءهم العذاب قالوا: ﴿ رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا ﴾ [الآية: السجدة: ١٢] ، وقال تعالى : ﴿ فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ . فَلَمْ يَكُ يَنْفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا سُنَّتَ اللَّهُ الَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْكَافِرُونَ ﴾ [غافر: ٨٤، ٨٥]. ﴿ ثُمَّ قِيلَ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذُوقُوا عَذَابَ الْخُلْدِ ﴾ أى: يوم القيامة يقال لهم هذا، تبيكتنا وتقرعنا، كقوله: ﴿ يَوْمَ يُدْعَوْنَ إِلَىٰ نَارِ جَهَنَّمَ دَعَاً . هَذِهِ النَّارُ الَّتِي كُنْتُمْ بِهَا تَكْذِبُونَ . أَسْحَرْتُمْ هَذَا أَمْ أَنْتُمْ لَا تَبْصُرُونَ . اصْلَوْهَا فَاصْبِرُوا أَوْ لَا تَصْبِرُوا سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ إِنَّمَا تُجْرُونَ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ [الطور: ١٣ - ١٦].

﴿ وَيَسْتَعْجِلُونَكَ أَحَقُّ هُوَ قُلْ إِي وَرَبِّي إِنَّهُ لَحَقٌّ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ ﴾ ﴿٥٦﴾ ربيع
وَلَوْ أَنَّ لِكُلِّ نَفْسٍ ظَلَمَتْ مَا فِي الْأَرْضِ لَافْتَدَتْ بِهِ وَأَسْرُوا النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ
وَقَضَىٰ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٥٦﴾

يقول تعالى: ويستعجلونك «أحق هو؟» أى: المعاد والقيامة من الأجداد بعد صيرورة الأجسام تراباً ﴿ قُلْ إِي وَرَبِّي إِنَّهُ لَحَقٌّ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ ﴾ أى: ليس صيرورتكم تراباً بمعجز الله عن إعادتكم كما بدأكم من العدم: ﴿ إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴾ [يس: ٨٢]. وهذه الآية ليس لها نظير فى القرآن إلا آيتان أخريان، يأمر الله تعالى رسوله أن يقسم به على من أنكر المعاد فى سورة سبأ: ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَأْتِنَا السَّاعَةُ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتَأْتِيَنَّكُمْ ﴾ [الآية: ٣]، وفى التغابن: ﴿ زَعَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ لَنْ يُعْثُوا قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتُعْثُنَّ ثُمَّ لَتُنْبِتُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ وَذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ﴾ [الآية: ٧].

ثم أخبر تعالى أنه إذا قامت القيامة يود الكافر لو افتدى من عذاب الله بملء الأرض ذهباً ﴿ وَأَسْرُوا النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ وَقَضَىٰ بَيْنَهُم بِالْقِسْطِ ﴾ أى: بالحق ﴿ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴾.

﴿ أَلَا إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ آيَاتٌ وَإِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ ﴿٥٥﴾ هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٥٥﴾

يخبر تعالى أنه مالك السموات والأرض، وأنَّ وعده حقٌّ كائن لا محالة، وأنه يحيى ويميت وإليه مرجعهم، وأنه القادر على ذلك، العليم بما تفرَّق من الأجسام وتمزَّق في سائر أقطاب الأرض والبحار والقفار .

﴿يَتَأْتِيهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَتْكُمْ مَوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِّمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٥٧﴾ قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿٥٨﴾﴾

يقول تعالى ممتنا على خلقه بما أنزل إليهم من القرآن العظيم على رسوله الكريم: ﴿يَأْتِيهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَتْكُمْ مَوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ أى: زاجر عن الفواحش ﴿وَشِفَاءٌ لِّمَا فِي الصُّدُورِ﴾ أى: من الشبهة والشكوك، وهو إزالة ما فيها من رجس ودنس ﴿وَهُدًى وَرَحْمَةٌ﴾ أى: يحصل به الهداية والرحمة من الله تعالى. وإنما ذلك للمؤمنين به والمصدقين الموقنين بما فيه، كقوله تعالى: ﴿وَنُنزِّل مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الإسراء: ٨٢]، وقوله: ﴿قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقُرْ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى أُولَئِكَ يُنَادُونَ مِن مَّكَانٍ بَعِيدٍ﴾ الآية [فصلت: ٤٤].

وقوله تعالى: ﴿قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾ أى: بهذا الذى جاءهم من الله من الهدى ودين الحق، فليفرحوا، فإنه أولى ما يفرحون به ﴿هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾ أى: من حطام الدنيا وما فيها من الزهرة الفانية الذاهبة لا محالة .

﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ مَا أَنزَلَ اللَّهُ لَكُمْ مِّن رِّزْقٍ فَجَعَلْتُم مِّنْهُ حَرَامًا وَحَلَالًا قُلْ ءَآلَهُ أَذِنَ لَكُمْ أَمْ عَلَى اللَّهِ تَفْتَرُونَ ﴿٥٩﴾ وَمَا ظَنُّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكُذِبَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٦٠﴾﴾

قال ابن عباس، ومجاهد، والضحاك، وقتادة، وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم: نزلت إنكاراً على المشركين فيما كانوا يحرمون ويحلون من البحائر والسوائب والوصائل، كقوله تعالى: ﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ الْحَرْثِ وَالْأَنْعَامِ نَصِيبًا﴾ [الأنعام: ١٣٦] الآيات .

وروى الإمام أحمد عن عوف بن مالك بن نضلة عن أبيه قال: أتيت رسول الله ﷺ وأنا قَشْفُ الهيئة، فقال: «هل لك مال؟» قال: قلت: نعم. قال: «من أى المال؟» قال: قلت: من كل المال، من الإبل والرقيق والخيل والغنم. فقال: «إذا أتاك مالا فليّر عليك». وقال: «هل تنتج إبل قومك صحاحا آذانها، فتعمد إلى موسى فتقطع آذانها، فتقول: هذه بحر وتشقها، أو تشق جلودها وتقول: هذه صرْم، وتحرمها عليك وعلى أهلك؟» قال: نعم. قال: «فإن ما أتاك الله لك حل، وساعد الله أشد من ساعدك، وموسى الله أحد من موساك» وذكر تمام الحديث . وهذا حديث جيد قوى الإسناد (١) .

وقد أنكر تعالى على من حرّم ما أحل الله، أو أحل ما حرم بمجرد الآراء والأهواء، التى

لا مستند لها ولا دليل عليها، ثم توعدهم على ذلك يوم القيامة، فقال: ﴿وَمَا ظَنُّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكُذِبَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ أى: ما ظنهم أن يصنع بهم يوم مرجعهم إلينا يوم القيامة.

وقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ﴾: قال ابن جرير: فى تركه معاجلتهم بالعقوبة فى الدنيا. قلت: ويحتمل أن يكون المراد لذو فضل على الناس فيما أباح لهم مما خلقه من المنافع فى الدنيا، ولم يحرم عليهم إلا ما هو ضار لهم فى دنياهم أو دينهم. ﴿وَلَكِنْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَشْكُرُونَ﴾ بل يحرمون ما أنعم الله به عليهم، ويضيعون على أنفسهم، فيجعلون بعضا حلالا وبعضا حراما. وهذا قد وقع فيه المشركون فيما شرعوه لأنفسهم، وأهل الكتاب فيما ابتدعوه فى دينهم.

﴿وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُوا مِنْهُ مِنْ قُرْآنٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ وَمَا يَعْزُبُ عَنْ رَبِّكَ مِنْ مِثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَلَا أَصْغَرَ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾

يخبر تعالى نبيه ﷺ أنه يعلم جميع أحواله وأحوال أمته، وجميع الخلائق فى كل ساعة وأوان ولحظة، وأنه لا يعزب عن علمه وبصره مثقال ذرة فى حقارتها وصغرها فى السموات ولا فى الأرض، ولا أصغر منها ولا أكبر إلا فى كتاب مبين، كقوله: ﴿وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٌ فِي ظِلْمَاتِ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٌ وَلَا يَابِسٌ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾ [الانعام: ٥٩]، فأخبر تعالى أنه يعلم حركة الأشجار وغيرها من الجمادات، وكذلك الدواب السارحة فى قوله: ﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَالُكُمْ﴾ الآية [الانعام: ٣٨]، وقال تعالى: ﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا﴾ الآية [هود: ٦].

وإذا كان هذا علمه بحركات هذه الأشياء، فكيف بعلمه بحركات المكلفين المأمورين بالعبادة، كما قال تعالى: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ. الَّذِي يَرَاكَ حِينَ تَقُومُ. وَتَقَلِّبُكَ فِي السَّجْدِينَ﴾ [الشعراء: ٢١٧ - ٢١٩]؛ ولهذا قال تعالى: ﴿وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُوا مِنْهُ مِنْ قُرْآنٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ﴾ أى: إذ تأخذون فى ذلك الشئ نحن مشاهدون لكم راؤون سامعون، ولهذا قال ﷺ لما سأله جبريل عن الإحسان: « أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك » (١).

﴿أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفَ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ﴾ ﴿لَهُمُ الْبُشْرَىٰ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ لَا يَبْدِلُ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ ذَلِكُمْ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾

يخبر تعالى أن أوليائه هم الذين آمنوا وكانوا يتقون، كما فسره لهم ربهم، فكل من كان تقيا

كان لله وليا ، ف ﴿لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ﴾ أى : فيما يستقبلونه من أهوال الآخرة ﴿وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ على ما وراءهم فى الدنيا . وقال عبد الله بن مسعود ، وابن عباس ، وغير واحد من السلف : أولياء الله : الذين إذا رؤوا ذكّر الله .

وروى ابن جرير عن أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « إن من عباد الله عابادا يغبطهم الأنبياء والشهداء » . قيل : من هم يا رسول الله ؟ لعلنا نجيبهم . قال : « هم قوم تحابوا فى الله من غير أموال ولا أنساب ، وجوههم نور على منابر من نور ، لا يخافون إذا خاف الناس ، ولا يحزنون إذا حزن الناس » . ثم قرأ : ﴿ أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ . ثم رواه أيضا أبو داود عن أبى زرعة ابن عمرو بن جرير ، عن عمر بن الخطاب عن النبى ﷺ ، بمثله (١) . وهذا أيضا إسناد جيد ، إلا أنه منقطع بين أبى زرعة وعمر بن الخطاب ، والله أعلم . وروى الإمام أحمد عن أبى ذر؛ أنه قال : يا رسول الله ، الرجل يعمل العمل فيحمله الناس عليه ، ويشنون عليه به ، فقال رسول الله ﷺ : « تلك عاجل بشرى المؤمن » . رواه مسلم (٢) . وهكذا روى عن ابن مسعود ، وأبى هريرة ، وابن عباس ، ومجاهد ، وعروة بن الزبير ، ويحيى ابن أبى كثير ، وإبراهيم النخعى ، وعطاء بن أبى رباح : أنهم فسروا ذلك بالرؤيا الصالحة .

وقيل : المراد بذلك بشرى الملائكة للمؤمن عند احتضاره بالجنة والمغفرة كقوله تعالى : ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشُرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ . نَحْنُ أَوْلِيَائُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهَى أَنْفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدْعُونَ . نَزَّلْنَا مِنْ غَفُورٍ رَحِيمٍ ﴾ [فصلت : ٣٠ - ٣٢] . وفى حديث البراء : « أن المؤمن إذا حضره الموت ، جاءه ملائكة بيض الوجوه ، بيض الثياب ، فقالوا : اخرجى أيتها الروح الطيبة إلى روح وريحان ، ورب غير غضبان . فتخرج من فمه ، كما تسيل القطرة من فم السقاء » (٣) .

وأما بشراهم فى الآخرة ، فكما قال تعالى : ﴿لَا يَحْزَنُهُمُ الْفَرَقُ الْأَكْبَرُ وَتَلَقَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ هَذَا يَوْمُكُمْ الَّذِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ﴾ [الأنبياء : ١٠٣] ، وقال تعالى : ﴿يَوْمَ تَرَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ يَسْعَى نُورُهُمْ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ بُشْرَاكُمُ الْيَوْمَ جَنَاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ [الحديد : ١٢] . وقوله : ﴿لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ﴾ أى : هذا الوعد لا يبدل ولا يخلف ولا يغير ، بل هو مقرر مثبت كائن لا محالة : ﴿ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ .

(١) ابن جرير فى التفسير (٩٢/١١) ، وأبو داود (٣٥٢٧) ، وصححه الألبانى .

(٢) المسند (١٥٦/٥) ، ومسلم (١٦٦/٢٦٤٢) .

(٣) المسند (٢٨٧/٤) ، وأبو داود (٤٧٥٣) ، والترمذى (١٠٧١) ، وقال : « وفى الباب عن البراء بن عازب » ،

وصححه الألبانى .

﴿ وَلَا يَخْزَنُكَ قَوْلُهُمْ إِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾ ٦٥ ﴿ أَلَا إِنَّ لِلَّهِ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَسْمَعُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ شُرَكَاءَ إِنْ يَسْمَعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴾ ٦٦ ﴿ هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ آيَاتٍ لَتَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُسْمَعُونَ ﴾ ٦٧ ﴿

يقول تعالى لرسوله ﷺ : ﴿ وَلَا يَخْزَنُكَ ﴾ قول هؤلاء المشركين ، واستعن بالله عليهم ، وتوكل عليه ؛ فإن ﴿ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا ﴾ ، أى : جميعها له ولرسوله وللمؤمنين ، ﴿ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾ أى : السميع لأقوال عباده العليم بأحوالهم .

ثم أخبر تعالى أن له ملك السموات والأرض ، وأن المشركين يعبدون الأصنام ، وهى لا تملك شيئا ، لا ضراً ولا نفعاً ، ولا دليل لهم على عبادتها ، بل إنما يتبعون فى ذلك ظنونهم وتخرفهم وكذبهم وإفكهم .

ثم أخبر أنه الذى جعل لعباده الليل ليسكنوا فيه ، أى : يستريحون فيه من نصبهم وكلالهم وحركاتهم ﴿ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا ﴾ أى : مضيئاً لمعاشهم وسعيهم ، وأسفارهم ومصالحهم ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُسْمَعُونَ ﴾ أى : يسمعون هذه الحجج والأدلة ، فيعتبرون بها ، ويستدلون على عظمة خالقها ، ومقدرها ومسيرها .

﴿ قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ هُوَ الْغَنِيُّ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ إِنْ عِنْدَكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ بِهَذَا أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ ٦٨ ﴿ قُلِ الَّذِينَ يَفْقَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكُذِبَ لَا يَفْلِحُونَ ﴾ ٦٩ ﴿ مَتَّعَ فِي الدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ نَذِقُهُمُ الْعَذَابَ الشَّدِيدَ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ ﴾ ٧٠ ﴿

يقول تعالى منكرأ على من ادعى أن له ولداً : ﴿ سُبْحَانَهُ هُوَ الْغَنِيُّ ﴾ أى : تقدر عن ذلك ، هو الغنى عن كل ما سواه ، وكل شيء فقير إليه ﴿ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ﴾ أى : فكيف يكون له ولد مما خلق ، وكل شيء مملوك له ، عبد له؟! ﴿ إِنْ عِنْدَكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ بِهَذَا ﴾ أى : ليس عندكم دليل على ما تقولونه من الكذب والبهتان! ﴿ أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ : إنكار ووعيد أكيد ، وتهديد شديد ، كقوله تعالى : ﴿ وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا . لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا . تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنْشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا . أَنْ دَعَوْا لِلرَّحْمَنِ وَلَدًا . وَمَا يَنْبَغِي لِلرَّحْمَنِ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا . إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتَى الرَّحْمَنِ عَبْدًا . لَقَدْ أَحْصَاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا . وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَرْدًا ﴾ [مریم: ٨٨- ٩٥] .

ثم توعد تعالى الكاذبين عليه المفترين ، ممن زعم أنه له ولداً ، بأنهم لا يفلحون فى الدنيا ولا فى الآخرة ، فأما فى الدنيا فإنهم إذا استدريجهم وأملى لهم متعهم قليلاً ، ثم يضطرهم إلى عذاب غليظ ، كما قال تعالى هاهنا : ﴿ مَتَّعَ فِي الدُّنْيَا ﴾ أى : مدة قريبة ﴿ ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ﴾ أى :

يوم القيامة ﴿ ثُمَّ نُذِيقُهُمُ الْعَذَابَ الشَّدِيدَ ﴾ أى: الموجع المؤلم ﴿ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ ﴾ أى: بسبب كفرهم وافتراءهم وكذبهم على الله، فيما ادعوه من الإفك والزور.

ربع

﴿ وَأَتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ يَتَقَوْمِ إِنْ كَانَ كِبَرُ عَلَيْكُمْ مَقَامِي وَتَذَكِيرِي بِآيَاتِ اللَّهِ فَعَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْتُ فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ وَشُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ اقْضُوا إِلَيَّ وَلَا تُنظِرُونِ ﴿٧١﴾ فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَمَا سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِي إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴿٧٢﴾ فَكَذَّبُوهُ فَجَعَلْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ فِي الْفَلَاحِ وَجَعَلْنَاهُمْ خَلَائِفَ وَأَعْرَفْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُتَدَبِّرِينَ ﴿٧٣﴾ ﴾

يقول تعالى لنبيه ﷺ : ﴿ وَأَتْلُ عَلَيْهِمْ ﴾ أى: أخبرهم واقصص عليهم، أى: على كفار مكة الذين يكذبونك ويخالفونك ﴿ نَبَأَ نُوحٍ ﴾ أى: خبره مع قومه الذين كذبوه، كيف أهلكهم الله ودمرهم بالغرق أجمعين عن آخرهم، ليحذر هؤلاء أن يصيبهم من الهلاك والدمار ما أصاب أولئك ﴿ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ إِنْ كَانَ كِبَرُ عَلَيْكُمْ ﴾ أى: عظم عليكم ﴿ مَقَامِي ﴾ أى: فيكم بين أظهركم ﴿ وَتَذَكِيرِي ﴾ إياكم ﴿ بِآيَاتِ اللَّهِ ﴾ أى: بحججه وبراهينه ﴿ فَعَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْتُ ﴾ أى: فإني لا أبالي ولا أكف عنكم، سواء عظم عليكم أو لا ! ﴿ فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ وَشُرَكَاءَكُمْ ﴾ أى: فاجتمعوا أنتم وشركاؤكم الذين تدعون من دون الله، من صنم ووثن ﴿ ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ﴾ أى: ولا تجعلوا أمركم عليكم ملتبسا، بل افصلوا حالكم معي، فإن كنتم تزعمون أنكم محقون، فاقضوا إلى ولا تنظرون، أى: ولا تؤخروني ساعة واحدة، أى: مهما قدرتم فافعلوا، فإني لا أخاف منكم، لأنكم لستم على شيء، كما قال هود لقومه: ﴿ إِنِّي أَشْهَدُ اللَّهَ وَأَشْهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ مِنْ دُونِهِ فَكَيْدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنظِرُونَ . إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ ﴾ الآية [هود: ٥٤ - ٥٦].

﴿ فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ ﴾ أى: كذبتهم وأدبرتم عن الطاعة ﴿ فَمَا سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ ﴾ أى: لم أطلب منكم على نصحي إياكم شيئا ﴿ إِنْ أَجْرِي إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴾ أى: وأنا ممثّل ما أمرت به من الإسلام لله عز وجل؛ والإسلام هو دين الأنبياء من أولهم إلى آخرهم، وإن تنوعت شرائعهم وتعددت مناهجهم، كما قال تعالى: ﴿ لِكُلِّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا ﴾ [المائدة: ٤٨] سيلا وسنة. فهذا نوح يقول: ﴿ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴾ [النمل: ٩١]، وقال تعالى عن إبراهيم الخليل: ﴿ إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلَمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ . وَوَصَّى بِهَا إِبْرَاهِيمَ بَنِيهِ وَيَعْقُوبَ يَا بَنِيَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى لَكُمْ الدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ ﴾ [البقرة: ١٣١، ١٣٢]، وقال يوسف: ﴿ رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمَلِكِ وَعَلَّمْتَنِي مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنْتَ وَلِيِّ فِى الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ ﴾ [يوسف: ١٠١]، وقال موسى: ﴿ يَا قَوْمِ إِنْ كُنْتُمْ مُنْتَمِ بِاللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُسْلِمِينَ ﴾ [يونس: ٨٤]، وقال السحرة: ﴿ رَبَّنَا أفرغ علينا صبراً وتوفنا مسلمين ﴾ [الاعراف: ١٢٦]، وقالت بلقيس: ﴿ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ [النمل: ٤٤]، وقال تعالى: ﴿ إِنَّا أَنْزَلْنَا التَّوْرَةَ ﴾

فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا. [المائدة: ٤٤]، وقال تعالى: ﴿وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى الْغَوَارِيِّينَ أَنْ آمِنُوا بِي وَبِرَسُولِي قَالُوا آمَنَّا وَأَشْهَدُ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ [المائدة: ١١١] وقال خاتم الرسل وسيد البشر ﷺ: ﴿إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أَمَرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ﴾ [الأنعام: ١٦٢، ١٦٣] أى: من هذه الأمة؛ ولهذا قال: «نحن معاشر الأنبياء أولاد علّات، ديننا واحد» (١).
أى: وهو عبادة الله وحده لا شريك له، وإن تنوعت شرائعنا، وذلك معنى قوله: «أولاد علّات»، وهم: الإخوة من أمهات شتى والأب واحد.

وقوله تعالى: ﴿فَكَذَّبُوهُ فَجَعَلْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ﴾ أى: على دينه ﴿فِي الْفُلْكِ﴾ وهى: السفينة ﴿وَجَعَلْنَاهُمْ خَلَائِفَ﴾ أى: فى الأرض، ﴿وَأَعْرَفْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكْذِبِينَ﴾ أى: يا محمد كيف أتحينا المؤمنين، وأهلكنا المكذبين.

﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِ رَسُولًا إِلَى قَوْمِهِمْ فَجَاءَهُمْ وَهُمْ بِالْبَيْتَاتِ فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا بِهِ مِنْ قَبْلُ كَذَلِكَ نَطْبَعُ عَلَى قُلُوبِ الْمُعْتَدِينَ﴾

يقول تعالى: ﴿ثُمَّ بَعَثْنَا﴾ من بعد نوح ﴿رَسُولًا إِلَى قَوْمِهِمْ فَجَاءَهُمْ بِالْبَيْتَاتِ﴾ أى: بالحجج والأدلة والبراهين على صدق ما جاؤوهم به ﴿فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا بِهِ مِنْ قَبْلُ﴾ أى: فما كانت الأمم لتؤمن بما جاءتهم به رسلهم، بسبب تكذيبهم إياهم أول ما أرسلوا إليهم، كما قال تعالى: ﴿وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوْلَ مَرَّةٍ﴾ [الأنعام: ١١٠].

وقوله: ﴿كَذَلِكَ نَطْبَعُ عَلَى قُلُوبِ الْمُعْتَدِينَ﴾ أى: كما طبع الله على قلوب هؤلاء، فما آمنوا بسبب تكذيبهم المتقدم، هكذا يطبع الله على قلوب من أشبههم ممن بعدهم، ويختم على قلوبهم، فلا يؤمنوا حتى يروا العذاب الأليم. والمراد: أن الله تعالى أهلك الأمم المكذبة للرسل، وأنجى من آمن بهم، وذلك من بعد نوح، عليه السلام، فإن الناس كانوا من قبله من زمان آدم عليه السلام على الإسلام، إلى أن أحدث الناس عبادة الأصنام، فبعث الله إليهم نوحا، عليه السلام؛ ولهذا يقول له المؤمنون يوم القيامة: أنت أول رسول بعثه الله إلى أهل الأرض. وقال ابن عباس: كان بين آدم ونوح عشرة قرون، كلهم على الإسلام. وقال الله تعالى: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ الْقُرُونِ مِنْ بَعْدِ نُوحٍ﴾ الآية [الإسراء: ١٧]، وفى هذا إنذار عظيم لمشركى العرب الذين كذبوا بسيد الرسل وخاتم الأنبياء والمرسلين، فإنه إذا كان قد أصاب من كذب بتلك الرسل ما ذكره الله تعالى من العقاب والنكال، فماذا ظن هؤلاء وقد ارتكبوا أكبر من أولئك؟

﴿ ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ مُوسَى وَهَارُونَ إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ بِآيَاتِنَا فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا مُجْرِمِينَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِنَا قَالُوا إِنَّ هَذَا لَسِحْرٌ مُبِينٌ ﴿٧٦﴾ قَالَ مُوسَى أَتَقُولُونَ لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَكُمْ أَسِحْرٌ هَذَا وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُونَ ﴿٧٧﴾ قَالُوا أَجِئْتَنَا لِنَأْفِتِنَا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا وَتَكُونَ لَكُمْ الْكِبْرِيَاءُ فِي الْأَرْضِ وَمَا نَحْنُ لَكُمْ بِمُؤْمِنِينَ ﴿٧٨﴾ ﴾

يقول تعالى: ﴿ثُمَّ بَعَثْنَا﴾ من بعد تلك الرسل ﴿مُوسَى وَهَارُونَ إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ﴾ أى: قومه ﴿بِآيَاتِنَا﴾ أى: حججنا وبراهيننا ﴿فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا مُجْرِمِينَ﴾ أى: استكبروا عن اتباع الحق والانقياد له، ﴿فَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِنَا قَالُوا إِنَّ هَذَا لَسِحْرٌ مُبِينٌ﴾ كأنهم - قبَّحهم الله - أقسموا على ذلك، وهم يعلمون أن ما قالوه كذب وبهتان، كما قال تعالى: ﴿وَجَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ﴾ [النمل: ١٤].

﴿قَالَ﴾ لهم ﴿مُوسَى﴾ منكرًا عليهم: ﴿أَتَقُولُونَ لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَكُمْ أَسِحْرٌ هَذَا وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُونَ﴾. قَالُوا أَجِئْتَنَا لِنَأْفِتِنَا﴾ أى: تثنينا ﴿عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا﴾ أى: الدين الذى كانوا عليه ﴿وَتَكُونَ لَكُمْ﴾ أى: لك ولهارون ﴿الْكِبْرِيَاءُ﴾ أى: العظمة والرياسة ﴿فِي الْأَرْضِ وَمَا نَحْنُ لَكُمْ بِمُؤْمِنِينَ﴾.

وكثيراً ما يذكر الله تعالى قصة موسى، عليه السلام، مع فرعون فى كتابه العزيز؛ لأنها من أعجب القصص، فإن فرعون حَذَرَ من موسى كل الحذر، فسخره القدر أن ربى هذا الذى يُحَدِّثُ منه على فراشه، ثم ترعرع وعقد الله له سبباً أخرجه من بين أظهرهم، ورزقه النبوة والرسالة والتكليم، وبعثه إليه ليدعوه إلى الله تعالى ليعبده ويرجع إليه، فتمرد فرعون واستكبر وأهان حزب الإيمان من بنى إسرائيل، والله تعالى يحفظ رسوله موسى وأخاه هارون، ويحوظهما بعنائه، ولم تزل المحاجة والمجادلة والآيات تقوم على يدي موسى شيئاً بعد شيء، مما يبهر العقول، ولا يأتى به إلا من هو مؤيد من الله، وصمم فرعون ومَلَكُوهُ على التكذيب بذلك كله، حتى أحل الله بهم بأسه الذى لا يُرَدُّ، وأغرقهم فى صبيحة واحدة أجمعين ﴿فَقَطَعَ دَابِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الانعام: ٤٥].

﴿ وَقَالَ فِرْعَوْنُ أَتَأْتُونِي بِكُلِّ سِحْرٍ عَلِيمٍ ﴿٧٩﴾ فَلَمَّا جَاءَ السَّحْرَةَ قَالَ لَهُمْ مُوسَى الْقُوا مَا أَنْتُمْ مُلْقُونَ ﴿٨٠﴾ فَلَمَّا الْقُوا قَالَ مُوسَى مَا جِئْتُمْ بِهِ السِّحْرُ إِنَّ اللَّهَ سَيُطِئِلُهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ الْمُفْسِدِينَ ﴿٨١﴾ وَيُحِقُّ اللَّهُ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ ﴿٨٢﴾ ﴾

ذكر الله سبحانه قصة السحرة مع موسى، عليه السلام، فى سورة الأعراف، وقد تقدم الكلام عليها هناك. وفى هذه السورة، وفى سورة طه، وفى الشعراء؛ وذلك أن فرعون - لعنه الله - أراد أن يعارض ما جاء به موسى من الحق المبين، فخاب وخسر الجنة، واستوجب النار. ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ أَتَأْتُونِي بِكُلِّ سِحْرٍ عَلِيمٍ﴾. فَلَمَّا جَاءَ السَّحْرَةَ قَالَ لَهُمْ مُوسَى الْقُوا مَا أَنْتُمْ مُلْقُونَ؟؛ وإنما قال لهم ذلك

لأنهم اصطفوا - وقد وعدوا من فرعون بالتقريب والعطاء الجزيل - ﴿ قَالُوا يَا مُوسَى إِمَّا أَنْ تُلْقِيَ وَإِمَّا أَنْ نَكُونَ أَوْلَىٰ مِنْ أَلْفَىٰ . قَالَ بَلْ أَلْفُوا ﴾ [طه: ٦٥، ٦٦]، فأراد موسى أن تكون البداية منهم، ليرى الناس ما صنعوا، ثم يأتي بالحق بعده فيدمغ باطلهم؛ ولهذا لما ﴿ أَلْفُوا سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ وَاسْتَرَهُوهُمْ وَجَاءُوا بِسِحْرٍ عَظِيمٍ ﴾ [الاعراف: ١١٦]، ﴿ فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةٌ مُوسَى . قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنْتَ الْأَعْلَىٰ . وَأَلْقَىٰ مَا فِي يَمِينِكَ تَلْفَافًا مَّا صَنَعُوا إِنَّمَا صَنَعُوا كَيْدًا سَاحِرًا وَلَا يَفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَىٰ ﴾ [طه: ٦٧ - ٦٩]. فعند ذلك قال موسى لما ألقوا: ﴿ مَا جِئْتُمْ بِهِ السِّحْرُ إِنَّ اللَّهَ سَيُطْلِعُهُ إِنَّ اللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ الْمُفْسِدِينَ . وَيُحِقُّ اللَّهُ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ ﴾ .

﴿ فَمَا آمَنَ لِمُوسَىٰ إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِّن قَوْمِهِ عَلَىٰ خَوْفٍ مِّن فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِمْ أَن يَفْتِنَهُمْ وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِي الْأَرْضِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الْمُسْرِفِينَ ﴾

يخبر تعالى أنه لم يؤمن بموسى، عليه السلام، مع ما جاء به من الآيات البيّنات والحجج القاطعات، إلا قليل من قوم فرعون، من الذرية - وهم الشباب - على وجل وخوف منه ومن ملكته، أن يردوهم إلى ما كانوا عليه من الكفر؛ لأن فرعون كان جبارا عنيدا مسرفا في التمرد والعتو، وكانت له سَطْوَةٌ ومهابة، تخاف رعيته منه خوفا شديدا. قال ابن عباس: ﴿ فَمَا آمَنَ لِمُوسَىٰ إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِّن قَوْمِهِ عَلَىٰ خَوْفٍ مِّن فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِمْ أَن يَفْتِنَهُمْ ﴾ قال: فإن الذرية التي آمنت لموسى، من أناس غير بنى إسرائيل، من قوم فرعون يسير، منهم: امرأة فرعون، ومؤمن آل فرعون، وخازن فرعون، وامرأة خازنه.

﴿ عَلَىٰ خَوْفٍ مِّن فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِمْ ﴾ أى: وأشراف قومهم أن يفتنهم، ولم يكن فى بنى إسرائيل من يخاف منه أن يفتن عن الإيمان سوى قارون، فإنه كان من قوم موسى، فبغى عليهم. وما يدل على أنه لم يكن فى بنى إسرائيل إلا مؤمن قوله تعالى:

﴿ وَقَالَ مُوسَىٰ يَقَوْمِ بِإِيمَانِكُمْ بِاللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا وَإِن كُنتُمْ مُسْلِمِينَ ﴾ ﴿ ٨٤ ﴾ فَقَالُوا عَلَىٰ اللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿ ٨٥ ﴾ وَجَنَّا بِرَحْمَتِكَ مِنَ الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴿ ٨٦ ﴾

يقول تعالى مخبرا عن موسى أنه قال لبنى إسرائيل: ﴿ يَا قَوْمِ إِن كُنتُمْ آمَنتُمْ بِاللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا وَإِن كُنتُمْ مُسْلِمِينَ ﴾ أى: فإن الله كاف من توكل عليه، ﴿ أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ ﴾ [الزمر: ٣٦]، ﴿ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ ﴾ [الطلاق: ٣]. وكثيرا ما يقرن الله بين العباداة والتوكل، كقوله تعالى: ﴿ فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ ﴾ [هود: ١٢٣]، ﴿ قُلْ هُوَ الرَّحْمَنُ أَمَنًا بِهِ وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا ﴾ [الملك: ٢٩]، ﴿ رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَاتَّخِذْهُ وَكِيلًا ﴾ [المزمل: ٩]، وأمر الله تعالى المؤمنين أن يقولوا فى كل صلواتهم مرات متعددة: ﴿ يَاكَ نَعْبُدُ وَيَاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ [الفاتحة: ٥].

وقد امتثل بنو إسرائيل ذلك، فقالوا: ﴿ عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴾ أى:

لا تظفروهم بنا، وتسلمتهم علينا ، فيظنوا أنهم إنما سلطوا لأنهم على الحق ونحن على الباطل، فيفتنوا بذلك. هكذا روى عن أبي مجلز ، وأبي الضحى. وقال مجاهد: لا تعذبنا بأيدي قوم فرعون ، ولا بعذاب من عندك ، فيقول قوم فرعون : لو كانوا على حق ما عذبوا، ولا سلطنا عليهم، فيفتنوا بنا. ﴿وَنَجِّنَا بِرَحْمَتِكَ﴾ أى: خلصنا برحمة منك وإحسان ﴿مِنَ الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾ أى: الذين كفروا الحق وستره، ونحن قد آمننا بك وتوكلنا عليك.

﴿ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ وَأَخِيهِ أَنْ تَبَوَّءَا لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ يُثُوتًا وَأَجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ ﴾

يذكر تعالى سبب إنجائه بنى إسرائيل من فرعون وقومه، وكيفية خلاصهم منهم ، وذلك أن الله تعالى أمر موسى وأخاه هارون، عليهما السلام ﴿أَنْ تَبَوَّءَا﴾ أى: يتخذا لقومهما بمصر بيوتا. عن ابن عباس: ﴿وَأَجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً﴾ قال: أمرُوا أن يتخذوها مساجد. وكان هذا - والله أعلم - لما اشتد بهم البلاء من قبل فرعون وقومه، وضيقوا عليهم، أمرُوا بكثرة الصلاة، كما قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ﴾ [البقرة: ١٥٣]. وفى الحديث : كان رسول الله ﷺ إذا حزبه أمر صلى (١). ولهذا قال تعالى فى هذه الآية : ﴿وَأَجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ أى: بالثواب والنصر القريب.

وقال ابن عباس فى تفسير هذه الآية : قالت بنو إسرائيل لموسى، عليه السلام: لا نستطيع أن نظهر صلاتنا مع الفراعنة ، فأذن الله تعالى لهم أن يصلوا فى بيوتهم ، وأمرُوا أن يجعلوا بيوتهم قبل القبلة. وقال مجاهد: ﴿وَأَجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً﴾ ، قال: لما خاف بنو إسرائيل من فرعون أن يقتلوا فى الكنائس الجامعة، أمرُوا أن يجعلوا بيوتهم مساجد مستقبله الكعبة، يصلون فيها سرا. وكذا قال قتادة، والضحاك.

﴿ وَقَالَ مُوسَىٰ رَبَّنَا إِنَّكَ آتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَئَهُ زِينَةً وَأَمْوَالًا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوهُ عَنِ سَبِيلِكَ رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَىٰ أَمْوَالِهِمْ وَأَشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا حَتَّىٰ يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ ﴾

﴿ ٨٨ ﴾ قَالَ قَدْ أُجِيبَت دَعْوَتُكُمَا فَاسْتَقِيمَا وَلَا تَتَّبِعَانِ سَبِيلَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿ ٨٩ ﴾

هذا إخبار من الله تعالى عما دعا به موسى، عليه السلام، على فرعون وملائته ، لما أبوا قبول الحق واستمروا على ضلالهم وكفرهم معاندين جاحدين، ظلما وعلوا وتكبرا وعتوا، قال: ﴿رَبَّنَا إِنَّكَ آتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَئَهُ زِينَةً﴾ أى : من أثاث الدنيا ومتاعها ﴿وَأَمْوَالًا﴾ أى : جزيلة كثيرة ﴿فِي﴾ هذه ﴿الْحَيَاةِ الدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوهُ عَنِ سَبِيلِكَ﴾ أى: ليفتنن بما أعطيتهم من شئت من خلقك، ليظن من أغويته أنك إنما أعطيت هؤلاء هذا لحبك إياهم ، واعتنائك بهم. ﴿رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَىٰ﴾

أَمْوَالِهِمْ ﴿ قال ابن عباس، ومجاهد: أى: أهلكها. وقال الضحاك، وأبو العالية، والربيع بن أنس: جعلها الله حجارة منقوشة كهيئة ما كانت.

وقوله: ﴿ وَأَشَدُّ عَلَى قُلُوبِهِمْ ﴾ قال ابن عباس: أى اطبع عليها ﴿ فَلَا يُؤْمِنُوا حَتَّى يَرَوْا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ ﴾ . وهذه الدعوة كانت من موسى، عليه السلام، غضباً لله ولدينه على فرعون وملكه، الذين تبين له أنه لا خير فيهم، ولا يجيء منهم شيء كما دعا نوح، عليه السلام، فقال: ﴿ رَبِّ لَا تَذَرْنِي فِي الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا . إِنَّكَ إِن تَذَرْنَهُمْ يَصْلُوا عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوا إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا ﴾ [نوح: ٢٦، ٢٧] ؛ ولهذا استجاب الله تعالى لموسى، عليه السلام، فيهم هذه الدعوة، التى آمن عليها أخوه هارون، فقال تعالى: ﴿ قَدْ أَجِيبُ دُعْوَتَكُمَا ﴾ أى: قد أجبتكما فيما سألتما من تدمير آل فرعون ﴿ فَاسْتَقِيمَا ﴾: فامضيا لأمرى، وهى الاستقامة. قال ابن جريج: يقولون: إن فرعون مكث بعد هذه الدعوة أربعين سنة. وقال محمد بن على بن الحسين: أربعين يوماً.

﴿ وَجَنُوزَنَا بِجَنَى إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَانْبَعَثَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُ بَغْيًا وَعَدْوًا حَتَّى إِذَا أَدْرَكَهُ الْعَرَقُ قَالَ ءَأَمَنْتُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي ءَأَمَنْتُ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴿١٠﴾ ءَأَلْتَنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنْتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ ﴿١١﴾ فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلَقَ ءَايَةً وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ عَنْ ءَايَتِنَا لَغَافِلُونَ ﴿١٢﴾ ﴾

يذكر تعالى كيفية إغراقه فرعون وجنوده؛ فإن بنى إسرائيل لما خرجوا من مصر صحبة موسى، عليه السلام، وهم - فيما قيل - ستمائة ألف مقاتل سوى الذرية، وقد كانوا استعاروا من القبط حلياً كثيراً، فخرجوا به معهم، فاشتد حنق فرعون عليهم، فأرسل فى المدائن حاشرين يجمعون له جنوده من أقاليمه، فركب ورائهم فى أبهة عظيمة، وجيوش هائلة لما يريد الله تعالى بهم، ولم يتخلف عنه أحد ممن له دولة وسلطان فى سائر مملكته، فلحقوهم وقت شروق الشمس ﴿ فَلَمَّا تَرَأَى الْجَمْعَانَ قَالَ أَصْحَابُ مُوسَى إِنَّا لَمُدْرِكُونَ ﴾ [الشعراء: ٦١] ، وذلك أنهم لما انتهوا إلى ساحل البحر، وأدركهم فرعون، ولم يبق إلا أن يتقاتل الجمعان ، وألح أصحاب موسى، عليه السلام ، عليه فى السؤال كيف المخلص مما نحن فيه؟ فيقول: إنى أمرت أن أسلك هاهنا ﴿ كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ ﴾ [الشعراء: ٦٢] ، فعندما ضاق الأمر اتسع، فأمره الله تعالى أن يضرب البحر بعصاه، فضربه فانفلق البحر، ﴿ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ ﴾ [الشعراء: ٦٣] أى: كالجبل العظيم، وصار اثنى عشر طريقاً، لكل سبط واحد. وأمر الله الريح فنشفت أرضه ﴿ فَاصْرَبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِي الْبَحْرِ يَبَسًا لَا تَخَافُ دَرْكًا وَلَا تُخْشَى ﴾ [طه: ٧٧] ، وجازت بنو إسرائيل البحر، فلما خرج آخرهم منه انتهى فرعون وجنوده إلى حافته من الناحية الأخرى ، أمر الله القدير البحر أن يرتطم عليهم، فلم ينج منهم أحد، وتراكمت الأمواج فوق فرعون، وغشيته سكرات الموت، فقال وهو كذلك : ﴿ آمَنْتُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي آمَنْتُ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴾ فآمن حيث لا ينفعه

الإيمان ، ﴿ فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ . فَلَمْ يَكُ يَنْفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا سُنَّتَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْكَافِرُونَ ﴾ [غافر: ٨٤ ، ٨٥] .

وهكذا قال الله تعالى فى جواب فرعون حين قال ما قال : ﴿ آلآنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلَ ﴾ أى : أهذا الوقت تقول ، وقد عصيت الله قبل هذا فيما بينك وبينه؟ ﴿ وَكُنْتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ ﴾ أى : فى الأرض الذين أضلوا الناس ، ﴿ وَجَعَلْنَاهُمْ أُمَّةً يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ لَا يُنصَرُونَ ﴾ [القصص: ٤١] .

وهذا الذى حكى الله تعالى عن فرعون من قوله هذا فى حاله ذاك من أسرار الغيب التى أعلم الله بها رسوله ؛ ولهذا قال الإمام أحمد بن حنبل ، رحمه الله : عن ابن عباس قال : قال رسول الله ﷺ : « لما قال فرعون : ﴿ آمَنْتُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي آمَنْتُ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ ﴾ ، قال لى جبريل : يا محمد ، لو رأيتنى وقد أخذت حالا من حال البحر ، فدسسته فى فيه مخافة أن تناله الرحمة » . ورواه الترمذى ، وقال الترمذى : حديث حسن (١) .

وقوله : ﴿ فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلَقَ آيَةً ﴾ : قال ابن عباس وغيره من السلف : إن بعض بنى إسرائيل شكوا فى موت فرعون ، فأمر الله تعالى البحر أن يلقيه بجسده بلا روح ، وعليه درعه المعروفة به ، على نجوة من الأرض وهو المكان المرتفع ، ليتحققوا موته وهلاكه ؛ ولهذا قال تعالى : ﴿ فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ ﴾ أى : نرفعك على نَشْرٍ من الأرض ﴿ بِدَنِكَ ﴾ . قال مجاهد : بجسدك . وقال الحسن : بجسم لا روح فيه . وقال عبد الله بن شداد : سويا صحيحا ، أى : لم يتمزق ليتحققوه ويعرفوه . وكل هذه الأقوال لا منافاة بينها ، كما تقدم ، والله أعلم .

وقوله : ﴿ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلَقَ آيَةً ﴾ أى : لتكون لبنى إسرائيل دليلا على موتك وهلاكك ، وأن الله هو القادر الذى ناصية كل دابة بيده ، وأنه لا يقوم لغضبه شىء ﴿ وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ عَنْ آيَاتِنَا لَغَافِلُونَ ﴾ أى : لا يتعظون بها ، ولا يعتبرون . وقد كان إهلاك فرعون وملئه يوم عاشوراء ، كما روى البخارى عن ابن عباس قال : قدم النبى ﷺ المدينة ، واليهود تصوم يوم عاشوراء فقالوا : هذا يوم ظهر فيه موسى على فرعون . فقال النبى ﷺ لأصحابه : « أنتم أحق بموسى منهم ، فصوموه » (٢) .

﴿ وَلَقَدْ بَوَّأْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ مَبْوَءًا صِدْقٍ وَرَزَقْنَاهُمْ مِّنَ الطَّيِّبَاتِ فَمَا اخْتَلَفُوا حَتَّى جَاءَهُمُ الْعِلْدُ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴾

يخبر تعالى عما أنعم به على بنى إسرائيل من النعم الدينية والدنيوية ، وقوله : ﴿ مَبْوَءًا صِدْقٍ ﴾ قيل : هو بلاد مصر والشام ، مما يلى بيت المقدس ونواحيه ، فإن الله تعالى لما أهلك فرعون وجنوده استقرت يد الدولة الموسوية على بلاد مصر بكمالها ، كما قال الله تعالى : ﴿ وَأَوْثَقْنَا

(١) المسند (٣٨٢١) وقال الشيخ أحمد شاکر : « إسناده صحيح » ، والترمذى (٣١٠٧) .

(٢) البخارى (٤٦٨٠) .

الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضَعُونَ مَشَارِقَ الْأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ الْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ بِمَا صَبَرُوا وَدَرَرْنَا مَا كَانَ صَنِيعَ فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِ وَمَا كَانُوا يَعْرِشُونَ ﴿١٣٧﴾ [الاعراف: ١٣٧] ، وقال فى الآية الأخرى : ﴿ فَأَخْرَجْنَاهُمْ مِنْ جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴾ [الشعراء: ٥٧ - ٥٩] ، ولكن استمروا مع موسى ، عليه السلام ، طالين إلى بلاد بيت المقدس ، وكان فيه قوم من العمالقة ، فنكل بنو إسرائيل عن قتال العمالقة ، فشردهم الله تعالى فى التيه أربعين سنة ، ومات فيه هارون ثم موسى عليهما السلام ، وخرجوا بعدهما مع يوشع بن نون ، ففتح الله عليهم بيت المقدس ، واستقرت أيديهم عليها إلى أن أخذها منهم بختنصر حيناً من الدهر ، ثم عادت إليهم ، ثم أخذها ملوك اليونان ، وبعث الله عيسى ابن مريم ، عليه السلام ، فى تلك المدة ، فاستعانت اليهود على معاداة عيسى ، عليه السلام ، بملوك اليونان ، وكانت تحت أحكامهم ، وشوا عندهم ، وأوحوا إليهم أن هذا يفسد عليكم الرعايا فبعثوا من يقبض عليه ، فرفعه الله إليه ، وشبه لهم بعض الحوارين بمشيئة الله وقدره ، فأخذوه فصلبوه ، واعتقدوا أنه هو ﴿ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا . بَلْ رَفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴾ [النساء: ١٥٧ ، ١٥٨] ثم بعد المسيح ، عليه السلام بنحو ثلاثمائة سنة ، دخل قسطنطين - أحد ملوك اليونان - فى دين النصرانية ، فدخل فى دين النصرارى حيلة ليفسده ، فوضعت له الأساقفة منهم قوانين وشريعة وبدعاً أحدثوها ، فبنى لهم الكنائس والبيع والصوامع والهياكل ، وانتشر دين النصرانية فى ذلك الزمان ، واشتهر على ما فيه من تبديل وتغيير وتحريف . والغرض : أن يدهم لم تزل على هذه البلاد إلى أن انتزعها منهم الصحابة ، رضى الله عنهم ، وكان فتح بيت المقدس على يدى أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ، رضى الله عنه ، والله الحمد والمنة .

وقوله : ﴿ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ ﴾ أى : الحلال من الرزق الطيب النافع المستطاب طبعاً وشرعاً ﴿ فَمَا اخْتَلَفُوا حَتَّىٰ جَاءَهُمُ الْعِلْمُ ﴾ أى : ما اختلفوا فى شىء من المسائل إلا من بعد ما جاءهم العلم ، أى : ولم يكن لهم أن يختلفوا ، وقد بين الله لهم وأزال عنهم اللبس . وقد ورد فى الحديث : أن اليهود اختلفوا على إحدى وسبعين فرقة ، وأن النصرارى اختلفوا على اثنتين وسبعين فرقة ، وستفترق هذه الأمة على ثلاث وسبعين فرقة ، منها واحدة فى الجنة ، واثنتان وسبعون فى النار . قيل : من هم يا رسول الله؟ قال : « ما أنا عليه وأصحابى » . رواه الحاكم فى مستدركه بهذا اللفظ ، وهو فى السنن والمسانيد (١) . ولهذا قال الله تعالى : ﴿ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ ﴾ أى : يفصل بينهم ﴿ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴾ .

(١) المستدرک (١/١٢٩) من حدیث عمرو بن عوف المزنى ، وأبو داود (٤٥٩٦) ، والترمذى (٢٦٤٠) ، وقال : «حسن صحيح» كلاهما عن أبى هريرة ، وهو فى المسند (٣/١٤٥) بنحوه عن أنس بن مالك .

﴿ فَإِنْ كُنْتَ فِي شكٍ مِمَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ فَسَلِ الَّذِينَ يَقرءُونَ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكَ لَقَدْ جَاءَكَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ ﴾ (٩٤) وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الَّذِينَ كَذَبُوا بِعَايِنِ اللَّهِ فَتَكُونُوا مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٩٥﴾ إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَاتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٩٦﴾ وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّى يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ ﴿٩٧﴾

قال قتادة بن دعامة: بلغنا أن رسول الله ﷺ قال: «لا أشك ولا أسأل» (١). وكذا قال ابن عباس، وسعيد بن جبير، والحسن البصري، وهذا فيه تثبيت للأمة، وإعلام لهم أن صفة نبينهم ﷺ موجودة في الكتب المتقدمة التي بأيدي أهل الكتاب، كما قال تعالى: ﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ﴾ الآية [الاعراف: ١٥٧]. ثم مع هذا العلم يعرفونه من كتبهم كما يعرفون أبناءهم، يلبسون ذلك ويحرفونه ويبدلونه، ولا يؤمنون به مع قيام الحجة عليهم؛ ولهذا قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَاتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ. وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّى يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ﴾ أي: لا يؤمنون إيماناً ينفعهم، بل حين لا ينفع نفساً إيمانها؛ ولهذا لما دعا موسى، عليه السلام، على فرعون وملته قال: ﴿ارْتَبْنَا اطْمِسْ عَلَى أَمْوَالِهِمْ وَأَشْدُدْ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا حَتَّى يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ﴾ [يونس: ٨٨]، كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّا نَزَّلْنَا إِلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ الْمَوْتَى وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلًا مَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ وَلَكِنْ أَكْثَرُهُمْ يُجَاهِلُونَ﴾ [الأنعام: ١١١]، ثم قال تعالى:

﴿ فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ ءَامَنَتْ فَنَفَعَهَا إِيمَانُهَا إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّا ءَامَنُوا كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَى حِينٍ ﴾ (٩٨)

يقول تعالى: فهلا كانت قرية آمنت بكمالها من الأمم السالفة الذين بعثنا إليهم الرسل، بل ما أرسلنا من قبلك يا محمد من رسول إلا كذبه قومه، أو أكثرهم كما قال تعالى: ﴿يَا حَسْرَةً عَلَى الْعِبَادِ مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ [يس: ٣٠]، ﴿كَذَلِكَ مَا أَتَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مُجْتَنِبٌ﴾ [الذاريات: ٥٢]، ﴿وَكَذَلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ آثِمَةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِمْ مُقْتَدُونَ﴾ [الزخرف: ٢٣]. وفي الحديث الصحيح: «عرض على الأنبياء، فجعل النبي يمر ومعه الفئام من الناس، والنبي معه الرجل والنبي معه الرجلان، والنبي ليس معه أحد» (٢) ثم ذكر كثرة أتباع موسى، عليه السلام، ثم ذكر كثرة أمته، صلوات الله وسلامه عليه، كثرة سدت الخافقين الشرقي والغربي.

والغرض: أنه لم توجد قرية آمنت بكمالها بنبيهم ممن سلف من القرى، إلا قوم يونس، وهم أهل نينوى، وما كان إيمانهم إلا خوفاً من وصول العذاب الذي أنذرهم به رسولهم، بعد

(١) مضى تخريجه والتعليق عليه عند الآية (١١٥) من سورة الأنعام.

(٢) البخاري (٥٧٥٢)، ومسلم (٣٧٤/٢٢٠).

ما عاينوا أسبابه، وخرج رسولهم من بين أظهرهم، فعندها جأروا إلى الله واستغاثوا به، واستكانوا وأحضرُوا أطفالهم ودوابهم ومواشيهم ، وسألوا الله تعالى أن يرفع عنهم العذاب الذى أنذرهم به نبيهم . فعندها رحمهم الله ، وكشف عنهم العذاب وأخروا ، كما قال تعالى : ﴿إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّا آمَنُوا كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَىٰ حِينٍ﴾ .

واختلف المفسرون: هل كُشف عنهم العذاب الأخرى مع الدينوى؟ أو إنما كشف عنهم فى الدنيا فقط؟ على قولين، أحدهما: إنما كان ذلك فى الحياة الدنيا، كما هو مقيد فى هذه الآية، والقول الثانى فىهما لقوله تعالى: ﴿وَأَرْسَلْنَاهُ إِلَىٰ مِائَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ. فَأَمَنُوا فَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَىٰ حِينٍ﴾ [الصفات: ١٤٧، ١٤٨]، فأطلق عليهم الإيمان، والإيمان منقاد من العذاب الأخرى ، وهذا هو الظاهر، والله أعلم .

قال قتادة فى تفسير هذه الآية: لم ينفع قرية كفرت ثم آمنت حين حضرها العذاب، فتركت، إلا قوم يونس، لما فقدوا نبيهم وظنوا أن العذاب قد دنا منهم، قذف الله فى قلوبهم التوبة، ولبسوا المسوح، وفرقوا بين كل بهيمة وولدها ثم عَجَّوا إلى الله أربعين ليلة. فلما عرف الله منهم الصدق من قلوبهم، والتوبة والندامة على ما مضى منهم كشف الله عنهم العذاب بعد أن تدلى عليهم - قال قتادة: وذكر أن قوم يونس كانوا بنينوى أرض الموصل. وكذا روى عن ابن مسعود، ومجاهد، وسعيد بن جبير، وغير واحد من السلف . وتام القصة سيأتى مفصلاً فى سورة الصفات إن شاء الله .

﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَأَمَنَّ مِنَ فِي الْأَرْضِ كُلَّهُمْ جَمِيعًا أَفَأَنْتَ تُكْرَهُ النَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾ ﴿٩٩﴾ وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تُوْمِنَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَيَجْعَلُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ﴿١٠٠﴾

يقول تعالى: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ﴾ يا محمد، لأذن لأهل الأرض كلهم فى الإيمان بما جنتهم به ، فأمنوا كلهم، ولكن له حكمة فيما يفعله تعالى كقوله تعالى : ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ . إِلَّا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لِأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ [هود: ١١٨، ١١٩] ، وقال تعالى : ﴿أَفَلَمْ يَأْسَ الَّذِينَ آمَنُوا أَنْ لَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَهْدَى النَّاسَ جَمِيعًا﴾ [الرعد: ٣١] ؛ ولهذا قال تعالى: ﴿أَفَأَنْتَ تُكْرَهُ النَّاسَ﴾ أى: تلزمهم وتلجئهم ﴿حَتَّىٰ يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾ أى: ليس ذلك عليك ولا إليك ، بل الله ﴿يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ فَلَا تَذْهَبُ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسْرَاتٍ﴾ [فاطر: ٨] ، ﴿لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾ [البقرة: ٢٧٢] ، ﴿لَعَلَّكَ بَاطِعٌ لِمَنْ إِلَّا يُكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾ [الشعراء: ٣] ، ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ﴾ [القصص: ٥٦] ، ﴿فَأِنَّمَا عَلَيْكَ لِبَاحٌ وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ﴾ [الرعد: ٤٠] ، ﴿فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ. لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُصَيِّرٌ﴾ [الغاشية: ٢١، ٢٢] ، إلى غير ذلك من الآيات الدالة على أن الله تعالى هو الفعال لما يريد، الهادى من يشاء، المضل لمن يشاء، لعلمه وحكمته وعدله؛ ولهذا قال: ﴿وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تُوْمِنَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَيَجْعَلُ الرِّجْسَ﴾ وهو الخبال والضلال ﴿عَلَى الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ﴾ أى: حجج الله وأدلته، وهو العادل فى كل ذلك،

فى هداية من هدى، وإضلال من ضل.

﴿ قُلْ أَنْظِرُوا مَاذَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا تُغْنِي الْآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَنْ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠١﴾ فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا مِثْلَ أَيَّامِ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِهِمْ قُلْ فَانظُرُوا إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْتَظِرِينَ ﴿١٠٢﴾ ثُمَّ نُنَجِّي رُسُلَنَا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا كَذَلِكَ حَقًّا عَلَيْنَا نُنَجِّ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٣﴾ ﴾

يرشدُ تعالى عباده إلى التفكير فى آلائه وما خلق فى السموات والأرض من الآيات الباهرة لذوى الألباب، مما فى السموات من كواكب نيرات، ثوابت وسيارات، والشمس والقمر، والليل والنهار، واختلافهما، وإيلاج أحدهما فى الآخر، حتى يطول هذا ويقصر هذا، ثم يقصر هذا ويطول هذا، وارتفاع السماء واتساعها، وحسنها وزينتها، وما أنزل الله منها من مطر فأحيا به الأرض بعد موتها، وأخرج فيها من أفانين الثمار والزروع والأزاهير، وصنوف النبات، وما ذرا فيها من دوابٍ مختلفة الأشكال والألوان والمنافع، وما فيها من جبال وسهول وقفار وعمران وخراب. وما فى البحر من العجائب والأمواج، وهو مع هذا مذل للسالكين، يحمل سفنهم، ويجرى بها برفق بتسخير القدير له، لا إله إلا هو، ولا رب سواه.

وقوله: ﴿ وَمَا تُغْنِي الْآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَنْ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ أى: وأى شىء تُجدى الآيات السماوية والأرضية، والرسل بآياتها وحججها وبراهينها الدالة على صدقها، عن قوم لا يؤمنون، كما قال: ﴿ إِنْ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ. وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّى يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ ﴾ [يونس: ٩٦، ٩٧].
وقوله: ﴿ فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا مِثْلَ أَيَّامِ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِهِمْ ﴾ أى: فهل ينتظر هؤلاء المكذبون لك يا محمد من النعمة والعذاب إلا مثل أيام الله فى الذين خلوا من قبلهم من الأمم المكذبة لرسولهم ﴿ قُلْ فَانظُرُوا إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْتَظِرِينَ. ثُمَّ نُنَجِّي رُسُلَنَا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا ﴾ أى: ونهلك المكذبين بالرسول ﴿ كَذَلِكَ حَقًّا عَلَيْنَا نُنَجِّ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ أى: حقا أوجه تعالى على نفسه الكريمة كقوله: ﴿ كَتَبَ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ ﴾ [الانعام: ١٢]، كما جاء فى الصحيحين، عن رسول الله ﷺ أنه قال: «إن الله كتب كتابا فهو عنده فوق العرش: إن رحمتى سبقت غضبى» (١).

﴿ قُلْ يَتَّبِعُهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي شَكٍّ مِنْ دِينِي فَلَا أَعْبُدُ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ أَعْبُدُ اللَّهَ الَّذِي يَتَوَقَّعُكُمْ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٤﴾ وَأَنْ أَقِمَّ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا وَلَا تَكُونَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٥﴾ وَلَا تَدْعُ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ فَإِنْ فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذَا مِنَ الظَّالِمِينَ ﴿١٠٦﴾ وَإِنْ يَمَسُّكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِنْ يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَادَّ لِفَضْلِهِ يُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴿١٠٧﴾ ﴾

يقول تعالى لرسوله محمد ﷺ : قل : يا أيها الناس ، إن كنتم في شك من صحة ما جئكم من الدين الحنيف ، الذى أوحاه الله إلى ، فها أنا لا أعبد الذين تعبدون من دون الله ، ولكن أعبد الله وحده لا شريك له ، وهو الذى يتوفاكم كما أحياكم ، ثم إليه مرجعكم ؛ فإن كانت آلهتكم التى تدعون من دون الله حقا ، فانا لا أعبدها ، فادعوها فلتضرنى ، فإنها لا تضر ولا تنفع ، وإنما الذى بيده الضر والنفع هو الله وحده لا شريك له ، وأمرت أن أكون من المؤمنين .

وقوله : ﴿ وَأَنْ أَقِمَّ وَجْهَكَ لِلدِّينِ ﴾ أى : أخلص العبادة لله وحده ﴿ حَنِيفًا ﴾ أى : منحرفا عن الشرك ؛ ولهذا قال : ﴿ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾ ، وهو معطوف على قوله : ﴿ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ . وقوله : ﴿ وَإِنْ يَمَسُّكَ اللَّهُ بِضُرٍّ ﴾ الآية ، فيه بيان لأن الخير والشر والنفع والضر إنما هو راجع إلى الله تعالى وحده لا يشاركه فى ذلك أحد ، فهو الذى يستحق العبادة وحده ، لا شريك له . وقوله : ﴿ وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴾ أى : لمن تاب إليه وتوكل عليه ، ولو من أى ذنب كان ، حتى من الشرك به ، فإنه يتوب عليه .

﴿ قُلْ يَأَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ اهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ ۗ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ ﴾ ﴿١٠٨﴾ وَأَتَّبِعْ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ وَأَصْبِرْ حَتَّىٰ يَحْكُمَ اللَّهُ ۗ وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ ﴿١٠٩﴾

يقول تعالى أمرا لرسوله ﷺ أن يخبر الناس أن الذى جاءهم به من عند الله هو الحق الذى لامرية فيه ولاشك ، فمن اهتدى به واتبعه فإنما يعود نفع ذلك الاتباع على نفسه ، ومن ضل عنه فإنما يرجع وبال ذلك عليه . ﴿ وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ ﴾ أى : وما أنا موكل بكم حتى تكونوا مؤمنين ، وإنما أنا نذير لكم ، والهداية على الله تعالى .

وقوله : ﴿ وَأَتَّبِعْ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ وَأَصْبِرْ ﴾ أى : تمسك بما أنزل الله عليك وأوحاه إليك ، واصبر على مخالفة من خالفك من الناس ﴿ حَتَّىٰ يَحْكُمَ اللَّهُ ﴾ أى : يفتح بينك وبينهم ﴿ وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ ﴾ أى : خير الفاتحين بعدله وحكمته .

تفسير سورة هود عليه السلام

وهي مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿الر كِتَابٌ أَحْكَمْتُ آيَاتُهُ ثُمَّ فَضَّلْتُ مِنْ لَدُنِّ حَكِيمٍ خَيْرٍ ﴿١﴾ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ ﴿٢﴾ وَأَنْ أَسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُمْ مَتَاعًا حَسَنًا إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ ﴿٣﴾ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٤﴾﴾

قد تقدم الكلام على حروف الهجاء في أول سورة البقرة ، وبالله التوفيق .

وأما قوله: ﴿أَحْكَمْتُ آيَاتُهُ ثُمَّ فَضَّلْتُ﴾ أى: هى محكمة فى لفظها، مفصلة فى معناها، فهو كامل صورة ومعنى. هذا معنى ماروى عن مجاهد، وقتادة، واختاره ابن جرير ﴿من لَدُنِّ حَكِيمٍ خَيْرٍ﴾ أى: من عند الله الحكيم فى أقواله، وأحكامه، والخير بعواقب الأمور. ﴿أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ﴾ أى: نزل هذا القرآن المحكم المفصل لعبادة الله وحده لا شريك له، كقوله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾ [الانبيا: ٢٥]، وقال: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ [النحل: ٣٦] .

وقوله: ﴿إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ﴾ أى: إنى لكم نذير من العذاب إن خالفتموه، وبشير بالثواب إن أطعتموه، كما جاء فى الحديث الصحيح: أن رسول الله ﷺ صعد الصفا، فدعا بطون قريش الأقرب ثم الأقرب ، فاجتمعوا ، فقال : « يامعشر قريش، أرايتم لو أخبرتكم أن خيلا تصبحكم ، أستم مصدقى ؟ » فقالوا : ماجربنا عليك كذبا . قال : « فإنى نذير لكم بين يدي عذاب شديد » (١) .

وقوله: ﴿وَأَنْ أَسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُمْ مَتَاعًا حَسَنًا إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ﴾ أى: وأمركم بالاستغفار من الذنوب السالفة والتوبة منها إلى الله عز وجل فيما تستقبلونه ، وأن تستمروا على ذلك ﴿يُمَتِّعْكُمْ مَتَاعًا حَسَنًا﴾ أى : فى الدنيا ﴿إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ﴾ أى: فى الدار الآخرة، قاله قتادة، كقوله: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهٗ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [النحل: ٩٧] ، وقد جاء فى الصحيح: أن رسول الله ﷺ قال لسعد : « وإنك لن تنفق نفقة تبتغى بها وجه الله ، إلا أجزت بها، حتى ما تجعل فى فى امرأتك » (٢) .

وقوله: ﴿وَأَنْ تَوَكَّلُوا فَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ﴾: هذا تهديد شديد لمن تولى عن أوامر الله تعالى، وكذب رسله، فإن العذاب يناله يوم معاده لا محالة، ﴿إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ﴾ أى: معادكم يوم القيامة، ﴿وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ أى: وهو القادر على ما يشاء من إحسانه إلى أوليائه، وانتقامه من أعدائه، وإعادة الخلائق يوم القيامة، وهذا مقام الترهيب، كما أن الأول مقام ترغيب.

﴿أَلَا إِنَّهُمْ يَتَّبِعُونَ صُدُورَهُمْ لِيَسْتَخْفُوا مِنْهُ أَلَا حِينَ يَسْتَغْشُونَ ثِيَابَهُمْ يَعْلَمُ مَا يُبْسِرُونَ وَمَا يَأْتُونَ بِإِلْمٍ عَلَيْهِمْ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾

قال ابن عباس: كانوا يكرهون أن يستقبلوا السماء بفروجهم، وحال وقاعهم، فانزل الله هذه الآية. وفي لفظ آخر له: أناس كانوا يستحيون أن يتخلوا، فيفضوا إلى السماء، وأن يجامعوا نساءهم فيفضوا إلى السماء، فنزل ذلك فيهم. قال البخارى عن ابن عباس: ﴿يَسْتَغْشُونَ﴾: يغطون رؤوسهم (١). وقال ابن عباس فى رواية أخرى فى تفسير هذه الآية: يعنى به الشك فى الله، وعمل السيئات، وكذا روى عن مجاهد، والحسن، وندهم: أى أنهم كانوا يتنون صدورهم إذا قالوا شيئاً أو عملوه، يظنون أنهم يستخفون من الله، فأعلمهم الله تعالى أنهم حين يستغشون ثيابهم عند مناهمهم فى ظلمة الليل ﴿يَعْلَمُ﴾ من القول ﴿وَمَا يَأْتُونَ بِإِلْمٍ عَلَيْهِمْ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ أى: يعلم ما تكن صدورهم من الضمائر والسرائر. وما أحسن ما قال زهير بن أبى سلمى:

فَلَا تَكْتُمَنَّ اللَّهُ مَا فِى نَفُوسِكُمْ لِيُخْفَى، فَمَهْمَا يُكْتُمُ اللَّهُ يَعْلَمُ

وقال عبد الله بن شداد: كان أحدهم إذا مر برسول الله ﷺ نثى صدره، وغطى رأسه فانزل الله ذلك. وعود الضمير على الله أولى؛ لقوله: ﴿أَلَا حِينَ يَسْتَغْشُونَ ثِيَابَهُمْ يَعْلَمُ مَا يُبْسِرُونَ وَمَا يَأْتُونَ بِإِلْمٍ﴾.

﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا كُلٌّ فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾

أخبر تعالى أنه متكفل بأرزاق المخلوقات من سائر دواب الأرض، صغيرها وكبيرها، بحريها وبريها، وأنه ﴿يَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا﴾ أى: يعلم أين منتهى سيرها فى الأرض، وأين تأوى إليه من وكرها، وهو مستودعها. وقال ابن عباس: ﴿وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا﴾ أى: حيث تأوى، ﴿وَمُسْتَوْدَعَهَا﴾، حيث تموت. وعن مجاهد: ﴿مُسْتَقَرَّهَا﴾ فى الرحم ﴿وَمُسْتَوْدَعَهَا﴾ فى الصلب، وأن جميع ذلك مكتوب فى كتاب عند الله مبين عن جميع ذلك، كقوله: ﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُنْمِئَتْ أُمَّالُكُمْ مَا فَرَطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ ثُمَّ إِلَى رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ﴾ [الأنعام: ٣٨]،

وقوله : ﴿ وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يُعَلِّمُهَا إِلَّا هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٌ فِي ظِلْمَاتِ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٌ وَلَا يَابِسٌ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ ﴾ [الأنعام: ٥٩] .

﴿ وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ لِيَبْلُوكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَلَئِنْ قُلْتُمْ إِنَّكُمْ مَبْعُوثُونَ مِنْ بَعْدِ الْمَوْتِ لَيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ ﴿٧﴾ وَلَئِنْ أَخَّرْنَا عَنْهُمْ الْعَذَابَ إِلَىٰ أُمَّةٍ مَعْدُودَةٍ لَيَقُولُنَّ مَا يَحْبِسُهُ أَلَّا يَوْمَ يَأْتِيهِمْ لَيْسَ مَصْرُوفًا عَنْهُمْ وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴿٨﴾ ﴾

يخبر تعالى عن قدرته على كل شيء، وأنه خلق السموات والأرض في ستة أيام، وأن عرشه كان على الماء قبل ذلك، كما روى مسلم عن عبد الله بن عمرو بن العاص قال: قال رسول الله ﷺ : « إن الله قَدَّرَ مقادير الخلائق قبل أن يخلق السموات والأرض بخمسين ألف سنة، وكان عرشه على الماء » (١). وروى البخاري عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: « قال الله عز وجل: أنفق أنفق عليك » . وقال: « يد الله ملأى لا يغيضا نفقة، سحاء الليل والنهار » وقال « أفرايتم ما أنفق منذ خلق السماء والأرض، فإنه لم يَغص مافي يده، وكان عرشه على الماء، وبيده الميزان يخفض ويرفع » (٢). وروى الإمام أحمد عن أبي رزين - واسمه لقيط ابن عامر بن المنتفق العُقَيْلِي - قال: قلت: يا رسول الله، أين كان ربنا قبل أن يخلق خلقه؟ قال : « كان في عماء، ما تحته هواء وما فوقه هواء، ثم خلق العرش بعد ذلك » . وقد رواه الترمذى ، وابن ماجه . وقال الترمذى: هذا حديث حسن (٣) .

وقال مجاهد : ﴿ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ ﴾ قبل أن يخلق شيئا. قاله قتادة، وابن جرير، وغير واحد. وقال قتادة: ينبئكم كيف كان بدء خلقه قبل أن يخلق السموات والأرض. وقال ابن عباس: إنما سمي العرش عرشا لارتفاعه.

وقال ابن إسحاق في قوله تعالى: ﴿ وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ ﴾: فكان كما وصف نفسه تعالى، إذ ليس إلا الماء وعليه العرش، وعلى العرش ذو الجلال والإكرام، والعزة والسلطان، والملك والقدرة، والحلم والعلم، والرحمة والنعمة، الفعال لما يريد.

وقوله تعالى : ﴿ لِيَبْلُوكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ﴾ أى : خلق السموات والأرض لنفع عباده الذين خلقهم ليعبده وحده لا شريك له ، ولم يخلق ذلك عبثا ، كما قال تعالى : ﴿ وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلًا ذَلِكَ ظَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ ﴾ [ص : ٢٧] ، وقال

(٢) البخارى (٤٦٨٤) .

(١) مسلم (١٦/٢٦٥٣) .

(٣) المسند (١١/٤) ، والترمذى (٣١٠٩) ، وابن ماجه (١٨٢) .

تعالى : ﴿ أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ . فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ ﴾ [المؤمنون: ١١٥، ١١٦] ، وقال تعالى : ﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾ [الذاريات: ٥٦] .

وقوله : ﴿ لِيَبْلُوَكُمْ ﴾ أى : ليختبركم ﴿ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ﴾ ولم يقل : أكثر عملاً ، بل ﴿ أَحْسَنُ عَمَلًا ﴾ ، ولا يكون العمل حسناً حتى يكون خالصاً لله عز وجل ، على شريعة رسول الله ﷺ . فمتى فقد العمل واحداً من هذين الشرطين بطل وحبط .

وقوله : ﴿ وَلَئِن قُلْتَ إِنَّكُمْ مَبْعُوثُونَ مِنْ بَعْدِ الْمَوْتِ لَيَقُولُنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنَّ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴾ : يقول تعالى : ولئن أخبرت يا محمد هؤلاء المشركين أن الله سيبعثهم بعد مماتهم كما بدأهم ، مع أنهم يعلمون أن الله تعالى هو الذى خلق السموات والأرض ، كما قال تعالى : ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ ﴾ [الزخرف: ٨٧] ، ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ ﴾ [العنكبوت: ٦١] ، وهم مع هذا ينكرون البعث والمعاد يوم القيامة ، الذى هو بالنسبة إلى القدرة أهون من البداية ، كما قال تعالى : ﴿ وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ ﴾ [الروم: ٢٧] ، وقال تعالى : ﴿ مَا خَلَقَكُمْ وَلَا بِعَثَكُمْ إِلَّا كَفَّسًا وَاحِدَةً ﴾ [لقمان: ٢٨] .

وقولهم : ﴿ إِنَّ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴾ أى : يقولون كفراً وعناداً : مانصداً على وقوع البعث ، وما يذكر ذلك إلا من سحرته ، فهو يتبعك على ماتقول .

وقوله : ﴿ وَلَئِن أَخْرَأْنَا عَنْهُمْ الْعَذَابَ إِلَىٰ أُمَّةٍ مَّعْدُودَةٍ لَيَقُولُنَّ مَا يَحْبِسُهُ ﴾ يقول تعالى : ولئن أخرنا العذاب والمؤاخظة عن هؤلاء المشركين إلى أجل معدود وأمد محصور ، وأوعدناهم به إلى مدة مضروبة ، ليقولن تكديبا واستعجالاً : ﴿ مَا يَحْبِسُهُ ﴾ أى : يؤخر هذا العذاب عنا ، فإن سجاياهم قد ألفت التكذيب والشك ، فلم يبق لهم محيص عنه ولا محيد .

والأمة تستعمل فى القرآن والسنة فى معان متعددة ، فيراد بها : الأمد ، كقوله فى هذه الآية : ﴿ إِلَىٰ أُمَّةٍ مَّعْدُودَةٍ ﴾ وقوله فى يوسف : ﴿ وَقَالَ الَّذِي نَجَا مِنْهُمَا وَادَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ ﴾ [يوسف: ٤٥] ، وتستعمل فى الإمام المقتدى به ، كقوله : ﴿ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾ [النحل: ١٢٠] ، وتستعمل فى الملة والدين ، كقوله إخباراً عن المشركين أنهم قالوا : ﴿ إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِم مُّقْتَدُونَ ﴾ [الزخرف: ٢٣] ، وتستعمل فى الجماعة ، كقوله : ﴿ وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةٌ مِنَ النَّاسِ يَسْقُونَ ﴾ [القصص: ٢٣] ، وقال تعالى : ﴿ وَتَقَدَّرَ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ ﴾ [النحل: ٣٦] ، وقال تعالى : ﴿ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَسُولٌ فَإِذَا جَاءَ رَسُولُهُمْ قَضِيَ بَيْنَهُم بِالْقِسْطِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴾ [يونس: ٤٧] .

والمراد من الأمة هاهنا: الذين يبعث فيهم الرسول مؤمنهم وكافرهم ، كما فى صحيح مسلم : «والذى نفسى بيده ، لا يسمع بى أحد من هذه الأمة ، يهودى ولا نصرانى ، ثم لا يؤمن بى إلا

دخل النار» (١) . وأما أمة الأتباع، فهم المصدقون للرسول، كما قال تعالى: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ [آل عمران: ١١٠] وفي الصحيح: «فأقول: أمتي أمتي» (٢).

وتستعمل الأمة في الفرقة والطائفة، كقوله تعالى: ﴿وَمَنْ قَوْمَ مُوسَىٰ أُمَّةٍ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ﴾ [الاعراف: ١٥٩]، وقال تعالى: ﴿مَنْ أَهْلُ الْكِتَابِ أُمَّةٍ قَائِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللَّهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ﴾

[آل عمران: ١١٣]

﴿وَلَيْنَ أَدْقْنَا الْإِنْسَانَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَاهَا مِنْهُ إِنَّهُ لَيَكْفُرُ بِكُفُورٍ
وَلَيْنَ أَدْقْنَاهُ نِعْمَةً بَعْدَ ضِرَاءٍ مَسْتَه لَيَقُولُنَّ ذَهَبَ السَّيِّئَاتُ عَنِّي إِنَّهُ لَفَرِحَ فَخُورٌ
إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَٰئِكَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ﴾

يخبر تعالى عن الإنسان وما فيه من الصفات الذميمة، إلا من رحم الله من عباده المؤمنين، أنه إذا أصابته شدة بعد نعمة، حصل له يأس وقنوط من الخير بالنسبة إلى المستقبل، وكفر وجحود لماضى الحال، كأنه لم ير خيرا، ولم يرج بعد تلك فرجا. وهكذا إن أصابته نعمة بعد نقمة ﴿لَيَقُولُنَّ ذَهَبَ السَّيِّئَاتُ عَنِّي﴾ أى: يقول: ما بقى ينالنى بعد هذا ضييم ولا سوء ﴿إِنَّهُ لَفَرِحَ فَخُورٌ﴾ أى: فرح بما فى يده، بظر فخور على غيره.

قال الله تعالى: ﴿إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا﴾ أى: على الشدائد والمكاره ﴿وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ أى: فى الرخاء والعافية ﴿أُولَٰئِكَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ﴾ أى: بما يصيبهم من الضراء ﴿وَأَجْرٌ كَبِيرٌ﴾ بما أسلفوه فى زمن الرخاء، كما جاء فى الحديث: «والذى نفسى بيده، لا يصيب المؤمن هم ولا غم، ولا نصب ولا وصب، ولا حزن حتى الشوكة يشاكها، إلا كفر الله عنه بها من خطاياها» (٣)، «والذى نفسى بيده، لا يقضى الله للمؤمن قضاء إلا كان خيرا له، إن أصابته سراء فشكر كان خيرا له، وإن أصابته ضراء فصبر كان خيرا له، وليس ذلك لأحد غير المؤمن» (٤)، ولهذا قال الله تعالى: ﴿وَالْعَصْرُ. إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ. إِلَّا الَّذِينَ آتَوْا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَّصُوا بِالنَّحْيِ وَتَوَّصُوا بِالصَّبْرِ﴾ [سورة العصر]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا. إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا. وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا. إِلَّا الْمُصَلِّينَ﴾ الآية [المعارج: ١٩ - ٢٢].

﴿فَلَعَلَّكَ تَارِكٌ بَعْضَ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ وَصَاحِبٌ بِدَىٰ صَدْرِكَ أَنْ يَقُولُوا تَوَلَّىٰ أَنْزَلَ عَلَيْهِ
كُزُبًا أَوْ جَاءَ مَعَهُ مَلَكٌ إِنَّمَا أَنْتَ نَذِيرٌ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ﴾ أَمْ يَقُولُونَ
أَفْتَرَّهُ قُلُوبُنَا فَأَتَوْا بِعَشْرِ سُوْرٍ مِّثْلِهِ مُفْتَرِيْنَ وَأَدْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِّنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ
صَادِقِيْنَ ﴿١٢﴾ فَإِنَّمَا يَسْتَحْسِبُوكُمْ لَكُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّمَا أَنْزَلَ بِعِلْمِ اللَّهِ وَإِنَّ لَآ إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَهَلْ
أَنْتُمْ مُّسْلِمُونَ ﴿١٤﴾

(٢) البخارى (٧٥١٠).

(١) مسلم (٢٤٠/١٥٣).

(٤) مسلم (٦٤/٢٢٩٩) بنحوه.

(٣) مسلم (٢٥٧٣، ٢٥٧٤/٥٢).

يقول تعالى مسلماً لرسوله ﷺ، عما كان يتعنت به المشركون، فيما كانوا يقولونه عن الرسول : ﴿ وَقَالُوا مَا لِهَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمَشِي فِي الْأَسْوَاقِ لَوْلَا أَنْزَلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونُ مَعَهُ نَذِيرًا . أَوْ يُلْقَى إِلَيْهِ كَنْزٌ أَوْ تَكْوِينٌ لَهُ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا وَقَالَ الظَّالِمُونَ إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مُسَهَّرًا ﴾ [الفرقان: ٧، ٨] . فأمر الله تعالى رسوله ﷺ وأرشده إلى ألا يضيق بذلك منهم صدره، ولا يصدنه ذلك ولا يثنيه عن دعائهم إلى الله عز وجل آتاء الليل وأطراف النهار، كما قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ نَعَلْنَاكَ صَدْرَكَ بِمَا يَقُولُونَ ﴾ [الحجر: ٩٧]، وقال هاهنا: ﴿ فَلَمَّا تَأَرَّكَ بِعَضِّ مَاءٍ يُوحَىٰ إِلَيْكَ وَصَاتِقٍ بِهِ صَدْرُكَ أَنْ يَقُولُوا ﴾ أى : لقولهم ذلك، فإنما أنت نذير، ولك أسوة بإخوانك من الرسل قبلك، فإنهم كذبوا وأوذوا فصبروا حتى أتاهم نصر الله عز وجل .

ثم بين تعالى إعجاز القرآن ، وأنه لا يستطيع أحد أن يأتي بمثله ، ولا بعشر سور مثله ، ولا بسورة من مثله ؛ لأن كلام الرب لا يشبهه كلام المخلوقين ، كما أن صفاته لا تشبه صفات المحدثات ، وذاته لا يشبهها شيء ، تعالى وتقدس وتنزه ، لا إله إلا هو ولا رب سواه .

ثم قال تعالى: ﴿ فَإِنْ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكُمْ ﴾ أى: فإن لم يأتوا بمعارضة ما دعوتهم إليه ، فاعلموا أنهم عاجزون عن ذلك، وأن هذا الكلام منزل من عند الله ، متضمن علمه وأمره ونهيه ﴿ وَأَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَهَلْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ ﴾ .

﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا وَهَمَّ فِيهَا لَا يَخْسُونَ ﴿١٥﴾ أُولَئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ إِلَّا النَّكَارُ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا فِيهَا وَبِطِلْ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٦﴾ ﴾

قال ابن عباس فى هذه الآية : إن أهل الرياء يعطون بحسناتهم فى الدنيا ، وذلك أنهم لا يظلمون نقيراً ، يقول : من عمل صالحاً التماس الدنيا ، صوماً أو صلاةً أو تهجداً بالليل ، لا يعملها إلا التماس الدنيا ، يقول الله تعالى : أوفيه الذى التمس فى الدنيا من المثابة ، وحبط عمله الذى كان يعملها التماس الدنيا ، وهو فى الآخرة من الخاسرين . وهكذا روى عن مجاهد ، والضحاك ، وغير واحد . وقال قتادة: من كانت الدنيا همه وطلبته ونيته، جازاه الله بحسناته فى الدنيا، ثم يقضى إلى الآخرة وليس له حسنة يعطى بها جزاء . وأما المؤمن فيجازى بحسناته فى الدنيا ويثاب عليها فى الآخرة . قال تعالى : ﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَن نُرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ يَصَلُّهَا مَذْمُومًا مَّدْحُورًا . وَمَن أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ كَانَ سَعْيُهُمْ مَشْكُورًا . كُلًّا نُمَدُّ هَؤُلَاءِ وَهَؤُلَاءِ مِن عَطَاءِ رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا . انظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ وَلِلْآخِرَةِ أَكْبَرُ دَرَجَاتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا ﴾ [الإسراء: ١٨ - ٢١] ، وقال تعالى: ﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الْآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ ﴾ [الشورى: ٢٠] .

﴿ أَفَمَنْ كَانَ عَلَىٰ يَدَيْهِ مِن رَّبِّهِ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِّنْهُ وَمِن قَبْلِهِ كِتَابُ مُوسَىٰ إِمَامًا وَرَحْمَةً أُولَٰئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَمَن يَكْفُرْ بِهِ مِنَ الْأَحْزَابِ فَالنَّارُ مَوْعِدُهُ فَلَا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِّنْهُ إِنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ ﴿١٧﴾

يخبر تعالى عن حال المؤمنين الذين هم على فطرة الله تعالى التي فطر عليها عباده، من الاعتراف له بأنه لا إله إلا هو، كما قال تعالى: ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا ﴾ الآية [الروم: ٣٠] ، وفي الصحيح عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «كل مولود يولد على الفطرة، فأبواه يهودانه وينصرانه ويمجسانه، كما تولد البهيمة بهيمة جمعاء، هل تحسون فيها من جدعاء؟» (١). وقوله: ﴿ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِّنْهُ ﴾ أى : وجاء شاهد من الله، وهو ما أوحاه إلى الأنبياء، من الشرائع المطهرة المكتملة المعظمة المختتمة بشريعة محمد، صلوات الله وسلامه عليه وعليهم أجمعين. ولهذا قال ابن عباس، ومجاهد، والسدي، وغير واحد فى قوله تعالى: ﴿ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِّنْهُ ﴾ إنه جبريل عليه السلام. وعن على، والحسن، وقتادة: هو محمد ﷺ. وكلاهما قريب فى المعنى؛ لأن كلا من جبريل ومحمد، صلوات الله عليهما، بلغ رسالة الله تعالى، فجبريل إلى محمد، ومحمد إلى الأمة .

ثم قال تعالى: ﴿ وَمِن قَبْلِهِ كِتَابُ مُوسَىٰ ﴾ أى: ومن قبل القرآن كتاب موسى، وهو التوراة ﴿ إِمَامًا وَرَحْمَةً ﴾ أى : أنزله الله تعالى إلى تلك الأمة إماما لهم ، وقدوة يقتدون بها ، ورحمة من الله بهم. فمن آمن بها حق الإيمان قاده ذلك إلى الإيمان بالقرآن؛ ولهذا قال تعالى: ﴿ أُولَٰئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ ﴾ .

ثم قال تعالى متوعدا لمن كذب بالقرآن أو بشيء منه: ﴿ وَمَن يَكْفُرْ بِهِ مِنَ الْأَحْزَابِ فَالنَّارُ مَوْعِدُهُ ﴾ أى: ومن كفر بالقرآن من سائر أهل الأرض مشركيهم: أهل الكتاب وغيرهم، من سائر طوائف بنى آدم على اختلاف ألوانهم وأشكالهم وأجناسهم، ممن بلغه القرآن، كما قال تعالى: ﴿ لَأَنذِرْكُمْ بِهِ وَمَن بَلَغَ ﴾ [الأنعام: ١١٩]، وقال تعالى: ﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ﴾ [الأعراف: ١٥٨]. وقال تعالى: ﴿ وَمَن يَكْفُرْ بِهِ مِنَ الْأَحْزَابِ فَالنَّارُ مَوْعِدُهُ ﴾ . وفى صحيح مسلم عن أبى موسى الأشعري، أن رسول الله ﷺ قال: «والذى نفسى بيده، لا يسمع بى أحد من هذه الأمة يهودى أو نصرانى، ثم لا يؤمن بى إلا دخل النار» (٢) .

قوله: ﴿ فَلَا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِّنْهُ إِنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ ﴾ أى: القرآن حق من الله، لا مرية فيه ولا شك، كما قال تعالى : ﴿ الَّتِمْ . تَنْزِيلُ الْكِتَابِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ [السجدة: ١ ، ٢] ، وقال تعالى : ﴿ الَّتِمْ . ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ﴾ [البقرة: ١ ، ٢]. وقوله: ﴿ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ ، كما قال تعالى : ﴿ وَمَا أَكْثَرَ النَّاسَ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ ﴾ [يوسف: ١٠٣]، وقال تعالى: ﴿ وَإِن تَطَّعْ أَكْثَرَ مَن

فِي الْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ ﴿[الانعام: ١١٦]، وقال تعالى: ﴿ وَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُ فَاتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقًا مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ [سبا: ٢٠] .

﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أُولَٰئِكَ يُعْرَضُونَ عَلَىٰ رَبِّهِمْ وَيَقُولُ الْأَشْهَادُ هَٰؤُلَاءِ الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَىٰ رَبِّهِمْ ۗ أَلَا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ ﴿١٨﴾ الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَنِ سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ ﴿١٩﴾ أُولَٰئِكَ لَمْ يَكُونُوا مُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَمَا كَانَ لَهُمْ مِن دُونِ اللَّهِ مِن أَوْلِيَاءَ يُضَعِفُ لَهُمْ الْعَذَابُ مَا كَانُوا يَسْتَطِيعُونَ السَّمْعَ وَمَا كَانُوا يُبْصِرُونَ ﴿٢٠﴾ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ وَصَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴿٢١﴾ لَا جَرَمَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمْ الْآخْسَرُونَ ﴿٢٢﴾ ﴾

يبين تعالى حال المفتريين عليه وفضيحتهم فى الدار الآخرة على رؤوس الخلائق ؛ من الملائكة، والرسل، والأنبياء، وسائر البشر والجان، كما روى الإمام أحمد عن صفوان بن محرز قال: كنت أخذاً بيد ابن عمر، إذ عرض له رجل قال : كيف سمعت رسول الله ﷺ يقول فى النجوى يوم القيامة ؟ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: « إن الله عز وجل يدنى المؤمن، فيضع عليه كتفه، ويستتره من الناس، ويقرره بذنوبه، ويقول له: أتعرف ذنب كذا ؟ أتعرف ذنب كذا ؟ أتعرف ذنب كذا ؟ حتى إذا قرره بذنوبه، ورأى فى نفسه أنه قد هلك قال: فىنى قد سترتها عليك فى الدنيا، وإنى أغفرها لك اليوم. ثم يعطى كتاب حسناته، وأما الكفار والمنافقون فيقول ﴿ الأشهاد هؤلاء الذين كذبوا على ربهم ۗ أَلَا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ ﴾ . أخرجه البخارى ومسلم (١) .

وقوله : ﴿ الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَنِ سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا ﴾ أى : يردون الناس عن اتباع الحق وسلوك طريق الهدى الموصلة إلى الله عز وجل ويجنونهم الجنة ﴿ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا ﴾ أى : ويريدون أن يكون طريقهم عوجاً غير معتدلة ﴿ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ ﴾ أى : جاحدون بها مكذبون بوقوعها وكونها. ﴿ أُولَٰئِكَ لَمْ يَكُونُوا مُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَمَا كَانَ لَهُمْ مِن دُونِ اللَّهِ مِن أَوْلِيَاءَ ﴾ أى: بل كانوا تحت قهره وغلبته ، وفى قبضته وسلطانه ، وهو قادر على الانتقام منهم فى الدار الدنيا قبل الآخرة، ولكن ﴿ يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ ﴾ [إبراهيم: ٤٢]، وفى الصحيحين: «إن الله ليُملى للظالم، حتى إذا أخذه لم يفلته» (٢) ؛ ولهذا قال تعالى: ﴿ يُضَاعَفُ لَهُمُ الْعَذَابُ ﴾ الآية أى: يضاعف عليهم العذاب، وذلك لأن الله تعالى جعل لهم سمعا وأبصارا وأفئدة، فما أغنى عنهم سمعهم ولا أبصارهم ولا أفئدتهم، بل كانوا صُمًا عن سماع الحق، عُما عن اتباعه، كما أخبر تعالى عنهم حين دخولهم النار: ﴿ وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ ﴾ [الملك: ١٠] ، وقال تعالى: ﴿ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنِ سَبِيلِ اللَّهِ زِنَاهُمْ عَذَابًا فَوْقَ الْعَذَابِ ﴾ الآية [النحل: ٨٨] ؛

(١) المسند (٢/٧٤) ، والبخارى (٤٦٨٥) ، ومسلم (١٧٦٨/٦٤) .

(٢) البخارى (٤٦٨٦) ، ومسلم (٢٥٨٣/٦١) .

ولهذا يعذبون على كل أمر تركوه، وعلى كل نهى ارتكبه؛ ولهذا كان أصح الأقوال أنهم مكلفون بفروع الشرائع أمرها ونهيتها بالنسبة إلى الدار الآخرة .

وقوله : ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ أى : خسروا أنفسهم لأنهم أدخلوا نارا حامية، فهم معذبون فيها لا يفتر عنهم من عذابها طرفة عين، كما قال تعالى : ﴿كُلَّمَا حَتَّ ذِقْنَاهُمْ سَعِيرًا﴾ [الإسراء: ٩٧] . ﴿وَضَلَّ عَنْهُمْ﴾ أى : ذهب عنهم ﴿مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ من دون الله من الأنداد والأصنام، فلم تجد عنهم شيئا ، بل ضرتهم كل الضرر، كما قال تعالى : ﴿وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءً وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ﴾ [الحقاف: ٦] ، وقال تعالى : ﴿وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لِيَكُونُوا لَهُمْ عِزًّا . كَلَّا سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا﴾ [مریم: ٨١ ، ٨٢] ، وقال الخليل لقومه : ﴿إِنَّمَا اتَّخَذْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا مَوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُمْ بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُمْ بَعْضًا وَمَأْوَأَكُمْ النَّارُ وَمَا لَكُمْ مِنْ نَاصِرِينَ﴾ [العنكبوت: ٢٥] ، وقوله : ﴿إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا وَرَأَوْا الْعَذَابَ﴾ إلى غير ذلك من الآيات الدالة على خسره ودمارهم ؛ ولهذا قال : ﴿لَا جَرِمَ أَنَّهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمُ الْأَخْسَرُونَ﴾ يخبر تعالى عن حالهم أنهم أخسر الناس صفقة فى الدار الآخرة؛ لأنهم اعتاضوا عن نعيم الجنان بحميم آن، وعن الحور العين بطعام من غسلين ، وعن القصور العالية بالهاوية ، وعن قرب الرحمن ورؤيته بغضب الديان وعقوبته، فلا جرم أنهم فى الآخرة هم الأخسرون .

﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَأَخْبَتُوا إِلَىٰ رَبِّهِمْ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿١٢﴾ ﴿١٣﴾ مَثَلُ الْفَرِيقَيْنِ كَالْأَعْمَىٰ وَالْأَبْصِرِ وَالسَّمِيعِ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿١٤﴾﴾

ربيع

لما ذكر تعالى حال الأشقياء ثنى بذكر السعداء، وهم الذين آمنوا وعملوا الصالحات، فأمنت قلوبهم وعملت جوارحهم الأعمال الصالحة قولاً وفعلاً ، وبهذا ورثوا الجنات، المشتمة على الغرف العاليات ، والسرر المصفوفات ، والحسان الخيرات، والفواكه المتنوعات ، والنظر إلى خالق الأرض والسماوات، وهم فى ذلك خالدون ، لا يموتون ولا يهرمون ولا يمرضون ، ولا يتغطون ، ولا يبصقون ولا يتمخطون ، إن هو إلا رشح مسك يعرقون .

ثم ضرب تعالى مثل الكافرين والمؤمنين ، فقال : ﴿مَثَلُ الْفَرِيقَيْنِ﴾ أى : الذين وصفهم أولا بالشقاء والمؤمنين السعداء، فأولئك كالأعمى والأصم، وهؤلاء كالبصير والسميع . فالكافر أعمى عن وجه الحق فى الدنيا، وفى الآخرة لا يهتدى إلى خير ولا يعرفه، أصم عن سماع الحجج ، فلا يسمع ما ينتفع به ﴿وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَأَسْمَعَهُمْ﴾ الآية [الأنفال: ٢٣] ، وأما المؤمن ففطن ذكى لبيب، بصير الحق ، يميز بينه وبين الباطل، فيتبع الخير ويترك الشر، سميع للحجة ، يفرق بينها وبين الشبهة ، فلا يروج عليه باطل ، فهل يستوى هذا وهذا .

﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ : أفلا تعتبرون فتفرون بين هؤلاء وهؤلاء، كما قال فى الآية الأخرى:

﴿لَا يَسْتَوِي أَصْحَابُ النَّارِ وَأَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمُ الْفَائِزُونَ﴾ [الحشر: ٢٠] وقال: ﴿وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرَ. وَلَا الظُّلُمَاتُ وَلَا النُّورَ. وَلَا الظُّلُ وَلَا الْحُرُورَ. وَمَا يَسْتَوِي الْأَحْيَاءُ وَلَا الْأَمْوَاتُ إِنَّ اللَّهَ يُسْمِعُ مَنْ يَشَاءُ وَمَا أَنْتَ بِمُسْمِعٍ مَنْ فِي الْقُبُورِ. إِنَّ أَنْتَ إِلَّا نَذِيرٌ. إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَإِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ﴾ [فاطر: ١٩ - ٢٤].

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ إِتِي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٢٥﴾ أَنْ لَا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمِ الْإِسْمِ ﴿٢٦﴾ فَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ مَا نَرَاكَ إِلَّا بَشْرًا مِثْلَنَا وَمَا نَرَاكَ أَتْبَعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَادُوا بِادِّئِ الرَّأْيِ وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ بَلْ نَنظُرُكُمْ كَذِبِينَ ﴿٢٧﴾﴾

يخبر تعالى عن نوح ، عليه السلام ، وكان أول رسول بعثه الله إلى أهل الأرض من المشركين عبدة الأصنام أنه قال لقومه: ﴿إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ أي: ظاهر النذارة لكم من عذاب الله إن أنتم عبدتم غير الله؛ ولهذا قال: ﴿وَلِهَذَا قَالَ: ﴿أَنْ لَا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ﴾، وقوله: ﴿إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمِ الْإِسْمِ﴾ أي إن استمررتم على ما أنتم عليه عذبكم الله عذابا ليما موجعا شاقا في الدار الآخرة . ﴿فَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ﴾ والملا هم: السادة والكبراء من الكافرين منهم: ﴿مَا نَرَاكَ إِلَّا بَشْرًا مِثْلَنَا﴾ أي: لست بملك ، ولكنك بشر ، فكيف أوحى إليك من دوننا ؟ ثم ما نراك أتبعك إلا أراذلنا كالباعة والحاكة وأشباههم ولم يتبعك الأشراف ولا الرؤساء ، ثم هؤلاء الذين اتبعوك لم يكن عن تروٍّ منهم ولا فكرة ولا نظر، بل بمجرد ما دعوتهم أجابوك فاتبعوك ؛ ولهذا قال: ﴿وَمَا نَرَاكَ أَتْبَعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَادُوا بِادِّئِ الرَّأْيِ﴾ أي: في أول بادئ الرأي ﴿وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ﴾ يقولون: ما رأينا لكم علينا فضيلة في خلقك ولا خلقتك، ولا رزق ولا حال، لَمَّا دخلتم في دينكم هذا ﴿بَلْ نَنظُرُكُمْ كَذِبِينَ﴾ أي: فيما تدعونكم لكم من البر والصلاح والعبادة، والسعادة في الدار الآخرة إذا صرتم إليها. هذا اعتراض الكافرين على نوح، عليه السلام، وأتباعه، وذلك دليل على جهلهم وقلة علمهم وعقلهم، فإنه ليس بعار على الحق ردالة من اتبعه، فإن الحق في نفسه صحيح، وسواء اتبعه الأشراف أو الأراذل ، بل الحق الذي لا شك فيه أن أتباع الحق هم الأشراف، ولو كانوا فقراء، والذين يابونه هم الأراذل، ولو كانوا أغنياء. ثم الواقع غالبا أن ما يتبع الحق ضعفاء الناس، والغالب على الأشراف والكبراء مخالفته، كما قال تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِمْ مُقْتَدُونَ﴾ [الزخرف: ٢٣] ، ولما سأل هرقل ملك الروم أبا سفيان صخر بن حرب عن صفات النبي ﷺ، قال له فيما قال: أشراف الناس اتبعوه أو ضعفاؤهم؟ قال: بل ضعفاؤهم. فقال هرقل: هم أتباع الرسل.

وقولهم: ﴿بَادِي الرَّأْيِ﴾ ليس بمذمة ولا عيب؛ لأن الحق إذا وضح لا يبقى للتروى ولا للفكر مجال، والرسل، صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين، إنما جاؤوا بأمر جلي واضح.

وقولهم: ﴿ وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ ﴾ هم لا يرون ذلك؛ لأنهم عُمى عن الحق، لا يسمعون ولا يبصرون: بل هم في ريبهم يترددون، في ظلمات الجهل يعمهون، وهم الأفاكون الكاذبون، الأقلون الأزدلون، وفي الآخرة هم الأخسرون.

﴿ قَالَ يَتَقَوَّرُوا وَيَقُولُونَ قَدْ كُنَّا أُولَئِكَ نَكُودًا بَلْ لَأَنزَلْنَاهُنَّ عَلَيْكُمُ الْمُنْزِلَ الْمُنْزِلَ وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ ﴾

يقول تعالى مخبراً عما ردَّ به نوح على قومه في ذلك: ﴿ أَرَأَيْتُمْ إِن كُنْتُمْ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي ﴾ أي: على يقين وأمر جلي، ونبوة صادقة، وهي الرحمة العظيمة من الله به وبهم ﴿ نَعْمَيْتُمْ عَلَيْكُمْ ﴾ أي: خفيت عليكم، فلم تهتدوا إليها، ولا عرفتم قدرها، بل بادرتهم إلى تكذيبها وردّها ﴿ أَنزَلْنَاهُم مَّا هُمْ كَارِهُونَ ﴾ أي: نغصبكم بقبولها. ﴿ وَأَنْتُمْ لَهَا كَارِهُونَ ﴾ .

﴿ وَيَقُولُوا لَوْلَا إِنَّا كُنَّا آلَ نَوحٍ كُنَّا كَالَّذِينَ كَفَرُوا ﴾

يقول لقومه: لا أسألكم على نصحي لكم مالا؛ أجره أخذها منكم، إنما ابتغى الأجر من الله عز وجل ﴿ وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الَّذِينَ آمَنُوا ﴾، كأنهم طلبوا منه أن يطرد المؤمنين عنه، احتشاماً ونفاسة منهم أن يجلسوا معهم، كما سأل أمثالهم خاتم الرسل ﷺ أن يطرد عنهم جماعة من الضعفاء ويجلس معهم مجلساً خاصاً، فانزل الله تعالى: ﴿ وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ ﴾ [الأنعام: ٥٢]، ﴿ وَأَصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ ﴾ [الكهف: ٢٨]، وقال تعالى: ﴿ وَكَذَلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لِّقَوْلِ أَهْلَآءٍ مِّنَ اللَّهِ عَلَيْهِم مِّن بَيْنِنَا أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ ﴾ [الأنعام: ٥٣].

﴿ وَلَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلَا أَقُولُ إِنِّي مَلَكٌ وَلَا أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِي أَعْيُنُكُمْ لَن يُؤْتِيَهُمُ اللَّهُ خَيْرًا اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا فِي أَنْفُسِهِمْ ﴾ [١١]

يخبرهم أنه رسول من الله، يدعو إلى عبادة الله وحده لا شريك له، ويخبرهم أنه لا يقدر على التصرف في خزائن الله، ولا يعلم من الغيب إلا ما أطلعه الله عليه، وليس هو بملك من الملائكة، بل بشر مرسل، مؤيد بالمعجزات. ولا أقول عن هؤلاء الذين تحتقرونهم وتزدرونهم: إنه ليس لهم عند الله ثواب على إيمانهم الله أعلم بما في أنفسهم، فإن كانوا مؤمنين باطنياً، كما هو الظاهر من حالهم، فلهم جزاء الحسنی، ولو قطع لهم أحد بشر بعد ما آمنوا، لكان ظالماً قائلاً ما لا أعلم له به.

﴿ قَالُوا يَا نُوحُ قَدْ جَدَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدْلَنَا فَأَيْنَا بِمَا تَعْدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴾
 ﴿٢٢﴾ قَالَ إِنَّمَا يَأْتِيكُمْ بِهِ اللَّهُ إِنْ شَاءَ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ ﴿٢٣﴾ وَلَا يَنْفَعُكُمْ نُصْحِي إِنْ أَرَدْتُ أَنْ أَنْصَحَ لَكُمْ إِنْ كَانَ اللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يُغْوِيَكُمْ هُوَ رَبُّكُمْ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٤﴾

يقول تعالى مخبراً عن استعجال قوم نوح نقمة الله وعذابه وسخطه، والبلاء موكل بالمنطق: ﴿قَالُوا يَا نُوحُ قَدْ جَدَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدْلَنَا﴾ أى: حاججتنا فأكثرت من ذلك، ونحن لا نتبعك ﴿فَأَيْنَا بِمَا تَعْدُنَا﴾ أى: من النقمة والعذاب، ادع علينا بما شئت، فليأتنا ما تدعو به ﴿إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾. قَالَ إِنَّمَا يَأْتِيكُمْ بِهِ اللَّهُ إِنْ شَاءَ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ﴾ أى: إنما الذى يعاقبكم ويعجلها لكم الله الذى لا يُعْجِزُهُ شَيْءٌ ﴿وَلَا يَنْفَعُكُمْ نُصْحِي إِنْ أَرَدْتُ أَنْ أَنْصَحَ لَكُمْ إِنْ كَانَ اللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يُغْوِيَكُمْ﴾ أى: أى شَيْءٍ يُجْدِي عَلَيْكُمْ إِبْلَاغِي لَكُمْ وَإِنذَارِي إِيَّاكُمْ وَنُصْحِي، إِنْ كَانَ اللَّهُ يُرِيدُ إِغْوَاءَكُمْ وَدِمَارَكُمْ ﴿هُوَ رَبُّكُمْ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ أى: هو مالك أزيمة الأمور، والمتصرف الحاكم العادل الذى لا يجور، مالك الدنيا والآخرة.

﴿ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَيْنَاهُ قُلْ إِنْ افْتَرَيْتُهُ فَعَلَىٰ إِجْرَامِي وَأَنَا بَرِيءٌ وَمِمَّا يَجْحَرُونَ ﴾ ﴿٢٥﴾

هذا كلام معترض فى وسط هذه القصة، مؤكد لها، مقرر لها. يقول تعالى لمحمد ﷺ: أم يقول هؤلاء الكافرون الجاحدون: افترى هذا وافعله من عنده ﴿قُلْ إِنْ افْتَرَيْتُهُ فَعَلَىٰ إِجْرَامِي﴾ أى: فإثم ذلك على ﴿وَأَنَا بَرِيءٌ مِمَّا تُجْحَرُونَ﴾ أى: ليس ذلك مفتعلا، ولا مفترى، لأنى أعلم ما عند الله من العقوبة لمن كذب عليه.

﴿ وَأَوْحَىٰ إِلَىٰ نُوحٍ أَنَّهُ لَنْ يُؤْمِنَ مِنْ قَوْمِكَ إِلَّا مَنْ قَدَّ أَمَنَ فَلَا يَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴾ ﴿٢٦﴾ وَأَصْنَعُ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحِّينَا وَلَا تَخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُّغْرَقُونَ ﴿٢٧﴾ وَصَنَعُ الْفُلْكَ وَكَلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأَ مِنْ قَوْمِهِ سَخِرُوا مِنْهُ قَالَ إِنْ تَسْخَرُوا مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنْكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ ﴿٢٨﴾ فَسَوْفَ نَعْلَمُوكَ مِنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴿٢٩﴾

يخبر تعالى أنه أوحى إلى نوح لما استعجل قومه نقمة الله بهم وعذابه لهم، فدعا عليهم نوح دعوته التى قال الله تعالى مخبراً عنه أنه قال: ﴿رَبِّ لَا تَذَرْنِي عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا﴾ [نوح: ٢٦]، ﴿فَدَعَا رَبَّهُ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَانْتَصِرْ﴾ [القمر: ١٠]، فعند ذلك أوحى الله إليه: ﴿أَنَّهُ لَنْ يُؤْمِنَ مِنْ قَوْمِكَ إِلَّا مَنْ قَدَّ أَمَنَ فَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا يَهْمَنَّكَ أَمْرُهُمْ﴾. ﴿وَأَصْنَعُ الْفُلْكَ﴾ أى: السفينة ﴿بِأَعْيُنِنَا﴾ أى: بمرأى منا ﴿وَوَحِّينَا﴾ أى: تعليمنا لك ما تصنعه، ﴿وَلَا تَخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُّغْرَقُونَ﴾. وقوله: ﴿وَصَنَعُ الْفُلْكَ وَكَلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأَ مِنْ قَوْمِهِ سَخِرُوا مِنْهُ﴾ أى: يهزؤون به ويكذبون بما

يتوعدهم به من الغرق ﴿ قَالَ إِنْ تَسْخَرُوا مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنْكُمْ ﴾ الآية ، وعيد شديد ، وتهديد أكيد ﴿ مَنْ يَأْتِهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ ﴾ أى : يهينه فى الدنيا ﴿ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴾ أى : دائم مستمر أبداً .

﴿ حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ قُلْنَا احْمِلْ فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ وَمَنْ ءَامَنَ وَمَا ءَامَنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ ﴾ ﴿٤١﴾

هذه موعدة من الله تعالى لنوح ، عليه السلام ، إذا جاء أمر الله من الأمطار المتتابعة ، والهتان الذى لا يُقْلَع ولا يُفْتَر ، بل هو كما قال تعالى : ﴿ فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُّنْهَمِرٍ . وَفَجَرْنَا الْأَرْضَ عُيُونًا فَالْتَقَى الْمَاءُ عَلَىٰ أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ . وَحَمَلْنَاهُ عَلَىٰ ذَاتِ أَلْوَابٍ وَّدُوسٍ . تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا جَزَاءً لِّمَن كَانَ كُفْرًا ﴾ [القمر: ١١ - ١٤]

وأما قوله : ﴿ وَفَارَ التَّنُّورُ ﴾ فعن ابن عباس : التنور : وجه الأرض ، أى : صارت الأرض عيوناً تفور ، حتى فار الماء من التنوير التى هى مكان النار ، صارت تفور ماء ، وهذا قول جمهور السلف وعلماء الخلف .

فحينئذ أمر الله نوحاً ، عليه السلام ، أن يحمل معه فى السفينة من كل زوجين - من صنوف المخلوقات ذوات الأرواح ، قيل : وغيرها من النباتات - اثنين . ذكرا وأنثى .

وقوله : ﴿ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ ﴾ أى : واحمل فيها أهلك ، وهم أهل بيته وقرابته ، إلا من سبق عليه القول منهم ، ممن لم يؤمن بالله ، فكان منهم ابنه «يام» الذى انعزل وحده ، وامرأة نوح وكانت كافرة بالله ورسوله . ﴿ وَمَنْ ءَامَنَ ﴾ أى : من قومك ﴿ وَمَا ءَامَنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ ﴾ أى : نَزَرَ يسير مع طول المدة والمقام بين أظهرهم ألف سنة إلا خمسين عاماً ، فعن ابن عباس : كانوا ثمانين نفساً منهم نساؤهم . وعن كعب الأحبار : كانوا اثنين وسبعين نفساً . وقيل : كانوا عشرة . والله أعلم وأحكم .

﴿ وَقَالَ ارْكَبُوا فِيهَا بِسْمِ اللَّهِ جَحْرُنَهَا وَرَسَتْهَا إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ ﴿٤٢﴾ وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَالْجِبَالِ وَنَادَىٰ نُوحٌ ابْنَهُ وَكَانَ فِي مَقْزِلٍ يَبْتَئِىٰ أَرْكَبَ مَعَنَا وَلَا تَكُن مَعَ الْكَافِرِينَ ﴿٤٣﴾ قَالَ سَتَأْوِىٰ إِلَىٰ جِبَلٍ يَّعِصِمُنِي مِنَ الْمَاءِ قَالَ لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلَّا مَنْ رَّحِمَ وَحَالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ الْمُغْرَقِينَ ﴿٤٤﴾

يقول تعالى إخباراً عن نوح ، عليه السلام ، أنه قال للذين أمر بحملهم معه فى السفينة : ﴿ ارْكَبُوا فِيهَا بِسْمِ اللَّهِ مَجْرَاهَا وَرَسَتْهَا ﴾ أى : بسم الله يكون جريها على وجه الماء ، وبسم الله يكون منتهى سيرها ، وهو رُسُوها .

وقال الله تعالى : ﴿ فَلَمَّا اسْتَوَيْتَ أَنْتَ وَمَنْ مَعَكَ عَلَى الْفُلِّ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي نَجَّانَا مِنَ الْقَوْمِ

الظَّالِمِينَ . وَقُلْ رَبِّ انزِلْنِي مُنزَلاً مُبَارَكاً وَأَنْتَ خَيْرُ الْمُنزِلِينَ ﴿المؤمنون: ٢٨، ٢٩﴾؛ ولهذا تستحب التسمية في ابتداء الأمور: عند الركوب على السفينة وعلى الدابة، كما قال تعالى: ﴿وَالَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا وَجَعَلَ لَكُمْ مِنَ الْفُلْكِ وَالْأَنْعَامِ مَا تَرْكَبُونَ . لَسْتُمْ عَلَى ظُهُورِهِ ثُمَّ تَذْكُرُونَهَا نِعْمَةً رَبِّكُمْ إِذَا اسْتَرَيْتُمْ عَلَيْهِ وَتَقُولُوا سُبْحَانَ الَّذِي سَخَّرْنَا هَذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ . وَإِنَّا إِلَى رَبِّنَا لَمُنْقَلِبُونَ﴾ [الزخرف: ١٢ - ١٤]، وجاءت السنة بالحث على ذلك، والندب إليه، كما سيأتي في سورة «الزخرف»، إن شاء الله . وقوله: ﴿إِنِّي لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ مناسب عند ذكر الانتقام من الكافرين بإغراقهم أجمعين ذكر أنه غفور رحيم، كما قال: ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [الاعراف: ١٦٧]، وقال: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِلنَّاسِ عَلَى ظُلْمِهِمْ وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ [الرعد: ٦]، إلى غير ذلك من الآيات التي يقرون فيها بين انتقامه ورحمته .

وقوله: ﴿وَمِمْ تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَالْجِبَالِ﴾ أي: السفينة سائرة بهم على وجه الماء، الذي قد طبَّق جميع الأرض، حتى طفت على رؤوس الجبال، وهذه السفينة على وجه الماء سائرة بإذن الله وتحت كنفه وعنايته، وحراسته وامتنانه كما قال تعالى: ﴿إِنَّا لَمَّا طَغَا الْمَاءُ حَمَلْنَاكُمْ فِي الْجَارِيَةِ . لِنَجْعَلَهَا لَكُمْ تَذْكُرَةً وَتَمِيهاً أَذُنًا وَاَعْيَةً﴾ [الحاقة: ١١، ١٢]، وقال تعالى: ﴿وَحَمَلْنَاهُ عَلَى ذَاتِ أَلْوَاحٍ وَدُسُرٍ . تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا جَزَاءً لِمَنْ كَانَ كُفِرًا . وَلَقَدْ تَرَكْنَاهَا آيَةً فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ﴾ [القمر: ١٣ - ١٥] .

وقوله: ﴿وَنَادَى نُوحٌ ابْنَهُ﴾ الآية: هذا هو الابن الرابع، واسمه «يام»، وكان كافراً، دعاه أبوه عند ركوب السفينة أن يؤمن ويركب معهم ولا يغرق مثل ما يغرق الكافرون ﴿قَالَ سَآوِي إِلَى جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَاءِ﴾ . اعتقد بجهله أن الطوفان لا يبلغ إلى رؤوس الجبال، وأنه لو تعلق في رأس جبل لنجاه ذلك من الغرق، فقال له أبوه نوح، عليه السلام: ﴿لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلَّا مَنْ رَحِمَ﴾ أي: ليس شيء يعصم اليوم من أمر الله ﴿وَحَالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ الْمُغْرَقِينَ﴾ .

﴿وَقِيلَ يَا تَارُضُ أَبْلِئِي مَاءَكُمْ وَيَسْمَأْهُ أَلْبِي وَغِيصَ الْمَاءُ وَفِي الْأَمْرِ وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ وَقِيلَ بُعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ ﴿٤٤﴾

يخبر تعالى أنه لما غرق أهل الأرض إلا أصحاب السفينة، أمر الأرض أن تبلع ماءها الذي نبع منها واجتمع عليها، وأمر السماء أن تفلح عن المطر ﴿وَوَغِيصَ الْمَاءِ﴾ أي: شرع في النقص، ﴿وَوَفِي الْأَمْرِ﴾ أي: فرغ من أهل الأرض قاطبة، بمن كفر بالله، لم يبق منهم ديار ﴿وَاسْتَوَتْ﴾ السفينة بمن فيها ﴿عَلَى الْجُودِيِّ﴾ قال مجاهد: وهو جبل بالجزيرة، تشامخت الجبال يومئذ من الغرق وتناولت، وتواضع هو لله عز وجل، فلم يغرق، وأرست عليه سفينة نوح عليه السلام . وقال قتادة: استوت عليه شهرا حتى نزلوا منها، قال قتادة: قد أبقى الله سفينة نوح، عليه السلام، على الجودي من أرض الجزيرة عبرة وآية حتى رآها أوائل هذه الأمة، وكم من سفينة قد كانت بعدها فهلكت، وصارت رمادا . وقال الضحاك: الجودي: جبل بالموصل: وقال بعضهم: هو الطور .

وقوله: ﴿وَقِيلَ بُعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ أي: هلاكاً وخساراً لهم، وبعداً من رحمة الله، فإنهم قد هلكوا عن آخرهم، فلم يبق لهم بقية .

﴿وَنَادَى نُوحٌ رَبَّهُ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ وَأَنْتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ﴾
 ﴿٤٥﴾ قَالَ يَبْنَوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ فَلَا تَسْتَلِنَ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّي
 أَعْطُكَ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ ﴿٤٦﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْأَلَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ
 وَإِلَّا تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِي أَكُنْ مِنَ الْخَسِرِينَ ﴿٤٧﴾

هذا سؤال استعلام وكشف من نوح، عليه السلام، عن حال ولده الذي غرق ﴿قَالَ رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي﴾ أي: وقد وعدتني بنجاة أهلي، ووعدك الحق الذي لا يخلف، فكيف غرق وأنت أحكم الحاكمين؟ ﴿قَالَ يَا نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ﴾ أي: الذين وعدت إنجاءهم؛ لأنني إنما وعدتك بنجاة من آمن من أهلك؛ ولهذا قال: ﴿وَأَهْلَكَ إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ﴾ [هود: ٤٠]، فكان هذا الولد ممن سبق عليه القول بالغرق لكفره ومخالفته أباه نبي الله نوحا، عليه السلام.

وقد نص غير واحد من الأئمة على تخطئة من ذهب في تفسير هذا إلى أنه ليس بابنه، وإنما كان ابن زنية. وقال ابن عباس، وغير واحد من السلف: ما زنت امرأة نبي قط، قال: وقوله: ﴿إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ﴾ أي: الذين وعدت نجاتهم. وقول ابن عباس في هذا هو الحق الذي لا محيد عنه، فإن الله سبحانه أغير من أن يمكن امرأة نبي من الفاحشة، ولهذا غضب الله على الذين رموا أم المؤمنين عائشة بنت الصديق زوج النبي ﷺ، وأنكر على المؤمنين الذين تكلموا بهذا وأشاعوه؛ ولهذا قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِنْكُمْ لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَكُمْ بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَكُمْ لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ مَا اكْتَسَبَ مِنَ الْإِثْمِ وَالَّذِي تَوَلَّى كِبْرَهُ مِنْهُمْ لَهُ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ إلى قوله: ﴿إِذْ تَلَقَوْهُ بِالْأَيْتِمْ وَتَقُولُونَ يَا فَوَاحِشُ مَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ وَتَحْسَبُونَهُ هِينًا وَهُوَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمٌ﴾ [النور: ١١ - ١٥]. وقال ابن عباس: هو ابنه غير أنه خالفه في العمل والنية. قال عكرمة: في بعض الحروف: «إنه عمل عملاً غير صالح».

﴿قِيلَ يَبْنَوحُ أَهْبِطْ بِسَلَامٍ مَتَا وَبَرَكَتٍ عَلَيْكَ وَعَلَىٰ أُمَمٍ مِمَّنْ مَعَكَ وَأُمَمٌ سَنَمِتُهُمْ ثُمَّ يَمْسُهُمْ مَتَا عَذَابِ أَلِيمٍ﴾
 ﴿٤٨﴾

يخبر تعالى عما قيل لنوح، عليه السلام، حين أرست السفينة على الجودي، من السلام عليه، وعلى من معه من المؤمنين، وعلى كل مؤمن من ذريته إلى يوم القيامة. وقال ابن إسحاق: ولما أراد أن يكف الطوفان أرسل ريحا على وجه الأرض، فسكن الماء، وانسدت ينابيع الأرض وأبواب السماء، يقول الله تعالى: ﴿وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ﴾ الآية، فجعل الماء ينقص ويغيب ويُدبر، و﴿قِيلَ يَا نُوحُ اهْبِطْ بِسَلَامٍ مَتَا﴾ الآية.

﴿تِلْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنْتَ تَعْلَمُهَا أَنْتَ وَلَا قَوْمُكَ مِنْ قَبْلِ هَذَا فَاصْبِرْ إِنَّ الْعُقُوبَةَ لِلْمُتَّقِينَ﴾
 ﴿٤٩﴾

يقول تعالى لنبية ﷺ : هذه القصة وأشباهها ﴿ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ ﴾ ، معنى : من أخبار الغيوب السالفة نوحيتها إليك على وجهها ، كأنك شاهدها ﴿ نُوحِيهَا إِلَيْكَ ﴾ أى : نعلمك بها وحيا منا إليك ﴿ مَا كُنْتَ تَعْلَمُهَا أَنْتَ وَلَا قَوْمُكَ مِنْ قَبْلِ هَذَا ﴾ أى : لم يكن عندك ولا عند أحد من قومك علم بها، حتى يقول من يكذبك : إنك تعلمتها منه ، بل أخبرك الله بها مطابقة لما كان عليه الأمر الصحيح ، كما تشهد به كتب الأنبياء قبلك ، فاصبر على تكذيب من كذبك من قومك ، وأذاهم لك ، فإننا سننصرك ونحوطك بعنايتنا ، ونجعل العاقبة لك ولأتباعك فى الدنيا والآخرة ، كما فعلنا بالمرسلين حيث نصرناهم على أعدائهم ﴿ إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا ﴾ الآية [غافر: ٥١] ، وقال تعالى : ﴿ وَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ . إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنْصُورُونَ ﴾ الآية [الصافات: ١٧١ - ١٧٣] ، وقال تعالى : ﴿ فَاصْبِرْ إِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ .

﴿ وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَا قَوْمِ أَعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا مُفْتَرُونَ ﴿٥٠﴾ يَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ الَّذِي فَطَرَنِي أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٥١﴾ وَيَا قَوْمِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمْ وَلَا تَتَوَلَّوْا مَجْرِمِينَ ﴿٥٢﴾ ﴾

يقول تعالى : ولقد أرسلنا ﴿إِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا﴾ أمرا لهم بعبادة الله وحده لا شريك له ، وأخبرهم أنه لا يريد منهم أجره على هذا النصح والبلاغ من الله ، إنما يبغى ثوابه من الله الذى فطره ﴿ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ من يدعوكم إلى ما يصلحكم فى الدنيا والآخرة من غير أجره .

ثم أمرهم بالاستغفار الذى فيه تكفير الذنوب السالفة ، وبالتوبة عما يستقبلون ، ومن اتصف بهذه الصفة يسر الله عليه رزقه ، وسهل عليه أمره وحفظ شأنه ؛ ولهذا قال : ﴿ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا ﴾ [نوح: ١١] ، وفى الحديث : « من لزم الاستغفار جعل الله له من كل هم فرجا ، ومن كل ضيق مخرجا ، ورزقه من حيث لا يحتسب » (١) .

﴿ قَالُوا يَا هُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِي آلِهَتِنَا عَنْ قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿٥٢﴾ إِنْ نَقُولُ إِلَّا اعْتَرَاكَ بَعْضُ آلِهَتِنَا بِسْمِ اللَّهِ قَالَ إِنْ أَشْهَدُ اللَّهَ وَأَشْهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٥٣﴾ مِنْ دُونِهِ فَكِيدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنظِرُونَ ﴿٥٤﴾ إِنْ تَوَلَّيْتُ عَلَىٰ اللَّهِ رَبِّي وَرَبَّكُمْ مَا مِنْ دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنْ رَبِّي عَلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿٥١﴾ ﴾

(١) المسند (٢٢٣٤) وقال الشيخ أحمد شاكر : « إسناده صحيح » ، وأبو داود (١٥١٨) ، وابن ماجه (٣٨١٩) .

يخبر تعالى أنهم قالوا لنبيهم: ﴿ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ ﴾ أى: بحجة وبرهان على ما تدعيه ﴿ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِي آلِهَتِنَا عَنْ قَوْلِكَ ﴾ أى: بمجرد قولك: «اتركوهم» تركهم ﴿ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴾ أى: بمصدقين ﴿ إِنْ نَقُولُ إِلَّا اعْتَرَاكَ بَعْضُ آلِهَتِنَا بِسُوءٍ ﴾ يقولون: ما نظن إلا أن بعض الآلهة أصابك بجنون وخيل فى عقلك بسبب نهيك عن عبادتها وعيبك لها ﴿ قَالَ إِنِّي أَشْهَدُ اللَّهَ وَأَشْهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ . مِنْ دُونِهِ ﴾ ، يقول: إني برىء من جميع الأنداد والأصنام، ﴿ فَكَيْدُونِي جَمِيعًا ﴾ أى: أنتم وآلهتكم إن كانت حقا ﴿ ثُمَّ لَا تَنْظُرُونَ ﴾ أى: طرفة عين .

وقوله: ﴿ إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ مَا مِنْ دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا ﴾ أى تحت قهره وسلطانه ، وهو الحاكم العادل الذى لا يجوز فى حكمه ، فإنه على صراط مستقيم. وقد تضمن هذا المقام حجة بالغة ودلالة قاطعة على صدق ما جاءهم به، وبطلان ما هم عليه من عبادة الأصنام التى لا تنفع ولا تضر، بل هى جماد لا تسمع ولا تبصر، ولا توالى ولا تُعَادى، وإنما يستحق إخلاص العبادة الله وحده لا شريك له، الذى بيده الملك، وله التصرف، وما من شىء إلا تحت ملكه وقهره وسلطانه، فلا إله إلا هو، ولا رب سواه.

﴿ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ مَا أُرْسِلْتُ بِهِ مِنَ الْبَيِّنَاتِ ﴾ وَتَسْتَخْلِفُ رَبِّي قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّونَهُ شَيْئًا إِنَّ رَبِّي عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ ﴿٥٧﴾ وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُودًا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَنَجَّيْنَاهُمْ مِنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴿٥٨﴾ وَتِلْكَ ءَعَادٌ جَحَدُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَعَصَوْا رُسُلَهُ وَاتَّبَعُوا أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ﴿٥٩﴾ وَاتَّبِعُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ أَلَا إِنَّ ءَعَادًا كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ أَلَا بُعْدًا لِعَادٍ قَوْمِ هُودٍ ﴿٦٠﴾

يقول لهم هود: فإن تولوا عما جئتكم به من عبادة الله ربكم وحده لا شريك له ، فقد قامت عليكم الحجة بإبلاغى إياكم رسالة الله التى بعثنى بها ﴿ وَتَسْتَخْلِفُ رَبِّي قَوْمًا غَيْرَكُمْ ﴾ يعبدونه وحده لا يشركون به ، ولا يبالي بكم ، فإنكم لا تضرونه بكفركم ، بل يعود وبأل ذلك عليكم ﴿ إِنَّ رَبِّي عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ ﴾ أى : شاهد وحافظ لاقوال عباده وأفعالهم ويجزيهم عليها إن خيرا فخير، وإن شرا فشر.

﴿ وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا ﴾ وهو الريح العقيم ، فأهلكهم الله عن آخرهم ، ونجى هودا واتباعه من عذاب غليظ برحمته تعالى ولطفه. ﴿ وَتِلْكَ ءَعَادٌ جَحَدُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ ﴾ كفروا بها، وعصوا رسل الله ، وذلك أن من كفر بنبي فقد كفر بجميع الأنبياء، لأنه لا فرق بين أحد منهم فى وجوب الإيمان به، فعاد كفروا بهود، فنزل كفرهم منزلة من كفر بجميع الرسل ﴿ وَاتَّبَعُوا أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ﴾ : تركوا اتباع رسولهم الرشيد، واتبعوا أمر كل جبار عنيد. فلماذا اتبعوا فى هذه الدنيا لعنة من الله ومن عباده المؤمنين كلما ذكروا، وينادى عليهم يوم القيامة على رؤوس الأشهاد ﴿ أَلَا إِنَّ ءَعَادًا كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ ﴾ الآية . قال السدنى: ما بعث نبي بعد عاد إلا لعنوا على لسانه.

﴿ وَإِلَىٰ تَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ هُوَ أَنشَأَكُمْ مِّنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَاسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُّجِيبٌ ﴾ ﴿١١﴾

يقول تعالى: ولقد أرسلنا ﴿ إلى تمود ﴾ وهم الذين كانوا يسكنون مدائن الحجر بين تبوك والمدينة، وكانوا بعد عاد، فبعث الله منهم ﴿ أخاهم صالحا ﴾ فأمرهم بعبادة الله وحده؛ ولهذا قال: ﴿ هو أنشأكم من الأرض ﴾ أى: ابتداء خلقكم منها، خلق منها أباكم آدم ﴿ واستعمركم فيها ﴾ أى: جعلكم عمارة تعمرونها وتستغلونها ﴿ فاستغفروه ﴾ لسالف ذنوبكم ﴿ ثم توبوا إليه ﴾ فيما تستقبلونه ﴿ إن ربي قريب مجيب ﴾، كما قال تعالى: ﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ ﴾ الآية [البقرة: ١٨٦].

﴿ قَالُوا يَا صَالِحُ أَنتَ الْمُرْسَلُ هَذَا الَّذِي كُنَّا نَدْعُونَ قَالَ إِنِّي أَنبِئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ إِنِّي لَأَرَىٰ عَذَابَ الَّذِي نَدَعُونَ أَنَّكُمْ مُّؤْمِنُونَ وَرَبِّيَ الَّذِي يُرْسِلُ الرُّسُلَ هُوَ عَزِيزٌ أَلِيمٌ ﴾ ﴿١٢﴾

يذكر تعالى ما كان من الكلام بين صالح، عليه السلام، وبين قومه، وما كان عليه قومه من الجهل والعناد في قولهم: ﴿ قد كنت فينا مرجوا قبل هذا ﴾ أى: كنا نرجوك في عقلك قبل أن تقول ما قلت! ﴿ آتينا أن نعبد ما يعبد آباؤنا ﴾ وما كان عليه أسلافنا ﴿ وإنا لفي شك مما تدعوننا إليه مريب ﴾ أى: شك كثير.

﴿ قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّنْ رَبِّي ﴾ فيما أرسلنى به إليكم على يقين وبرهان ﴿ وآتاني منه رحمة فمن ينصرني من الله إن عصيته ﴾ وتركت دعوتكم إلى الحق وعبادة الله وحده، فلو تركته لما نفعتموني ولما زدموني ﴿ غير تعسير ﴾ أى: خسارة.

﴿ وَيَقَوْمِ هَٰذِهِ نَافَةٌ لِّلَّذِينَ لَكُمْ أَيْدِي فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللَّهِ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ قَرِيبٌ ﴾ ﴿١٣﴾ ﴿ فَعَقَرُوهَا فَقَالَ تَمَتَّعُوا فِي دَارِكُمْ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ ذَلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْدُوبٍ ﴾ ﴿١٤﴾ ﴿ فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَالِحًا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَمِنْ خِزْيِ يَوْمِئِذٍ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ ﴾ ﴿١٥﴾ ﴿ وَأَخَذَ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةَ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جِثْمِينَ ﴾ ﴿١٦﴾ ﴿ كَان لَّمْ يَفْنَوْا فِيهَا آلَا إِن تَمُودًا كَفَرُوا رَبَّهُمْ أَلَا بَعْدَ إِشْمُودٍ ﴾ ﴿١٧﴾

تقدم الكلام عليها في سورة « الأعراف » (١) بما أغنى عن إعادته فله الحمد والمنة .

﴿ وَلَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبَشْرَى قَالُوا سَلَمًا قَالَ سَلَامٌ فَمَا لَبِثَ أَنْ جَاءَهُ
بِعِجْلِ حَنِيدٍ ﴿٦٩﴾ فَمَا رَآهُمُ إِلَّا رِجَالًا مَدْبُورِينَ ﴿٧٠﴾ وَآمَرْتَهُ فَأَنبَأَهُمْ فَأَسَمِعَتْهُ لَتَنِمْ ﴿٧١﴾
تَخَفَ إِنَّا أَرْسَلْنَا إِلَى قَوْمِ لُوطٍ ﴿٧٢﴾ وَقَالُوا إِنَّا لَنَرِيكَ فِتْنَةً وَسَاءَ لَكَ هَتْمًا ﴿٧٣﴾
عَجِيبٌ ﴿٧٤﴾ قَالُوا أَنْتَجِيبِينَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ رَحِمْتُ اللَّهُ وَبَرَكْنَاهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ إِنَّهُ حَمِيدٌ
مَجِيدٌ ﴿٧٥﴾ ﴾

يقول تعالى : ﴿ وَلما جَاءَتْ رُسُلُنَا ﴾ وهم الملائكة ﴿ إِبْرَاهِيمَ بِالْبَشْرَى ﴾ قيل : تبشره بإسحاق ،
وقيل : بهلاك قوم لوط . ويشهد للأول قوله تعالى : ﴿ فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَاهِيمَ الرَّوْعُ وَجَاءَتْهُ الْبَشْرَى
يُجَادِلُنَا فِي قَوْمِ لُوطٍ ﴾ [هود: ٧٤] ، ﴿ قَالُوا سَلَامًا قَالَ سَلَامٌ ﴾ أى : عليكم . ﴿ فَمَا لَبِثَ أَنْ جَاءَهُ بِعِجْلِ حَنِيدٍ ﴾
أى : ذهب سريعاً ، فاتاهم بالضيافة ، وهو عجل : فتى البقر ، حَنِيدٌ : مَشْوَى على الرضف ،
وهى الحجارة المَحْمَاة . هذا معنى ما روى عن ابن عباس ، وقتادة وغير واحد ، كما قال فى الآية
الآخرى : ﴿ فَرَأَى إِلَى أَهْلِهِ فَجَاءَ بِعِجْلِ سَمِينٍ . فَقَرَّبَهُ إِلَيْهِمْ قَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ ﴾ [الذاريات : ٢٦ ، ٢٧] . وقد
تضمنت هذه الآية آداب الضيافة من وجوه كثيرة .

وقوله : ﴿ فَلَمَّا رَأَى أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ ﴾ تنكرهم ﴿ وَأَوْحَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً ﴾ وذلك أن الملائكة
لاهمة لهم إلى الطعام ولا يشتهونه ولا يأكلونه ؛ فلهذا رأى حالهم معرضين عما جاءهم به ،
فارغين عنه بالكلية فعند ذلك نكرهم ﴿ وَأَوْحَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً ﴾ .

وقوله تعالى إخباراً عن الملائكة : ﴿ قَالُوا لَا تَخَفْ ﴾ أى قالوا : لا تخف منا ، إنا ملائكة
أرسلنا إلى قوم لوط لنهلكهم . فضحكت سارة استبشاراً بهلاكهم ، لكثرة فسادهم ، وغلظ
كفرهم وعنادهم ، فلهذا جوزيت بالشارة بالولد بعد الإياس . قال ابن عباس : ﴿ فَضَحِكْتَ ﴾
أى : حاضت . ﴿ فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ وَمِنْ وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ ﴾ أى : بولد لها يكون له ولد وعقب
ونسب ؛ فإن يعقوب ولد إسحاق ، كما قال فى آية البقرة : ﴿ أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ إِذْ
قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ بَعْدِي قَالُوا نَعْبُدُ إِلَهَكَ وَإِلَهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلَهاً وَاحِداً وَنَحْنُ لَهُ
مُسْلِمُونَ ﴾ [البقرة: ١٣٣] . ومن هاهنا استدل من استدل بهذه الآية ، على أن الذبيح إنما هو إسماعيل ،
وأنه يمتنع أن يكون هو إسحاق ؛ لأنه وقعت البشارة به ، وأنه سيولد له يعقوب ، فكيف يؤمر
إبراهيم بذبحه وهو طفل صغير ، ولم يولد له بعد يعقوب الموعود بوجوده . ووعد الله حق لا
خُلْفَ فيه ، فيمتنع أن يؤمر بذبح هذا والحالة هذه ، فتعين أن يكون هو إسماعيل وهذا من أحسن
الاستدلال وأصح وأبينه ، والله الحمد .

﴿ قَالَتْ يَا وَيْلَتَى أَأَلِدُ وَأَنَا عَجُوزٌ وَهَذَا بَعْلِي شَيْخًا ﴾ الآية : حكى قولها فى هذه الآية ، كما حكى
فعلها فى الآية الأخرى ، فإنها : ﴿ قَالَتْ يَا وَيْلَتَى أَأَلِدُ وَأَنَا عَجُوزٌ ﴾ وفى الذاريات : ﴿ فَأَقْبَلتِ امْرَأَتَهُ فِي
صِرَةٍ فَصَكَتْ وَجْهَهَا وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ ﴾ [الذاريات : ٢٩] ، كما جرت به عادة النساء فى أقوالهن

وأفعالهن عند التعجب . ﴿ قَالُوا أَتَعْجِبِينَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ ﴾ ؟ أى : قالت الملائكة لها : لا تعجبى من أمر الله ، فإنه إذا أراد شيئاً أن يقول له : « كن » فيكون ، فلا تعجبى من هذا ، وإن كنت عجزوا عقيماً ، وبعلك شيخاً كبيراً ، فإن الله على ما يشاء قدير . ﴿ رَحِمَتُ اللَّهُ وَبَرَكَاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ إِنَّهُ حَمِيدٌ مُجِيدٌ ﴾ أى : هو الحميد فى جميع أفعاله وأقواله محمود ، ممدوح فى صفاته وذاته ؛ ولهذا ثبت فى الصحيحين أنهم قالوا : قد علمنا السلام عليك ، فكيف الصلاة عليك يا رسول الله ؟ قال : قولوا : اللهم صل على محمد ، وعلى آل محمد ، كما صليت على إبراهيم وآل إبراهيم ، وبارك على محمد وعلى آل محمد ، كما باركت على إبراهيم وآل إبراهيم ، إنك حميد مجيد (١) .

﴿ فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَاهِيمَ الرَّوْعُ وَجَاءَتْهُ الْبُشْرَىٰ يُجْدِلُنَا فِي قَوْمِ لُوطٍ ﴾ ﴿٧٤﴾ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّاهٌ مُنِيبٌ ﴿٧٥﴾ يَا إِبْرَاهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا إِنَّهُ قَدْ جَاءَ أَمْرٌ رَبِّكَ وَإِنَّهُمْ لَمَنِهْمْ عَذَابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ ﴿٧٦﴾

يخبر تعالى عن إبراهيم ، عليه السلام ، أنه لما ذهب عنه الروع ، وهو ما أوجس من الملائكة خيفة ، حين لم يأكلوا ، وبشروه بعد ذلك بالولد ، وأخبروه بهلاك قوم لوط ، أخذ يقول أنهلكون قرية فيها ثلاثمائة مؤمن ؟ قالوا : لا . قال : أنهلكون قرية فيها مائتا مؤمن ؟ قالوا : لا . قال : أنهلكون قرية فيها أربعون مؤمناً ؟ قالوا : لا . قال : ثلاثون ؟ قالوا لا حتى بلغ خمسة قالوا : لا قال : أرايتكم إن كان فيها رجل واحد مسلم أنهلكونها؟ قالوا : لا . فقال إبراهيم عليه السلام عند ذلك : ﴿ إِنَّ فِيهَا لُوطًا قَالُوا نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَنْ فِيهَا لَنَنْجِيَنَّهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا أَمْرًا تَكُونُ ﴾ [العنكبوت : ٣٢] ، فسكت عنهم واطمأنت نفسه .

وقوله : ﴿ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّاهٌ مُنِيبٌ ﴾ مدح إبراهيم بهذه الصفات الجميلة ، وقد تقدم تفسيرها (٢) .

وقوله تعالى : ﴿ يَا إِبْرَاهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا إِنَّهُ قَدْ جَاءَ أَمْرٌ رَبِّكَ ﴾ الآية ، أى : إنه قد نفذ فيهم القضاء ، وحققت عليهم الكلمة بالهلاك ، وحلول اليأس الذى لا يُرد عن القوم المجرمين .

﴿ وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِئَاءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالَ هَذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ ﴾ ﴿٧٥﴾ وَجَاءَهُمْ قَوْمُهُ مُهْرَعُونَ إِلَيْهِ وَمِنْ قَبْلُ كَانُوا يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ قَالَ يَنْفَوْرُ هَؤُلَاءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَلَا تُخْزِنُوهُ فِي ضَيْفِي أَلَيْسَ مِنْكُمْ رَجُلٌ رَشِيدٌ ﴿٧٦﴾ قَالُوا لَقَدْ عَلِمْتُمْ مَا لَنَا فِي بَنَاتِكُمْ مِنْ حَقٍّ وَإِنَّكَ لَنَعَاكُمَا تَرِيدُ ﴿٧٧﴾

(٢) راجع تفسير الآية (١١٤) من سورة براءة .

(١) البخارى (٤٧٩٧) ، ومسلم (٦٦/٤٠٦) .

يخبر تعالى عن قدوم رسله من الملائكة بعد ما أعلموا إبراهيم بهلاكهم ، وفارقوه وأخبروه بإهلاك الله قوم لوط هذه الليلة . فانطلقوا من عنده ، فاتوا لوطا ، عليه السلام ، فى أرض له ، وقيل : فى منزله ، ووردوا عليه وهم فى أجمل صورة تكون ، على هيئة شبان حسان الوجوه ، ابتلاء من الله ، وله الحكمة والحجة البالغة ، فساء شأنهم وضاعت نفسه بسببهم ، وخشى إن لم يُضِفْهُم أن يُضِفْهُم أحد من قومه ، فينالهم بسوء ﴿ وَقَالَ هَذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ ﴾ قال ابن عباس وغير واحد : شديد بلاؤه وذلك أنه علم أنه سيدافع عنهم ، ويشق عليه ذلك . وقال السدى : خرجت الملائكة من عند إبراهيم نحو قرية لوط ، فبلغوا نهر سدوم نصف النهار ، ولقوا بنت لوط تستقى ، فقالوا : يا جارية ، هل من منزل ؟ فقالت : مكانكم حتى آتيكم ، وفَرقت عليهم من قومها ، فأتت أباهما فقالت : يا ابتاه ، أدرك فتيانا على باب المدينة ، ما رأيت وجوه قوم أحسن منهم ، لا يأخذهم قومك فيفضحهم ، وكان قومه نهوه أن يضيف رجلا ، فقالوا : خل عنا فلنُضِفَ الرجال . فجاء بهم ، فلم يعلم بهم أحد إلا أهل بيته ، فخرجت امرأته فأخبرت قومها ، فجأؤوا يهرعون إليه .

وقوله : ﴿ يَهْرَعُونَ إِلَيْهِ ﴾ أى : يسرعون ويهرولون من فرحهم بذلك . وقوله : ﴿ وَمِنْ قَبْلِ كَانُوا يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ ﴾ أى : لم يزل هذا من سجيتهم حتى أخذوا وهم على ذلك الحال .

وقوله : ﴿ قَالَ يَا قَوْمِ هُوَ لَاءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ ﴾ : يرشدهم إلى نساتهم ، فإن النبى للامة بمنزلة الوالد ، فأرشدهم إلى ما هو أنفع لهم فى الدنيا والآخرة ، كما قال لهم فى الآية الأخرى : ﴿ أَتَأْتُونَ الذُّكْرَانَ مِنَ الْعَالَمِينَ . وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ مِنْ أَنْتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ ﴾ [الشعراء : ١٦٥ ، ١٦٦] ، وقوله فى الآية الأخرى : ﴿ قَالُوا أَوْلَمْ نُنْهَكُ عَنِ الْعَالَمِينَ ﴾ [الحجر : ٧٠] أى : ألم تنهك عن ضيافة الرجال ﴿ قَالَ هُوَ لَاءِ بَنَاتِي إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ . لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴾ [الحجر : ٧١ ، ٧٢] ، وقال فى هذه الآية الكريمة : ﴿ هُوَ لَاءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ ﴾ قال مجاهد : لم يكن بناته ، ولكن كن من أمته ، وكل نبى أبو أمته . وقال ابن جرير : أمرهم أن يتزوجوا النساء ، لم يعرض عليهم سفاحا .

وقوله : ﴿ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَلَا تَخْزُونِ فِي ضَيْفِي ﴾ أى : اقبلوا ما أمركم به من الاقتصار على نساتكم ﴿ أَلَيْسَ مِنْكُمْ رَجُلٌ رَشِيدٌ ﴾ أى : فيه خير ، يقبل ما أمره به ، ويترك ما نهاه عنه ؟ ﴿ قَالُوا لَقَدْ عَلِمْتُمْ مَا لَنَا فِي بَنَاتِكُمْ مِنْ حَقٍّ ﴾ أى : إنك تعلم أن نساءنا لا أرب لنا فيهن ولانشتهيهن ﴿ وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ ﴾ أى : ليس لنا غرض إلا فى الذكور ، وإنك تعلم ذلك ، فأى حاجة فى تكرار القول علينا فى ذلك ؟ قال السدى : ﴿ وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ ﴾ : إنما نريد الرجال .

﴿ قَالَ لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةٌ أَوْ آوَىٰ إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ ﴿٨٠﴾ قَالُوا يَلُوطُ إِنَّا رَمَلْنَاكَ لَنْ يَصِلُوا إِلَيْكَ فَأَسْرَبْ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ اللَّيْلِ وَلَا يَلْمُوكَ مِنْكَ أَحَدٌ إِلَّا أَمْرَانِكَ إِنَّهُ مُصِيبُهَا مَا أَصَابَهُمْ إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ ﴿٨١﴾ ﴾

يقول تعالى مخبراً عن نبيه لوط، عليه السلام: إن لوطاً توعدهم بقوله: ﴿لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةٌ﴾ الآية ، أى: لكنت نكلت بكم وفعلت بكم الأفاعيل بنفسى وعشيرتى ، ولهذا ورد عن أبى هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «رحمة الله على لوط، لقد كان يأوى إلى ركن شديد - يعنى: الله عز وجل - فما بعث الله بعده من نبي إلا فى ثروة من قومه» (١) . فعند ذلك أخبرته الملائكة أنهم رسلُ الله إليه، وأنهم لاوصول لهم إليه ﴿قَالُوا يَا لُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَنْ يَصْلُوا إِلَيْكَ﴾ ، وأمروه أن يسرى بأهله من آخر الليل ، وأن يتبع أديبارهم ، أى: يكون ساقاة لأهله، ﴿وَلَا يَلْتَفِتْ مِنْكُمْ أَحَدٌ﴾ أى: إذا سمعت ما نزل بهم، ولا تهولتكم تلك الأصوات المزعجة، ولكن استمروا ذاهبين . ﴿إِلَّا أَمْرَاتَكَ﴾ : هو استثناء من قوله: ﴿فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ﴾ .

ثم قربوا له هلاك قومه تبشيراً له؛ لأنه قال لهم: «أهلكوهم الساعة»، فقالوا: ﴿إِنْ مَوْعِدُهُمُ الصُّبْحُ أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ﴾ ، هذا وقومُ لوطٍ وقوف على الباب وعكوف قد جاؤوا يهرعون إليه من كل جانب، ولوط واقف على الباب يدافعهم ويردعهم وينهاهم عما هم فيه، وهم لايقبلون منه، بل يتوعدونه ، فعند ذلك خرج عليهم جبريل ، عليه السلام ، فضرب وجوههم بجناحه ، فطمس أعينهم ، فرجعوا وهم لا يهتدون الطريق ، كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ رَاوَدُوهُ عَنْ ضَيْفِهِ فَطَمَسْنَا أَعْيُنَهُمْ فَذُوقُوا عَذَابِي وَذُكِّرِ﴾ الآية [القمر: ٣٧ - ٣٩] .

﴿ فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَالِيَهَا سَاقِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنصُودٍ ﴿٨٢﴾ مُسَوِّمَةً عِنْدَ رَبِّكَ وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ ﴿٨٣﴾ ﴾

يقول تعالى: ﴿فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا﴾ وكان ذلك عند طلوع الشمس ﴿جَعَلْنَا عَلَيْهَا﴾ وهى قريتهم سدوم ﴿سَاقِلَهَا﴾ كقوله: ﴿فَنَشَأَهَا مَا غَشَى﴾ [النجم : ٥٤] أى: أمطرتنا عليها حجارة من «سجيل» وهى بالفارسية: حجارة من طين ، قاله ابن عباس وغيره. وقد قال فى الآية الأخرى : ﴿حِجَارَةٌ مِّن طِينٍ﴾ [الذاريات : ٣٣] أى : مستحجرة قوية شديدة. وقال بعضهم: مشوية ، وقال البخارى. «سجيل»: الشديد الكبير ، سجيل وسجين واحد، اللام والنون أختان (٢) .

وقوله: ﴿مَنْصُودٌ﴾: قال بعضهم: منصودة فى السماء، أى: معدة لذلك. وقال آخرون: أى: يتبع بعضها بعضاً فى نزولها عليهم. وقوله: ﴿مُسَوِّمَةً﴾ أى : مُعلِّمة مختومة، عليها أسماء أصحابها، كل حجر مكتوب عليه اسم الذى ينزل عليه.

وذكروا أنها نزلت على أهل البلد، وعلى المتفرقين فى القرى مما حولها، فبينما أحدهم يكون عند الناس يتحدث، إذ جاءه حجر من السماء فسقط عليه من بين الناس، فدمره، ففتبعهم الحجارة من سائر البلاد، حتى أهلكتهم عن آخرهم فلم يبق منهم أحد. وقال مجاهد: أخذ جبريل قوم لوط من سرّحهم ودورهم، حملهم بمواشيهم وأمتعتهم، ورفعهم حتى سمع أهل السماء نباح

كلابهم ثم أكفأهم وكان حملهم على خوافي جناحه الأيمن. قال: ولما قلبها كان أول ما سقط منها شرفاتها. وعن قتادة وغيره: بلغنا أن جبريل، عليه السلام، لما أصبح نشر جناحه، فانتسف به أرضهم بما فيها من قُصُورها ودوابها وحجارتها وشجرها، وجميع ما فيها، فضمها في جناحه، فحواها وطواها في جوف جناحه، ثم صعد بها إلى السماء الدنيا، حتى سمع سكان السماء أصوات الناس والكلاب، وكانوا أربعة آلاف ألف، ثم قلبها، فأرسلها إلى الأرض منكوسة، ودمدم بعضها على بعض، فجعل عاليها سافلها، ثم أتبعها حجارة من سجيل. وقال السدي: لما أصبح قوم لوط، نزل جبريل فاقطلع الأرض من سبع أرضين، فحملها حتى بلغ بها السماء، حتى سمع أهل السماء الدنيا نباح كلابهم، وأصوات ديوكهم، ثم قلبها فقتلهم، فذلك قوله: ﴿وَالْمُؤْتَفِكَةَ أَهْوَى﴾ [النجم: ٥٣]، ومن لم يمت حين سقط للأرض، أمطر الله عليه وهو تحت الأرض الحجارة، ومن كان منهم شاذاً في الأرض يتبعهم في القرى، فكان الرجل يتحدث فيأتيه الحجر فيقتله، فذلك قوله عز وجل: ﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ﴾ أي: في القرى حجارة من سجيل.

وقوله: ﴿وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ﴾ أي: وما هذه النعمة عن تشبه بهم في ظلمهم، ببعيد عنه.

رَبِيعٌ
 ﴿وَإِلَى مَدِينٍ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَنْقُورُ أَعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنَ اللَّهِ غَيْرُهُ وَلَا تَقْصُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ إِنِّي أُرِيدُكُمْ بِخَيْرٍ وَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُّحِيطٍ﴾

يقول تعالى: ولقد أرسلنا إلى مدين، وهم قبيلة من العرب، كانوا يسكنون بين الحجاز والشام، قريباً من بلاد معان، في بلد يعرف بهم، يقال لها «مدين» فأرسل الله إليهم شعيباً، وكان من أشرفهم نسباً؛ ولهذا قال: ﴿أَخَاهُمْ شُعَيْبًا﴾ يأمرهم بعبادة الله تعالى وحده، وينهاهم عن التطفيف في المكيال والميزان ﴿إِنِّي أَرَاكُمْ بِخَيْرٍ وَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ أي: في معيشتكم ورزقكم فأخاف أن تسلبوا ما أنتم فيه بانتهاكم محارم الله ﴿وَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُّحِيطٍ﴾ أي: في الدار الآخرة.

﴿وَيَنْقُورُ أَوْفُوا بِالْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَعْتُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ ﴿٨٥﴾ بَقِيَتْ اللَّهُ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنْتُمْ مُّؤْمِنِينَ وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِيظٍ ﴿٨٦﴾

ينهاهم أولاً عن نقص المكيال والميزان إذا أعطوا الناس، ثم أمرهم بوفاء الكيل والوزن بالقسط آخذين ومعطين، ونهاهم عن العثر في الأرض بالفساد، وقد كانوا يقطعون الطريق.

وقوله: ﴿بَقِيَتْ اللَّهُ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ قال ابن عباس: رزق الله خير لكم. وقال الربيع بن أنس: وصية الله خير لكم. وقال مجاهد: طاعة الله. وقال قتادة: حظكم من الله خير لكم. وقال عبد الرحمن بن زيد ابن أسلم: «الهلاك» في العذاب، و«البقية» في الرحمة. وقال ابن جرير:

﴿ بَقِيَّتُ اللَّهِ ﴾ أى : ما يفضل لكم من الريح بعد وفاء الكيل والميزان ﴿ خَيْرٌ لَّكُمْ ﴾ أى : من أخذ أموال الناس ، قال : وقد روى هذا عن ابن عباس . قلت : ويشبه قوله تعالى : ﴿ قُلْ لَأَسْتَوِيَ الْخَبِيثُ وَالطَّيِّبُ وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ الْخَبِيثِ ﴾ [المائدة : ١٠٠] .

وقوله : ﴿ وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِيظٍ ﴾ أى : برفيق ولا حفيظ ، أى : افعلوا ذلك لله عز وجل لا تفعلوه ليراكم الناس ، بل لله عز وجل .

﴿ قَالُوا يَسْخَعِبُ أَصْلَؤُتُكَ تَأْمُرُكَ أَنْ نَتْرَكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا أَوْ أَنْ نَفْعَلَ فِيهِ أَمْوَالَنَا مَا نَشَاءُ إِنَّكَ لَأَنْتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ ﴾

يقولون له على سبيل التهكم ، قبحهم الله : ﴿ أَصْلَؤُتُكَ ﴾ قال الأعمش : أى : قراءتك ﴿ تَأْمُرُكَ أَنْ نَتْرَكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا ﴾ أى : الأوثان والأصنام ﴿ أَوْ أَنْ نَفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاءُ ﴾ ، فترك التطفيف على قولك ، هى أموالنا نفعل فيها ما نريد . قال الحسن فى قوله : ﴿ أَصْلَؤُتُكَ تَأْمُرُكَ أَنْ نَتْرَكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا ﴾ : إى والله ، إن صلته لتامرهم أن يتركوا ما كان يعبد آباؤهم . وقال الثورى فى قوله : ﴿ أَوْ أَنْ نَفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاءُ ﴾ : يعنون الزكاة .

وقولهم : ﴿ إِنَّكَ لَأَنْتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ ﴾ : قال ابن عباس وابن جرير وغيرهما : يقولون ذلك - أعداء الله - على سبيل الاستهزاء ، قبحهم الله ولعنهم عن رحمته ، وقد فعل .

﴿ قَالَ يَقَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَى بَيْنَةٍ مِنْ رَبِّي وَرَزَقَنِي مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَمْلِكَكُمْ إِلَّا مَا أَنهَيْتُكُمْ عَنْهُ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴾

يقول لهم : أرايتم يا قوم ﴿ إِنْ كُنْتُ عَلَى بَيْنَةٍ مِنْ رَبِّي ﴾ أى : على بصيرة فيما أَدْعُو إليه ﴿ وَرَزَقَنِي مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا ﴾ ، قيل : أراد النبوة . وقيل : أراد الرزق الحلال ، ويحتمل الأمرين . وقال الثورى : ﴿ وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَمْلِكَكُمْ إِلَّا مَا أَنهَيْتُكُمْ عَنْهُ ﴾ أى : لا أنهاكم عن شىء وأخالف أنا فى السر فافعله خفية عنكم ، كما قال قتادة : لم أكن لأنهاكم عن أمر وأركبه ﴿ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ ﴾ أى : فيما آمركم وأنهاكم ، إنما مرادى إصلاحكم جهدى وطاقتى ﴿ وَمَا تَوْفِيقِي ﴾ أى : فى إصابة الحق فيما أُرِيدُهُ ﴿ إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ ﴾ فى جميع أمورى ﴿ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴾ أى : أرجع .

وروى أحمد عن بهز بن حكيم ، عن أبيه ، عن جده قال : أخذ النبى ﷺ ناساً من قومي فى تَهْمَةٍ فحبسهم ، فجاء رجل من قومي إلى رسول الله ﷺ وهو يخطب ، فقال : يا محمد ، علام تحبس جبريتى ؟ فصمت رسول الله ﷺ [عنه] فقال : إن ناساً ليقولون : إنك تنهى عن الشىء وتستخلى به ، فقال النبى ﷺ : « ما يقول ؟ » قال : فجعلت أعرض بينهما الكلام مخافة أن يسمعها فيدعو على قومي دعوة لا يفلحون بعدها أبداً ، فلم يزل رسول الله ﷺ به حتى فهمها ، فقال : « أو قد قالوها - أو : قائلها منهم - والله لو فعلت لكان على وما كان عليهم ، خلوا له

عن جيرانه « (١) . ومن هذا القبيل الحديث الذي رواه الإمام أحمد عن عبد الملك بن سعيد ابن سويد الأنصاري قال: سمعت أبا حميد وأبا أسيد يقولان : قال رسول الله ﷺ : « إذا سمعتم الحديث عنى تعرفه قلوبكم ، وتلين له أشعاركم وأبشاركم ، وترون أنه منكم قريب ، فإنا أولاكم به ، وإذا سمعتم الحديث عنى تُنكره قلوبكم ، وتنفر منه أشعاركم وأبشاركم ، وترون أنه منكم بعيد فإنا أبعدهم منه » (٢) . هذا إسناد صحيح ، ومعناه - والله أعلم - : مهما بلغكم عنى من خير فإنا أولاكم به ومهما يكن من مكروه فإنا أبعدهم منه ﴿ وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَخَالَفَكُمْ إِلَيَّ مَا أَنهَاكُمْ عَنْهُ ﴾ .

وقال أبو سليمان الضبي : كانت تحيئنا كتب عمر ابن عبد العزيز فيها الأمر والنهى ، فيكتب فى آخرها : وما كنت من ذلك إلا كما قال العبد الصالح : ﴿ وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴾ .

﴿ وَيَنْقُورُ لَا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِي أَنْ يُصِيبَكُمْ مِثْلُ مَا أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صَالِحٍ وَمَا قَوْمَ لُوطٍ مِّنْكُمْ بِبَعِيدٍ ﴾ (٨٩) ﴿ وَأَسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي رَحِيمٌ وَدُودٌ ﴾ (٩٠)

يقول لهم : ﴿ وَيَا قَوْمَ لَا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِي ﴾ أى : لا تحملنكم عداوتى وبغضى على الإصرار على ما أنتم عليه من الكفر والفساد ، فيصيبكم مثل ما أصاب قوم نوح ، وقوم هود ، وقوم صالح ، وقوم لوط من النعمة والعذاب .

وقوله : ﴿ وَمَا قَوْمَ لُوطٍ مِّنْكُمْ بِبَعِيدٍ ﴾ يعنى : إنما أهلكوا بين أيديكم بالأمس ، وقيل : فى المكان ، ويحتمل الأمران ، ﴿ وَأَسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ ﴾ أى : استغفروه من سالف الذنوب ، وتوبوا فيما تستقبلونه من الأعمال السيئة ﴿ إِنَّ رَبِّي رَحِيمٌ وَدُودٌ ﴾ أى : لمن تاب وأناب .

﴿ قَالُوا يَا شُعَيْبُ مَا نَفَقَهُ كَثِيرًا مِّمَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرَاكَ فِينَا ضَعِيفًا وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَاكَ وَمَا أَنْتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ ﴾ (٩١) ﴿ قَالَ يَنْقُورُ آرَهْطِي أَعَزُّ عَلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَانْخِذْ ثَمُوهُ وَرَأْيَكُمْ ظَهْرًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴾ (٩٢)

يقولون : ﴿ يَا شُعَيْبُ مَا نَفَقَهُ ﴾ أى : ما نفهم ﴿ كَثِيرًا ﴾ من قولك ﴿ وَإِنَّا لَنَرَاكَ فِينَا ضَعِيفًا ﴾ . قال السدى : أى أنت واحد . وقال أبو روق : يعنون : ذليلاً ؛ لأن عشيرتك ليسوا على دينك . ﴿ وَلَوْلَا رَهْطُكَ ﴾ أى : قومك وعشيرتك ؛ لولا معزة قومك علينا ﴿ لَرَجَمْنَاكَ ﴾ قيل : بالحجارة ، وقيل : لسببناك ﴿ وَمَا أَنْتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ ﴾ أى : ليس لك عندنا معزة . ﴿ قَالَ يَا قَوْمِ أَرَهْطِي أَعَزُّ عَلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ ﴾ : يقول : أتتركونى لأجل قومى ، ولا تتركونى إعظاما لجناب الله أن تتالوا نبيه بمساءة ،

(١) المسند (٢/٥) ، ورواه الترمذى - مختصراً - (١٤١٧) وقال : « حديث حسن » ، وما بين المعقوفين من المسند .

(٢) المسند (٣/٤٩٧) ، وقال الهيثمى فى الزوائد (١/١٥٥) : « رجاله رجال الصحيح » .

وقد اتخذتم جانب الله ﴿وَرَاءَكُمْ ظَهْرِيًّا﴾ أى: نبذتموه خلفكم، لاتطيعونه ولا تعظمونه ﴿إِنْ رَبِّي بِمَا تَعْمَلُونَ مُحِيطٌ﴾ أى: هو يعلم جميع أعمالكم وسيجزىكم بها.

﴿وَيَقَوْمٍ أَعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَانِكُمْ إِنِّي عَمِلُّهُ سَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَمَنْ هُوَ كَذِبٌ وَأَرْتَقِبُوا إِنِّي مَعَكُمْ رَقِيبٌ ﴿٩٣﴾ وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَأَخَذَتِ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةَ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جِثْمِينَ ﴿٩٤﴾ كَأَن لَّمْ يَعْنُوا فِيهَا آلَ بَعْدَانَ لَمَدِينٍ كَمَا بَعَدَتْ ثَمُودُ ﴿٩٥﴾﴾

لما ينس نبى الله شعيب من استجابتهم له ، قال : يا قوم ﴿اعملوا علىٰ مكانكم﴾ أى: على طريقتم، وهذا تهديد شديد، ﴿إني عاملٌ﴾، على طريقتي ﴿سوف تعلمون من يأتيه عذاب يخزيه ومن هو كاذب﴾ أى: منى ومنكم ﴿وارتقبوا﴾ أى: انتظروا ﴿إني معكم رقيب﴾ .

قال الله تعالى: ﴿ولمّا جاء أمرنا نجّينا شعيباً والذين آمنوا معه برحمةٍ منّا وأخذت الذين ظلموا الصيحة فأصبحوا في ديارهم جاثمين﴾ أى: هامدين لاجراك بهم. وذكر هاهنا أنهم أتتهم صيحة ، وفى الأعراف رجفة ، وفى الشعراء عذاب يوم الظلة ، وهم أمة واحدة، اجتمع عليهم يوم عذابهم هذه النقم كلها . وإنما ذكر فى كل سياق ما يناسبه، ففى الأعراف لما قالوا: ﴿لنخرجنك يا شعيب والذين آمنوا معك من قريتنا﴾ [الأعراف: ٨٨] ، ناسب أن يذكر هناك الرجفة، فرجفت بهم الأرض التى ظلموا بها، وأرادوا إخراج نبيهم منها، وهاهنا لما أساؤوا الأدب فى مقاتلتهم على نبيهم ناسب ذكر الصيحة التى استلبتهم وأحمدتهم ، وفى الشعراء لما قالوا: ﴿فأسقط علينا كسفاً من السماء إن كنت من الصادقين﴾ [الشعراء : ١٨٧] ، قال: ﴿فأخذهم عذاب يوم الظلة إنه كان عذاب يومٍ عظيم﴾ [الشعراء: ١٨٩]، وهذا من الأسرار الدقيقة، والله الحمد والمنة كثيراً دائماً.

وقوله: ﴿كأن لم يعنوا فيها﴾ أى: يعيشوا فى دارهم قبل ذلك ، ﴿آلا بعداً لمدنين كما بعدت ثمود﴾ وكانوا جيرانهم قريباً منهم فى الدار، وشبيهاً بهم فى الكفر وقطع الطريق، وكانوا عرباً مثلهم .

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ ﴿٩٦﴾ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَأَتَّبَعُوا أَمْرَ فِرْعَوْنَ وَمَا أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ ﴿٩٧﴾ يَقْدُمُ قَوْمَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ وَيَنْسُ الْوَرْدَ الْمَوْرُودُ ﴿٩٨﴾ وَأَتَّبَعُوا فِي هَذِهِ لَعْنَةَ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَنْسُ الرَّفْدَ الْمَرْفُودُ ﴿٩٩﴾﴾

يقول تعالى مخبراً عن إرساله موسى، عليه السلام، بآياته ودلالاته الباهرة إلى فرعون ، وهو ملك القبط وملته ﴿فاتبعوا أمر فرعون﴾ أى: مسلكه ومنهجه وطريقته فى الغى ﴿وما أمر فرعون برشيد﴾ أى: ليس فيه رشد ولا هدى، وإنما هو جهل وضلال، وكفر وعناد، وكما أنهم

أَتَبِعُوهُ فِي الدُّنْيَا، وَكَانَ مُقَدِّمَهُمْ وَرِثِيهِمْ، كَذَلِكَ هُوَ يُقَدِّمُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِلَى نَارِ جَهَنَّمَ، وَهُوَ فِي ذَلِكَ الْحِظِّ الْأَوْفَرِ، مِنَ الْعَذَابِ الْأَكْبَرِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿ فَمَعَصَى فِرْعَوْنُ الرَّسُولَ فَأَخَذْنَاهُ أَخْذًا وَبِيلاً ﴾ [الزمل: ١٦]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿ فَكَذَّبَ وَعَصَى . ثُمَّ أَذْبَرَ يَسْعَى . فَحَشَرَ فَنَادَى . فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى . فَأَخَذَهُ اللَّهُ نَكَالَ الْآخِرَةِ وَالْأُولَى . إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِمَن يَخْشَى ﴾ [النار: ٢١ - ٢٦] ، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿ يَقْدُمُ قَوْمَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ وَيَسَّ الْوِرْدَ الْمَوْزُودَ ﴾ ، وَكَذَلِكَ شَأْنُ الْمَتَّبِعِينَ يَكُونُونَ مُؤَفَّرِينَ فِي الْعَذَابِ يَوْمَ الْمَعَادِ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ لِكُلِّ ضِعْفٍ وَلَكِن لَّا تَعْلَمُونَ ﴾ [الاعراف: ٣٨] ، وَقَالَ تَعَالَى إِجْبَارًا عَنِ الْكُفْرَةِ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ فِي النَّارِ: ﴿ رَبَّنَا إِنَّا أَعْطَيْنَا سَادَتَنَا كِبْرَاءَنَا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلَ . رَبَّنَا آتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ الْعَذَابِ ﴾ [الأحزاب: ٦٧ ، ٦٨] .

وقوله: ﴿ وَأَتَّبِعُوا فِي هَذِهِ لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَسَّ الْوِرْدَ الْمَوْزُودَ ﴾ أى: اتبعناهم زيادة على ما جازيناهم من عذاب النار لعنة في هذه الحياة الدنيا ﴿ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَسَّ الْوِرْدَ الْمَوْزُودَ ﴾ قال مجاهد: زيدوا لعنة يوم القيامة، فتلك لعنتان. وقال ابن عباس: ﴿ يَسَّ الْوِرْدَ الْمَوْزُودَ ﴾ قال: لعنة الدنيا والآخرة، وكذا قال الضحَّاك، وقتادة ، وهو كقولهم: ﴿ وَجَعَلْنَاهُمْ أُمَّةً يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ لَا يُبْصِرُونَ . وَآتَيْنَاهُمْ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ هُمْ مِنَ الْمَقْبُوحِينَ ﴾ [القصص: ٤١ ، ٤٢] ، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿ النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ ﴾ [غافر: ٤٦] .

﴿ ذَٰلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْقُرَىٰ نَقِصُهُ عَلَيْكَ مِنْهَا قَائِمٌ وَحَصِيدٌ ﴿١٠٠﴾ وَمَا ظَلَمْتَهُمْ وَلَكِن ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَمَا أَغْنَتْ عَنْهُمْ آلِهِمْ أَلَّتِي يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ لَّمَّا جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتَابِعٍ ﴿١٠١﴾ ﴾

لما ذكر تعالى خير هؤلاء الأنبياء، وما جرى لهم مع أمهم، وكيف أهلك الكافرين ونجى المؤمنين قال: ﴿ ذَٰلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْقُرَىٰ ﴾ أى: أخبارهم ﴿ نَقِصُهُ عَلَيْكَ مِنْهَا قَائِمٌ ﴾ أى: عامر ﴿ وَحَصِيدٌ ﴾ أى: هالك ﴿ وَمَا ظَلَمْتَهُمْ ﴾ أى: إذ أهلكناهم ﴿ وَلَكِن ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ﴾ بتكذيبهم رسلنا وكفرهم بهم ﴿ فَمَا أَغْنَتْ عَنْهُمْ آلِهِمْ ﴾ أوثانهم التي كانوا يعبدونها ويدعونها ﴿ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ ﴾ مانفوعهم ولا أنقذوهم لما جاء أمر الله بإهلاكهم ﴿ وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتَابِعٍ ﴾ أى: غير تخسير، وذلك أن سبب هلاكهم ودمارهم إنما كان باتباعهم تلك الآلهة وعبادتهم إياها، فهذا أصابهم ما أصابهم، وخسروا بهم، فى الدنيا والآخرة.

﴿ وَكَذَٰلِكَ أَخَذْنَا مِنْكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَىٰ وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخَذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ﴿١٠١﴾ ﴾

يقول تعالى: وكما أهلكنا أولئك القرون الظالمة المكذبة لرسولنا كذلك نعمل ﴿ إِنَّ أَخَذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ﴾ وفى الصحيحين عن أبى موسى قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله ليُملى للظالم، حتى إذا أخذه لم يُفلته»، ثم قرأ رسول الله ﷺ: ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَخَذْنَا مِنْكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَىٰ وَهِيَ ظَالِمَةٌ ﴾ الآية (١) .

﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّمَن خَافَ عَذَابَ الْآخِرَةِ ﴾ ذَلِكَ يَوْمَ مَجْمُوعٌ لَهُ النَّاسُ وَذَلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ ﴿١٠٦﴾ وَمَا تُؤَخِّرُهُ إِلَّا لِأَجَلٍ مُّعَدودٍ ﴿١٠٤﴾ يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكَلِّمُنَّ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِ فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ ﴿١٠٥﴾ ﴿١٠٤﴾

يقول تعالى : إن في إهلاكنا الكافرين وإنجائنا المؤمنين ﴿ لآية ﴾ أي : عظة واعتبارا على صدق موعودنا في الآخرة ﴿ إِنَّا لَنَنصِرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ ﴾ [غافر: ٥١] ، وقال تعالى : ﴿ فَأَوْحَىٰ إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهَلِكَنَّ الظَّالِمِينَ ﴾ الآية [إبراهيم: ١٣ ، ١٤] .

وقوله : ﴿ ذَلِكَ يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَهُ النَّاسُ ﴾ أي : أولهم وآخرهم كقوله : ﴿ وَحَشَرْنَاهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا ﴾ [الكهف: ٤٧] . ﴿ وَذَلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ ﴾ أي : عظيم تحضره الملائكة ، ويجتمع فيه الرسل ، وتحشر الخلائق بأسرهم ، من الإنس والجن والطير والوحوش والدواب ، ويحكم فيه العادل الذي لا يظلم مثقال ذرة ، وإن تك حسنة يضاعفها .

وقوله : ﴿ وَمَا تُؤَخِّرُهُ إِلَّا لِأَجَلٍ مُّعَدودٍ ﴾ أي : ما تؤخر إقامة القيامة إلا أنه قد سبقت كلمة الله وقضاؤه وقدره ، في وجود أناس معدودين من ذرية آدم ، وضرب مدة معينة إذا انقطعت وتكامل وجود أولئك المقدر خروجهم قامت الساعة ؛ ولهذا قال : ﴿ وَمَا تُؤَخِّرُهُ إِلَّا لِأَجَلٍ مُّعَدودٍ ﴾ أي : لمدة مؤقتة لا يزداد عليها ولا يتقص منها ﴿ يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكَلِّمُنَّ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِ ﴾ يقول : يوم يأتي يوم القيامة ، لا يتكلم أحد إلا بإذن الله كقوله : ﴿ لَا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَقَالَ صَوَابًا ﴾ [النبا: ٣٨] ، وقال تعالى : ﴿ وَخَشَعَتِ الْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَنِ ﴾ الآية [طه: ١٠٨] ، وفي الصحيحين من حديث الشفاعة : « ولا يتكلم يومئذ إلا الرسل ، ودعوى الرسل يومئذ : اللهم سلم سلم » (١) .

وقوله : ﴿ فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ ﴾ أي : فمن أهل الجمع شقى ومنهم سعيد ، كما قال : ﴿ فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ ﴾ [الشورى: ٧] . ثم بين تعالى حال الأشقياء وحال السعداء ، فقال :

﴿ فَأَمَّا الَّذِينَ شَقُوا فَمِنَ النَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهيقٌ ﴿١٠٦﴾ خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا سَاءَ رَبُّكَ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ ﴿١٠٧﴾ ﴿١٠٦﴾

يقول تعالى : ﴿ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهيقٌ ﴾ قال ابن عباس : الزفير في الخلق ، والشهيق في الصدر أي : تنفسهم زفير ، وأخذهم النفس شهيق ، لما هم فيه من العذاب ، عياداً بالله من ذلك . ﴿ خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ ﴾ : قال ابن جرير : من عادة العرب إذا أرادت أن تصف الشيء بالدوام أبداً قالت : « هذا دائم دوام السموات والأرض » ، وكذلك يقولون : هو باق ما اختلف الليل والنهار ، يعنون بذلك كلمة : « أبدا » ، فخطابهم جل ثناؤه بما يتعارفونه بينهم ، فقال : ﴿ خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ ﴾ .

قلت : ويحتمل أن المراد بما دامت السموات والأرض : الجنس ؛ لأنه لا بد في عالم الآخرة

من سموات وأرض، كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَوَاتُ﴾ [إبراهيم: ٤٨]؛ ولهذا قال الحسن البصرى فى قوله: ﴿مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ﴾، قال: تبدل سماء غير هذه السماء، وأرض غير هذه الأرض، فما دامت تلك السماء وتلك الأرض. وقال ابن عباس قوله: ﴿مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ﴾، قال: لكل جنة سماء وأرض. وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: مادامت الأرض أرضاً، والسماء سماءً.

وقوله: ﴿إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ﴾ كقوله تعالى: ﴿النَّارُ مَثْوَاكُمْ خَالِدِينَ فِيهَا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾ [الانعام: ١٢٨]. وقد اختلف المفسرون فى المراد من هذا الاستثناء، على أقوال كثيرة، [نقل كثيراً منها ابن جرير واختار ما روى] عن ابن عباس والحسن: أن الاستثناء عائد على العصاة من أهل التوحيد، ممن يخرجهم الله من النار بشفاعة الشافعين، من الملائكة والنبیین والمؤمنين، حين يشفعون فى أصحاب الكبائر، ثم تأتى رحمة أرحم الراحمين، فتخرج من النار من لم يعمل خيراً قط، وقال يوماً من الدهر: لا إله إلا الله. كما وردت بذلك الأخبار الصحيحة. وهذا الذى عليه كثير من العلماء قديماً وحديثاً فى تفسير هذه الآية الكريمة. وقال السدى: هى منسوخة بقوله: ﴿خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا﴾ [النساء: ٥٧].

﴿وَأَمَّا الَّذِينَ سَعَدُوا فَفِي الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ عَطَاءٌ غَيْرٌ مَّجْدُودٍ﴾

يقول تعالى: ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ سَعَدُوا﴾ وهم أتباع الرسل ﴿فَفِي الْجَنَّةِ﴾ أى: فمأواهم الجنة، ﴿خَالِدِينَ فِيهَا﴾ أى: مقيمين فيها أبداً ﴿مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ﴾ معنى الاستثناء هاهنا: أن دوامهم فيما هم فيه من النعيم، ليس أمراً واجباً بذاته، بل هو موكل إلى مشيئة الله تعالى، فله المنة عليهم دائماً، ولهذا يلهمون التسبيح والتحميد كما يلهمون النفس. وقال الضحاک، والحسن البصرى: هى فى حق عصاة الموحدين الذين كانوا فى النار، ثم أخرجوا منها. وعقب ذلك بقوله: ﴿عَطَاءٌ غَيْرٌ مَّجْدُودٌ﴾ أى: غير مقطوع، قاله ابن عباس، ومجاهد وغير واحد، لئلا يتوهم متوهم بعد ذكره المشيئة أن ثم انقطاعاً، أو لبساً، أو شيئاً، بل ختم له بالدوام وعدم الانقطاع، كما بين هناك أن عذاب أهل النار فى النار دائماً مردود إلى مشيئته، وأنه بعدله وحكمته عذبهم؛ لهذا قال: ﴿إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ﴾ [هود: ١٠٧]، كما قال: ﴿لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ﴾ [الانبيا: ٢٣]، وهنا طيب القلوب وثبت المقصود بقوله: ﴿عَطَاءٌ غَيْرٌ مَّجْدُودٌ﴾.

وقد جاء فى الصحيحين: «يؤتى بالموت فى صورة كبش أملح، فيذبح بين الجنة والنار، ثم يقال: «يا أهل الجنة، خلّود فلا موت، ويا أهل النار، خلّود فلا موت» (١). وفى الصحيح: «فيقال: يا أهل الجنة، إن لكم أن تعيشوا فلا تموتوا أبداً، وإن لكم أن تشبوا فلا تهرموا أبداً، وإن لكم أن تصحوا فلا تسقموا أبداً، وإن لكم أن تنعموا فلا تبأسوا أبداً» (٢).

﴿ فَلَا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِمَّا يَعْبُدُ هَؤُلَاءِ مَا يَعْبُدُونَ إِلَّا كَمَا يَعْبُدُ آبَاؤُهُمْ مِنْ قَبْلُ وَإِنَّا لَمُوفُونَ نَصِيْبَهُمْ غَيْرَ مَنْقُوصٍ ﴿١٠٩﴾ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَاخْتَلَفَ فِيهِ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مُرِيبٍ ﴿١١٠﴾ وَإِن كَلَامَنَا لِيُوقِنَ رَبُّكَ أَعْمَلَهُمْ إِنَّهُمْ يَعْمَلُونَ خَيْرٌ ﴿١١١﴾ ﴾

يقول تعالى : ﴿ فَلَا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِمَّا يَعْبُدُ هَؤُلَاءِ ﴾ المشركون ، إنه باطل وجهل وضلال ، فإنهم إنما يعبدون ما يعبد آباؤهم من قبل ، أى : ليس لهم مُستند فيما هم فيه إلا اتباع الآباء فى الجهالات ، وسيجزئهم الله على ذلك أتم الجزاء فيعذب كافرهم عذاباً لا يعذبه أحداً من العالمين ، وإن كان لهم حسنات فقد وفاهم الله إياها فى الدنيا قبل الآخرة . قال ابن عباس : ﴿ وَإِنَّا لَمُوفُونَ نَصِيْبَهُمْ غَيْرَ مَنْقُوصٍ ﴾ ، قال : ما وعدوا فيه من خير أو شر . وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم : لموفوهم من العذاب نصيبهم غير منقوص .

ثم ذكر تعالى أنه أتى موسى الكتاب ، فاختلف الناس فيه ، فمن مؤمن به ، ومن كافر به ، فلك بمن سلف من الأنبياء قبلك يا محمد أسوة ، فلا يغيبنك تكذيبهم لك ، ولا يهمنك ذلك . ﴿ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ ﴾ قال ابن جرير : لولا ما تقدم من تأجيله العذاب إلى أجل معلوم ، لقضى الله بينهم . ويحتمل أن يكون المراد بالكلمة أنه لا يعذب أحداً إلا بعد قيام الحججة عليه ، وإرسال الرسول إليه ، كما قال : ﴿ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولًا ﴾ [الإسراء : ١٥] ؛ فإنه قد قال فى الآية الأخرى : ﴿ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَكَانَ لِزَامًا وَأَجَلٌ مُّسَمًّى . فَاصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ ﴾ [طه : ١٢٩ ، ١٣٠] . [ثم أخبر أن الكافرين فى شك - مما جاءهم به الرسول - قوى ، فقال : ﴿ وَإِنَّهُمْ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مُرِيبٍ ﴾] (١) .

ثم أخبرنا تعالى أنه سيجمع الأولين والآخرين من الأمم ، ويجزيهم بأعمالهم ، إن خيراً فخير ، وإن شراً فشر ، فقال : ﴿ وَإِن كَلَامَنَا لِيُوقِنَ رَبُّكَ أَعْمَالَهُمْ إِنَّهُمْ يَعْمَلُونَ خَيْرٌ ﴾ أى : عليم بأعمالهم جميعاً ، جليلها وحقيرها ، صغيرها وكبيرها .

﴿ فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَمَنْ تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطْغَوْا إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١١٢﴾ وَلَا تَرْكَبُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَمَا تَمْسِكُ النَّارُ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ﴿١١٣﴾ ﴾

يأمر تعالى رسوله وعباده المؤمنين بالثبات والدوام على الاستقامة ، وذلك من أكبر العون على النصر على الأعداء ومخالفة الأصدقاء ونهى عن الطغيان ، وهو البغى ، فإنه مَصْرَعَةٌ حتى ولو كان على مشرك . وأعلم تعالى أنه بصير بأعمال العباد ، لا يغفل عن شىء ، ولا يخفى عليه شىء .

(١) ما بين المعقوفين ساقط من المطبوعة ، وأثبتناه من المخطوطة .

وقوله: ﴿ وَلَا تَرْكَبُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا ﴾ : قال ابن عباس: ولا تميلوا إلى الذين ظلموا ، أى : لا تستعينوا بالظلمة فتكونوا كأنكم قد رضيتم بباقي صنيعهم ﴿ فَمَسْكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ﴾ أى : ليس لكم من دونه من ولى يقمذكم ، ولاناصر يخلصكم من عذابه .

﴿ وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفِي النَّهَارِ وَرُفْعًا مِنَ اللَّيْلِ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ذَلِكَ ذِكْرَى لِلذَّكْرِينَ ﴾ (١١٤) وَأَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ﴿ (١١٥) ﴾

قال ابن عباس : ﴿ وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفِي النَّهَارِ ﴾ قال : يعنى الصبح والمغرب ، وكذا قال الحسن، وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم . وقال مجاهد: هى الصبح فى أول النهار، والظهر والعصر من آخره .

وقوله: ﴿ وَرُفْعًا مِنَ اللَّيْلِ ﴾ قال ابن عباس، ومجاهد، والحسن، وغيرهم: يعنى صلاة العشاء . وقال الحسن - فى رواية - يعنى: المغرب والعشاء . وكذا قال قتادة، والضحاك وغيرهما: إنها صلاة المغرب والعشاء . وقد يحتمل أن تكون هذه الآية نزلت قبل فرض الصلوات الخمس ليلة الإسراء؛ فإنه إنما كان يجب من الصلاة صلاتان: صلاة قبل طلوع الشمس، وصلاة قبل غروبها . وفى أثناء الليل قيام عليه وعلى الأمة، ثم نسخ فى حق الأمة، وثبت وجوبه عليه، ثم نسخ عنه أيضاً، فى قول، والله أعلم .

وقوله: ﴿ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ﴾ ، يقول: إن فعل الخيرات يكفر الذنوب السالفة، كما جاء فى الصحيحين عن عثمان بن عفان: أنه توضع لهم كوضوء رسول الله ﷺ ، ثم قال: هكذا رأيت رسول الله يتوضأ، وقال: «من توضأ نحو وضوئى هذا، ثم صلى ركعتين لا يحدث فيهما نفسه، غفر له ماتقدم من ذنبه» (١) . وفى الصحيح عن أبى هريرة ، عن رسول الله ﷺ أنه قال: «أرأيتم لو أن بياض أحدكم نهراً غمرأ غمرأ يغتسل فيه كل يوم خمس مرات، هل يبقى من درنه شيئاً؟» قالوا: لا، يا رسول الله . قال: «وكذلك الصلوات الخمس ، يحو الله بهن الذنوب والخطايا» (٢) . وروى مسلم عن أبى هريرة؛ أن رسول الله ﷺ كان يقول: «الصلوات الخمس، والجمعة إلى الجمعة ، ورمضان إلى رمضان ، مكفرات ما بينهن إذا اجتنب الكبائر» (٣) . وروى البخارى عن ابن مسعود ؛ أن رجلاً أصاب من امرأة قبلة، فأتى النبى ﷺ فأخبره ، فأنزل الله: ﴿ وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفِي النَّهَارِ وَرُفْعًا مِنَ اللَّيْلِ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ﴾ فقال الرجل : الى هذا يا رسول الله ؟ قال : « لجمع أمتى كلهم » . ورواه مسلم ، وأحمد ، وأهل السنن إلا أبا داود (٤) . وروى الإمام أحمد عن أبى ذر ؛ أن رسول الله ﷺ قال : « اتق الله حيثما كنت ،

(١) البخارى (١٥٩) ، ومسلم (٢٤٥/٣٣) . (٢) البخارى (٥٢٨) ، ومسلم (٦٦٧/٢٨٣) .

(٣) مسلم (٢٣٣/١٤) .

(٤) المسند (٣٨٥/١) ، والبخارى (٥٢٦) ، (٤٦٨٧) ، ومسلم (٢٧٦٣/٣٩) ، والترمذى (٣١١٤) .

وَاتَّبَعِ السَّيِّئَةَ الْحَسَنَةَ تَمْحُهَا ، وَخَالِقِ النَّاسِ بِخَلْقِ حَسَنٍ « (١) .

﴿ فَلَوْلَا كَانَ مِنَ الْقُرُونِ مِنْ قَبْلِكُمْ أُولُوا بَقِيَّةَ يَنْهَوْنَ عَنِ الْفَسَادِ فِي الْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّنْ أَجْمَعْنَا مِنْهُمْ وَأَتَّبَعْنَا مِنْهُمْ وَالَّذِينَ ظَلَمُوا مَا أَتَرَفُوا فِيهِ وَكَانُوا مُجْرِمِينَ ﴿١١٦﴾ وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَىٰ يَظْلِمِ وَأَهْلَهَا مُضْلِحُونَ ﴾ ﴿١١٧﴾

يقول تعالى: فهلا وجد من القرون الماضية بقايا من أهل الخير، ينهون عما كان يقع بينهم من الشرور والمنكرات والفساد فى الأرض. وقوله: ﴿إِلَّا قَلِيلًا﴾ أى: قد وُجد منهم من هذا الضرب قليل، لم يكونوا كثيرا، وهم الذين اتَّجَّاهم الله عند حلول غضبه، وفجأة نَقَمْتَهُ؛ ولهذا أمر تعالى هذه الأمة الشريفة أن يكون فيها من يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر، كما قال تعالى: ﴿وَلَكِنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٤]. وفى الحديث: «إن الناس إذا رأوا المنكر فلم يغيروه، أوشك أن يعمهم الله بعقاب» (٢)؛ ولهذا قال تعالى: ﴿فَلَوْلَا كَانَ مِنَ الْقُرُونِ مِنْ قَبْلِكُمْ أُولُوا بَقِيَّةَ يَنْهَوْنَ عَنِ الْفَسَادِ فِي الْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّنْ أَجْمَعْنَا مِنْهُمْ﴾.

وقوله: ﴿وَاتَّبَعِ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَا أَتَرَفُوا فِيهِ﴾ أى: استمروا على ما هم فيه من المعاصى والمنكرات، ولم يلتفتوا إلى إنكار أولئك، حتى فَجَّاهم العذابُ ﴿وَكَانُوا مُجْرِمِينَ﴾.

ثم أخبر تعالى أنه لم يهلك قرية إلا وهى ظالمة، ولم يأت قرية مصلحة بأسه وعذابه قط حتى يكونوا هم الظالمين، كما قال تعالى: ﴿وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ﴾ [هود: ١٠١].

﴿ وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ﴿١١٨﴾ إِلَّا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ وَوَعَّتْ كَلِمَةَ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿١١٩﴾ ﴾

يخبر تعالى أنه قادر على جعل الناس كلهم أمة واحدة، من إيمان أو كفران، كما قال تعالى: ﴿ وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَأَمَّنَ مَنْ فِي الْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا ﴾ [يونس: ٩٩].

وقوله: ﴿ وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ . إِلَّا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ ﴾ أى: ولا يزال الخُلُفُ بين الناس فى أديانهم واعتقادات مللهم ونحلهم ومذاهبهم وآرائهم. وقوله: ﴿ إِلَّا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ ﴾ أى: إلا المرحومين من أتباع الرسل، الذين تمسكوا بما أمروا به من الدين. أخبرتهم به رسل الله إليهم، ولم يزل ذلك دأبهم، حتى كان النبى ﷺ الأمى خاتم الرسل والأنبياء، فاتبعوه وصدقوه، ونصروه ووازره، ففازوا بسعادة الدنيا والآخرة؛ لأنهم الفرقة الناجية، كما جاء فى الحديث

(١) المسند (٥/١٥٣)، والحديث رواه الترمذى (١٩٨٧)، وقال: «حسن صحيح».

(٢) المسند (٢) وقال الشيخ أحمد شاكر: «إسناده صحيح»، وأبو داود (٤٣٣٨)، والترمذى (٣٠٥٧)، وقال:

«حسن صحيح»، وابن ماجه (٤٠٠٥).

المروى فى المسانيد والسنن، من طرق يشد بعضها بعضا: «إن اليهود افتقرت على إحدى وسبعين فرقة، وإن النصرى افترقوا على ثنتين وسبعين فرقة، وستفترق أمتى على ثلاث وسبعين فرقة، كلها فى النار إلا فرقة واحدة». قالوا: ومن هم يا رسول الله؟ قال: «ما أنا عليه وأصحابى» (١). وقال قتادة: أهل رحمة الله أهل الجماعة، وإن تفرقت ديارهم وأبدانهم، وأهل معصيته أهل فرقة، وإن اجتمعت ديارهم وأبدانهم.

وقوله: ﴿وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ﴾ قال الحسن البصرى - فى رواية عنه -: وللاختلاف خلقهم. وقال ابن عباس: خلقهم فريقين، كقوله: ﴿فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ﴾ [هود: ١٠٥]. وقيل: للرحمة خلقهم. وعن ابن عباس قال: للرحمة خلقهم ولم يخلقهم للعذاب. وكذا قال مجاهد والضحاك وقتادة. ويرجع معنى هذا القول إلى قوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦]. وقيل: بل المراد: وللرحمة والاختلاف خلقهم، كما قال الحسن البصرى فى رواية عنه فى قوله: ﴿وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ. إِلَّا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ﴾ قال: الناس مختلفون على أديان شتى ﴿إِلَّا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ﴾، فمن رحم ربك غير مختلف. قيل له: فلذلك خلقهم؟ قال: خلق هؤلاء الجنة، وخلق هؤلاء النار، وخلق هؤلاء لرحمته، وخلق هؤلاء لعذابه. وقال ابن وهب: سألت مالكا عن قوله تعالى: ﴿وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ. إِلَّا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ﴾ قال: فريق فى الجنة وفريق فى السعير. وقد اختار هذا القول ابن جرير.

وقوله: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لِأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾: يخبر تعالى أنه قد سبق فى قضائه وقدره، لعلمه التام وحكمته النافذة، أن ممن خلقه من يستحق الجنة، ومنهم من يستحق النار، وأنه لا بد أن يملأ جهنم من هذين الثقلين الجن والإنس، وله الحجة البالغة والحكمة التامة. وفى الصحيحين عن أبى هريرة، قال: قال رسول الله ﷺ: «اختصمت الجنة والنار، فقالت الجنة: مالى لا يدخلنى إلا ضعفة الناس وسقطهم؟ وقالت النار: أوثرت بالمتكبرين والمتجبرين. فقال الله عز وجل للجنة، أنت رحمتى أرحم بك من أشياء. وقال للنار: أنت عذابى، أنتقم بك ممن أشياء، ولكل واحدة منكما ملؤها. فأما الجنة فلا يزال فيها فضل، حتى ينشئ الله لها خلقا يسكن فضل الجنة، وأما النار فلا تزال تقول: هل من مزيد؟ حتى يضع عليه رب العزة قدمه، فنقول: قَطُّ قَطُّ، وعزتك» (٢).

﴿وَكَلَّا نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ مَا نَشِئْتُمْ بِهِ فُؤَادَكَ وَجَاءَكَ فِي هَذِهِ الْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ﴾

يقول تعالى: وكل أخبار نقصها عليك، من أنباء الرسل المتقدمين قبلك مع أهمهم، وكيف جرى لهم من المحاجات والخصومات، وما احتمله الأنبياء من التكذيب والأذى، وكيف نصر الله

(١) راجع تخريجه عند تفسير الآية (٩٣) من سورة يونس.

(٢) البخارى (٧٤٤٩)، ومسلم (٣٤/٢٨٤٦).

حزبه المؤمنين وخذل أعداء الكافرين - كل هذا مما ثبت به فؤادك - يا محمد - أى : قلبك ، ليكون لك بمن مضى من إخوانك من المرسلين أسوة .

وقوله : ﴿ وَجَاءَكَ فِي هَذِهِ الْحَقُّ ﴾ أى : فى هذه السورة المشتملة على قصص الأنبياء وكيف نجّاهم الله والمؤمنين بهم ، وأهلك الكافرين ، جاءك فيها قصصُ حق ، ونبا صدق ، وموعظة يرتدع بها الكافرون ، وذكرى يتذكر بها المؤمنون .

﴿ وَقُلْ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ أَعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنَّا عَمِلُونَ ﴿١٢١﴾ وَأَنْظِرُوا إِنَّا مُنْظِرُونَ ﴿١٢٢﴾ ﴾

يقول تعالى أمرا رسوله أن يقول للذين لا يؤمنون بما جاء به من ربه على وجه التهديد : ﴿ اَعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ ﴾ أى : على طريقتكم ومنهجكم ﴿ إِنَّا عَامِلُونَ ﴾ أى : على طريقتنا ومنهجنا ﴿ وَأَنْظِرُوا إِنَّا مُنْظِرُونَ ﴾ أى : فستعلمون من تكون له عاقبة الدار ، إنه لا يفلح الظالمون . وقد أنجز الله لرسوله وعده ، ونصره وأيده ، وجعل كلمته هى العليا ، وكلمة الذين كفروا السفلى ، والله عزيز حكيم .

﴿ وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الْأَمْرُ كُلُّهُ فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿١٢٣﴾ ﴾

يخبر تعالى أنه عالم غيب السموات والأرض ، وأنه إليه المرجع والمآب ، وسيؤتى كل عامل عمله يوم الحساب ، فله الخلق والأمر . فأمر تعالى بعبادته والتوكل عليه ؛ فإنه كاف من توكل عليه وأتاب إليه . وقوله : ﴿ وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ أى : ليس يخفى عليه ما عليه مكذبوك يا محمد ، بل هو عليم بأحوالهم وأقوالهم وسيجزئهم على ذلك أتم الجزاء فى الدنيا والآخرة ، وسينصرك وحزبك عليهم فى الدارين .

تفسير سورة يوسف عليه السلام

وهي مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿الرَّ تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ ﴿١﴾ إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٢﴾ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ وَإِنْ كُنْتَ مِنْ قَبْلِهِ لَمِنَ الْغَافِلِينَ ﴿٣﴾﴾

أما الكلام على الحروف المقطعة فقد تقدم في أول سورة «البقرة». وقوله: ﴿ تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ ﴾ أى: هذه آيات الكتاب، وهو القرآن ﴿ الْمُبِينِ ﴾ أى: الواضح الجلى، الذى يفصح عن الأشياء المبهمة ويفسرهما ويبينها. ﴿ إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾: وذلك لان لغة العرب أفصح اللغات وأبينها وأوسعها، وأكثرها تادية للمعانى التى تقوم بالنفوس؛ فلهذا أنزل أشرف الكتب بأشرف اللغات، على أشرف الرسل، بسفارة أشرف الملائكة، وكان ذلك فى أشرف بقاع الأرض، وابتدئ إنزاله فى أشرف شهور السنة وهو رمضان، فكمل من كل الوجوه؛ ولهذا قال: ﴿ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ ﴾ بسبب إيحائنا إليك هذا القرآن. وقد وردَ فى سبب نزول هذه الآيات ما رواه ابن جرير عن مصعب بن سعد عن سعد قال: أنزل على النبي ﷺ القرآن، قال: فتلا عليهم زمانا، فقالوا: يا رسول الله، لو قصصت علينا. فأنزل الله عز وجل: ﴿ الرَّ تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ ﴾ إلى قوله: ﴿ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾. ثم تلا عليهم زمانا، فقالوا: يا رسول الله، لو حدثنا. فأنزل الله عز وجل: ﴿ اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ ﴾ الآية [الزمر: ٢٣]، وذكر الحديث. ورواه الحاكم (١).

وما يناسب ذكره عند هذه الآية الكريمة، المشتملة على مدح القرآن، وأنه كاف عن كل ما سواه من الكتب ما رواه الإمام أحمد عن جابر بن عبد الله؛ أن عمر بن الخطاب أتى النبي ﷺ بكتاب أصابه من بعض أهل الكتاب، فقرأه على النبي ﷺ فغضب وقال: « أُمَّتُهُمْ كَوْنٌ فِيهَا يَا ابْنَ الْخَطَّابِ؟ وَالَّذِى نَفْسِ بِيَدِهِ، لَقَدْ جِئْتَكُمْ بِهَا بِيضَاءَ نَفِيَّةٍ، لَا تَسْأَلُوهُمْ عَنْ شَيْءٍ فَيُخْبِرُوكُمْ بِحَقِّ فَتُكَذِّبُونَهُ، أَوْ بِيَاطِلٍ فَتُصَدِّقُونَهُ، وَالَّذِى نَفْسِ بِيَدِهِ، لَوْ أَنَّ مُوسَى كَانَ حَيًّا، لَمَا وَسِعَهُ إِلَّا أَنْ يَتَّبِعَنِي » (٢).

﴿إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي

سَجْدِينَ ﴿٤﴾﴾

(١) ابن جرير فى التفسير (٩٠/١٢)، والحاكم (٣٤٥/٢)، وقال: « صحيح الإسناد ولم يخرجاه ». (٢) المسند (٣٨٧/٣)، والسنة لابن أبى عاصم رقم (٥٠) وحسنه الألبانى. انظر: الإرواء (١٥٨٩) والمشكاة (١٧٧).

يقول تعالى: اذكر لقومك يا محمد في قَصَصِكَ عليهم من قصة يوسف إذ قال لأبيه ، وأبوه يعقوب ، عليه السلام ، كما روى الإمام أحمد عن ابن عمر ؛ أن رسول الله ﷺ قال : « إن الكريم ابن الكريم ابن الكريم ، يوسف بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم » . انفراد بإخراجه البخارى (١) ، وروى البخارى أيضاً عن أبى هريرة ، قال : سئل رسولُ الله ﷺ : أى الناس أكرم ؟ قال : « أكرمهم عند الله أتقاهم » . قالوا : ليس عن هذا نسألك . قال : « فأكرم الناس يوسف نبى الله بن نبى الله بن خليل الله » . قالوا : ليس عن هذا نسألك . قال : « فعن معادن العرب تسألونى ؟ » قالوا : نعم . قال : « فخيراكم فى الجاهلية خيراكم فى الإسلام إذا فقَهِوا » (٢) . وقال ابن عباس : رؤيا الأنبياء وحى .

وقد تكلم المفسرون على تعبير هذا المنام : أن الأحد عشر كوكبا عبارة عن إخوته ، وكانوا أحد عشر رجلا سواه ، والشمس والقمر عبارة عن أبيه وأمه . روى هذا عن ابن عباس ، والضحاك ، وقتادة وغيرهم ، وقد وقع تفسيرها بعد أربعين سنة ، وقيل : ثمانين سنة ، وذلك حين رفع أبويه على العرش ، وهو سريره ، وإخوته بين يديه : ﴿ وَخَرُّوا لَهُ سُجْدًا وَقَالَ يَا آيَاتُ هَذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا ﴾ [يوسف : ١٠٠] .

﴿ قَالَ يَبْنَئِي لَا تَقْصُصْ رُؤْيَاكَ عَلَيَّ إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا إِنَّ الشَّيْطَانَ لِلْإِنْسَانِ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴾

يقول تعالى مخبراً عن قول يعقوب لابنه يوسف حين قصَّ عليه ما رأى من هذه الرؤيا ، التى تعبيرها خضوع إخوته له وتعظيمهم إياه تعظيماً زائداً ، بحيث يخرون له ساجدين إجلالاً وإكراماً واحتراماً ، فخشى يعقوب ، عليه السلام ، أن يحدث بهذا المنام أحداً من إخوته فيحسدونه على ذلك ، فيبغون له الغوائل ، حسداً منهم له ؛ ولهذا قال له : ﴿ لَا تَقْصُصْ رُؤْيَاكَ عَلَيَّ إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا ﴾ أى : يحتالوا لك حيلةً يُرَدُّونَكَ فيها . ولهذا ثبتت السنة عن رسول الله ﷺ أنه قال : « إذا رأى أحدكم ما يحب فليحدث به ، وإذا رأى ما يكره فليتحول إلى جنبه الآخر وليتفل عن يساره ثلاثاً ، وليستعذ بالله من شرها ، ولا يحدث بها أحداً ، فإنها لن تضره » (٣) .

﴿ وَكَذَلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ وَيُرِيكَ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَعَلَىٰ آلِ يَعْقُوبَ كَمَا أَتَمَّهَا عَلَىٰ أَبَوَيْكَ مِنْ قَبْلُ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾

يقول تعالى مخبراً عن قول يعقوب لولده يوسف : إنه كما اختارك ربك ، وأراك هذه الكواكب مع الشمس والقمر ساجدة لك ﴿ كَذَلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ ﴾ أى : يختارك ويصطفيك لنبوته

(٢) البخارى (٤٦٨٩) .

(١) المسند (٥٧١٢) ، والبخارى (٤٦٨٨) .

(٣) المسند (٢٩٦/٥) ، ومسلم (٤/٢٢٦١) .

﴿ وَيُعَلِّمُكَ مِنَ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ ﴾ قال مجاهد وغير واحد: يعنى: تعبير الرؤيا. ﴿ وَيَمِّتُ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ ﴾ أى: بإرسالك والإيحاء إليك؛ ولهذا قال: ﴿ كَمَا أْتَمَّهَا عَلَىٰ أَبِيكَ مِنْ قَبْلِ إِبْرَاهِيمَ ﴾ وهو الخليل ﴿ وَإِسْحَاقَ ﴾ ولده ﴿ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ أى: هو أعلم حيث يجعل رسالاته .

﴿ لَقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِ آيَاتٌ لِلِّسَّالِئِينَ ﴾ ﴿٧﴾ إِذْ قَالُوا لِيُوسُفَ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَيْنَا مِنََّا وَحَسُّهُ عَصَبَةٌ إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٨﴾ أَقْتُلُوا يُوسُفَ أَوْ اطْرَحُوهُ أَرْضًا يَخْلُ لَكُمْ وَجْهَ أَبِيكُمْ وَتَكُونُوا مِنْ بَعْدِهِ قَوْمًا صَالِحِينَ ﴿٩﴾ قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ لَا نَقْتُلُوا يُوسُفَ وَأَلْقُوهُ فِي غَيَابَتِ الْجُبِّ يَلْقَاهُ بَعْضُ السَّيَّارَةِ إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ ﴿١٠﴾

ربع

يقول تعالى: لقد كان في قصة يوسف وخبره مع إخوته آيات، أى: عبرة ومواعظ للسائلين عن ذلك، المستخبرين عنه، فإنه خبر عجيب، يستحق أن يستخبر عنه ﴿ إِذْ قَالُوا لِيُوسُفَ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَيْنَا مِنْنَا ﴾ أى: حلفوا فيما يظنون: والله ليوسف وأخوه - يعنون بنيامين، وكان شقيقه لأمه - ﴿ أَحَبُّ إِلَيْنَا مِنْنَا وَحَسُّهُ عَصَبَةٌ ﴾ أى: جماعة، فكيف أحب ذينك الاثنين أكثر من الجماعة ﴿ إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴾ يعنون فى تقديمهما علينا، ومحبة إياهما أكثر منا. ﴿ أَقْتُلُوا يُوسُفَ أَوْ اطْرَحُوهُ أَرْضًا يَخْلُ لَكُمْ وَجْهَ أَبِيكُمْ ﴾ : يقولون: هذا الذى يزاحمكم فى محبة أبيكم لكم، أعدموه من وجه أبيكم، ليخلو لكم وحدكم، إما بأن تقتلوه، أو تلقوه فى أرض من الأراضى، تستريحوا منه، وتختلوا أنتم بأبيكم، وتكونوا من بعد إعدامه قوماً صالحين. فأضمرُوا التوبة قبل الذنب.

﴿ قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ ﴾ : قال قتادة: كان أكبرهم واسمه روبيل ﴿ لَا تَقْتُلُوا يُوسُفَ ﴾ أى: لاتصلوا فى عداوته وبغضه إلى قتله، ولم يكن لهم سبيل إلى قتله؛ لأن الله تعالى كان يريد منه أمراً لا بد من إمضائه وإتمامه، من الإيحاء إليه بالنبوة، ومن التمكين له ببلاد مصر والحكم بها، فصرفهم الله عنه بمقالة روبيل فيه وإشارته عليهم بأن يلقوه فى ﴿ غِيَابَةِ الْجُبِّ ﴾ وهو أسفله. قال قتادة: وهى بئر بيت المقدس. ﴿ يَلْقَاهُ بَعْضُ السَّيَّارَةِ ﴾ أى: المارة من المسافرين، فاستريحوا بهذا، ولا حاجة إلى قتله ﴿ إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ ﴾ أى: إن كنتم عازمين على ما تقولون. قال ابن إسحاق: لقد اجتمعوا على أمر عظيم، من قطيعة الرحم، وعقوق الوالد، وقلة الرأفة بالصغير الضرع الذى لا ذنب له، وبالكبير الفانى ذى الحق والحرمة والفضل، وخطره عند الله، مع حق الوالد على ولده، ليفرقوا بينه وبين ابنه وحببيه، على كبر سنه، ورفقة عظمه، مع مكانه من الله فيمن أحبه طفلاً صغيراً، وبين أبيه على ضعف قوته وصغر سنه، وحاجته إلى لطف والده وسكونه إليه، يغفر الله لهم وهو أرحم الراحمين، فقد احتملوا أمراً عظيماً.

﴿ قَالُوا يَا أَبَانَا مَا لَكَ لَا تَأْمَنَّا عَلَىٰ يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُ لَنَنْصِحُونَ ﴾ ﴿١١﴾ أَرْسِلْهُ مَعَنَا غَدًا يَرْتَعْ وَيَلْعَبْ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴿١٢﴾

لما تواطؤوا على أخذه وطرحه في البئر، كما أشار به عليهم أخوهم رُوبيل ، جاؤوا أباهم يعقوب، عليه السلام، فقالوا: ما بالك ﴿ لا تَأْمَنَّا عَلَى يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُ لَنَاصِحُونَ ﴾ وهذه توطئة ودعوى ، وهم يريدون خلاف ذلك ؛ لما له في قلوبهم من الحسد لحب أبيه له ﴿ أَرْسِلْهُ مَعَنَا ﴾ أى: ابعته معنا ﴿ غَدًا نَرْعَقُ وَنَلْعَبُ ﴾ وقرأ بعضهم بالياء ﴿ يَرْعَقُ وَيَلْعَبُ ﴾ (١) . قال ابن عباس: يسعى وينشط. وكذا قال قتادة ، والضحاك والسدّي ، وغيرهم . ﴿ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾ يقولون: ونحن نحفظه ونحوطه من أهلك .

﴿ قَالَ إِنِّي لَيَحْزَنُنِي أَنْ تَذْهَبُوا بِهِ وَأَخَافُ أَنْ يَأْكُلَهُ الذِّئْبُ وَأَنْتُمْ عَنْهُ غَافِلُونَ ﴾
﴿ قَالُوا لَيْنَ أَكَلَهُ الذِّئْبُ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّا إِذًا لَخَسِرُونَ ﴾

يقول تعالى مخبراً عن نبيه يعقوب أنه قال لابنيه في جواب ما سألوا من إرسال يوسف معهم إلى الرعى في الصحراء: ﴿ إِنِّي لَيَحْزَنُنِي أَنْ تَذْهَبُوا بِهِ ﴾ أى: يشق عليّ مفارقتُهُ مدّة ذهابكم به إلى أن يرجع، وذلك لقرط محبته له، لما يتوسم فيه من الخير العظيم، وشمائل النبوة والكمال في الخلق والخلق، صلوات الله وسلامه عليه .

وقوله: ﴿ وَأَخَافُ أَنْ يَأْكُلَهُ الذِّئْبُ وَأَنْتُمْ عَنْهُ غَافِلُونَ ﴾: يقول: وأخشى أن تشتغلوا عنه برميكم ورعيكم فيأتيه ذئب فيأكله وأنتم لا تشعرون، فأخذوا من فمه هذه الكلمة، وجعلوها عذرهم فيما فعلوه ، وقالوا مجيبين عنها في الساعة الراهنة : ﴿ لَيْنَ أَكَلَهُ الذِّئْبُ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّا إِذًا لَخَسِرُونَ ﴾ يقولون: لئن عدا عليه الذئب فأكله من بيننا ، ونحن جماعة ، إنا إذا لهالكون عاجزون .

﴿ فَلَمَّا ذَهَبُوا بِهِ وَاجْتَمَعُوا أَن يُجْعَلُوهُ فِي غَيْبَتِ الْجُبِّ وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُمْ بِأَمْرِهِمْ هَذَا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴾

يقول تعالى: فلما ذهب به إخوته من عند أبيه بعد مراجعتهم له في ذلك ﴿ وَاجْتَمَعُوا أَن يُجْعَلُوهُ فِي غَيْبَتِ الْجُبِّ ﴾، هذا فيه تعظيم لما فعلوه أنهم اتفقوا كلهم على إلقائه في أسفل ذلك الجب، وقد أخذوه من عند أبيه فيما يُظهِرُونَهُ له إكراماً له، وبسطاً وشرحاً لصدره، وإدخالاً للسرور عليه، فيقال: إن يعقوب، عليه السلام ، لما بعثه معهم ضمه إليه ، وقبله ودعا له . وذكر السدّي وغيره: أنه لم يكن بين إكرامهم له وبين إظهار الأذى له، إلا أن غابوا عن عين أبيه وتواروا عنه، ثم شرعوا يؤذونه بالقول، من شتم ونحوه، والفعل من ضَرَبَ ونحوه، ثم جاؤوا به إلى ذلك الجب الذي اتفقوا على رميه فيه فربطوه بحبل ودلوه فيه، فجعل إذا لجأ إلى واحد منهم لطمه وشتمه ، وإذا تشبث بحافات البئر ضربوا على يديه ، ثم قطعوا به الحبل من نصف المسافة، فسقط في الماء فغمره، فصعد إلى صخرة تكون في وسطه، يقال لها: «الراغوفة» ، فقام فوقها .

(١) « نرتع ونلعب » - بالنون فهما : قراءة ابن كثير (القارئ) وأبى عمرو بن عامر ، وباقي السبعة بالياء ، وقراءة الحافظ ابن كثير إنما هي بالنون .

قال الله تعالى: ﴿ وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُمْ بِأَمْرِهِمْ هَذَا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴾ : يقول تعالى ذاكراً لطفه ورحمته وعائدته وإنزاله اليسر في حال العسر : إنه أوحى إلى يوسف في ذلك الحال الضيق، تطيباً لقلبه ، وتثبيتاً له : إنك لا تحزن بما أنت فيه ، فإن لك من ذلك فرجاً ومخرجاً حسناً، وستنصرك الله عليهم ، ويعليك ويرفع درجتك، وستخبرهم بما فعلوا معك من هذا الصنيع. وقوله: ﴿ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴾ بإيحاء الله إليه. وقال ابن عباس: ستنبئهم بصنيعهم هذا في حَقِّك، وهم لا يعرفونك، ولا يستشعرون بك .

﴿ وَجَاءَ وَآبَاءَهُمْ عِشَاءَ يَبْكُونَ ﴾ ﴿١٦﴾ قَالُوا يَا أَبَانَا إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِنْدَ مَتَاعِنَا فَأَكَلَهُ الذِّئْبُ وَمَا أَنْتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا وَلَوْ كُنَّا صَادِقِينَ ﴿١٧﴾ وَجَاءَ وَعَلَى قَمِيصِهِ يَدَمٍ كَذِبٍ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ ﴿١٨﴾

يقول تعالى مخبراً عن الذى اعتمده إخوة يوسف بعد ما ألقوه فى غيابة الجب : ثم رجعوا إلى أبيهم فى ظلمة الليل يبكون ، ويظهرون الأسف والجزع على يوسف ويتغممون لأبيهم ، وقالوا معتذرين عما وقع فيما زعموا: ﴿ إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ ﴾ أى : نترامى ﴿ وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِنْدَ مَتَاعِنَا ﴾ أى : ثيابنا وأمتعتنا ﴿ فَأَكَلَهُ الذِّئْبُ ﴾ وهو الذى كان قد جزع منه ، وحذر عليه .

وقوله : ﴿ وَمَا أَنْتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا وَلَوْ كُنَّا صَادِقِينَ ﴾ : تَلَطَّفَ عَظِيمٌ فى تقرير ما يحاولونه ، يقولون : ونحن نعلم أنك لا تصدقنا - والحالة هذه - لو كنا عندك صادقين ، فكيف وأنت تتهمنا فى ذلك ، لأنك خشيت أن يأكله الذئب ، فأكله الذئب ، فأنت معذور فى تكذيبك لنا؛ لغرابة ما وقع ، وعجيب ما اتفق لنا فى أمرنا هذا .

﴿ وَجَاءَ وَعَلَى قَمِيصِهِ يَدَمٍ كَذِبٍ ﴾ أى : مكذوب مفترى . وهذا من الأفعال التى يؤكدون بها ما تمالؤوا عليه من المكيدة ، وهو أنهم عمدوا إلى سَخَلَةٍ - فيما ذكره مجاهد والسدى وغير واحد - فذبحوها ، ولطخوا ثوب يوسف بدمها ، موهمين أن هذا قميصه الذى أكله فيه الذئب ، وقد أصابه من دمه ، ولكنهم نسوا أن يخرقوه ، فلهذا لم يَرُجْ هذا الصنيع على نبي الله يعقوب ، بل قال لهم معرضاً عن كلامهم إلى ما وقع فى نفسه من تمالئهم عليه : ﴿ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ ﴾ أى : فسأصبر صبراً جميلاً على هذا الأمر الذى قد اتفقتم عليه ، حتى يفرجه الله بعونه ولطفه ﴿ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ ﴾ أى : على ما تذكرون من الكذب والمحال . وقال ابن عباس : ﴿ وَجَاءَ وَعَلَى قَمِيصِهِ يَدَمٍ كَذِبٍ ﴾ قال : لو أكله السبع لخرق القميص . وكذا قال الشعبي ، والحسن ، وقتادة ، وغير واحد . وقال مجاهد : الصبر الجميل : الذى لا جزع فيه . وذكر البخارى هاهنا حديث عائشة فى الإفك حتى ذكر قولها : والله لا أجد لى ولكم مثلاً إلا أبا يوسف ﴿ فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ ﴾ (١) .

﴿ وَجَاءَتْ سَيَّارَةٌ فَأَرْسَلُوا وَارِدَهُمْ فَأَدْلَى دَلْوَهُ قَالَ يَبُشْرَىٰ هَذَا غُلَامٌ وَأَسْرُوهُ بِضَعَّةٍ ۗ وَاللَّهُ عَلَيْهِمَ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴿١٩﴾ وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍ بَخْسٍ دَرَاهِمَ مَعْدُودَةٍ وَكَانُوا فِيهِ مِنَ الزَّاهِدِينَ ﴿٢٠﴾ ﴾

يقول تعالى مخبراً عما جرى ليوسف، عليه السلام، حين اللقاء إخوته، وتركوه في ذلك الجب فريداً وحيداً . قال ابن إسحاق : لما لقاء إخوته جلسوا حول البئر يومهم ذلك، ينظرون ما يصنع وما يصنع به، فساق الله له سيارة ، فنزلوا قريباً من تلك البئر، وأرسلوا واردهم - وهو الذي يتطلب لهم الماء - فلما جاء تلك البئر، وأدلى دلوه فيها، تثبت يوسف، عليه السلام، فيها، فأخرجه واستبشر به، وقال : ﴿ يَا بُشْرَىٰ هَذَا غُلَامٌ ﴾ .

وقوله : ﴿ وَأَسْرُوهُ بِضَاعَةٍ ﴾ أى : وأسره الواردون من بقية السيارة وقالوا: اشتريناه وتبضعناه من أصحاب الماء مخافة أن يشاركوهم فيه إذا علموا خبره . قاله مجاهد، والسدى، وابن جرير . هذا قول . وقال ابن عباس قوله : ﴿ وَأَسْرُوهُ بِضَاعَةٍ ﴾ يعنى : إخوة يوسف، أسروا شأنه، وكنتموا أن يكون أخاهم وكنتم يوسف شأنه مخافة أن يقتله إخوته، واختار البيهقي . فذكره إخوته لوارد القوم، فنادى أصحابه : ﴿ يَا بُشْرَىٰ هَذَا غُلَامٌ ﴾ بياح، فباعه إخوته . وقوله : ﴿ وَاللَّهُ عَلَيْهِمَ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴾ أى : يعلم ما يفعله إخوة يوسف ومشتروه، وهو قادر على تغيير ذلك ودفعه، ولكن له حكمة وقدر سابق، فترك ذلك ليمضى ما قدره وقضاه، ألا له الخلق والأمر، تبارك الله رب العالمين . وفى هذا تعريض لرسوله محمد ﷺ ، وإعلام له بأننى عالم بأذى قومك، وأنا قادر على الإنكار عليهم ، ولكنى ساملى لهم، ثم أجعل لك العاقبة والحكم عليهم، كما جعلت ليوسف الحكم والعاقبة على إخوته .

وقوله : ﴿ وَشَرَّوهُ بِثَمَنٍ بَخْسٍ دَرَاهِمَ مَعْدُودَةٍ ﴾ ، يقول تعالى : وباعه إخوته بثمن قليل، والبخس : هو النقص ، أى : اعتاض عنه إخوته بثمن دون قليل ﴿ وَكَانُوا ﴾ مع ذلك ﴿ فِيهِ مِنَ الزَّاهِدِينَ ﴾ أى : ليس لهم رغبة فيه، بل لو سأله بلا شيء لأجابوا . ولهذا قال : ﴿ دَرَاهِمَ مَعْدُودَةٍ ﴾ فعن ابن مسعود : باعوه بعشرين درهماً ، وقال مجاهد : اثنان وعشرون درهماً . وقال الضحاک فى قوله : ﴿ وَكَانُوا فِيهِ مِنَ الزَّاهِدِينَ ﴾ : وذلك أنهم لم يعلموا نبوته ومنزلته عند الله عز وجل .

﴿ وَقَالَ الَّذِي اشْتَرَاهُ مِنْ مِصْرَ لِامْرَأَتِهِ أَكْرِمِي مَثْوَاهُ عَسَىٰ أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا ۗ وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ وَلِنُعَلِّمَهُ مِن تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ ۗ وَاللَّهُ عَلِيمٌ عَلِيمٌ ۗ أَمْرُهُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢١﴾ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ ؕ آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ۗ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿٢٢﴾ ﴾

يخبر تعالى بالطافه بيوسف، عليه السلام، أنه قبيض له الذى اشتراه من مصر، حتى اعتنى

به وأكرمته، وأوصى أهله به، وتوسم فيه الخير والصلاح ، فقال لامرأته: ﴿ أَكْرَمِي مَثْوَاهُ عَسَىٰ أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا ﴾ ، وكان الذي اشتراه من مصر عزيزها، وهو الوزير بها. قال ابن عباس: وكان اسمه قطفير ، وكان على خزائن مصر، وكان الملك يومئذ الريان بن الوليد، رجل من العماليق قال: واسم امرأته راعيل بنت رعائيل ، وقال غيره : اسمها زليخا.

يقول تعالى: وكما أنقذنا يوسف من إخوته ﴿ كَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ ﴾ يعني : بلاد مصر ﴿ وَنُعَلِّمُهُ مِنَ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ ﴾ قال مجاهد والسدى : هو تعبير الرؤيا ﴿ وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰ أَمْرِهِ ﴾ أى : إذا أراد شيئاً فلا يرد ولا يمانع ولا يخالف، بل هو الغالب لما سواه. وقوله : ﴿ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ : يقول: لا يدرون حكمته فى خلقه ، وتلطفه لما يريد .

وقوله: ﴿وَلَمَّا بَلَغَ﴾ أى : يوسف عليه السلام ﴿أَشُدَّهُ﴾ أى : استكمل عقله ، وتم خلقه . ﴿آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا﴾ معنى : النبوة ، إنه حباه بها بين أولئك الأقسام ﴿ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴾ أى : إنه كان محسناً فى عمله، عاملاً بطاعة ربه تعالى. وقد اختلف فى مقدار المدة التى بلغ فيها أشده، فقال ابن عباس: بضع وثلاثون . وقال الضحاک : عشرون . وقال الحسن : أربعون سنة . وقال السدى : ثلاثون سنة . وقال الإمام مالك : الأشد الحلم . وقيل غير ذلك ، والله أعلم .

﴿ وَرَزَدَتْهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَنْ نَفْسِهِ وَغَلَّقَتِ الْأَبْوَابَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ ﴾

يخبر تعالى عن امرأة العزيز التى كان يوسف فى بيتها بمصر، وقد أوصاها زوجها به وبإكرامه فراودته عن نفسه ، أى : حاولته على نفسه ، ودعته إليها، وذلك أنها أحبته حباً شديداً لجماله وحسنه وبهائه، فحملها ذلك على أن تجملت له، وغلقت عليه الأبواب، ودعته إلى نفسها ﴿ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ ﴾ فامتنع من ذلك أشد الامتناع، و﴿ قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ إِنَّهُ رَبِّي ﴾ وكانوا يطلقون «الرب» على السيد والكبير، أى : إن بعلك ربي أحسن مثواي ، أى : منزلى وأحسن إلى ، فلا أقبله بالفاحشة فى أهله ﴿ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ ﴾ قال ذلك مجاهد، والسدى، ومحمد ابن إسحاق، وغيرهم.

وقد اختلف القراء فى قراءة: ﴿ هَيْتَ لَكَ ﴾، فقرأه كثيرون بفتح الهاء، وإسكان الياء، وفتح التاء. وقال ابن عباس وغير واحد : معناه : أنها تدعوه إلى نفسها . تقول : هلم لك . وقال أبو عبيد : وكان الكسائى يقول: هى لغة ، لأهل حوران ، وقعت إلى أهل الحجاز، معناها: تعال . وقرأ ذلك آخرون: ﴿ هَيْتُ لَكَ ﴾ بكسر الهاء والهمزة، وضم التاء، بمعنى: تهيأت لك، ومن روى عنه هذه القراءة ابن عباس وقتادة ، وكلهم يفسرها بمعنى: تهيأت لك . وقرأ آخرون، منهم عامة أهل المدينة : ﴿ هَيْتُ ﴾ بفتح الهاء، وضم التاء . وقال آخرون : ﴿ هَيْتُ لَكَ ﴾، بكسر الهاء، وإسكان الياء، وضم التاء.

﴿ وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهٖ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَا أَنْ رَأَىٰ بُرْهَانَ رَبِّهٖ كَذَٰلِكَ لِنَصَرَفَ عَنْهُ السُّوءُ وَالْفَحْشَاءُ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ ﴾ ﴿١٤﴾

اختلفت أقوال الناس وعباراتهم في هذا المقام ، قال بعضهم : المراد بهمه بها همَّ خطرات حديث النفس . حكاة البغوى عن بعض أهل التحقيق ، ثم أورد حديث أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « يقول الله تعالى : إذا همَّ عبدى بحسنة فاكْتُبها له حسنة ، فإن عملها فاكْتُبها له بعشر أمثالها ، وإن هم بسئنة فلم يعملها فاكْتُبها حسنة ، فإنما تركها من جرأتى ، فإن عملها فاكْتُبها بمثلها » . وهذا الحديث مخرج فى الصحيحين (١) . وقيل : هم بضربها . وقيل : تمنأها زوجة . وقيل : ﴿ هَمَّ بِهَا لَوْلَا أَنْ رَأَىٰ بُرْهَانَ رَبِّهٖ ﴾ أى : فلم يهم بها . وأما البرهان الذى رآه ففيه أقوال أيضاً ، قال ابن جرير : والصواب أن يقال : إنه رأى من آيات الله ما زجره عما كان هم به ، وجائز أن يكون صورة يعقوب ، وجائز أن يكون الملك ، وجائز أن يكون ما رآه مكتوباً من الزجر عن ذلك . ولا حجة قاطعة على تعيين شىء من ذلك ، فالصواب أن يطلق كما قال الله تعالى .

وقوله : ﴿ كَذَٰلِكَ لِنَصَرَفَ عَنْهُ السُّوءُ وَالْفَحْشَاءُ ﴾ أى : كما أريناه برهاناً صرفه عما كان فيه ، كذلك نقيه السوء والفحشاء فى جميع أموره ﴿ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ ﴾ أى : المجتنبين المطهرين المختارين المصطفين الأخيار ، صلوات الله وسلامه عليه .

﴿ وَأَسْتَبَقَا الْبَابَ وَقَدَّتْ قَمِيصُهُ مِنْ دُبُرٍ وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَا الْبَابِ قَالَتْ مَا جَزَاءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءًا إِلَّا أَنْ يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ ﴿١٥﴾ قَالَ هِيَ رَوَدْتْنِي عَنْ نَفْسِيَّ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَا إِنْ كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِنْ قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ الْكٰذِبِينَ ﴿١٦﴾ وَإِنْ كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِنْ دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ الصّٰدِقِينَ ﴿١٧﴾ فَلَمَّا رَأَىٰ قَمِيصُهُ قُدَّ مِنْ دُبُرٍ قَالَ إِنَّهُ مِنْ كَيْدِكُنَّ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ ﴿١٨﴾ يُوسُفُ أَعْرَضَ عَنْ هٰذَا وَأَسْتَغْفِرِي لِدُنْيِكُ إِنَّكَ كُنْتِ مِنَ الْخٰطِئِينَ ﴿١٩﴾

يخبر تعالى عن حالهما حين خرجا يستبقان إلى الباب ، يوسف هارب ، والمرأة تطلبه ليرجع إلى البيت ، فلحقته فى أثناء ذلك ، فأمسكت بقميصه من ورائه فقَدَّتْهُ قَدْماً فظيعاً ، يقال : إنه سقط عنه ، واستمر يوسف هارباً ذاهباً ، وهى فى إثره ، فألفيا سيدها - وهو زوجها - عند الباب ، فعند ذلك خرجت مما هى فيه بمكرها وكيدها ، وقالت لزوجها متصلة وقاذفة يوسف بداتها : ﴿ مَا جَزَاءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءًا ﴾ أى : فاحشة ﴿ إِلَّا أَنْ يُسْجَنَ ﴾ أى : يحبس ﴿ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ أى : يضرب ضرباً شديداً موجعاً . فعند ذلك انتصر يوسف ، عليه السلام ، بالحق ، وتبرأ مما

رتمته به من الخيانة، وقال يارا صادقاً : ﴿هِيَ رَاوَدْتَنِي عَنْ نَفْسِي﴾، وذكر أنها اتبعته تجذبه إليها حتى قادت قميصه ﴿وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَا إِنْ كَانَ قَمِيصُهُ قُدٌّ مِّنْ قَبْلِ﴾ أى : من قدامه ﴿فَصَدَقَتْ﴾ أى : فى قولها إنه أرادها على نفسها، لأنه يكون لما دعاها وأبت عليه دفعته فى صدره، فقدت قميصه، فيصح ما قالت : ﴿وَإِنْ كَانَ قَمِيصُهُ قُدٌّ مِّنْ دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ وذلك يكون كما وقع لما هرب منها، وتطلبت أمسكت بقميصه من ورائه لترده إليها، فقدت قميصه من ورائه .

وقد اختلفوا فى هذا الشاهد : هل هو صغير أو كبير ، على قولين لعلماء السلف ، فقال ابن عباس : ﴿وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَا﴾ قال : ذو لحية . وقال : كان من خاصة الملك . وكذا قال مجاهد ، والحسن ، وقتادة ، والسدى وغيرهم : إنه كان رجلاً . وقال زيد بن أسلم، والسدى : كان ابن عمها . وقال الحسن وسعيد بن جبير والضحاك بن مزاحم : إنه كان صبياً فى الدار . واختاره ابن جرير . وقد ورد فيه حديث عن ابن عباس، عن النبى ﷺ قال : «تكلم أربعة وهم صغار»، فذكر فيهم شاهد يوسف (١) .

وقوله : ﴿فَلَمَّا رَأَى قَمِيصَهُ قُدٌّ مِّنْ دُبُرٍ﴾ أى : فلما تحقق زوجها صدق يوسف وكذبها فيما قذفته ورمته به ﴿فَقَالَ إِنَّهُ مِّنْ كَيْدِكُنَّ﴾ أى : إن هذا البهت واللطخ الذى لطخت عرض هذا الشاب به من جملة كيدكن ﴿إِنْ كَيْدِكُنَّ عَظِيمٌ﴾ .

ثم قال أمرا ليوسف، عليه السلام، بكتمان ما وقع : يا ﴿يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا﴾ أى : اضرب عن هذا صفحا، فلا تذكره لاحد ﴿وَاسْتَغْفِرِي لِذَنبِكِ﴾ يقول لامراته وقد كان لين العريكة سهلا، أو أنه عذرها؛ لأنها رأت ما لا صبر لها عنه، فقال لها : ﴿اسْتَغْفِرِي لِذَنبِكِ﴾ أى : الذى وقع منك من إرادة السوء بهذا الشاب، ثم قذفه بما هو برىء منه، استغفري من هذا الذى وقع منك ﴿إِنَّكَ كُنتِ مِنَ الْخَاطِئِينَ﴾ .

﴿وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي الْمَدِينَةِ امْرَأَتُ الْعَزِيزِ تُرَاوِدُ فَتَاهَا عَنْ نَفْسِهِ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا إِنَّا لَنَرَاهَا فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٣٠﴾ فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكًا وَآتَتْ كُلَّ وَاحِدَةٍ مِّنْهُنَّ سِكِّينًا وَقَالَتِ اخْرُجْ عَلَيْهِنَّ فَلَمَّا رَأَيْنَهُ أَكْبَرْنَهُ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا هَذَا بَشَرًا إِنْ هَذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ ﴿٣١﴾ قَالَتْ فَذَلِكُنَّ الَّذِي لُمْتُنَّنِي فِيهِ وَلَقَدْ رَاوَدتُّهُ عَنِ نَفْسِهِ فَأَسْتَعْصَمَ وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَا ءَامُرُهُ لَيَكُونَنَّ مِنَّا مَلَكًا مُّبِينًا ﴿٣٢﴾ قَالَ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُنَّ مِنَ الْجَاهِلِينَ ﴿٣٣﴾ فَأَسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ فَصَرَفَ عَنْهُمْ كَيْدَهُنَّ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٣٤﴾﴾

يخبر تعالى أن خبير يوسف وامرأة العزيز شاع فى المدينة ، وهى مصر، حتى تحدث

(١) المسند (٢٨٢٢) ، وقال الشيخ أحمد شاكر : «إسناده صحيح» .

به الناس ﴿ وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي الْمَدِينَةِ ﴾ مثل نساء الكبراء والأمراء ، ينكرون على امرأة العزيز ، ويعبن ذلك عليها : ﴿ امْرَأَةُ الْعَزِيزِ تَرَاوِدُ فَتَاهَا عَن نَّفْسِهِ ﴾ أى : تحاول غلامها عن نفسه ، وتدعوه إلى نفسها ﴿ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا ﴾ أى : قد وصل حبه إلى شغاف قلبها ، وهو غلافه قال ابن عباس : الشَّغَفُ : الحب القاتل ، والشَّغَفُ دون ذلك ، والشغاف : حجاب القلب ﴿ إِنَّا لَنَرَاهَا فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴾ أى : فى صنعها هذا من حبها فتاها ، ومراودتها إياه عن نفسه . ﴿ فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ ﴾ قال بعضهم : بقولهن . وقال ابن إسحاق : بل بَلَّغَهُنَّ حُسْنَ يَوْسُفَ ، فأحببن أن يرينه ، فقلن ذلك ليتوصلن إلى رؤيته ومشاهدته ، فعند ذلك ﴿ أُرْسِلَتْ إِلَيْهِنَّ ﴾ أى : دعتهن إلى منزلها لتضيفهن ﴿ وَأَعَدَّتْ لهنَّ مَتَكًا ﴾ قال ابن عباس ، وسعيد بن جبير ، ومجاهد ، وغيرهم : هو المجلس المعد ، فيه مفارش ومخاد وطعام ، فيه ما يقطع بالسكاكين من أترج ونحوه . ولهذا قال تعالى : ﴿ وَأَتَتْ كُلُّ وَاحِدَةٍ مِّنْهُنَّ سِكِّينًا ﴾ كان هذا مكيدة منها ، ومقابلة لهن فى احتيالهن على رؤيته ﴿ وَقَالَتْ أَخْرِجْ عَلَيْنَ ﴾ وذلك أنها كانت قد خبأته فى مكان آخر ﴿ فَلَمَّا ﴾ خرج و ﴿ رَأَيْنَهُ أَكْبَرْتَهُ ﴾ أى : أعظمن شأنه ، وأجللن قدره ؛ وجعلن يقطعن أيديهن دَهَشًا برؤيته ، وهن يظنن أنهم يقطعن الأترج بالسكاكين ، والمراد : أنهم حزرزن أيديهن بها ، قاله غير واحد .

وقد ذكر عن زيد بن أسلم أنها قالت لهن بعدما أكلن وطابت أنفسهن ، ثم وضعت بين أيديهن أترجا ، وأتت كل واحدة منهن سكيئا : هل لكن فى النظر إلى يوسف؟ قلن : نعم . فبعثت إليه تأمره أن اخراج إليهن ، فلما رأينه جعلن يقطعن أيديهن ، ثم أمرته أن يرجع فرجع ليرينه مقبلا ومدبرا ، وهن يحزرزن فى أيديهن ، فلما أحسسن بالألم جعلن يولولن ، فقالت : أنتن من نظرة واحدة فعلتن هكذا ، فكيف ألام أنا؟ فقلن حاش لله ما هذا بشرا إن هذا إلا ملك كريم ، ثم قلن لها : وما نرى عليك من لوم بعد الذى رأينا ، لأنهن لم يرين فى البشر شبيهه ولا قريبا منه ، فإنه ﷺ كان قد أعطى شطر الحسن ، كما ثبت ذلك فى الحديث الصحيح فى حديث الإسراء : أن رسول الله ﷺ مر بيوسف ، عليه السلام ، فى السماء الثالثة ، قال : « فإذا هو قد أعطى شطر الحسن » (١) .

فلهذا قال هؤلاء النسوة عند رؤيته : ﴿ حَاشَ لِلَّهِ ﴾ قال مجاهد : معاذ الله ﴿ مَا هَذَا بَشَرًا إِنْ هَذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ . قَالَتْ فَلذَلِكَ الَّذِي لَمْتَنِي فِيهِ ﴾ : تقول هذا معتذرة إليهن بأن هذا حقيق بأن يحب لجماله وكماله .

﴿ وَلَقَدْ رَاوَدتُّهُ عَن نَّفْسِهِ فَاسْتَعْصَمَ ﴾ أى : فامتنع . قال بعضهم : لما رأين جماله الظاهر ، أخبرتتهن بصفاته الحسنة التى تخفى عنهن ، وهى العفة مع هذا الجمال ، ثم قالت تتوعد : ﴿ وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَا أَمَرُهُ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونَا مِنَ الصَّاغِرِينَ ﴾ فعند ذلك استعاذ يوسف ، عليه السلام ، من شرهن وكيدهن ، وقال : ﴿ رَبِّ السِّجْنِ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ ﴾ أى : من الفاحشة ﴿ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ

أَصْبُ إِلَيْهِنَّ ﴿٣٥﴾ أى: إن وكلتني إلى نفسي، فليس لى من نفسي قدرة، ولا أملك لها ضرا ولا نفعا إلا بحولك وقوتك، أنت المستعان وعليك التكلان، فلا تكني إلى نفسي ﴿٣٥﴾ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُنْ مِنَ الْجَاهِلِينَ . فاستجاب له ربه فصرف عنه كيدهن إنه هو السميع العليم ﴿٣٦﴾ وذلك أن يوسف، عليه السلام، عصمه الله عصمة عظيمة ، وحماه فامتنع منها أشد الامتناع، واختار السجن على ذلك، وهذا فى غاية مقامات الكمال: أنه مع شبابه وجماله وكماله تدعوه سيده، وهى امرأة عزيز مصر، وهى مع هذا فى غاية الجمال والمال والرياسة، ويمتنع من ذلك، ويختار السجن على ذلك، خوفا من الله ورجاء ثوابه.

ولهذا ثبت فى الصحيحين أن رسول الله ﷺ قال: «سبعة يظلهم الله فى ظله يوم لا ظل إلا ظله: إمام عادل، وشاب نشأ فى عبادة الله ، ورجل قلبه معلق بالمسجد ، إذا خرج منه حتى يعود إليه، ورجلان تحبا فى الله اجتمعا عليه وافترقا عليه ، ورجل تصدق بصدقة فأخفاها حتى لا تعلم شماله ما أنفقت يمينه ، ورجل ذكر الله خاليا ففاضت عيناه ، ورجل دعت امرأه ذات جمال ومنصب، فقال: إني أخاف الله » (١) .

﴿ تَعْرَبَدَا لَهْمَ مِنْ بَعْدِ مَا رَأَوُا الْآيَاتِ لَيْسَجُجُنْتُهُ حَتَّى حِينَ ﴾ ﴿٣٥﴾

يقول تعالى: ثم ظهر لهم من المصلحة فيما رأوه أنهم يسجونهم إلى حين، أى: إلى مدة، وذلك بعدما عرفوا براءته ، وظهرت الآيات - وهى الأدلة - على صدقه فى عفته ونزاهته . وكأنهم - والله أعلم - إنما سجنوه لما شاع الحديث إيهاما أن هذا راودها عن نفسها، وأنهم سجنوه على ذلك. ولهذا لما طلبه الملك الكبير فى آخر المدة، امتنع من الخروج حتى تتبين براءته مما نسب إليه من الخيانة، فلما تقرر ذلك خرج وهو نقيّ العرض، صلوات الله عليه وسلامه . وذكر السدى: أنهم إنما سجنوه لثلاث شىء ما كان منها فى حقه، ويبرأ عرضه فيفضحها.

﴿ وَدَخَلَ مَعَهُ السَّجْنَ فَتَيَانٍ قَالَ أَحَدُهُمَا إِنِّي أَرَانِي أَعْصِرُ خَمْرًا وَقَالَ الْآخَرُ إِنِّي أَرَانِي أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِي خُبْرًا تَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْهُ نَبِئْنَا بِتَأْوِيلِهِ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ ﴾ ﴿٣٦﴾

قال قتادة: كان أحدهما ساقى الملك، والآخر خبازه قال السدى : كان سبب حبس الملك إيهاما أنه توهم أنهما تمالأ على سمة فى طعامه وشرابه. وكان يوسف ، عليه السلام، قد اشتهر فى السجن بالجرود والأمانة وصدق الحديث، وحسن السمّت وكثرة العبادة ، ومعرفة التعبير والإحسان إلى أهل السجن وعبادة مرضاهم والقيام بحقوقهم. ولما دخل هذان الفتيان إلى السجن، تألفا به وأحباها جدا شديدا، وقالوا له : والله لقد أحببناك جدا زائدا. قال : بارك الله فيكما، إنه ما أحبني أحد إلا دخل على من محبته ضرر، أحبني أبى فأوديت بسببه، وأحبتني امرأة العزيز فكذلك ، فقالوا: والله ما نستطيع إلا ذلك، ثم إنهما رأيا مناما، فرأى الساقى أنه

يعصر خمرًا - يعنى عنبًا - وقال الآخر - وهو الخباز - ﴿ إِنِّي أَرَانِي أٰحْمِلُ فَوْقَ رَاسِي خَبْرًا تَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْهُ نَبِينًا بِتَأْوِيلِهِ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ ﴾ . والمشهور عند الأكثرين ما ذكرناه ، وأنهما رأيا مناما وطلبا تعبيره . وروى ابن جرير : عن عبد الله [ابن مسعود] قال : ما رأى صاحباً يوسف شيئاً ، إنما كانا نالحماً ليجربا عليه .

﴿ قَالَ لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِيهِ إِلَّا بِنَآئِكُمَا بِتَأْوِيلِهِ قَبْلَ أَنْ يَأْتِيَكُمَا ذٰلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّي إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كٰفِرُونَ ﴿٧٧﴾ وَأَتَّبَعْتُ مِلَّةَ آبَائِي وَإِبْرَاهِيمَ وَإِسْحٰقَ وَيَعْقُوبَ مَا كَانَتْ لَنَا أَنْ نُشْرِكَ بِاللَّهِ مِنْ شَيْءٍ ذٰلِكَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى النَّاسِ وَلٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٧٨﴾ ﴾

يخبرهما يوسف ، عليه السلام ، أنهما مهما رأيا فى نومهما من حلم ، فإنه عارف بتفسيره ويخبرهما بتأويله قبل وقوعه ؛ ولهذا قال : ﴿ لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِيهِ ﴾ قال مجاهد : فى نومكما ﴿ إِلَّا بِنَآئِكُمَا بِتَأْوِيلِهِ قَبْلَ أَنْ يَأْتِيَكُمَا ﴾ . ثم قال : وهذا إنما هو من تعليم الله إياي ؛ لأنى اجتنبت ملة الكافرين بالله واليوم الآخر ، فلا يرجون ثوابا ولا عقابا فى المعاد ﴿ وَأَتَّبَعْتُ مِلَّةَ آبَائِي إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحٰقَ وَيَعْقُوبَ ﴾ الآية ، يقول : هجرت طريق الكفر والشرك ، وسلكت طريق هؤلاء المرسلين ، صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين ، وهكذا يكون حال من سلك طريق الهدى ، واتبع طريق المرسلين ، وأعرض عن طريق الظالمين فإنه يهدى قلبه ويعلمه ما لم يكن يعلمه ، ويجعله إماما يقتدى به فى الخير ، وداعيا إلى سبيل الرشاد .

﴿ مَا كَانَ لَنَا أَنْ نُشْرِكَ بِاللَّهِ مِنْ شَيْءٍ ذٰلِكَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى النَّاسِ ﴾ : هذا التوحيد ، وهو الإقرار بأنه لا إله إلا هو - وحده لا شريك له ﴿ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ عَلَيْنَا ﴾ أى : أوحاه إلينا ، وأمرنا به ﴿ وَعَلَى النَّاسِ ﴾ ، إذ جعلنا دعاء لهم إلى ذلك ﴿ وَلٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴾ أى : لا يعرفون نعمة الله عليهم بإرسال الرسل إليهم ، بل ﴿ بَدَلُوا نِعْمَتَ اللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ ﴾ [إبراهيم : ٢٨] .

﴿ يَصْدِجِي السَّجْنَءَ أَرْبَابٌ مُتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ ﴿٧٩﴾ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا أَسْمَاءٌ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطٰنٍ إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ ذٰلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٨٠﴾ ﴾

ثم إن يوسف ، عليه السلام ، أقبل على الفتيتين بالمخاطبة ، والدعاء لهما إلى عبادة الله وحده لا شريك له وَخَلَعَ مَا سِوَاهُ مِنَ الْأَوْثَانِ التى يعبدها قومهما ، فقال : ﴿ أَرْبَابٌ مُتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ ﴾ أى : الذى ذل كل شىء لعز جلاله ، وعظمة سلطانه . ثم بين لهما أن التى يعبدونها ويسمونها آلهة ، إنما هى جعل منهم ، وتسمية من تلقاء أنفسهم ، تلقاها خلفهم عن سلفهم ، وليس لذلك مستند من عند الله ؛ ولهذا قال : ﴿ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطٰنٍ ﴾ أى : حجة ولا برهان .

ثم أخبرهم أن الحكم والتصرف والمشئة والملك كله لله ، وقد أمر عباده قاطبة ألا يعبدوا إلا إياه ، ثم قال : ﴿ ذٰلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ ﴾ أى : هذا الذى أدعوكم إليه من توحيد الله ، وإخلاص

العمل له، هو الدين المستقيم، الذي أمر الله به وأنزل به الحجة والبرهان الذي يحبه ويرضاه ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أى: فلهذا كان أكثرهم مشركين ﴿وَمَا أَكْثَرَ النَّاسَ لَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ [يوسف: ١٠٣]. وقد جعل سؤالهما له على وجه التعظيم والاحترام وُصْلَةً وَسَبِيلاً إلى دعائهما إلى التوحيد والإسلام، لما رأى فى سجيتهما من قبول الخير والإقبال عليه، والإنصات إليه، ولهذا لما فرغ من دعوتهما، شرع فى تعبير رؤياهما، من غير تكرار سؤال فقال:

﴿يَصْحَبِي السِّجْنِ أَمَّا أَحَدُكُمَا فَيَسْقِي رَبَّهُ خَمْرًا وَأَمَّا الْآخَرُ فَيُصَلِّبُ فَتَأْكُلُ
الطَّيْرُ مِنْ رَأْسِهِ قُضِيَ الْأَمْرُ الَّذِي فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ﴾ ﴿٤١﴾

يقول لهما: ﴿يَا صَاحِبِي السِّجْنِ أَمَّا أَحَدُكُمَا فَيَسْقِي رَبَّهُ خَمْرًا﴾ وهو الذى رأى أنه يعصر خمرًا، ولكنه لم يعينه لثلا يحزن ذاك، ولهذا أبهمه فى قوله: ﴿وَأَمَّا الْآخَرُ فَيُصَلِّبُ فَتَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْ رَأْسِهِ﴾ وهو فى نفس الأمر الذى رأى أنه يحمل فوق رأسه خبزاً. ثم أعلمهما أن هذا قد فرغ منه، وهو واقع لا محالة. وقال عبد الله [بن مسعود]: لما قال ما قال، وأخبرهما، قال: ما رأينا شيئاً. فقال: ﴿قُضِيَ الْأَمْرُ الَّذِي فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ﴾.

﴿وَقَالَ لِلَّذِي ظَنَّ أَنَّهُ نَاجٍ مِّنْهُمَا اذْكُرْنِي عِنْدَ رَبِّكَ فَأَنَسَهُ الشَّيْطَانُ
ذِكْرَ رَبِّهِ فَلَبِثَ فِي السِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ﴾ ﴿٤٢﴾

ولما ظن يوسف، عليه السلام، أن الساقى ناج قال له يوسف خفية عن الآخر والله أعلم، لثلا يشعره أنه المصلوب قال له: ﴿اذْكُرْنِي عِنْدَ رَبِّكَ﴾، يقول: اذكر قصتى عند الملك، ففسى ذلك الموصى أن يذكّر مولاه بذلك، وكان من جملة مكاييد الشيطان، لثلا يطلع نبى الله من السجن. وأما «البضع»، فقال مجاهد وقتادة: هو ما بين الثلاث إلى التسع. وقال وهب بن منبه: مكث أيوب فى البلاء سبعاً، ويوسف فى السجن سبعاً.

﴿وَقَالَ الْمَلِكُ إِنِّي أَرَى سَبْعَ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعٌ سُذُبَاتٍ
خُضِرٌ وَأُخْرَ يَأْسَتْنَ يَتَأَيَّبَنَ الْمَلَأُ أَفْتُونٍ فِي رُءُوسِي إِنْ كُنْتُمْ لِلرُّءُوسِيَاءِ تَعَدُّونَ﴾ ﴿٤٣﴾
قَالُوا أَضْغَنْتُ أَحْلِبٌ وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ الْأَحْلَامِ بِعَالَمِينَ﴾ ﴿٤٤﴾ وَقَالَ الَّذِي نَجَا مِنْهُمَا وَادَّكَرَ
بَعْدَ أُمَّةٍ أَنَا أُنَبِّئُكُمْ بِتَأْوِيلِهِ فَأَرْسِلُونِ﴾ ﴿٤٥﴾ يُوسُفُ أَيُّهَا الصِّدِّيقُ أَفْتِنَا فِي سَبْعِ
بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعِ سُذُبَاتٍ خُضِرٍ وَأُخْرَ يَأْسَتْنَ لَعَلِّي أَرْجِعُ إِلَى
النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ ﴿٤٦﴾ قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَابًّا فَمَا حَصَدْتُمْ فَذَرُوهُ فِي سُنْبُلِهِ
إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تَأْكُلُونَ﴾ ﴿٤٧﴾ ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ إِلَّا قَلِيلًا
مِّمَّا تُحْصِنُونَ﴾ ﴿٤٨﴾ ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ النَّاسُ وَفِيهِ يَعْرِصُونَ﴾ ﴿٤٩﴾

هذه الرؤيا من مَلِكِ مصرَ مما قَدَّرَ اللهُ تعالى أنها كانت سبباً لخروج يوسفَ ، عليه السلام ، من السجن مُعَزَّزاً مكرماً ، وذلك أن المَلِكَ رأى هذه الرؤيا ، فهالته وتَعَجَّبَ من أمرها ، وما يكون تفسيرها ، فجمع الكهنة وكبراء دولته وأمرأه وَقَصَّ عليهم ما رأى ، وسألهم عن تأويلها ، فلم يعرفوا ذلك ، واعتذروا إليه بأنها ﴿ أَضْغَاثُ أَحْلَامٍ ﴾ أى : أخطاقت اقتضت رؤياك هذه ﴿ وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ الْأَحْلَامِ بِعَالَمِينَ ﴾ أى : ولو كانت رؤيا صحيحة من أخطاقت ، لما كان لنا معرفة بتأويلها ، وهو تعبيرها . فعند ذلك تَذَكَّرَ ذلك الذى نجا من ذينك الفتين اللذين كانا فى السجن مع يوسف ، وكان الشيطان قد أنساه ما وصَّاه به يوسف ، من ذكر أمره للملك ، فعند ذلك تذكر ﴿ بَعْدَ أُمَّةٍ ﴾ أى : مدة - وقرأ بعضهم : « بعد أُمَّة » أى : بعد نسيان ، فقال للملك والذين جمعهم لذلك : ﴿ أَنَا أَنْبِئُكُمْ بِتَأْوِيلِهِ ﴾ أى : بتأويل هذا المنام ﴿ فَأَرْسَلُونِ ﴾ أى : فابعثون إلى يوسف الصديق إلى السجن . ومعنى الكلام : فبعثوا ، فجاءه فقال : ﴿ يَوْسُفُ أَيُّهَا الصِّدِّيقُ أَفْتِنَا ﴾ ، وذكر المنام الذى رآه الملك ، فعند ذلك ذكر له يوسف ، عليه السلام ، تعبيرها من غير تعنيف لذلك الفتى فى نسيانه ما وصَّاه به ، ومن غير اشتراط للخروج قبل ذلك ، بل قال : ﴿ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَابًّا ﴾ أى : يأتىكم الخصب والمطر سبع سنين متواليات ، ففسر البقر بالسنين ؛ لأنها تثير الأرض التى تُسْتَغَلُّ منها الثمرات والزررع ، وهن السنبلات الخضر

ثم أرشدهم إلى ما يعتمدونه فى تلك السنين فقال : ﴿ فَمَا حَصَدْتُمْ فَذَرُوهُ فِي سُنْبُلِهِ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّا تَأْكُلُونَ ﴾ أى : مهما استغللتهم فى هذه السبع السنين الخصب فاخزنوه فى سنبله ، ليكون أبقى له وأبعد عن إسراع الفساد إليه ، إلا المقدار الذى تأكلونه ، وليكن قليلاً قليلاً لا تسرفوا فيه ، لتتنفخوا فى السبع الشداد ، وهن السبع السنين المُحَلُّ التى تعقب هذه السبع متواليات ، وهن البقرات العجاف اللاتى يأكلن السَّمَانَ ؛ لأن سنى الجَدْبِ يؤكل فيها ما جَمَعُوهُ فى سنى الخصب ، وهن السنبلات اليابسات . وأخبرهم أنهم لا ينبتن شيئاً ، وما بذروه فلا يرجعون منه إلى شئ ؛ ولهذا قال : ﴿ يَا كَلِمَةَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّا تَحْصُونَ ﴾ .

ثم بشرهم بعد الجَدْبِ العام المتوالى بأنه يعقبهم بعد ذلك ﴿ عَامٍ فِيهِ يُغَاثُ النَّاسُ ﴾ أى : يأتىهم الغيث ، وهو المطرُ ، وتُغَلُّ البلاد ، ويعصرُ الناس ما كانوا يعصرون على عادتهم ، من زيت ونحوه ، وسكر ونحوه حتى قال بعضهم : يدخل فيه حلب اللبن أيضاً . قال ابن عباس : ﴿ فِيهِ يَعْصِرُونَ ﴾ : يحلبون .

﴿ وَقَالَ الْمَلِكُ آتُونِي بِهِ فَلَمَّا جَاءَهُ الرَّسُولُ قَالَ أَرْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ فَسْأَلْهُ مَا بَالُ النَّسْوَةِ الَّتِي قَطَعْنَ أَيْدِيَهُنَّ إِنَّ رَبِّي بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ ﴿٥٠﴾ قَالَ مَا خَطْبُكَ إِنَّ دِرَّادُونَ يُوسُفَ عَنِ نَفْسِهِ قُلْتُ حَسَّ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِنْ سُوءٍ قَالَتِ امْرَأَتُ الْعَزِيزِ الْقَنْتَنُ حَصَّ الْحَقُّ أَنَا رَاودْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٥١﴾ ذَلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ ﴿٥٢﴾ وَمَا أُبْرِئُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَجَعْتُمْ رَبِّي إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٥٣﴾ ﴾

يقول تعالى إخباراً عن الملك لما رجعوا إليه بتعبير رؤياه، التي كان رآها، بما أعجبه وأينقه، فعرف فضل يوسف، عليه السلام، وعلمه وحسن أخلاقه على من يبلده من رعاياه، فقال : ﴿ ائْتُونِي بِهِ ﴾ أى: أخرجوه من السجن وأحضروه. فلما جاءه الرسول بذلك امتنع من الخروج حتى يتحقق الملك ورعيته براءة ساحته، ونزاهة عرضه، مما نسب إليه من جهة امرأة العزيز، وأن هذا السجن لم يكن على أمر يقتضيه، بل كان ظلماً وعدواناً، فقال: ﴿ ارجعْ إِلَيَّ رَبِّكَ فَاسْأَلْهُ مَا بَالُ النِّسْوَةِ اللَّاتِي قَطَعْنَ أَيْدِيَهُنَّ إِنَّ رَبِّي بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ ﴾. وقد وردت السنة بمدحه على ذلك، والتبئيه على فضله وشرفه، وعُلُو قدره وصبره، صلوات الله وسلامه عليه، ففى المسند والصحيحين عن أبي هريرة، قال : قال رسول الله ﷺ : « نحن أحق بالشك من إبراهيم إذ قال ﴿ رَبِّ ائْرِنِي كَيْفَ تُخَيِّمُ الْمَوْتَى قَالَ أَوْلَمْ تُؤْمِن قَال بَلَىٰ وَلَكِنْ لِيَطْمَئِن قَلْبِي ﴾ [البقرة: ٢٦٠]، ويرحم الله لوطاً لقد كان يأوى إلى ركن شديد، ولو لبثت فى السجن ما لبث يوسف لأجبت الداعى » (١).

وقوله تعالى: ﴿ قَالَ مَا خَطْبُكُمْ إِذْ رَاوَدْتُنَّ يُوسُفَ عَن نَّفْسِهِ ﴾: إخبار عن الملك حين جمع النسوة اللاتي قطعن أيديهن عند امرأة العزيز، فقال مخاطباً لهن كلهن - وهو يريد امرأة العزيز: ﴿ مَا خَطْبُكُمْ ﴾ أى: شأنكن وخبركن ﴿ إِذْ رَاوَدْتُنَّ يُوسُفَ عَن نَّفْسِهِ ﴾ يعنى: يوم الضيافة؟ ﴿ قُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِنْ سُوءٍ ﴾ أى: قالت النسوة جواباً للملك: حاش لله أن يكون يوسف متهماً، والله ما علمنا عليه من سوء. فعند ذلك ﴿ قَالَتِ امْرَأَتُ الْعَزِيزِ الْآنَ حَصْحَصَ الْحَقُّ ﴾ قال ابن عباس، ومجاهد، وغير واحد: تقول الآن: تبين الحق وظهر وبرز. ﴿ أَنَا رَاوَدْتُهُ عَن نَّفْسِهِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ ﴾ أى: فى قوله: ﴿ هِيَ رَاوَدْتَنِي عَن نَّفْسِي ﴾. ﴿ ذَلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ ﴾ تقول: إنما اعترفت بهذا على نفسى، ذلك ليعلم زوجى أن لم أخنه فى نفس الأمر، ولا وقع المحذور الأكبر، وإنما راودت هذا الشاب مراودة، فامتنع؛ فلهذا اعترفت ليعلم أنى بريئة ﴿ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ . وَمَا أُبْرَأُ نَفْسِي ﴾ تقول المرأة: ولست أبرئ نفسى، فإن النفس تتحدث وتمتنى؛ ولهذا راودته لأنها أماره بالسوء ﴿ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي ﴾ أى: إلا من عصمه الله تعالى ﴿ إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾. وهذا القول هو الأشهر والأليق والأنسب بسياق القصة ومعانى الكلام. وقد حكاه الماوردى فى تفسيره، وانتدب لنصره الإمام العلامة أبو العباس ابن تيمية، رحمه الله وقد قيل: إن ذلك من كلام يوسف، عليه السلام، من قوله: ﴿ ذَلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ ﴾ فى زوجته ﴿ بِالْغَيْبِ ﴾ الآيتين أى: إنما رددت الرسول ليعلم الملك براءتى وليعلم العزيز ﴿ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ ﴾ فى زوجته ﴿ بِالْغَيْبِ ﴾، ﴿ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ . وَمَا أُبْرَأُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ ﴾ وهذا القول هو الذى لم يحك ابن جرير ولا ابن أبى حاتم سواه. وهكذا قال مجاهد، وسعيد بن جبير، والحسن، وقتادة، وغيرهم. والقول الأول أقوى وأظهر؛ لأن سياق الكلام كله من كلام امرأة العزيز بحضرة الملك، ولم يكن يوسف، عليه السلام، عندهم، بل بعد ذلك أحضره الملك.

(١) المسند (٨٣١١)، والبخارى (٤٦٩٤)، ومسلم (٢٣٨/١٥١).

﴿٥٤﴾ قَالَ أَلْمَلِكُ أَتُونِي بِهِ اسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِي فَلَمَّا كَلَّمَهُ قَالَ إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ ﴿٥٥﴾ قَالَ اجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ ﴿٥٦﴾

يقول تعالى إخباراً عن الملك حين تحقق براءة يوسف، عليه السلام، ونزاهة عرضه بما نسب إليه، قال: ﴿أتوني به استخلصه لنفسى﴾ أى: اجعله من خاصتى وأهل مشورتى ﴿فلما كلمه﴾ أى: خاطبه الملك وعرفه، ورأى فضله وبراعته، وعلم ما هو عليه من خلق وخلق وكمال قال له الملك: ﴿إنك اليوم لدينا مكين أمين﴾ أى: إنك عندنا قد بقيت ذا مكانة وأمانة، فقال يوسف، عليه السلام: ﴿اجعلني على خزائن الأرض إني حفيظ عليم﴾ مدح نفسه، ويجوز للرجل ذلك إذا جهل أمره، للحاجة. وذكر أنه ﴿حفيظ﴾ أى: خازن أمين ﴿عليم﴾ ذو علم وبصر بما يتولاه. وسأل العمل لعلمه بقدرته عليه، ولما فى ذلك من المصالح للناس، وإنما سأل أن يجعل على خزائن الأرض، وهى الأهرام التى يجمع فيها الغلات، لما يستقبلونه من السنين التى أخبرهم بشأنها، ليتصرف لهم على الوجه الأحوط والأصلح والأرشد، فأجيب إلى ذلك رغبة فيه، وتكرمة له؛ ولهذا قال تعالى:

﴿٥٦﴾ وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ يَتَّبِعُونَ أَهْلَهُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَاءُ نُفَصِّلُ الْبَرَكَاتِ لِمَنْ يَشَاءُ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ﴿٥٧﴾ وَلَا جُرْأَقَ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِلَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَنْقُوتُونَ ﴿٥٨﴾

يقول تعالى: ﴿وكذلك مكنا ليوسف فى الأرض﴾ أى: أرض مصر ﴿يتبعونها﴾ أى: يتصرف فيها كيف يشاء، وقال ابن جرير: يتخذ منها منزلاً حيث يشاء بعد الضيق والحسب والإسار ﴿نضيب برحمتنا من نشاء ولا نضيع أجر المحسنين﴾ أى: وما أضعنا صبر يوسف على أذى إخوته، وصبره على الحسب بسبب امرأة العزيز؛ فلهذا أعقبه الله عز وجل السلامة والنصر والتأييد ﴿ولا نضيع أجر المحسنين﴾. ولأجر الآخرة خير للذين آمنوا وكانوا يتقون ﴿يخبر تعالى أن ما ادخره الله لنبيه يوسف، عليه السلام، فى الدار الآخرة أعظم وأكثر وأجل، مما حوله من التصرف والنفوذ فى الدنيا كما قال تعالى فى حق سليمان، عليه السلام: ﴿هذا عطاؤنا فامنن أو أمسك بغير حساب﴾. وإن له عندنا لولفى وحسن مآب ﴿[ص: ٣٩، ٤٠].

والغرض: أن يوسف، عليه السلام، ولأهه ملك مصر الريان بن الوليد الوزارة فى بلاد مصر، مكان الذى اشتراه من مصر زوج التى راودته، وأسلم الملك على يدى يوسف، عليه السلام. قاله مجاهد.

﴿٥٨﴾ وَجَاءَ إِخْوَتَهُ يُوَسِّفُ فَدْخَلُوا عَلَيْهِ فَعَرَفَهُمْ وَهُمْ لَهُ مُنْكَرُونَ ﴿٥٩﴾ وَلَمَّا جَهَّزَهُمْ بِجَهَّازِهِمْ قَالَ أَتُونِي بِأَخٍ لَكُمْ مِنَ أَبِيكُمْ أَلَا تَرَوْنَ أَنِّي أَوْفَى الْكَيْلِ وَأَنَا خَيْرُ الْمُنْزِلِينَ ﴿٦٠﴾ فَإِنْ لَمْ تَأْتُونِي بِهِ فَلَا كَيْلَ لَكُمْ عِنْدِي وَلَا تَقْرَبُونَنِي ﴿٦١﴾ قَالُوا سَنُرْوِدُ عَنْهُ أَبَاهُ وَإِنَّا لَفَاعِلُونَ ﴿٦٢﴾ وَقَالَ لِفَتْنِهِ اجْعَلُوا بضعنهم فى رحالهم لعلهم يعرفونها إذا أنقلبوا إلى أهلهم لعلهم يرجعون ﴿٦٣﴾

ذكر السدّي، ومحمد بن إسحاق، وغيرهما من المفسرين: أن السبب الذي أقدم إخوة يوسف بلاد مصر، أن يوسف، عليه السلام، لما باشر الوزارة بمصر، ومضت السبع السنين المخضبة، ثم تلتها سنين الجذب، وعمّ القحط بلاد مصر بكمالها، ووصل إلى بلاد كنعان، وهى التى فيها يعقوب، عليه السلام، وأولاده. وحينئذ احتاط يوسف، عليه السلام، للناس فى غلاتهم، وجمعها أحسن جمع، فحصل من ذلك مبلغ عظيم، وورد عليه الناس من سائر الأقاليم والمعاملات، يمتارون لأنفسهم وعيالهم، وكان رحمة من الله على أهل مصر.

والغرض: أنه كان فى جملة من ورد للميرة إخوة يوسف، عن أمر أبيهم لهم فى ذلك، فإنه بلغهم أن عزيز مصر يعطى الناس الطعام بثمنه، فأخذوا معهم بضاعة يعتاضون بها طعاما، وركبوا عشرة نفر، واحتبس يعقوب، عليه السلام، عنده بنيامين شقيق يوسف، عليه السلام، وكان أحب ولده إليه بعد يوسف. فلما دخلوا على يوسف، وهو جالس فى أبيته ورياسته وسيادته، عرفهم حين نظر إليهم ﴿ وَهُمْ لَهُ مُنْكَرُونَ ﴾ أى: لا يعرفونه؛ لأنهم فارقوه وهو صغير حدث فباعوه للسيارة، ولم يدروا أين يذهبون به، ولا كانوا يستشعرون فى أنفسهم أن يصير إلى ما صار إليه، فهذا لم يعرفوه، وأما هو فعرفهم. فذكر السدّي وغيره: أنه شرع يخاطبهم، فقال لهم: من أين أنتم؟ قالوا: من بلاد كنعان، وأبونا يعقوب نبي الله. قال: وله أولاد غيركم؟ قالوا: نعم، كنا اثني عشر، فذهب أصغرنا، هلك فى البرية، وكان أحبنا إلى أبيه، وبقي شقيقة فاحتبس أبوه ليتسلى به عنه. فأمر بإنزالهم وإكرامهم.

﴿ وَلَمَّا جَهَّزَهُمْ بِجَهَّازِهِمْ ﴾ أى: وفأهم كيلهم، وحمل لهم أحمالهم قال: اتنوني بأخيكم هذا الذى ذكرتم، لأعلم صدقكم فيما ذكرتم ﴿ أَلَا تَرَوْنَ أَنِّي أُوْفِي الْكَيْلَ وَأَنَا خَيْرُ الْمُنْزِلِينَ ﴾ يرغبهم فى الرجوع إليه، ثم رهبهم فقال: ﴿ فَإِنْ لَمْ تَأْتُونِي بِهِ فَلَا كَيْلَ لَكُمْ عِنْدِي وَلَا تَقْرَبُون ﴾ أى: إن لم تقدموا به معكم فى المرة الثانية، فليس لكم عندى ميرة ﴿ قَالُوا سَوَّادُ عَنَّا أَبَاهُ وَإِنَّا لَفَاعِلُونَ ﴾ أى: سنحرص على مجيئه إليك بكل ممكن ولا نبقى مجهودا لتعلم صدقنا فيما قلناه. ﴿ وَقَالَ لِفَتِيهِ (١) ﴾ أى: غلامانه ﴿ اجْعَلُوا بِضَاعَتَهُمْ ﴾ وهى التى قدموا بها ليمتاروا عوضاً عنها ﴿ فِي رِحَالِهِمْ ﴾ أى: فى أمتعتهم من حيث لا يشعرون ﴿ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾ بها. قيل: خشى يوسف، عليه السلام، ألا يكون عندهم بضاعة أخرى يرجعون للميرة بها. وقيل: أراد أن يردهم إذا وجدوها فى متاعهم تخرجاً وتورعاً لأنه يعلم ذلك منهم والله أعلم.

﴿ فَلَمَّا رَجَعُوا إِلَىٰ أَبِيهِمْ قَالُوا يَا أَبَانَا مُنِعَ مِنَّا الْكَيْلُ فَأَرْسِلْ مَعَنَا آخَانَا نَكْتَلْ وَإِنَّا لَمُحْفِظُونَ ﴿١٢﴾ قَالَ هَلْ ءَامَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلَّا كَمَا ءَامَنُكُمْ عَلَىٰ أَخِيهِ مِن قَبْلُ فَاللَّهُ خَيْرٌ حَفِظًا وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴿١٣﴾ ﴾

(١) كذا فى المخطوطة، وهى قراءة المحافظ ابن كثير وبقية السبعة غير حفص وحزمة والكسائى فإنهم قرؤوها:

يخبر تعالى عنهم أنهم لما رجعوا إلى أبيهم ﴿ قَالُوا يَا أَبَانَا مَنَعَنَا الْكَيْلَ ﴾ يعنون بعد هذه المرة، إن لم ترسل معنا أخانا بنيامين، فأرسله معنا نكتل . ﴿ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾ أى : لا تخف عليه فإنه سيرجع إليك . وهذا كما قالوا له فى يوسف : ﴿ أَرْسِلْهُ مَعَنَا غَدًا نَرْتَعِ وَنَلْعَبُ ﴾ (١) وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾ ؛ ولهذا قال لهم : ﴿ هَلْ أَمْنُكُمْ عَلَيْهِ إِلَّا كَمَا أَمْنُكُمْ عَلَىٰ أَخِيهِ مِن قَبْلُ ﴾ أى : هل أنتم صانعون به إلا كما صنعتم بأخيه من قبل، تغيّبونه عنى ، وتحولون بينى وبينه ؟ ﴿ فَاللَّهُ خَيْرٌ حَافِظًا وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴾ أى : هو أرحم الراحمين بى ، وسيرحم كبرى وضعفى ووجدى بولدى، وأرجو من الله أن يرده على، ويجمع شملى به، إنه أرحم الراحمين

﴿ وَلَمَّا فَتَحُوا مَتَاعَهُمْ وَجَدُوا بِضَاعَتَهُمْ رُدَّتْ إِلَيْهِمْ قَالُوا يَا أَبَانَا مَا نَبِغِي هَذِهِ بِضَاعَتُنَا رُدَّتْ إِلَيْنَا وَنَمِيرُ أَهْلَنَا وَنَحْفَظُ أَخَانَا وَنَزِدَادُ كَيْلٍ بَعِيرٍ ذَلِكَ كَيْلٌ سَيِّئٌ ﴿١٥﴾ قَالَ لَنْ أَرْسِلَهُ مَعَكُمْ حَتَّىٰ تُؤْتُونِ مَوْثِقًا مِنَ اللَّهِ لَتَأْتُنَّنِي بِهِ إِلَّا أَن يُحَاطَ بِكُمْ فَلَمَّا آتَوْهُ مَوْثِقَهُمْ قَالَ اللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ ﴿١٦﴾ ﴾

يقول تعالى : ولما فتح إخوة يوسف متاعهم وجدوا بضاعتهم ردت إليهم، وهى التى كان أمر يوسف فتياته بوضعها فى رحالهم، فلما وجدوها فى متاعهم ﴿ قَالُوا يَا أَبَانَا مَا نَبِغِي ﴾ ؟ أى : ماذا نريد ؟ ﴿ هَذِهِ بِضَاعَتُنَا رُدَّتْ إِلَيْنَا ﴾ كما قال قتادة . ما نبغى وراء هذا ؟ إن بضاعتنا ردت إلينا وقد أوفى لنا الكيل ﴿ وَنَمِيرُ أَهْلَنَا ﴾ أى : إذا أرسلت أخانا معنا نأتى بالميرة إلى أهلنا ﴿ وَنَحْفَظُ أَخَانَا وَنَزِدَادُ كَيْلٍ بَعِيرٍ ﴾ وذلك أن يوسف، عليه السلام، كان يعطى كل رجل حمل بعير ﴿ ذَلِكَ كَيْلٌ سَيِّئٌ ﴾ : هذا من تمام الكلام وتحسينه ، أى : إن هذا يسير فى مقابلة أخذ أخيهم ما يعدل هذا . ﴿ قَالَ لَنْ أَرْسِلَهُ مَعَكُمْ حَتَّىٰ تُؤْتُونِ مَوْثِقًا مِنَ اللَّهِ ﴾ أى : تحلفون بالعهد والمواثيق ﴿ لَتَأْتُنَّنِي بِهِ إِلَّا أَن يُحَاطَ بِكُمْ ﴾ إلا أن تغلبوا كلكم ولا تقدرتون على تخليصه ﴿ فَلَمَّا آتَوْهُ مَوْثِقَهُمْ ﴾ أكده عليهم فقال : ﴿ اللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ ﴾ قال ابن إسحاق : وإنما فعل ذلك ؛ لأنه لم يجد بدا من بعثهم لأجل الميرة، التى لا غنى لهم عنها، فبعثه معهم .

﴿ وَقَالَ يَبْنَئِي لَا تَدْخُلُوا مِن بَابٍ وَاحِدٍ وَأَدْخُلُوا مِن أَبْوَابٍ مُّتَفَرِّقَةٍ وَمَا أَغْنَىٰ عَنْكُمْ مَنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ ﴿١٧﴾ وَلَمَّا دَخَلُوا مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُمْ أَبُوهُم مَّا كَانَ يُغْنِي عَنْهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا حَاجَةٌ فِي نَفْسِ يَعْقُوبَ قَضَاهَا وَإِنَّهُ لَدُوٌّ عَلَيْهِ لَمَّا عَلِمَنَّهُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨﴾ ﴾

يقول تعالى إخبارا عن يعقوب، عليه السلام: إنه أمر بنيه لما جهزهم مع أخيهم بنيامين إلى مصر، ألا يدخلوا كلهم من باب واحد، وليدخلوا من أبواب متفرقة، فإنه كما قال ابن عباس، وقتادة، والسدّي وغيرهم: إنه خشى عليهم العين، وذلك أنهم كانوا ذوى جمال وهيئة حسنة، ومنظر وبهاء، فخشى عليهم أن يصيبهم الناس بعيونهم؛ فإن العين حق، تستنزل الفارس عن فرسه.

وقوله: ﴿وَمَا أَغْنِي عَنْكُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ﴾ أى: هذا الاحتراز لا يرد قدر الله وقضائه؛ فإن الله إذا أراد شيئا لا يخالف ولا يمانع ﴿إِنَّ الْحُكْمَ لِلَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ﴾. ولما دخلوا من حيث أمرهم أبوه ما كان يغني عنهم من الله من شيء إلا حاجة في نفس يعقوب قضاها ﴿قالوا: هى دفع إصابة العين لهم﴾ وإِنَّهُ لُدُو عِلْمٍ لَمَّا عَلَّمْنَاهُ ﴿قال قتادة والثورى: لدو عمل بعلمه. وقال ابن جرير: لدو علم لتعليمنا إياه﴾ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿.

﴿وَلَمَّا دَخَلُوا عَلَى يُوسُفَ آوَىٰ إِلَيْهِ أَخَاهُ قَالَ إِنِّي أَنَا أَخُوكَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾

يخبر تعالى عن إخوة يوسف لما قدموا على يوسف ومعهم أخوه شقيقه بنيامين، فأدخلهم دار كرامته ومنزل ضيافته، وأفاض عليهم الصلة والإلطف والإحسان، واختلى بأخيه فأطلعه على شأنه، وما جرى له، وعرفه أنه أخوه، وقال له: لا تبتئس، أى: لا تأسف على ما صنعوا بى، وأمره بكتمان ذلك عنهم، وألا يطلعهم على ما أطلعه عليه من أنه أخوه، وتواطأ معه أنه سيحتال على أن يبقيه عنده، مُعَزِّزًا مَكْرَمًا معظما.

﴿فَلَمَّا جَهَّزَهُمْ بِجَهَّازِهِمْ جَعَلَ السَّقَايَةَ فِي رَحْلِ أُخِيهِ ثُمَّ أَدْنَىٰ أُذُنَ مُؤَدِّنِ أَيَّتْهَا الْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسَارِقُونَ﴾ ﴿٧٧﴾ قَالُوا وَأَقْبِلُوا عَلَيْهِمْ مَاذَا تَفْقَدُونَ ﴿٧٨﴾ قَالُوا نَفَقْدُ صُورَاعَ الْمَلِكِ وَلِمَنْ جَاءَ بِهِ حِمْلُ بَعِيرٍ وَأَنَا بِهِ زَعِيمٌ ﴿٧٩﴾

لما جهزهم وحمل لهم أبعرتهم طعاما، أمر بعض فتياته أن يضع ﴿السَّقَايَةَ﴾ وهى: إناء من فضة، فى قول الأكثرين. وقيل: من ذهب كان يشرب فيه، ويكيل للناس به من عزة الطعام، فوضعها فى متاع بنيامين من حيث لا يشعر أحد، ثم نادى مناد بينهم: ﴿أَيَّتْهَا الْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسَارِقُونَ﴾ فالتفتوا إلى المنادى وقالوا: ﴿مَاذَا تَفْقَدُونَ. قَالُوا نَفَقْدُ صُورَاعَ الْمَلِكِ﴾ أى: صاعه الذى يكيل به ﴿وَلِمَنْ جَاءَ بِهِ حِمْلُ بَعِيرٍ﴾ وهذا من باب الجعالة ﴿وَأَنَا بِهِ زَعِيمٌ﴾ وهذا من باب الضمان والكفالة.

﴿ قَالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ عَلِمْتُمْ مَا جِئْنَا لِنُفْسِدَ فِي الْأَرْضِ وَمَا كُنَّا سَارِقِينَ ﴾ ﴿٧٣﴾ قَالُوا
فَمَا جَزَاؤُهُ إِنْ كُنْتُمْ كَاذِبِينَ ﴿٧٤﴾ قَالُوا جَزَاؤُهُ مَنْ وَجَدَ فِي رَحْلِهِ فَهُوَ جَزَاؤُهُ كَذَلِكَ
نَجْزِي الظَّالِمِينَ ﴿٧٥﴾ فَبَدَأَ بِأَوْعِيَّتِهِمْ قَبْلَ وِعَاءِ أَخِيهِ ثُمَّ اسْتَخْرَجَهَا مِنْ وِعَاءِ أَخِيهِ
كَذَلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ الْمَلِكِ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ نَرْفَعُ
دَرَجَاتٍ مَن نَّشَاءُ وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ ﴿٧٦﴾ ﴿٧٦﴾

لما اتهمهم أولئك الفتيان بالسرقة، قال لهم إخوة يوسف: ﴿ تَاللَّهِ لَقَدْ عَلِمْتُمْ مَا جِئْنَا لِنُفْسِدَ فِي الْأَرْضِ ﴾ أى : لقد تحققتم وعلمتم منذ عرفتمونا ، لأنهم شاهدوا منهم سيرة حسنة ، أنا ما جئنا للفساد فى الأرض ﴿ وَمَا كُنَّا سَارِقِينَ ﴾ أى : ليست سجايانا تقتضى هذه الصفة، فقال لهم الفتيان: ﴿ فَمَا جَزَاؤُهُ ﴾ أى: السارق، إن كان فيكم ﴿ إِنْ كُنْتُمْ كَاذِبِينَ ﴾ أى: أى شىء يكون عقوبته إن وجدنا فيكم من أخذه؟ ﴿ قَالُوا جَزَاؤُهُ مَنْ وَجَدَ فِي رَحْلِهِ فَهُوَ جَزَاؤُهُ كَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ ﴾. وهكذا كانت شريعة إبراهيم عليه السلام : أن السارق يدفع إلى المسروق منه. وهذا هو الذى أراد يوسف، عليه السلام؛ ولهذا بدأ بأوعيتهم قبل وعاء أخيه، أى: فنشأها قبله، تورية ﴿ ثُمَّ اسْتَخْرَجَهَا مِنْ وِعَاءِ أَخِيهِ ﴾ فأخذه منهم بحكم اعترافهم والتزامهم وإلزاما لهم بما يعتقدونه؛ ولهذا قال تعالى: ﴿ كَذَلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ ﴾ وهذا من الكيد المحبوب المراد الذى يحبه الله ويرضاه، لما فيه من الحكمة والمصلحة المطلوبة.

وقوله: ﴿ مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ الْمَلِكِ ﴾ أى: لم يكن له أخذه فى حكم ملك مصر، وإنما قبض الله له أن التزم له إخوته بما التزموه، وهو كان يعلم ذلك من شريعتهم؛ ولهذا مدحه تعالى فقال: ﴿ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَن نَّشَاءُ ﴾، كما قال تعالى: ﴿ يَرْفَعُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴾ [المجادلة: ١١]. ﴿ وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ ﴾ قال الحسن البصرى: ليس عالم إلا فوqe عالم، حتى ينتهى إلى الله عز وجل. وعن ابن عباس قال: يكون هذا أعلم من هذا، وهذا أعلم من هذا، والله فوق كل عالم.

﴿ قَالُوا إِنْ يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَّهُ مِنْ قَبْلُ فَأَسْرَهَا يُوسُفُ فِي نَفْسِهِ وَلَمْ يَبْدِهَا لَهُمْ قَالَ أَنْتُمْ شَرٌّ مَّكَانًا وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَصِفُونَ ﴾ ﴿٧٧﴾ ﴿٧٧﴾

وقال إخوة يوسف لما رأوا الصواع قد أخرج من متاع بنيامين : ﴿ إِنْ يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَّهُ مِنْ قَبْلُ ﴾ يتصلون إلى العزيز من التشبه به، ويذكرون أن هذا فعل كما فعل أخ له من قبل، يعنون به يوسف ، عليه السلام . قال سعيد بن جبير وقتادة : كان يوسف قد سرق صنما لجده، أبى أمه، فكسره. وقوله: ﴿ فَأَسْرَهَا يُوسُفُ فِي نَفْسِهِ ﴾ يعنى: الكلمة التى بعدها، وهى قوله: ﴿ أَنْتُمْ شَرٌّ مَّكَانًا وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَصِفُونَ ﴾ أى: تذكرون. قال هذا فى نفسه، ولم يبدئه لهم، وهذا من باب الإضمار قبل الذكر . وله شواهد كثيرة من القرآن والحديث واللغة .

﴿ قَالُوا يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ إِنَّ لَهُ أَبًا شَيْخًا كَبِيرًا فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُ إِنَّا نَرْنَكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ ﴾ ﴿٧٨﴾ قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ أَنْ نَأْخُذَ إِلَّا مَنْ وَجَدْنَا مَتَّعَيْنًا عِنْدَهُ إِنَّا إِذَا نَظَلِمُونَ ﴿٧٩﴾

لما تعين أخذ بنيامين وتقرر تركه عند يوسف بمقتضى اعترافهم، شرعوا يترققون له ويعطفونه عليهم، ف ﴿ قَالُوا يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ إِنَّ لَهُ أَبًا شَيْخًا كَبِيرًا ﴾ يعنون: وهو يحبه حبا شديدا ويتسلى به عن ولده الذى فقده ﴿ فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُ ﴾ أى : بدله ، يكون عندك عوضاً عنه ﴿ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ ﴾ أى: من العادلين المنصفين القابلين للخير ﴿ قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ أَنْ نَأْخُذَ إِلَّا مَنْ وَجَدْنَا مَتَّعَيْنًا عِنْدَهُ ﴾ كما قلتم واعترفتم ﴿ إِنَّا إِذَا نَظَلِمُونَ ﴾ إن اخذنا بريئا بسقيم.

﴿ فَلَمَّا اسْتَيْسَسُوا مِنْهُ خَلَصُوا نَجِيًّا قَالَ كَبِيرُهُمْ أَلَمْ تَعْلَمُوا أَنَّ أَبَاكُمْ قَدْ أَخَذَ عَلَيْكُمْ مَوْثِقًا مِنَ اللَّهِ وَمِنْ قَبْلُ مَا فَرَّطْتُمْ فِي يُوسُفَ فَلَنْ أَبْرَحَ الْأَرْضَ حَتَّى يَأْذَنَ لِي أَبِي أَوْ يَحْكُمَ اللَّهُ لِي وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ ﴾ ﴿٨٠﴾ أَرْجِعُوا إِلَىٰ آبَائِكُمْ فَقُولُوا يَا أَبَانَا إِنَّكَ ابْنُكَ سَرَقَ وَمَا شَهِدْنَا إِلَّا بِمَا عَلَّمَنَا وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَافِظِينَ ﴿٨١﴾ وَسَلِّ الْقَرْيَةَ الَّتِي كُنَّا فِيهَا وَالْعِيرَ الَّتِي أَقْبَلْنَا فِيهَا وَإِنَّا لَصَادِقُونَ ﴿٨٢﴾

يخبر تعالى عن إخوة يوسف: أنهم لما يشسوا من تخلص أخيهم بنيامين، الذى قد التزموا لآبئهم برده إليه، وعاهدوه على ذلك، فامتنع عليهم ذلك ﴿ خَلَصُوا ﴾ أى: انفردوا عن الناس ﴿ نَجِيًّا ﴾ يتناجون فيما بينهم. ﴿ قَالَ كَبِيرُهُمْ ﴾ وهو رؤوبيل ، وهو الذى أشار عليهم بإلقائه فى البئر عندما هموا بقتله ، قال لهم : ﴿ أَلَمْ تَعْلَمُوا أَنَّ أَبَاكُمْ قَدْ أَخَذَ عَلَيْكُمْ مَوْثِقًا مِنَ اللَّهِ ﴾ لتردنه إليه ، فقد رأيتم كيف تعذر عليكم ذلك مع ما تقدم لكم من إضاعة يوسف عنه ﴿ فَلَنْ أَبْرَحَ الْأَرْضَ ﴾ أى: لن أفارق هذه البلدة ﴿ حَتَّى يَأْذَنَ لِي أَبِي ﴾ فى الرجوع إليه راضياً عنى ﴿ أَوْ يَحْكُمَ اللَّهُ لِي ﴾ قيل: بالسيف. وقيل : بأن يمكننى من أخذ أخى ﴿ وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ ﴾.

ثم أمرهم أن يخبروا آباهم بصورة ما وقع، حتى يكون عذرا لهم عنده ويتصلوا إليه، ويبرؤوا مما وقع بقولهم. وقوله : ﴿ وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَافِظِينَ ﴾ قال عكرمة وقاتدة : ما نعلم أن ابنك سرق . وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم : ما علمنا فى الغيب أنه يسرق له شيئا ، إنما سألنا ما جزاء السارق ؟

﴿ وَأَسْأَلِ الْقَرْيَةَ الَّتِي كُنَّا فِيهَا ﴾ : قيل: المراد مصر. قاله قاتدة، وقيل: غيرها ﴿ وَالْعِيرَ الَّتِي أَقْبَلْنَا فِيهَا ﴾ أى: التى رافقناها، عن صدقنا وأمانتنا وحفظنا وحرصتنا ﴿ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ ﴾ فيما أخبرناك به، من أنه سرق وأخذوه بسرقتة.

﴿ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ﴿٨٣﴾ وَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَا أَسْفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ وَأَبْيَضْتُ عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ ﴿٨٤﴾ قَالُوا تَاللَّهِ تَفْتَنُوا تَذَكَّرُ يُونُسَ حَتَّىٰ تَكُونَ حَرَضًا أَوْ تَكُونَ مِنَ الْهَالِكِينَ ﴿٨٥﴾ قَالَ إِنَّمَا أَشْكُوا بَنِي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٨٦﴾ ﴾

قال لهم كما قال لهم حين جاؤوا على قميص يوسف بدم كذب: ﴿ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ ﴾ قال ابن إسحاق: لما جاؤوا يعقوب وأخبروه بما جرى اتهمهم، وظن أنها كفعلتهم بيوسف ﴿ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ ﴾. ثم ترجى من الله أن يرد عليه أولاده الثلاثة: يوسف وأخاه بنيامين، وروبير الذي أقام بديار مصر ينتظر أمر الله فيه، إما أن يرضى عنه أبوه فيأمره بالرجوع إليه، وإما أن يأخذ أخاه خفية؛ ولهذا قال: ﴿ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ ﴾ أي: العليم بحالي، ﴿ الْحَكِيمُ ﴾ في أفعاله وقضائه وقدره.

﴿ وَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَا أَسْفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ ﴾ أي: أعرض عن بنيه وقال متذكراً حُزْنَ يُونُسَ القديم الأول: ﴿ يَا أَسْفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ ﴾ جَدَّدَ لَهُ حُزْنَ الْإِبْنِينَ الْحُزْنَ الدِّفِينِ. قال سعيد بن جبير: لم يعط أحد غير هذه الأمة الاسترجاع، ألا تسمعون إلى قول يعقوب، عليه السلام: ﴿ يَا أَسْفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ وَأَبْيَضْتُ عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ ﴾ أي: ساكت لا يشكو أمره إلى مخلوق. قاله قتادة وغيره. وقال الضحاك: ﴿ فَهُوَ كَظِيمٌ ﴾: كמיד حزين. فعند ذلك رق له بنوه، وقالوا له على سبيل الرفق به والشفقة عليه: ﴿ قَالُوا تَاللَّهِ تَفْتَنُوا تَذَكَّرُ يُونُسَ ﴾ أي: لا تفارق تَذَكَّرُ يُونُسَ ﴿ حَتَّىٰ تَكُونَ حَرَضًا ﴾ أي: ضعيف الجسم، ضعيف القوة ﴿ أَوْ تَكُونَ مِنَ الْهَالِكِينَ ﴾ يقولون: وإن استمر بك هذا الحال خشينا عليك الهلاك والتلف.

﴿ قَالَ إِنَّمَا أَشْكُوا بَنِي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ ﴾ أي: أجابهم عما قالوا بقوله: ﴿ إِنَّمَا أَشْكُوا بَنِي وَحُزْنِي ﴾ أي: همي وما أنا فيه ﴿ إِلَى اللَّهِ ﴾ وحده ﴿ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ أي: أرجو منه كل خير. وعن ابن عباس: أعلم أن رؤيا يوسف صادقة، وأناى سوف أسجد له.

﴿ يَبْنِيَّ أَذْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا مِنْ يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَأْتِسُوا مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِنَّهُ لَا يَأْتِسُ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ ﴿٨٧﴾ فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَيْهِ قَالُوا يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ مَسْنَا وَأَهْلَنَا الضَّرُّ وَجِئْنَا بِبِضْعَةٍ مُزَجَّجَةٍ فَأَوْفِ لَنَا الْكَيْلَ وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَا إِنَّ اللَّهَ يَجْزِي الْمُتَصَدِّقِينَ ﴿٨٨﴾ ﴾

يقول تعالى مخبراً عن يعقوب، عليه السلام، أنه ندب بنيه على الذهاب في الأرض، يستعلمون أخبار يوسف وأخيه بنيامين. والتحسس يكون في الخير، والتجسس يستعمل في الشر. ونهضهم وبشرهم وأمرهم ألا يياسوا من روح الله، أي: لا يقطعوا رجاءهم وأملهم من الله

فيما يرومونه ويقصدونه، فإنه لا يقطع الرجاء، ويقطع الإياس من الله إلا القوم الكافرون.

وقوله : ﴿ فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَيْهِ ﴾ تقدير الكلام : فذهبوا فدخلوا بلد مصر، ودخلوا على يوسف ﴿ قَالُوا يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ مَسْنَا وَأَهْلْنَا الضَّرُّ ﴾ يعنون من الجذب والقحط وقلة الطعام ﴿ وَجِئْنَا بِبِضَاعَةٍ مُزْجَاةٍ ﴾ أى : ومعنا ثمن الطعام الذى نمتاره ، وهو ثمن قليل . قاله مجاهد ، والحسن ، وغير واحد .
وقوله إخبارا عنهم : ﴿ فَأَوْفَ لَنَا الْكَيْلَ ﴾ أى : أعطنا بهذا الثمن القليل ما كنت تعطينا قبل ذلك . وقال ابن جريج : ﴿ وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَا ﴾ بردٌ آخينا إلينا . وقال سعيد بن جبير والسدى : تصدق علينا بقبض هذه البضاعة المزجاة ، وتجاوز فيها .

﴿ قَالَ هَلْ عَلِمْتُمْ مَا فَعَلْتُمْ بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنْتُمْ جَاهِلُونَ ﴾ ﴿٨٩﴾ قَالُوا أَوَآءَ تَك لَأَنْتَ يُوسُفُ قَالَ أَنَا يُوسُفُ وَهَذَا أَخِي قَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا إِنَّهُ مِنْ يَتَّى وَيَصِيرَ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ﴿٩٠﴾ قَالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ أَثَرَكُ اللَّهُ عَلَيْنَا وَإِنْ كُنَّا لَخَاطِئِينَ ﴿٩١﴾ قَالَ لَا تَتْرِبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ تَقْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴿٩٢﴾

يقول تعالى مخبراً عن يوسف ، عليه السلام : أنه لما ذكر له إخوته ما أصابهم من الجهد والضيق وقلة الطعام ، وتذكر أباه وما هو فيه من الحزن لفقد ولديه ، مع ما هو فيه من الملك والتصرف والسعة ، فعند ذلك أخذته رقة ورأفة ورحمة وشفقة على أبيه وإخوته ، فتعرف إليهم ، وقال : ﴿ هَلْ عَلِمْتُمْ مَا فَعَلْتُمْ بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنْتُمْ جَاهِلُونَ ﴾ ؟ يعنى : كيف فرقوا بينه وبينه ﴿ إِذْ أَنْتُمْ جَاهِلُونَ ﴾ أى : إنما حملكم على هذا الجهل بمقدار هذا الذى ارتكبتموه ، كما قال بعض السلف : كل من عصى الله فهو جاهل ، وقرأ : ﴿ ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ عَمِلُوا السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ﴾ إلى قوله : ﴿ إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ [النحل: ١١٩] .

والظاهر - والله أعلم - أن يوسف ، عليه السلام ، إنما تعرف إليهم بنفسه ، بإذن الله له فى ذلك ، كما أنه إنما أخفى منهم نفسه فى المرتين الأوليين بأمر الله تعالى له فى ذلك ، والله أعلم ، ولكن لما ضاق الحال واشتد الأمر ، فرج الله تعالى من ذلك الضيق ، كما قال تعالى : ﴿ فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا . إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ﴾ [الشرح : ٥ ، ٦] ، فعند ذلك قالوا : ﴿ أَأَنْتَ لَأَنْتَ يُوسُفُ ﴾ ؟ أى : إنهم تعجبوا من ذلك أنهم يترددون إليه من ستين وأكثر ، وهم لا يعرفونه ، وهو مع هذا يعرفهم ويكتم نفسه ، فلهذا قالوا على سبيل الاستفهام : ﴿ أَأَنْتَ لَأَنْتَ يُوسُفُ قَالَ أَنَا يُوسُفُ وَهَذَا أَخِي قَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا ﴾ أى : بجمعه بيننا بعد التفرقة وبعد المدة ﴿ إِنَّهُ مِنْ يَتَّى وَيَصِيرَ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ . قَالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ أَثَرَكُ اللَّهُ عَلَيْنَا وَإِنْ كُنَّا لَخَاطِئِينَ ﴾ يقولون معترفين له بالفضل والأثرة عليهم فى الخلق والخلق ، والسعة والملك ، والتصرف والنبوة ، وأقروا له بأنهم أسأؤوا إليه وأخطؤوا فى حقه . ﴿ قَالَ لَا تَتْرِبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ ﴾ يقول : لا تأنيب عليكم ولا عتب عليكم اليوم ، ولا أعيد ذنبكم فى حقى بعد اليوم . ثم زادهم الدعاء لهم بالمغفرة فقال : ﴿ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴾ . قال السدى : اعتذروا إلى يوسف ، فقال : ﴿ لَا تَتْرِبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ ﴾ يقول : لا أذكر

لكم ذنبيكم . وقال ابن إسحاق والثوري : أى : لا تأنيب عليكم اليوم عندي فيما صنعتكم ﴿يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ﴾ أى : يستر الله عليكم فيما فعلتم ﴿وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾ .

﴿ اذْهَبُوا بِقَمِيصِي هَذَا فَالْقُوهُ عَلَىٰ وَجْهِ أَبِي يَأْتِ بَصِيرًا وَأْتُونِي بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ ﴿٩٦﴾ ﴿ وَلَمَّا فَصَلَتِ الْعِيرُ قَالَ أَبُوهُمْ إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ لَوْلَا أَن تَقْنَدُونَ ﴾ ﴿٩٧﴾ ﴿ قَالُوا تَاللَّهِ إِنَّكَ لَفِي ضَلَالِكَ الْقَدِيمِ ﴾ ﴿٩٥﴾

يقول : اذهبوا بهذا القميص ﴿فَالْقُوهُ عَلَىٰ وَجْهِ أَبِي يَأْتِ بَصِيرًا﴾ وكان قد عمى من كثرة البكاء ﴿وَأْتُونِي بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ أى : بجميع بنى يعقوب . ﴿وَلَمَّا فَصَلَتِ الْعِيرُ﴾ أى : خرجت من مصر ﴿قَالَ أَبُوهُمْ﴾ يعنى : يعقوب ، عليه السلام ، لمن بقى عنده من بنيه : ﴿إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ لَوْلَا أَن تَقْنَدُونَ﴾ : تنسبونى إلى الفئدة والكبر . وقوله : ﴿لَوْلَا أَن تَقْنَدُونَ﴾ قال ابن عباس ، ومجاهد ، وعطاء ، وقتادة ، وسعيد بن جبيرة : تُسْفَهون . وقال مجاهد والحسن : تُهرمون .

وقولهم : ﴿إِنَّكَ لَفِي ضَلَالِكَ الْقَدِيمِ﴾ قال ابن عباس : لفى خطتك القديم . وقال قتادة : أى من حب يوسف لا تنساه ولا تسلاه ، قالوا لوالدهم كلمة غليظة ، لم يكن ينبغى لهم أن يقولوها لوالدهم ، ولا لبنى الله عليه السلام .

﴿ فَلَمَّا أَن جَاءَ الْبَشِيرُ أَلْقَاهُ عَلَىٰ وَجْهِهِ فَارْتَدَّ بَصِيرًا قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ ﴿٩٦﴾ ﴿ قَالُوا يَا أَبَانَا اسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا إِنَّا كُنَّا خَاطِئِينَ ﴾ ﴿٩٧﴾ ﴿ قَالَ سَوْفَ اسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْعَفُورُ الرَّحِيمُ ﴾ ﴿٩٨﴾

قال ابن عباس والضحاك : ﴿البشير﴾ : البريد . وقال مجاهد والسدى : كان يهوذا بن يعقوب . قال السدى : إنما جاء به لانه هو الذى جاء بالقميص وهو ملطخ بدم كذب ، فأراد أن يغسل ذاك بهذا ، فجاء بالقميص فألقاه على وجه أبيه ، فرجع بصيرا . وقال لبيبة عند ذلك : ﴿أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ أى : أعلم أن الله سيرده إلى ، وقلت لكم : ﴿إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ لَوْلَا أَن تَقْنَدُونَ﴾ ؟ فعند ذلك قالوا لأبيهم مترفين له : ﴿يَا أَبَانَا اسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا إِنَّا كُنَّا خَاطِئِينَ﴾ . قال سَوْفَ اسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْعَفُورُ الرَّحِيمُ ﴿أى : من تاب إليه تاب عليه .

﴿ فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَىٰ يُوسُفَ ءَاوَىٰٓ إِلَىٰ أَبِيهِ وَقَالَ أَدْخُلُوا مِصْرَ إِن شَاءَ اللَّهُ ءَامِنِينَ ﴾ ﴿٩٩﴾ ﴿ وَرَفَعَ أَبُوتِهِ عَلَىٰ الْعَرْشِ وَخَرُّوا لَهُ سُجَّدًا وَقَالَ يَا أَبَتِ هَذَا تَأْوِيلُ رُءُوسَىٰ مِن قَبْلُ قَدْ جَعَلْنَا لِرَبِّي حَقًّا وَقَدْ أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ وَجَاءَ بِكُم مِّنَ الْبَدْوِ مِن بَعْدِ أَن نَزَّغَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِّمَا يَشَاءُ إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْمَعْلُومُ ﴾ ﴿١٠٠﴾

يخبر تعالى عن ورود يعقوب على يوسف عليهما السلام ، وقدمه بلاد مصر ، لما كان يوسف قد تقدم إلى إخوته أن يأتوه بأهلهم أجمعين ، فتحملوا عن آخرهم وترحلوا من بلاد كنعان قاصدين بلاد مصر ، فلما أخبر يوسف ، عليه السلام ، باقترابهم خرج لتلقيهم ، وأمر الملك أمراءه وأكابر الناس بالخروج مع يوسف لتلقى نبي الله يعقوب ، عليه السلام ، ويقال : إن الملك خرج أيضا لتلقيه ، وهو الأشبه .

وقوله : ﴿ آوَىٰ إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ ﴾ قال السدي ، وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم : إنما كان أباه وخالته ، وكانت أمه قد ماتت قديما . وقال ابن إسحاق وابن جرير : كان أبوه وأمّه يعيشان . قال ابن جرير : ولم يقم دليل على موت أمه ، وظاهر القرآن يدل على حياتها . وهذا الذي نصره هو المنصور الذي يدل عليه السياق .

وقوله : ﴿ وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ ﴾ أى : اجلسهما معه على سريره . ﴿ وَخَرُّوا لَهُ سُجَّدًا ﴾ أى : سجد له أبواه وإخوته الباقون ، وكانوا أحد عشر رجلا ﴿ وَقَالَ يَا أَبَتِ هَذَا تَأْوِيلُ رُءْيَايَ مِنْ قَبْلُ ﴾ أى : التى كان قصها على أبيه ﴿ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ ﴾ [يوسف : ٤] . وقد كان هذا سائغا فى شرائعهم إذا سلّموا على الكبير يسجدون له ، ولم يزل هذا جائزا من لدن آدم إلى شريعة عيسى ، عليه السلام ، فحرم هذا فى هذه الملة ، وجعل السجود مختصا بجناب الرب سبحانه وتعالى . هذا مضمون قول قتادة وغيره . والغرض : أن هذا كان جائزا فى شريعتهم ؛ ولهذا خروا له سجدا ، فعندها قال يوسف : ﴿ يَا أَبَتِ هَذَا تَأْوِيلُ رُءْيَايَ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا ﴾ أى : هذا ما آل إليه الأمر ، فإن التأويل يطلق على ما يصير إليه الأمر ، كما قال تعالى : ﴿ هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُ يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلَهُ ﴾ [الاعراف : ٥٣] أى : يوم القيامة يأتهم ما وعدوا من خير وشر .

وقوله : ﴿ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا ﴾ أى : صحيحة صدقا ، يذكر نعم الله عليه ﴿ وَقَدْ أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ وَجَاءَ بِكُمْ مِنَ الْبَدْوِ ﴾ أى : البادية . قال ابن جرير وغيره : كانوا أهل بادية وماشية . وقال : كانوا يسكنون بالعربيات من أرض فلسطين ، من غور الشام . ﴿ مِنْ بَعْدِ أَنْ نُزِعَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِمَا يَشَاءُ ﴾ أى : إذا أراد أمرا قيص له أسبابا ويسره وقدره ﴿ إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ ﴾ بمصالح عباده ﴿ الْحَكِيمُ ﴾ فى أفعاله وأقواله ، وقضائه وقدره ، وما يختاره ويريده .

﴿ رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمَلِكِ وَعَلَّمْتَنِي مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنْتَ وَلِيِّ الْإِنْسَانِ فِي الْأُولَىٰ وَالْآخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَالْحَقْنِي بِالصَّالِحِينَ ﴾

هذا دعاء من يوسف الصديق ، دعا به ربه عز وجل ، لما تمت النعمة عليه ، باجتماعه بأبويه وإخوته ، وما من الله به عليه من النبوة والملك ، سأل ربه عز وجل ، كما أتم نعمته عليه فى الدنيا أن يستمر بها عليه فى الآخرة ، وأن يتوفاه مسلما حين يتوفاه ، وأن يلحقه بال صالحين ،

وهم إخوانه من النبيين والمرسلين، صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين .
 وهذا الدعاء يحتمل أن يوسف، عليه السلام، قاله عند احتضاره، كما ثبت فى الصحيحين
 عن عائشة ؛ أن رسول الله ﷺ جعل يرفع أصبعه عند الموت، ويقول: «اللهم فى الرفيق
 الأعلى، اللهم فى الرفيق الأعلى، اللهم فى الرفيق الأعلى» (١) .

ويحتمل أنه سأل الوفاة على الإسلام واللحاق بال صالحين إذا حان أجله، وانقضى عمره؛ لا
 أنه سأل ذلك منجزاً، كما يقول الداعى لغيره : « أمتك الله على الإسلام » . ويقول الداعى :
 « اللهم أحينا مسلمين وتوفنا مسلمين وألحقنا بال صالحين » . ويحتمل أنه سأل ذلك منجزاً ،
 وكان ذلك سائغاً فى ملتهم ، كما قال قتادة : قوله : « تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ » : لما
 جمع الله شمله وأقر عينه، وهو يومئذ مغمور فى الدنيا وملكها وغضارتها، فاشتاق إلى
 الصالحين قبله ، عن ابن عباس: أنه أول نبي دعا بذلك . ولكن هذا لا يجوز فى شريعتنا .
 روى الإمام أحمد عن أنس بن مالك قال : قال رسول الله ﷺ : « لا يتمنين أحدكم الموت
 لضرر نزل به ، فإن كان لابد متمنيا الموت فليقل: اللهم أحينى ما كانت الحياة خيراً لى، وتوفنى
 إذا كانت الوفاة خيراً لى » . ورواه البخارى ومسلم، وعندهما: « لا يتمنين أحدكم الموت لضرر
 نزل به إما محسناً فيزداد، وإما مسيئاً فلعله يستعجب، ولكن ليقل: اللهم، أحينى ما كانت الحياة
 خيراً لى، وتوفنى إذا كانت الوفاة خيراً لى » (٢) .

وهذا فيما إذا كان الضرر خاصاً به، أما إذا كان فتنة فى الدين فيجوز سؤال الموت، كما قال
 الله تعالى إخباراً عن السحرة لما أرادهم فرعون عن دينهم وتهدهدهم بالقتل قالوا : ﴿ رَبَّنَا أَفْرِغْ
 عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ ﴾ [الاعراف: ١٢٦] ، وقالت مريم لما أجاها المخاض، وهو الطلق، إلى
 جذع النخلة ﴿ يَا لَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَذَا وَكُنْتُ نَسِيًّا مَنْسِيًّا ﴾ [مريم: ٢٣]، لما تعلم من أن الناس يقذفونها
 بالفاحشة؛ لأنها لم تكن ذات زوج وقد حملت وولدت، فيقول القائل أنى لها هذا ؟ ولهذا
 واجهوها أولاً بأن قالوا: ﴿ يَا مَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْئًا فَرِيًّا . يَا أُخْتَ هَارُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ امْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ
 أُمُّكَ بَعْثًا ﴾ [مريم: ٢٧، ٢٨] فجعل الله لها من ذلك الحال فرجاً ومخرجاً، وأنطق الصبى فى المهد
 بأنه عبد الله ورسوله، وكان آية عظيمة ومعجزة باهرة صلوات الله وسلامه عليه . وفى حديث
 معاذ، الذى رواه الإمام أحمد والترمذى، فى قصة المنام والدعاء الذى فيه: « وإذا أردت بقوم
 فتنة، فتوفنى إليك غير مفتون » (٣) .

فعند حلول الفتن فى الدين يجوز سؤال الموت؛ ولهذا قال على بن أبى طالب، رضى الله
 عنه، فى آخر إمارته لما رأى أن الأمور لا تجتمع له، ولا يزداد الأمر إلا شدة قال: اللهم، خذنى

(١) البخارى (٤٤٣٧)، ومسلم (٨٧/٢٤٤) .

(٢) المسند (١٠١/٣) ، والبخارى (٦٣٥١) ، ومسلم (١٠/٢٦٨٠) .

(٣) المسند (٢٤٣/٥) ، والترمذى (٣٢٣٥) ، وقال : « هذا حديث حسن صحيح » .

إليك، فقد ستمتهم وستموني. وقال البخاري لما وقعت له تلك المحن وجرى له ما جرى مع أمير خراسان: اللهم، توفني إليك. وفي الحديث: «إن الرجل ليمر بالقبر - أي في زمان الدجال - فيقول: يا ليتني مكانك» (١)، لما يرى من الفتن والزلازل والبلابل والأمور الهائلة التي هي فتنة لكل مفتون.

﴿ ذَلِكْ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوا أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ ﴿١٠٢﴾ وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٣﴾ وَمَا تَسْأَلُهُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ ﴿١٠٤﴾ ﴾

يقول تعالى لمحمد ﷺ لما قص عليه نبا إخوة يوسف، وكيف رفعه الله عليهم، وجعل له العاقبة والنصر والملك والحكم، مع ما أرادوا به من السوء والهلاك والإعدام: هذا وأمثاله يا محمد من أخبار الغيوب السابقة ﴿ نُوحِيهِ إِلَيْكَ ﴾ ونعلمك به لما فيه من العبرة لك والاتعاظ لمن خالفك ﴿ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ ﴾ حاضراً عندهم ولا مشاهدا لهم ﴿ إِذْ أَجْمَعُوا أَمْرَهُمْ ﴾ أي: على إلقائه في الجب ﴿ وَهُمْ يَمْكُرُونَ ﴾ به ، ولكننا أعلمناك به وحيا إليك، وإنزالا عليك ، كقوله: ﴿ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَامَهُمْ ﴾ الآية [آل عمران: ٤٤] ، وقال تعالى: ﴿ وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الْغُرُبِيِّ إِذْ قَضَيْنَا إِلَى مُوسَى الْأَمْرَ ﴾ الآية [القصص: ٤٤] . إلى قوله: ﴿ وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا ﴾ الآية [القصص: ٤٦] ، وقال: ﴿ وَمَا كُنْتَ تَأْوِيًا فِي أَهْلِ مَدْيَنَ تَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا وَلَكِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ ﴾ [القصص: ٤٥] ، وقال: ﴿ مَا كَانَ لِي مِنْ عِلْمٍ بِالْمَلَأِ الْأَعْلَى إِذْ يَخْتَصِمُونَ . إِنْ يُوحَىٰ إِلَيَّ إِلَّا نَمْنًا أَنَا نَذِيرٌ مُبِينٌ ﴾ [ص: ٦٩ ، ٧٠] .

يقول تعالى: إنه رسوله، وأنه قد أطلعه على أنباء ما قد سبق مما فيه عبرة للناس ونجاة لهم في دينهم وديناهم؛ ومع هذا ما آمن أكثر الناس؛ ولهذا قال: ﴿ وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ ﴾ ، وقال: ﴿ وَإِنْ تَطَعْ أَكْثَرُ مَنْ فِي الْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ ﴾ [الأنعام: ١١٦] ، إلى غير ذلك من الآيات. وقوله: ﴿ وَمَا تَسْأَلُهُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ﴾ أي: وما تسألهم يا محمد على هذا النصح والدعاء إلى الخير والرشد من أجر ، بل تفعله ابتغاء وجه الله ، ونصحا لخلقك . ﴿ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ ﴾ أي: يتذكرون به ويهتدون، وينجون به في الدنيا والآخرة.

﴿ وَكَأَيِّنْ مِنْ آيَةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ ﴿١٠٥﴾ وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ ﴿١٠٦﴾ أَفَأَمِنُوا أَنْ تَأْتِيَهُمْ غَشِيَةٌ مِّنْ عَذَابِ اللَّهِ أَوْ تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٠٧﴾ ﴾

يخبر تعالى عن غفلة أكثر الناس عن التفكير في آيات الله ودلائل توحيده، بما خلقه الله في

السموات والأرض من كواكب زاهرات ثوابت ، وسيارات وأفلاك دائرات ، والجميع مسخرات ، وكم فى الأرض من قطع متجاورات وحدائق وجنات وجبال راسيات ، وبحار زاخرات ، وأمواج متلاطومات ، وقفار شاسعات ، وكم من أحياء وأموات ، وحيوانات ونبات ، وثمرات متشابهة ومختلفات ، فى الطعوم والروائح والألوان والصفات ، فسبحان الواحد الأحد ، خالق أنواع المخلوقات ، المتفرد بالدوام والبقاء .

وقوله : ﴿ وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ ﴾ قال ابن عباس : من إيمانهم ، أنهم إذا قيل لهم : من خلق السموات ؟ ومن خلق الأرض ؟ ومن خلق الجبال ؟ قالوا : « الله » ، وهم مشركون به . وكذا قال مجاهد ، والشعبي ، وقتادة . وقال الله تعالى : ﴿ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴾ [لقمان : ١٣] ، وهذا هو الشرك الأعظم الذى يعبد مع الله غيره ، كما فى الصحيحين . عن ابن مسعود قلت : يا رسول الله ، أى الذنب أعظم ؟ قال : « أن تجعل لله ندا وهو خالقك » (١) . وقال الحسن البصرى فى قوله : ﴿ وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ ﴾ قال : ذاك المنافق يعمل إذا عمل رياء الناس ، وهو مشرك بعمله ذاك ، يعنى قوله تعالى : ﴿ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلَاةِ قَامُوا كَسَالَى يُرَاءُونَ النَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ [النساء : ١٤٢] . وثم شرك آخر خفى لا يشعر به غالباً فاعله ، كما روى عن عروة قال : دخل حذيفة على مريض ، فرأى فى عضده سيراً فقطعه - أو : انتزعه - ثم قال : ﴿ وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ ﴾ . وفى الحديث : « من حلف بغير الله فقد أشرك » . رواه الترمذى وحسنه (٢) . وفى الحديث الذى رواه أحمد وأبو داود وغيره ، عن ابن مسعود ، قال : قال رسول الله ﷺ : « إن الرقى والتمايم والتوكة شرك » (٣) . عن أبى هريرة ، قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « قال الله : أنا أغنى الشركاء عن الشرك ، ومن عمل عملاً أشرك فيه معى غيرى تركته وشركه » . رواه مسلم (٤) .

وقوله : ﴿ أَفَأَمِنُوا أَنْ تَأْتِيَهُمْ غَاشِيَةٌ مِنْ عَذَابِ اللَّهِ ﴾ الآية ، أى : أفامن هؤلاء المشركون أن يأتيهم أمر يغشاهم من حيث لا يشعرون ، كقوله تعالى : ﴿ أَفَأَمِنَ الَّذِينَ مَكَرُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ يَخْسِفَ اللَّهُ بِهِمُ الْأَرْضَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ . أَوْ يَأْخُذَهُمْ فِي تَقْلِبِهِمْ فَمَا هُمْ بِمُعْجِزِينَ . أَوْ يَأْخُذَهُمْ عَلَى تَخَوُّفٍ فَإِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ ﴾ [النحل : ٤٥-٤٧] ، وقال تعالى : ﴿ أَفَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَى أَنْ يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا بَيَاتًا وَهُمْ نَائِمُونَ . أَوْ آمِنَ أَهْلُ الْقُرَى أَنْ يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يُلْعَبُونَ . أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ ﴾ [الاعراف : ٩٧ - ٩٩] .

﴿ قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَمَا أَنَا مِنَ

الشركين

(١) البخارى (٤٤٧٧) ، ومسلم (١٢٢/٦٨) . (٢) الترمذى (١٥٣٥) ، وصححه الالبانى .

(٣) المسند (٣٦/٥) وقال الشيخ أحمد شاكر : « إسناده حسن » ، وأبو داود (٣٨٨٣) ، وابن ماجه (٣٥٣٠) .

(٤) مسلم (٤٦/٢٩٨٥) .

يقول تعالى لرسوله ﷺ إلى الثقلين : الجن والإنس ، أمراً له أن يخبر الناس : أن هذه سبيله ، أى طريقه ومسلكه وستته ، وهى الدعوة إلى شهادة أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، يدعو إلى الله بها على بصيرة من ذلك ، ويقين وبرهان ، هو وكل من اتبعه ، يدعو إلى ما دعا إليه رسول الله ﷺ على بصيرة ويقين وبرهان عقلى وشرعى . وقوله : ﴿ وَسُبْحَانَ اللَّهِ ﴾ أى : وأنزه الله وأجله وأعظمه وأقدسه ، عن أن يكون له شريك أو نظير ، أو عدل أو نديد ، أو ولد أو والد أو صاحبة ، أو وزير أو مشير ، تبارك وتعالى وتقدس وتنزه عن ذلك كله علواً كبيراً ، ﴿ تَسْبِحُ لَهُ السَّمَوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴾ [الإسراء : ٤٤] .

﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُوْحِيْهِمْ مِنْ أَهْلِ الْقُرَىٰ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾

يخبر تعالى أنه إنما أرسل رسله من الرجال لا من النساء . وهذا قول جمهور العلماء ، كما دل عليه سياق هذه الآية الكريمة : أن الله تعالى لم يُوحِ إلى امرأة من بنات بنى آدم وحى تشريع . وإنما فيهن صديقات ، كما قال تعالى مخبراً عن أشرفهن مريم بنت عمران حيث قال : ﴿ مَا الْمَسِيْحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ كَأَنَّا بِكُلَانِ الطَّعَامِ ﴾ [المائدة : ٧٥] ، فوصفها فى أشرف مقاماتها بالصديقية ، فلو كانت نبيّة لذكر ذلك فى مقام التشريف والإعظام ، فهى صديقة بنص القرآن . وقال ابن عباس فى قوله : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُوْحِيْهِمْ مِنْ أَهْلِ الْقُرَىٰ ﴾ أى : ليسوا من أهل السماء كما قلتم . وهذا القول من ابن عباس يعتضد بقوله تعالى : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا إِنَّهُمْ لِيَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِي الْأَسْوَاقِ ﴾ الآية [الفرقان : ٢٠] وقوله تعالى : ﴿ وَمَا جَعَلْنَاهُمْ جَسَداً لَّا يَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَمَا كَانُوا خَالِدِينَ . ثُمَّ صَدَقْنَاهُمُ الْوَعْدَ فَأَنْجَيْنَاهُمْ وَمَنْ نَشَاءُ وَأَهْلَكْنَا الْمُسْرِفِينَ ﴾ [الانبيا : ٨ ، ٩] ، وقوله تعالى : ﴿ قُلْ مَا كُنْتُ بِدَعَاٍ مِنَ الرُّسُلِ ﴾ الآية [الحقاف : ٩] .

وقوله : ﴿ مِنْ أَهْلِ الْقُرَىٰ ﴾ : المراد بالقرى : المدن ، لا أنهم من أهل البوادي ، الذين هم أجنفى الناس طباعاً وأخلاقاً . وهذا هو المعهود المعروف أن أهل المدن أرقّ طباعاً ، وألطف من أهل سوادهم ، وأهل الريف والسواد أقرب حالا من الذين يسكنون فى البوادي ؛ ولهذا قال تعالى : ﴿ الْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا ﴾ الآية [التوبة : ٩٧] .

وقوله : ﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ ﴾ [يعنى : هؤلاء المكذبين لك يا محمد ﴿ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ ﴾ أى : من الأمم المكذبة للرسول ، كيف دمر الله عليهم ، وللكافرين أمثالها ، كقوله : ﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ ﴾ [الحج : ٤٦] ، فإذا استمعوا خبر ذلك ، رأوا أن الله قد أهلك الكافرين ونجى المؤمنين ، وهذه كانت سنته تعالى فى خلقه ؛ ولهذا قال تعالى : ﴿ وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِلَّذِينَ

اتَّقُوا ﴿ أى : وكما أُنجينا المؤمنين فى الدنيا ، كذلك كتبنا لهم النجاة فى الدار الآخرة أيضا ، وهى خير لهم من الدنيا بكثير ، كما قال تعالى : ﴿ إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ . يَوْمَ لَا يَنْفَعُ الظَّالِمِينَ مَعَذِرَتُهُمْ وَلَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ ﴾ [غافر : ٥٠ ، ٥١] .

﴿ حَتَّى إِذَا اسْتَيْسَسَ الرُّسُلُ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كَذَّبُوا جَاءَهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّى مَنْ نَشَاءُ وَلَا يَرُدُّ بِأَسْنَانِهِ الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ ﴾

يذكر تعالى أن نصره ينزل على رسله ، صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين ، عند ضيق الحال وانتظار الفرج من الله تعالى فى أحوج الأوقات إلى ذلك ، كقوله تعالى : ﴿ وَزَلَّزَلُوا حَتَّى يَقُولَ الرُّسُلُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصْرُ اللَّهِ ﴾ الآية [البقرة : ٢١٤] .

وفى قوله : ﴿ كَذَّبُوا ﴾ قراءتان ، إحداهما بالتشديد : « قد كَذَّبُوا » ، وكذلك كانت عائشة تقرؤها ، روى البخارى عن عروة بن الزبير ، عن عائشة قالت له وهو يسألها عن قول الله : ﴿ حَتَّى إِذَا اسْتَيْسَسَ الرُّسُلُ ﴾ ، قال : قلت : أكذَّبوا أم كَذَّبُوا ؟ فقالت عائشة : كَذَّبُوا . فقلت : فقد استيقنوا أن قومهم قد كذَّبوهم فما هو بالظن ؟ قالت : أجل ، لعمري لقد استيقنوا بذلك . فقلت لها : وظنوا أنهم قد كذبوا ؟ قالت : معاذ الله ، لم تكن الرسل تظن ذلك بربها . قلت : فما هذه الآية ؟ قالت : هم أتباع الرسل الذين آمنوا بربهم وصدقوهم ، فطال عليهم البلاء ، واستأخر عنهم النصر ﴿ حَتَّى إِذَا اسْتَيْسَسَ الرُّسُلُ ﴾ ممن كذبهم من قومهم ، وظنت الرسل أن أتباعهم قد كذبوهم ، جاءهم نصر الله عند ذلك . قال عروة : فقلت : لعلها « قد كَذَّبُوا » مخففة ؟ قالت : معاذ الله . انتهى ما ذكره (١) . والقراءة الثانية بالتخفيف ، واختلفوا فى تفسيرها ، فقال ابن عباس فى قوله : ﴿ حَتَّى إِذَا اسْتَيْسَسَ الرُّسُلُ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كَذَّبُوا ﴾ ، قال : لما أيسر الرسل أن يستجيب لهم قومهم ، وظن قومهم أن الرسل قد كذبوهم ، جاءهم النصر على ذلك ، ﴿ فَنُجِّى مَنْ نَشَاءُ ﴾ .

وقال ابن جرير عن إبراهيم بن أبى حُرَّة الجزرى قال : سأل فتى من قریش سعيد بن جبیر فقال له : يا أبا عبد الله ، كيف هذا الحرف ، فإنى إذا أتيت عليه تمنيت أنى لا أقرأ هذه السورة : ﴿ حَتَّى إِذَا اسْتَيْسَسَ الرُّسُلُ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كَذَّبُوا ﴾ ؟ قال : نعم ، حتى إذا استيسس الرسل من قومهم أن يصدقوهم ، وظن المرسل إليهم أن الرسل كذبوا . فقال الضحاک بن مزاحم : ما رأيت كالיום قط رجلا يدعى إلى علم فيتلک ! لو رحلت فى هذه إلى اليمن كان قليلا . ثم روى ابن جرير أن مسلم بن يسار سأل سعيد ابن جبیر عن ذلك ، فأجابه بهذا الجواب ، فقام إلى سعيد فاعتقه ، وقال : فرج الله عنك كما فرجت عنى .

﴿ لَقَدْ كَانَتْ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةً لِأُولِي الْأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصَدِّقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾

يقول تعالى: لقد كان في خبر المرسلين مع قومهم، وكيف أنحننا المؤمنين وأهلكنا الكافرين ﴿عِبْرَةً لِأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ وهى العقول ﴿مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ﴾ أى: وما كان لهذا القرآن أن يفتري من دون الله، أى: يكذب ويخترق ﴿وَلَٰكِن تَصَدِّقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ أى: من الكتب المنزلة من السماء، وهو يصدق ما فيها من الصحيح، وينفى ما وقع فيها من تحريف وتبديل وتغيير، ويحكم عليها بالنسخ أو التقرير ﴿وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ﴾ من تحليل وتحريم، ومحجوب ومكروه، وغير ذلك من الأمر بالطاعات والواجبات والمستحبات، والنهى عن المحرمات وما شاكلها من المكروهات، والإخبار عن الغيوب المستقبلية المجملة والتفصيلية، والإخبار عن الرب تبارك وتعالى بالأسماء والصفات، وتنزيهه عن مماثلة المخلوقات، فلهذا كان: ﴿هُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ تهتدى به قلوبهم من الغى إلى الرشاد، ومن الضلالة إلى السداد، ويتغنون به الرحمة من رب العباد، فى هذه الحياة الدنيا ويوم المعاد. فنسأل الله العظيم أن يجعلنا منهم فى الدنيا والآخرة، يوم يفوز بالريح المبيضة وجوههم الناضرة، ويرجع المسودة وجوههم بالصفقة الخاسرة.

تفسير سورة الرعد

وهى مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿الْمَرَّةَ تِلْكَ ءَايَةُ الْكِتَابِ وَالَّذِي أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ﴾

أما الكلام على الحروف المقطعة فى أوائل السور، فقد تقدم فى أول سورة البقرة، وقدمنا أن كل سورة تبتدأ بهذه الحروف ففيها الانتصار للقرآن، وتبيان أن نزوله من عند الله حق لا شك فيه ولا مرية ولا ريب ؛ ولهذا قال : ﴿ تِلْكَ ءَايَةُ الْكِتَابِ ﴾ أى : هذه آيات الكتاب ، وهو القرآن ، ثم عطف على ذلك عطف صفات فقال : ﴿ وَالَّذِي أُنزِلَ إِلَيْكَ ﴾ أى : يا محمد ، ﴿ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ ﴾ .

وقوله : ﴿ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ ، كقوله : ﴿ وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ ﴾ [يوسف : ١٠٣] أى : مع هذا البيان والجلاء والوضوح ، لا يؤمن أكثرهم لما فيهم من الشقاق والعناد والنفاق .

﴿اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ثُمَّ أَسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى يُدَبِّرُ الْأَمْرَ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ بِلِقَاءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ﴾

يخبر الله تعالى عن كمال قدرته وعظيم سلطانه : أنه الذى بإذنه وأمره رفع السموات بغير عمد ، بل بإذنه وأمره ، وتسخييره رفعها عن الأرض بعداً لا تنال ولا يدرك مداها . وقوله : ﴿ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ﴾ قال إياس بن معاوية : السماء على الأرض مثل القبة ، يعنى بلا عمد . وهو الظاهر من قوله تعالى : ﴿ وَيُمْسِكُ السَّمَاءَ أَنْ تَقَعَ عَلَى الْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِ ﴾ [الحج : ٦٥] ، فعلى هذا يكون قوله : ﴿ تَرَوْنَهَا ﴾ تأكيداً لئفى ذلك ، أى : هى مرفوعة بغير عمد كما ترونها . هذا هو الأكمل فى القدرة .
وقوله : ﴿ ثُمَّ أَسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ ﴾ : تقدم تفسير ذلك فى سورة « الأعراف » (١) ، وأنه يمرر كما جاء من غير تكييف ، ولا تشبيه ، ولا تعطيل ، ولا تمثيل ، تعالى الله علواً كبيراً .

وقوله : ﴿ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ﴾ : قيل : المراد أنهما يجريان إلى انقطاعهما بقيام الساعة ، كقوله تعالى : ﴿ وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ﴾ [يس : ٣٨] . وقيل : المراد إلى مستقرهما ، وهو تحت العرش مما يلى بطن الأرض من الجانب الآخر ، فإنهما وسائر الكواكب إذا وصلوا هنالك ، يكونون أبعد ما يكون عن العرش ؛ لأنه - على

الصحيح الذي تقوم عليه الأدلة - قبة مما يلي العالم من هذا الوجه ، وليس بمحيط كسائر الأفلاك ؛ لأنه له قوائم وحَمَلَةٌ يحملونه. ولا يتصور هذا في الفلك المستدير، وهذا واضح لمن تدبّر ما وردت به الآيات والأحاديث الصحيحة، والله الحمد والمثمة. وذكر الشمس والقمر؛ لأنهما أظهر الكواكب السيارة السبعة، التي هي أشرف وأعظم من الثوابت، فإذا كان قد سخر هذه، فلأن يدخل في التسخير سائر الكواكب بطريق الأولى والأخرى ، كما نبه بقوله تعالى : ﴿ لَا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴾ [فصلت: ٣٧] . مع أنه قد صرح بذلك بقوله : ﴿ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِهِ أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴾ [الأعراف: ٥٤]

وقوله : ﴿ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ بِلِقَاءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ ﴾ أى : يوضح الآيات والدلالات الدالة على أنه لا إله إلا هو ، وأنه يعيد الخلق إذا شاء كما ابتداء خلقه .

﴿ وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْهَارًا وَمِنْ كُلِّ الشَّجَرَاتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ يُغْشِي الْأَيْلَ النَّهَارَ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١﴾ وَفِي الْأَرْضِ قِطْعٌ مُتَجَاوِرَاتٌ وَجَنَّاتٌ مِّنْ أَعْنَابٍ وَزُرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنَوَانٌ وَغَيْرُ صِنَوَانٍ يُسْقَى بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنُفِضِلُ بَعْضَهَا عَلَى بَعْضٍ فِي الْأَكْلِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٢﴾ ﴾

لما ذكر تعالى العالم العلوى ، شرع فى ذكر قدرته وحكمته وإحكامه للعالم السفلى ، فقال : ﴿ وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الْأَرْضَ ﴾ أى : جعلها متسعة ممتدة فى الطول والعرض ، وأرساها بجبال راسيات شامخات ، وأجرى فيها الأنهار والجداول والعيون لسقى ما جعل فيها من الثمرات المختلفة الألوان والأشكال والطعوم والروائح ، من كل زوجين اثنين ، أى : من كل شكل صنفان ﴿ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ ﴾ أى : جعل كلا منهما يطلب الآخر طلبا حثيثا ، فإذا ذهب هذا غشيه هذا ، وإذا انقضى هذا جاء الآخر ، فيتصرف أيضا فى الزمان كما تصرف فى المكان والسكان ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ أى : فى آلاء الله وحكمته ودلائله .

وقوله : ﴿ وَفِي الْأَرْضِ قِطْعٌ مُتَجَاوِرَاتٌ ﴾ أى : أراضٍ يجاور بعضها بعضا ، مع أن هذه طيبة تنبت ما ينتفع به الناس ، وهذه سبخة مالحة لا تنبت شيئا . هكذا روى عن ابن عباس ، ومجاهد ، وسعيد بن جبير وغيرهم . وكذا يدخل فى هذه الآية اختلاف ألوان بقاع الأرض ، فهذه تربة حمراء ، وهذه بيضاء ، وهذه صفراء ، وهذه سوداء ، وهذه محجرة ، وهذه سهلة ، وهذه مرملة ، وهذه سميكة ، وهذه رقيقة ، والكل متجاورات . فهذه بصفتها ، وهذه بصفتها الأخرى ، فهذا كله مما يدل على الفاعل المختار ، لا إله إلا هو ، ولا رب سواه .

وقوله : ﴿ وَجَنَّاتٌ مِّنْ أَعْنَابٍ وَزُرْعٌ وَنَخِيلٌ ﴾ : يحتمل أن تكون عاطفة على ﴿ جَنَّاتٌ ﴾ فيكون ﴿ زُرْعٌ وَنَخِيلٌ ﴾ مرفوعين . ويحتمل أن يكون معطوفا على أعناب ، فيكون مجرورا ؛ ولهذا قرأ

بكل منهما طائفة من الأئمة. وقوله: ﴿ صِنَوَانٌ وَغَيْرُ صِنَوَانٍ ﴾: الصنوان: هي الأصول المجتمعة في منبت واحد، كالرمان والتين وبعض النخيل ، ونحو ذلك . وغير الصنوان: ما كان على أصل واحد، كسائر الأشجار، ومنه سمي عم الرجل صنو أبيه ، كما جاء في الحديث الصحيح : أن رسول الله ﷺ قال لعمر : « أما شعرت أن عم الرجل صنو أبيه ؟ » (١) .

وقوله: ﴿ تُسْقَى بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنُفِصِلُ بَعْضَهَا عَلَى بَعْضٍ فِي الْأَكْلِ ﴾ أى : هذا الاختلاف فى أجناس الثمرات والزرورع، فى أشكالها وألوانها، وطعومها وروائحها، وأوراقها وأزهارها ، فهذا فى غاية الحلاوة وذا فى غاية الحموضة ، وذا فى غاية المرارة وذا عَفِصٌ، وهذا عذب وهذا جمع هذا وهذا ، ثم يستحيل إلى طعم آخر بإذن الله تعالى . وهذا أصفر وهذا أحمر ، وهذا أبيض وهذا أسود وهذا أزرق. ففى ذلك آيات لمن كان واعيا، وهذا من أعظم الدلالات على الفاعل المختار، الذى بقدرته فaut بين الأشياء وخلقها على ما يريد؛ ولهذا قال تعالى : ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾ .

﴿ وَإِنْ تَعَجَّبَ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ أَيْ ذَا كُنَّا تُرَابًا أَيْنَا لَقِيَ خَلْقَ جَدِيدٍ أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ وَأُولَئِكَ الْأَغْلَالُ فِي أَعْنَاقِهِمْ وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾

يقول تعالى لرسوله محمد ﷺ : ﴿ وَإِنْ تَعَجَّبَ ﴾ من تكذيب هؤلاء المشركين بأمر المعاد مع ما يشاهدونه من آيات الله سبحانه ودلالاته فى خلقه على أنه القادر على ما يشاء ، ومع ما يعترفون به من أنه ابتداء خلق الأشياء ، فكونها بعد أن لم تكن شيئا مذكورا ، ثم هم بعد هذا يكذبون خبره فى أنه سيعيد العالم خلقا جديدا ، وقد اعترفوا وشاهدوا ما هو أعجب مما كذبوا به ، فالعجب من قولهم : ﴿ أَيْنَا كُنَّا تُرَابًا أَيْنَا لَقِيَ خَلْقَ جَدِيدٍ ﴾ ، وقد علم كل عالم وعاقل أن خلق السموات والأرض أكبر من خلق الناس، وأن من بدأ الخلق فالإعادة سهلة عليه، كما قال تعالى: ﴿ أَوْ لَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَمْ يَعْزُبْ عَنْهُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَيْءٌ يَوْمَ الْقِيَامِ لَمَّا يُنْفَخُ الْعُرْسُ أَنَّ لَهُ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ [الاحقاف: ٣٣] .

ثم نعت المكذبين بهذا فقال : ﴿ أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ وَأُولَئِكَ الْأَغْلَالُ فِي أَعْنَاقِهِمْ ﴾ أى : يُسْحَبُونَ بها فى النار ﴿ وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾ أى : ماكنون فيها أبدا ، لا يحولون عنها ولا يزولون .

﴿ وَسَتَعْلَمُونَكَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ وَقَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمُ الْمَثَلَتُ وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِلنَّاسِ عَلَى ظُلْمِهِمْ وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ الْعِقَابِ ﴾

يقول تعالى : ﴿ وَسَتَعْلَمُونَكَ ﴾ أى : هؤلاء المكذبون ﴿ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ ﴾ أى :

بالعقوبة ، كما أخبر عنهم في قوله : ﴿ وَقَالُوا يَا أَيُّهَا الَّذِي نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ . لَوْ مَا تَأْتِينَا بِالْمَلَائِكَةِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ . مَا نُنزِّلُ الْمَلَائِكَةَ إِلَّا بِالْحَقِّ وَمَا كَانُوا إِذَا مُظْتَرِينَ ﴾ [الحجر: ٦ - ٨] ، وقال تعالى : ﴿ وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ ﴾ الآيتين [المنكوت: ٥٣ ، ٥٤] ، وقال : ﴿ سَأَلَ سَائِلٌ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ ﴾ [المعارج: ١] ، وقال : ﴿ يَسْتَعْجِلُ بِهَا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا وَالَّذِينَ آمَنُوا مُشْفِقُونَ مِنْهَا وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا الْحَقُّ ﴾ [الشورى: ١٨] ، ﴿ وَقَالُوا رَبَّنَا عَجَلْ لَنَا قَطْنَا ﴾ الآية [ص: ١٦] أى : حسابنا وعقابنا ، كما قال مخبراً عنهم : ﴿ وَإِذْ قَالُوا اللَّهُمَّ إِنْ كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِنَ السَّمَاءِ أَوْ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ [الانفال: ٣٢] ، فكانوا يطلبون من الرسول أن يأتيهم بعذاب الله ، وذلك من شدة تكذيبهم وكفرهم وعنادهم . قال الله تعالى : ﴿ وَقَدْ خَلَّتْ مِنْ قَبْلِهِمُ الْمُثَلَّثَاتُ ﴾ أى : قد أوقعتنا نعمتنا بالأمم الخالية وجعلناهم مثلة وعبرة وعظة لمن اتعظ بهم .

ثم أخبر تعالى أنه لولا حلمه ورفوه لعاجلهم بالعقوبة ، كما قال تعالى : ﴿ وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِمَا كَسَبُوا مَا تَرَكَ عَلَى ظَهْرهَا مِنْ دَابَّةٍ ﴾ [فاطر : ٤٥] ، وقال تعالى فى هذه الآية الكريمة : ﴿ وَإِنْ رَبُّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِّلنَّاسِ عَلَى ظَلْمِهِمْ ﴾ أى : إنه ذو عفو وصفح وستر للناس مع أنهم يظلمون ويخطئون بالليل والنهار . ثم قرن هذا الحكم بأنه شديد العقاب ، ليعتدل الرجاء والخوف ، كما قال تعالى : ﴿ فَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقُلْ رَبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَاسِعَةٍ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُهُ عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ ﴾ [الانعام: ١٤٧] ، وقال : ﴿ إِنْ رَبُّكَ لَسَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [الأعراف: ١٦٧] ، وقال : ﴿ نَبِيٌّ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ . وَأَنْ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ ﴾ [الحجر: ٤٩ ، ٥٠] ، إلى أمثال ذلك من الآيات التى تجمع الرجاء والخوف .

﴿ وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ إِنْ مَا أَنْتَ مُنذِرٌ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ ﴾

يقول تعالى إخباراً عن المشركين أنهم يقولون كفرا وعنادا: لولا يأتينا بآية من ربه كما أرسل الأولون ، كما تعتوا عليه أن يجعل لهم الصفا ذهباً ، وأن يزيل عنهم الجبال ، ويجعل مكانها مروجاً وأنهاراً ، قال الله تعالى : ﴿ وَمَا مَنَعَنَا أَنْ نُرْسِلَ بِالْآيَاتِ إِلَّا أَنْ كَذَّبَ بِهَا الْأَوَّلُونَ ﴾ الآية [الإسراء: ٥٩] . قال الله تعالى : ﴿ إِنْ مَا أَنْتَ مُنذِرٌ ﴾ أى : إنما عليك أن تبلغ رسالة الله التى أمرك بها ، ﴿ لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ ﴾ [البقرة: ٢٧٢] .

وقوله : ﴿ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ ﴾ قال ابن عباس فى تفسيرها : يقول الله تعالى : أنت يا محمد منذر ، وأنا هادى كل قوم ، وكذا قال مجاهد ، وسعيد بن جبير . وعن مجاهد : ﴿ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ ﴾ أى : نبى . كما قال : ﴿ وَإِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ ﴾ [فاطر: ٢٤] . وبه قال قتادة ، رعبد الرحمن بن زيد . وقال مالك : ﴿ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ ﴾ : من يدعوهم إلى الله ، عز وجل .

﴿ اللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنثَىٰ وَمَا تَغِيضُ الْأَرْحَامُ وَمَا تَزِدَادُ وَكُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِمِقْدَارٍ ﴾ عَلَيْهِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْكَبِيرُ الْمُتَعَالِ ﴿ ١ ﴾

يخبر تعالى عن تمام علمه الذي لا يخفى عليه شيء ، وأنه محيط بما تحمله الحوامل من كل إناث الحيوانات ، كما قال تعالى : ﴿ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ ﴾ [لقمان : ٣٤] أى : ما حملت من ذكر أو أنثى ، أو حسن أو قبيح ، أو شقى أو سعيد ، أو طويل العمر أو قصيره ، كقوله تعالى : ﴿ هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَإِذْ أَنْتُمْ أَجِنَّةٌ ﴾ [الأنبياء : ٣٢] . وقال تعالى : ﴿ يَخْلُقُكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ خَلْقًا مِّنْ بَعْدِ خَلْقٍ فِي ظُلُمَاتٍ ثَلَاثٍ ﴾ [الزمر : ٦] أى : خلقكم طورا من بعد طور ، كما قال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سَلَالَةٍ مِّنْ طِينٍ . ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نَظْفَةً فِي فَراغٍ مَّكِينٍ . ثُمَّ خَلَقْنَا النَّفْثَةَ عِلْقَةً فَخَلَقْنَا الْعِلْقَةَ مَضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمَضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنَ الْخَالِقِينَ ﴾ [المؤمنون : ١٢ - ١٤] ، وفى الصحيحين عن ابن مسعود قال : قال رسول الله ﷺ : « إِنْ خَلَقَ أَحَدُكُمْ يَجْمَعُ فِي بَطْنِ أُمِّهِ أَرْبَعِينَ يَوْمًا ، ثُمَّ يَكُونُ عِلْقَةً مِثْلَ ذَلِكَ ، ثُمَّ يَكُونُ مَضْغَةً مِثْلَ ذَلِكَ ، ثُمَّ يَبْعَثُ إِلَيْهِ مَلِكٌ فَيُؤَمِّرُ بَارِعَ كَلِمَاتٍ : يَكْتُبُ رِزْقَهُ ، وَعَمْرَهُ ، وَعَمَلَهُ ، وَشَقِيٌّ أَوْ سَعِيدٌ » (١) . وفى الحديث الآخر : « يَقُولُ الْمَلِكُ : أَيْ رَبِّ ، أَذْكَرُ أَمْ أُنْثَى ؟ أَيْ رَبِّ ، أَشَقِيٌّ أَمْ سَعِيدٌ ؟ فَمَا الرِّزْقُ ؟ فَمَا لِأَجْلِ ؟ فَيَقُولُ اللَّهُ ، وَيَكْتُبُ الْمَلِكُ » (٢) .

وقوله : ﴿ وَمَا تَغِيضُ الْأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ ﴾ : روى البخارى عن ابن عمر ؛ أن رسول الله ﷺ قال : « مَفَاتِيحُ الْغَيْبِ خَمْسٌ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا اللَّهُ : لَا يَعْلَمُ مَا فِي غَدِّ إِلَّا اللَّهُ ، وَلَا يَعْلَمُ مَا تَغِيضُ الْأَرْحَامُ إِلَّا اللَّهُ ، وَلَا يَعْلَمُ مَتَى يَأْتِي الْمَطْرُ أَحَدٌ إِلَّا اللَّهُ ، وَلَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ ، وَلَا يَعْلَمُ مَتَى تَقُومُ السَّاعَةُ إِلَّا اللَّهُ » (٣) . وقال ابن عباس : ﴿ وَمَا تَغِيضُ الْأَرْحَامُ ﴾ : يعنى : السَّقْطُ ﴿ وَمَا تَزْدَادُ ﴾ يقول : ما زادت الرحم فى الحمل على ما غاضت حتى ولدته تماما . وذلك أن من النساء من تحمل عشرة أشهر ، ومنهن من تحمل تسعة أشهر ، ومنهن من تزيد فى الحمل ، ومنهن من تنقص ، فذلك الغيض والزيادة التى ذكر الله تعالى ، وكل ذلك بعلمه تعالى . وقال مجاهد : ﴿ وَمَا تَغِيضُ الْأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ ﴾ قال : ما ترى من الدم فى حملها ، وما تزداد على تسعة أشهر . وبه قال عطية العوفى وقتادة ، والحسن البصرى ، والضحاك . وقال مكحول : الجنين فى بطن أمه لا يطلب ، ولا يحزن ولا يغتم ، وإنما يأتىه رزقه فى بطن أمه من دم حيضتها ، فمن ثم لا تحيض الحامل . فإذا وقع إلى الأرض استهل ، واستهلاله استنكار لمكانه ، فإذا قطعت سرتة حول الله رزقه إلى ثدى أمه حتى لا يطلب ولا يحزن ولا يغتم ، ثم يصير طفلا يتناول الشيء بكفه فيأكله ، فإذا هو بلغ قال : هو الموت أو القتل ، أنى لى بالرزق ؟ فيقول مكحول : يا ويلك ! عَذَابُكَ وَأَنْتَ فِي بَطْنِ أُمِّكَ ، وَأَنْتَ طِفْلٌ صَغِيرٌ ، حَتَّى إِذَا اشْتَدَّتْ وَعَقَلْتَ قُلْتَ : هُوَ الْمَوْتُ أَوْ الْقَتْلُ ، أَنَّى لى بِالرِّزْقِ ؟ ثُمَّ قَرَأَ مَكْحُولٌ : ﴿ اللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنْثَى وَمَا تَغِيضُ الْأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ وَكُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِمِقْدَارٍ ﴾ . وقال قتادة : ﴿ وَكُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِمِقْدَارٍ ﴾ : أى : بأجل ، حفظ أرزاق خلقه وآجالهم ، وجعل لذلك أجلا معلوماً . وفى الحديث الصحيح : أن إحدى بنات

(٢) مسلم (٣/٢٦٤٥) .

(١) البخارى (٣٢٠٨) ، ومسلم (١/٢٦٤٣) .

(٣) البخارى (٤٦٩٧) .

النبي ﷺ بعثت إليه : أن ابناً لها في الموت ، وأنها تحب أن يحضره . فبعثت إليها يقول : «إن لله ما أخذ ، وله ما أعطى ، وكل شيء عنده بأجل مسمى فمروها فلتصبر ولتحتسب» الحديث بتمامه (١) .

وقوله : ﴿عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ﴾ أى : يعلم كل شيء مما يشاهده العباد وما يغيب عنهم ، ولا يخفى عليه منه شيء ﴿الْكَبِيرُ﴾ الذى هو أكبر من كل شيء ﴿الْمُعْتَالِ﴾ أى : على كل شيء ، قد أحاط بكل شيء علماً ، وقهر كل شيء ، فخضعت له الرقاب ودان له العباد ، طوعاً وكرهاً .

﴿سَوَاءٌ مِّنْكُمْ مَّنْ أَسَرَ الْقَوْلَ وَمَنْ جَهَرَ بِهِ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍ بِاللَّيْلِ وَسَارِبٌ بِالنَّهَارِ لَمْ تُعْقِبَتْ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءًا فَلَا مَرَدَ لَهُ وَمَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَالٍ﴾ (١١)

يخبر تعالى عن إحاطة علمه بجميع خلقه ، وأنه سواء منهم من أسر قوله أو جهر به ، فإنه يسمعه ، لا يخفى عليه شيء كقوله : ﴿وَأَنْ تَجْهَرُوا بِالْقَوْلِ فَإِنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى﴾ [طه : ٧] ، وقال : ﴿وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ﴾ [النمل : ٢٥] ، وقالت عائشة : سبحان الذى وسع سمعه الأصوات ، والله لقد جاءت المجادلة تشتكى زوجها إلى رسول الله ﷺ ، وأنا فى جنب البيت ، وإنه ليخفى على بعض كلامها ، فأنزل الله : ﴿قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ﴾ [المجادلة: ١] (٢) .

وقوله : ﴿وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍ بِاللَّيْلِ﴾ أى : مخفى فى قعر بيته فى ظلام الليل ﴿وَسَارِبٌ بِالنَّهَارِ﴾ أى : ظاهر ماش فى بياض النهار وضيائه ، فإن كليهما فى علم الله على السواء ، كقوله تعالى : ﴿أَلْحَيْنَ يَسْتَغْشُونَ ثِيَابَهُمْ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ﴾ [هود : ٥] ، وقال تعالى : ﴿وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُو مِنْهُ مِنْ قُرْآنٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ وَمَا يَعْزُبُ عَنْ رَبِّكَ مِنْ مِثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَلَا أَصْغَرَ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾ [يونس : ٦١] .

وقوله : ﴿لَهُ مُعَقَّبَاتٌ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ﴾ أى : للعبد ملائكة يتعاقبون عليه ، حرس بالليل وحرس بالنهار ، يحفظونه من الأسواء والحادثات ، كما يتعاقب ملائكة آخرون لحفظ الأعمال من خير أو شر ، ملائكة بالليل وملائكة بالنهار ، فائتان عن اليمين والشمال يكتبان الأعمال ، صاحب اليمين يكتب الحسنات ، وصاحب الشمال يكتب السيئات ، وملكان آخران يحفظانه ويحرسانه ، واحدا من ورائه وآخر من قدامه ، فهو بين أربعة أملاك بالنهار ، وأربعة آخرين بالليل بدلا ، حافظان وكاتبان ، كما جاء فى الصحيح : « يتعاقبون فيكم ملائكة بالليل وملائكة بالنهار ، ويجتمعون فى صلاة الصبح وصلاة العصر ، فيصلدون إليه الذين

(١) البخارى (١٢٨٤) ، ومسلم (١١/٩٢٣) .

(٢) البخارى معلقاً (الفتح ٣٧٢/١٣) ، وابن ماجه (١٨٨) ، وصححه الألبانى .

باتوا فيكم فيسألهم وهو أعلم بكم: كيف تركتم عبادى ؟ فيقولون : أتيناهم وهم يصلون ، وتركناهم وهم يصلون « (١) . وقال ابن عباس : ﴿ لَهُ مُعَقَّبَاتٌ مِّنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ ﴾ : المعقبات من أمر الله ، وهى الملائكة ﴿ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ ﴾ قال : ملائكة يحفظونه من بين يديه ومن خلفه ، فإذا جاء قدر الله خلّوا عنه . وقال مجاهد: ما من عبد إلا له ملك موكل، يحفظه فى نومه ويقظته من الجن والإنس والهوام، فما منها شىء يأتيه يريده إلا قال الملك: وراءك إلا شىء يأذن الله فيه فيصيبه .

روى الإمام أحمد عن عبد الله [بن مسعود] قال: قال رسول الله ﷺ: « ما منكم من أحد إلا وقد وكل به قرينه من الجن وقرينه من الملائكة » . قالوا: وإياك يا رسول الله ، قال: « وإياى ، ولكن أعاننى الله عليه ، فلا يأمرنى إلا بخير » . انفرد بإخراجه مسلم (٢) .

وقوله: ﴿ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ ﴾ : قيل: المراد حفظهم له من أمر الله . رواه على بن أبى طلحة، وغيره، عن ابن عباس . وإليه ذهب مجاهد، وسعيد بن جبیر، وإبراهيم النخعى، وغيرهم . وقال كعب الأحبار: لو تجلّى لابن آدم كل سهل وحزن، لرأى كل شىء من ذلك شياطين لولا أن الله وكلّ بكم ملائكة عنكم فى مطعمكم ومشربكم وعوراتكم، إذا لتخطفتن . وقال أبو أمامة : ما من آدمى إلا ومعه ملك يدّود عنه، حتى يسلمه للذى قدّر له . وقال بعضهم: ﴿ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ ﴾ : بأمر الله ، كما جاء فى الحديث أنهم قالوا : يا رسول الله ، أرايت رقى نسترقى بها ، هل ترد من قدر الله شيئا ؟ فقال : « هى من قدر الله » (٣) .

﴿ هُوَ الَّذِي يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنشِئُ السَّحَابَ الثِّقَالَ ﴾ ﴿ وَيَسْجِعُ الرُّعْدُ بِحَمْدِهِ وَالْمَلَائِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِ وَيُرْسِلُ الصَّوَاعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَنْ يَشَاءُ وَهُمْ يُجَادِلُونَ فِي اللَّهِ وَهُوَ شَدِيدُ الْحَالِ ﴾

يخبر تعالى أنه هو الذى يسخر البرق ، وهو ما يرى من النور اللامع ساطعا من خلل السحاب . وقوله: ﴿ خَوْفًا وَطَمَعًا ﴾ : قال قتادة: خوفا للمسافر ، يخاف أذاه ومشقته ، وطمعا للمقيم يرجو بركته ومنفعته ، ويطمع فى رزق الله ﴿ وَيُنشِئُ السَّحَابَ الثِّقَالَ ﴾ أى : ويخلقها منشاء جديدة ، وهى لكثرة ماها ثقيلة قريبة إلى الأرض . قال مجاهد: والسحاب الثقال الذى فيه الماء . ﴿ وَيَسْجِعُ الرُّعْدُ بِحَمْدِهِ ﴾ كما قال تعالى: ﴿ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسْجِعُ بِحَمْدِهِ ﴾ [الإسراء: ٤٤] . وروى عن على، رضى الله عنه، أنه كان إذا سمع صوت الرعد قال: سبحان من سبحت له . وكذا روى عن ابن عباس، والأسود بن يزيد، وطاوس: أنهم كانوا يقولون كذلك . وعن عبد الله ابن الزبير : أنه كان إذا سمع الرعد ترك الحديث وقال: سبحان الذى يسبح الرعد بحمده

(١) البخارى (٥٥٥ ، ٧٤٢٩) ، ومسلم (٦٣٢ / ٢١٠)

(٢) الترمذى (٢٠٦٥) وقال : « حديث حسن » .

(٣) المسند (٣٩٧ / ١) ، ومسلم (٦٩ / ٢٨١٤) .

والملائكة من خيفته ، ويقول : إن هذا لوعيد شديد لأهل الأرض. رواه مالك في الموطأ، والبخارى (١).

وقوله: ﴿ وَيُرْسِلُ الصَّوَاعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَنْ يَشَاءُ ﴾ أى: يرسلها نعمةً ينتقم بها من يشاء، ولهذا تكثر في آخر الزمان . وقوله : ﴿ وَهُمْ يُجَادِلُونَ فِي اللَّهِ ﴾ أى: يشكون في عظمته، وأنه لا إله إلا هو ﴿ وَهُوَ شَدِيدُ الْمِحَالِ ﴾. قال ابن جرير: شديدة ماحلته في عقوبة من طغى عليه وعتا وتمادى في كفره. وهذه الآية شبيهة بقوله: ﴿ وَمَكْرُوهًا مَكْرًا وَمَكْرًا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ. فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ مُكْرِمِهِمْ أَنَا دَمَرْنَاَهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ . وعن على : ﴿ وَهُوَ شَدِيدُ الْمِحَالِ ﴾ أى: شديد الأخذ. وقال مجاهد: شديد القوة.

﴿ لَمْ دَعْوَةٌ لُغَىٰ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِ لَا يَسْتَجِيبُونَ لَهُمْ بِشَيْءٍ إِلَّا كَبْسِطٍ كَفِيهِ إِلَىٰ الْمَاءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَلِغِهِ وَمَا دُعَاءُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ ﴾

قال على بن أبى طالب: ﴿ لَهُ دَعْوَةُ الْحَقِّ ﴾ قال: التوحيد. وقال ابن عباس: لا إله إلا الله . ﴿ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِ ﴾ أى: ومثل الذين يعبدون آلهة غير الله ﴿ كَبَاسِطٍ كَفِيهِ إِلَى الْمَاءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ ﴾: قال على بن أبى طالب: كمثل الذى يتناول الماء من طرف البئر بيده، وهو لا يناله أبداً بيده، فكيف يبلغ فاه؟ وقال مجاهد: يدعو الماء بلسانه، ويشير إليه بيده ، فلا يأتيه أبداً. وقيل: المراد كقابض يده على الماء، فإنه لا يحكم منه على شيء .

ومعنى الكلام : أن هذا الذى يبسط يده إلى الماء ، إما قابضاً وإما متناولاً له من بعد، كما أنه لا ينتفع بالماء الذى لم يصل إلى فيه ، الذى جعله محلاً للشرب ، فكذلك هؤلاء المشركون الذين يعبدون مع الله إلهاً غيره ، لا ينتفعون بهم أبداً فى الدنيا ولا فى الآخرة ؛ ولهذا قال : ﴿ وَمَا دُعَاءُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ ﴾.

﴿ وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظِلَالُهُم بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ ﴾

سجدة

يخبر تعالى عن عظمته وسلطانه الذى قهر كل شيء، ودان له كل شيء ، ولهذا يسجد له كل شيء طوعاً من المؤمنين، وكرهاً من الكافرين ﴿ وَظِلَالُهُم بِالْغُدُوِّ ﴾ أى: البكرات ﴿ وَالْآصَالِ ﴾ ، وهو جمع أصيل وهو آخر النهار، كما قال تعالى: ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَىٰ مَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ يَتَّبِعُهُ ظِلَالُهُ عَنِ الْيَمِينِ وَالشَّمَائِلِ سُجَّدًا لِلَّهِ وَهُمْ دَاخِرُونَ ﴾ [النحل: ٤٨].

﴿ قُلْ مَن رَّبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلِ اللَّهُ قُلْ أَفَاتَخَذْتُم مِّن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ لَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ أَمْ هَلْ نَسْتَوِي الظَّالِمَةُ وَالنُّورُ أَمْ جَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ خَلَقُوا كَخَلْقِهِ فَتَشَبَّهُ الْخَلْقُ عَلَيْهِمْ قُلِ اللَّهُ خَلِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ ﴾

يقرر تعالى أنه لا إله إلا هو؛ لأنهم معترفون بأنه هو الذى خلق السموات والأرض، وهو ربها ومدبرها، وهم مع هذا قد اتخذوا من دونه أولياء يعبدونهم، وأولئك الآلهة لا تملك لأنفسها، ولا لعابديها بطريق الأولى ﴿ تَفْعًا وَلَا ضَرًّا ﴾ أى: لا تحصل لهم منفعة، ولا تدفع عنهم مضرة. فهل يستوى من عبد هذه الآلهة مع الله، ومن عبد الله وحده لا شريك له، فهو على نور من ربه؟ ولهذا قال: ﴿ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِي الظُّلُمَاتُ وَالنُّورُ أَمْ جَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ خَلَقُوا كَخَلْقِهِ فَتَشَابَهُ الْخَلْقُ عَلَيْهِمْ ﴾ أى: اجعل هؤلاء المشركون مع الله آلهة تناظر الرب وتمثله فى الخلق، فخلقوا كخلقه، فتشابه الخلق عليهم، فلا يدرون أنها مخلوقة من مخلوق غيره؟ أى: ليس الأمر كذلك، فإنه لا يشابهه شيء ولا يماثله، ولا ند له ولا عدل له، ولا وزير له، ولا ولد ولا صاحبة، تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا. وإنما عبد هؤلاء المشركون معه آلهة هم يعترفون أنها مخلوقة له عبيد له، كما كانوا يقولون فى تليتهم: لبيك لا شريك لك، إلا شريكا هو لك، تملكه وما ملك. وكما أخبر تعالى عنهم فى قوله: ﴿ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ ﴾ [الزمر: ٣]، فإنكر تعالى ذلك عليهم، حيث اعتقدوا ذلك، وهو تعالى لا يشفع عنده أحداً إلا بإذنه ﴿ وَلَا تَنْفَعُ الشَّفَاعَةُ عِنْدَهُ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ ﴾ [سبا: ٢٣]، ﴿ وَكَمْ مِنْ مُلْكٍ فِي السَّمَوَاتِ ﴾ الآية [النجم: ٢٦]، وقال: ﴿ إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتِي الرَّحْمَنِ عَبْدًا. لَقَدْ أَحْصَاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا. وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَرْدًا ﴾ [مریم: ٩٣ - ٩٥]، فإذا كان الجميع عبيدا، فلم يعبد بعضهم بعضا بلا دليل ولا برهان، بل بمجرد الرأى والاختراع والابتداع؟ ثم قد أرسل رسله من أولهم إلى آخرهم تترجمهم عن ذلك، وتنهاهم عن عبادة من سوى الله، فكذبوهم وخالفوهم، فحقت عليهم كلمة العذاب لا محالة ﴿ وَلَا يَظُنُّ رَبُّكَ أَحَدًا ﴾ [الكهف: ٤٩].

﴿ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَدًا رَابِيًا وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ابْتِغَاءَ حَلِيبَةٍ أَوْ مَتَعٍ زَبَدٌ مِثْلُهُ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُتُ فِي الْأَرْضِ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ ﴾

اشتملت هذه الآية الكريمة على مثلين مضروبين للحق فى ثباته وبقائه، والباطل فى اضمحلاله وفنائه، فقال تعالى: ﴿ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً ﴾ أى: مطرا ﴿ فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا ﴾ أى: أخذ كل واد بحسبه، فهذا كبير وسع كثيرا من الماء، وهذا صغير فوسع بقدره، وهو إشارة إلى القلوب وتفاوتها، فمنها ما يسع علما كثيرا، ومنها ما لا يتسع لكثير من العلوم بل يضيق عنها ﴿ فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَدًا رَابِيًا ﴾ أى: فجاء على وجه الماء الذى سال فى هذه الأودية زبد عال عليه، هذا مثل، وقوله: ﴿ وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ﴾، هذا هو المثل الثانى، وهو ما يسبك فى النار من ذهب أو فضة ﴿ ابْتِغَاءَ حَلِيبَةٍ ﴾ أى: ليجعل حلبة نحاس أو حديد، فيجعل متاعا فإنه يعلوه زبد منه، كما يعلو ذلك زبد منه. ﴿ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ ﴾ أى: إذا اجتمعا لا ثبات للباطل ولا دوام له، كما أن الزبد لا يثبت مع الماء، ولا مع الذهب ونحوه مما يسبك فى النار، بل يذهب

ويضمحل؛ ولهذا قال: ﴿فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً﴾ أى: لا ينتفع به، بل يتفرق ويتمزق ويذهب فى جانبى الوادى، ويعلق بالشجر وتنسف الرياح. وكذلك خبث الذهب والفضة والحديد والنحاس يذهب، لا يرجع منه شىء، ولا يبقى إلا الماء، وذلك الذهب ونحوه ينتفع به؛ ولهذا قال: ﴿وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمُكُّ فِي الْأَرْضِ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ﴾، كما قال تعالى: ﴿وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ﴾ [العنكبوت: ٤٣]. قال بعض السلف: كنت إذا قرأتُ مثلاً من القرآن فلم أفهمه بكيت على نفسى؛ لأن الله تعالى يقول: ﴿وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ﴾ .

وقال ابن عباس قوله: ﴿أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَدًا رَابِيًا﴾ يقول: احتتمل السيل ما فى الوادى من عود ودمنة ﴿وَمِمَّا تُوَقَّدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ﴾، فهو الذهب والفضة والحلينة والمتاع والنحاس والحديد، فللنحاس والحديد خبث، فجعل الله مثل خبثه كزبد الماء، فأما ما ينفع الناس فالذهب والفضة، وأما ما ينفع الأرض فما شربت من الماء فأنبتت. فجعل ذلك مثل العمل الصالح يبقى لأهله، والعمل السيئ يضمحل عن أهله، كما يذهب هذا الزبد، فكذلك الهدى والحق جاء من عند الله، فمن عمل بالحق كان له، ويبقى كما يبقى ما ينفع الناس فى الأرض. وكذلك الحديد لا يستطيع أن يعمل منه سكين ولا سيف حتى يدخل فى النار فتأكل خبثه، ويخرج جوده فينتفع به. كذلك يضمحل الباطل إذا كان يوم القيامة، وأقيم الناس، وعرضت الأعمال، فيزيغ الباطل ويهلك، وينتفع أهل الحق بالحق. وكذلك روى فى تفسيرها عن مجاهد، والحسن البصرى، وعطاء، وقتادة، وغير واحد من السلف والخلف.

وقد ضرب الله، سبحانه وتعالى، فى أول سورة البقرة للمنافقين مثلين نارياً ومائياً، وهما قوله: ﴿مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ﴾ الآية [البقرة: ١٧]، ثم قال: ﴿أَوْ كَصَيْبٍ مِنَ السَّمَاءِ فِيهِ ظُلُمَاتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ﴾ الآية [البقرة: ١٩]. وهكذا ضرب للكافرين فى سورة النور مثلين، أحدهما: قوله: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعةٍ يَحْسِبُهُ الظَّمآنُ مَاءً﴾ الآية [النور: ٣٩]، والسراب إنما يكون فى شدة الحر؛ ولهذا جاء فى الصحيحين: «يقال لليهود يوم القيامة: فما تريدون؟ فيقولون: أى ربنا، عطشنا فاسقنا. فيقال: ألا تردون؟ فيردون النار فإذا هى كالسراب يحطم بعضها بعضاً». ثم قال فى المثل الآخر: ﴿أَوْ كظلماتٍ فى بحرٍ لججٍ يَغشاهُ موجٌ من فوقه موجٌ من فوقه سحابٌ﴾ الآية [النور: ٤٠]. وفى الصحيحين عن أبى موسى الأشعري قال: قال رسول الله ﷺ: «إن مثل ما بعثنى الله به من الهدى والعلم، كمثل غيث أصاب أرضاً، فكان منها طائفة قبلت الماء فأنبتت الكلاً والعشب الكثير، وكانت منها أجادب أمسكت الماء، فنفع الله بها الناس، فشربوا ورعوا زرعوا وزرعوا، وأصاب طائفة منها [أخرى]، إنما هى قيعان لا تمسك ماء ولا تنبت كلاً، فذلك مثل من فقه فى دين الله ونفعه الله بما بعثنى ونفع به، فعلم وعلم، ومثل من لم يرفع بذلك رأساً ولم يقبل هدى الله الذى أرسلت به» (١). فهذا مثل مائى، وقال فى الحديث الآخر الذى رواه الإمام أحمد عن أبى هريرة عن رسول الله ﷺ أنه قال: «مثلى

(١) البخارى (٧٩)، ومسلم (١٥/٢٢٨٢)، وما بين المعقوفتين ليس فى المخطوطة، وأثبتناه من الصحيحين والمطبوعة.

ومثلكم ، كمثل رجل استوقد ناراً ، فلما أضاءت ما حوله ، جعل الفَرَّاشَ وهذه الدواب التي يقعن في النار يقعن فيها ، وجعل يحجّزُهُنَّ ويغلبنه فيقتحمن فيها . قال : « فذلکم مثلی ومثلکم ، أنا أخذ بحجّزکم عن النار ، هلّم عن النار [هلّم عن النار ، هلّم] ، فتغلبونى فتقتحمون فيها » . وأخرجاه في الصحيحين أيضا (١) ، فهذا مثل نارى .

﴿ لِلَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمُ الْحُسْنَىٰ وَالَّذِينَ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُ لَوْ أَنَّ لَهُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِّثْلَهُ مَعَهُ لَاقْتَدُوا بِهِ ۗ أُولَٰئِكَ هُمْ سُوءَ الْحِسَابِ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ لِلَّهِادِ ۖ﴾

يخبر تعالى عن مآل السعداء والأشقياء فقال : ﴿ لِلَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ ﴾ أى : أطاعوا الله ورسوله ، وانقادوا لأوامره ، وصدقوا أخباره الماضية والآتية ، فلهم ﴿ الْحُسْنَى ﴾ وهو الجزء الحسن ، كقوله تعالى مخبراً عن ذى القرنين أنه قال : ﴿ أَمَا مَنْ ظَلَمَ فَسَوْفَ نَعَذِّبُهُ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِ فَيُعَذِّبُهُ عَذَابًا نُكْرًا . وَأَمَا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُ جَزَاءُ الْحُسْنَىٰ وَسَنَقُولُ لَهُ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا ﴾ [الكهف : ٨٧ ، ٨٨] ، وقال تعالى : ﴿ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ ﴾ [يونس : ٢٦] .

وقوله : ﴿ وَالَّذِينَ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُ ﴾ أى لم : يطيعوا الله ﴿ لَوْ أَنَّ لَهُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ﴾ أى : فى الدار الآخرة ، لو أن يمكنهم أن يفتدوا من عذاب الله بملء الأرض ذهباً ومثله معه لافتدوا به ، ولكن لا يتقبل منهم ؛ لأنه تعالى لا يقبل منهم يوم القيامة صرفاً ولا عدلاً ﴿ أُولَٰئِكَ لَهُمْ لَهُمْ سُوءُ الْحِسَابِ ﴾ أى : فى الدار الآخرة ، أى : يناقشون على النقيير والقطمير ، والجليل والحقير ، ومن نوقش الحساب عذب ؛ ولهذا قال : ﴿ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمِهَادُ ﴾ .

﴿ أَفَمَنْ يَعْلَمُ أَنَّمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰ ۚ إِنَّمَا يَنْذَرُكَ أَوَّلُوا الْأَلْبَابِ ۖ﴾

يقول تعالى : لا يستوى من يعلم من الناس أن الذى ﴿ أُنزِلَ إِلَيْكَ ﴾ يا محمد ﴿ مِنْ رَبِّكَ ﴾ هو ﴿ الْحَقُّ ﴾ الذى لا شك فيه ولا مرية ولا لبس فيه ولا اختلاف فيه ، بل هو كله حق يصدق بعضه بعضاً ، لا يضاد شيئاً منه شيئاً آخر ، فأخبره كلها حق ، وأوامره ونواهيها عدل ، كما قال تعالى : ﴿ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا ﴾ [الانعام : ١١٥] أى : صدقاً فى الأخبار ، وعدلاً فى الطلب ، فلا يستوى من تحقق صدق ما جئت به يا محمد ، ومن هو أعمى لا يهتدى إلى خير ولا يفهمه ، ولو فهمه ما انقاد له ، ولا صدقه ولا اتبعه ، كقوله تعالى : ﴿ لَا يَسْتَوِي أَصْحَابُ النَّارِ وَأَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمُ الْفَائِزُونَ ﴾ [الحشر : ٢٠] ، وقال فى هذه الآية الكريمة : ﴿ أَفَمَنْ يَعْلَمُ أَنَّمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰ ﴾ ؟ أى : أفهذا كهذا ؟ لا استواء . وقوله : ﴿ إِنَّمَا يَنْذَرُكَ أَوَّلُوا الْأَلْبَابِ ﴾ أى : إنما يتعظ ويعتبر ويعقل أولو العقول السليمة الصحيحة ، جعلنا الله منهم .

(١) المسند (٣١٢/٢) ، والبخارى (٦٤٨٢) ، ومسلم (١٧/٢٢٨٤) ، وما بين المعقوفتين ليس فى المطبوعة والمخطوطة ، وأثبتناه من المسند .

﴿ الَّذِينَ يُؤْفُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَلَا يَقْضُونَ الْمِيثَاقَ ﴾ ٢٠ ﴿ وَالَّذِينَ يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِمْ أَنْ يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوءَ الْحِسَابِ ﴾ ٢١ ﴿ وَالَّذِينَ صَبَرُوا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً وَيَدْرءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةِ أُولَئِكَ لَمْ عُقِبِ الدَّارِ جَنَّتْ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّتِهِمْ وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ ﴿ ٢٢ ﴾ سَلَّمَ عَلَيْكُمْ بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعَمَ عُقْبَى الدَّارِ ﴿ ٢٤ ﴾

يقول تعالى مخبراً عن اتصف بهذه الصفات الحميدة ، بأن لهم ﴿عُقْبَى الدَّارِ﴾ وهى العاقبة والنصرة فى الدنيا والآخرة ﴿الَّذِينَ يُؤْفُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَلَا يَقْضُونَ الْمِيثَاقَ﴾ وليسوا كالمنافقين الذين إذا عاهد أحدهم غدراً ، وإذا خاصم فجر ، وإذا حدث كذب ، وإذا اتمن خان . ﴿ وَالَّذِينَ يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ ﴾ من صلة الأرحام ، والإحسان إليهم وإلى الفقراء والمحاويج ، وبذل المعروف ﴿ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ﴾ أى : فيما يأتون وما يذرون من الأعمال ، يراقبون الله فى ذلك ، ويخافون سوء الحساب فى الدار الآخرة . فلهدا أمرهم على السداد والاستقامة فى جميع حركاتهم وسكناتهم وجميع أحوالهم القاصرة والمتعدية . ﴿ وَالَّذِينَ صَبَرُوا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ ﴾ أى : عن المحارم والمآثم ، ففظموا نفوسهم عن ذلك لله عز وجل ؛ ابتغاء مرضاته وجزيل ثوابه ﴿ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ ﴾ يحدودها ومواقيتها وركوعها وسجودها وخشوعها على الوجه الشرعى المرضى ﴿ وَأَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ ﴾ أى : على الذين يجب عليهم الإنفاق لهم من زوجات وقرابات وأجانب ، من فقراء ومحاويج ومساكين ﴿ سِرًّا وَعَلَانِيَةً ﴾ أى : فى السر والجهر ، لم يمنعهم من ذلك حال من الأحوال ، فى آناء الليل وأطراف النهار ﴿ وَيَدْرءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةِ ﴾ أى : يدفعون القبيح بالحسن ، فإذا آذاهم أحد قابله بالجميل صبوا واحتمالا وصفحاً وعفوا ، كما قال تعالى : ﴿ اذْقَعْ بِالَّذِي هُوَ أَحْسَنُ لَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ . وَمَا يُلْقَاهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلْقَاهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴾ [فصلت : ٣٤ ، ٣٥] ؛ ولهذا قال مخبراً عن هؤلاء السعداء المتصفين بهذه الصفات الحسنة بأن لهم عقبى الدار ، ثم فسر ذلك بقوله : ﴿ جَنَّتْ عَدْنٌ ﴾ والعدن : الإقامة ، أى : جنات إقامة يخلدون فيها .

وقوله : ﴿ وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ ﴾ أى : يجمع بينهم وبين أحبائهم فيها من الآباء والأهلين والأبناء ، ممن هو صالح لدخول الجنة من المؤمنين ؛ لتقر أعينهم بهم ، حتى إنه ترفع درجة الأدنى إلى درجة الأعلى ، من غير تنقيص لذلك الأعلى عن درجته ، بل امتناناً من الله وإحساناً ، كما قال تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُمْ بِإِيمَانٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَا أَلْتَأَمُّهُمْ مِنْ عَمَلِهِمْ مِنْ شَيْءٍ كُلُّ امْرِئٍ بِمَا كَسَبَ رَهين ﴾ [الطور : ٢١] .

وقوله : ﴿ وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ . سَلَامٌ عَلَيْكُمْ بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعَمَ عُقْبَى الدَّارِ ﴾ أى : وتدخل عليهم الملائكة من هاهنا وهاهنا للتهنئة بدخول الجنة ، فعند دخولهم إياها تغد عليهم الملائكة مسلمين مهتئين لهم بما حصل لهم من الله من التقريب والإنعام ، والإقامة فى دار السلام ،

في جوار الصديقين والأنبياء والرسل الكرام .

وروى الإمام أحمد عن عبد الله بن عمرو بن العاص ، رضى الله عنهما ، عن رسول الله ﷺ أنه قال : « هل تدرون أول من يدخل الجنة من خلق الله؟ » قالوا : الله ورسوله أعلم . قال : « أول من يدخل الجنة من خلق الله الفقراء المهاجرون الذين تُسَدُّ بهم الثغور ، وتَتَقَى بهم المكاره ، ويموت أحدهم وحاجته في صدره لا يستطيع لها قضاء ، فيقول الله تعالى لمن يشاء من ملائكته : اتوهم فحيوهم . فتقول الملائكة : نحن سكان سمائك ، وخيرتك من خلقك ، أقتأرنا أن نأتى هؤلاء فنسلم عليهم ؟ قال : إنهم كانوا عباداً يعبدوننى لا يشركون بى شيئاً ، وتُسَدُّ بهم الثغور ، وتتقى بهم المكاره ، ويموت أحدهم وحاجته في صدره فلا يستطيع لها قضاء . قال : « فتأتيهم الملائكة عند ذلك ، فيدخلون عليهم من كل باب ﴿ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ ﴾ » (١) .

﴿ وَالَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ أُولَئِكَ لَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ ﴾

هذا حال الأشقياء وصفاتهم ، وذكر مآلهم في الدار الآخرة ومصيرهم إلى خلاف ما صار إليه المؤمنون ، كما أنهم اتصفوا بخلاف صفاتهم في الدنيا ، فأولئك كانوا يوفون بعهد الله ويصلون ما أمر الله به أن يوصل ، وهؤلاء ﴿ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ ﴾ ، كما ثبت في الحديث : « آية المنافق ثلاث : إذا حدث كذب ، وإذا وعد أخلف ، وإذا أؤتمن خان » (٢) . وفي رواية : « وإذا عاهد غدر ، وإذا خاصم فجر » (٣) .

ولهذا قال : ﴿ أُولَئِكَ لَهُمُ اللَّعْنَةُ ﴾ وهي الإبعاد عن الرحمة ، ﴿ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ ﴾ وهي سوء العاقبة والمآل ، ومآواهم جهنم وبئس القرار . وقال أبو العالية في قوله : ﴿ وَالَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ ﴾ الآية ، قال : هي ست خصال في المنافقين إذا كان فيهم الظهرة على الناس أظهروا هذه الخصال : إذا حدثوا كذبوا ، وإذا وعدوا أخلفوا ، وإذا اتتمنوا خانوا ، ونقضوا عهد الله من بعد ميثاقه ، وقطعوا ما أمر الله به أن يوصل ، وأفسدوا في الأرض . وإذا كانت الظهرة عليهم أظهروا الثلاث الخصال : إذا حدثوا كذبوا ، وإذا وعدوا أخلفوا ، وإذا اتتمنوا خانوا .

﴿ اللَّهُ يَسْطُرُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ وَفَرِحُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا مَتَاعٌ ﴾

يذكر تعالى أنه هو الذى يوسع الرزق على من يشاء ، ويقتصر على من يشاء ، لما له فى ذلك

(١) المسند (٦٥٧١) وقال الشيخ أحمد شاكر : « إسناده صحيح » ، وقال الهيثمى فى الزوائد (٢٥٩/١٠) : « رجاله ثقات » .

(٢) البخارى (٣٣) ، ومسلم (١٠٧/٥٩) . (٣) البخارى (٣٤) ، ومسلم (١٠٦/٥٨) .

من الحكمة والعدل . وفرح هؤلاء الكفار بما أوتوا في الحياة الدنيا استدراجاً لهم وإمهالاً ، كما قال : ﴿ أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُمْ بِهِ مِنْ مَّالٍ وَبَيْنَ . نُسَارِعُ لَهُمْ فِي الْخَيْرَاتِ بَلْ لَا يَشْعُرُونَ ﴾ [المؤمنون : ٥٥ ، ٥٦] .

ثم حقر الحياة الدنيا بالنسبة إلى ما ادخره تعالى لعباده المؤمنين في الدار الآخرة فقال : ﴿ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا مَتَاعٌ ﴾ ، كما قال : ﴿ قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ لِمَنِ اتَّقَى وَلَا تَتْلَمُونَ فَتِيلًا ﴾ [النساء : ٧٧] ، وقال : ﴿ بَلْ تَوَثُّرُونَ بِحَايَتِ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَى ﴾ [الاعلى : ١٦ ، ١٧] . وروى الإمام أحمد عن المستورد أخى بنى فهر قال : قال رسول الله ﷺ : « ما الدنيا في الآخرة إلا كمثل ما يجعل أحدكم أصبعه هذه فى اليم ، فلينظر بسم ترجع » وأشار بالسبابة . ورواه مسلم فى صحيحه (١) . وفى الحديث الآخر : أن رسول الله ﷺ مر بجدي أسك ميت - والأسك : الصغير الأذنين - فقال : « والله للدنيا أهون على الله من هذا على أهله حين القوه » (٢) .

﴿ وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ قُلْ إِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ أُنَابَ ﴾ (٧) الَّذِينَ ءَامَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ ﴾ (٨) الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ طُوبَى لَهُمْ وَحَسُنَ مَا فِي

يخبر تعالى عن قيل المشركين : ﴿ لَوْلَا ﴾ أى : هلا ﴿ أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ ﴾ كما قالوا : ﴿ فَلْيَأْتِنَا بآيَةٍ كَمَا أُرْسِلَ الْأَوَّلُونَ ﴾ [الانبيا : ٥] ، وقد تقدم الكلام على هذا غير مرة ، وإن الله قادر على إجابة ما سألوا . وفى الحديث : أن الله أوحى إلى رسوله لما سألوه أن يحول لهم الصفا ذهباً ، وأن يجرى لهم ينبوعاً ، وأن يزيح الجبال من حول مكة فيصير مكانها مروج وبساتين : إن شئت يا محمد أعطيتهم ذلك ، فإن كفروا فإنى أعذبهم عذاباً لا أعذبه أحداً من العالمين ، وإن شئت فتحت عليهم باب التوبة والرحمة ، فقال : « بل فتحت لهم باب التوبة والرحمة » (٣) ؛ ولهذا قال لرسوله : ﴿ قُلْ إِنْ أَرَادَ اللَّهُ بِبُيُوتِكُمْ خَيْرًا وَبِغَيْرِكُمْ شَرًّا لَآتِيكُمْ بِهِ وَمَا فِي ذَلِكَ مِنْ غَيْرِ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ أُنَابَ ﴾ أى : هو المضل والهادى ، سواء بعث الرسول بآية على وفق ما اقترحوا ، أو لم يجبههم إلى سؤالهم ؛ فإن الهداية والإضلال ليس منوطاً بذلك ولا عدمه ، كما قال : ﴿ وَمَا تَفْعَلِي الْآيَاتِ وَالنُّذُرِ عَنْ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ [يونس : ١٠١] ، وقال : ﴿ إِنْ أَرَادَ اللَّهُ بِبُيُوتِكُمْ خَيْرًا وَبِغَيْرِكُمْ شَرًّا لَآتِيكُمْ بِهِ وَمَا فِي ذَلِكَ مِنْ غَيْرِ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ أُنَابَ ﴾ [يونس : ٩٦ ، ٩٧] . وقال : ﴿ وَلَوْ أَنَّا نَزَّلْنَا إِلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ الْمَوْتَى وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلًا مَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ وَلَكِنْ أَكْثَرُهُمْ يَجْهَلُونَ ﴾ [الانعام : ١١١] ؛ ولهذا قال : ﴿ قُلْ إِنْ أَرَادَ اللَّهُ بِبُيُوتِكُمْ خَيْرًا وَبِغَيْرِكُمْ شَرًّا لَآتِيكُمْ بِهِ وَمَا فِي ذَلِكَ مِنْ غَيْرِ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ أُنَابَ ﴾ أى : ويهذى من أناب إلى الله ، ورجع إليه ، واستعان به ، وتضرع لديه .

﴿ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ ﴾ أى : تطيب وتركن إلى جانب الله ، وتسكن عند ذكره ، وترضى به مولى ونصيراً ؛ ولهذا قال : ﴿ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ ﴾ أى : هو حقيق بذلك .

(١) المسند (٤/٢٢٨) ، ومسلم (٥٥/٢٨٥٨) . (٢) مسلم (٢/٢٩٥٧) .

(٣) المسند (٢١٦٦) وقال الشيخ أحمد شاکر : « إسناده صحيح » .

﴿ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ طُوبَىٰ لَهُمْ وَحَسَنُ مَّتَابٍ ﴾، قال ابن عباس: فرح وقرة عين. وقال عكرمة: نعم ما لهم. وقال الضحاك: غبطة لهم. وقال إبراهيم النخعي: خير لهم. وقال قتادة: ﴿ طُوبَىٰ لَهُمْ ﴾: حسنى لهم. ﴿ وَحَسَنُ مَّتَابٍ ﴾ أى: مرجع. وهذه الأقوال شىء واحد لا منافاة بينها.

وقال شهر بن حوشب: ﴿ طُوبَىٰ ﴾ شجرة فى الجنة، كل شجر الجنة منها، أغصانها من وراء سور الجنة. وهكذا روى عن أبى هريرة، وابن عباس، وغير واحد من السلف: أن طوبى شجرة فى الجنة، فى كل دار منها غصن منها.

وروى الإمام أحمد عن أبى سعيد الخدرى عن رسول الله ﷺ: أن رجلا قال: يا رسول الله، طوبى لمن رآك وآمن بك. قال: «طوبى لمن رآنى وآمن بى، ثم طوبى، ثم طوبى، ثم طوبى لمن آمن بى ولم يرنى». قال له رجل: وما طوبى؟ قال: «شجرة فى الجنة مسيرة مائة عام، ثياب أهل الجنة تخرج من أكمامها» (١). وروى البخارى ومسلم جميعاً، عن إسحاق بن راهويه، عن مغيرة المخزومى، عن وهيب، عن أبى حازم، عن سهل بن سعد قال: قال رسول الله ﷺ: «إن فى الجنة شجرة يسير الراكب فى ظلها مائة عام لا يقطعها» قال: فَحَدَّثْتُ بِهِ النعمان بن أبى عياش الزرقى، فقال: حدثنى أبو سعيد الخدرى، عن النبى ﷺ قال: «إن فى الجنة شجرة يسير الراكب الجواد المضمراً السريع مائة عام ما يقطعها» (٢). وفى صحيح البخارى عن أنس، قال: قال رسول الله ﷺ فى قول الله: ﴿ وَظِلٌّ مُمْدُودٌ ﴾ [الواقعة: ٣٠]، قال: «فى الجنة شجرة يسير الراكب فى ظلها مائة عام لا يقطعها» (٣).

وفى صحيح مسلم، عن أبى ذر، عن رسول الله ﷺ، عن الله، عز وجل: «يا عبادى، لو أن أولكم وآخركم، وإنسكم وجنكم، قاموا فى صعيد واحد، فسألونى، فأعطيت كل إنسان مسألته، ما نقص ذلك من ملكى شيئا، إلا كما ينقص المخيط إذا أدخل فى البحر» الحديث بطوله (٤).

﴿ كَذَلِكَ أَرْسَلْنَاكَ فِي أُمَّةٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهَا أُمَمٌ لِّتَلْتُوا عَلَيْهِمُ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَنِ قُلْ هُوَ رَبِّي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَابٌ ﴾

يقول تعالى: وكما أرسلناك يا محمد فى هذه الأمة ﴿ لِّتَلْتُوا عَلَيْهِمُ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ ﴾ أى: تبلغهم رسالة الله إليهم، كذلك أرسلنا فى الأمم الماضية الكافرة بالله، وقد كذب الرسل من قبلك، فلك بهم أسوة، وكما أوقعنا بأسنا ونقمتنا بأولئك، فليحذر هؤلاء من حلول النقم بهم، فإن تكذيبهم لك أشد من تكذيب غيرك من المرسلين، قال الله تعالى: ﴿ تَاللَّهِ لَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَىٰ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ ﴾ الآية [النحل: ٦٣]، وقال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ كَذَّبْتَ رَسُولٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُوا عَلَىٰ مَا كَذَّبُوا وَأَوْدُوا حَتَّىٰ آتَاهُم نَصْرُنَا وَلَا مَبْدَلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ وَلَقَدْ جَاءَكَ مِنْ نَّبِئِ الْمُرْسَلِينَ ﴾ [الأنعام: ٣٤] أى: كيف

(١) البخارى (٣٢٥١) ، ومسلم (٦٥٥٢) ، (٨/٢٨٢٧)

(٢) مسلم (٥٥/٢٥٧٧)

(٣) البخارى (٣٢٥١)

(٤) مسلم (٥٥/٢٥٧٧)

نصرناهم ، وجعلنا العاقبة لهم ولأتباعهم فى الدنيا والآخرة .

وقوله : ﴿ وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرُّحْمَنِ ﴾ أى : هذه الأمة التى بعثناك فيهم يكفرون بالرحمن ، لا يقرون به ؛ لأنهم كانوا يأنفون من وصف الله بالرحمن الرحيم ؛ ولهذا أنفوا يوم الحديبية أن يكتبوا «بسم الله الرحمن الرحيم» وقالوا : ما ندرى ما الرحمن الرحيم . قاله قتادة ، والحديث فى صحيح البخارى (١) ، وقد قال الله تعالى : ﴿ قُلْ اذْعُوا لِلَّهِ أَوْ اذْعُوا لِلرُّحْمَنِ أَيُّ مَا تَدْعُوا فَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى ﴾ [الإسراء : ١١٠] ، وفى صحيح مسلم عن عبد الله بن عمر قال : قال رسول الله ﷺ : « إن أحب الأسماء إلى الله عبد الله وعبد الرحمن » (٢) . ﴿ قُلْ هُوَ رَبِّي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ ﴾ أى : هذا الذى تكفرون به أنا مؤمن به ، معترف مقر له بالربوبية والإلهية ، هو ربى لا إله هو ﴿ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ ﴾ أى : فى جميع أمورى ﴿ وَإِلَيْهِ مَتَابِ ﴾ أى : إليه أرجع وأنيب ، فإنه لا يستحق ذلك أحد سواه .

﴿ وَلَوْ أَنَّ قُرْآنًا سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبَالُ أَوْ قُطِعَتْ بِهِ الْأَرْضُ أَوْ كَلِمٌ بِهِ الْمَوْتُ بَلَّ لَلَّهِ الْأَمْرَ جَمِيعًا أَفَلَمْ يَأْتِيسَ الَّذِينَ ءَامَنُوا أَنْ لَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَهْدَى النَّاسَ جَمِيعًا وَلَا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا تُصِيبُهُمْ بِمَا صَنَعُوا قَارِعَةٌ أَوْ تَحُلُّ قَرِيبًا مِّن دَارِهِمْ حَتَّى يَأْتِيَ وَعْدَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُخْلِفُ الْأَمْعَادَ ﴾

يقول تعالى مادحا للقرآن الذى أنزله على محمد ﷺ ، ومفضلا له على سائر الكتب المنزلة قبله : ﴿ وَلَوْ أَنَّ قُرْآنًا سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبَالُ ﴾ أى : لو كان فى الكتب الماضية كتاب تسير به الجبال عن أماكنها ، أو تقطع به الأرض وتنشق ، أو تكلم به الموتى فى قبورها ، لكان هذا القرآن هو المتصف بذلك دون غيره ، أو بطريق الاولى أن يكون كذلك ؛ لما فيه من الإعجاز الذى لا يستطيع الإنس والجن عن آخرهم إذا اجتمعوا أن يأتوا بمثله ، ولا بسورة من مثله ، ومع هذا فهو لاء المشركون كافرون به ، جاحدون له ﴿ بَلَّ لِلَّهِ الْأَمْرَ جَمِيعًا ﴾ أى : مرجع الأمور كلها إلى الله ، عز وجل ، ما شاء الله كان ، وما لم يشأ لم يكن ، ومن يضل فلا هادى له ، ومن يهد الله فلا مضل له . وقد يطلق اسم القرآن على كل من الكتب المتقدمة ؛ لأنه مشتق من الجميع ، روى الإمام أحمد عن أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « خُفِّقَتْ عَلَى دَاوُدَ الْقِرَاءَةُ ، فَكَانَ يَأْمُرُ بِدَابَّتِهِ أَنْ تُسْرَجَ ، فَكَانَ يَقْرَأُ الْقُرْآنَ مِنْ قَبْلِ أَنْ تُسْرَجَ دَابَّتُهُ ، وَكَانَ لَا يَأْكُلُ إِلَّا مِنْ عَمَلِ يَدَيْهِ » . انفراد بإخراجه البخارى (٣) . والمراد بالقرآن هنا الزبور .

وقوله : ﴿ أَفَلَمْ يَأْتِيسَ الَّذِينَ ءَامَنُوا ﴾ أى : من إيمان جميع الخلق ويعلموا أو يتبينوا ﴿ أَنْ لَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَهْدَى النَّاسَ جَمِيعًا ﴾ فإنه ليس ثم حجة ولا معجزة أبلغ ولا أنجع فى النفوس والعقول من هذا القرآن ، الذى لو أنزله الله على جبل لرأيته خاشعا متصدعا من خشية الله . وثبت فى الصحيح

(٢) مسلم (٢/٢١٣٢) .

(١) البخارى (٢٧٣١ ، ٢٧٣٢) .

(٣) المسند (٢/٣١٤) ، والبخارى (٣٤١٧) .

أن رسول الله ﷺ قال: «ما من نبي إلا وقد أوتى ما آمن على مثله البشر، وإنما كان الذي أوتيته وحياً أوحاه الله إلي، فأرجو أن أكون أكثرهم تابعا يوم القيامة» (١). معناه: أن معجزة كل نبي انقضت بموته، وهذا القرآن حجة باقية على الآباد، لا تنقض عجائبه، ولا يخلت عن كثرة الرد، ولا يشيع منه العلماء، هو الفصل ليس بالهزل، من تركه من جبار قصمه الله، ومن ابتغى الهدى في غيره أضله الله.

وقوله: ﴿وَلَا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا تُصِيبُهُمْ بِمَا صَنَعُوا قَارِعَةً أَوْ تَحُلُّ قَرْيَةً مِّن دَارِهِمْ﴾ أى: بسبب تكذيبهم، لا تزال القوارع تصيبهم في الدنيا، أو تصيب من حولهم ليتعظوا ويعتبروا، كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَهَلَكْنَا مَا حَوْلَكُمْ مِّنَ الْقَرْيِ وَصَرَّفْنَا الْآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [الاحقاف: ٢٧]، وقال: ﴿أَفَلَا يَرَوْنَ أَنَا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنْقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا أَفَهُمُ الْغَالِبُونَ﴾ [الانباء: ٤٤]. قال الحسن: ﴿أَوْ تَحُلُّ قَرْيَةً مِّن دَارِهِمْ﴾ أى: القارعة. وهذا هو الظاهر من السياق. ﴿حَتَّى يَأْتِيَ وَعْدَ اللَّهِ﴾ يعنى: فتح مكة. وقال الحسن البصرى: يوم القيامة.

وقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُخَلِّفُ الْمِعَادَ﴾ أى: لا ينقض وعده لرسله بالنصرة لهم ولا تباعهم في الدنيا والآخرة، ﴿فَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ مُخَلِّفَ وَعْدِهِ رُسُلُهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ ذُو انتِقَامٍ﴾ [إبراهيم: ٤٧].

﴿وَلَقَدْ اسْتَهْزَيْتَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَمَلَيْتُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا ثُمَّ أَخَذْتَهُمْ فَكَيْفَ كَانَ

عِقَابِ ﴿٢١﴾

يقول تعالى مسلماً لرسوله ﷺ في تكذيب من كذبه من قومه: ﴿وَلَقَدْ اسْتَهْزَيْتَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ﴾ أى: فلك فيهم أسوة ﴿فَأَمَلَيْتُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا﴾ أى: أنظرتهم وأجلتهم ﴿ثُمَّ أَخَذْتَهُمْ﴾ أخذه رابية، فكيف بلغك ما صنعت بهم وعاقبتهم؟ كما قال تعالى: ﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَيْتَ لَهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ ثُمَّ أَخَذْتَهَا وَإِلَى الْمَصِيرِ﴾ [الحج: ٤٨]، وفي الصحيحين: «إن الله ليملى للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته»، ثم قرأ رسول الله ﷺ: ﴿وَكَذَلِكَ أَخَذ رَبُّكَ إِذَا أَخَذَ الْقَرْيَةَ وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخَذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾ [هود: ١٠٢] (٢).

﴿أَفَمَن هُوَ قَائِمٌ عَلَىٰ كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ قُل سَمُّوهُمْ أَمْ تُنَبِّئُونَهُ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي الْأَرْضِ أَمْ يظَاهِرُونَ مِنَ الْقَوْلِ بَل زَيْنٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مَكْرُهُمْ وَصُدُّوا عَنِ السَّبِيلِ وَمَن يُضِلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِن هَادٍ ﴿٢٢﴾

يقول تعالى: ﴿أَفَمَن هُوَ قَائِمٌ عَلَىٰ كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ﴾ أى: حفيظ عليهم رقيب على كل نفس منفوسة، يعلم ما يعمل العاملون من خير وشر، ولا يخفى عليه خافية ﴿وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُو

(١) البخارى (٤٩٨١)، ومسلم (٢٣٩/١٥٢).

(٢) البخارى (٤٦٨٦)، ومسلم (٦١/٢٥٨٣).

منهُ مِنْ قُرْآنٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ ﴿ [يونس: ٦١] ، وقال تعالى: ﴿وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا﴾ [الأنعام: ٥٩] ، وقال: ﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا كُلٌّ فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾ [هود: ٦] ، وقال: ﴿سَوَاءٌ مِنْكُمْ مَنْ أَسْرَ الْقَوْلَ وَمَنْ جَهَرَ بِهِ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍ بِاللَّيْلِ وَسَارِبٌ بِالنَّهَارِ﴾ [الرعد: ١٠] ، وقال: ﴿يَعْلَمُ السِّرَّ وَالْأَخْفَى﴾ [طه: ٧] . وقال: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ [الحديد: ٤] أفمن هو كذلك كالأصنام التي يعبدونها ، لا تسمع ولا تبصر ولا تعقل ، ولا تملك نفعا لأنفسها ولا لعباديتها ، ولا كشف ضرر عنها ولا عن عابديها ؟ وحذف هذا الجواب اكتفاء بدلالة السياق عليه ، وهو قوله: ﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ﴾ أى: عبدوها معه ، من أصنام وأنداد وأوثان .

﴿ قُلْ سَمُّوهُمْ ﴾ أى: أعلمونا بهم ، واكشفوا عنهم حتى يُعرفوا ، فإنهم لا حقيقة لهم ؛ ولهذا قال: ﴿أَمْ تَتَّبِعُونَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي الْأَرْضِ﴾ أى: لا وجود له ؛ لأنه لو كان له وجود في الأرض لعلمها ؛ لأنه لا تخفى عليه خافية . ﴿أَمْ بَظَاهِرٍ مِنَ الْقَوْلِ﴾ قال مجاهد: بظن من القول . وقال الضحاك وقتادة: بباطل من القول . أى: إنما عبدتم هذه الأصنام بظن منكم أنها تنفع وتضر ، وسميتوما آلهة ، ﴿إِنْ هِيَ إِلَّا أَسْمَاءٌ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَأَبَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الْأَنْفُسُ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنْ رَبِّهِمُ الْهُدَى﴾ [النجم: ٢٣] .

﴿ بَلْ زَيْنَ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا مَكْرَهُمْ ﴾ قال مجاهد: قولهم ، أى: ما هم عليه من الضلال والدعوة إليه آتاء الليل وأطراف النهار ، كما قال تعالى: ﴿وَقِيضْنَا لَهُمْ قُرْآنًا فَرَيْنَا لَهُمْ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَحَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ فِي أَمْرٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ إِنَّهُمْ كَانُوا خَاسِرِينَ﴾ [فصلت: ٢٥] . ﴿وَصُدُّوا﴾ أى: بما زين لهم من صحة ما هم عليه ، صدوا به عن سبيل الله ؛ ولهذا قال: ﴿وَمَنْ يُضِلِّ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ﴾ ، كما قال: ﴿وَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ فِتْنَتَهُ فَلَنْ تَمْلِكَ لَهُ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا﴾ [المائدة: ٤١] ، وقال: ﴿إِنْ تَحْرِصْ عَلَى هُدَاهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ يُضِلُّ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ﴾ [النحل: ٣٧] .

﴿ هُمْ عَذَابٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَقُّ وَمَا لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَاقٍ ﴾
 ﴿ مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وَعِدَ الْمُتَّقُونَ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ كُلُّهَا دَائِمٌ وَظُلْمُهَا تِلْكَ عُقْبَى الَّذِينَ اتَّقَوْا وَعُقْبَى الْكَافِرِينَ النَّارُ ﴾

ذكر تعالى عقاب الكفار وثواب الأبرار: فقال - بعد إخباره عن حال المشركين وما هم عليه من الكفر والشرك: ﴿ هُمْ عَذَابٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ﴾ أى: بأيدي المؤمنين قتلوا وأسرنا ﴿ وَعَذَابُ الْآخِرَةِ ﴾ أى: المدخر مع هذا الخزي في الدنيا ﴿ أَشَقُّ ﴾ أى: من هذا بكثير ، كما قال رسول الله ﷺ للمتلاعنين : « إن عذاب الدنيا أهون من عذاب الآخرة » (١) . فإن عذاب الدنيا له انقضاء ، وذاك دائم أبدا في نار هي بالنسبة إلى هذه سبعون ضعفا ، ووثاق لا يتصور كثافته وشدته ، كما

قال تعالى : ﴿ فَيَوْمَئِذٍ لَا يُعَذِّبُ عَذَابَهُ أَحَدٌ . وَلَا يُوثِقُ وِثْقَهُ أَحَدٌ ﴾ [الفجر : ٢٥ ، ٢٦] ، وقال تعالى : ﴿ وَأَعْتَدْنَا لِمَن كَذَبَ بِالسَّاعَةِ سَعِيرًا . إِذَا رَأَتْهُم مِّن مَّكَانٍ بَعِيدٍ سَمِعُوا لَهَا تَغِيظًا وَزَفِيرًا . وَإِذَا أَلْقَا مِنْهَا مَكَانًا ضَيِّقًا مُّقْرِنِينَ دَعَوْا هُنَالِكَ ثُبُورًا . لَا تَدْعُوا الْيَوْمَ ثُبُورًا وَاحِدًا وَادْعُوا ثُبُورًا كَثِيرًا . قُلْ أَدْلِكْ خَيْرٌ أَمْ جَنَّةُ الْخُلْدِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ كَانَتْ لَهُمْ جَزَاءً وَمَصِيرًا ﴾ [الفرقان : ١١ - ١٥] . ولهذا قرن هذا بهذا؛ فقال : ﴿ مثل الجنة التي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ ﴾ أى : صفتها ونعتها ﴿ تجري من تحتها الأنهار ﴾ أى : سارحة فى أرجائها وجوانبها ، وحيث شاء أهلها ، يفجرونها تفجيراً ، أى : يصرفونها كيف شاؤوا وأين شاؤوا ، كقوله : ﴿ مثل الجنة التي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ فِيهَا أَنْهَارٌ مِّن مَّاءٍ غَيْرِ آسِنٍ وَأَنْهَارٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ وَأَنْهَارٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٌ لِلشَّارِبِينَ وَأَنْهَارٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى وَلَهُمْ فِيهَا مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَمَغْفِرَةٌ ﴾ الآية [محمد : ١٥] .

وقوله : ﴿ أَكَلُهَا دَائِمٌ وَظِلُّهَا ﴾ أى : فيها المطاعم والفواكه والمشارب ، لا انقطاع ولا فناء . وفى الصحيحين ، من حديث ابن عباس فى صلاة الكسوف ، وفيه : قالوا : يا رسول الله ، رأيناك تناولت شيئاً فى مقامك هذا ، ثم رأيناك تكعكتك فقال : « إني رأيت الجنة - أو : أريت الجنة - فتناولت منها عنقوداً ، ولو أخذته لأكلت منه ما بقيت الدنيا » (١) .

وعن جابر بن عبد الله قال : قال رسول الله ﷺ : « يأكل أهل الجنة ويشربون ، ولا يمتخطون ولا يتغوطون ولا يبولون ، طعامهم جُشَاءٌ كريح المسك ، ويلهمون التسبيح والتقدیس كما يلهمون النفس » . رواه مسلم (٢) . وقد قال تعالى : ﴿ وَفَاكِهَةٌ كَثِيرَةٌ . لَا مَقْطُوعَةٍ وَلَا مَمْنُوعَةٍ ﴾ [الواقعة : ٣٢ ، ٣٣] ، وقال : ﴿ وَدَانِيَةٌ عَلَيْهِمْ ظِلَالُهَا وَذَلَّتْ قُطُوفُهَا تَذَلِيلًا ﴾ [الإنسان : ١٤] . وكذلك ظلها لا يزول ولا يقلص ، كما قال تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا فِيهَا أَيْدَاؤُهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَسَنُدْخِلُهُمْ ظِلًّا ظَلِيلًا ﴾ [النساء : ٥٧] . وقد تقدم فى الصحيحين من غير وجه أن رسول الله ﷺ قال : « إن فى الجنة شجرة ، يسير الراكب المجد الجواد المضمهر السريع فى ظلها مائة عام لا يقطعها » ، ثم قرأ : ﴿ وَظِلٌّ مُّمدودٌ ﴾ [الواقعة : ٣٠] (٣) .

وكثيراً ما يقرن الله تعالى بين صفة الجنة وصفة النار ، ليرغب فى الجنة ويحذر من النار ؛ ولهذا لما ذكر صفة الجنة بما ذكر ، قال بعده : ﴿ تِلْكَ عِقْبَى الَّذِينَ اتَّقَوْا وَعِقْبَى الْكَافِرِينَ النَّارُ ﴾ ، كما قال تعالى : ﴿ لَا يَسْتَوِي أَصْحَابُ النَّارِ وَأَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمُ الْفَائِزُونَ ﴾ [الحشر : ٢٠] .

﴿ وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَفْرَحُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمِنَ الْأَحْزَابِ مَن يُنْكِرُ بَعْضَهُمْ قُلْ إِنَّمَا أُنزِلَتْ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ وَلَا أُشْرِكُ بِهِ إِلَهًا أَدْعُوا إِلَيْهِ وَإِلَيْهِ مَتَابِ ﴿٦١﴾ وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَاهُ حَكْمًا عَرَبِيًّا وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ بَعْدَ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِن لِّوَالِيٍّ وَلَا وَاقٍ ﴿٦٢﴾ ﴾

يقول تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ ﴾ وهم قانمون بمقتضاه ﴿ يَفْرَحُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ ﴾ أى :

(١) البخارى (٧٤٨) ، ومسلم (١٧/٩٠٧) .

(٢) مسلم (١٨/٢٨٣٥) .

(٣) تقدم تخريجه عند الآية (٢٩) من هذه السورة .

من القرآن لما فى كتبهم من الشواهد على صدقه والبشارة به ، كما قال تعالى : ﴿ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلَاوَتِهِ أُولَئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴾ [البقرة: ١٢١] . وقال تعالى : ﴿ قُلْ آمَنُوا بِهِ أَوْ لَا تُؤْمِنُوا إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهِ إِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا . وَيَقُولُونَ سُبْحَانَ رَبِّنَا إِنْ كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا ﴾ [الإسراء: ١٠٧ ، ١٠٨] أى : إن كان ما وعدنا الله به فى كتبنا من إرسال محمد ﷺ لحقا وصدقا مفعولا لا محالة ، وكائنا ، فسبحانه ما أصدق وعده ، فله الحمد وحده ، ﴿ وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَكُونُ بَيْنَهُمْ خُشُوعًا ﴾ [الإسراء: ١٠٩] .

وقوله : ﴿ وَمِنَ الْأَحْزَابِ مَنْ يُنْكِرُ بَعْضَهُ ﴾ أى : ومن الطوائف من يكذب ببعض ما أنزل إليك . وقال مجاهد : اليهود والنصارى ، من ينكر بعض ما جاءك من الحق . وكذا قال قتادة ، وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم . وهذا كما قال تعالى : ﴿ وَإِنْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَمَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِمْ خَاشِعِينَ لِلَّهِ لَا يَشْتُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَئِكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴾ [آل عمران: ١٩٩] .

﴿ قُلْ إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ وَلَا أُشْرِكَ بِهِ ﴾ أى : إنما بعثت بعبادة الله وحده لا شريك له ، كما أرسل الأنبياء من قبلى ﴿ إِلَيْهِ أَدْعُو ﴾ أى : إلى سبيله أَدْعُو الناس ، ﴿ وَإِلَيْهِ مَتَابٌ ﴾ أى : مرجعى ومصيرى . وقوله : ﴿ وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَاهُ حُكْمًا عَرَبِيًّا ﴾ أى : وكما أرسلنا قبلك المرسلين ، وأنزلنا عليهم الكتب من السماء ، كذلك أنزلنا عليك القرآن محكما معربا ، شرفناك به وفضلناك على من سواك بهذا الكتاب المبين الواضح الجلى الذى ﴿ لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴾ [فصلت: ١١] .

وقوله : ﴿ وَلَتَنْ اتَّبِعْتَ أَهْوَاءَهُمْ ﴾ أى : آراءهم ﴿ بَعْدَ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ ﴾ أى : من الله تعالى ﴿ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا وَاقٍ ﴾ أى : من الله تعالى . وهذا وعيد لأهل العلم أن يتبعوا سبيل أهل الضلالة بعد ما صاروا إليه من سلوك السنة النبوية والمحجة المحمدية ، على من جاء بها أفضل الصلاة والسلام .

﴿ وَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِنْ قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَاجًا وَذُرِّيَّةً وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَنْ يَأْتِيَ بِبَيِّنَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ ﴿٣٨﴾ يَمْحُوا اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثَبِّتُ وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ ﴿٣٩﴾ ﴾

يقول تعالى : وكما أرسلناك ، يا محمد ، رسولا بشريا كذلك بعثنا المرسلين قبلك بشرا يأكلون الطعام ، ويمشون فى الأسواق ويأتون الزوجات ، ويولد لهم ، وجعلنا لهم أزواجا وذرية ، وقد قال تعالى لأشرف الرسل وخاتمهم : ﴿ قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ ﴾ [الكهف: ١١٠] ، وفى الصحيحين : أن رسول الله ﷺ قال : «أنا فأصوم وأفطر ، وأقوم وأنا ، وأكل الدسم وأتزوج النساء ، فمن رغب عن سنتى فليس منى » (١) .

(١) البخارى (٥٠٦٣) ، ومسلم (٥٥/١٤٠١) ، بدون : « وأكل الدسم » وهى بالمخطوطة ، وفى المطبوعة : « وأكل اللحم » .

وقوله: ﴿وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَنْ يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ أى: لم يكن يأتى قومَه بخارق إلا إذا أذن له فيه، ليس ذلك إليه، بل إلى الله، عز وجل، يفعل ما يشاء، ويحكم ما يريد. ﴿لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ﴾ أى: لكل مدة مضروبة كتاب مكتوب بها، وكل شيء عنده بمقدار ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّ ذَلِكَ فِي كِتَابٍ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾ [الحج: ٧٠]. وكان الضحاك يقول فى قوله: ﴿لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ﴾ أى: لكل كتاب أجل يعنى لكل كتاب أنزله من السماء مدة مضروبة عند الله ومقدار معين، فلهذا يحمو ما يشاء منها ويثبت، يعنى حتى نسخت كلها. بالقرآن الذى أنزله الله على رسوله، صلوات الله وسلامه عليه.

وقوله: ﴿يَمْحُو اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثَبِّتُ﴾ : اختلف فى ذلك ، فقال عن ابن عباس: يدبر أمر السنة، فيمحو ما يشاء، إلا الشقاء والسعادة، والحياة والموت. وقال مجاهد: ﴿يَمْحُو اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثَبِّتُ﴾ إلا الحياة والموت، والشقاء والسعادة، فإنهما لا يتغيران. وقال منصور: سألت مجاهداً فقلت: أرايت دعاء أحدنا يقول: اللهم، إن كان اسمى فى السعداء فأثبته فيهم، وإن كان فى الأشقياء فامحه عنهم واجعله فى السعداء. فقال: حسن. ثم لقيته بعد ذلك بحول أو أكثر، فسألته عن ذلك، فقال: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ مُبَارَكَةٍ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ. فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ﴾ [الدخان ٣، ٤]، قال: يقضى فى ليلة القدر ما يكن فى السنة من رزق أو مصيبة، ثم يقدم ما يشاء ويؤخر ما يشاء ، فأما كتاب الشقاوة والسعادة فهو ثابت لا يُغير . وروى ابن جرير عن أبى عثمان النهدي ؛ أن عمر بن الخطاب ، رضى الله عنه، قال وهو يطوف بالبيت وهو يبكى: اللهم، إن كنت كتبت على شقوة أو ذنباً فامحه، فإنك تمحو ما تشاء وتثبت، وعندك أم الكتاب، فاجعله سعادة ومغفرة . ومعنى هذه الأقوال: أن الأقدار ينسخ الله ما يشاء منها، ويثبت منها ما يشاء . وثبت فى الصحيح أن صلة الرحم تزيد فى العمر (١) . وروى عن سعيد بن جبیر: أنها بمعنى: ﴿فَيَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [البقرة: ٢٨٤]. وقال الحسن البصرى: ﴿يَمْحُو اللَّهُ مَا يَشَاءُ﴾ قال: من جاء أجله، فذهب، ويثبت الذى هو حى يجرى إلى أجله. وقد اختار هذا القول ابن جرير رحمه الله.

وقوله: ﴿وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ﴾ قال قتادة: أى جملة الكتاب وأصله. وقال الضحاك : كتاب عند رب العالمين. وقال ابن عباس: الذكر، والله أعلم .

﴿وَإِنْ مَا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ تَوَفَّيْنَاكَ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلْغُ وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ﴾
﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنْقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا وَاللَّهُ يَحْكُمُ لَا مُعَقَّبَ لِحُكْمِهِ وَهُوَ سَكِرٌ الْحِسَابِ﴾

يقول تعالى لرسوله: ﴿وَإِنْ مَا نُرِيَنَّكَ﴾ يا محمد بعض الذى نعد أعداءك من الخزي والنكال فى الدنيا ﴿أَوْ تَوَفَّيْنَاكَ﴾ أى: قبل ذلك ﴿لِإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ﴾ أى: إنما أرسلناك لتبلغهم رسالة الله

وقد فعلت ما أمرت به ﴿وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ﴾ أى : حسابهم وجزاؤهم ، كقوله تعالى : ﴿فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ . لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُصَيِّرٌ . إِلَّا مَنْ تَوَلَّى وَكَفَرَ . فَيُعَذِّبُهُ اللَّهُ الْعَذَابَ الْأَكْبَرَ . إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ . ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُمْ﴾ [الغاشية: ٢١ - ٢٦].

وقوله : ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنْقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا﴾ قال ابن عباس : أو لم يروا أنا نفتح لمحمد الأرض بعد الأرض ؟ وقال عكرمة : ﴿نَنْقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا﴾ قال : خرابها . وقال الحسن والضحاك : هو ظهور المسلمين على المشركين . وقال مجاهد : نقصان الأنفس والثمرات وخراب الأرض . وقال ابن عباس فى رواية : خرابها بموت فقائها وعلمائها وأهل الخير منها . وكذا قال مجاهد أيضاً : هو موت العلماء . والقول الأول أولى ، وهو ظهور الإسلام على الشرك قرية بعد قرية ، كما قال تعالى : ﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا مَا حَوْلَكُمْ مِنَ الْقُرَىٰ﴾ الآية [الاحقاف: ٢٧] وهذا اختيار ابن جرير ، رحمه الله .

﴿وَقَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلِلَّهِ الْمَكْرُ جَمِيعًا يَعْلَمُ مَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ وَسَيَعْلَمُ الْكُفْرُ لِمَنْ عُقِبِيَ الدَّارِ﴾

يقول : ﴿وَقَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ يرسلهم ، وأرادوا إخراجهم من بلادهم ، فمكر الله بهم ، وجعل العاقبة للمتقين ، كقوله : ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ﴾ [الأنفال: ٣٠] ، وقوله تعالى : ﴿وَمَكُرُوا مَكْرًا وَمَكْرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ . فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَا دَمَرْنَاهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ . فَلَيْكَ يَوْمَهُمْ خَاوِبَةٌ بِمَا ظَلَمُوا﴾ الآية [النمل: ٥٠ - ٥٢].

وقوله : ﴿يَعْلَمُ مَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ﴾ أى : إنه تعالى عالم بجميع السرائر والضمائر ، وسيجزى كل عامل بعمله . ﴿وسَيَعْلَمُ الْكُفَّارُ لِمَنْ عُقِبِيَ الدَّارِ﴾ أى : لمن تكون الدائرة والعاقبة ، لهم أو لأتباع الرسل؟ كلا ، بل هى لأتباع الرسل فى الدنيا والآخرة ، والله الحمد والمنة .

﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَسْتَ مُرْسَلًا قُلْ كَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ﴾

يقول تعالى : يكذبك هؤلاء الكفار ويقولون : ﴿لَسْتَ مُرْسَلًا﴾ أى : ما أرسلك الله ﴿قُلْ كَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ﴾ أى : حسبى الله ، هو الشاهد على وعليكم ، شاهد على فيما بلغت عنه من الرسالة ، وشاهد عليكم أيها المكذبون فيما تفترونه من البهتان . وقوله : ﴿وَمَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ﴾ عن ابن عباس قال : هم من اليهود والنصارى . وقال مجاهد : هو الله تعالى . والصحيح فى هذا : أن ﴿وَمَنْ عِنْدَهُ﴾ اسم جنس يشمل علماء أهل الكتاب الذين يجدون صفة محمد ﷺ ونعته فى

كتبهم المتقدمة، من بشارات الأنبياء به، كما قال تعالى: ﴿ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ . الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ ﴾ الآية [الأعراف: ١٥٦ ، ١٥٧]، وقال تعالى: ﴿ أَوْلَمْ يَكُنْ لَهُمْ آيَةٌ أَنْ يَعْلَمَهُ عُلَمَاءُ بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴾ الآية [الشعراء: ١٩٧]. وأمثال ذلك مما فيه الإخبار عن علماء بني إسرائيل: أنهم يعلمون ذلك من كتبهم المنزلة.

تفسير سورة إبراهيم عليه السلام

وهي مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ الرَّكَّاتِ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَى صِرَاطٍ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ ﴾ ﴿١﴾ اللَّهُ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَوَيْلٌ لِلْكَافِرِينَ مِنْ عَذَابٍ شَدِيدٍ ﴿٢﴾ الَّذِينَ يَسْتَحِبُّونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الْآخِرَةِ وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا أُولَئِكَ فِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ ﴿٣﴾

قد تقدم الكلام على الحروف المقطعة في أوائل السور. ﴿ كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ ﴾ أى : هذا كتاب أنزلناه إليك يا محمد، وهو القرآن العظيم، الذى هو أشرف كتاب أنزله الله من السماء، على أشرف رسول بعثه الله فى الأرض، إلى جميع أهلها عربهم وعجمهم . ﴿ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ ﴾ أى : إنما بعثناك يا محمد بهذا الكتاب؛ لتخرج الناس مما هم فيه من الضلال والغي إلى الهدى والرشد، كما قال : ﴿ اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أُولَئِكَ هُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُمْ مِّنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ ﴾ الآية [البقرة: ٢٥٧]، وقال تعالى : ﴿ هُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ عَلَىٰ عَبْدِهِ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ لِّيُخْرِجَكُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ ﴾ الآية [الحديد: ٩]. وقوله : ﴿ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ ﴾ أى : هو الهادى لمن قدر له الهداية على يدى رسوله المبعوث عن أمره يهديهم ﴿ إِلَى صِرَاطٍ الْعَزِيزِ ﴾ أى : العزيز الذى لا يمانع ولا يُغالب، بل هو القاهر لكل ما سواه، ﴿ الْحَمِيدِ ﴾ أى : المحمود فى جميع أفعاله وأقواله، وشرعه وأمره ونهيه، الصادق فى خبره.

وقوله : ﴿ اللَّهُ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ﴾ صفة للجلالة ، كما قال تعالى : ﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ [الاعراف: ١٥٨]. ﴿ وَوَيْلٌ لِلْكَافِرِينَ مِنْ عَذَابٍ شَدِيدٍ ﴾ أى : ويل لهم يوم القيامة إذ خالفوك يا محمد وكذبوك.

ثم وصفهم بأنهم يستحبون الحياة الدنيا على الآخرة، أى : يقدمونها ويؤثرونها عليها، ويعملون للدنيا ونسوا الآخرة، وتركوها وراء ظهورهم ﴿ وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ ﴾ وهى اتباع الرسل ﴿ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا ﴾ أى : ويحبون أن تكون سبيل الله عوجاً مائلة عاتلة ، وهى مستقيمة فى نفسها، لا يضرها من خالفها ولا من خذلها، فهم فى ابتغائهم ذلك فى جهل وضلال بعيد من الحق، لا يرجى لهم - والحالة هذه - صلاح.

﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانٍ قَوْمِهِ لِئُبَيِّنَ لَهُمْ فَيُضِلَّ اللَّهُ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾

هذا من لطفه تعالى بخلقه : أنه يرسل إليهم رسلا منهم بلغاتهم ليفهموا عنهم ما يريدون وما أرسلوا به إليهم ، وقوله : ﴿ فَيُضِلُّ اللَّهُ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ ﴾ أى : بعد البيان وإقامة الحجة عليهم يضل تعالى من يشاء عن وجه الهدى ، ويهدى من يشاء إلى الحق ﴿ وَهُوَ الْعَزِيزُ ﴾ الذى ما شاء كان ، وما لم يشأ لم يكن ﴿ الْحَكِيمُ ﴾ فى أفعاله ، فيضل من يستحق الإضلال ، ويهدى من هو أهل لذلك . وقد كانت هذه سنة الله فى خلقه : أنه ما بعث نبيا فى أمة إلا أن يكون بلغتهم ، فاختص كل نبي بإبلاغ رسالته إلى أمته دون غيرهم ، واختص محمد بن عبد الله رسول الله بعموم الرسالة إلى سائر الناس ، كما ثبت فى الصحيحين عن جابر قال : قال رسول الله ﷺ : «أعطيت خمسا لم يعطهن أحد من الأنبياء قبلى : نُصِرْتُ بالرعب مسيرة شهر ، وجعلت لى الأرض مسجداً وطهوراً ، وأحللت لى الغنائم ولم تحل لأحد قبلى ، وأعطيت الشفاعة ، وكان النبى يبعث إلى قومه ، ويبعث إلى الناس عامة»^(١) . وله شواهد من وجوه كثيرة ، وقال تعالى : ﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعاً ﴾ [الأعراف : ١٥٨] .

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَذَكِّرْهُمْ بِآيَاتِنَا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴾

يقول تعالى : وكما أرسلناك يا محمد وأنزلنا عليك الكتاب ، لتخرج الناس كلهم ، تدعوهم إلى الخروج من الظلمات إلى النور ، كذلك أرسلنا موسى إلى بنى إسرائيل بآياتنا ، قال مجاهد : وهى التسع الآيات ﴿ أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ الظُّلُمَاتِ ﴾ أى : أمرناه قائلين له : ﴿ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ ﴾ أى : ادعهم إلى الخير ، ليخرجوا من ظلمات ما كانوا فيه من الجهل والضلال إلى نور الهدى وبصيرة الإيمان . ﴿ وَذَكِّرْهُمْ بِآيَاتِنَا ﴾ أى : بأياديه ونعمه عليهم فى إخراجه إياهم من أسر فرعون وقهره وظلمه وغشمه ، وإنجائه إياهم من عدوهم ، وقلقه لهم البحر ، وتظليله إياهم بالغمام ، وإنزاله عليهم المن والسلوى ، إلى غير ذلك من النعم . قال ذلك مجاهد ، وفتادة ، وغير واحد .

وقوله : ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴾ أى : إن فيما صنعنا بأوليائنا بنى إسرائيل حين أنقذناهم من يد فرعون ، وأنجيناهم مما كانوا فيه من العذاب المهين ، لبرة لكل ﴿ صَبَّارٍ ﴾ أى : فى الضراء ﴿ شَكُورٍ ﴾ أى : فى السراء ، كما جاء فى الصحيح عن رسول الله ﷺ أنه قال : «إن أمر المؤمن كله عَجَبٌ ، لا يقضى الله له قضاء إلا كان خيراً له ، إن أصابته ضراء صبر فكان خيراً له ، وإن أصابته سراء شكر فكان خيراً له »^(٢) .

(٢) مسلم (٦٤/٢٩٩٩) .

(١) البخارى (٣٣٥) ، ومسلم (٣/٥٢١) .

﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ أَنْجَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ وَيُدَّبِعُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَلِكَ لَكُمْ بَلَاءٌ مِمَّنْ رَزَقَكُمْ عَظِيمًا ﴿٦﴾ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ ﴿٧﴾ وَقَالَ مُوسَى إِنَّ تَكْفُرًا أَنْتُمْ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا فَإِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ حَمِيدٌ ﴿٨﴾ ﴾

يقول تعالى مخبراً عن موسى، حين ذكّر قومه بأيام الله عندهم ونعمه عليهم، إذ أنجاهم من آل فرعون، وما كانوا يسومونهم به من العذاب والإذلال، حديث كانوا يذبحون من وجد من أبنائهم، ويتركون إناثهم، فانقذهم الله من ذلك، وهذه نعمة عظيمة؛ ولهذا قال: ﴿ وفي ذلكم بلاءٌ من ربكم عظيمٌ ﴾ أي: نعمة عظيمة منه عليكم في ذلك، أنتم عاجزون عن القيام بشكرها. وقيل: وفيما كان يصنعه بكم قوم فرعون من تلك الأفاعيل ﴿ بلاءٌ ﴾ أي: اختبار عظيم. ويحتمل أن يكون المراد هذا وهذا، والله أعلم، كما قال تعالى: ﴿ وبلّوهم بالحسناتِ والسّيئاتِ لعلهم يرجعون ﴾ [الاعراف: ١٦٨].

وقوله: ﴿ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ ﴾ أي: أذنتكم وأعلمكم بوعده لكم. ويحتمل أن يكون المعنى: وإذ أقسم ربكم وآلى بعزته وجلاله وكبريائه كما قال: ﴿ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لَيَبْعَثَ عَلَيْهِمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ ﴾ [الاعراف: ١٦٧]. وقوله: ﴿ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ ﴾ أي: لئن شكرتم نعمتي عليكم لأزيدنكم منها ﴿ وَلَئِن كَفَرْتُمْ ﴾ أي: كفرتم النعم واسترتموها وجحدتموها ﴿ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ ﴾ وذلك بسلبها عنهم، وعقابه إياهم على كفرها. وقد جاء في الحديث: «إن العبد ليحرم الرزق بالذنوب يصيبه» (١).

وقوله تعالى: ﴿ وَقَالَ مُوسَى إِنَّ تَكْفُرًا أَنْتُمْ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا فَإِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ حَمِيدٌ ﴾ أي: هو غني عن شكر عباده، وهو الحميد الم محمود، وإن كفره من كفره، كما قال: ﴿ إِنَّ تَكْفُرًا فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنْكُمْ وَلَا يَرْضَى لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ وَإِن تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ ﴾ الآية [الزمر: ٧]، وقال تعالى: ﴿ فَكْفُرُوا وَقُولُوا وَأَسْتَفْتَى اللَّهُ وَاللَّهُ غَنِيٌّ حَمِيدٌ ﴾ [التغابن: ٦]. وفي صحيح مسلم، عن أبي ذر، عن رسول الله ﷺ فيما يروى عن ربه، عز وجل، أنه قال: «يا عبادي، لو أن أولكم وآخركم، وإنسكم وجنكم، كانوا على أتقى قلب رجل واحد منكم، ما زاد ذلك في ملكي شيئاً. يا عبادي، لو أن أولكم وآخركم، وإنسكم وجنكم، كانوا على أفجر قلب رجل واحد منكم، ما نقص ذلك في ملكي شيئاً. يا عبادي، لو أن أولكم وآخركم، وإنسكم وجنكم، قاموا في صعيد واحد، فسألوني، فأعطيت كل إنسان مسألته، ما نقص ذلك من ملكي شيئاً، إلا كما ينقص المخيط إذا دخل البحر» (٢). فسبحانه وتعالى الغني الحميد.

(٢) مسلم (٥٥/٢٥٧٧).

(١) المسند (٨٠/٥)، وابن ماجه (٩٠)، وحسنه الألباني.

﴿ **أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا اللَّهُ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَرَدُّوا أَيْدِيَهُمْ فِي أَفْوَاهِهِمْ وَقَالُوا إِنَّا كَفَرْنَا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ وَإِنَّا لَفِي شَكٍّ مِمَّا تَدْعُونَنَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ ﴿٩﴾** ﴾

هذا خبر من الله تعالى لهذه الأمة ؛ خبر قوم نوح وعاد وثمود وغيرهم من الأمم المكذبة للرسول، مما لا يحصى عددهم إلا الله عز وجل أتتهم رسلهم بالبينات، أى: بالحجج والدلائل الواضحات الباهرات القاطعات. وقال عبد الله [بن مسعود] فى قوله: ﴿ لا يعلمهم إلا الله ﴾: كذب النسابون. وقال عروة بن الزبير: ما وجدنا أحدا يعرف ما بعد معد بن عدنان.

وقوله: ﴿ **فَرَدُّوا أَيْدِيَهُمْ فِي أَفْوَاهِهِمْ** ﴾: اختلف المفسرون فى معناه، فقيل: معناه: أنهم أشاروا إلى أفواه الرسل يأمرونهم بالسكوت عنهم، لما دعوهم إلى الله، عز وجل. وقيل: بل وضعوا أيديهم على أفواههم تكذيباً لهم. وقال مجاهد، ومحمد بن كعب، وقاتدة: معناه: أنهم كذبوهم وردوا عليهم قولهم بأفواههم. قلت: ويؤيد قول مجاهد تفسير ذلك بتمام الكلام: ﴿ وقالوا إِنَّا كَفَرْنَا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ وَإِنَّا لَفِي شَكٍّ مِمَّا تَدْعُونَنَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ ﴾ فكان هذا تفسير لمعنى رد أيديهم فى أفواههم. وقال ابن عباس: لما سمعوا كتاب الله عجبوا، ورجعوا بأيديهم إلى أفواههم وقالوا: ﴿ **إِنَّا كَفَرْنَا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ وَإِنَّا لَفِي شَكٍّ مِمَّا تَدْعُونَنَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ** ﴾ يقولون: لا نصدقكم فيما جتتم به؛ فإن عدنا فيه شكاً قويا.

﴿ **قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَلِىَ اللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرَكُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى قَالُوا إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا تُرِيدُونَ أَنْ تَصُدُّونَنَا عَمَّا كَانَتْ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا فَأَتُونَا بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ ﴿١٠﴾** قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِنْ نَحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ. وَمَا كُنَّا لَنَا أَنْ نَأْتِيَكُمْ بِسُلْطَانٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَعَلَىٰ اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴿١١﴾ وَمَا لَنَا أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَىٰ اللَّهِ وَقَدْ هَدَانَا سُبُلَنَا وَلَنْصِرِيكَ عَلَىٰ مَا عَادِيْتُمُونَا وَعَلَىٰ اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ ﴿١٢﴾ ﴾

يخبر تعالى عما دار بين الكفار وبين رسلهم من المجادلة، وذلك أن أهمهم لما واجهوهم بالشك فيما جاؤهم به من عبادة الله وحده لا شريك له، قالت الرسل: ﴿ **أَلِىَ اللَّهِ شَكٌّ** ﴾: أى وجوده شك؟ فإن الفطر شاهدة بوجوده، ومجبولة على الإقرار به، ولكن قد يعرض لبعضها شك واضطراب، فحتاج إلى النظر فى الدليل الموصول إلى وجوده؛ ولهذا قالت لهم الرسل ترشدكم إلى طريق معرفته بأنه ﴿ **فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ** ﴾ الذى خلقها وابتدعها على غير مثال سبق.

وقالت لهم الرسل: ندعوكم ليغفر لكم من ذنوبكم، أى: فى الدار الآخرة ﴿ **وَيُؤَخِّرَكُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى** ﴾ أى: فى الدنيا، كما قال تعالى: ﴿ **وَأَنْ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُمْ مَتَاعًا حَسَنًا إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ** ﴾: الآية [هود: ٣]، فقالت لهم الأمم محاجين فى مقام

الرسالة، بعد تقدير تسليمهم للمقام الأول، وحاصل ما قالوه: ﴿إِن أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا﴾ أى: كيف نتبعكم بمجرد قولكم، ولما نر منكم معجزة ﴿فَأَتُونَا بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ﴾ أى: خارق نقترحه عليكم. قالت لهم رسلهم: ﴿إِن نَحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ﴾ أى: صحيح أنا بشر مثلكم فى البشرية ﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ﴾ أى: بالرسالة والنبوة ﴿وَمَا كَانَ لَنَا أَنْ نَأْتِيَكُم بِسُلْطَانٍ﴾ على وفق ما سألتهم ﴿إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ أى: بعد سؤالنا إياه، وإذنه لنا فى ذلك ﴿وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ أى: فى جميع أمورهم. ثم قالت الرسل: ﴿وَمَا لَنَا أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى اللَّهِ﴾ أى: وما يمنعنا من التوكل عليه، وقد هدانا لأقوم الطرق وأوضحها وأبينها ﴿وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَىٰ مَا آذَيْتُمُونَا﴾ أى: من الكلام السيئ، والأفعال السخيفة ﴿وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ﴾.

﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُمْ مِّنْ أَرْضِنَا أَوْ لَتَعُوذُنَّ فِي مِلَّتِنَا فَأَوْحَىٰ إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ الظَّالِمِينَ ﴿١٣﴾ وَلَنُسَكِّنَنَّكُمْ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِهِمْ ذَلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِي وَخَافَ وَعِيدِ ﴿١٤﴾ وَأَسْقَمْتَحُوا وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ﴿١٥﴾ مِّنْ وَرَائِهِ جَهَنَّمُ وَسُقِيَ مِنْ مَّاءٍ صَدِيدٍ ﴿١٦﴾ يَتَجَرَّعُهُ وَلَا يَكَادُ يُسِيغُهُ وَيَأْتِيهِ الْمَوْتُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِمَحِيَّتٍ وَمِنْ وَرَائِهِ عَذَابٌ غَلِيظٌ ﴿١٧﴾﴾

يخبر تعالى عما توعدت به الأمم الكافرة رسلهم، من الإخراج من أرضهم، والنفي من بين أظهرهم، كما قال قوم شعيب له ولن آمن به: ﴿لَنُخْرِجَنَّكَ يَا شُعَيْبُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَكَ مِنْ قَرْيَتِنَا﴾ الآية [الأعراف: ٨٨]، وقال قوم لوط: ﴿أَخْرِجُوا آلَ لُوطٍ مِّنْ قَرْيَتِكُمْ﴾ الآية [النمل: ٥٦]، وقال تعالى إخباراً عن مشركى قريش: ﴿وَإِنْ كَادُوا لَيَسْتَفْرِزُونَكَ مِنَ الْأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا وَإِذَا لَا يَلْبَثُونَ خِلافَكَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الإسراء: ٧٦]، وقال تعالى: ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ﴾ [الأنفال: ٣٠].

وكان من صنعه تعالى: أنه أظهر رسوله ونصره، وجعل له بسبب خروجه من مكة أنصاراً وأعاوناً وجندا، يقاتلون فى سبيل الله، ولم يزل يرقبه، حتى فتح له مكة التى أخرجته، ومكّن له فيها، وأرغم آلاف أعدائه منهم، وسائر الأرض، حتى دخل الناس فى دين الله أفواجا، وظهرت كلمة الله ودينه على سائر الأديان، فى مشارق الأرض ومغاربها فى أيسر زمان؛ ولهذا قال تعالى: ﴿فَأَوْحَىٰ إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ الظَّالِمِينَ. وَلَنُسَكِّنَنَّكُمْ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِهِمْ﴾، كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ. إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنْصُورُونَ. وَإِنَّ جُنَدَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ﴾ [الصافات: ١٧١ - ١٧٣]، وقال تعالى: ﴿كَتَبَ اللَّهُ لِأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ [المجادلة: ٢١]، وقال: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزُّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ﴾ [الأنبياء: ١٠٥]، وقال موسى لِقَوْمِهِ اسْتَعِينُوا بِاللَّهِ وَاصْبِرُوا إِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [الأعراف: ١٢٨]، وقال تعالى: ﴿وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضَعُونَ مَشَارِقَ الْأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ الْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ بِمَا صَبَرُوا وَدَمَرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ وَمَا كَانُوا يَعْرِشُونَ﴾ [الأعراف: ١٣٧].

وقوله: ﴿ ذَلِكْ لِمَنْ خَافَ مَقَامِي وَخَافَ وَعِيدِ ﴾ أى: وعيد هذا لمن خاف مقامه بين يدي يوم القيامة، وخشى من وعيدي، وهو تخويفي وعذابي، كما قال تعالى: ﴿ فَأَمَّا مَنْ طَغَى . وَأَثَرَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا . فَإِنَّ الْجَحِيمَ هِيَ الْمَأْوَى . وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى . فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى ﴾ [النازعات: ٣٧ - ٤١]، وقال: ﴿ وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّاتٌ ﴾ [الرحمن: ٤٦].

وقوله: ﴿ وَاسْتَفْتَحُوا ﴾ أى: استنصرت الرسل ربها على قومها. قاله ابن عباس، ومجاهد، وقتادة. وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: استفتحت الأمم على أنفسها، كما قالوا: ﴿ اللَّهُمَّ إِنْ كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَابًا مِنَ السَّمَاءِ أَوْ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ [الأنفال: ٣٢]، ويحتمل أن يكون هذا مراداً وهذا مراداً، كما أنهم استفتحوا على أنفسهم يوم بدر، واستفتح رسول الله واستنصر، وقال الله تعالى للمشركين: ﴿ إِنْ تَسْتَفْتِحُوا فَقَدْ جَاءَكُمْ الْفَتْحُ وَإِنْ تَنْتَهُوا فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ ﴾ الآية [الأنفال: ١٩]، والله أعلم. ﴿ وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ﴾ أى: متجبر فى نفسه معاند للحق، كما قال تعالى: ﴿ أَلْقِيَا فِي جَهَنَّمَ كُلُّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ . مَنَّاعٌ لِلْخَيْرِ مُعْتَدٍ مُرِيبٍ الَّذِي جَعَلَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَأَلْقِيَاهُ فِي الْعَذَابِ الشَّدِيدِ ﴾ [ق: ٢٤ - ٢٦]، وفى الحديث: «إنه يؤتى بجهنم يوم القيامة، فتنادى الخلائق فتقول: إني وكلت بكل جبار عنيد» الحديث (١).

وقوله: ﴿ مِنْ وَرَائِهِ جَهَنَّمُ ﴾: و«وراء» هاهنا بمعنى «أمام»، أى: من وراء الجبار العنيد جهنم، أى: هى له بالمرصاد، يسكنها مخلدا يوم المعاد، ويعرض عليها غدواً وغشياً إلى يوم التناد. ﴿ وَيُسْقَى مِنْ مَاءٍ صَدِيدٍ ﴾ أى: فى النار ليس له شراب إلا من حميم أو غساق، فهذا فى غاية الحرارة، وهذا فى غاية البرد والنتن، قال مجاهد: الصديد: من القيح والدم. وقال قتادة: هو ما يسيل من لحمه وجلده. وفى رواية عنه: الصديد: ما يخرج من جوف الكافر، قد خالط القيح والدم.

وقوله: ﴿ يَتَجَرَّعُهُ ﴾ أى: يتغصمه ويتكرهه، أى: يشربه قهراً وقسراً، لا يضعه فى فيه حتى يضربه الملك بمطراق من حديد، كما قال تعالى: ﴿ وَلَهُمْ مَقَامِعٌ مِنْ حَدِيدٍ ﴾ [الحج: ٢١]. ﴿ وَلَا يَكَادُ يُسِيغُهُ ﴾ أى: يزدرده لسوء لونه وطعمه وريحه، وحرارته أو برده الذى لا يستطيع ﴿ وَيَأْتِيهِ الْمَوْتُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ ﴾ أى: يالم له جميع بدنه وجوارحه وأعضائه. وقال ابن عباس: ﴿ وَيَأْتِيهِ الْمَوْتُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ ﴾ قال: أنواع العذاب الذى يعذبه الله بها يوم القيامة فى نار جهنم، وليس منها نوع إلا الموت يأتية منه لو كان يموت، ولكن لا يموت؛ لأن الله تعالى قال: ﴿ لَا يَقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فِيمُوتُوا وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ مِنْ عَذَابِهَا ﴾ [فاطر: ٣٦]. ومعنى كلام ابن عباس: أنه ما من نوع من هذه الأنواع من العذاب إلا إذا ورد عليه اقتضى أن يموت منه لو كان يموت، ولكنه لا يموت ليخلد فى دوام العذاب والنكال؛ ولهذا قال: ﴿ وَيَأْتِيهِ الْمَوْتُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ ﴾.

وقوله: ﴿ وَمِنْ وَرَائِهِ عَذَابٌ غَلِيظٌ ﴾ أى: وله من بعد هذا الحال عذاب آخر غليظ، أى: مؤلم

صعب شديد أغلظ من الذى قبله وأدهى وأمر. وهذا كما قال تعالى عن شجرة الزقوم: ﴿ إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِي أَصْلِ الْجَحِيمِ . طَلْعُهَا كَأَنَّهُ رَعُوسُ الشَّيَاطِينِ . فَإِنَّهُمْ لَا كَلُونَ مِنْهَا فَأَلْتُونُ مِنْهَا الْبُطُونَ . ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ عَلَيْهَا لَشَوْبًا مِّنْ حَمِيمٍ . ثُمَّ إِنَّ مَرْجِعَهُمْ لِإِلَى الْجَحِيمِ ﴾ [الصفوات: ٦٤ - ٦٨] ، فأخبر أنهم تارة يكونون فى أكل زقوم ، وتارة فى شرب حميم ، وتارة يردون إلى الجحيم ، عباداً بالله من ذلك ، وهكذا قال تعالى : ﴿ هَذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي يُكَذِّبُ بِهَا الْمُجْرِمُونَ . يَطُوفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ آناً ﴾ [الرحمن: ٤٣ ، ٤٤] ، وقال تعالى : ﴿ إِنَّ شَجَرَةَ الزُّقُومِ . طَعَامُ الْأَيْمِ . كَالْمُهْلِ يَغْلِي فِي الْبُطُونِ . كَغَلِيِّ الْحَمِيمِ . خَدُّهُ فَأَعْتَلُوهُ إِلَى سَوَاءِ الْجَحِيمِ . ثُمَّ صُبُّوا فَوْقَ رَأْسِهِ مِنْ عَذَابِ الْحَمِيمِ . ذُقْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ . إِنَّ هَذَا مَا كُنْتُمْ بِهِ تَمْتَرُونَ ﴾ [الدخان: ٤٣ - ٥٠] ، وقال : ﴿ وَأَصْحَابُ الشَّمَالِ مَا أَصْحَابُ الشَّمَالِ . فِي سَمُومٍ وَحَمِيمٍ . وَظَلْمٍ مِّنْ يَحْمُومِ . لَا بَارِدٌ وَلَا كَرِيمٍ ﴾ [الواقعة: ٤١ - ٤٤] ، وقال تعالى : ﴿ هَذَا وَإِنَّ لِلطَّاغِيْنَ لَشَرَّ مَا بٍ . جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا فَيَنْسِفْنَ الْمِهَادِ . هَذَا فَلْيَذُوقُوهُ حَمِيمٌ وَعَسَاقٌ . وَأَخْرَمِنْ شَكْلِهِ أَزْوَاجٌ ﴾ [ص: ٥٥ - ٥٨] ، إلى غير ذلك من الآيات الدالة على تنوع العذاب عليهم ، وتكراره وأنواعه وأشكاله ، مما لا يحصيه إلا الله ، عز وجل ، جزاء وفاقا ﴿ وَمَا رُبَّ بَظْلَامٍ لِلْعَبِيدِ ﴾ [فصلت: ٤٦] .

﴿ مَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ أَعْمَلَهُمْ كَرَمَادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ لَا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا عَلَى شَيْءٍ ذَلِكَ هُوَ الضَّلَالُ الْبَعِيدُ ﴾

هذا مثل ضربه الله تعالى لأعمال الكفار الذين عبدوا معه غيره ، وكذبوا رسله ، وبنوا أعمالهم على غير أساس صحيح ؛ فانهارت وعمدوها أحوج ما كانوا إليها ، فقال تعالى : ﴿ مَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ أَعْمَالُهُمْ ﴾ أى : مثل أعمال الذين كفروا يوم القيامة إذا طلبوا ثوابها من الله تعالى ؛ لأنهم كانوا يحسبون أنهم على شيء ، فلم يجدوا شيئاً ، ولا ألفوا حاصلًا إلا كما يتحصل من الرماد إذا اشتدت به الريح العاصفة ﴿ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ ﴾ أى : ذى ريح عاصفة قوية ، فلا يقدرّون على شيء من أعمالهم التى كسبوها فى الدنيا ، إلا كما يقدرّون على جمع هذا الرماد فى هذا اليوم ، كقوله تعالى : ﴿ وَقَدِمْنَا إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَّنْثُورًا ﴾ [الفرقان: ٢٣] ، وقوله تعالى : ﴿ مَثَلُ مَا يُنْفِقُونَ فِي هَذِهِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ أَصَابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ فَأَهْلَكَتْهُ ﴾ [آل عمران: ١١٧] ، وقوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَبْطُلُوا صِدْقَاتِكُمْ بِالْمَنِّ وَالْأَذَى كَالَّذِي يُنْفِقُ مَالَهُ رِئَاءَ النَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُ وَابِلٌ فَتَرَكَهُ صَلْدًا لَا يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ مِّمَّا كَسَبُوا وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ ﴾ [البقرة: ٢٦٤] .

وقال فى هذه الآية : ﴿ ذَلِكَ هُوَ الضَّلَالُ الْبَعِيدُ ﴾ أى : سعيهم وعملهم على غير أساس ولا استقامة حتى فقدوا ثوابهم أحوج ما هم إليه .

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ﴾ وَمَا ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ ﴿ ١٩ ﴾

يقول تعالى مخبراً عن قدرته على معاد الأبدان يوم القيامة، بأنه خلق السموات والأرض التي هي أكبر من خلق الناس، أفليس الذي قدر على خلق هذه السموات، في ارتفاعها واتساعها وعظمتها وما فيها من الكواكب، وهذه الأرض بما فيها من مهاد ووهاد وأوتاد، وبرارى وصحارى وقفار، وبحار وأشجار، ونبات وحيوان، على اختلاف أصنافها ومنافعها ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَمْ يَغْيِ بِخَلْقِهِنَّ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتَىٰ بَلَىٰ إِنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [الاحقاف: ٣٣]، وقال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرِ الْإِنْسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ. وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ. قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ. الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ مِنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَا أَنْتُمْ مِنْهُ تُوقَدُونَ. أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ بَلَىٰ وَهُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ. إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ. فَسُبْحَانَ الَّذِي بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [يس: ٧٧-٨٣].

وقوله: ﴿إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ. وَمَا ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ﴾ أى: بعظيم ولا ممتنع، بل هو سهل عليه إذا خالفتكم أمره، أن يذهبكم ويأت بأخرين على غير صفتكم، كما قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ. إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ. وَمَا ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ﴾ [فاطر: ١٥- ١٧]، وقال: ﴿وَإِنْ تَوَلَّوْا يَسْتَبَدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَالَكُمْ﴾ [محمد: ٣٨]، وقال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ﴾ [المائدة: ٥٤]، وقال: ﴿إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ أَيُّهَا النَّاسُ وَيَأْتِ بِآخَرِينَ وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ ذَلِكَ قَدِيرًا﴾ [النساء: ١٣٣].

﴿وَبَرَزُوا لِلَّهِ جَمِيعًا فَقَالَ الضُّعَفَاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنْتُمْ مُغْنُونَ عَنَّا مِنْ عَذَابِ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ قَالُوا لَوْ هَدَانَا اللَّهُ لَهْدَيْنَاكُمْ سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَجْرَعْنَا أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِنْ مَحِيصٍ﴾

يقول تعالى: ﴿وَبَرَزُوا﴾ أى: برزت الخلائق كلها، برها وفاجرها لله وحده الواحد القهار، أى: اجتمعوا له فى براز من الأرض، وهو المكان الذى ليس فيه شيء يستر أحدا. ﴿فَقَالَ الضُّعَفَاءُ﴾ وهم الاتباع لقادتهم وسادتهم وكبرائهم الذين استكبروا عن عبادة الله وحده لا شريك له، وعن موافقة الرسل، فقالوا لهم: ﴿إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا﴾ أى: مهما أمرتمونا اتمرنا وفعلنا ﴿فَهَلْ أَنْتُمْ مُغْنُونَ عَنَّا مِنْ عَذَابِ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ﴾ أى: فهل تدفعون عنا شيئا من عذاب الله، كما كنتم تعدوننا وتمنوننا؟ فقالت القادة لهم: ﴿لَوْ هَدَانَا اللَّهُ لَهْدَيْنَاكُمْ﴾ ولكن حق علينا قول ربنا، وسبق فينا وفيكم قدر الله، وحق كلمة العذاب على الكافرين ﴿سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَجْرَعْنَا أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِنْ مَحِيصٍ﴾ أى: ليس لنا خلاص مما نحن فيه إن صبرنا عليه أو جزعنا منه. قال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: إن أهل النار قال بعضهم لبعض: تعالوا، فإنما أدرك أهل الجنة الجنة بيكائهم وتضرعهم إلى الله، عز وجل، تعالوا نيك وتضرع إلى الله، فبكوا وتضرعوا، فلما رأو ذلك لا ينفعهم

قالوا: تعالوا، فإنما أدرك أهل الجنة الجنة بالصبر، تعالوا حتى نصبر، فصبروا صبراً لم ير مثله، فلم ينفعهم ذلك، فعند ذلك قالوا: ﴿سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَجْرَعْنَا أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِنْ مَّحِيصٍ﴾ .

قلت: والظاهر أن هذه المراجعة في النار بعد دخولهم إليها، كما قال تعالى: ﴿وَإِذْ يَتَحَاوَنُونَ فِي النَّارِ لِقَوْلِ الضُّعَفَاءِ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنْتُمْ مُعْتَدُونَ عَنَا نَصِيحًا مِنَ النَّارِ. قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُلٌّ فِيهَا إِنَّ اللَّهَ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ الْعِبَادِ﴾ [غافر: ٤٧، ٤٨]، وقال تعالى: ﴿قَالَ ادْخُلُوا فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ فِي النَّارِ كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَعْنَتْ أُخْتَهَا حَتَّى إِذَا ادَّارَكُوا فِيهَا جَمِيعًا قَالَتْ أُخْرَاهُمْ لِأَوْلَاهُمْ رَبَّنَا هَؤُلَاءِ أَصْلُونَا فآتِهِمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِنَ النَّارِ قَالَ لِكُلِّ ضِعْفٍ وَلَكِنْ لَا تَعْلَمُونَ. وَقَالَتْ أَوْلَاهُمْ لِأَوْلَاهُمْ فَمَا كَانَ لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ فذوقوا العذاب بما كنتم تكسبون﴾ [الاعراف: ٣٨، ٣٩]، وقال تعالى: ﴿يَوْمَ تَقَلَّبَ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ يَقُولُونَ يَا لَيْتَنَا أَطَعْنَا اللَّهَ وَأَطَعْنَا الرَّسُولَ. وَقَالُوا رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكِبْرَاءَنَا فَأَصْلُونَا السَّبِيلَا. رَبَّنَا آتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ الْعَذَابِ وَالْعَنَهُمْ لَعْنًا كَبِيرًا﴾ [الأحزاب: ٦٦ - ٦٨].

وأما تخاصمهم في المحشر، فقال تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَى إِذِ الظَّالِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ الْقَوْلَ يَقُولُ الَّذِينَ اسْتَضَعُّوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لَوْلَا أَنْتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ. قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لِلَّذِينَ اسْتَضَعُّوا أَنْعَنْ صَدَدْنَاكُمْ عَنِ الْهُدَىٰ بَعْدَ إِذْ جَاءَكُمْ بَلْ كُنْتُمْ مُجْرِمِينَ. وَقَالَ الَّذِينَ اسْتَضَعُّوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا بَلْ مَكْرَ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَا أَنْ نَكْفُرَ بِاللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُ أَندَادًا وَأَسْرَأُوا النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ وَجَعَلْنَا الْأَغْلَالَ فِي أَعْنَاقِ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [سبا: ٣١ - ٣٣].

﴿وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعَدَّ الْحَقَّ وَوَعَدْتُكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِي عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلَا تَلُمُونِي وَلُومُوا أَنْفُسَكُمْ مَا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنْتُمْ بِمُصْرِخِيَّ إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِ مِنْ قَبْلُ إِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٢﴾ وَأَدْخَلَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ تَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ ﴿١٣﴾﴾

يخبر تعالى عما خطب به إبليس أتباعه، بعد ما قضى الله بين عباده، فأدخل المؤمنين الجنات، وأسكن الكافرين الدركات، فقام فيهم إبليس - لعنه الله - حينئذ خطيباً ليزيدهم حزناً إلى حزنهم، وغيباً إلى غيبهم، وحسرة إلى حسرتهم، فقال: ﴿إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعَدَّ الْحَقَّ﴾ أي: على السنة رسله، ووعدكم في اتباعهم النجاة والسلامة، وكان وعداً حقاً، وخيراً صدقاً، وأما أنا فوعدتكم وأخلفتكم، كما قال الله تعالى: ﴿يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا﴾ [النساء: ١٢٠]

ثم قال: ﴿وَمَا كَانَ لِي عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ﴾ أي: ما كان لي عليكم فيما دعوتكم إليه من دليل ولا حجة على صدق ما وعدتكم به ﴿إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي﴾ بمجرد ذلك، هذا وقد أقامت عليكم الرسل الحجج والأدلة الصحيحة على صدق ما جاؤكم به، فخالفتموهم فصرتم إلى ما

أنتم فيه ﴿فَلَا تَلْمُزُونِي﴾ اليوم ﴿وَلَوْمُوا أَنْفُسَكُمْ﴾ فإن الذنب لكم، لكونكم خالفتم الحجة واتبعتموني بمجرد ما دعوتكم إلى الباطل ﴿مَا أَنَا بِمُصْرِحِكُمْ﴾ أى: بنافعكم ومتقدمكم ومخلصكم مما أنتم فيه ﴿وَمَا أَنْتُمْ بِمُصْرِحِي﴾ أى: بنافعى بإنقاذى مما أنا فيه من العذاب والنكال ﴿إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِي مِنْ قَبْلُ﴾ قال قتادة: أى بسبب ما أشركتمونى من قبل. وقال ابن جرير: يقول: إني جحدت أن أكون شريكا لله عز وجل. وهذا الذى قاله هو الراجح، كما قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُو مِنْ دُونِ اللَّهِ مَنْ لَأُسْتَجِيبَ لَهُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَهُمْ عَنْ دُعَائِهِمْ غَافِلُونَ . وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءً وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ﴾ [الأحقاف: ٥، ٦]، وقال: ﴿كَلَّا سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا﴾ [مريم: ٨٢]

وقوله: ﴿إِنَّ الظَّالِمِينَ﴾ أى: فى إعراضهم عن الحق واتباعهم الباطل ﴿لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾. والظاهر من سياق الآية: أن هذه الخطبة تكون من إبليس بعد دخولهم النار. وقال محمد بن كعب القرظى: لما قال أهل النار: ﴿سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَجْرُنَا أَمْ صَبْرُنَا مَا لَنَا مِنْ مَحِيصٍ﴾ قال لهم إبليس: ﴿إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعَدَ الْحَقُّ﴾ الآية، فلما سمعوا مقالته مقتوا أنفسهم، فنودوا: ﴿لَمَقَّتْ اللَّهُ أَكْبْرُ مِنْ مَقْتِكُمْ أَنْفُسَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ إِلَى الْإِيمَانِ فَكُفِّرُونَ﴾ [غافر: ١٠].

ثم لما ذكر تعالى مآل الأشقياء وما صاروا إليه من الخزي والنكال، وأن خطيهم إبليس، عطف بحال السعداء وأنهم يدخلون يوم القيامة جنات تجري من تحتها الأنهار سارحة فيها حيث ساروا وأين ساروا ﴿خَالِدِينَ فِيهَا﴾ ماكين أبدا لا يحولون ولا يزولون ﴿بِإِذْنِ رَبِّهِمْ تَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ﴾ كما قال تعالى: ﴿حَتَّى إِذَا جَاءَهَا وَقِيَّتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَامٌ عَلَيْكُمْ﴾ [الزمر: ٧٣]، وقال تعالى: ﴿وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ . سَلَامٌ عَلَيْكُمْ﴾ [الرعد: ٢٣، ٢٤]، وقال تعالى: ﴿وَيُلْقُونَ فِيهَا تَحِيَةً وَسَلَامًا﴾ [الفرقان: ٧٥]، وقال تعالى: ﴿دَعْوَاهُمْ فِيهَا سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ وَأَخْرُ دَعْوَاهُمْ أَنْ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [يونس: ١٠].

﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ ﴿١٤﴾ تُوِّقَ أَكْلُهَا كُلِّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿١٥﴾ وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ اجْتُثَّتْ مِنْ فَوْقِ الْأَرْضِ مَا لَهَا مِنْ قَرَارٍ ﴿١٦﴾﴾

قال ابن عباس: قوله: ﴿مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً﴾: شهادة أن لا إله إلا الله، ﴿كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ﴾ وهو المؤمن ﴿أَصْلُهَا ثَابِتٌ﴾ يقول: لا إله إلا الله فى قلب المؤمن ﴿وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ﴾ يقول: يرفع بها عمل المؤمن إلى السماء. وهكذا قال الضحاك، وسعيد بن جبیر، وعكرمة وقتادة وغير واحد: إن ذلك عبارة عن المؤمن وقوله الطيب، وعمله الصالح، وإن المؤمن كالشجرة من النخل، لا يزال يرفع له عمل صالح فى كل حين ووقت، وصباح ومساء. وعن ابن مسعود قال: هى النخلة. وروى البخارى عن ابن عمر قال: كنا عند رسول الله ﷺ فقال: «أخبرونى عن شجرة

تشبه - أو: كالرجل - المسلم، لا يتحات ورقها [ولا، ولا، ولا] تؤتى أكلها كل حين». قال ابن عمر: فوقع في نفسى أنها النخلة، ورأيت أبا بكر وعمر لا يتكلمان، فكرهت أن أتكلم، فلما لم يقولوا شيئاً، قال رسول الله ﷺ: «هي النخلة». فلما قمنا قلت لعمر: يا أبتا، والله لقد كان وقع في نفسى أنها النخلة. قال: ما منعك أن تكلم؟ قال: لم أركم تتكلمون، فكرهت أن أتكلم أو أقول شيئاً. قال عمر: لأن تكون قلتها أحب إلى من كذا وكذا (١). وروى أحمد عن ابن عمر قال: كنا عند رسول الله ﷺ فأتى بجُمَارٍ. فقال: «من الشجر شجرة مثلها مثل الرجل المسلم». فأردت أن أقول: هي النخلة، فنظرت فإذا أنا أصغر القوم، [فسكتُ]، فقال رسول الله ﷺ: «هي النخلة» أخرجاه (٢). وعن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ يوماً لأصحابه «إن من الشجر شجرة لا يطرح ورقها، مثل المؤمن». قال: فوقع الناس في شجر البوادي، ووقع في قلبى أنها النخلة، فاستحييت، حتى قال رسول الله ﷺ: «هي النخلة». أخرجاه أيضاً (٣).

وقوله: ﴿تُؤْتِي أكلها كُلَّ حِينٍ﴾ قيل: غُدوة وعَسْبًا. وقيل: كل شهر. وقيل: كل شهرين. وقيل: كل ستة أشهر. وقيل: كل سبعة أشهر. وقيل: كل سنة. والظاهر من السياق: أن المؤمن مثله كمثل شجرة، لا يزال يوجد منها ثمر في كل وقت من صيف أو شتاء، أو ليل أو نهار، كذلك المؤمن لا يزال يرفع له عمل صالح آناء الليل وأطراف النهار في كل وقت وحين ﴿إِذْ نَرَى رَبَّهَا﴾ أى: كاملاً حسناً كثيراً طيباً ﴿وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾.

وقوله: ﴿وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ﴾: هذا مثل كفر الكافر، لا أصل له ولا ثبات، وشبه بشجرة الحنظل ﴿اجْتَثَّتْ﴾ أى: استؤصلت ﴿مِنَ فَوْقِ الْأَرْضِ مَا لَهَا مِنْ قَرَارٍ﴾ أى: لا أصل لها ولا ثبات، كذلك الكفر لا أصل له ولا فرع، ولا يصعد للكافر عمل، ولا يتقبل منه شيء.

﴿يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ وَيَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ﴾

روى البخارى عن البراء بن عازب؛ أن رسول الله ﷺ قال: «المسلم إذا سئل في القبر، شهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، فذلك قوله: ﴿يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ﴾». ورواه مسلم أيضاً وبقية الجماعة كلهم (٤). وعن أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ: «إن العبد إذا وضع في قبره، وتولى عنه أصحابه، إنه ليسمق قرع نعالهم». قال: «فيأتيه ملكان فيقعدانه فيقولان له: ما كنت تقول في هذا الرجل؟» قال: «فأما المؤمن

(١) البخارى (٤٦٩٨)، وما بين المعقوفين ليس فى المطبوعة ولا المخطوطة، وأثبتناه من البخارى .

(٢) المسند (١٢/٢)، والبخارى (٧٢)، ومسلم (٦٣/٢٨١١)، وما بين المعقوفين ليس فى المطبوعة ولا المخطوطة، وأثبتناه من البخارى والمسند .

(٣) البخارى (١٣١)، ومسلم (٦٣/٢٨١١) .

(٤) البخارى (٤٦٩٩)، ومسلم (٧٣/٢٨٧١)، وأبو داود (٤٧٥٠)، والترمذى (٣١٢٠) .

فيقول: أشهد أنه عبد الله ورسوله». قال: «فيقال له: انظر إلى مقعدك من النار، قد أبدلك الله به مقعدا من الجنة». قال نبي الله ﷺ: «فيراهما جميعا». قال قتادة: وذكر لنا أنه يفسح له في قبره سبعون ذراعا، ويملا عليه خضراً إلى يوم القيامة. رواه مسلم وأخرجه النسائي (١).

وروى الإمام أحمد عن أبي الزبير، أنه سأل جابر بن عبد الله عن فتأني القبر فقال: سمعت النبي ﷺ يقول: «إن هذه الأمة تُبتلى في قبورها، فإذا أدخل المؤمن قبره وتولى عنه أصحابه، جاء ملك شديد الانتهاز، فيقول له: ما كنت تقول في هذا الرجل؟ فيقول المؤمن: أقول: إنه رسول الله وعبد. فيقول له الملك: انظر إلى مقعدك الذي كان لك في النار، قد أنجأك الله منه، وأبدلك بمقعدك الذي ترى من النار مقعدك الذي ترى من الجنة، فيراهما كليهما. فيقول المؤمن: دعوني أبشر أهلي. فيقال له: اسكن. وأما المنافق فيقعده إذا تولى عنه أهله، فيقال له: ما كنت تقول في هذا الرجل؟ فيقول: لا أدري، أقول كما يقول الناس. فيقال له: لا دريتَ، هذا مقعدك الذي كان لك في الجنة، قد أبدلت مكانه مقعدك من النار». قال جابر: فسمعت النبي ﷺ يقول: «يبعث كل عبد في القبر على ما مات، المؤمن على إيمانه، والمنافق على نفاقه». إسناده صحيح على شرط مسلم، ولم يخرجاه (٢).

وروى الإمام أحمد عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ قال: «إن الميت تحضره الملائكة، فإذا كان الرجل الصالح قالوا: اخرجي أيتها النفس المطمئنة كانت في الجسد الطيب، اخرجي حميدة، وأبشري بروح وريحان ورب غير غضبان». قال: «فلا يزال يقال لها ذلك حتى تخرج، ثم يُعْرَج بها إلى السماء، فيستفتح لها فيقال: من هذا؟ فيقال: فلان. فيقولون: مرحبا بالروح الطيبة كانت في الجسد الطيب، ادخلي حميدة، وأبشري بروح وريحان، ورب غير غضبان» قال: فلا يزال يقال لها ذلك، حتى ينتهي بها إلى السماء التي فيها الله عز وجل. وإذا كان الرجل السوء قالوا: اخرجي أيتها النفس الخبيثة كانت في الجسد الخبيث، اخرجي ذميمة، وأبشري بحميم وغساق، وآخر من شكله أزواج. فلا يزال يقال لها ذلك حتى تخرج، ثم يُعْرَج بها إلى السماء، فيستفتح لها فيقال: من هذا؟ فيقال: فلان، فيقال: لا مرحبا بالنفس الخبيثة كانت في الجسد الخبيث، ارجعي ذميمة، فإنه لا تفتح لك أبواب السماء. فيرسل من السماء، ثم يصير إلى القبر، فيجلس الرجل الصالح فيقال له مثل ما قيل في الحديث الأول، ويجلس الرجل السوء فيقال له مثل ما قيل في الحديث الأول. ورواه النسائي وابن ماجه (٣).

وفي صحيح مسلم عن أبي هريرة، قال: إذا خرجت روح العبد المؤمن، تلقاها ملكان يصعدان بها. قال حماد: فذكر من طيب ريحها وذكر المسك. قال: ويقول أهل السماء: روح طيبة جاءت من قبل الأرض، صلى الله عليك وعلى جسدك كنت تعمريه، فينطلق به إلى

(١) مسلم (٧٠/٢٨٧٠)، والنسائي في سننه (٢٠٥٠).

(٢) المسند (٣٦٤/٢)، والنسائي في الكبرى (١١٤٤٢)، وابن ماجه (٤٢٦٢)، وفي الزوائد: «هذا إسناده صحيح رجاله ثقات».

(٣) المسند (٣٤٦/٣).

ربه عز وجل، فيقول: انطلقوا به إلى آخر الأجل. وإن الكافر إذا خرجت روحه. قال حماد: وذكر من تننّها وذكر مقتا، ويقول أهل السماء: روح خبيثة جاءت من قبل الأرض. قال: فيقال: انطلقوا به إلى آخر الأجل. قال أبو هريرة: فردّ رسول الله ﷺ رِبَطَةَ كانت عليه على أنفه، هكذا (١).

وروى ابن حبان في صحيحه عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ قال: «إن المؤمن إذا قبض، أتته ملائكة الرحمة بحريرة بيضاء، فيقولون: اخرجى إلى روح الله. فتخرج كأطيب ريح مسك، حتى إنه ليناوله بعضهم بعضاً يشمونّه حتى يأتوا به باب السماء، فيقولون ما هذا الريح الطيبة التي جاءت من قبل الأرض؟ ولا يأتون سماء إلا قالوا مثل ذلك، حتى يأتوا به أرواح المؤمنين، فلهم أشدّ فرحاً به من أهل الغائب بغائبهم، فيقولون: ما فعل فلان؟ فيقولون: دعوه حتى يستريح، فإنه كان في غم! فيقول: قد مات، أما أناكم؟ فيقولون: ذهب به إلى أمه الهاوية. وأما الكافر فيأتيه ملائكة العذاب بمسح فيقولون: اخرجى إلى غضب الله، فتخرج كأنّ ريح جيفة، فيذهب به إلى باب الأرض» (٢). وقد روى أيضاً عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ بنحوه. قال: «فيسأل: ما فعل فلان، ما فعل فلان؟ ما فعلت فلانة؟» قال: «وأما الكافر فإذا قبضت نفسه، وذهب بها إلى باب الأرض تقول خزنة الأرض: ما وجدنا ريحاً أنتن من هذه. فيبلغ بها الأرض السفلى» (٣).

وروى الحافظ أبو عيسى الترمذى عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا قبر الميت - أو قال: أحدكم - أتاه ملكان أسودان أزرقان، يقال لأحدهما: منكر، والآخر: نكير، فيقولان: ما كنت تقول في هذا الرجل؟ فيقول ما كان يقول: هو عبد الله ورسوله، أشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله. فيقولان: قد كنا نعلم أنك تقول هذا. ثم يُسح له في قبره سبعون ذراعاً في سبعين. وينور له فيه، ثم يقال له: نَم. فيقول: أرجع إلى أهلى فأخبرهم؟ فيقولان: نَم نومة العروس الذى لا يوقظه إلا أحبّ أهله إليه، حتى يبعثه الله من مضجعه ذلك. وإن كان منافقاً قال: سمعت الناس يقولون فقلت مثلهم، لا أدرى. فيقولان: قد كنا نعلم أنك تقول ذلك، فيقال للأرض: التثمي عليه. فتلتئم عليه، فتختلف أضلاعه، فلا يزال فيها معذباً حتى يبعثه الله من مضجعه ذلك». ثم قال الترمذى: هذا حديث حسن غريب (٤).

وقال ابن عباس في هذه الآية قال: إن المؤمن إذا حضره الموت شهدته الملائكة، فسلموا عليه وبشروه بالجنة، فإذا مات مشوا مع جنازته، ثم صلّوا عليه مع الناس، فإذا دفن أجلس في قبره فيقال له: من ربك؟ فيقول: ربي الله. فيقال له: من رسولك؟ فيقول: محمد ﷺ. فيقال له: ما شهادتك؟ فيقول: أشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أن محمداً رسول الله. فيوسع له في

(١) مسلم (٧٥/٢٨٧٢) . (٢) ابن حبان (٧٣٣ موارد) .

(٣) ابن حبان (٧٣١ موارد) . ورواه الحاكم في المستدرک (٣٥١/١) وصححه .

(٤) الترمذى (١٠٧١) ، وقال : «حسن غريب» .

قبره مد بصره . وأما الكافر فتتزل عليه الملائكة ، فيسطون أيديهم - «والبسط» : هو الضرب - يضربون وجوههم وأديبارهم عند الموت . فإذا أدخل قبره أقعد ، فقيل له : من ربك؟ فلم يرجع إليهم شيئاً ، وأنساه الله ذكر ذلك . وإذا قيل : من الرسول الذى بعث إليك؟ لم يهتد له ، ولم يرجع إليه شيئاً ، كذلك يضل الله الظالمين . وقال عبد الرزاق عن ابن طائوس ، عن أبيه : «بُيِّتَ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ﴿٢٨﴾ قَالَ : لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ ﴿وَفِي الْآخِرَةِ﴾ : المسألة فى القبر . وقال قتادة : أما الحياة الدنيا فيثبتهم بالخير والعمل الصالح ﴿وَفِي الْآخِرَةِ﴾ فى القبر . وكذا روى عن غير واحد من السلف .

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَلُوا نِعْمَتَ اللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ ﴿٢٨﴾ جَهَنَّمَ رِيعَ يَصِلُونَهَا وَبَسَّ الْقَارُورُ ﴿٢٩﴾ وَجَعَلُوا لِلَّهِ أُنْدَادًا لِيُضِلُّوا عَنْ سَبِيلِهِ قُلْ تَمَتَّعُوا فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى النَّارِ ﴿٣٠﴾ ﴾

قال البخارى : قوله : ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَلُوا نِعْمَتَ اللَّهِ كُفْرًا ﴾ : ألم تعلم؟ كقوله : ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ﴾ [إبراهيم : ٢٤] ، ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ خَرَجُوا ﴾ [البقرة : ٢٤٣] ، البوار : الهلاك ، بار بيور بوراً ، و ﴿ قَوْمًا بُورًا ﴾ [الفرقان : ١٨ ، الفتح : ٤١٢] : هالكين . عن ابن عباس : ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَلُوا نِعْمَتَ اللَّهِ كُفْرًا ﴾ قال : هم كفار أهل مكة (١) . وقال العوفى ، عن ابن عباس فى هذه الآية : هو جبلة بن الايهم ، والذين اتبعوه من العرب ، فلحقوا بالروم . والمشهور الصحيح عن ابن عباس هو القول الأول ، وإن كان المعنى يعم جميع الكفار ؛ فإن الله تعالى بعث محمداً ﷺ رحمة للعالمين ، ونعمة للناس ، فمن قبلها وقام بشكرها دخل الجنة ، ومن ردّها وكفرها دخل النار .

وقوله : ﴿ وَجَعَلُوا لِلَّهِ أُنْدَادًا لِيُضِلُّوا عَنْ سَبِيلِهِ ﴾ أى : جعلوا له شركاء عبدوهم معه ، ودعوا الناس إلى ذلك . ثم قال تعالى مهتداً لهم ومتوعداً لهم على لسان نبيه ﷺ : ﴿ قُلْ تَمَتَّعُوا فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى النَّارِ ﴾ أى : مهما قدرتم عليه فى الدنيا فافعلوا ، فمهما يكن من شىء ﴿ فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى النَّارِ ﴾ أى : مرجعكم وموئلكم إليها ، كما قال تعالى : ﴿ نَمَتَّعُهُمْ قَلِيلًا ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلَىٰ عَذَابِ غَلِيظٍ ﴾ [لقمان : ٢٤] ، وقال تعالى : ﴿ مَتَاعٌ فِي الدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ نَذِقُهُمُ الْعَذَابَ الشَّدِيدَ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ ﴾ [يونس : ٧٠]

﴿ قُلْ لِعِبَادِيَ الَّذِينَ ءَامَنُوا يُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا زَكَاةً وَسِرًّا وَعَلَانِيَةً مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا بَيْعَ فِيهِ وَلَا خِلَالَ ﴿٣١﴾ ﴾

يقول تعالى أمرأ عباده بطاعته والقيام بحقه ، والإحسان إلى خلقه ، بأن يقيموا الصلاة وهى عبادة الله وحده لا شريك له ، وأن ينفقوا مما رزقهم الله بأداء الزكوات ، والنفقة على القرابات والإحسان إلى الأجانب . والمراد بإقامتها هو : المحافظة على وقتها وحدودها ، وركوعها وخشوعها وسجودها .

وأمر تعالى بالإفناق مما رزق في السر، أى: فى الخفية، والعلانية وهى: الجهر، وليبادروا إلى ذلك لخلاص أنفسهم ﴿مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ﴾ وهو يوم القيامة، وهو يوم ﴿لَا يَبْعُ فِيهِ وَلَا خِلَالَ﴾ أى: لا يقبل من أحد فدية بأن تباع نفسه، كما قال تعالى: ﴿فَالْيَوْمَ لَا يُؤْخَذُ مِنْكُمْ فِدْيَةٌ وَلَا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ [الحديد: ١٥].

وقوله: ﴿وَلَا خِلَالَ﴾ قال ابن جرير: يقول: ليس هناك مُحَاَلَةٌ خليل، فيصغح عمن استوجب العقوبة، عن العقاب مُحَاَلَتُهُ، بل هنالك العدل والقسط. وقال قتادة: إن الله قد علم أن فى الدنيا بيوعاً وخلالاً يتخالون بها فى الدنيا، فينظر رجل من يخالل وعلام صاحب، فإن كان لله فليداوم، وإن كان لغير الله فيسقط عنه. قلت: والمراد من هذا أنه يخير تعالى أنه لا ينفع أحداً ببيع ولا فدية، ولو افتدى بملء الأرض ذهباً لو وجده، ولا ينفعه صداقة أحد ولا شفاعة أحد إذ لقي الله كافراً، قال الله تعالى: ﴿وَأَتَقُوا يَوْمًا لَا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا تَنْفَعُهَا شَفَاعَةٌ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾ [البقرة: ١٢٣]، وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنْفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا يَبْعُ فِيهِ وَلَا خِلَّةٌ وَلَا شَفَاعَةٌ وَالْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ [البقرة: ٢٥٤].

﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الشَّرَابِ رِزْقًا لَكُمْ وَسَخَّرَ لَكُمْ الْفَلَكَ لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَسَخَّرَ لَكُمْ الْآنَهَارَ ﴿٢١﴾ وَسَخَّرَ لَكُمْ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَائِبِينَ وَسَخَّرَ لَكُمْ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ ﴿٢٢﴾ وَءَاتَاكُمْ مِنْ كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ وَإِنْ تَعَدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تَحْصُوهَا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ ﴿٢٣﴾﴾

يعدد تعالى نعمه على خلقه، بأن خلق لهم السموات سقفاً محفوظاً، والأرض فراشاً، وأنزل من السماء ماء فأخرج به أزواجاً من نبات شتى، ما بين ثمار وزروع، مختلفة الألوان والأشكال، والطعوم والروائح والمنافع، وسخر الفلك بأن جعلها طافية على تيار ماء البحر، تجرى عليه بأمر الله تعالى، وسخر البحر لحملها ليقطع المسافرون بها من إقليم إلى إقليم آخر، لجلب ما هنا إلى هناك، وما هناك إلى هنا، وسخر الأنهار تشق الأرض من قطر إلى قطر، رزقا للعباد من شرب وسقى وغير ذلك من أنواع المنافع. ﴿وَسَخَّرَ لَكُمْ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَائِبِينَ﴾ أى: يسيران لا يفتران ليلاً ولا نهاراً ﴿لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ [يس: ٤٠]، ﴿يَغْشَى اللَّيْلُ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَيْثُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرَ وَالنَّجُومُ مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِهِ أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ [الاعراف: ٥٤]، فالشمس والقمر يتعاقبان، والليل والنهار يتعارضان، فتارة يأخذ هذا من هذا فيطول، ثم يأخذ الآخر من هذا فيقصّر، ﴿يُولِجُ اللَّيْلُ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارُ فِي اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى﴾ [وَأَنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ] (١) ﴿[لقمان: ٢٩]، وقوله: ﴿يُكَوِّرُ اللَّيْلَ عَلَى النَّهَارِ وَيُكَوِّرُ النَّهَارَ عَلَى اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُسَمًّى﴾ [الزمر: ٥]

(١) فى المطبوعة والمخطوطة: «ألا هو العزيز الغفار» والصواب ما أثبتناه.

وقوله: ﴿وَأَتَاكُمْ مِنْ كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ﴾: يقول: هيا لكم كل ما تحتاجون إليه في جميع أحوالكم مما تسألونه بحالكم وقالكم. وقوله: ﴿وَأَنْ تَعْبُدُوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تَحْضُوهَا﴾: يخبر عن عجز العباد عن تعداد النعم فضلا عن القيام بشكرها، كما قال طلق بن حبيب: إن حق الله أثقل من أن يقوم به العباد، وإن نعم الله أكثر من أن يحصيها العباد، ولكن أصبحوا توابين وأمسوا توابين. وفي صحيح البخارى: أن رسول الله ﷺ كان يقول: «اللهم، لك الحمد غير مكفَى ولا مودَع، ولا مستغنى عنه ربنا»^(١). وقال الشافعى، رحمه الله: الحمد لله الذى لا يؤدى شكر نعمة من نعمه، إلا بنعمة تُوجب على مُؤدى ماضى نعمه بأدائها، نعمة حادثة تُوجب عليه شكره بها. وقال القائل فى ذلك:

لو كل جارحة منى لها لعةٌ تُثنى عليك بما أوليت من حسن
 لكان ما زاد شكرى إذ شكرتُ به إليك أبلغ فى الإحسان والمنن

﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِنًا وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنَامَ رَبِّ إِنَّهُمْ أَضَلُّونَ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ فَمَنْ تَبِعَنِ فَإِنَّهُمْ مِنِّي وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾

يذكر تعالى فى هذا المقام محتجاً على مشركى العرب، بأن البلد الحرام مكة إنما وضعت أول ما وضعت على عبادة الله وحده لا شريك له، وأن إبراهيم الذى كانت عامرة بسببه، آهلة تبرا من عبد غير الله، وأنه دعا لمكة بالأمن فقال: ﴿رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِنًا﴾. وقد استجاب الله له، فقال تعالى: ﴿أَوْ لَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا آمِنًا وَيَنْتَضِفُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ﴾ [العنكبوت: ٦٧]، وقال تعالى: ﴿إِنْ أَوْلَىٰ بَيْتٍ وَضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بَكَتْهُ مَبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ. فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَّقَامُ إِبْرَاهِيمَ وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا﴾ [آل عمران: ٩٦، ٩٧]، وقال فى هذه القصة: ﴿رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِنًا﴾، فعرفه لأنه دعا به بعد بنائها؛ ولهذا قال: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى الْكِبَرِ إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ﴾ [إبراهيم: ٣٩]، ومعلوم أن إسماعيل أكبر من إسحاق بثلاث عشرة سنة، فأما حين ذهب بإسماعيل وأمه وهو رضيع إلى مكان مكة، فإنه دعا أيضا فقال: ﴿رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا آمِنًا﴾ [البقرة: ١٢٦]، كما ذكرناه هنالك فى سورة البقرة مستقصى مطولا. وقال: ﴿وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنَامَ﴾: ينبغى لكل داع أن يدعو لنفسه ولوالديه ولذريته.

ثم ذكر أنه افتتن بالأصنام خلانق من الناس وأنه برىء ممن عبدها، ورد أمرهم إلى الله، إن شاء عذبهم، وإن شاء غفر لهم، كما قال عيسى عليه السلام: ﴿إِنْ تَعَذَّبْتُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِنْ تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْغَزِيُّ الْحَكِيمُ﴾ [المائدة: ١١٨]، وليس فى هذا أكثر من الرد إلى مشيئة الله تعالى، لا تجويز وقوع ذلك.

﴿ رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بُوَادٍ عَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفْتِدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَأَرْزُقْهُمْ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ ﴾ ﴿٧﴾

وهذا يدل على أن هذا دعاء ثان بعد الدعاء الأول الذي دعا به عندما ولى عن هاجر وولدها، وذلك قبل بناء البيت، وهذا كان بعد بنائه، تأكيداً ورغبة إلى الله، عز وجل؛ ولهذا قال: ﴿عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ﴾ . وقوله: ﴿رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ﴾ قال ابن جرير: هو متعلق بقوله: ﴿الْمُحَرَّمِ﴾ أى: إنما جعلته محرماً ليتمكن أهله من إقامة الصلاة عنده ﴿فَاجْعَلْ أَفْتِدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ﴾: قال ابن عباس: لو قال: «أفئدة الناس» لآزدهم عليه فارس والروم واليهود والنصارى والناس كلهم، ولكن قال: ﴿مِنَ النَّاسِ﴾ فاخص به المسلمون.

وقوله: ﴿وَأَرْزُقْهُمْ مِنَ الثَّمَرَاتِ﴾ أى: ليكون ذلك عوناً لهم على طاعتك وكما أنه ﴿وَأَدِغِيرِ ذِي زَرْعٍ﴾ فاجعل لهم ثماراً يأكلونها. وقد استجاب الله ذلك، كما قال: ﴿أَوَلَمْ نُمْكِنْ لَهُمْ حَرَمًا آمِنًا يُجْبَى إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ رِزْقًا مِنْ لَدُنَّا﴾ [القصص: ٥٧]، وهذا من لطفه تعالى وكرمه ورحمته وبركته: أنه ليس فى البلد الحرام مكة شجرة مثمرة، وهى تجبى إليها ثمرات ما حولها، استجابة لخليله إبراهيم، عليه الصلاة والسلام.

﴿ رَبَّنَا إِنَّكَ تَعَلَّمَ مَا نُخْفِي وَمَا نُعَلِّنُ وَمَا يَخْفَى عَلَى اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ ﴾ ﴿١٨﴾ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى الْكِبَرِ إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ الدُّعَاءِ ﴿٢١﴾ رَبِّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلَاةِ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَاءَ ﴿٢٠﴾ رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ الْحِسَابُ ﴿٢١﴾

قال ابن جرير: يقول تعالى مخبراً عن إبراهيم خليله أنه قال: ﴿رَبَّنَا إِنَّكَ تَعَلَّمَ مَا نُخْفِي وَمَا نُعَلِّنُ﴾ أى: أنت تعلم قصدى فى دعائى وما أردت بدعائى لأهل هذا البلد، وإنما هو القصد إلى رضاك والإخلاص لك، فإنك تعلم الأشياء كلها ظاهراً وباطناً، ولا يخفى عليك منها شيء فى الأرض ولا فى السماء.

ثم حمد ربه، عز وجل، على ما رزقه من الولد بعد الكبر، فقال: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى الْكِبَرِ إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ الدُّعَاءِ﴾ ، أى: إنه ليستجيب لمن دعاه، وقد استجاب لى فيما سألته من الولد. ثم قال: ﴿رَبِّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلَاةِ﴾ أى: محافظاً عليها مقيماً لحدودها ﴿وَمِنْ ذُرِّيَّتِي﴾ أى: واجعلهم كذلك مقيمين الصلاة ﴿رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَاءَ﴾ أى: فيما سألتك فيه كله ﴿رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ﴾: وقرأ بعضهم: «على الأفراد»، وكان هذا قبل أن يتبرأ من أبيه لما تبين له عداوته لله، عز وجل، ﴿وَالْمُؤْمِنِينَ﴾ أى: كلهم ﴿يَوْمَ يَقُومُ الْحِسَابُ﴾ أى: يوم تحاسب عبادك فتجزئهم بأعمالهم، إن خيراً فخير، وإن شراً فشر .

﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلًا عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ ﴿٤٢﴾ مُهْطِعِينَ مُقْنِعِي رُءُوسِهِمْ لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ وَأَفْتَدْتَهُمْ هَوَاءً ﴿٤٣﴾ وَأَنْذِرِ النَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ الْعَذَابُ ﴾

يقول تعالى ﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ ﴾ يا محمد ﴿ غَافِلًا عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ ﴾ أى: لا تحسبه إذا انظرهم وأجلهم أنه غافل عنهم مهمل لهم، لا يعاقبهم على صنعهم، بل هو يحصى ذلك عليهم ويعدّه عدا: ﴿ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ ﴾ أى: من شدة الاهوال يوم القيامة.

ثم ذكر تعالى كيفية قيامهم من قبورهم ومجيئهم إلى قيام المحشر فقال: ﴿ مُهْطِعِينَ ﴾ أى: مسرعين، كما قال تعالى: ﴿ مُهْطِعِينَ إِلَى الدَّاعِ ﴾ الآية [القمر: ٨]، وقال تعالى: ﴿ يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ الدَّاعِيَ لَا عِوَجَ لَهُ ﴾ إلى قوله: ﴿ وَعَنَتِ الْوُجُوهُ لِلْحَيِّ ﴾ [طه: ١٩٨ - ١١١]، وقال تعالى: ﴿ يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ سِرَاعًا ﴾ الآية [المعارج: ٤٣]. ﴿ مُقْنِعِي رُءُوسِهِمْ ﴾ قال ابن عباس وغير واحد: رافعى رؤوسهم ﴿ يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ ﴾ أى: أبصارهم طائرة شاخصة، يدمعون النظر لا يطفون لحظة لكثرة ما هم فيه من الهول والفكرة والمخافة، لما يحل بهم، عياداً بالله العظيم من ذلك؛ ولهذا قال: ﴿ وَأَفْتَدْتَهُمْ هَوَاءً ﴾ أى: وقلوبهم خاوية خالية ليس فيها شيء لكثرة الوجع والخوف. وقال بعضهم: ﴿ هَوَاءً ﴾: خراب لا تعى شيئا. ولشدة ما أخبر الله تعالى عنهم، قال لرسوله: ﴿ وَأَنْذِرِ النَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ الْعَذَابُ ﴾.

﴿ فَيَقُولُ الَّذِينَ ظَلَمُوا رَبَّنَا أَخْرْنَا إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ نُبِحِبْ دَعْوَتَكَ وَنَتَّبِعِ الرَّسُولَ الْوَلَمَّا تَكُونُوا أَقْسَمْتُمْ مِنْ قَبْلِ مَا لَكُمْ مِنْ زَوَالٍ ﴿٤٤﴾ وَسَكَنْتُمْ فِي مَسْكِنِ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ وَضَرَبْنَا لَكُمْ الْأَمْثَالَ ﴿٤٥﴾ وَقَدْ مَكَرُوا مَكْرَهُمْ وَعِنْدَ اللَّهِ مَكْرُهُمْ وَإِنْ كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ الْجِبَالُ ﴾

يقول تعالى مخبراً عن قيل الذين ظلموا أنفسهم، عند معاينة العذاب: ﴿ رَبَّنَا أَخْرْنَا إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ نُبِحِبْ دَعْوَتَكَ وَنَتَّبِعِ الرَّسُولَ ﴾، كما قال تعالى: ﴿ حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ. لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ كَلَّا إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا وَمِنْ وَرَائِهِمْ بَرْزَخٌ إِلَىٰ يَوْمٍ يُبْعَثُونَ ﴾ [المؤمنون: ٩٩، ١٠٠]، وقال تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَلْهَمُوا أَمْوَالَكُمُ وَلَا أَوْلَادَكُمُ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ. وَأَنْفَقُوا مِنْ مَا رَزَقْنَاكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِي أَحَدَكُمْ الْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَا أَخَّرْتَنِي إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصْدَقُ وَأَكُنْ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴾ [المنافقون: ٩، ١٠]، وقال تعالى مخبراً عنهم فى حال محشرهم: ﴿ وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الْمُجْرِمُونَ نَاكَسُوا رُءُوسِهِمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَارْجِعْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ ﴾ [السجدة: ١٢]، وقال تعالى: ﴿ وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ وَقَفُوا عَلَى النَّارِ فَقَالُوا يَا لَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبُ بَيِّنَاتِ رَبِّنَا وَنَكُونُ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ. بَلْ بَدَأ لَهُمْ مَا كَانُوا يُخْفُونَ مِنْ قَبْلُ وَلَوْ رَدُّوا لَعَادُوا لَمَّا نَهَوَّا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴾ [الانعام: ٢٧، ٢٨]، وقال تعالى: ﴿ وَهُمْ

يَصْطَرِّخُونَ فِيهَا رَبِّنا أَخْرَجْنا نَعْمَلْ صَالِحاً غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ أَوْ لَمْ نَعْمَلْ أَوْ لَمْ نَعْمَرْكُمْ مَا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَنْ تَذَكَّرَ وَجَاءَكُمْ النَّذِيرُ فَذُوقُوا فَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ نَصِيرٍ ﴿٣٧﴾ [فاطر: ٣٧].

وقال تعالى رادا عليهم فى قولهم هذا: ﴿أَوْ لَمْ تَكُونُوا أَقْسَمْتُمْ مِنْ قَبْلِ ما لَكُمْ مِنْ زَوالٍ﴾ أى: أولم تكونوا تحلفون من قبل هذه الحال: أنه لا زوال لكم عما أنتم فيه، وأنه لا معاد ولا جزاء، فذوقوا هذا بذاك. قال مجاهد وغيره: ﴿ما لَكُمْ مِنْ زَوالٍ﴾ أى: ما لكم من انتقال من الدنيا إلى الآخرة، كما أخبر عنهم تعالى: ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمانِهِمْ لا يبعثُ اللهُ مَنْ يموتُ بلىً وَعَداً عَلَيْهِ حَقًّا﴾ [النحل: ٣٨]. ﴿وَسَكَنْتُمْ فِي مَساكِنِ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ وَضَرَبْنَا لَكُمْ الأمثالَ﴾ أى: قد رأيتم وبلغتمكم ما أحللنا بالأمم المكذبة قبلكم، ومع هذا لم يكن لكم فيهم معتبر، ولم يكن فيما أوقعنا بهم مزدجر لكم ﴿حِكْمَةً بِاللِّغَةِ فَمَا تَعْنِ النَّذِيرُ﴾ [القمر: ٥٥]. وعن ابن عباس فى قوله: ﴿وَإِنْ كانَ مَكْرَهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ الْجِبَالُ﴾ يقول: ما كان مكرهم لتزول منه الجبال. وكذا قال الحسن البصرى، ووجهه ابن جرير بأن هذا الذى فعلوه بأنفسهم من كفرهم بالله وشركهم به، ما ضر ذلك شيئا من الجبال ولا غيرها، وإنما عاد وبال ذلك على أنفسهم. قلت: ويشبه هذا إذا قوله تعالى: ﴿وَلَا تَمْشِ فِي الأَرْضِ مَرْحاً إِنَّكَ لَنْ تَخْرِقَ الأَرْضَ وَلَنْ تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولاً﴾ [الإسراء: ٣٧]. والقول الثانى فى تفسيرها: ما رواه على بن أبى طلحة، عن ابن عباس: ﴿وَإِنْ كانَ مَكْرَهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ الْجِبَالُ﴾: يقول شركهم، كقوله: ﴿تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنْشَقُّ الأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا . أَنْ دَعَوْا لِلرَّحْمَنِ وَلَدًّا﴾ [مريم: ٩٩، ٩١]، وهكذا قال الضحاك، وقتادة.

﴿فَلَا تَحْسَبَنَّ اللهُ مُخْلِفاً وَعَدِهِ رُسُلُهُ إِنَّ اللهُ عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ﴾ ﴿٤٧﴾ يَوْمَ تَبَدَّلَ الأَرْضُ غَيْرَ الأَرْضِ وَالسَّمَوَاتُ وَبَرَزُوا لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ ﴿٤٨﴾

يقول تعالى مقررأ لوعده ومؤكداً: ﴿فَلَا تَحْسَبَنَّ اللهُ مُخْلِفاً وَعَدِهِ رُسُلُهُ﴾ أى: من نصرتهم فى الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد. ثم أخبر تعالى أنه ذو عزة لا يمتنع عليه شىء أراد، ولا يغالب، وذو انتقام ممن كفر به وجحدته ﴿وَيَلَّ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ﴾ [الطور: ١١]؛ ولهذا قال: ﴿يَوْمَ تَبَدَّلَ الأَرْضُ غَيْرَ الأَرْضِ وَالسَّمَوَاتُ﴾ أى: وعده هذا حاصل يوم تبدل الأرض، وهى هذه على غير الصفة المألوفة المعروفة، كما جاء فى الصحيحين عن سهل بن سعد قال: قال رسول الله ﷺ: «يحشر الناس يوم القيامة على أرض بيضاء عفراء، كقُرْصَةِ النَّقْيِ، ليس فيها معلّم لأحد» (١). وروى الإمام أحمد عن عائشة أنها قالت: أنا أول الناس سأل رسول الله ﷺ عن هذه الآية: ﴿يَوْمَ تَبَدَّلَ الأَرْضُ غَيْرَ الأَرْضِ وَالسَّمَوَاتُ وَبَرَزُوا لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ﴾ قالت: قلت: أين الناس يومئذ يا رسول الله؟ قال: «على الصراط». رواه مسلم والترمذى، وابن ماجه، وقال الترمذى: حسن صحيح.

(١) المسند (٣٥/٦)، ومسلم (٢٩/٢٧٩١)، والترمذى (٣١٢١)، وابن ماجه (٤٢٧٩).

وروى الإمام مسلم عن ثوبان مولى رسول الله ﷺ قال: كنت قائما عند رسول الله ﷺ، فجاءه حبر من أحبار اليهود، فقال: السلام عليك يا محمد. فدفعته دفعةً كاد يُصرع منها، فقال: لم تدفعني؟ فقلت: ألا تقول: يا رسول الله؟! فقال اليهودي: إنما ندعوه باسمه الذي سمَّاه به أهله! فقال رسول الله ﷺ: «إن اسمي محمد الذي سماني به أهلي». فقال اليهودي: جئت أسألك. فقال رسول الله ﷺ: «أينفعك شيء إن حدثتكَ؟» فقال: أسمع بأذني. فنكت رسول الله ﷺ بعود معه، فقال: «سل». فقال اليهودي: أين يكون الناس يوم تبدل الأرض غير الأرض والسموات؟ فقال رسول الله ﷺ: «هم في الظلمة دون الجسر». قال: فمن أول الناس إجازة؟ فقال: «فقراء المهاجرين». قال اليهودي: فما تحفَّتْهم حين يدخلون الجنة؟ قال: «زيادة كبد النون» قال: فما غذاؤهم في أثرها؟ قال: «ينحر لهم ثور الجنة الذي كان يأكل من أطرافها». قال: فما شرابهم عليه؟ قال: «من عين فيها تسمى سلسيلا». قال: صدقت. قال: وجئت أسألك عن شيء لا يعلمه أحد من أهل الأرض إلا نبي أو رجل أو رجلان؟ قال: «ينفعك إن حدثتكَ؟» قال: أسمع بأذني. قال: جئت أسألك عن الولد. قال: «ماء الرجل أبيض وماء المرأة أصفر، فإذا اجتمعَا فعَلَا مني الرجل مني المرأة أذكرا بإذن الله - تعالى - وإذا علا مني المرأة مني الرجل أنثا بإذن الله». قال اليهودي: لقد صدقت، وإنك لنبي. ثم انصرف، فقال رسول الله ﷺ: «لقد سألتني هذا عن الذي سألتني عنه، وما لى علم بشيء منه، حتى أتاني الله به» (١).

وفي حديث الصور المشهور المروي عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ أنه قال: «تبدل الأرض غير الأرض والسموات، فيسطها ويمدها مد الأديم العكاظي، لا ترى فيها عوجاً ولا أمثاً، ثم يزجر الله الخلق زجرة، فإذا هم في هذه المبدلة» (٢).

وقوله: ﴿ وَبَرَزُوا لِلَّهِ آيٌ ۖ خَرَجْتَ الْخَلَائِقَ جَمِيعَهَا مِنْ قُبُورِهِمْ لِلَّهِ ۖ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ ۖ آيٌ ۖ الَّذِي قَهَرَ كُلَّ شَيْءٍ وَغَلَبَهُ، وَدَانَتْ لَهُ الرِّقَابُ، وَخَضَعَتْ لَهُ الْآلِيَابُ. »

﴿ وَتَرَى الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ مُّقْرَّنِينَ فِي الْأَصْفَادِ ﴿٤٩﴾ سَرَابِلُهُمْ مِّنْ قَطْرَانٍ وَتَعْنَىٰ وَجُوهَهُمُ النَّارُ ﴿٥٠﴾ لِيَجْزِيَ اللَّهُ كُلَّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴿٥١﴾ ﴾

يقول تعالى: ﴿ يَوْمَ تَبْدُلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَوَاتُ ﴾، وتبرز الخلائق لديانها، ترى يا محمد يومئذ المجرمين، وهم الذين أجزموا بكفرهم وفسادهم ﴿ مُّقْرَّنِينَ ﴾ أي: بعضهم إلى بعض، كل صنف إلى صنف، كما قال تعالى: ﴿ احشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ ﴾ [الصفات: ٢٢]، وقال: ﴿ وَإِذَا النُّفُوسُ زُوِّجَتْ ﴾ [التكوير: ٧]، وقال: ﴿ وَإِذَا أَلْقَا مِنْهَا مَكَانًا ضَيِّقًا مُّقْرَّنِينَ دَعَوْا هُنَالِكَ ثُبُورًا ﴾ [الفرقان: ١٣]، وقال: ﴿ وَالشَّيَاطِينُ كُلُّ بَنَاءٍ وَغَوَاصٍ. وَآخَرِينَ مُّقْرَّنِينَ فِي الْأَصْفَادِ ﴾ [ص: ٣٧، ٣٨].

(١) مسلم (٣٤ / ٣١٥).

(٢) سبق تخريجه عند تفسير الآية (٧٣) من سورة الأنعام.

والأصفاد: هي القيود، قاله ابن عباس، وسعيد بن جبير، والأعمش، وعبد الرحمن بن زيد. وهو مشهور في اللغة.

وقوله: ﴿سَرَابِلُهُمْ مِّنْ قَطْرَانٍ﴾ أي: ثيابهم التي يلبسونها عليهم من قطران، وهو الذي تظلى به الإبل، وهو الصق شيء بالنار. وكان ابن عباس يقول: القطران هو: النحاس المذاب، وربما قرأها: «سَرَابِلِهِمْ مِنْ قَطْرِ أَنْ» أي: من نحاس حار قد انتهى حره. وكذا روى عن مجاهد، وعكرمة، وسعيد بن جبير، والحسن، وقتادة.

وقوله: ﴿وَتَقَشْنِي وُجُوهُهُمُ النَّارُ﴾، كقوله: ﴿تَلْفَحُ وُجُوهُهُمُ النَّارُ وَهُمْ فِيهَا كَالِحُونَ﴾ [المؤمنون: ١٠٤]. وروى الإمام أحمد عن أبي مالك الأشعري قال: قال رسول الله ﷺ: «أربع في أمتي من أمر الجاهلية لا يتركون: الفخر بالأحساب، والظعن في الأنساب، والاستسقاء بالنجوم، والنياحة على الميت، والنائحة إذا لم تتب قبل موتها، تقام يوم القيامة وعليها سربال من قطران، ودرع من جرب». انفراد بإخراجه مسلم (١).

وقوله: ﴿لِيَجْزِيَ اللَّهُ﴾ أي: يوم القيامة، كما قال: ﴿لِيَجْزِيَ الَّذِينَ الَّذِينَ أَسَاؤُوا بِمَا عَمَلُوا وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى﴾ [النجم: ٣١]. ﴿إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾: يحتمل أن يكون كقوله تعالى: ﴿اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ﴾ [الانباء: ١]، ويحتمل أنه في حال محاسبته لعبده سريع التجاز؛ لأنه يعلم كل شيء، ولا يخفى عليه خافية، وإن جميع الخلق بالنسبة إلى قدرته كالواحد منهم، كقوله تعالى: ﴿مَا خَلَقَكُمْ وَلَا بَعَثَكُمْ إِلَّا كَفَّسًا وَاحِدَةً﴾ [لقمان: ٢٨]، وهذا معنى قول مجاهد: ﴿سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾: إحصاء. ويحتمل أن يكون المعنيان مرادين، والله أعلم.

﴿ هَذَا بَلَاغٌ لِلنَّاسِ وَلِيُنذِرُوا بِهِ، وَلِيَعْلَمُوا أَنَّمَا هُوَ إِلَهُ وَاحِدٌ وَلِيَذْكُرُوا الْأَلْبَابَ ﴾

يقول تعالى: هذا القرآن بلاغ للناس، كقوله: ﴿لَأُنذِرَكُمْ بِهِ وَمَنْ بَلَغَ﴾ [الانعام: ١٩] أي: هو بلاغ لجميع الخلق من إنس وجن، كما قال في أول السورة: ﴿الْقُرْآنُ كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ﴾. ﴿وَلِيُنذِرُوا بِهِ﴾ أي: ليتعظوا به ﴿وَلِيَعْلَمُوا أَنَّمَا هُوَ إِلَهُ وَاحِدٌ﴾ أي: يستدلوا بما فيه من الحجج والدلالات على أنه لا إله إلا هو. ﴿وَلِيَذْكُرُوا الْأَلْبَابَ﴾ أي: ذوو العقول.

تفسير سورة الحجر

وهي مكة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الجزء ١٤ ﴿الرَّتِّكَ ءَايَتُ الْكِتَابِ وَقُرْءَانٍ مُّبِينٍ ﴿١﴾ رَبِّمَا يُوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ كَانُوا مُسْلِمِينَ ﴿٢﴾ ذَرَّهُمْ يَأْكُلُوا وَيَمْتَعُوا وَيُلْهِمُ الْأَمَلُ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٣﴾﴾

قد تقدم الكلام على الحروف المقطعة فى أوائل السور.

وقوله تعالى: ﴿ رَبِّمَا يُوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ الآية: إخبار عنهم أنهم سيندمون على ما كانوا فيه من الكفر، ويتمنون لو كانوا مع المسلمين فى الدار الدنيا مع المسلمين. وقيل: المراد أن كل كافر يود عند احتضاره أن لو كان مؤمنا. وقيل: هذا إخبار عن يوم القيامة، كما فى قوله تعالى: ﴿ وَلَوْ تَرَى إِذْ وَقَفُوا عَلَى النَّارِ فَقَالُوا يَا لَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبُ بآيَاتِ رَبِّنَا وَنُكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ [الأنعام: ٢٧]. وقال ابن جرير كان ابن عباس وأنس بن مالك كان يتأولان هذه الآية: ﴿ رَبِّمَا يُوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ كَانُوا مُسْلِمِينَ ﴾: يوم يحبس الله أهل الخطايا من المسلمين مع المشركين فى النار. فيقول لهم المشركون: ما أغنى عنكم ما كنتم تعبدون فى الدنيا. فيغضب الله لهم بفضل رحمته، فيخرجهم، فذلك حين يقول: ﴿ رَبِّمَا يُوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ كَانُوا مُسْلِمِينَ ﴾.

وعن أبى موسى قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا اجتمع أهل النار فى النار، ومعهم من شاء الله من أهل القبلة، قال الكفار للمسلمين: ألم تكونوا مسلمين؟ قالوا: بلى. قالوا: فما أغنى عنكم الإسلام! فقد صرتم معنا فى النار؟ قالوا: كانت لنا ذنوب فأخذنا بها. فسمع الله ما قالوا، فأمر بمن كان فى النار من أهل القبلة فأخرجوا، فلما رأى ذلك من بقى من الكفار قالوا: يا ليتنا كنا مسلمين فنخرج كما خرجوا». قال: ثم قرأ رسول الله ﷺ: أعوذ بالله من الشيطان الرجيم ﴿الرَّتِّكَ آيَاتُ الْكِتَابِ وَقُرْءَانٍ مُّبِينٍ . رَبِّمَا يُوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ كَانُوا مُسْلِمِينَ﴾ (١).

وقوله: ﴿ ذَرَّهُمْ يَأْكُلُوا وَيَمْتَعُوا ﴾: تهديد لهم شديد، ووعيد أكيد، كقوله تعالى: ﴿ قُلْ تَمَتَّعُوا فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى النَّارِ ﴾ [إبراهيم: ٣٠] ، وقوله: ﴿ كَلُوا وَتَمَتَّعُوا قَلِيلًا إِنَّكُمْ مُجْرِمُونَ ﴾ [المرسلات: ٤٦]؛ ولهذا قال: ﴿ وَيُلْهِمُ الْأَمَلُ ﴾ أى: عن التوبة والإنابة ﴿ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴾ أى: عاقبة أمرهم.

﴿وَمَا أَهْلَكْنَا مِنْ قَرِيَةٍ إِلَّا وَهَلَّا كِتَابٌ مَعْلُومٌ ﴿٤﴾ مَا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَعْتِرُونَ ﴿٥﴾﴾

(١) الحاكم (٢/٢٤٢)، وقال: « صحيح الإسناد ولم يخرجاه » ، ووافقه الذهبي .

يخبر تعالى: أنه ما أهلك قرية إلا بعد قيام الحجة عليها وانتهاء أجلها، وإنه لا يؤخر أمة حان هلاكها عن ميقاتها ولا يتقدمون عن مدتهم. وهذا تنبيه لأهل مكة، وإرشاد لهم إلى الإقلاع عما هم فيه من الشرك والعناد والإلحاد، الذي يستحقون به الهلاك.

﴿ وَقَالُوا يَا أَيُّهَا الَّذِي نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ ﴿٦﴾ لَوْ مَا تَأْتِينَا بِالْمَلَكَةِ إِن كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٧﴾ مَا نُنزِلُ الْمَلَكَةَ إِلَّا بِالْحَقِّ وَمَا كَانُوا إِذَا مُنْظَرِينَ ﴿٨﴾ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴿٩﴾ ﴾

يخبر تعالى عن كفرهم وعنادهم في قولهم: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِي نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ ﴾ أى: الذى تدعى ذلك ﴿ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ ﴾ أى: فى دعائك إيانا إلى اتباعك وترك ما وجدنا عليه آباءنا ﴿ لَوْ مَا ﴾ أى: هلاً ﴿ تَأْتِينَا بِالْمَلَكَةِ ﴾ أى: يشهدون لك بصحة ما جئت به ، كما قال فرعون: ﴿ فَقُلْ لَأَقْبِيَ عَلَيْهِ آسُورَةٌ مِّنْ ذَهَبٍ أَوْ جَاءَ مَعَهُ الْمَلَايِكَةُ مُقْتَرِينَ ﴾ [الزخرف: ٥٣] ، ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْنَا الْمَلَايِكَةُ أَوْ نَرَىٰ رَبَّنَا لَقَدِ اسْتَكْبَرُوا فِي أَنفُسِهِمْ وَعَتَوْا عُتْوًا كَبِيرًا . يَوْمَ يَرَوْنَ الْمَلَايِكَةَ لَا بُشْرَىٰ يَوْمَئِذٍ لِلْمُجْرِمِينَ وَيَقُولُونَ حَجْرًا مَّحْجُورًا ﴾ [الفرقان: ٢١، ٢٢] . وكذا قال فى هذه الآية: ﴿ مَا نُنزِلُ الْمَلَايِكَةَ إِلَّا بِالْحَقِّ وَمَا كَانُوا إِذَا مُنْظَرِينَ ﴾ . وقال مجاهد فى قوله: ﴿ مَا نُنزِلُ الْمَلَايِكَةَ إِلَّا بِالْحَقِّ ﴾: بالرسالة والعذاب. ثم قرر تعالى أنه هو الذى أنزل عليه الذكر، وهو القرآن، وهو الحافظ له من التغيير والتبديل.

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِي شَيْعِ الْأَوَّلِينَ ﴿١٠﴾ وَمَا يَأْتِيهِمْ مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴿١١﴾ كَذَلِكَ نَسْلُكُهُ فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ ﴿١٢﴾ لَا يُؤْمِنُونَ بِهِ وَقَدْ خَلَتْ سُنَّةُ الْأَوَّلِينَ ﴿١٣﴾ ﴾

يقول تعالى مسلماً لرسوله ﷺ فى تكذيب من كذبه من كفار قريش: إنه أرسل من قبله فى الأمم الماضية، وإنه ما أتى أمة رسول إلا كذبوه واستهزؤوا به، ثم أخبر أنه سلك التكذيب فى قلوب المجرمين الذين عاندوا واستكبروا عن اتباع الهدى. قال أنس، والحسن البصرى: ﴿ كَذَلِكَ نَسْلُكُهُ فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ ﴾: يعنى: الشرك.

وقوله: ﴿ وَقَدْ خَلَتْ سُنَّةُ الْأَوَّلِينَ ﴾ أى: قد علم ما فعل تعالى بمن كذب رسله من الهلاك والدمار، وكيف أنجى الله الأنبياء وأتباعهم فى الدنيا والآخرة.

﴿ وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا مِّنَ السَّمَاءِ فَظَلُّوا فِيهِ يَعْرُجُونَ ﴿١٤﴾ لَقَالُوا إِنَّمَا سُكَّرَتْ أَبْصَارُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَّسْحُورُونَ ﴿١٥﴾ ﴾

يخبر تعالى عن قوة كفرهم وعنادهم ومكابرتهم للحق: أنه لو فتح لهم باباً من السماء، فجعلوا يصعدون فيه، لما صدقوا بذلك، بل قالوا: ﴿ إِنَّمَا سُكَّرَتْ أَبْصَارُنَا ﴾ قال مجاهد: سدت أبصارنا، وقال ابن عباس: أخذت أبصارنا، وقال الكلبي: عميت أبصارنا.

﴿ وَقَدْ جَعَلْنَا فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَزَيَّنَّاهَا لِلنَّظِيرِينَ ﴿١٦﴾ وَحَفِظْنَاهَا مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ رَجِيمٍ ﴿١٧﴾ إِلَّا مِنْ أَسْتَرَقَ السَّمْعَ فَاتَّبَعُهُ شِهَابٌ مُبِينٌ ﴿١٨﴾ وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوْسِيًّا وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْزُونٍ ﴿١٩﴾ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعْيِشًا وَمَنْ لَسْتُمْ لَهُمْ بَرَزِقِينَ ﴿٢٠﴾ ﴾

يذكر تعالى خلقه السماء فى ارتفاعها وما زينها به من الكواكب الثواقب لمن تأملها، وكرر النظر فيها، يرى فيها من العجائب والآيات الباهرات، ما يحار نظره فيه. ولهذا قال مجاهد وقتادة: البروج هاهنا هى: الكواكب، قلت: وهذا كقوله تعالى: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي جَعَلَ فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَاجًا وَقَمَرًا مُنِيرًا﴾ [الفرقان: ٦١]. ومنهم من قال: البروج هى: منازل الشمس والقمر.

وجعل الشهب حرساً لها من مردة الشياطين، لئلا يسمعوها إلى الملاء الأعلى، فمن تمرد منهم وتقدم لاستراق السمع، جاءه ﴿شِهَابٌ مُبِينٌ﴾ فأتلفه، وربما يكون قد ألقى الكلمة التى سمعها قبل أن يدركه الشهاب إلى الذى هو دونه، فيأخذها الآخر، ويأتى بها إلى وليه، كما جاء مصرحاً به فى الصحيح، كما روى البخارى عن أبى هريرة، يبلغ به النبى ﷺ، قال: «إذا قضى الله الأمر فى السماء، ضربت الملائكة بأجنحتها خضعاناً لقوله كأنه سلسلة على صفوان». قال على، وقال غيره: صفوان يتفذهم ذلك، فإذا فرغ عن قلوبهم قالوا: ماذا قال ربكم؟ قالوا: الذى قال: الحق، وهو العلى الكبير. فيسمعها مسترقو السمع، ومسترقو السمع، هكذا واحد فوق آخر - ووصف سفيان بيده فقترج بين أصابع يده اليمنى، نصبها بعضها فوق بعض - وربما أدرك الشهاب المستمع قبل أن يرمى بها إلى صاحبه فيحرقه، وربما لم يدركه حتى يرمى بها إلى الذى يليه، إلى الذى هو أسفل منه، حتى يلقوها إلى الأرض - وربما قال سفيان: حتى تنتهى إلى الأرض فتلقى على فم الساحر - أو: الكاهن - فيكذب معها مائة كذبة فيصدق، فيقولون: ألم يخبرنا يوم كذا وكذا يكون كذا وكذا، فوجدناه حقاً؟ للكلمة التى سمعت من السماء» (١).

ثم ذكر، تعالى خلقه الأرض، ومدته إياها وتوسيعها وبسطها، وما جعل فيها من الجبال الرواسى، والأودية والأراضى والرمال، وما أنبت فيها من الزروع والثمار المتناسبة. وقال ابن عباس: ﴿ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْزُونٍ ﴾ أى: معلوم. وكذا قال سعيد بن جبیر، وعكرمة، وقتادة وغيرهم. ومنهم من يقول: مقدر بقدر. وقال ابن زيد: من كل شىء يؤزّن ويقدر بقدر.

وقوله: ﴿ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ ﴾: يذكر تعالى أنه صرفهم فى الأرض فى صنوف الأسباب والمعاش، وهى جمع معيشة ﴿ وَمَنْ لَسْتُمْ لَهُمْ بَرَزِقِينَ ﴾: قال مجاهد: وهى الدواب والأنعام. وقال ابن جرير: هم العبيد والإماء والدواب والأنعام. والقصد: أنه تعالى يمتن عليهم بما يسر لهم من أسباب المكاسب ووجوه الأسباب وصنوف المعاش، وبما سخر لهم من الدواب التى يركبونها والأنعام التى يأكلونها، والعبيد والإماء التى يستخدمونها، ورزقهم على خالقهم لا عليهم فلهم هم المنفعة، والرزق على الله تعالى.

﴿ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنزِلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ ﴾ ﴿٢١﴾ وَأَرْسَلْنَا
الرِّيحَ لَوَاقِحَ فَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَسْقَيْنَاكُمُوهُ وَمَا أَنْتُمْ لَهُ بِخَازِنِينَ ﴿٢٢﴾ وَإِنَّا لَنَحْنُ
نَحِيُّهُ وَنُؤَمِّتُهُ وَنَحْنُ الْوَارِثُونَ ﴿٢٣﴾ وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَقْدِمِينَ مِنْكُمْ وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَخْرِينَ
﴿٢٤﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ هُوَ بِحَشْرِهِمْ إِنَّهُ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿٢٥﴾

يخبر تعالى أنه مالك كل شيء، وأن كل شيء سهل عليه، يسير لديه، وأن عنده خزائن الأشياء من جميع الصنوف ﴿ وَمَا نُنزِلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ ﴾، كما يشاء وكما يريد، ولما له في ذلك من الحكمة البالغة، والرحمة بعباده، لا على الوجوب، بل هو كتب على نفسه الرحمة. قال عبد الله [بن مسعود]: ما من عام بأمر من عام، ولكن الله يقسمه حيث شاء، عاماً هاهنا، و عاماً هاهنا. ثم قرأ: ﴿ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنزِلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ ﴾.

وقوله: ﴿ وَأَرْسَلْنَا الرِّيحَ لَوَاقِحَ ﴾ أى: تلقح السحاب فتُدر ماء، وتلقح الشجر فتفتح عن أوراقها وأكمامها. وعن عبد الله بن مسعود فى قوله: ﴿ وَأَرْسَلْنَا الرِّيحَ لَوَاقِحَ ﴾ قال: ترسل الريح، فتحمل الماء من السماء، ثم تمرى السحاب، حتى تدر كما تدر اللقحة. وكذا قال ابن عباس.

وقوله: ﴿ فَأَسْقَيْنَاكُمُوهُ ﴾ أى: أنزلناه لكم عذبا يُمكنكم أن تشربوا منه، ولو نشاء لجعلناه أجاجا كما ينه الله على ذلك فى الآية الأخرى فى سورة «الواقعة»، وهو قوله: ﴿ أَفَرَأَيْتُمُ الْمَاءَ الَّذِي تَشْرَبُونَ. أَأَنْتُمْ أَنْزَلْتُمُوهُ مِنَ الْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ الْمُنزِلُونَ. لَوْ نَشَاءُ جَعَلْنَاهُ أَجَاجًا فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ ﴾ [الواقعة: ٦٨-٧٠]، وفى قوله: ﴿ هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لَكُمْ مِنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ ﴾ [النحل: ١٠].

وقوله: ﴿ وَمَا أَنْتُمْ لَهُ بِخَازِنِينَ ﴾: قال سفيان الثورى: بمنعين. ويحتمل أن المراد: وما أنتم له بحافظين، بل نحن ننزله ونحفظه عليكم، ونجعله معينا وينابيع فى الأرض، ولو شاء تعالى لأغاره وذهب به، ولكن من رحمته أنزله وجعله عذبا، وحفظه فى العيون والآبار والأنهار وغير ذلك، ليبقى لهم فى طول السنة، يشربون ويسقون أنعامهم وزروعهم وثمارهم.

وقوله: ﴿ وَإِنَّا لَنَحْنُ نُحْيِيهِ وَنُؤَمِّتُهُ ﴾: إخبار عن قدرته تعالى على بدء الخلق وإعادته، وأنه هو الذى أحيا الخلق من العدم، ثم يميتهم ثم يعيهم كلهم ليوم الجمع. وأخبر أنه تعالى يرث الأرض ومن عليها وإليه يرجعون.

ثم قال مخبراً عن تمام علمه بهم، أولهم وآخرهم: ﴿ وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَقْدِمِينَ مِنْكُمْ وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَأْخِرِينَ ﴾: قال ابن عباس: المستقدمون: كل من هلك من لدن آدم، عليه السلام، والمستأخرون: من هو حى ومن سيأتى إلى يوم القيامة. وروى نحوه عن عكرمة، ومجاهد، والضحاك، وقتادة، وغيرهم. وهو اختيار ابن جرير.

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَلٍ مِنْ حَمَلٍ مَسْنُونٍ ﴿٢٦﴾ وَالْجَانَّ خَلَقْنَاهُ مِنْ قَبْلُ مِنْ نَارِ السَّمُومِ ﴿٢٧﴾﴾

قال ابن عباس، ومجاهد، وقتادة: المراد بالصلصال هاهنا: التراب اليابس. والظاهر أنه كقوله تعالى: ﴿خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَالٍ كَالْفَخَّارِ . وَخَلَقَ الْجَانَّ مِنْ مَارِجٍ مِنْ نَارٍ﴾ [الرحمن: ١٤، ١٥]. وعن مجاهد أيضاً: الصلصال: المنتن. وتفسير الآية بالآية أولى.

وقوله: ﴿مِنْ حَمَلٍ مَسْنُونٍ﴾ أى: الصلصال من حمأ، وهو: الطين. والمسنون: الأملس، ولهذا روى عن ابن عباس: أنه قال: هو التراب الرطب. وعن ابن عباس، ومجاهد، أيضاً: أن الحمأ المسنون هو المنتن. وقيل: المراد بالمسنون هاهنا: المصبوب.

وقوله: ﴿وَالْجَانَّ خَلَقْنَاهُ مِنْ قَبْلُ﴾ أى: من قبل الإنسان ﴿مِنْ نَارِ السَّمُومِ﴾: هى السموم التى تقتل، وعن ابن عباس: أن الجان خلق من لهب النار، وفى رواية: من أحسن النار. وقد ورد فى الصحيح: «خُلِقَتِ الْمَلَائِكَةُ مِنْ نُورٍ، وَخُلِقَتِ الْجَانُّ مِنْ مَارِجٍ مِنْ نَارٍ، وَخُلِقَ بَنُو آدَمَ مِمَّا وَصَفَ لَكُمْ»^(١) ومقصود الآية: التنبيه على شرف آدم، عليه السلام، وطيب عنصره، وطهارة مَحْتَدَه.

﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِنْ صَلْصَلٍ مِنْ حَمَلٍ مَسْنُونٍ ﴿٢٨﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُمْ وَنَفَخْتُ فِيهِمْ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُمْ سَاجِدِينَ ﴿٢٩﴾ فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴿٣٠﴾ إِلَّا إِبْلِيسَ ابْنُ أَنْ يَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ ﴿٣١﴾ قَالَ يَتَّبِعُ مَا لَكَ أَلَّا تَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ ﴿٣٢﴾ قَالَ لَمْ أَكُنْ لَأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُ مِنْ صَلْصَلٍ مِنْ حَمَلٍ مَسْنُونٍ ﴿٣٣﴾﴾

يذكر تعالى تنويبه بذكر آدم فى ملائكته قبل خلقه له، وتشريفه إياه بأمره الملائكة بالسجود له. ويذكر تخلف إبليس عدوه عن السجود له من بين سائر الملائكة، حسداً وكفراً، وعناداً واستكباراً، وافتخاراً بالباطل، ولهذا قال: ﴿لَمْ أَكُنْ لَأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُ مِنْ صَلْصَلٍ مِنْ حَمَلٍ مَسْنُونٍ﴾ كقوله: ﴿أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ﴾ [الاعراف: ١٢]، وقوله: ﴿أَرَأَيْتَكَ هَذَا الَّذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ لَنْ أُخْرِتَنِي إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لِأَحْتَكِنَ ذُرِّيَّتَهُ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الإسراء: ٦٢].

﴿قَالَ فَأَخْرِجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ ﴿٣٤﴾ وَإِنَّ عَلَيْكَ اللَّعْنَةَ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ ﴿٣٥﴾ قَالَ رَبِّ فَأَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿٣٦﴾ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ ﴿٣٧﴾ إِلَى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ ﴿٣٨﴾﴾

يذكر تعالى أنه أمر إبليس أمراً كونياً لا يخالف ولا يمانع، بالخروج من المنزلة التى كان فيها من الملائكة الأعلى، وأنه ﴿رَجِيمٌ﴾ أى: مرجوم. وأنه قد اتبعته لعنة لا تزال متصلة به، لائحة له، متواترة عليه إلى يوم القيامة. وإنه لما تحقق الغضب الذى لا مردَّ له، سأل من تمام حسده لآدم

وذريته النظرة إلى يوم القيامة، وهو يوم البعث وأنه أجيب إلى ذلك استدارجاً له وإمهالاً، فلما تحقق النظرة قبحه الله:

﴿ قَالَ رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٤١﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمْ الْمُتَخَلِّصِينَ ﴿٤٢﴾ قَالَ هَذَا صِرَاطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ ﴿٤٣﴾ إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلَّا مَنْ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ ﴿٤٤﴾ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٤٥﴾ لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَابٍ لِكُلِّ بَابٍ مِنْهُمْ جُزْءٌ مَقْسُومٌ ﴿٤٦﴾ ﴾

يقول تعالى مخبراً عن إبليس وعمرده وعتوه أنه قال للرب: ﴿بِمَا أَغْوَيْتَنِي﴾ قال بعضهم: أقسم ياغواء الله له. قلت: ويحتمل أنه بسبب ما أغويتني وأضللتني ﴿لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ﴾ أي: لذرية آدم، عليه السلام ﴿فِي الْأَرْضِ﴾ أي: أحب إليهم المعاصي وأرغبهم فيها، وأؤزهم إليها، وأزعجهم إزعاجاً ﴿وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ﴾ أي: كما أغويتني ونذرت على ذلك ﴿أَجْمَعِينَ . إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمْ الْمُتَخَلِّصِينَ﴾ كما قال: ﴿وَأَرَأَيْتَ هَذَا الَّذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ لَئِن أُخْرِتَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَأُحْتَكِنَ ذُرِّيَّتَهُ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الإسراء: ٦٢].

قال الله تعالى له متهدداً ومتوعداً: ﴿هَذَا صِرَاطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ﴾ أي: مرجعكم كلكم إليّ، فأجازيكم بأعمالكم، إن خيراً فخير، وإن شراً فشر، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ﴾ [الفجر: ١٤]. وقيل: طريق الحق مرجعها إلى الله تعالى، وإليه تنتهي. قاله مجاهد، والحسن، وقاتدة كما قال: ﴿وَعَلَى اللَّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ﴾ [النحل: ٩].

وقوله: ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ﴾ أي: الذين قدرت لهم الهداية، فلا سبيل لك عليهم، ولا وصول لك إليهم ﴿إِلَّا مَنْ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ﴾ استثناء منقطع.
وقوله: ﴿وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ أي: جهنم موعد جميع من اتبع إبليس، كما قال عن القرآن: ﴿وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ مِنَ الْأَحْزَابِ فَالنَّارُ مَوْعِدُهُ﴾ [هود: ١٧].

ثم أخبر أن لجهنم سبعة أبواب: ﴿لِكُلِّ بَابٍ مِنْهُمْ جُزْءٌ مَقْسُومٌ﴾ أي: قد كتب لكل باب منها جزء من أتباع إبليس يدخلونه، لا محيد لهم عنه - أجازنا الله منها - وكل يدخل من باب بحسب عمله، ويستقر في درك بقدر فعله. وقال عكرمة: ﴿سَبْعَةُ أَبْوَابٍ﴾: سبعة أطباق. وقال ابن جريج: أولها جهنم، ثم لظى، ثم الحطمة، ثم سعير، ثم سقر، ثم الجحيم، ثم الهاوية. وروى عن ابن عباس، نحوه. وقال قتادة: وهى والله منازل بأعمالهم.

﴿ إِنَّكَ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴿٤٥﴾ ادْخُلُوهَا بِسَلَامٍ ءَامِينَ ﴿٤٦﴾ وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غَلٍّ إِخْوَانًا عَلَى سُرُرٍ مُنْقَلَبِينَ ﴿٤٧﴾ لَا يَمَسُّهُمْ فِيهَا نَصَبٌ وَمَا هُمْ مِنْهَا بِمُخْرَجِينَ ﴿٤٨﴾ نَبِيٌّ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴿٤٩﴾ وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ ﴿٥٠﴾ ﴾

لما ذكر تعالى حال أهل النار، عطف على ذكر أهل الجنة، وأنهم في جنات وعيون.

وقوله: ﴿ادْخُلُوهَا بِسَلَامٍ﴾ أى: سالمين من الآفات، مسلماً عليكم ﴿آمِنِينَ﴾ من كل خوف وفضع، ولا تخشوا من إخراج، ولا انقطاع، ولا فناء.

وقوله: ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غَلٍّ إِخْوَانًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ﴾: عن أبى امامة قال: لا يدخل مؤمن الجنة حتى ينزع الله ما فى صدورهم من غل، حتى ينزع منه مثل السبع الضارى. وهذا موافق لما فى الصحيح، أن أبا سعيد الخدرى حدثهم: أن رسول الله ﷺ قال: «يَخْلُصُ الْمُؤْمِنُونَ مِنَ النَّارِ، فَيُحْبَسُونَ عَلَىٰ قَنْطَرَةٍ بَيْنَ الْجَنَّةِ وَالنَّارِ، فَيُقْتَصُّ لِبَعْضِهِمْ مِنْ بَعْضِهِمْ، مِظَالِمَ كَانَتْ بَيْنَهُمْ فِي الدُّنْيَا، حَتَّىٰ إِذَا هُدُّبُوا وَنُقُوا، أُذِنَ لَهُمْ فِي دُخُولِ الْجَنَّةِ» (١). وروى ابن جرير عن محمد بن سيرين: استأذن الأشرع على على، رضى الله عنه، وعنده ابن لطلحة، فحبسه ثم أذن له. فلما دخل قال: إني لأراك إنما احتبستنى لهذا؟ قال: أجل. قال: إني لأراه لو كان عندك ابن لعثمان لحبستنى؟ قال: أجل، إني لأرجو أن أكون أنا وعثمان عن قال الله تعالى: ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غَلٍّ [إِخْوَانًا] عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ﴾ (٢). وقال أبو صالح فى قوله: ﴿إِخْوَانًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ﴾، قال: هم عشرة: أبو بكر، وعمر، وعثمان، وعلى، وطلحة، والزبير، وعبد الرحمن بن عوف، وسعد بن أبى وقاص، وسعيد بن زيد، وعبد الله بن مسعود، رضى الله عنهم أجمعين.

وقوله: ﴿مُتَقَابِلِينَ﴾: قال مجاهد: لا ينظر بعضهم فى قفا بعض. روى ابن أبى حاتم عن زيد بن أبى أوفى قال: خرج علينا رسول الله ﷺ، فتلا هذه الآية: ﴿إِخْوَانًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ﴾ فى الله، ينظر بعضهم إلى بعض» (٣). وقوله: ﴿لَا يَمَسُّهُمْ فِيهَا نَصَبٌ﴾ يعنى: المشقة والأذى، كما جاء فى الصحيحين: «إن الله أمرنى أن أبشر خديجة ببيت فى الجنة من قصب، لا صخب فيه ولا نصب» (٤).

وقوله: ﴿وَمَا هُمْ مِنْهَا بِمُخْرَجِينَ﴾، كما قال الله تعالى: ﴿خَالِدِينَ فِيهَا لَا يَتَّوْنَ عَنْهَا حَوْلًا﴾

[الكهف: ١٠٨]

وقوله: ﴿نَبِيٌّ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ. وَأَنْ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ﴾ أى: أخبر يا محمد عبادى أنى ذو رحمة وذو عقاب أليم وهى دالة على مقامى الرجاء والخوف.

﴿وَنَبِّئْتَهُمْ عَنْ صَيْفِ إِبْرَاهِيمَ ٥١﴾ إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلِّمْ عَلَيْنَا إِنَّا مِنَكَ وَحِدُونَ
 ﴿٥٢﴾ قَالُوا لَا تَوْجَلْ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ ﴿٥٣﴾ قَالَ أَبَشْرْتُمُونِي عَلَىٰ أَنْ مَسَّنِيَ الْكِبَرُ
 فِيمَ تَبَشِّرُونَ ﴿٥٤﴾ قَالُوا بَشِّرْنَاكَ بِالْحَقِّ فَلَا تَكُنْ مِنَ الْقَانِطِينَ ﴿٥٥﴾ قَالَ وَمَنْ يَقْنَطُ
 مِنْ رَحْمَةِ رَبِّهِ إِلَّا الضَّالُّونَ ﴿٥٦﴾

(٢) ابن جرير فى التفسير (٢٦/١٤).

(١) البخارى (٦٥٣٥).

(٤) البخارى (٧١/٢٤٣٢).

(٣) البخارى فى التاريخ الكبير (٣٨٦/٣).

يقول تعالى: وأخبرهم يا محمد عن قصة ﴿ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ ﴾ والضيف: يطلق على الواحد والجمع، وكيف ﴿ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَامًا قَالَ إِنَّا مِنْكُمْ وَجَلُونَ ﴾ أى: خائفون. وقد ذكر سبب خوفه منهم لما رأى أيديهم لا تصل إلى ما قربه لهم ضيافة، وهو العجل السمين الخنيز. ﴿ قَالُوا لَا تَوَجَّلْ ﴾ أى: لا تخف ﴿ وبشروه بغلام عليم ﴾ [الذاريات: ٢٨] وهو إسحاق، عليه السلام، كما تقدم فى سورة هود. ثم قال متعجباً من كبره وكبر زوجته ومتحققاً للوعد: ﴿ أَبَشْرْتُمُونِي عَلَىٰ أَنْ مَسَّنِيَ الْكِبْرُ فِيمَ تَبَشِّرُونَ ﴾ فأجابوه مؤكدين لما بشروه به تحقيقاً وبشارة بعد بشارة ﴿ قَالُوا بَشْرْنَاكَ بِالْحَقِّ فَلَا تَكُن مِّنَ الْفَاطِنِينَ ﴾ فأجابهم بأنه ليس يقنط، ولكن يرجو من الله الولد، وإن كان قد كبر وأسنّت امرأته، فإنه يعلم من قدرة الله ورحمته ما هو أبلغ من ذلك.

﴿ قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ ﴾ ﴿٥٧﴾ قَالُوا إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ ﴿٥٨﴾ إِلَّا ءَالَ لُوطٍ إِنَّا لَمَنْجُوهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥٩﴾ إِلَّا أَمْرَاتَهُ فَدَرْنَا إِنَّا لَمِنَ الْغَابِرِينَ ﴿٦٠﴾

يقول تعالى إخباراً عن إبراهيم، عليه السلام، لما ذهب عنه الروح وجاءته البشرى: إنه شرع يسألهم عما جاؤوا له، فقالوا: ﴿ إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ ﴾ يعنون: قوم لوط. وأخبروه أنهم سينجون آل لوط من بينهم إلا امرأته فإنها من المهلكين؛ ولهذا قالوا: ﴿ إِلَّا أَمْرَاتَهُ فَدَرْنَا إِنَّا لَمِنَ الْغَابِرِينَ ﴾ أى: الباقين المهلكين.

﴿ فَلَمَّا جَاءَ ءَالَ لُوطٍ الْمُرْسَلُونَ ﴾ ﴿٦١﴾ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ مُّنْكَرُونَ ﴿٦٢﴾ قَالُوا بَلْ جِنَّتَكَ بِمَا كَانُوا فِيهِ يَمْتَرُونَ ﴿٦٣﴾ وَأَتَيْنَاكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ ﴿٦٤﴾

يخبر تعالى عن لوط لما جاءته الملائكة فى صورة شباب حسان الوجوه، فدخلوا عليه داره، قال: ﴿ إِنَّكُمْ قَوْمٌ مُّنْكَرُونَ. قَالُوا بَلْ جِنَّتَكَ بِمَا كَانُوا فِيهِ يَمْتَرُونَ ﴾ يعنون: بعدابهم وهلاكهم ودمارهم الذى كانوا يشكون فى وقوعه بهم، وحلوله بساحتهم ﴿ وَأَتَيْنَاكَ بِالْحَقِّ ﴾ كما قال تعالى: ﴿ مَا نَنْزِلُ الْمَلَائِكَةَ إِلَّا بِالْحَقِّ ﴾ [الحجر: ٨]. وقوله: ﴿ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ ﴾ تأكيد لخبرهم إياه بما أخبروه به، من نجاته وإهلاك قومه.

﴿ فَاسْرِبْ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ اللَّيْلِ وَاتَّبِعْ أَدْبَارَهُمْ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنْكُمْ أَحَدٌ وَامْضُوا حَيْثُ تُؤْمَرُونَ ﴾ ﴿٦٥﴾ وَقَضَيْنَا إِلَيْهِ ذَلِكَ الْأَمْرَ أَنَّ دَابِرَ هَتُولَاءِ مَقْطُوعٌ مُّصْحِحِينَ ﴿٦٦﴾

يذكر تعالى عن الملائكة أنهم أمروه أن يسرى بأهله بعد مضى جانب من الليل، وأن يكون لوط، عليه السلام، يمشى وراءهم، ليكون أحفظ لهم. وهكذا كان رسول الله ﷺ يمشى فى الغزو، وإنما يكون ساقه، يزجى الضعيف، ويحمل المنقطع.

وقوله: ﴿ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنْكُمْ أَحَدٌ ﴾ أى: إذا سمعتم الصيحة بالقوم فلا تلتفتوا إليهم، وذروهم

فيما حل بهم من العذاب والنكال ﴿ وَأَمْضُوا حَيْثُ تُؤْمَرُونَ ﴾ كأنه كان معهم من يهديهم السبيل ، ﴿ وَقَضَيْنَا إِلَيْهِ ذَلِكَ الْأَمْرَ ﴾ أى : تقدمنا إليه فى هذا ﴿ أَنْ دَابِرَ هَؤُلَاءِ مَقْطُوعٌ مُصْبِحِينَ ﴾ أى : وقت الصباح ، كما قال فى الآية الأخرى : ﴿ إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ ﴾ [هود : ٨١] .

﴿ وَجَاءَ أَهْلَ الْمَدِينَةِ يَسْتَبْشِرُونَ ﴾ ﴿ ١٧ ﴾ قَالَ إِنَّ هَؤُلَاءِ ضَيْفِي فَلَا تَفْضَحُونِ ﴿ ١٨ ﴾
 ﴿ وَأَنْقَرُوا اللَّهَ وَلَا تُخْزَوْنَ ﴾ ﴿ ١٩ ﴾ قَالُوا أَوْلَمْ نُنْهَكْ عَنِ الْعَالَمِينَ ﴿ ٢٠ ﴾ قَالَ هَؤُلَاءِ بَنَاتِي إِنْ
 كُنْتُمْ فَعَلِينَ ﴿ ٢١ ﴾ لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿ ٢٢ ﴾

يخبر تعالى عن مجيء قوم لوط لما علموا بأضيافه وصباحة وجوههم ، وأنهم جاؤوا مستبشرين بهم فرحين ، ﴿ قَالَ إِنَّ هَؤُلَاءِ ضَيْفِي فَلَا تَفْضَحُونِ . وَأَنْقَرُوا اللَّهَ وَلَا تُخْزَوْنَ ﴾ . وهذا إنما قاله لهم قبل أن يعلم بأنهم رسل الله كما فى سياق سورة هود ، وأما هاهنا فتقدم ذكر أنهم رسل الله ، وعطف بذكر مجيء قومه ومحاботه لهم . ولكن الواو لا تقتضى الترتيب ، ولا سيما إذا دل دليل على خلافه ، فقالوا له مجيبين : ﴿ أَوْلَمْ نُنْهَكْ عَنِ الْعَالَمِينَ ﴾ أى : أو ما نهيناك أن تضيف أحدا؟ فأرشدهم إلى نساتهم ، وما خلق لهم ربهم منهن من الفروج المباحة . وقد تقدم أيضا القول فى ذلك ، بما أعنى عن إعادته .

هذا كله وهم غافلون عما يراد بهم ، وما قد أحاط بهم من البلاء ، وماذا يُصبحهم من العذاب المستقر ، ولهذا قال تعالى لنبيه ﷺ : ﴿ لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴾ ، أقسم تعالى بحياة نبيه ﷺ وفى هذا تشريف عظيم ، ومقام رفيع وجاه عريض . قال ابن عباس ، أنه قال : ما خلق الله وما ذرا وما برا نفسا أكرم عليه من محمد ﷺ ، وما سمعت الله أقسم بحياة أحد غيره ، قال الله تعالى : ﴿ لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴾ يقول : وحياتك وعمرك وبقائك فى الدنيا إنهم لفى سكرتهم يعمهون . وقال قتادة : ﴿ فِي سَكْرَتِهِمْ ﴾ أى : فى ضلالتهم ﴿ يَعْمَهُونَ ﴾ أى : يلعبون . وقال ابن عباس : ﴿ لَعَمْرُكَ ﴾ : لعيشك ﴿ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴾ قال : يتمادون .

﴿ فَأَخَذْتَهُمُ الصَّيْحَةُ مُشْرِقِينَ ﴾ ﴿ ٢٣ ﴾ فَجَعَلْنَا عَلَيْهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِنْ
 سِجِّيلٍ ﴿ ٢٤ ﴾ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِلْمُتَوَسِّمِينَ ﴿ ٢٥ ﴾ وَإِنَّهَا لَيْسَبِيلٌ مُقِيمٌ ﴿ ٢٦ ﴾ إِنَّ فِي ذَلِكَ
 لَآيَةً لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿ ٢٧ ﴾

يقول تعالى : ﴿ فَأَخَذْتَهُمُ الصَّيْحَةُ ﴾ ، وهى ما جاءهم من الصوت القاصف عند شروق الشمس ، وهو طلوعها ، وذلك مع رفع بلادهم إلى عنان السماء ثم قلبها ، وجعل عاليها سافلها ، وإرسال حجارة السجيل عليهم . وقد تقدم الكلام على السجيل فى سورة هود بما فيه كفاية .

وقوله : ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِلْمُتَوَسِّمِينَ ﴾ أى : إن آثار هذه التقم ظاهرة على تلك البلاد لمن

تأمل ذلك وتوسمه بعين بصره وبصيرته، كما قال مجاهد في قوله: ﴿لِلْمُتَوَسِّمِينَ﴾ قال: المتفرسين. وعن ابن عباس: للناظرين. وقال قتادة: للمعتبرين .

وقوله: ﴿وَأَنَّهَا لَبَسِيلٌ مُّقِيمٌ﴾ أى: وإن قرية سدوم التى أصابها ما أصابها من القلب الصورى والمعنوى، والقذف بالحجارة، حتى صارت بحيرة منتنة خبيثة لطريق مهيج مسالكة، مستمرة إلى اليوم، كما قال تعالى: ﴿وَإِنكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِمْ مُّصْبِحِينَ . وَبِاللَّيْلِ أَفْلا تَعْقِلُونَ﴾ [الصفات: ١٣٧، ١٣٨].

وقال مجاهد والضحاك: ﴿وَأَنَّهَا لَبَسِيلٌ مُّقِيمٌ﴾ قال: معلّم. وقال قتادة: بطريق واضح. وقال قتادة أيضاً: بصقع من الأرض واحد.

وقوله: ﴿إِن فِي ذَلِكَ لآيَةً لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ أى: إن الذى صنعنا بقوم لوط من الهلاك والدمار وإنجائنا لوطا وأهله، لدلالة واضحة جلية للمؤمنين بالله ورسله.

﴿ وَإِن كَانَ أَصْحَابُ الْأَيْكَةِ لظَالِمِينَ ﴾ (٧٨) ﴿ فَانقَمْنَا مِنْهُمْ وَإِنَّهُمَا لَبِإِمَامٍ مُّبِينٍ ﴾ (٧٩)

أصحاب الأيكة: هم قوم شعيب. قال الضحاك، وقاتة، وغيرهما: الأيكة: الشجر الملتف. وكان ظلمهم بشركهم بالله وقطعهم الطريق، ونقصهم المكيال والميزان. فانقم الله منهم بالصيحة والرجفة وعذاب يوم الظلة، وقد كانوا قريباً من قوم لوط، بعدّهم فى الزمان، ومسامتين لهم فى المكان؛ ولهذا قال تعالى: ﴿وَإِنَّهُمَا لَبِإِمَامٍ مُّبِينٍ﴾ أى: طريق مبين. قال ابن عباس، ومجاهد، والضحاك: طريق ظاهر؛ ولهذا لما أنذر شعيب قومه قال فى نذارته إياهم: ﴿وَمَا قَوْمٌ لُوطٍ مِنْكُمْ بِبَعِيدٍ﴾ [هود: ٨٩].

﴿ وَلَقَدْ كَذَّبَ أَصْحَابُ الْمَجْرِ الْمُرْسَلِينَ ﴾ (٨٠) ﴿ وَءَايَاتُنَّهُمْ ءآيَاتُنَا فَكَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ ﴾ (٨١) ﴿ وَكَانُوا يَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا ءَامِنِينَ ﴾ (٨٢) ﴿ فَأَخَذْتُمُ الصَّيْحَةَ مُصْبِحِينَ ﴾ (٨٣) ﴿ فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾ (٨٤)

أصحاب الحجر هم: ثمود الذين كذبوا صالحا نبياهم، ومن كذب برسول فقد كذب بجميع المرسلين؛ ولهذا أطلق عليهم تكذيب المرسلين.

وذكر تعالى أنه أتاهم من الآيات ما يدلهم على صدق ما جاءهم به صالح، كالناقة التى أخرجها الله لهم بدعاء صالح من صخرة صماء فكانت تسرح فى بلادهم، لها شرب ولهم شرب يوم معلوم. فلما عتوا وعقروها قال لهم: ﴿تَمَتَّعُوا فِي دَارِكُمْ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ ذَلِكَ وَعَدَّ غَيْرُ مَكْدُوبٍ﴾ [هود: ٦٥]، وقال تعالى: ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُوا الْعَمَىٰ عَلَى الْهُدَىٰ﴾ [فصلت: ١٧].

وذكر تعالى: أنهم ﴿كَانُوا يَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا ءَامِنِينَ﴾ أى: من غير خوف ولا احتياج إليها، بل أشرا وبطرا وعبثا، كما هو المشاهد من صنيعهم فى بيوتهم بوادى الحجر، الذى مر

به رسول الله ﷺ وهو ذاهب إلى تيوك فَنَقَعَ رأسه وأسرع دابته، وقال لأصحابه: «لا تدخلوا بيوت القوم المعذنين إلا أن تكونوا باكين، فإن لم تبكوا فتباكوا خشية أن يصيبكم ما أصابهم»^(١).

وقوله: ﴿ فَأَخَذْتَهُمُ الصَّيْحَةَ مُصْبِحِينَ ﴾ أى: وقت الصباح من اليوم الرابع ﴿ فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾ أى: ما كانوا يستغلونه من زروعهم وثمارهم التي ضنوا بمائها عن الناقة، حتى عقروها لثلا تضيق عليهم فى المياه، فما دفعت عنهم تلك الأموال، ولا نفعتهم لما جاء أمر ربك.

﴿ وَمَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَإِنَّ السَّاعَةَ لَإِنَّيَةٌ فَاصْفَحِ الصَّفْحَ الْجَمِيلَ ﴿٨٥﴾ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ ﴿٨٦﴾ ﴾

يقول تعالى: ﴿ وَمَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ ﴾ أى: بالعدل ﴿ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسَاءُوا بِمَا عَمِلُوا وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى ﴾ [النجم: ٣١]، وقال تعالى: ﴿ وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بِإِطْلَاقٍ ذَلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ ﴾ [ص: ٢٧]، وقال: ﴿ أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ . فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ ﴾ [المؤمنون: ١١٥، ١١٦].

ثم أخبر نبيه بقيام الساعة، وإنها كائنة لا محالة، ثم أمره بالصفح الجميل عن المشركين، فى أذاهم له وتكذيبهم ما جاءهم به، كما قال تعالى: ﴿ فَاصْفَحْ عَنْهُمْ وَقُلْ سَلَامٌ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴾ [الزخرف: ٨٩]. وقال مجاهد وقتادة وغيرهما: كان هذا قبل القتال. وهو كما قالا، فإن هذه مكية، والقتال إنما شرع بعد الهجرة.

وقوله: ﴿ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ ﴾: تقرير للمعاد، وأنه تعالى قادر على إقامة الساعة، فإنه الخلاق الذى لا يعجزه خلق ما يشاء، وهو العليم بما تمزق من الأجساد، وتفرق فى سائر أقطار الأرض، كما قال تعالى: ﴿ أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ بَلَىٰ وَهُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ . إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ . فَسُبْحَانَ الَّذِي بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ [يس: ٨١-٨٣].

﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعًا مِنَ الْمَثَانِ وَالْقُرْءَانَ الْعَظِيمَ ﴿٨٧﴾ لَا تَمَدَّنْ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَأخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٨﴾ ﴾

يقول تعالى لنبيه: كما آتيناك القرآن العظيم، فلا تنظرن إلى الدنيا وزينتها، وما متعنا به أهلها من الزهرة الفانية لنفتنهم فيه، فلا تغبطهم بما هم فيه، ولا تذهب نفسك عليهم حسرات حزنا عليهم فى تكذيبهم لك، ومخالفتهم دينك ﴿ وَأخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ [الشعراء: ٢١٥] أى: ألن لهم جانبك، كما قال تعالى: ﴿ لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا

عَنْهُمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ ﴿١٢٨﴾. [التوبة: ١٢٨]. وقد اختلف في السبع المثاني: ما هي؟ فقال ابن مسعود وابن عمر وغير واحد: هي السبع الطُول. يعنون: البقرة، وآل عمران، والنساء، والمائدة، والأنعام، والأعراف، ويونس. وقال مجاهد: هي السبع الطُول. ويقال: هي القرآن العظيم. والقول الثاني: أنها الفاتحة، وهي سبع آيات. روى ذلك عن عمر وعلى وابن عباس. قال ابن عباس: وبالسلمة هي الآية السابعة، وقد خصكم الله بها. وقال قتادة: ذكر لنا أنهم فاتحة الكتاب، وأنهم يثنيون في كل قراءة. وفي رواية: في كل ركعة مكتوبة أو تطوع. واختاره ابن جرير، واحتج بالأحاديث الواردة في ذلك، وقد قدمناها في فضائل سورة «الفاتحة» في أول التفسير، والله الحمد. وقد أورد البخارى هاهنا حديثين:

أحدهما: عن أبي سعيد بن المعلى قال: مر بي النبي ﷺ وأنا أصلى، فدعاني فلم آته حتى صليت، ثم أتيته فقال: «ما منعك أن تأتيني؟». فقلت: كنت أصلى. فقال: «ألم يقل الله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ﴾ [الأنفال: ٢٤]، ألا أعلمك أعظم سورة في القرآن قبل أن أخرج من المسجد؟» فذهب النبي ﷺ ليخرج، فذكرته فقال: «﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الفاتحة: ٢]، هي السبع المثاني والقرآن العظيم الذي أوتيته» (١).

والثاني: عن أبي هريرة، رضى الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «أم القرآن هي: السبع المثاني والقرآن العظيم» (٢). فهذا نص في أن الفاتحة السبع المثاني والقرآن العظيم، ولكن لا ينافي وصف غيرها من السبع الطُول بذلك، لما فيها من هذه الصفة، كما لا ينافي وصف القرآن بكماله بذلك أيضاً، كما قال تعالى: ﴿اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا مَثَانِي﴾ [الزمر: ٢٣]، فهو مثاني من وجه، ومتشابه من وجه، وهو القرآن العظيم أيضاً، كما أنه، عليه السلام، لما سُئِلَ عن المسجد الذي أسس على التقوى، فأشار إلى مسجده، والآية نزلت في مسجد قُباء، فلا تنافي، فإن ذكر الشيء لا ينفي ذكر ما عداه إذا اشتركا في تلك الصفة، والله أعلم.

وقوله: ﴿لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ﴾ أي: استغن بما آتاك الله من القرآن العظيم عما هم فيه من المتاع. والزهرة الفانية. عن ابن عباس: ﴿لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَكَ﴾ قال: نهى الرجل أن يتمنى مال صاحبه، وقال مجاهد: ﴿إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ﴾: هم الأغنياء.

﴿وَقُلْ إِنِّي أَنَا النَّذِيرُ الْمُبِينُ﴾ (٨٩) ﴿كَمَا أَنْزَلْنَا عَلَى الْمُقْتَسِمِينَ﴾ (٩٠) ﴿الَّذِينَ جَعَلُوا الْقُرْآنَ عِضِينَ﴾ (٩١) ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسَلْنَهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ (٩٢) ﴿عَمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ (٩٣) ﴿﴾

يأمر تعالى نبيه ﷺ أن يقول للناس: ﴿إِنِّي أَنَا النَّذِيرُ الْمُبِينُ﴾ بين النذارة، نذير للناس من عذاب أليم أن يحل بهم على تكذيبه كما حل بمن تقدمهم من الأمم المكذبة لرسولها، وما أنزل الله عليهم من العذاب والانتقام. وقوله: ﴿الْمُقْتَسِمِينَ﴾ أي: المتحالقين، أي: تحالفوا

على مخالفة الأنبياء وتكذيبهم وأذاهم، كما قال تعالى إخباراً عن قوم صالح أنهم: ﴿ قَالُوا تَقَاسَمُوا بِاللَّهِ لَنُبَيِّتَهُ وَأَهْلَهُ ﴾ [النمل: ٤٩]، أى: نقتلهم ليلاً، قال مجاهد: تقاسموا: تحالفوا، ﴿ وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَا يَبْعَثُ اللَّهُ مِنْ بَعْدِ مَنْ يَمُوتُ ﴾ [النحل: ٣٨]، ﴿ أَوْ لَمْ تَكُونُوا أَقْسَمْتُمْ مِنْ قَبْلِ مَا لَكُمْ مِنْ زَوَالٍ ﴾ [إبراهيم: ٤٤]، ﴿ أَهْوَاءِ الَّذِينَ أَقْسَمْتُمْ لَا يَنَالُهُمُ اللَّهُ بِرَحْمَةٍ ﴾ [الاعراف: ٤٩]، فكانهم كانوا لا يكذبون بشيء إلا أقسموا عليه، فسموا مقتسمين.

وقوله: ﴿ الَّذِينَ جَعَلُوا الْقُرْآنَ عِضِينَ ﴾ أى: جَزَّؤُوا كتبهم المنزلة عليهم، فآمنوا ببعض وكفروا ببعض روى البخارى عن ابن عباس: ﴿ جَعَلُوا الْقُرْآنَ عِضِينَ ﴾ قال: هم أهل الكتاب، جَزَّؤوه أجزاء، فآمنوا ببعضه، وكفروا ببعضه (١). وروى عن ابن عباس أيضاً: ﴿ كَمَا أَنْزَلْنَا عَلَى الْمُقْتَسِمِينَ ﴾ قال: آمنوا ببعض، وكفروا ببعض: اليهود والنصارى (٢). وقال ابن عمر فى قوله: ﴿ نَسَأَلْتَهُمْ أَجْمَعِينَ. عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ قال: عن لا إله إلا الله. وقال مجاهد. وقال أبو العالية: قال: يسأل العباد كلهم عن خلتين يوم القيامة، عما كانوا يعبدون، وماذا أجابوا المرسلين. وقال ابن عيينة: عن عمك، وعن مالك. وقال ابن عباس: ﴿ فَوَرَبِّكَ لَنَسَأَلْتَهُمْ أَجْمَعِينَ. عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾، ثم قال: ﴿ فَيَوْمَئِذٍ لَا يُسْأَلُ عَنْ ذَنْبِهِ إِنْسٌ وَلَا جَانٌ ﴾ [الرحمن: ٣٩] قال: لا يسألهم: هل عملتم كذا؟ لأنه أعلم بذلك منهم، ولكن يقول: لم عملتم كذا وكذا؟

﴿ فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ ﴿٩٤﴾ إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ ﴿٩٥﴾ الَّذِينَ يَجْعَلُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٩٦﴾ وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ ﴿٩٧﴾ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ ﴿٩٨﴾ وَأَعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ ﴿٩٩﴾ ﴿﴾

يقول تعالى أمراً رسوله ﷺ بإبلاغ ما بعثه به وإنفاذه والصدع به، وهو مواجهة المشركين به، كما قال ابن عباس: ﴿ فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ ﴾ أى: أمضه. وفى رواية: افعل ما تؤمر. وقال مجاهد: هو الجهر بالقرآن فى الصلاة. وقال عبد الله بن مسعود: ما زال النبى ﷺ مستخفياً، حتى نزلت: ﴿ فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ ﴾، فخرج هو وأصحابه.

وقوله: ﴿ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ. إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ ﴾ أى: بلغ ما أنزل إليك من ربك، ولا تلتفت إلى المشركين الذين يريدون أن يصدوك عن آيات الله ﴿ وَدُّوا لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ ﴾ [القلم: ٩]، ولا تخفهم؛ فإن الله كافيك إياهم، وحافظك منهم، كما قال تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ ﴾ [المائدة: ٦٧]. وقوله: ﴿ الَّذِينَ يَجْعَلُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴾: تهديد شديد، ووعيد أكيد، لمن جعل مع الله معبوداً آخر.

وقوله: ﴿ وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ. فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ ﴾ أى: وإنا

لنعلم يا محمد أنك يحصل لك من أذاهم لك انقباض وضيق صدر فلا يهيدنك ذلك، ولا يشينك عن إبلاغك رسالة الله، وتوكل على الله فإنه كافيك وناصرك عليهم، فاشتغل بذكر الله وتحميده وتسيبحة وعبادته التى هى الصلاة؛ ولهذا قال: ﴿وَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ﴾ ولهذا كان رسول الله ﷺ إذا حزبه أمر صلى.

وقوله: ﴿وَأَعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ﴾: قال سالم بن عبد الله بن عمر: الموت، والدليل على ذلك قوله تعالى إخباراً عن أهل النار أنهم قالوا: ﴿وَكُنَّا نَكْذِبُ بِيَوْمِ الدِّينِ حَتَّى أَتَانَا الْيَقِينُ﴾ [المذثر: ٤٦-٤٧]. وفى الصحيح عن أم العلاء أن رسول الله ﷺ لما دخل على عثمان بن مظعون - وقد مات - قلت: رحمة الله عليك أبا السائب، فشهادتى عليك لقد أكرمك الله. فقال رسول الله ﷺ: «وما يدريك أن الله أكرمه؟» فقلت: بأبى وأمى يا رسول الله، فمن؟ فقال: «أما هو فقد جاءه اليقين، وإنى لأرجو له الخير»^(١).

ويستدل من هذه الآية الكريمة - وهى قوله: ﴿وَأَعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ﴾ - على أن العبادة كالصلاة ونحوها واجبة على الإنسان ما دام عقله ثابتاً فيصلى بحسب حاله، كما ثبت فى صحيح البخارى، عن عمران بن حصين، رضى الله عنهما، أن رسول الله ﷺ قال: «صَلِّ قائماً، فإن لم تستطع فقاعداً، فإن لم تستطع فعلى جنب»^(٢).

ويستدل بها على تخطئة من ذهب من الملاحدة إلى أن المراد باليقين المعرفة، فمتى وصل أحدهم إلى المعرفة سقط عنه التكليف عندهم. وهذا كفر وضلال وجهل، فإن الأنبياء، عليهم السلام، كانوا هم وأصحابهم أعلم الناس بالله وأعرفهم بحقوقه وصفاته، وما يستحق من التعظيم، وكانوا مع هذا أعبد الناس وأكثر الناس عبادة ومواظبة على فعل الخيرات إلى حين الوفاة. وإنما المراد باليقين هاهنا الموت، كما قدمناه. والله الحمد والمنة، والحمد لله على الهداية، وعليه الاستعانة والتوكل، وهو المسؤول أن يتوفانا على أكمل الأحوال وأحسنها .

تفسير سورة النحل

وهي مكة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ آتَىٰ أَمْرُ اللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾

يخبر تعالى عن اقتراب الساعة ودنوها معبراً بصيغة الماضي الدال على التحقيق والوقوع لا محالة كقوله: ﴿اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ﴾ [الانبيا: ١] ، وقال: ﴿اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانشَقَّ الْقَمَرُ﴾ [القمر: ١] .

وقوله: ﴿فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ﴾ أى: قرب ما تباعد فلا تستعجلوه. يحتمل أن يعود الضمير على الله، ويحتمل أن يعود على العذاب، وكلاهما متلازم، كما قال تعالى: ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَوْلَا أَجَلٌ مُّسَمًّى لَجَاءَهُمُ الْعَذَابُ وَلِيَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ. يَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ﴾ [العنكبوت: ٥٣، ٥٤]. وروى ابن أبي حاتم عن عقبه بن عامر قال: قال رسول الله ﷺ «تطلع عليكم عند الساعة سحابة سوداء من المغرب مثل الترس، فما تزال ترتفع فى السماء، ثم ينادى مناد فيها: يا أيها الناس. فيقبل الناس بعضهم على بعض: هل سمعتم؟ فمنهم من يقول: نعم. ومنهم من يشك. ثم ينادى الثانية: يا أيها الناس. فيقول الناس بعضهم لبعض: هل سمعتم؟ فيقولون: نعم. ثم ينادى الثالثة: يا أيها الناس، أتى أمر الله فلا تستعجلوه. قال رسول الله ﷺ: «فوالذى نفسى بيده، إن الرجلين لينشران الثوب فما يطويانه أبداً ، وإن الرجل ليمدّن حوضه فما يسقى فيه شيئاً أبداً، وإن الرجل ليحلب ناقته فما يشربه أبداً - قال - ويستغل الناس» (١).

ثم إنه تعالى نزه نفسه عن شركهم به غيره، وعبادتهم معه ما سواه من الأوثان والأنداد، تعالى وتقدس علواً كبيراً، وهؤلاء هم المكذبون بالساعة، قال: ﴿سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ .

﴿ يُزِيلُ الْمَلٰٓئِكَةُ بِالرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ عَلَىٰ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ أَنْ أَنْذِرُوا أَنَّهُ لَا إِلٰهَ إِلَّا أَنَا فَاتَّقُونِ ﴾

يقول تعالى: ﴿يُزِيلُ الْمَلٰٓئِكَةُ بِالرُّوحِ﴾ أى: الوحي كقوله: ﴿وَكَذٰلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَكِن جَعَلْنَاهُ نُورًا نَّهْدِي بِهِ مَن نَّشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا﴾ [الشورى: ٥٢].

وقوله: ﴿عَلَىٰ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ﴾ وهم الأنبياء ، كما قال تعالى: ﴿اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ

(١) رواه الحاكم فى المستدرک (٤/٥٣٩) بنحوه ، وقال : « صحیح الإسناد على شرط مسلم ولم يخرجاه » .

رَسَّالَتَهُ ﴿الأنعام: ١٢٤﴾ ، وقال: ﴿اللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ النَّاسِ﴾ [الحج: ٧٥] ، وقال: ﴿يَلْقَى الرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِ عَلَىٰ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ لِيُنذِرَ يَوْمَ التَّلَاقِ . يَوْمَ هُمْ بَارِزُونَ لَا يَخْفَىٰ عَلَى اللَّهِ مِنْهُمْ شَيْءٌ لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ﴾ [غافر: ١٥، ١٦] .

وقوله: ﴿أَنْ أُنذِرُوا﴾ أى: لينذروا ﴿أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاتَّقُونِ﴾ أى: فاتقوا عقوبتى لمن خالف امرى وعبد غيرى .

﴿ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ تَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ ﴿١﴾ خَلَقَ
الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ حَصِيمٌ مَبِينٌ ﴿٢﴾

يخبر تعالى عن خلقه العالم العلوى وهو السموات، والعالم السفلى وهو الأرض بما حوت، وأن ذلك مخلوق بالحق لا للعبث، بل ﴿لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسَاءُوا بِمَا عَمِلُوا وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى﴾ [النجم: ٣١] .

ثم نزه نفسه عن شرك من عبد معه غيره ، وهو المستقل بالخلق وحده لا شريك له، فلهذا يستحق أن يعبد وحده لا شريك له. ثم نبه على خلق جنس الإنسان ﴿مِنْ نُطْفَةٍ﴾ أى: ضعيفة مهينة، فلما استقل ودرج إذا هو يخاصم ربه تعالى ويكذبه، ويحارب رسله، وهو إنما خلق ليكون عبداً لا ضدّاً، كما قال تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ مِنَ الْمَاءِ بَشَرًا فَجَعَلَهُ نَسَبًا وَصِهْرًا وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيرًا . وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَفْعَلُهُمْ وَلَا يَضُرُّهُمْ وَكَانَ الْكَافِرُ عَلَىٰ رَبِّهِ ظَهِيرًا﴾ [الفرقان: ٥٤، ٥٥] ، وقال: ﴿أَوَلَمْ يَرِ الْإِنْسَانَ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ حَصِيمٌ مَبِينٌ . وَضَرَبْنَا لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ . قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ﴾ [يس: ٧٧ - ٧٩] . وفى الحديث الذى رواه الإمام أحمد وابن ماجه عن بسر بن جحاش قال: بصق رسول الله فى كفه، ثم قال: «يقول الله: ابن آدم، أنى تعجزنى وقد خلقتك من مثل هذه، حتى إذا سويتك فعدلتك مشيت بين برديك وللأرض منك وئيد، فجمعت ومنعت، حتى إذا بلغت الخلقوم قلت: أتصدق. وأنى أوان الصدقة؟» (١) .

﴿ وَاللَّعْنَةُ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنْفَعٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴾ ﴿١﴾ وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ ﴿٢﴾ وَتَحْمِلُ أَنْفُسَكُمْ إِلَىٰ بُلَدِكُمْ لَتَرَوْا كَثُورًا بَلِيغِيهِ إِلَّا يُشِيقَ الْآنَفِيسَ إِنْ رَبَّكُمْ لَرَوْفٌ رَحِيمٌ ﴿٣﴾

يمتت تعالى على عباده بما خلق لهم من الأنعام، وهى الإبل والبقر والغنم، وبما جعل لهم فيها من المصالح والمنافع، من أصوافها وأوبارها وأشعارها يلبسون ويفترشون، ومن ألبانها يشربون، ويأكلون من أولادها، وما لهم فيها من الجمال وهو الزينة؛ ولهذا قال: ﴿وَلَكُمْ فِيهَا

(١) المسند (٤/ ٢١٠) ، وابن ماجه (٢٧٠٧) وفى الزوائد : «إسناده صحيح» .

جَمَالَ حِينَ تُرِيحُونَ ﴿٨﴾ وهو وقت رجوعها عشياً من المرعى، فإنها تكون أمدّه خواصر، وأعظمه ضروراً، وأعلاه أسنمة، ﴿وَحِينَ تَسْرَحُونَ﴾ أى: غدوة حين تبعثونها إلى المرعى ﴿وَتَحْمِلُ أُنْفَالَكُمْ﴾: وهى الأحمال المثقلة التى تعجزون عن نقلها وحملها ﴿إِلَى بَلَدٍ لَّمْ تَكُونُوا بِالْفِيهِ إِلَّا بِشِقِّ الْأَنْفُسِ﴾ وذلك فى الحج والعمرة والغزو والتجارة، وما جرى مجرى ذلك، تستعملونها فى أنواع الاستعمال، من ركوب وتحميل، كما قال تعالى: ﴿وَإِنْ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةٌ لِّسُقِيكُم مِّمَّا فِي بَطُونِهَا وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ. وَعَلَيْهَا وَعَلَى الْفُلْكِ تُحْمَلُونَ﴾ [المؤمنون: ٢١، ٢٢]، وقال تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ الْأَنْعَامَ لِتَرْكَبُوا مِنْهَا وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ. وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ وَلِتَبَلَّغُوا عَلَيْهَا حَاجَةً فِي صُدُورِكُمْ وَعَلَى الْفُلْكِ تُحْمَلُونَ. وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ فَأَيَّ آيَاتِ اللَّهِ تُنْكِرُونَ﴾ [غافر: ٧٩ - ٨١]؛ ولهذا قال هاهنا بعد تعداد هذه النعم: ﴿إِنْ رَبِّكُمْ لَرُءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ أى: ربكم الذى قيض لكم هذه الأنعام وسخرها لكم، كما قال: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُمْ مِمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا أَنْعَامًا فَهُمْ لَهَا مَالِكُونَ. وَذَلَّلْنَاهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ﴾ [يس: ٧١، ٧٢]، وقال: ﴿وَجَعَلْ لَكُمْ مِنَ الْفُلْكِ وَالْأَنْعَامِ مَا تَرْكَبُونَ. لَنَسْتَرُوا عَلَى ظَهْرِهِ ثُمَّ تَذَكَّرُوا نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا اسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَتَقُولُوا سُبْحَانَ الَّذِي سَخَّرْنَا هَذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مَقْرِنِينَ. وَإِنَّا إِلَى رَبِّنَا لَمُنْقَلِبُونَ﴾ [الزخرف: ١٢ - ١٤].

قال ابن عباس: ﴿لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ﴾ أى: ثياب، والمنافع: ما تنتفعون به من الأظعمة والأشربة. وقال مجاهد: ﴿لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ﴾ قال: لباس ينسج، ومنافع تركب، ولحم ولبن. وقال قتادة: ﴿دِفْءٌ وَمَنَافِعٌ﴾ يقول: لكم فيها لباس، ومنفعة، وبُلغة. وكذا قال غير واحد من المفسرين، بالفاظ متقاربة.

﴿وَالْخَيْلِ وَالْبِغَالِ وَالْحَمِيرِ لَتَرَكَبُوهَا وَزِينَةً وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾

هذا صنف آخر مما خلق تبارك وتعالى لعباده، يمتن به عليهم، وهو: الخيل والبغال والحمير، التى جعلها للركوب والزينة بها، وذلك أكبر المقاصد منها، ولما فصلها من الأنعام وأفردها بالذكر استدلت من العلماء - ممن ذهب إلى تحريم لحوم الخيل - بذلك على ما ذهب إليه فيها، كالإمام أبى حنيفة، رحمه الله، ومن وافقه من الفقهاء؛ لأنه تعالى قرنها بالبغال والحمير، وهى حرام. ولكن لا يقاوم ما ثبت فى الصحيحين، عن جابر بن عبد الله قال: نهى رسول الله ﷺ عن لحوم الحمير الأهلية، وأذن فى لحوم الخيل (١). ورواه أحمد وأبو داود بإسنادين، كل منهما على شرط مسلم، عن جابر قال: ذبحنا يوم خيبر الخيل والبغال والحمير، فنهانا رسول الله ﷺ عن البغال والحمير، ولم ينهنا عن الخيل (٢). وفى صحيح مسلم، عن أسماء بنت أبى بكر، رضى الله عنهما، قالت: نحرنا على عهد رسول الله ﷺ فرسا فأكلناه ونحن بالمدينة (٣). فهذه أدل وأقوى وأثبت، وإلى ذلك صار جمهور العلماء: مالك والشافعى وأحمد وأصحابهم، وأكثر السلف والخلف، والله أعلم.

(١) البخارى (٤٢١٩، ٥٥٢٤)، ومسلم (٣٦/١٩٤١).

(٢) المسند (٣/٣٥٦)، وأبو داود (٣٧٨٩)، وصححه الألبانى.

(٣) مسلم (٣٨/١٩٤٢).

﴿ وَعَلَى اللَّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ وَمِنْهَا جَايِزٌ وَلَوْ شَاءَ لَهَدْنَاكُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ ﴿٩﴾

لما ذكر في هذه السورة الحيوانات من الأنعام وغيرها، التي يركبونها ويبلغون عليها حاجة في صدورهم، وتحمل أثقالهم إلى البلاد والأماكن البعيدة والأسفار الشاقة- شرع في ذكر الطرق التي يسلكها الناس إليه ، فبين أن الحق منها ما هي موصلة إليه ، فقال : ﴿ وَعَلَى اللَّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ ﴾ ، كما قال : ﴿ وَأَنْ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السَّبِيلَ فَتَفْرَقَ بَيْنَكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ﴾ [الأنعام: ١٥٣] . قال مجاهد: في قوله : ﴿ وَعَلَى اللَّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ ﴾ قال: طريق الحق على الله ، وقال السدي : الإسلام. وقول مجاهد أقوى ؛ لأنه تعالى أخبر أن ثم طرقاً تسلك إليه ، فليس يصل إليه منها إلا طريقُ الحق ، وهي الطريق التي شرعها ورضيها وما عداها مسدودة ، والأعمال فيها مردودة ؛ ولهذا قال تعالى : ﴿ وَمِنْهَا جَايِزٌ ﴾ أى : حائد مائل زائغ عن الحق .

ثم أخبر أن ذلك كله كائن عن قدرته ومشيته، فقال : ﴿ وَلَوْ شَاءَ لَهَدْنَاكُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ ، كما قال : ﴿ وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَأَمَنَّ مِنَ فِي الْأَرْضِ كُلَّهُمْ جَمِيعًا ﴾ [يونس: ٩٩] ، وقال : ﴿ وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ . إِلَّا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لِأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴾ [مود: ١١٨ ، ١١٩] .

﴿ هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لَكُمْ مِنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ ﴾ ﴿١٠﴾

يُنْبِتُ لَكُمْ بِهِ الزَّرْعَ وَالزَّيْتُونَ وَالنَّخِيلَ وَالْأَعْنَابَ وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١١﴾

لما ذكر سبحانه ما أنعم به عليهم من الأنعام والدواب ، شرع في ذكر نعمته عليهم في أنزال المطر من السماء ، مما لهم فيه بُلغَةٌ ومتاع لهم ولأنعامهم ، فقال : ﴿ لَكُمْ مِنْهُ شَرَابٌ ﴾ أى : جعله عذبا زلالا ، يسوغ لكم شرابه ، ولم يجعله ملحا أجابا ﴿ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ ﴾ أى : وأخرج لكم به شجراً ترعون فيه أنعامكم . ومنه الإبل السائمة ، والسوم : الرعى . وقوله : ﴿ يُنْبِتُ لَكُمْ بِهِ الزَّرْعَ وَالزَّيْتُونَ وَالنَّخِيلَ وَالْأَعْنَابَ وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ ﴾ أى : يخرجها من الأرض بهذا الماء الواحد ، على اختلاف صنوفها وطعومها وألوانها وروائحها وأشكالها؛ ولهذا قال : ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ أى : دلالة وحجة على أنه لا إله إلا الله . ثم قال تعالى :

﴿ وَسَخَّرَ لَكُمْ الَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِ رَبِّهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ ﴿١٢﴾

وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُخْتَلِفًا أَلْوَنًا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١٣﴾

يبه تعالى عباده على آياته العظام ، ومنته الجسم ، في تسخيره الليل والنهار يتعاقبان ، والشمس والقمر يدوران ، والنجوم الثوابت والسيارات في أرجاء السموات نورا وضياء للمهتدين بها في الظلمات ، وكل منها يسير في فلكه الذي جعله الله تعالى فيه ، يسير بحركة مقدرة ، لا يزيد

عليها ولا ينقص منها ، والجميع تحت قهره وسلطانه وتسخيره وتقديره وتسييره ، كما قال : ﴿ إِنَّ رَبَّكُمْ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَيْثُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِهِ أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴾ [الاعراف: ٥٤]؛ ولهذا قال : ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ أى: لدلالات على قدرته الباهرة وسلطانه العظيم، لقوم يعقلون عن الله ويفهمون حججه .

وقوله : ﴿ وَمَا ذَرَأْنَا لَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ ﴾ : لما نبه سبحانه على معالم السموات ، نبه على ما خلق فى الأرض من الأمور العجيبة والأشياء المختلفة ، من الحيوانات والمعادن والنباتات على اختلاف ألوانها وأشكالها، وما فيها من المنافع والخواص ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ ﴾ أى: آلاء الله ونعمه فيشكرونها .

﴿ وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفَلَكَ مَوَاجِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٤﴾ وَاللَّهُ فِي الْأَرْضِ رَؤُوسٌ أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿١٥﴾ وَعَلَّمَتِ الْوَيْلَ وَالْيَمِينَ وَبِالْجَبِّ هُمْ يَهْتَدُونَ ﴿١٦﴾ أَفَمَنْ يَخْلُقُ كَمَنْ لَا يَخْلُقُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿١٧﴾ وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا إِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١٨﴾ ﴾

يخبر تعالى عن تسخيره البحر المتلاطم الأمواج، ويمتن على عباده بتذليله لهم، وتسييرهم للركوب فيه، وجعله السمك والحيتان فيه، وإحلاله لعباده لحمها حيها وميتها، فى الحل والإحرام ، وما يخلقه فيه من اللآلىء والجواهر النفيسة، وتسهيله للعباد استخراجها من قرارها حلية يلبسونها، وتسخيره البحر لحمل السفن التى تمخره ، أى: تشقه ، بجوئنها وهو صدرها المسنم - الذى أرشد العباد إلى صنعتها، وهداهم إلى ذلك، إرثا عن أبيهم نوح ، عليه السلام - ﴿ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ أى: نعمه وإحسانه. ثم ذكر تعالى الأرض، وما جعل فيها من الرواسى الشامخات والجبال الراسيات، لتقر الأرض ولا تميد، أى: تضطرب بما عليها من الحيوان فلا يهنأ لهم عيش بسبب ذلك؛ ولهذا قال : ﴿ وَالْجِبَالُ أَرْسَاهَا ﴾ [النارعات: ٣٢] .

وقوله : ﴿ وَأَنْهَارًا وَسُبُلًا ﴾ أى: وجعل فيها أنهاراً تجرى من مكان إلى مكان آخر، رزقاً للعباد، ينبع فى موضع وهو رزق لأهل موضع آخر، فيقطع البقاع والبرارى والقفار، ويخترق الجبال والآكام، فيصل إلى البلد الذى سُخِّرَ لأهله. وهى سائرة فى الأرض يمئة ويسرة، وجنوبا وشمالا، وشرقا وغربا، ما بين صغار وكبار، وأودية تجرى حيناً وتقطع فى وقت، وما بين نبع وجمع، وقوى السير وبيطئه، بحسب ما أراد وقدر، وسخر ويسر فلا إله إلا هو، ولا رب سواه. وكذلك جعل فى الأرض سبلا، أى: طرقاً يسلك فيها من بلاد إلى بلاد، حتى إنه تعالى ليقطع الجبل حتى يكون ما بينهما ممراً ومسلكاً، كما قال تعالى : ﴿ وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا سَبِيلًا ﴾ [الانبيا: ٣١] . وقوله : ﴿ وَعَلَامَاتٍ ﴾ أى: دلائل من جبال كبار وآكام صغار، ونحو ذلك، يستدل بها

المسافرون برأً وبحراً إذا ضلوا الطريق ﴿وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ﴾ أى: فى ظلام الليل، قاله ابن عباس. ثم قال تعالى منها على عظمتها، وأنه لا تنبغى العبادة إلا له دون ما سواه من الأوثان، التى لا تخلق شيئاً بل هم يخلقون؛ ولهذا قال: ﴿أَقْمَنُ يَخْلُقُ كَمَنْ لَا يَخْلُقُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾.

ثم نبههم على كثرة نعمه عليهم وإحسانه إليهم، فقال: ﴿وَأِنْ تَعَدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا إِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ أى: يتجاوز عنكم، ولو طالبكم بشكر جميع نعمه لعجزتم عن القيام بذلك، ولو أمركم به لضعفتم وتركتهم، ولو عذبكم لعذبكم وهو غير ظالم لكم، ولكنه غفور رحيم، يغفر الكثير، ويجازى على اليسير. وقال ابن جرير: يقول: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ لما كان منكم من تقصير فى شكر بعض ذلك، إذا تبتم وأنبتم إلى طاعته واتباع مرضاته ﴿رَحِيمٌ﴾ بكم أن يعذبكم بعد الإنابة والتوبة.

﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُسْرُوتُ وَمَا تُعْلِنُونَ ﴿١٩﴾ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَخْلُقُونَ شَيْئاً وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴿٢٠﴾ أَمْوَاتٌ غَيْرُ أَحْيَاءٍ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ ﴿٢١﴾﴾

يخبر تعالى أنه يعلم الضمائر والسرائر كما يعلم الظواهر، وسيجزي كل عامل بعمله يوم القيامة، إن خيراً فخير، وإن شراً فشر، ثم أخبر أن الأصنام التى يدعونها من دون الله لا يخلقون شيئاً وهم يخلقون، كما قال الخليل: ﴿أَتَعْبُدُونَ مَا تَحْتُونَ. وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾ [الصافات: ٩٥، ٩٦]. وقوله: ﴿أَمْوَاتٌ غَيْرُ أَحْيَاءٍ﴾ أى: هى جمادات لا أرواح فيها، فلا تسمع ولا تبصر ولا تعقل ﴿وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ﴾ أى: لا يدرون متى تكون الساعة، فكيف يرتجى عند هذه نفع أو ثواب أو جزاء؟ إنما يرتجى ذلك من الذى يعلم كل شىء، وهو خالق كل شىء.

﴿إِنَّهُمْ كَانُوا إِتْرَافِيَّةً وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَخْلُقُونَ شَيْئاً وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴿٢٢﴾﴾

يخبر تعالى أنه لا إله إلا هو الواحد الأحد الفرد الصمد، وأخبر أن الكافرين تنكر قلوبهم ذلك، كما أخبر عنهم متعجبين من ذلك: ﴿أَجْعَلِ الْآلِهَةَ إِلَهاً وَاحِداً إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عَجَابٌ﴾ [ص: ٥]، وقال تعالى: ﴿وَإِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَحْدَهُ اشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَإِذَا ذُكِرَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾ [الزمر: ٤٥]. وقوله: ﴿وَهُمْ مُسْتَكْبِرُونَ﴾ أى: عن عبادة الله مع إنكار قلوبهم لتوحيده، كما قال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَدِّخَلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ [غافر: ٦٠]؛ ولهذا قال هاهنا: ﴿لَا جَرَمَ﴾ أى: حقاً ﴿أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسْرُونَ وَمَا يُعْلِنُونَ﴾ أى: وسيجزئهم على ذلك أتم الجزاء، ﴿إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْتَكْبِرِينَ﴾.

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ مَآذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكُمُ الرِّيحَ قَالُوا أَأَسْطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴿٢٤﴾ لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ أَلِيسَا مَا يَرِثُونَ ﴿٢٥﴾﴾

يقول تعالى : وإذا قيل لهؤلاء المكذبين : ﴿ مَاذَا أَنْزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوا ﴾ معرضين عن الجواب : ﴿ أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴾ أى : لم ينزل شيئاً، إنما هذا الذى يتلى علينا أساطير الأولين، أى : مأخوذ من كتب المتقدمين، كما قال تعالى : ﴿ وَقَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ اكْتَبَتْهَا فَبِئْسَ تَمَلُّ عَلَىٰ بُكْرَةٌ وَأَصِيلًا ﴾ [الفرقان: ٥] أى : يفترون على الرسول، ويقولون فيه أقوالاً مختلفة متضادة ، كلها باطلة ، كما قال تعالى : ﴿ انظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثَالَ فَضَلُّوا فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا ﴾ [الفرقان: ٩]، وذلك أن كل من خرج عن الحق فمهما قال أخطأ .

قال الله تعالى : ﴿ لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ ﴾ أى : إنما قدرنا عليهم أن يقولوا ذلك فيتحملوا أوزارهم ومن أوزار الذين يتبعونهم ويوافقونهم، أى : يصير عليهم خطيئة ضلالهم فى أنفسهم ، وخطيئة إغوائهم لغيرهم واقتداء أولئك بهم، كما جاء فى الحديث: «من دعا إلى هدى كان له من الأجر مثل أجور من اتبعه، لا ينقص ذلك من أجورهم شيئاً، ومن دعا إلى ضلالة كان عليه من الإثم مثل آثام من اتبعه لا ينقص ذلك من آثامهم شيئاً» (١). وقال مجاهد: يحملون أفعالهم: ذنوبهم وذنوب من أطاعهم، ولا يخفف عن أطاعهم من العذاب شيئاً.

﴿ قَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَآتَى اللَّهُ بُيُوتَهُمْ مِنَ الْقَوَاعِدِ فَخَرَّ عَلَيْهِمُ السَّقْفُ مِنْ فَوْقِهِمْ وَأَتَنَّهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ﴾ (١١) ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يُخْزِيهِمْ وَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَاءِى الَّذِينَ كُنْتُمْ تُشْفِقُونَ فِيهِمْ قَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ إِنَّ الْآخِرَىٰ أَلْوَمُ وَالسَّوَاءُ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴿١٧﴾

قال ابن عباس فى قوله : ﴿ قَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ ﴾ قال : هو عمرو الذى بنى الصرح . وقال آخرون: بل هو بختنصر . وقال آخرون: هذا من باب المثل، لإبطال ما صنعه هؤلاء الذين كفروا بالله وأشركوا فى عبادته غيره، كما قال نوح، عليه السلام: ﴿ وَمَكْرُؤًا كَبِيرًا ﴾ [نوح: ٢٢] أى : احتالوا فى إضلال الناس بكل حيلة وأمالوهم إلى شركهم بكل وسيلة، كما يقول لهم أتباعهم يوم القيامة : ﴿ بَلْ مَكْرَ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ إِذ تَأْمُرُونَنَا أَنْ نَكْفُرَ بِاللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُ أَنْدَادًا ﴾ [الآية [سبا: ٣٣] .

وقوله : ﴿ فَآتَى اللَّهُ بُيُوتَهُمْ مِنَ الْقَوَاعِدِ ﴾ أى : اجتته من أصله، وأبطل عملهم، وأصلها كما قال تعالى : ﴿ كُلَّمَا أَوْقَدُوا نَارًا لِلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا اللَّهُ ﴾ [المائدة: ٦٤] .

وقوله : ﴿ فَأَتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُمْ بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِي الْمُؤْمِنِينَ فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِي الْأَبْصَارِ ﴾ [الحشر: ٢] ، وقال هاهنا : ﴿ فَآتَى اللَّهُ بُيُوتَهُمْ مِنَ الْقَوَاعِدِ فَخَرَّ عَلَيْهِمُ السَّقْفُ مِنْ فَوْقِهِمْ وَأَتَاهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ . ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يُخْزِيهِمْ ﴾ أى : يظهر فضائحهم، وما كانت تُجنته ضمائرهم، فيجعله علانية، كما قال تعالى : ﴿ يَوْمَ تَبْلَى السَّرَائِرُ ﴾ [الطارق: ٩] أى : تظهر وتشتهر ، كما فى الصحيحين عن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «ينصب لكل غادر

لواء يوم القيامة عند استه بقدر عَدْرَتِهِ، فيقال: هذه عَدْرَةُ فلان بن فلان (١). وهكذا هؤلاء، يظهر للناس ما كانوا يسرونه من المكر، ويخزيهم الله على رؤوس الخلائق، ويقول لهم الرب تبارك وتعالى مقرعا لهم وموبخا: ﴿أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنْتُمْ تُشَاقِقُونَ فِيهِمْ﴾: تحاربون وتعادون في سبيلهم، أين هم عن نصركم وخلاصكم هاهنا؟ ﴿هَلْ يَنْصُرُونَكُمْ أَوْ يَنْتَصِرُونَ﴾ [الشعراء: ٩٣] ، ﴿فَمَا لَهُ مِنْ قُوَّةٍ وَلَا نَاصِرٍ﴾ [الطارق: ١٠]. فإذا توجهت عليهم الحجة، وقامت عليهم الدلالة، وحقت عليهم الكلمة، وأسكتوا عن الاعتذار حين لا فرار ﴿قَالَ الَّذِينَ أُوْتُوا الْعِلْمَ﴾ وهم السادة في الدنيا والآخرة، والمخبرون عن الحق في الدنيا والآخرة، فيقولون حيثئذ: ﴿إِنَّ الْخِزْيَ الْيَوْمَ وَالسُّوءَ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ أى: الفضيحة والعذاب اليوم بمن كفر بالله ، وأشرك به مالا يضره ولا ينفعه.

﴿الَّذِينَ تَوَفَّيْتُمُ الْمَلَائِكَةَ الظَّالِمِينَ أَنفُسِهِمْ فَأَلْفَوْا السَّلَامَ مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِنْ سُوءٍ بَلَىٰ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٨﴾ فَادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فليئسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ ﴿١٩﴾﴾

يخبر تعالى عن حال المشركين الظالمى أنفسهم عند احتضارهم ومجىء الملائكة إليهم لقبض أرواحهم: ﴿فَأَلْفَوْا السَّلَامَ﴾ أى: أظهروا السمع والطاعة والانقياد قائلين: ﴿مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِنْ سُوءٍ﴾ ، كما يقولون يوم المعاد: ﴿وَاللَّهُ رَبَّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾ [الانعام: ٢٣] ، ﴿يَوْمَ يَعْثُوبُ اللَّهُ جَمِيعًا فَيُخَلِّفُونَ لَهُ كَمَا يَخْلِفُونَ لَكُمْ﴾ [المجادلة: ١٨] .

قال الله مكذبا لهم فى قيلهم ذلك: ﴿بَلَىٰ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ. فَادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فليئسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ﴾ أى: بشس المقيال والمقام والمكان من دار هوان، لمن كان متكبرا عن آيات الله واتباع رسله. وهم يدخلون جهنم من يوم ماتهم بأرواحهم، ويأتى أجسادهم فى قبورها من حرها وسمومها، فإذا كان يوم القيامة سلكت أرواحهم فى أجسادهم، وخلدت فى نار جهنم ﴿لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فِيمَوتُوا وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ مِنْ عَذَابِهَا﴾ [فاطر: ٣٦] ، كما قال الله تعالى: ﴿النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ﴾ [غافر: ٤٦].

﴿وَقِيلَ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا مَاذَا أَنْزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوا خَيْرٌ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَلِدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ وَلَنِعْمَ دَارُ الْمُتَّقِينَ ﴿٢٠﴾ جَنَّاتٌ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا يُجْرَىٰ مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ لَمْ يَكُن فِيهَا مِن يَسَاءُوتٍ كَذَلِكَ يَجْزَى اللَّهُ الْمُتَّقِينَ ﴿٢١﴾ الَّذِينَ تَوَفَّيْتُمُ الْمَلَائِكَةَ طَيِّبِينَ يَقُولُونَ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ أَدْخَلُوا الْجَنَّةَ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٢﴾﴾

هذا خبر عن السعداء، بخلاف ما أخبر به عن الأشقياء، فإن أولئك قيل لهم: ﴿مَاذَا أَنْزَلَ رَبُّكُمْ﴾، فقالوا معرضين عن الجواب: لم ينزل شيئا، إنما هذا أساطير الأولين. وهؤلاء ﴿قَالُوا﴾

خَيْرًا ﴿ أَى : أنزل خيراً ، أَى : رحمة وبركة وحسناً لمن اتبعه وآمن به . ثم أخبروا عما وعد الله عباده فيما أنزله على رسله فقالوا : ﴿ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَلِدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ ﴾ ، كما قال تعالى : ﴿ مَنْ عَمِلْ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهٗ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ [النحل : ٩٧] ، أَى : من أحسن عمله فى الدنيا أحسن الله إليه فى الدنيا والآخرة . ثم أخبروا بأن دار الآخرة خير ، أَى : من الحياة الدنيا ، والجزاء فيها أتم من الجزاء فى الدنيا ، كما قال تعالى : ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَيَلَكُمْ ثَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ ﴾ [القصص : ٨٠] وقال تعالى : ﴿ وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ لِلْأَبْرَارِ ﴾ [آل عمران : ١٩٨] وقال تعالى ﴿ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَى ﴾ [الأعلى : ١٧] ، وقال لرسوله ﷺ : ﴿ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الْأُولَىٰ ﴾ [الضحى : ٤] . ثم وصفوا الدار الآخرة فقالوا : ﴿ وَلَنِعْمَ دَارُ الْمُتَّقِينَ ﴾ .

وقوله : ﴿ جَنَّاتُ عَدْنٍ ﴾ بدل من ﴿ دَارُ الْمُتَّقِينَ ﴾ أَى : لهم فى الآخرة ﴿ جَنَّاتُ عَدْنٍ ﴾ أَى : إقامة يدخلونها ﴿ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ﴾ أَى : بين أشجارها وقصورها ﴿ لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَاءُونَ ﴾ كما قال تعالى : ﴿ وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ الْأَنْفُسُ وَتَلَذُّ الْأَعْيُنُ وَأَنْتُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾ [الزخرف : ٧١] ، ﴿ كَذَلِكَ يَجْزِي اللَّهُ الْمُتَّقِينَ ﴾ أَى : كذلك يجزى الله كل من آمن به واتقاه وأحسن عمله . ثم أخبر تعالى عن حالهم عند الاحتضار ، أنهم طيبون ، أَى : مخلصون من الشرك والدنس وكل سوء ، وأن الملائكة تسلم عليهم وتبشرهم بالجنة ، ، كما قال تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ ﴾ [فصلت : ٣٠] .

﴿ هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمُ الْمَلَائِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ أَمْرٌ رَبِّكَ كَذَلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿١٢﴾ فَاصْبِرْ لَهُمْ سَبْعَاتُ مَا عَمِلُوا وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴿١٤﴾ ﴾

يقول تعالى متهدداً للمشركين على تماديهم فى الباطل واغترارهم بالدنيا: هل ينتظر هؤلاء إلا الملائكة أن تأتيهم بقبض أرواحهم ﴿ أَوْ يَأْتِيَ أَمْرٌ رَبِّكَ ﴾ أَى : يوم القيامة وما يعاينونه من الأحوال . وقوله : ﴿ كَذَلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ ﴾ أَى : هكذا تمادى فى شركهم أسلافهم ونظراؤهم وأشباههم من المشركين حتى ذاقوا بأس الله ، وحلوا فيما هم فيه من العذاب والنكال ﴿ وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ ﴾ ؛ لأنه تعالى أعذر إليهم ، وأقام حججه عليهم بإرسال رسله وإنزال كتبه ﴿ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾ أَى : بمخالفة الرسل والتكذيب بما جاؤوا به ، فلهذا أصابته عقوبة الله على ذلك ، ﴿ وَحَاقَ بِهِمْ ﴾ أَى : أحاط بهم من العذاب الاليم ﴿ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴾ أَى : يستخرون من الرسل إذا توعدهم بعقاب الله ؛ فلهذا يقال يوم القيامة : ﴿ هَذِهِ النَّارُ الَّتِي كُنْتُمْ بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴾ [الطور : ١٤] .

﴿ وَقَالَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ نَحْنُ وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَمْنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ كَذَلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَهَلْ عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ ﴿٣٥﴾ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنْ يَعْبُدُوا اللَّهَ وَأَجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ فَمِنْهُمْ مَنْ هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُمْ مَنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكذِبِينَ ﴿٣٦﴾ إِنْ تَحَرَّصَ عَلَى هُدَاهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ يُضِلُّ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ ﴿٣٧﴾ ﴾

يخبر تعالى عن اغترار المشركين بما هم فيه من الشرك واعتذارهم محتجين بالقدر، في قولهم : ﴿ لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ نَحْنُ وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَمْنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ ﴾ أى : من البحائر والسوائب والوصائل وغير ذلك، مما كانوا ابتدعوه واخترعوه من تلقاء أنفسهم، ما لم ينزل الله به سلطانا.

ومضمون كلامهم : أنه لو كان تعالى كارهاً لما فعلنا، لأنكره علينا بالعقوبة ولما مكنا منه . قال الله راداً عليهم شبهتهم : ﴿ فَهَلْ عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ ﴾ ؟ أى : ليس الأمر كما تزعمون أنه لم يعيره عليكم ولم ينكره، بل قد أنكره عليكم أشد الإنكار، ونهاكم عنه أكد النهى، وبعث فى كل أمة رسولا، أى : فى كل قرن من الناس وطائفة رسولا، وكلهم يدعو إلى عبادة الله، وينهى عن عبادة ما سواه : ﴿ أَنْ يَعْبُدُوا اللَّهَ وَأَجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ ﴾ ، فلم يزل تعالى يرسل إلى الناس الرسل بذلك، منذ حدث الشرك فى بنى آدم، فى قوم نوح الذين أرسل إليهم نوح، وكان أول رسول بعثه الله إلى أهل الأرض إلى أن ختمهم بمحمد ﷺ الذى طبقت دعوته الإنس والجن فى المشارق والمغرب، وكلهم كما قال الله تعالى : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ ﴾ [الانبيا: ٢٥] ، وقال تعالى : ﴿ وَأَسْأَلُ مَنْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رُسُلٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ ﴾ [الزخرف: ٤٥] ، وقال تعالى فى هذه الآية الكريمة : ﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنْ يَعْبُدُوا اللَّهَ وَأَجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ ﴾ ، فكيف يسوغ لأحد من المشركين بعد هذا أن يقول : ﴿ لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ ﴾ ، فمشيئته تعالى الشرعية متفية ؛ لأنه نهاهم عن ذلك على السنة رسله، وأما مشيئته الكونية، وهى تمكينهم من ذلك قدرا، فلا حجة لهم فيها ؛ لأنه تعالى خلق النار وأهلها من الشياطين والكفرة، وهو لا يرضى لعباده الكفر، وله فى ذلك حجة بالغة وحكمة قاطعة .

ثم إنه تعالى قد أخبر أنه غير عليهم، وأنكر عليهم بالعقوبة فى الدنيا بعد إنذار الرسل ؛ فلهذا قال : ﴿ فَمِنْهُمْ مَنْ هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُمْ مَنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكذِبِينَ ﴾ أى : اسألوا عما كان من أمر من خالف الرسل وكذب الحق كيف ﴿ دَمَّرَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلِلْكَافِرِينَ أَمْثَالُهَا ﴾ [محمد: ١٠] ، ﴿ وَلَقَدْ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴾ [الملك: ١٨] . ثم أخبر تعالى رسوله ﷺ أن حرصه على هدايتهم لا ينفعهم، إذا كان الله قد أراد إضلالهم، كما قال تعالى : ﴿ وَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ فِتْنَتَهُ فَلَنْ تَمْلِكَ لَهُ مِنْ اللَّهِ شَيْئًا ﴾ [المائدة: ٤١] ، وقال نوح لقومه : ﴿ وَلَا يَنْفَعُكُمْ

نُصِحِي إِنْ أَرَدْتَ أَنْ أَنْصَحَ لَكُمْ إِنْ كَانَ اللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يُغْوِيَكُمْ ﴿ هود: ٣٤ ﴾ ، وقال في هذه الآية الكريمة: ﴿ إِنْ تَحَرَّصَ عَلَىٰ هُدَاهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ يُضِلُّ ﴾ ، كما قال تعالى: ﴿ مَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ فَلَا هَادِيَ لَهُ وَيَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴾ [الأعراف: ١٨٦] ، وقال تعالى: ﴿ إِنْ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ . وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ ﴾ [يونس: ٩٦ ، ٩٧] .

فقوله: ﴿ فَإِنَّ اللَّهَ ﴾ أى: شأنه وأمره أنه ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن؛ فلهذا قال: ﴿ لَا يَهْدِي مَنْ يُضِلُّ ﴾ أى: من أضله فمن الذى يهديه من بعد الله؟ أى: لا أحد ﴿ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ ﴾ أى: يتقذرونهم من عذابه ووثاقه، ﴿ أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴾ [الأعراف: ٥٤] .

﴿ وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَا يَبْعَثُ اللَّهُ مِنْ يَمُوتَ بَلَىٰ وَعَدَّا عَلَيْهِ حَقًّا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿ ٣٨ ﴾ لَيْسَ لَهُمُ الَّذِي يُخْتَلَفُونَ فِيهِ وَلِعَلَّمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ كَانُوا كَذِبِينَ ﴿ ٣٩ ﴾ إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَنْ نَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴿ ٤٠ ﴾ ﴾

يقول تعالى مخبراً عن المشركين: أنهم حلفوا فأقسموا ﴿ بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ ﴾ أى: اجتهدوا فى الحلف وغلظوا الأيمان على أنه ﴿ لَا يَبْعَثُ اللَّهُ مِنْ يَمُوتَ ﴾ أى: استبعدوا ذلك، فكذبوا الرسل فى إخبارهم لهم بذلك، وحلفوا على نقيضه ، فقال تعالى مكذباً لهم وراداً عليهم : ﴿ بَلَىٰ ﴾ أى: بلى سيكون ذلك ﴿ وَعَدَّا عَلَيْهِ حَقًّا ﴾ أى: لا بد منه ﴿ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ أى: فَلَجَهْلُهُمْ يخالفون الرسل ويقعون فى الكفر. ثم ذكر تعالى حكمته فى المعاد وقيام الأجساد يوم التناد، فقال: ﴿ لَيْسَ لَهُمْ ﴾ أى: للناس ﴿ الَّذِي يُخْتَلَفُونَ فِيهِ ﴾ أى: من كل شىء ﴿ وَلِعَلَّمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ كَانُوا كَاذِبِينَ ﴾ أى: فى أيمانهم وأقسامهم: لا يبعث الله من يموت؛ ولهذا يدعون يوم القيامة إلى نار جهنم دعا، وتقول لهم الزبانية: ﴿ هَذِهِ النَّارُ الَّتِي كُنْتُمْ بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴾ [الطور: ١٤] .

ثم أخبر تعالى عن قدرته على ما يشاء، وأنه لا يعجزه شىء فى الأرض ولا فى السماء، وإنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له: «كن»، فيكون، والمعاد من ذلك إذا أراد كونه فإنما يأمر به مرة واحدة، فيكون كما يشاء، كما قال: ﴿ وَمَا أَمْرُنَا إِلَّا وَاحِدَةٌ كَلِمَةً بَالْبَصْرِ ﴾ [القمر: ٥٠] ، وقال فى هذه الآية الكريمة: ﴿ إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَنْ نَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴾ [النحل: ٤٠] أى: أن يأمر به دفعة واحدة فإذا هو كائن ، أى: أنه تعالى لا يحتاج إلى تأكيد فيما يأمر به، فإنه تعالى لا يمانع ولا يخالف، لأنه الواحد القهار العظيم ، الذى قهر سلطانه وجبروته وعزته كل شىء ، فلا إله إلا هو ولا رب سواه .

﴿ وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا ظَلَمُوا لَنُبَوِّئَنَّهُمْ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَلَآجِرُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴿ ٤١ ﴾ الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿ ٤٢ ﴾ ﴾

يخبر تعالى عن جزائه للمهاجرين فى سبيله ابتغاء مرضاته، الذين فارقوا الدار والإخوان

والخلان، رجاء ثواب الله وجزائه. ويحتمل أن يكون سبب نزول هذه الآية الكريمة في مهاجرة الحبيشة الذين اشتد أذى قومهم لهم بمكة، حتى خرجوا من بين أظهرهم إلى بلاد الحبيشة، ليتمكنوا من عبادة ربهم . وقد فعل فوعدهم تعالى بالمجازاة الحسنة في الدنيا والآخرة فقال: ﴿لَنُبَوِّئَهُمْ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً﴾ قال ابن عباس : المدينة. وقيل: الرزق الطيب، قاله مجاهد. ولا منافاة بين القولين، فإنهم تركوا مساكنهم وأموالهم فعوضهم الله خيراً منها في الدنيا، فإن من ترك شيئاً لله عوضه الله بما هو خير له منه ، وكذلك وقع فإنهم مكن الله لهم في البلاد وحكمهم على رقاب العباد، فصاروا أمراء حكاما، وكل منهم للمتقين إماما، وأخبر أن ثوابه للمهاجرين في الدار الآخرة أعظم مما أعطاهم في الدنيا، فقال: ﴿وَلَأَجْرُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ﴾ أى: مما أعطيناهم في الدنيا ﴿لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ أى: لو كان المتخلفون عن الهجرة معهم يعلمون ما ادخر الله لمن أطاعه واتبع رسوله ؛ ولهذا كان عمر بن الخطاب، رضى الله عنه، إذا أعطى الرجل من المهاجرين عطاءه يقول: خذ، بارك الله لك فيه، هذا ما وعدك الله في الدنيا، وما ادخر لك في الآخرة أفضل، ثم قرأ هذه الآية: ﴿لَنُبَوِّئَهُمْ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَلَأَجْرُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ .

ثم وصفهم تعالى فقال: ﴿الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ أى: صبروا على أذى من آذاهم من قومهم، متوكلين على الله الذى أحسن لهم العاقبة فى الدنيا والآخرة.

﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُوحِي إِلَيْهِمْ فَسَتَلُوا أَهْلَ الدِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْمَلُونَ ﴿٤٣﴾ بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٤٤﴾ ﴾

قال ابن عباس: لما بعث الله محمداً ﷺ رسولا، أنكرت العرب ذلك، أو من أنكر منهم، وقالوا: الله أعظم من أن يكون رسوله بشرا، فانزل الله: ﴿ أَكَاذِبٌ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَىٰ رَجُلٍ مِنْهُمْ ﴾ [يونس: ٢] ، وقال: ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُوحِي إِلَيْهِمْ فَاسْأَلُوا أَهْلَ الدِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾ يعنى: أهل الكتب الماضية: أبشر كانت الرسل التى أتتكم أم ملائكة ؟ فإن كانوا ملائكة أنكرتم ، وإن كانوا بشرا فلا تنكروا أن يكون محمد ﷺ رسولا ؟ وقال تعالى : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا يُوحِي إِلَيْهِمْ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى ﴾ [يوسف: ١٠٩] ، ليسوا من أهل السماء كما قلتكم. وعن ابن عباس، أن المراد بأهل الذكر: أهل الكتاب. والغرض : أن هذه الآية الكريمة أخبرت أن الرسل الماضين قبل محمد ﷺ كانوا بشرا كما هو بشر، كما قال تعالى: ﴿ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّيَ هَلْ كُنْتُ إِلَّا بَشَرًا رَسُولًا. وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَىٰ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَبَعَثَ اللَّهُ بَشَرًا رَسُولًا ﴾ [الإسراء: ٩٣] ، وقال تعالى: ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِي الْأَسْوَاقِ ﴾ [الفرقان: ٢٠] وقال: ﴿ وَمَا جَعَلْنَاهُمْ جَسَدًا لَّا يَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَمَا كَانُوا خَالِدِينَ ﴾ [الأنبياء: ٨، ٩]، وقال: ﴿ قُلْ مَا كُنْتُ بِدْعًا مِنَ الرُّسُلِ ﴾ [الاحقاف: ٩]، وقال تعالى: ﴿ قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ ﴾ [الكهف: ١١٠].

ثم أرشد الله تعالى من شك فى كون الرسل كانوا بشراً، إلى سؤال أصحاب الكتب المتقدمة عن الأنبياء الذين سلفوا: هل كان أنبيأؤهم بشراً أو ملائكة؟ ثم ذكر تعالى أنه أرسلهم ﴿بِالْبَيِّنَاتِ﴾ أى: بالدلالات والحجج ﴿وَالزُّبُرِ﴾ وهى الكتب. قاله ابن عباس، ومجاهد، والضحاك، وغيرهم. والزبر: جمع زبور، تقول العرب: زبرت الكتاب إذا كتبته، وقال تعالى: ﴿وَكُلُّ شَيْءٍ فَعَلُوهُ فِي الزُّبُرِ﴾ [القمر: ٥٢]، وقال: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزُّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ﴾ [الأنبياء: ١٠٥]. ثم قال تعالى: ﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ﴾ يعنى: القرآن ﴿لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾ من ربهم، أى: لعلمك بمعنى ما أنزل عليك، وحرصك عليه، واتباعك له، لعلمنا بأنك أفضل الخلائق وسيد ولد آدم، ففصل لهم ما أجمل، وتبين لهم ما أشكل ﴿وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ أى: ينظرون لأنفسهم فيهدتون، فيفوزون بالنجاة فى الدارين.

﴿أَفَأَمِنَ الَّذِينَ مَكَرُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ يَخْسِفَ اللَّهُ بِهِمُ الْأَرْضَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٤٥﴾ أَوْ يَأْخُذَهُمْ فِي تَقْلِبِهِمْ فَمَا هُمْ بِمُعْجِزِينَ ﴿٤٦﴾ أَوْ يَأْخُذَهُمْ عَلَى تَخَوُّفٍ فَإِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ ﴿٤٧﴾﴾

يخبر تعالى عن حلمه وإنظاره العصاة الذين يعملون السيئات ويدعون إليها، ويمكرون بالناس فى دعائهم إياهم وحملهم عليها، مع قدرته على ﴿أَنْ يَخْسِفَ اللَّهُ بِهِمُ الْأَرْضَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ﴾ أى: من حيث لا يعلمون مجيئه إليهم، كما قال تعالى: ﴿أَأَمِنْتُمْ مَنْ فِي السَّمَاءِ أَنْ يَخْسِفَ بِكُمْ الْأَرْضَ إِذَا هِيَ تَمُورُ. أَمْ أَمِنْتُمْ مَنْ فِي السَّمَاءِ أَنْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا فَسَتَعْلَمُونَ كَيْفَ نَذِيرٍ﴾ [الملك: ١٦، ١٧]

وقوله: ﴿أَوْ يَأْخُذَهُمْ فِي تَقْلِبِهِمْ﴾ أى: فى تقلبهم فى المعاش واشتغالهم بها، من أسفار ونحوها من الأشغال الملهية. وقوله: ﴿فَمَا هُمْ بِمُعْجِزِينَ﴾ أى: لا يُعْجِزُونَ اللَّهَ عَلَى أَى حَالٍ كانوا عليه. وقوله: ﴿أَوْ يَأْخُذَهُمْ عَلَى تَخَوُّفٍ﴾ أى: أو يأخذهم الله فى حال خوفهم من أخذه لهم، فإنه يكون أبلغ وأشد حالة الأخذ؛ فإن حصول ما يتوقع مع الخوف شديد؛ ولهذا قال ابن عباس: ﴿أَوْ يَأْخُذَهُمْ عَلَى تَخَوُّفٍ﴾ يقول: إن شئت أخذته على أثر موت صاحبه وتخوفه بذلك. وكذا روى عن مجاهد، والضحاك، وقتادة وغيرهم.

ثم قال تعالى: ﴿فَإِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾ أى: حيث لم يعاجلكم بالعقوبة، كما ثبت فى الصحيحين: «لا أحد أصبر على أذى سمعه من الله، إنهم يجعلون له ولداً وهو يرزقهم ويعافهم» (١).

﴿ أَوْلَتْ بَرَوًا إِلَىٰ مَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ يَنْفَيْتُوهُ ظِلْمُهُمْ عَنِ الْيَمِينِ وَالشَّمَائِلِ سُجَّدًا لِلَّهِ وَهُمْ دَاخِرُونَ ﴿٤٨﴾ وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ دَابَّةٍ وَالْمَلَائِكَةِ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٤٩﴾ يَخَافُونَ رَبَّهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴿٥٠﴾ ﴾

سجدة

يخبر تعالى عن عظمته وجلاله وكبريائه الذي خضع له كل شيء، ودانت له الأشياء والمخلوقات بأسرها: جمادها وحيواناتها، ومكلفوها من الإنس والجن والملائكة، فأخبر أن كل ما له ظل يتفياً ذات اليمين وذات الشمال، أى: بكرة وعشيا، فإنه ساجد بظله لله تعالى. قال مجاهد: إذا زالت الشمس سجد كل شيء لله عز وجل. وكذا قال قتادة، والضحاك، وغيرهم.

وقوله: ﴿ وَهُمْ دَاخِرُونَ ﴾ أى: صاغرون، وقال مجاهد أيضاً: سجد كل شيء فيه. وذكر الجبال قال: سجودها فيها. ثم قال: ﴿ وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ دَابَّةٍ ﴾، كما قال: ﴿ وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظِلَالُهُمْ بِالْعُدُوِّ وَالْأَصَالِ ﴾ [الرعد: ١٥]، وقوله: ﴿ وَالْمَلَائِكَةُ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴾ أى: تسجد لله أى غير مستكبرين عن عبادته ﴿ يَخَافُونَ رَبَّهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ ﴾ أى: يسجدون خائفين وجلين من الرب جل جلاله ﴿ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴾ أى: مثابرين على طاعته تعالى، وامثال أوامره، وترك زواجه.

﴿ وَقَالَ اللَّهُ لَا تَتَّخِذُوا لِلْهَيْنِ آتِينَ إِنَّمَا هُوَ إِلَهُ وَاحِدٌ فَإِنِّي فَازَهُبُونَ ﴿٥١﴾ وَلَمْ يَكُن لَكُمْ الْهُنَاءُ وَكَرِهْتُمُوهُمْ وَتَوَلَّوْا فَسَخَّ اللَّهُ الْبُرُودَ وَالْهَارَ وَسَخَّ الْمَاءَ لِمَا أُتِيَ بِهِمْ لِيَكْفُرُوا بِهِمَا فَأَبْنَتْهُمُ فَتَمَتَّعُوا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٥٢﴾ ﴾

ربع

يقرر تعالى أنه لا إله إلا هو، وأنه لا ينبغي العبادة إلا له وحده لا شريك له؛ فإنه مالك كل شيء وخالقه وربيه. ﴿ وَلَهُ الدِّينُ وَأَصَابٌ ﴾: قال ابن عباس، ومجاهد، وقاتدة، وغير واحد: أى دائماً. وعن ابن عباس أيضاً: واجباً. وقال مجاهد: خالصاً. أى: له العبادة وحده ممن فى السموات والأرض، كقوله: ﴿ أَفَغَيْرَ دِينِ اللَّهِ يَبْغُونَ وَلَهُ أَسْلَمَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا ﴾ [آل عمران: ٨٣]

ثم أخبر أنه مالك النفع والضرب، وأن ما بالعبد من رزق، ونعمة وعافية ونصر فمن فضله عليه، وإحسانه إليه، ﴿ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجَاوَرُونَ ﴾ أى: لعلمكم أنه لا يتدر على إزالته إلا هو، فإنكم عند الضرورات تلجؤون إليه، وتسالونه وتلحون فى الرغبة مستغيثين به، كما قال تعالى: ﴿ وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَنْ تَدْعُونَ إِلَّا إِلَهُهُ فَلَمَّا نَجَّكُمْ إِلَى الْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ وَكَانَ الْإِنْسَانُ كَفُورًا ﴾ [الإسراء: ٦٧]، وقال هاهنا: ﴿ ثُمَّ إِذَا كَشَفَ الضُّرُّ عَنْكُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِنْكُمْ بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ ﴾ لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ قِيل: «اللام» هاهنا لام العاقبة. وقيل: لام التعليل، بمعنى: قيصنا لهم ذلك ليكفروا، أى:

يستروا ويجحدوا نعم الله عليهم، وأنه المسدئ إليهم النعم، الكاشف عنهم النقم. ثم توعدهم قاتلاً: ﴿ قَتَمُوا ﴾ أى: عملوا ما شتمتم وتمتعوا بما أنتم فيه قليلاً ﴿ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴾ أى: عاقبة ذلك .

﴿ وَيَجْعَلُونَ لِمَا لَا يَعْلَمُونَ نَصِيبًا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ تَاللَّهِ لَتَسْتَأْنِفَنَّ عَمَّا كُتِبَ تَفْتَرُونَ ﴿٥٦﴾ وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ الْبَنَاتِ سُبْحَانَهُ وَلَهُمْ مَا يَشْتَهُونَ ﴿٥٧﴾ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِالْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴿٥٨﴾ يَتَوَارَىٰ مِنَ الْقَوْمِ مِنْ سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ أَيُمْسِكُهُ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ أَلَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿٥٩﴾ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ مَثَلُ السَّوْءِ وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الْأَعْلَىٰ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٦٠﴾﴾

يخبر تعالى عن قبائح المشركين الذين عبدوا مع الله غيره من الأصنام والأوثان والأنداد، وجعلوا لها نصيباً مما رزقهم الله، فأقسم الله تعالى بنفسه الكريمة ليسألنهم عن ذلك الذي افتروه، واتفكروه، وليقابلنهم عليه وليجازينهم أوفر الجزاء فى نار جهنم، فقال: ﴿ تَاللَّهِ لَتَسْأَلُنَّ عَمَّا كُتِبَ تَفْتَرُونَ ﴾ . ثم أخبر تعالى عنهم أنهم جعلوا الملائكة الذين هم عباد الرحمن إناثاً، وجعلوها بنات الله، وعبدوها معه، فأخطؤوا خطأ كبيراً فى كل مقام من هذه المقامات الثلاث، فنسبوا إليه تعالى أن له ولداً، ولا ولد له! ثم أعطوه أحسن القسمين من الأولاد وهو البنات، وهم لا يرضونها لأنفسهم، كما قال: ﴿ أَلَكُمُ الذَّكْرُ وَلَهُ الْأُنثَىٰ تِلْكَ إِذَا قَسَمْتَ ضِيزَىٰ ﴾ [النجم: ٢١، ٢٢] وقال هاهنا: ﴿ وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ الْبَنَاتِ سُبْحَانَهُ ﴾ أى: عن قولهم وإفكهم، ﴿ أَلَا إِنَّهُمْ مِنْ أَفْكَهِمْ لَيَقُولُونَ . وَلَدَّ اللَّهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ . أَصْطَفَى الْبَنَاتِ عَلَى الْبَنِينَ . مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴾ [الصفات: ١٥١ - ١٥٤] . وقوله: ﴿ وَلَهُمْ مَا يَشْتَهُونَ ﴾ أى: يختارون لأنفسهم الذكور ويأفنون لأنفسهم من البنات التى نسبوها إلى الله، تعالى الله عن قولهم علواً كبيراً، فإنه ﴿ إِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِالْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا ﴾ أى: كتيباً من الهم ﴿ وَهُوَ كَظِيمٌ ﴾، ساكت من شدة ما هو فيه من الحزن ﴿ يَتَوَارَىٰ مِنَ الْقَوْمِ ﴾ أى: يكره أن يراه الناس ﴿ مِنْ سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ أَيُمْسِكُهُ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ ﴾ أى: إن أبقاها أبقاها مهانة لا يورثها، ولا يعتنى بها، ويفضل أولاده الذكور عليها ﴿ أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ ﴾ أى: يثدّها: وهو: أن يدفنها فيه حية، كما كانوا يصنعون فى الجاهلية، أفمن يكرهونه هذه الكراهة ويأفنون لأنفسهم عنه يجعلونه لله ؟ ﴿ أَلَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴾ أى: بشس ما قالوا، وبشس ما قسموا، وبشس ما نسبوا إليه، كما قال تعالى: ﴿ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَنِ مَثَلًا ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴾ [الزخرف: ١٧] ، وقال هاهنا: ﴿ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ مَثَلُ السَّوْءِ ﴾ أى: النقص إنما ينسب إليهم ﴿ وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الْأَعْلَىٰ ﴾ أى: الكمال المطلق من كل وجه، وهو منسوب إليه ﴿ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ .

﴿ وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِظُلْمِهِمْ مَا تَرَكَ عَلَيْهَا مِنْ دَابَّةٍ وَلَكِنْ يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَإِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ لَا يَسْتَجِزُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴿٦١﴾ وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ مَا يَكْرَهُونَ وَتَصِفُ السَّيِّئَةُ الْكُذِبَ أَنَّ لَهُمُ الْمُسْتَقَىٰ لَا جَرَءَ أَنْ هُمْ النَّارَ وَأَنَّهُمْ مُّفْرَطُونَ ﴿٦٢﴾﴾

يخبر تعالى عن حلمه بخلقه مع ظلمهم، وأنه لو يؤاخذهم بما كسبوا ما ترك على ظهر الأرض من دابة، أى: لأهلك جميع دواب الأرض تبعاً لإهلاك بنى آدم، ولكن الرب، جل جلاله، يحلم ويستر، وينظر ﴿إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ أى: لا يعاجلهم بالعقوبة؛ إذ لو فعل ذلك بهم لما أبقى أحداً.

وقوله: ﴿وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ مَا يَكْرَهُونَ﴾ أى: من البنات ومن الشركاء الذين هم عبیده، وهم يأنفون أن يكون عند أحدهم شريك له فى ماله.

وقوله: ﴿وَتَصِفُ أَلْسِنَتَهُمُ الْكُذِبَ أَنَّ لَهُمُ الْحُسْنَىٰ﴾: إنكار عليهم فى دعواهم مع ذلك أن لهم الحسنى فى الدنيا، وإن كان ثم معاد ففيه أيضا لهم الحسنى، وإخبار عن قيل من قال منهم، كقوله: ﴿وَلَئِن أَدَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَا مِنْهُ إِنِّهٖ لَيُتُوْسُ كُفُوْرًا. وَلَئِن أَدَقْنَا نِعْمًا بَعْدَ ضِرَاءٍ مَّسْتَهٗ لَيَقُوْلُنَّ ذَهَبَ السَّيِّئَاتِ عَنِّي إِنَّهٗ لَفَرِحَ فَخُوْرًا﴾ [هود: ٩، ١٠]، وكقول: ﴿وَلَئِن أَدَقْنَا رَحْمَةً مِّنَّا مِن بَعْدِ ضِرَاءٍ مَّسْتَهٗ لَيَقُوْلُنَّ هٰذَا لِي وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِن رُّجِعْتُ إِلَىٰ رَبِّي إِنَّ لِي عِنْدَهٗ لِلْحُسْنَىٰ فَلَنُنَبِّئَنَّ الَّذِيْنَ كَفَرُوْا بِمَا عَمَلُوْا وَلَنَذِيْقَنَّهُمْ مِّنْ عَذَابِ غَلِيْظٍ﴾ [فصلت: ٥٠]، وقوله: ﴿أَفَرَأَيْتَ الَّذِي كَفَرَ بِآيَاتِنَا وَقَالَ لَأُوتِيْنَ مَالًا وَلَوْلَا أَنطَعُ الْغَيْبِ أَمْ اِتَّخَذَ عِنْدَ الرَّحْمٰنِ عَهْدًا﴾ [مريم: ٧٧، ٧٨] وقال إخبارا عن أحد الرجلين: أنه ﴿وَدَخَلَ جَنَّتَهٗ وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهٖ قَالَ مَا أَظُنُّ أَن تَبِيْدَ هٰذِهِ أَبَدًا. وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِن رُّدِدْتُ إِلَىٰ رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنْقَلَبًا﴾ [الكهف: ٣٥، ٣٦] - فجمع هؤلاء بين عمل السوء وتمنى الباطل، بأن يجازوا على ذلك حسنا وهذا مستحيل.

ولهذا قال الله تعالى رادا عليهم فى تمنيهم: ﴿لَا جْرَمَ﴾ أى: حقا لا بد منه ﴿أَنَّ لَهُمُ النَّارَ﴾ أى: يوم القيامة ﴿وَأَنَّهُمْ مُّفْرَطُونَ﴾. قال مجاهد، وسعيد بن جبیر، وقتادة وغيرهم: منسيون فيها مضيعون. وهذا كقوله تعالى: ﴿فَالْيَوْمَ نَسَاهُمْ كَمَا نَسُوا لِقَاءَ يَوْمِهِمْ هٰذَا﴾ [الاعراف: ٥١]، وعن قتادة أيضا: ﴿مُفْرَطُونَ﴾ أى: معجلون إلى النار، من الفرط وهو السابق إلى الورد ولا منافاة لانهم يعجل بهم يوم القيامة إلى النار، وينسون فيها، أى: يخلدون.

﴿تَاللَّهِ لَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَىٰ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطٰنُ أَعْمٰلَهُمْ فَهُوَ وَلِيُّهُمْ الْيَوْمَ وَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٣﴾ وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتٰبَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي أَخْلَفُوا فِيهِ وَهَدَىٰ وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿١٤﴾ وَاللَّهُ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ فِي ذٰلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴿١٥﴾﴾

يذكر تعالى أنه أرسل إلى الأمم الخالية رسلاً، فكذبت الرسل، فلك يا محمد فى إخوانك من المرسلين أسوة، فلا يهدينك تكذيب قومك لك، وأما المشركون الذين كذبوا الرسل، فإنما حملهم على ذلك تزوين الشيطان لهم ما فعلوه ﴿فَهُوَ وَلِيُّهُمْ الْيَوْمَ﴾ أى: هم تحت العقوبة والنكال، والشيطان وليهم، ولا يملك لهم خلاصا، ولا صريخ لهم، ولهم عذاب أليم.

ثم قال تعالى لرسوله: إنه إنما أنزل عليه الكتاب ليبين للناس الذى يختلفون فيه، فالقرآن

فاصل بين الناس في كل ما يتنازعون فيه ﴿ وَهَدَى ﴾ أى : للقلوب ﴿ وَرَحْمَةً ﴾ أى : لمن تمسك به ﴿ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ . وكما جعل تعالى القرآن حياة للقلوب الميتة بكفرها، كذلك يحيى الأرض بعد موتها بما ينزله عليها من السماء من ماء ، ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴾ أى : يفهمون الكلام ومعناه .

﴿ وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً لِّتُنْقِضُوا بِهَا فِي بَطُونِهِمْ مِنْ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَبَنًا خَالِصًا سَائِغًا لِلشَّارِبِينَ ﴾ ﴿١١﴾ وَمِنْ ثَمَرَاتِ النَّخِيلِ وَالْأَعْنَابِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿١٧﴾

يقول تعالى: ﴿ وَإِنَّ لَكُمْ ﴾ أيها الناس ﴿ فِي الْأَنْعَامِ ﴾ وهي: الإبل والبقر والغنم ﴿ لَعِبْرَةً ﴾ أى: لآية ودلالة على قدرة خالقها وحكمته ولطفه ورحمته ﴿ تَسْقِيكُمْ مِمَّا فِي بَطُونِهِ ﴾ ، وأفرد هاهنا الضمير عائد على الحيوان؛ فإن الأنعام حيوانات، أى: نسقيكم مما فى بطن هذا الحيوان. ﴿ مِنْ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَبَنًا خَالِصًا ﴾ أى: يتخلص الدم بياضه وطعمه وحلاوته من بين فرث ودم فى باطن الحيوان، فيسرى كل إلى موطنه، إذا نضج الغذاء فى معدته تصرف منه دم إلى العروق، ولبن إلى الضرع ، وبول إلى المثانة، وروث إلى المخرج، وكل منها لا يشوب الآخر ولا يمازجه بعد انفصاله عنه، ولا يتغير به، وقوله: ﴿ لَبَنًا خَالِصًا سَائِغًا لِلشَّارِبِينَ ﴾ أى: لا يغص به أحد .

ولما ذكر اللبن وأنه تعالى جعله شرابا للناس سائغا ، ثنى بذكر ما يتخذه الناس من الأشربة، من ثمرات النخيل والأعناب، وما كانوا يصنعون من النبيذ المسكر قبل تحريمه؛ ولهذا امتن به عليهم فقال: ﴿ وَمِنْ ثَمَرَاتِ النَّخِيلِ وَالْأَعْنَابِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا ﴾ ، قال ابن عباس فى قوله: ﴿ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا ﴾ : السُّكْرُ: ما حرم من ثمرتيهما ، والرِّزْقُ الحسن ما أحل من ثمرتيهما ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ : ناسب ذكر العقل هاهنا، فإنه أشرف ما فى الإنسان ؛ ولهذا حرم الله على هذه الأمة الأشربة المسكرة صيانة لعقولها ، قال الله تعالى : ﴿ وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّاتٍ مِنْ نَخِيلٍ وَأَعْنَابٍ وَفَجَّرْنَا فِيهَا مِنَ الْعُيُونِ . لِيَأْكُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ أَفَلَا يَشْكُرُونَ . سُبْحَانَ الَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ وَمِنْ أَنْفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [يس: ٣٤ - ٣٦].

﴿ وَأَوْحَى رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنْ اتَّخِذْ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ ﴾ ﴿١٨﴾ ثُمَّ كُلِي مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ فَاسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا يَخْرُجُ مِنْ بَطُونِهَا شَرَابٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ فِيهِ شِفَاءٌ لِلنَّاسِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١٩﴾

المراد بالوحي هاهنا: الإلهام والهداية والإرشاد إلى النحل أن تتخذ من الجبال بيوتا تاوى إليها، ومن الشجر، وبما يعرشون. ثم هى محكمة فى غاية الإتقان فى تسديسها ورضعها، بحيث لا يكون بينها خلل .

ثم أذن لها تعالى إذنا قدريا تسخيريا أن تأكل من كل الثمرات، وأن تسلك الطرق التي جعلها الله تعالى لها مذلة، أى: سهلة عليها حيث شاءت فى هذا الجو العظيم والبرارى الشاسعة، والأودية والجبال الشاهقة، ثم تعود كل واحدة منها إلى موضعها وبيتها، لا تحيد عنه يمنة ولا يسرة، بل إلى بيتها وما لها فيه من فراخ وعسل، فتبنى الشمع من أجنحتها، وتقوى العسل من فيها، وتبيض الفراخ من دبرها، ثم تصبح إلى مراعيها. وقال قتادة، وعبد الرحمن ابن زيد بن أسلم: ﴿ فَاسْلُكِي سَبْلَ رَبِّكَ ذُلًّا ﴾، أى: مطيعة. فجعلناه حالا من السالكة. قال ابن زيد: وهو كقول الله تعالى: ﴿ وَذَلَّلْنَاهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ ﴾ [يس: ٧٢] قال: ألا ترى أنهم ينقلون النحل من بيوته من بلد إلى بلد وهو يصحبهم. والقول الأول أظهر، وهو أنه حال من الطريق، أى: فاسلكيها مذلة لك، نص عليه مجاهد. وقال ابن جرير: كلا القولين صحيح .

وقوله تعالى: ﴿ يَخْرُجُ مِنْ بَطُونِهَا شَرَابٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ ﴾ أى: ما بين أبيض وأصفر وأحمر وغير ذلك من الألوان الحسنة، على اختلاف مراعيها ومآكلها منها وقوله: ﴿ فِيهِ شِفَاءٌ لِلنَّاسِ ﴾ أى: فى العسل شفاء للناس من أدواء تعرض لهم. قال بعض من تكلم على الطب النبوى: لو قال فيه: «الشفاء للناس» لكان دواء لكل داء، ولكن قال ﴿ فِيهِ شِفَاءٌ لِلنَّاسِ ﴾ أى: يصلح لكل أحد من أدواء باردة، فإنه حار، والشىء يداوى بضده. والدليل على أن المراد بقوله تعالى: ﴿ فِيهِ شِفَاءٌ لِلنَّاسِ ﴾ هو العسل - الحديث الذى رواه البخارى ومسلم فى صحيحهما عن أبى سعيد الخدرى ، قال: جاء رجل إلى رسول الله ﷺ فقال: إن أختى استطلقت بطنه. فقال: «اسقه عسلا». فسقاه عسلا، ثم جاء فقال: يا رسول الله، سقيته عسلا فما زاده إلا استطلاقا! قال: «اذهب فاسقه عسلا». فذهب فسقاه، ثم جاء فقال: يا رسول الله، ما زاده إلا استطلاقا! فقال رسول الله ﷺ: «صدق الله، وكذب بطن أخيك! اذهب فاسقه عسلا». فذهب فسقاه فبرئ^(١). قال بعض العلماء بالطب: كان هذا الرجل عنده فضلات، فلما سقاه عسلا وهو حار تحللت، فأسرعت فى الاندفاع، فزاد إسهاله، فاعتقد الأعرابى أن هذا يضره وهو مصلحة لأخيه، ثم سقاه فزاد التحليل والدفع، ثم سقاه فكدلك، فلما اندفعت الفضلات الفاسدة المضرة بالبدن استمسك بطنه، وصلح مزاجه، واندفعت الأسقام والألام ببركة إشارته، عليه من ربه أفضل الصلاة والسلام .

وفى الصحيحين عن عائشة، أن رسول الله ﷺ كان يعجبه الخلوة والعسل. هذا لفظ البخارى^(٢). وفى صحيح البخارى عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «الشفاء فى ثلاثة: فى شُرْطَةِ مِحْجَمٍ، أو شربة عسل، أو كِيَّةِ بِنَارٍ، وأنهى أمتى عن الكى»^(٣). وروى البخارى عن جابر بن عبد الله قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن كان فى شىء من أدويتكم، أو يكون فى شىء من أدويتكم خير: ففى شُرْطَةِ مِحْجَمٍ، أو شربة عسل، أو لذعة بنار توافق الداء، وما أحب أن أكتوى». ورواه مسلم^(٤).

(٢) البخارى (٥٦٨٢) ، ومسلم (١٤٧٤/٢١) .

(١) البخارى (٥٧١٦) ، ومسلم (٩١/٢٢١٧) .

(٤) البخارى (٥٦٨٣) ، ومسلم (٧١/٢٢٠٥) .

(٣) البخارى (٥٦٨٠ ، ٥٦٨١) .

وقوله: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ أى: إن فى إلهام الله لهذه الدواب الضعيفة الخلقه إلى السلوك فى هذه المهامة والاجتناء من سائر الثمار، ثم جمعها للشمع والعسل، وهو من أطيب الأشياء ﴿لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ فى عظمة خالقها ومقدرها ومسخرها وميسرها، فيستدلون بذلك على أنه القادر الحكيم العليم، الكريم الرحيم.

﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ ثُمَّ يُنَوِّقُكُمْ وَمُنَكِّرٌ مَّن يُرَدُّ إِلَىٰ أَرْدَلِ الْعُمُرِ لِكَيْ لَا يَعْلَمَ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ قَدِيرٌ﴾

يخبر تعالى عن تصرفه فى عباده، وأنه هو الذى أنشأهم من العدم، ثم بعد ذلك يتوفاهم، ومنهم من يتركه حتى يدركه الهرم - وهو الضعف فى الخلقه - كما قال الله تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْقَدِيرُ﴾ [الروم: ٥٤]. وقد روى عن على، رضى الله عنه، فى أزدل العمر: خمس وسبعون سنة. وفى هذا السن يحصل له ضعف القوى والخرف وسوء الحفظ وقلة العلم؛ ولهذا قال: ﴿لِكَيْ لَا يَعْلَمَ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْئًا﴾ أى: بعد ما كان عالماً أصبح لا يدرى شيئاً من الفند والخرف؛ ولهذا روى البخارى عند تفسير هذه الآية عن أنس بن مالك؛ أن رسول الله ﷺ كان يدعو: «أعوذ بك من البخل والكسل، والهرم وأزدل العمر، وعذاب القبر، وفتنة الدجال، وفتنة المحيا والممات». ورواه مسلم (١).

﴿وَاللَّهُ فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ فِي الرِّزْقِ فَمَا الَّذِينَ فُضِّلُوا بِرَادِي رِزْقِهِمْ عَلَىٰ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَهُمْ فِيهِ سَوَاءٌ أَفَبِعِزَّةِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾

يبين تعالى للمشركين جهلهم وكفرهم فيما زعموه الله من الشركاء، وهم يعترفون أنها عبيد له، فقال تعالى منكر عليهم: إنكم لا ترضون أن تساوا عبيدكم فيما رزقناكم، فكيف يرضى هو تعالى بمساواة عبيده له فى الإلهية والتعظيم، كما قال فى الآية الأخرى: ﴿ضَرَبَ لَكُمْ مَثَلًا مِنْ أَنْفُسِكُمْ هَلْ لَكُمْ مِنْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ مِنْ شُرَكَاءَ فِي مَا رَزَقْنَاكُمْ فَأَنْتُمْ فِيهِ سَوَاءٌ تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنْفُسَكُمْ﴾ [الروم: ٢٨]. قال ابن عباس فى هذه الآية: لم يكونوا يشركوا عبيدهم فى أموالهم ونسائهم، فكيف يشركون عبيدى معى فى سلطانى، فذلك قوله: ﴿أَفَبِعِزَّةِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾، وقال فى الرواية الأخرى، عنه: فكيف ترضون لى ما لا ترضون لأنفسكم. وقال قتادة: هذا مثل ضربه الله، فهل منكم من أحد شارك مملوكه فى زوجته وفى فراشه، فتعدلون بالله خلقه وعباده؟ فإن لم ترض لنفسك هذا، فالله أحق أن ينزّه منك.

وقوله: ﴿أَفَبِعِزَّةِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾ أى: إنهم جعلوا الله مما ذرأ من الحرث والأنعام نصيباً، فجحدوا نعمته، وأشركوا معه غيره.

(١) البخارى (٤٧٠٧)، ومسلم (٥٢/٢٧٠٦) بدون «والهرم».

﴿ وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ بَنِينَ وَحَفَدَةً وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ أَفَبِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَتِ اللَّهِ هُمْ يَكْفُرُونَ ﴾ (٧٢)

يذكر تعالى نعمه على عبده، بأن جعل لهم من أنفسهم أزواجا من جنسهم وشكلهم ، ولو جعل الأزواج من نوع آخر لما حصل ائتلاف ومودة ورحمة ، ولكن من رحمته خلق من بنى آدم ذكورا وإناثا، وجعل الإناث أزواجا للذكور.

ثم ذكر تعالى أنه جعل من الأزواج البنين والحفدة، وهم أولاد البنين. قاله ابن عباس، وعكرمة، والحسن، والضحاك، وابن زيد. قال ابن عباس: ﴿ بَنِينَ وَحَفَدَةً ﴾ : هم الولد وولد الولد. وقال مجاهد : ابنه وخادمه. وقال فى رواية: الحفدة: الأنصار والأعوان والخدام. وقال عكرمة : الحفدة: مَنْ خَدَمَكَ مِنْ وَلَدِكَ وَوَلَدَ وَلَدِكَ. قال ابن جرير: وهذه الأقوال كلها داخله فى معنى: «الحفد» وهو الخدمة، ولما كانت الخدمة قد تكون من الأولاد والأصهار والخدم ، فالنعمه حاصله بهذا كله ؛ ولهذا قال : ﴿ وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ بَنِينَ وَحَفَدَةً ﴾ .

﴿ وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ ﴾ : من المطاعم والمشارب. ثم قال تعالى منكرا على من أشرك فى عبادة المنعم غيره: ﴿ أَفَبِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ ﴾ وهم : الأصنام والأنداد ﴿ وَبِنِعْمَتِ اللَّهِ هُمْ يَكْفُرُونَ ﴾ أى : يسترون نعم الله عليهم ويضيفونها إلى غيره، وفى الحديث الصحيح: «إن الله تعالى يقول للعبد يوم القيامة ممتنا عليه: ألم أزوجك؟ ألم أكرمك؟ ألم أسخر لك الخيل والإبل وأذرك ترأس وتربع؟» (١).

﴿ وَبِعِبَادُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَهُمْ رِزْقًا مِنَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ شَيْئًا وَلَا يَسْتَطِيعُونَ ﴾ (٧٢) ﴿ فَلَا تَضْرِبُوا لِلَّهِ الْأَمْثَالَ إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾ (٧٤)

يقول تعالى إخبارا عن المشركين الذين عبدوا معه غيره، مع أنه هو المنعم المفضل الخالق الرازق وحده لا شريك له، ومع هذا يعبدون من دونه من الأصنام والأنداد والأوثان ﴿ مَا لَا يَمْلِكُ لَهُمْ رِزْقًا مِنَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ شَيْئًا ﴾ أى: لا يقدر على إنزال مطر ولا إنبات زرع ولا شجر، ولا يملكون ذلك، أى: ليس لهم ذلك ولا يقدرون عليه لو أرادوه، ولهذا قال تعالى: ﴿ فَلَا تَضْرِبُوا لِلَّهِ الْأَمْثَالَ ﴾ أى: لا تجعلوا له أندادا وأشباهها وأمثالا ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾ أى: إنه يعلم ويشهد أنه لا إله إلا الله ، وأنتم بجهلكم تشركون به غيره.

﴿ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا عَبْدًا مَمْلُوكًا لَا يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ وَمَنْ رَزَقْنَاهُ مِنَّا رِزْقًا حَسَنًا فَهُوَ يُنْفِقُ مِنْهُ سِرًّا وَجَهْرًا هَلْ يَسْتَوُونَ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ (٧٥)

ربع

قال ابن عباس: هذا مثل ضربه الله للكافر والمؤمن . وكذا قال قتادة، واختاره ابن جرير. فالعبد المملوك الذي لا يقدر على شيء مثل الكافر ، والمرزوق الرزق الحسن فهو ينفق منه سرا وجهرا هو المؤمن . وقال مجاهد : هو مثل مضروب للوثن والحق تعالى، فهل يستوى هذا وهذا؟ ولما كان الفرق ما بينهما بينا واضحا ظاهراً لا يجهله إلا كل غبي، قال تعالى: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ .

﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَجُلَيْنِ أَحَدُهُمَا أَبْكَمُ لَا يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ وَهُوَ كَلٌّ عَلَى مَوْلَاهُ أَيْنَمَا يُوَجِّههُ لَا يَأْتِ بِخَيْرٍ هَلْ يَسْتَوِي هُوَ وَمَنْ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَهُوَ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾

قال مجاهد: وهذا أيضاً المراد به الوثن والحق تعالى، يعنى: أن الوثن أبكم لا يتكلم ولا ينطق بخير ولا بشيء ، ولا يقدر على شيء بالكلية، فلا مقال، ولا فعال، وهو مع هذا ﴿كَلٌّ﴾ أى: عيال وكلفة على مولاه ﴿أَيْنَمَا يُوَجِّههُ﴾ أى: بعثه ﴿لَا يَأْتِ بِخَيْرٍ﴾ ولا ينجح مسعاه ﴿هَلْ يَسْتَوِي﴾ من هذه صفاته ﴿وَمَنْ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ﴾ أى: بالقسط، فقاله حق وفعاله مستقيمة ﴿وَهُوَ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ وبهذا قال السدى، وقاتدة وعطاء الخراسانى. واختار هذا القول ابن جرير. وقال ابن عباس: هو مثل للكافر والمؤمن أيضاً، كما تقدم. وعن ابن عباس فى قوله: ﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا عَبْدًا مَمْلُوكًا لَا يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ﴾: نزلت فى رجل من قريش وعبده. وفى قوله: ﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَجُلَيْنِ أَحَدُهُمَا أَبْكَمُ﴾ إلى قوله: ﴿وَهُوَ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾، قال هو عثمان بن عفان. قال: والأبكم الذى أينما يوجهه لا يأت بخير قال هو: مولى لعثمان بن عفان، كان عثمان ينفق عليه ويكفله ويكفيه المئونة، وكان الآخر يكره الإسلام وبأباه وينهاه عن الصدقة والمعروف، فنزلت فيهما.

﴿وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا أَمْرُ السَّاعَةِ إِلَّا كَلَمْحِ الْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ ﴿٧٦﴾ وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَرَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٧٧﴾ أَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ مُسَخَّرَاتٍ فِي جَوْ السَّمَاءِ مَا يُمَسِّكُهُنَّ إِلَّا اللَّهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٧٨﴾

يخبر تعالى عن كماله وقدرته على الأشياء، فى علمه غيب السموات والأرض، واختصاصه بذلك، فلا اطلاع لأحد على ذلك إلا أن يطلعه تعالى على ما يشاء، وفى قدرته التامة التى لا تخالف ولا تمنع، وأنه إذا أراد شيئاً فإنما يقول له كن، فيكون، كما قال: ﴿وَمَا أَمْرُنَا إِلَّا وَاحِدَةٌ كَلَمْحِ بِالْبَصَرِ﴾ [القدر: ٥٠] أى: فيكون ما يريد كطرف العين. وهكذا قال هاهنا: ﴿وَمَا أَمْرُ السَّاعَةِ إِلَّا كَلَمْحِ الْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾، كما قال: ﴿مَا خَلَقَكُمْ وَلَا بِحُكْمٍ إِلَّا كَفَسٍ وَاحِدَةً﴾

[لقمان: ٢٨]

ثم ذكر تعالى مئته على عباده، فى إخراجهم إياهم من بطون أمهاتهم لا يعلمون شيئاً، ثم

بعد هذا يرزقهم تعالى السمع الذى به يدركون الأصوات، والأبصار اللاتى بها يحسون المرئيات، والأفتدة - وهى العقول - التى مركزها القلب على الصحيح، وقيل: الدماغ والعقل به يميز بين الأشياء ضارها ونافعها. وهذه القوى والحواس تحصل للإنسان على التدرج قليلا قليلا، كلما كبر زيد فى سمعه وبصره وقوى عقله حتى يبلغ أشده.

وإنما جعل تعالى هذه فى الإنسان، ليتمكن بها من عبادة ربه تعالى، فيستعين بكل جارحة وعضو وقوة على طاعة مولاه، كما جاء فى صحيح البخارى، عن أبى هريرة، عن رسول الله ﷺ أنه قال: «يقول تعالى: من عادى لى وليا فقد بارزنى بالحرب، وما تقرب إلى عبدى بمثل أداء ما افترضت عليه. ولا يزال عبدى يتقرب إلى بالنوافل حتى أحبه، فإذا أحببته كنت سمعه الذى يسمع به، وبصره الذى يبصر به، ويده التى يبطش بها، ورجله التى يمشى بها، ولئن سألتى لأعطينه، ولئن دعانى لأجيبه، ولئن استعاذ بى لأعيذنه، وما ترددت فى شيء أنا فاعله ترددى فى قبض نفس عبدى المؤمن، يكره الموت وأكره مساءته، ولا بد له منه» (١). فمعنى الحديث: أن العبد إذا أخلص الطاعة صارت أفعاله كلها لله عز وجل، فلا يسمع إلا الله، ولا يبصر إلا الله، أى: ما شرعه الله له، ولا يبطش ولا يمشى إلا فى طاعة الله عز وجل، مستعينا بالله فى ذلك كله؛ ولهذا قال تعالى: ﴿ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ كما قال فى الآية الأخرى: ﴿ قُلْ هُوَ الَّذِي أَنْشَأَكُمْ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ. قُلْ هُوَ الَّذِي ذَرَأَكُمْ فِي الْأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴾ [الملك: ٢٣، ٢٤].

ثم نبه تعالى عباده إلى النظر إلى الطير المسخر بين السماء والأرض، كيف جعله يطير بجناحيه بين السماء والأرض، فى جو السماء ما يسكه هناك إلا الله بقدرته تعالى، الذى جعل فيها قوى تفعل ذلك، وسخر الهواء يحملها ويسر الطير لذلك، كما قال تعالى فى سورة الملك: ﴿ أَوْ لَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَفَاتٍ وَيَقْبِضْنَ مَّا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا الرَّحْمَنُ إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ بَصِيرٌ ﴾ [الملك: ١٩]، وقال هاهنا: ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾.

﴿ وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنْ بُيُوتِكُمْ سَكَنًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنْ جُلُودِ الْأَنْعَامِ بُيُوتًا تَسْتَخِفُّونَهَا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ وَمِنْ أَصْوَابِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَا أَثْنَا وَمِثْمًا إِلَى حِينٍ ﴾ (٨٠)

وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِمَّا خَلَقَ ظِلَالًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ الْجِبَالِ أَكْنَانًا وَجَعَلَ لَكُم سَرَابِيلَ تَقِيكُمُ الْحَرَّ وَسَرَابِيلَ تَقِيكُمُ بَأْسَكُمْ كَذَلِكَ يُتَرِّقُ نِعْمَتُهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٨١﴾ فَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلْغُ الْمَمِينُ ﴿٨٢﴾ يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ اللَّهِ ثُمَّ يُنْكِرُوهَا وَأَكْثَرُهُمُ الْكَافِرُونَ ﴿٨٣﴾

يذكر تبارك وتعالى تمام نعمه على عبده، بما جعل لهم من البيوت التى هى سكن لهم، يأوون إليها، ويستترون بها، وينتفعون بها سائر وجوه الانتفاع، وجعل لهم أيضاً ﴿ مِّنْ جُلُودِ

الأنعام بيوتاً ﴿ أى : من الأدم ، يستخفون حملها فى أسفارهم ، ليضربوها لهم فى إقامتهم فى السفر والحضر ؛ ولهذا قال : ﴿ تَسْتَخْفُونَهَا يَوْمَ طَفَعْنَا بِكُمْ وَيَوْمَ إقَامَتِكُمْ وَمِنْ أَصْوَابِهَا ﴾ أى : الغنم ﴿ وَأَوْبَارِهَا ﴾ أى : الإبل ، ﴿ وَأَشْعَارِهَا ﴾ أى : المعز ، والضمير عائد على الأنعام ﴿ أَثَانًا ﴾ أى : تتخذون منه أثاناً ، وهو المال . وقيل : المتاع . وقيل : الثياب والصحيح أعم من هذا كله ، فإنه يتخذ من الأثاث البسط والثياب ، وغير ذلك ، ويتخذ مالا وتجارة ﴿ إِلَى حِينٍ ﴾ أى : إلى أجل مسمى ووقت معلوم .

وقوله : ﴿ وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِمَّا خَلَقَ ظَلالًا ﴾ قال قتادة : يعنى : الشجر ﴿ وجعل لكم مِنَ الْجِبَالِ أَكَنَانًا ﴾ أى : حصونا ومعازل ، كما ﴿ جَعَلَ لَكُمْ سَرَابِيلَ تَقِيكُمُ الْحَرَّ ﴾ ، وهى الثياب من القطن والكتان والصوف ﴿ وَسَرَابِيلَ تَقِيكُمُ بَأْسَكُمْ ﴾ كالدرع من الحديد المصفح والزرد وغير ذلك ﴿ كَذَلِكَ يُعَمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ ﴾ أى : هكذا يجعل لكم ما تستعينون به على أمركم ، وما تحتاجون إليه ، ليكون عوناً لكم على طاعته وعبادته ﴿ نَعَلَكُمْ تَسْلِمُونَ ﴾ . أى : من الإسلام .

وقوله : ﴿ فَإِن تَوَلَّوْا ﴾ أى : بعد هذا البيان وهذا الامتنان ، فلا عليك منهم ﴿ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ الْمُبِينُ ﴾ وقد أدبته إليهم . ﴿ يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ اللَّهِ ثُمَّ يُنكِرُونَهَا ﴾ أى : يعرفون أن الله تعالى هو المسدى إليهم ذلك ، وهو المتفضل به عليهم ، ومع هذا ينكرون ذلك ، ويعبدون معه غيره ، ويسندون النصر والرزق إلى غيره ﴿ وَأَكْثَرَهُمُ الْكَافِرُونَ ﴾ .

﴿ وَيَوْمَ نَبْعَثُ مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا ثُمَّ لَا يُؤْذَنُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ ﴾ وَإِذَا رَأَى الَّذِينَ ظَلَمُوا الْعَذَابَ فَلَا يُخَفِّفْ عَنْهُمْ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴿ ٨٥ ﴾ وَإِذَا رَأَى الَّذِينَ أَشْرَكُوا شُرَكَاءَ هُمْ قَالُوا رَبَّنَا هَؤُلَاءِ شُرَكَائُنَا الَّذِينَ كُنَّا نَدْعُوا مِنْ دُونِكَ فَأَلْقَوْا إِلَيْهِمُ الْقَوْلَ إِنَّكُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿ ٨٦ ﴾ وَالْقَوْلُ إِلَى اللَّهِ يَوْمَئِذٍ السَّلَامُ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴿ ٨٧ ﴾ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدَّوْا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ زِدْنَاهُمْ عَذَابًا فَوْقَ الْعَذَابِ بِمَا كَانُوا يُفْسِدُونَ ﴿ ٨٨ ﴾

يخبر تعالى عن شأن المشركين يوم معادهم فى الدار الآخرة ، وأنه يبعث من كل أمة شهيداً ، وهو نبيها ، يشهد عليها بما أجابته فيما بلغها عن الله تعالى ، ﴿ ثُمَّ لَا يُؤْذَنُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ أى : فى الاعتذار ؛ لأنهم يعلمون بطلانه وكذبه ، كما قال : ﴿ هَذَا يَوْمٌ لَا يَنْطِقُونَ . وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ ﴾ [المرسلات : ٣٥ ، ٣٦] . ولهذا قال : ﴿ وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ . وَإِذَا رَأَى الَّذِينَ ظَلَمُوا ﴾ أى : أشركوا ﴿ الْعَذَابَ فَلَا يُخَفِّفُ عَنْهُمْ ﴾ أى : لا يفتقر عنهم ساعة واحدة ﴿ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴾ أى : لا يؤخر عنهم ، بل يأخذهم سريعاً من الموقف بلا حساب .

ثم أخبر تعالى عن تبرئ آلهتهم منهم أحوج ما يكونون إليها ، فقال : ﴿ وَإِذَا رَأَى الَّذِينَ أَشْرَكُوا شُرَكَاءَ هُمْ ﴾ أى : الذين كانوا يعبدونهم فى الدنيا ﴿ قَالُوا رَبَّنَا هَؤُلَاءِ شُرَكَائُنَا الَّذِينَ كُنَّا نَدْعُوا مِنْ

ذُنُوبِكُمْ فَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿٨٩﴾ أى: قالت لهم الآلهة: كذبتم، ما نحن أمرناكم بعبادتنا. كما قال تعالى: ﴿ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُو مِنْ دُونِ اللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَهُمْ عَنِ دُعَائِهِمْ غَافِلُونَ. وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءً وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ ﴿ [لاحقاف: ٥، ٦] وقال تعالى: ﴿ وَأَتَّخِذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ إِلَهَةً لِّيُكُونُوا لَهُمْ عِزًّا. كَلَّا سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا ﴿ [مريم: ٨١]، ٨٢]. وقال الخليل عليه الصلاة والسلام: ﴿ ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُمْ بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُمْ بَعْضًا وَمَأْوَاكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُمْ مِنْ نَاصِرِينَ ﴿ [العنكبوت: ٢٥] وقال تعالى: ﴿ وَيَوْمَ يَقُولُ نَادُوا شُرَكَائِيَ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ مَوْبِقًا ﴿ [الكهف: ٥٢] والآيات فى هذا كثيرة.

وقوله: ﴿ وَأَتَّقُوا إِلَى اللَّهِ يَوْمَئِذٍ السَّلَامِ ﴿ قال قتادة وعكرمة: ذلوا واستسلموا يومئذ، أى: استسلموا لله جميعهم، فلا أحد إلا سامع مطيع، كما قال: ﴿ أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ يَوْمَ يَأْتُونَنَا ﴿ [مريم: ٣٨] أى: ما أسمعهم وما أبصرهم يومئذ! وقال تعالى: ﴿ وَلَوْ تَرَى إِذِ الْمُجْرِمُونَ نَاكِسُو رُءُوسِهِمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَارْجِعْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ ﴿ [السجدة: ١٢]، وقال: ﴿ وَعَسَى أَنْ تَمُرُّوا عَلَيْهِمْ حِينًا مَبْغُوثِينَ ﴿ [طه: ١١١] أى: خضعت وذلت واستكانت وأنابت واستسلمت ﴿ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴿ [أى: ذهب واضمححل ما كانوا يعبدونه افتراء على الله فلا ناصر لهم ولا معين ولا مجبر.

ثم قال تعالى: ﴿ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ زِدْنَاهُمْ عَذَابًا فَوْقَ الْعَذَابِ بِمَا كَانُوا يُفْسِدُونَ ﴿ أى: عذابا على كفرهم، وعذابا على صدهم الناس عن اتباع الحق، كما قال تعالى: ﴿ وَهُمْ يَتَّبِعُونَ عَنْهُ وَيَتَّبِعُونَ عَنْهُ ﴿ [الأنعام: ٢٦] أى: ينهون الناس، عن اتباعه، ويتبعونهم منه أيضا ﴿ وَإِنْ يَهْلِكُونَ إِلَّا أَنْفُسُهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿ . [الأنعام: ٢٦] . وهذا دليل على تفاوت الكفار فى عذابهم، كما يتفاوت المؤمنون فى منازلهم فى الجنة ودرجاتهم، كما قال تعالى: ﴿ قَالَ لِكُلِّ ضِعْفٍ وَلَكِنْ لِأْتَعْلَمُونَ ﴿ [الأعراف: ٣٨].

﴿ وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِمْ مِنْ أَنْفُسِهِمْ وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَىٰ هَؤُلَاءِ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تَبْيِينًا لِكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ﴿ [٨٩] ﴾

يقول تعالى مخاطبا عبده ورسوله محمدا ﷺ: ﴿ وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِمْ مِنْ أَنْفُسِهِمْ وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَىٰ هَؤُلَاءِ ﴾ يعنى: أمته، أى: اذكر ذلك اليوم وهوله وما منحك الله فيه من الشرف العظيم والمقام الرفيع.

وقوله: ﴿ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تَبْيَانًا لِكُلِّ شَيْءٍ ﴾ قال ابن مسعود: قد بين لنا فى هذا القرآن كل علم، وكل شىء. وقال مجاهد: كل حلال وحرام. وقول ابن مسعود: أعم وأشمل؛ فإن القرآن اشتمل على كل علم نافع من خير ما سبق، وعلم ما سياتى، وحكم كل حلال وحرام، وما الناس إليه محتاجون فى أمر دنياهم ودينهم، ومعاشهم ومعادهم ﴿ وَهُدًى ﴾ أى: للقلوب ﴿ وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ﴾. ووجه اقتران قوله: ﴿ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ ﴾ مع قوله: ﴿ وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا

عَلَى هَؤُلَاءِ ﴿ أَنْ الْمُرَادِ - وَاللَّهُ أَعْلَمُ - : إِنْ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ تَبْلِيغَ الْكِتَابِ الَّذِي أَنْزَلَهُ عَلَيْكَ ، سَأَلْتُكَ عَنْ ذَلِكَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، ﴿ فَلَنَسْتَلُنَّ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْتَلُنَّ الْمُرْسَلِينَ ﴾ [الاعراف: ٦] ، ﴿ فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ . عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ [الحجر: ٩٢ ، ٩٣] ، ﴿ يَوْمَ يَجْمَعُ اللَّهُ الرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَا أَجْتُمُّ قَالُوا لَا عِلْمَ لَنَا إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ ﴾ [المائدة: ١٠٩] ، وقال تعالى : ﴿ إِنْ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَادُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ ﴾ [القصص: ٨٥] أى : إِنْ الَّذِي أَوْجِبَ عَلَيْكَ تَبْلِيغَ الْقُرْآنِ لَرَادُّكَ إِلَيْهِ ، وَمَعِيدِكَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، وَسَأَلْتُكَ عَنْ آدَاءِ مَا فَرَضَ عَلَيْكَ . هَذَا أَحَدُ الْأَقْوَالِ ، وَهُوَ مُتَّجِهٌ حَسَنٌ .

﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَايَ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُم لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾

يخبر تعالى أنه يأمر عباده بالعدل، وهو القسط والموازنة، ويندب إلى الإحسان، كما قال تعالى : ﴿ وَإِنْ عَاقَبْتُمْ لِمَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عَاقَبْتُمْ بِهِ وَلَئِنْ صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِلصَّابِرِينَ ﴾ [النحل: ١٢٦] ، وقال : ﴿ وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ ﴾ [الشورى: ٤٠] ، وقال : ﴿ وَالْجُرُوحُ قِصَاصٌ فَمَنْ تَصَدَّقَ بِهِ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَهُ ﴾ [المائدة: ٤٥] ، إلى غير ذلك من الآيات الدالة على هذا، من شرعية العدل والندب إلى الفضل. وقال ابن عباس : ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ ﴾ قال : شهادة أن لا إله إلا الله. وقال سفيان بن عيينة : العدل فى هذا الموضع : استواء السريرة والعلانية من كل عامل لله عملاً . والإحسان : أن تكون سريرته أحسن من علانيته، والفحشاء والمنكر : أن تكون علانيته أحسن من سريرته .

وقوله : ﴿ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَىٰ ﴾ أى : يأمر بصلة الأرحام ، كما قال : ﴿ وَأَتِ ذَا الْقُرْبَىٰ حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَلَا تَبْذُرْ تَبْدِيرًا ﴾ [الإسراء: ٢٦] . وقوله : ﴿ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ ﴾ فالفواحش : المحرمات ، والمنكرات : ما ظهر منها من فاعلها ؛ ولهذا قال فى الموضع الآخر : ﴿ قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّي الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَّنَ ﴾ [الاعراف: ٣٣] . وأما البغى فهو : العدوان على الناس . وقد جاء فى الحديث : « ما من ذنب أجدر أن يعجل الله عقوبته فى الدنيا ، مع ما يدخر لصاحبه فى الآخرة ، من البغى وقطيعة الرحم » (١) .

وقوله : ﴿ يَعِظُكُم ﴾ أى : يأمركم بما يأمركم به من الخير ، وينهاكم عما ينهاكم عنه من الشر ، ﴿ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾ .

قال ابن مسعود : إن أجمع آية فى القرآن فى سورة النحل : ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ ﴾ الآية .

عن قتادة : قوله : ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ ﴾ الآية ليس من خلق حسن كان أهل الجاهلية يعملون به ويستحسنون إلا أمر الله به ، وليس من خلق سيئ كانوا يتعابرونه بينهم إلا نهى الله عنه

وقدم فيه . وإنما نهى عن سفاسف الأخلاق ومذامها . وقد ورد في نزول هذه الآية الكريمة حديث حسن ، رواه الإمام أحمد عن عبد الله بن عباس قال : بينما رسول الله ﷺ بفناء بيته جالس ، إذ مر به عثمان ابن مظعون ، فكشر إلى رسول الله ﷺ ، فقال له رسول الله ﷺ : « ألا تجلس ؟ » فقال : بلى . قال : فجلس رسول الله ﷺ مستقبله ، فبينما هو يحدثه إذ شَخَص رسول الله ﷺ ببصره إلى السماء ، فنظر ساعة إلى السماء فأخذ يضع بصره حتى وضعه على يَمَنته في الأرض ، فتحرف رسول الله ﷺ عن جلسه عثمان إلى حيث وضع بصره فأخذ يَغْضُ رأسه كأنه يستفقه ما يقال له ، وابن مظعون ينظر فلما قضى حاجته واستفقه ما يقال له ، شَخَص بصر رسول الله ﷺ إلى السماء كما شَخَص أول مرة . فأتبعه بصره حتى توارى في السماء . فأقبل إلى عثمان بجلسته الأولى فقال : يا محمد ، فيم كنت أجالسك ؟ ما رأيتك تفعل كفعلك الغداة ! قال : « وما رأيتني فعلت ؟ » قال : رأيتك شَخَص بصرك إلى السماء ثم وضعته حيث وضعته على يمينك ، فتحرفت إليه وتركتني ، فأخذت تُغْضُ رأسك كأنك تستفقه شيئاً يقال لك . قال : « وفطنت لذلك ؟ » فقال عثمان : نعم . قال رسول الله ﷺ : « أتاني رسول الله أنفا وأنت جالس » . قال : رسول الله ؟ قال : « نعم » . قال : فما قال لك ؟ قال : « إن الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذي القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغى يعظكم لعلكم تذكرون » قال عثمان : فذلك حين استقر الإيمان في قلبي ، وأحببت محمداً ﷺ . إسناده جيد متصل حسن (١) .

﴿ وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدْتُمْ وَلَا تَنْقُضُوا الْأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللَّهُ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ ﴾ ﴿٩١﴾ وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِي نَقَضَتْ غَزَلَهَا مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنْكَا تَتَّخِذُونَ أَيْمَانَكُمْ دَخَلًا بَيْنَكُمْ أَنْ تَكُونَ أُمَّةٌ هِيَ أَرْبَى مِنْ أُمَّةٍ إِنَّمَا يَبْلُوكُمُ اللَّهُ بِهِ وَلِيُبَيِّنَ لَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَا كُنتُمْ فِيهِ تَخَالِفُونَ ﴿٩٢﴾

وهذا مما يأمر الله تعالى به ، وهو : الوفاء بالعهود والمواثيق ، والمحافظة على الأيمان المؤكدة ؛ ولهذا قال : ﴿ وَلَا تَنْقُضُوا الْأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا ﴾ . ولا تعارض بين هذا وبين قوله : ﴿ وَلَا تَجْعَلُوا اللَّهَ عُرْضَةً لِأَيْمَانِكُمْ أَنْ تَبَرُّوا وَتَقْتُلُوا وَتَصْلِحُوا بَيْنَ النَّاسِ ﴾ [البقرة : ٢٢٤] وبين قوله تعالى : ﴿ ذَلِكَ كَفَّارَةٌ أَيْمَانِكُمْ إِذَا حَلَفْتُمْ وَاحْفَظُوا أَيْمَانَكُمْ ﴾ [المائدة : ٨٩] أى : لا تتركوها بلا تكفير ، لا تعارض بين هذا ولا بين الآية المذكورة هاهنا وهى قوله : ﴿ وَلَا تَنْقُضُوا الْأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا ﴾ ؛ لأن هذه الأيمان المراد بها الداخلة فى العهود والمواثيق ، لا الأيمان التى هى واردة على حث أو منع ؛ ولهذا قال مجاهد فى قوله : ﴿ وَلَا تَنْقُضُوا الْأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا ﴾ . يعنى : الحلف ، أى : حلف الجاهلية ؛ ويؤيده ما رواه الإمام أحمد عن جبير بن مطعم قال : قال رسول الله ﷺ : « لا حلف فى الإسلام ، وأيما حلف كان فى الجاهلية لم يزد الإسلام إلا شدة » . وكذا رواه مسلم (٢) . ومعناه : أن الإسلام لا يحتاج معه

(١) المسند (٢٩٢٢) ، وقال الشيخ أحمد شاكر : « إسناده صحيح » .

(٢) المسند (٨٣/٤) ، ومسلم (٢٥٣٠/٦) .

إلى الحلف الذى كان أهل الجاهلية يفعلونه، فإن فى التمسك بالإسلام كفاية عما كانوا فيه . وأما ما ورد فى الصحيحين عن أنس، أنه قال: حالف رسول الله ﷺ بين المهاجرين والأنصار فى دارنا (١) - فمعناه: أنه آخى بينهم، فكانوا يتوارثون به، حتى نسخ الله ذلك، والله أعلم. وروى الإمام أحمد عن نافع قال: لما خلع الناس يزيد بن معاوية، جمع ابن عمر بنيه وأهله، ثم شهد، ثم قال: أما بعد، فإننا قد بايعنا هذا الرجل على بيع الله ورسوله، وإنى سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن الغادر يُنصب له لواء يوم القيامة، فيقال: هذه غدرة فلان وإن من أعظم الغدر - إلا أن يكون الإشراك بالله - أن يبايع رجل رجلا على بيع الله ورسوله، ثم ينكث بيعته، فلا يخلعن أحد منكم يزيد ولا يسرفن أحد منكم فى هذا الأمر، فيكون صليماً بينى وبينه». المرفوع منه فى الصحيحين (٢).

وقوله: ﴿ إِنْ اللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ ﴾ تهديد ووعيد لمن نقض الأيمان بعد توكيدها.

وقوله: ﴿ وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَقَضَتْ غَزَلَهُمْ مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنْكَاثًا ﴾ قال مجاهد، وقاتدة: هذا مثل لمن نقض عهده بعد توكيده ﴿ أَنْكَاثًا ﴾: يحتمل أن يكون اسم مصدر: نقضت غزلها أنكاثا، أى: أنقاضا. ويحتمل أن يكون بدلا عن خبر كان، أى: لا تكونوا أنكاثا، جمع نكث من ناكث؛ ولهذا قال بعده: ﴿ تَتَّخِذُونَ أَيْمَانَكُمْ دَخَلًا بَيْنَكُمْ ﴾ أى: خديعة ومكرا ﴿ أَنْ تَكُونَ أُمَّةٌ هِيَ أَرْبَىٰ مِنْ أُمَّةٍ ﴾ أى: يحلفون للناس إذا كانوا أكثر منكم ليطمئنوا إليكم، فإذا أمكنكم الغدر بهم غدرتُم. فهى الله عن ذلك، لينبه بالأدنى على الأعلى؛ إذا كان قد نهى عن الغدر والحالة هذه، فلأن ينهى عنه مع التمكن والقدرة بطريق الأولى. قال ابن عباس: ﴿ أَنْ تَكُونَ أُمَّةٌ هِيَ أَرْبَىٰ مِنْ أُمَّةٍ ﴾ أى: أكثر. وقال مجاهد: كانوا يحالفون الحلفاء، فيجدون أكثر منهم وأعز، فينقضون حلف هؤلاء ويحالفون أولئك الذين هم أكثر وأعز. فنهوا عن ذلك.

وقوله: ﴿ إِنَّمَا يَتُوبُ إِلَى اللَّهِ بَعْضُهُمْ ﴾ قال سعيد بن جبير: يعنى بالكثرة، وقال ابن جرير: أى: بأمره إياكم بالوفاء والعهد. ﴿ وَلَيَبِيِّنَ لَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴾ فيجازى كل عامل بعمله، من خير وشر.

﴿ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ
وَلَتُنْتَلِزَنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٩٧﴾ وَلَا تَتَّخِذُوا أَيْمَانَكُمْ دَخَلًا بَيْنَكُمْ فَتَزِلَّ قَدَمٌ بَعْدَ ثُبُوتِهَا
وَتَذُوقُوا أَلْسِنَةَ السَّوْءِ يَمَا صَدَدْتُمْ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَلَكِنَّ عَذَابَ عَظِيمٍ ﴿٩٨﴾ وَلَا تَشْتَرُوا بِعَهْدِ اللَّهِ
ثَمَنًا قَلِيلًا إِنَّمَا عِنْدَ اللَّهِ هُوَ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٩٩﴾ مَا عِنْدَكُمْ يَنْفَدُ وَمَا عِنْدَ
اللَّهِ بَاقٍ وَلَنَجْزِيَنَ الَّذِينَ صَبَرُوا أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٠٠﴾ ﴾

(١) البخارى (٢٢٩٤)، ومسلم (٢٠٤/٢٥٢٩).

(٢) المسند (٥٠٨٨)، والبخارى (٣١٨٨) ومسلم (٩/١٧٣٥).

يقول تعالى: ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ﴾ أيها الناس ﴿أُمَّةً وَاحِدَةً﴾، كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَأَمَنَّ مِنَ فِي الْأَرْضِ كُلَّهُمْ جَمِيعًا﴾ [يونس: ٩٩] أى: لوفق بينكم، ولما جعل اختلافا ولا تباعض ولا شحنا. ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ. إِلَّا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ﴾ [هود: ١١٨، ١١٩]، وهكذا قال هاهنا: ﴿وَلَكِنْ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾ ثم يسألكم يوم القيامة عن جميع أعمالكم، فيجازيكم عليها على القليل والتقير والقطمير.

ثم حذر تعالى عباده عن اتخاذ الأيمان دخلا، أى: خديعة ومكرآ، لثلا تزل قدم بعد ثبوتها: مثل لمن كان على الاستقامة فحاد عنها وزل عن طريق الهدى، بسبب الأيمان الخائنة المشتملة على الصد عن سبيل الله، لأن الكافر إذا رأى أن المؤمن قد عاهده ثم غدر به، لم يبق له وثوق بالدين، فانصد بسببه عن الدخول فى الإسلام؛ ولهذا قال: ﴿وَتَذُقُوا السُّوءَ بِمَا صَدَدْتُمْ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَلَكُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾.

ثم قال تعالى: ﴿وَلَا تَشْتَرُوا بِعَهْدِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ أى: لا تعاضوا عن الأيمان بالله عرَض الحياة الدنيا وزينتها، فإنها قليلة، ولو حيزت لابن آدم الدنيا بحذافيرها لكان ما عند الله هو خير له، أى: جزاء الله وثوابه خير لمن رجاه وآمن به وطلبه، وحفظ عهده رجاه موعوده؛ ولهذا قال: ﴿إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ. مَا عِنْدَكُمْ يَفْدَىٰ﴾ أى: يفرغ وينقضى، فإنه إلى أجل محدود محصور مقدر متناه ﴿وَمَا عِنْدَ اللَّهِ بَاقٍ﴾ أى: وثوابه لكم فى الجنة باق لا انقطاع ولا نفاذ له فإنه دائم لا يحول ولا يزول ﴿وَلَنَجْزِيَنَّهُمُ الَّذِينَ صَبَرُوا أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾: قسم من الرب عز وجل، أنه يجازى الصابرين بأحسن أعمالهم، أى: ويتجاوز عن سيئها.

﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أَنَّىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهٗ حَيٰوةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ (١٧)

هذا وعد من الله تعالى لمن عمل صالحا - وهو العمل المتابع لكتاب الله تعالى وسنة نبيه، من ذكر أو أنثى من بنى آدم، وقلبه مؤمن بالله ورسوله، وأن هذا العمل المأمور به مشروع عند الله - بأن يحييه الله حياة طيبة فى الدنيا وأن يجزيه بأحسن ما عمله فى الدار الآخرة. والحياة الطيبة تشمل وجوه الراحة من أى جهة كانت. وقد روى عن ابن عباس وجماعة أنهم فسروها بالرزق الحلال الطيب. وعن على بن أبى طالب أنه فسرها بالقناعة. وكذا قال ابن عباس، وعكرمة، ووهب بن منبه. وقال الحسن، وقتادة: لا يطيب لأحد الحياة إلا فى الجنة. وقال الضحاك: هى العمل بالطاعة والانسراح بها.

والصحيح أن الحياة الطيبة تشمل هذا كله كما جاء فى الحديث الذى رواه الإمام أحمد عن عبد الله بن عمرو أن رسول الله ﷺ قال: «قد أفلح من أسلم ورزق كفافا، وقنعه الله بما آتاه».

ورواه مسلم^(١). وروى الترمذى والنسائى عن فضالة بن عبيد؛ أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «قد أفلح من هدى إلى الإسلام، وكان عيشه كفافاً، وقنع به». وقال الترمذى: هذا حديث صحيح^(٢).

وروى الإمام أحمد عن أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله لا يظلم المؤمن حسنة يعطى بها فى الدنيا ويثاب عليها فى الآخرة وأما الكافر فيعطيه حسناته فى الدنيا حتى إذا أفضى إلى الآخرة لم تكن له حسنة يعطى بها خيراً». انفرد بإخراجه مسلم^(٣).

﴿ فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ ﴿١٨﴾ إِنَّكُمْ لَيْسَ لَكُمْ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿١٩﴾ إِنَّمَا سُلْطَانُكُمْ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُم وَالَّذِينَ هُمْ بِهِ مُشْرِكُونَ ﴿٢٠﴾ ﴾

هذا أمر من الله لعباده على لسان نبيه ﷺ: إذا أرادوا قراءة القرآن: أن يستعينوا بالله من الشيطان الرجيم. وهو أمرٌ نذِبٌ ليس بواجب، والمعنى فى الاستعاذة عند ابتداء القراءة: لثلاث يلبس على القارئ قراءته ويخلط عليه، ويمنعه من التدبر والتفكر، ولهذا ذهب الجمهور إلى أن الاستعاذة إنما تكون قبل التلاوة.

وقوله: ﴿ إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴾: قال الثورى: ليس له عليهم سلطان أن يوقعهم فى ذنب لا يتوبون منه، وقال آخرون: معناه لا حجة له عليهم ﴿ إِنَّمَا سُلْطَانُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ ﴾: قال مجاهد: يطعمونه، وقال آخرون: اتخذوه ولياً من دون الله ﴿ وَالَّذِينَ هُمْ بِهِ مُشْرِكُونَ ﴾: أى: أشركوه فى عبادة الله تعالى، ويحتمل أن تكون الباء سببية، أى: صاروا بسبب طاعتهم للشيطان مشركين بالله تعالى.

﴿ وَإِذَا بَدَلْنَا آيَةً مَّكَانَ آيَةٍ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُرْفَعُونَ قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مُفْتَرٍ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٠١﴾ قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِالْحَقِّ لِيُثَبِّتَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ﴿١٠٢﴾ ﴾

يخبر تعالى عن ضعف عقول المشركين وقلة ثباتهم وإيقانهم، وأنه لا يتصور منهم الإيمان وقد كتب عليهم الشقاوة، وذلك أنهم إذا رأوا تغيير الأحكام ناسخها بمسوخها قالوا للرسول: ﴿ إِنَّمَا أَنْتَ مُفْتَرٍ ﴾: أى: كذاب، وإنما هو الرب تعالى يفعل ما يشاء، ويحكم ما يريد. فقال تعالى مجيباً لهم: ﴿ قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ ﴾: أى: جبريل ﴿ مِن رَّبِّكَ بِالْحَقِّ ﴾: أى: بالصدق والعدل ﴿ لِيُثَبِّتَ الَّذِينَ ءَامَنُوا ﴾: فيصدقوا بما نزل أولاً وثانياً وتختب له قلوبهم ﴿ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ﴾: أى: وجعله هادياً وبشارة للمسلمين الذين آمنوا بالله ورسوله.

(١) المسند (٦٥٧٢)، ومسلم (١٠٥٤/١٢٥).

(٢) الترمذى (٢٣٤٩)، وعزاه صاحب التحفة (٨/٢٦١) إلى الترمذى والنسائى فى الرقائق فى الكبرى تم استدرك وقال: حديث النسائى ليس فى الرواية ولم يذكره أبو القاسم.

(٣) المسند (١٢١/٣)، ومسلم (٥٦/٢٨٠٨).

﴿وَلَقَدْ نَعَلُمْ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِّسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُّبِينٌ ﴿١٠٦﴾﴾

يقول تعالى مخبراً عن المشركين ما كانوا يقولونه من الكذب والافتراء والبهت: إن محمداً إنما يعلمه هذا الذي يتلوه علينا من القرآن بشر، ويشيرون إلى رجل أعجمي كان بين أظهرهم، غلام لبعض بطون قريش، وكان يباعا يبيع عند الصفا، وربما كان رسول الله ﷺ يجلس إليه ويكلمه بعض الشيء، وذاك كان أعجمي اللسان لا يعرف العربية، أو أنه كان يعرف الشيء اليسير بقدر ما يردُّ جواب الخطاب فيما لا بد منه؛ فلهذا قال الله تعالى راداً عليهم في افتراءهم ذلك: ﴿لِسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُّبِينٌ﴾ يعني: القرآن، أى: فكيف يتعلم من جاء بهذا القرآن، فى فصاحته وبلاغته ومعانيه التامة الشاملة، كيف يتعلم من رجل أعجمي؟! لا يقول هذا من له أدنى مُسَكَّة من العقل.

﴿إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ لَا يَهْدِيهِمُ اللَّهُ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٠٧﴾﴾
﴿يَقْتَرِي الْكُذِبَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْكَاذِبُونَ ﴿١٠٨﴾﴾

يخبر تعالى أنه لا يهدى من أعرض عن ذكره وتغافل عما أنزله على رسوله، ولم يكن له قصد إلى الإيمان بما جاء من عند الله، فهذا الجنس من الناس لا يهديهم الله إلى الإيمان بآياته وما أرسل به رسله فى الدنيا، ولهم عذاب أليم موجع فى الآخرة. ثم أخبر تعالى أن رسوله ليس بمفتر ولا كذاب؛ لأنه ﴿إِنَّمَا يَقْتَرِي الْكُذِبَ﴾ على الله وعلى رسوله شرارُ الخلق ﴿الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ﴾ من الكفرة والملحدین المعروفين بالكذب عند الناس. والرسول محمد ﷺ، كان أصدق الناس وأبرهم وأكملهم علماً وعملاً وإيماناً وإيقاناً، معروفاً بالصدق فى قومه، لا يشك فى ذلك أحد منهم بحيث لا يدعى بينهم إلا بالأمين محمد.

﴿مَنْ كَفَرَ بِاللَّهِ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِهِ إِلَّا مَنْ أَكْرَهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ وَلَكِنْ مَنْ شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْتُمْ غَضَبٌ مِنَ اللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٠٩﴾﴾
﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَسَمِعِهِمْ وَأَبْصَرِهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْفٰلِقُونَ ﴿١١٨﴾﴾
﴿لَا جَرَمَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمُ الْخٰسِرُونَ ﴿١١٩﴾﴾

أخبر تعالى عن كفر به بعد الإيمان والتبصر، وشرح صدره بالكفر واطمأن به: أنه قد غضب عليه، لعلمهم بالإيمان ثم عدولهم عنه، وأن لهم عذاباً عظيماً فى الدار الآخرة؛ لأنهم استحَبوا الحياة الدنيا على الآخرة، فأقدموا على ما أقدموا عليه من الردة لأجل الدنيا، ولم يهد الله قلوبهم ويشتهم على الدين الحق، فطبع على قلوبهم فلا يعقلون بها شيئاً ينفعهم وختم على

سمعهم وأبصارهم فلا يتتفون بها، ولا أغنت عنهم شيئا، فهم غافلون عما يراد بهم. ﴿ لا جرم ﴾ أي: لا بد ولا عجب أن هذه صفته ﴿ أَنَّهُمْ فِي الآخِرَةِ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴾ أي: الذين خسروا أنفسهم وأهاليهم يوم القيامة.

وأما قوله: ﴿ إِلاَّ مَنْ أُوْحِرَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ ﴾: فهو استثناء من كفر بلسانه ووافق المشركين بلفظه مكرها لما ناله من ضرب وأذى، وقلبه يأبى ما يقول، وهو مطمئن بالإيمان بالله ورسوله. وعن ابن عباس: أن هذه الآية نزلت في عمّار بن ياسر، حين عذبه المشركون حتى يكفر بمحمد ﷺ، فوافقهم على ذلك مكرها، وجاء معتذراً إلى النبي ﷺ، فأنزل الله هذه الآية ولهذا اتفق العلماء على أنه يجوز أن يوألّى المكره على الكفر، إبقاءً لمهجته، ويجوز له أن يستقتل، كما كان بلال رضى الله عنه يأبى عليهم ذلك وهم يفعلون به الأفاعيل، حتى إنهم ليضعون الصخرة العظيمة على صدره فى شدة الحر، ويأمرونه أن يشرك بالله فيأبى عليهم وهو يقول: أحد، أحد. ويقول: والله لو أعلم كلمة هى أغيظ لكم منها لقلتها، رضى الله عنه وأرضاه.

والأفضل والأولى أن يثبت المسلم على دينه، ولو أفضى إلى قتله، كما قال الحافظ ابن عساكر، فى ترجمة عبد الله بن حدّافة السهمى أحد الصحابة: أنه أسرته الروم، فجاؤوا به إلى ملكهم، فقال له: تنصر وأنا أشركك فى ملكى وأزوجك ابنتى. فقال له: لو أعطيتنى جميع ما تملك وجميع ما تملكه العرب، على أن أرجع عن دين محمد طرفة عين، ما فعلت! فقال: إذا أقتلك. قال: أنت وذاك! فأمر به فصلب، وأمر الرماة فرموه قريبا من يديه ورجليه، وهو يعرض عليه دين النصرانية، فيأبى، ثم أمر به فأنزل، ثم أمر بقدْر. وفى رواية: ببقرة من نحاس، فأحميت، وجاء بأسير من المسلمين فألقاه وهو ينظر، فإذا هو عظام تلوح. وعرض عليه فأبى، فأمر به أن يلقى فيها، فرفع فى البكرة ليلقى فيها، فبكى فطمع فيه ودعاه فقال له: إنى إنما بكيت لأن نفسى إنما هى نفس واحدة، تُلقى فى هذه القدر الساعة فى الله، فأحببت أن يكون لى بعدد كل شعرة فى جسدى نفس تعذب هذا العذاب فى الله. وفى بعض الروايات: أنه سجنه ومنع عنه الطعام والشراب أياما، ثم أرسل إليه بخمر ولحم خنزير، فلم يقربه، ثم استدعاه فقال: ما منعك أن تأكل؟ فقال: أما إنه قد حلّ لى، ولكن لم أكن لأشمتك فى. فقال له الملك: فقبّل رأسى وأنا أطلقك. فقال: وتطلق معى جميع أسارى المسلمين؟ قال: نعم. فقبل رأسه، فأطلقه وأطلق معه جميع أسارى المسلمين عنده، فلما رجع قال عمر بن الخطاب: حقّ على كل مسلم أن يقبل رأس عبد الله بن حدّافة، وأنا أبدا. فقام فقبل رأسه.

﴿ ثُمَّ إِنَّكَ رَبَّكَ لِالَّذِينَ هَاجَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا قُتِلُوا ثُمَّ جَدِّدُوا

وَصَبَرُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١١٠﴾ يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ

بِحُجْدِلٍ عَنِ نَفْسِهَا وَتُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿١١١﴾

هؤلاء ضنف آخر كانوا مستضعفين بمكة، مهانين في قومهم قد اتوهم على الفتنة، ثم إنهم أمكنهم الخلاص بالهجرة، فتركوا بلادهم وأهليهم وأموالهم ابتغاء رضوان الله وغفرانه، وانتظموا في سلك المؤمنين، وجاهدوا معهم الكافرين، وصبروا، فأخبر الله تعالى أنه ﴿ مِنْ بَعْدِهَا ﴾ أى : تلك الفعلة، وهى الإجابة إلى الفتنة لغفور لهم، رحيم بهم يوم معادهم. ﴿ يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ تُجَادِلُ ﴾ أى : تحاجّ ﴿ عَنْ نَفْسِهَا ﴾ ليس أحد يحاج عنها لا أب ولا ابن ولا أخ ولا زوجة ﴿ وَتُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ ﴾ أى : من خير وشر ﴿ وَهُمْ لَا يَظْلَمُونَ ﴾ أى : لا ينقص من ثواب الخير ولا يزداد على ثواب الشر، ولا يظلمون نقيراً.

﴿ وَضَرِبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِنْ كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعَمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِيَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ ﴾

﴿ ١١٢ ﴾ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِنْهُمْ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمُ الْعَذَابُ وَهُمْ ظَالِمُونَ ﴿ ١١٣ ﴾

هذا مثل أريد به أهل مكة، فإنها كانت آمنة مطمئنة مستقرة يُتخطَّف الناس من حولها، ومن دخلها آمن لا يخاف، كما قال تعالى : ﴿ أَوَلَمْ نُمْكِنْ لَهُمْ حَرَمًا آمِنًا يُجِئُ إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ رِزْقًا مِنْ لَدُنَّا ﴾ [القصص: ٥٧] وهكذا قال ها هنا : ﴿ يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا ﴾ أى : هينئها سهلاً ﴿ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعَمِ اللَّهِ ﴾ أى : جحدت آلاء الله عليها وأعظم ذلك بعثة محمد ﷺ إليهم، كما قال تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَتَ اللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ. جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا وَبِئْسَ الْقَرَارُ ﴾ [إبراهيم: ٢٨، ٢٩]. ولهذا بدلهم الله بحالهم الأولين خلافهما، فقال : ﴿ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِيَاسَ الْجُوعِ ﴾ أى : البسها وأذاقها الجوع بعد أن كان يُجىئ إليهم ثمرات كل شيء، ويأتيها رزقها رغداً من كل مكان.

وقوله : ﴿ وَالْخَوْفِ ﴾ وذلك بأنهم بدّلوا بأمنهم خوفاً من رسول الله ﷺ وأصحابه، حين هاجروا إلى المدينة، من سطوة سراياه وجيوشه، وجعلوا كل ما لهم فى سَفَالٍ ودمار، حتى فتحها الله عليهم، وذلك بسبب صنيعهم وبغيهم وتكذيبهم الرسول الذى بعثه الله فيهم منهم، وامتن به عليهم فى قوله : ﴿ لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ ﴾ [آل عمران: ١٦٤]، وقال تعالى : ﴿ فَاتَّقُوا اللَّهَ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ الَّذِينَ آمَنُوا قَدْ أَنْزَلَ اللَّهُ إِلَيْكُمْ ذِكْرًا . رَسُولًا يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِ اللَّهِ مَبِينَاتٍ لِيُخْرِجَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ ﴾ [الطلاق: ١٠، ١١] الآية وقوله : ﴿ كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِنْكُمْ يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ ﴾ إلى قوله : ﴿ وَلَا تَكْفُرُونَ ﴾ [البقرة: ١٥١، ١٥٢]. وكما أنه انعكس على الكافرين حالهم، فخافوا بعد الأمن، وجاعوا بعد الرغد، بدّل الله المؤمنين من بعد خوفهم أمناً، ورزقهم بعد العيئة، وجعلهم أمراء الناس وحكامهم، وسادتهم وقادتهم وأئمتهم. وهذا الذى قلناه من أن هذا المثل مضروب لمكة، قاله العوفى، عن ابن عباس، وإليه ذهب مجاهد، وقتادة، وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم. وحكاه مالك عن الزهري، رحمهم الله .

﴿ فَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ حَلَالًا طَيِّبًا وَأَشْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴿١١٤﴾ إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالْدَّمَ وَلَحْمَ الْخَنزِيرِ وَمَا أِهْلَ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ فَمَنْ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١١٥﴾ وَلَا تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتَكُمُ الْكَذِبَ هَذَا حَلَالٌ وَهَذَا حَرَامٌ لِنَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ ﴿١١٦﴾ مَتَّعَ قَلِيلٌ وَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١١٧﴾ ﴾

يقول تعالى أمرا عباده المؤمنين باكل رزقه الحلال الطيب، وشكره على ذلك، فإنه المنعم المتفضل به ابتداء، الذي يستحق العبادة وحده لا شريك له، ثم ذكر ما حرمه عليهم مما فيه مضرة لهم في دينهم ودنياهم، من الميتة والدم، ولحم الخنزير ﴿ وَمَا أِهْلَ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ ﴾ أى: ذبح على غير اسم الله، ومع هذا ﴿ فَمَنْ اضْطُرَّ ﴾ أى: احتاج فى غير بغى ولا عدوان ﴿ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ وقد تقدم الكلام على مثل هذه الآية فى سورة «البقرة» (١) بما فيه كفاية عن إعادته

ثم نهى تعالى عن سلوك سبيل المشركين، الذين حللوا وحرموا بمجرد ما وضعوه واصطلحوا عليه من الأسماء بأرائهم، من البحيرة والسائبة والوصيلة والحام، وغير ذلك مما كان شرعا لهم ابتدعه فى جاهليتهم، فقال: ﴿ وَلَا تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتَكُمُ الْكَذِبَ هَذَا حَلَالٌ وَهَذَا حَرَامٌ لِنَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ ﴾ . ويدخل فى هذا كل من ابتدع بدعة ليس فيها مستند شرعى، أو حلل شيئا مما حرم الله، أو حرم شيئا مما أباح الله، بمجرد رأيه وتشهيه. ثم توعد على ذلك فقال: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ ﴾ أى: فى الدنيا ولا فى الآخرة. أما فى الدنيا فمتاع قليل، وأما فى الآخرة فلهم عذاب أليم، كما قال: ﴿ نُمَتِّعُهُمْ قَلِيلًا ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلَىٰ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴾ [لقمان: ٢٤] وقال: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ . مَتَّعَ فِي الدُّنْيَا ثُمَّ إِنَّا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ نَدْبِقُهُمُ الْعَذَابَ الشَّدِيدَ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ ﴾ [يونس: ٦٩ ، ٧٠].

﴿ وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا مَا قَصَصْنَا عَلَيْكَ مِنْ قَبْلٍ وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿١١٨﴾ ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ عَمِلُوا الشُّوْءَ بِجَهَنَّمَ ثُمَّ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١١٩﴾ ﴾

لما ذكر تعالى أنه إنما حرم علينا الميتة والدم ولحم الخنزير، وما أهل لغير الله به، وأنه أرحص فيه عند الضرورة وفى ذلك توسعة لهذه الأمة ذكر سبحانه وتعالى ما كان حرمه على اليهود فى شريعتهم قبل أن ينسخها، وما كانوا فيه من الأصار والأغلال والخرج والتضييق، فقال: ﴿ وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا مَا قَصَصْنَا عَلَيْكَ مِنْ قَبْلٍ ﴾ يعنى قوله: ﴿ وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا كُلَّ ذِي ظُفْرٍ وَمِنَ الْبَقَرِ وَالنَّمْرِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَا إِلَّا مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَا أَوْ الْحَوَايَا أَوْ مَا اخْتَلَطَ بِعَظْمٍ ذَلِكَ جَزَيْنَاهُمْ بِبَغْيِهِمْ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ ﴾ [الأنعام: ١٤٦]؛ ولهذا قال هاهنا: ﴿ وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ ﴾ أى: فيما ضيقنا عليهم

﴿وَلَكِنْ كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ أى: فاستحقوا ذلك، كما قال: ﴿فَبِظُلْمٍ مِّنَ الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ أُحِلَّت لَّهُمْ وَبَدَّهِمْ عَنِ سَبِيلِ اللَّهِ كَثِيرًا﴾ [النساء: ١٦٠].

ثم أخبر تعالى تكراً وامتناناً فى حق العصاة المؤمنين: أن من تاب منهم إليه تاب عليه، فقال: ﴿ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ عَمِلُوا السُّوءَ بِجَهَالَةٍ﴾ قال بعض السلف: كل من عصى الله فهو جاهل ﴿ثُمَّ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا﴾ أى: أقلعوا عما كانوا فيه من المعاصى، وأقبلوا على فعل الطاعات ﴿إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا﴾ أى: تلك الفعلية والذلة ﴿لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾.

﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١١٠﴾ شَاكِرًا لِأَنْعُمِهِ اجْتَبَاهُ وَهَدَاهُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿١١١﴾ وَمَا آتَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَإِنَّمَا فِي الْآخِرَةِ لَئِنَّ الصَّالِحِينَ ﴿١١٢﴾ ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنْ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾

يمدح تعالى عبده ورسوله وخليله إبراهيم، إمام الخفاء ووالد الأنبياء، ويبرئه من المشركين ومن اليهودية والنصرانية فقال: ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا﴾، فاما «الامة»، فهو الإمام الذى يقتدى به. والقانت: هو الخاشع المطيع. والحنيف: المنحرف قصداً عن الشرك إلى التوحيد؛ ولهذا قال: ﴿وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾.

وقوله: ﴿شَاكِرًا لِأَنْعُمِهِ﴾ أى: قائماً بشكر نعم الله عليه، كما قال: ﴿وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّى﴾ [النجم: ٢٧]، أى: قام بجميع ما أمره الله تعالى به ﴿اجْتَبَاهُ﴾ أى: اختاره واصطفاه ﴿وَهَدَاهُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ وهو عبادة الله وحده لا شريك له على شرع مرضى. وقوله: ﴿وَأَتَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً﴾ أى: جمعنا له خير الدنيا من جميع ما يحتاج المؤمن إليه فى إكمال حياته الطيبة ﴿وَأَنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَئِنَّ الصَّالِحِينَ﴾. وقال مجاهد فى قوله: ﴿وَأَتَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً﴾ أى: لسان صدق. وقوله: ﴿ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنْ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا﴾ أى: ومن كماله وعظمته وصحة توحيده وطريقه، أنا أوحينا إليك يا خاتم الرسل وسيد الأنبياء: ﴿أَنْ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾، كما قال: ﴿قُلْ إِنِّي هَدَانِي رَبِّي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ دِينًا قِيمًا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [الانعام: ١٦١]، ثم قال تعالى منكراً على اليهود:

﴿إِنَّمَا جُعِلَ السَّبْتُ عَلَى الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾

لا شك أن الله شرع فى كل ملة يوماً من الأسبوع، يجتمع الناس فيه للعبادة، فشرع تعالى لهذه الأمة يوم الجمعة؛ لأنه اليوم السادس الذى أكمل الله فيه الخليقة، وتمت النعمة على عباده. ويقال: إنه تعالى شرع ذلك لبنى إسرائيل على لسان موسى، فعدلوا عنه واختاروا السبت؛ لأنه اليوم الذى لم يخلق فيه الرب شيئاً من المخلوقات الذى كمل خلقها يوم الجمعة، فألزمهم

تعالى به في شريعة التوراة، ووصاهم أن يتمسكوا به وأن يحافظوا عليه، مع أمره إياهم بمتابعة محمد ﷺ إذا بعثه، وأخذة موثيقهم وعهودهم على ذلك؛ ولهذا قال تعالى: ﴿إِنَّمَا جُعِلَ السَّبْتُ عَلَى الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ﴾. قال مجاهد: اتبعوه وتركوا الجمعة. وقد ثبت في الصحيحين عن أبي هريرة، أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «نحن الآخرون السابقون يوم القيامة، بيد أنهم أوتوا الكتاب من قبلنا، ثم هذا يومهم الذي فرض الله عليهم فاختلفوا فيه، فهدانا الله له، فالتاس لنا فيه تبع، اليهود غدا، والنصارى بعد غد». لفظ البخارى (١).

وعن أبي هريرة، وحذيفة، قالا: قال رسول الله ﷺ: «أضل الله عن الجمعة من كان قبلنا، فكان لليهود يوم السبت، وكان للنصارى يوم الأحد، فجاء الله بنا فهدانا الله ليوم الجمعة، فجعل الجمعة والسبت والأحد، وكذلك هم تبع لنا يوم القيامة، نحن الآخرون من أهل الدنيا والأولون يوم القيامة، والمقضى بينهم قبل الخلاق». رواه مسلم [والله أعلم] (٢).

﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَدِّ لَهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾ (١١٥)

يقول تعالى أمراً رسوله محمداً ﷺ أن يدعو الخلق إلى الله ﴿بِالْحُكْمَةِ﴾ قال ابن جرير: وهو ما أنزله عليه من الكتاب والسنة ﴿وَالْمَوْعِظَةَ الْحَسَنَةَ﴾ أى: بما فيه من الزواجر والوقائع بالناس ذكرهم بها، ليحذروا بأس الله تعالى. وقوله: ﴿وَجَدِّ لَهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ أى: من احتاج منهم إلى مناظرة وجدال، فليكن بالوجه الحسن برفق ولين وحسن خطاب، كما قال: ﴿وَلَا تَجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ﴾ [العنكبوت: ٤٦] فأمره تعالى بلين الجانب، كما أمر موسى وهارون، عليهما السلام، حين بعثهما إلى فرعون فقال: ﴿فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَيْنًا لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى﴾ [طه: ٤٤].

وقوله: ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾ أى: قد علم الشقى منهم والسعيد، وكتب ذلك عنده وفرغ منه، فادعهم إلى الله، ولا تذهب نفسك على من ضل منهم حشرات، فإنه ليس عليك هداهم إنما أنت نذير، عليك البلاغ، وعلينا الحساب، ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ﴾ [القصص: ٥٦].

﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ وَلَئِنْ صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِلصَّابِرِينَ وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِمَّا يَمْكُرُونَ﴾ (١١٧) ﴿إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ﴾ (١١٨)

يأمر تعالى بالعدل في الاقتصاص والمماثلة في استيفاء الحق، كما قال ابن سيرين في قوله

تعالى : ﴿ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ ﴾ : إن أخذ منك رجل شيئاً، فخذ منه مثله. وكذا قال مجاهد، وإبراهيم، والحسن البصرى، وغيرهم. واختاره ابن جرير. وهذه الآية الكريمة لها أمثال في القرآن، فإنها مشتملة على مشروعية العدل والندب إلى الفضل، كما في قوله : ﴿ وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا ﴾ ، ثم قال : ﴿ فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ ﴾ [الشورى: ٤٠]. وقال : ﴿ وَالْجُرُوحَ قِصَاصٌ ﴾ ، ثم قال : ﴿ فَمَنْ تَصَدَّقَ بِهِ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَهُ ﴾ [المائدة: ٤٥]، وقال في هذه الآية الكريمة : ﴿ وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ ﴾ ، ثم قال : ﴿ وَلَئِنْ صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِلصَّابِرِينَ ﴾ .

وقوله : ﴿ وَأَصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ ﴾ : تأكيد للأمر بالصبر، وإخبار بأن ذلك إنما ينال بمشيئة الله وإعانتة، وحوله وقوته ﴿ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ ﴾ أى : على من خالفك، لا تحزن عليهم؛ فإن الله قادر ذلك، ﴿ وَلَا تَكُ فِي ضَيْقٍ ﴾ أى : غم ﴿ مِمَّا يَمْكُرُونَ ﴾ أى : مما يجهدون فى عداوتك وإيصال الشر إليك، فإن الله كافيك وناصرك، ومؤيدك، ومظفرك ومظفرك بهم.

وقوله : ﴿ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ ﴾ أى : معهم بتأييده ونصره ومعونته وهذه معية خاصة، كقوله : ﴿ إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَبَيَّعُوا الَّذِينَ آمَنُوا ﴾ [الأنفال: ١٢]، وقوله لموسى وهارون : ﴿ لَا تَخَافَا إِنِّي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَى ﴾ [طه: ٤٦]، وقول النبي ﷺ للصديق وهما فى الغار : ﴿ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا ﴾ [التوبة: ٤٠] وأما المعية العامة فالسمع والبصر والعلم، كقوله تعالى : ﴿ وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ [الحديد: ٤]، وكقوله تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَا آدْنَى مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا ﴾ [المجادلة: ٧]، وكما قال تعالى : ﴿ وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُو مِنْهُ مِنْ قُرْآنٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا [إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ وَمَا يَعْزُبُ عَنْ رَبِّكَ مِنْ مِثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَلَا أَصْغَرَ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ] ﴾ [يونس: ٦١].

ومعنى ﴿ الَّذِينَ اتَّقَوْا ﴾ أى : تركوا المحرمات، ﴿ وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ ﴾ أى : فعلوا الطاعات، فهؤلاء الله يحفظهم ويكلؤهم، وينصرهم ويؤيدهم، ويظفرهم على أعدائهم ومخالفهم.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

تفسير سورة سبحان

وهي مكة

روى الإمام البخارى عن ابن مسعود، رضى الله عنه، قال فى بنى إسرائيل والكهف ومريم: إنهن من العتاق الأول وهن من تлады (١).

وروى الإمام أحمد عن أبى لبابة، سمعت عائشة تقول: كان رسول الله ﷺ يصوم حتى نقول: ما يريد أن يفطر، ويفطر حتى نقول: ما يريد أن يصوم، وكان يقرأ كل ليلة «بنى إسرائيل»، و«الزمر» (٢).

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الجزء ١٥ ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَا الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾

يمجد تعالى نفسه ، ويعظم شأنه ، لقدرتة على ما لا يقدر عليه أحد سواه ، فلا إله غيره ولا رب سواه ﴿الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ﴾ يعنى محمدا ﷺ ﴿لَيْلًا﴾ أى فى جنح الليل ﴿مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾ وهو مسجد مكة ﴿إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى﴾ وهو بيت المقدس الذى يبلياء، معدن الانبياء من لدن إبراهيم الخليل؛ ولهذا جمعوا له هناك كلهم، فآتهم فى محلّتهم ودارهم، فدل على أنه هو الإمام الأعظم، والرئيس المقدم، صلوات الله وسلامه عليه وعليهم أجمعين.

وقوله تعالى : ﴿الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ﴾ أى: فى الزروع والثمار ﴿لِنُرِيَهُ﴾ أى: محمداً ﴿مِنَ آيَاتِنَا﴾ أى: العظام كما قال تعالى: ﴿لَقَدْ رَأَى مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَى﴾ [النجم: ١٨]. وسنذكر من ذلك ما وردت به السنة من الأحاديث عنه، صلوات الله عليه وسلامه. وقوله : ﴿إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ أى: السميع لأقوال عباده، مؤمنهم وكافرهم، مصدقهم ومكذبهم ، البصير بهم فيعطى كلاً منهم ما يستحقه فى الدنيا والآخرة .

روى الإمام أحمد عن أنس بن مالك، أن رسول الله ﷺ قال: «أتيت بالبراق وهو دابة أبيض فوق الحمار ودون البغل، يضع حافره عند منتهى طرفه، فركبته فسار بى حتى أتيت بيت المقدس، فربطت الدابة بالحلقة التى يربط فيها الأنبياء، ثم دخلت فصليت فيه ركعتين، ثم خرجت. فأتانى جبريل بإناء من خمر وإناء من لبن، فاخترت اللبن. فقال جبريل: أصبت الفطرة» قال: «ثم عرج بى إلى السماء الدنيا، فاستفتح جبريل، فقيل له: من أنت؟ قال:

(١) البخارى (٤٧٠٨) . (٢) المسند (٦ / ١٨٩) ، ورواه ابن خزيمة فى صحيحه (١١٦٣) .

جبريل . قيل : ومن معك ؟ قال : محمد . قيل : وقد أرسل إليه ؟ [قال : قد أرسل إليه] (١) . ففتح لنا ، فإذا أنا بآدم ، فرحب بى ودعا لى بخير . ثم عَرَجَ بنا إلى السماء الثانية ، فاستفتح جبريل ، فقيل له : من أنت ؟ قال : جبريل . قيل : ومن معك ؟ قال : محمد . قيل : وقد أرسل إليه ؟ قال : قد أرسل إليه . ففتح لنا ، فإذا أنا بابنى الخالة يحيى وعيسى ، فرحبا بى ودعوا لى بخير . ثم عرج بنا إلى السماء الثالثة ، فاستفتح جبريل ، فقيل له : من أنت ؟ قال : جبريل . قيل : ومن معك ؟ قال : محمد . قيل : وقد أرسل إليه ؟ قال : قد أرسل إليه . ففتح لنا ، فإذا أنا بيوسف عليه السلام ، وإذا هو قد أعطى شطر الحسن ، فرحب بى ودعا لى بخير . ثم عرج بنا إلى السماء الرابعة ، فاستفتح جبريل ، فقيل له : من أنت ؟ قال : جبريل . قيل : ومن معك ؟ قال : محمد . فقيل : وقد أرسل إليه ؟ قال : بعث إليه . ففتح لنا ، فإذا أنا بإدريس ، فرحب بى ودعا لى بخير . ثم يقول الله : ﴿ وَرَفَعْنَاهُ مَكَانًا عَلِيًّا ﴾ [مریم: ٥٧] . ثم عرج بنا إلى السماء الخامسة ، فاستفتح جبريل ، فقيل : من أنت ؟ قال : جبريل . فقيل : ومن معك ؟ قال : محمد . فقيل : وقد بعث إليه ؟ قال : قد بعث إليه . ففتح لنا ، فإذا أنا بهارون ، فرحب بى ودعا لى بخير . ثم عرج بنا إلى السماء السادسة ، فاستفتح جبريل ، فقيل : من أنت ؟ قال : جبريل . قيل : ومن معك ؟ قال : محمد . فقيل : وقد بعث إليه ؟ قال : قد بعث إليه . ففتح لنا ، فإذا أنا بموسى فرحب بى ودعا لى بخير . ثم عرج بنا إلى السماء السابعة ، فاستفتح جبريل ، فقيل : من أنت ؟ قال : جبريل . قيل : ومن معك ؟ قال : محمد . فقيل : وقد بعث إليه ؟ قال : قد بعث إليه . ففتح لنا ، فإذا أنا بإبراهيم عليه السلام ، وإذا هو مستند إلى البيت المعمور ، وإذا هو يدخله كل يوم سبعون ألف ملك ثم لا يعودون إليه .

ثم ذهب بى إلى سدرة المنتهى ، فإذا ورقها كآذان الفيلة ، وإذا ثمرها كالقلال . فلما غشيها من أمر الله ما غشيها تغيرت ، فما أحد من خلق الله ، تعالى ، يستطيع أن يصفها من حسنها . قال : « فأوحى الله إليّ ما أوحى ، وفرض علىّ فى كل يوم وليلة خمسين صلاة ، فنزلت حتى انتهيت إلى موسى » . قال : « ما فرض ربك على أمّتك ؟ » قال : « قلت : خمسين صلاة فى كل يوم وليلة » . قال : ارجع إلى ربك فاسأله التخفيف لأمّتك ؛ فإن أمّتك لا تطيق ذلك ، وإنى قد بلوت بنى إسرائيل وخيرتهم » . قال : « فرجعت إلى ربى ، فقلت : أى رب ، خفف عن أمّتى ، فحطّ عنى خمساً . فنزلت حتى انتهيت إلى موسى فقال : ما فعلت ؟ فقلت : قد حطّ عنى خمساً » . قال : « إن أمّتك لا تطيق ذلك ، فارجع إلى ربك فاسأله التخفيف لأمّتك » قال : « فلم أزل أرجع بين ربى وبين موسى ، ويحطّ عنى خمساً خمساً حتى قال : يا محمد ، هى خمس صلوات فى كل يوم وليلة ، بكل صلاة عشر ، فتلك خمسون صلاة ، ومن همّ بحسنة فلم يعملها كتبت حسنة ، فإن عملها كتبت عشراً . ومن همّ بسيئة فلم يعملها لم تكتب ، فإن عملها كتبت سيئة واحدة . فنزلت حتى انتهيت إلى موسى فأخبرته ، فقال : ارجع إلى ربك فاسأله التخفيف

(١) ساقطة من المخطوطة ، وأثبتناها من المطبوعة والمسند .

لَأَمْتِكَ، فَإِنَّ أَمْتِكَ لَا تَطِيقُ ذَلِكَ». فقال رسول الله ﷺ: «لقد رجعت إلى ربي حتى استحييت». ورواه مسلم، وهو أصح من سياق شريك^(١). قال البيهقي: وفي هذا السياق دليل على أن المعراج كان ليلة أسرى به، عليه الصلاة والسلام، من مكة إلى بيت المقدس. وهذا الذي قاله هو الحق الذي لا شك فيه ولا مرية.

وروى الإمام أحمد عن أنس، أن النبي ﷺ أتى بالبراق ليلة أسرى به مُسْرَجاً ملجماً ليركبه، فاستصعب عليه، فقال له جبريل: ما يحملك على هذا؟ فوالله ما ركبت قط أكرم على الله منه. قال: فارفض عرقاً. ورواه الترمذي وقال: غريب لانعرفه إلا من حديثه^(٢).

رواية أنس بن مالك عن مالك بن صعصعة:

روى الإمام أحمد عن أنس بن مالك: أن مالك بن صعصعة حدثه: أن نبي الله ﷺ حدثهم عن ليلة أسرى به، قال: «بينما أنا في الحطيم - وربما قال قتادة: في الحجر - مضطجعاً إذ أتاني آت» فجعل يقول لصاحبه الأوسط بين الثلاثة، قال: «فأتاني فقد - وسمعت قتادة يقول: فشق - ما بين هذه إلى هذه». وقال قتادة: فقلت للجارود وهو إلى جنبي: ما يعني؟ قال: من ثغرة نحره إلى شعرتة، وقد سمعته يقول: من قصته إلى شعرتة قال: «فاستخرج قلبي» قال: «فأتيت بطست من ذهب مملوء إيماناً وحكمة فغسل قلبي ثم حشى، ثم أعيد. ثم أتيت بدابة دون البغل وفوق الحمار أبيض». قال: فقال الجارود: وهو البراق يا أبا حمزة؟ قال: نعم، يقع خطوه عند أقصى طرفه. قال: «فحملت عليه، فانطلق بي جبريل، عليه السلام، حتى أتى بي إلى السماء الدنيا، فاستفتح فقيل: من هذا؟ قال: جبريل. قيل: ومن معك؟ قال: محمد. قيل: أو قد أرسل إليه؟ قال: نعم. فقيل: مرحباً به، ولنعم المجيء جاء». قال: «ففتح فلما خلصت، فإذا فيها آدم، عليه السلام، فقال: هذا أبوك آدم، فسلم عليه، فسلمت عليه، فرد السلام، ثم قال: مرحباً بالابن الصالح والنبي الصالح. ثم صعد حتى أتى السماء الثانية، فاستفتح فقيل: من هذا؟ فقال: جبريل. قيل: ومن معك؟ قال: محمد. قيل: أو قد أرسل إليه؟ قال: نعم. قيل: مرحباً به ولنعم المجيء جاء»، قال: «ففتح لنا، فلما خلصت، فإذا يحيى وعيسى وهما ابنا الخالة. قال: هذا يحيى وعيسى، فسلم عليهما. قال: فسلمت فردا السلام ثم قال: مرحباً بالأخ الصالح والنبي الصالح. ثم صعد حتى أتى السماء الثالثة فاستفتح، فقيل: من هذا؟ قال: جبريل. قيل: ومن معك؟ قال: محمد. قيل: أو قد أرسل إليه؟ قال: نعم. قيل: مرحباً به ولنعم المجيء جاء». قال: «ففتح لنا فلما خلصت، فإذا يوسف، عليه السلام، قال: هذا يوسف قال: «فسلمت عليه، فرد السلام ثم قال: مرحباً بالأخ الصالح والنبي الصالح. ثم صعد حتى أتى السماء الرابعة، فاستفتح، فقيل: من هذا؟ قال: جبريل. قيل: ومن معك؟ قال: محمد. قيل: أو قد أرسل إليه؟ قال: نعم. قيل: مرحباً به، ولنعم المجيء

(١) المسند (٣ / ١٤٨) ومسلم (١٦٢ / ٢٥٩) ورواية أنس عن شريك إنما هي في البخاري برقم (٧٥١٧).

(٢) المسند (٣ / ١٦٤) والترمذي (٣١٣١) وقال: «حسن غريب».

جاء» قال: «ففتح لنا، فلما خلصت فإذا إدريس عليه السلام، قال: هذا إدريس فسلم عليه». قال: «فسلمت عليه. فرد السلام، ثم قال: مرحباً بالأخ الصالح والنبى الصالح». قال: «ثم صعد حتى أتى السماء الخامسة فاستفتح، فقيل: من هذا؟ قال: جبريل. قيل: ومن معك؟ قال: محمد. قيل: أو قد أرسل إليه؟ قال: نعم. قيل: مرحباً به ولنعم المجيء جاء». «ففتح لنا، فلما خلصت، فإذا هارون، عليه السلام، قال: هذا هارون فسلم عليه. قال: فسلمت عليه فرد السلام، ثم قال: مرحباً بالأخ والنبى الصالح».

قال: «ثم صعد حتى أتى السماء السادسة فاستفتح، فقيل: من هذا؟ قال: جبريل. قيل: ومن معك؟ قال: محمد. قيل: أو قد أرسل إليه؟ قال: نعم. قيل: مرحباً به ولنعم المجيء جاء. ففتح لنا، فلما خلصت، فإذا أنا بموسى عليه السلام، قال: هذا موسى، عليه السلام، فسلم عليه، فسلمت عليه، فرد السلام، ثم قال: مرحباً بالأخ الصالح والنبى الصالح». قال: «فلما تجاوزته بكى. قيل له: ما يبكيك؟ قال: أبكى لأن غلاماً بعث بعدى، يدخل الجنة من أمته أكثر مما يدخلها من أمتي». قال: «ثم صعد حتى أتى السماء السابعة فاستفتح، قيل: من هذا؟ قال: جبريل. قيل: ومن معك؟ قال: محمد. قيل: أو قد بعث إليه؟ قال: نعم. قيل: مرحباً به ولنعم المجيء جاء». قال: «ففتح لنا، فلما خلصت، فإذا إبراهيم، عليه السلام، فقال: هذا إبراهيم، فسلم عليه». قال: «فسلمت عليه، فرد السلام، ثم قال: مرحباً بالابن الصالح والنبى الصالح». قال: ثم رفعت إلى سدرة المنتهى، فإذا نبقها مثل قلال هجر، وإذا ورقها مثل آذان الفيلة، فقال: هذه سدرة المنتهى». قال: «وإذا أربعة أنهار: نهران باطنان ونهران ظاهران، فقلت: ما هذا يا جبريل؟ قال: أما الباطنان فنهران فى الجنة، وأما الظاهران فالنيل والفرات». قال: ثم رفع إلى البيت المعمور. قال قتادة: وحدثنا الحسن، عن أبى هريرة، عن النبى ﷺ أنه رأى البيت المعمور يدخله كل يوم سبعون ألفاً لا يعودون فيه. ثم رجع إلى حديث أنس قال: «ثم أتيت بإناء من خمر وإناء من لبن وإناء من عسل». قال: «فأخذت اللبن، قال: هذه الفطرة أنت عليها وأمتك». قال: «ثم فرضت على الصلاة خمسين صلاة كل يوم». قال: «فنزلت حتى أتيت موسى، فقال: ما فرض ربك على أمتك؟» قال: «فقلت: خمسين صلاة كل يوم. قال: إن أمتك لا تستطيع خمسين صلاة، وإنى قد خيرت الناس قبلك وعالجت بنى إسرائيل أشد المعالجة، فارجع إلى ربك فاسأله التخفيف لأمتك». قال: «فرجعت فوضع عنى عشرًا آخر، قال: فرجعت إلى موسى، فقال: بم أمرت؟ فقلت: بأربعين صلاة كل يوم. قال: إن أمتك لا تستطيع أربعين صلاة كل يوم، وإنى قد خيرت الناس قبلك وعالجت بنى إسرائيل أشد المعالجة، فارجع إلى ربك فاسأله التخفيف لأمتك». قال: «فرجعت فوضع عنى عشرًا آخر، فرجعت إلى موسى فقال: بم

أمرت ؟ قلت: بعشرين صلاة كل يوم. فقال: إن أمتك لا تستطيع العشرين صلاة كل يوم، وإنى قد خبرت الناس قبلك، وعالجت بنى إسرائيل أشد المعالجة، فارجع إلى ربك فاسأله التخفيف لأمتك». قال: «فرجعت فوضع عنى عشرأً آخر، فرجعت إلى موسى فقال: بم أمرت؟ فقلت: أمرت بعشر صلوات فى كل يوم. فقال: إن أمتك لا تستطيع العشر صلوات كل يوم، وإنى قد خبرت الناس قبلك، وعالجت بنى إسرائيل أشد المعالجة، فارجع إلى ربك فاسأله التخفيف لأمتك». قال: «فرجعت فأمرت بخمس صلوات كل يوم، فرجعت إلى موسى فقال: بم أمرت؟ فقلت: أمرت بخمس صلوات كل يوم. فقال: إن أمتك لا تستطيع الخمس صلوات كل يوم وإنى قد خبرت الناس قبلك، وعالجت بنى إسرائيل أشد المعالجة، فارجع إلى ربك فاسأله التخفيف لأمتك». قال: «قلت: قد سألت ربي حتى استحيت، ولكن أرضى وأسلم. فنذت، فنادانى مناد: قد أمضيت فريضتى وخففت عن عبادى». وأخرجاه فى الصحيحين، بنحوه (١).

رواية أنس عن أبى ذر:

روى البخارى عن أنس بن مالك قال: كان أبو ذر يحدث أن رسول الله ﷺ قال: «فرج سقف بيتى وأنا بمكة، فنزل جبريل ففرج صدرى ثم غسله بماء زمزم، ثم جاء بطست من ذهب مملئى حكمة وإيماناً، فأفرغه فى صدرى، ثم أطبقه. ثم أخذ بيدي فخرج بي إلى السماء الدنيا، فلما جئت إلى السماء، قال جبريل لخازن السماء: افتح. قال: من هذا؟ قال: جبريل. قال: هل معك أحد؟ قال: نعم، معى محمد ﷺ. قال: أرسل إليه؟ قال: نعم. فلما فتح علونا السماء الدنيا وإذا رجل قاعد على يمينه أسودَةٌ وعلى يساره أسودة، فإذا نظر قبل يمينه ضحك، وإذا نظر قبل شماله بكى. فقال: مرحباً بالنبي الصالح والابن الصالح. قال: قلت لجبريل: من هذا؟ قال: هذا آدم. وهذه الأسودة عن يمينه وعن شماله نَسَمَ بنيه، فأهل اليمين منهم أهل الجنة، والأسودة التى عن شماله أهل النار. فإذا نظر عن يمينه ضحك، وإذا نظر عن شماله بكى. «ثم عرج بى إلى السماء الثانية فقال لخازنها: افتح. فقال له خازنها مثل ما قال له الأول، ففتح». قال أنس: فذكر أنه وجد فى السموات آدم، وإدريس، وموسى، وعيسى، وإبراهيم، ولم يثبت كيف منازلهم، غير أنه ذكر أنه وجد آدم فى السماء الدنيا، وإبراهيم فى السماء السادسة. قال أنس: فلما مرَّ جبريل بالنبي ﷺ بإدريس قال: «مرحباً بالنبي الصالح والأخ الصالح. فقلت: من هذا؟ قال: هذا إدريس. ثم مررت بموسى فقال: مرحباً بالنبي الصالح والأخ الصالح. قلت: من هذا؟ قال: هذا موسى. ثم مررت بعيسى فقال: مرحباً بالنبي الصالح والأخ الصالح. قلت: من هذا؟ قال: عيسى هذا. ثم مررت بإبراهيم فقال: مرحباً بالنبي الصالح والابن الصالح. قلت: من هذا؟ قال: هذا إبراهيم». قال الزهرى:

فأخبرني ابن حزم: أن ابن عباس وأبا حبة الأنصاري كانا يقولان: قال النبي ﷺ: «ثم عرج بي حتى ظهرت لمستوى أسمع فيه صريف الأقلام». قال ابن حزم وأنس بن مالك: قال رسول الله ﷺ: «ففرض الله على أمي خمسين صلاة، فرجعت بذلك حتى مررت على موسى عليه السلام، فقال: ما فرض الله على أمتك؟ قلت: فرض خمسين صلاة. قال: فارجع إلى ربك، فإن أمتك لا تطيق ذلك، فرجعت فوضع شطرها، فرجعت إلى موسى، قلت: وضع شطرها. فقال: ارجع إلى ربك، فإن أمتك لا تطيق ذلك. فرجعت فوضع شطرها. فرجعت إليه فقال: [ارجع إلى ربك، فإن أمتك لا تطيق ذلك. فراجعتة] فقال: هي خمس وهي خمسون، لا يبدل القول لدى. فرجعت إلى موسى فقال: ارجع إلى ربك. قلت: قد استحيت من ربي. ثم انطلق بي حتى انتهى إلى سدره المنتهى فغشيها ألوان لا أدري ما هي، ثم أدخلت الجنة فإذا فيها جبال اللؤلؤ وإذا ترابها المسك». هذا لفظ البخاري في «كتاب الصلاة»^(١).

وروى الإمام أحمد عن عبد الله بن شقيق قال: قلت لأبي ذر: لو رأيت رسول الله ﷺ لسألته. قال: وما كنت تسأله؟ قال: كنت أسأله: هل رأى ربه؟ فقال: إني قد سألته فقال: «إني قد رأيته نوراً أنى أراه». هكذا قد وقع في رواية الإمام أحمد. وأخرجه مسلم عن أبي ذر قال: سألت رسول الله ﷺ: هل رأيت ربك؟ قال: «نور أنى أراه»^(٢).

وعن عبد الله بن شقيق قال: قلت لأبي ذر: لو رأيت رسول الله ﷺ لسألته. فقال: عن أي شيء كنت تسأله؟ قال: كنت أسأله: هل رأيت ربك؟ قال أبو ذر: قد سألت فقال: «رأيت نوراً»^(٣).

رواية أنس عن أبي بن كعب الأنصاري:

روى عبد الله بن الإمام أحمد عن أنس بن مالك قال: كان أبي بن كعب يحدث: أن رسول الله ﷺ قال: «فرج سقف بيتي وأنا بمكة، فنزل جبريل ففرج صدري، ثم غسله من ماء زمزم، ثم جاء بطست من ذهب ممتلئ حكمة وإيماناً، فأفرغها في صدري ثم أطبقه، ثم أخذ بيدي فخرج بي إلى السماء. فلما جاء السماء الدنيا إذا رجل عن يمينه أسودة وعن يساره أسودة، فإذا نظر قبل يمينه تبسم، وإذا نظر قبل يساره بكى قال: مرحباً بالنبي الصالح والابن الصالح». قال: «قلت لجبريل: من هذا؟ قال: هذا آدم، وهذه الأسودة عن يمينه وشماله نسمة بني، فأهل اليمين هم أهل الجنة، والأسودة التي عن شماله هم أهل النار. فإذا نظر قبل يمينه ضحك، وإذا نظر قبل يساره بكى». قال: «ثم عرج بي جبريل حتى أتى السماء الثانية، فقال لخازنها: افتح. فقال له خازنها مثل ما قال خازن السماء الدنيا ففتح له». قال أنس: فذكر أنه وجد في السموات: آدم، وإدريس، وموسى، وإبراهيم، وعيسى، ولم يثبت لى كيف منازلهم، غير أنه

(١) البخاري (٣٤٩) وما بين المعقوفين منه .

(٢) المسند (٥ / ١٤٧) ومسلم (١٧٨ / ٢٩١) .

(٣) المسند (٥ / ١٤٧) ومسلم (١٧٨ / ٢٩٢) .

ذكر أنه وجد آدم، عليه السلام، في السماء الدنيا، وإبراهيم في السماء السادسة. قال أنس: فلما مرّ جبريل عليه السلام، ورسول الله ﷺ بإدريس قال: «مرحباً بالنبي الصالح والأخ والصالح». قال: «قلت: من هذا يا جبريل؟ قال: هذا إدريس»، قال: «ثم مررت بموسى، فقال: مرحباً بالنبي الصالح والأخ الصالح. فقلت: من هذا؟ قال: هذا موسى، ثم مررت بعيسى فقال: مرحباً بالنبي الصالح والأخ الصالح. قلت: من هذا. قال: هذا عيسى ابن مريم» قال: «ثم مررت بإبراهيم فقال: مرحباً بالنبي الصالح والابن الصالح. قلت: من هذا؟ قال: هذا إبراهيم». قال ابن شهاب: وأخبرني ابن حزم: أن ابن عباس وأبا حبة الأنصاري كانا يقولان: قال رسول الله ﷺ: «ثم عرج بي حتى ظهرت لمستوى أسمع صريف الأقدام» قال ابن حزم وأنس ابن مالك: قال رسول الله ﷺ: «فرض الله على أمتي خمسين صلاة» قال: «فرجعت بذلك حتى أمر على موسى، فقال موسى: ماذا فرض ربك على أمتك؟ قلت: فرض عليهم خمسين صلاة. فقال لى موسى: راجع ربك؛ فإن أمتك لا تطيق ذلك» قال: «فرجعت ربي. فوضع شطرها، فرجعت إلى موسى فأخبرته فقال: ارجع إلى ربك فإن أمتك لا تطيق ذلك، فرجعت فقال: هي خمس وهي خمسون، لا يبدل القول لدى». قال: «فرجعت إلى موسى فقال: راجع ربك. فقلت: قد استحيت من ربي» قال: «ثم انطلق بي حتى أتى سدره المنتهى». قال: «فغشيها ألوان ما أدرى ماهي؟» قال: «ثم أدخلت الجنة، فإذا فيها جناز اللؤلؤ، وإذا ترابها المسك». هكذا رواه عبد الله بن أحمد في مسند أبيه وليس هو في شيء من الكتب الستة، وقد تقدم في الصحيحين عن أبي ذر، مثل هذا السياق سواء، فالله أعلم^(١).

رواية جابر بن عبد الله، رضى الله عنه :

روى الإمام أحمد عن جابر بن عبد الله : أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «لما كذبتى قريش حين أسرى بى إلى بيت المقدس، قمت فى الحجر فجلى الله لى بيت المقدس، فطفقت أخبرهم عن آياته وأنا أنظر إليه». أخرجاه فى الصحيحين (٢) .

رواية عبد الله بن عباس:

روى الإمام أحمد عن ابن عباس قال: ليلة أسرى بنى الله ﷺ دخل الجنة، فسمع فى جانبها وجساً (٣) فقال: «يا جبريل، ما هذا؟» قال: «هذا بلال المؤذن». فقال النبى ﷺ حين جاء إلى الناس: «قد أفلح بلال، قد رأيت له كذا وكذا». قال: فلقية موسى، عليه السلام، فرحب به ، وقال : « مرحباً بالنبى الأمى»، قال: «وهو رجل آدم طويل، سبط شعره مع أذنيه أو فوقهما، فقال: « من هذا يا جبريل ؟» قال: «هذا موسى. فمضى فلقية شيخ جليل متهيب فرحب

(١) المسند (٥ / ١٤٣ ، ١٤٤) .

(٢) المسند (٣ / ٣٧٧) والبخارى (٤٧١٠) ومسلم (١٧٠ / ٢٧٦) .

(٣) فى المطبوعة والمخطوطة الأزهرية : « وخشا » والمثبت من المسند .

به وسلم عليه وكلهم يسلم عليه، قال: «من هذا يا جبريل؟». قال: «هذا أبوك إبراهيم»، قال: ونظر في النار، فإذا قوم يأكلون الجيف، قال: «من هؤلاء يا جبريل؟» قال: «هؤلاء الذين يأكلون لحوم الناس»، ورأى رجلاً أحمر أزرق جداً، قال: «من هذا يا جبريل؟». قال: «هذا عاقر الناقة»، قال: فلما أتى رسول الله ﷺ المسجد الأقصى قام يصلى، فإذا النبيون أجمعون يصلون معه. فلما انصرف جرى بقدحين، أحدهما عن اليمين والآخر عن الشمال، فى أحدهما لبن وفى الآخر عسل، فأخذ اللبن فشرب منه، فقال الذى كان معه القدح: أصبت الفطرة. إسناده صحيح ولم يخرجوه (١).

طريق أخرى: روى الإمام أحمد عن ابن عباس قال: أسرى برسول الله ﷺ إلى بيت المقدس، ثم جاء من ليلته فحدثهم بمسيره وبعلامة بيت المقدس وبغيرهم، فقال ناس: نحن لا نصدق محمداً بما يقول! فارتدوا كفاراً، فضرب الله رقابهم مع أبى جهل، وقال أبو جهل: يخوفنا محمد بشجرة الزقوم، هاتوا تمراً وزبدا فترقموا، ورأى الدجال فى صورته رؤيا عين ليس برؤيا منام، وعيسى وموسى وإبراهيم. وسئل النبي ﷺ عن الدجال فقال: «رأيت فيلماً نياً أقمر هجان، إحدى عينيه قائمة كأنها كوكب درى، كان شعر رأسه أغصان شجرة. ورأيت عيسى عليه السلام أبيض، جعد الرأس، حديد البصر، مبطن الخلق. ورأيت موسى عليه السلام أسحم آدم، كثير الشعر، شديد الخلق. ونظرت إلى إبراهيم عليه السلام فلم أنظر إلى أرب منه إلا نظرت إليه منى، حتى كأنه صاحبكم. قال جبريل: سلم على مالك (٢) فسلمت عليه». ورواه النسائي وإسناده صحيح (٣).

طريق أخرى: روى البيهقي عن أبى العالية قال: حدثنا ابن عم نبيكم ﷺ ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «رأيت ليلة أسرى بى موسى بن عمران، رجلاً طوالاً جعداً، كأنه من رجال شنوءة، ورأيت عيسى ابن مريم مربع الخلق، إلى الحمرة والبياض، سبط الرأس». وأرى مالكا خازن جهنم والدجال، فى آيات أراهن الله إياه، قال: ﴿فَلَا تَكُنْ فِي مَرِيَةٍ مِّنْ لِّقَائِهِ﴾ [السجدة: ٢٣] فكان قتادة يفسرها: أن نبي الله ﷺ قد لقي موسى عليه السلام ﴿وَجَعَلْنَاهُ هُدًى لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ قال: جعل الله موسى هدى لبني إسرائيل. وأخرجه (٤).

طريق أخرى: وروى الإمام أحمد عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «لما كان ليلة أسرى بى»، فأصبحت بمكة، فظعت وعرفت أن الناس مكذبي، فقعدت معتزلاً حزيناً، فمرَّ به أبو جهل فجاء حتى جلس إليه، فقال كالمستهزئ: هل كان من شيء؟ فقال رسول الله ﷺ: «نعم» قال: وما هو؟ قال «إني أسرى بى الليلة» قال: إلى أين؟ قال: «إلى بيت المقدس»

(١) المسند (٢٣٢٣) وقال الشيخ أحمد شاكر: «إسناده صحيح».

(٢) فى المطبوعة: «أبيك» والمثبت من المخطوطة والمسند.

(٣) المسند (٣٥٤٦) وقال الشيخ أحمد شاكر: «إسناده صحيح» والنسائي فى الكبرى (١١٤٨٤).

(٤) البيهقي فى الدلائل (٢ / ٣٨٦) والبخارى (٣٢٣٩) ومسلم (١٦٥ / ٢٦٦).

قال: ثم أصبحت بين ظهرائنا؟! قال: «نعم». قال: فلم ير أن يكذبه مخافة أن يجحد الحديث إن دعا قومه إليه ، فقال: أرأيت إن دعوت قومك أتحدثهم بما حدثتني؟ فقال رسول الله ﷺ: «نعم». فقال: يا معشر بنى كعب بن لؤى، قال: فانتفضت إليه المجالس وجاؤوا حتى جلسوا إليهما. قال: حدث قومك بما حدثتني. فقال رسول الله ﷺ: «إني أسرى بي الليلة». فقالوا: إلى أين؟ قال: «إلى بيت المقدس» قالوا: ثم أصبحت بين ظهرائنا؟ قال: «نعم». قال: فمن بين مصفق، ومن بين واضح يده على رأسه متعجباً للكذب، قالوا: وتستطيع أن تنتع لنا المسجد وفيهم من قد سافر إلى ذلك البلد ورأى المسجد؟ فقال رسول الله ﷺ: «فما زلت أنتع حتى التبس عليّ بعض النعت» قال: «فجئء بالمسجد وأنا أنظر إليه، حتى وضع دون دار عقيل - أو عقال - فتعته وأنا أنظر إليه». قال: وكان مع هذا نعت لم أحفظه، قال: فقال القوم: أما النعت فوالله لقد أصاب فيه . وأخرجه النسائي ورواه البيهقي (١) .

رواية عبد الله بن مسعود:

روى الحافظ أبو بكر البيهقي عن عبد الله بن مسعود قال: لما أسرى برسول الله ﷺ، فأنتهى إلى سدره المنتهى، وهى فى السماء السادسة، وإليها ينتهى ما يصعد به حتى يقبض منها، وإليها ينتهى ما يهبط به من فوقها حتى يقبض ﴿إِذْ يَغْشَى السَّدْرَةَ مَا يَغْشَى﴾ [النجم: ١٦] قال: غشيها فراش من ذهب، وأعطى رسول الله ﷺ الصلوات الخمس، وخواتيم سورة البقرة، وغفر لمن لا يشرك بالله شيئاً المقحّمات، يعنى الكبائر. ورواه مسلم (٢) . ثم قال البيهقي: «وهذا الذى ذكره عبد الله بن مسعود طرف من حديث المعراج ، وقد رواه أنس بن مالك، عن مالك ابن صَعَصَعَةَ، عن النبي ﷺ، ثم عن أبى ذر، عن النبي ﷺ، ثم رواه مرة مرسلأً دون ذكرهما» (٣) ، ثم إن البيهقي ساق الأحاديث الثلاثة كما تقدّم . والمشهور فى الصحاح كما تقدم: أن جبريل كان يعلمه بهم أولاً ليسلم عليهم سلام معرفة. وفيه أنه اجتمع بالأنبياء عليهم السلام قبل دخوله المسجد الأقصى، والصحيح أنه إنما اجتمع بهم فى السموات، ثم نزل إلى بيت المقدس ثانياً وهم معه، وصلى بهم فيه، ثم إنه ركب البراق وكر راجعاً إلى مكة، والله أعلم .

طريق أخرى : روى الإمام أحمد عن مؤثر بن عفازة، عن ابن مسعود عن النبي ﷺ قال: «لقيت ليلة أسرى بى إبراهيم وموسى وعيسى عليهم السلام، فتذكروا أمر الساعة» قال: «فردوا أمرهم إلى إبراهيم عليه السلام فقال: لا علم لى بها. فردوا أمرهم إلى موسى. فقال: لا علم لى بها ، فردوا أمرهم إلى عيسى فقال: ما أوحيتها فلا يعلم بها أحد إلا الله عزوجل، وفيما عهد إلى ريبى أن الدجال خارج». قال: «ومعى قضيبان، فإذا رأيتى ذاب كما يذوب الرصاص». قال: «فهلكه الله إذا رأيتى، حتى إن الحجر والشجر يقول: يا مسلم، إن تحتى كافراً، فتعال

(١) المسند (٢٨٢٠) وقال الشيخ أحمد شاكر : «إسناده صحيح» ، والنسائي فى الكبرى (١١٢٥٨) ، والبيهقي فى دلائل النبوة (٢ / ٣٦٣) .

(٢) دلائل النبوة (٢ / ٣٧٢) ومسلم (١٧٣ / ٢٧٩) . (٣) دلائل النبوة (٢ / ٣٧٣) .

فاقتله. قال: « فيهلكهم الله، ثم يرجع الناس إلى بلادهم وأوطانهم ». قال « فعند ذلك يخرج يا جوج ومأجوج وهم من كل حذب ينسلون فيطؤون بلادهم، فلا يأتون على شيء إلا أهلكوه، ولا يبرون على ماء إلا شربوه » قال: « ثم يرجع الناس إلى فيشكونهم. فادعوا الله عليهم، فيهلكهم ويميتهم حتى تجوى الأرض من نتن ريحهم - أي: نتنن » قال: « فينزل الله المطر، فيجترف أجسادهم حتى يقذفهم في البحر. ففيما عهد إلى ربي: « أن ذلك إذا كان كذلك أن الساعة كالحامل المتم، لا يدرى أهلها متى تفجؤهم بولادها، ليلاً أو نهاراً » وأخرجه ابن ماجه (١).

وقد روى البخارى ومسلم عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: « حين أسرى بى لقيت موسى » قال: فنعته فإذا رجل - حسبته قال: - مضطرب، رجُل الرأس، كأنه من رجال شنوءة. قال: « ولقيت عيسى » - فنعته النبي ﷺ قال: - ربعة أحمر كأنما خرج من ديماس - يعنى حمام. قال: « ولقيت إبراهيم، وأنا أشبه ولده به ». قال: « وأتيت بإناءين فى أحدهما لبن وفى الآخر خمر، قيل لى: خذ أيهما شئت، فأخذت اللبن، فشربت، فقيل لى: هديت الفطرة - أو: أصبت الفطرة - أما إنك لو أخذت الخمر غوت أمتك » (٢). وفى صحيح مسلم عن أبى هريرة، قال: قال رسول الله ﷺ: « لقد رأيتنى فى الحجر وقريش تسألنى عن مسراى، فسألونى عن أشياء من بيت المقدس لم أثبتها، فكربت كرباً ما كربت مثله قط، فرفعه الله لى أنظر إليه، ما سألونى عن شيء إلا أنبأتهم به، وقد رأيتنى فى جماعة من الأنبياء، وإذا موسى قائم يصلى، وإذا هو رجل جعد كأنه من رجال شنوءة، وإذا عيسى قائم يصلى أقرب الناس شبيهاً به عروة بن مسعود الثقفى، وإذا إبراهيم قائم يصلى أقرب الناس شبيهاً به صاحبكم - يعنى نفسه - فحانت الصلاة فأمتهم، فلما فرغت قال قائل: يا محمد، هذا مالك خازن جهنم، فالتفت إليه فبدأنى بالسلام » (٣).

رواية عائشة أم المؤمنين، رضى الله عنها:

روى البيهقى عن عائشة، قالت: لما أسرى برسول الله ﷺ إلى المسجد الأقصى، أصبح يحدث الناس بذلك، فارتد ناس ممن كانوا آمنوا به وصدقوه، وسعوا بذلك إلى أبى بكر، فقالوا: هل لك فى صاحبك؟ يزعم أنه أسرى به الليلة إلى بيت المقدس! فقال: أو قال ذلك؟ قالوا: نعم. قال: لئن كان قال ذلك لقد صدق. قالوا: فتصدقه أنه ذهب الليلة إلى بيت المقدس، وجاء قبل أن يصبح؟ قال: نعم، إنى لأصدقه فيما هو أبعد من ذلك، أصدقه فى خبر السماء فى غدوة أو روحة. فلذلك سمي أبو بكر: الصديق (٤).

(١) المسند (٣٥٥٦) وابن ماجه (٤٠٨١)، وفى الزوائد: « هذا إسناد صحيح رجاله ثقات ».

قلت: وصحح إسناده الشيخ أحمد شاکر، ثم قال: « والحديث ذكره ابن كثير فى التفسير (١٣٠ / ٥) عند هذا الموضع، ووقع فى التفسير بدل « موثر بن عفازة » « مرثد بن جنادة »، وهو تحريف عجيب من الناسخين، وليس فى الرواة المترجمين من يسمى بهذا ».

(٢) البخارى (٣٣٩٤) ومسلم (١٦٨ / ٢٧٢). (٣) مسلم (١٧٢ / ٢٧٨).

(٤) دلائل النبوة (٢ / ٣٦٠) ورواه الحاكم فى المستدرک (٣ / ٦٢) وقال: « هذا حديث صحيح الإسناد ولم

يخرجه »، ووافقه الذهبى.

فصل: وإذا حصل الوقوف على مجموع هذه الأحاديث صحيحها وحسنها وضعيفها، فحصل مضمون ما اتفقت عليه من مسرى رسول الله ﷺ من مكة إلى بيت المقدس، وأنه مرة واحدة، وإن اختلفت عبارات الرواة في أداؤه، أو زاد بعضهم فيه أو نقص منه، فإن الخطأ جائز على من عدا الأنبياء، عليهم السلام. ومن جعل من الناس كل رواية خالفت الأخرى مرة على حدة، فأثبت إسرائا متعددة فقد أبعد وأغرب، وهرب إلى غير مهرب ولم يتحصل على مطلب. وقد صرح بعضهم من المتأخرين بأنه، عليه السلام، أسرى به مرة من مكة إلى بيت المقدس فقط، ومرة من مكة إلى السماء فقط، ومرة إلى بيت المقدس ومنه إلى السماء. وفرح بهذا المسلك، وأنه قد ظفر بشيء يخلص به من الإشكالات. وهذا بعيد جداً، ولم ينقل هذا عن أحد من السلف، ولو تعدد هذا التعدد لأخبر النبي ﷺ به أمته، ولنقله الناس على التعدد والتكرار. قال الزهري: كان الإسراء قبل الهجرة بسنة. وكذا قال عروة. وقال السدي: بستة عشر شهراً.

والحق: أنه، عليه السلام، أسرى به يقظة لا مناماً من مكة إلى بيت المقدس، ركباً البراق، فلما انتهى إلى باب المسجد ربط الدابة عند الباب، ودخله فضلى في قبلته تحية المسجد ركعتين. ثم أتى المعراج - وهو كالسلم ذو درج يرقى فيها - فصعد فيه إلى السماء الدنيا، ثم إلى بقية السموات السبع، فتلقاها من كل سماء مقربوها، وسلم عليه الأنبياء الذين في السموات بحسب منازلهم ودرجاتهم، حتى مرّ بموسى الكليم فى السادسة، وإبراهيم الخليل فى السابعة، ثم جاوز منزلتيهما ﷺ وعليهما وعلى سائر الأنبياء، حتى انتهى إلى مستوى يسمع فيه صريف الأقلام، أى: أقلام القدر بما هو كائن، ورأى سدرة المنتهى، وغشيتها من أمر الله، تعالى، عظمة عظيمة، من فراش من ذهب، وألوان متعددة، وغشيتها الملائكة، ورأى هنالك جبريل على صورته، وله ستمائة جناح، ورأى ررفراً أخضر قد سد الأفق، ورأى البيت المعمور وإبراهيم الخليل باني الكعبة الأرضية مسنداً ظهره إليه؛ لأنه الكعبة السماوية يدخله كل يوم سبعون ألفاً من الملائكة يتعبدون فيه، ثم لا يعودون إليه إلى يوم القيامة. ورأى الجنة والنار، وفرض الله عليه هنالك الصلوات خمسين، ثم خففها إلى خمس؛ رحمة منه ولطفاً بعباده. وفى هذا اعتناء عظيم بشرف الصلاة وعظمتها. ثم هبط إلى بيت المقدس، وهبط معه الأنبياء فضلى بهم فيه لما حانت الصلاة، ويحتمل أنها الصبح من يومئذ. ومن الناس من يزعم أنه أهمهم فى السماء. والذى تظاهرت به الروايات أنه ببيت المقدس، ولكن فى بعضها أنه كان أول دخوله إليه. والظاهر أنه بعد رجوعه إليه؛ لأنه لما مرّ بهم فى منازلهم جعل يسأل عنهم جبريل واحداً واحداً وهو يخبره بهم، وهذا هو اللائق؛ لأنه كان أولاً مطلوباً إلى الجناب العلوى ليفرض عليه وعلى أمته ما يشاء الله، تعالى. ثم لما فرغ من الذى أريد به، اجتمع هو وإخوانه من النبيين صلوات الله وسلامه عليه وعليهم أجمعين، ثم أظهر شرفه وفضله عليهم بتقديمه فى الإمامة، وذلك عن إشارة جبريل عليه السلام له فى ذلك. ثم خرج من بيت المقدس فركب البراق وعاد إلى مكة بغلس، والله سبحانه وتعالى أعلم. وأما عرض الآنية عليه من اللبن والعسل، أو اللبن والخمر،

أو اللبن والماء، أو الجميع - فقد ورد أنه في بيت المقدس، وجاء أنه في السماء. ويحتمل أن يكون ههنا وههنا؛ لأنه كالضيفاة للقدام، واللّه أعلم. ثم اختلف الناس: هل كان الإسراء ببدنه عليه السلام وروحه؟ أو بروحه فقط؟ على قولين، فالأكثر من العلماء على أنه أسرى ببدنه وروحه يقظة لا مناماً، ولا ينكر أن يكون رسول الله ﷺ رأى قبل ذلك مناماً، ثم رآه بعده يقظة؛ لأنه عليه السلام كان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح؛ والدليل على هذا قوله تعالى: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَا الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ﴾، فالتسبيح إنما يكون عند الأمور العظام، فلو كان مناماً لم يكن فيه كبير شيء ولم يكن مستعظماً، ولما بادرت كفار قريش إلى تكذيبه، ولما ارتد جماعة ممن كان قد أسلم. وأيضاً فإن العبد عبارة عن مجموع الروح والجسد، وقد قال: ﴿أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا﴾ وقد قال تعالى: ﴿مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَى﴾ [النجم: ١٧]، والبصر من آلات الذات لا الروح. وأيضاً فإنه حمل على البراق، وهو دابة بيضاء براق لها لمعان، وإنما يكون هذا للبدن لا للروح؛ لأنها لا تحتاج في حركتها إلى مركب تركب عليه، واللّه أعلم.

وقال آخرون: بل أسرى برسول الله ﷺ بروحه لا بجسده. وقد تعقبه ابن جرير في تفسيره بالرد والإنكار والتشنيع، بأن هذا خلاف ظاهر سياق القرآن، واللّه أعلم.

فائدة: قال الحافظ أبو الخطاب عمر بن دحية في كتابه «التنوير في مولد السراج المنير» وقد ذكر حديث الإسراء من طريق أنس، وتكلم عليه فأجاد وأفاد - ثم قال: وقد تواترت الروايات في حديث الإسراء عن عمر بن الخطاب، وعلى، وابن مسعود، وأبي ذر، ومالك بن صعصعة، وأبي هريرة، وأبي سعيد، وابن عباس، وشداد بن أوس، وأبي بن كعب، وعبد الرحمن بن قُرْط، وأبي حبة وأبي ليلي الأنصاريين، وعبد الله بن عمرو، وجابر، وحذيفة، وبريدة، وأبي أيوب، وأبي أمامة، وسمرة بن جندب، وأبي الحمراء، وصهيب الرومي، وأم هانئ، وعائشة وأسماء ابنتي أبي بكر الصديق، رضى الله عنهم أجمعين. منهم من ساقه بطوله، ومنهم من اختصره على ما وقع في المسانيد، وإن لم تكن رواية بعضهم على شرط الصحة، فحديث الإسراء أجمع عليه المسلمون، وأعرض عنه الزنادقة الملحدون ﴿يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَاللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ﴾ [الصف: ٨].

﴿وَأَتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَجَعَلْنَاهُ هُدًى لِبَنِي إِسْرَائِيلَ أَلَّا تَتَّخِذُوا مِنْ دُونِي وَكِيلًا ﴿١﴾ ذُرِّيَّةً مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ إِنَّهُمْ كَانُوا عَبْدًا شَكُورًا ﴿٢﴾﴾

لما ذكر تعالى أنه أسرى بعبد محمد ﷺ عطف بذكر موسى عبده وكليمه أيضاً، فإنه تعالى كثيراً ما يقرن بين ذكر موسى ومحمد عليهما السلام وبين ذكر التوراة والقرآن؛ ولهذا قال بعد ذكر الإسراء: ﴿وَأَتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ﴾ يعنى التوراة ﴿وَجَعَلْنَاهُ﴾ أى الكتاب ﴿هُدًى﴾ أى هادياً ﴿لِبَنِي إِسْرَائِيلَ أَلَّا تَتَّخِذُوا﴾ أى لئلا تتخذوا ﴿مِنْ دُونِي وَكِيلًا﴾ أى ولياً ولا نصيراً ولا معبوداً

دونى؛ لأن الله تعالى أنزل على كل نبي أرسله أن يعبده وحده لا شريك له .

ثم قال: ﴿ذُرِّيَّةً مِنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ﴾ تقديره: يا ذرية من حملنا مع نوح . فيه تهيج وتنبه على المنة، أى: يا سلالة من نجينا فحملنا مع نوح فى السفينة، تشبهوا بأبيكم ﴿إِنَّهُ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا﴾ فاذكروا أنتم نعمتى عليكم بإرسالى إليكم محمداً ﷺ . وقد ورد فى الحديث وفى الأثر عن السلف: أن نوحاً، عليه السلام، كان يحمد الله على طعامه وشرابه ولباسه وشأنه كله؛ فلهذا سمى عبداً شكوراً . روى الإمام أحمد عن أنس بن مالك، قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله ليرضى عن العبد أن يأكل الأكلة أو يشرب الشربة فيحمد الله عليها» . وهكذا رواه مسلم والترمذى والنسائى^(١) . وقال مالك، عن زيد بن أسلم: كان يحمد الله على كل حال . وقد روى البخارى عن أبى هريرة عن النبى ﷺ قال: «أنا سيد الناس يوم القيامة» بطوله، وفيه: «فيأتون نوحاً فيقولون: يا نوح، إنك أنت أول الرسل إلى أهل الأرض، وقد سماك الله عبداً شكوراً، فاشفع لنا إلى ربك» وذكر الحديث بكماله^(٢) .

﴿وَقَضَيْنَا إِلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ فِي الْكِتَابِ لَتُفْسِدُنَّ فِي الْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا﴾ ١ ﴿فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ أُولَاهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَنَا أُولَىٰ بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُوا خِلَالَ الدِّيَارِ وَكَانَ وَعْدًا مَفْعُولًا﴾ ٢ ﴿ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ الْكُرَّةَ عَلَيْهِمْ وَأَمْدَدْنَاكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَجَعَلْنَاكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا﴾ ٣ ﴿إِنْ أَحْسَنْتُمْ أَحْسَنْتُمْ لِأَنْفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ لِيَسْتَوْسُوا وُجُوهَكُمْ وَلِيَدْخُلُوا الْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبَرَّوْا مَا عَلَوُا تَتْبِيرًا﴾ ٤ ﴿عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَنْ يَرْحَمَكُمُ وَإِنْ عُدتُّمْ عَدْنَا وَحَمَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ حَصِيرًا﴾ ٥

يخبر تعالى أنه قضى إلى بنى إسرائيل فى الكتاب، أى: تقدم إليهم وأخبرهم فى الكتاب الذى أنزله عليهم أنهم سيفسدون فى الأرض مرتين ويعلون علواً كبيراً، أى: يتجبرون ويطغون ويفجرون على الناس كقوله تعالى: ﴿وَقَضَيْنَا إِلَيْهِ ذَلِكَ الْأَمْرَ أَنَّ دَابِرَ هَؤُلَاءِ مَقْطُوعٌ مُّصْبِحِينَ﴾ [الحجر: ٦٦] أى: تقدمنا إليه وأخبرناه بذلك وأعلمناه به . وقوله: ﴿فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ أُولَاهُمَا﴾ أى: أولى الإفسادتين ﴿بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَنَا أُولَىٰ بَأْسٍ شَدِيدٍ﴾ أى: سلطنا عليكم جنداً من خلقنا أولى بأس شديد، أى: قوة وعدة وسلطنة شديدة ﴿فَجَاسُوا خِلَالَ الدِّيَارِ﴾ أى: تملكوا بلادكم وسلكوا خلال بيوتكم، أى: بينها ووسطها، وانصرفوا ذاهبين وجائين لا يخافون أحداً ﴿وَكَانَ وَعْدًا مَفْعُولًا﴾ . وقد اختلف المفسرون من السلف والخلف فى هؤلاء المسلطين عليهم: من هم؟ فعن ابن

(١) المسند (٣ / ١١٧) ومسلم (٢٧٣٤ / ٨٩) والترمذى (١٨١٦) والنسائى فى الكبرى (٦٨٩٩) .

(٢) البخارى (٤٧١٢) .

عباس وقتادة: أنه جالوت الجزريّ وجنوده، سلط عليهم أولاً، ثم أدبلوا عليه بعد ذلك. وقتل داود جالوت؛ ولهذا قال: ﴿ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ الْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ﴾ الآية. وعن سعيد بن جبير: أنه ملك الموصل سنجاريب وجنوده. وعنه أيضاً، وعن غيره: أنه بختنصر ملك بابل. وقد أخبر الله عنهم أنهم لما بغوا وطغوا سلط الله عليهم عدوهم، فاستباح بيضتّهم، وسلك خلال بيوتهم وأذلهم وقهرهم، جزاء وفاقاً، وما ربك بظلام للعبيد؛ فإنهم كانوا قد تمردوا وقتلوا خلقاً من الأنبياء والعلماء. وقد روى ابن جرير عن سعيد بن المسيب قال: ظهر بختنصر على الشام، فحرب بيت المقدس وقتلهم، ثم أي دمشق فقتل سبعين ألفاً من المسلمين وغيرهم (١). وهذا صحيح إلى سعيد بن المسيب، وهذا هو المشهور، وأنه قتل أشرافهم وعلماءهم، حتى إنه لم يبق من يحفظ التوراة، وأخذ معه منهم خلقاً كثيراً أسرى من أبناء الأنبياء وغيرهم، وجرت أمور وكوائن يطول ذكرها. ولو وجدنا ماهو صحيح أو ما يقاربه، لجاز كتابته وروايته، والله أعلم.

ثم قال تعالى: ﴿إِنْ أَحْسَنْتُمْ أَحْسَنْتُمْ لِأَنْفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا﴾ أي: فعليها، كما قال تعالى: ﴿مَنْ عَمِلْ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا﴾ [فصلت: ٤٦].

وقوله: ﴿فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ﴾ أي: الكرة الآخرة، أي: إذا أفسدتم الكرة الثانية وجاء أعداؤكم ﴿لِيَسْؤُرُوا وُجُوهَكُمْ﴾ أي: يهينوكم ويقهروكم ﴿وَلِيَدْخُلُوا الْمَسْجِدَ﴾ أي بيت المقدس ﴿كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ أي: في التي جاسوا فيها خلال الديار ﴿وَلِيَتَّبِعُوا﴾ أي: يدمروا ويخربوا ﴿مَا عَلَّمُوا﴾ أي: ما ظهروا عليه ﴿تَنْبِيْرًا. عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَنْ يَرْحَمَكُمْ﴾ أي: فيصرفهم عنكم ﴿وَإِنْ عُدْتُمْ عُدْنَا﴾ أي: متى عدتم إلى الإفساد ﴿عُدْنَا﴾ إلى الإدالة عليكم في الدنيا مع مانذخه لكم في الآخرة من العذاب والنكال، ولهذا قال: ﴿وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ حَصِيرًا﴾ أي: مستقراً ومحصراً وسجنناً لا محيد لهم عنه. وقال قتادة: قد عاد بنو إسرائيل، فسلط الله عليهم هذا الحى، محمداً ﷺ وأصحابه، يأخذون منهم الجزية عن يد وهم صاغرون.

﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا﴾ ﴿١﴾ وَأَنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿٢﴾ ﴿١﴾

يمدح تعالى كتابه العزيز الذي أنزله على رسوله محمد ﷺ وهو القرآن، بأنه يهدى لأقوم الطرق، وأوضح السبل ﴿وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ به ﴿الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ﴾ على مقتضاه ﴿أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا﴾ أي: يوم القيامة ﴿وَأَنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ﴾ أي: ويبشر الذين لا يؤمنون بالآخرة أن ﴿لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ أي: يوم القيامة، كما قال تعالى: ﴿فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [آل عمران: ٢١].

﴿وَيَدْعُ الْإِنْسَانَ بِالشَّرِّ دُعَاءَهُ بِالْخَيْرِ وَكَانَ الْإِنْسَانُ مَجْهُولًا﴾ ﴿١١﴾

يخبر تعالى عن عجلة الإنسان، ودعائه فى بعض الأحيان على نفسه أو ولده أو ماله ﴿بِالشَّرِّ﴾ أى: بالموت أو الهلاك والدمار واللعة ونحو ذلك، فلو استجاب له ربه لهلك بدعائه، كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ يُعْجِلُ اللَّهُ لِلنَّاسِ الشَّرَّ﴾ الآية [يونس: ١١]، وكذا فسره ابن عباس، ومجاهد، وقتادة، وإنما يحمل ابن آدم على ذلك عجلته وقلقه؛ ولهذا قال تعالى: ﴿وَكَانَ الْإِنْسَانُ عَجُولًا﴾.

﴿وَجَعَلْنَا أَلِيلَ وَالنَّهَارَ عَيْنَيْنِ فَحَوَّنَا عَايَةَ أَلِيلٍ وَجَعَلْنَا عَايَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً لِّتَبْتَغُوا فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ وَكُلُّ شَيْءٍ فَضْلَنَاهُ تَفْصِيلًا﴾

يمتّن تعالى على خلقه بآياته العظام، فمنها مخالفته بين الليل والنهار، ليسكنوا فى الليل ويتشربوا فى النهار للمعايش والصنائع والأعمال والأسفار، وليعلموا عدد الأيام والجمع والشهور والأعوام، ويعرفوا مضى الآجال المضروبة للديون والعبادات والمعاملات والإجازات وغير ذلك؛ ولهذا قال: ﴿لِتَبْتَغُوا فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ﴾ أى: فى معاشكم وأسفاركم ونحو ذلك ﴿وَلِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ﴾ فإنه لو كان الزمان كله نسقاً واحداً وأسلوباً متساوياً لما عرف شيء من ذلك، كما قال تعالى: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ اللَّيْلَ سَرْمَداً إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِضِيَاءٍ أَفَلَا تَسْمَعُونَ . قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ النَّهَارَ سَرْمَداً إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ أَفَلَا تُبْصِرُونَ . وَمِنْ رَحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلِعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [القصص: ٧١ - ٧٣]، وقال تعالى: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي جَعَلَ فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَاجًا وَقَمراً مُنِيرًا . وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ خِلْفَةً لِّمَنْ أَرَادَ أَنْ يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُوراً﴾ [الفرقان: ٦١، ٦٢]، وقال تعالى: ﴿وَلَهُ اخْتِلَافُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ﴾ [المؤمنون: ٨٠]، وقال: ﴿يُكْوِرُ اللَّيْلَ عَلَى النَّهَارِ وَيُكْوِرُ النَّهَارَ عَلَى اللَّيْلِ وَسَخَرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى أَلَا هُوَ الْعَزِيزُ الْغَفَّارُ﴾ [الزمر: ٥]، وقال تعالى: ﴿فَالِقَ الْإِصْبَاحِ وَجَاعِلَ (١) اللَّيْلِ سَكَنًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ حَسْبَانَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾ [الانعام: ٩٦]، وقال تعالى: ﴿وَآيَةٌ لَهُمُ اللَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ فَإِذَا هُم مُّظْلَمُونَ . وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾ [يس: ٣٧، ٣٨].

ثم إنه تعالى جعل لليل آية، أى: علامة يعرف بها وهى الظلام وظهور القمر فيه، وللنهار علامة، وهى النور وطلوع الشمس النيرة فيه، وفاوت بين نور القمر وضياء الشمس ليعرف هذا من هذا، كما قال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا وَقَدَرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ مَا خَلَقَ اللَّهُ ذَلِكَ إِلَّا بِالْحَقِّ﴾ إلى قوله: ﴿لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُتَّقُونَ﴾ [يونس: ٥، ٦]، قال تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَمْثَلِ قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ﴾ الآية [البقرة: ١٨٩]. قال عبد الله بن كثير فى قوله: ﴿فَمَحَوْنَا آيَةَ اللَّيْلِ وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً﴾ قال: ظلمة الليل وسُدفة النهار. وقال مجاهد: الشمس آية النهار، والقمر آية الليل ﴿فَمَحَوْنَا آيَةَ اللَّيْلِ﴾ قال: السواد الذى فى القمر، وكذلك خلقه الله تعالى. وقال ابن عباس: كان القمر يضىء كما تضىء الشمس، والقمر آية الليل، والشمس آية

(١) وهكذا قرأها الحافظ ابن كثير، كما فى المخطوطة، وهى قراءة يعقوب وأهل المدينة وقرأ الحسن وعيسى بن عمر وحزمة والكسائى: «جَعَلَ» وفى المطبوعة: «جعل» وهو تحريف.

النهار ﴿فَمَحَوْنَا آيَةَ اللَّيْلِ﴾: السواد الذي في القمر. وقد روى ابن جرير من طرق متعددة جيدة: أن ابن الكوّاء سأل علي بن أبي طالب فقال: يا أمير المؤمنين، ما هذه اللطخة التي في القمر؟ فقال: ويحك. أما تقرأ القرآن؟ ﴿فَمَحَوْنَا آيَةَ اللَّيْلِ﴾ فهذه محوه. وقال قتادة في قوله: ﴿فَمَحَوْنَا آيَةَ اللَّيْلِ﴾: كنا نحدث أن محو آية الليل سواد القمر الذي فيه، ﴿وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً﴾، أى: منيرة، وخلق الشمس أنور من القمر وأعظم. وقال ابن عباس: ﴿وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَتَيْنِ﴾ قال: ليلاً ونهاراً، كذلك خلقهما الله، عز وجل.

﴿وَكُلَّ إِنْسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنشُورًا﴾
﴿١٦﴾ أَقْرَأَ كِتَابِكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ حَسِيبًا ﴿١٧﴾

يقول تعالى بعد ذكر الزمان وذكر ما يقع فيه من أعمال بنى آدم: ﴿وَكُلَّ إِنْسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ﴾ وطائره: هو ما طار عنه من عمله، كما قال ابن عباس ومجاهد وغيرهما: من خير وشر، ويلزم به ويجازى عليه ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ . وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾ [الزلزلة: ٥، ٦]، وقال تعالى: ﴿عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَعِيدٌ . مَا يَلْفُظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾ [ق: ١٧، ١٨]، وقال: ﴿وَإِن عَلَيْكُمْ لِحَافِظِينَ . كَرِيمًا كَاتِبِينَ . يَعْلَمُونَ مَا تَعْمَلُونَ﴾ [الانفطار: ١٠ - ١٢]، وقال: ﴿إِنَّمَا تُحْزَنُونَ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [الطور: ١٦]، وقال: ﴿مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ﴾ [النساء: ١٢٣].

والمقصود أن عمل ابن آدم محفوظ عليه، قليله وكثيره، ويكتب عليه ليلاً ونهاراً، صباحاً ومساءً.

وقوله: ﴿وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنشُورًا﴾ أى: نجمع له عمله كله فى كتاب يعطاه يوم القيامة، إما بيمينه إن كان سعيداً، أو بشماله إن كان شقيماً ﴿مَنشُورًا﴾ أى: مفتوحاً يقرؤه هو وغيره، فيه جميع عمله من أول عمره إلى آخره ﴿يُنَبِّئُ الْإِنْسَانَ يَوْمَ قَدَمِهِ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ . بَلِ الْإِنْسَانُ عَلَىٰ نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ . وَلَوْ أَلْقَىٰ مَعَاذِيرَهُ﴾ [القيامة: ١٣ - ١٥]، ولهذا قال تعالى: ﴿أَقْرَأَ كِتَابِكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا﴾ أى: إنك تعلم أنك لم تظلم ولم يكتب عليك إلا ما عملت؛ لأنك ذكرت جميع ما كان منك، ولا ينسى أحد شيئاً مما كان منه، وكل أحد يقرأ كتابه من كاتب وأمى.

وقوله: ﴿أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ﴾ إنما ذكر العنق؛ لأنه عضو من الأعضاء لا نظير له فى الجسد، ومن ألزم بشيء فيه فلا محيد له عنه. وروى الإمام أحمد عن عقبه بن عامر عن النبى ﷺ قال: «ليس من عمل يوم إلا وهو يختم عليه، فإذا مرض المؤمن قالت الملائكة: ياربنا، عبدك فلان، قد حبسته؟ فيقول الرب جل جلاله: اأختموا له على مثل عمله، حتى ييرا أو يموت». إسناده جيد قوى، ولم يخرجوه (١). وعن قتادة: ﴿أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ﴾ قال: عمله ﴿وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ قال: نخرج ذلك العمل ﴿كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنشُورًا﴾ قال معمر: وتلا الحسن

البصرى **﴿عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَعِيدٌ﴾** [ق: ١٧] يا بن آدم، بسطت لك صحيفتك، ووكل بك ملكان كريمان، أحدهما عن يمينك والآخر عن شمالك، فأما الذى عن يمينك فيحفظ حسناتك، وأما الذى عن شمالك فيحفظ سيئاتك ، فاعمل ما شئت، أقلل أو أكثر، حتى إذا مت طويت صحيفتك فجعلت فى عنقك معك فى قبرك، حتى تخرج يوم القيامة كتاباً تلقاه منشوراً **﴿أَفْرَأَ كِتَابَكَ﴾** الآية، فقد عدل - والله - من جعلك حسيب نفسك . هذا من أحسن كلام الحسن، رحمه الله .

﴿مَنْ اهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَلَا نُزِرُ وَأَنْزِرُ وَرَزَّ وَرُزَّ وَرَزَّ وَرُزَّ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ ﴿١٥﴾

يخبر تعالى أن من اهتدى واتبع الحق واقتضى آثار النبوة ، فإنما يحصل عاقبة ذلك الحميدة لنفسه **﴿وَمَنْ ضَلَّ﴾** أى: عن الحق، وزاغ عن سبيل الرشاد، فإنما يجنى على نفسه، وإنما يعود وبال ذلك عليه. ثم قال: **﴿وَلَا تُزْرُ وَأُزْرَةُ وَرَزَّ وَرُزَّ﴾** أى: لا يحمل أحد ذنب أحد، ولا يجنى جانٍ إلا على نفسه ، كما قال تعالى: **﴿وَأَن تَدْعُ مَثَلَةً إِلَىٰ حِمْلِهَا لَا يُحْمَلُ مِنْهُ شَيْءٌ﴾** [فاطر: ١٨].

ولا منافاة بين هذا وبين قوله تعالى: **﴿وَلِيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَّعَ أَثْقَالِهِمْ﴾** [العنكبوت: ١٣] ، وقوله: **﴿وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يَضِلُّونَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾** [النحل: ٢٥]، فإن الدعاة عليهم إثم ضلالهم فى انفسهم ، وإثم آخر بسبب ما أضلوا من أضلوا من غير أن ينقص من أوزار أولئك، ولا يحملوا عنهم شيئاً . وهذا من عدل الله ورحمته بعباده .

وكذا قوله تعالى: **﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾** إخبار عن عدله تعالى، وأنه لا يعذب أحداً إلا بعد قيام الحجة عليه بإرسال الرسول إليه، كقوله تعالى: **﴿كَلَّمَا أَنفَجْنَا فِيهَا فَوْجَ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ﴾** . قالوا بلى قد جاءنا نذير فكذبنا وقلنا ما نزل الله من شيء إن أنتم إلا فى ضلال كبير **﴿[الملك: ٨، ٩]**، وكذا قوله: **﴿وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًا حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوهَا فَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ رَسُلٌ مِنْكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِ رَبِّكُمْ وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا قَالُوا بَلَىٰ وَلَكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ الْعَذَابِ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾** [الزمر: ٧١]، وقال تعالى: **﴿وَهُمْ يَصْطَرِحُونَ فِيهَا رَبَّنَا أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ أَوْ لَمْ نَعْمَرْكُمْ مَا يُتَذَكَّرُ فِيهِ مِنْ تَذَكَّرٍ وَجَاءَكُمُ النَّذِيرُ فَذُوقُوا فَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ نَصِيرٍ﴾** [فاطر: ٣٧] إلى غير ذلك من الآيات الدالة على أن الله تعالى لا يدخل أحداً النار إلا بعد إرسال الرسول إليه .

ومن ثم طعن جماعة من العلماء فى اللفظة التى جاءت مقحمة فى صحيح البخارى عند قوله تعالى: **﴿إِن رَّحِمْتَ اللَّهُ قَرِيبٌ مِنَ الْمُحْسِنِينَ﴾** [الأعراف: ٥٦] عن أبى هريرة، عن النبى **ﷺ** قال: «اختصمت الجنة والنار» فذكر الحديث إلى أن قال: «وأما الجنة فلا يظلم الله من خلقه أحداً، وأنه ينشئ للنار خلقاً فيلقون فيها، فتقول: هل من مزيد؟» ثلاثاً، وذكر تمام الحديث (١). فهذا إنما جاء فى الجنة لأنها دار فضل ، وأما النار فإنها دار عدل، لا يدخلها أحد إلا بعد

الإعذار إليه وقيام الحجّة عليه . وقد تكلم جماعة من الحفاظ في هذه اللفظة وقالوا: لعله انقلب على الراوى بدليل ما أخرجاه في الصحيحين واللفظ للبخارى عن أبي هريرة قال: قال النبي ﷺ: «تحتاج الجنة والنار» فذكر الحديث إلى أن قال: «فأما النار فلا تمتلئ حتى يضع فيها قدمه، فتقول: قط، قط، فهنالك تمتلئ وينزوى بعضها إلى بعض، ولا يظلم الله من خلقه أحداً، وأما الجنة فإن الله ينشئ لها خلقاً» (١).

بقي هنا مسألة قد اختلف الأئمة، رحمهم الله تعالى، فيها قديماً وحديثاً وهي: الولدان الذين ماتوا وهم صغار وآبائهم كفار، ماذا حكمهم؟ وكذا المجنون والأصم والشيخ الخرف، ومن مات في الفترة ولم تبلغه الدعوة. وقد ورد في شأنهم أحاديث، فروى الإمام أحمد عن الأسود بن سريع، أن نبي الله ﷺ قال: «أربعة يحتجون يوم القيامة: رجل أصم لا يسمع شيئاً، ورجل أحمق، ورجل هرّم، ورجل مات في فترة، فأما الأصم فيقول: رب، قد جاء الإسلام وما أسمع شيئاً، وأما الأحمق فيقول: رب، لقد جاء الإسلام والصبيان يحذفونى بالبحر، وأما الهرّم فيقول: رب، لقد جاء الإسلام وما أعقل شيئاً، وأما الذى مات في الفترة فيقول: رب، ما أتانى لك رسول . فيأخذ موثيقهم ليطعنه فيرسل إليهم أن ادخلوا النار، فوالذى نفس محمد بيده لو دخلوها لكانت عليهم برداً وسلاماً» (٢).

وفى الصحيحين، عن أبي هريرة، أن رسول الله ﷺ قال: «كل مولود يولد على الفطرة، فأبواه يهودانه أو ينصرّانه أو يمجّسانه، كما تنتج البهيمة بهيمة جمعاء، هل تحسون فيها من جدعاء؟»، وفى رواية: قالوا: يا رسول الله، أفرأيت من يموت صغيراً؟ قال: «الله أعلم بما كانوا عاملين» (٣). وفى صحيح مسلم، عن عياض بن حمار عن رسول الله ﷺ، عن الله، عز وجل، أنه قال: «إني خلقت عبادى حنفاء» (٤).

وروى الإمام أحمد، عن حسناء (٥) بنت معاوية من بنى صريم قالت: حدثنى عمى قال: قلت: يا رسول الله، من فى الجنة؟ قال: «النبي فى الجنة، والشهيد فى الجنة، والمولود فى الجنة، والوئيد فى الجنة» (٦).

فمن العلماء من ذهب إلى التوقف فيهم لهذا الحديث، ومنهم من جزم لهم بالجنة، لحديث سمرة بن جندب فى صحيح البخارى: أنه عليه الصلاة والسلام قال فى جملة ذلك المنام، حين مرّ على ذلك الشيخ تحت الشجرة وحوله ولدان، فقال له جبريل: هذا إبراهيم، عليه السلام،

(١) البخارى (٤٨٥٠) ومسلم (٢٨٤٦ / ٣٥) .

(٢) المسند (٤ / ٢٤) وقال الهيثمى فى المجمع (٧ / ٢١٨) : « رجاله رجال الصحيح » .

(٣) البخارى (١٣٨٥) ومسلم (٢٦٥٨ / ٢٢) . (٤) مسلم (٢٨٦٥ / ٦٣) .

(٥) فى المطبوعة والمخطوطة : « خنساء » والمثبت من المسند .

(٦) المسند (٥ / ٤٠٩) ، وقال ابن حجر فى الفتح (٣ / ٢٤٦) : « إسناده حسن » .

وهؤلاء أولاد المسلمين وأولاد المشركين، قالوا: يارسول الله، وأولاد المشركين؟ قال «نعم، وأولاد المشركين» (١). ومنهم من جزم لهم بالنار، لقوله عليه السلام: «هم مع آبائهم» (٢). ومنهم من ذهب إلى أنهم يمتحنون يوم القيامة في العرصات، فمن أطاع دخل الجنة وانكشف علم الله فيهم بسابق السعادة، ومن عصى دخل النار داخراً، وانكشف علم الله فيه بسابق الشقاوة. وهذا القول يجمع بين الأدلة كلها، وقد صرحت به الأحاديث. وهذا القول هو الذي حكاه الشيخ أبو الحسن على بن إسماعيل الأشعري، عن أهل السنة والجماعة، وهو الذي نصره الحافظ أبو بكر البيهقي في «كتاب الاعتقاد» وكذلك غيره من محققي العلماء والحفاظ والنقاد.

فصل: وليعلم أن هذا الخلاف مخصوص بأطفال المشركين، فأما ولدان المؤمنين فلا خلاف بين العلماء كما حكاه القاضي أبو يعلى بن الفراء الحنبلي، عن الإمام أحمد أنه قال: لا يختلف فيهم أنهم من أهل الجنة. وهذا هو المشهور بين الناس، وهو الذي نقطع به إن شاء الله، عز وجل.

﴿ وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيرًا ﴾

اختلف القراء في قراءة قوله: ﴿أَمَرْنَا﴾ فالمشهور قراءة التخفيف، واختلف المفسرون في معناها، فقيل: معناها أمرنا مترفيها ففسقوا فيها أمراً قديراً، كقوله تعالى: ﴿أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا﴾ [يونس: ٢٤]، فإن الله لا يأمر بالفحشاء، قالوا: معناه: أنه سخرهم إلى فعل الفواحش فاستحقوا العذاب. وقيل: معناه: أمرناهم بالطاعات ففعلوا الفواحش فاستحقوا العقوبة. قاله ابن عباس، وسعيد بن جبير أيضاً. وقال ابن جرير: وقد يحتمل أن يكون معناه جعلناهم أمراء.

قلت: إنما يجيء على قراءة من قرأ ﴿أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا﴾ قال ابن عباس قوله: ﴿أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا﴾ يقول: سلطنا أشرارها فعصوا فيها، فإذا فعلوا ذلك أهلكتهم بالعذاب، وهو قوله: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ أَكْبَرًا مُجْرِمِيهَا لِيَمْكُرُوا فِيهَا﴾ [الأنعام: ١٢٣]، وكذا قال مجاهد والربيع بن أنس. وقال ابن عباس: ﴿وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا﴾ يقول: أكثرنا عددهم، وكذا قال عكرمة، والحسن، والضحاك، وقتادة، وعن مالك عن الزهري: ﴿أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا﴾: أكثرنا.

﴿ وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ الْقُرُونِ مِنْ بَعْدِ نُوحٍ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا ﴾

يقول تعالى منذراً كفار قريش في تكذيبهم رسوله محمداً ﷺ بأنه قد أهلك أمماً من المكذبين للرسول من بعد نوح، ودل هذا على أن القرون التي كانت بين آدم ونوح على الإسلام، كما قاله ابن عباس: كان بين آدم ونوح عشرة قرون كلهم على الإسلام. ومعناه: أنكم أيها

المكذبون لستم أكرم على الله منهم، وقد كذبتكم أشرف الرسل وأكرم الخلائق، فعقوبتكم أولى وأحرى. وقوله: ﴿وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا﴾ أي: هو عالم بجميع أعمالهم، خيرها وشرها، لا يخفى عليه منها خافية سبحانه وتعالى.

﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَنْ نُرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ يَصَلُّهَا مَذْمُومًا مَدْحُورًا ﴿١٨﴾ وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ كَانَ سَعْيُهُمْ مَشْكُورًا ﴿١٩﴾﴾

يخبر تعالى أنه ما كل من طلب الدنيا وما فيها من النعيم يحصل له، بل إنما يحصل لمن أراد الله وما يشاء. وهذه مقيدة لإطلاق ماسواها من الآيات فإنه قال: ﴿عَجَلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَنْ نُرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ يَصَلُّهَا﴾ أي: في الآخرة ﴿يَصَلُّهَا﴾ أي: يدخلها حتى تغمره من جميع جوانبه ﴿مَذْمُومًا﴾ أي: في حال كونه مذموماً على سوء تصرفه وصنيعه، إذ اختار الفاني على الباقي ﴿مَدْحُورًا﴾: مبعداً مقصياً حقيراً ذليلاً مهاناً. روى الإمام أحمد عن عائشة، قالت: قال رسول الله ﷺ: «الدنيا دار من لا دار له، ومال من لا مال له، ولها يجمع من لا عقل له» (١).

وقوله: ﴿وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ﴾ أي: أراد الدار الآخرة وما فيها من النعيم والسرور ﴿وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا﴾ أي: طلب ذلك من طريقه وهو متابعة الرسول ﴿وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾ أي: مصدق بالشواب والجزاء ﴿فَأُولَٰئِكَ كَانَ سَعْيُهُمْ مَشْكُورًا﴾.

﴿كُلًّا نُمِدُّ هُنُوًا وَهَنُورًا مِّنْ عَطَاءِ رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا ﴿٢٠﴾ انظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۗ وَاللَّآخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَاتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا ﴿٢١﴾﴾

يقول تعالى: ﴿كُلًّا﴾ أي كل واحد من الفريقين الذين أرادوا الدنيا والذين أرادوا الآخرة، ندمهم فيما هم فيه ﴿مِّنْ عَطَاءِ رَبِّكَ﴾ أي: هو المتصرف الحاكم الذي لا يجور، فيعطى كل ما يستحقه من الشقاوة والسعادة فلا راد لحكمه ولا مانع لما أعطى، ولا مغير لما أراد؛ ولهذا قال: ﴿وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا﴾ أي: لا يمنعه أحد ولا يرده راد. قال قتادة: ﴿مَحْظُورًا﴾ أي: منقوصاً. وقال الحسن وغيره: ممنوعاً.

ثم قال تعالى: ﴿انظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ أي: في الدنيا، فمنهم الغني والفقير وبين ذلك، والحسن والقبيح وبين ذلك، ومن يموت صغيراً، ومن يعمر حتى يبقى شيخاً كبيراً، وبين ذلك ﴿وَاللَّآخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَاتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا﴾ أي: ولتفاوتهم في الدار الآخرة أكبر من الدنيا؛ فإن منهم من يكون في الدرجات في جهنم وسلسلها وأغلالها، ومنهم من يكون في الدرجات العلىٰ ونعيمها وسرورها، ثم أهل الدرجات يتفاوتون فيما هم فيه، كما أن أهل

(١) المسند (٦ / ٧١) وقال الهيثمي في الزوائد (١٠ / ٢٩١): «رجال رجال الصحيح غير دويد وهو ثقة».

الدرجات يتفاوتون، فإن الجنة مائة درجة ما بين كل درجتين كما بين السماء والأرض . وفي الصحيحين: « إن أهل الدرجات العلا ليرون أهل عليين ، كما ترون الكوكب الغابر في أفق السماء» (١) ؛ ولهذا قال تعالى: ﴿ وَاللَّخِزَّةُ أَكْبَرُ دَرَجَاتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا ﴾ .

﴿ لَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتَقْعُدَ مَذْمُومًا مَّخْذُولًا ﴾ ﴿٢٢﴾

يقول تعالى - والمراد المكلفون من الأمة: لا تجعل أيها المكلف في عبادتك ربك له شريكاً ﴿فَتَقْعُدَ مَذْمُومًا﴾ على إشراكك به ﴿مَخْذُولًا﴾ لأن الرب تعالى لا ينصرك، بل يكللك إلى الذي عبت معه، وهو لا يملك لك ضرراً ولا نفعاً؛ لأن مالك الضر والنفع هو الله وحده لا شريك له . وقد روى الإمام أحمد عن عبد الله بن مسعود ، قال : قال رسول الله ﷺ: «من أصابته فاقة فأنزلها بالناس لم تسد فاقته ، ومن أنزلها بالله أرسل الله له بالغنى، إما أجلاً وإما عاجلاً» . ورواه أبو داود، والترمذى، وقال : حسن صحيح غريب (٢) .

﴿ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا إِمَّا يَبُلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُلْ لَهُمَا آفٌ وَلَا نَهْرُهُمَا وَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ﴾ ﴿٢٣﴾
وَأَخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذَّلِيلِ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُلْ رَبِّ أَرْحَمُهُمَا كَمَا رَبَّيْنِي صَغِيرًا ﴾ ﴿٢٤﴾

يقول تعالى أمراً بعبادته وحده لا شريك له؛ فإن القضاء ههنا بمعنى الأمر. قال مجاهد : ﴿وَقَضَىٰ﴾ يعنى: وصى، ولهذا قرن بعبادته بر الوالدين فقال: ﴿وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾ أى: وأمر بالوالدين إحساناً ، كما قال فى الآية الأخرى : ﴿أَنْ أَشْكُرَ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَهِي الْمَصِيرُ﴾ [لقمان: ١٤] . وقوله: ﴿إِمَّا يَبُلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُلْ لَهُمَا آفٌ﴾ أى: لا تسمعهما قولاً سيئاً، حتى ولا التأفيف الذى هو أدنى مراتب القول السيئ ﴿وَلَا تَنْهَرُهُمَا﴾ أى: ولا يصدر منك إليهما فعل قبيح، كما قال عطاء فى قوله: ﴿وَلَا تَنْهَرُهُمَا﴾ أى: لا تنفض يدك عليهما .

ولما نهاه عن القول القبيح والفعل القبيح، أمره بالقول الحسن والفعل الحسن فقال: ﴿وَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا﴾ أى: لينا طيباً حسناً بتأدب وتوقير وتعظيم ﴿وَأَخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذَّلِيلِ مِنَ الرَّحْمَةِ﴾ أى: تواضع لهما بفعلك ﴿وَقُلْ رَبِّ أَرْحَمُهُمَا﴾ أى: فى كبرهما وعند وفاتهما ﴿كَمَا رَبَّيْنِي صَغِيرًا﴾ . قال ابن عباس : ثم أنزل الله: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أَوْلِيَا قُرْبَىٰ﴾ [التوبة: ١١٣] . وقد جاء فى بر الوالدين أحاديث كثيرة، منها ما رواه الإمام أحمد عن أبى هريرة عن النبى ﷺ قال: «رغم أنف، ثم رغم أنف، ثم رغم أنف رجل أدرك والديه أحدهما أو كلاهما عند الكبر ولم يدخل الجنة» . ورواه مسلم (٣) .

(١) تقدم تخريجه عند الآية (٦٩) من سورة النساء .

(٢) المسند (٣٨٦٩) وقال الشيخ أحمد شاكر : «إسناده صحيح» وأبو داود (١٦٤٥) والترمذى (٢٣٢٦) .

(٣) المسند (٢ / ٣٦٤) ومسلم (٢٥٥١ / ٩) .

﴿ زَيْكُمُ أَعْلَمُ بِمَا فِي نُفُوسِكُمْ إِنْ تَكُونُوا صَالِحِينَ فَإِنَّهُمْ كَانَ لِلأَوَّابِينَ غَفُورًا ﴾ ﴿١٥﴾

قال سعيد بن جبير: هو الرجل تكون منه البادرة إلى أبيه، وفي نيته وقلبه أنه لا يؤخذ به - وفي رواية: لا يريد إلا الخير بذلك - فقال: ﴿ رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِي نُفُوسِكُمْ إِنْ تَكُونُوا صَالِحِينَ ﴾. وقوله: ﴿ فَإِنَّهُمْ كَانَ لِلأَوَّابِينَ غَفُورًا ﴾ قال قتادة: للمطيعين أهل الصلاة. وعن ابن عباس: المسيحين. وفي رواية عنه: المطيعين المحسنين. وقال بعضهم: هم الذين يصلون بين العشاءين. وقال بعضهم: هم الذين يصلون الضحى.

وقال سعيد بن المسيب فى قوله: ﴿ فَإِنَّهُمْ كَانَ لِلأَوَّابِينَ غَفُورًا ﴾ قال: الذين يصيبون الذنب ثم الذنب ثم يتوبون، ويصيبون الذنب ثم يتوبون. وكذا رواه ابن جرير عن ابن المسيب، به. وقال عطاء بن يسار وسعيد بن جبير ومجاهد: هم الراجعون إلى الخير. وقال مجاهد عن عبيد بن عمير فى الآية: هو الذى إذا ذكر ذنوبه فى الخلاء فيستغفر الله منها. ووافقه مجاهد فى ذلك. وقال عبد الرزاق عن عبيد ابن عمير، فى قوله: ﴿ فَإِنَّهُمْ كَانَ لِلأَوَّابِينَ غَفُورًا ﴾ قال: كنا نعد الأواب الحفيظ، أن يقول: اللهم اغفر لى ما أصبت فى مجلسى هذا.

قال ابن جرير: والأولى فى ذلك قول من قال: هو التائب من الذنب، الراجع عن المعصية إلى الطاعة، مما يكره الله إلى ما يحبه ويرضاه. وهذا الذى قاله هو الصواب؛ لأن الأواب مشتق من الأوب وهو الرجوع، يقال: أب فلان إذا رجع، قال تعالى: ﴿ إِنْ أَلَيْنَا بِأَبَائِهِمْ ﴾ [الغاشية: ٢٥]، وفى الحديث الصحيح، أن رسول الله ﷺ كان إذا رجع من سفر قال: « آيئون تائبون عابدون، لربنا حامدون » (١).

﴿ وَعَاتِ ذَا الْقُرْبَىٰ حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَلَا تَبْذُرْ نَبْذِيرًا ﴾ ﴿١٦﴾ إِنْ
الْمُبْذِرِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيْطَانِ وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِرَبِّهِ كَفُورًا ﴿١٧﴾ وَإِمَّا تَعْرِضْنَ عَنْهُمْ
أَتِيغَاءَ رَحْمَةٍ مِّن رَّبِّكَ تَرْجُوهَا فَقُلْ لَّهُمْ قَوْلًا مَّيْسُورًا ﴿١٨﴾

لما ذكر تعالى بر الوالدين، عطف بذكر الإحسان إلى القرابة وصلة الأرحام. وفى الحديث: « من أحب أن ييسر له فى رزقه وينسأ له فى أجله، فليصل رحمه » (٢).

وقد تقدم الكلام على المساكين وابن السبيل فى «سورة براءة» بما أغنى عن إعادته ههنا. قوله: ﴿ وَلَا تَبْذُرْ نَبْذِيرًا ﴾ لما أمر بالإنفاق نهى عن الإسراف فيه، بل يكون وسطاً، كما قال فى الآية الأخرى: ﴿ وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا ﴾ [الفرقان: ٦٧].

ثم قال منفراً عن التبذير والسرف: ﴿ إِنْ الْمُبْذِرِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيْطَانِ ﴾ أى: أشباههم فى ذلك. وقال ابن مسعود: التبذير: الإنفاق فى غير حق، وكذا قال ابن عباس. وقال مجاهد: لو

أنفق إنسان ماله كله في الحق، لم يكن مبدراً، ولو أنفق مداً في غير حقه كان مبدراً. وقال قتادة: التبذير: النفقة في معصية الله تعالى، وفي غير الحق والفساد. روى الإمام أحمد عن أنس بن مالك أنه قال: أتى رجل من بنى تميم إلى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله، إني ذو مال كثير، وذو أهل وولد وحاضرة، فأخبرني كيف أنفق وكيف أصنع؟ فقال رسول الله ﷺ: «تخرج الزكاة من مالك، فإنها طهرة تطهرك، وتصل أقباءك، وتعرف حق السائل والجار والمسكين». فقال: يا رسول الله، أقلل لي؟ فقال: «وَأَتِذَا الْقُرْبَىٰ حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَلَا تَبْذُرْ تَبْذِيرًا». فقال: حسبى يا رسول الله، إذا أديت الزكاة إلى رسولك فقد برئت منها إلى الله وإلى رسوله؟ فقال رسول الله ﷺ: «نعم، إذا أديتها إلى رسولى فقد برئت منها، ولك أجرها، وإثمها على من بدلها» (١).

وقوله: ﴿إِنَّ الْمُبْذِرِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ﴾ أى: فى التبذير والسفه وترك طاعة الله وارتكاب معصيته؛ ولهذا قال: ﴿وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِرَبِّهِ كَفُورًا﴾ أى: جحوداً؛ لأنه أنكر نعمة الله عليه ولم يعمل بطاعته؛ بل أقبل على معصيته ومخالفته. وقوله: ﴿وَأَمَّا تَعْرِضُنَّ عَنْهُمْ ابْتِغَاءَ رَحْمَةٍ مِنْ رَبِّكَ تَرْجُوهُمَا فَقُلْ لَهُمْ قَوْلًا مَيْسُورًا﴾ أى: إذا سألك أقاربك ومن أمرناك بإعطائهم وليس عندك شيء، وأعرضت عنهم لفقْد النفقة ﴿فَقُلْ لَهُمْ قَوْلًا مَيْسُورًا﴾ أى: عداهم وعداً بسهولة ولين إذا جاء رزق الله فسنصلكم إن شاء الله.

﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَحْسُورًا﴾
 ﴿١٩﴾ إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّهُمْ كَانُوا بِعِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا ﴿٢٠﴾

يقول تعالى آمراً بالاقتصاد فى العيش ذاماً للبخل ناهياً عن السرف: ﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ﴾ أى: لا تكن بخيلاً منوعاً، لا تعطى أحداً شيئاً، كما قالت اليهود عليهم لعائن الله: ﴿يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ﴾ [المائدة: ٦٤] أى نسبوه إلى البخل، تعالى وتقدس الكريم الوهاب.

وقوله: ﴿وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ﴾ أى: ولا تسرف فى الإنفاق فتعطى فوق طاقتك، وتخرج أكثر من دخلك، فتقعد ملوماً محسوراً. ومتى بسطت يدك فوق طاقتك، قعدت بلا شيء تنفقه، فتكون كالحسير، وهو كالدابة التى قد عجزت عن المسير، فوقفت ضعفاً وعجزاً، فإنها تسمى الحسير، وهو مأخوذ من الكلال، كما قال: ﴿فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِنْ فُطُورٍ. ثُمَّ ارْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنْقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ﴾ [الملك: ٣، ٤] أى: كليل عن أن يرى عيباً. هكذا فسره هذه الآية - بأن المراد هنا البخل والسرف - ابن عباس والحسن وقتادة وغيرهم. وقد جاء فى الصحيحين، عن أبى هريرة؛ أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «مثل البخيل والمنفق، كمثل رجلين عليهما جبтан من حديد من ثديهما إلى تراقيهما. فأما المنفق فلا ينفق إلا سبغت - أو: وفرت - على

جلده، حتى تُخفى بنانه وتعفو أثره. وأما البخيل فلا يريد أن ينفق شيئاً إلا لزقت كل حلقة منها مكانها، فهو يوسعها فلا تتسع» (١). وفى الصحيحين عن أسماء بنت أبى بكر، قالت: قال رسول الله ﷺ: «أنفقى هكذا وهكذا وهكذا، ولا تُوعى فِوعى الله عليك، ولا توكى فيوكى الله عليك» وفى لفظ: «ولا تُحصى فيحصى الله عليك» (٢). وفى صحيح مسلم عن أبى هريرة، قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله قال لى: أنفق أنفق عليك» (٣). وفى الصحيحين عن أبى هريرة، قال: قال رسول الله ﷺ: «ما من يوم يصبح العباد فيه إلا وملكان ينزلان من السماء يقول أحدهما: اللهم أعط منفقاً خلفاً، ويقول الآخر: اللهم أعط ممسكاً تلفاً» (٤).

وقوله: ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَسْطُرُ الرَّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ﴾ إخبار أنه تعالى هو الرزاق، القابض الباسط، المتصرف فى خلقه بما يشاء، فيغنى من يشاء، ويفقر من يشاء، بما له فى ذلك من الحكمة؛ ولهذا قال: ﴿إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا﴾ أى: خبير بصير بمن يستحق الغنى ومن يستحق الفقر، وقد يكون الغنى فى حق بعض الناس استدراجاً، والفقر عقوبة، عياداً بالله من هذا وهذا.

﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ خَشِيَةَ إِمْلَاقٍ مِّنْ نَّرْزُقِهِمْ وَإِيَّاكُمْ إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْئًا كَبِيرًا﴾ (١١)

هذه الآية الكريمة دالة على أن الله تعالى أرحم بعباده من الوالد بولده؛ لأنه نهى عن قتل الأولاد، كما أوصى الآباء بالأولاد فى الميراث، وقد كان أهل الجاهلية لا يورثون البنات، بل كان أحدهم ربما قتل ابنته لثلاث تكثر عيلته، فنهى الله تعالى عن ذلك وقال: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ خَشِيَةَ إِمْلَاقٍ﴾ أى: خوف أن تفتقروا فى ثنائى الحال؛ ولهذا قدم الاهتمام برزقهم فقال: ﴿نَحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ﴾. وفى الأنعام: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ مِنْ إِمْلَاقٍ﴾ أى: من فقر ﴿نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاكُمْ﴾

[الأنعام: ١٥١]

وقوله: ﴿إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْئًا كَبِيرًا﴾ أى: ذنباً عظيماً. وقرأ بعضهم: «كان خطأ كبيراً» وهو بمعناه. وفى الصحيحين عن عبد الله بن مسعود: قلت: يارسول الله، أى الذنب أعظم؟ قال: «أن تجعل لله نداً وهو خلقك». قلت: ثم أى؟ قال: «أن تقتل ولدك خشية أن يطعم معك». قلت: ثم أى؟ قال: «أن تزانى بحليلة جارك» (٥).

﴿وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَىٰ إِنَّكُمْ كَأَنَّ فَحِشَّةً وَسَاءَ سَبِيلًا﴾ (١٢)

يقول تعالى ناهياً عباده عن الزنا وعن مقاربتة، وهو مخالطة أسبابه ودواعيه: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَىٰ إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً﴾ أى: ذنباً عظيماً ﴿وَسَاءَ سَبِيلًا﴾ أى: وبس طريقاً ومسلكاً.

وقد روى الإمام أحمد عن أبى أمامة قال: إن فتى شاباً أتى النبى ﷺ فقال: يا رسول الله،

(١) البخارى (١٤٤٣) ومسلم (١٠٢١ / ٧٦).

(٢) البخارى (١٤٣٣) ومسلم (١٠٢٩ / ٨٨).

(٣) مسلم (٩٩٣ / ٣٧).

(٤) البخارى (١٤٤٢) ومسلم (١٠١٠ / ٥٧).

(٥) البخارى (٤٤٧٧) ومسلم (٨٦ / ١٤١).

اِذْنِ لِي بِالزَّنَا . فَأَقْبَلَ الْقَوْمَ عَلَيْهِ فزَجَرُوهُ ، وَقَالُوا : مَهْ مَهْ . فَقَالَ : «ادنه» . فدنا منه قريباً ، فقال : « اجلس » . فجلس ، قال : «أتحبه لأملك؟» قال : لا والله ، جعلني الله فداك . قال : «ولا الناس يحبونه لأمهاتهم» . قال : «أفتحبه لابنتك؟» . قال : لا والله يارسول الله ، جعلني الله فداك . قال : «ولا الناس يحبونه لبناتهم» ، قال : «أتحبه لأختك؟» قال : لا والله ، جعلني الله فداك . قال : «ولا الناس يحبونه لأخواتهم» ، قال : «أفتحبه لعمتك؟» قال : لا والله ، جعلني الله فداك . قال : «ولا الناس يحبونه لعماتهم» قال : «أفتحبه لخالتك؟» قال : لا والله ، جعلني الله فداك . قال : «ولا الناس يحبونه لخالاتهم» . قال : فوضع يده عليه وقال : «اللهم اغفر ذنبه ، وطهر قلبه ، أحصن فرجه» . قال : فلم يكن بعد ذلك الفتى يلتفت إلى شيء (١) .

﴿ وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَمَنْ قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لَوْلِيهِ سُلْطَانًا فَلَا يَسْرِفُ فِي الْقَتْلِ إِنَّهُ كَانَ مَنْصُورًا ﴾ ﴿٢٤﴾

يقول تعالى ناهياً عن قتل النفس بغير حق شرعى ، كما ثبت فى الصحيحين ؛ أن رسول الله ﷺ قال : « لا يحل دم امرئ مسلم يشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله إلا بإحدى ثلاث : النفس بالنفس ، والزانى المحصن ، والتارك لدينه المفارق للجماعة » (٢) . وفى السنن : « لزوال الدنيا أهون عند الله من قتل مسلم » (٣) .

وقوله : « وَمَنْ قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لَوْلِيهِ سُلْطَانًا » أى : سلطة على القاتل ، فإنه بالخيار فيه إن شاء قتله قوداً ، وإن شاء عفا عنه على الدية ، وإن شاء عفا عنه مجاناً ، كما ثبتت السنة بذلك . وقول تعالى : « فَلَا يَسْرِفُ فِي الْقَتْلِ » قالوا : معناه : فلا يسرف الولي فى قتل القاتل بأن يمثل به أو يقتص من غير القاتل « إِنَّهُ كَانَ مَنْصُورًا » أى أن الولي منصور على القاتل شرعاً ، وغالباً قدراً .

﴿ وَلَا تَقْرُبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَتْ مَشْهُورًا ﴾ ﴿٢٥﴾ وَأَوْفُوا الْكَيْلَ إِذَا كَلَّمْتُمْ وَزِنُوا بِالْقِسْطِ الْمُسْتَقِيمِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴿٢٥﴾

يقول تعالى : « وَلَا تَقْرُبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُ » أى : لا تتصرفوا فى مال اليتيم إلا بالغبطة « وَلَا تَأْكُلُوهَا إِسْرَافًا وَبِدَارًا أَنْ يَكْبُرُوا وَمَنْ كَانَ غَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْ وَمَنْ كَانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِالْمَعْرُوفِ » [النساء : ٦] ، وقد جاء فى صحيح مسلم ؛ أن رسول الله ﷺ قال لأبى ذر : « يا أبا ذر ، إنى أراك ضعيفاً ، وإنى أحب لك ما أحب لنفسى : لا تأمرن على اثنين ، ولا تولين مال يتيم » (٤) .

(١) المسند (٥ / ٢٥٧) ، ورواه الطبرانى فى الكبير (٨ / ١٩٠) (٧٦٧٩) ، وقال الهيثمى فى الزوائد (١ / ١٣٢) : « رجاله رجال الصحيح » .

(٢) البخارى (٦٨٧٨) ومسلم (١٦٧٦ / ٢٥) .

(٣) الترمذى (١٣٩٥) ، وقال : « وهذا أصح من حديث ابن عدى » ، والنسائى (٣٩٨٦) ، وصححه الألبانى .

(٤) مسلم (١٨٢٦ / ١٧) .

وقوله: ﴿وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ﴾ أى: الذى تعاهدون عليه الناس والعقود التى تعاملونهم بها، فإن العهد والعقد كل منهما يسأل صاحبه عنه ﴿إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولًا﴾ أى: عنه. وقوله: ﴿وَأَوْفُوا الْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ﴾ أى: من غير تطفيف، ولا تبخسوا الناس أشياءهم ﴿وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ﴾ قرئ: بضم القاف وكسرهما، كالقسطاس وهو الميزان. قال مجاهد: هو العدل بالرومية ﴿الْمُسْتَقِيمِ﴾ أى: الذى لا اعوجاج فيه ولا انحراف ولا اضطراب ﴿ذَلِكَ خَيْرٌ﴾ أى: لكم فى معاشكم ومعادكم؛ ولهذا قال: ﴿وَأَحْسِنُ تَأْوِيلًا﴾ أى: مآلا ومنقلبا فى آخرتكم.

﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا﴾ ﴿٣٦﴾

قال ابن عباس: يقول: لا تقل، وقال قتادة: لا تقل: رأيت، ولم تر، وسمعت، ولم تسمع، وعلمت، ولم تعلم؛ فإن الله تعالى سائلك عن ذلك كله. ومضمون ما ذكره: أن الله تعالى نهى عن القول بلا علم، بل بالظن الذى هو التوهم والخيال، كما قال تعالى: ﴿اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِّنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ﴾ [الحجرات: ١٢]، وفى الحديث: «ياكم والظن؛ فإن الظن أكذب الحديث» (١).

وقوله: ﴿كُلُّ أُولَئِكَ﴾ أى: هذه الصفات من السمع والبصر والفؤاد ﴿كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا﴾ أى: سيسأل العبد عنها يوم القيامة، وعما عمل فيها.

﴿وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ الْأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولًا﴾ ﴿٣٧﴾ ﴿وَلَن تَبْلُغَ ذَلِكَ كَانَ سَيِّئُهُ عِنْدَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا﴾ ﴿٣٨﴾

يقول تعالى ناهيا عباده عن التَّجَبُّرِ والتَّبَخُّرِ فى المشية: ﴿وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا﴾ أى: متبخترا متمايلا مشى الجبارين ﴿إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ الْأَرْضَ﴾ أى: لن تقطع الأرض بمشيك، ﴿وَلَن تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولًا﴾ أى: بتماييك وفخرك وإعجابك بنفسك، بل قد يجازى فاعل ذلك بنقيض قصده. كما ثبت فى الصحيح: «بيننا رجل يمشى فيمن كان قبلكم، وعليه بُردان يتبختر فيهما إذ خُسف به الأرض، فهو يتجلجل فيها إلى يوم القيامة» (٢). وكذلك أخبر الله تعالى عن قارون أنه خرج على قومه فى زينتته، وأن الله تعالى خسف به وبداره الأرض.

وقوله تعالى: ﴿كُلُّ ذَلِكَ كَانَ سَيِّئُهُ عِنْدَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا﴾ معناه: كل هذا الذى ذكرناه من قوله: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ﴾ إلى ههنا فسيئته، أى: فقيحه مكروه عند الله.

﴿ذَلِكَ مِنَّا آوْحَىٰ إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ الْحِكْمَةِ وَلَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتُلْقَىٰ فِي جَهَنَّمَ مَلُومًا مَّدْحُورًا﴾ ﴿٣٩﴾

(١) البخارى (٦٠٦٦) ومسلم (٢٥٦٣ / ٢٨).

(٢) البخارى (٥٧٩٠) ومسلم (٢٠٨٨ / ٥٠).

يقول تعالى: هذا الذى أمرناك به من الأخلاق الجميلة، ونهيناك عنه من الصفات الرذيلة، مما أوحينا إليك يا محمد لتأمر به الناس. ﴿وَلَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتُنْفِقُوا فِي جَهَنَّمَ مَلُومًا﴾ أى: تلومك نفسك ويلومك الله والخلق. ﴿مَدْحُورًا﴾ أى: مبعدا من كل خير. والمراد من هذا الخطاب الأمة بواسطة الرسول ﷺ؛ فإنه ﷺ معصوم.

﴿أَفَأَصْفَاكُمْ رَبُّكُم بِالْبَنِينَ وَاتَّخَذَ مِنَ الْمَلَائِكَةِ إِنْتًا إِنَّكُمْ لَنَقُولُونَ قَوْلًا عَظِيمًا﴾

يقول تعالى راداً على المشركين الكاذبين الزاعمين - عليهم لعائن الله - أن الملائكة بناتُ الله، فجعلوا الملائكة الذين هم عباد الرحمن إنثاء، ثم ادَّعوا أنهم بنات الله، ثم عبدوهم فأخطؤوا فى كل من المقامات الثلاث خطأ عظيماً، فقال تعالى منكرًا عليهم: ﴿أَفَأَصْفَاكُمْ رَبُّكُم بِالْبَنِينَ﴾ أى: خصصكم بالذكور ﴿وَاتَّخَذَ مِنَ الْمَلَائِكَةِ إِنثًا﴾ أى: اختار لنفسه على زعمكم البنات؟ ثم شدد الإنكار عليهم فقال: ﴿إِنَّكُمْ لَنَقُولُونَ قَوْلًا عَظِيمًا﴾ أى: فى زعمكم أن الله ولدًا، ثم جعلكم ولده الإنثاء التى تأنفون أن يكنَّ لكم، وربما قتلتموهن بالوآد، فتلك إذا قسمة ضيزى، وقال تعالى: ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا . لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا . تَكَادُ السَّمَاوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنْشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا . أَنْ دَعَا لِلرَّحْمَنِ وَلَدًا . وَمَا يَنْبَغِي لِلرَّحْمَنِ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا . إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتِي الرَّحْمَنِ عَبْدًا . لَقَدْ أَحْصَاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا . وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَرْدًا﴾ [مریم: ٨٨ - ٩٥].

﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَذَا الْقُرْآنِ لِيَذَكَّرُوا وَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا نُفُورًا﴾

يقول تعالى: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَذَا الْقُرْآنِ لِيَذَكَّرُوا﴾ أى: صرفنا فيه من الوعيد لعلمهم يذكرون ما فيه من الحجج والبيانات والمواعظ، فينزعجوا عما هم فيه من الشرك والظلم والإفك ﴿وَمَا يَزِيدُهُمْ﴾ أى: الظالمين منهم ﴿إِلَّا نُفُورًا﴾ أى: عن الحق، وبعداً منه.

﴿قُلْ لَوْ كَانَ مَعَهُ آلِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذًا لَآتَيْنَعُوا إِلَىٰ ذِي الْعَرْشِ سَبِيلًا﴾

﴿وَتَعَلَّىٰ عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوقًا كَبِيرًا﴾

يقول تعالى: قل يا محمد لهؤلاء المشركين الزاعمين أن الله شريكاً من خلقه، العابدين معه غيره ليقربهم إليه زلفى: لو كان الأمر كما يقولون، وأن معه آلهة تُعبَد لتقرب إليه وتشفع لديه - لكان أولئك المعبودون يعبدونه ويتقربون إليه ويتغنون إليه الوسيلة والقربة، فاعبدوه أنتم وحده كما يعبد من تدعونه من دونه، ولا حاجة لكم إلى معبود يكون واسطة بينكم وبينه، فإنه لا يحب ذلك ولا يرضاه، بل يكرهه ويأباه. وقد نهى عن ذلك على السنة جميع رسله وأنبيائه. ثم نزه نفسه الكريمة وقدسها فقال: ﴿سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يَقُولُونَ﴾ أى: هؤلاء المشركون المعتدون الظالمون فى زعمهم أن معه آلهة أخرى ﴿عُلُوقًا كَبِيرًا﴾ أى: تعالياً كبيراً، بل هو الله الأحد الصمد، الذى لم يلد ولم يولد، ولم يكن له كفواً أحد.

﴿ تَسْبِيحٌ لَهُ السَّمَوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا حَلِيمًا غَفُورًا ﴾ ﴿٤٤﴾

يقول تعالى: تقدسه السموات السبع والأرض ومن فيهن، أى: من المخلوقات، وتنزهه وتعظمه وتبجله وتكبره عما يقول هؤلاء المشركون، وتشهد له بالوحدانية فى ربوبيته وإلهيته:

فَقَى كُلُّ شَيْءٍ لَهُ آيَةٌ تَدُلُّ عَلَى أَنَّهُ وَاحِدٌ

كما قال تعالى: ﴿ تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَتْفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنْشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًا . أَنْ دَعَوْا لِلرَّحْمَنِ وَلَدًا ﴾ [مريم: ٩٠ - ٩١].

وقوله: ﴿ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ ﴾ أى: وما من شىء من المخلوقات إلا يسبح بحمد الله ﴿ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ﴾ أى: لا تفقهون تسبيحهم أيها الناس؛ لأنها بخلاف لغاتكم. وهذا عام فى الحيوانات والجمادات والنباتات، وهذا أشهر القولين، كما ثبت فى صحيح البخارى، عن ابن مسعود أنه قال: كنا نسمع تسبيح الطعام وهو يؤكل (١). وقوله: ﴿ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴾ أى: أنه لا يعاجل من عصاه بالعقوبة، بل يؤجله وينظره، فإن استمر على كفره وعناده أخذته أخذ عزيز مقتدر، كما جاء فى الصحيحين: «إن الله ليملى للظالم، حتى إذا أخذه لم يفلته». ثم قرأ رسول الله ﷺ: ﴿ وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرْآنَ وَهِيَ ظَالِمَةٌ ﴾ الآية [هود: ١٠٢] (٢)، وقال تعالى: ﴿ وَكَانَ مِنْ قَرِيْبَةٍ أَمَلَيْتَ لَهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ ﴾ الآية [الحج: ٤٨]. ومن أفلح عما هو فيه من كفر أو عصيان، ورجع إلى الله وتاب إليه، تاب عليه، كما قال تعالى: ﴿ وَمَنْ يَعْمَلْ سُوءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهَ فَيَغْفِرِ اللَّهُ ﴾ الآية [النساء: ١١٠]. وقال ههنا: ﴿ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴾ كما قال فى آخر فاطر: ﴿ إِنَّ اللَّهَ يُمَسِّكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ أَنْ تَزُولَا وَلَئِنْ زَالَتَا إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِنْ بَعْدِهِ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴾ إلى أن قال: ﴿ وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ ﴾ إلى آخر السورة [فاطر: ٤١ - ٤٥].

﴿ وَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ حِجَابًا مَسْتُورًا ﴾ ﴿٤٥﴾ وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِي الْقُرْآنِ وَحَدَّثَ وَلَوْ عَلَىٰ آدْبِرِهِمْ نُورًا ﴿٤٦﴾

يقول تعالى لرسوله محمد ﷺ: وإذا قرأت - يامحمد - على هؤلاء المشركين القرآن، جعلنا بينك وبينهم حجابا مستورا. قال قتادة، وابن زيد: هو الاكنة على قلوبهم، كما قال تعالى: ﴿ وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ وَفِي آذَانِنَا وَقْرٌ وَمِنْ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ ﴾ [فصلت: ٥] أى: مانع حائل أن يصل إلينا مما تقول شىء.

وقوله: ﴿ حِجَابًا مَسْتُورًا ﴾ أى: بمعنى ساتر، وقيل: مستورا عن الأبصار فلا تراه، وهو مع

ذلك حجاب بينهم وبين الهدى، ومال إلى ترجيحه ابن جرير، رحمه الله. وروى الحافظ أبو يعلى الموصلى عن أسماء بنت أبي بكر، قالت: لما نزلت: ﴿تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ﴾ [سورة المسد] جاءت العوراء أم جميل ولها ولولكة، وفي يدها فُهر وهي تقول: مُذَمَّمًا آتِينَا - أو: آتِينَا - ودينه قَلْبَيْنَا، وأمره عصينا. ورسول الله ﷺ جالس، وأبو بكر إلى جنبه، فقال أبو بكر: لقد أقبلت هذه وأنا أخاف أن تراك، فقال: «إنها لن تراني»، وقرأ قرآنا اعتصم به منها: ﴿وَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ حِجَابًا مَسْتُورًا﴾. قال: فجاءت حتى قامت على أبي بكر، فلم تر النبي ﷺ، فقالت: يا أبا بكر، بلغني أن صاحبك هجانى. فقال أبو بكر: لا ورب هذا البيت ما هجاك. قال: فانصرفت وهي تقول: لقد علمت قريش أنى بنت سيدها (١).

وقوله: ﴿وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً﴾ : وهي جمع «كنان»، الذى يغشى القلب ﴿أَنْ يَفْقَهُوهُ﴾ أى: لئلا يفهموا القرآن ﴿وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا﴾ وهو الثقل الذى يمنعه من سماع القرآن سماعاً يفهمهم ويهتدون به. وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا ذُكِرَتْ بِكَ فِي الْقُرْآنِ حَدِيثٌ﴾ أى: إذا وحدت الله فى تلاوتك، وقلت: «لا إله إلا الله» ﴿وَلَوْ﴾ أى: أدبروا راجعين ﴿عَلَىٰ أَدْبَارِهِمْ نُفُورًا﴾ ونفور: جمع نافر، كعود جمع قاعد، ويجوز أن يكون مصدرًا من غير الفعل، والله أعلم، كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَحْدَهُ اشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَإِذَا ذُكِرَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾ [الزمر: ٤٥]

﴿يَنْحُنُّ عَالِمٌ بِمَا يَسْتَمِعُونَ بِهِ إِذْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ وَإِذْ هُمْ نَجْوَىٰ إِذْ يَقُولُ الظَّالِمُونَ إِنَّا تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَسْحُورًا﴾ ﴿٤٧﴾ أَنْظَرَ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثَالَ فَضَلُّوا فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا ﴿٤٨﴾

يخبر تعالى نبيه محمداً ﷺ بما يتناجى به رؤساء كفار قريش، حين جاؤوا يستمعون قراءته ﷺ سراً من قومهم، بما قالوا من أنه رجل مسحور، من السحر على المشهور، أو من «السحر»، وهو الرثة، أى: إن تتبعون - إن اتبعتم محمداً - «إلا بشراً» يأكل ويشرب، وقد صوب هذا القول ابن جرير، وفيه نظر؛ لأنهم إنما أرادوا ههنا أنه مسحور له رثى يأتيه بما استمعوه من الكلام الذى يتلوه، ومنهم من قال: «شاعر»، ومنهم من قال: «كاهن»، ومنهم من قال: «مجنون»، ومنهم من قال: «ساحر»؛ ولهذا قال تعالى: ﴿انظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثَالَ فَضَلُّوا فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا﴾ أى: فلا يهتدون إلى الحق، ولا يجدون إليه مخلصاً.

قال ابن إسحاق: حدثنى ابن شهاب الزهري، أنه حدث أن أبا سفيان بن حرب، وأبا جهل بن هشام، والأخنس بن شريق خرجوا ليلة ليستمعوا من رسول الله ﷺ، وهو يصلى بالليل فى بيته، فأخذ كل واحد منهم مجلساً يستمع فيه، وكل لا يعلم بمكان صاحبه، فباتوا يستمعون له، حتى إذا طلع الفجر تفرقوا. حتى إذا جمعتهم الطريق، تلاوموا، وقال بعضهم

(١) أبو يعلى فى مسنده (٥٣) وحسنه ابن حجر فى الفتح (٧/ ١٦٩).

لبعض: لا تعودوا، فلو رأيكم بعض سفهائكم لأوقعتكم في نفسه شيئاً، ثم انصرفوا. حتى إذا كانت الليلة الثانية عاد كل رجل منهم إلى مجلسه، فباتوا يستمعون له، حتى إذا طلع الفجر تفرقوا وجمعهم الطريق فقال بعضهم لبعض مثل ما قال أول مرة، ثم انصرفوا. حتى إذا كانت الليلة الثالثة، أخذ كل رجل مجلسه، فباتوا يستمعون له، حتى إذا طلع الفجر تفرقوا، فجمعتهم الطريق فقال بعضهم لبعض: لا نبرح حتى نتعاهد لنعود، فتعاهدوا على ذلك، ثم تفرقوا.

فلما أصبح الأحنس بن شريق أخذ عصاه، ثم خرج حتى أتى أبا سفيان بن حرب في بيته، فقال: أخبرني يا أبا حنظلة عن رأيك فيما سمعت من محمد؟ قال: يا أبا ثعلبة، والله لقد سمعت أشياء أعرفها وأعرف ما يُراد بها، وسمعت أشياء ما عرفت معناها، ولا ما يراد بها. قال الأحنس: وأنا والذي حلفت به. قال: ثم خرج من عنده حتى أتى أبا جهل، فدخل عليه بيته، فقال: يا أبا الحكم، ما رأيك فيما سمعت من محمد؟ قال: ماذا سمعت؟! قال: تنازعنا نحن وبنو عبد مناف الشرف: أطعموا فأطعمنا، وحملوا فحملنا، وأعطوا فأعطينا، حتى إذا تجاثنا على الركب، وكنا كقرسى رهان قالوا: منا نبي يأتيه الوحي من السماء، فمتى ندرك هذه؟ والله لا تؤمن به أبداً ولا تصدقه. قال: فقام عنه الأحنس وتركه.

﴿ وَقَالُوا آءَآذَا كُنَّا عِظَامًا وَرُفَاتًا إِيَّانَا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا ﴿٤٩﴾ ﴾ ﴿ قُلْ كُونُوا حِجَارَةً أَوْ حديدًا ﴿٥٠﴾ أَوْ خَلْقًا مِمَّا يَكْبُرُ فِي صُدُورِكُمْ فَسَيَقُولُونَ مَن يُعِيدُنَا قُلِ الَّذِي فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَسَيُنْزِلُونَ عَلَيْكُم مِّن رَّوْسِهِمْ وَيَقُولُوكَ مَتَى هُوَ قُلْ عَسَىٰ أَن يَكُونَ قَرِيبًا ﴿٥١﴾ يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِ وَتَظُنُّونَ إِن لَّبِئْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٥٢﴾ ﴾

ربع

يقول تعالى مخبراً عن الكفار المستبدين وقوع المعاد، القائلين استفهام إنكار منهم لذلك: ﴿ آءَآذَا كُنَّا عِظَامًا وَرُفَاتًا ﴾ أى: تراباً، قاله مجاهد، وقال ابن عباس: غباراً ﴿ إِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ﴾ أى: يوم القيامة ﴿ خَلْقًا جَدِيدًا ﴾ أى: بعد ما بلينا وصرنا عدماً لا نذكر. كما أخبر عنهم فى الموضوع الآخر: ﴿ يَقُولُونَ إِنَّا لَمَرْدُودُونَ فِي الْحَافِرَةِ . آءَآذَا كُنَّا عِظَامًا نَّخِرَةً . قَالُوا تِلْكَ إِذًا كَرَّةٌ خَاسِرَةٌ ﴾ [النازعات: ١٠-١٢]، وقوله تعالى: ﴿ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ ﴾ [الآيتين: ٧٨، ٧٩].

فأمر الله سبحانه رسول الله ﷺ أن يجيبهم فقال: ﴿ قُلْ كُونُوا حِجَارَةً أَوْ حديدًا ﴾ إذ هما أشد امتناعاً من العظام والرفات ﴿ أَوْ خَلْقًا مِمَّا يَكْبُرُ فِي صُدُورِكُمْ ﴾ قال مجاهد: سألت ابن عباس عن ذلك فقال: هو الموت. وعن ابن عمر أنه قال فى تفسير هذه الآية: لو كنتم موتى لأحييتكم. وكذا قال سعيد بن جبير، وأبو صالح، والحسن، وقتادة، والضحاك. ومعنى ذلك: أنكم لو فرضتم أنكم لو صرتم إلى الموت الذى هو ضد الحياة، لأحياكم الله إذا شاء، فإنه لا يمتنع عليه شئ إذا أَرَادَهُ. وقال مجاهد: ﴿ أَوْ خَلْقًا مِمَّا يَكْبُرُ فِي صُدُورِكُمْ ﴾ يعنى: السماء والأرض والجبال. وفى رواية: ما شئتم فكونوا، فسيعيدكم الله بعد موتكم.

وقوله: ﴿فَسَيَقُولُونَ مَنْ يُعِيدُنَا﴾ أى: من يعيدنا إذا كنا حجارة أو حديداً أو خلقاً آخر شديداً ﴿قُلِ الَّذِي فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ أى: الذى خلقكم ولم تكونوا شيئاً مذكوراً، ثم صرتم بشراً تتشرون؛ فإنه قادر على إعادتكم ولو صرتم إلى أى حال ﴿وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾ الآية [الروم: ٢٧]. وقوله تعالى: ﴿فَسَيَنْفِضُونَ إِلَيْكَ رُؤُوسَهُمْ﴾: قال ابن عباس وقتادة: يحركونها استهزاء. وقوله: ﴿وَيَقُولُونَ مَنْتَى هُوَ﴾ إخبار عنهم بالاستبعاد منهم لوقوع ذلك، كما قال تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ مَنْتَى هَذَا الْوَعْدِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ [الملك: ٢٥]، وقال تعالى: ﴿يَسْتَعْجِلُ بِهَا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا﴾ [الشورى: ١٨]. وقوله: ﴿قُلْ عَسَى أَنْ يَكُونَ قَرِيْبًا﴾ أى: احذروا ذلك، فإنه قريب إليكم، سيايتكم لا محالة، فكل ما هو آت آت.

وقوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَدْعُوكُمْ﴾ أى: الرب تعالى ﴿إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِنَ الْأَرْضِ إِذَا أَنْتُمْ تَخْرُجُونَ﴾ [الروم: ٢٥] أى: إذا أمركم بالخروج منها فإنه لا يخالف ولا يمانع، بل كما قال تعالى: ﴿وَمَا أَمَرْنَا إِلَّا وَاحِدَةً كَلِمَةً بِالْبَصَرِ﴾ [القمر: ٥٠]، ﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَنْ نَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ [النحل: ٤٠]، وقوله: ﴿فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ . فَإِذَا هُم بِالسَّاهِرَةِ﴾ [النازعات: ١٣، ١٤] أى: إنما هو أمر واحد بانتهار، فإذا الناس قد خرجوا من باطن الأرض إلى ظاهرها، كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِ﴾ أى: تقومون كلكم إجابة لأمره وطاعة لإرادته. قال ابن عباس: ﴿فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِ﴾ أى: بأمره. وكذا قال ابن جريج. وقال قتادة: بمعرفته وطاعته. وقوله: ﴿وَتَتَّظُنُّونَ﴾ أى: يوم تقومون من قبوركم ﴿إِنْ لَبِثْتُمْ﴾ أى: فى الدار الدنيا ﴿إِلَّا قَلِيْلًا﴾، وكقوله تعالى ﴿كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَاهَا﴾ [النازعات: ٤٦]، وقال تعالى: ﴿يَوْمَ يَنْفُخُ فِي الصُّورِ وَنَحْشُرُ الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا . يَخَافَتُونَ بَيْنَهُمْ إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا عَشْرًا . نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ إِذْ يَقُولُ أَمْثَلُهُمْ طَرِيقَةً إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا يَوْمًا﴾ [طه: ١٠٢ - ١٠٤]، وقال تعالى: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُقْسِمُ الْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا غَيْرَ سَاعَةٍ كَذَلِكَ كَانُوا يُؤْفَكُونَ﴾ [الروم: ٥٥]، وقال تعالى: ﴿قَالَ كَمْ لَبِثْتُمْ فِي الْأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ . قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ فَاسْأَلِ الْعَادِيْنَ . قَالَ إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيْلًا لَوْ أَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [المؤمنون: ١١٢ - ١١٤].

﴿ وَقُلْ لِعِبَادِي يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ الشَّيْطَانَ يَنْزِعُ بَيْنَهُمْ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ

لِلْإِنْسَانِ عَدُوًّا مُّبِينًا ﴿٥٣﴾

يأمر تبارك وتعالى عبده ورسوله ﷺ أن يأمر عباد الله المؤمنين أن يقولوا فى مخاطبتهم ومحاورتهم الكلام الأحسن والكلمة الطيبة؛ فإنهم إذ لم يفعلوا ذلك، نزغ الشيطان بينهم، وأخرج الكلام إلى الفعال، ووقع الشر والمخاصمة والمقاتلة، فإنه عدو لآدم وذريته من حين امتنع من السجود لآدم، وعداوته ظاهرة بينة؛ ولهذا نهى أن يشير الرجل إلى أخيه المسلم بحديدة، فإن الشيطان ينزغ فى يده، أى: فرمبا أصابه بها. وروى الإمام أحمد عن أبى هريرة قال: قال

رسول الله ﷺ: « لايشيرن أحدكم إلى أخيه بالسلاح ، فإنه لا يدري أحدكم لعل الشيطان أن ينزع في يده ، فيقع في حفرة من النار». أخرجاه (١).

﴿ رَبِّكُمْ أَعْلَمُ بِكُمْ إِنْ يَشَأْ يُرْحَمَكُمُ أَوْ إِنْ يَشَأْ يُعَذِّبِكُمْ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا ﴿٥٤﴾ وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِمَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ النَّبِيِّنَ عَلَى بَعْضٍ وَمَا تَأْتِينَا دَاوُدَ ذُبُورًا ﴿٥٥﴾ ﴾

يقول تعالى: ﴿رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِكُمْ﴾ أيها الناس، أي أعلم بمن يستحق منكم الهداية ومن لا يستحق ﴿إِنْ يَشَأْ يُرْحَمَكُمُ﴾ بأن يوفقكم لطاعته والإنابة إليه ﴿أَوْ إِنْ يَشَأْ يُعَذِّبِكُمْ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا﴾ أي: إنما أرسلناك نذيرًا، فمن أطاعك دخل الجنة، ومن عصاك دخل النار. وقوله: ﴿وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِمَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أي: بمراتبهم في الطاعة والمعصية ﴿وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ النَّبِيِّنَ عَلَى بَعْضٍ﴾ وكما قال تعالى: ﴿تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ مِنْهُمْ مَنْ كَلَّمَ اللَّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ﴾ [البقرة: ٢٥٣]. وهذا لا ينافي ما في الصحيحين أن رسول الله ﷺ قال: «لا تفضلوا بين الأنبياء» (٢)؛ فإن المراد من ذلك هو التفضيل بمجرد التشهي والعصية، لا بمقتضى الدليل، فإذا دل الدليل على شيء وجب اتباعه، ولا خلاف أن الرسل أفضل من بقية الأنبياء، وأن أولى العزم منهم أفضل، وهم الخمسة المذكورون نصا في آيتين من القرآن في سورة الأحزاب: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنْكَ وَمِنْ نُوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ﴾ [الأحزاب: ٧]، وفي الشورى في قوله: ﴿شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ﴾ [الشورى: ١٣]. ولا خلاف أن محمداً ﷺ أفضلهم، ثم بعده إبراهيم، ثم موسى ثم عيسى عليه السلام على المشهور، وقد بسطنا هذا بدلائله في غير هذا الموضع، والله الموفق.

وقوله تعالى: ﴿وَأْتَيْنَا دَاوُدَ ذُبُورًا﴾ تنبيه على فضله وشرفه. روى البخارى عن أبى هريرة ، عن النبى ﷺ قال: «خُفَّ عَلَى دَاوُدَ الْقُرْآنَ، فَكَانَ يَأْمُرُ بِدَوَابِهِ فَتَسْرَجُ، فَكَانَ يَقْرَأُ قَبْلَ أَنْ يَفْرَغَ». يعنى القرآن (٣).

﴿ قُلْ أَدْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِهِ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشَفَ الضُّبَّرِ عَنْكُمْ وَلَا حَتْمِيلاً أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتُغُونَ إِلَيْكَ رِيبَهُمُ الْوَسِيلَةَ إِلَيْهِمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُمْ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا ﴿٥٧﴾ ﴾

يقول تعالى: ﴿قُلْ﴾ يا محمد لهؤلاء المشركين الذين عبدوا غير الله: ﴿ادْعُوا الَّذِينَ

(١) المسند (٢ / ٣١٧) والبخارى (٧٠٧٢) ومسلم (٢٦١٧ / ١٢٦) .

(٢) البخارى (٣٤١٤) ومسلم (٢٣٧٣ / ١٥٩) .

(٣) البخارى (٤٧١٣) .

زَعَمْتُمْ مِّنْ دُونِهِ ﴿٥٨﴾ من الأصنام والأنداد، فارغبوا إليهم، فإنهم ﴿لَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ الضُّرِّ عَنْكُمْ﴾ أى: بالكلية ﴿وَلَا تَحْوِيلًا﴾ أى: أن يحولوه إلى غيركم. والمعنى: أن الذى يقدر على ذلك هو الله وحده لا شريك له الذى له الخلق والأمر. قال ابن عباس فى قوله: ﴿قُلْ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ﴾ الآية قال: كان أهل الشرك يقولون: نعبد الملائكة والمسيح وعزيرا، وهم الذين يدعون، يعنى الملائكة والمسيح وعزيراً. وقوله: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ﴾ الآية. روى البخارى عن عبد الله فى قوله: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَتَّخِذُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ الوسيلة﴾ قال: ناس من الجن، كانوا يعبدون، فأسلموا. وفى رواية قال: كان ناس من الإنس، يعبدون ناساً من الجن، فأسلم الجن وتمسك هؤلاء بدينهم^(١). وقال ابن مسعود فى قوله: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَتَّخِذُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ الوسيلة﴾ قال: نزلت فى نفر من العرب، كانوا يعبدون نفراً من الجن، فأسلم الجنيون، والإنس الذين كانوا يعبدونهم لا يشعرون بإسلامهم، فنزلت هذه الآية. وفى رواية عن ابن مسعود: كانوا يعبدون صنفاً من الملائكة يقال لهم: الجن، فذكره. وقال مجاهد: عيسى، والعزير، والملائكة. واختار ابن جرير قول ابن مسعود؛ لقوله: ﴿يَتَّخِذُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ الوسيلة﴾، وهذا لا يعبر به عن الماضى، فلا يدخل فيه عيسى والعزير. قال: والوسيلة هى القربة، كما قال قتادة؛ ولهذا قال: ﴿أَيُّهُمْ أَقْرَبُ﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ﴾: لاتمم العبادة إلا بالخوف والرجاء، فبالخوف يتكف عن المناهى، وبالرجاء يكثر من الطاعات. وقوله تعالى: ﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا﴾ أى: ينبغى أن يحذر منه، ويخاف من وقوعه وحصوله، عياداً بالله منه.

﴿ وَإِنْ مِّنْ قَرْبَةٍ إِلَّا نَحْنُ مُهْلِكُوهَا قَبْلَ يَوْمِ الرِّقْمَةِ أَوْ مُعَذِّبُوهَا عَذَابًا شَدِيدًا كَانَ ذَٰلِكَ فِي الْكِتَابِ مَسْطُورًا ﴾

هذا إخبار من الله عز وجل بأنه قد حتم وقضى بما قد كتبه عنده فى اللوح المحفوظ: أنه ما من قرية إلا سيهلكها، بأن يبيد أهلها جميعهم أو يعذبهم ﴿عَذَابًا شَدِيدًا﴾ إما بقتل أو ابتلاء بما يشاء، وإنما يكون ذلك بسبب ذنوبهم وخطاياهم، كما قال تعالى عن الأمم الماضين: ﴿وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِن ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ﴾ [هود: ١٠١] وقال تعالى: ﴿فَذَاقَتْ وَبَالَ أَمْرِهَا وَكَانَ عَاقِبَةُ أَمْرِهَا خُسْرًا﴾ [الطلاق: ٨]

﴿ وَمَا مَنَعَنَا أَنْ نُرْسِلَ بِالْآيَاتِ إِلَّا أَنْ كَذَّبَ بِهَا الْأَوَّلُونَ وَآئِنَّا ثَمُودًا النَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا بِهَا وَمَا نُرْسِلُ بِالْآيَاتِ إِلَّا تَخْوِيفًا ﴾

عن ابن عباس قال: سأل أهل مكة النبى ﷺ أن يجعل لهم الصفا ذهباً، وأن ينحى الجبال عنهم فيزرعوا، فقيل له: إن شئت أن نستأنى بهم، وإن شئت أن نُؤْتِيَهُم الذى سألوا، فإن كفروا أهلكوا كما أهلكت من كان قبلهم من الأمم: قال: «لا، بل استأن بهم». وأنزل الله:

﴿ وَمَا مَنَعَنَا أَنْ نُرْسِلَ بِالْآيَاتِ إِلَّا أَنْ كَذَّبَ بِهَا الْأُولُونَ وَآتَيْنَا ثُمُودَ النَّاقَةَ مُبْصِرَةً ﴾ . رواه النسائي (١) .

ولهذا قال تعالى: ﴿ وَمَا مَنَعَنَا أَنْ نُرْسِلَ بِالْآيَاتِ ﴾ أى: نبعث الآيات ونأتى بها على ما سأل قومك منك، فإنه سهل علينا يسير لدينا، إلا أنه قد كذب بها الأولون بعدما سألوها، وجرت سنتنا فيهم وفى أمثالهم أنهم لا يؤخرون إن كذبوا بها بعد نزولها، كما قال الله تعالى فى المائدة: ﴿ قَالَ اللَّهُ إِنِّي مُنزِلُهَا عَلَيْكُمْ فَمَنْ يَكْفُرْ بَعْدُ مِنْكُمْ فَإِنِّي أُعَذِّبُهُ عَذَابًا لَا أُعَذِّبُهُ أَحَدًا مِنَ الْعَالَمِينَ ﴾ [المائدة: ١١٥]. وقال تعالى عن ثمود، حين سألوها آية: ناقة تخرج من صخرة عينوها، فدعا صالح ربه، فأخرج له منها ناقة على ما سألوها ﴿ فَظَلَّمُوا بِهَا ﴾ أى: كفروا بمن خلقها، وكذبوا رسوله وعقروا الناقة فقال: ﴿ تَمَتَّعُوا فِي دَارِكُمْ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ ذَلِكَ وَعَدُّ غَيْرُ مَكْدُوبٍ ﴾ [هود: ٦٥]؛ ولهذا قال تعالى: ﴿ وَآتَيْنَا ثُمُودَ النَّاقَةَ ﴾ أى: دالة على وحدانية من خلقها وصدق الرسول الذى أحجبه دعاؤه فيها ﴿ فَظَلَّمُوا بِهَا ﴾ أى: كفروا بها ومنعوا شربها وقتلوا، فأبادهم الله عن آخرهم، وانتقم منهم، وأخذهم أخذ عزيز مقتدر.

وقوله تعالى: ﴿ وَمَا نُرْسِلُ بِالْآيَاتِ إِلَّا تَخْوِيفًا ﴾ قال قتادة: إن الله تعالى يخوف الناس بما شاء من الآيات لعلمهم يعتبرون ويذكرون ويرجعون. وكذا قال رسول الله ﷺ: «إن الشمس والقمر آيتان من آيات الله، وإنهما لا ينكسفان لموت أحد ولا لحياته، ولكن الله، عز وجل، يرسلهما يخوف بهما عباده، فإذا رأيتم ذلك فافزعوا إلى ذكره ودعائه واستغفاره». ثم قال: «يا أمة محمد، والله ما أحد أغير من الله أن يزنى عبده أو تزنى أمته، يا أمة محمد، والله لو تعلمون ما أعلم، لضحكتم قليلاً ولبكيتم كثيراً» (٢).

﴿ وَإِذْ قُلْنَا لَكَ إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِالنَّاسِ وَمَا جَعَلْنَا الرُّؤْيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ إِلَّا فِتْنَةً لِلنَّاسِ وَالشَّجَرَةَ الْمَلْعُونَةَ فِي الْقُرْآنِ وَنُحُوفُهُمْ مَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا طُغْيَانًا كَبِيرًا ﴾

يقول تعالى لرسوله ﷺ محرّضاً له على إبلاغ رسالته، ومخبراً له بأنه قد عصمه من الناس، فإنه القادر عليهم، وهم فى قبضته وتحت قهره وغلبته. قال مجاهد، والحسن، وقاتدة، وغيرهم فى قوله: ﴿ وَإِذْ قُلْنَا لَكَ إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِالنَّاسِ ﴾ أى: عصمك منهم.

وقوله: ﴿ وَمَا جَعَلْنَا الرُّؤْيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ إِلَّا فِتْنَةً لِلنَّاسِ ﴾ روى البخارى عن ابن عباس: ﴿ وَمَا جَعَلْنَا الرُّؤْيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ إِلَّا فِتْنَةً لِلنَّاسِ ﴾ قال: هى رؤيا عين أريها رسول الله ﷺ ليلة أسرى به ﴿ وَالشَّجَرَةَ الْمَلْعُونَةَ فِي الْقُرْآنِ ﴾ شجرة الزقوم (٣). وقد تقدمت أحاديث الإسراء فى أول السورة، وتقدم أن ناساً رجعوا عن دينهم بعدما كانوا على الحق؛ لأنه لم تحمل قلوبهم وعقولهم ذلك؛ ولهذا قال: ﴿ إِلَّا فِتْنَةً ﴾ أى: اختباراً وامتحاناً. وأما «الشجرة الملعونة»، فهى شجرة الزقوم، كما حكى

(١) المسند (٢٣٣٣) وقال الشيخ أحمد شاکر: «إسناده صحيح» والنسائي فى الكبرى (١١٢٩٠).

(٢) البخارى (١٠٤٤) ومسلم (١/٩٠١). (٣) البخارى (٤٧١٦).

ذلك ابن عباس .

وقوله : ﴿ وَنُحَوِّثُهُمْ ﴾ أى : الكفار بالوعيد والعذاب والنكال ﴿ فَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا طُغْيَانًا كَبِيرًا ﴾ أى : تمادياً فيما هم فيه من الكفر والضلال . وذلك من خذلان الله لهم .

﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ قَالَ مَا أَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا ﴿٦١﴾ قَالَ أَرَأَيْتَكَ هَذَا الَّذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ لَئِنِ أَخَّرْتَنِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لِآخْتِنِكَ ذُرِّيَّتَهُ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٦٢﴾ ﴾

يذكر تعالى عداوة إبليس - لعنه الله - لآدم، وذريته، وأنها عداوة قديمة منذ خلق آدم، فإنه تعالى أمر الملائكة بالسجود لآدم، فسجدوا كلهم إلا إبليس استكبر وأبى أن يسجد له؛ افتخاراً عليه واحتقاراً له ﴿ قَالَ أَسْجُدْ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا ﴾ كما قال فى الآية الأخرى : ﴿ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ ﴾ [الاعراف: ١٢] . وقال أيضاً : ﴿ أَرَأَيْتَكَ ﴾ يقول للرب جراءة وكفراً، والرب يحلم وينظر ﴿ قَالَ أَرَأَيْتَكَ هَذَا الَّذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ لَئِنِ أَخَّرْتَنِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لِآخْتِنِكَ ذُرِّيَّتَهُ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ قال ابن عباس : يقول : لاستولين على ذريته إلا قليلاً . وقال مجاهد : لاحتوين . وقال ابن زيد : لأضلنهم . وكلها متقاربة، والمعنى : أنه يقول : أرايتك هذا الذى شرفته وعظمته على، لئن أنظرتنى لأضلن ذريته إلا قليلاً منهم !

﴿ قَالَ أَذْهَبَ فَمَنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَاءُكُمْ جَزَاءً مَوْفُورًا ﴿٦٣﴾ وَأَسْتَفْزِرُ مِنْ أَسْطَفَمَتْ مِنْهُمْ بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبَ عَلَيْهِمْ بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ وَشَارِكُهُمْ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ وَعَدْتُهُمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا ﴿٦٤﴾ إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ وَكَفَى بِرَبِّكَ وَكِيلًا ﴿٦٥﴾ ﴾

لما سأل إبليس النظرة قال الله له : ﴿ أَذْهَبَ ﴾ فقد أنظرتك، كما قال فى الآية الأخرى قال : ﴿ أَذْهَبَ فَمَنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَاءُكُمْ ﴾ [الحجر : ٣٧ ، ٣٨] ثم أوعده ومن اتبعه من ذرية آدم جهنم ﴿ قَالَ أَذْهَبَ فَمَنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَاءُكُمْ ﴾ أى : على أعمالكم ﴿ جَزَاءً مَوْفُورًا ﴾ قال مجاهد : وافراً . وقال قتادة : موفورا عليكم، لا ينقص لكم منه .

وقوله : ﴿ وَأَسْتَفْزِرُ مِنْ أَسْطَفَمَتْ مِنْهُمْ بِصَوْتِكَ ﴾ قيل : هو الغناء . قال مجاهد : باللهو والغناء، أى : استخفهم بذلك . وقال ابن عباس : كل داع دعا إلى معصية الله ، عز وجل ، واختاره ابن جرير . وقوله : ﴿ وَأَجْلِبَ عَلَيْهِمْ بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ ﴾ يقول : واحمل عليهم بجنودك خيالتهم ورجلتهم؛ فإن «الرجل» جمع «راجل»، كما أن «الركب» جمع «راكب» و «صحب» جمع «صاحب» . ومعناه : تسلط عليهم لكل ما تقدر عليه . وهذا أمر قدرى، كما قال تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَا أَرْسَلْنَا الشَّيَاطِينَ عَلَى

الْكَافِرِينَ تَوَزُّهُمْ أَزًّا ﴿٨٣﴾ [مریم: ٨٣] أى: تزعجهم إلى المعاصى إزعاجاً، وتسوقهم إليها سوقاً. وقال ابن عباس، ومجاهد فى قوله: ﴿وَأَجْلِبْ عَلَيْهِمْ بِخَيْلِكَ وَرَجْلِكَ﴾ قال: كل راكب وماش فى معصية الله. تقول العرب: «أجلب فلان على فلان»: إذا صاح عليه. ومنه اشتقاق «الجلبة»، وهى ارتفاع الأصوات.

وقوله: ﴿وَشَارِكُهُمْ فِي الْأَمْوَالِ﴾ قال ابن عباس ومجاهد: هو ما أمرهم به من إنفاق الأموال فى معاصى الله. وقال عطاء: هو الربا. وقال الحسن: جمعها من خبيث، وإنفاقها فى حرام. وكذا قال قتادة. وقال ابن عباس: أما مشاركته إياهم فى أموالهم، فهو ما حرموه من أنعامهم، يعنى: من البحائر والسوائب ونحوها. وكذا قال الضحاک وقتادة. قال ابن جرير: والأولى أن يقال: إن الآية تعم ذلك كله.

وقوله: ﴿وَالْأَوْلَادِ﴾ قال مجاهد، والضحاک: يعنى أولاد الزنا. وقال ابن عباس: هو ما كانوا قتلوه من أولادهم سفها بغير علم. وقال قتادة، عن الحسن البصرى: قد والله شاركهم فى الأموال والأولاد مَجْسُؤًا وهودوا وَتَصَرَّوًا وصبغوا غير صبغة الإسلام، وَجَزَّؤًا من أموالهم جزءاً للشياطين. قال ابن جرير: وأولى الأقوال بالصواب أن يقال: كل مولود ولدته أنثى، عصى الله فيه، بتسميته ما يكرهه الله، أو بإدخاله فى غير الدين الذى ارتضاه الله، أو بالزنا بأمه، أو بقتله أو وأده، أو غير ذلك من الأمور التى يعصى الله بفعله به أو فيه، فقد دخل فى مشاركة إبليس فيه من ولد ذلك الولد له أو منه؛ لأن الله لم يخص بقوله: ﴿وَشَارِكُهُمْ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ﴾ معنى الشركة فيه بمعنى دون معنى، فكل ما عصى الله فيه أو به، وأطع فيه الشيطان أو به، فهو مشاركة. وهذا الذى قاله متجه، وكل من السلف، فسر بعض المشاركة، فقد ثبت فى صحيح مسلم، عن عياض بن حمار، أن رسول الله ﷺ قال: «يقول الله عز وجل: إني خلقت عبادى حنفاء، فجاءتهم الشياطين فاجتالتهم عن دينهم، وحرمت عليهم ما أحللت لهم» (١). وفى الصحيحين أن رسول الله ﷺ قال: «لو أن أحدهم إذا أراد أن يأتى أهله قال: بسم الله، اللهم جنبنا الشيطان وجنب الشيطان ما رزقتنا، فإنه إن يقدر بينهما ولد فى ذلك، لم يضره الشيطان أبداً» (٢).

وقوله تعالى: ﴿وَعِدَّهُمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا﴾ كما أخبر تعالى عن إبليس أنه يقول إذا ححصص الحق يوم يقضى بالحق: ﴿إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعَدَ الْحَقُّ وَوَعَدْتُكُمْ﴾ الآية [إبراهيم: ٢٢]. وقوله تعالى: ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ﴾: إخبار بتأييده تعالى عباده المؤمنين، وحفظه إياهم، وحراسته لهم من الشيطان الرجيم؛ ولهذا قال تعالى: ﴿وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ كَيْلًا﴾ أى: حافظاً ومؤيداً وناصرًا.

﴿رَبِّكُمْ الَّذِي يُزِيحُ لَكُمْ الْفُلْكَ فِي الْبَحْرِ لِيَتَّبِعُوا مِنْ فَضْلِهِ إِنَّهُمْ كَانُوا بِكُمْ رَحِيمًا﴾



يخبر تعالى عن لطفه بخلقه فى تسخيره لعباده الفلك فى البحر، وتسهيله لمصالح عباده، لا يتغاثم من فضله فى التجارة من إقليم إلى إقليم؛ ولهذا قال: ﴿إِنَّهُ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا﴾ أى: إنما

فعل هذا بكم من فضله عليكم، ورحمته بكم.

﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَنْ تَدْعُونَ إِلَّا إِلَاهُ فَلَمَّا نَجَّكُمُ إِلَى الْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ
وَكَانَ الْإِنْسَانُ كَفُورًا﴾ ﴿١٧﴾

يخبر تعالى أن الناس إذا مسهم ضرٌّ، دعوه منييين إليه، مخلصين له الدين؛ ولهذا قال تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَنْ تَدْعُونَ إِلَّا إِلَاهُ﴾ أى: ذهب عن قلوبكم كل ما تعبدون غير الله تعالى، كما اتفق لعكرمة بن أبى جهل لما ذهب فاراً من رسول الله ﷺ حين فتح مكة، فذهب هارباً، فركب فى البحر ليدخل الحبيشة، فجاءتهم ريح عاصف، فقال القوم بعضهم لبعض: إنه لا يغنى عنكم إلا أن تدعوا الله وحده. فقال عكرمة فى نفسه: والله لئن كان لا ينفع فى البحر غيره، فإنه لا ينفع فى البر غيره، اللهم لك على عهد، لئن أخرجتنى منه لأذهبن فأضعن يدى فى يد محمد، فلاجدنه رؤوفاً رحيماً. فخرجوا من البحر، فرجع إلى رسول الله ﷺ فأسلم وحسن إسلامه، رضى الله عنه وأرضاه.

وقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا نَجَّكُمُ إِلَى الْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ﴾ أى: نسيتم ماعرفتم من توحيدته فى البحر، وأعرضتم عن دعائه وحده لا شريك له ﴿وَكَانَ الْإِنْسَانُ كَفُورًا﴾ أى: سَجِيَّتُهُ هذا، ينسى النعم ويجهلها، إلا من عصم الله .

﴿أَفَأَمِنْتُمْ أَنْ يُخَسِّفَ بِكُمْ جَانِبَ الْبَرِّ أَوْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا ثُمَّ لَا تَجِدُوا لَكُمْ
وَكِيلًا﴾ ﴿١٨﴾

يقول تعالى: أفحسبتم بخروجكم إلى البر أمنتهم من انتقامه وعذابه!

﴿أَنْ نُخَسِّفَ بِكُمْ جَانِبَ الْبَرِّ أَوْ نُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا﴾ وهو: المطر الذى فيه حجارة . قاله مجاهد، وغير واحد، كما قال تعالى: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَاصِبًا إِلَّا آلَ لُوطٍ نَجَّيْنَاهُمْ بِسَحَرٍ . نِعْمَةٌ مِنْ عِنْدِنَا﴾ [القم: ٣٤، ٣٥] وقد قال فى الآية الأخرى: ﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَابًا مِنْ سَجِيلٍ (١)﴾ [هود: ٨٢]، وقال: ﴿أَمِنْتُمْ مِنْ فِي السَّمَاءِ أَنْ يُخَسِّفَ بِكُمْ الْأَرْضَ إِذَا هِيَ تَمُورُ . أَمْ أَمِنْتُمْ مِنْ فِي السَّمَاءِ أَنْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا فَسَتَعْلَمُونَ كَيْفَ نَذِيرٍ﴾ [الملك: ١٦، ١٧].

وقوله: ﴿ثُمَّ لَا تَجِدُوا لَكُمْ وَاكِيلًا﴾ أى: ناصرأ يرد ذلك عنكم، ويتقدم منه .

﴿أَمْ أَمِنْتُمْ أَنْ يُعِيدَكُمْ فِيهِ تَارَةً أُخْرَى فَيُرْسِلَ عَلَيْكُمْ قَاصِفًا مِنَ الرِّيحِ فَيُغْرِقَكُم بِمَا
كَفَرْتُمْ ثُمَّ لَا تَجِدُوا لَكُمْ عَلَيْنَا بِهِ تَبِيعًا﴾ ﴿١٩﴾

يقول تعالى: ﴿أَمْ أَمِنْتُمْ﴾ أيها المعرضون عنا بعدما اعترفوا بتوحيدنا فى البحر ، وخرجوا

إلى البر ﴿أَنْ يُعِيدَكُمْ﴾ فى البحر مرة ثانية ﴿فُرْسِلَ عَلَيْكُمْ قَاصِفًا مِنَ الرِّيحِ﴾ أى: يقصف الصوارى ويغرق المراكب. قال ابن عباس وغيره: القاصف: ريح البحار التى تكسر المراكب وتغرقها. وقوله: ﴿فَيُغْرِقُكُمْ بِمَا كَفَرْتُمْ﴾ أى: بسبب كفركم وإعراضكم عن الله تعالى. ﴿ثُمَّ لَا تَجِدُوا لَكُمْ عَلَيْنَا بِهِ تَبِيعًا﴾ قال ابن عباس: نصيراً، وقال مجاهد: نصيراً ثائراً، أى: يأخذ بثأركم بعدكم.

﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْوَيْلِ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا﴾ ﴿٧٠﴾

يخبر تعالى عن تشريفه لبني آدم، وتكريمه إياهم، فى خلقه لهم على أحسن الهيئات وأكملها كقوله تعالى: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾ [النين: ٤] أى: يمشى قائماً منتصباً على رجلية، ويأكل بيديه، وغيره من الحيوانات يمشى على أربع ويأكل بضمه، وجعل له سمعاً وبصراً وفؤاداً، يفقه بذلك كله ويتنفع به، ويفرق بين الأشياء، ويعرف منافعها وخواصها ومضارها فى الأمور الدينية والدنيوية والدينية. ﴿وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْوَيْلِ﴾ أى: على الدواب من الأنعام والخليل والبغال، وفى ﴿الْبَحْرِ﴾ أيضاً على السفن الكبار والصغار ﴿وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ﴾ أى: من زروع وثمار، ولحوم وألبان، من سائر أنواع الطعوم والألوان، المشتهاة اللذيذة، والمناظر الحسنة، والملابس الرفيعة من سائر الأنواع، على اختلاف أصنافها وألوانها وأشكالها، مما يصنعونه لأنفسهم، ويجلبه إليهم غيرهم من أقطار الأقاليم والنواحي ﴿وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا﴾ أى: من سائر الحيوانات وأصناف المخلوقات.

وقد استدل بهذه الآية على أفضلية جنس البشر على جنس الملائكة .

﴿يَوْمَ نَدْعُوا كُلَّ أُنَاسٍ بِإِمَتِهِمْ فَمَنْ أُوثِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَأُولَئِكَ يَقْرَءُونَ كِتَابَهُمْ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا﴾ ﴿٧١﴾ وَمَنْ كَانَتْ فِي هَذِهِ أَعْمَى فَهُوَ فِي الْآخِرَةِ أَعْمَى وَأَضَلُّ سَبِيلًا﴾ ﴿٧٢﴾

يخبر تبارك وتعالى عن يوم القيامة: أنه يحاسب كل أمة بإمامهم . وقد اختلفوا فى ذلك، فقال مجاهد وقتادة: أى بنبيهم . وهذا كقوله: ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَسُولٌ فَإِذَا جَاءَ رَسُولُهُمْ قَضِيَ بَيْنَهُم بِالْقِسْطِ﴾ الآية [يونس: ٤٧]. وقال بعض السلف: هذا أكبر شرف لأصحاب الحديث؛ لأن إمامهم النبى ﷺ. وقال ابن زيد: بكتابهم الذى أنزل على نبيهم، من التشريع. واختاره ابن جرير، وعن مجاهد أنه قال: بكتبهم. فيحتمل أن يكون أراد هذا، وأن يكون أراد مارواه العوفى عن ابن عباس فى قوله: ﴿يَوْمَ نَدْعُوا كُلَّ أُنَاسٍ بِإِمَتِهِمْ﴾ أى: بكتاب أعمالهم، وكذا قال أبو العالية، والحسن، والضحاك. وهذا القول هو الأرجح؛ لقوله تعالى: ﴿وَكُلُّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُّبِينٍ﴾ [يس: ١٢]. وقال تعالى: ﴿وَوَضِعَ الْكِتَابَ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَا وَيْلَتَنَا مَا لِهَذَا الْكِتَابِ

لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلَا يَظُنُّ رَبُّكَ أَحَدًا ﴿٤٩﴾ [الكهف: ٤٩]. ويحتمل أن المراد بإمامهم : أى كل قوم بمن ياتمون به ، فاهل الإيمان ائتموا بالانبياء عليهم السلام ، واهل الكفر ائتموا بأئمتهم، كما قال : ﴿ وَجَعَلْنَاهُمْ أُمَّةً يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ ﴾ . وفى الصحيحين : « لتتبع كل أمة ما كانت تعبد ، فيتبع من كان يعبد الطواغيت الطواغيت » الحديث (١).

وقال تعالى : ﴿ وَتَرَى كُلَّ أُمَّةٍ جَائِيَةٌ كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَى إِلَى كِتَابِهَا الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ . هَذَا كِتَابُنَا يَنْطِقُ عَلَيْكُمْ بِالْحَقِّ إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ [الجاثية: ٢٨ ، ٢٩].

وهذا لا ينافى أن يجاء بالنبي إذا حكم الله بين أمته، فإنه لا بد أن يكون شاهداً عليها بأعمالها، كما قال : ﴿ وَأَشْرَقَتِ الْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا وَوُضِعَ الْكِتَابُ وَجِيءَ بِالنَّبِيِّينَ وَالشُّهَدَاءِ ﴾ ، [الزمر: ٦٩] ، وقاله تعالى : ﴿ فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلَاءِ شَهِيدًا ﴾ [النساء: ٤١]. ولكن المراد ههنا بالإمام هو كتاب الأعمال؛ ولهذا قال تعالى : ﴿ يَوْمَ نَدْعُو كُلَّ أُنَاسٍ بِإِمامِهِمْ فَمَنْ أُوْتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَأُولَئِكَ يَقْرَءُونَ كِتَابَهُمْ ﴾ أى : من فرحته وسروره بما فيه من العمل الصالح، يقرؤه ويحب قراءته، كقوله : ﴿ فَأَمَّا مَنْ أُوْتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَيَقُولُ هَازِمٌ أَقْرَبُوا كِتَابِيهِ ﴾ إلى قوله : ﴿ وَأَمَّا مَنْ أُوْتِيَ كِتَابَهُ بِشِمَالِهِ ﴾ [الحاقة: ١٩ - ٢٥]

وقوله : ﴿ وَلَا يَظْلَمُونَ فَتِيلًا ﴾ قد تقدم أن «الفتيال» هو الخيط المستطيل فى شق النواة.

وقوله تعالى : ﴿ وَمَنْ كَانَ فِي هَذِهِ أَعْمَى ﴾ قال ابن عباس، ومجاهد، وقتادة، وابن زيد : ﴿ وَمَنْ كَانَ فِي هَذِهِ ﴾ أى : فى الحياة الدنيا ﴿ أَعْمَى ﴾ عن حجج الله وآياته وبيناته ﴿ فَيَهْوَى فِي الْآخِرَةِ أَعْمَى ﴾ أى : كذلك يكون ﴿ وَأَضَلُّ سَبِيلًا ﴾ أى : وأضل منه كما كان فى الدنيا، عياداً بالله من ذلك .

﴿ وَإِنْ كَادُوا لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ لِتَفْتَرَى عَلَيْنَا غَيْرًا وَإِذَا لَا تَخَذُوكَ خَلِيلًا ﴿٧٦﴾ وَلَوْلَا أَنْ ثَبَّنَّاكَ لَقَدْ كِدْتَ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلًا ﴿٧٧﴾ إِذَا لَأَذْنَفْنَاكَ ضِعْفَ الْحَيَاةِ وَضِعْفَ الْمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا ﴿٧٨﴾ ﴾

يخبر تعالى عن تأييد رسوله، صلوات الله عليه وسلامه، وتثبيتته، وعصمته وسلامته من شر الأشرار وكيد الضغار، وأنه تعالى هو المتولى أمره ونصره، وأنه لا يكله إلى أحد من خلقه، بل هو وليه وحافظه وناصره ومؤيده ومظفره، ومظهر دينه على من عاداه وخالفه وناواه، فى مشارق الأرض ومغاربها .

﴿ وَإِنْ كَادُوا لَيَسْتَفِزُّوكَ مِنَ الْأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا وَإِذَا لَا يَلْبَثُونَ خِلفَكَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٧٦﴾ سُنَّةً مَنْ قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنْ رُسُلِنَا وَلَا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلًا ﴿٧٧﴾ ﴾

نزلت فى كفار قريش، هموا بإخراج الرسول من بين أظهرهم، فتوعدهم الله بهذه الآية،

وأنتهم لو أخرجوه لما لبثوا بعده بمكة إلا يسيراً. وكذلك وقع؛ فإنه لم يكن بعد هجرته من بين أظهرهم، بعد ما اشتد أذاهم له، إلا سنة ونصف، حتى جمعهم الله وإياه بيدراً على غير ميعاد، فأمكنه منهم وسلطه عليهم وأظفره بهم، فقتل أشرافهم، وسبى ذراريهم؛ ولهذا قال تعالى: ﴿سُنَّةٌ مِّن قَدْ أَرْسَلْنَا﴾ الآية، أي: هكذا عادتنا في الذين كفروا برسولنا وأذوهم: بخروج الرسول من بين أظهرهم يأتيهم العذاب. ولولا أنه رسول الرحمة، لجاءهم من النقم في الدنيا ما لا قبل لأحد به؛ ولهذا قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ﴾ الآية [الأنفال: ٣٣].

﴿ أَقِمِ الصَّلَاةَ لِذُلُوكِ الشَّمْسِ إِلَى غَسَقِ اللَّيْلِ وَقُرْآنَ الْفَجْرِ إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا ﴾ (٧٨) وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَّكَ عَسَىٰ أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا ﴿٧٩﴾

يقول تبارك تعالى لرسوله ﷺ أمراً له بإقامة الصلوات المكتوبات في أوقاتها: ﴿أَقِمِ الصَّلَاةَ لِذُلُوكِ الشَّمْسِ﴾ عن ابن عباس: «ذلوها» : زوالها . ورواه نافع ، عن ابن عمر . ورواه مالك في تفسيره ، عن الزهري ، عن ابن عمر . وقاله أبو بَرزَةَ الأسلمي وهو رواية أيضاً عن ابن مسعود . ومجاهد . واختاره ابن جرير .

فعلى هذا تكون هذه الآية دخل فيها أوقات الصلاة الخمسة فمن قوله: ﴿لِذُلُوكِ الشَّمْسِ إِلَى غَسَقِ اللَّيْلِ﴾ وهو: ظلامه ، وقيل: غروب الشمس ، أخذ منه الظهر والعصر والمغرب والعشاء ، وقوله: ﴿وَقُرْآنَ الْفَجْرِ﴾ يعني: صلاة الفجر . وقد بينت السنة عن رسول الله ﷺ تواتراً من أفعاله وأقواله تفاصيل هذه الأوقات ، على ما عليه أهل الإسلام اليوم ، مما تلقوه خلفاً عن سلف ، وقرناً بعد قرن ، كما هو مقرر في مواضعه ، ولله الحمد . ﴿إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا﴾ . روى البخارى عن أبى هريرة ، عن النبي ﷺ قال: «فضل صلاة الجميع على صلاة الواحد خمس وعشرون درجة، وتجتمع ملائكة الليل وملائكة النهار في صلاة الفجر». يقول أبو هريرة: اقرؤوا إن شئتم: ﴿وَقُرْآنَ الْفَجْرِ إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا﴾ (١).

وروى الإمام أحمد عن ابن مسعود، وعن أبى هريرة ، عن النبي ﷺ فى قوله: ﴿وَقُرْآنَ الْفَجْرِ إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا﴾ قال: « تشهد ملائكة الليل ، وملائكة النهار». ورواه الترمذى ، والنسائى ، وابن ماجه ، وقال الترمذى: حسن صحيح (٢). وفى لفظ فى الصحيحين عن أبى هريرة ، عن النبي ﷺ قال: « يتعاقبون فيكم ملائكة بالليل وملائكة بالنهار ، ويجتمعون فى صلاة الصبح وفى صلاة العصر ، فَيَعْرُجُ الَّذِينَ بَاتُوا فِيكُمْ فَيَسْأَلُهُمْ رَبُّهُمْ - وهو أعلم بكم - كيف تركتم عبادى؟ فيقولون: أتيناهم وهم يصلون، وتركناهم وهم يصلون» (٣).

(١) البخارى (٤٧١٧) .

(٢) المسند (٢ / ٤٧٤) والترمذى (٣١٣٥) والنسائى فى الكبرى (١١٢٩٣) وابن ماجه (٦٧٠) .

(٣) البخارى (٥٥٥) ومسلم (٦٣٢ / ٢١٠) .

وقوله تعالى : ﴿وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَّكَ﴾ : أمر له بقيام الليل بعد المكتوبة ، كما ورد فى صحيح مسلم ، عن أبى هريرة ، عن رسول الله ﷺ ، أنه سئل : أى الصلاة أفضل بعد المكتوبة؟ قال : « صلاة الليل »^(١) . ولهذا أمر تعالى رسوله بعد المكتوبات بقيام الليل ، فإن التهجد : ما كان بعد نوم . وكذلك ثبت الأحاديث عن رسول الله ﷺ : أنه كان يتهجد بعد نومه ، عن ابن عباس ، وعائشة ، وغير واحد من الصحابة ، رضى الله عنهم ، كما هو مبسوط فى موضعه ، ولله الحمد والمنة . واختلف فى معنى قوله تعالى : ﴿نَافِلَةً لَّكَ﴾ فقيل : معناه : أنك مخصوص بوجوب ذلك وحدك ، فجعلوا قيام الليل واجباً فى حقه دون الأمة . وهو أحد قولى الشافعى ، واختاره ابن جرير . وقيل : إنما جعل قيام الليل فى حقه نافلة على الخصوص ؛ لأنه قد غفر له ماتقدم من ذنبه وما تأخر ، وغيره من أمته إنما يكفر عنه صلواته النوافل الذنوب التى عليه ، قاله مجاهد .

وقوله : ﴿عَسَىٰ أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا﴾ أى : افعل هذا الذى أمرتك به ، لتقيمك يوم القيامة مقاماً محموداً يحمدك فيه الخلائق كلهم وخالقهم ، تبارك وتعالى . قال ابن جرير : قال أكثر أهل التأويل : ذلك هو المقام الذى يقومه محمد ﷺ يوم القيامة للشفاعة للناس ، ليريحهم ربهم من عظيم ما هم فيه من شدة ذلك اليوم . قلت : لرسول الله صلى الله عليه وسلم تسليماً تشريفات يوم القيامة لا يشركه فيها أحد ، وتشريفات لا يساويه فيها أحد؛ فهو أول من تنشق عنه الأرض ، ويبعث ركباً إلى المحشر ، وله اللواء الذى آدم فمن دونه تحت لوائه ، وله الخوض الذى ليس فى الموقف أكثر وارداً منه ، وله الشفاعة العظمى عند الله لىأتى لفصل القضاء بين الخلائق ، وذلك بعد ما يسأل الناس آدم ثم نوحاً ثم إبراهيم ثم موسى ثم عيسى ، فكل يقول : «لست لها» حتى يأتوا إلى محمد ﷺ فيقول : «أنا لها ، أنا لها» كما سنذكر ذلك مفصلاً فى هذا الموضع ، إن شاء الله تعالى . ومن ذلك أنه يشفع فى أقوام قد أمر بهم إلى النار ، فيردون عنها . وهو أول الأنبياء يقضى بين أمته ، وأولهم إجازة على الصراط بأمرته . وهو أول شفيع فى الجنة ، كما ثبت فى صحيح مسلم . وفى حديث الصور : أن المؤمنين كلهم لا يدخلون الجنة إلا بشفاعته . وهو أول داخل إليها وأمته قبل الأمم كلهم . ويشفع فى رفع درجات أقوام لا تبلغها أعمالهم . وهو صاحب الوسيلة التى هى أعلى منزلة فى الجنة ، لا تليق إلا له . وإذا أذن الله تعالى فى الشفاعة للعصاة شفع الملائكة والنبيون والمؤمنون ، فيشفع هو فى خلائق لا يعلم عدتهم إلا الله ، ولا يشفع أحد مثله ولا يساويه فى ذلك . وقد بسطت ذلك مستقصى فى آخر كتاب «السيرة» فى باب الخصائص ، ولله الحمد والمنة .

ولنذكر الآن الأحاديث الواردة فى المقام المحمود ، وبالله المستعان :

روى البخارى عن ابن عمر قال : إن الناس يصيرون يوم القيامة جثاً ، كل أمة تتبع نبياها ، يقولون : يا فلان اشفع ، يا فلان اشفع حتى تنتهى الشفاعة إلى محمد ﷺ ، فذلك يوم

يبعثه الله مقاماً محموداً (١).

وروى البخارى عن جابر بن عبد الله؛ أن رسول الله ﷺ قال: «من قال حين يسمع ائداء : اللهم رب هذه الدعوة التامة، والصلاة القائمة، آت محمداً الوسيلة والفضيلة، وابعثه مقاماً محموداً الذى وعدته، حلت له شفاعتى يوم القيامة». انفراد به دون مسلم (٢).

وروى الإمام أحمد عن أنس، عن النبي ﷺ قال: «يجتمع المؤمنون يوم القيامة، فيلهمون ذلك فيقولون: لو استشفعنا إلى ربنا، فأراحنا من مكاننا هذا. فيأتون آدم فيقولون: يا آدم، أنت أبو البشر، خلقك الله بيده، وأسجد لك ملائكته، وعلمك أسماء كل شيء، فاشفع لنا إلى ربك حتى يريحنا من مكاننا هذا. فيقول لهم آدم: لست هناك، ويذكر ذنبه الذى أصاب، فيستحى ربه، عز وجل، من ذلك، ويقول: ولكن اتوا نوحاً، فإنه أول رسول بعثه الله إلى أهل الأرض. فيأتون نوحاً فيقول: لست هناك، ويذكر خطيئة سؤاله ربه ما ليس له به علم، فيستحى ربه من ذلك، ولكن اتوا إبراهيم خليل الرحمن. فيأتونه فيقول: لست هناك، ولكن اتوا موسى، عبداً كلمه الله، وأعطاه التوراة. فيأتون موسى فيقول: لست هناك، ويذكر لهم النفس التى قتل بغير نفس، فيستحى ربه من ذلك، ولكن اتوا عيسى عبد الله ورسوله، وكلمته وروحه، فيأتون عيسى فيقول: لست هناك، ولكن اتوا محمداً عبداً غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر فيأتونى». قال الحسن هذا الحرف: «فأقوم فأمشى بين سباطين من المؤمنين». قال أنس: «حتى أستاذن على ربي، فإذا رأيت ربي وقعت له - أو: خررت - ساجداً لربي، فيدعنى ماشاء الله أن يدعنى». قال: «ثم يقال: ارفع محمد، قل يسمع، واشفع تشفع، وسل تعطه. فأرفع رأسى، فأحمده بتحميد يُعلمنيهِ، ثم أشفع فيحد لي حداً، فأدخلهم الجنة»: «ثم أعود إليه الثانية، فإذا رأيت ربي وقعت - أو: خررت - ساجداً لربي، فيدعنى ماشاء الله أن يدعنى. ثم يقال: ارفع محمد، قل يسمع، وسل تعطه، واشفع تشفع. فأرفع رأسى فأحمده بتحميد يُعلمنيهِ، ثم أشفع فيحد لي حداً، فأدخلهم الجنة، ثم أعود فى الثالثة؛ فإذا رأيت ربي وقعت - أو: خررت - ساجداً لربي، فيدعنى ماشاء الله أن يدعنى، ثم يقال: ارفع محمد، قل يسمع، وسل تعطه، واشفع تشفع. فأرفع رأسى فأحمده بتحميد يُعلمنيهِ، ثم أشفع فيحد لي حداً فأدخلهم الجنة. ثم أعود الرابعة فأقول: يارب، ما بقى إلا من حبسه القرآن». فحدثنا أنس بن مالك أن النبي ﷺ قال: «فيخرج من النار من قال: لا إله إلا الله» وكان فى قلبه من الخير ما يزن شعيرة، ثم يخرج من النار من قال: «لا إله إلا الله» وكان فى قلبه من الخير ما يزن برة، ثم يخرج من النار من قال: «لا إله إلا الله» وكان فى قلبه من الخير ما يزن ذرة». أخرجاه (٣).

وروى الإمام أحمد عن أبى هريرة، قال: أتى رسول الله ﷺ بلحم، فرفع إليه الذراع

(١) البخارى (٤٧١٨). (٢) البخارى (٤٧١٩).

(٣) المسند (٣ / ١١٦) والبخارى (٤٤٧٦) ومسلم (١٩٣ / ٣٢٢).

- وكانت تعجبه - فَتَهَسَ مِنْهَا تَهَسَةً، ثم قال: «أنا سيد الناس يوم القيامة، وهل تدرون ممّ ذاك؟ يجمع الله الأولين والآخرين فى صعيد واحد، يُسْمِعُهُم الداعى وَيَنْفِذُهُم البصر، وتدنو الشمس فيبلغ الناس من الغم والكره ما لا يظنون ولا يحتملون. فيقول بعض الناس لبعض: ألا ترون إلى ما أنتم فيه مما قد بلغكم؟ ألا تنظرون من يشفع لكم إلى ربكم؟ فيقول بعض الناس لبعض: عليكم بآدم. فيأتون آدم عليه السلام، فيقولون: يا آدم، أنت أبو البشر، خلقتك الله بيده، ونفخ فيك من روحه، وأمر الملائكة فسجدوا لك؛ فاشفع لنا إلى ربك، ألا ترى مانحن فيه؟ ألا ترى ما قد بلغنا؟ فيقول آدم: إن ربي قد غضب اليوم غضباً لم يغضب قبله مثله، ولن يغضب بعده مثله، وإنه نهانى عن الشجرة فعصيته، نفسى، نفسى، نفسى! اذهبوا إلى غيرى، اذهبوا إلى نوح. فيأتون نوحاً فيقولون: يا نوح، أنت أول الرسل إلى أهل الأرض، وسماك الله عبداً شكوراً، اشفع لنا إلى ربك، ألا ترى مانحن فيه؟ ألا ترى ما قد بلغنا؟ فيقول نوح: إن ربي قد غضب اليوم غضباً لم يغضب قبله مثله، ولن يغضب بعده مثله، وإنه كانت لى دعوة دعوتها على قومى، نفسى، نفسى، نفسى! اذهبوا إلى غيرى، اذهبوا إلى إبراهيم. فيأتون إبراهيم فيقولون: يا إبراهيم، أنت نبي الله وخليله من أهل الأرض، اشفع لنا إلى ربك ألا ترى مانحن فيه؟ ألا ترى ما قد بلغنا؟ فيقول: إن ربي قد غضب اليوم غضباً لم يغضب قبله مثله، ولن يغضب بعده مثله، فذكر كذباته، نفسى، نفسى، نفسى، اذهبوا إلى غيرى، اذهبوا إلى موسى. فيأتون موسى عليه السلام فيقولون: يا موسى، أنت رسول الله، اصطفاك الله برسالاته وبكلامه على الناس، اشفع لنا إلى ربك، ألا ترى مانحن فيه؟ ألا ترى ما قد بلغنا؟ فيقول لهم موسى: إن ربي قد غضب اليوم غضباً لم يغضب قبله مثله، ولن يغضب بعده مثله، وإنى قتلت نفساً لم أؤمر بقتلها، نفسى، نفسى، نفسى، اذهبوا إلى غيرى، اذهبوا إلى عيسى. فيأتون عيسى فيقولون: يا عيسى، أنت رسول الله وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه وكلمت الناس فى المهد، فاشفع لنا إلى ربك، ألا ترى مانحن فيه؟ ألا ترى ما قد بلغنا؟ فيقول لهم عيسى: إن ربي قد غضب اليوم غضباً لم يغضب قبله مثله، ولن يغضب بعده مثله، ولم يذكر ذنباً، اذهبوا إلى غيرى، اذهبوا إلى محمد ﷺ. فيأتون محمداً ﷺ فيقولون: يا محمد، أنت رسول الله، وخاتم الأنبياء، غفر الله لك ماتقدم من ذنبك وما تأخر، اشفع لنا إلى ربك، ألا ترى مانحن فيه؟ ألا ترى ما قد بلغنا؟ فأقوم فأتى تحت العرش، فأقع ساجداً لربي، عز وجل، ثم يفتح الله علىّ، ويلهمنى من محامده وحسن الثناء عليه ما لم يفتحه على أحد قبلى. فيقال: يا محمد، ارفع رأسك، وسل تعطه، واشفع تشفع. فأرفع رأسى فأقول: أمتى يارب، أمتى يارب، أمتى يارب، فيقال: يا محمد، أدخل من أمتك من لا حساب عليه من الباب الأيمن من أبواب الجنة، وهم شركاء الناس فيما سوى ذلك من الأبواب». ثم قال: «والذى نفس محمد بيده، إن ما بين المصرعين من مصاريع الجنة كما بين مكة وهَجَرَ، أو كما بين مكة وبُصْرَى». أخرجاه فى الصحيحين^(١).

وروى مسلم عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «أنا سيد ولد آدم يوم القيامة، وأول من ينشق عنه القبر يوم القيامة، وأول شافع، وأول مُشَفَّع» (١).

﴿ وَقُلْ رَبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ وَاجْعَل لِي مِنْ لَدُنْكَ سُلْطَانًا نَصِيرًا ﴾ ﴿٨٠﴾ وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا ﴿٨١﴾

روى الإمام أحمد عن ابن عباس قال: كان النبي ﷺ بمكة ثم أمر بالهجرة، فأنزل الله: ﴿وَقُلْ رَبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ وَاجْعَل لِي مِنْ لَدُنْكَ سُلْطَانًا نَصِيرًا﴾. وقال الترمذي: حسن صحيح (٢).

وقال قتادة: ﴿وَقُلْ رَبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ﴾ يعني: المدينة ﴿وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ﴾ يعني: مكة. وكذا قال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم. وهذا القول هو أشهر الأقوال. وهو اختيار ابن جرير.

وقوله: ﴿وَاجْعَل لِي مِنْ لَدُنْكَ سُلْطَانًا نَصِيرًا﴾ قال الحسن البصري: وعده ربه لينزع عن ملك فارس، وعز فارس، وليجعلنه له، وملك الروم، وعز الروم. وقال قتادة فيها: إن نبي الله ﷺ، علم الأمانة له بهذا الأمر إلا بسلطان، فسأل سلطاناً نصيراً لكتاب الله، ولحدود الله، ولفرائض الله، ولإقامة دين الله؛ فإن السلطان رحمة من الله جعله بين أظهر عباده، ولولا ذلك لأغار بعضهم، على بعض، فأكل شديدهم ضعيفهم. قال مجاهد: ﴿سُلْطَانًا نَصِيرًا﴾: حجة بينة. واختار ابن جرير قول الحسن وقتادة، وهو الأرجح؛ لأنه لا بد مع الحق من قهر لمن عاداه وناواه؛ ولهذا يقول تعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ﴾ إلى قوله: ﴿وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ﴾ الآية [الحديد: ٢٥]، وفي الحديث: «إن الله لَيَزَعُ بالسلطان ما لا يَزَعُ بالقرآن» أي: ليمنع بالسلطان عن ارتكاب الفواحش والآثام، ما لا يمتنع كثير من الناس بالقرآن، وما فيه من الوعيد الأكيد، والتهديد الشديد، وهذا هو الواقع.

وقوله: ﴿قُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ﴾ الآية: تهديد ووعيد لكفار قريش؛ فإنه قد جاءهم من الله الحق الذي لا مرية فيه ولا قبل لهم به، وهو ما بعثه الله به من القرآن والإيمان والعلم النافع. وَزَهَقَ بِالطَّهْمِ، أي: اضمحل وهلك، فإن الباطل لا ثبات له مع الحق ولا بقاء ﴿بَلْ نَقْدِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ﴾ [الأنبياء: ٤١٨]. وروى البخاري عن عبد الله بن مسعود قال: دخل النبي ﷺ مكة وحول البيت ستون وثلاثمائة نُصْبٍ، فجعل يطعنهما يعود في يده، ويقول: ﴿جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا﴾، ﴿جَاءَ الْحَقُّ وَمَا يُبْدِي الْبَاطِلُ وَمَا يُعِيدُ﴾ [سبأ: ٤٩]. وكذا رواه البخاري أيضاً في غير هذا الموضع، ومسلم، والترمذي، والنسائي (٣).

(١) مسلم (٢٢٧٨ / ٣).

(٢) المسند (١٩٤٨) وقال الشيخ أحمد شاكر: «إسناده صحيح»، والترمذي (٣١٣٩).

(٣) البخاري (٤٧٢٠، ٤٤٧٨، ٤٢٨٧) ومسلم (١٧٨١ / ٨٧) والترمذي (٣١٣٨) والنسائي في الكبرى (١١٢٩٧).

﴿ وَنَزَّلْنَا مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا ﴾ ﴿٨٢﴾

يقول تعالى مخبراً عن كتابه الذى أنزله على رسوله محمد ﷺ - وهو القرآن - إنه: ﴿ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴾ أى: يذهب ما فى القلوب من أمراض، من شك ونفاق، وشرك وزيف وميل، فالقرآن يشفي من ذلك كله. وهو أيضاً رحمة يحصل فيها الإيمان والحكمة وطلب الخير والرغبة فيه، وليس هذا إلا لمن آمن به وصدقه واتبعه، فإنه يكون شفاء فى حقه ورحمة. وأما الكافر الظالم نفسه بذلك، فلا يزيده سماعه القرآن إلا بعداً وتكذيباً وكفراً. والآفة من الكافر لا من القرآن، كقوله تعالى: ﴿ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءً وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى أُولَٰئِكَ يُنَادُونَ مِن مَّكَانٍ بَعِيدٍ ﴾ [فصلت: ٤٤] وقال تعالى: ﴿ وَإِذَا مَا أَنزَلْنَا سُورَةً فَفَمَنَّهُمْ مَّن يَقُولُ أَكُنَّمْ زَادَتْهُ هَذِهِ إِيمَانًا فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فزَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ . وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا وَهُمْ كَافِرُونَ ﴾ [التوبة: ١٢٤، ١٢٥]. والآيات فى ذلك كثيرة. قال قتادة فى قوله: ﴿ وَنَزَّلْنَا مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴾: إذا سمعه المؤمن انتفع به وحفظه ووعاه ﴿ وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا ﴾ إنه لا ينتفع به ولا يحفظه ولا يعيه، فإن الله جعل هذا القرآن شفاء، ورحمة للمؤمنين .

﴿ وَإِذَا أَنعَمْنَا عَلَى الْإِنسَانِ أَعْرَضَ وَنَأَىٰ بِجَانِبِهِ وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ كَانَ يَتُوسَّأُ ﴾ ﴿٨٣﴾ قُلْ كُلُّ

يَعْمَلُ عَلَىٰ شَاكِلَتِهِ فَرَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَن هُوَ أَهْدَىٰ سَبِيلًا ﴾ ﴿٨٤﴾

يخبر تعالى عن نقص الإنسان من حيث هو، إلا من عصم الله تعالى فى حالته السراء والضراء فإنه إذا أنعم الله عليه بمال وعافية، وفتح ورزق ونصر، ونال ما يريد، أعرض عن طاعة الله وعبادته ﴿ وَنَأَىٰ بِجَانِبِهِ ﴾ قال مجاهد: بُعد عنا .

قلت : وهذا كقوله تعالى: ﴿ فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ غُضْرَهُ مَرَّكَانٌ لَّمْ يَدْعُنَا إِلَىٰ ضَرْمِهِ ﴾ [يونس: ١٢]، وقوله: ﴿ فَلَمَّا نَجَّأكُمْ إِلَى الْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ ﴾ [الإسراء: ٦٧].

وبأنه ﴿ إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ ﴾ وهو المصائب والحوادث والنوائب ﴿ كَانَ يَتُوسَّأُ ﴾ أى: قنط أن يعود يحصل له بعد ذلك خير ، كما قال تعالى: ﴿ وَلَئِن أَدْقَاهُ نَعْمَاءً بَعْدَ ضَرَاءٍ مَّسَتْهُ لَيَقُولُنَّ ذَهَبَ السَّيِّئَاتُ عَنِّي إِنَّهُ لَفَرِحَ فَخُورٌ . إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَٰئِكَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ﴾ [هود: ١٠، ١١].

وقوله تعالى: ﴿ قُلْ كُلُّ يَعْمَلُ عَلَىٰ شَاكِلَتِهِ ﴾ قال ابن عباس: على ناحيته. وقال مجاهد: على حدته وطبيعته. وهذه الآية - والله أعلم - تهديد للمشركين ووعيد لهم، كقوله تعالى: ﴿ وَقُلْ لِّلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ أَعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ ﴾ الآية [هود: ١٢١]؛ ولهذا قال: ﴿ قُلْ كُلُّ يَعْمَلُ عَلَىٰ شَاكِلَتِهِ فَرَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَن هُوَ أَهْدَىٰ سَبِيلًا ﴾ أى: منا ومنكم، سيجزى كل عامل بعمله، فإنه لا يخفى عليه خافية .

﴿ وَتَسْتَلُونَا عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِن أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ ﴿٨٥﴾

روى الإمام أحمد عن عبد الله - هو ابن مسعود - قال : كنت أمشى مع النبى ﷺ فى

حرث المدينة، وهو متوكئ على عسيب، فمر بقوم من اليهود، وقال بعضهم لبعض: سلوه عن الروح. وقال بعضهم: لا تسألوه. قال: فسألوه عن الروح، فقالوا: يا محمد، ما الروح؟ فما زال متوكئاً على العسيب، قال: فظننت أنه يوحى إليه، فقال: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾. فقال بعضهم لبعض: قد قلنا لكم لا تسألوه. وهكذا رواه البخاري ومسلم (١).

وهذا السياق يقتضى فيما يظهر بادی الرأي: أن هذه الآية مدنية، وأنها نزلت حين سألته اليهود عن ذلك بالمدينة، مع أن السورة كلها مكية. وقد يجاب عن هذا: بأنه قد يكون نزلت عليه بالمدينة مرة ثانية كما نزلت عليه بمكة قبل ذلك، أو أنه نزل عليه الوحي بأنه يجيبهم عما سألوه بالآية المتقدم إنزالها عليه، وهى هذه الآية: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ﴾ وما يدل على نزول هذه الآية بمكة ما رواه الإمام أحمد عن ابن عباس قال: قالت قريش لليهود: أعطونا شيئاً نسأل عنه هذا الرجل. فقالوا: سلوه عن الروح. فنزلت: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ قالوا: أوتينا علماً كثيراً، أوتينا التوراة، ومن أوتى التوراة فقد أوتى خيراً كثيراً. قال: وأنزل الله: ﴿قُلْ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لِكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفَدَ الْبَحْرُ﴾ الآية [الكهف: ١٠٩] (٢). وقد اختلف المفسرون فى المراد بالروح ههنا على أقوال: أحدها: أن المراد: أرواح بنى آدم. وقيل: المراد بالروح ههنا: جبريل. قاله قتادة. وقيل: المراد به ههنا: ملك عظيم بقدر المخلوقات كلها.

وقوله: ﴿قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي﴾ أى: من شأنه، وما استأثر بعلمه دونكم؛ ولهذا قال: ﴿وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ أى: وما أطلعكم من علمه إلا على القليل، فإنه لا يحيط أحد بشيء من علمه إلا بما شاء تبارك وتعالى. والمعنى: أن علمكم فى علم الله قليل، وهذا الذى تسألون عنه من أمر الروح مما استأثر به تعالى، ولم يطلعكم عليه، كما أنه لم يطلعكم إلا على القليل من علمه تعالى؛ ولهذا قال تبارك وتعالى: ﴿وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾. ذكر السهيلي الخلاف بين العلماء فى أن الروح هى النفس، أو غيرها، وقرر أنها ذات لطيفة كالهواء، سارية فى الجسد كسريان الماء فى عروق الشجر. وقرر أن الروح التى ينفخها الملك فى الجنين هى النفس بشرط اتصالها بالبدن، واكتسابها بسببه صفات مدح أو ذم، فهى إما نفس مطمئنة أو أمارة بالسوء. قال: كما أن الماء هو حياة الشجر، ثم يكسب بسبب اختلاطه معها اسماً خاصاً، فإذا اتصل بالعنبة وعصر منها صار ماء مُصْطَرَّاراً أو خمراً، ولا يقال له: «ماء» حيثنذ إلا على سبيل المجاز، وهكذا لا يقال للنفس: «روح» إلا على هذا النحو، وكذلك لا يقال للروح: نفس إلا باعتبار ما تؤول إليه. فحاصل ما نقول: إن الروح هى أسل النفس ومادتها، والنفس مركبة منها ومن اتصالها بالبدن، فهى هى من وجه لا من كل وجه. وهذا معنى حسن، والله أعلم.

(١) المسند (٣٦٨٨) والبخارى (١٢٥، ٧٤٦٢) ومسلم (٢٧٩٤/ ٣٢).

(٢) المسند (٢٣٠٩) وقال الشيخ أحمد شاكر: «إسناده صحيح».

قلت: وقد تكلم الناس في ماهية الروح وأحكامها وصفنوا في ذلك كتباً. ومن أحسن من تكلم على ذلك الحافظ ابن منده، في كتاب سمعناه في: الروح.

﴿ وَلَئِن شِئْنَا لَنُدْهَبَنَّ بِالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ ثُمَّ لَا يَجِدُ لَكَ بِهِ عَلَيْنَا وَكِيلًا ﴿٨٦﴾
 ﴿ إِلَّا رَحْمَةً مِن رَّبِّكَ إِنَّ فَضْلَهُ كَانَ عَلَيْكَ كَئِيدًا ﴿٨٧﴾ قُلْ لَّيْنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ
 أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴿٨٨﴾ وَلَقَدْ
 صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِن كُلِّ مَثَلٍ فَأَبَى أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كُفُورًا ﴿٨٩﴾ ﴾

يذكر تعالى نعمته وفضله العظيم على عبده ورسوله الكريم، فيما أوحاه إليه من القرآن المجيد، الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، تنزيل من حكيم حميد. ثم نبه تعالى على شرف هذا القرآن العظيم، فأخبر أنه لو اجتمعت الإنس والجن كلهم، واتفقوا على أن يأتوا بمثل ما أنزله على رسوله، لما أطاقوا ذلك ولما استطاعوه، ولو تعاونوا وتساعدوا وتظافروا، فإن هذا أمر لا يستطيع، وكيف يشبه كلام المخلوقين كلام الخالق، الذي لا نظير له، ولا مثال له، ولا عديل له؟!

وقوله: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ﴾ الآية ، أي: بينا لهم الحجج والبراهين القاطعة، ووضحنا لهم الحق وشرحنه وبسطناه، ومع هذا ﴿فَأَبَى أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كُفُورًا﴾ أي: جحوداً ورداً للصواب.

﴿ وَقَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَبُوعًا ﴿٩٠﴾ أَوْ تَكُونَ لَكَ
 جَنَّةٌ مِّن تَحْتِهَا نَاجِيَةٌ فَتُنْفِجِرَ الْأَنْهَارَ حِثْلَهَا تَفْجِيرًا ﴿٩١﴾ أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا
 زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسْفًا أَوْ تَأْتِي بِنُورٍ بِاللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ قِيْلًا ﴿٩٢﴾ أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن
 زُخْرَفٍ أَوْ تَرْفَىٰ فِي السَّمَاءِ وَلَنْ نُؤْمِنَ لِرُفَيْدِكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَقْرُؤُهُ قُلْ سُبْحَانَ
 رَبِّي هَلْ كُنْتُ إِلَّا بَشَرًا رَسُولًا ﴿٩٣﴾ ﴾

قال ابن جرير عن عكرمة، عن ابن عباس: أن عتبة وشيبة ابني ربيعة، وأبا سفيان بن حرب، ورجلاً من بني عبد الدار، وأبا البختري أخا بني أسد، والأسود بن المطلب بن أسد، وزمعة بن الأسود، والوليد بن المغيرة، وأبا جهل بن هشام، وعبد الله بن أبي أمية، وأمية بن خلف، والعاص بن وائل، وثبيها ومنبها ابني الحجاج السهميين، اجتمعوا، أو: من اجتمع منهم، بعد غروب الشمس عند ظهر الكعبة، فقال بعضهم لبعض: ابعثوا إلى محمد فكلموه وخاصموه حتى تعذروا فيه. فبعثوا إليه: أن أشرف قومك قد اجتمعوا لك ليكلموك. فجاءهم رسول الله ﷺ سريعاً وهو يظن أنه قد بدا لهم في أمره بداء، وكان عليهم حريصاً، يحب رشدهم، ويعز عليه عنتهم، حتى جلس إليهم، فقالوا: يا محمد، إنا قد بعثنا إليك لنُعذَرَ فِئِكَ، وإنا والله ما نعلم رجلاً من العرب أدخل على قومه ما أدخلت على قومك! لقد شتمت الآباء،

وعبتَ الدين، وسفَّهتَ الأحلام، وشتمتَ الآلهة، وفرقتَ الجماعة، فما بقى من أمر قبيح إلا وقد جثته فيما بيننا وبينك! فإن كنت إنما جئت بهذا الحديث تطلب به مالا، جمعنا لك من أموالنا حتى تكون أكثرنا مالا، وإن كنت إنما تطلب الشرف فينا، سوّدناك علينا، وإن كنت تريد ملكاً ملكناك علينا، وإن كان هذا الذي يأتيك بما يأتيك ريثاً تراه قد غلب عليك - وكانوا يسمون التابع من الجن: الرئي - فربما كان ذلك، بذلنا أموالنا في طلب الطب، حتى نبرئك منه، أو نُعذّر فيك. فقال رسول الله ﷺ: «ما بى ما تقولون، ما جئتكم بما جئتكم به أطلب أموالكم، ولا الشرف فيكم، ولا الملك عليكم، ولكن بعثنى الله إليكم رسولا، وأنزل على كتاباً، وأمرنى أن أكون لكم بشيراً ونذيراً، فبلغتكم رسالة ربي، ونصحت لكم، فإن تقبلوا منى ما جئتكم به، فهو حظكم في الدنيا والآخرة، وإن تردّوه علىّ أصبر لأمر الله، حتى يحكم الله بينى وبينكم». أو كما قال رسول الله ﷺ تسليماً.

فقالوا: يا محمد، فإن كنت غير قابل منا ما عرضنا عليك، فقد علمت أنه ليس أحد من الناس أضيّق منا بلاداً، ولا أقل مالا، ولا أشدّ عيشاً منا، فاسأل لنا ربك الذي بعثك بما بعثك به، فليسير عنا هذه الجبال التي قد ضيّقت علينا، وليسّط لنا بلادنا، وليفجّر فيها أنهاراً كأنهار الشام والعراق، وليبعث لنا من مضى من آبائنا، وليكن فيمن يبعث لنا قصى بن كلاب، فإنه كان شيخاً صدوقاً، فنسألهم عما تقول، حق هو أم باطل؟ فإن صنعت ما سألناك وصدقك، صدقتك، وعرفنا منزلتك عند الله، وأنه بعثك رسولا كما تقول! فقال لهم رسول الله ﷺ: «ما بهذا بعثت، إنما جئتكم من عند الله بما بعثنى به، فقد بلغتكم ما أرسلت به، فإن تقبلوه فهو حظكم في الدنيا والآخرة، وإن تردّوه علىّ أصبر لأمر الله، حتى يحكم الله بينى وبينكم».

قالوا: فإن لم تفعل لنا هذا فخذ لنفسك، فاسأل ربك أن يبعث ملكاً يصدقك بما تقول ويراجعنا عنك، وتساله فيجعل لك جناناً، وكنوزاً وقصوراً من ذهب وفضة، ويغنيك بها عما نراك تبتغى، فإنك تقوم بالأسواق، وتلتمس المعاش كما نلتمسه، حتى نعرف فضل منزلتك من ربك، إن كنت رسولا كما تزعم. فقال لهم رسول الله ﷺ: «ما أنا بفاعل، ما أنا بالذي يسأل ربه هذا، وما بعثت إليكم بهذا، ولكن الله بعثنى بشيراً ونذيراً، فإن تقبلوا ما جئتكم به فهو حظكم في الدنيا والآخرة، وإن تردّوه علىّ أصبر لأمر الله حتى يحكم الله بينى وبينكم».

قالوا: فأسقط السماء، كما زعمت أن ربك إن شاء فعل ذلك، فإننا لن نؤمن لك إلا أن تفعل. فقال لهم رسول الله ﷺ: «ذلك إلى الله إن شاء فعل بكم ذلك». فقالوا: يا محمد، أما علم ربك أنا سنجلس معك، ونسألك عما سألناك عنه، ونطلب منك ما نطلب فيقدم إليك ويعلمك ما تراجعنا به، ويخبرك ما هو صانع في ذلك بنا، إذا لم نقبل منك ما جئتنا به، فقد بلغنا أنه إنما يعلمك هذا رجل باليمامة، يقال له: الرحمن، وأنا والله لا نؤمن بالرحمن أبداً، فقد أعذرتنا إليك يا محمد، أما والله لا نتركك وما فعلت بنا حتى نهلكك أو تهلكنا. وقال

قائلهم: نحن نعبد الملائكة وهى بنات الله. وقال قائلهم: لن نؤمن لك حتى تأتى بالله والملائكة قبيلاً.

فلما قالوا ذلك قام رسول الله ﷺ عنهم، وقام معه عبد الله بن أبى أمية بن المغيرة بن عبد الله بن عمر بن مخزوم، وهو ابن عمته، ابن عاتكة ابنة عبد المطلب، فقال: يا محمد، عرض عليك قومك ماعرضوا، فلم تقبله منهم، ثم سألوك لأنفسهم أموراً ليعرفوا بها منزلتك من الله، فلم تفعل ذلك، ثم سألوك أن تعجل لهم ما تخوفهم به من العذاب، فوالله لا أؤمن بك أبداً حتى تتخذ إلى السماء سلماً، ثم ترقى فيه، وأنا أنظر حتى تأتيها، وتأتى معك بنسخة منشورة، معك أربعة من الملائكة، يشهدون أنك كما تقول. وإيم الله، لو فعلت ذلك لظننت أنى لا أصدقك. ثم انصرف عن رسول الله ﷺ، وانصرف رسول الله ﷺ إلى أهله حزياً أسفاً لما فاتته، مما كان طمع فيه من قومه حين دعوه، ولما رأى من مبادعتهم إياه. وهكذا رواه زياد بن عبد الله البكائي عن سعيد بن جبير وعكرمة، عن ابن عباس، فذكر مثله سواء.

وهذا المجلس الذى اجتمع هؤلاء له، لو علم الله منهم أنهم يسألون ذلك استرشاداً لأجيبوا إليه، ولكن علم أنهم إنما يطلبون ذلك كفراً وعناداً، فقبل للرسول: إن شئت أعطيناهم ما سألوا فإن كفروا عذبتهم عذاباً لا أعذبه أحداً من العالمين، وإن شئت فتحت عليهم باب التوبة والرحمة، فقال: «بل تفتح عليهم باب التوبة والرحمة» كما تقدم ذلك عند قوله تعالى: ﴿وَمَا مَنَعَنَا أَنْ نُرْسِلَ بِالْآيَاتِ إِلَّا أَنْ كَذَّبَ بِهَا الْأَوَّلُونَ وَآتَيْنَا ثَمُودَ مُبْصِرَةً فَلَطَمُوا بِهَا وَمَا نُرْسِلُ بِالْآيَاتِ إِلَّا تَخْوِيفًا﴾ [الإسراء: ٥٩]. وقال تعالى: ﴿وَقَالُوا مَا لِهَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ لَوْلَا أَنْزَلَ إِلَهُهُ مَلَكٌ فَيَكُونُ مَعَهُ نَذِيرًا . أَوْ يُلْقَى إِلَيْهِ كَنزٌ أَوْ تَكْوِينٌ لَهُ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا وَقَالَ الظَّالِمُونَ إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مُسْحُورًا . انظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثَالَ فَضَلُّوا فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا . تَبَارَكَ الَّذِي إِنْ شَاءَ جَعَلَ لَكَ خَيْرًا مِنْ ذَلِكَ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَيَجْعَلُ لَكَ قُصُورًا . بَلْ كَذَّبُوا بِالسَّاعَةِ وَأَعْتَدْنَا لِمَنْ كَذَّبَ بِالسَّاعَةِ سَعِيرًا﴾ [الفرقان: ٧-١١].

وقوله تعالى: ﴿حَتَّى تَفْجُرْنَا مِنَ الْأَرْضِ يَتَّبِعَا﴾ [الينبوع: العين الجارية، سألوه أن يجرى لهم عينونا معيناً فى أرض الحجاز ههنا وههنا، وذلك سهل يسير على الله تعالى، لو شاء لفعله ولاجابههم إلى جميع ما سألوا وطلبوا، ولكن علم أنهم لا يهتدون، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ الدِّينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ . وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّى يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ﴾ [يونس: ٩٦، ٩٧]، وقوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّا نَزَّلْنَا إِلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ الْمَوْتَى وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قَبِلًا مَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا﴾ [الآية [الانعام: ١١١].

وقوله تعالى ﴿أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتَ﴾ [الأنعام: ٣٢]: أى: أنك وعدتنا أن يوم القيامة تنشق فيه السماء وتهى، وتدلى أطرافها، فعجل ذلك فى الدنيا، وأسقطها كسفاً، أى: قطعاً، كقولهم: ﴿اللَّهُمَّ إِنْ كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَابَةً مِنَ السَّمَاءِ﴾ [الأنعام: ٣٢]، وكذلك سأل قوم شعيب

منه فقالوا: ﴿أَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسْفًا مِّنَ السَّمَاءِ إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ [الشعراء: ١٨٧]. فعاقبهم الرب بعذاب يوم الظلة، إنه كان عذاب يوم عظيم. وأما نبي الرحمة، ونبي التوبة المبعوث رحمة للعالمين، فسأل إنظارهم وتأجيلهم، لعل الله أن يخرج من أصلابهم من يعيده لا يشرك به شيئاً. وكذلك وقع، فإن من هؤلاء الذين ذكروا من أسلم بعد ذلك وحسن إسلامه حتى «عبد الله بن أبي أمية» الذي تبع النبي ﷺ وقال له ما قال، أسلم إسلاماً تاماً، وأتاب إلى الله عز وجل .

﴿أَوْ يَكُونُ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُرُوفٍ﴾ قال ابن عباس، ومجاهد، وقتادة: هو الذهب. ﴿أَوْ تَرَقَّى فِي السَّمَاءِ﴾ أى: تصعد فى سلم ونحن ننظر إليك ﴿وَلَنْ نُؤْمِنَ لِرُوقِكَ حَتَّى تُنزِلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَقْرُؤُهُ﴾ قال مجاهد: أى مكتوب فيه إلى كل واحد واحد صحيفة: هذا كتاب من الله لفلان ابن فلان، تصيح موضوعة عند رأسه. وقوله تعالى: ﴿سُبْحَانَ رَبِّيَ هَلْ كُنْتُ إِلَّا بَشَرًا رَسُولًا﴾ أى: سبحانه وتعالى وتقدس أن يتقدم أحد بين يديه فى أمر من أمور سلطانه وملكوته، بل هو الفعال لما يشاء، إن شاء أجابكم إلى ما سألتهم، وإن شاء لم يجيبكم، وما أنا إلا رسول إليكم أبلغكم رسالات ربي وأنصح لكم، وقد فعلت ذلك، وأمركم فيما سألتهم إلى الله عز وجل .

﴿وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَىٰ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَبَعَثَ اللَّهُ بَشَرًا رَسُولًا﴾ ﴿١٤﴾ قُلْ لَوْ كَانَتْ فِي الْأَرْضِ مَلَائِكَةٌ يُمَسِّحُونَ مِطْمَئِنِينَ لَنَزَلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ السَّمَاءِ مَلَكَاتٍ رَسُولًا ﴿١٥﴾

يقول تعالى: ﴿وَمَا مَنَعَ النَّاسَ﴾ أى: أكثرهم ﴿أَنْ يُؤْمِنُوا﴾ ويتابعوا الرسل، إلا استعجابهم من البشر رسلاً، كما قال تعالى: ﴿أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَى رَجُلٍ مِّنْهُمْ أَنْ أَنذِرِ النَّاسَ وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ [يونس: ٢]، وقال تعالى: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُ كَانَتْ تَأْتِيهِمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَقَالُوا أَبَشَرًا يَهُدُونَنَا﴾ [التخاين: ٦]؟ وقال فرعون وملؤه: ﴿أَنزُلْنَا لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا وَقَوْمُهُمَا لَنَا عَابِدُونَ﴾ [المؤمنون: ٤٧]؟ وكذلك قالت الأمم لرسولهم: ﴿إِن أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا تُرِيدُونَ أَنْ تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا فَأْتُونَا بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ﴾ [إبراهيم: ١٠]، والآيات فى هذا كثيرة.

ثم قال تعالى منبهاً على لطفه ورحمته بعباده: أنه يبعث إليهم الرسول من جنسهم، ليفقهوا عنه ويفهموا منه، لتمكنهم من مخاطبته ومكالمته، ولو بعث إلى البشر رسولا من الملائكة لما استطاعوا مواجهته ولا الأخذ عنه، كما قال تعالى: ﴿لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ﴾ [آل عمران: ١٦٤]، وقال تعالى: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ﴾ [التوبة: ١٢٨]، وقال تعالى: ﴿كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِّنكُمْ يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ. فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُونِ﴾ [البقرة: ١٥١، ١٥٢]؛ ولهذا قال ههنا: ﴿لَوْ كَانَتْ فِي الْأَرْضِ مَلَائِكَةٌ يُمَسِّحُونَ مِطْمَئِنِينَ﴾ أى: كما أنتم فيها ﴿لَنَزَلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ السَّمَاءِ مَلَكَاتٍ رَسُولًا﴾ أى: من جنسهم، ولما كنتم أنتم بشراً، بعثنا فيكم رسلاً منكم لطفاً ورحمة.

﴿ قُلْ كَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ إِنَّكُمْ كَانْتُمْ بِعِبَادِهِ خَيْرًا بَصِيرًا ﴾ ﴿٩٦﴾

يقول تعالى مرشداً نبيه ﷺ إلى الحجّة على قومه، في صدق ما جاءهم به: أنه شاهد علىّ وعليكم، عالم بما جتكم به، فلو كنت كاذباً عليه انتقم مني أشد الانتقام، كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الْأَقَاوِيلِ . لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ . ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ﴾ [الحاقة: ٤٤ - ٤٦]. وقوله: ﴿إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَيْرًا بَصِيرًا﴾ أي: عليهم بهم بمن يستحق الإنعام والإحسان والهداية، ممن يستحق الشقاء والإضلال والإزاعة؛ ولهذا قال:

﴿ وَمَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَنْ يُضِلِّ فَلَنْ تَجِدَ لَهُمْ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِهِ يُنصِرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ عُمِيَٰ وَبِكُمَا وَصَمًا مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَاهُمْ سَعِيرًا ﴾ ﴿٩٧﴾

يقول تعالى مخبراً عن تصرفه في خلقه، ونفوذ حكمه، وأنه لا معقب له، بأنه من يهده فلا مضلّ له ﴿وَمَنْ يُضِلِّ فَلَنْ تَجِدَ لَهُمْ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِهِ﴾ أي: يهدونهم، كما قال: ﴿مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَنْ يُضِلِّ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ وَلِيًّا مُرْسِدًا﴾ [الكهف: ١٧].

وقوله: ﴿وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ﴾ روى الإمام أحمد عن أنس بن مالك قال: قيل: يا رسول الله، كيف يحشر الناس على وجوههم؟ قال: «الذي أمشاهم على أرجلهم قادر على أن يشبههم على وجوههم». وأخرجاه في الصحيحين^(١). وقوله: ﴿عُمِيَٰ وَبِكُمَا﴾ أي: لا يبصرون ﴿وَبِكُمَا﴾ يعني: لا ينطقون ﴿وَصَمًا﴾ أي: لا يسمعون. وهذا يكون في حال دون حال جزاء لهم كما كانوا في الدنيا بكماً وعمياً وصماً عن الحق فجزوا في محشرهم بذلك أحوج ما يحتاجون إليه ﴿مَأْوَاهُمْ﴾ أي: منقلبهم ومصيرهم ﴿جَهَنَّمُ كُلَّمَا خَبَتْ﴾ قال ابن عباس: سكنت. وقال مجاهد: طفت ﴿زِدْنَاهُمْ سَعِيرًا﴾ أي: لهاً ووهجاً وجمراً، كما قال: ﴿فَلْدُقُوا فَلَنْ نُزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا﴾ [النبا: ٣٠].

﴿ ذَٰلِكَ جَزَاءُهُمْ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا وَقَالُوا أَإِذَا كُنَّا عِظْمًا وَرَفَتًا أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا ﴾ ﴿٩٨﴾ ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ قَادِرٌ عَلَىٰ أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ وَجَعَلَ لَهُمْ أَجَلًا لَا رَيْبَ فِيهِ فَأَبَى الظَّالِمُونَ إِلَّا كُفُورًا ﴾ ﴿٩٩﴾

يقول تعالى: هذا الذي جازيناهم به، من البعث على العمى والبكم والصمم، جزاؤهم الذي يستحقونه؛ لأنهم كذبوا ﴿بِآيَاتِنَا﴾ أي: بأدلتنا وحججنا، واستبعدوا وقسوع البعث ﴿وَقَالُوا أَإِذَا كُنَّا عِظْمًا وَرَفَاتًا﴾ أي: بالية نخرة ﴿أِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا﴾ أي: بعد ما صرنا إلى ما صرنا إليه من البلى والهلاك، والفرق والذهاب في الأرض نعاد مرة ثانية؟. فاحتج تعالى

عليهم، ونبيهم على قدرته على ذلك، بأنه خلق السموات والأرض، فقدرته على إعادتهم أسهل من ذلك كما قال: ﴿لَخَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ﴾ [غافر: ٥٧]. وقال: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَمْ يَعْزُبْ عَنْهُمُ خَلْقُهُمْ بَقَادِرٍ عَلَىٰ أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتَىٰ﴾ [الاحقاف: ٢٣]، وقال: ﴿أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ بَلَىٰ وَهُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ . إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ إلى آخر السورة [يس: ٨١، ٨٢]. وقال ههنا: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ قَادِرٌ عَلَىٰ أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ﴾ أي: يوم القيامة يعيد أبدانهم وينشئهم نشأة أخرى كما بدأهم.

وقوله: ﴿وَجَعَلْ لَهُمْ أَجَلًا لَّا رَيْبَ فِيهِ﴾ أي: جعل لإعادتهم وإقامتهم من قبورهم أجلاً مضروباً ومدة مقدرة لا بد من انقضائها، كما قال تعالى: ﴿وَمَا نُؤَخِّرُهُ إِلَّا لِأَجَلٍ مُّعَدَّدٍ﴾ [هود: ١٠٤]. وقوله: ﴿فَأَبَى الظَّالِمُونَ﴾ أي: بعد قيام الحجة عليهم ﴿إِلَّا كُفُورًا﴾: إلا تمادياً في باطلهم وضلالهم.

﴿ قُلْ لَوْ أَنْتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَائِنَ رَحْمَةِ رَبِّي إِذًا لَأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ الْإِنْفَاقِ وَكَانَ الْإِنْسَانُ قَتُورًا ﴾

يقول تعالى لرسوله ﷺ: قل لهم يا محمد: لو أنكم - أيها الناس - تملكون التصرف في خزائن الله، لأمسكتم خشية الإنفاق. أي الفقر، أي: خشية أن تذهبوا، مع أنها لا تفرغ ولا تنفذ أبداً؛ لأن هذا من طباعكم وسجاياكم؛ ولهذا قال: ﴿وَكَانَ الْإِنْسَانُ قَتُورًا﴾ أي: بخيلاً منوعاً. وقال الله تعالى: ﴿أَمْ لَهُمْ نَصِيبٌ مِنَ الْمُلْكِ فَإِذَا لَا يُؤْتُونَ النَّاسَ نَقِيرًا﴾ [النساء: ٥٣] أي: لو أن لهم نصيباً في ملك الله لما أعطوا أحداً شيئاً، ولا مقدار نقير، والله تعالى يصف الإنسان من حيث هو، إلا من وفقه الله وهداه؛ فإن البخل والجزع والهلع صفة له، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ خَلِيقٌ هَلُوعٌ . إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا . وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا . إِلَّا الْمُصَلِّينَ﴾ [المعارج: ١٩ - ٢٢]. ولهذا نظائر كثيرة في القرآن العزيز، ويدل هذا على كرمه وجوده وإحسانه، وقد جاء في الصحيحين: «يد الله ملأى لا يعقبها نفقة، سحاء الليل والنهار، أرأيتم ما أنفق منذ خلق السموات والأرض فإنه لم يغض ما في يمينه» (١).

﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَىٰ تِسْعَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ فَسْتَلَّ بَنِي إِسْرَائِيلَ إِذْ جَاءَهُمْ فَقَالَ لَهُ فِرْعَوْنُ إِنِّي لَأَظُنُّكَ يَمُوسَىٰ مَسْحُورًا ﴾ [١٣] قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَمَا أَنْزَلَ هَٰؤُلَاءِ إِلَّا رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ بِصَابِرٍ وَإِنِّي لَأَظُنُّكَ بِفِرْعَوْنٍ مُّشْبُورًا ﴾ [١٤] فَأَرَادَ أَنْ يَنْتَقِزَهُمْ مِنَ الْأَرْضِ فَأَعْرَقْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ جَمِيعًا ﴾ [١٥] وَقُلْنَا مِنْ بَعْدِهِ لِبَنِي إِسْرَائِيلَ اسْكُنُوا الْأَرْضَ فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفًا ﴾ [١٦]

يخبر تعالى أنه بعث موسى بتسع آيات بينات، وهي الدلائل القاطعة على صحة نبوته

وصدقه فيما أخبر به عمن أرسله إلى فرعون، وهى: العصا، واليد، والسنين، والبحر، والطوفان، والجراد، والقمل، والضفادع، والدم، آيات مفصلات . وهذا القول ظاهر جلى حسن قوى. أى: ومع هذه الآيات ومشاهدتهم لها، كفروا بها وجحدوا بها، واستيقنتها أنفسهم ظلماً وعلواً، وما نجحت فيهم، فكَذَلِكَ لو أجبنا هؤلاء الذين سألوا منك ما سألوا، وقالوا: ﴿لَنْ نُؤْمِنَ بِكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَبُوعًا﴾ [الإسراء: ٩٠] إلى آخرها، لما استجابوا ولا آمنوا إلا أن يشاء الله، كما قال فرعون لموسى - وقد شاهد منه ما شاهد من هذه الآيات: ﴿إِنِّي لَأَظُنُّكَ يَا مُوسَىٰ مَسْحُورًا﴾ قيل: بمعنى ساحر. والله تعالى أعلم. فهذه الآيات التسع التى ذكرها هؤلاء الأئمة هى المرادة ههنا، وهى المعنية فى قوله تعالى: ﴿وَأَلْقِ عَصَاكَ فَلَمَّا رَآهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ وَلَّى مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ يَا مُوسَىٰ لَا تَخَفْ﴾ إلى قوله: ﴿فِي تِسْعِ آيَاتٍ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ﴾ [النمل: ١٠ - ١٢]. فذكر هاتين الآيتين: العصا واليد، وبين الآيات الباقيات فى «سورة الأعراف» وفصلها.

وقد أوتى موسى، عليه السلام، آيات أخر كثيرة، منها ضربهُ الحجر بالعصا، وخروج الماء منه، ومنها تظليلهم بالغمام، وإنزال المن والسلوى، وغير ذلك مما أوتوه بنو إسرائيل بعد مفارقتهم بلاد مصر، ولكن ذكر ههنا التسع الآيات التى شاهدها فرعون وقومه من أهل مصر، فكانت حجة عليهم فخالفوها وعاندوها كُفْرًا وجحودًا. ولهذا قال موسى لفرعون: ﴿لَقَدْ عَلِمْتُمَا أَنزَلَ هَؤُلَاءِ إِلَّا رَبَّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ بِصَآئِرٍ﴾ أى: حججاً وأدلة على صدق ما جئتكم به ﴿وَإِنِّي لَأَظُنُّكَ يَا فِرْعَوْنُ مَثْبُورًا﴾ أى: هالكاً، قاله مجاهد وقتادة . وقال ابن عباس : ملعوناً . وقال أيضاً هو والضحاك : مغلوباً . والهالك يشمل هذا كله .

وقوله: ﴿فَأَرَادَ أَنْ يَنْتَفِرَ مِنْ الْأَرْضِ﴾ أى: يخليهم منها ويزيلهم عنها ﴿فَأَغْرَقْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ جَمِيعًا . وَقُلْنَا مِنْ بَعْدِهِ لِبَنِي إِسْرَائِيلَ اسْكُنُوا الْأَرْضَ﴾ وفى هذا بشارة لمحمد ﷺ بفتح مكة مع أن السورة مكية نزلت قبل الهجرة، وكذلك وقع؛ فإن أهل مكة هموا بإخراج الرسول منها، كما قال تعالى: ﴿وَأِنْ كَادُوا لَيَسْتَفْرِزُونَكَ مِنَ الْأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا﴾ [الإسراء: ٧٦، ٧٧]؛ ولهذا أورث الله رسوله مكة، فدخلها عنوة على أشهر القولين، وقهر أهلها، ثم أطلقهم حلماً وكرماً، كما أورث الله القوم الذين كانوا يستضعفون من بنى إسرائيل مشارق الأرض ومغاربها، وأورثهم بلاد فرعون وأموالهم وزروعهم وثمارهم وكنوزهم، كما قال: ﴿كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا بنى إِسْرَائِيلَ﴾ [الشعراء: ٥٩] وقال ههنا: ﴿وَقُلْنَا مِنْ بَعْدِهِ لِبَنِي إِسْرَائِيلَ اسْكُنُوا الْأَرْضَ فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفًا﴾ أى: جميعاً، أى: جميعكم أنتم وعدوكم.

﴿وَالْحَقُّ أَنزَلْنَاهُ بِالْحَقِّ نَزْلًا وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا﴾ ﴿١٠٥﴾ ﴿وَقَرَأْنَا لَهُ آيَاتِنَا بِالْقُرْآنِ وَالْحَقُّ أَنزَلْنَاهُ بِالْحَقِّ نَزْلًا وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا﴾ ﴿١٠٦﴾

يقول تعالى مخبراً عن كتابه العزيز، وهو القرآن المجيد، أنه بالحق نزل، أى: متضمناً للحق، كما قال تعالى: ﴿لَكِنَّ اللَّهَ يَشْهَدُ بِمَا أَنْزَلَ إِلَيْكَ أَنْزَلَهُ بِعِلْمِهِ﴾ [النساء: ١٦٦] أى: متضمناً علم

الله الذي أراد أن يُطَلِّعَكُم عليه، من أحكامه وأمره ونهيه.

وقوله: ﴿وَبِالْحَقِّ نَزَّلَ﴾ أي: ونزل إليك - يا محمد - محفوظاً محروساً، لم يُشَبَّ بغيره، ولا زيدَ فيه ولا نُقص منه، بل وصل إليك بالحق، فإنه نزل به شديد القوى، الأمين المكين المطاع في الملاء الأعلى. وقوله: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ﴾ أي: يا محمد ﴿إِلَّا مُبَشِّرًا﴾ لمن أطاعك من المؤمنين ﴿وَنَذِيرًا﴾ لمن عصاك من الكافرين. وقوله: ﴿وَقَرَأْنَا فَرَقَانَهُ﴾ معناه: فصلناه من اللوح المحفوظ إلى بيت العزة من السماء الدنيا، ثم نزل مُفرقاً منجماً على الوقائع إلى رسول الله ﷺ في ثلاث وعشرين سنة. قاله ابن عباس. ﴿لَتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ﴾ أي: لتبلغه الناس وتتلوه عليهم ﴿عَلَى مَكَّةَ﴾ أي: مهَلْ ﴿وَنَزَّلْنَاهُ تَنْزِيلًا﴾ أي: شيئاً بعد شيء.

﴿قُلْ ءَأَمِنُوا بِهِمْ أَوْ لَا تُوْمِنُوْا إِنَّ الَّذِيْنَ أُوْتُوْا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهِۦ إِذَا يُنۡسَلٰى عَلَيْهِمْ يَخِرُّوْنَ لِلۡأَذْقَانِ سَجْدًا ۝۱٠٧ وَيَقُوْلُوْنَ سُبْحٰنَ رَبِّنَاۤ اِنْ كَان وَعَدُّ رَبِّنَاۤ لَمَفْعُوْلًا ۝۱٠٨ وَيَخِرُّوْنَ لِلۡأَذْقَانِ يَبْكُوْنَ وَيَزِيْدُهُمْ خُشُوْعًا ۝۱٠٩﴾

سجدة

يقول تعالى لنبية محمد ﷺ: ﴿قُلْ﴾ يا محمد لهؤلاء الكافرين بما جنتهم به من هذا القرآن العظيم: ﴿ءَأَمِنُوا بِهِ أَوْ لَا تُؤْمِنُوا﴾ أي: سواء أمتم به أم لا، هو حق في نفسه، أنزله الله ونوه بذكره في سالف الأزمان في كتبه المنزلة على رسله؛ ولهذا قال: ﴿إِنَّ الَّذِيْنَ أُوْتُوْا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهِ﴾ أي: من صالحى أهل الكتاب الذين تمسكوا بكتابهم وقيمونه، ولم يبدلوه ولا حرفوه ﴿إِذَا يُنۡسَلٰى عَلَيْهِمْ﴾ هذا القرآن ﴿يَخِرُّوْنَ لِلۡأَذْقَانِ﴾ جمع ذقن، وهو أسفل الوجه ﴿سَجْدًا﴾ أي: لله، عز وجل، شكرًا على ما أنعم به عليهم، من جعله إياهم أهلاً، إن أدركوا هذا الرسول الذى أنزل عليه الكتاب؛ ولهذا يقولون: ﴿سُبْحٰنَ رَبِّنَا﴾ أي: تعظيماً وتوقيراً على قدرته التامة، وأنه لا يخلف الميعاد الذى وعدهم على السنة الأنبياء المتقدمين عن بعثة محمد ﷺ؛ ولهذا قالوا: ﴿سُبْحٰنَ رَبِّنَاۤ اِنْ كَان وَعَدُّ رَبِّنَاۤ لَمَفْعُوْلًا﴾.

وقوله: ﴿وَيَخِرُّوْنَ لِلۡأَذْقَانِ يَبْكُوْنَ﴾ أي: خضوعاً لله عز وجل وإيماناً وتصديقاً بكتابه ورسوله، ﴿وَيَزِيْدُهُمْ خُشُوْعًا﴾ أي: إيماناً وتسليماً كما قال: ﴿وَالَّذِيْنَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآثَامَهُمْ تَقْوَاهُمْ﴾ [محمد: ١٧].

﴿قُلِ ادْعُوا اللّٰهَ اَوْ ادْعُوا الرَّحْمٰنَ اَيًّا مَا تَدْعُوْا فَلَهُ الْاَسْمَاءُ الْحُسْنٰى وَلَا يَجْهَرَنَّ بِصَلٰتِكَ وَلَا خُفٰتٍ بِهَا وَابْتَغْ بَيْنَ ذٰلِكَ سَبِيْلًا ۝۱١٠ وَقُلِ الْحَمْدُ لِلّٰهِ الَّذِيْ لَمْ يَخْذَلْنَا وَاَنْتُمْ تَكْفُرُوْنَ ۝۱١١﴾

يقول تعالى: قل يا محمد لهؤلاء المشركين المنكرين صفة الرحمن لله، عز وجل، المانعين من تسميته بالرحمن: ﴿ادْعُوا اللّٰهَ اَوْ ادْعُوا الرَّحْمٰنَ اَيًّا مَا تَدْعُوْا فَلَهُ الْاَسْمَاءُ الْحُسْنٰى﴾ أي: لا فرق بين

دعائكم له باسم «الله» أو باسم «الرحمن»، فإنه ذو الأسماء الحسنی، كما قال تعالى: ﴿هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ﴾ إلى أن قال: ﴿لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ يُسَبِّحُ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ الآية [الحشر: ٢٢ - ٢٤].

وقوله: ﴿وَلَا تَجْهَرُ بِصَلَاتِكَ﴾ الآية، روى الإمام أحمد عن ابن عباس قال: نزلت هذه الآية وهو متوار بمكة ﴿وَلَا تَجْهَرُ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتُ بِهَا﴾ قال: كان إذا صلى بأصحابه رفع صوته بالقرآن، فلما سمع ذلك المشركون سبوا القرآن، وسبوا من أنزله، ومن جاء به. قال: فقال الله تعالى لنبيه ﷺ: ﴿وَلَا تَجْهَرُ بِصَلَاتِكَ﴾ أى: بقراءتك فيسمع المشركون فيسبون القرآن ﴿وَلَا تُخَافِتُ بِهَا﴾ عن أصحابك فلا تسمعهم القرآن حتى يأخذوه عنك ﴿وَأَبْتَعُ بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا﴾. أخرجاه في الصحيحين^(١). وهكذا قال عكرمة، والحسن البصرى، وقتادة: نزلت هذه الآية فى القراءة فى الصلاة.

وقوله: ﴿وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا﴾: لما أثبت تعالى لنفسه الكريمة الأسماء الحسنی، نزه نفسه عن النقائص فقال: ﴿وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ﴾ بل هو الله الأحد الصمد، الذى لم يلد ولم يولد، ولم يكن له كفواً أحد ﴿وَلَمْ يَكُنْ لَهُ وَّلِيٌّ مِّنَ الدُّلِّ﴾ أى: ليس بذليل فيحتاج أن يكون له ولى أو وزير أو مشير، بل هو تعالى خالق الأشياء وحده لا شريك له، ومدبرها ومقدرها بمشيئته وحده، لا شريك له. قال مجاهد فى قوله: ﴿وَلَمْ يَكُنْ لَهُ وَّلِيٌّ مِّنَ الدُّلِّ﴾: لم يحالف أحدا ولم يبتغ نصر أحد. ﴿وَكَبِيرَةٌ تَعْظِيمًا﴾ أى: عظمه وأجله عما يقول الظالمون المعتدون علواً كبيراً.

قلت: وقد جاء فى حديث أن رسول الله ﷺ سُمى هذه الآية: آية العز. وفى بعض الآثار: أنها ما قرئت بيت فى ليلة فيصيبه سرق أو آفة. والله أعلم .

تفسير سورة الكهف

وهي مكية

ذكر ما ورد في فضلها، والعشر الآيات من أولها وآخرها، وأنها عصمة من الدجال:

روى الإمام أحمد عن البراء قال: قرأ رجل الكهف، وفي الدار دابة، فجعلت تنفر، فنظر فإذا ضبابة - أو: سحابة - غشيت، فذكر ذلك للنبي ﷺ فقال: «اقرأ فلان، فإنها السكينة تنزل عند القرآن، أو تنزلت للقرآن». أخرجاه في الصحيحين^(١). وهذا الرجل الذي كان يتلو هو: أسيدُ بن الحُضَيْر، كما تقدم في تفسير البقرة.

وروى الإمام أحمد عن أبي الدرداء، عن النبي ﷺ قال: «من حفظ عشر آيات من أول سورة الكهف، عُصِمَ من الدجال». رواه مسلم، وأبو داود، والنسائي، والترمذي. ولفظ الترمذي: «من حفظ الثلاث الآيات من أول الكهف»، وقال: حسن صحيح^(٢)، وفي لفظ لأحمد ومسلم: «من قرأ العشر الأواخر»^(٣)، ورواه النسائي عن ثوبان عن رسول الله ﷺ أنه قال: «من قرأ العشر الأواخر من سورة الكهف، فإنه عصمة له من الدجال»^(٤).

وقد روى الحاكم عن أبي سعيد، عن النبي ﷺ أنه قال: «من قرأ سورة الكهف في يوم الجمعة، أضاء له من النور ما بينه وبين الجمعتين»، ثم قال: هذا حديث صحيح الإسناد، ولم يخرجاه^(٥).

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَلْ لَكُمْ عِوَجًا ﴿١﴾ قِيمًا
لِيُنذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِمَّنْ لَدُنْهُ وَيُبَشِّرَ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ
أَجْرًا حَسَنًا ﴿٢﴾ مَكِينٍ فِيهِ أَبَدًا ﴿٣﴾ وَيُنذِرَ الَّذِينَ قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا
﴿٤﴾ مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ وَلَا لِآبَائِهِمْ كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ إِنْ
يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا ﴿٥﴾ ﴾

قد تقدم في أول التفسير أنه تعالى يحمده نفسه المقدسة عند فواتح الأمور وخواتيمها، فإنه المحمود على كل حال، وله الحمد في الأولى والآخرة؛ ولهذا حمده نفسه على إنزاله كتابه العزيز

(١) المسند (٤ / ٢٨١) والبخارى (٣٦١٤) ومسلم (٧٩٥ / ٢٤٠).

(٢) المسند (٥ / ١٩٦) ومسلم (٨٠٩ / ٢٥٧) وأبو داود (٤٣٢٣) والنسائي في الكبرى (٨٠٢٥) والترمذي (٢٨٨٦).

(٣) المسند (٦ / ٤٤٦) ومسلم (٨٠٩ / ٢٥٧).

(٤) النسائي في الكبرى (١٠٧٨٤).

(٥) الحاكم في المستدرک (٢ / ٣٦٨).

قال: ﴿فَلَعَلَّكَ بَاحِعٌ نَفْسِكَ عَلَىٰ آثَارِهِمْ إِنْ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِدَا الْحَدِيثِ﴾، يعنى: القرآن ﴿أَسْفًا﴾ يقول: لا تهلك نفسك أسفًا. قال قتادة: قَاتَلَ نَفْسَكَ غَضَبًا وَحَزَنًا عَلَيْهِمْ. أى: لا تأسف عليهم، بل أبلغهم رسالة الله، فمن اهتدى فلنفسه، ومن ضل فإغما يضل عليها، ولا تذهب نفسك عليهم حسرات.

ثم أخبر تعالى أنه جعل الدنيا داراً فانية مُزَيَّنَةً بزينة زائلة، وإنما جعلها دار اختبار لا دار قرار، فقال: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لِّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ عن أبى سعيد، عن رسول الله ﷺ أنه قال: «إن الدنيا حلوة خضرة، وإن الله مستخلفكم فيها فناظر ماذا تعملون، فاتقوا الدنيا، واتقوا النساء، فإن أول فتنة بنى إسرائيل كانت فى النساء» (١). ثم أخبر تعالى بزوالها وفنائها، وفراغها وانقضائها، وذهابها وخرابها، فقال تعالى: ﴿وَإِنَّا لَجَاعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيدًا جُرُزًا﴾ أى: وإنا لمصيروها بعد الزينة إلى الخراب والدمار، فنجعل كل شيء عليها هالكاً ﴿صَعِيدًا جُرُزًا﴾: لا يُنْبِت ولا ينتفع به، كما قال ابن عباس: يهلك كل شيء عليها ويبس. وقال قتادة: الصعيد: الأرض التى ليس فيها شجر ولا نبات.

﴿أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَابَ الْكَهْفِ وَالرَّقِيمِ كَانُوا مِنْ آيَاتِنَا عَجَبًا﴾ ﴿٩﴾ إِذْ أَوَى الْفِتْيَةَ إِلَى الْكَهْفِ فَقَالُوا رَبَّنَا إِنَّا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا ﴿١٠﴾ فَضَرَبْنَا عَلَىٰ آذَانِهِمْ فِي الْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا ﴿١١﴾ ثُمَّ بَعَثْنَاهُمْ لِنُعَلِّمَهُمُ الْآيَاتِ الْخَازِنِ أَحْسَنَ لِمَا لَيْسُوا أُمَّدًا ﴿١٢﴾

هذا إخبار عن قصة أصحاب الكهف، على سبيل الإجمال والاختصار، ثم بسطها بعد ذلك فقال: ﴿أَمْ حَسِبْتَ﴾ يعنى: يا محمد ﴿أَنَّ أَصْحَابَ الْكَهْفِ وَالرَّقِيمِ كَانُوا مِنْ آيَاتِنَا عَجَبًا﴾ أى: ليس أمرهم عجيبياً فى قدرتنا وسلطاننا، فإن خلق السموات والأرض، واختلاف الليل والنهار، والقمر والكواكب، وغير ذلك من الآيات العظيمة الدالة على قدرة الله ٤٦٣ وتسخير الشم تعالى، وأنه على ما يشاء قادر، ولا يعجزه شيء - أعجب من أخبار أصحاب الكهف. وقال ابن عباس: ﴿أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَابَ الْكَهْفِ وَالرَّقِيمِ كَانُوا مِنْ آيَاتِنَا عَجَبًا﴾ يقول: الذى آيتك من العلم والسنة والكتاب، أفضل من شأن أصحاب الكهف والرقيم.

وأما «الكهف» فهو: الغار فى الجبل، وهو الذى لجأ إليه هؤلاء الفتية المذكورون. وأما «الرقيم» فقال ابن عباس: الكتاب. وقال سعيد بن جبیر: لوح من حجارة، كتبوا فيه قصص أصحاب الكهف، ثم وضعوه على باب الكهف. وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: الرقيم: الكتاب. ثم قرأ: ﴿كِتَابٌ مَرْقُومٌ﴾ [المطففين: ٩]. وهذا هو الظاهر من الآية، وهو اختيار ابن جرير قال: «الرقيم» فعيل بمعنى مرقوم، كما يقال للمقتول: قَتِيل، وللمجروح: جريح. والله أعلم.

وقوله: ﴿إِذْ أَوَى الْفِتْيَةَ إِلَى الْكَهْفِ فَقَالُوا رَبَّنَا إِنَّا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا﴾: يخبر

تعالى عن أولئك الفتية، الذين فروا بدينهم من قومهم لثلاثا يفتنهم عنه، فهربوا منهم فلجؤوا إلى غار في جبل ليخفوا عن قومهم، فقالوا حين دخلوا سائلين من الله تعالى رحمته ولفظه بهم: ﴿رَبَّنَا آتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً﴾ أى: هب لنا من عندك رحمة ترحمنا بها وتسترنا عن قومنا ﴿وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا﴾ أى: وقدر لنا من أمرنا هذا رشداً، أى: اجعل عاقبتنا رشداً، وفى المسند من حديث بسر بن أبى أرطاة، عن رسول الله ﷺ أنه كان يدعو: «اللهم، أحسن عاقبتنا فى الأمور كلها، وأجرنا من خزي الدنيا وعذاب الآخرة» (١).

وقوله: ﴿ فَضَرَبْنَا عَلَىٰ آذَانِهِمْ فِي الْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا ﴾ أى: القينا عليهم النوم حين دخلوا إلى الكهف، فناموا سنين كثيرة ﴿ ثُمَّ بَعَثْنَاهُمْ ﴾ أى: من رقدتهم تلك، وخرج أحدهم بدرهم معه ليشتري لهم بها طعاماً يأكلونه، كما سيأتى بيانه وتفصيله؛ ولهذا قال: ﴿ ثُمَّ بَعَثْنَاهُمْ لِنَعْلَمَ أَى الْحِزْبَيْنِ ﴾ أى: المختلفين فيهم ﴿ أَحْصَىٰ لِمَا لَبِثُوا أَمْدًا ﴾ قيل: عدداً، وقيل: غاية، فإن الأمد الغاية .

﴿ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِالْحَقِّ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَرِذْنَهُمْ هُدًى ﴿١٣﴾ وَرَبَّطْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا فَقَالُوا رَبُّنَا رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَن نَدْعُوهُ مِنْ دُونِهِ إِنَّهَا لَئِن قُلْنَا إِذَا شَطَطًا ﴿١٤﴾ هَتُولَاءِ قَوْمَنَا أَلْتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً لَّوَلَا يَأْتُونَ عَلَيْهِم بِسُلْطَانٍ بَيِّنٍ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا ﴿١٥﴾ وَإِذْ أَعْرَضْتُمُوهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ فَأَوْفُوا إِلَى الْكَهْفِ يَنْشُرْ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ وَيَهَيِّئْ لَكُمْ مِنْ أَمْرِكُمْ مَرْفَقًا ﴿١٦﴾

من ههنا شرع فى بسط القصة وشرحها، فذكر تعالى أنهم فتية - وهم الشباب - وهم أقبل للحق، وأهدى للسبيل من الشيوخ، الذين قد عتوا وانغمسوا فى دين الباطل؛ ولهذا كان أكثرهم المستجيبين لله ولرسوله ﷺ شباباً، وأما المشايخ من قريش، فعامتهم بقوا على دينهم، ولم يسلم منهم إلا القليل. وهكذا أخبر تعالى عن أصحاب الكهف أنهم كانوا فتية شباباً. قال مجاهد: بلغنى أنه كان فى آذان بعضهم القرطة يعنى: الحلق، فآلهمهم الله رشدهم وآتاهم تقواهم ﴿ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ ﴾ أى: اعترفوا له بالوحدانية، وشهدوا أنه لا إله إلا هو. ﴿ وَرِذْنَهُمْ هُدًى ﴾: استدلل بهذه الآية وأمثالها غير واحد من الأئمة كالبخارى وغيره، ممن ذهب إلى زيادة الإيمان وتفاضله، وأنه يزيد وينقص؛ ولهذا قال تعالى: ﴿ وَرِذْنَهُمْ هُدًى ﴾ كما قال: ﴿ وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ ﴾ [محمد: ١٧]، وقال: ﴿ فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فزَادَتْهُمْ إِيمَانًا ﴾ [التوبة: ١٢٤]، وقال: ﴿ لِيَزِدَادُوا إِيمَانًا مَعِ إِيمَانِهِمْ ﴾ [الفتح: ٤]، إلى غير ذلك من الآيات الدالة على ذلك. وقد ذكر أنهم كانوا على دين عيسى ابن مريم، فالله أعلم، والظاهر أنهم كانوا قبل ملة النصرانية بالكلية، فإنهم لو كانوا على دين النصرانية، لما اعتنى أحبار اليهود بحفظ خبرهم وأمرهم، لمبايئتهم لهم.

وقوله: ﴿وَرَبَطْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا فَقَالُوا رَبُّنَا رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ يقول تعالى: وصبرناهم على مخالفة قومهم ومدبتهم، ومفارقة ما كانوا فيه من العيش الرغيد والسعادة والنعمة، فإنه قد ذكر غير واحد من المفسرين من السلف والخلف أنهم كانوا من أبناء ملوك الروم وسادتهم، ولا يعرف واحد منهم الآخر، وإنما جمعهم هناك الذي جمع قلوبهم على الإيمان، كما جاء في الحديث الذي رواه البخارى تعليقاً، عن عائشة، قالت: قال رسول الله ﷺ: «الأرواح جنود مجنّدة، فما تعارف منها ائتلف، وما تناكر منها اختلف». وأخرجه مسلم في صحيحه عن أبي هريرة عن النبي ﷺ (١).

والغرض: أنه جعل كل أحد منهم يكتب ما هو عليه عن أصحابه، خوفاً منهم، ولا يدري أنهم مثله، حتى قال أحدهم: تعلمون - والله يا قوم - أنه ما أخرجكم من قومكم وأفردكم عنهم، إلا شيء فليظهر كل واحد منكم بأمره. فقال آخر: أما أنا فإني رأيت ما قومي عليه، فعرفت أنه باطل، وإنما الذي يستحق أن يعبد ولا يشرك به شيء (٢) هو الله الذي خلق كل شيء: السموات والأرض وما بينهما. وقال الآخر: وأنا والله وقع لى كذلك. وقال الآخر كذلك، حتى توافقوا كلهم على كلمة واحدة، فصاروا يداً واحدة وإخوان صدق، فاتخذوا لهم معبداً يعبدون الله فيه، فعرف بهم قومهم، فوشوا بأمرهم إلى ملكهم، فاستحضرهم بين يديه فسألهم عن أمرهم وماهم عليه، فأجابوه بالحق، ودعوه إلى الله عز وجل؛ ولهذا أخبر تعالى بقوله: ﴿وَرَبَطْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا فَقَالُوا رَبُّنَا رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَن نَدْعُو مِن دُونِهِ إِنَّهَا﴾ ولن: لنفي التأييد، أى: لا يقع منا هذا أبداً؛ لأننا لو فعلنا ذلك لكان باطلاً؛ ولهذا قال عنهم: ﴿لَقَدْ قَلْنَا إِذَا شَطَطًا﴾ أى: باطلاً وكذباً وبهتاناً.

﴿هَؤُلَاءِ قَوْمًا اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ آلِهَةً لَّوْلَا يَأْتُونَ عَلَيْهِم بِسُلْطَانٍ بَيِّنٍ﴾ أى: هلاً أقاموا على صحة ما ذهبوا إليه دليلاً واضحاً صحيحاً؟! ﴿فَمَن أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا﴾ يقولون: بل هم ظالمون كاذبون فى قولهم ذلك، فيقال: إن ملكهم لما دعوه إلى الإيمان بالله، أبى عليهم، وتهددهم وتوعدهم، وأمر بنزع لباسهم عنهم الذى كان عليهم من زينة قومهم، وأجلهم لينظروا فى أمرهم، لعلهم يرجعون عن دينهم الذى كانوا عليه. وكان هذا من لطف الله بهم، فإنهم فى تلك النظرة توصلوا إلى الهرب منه. والفرار بدينهم من الفتنة. وهذا هو المشروع عند وقوع الفتن فى الناس، أن يفر العبد منهم خوفاً على دينه، كما جاء فى الحديث: «يوشك أن يكون خير مال أحدكم غنماً يتبع بها شعف الجبال ومواقع القطر، يفر بدينه من الفتن» (٣) ففى هذه الحال تشرع العزلة عن الناس، ولا تشرع فيما عداها، لما يفوت بها من ترك الجماعات والجمع.

فلما وقع عزمهم على الذهاب والهرب من قومهم، واختار الله تعالى لهم ذلك، وأخبر

(١) البخارى (٣٣٣٦) ومسلم (٢٦٣٨ / ١٥٩).

(٢) جاءت فى المطبوعة والمخطوطة على النصب «شيئاً» وهو خطأ.

(٣) البخارى (١٩).

عنهم بذلك في قوله : ﴿وَإِذِ اعْتَرَضْتُهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ﴾ أي : وإذ فارقتموهم وخالفتموهم بأديانكم في عبادتهم غير الله ، ففارقوهم أيضاً بأديانكم ﴿فَأَوْرُوا إِلَى الْكَهْفِ نَبَشْرَ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ﴾ أي : ييسط عليكم رحمة يستركم بها من قومكم ﴿وَيَهَيِّئْ لَكُمْ مِنْ أَمْرِكُمْ﴾ الذي أنتم فيه ، ﴿مِرْقَفًا﴾ أي : أمراً ترتفقون به . فعند ذلك خرجوا هراباً إلى الكهف ، فأوروا إليه ، ففقدهم قومهم من بين أظهرهم ، وتطلبهم الملك فيقال : إنه لم يظفر بهم ، وعمى الله عليه خبرهم . كما فعل بنبيه محمد ﷺ وصاحبه الصديق ، حين لجأ إلى غار ثور ، وجاء المشركون من قريش في الطلب ، فلم يهتدوا إليه مع أنهم يملكون عليه ، وعندها قال النبي ﷺ حين رأى جزع الصديق في قوله : يا رسول الله ، لو أن أحدهم نظر إلى موضع قدميه لأبصرنا ، فقال : « يا أبا بكر ، ما ظنك باثنين الله ثالثهما؟ » (١) ، وقد قال تعالى : ﴿لَا تَنْصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَى وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [التوبة: ٤٠] فقصة هذا الغار أشرف وأجل وأعظم وأعجب من قصة أصحاب الكهف .

﴿وَتَرَى الشَّمْسَ إِذَا طَلَعَتْ تَزَّوَّرُ عَنْ كَهْفِهِمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَإِذَا غَرَبَتْ تَقْرِضُهُمْ ذَاتَ الشِّمَالِ وَهُمْ فِي فَجْوَةٍ مِنْهُ ذَلِكَ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ لِيَهْدِيَ اللَّهُ الْبَلَغَةَ وَالْمُهْتَدِينَ وَكَلِمَةَ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [التوبة: ٤٠]

أخبر أن الشمس إذا دخلته عند طلوعها تزاور عنه ﴿ذَاتَ الْيَمِينِ﴾ أي : يتقلص الفء يمينة ، كما قال ابن عباس ، وسعيد بن جبيرة ، وقتادة : ﴿تَزَّوَّرُ﴾ أي : تميل ؛ وذلك أنها كلما ارتفعت في الأفق تقلص شعاعها بارتفاعها حتى لا يبقى منه شيء عند الزوال في مثل ذلك المكان ؛ ولهذا قال : ﴿وَإِذَا غَرَبَتْ تَقْرِضُهُمْ ذَاتَ الشِّمَالِ﴾ أي : تدخل إلى غارهم من شمال باب ، وهو من ناحية المشرق ، فدل على صحة ما قلناه ، وهذا بين لمن تأمله وكان له علم بمعرفة الهيئة ، وسير الشمس والقمر والكواكب ، وبيانه : أنه لو كان باب الغار من ناحية الشرق لما دخل إليه منها شيء عند الغروب ، ولو كان من ناحية القبلة لما دخله منها شيء عند الطلوع ولا عند الغروب ، ولا تزاور الفء يمينا ولا شمالاً ، ولو كان من جهة الغرب لما دخلته وقت الطلوع ، بل بعد الزوال ولم تزل فيه إلى الغروب . فتعين ما ذكرناه ولله الحمد . وقال ابن عباس ومجاهد وقتادة : ﴿تَقْرِضُهُمْ﴾ : تتركهم .

وقد أخبر الله تعالى بذلك وأراد منا فهمه وتدبره ، ولم يخبرنا بمكان هذا الكهف في أي البلاد من الأرض ؛ إذ لا فائدة لنا فيه ولا قصد شرعى . وقد تكلف بعض المفسرين فذكروا فيه أقوالاً والله أعلم بأى بلاد الله هو . ولو كان لنا فيه مصلحة دينية لأرشدنا الله ورسوله إليه ،

فقد قال ﷺ: « ماتركت شيئاً يقربكم إلى الجنة ويباعدكم من النار، إلا وقد أعلمتكم به» (١). فأعلمنا تعالى بصفته، ولم يعلمنا بمكانه، فقال: ﴿وَتَرَى الشَّمْسَ إِذَا طَلَعَتْ تَزَّوَّرُ عَنْ كَهْفِهِمْ﴾ تميل ﴿ذَاتَ الْيَمِينِ وَإِذَا غَرَبَتْ تَقْرِضُهُمْ ذَاتَ الشِّمَالِ وَهُمْ فِي فَجْوَةٍ مِنْهُ﴾ أى: فى متسع منه داخلاً، بحيث لا تمسهم؛ إذ لو أصابتهم لأحرقت أبدانهم وثيابهم، قاله ابن عباس. ﴿ذَلِكَ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ﴾ حيث أرشدهم إلى هذا الغار الذى جعلهم فيه أحياء، والشمس والريح تدخل عليهم فيه لتبقى أبدانهم؛ ولهذا قال: ﴿ذَلِكَ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ﴾.

ثم قال: ﴿مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ﴾ الآية، أى: هو الذى أرشد هؤلاء الفتية إلى الهداية من بين قومهم، فإنه من هداه الله اهتدى، ومن أضله فلا هادى له.

﴿وَتَحْسِبُهُمْ أَيْقَاطًا وَهُمْ رُقُودٌ وَنُقِلْتُمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَذَاتَ الشِّمَالِ وَكَلْبُهُمْ بَسِيطٌ ذِرَاعِيهِ بِالْوَصِيدِ لَوِ اطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَارًا وَلَمَلِئْتَ مِنْهُمْ رُعْبًا﴾

ذكر بعض أهل العلم أنهم لما ضرب الله على أذانهم بالنوم، لم تنطبق أعينهم؛ لئلا يسرع إليها البلى، فإذا بقيت ظاهرة للهواء كان أبقى لها؛ ولهذا قال تعالى: ﴿وَتَحْسِبُهُمْ أَيْقَاطًا وَهُمْ رُقُودٌ﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَنُقِلْتُمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَذَاتَ الشِّمَالِ﴾ قال ابن عباس: لو لم يقلبوا لأكلتهم الأرض.

وقوله: ﴿وَكَلْبُهُمْ بَاسِطٌ ذِرَاعِيهِ بِالْوَصِيدِ﴾ الفناء، وهو التراب. ومنه قوله تعالى: ﴿إِنَّهَا عَلَيْهِمْ مُّوَصَّدَةٌ﴾ [الهمزة: ٨] أى: مطبقة مغلقة. ويقال: «وصيد» و«أصيد».

ربض كلبهم على الباب كما جرت به عادة الكلاب.

وكان جلوسه خارج الباب؛ لأن الملائكة لا تدخل بيتاً فيه كلب - كما ورد فى الصحيح (٢) - وشملت كلبهم بركتهم، فأصابه ما أصابهم من النوم على تلك الحال. وهذا فائدة صحيحة الاختيار؛ فإنه صار لهذا الكلب ذكر وخبر وشأن. واختلفوا فى لونه على أقوال لا حاصل لها، ولا طائل تحتها ولا دليل عليها، ولا حاجة إليها، بل هى مما ينهى عنه، فإن مستندها رجم بالغيب.

وقوله تعالى: ﴿لَوْ اطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَارًا وَلَمَلِئْتَ مِنْهُمْ رُعْبًا﴾ أى: أنه تعالى ألقى عليهم المهابة بحيث لا يقع نظر أحد عليهم إلا هابهم؛ لما ألبسوا من المهابة والذعر. لئلا يدنو منهم أحد ولا تمسهم يد لأمس، حتى يبلغ الكتاب أجله، وتنقضى رقدتهم التى شاء تبارك وتعالى فيهم، لما له فى ذلك من الحجة والحكمة البالغة، والرحمة الواسعة.

(٢) مصنف عبد الرزاق (٢٠١٠٠).

(١) البخارى (٣٢٢٧).

﴿ وَكَذَلِكَ بَعَثْنَاهُمْ لِيَتَسَاءَلُوا بَيْنَهُمْ قَالَ قَائِلٌ مِّنْهُمْ كَمْ لَبِئْتُمْ قَالُوا لَبِئْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالُوا رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِئْتُمْ فَابْعَثُوا أَحَدَكُمْ بِوَرِقِكُمْ هَذِهِ إِلَى الْمَدِينَةِ فَلْيَنْظُرْ أَيُّهَا أَزْكَى طَعَامًا فَلْيَأْتِكُمْ بِرِزْقٍ مِّنْهُ وَلْيَتَلَطَّفْ وَلَا يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَدًا ﴿١٩﴾ إِنَّهُمْ إِنْ يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِي مِلَّتِهِمْ وَلَنْ تُفْلِحُوا إِذَا أَبَدًا ﴿٢٠﴾ ﴾

يقول تعالى: وكما أرقدناهم بعثناهم صحيحة أبدانهم وأشعارهم وأبصارهم، لم يفقدوا من أحوالهم وهياتهم شيئاً، وذلك بعد ثلاثمائة سنة وتسع سنين؛ ولهذا تساءلوا بينهم: ﴿ كَمْ لَبِئْتُمْ؟ ﴾ أى: رقدتم ﴿ قَالُوا لَبِئْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ ﴾ كانه كان دخولهم إلى الكهف فى أول نهار، واستيقاظهم كان آخر نهار؛ ولهذا استدركوا فقالوا: ﴿ أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالُوا رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِئْتُمْ ﴾ أى: الله أعلم بأمركم، وكأنه حصل لهم نوع تردد فى كثرة نومهم، فالله أعلم، ثم عدلوا إلى الأهم فى أمرهم إذ ذاك، وهو احتياجهم إلى الطعام والشراب، فقالوا: ﴿ فابْعَثُوا أَحَدَكُمْ بِوَرِقِكُمْ ﴾ أى: فضتكم هذه. وذلك أنهم كانوا قد استصبحوا معهم دراهم من منازلهم لحاجتهم إليها، فتصدقوا منها وبقي منها؛ فلماذا قالوا: ﴿ فابْعَثُوا أَحَدَكُمْ بِوَرِقِكُمْ هَذِهِ إِلَى الْمَدِينَةِ ﴾ أى: مدينتكم التى خرجتم منها. ﴿ فَلْيَنْظُرْ أَيُّهَا أَزْكَى طَعَامًا ﴾ أى: أطيب طعاماً، كقوله: ﴿ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَا مِنْكُمْ مِّنْ أَحَدٍ أَبَدًا ﴾ [النور: ٢١] وقوله: ﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّى ﴾ [الأعلى: ١٤]، ومنه الزكاة التى تُطَيِّبُ المَالِ وتطهره. وقيل: أكثر طعاماً، ومنه زكا الزرع إذا كثر، والصحيح الأول؛ لأن مقصودهم إنما هو الطيب الحلال، سواء كان قليلاً أو كثيراً.

وقوله: ﴿ وَلْيَتَلَطَّفْ ﴾ أى: فى خروجه وذهابه، وشرائه وإيابه، يقولون: وليختف كل ما يقدر عليه ﴿ وَلَا يُشْعِرَنَّ ﴾ أى: ولا يعلمن ﴿ بِكُمْ أَحَدًا ﴾. ﴿ إِنَّهُمْ إِنْ يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ ﴾ أى: إن علموا بمكانكم ﴿ يَرْجُمُوكُمْ أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِي مِلَّتِهِمْ ﴾ يعنون أصحاب دقيانوس، يخافون منهم أن يطلعوا على مكانهم، فلا يزالون يعذبونهم بأنواع العذاب إلى أن يعيدهم فى ملتهم التى هم عليها أو يموتوا، وإن وافقتهم على العود فى الدين فلا فلاح لكم فى الدنيا ولا فى الآخرة، ولهذا قال: ﴿ وَلَنْ تُفْلِحُوا إِذَا أَبَدًا ﴾ .

﴿ وَكَذَلِكَ أَعْرَضْنَا عَنْهُمْ لِيَعْلَمُوا أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَأَنَّ السَّاعَةَ لَا رَيْبَ فِيهَا إِذْ يَتَنَزَّعُونَ بَيْنَهُمْ أَمْرَهُمْ فَقَالُوا ابْنُوا عَلَيْهِم بُنْيَانًا رَبُّهُمْ أَعْلَمُ بِهِمْ قَالَ الَّذِينَ غَلَبُوا عَلَىٰ أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْكُمْ مَسْجِدًا ﴿٢١﴾ ﴾

يقول تعالى: ﴿ وَكَذَلِكَ أَعْرَضْنَا عَنْهُمْ ﴾ أى: أطلعنا عليهم الناس ﴿ لِيَعْلَمُوا أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَأَنَّ السَّاعَةَ لَا رَيْبَ فِيهَا ﴾ ذكر غير واحد من السلف أنه كان قد حصل لأهل ذلك الزمان شك فى البعث وفى أمر القيامة، وقال عكرمة: كان منهم طائفة قد قالوا: تبعث الأرواح ولا تبعث

الأجساد. فبعث الله أهل الكهف حجة ودلالة وآية على ذلك. قال قتادة: غزا ابن عباس مع حبيب بن مسلمة، فمروا بكهف فى بلاد الروم، فرأوا فيه عظاماً، فقال قائل: هذه عظام أهل الكهف؟ فقال ابن عباس: لقد بليت عظامهم من أكثر من ثلاثمائة سنة. رواه ابن جرير .

وقوله: ﴿وَكَذَلِكَ أَغْتَرْنَا عَلَيْهِمْ﴾ أى: كما أرقدناهم وأيقظناهم بهياتهم، أطلعنا عليهم أهل ذلك الزمان ﴿لِيَعْلَمُوا أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَأَنَّ السَّاعَةَ لَا رَيْبَ فِيهَا إِذْ يَتَنَازَعُونَ بَيْنَهُمْ أَمْرَهُمْ﴾ أى: فى أمر القيامة، فمن مثبت لها ومن منكر، فجعل الله ظهورهم على أصحاب الكهف حجة لهم وعليهم ﴿فَقَالُوا ابْنُوا عَلَيْهِم بُيُوتًا رِئُوسُهُمْ أَعْلَمُ بِهِمْ﴾ أى: سدوا عليهم باب كهفهم، وذروهم على حالهم ﴿قَالَ الَّذِينَ عَلِمُوا عَلَىٰ أَمْرِهِمْ لَتَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِمُ مَسْجِدًا﴾. حكى ابن جرير فى القائلين ذلك قولين: أحدهما: أنهم المسلمون منهم. والثانى: أهل الشرك منهم، فالله أعلم. والظاهر أن الذين قالوا ذلك هم أصحاب الكلمة والنفوذ. ولكن هل هم محمودون أم لا؟ فيه نظر؛ لأن النبى ﷺ قال: «لعن الله اليهود والنصارى، اتخذوا قبور أنبيائهم وصالحهم مساجد» (١) يحذر ما فعلوا. وقد روينا عن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب، رضى الله عنه، أنه لما وجد قبر دانيال فى زمانه بالعراق، أمر أن يخفى عن الناس، وأن تدفن تلك الرقعة التى وجدوها عنده، فيها شيء من الملاحم وغيرها .

﴿سَيَقُولُونَ ثَلَاثَةٌ رَّابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ رَجْمًا بِالْغَيْبِ وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ قُل رَّبِّي أَعْلَمُ بِعَدَّتِهِمْ مَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ فَلَا تَحْمَارِ فِيهِمْ إِلَّا مِرَاءً ظَاهِرًا وَلَا تَسْتَفْتِ فِيهِمْ مِنْهُمْ أَحَدًا﴾

يقول تعالى مخبراً عن اختلاف الناس فى عدة أصحاب الكهف، فحكى ثلاثة أقوال، فدل على أنه لا قائل برابع، ولما ضَعَفَ القولين الأولين بقوله: ﴿رَجْمًا بِالْغَيْبِ﴾ أى: قول بلا علم، كمن يرمى إلى مكان لا يعرفه، فإنه لا يكاد يصيب، وإن أصاب فبلا قصد، ثم حكى الثالث وسكت عليه أو قرره بقوله: ﴿وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ﴾ فدل على صحته، وأنه هو الواقع فى نفس الأمر.

وقوله: ﴿قُل رَّبِّي أَعْلَمُ بِعَدَّتِهِمْ﴾ إرشاد إلى أن الأحسن فى مثل هذا المقام رد العلم إلى الله تعالى، إذ لا احتياج إلى الخوض فى مثل ذلك بلا علم، لكن إذا اطلعنا على أمر قلنا به، وإلا وَقَفْنَا حَيْثُ وَقَفْنَا. وقوله: ﴿مَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ﴾ أى: من الناس. قال قتادة: قال ابن عباس: أنا من القليل الذى استثنى الله، عز وجل، كانوا سبعة. وكذا روى ابن جرير، عن عطاء الخراسانى عنه، أنه كان يقول: أنا ممن استثنى الله، ويقول: عدتهم سبعة. وقال ابن جرير عن ابن عباس: ﴿مَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ﴾ قال: أنا من القليل، كانوا سبعة. فهذه أسانيد صحيحة إلى ابن عباس: أنهم كانوا سبعة، وهو موافق لما قدمناه .

وفى تسميتهم بهذه الأسماء واسم كلهم نظر فى صحته ، والله أعلم ؛ فإن غالب ذلك مُتَلَقًى من أهل الكتاب ، وقد قال تعالى : ﴿ فَلَا تُمَارِ فِيهِمْ إِلَّا مِرَاءً ظَاهِرًا ﴾ أى : سهلاً هيناً ؛ فإن الأمر فى معرفة ذلك لا يترتب عليه كبير فائدة ﴿ وَلَا تَسْتَفْتِ فِيهِمْ مِنْهُمْ أَحَدًا ﴾ أى : فإنهم لا علم لهم بذلك إلا ما يقولونه من تلقاء أنفسهم رجماً بالغيب ، من غير استناد إلى كلام معصوم ، وقد جاءك الله يا محمد بالحق الذى لاشك فيه ولا مرية ، فهو المقدم الحاكم على كل ما تقدمه من الكتب والأقوال .

﴿ وَلَا تَقُولَنَّ لِشَايٍ إِنْى فَاعِلٌ ذَلِكَ غَدًا ﴿١٣﴾ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ وَادُّرُ رَبِّكَ إِذَانَسَيْتَ وَقُلْ عَسَى أَنْ يَهْدِيَنَّ رَبِّي لِأَقْرَبَ مِنْ هَذَا رَشَدًا ﴿١٤﴾ ﴾

هذا إرشاد من الله تعالى لرسوله ﷺ إلى الأدب فيما إذا عزم على شىء ليفعله فى المستقبل ، أن يرد ذلك إلى مشيئة الله ، عز وجل ، علام الغيوب ، الذى يعلم ما كان وما يكون ، وما لم يكن لو كان كيف كان يكون ، كما ثبت فى الصحيحين عن أبى هريرة ، عن رسول الله ﷺ أنه قال : « قال سليمان ابن داود عليهما السلام : لأطوفن الليلة على سبعين امرأة - وفى رواية : تسعين امرأة . وفى رواية : مائة امرأة - تلد كل امرأة منهن غلاماً يقاتل فى سبيل الله ، فقبيل له - وفى رواية : فقال له الملك - قل : إن شاء الله . فلم يقل ، فطاف بهن فلم يلد منهن إلا امرأة واحدة نصف إنسان » ، فقال رسول الله ﷺ : « والذى نفسى بيده ، لو قال : « إن شاء الله » لم يحنث ، وكان دركاً لحاجته » ، وفى رواية : « ولقاتلوا فى سبيل الله فرساناً أجمعون (١) .

وقد تقدم فى أول السورة ذكر سبب نزول هذه الآية فى قول النبى ﷺ ، لما سئل عن قصة أصحاب الكهف : « غداً أجيئكم » . فتأخر الوحي خمسة عشر يوماً ، وقد ذكرناه بطوله فى أول السورة ، فأغنى عن إعادته .

وقوله : ﴿ وَادُّرُ رَبِّكَ إِذَانَسَيْتَ ﴾ قيل : معناه : إذا نسيت الاستثناء ، فاستثنى عند ذكرك له . وعن ابن عباس فى الرجل يحلف ؟ قال : له أن يستثنى ولو إلى سنة ، وكان يقول : ﴿ وَادُّرُ رَبِّكَ إِذَانَسَيْتَ ﴾ فى ذلك . ومعنى قول ابن عباس : « أنه يستثنى ولو بعد سنة » أى : إذا نسى أن يقول فى حلفه أو كلامه « إن شاء الله » وذكر ولو بعد سنة ، فالسنة له أن يقول ذلك ، ليكون آتياً بسنة الاستثناء ، حتى لو كان بعد الحنث . قال ابن جرير ، ونص على ذلك : لا أن يكون رافعاً لحنث اليمين ومسقطاً للكفارة . وهذا الذى قاله ابن جرير ، رحمه الله ، هو الصحيح ، وهو الأليق بحمل كلام ابن عباس عليه ، والله أعلم .

ويحتمل فى الآية وجه آخر ، وهو أن يكون الله تعالى قد أرشد من نسى الشىء فى كلامه إلى ذكر الله تعالى ؛ لأن النسيان منشؤه من الشيطان ، كما قال فتى موسى : ﴿ وَمَا أَنَسَانِيَهُ إِلَّا الشَّيْطَانُ أَنْ أَذْكُرَهُ ﴾ [الكهف : ٦٣] ، وذكر الله تعالى يطرد الشيطان ، فإذا ذهب الشيطان ذهب

النسيان، فذكر الله تعالى سبب للذكر؛ ولهذا قال: ﴿وَأَذْكُرُ رَبِّكَ إِذَا نَسِيتُ﴾ . وقوله: ﴿وَقُلْ عَسَىٰ أَن يَهْدِيَنِّي رَبِّي لِأَقْرَبَ مِنْ هَذَا رَشَدًا﴾ أي: إذا سئلت عن شيء لا تعلمه، فاسأل الله فيه، وتوجه إليه في أن يوفقك للصواب والرشد في ذلك، وقيل في تفسيره غير ذلك، والله أعلم .

﴿وَلَيْسُوا فِي كَهْفِهِمْ ثَلَاثَ مِائَةٍ سِنِينَ وَازْدَادُوا تِسْعًا﴾ ﴿١٥﴾ قُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَيْسُوا لَهُمْ غَيْبُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَبْصِرْ بِهِ وَأَسْمِعْ مَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِ أَحَدًا﴾ ﴿١٦﴾

هذا خبر من الله تعالى لرسوله ﷺ بمقدار ما لبث أصحاب الكهف في كهفهم، منذ أرقدهم إلى أن بعثهم الله وأعثر عليهم أهل ذلك الزمان، وأنه كان مقداره ثلاثمائة وتسع سنين بالهلالية ، وهى ثلاثمائة سنة بالشمسية، فإن تفاوت ما بين كل مائة بالقمريه إلى الشمسية ثلاث سنين؛ فهذا قال بعد الثلاثمائة: ﴿وَازْدَادُوا تِسْعًا﴾ .

وقوله: ﴿قُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَيْسُوا﴾ أي: إذا سئلت عن لبثهم وليس عندك علم في ذلك وتوقيف من الله تعالى، فلا تتقدم فيه بشيء، بل قل في مثل هذا: ﴿اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَيْسُوا لَهُ غَيْبُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أي: لا يعلم ذلك إلا هو أو من أطلعه الله عليه من خلقه، وهذا الذى قلناه، عليه غير واحد من علماء التفسير كمجاهد، وغير واحد من السلف والخلف .

والظاهر من الآية إنما هو إخبار من الله ، لا حكاية عنهم. وهذا اختيار ابن جرير. وقوله: ﴿أَبْصِرْ بِهِ وَأَسْمِعْ﴾ أي: إنه لبصير بهم سميع لهم. قال ابن جرير: وذلك فى معنى المبالغة فى المدح، كأنه قيل: ما أبصره وأسمعه، وتأويل الكلام: ما أبصر الله لكل موجود، وأسمعه لكل مسموع، لا يخفى عليه من ذلك شيء. وقوله: ﴿مَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِ أَحَدًا﴾ أي: إنه تعالى هو الذى له الخلق والأمر، الذى لا معقب لحكمه، وليس له وزير ولا نصير ولا شريك ولا مشير، تعالى وتقدس .

﴿وَاتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنْ كِتَابِ رَبِّكَ لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ وَلَنْ تَجِدَ مِنْ دُونِهِ مُلْتَحَدًا﴾ ﴿١٧﴾ وَأَصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْفَدْوَةِ وَالْعِشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُمْ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدَ زِينَةَ الدُّنْيَا وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا﴾ ﴿١٨﴾

يقول تعالى أمراً رسوله ﷺ بتلاوة كتابه العزيز وإبلاغه إلى الناس ﴿لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ﴾ أي: لا مغير لها ولا محرف ولا مزيل .

وقوله: ﴿وَلَنْ تَجِدَ مِنْ دُونِهِ مُلْتَحَدًا﴾ ملجأ. قال ابن جرير: يقول: إن أنت يا محمد لم تتل ما أوحى إليك من كتب ربك، فإنه لا ملجأ لك من الله . كما قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ﴾ [المائدة ٦٧]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَادُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ﴾ [القصص: ٨٥] أي: سائلك عما فرض عليك من إبلاغ

الرسالة. وقوله: ﴿وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ﴾ أى: اجلس مع الذين يذكرون الله ويهللونه، ويحمدونه ويسبحونه ويكبرونه، ويسألونه بكرة وعشياً من عباد الله، سواء كانوا فقراء أو أغنياء أو أقوياء أو ضعفاء. يقال: إنها نزلت فى أشرف قريش، حين طلبوا من النبى ﷺ أن يجلس معهم وحده، ولا يجالسهم بضعفاء أصحابه كبلال وعمار وصهيب وخباب وابن مسعود، وليفرد أولئك بمجلس على حدة. فنهاه الله عن ذلك، فقال: ﴿وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ﴾ الآية [الانعام: ٥٢]، وأمره أن يصبر نفسه فى الجلوس مع هؤلاء فقال: ﴿وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ﴾.

وقال مسلم فى صحيحه: عن سعد - هو ابن أبى وقاص - قال: كنا مع النبى ﷺ ستة نفر، فقال المشركون للنبى ﷺ: اطرد هؤلاء لا يجترثون علينا. قال: وكنت أنا وابن مسعود، ورجل من هذيل، وبلال، ورجلان نسيتهما اسميهما، فوقع فى نفس رسول الله ﷺ ما شاء الله أن يقع، فحدث نفسه، فأنزل الله عز وجل: ﴿وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ﴾. انفرد بإخراجه مسلم دون البخارى (١).

وقوله: ﴿وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ قال ابن عباس: ولا تجاوزهم إلى غيرهم: يعنى: تطلب بدلهم أصحاب الشرف والثروة ﴿وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا﴾ أى: شغل عن الدين وعبادة ربه بالدنيا ﴿وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا﴾ أى: أعماله وأفعاله سفه وتفريط وضياع، ولا تكن مطيعاً له ولا محباً لطريقته، ولا تغبطه بما هو فيه، كما قال تعالى: ﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا لِنَفِثَنَّهُمْ فِيهِ وَرَرْنَا بِنُكْحِ خَيْرٍ وَأَبْقَى﴾ [طه: ١٣١].

﴿ وَقُلِ الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَمَن شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَن شَاءَ فَلْيُكْفُرْ إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا وَإِن يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ بِئْسَ الشَّرَابُ وَسَاءَتْ مُرْتَفَقًا ﴿١٩﴾ ﴾

يقول تعالى لرسوله محمد ﷺ: وقل يا محمد للناس: هذا الذى جنتكم به من ربكم هو الحق الذى لا مرية فيه ولا شك ﴿ فَمَن شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَن شَاءَ فَلْيُكْفُرْ ﴾ هذا من باب التهديد والوعيد الشديد؛ ولهذا قال: ﴿ إِنَّا أَعْتَدْنَا ﴾ أى: أَرَصَدْنَا ﴿ لِلظَّالِمِينَ ﴾ وهم الكافرون بالله ورسوله وكتابه ﴿ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا ﴾ أى: سورها .

وقوله: ﴿ وَإِن يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ ﴾ الآية ، قال ابن عباس: «المهل»: الماء الغليظ مثل دردى الزيت. وقال مجاهد: هو كالدّم والقحج . وهذه الأقوال ليس شىء منها ينقى الآخر، فإن المهل يجمع هذه الأوصاف الرذيلة كلها ، فهو أسود منتن غليظ حار ؛ ولهذا قال : ﴿ يَشْوِي الْوُجُوهَ ﴾ أى: من حره، إذا أراد الكافر أن يشربه وقربه من وجهه، شواه حتى يسقط جلد وجهه فيه، ولهذا قال تعالى بعد وصفه هذا الشراب بهذه الصفات الذميمة القبيحة: ﴿ بئس

الشَّرَابِ ﴿ أَى : بَشَسَ هَذَا الشَّرَابِ ، كَمَا قَالَ فِي الْآيَةِ الْآخَرَى : ﴿ وَسُقُوا مَاءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَاءَهُمْ ﴾ [محمد: ١٥] ، وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ تُسْقَى مِنْ عَيْنٍ أَنبِيَّةٍ ﴾ [الغاشية: ٥] أَى : حَارَةً ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَبَيْنَ حَمِيمٍ أَنِ ﴾ [الرحمن: ٤٤] ، ﴿ وَسَاءَتْ مُرْتَفَقًا ﴾ أَى : وَسَاءَتْ النَّارُ مَنْزِلًا وَمَقِيلًا وَمَجْتَمَعًا وَمَوْضِعًا لِلرَّتْفَاقِ كَمَا قَالَ فِي الْآيَةِ الْآخَرَى : ﴿ إِنَّهَا سَاءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ﴾ [الفرقان: ٦٦] .

﴿ إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا ﴿٥٠﴾
أُولَئِكَ لَهُمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَيَلْبَسُونَ ثِيَابًا خُضْرًا مِنْ سُنْدُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُتَّكِينَ فِيهَا عَلَى الْأَرَائِكِ نِعْمَ الثَّوَابُ وَحَسُنَتْ مُرْتَفَقًا ﴿٥١﴾

لَمَّا ذَكَرَ تَعَالَى حَالَ الْأَشْقِيَاءِ ، ثَنَى بِذِكْرِ السَّعْدَاءِ ، الَّذِينَ ءَامَنُوا بِاللَّهِ وَصَدَّقُوا الْمُرْسَلِينَ فِيمَا جَاؤُوا بِهِ ، وَعَمِلُوا بِمَا أَمَرُوهُمْ بِهِ مِنَ الْأَعْمَالِ الصَّالِحَةِ ، فَلَهُمْ ﴿ جَنَّاتُ عَدْنٍ ﴾ وَالْعَدْنُ : الْإِقَامَةُ ﴿ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ ﴾ أَى : مِنْ تَحْتِ غُرْفِهِمْ وَمَنَازِلِهِمْ ، قَالَ فِرْعَوْنُ : ﴿ وَهَذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرَى مِنْ تَحْتِي ﴾ [الزخرف: ٥١] . ﴿ يُحَلَّوْنَ ﴾ أَى : مِنَ الْحَلِيَّةِ ﴿ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ ﴾ وَقَالَ فِي الْمَكَانِ الْآخَرَ : ﴿ وَلَوْ لَوَا وَلَبَّاسَهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ ﴾ [الحج: ٢٣] وَفَصَلَّهُ هَهُنَا فَقَالَ : ﴿ وَيَلْبَسُونَ ثِيَابًا خُضْرًا مِنْ سُنْدُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ ﴾ فَالسُّنْدُسُ : ثِيَابُ رِفَاعٍ رِقَاقٍ كَالْقَمِيصَانِ وَمَا جَرَى مَجْرَاهَا ، وَأَمَّا الْإِسْتَبْرَقُ فَعَلِيظُ الدَّبِياجِ وَفِيهِ بَرِيقٌ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ مُتَّكِينَ فِيهَا عَلَى الْأَرَائِكِ ﴾ : الْإِتِّكَاءُ قِيلَ : الْإِضْطِجَاعُ . وَقِيلَ : التَّرْبِيعُ فِي الْجُلُوسِ . وَهُوَ أَشْبَهُ بِالْمُرَادِ هَا هُنَا وَمِنَ الْحَدِيثِ الصَّحِيحِ : « أَمَا أَنَا فَلَا أَكُلُ مُتَكِنًا » (١) فِيهِ الْقَوْلَانِ . وَالْأَرَائِكُ : جَمْعُ أَرِيكَةٍ ، وَهِيَ السَّرِيرُ تَحْتَ الْحِجَلَةِ ، وَالْحِجَلَةُ كَمَا يَعْرِفُهُ النَّاسُ فِي زَمَانِنَا هَذَا بِالشِّخَانَةِ ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ . ﴿ نِعْمَ الثَّوَابُ وَحَسُنَتْ مُرْتَفَقًا ﴾ أَى : نِعْمَتِ الْجَنَّةِ ثَوَابًا عَلَى أَعْمَالِهِمْ ﴿ وَحَسُنَتْ مُرْتَفَقًا ﴾ أَى : حَسُنَتْ مَنْزِلًا وَمَقِيلًا وَمُقَامًا ، كَمَا قَالَ فِي النَّارِ : ﴿ بَشَسَ الشَّرَابُ وَسَاءَتْ مُرْتَفَقًا ﴾ [الكهف: ٢٩] . وَهَكَذَا قَابَلَ بَيْنَهُمَا فِي سُورَةِ الْفِرْقَانِ فِي قَوْلِهِ : ﴿ إِنَّهَا سَاءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ﴾ [الفرقان: ٦٦] ، ثُمَّ ذَكَرَ صِفَاتِ الْمُؤْمِنِينَ فَقَالَ : ﴿ أُولَئِكَ يُجْزَوْنَ الْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُوا وَيُلَقَوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلَامًا . خَالِدِينَ فِيهَا حَسُنَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ﴾ [الفرقان: ٧٥ ، ٧٦] .

﴿ وَأَصْرَبَ لَهُمْ مَثَلًا رَجُلَيْنِ جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَابٍ وَحَفَفْنَاهُمَا بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زُرْعًا ﴿٥٢﴾ كِلْتَا الْجَنَّتَيْنِ مِائَتٌ أَكْطَابٌ وَلَمْ تَنْظُرْ مِنْهُ شَيْئًا وَفَجَّرْنَا خِلْفَهُمَا نَهْرًا ﴿٥٣﴾ وَكَانَ لَمْ نُرْ فَقَالَ لِصَاحِبِهِ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَنَا أَكْثَرُ مِنْكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفْرًا ﴿٥٤﴾ وَدَخَلَ جَنَّتَهُ وَهُوَ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ قَالَ مَا أَظُنُّ أَنْ تَبِيدَ هَذِهِ أَبَدًا ﴿٥٥﴾ وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِنْ رُودْتُ إِلَىٰ رَبِّي لِأَجِدَنَّ خَيْرًا مِنْهَا مُنْقَلَبًا ﴿٥٦﴾

ربيع

يقول الله تعالى بعد ذكر المشركين المستكبرين عن مجالسة الضعفاء والمساكين من المسلمين، وافتخروا عليهم بأموالهم وأحسابهم، فضرب لهم ولهم مثلاً برجلين، جعل الله ﴿لأحدهما جنتين﴾ أى: بستانين من أعناب، محفوفتين بالنخيل المحدقة فى جنباتهما، وفى خلألهما الزروع، وكل من الأشجار والزروع مثمر مُقبل فى غاية الجودة؛ ولهذا قال: ﴿كلتا الجنتين آتت أكلها﴾ أى: أخرجت ثمرها ﴿ولم تظلم منه شيئاً﴾ أى: ولم تنقص منه شيئاً ﴿وفجرنا خلألهما نهراً﴾ أى: والأنهار متفرقة فيهما ههنا وههنا. ﴿وكان له نمر﴾ قيل: المراد به: المال. وقيل: الثمار وهو أظهر ههنا ﴿فقال﴾ أى صاحب هاتين الجنتين: ﴿لصاحبه وهو يحاوره﴾ أى: يجادله ويخاصمه، يفتخر عليه ويتأس: ﴿أنا أكثر منك مالاً وأعز نفراً﴾ أى: أكثر خدماً وحشماً وولداً. قال قتادة: تلك - و الله - أمنية الفاجر: كثرة المال وعزة النفس.

وقوله: ﴿ودخل جنته وهو ظالم لنفسه﴾ أى: بكفره وتمرده وتكبره وتجبره وإنكاره المعاد ﴿قال ما أظن أن تبيد هذه أبداً﴾ وذلك اغترار منه، لما رأى فيها من الزروع والثمار والأشجار والأنهار المطردة فى جوانبها وأرجائها، ظن أنها لا تفتنى ولا تفرغ ولا تهلك ولا تتلف، وذلك لقله عقله، وضعف يقينه بالله، وإعجاب به بالحياة الدنيا وزينتها، وكفره بالآخرة؛ ولهذا قال: ﴿وما أظن الساعة قائمة﴾ أى: كائنه ﴿ولئن رددت إلى ربي لأجدن خيراً منها منقلباً﴾ أى: ولئن كان معاد ورجعة ومرد إلى الله، ليكونن لى هناك أحسن من هذا الحظ عند ربي، ولولا كرامتى عليه ما أعطانى هذا، كما قال فى الآية الأخرى: ﴿ولئن رجعت إلى ربي إن لى عنده للحسنى﴾ [فصلت: ٥٠] وقال: ﴿أفرأيت الذى كفر بآياتنا وقال لأوتين مالا وولداً﴾ [مريم: ٧٧] أى: فى الدار الآخرة، تألى على الله، عز وجل.

﴿قال لهم صاحبه وهو يحاوره أكفرت بالذى خلقك من تراب ثم من نطفة ثم سواك رجلاً﴾ ﴿٧﴾ ﴿لكننا هو الله ربى ولا أشرك برى أحدا﴾ ﴿٨﴾ ﴿ولو لا إذ دخلت جنتك قلت ما شاء الله لا قوة إلا بالله إن ترن أنا أقل منك مالا وولداً﴾ ﴿٩﴾ ﴿فعسى ربى أن يؤتينا خيراً من جنتك ويرسل علينا حسباناً من السماء فنصبح صعيداً زلقاً﴾ ﴿١٠﴾ أو يصبح ماؤها غوراً فلن تستطيع لهم طلباً﴾ ﴿١١﴾

يقول تعالى مخبراً عما أجابه صاحبه المؤمن، واعظاً له وزاجراً عما هو فيه من الكفر بالله والاعترار: ﴿أكفرت بالذى خلقك من تراب﴾ الآية؟ وهذا إنكار وتعظيم لما وقع فيه من جحود ربه، الذى خلقه وابتدأ خلق الإنسان من طين وهو آدم، ثم جعل نسله من سلالة من ماء مهين، كما قال تعالى: ﴿كيف تكفرون بالله وكنتم أمواتاً فأحياكم﴾ الآية [البقرة: ٢٨٠]، أى: كيف تجحدون ربكم، ودلالته عليكم ظاهرة جلية، كل أحد يعلمها من نفسه، فإنه ما من أحد من المخلوقات إلا ويعلم أنه كان معدوماً ثم وجد، وليس وجوده من نفسه ولا مستنداً إلى شىء من المخلوقات؛ لأنه بمثابة، فعلم إسناد إيجاده إلى خالقه، وهو الله، لا إله إلا هو، خالق كل

شئ؛ ولذا قال: ﴿لَكِنَّا هُوَ اللَّهُ رَبِّي﴾ أى: أنا لا أقول بمقاتلك، بل اعترف لله بالوحدانية والربوبية ﴿وَلَا أُشْرِكُ بِرَبِّي أَحَدًا﴾ أى: بل هو الله المعبود وحده لا شريك له.

ثم قال: ﴿وَلَوْلَا إِذْ دَخَلْتَ﴾ الآية، هذا تخصيص وحث على ذلك، أى: هلا إذا أعجبتك حين دخلتها ونظرت إليها حمدت الله على ما أنعم به عليك، وأعطاك من المال والولد ما لم يعط غيرك، وقلت: ﴿مَا شَاءَ اللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ﴾؛ ولهذا قال بعض السلف: من أعجبه شئ من حاله أو ماله أو ولده، فليقل: ﴿مَا شَاءَ اللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ﴾ وهذا مأخوذ من هذه الآية الكريمة. وقد ثبت فى الصحيح، عن أبى موسى أن رسول الله ﷺ قال له: «ألا أدلك على كنز من كنوز الجنة؟ لا حول ولا قوة إلا بالله» (١).

وقوله: ﴿فَعَسَىٰ رَبِّي أَن يُؤْتِيَنِي خَيْرًا مِّن جَنَّتِكَ﴾ أى: فى الدار الآخرة ﴿وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا﴾ أى: على جنتك فى الدنيا التى ظننت أنها لا تبيد ولا تبنى ﴿حُسْبَانًا مِّن السَّمَاءِ﴾ الظاهر أنه مطر عظيم مزيج، يقلع زرعها وأشجارها؛ ولهذا قال: ﴿فَتَصْبِحُ صَعِيدًا زَلَقًا﴾ أى: بلقعا ترابا أملس، لا يثبت فيه قدم. وقوله: ﴿أَوْ يُصْبِحُ مَأْوَاهَا غَوْرًا﴾ أى: غائرا فى الأرض، وهو ضد النابج الذى يطلب وجه الأرض، فالغائر يطلب أسفلها، كما قال تعالى: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَأْوَكُمْ غَوْرًا فَمَنْ يَأْتِيكُمْ بِمَاءٍ مَّعِينٍ﴾ [الملك: ٣٠] أى: جار وسائح. وقال ههنا: ﴿أَوْ يُصْبِحُ مَأْوَاهَا غَوْرًا فَلَنْ تَسْتَطِيعَ لَهُ طَلْبًا﴾ والغور: مصدر بمعنى غائر، وهو أبلغ منه.

﴿وَأَحِيطَ بِشَمْرِهِ فَاصْبَحَ يَقْلَبُ كَفْيَهُ عَلَىٰ مَا أَنْفَقَ فِيهَا وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّي أَحَدًا ﴿٤١﴾ وَلَمْ تَكُن لَّهُ فِتْنَةٌ يَنْصُرُونَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مُنتَصِرًا ﴿٤٢﴾ هُنَالِكَ الْوَلَايَةُ لِلَّهِ الْحَقِّ هُوَ خَيْرٌ ثَوَابًا وَخَيْرٌ عُقْبًا ﴿٤٣﴾﴾

يقول تعالى: ﴿وَأَحِيطَ بِشَمْرِهِ﴾: بأمواله، أو بشماره على القول الآخر. والمقصود أنه وقع بهذا الكافر ما كان يحذر، مما خوّفه به المؤمن من إرسال الحسابان على جنته، التى اغتر بها وألهته عن الله، عز وجل ﴿فَاصْبَحَ يَقْلَبُ كَفْيَهُ عَلَىٰ مَا أَنْفَقَ فِيهَا﴾: يُصَفِّقُ كَفِيهِ مَتَأَسِّفًا مَتَلَهْفًا عَلَى الْأَمْوَالِ الَّتِي أَذْهَبَهَا عَلَيْهَا ﴿وَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّي أَحَدًا﴾. ولم تكن له فتنة: أى: عشيرة أو ولد، كما افتخر بهم واستعز ﴿يَنْصُرُونَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مُنتَصِرًا﴾. هنالك الولاية لله الحق: المعنى: هنالك الموالاتة لله، أى: هنالك كل أحد من مؤمن أو كافر، يرجع إلى الله وإلى موالاته والخضوع له إذا وقع العذاب، و ﴿الحق﴾ نعت لله عز وجل، كقوله: ﴿ثُمَّ رُدُّوْا إِلَى اللَّهِ مَوْلَاهُمُ الْحَقُّ أَلَا لَهُ الْحُكْمُ وَهُوَ أَسْرَعُ الْحَاسِبِينَ﴾ [الانعام: ٦٢]؛ ولهذا قال تعالى: ﴿هُوَ خَيْرٌ ثَوَابًا﴾ أى: جزاء ﴿وَخَيْرٌ عُقْبًا﴾ أى: الاعمال التى تكون لله، عز وجل، ثوابها خير، وعاقبتها حميدة رشيدة، كلها خير.

﴿وَأَضْرِبْ لَهُمْ مَثَلًا الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَا أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ الرِّيحُ وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ مُّقْتَدِرًا ﴿٤٥﴾ أَمْالٌ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمْلًا ﴿٤٦﴾﴾

يقول تعالى: ﴿وَأَضْرِبْ﴾ يا محمد للناس ﴿مَثَلًا الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ في زوالها وفنائها وانقضائها ﴿كَمَا أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ﴾ أى: ما فيها من الحب، فشب وحسن، وعلاه الزهر والنور والنضرة ثم بعد هذا كله ﴿أَصْبَحَ هَشِيمًا﴾ يابساً ﴿تَذْرُوهُ الرِّيحُ﴾ أى: تفرقه وتطرحه ذات اليمين وذات الشمال ﴿وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ مُّقْتَدِرًا﴾ أى: هو قادر على هذه الحال، وهذه الحال، وكثيراً ما يضرب الله مثل الحياة الدنيا بهذا المثل كما فى سورة يونس: ﴿إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَا أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَالْأَنْعَامُ﴾ الآية [يونس: ٢٤]، وقال فى الزمر: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَلَكَهُ يَنَابِيعُ فِي الْأَرْضِ ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِ زُرْعًا مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ﴾ الآية [الزمر: ٢١]. وقال فى سورة الحديد: ﴿اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهُمْ زِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ﴾ الآية [الحديد: ٢٠]. وفى الحديث الصحيح: «الدنيا حلوة خضرة» (١).

وقوله: ﴿أَمْالٌ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾، كقوله: ﴿زِينٌ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ﴾ الآية [آل عمران: ١٤]، وقال تعالى: ﴿إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ وَاللَّهُ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ [التغابن: ١٥] أى: الإقبال عليه والتفرغ لعبادته، خير لكم من اشتغالكم بهم والجمع لهم، والشفقة المفرطة عليهم؛ ولهذا قال: ﴿وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمْلًا﴾ قال ابن عباس: ﴿الْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ﴾: سبحان الله والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر. وهكذا سئل أمير المؤمنين عثمان بن عفان، عن: ﴿الْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ﴾ ما هى؟ فقال: هى لا إله إلا الله، وسبحان الله، والحمد لله، والله أكبر، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم. رواه الإمام أحمد عن الحارث مولى عثمان قال: جلس عثمان يوماً وجلسنا معه، فجاءه المؤذن، فدعا بماء فى إناء، أظنه أنه سيكون فيه مد، فتوضأ ثم قال: رأيت رسول الله ﷺ يتوضأ وضوئى هذا، ثم قال: «من توضأ وضوئى هذا، ثم قام فصلى صلاة الظهر، غُفِرَ له ما كان بينها وبين الصبح، ثم صلى العصر غُفِرَ له ما بينها وبين الظهر، ثم صلى المغرب غُفِرَ له ما بينها وبين العصر، ثم صلى العشاء غُفِرَ له ما بينها وبين ليلة، ثم إن قام فتوضأ وصلى صلاة الصبح، غُفِرَ له ما بينها وبين صلاة العشاء وهى الحسنات يذهبن السيئات» قالوا: هذه الحسنات فما الباقيات الصالحات يا عثمان؟ قال: هى لا إله إلا الله، وسبحان الله، والحمد لله، والله أكبر، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم. تفرد به (٢). وقال الحسن وقتادة فى قوله: ﴿الْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ﴾ قال: لا إله إلا الله، والله أكبر، والحمد لله، وسبحان الله،

(١) تقدم تخريجه عند الآية ٨ من هذه السورة.

(٢) المسند (٥١٣)، وقال الشيخ أحمد شاکر: «إسناده صحيح».

هُنَّ الْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ. روى الإمام أحمد عن مولى لرسول الله ﷺ ؛ أن رسول الله ﷺ قال : « يخ بيخ لخمس ما أثقلن في الميزان : لا إله إلا الله ، والله أكبر ، وسبحان الله والحمد لله ، والولد الصالح يتوفى فيحتسبه والده ». وقال : « يخ بيخ لخمس من لقي الله مستيقناً بهن ، دخل الجنة : يؤمن بالله ، واليوم الآخر ، وبالجنة والنار ، وبالبعث بعد الموت ، وبالحساب » (١).

وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم : هي الأعمال الصالحة كلها . واختاره ابن جرير ، رحمه الله .

﴿ وَيَوْمَ نُسِرُّ إِلَيْكَ الْجِبَالَ وَنَرَى الْأَرْضَ بَارِزَةً وَحَشَرْنَاهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا ﴿٤٧﴾ وَعَرَضُوا عَلَىٰ رَبِّكَ صَفًّا لَقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ بَلْ زَعَمْتُمْ أَلَّنْ نَجْعَلَ لَكُمْ مَوْعِدًا ﴿٤٨﴾ وَوَضَعَ الْكِتَابَ فَتَرَى الْمُتَجَرِّمِينَ مُشَفِّقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَا وَيْلَتَنَا مَالِ هَذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلَا يَظُنُّ رَبُّكَ أَحَدًا ﴿٤٩﴾ ﴾

يخبر تعالى عن أهوال يوم القيامة ، وما يكون فيه من الأمور العظام ، كما قال تعالى : ﴿ وَيَوْمَ تَمُورُ السَّمَاءُ مَوْرًا . وَنَسِيرُ الْجِبَالِ سِيرًا ﴾ [الطور: ٩ ، ١٠] أى : تذهب من أماكنها وتزول ، كما قال تعالى : ﴿ وَنَرَى الْجِبَالَ تَحْسِبُهَا جَمَادَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ ﴾ [النمل: ٨٨] ، وقال تعالى : ﴿ وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ المنفوش ﴾ [القارعة: ٥] ، وقال : ﴿ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْجِبَالِ فَقُلْ يَنْسِفُهَا رَبِّي نَسْفًا . فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا . لَا تَبْقَى فِيهَا فِيهَا عِوَجًا وَلَا أَمْتًا ﴾ [طه: ١٠٥ - ١٠٧] . يذكر تعالى أنه تذهب الجبال ، وتتساوى المهاد ، وتبقى الأرض ﴿ قَاعًا صَفْصَفًا ﴾ أى : سطحاً مستوياً لا عوج فيه ﴿ وَلَا أَمْتًا ﴾ أى : لا وادى ولا جبل ؛ ولهذا قال تعالى : ﴿ وَنَرَى الْأَرْضَ بَارِزَةً ﴾ [أى : بادية ظاهرة ، ليس فيها معلّم لأحد ولا مكان يوارى أحداً ، بل الخلق كلهم ضاحون لربهم لا تخفى عليه منهم خافية .

وقوله : ﴿ وَحَشَرْنَاهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا ﴾ أى : وجمعناهم ، الأولين منهم والآخرين ، فلم نترك منهم أحداً ، لا صغيراً ولا كبيراً ، كما قال : ﴿ قُلْ إِنَّ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ . لَمَجْمُوعُونَ إِلَىٰ مِيقَاتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴾ [الواقعة: ٤٩ ، ٥٠] ، وقال : ﴿ ذَلِكَ يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَهُ النَّاسُ وَذَلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ ﴾ [هود: ١٠٣] . وقوله : ﴿ وَعَرَضُوا عَلَىٰ رَبِّكَ صَفًّا ﴾ : يحتمل أن يكون المراد : أن جميع الخلائق يقومون بين يدي الله صفًّا واحداً ، كما قال تعالى : ﴿ يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ وَالْمَلَائِكَةُ صَفًّا لَا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أذنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَقَالَ صَوَابًا ﴾ [النبا: ٣٨] ، ويحتمل أنهم يقومون صفوفاً صفوفاً ، كما قال : ﴿ وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا ﴾ [الفجر: ٢٢] . وقوله : ﴿ لَقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ ﴾ : هذا تفرقة للمتكبرين للمعاد ، وتوبيخ لهم على رؤوس الأشهاد ؛ ولهذا قال مخاطباً لهم : ﴿ بَلْ زَعَمْتُمْ أَلَّنْ نَجْعَلَ لَكُمْ مَوْعِدًا ﴾ أى : ما كان ظنكم أن هذا واقع بكم ، ولا أن هذا كائن .

(١) المسند (٤ / ٢٣٧) وقال الهيثمي في المجمع (١٠ / ٩١) : « رجاله رجال الصحيح » .

وقوله: ﴿وَوَضِعَ الْكِتَابَ﴾ أى: كتاب الأعمال، الذى فيه الجليل والحقير، والفتيل والقطمير، والصغير والكبير ﴿فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ﴾ أى: من أعمالهم السيئة وأفعالهم القبيحة، ﴿وَيَقُولُونَ يَا وَيْلَتَنَا﴾ أى: يا حسرتنا وويلنا على ما فرط فى أعمارنا ﴿مَا لِهَذَا الْكِتَابِ لَا يَقَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا﴾ أى: لا يترك ذنباً صغيراً ولا كبيراً ولا عملاً وإن صغر ﴿إِلَّا أَحْصَاهَا﴾ أى: ضبطها، وحفظها. وقوله: ﴿وَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا﴾ أى: من خير أو شر، كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحَضَّرًا﴾ الآية [آل عمران: ٣٠]، وقال تعالى: ﴿يُنَبِّئُ الْإِنْسَانَ يَوْمَئِذٍ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ﴾ [القيامة: ١٣]، وقال تعالى: ﴿يَوْمَ تَبْلَى السَّرَائِرُ﴾ [الطارق: ٩] أى: تظهر المخبآت والضمائر. روى الإمام أحمد عن أنس، عن النبي ﷺ قال: «لكل غادر لواء يوم القيامة يعرف به». أخرجاه فى الصحيحين (١).

وقوله: ﴿وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾ أى: فيحكم بين عباده فى أعمالهم جميعاً، ولا يظلم أحداً من خلقه، بل يغفر ويصفح ويرحم ويعذب من يشاء، بقدرته وحكمته وعدله، ويملا النار من الكفار وأصحاب المعاصى، ثم ينجى أصحاب المعاصى، ويؤخذ فيها الكافرين، وهو الحاكم الذى لا يجوز ولا يظلم، قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِنْ تَكَ حَسَنَةً يَضَاعِفْهَا﴾ الآية [النساء: ٤٠]، وقال: ﴿وَتَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا﴾ إلى قوله: ﴿حَاسِبِينَ﴾ [الانبيا: ٤٧] والآيات فى هذا كثيرة.

﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ أَفَسَتَّخَذُونَ دَرِيئَتَهُ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَأَنْتُمْ لِلظَّالِمِينَ بَدَلًا﴾

يقول تعالى منبهاً بنى آدم على عداوة إبليس لهم ولأبيهم من قبلهم، ومقرعاً لمن اتبعه منهم وخالف خالقه ومولاه، الذى أنشأه وابتداه، وبإلطف رزقه غذاه، ثم بعد هذا كله والى إبليس وعادى الله، فقال تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ﴾ أى: لجميع الملائكة، كما تقدم تقريره فى أول سورة «البقرة» (٢) ﴿اسْجُدُوا لِآدَمَ﴾ أى: سجود تشريف وتكريم وتعظيم، كما قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ. فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ﴾ [الحجر: ٢٨، ٢٩].

وقوله: ﴿فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ﴾ أى: خانه أصله؛ فإنه خلق من مارج من نار، وأصل خلق الملائكة من نور، كما ثبت فى صحيح مسلم عن عائشة، عن رسول الله ﷺ، أنه قال: «خلقت الملائكة من نور، وخلق إبليس من مارج من نار، وخلق آدم مما وصف لكم» (٣). فعند الحاجة نضح كل وعاء بما فيه، وخانه الطبع عند الحاجة، وذلك أنه كان قد توسم بأفعال

(١) المسند (٣ / ١٤٢) والبخارى (٣١٨٦) ومسلم (١٧٣٧ / ١٥).

(٢) عند الآية رقم (٣٤). (٣) مسلم (٢٩٩٦ / ٦٠).

الملائكة وتشبه بهم، وتعبد وتنسك، فلهذا دخل في خطابهم، وعصى بالمخالفة .

ونبه تعالى ههنا على أنه ﴿مِنَ الْجِنِّ﴾ أى: إنه خُلِقَ من نار، كما قال: ﴿أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ﴾ [الاعراف: ١٢، وص: ٧٦]. قال الحسن البصرى: ما كان إبليس من الملائكة طرفة عين قط، وإنه لأصل الجن، كما أن آدم، عليه السلام، أصل البشر. رواه ابن جرير بإسناد صحيح عنه. وقد روى فى هذا آثار كثيرة عن السلف، وغالبها من الإسرائيليات التى تنقل لينظر فيها، واللّه أعلم بحال كثير منها. ومنها ما قد يقطع بكذبه لمخالفته للحق الذى بأيدينا، وفى القرآن غنيّة عن كل ما عداه من الأخبار المتقدمة؛ لأنها لا تكاد تخلو من تبديل وزيادة ونقصان، وقد وضع فيها أشياء كثيرة، وليس لهم من الحفاظ المتقين الذين يَنْفُونَ عنها تحريف الغالين وانتحال المبطلين، كما لهذه الأمة من الأئمة العلماء، والسادة الأتقياء والبررة والنجباء، من الجهابذة النقاد، والحفاظ الجياد، الذين دونوا الحديث وحرروه، وبيّنوا صحيحه من حسنه، من ضعيفه، من منكره وموضوعه، ومتروكه ومكذوبه، وعرفوا الوضاعين والكذابين والمجهولين، وغير ذلك من أصناف الرجال، كل ذلك صيانة للجناب النبوى والمقام المحمدي، خاتم الرسل، وسيد البشر ﷺ أن ينسب إليه كذب، أو يحدث عنه بما ليس منه، فرضى الله عنهم وأرضاهم، وجعل جنات الفردوس مأواهم، وقد فَعَلَ.

وقوله: ﴿فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ﴾ أى: فخرج عن طاعة الله؛ فإن الفسق هو الخروج، يقال: فَسَقَتِ الرُّطْبَةُ: إذا خرجت من أكمامها، وفسقت الفأرة من جُحْرها: إذا خرجت منه للعيث والفساد. ثم قال تعالى مقرعاً وموبخاً لمن اتبعه وأطاعه: ﴿أَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِي﴾ الآية، أى: بدلاً عنى؛ ولهذا قال: ﴿بئسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلًا﴾. وهذا المقام كقوله بعد ذكر القيامة وأحوالها ومصير كل من الفريقين السعداء والأشقياء فى سورة يس: ﴿وَأَمَّا زُوا أَيْهَا الْمُجْرِمُونَ﴾ إلى قوله: ﴿أَلَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ﴾ [يس: ٥٩ - ٦٢].

رب ﴿مَا أَشْهَدْتُهُمْ خَلْقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَا خَلْقَ أَنفُسِهِمْ وَمَا كُنْتُمْ تُخَذِّلِينَ

عَضُدًا ﴿٥١﴾

يقول تعالى: هؤلاء الذين اتخذوهم أولياء من دونى عبيد أمثالكم، لا يملكون شيئاً، ولا أشهدتهم خلق السموات والأرض، ولا كانوا إذ ذاك موجودين، يقول تعالى: أنا المستقل بخلق الأشياء كلها، ومدبرها ومقدرها وحدى، ليس معى فى ذلك شريك ولا وزير، ولا مشير ولا نظير، كما قال: ﴿قُلْ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهَا مِنْ شِرْكَ وَمَا لَهُ مِنْهُمْ مِنْ ظَهِيرٍ. وَلَا تَتَفَعَّلُ الشَّفَاعَةُ عِنْدَهُ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ﴾ الآية [سبا: ٢٢، ٢٣]؛ ولهذا قال: ﴿وَمَا كُنْتُمْ تُخَذِّلِينَ عَضُدًا﴾ قال مالك: أعواناً .

﴿ وَيَوْمَ يَقُولُ نَادُوا شُرَكَائِيَ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ مَوْبِقًا ﴿٥٢﴾ وَرَأَى الْمُجْرِمُونَ النَّارَ فَظَنُّوا أَنَّهُمْ مُوَاقِعُوهَا وَلَمْ يَجِدُوا عَنْهَا مَصْرِفًا ﴿٥٣﴾ ﴾

يقول تعالى مخبراً عما يُخاطب به المشركين يوم القيامة على رؤوس الأشهاد تقريباً لهم وتوبيخاً: ﴿نَادُوا شُرَكَائِيَ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ﴾ أى: فى دار الدنيا، ادعوهم اليوم، ينقذونكم مما أنتم فيه، كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فِرَادَى كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُمْ مَا خَوَّلْنَاكُمْ وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ وَمَا نَرَى مَعَكُمْ شُفَعَاءَ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَاءَ لَقَدْ تَقَطَّعَ بَيْنَكُمْ وَضَلَّ عَنْكُمْ مَا كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ﴾ [الأنعام: ٩٤].

وقوله: ﴿فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ﴾ كما قال: ﴿وَقِيلَ ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ﴾ الآية [القصص: ٦٤]، وقال: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُو مِنْ دُونِ اللَّهِ مَنْ لَأ يَسْتَجِيبَ لَهُ﴾ الآيتين [الاحقاف: ٥، ٦]، وقال تعالى: ﴿وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لِيَكُونُوا لَهُمْ عِزًّا. كَلَّا سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا﴾ [مریم: ٨١، ٨٢]. وقوله: ﴿وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ مَوْبِقًا﴾ مهلكاً. والمعنى: أن الله تعالى بين أنه لا سبيل لهؤلاء المشركين، ولا وصول لهم إلى آلهتهم التى كانوا يزعمون فى الدنيا، وأنه يفرق بينهم وبينها فى الآخرة، فلا خلاص لأحد من الفريقين إلى الآخر، بل بينهما مهلك وهول عظيم وأمر كبير.

وقوله: ﴿وَرَأَى الْمُجْرِمُونَ النَّارَ فَظَنُّوا أَنَّهُمْ مُوَاقِعُوهَا وَلَمْ يَجِدُوا عَنْهَا مَصْرِفًا﴾ أى: إنهم لما عاينوا جهنم حين جىء بها تقاد بسبعين ألف زمام، مع كل زمام سبعون ألف ملك، فإذا رأى المجرمون النار، تحققوا لا محالة أنهم موافقوها، ليكون ذلك من باب تعجيل الهم والحزن لهم، فإن توقع العذاب والخوف منه قبل وقوعه، عذاب ناجز ﴿وَلَمْ يَجِدُوا عَنْهَا مَصْرِفًا﴾ أى: ليس لهم طريق يعدل بهم عنها ولا بد لهم منها .

﴿ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَذَا الْقُرْآنِ لِلنَّاسِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ وَكَانَ الْإِنْسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا ﴿٥٤﴾ ﴾

يقول تعالى: ولقد بينا للناس فى هذا القرآن، ووضحنا لهم الأمور، وفصلناها، كيلا يضلوا عن الحق، ويخرجوا عن طريق الهدى. ومع هذا البيان وهذا الفرقان، الإنسان كثير المجادلة والمخاصمة والمعارضة للحق بالباطل، إلا من هدى الله وبصره لطريق النجاة . روى الإمام أحمد عن على بن أبى طالب، أن رسول الله ﷺ طرده وفاطمة بنت رسول الله ﷺ ليلة، فقال: «ألا تصليان؟» فقلت: يارسول الله، إنما أنفسنا بيد الله، فإذا شاء أن يبعثنا بعثنا. فانصرف حين قلت ذلك، ولم يرجع إلى شيئاً، ثم سمعته وهو مول يضرب فخذة ويقول: ﴿وَكَانَ الْإِنْسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا﴾. أخرجاه فى الصحيحين (١).

﴿ وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَىٰ وَسْتَغْفِرُوا رَبَّهُمْ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمْ سُنَّةُ الْأَوَّلِينَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ قُبُلًا ﴾ ﴿٥٥﴾ وَمَا نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا مَبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَمُجَادِلِ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ وَاتَّخَذُوا آيَاتِي وَمَا أُنذِرُوا هُزُوًا ﴿٥٦﴾

يخبر تعالى عن تمرد الكفرة في قديم الزمان وحديثه، وتكذيبهم بالحق البين الظاهر مع ما يشاهدون من الآيات والدلالات الواضحات، وأنه ما منعهم من اتباع ذلك إلا طلبهم أن يشاهدوا العذاب الذي وعدوا به عياناً، كما قال أولئك لنبيهم: ﴿فَأَسْقُطْ عَلَيْنَا كِسْفًا مِّنَ السَّمَاءِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ [الشعراء: ١٨٧]، وآخرون قالوا: ﴿إِنَّا بَعْدَآبِ اللَّهِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ [المنكوث: ٢٩]، وقالت قريش: ﴿اللَّهُمَّ إِنْ كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَابًا مِّنَ السَّمَاءِ أَوْ إِنَّا بِعَذَابِ أَلِيمٍ﴾ [الأنفال: ٣٢]، وَقَالُوا يَا أَيُّهَا الَّذِي نَزَّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرَ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ. لَوْ مَا تَأْتِيْنَا بِالْمَلَآئِكَةِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ [الحجر: ٦، ٧] إلى غير ذلك من الآيات الدالة على ذلك.

ثم قال: ﴿إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمْ سُنَّةُ الْأَوَّلِينَ﴾ من غشيانهم بالعذاب وأخذهم عن آخرهم ﴿أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ قُبُلًا﴾ أى: يرونه عياناً مواجهة، ثم قال: ﴿وَمَا نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا مَبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ﴾ أى: قبل العذاب مبشرين من صدقهم وآمن بهم، ومنذرين لمن كذبهم وخالفهم. ثم أخبر عن الكفار بأنهم يجادلون بالباطل ﴿لِيُدْحِضُوا بِهِ﴾ أى: ليضعفوا به ﴿الْحَقَّ﴾ الذى جاءتهم به الرسل، وليس ذلك بحاصل لهم ﴿وَاتَّخَذُوا آيَاتِي وَمَا أُنذِرُوا هُزُوًا﴾ أى: اتخذوا الحجج والبراهين وخوارق العادات التى بعث بها الرسل وما أنذروهم وخوفوهم به من العذاب ﴿هُزُوًا﴾ أى: سخروا منهم فى ذلك، وهو أشد التكذيب.

﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ فَأَعْرَضَ عَنْهَا وَنَسِيَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاؤُهُ إِنَّا جَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِنْ تَدْعُهُمْ إِلَى الْهُدَىٰ فَلَنْ يَهْتَدُوا إِلَّا إِذَا أَبَدًا ﴾ ﴿٥٧﴾ وَرَبُّكَ الْغَفُورُ ذُو الرَّحْمَةِ لَوْ يُؤَاخِذُهُمْ بِمَا كَسَبُوا لَعَجَلْ لَّهُمُ الْعَذَابُ بَلْ لَهُمْ مَوْعِدٌ لَّنْ يَجِدُوا مِنْ دُونِهِ مَوْئِلًا ﴿٥٨﴾ وَتِلْكَ الْقُرَىٰ أَهْلَكْنَاهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِمْ مَوْعِدًا ﴿٥٩﴾

يقول تعالى: وأى عباد الله أظلم ممن ذكر بآيات الله ﴿فَأَعْرَضَ عَنْهَا﴾ أى: تناساها وأعرض عنها، ولم يصيغ لها، ولا ألقى إليها بالاً ﴿وَنَسِيَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاؤُهُ﴾ أى: من الأعمال السيئة والأفعال القبيحة ﴿إِنَّا جَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾ أى: قلوب هؤلاء ﴿أَكِنَّةً﴾ أى: أغطية وغشاوة أن يفقهوه ﴿أى: لئلا يفهموا هذا القرآن والبيان ﴿وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا﴾ أى: صمما معنوياً عن الرشاد ﴿وَإِنْ تَدْعُهُمْ إِلَى الْهُدَىٰ فَلَنْ يَهْتَدُوا إِلَّا إِذَا أَبَدًا﴾. وقوله: ﴿وَرَبُّكَ الْغَفُورُ ذُو الرَّحْمَةِ﴾ أى: ربك - يا محمد - غفور ذو رحمة واسعة ﴿لَوْ يُؤَاخِذُهُمْ بِمَا كَسَبُوا لَعَجَلْ لَّهُمُ الْعَذَابُ﴾، كما قال: ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِمَا كَسَبُوا مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِهَا مِنْ دَابَّةٍ﴾ [فاطر: ٤٥]، وقال: ﴿وَإِنْ رَبُّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِّلنَّاسِ عَلَىٰ ظُلْمِهِمْ وَإِنَّ رَبُّكَ لَشَدِيدٌ

العُقَاب ﴿الرعد:٦٠﴾. والآيات في هذا كثيرة. ثم أخبر أنه يحلم ويستر ويغفر، وربما هدى بعضهم من الغى إلى الرشاد، ومن استمر منهم فله يوم يشيب فيه الوليد، وتضع كل ذات حمل حملها؛ ولهذا قال: ﴿بَلْ لَهُمْ مَوْعِدٌ لَّنْ يَجِدُوا مِنْ دُونِهِ مَوْثِقًا﴾ أى: ليس لهم عنه محيد ولا محيص ولا معدل.

وقوله: ﴿وَتِلْكَ الْقُرَىٰ أَهْلَكْنَاهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا﴾ أى: الأمم السالفة والقرون الخالية أهلكتناهم بسبب كفرهم وعنادهم ﴿وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِمْ مَوْعِدًا﴾ أى: جعلناه إلى مدة معلومة ووقت معين، لا يزيد ولا ينقص، أى: وكذلك أنتم أيها المشركون، احذروا أن يصيبكم ما أصابهم، فقد كذبتهم أشرف رسول وأعظم نبي، ولستم بأعز علينا منهم، فخافوا عذابي ونذر.

﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِفَتْنِهِ لَآ أُبْرِحُ حَتَّىٰ أَبْلُغَ مَجْمَعَ الْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِيَ حُقْبًا ﴿١١﴾ فَلَمَّا بَلَغَا مَجْمَعَ بَيْنَهُمَا نَسِيَا حُوتَهُمَا فَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ سَرَبًا ﴿١٢﴾ فَلَمَّا جَاوَزَا قَالَ لِفَتْنِهِ ءَإِنَّا غَدَاءُنَا لَقَدْ لَقِينَا مِنْ سَفَرِنَا هَذَا نَصَبًا ﴿١٣﴾ قَالَ أَرَأَيْتَ إِذْ أَوَّيْنَا إِلَى الصَّخْرَةِ فَإِنِّي نَسِيتُ الْحُوتَ وَمَا أَنسَيْنِيهِ إِلَّا الشَّيْطَانُ أَنْ أَذْكُرَهُ وَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ عَجَبًا ﴿١٤﴾ قَالَ ذَلِكَ مَا كُنَّا نَبِغُ فَارْتَدَّا عَلَىٰ آثَارِهِمَا قَصَصًا ﴿١٥﴾ فَوَجَدَا عَبْدًا مِنْ عِبَادِنَا ءَإِيْتِنَاهُ رَحْمَةً مِّنْ عِنْدِنَا وَعَلَّمْنَاهُ مِنْ لَّدُنَّا عِلْمًا ﴿١٥﴾﴾

سبب قول موسى لفتاه - وهو: يوشع بن نون - هذا الكلام: أنه ذكر له أن عبداً من عباد الله بمجمع البحرين، عنده من العلم ما لم يحط به موسى، فأحب الذهاب إليه، وقال لفتاه ذلك: ﴿لَا أُبْرِحُ﴾ أى لا أزال سائراً ﴿حَتَّىٰ أَبْلُغَ مَجْمَعَ الْبَحْرَيْنِ﴾ أى: هذا المكان الذى فيه مجمع البحرين، قال قتادة وغير واحد: وهما بحر فارس مما يلى المشرق، وبحر الروم مما يلى المغرب. وقال محمد بن كعب القرظي: مجمع البحرين عند طنجة، يعنى فى أقصى بلاد المغرب، فالله أعلم. وقوله: ﴿أَوْ أَمْضِيَ حُقْبًا﴾ أى: ولو أنى أسير حقباً من الزمان. قال ابن جرير: ذكر بعض أهل العلم بكلام العرب أن الحُقْبُ فى لغة قيس: سنة. ثم قد روى عن عبد الله بن عمرو أنه قال: الحُقْبُ ثمانون سنة. وقال ابن عباس قوله: ﴿أَوْ أَمْضِيَ حُقْبًا﴾ قال: دهرأ.

وقوله: ﴿فَلَمَّا بَلَغَا مَجْمَعَ بَيْنَهُمَا نَسِيَا حُوتَهُمَا﴾ وذلك أنه كان قد أمر بحمل حوت مملوح معه، وقيل له: متى فقدت الحوت فهو ثمة. فسارا حتى بلغا مجمع البحرين؛ وهناك عين يقال لها: «عين الحياة»، فناما هنالك، وأصاب الحوت من رشاش ذلك الماء، فاضطرب، وكان فى مكثل مع يوشع عليه السلام، وطَفَر من المكثل إلى البحر، فاستيقظ يوشع، عليه السلام، وسقط الحوت فى البحر فجعل يسير فيه، والماء له مثل الطاق لا يلتصم بعده؛ ولهذا قال تعالى: ﴿فَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ سَرَبًا﴾ أى: مثل السَّرَب فى الأرض. قال ابن عباس: صار أثره كأنه حَجَر.

وقوله: ﴿فَلَمَّا جَاوَزَا﴾ أى: المكان الذى نسيا الحوت فيه، ونُسب النسيان إليهما وإن كان

يُوشَع هو الذى نسيه، كقوله تعالى : ﴿يَخْرُجُ مِنْهُمَا اللَّؤْلُؤُ وَالْمَرْجَانُ﴾ [الرحمن: ٢٢]، وإنما يخرج من المالح فى أحد القولين .

فلما ذهب عن المكان الذى نسيه فيه مَرَحَلَةً ﴿قَالَ﴾ موسى ﴿لِفَتَاهُ أَتَيْنَا غَدَاءَنَا لَقَدْ لَقِينَا مِنْ سَفَرِنَا هَذَا﴾ أى : الذى جاوزا فيه المكان ﴿نَصَبًا﴾ يعنى : تعباً ﴿قَالَ أَرَأَيْتَ إِذْ أَوَيْنَا إِلَى الصَّخْرَةِ فَإِنِّي نَسِيتُ الْحُوتَ وَمَا أَنسَانِيهُ إِلَّا الشَّيْطَانُ أَنْ أَذْكُرَهُ﴾ وقرأ ابن مسعود : « أن أذكر له »، ولهذا قال : ﴿وَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ﴾ أى : طريقه ﴿فِي الْبَحْرِ عَجَبًا﴾ . قَالَ ذَلِكَ مَا كُنَّا نَبْغُ ﴿ أى : هذا الذى نطلب ﴿فَارْتَدَّا﴾ أى : رجعا ﴿عَلَىٰ آثَارِهِمَا﴾ أى : طريقهما ﴿فَقَصَّ﴾ أى : يقصان آثار مشيهما ، ويقفوان أثرهما . ﴿فَوَجَدَا عَبْدًا مِنْ عِبَادِنَا آتِيَاهُ رَحْمَةً مِنْ عِبَدِنَا وَعَلَّمْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا عِلْمًا﴾ وهذا هو الخضر، عليه السلام، كما دلت عليه الأحاديث الصحيحة عن رسول الله ﷺ . روى البخارى عن سعيد بن جبير قال : قلت لابن عباس : أن نوحاً الْبِكَالِيَّ يزعم أن موسى صاحب الخضر، عليه السلام، ليس هو موسى صاحب بنى إسرائيل . قال ابن عباس : كذب عدو الله، حدثنا أبى بن كعب، رضى الله عنه، أنه سمع رسول الله ﷺ يقول : « إن موسى قام خطيباً فى بنى إسرائيل فُسِّلَ : أى الناس أعلم؟ قال : أنا . فعتب الله عليه إذ لم يرِدْ العلم إليه ، فأوحى الله إليه : إن لى عبداً بمجمع البحرين هو أعلم منك . قال موسى : يارب، وكيف لى به ؟ قال : تأخذ معك حوتاً، تجعله بمكثل، فحيثما فقدت الحوت فهو ثم . فأخذ حوتاً، فجعله بمكثل، ثم انطلق وانطلق معه فتاه يوشع بن نون عليه السلام، حتى إذا أتيا الصخرة وضعا رؤوسهما فناما، واضطرب الحوت فى المكثل ، فخرج منه ، فسقط فى البحر فاتخذ سبيله فى البحر سرباً، وأمسك الله عن الحوت جرية الماء، فصار عليه مثل الطاق . فلما استيقظ نسى صاحبه أن يخبره بالحوت، فانطلقا بقية يومهما وليلتهما، حتى إذا كان من الغداة قال موسى لفتاه : ﴿أَتَيْنَا غَدَاءَنَا لَقَدْ لَقِينَا مِنْ سَفَرِنَا هَذَا نَصَبًا﴾ ولم يجد موسى النَّصَبَ حتى جاوز المكان الذى أمره الله به . قال له فتاه : ﴿أَرَأَيْتَ إِذْ أَوَيْنَا إِلَى الصَّخْرَةِ فَإِنِّي نَسِيتُ الْحُوتَ وَمَا أَنسَانِيهُ إِلَّا الشَّيْطَانُ أَنْ أَذْكُرَهُ وَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ عَجَبًا﴾ قال : «كان للحوت سرباً ولموسى وفتاه عجباً ، فقال : ﴿ذَلِكَ مَا كُنَّا نَبْغُ فَارْتَدَّا عَلَىٰ آثَارِهِمَا قَصَصًا﴾ . قال : «فرجعا يقصان أثرهما حتى انتهيا إلى الصخرة، فإذا رجل مُسَجَّى بثوب، فسلم عليه موسى، فقال الخضر : وأنى بأرضك السلام! . فقال : أنا موسى . فقال : موسى بنى إسرائيل؟ قال : نعم، أتيتك لتعلمنى مما علّمت شداً . ﴿قَالَ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا﴾ ، ياموسى إنى على علم من علم الله علمنيه ، لاتعلمه أنت ، وأنت على علم من علم الله علّمكه الله لا أعلمه . فقال موسى : ﴿سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ صَابِرًا وَلَا أَعْصِي لَكَ أَمْرًا﴾ قال له الخضر : ﴿فَإِنْ اتَّبَعْتَنِي فَلَا تَسْأَلْنِي عَنْ شَيْءٍ حَتَّىٰ أُحَدِّثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا﴾ . فانطلقا يمسيان على ساحل البحر، فمرت سفينة فكلمهم أن يحملوهم، فعرفوا الخضر، فحملوهم بغير نول، فلما ركبا فى السفينة لم يفجأ إلا والخضر قد قلع لوحاً من ألواح السفينة بالقدوم، فقال له موسى : قد حملونا بغير نول فعمدت إلى سفينتهم فخرقتها لتغرق أهلها ؟ لقد جئت شيئاً إمرأ . ﴿قَالَ أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا﴾ . قَالَ لَا تَزَادِينِي بِمَا نَسِيتُ

وَلَا تُرْهِقْنِي مِنْ أَمْرِي عُسْرًا ﴿٦٦﴾ قال: وقال رسول الله ﷺ: «فكانت الأولى من موسى نسياناً». قال: وجاء عصفور فوق على حرف السفينة فنقر فى البحر نقرَةً، أو نقرتين، فقال له الخضر: ما علمى وعلمك فى علم الله إلا مثل ما نقص هذا العصفور من هذا البحر. ثم خرجا من السفينة، فبينما هما يمشيان على الساحل إذ أبصر الخضر غلاماً يلعب مع الغلمان، فأخذ الخضر رأسه فاقتلعه بيده فقتله، فقال له موسى: ﴿أَقْتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةً بِغَيْرِ نَفْسٍ لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا نُكْرًا. قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكَ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا﴾؟! قال: «وهذه أشد من الأولى»، ﴿قَالَ إِنْ سَأَلْتِكَ عَنْ شَيْءٍ بَعْدَهَا فَلَا تُصَاحِبْنِي قَدْ بَلَغْتَ مِنْ لَدُنِّي عُذْرًا. فَانْطَلَقَا حَتَّى إِذَا أَتَى أَهْلَ قَرْيَةٍ اسْتَطَعَا أَهْلُهَا فَابْرًا أَنْ يُضَيِّقُوهُمَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَنْ يَنْقُصَ أَى: مائلاً فقال الخضر بيده: ﴿فَأَقَامَهُ﴾، فقال موسى: قوم أتيناهم فلم يطعمونا ولم يضيفونا ﴿لَوْ شِئْتَ لَاتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا. قَالَ هَذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا﴾. فقال رسول الله ﷺ: «وددنا أن موسى كان صبر حتى يقص الله علينا من خبرهما». قال سعيد بن جبير: كان ابن عباس يقرأ: « وكان أمامهم ملك يأخذ كل سفينة صالحة غصباً » وكان يقرأ: «وأما الغلام فكان كافراً وكان أبواه مؤمنين» (١).

﴿قَالَ لَهُ مُوسَى هَلْ أَتَيْتَكَ عَلَىٰ أَنْ تَعْلَمَٰنَ مِمَّا عَلِمْتَٰ رُشْدًا﴾ ﴿٦٧﴾ قَالَ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ﴿٦٨﴾ وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِ خُبْرًا ﴿٦٩﴾ قَالَ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ صَابِرًا وَلَا أَعْصِي لَكَ أَمْرًا ﴿٧٠﴾ قَالَ فَإِنِ اتَّبَعْتَنِي فَلَا تَتَسَلَّنِي عَنْ شَيْءٍ حَتَّىٰ أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا ﴿٧١﴾

يخبر تعالى عن قيل موسى، عليه السلام، لذلك العالم، وهو الخضر، الذى خصه الله بعلم لم يطلع عليه موسى، كما أنه أعطى موسى من العلم ما لم يعطه الخضر ﴿قَالَ لَهُ مُوسَىٰ هَلْ أَتَيْتَكَ﴾ سؤال تطف، لا على وجه الإلزام والإجبار. وهكذا ينبغي أن يكون سؤال المتعلم من العالم. وقوله: ﴿أَتَيْتَكَ﴾ أى: أصحبك وأرافقت ﴿عَلَىٰ أَنْ تَعْلَمَٰنَ مِمَّا عَلِمْتَٰ رُشْدًا﴾ أى: مما علمك الله شيئاً، أسترشد به فى أمرى، من علم نافع وعمل صالح. فعندها ﴿قَالَ﴾ الخضر لموسى: ﴿إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا﴾ أى: إنك لا تقدر على مصاحبتى لما ترى منى من الأفعال التى تخالف شريعتك، لأنى على علم من علم الله، ما علمك الله، وأنت على علم من علم الله، ما علمنيه الله، فكل منا مكلف بأمر من الله دون صاحبه، وأنت لا تقدر على صحبتي ﴿وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِ خُبْرًا﴾، فأنا أعرف أنك ستنكر على ما أنت معذور فيه، ولكن ما اطلعت على حكمته ومصالحته الباطنة التى اطلعت أنا عليها دونك ﴿قَالَ﴾ أى: موسى: ﴿سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ صَابِرًا﴾ أى: على ما أرى من أمورك ﴿وَلَا أَعْصِي لَكَ أَمْرًا﴾ أى: ولا أخالفك فى شيء. فعند ذلك شارطه الخضر ﴿قَالَ فَإِنِ اتَّبَعْتَنِي فَلَا تَسْأَلْنِي عَنْ شَيْءٍ﴾ أى: ابتداءً ﴿حَتَّىٰ أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا﴾ أى: حتى أبدأك أنا به قبل أن تسألنى .

﴿ فَانْطَلَقَا حَتَّىٰ إِذَا رَكِبَا فِي السَّفِينَةِ خَرَقَهَا قَالَ أَخَرَقْنَاهَا لِنُغْرِقَ أَهْلَهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا إِمْرًا ﴿٧١﴾ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ﴿٧٢﴾ قَالَ لَا تُؤَاخِذْنِي بِمَا نَسِيتُ وَلَا تُرْهِقْنِي مِنْ أَمْرِي عُسْرًا ﴿٧٣﴾ ﴾

يقول تعالى مخبراً عن موسى وصاحبه، وهو الخضر، أنهما انطلقا لما توافقا واصطحبا، واشترط عليه ألا يسأله عن شيء أنكره حتى يكون هو الذي يبتدئه من تلقاء نفسه بشرحه وبيانه، فركبا في السفينة. فلما استقلت بهم السفينة في البحر، ولججت، أى: دخلت اللجة، قام الخضر فخرقها، واستخرج لوحاً من الواحها، ثم رقعها. فلم يملك موسى، عليه السلام، نفسه أن قال منكرأ عليه: ﴿ أَخَرَقْتَهَا لِغُرُقِ أَهْلِهَا ﴾. وهذه اللام لام العاقبة لا لام التعليل ﴿ لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا إِمْرًا ﴾: منكرأ. فعندها قال له الخضر مذكراً بما تقدم من الشرط: ﴿ أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ﴾ يعنى وهذا الصنيع فعلته قصدأ، وهو من الأمور التى اشترطت معك ألا تنكر على فيها، لأنك لم تحط بها خيراً، ولها دخل هو مصلحة، ولم تعلمه أنت ﴿ قَالَ ﴾ أى موسى: ﴿ لَا تُؤَاخِذْنِي بِمَا نَسِيتُ وَلَا تُرْهِقْنِي مِنْ أَمْرِي عُسْرًا ﴾ أى: لا تضيق علىّ وتشدد علىّ .

﴿ فَانْطَلَقَا حَتَّىٰ إِذَا لَقِيَا غُلَامًا فَقَتَلَهُ قَالَ أَقْتَلْتَنِي نَفْسًا زَكِيَّةً بِغَيْرِ نَفْسٍ لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا نُكْرًا ﴿٧٤﴾ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ﴿٧٥﴾ قَالَ إِنْ سَأَلْتَنِي عَنْ شَيْءٍ بَعْدَهَا فَلَا تُصَحِّبْنِي قَدْ بَلَغْتَ مِنْ لَدُنِّي عُذْرًا ﴿٧٦﴾ ﴾

الجزء
١٦

يقول تعالى: ﴿ فَانْطَلَقَا ﴾ أى: بعد ذلك ﴿ حَتَّىٰ إِذَا لَقِيَا غُلَامًا فَقَتَلَهُ ﴾ فلما شاهد موسى، عليه السلام، هذا أنكره أشد من الأول، وبادر فقال: ﴿ أَقْتَلْتَنِي نَفْسًا زَكِيَّةً ﴾ أى صغيرة لم تعمل الحنث، ولا عملت إثماً بعد، فقتلته؟! ﴿ بِغَيْرِ نَفْسٍ ﴾ أى: بغير مستند لقتله ﴿ لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا نُكْرًا ﴾ أى: ظاهر النكارة ﴿ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ﴾ فأكد أيضاً فى التذكار بالشرط الأول؛ فلهذا قال له موسى: ﴿ إِنْ سَأَلْتَنِي عَنْ شَيْءٍ بَعْدَهَا ﴾ أى: إن اعترضت عليك بشيء بعد هذه المرة ﴿ فَلَا تُصَحِّبْنِي قَدْ بَلَغْتَ مِنْ لَدُنِّي عُذْرًا ﴾ أى: قد أعدرت إلىّ مرة بعد مرة.

﴿ فَانْطَلَقَا حَتَّىٰ إِذَا آتَىٰ أَهْلَ قَرْيَةٍ اسْتَطَعَمَا أَهْلَهَا فَأَبَوْا أَنْ يُضَيِّقُوهُمَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَنْ يَنْقُضَ فَاقَامَهُ قَالَ لَوْ شِئْتَ لَتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴿٧٧﴾ قَالَ هَذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ سَأُنَبِّئُكَ بِمَا لَمْ تَسْتَطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا ﴿٧٨﴾ ﴾

يقول تعالى مخبراً عنهما: إنهما انطلقا بعد المرتين الاولتين ﴿ حَتَّىٰ إِذَا آتَىٰ أَهْلَ قَرْيَةٍ ﴾ عن ابن سيرين أنها الايلة ﴿ فَأَبَوْا أَنْ يُضَيِّقُوهُمَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَنْ يَنْقُضَ ﴾ إسناد الإرادة ههنا إلى الجدار على سبيل الاستعارة، فإن الإرادة فى المحدثات بمعنى الميل. والانقضاض هو: السقوط. وقوله:

﴿ فَأَقَامَهُ ﴾ أى : فردّه إلى حالة الاستقامة، وهذا خارق ، فعند ذلك قال موسى له : ﴿ لَوْ شِئْتَ لَاتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴾ أى : لأجل أنهم لم يضيفونا كان ينبغي ألا تعمل لهم مجاناً ﴿ قَالَ هَذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنَكَ ﴾ أى : لأنك شرطت عند قتل الغلام أنك إن سألتني عن شيء بعدها فلا تصاحبني ، فهو فراق بيني وبينك ، ﴿ سَأْتِيكَ بِتَأْوِيلٍ ﴾ أى : بتفسير ﴿ مَا لَمْ تَسْتَطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا ﴾ .

﴿ أَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسْكِينٍ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ فَأَرَدْتُ أَنْ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَاءَهُمْ مَلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا ﴾ ﴿ ٧٩ ﴾

هذا تفسير ما أشكل أمره على موسى ، عليه السلام ، وما كان أنكر ظاهره وقد أظهر الله الخضر ، عليه السلام ، على باطنه فقال : إن السفينة إنما خرقتها لأعيبها ؛ لأنهم كانوا يرون بها على ملك من الظلمة ﴿ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ ﴾ صالحة ، أى : جيدة ﴿ غَصْبًا ﴾ فأردت أن أعيبها ، لأرده عنها لعيبها ، فينتفع بها أصحابها المساكين الذين لم يكن لهم شيء ينتفعون به غيرها .

﴿ وَأَمَّا الْفُلُّ فَكَانَ آبَاءَ مُؤْمِنِينَ فَخَشِينَا أَنْ يُرْهَقَهُمَا طُغْيَانًا وَكُفْرًا ﴾ ﴿ ٨٠ ﴾
﴿ فَأَرَدْنَا أَنْ يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِمَّا زَكَاةً وَأَقْرَبَ رَحْمًا ﴾ ﴿ ٨١ ﴾

عن أبي بن كعب ، عن النبي ﷺ قال : « الغلام الذى قتله الخضر طبع يوم طبع كافراً » .
رواه ابن جرير (١) ؛ ولهذا قال : ﴿ فَكَانَ آبَاءَهُ مُؤْمِنِينَ فَخَشِينَا أَنْ يُرْهَقَهُمَا طُغْيَانًا وَكُفْرًا ﴾ أى : يحملهما حبه على متابعتة على الكفر . قال قتادة : قد فرح به آبواه حين ولد ، وحزنا عليه حين قتل ، ولو بقى لكان فيه هلاكهما ، فليرض امرؤ بقضاء الله ، فإن قضاء الله للمؤمن فيما يكره خير له من قضائه فيما يحب . وصح فى الحديث : « لا يقضى الله للمؤمن قضاء إلا كان خيراً له » . وقال تعالى : ﴿ وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ ﴾ [البقرة: ٢١٦] .

وقوله : ﴿ فَأَرَدْنَا أَنْ يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِمَّا زَكَاةً وَأَقْرَبَ رَحْمًا ﴾ أى : ولدأ أركى من هذا ، وهما أرحم به منه .

﴿ وَأَمَّا الْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُ كَنْزٌ لَهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَنْ يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنْزَهُمَا رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ وَمَا فَعَلْتُمْ عَنْ أَمْرِي ذَلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا ﴾ ﴿ ٨٢ ﴾

فى هذه الآية دليل على إطلاق القرية على المدينة ؛ لأنه قال أولاً : ﴿ حَتَّى إِذَا أَتَى أَهْلَ قَرْيَةٍ ﴾ [الكهف: ٧٧] وقال ههنا : ﴿ فَكَانَ لِغُلَامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ ﴾ كما قال تعالى : ﴿ وَكَانَ مِنْ قَرْيَةٍ هِيَ أَشَدُّ

﴿قُوَّةٌ مِّن قُرَيْتِكَ الَّتِي أَخْرَجْتِكَ﴾ [محمد: ١٣]، ﴿وَقَالُوا لَوْلَا نَزَلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِّنَ الْقُرَيْتَيْنِ عَظِيمٍ﴾ [الزخرف: ٣١] يعنى: مكة والطائف. ومعنى الآية: أن هذا الجدار إنما أصلحته لأنه كان لغلامين يتيمين في المدينة وكان تحته كتز لهما. قال عكرمة، وقتادة، وغير واحد: كان تحته مال مدفون لهما. وهذا ظاهر السياق من الآية، وهو اختيار ابن جرير، رحمه الله.

وقوله: ﴿وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا﴾ فيه دليل على أن الرجل الصالح يحفظ في ذريته، وتشمل بركة عبادته لهم في الدنيا والآخرة، بشفاعته فيهم ورفع درجاتهم إلى أعلى درجة في الجنة لتقر عينه بهم، كما جاء في القرآن ووردت السنة به. قال ابن عباس: حفظا بصلاح أبيهما، ولم يذكر لهما صلاحا، فالله أعلم. وقوله تعالى: ﴿فَأَرَادَ رَبُّكَ أَنْ يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنْزُهُمَا﴾: هنا أسند الإرادة إلى الله تعالى؛ لأن بلوغهما الحلم لا يقدر عليه إلا الله؛ وقال في الغلام: ﴿فَأَرَادْنَا أَنْ يُدِّلَهُمَا فِيهِمَا خَيْرًا مِّنْهُ﴾ وقال في السفينة: ﴿فَأَرَادْتُ أَنْ أُعِيْبَهُمَا﴾، فالله أعلم.

وقوله تعالى: ﴿رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ﴾ أى: هذا الذى فعلته فى هذه الأحوال الثلاثة، إنما هو من رحمة الله بمن ذكرنا من أصحاب السفينة، والذى الغلام، وولدى الرجل الصالح ﴿وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي﴾ لكنى أمرت به ووقفت عليه، وفيه دلالة لمن قال بنبوة الخضر، عليه السلام، مع ما تقدم من قوله: ﴿فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَا آتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِّنْ عَيْنِنَا وَعَلَّمْنَاهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا﴾، وقال آخرون: كان رسولاً. وحكى النووى وغيره فى كونه باقياً إلى الآن ثم إلى يوم القيامة قولين، ومال هو وابن الصلاح إلى بقاءه، وذكروا فى ذلك حكايات وأثاراً عن السلف وغيرهم وجاء ذكره فى بعض الأحاديث، ولا يصح شيء من ذلك. ورجح آخرون من المحدثين وغيرهم خلاف ذلك، واحتجوا بقوله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن قَبْلِكَ الْخُلْدَ﴾ [الانبيا: ٣٤] ويقول النبى ﷺ يوم بدر: «اللهم إن تهلك هذه العصابة، لا تعبد فى الأرض» (١)، وبأنه لم ينقل أنه جاء إلى رسول الله ﷺ ولا حضر عنده، ولا قاتل معه. ولو كان حياً لكان من أتباع النبى ﷺ وأصحابه؛ لأنه عليه السلام كان مبعوثاً إلى جميع الثقيلين: الجن والإنس، وأخبر قبل موته بقليل: أنه لا يبقى من هو على وجه الأرض إلى مائة سنة من ليلته تلك عين تطرف، إلى غير ذلك من الدلائل. وقد ثبت فى صحيح البخارى، عن أبى هريرة، أن رسول الله ﷺ قال: «إنما سمى الخضر؛ لأنه جلس على قروة، فإذا هى تهز من تحته خضراء» (٢).

والمراد بالفروة ههنا: الحشيش اليابس، وهو الهشيم من النبات، قاله عبد الرزاق. وقيل: المراد بذلك وجه الأرض.

وقوله: ﴿ذَلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا﴾ أى: هذا تفسير ما ضقت به ذرعاً، ولم تصبر حتى أخبرك به ابتداءً، ولما أن فسره له وبينه ووضحه وأزال المشكل قال: ﴿تَسْطِعُ﴾ وقبل ذلك كان الإشكال قوياً ثقیلاً فقال: ﴿تَسْتَطِعُ﴾ فقابل الأثقل بالأثقل، والأخف، بالأخف كما قال

تعالى : ﴿فَمَا اسْطَاعُوا أَنْ يَظْهَرُوهُ﴾ وهو الصعود إلى أعلاه ، ﴿وَمَا اسْتَطَاعُوا لَهُ نَقْبًا﴾ [الكهف: ٩٧] ، وهو أشق من ذلك ، فقابل كلاً بما يناسبه لفظاً ومعنى ، والله أعلم . فإن قيل : فما بال فتى موسى ذكر فى أول القصة ثم لم يذكر بعد ذلك ؟ فالجواب : أن المقصود بالسياق إنما هو قصة موسى مع الخضر وذكر ما كان بينهما ، وفتى موسى معه تبع .

﴿وَسَأَلُونَكَ عَنْ ذِي الْقُرْنَيْنِ قُلْ سَأَتْلُوا عَلَيْكُمْ مِنْهُ ذِكْرًا ﴿٨٣﴾ إِنَّا مَكَّنَّا لَهُ فِي الْأَرْضِ وَءَاتَيْنَاهُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ سَبَبًا ﴿٨٤﴾﴾

يقول تعالى لنبىه ﷺ : ﴿وَسَأَلُونَكَ﴾ يا محمد ﴿عَنْ ذِي الْقُرْنَيْنِ﴾ أى : عن خبره . وقد قدمنا أنه بعث كفار مكة إلى أهل الكتاب يسألون منهم ما يمتحنون به النبى ﷺ ، فقالوا : سلوه عن رجل طواف فى الأرض ، وعن فتية لا يدري ما صنعوا ، وعن الروح ، فنزلت سورة الكهف . كما ذكر الأزرقى وغيره ، أنه طاف مع الخليل بالبيت العتيق لما بناه إبراهيم ، عليه السلام ، وقرب إلى الله قرباناً ، وقد ذكرنا طرفاً من أخباره فى كتاب «البداية والنهاية بما فيه كفاية» ، ولله الحمد . قال وهب بن منبه : كان ملكاً ، وإنما سُمى ذا القرنين لأن صفحتى رأسه كانتا من نحاس ، قال : وقال بعض أهل الكتاب : لأنه ملك الروم وفارس . وقال بعضهم : كان فى رأسه شبه القرنين ، وقد سئل على ، رضى الله عنه ، عن ذى القرنين ، فقال : كان عبداً ناصحاً الله فناصره ، دعا قومه إلى الله فضربوه على قرنه فمات ، فأحياه الله ، فدعا قومه إلى الله فضربوه على قرنه فمات ، فسمى ذا القرنين . ويقال : إنما سُمى ذا القرنين ؛ لأنه بلغ المشارق والمغرب ، من حيث يطلع قرن الشمس ويغرب .

وقوله : ﴿إِنَّا مَكَّنَّا لَهُ فِي الْأَرْضِ﴾ أى : أعطيناه ملكاً عظيماً ممكناً ، فيه له من جميع ما يؤتى الملوك ، من التمكين والجنود ، وآلات الحرب والحصارات ؛ ولهذا ملك المشارق والمغرب من الأرض ، ودانت له البلاد ، وخضعت له ملوك العباد ، وخدمته الأمم ، من العرب والعجم ؛ ولهذا ذكر بعضهم أنه إنما سُمى ذا القرنين ؛ لأنه بلغ قرنى الشمس مشرقها ومغربها . وقوله : ﴿وَأَتَيْنَاهُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ سَبَبًا﴾ : يعنى علماً . وقال معاوية بن أبى سفيان لكعب الأحبار : أنت تقول : إن ذا القرنين كان يربط خيله بالثرى ؟ ! فقال له كعب : إن كنت قلت ذلك ، فإن الله تعالى قال : ﴿وَأَتَيْنَاهُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ سَبَبًا﴾ . وهذا الذى أنكره معاوية ، على كعب الأحبار هو الصواب ، والحق مع معاوية فى الإنكار ؛ فإنه لا سبيل للبشر إلى شىء من ذلك ، ولا إلى الترفيفى أسباب السموات . وقد قال الله فى حق بلقيس : ﴿وَأُوتِيَتْ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ﴾ [النمل: ٢٣] أى : مما يؤتى مثلها من الملوك ، وهكذا ذو القرنين يسر الله له الأسباب ، أى : الطرق والوسائل إلى فتح الأقاليم والرّسائيق والبلاد والأراضى وكسر الأعداء ، وكبت ملوك الأرض ، وإذلال أهل الشرك . قد أوتى من كل شىء مما يحتاج إليه مثله سبباً ، والله أعلم .

﴿ فَاتَّبَعَ سَبِيًّا ﴾ ٨٥ حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ مَقْرَبَ الشَّمْسِ وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِي عَيْنٍ حَمِئَةٍ وَوَجَدَ
عِنْدَهَا قَوْمًا قُلْنَا يَا الْقَارِئِينَ إِنَّمَا أَنْتَ مُنذِرٌ وَإِنَّمَا أَنْتَ مُنذِرٌ فِيهِمْ حَسَنًا ﴿٨٦﴾ قَالَ أَمَّا مَنْ ظَلَمَ
فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِ فَيُعَذِّبُهُ عَذَابًا نُكْرًا ﴿٨٧﴾ وَأَمَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُ جَزَاءُ
الْحَسَنَىٰ وَسَنَقُولُ لَهُ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا ﴿٨٨﴾

قال ابن عباس: ﴿ فَاتَّبَعَ سَبِيًّا ﴾ يعني بالسبب: [المنزل]. وقال مجاهد: ﴿ فَاتَّبَعَ سَبِيًّا ﴾: منزلاً وطريقاً ما بين المشرق والمغرب. وفي رواية عن مجاهد: قال: طرفى الأرض. وقال قتادة: أى اتبع منازل الأرض ومعلمها. وقال سعيد بن جبیر فى قوله: ﴿ فَاتَّبَعَ سَبِيًّا ﴾ قال: علماء. وهكذا قال عكرمة والسدى. وقوله: ﴿ حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ مَقْرَبَ الشَّمْسِ ﴾ أى: فسلك طريقاً حتى وصل إلى أقصى ما يسلك فيه من الأرض من ناحية المغرب، وهو مغرب الأرض. وأما الوصول إلى مغرب الشمس من السماء فمتعذر، وما يذكره أصحاب القصص والأخبار من أنه سار فى الأرض مدة والشمس تغرب من ورائه فشىء لا حقيقة له. وأكثر ذلك من خرافات أهل الكتاب، واختلاق زنادقتهم وكذبهم.

وقوله: ﴿ وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِي عَيْنٍ حَمِئَةٍ ﴾ أى: رأى الشمس فى منظره تغرب فى البحر المحيط، وهذا شأن كل من انتهى إلى ساحله، يراها كأنها تغرب فيه، وهى لا تفارق الفلك الرابع الذى هى مثبتة فيه لا تفارقه. والحمة مشتقة - على إحدى القراءتين - من «الحمأة» وهو الطين، كما قال تعالى: ﴿ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مُسْتَوٍ ﴾ [الحجر: ٢٨] أى: طين أملس. وقد تقدم بيانه. وقال على بن أبى طلحة عن ابن عباس: «وجدتها تغرب فى عين حامية» يعنى: حارة. وكذا قال الحسن البصرى. وقال ابن جرير: والصواب أنهما قراءتان مشهورتان، فأيهما قرأ القارئ فهو مصيب. قلت: ولا منافاة بين معنييهما، إذ قد تكون حارة لمجاورتها وهج الشمس عند غروبها، وملاقاتها الشعاع بلا حائل و﴿ حَمِئَةٍ ﴾ فى ماء وطين أسود، كما قال كعب الأبحار وغيره.

وقوله: ﴿ وَوَجَدَ عِنْدَهَا قَوْمًا ﴾ أى: أمة من الأمم. ﴿ قُلْنَا يَا الْقَارِئِينَ إِنَّمَا أَنْتَ مُنذِرٌ وَإِنَّمَا أَنْتَ مُنذِرٌ فِيهِمْ حَسَنًا ﴾ معنى هذا: أن الله تعالى مكنه منهم، وحكمه فيهم، وأظفره بهم وخيره: إن شاء قتل وسبى، وإن شاء من أو فدى. فعرف عدله وإيمانه فيما أبداه عدله وبيانه فى قوله: ﴿ أَمَّا مَنْ ظَلَمَ ﴾ أى: استمر على كفره وشركه بربه ﴿ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُ ﴾ قال قتادة: بالقتل. وقوله: ﴿ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِ فَيُعَذِّبُهُ عَذَابًا نُكْرًا ﴾ أى: شديداً بليغاً وجيماً أليماً. وفى إثبات المعاد والجزاء.

وقوله: ﴿ وَأَمَّا مَنْ ءَامَنَ ﴾ أى: تابعنا على ماندهوه إليه من عبادة الله وحده لا شريك له ﴿ فَلَهُ جَزَاءُ الْحَسَنَىٰ ﴾ أى: فى الدار الآخرة عند الله، عز وجل ﴿ وَسَنَقُولُ لَهُ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا ﴾ قال مجاهد: معروفاً.

﴿ ثُمَّ اتَّبَعَ سَبَبًا ﴿٨٩﴾ حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ مَطْلِعَ الشَّمْسِ وَجَدَهَا تَطَّلِعُ عَلَىٰ قَوْمٍ لَّمْ نَجْعَلْ لَهُم مِّن دُونِهَا سِتْرًا ﴿٩٠﴾ كَذَٰلِكَ وَقَدْ أَحَطْنَا بِمَا لَدَيْهِ خُبْرًا ﴿٩١﴾ ﴾

يقول تعالى: ثم سلك طريقاً فصار من مغرب الشمس إلى مطلعها. ولما انتهى إلى مطلع الشمس من الأرض كما قال تعالى: ﴿ وَجَدَهَا تَطَّلِعُ عَلَىٰ قَوْمٍ ﴾ أى: أمة ﴿ لَمْ نَجْعَلْ لَهُم مِّن دُونِهَا سِتْرًا ﴾ أى: ليس لهم بناء يكنهم، ولا أشجار تظلمهم وتسترحمهم من حر الشمس. وقوله: ﴿ كَذَٰلِكَ وَقَدْ أَحَطْنَا بِمَا لَدَيْهِ خُبْرًا ﴾ قال مجاهد، والسدى: علماً، أى: نحن مطلعون على جميع أحواله وأحوال جيشه، لا يخفى علينا منها شيء، وإن تفرقت أمهم وتقطعت بهم الأرض، فإنه تعالى: ﴿ لَا يَخْفَىٰ عَلَيْهِ شَيْءٌ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ ﴾ [آل عمران: ٥].

﴿ ثُمَّ اتَّبَعَ سَبَبًا ﴿٩٢﴾ حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ بَيْنَ السَّدَّيْنِ وَجَدَ مِن دُونِهِمَا قَوْمًا لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا ﴿٩٣﴾ قَالُوا يَا ذَا الْقُرْنَيْنِ إِنَّ يَا جُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا عَلَىٰ أَنْ تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا ﴿٩٤﴾ قَالَ مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا ﴿٩٥﴾ ءَاتُونِي زُبَرَ الْحَدِيدِ حَتَّىٰ إِذَا سَاوَىٰ بَيْنَ الصَّدَفَيْنِ قَالَ انْفُخُوا حَتَّىٰ إِذَا جَعَلَهُ نَارًا قَالَ ءَاتُونِي أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْرًا ﴿٩٦﴾ ﴾

يقول تعالى مخبراً عن ذى القرنين: ﴿ ثُمَّ اتَّبَعَ سَبَبًا ﴾ أى: ثم سلك طريقاً من مشارق الأرض ﴿ حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ بَيْنَ السَّدَّيْنِ ﴾ وهما جبلان متناوحيان بينهما ثغرة يخرج منها يأجوج ومأجوج على بلاد الترك، فيعيثون فيها فساداً، ويهلكون الحرث والنسل، ويأجوج ومأجوج من سلالة آدم، عليه السلام، كما ثبت فى الصحيحين: « إن الله تعالى يقول: يا آدم. فيقول: لبيك وسعديك. فيقول: ابعت بَعَثَ النار. فيقول: وما بَعَثَ النار؟ فيقول: من كل ألف تسعمائة وتسعة وتسعون إلى النار، وواحد إلى الجنة؟ فيحسب الصغير، وتضع كل ذات حمل حملها، فيقال: إن فيكم أمتين، ما كانتا فى شيء إلا كثرتاه: يأجوج ومأجوج»^(١).

روى الإمام أحمد، عن سمرّة؛ أن رسول الله ﷺ قال: « وكَدُّ نوح ثلاثة: سام أبو العرب، وحام أبو السودان، ويافث أبو الترك»^(٢). فقال بعض العلماء: هؤلاء من نسل يافث أبى الترك، قال: إنما سموا هؤلاء تركاً؛ لأنهم تركوا من وراء السد من هذه الجهة، وإلا فهم أقرباء أولئك، ولكن كان فى أولئك بغى وفساد وجراءة.

وقوله: ﴿ وَجَدَ مِن دُونِهِمَا قَوْمًا لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا ﴾ أى: لاستعجاب كلامهم وبعدهم عن الناس ﴿ قَالُوا يَا ذَا الْقُرْنَيْنِ إِنَّ يَا جُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا ﴾ قال ابن

(١) البخارى (٦٥٣٠) ومسلم (٢٢٢٢ / ٣٧٩).

(٢) المسند (٥ / ٩) والترمذى (٣٩٣١)، وقال: « حسن ».

عباس: أجراً عظيماً، يعني: أنهم أرادوا أن يجمعوا له من بينهم ما لا يعطونه إياه، حتى يجعل بينه وبينهم سداً. فقال ذو القرنين بعفة وديانة وصلاح وقصد للخير: ﴿ مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ ﴾ أى: إن الذى أعطانى الله من الملك والتمكين خير لى من الذى تجمعونه، كما قال سليمان عليه السلام: ﴿ أَمْتِدُونِي بِمَالٍ فَمَا آتَانِي اللَّهُ خَيْرٌ مِّمَّا آتَاكُمْ ﴾ الآية [النمل: ٣٦]. وهكذا قال ذو القرنين: الذى أنا فيه خير من الذى تبدلونه، ولكن ساعدونى ﴿ بِقُوَّةٍ ﴾ أى: بعملكم وآلات البناء ﴿ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا. آتُونِي زُبُرَ الْحَدِيدِ ﴾ والزبر: جمع زبرة، وهى القطعة منه، وهى كاللبنة ﴿ حَتَّى إِذَا سَاوَى بَيْنَ الصَّدْقَيْنِ ﴾ أى: وضع بعضه على بعض من الأساس حتى إذا حاذى به رؤوس الجبلين طولاً وعرضاً. واختلفوا فى مساحة عرضه وطوله على أقوال ﴿ قَالَ انْفُخُوا ﴾ أى: أجبج عليه النار حتى صار كله ناراً ﴿ قَالَ آتُونِي أُفْرِغَ عَلَيْهِ قِطْرًا ﴾ قال ابن عباس، ومجاهد، وعكرمة، والضحاك، وقتادة، والسدى: هو النحاس. وزاد بعضهم: المذاب. ويستشهد بقوله تعالى: ﴿ وَأَسَلْنَا لَهُ عَيْنَ الْقِطْرِ ﴾ [سبا: ١٢] ولهذا يشبه بالبرد المحبر. وقد بعث الخليفة الواثق فى دولته بعض أمرائه، ووجه معه جيشاً سرية، لينظروا إلى السد ويعاينوه ويتعته له إذا رجعوا. فتوصلوا من بلاد إلى بلاد، ومن ملك إلى ملك، حتى وصلوا إليه، ورأوا بناء من الحديد ومن النحاس، وذكروا أنهم رأوا فيه باباً عظيماً، وعليه أقفال عظيمة، ورأوا بقية اللبن والعمل فى برج هناك. وأن عنده حرساً من الملوك المتاخمة له، وأنه عال منيف شاق، لا يستطيع ولا ما حوله من الجبال. ثم رجعوا إلى بلادهم، وكانت غيبتهم أكثر من ستين، وشاهدوا أهوالاً وعجائب. ثم قال الله تعالى:

﴿ فَمَا اسْتَطَعُوا أَنْ يَظْهَرُوهُ وَمَا اسْتَطَعُوا لَهُمْ نَقْبًا ﴾ ﴿٩٧﴾ قَالَ هَذَا رَحْمَةً مِنْ رَبِّي إِذَا جَاءَ وَعَدُّ رَبِّي جَعَلَهُ دَكَّاءً وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقًّا ﴿٩٨﴾ وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجٌ فِي بَعْضٍ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَجَبَعْتَهُمْ جَمْعًا ﴿٩٩﴾

ربع

يقول تعالى مخبراً عن يأجوج ومأجوج أنهم ما ندرؤا على أن يصعدوا فوق هذا السد ولا قدروا على نقيه من أسفله. ولما كان الظهور عليه أسهل من نقيه قابل كلاً بما يناسبه فقال: ﴿ فَمَا اسْتَطَعُوا أَنْ يَظْهَرُوهُ وَمَا اسْتَطَعُوا لَهُمْ نَقْبًا ﴾ وهذا دليل على أنهم لم يقدروا على نقيه، ولا على شيء منه. روى الإمام أحمد عن زينب بنت جحش زوج النبي ﷺ قالت: استيقظ النبي ﷺ من نومه وهو محمر وجهه، وهو يقول: ﴿ لا إله إلا الله! ويل للعرب من شر قد اقترب! فتح اليوم من ردم يأجوج ومأجوج مثل هذا ». وحلَّق. قلت: يا رسول الله، أنهلك وفينا الصالحون؟ قال: « نعم إذا كثر الخبث ». هذا حديث صحيح، اتفق البخارى ومسلم على إخراجه (١).

وقوله: ﴿ قَالَ هَذَا رَحْمَةً مِنْ رَبِّي ﴾ أى: لما بناء ذو القرنين ﴿ قَالَ هَذَا رَحْمَةً مِنْ رَبِّي ﴾ أى:

بالناس حيث جعل بينهم وبين يأجوج ومأجوج حائلاً يمنعهم من العيث فى الأرض والفساد ﴿ فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ رَبِّي ﴾ أى : إذا اقترب الوعد الحق ﴿ جَعَلَهُ دَكَّاءُ ﴾ أى : ساواه بالأرض . تقول العرب : ناقة دكاء : إذا كان ظهرها مستويًا لا سنام لها ، وقال تعالى : ﴿ فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكَّاءُ ﴾ [الأعراف : ١٤٣] أى : مساوياً للأرض ﴿ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقًّا ﴾ أى : كائناً لا محالة .

وقوله : ﴿ وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ ﴾ أى : الناس يومئذ : أى : يوم يدك هذا السد ويخرج هؤلاء فيموجون فى الناس ويفسدون على الناس أموالهم ويتلفون أشياءهم ، وهذا كله قبل يوم القيامة وبعد الدجال ، كما سيأتى بيانه عند قوله : ﴿ حَتَّى إِذَا فَصَحْتِ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ وَهُمْ مِنْ كُلِّ حَدَبٍ يَنْسِلُونَ . وَاقْتَرَبَ الْوَعْدُ الْحَقُّ ﴾ الآية [الانباء : ٩٦ ، ٩٧] وهكذا قال ههنا : ﴿ وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِي بَعْضٍ ﴾ قال : هذا أول يوم القيامة ﴿ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ ﴾ على أثر ذلك ﴿ فَجَمَعْنَاهُمْ جَمْعًا ﴾ . وقال آخرون : بل المراد بقوله : ﴿ وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِي بَعْضٍ ﴾ أى : يوم القيامة يختلط الإنس والجن .

وقوله : ﴿ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ ﴾ : والصور كما جاء فى الحديث : « قرن ينفخ فيه » (١) ، والذى ينفخ فيه إسرافيل ، عليه السلام ، وفى الحديث عن ابن عباس وأبى سعيد مرفوعاً : « كيف أنعم ، وصاحب القرن قد التقم القرن ، وحنى جبهته واستمع متى يؤمر » . قالوا : كيف نقول ؟ قال : « قولوا : حسبنا الله ونعم الوكيل ، على الله توكلنا » (٢) . وقوله : ﴿ فَجَمَعْنَاهُمْ جَمْعًا ﴾ أى : أحضرنا الجميع للحساب ﴿ قُلْ إِنَّ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ . لَمَجْمُوعُونَ إِلَى مِيقَاتِ يَوْمٍ مَعْلُومٍ ﴾ [الواقعة : ٤٩ ، ٥٠] ، « وَحَشَرْنَاهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا » .

﴿ وَعَرَضْنَا جَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ لِلْكَافِرِينَ عَرْضًا ﴾ ﴿ الَّذِينَ كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِي غِطَاءٍ عَنِ ذِكْرِي ﴾
 ﴿ وَكَانُوا لَا يَسْتَطِيعُونَ سَمْعًا ﴾ ﴿ أَحْسِبَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ يَتَّخِذُوا عِبَادِي مِنْ دُونِي آلِيَاءَ إِنَّا أَعْتَدْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ نُزُلًا ﴾

يقول تعالى مخبراً عما يفعله بالكفار يوم القيامة : أنه يعرض عليهم جهنم ، أى : يبرزها لهم ويظهرها ، ليروا ما فيها من العذاب والنكال قبل دخولها ، ليكون ذلك أبلغ فى تعجيل لهم والحزن لهم . وفى صحيح مسلم ، عن ابن مسعود قال : قال رسول الله ﷺ : « يؤتى بجهنم تقاد يوم القيامة بسبعين ألف زمام ، مع كل زمام سبعون ألف ملك [يجرونها] » (٣) .

ثم قال مخبراً عنهم : ﴿ الَّذِينَ كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِي غِطَاءٍ عَنِ ذِكْرِي ﴾ أى : تغافلوا وتعاموا وتصاعموا عن قبول الهدى واتباع الحق ، كما قال : ﴿ وَمَنْ يَعْشُ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نُقِضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ ﴾ [الزخرف : ٣٦] ، وقال ههنا : ﴿ وَكَانُوا لَا يَسْتَطِيعُونَ سَمْعًا ﴾ أى : لا يعقلون عن الله أمره ونهيه .

(١) الترمذى (٢٤٣٠) ، وقال : « حديث حسن » .

(٢) الترمذى (٢٤٣١) وقال : « حديث حسن »

(٣) مسلم (٢٨٤٢ / ٢٩) وما بين المعقوفين ليس فى المطبوعة والمخطوطة ، وأثبتناه من مسلم .

ثم قال ﴿ أَفَحَسِبَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ يَتَّخِذُوا عِبَادِي مِنْ دُونِي أَوْلِيَاءَ ﴾ أى: اعتقدوا أنهم يصلح لهم ذلك، ويتنفعون به ﴿ كَلَّا سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا ﴾ [مریم: ٨٢]؛ ولهذا أخبر أنه قد أعد لهم جهنم يوم القيامة منزلاً .

﴿ قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا ﴿١٠٤﴾ الَّذِينَ ضَلَّ سَعِيَّهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ﴿١٠٤﴾ أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَلِقَائِهِمْ فَحَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزَنًا ﴿١٠٥﴾ ذَلِكَ جَزَاءُكُمْ جَهَنَّمَ بِمَا كَفَرُوا وَتَّخَذُوا آيَاتِي وَرُسُلِي هُزُوًا ﴿١٠٦﴾ ﴾

روى البخارى عن مُصْعَبٍ قال : سألت أبى - يعنى سعد بن أبى وقاص - عن قول الله: ﴿ قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا ﴾: أهم الحرورية؟ قال: لا، هم اليهود والنصارى، أما اليهود فكذبوا محمداً ﷺ، وأما النصارى فكفروا بالجنة، وقالوا: لا طعام فيها ولا شراب. والحرورية الذين ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه. وكان سعد رضى الله عنه، يسميهم الفاسقين (١). وقال على بن أبى طالب، والضحاك، وغير واحد: هم الحرورية. ومعنى هذا عن على: أن هذه الآية الكريمة تشمل الحرورية كما تشمل اليهود والنصارى وغيرهم، لا أنها نزلت فى هؤلاء على الخصوص ولا هؤلاء، بل هى أعم من هذا؛ فإن هذه الآية مكية قبل خطاب اليهود والنصارى وقبل وجود الخوارج بالكلية، وإنما هى عامة فى كل من عبد الله على غير طريقة مرضية بحسب أنه مصيب فيها، وأن عمله مقبول، وهو مخطئ، وعمله مردود، كما قال تعالى: ﴿ وَجُودَ يَوْمَئِذٍ خَاشِعَةً عَامِلَةً نَاصِبَةً . تَصَلَّى نَارًا حَامِيَةً ﴾ [الغاشية: ٢ - ٤] وقوله تعالى: ﴿ وَقَدِمْنَا إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُورًا ﴾ [الفرقان: ٢٣]، وقال تعالى: ﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بَقِيعةٍ يَحْسبُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّى إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ سَيْتًا ﴾ [النور: ٣٩]. وقال فى هذه الآية الكريمة: ﴿ قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ ﴾ أى: نخبركم ﴿ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا ﴾؟ ثم فسره فقال: ﴿ الَّذِينَ ضَلَّ سَعِيَّهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ﴾ أى: عملوا أعمالاً باطلة على غير شريعة مشروعة مرضية مقبولة ﴿ وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ﴾ أى: يعتقدون أنهم على شىء، وأنهم مقبولون محبوبون.

وقوله: ﴿ أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَلِقَائِهِ ﴾ أى: جحدوا آيات الله فى الدنيا، وبراهينه التى أقام على وحدانيته، وصدق رسله، وكذبوا بالدار الآخرة ﴿ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزَنًا ﴾ أى: لا نثقل موازينهم؛ لأنها خالية عن الخير. روى البخارى عن أبى هريرة، عن رسول الله ﷺ أنه قال: «إنه لياتى الرجل العظيم السمين يوم القيامة، لا يزن عند الله جناح بعوضة» وقال: «اقرؤوا إن شئتم: ﴿ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزَنًا ﴾» ورواه مسلم (٢). وقوله: ﴿ ذَلِكَ جَزَاءُكُمْ جَهَنَّمَ بِمَا كَفَرُوا ﴾ أى: إنما جازيناهم بهذا الجزاء، بسبب كفرهم واتخاذهم آيات الله ورسله هزواً، استهزؤا بهم، وكذبوهم أشد التكذيب.

﴿ إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّاتُ الْفِرْدَوْسِ نُزُلًا ﴿١٠٧﴾ خَالِدِينَ فِيهَا لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلًا ﴿١٠٨﴾ ﴾

يخبر تعالى عن عباده السعداء، وهم الذين آمنوا بالله ورسوله ، وصدقوا المرسلين فيما جاؤوا به أن لهم جنات الفردوس. قال مجاهد: الفردوس هو: البستان بالرومية ، وقال قتادة: الفردوس: ربوة الجنة وأوسطها وأفضلها، وفي الصحيحين: « إذ سألتم الله الجنة فاسألوه الفردوس، فإنه أعلى الجنة وأوسط الجنة، ومنه تُفَجَّرُ أنهار الجنة » (١) . وقوله: ﴿ نُزُلًا ﴾ أى : ضيافة، فإن النزول هو الضيافة . وقوله: ﴿ خَالِدِينَ فِيهَا ﴾ أى: مقيمين ساكنين فيها، لا يظعنون عنها أبدا ﴿ لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلًا ﴾ أى : لا يختارون غيرها ، ولا يحبون سواها ، وفى قوله : ﴿ لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلًا ﴾ تنبيه على رغبتهم فيها، وحبهم لها، مع أنه قد يتوهم فيمن هو مقيم فى المكان دائما أنه يسأمه أو يمله، فأخبر أنهم مع هذا الدوام والخلود السرمدى، لا يختارون عن مقامهم ذلك متحولا ولا ظعنأ ولا رحلة ولا بدلا .

﴿ قُلْ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لِكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ تَنفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا ﴿١٠٩﴾ ﴾

يقول تعالى: قل يا محمد: لو كان ماء البحر مدادا للقلم الذى يكتب به كلمات الله وحكمه وآياته الدالات ﴿ لَنَفِدَ الْبَحْرُ ﴾ قبل أن يفرغ كتابة ذلك ﴿ وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ ﴾ أى: بمثل البحر آخر، ثم آخر، وهلم جرا، بحور تمده ويكتب بها، لما نفدت كلمات الله، كما قال تعالى: ﴿ وَلَوْ أَنَّمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلَامٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ [لقمان: ٢٧]. وقال الربيع بن أنس: إن مثل علم العباد كلهم فى علم الله كقطرة من ماء البحور كلها، وقد أنزل الله ذلك: ﴿ قُلْ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لِكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ تَنفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي ﴾ . يقول: لو كانت تلك البحور مدادا لكلمات الله، والشجر كله أقلام، لانكسرت الأقلام وفنى ماء البحر، وبقيت كلمات الله قائمة لا يفنيها شيء؛ لأن أحدا لا يستطيع أن يقدر قدره ولا يثنى عليه كما ينبغى ، حتى يكون هو الذى يثنى على نفسه ، إن ربنا كما يقول وفوق ما نقول، إن مثل نعيم الدنيا أولها وآخرها فى نعيم الآخرة كحبة من خردل فى خلال الأرض كلها.

﴿ قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَىٰ أَنَّمَا إِلَهُ الْبَشَرِ إِلَهٌُ وَحَدَّثَ أَنَّ كَانَ رِجْوًا لِقَاءِ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا ﴿١١٠﴾ ﴾

يقول لرسوله محمد ﷺ: ﴿ قُلْ ﴾ لهؤلاء المشركين المكذبين برسالتك إليهم: ﴿ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ ﴾ فمن زعم أنه كاذب، فليأت بمثل ما جئت به، فإنى لا أعلم الغيب فيما أخبرتكم به من

الماضى، عما سألتهم من قصة أصحاب الكهف، وخبر ذى القرنين، مما هو مطابق فى نفس الأمر، لولا ما أطلعنى الله عليه، وإنما أخبركم ﴿أَتَمَّا إِلَهُكُمْ﴾ الذى أدعوكم إلى عبادته ﴿إِلَهُ وَاحِدٌ﴾ لا شريك له ﴿فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ﴾ أى: ثوابه وجزاءه الصالح ﴿فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا﴾ وهو ما كان موافقاً لشرع الله ﴿وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾ وهو الذى يراد به وجه الله وحده لا شريك له، وهذان ركنا العمل المتقبل. لا بد أن يكون خالصاً لله، صواباً على شريعة رسول الله ﷺ. روى الإمام أحمد عن أبى هريرة، عن النبى ﷺ، يرويه عن الله، عز وجل، أنه قال: «أنا خير الشركاء، فمن عمل عملاً أشرك فيه غيرى، فأنا برىء منه، وهو للذى أشرك». تفرّد به من هذا الوجه (١). وروى الإمام أحمد عن محمود بن لبيد؛ أن رسول الله ﷺ قال: «إن أخوف ما أخاف عليكم الشرك الأصغر». قالوا: وما الشرك الأصغر يا رسول الله؟ قال: «الرياء، يقول الله يوم القيامة إذا جزي الناس بأعمالهم: اذهبوا إلى الذين كنتم تراؤون فى الدنيا، فانظروا هل تجدون عندهم جزاء» (٢).

(١) المسند (٧٩٨٦) وقال الشيخ أحمد شاكر: «إسناده صحيح» .

(٢) المسند (٤٢٨ / ٥) وقال الهيثمى فى الزوائد (١ / ١٠٢): «رجاله رجال الصحيح» .

تفسير سورة مريم عليها السلام

وهي مكية

وقد روى أحمد بن حنبل عن ابن مسعود، في قصة الهجرة إلى أرض الحبشة من مكة: أن جعفر بن أبي طالب، قرأ صدر هذه السورة على النجاشي وأصحابه (١).

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ كَهَيْعَتِ ﴾ ﴿ ١ ﴾ ذَكَرْ رَحْمَتَ رَبِّكَ عَبْدُكَ زَكَرِيَّا ﴿ ٢ ﴾ إِذْ نَادَى رَبَّهُ
 نِدَاءً خَفِيًّا ﴿ ٣ ﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُنْ
 بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيًّا ﴿ ٤ ﴾ وَإِنِّي خِفْتُ الْمَوَالِيَ مِنْ وَرَائِي وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا فَهَبْ
 لِي مِنْ لَدُنْكَ وَاتِّمَّا ﴿ ٥ ﴾ يَرْزُقْنِي وَرَبَّتِي مِنْ عَالٍ يَعْقُوبَ وَأَجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا ﴿ ٦ ﴾

أما الكلام على الحروف المقطعة فقد تقدم في أول سورة البقرة .

وقوله: ﴿ ذَكَرْ رَحْمَةَ رَبِّكَ ﴾ أى : هذا ذكر رحمة الله بعبده زكريا وكان نبياً عظيماً من أنبياء بنى إسرائيل . وفي صحيح البخارى: أنه كان نجاراً، أى: كان يأكل من عمل يديه فى التجارة (٢) .
 وقوله: ﴿ إِذْ نَادَى رَبَّهُ نِدَاءً خَفِيًّا ﴾ : قال بعض المفسرين: إنما أخفى دعاءه، لئلا ينسب فى طلب الولد إلى الرعونة لكبره . حكاه الماوردى . وقال آخرون : إنما أخفاه لأنه أحب إلى الله .
 كما قال قتادة فى هذه الآية ﴿ خَفِيًّا ﴾ : إن الله يعلم القلب التقي ، ويسمع الصوت الخفى ﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي ﴾ أى : ضعفت وخارت القوى ﴿ وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا ﴾ أى: اضطرم المشيب فى السواد، والمراد من هذا: الإخبار عن الضعف والكبر، ودلائله الظاهرة والباطنة .

وقوله: ﴿ وَلَمْ أَكُنْ بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيًّا ﴾ أى: ولم أعهد منك إلا الإجابة فى الدعاء، ولم تردنى قط فيما سألتك . وقوله: ﴿ وَإِنِّي خِفْتُ الْمَوَالِيَ مِنْ وَرَائِي ﴾ قال مجاهد، وقاتدة، والسدى: أراد بالموالى العصابة . وقال أبو صالح: الكلاله . ووجه خوفه أنه خشى أن يتصرفوا بعده فى الناس تصرفاً سيئاً، فسأل الله ولدأ، يكون نبياً من بعده، ليسوسهم بنبوته ما يوحى إليه . فأجيب فى ذلك، لا أنه خشى من وراثتهم له ماله، فإن النبى أعظم منزلة وأجل قدراً من أن يشفق على ماله إلى ما هذا حده أن يأنف من وراثه عصباته له، ويسأل أن يكون له ولد ، ليحوز ميراثه دونهم . هذا وجه .

(١) المسند (٤٤٠٠) ، وقال الشيخ أحمد شاکر : « إسناده حسن » .

(٢) مسلم (٢٣٧٩ / ١٦٩) ، ولم يعزه صاحب التحفة (١٠ / ٣٨٦) للبخارى .

الثاني: أنه لم يذكر أنه كان ذا مال، بل كان نجاراً يأكل من كسب يديه، ومثل هذا لا يجمع مالاً ولا سيما الأنبياء، فإنهم كانوا أزهدي شيء في الدنيا. الثالث: أنه قد ثبت في الصحيحين من غير وجه: أن رسول الله ﷺ قال: « لا نُورَثُ ، ما تركنا فهو صدقة» (١). وعلى هذا فتعين حمل قوله: ﴿ فَهَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ وَبِئْسَ بِرِثٍ ﴾ على ميراث النبوة؛ ولهذا قال: ﴿ وَبِئْسَ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ ﴾، كقوله: ﴿ وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُدَ ﴾ [النمل: ١٦] أى: فى النبوة؛ إذ لو كان فى المال لما خصه من بين إخوته بذلك، ولما كان فى الإخبار بذلك كبير فائدة، إذ من المعلوم المستقر فى جميع الشرائع والمثل أن الولد يرث أباه، فلولا أنها وراثة خاصة لما أخبر بها، وكل هذا يقرره ويشته ما صح فى الحديث: «نحن معاشر الأنبياء لا نورث، ما تركنا فهو صدقة».

وقوله: ﴿ وَاجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا ﴾ أى مرضياً عندك وعند خلقك، تحبه وتحبه إلى خلقك فى دينه وخلقه .

﴿ يَنْزَكِرِيًّا إِيَّا نَبَشْرِكَ بِغَلْمِ اسْمِهِ بِحَيْثُ لَمْ يَجْعَلْ لَهُ مِنْ قَبْلُ سَمِيًّا ﴾

هذا الكلام يتضمن محذوفاً، وهو أنه أجيب إلى ما سأل فى دعائه فقيل له: ﴿ يَا زَكَرِيَّا إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغَلَامٍ اسْمُهُ يَحْيَىٰ ﴾، كما قال تعالى: ﴿ هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ . فَدَادَتْهُ الْمَلَائِكَةُ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي الْمِحْرَابِ أَنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَىٰ مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِنَ الصَّالِحِينَ ﴾ [آل عمران: ٣٨، ٣٩].

وقوله: ﴿ لَمْ نَجْعَلْ لَهُ مِنْ قَبْلُ سَمِيًّا ﴾: أى: لم يسم أحد قبله بهذا الاسم، وهذا دليل على أن زكريا، عليه السلام، كان لا يولد له، وكذلك امرأته كانت عاقراً من أول عمرها، بخلاف إبراهيم وسارة، عليهما السلام، فإنهما إنما تعجبا من البشارة بإسحاق لكبرهما لا لعقرهما؛ ولهذا قال: ﴿ أَبَشِّرْتُمُونِي عَلَىٰ أَنْ مُسْنِي الْكَبِيرُ فِيمَ تَبَشِّرُونَ ﴾ [الحجر: ٥٤] مع أنه كان قد ولد له قبله إسماعيل بثلاث عشرة سنة وقالت امرأته: ﴿ يَا وَيْلَتَىٰ أَأَلِدُ وَأَنَا عَجُوزٌ وَهَذَا بَعْطِي شَيْخًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ . قَالُوا اتَّعَجِبِينَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ رَحْمَةً لِلَّهِ وَبَرَكَاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ إِنَّهُ حَمِيدٌ مُجِيدٌ ﴾ [هود: ٧٢، ٧٣].

﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّي يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ الْكِبَرِ عِتِيًّا ﴾

﴿ قَالَ كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَىٰ هَٰئِنٍ وَقَدْ خَلَقْتَنكَ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْئًا ﴾

هذا تعجب من زكريا، عليه السلام، حين أجيب إلى ما سأل، وبُشِّر بالولد، ففرح فرحاً شديداً، وسأل عن كيفية ما يولد له، والوجه الذى يأتيه منه الولد، مع أن امرأته كانت عاقراً لم تلد من أول عمرها مع كبرها، ومع أنه قد كبر وعتا، أى عسا عظمه ونحل ولم يبق فيه لقاح ولا جماع. وقال مجاهد: ﴿ عِتِيًّا ﴾ يعنى: نحول العظم. وقال ابن عباس وغيره: الكبر، والظاهر

(١) البخارى (٣٠٩٤، ٦٧٢٨، ٧٣٠٥) ومسلم (١٧٥٧، ١٧٥٨ / ٤٨ - ٥١) .

أنه أخص من الكبير . ﴿قَالَ﴾ أى: الملك مجيباً لذكرها عما استعجب منه: ﴿كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلِيُّ هَيْنٍ﴾ أى: إيجاد الولد منك ومن زوجتك هذه لا من غيرها ﴿هَيْنٍ﴾ أى: يسير سهل على الله. ثم ذكر له ما هو أعجب مما سال عنه، فقال: ﴿وَقَدْ خَلَقْنَاكَ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْئًا﴾ كما قال تعالى: ﴿هَلْ أَتَى عَلَى الْإِنْسَانِ حِينٌ مِّنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُنْ شَيْئًا مَّذْكُورًا﴾ [الإنسان: ١].

﴿قَالَ رَبِّ اجْعَلْ لِي آيَةً قَالَ آيَتُكَ إِلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَاثَ لَيَالٍ سَوِيًّا﴾
﴿فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ مِنَ الْمِحْرَابِ فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ أَنْ سَبِّحُوا بُكْرَةً وَعَشِيًّا﴾

يقول تعالى مخبراً عن زكريا، عليه السلام، أنه ﴿قَالَ رَبِّ اجْعَلْ لِي آيَةً﴾ أى: علامة ودليلاً على وجود ما وعدتني، لتستقر نفسي ويطمئن قلبي بما وعدتني كما قال إبراهيم، عليه السلام: ﴿رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى قَالَ أُولِمُ تُوْمِنُ قَالَ بَلَىٰ وَلَكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي﴾ الآية [البقرة: ٢٦٠]. ﴿قَالَ آيَتُكَ﴾ أى: علامتك ﴿الْأُتُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَاثَ لَيَالٍ سَوِيًّا﴾ أى: أن تحبس لسانك عن الكلام ثلاث ليال وأنت صحيح سوى من غير مرض ولا علة، كما قال تعالى في آل عمران: ﴿قَالَ رَبِّ اجْعَلْ لِي آيَةً قَالَ آيَتُكَ إِلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمْزًا وَأَذْكُرُ رَبُّكَ كَثِيرًا وَسَبِّحُ بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكَارِ﴾ [آل عمران: ٤١]. وهذا دليل على أنه لم يكن يكلم الناس في هذه الليالي الثلاث وأيامها ﴿الْإِرْمَازُ﴾ أى: إشارة؛ ولهذا قال في هذه الآية الكريمة: ﴿فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ مِنَ الْمِحْرَابِ﴾ أى: الذى بشر فيه بالولد، ﴿فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ﴾ أى: أشار إشارة خفية سريعة: ﴿أَنْ سَبِّحُوا بُكْرَةً وَعَشِيًّا﴾ أى: موافقة له فيما أمر به في هذه الأيام الثلاثة زيادة على أعماله، شكراً لله على ما أولاه .

﴿يَبْحَثُ خُذِ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ وَآتَيْنَاهُ الْحُكْمَ صَبِيًّا﴾
﴿وَكَانَ تَقِيًّا﴾
﴿وَبَرًّا بِوَالِدَيْهِ وَلَمْ يَكُنْ جَبَّارًا عَصِيًّا﴾
﴿وَسَلَّمَ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُعْرَثُ حِوًّا﴾

وهذا أيضاً تضمن محذوفاً، تقديره: أنه وجد هذا الغلام المبشر به، وهو يحيى، عليه السلام، وأن الله علمه الكتاب، وهو التوراة التى كانوا يتدارسونها بينهم، ويحكم بها النبيون الذين أسلموا للذين هادوا والريانيون والأحبار . وقد كان سنه إذ ذاك صغيراً، فلهذا نوه بذكره، وبما أنعم به عليه وعلى والده، فقال: ﴿يَا يَحْيَى خُذِ الْكِتَابَ﴾ أى: تعلم الكتاب ﴿بِقُوَّةٍ﴾ أى: بجد وحرص واجتهاد ﴿وَآتَيْنَاهُ الْحُكْمَ صَبِيًّا﴾ أى: الفهم والعلم والجد والعزم، والإقبال على الخير، والإكباب عليه، والاجتهاد فيه وهو صغير حدث .

وقوله: ﴿وَحَنَانًا مِّن لَّدُنَّا﴾ قال ابن عباس: ورحمة من عندنا لا يقدر عليها غيرنا .

والظاهر من هذا السياق أن: ﴿وَحَنَانًا﴾ معطوف على قوله: ﴿وَآتَيْنَاهُ الْحُكْمَ صَبِيًّا﴾ أى: وآتيناه الحكم وحناناً، ﴿وَرِزْقًا﴾ أى: وجعلناه ذا حنان وزكاة، فالحنان هو المحبة فى شفقة وميل كما تقول العرب: حنَّ الناقة على ولدها، وحنَّت المرأة على زوجها. ومنه سميت المرأة «حَنَّة» من الحنية، وحن الرجل إلى وطنه، ومنه التعطف والرحمة . وقوله: ﴿وَرِزْقًا﴾ معطوف

على ﴿وَحَسَنًا﴾ فالزكاة الطهارة من الدنس والآثام والذنوب ﴿وَكَانَ تَقِيًّا﴾: ذا طهر، فلم يهمل بدينه. وقوله: ﴿وَبَرًّا بِوَالِدَيْهِ وَلَمْ يَكُنْ جَبَّارًا عَصِيًّا﴾: لما ذكر تعالى طاعته لربه، وأنه خلقه ذا رحمة وزكاة وتقى، عطف بذكر طاعته لوالديه وبره بهما، ومجانبة عقوقهما، قولاً وفعلاً، أمراً ونهياً؛ ولهذا قال: ﴿وَلَمْ يَكُنْ جَبَّارًا عَصِيًّا﴾. ثم قال بعد هذه الأوصاف الجميلة جزاء له على ذلك: ﴿وَسَلَامٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُعْرَضُ حَيًّا﴾ أى: له الأمان فى هذه الثلاثة الأحوال.

﴿وَأَذْكُرُ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ إِذِ انْتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا ﴿١٦﴾ فَأَتَّخَذَتْ مِنْ دُونِهِمْ حِجَابًا فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا ﴿١٧﴾ قَالَتْ إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَنِ مِنْكَ إِنْ كُنْتَ تَقِيًّا ﴿١٨﴾ قَالَ إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَامًا زَكِيًّا ﴿١٩﴾ قَالَتْ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَلَمْ يَمَسِّنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا ﴿٢٠﴾ قَالَ كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَى هَيْنٍ وَلَنَجْعَلَنَّ آيَةً لِلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِنَّا وَكَاتَ أَمْرًا مَقْضِيًّا ﴿٢١﴾﴾

لما ذكر تعالى قصة زكريا، عليه السلام، وأنه أوجد منه، فى حال كبره وعقم زوجته، ولداً زكياً طاهراً مباركاً - عطف بذكر قصة مريم فى إيجاده ولدها عيسى، عليه السلام، منها من غير أب، فإن بين القصتين مناسبة ومشابهة؛ ولهذا ذكرهما فى آل عمران وههنا وفى سورة الأنبياء، يقرن بين القصتين لتقارب ما بينهما فى المعنى، ليدل عباده على قدرته وعظمة سلطانه، وأنه على ما يشاء قادر، فقال: ﴿وَأَذْكُرُ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ﴾ وهى مريم بنت عمران، من سلالة داود، عليه السلام، وكانت من بيت طاهر طيب فى بنى إسرائيل. وقد ذكر الله تعالى قصة ولادة أمها لها فى سورة «آل عمران»، وأنها نذرتها محررة، أى: تخدم مسجد بيت المقدس، وكانوا يتقربون بذلك ﴿فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنْبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا﴾ [آل عمران: ٣٧] ونشأت فى بنى إسرائيل نشأة عظيمة، فكانت إحدى العابדות الناسكات المشهورات بالعبادة العظيمة والتبتل والدؤوب، وكانت فى كفالة زوج أختها زكريا نبي بنى إسرائيل إذ ذاك وعظيمهم، الذى يرجعون إليه فى دينهم. ورأى لها زكريا من الكرامات الهائلة ما بهره ﴿كَلَّمَآ دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقًا قَالَ يَا مَرْيَمُ أَنَّى لَكِ هَذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [آل عمران: ٣٧] فذكر أنه كان يجد عندها ثمر الشتاء فى الصيف وثمر الصيف فى الشتاء، فلما أراد الله تعالى أن يوجد منها عبده ورسوله عيسى، عليه السلام، أحد الرسل أولى العزم الخمسة العظام ﴿انْتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا﴾ أى: اعتزلتهم وتحت عنهم، وذهبت إلى شرق المسجد المقدس.

وقوله: ﴿فَاتَّخَذَتْ مِنْ دُونِهِمْ حِجَابًا﴾ أى: استترت منهم وتوارت، فأرسل الله تعالى إليها جبريل، عليه السلام ﴿فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا﴾ أى: على صورة إنسان تام كامل. ﴿قَالَتْ إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَنِ مِنْكَ إِنْ كُنْتَ تَقِيًّا﴾ أى: لما تبدى لها الملك فى صورة بشر، وهى فى مكان منفرد وبينها وبين قومها حجاب، خافته وظنت أنه يريد على نفسها، فقالت: ﴿إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَنِ مِنْكَ إِنْ كُنْتَ تَقِيًّا﴾ أى: إن كنت تخاف الله. تذكير له بالله، وهذا هو المشروع فى الدفع أن يكون

بالأسهل فالأسهل، فخوفته أولاً بالله، عز وجل . ﴿ قَالَ إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ ﴾ أى: فقال لها الملك مجيباً لها ومزيلاً لها حصل عندها من الخوف على نفسها: لست بما تظنين، ولكنى رسول ربك، أى: بعثنى إليك ﴿ لَأَهَبَ لَكَ غُلَامًا زَكِيًّا ﴾ . ﴿ قَالَتْ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَلَمْ يَمَسِّنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا ﴾ أى: فتعجبت مريم من هذا وقالت: كيف يكون لى غلام؟ أى: على أى صفة يوجد هذا الغلام منى، ولست بذات زوج، ولا يتصور منى الفجور؛ ولهذا قالت: ﴿ وَلَمْ يَمَسِّنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا ﴾ والبغى: هى الزانية ﴿ قَالَ كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلِيمٌ هَيِّنٌ ﴾ أى: فقال لها الملك مجيباً لها عما سألت: إن الله قد قال: إنه سيوجد منك غلاماً، وإن لم يكن لك بعل ولا يوجد منك فاحشة، فإنه على ما يشاء قادر؛ ولهذا قال: ﴿ وَلَنَجْعَلَنَّ آيَةً لِلنَّاسِ ﴾ أى: دلالة وعلامة للناس على قدرة بارئهم وخالقهم، الذى نوع فى خلقهم، فخلق أباهم آدم من غير ذكر ولا أنثى، وخلق حواء من ذكر بلا أنثى، وخلق بقية الذرية من ذكر وأنثى، إلا عيسى فإنه أوجده من أنثى بلا ذكر، فتمت القسمة الرباعية الدالة على كمال قدرته وعظيم سلطانه فلا إله غيره ولا رب سواه .

وقوله : ﴿ وَرَحْمَةً مِنَّا ﴾ أى : ونجعل هذا الغلام رحمة من الله نبياً من الأنبياء يدعو إلى عبادة الله تعالى وتوحيده ، كما قال تعالى فى الآية الأخرى : ﴿ إِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ . وَيُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا وَمِنَ الصَّالِحِينَ ﴾ [آل عمران: ٤٥، ٤٦] أى: يدعو إلى عبادة ربه فى مهده وكهولته .

وقوله: ﴿ وَكَانَ أَمْرًا مَقْضِيًّا ﴾ يحتمل أن هذا من كلام جبريل لمريم، يخبرها أن هذا أمر مقدر فى علم الله تعالى وقدره ومشيئته . ويحتمل أن يكون من خبر الله تعالى لرسوله محمد ﷺ وأنه كنى بهذا عن النفخ فى فرجها، كما قال تعالى: ﴿ وَمَرْيَمَ ابْنَتَ عِمْرَانَ الَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِنْ رُوحِنَا ﴾ [التحریم: ١٢]، وقال: ﴿ وَالَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهَا مِنْ رُوحِنَا ﴾ [الانبياء: ٩١] . قال ابن إسحاق: ﴿ وَكَانَ أَمْرًا مَقْضِيًّا ﴾ أى: أن الله قد عزم على هذا، فليس منه بد، واختار هذا أيضاً ابن جرير فى تفسيره، ولم يحك غيره، والله أعلم .

﴿ فَحَمَلَتْهُ فَانْتَبَدَّتْ بِهِ مَكَانًا قَاصِيًا ﴾ ﴿ فَاجَاءَهَا الْمَخَاضُ إِلَى جِذْعِ النَّخْلَةِ قَالَتْ يَلْتَنِي مِثُّ قَبْلِ هَذَا وَكُنْتُ نَسِيًّا مَنَسِيًّا ﴾ ﴿ فَاجَاءَهَا الْمَخَاضُ إِلَى جِذْعِ النَّخْلَةِ ﴾

يقول تعالى مخبراً عن مريم أنها لما قال لها جبريل عن الله تعالى ما قال، أنها استسلمت لقضاء الله تعالى . ثم اختلف المفسرون فى مدة حمل عيسى، عليه السلام، فالمشهور عن الجمهور أنها حملت به تسعة أشهر . وقال عكرمة: ثمانية أشهر . فالمشهور الظاهر- والله على كل شىء قدير- أنها حملت به كما تحمل النساء بأولادهن . وقوله: ﴿ فَاجَاءَهَا الْمَخَاضُ إِلَى جِذْعِ النَّخْلَةِ ﴾ أى: فاضطرها وأجأها الطلق إلى جذع نخلة فى المكان التى تنحت إليه . قلت: المشهور الذى تلقاه

الناس بعضهم عن بعض، ولا تشك فيه النصارى أنه بيت لحم.

وقوله تعالى إخباراً عنها: ﴿قَالَتْ يَا لَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَذَا وَكُنْتُ نَسِيًّا مُنْسِيًّا﴾: فيه دليل على جواز تمنى الموت عند الفتنة؛ فإنها عرفت أنها ستبتلى وتمتحن بهذا المولود الذي لا يحمل الناس أمرها فيه على السداد، ولا يصدقونها في خيرها، وبعد ما كانت عندهم عابدة ناسكة، تصبح عندهم فيما يظنون عاهرة زانية، فقالت: ﴿يَا لَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَذَا﴾ أي: قبل هذا الحال، ﴿وَكُنْتُ نَسِيًّا مُنْسِيًّا﴾ أي: لم أخلق ولم أكن شيئاً. قاله ابن عباس. وقال قتادة: أي: شيئاً لا يعرف، ولا يذكر، ولا يدري من أنا. وقد قدمنا الأحاديث الدالة على النهى عن تمنى الموت إلا عند الفتنة، عند قوله: ﴿تَوَلَّى مُسْلِمًا وَالْحَفِيظِي بِالصَّالِحِينَ﴾ [يوسف: ١٠١].

﴿فَنَادَاهَا مِنْ تَحْتِهَا أَلَّا تَحْزَنِي قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا ﴿١٤﴾ وَهَزَى إِلَيْكَ جِجْجِعَ النَّخْلَةِ لَسُقُوطِ عَلَيْكَ رُطْبًا جَنِيًّا ﴿١٥﴾ فَكَلِمًا وَأَشْرِي وَقَرِي عَيْنًا فِيمَا تَرَيْنَ مِنَ الْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِي إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنْسِيًّا ﴿١٦﴾﴾

قرأ بعضهم: ﴿مَنْ تَحْتَهَا﴾ بمعنى: الذى تحتها. وقرأ آخرون: ﴿مِنْ تَحْتِهَا﴾ على أنه حرف جر. واختلف المفسرون فى المراد بذلك من هو؟ فقال ابن عباس: ﴿فَنَادَاهَا مِنْ تَحْتِهَا﴾: جبريل، ولم يتكلم عيسى حتى أتت به قومها. وكذا قال سعيد بن جبیر، والسدى، وقاتدة وغيرهم: إنه الملك جبريل، عليه الصلاة والسلام، أى: ناداها من أسفل الوادى. وقال مجاهد: ﴿فَنَادَاهَا مِنْ تَحْتِهَا﴾ قال: عيسى ابن مريم. وكذا قال الحسن: هو ابنها. قال: أو لم تسمع الله يقول: ﴿فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ﴾ [مريم: ٢٩] واختاره ابن زيد، وابن جرير فى تفسيره. وقوله: ﴿أَلَّا تَحْزَنِي﴾ أى: ناداها قائلاً: لا تحزنى ﴿قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا﴾ عن البراء بن عازب قال: الجدول. وكذا قال ابن عباس: السرى: النهر. والظاهر أنها لم تكن فى إبان ثمرها؛ ولهذا امتن عليها بذلك، أن جعل عندها طعاماً وشراباً، فقال: ﴿تَسَاقِطُ عَلَيْكَ رُطْبًا جَنِيًّا. فَكَلِمًا وَأَشْرِي وَقَرِي عَيْنًا﴾ أى: طيبى نفساً؛ ولهذا قال عمرو بن ميمون: ما من شىء خير للنفساء من التمر والرطب، ثم تلا هذه الآية الكريمة.

وقوله: ﴿فِيمَا تَرَيْنَ مِنَ الْبَشَرِ أَحَدًا﴾ أى: مهما رأيت من أحد ﴿فَقُولِي إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنْسِيًّا﴾ المراد بهذا القول: الإشارة إليه بذلك. لا أن المراد به القول اللفظى، لئلا ينافى: ﴿فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنْسِيًّا﴾. قال أنس بن مالك فى قوله: ﴿صَوْمًا﴾ أى: صمتاً. وكذا قال ابن عباس، والضحاك.

﴿ فَآتَتْ بِهِ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُ ﴾ قَالُوا يَا مَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْئًا فَرِيًّا ﴿٧﴾ يَا أُخْتَ هَارُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ امْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكَ بَغِيًّا ﴿٨﴾ فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ قَالُوا كَيْفَ نُكَلِّمُ مَنْ كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا ﴿٩﴾ قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا ﴿١٠﴾ وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنْتُ وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا ﴿١١﴾ وَبَرًّا بِوَالِدِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا ﴿١٢﴾ وَالسَّلَامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدْتُ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا ﴿١٣﴾ ﴿١٣﴾

يقول تعالى مخبراً عن مريم حين أمرت أن تصوم يومها ذلك، وألا تكلم أحداً من البشر، فإنها ستكفي أمرها ويقام بحجتها، فسلمت لأمر الله، عز وجل، واستسلمت لقضائه، فأخذت ولدها ﴿فَأَتْت بِهِ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُ﴾ فلما رأوها كذلك، أعظموا أمرها واستكروه جداً، وقالوا: ﴿يَا مَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْئًا فَرِيًّا﴾ أي: امرأة عظيماً. ﴿يَا أُخْتَ هَارُونَ﴾ أي: يا شبيهة هارون في العبادة ﴿مَا كَانَ أَبُوكِ امْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكَ بَغِيًّا﴾ أي: أنت من بيت طيب طاهر، معروف بالصلاح والعبادة والزهادة، فكيف صدر هذا منك؟

روى الإمام أحمد عن المغيرة بن شعبة قال: بعثني رسول الله ﷺ إلى نجران، فقالوا: أرايت ماتقروون: ﴿يَا أُخْتَ هَارُونَ﴾، وموسى قبل عيسى بكذا وكذا؟ قال: فرجعت فذكرت ذلك لرسول الله ﷺ فقال: «ألا أخبرتهم أنهم كانوا يتسمون بالأنبياء والصالحين قبلهم؟». انفرد بإخراجه مسلم، والترمذي، والنسائي، وقال الترمذي: حسن صحيح غريب، لا نعرفه إلا من حديث ابن إدريس (١).

وقوله: ﴿فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ قَالُوا كَيْفَ نُكَلِّمُ مَنْ كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا﴾ أي: أنهم لما استرابوا في أمرها واستنكروا قضيتها، وقالوا لها ما قالوا معرضين بقذفها ورميها بالفرية، وقد كانت يومها ذلك صائمة، صائمة فأحالت الكلام عليه، وأشارت لهم إلى خطابه وكلامه، فقالوا متهمين بها، ظانين أنها تزدرى بهم وتلعب بهم: ﴿كَيْفَ نُكَلِّمُ مَنْ كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا﴾ أي: من هو موجود في مهده في حال صباه وصغره ﴿قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ﴾: أول شيء تكلم به أن نزه جناب ربه تعالى، وبرأه عن الولد، وأثبت لنفسه العبودية لربه. وقوله: ﴿آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا﴾: تبرئة لأمه مما نسبت إليه من الفاحشة. وقال عكرمة: ﴿آتَانِيَ الْكِتَابَ﴾ أي: قضى أنه يؤتيني الكتاب فيما قضى.

وقوله: ﴿وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنْتُ﴾ قال مجاهد، وعمرو بن قيس، والثوري: وجعلني معلماً للخير. وقوله: ﴿وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا﴾ كقولته تعالى لمحمد ﷺ: ﴿وَأَعِذْ رَبِّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ﴾ [الحجر: ٩٩]. وقال مالك بن أنس في قوله: ﴿وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا﴾ قال: أخبره بما هو كائن من أمره إلى أن يموت، ما أبينها لأهل القدر. وقوله: ﴿وَبَرًّا بِوَالِدِي﴾

أى: وأمرنى ببر والدتى، ذكره بعد طاعة ربه؛ لأن الله تعالى كثيراً ما يقرب بين الأمر بعبادته وطاعة الوالدين، كما قال تعالى: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾ [الإسراء: ٢٣]، وقال: ﴿أَنْ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَيَّ الْمَصِيرُ﴾ [لقمان: ١٤]. وقوله: ﴿وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا﴾ أى: ولم يجعلنى جباراً مستكبراً عن عبادته وطاعته وبر والدتى، فأشقى بذلك. وقال بعض السلف: لا تجد أحداً عاقاً لوالديه إلا وجدته جباراً شقياً، ثم قرأ: ﴿وَبَرًّا بِوَالِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا﴾ قال: ولا تجد سبى الملكة إلا وجدته مختلاً فخوراً، ثم قرأ: ﴿وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ إِنْ اللَّهُ لَا يُحِبُّ مَنْ كَانَ مُخْتَلًا فَخُورًا﴾ [النساء: ٣٦].

وقوله: ﴿وَالسَّلَامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدْتُ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا﴾: إثبات منه لعبوديته لله عز وجل، وأنه مخلوق من خلق الله يحيا، ويمت ويبعث كسائر الخلائق، ولكن له السلامة فى هذه الأحوال التى هى أشق ما يكون على العباد، صلوات الله وسلامه عليه.

﴿ذَلِكَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ الْحَقِّ الَّذِي فِيهِ يَمْتَرُونَ﴾ ﴿٢٤﴾ مَا كَانَ لِلَّهِ أَنْ يَتَّخِذَ مِنْ وَلَدٍ سَبْحَتَهُ إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴿٢٥﴾ وَإِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ ﴿٢٦﴾ فَاخْتَلَفَ الْأَحْزَابُ مِنْ بَيْنِهِمْ فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ مَّشْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٢٧﴾

يقول تعالى لرسوله محمد ﷺ: ذلك الذى قصصناه عليك من خبر عيسى ﴿قَوْلَ الْحَقِّ الَّذِي فِيهِ يَمْتَرُونَ﴾ أى: يختلف المبطلون والمحقون بمن آمن به وكفر به. ولما ذكر تعالى أنه خلقه عبداً نبياً، نزه نفسه المقدسة فقال: ﴿مَا كَانَ لِلَّهِ أَنْ يَتَّخِذَ مِنْ وَلَدٍ سَبْحَانَهُ﴾ أى: عما يقول هؤلاء الجاهلون الظالمون المعتدون علواً كبيراً ﴿إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ أى: إذا أراد شيئاً فإنما يأمُر به، فيصير كما يشاء، كما قال تعالى: ﴿إِنْ مَثَلٌ عِيسَىٰ عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ. الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُنْ مِنَ الْمُمْتَرِينَ﴾ [آل عمران: ٥٩، ٦٠].

وقوله: ﴿وَإِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ﴾ أى: ومما أمر عيسى به قومه وهو فى مهده، أن أخبرهم إذ ذاك أن الله ربهم وربى، وأمرهم بعبادته، فقال: ﴿فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ﴾ أى: هذا الذى جتتكم به عن الله صراط مستقيم، أى: قويم، من اتبعه رشد وهدى، ومن خالفه ضل وغوى .

وقوله: ﴿فَاخْتَلَفَ الْأَحْزَابُ مِنْ بَيْنِهِمْ﴾ أى: اختلفت أقوال أهل الكتاب فى عيسى بعد بيان أمره ووضوح حاله، وأنه عبده ورسوله وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه، فصممت طائفة - وهم جمهور اليهود، عليهم لعائن الله - على أنه ولد زنية، وقالوا: كلامه هذا سحر. وقالت طائفة أخرى: إنما تكلم الله. وقال آخرون: هو ابن الله. وقال آخرون: ثالث ثلاثة. وقال آخرون: بل هو عبد الله ورسوله. وهذا هو قول الحق، الذى أرشد الله إليه المؤمنين. وقد روى عن عمرو بن ميمون، وابن جريج، وقتادة، وغير واحد من السلف والخلف. وقوله: ﴿فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ مَّشْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾: تهديد ووعيد شديد لمن كذب على الله، وافترى، وزعم أن له ولداً.

ولكن أنظروهم تعالى إلى يوم القيامة وأجلهم حتماً وثقة بقدرته عليهم؛ فإنه الذى لا يعجل على من عساه، كما جاء فى الصحيحين: « إن الله ليملى للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته » ثم قرأ رسول الله ﷺ: ﴿وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَىٰ وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾ [هود: ١٠٢] (١). وفى الصحيحين أيضاً عن رسول الله ﷺ أنه قال: « لا أحد أصبر على أذى سمعه من الله، إنهم يجعلون له ولداً، وهو يرزقهم ويعافهم » (٢). وقد قال الله تعالى: ﴿وَكَايِنٍ مِّنْ قَرْيَةٍ أَهْلَيْتُ لَهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ ثُمَّ أَخَذْتُهَا وَإِلَى الْمَصِيرِ﴾ [الحج: ٤٨] وقال تعالى: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلًا عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ﴾ [إبراهيم: ٤٢]؛ ولهذا قال هاهنا: ﴿فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ مَّشْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ أى: يوم القيامة. وقد جاء فى الحديث الصحيح عن عبادة بن الصامت، قال: قال رسول الله ﷺ: « من شهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأن محمداً عبده ورسوله، وأن عيسى عبد الله ورسوله، وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه، وأن الجنة حق، والنار حق، أدخله الله الجنة على ما كان من العمل » (٣).

﴿ أَسْمِعْ يَوْمَ وَأَبْصِرْ يَوْمَ يَأْتُونَنَا لَكِنِ الظَّالِمُونَ الْيَوْمَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴾ ﴿٢٨﴾ وَأَنْذِرْهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ إِذْ قُضِيَ الْأَمْرُ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٢٩﴾ إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ الْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا وَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ ﴿٣٠﴾

يقول تعالى مخبراً عن الكفار يوم القيامة أنهم يكونون أسمع شىء وأبصره كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الْمُجْرِمُونَ نَاكِسُوا رُءُوسِهِمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا﴾ الآية [السجدة: ١٧٢] أى: يقولون ذلك حين لا ينفعهم ولا يجدى عنهم شيئاً، ولو كان هذا قبل معاينة العذاب لكان نافعاً لهم ومنقذاً من عذاب الله؛ لهذا قال: ﴿أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ﴾ أى: ما أسمعهم وأبصرهم ﴿يَوْمَ يَأْتُونَنَا﴾ أى: يوم القيامة ﴿لَكِنِ الظَّالِمُونَ الْيَوْمَ﴾ أى: فى الدنيا ﴿فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ أى: لا يسمعون ولا يبصرون ولا يعقلون، فحيث يطلب منهم الهدى لا يهتدون، ويكونون مطيعين حيث لا ينفعهم ذلك.

ثم قال تعالى: ﴿وَأَنْذِرْهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ﴾ أى: أنذر الخلاق يوم الحسرة ﴿إِذْ قُضِيَ الْأَمْرُ﴾ أى: فصل بين أهل الجنة وأهل النار، ودخل كل إلى ما صار إليه مخلداً فيه ﴿وَهُمْ﴾ أى: اليوم ﴿فِي غَفْلَةٍ﴾ عما أنذروا به ﴿وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ أى: لا يصدقون به. روى الإمام أحمد عن أبى سعيد الخدرى قال: قال رسول الله ﷺ: « إذا دخل أهل الجنة الجنة، وأهل النار النار، يجاء بالموت كأنه كبش أملح، فيوقف بين الجنة والنار، فيقال: يا أهل الجنة، هل تعرفون هذا؟ قال: «فيشربون فينظرون ويقولون: نعم، هذا الموت». قال: «فيقال: يا أهل النار، هل تعرفون

(١) البخارى (٤٦٨٦) ومسلم (٢٥٨٣ / ٦١).

(٢) البخارى (٦٠٩٩) ومسلم (٤ / ٢٨٠٤ / ٤٩).

(٣) البخارى (٣٤٣٥) ومسلم (٢٩ / ٤٧).

هذا؟ قال: «فيشربون فينظرون ويقولون: نعم، هذا الموت» قال: «فيؤمر به فيذبح» قال: «ويقال: يا أهل الجنة، خلود ولا موت، ويا أهل النار خلود ولا موت» قال: ثم قرأ رسول الله ﷺ: ﴿وَأَنْذِرْهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ إِذْ قُضِيَ الْأَمْرُ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ﴾ وأشار بيده. قال: «أهل الدنيا في غفلة الدنيا». وقد أخرجه البخارى ومسلم ولفظهما قريب من ذلك^(١). وفى سنن ابن ماجه وغيره عن أبى هريرة، بنحوه^(٢). وهو فى الصحيحين عن ابن عمر^(٣).

وقوله: ﴿إِنَّا نَحْنُ نُرِثُ الْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا وَإِنَّا يُرْجَعُونَ﴾: يخبر تعالى أنه الخالق المالك المتصرف، وأن الخلق كلهم يهلكون ويبقى هو، تعالى وتقدس ولا أحد يدعى ملكاً ولا تصرفاً، بل هو الوارث لجميع خلقه، الباقي بعدهم، الحاكم فيهم، فلا تظلم نفس شيئاً ولا جناح بعوضة ولا مثقال ذرة.

﴿وَأَذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّهُ كَانَ صَدِيقًا نَبِيًّا﴾ ﴿٤١﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئًا﴾ ﴿٤٢﴾ يَا أَبَتِ إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطًا سَوِيًّا﴾ ﴿٤٣﴾ يَا أَبَتِ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِنَ الرَّحْمَنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا﴾ ﴿٤٥﴾

يقول تعالى لنبيه محمد ﷺ: واذكر فى الكتاب إبراهيم واتل على قومك، هؤلاء الذين يعبدون الأصنام، واذكر لهم ما كان من خير إبراهيم خليل الرحمن الذين هم من ذريته، ويدعون أنهم على ملته، وقد كان صديقاً نبياً - مع أبيه - كيف نهاه عن عبادة الأصنام، فقال: ﴿يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئًا﴾ أى: لا ينفعك ولا يدفع عنك ضرراً. ﴿يَا أَبَتِ إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ﴾ يقول: إن كنت من صلبك وترى أنى أصغر منك، لأنى ولدك، فاعلم أنى قد اطلعت من العلم من الله على ما لم تعلمه أنت ولا اطلعت عليه ولا جاءك بعد ﴿فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطًا سَوِيًّا﴾ أى: طريقاً مستقيماً موصلاً إلى نيل المطلوب، والنجاة من المهوب.

﴿يَا أَبَتِ لَا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ﴾ أى: لا تطعه فى عبادتك هذه الأصنام، فإنه هو الداعى إلى ذلك، والراضى به، كما قال تعالى: ﴿أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَنْ لَا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ﴾ [يس: ٦٠] وقال: ﴿إِنْ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا إِنثًا وَإِنْ يَدْعُونَ إِلَّا شَيْطَانًا مَرِيدًا﴾ [النساء: ١١٧].

وقوله: ﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَنِ عَصِيًّا﴾ أى: مخالفاً مستكبراً عن طاعة ربه، فطرده وأبعده، فلا تتبعه تصر مثله ﴿يَا أَبَتِ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِنَ الرَّحْمَنِ﴾ أى: على شركك وعصيانك لما

(١) المسند (٣ / ٩) والبخارى (٤٧٣٠) ومسلم (٢٨٤٩ / ٤٠).

(٢) ابن ماجه (٤٣٢٧)، وفى الزوائد: «إسناده صحيح»، رجاله ثقات، وصححه الألبانى.

(٣) البخارى (٦٥٤٨) ومسلم (٢٨٥٠ / ٤٣).

أمرك به، ﴿فَتَكُونُ لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا﴾ يعني: فلا يكون لك مولى ولا ناصرًا ولا مغيثًا إلا إبليس، وليس إليه ولا إلى غيره من الأمر شيء، بل اتباعك له موجب لإحاطة العذاب بك، كما قال تعالى: ﴿تَاللَّهِ لَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَىٰ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَرِئِن لَّهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالُهُمْ فَهُوَ وَلِيُّهُمْ الْيَوْمَ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [النحل: ٦٣]

﴿قَالَ أَرَأَيْبُ أَنْتَ عَنِّ إِلَهِي يَتَّبِعُهُمُ الْيَهُودُ لِمَ لَمْ تَكُنْ لَهُمْ شَهِيدًا لِّمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾
 ﴿قَالَ سَلِمْتُ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي إِنَّكَ كَانتَ فِي حَفِيًّا﴾ ﴿٤٧﴾ وَأَعْتَرَلَكُمْ
 وَمَا تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ وَأَدْعُوا رَبِّي عَسَىٰ أَلَّا أَكُونَ بِدُعَاءِ رَبِّي شَقِيًّا﴾ ﴿٤٨﴾

يقول تعالى مخبراً عن جواب أبي إبراهيم لولده إبراهيم فيما دعاه إليه أنه قال: ﴿أَرَأَيْبُ أَنْتَ عَنِّ إِلَهِي يَا إِبْرَاهِيمَ﴾ يعني: إن كنت لا تريد عبادتها ولا ترضاها، فانتة عن سبها وشتها وعبها، فإنك إن لم تنته عن ذلك اقتصصت منك وشتمتك وسبتك، وهو قوله: ﴿لَأَرْجُمَنَّكَ﴾، قاله ابن عباس . وقوله: ﴿وَأَهْجُرَنِي مَلِيًّا﴾ قال مجاهد : يعني : دهرأ . وقال الحسن البصرى : زماناً طويلاً ، وقال ابن عباس : ﴿وَأَهْجُرَنِي مَلِيًّا﴾ قال : سوياً سالماً، قبل أن تصيبك منى عقوبة . وكذا قال الضحاك وقتادة ، واختاره ابن جرير .

فعندها قال إبراهيم لأبيه: ﴿سَلَامٌ عَلَيْكَ﴾ كما قال تعالى فى صفة المؤمنين: ﴿وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا﴾ [الفرقان: ٦٣] وقال تعالى: ﴿وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ وَقَالُوا لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْغِي الْجَاهِلِينَ﴾ [القصص: ٥٥].

ومعنى قول إبراهيم لأبيه: ﴿سَلَامٌ عَلَيْكَ﴾ يعني: أما أنا فلا ينالك منى مكروه ولا أذى، وذلك لحرمة الأبوة ﴿سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي﴾ أى: ولكن سأسال الله تعالى فىك أن يهدىك ويغفر ذنبك ﴿إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيًّا﴾ قال ابن عباس وغيره: لطيفاً، أى: فى أن هدانى لعبادته والإخلاص له . وقد استغفر إبراهيم لأبيه مدة طويلة، وبعد أن هاجر إلى الشام وبنى المسجد الحرام، وبعد أن ولد له إسماعيل وإسحاق ، عليهما السلام ، فى قوله : ﴿رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ الْحِسَابُ﴾ [إبراهيم: ٤١]. وقد استغفر المسلمون لقراباتهم وأهليهم من المشركين فى ابتداء الإسلام، وذلك اقتداء بإبراهيم الخليل فى ذلك حتى أنزل الله تعالى: ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَاءُ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحَدَهُ إِلَّا قَوْلَ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وَمَا أَمْلِكُ لَكَ مِنَ اللَّهِ مِن شَيْءٍ﴾ الآية [المتنحة: ٤] ، معنى إلا فى هذا القول، فلا تناسوا به . ثم بين تعالى أن إبراهيم أقلع عن ذلك، ورجع عنه، فقال تعالى: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَن يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولِي قُرْبَىٰ مِن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ﴾ [التوبة: ١١٣، ١١٤].

وقوله: ﴿وَأَعْتَرَلَكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ وَأَدْعُوا رَبِّي﴾ أى: أجتنبكم وأتبرا منكم ومن

آلهتكم التي تعبدونها من دون الله، ﴿وَأَذْعُرِيَّ﴾ أى: وأعبد ربى وحده لا شريك له، ﴿عَسَىٰ أَلَّا أَكُونَ بِدُعَاءِ رَبِّي شَقِيًّا﴾ و«عسى» هذه موجبة لا محالة، فإنه، عليه السلام، سيد الأنبياء بعد محمد ﷺ.

﴿فَلَمَّا أَعْتَزَلْتُمْ وَمَا يَعْزُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ وَهَبْنَا لَهُمُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَكَلَّا جَعَلْنَا نَبِيًّا ﴿٤٩﴾ وَوَهَبْنَا لَهُم مِّن رَّحْمَتِنَا وَجَعَلْنَا لَهُم لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا ﴿٥٠﴾﴾

يقول تعالى: فلما اعتزل الخليل أباه وقومه فى الله، أبدله الله من هو خير منهم، وهب له إسحاق ويعقوب، يعنى ابنه وابن إسحاق، كما قال فى الآية الأخرى: ﴿وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً﴾ [الأنبياء: ٧٢]، وقال: ﴿وَمِن رَّوَّاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ﴾ [هود: ٧١]. ولا خلاف أن إسحاق والد يعقوب، وهو نص القرآن فى سورة البقرة: ﴿أَمْ كُنتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتَ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِن بَعْدِي قَالُوا نَعْبُدُ إِلَهَكَ وَإِلَهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ﴾ [البقرة: ١٣٣]. ولهذا ذكر هاهنا إسحاق ويعقوب، أى: جعلنا له نسلا وعقباً أنبياء، أقر الله بهم عينه فى حياته؛ ولهذا قال: ﴿وَكَلَّا جَعَلْنَا نَبِيًّا﴾، فلو لم يكن يعقوب قد نبى فى حياة إبراهيم، لما اقتصر عليه، ولذكر ولده يوسف، فإنه نبى أيضاً كما قال رسول الله ﷺ فى الحديث المتفق على صحته، حين سئل عن خير الناس، فقال: «يوسف نبى الله، ابن يعقوب نبى الله، ابن إسحاق نبى الله، ابن إبراهيم خليل الله» (١). وفى اللفظ الآخر: «إن الكريم ابن الكريم ابن الكريم ابن يوسف بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم» (٢).

وقوله: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُم مِّن رَّحْمَتِنَا وَجَعَلْنَا لَهُم لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا﴾ قال ابن عباس: يعنى الشئ الحسن. وقال ابن جرير: إنما قال: ﴿عَلِيًّا﴾؛ لأن جميع الملل والأديان يشنون عليهم ويمدحونهم، صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين.

﴿وَأَذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مُوسَىٰ إِنَّكُمْ كَانَ مُخْلِصًا وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا ﴿٥١﴾ وَتَدِينَهُ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ الْأَيْمَنِ وَوَقَيْتَهُ نَجِيًّا ﴿٥٢﴾ وَوَهَبْنَا لَهُم مِّن رَّحْمَتِنَا أَخَاهُ هَارُونَ نَبِيًّا﴾

لما ذكر تعالى إبراهيم الخليل وأثنى عليه، عطف بذكر الكليم، فقال: ﴿وَأَذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مُوسَىٰ إِنَّهُ كَانَ مُخْلِصًا﴾ قرأ بعضهم بكسر اللام، من الإخلاص فى العبادة. وقرأ الآخرون بفتحها، بمعنى أنه كان مصطفى، كما قال تعالى: ﴿إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ﴾ [الاعراف: ١٤٤]. ﴿وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا﴾، جمع له بين الوصفين، فإنه كان من المرسلين الكبار أولى العزم الخمسة، وهم: نوح وإبراهيم، وموسى، وعيسى، ومحمد، صلوات الله وسلامه عليهم وعلى سائر الأنبياء أجمعين.

وقوله : ﴿ وَنَادَيْتَاهُ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ ﴾ أي : الجبل ﴿ الْأَيْمَنِ ﴾ من موسى حين ذهب يبتغي من تلك النار جذوة ، فرآها تلوح فقصدتها ، فوجدها في جانب الطور الايمن منه ، غربية عند شاطئ الوادى . فكلمه الله تعالى ، وناداه وقربه فناجاه . روى ابن جرير عن ابن عباس : ﴿ وَقَرَّبْنَاهُ نَجِيًّا ﴾ قال : أذني حتى سمع صريف القلم .

وقوله : ﴿ وَوَهَبْنَا لَهُ مِنْ رَحْمَتِنَا أَخَاهُ هَارُونَ نَبِيًّا ﴾ أي : وأجينا سؤاله وشفاعته في أخيه ، فجعلناه نبياً ، كما قال في الآية الأخرى : ﴿ وَأَخِي هَارُونَ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا فَأَرْسَلْنَا مِنِّي رِجْلَهُ يَدْعَاُ يَصَدِّقُنِي إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُكَذِّبُونِ ﴾ [القصص : ٣٤] ، وقال : ﴿ قَدْ أَوْتَيْتَ سؤُوكَ يَا مُوسَى ﴾ [طه : ٣٦] ، وقال : ﴿ فَأَرْسَلْنَا إِلَى هَارُونَ . وَلَهُمْ عَلَيَّ ذَنْبٌ فَأَخَافُ أَنْ يَقْتُلُونِ ﴾ [الشعراء : ١٣ ، ١٤] ؛ ولهذا قال بعض السلف : ما شفع أحد في أحد شفاعته في الدنيا أعظم من شفاعته موسى في هارون أن يكون نبياً ، قال الله تعالى : ﴿ وَوَهَبْنَا لَهُ مِنْ رَحْمَتِنَا أَخَاهُ هَارُونَ نَبِيًّا ﴾ .

﴿ وَأَذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِسْمَاعِيلَ إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولًا نَبِيًّا ﴿٥٤﴾ وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُ بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ وَكَانَ عِنْدَ رَبِّهِ مَرْضِيًّا ﴿٥٥﴾ ﴾

هذا ثناء من الله تعالى على إسماعيل بن إبراهيم الخليل ، عليهما السلام ، وهو والد عرب الحجاز كلهم بأنه ﴿ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ ﴾ . وقال بعضهم : إنما قيل له : ﴿ صَادِقَ الْوَعْدِ ﴾ ؛ لأنه قال لأبيه : ﴿ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ ﴾ [الصافات : ١٠٢] ، فصدق في ذلك .

فَصَدَّقَ الوعد من الصفات الحميدة ، كما أن خُلِقَ من الصفات الذميمة ، قال الله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ . كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴾ [الصف : ٢ ، ٣] ، وقال رسول الله ﷺ : « آية المنافق ثلاث : إذا حدث كذب ، وإذا وعد أخلف ، وإذا أؤتمن خان » (١) .

ولما كانت هذه صفات المنافقين ، كان التلبس بضعها من صفات المؤمنين ، ولهذا أثنى الله على عبده ورسوله إسماعيل بصدق الوعد ، وكذلك كان رسول الله ﷺ صادق الوعد أيضاً ، لا يعد أحداً شيئاً إلا وفى له به ، وقد أثنى على أبي العاص بن الربيع زوج ابنته زينب ، فقال : « حدثني فصدقني ، ووعدني فوفى لي » (٢) . ولما توفى النبي ﷺ قال الخليفة أبو بكر الصديق : من كان له عند رسول الله ﷺ عدةٌ أو دينٌ فليأتني أنجز له ، فجاء جابر بن عبد الله ، فقال : إن رسول الله ﷺ كان قال : « لو جاء مال البحرين أعطيتك هكذا وهكذا وهكذا » ، يعنى : ملء كفيه ، فلما جاء مال البحرين أمر الصديق جابراً ، فغرف بيديه من المال ، ثم أمره ببعده ، فإذا هو خمسمائة درهم ، فأعطاه مثليها معها (٣) .

وقوله : ﴿ وَكَانَ رَسُولًا نَبِيًّا ﴾ : فى هذا دلالة على شرف إسماعيل على أخيه إسحاق ؛ لأنه إنما

(٢) البخارى (٣٧٢٩) ومسلم (٢٤٤٩ / ٩٥) .

(١) البخارى (٣٣) ومسلم (١٠٧ / ٥٩) .

(٣) البخارى (٢٦٨٣) ومسلم (٢٣١٤ / ٦٠) .

وصف بالنبوة فقط، وإسماعيل وصف بالنبوة والرسالة. وقد ثبت في صحيح مسلم أن رسول الله ﷺ قال: « إن الله اصطفى من ولد إبراهيم إسماعيل » وذكر تمام الحديث (١)، فدل على صحة ما قلناه.

وقوله: ﴿ وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُ بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ وَكَانَ عِنْدَ رَبِّهِ مَرْضِيًّا ﴾ : هذا أيضاً من الثناء الجميل، والصفة الحميدة، والخلة السديدة، حيث كان مثابراً على طاعة ربه أمراً بها لأهله، كما قال تعالى لرسوله: ﴿ وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا ﴾ الآية [طه: ١٣٢]، وقال تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلَائِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ ﴾ الآية [التحريم: ٦] أى: مروهم بالمعروف، وانهوه عن المنكر، ولا تدعوهم هملاً فتاكلهم النار يوم القيامة، وقد جاء في الحديث عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: « رحم الله رجلاً قام من الليل فصلى، وأيقظ امرأته، فإن أبت نضح في وجهها الماء. رحم الله امرأة قامت من الليل فصلت، وأيقظت زوجها، فإن أبى نضحت في وجهه الماء » أخرجه أبو داود، وابن ماجه (٢).

﴿ وَأَذْكُرُ فِي الْكِتَابِ إِدْرِيسَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا ﴾ ﴿٥١﴾ وَرَفَعْنَاهُ مَكَانًا عَلِيًّا ﴿٥٢﴾

ذكر إدريس، عليه السلام، بالثناء عليه، بأنه كان صديقاً نبياً، وأن الله رفعه مكاناً علياً. وقد تقدم في الصحيح: أن رسول الله ﷺ مرّ به في ليلة الإسراء وهو في السماء الرابعة (٣).

﴿ أُولَئِكَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ مِن ذُرِّيَةِ آدَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ وَمِن ذُرِّيَةِ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْرَائِيلَ وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَاجَبْتِنَا إِذَا تَنَلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُ الرَّحْمَنِ خَرُّوا سُجَّدًا وَبُكِيًّا ﴾ ﴿٥٨﴾

سجدة

يقول تعالى: هؤلاء النبيون - وليس المراد المذكورين في هذه السورة فقط، بل جنس الأنبياء، عليهم السلام، استطرد من ذكر الأشخاص إلى الجنس - ﴿ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ مِن ذُرِّيَةِ آدَمَ ﴾ الآية. قال السدي وابن جرير: فالذي عنى به من ذرية آدم: إدريس، والذي عنى به من ذرية من حملنا مع نوح: إبراهيم، والذي عنى به من ذرية إسرائيل: موسى، وهارون، وزكريا، ويحيى وعيسى ابن مريم. قال ابن جرير: ولذلك فرق أنسابهم، وإن كان يجمع جميعهم آدم؛ لأن فيهم من ليس من ولد من كان مع نوح في السفينة، وهو إدريس، فإنه جد نوح. قلت: هذا هو الأظهر أن إدريس في عمود نسب نوح، وعليهما السلام. وقد قيل: إنه من أنبياء بنى إسرائيل، أخذنا من حديث الإسراء، حيث قال في سلامه على النبي ﷺ: «مرحباً بالنبي الصالح، والأخ الصالح» (٤)، ولم يقل: «والولد الصالح»، كما قال آدم وإبراهيم، عليهما السلام.

(١) مسلم (٢٢٧٦ / ١).

(٢) أبو داود (١٤٥٠) وابن ماجه (١٣٣٦) وصححه الألباني.

(٣) البخارى (٣٤٩) ومسلم (١٦٢ / ٢٥٩).

(٤) البخارى (٤٨٠٧).

وعما يؤيد أن المراد بهذه الآية جنسُ الأنبياء، أنها كقوله تعالى فى سورة الأنعام: ﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَى قَوْمِهِ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مِّنْ نُّشَاءٍ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ . وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ كُلًّا هَدَيْنَا وَنُوحًا هَدَيْنَا مِن قَبْلُ وَمِن ذُرِّيَّتِهِ دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَى وَهَارُونَ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ . وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَى وَعِيسَى وَإِلْيَاسَ كُلٌّ مِّنَ الصَّالِحِينَ . وَإِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطًا وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى الْعَالَمِينَ . وَمِن آبَائِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَإِخْوَانِهِمْ وَاجْتَبَيْنَاهُمْ وَهَدَيْنَاهُمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ إلى أن قال: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهِدَاهُمْ أَقْتَدَهُ﴾ [الأنعام: ٨٣-٩٠] وقال تعالى: ﴿مِنْهُمْ مَّنْ قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَّنْ لَّمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ﴾ [غافر: ٧٨] .
وفى صحيح البخارى، عن مجاهد: أنه سأل ابن عباس: أفى «ص» سجدة؟ قال: نعم، ثم تلا هذه الآية: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهِدَاهُمْ أَقْتَدَهُ﴾، فنبهكم عن أمر أن يقتدى بهم، قال: وهو منهم، يعنى داود.

وقال الله تعالى فى هذه الآية الكريمة: ﴿إِذَا تَقَالَىٰ عَلَيْهِم آيَاتُ الرَّحْمَنِ خَرَوْا سُجُودًا وَبُكِيًّا﴾ أى: إذا سمعوا كلام الله المتضمن حُجَّجِه ودلائله وبراهينه، سجدوا لربهم خضوعاً واستكانة، وحمداً وشكراً على ما هم فيه من النعم العظيمة. «والبكى»: جمع بك، فلهذا أجمع العلماء على شرعية السجود هاهنا، اقتداء بهم، واتباعاً لمنوالهم.

قرأ عمر بن الخطاب، رضى الله عنه، سورة مريم، فسجد وقال: هذا السجود، فأين البكى؟ يريد البكاء.

رَبِيع ﴿خَلَّفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلَاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهْوَاتِ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غِيًّا﴾ (٥٩)
﴿إِلَّا مَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ شَيْئًا﴾ (٦٠)

لما ذكر تعالى حزبَ السعداء، وهم الأنبياء، عليهم السلام، ومن اتبعهم، من القائميين بحدود الله وأوامره، المؤدنين فرائض الله، التاركين لزواجه - ذكر أنه ﴿خَلَّفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ﴾ أى: قرون آخر، ﴿أَضَاعُوا الصَّلَاةَ﴾ وإذا أضاعوها فهم لما سواها من الواجبات أضيع؛ لأنها عماد الدين وقوامه، وخير أعمال العباد، وأقبلوا على شهوات الدنيا وملذذاتها، ورضوا بالحياة الدنيا واطمأنوا بها، فهؤلاء سيلقون غيا، أى: خساراً يوم القيامة. وقد اختلفوا فى المراد بإضاعة الصلاة هاهنا، فقال قائلون: المراد بإضاعتها تركها بالكلية، واختاره ابن جرير. ولهذا ذهب من ذهب من السلف والخلف والأئمة كما هو المشهور عن الإمام أحمد، وقول عن الشافعى إلى تكفير تارك الصلاة، للحديث: « بين العبد وبين الشرك ترك الصلاة » (١)، والحديث الآخر: « العهد الذى بيننا وبينهم الصلاة، فمن تركها فقد كفر » (٢). وقال القاسم بن مخيمرة فى قوله: ﴿فَخَلَّفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلَاةَ﴾، قال: إنما أضاعوا المواقيت، ولو كان تركاً كان كضراً. وعن ابن مسعود أنه قيل له: إن الله يكثر ذكر الصلاة فى القرآن: ﴿الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلَاتِهِمْ

(١) مسلم (٨٢ / ١٣٤).

(٢) الترمذى (٢٦٢١) وقال: « حديث حسن صحيح غريب ».

سَاهُونَ ﴿ وَعَلَىٰ صَلَاتِهِمْ دَائِمُونَ ﴾ و ﴿عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ﴾؟ فقال ابن مسعود: على مواقيتها. قالوا: ما كنا نرى ذلك إلا على الترك؟ قال: ذلك الكفر. وقال عمر بن عبد العزيز: لم تكن إضاعتهم تركها، ولكن أضاعوا الوقت. وقال مجاهد: ﴿فَحَلَفَ مِنْ بَدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلَاةَ رَاتِبَعُوا الشُّهُوتَ﴾ قال: عند قيام الساعة، وذهب صالحى أمة محمد ﷺ، ينزو بعضهم على بعض فى الأزقة. وقال الحسن البصرى: عطلوا المساجد، ولزموا الضيعات. وقوله: ﴿فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا﴾ قال ابن عباس: خسراناً. وقال قتادة: شراً.

وقوله: ﴿إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا﴾، أى: إلا من رجع عن ترك الصلوات واتباع الشهوات، فإن الله يقبل توبته، ويحسن عاقبته، ويجعله من ورثة جنة النعيم؛ ولهذا قال: ﴿فَأُولَٰئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يُظَلَّمُونَ شَيْئًا﴾، وذلك؛ لأن التوبة تجب ما قبلها. ولهذا لا ينقص هؤلاء التائبون من أعمالهم التى عملوها شيئاً، ولا قبولوا بما عملوه قبلها فينقص لهم مما عملوه بعدها؛ لأن ذلك ذهب هدرأً وترك نسيأً، وذهب مجانأً، من كرم الكريم، وحلم الخليم. وهذا الاستثناء ههنا كقوله فى سورة الفرقان: ﴿وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزُونَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَانًا . إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا فَأُولَٰئِكَ يَبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ [الفرقان: ٦٨ - ٧٠].

﴿جَنَّاتٍ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدَ الرَّحْمَنُ عِبَادَهُ بِالَّتَيْبِ إِنَّهُمْ كَانُوا وَعَدُّهُمْ مَأْتِيًا ﴿١١﴾ لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا إِلَّا سَلَامًا وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيًّا ﴿١٢﴾ تِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي نُورِثُ مِنْ عِبَادِنَا مَنْ كَانَ تَقِيًّا ﴿١٣﴾﴾

يقول تعالى: الجنات التى يدخلها التائبون من ذنوبهم هى ﴿جَنَّاتٍ عَدْنٍ﴾ أى: إقامة ﴿الَّتِي وَعَدَ الرَّحْمَنُ عِبَادَهُ﴾ بظهر الغيب، أى: هى من الغيب الذى يؤمنون به وما رأوه؛ وذلك لشدة إيقانهم وقوة إيمانهم. وقوله: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا وَعَدُّهُمْ مَأْتِيًّا﴾ تأكيد لحصول ذلك وثبوت واستقراره؛ فإن الله لا يخلف الميعاد ولا يبدله، كقوله: ﴿كَانُوا وَعَدُّهُمْ مَفْعُولًا﴾ [المزمل: ١٨] أى: كائنا لا محالة. وقوله ههنا: ﴿مَأْتِيًّا﴾ أى: العباد صائرون إليه، وسيأتونه. ومنهم من قال: ﴿مَأْتِيًّا﴾ بمعنى: آتيا؛ لأن كل ما أتاك فقد أتته، كما تقول العرب: أتت على خمسون سنة، وأتيت على خمسين سنة، كلاهما بمعنى واحد.

وقوله: ﴿لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا﴾ أى: هذه الجنات ليس فيها كلام ساقط تافه لا معنى له، كما قد يوجد فى الدنيا ﴿إِلَّا سَلَامًا﴾ استثناء منقطع، كقوله: ﴿لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْتِيًا . إِلَّا قِيلًا سَلَامًا سَلَامًا﴾ [الواقعة: ٢٥، ٢٦]. وقوله: ﴿وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيًّا﴾ أى: فى مثل وقت البكرات ووقت العشيات، لا أن هناك ليلاً ونهاراً، ولكنهم فى أوقات تتعاقب، يعرفون مضيها بأضواء وأنوار، كما قال الإمام أحمد عن أبى هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: ﴿أول زمرة تلج الجنة صورهم على صورة القمر ليلة البدر، لا يبصقون فيها، ولا يتمخطون فيها، ولا يتغوطون،

آيتهم وأمشاطهم الذهب والفضة، ومجامرهم الأثوة، ورشحهم المسك، ولكل واحد منهم زوجتان، يرى مَخُ ساقيهما من وراء اللحم؛ من الحسن، لا اختلاف بينهم ولا تباغض، قلوبهم على قلب واحد، يسبحون الله بكرة وعشيا. أخرجاه في الصحيحين^(١). وروى الإمام أحمد عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «الشهداء على بارق نهر باب الجنة، في قبة خضراء، يخرج عليهم رزقهم من الجنة بكرة وعشيا». تفرد به أحمد من هذا الوجه^(٢). وقال الضحاك، عن ابن عباس: ﴿وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيًّا﴾ قال: مقادير الليل والنهار.

وقال قتادة في قوله: ﴿وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيًّا﴾: فيها ساعتان: بكرة وعسى: ليس ثم ليل ولا نهار، وإنما هو ضوء ونور. وقال مجاهد: ليس بكرة ولا عشى، ولكن يؤتون به على ما كانوا يشتهون في الدنيا.

وقوله: ﴿تِلْكَ أَلْحُوتُ الَّتِي نُورِثُ مِنْ عِبَادِنَا مَنْ كَانَ تَقِيًّا﴾ أي: هذه الجنة التي وصفنا بهذه الصفات العظيمة هي التي نورثها عبادنا المتقين، وهم المطيعون لله - عز وجل - في السراء والضراء، والكاظمون الغيظ والعافون عن الناس، وكما قال تعالى في أول سورة المؤمنين: ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ. الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ﴾ إلى أن قال: ﴿أُولَئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ. الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [المؤمنون: ١٠-١١].

﴿وَمَا نَنْزِلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ لَمَّا يَبْسُتُ أَيُّدِينَا وَمَا خَلْفَنَا وَمَا بَيْنَ ذَلِكَ وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَاعْبُدْهُ وَاصْطَبِرْ لِعِبَادَتِهِ هَلْ تَعْلَمُ لِمَ سَمِيًّا﴾

روى الإمام أحمد عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ لجبريل: «ما يمنعك أن تزورنا أكثر مما تزورنا؟» قال: فنزلت ﴿وَمَا نَنْزِلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ﴾ إلى آخر الآية. انفرد بإخراجه البخاري^(٣).

وقوله: ﴿لَهُ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا﴾ قيل: المراد: ما بين أيدينا: أمر الدنيا، وما خلفنا: أمر الآخرة ﴿وَمَا بَيْنَ ذَلِكَ﴾: ما بين النفتين. هذا قول أبي العالية، وقيل: ﴿مَا بَيْنَ أَيْدِينَا﴾: ما نستقبل من أمر الآخرة ﴿وَمَا خَلْفَنَا﴾ أي: ما مضى من الدنيا ﴿وَمَا بَيْنَ ذَلِكَ﴾ أي: ما بين الدنيا والآخرة. يروى نحوه عن ابن عباس، واختاره ابن جرير أيضاً، والله أعلم. وقوله: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا﴾: قال مجاهد والسدّي: معناه: ما نسيك ربك. وعن أبي الدرداء يرفعه قال: «ما أحل الله في كتابه فهو حلال، وما حرم فهو حرام، وما سكت عنه فهو عافية، فاقبلوا من الله عافيته، فإن الله لم يكن لينسى شيئاً» ثم تلا هذه الآية: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا﴾^(٤).

(١) المسند (٨١٨٣) والبخاري (٣٢٢٥) ومسلم (٢٨٣٤/١٧).

(٢) المسند (٢٣٩٠) وقال الشيخ أحمد شاکر: «إسناده صحيح».

(٣) المسند (٢٠٤٣) والبخاري (٤٧٣١).

(٤) الحاكم في المستدرک (٢ / ٣٧٥) وقال: «هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه». ووافقه الذهبي.

وقوله: ﴿رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ أي: خالق ذلك ومدبره، والحاكم فيه والمتصرف الذي لا معقب لحكمه ﴿فَاعْبُدْهُ وَاصْطَبِرْ لِعِبَادَتِهِ هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا﴾ قال ابن عباس: هل تعلم للرب مثلاً أو شبيهاً. وكذلك قال مجاهد، وسعيد بن جبير، وقتادة، وابن جريج وغيرهم. وقال عكرمة، عن ابن عباس: ليس أحد يسمى الرحمن غيره تبارك وتعالى، وتقدس اسمه.

﴿وَيَقُولُ الْإِنْسَانُ أَإِذَا مَا مِتُّ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيًّا ﴿١٦﴾ أَوْ لَا يَذْكُرُ الْإِنْسَانُ أَنَا خَلَقْتُهُ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ يَكْ شَيْئًا ﴿١٧﴾ فَوَرَّيْكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ وَالشَّيَاطِينَ ثُمَّ لَنُحْضِرَنَّهُمْ حَوْلَ جَهَنَّمَ جِثِيًّا ﴿١٨﴾ ثُمَّ لَنَنْزِعَنَّ مِنْ كُلِّ شِيعَةٍ أَيُّهُمْ أَشَدُّ عَلَى الرَّحْمَنِ عِتِيًّا ﴿١٩﴾ ثُمَّ لَنَحْنُ أَعْلَمُ بِالَّذِينَ هُمْ أَوْلَىٰ بِهَا صِلِيًّا ﴿٢٠﴾﴾

يُخْبِرُ تَعَالَىٰ عَنِ الْإِنْسَانِ أَنَّهُ يَتَعَجَّبُ وَيَسْتَعْبِدُ إِعَادَتَهُ بَعْدَ مَوْتِهِ، كَمَا قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَإِنْ تَعَجَّبَ فَعَجَبْ قَوْلُهُمْ أَتَدْرَأُونَ أَنَّا لَمَّا خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ. وَضَرَبْنَا لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ. قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ﴾ [يس: ٧٧ - ٧٩]، وقال ههنا: ﴿وَيَقُولُ الْإِنْسَانُ أَإِذَا مَا مِتُّ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيًّا. أَوْ لَا يَذْكُرُ الْإِنْسَانُ أَنَا خَلَقْتُهُ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ يَكْ شَيْئًا﴾ يستدل، تعالى، بالبداءة على الإعادة، يعني أنه، تعالى خلق الإنسان ولم يك شيئاً، أفلا يعيده وقد صار شيئاً، كما قال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾ [الروم: ٢٧]، وفي الصحيح: «يقول الله تعالى: كذبتني ابن آدم ولم يكن له أن يكذبتني، وأذاني ابن آدم ولم يكن له أن يؤذيني، أما تكذبيه إياي فقولته: لن يعيدني كما بدأني، وليس أول الخلق بأهون علي من آخره، وأما آذاه إياي فقولته: إن لي ولداً، وأنا الأحد الصمد، الذي لم يلد ولم يولد، ولم يكن له كفواً أحد» (١).

وقوله: ﴿فَوَرَّيْكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ وَالشَّيَاطِينَ﴾ أقسم الرب، تبارك وتعالى، بنفسه الكريمة، أنه لا بد أن يحشرهم جميعاً وشياطينهم الذين كانوا يعبدون من دون الله ﴿ثُمَّ لَنُحْضِرَنَّهُمْ حَوْلَ جَهَنَّمَ جِثِيًّا﴾ قعوداً، كقوله: ﴿وَتَرَىٰ كُلَّ أُمَّةٍ جَانِيَةً﴾ [الحج: ٢٨]. ﴿ثُمَّ لَنَنْزِعَنَّ مِنْ كُلِّ شِيعَةٍ﴾ يعني: من كل أمة، قاله مجاهد ﴿أَيُّهُمْ أَشَدُّ عَلَى الرَّحْمَنِ عِتِيًّا﴾ قال ابن مسعود: يحبس الأول على الآخر، حتى إذا تكاملت العدة، أتاهم جميعاً، ثم بدأ بالأكابر، فالأكابر جرماً، وقال قتادة: ثم لنزعن من أهل كل دين قادتهم في الشر. وكذا قال ابن جريج، وغير واحد من السلف. وهذا كقوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ إِذَا دَارَكُوا فِيهَا جَمِيعًا قَالَتْ أُخْرَاهُمْ لِأُولَاهُمْ رَبَّنَا هَؤُلَاءِ أَضَلُّونَا فَآتِهِمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِنَ النَّارِ قَالَ لِكُلِّ ضِعْفٍ وَلَكِنْ لَا تَعْلَمُونَ. وَقَالَتْ أُولَاهُمْ لِأُخْرَاهُمْ فَمَا كَانَ لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ فذَرُّوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ﴾ [الاعراف: ٣٨، ٣٩].

وقوله: ﴿ثُمَّ لَنَحْنُ أَعْلَمُ بِالَّذِينَ هُمْ أَوْلَىٰ بِهَا صِلِيًّا﴾: «ثم» ههنا لعطف الخير على الخير، والمراد: أنه تعالى أعلم بمن يستحق من العباد أن يصلى بنار جهنم ويخلد فيها، وبمن يستحق تضعيف

العذاب، كما قال في الآية المتقدمة: ﴿ قَالَ لِكُلِّ ضِعْفٍ وَلَكِنْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾ .

﴿ وَإِنْ مِنْكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا كَانَ عَلَى رَبِّكَ حَتْمًا مَقْضِيًّا ﴾ ﴿٧١﴾ ثُمَّ نَجَّى الَّذِينَ اتَّقَوْا وَنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثًا ﴿٧٢﴾

روى الإمام أحمد عن أبي سُمَيَّةَ قال: اختلفنا في الورود، فقال بعضنا: لا يدخلها مؤمن. وقال بعضهم: يدخلونها جميعاً، ثم ينجي الله الذين اتقوا. فلقيت جابر بن عبد الله، فقلت له: إنا اختلفنا في الورود، فقال: يردونها جميعاً - وقال سليمان مرة^(١): يدخلونها جميعاً - وأهوى بأصبعه إلى أذنيه، وقال: صمتا، إن لم أكن سمعت رسول الله ﷺ يقول: « لا يبقى بر ولا فاجر إلا دخلها، فتكون على المؤمن برداً وسلاماً، كما كانت على إبراهيم، حتى إن للنار ضجيجاً من بردهم، ثم ينجي الله الذين اتقوا، ويذر الظالمين فيها جثياً ». غريب ولم يخرجوه^(٢). وقال الحسن البصرى: قال رجل لأخيه: هل أتاك أنك وارد النار؟ قال: نعم. قال: فهل أتاك أنك صادر عنها؟ قال: لا. قال: فقيم الضحك؟ قال فما رُئى ضاحكاً حتى لحق بالله. وقال مجاهد قال: كنت عند ابن عباس، فأتاه رجل يقال له: أبو راشد، وهو نافع بن الأزرق، فقال له: يا ابن عباس، أرايت قول الله: ﴿ وَإِنْ مِنْكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا كَانَ عَلَى رَبِّكَ حَتْمًا مَقْضِيًّا ﴾؟ قال: أما أنا وأنت يا أبا راشد فسزدها، فانظر: هل نصرر عنها أم لا.

وروى الإمام أحمد عن عبد الله - هو ابن مسعود ﴿ وَإِنْ مِنْكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا ﴾ : قال رسول الله ﷺ: « يرد الناس النار كلهم، ثم يصدرون عنها بأعمالهم ». ورواه الترمذى، هكذا وقع هذا الحديث ههنا مرفوعاً^(٣). وروى ابن جرير: عن عبد الله: قوله: ﴿ وَإِنْ مِنْكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا ﴾ قال: الصراط على جهنم مثل حد السيف، فتمر الطبقة الأولى كالبرق، والثانية كالريح، والثالثة كأجود الخيل، والرابعة كأجود البهائم، ثم يمرون والملائكة يقولون: اللهم سلم سلم. ولهذا شواهد فى الصحيحين وغيرهما، من رواية أنس، وأبى سعيد، وأبى هريرة، وجابر، وغيرهم، من الصحابة، رضى الله عنهم^(٤). وروى الإمام أحمد عن حفصة قالت: قال رسول الله ﷺ: « إنى لأرجو ألا يدخل النار - إن شاء الله - أحد شهد بداراً والحديبية » قالت: فقلت: ليس الله يقول: ﴿ وَإِنْ مِنْكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا ﴾؟ قالت: فسمعتة يقول: ﴿ ثُمَّ نَجَّى الَّذِينَ اتَّقَوْا وَنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثًا ﴾^(٥).

وروى أحمد عن أم مبشر- امرأة زيد بن حارثة - قالت: كان رسول الله ﷺ فى بيت

(١) فى المطبوعة: « سليمان بن مرة » وهو خطأ . وصوابه المثبت كما فى المخطوطة .

(٢) المسند (٣ / ٣٢٨) وقال الهيثمى فى الزوائد (٧ / ٥٨) : « رجاله ثقات » .

(٣) المسند (٤١٢٨) وقال الشيخ أحمد شاکر : « إسناده صحيح » . و الترمذى (٣١٥٩) وقال : « حديث حسن » .

(٤) البخارى (٦٥٧٣) ومسلم (١٨٢ / ٢٩٩ ، ١٨٣ / ٣٠٢) .

(٥) المسند (٦ / ٢٨٥) ومسلم (٢٤٩٦ / ١٦٣) .

حفصة، فقال: « لا يدخل النار أحد شهد بديراً والحديبية » قالت حفصة: أليس الله يقول: ﴿وَأَنْ مِّنْكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا﴾؟ فقال رسول الله ﷺ: ﴿ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوْا﴾ (١). وفى الصحيحين عن أبى هريرة، قال: قال رسول ﷺ: « لا يموت لأحد من المسلمين ثلاثة من الولد تمسه النار، إلا تَحَلَّهَ الْقَسَمُ » (٢).

وقال عبد الرزاق: يعنى الورود. وقال أبو داود الطيالسى: قال الزهري: كأنه يريد هذه الآية: ﴿وَأَنْ مِّنْكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا كَانَ عَلَى رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا﴾.

وعن ابن مسعود فى قوله: ﴿كَانَ عَلَى رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا﴾ قال: قسماً واجباً، وقال مجاهد: ﴿حَتْمًا﴾: قضاء.

وقوله: ﴿ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوْا﴾ أى: إذا مرّ الخلائق كلهم على النار، وسقط فيها من سقط من الكفار والعصاة ذوى المعاصى، بحسبهم، نجى الله تعالى المؤمنين المتقين منها بحسب أعمالهم. فجازهم على الصراط وسرعتهم بقدر أعمالهم التى كانت فى الدنيا، ثم يشفعون فى أصحاب الكبائر من المؤمنين، فيشفع الملائكة والنبيون والمؤمنون، فيخرجون خلقاً كثيراً قد أكلتهم النار، إلا دارات وجوههم - وهى مواضع السجود - وإخراجهم إياهم من النار بحسب ما فى قلوبهم من الإيمان، فيخرجون أولاً من كان فى قلبه مثقال دينار من إيمان، ثم الذى يليه، ثم الذى يليه، حتى يخرجوا من كان فى قلبه أدنى أدنى أدنى مثقال ذرة من إيمان ثم يخرج الله من النار من قال يوماً من الدهر: « لا إله إلا الله » وإن لم يعمل خيراً قط، ولا يبقى فى النار إلا من وجب عليه الخلود، كما وردت بذلك الأحاديث الصحيحة عن رسول الله ﷺ؛ ولهذا قال تعالى: ﴿ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوْا وَنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا﴾.

﴿وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا أَيُّ الْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَّقَامًا وَأَحْسَنُ نَدِيًّا﴾ ﴿٧٣﴾ وَكَرَّاهِلْكَأَقْبَلَهُمْ مِّن قَرْنٍ هُمْ أَحْسَنُ أَتْنَا وَرِيَّا ﴿٧٤﴾

يخبر تعالى عن الكفار حين تلى عليهم آيات الله ظاهرة الدلالة بينة الحجة واضحة البرهان: أنهم يصدون عن ذلك، ويعرضون ويقولون عن الذين آمنوا مفتخرين عليهم ومحتجين على صحة ما هم عليه من الدين الباطل بأنهم: ﴿خَيْرٌ مَّقَامًا وَأَحْسَنُ نَدِيًّا﴾ أى: أحسن منازل وأرفع دوراً وأحسن ندياً، وهو مجمع الرجال للحديث، أى: ناديهم أعمر وأكثر واردة وطارقاً، يعنون: فكيف نكون ونحن بهذه المثابة على باطل، وأولئك الذين هم مختفون مستترون فى دار الأرقم بن أبى الأرقم ونحوها من الدور على الحق؟. كما قال تعالى مخبراً عنهم: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا لَوْ كَانَ خَيْرًا مَا سَبَقُونَا إِلَيْهِ﴾ [الاحقاف: ١١]. وقال قوم نوح:

(١) المسند (٣٦٢/٦) وقال الهيثمى فى الزوائد (٣٠٧/٩): «رجال أحمد رجال الصحيح» والحديث رواه مسلم (١٦٣/٢٤٩٦).

(٢) البخارى (٦٦٥٦) ومسلم (٢٦٣٢ / ١٥).

﴿ أَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْمَاءَ ذَوْبًا مِمَّا بَرَئْنَا فِي الْغَيْبِ بِقَدَرٍ مَعْلُومٍ ﴾ [الشعراء: ١١١]، وقال تعالى: ﴿ وَكَذَلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لِيَقُولُوا أَهَؤُلَاءِ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنْ بَيْنِنَا أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ ﴾ [الأنعام: ٥٣]؛ ولهذا قال تعالى راداً عليهم شبهتهم: ﴿ وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنْ قَوْمٍ أَى: وكـم من أمة وقرن من المكذبين قد أهلكتناهم بكفرهم ﴿ هُمْ أَحْسَنُ أَتَانَا وَرَبِّياً ﴾ أى: كانوا أحسن من هؤلاء أموالاً وأمتعة ومناظر وأشكالا. وقال ابن عباس: المقام: المسكن، والندى: المجلس والنعمة والهبة التي كانوا فيها، وهو كما قال الله لقوم فرعون حين أهلكتهم وقص شأنهم فى القرآن: ﴿ كَمْ تَرَكُوا مِنْ جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ. وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴾ [الدخان: ٢٥، ٢٦]، فالمقام: المسكن والنعيم، والندى: المجلس والمجمع الذى كانوا يجتمعون فيه، وقال فيما قص على رسوله من أمر قوم لوط: ﴿ وَتَأْتُونَ فِي نَادِيكُمُ الْمُنْكَرَ ﴾ [العنكبوت: ٢٩]، والعرب تسمى المجلس: النادى.

﴿ قُلْ مَنْ كَانَ فِي الضَّلَالَةِ فَلْيَمْدُدْ لَهُ الرَّحْمَنُ مَدًّا حَتَّى إِذَا رَأَوْا مَا يُوعَدُونَ إِمَّا الْعَذَابَ وَإِمَّا السَّاعَةَ فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ شَرٌّ مَكَانًا وَأَضْعَفُ جُنْدًا ﴾

يقول تعالى: ﴿ قُلْ ﴾ يا محمد لهؤلاء المشركين بربهم المدعين، أنهم على الحق وأنكم على الباطل: ﴿ مَنْ كَانَ فِي الضَّلَالَةِ ﴾ أى: منا ومنكم ﴿ فَلْيَمْدُدْ لَهُ الرَّحْمَنُ مَدًّا ﴾ أى: فأمهله الرحمن فيما هو فيه، حتى يلقي ربه وينقض أجله، ﴿ إِمَّا الْعَذَابَ ﴾ يصيبه ﴿ وَإِمَّا السَّاعَةَ ﴾ بغتة تأتيه، ﴿ فَسَيَعْلَمُونَ ﴾ حينئذ ﴿ مَنْ هُوَ شَرٌّ مَكَانًا وَأَضْعَفُ جُنْدًا ﴾ أى: فى مقابلة ما احتجوا به من خيرية المقام وحسن الندى. قال مجاهد فى قوله: ﴿ فَلْيَمْدُدْ لَهُ الرَّحْمَنُ مَدًّا ﴾: فليدعه الله فى طغيانه. هكذا قرر ذلك أبو جعفر بن جرير، رحمه الله.

وهذه مباهلة للمشركين الذين يزعمون أنهم على هدى فيما هم فيه، كما ذكر تعالى مباهلة اليهود فى قوله: ﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ هَادُوا إِنْ زَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ أَوْلِيَاءُ لِلَّهِ مِنْ دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوْا الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ [الجمعة: ٦] أى: ادعوا على المبطل منا ومنكم بالموت إن كنتم تدعون أنكم على الحق، فإنه لا يضركم الدعاء، فنكلوا عن ذلك، وقد تقدم تقرير ذلك فى سورة «البقرة» مبسوطاً، ولله الحمد. وكما ذكر تعالى المباهلة مع النصارى فى سورة «آل عمران» حين صمموا على الكفر، واستمروا على الطغيان والغلو فى دعواهم أن عيسى ولد الله، وقد ذكر الله حججه وبراهينه على عبودية عيسى، وأنه مخلوق كآدم، قال بعد ذلك: ﴿ فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَلْ لَعْنَةَ اللَّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ ﴾ [آل عمران: ٦١] فنكلوا أيضاً عن ذلك.

﴿ وَيَزِيدُ اللَّهُ الَّذِينَ اهْتَدَوْا هُدًى وَالْبَاقِيَتِ الصَّلِيحَتِ حَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَحَيْرٌ مَرَدًّا ﴾

لما ذكر تعالى إمداد من هو فى الضلالة فيما هو فيه وزيادته على ما هو عليه، أخبر بزيادة المهتدين هدى كما قلل تعالى: ﴿ وَإِذَا مَا أَنْزَلْنَا سُورَةً فَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَذِهِ إِيمَانًا ﴾ الآيتين

[التوبة: ١٢٤، ١٢٥]. وقوله: ﴿وَأْتَايَاتُ الصَّالِحَاتِ﴾: قد تقدم تفسيرها، والكلام عليها، وإيراد الأحاديث المتعلقة بها في سورة «الكهف» ﴿خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَابًا﴾ أي: جزاء ﴿وَخَيْرٌ مُرَدًّا﴾ أي: عاقبة ومراداً على صاحبها.

﴿أَفَرَأَيْتَ الَّذِي كَفَرَ بِآيَاتِنَا وَقَالَ لَأُوتِيَنَّ مَالًا وَوَلَدًا ﴿٧٧﴾ أَطَّلَعَ الْغَيْبَ أَمْ آتَخَذَ عِنْدَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا ﴿٧٨﴾ كَلَّا سَنَكْتُبُ مَا يَقُولُ وَنَمُدُّ لَهُ مِنَ الْعَذَابِ مَدًّا ﴿٧٩﴾ وَنُرِثُهُ مَا يَقُولُ وَيَأْتِينَا فَرْدًا ﴿٨٠﴾﴾

روى الإمام أحمد عن خباب بن الأرت قال: كنت رجلاً قيناً، وكان لى على العاص بن وائل دين، فأتيته أنتقاضاه. فقال: لا، والله لا أقضيك حتى تكفر بمحمد فقلت: لا، والله لا أكفر بمحمد ﷺ حتى تموت ثم تبعث. قال: فأني إذا مت ثم بعثت جنتني ولى ثم مال وولد، فأعطيتك. فانزل الله: ﴿أَفَرَأَيْتَ الَّذِي كَفَرَ بِآيَاتِنَا وَقَالَ لَأُوتِيَنَّ مَالًا وَوَلَدًا﴾ إلى قوله: ﴿وَيَأْتِينَا فَرْدًا﴾. أخرجه صاحبنا الصحيح وغيرهما، وفي لفظ البخارى: كنت قيناً بمكة، فعملت للعاص بن وائل سيفاً، فجئت أنتقاضاه. فذكر الحديث، وقال: ﴿أَمْ آتَخَذَ عِنْدَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا﴾ قال: موثقاً (١). وهكذا قال مجاهد، وقاتدة، وغيرهم: إنها نزلت في العاص بن وائل.

وقوله: ﴿لَأُوتِيَنَّ مَالًا وَوَلَدًا﴾: قرأ بعضهم بفتح «الواو» من «ولداً» وقرأ آخرون بضمها، وهو بمعناه، وقيل: إن «الولد» بالضم جمع، «والولد» بالفتح مفرد، وهى لغة قيس، والله أعلم. وقوله: ﴿أَطَّلَعَ الْغَيْبَ﴾: إنكار على هذا القائل «لَأُوتِيَنَّ مَالًا وَوَلَدًا» يعنى: يوم القيامة، أى: أعلم ماله فى الآخرة حتى تألى وحلف على ذلك، ﴿أَمْ آتَخَذَ عِنْدَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا﴾: أم له عند الله عهد سيؤتيه ذلك؟ وقد تقدم عند البخارى: أنه الموثق. وقال ابن عباس: ﴿أَطَّلَعَ الْغَيْبَ أَمْ آتَخَذَ عِنْدَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا﴾ قال: لا إله إلا الله، فيرجو بها. ﴿كَلَّا﴾: هى حرف رَدَع لما قبلها وتأكيد لما بعدها «سَنَكْتُبُ مَا يَقُولُ» أى: من طلبه ذلك وحكمه لنفسه بما تمناه، وكفره بالله العظيم «وَنَمُدُّ لَهُ مِنَ الْعَذَابِ مَدًّا» أى: فى الدار الآخرة، على قوله ذلك، وكفره فى الدنيا «وَنُرِثُهُ مَا يَقُولُ» أى: من مال وولد، نسلبه منه، عكس ما قال: إنه يُؤْتَى فى الدار الآخرة مالا وولداً، زيادة على الذى له فى الدنيا، بل فى الآخرة يُسَلَبُ مِنَ الذى كان له فى الدنيا؛ ولهذا قال: ﴿وَيَأْتِينَا فَرْدًا﴾ أى: من المال والولد، لا يتبعه قليل ولا كثير.

﴿وَآتَخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ إِلَهَةً لِيَكُونُوا لَهُمْ عِزًّا ﴿٨١﴾ كَلَّا سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا ﴿٨٢﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَا أَرْسَلْنَا الشَّيَاطِينَ عَلَى الْكٰفِرِينَ تَوْرَهُمْ آزًّا ﴿٨٣﴾ فَلَا تَعْجَلْ عَلَيْهِمْ إِنَّمَا نَعُدُّ لَهُمْ عَذَابًا ﴿٨٤﴾﴾

يخبر تعالى عن الكفار المشركين بربهم: أنهم اتخذوا من دونه آلهة، لتكون تلك الآلهة

﴿عزاً﴾ يعتزون بها ويستنصرونها . ثم أخبر أنه ليس الأمر كما زعموا ، ولا يكون ما طمعوا ، فقال : ﴿كَلَّا سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ﴾ أي : يوم القيامة ﴿وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ صِدًّا﴾ أي : بخلاف ما ظنوا فيهم ، كما قال الله تعالى : ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُو مِنْ دُونِ اللَّهِ مَنْ لَا يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَهُمْ عَنِ دُعَائِهِمْ غَافِلُونَ . وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءً وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ﴾ [الاحقاف : ٥ ، ٦] . وقرأ أبو نَهيك : «كل سيكفرون بعبادتهم» . وقال السدي : ﴿كَلَّا سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ﴾ أي : بعبادة الأوثان . وقوله : ﴿وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ صِدًّا﴾ أي : بخلاف ما رجوا منهم .

وقوله : ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَا أَرْسَلْنَا الشَّيَاطِينَ عَلَى الْكَافِرِينَ تَرَاهُمْ أَرَأَى﴾ قال ابن عباس : تغويهم إغواء ، وقال العوفي عنه : تحرضهم على محمد وأصحابه ، وقال قتادة : تزعجهم إزعاجاً إلى معاصي الله . وقوله : ﴿فَلَا تَعْجَلْ عَلَيْهِمْ إِنَّمَا نَعُدُّ لَهُمْ عَذَابًا﴾ أي : لا تعجل يا محمد على هؤلاء في وقوع العذاب بهم ﴿إِنَّمَا نَعُدُّ لَهُمْ عَذَابًا﴾ أي : إنما نؤخرهم لأجل معدود مضبوط ، وهم صائرون لا محالة إلى عذاب الله ونكاله ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهُ غَافِلًا عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ﴾ [إبراهيم : ٤٢] ، ﴿فَمَهَلِ الْكَافِرِينَ أَنهَلَهُمْ رُؤْيَا﴾ [الطارق : ١٧] ، ﴿إِنَّمَا نُمَلِّي لَهُمْ لِيَزْدَادُوا إِثْمًا﴾ [آل عمران : ١٧٨] ، ﴿نَمَتَّعَهُمْ قَلِيلًا ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلَىٰ عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾ [لقمان : ٢٤] ، ﴿قُلْ تَمَتَّعُوا فَإِن مَصِيرَكُمْ إِلَى النَّارِ﴾ [إبراهيم : ٣٠] . قال السدي : ﴿إِنَّمَا نَعُدُّ لَهُمْ عَذَابًا﴾ : السنين ، والشهور ، والأيام ، والساعات . وقال ابن عباس : نعد أنفسهم في الدنيا .

﴿يَوْمَ نَحْشُرُ الْمُتَّقِينَ إِلَى الرَّحْمَنِ وَقَدًّا﴾ ﴿٨٥﴾ وَتَسْأَلُ الْمُجْرِمِينَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وَرِدَا ﴿٨٦﴾ لَا يَمْلِكُونَ الشَّفَاعَةَ إِلَّا مَنِ اتَّخَذَ عِنْدَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا ﴿٨٧﴾

يخبر تعالى عن أوليائه المتقين ، الذين خافوه في الدار الدنيا ، واتبعوا رسله وصدقوهم فيما أخبروهم ، وأطاعوهم فيما أمروهم به ، وانتهوا عما زجروهم : أنه يحشرهم يوم القيامة وقدأ إليه . والوفد : هم القادمون ركبناً ، ومنه الوفود وركوبهم على نجائب من نور ، من مراكب الدار الآخرة ، وهم قادمون على خير موفود إليه ، إلى دار كرامته ورضوانه . وأما المجرمون المكذبون للرسل المخالفون لهم ، فإنهم يساقون عنفا إلى النار ﴿وَرِدَا﴾ : عطاشاً ، قاله ابن عباس ، ومجاهد ، وغير واحد . وههنا يقال : ﴿أَيُّ الْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَّقَامًا وَأَحْسَنُ نَدِيًّا﴾ [مريم : ٧٣] . وقال ابن عباس : ﴿يَوْمَ نَحْشُرُ الْمُتَّقِينَ إِلَى الرَّحْمَنِ وَقَدًّا﴾ قال : ركبناً .

وقوله : ﴿وَتَسْأَلُ الْمُجْرِمِينَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وَرِدَا﴾ أي : عطاشاً ﴿لَا يَمْلِكُونَ الشَّفَاعَةَ﴾ أي : ليس لهم من يشفع لهم ، كما يشفع المؤمنون بعضهم لبعض ، كما قال تعالى مخبراً عنهم : ﴿فَمَا لَنَا مِنْ شَافِعِينَ . وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ﴾ [الشعراء : ١٠٠ ، ١٠١] .

﴿إِلَّا مَنِ اتَّخَذَ عِنْدَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا﴾ : هذا الاستثناء منقطع ، بمعنى : لكن من اتخذ عند الرحمن عهداً ، وهو شهادة أن لا إله إلا الله ، والقيام بحقها . قال ابن عباس : العهد : شهادة أن لا إله

إلا الله، ويبرأ إلى الله من الحول والقوة، ولا يرجو إلا الله، عز وجل.

﴿ وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا ۗ لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا ﴿٨٨﴾ تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَنْفَطَرْنَ مِنْهُ وَتَنْشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا ﴿٨٩﴾ أَنْ دَعَا لِلرَّحْمَنِ وَلَدًا ﴿٩٠﴾ وَمَا يَنْبَغِي لِلرَّحْمَنِ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا ﴿٩١﴾ إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتِيَ الرَّحْمَنِ عَبْدًا ﴿٩٢﴾ لَقَدْ أَحْصَاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا ﴿٩٣﴾ وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَرْدًا ﴿٩٤﴾ ﴾

لما قرر تعالى في هذه السورة الشريفة عبودية عيسى، عليه السلام، وذكر خلقه من مريم بلا أب، شرع في مقام الإنكار على من زعم أن له ولداً - تعالى وتقدس وتزهر عن ذلك علواً كبيراً - فقال: ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا . لَقَدْ جِئْتُمْ﴾ أى: فى قولكم هذا ﴿شَيْئًا إِدًّا﴾ قال ابن عباس، ومجاهد، وقتادة، ومالك: أى عظيماً .

وقوله: ﴿تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَنْفَطَرْنَ مِنْهُ وَتَنْشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا . أَنْ دَعَا لِلرَّحْمَنِ وَلَدًا﴾ أى: يكاد يكون ذلك عند سماعهن هذه المقالة من فجرة بنى آدم، إعظاماً للرب وإجلالاً؛ لأنهن مخلوقات ومؤسسات على توحيده، وأنه لا إله إلا هو، وأنه لا شريك له، ولا نظير له، ولا ولد له، ولا صاحبة له، ولا كفاء له، بل هو الأحد الصمد .

وفى كُلِّ شَيْءٍ لَه آيَةٌ تَدُلُّ عَلَى أَنَّهُ وَاحِدٌ

وروى الإمام أحمد: عن أبى موسى، قال: قال رسول الله ﷺ: «ما أحد أصبر على أذى يسمعه من الله، إنه يشرك به، ويجعل له ولداً، وهو يعافيه ويدفع عنهم، ويرزقهم». أخرجاه فى الصحيحين. وفى لفظ: «إنهم يجعلون له ولداً، وهو يرزقهم ويعافيه» (١) .

وقوله: ﴿وَمَا يَنْبَغِي لِلرَّحْمَنِ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا﴾ أى: لا يصلح له، ولا يليق به لجلاله وعظمته؛ لأنه لا كفاء له من خلقه؛ لأن جميع الخلائق عبيد له؛ ولهذا قال: ﴿إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتِيَ الرَّحْمَنِ عَبْدًا . لَقَدْ أَحْصَاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا﴾ أى: قد علم عددهم منذ خلقهم إلى يوم القيامة، ذكرهم وأنتاهم، وصغيرهم وكبيرهم ﴿وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَرْدًا﴾ أى: لا ناصر له ولا مجير إلا الله وحده لا شريك له، فيحكم فى خلقه بما يشاء، وهو العادل الذى لا يظلم مثقال ذرة، ولا يظلم أحداً.

﴿ إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وُدًّا ﴿٩٥﴾ فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ الْمُتَّقِينَ وَتُنذِرَ بِهِ قَوْمًا لُدًّا ﴿٩٦﴾ وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِّن قَرْنٍ هَلْ يُحِشُّ مِنْهُمْ مِّنْ أَحَدٍ أَوْ سَمِعَ لَهُمْ رِكْرًا ﴿٩٧﴾ ﴾

(١) المسند (٤ / ٤٠٥) والبخارى (٦٠٩٩) ومسلم (٤ / ٢٨٠ - ٤٩) .

يخبر تعالى أنه يغرس لعباده المؤمنين الذين يعملون الصالحات، وهى الأعمال التى ترضى الله، عز وجل، لمتابعتها الشريعة المحمدية - يغرس لهم فى قلوب عباده الصالحين مودة، وهذا أمر لا بد منه، ولا محيد عنه. وقد وردت بذلك الأحاديث الصحيحة عن رسول الله ﷺ من غير وجه. روى الإمام أحمد: عن أبى هريرة، عن النبى ﷺ قال: «إن الله إذا أحب عبداً دعا جبريل فقال: يا جبريل، إنى أحب فلاناً فأحبه. قال: فيحبه جبريل». قال: «ثم ينادى فى أهل السماء: إن الله يحب فلاناً». قال: «فيحبه أهل السماء، ثم يوضع له القبول فى الأرض، وإن الله إذا أبغض عبداً دعا جبريل فقال: يا جبريل، إنى أبغض فلاناً فأبغضه». قال: «فيبغضه جبريل، ثم ينادى فى أهل السماء: إن الله يبغض فلاناً فأبغضوه». قال: «فيبغضه أهل السماء، ثم يوضع له البغضاء فى الأرض».

ورواه مسلم^(١). ورواه أحمد والبخارى عن نافع مولى ابن عمر، عن أبى هريرة، عن النبى ﷺ، بنحوه^(٢). وروى ابن أبى حاتم: عن أبى هريرة؛ أن النبى ﷺ قال: «إذا أحب الله عبداً نادى جبريل: إنى قد أحببت فلاناً، فأحبه، فينادى فى السماء، ثم ينزل له المحبة فى أهل الأرض، فذلك قول الله، عز وجل: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وُدًّا﴾». رواه مسلم والترمذى. وقال الترمذى: حسن صحيح^(٣).

وقال ابن عباس: الود من المسلمين فى الدنيا، والرزق الحسن، واللسان الصادق. وقد روى ابن جرير أثراً أن هذه الآية نزلت فى هجرة عبد الرحمن بن عوف. وهو خطأ، فإن هذه السورة بتمامها مكية لم ينزل منها شيء بعد الهجرة، ولم يصح سند ذلك، والله أعلم.

وقوله: ﴿فَإِنَّمَا يَسْتُرْنَا﴾ يعنى: القرآن ﴿بِلِسَانِكَ﴾ أى: يا محمد، وهو اللسان العربى المبين الفصيح الكامل ﴿لِتُبَشِّرَ بِهِ الْمُتَّقِينَ﴾ أى: المستجيبين لله المصدقين لرسوله ﴿وَتُنذِرَ بِهِ قَوْمًا لُدًّا﴾ أى: عوجاً عن الحق مائلين إلى الباطل.

وقوله: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِّنْ قَرْنٍ﴾ أى: من أمة كفروا بآيات الله وكذبوا رسله ﴿هَلْ تُحِسُّ مِنْهُمْ مِّنْ أَحَدٍ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزًا﴾ أى: هل ترى منهم أحداً، أو تسمع لهم ركزاً، قال ابن عباس، وأبو العالية، وعكرمة، والحسن البصرى، وسعيد بن جببر، والضحاك، وابن زيد: يعنى: صوتاً. والركز فى أصل اللغة: هو الصوت الخفى.

(٢) المسند (٢ / ٥١٤) والبخارى (٦٠٤٠).

(١) المسند (٢ / ٤١٣) ومسلم (٢٦٣٧ / ١٥٧).

(٣) مسلم (٣٦٣٧ / ١٥٧)، والترمذى (٣١٦١).

تفسير سورة طه
وهي مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿١﴾ طه ﴿٢﴾ مَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى ﴿٣﴾ إِلَّا تَذَكُّرَةً لِمَنْ يَخْشَى ﴿٤﴾ تَنْزِيلًا مِمَّنْ خَلَقَ الْأَرْضَ وَالسَّمَوَاتِ الْعُلَى ﴿٥﴾ الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى ﴿٦﴾ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ الثَّرَى ﴿٧﴾ وَإِنْ تَجَهَّرَ بِالْقَوْلِ فَإِنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى ﴿٨﴾ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى ﴿٩﴾

تقدم الكلام على الحروف المقطعة .

وقوله: ﴿مَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى﴾ قال الضحاك: لما أنزل الله القرآن على رسوله ﷺ، قام به هو وأصحابه، فقال المشركون من قريش: ما أنزل هذا القرآن على محمد إلا ليشقى! فأنزل الله تعالى: ﴿طه. مَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى. إِلَّا تَذَكُّرَةً لِمَنْ يَخْشَى﴾. فليس الأمر كما زعمه المبطلون، بل من أتاه الله العلم فقد أراد به خيراً كثيراً، كما ثبت في الصحيحين، عن معاوية قال: قال رسول الله ﷺ: «من يُرد الله به خيراً يفقهه في الدين» (١). وما أحسن الحديث الذي رواه الحافظ أبو القاسم الطبراني في ذلك حيث قال: عن ثعلبة بن الحكم قال: قال رسول الله ﷺ: «يقول الله تعالى للعلماء يوم القيامة إذا قعد على كرسيه لقضاء عبادته: إني لم أجعل علمي وحكمتي فيكم إلا وأنا أريد أن أغفر لكم على ما كان منكم، ولا أبالي». إسناده جيد وثعلبة بن الحكم هذا هو الليثي (٢). وقال قتادة: ﴿مَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى﴾: لا، والله ما جعله شقاء، ولكن جعله رحمة ونوراً، ودليلاً إلى الجنة. ﴿إِلَّا تَذَكُّرَةً لِمَنْ يَخْشَى﴾: إن الله أنزل كتابه، وبعث رحمة، رحم بها العباد، ليتذكر ذاكر، وينتفع رجل بما سمع من كتاب الله، وهو ذكر أنزل الله فيه حلاله وحرامه.

وقوله: ﴿تَنْزِيلًا مِمَّنْ خَلَقَ الْأَرْضَ وَالسَّمَوَاتِ الْعُلَى﴾ أي: هذا القرآن الذي جاءك يا محمد تنزيل من ربك رب كل شيء ومليكه، القادر على ما يشاء، الذي خلق الأرض بانخفاضها وكثافتها، وخلق السموات العلى في ارتفاعها ولطافتها. وقوله: ﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى﴾: تقدم الكلام على ذلك في سورة الأعراف، بما أغنى عن إعادته أيضاً، وأن المسلك الأسلم في ذلك

(١) البخاري (٧١) ومسلم (١٠٣٧ / ١٠٠) .

(٢) الطبراني في الكبير (٢ / ٨٤) (١٣٨١)، وقال الهيثمي في الزوائد (١ / ١٣١): «رجاله موثقون»

طريقة السلف : إمرار ما جاء فى ذلك من الكتاب والسنة من غير تكيف ولا تحريف، ولا تشبيه، ولا تعطيل، ولا تمثيل.

وقوله: ﴿لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ الثَّرَى﴾ أى: الجميع ملكه وفى قبضته، وتحت تصرفه ومشيتته وإرادته وحكمه، وهو خالق ذلك ومالكة وإلهه، لا إله سواه، ولا رب غيره. وقوله: ﴿وَأَنْ تَجْهَرُوا بِالْقَوْلِ فَيُرَى لَهُمْ السِّرُّ وَأَخْفَى﴾ أى: أنزل هذا القرآن الذى خلق الأرض والسماوات العلى، الذى يعلم السر وأخفى، كما قال تعالى: ﴿قُلْ أَنْزَلَهُ الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ [الفرقان: ٦]. وقال الضحاك: السر: ما تحدث به نفسك، وأخفى: ما لم تحدث به نفسك بعد. وقال سعيد بن جبیر: أنت تعلم ما أسر اليوم، ولا تعلم ما أسر غداً، واللّه يعلم ما أسر اليوم، وما أسر غداً. وقوله: ﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى﴾ أى: الذى أنزل القرآن عليك هو اللّه الذى لا إله إلا هو ذو الأسماء الحسنى والصفات العلى.

﴿وَهَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَى ﴿١٠﴾ إِذْ رَأَى نَارًا فَقَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا لَعَلِّي آتِيكُم مِّنْهَا بِقَبَسٍ أَوْ أَجْدُ عَلَى النَّارِ هُدًى ﴿١١﴾﴾

من ههنا شرع ، تبارك وتعالى ، فى ذكر قصة موسى ، وكيف كان ابتداء الوحي إليه وتكليمه إياه، وذلك بعد ما قضى موسى الأجل الذى كان بينه وبين صهره فى رعاية الغنم وسار بأهله ، قيل: قاصداً بلاد مصر، بعدما طالت الغيبة عنها أكثر من عشر سنين، ومعه زوجته، فأضل الطريق، وكانت ليلة شاتية، ونزل منزلاً بين شعاب وجبال، فى برد وشتاء، وسحاب وظلام وضباب، وجعل يقدح بزند معه ليورى ناراً، كما جرت له العادة به، فجعل لا يقدح شيئاً، ولا يخرج منه شرر ولا شيء. فبينما هو كذلك، إذ آنس من جانب الطور ناراً، أى: ظهرت له نار من جانب الجبل الذى هناك عن يمينه، فقال لأهله يبشرهم: ﴿إِنِّي آنَسْتُ نَارًا لَعَلِّي آتِيكُم مِّنْهَا بِقَبَسٍ﴾، أى: شهاب من نار. وفى الآية الأخرى: ﴿أَوْ جَدْوَةٌ مِّنَ النَّارِ﴾ [القصص: ٢٩]، وهى: الجمر الذى معه لهب، ﴿لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ﴾ [القصص: ٢٩]، دل على وجود البرد، وقوله: ﴿بِقَبَسٍ﴾ دل على وجود الظلام.

وقوله: ﴿أَوْ أَجْدُ عَلَى النَّارِ هُدًى﴾ أى: من يهدينى الطريق، دل على أنه قد تاه عن الطريق، كما قال ابن عباس فى قوله: ﴿أَوْ أَجْدُ عَلَى النَّارِ هُدًى﴾ قال: من يهدينى إلى الطريق. وكانوا شاتين وصلوا الطريق، فلما رأى النار قال: إن لم أجد أحداً يهدينى إلى الطريق أتكم بنار توقدون بها.

﴿فَلَمَّا أَنهَا تُودَى بِمُوسَى ﴿١١﴾ إِنْ أَنَا رَبُّكَ فَاحْطَعْ نَعْلَيْكَ ﴿١٢﴾ بِأَلْوَادِ الْمُقَدَّسِ طَوًى ﴿١٣﴾ وَأَنَا أَخْرَجْتُكَ فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَى ﴿١٤﴾ إِنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا لِتُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَى ﴿١٥﴾ فَلَا يَصُدُّكَ عَنْهَا مَنْ لَا يُؤْمِنُ بِهَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَتَرْدَى ﴿١٦﴾﴾

يقول تعالى: ﴿فَلَمَّا آتَاهَا﴾ أى: النار واقترب منها ﴿نُودَىٰ يَا مُوسَىٰ﴾ وفى الآية الأخرى: ﴿نُودِي مِّن شَاطِئِ الرَّادِ الْأَيْمَنِ فِي الْبُقْعَةِ الْمُبَارَكَةِ مِنَ الشَّجَرَةِ أَن يَا مُوسَىٰ إِنِّي أَنَا اللَّهُ﴾ [القصص: ٣٠]، وقال هاهنا ﴿إِنِّي أَنَا رَبُّكَ﴾ أى: الذى يكلمك ويخاطبك ﴿فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ﴾ قال سعيد بن جبير: كما يؤمر الرجل أن يخلع نعليه إذا أراد أن يدخل الكعبة . وقيل: ليطأ الأرض المقدسة بقدميه حافياً غير متعل . وقيل: غير ذلك، والله أعلم. وقوله: ﴿طُوى﴾ قال ابن عباس: هو اسم للوادي. وكذا قال غير واحد، فعلى هذا يكون عطف بيان، كقوله: ﴿إِذ نَادَاهُ رَبُّهُ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوى﴾ [التازعات: ١٦] .

وقوله: ﴿وَأَنَا اخْتَرْتُكَ﴾ كقوله: ﴿إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالَاتِي وَبِكَلَامِي﴾ [الاعراف: ١٤٤] أى: على جميع الناس من الموجودين فى زمانه. وقوله: ﴿فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَىٰ﴾ أى: اسمع الآن ما أقول لك وأوحى إليك ﴿إِنِّي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا﴾ هذا أول واجب على المكلفين أن يعلموا أنه لا إله إلا الله، وحده لا شريك له. وقوله: ﴿فَاعْبُدْنِي﴾ أى: وحدنى وقم بعبادتى من غير شريك ﴿وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي﴾ قيل: معناه: صلِّ لتذكرنى. وقيل: معناه: وأقم الصلاة عند ذكرك لى ، ويشهد لهذا الثانى ما رواه الإمام أحمد عن أنس، عن النبى ﷺ قال: «إذا رقد أحدكم عن الصلاة، أو غفل عنها، فليصلها إذا ذكرها؛ فإن الله تعالى قال: ﴿وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي﴾» (١). وفى الصحيحين عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: «من نام عن صلاة أو نسيها، فكفارتها أن يصلها إذا ذكرها، لا كفارة لها إلا ذلك» (٢).

وقوله: ﴿إِنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ﴾ أى: قائمة لا محالة، وكائنة لا بد منها. وقوله: ﴿أَكَادُ أَخْفِيهَا﴾ قال الضحاك، عن ابن عباس: أنه كان يقرؤها: «أكاد أخفيها من نفسى»، يقول: لأنها لا تخفى من نفس الله أبداً. وقال ابن عباس لا أطلع عليها أحداً غيرى . وقال السدى: ليس أحد من أهل السموات والأرض إلا قد أخفى الله عنه علم الساعة، ولعمري لقد أخفاها الله من الملائكة المقربين، ومن الأنبياء والمرسلين. قلت: وهذا كقوله تعالى: ﴿قُلْ لَا يَعْلَمُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ﴾ [النمل: ٦٥]، وقال: ﴿ثَقُلْتُ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا تَأْتِيكُمُ إِلَّا بَعْتَةٌ﴾ [الاعراف: ١٨٧] أى: ثقل علمها على أهل السموات والأرض.

وقوله سبحانه وتعالى: ﴿لِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَىٰ﴾، أى: أقيمها لا محالة، لأجزى كل عامل بعمله ﴿مَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ . وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾ [الزلزلة: ٧، ٨] ، و﴿إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [الطور: ١٦] . وقوله: ﴿فَلَا يَصُدُّكَ عَنْهَا مَنْ لَا يُؤْمِنُ بِهَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَتَرْدَىٰ﴾: المراد بهذا الخطاب آحاد المكلفين، أى: لا تتبعوا سبيل من كذب بالساعة، وأقبل على ملاذة فى دنياه، وعصى مولاه، واتبع هواه، فمن وافقهم على ذلك فقد خاب وخسر ﴿فَتَرْدَىٰ﴾ أى: تهلك وتعطب ، قال الله تعالى: ﴿وَمَا يُغْنِي عَنْهُ مَالُهُ إِذَا تَرْدَىٰ﴾ [الليل: ١١] .

(١) المسند (٣ / ١٨٤) ورواه مسلم (٦٨٤ / ٣١٦) .

(٢) البخارى (٥٩٧) ومسلم (٦٨٤ / ٣١٤) .

﴿ وَمَا تِلْكَ يَبِيْمِيْنِكَ يَمْوَسِي ۙ قَالَ هِيَ عَصَايَ اَتَوَكَّرُ عَلَيَّهَا وَاَهْسُ بِهَا عَلٰى غَنَمِيْ وَلِيْ فِيْهَا مَنَارِبٌ اٰخَرٰى ﴾ ﴿١٧﴾ قَالَ اَلْقَهَا يَمْوَسِي ۙ ﴿١٨﴾ فَاَلْقٰنَهَا فَاِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعٰى ﴿١٩﴾ قَالَ خُذْهَا وَلَا تَخَفْ ۗ سَنُعِيْدُهَا سٰبِرَتَهَا الْاَوَّلٰى ﴿٢٠﴾

هذا برهان من الله تعالى لموسى، عليه السلام، ومعجزة عظيمة، وخرق للعادة باهر، دل على أنه لا يقدر على مثل هذا إلا الله عز وجل، وأنه لا يأتي به إلا نبي مرسل، وقوله: ﴿وَمَا تِلْكَ يَبِيْمِيْنِكَ يَا مُوسَى﴾ قال بعض المفسرين: إنما قال له ذلك على سبيل الإيناس له. وقيل: إنما قال له ذلك على وجه التقرير، أى: أما هذه التى فى يمينك عصاك التى تعرفها، فسترى ما نضع بها الآن، ﴿وَمَا تِلْكَ يَبِيْمِيْنِكَ يَا مُوسَى﴾ استفهام تقرير. ﴿قَالَ هِيَ عَصَايَ اَتَوَكَّرُ عَلَيَّهَا﴾ أى: أعتمد عليها فى حال المشى ﴿وَأَهْسُ بِهَا عَلٰى غَنَمِي﴾ أى: أهرز بها الشجرة ليسقط ورقها، لترعاه غنمى. قال الإمام مالك: والهش: أن يضع الرجل المحجن فى الغصن، ثم يحركه حتى يسقط ورقه وثمره، ولا يكسر العود، فهذا الهش، ولا يخبط.

وقوله: ﴿وَلِيْ فِيْهَا مَنَارِبٌ اٰخَرٰى﴾ أى: مصالح ومنافع وحاجات آخر غير ذلك. وقد تكلف بعضهم لذكر شيء من تلك المآرب التى أبهت.

وقوله تعالى: ﴿قَالَ اَلْقَهَا يَا مُوسَى﴾ أى: هذه العصا التى فى يدك يا موسى، ألقها ﴿فَاَلْقَاهَا فَاِذَا هِيَ حَيَّةٌ﴾ أى: صارت فى الحال حية عظيمة، ثعباناً طويلاً، يتحرك حركة سريعة، فإذا هى تهتز كأنها جان، وهو أسرع الحيات حركة، ولكنه صغير، فهذه فى غاية الكبر، وفى غاية سرعة الحركة، ﴿تَسْعٰى﴾ أى: تمشى وتضطرب. فكشف عن يده ثم قبض فإذا هى عصاه التى عهدها، وإذا يده فى موضعها الذى كان يضعها إذا توكأ بين الشعبتين؛ ولهذا قال تعالى: ﴿سَنُعِيْدُهَا سٰبِرَتَهَا الْاَوَّلٰى﴾ أى: إلى حالها التى تعرف قبل ذلك.

﴿ وَاَضْمَمْتُ يَدَكَ اِلٰى جَنَاحِكَ تَخْرُجُ بِيْضًا مِّنْ غَيْرِ سَوْءٍ اٰخَرٰى ﴾ ﴿٢١﴾ لِزُرِيْكَ مِّنْ ءَايٰتِنَا الْكُبْرٰى ﴿٢٢﴾ اذْهَبْ اِلٰى فِرْعَوْنَ اِنَّهٗ طَغٰى ﴿٢٣﴾ قَالَ رَبِّ اَسْرِخْ لِىْ صَدْرِى ۙ ﴿٢٤﴾ وَيَسِّرْ لِىْ اَمْرِى ۙ ﴿٢٥﴾ وَاَحْلِلْ عُقْدَةً مِّنْ لِّسٰنِى ۙ ﴿٢٦﴾ يَفْقَهُوْا قَوْلِى ۙ ﴿٢٧﴾ وَاَجْعَلْ لِّىْ وِزِيْرًا مِّنْ اَهْلِى ۙ ﴿٢٨﴾ هٰزُوْنَ اٰخِى ۙ ﴿٢٩﴾ اَشْدُدْ يَدِىْ اَزْرِى ۙ ﴿٣٠﴾ وَاَشْرِكْهُ فِىْ اَمْرِى ۙ ﴿٣١﴾ كَىٰ نُسِيْحَكَ كَثِيْرًا ﴿٣٢﴾ وَنَذْرَكَ كَثِيْرًا ﴿٣٣﴾ اِنَّكَ كُنْتَ بِنَا بَصِيْرًا ﴿٣٤﴾ ﴿٣٥﴾

وهذا برهان ثان لموسى، عليه السلام، وهو أن الله أمره أن يدخل يده فى جيبه، كما صرح به فى الآية الأخرى، وهاهنا عبر عن ذلك بقوله: ﴿وَأَضْمَمْتُ يَدَكَ اِلٰى جَنَاحِكَ﴾، وقال فى مكان آخر: ﴿وَأَضْمَمْتُ اِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ الرُّهْبِ فَاِذًا نِكَ بُرْهَانَانِ مِّنْ رَبِّكَ اِلٰى فِرْعَوْنَ وَمَلِكِهِ﴾ [التقصص: ٣٢]. وقال مجاهد: ﴿وَأَضْمَمْتُ يَدَكَ اِلٰى جَنَاحِكَ﴾: كفك تحت عضدك. وقوله: ﴿تَخْرُجُ بِيْضًا مِّنْ غَيْرِ سَوْءٍ﴾ أى:

من غير برّص ولا أذى، ومن غير شين. قاله ابن عباس، ولهذا قال تعالى: ﴿لِتُرِيكَ مِنْ آيَاتِنَا الْكُبْرَى﴾ .

وقوله: ﴿اذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ﴾ أى: اذهب إلى فرعون ملك مصر، الذى خرّجت فأراً منه وهارباً، فادعه إلى عبادة الله وحده لا شريك له، ومره فليُحَسِّن إلى بنى إسرائيل ولا يعذبهم، فإنه قد طغى وبغى، وآثر الحياة الدنيا، ونسى الرب الأعلى. ﴿قَالَ رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي. وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي﴾: هذا سؤال من موسى، عليه السلام، لربه عز وجل، أن يشرح له صدره فيما بعثه به، فإنه قد أمره بأمر عظيم، وخطب جسيم. بعثه إلى أعظم ملك على وجه الأرض إذ ذاك، وأجبرهم، وأشدّهم كفراً، وأكثرهم جنوداً، وأعمرهم ملكاً، وأطغاهم وأبلغهم تمرداً، بلغ من أمره أن ادعى أنه لا يعرف الله، ولا يعلم لرعاياه إلهاً غيره. هذا وقد مكث موسى فى داره مدة وليداً عندهم، فى حجر فرعون، على فراشه، ثم قتل منهم نفساً فخافهم أن يقتلوه، فهرب منهم هذه المدة بكما لها. ثم بعد هذا بعثه ربه عز وجل إليهم نذيراً يدعوهم إلى الله عز وجل أن يعبدوه وحده لا شريك له؛ ولهذا قال: ﴿رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي. وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي﴾ أى: إن لم تكن أنت عونى ونصيرى، وعضدى وظهيرى، وإلا فلا طاقة لى بذلك.

﴿وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِّنْ لِّسَانِي. يَفْقَهُوا قَوْلِي﴾ وذلك لما كان أصابه من اللثغ، حين عرض عليه التمرة والجمرة، فأخذ الجمرة فوضعها على لسانه، كما سيأتى بيانه، وما سأل أن يزول ذلك بالكلية، بل بحيث يزول العى، ويحصل لهم فهم ما يريد منه وهو قدر الحاجة. ولو سأل الجميع لزال، ولكن الأنبياء لا يسألون إلا بحسب الحاجة، ولهذا بقيت بقية، قال الله تعالى إخباراً عن فرعون أنه قال: ﴿أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِّنْ هَذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ﴾ [الزخرف: ٥٢] أى: يفصح بالكلام. وقال ابن عباس: شكّا موسى إلى ربه ما يتخوف من آل فرعون فى القتل، وعقدة لسانه، فإنه كان فى لسانه عقدة تمنعه من كثير من الكلام، وسأل ربه أن يعينه بأخيه هارون يكون له رداءً ويتكلم عنه بكثير مما لا يفصح به لسانه، فأتاه سؤاله، فحل عقدة من لسانه.

وقوله: ﴿وَأَجْعَلْ لِي وَزيراً مِّنْ أَهْلِي. هَرُونَ أَخِي﴾: وهذا أيضاً سؤال من موسى، عليه السلام، فى أمر خارجى عنه، وهو مساعدة أخيه هارون له. قال عن ابن عباس: نُبئ هارون ساعتئذ حين نبئ موسى، عليهما السلام. وقوله: ﴿اشْدُدْ بِهِ أَزْرِي﴾ قال مجاهد: ظهري ﴿وَأَشْرِكْهُ فِي أَمْرِي﴾ أى: فى مشاورتى ﴿كَمْ نُسَبِّحُكَ كَثِيراً. وَنَذْكُرُكَ كَثِيراً﴾ قال مجاهد: لا يكون العبد من الذاكرين الله كثيراً، حتى يذكر الله قائماً وقاعداً ومضطجعاً. وقوله: ﴿إِنَّكَ كُنْتَ بِنَا بَصِيرًا﴾ أى: فى اصطفاك لنا، وإعطائك إيانا النبوة، وبعثك لنا إلى عدوك فرعون، فلك الحمد على ذلك.

﴿ قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَا مُوسَى ﴾ ﴿٣٦﴾ وَلَقَدْ مَنَّا عَلَيْكَ مَرَّةً أُخْرَى ﴿٣٧﴾ إِذْ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَمْرَكَ مَا بُوحِيَ لَكَ أَنِ اقْدِفِيهِ فِي التَّابُوتِ فَاقْدِفِيهِ فِي الْيَمِّ فَلْيُلْقِهِ الْيَمُّ بِالسَّاحِلِ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِي وَعَدُوٌّ لَهُ وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِنِّي وَلِتُصْنَعَ عَلَى عَيْنِي ﴿٣٨﴾ إِذْ تَمْشِي أُخْتُكَ فَتَقُولُ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ مَن يَكْفُلُهُ فَرَجَعْنَاكَ إِلَىٰ أُمِّكَ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ ﴿٣٩﴾ وَقَلَّتَ نَفْسًا فَنَجَّيْنَاكَ مِنَ الْغَمِّ وَفَتَنَّاكَ فُتُونًا ﴿٤٠﴾

هذه إجابة من الله لرسوله موسى، عليه السلام، فيما سأل من ربه عز وجل، وتذكير له بنعمه السالفة عليه، فيما كان من أمر أمه حين كانت ترضعه، وتحذر عليه من فرعون وملئه أن يقتلوه؛ لأنه كان قد ولد في السنة التي يقتلون فيها الغلمان. فاتخذت له تابوتا، فكانت ترضعه ثم تضعه فيه، وترسله في البحر - وهو النيل - وتمسكه إلى منزلها بحبل، فذهبت مرة لتربطه فانفلت منها وذهب به البحر، فحصل لها من الغم والههم ما ذكره الله عنها في قوله: ﴿وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَارِعًا إِنْ كَادَتْ لَتُبْدِي بِهِ لَوْلَا أَن رَّبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا﴾ [القصص: ١٠]، فذهب به البحر إلى دار فرعون ﴿فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا﴾ [القصص: ٨]، أي قدراً مقدوراً من الله، حيث كانوا هم يقتلون الغلمان من بني إسرائيل، حذراً من وجود موسى، فحكم الله - وله السلطان العظيم، والقدرة التامة - ألا يربى إلا على فراش فرعون، ويغذى بطعامه وشرابه، مع محبته وزوجته له؛ ولهذا قال تعالى: ﴿يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِي وَعَدُوٌّ لَهُ وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِنِّي﴾ أي: عند عدوك، جعلته يحبك ﴿وَلِتُصْنَعَ عَلَى عَيْنِي﴾ قال أبو عمران الجوني: تربي بعين الله، وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: يعني أبعده في بيت الملك ينعم ويترف، غذاؤه عندهم غذاء الملك، فتلك الصنعة.

وقوله: ﴿إِذْ تَمْشِي أُخْتُكَ فَتَقُولُ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ مَن يَكْفُلُهُ فَرَجَعْنَاكَ إِلَىٰ أُمِّكَ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا﴾ وذلك أنه لما استقر عند آل فرعون، عرضوا عليه المراضع، فأباهما، قال الله تعالى: ﴿وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ الْمَرَاضِعَ مِن قَبْلُ﴾ فجات أخته وقالت: ﴿هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ وَهُمْ لَهُ نَاصِحُونَ﴾ [القصص: ١٢]. تعنى: هل أدلكم على من ترضعه لكم بالأجرة؟ فذهبت به وهم معها إلى أمه، فعرضت عليه ثديها، فقبله، ففرحوا بذلك فرحاً شديداً، واستأجروها على إرضاعه فنالها بسببه سعادة ورفعة وراحة في الدنيا وفي الآخرة أغنم وأجزل. وقال تعالى ها هنا: ﴿فَرَجَعْنَاكَ إِلَىٰ أُمِّكَ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ﴾ أي: عليك ﴿وَقَلَّتَ نَفْسًا﴾ يعني: القبطى ﴿فَنَجَّيْنَاكَ مِنَ الْغَمِّ﴾: وهو ما حصل له بسبب عزم آل فرعون على قتله، ففر منهم هارباً، حتى ورد ماء مدين، وقال له ذلك الرجل الصالح: ﴿لَا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ [القصص: ٢٥]. وقوله: ﴿وَقَتْنَاكَ فُتُونًا﴾ (١).

(١) ذكر الحافظ ابن كثير بعدها « حديث الفتون » الطويل ، وعلّق الشيخ أحمد شاكر هنا بقوله : « حديث الفتون أشار إليه المؤلف في تفسير الآية ٤٩ - ٥٠ من سورة البقرة وتكلمنا عليه هناك وذكرنا أننا حذفناه » .

﴿ فَلَيْتَ سَيْنٍ فِي أَهْلِ مَدْيَنَ ثُمَّ جِئْتَ عَلَىٰ قَدَرٍ يَا مُوسَىٰ ﴿٤٠﴾ وَأَصْطَفَيْتَكَ لِنَفْسِي ﴿٤١﴾ أَذْهَبَ أَنْتَ وَأَخُوكَ بِآيَاتِي وَلَا نَبِيًّا فِي ذِكْرِي ﴿٤٢﴾ أَذْهَبَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ ﴿٤٣﴾ فَقَوْلَا لَهُ قَوْلَا لَيْنَا لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ ﴿٤٤﴾ ﴾

يقول تعالى مخاطباً لموسى، عليه السلام: إنه لبث مقيماً في أهل «مدین» فآراً من فرعون وملئه، يرعى على صهره، حتى انتهت المدة وانقضى الأجل، ثم جاء موافقاً لقدر الله وإرادته من غير ميعاد، والأمر كله لله تبارك وتعالى، وهو المسير عباده وخلقه فيما يشاء؛ ولهذا قال: ﴿ ثُمَّ جِئْتَ عَلَىٰ قَدَرٍ يَا مُوسَىٰ ﴾ قال مجاهد: أى على موعد، وقال قتادة على قدر الرسالة والنبوة.

وقوله: ﴿ وَأَصْطَفَيْتَكَ لِنَفْسِي ﴾ أى: اصطفتك واجتبتك رسولاً لنفسى، أى: كما أريد وأشاء. وروى البخارى عن أبى هريرة، عن رسول الله ﷺ قال: «التقى آدم وموسى، فقال موسى: أنت الذى أشقيت الناس وأخرجتهم من الجنة؟ فقال آدم: وأنت الذى اصطفاك الله برسالته واصطفاك لنفسه، وأنزل عليك التوراة؟ قال: نعم. قال: فوجدته قد كتب علىّ قبل أن يخلقنى؟ قال: نعم. فحج آدم موسى» (١).

وقوله: ﴿ أَذْهَبَ أَنْتَ وَأَخُوكَ بِآيَاتِي ﴾ أى: بحججى وبراهينى ومعجزاتى ﴿ وَلَا نَبِيًّا فِي ذِكْرِي ﴾ قال ابن عباس: لا تبطنوا. وقال: لا تصغفوا. والمراد: أنهما لا يفتران فى ذكر الله، بل يذكران الله فى حال مواجهة فرعون، ليكون ذكر الله عوناً لهما عليه، وقوة لهما وسلطاناً كاسراً له. ﴿ أَذْهَبَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ ﴾ أى: تمرد وعتا وتجهّم على الله وعصاه ﴿ فَقَوْلَا لَهُ قَوْلَا لَيْنَا لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ ﴾ هذه الآية فيها عبرة عظيمة، وهو أن فرعون فى غاية العتو والاستكبار، وموسى صفوة الله من خلقه إذ ذاك، ومع هذا أمر الا يخاطب فرعون إلا بالملطفة واللين، وأن دعوتهما له تكون بكلام رقيق لين قريب سهل، ليكون أوقع فى النفوس وأبلغ وأنجع، كما قال تعالى: ﴿ ادْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ﴾ الآية [النحل: ١٢٥].

وقوله: ﴿ لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ ﴾ أى: لعله يرجع عما هو فيه من الضلال والهلكة ﴿ أَوْ يَخْشَىٰ ﴾ أى: يوجد طاعة من خشية ربه، فالتذكر: الرجوع عن المحذور، والخشية: تحصيل الطاعة.

﴿ قَالَا رَبَّنَا إِنَّا نَخَافُ أَنْ يُفْرِطَ عَلَيْنَا أَوْ أَنْ يَطْغَىٰ ﴿٤٥﴾ قَالَ لَا تَخَافَا إِنِّي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَىٰ ﴿٤٦﴾ فَأَنبَأَهُ قَوْلَا إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَا تَعَذِّبْهُمْ قَدْ جِئْنَاكَ بِبَيِّنَاتٍ مِّنْ رَبِّكَ وَالسَّلَامُ عَلَيْنَا مَنِ اتَّبَعَ الْهُدَىٰ ﴿٤٧﴾ إِنَّا قَدْ أُوحِيَ إِلَيْنَا أَنَّ الْعَذَابَ عَلَىٰ مَن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴿٤٨﴾ ﴾

يقول تعالى إخباراً عن موسى وهارون، عليهما السلام، أنهما قالا مستجيرين بالله تعالى شاكّين إليه: ﴿ إِنَّا نَخَافُ أَنْ يُفْرِطَ عَلَيْنَا أَوْ أَنْ يَطْغَىٰ ﴾ يعنى أن يبدّر إليهما بعقوبة، أو يعتدى

عليهما، فيعاقبهما وهما لا يستحقان منه ذلك. ﴿قَالَ لَا تَخَافَا إِنِّي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَى﴾ أى: لا تخافا منه، فإننى معكما أسمع كلامكما وكلامه، وأرى مكانكما ومكانه، لا يخفى على من أمركم شىء، واعلما أن ناصيته بيدي، فلا يتكلم ولا يتنفس ولا يبطش إلا بإذنى وبعد أمرى، وأنا معكما بحفظى ونصرى وتأييدى.

وقوله: ﴿فَاتِيَاهُ فَقُولَا إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَا تُعَذِّبُهُمْ قَدْ جِئْنَاكَ بِآيَةٍ مِّنْ رَبِّكَ﴾ أى: بدلالة ومعجزة من ربك ﴿وَالسَّلَامُ عَلَيَّ مَنِ اتَّبَعَ الْهُدَى﴾ أى: والسلام عليك إن اتبعت الهدى؛ ولهذا لما كتب رسول الله ﷺ إلى هرقل عظيم الروم كتاباً، كان أوله: «بسم الله الرحمن الرحيم، من محمد رسول الله إلى هرقل عظيم الروم، سلام على من اتبع الهدى. أما بعد، فإنى أدعوك بدعاية الإسلام، فأسلم تسلم يؤتك الله أجرك مرتين»، وكذلك كتب رسول الله ﷺ: «من محمد رسول الله إلى مسيلمة الكذاب، سلام على من اتبع الهدى، أما بعد، فإن الأرض لله يورثها من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين».

ولهذا قال موسى وهارون، عليهما السلام، لفرعون: ﴿وَالسَّلَامُ عَلَيَّ مَنِ اتَّبَعَ الْهُدَى. إِنَّا قَدْ أُوْحِيَ إِلَيْنَا أَنَّ الْعَذَابَ عَلَىٰ مَن كَذَّبَ وَتَوَلَّى﴾ أى: قد أخبرنا الله فيما أوحاه إلينا من الوحي المعصوم أن العذاب متمحض لمن كذب بآيات الله وتولى عن طاعته، كما قال تعالى: ﴿فَأَمَّا مَن طَغَىٰ. وَآثَرَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا. فَإِنَّ الْجَحِيمَ هِيَ الْمَأْوَىٰ﴾ [النارعات: ٣٧ - ٣٩]، وقال تعالى: ﴿فَأَنْذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظَّى. لَا يَصْلَاهَا إِلَّا الْأَشْقَى. الَّذِي كَذَّبَ وَتَوَلَّى﴾ [الليل: ١٤ - ١٦]، وقال تعالى: ﴿فَلَا صَدْقَ وَلَا صَلَّىٰ. وَلَكِن كَذَّبَ وَتَوَلَّى﴾ [القيامة: ٣١، ٣٢]. أى: كذب بقلبه وتولى بفعله.

﴿قَالَ فَمَنْ رَّبُّكُمْ يَا مُوسَىٰ﴾ ﴿قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَىٰ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَىٰ﴾
 ﴿قَالَ فَمَا بَالُ الْقُرُونِ الْأُولَىٰ﴾ ﴿قَالَ عَلِمَهَا عِنْدَ رَبِّي فِي كِتَابٍ لَا يَصِلُ إِلَىٰ رَبِّي وَلَا يَنسَى﴾

يقول تعالى مخبراً عن فرعون أنه قال لموسى منكراً وجود الصانع الخالق، إله كل شىء وربّه ومليكه، قال: ﴿فَمَنْ رَبُّكُمْ يَا مُوسَى﴾ أى: الذى بعثك وأرسلك من هو؟ فإنى لا أعرفه، وما علمت لكم من إله غيرى، ﴿قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَىٰ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَىٰ﴾ قال سعيد بن جبیر: أعطى كل ذى خلق ما يصلحه من خلقه، ولم يجعل للإنسان من خلق الدابة، ولا للدابة من خلق الكلب، ولا للكلب من خلق الشاة، وأعطى كل شىء ما ينبغى له من النكاح، وهياً كل شىء على ذلك، ليس شىء منها يشبه شيئاً من أفعاله فى الخلق والرزق والنكاح. وقال بعض المفسرين: ﴿أَعْطَىٰ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَىٰ﴾ كقوله تعالى: ﴿وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَىٰ﴾ [الاعلى: ٣] أى: قدر قدرًا، وهدى الخلائق إليه، أى: كتب الأعمال والأجال والأرزاق، ثم الخلائق ماشون على ذلك، لا يحيدون عنه، ولا يقدر أحد على الخروج منه. يقول: ربنا الذى خلق الخلق، وقدر القدر، وجعل الخليقة على ما أراد.

﴿ قَالَ فَمَا بَالُ الْقُرُونِ الْأُولَى ﴾: أصح الأقوال في معنى ذلك: أن فرعون لما أخبره موسى بأن ربه الذي أرسله هو الذي خلق ورزق وقدر فهدي، شرع يحتج بالقرون الأولى، أي: الذين لم يعبدوا الله، أي: فما بالهم إذا كان الأمر كما تقول، لم يعبدوا ربك، بل عبدوا غيره؟ فقال له موسى في جواب ذلك: هم وإن لم يعبدوه فإن عملهم عند الله مضبوط عليهم، وسيجزئهم بعملهم في كتاب الله، وهو اللوح المحفوظ وكتاب الأعمال، ﴿لَا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنسَى﴾، أي: لا يشذ عنه شيء، ولا يفوته صغير ولا كبير، ولا ينسى شيئاً. يصف علمه تعالى بأنه بكل شيء محيط، وأنه لا ينسى شيئاً، تبارك وتعالى وتقدس، فإن علم المخلوق يعتره نقصانان أحدهما: عدم الإحاطة بالشيء، والآخر نسيانه بعد علمه، فتره نفسه عن ذلك.

﴿ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْدًا وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِّن نَّبَاتٍ شَتَّى ﴾ ﴿٥٣﴾ كُلُوا وَارْعَوْا أَنْعَامَكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَبْصَارِ ﴿٥٤﴾ ﴿ وَمِنهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَى ﴾ ﴿٥٥﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهَا الْمَلَائِكَةَ فَقَالُوا عَلَيْكُمْ كَذِبًا وَأَكْثَبَ الْكَاذِبِينَ ﴿٥٦﴾

ربع

هذا من تمام كلام موسى فيما وصف به ربه، عز وجل، حين سأله فرعون عنه، فقال: ﴿الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ حَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى﴾، ثم اعترض الكلام بين ذلك، ثم قال: ﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْدًا﴾، وفي قراءة بعضه: «مهادا» أي: قراراً تستقرون عليها وتقومون وتنامون عليها وتسافرون على ظهرها ﴿وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا﴾ أي: جعل لكم طرقاً تمشون في مناكبها، كما قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا سُبُلًا لِّمَنْ يَهْتَدُونَ﴾ [الأنبياء: ٣١].

﴿وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِّن نَّبَاتٍ شَتَّى﴾ أي: من ألوان النباتات من زروع، وثمار، من حامض وحلو، وسائر الأنواع. ﴿كُلُوا وَارْعَوْا أَنْعَامَكُمْ﴾ أي: شيء لطعامكم وفاكهتكم، وشيء لأنعامكم لأقواتها خضرا ويابسا ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ﴾ أي: للدلالات وحججها وبراهين ﴿لِأُولِي الْأَبْصَارِ﴾ أي: لذوى العقول السليمة المستقيمة على أنه لا إله إلا الله، ولا رب سواه. ﴿مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَى﴾ أي: من الأرض مبدؤكم، فإن أباكم آدم مخلوق من تراب من أديم الأرض ﴿وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ﴾ أي: وإليها تصيرون إذا متم وبليتم، ومنها نخرجكم تارة أخرى ﴿يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِ وَتَظُنُّونَ إِن لَّبِثُمْ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الإسراء: ٥٢]. وهذه الآية كقوله تعالى: ﴿قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ﴾ [الأعراف: ٢٥].

وقوله: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهَا الْمَلَائِكَةَ فَقَالُوا عَلَيْكُمْ كَذِبًا وَأَكْثَبَ الْكَاذِبِينَ﴾ يعني: فرعون، أنه قامت عليه الحجج والآيات والدلالات، وعاین ذلك وأبصره، فكذب بها وأبأها كفراً وعناداً وبعياً، كما قال تعالى: ﴿وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا﴾ الآية [النمل: ١٤].

﴿ قَالَ أَحِثْنَا لِتُخْرِجَنَا مِنْ أَرْضِنَا بِسِحْرِكَ يَا مُوسَى ﴿٥٧﴾ فَلَمَّا تَبْنَاكَ يَا سِحْرٍ مِثْلِهِ فَأَجْعَلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِدًا لَا نُخْلِفُهُ نَحْنُ وَلَا أَنْتَ مَكَانًا سُوًى ﴿٥٨﴾ قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمَ الزَّيْنَةِ وَأَنْ يُحْشَرَ النَّاسُ ضَحَىٰ ﴿٥٩﴾ ﴾

يقول تعالى مخبراً عن فرعون أنه قال لموسى حين أراه الآية الكبرى، وهى إلقاء عصاه فصارت ثعباناً عظيماً ونزع يده من تحت جناحه فخرجت بيضاء من غير سوء فقال: هذا سحر، جئت به لتسحرنا وتستولى به على الناس، فيتبعونك وتكاثرتنا بهم، ولا يتم هذا معك، فإن عندنا سحراً مثل سحرِكَ، فلا يغررك ما أنت فيه ﴿فَأَجْعَلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِدًا﴾ أى: يوماً نجتمع نحن وأنت فيه، فنعارض ما جئت به بما عندنا من السحر فى مكان معين ووقت معين فنعد ذلك ﴿قَالَ﴾ لهم موسى ﴿مَوْعِدُكُمْ يَوْمَ الزَّيْنَةِ﴾ وهو يوم عيدهم ونوروزهم وتفرغهم من أعمالهم واجتماعهم جميعهم؛ ليشاهد الناس قدرة الله على ما يشاء، ومعجزات الأنبياء، وبطلان معارضة السحر لخوارق العادات النبوية، ولهذا قال: ﴿وَأَنْ يُحْشَرَ النَّاسُ﴾ أى: جميعهم ﴿ضَحَى﴾ أى: ضحوة من النهار ليكون أظهر وأجلى وأبين وأوضح، وهكذا شأن الأنبياء، كل أمرهم واضح، بين، ليس فيه خفاء ولا ترويح؛ ولهذا لم يقل «ليلاً» ولكن نهاراً ضحى. وقال مجاهد، وفتادة: ﴿مَكَانًا سُوًى﴾: منصفًا. وقال السدى: عدلاً. وقال عبد الرحمن بن زيد ابن أسلم: مستو بين الناس وما فيه، لا يكون صوت ولا شيء يتغيب بعض ذلك عن بعض مستو حين يرى.

﴿ فَتَوَلَّىٰ فِرْعَوْنُ فَجَمَعَ كَيْدَهُ ثُمَّ أَتَىٰ ﴿٦٠﴾ قَالَ لَهُمُ مُوسَىٰ وَرَبُّكُمْ لَا تَفَرُّوا عَلَىٰ اللَّهِ كَذِبًا فَيَسْجِتْكُمْ بِعَذَابٍ وَقَدْ خَابَ مَنْ آفَتَىٰ ﴿٦١﴾ فَتَنَزَّعُوا أَمْرَهُمُ بَيْنَهُمْ وَأَسْرُوا النَّجْوَىٰ ﴿٦٢﴾ قَالُوا إِنْ هَٰؤُلَاءِ لَسَاحِرُونَ يُرِيدَانِ أَنْ يُخْرِجَاكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ بِسِحْرِهِمَا وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ الْمُثَلَىٰ ﴿٦٣﴾ فَأَجْمَعُوا كَيْدَهُمْ ثُمَّ أَتَتْهُمَا صَفَاً وَقَدْ أَفْلَحَ الْيَوْمَ مِنَ اسْتَعْلَىٰ ﴿٦٤﴾ ﴾

يقول تعالى مخبراً عن فرعون أنه لما تواعد هو وموسى، عليه السلام، إلى وقت ومكان معلومين، تولى، أى: شرع فى جمع السحرة من مدائن مملكته، كل من ينسب إلى سحر فى ذلك الزمان. وقد كان السحر فيهم كثيراً نافقاً جداً، كما قال تعالى: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ أَتُونِي بِكُلِّ سَاحِرٍ عَلِيمٍ﴾ [يونس: ٧٩]. ﴿ثُمَّ أَتَى﴾ أى: اجتمع الناس لميقات يوم معلوم وهو يوم الزينة، وجلس فرعون على سرير مملكته، واصطف له أكابر دولته، ووقفت الرعايا يمناً ويسرة وأقبل موسى، عليه السلام، يتوكأ على عصاه ومعه أخوه هارون، ووقف السحرة بين يدى فرعون صفوفاً، وهو يحرضهم ويحثهم، ويرغبهم فى إجادة عملهم فى ذلك اليوم، ويتمنون عليه، وهو يعد لهم ويمنيهم، فيقولون: ﴿أَنْ لَنَا لَأَجْرًا إِنْ كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ. قَالَ نَعَمْ وَإِنِّكُمْ إِذَا لَمِنَ الْمُقْرَبِينَ﴾ [الشعراء: ٤١، ٤٢]. ﴿قَالَ

لَهُمْ مُوسَىٰ وَيُلْكُمُ لَا تَقْتَرُوا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا ﴿٦٥﴾ أى: لا تُخِيلُوا للناس بأعمالكم إيجاد أشياء لا حقائق لها، وأنها مخلوقة، وليست مخلوقة، فتكونون قد كذبتهم على الله ﴿فَيُسْحِكُمْ بِعَذَابٍ﴾ أى: يهلككم بعقوبة هلاكًا لا بقية له، ﴿وَقَدْ خَابَ مَنْ اقْتَرَىٰ . فَتَنَازَعُوا أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ﴾ قيل: معناه: أنهم تشاجروا فيما بينهم، فقاتل يقول: ليس هذا بكلام ساحر، إنما هذا كلام نبي. وقاتل يقول: بل هو ساحر. وقيل غير ذلك، والله أعلم. وقوله: ﴿وَأَسْرَأُوا النَّجْوَىٰ﴾ أى: تناجوا فيما بينهم ﴿قَالُوا إِنَّ هَٰذَا لَسَاحِرَانِ﴾ يعنون: موسى وهارون - ساحران عالمان خبيران بصناعة السحر، يريدان فى هذا اليوم أن يغلباكم وقومكم ويستوليا على الناس، وتتبعهما العامة ويقاتلا فرعون وجنوده، فينتصرا عليه ويخرجاكم من أرضكم.

وقوله: ﴿وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ الْمُثَلَّىٰ﴾ أى: ويستبدا بهذه الطريقة، وهى السحر، فإنهم كانوا معظمين بسببها، لهم أموال وأرزاق عليها، يقولون: إذا غلب هذان أهلناكم وأخرجاكم من الأرض، وتفردا بذلك، وتمحضت لهما الرياسة بها دونكم. وقوله: ﴿فَأَجْمَعُوا كَيْدَكُمْ ثُمَّ اتَّخَذُوا صَفًّا﴾ أى اجتمعوا كلكم صفًا واحدًا، وألقوا ما فى أيديكم مرة واحدة، لتبهروا الأبيصار، وتغلبوا هذا وأخاه ﴿وَقَدْ أَفْلَحَ الْيَوْمَ مَنْ اسْتَعْلَىٰ﴾ أى: منا ومنه، أما نحن فقد وعدنا هذا الملك العطاء الجزيل، وأما هو فينال الرياسة العظيمة.

﴿قَالُوا يَمُوسَىٰ إِمَّا أَنْ تُلْقَىٰ وَإِمَّا أَنْ نَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَىٰ﴾ ﴿٦٥﴾ قَالَ بَلْ أَلْقُوا فَإِذَا جَاءَهُمْ وَعَصِيَّتُهُمْ بِخَيْلٍ إِلَيْهِ مِنْ سِحْرِهِمْ أَنَّهُا تَسْعَىٰ ﴿٦٦﴾ فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُوسَىٰ ﴿٦٧﴾ فَلَمَّا لَا تَخَفَ إِنَّكَ أَنْتَ الْأَعْلَىٰ ﴿٦٨﴾ وَأَلْقَىٰ مَا فِي يَمِينِكَ تَلَقَّفَ مَا صَنَعُوا إِنَّمَا صَنَعُوا كَيْدٌ سِحْرٍ وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَىٰ ﴿٦٩﴾ فَأَلْقَى السَّحْرَةَ سُجَّدًا قَالُوا ءَأَمَّنَّا بِرَبِّ هَٰرُونَ وَمُوسَىٰ ﴿٧٠﴾

يقول تعالى مخبرًا عن السحرة حين توافقوا هم وموسى، عليه السلام، أنهم قالوا لموسى: ﴿إِمَّا أَنْ تُلْقَىٰ﴾ أى: أنت أولا ﴿وَأَمَّا أَنْ نَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَىٰ﴾. قال بَلْ أَلْقُوا﴾ أى: أنتم أولا ليرى ماذا تصنعون من السحر، وليظهر للناس جلية أمرهم ﴿فَإِذَا جَاءَهُمْ وَعَصِيَّتُهُمْ بِخَيْلٍ إِلَيْهِ مِنْ سِحْرِهِمْ أَنَّهُا تَسْعَىٰ﴾. وفى الآية الأخرى أنهم لما ألقوا ﴿قَالُوا بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ الْغَالِبُونَ﴾ [الشعراء: ٤٤٤] وقال تعالى: ﴿سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ وَاسْتَرَهُبَهُمْ وَجَاءُوا بِسِحْرٍ عَظِيمٍ﴾ [الاعراف: ١١٦]، وقال هاهنا: ﴿فَإِذَا جَاءَهُمْ وَعَصِيَّتُهُمْ بِخَيْلٍ إِلَيْهِ مِنْ سِحْرِهِمْ أَنَّهُا تَسْعَىٰ﴾. وذلك أنهم أودعوا من الزئبق ما كانت تتحرك بسببه وتضطرب وتמיד، بحيث يخيل للناظر أنها تسعى باختيارها، وإنما كانت حيلة، وكانوا جمًا غفيرًا وجمعا كثيرا، فألقى كل منهم عصا وحبلًا، حتى صار الوادى ملآن حيات يركب بعضها بعضًا.

وقوله: ﴿فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُوسَىٰ﴾ أى: خاف على الناس أن يفتتنوا بسحورهم ويغفروا بهم قبل أن يلقى ما فى يمينه، فأوحى الله تعالى إليه فى الساعة الراهنة أن ﴿وَأَلْقَىٰ مَا فِي يَمِينِكَ﴾

يعنى: عصاه، فإذا هي ﴿ تَلَقَّفَ مَا صَنَعُوا ﴾ وذلك أنها صارت تيناً عظيماً هائلاً، فجعلت تتبع تلك الحبال والعصى حتى لم تبق منها شيئاً إلا تلتفته وابتلعته، والسحرة والناس ينظرون إلى ذلك عياناً جهرة، نهاراً ضحوة. فقامت المعجزة، واتضح البرهان، وبطل ما كانوا يعملون؛ ولهذا قال تعالى: ﴿ إِنَّمَا صَنَعُوا كَيْدَ سَاحِرٍ وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَى ﴾. فلما عين السحرة ذلك وشاهدوه، ولهم خبرة بفنون السحر وطرقه ووجوهه، علموا علم اليقين أن هذا الذى فعله موسى ليس من قبيل السحر والحيل، وأنه حق لا مرية فيه، ولا يقدر على هذا إلا الذى يقول للشئ كن فيكون، فعند ذلك وقعوا سجداً لله وقالوا: ﴿ آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ . رَبِّ مُوسَى وَهَارُونَ ﴾ [الشعراء: ٤٧، ٤٨]. ولهذا قال ابن عباس، وعبيد بن عمير: كانوا أول النهار سحرة، وفى آخر النهار شهداء برة.

﴿ قَالَ ءَامَنْتُمْ لِمُ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ إِنَّهُمْ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خِلَافٍ وَأَلْصِقَ لِسْمَكُمْ فِي جُدُوعِ النَّخْلِ وَلَتَعْلَمَنَّ آيَاتُنَا أَشَدَّ عَذَابًا وَأَبْقَى ﴾ (٧١) ﴿ قَالُوا لَنْ نُؤْتِرَكَ عَلَىٰ مَا جَاءَنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالَّذِي فَطَرْنَا فَاقْضِ مَا أَنْتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِي هَذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ﴾ (٧٢) ﴿ إِنَّا ءَامَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطِيئَاتِنَا وَمَا أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنْ السِّحْرِ وَاللَّهُ خَبِيرٌ وَأَبْقَى ﴾ (٧٣)

يقول تعالى مخبراً عن كفر فرعون وعناده وبغيه ومكابرتة الحق بالباطل، حين رأى ما رأى من المعجزة الباهرة والآية العظيمة، ورأى الذين قد استنصر بهم قد آمنوا بحضرة الناس كلهم وغلب كل الغلب - شرع فى المكابرة والبهت، وعدل إلى استعمال جاهه وسلطانه فى السحرة، فتهددهم وتوعدهم، وقال ﴿ آمَنْتُمْ لَهُ ﴾ أى: صدقتموه ﴿ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ ﴾ أى: وما أمرتكم بذلك، وقال قولاً يعلم هو والسحرة والخلق كلهم أنه بهت وكذب: ﴿ إِنَّهُمْ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ ﴾ أى: أنتم إنما أخذتم السحر عن موسى، واتفقتم أنتم وإياه على وعلى رعبتي، لتظهوره، كما قال فى الآية الأخرى: ﴿ إِنَّ هَذَا لَمَكْرٌ مَكْرْتُمُوهُ فِي الْمَدِينَةِ لِتُخْرِجُوا مِنْهَا أَهْلَهَا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴾ [الأعراف: ١٢٣]. ثم أخذ يتهددهم فقال: ﴿ فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خِلَافٍ وَأَلْصِقَ لِسْمَكُمْ فِي جُدُوعِ النَّخْلِ ﴾ أى: لأجعلنكم مثلة ولاقتلكنم ولأشهرنكم. قال ابن عباس: فكان أول من فعل ذلك. رواه ابن أبى حاتم.

وقوله: ﴿ وَلَتَعْلَمَنَّ آيَاتُنَا أَشَدَّ عَذَابًا وَأَبْقَى ﴾ أى أنتم تقولون: إني وقومى على ضلالة، وأنتم مع موسى وقومه على الهدى. فسوف تعلمون من يكون له العذاب ويبقى فيه. فلما صال عليهم بذلك وتوعدهم، هانت عليهم أنفسهم فى الله عز وجل، و ﴿ قَالُوا لَنْ نُؤْتِرَكَ عَلَىٰ مَا جَاءَنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ ﴾ أى: لن نختارك على ما حصل لنا من الهدى واليقين ﴿ وَالَّذِي فَطَرْنَا ﴾ يحتمل أن يكون قسماً، ويحتمل أن يكون معطوفاً على البيئات، يعنون: لا نختارك على فاطرنا وخالقنا الذى أنشأنا من العدم، المبتدئ خلقنا من الطين، فهو المستحق للعبادة والخضوع لا أنت .

﴿فَأَقْضِي مَا أَنْتَ قَاضٍ﴾ أى: فافعل ما شئت وما وصّلت إليه يدك ﴿إِنَّمَا تَقْضِي هَذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾ أى: إنما لك تسلّط في هذه الدار، وهى دار الزوال ونحن قد رغبتنا فى دار القرار ﴿إِنَّا آمَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَايَانَا﴾ أى: ما كان منا من الآثام، خصوصاً ما أكرهتنا عليه من السحر لنعارض به آية الله تعالى ومعجزة نبيه. وقوله: ﴿وَاللَّهُ خَيْرٌ﴾ أى: خير لنا منك ﴿وَأَبْقَى﴾ أى: أدام ثوابنا ما كنت وعدتنا ومينتنا. وهو رواية عن ابن إسحاق. وقال محمد بن كعب القرظى: ﴿وَاللَّهُ خَيْرٌ﴾ أى: لنا منك إن أطيع، ﴿وَأَبْقَى﴾ أى: منك عذاباً إن عصى. وروى نحوه عن ابن إسحاق أيضاً. والظاهر أن فرعون - لعنه الله - صمم على ذلك وفعله بهم، رحمهم الله؛ ولهذا قال ابن عباس وغيره من السلف: أصبحوا سحرة، وأمسوا شهداء.

﴿إِنَّكُمْ مِنْ يَأْتِ رَبَّهُ مُجْرِمًا فَإِنَّ لَهُ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَى﴾ ﴿٧٤﴾ وَمَنْ يَأْتِهِ مُؤْمِنًا قَدْ عَمِلَ الصَّالِحَاتِ فَأُولَئِكَ لَهُمُ الدَّرَجَاتُ الْعُلَى ﴿٧٥﴾ جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ جَزَاءُ مَنْ تَزَكَّى ﴿٧٦﴾

الظاهر من السياق أن هذا من تمام ما وعظ به السحرة لفرعون، يحذرونه من نعمة الله وعذابه الدائم السرمدى، ويرغبونه فى ثوابه الأبدى المخلد، فقالوا: ﴿إِنَّهُ مَنْ يَأْتِ رَبَّهُ مُجْرِمًا﴾ أى: يلقى الله يوم القيامة وهو مجرم، ﴿فَإِنَّ لَهُ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَى﴾ كقوله: ﴿لَا يُقْضَى عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ مِنْ عَذَابِهَا كَذَلِكَ نَجْزِي كُلَّ كَفُورٍ﴾ [فاطر: ٣٦]، وقال: ﴿وَيَتَجَنَّبُهَا الْأَشْقَى الَّذِي يَصَلَّى النَّارَ الْكُبْرَى ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَى﴾ [الاعلى: ١١ - ١٣]، وقال تعالى: ﴿وَنَادُوا يَا مَلِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ قَالَ إِنَّكُمْ مَا تُكْفِرُونَ﴾ [الزخرف: ١٧٧]. وروى الإمام أحمد عن أبى سعيد الخدرى قال: قال رسول الله ﷺ: «أما أهل النار الذين هم أهلها، فإنهم لا يموتون فيها ولا يحيون ولكن الناس تصيبهم النار بذنوبهم، فتميتهم إماتة، حتى إذا صاروا فحمًا، أذن فى الشفاعة، جرى بهم ضباطر، ضباطر، فبثو على أنهار الجنة، فيقال: يا أهل الجنة، أفيضوا عليهم، فينبتون نبات الحبة تكون فى حميل السيل» فقال رجل من القوم: كأن رسول الله ﷺ كان بالبادية. وهكذا أخرجه مسلم (١).

وقوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَأْتِهِ مُؤْمِنًا قَدْ عَمِلَ الصَّالِحَاتِ﴾ أى: ومن لقى ربه يوم المعاد مؤمن القلب، قد صدق ضميره بقوله وعمله، ﴿فَأُولَئِكَ لَهُمُ الدَّرَجَاتُ الْعُلَى﴾ أى: الجنة ذات الدرجات العاليات، والغرف الآمنات، والمسكن الطيبات. وفى الصحيحين: «أن أهل عليين ليرون من فوقهم كما ترون الكوكب الغابر فى أفق السماء، لتفاضل ما بينهم». قالوا: يا رسول الله، تلك منازل الأنبياء؟ قال: «بلى والذى نفسى بيده، رجال آمنوا بالله وصدقوا المرسلين» (٢).

وقوله: ﴿جَنَّاتُ عَدْنٍ﴾ أى: إقامة وهو بدل من الدرجات العلى ﴿تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾

خَالِدِينَ فِيهَا ﴿٧٦﴾ أى: ماكثين أبدا، ﴿وَذَلِكَ جَزَاءُ مَنْ تَزَكَّى﴾ أى: طهر نفسه من الدنس والخبث والشرك، وعبد الله وحده لا شريك له، وصدق المرسلين فيما جاؤوا به من خبر وطلب.

﴿وَلَقَدْ أَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي فَاصْرَبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِي الْبَحْرِ يَبَسًا لَا تَخَافُ دَرَكًا وَلَا تَخْشَىٰ﴾ ﴿٧٧﴾ ﴿فَاتَّبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ بِجُنُودِهِ فَغَشِيَهُمْ مِنَ الْيَمِّ مَا غَشِيَهُمْ﴾ ﴿٧٨﴾ وَأَضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُ وَمَا هَدَىٰ﴾ ﴿٧٩﴾

يقول تعالى مخبراً أنه أمر موسى، عليه السلام، حين أبى فرعون أن يرسل معه بنى إسرائيل، أن يسرى بهم فى الليل، ويذهب بهم من قبضة فرعون. وقد بسط الله هذا المقام فى غير هذه السورة الكريمة. وذلك أن موسى لما خرج ببني إسرائيل أصبحوا وليس منهم بمصر لا داع ولا مجيب، فغضب فرعون غضباً شديداً وأرسل فى المدائن حاشرين، أى: من يجمعون له الجند من بلدانه ورسايقه، يقول: ﴿إِنَّ هَؤُلَاءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ. وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَائِظُونَ﴾ [الشعراء: ٥٤، ٥٥] ثم لما جمع جنده واستوسق له جيشه، ساق فى طلبهم ﴿فَاتَّبَعُوهُمْ مُشْرِقِينَ﴾ [الشعراء: ٦٠] أى: عند طلوع الشمس ﴿فَلَمَّا تَرَاءَى الْجَمْعَانَ﴾ أى: نظر كل من الفريقين إلى الآخر ﴿قَالَ أَصْحَابُ مُوسَىٰ إِنَّا لَمُدْرِكُونَ. قَالَ كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ﴾ [الشعراء: ٦١، ٦٢]، ووقف موسى ببني إسرائيل، البحر أمامهم، وفرعون وراءهم، فعند ذلك أوحى الله إليه: ﴿فَاصْرَبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِي الْبَحْرِ يَبَسًا لَا تَخَافُ دَرَكًا﴾ أى: من فرعون ﴿وَلَا تَخْشَىٰ﴾ يعنى: من البحر أن يغرق قومك .

ثم قال تعالى: ﴿فَاتَّبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ بِجُنُودِهِ فَغَشِيَهُمْ مِنَ الْيَمِّ﴾ أى: البحر ﴿مَا غَشِيَهُمْ﴾ أى: الذى هو معروف ومشهور. وهذا يقال عند الأمر المعروف المشهور، كما قال تعالى: ﴿وَالْمُوتَفِكَةُ أَهْوَىٰ. فَغَشَاهَا مَا غَشَىٰ﴾ [النجم: ٥٣، ٥٤]. وكما تقدمهم فرعون فسلك بهم فى اليم فأصلهم وما هداهم إلى سبيل الرشاد، كذلك ﴿يَقْدُمُ قَوْمَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ وَبِئْسَ الْوَرْدَ الْمَورُودُ﴾ [هود: ٩٨].

﴿يَنْبِئِي إِسْرَائِيلَ قَدْ أَنجَيْنَاكَ مِنْ عَدُوِّكَ وَوَعَدْنَاكَ جَانِبَ الطُّورِ الْأَيْمَنِ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّاءَ وَالسَّلْوَىٰ﴾ ﴿٨٠﴾ ﴿كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَلَا تَطْغَوْا فِيهِ فَيَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبِي وَمَنْ يَحِلِّ عَلَيْهِ غَضَبِي فَقَدْ هَوَىٰ﴾ ﴿٨١﴾ ﴿وَإِنِّي لَفَقَّارٌ لِّمَنْ تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ثُمَّ اهْتَدَىٰ﴾ ﴿٨٢﴾

يذكر تعالى نعمه على بنى إسرائيل العظام، ومننه الجسام، حيث نجَّاهم من عدوهم فرعون، وأقر أعينهم منه، وهم ينظرون إليه وإلى جنده قد غرقوا فى صبيحة واحدة، لم ينج منهم أحد، كما قال: ﴿وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ﴾ [البقرة: ٥٠].

وروى البخارى عن ابن عباس قال: لما قدم رسول الله ﷺ المدينة واليهود تصوم عاشوراء،

فسألهم فقالوا: هذا اليوم الذي أظفر الله فيه موسى على فرعون، فقال: «نحن أولى بموسى فصوموه» ورواه مسلم (١). ثم إنه تعالى واعد موسى وبنى إسرائيل بعد هلاك فرعون إلى جانب الطور الأيمن، وهو الذي كلمه تعالى عليه، وسأل فيه الرؤية، وأعطاه التوراة هنالك وفي غُضُونِ ذلك عبد بنو إسرائيل العجل، كما يقصه تعالى قريبا.

وأما المن والسلوى، فقد تقدم الكلام على ذلك في سورة «البقرة» (٢) وغيرها. فالمن: حلوى كانت تنزل عليهم من السماء. والسلوى: طائر يسقط عليهم، فيأخذون من كل قدر الحاجة إلى الغد، لطفًا من الله، ورحمةً بهم، وإحسانًا إليهم؛ ولهذا قال تعالى: ﴿كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَلَا تَطْغَوْا فِيهِ فَيَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبِي﴾ أي: كلوا من هذا الذي رزقتكم، ولا تطغوا في رزقي، فتأخذوه من غير حاجة، وتخالفوا ما أمركم به ﴿فَيَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبِي﴾ أي: أغضب عليكم ﴿وَمَنْ يَحِلِّ عَلَيْهِ غَضَبِي فَقَدْ هَوِيَ﴾ قال ابن عباس: أي: فقد شقى.

وقوله: ﴿وَأَنِّي لَغَفَّارٌ لِمَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا﴾ أي: كل من تاب إلى تبت عليه من أي ذنب كان، حتى إنه تعالى تاب على من عبد العجل من بنى إسرائيل.

وقوله: ﴿تَابَ﴾ أي: رجع عما كان فيه من كفر أو شرك أو نفاق أو معصية ﴿وَأَمَنَ﴾ أي: بقلبه ﴿وَعَمِلَ صَالِحًا﴾ أي: بجوارحه ﴿ثُمَّ اهْتَدَى﴾: قال ابن عباس: أي ثم لم يشكك وقال سعيد ابن جبير: ﴿ثُمَّ اهْتَدَى﴾ أي: استقام على السنة والجماعة. وروى نحوه عن مجاهد، والضحاك، وغير واحد من السلف. وثم هاهنا لرتيب الخير على الخير، كقوله: ﴿ثُمَّ كَانَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا بِالْمَرْحَمَةِ﴾ [البلد: ١٧].

﴿وَمَا أَعْجَلَكَ عَنْ قَوْمِكَ يَمُوسَى﴾ ﴿٨٢﴾ قَالَ هُمْ أَوْلَاءُ عَلَيَّ أَثَرِي وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَى ﴿٨٤﴾ قَالَ فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِنْ بَعْدِكَ وَأَضَلَّهُمُ السَّامِرِيُّ ﴿٨٥﴾ فَرَجَعَ مُوسَى إِلَى قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفًا قَالَ يَقَوْمِ أَلَمْ يَعِدْكُمْ رَبُّكُمْ وَعَدَّا حَسَنًا أَفَطَالَ عَلَيْكُمُ الْعَهْدُ أَمْ أَرَدْتُمْ أَن يَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَخْلَفْتُم مَّوْعِدِي ﴿٨٦﴾ قَالُوا مَا أَخْلَفْنَا مَوْعِدَكَ بِمَلِكِنَا وَلِنَكِنَّا حُمَلَانًا أَوْ زَارًا مِّن زِينَةِ الْقَوْمِ فَقَدَفْتَهَا فَكَذَلِكَ أَلْقَى السَّامِرِيُّ ﴿٨٧﴾ فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلًا جَسَدًا لَّهُمْ خُورًا فَقَالُوا هَذَا إِلَهُكُمْ وَإِلَهُ مُوسَى فَنَسِيَ ﴿٨٨﴾ أَفَلَا يَرَوْنَ أَنَّهُمْ يُرْجَعُونَ إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ لِيُجْزَى بَنِي إِسْرَائِيلَ الَّذِي هُوَ لَهُمْ بِهِ عَاقِبَةُ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٨٩﴾

لما سار موسى، عليه السلام، ببني إسرائيل بعد هلاك فرعون، وأتوا ﴿عَلَى قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَى أَصْنَامِهِمْ قَالُوا يَا مُوسَى اجْعَلْ لَنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ . إِنَّ هَؤُلَاءِ مَثَرٌ مَّا هُمْ فِيهِ وَبَاطِلٌ مَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [الأعراف: ١٣٨، ١٣٩] وواعده ربه ثلاثين ليلة ثم أتبعها له عشرا، فتمت أربعين ليلة، فسارع موسى، عليه السلام، مبادرا إلى الطور، واستخلف على بنى إسرائيل أخاه هارون؛ ولهذا

قال تعالى: ﴿وَمَا أَعْجَلَكَ عَنْ قَوْمِكَ يَا مُوسَى . قَالَ هُمْ أَوْلَاءٌ عَلَيَّ أُتْرَى﴾ أى: قادمون ينزلون قريباً من الطور ﴿وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَى﴾ أى: لتزداد عنى رضا، ﴿قَالَ فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِنْ بَعْدِكَ وَأَضَلَّهُمُ السَّامِرِيُّ﴾ أخبر تعالى نبيه موسى بما كان بعده من الحدث فى بنى إسرائيل، وعبادتهم العجل الذى عمله لهم ذلك السامرى. وكتب الله تعالى له فى هذه المدة الألواح المتضمنة التوراة، كما قال تعالى: ﴿وَكُنْتُمْ لَهُ فِي الْأَلْوَابِ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مُوعِظَةً وَتَفْصِيلاً لِكُلِّ شَيْءٍ فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا بِأَحْسِنِهَا سَأُرِيكُمْ دَارَ الْفَاسِقِينَ﴾ [الأعراف: ١٤٥] أى: عاقبة الخارجين عن طاعتي المخالفين لأمرى.

وقوله ﴿فَرَجَعَ مُوسَى إِلَى قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفًا﴾ أى: بعد ما أخبره تعالى بذلك، فى غاية الغضب والحنق عليهم، هو فيما هو فيه من الاعتناء بأمرهم، وتسلم التوراة التى فيها شريعتهم، وفيها شرف لهم. وهم قوم قد عبدوا غير الله ما يعلم كل عاقل له لب بطلان وسخافة عقولهم وأذهانهم؛ ولهذا رجع إليهم غضبان أسفاً، والأسف: شدة الغضب وقال مجاهد: ﴿غَضْبَانَ أَسِفًا﴾ أى: جزعاً. وقال قتادة، والسدى: ﴿أَسِفًا﴾ أى: حزيتاً على ما صنع قومه من بعده. ﴿قَالَ يَا قَوْمِ أَلَمْ يَعِدْكُمْ رَبُّكُمْ وَعَدَا حَسَنًا﴾ أى: أما وعدكم على لسانى كل خير فى الدنيا والآخرة، وحسن العاقبة كما شاهدتم من نصرته إياكم على عدوكم، وإظهاركم عليه، وغير ذلك من أياديه عندكم؟ ﴿أَفَطَالَ عَلَيْكُمُ الْعَهْدُ﴾ ، أى: فى انتظار ما وعدكم الله. ونسيان ما سلف من نعمه ﴿أَمْ أَرَدْتُمْ أَنْ يَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبٌ مِنْ رَبِّكُمْ﴾ «أم هاهنا بمعنى «بل»، وهى للإضراب عن الكلام الأول، وعدول إلى الثانى ، كأنه يقول : بل أردتم بصنيعكم هذا أن يحل عليكم غضب من ربكم ﴿فَأَخَلَقْتُمْ مُّوعِدِي . قَالُوا﴾ أى: بنو إسرائيل فى جواب ما أنبههم موسى وقرعهم: ﴿مَا أَخْلَقْنَا مُّوعِدَكُمْ بِمَلَكِنَا﴾ أى: عن قدرتنا واختيارنا.

ثم شرعوا يعتذرون بالعدو البارد، يخبرونه عن تورعهم كما كان بأيديهم من حلى القبط الذى كانوا قد استعاروه منهم، حين خرجوا من مصر ﴿فَقَدَفْنَاهَا﴾ أى: ألقيناها عنا. ثم جاء ذلك السامرى فالقى عليها تلك القبضة التى أخذها من أثر الرسول، ولهذا قال: ﴿فَكَذَلِكَ أَلْقَى السَّامِرِيُّ . فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلاً جَسَداً لَهُ خَوَارٍ﴾ . ﴿فَقَالُوا﴾ أى: الضلال منهم، الذين افتتنوا بالعجل وعبدوه: ﴿هَذَا إِلَهُكُمْ وَإِلَهُ مُوسَىٰ نَسِي﴾ أى: نسيه هاهنا، وذهب يتطلبه. وبه قال مجاهد. وقال سِمْك، عن عكرمة، عن ابن عباس: ﴿نَسِي﴾ أى: نسى أن يذكركم أن هذا إلهكم. وقال ابن عباس : فقالوا: ﴿هَذَا إِلَهُكُمْ وَإِلَهُ مُوسَىٰ﴾ ، قال: فعكفوا عليه وأحبوه حباً لم يحبوا شيئاً قط يعنى مثله، يقول الله: ﴿نَسِي﴾ أى: ترك ما كان عليه من الإسلام، يعنى: السامرى. قال الله تعالى رداً عليهم، وتقريباً لهم، وبيانا لفضيحتهم وسخافة عقولهم فيما ذهبوا إليه: ﴿أَفَلَا يَرَوْنَ أَلَّا يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلًا وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا﴾ أى: العجل ﴿أَفَلَا يَرَوْنَ﴾ أنه لا يجيبهم إذا سأله، ولا إذا خاطبوه ﴿وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا﴾ أى: فى دنياهم ولا فى آخراهم. قال ابن عباس: لا والله ما كان خواره إلا أن يدخل الريح فى دبره فيخرج من فيه، فيسمع له صوت.

وحاصل ما اعتذر به هؤلاء الجهلة أنهم تورعوا عن زينة القبط، فألقوها عنهم، وعبدوا العجل. فتورعوا عن الحقير وفعلوا الأمر الكبير، كما جاء في الحديث الصحيح عن ابن عمر: أنه سأله رجل من أهل العراق عن دم البعوض إذا أصاب الثوب - يعني: هل يصلى فيه أم لا؟ - فقال ابن عمر، رضى الله عنه: انظروا إلى أهل العراق، قتلوا ابن بنت رسول الله ﷺ - يعنى: الحسين - وهم يسألون عن دم البعوض؟ (١).

﴿ وَقَدْ قَالَ لَهُمْ هَارُونُ مِنْ قَبْلُ يَفْقَهُمْ إِنَّمَا فُتِنْتُمْ بِهِ وَإِنَّ رَبَّكُمُ الرَّحْمَنُ فَاتَّبِعُونِي وَأَطِيعُوا أَمْرِي ﴾ ﴿٩٠﴾ قَالُوا لَنْ نَبْرَحَ عَلَيْهِ عَاكِفِينَ حَتَّى يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَى ﴿٩١﴾ ﴿٩٠﴾

يخبر تعالى عما كان من نهي هارون، عليه السلام، لهم عن عبادة العجل، وإخباره إياهم: إنما هذا فتنة لكم ﴿وَإِنَّ رَبَّكُمُ الرَّحْمَنُ﴾ الذى خلق كل شىء فقدره تقديراً، ذو العرش المجيد، الفعال لما يريد ﴿فَاتَّبِعُونِي﴾ أى: فيما أمركم به، واتركوا ما نهاكم عنه. ﴿قَالُوا لَنْ نَبْرَحَ عَلَيْهِ عَاكِفِينَ حَتَّى يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَى﴾ أى: لا نترك عبادته حتى نسمع كلام موسى فيه. وخالفوا هارون فى ذلك وحاريوه، وكادوا أن يقتلوه.

﴿ قَالَ يَهْدُونَكَ مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوا ﴾ ﴿٩١﴾ أَلَا تَتَّبِعَنِ أَفَعَصَيْتَ أَمْرِي ﴿٩٢﴾ ﴿٩١﴾ قَالَ يَبْنَؤُمْ لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي وَلَا بِرَأْسِي إِنِّي خَشِيتُ أَنْ تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي ﴿٩٢﴾ ﴿٩٢﴾

يخبر تعالى عن موسى، عليه السلام، حين رجع إلى قومه، فرأى ما قد حدث فيهم من الأمر العظيم، فامتلاً عند ذلك غضباً، وألقى ما كان فى يده من الألواح الإلهية، وأخذ برأس أخيه يجره إليه، وقد قدما فى «الأعراف» بسط ذلك. وشرع يلوم أخاه هارون فقال: ﴿مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوا. أَلَا تَتَّبِعَنِ﴾ أى: فتخبرنى بهذا الأمر أول ما وقع ﴿أَفَعَصَيْتَ أَمْرِي﴾ أى: فيما كنت تقدمت إليك، وهو قوله: ﴿اخْلَفْنِي فِي قَوْمِي وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ الْمُفْسِدِينَ﴾ [الأعراف: ١٤٢].

﴿ قَالَ يَبْنَؤُمْ ﴾ : ترقق له بذكر الأم مع أنه شقيقه لأبويه؛ لأن ذكر الأم هاهنا أرق وأبلغ فى الحنو والعطف؛ ولهذا قال: ﴿يَبْنَؤُمْ لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي وَلَا بِرَأْسِي﴾ الآية. هذا اعتذار من هارون عند موسى فى سبب تأخره عنه، حيث لم يلحقه فيخبره بما كان من هذا الخطب الجسيم ﴿قَالَ إِنِّي خَشِيتُ﴾ أن أتبعك فأخبرك بهذا، فتقول لى: لم تركتهم وحدهم وفرقت بينهم ﴿وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي﴾ أى: وما راعيت ما أمرتك به حيث استخلفتك فيهم. قال ابن عباس: وكان هارون هائباً له مطيعاً.

﴿ قَالَ فَمَا خَطْبُكَ يَا سَمِيرِيُّ ﴿٩٥﴾ قَالَ بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُوا بِهِ فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِّنْ أَثَرِ الرَّسُولِ فَنَبَذْتُهَا وَكَذَلِكَ سَوَّلَتْ لِي نَفْسِي ﴿٩٦﴾ قَالَ فَاذْهَبْ فَإِنَّ لَكَ فِي الْحَيَاةِ أَنْ تَقُولَ لَا مِسَاسٌ وَإِنَّ لَكَ مَوْعِدًا لَّنْ تُخْلَفَهُ وَانْظُرْ إِلَى إِلْهِكَ الَّذِي ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفًا لَّنُحَرِّقَنَّهُ ثُمَّ لَنَنْسِفَنَّهُ فِي الْيَمِّ نَسْفًا ﴿٩٧﴾ إِنَّكُمْ إِلَهُكُمُ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَسِعَ كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا ﴿٩٨﴾ ﴾

يقول موسى، عليه السلام، للسامري: ما حملك على ما صنعت؟ وما الذي عرض لك حتى فعلت ما فعلت؟ ﴿قَالَ بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُوا بِهِ﴾ أى: رأيت جبريل حين جاء لهلاك فرعون ﴿فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِّنْ أَثَرِ الرَّسُولِ﴾ أى: من أثر فرسه. وهذا هو المشهور عند كثير من المفسرين أو أكثرهم ﴿فَنَبَذْتُهَا﴾ أى: ألقيتها مع من القي، ﴿وَكَذَلِكَ سَوَّلَتْ لِي نَفْسِي﴾ أى: حسنته وأعجبها إذ ذاك ﴿قَالَ فَاذْهَبْ فَإِنَّ لَكَ فِي الْحَيَاةِ أَنْ تَقُولَ لَا مِسَاسٌ﴾ أى: كما أخذت ومسست ما لم يكن أخذه ومسه من أثر الرسول، فعقوبتك فى الدنيا أن تقول: «لا مساس»، أى: لا تماس الناس ولا يمسونك ﴿وَإِنَّ لَكَ مَوْعِدًا﴾ أى: يوم القيامة ﴿لَنْ تُخْلَفَهُ﴾ أى: لا محيد لك عنه. وقال قتادة: ﴿أَنْ تَقُولَ لَا مِسَاسٌ﴾ قال: عقوبة لهم، وبقيامهم اليوم يقولون: لا مساس. وقوله: ﴿وَإِنَّ لَكَ مَوْعِدًا لَنْ تُخْلَفَهُ﴾ قال الحسن، وقتادة، وأبو نعيم: لن تغيب عنه. وقوله: ﴿وَانْظُرْ إِلَى إِلْهِكَ﴾ أى: معبودك ﴿الَّذِي ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفًا﴾ أى: أمتت على عبادته، يعنى: العجل ﴿لَنُحَرِّقَنَّهُ ثُمَّ لَنَنْسِفَنَّهُ فِي الْيَمِّ نَسْفًا﴾.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا إِلَهُكُمُ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَسِعَ كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾ يقول لهم موسى، عليه السلام: ليس هذا إلهكم، إنما إلهكم الله الذى لا إله إلا هو، أى: لا يستحق ذلك على العباد إلا هو، ولا تنبغى العبادة إلا له، فإن كل شىء فقير إليه، عبد لربه. وقوله: ﴿وَسِعَ كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾ أى: هو عالم بكل شىء ﴿أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾ [الطلاق: ١٢]، ﴿وَأَحْصَى كُلَّ شَيْءٍ عَدَدًا﴾ [الجن: ٢٨]، فلا ﴿يَعْرَبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ﴾ [سبا: ٣]، ﴿وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٌ فِي ظِلْمَاتِ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ﴾ [الانعام: ٥٩]، ﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا كُلٌّ فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ﴾ [هود: ٦] والآيات فى هذا كثيرة جداً.

﴿ كَذَلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ مَا قَدْ سَبَقَ وَقَدْ آتَيْنَاكَ مِنْ لَدُنَّا ذِكْرًا ﴿٩٩﴾ مَنْ أَعْرَضَ عَنْهُ فَإِنَّهُ يَحْمِلُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وِزْرًا ﴿١٠٠﴾ خَلِدِينَ فِيهِ وَسَاءَ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ حِمْلًا ﴿١٠١﴾ ﴾

يقول تعالى لنبىه محمد ﷺ: كما قصصنا عليك خبر موسى، وما جرى له مع فرعون وجنوده على الجلية والأمر الواقع، كذلك نقص عليك الاخبار الماضية كما وقعت من غير زيادة ولا نقص، هذا ﴿وَقَدْ آتَيْنَاكَ مِنْ لَدُنَّا﴾ أى: عندنا ﴿ذِكْرًا﴾ وهو القرآن العظيم، الذى ﴿لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ [فصلت: ٤٢]، الذى لم يعط نبى من الانبياء منذ

بعثوا إلى أن ختموا، بمحمد ﷺ تسليماً، كتاباً مثله ولا أكمل منه، ولا أجمع لخبر ما سبق وخبر ما هو كائن، وحكمُ الفصل بين الناس منه؛ ولهذا قال تعالى: ﴿مَنْ أَعْرَضَ عَنْهُ﴾ أى: كذب به وأعرض عن اتباعه أمراً وطلباً، وابتغى الهدى فى غيره، فإن الله يضلّه ويهديه إلى سواء الجحيم؛ ولهذا قال: ﴿مَنْ أَعْرَضَ عَنْهُ فَإِنَّهُ يَحْمِلُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وِزْرًا﴾ أى: إنّما، كما قال تعالى: ﴿وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ مِنَ الْأَحْزَابِ فَالنَّارُ مَوْعِدُهُ﴾ [هود: ١٧]. وهذا عام فى كل من بلغه القرآن من العرب والعجم، أهل الكتاب وغيرهم، كما قال تعالى: ﴿لَأُنذِرَكُمْ بِهِ وَمَنْ بَلَغَ﴾ [الأنعام: ١٩]. فكل من بلغه القرآن فهو نذير له وداع، فمن اتبعه هدى، ومن خالفه وأعرض عنه ضلّ وشقى فى الدنيا، والنار موعده يوم القيامة؛ ولهذا قال: ﴿مَنْ أَعْرَضَ عَنْهُ فَإِنَّهُ يَحْمِلُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وِزْرًا. خَالِدِينَ فِيهِ﴾ أى: لا مَحِيدَ لَهُمْ عَنْهُ وَلَا انْفِكَاءَ ﴿وَسَاءَ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ حِمْلًا﴾ أى: بشس الحمل حملهم.

﴿يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ وَنَحْشُرُ الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا﴾ ﴿١٠١﴾ يَتَخَفَتُونَ بَيْنَهُمْ إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا عَشْرًا ﴿١٠٢﴾ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ إِذْ يَقُولُ أَمْثَلُهُمْ طَرِيقَةً إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا يَوْمًا ﴿١٠٣﴾

ثبت فى الحديث أن رسول الله ﷺ سئل عن الصور، فقال: «قَرْنٌ يُنْفَخُ فِيهِ» (١). وقد جاء فى حديث «الصور» من رواية أبى هريرة: أنه قرن عظيم، الدّارة منه بقدر السموات والأرض، ينفخ فيه إسرافيل، عليه السلام. وجاء فى الحديث: «كيف أنعم وصاحب القرن قد التقم القرن، وحنى جبهته، وانتظر أن يؤذن له» فقالوا: يارسول الله، كيف نقول؟ قال: «قولوا: حسبنا الله ونعم الوكيل، على الله توكلنا» (٢).

وقوله: ﴿وَنَحْشُرُ الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا﴾ قيل: معناه زرق العيون من شدة ما هم فيه من الأهوال «يتخافتون بينهم»: قال ابن عباس: يتسارون بينهم، أى: يقول بعضهم لبعض: ﴿إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا عَشْرًا﴾ أى: فى الدار الدنيا، لقد كان لبثكم فيها قليلاً، عشرة أيام أو نحوها.

قال الله تعالى: ﴿نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ﴾ أى: فى حال تناجيههم بينهم «إِذْ يَقُولُ أَمْثَلُهُمْ طَرِيقَةً﴾ أى: العاقل الكامل فيهم «إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا يَوْمًا﴾ أى: لقصر مدة الدنيا فى أنفسهم يوم المعاد؛ لأن الدنيا كلّها وإن تكررت أوقاتها وتعاقت لياليها وأيامها وساعاتها كأنها يوم واحد؛ ولهذا تستقصر مدة الحياة الدنيا يوم القيامة: وكان غرضهم فى ذلك درء قيام الحجة عليهم، لقصر المدة؛ ولهذا قال تعالى: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُقْسِمُ الْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا غَيْرَ سَاعَةٍ﴾ إلى قوله «فَهَذَا يَوْمُ الْبَعْثِ وَلَكِن كُنْتُمْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ» [الروم: ٥٥، ٥٦]، وقال تعالى: ﴿أَوَلَمْ نَعْمَرِكُمْ مَا يَنْذُرُ فِيهِ مِنْ تَذَكُّرٍ وَجَاءَكُمْ النَّذِيرُ﴾ الآية [فاطر: ٢٧]، وقال تعالى: ﴿كَمْ لَبِثْتُمْ فِي الْأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ. قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ فَاسْأَلِ الْعَادِينَ. قَالَ إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا لَوْ أَنْتُمْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [المؤمنون: ١١٢-١١٤] أى: إنّما كان لبثكم فيها قليلاً، لو كنتم تعلمون لآثرتم الباقى على الفانى، ولكن تصرفتم فأسأتم التصرف، قدّمتم

(١) المسند (٦٥٠٧، ٦٨٠٥) وقال الشيخ أحمد شاكر: «إسناده صحيح» .

(٢) تقدم تخريجه عند الآية (٧٣) من سورة الأنعام .

الحاضر الفانى على الدائم الباقي .

﴿ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْجِبَالِ فَقُلْ يَنْسِفُهَا رَبِّي نَسْفًا ﴿١٠٥﴾ فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا ﴿١٠٦﴾ لَا تَرَى فِيهَا عِوَجًا وَلَا أَمْتًا ﴿١٠٧﴾ يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ الدَّاعِيَ لَا عِوَجَ لَهُ ﴿١٠٨﴾ وَخَشَعَتِ الْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَنِ فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا ﴾

يقول تعالى: ﴿ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْجِبَالِ ﴾ أى: هل تبقى يوم القيامة أو تزول؟ ﴿ فَقُلْ يَنْسِفُهَا رَبِّي نَسْفًا ﴾ أى: يذهبها عن أماكنها ويمحقها ويسيرها تسييراً ﴿ فَيَذَرُهَا ﴾ أى: الأرض ﴿ قَاعًا صَفْصَفًا ﴾ أى: بساطاً واحداً . والقاع : هو المستوى من الأرض . والصفصف تأكيد لمعنى ذلك، وقيل: الذى لا نبات فيه . والأول أولى، وإن كان الآخر مراداً أيضاً باللازم؛ ولهذا قال: ﴿ لَا تَرَى فِيهَا عِوَجًا وَلَا أَمْتًا ﴾ أى: لا ترى فى الأرض يومئذ وادياً ولا رابية، ولا مكاناً منخفضاً ولا مرتفعاً، كذلك قال ابن عباس، وعكرمة، ومجاهد، والحسن البصرى، والضحاك، وقتادة، وغير واحد من السلف .

﴿ يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ الدَّاعِيَ لَا عِوَجَ لَهُ ﴾ أى: يوم يرون هذه الأحوال والأحوال، يستجيبون مسارعين إلى الداعى، حيثما أمروا بادروا إليه، ولو كان هذا فى الدنيا لكان أنفع لهم، ولكن حيث لا ينفعهم، كما قال تعالى: ﴿ أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ يَوْمَ يَأْتُونا ﴾ [مريم: ٣٨]، وقال: ﴿ مهطعين إلى الداع ﴾ [القم: ٨]. وقال محمد بن كعب القرظى: يحشر الله الناس يوم القيامة فى ظلمة، ويطوى السماء، وتتناثر النجوم، وتذهب الشمس والقمر، وينادى مناد، فيتبع الناس الصوت يؤمونه، فذلك قوله: ﴿ يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ الدَّاعِيَ لَا عِوَجَ لَهُ ﴾ . وقال قتادة: ﴿ لا عِوَجَ لَهُ ﴾ لا يميلون عنه .

وقوله: ﴿ وَخَشَعَتِ الْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَنِ ﴾: قال ابن عباس: سكنت: وكذا قال السدى .

﴿ فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا ﴾: قال ابن عباس: الصوت الخفى . وقال سعيد بن جبیر: ﴿ فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا ﴾: الحديث، وسره، ووطء الأقدام . أما وطاء الأقدام فالمراد سعى الناس إلى المحشر، وهو مشيهم فى سكون وخضوع . وأما الكلام الخفى فقد يكون فى حال دون حال، فقد قال تعالى: ﴿ يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكَلِّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِ فَمِنْهُمْ سُوقٍ مُّسْتَعِدِّ ﴾ [هود: ١٠٥] .

﴿ يَوْمَئِذٍ لَا نَنْفَعُ الشَّفَاعَةَ إِلَّا مَنْ أَدَانَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَرَضِيَ لَهُ قَوْلًا ﴾ ﴿١٠٩﴾ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْمًا ﴿١١٠﴾ وَعَنْتِ الْوُجُوهُ لِلْحَيِّ الْقَيُّومِ ﴿١١١﴾ وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْمًا ﴿١١٢﴾ وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا ﴿١١٣﴾

يقول تعالى: ﴿ يَوْمَئِذٍ ﴾ أى: يوم القيامة ﴿ لَا نَنْفَعُ الشَّفَاعَةَ ﴾ أى: عنده ﴿ إِلَّا مَنْ أَدَانَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَرَضِيَ لَهُ قَوْلًا ﴾ كقوله: ﴿ مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ ﴾ [البقرة: ٢٥٥]، وقوله: ﴿ وَكَمْ مِنْ مَلَكٍ فِي السَّمَوَاتِ لَا تُغْنِي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا إِلَّا مِنْ بَعْدِ أَنْ يَأْذَنَ اللَّهُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَرْضَى ﴾ [النجم: ٢٦]، وقال: ﴿ وَلَا

يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنْ ارْتَضَى ﴿ [الأنبياء: ٢٨] وقال: ﴿وَلَا تَفْعَلُ الشَّفَاعَةَ عِنْدَهُ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ﴾ [سبا: ٢٣]، وقال: ﴿يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ وَالْمَلَائِكَةُ صَفًّا لَا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَقَالَ صَوَابًا﴾ [النبا: ٣٨]. وفي الصحيحين عن رسول الله ﷺ، وهو سيد ولد آدم، وأكرم الخلائق على الله عز وجل أنه قال: «أتى تحت العرش، وأخر لله ساجداً، ويفتح على بمحمد لا أحصيها الآن، فيدعني ما شاء الله أن يدعني، ثم يقول: يا محمد، ارفع رأسك، وقل يسمع، واشفع تشفع». قال: «فيحذ لي حداً، فأدخلهم الجنة، ثم أعود» (١)، فذكر أربع مرات، صلوات الله وسلامه عليه وعلى سائر الأنبياء.

وقوله: ﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ﴾ أي: يحيط علماً بالخلائق كلهم ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْمًا﴾ كقوله: ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ﴾ [البقرة: ٢٥٥]. وقوله: ﴿وَعَسَى أَنْ يَكُونَ لَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامِ﴾ قال ابن عباس، وغير واحد: خضعت وذلت واستسلمت الخلائق لجبارها الحى الذى لا يموت، القيوم: الذى لا ينام، وهو قيم على كل شىء، يديره ويحفظه، فهو الكامل فى نفسه، الذى كل شىء فقير إليه، لا قوام له إلا به. وقوله: ﴿وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْمًا﴾ أي: يوم القيامة، فإن الله سيؤدى كل حق إلى صاحبه، حتى يقتصص للشاة الجماء من الشاة القرناء. وفى الصحيح: «إياكم والظلم؛ فإن الظلم ظلمات يوم القيامة» (٢). والحية كل الحية لمن لقي الله وهو مشرك به؛ فإن الله تعالى يقول: ﴿إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان: ١٣].

وقوله: ﴿وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا﴾: لما ذكر الظالمين ووعيدهم، ثنى بالمتقين وحكمهم، وهو أنهم لا يظلمون ولا يهضمون، أى: لا يزداد فى سيئاتهم ولا ينقص من حسناتهم. قاله ابن عباس، ومجاهد، والضحاك، والحسن، وقتادة، وغير واحد. فالظلم: الزيادة بأن يحمل عليه ذنب غيره، والهضم: النقص.

﴿وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ الْوَعِيدِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحَدِّثُ لَهُمْ ذِكْرًا فَتَعَلَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ وَلَا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يُقْضَى إِلَيْكَ وَحْيُهُ وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾

﴿١١٤﴾

يقول تعالى: ولما كان يوم المعاد والجزاء بالخير والشر واقعاً لا محالة، أنزلنا القرآن بشيراً ونذيراً، بلسان عربى مبين فصيح، لا لبس فيه ولا عي ﴿وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ الْوَعِيدِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ أي: يتركون المآثم والمحارم والفواحش ﴿أَوْ يُحَدِّثُ لَهُمْ ذِكْرًا﴾ وهو إيجاد الطاعة وفعل القربات ﴿فَتَعَلَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ﴾ أي: تنزه وتقدس الملك الحق، الذى هو حق، ووعده حق، ووعيده حق، ورسله حق، والجنة حق، والنار حق، وكل شىء منه حق. وعدله تعالى ألا يعذب أحداً قبل الإنذار وبعثة الرسل والإعذار إلى خلقه؛ لثلا يبقى لأحد حجة ولا شبهة.

وقوله: ﴿وَلَا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يُقْضَى إِلَيْكَ وَحْيُهُ﴾ كقوله تعالى فى سورة ﴿لَا أُنسِمُ يَوْمَ﴾

(٢) مسلم (٥٦/٢٥٧٨).

(١) سبق تخريجه عند تفسير الآية: ٧٩ من سورة الإسراء.

الْقِيَامَةِ ﴿١١٦﴾ : ﴿لَا تُحْرِكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتُجْعَلَ بِهِ . إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ . فَإِذَا قَرَأَهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ . ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ﴾ [القيامة: ١٦ - ١٩] ، وثبت في الصحيح عن ابن عباس؛ أن رسول الله ﷺ كان يعالج من الوحي شدة، فكان مما يحرك لسانه، فأنزل الله هذه الآية (١). يعنى: أنه ، عليه السلام، كان إذا جاءه جبريل بالوحي، كلما قال جبريل آية قالها معه، من شدة حرصه على حفظ القرآن، فأرشده الله تعالى إلى ما هو الأسهل والأخف في حقه؛ لئلا يشق عليه، فقال: ﴿لَا تُحْرِكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتُجْعَلَ بِهِ . إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ﴾ أى: أن نجمعه في صدرك، ثم تقرأه على الناس من غير أن تنسى منه شيئاً، ﴿فَإِذَا قَرَأَهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ . ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ﴾ وقال في هذه الآية: ﴿وَلَا تُجْعَلْ بِالْقُرْآنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يُقْضَى إِلَيْكَ وَحْيُهُ﴾ أى: بل أنصت، فإذا فرغ الملك من قراءته عليك فاقراه بعده ﴿وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾ أى: زدنى منك علماً.

﴿وَلَقَدْ عَاهَدْنَا إِلَىٰ آدَمَ مِنْ قَبْلِ فَنَسَىٰ وَلَمْ يُجِدْ لَهُ عَزْمًا ﴿١١٥﴾ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى ﴿١١٦﴾ فَقُلْنَا يَا آدَمُ إِنَّ هَذَا عَدُوٌّ لَكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكَ مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشقى ﴿١١٧﴾ إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَى ﴿١١٨﴾ وَأَنَّكَ لَا تَظْمَأُ فِيهَا وَلَا تَصْحَى ﴿١١٩﴾ فَوَسَّوَسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ قَالَ يَا آدَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلى ﴿١٢٠﴾ فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتَ لَهُمَا سَوْءَاتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْضِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى ﴿١٢١﴾ ثُمَّ أَجْنَبَهُ رَبُّهُ فَنَابَ عَلَيْهِ وَهَدَى ﴿١٢٢﴾﴾

قال ابن أبى حاتم عن ابن عباس: إنما سمي الإنسان لأنه عهد إليه فنىس . وكذا رواه على ابن أبى طلحة، عنه . وقال مجاهد والحسن: ترك .

وقوله: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ﴾: يذكر تعالى تشريف آدم وتكريمه، وما فضله به على كثير ممن خلق تفضيلاً . وقد تقدم الكلام على هذه القصة فى سورة «البقرة»، وفى «الأعراف»، وفى «الحجر»، و«الكهف»، وسبأنى فى آخر سورة «ص» . يذكر فيها تعالى خلق آدم وأمره الملائكة بالسجود له تشريفاً وتكريماً، وبين عداوة إبليس لبنى آدم ولأبيهم قديماً؛ ولهذا قال تعالى: ﴿فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى﴾ أى: امتنع واستكبر ﴿فَقُلْنَا يَا آدَمُ إِنَّ هَذَا عَدُوٌّ لَكَ وَلِزَوْجِكَ﴾ يعنى: حواء، عليهما السلام ﴿فَلَا يُخْرِجَنَّكَ مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشقى﴾ أى: إياك أن يسعى فى إخراجك منها، فتتعبد وتعنى وتشقى فى طلب رزقك، فإنك ههنا فى عيش رغيد هنىء، لا كلفة ولا مشقة. ﴿إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَى﴾: إنما قرن بين الجوع والعرى؛ لأن الجوع ذل الباطن، والعرى ذل الظاهر ﴿وَأَنَّكَ لَا تَظْمَأُ فِيهَا وَلَا تَصْحَى﴾: وهذان أيضاً متقابلان، فالظمأ: حر الباطن، وهو العطش . والضحى: حر الظاهر .

وقوله: ﴿فَوَسَّوَسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ قَالَ يَا آدَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَى شَجَرَةِ الْغُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَى﴾: قد تقدم أنه ﴿دلَّاهُمَا بِغُرُورٍ﴾ [الأعراف: ٢٢]. ﴿وَقَاسَمَهُمَا إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ النَّاصِحِينَ﴾ [الأعراف: ٢١]. وقد تقدم أن الله تعالى أوحى إلى آدم وزوجته أن يأكلا من كل الثمار، ولا يقربا هذه الشجرة المعينة في الجنة. فلم يزل بهما إبليس حتى أكلا منها، وكانت شجرة الخلد - بمعنى: التي من أكل منها خلد ودام مكثه. وقول: ﴿فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتَ لَهُمَا سَوْءَاتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ﴾: قال مجاهد: يرقعان كهيئة الثوب. وكذا قال قتادة، والسدي.

وقوله: ﴿وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى. ثُمَّ اجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَى﴾ روى البخارى عن أبى هريرة، عن النبى ﷺ قال: «حاج موسى آدم، فقال له: أنت الذى أخرجت الناس من الجنة بذنبك وأشقيتهم؟ قال آدم: يا موسى، أنت الذى اصطفاك الله برسالاته وبكلامه، أتولمنى على أمر قد كتبه الله على قلبى أن يخلقنى - أو: قدره الله على قلبى أن يخلقنى» قال رسول الله ﷺ: «فحج آدم موسى» (١).

﴿قَالَ اهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى ﴿١٢٣﴾ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى ﴿١٢٤﴾ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنْتُ بَصِيرًا ﴿١٢٥﴾ قَالَ كَذَلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيْنَهَا وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ تُنْسَى ﴿١٢٦﴾﴾

يقول تعالى لآدم وحواء وإبليس: اهبطوا منها جميعاً، أى: من الجنة كلكم، وقد بسطنا ذلك فى سورة «البقرة» ﴿بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ﴾: قال: آدم وذريته، وإبليس وذريته وقوله: ﴿فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى﴾، قال أبو العالية: الأنبياء والرسل والبيان ﴿فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى﴾: قال ابن عباس: لا يضل فى الدنيا، ولا يشقى فى الآخرة .

﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي﴾ أى: خالف أمرى، وما أنزلته على رسولى، أعرض عنه وتناساه وأخذ من غيره هداه ﴿فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا﴾ أى: فى الدنيا، فلا طمأنينة له، ولا انشراح لصدره، بل صدره ضيق حرج لضلاله، وإن تنعم ظاهره، ولبس ما شاء وأكل ما شاء، وسكن حيث شاء، فإن قلبه ما لم يخلص إلى اليقين والهدى، فهو فى قلق وحيرة وشك، فلا يزال فى ريبة يتردد. فهذا من ضنك المعيشة. عن أبى سعيد فى قوله: ﴿مَعِيشَةً ضَنْكًا﴾ قال: يضيق عليه قبره، حتى تختلف أضلاعه فيه. وقال ابن أبى حاتم عن أبى سعيد قال: قال رسول الله ﷺ فى قول الله عز وجل: ﴿فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا﴾ قال: «ضمنة القبر». الموقف أصح.

وقوله: ﴿وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى﴾: قال مجاهد، وأبو صالح، والسدى: لا حجة له. وقال عكرمة: عمى عليه كل شىء إلا جهنم. ويحتمل أن يكون المراد: أنه يُحشَرُ أو يبعث إلى النار

أعمى البصر والبصيرة أيضاً، كما قال تعالى: ﴿ وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ عُمياً وَبُكْمًا وَصُمًّا مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَاهُمْ سَعيراً ﴾ [الإسراء: ٩٧]. ولهذا يقول: ﴿ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنْتُ بَصِيراً ﴾ أى: فى الدنيا ﴿ قَالَ كَذَلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ تُنسى ﴾ أى: لما عرضت عن آيات الله، وعاملتها معاملة من لم يذكرها، بعد بلاغها إليك تناسيتها وأعرضت عنها وأغفلتها، كذلك تعاملت اليوم معاملة من نسيك ﴿ فَالْيَوْمَ نَسَاهُمْ كَمَا نَسُوا لِقَاءَ يَوْمِهِمْ هَذَا ﴾ [الأعراف: ٥١] فإن الجزء من جنس العمل. فأما نسيان لفظ القرآن مع فهم معناه والقيام بمقتضاه، فليس داخلاً فى هذا الوعيد الخاص.

﴿ وَكَذَلِكَ نَجْزِي مَنْ أَسْرَفَ وَلَمْ يُؤْمِنْ بِآيَاتِ رَبِّهِ وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَى ﴾ ﴿١٢٧﴾

يقول تعالى: وهكذا نجازى المسرفين المكذبين بآيات الله فى الدنيا والآخرة ﴿ لَهُمْ عَذَابٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَقُّ وَمَا لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَاقٍ ﴾ [الرعد: ٣٤] ولهذا قال: ﴿ وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَى ﴾ أى: أشد أماً من عذاب الدنيا، وأدوم عليهم، فهم مخلدون فيه؛ ولهذا قال رسول الله ﷺ للمتلاعنين: «إن عذاب الدنيا أهون من عذاب الآخرة».

﴿ أَفَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسْجِدِهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّأُولِي النُّهَى ﴾ ﴿١٢٨﴾ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَكَانَ لِزَاماً وَأَجَلٌ مُّسَمًّى ﴿١٢٩﴾ فَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا وَمِنْ آنَاءِ اللَّيْلِ فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ النَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرْضَى ﴿١٣٠﴾

يقول تعالى: ﴿ أَفَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ ﴾ لهؤلاء المكذبين بما جنتهم به: يا محمد، كم أهلكتنا من الأمم المكذبين بالرسول قبلهم، فبادوا فليس لهم باقية ولا عين ولا أثر، كما يشاهدون ذلك من ديارهم الخالية التى خلفوهم فيها، يمشون فيها ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّأُولِي النُّهَى ﴾ أى: العقول الصحيحة والألباب المستقيمة، كما قال تعالى: ﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ ﴾ [الحج: ٤٦]، وقال فى سورة «الم السجدة»: ﴿ أَوْ لَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسَاجِدِهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّأُولِي السَّمْعِ ﴾ [السجدة: ٢٦].

ثم قال تعالى: ﴿ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَكَانَ لِزَاماً وَأَجَلٌ مُّسَمًّى ﴾ أى: لولا الكلمة السابقة من الله وهو أنه لا يعذب أحداً إلا بعد قيام الحجة عليه، والأجل المسمى الذى ضربه الله تعالى لهؤلاء المكذبين إلى مدة معينة، لجاهم العذاب بغتة؛ ولهذا قال لنبيه مسلماً له: ﴿ فَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ ﴾ أى: من تكذيبهم لك ﴿ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ ﴾ يعنى: صلاة الفجر، ﴿ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا ﴾ يعنى: صلاة العصر، كما جاء فى الصحيحين عن جرير بن عبد الله البجلي، رضى الله عنه،

قال: كنا جلوساً عند رسول الله ﷺ فنظر إلى القمر ليلة البدر ، فقال : « إنكم سترون ربكم كما ترون هذا القمر ، لا تضامون في رؤيته، فإن استطعتم ألا تغلبوا على صلاة قبل طلوع الشمس وقبل غروبها، فافعلوا»، ثم قرأ هذه الآية (١). وروى الإمام أحمد عن عمارة بن رُوَيْبَةَ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «لن يَلْجَأَ النَّارَ أَحَدٌ صَلَّى قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ، وَقَبْلَ غُرُوبِهَا». رواه مسلم (٢).

وقوله : ﴿وَمِنَ آثَاءِ اللَّيْلِ فَسَبِّحْ﴾ أى: من ساعاته فتعبد به . وحمله بعضهم على المغرب والعشاء ، ﴿ وَأَطْرَافِ النَّهَارِ ﴾ فى مقابلة آثاء الليل ﴿لَعَلَّكَ تَرْضَى﴾ كما قال تعالى: ﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى﴾ [الضحى: ٥]. وفى الصحيح: «يقول الله: يا أهل الجنة، فيقولون: لبيك ربنا وسعديك. فيقول: هل رضيتم؟ فيقولون: وما لنا لا نرضى، وقد أعطيتنا ما لم تعط أحداً من خلقك؟ فيقول: إنى أعطيتكم أفضل من ذلك. فيقولون: وأى شيء أفضل من ذلك؟ فيقول: أحل عليكم رضوانى، فلا أسخط عليكم بعده أبداً» (٣). وفى الحديث: «يا أهل الجنة، إن لكم عند الله موعداً يريد أن يُنجزكموه. فيقولون: وما هو؟ ألم يبيض وجوهنا، ويثقل موازيننا، ويزحزحنا عن النار، ويدخلنا الجنة؟ فيكشف الحجاب، فينظرون إليه، فوالله ما أعطاهم خيراً من النظر إليه، وهى الزيادة» (٤).

﴿ وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا لِنَفِثَنَّهُمْ فِيهِ وَرَرِّقْ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ ﴾ [١٣١] وَأَمْرٌ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا لَا تَسْتَلْكَ رِزْقًا نَحْنُ نَرِزُقُكَ وَالْعَاقِبَةُ لِلتَّقْوَىٰ [١٣٢]

يقول تعالى لنبىه محمد ﷺ: لا تنظر إلى هؤلاء المترفين وأشباههم ونظرائهم، وما هم فيه من النعم، فإنما هو زهرة زائلة، ونعمة حائلة، لنختبرهم بذلك، وقليل من عبادى الشكور. وقال مجاهد: «أزواجاً منهم» يعنى: الأغنياء، فقد آتاك الله خيراً مما آتاهم، كما قال فى الآية الأخرى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعًا مِنَ الْمَثَانِي وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ . لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ﴾ [الحجر: ٨٧، ٨٨]، وكذلك ما ادخره تعالى لرسوله فى الدار الآخرة أمر عظيم لا يُحَدِّد ولا يوصف، كما قال تعالى: ﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى﴾ [الضحى: ٥] ولهذا قال: ﴿وَرَرِّقْ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَى﴾. وفى الصحيح: أن عمر بن الخطاب لما دخل على رسول الله ﷺ فى تلك المشربة التى كان قد اعتزل فيها نساء، حين آلى منهن، فرآه متوسداً مضطجعاً على رمال حصير. وليس فى البيت إلا صبرة من قرظ، وأهب معلقة، فابتدرت عينا عمر بالبكاء، فقال رسول الله: «ما يبكيك؟» فقال: يارسول الله، إن كسرى وقيصر فيما هما فيه، وأنت صفوة الله من خلقه؟ فقال: «أوفى شك أنت يا بن الخطاب؟ أولئك قوم عجلت طبيائهم فى حياتهم الدنيا» (٥).

(١) البخارى (٥٥٤) ومسلم (٦٣٣/٢١١) . (٢) المسند (١٣٦/٤) ومسلم (٦٣٤/٢١٣) .

(٣) البخارى (٦٥٤٩) . (٤) مسلم (٢٩٧/١٨١) .

(٥) البخارى (٤٩١٣) .

فكان، صلوات الله وسلامه عليه، أزهّد الناس في الدنيا مع القدرة عليها، إذا حصلت له ينفقها هكذا وهكذا، في عباد الله، ولم يدخر لنفسه شيئاً لغد. فعن أبي سعيد؛ أن رسول الله ﷺ قال: «إن أخوف ما أخاف عليكم، ما يفتح الله من زهرة الدنيا». قالوا: وما زهرة الدنيا يا رسول الله؟ قال: «بركات الأرض»^(١). ﴿لِنَفْسِهِمْ فِيهِ﴾: لنبتليهم .

وقوله: ﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا﴾ أي: استنقذهم من عذاب الله بإقام الصلاة، واصطبر أنت على فعلها، كما قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا﴾ [التحريم: ٦].
وقوله: ﴿لَا نَسْأَلُكَ رِزْقًا نَحْنُ نَرْزُقُكَ﴾ يعني: إذا أقيمت الصلاة أتاك الرزق من حيث لا تحتسب، كما قال تعالى: ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا. وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾ [الطلاق: ٢، ٣] وقال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ. مَا أُرِيدُ مِنْهُمْ مِنْ رِزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَنْ يُطْعَمُوا. إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ﴾ [الذاريات: ٥٦ - ٥٨] ولهذا قال: ﴿لَا نَسْأَلُكَ رِزْقًا نَحْنُ نَرْزُقُكَ﴾، وقال الثوري: ﴿لَا نَسْأَلُكَ رِزْقًا﴾ أي: لا نكلفك الطلب. وقد روى الترمذي وابن ماجه عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «يقول الله تعالى: يا ابن آدم، تفرغ لعبادتي أملأ صدرك غنى، وأسد فقرك، وإن لم تفعل ملأت صدرك شغلاً، ولم أسد فقرك»^(٢). وروى ابن ماجه عن ابن مسعود: سمعت نبيكم ﷺ يقول: «مَنْ جَعَلَ الهمومَ هَمًّا واحداً، هَمَّ المعاد، كَفَاهُ اللَّهُ هَمَّ دُنْيَاهُ. وَمَنْ تَشَعَّبَ بِهِ الهمومُ فِي أَحْوَالِ الدُّنْيَا، لَمْ يَبَالِ اللَّهُ فِي أَيِّ أودِيتهِ هَلِكَ»^(٣). وروى أيضاً عن زيد بن ثابت قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من كانت الدنيا همّه، فرّق الله عليه أمره، وجعل فقره بين عينيه، ولم يأتها من الدنيا إلا ما كتب له. ومن كانت الآخرة نيته، جمع له أمره، وجعل غناه في قلبه، وأتته الدنيا وهي راغمة»^(٤).

﴿وَالْعَاقِبَةُ لِلتَّقْوَى﴾ أي: وحسن العاقبة في الدنيا والآخرة، وهي الجنة، لمن اتقى الله. وفي الصحيح: أن رسول الله ﷺ قال: «رأيت الليلة كأننا في دار عقبة بن رافع، وأنا أتينا برطب من رطب ابن طاب، فأولت ذلك أن العاقبة لنا في الدنيا، والرفعة وأن ديننا قد طاب»^(٥).

﴿وَقَالُوا لَوْلَا يَأْتِينَا بِآيَاتٍ مِّن رَّبِّهِ أَوْلَمِ تَأْتِيهِمْ بَيِّنَةٌ مَّا فِي الْأَصْحَافِ الْأُولَى﴾^(١٢٧)
﴿وَلَوْ أَنَا أَهْلَكْنَهُمْ بِعَذَابٍ مِّن قَبْلِهِ لَقَالُوا رَبَّنَا لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ آيَاتِكَ مِن قَبْلِ أَنْ نُنزِلَ وَنَحْزِي﴾^(١٢٨) ﴿قُلْ كُلُّ مَرْبِئٍ فَرِئِصَةٌ فَرِئِصُوا فَسَتَعْلَمُونَ مَن أَصْحَابُ الصِّرَاطِ السَّوِيِّ وَمَنِ اهْتَدَى﴾^(١٢٩)

يقول تعالى مخبراً عن الكفار في قولهم: ﴿لَوْلَا﴾ أي: هلا ﴿يَأْتِينَا﴾ محمد ﴿بآية من ربه﴾

(١) البخارى (٢٨٤٢) ومسلم (١٠٥٢/١٢١) بنحوه .
(٢) الترمذى (٢٤٦٦) وقال الترمذى : « هذا حديث حسن غريب » ، ابن ماجه (٤١٠٧) وصححه الالبانى .
(٣) ابن ماجه (٤١٠٦) وقال الالبانى : « حسن » .
(٤) ابن ماجه (٤١٠٥) وقال البوصيرى فى الزوائد (٣/٢٧٧١): « هذا إسناد صحيح، رجاله ثقات » وصححه الالبانى .
(٥) مسلم (١٨/٢٢٧٠) .

أى: بعلامة دالة على صدقه فى أنه رسول الله؟ قال الله تعالى: ﴿أَوَلَمْ تَأْتِهِمْ بَيِّنَةٌ مَّا فِي الصُّحُفِ الْأُولَى﴾ يعنى: القرآن العظيم الذى أنزله عليه وهو أسمى، لا يحسن الكتابة، ولم يدارس أهل الكتاب، وقد جاء فيه أخبار الأولين، بما كان منهم فى سالف الدهور، بما يوافق عليه الكتب المتقدمة الصحيحة منها؛ فإن القرآن مهيمن عليها، يصدق الصحيح، ويبين خطأ المكذوب فيها وعليها. وهذه الآية كقوله تعالى: ﴿وَقَالُوا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَاتٌ مِّن رَّبِّهِ قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِندَ اللَّهِ وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُّبِينٌ. أَوَلَمْ يَكُنْ لَهُمُ آيَاتُنَا عِندَ الْكِتَابِ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [العنكبوت: ٥٠، ٥١] وفى الصحيح عن رسول الله ﷺ أنه قال: «ما من نبي إلا وقد أوتى من الآيات ما آمن على مثله البشر، وإنما كان الذى أوتيته وحياً أوحاه الله إلی، فأرجوا أن أكون أكثرهم تابعا يوم القيامة» (١). وإنما ذكر هاهنا أعظم الآيات التى أعطيتها، عليه السلام، وهو القرآن، وله من المعجزات ما لا يحصى ولا يحصر، كما هو مقرر فى مواضعه.

ثم قال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَا أَهْلَكْنَاهُمْ بِعَذَابٍ مِّن قَبْلِهِ لَقَالُوا إِنَّا سَأَلْنَا رَسُولَنَا أَي: لو أنا أهلكتنا هؤلاء المكذبين قبل أن نرسل إليهم هذا الرسول الكريم، وننزل عليهم هذا الكتاب العظيم لكانوا قالوا: ﴿رَبَّنَا لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا﴾ قبل أن تهلكنا، حتى نؤمن به ونتبعه؟ كما قال: ﴿فَتَسَبَّحَ آيَاتِكَ مِنْ قَبْلِ أَنْ نُذَلَّ وَنَخْزَى﴾، يبين تعالى أن هؤلاء المكذبين متعتون معاندون لا يؤمنون ﴿وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّىٰ يَرَوْا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ﴾ [يونس: ٩٧]، كما قال تعالى: ﴿وَهَذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ فَاتَّبِعُوهُ وَاتَّقُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ إلى قوله ﴿بِمَا كَانُوا يَصْدِفُونَ﴾ [الأنعام: ١٥٥-١٥٧] وقال: ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِن جَاءَتْهُمْ آيَةٌ لَّيُؤْمِنُنَّ بِهَا﴾ [الأنعام: ١٠٩، ١١٠]. ثم قال تعالى ﴿قُلْ﴾ أى: يا محمد لمن كذبتك وخالفك واستمر على كفره وعناده ﴿كُلُّ مُتَّبِعٍ﴾ أى: منا ومنكم ﴿فَتَرَبَّصُوا﴾ أى: فانظروا ﴿فَسَتَعْلَمُونَ مِّنْ أَصْحَابِ الصِّرَاطِ السَّوِيِّ﴾ أى: الطريق المستقيم ﴿وَمَنْ اهْتَدَىٰ﴾ إلى الحق وسبيل الرشاد، وهذا كقوله تعالى: ﴿وَسَوْفَ يَعْلَمُونَ حِينَ يَرَوْنَ الْعَذَابَ مَن أَضَلُّ سَبِيلًا﴾ [الفرقان: ٤٢]، وقال: ﴿سَيَعْلَمُونَ غَدًا مِّنَ الْكُذَّابِ الْأَشْرِ﴾ [القمر: ٢٦].

سورة الأنبياء

وهي مكية

روى البخارى عن عبد الله قال: بنو إسرائيل، والكهف، ومريم، وطه، والأنبياء، هن من العتاق الأول، وهن من تلادى (١).

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ أَقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ ﴿١﴾ مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرِ رَبِّهِمْ تُحَدِّثُ إِلَّا أَسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ ﴿٢﴾ لَأِهْبَةَ قُلُوبِهِمْ وَأَسْرُؤَ النَّجْوَى الَّذِينَ ظَلَمُوا هَلْ هَذَا إِلَّا بَشْرٌ مِثْلُكُمْ أَفَتَأْتُونَ السِّحْرَ وَأَنْتُمْ تُبْصِرُونَ ﴿٣﴾ قَالَ رَبِّي يَعْلَمُ الْقَوْلَ فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٤﴾ بَلْ قَالُوا أَضْغَثُ أَحْلَمٍ بَلِ اقْتَرَبَهُ بَلْ هُوَ شَاعِرٌ فَلْيَأْنِسْنَا بِشَايِرٍ كَمَا أَرْسَلَ الْأَوَّلُونَ ﴿٥﴾ مَا ءَامَنَتْ قَبْلَهُمْ مِنْ قَرِيْبٍ أَهْلَكْنَاهَا أَفَهُمْ يُؤْمِنُونَ ﴿٦﴾ ﴾

هذا تنبيه من الله، عز وجل، على اقتراب الساعة ودنوها، وأن الناس في غفلة عنها، أى: لا يعملون لها، ولا يستعدون من أجلها، وقال تعالى: ﴿أَتَى أَمْرُ اللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ﴾ [النحل: ١]، وقال: ﴿اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانْشَقَّ الْقَمَرُ . وَإِنْ يَرَوْا آيَةً يُعْرَضُوا﴾ الآية [القمر: ١، ٢].

ثم أخبر تعالى أنهم لا يُصغون إلى الوحي الذى أنزل الله على رسوله، والخطاب مع قريش ومن شابههم من الكفار، فقال: ﴿مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرِ رَبِّهِمْ مُحَدَّثٌ﴾ أى: جديد إنزاله ﴿إِلَّا أَسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ﴾ كما قال ابن عباس: مالكم تسألون أهل الكتاب عما بأيديهم وقد حرفوه وبدلوه وزادوا فيه ونقصوا منه، وكتابتكم أحدث الكتب بالله تقرؤونه محضاً لم يشب. رواه البخارى بنحوه (٢). وقوله: ﴿وَأَسْرُؤَ النَّجْوَى الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ أى: قائلين فيما بينهم خفية ﴿هَلْ هَذَا إِلَّا بَشْرٌ مِثْلُكُمْ﴾ يعنون رسول الله ﷺ، يستعدون كونه نبياً؛ لأنه بشرٌ مثلهم، فكيف اختص بالوحي دونهم؛ ولهذا قال: ﴿أَفَتَأْتُونَ السِّحْرَ وَأَنْتُمْ تُبْصِرُونَ﴾؟ أى: أفستبعونه فتكونون كمن يأتى السحر وهو يعلم أنه سحر. فقال تعالى مجيباً لهم عما افتروه واختلقوه من الكذب: ﴿قَالَ رَبِّي يَعْلَمُ الْقَوْلَ فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾ أى: الذى يعلم ذلك، لا يخفى عليه خافية، وهو الذى أنزل هذا القرآن المشتمل على خبر الأولين والآخرين، الذى لا يستطيع أحد أن يأتى بمثله، إلا الذى يعلم السر فى السموات والأرض ﴿وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ بأحوالكم. وفى هذا تهديد لهم ووعيد.

وقوله: ﴿بَلْ قَالُوا أَضْغَاتُ أَحْلَامٍ بَلِ اقْرَأْهُ﴾: هذا إخبار عن تعنت الكفار وإلحادهم، واختلافهم فيما يصفون به القرآن، وحيرتهم فيه، وضلالهم عنه. فتارة يجعلونه سحراً، وتارة يجعلونه شعراً، وتارة يجعلونه أضغاث أحلام، وتارة يجعلونه مفترى، كما قال: ﴿انظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثَالَ فَضَلُّوا فَلَا يَسْتَظْهِرُونَ سَبِيلًا﴾ [الإسراء: ٤٨، والفرقان: ٩].

وقوله: ﴿فَلْيَأْتِنَا بآيَةٍ كَمَا أُرْسِلَ الْأُولُونَ﴾: يعنون كفاية صالح، وآيات موسى وعيسى. وقد قال الله: ﴿وَمَا مَعَنَا أَنْ نُرْسِلَ بِالْآيَاتِ إِلَّا أَنْ كَذَّبَ بِهَا الْأُولُونَ﴾ الآية [الإسراء: ٥٩]؛ ولهذا قال تعالى: ﴿مَا آمَنَتْ قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا أَهْمُ يَقُولُونَ﴾ أى: ما آتينا قرية من القرى الذين بعث فيهم الرسل آية على يدى نبيها فآمنوا بها، بل كذبوا، فأهلكناهم بذلك، أفهؤلاء يؤمنون بالآيات لو رأوها دون أولئك؟ كلا، بل ﴿إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ. وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّى يَرَوْا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ﴾ [يونس: ٩٦، ٩٧]. هذا كله، وقد شاهدوا من الآيات الباهرات، والحجج القاطعات، والدلائل البينات، على يدى رسول الله ﷺ ما هو أظهر وأجلى، وأبهر وأقطع وأقهر، مما شوهد مع غيره من الأنبياء، صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين .

﴿وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا رِجَالًا نُوْحِي إِلَيْهِمْ فَتَسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٧﴾ وَمَا جَعَلْنَاهُمْ جَسَدًا لَا يَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَمَا كَانُوا خَالِدِينَ ﴿٨﴾ ثُمَّ صَدَقْنَاهُمُ الْوَعْدَ فَأَنْجَيْنَاهُمْ وَمَنْ نَشَاءُ وَأَهْلَكْنَا الْمُسْرِفِينَ ﴿٩﴾﴾

يقول تعالى راداً على من أنكر بعثة الرسل من البشر: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا رِجَالًا يُوْحِي إِلَيْهِمْ﴾ أى: جميع الرسل الذين تقدموا كانوا رجالاً من البشر، لم يكن فيهم أحد من الملائكة، كما قال فى الآية الأخرى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا يُوْحِي (١) إِلَيْهِمْ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى﴾ [يوسف: ١٠٩]، وقال تعالى: ﴿قُلْ مَا كُنْتُ بِدْعًا مِنَ الرُّسُلِ﴾ [الاحقاف: ٩]، وقال تعالى حكاية عمن تقدم من الأمم أنهم أنكروا ذلك فقالوا: ﴿أَبَشْرٌ يَهْدُونَنَا﴾ [التغابن: ٦]؛ ولهذا قال تعالى: ﴿فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ أى: اسألوا أهل العلم من الأمم كاليهود والنصارى وسائر الطوائف: هل كان الرسل الذين أتوهم بشراً أو ملائكة؟ إنما كانوا بشراً، وذلك من تمام نعم الله على خلقه؛ إذ بعث فيهم رسلا منهم يتمكنون من تناول البلاغ منهم والأخذ عنهم.

وقوله: ﴿وَمَا جَعَلْنَاهُمْ جَسَدًا لَا يَأْكُلُونَ الطَّعَامَ﴾ أى: بل قد كانوا أجساداً يأكلون الطعام، كما قال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِي الْأَسْوَاقِ﴾ [الفرقان: ٢٠] أى: قد كانوا بشرا من البشر، يأكلون ويشربون مثل الناس، ويدخلون الأسواق للتكسب والتجارة، وليس ذلك بضرار لهم ولا ناقص منهم شيئاً، كما توهمه المشركون فى قولهم: ﴿مَا لِهَذَا الرَّسُولِ

(١) «يوحى» - بضم الياء التحتية وفتح الحاء المهملة، قراءة الجمهور. وهى هكذا بالمخطوطة وقرأ حفص وحزمة والكسائى: «يوحى» .

يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْسِي فِي الْأَسْوَاقِ لَوْلَا أَنْزَلْنَا إِلَيْهِ مَلَكًا فَيَكُونُ مَعَهُ نَذِيرًا . أَوْ يُلْقَى إِلَيْهِ كَنزٌ أَوْ تَكْوِينٌ لَهُ حِجَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا وَقَالَ الظَّالِمُونَ إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مُسْحُورًا ﴿١٠﴾ الآية [الفرقان: ٧، ٨] . وقوله : ﴿وَمَا كَانُوا خَالِدِينَ﴾ أى : فى الدنيا ، بل كانوا يعيشون ثم يموتون ﴿وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِنْ قَبْلِكَ الْخُلْدَ﴾ [الأنبياء: ٣٤] ، وخاصتهم أنهم يوحى إليهم من الله عز وجل ، تنزل عليهم الملائكة عن الله بما يحكم فى خلقه مما يأمر به وينهى عنه . وقوله : ﴿ثُمَّ صَدَقْنَاهُمُ الْوَعْدَ﴾ أى : الذى وعدهم ربهم : ليهلكن الظالمين ، صدقهم الله وعده ففعل ذلك ؛ ولهذا قال : ﴿فَأَجْمِنَاهُمْ وَمَنْ نُشَاءُ﴾ أى : أتباعهم من المؤمنين ﴿وَأَهْلَكْنَا الْمُسْرِفِينَ﴾ أى : المكذبين بما جاءت به الرسل .

﴿لَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ كِتَابًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ ﴿١٠﴾ وَكَمْ قَصَمْنَا مِنْ قَبْرٍ
كَانَتْ ظَالِمَةً وَأَنْشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْمًا آخَرِينَ ﴿١١﴾ فَلَمَّا أَحْسَوْا بِأَسَانَا إِذَا هُمْ مِنْهَا يَرْكُضُونَ
﴿١٢﴾ لَا تَرْكُضُوا وَارْجِعُوا إِلَى مَا أُتْرِفْتُمْ فِيهِ وَمَسْكِنِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَسْأَلُونَ ﴿١٣﴾ قَالُوا يَا بُولَلَاءَ إِنَّا
كُنَّا ظَالِمِينَ ﴿١٤﴾ فَمَا زَالَتْ تِلْكَ دَعْوَاهُمْ حَتَّى جَعَلْنَاهُمْ حَصِيدًا خَامِدِينَ ﴿١٥﴾

يقول تعالى منها على شرف القرآن : ﴿لَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ كِتَابًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ﴾ قال ابن عباس : شرفكم ، وقال مجاهد : حديثكم ، وقال الحسن : دينكم ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ أى : هذه النعمة ، وتلقونها بالقبول ، كما قال تعالى : ﴿وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَكَ وَلِقَوْمِكَ وَسَوْفَ تُسْأَلُونَ﴾ [الزخرف: ٤٤] .

وقوله : ﴿وَكَمْ قَصَمْنَا مِنْ قَبْرٍ كَانَتْ ظَالِمَةً﴾ : هذه صيغة تكثير ، كما قال : ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ الْقُرُونِ مِنْ بَعْدِ نُوحٍ﴾ [الإسراء: ١٧] . وقال تعالى : ﴿فَكَأَيُّنَ (١) مِنْ قَبْرَةٍ أَهْلَكْنَاهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ فِيهَا خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا وَيَبْعَثُ مُعْتَلَّةً وَاقْصِرْ مُشِيدًا﴾ [الحج: ٤٥] . وقوله : ﴿وَأَنْشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْمًا آخَرِينَ﴾ أى : أمة أخرى بعدهم ﴿فَلَمَّا أَحْسَوْا بِأَسَانَا﴾ أى : تيقنوا أن العذاب واقع بهم ، كما وعدهم نبيهم ﴿إِذَا هُمْ مِنْهَا يَرْكُضُونَ﴾ أى : يفرّون هاربين ، ﴿لَا تَرْكُضُوا وَارْجِعُوا إِلَى مَا أُتْرِفْتُمْ فِيهِ وَمَسَاكِنِكُمْ﴾ : هذا تهكم بهم قدرأى : قيل لهم قدرأ : لا تركضوا هاربين من نزول العذاب ، وارجعوا إلى ما كنتم فيه من النعمة والسرور ، والعيشة والمسكن الطيبة قال قتادة : استهزاء بهم . ﴿لَعَلَّكُمْ تُسْأَلُونَ﴾ أى : عما كنتم فيه من أداء شكر النعمة . ﴿قَالُوا يَا وَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ﴾ : اعترفوا بذنوبهم حين لا ينفعهم ذلك ﴿فَمَا زَالَتْ تِلْكَ دَعْوَاهُمْ حَتَّى جَعَلْنَاهُمْ حَصِيدًا خَامِدِينَ﴾ أى : ما زالت تلك المقالة ، وهى الاعتراف بالظلم ، هجيراًهم (٢) حتى حصدناهم حصدا وخمدت حركاتهم وأصواتهم خموداً .

(١) فى المطبوعة والمخطوطة : « وكأين » وهو خطأ .

(٢) أى : عاذتهم وشأنهم .

﴿ وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لِعَيْنٍ ﴿١٦﴾ لَوْ أَرَدْنَا أَنْ نَتَّخِذَ لَهْوًا لَاتَّخَذْتُهُ مِنْ لَدُنَّا إِنْ كُنَّا فَاعِلِينَ ﴿١٧﴾ بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ وَلَكُمْ الْوَيْلُ مِمَّا نَصِفُونَ ﴿١٨﴾ وَلَكُمْ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَنْ عِنْدُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ ﴿١٩﴾ يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ ﴿٢٠﴾ ﴾

يخبر تعالى أنه خلق السموات والأرض بالحق، أى: بالعدل والقسط ﴿ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسَاءُوا بِمَا عَمِلُوا وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى ﴾ [النجم: ٣١]، وأنه لم يخلق ذلك عبثاً ولا لعباً، كما قال: ﴿ وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلًا ذَلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ ﴾ [ص: ٢٧].

وقوله تعالى: ﴿ لَوْ أَرَدْنَا أَنْ نَتَّخِذَ لَهْوًا لَاتَّخَذْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا ﴾: قال مجاهد: يعنى: من عندنا، يقول: وما خلقنا جنة ولا ناراً، ولا موتاً، ولا بعثاً، ولا حساباً. وقال الحسن، وقتادة، وغيرهما: اللهو: المرأة بلسان أهل اليمن، وقال عكرمة والسدى: المراد باللهو هاهنا: الولد. وهذا والذي قبله متلازمان، وهو كقوله تعالى: ﴿ لَوْ أَرَادَ اللَّهُ أَنْ يَتَّخِذَ لَدُنَا لِأَصْطَفَى مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ سُبْحَانَهُ هُوَ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ ﴾ [الزمر: ٤]، فتره نفسه عن اتخاذ الولد مطلقاً، لا سيما عما يقولون من الإفك والباطل، من اتخاذ عيسى، أو العزيز، أو الملائكة ﴿ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُقُولُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا ﴾ [الإسراء: ٤٣]. وقوله: ﴿ إِنْ كُنَّا فَاعِلِينَ ﴾ قال قتادة، وإبراهيم النخعي: أى: ما كنا فاعلين. وقال مجاهد: كل شيء فى القرآن «إن» فهو إنكار.

وقوله: ﴿ بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ ﴾ أى: نبين الحق فيدحض الباطل؛ ولهذا قال: ﴿ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ ﴾ أى: ذاهب مضمحل ﴿ وَلَكُمْ الْوَيْلُ ﴾ أى: أيها القائلون: لله ولد ﴿ مِمَّا نَصِفُونَ ﴾ أى: تقولون وتفترون.

ثم أخبر تعالى عن عبودية الملائكة له، ودأبهم فى طاعته ليلاً ونهاراً، فقال: ﴿ وَهَلْ مِنْ فِى السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَنْ عِنْدَهُ ﴾ يعنى: الملائكة ﴿ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ ﴾ أى: لا يستكفون عنها، كما قال: ﴿ لَنْ يَسْتَكْفِرَ الْمَسِيحُ أَنْ يَكُونَ عَبْدًا لِلَّهِ وَلَا الْمَلَائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ وَمَنْ يَسْتَكْفِرْ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرْهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعًا ﴾ [النساء: ١٧٢]. وقوله: ﴿ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ ﴾ أى: لا يتعبون ولا يملون ﴿ يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ ﴾ فهم دائبون فى العمل ليلاً ونهاراً، مطيعون قصداً وعملاً، قادرون عليه، كما قال تعالى: ﴿ لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴾ [التحريم: ٦].

﴿ أَمْ اتَّخَذُوا إِلَهَةً مِنَ الْأَرْضِ هُمْ يُنشِرُونَ ﴿٢١﴾ لَوْ كَانَ فِيهَا إِلَهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا فَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٢٢﴾ لَا يَسْتَلْ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْتَلُونَ ﴿٢٣﴾ ﴾

ينكر تعالى على من اتخذ من دونه آلهة، فقال: ﴿ أَمْ اتَّخَذُوا إِلَهَةً مِنَ الْأَرْضِ هُمْ يُنشِرُونَ ﴾ أى: أهم يحيون الموتى وينشرونهم من الأرض؟ أى: لا يقدرون على شيء من ذلك، فكيف جعلوها لله

ندأ وعبدوها معه. ثم أخبر تعالى أنه لو كان في الوجود آلهة غيره لفسدت السموات والأرض، فقال: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ﴾ أي: في السماء والأرض ﴿لَفَسَدَتَا﴾، كقوله تعالى: ﴿مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِنْ وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ إِذَا لُدَّ هَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَّ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُصِفُونَ﴾ [المؤمنون: ٩١]، وقال هاهنا: ﴿فَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يُصِفُونَ﴾ أي: عما يقولون إن له ولداً أو شريكاً، سبحانه وتعالى وتقدس وتنزه عن الذين يفترون ويأفكون علواً كبيراً.

وقوله: ﴿لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ﴾ أي: هو الحاكم الذي لا معقب لحكمه، ولا يعترض عليه أحد، لعظمته وجلاله وكبريائه، وعلوه وحكمته وعدله ولطفه ﴿وَهُمْ يُسْأَلُونَ﴾ أي: وهو سائل خلقه عما يعملون، كقوله: ﴿فَرَوَيْكَ لِنِسْأَلَتِهِمْ أَجْمَعِينَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [الحجر: ٩٢، ٩٣] وهذا كقوله تعالى: ﴿وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ﴾ [المؤمنون: ٨٨].

﴿أَمْ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ هَذَا ذِكْرٌ مِنْ مَعِيَ وَذِكْرٌ مِنْ قَبْلِي بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ الْحَقَّ فَهُمْ مُعْرِضُونَ ﴿١٤﴾ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِيَ إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ ﴿١٥﴾﴾

يقول تعالى: ﴿أَمْ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً قُلْ﴾ يا محمد: ﴿هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ﴾ أي: دليلكم على ماتقولون ﴿هَذَا ذِكْرٌ مِنْ مَعِيَ﴾ يعني: القرآن ﴿وَذِكْرٌ مِنْ قَبْلِي﴾ يعني: الكتب المتقدمة على خلاف ما تقولونه وتزعمون، فكل كتاب أنزل على كل نبي أرسل، ناطق بأنه لا إله إلا الله، ولكن أنتم أيها المشركون لا تعلمون الحق، فانتم معرضون عنه؛ ولهذا قال: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا يُوحى (١) إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾، كما قال: ﴿وَأَسْأَلُ مَنْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رُسُلِنَا أَنْ جَعَلْنَا مِنْ دُونِ الرَّحْمَنِ آلِهَةً يُعْبَدُونَ﴾ [الزخرف: ٤٥]، وقال: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ [النحل: ٣٦]، فكل نبي بعثه الله يدعو إلى عبادة الله وحده لا شريك له، والفترة شاهدة بذلك أيضاً، والمشركون لا يبرهان لهم، وحققتهم داحضة عند ربهم، وعليهم غضب، ولهم عذاب شديد.

﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ بَلْ عِبَادٌ مُكْرَمُونَ ﴿١٦﴾ لَا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ ﴿١٧﴾ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنْ ارْتَضَىٰ وَهُمْ مِنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ ﴿١٨﴾ وَمَنْ يَقُلْ مِنْهُمْ إِيَّتَ إِلَهٌُ مِنْ دُونِهِ فَذَلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ كَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ ﴿١٩﴾﴾

يقول تعالى رداً على من زعم أن له - تعالى وتقدس - ولداً من الملائكة، كمن قال ذلك من العرب: إن الملائكة بنات الله، فقال: ﴿سُبْحَانَهُ بَلْ عِبَادٌ مُكْرَمُونَ﴾ أي: الملائكة عباد الله مكرمون عنده، في منازل عالية ومقامات سامية، وهم له في غاية الطاعة قولاً وفعلاً ﴿لَا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُمْ

بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ ﴿٢٩﴾ أى: لا يتقدمون بين يديه بأمر، ولا يخالفونه فيما أمرهم به بل يبادرون إلى فعله، وهو تعالى علمه محيط بهم، فلا يخفى عليه منهم خافية، ﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ﴾ .

وقوله: ﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَى﴾ ، كقوله: ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾ [البقرة: ٢٥٥] ، وقوله: ﴿وَلَا تَنْفَعُ الشَّفَاعَةُ عِنْدَهُ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ﴾ [سبا: ٢٣] ، فى آيات كثيرة فى معنى ذلك ﴿وَهُمْ مِنْ خَشْيَتِهِ﴾ أى: من خوفه ورهبته ﴿مُشْفِقُونَ . وَمَنْ يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّي إِلَهٌ مِنْ دُونِهِ﴾ أى: من ادعى منهم أنه إله من دون الله، أى: مع الله، ﴿فَذَلِكَ نَجْزِيهِمْ كَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ﴾ أى: كل من قال ذلك، وهذا شرط، والشرط لا يلزم وقوعه، كقوله: ﴿قُلْ إِنْ كَانَ لِلرَّحْمَنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعَابِدِينَ﴾ [الزخرف: ٨١] ، وقوله: ﴿لَنْ أَسْرُكَتْ لِيَحْبِطَنَّ عَمَلُكَ﴾ [الزمر: ٦٥] .

﴿أَوَلَمْ يَرِ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيًّا أَفَلَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٠﴾ وَجَعَلْنَا فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيًا أَنْ تَمِيدَ بِهِمْ وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا سُبُلًا لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ﴿٣١﴾ وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَفًّا مَحْفُوظًا وَهُمْ عَنْ آيَاتِهَا مُعْرِضُونَ ﴿٣٢﴾ وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴿٣٣﴾﴾

يقول تعالى منبهاً على قدرته التامة، وسلطانه العظيم فى خلقه الأشياء، وقهره لجميع المخلوقات، فقال: ﴿أَوَلَمْ يَرِ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ أى: الجاحدون لإلهيته العابدون معه غيره، ألم يعلموا أن الله هو المستقل بالخلق، المستبد بالتدبير، فكيف يليق أن يعبد غيره أو يشرك به ما سواه، ألم يروا ﴿أَنَّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا﴾ أى: كان الجميع متصلًا بعضه ببعض متلاصق مترامم، بعضه فوق بعض فى ابتداء الأمر، ففتق هذه من هذه، فجعل السموات سبعاً، والأرض سبعاً، وفصل بين السماء الدنيا والأرض بالهواء، فأمطرت السماء وأنبتت الأرض؛ ولهذا قال: ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيًّا أَفَلَا يُؤْمِنُونَ﴾ أى: وهم يشاهدون المخلوقات تحدث شيئاً فشيئاً عياناً، وذلك دليل على وجود الصانع الفاعل المختار القادر على ما يشاء. وعن ابن عمر؛ أن رجلاً أتاه يسأله عن السموات والأرض ﴿كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا﴾؟. قال: اذهب إلى ذلك الشيخ فاسأله، ثم تعال فأخبرنى بما قال لك. قال: فذهب إلى ابن عباس فسأله. فقال ابن عباس: نعم، كانت السموات رتقاً لا تمطر، وكانت الأرض رتقاً لا تنبت. فلما خلق للأرض أهلاً فتق هذه بالمطر، وفتق هذه بالنبات. فرجع الرجل إلى ابن عمر فأخبره، فقال ابن عمر: الآن قد علمت أن ابن عباس قد أوتى فى القرآن علماً، صدق - هكذا كانت. قال ابن عمر: قد كنت أقول: ما يعجبنى جراءة ابن عباس على تفسير القرآن، فالآن قد علمت أنه قد أوتى فى القرآن علماً.

وقوله: ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيًّا﴾ أى: أصل كل الأحياء منه. وروى الإمام أحمد عن أبى ميمونة، عن أبى هريرة قال: قلت: يارسول الله، إني إذا رأيتك طابت نفسى، وقرت عيني، فأنبئتني عن كل شيء. قال: «كل شيء خلق من ماء» قال: قلت: أنبئتني عن أمر إذا عملت به

دخلت الجنة . قال : « أفش السلام ، وأطعم الطعام ، وصل الأرحام ، وقم بالليل والناس نيام ، ثم ادخل الجنة بسلام » . تفرد به أحمد (١) ، وهذا إسناد على شرط الصحيحين ، إلا أن أبا ميمونة من رجال السنن ، واسمه سليم ، والترمذي يصحح له . والله أعلم .

وقوله : « وَجَعَلْنَا فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيًا » أي : جبلاً أرسى الأرض بها وقررها وثقلها ؛ لئلا تميد بالناس ، أي : تضطرب وتتحرك ، فلا يحصل لهم قرار عليها لأنها غامرة في الماء إلا مقدار الريح ، فإنه باد للهواء والشمس ، لي شاهد أهلها السماء وما فيها من الآيات الباهرات ، والحكم والدلالات ؛ ولهذا قال : « أَنْ تَمِيدَ بِهِمْ » أي : لئلا تميد بهم . « وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا سَبِيلًا » أي : ثغراً في الجبال ، يسلكون فيها طرقاتاً من قطر إلى قطر ، وإقليم إلى إقليم ، كما هو المشاهد في الأرض ، يكون الجبل حائلاً بين هذه البلاد وهذه البلاد ، فيجعل الله فيه فجوة - ثغرة - يسلك الناس فيها من هاهنا إلى هاهنا ؛ ولهذا قال : « لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ » .

وقوله : « وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَفَافًا » أي : على الأرض وهي كالقبة عليها ، كما قال : « وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ » [الذاريات: ٤٧] ، وقال : « وَالسَّمَاءَ وَمَا بَنَاهَا » [الشمس: ٥] ، « أَفَلَمْ يَنْظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوَاقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا مِنْ فُرُوجٍ » [ق: ٦] ، والبناء هو نصب القبة ، كما قال رسول الله ﷺ : « بُنِيَ الْإِسْلَامُ عَلَى خَمْسٍ » (٢) أي : خمس دعائم ، وهذا لا يكون إلا في الخيام ، على ما تعهده العرب « مَحْفُوظًا » أي : عالياً محروساً أن يُنال . وقال مجاهد : مرفوعاً . وقوله : « وَهُمْ عَنْ آيَاتِهَا مُعْرِضُونَ » ، كقوله : « وَكَأَيِّنْ مِنْ آيَةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ » [يوسف: ١٠٥] أي : لا يفتكرون فيما خلق الله فيها من الاتساع العظيم ، والارتفاع الباهر ، وما زينت به من الكواكب الثوابت والسيارات في ليلها ، وفي نهارها من هذه الشمس التي تقطع الفلك بكماله ، في يوم وليلة فتسير غاية لا يعلم قدرها إلا الله الذي قدرها وسخرها وسيرها .

ثم قال منها عن بعض آياته : « وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ » أي : هذا في ظلامه وسكونه ، وهذا بضياؤه وأنسه ، يطول هذا تارة ثم يقصر أخرى ، وعكسه الآخر « وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ » هذه لها نور يخصصها ، وفلك بذاته ، وزمان على حدة ، وحركة وسير خاص ، وهذا بنور آخر ، وفلك آخر ، وسير آخر ، وتقدير آخر « كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ » [يس: ٤٠] ، أي : يدورون . قال ابن عباس : يدورون كما يدور المغزل في الفلكة . وكذا قال مجاهد : فلا يدور المغزل إلا بالفلكة ، ولا الفلكة إلا بالمغزل ، كذلك النجوم والشمس والقمر ، لا يدورون إلا به ، ولا يدور إلا بهن ، كما قال تعالى : « فَالِقَ الْإِصْبَاحِ وَجَعَلَ اللَّيْلَ سَكَنًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ حُسْبَانًا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ » [الأنعام: ٩٦] .

﴿ وَمَا جَعَلْنَا لِإِنْسٍ مِنْ قَبْلِكَ الْخُلْدَ أَفَإِنْ مَتَّ فَهُمْ لَمَخْلَدُونَ ﴾ ﴿٤٤﴾ كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَنَبِّئُكُمْ بِالْأَشْرِّ وَالْخَيْرِ فَتَنَةٌ وَإِنَّا لَمُتْرِعُونَ ﴿٤٥﴾ ﴿٤٥﴾

يقول تعالى : « وَمَا جَعَلْنَا لِإِنْسٍ مِنْ قَبْلِكَ » أي : يا محمد « الْخُلْدَ » أي : في الدنيا بل « كُلُّ مَنْ

(١) المسند (٧٩١٩) وقال الشيخ أحمد شاكر : « إسناده صحيح » .

(٢) البخاري (٨) ، ومسلم (١٩/١٦) .

عَلَيْهَا فَاَنْ وَيَقْنَى وَجْهَ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ ﴿ [الرحمن: ٢٦، ٢٧]. وقد استدلت بهذه الآية الكريمة من ذهب من العلماء إلى أن الخضر، عليه السلام، مات وليس بحى إلى الآن؛ لأنه بشر، سواء كان ولياً أو نبياً أو رسولاً، وقد قال تعالى: ﴿ وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِنْ قَبْلِكَ الْخُلْدَ ﴾. وقوله: ﴿ أَفَأَنْ مِتَّ ﴾ أى: يا محمد ﴿ فَهُمْ الْخَالِدُونَ؟! ﴾ أى: يؤملون أن يعيشوا بعدك، لا يكون هذا، بل كل إلى الفناء؛ ولهذا قال: ﴿ كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ ﴾.

وقوله: ﴿ وَنَبِّئُوكُمْ بِالْشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً ﴾ أى: نخبركم بالمصائب تارة، وبالنعم أخرى، فننظر من يشكر ومن يكفر، ومن يصبر ومن يقنط، كما قال ابن عباس: ﴿ وَنَبِّئُوكُمْ ﴾، يقول: نتليكم بالشر والخير فتنة، بالشدة والرخاء، بالصحة والسقم، والغنى والفقر، والحلال والحرام، والطاعة والمعصية والهدى والضلال وقوله: ﴿ وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ﴾ أى: فنجازيكم بأعمالكم .

﴿ وَإِذَا رَأَىكَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَذَا الَّذِي يَذْكُرُ ءَالِهَتِكُمْ وَهُمْ يَذِكُرُ الرَّحْمَنَ هُمْ كَافِرُونَ ﴿١١﴾ خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَجَلٍ سَأُورِيكُمْ ءَايَاتِي فَلَا تَسْتَعْجِلُونِ ﴿١٧﴾ ﴾

يقول تعالى لنبية ﷺ ﴿ وَإِذَا رَأَىكَ الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ يعنى: كفار قريش كآبى جهل وأشباهه ﴿ إِنْ يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا ﴾ أى: يستهزئون بك وينقصونك، يقولون: ﴿ أَهَذَا الَّذِي يَذْكُرُ ءَالِهَتِكُمْ ﴾ يعنون: أهذا الذى يسب آلهتكم ويسفه أحلامكم، قال تعالى: ﴿ وَهُمْ يَذِكُرُ الرَّحْمَنَ هُمْ كَافِرُونَ ﴾ أى: وهم كافرون بالله، ومع هذا يستهزئون برسول الله، كما قال فى الآية الأخرى: ﴿ وَإِذَا رَأَوْكَ إِنْ يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَذَا الَّذِي بَعَثَ اللَّهُ رَسُولًا . إِنْ كَادَ لِيُضِلَّنَا عَنْ ءَالِهَتِنَا لَوْلَا أَنْ صَبَرْنَا عَلَيْهَا وَسَوْفَ يَعْلَمُونَ حِينَ يَرُونَ الْعَذَابَ مَنْ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴾ [الفرقان: ٤١، ٤٢].

وقوله ﴿ خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَجَلٍ ﴾، كما قال فى الآية الأخرى: ﴿ وَكَانَ الْإِنْسَانُ عَجُولًا ﴾ [الإسراء: ١١] أى: فى الأمور. والحكمة فى ذكر عجلة الإنسان هاهنا أنه لما ذكر المستهزئين بالرسول ﷺ، وقع فى النفوس سرعة الانتقام منهم واستعجلت، فقال الله تعالى: ﴿ خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَجَلٍ ﴾؛ لأنه تعالى يملئ للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته، يؤجل ثم يعجل، وينظر ثم لا يؤخر؛ ولهذا قال: ﴿ سَأُورِيكُمْ ءَايَاتِي ﴾ أى: نقمى وحكمى واقتدارى على من عصانى ﴿ فَلَا تَسْتَعْجِلُونِ ﴾ .

﴿ وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٨﴾ لَوْ يَعْلَمُ الَّذِينَ كَفَرُوا حِينَ لَا يَكْفُرُونَ عَنْ وُجُوهِهِمُ النَّارَ وَلَا عَنْ ظُهُورِهِمْ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿١٩﴾ بَلْ تَأْتِيهِمْ بَغْتَةً فَتَبْهَتُهُمْ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ رَدَّهَا وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴿٤٠﴾ ﴾

يخبر تعالى عن المشركين أنهم يستعجلون أيضاً بوقوع العذاب بهم، تكذيباً وجحوداً وكفراً وعناداً واستبعاداً، فقال: ﴿ وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾، قال الله تعالى: ﴿ لَوْ يَعْلَمُ الَّذِينَ كَفَرُوا حِينَ لَا يَكْفُرُونَ عَنْ وُجُوهِهِمُ النَّارَ وَلَا عَنْ ظُهُورِهِمْ ﴾ أى: لو يتقنوا أنها واقعة بهم لا محالة لما

استعجلوا به، ولو يعلمون حين يغشاهم العذاب من فوقهم ومن تحت أرجلهم ﴿لَهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ ظُلْمٌ مِنَ النَّارِ وَمِنْ تَحْتِهِمْ ظُلْمٌ﴾ [الزمر: ١٦]، ﴿لَهُمْ مِنْ جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِنْ فَوْقِهِمْ غَوَاشٌ﴾ [الاعراف: ٤١]، وقال في هذه الآية: ﴿حِينَ لَا يَكْفُونَ عَنْ وُجُوهِهِمُ النَّارَ وَلَا عَنْ ظُهُورِهِمْ﴾ وقال: ﴿سَرَابِيلُهُمْ مِنْ قَطْرَانٍ تَعْشَى وُجُوهُهُمُ النَّارُ﴾ [إبراهيم: ٥٠]، فالعذاب محيط بهم من جميع جهاتهم ﴿وَلَا هُمْ يَنْصُرُونَ﴾ أى: لا ناصر لهم كما قال: ﴿وَمَا لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ آقٍ﴾ [الرعد: ٣٤].

وقوله: ﴿بَلْ تَأْتِيهِمْ بَغْتَةً﴾ أى: تأتيتهم النار بغتة، أى: فجأة ﴿فَتَهْتَمُّهُمْ﴾ أى: تدعهم فيستسلمون لها حائرين، لا يدرون ما يصنعون ﴿فَلَا يَسْتَطِيعُونَ رَدَّهَا﴾ أى: ليس لهم حيلة فى ذلك، ﴿وَلَا هُمْ يَنْظُرُونَ﴾ أى: ولا يؤخر عنهم ذلك ساعة واحدة .

﴿وَلَقَدْ اسْتَهْزَيْتُمْ بِرُسُلِ مِّنْ قَبْلِكَ فَحَاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ ﴿٤١﴾ قُلْ مَنْ يَكْلُؤُكُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ مِنَ الرَّحْمَنِ بَلْ هُمْ عَنْ ذِكْرِ رَبِّهِمْ مُّعْرِضُونَ ﴿٤٢﴾ أَمْ لَهُمْ آلِهَةٌ تَمْنَعُهُمْ مِنْ دُونِنَا لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَ أَنْفُسِهِمْ وَلَا هُمْ مِنَّا يُصْحَبُونَ ﴿٤٣﴾

يقول تعالى مسلماً لرسوله عما آذاه به المشركون من الاستهزاء والتكذيب: ﴿وَلَقَدْ اسْتَهْزَيْتُمْ بِرُسُلِ مِّنْ قَبْلِكَ فَحَاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ من العذاب الذى كانوا يستعدون وقوعه، كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَذَّبْتَ رَسُولٌ مِّنْ قَبْلِكَ فَصَبَرُوا عَلَىٰ مَا كَذَّبُوا وَأَوْدُوا حَتَّىٰ آتَاهُمْ نَصْرُنَا وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ وَلَقَدْ جَاءَكَ مِنْ نَّبِإِ الْمُرْسَلِينَ﴾ [الانعام: ٣٤].

ثم ذكر تعالى نعمته على عبده فى حفظه لهم بالليل والنهار، وكلاءه وحراسه لهم بعينه التى لاتنام، فقال: ﴿قُلْ مَنْ يَكْلُؤُكُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ مِنَ الرَّحْمَنِ﴾؟ أى: بدل الرحمن يعنى غيره .
وقوله تعالى: ﴿بَلْ هُمْ عَنْ ذِكْرِ رَبِّهِمْ مُّعْرِضُونَ﴾ أى: لا يعترفون بنعمه عليهم وإحسانه إليهم، بل يعرضون عن آياته وآلائه، ثم قال: ﴿أَمْ لَهُمْ آلِهَةٌ تَمْنَعُهُمْ مِنْ دُونِنَا﴾ استفهام إنكار وتقريع وتوبيخ، أى: الهم آلهة تمنعهم وتكلؤهم غيرنا؟ ليس الأمر كما توهموا ولا كما زعموا؛ ولهذا قال: ﴿لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَ أَنْفُسِهِمْ﴾ أى: هذه الآلهة التى استندوا إليها غير الله لا يستطيعون نصر أنفسهم. وقوله: ﴿وَلَا هُمْ مِنَّا يُصْحَبُونَ﴾ قال ابن عباس: أى: يجارون، وقال قتادة لا يصحبون من الله بخير، وقال غيره: يمتعون .

﴿بَلْ مَنَعْنَا هَؤُلَاءِ وَآبَاءَهُمْ حَتَّىٰ طَالَ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ أَفَلَا يَرَوْنَ أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنْفُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا أَفَهُمُ الْغَالِبُونَ﴾ ﴿٤٤﴾ قُلْ إِنَّمَا أُنذِرُكُمْ بِالْوَحْيِ وَلَا يَسْمَعُ الصُّمُّ الدُّعَاءَ إِذَا مَا يُنذَرُونَ ﴿٤٥﴾ وَلَئِن مَّسَّتْهُمُ نَفْحَةٌ مِّنْ عَذَابِ رَبِّكَ لَيَقُولُنَّ يَا نُونَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ ﴿٤٦﴾ وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَىٰ بِسَاحِسِينَ﴾ ﴿٤٧﴾

يقول تعالى مخبراً عن المشركين: إنما غرهم وحملهم على ما هم فيه من الضلال، أنهم متعوا في الحياة الدنيا، ونعموا وطال عليهم العمر فيما هم فيه، فاعتقدوا أنهم على شيء.

ثم قال واعظاً لهم: ﴿ أَفَلَا يَرَوْنَ أَنَا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنْقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا ﴾، اختلف المفسرون في معناه، وقد أسلفناه في سورة «الرعد»، وأحسن ما فسر بقوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا مَا حَوَّلْتُمْ مِنْ الْقُرَىٰ وَصَرَفْنَا الْآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾ [الاحقاف: ٢٧]. وقال الحسن البصري: يعنى بذلك ظهور الإسلام على الكفر. والمعنى: أفلا يعتبرون بنصر الله لأوليائه على أعدائه، وإهلاكه الأمم المكذبة والقرى الظالمة، وإجائه لعباده المؤمنين؛ ولهذا قال: ﴿ أَفَهُمُ الْغَالِبُونَ ﴾ يعنى: بل هم المغلوبون الأسفلون الأخرسون الأردلون.

وقوله: ﴿ قُلْ إِنَّمَا أُنذِرُكُمْ بِالْوَحْيِ ﴾ أى: إنما أنا مبلغ عن الله ما أئذركم به من العذاب والنكال، ليس ذلك إلا عما أوحاه الله إليّ، ولكن لا يجدى هذا عمن أعمى الله بصيرته، وختم على سمعه وقلبه؛ ولهذا قال: ﴿ وَلَا يَسْمَعُ الصُّمُّ الدُّعَاءَ إِذَا مَا يُنذَرُونَ ﴾.

وقوله: ﴿ وَلَئِن مَّسَّتْهُمُ نَفْعَةٌ مِنْ عَذَابِ رَبِّكَ لَيَقُولُنَّ يَا وَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ ﴾ أى: ولئن مس هؤلاء المكذبين أدنى شيء من عذاب الله، ليعترفن بذنوبهم، وأنهم كانوا ظالمين أنفسهم في الدنيا. وقوله: ﴿ وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا ﴾ أى: ونضع الموازين العدل ليوم القيامة. الأكثر على أنه إنما هو ميزان واحد، وإنما جمع باعتبار تعدد الأعمال الموزونة فيه.

وقوله: ﴿ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَىٰ بِهَا حَاسِبِينَ ﴾ كما قال تعالى: ﴿ وَلَا يُظْلَمُ رِيكٌ أَحَدًا ﴾ [الكهف: ٤٩]، وقال: ﴿ إِنْ اللَّهُ لَا يُظْلَمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِنْ تَكَ حَسَنَةً يَضَاعِفْهَا وَيُؤْتِ مِنْ لَدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾ [النساء: ٤٠]، وقال لقمان: ﴿ يَا بَنِيَّ إِنِّي إِذَا مَا تَكَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ فَتَكُنْ فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي السَّمَوَاتِ أَوْ فِي الْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا اللَّهُ إِنْ اللَّهُ لَطِيفٌ خَبِيرٌ ﴾ [لقمان: ١٦]. وفى الصحيحين عن أبى هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «كلمتان خفيفتان على اللسان، ثقيلتان فى الميزان، حبيبتان إلى الرحمن: سبحان الله وبحمده، سبحان الله العظيم»^(١). وروى الإمام أحمد عن أبى عبد الرحمن الخبلى، قال: سمعت عبد الله بن عمرو بن العاص يقول: قال رسول الله ﷺ: «إن الله عز وجل يستخلص رجلاً من أمتى على رؤوس الخلائق يوم القيامة، فينشر عليه تسعة وتسعين سجلاً، كل سجل مد البصر، ثم يقول أنتكر من هذا شيئاً؟ أظلمت كتبى الحافظون؟ قال: لا يارب، قال: أفلك عذر، أو حسنة؟» قال: فيبهت الرجل فيقول: لا، يارب. فيقول: بلى، إن لك عندنا حسنة واحدة، لا ظلم اليوم عليك. فنخرج له بطاقة فيها: «أشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمداً عبده ورسوله» فيقول: أحضروه، فيقول: يارب، ما هذه البطاقة مع هذه السجلات؟ فيقول: إنك لا تظلم، قال: «فتوضع السجلات فى كفة»، قال: «فطاشت السجلات وثقلت البطاقة» قال: «ولا يثقل شيء بسم الله الرحمن الرحيم». ورواه الترمذى

وابن ماجه، وقال الترمذى: حسن غريب (١).

﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَىٰ وَهَارُونَ الْفُرْقَانَ وَضِيَاءَ وَذِكْرًا لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٤٨﴾ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ وَهُمْ مِّنَ السَّاعَةِ مُشْفِقُونَ ﴿٤٩﴾ وَهَذَا ذِكْرٌ مُّبَارَكٌ أَنْزَلْنَاهُ أَفَأَنْتُمْ لَمْ تُنْكِرُونَ ﴿٥٠﴾ ﴾

قد تقدم التنبيه على أن الله تعالى كثيراً ما يقرون بين ذكر موسى ومحمد، صلوات الله وسلامه عليهما، وبين كتابيهما؛ ولهذا قال: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَىٰ وَهَارُونَ الْفُرْقَانَ﴾. قال قتادة: التوراة، حلالها وحرامها، وما فرق الله بين الحق والباطل. وجامع القول في ذلك: أن الكتب السماوية مشتملة على التفرقة بين الحق والباطل، والهدى والضلال، والغي والرشاد، والحلال والحرام، وعلى ما يحصل نوراً في القلوب، وهداية وخوفاً وإنابة وخشية؛ ولهذا قال: ﴿الْفُرْقَانَ وَضِيَاءَ وَذِكْرًا لِّلْمُتَّقِينَ﴾ أى: تذكيراً لهم وعظة.

ثم وصفهم فقال: ﴿الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ﴾، كقوله: ﴿مَنْ خَشِيَ الرَّحْمَنَ بِالْغَيْبِ وَجَاءَ بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ﴾ [ق: ٣٣]، وقوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ﴾ [الملك: ١٢]، ﴿وَهُمْ مِّنَ السَّاعَةِ مُشْفِقُونَ﴾ أى: خائفون وجلون.

ثم قال تعالى: ﴿وَهَذَا ذِكْرٌ مُّبَارَكٌ أَنْزَلْنَاهُ﴾ يعنى: القرآن العظيم، الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه، ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد ﴿أَفَأَنْتُمْ لَهُ مُنْكَرُونَ﴾ أى: أفتنكرونه وهو فى غاية الجلاء والظهور؟

﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِ عَالِمِينَ ﴿٥١﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا هَذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِي أَنْتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ ﴿٥٢﴾ قَالُوا وَجَدْنَا آبَاءَنَا لَهَا عَابِدِينَ ﴿٥٣﴾ قَالَ لَقَدْ كُنْتُمْ أَشْرَكَاءَ آبَاؤُكُمْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٥٤﴾ قَالُوا آجِبْنَا بِالْحَقِّ أَمْ أَنْتَ مِنَ اللَّاعِبِينَ ﴿٥٥﴾ قَالَ بَلْ رَبِّيَ كَرِيمٌ ﴿٥٦﴾ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ الَّذِى فَطَرَهُنَّ وَأَنَا عَلَىٰ ذَٰلِكُم مِّنَ الشَّاهِدِينَ ﴿٥٦﴾ ﴾

يخبر تعالى عن خليفه إبراهيم، عليه السلام، أنه آتاه رُشده من قبل، أى: من صغره ألهمه الحق والحجة على قومه، كما قال تعالى: ﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِ﴾ [الأنعام: ٨٣]، والمقصود: أن الله تعالى أخير أنه قد أتى إبراهيم رُشده، من قبل، أى: من قبل ذلك، وقوله: ﴿وَكُنَّا بِهِ عَالِمِينَ﴾ أى: وكان أهلاً لذلك.

ثم قال: ﴿إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا هَذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِي أَنْتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ﴾ هذا هو الرشد الذى أوتيه من صغره، الإنكار على قومه فى عبادة الأصنام من دون الله، عز وجل، فقال: ﴿مَا هَذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِي أَنْتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ﴾ أى: معتكفون على عبادتها. ﴿قَالُوا وَجَدْنَا آبَاءَنَا لَهَا عَابِدِينَ﴾: لم يكن لهم حجة

سوى صنيع آبائهم الضلال؛ ولهذا قال: ﴿لَقَدْ كُنْتُمْ أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ أي: الكلام مع آبائكم الذين احتججتم بصنيعهم كالكلام معكم، فأنتم وهم في ضلال على غير الطريق المستقيم.

فلما سفه أحلامهم، وضلل آباءهم، واحتقر آلهتهم ﴿قَالُوا أَجِئْنَا بِالْحَقِّ أَمْ أَنْتَ مِنَ اللَّاعِينَ﴾ يقولون: هذا الكلام الصادر عنك تقوله لاجباً أو محقاً فيه؟ فإننا لم نسمع به قبلك ﴿قَالَ بَلْ رَبُّكُمْ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ الَّذِي فَطَرَهُنَّ﴾ أي: ربكم الذي لا إله غيره، هو الذي خلق السموات والأرض وما حوت من المخلوقات الذي ابتداء خلقهن، وهو الخالق لجميع الأشياء ﴿وَأَنَا عَلَىٰ ذِكِّكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ﴾ أي: وأنا أشهد أنه لا إله غيره، ولا رب سواه.

﴿وَتَأْتِيهِمْ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَانُكُمْ بَعْدَ أَنْ تُولُوا مَدْيَرِينَ ﴿٥٧﴾ فَجَعَلَهُمْ جُذَاً إِلَّا كَبِيراً لَّهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ ﴿٥٨﴾ قَالُوا مَنْ فَعَلَ هَذَا بِآلِهَتِنَا إِنَّهُمْ لَمِنَ الظَّالِمِينَ ﴿٥٩﴾ قَالُوا سَمِعْنَا فَتَىٰ يَذُكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُ: إِبْرَاهِيمُ ﴿٦٠﴾ قَالُوا فَأَتُوا بِهِ عَلى عَينِ النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ ﴿٦١﴾ قَالُوا ءَأَنْتَ فَعَلْتَ هَذَا بِآلِهَتِنَا يَا إِبْرَاهِيمُ ﴿٦٢﴾ قَالَ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا فَشَكُّوهُمْ إِنْ كَانُوا يَنْظُرُونَ ﴿٦٣﴾﴾

ثم أقسم الخليل قسماً أسمعه بعض قومه ليكيدن أصنامهم، أي: ليحرصن على أذهام وتكسيرهم بعد أن يولوا مديريين.

وقوله: ﴿فَجَعَلَهُمْ جُذَاً﴾ أي: حطاماً، كسرهما كلها ﴿إِلَّا كَبِيراً لَهُمْ﴾ يعني: إلا الصنم الكبير عندهم كما قال: ﴿فَرَأَىٰ عَلَيْهِمْ ضَرْبًا بِالْيَمِينِ﴾ [الصفافات: ٩٣]. وقوله: ﴿لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ﴾: ذكروا أنه وضع القدم في يد كبيرهم، لعلهم يعتقدون أنه هو الذي غار لنفسه، وأنف أن تعبد معه هذه الأصنام الصغار، فكسرها. ﴿قَالُوا مَنْ فَعَلَ هَذَا بِآلِهَتِنَا إِنَّهُمْ لَمِنَ الظَّالِمِينَ﴾ أي: حين رجعوا وشاهدوا ما فعله الخليل بأصنامهم من الإهانة والإذلال الدال على قدم إلهيتها، وعلى سخافة عقول عابديها ﴿قَالُوا مَنْ فَعَلَ هَذَا بِآلِهَتِنَا إِنَّهُمْ لَمِنَ الظَّالِمِينَ﴾ أي: في صنيعه هذا ﴿قَالُوا سَمِعْنَا فَتَىٰ يَذُكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُ: إِبْرَاهِيمُ﴾ أي: قال من سمعه يحلف أنه ليكيدنهم: ﴿سَمِعْنَا فَتَىٰ﴾ أي: شاباً ﴿يَذُكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُ: إِبْرَاهِيمُ﴾ قال ابن عباس قال: ما بعث الله نبياً إلا شاباً، ولا أوتى العلم عالم إلا وهو شاب، وتلا هذه الآية: ﴿قَالُوا سَمِعْنَا فَتَىٰ يَذُكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُ: إِبْرَاهِيمُ﴾.

وقوله: ﴿تَأْتُوا فَأْتُوا بِهِ عَلَىٰ عَينِ النَّاسِ﴾ أي: على رؤوس الأشهاد في الملاء الأكبر بحضرة الناس كلهم، وكان هذا هو المقصود الأكبر لإبراهيم أن يتبين في هذا المحفل العظيم كثرة جهلهم وقلة عقلهم في عبادة هذه الأصنام التي لاتدفع عن نفسها ضراً، ولا تملك لها نصراً، فكيف يطلب منها شيء من ذلك؟

﴿قَالُوا ءَأَنْتَ فَعَلْتَ هَذَا بِآلِهَتِنَا يَا إِبْرَاهِيمُ. قَالَ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا﴾ يعني: الذي تركه لم يكسره

﴿فَسَأَلُوهُمْ إِنْ كَانُوا يَنْظِقُونَ﴾ وإنما أراد بهذا أن يبادروا من تلقاء أنفسهم، فيعترفوا أنهم لا ينطقون، فإن هذا لا يصدر عن هذا الصنم؛ لأنه جماد. وفي الصحيحين عن أبي هريرة؛ أن رسول الله ﷺ قال: «إن إبراهيم، عليه السلام، لم يكذب غير ثلاث: ثنتين في ذات الله، وقوله: ﴿بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا﴾، وقوله: ﴿إِنِّي سَقِيمٌ﴾» قال: «وبينا هو يسير في أرض جبار من الجبابرة ومعه سارة، إذ نزل منزلاً، فأتى الجبار رجل، فقال: إنه قد نزل بأرضك رجل معه امرأة أحسن الناس، فأرسل إليه فجاء، فقال: ما هذه المرأة منك؟ قال: هي أختي. قال: فاذهب فأرسل بها إلي، فانطلق إلى سارة فقال: إن هذا الجبار سألني عنك فأخبرته أنك أختي فلا تكذبيني عنده، فإنك أختي في كتاب الله، وأنه ليس في الأرض مسلم غيري وغيرك، فانطلق بها إبراهيم ثم قام يصلي. فلما أن دخلت عليه فرأها أهوى إليها، فتناولها، فأخذ أخذاً شديداً، فقال: ادعى الله لي ولا أضرك، فدعت له فأرسل، فأهوى إليها فتناولها فأخذ بمثلها أو أشد. ففعل ذلك الثالثة فأخذ، فذكر مثل المرتين الأولين، فقال: ادعى الله فلا أضرك. فدعت، له فأرسل، ثم دعا أدنى حجابيه، فقال: إنك لم تأتني بإنسان، وإنما أتيتني بشيطان، أخرجها وأعطها هاجر، فأخرجت وأعطيت هاجر، فأقبلت، فلما أحس إبراهيم بمجيئها انفتل من صلاته، قال: مهيم؟ قالت: كفى الله كيد الكافر الفاجر، وأخذمني هاجر» قال محمد بن سيرين: وكان أبو هريرة إذا حدث بهذا الحديث قال: فتلك أمكم يابني ماء السماء (١).

﴿فَرَجَعُوا إِلَىٰ أَنفُسِهِمْ فَقَالُوا إِنَّكُمْ أَنْتُمُ الظَّالِمُونَ﴾ ﴿١٤﴾ ثُمَّ نَكَسُوا عَلَىٰ رُءُوسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتُمْ مَا هَؤُلَاءِ يَنْظِقُونَ ﴿١٥﴾ قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُكُمْ شَيْئًا وَلَا يَضُرُّكُمْ ﴿١١﴾ أَمْ لَكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٧﴾

يقول تعالى مخبراً عن قوم إبراهيم حين قال لهم ما قال: ﴿فَرَجَعُوا إِلَىٰ أَنفُسِهِمْ﴾ أي: بالملامة في عدم احترازهم وحراستهم لآلهتهم، فقالوا: ﴿إِنَّكُمْ أَنْتُمُ الظَّالِمُونَ﴾ أي: في ترككم لها مهملة لا حافظ عندها، ﴿ثُمَّ نَكَسُوا عَلَىٰ رُءُوسِهِمْ﴾ أي: ثم أطرقوا في الأرض فقالوا: ﴿لَقَدْ عَلِمْتُمْ مَا هَؤُلَاءِ يَنْظِقُونَ﴾ قال قتادة: أدركت القوم حيرة سوء؛ ولهذا قالوا له: ﴿لَقَدْ عَلِمْتُمْ مَا هَؤُلَاءِ يَنْظِقُونَ﴾ فكيف تقول لنا: سلوهم إن كانوا ينطقون، وأنت تعلم أنها لا تنطق، فعندها قال لهم إبراهيم لما اعترفوا بذلك: ﴿أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُكُمْ شَيْئًا وَلَا يَضُرُّكُمْ﴾ أي: إذا كانت لا تنطق، وهي لا تضر ولا تنفع، فلم تعبدونها من دون الله ﴿أَمْ لَكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ أي: أفلا تتدبرون ما أنتم فيه من الضلال والكفر الغليظ، الذي لا يروج إلا على جاهل ظالم فاجر؟ فأقام عليهم الحجة، وألزمهم بها؛ ولهذا قال تعالى: ﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِ﴾ الآية [الانعام: ٨٣].

﴿ قَالُوا حَرِّقُوهُ وَانصُرُوا آلِهَتَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ ﴿٦٨﴾ قُلْنَا يَنْتَازُ كُوْنِي بَرْدًا
وَسَلَمًا عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ ﴿٦٩﴾ وَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَخْسَرِينَ ﴿٧٠﴾ ﴾

لما دحضت حججهم، وبان عجزهم، وظهر الحق، واندفع الباطل، عدلوا إلى استعمال جاه ملكهم، فقالوا: ﴿حَرِّقُوهُ وَانصُرُوا آلِهَتَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ﴾ فلما ألقوه قال: «حسبي الله ونعم الوكيل»، كما رواه البخارى، عن ابن عباس أنه قال: «حسبي الله ونعم الوكيل» قالها إبراهيم حين ألقى في النار، وقالها محمد حين قالوا: ﴿إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ﴾ [آل عمران: ١٧٣] (١). قال الله: ﴿يَا نَارُ كُوْنِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ﴾ عن علي بن أبي طالب: قال: لا تضربيه. وقال ابن عباس، وأبو العالية: لولا أن الله عز وجل قال: ﴿وَسَلَامًا﴾ لأذى إبراهيم بردها. وقوله: ﴿وَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَخْسَرِينَ﴾ أى: المغلوبين الأسفلين؛ لأنهم أرادوا بنى الله كيداً، فكادهم الله ونجاه من النار، فغلبوا هنالك.

﴿ وَنَجَّيْنَاهُ وَلُوطًا إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا لِلْعَالَمِينَ ﴿٧١﴾ وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً ۗ وَكُلًّا جَعَلْنَا صَالِحِينَ ﴿٧٢﴾ وَجَعَلْنَاهُمْ أُمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ وَإِقَامَ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءَ الزَّكَاةِ وَكَانُوا لَنَا عَبِيدِينَ ﴿٧٣﴾ وَلُوطًا آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ تَعْمَلُ الْفَحْشَىٰ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمَ سَوْءٍ فَاسِقِينَ ﴿٧٤﴾ وَأَدْخَلْنَاهُ فِي رَحْمَتِنَا إِنَّهُمْ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿٧٥﴾ ﴾

يقول تعالى مخبراً عن إبراهيم، أنه سلمه الله من نار قومه، وأخرجه من بين أظهرهم مهاجراً إلى بلاد الشام، إلى الأرض المقدسة منها، كما قال أبى بن كعب وأبو العالية .
وقوله: ﴿ وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً ﴾ قال عطاء، ومجاهد: عطية، وقال ابن عباس، وقتادة، والحكم بن عيينة: النافلة ولد الولد، يعنى: أن يعقوب ولد إسحاق، كما قال: ﴿فَبَشِّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ وَمِنْ وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ﴾ [هود: ٧١]. وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: سأل واحداً فقال: ﴿رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ [الصفات: ١٠٠]، فأعطاه الله إسحاق وزاده يعقوب نافلة .
﴿وَكُلًّا جَعَلْنَا صَالِحِينَ﴾ أى: الجميع أهل خير وصلاح ﴿ وَجَعَلْنَاهُمْ أُمَّةً ﴾ أى: يقتدى بهم ﴿يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا﴾ أى: يدعون إلى الله بإذنه؛ ولهذا قال: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ وَإِقَامَ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءَ الزَّكَاةِ﴾ من باب عطف الخاص على العام ﴿وَكَانُوا لَنَا عَابِدِينَ﴾ أى: فاعلين لما يأمرون الناس به .

ثم عطف بذكر لوط ، كان قد آمن بإبراهيم، واتبعه، وهاجر معه، كما قال تعالى: ﴿قَامَنَ لَهُ لُوطٌ وَقَالَ إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّي﴾ [النسكوت: ٢٦] ، فاتاه الله حكماً وعلماً، وأوحى إليه، وجعله نبياً، وبعثه إلى سدوم وأعمالها، فخالقوه وكذبوه، فأهلكهم الله ودمر عليهم ، كما قص خبرهم فى غير موضع من كتابه العزيز ؛ ولهذا قال : ﴿ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ تَعْمَلُ الْفَحْشَىٰ إِنَّهُمْ

كَانُوا قَوْمَ سَوْءٍ فَاسِقِينَ . وَأَدْخَلْنَاهُ فِي رَحْمَتِنَا إِنَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿

﴿٧٦﴾ وَنُوحًا إِذْ نَادَى مِنْ قَبْلُ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ ﴿٧٦﴾ وَنَصْرَتَهُ مِنَ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمَ سَوْءٍ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٧٧﴾ ﴿

يخبر تعالى عن استجابته لعبده ورسوله نوح، عليه السلام، حين دعا على قومه لما كذبوه: ﴿فَدَعَا رَبَّهُ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَانْتَصِرْ﴾ [القم: ١٠] ﴿ وَقَالَ نُوحٌ رَبِّ لَا تَذَرْنِي عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ ذِيئَارًا . إِنَّكَ إِنْ تَذَرْنِي يَضْلُوا عِبَادَكَ وَلَا يُلِدُوا إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا ﴾ [نوح: ٢٦، ٢٧] ولهذا قال هاهنا: ﴿إِذْ نَادَى مِنْ قَبْلُ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ﴾ أى: الذين آمنوا به كما قال: ﴿وَأَهْلَكَ إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ وَمَنْ آمَنَ وَمَا آمَنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ﴾ [هود: ٤٠] . وقوله: ﴿مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ﴾ أى: من الشدة والتكذيب والاذى، فإنه لبث فيهم ألف سنة إلا خمسين عاماً يدعوهم إلى الله عز وجل، فلم يؤمن به منهم إلا القليل، وكانوا يتصدون لأذاه، ويتواصون قرناً بعد قرن، وجيلاً بعد جيل على خلافه .

وقوله: ﴿وَنَصْرَتَاهُ﴾ أى: ونجيانه وخلصناه منتصراً ﴿مِنَ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمَ سَوْءٍ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ أى: أهلکهم الله بعامه، ولم يبق على وجه الأرض منهم أحداً؛ إذ دعا عليهم نبيهم .

﴿٧٨﴾ وَدَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِي الْحَرْثِ إِذْ نَفَسَتْ فِيهِ غَنَمُ الْقَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَاهِدِينَ ﴿٧٨﴾ فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ وَكُلًّا آتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُدَ الْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَالطَّيْرَ وَكُنَّا فَاعِلِينَ ﴿٧٩﴾ وَعَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَكُمْ لِيُحْصِنَكُمْ مِنْ بَأْسِكُمْ فَهَلْ أَنْتُمْ شَاكِرُونَ ﴿٨٠﴾ وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ عَاصِفَةً تَجْرِي بِأَمْرِهِ إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَرَكَتْنَا فِيهَا وَكُنَّا بِكُلِّ شَيْءٍ عَالِمِينَ ﴿٨١﴾ وَمِنَ الشَّيْطَانِ مَنْ يَفُوضُونَ لَهُمْ وَيَعْمَلُونَ عَمَلًا دُونَ ذَلِكَ وَكُنَّا لَهُمْ حَافِظِينَ ﴿٨٢﴾ ﴿

قال ابن عباس: النَّفْسُ: الرعى. وقال شريح، والزهرى، وقناة: النَّفْسُ بالليل. زاد قناة: والهَمْلُ بالنهار. وقال ابن جرير عن ابن مسعود فى قوله: ﴿وَدَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِي الْحَرْثِ إِذْ نَفَسَتْ فِيهِ غَنَمُ الْقَوْمِ﴾ قال: كرم قد أنبتت عناقيدته، فأفسدته. قال: ففضى داود بالغنم لصاحب الكرم، فقال سليمان: غير هذا يا نبي الله! قال: وما ذاك؟ قال: تدفع الكرم إلى صاحب الغنم، فيقوم عليه حتى يعود كما كان، وتدفع الغنم إلى صاحب الكرم فيصيب منها حتى إذا كان الكرم كما كان دفعت الكرم إلى صاحبه، ودفعت الغنم إلى صاحبها، فذلك قوله: ﴿فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ﴾ .

وقوله: ﴿فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ وَكُلًّا آتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا﴾ قال حميد: إن إياس بن معاوية لما استقضى أياه الحسن فبكى، قال: ما يبكيك؟ قال: يا أبا سعيد، بلغنى أن القضاة: رجل اجتهد

فأخطأ، فهو في النار، ورجل مال به الهوى فهو في النار، ورجل اجتهد فأصاب فهو في الجنة. فقال الحسن البصرى: إن فيما قص الله من نبأ داود وسليمان، عليهما السلام، والأنبياء حكماً يرد قول هؤلاء الناس عن قولهم، قال الله تعالى: ﴿وَدَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِي الْحَرْثِ إِذْ نَفِثَتْ فِيهِ غَمٌّ الْقَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَاهِدِينَ﴾ فأننى الله على سليمان ولم يذم داود. ثم قال - يعنى: الحسن : إن الله اتخذ على الحكماء ثلاثاً: لا يشتركون به ثمناً قليلاً، ولا يتبعون فيه الهوى، ولا يخشون فيه أحداً، ثم تلا: ﴿يَا دَاوُدُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَى فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾ [ص: ٢٦] وقال: ﴿فَلَا تَخْشَوُا النَّاسَ وَخَشَوُا اللَّهَ﴾ [المائدة: ٤٤] ، وقال: ﴿وَلَا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ [المائدة: ٤٤].

قلت: أما الأنبياء، عليهم السلام، فكلهم معصومون مؤيدون من الله عز وجل. وهذا مما لا خلاف فيه بين العلماء المحققين من السلف والخلف، وأما من سواهم فقد ثبت فى صحيح البخارى، عن عمرو بن العاص أنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا اجتهد الحاكم فأصاب فله أجران، وإذا اجتهد فأخطأ فله أجر» (١)، فهذا الحديث يرد نصاً ما توهمه «إياس» من أن القاضى إذا اجتهد فأخطأ فهو فى النار، والله أعلم. وفى السنن : «القضاة ثلاثة: قاض فى الجنة، وقاضيان فى النار: رجل علم الحق وقضى به فهو فى الجنة، ورجل حكم بين الناس على جهل فهو فى النار، ورجل علم الحق وقضى بخلافه، فهو فى النار» (٢). وقريب من هذه القصة المذكورة فى القرآن ما رواه الإمام أحمد عن أبى هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «بينما امرأتان معهما ابنان لهما، جاء الذئب فأخذ أحد الابنين، فتحاكما إلى داود، فقضى به للكبرى، فخرجتا. فدعاهما سليمان فقال: هاتوا السكين أشقه بينهما، فقالت الصغرى: يرحمك الله هو ابنها، لا تشقه، فقضى به للصغرى». وأخرجه البخارى ومسلم (٣).

وقوله: ﴿وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُدَ الْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَالطَّيْرَ وَكُنَّا فَاعِلِينَ﴾ وذلك لطيب صوته بتلاوة كتابه الزبور، وكان إذا ترنم به تقف الطير فى الهواء، فتجاوبه، وترد عليه الجبال تأويهاً؛ ولهذا لما مرَّ النبى ﷺ على أبى موسى الأشعرى، وهو يتلو القرآن من الليل، وكان له صوت طيب، فوقف واستمع لقراءته، وقال: «لقد أوتى هذا من مزامير آل داود». قال يارسول الله، لو علمت أنك تسمع خبرته لك تحبيراً (٤).

وقوله: ﴿وَعَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَكُمْ لِيَحْنِتَكُمْ مِنْ أَسْكُم﴾ يعنى صنعة الدروع. قال قتادة: إنما كانت الدروع قبله صفائح، وهو أول من سردها حلقاتاً. كما قال تعالى: ﴿وَأَلَّنَا لَهُ الْحَدِيدَ. أَنْ أَعْمَلَ سَابِغَاتٍ وَقَدِّرَ فِي السَّرْدِ﴾ [سبا: ١٠، ١١] أى: لا توسع الحلقة فتقلق المسمار، ولا تغلظ المسمار فتقد

(١) البخارى (٧٣٥٢). (٢) أبو داود (٣٥٧٣) وابن ماجه (٢٣١٥)، وصححه الألبانى .

(٣) المسند (٨٢٦٣)، والبخارى (٦٧٦٩) ومسلم (١٧٢٠ / ٢٠).

(٤) البخارى (٥٠٤٨).

الْحَلْفَةَ ؛ ولهذا قال : ﴿لِيُحْصِنَكُمْ مِنْ بَأْسِكُمْ﴾ يعنى : فى القتال ، ﴿فَهَلْ أَنْتُمْ شَاكِرُونَ﴾ أى : نعم الله عليكم ، لما ألهم به عبده داود ، فعلمه ذلك من أجلكم .

وقوله : ﴿وَلَسَلِيمَانَ الرِّيحَ عَاصِفَةً﴾ أى : وسخرنا لسليمان الريح العاصفة ﴿تَجْرِي بِأَمْرِ إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا﴾ يعنى أرض الشام ﴿وَكُنَّا بِكُلِّ شَيْءٍ عَالِمِينَ﴾ . وقوله : ﴿وَمِنَ الشَّيَاطِينِ مَنْ يَفُوضُونَ لَهُ﴾ أى : فى الماء يستخرجون اللآلىء [وغير ذلك . ﴿وَيَعْمَلُونَ عَمَلًا دُونَ ذَلِكَ﴾ أى : غير ذلك ، كما قال تعالى : ﴿وَالشَّيَاطِينُ كُلُّ بِنَاءٍ وَغَوَاصٍ . وَآخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِي الْأَصْفَادِ﴾ [ص : ٣٧ ، ٣٨] .
وقوله : ﴿وَكُنَّا لَهُمْ حَافِظِينَ﴾ أى : يحرسه الله أن يناله أحد من الشياطين بسوء ، بل كل فى قبضته وتحت قهره لا يتجاسر أحد منهم على الدنو إليه والقرب منه ، بل هو مُحَكَّمٌ فيهم ، إن شاء أطلق ، وإن شاء حبس منهم من يشاء ؛ ولهذا قال : ﴿وَآخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِي الْأَصْفَادِ﴾ .

﴿وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَى رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾
رَبِّع
فَأَسْتَجِبْنَا لَهُ فَكَشَفْنَا مَا بِهِ مِنْ ضُرِّهِ وَأَتَيْنَاهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُمْ مَعَهُمْ رَحْمَةً مِّنْ عِنْدِنَا وَذِكْرَى لِلْعَابِدِينَ

يذكر تعالى عن أيوب ، عليه السلام ، ما كان أصابه من البلاء ، فى ماله وولده وجسده ، وذلك أنه كان له من الدواب والأنعام والحراث شئ كثير ، وأولاد كثيرة ، ومنازل مرضية . فابتلى فى ذلك كله ، وذهب عن آخره ، ثم ابتلى فى جسده يقال : بالجدام فى سائر بدنه ، ولم يبق منه سليم سوى قلبه ولسانه ، يذكر بهما الله عز وجل ، حتى عافه الجليس ، وأفرد فى ناحية من البلد ، ولم يبق من الناس أحد يحنو عليه سوى زوجته ، كانت تقوم بأمره ، ويقال : إنها احتاجت فصارت تخدم الناس من أجله ، وقد قال النبى ﷺ : « أشد الناس بلاء الأنبياء ، ثم الصالحون ، ثم الأمثل فالأمثل »^(١) وفى الحديث الآخر : « يبتلى الرجل على قدر دينه ، فإن كان فى دينه صلابة زيد فى بلائه »^(٢) . وقد كان نبى الله أيوب ، عليه السلام ، غاية فى الصبر ، وبه يضرب المثل فى ذلك . عن أبى هريرة ، عن النبى ﷺ قال : « لما عافى الله أيوب ، أمطر عليه جرأداً من ذهب ، فجعل يأخذ بيده ويجعله فى ثوبه » . قال : « فقيل له : يا أيوب ، أما تشبع ؟ قال : يا رب ، ومن يشبع من رحمتك » . أصله فى الصحيحين^(٣) .

وقوله : ﴿وَأَتَيْنَاهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُمْ مَعَهُمْ﴾ عن ابن عباس أنه قال : ردوا عليه بأعيانهم . وروى مثله عن ابن مسعود ومجاهد ، وبه قال الحسن وقتادة . وقد زعم بعضهم أن اسم زوجته رحمة ، فإن كان أخذ ذلك من سياق الآية فقد أبعد النجعة ، وإن كان أخذه من نقل أهل الكتاب ، وضح ذلك عنهم ، فهو مما لا يصدق ولا يكذب . وقوله : ﴿رَحْمَةً مِّنْ عِنْدِنَا﴾ أى : فعلنا به ذلك رحمة

(١ ، ٢) المسند (١٤٨١) وقال أحمد شاكر : « إسناده صحيح » . والترمذى (٢٣٩٨) وقال : « حديث حسن صحيح » .
(٣) الحاكم فى المستدرک (٢ / ٥٨٢) ، وقال : « حديث صحيح على شرط البخارى ولم يخرجاه » . والبخارى (٣٣٩١) ، ولم أقف عليه فى مسلم ورواه أحمد فى المسند (٧٣٠٧) وقال الشيخ أحمد شاكر : « إسناده صحيح وذكره ابن كثير ... ثم ذكر أن البخارى رواه من هذا الوجه » .

من الله به ﴿وَذِكْرَىٰ لِلْعَابِدِينَ﴾ أى: وجعلناه فى ذلك قدوة، لثلا يظن أهل البلاء أننا فعلنا بهم ذلك لهوانهم علينا، وليتأسوا به فى الصبر على مقدرات الله وابتلائه لعباده بما يشاء، وله الحكمة البالغة فى ذلك.

﴿وَإِسْمَاعِيلَ وَإِدْرِيسَ وَذَا الْكِفْلِ كُلٌّ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٨٥﴾ وَأَدْحَانَهُمْ فِي رَحْمَتِنَا إِنَّهُمْ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿٨٦﴾﴾

أما إسماعيل فالمراد به ابن إبراهيم الخليل، عليهما السلام، وقد تقدم ذكره فى سورة مريم، وكذلك إدريس، عليه السلام. وأما ذو الكفل فالظاهر من السياق أنه ما قرن مع الأنبياء إلا وهو نبي. وقال آخرون: إنما كان رجلاً صالحاً، وكان ملكاً عادلاً، وحكماً مقسطاً، وتوقف ابن جرير فى ذلك، فالله أعلم. وقال ابن جرير، عن مجاهد فى قوله: ﴿وَذَا الْكِفْلِ﴾ قال: رجل صالح غير نبي، تكفل لنبي قومه أن يكفيه أمر قومه ويقيمهم له ويقضى بينهم بالعدل، ففعل ذلك، فسمى: ذا الكفل. وكذا روى ابن أبى نجیح، عن مجاهد أيضاً.

﴿وَذَا النُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغْضِبًا فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَىٰ فِي الظُّلُمَاتِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ ﴿٨٧﴾ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَجَجَّيْنَاهُ مِنَ الغَمِّ وَكَذَلِكَ نُنشِئُ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٨﴾﴾

هذه القصة مذكورة ها هنا وفى سورة «الصفات» وفى سورة «ن» وذلك أن يونس بن متى، عليه السلام، بعثه الله إلى أهل قرية «نينوى»، وهى قرية من أرض الموصل، فدعاهم إلى الله، فأبوا عليه وتمادوا على كفرهم، فخرج من بين أظهرهم مغاضباً لهم، ووعدهم بالعذاب بعد ثلاث. فلما تحققوا منه ذلك، وعلموا أن النبي لا يكذب، خرجوا إلى الصحراء بأطفالهم وأنعامهم ومواشيهم، وفرقوا بين الأمهات وأولادها، ثم تضرعوا إلى الله عز وجل، وجأروا إليه، ورغت الإبل وفُضِّلَناها، وخارت البقر وأولادها، وثغت الغنم وحُمِّلَناها، فرغ الله عنهم العذاب، قال الله تعالى: ﴿فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ آمَنَتْ فَنَفَعَهَا إِيمَانُهَا إِلَّا قَوْمٌ يُونُسَ لَمَا آمَنُوا كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَىٰ حِينٍ﴾ [يونس: ٩٨].

وأما يونس، عليه السلام، فإنه ذهب فركب مع قوم فى سفينة فلججت بهم، وخافوا أن يغرقوا. فافترعوا على رجل يلقونه من بينهم يتخفون منه، فوقعت القرعة على يونس، فأبوا أن يلقوه، ثم أعادوا القرعة فوقعت عليه أيضاً، فأبوا، ثم أعادوها فوقعت عليه أيضاً، قال الله تعالى: ﴿فَسَاءَ مَا كَانُوا مِنَ الْمُدْحَضِينَ﴾ [الصفات: ١٤١]، أى: وقعت عليه القرعة، فقام يونس، عليه السلام، وتجرد من ثيابه، ثم ألقى نفسه فى البحر، وقد أرسل الله، سبحانه حوتاً فالتقم يونس حين ألقى نفسه من السفينة، فأوحى الله إلى ذلك الحوت ألا تأكل له لحماً، ولا تهشم له عظماً؛ فإن يونس ليس لك رزقا، وإنما بطنك تكون له سجنًا.

وقوله: ﴿وَذَا التُّونِ﴾ يعني: الحوت، صحت الإضافة إليه بهذه النسبة ﴿إِذْ ذُهِبَ مُغَاضِبًا﴾ قال الضحاك: لقومه ﴿فَظَنُّ أَنْ لَنْ نُقَدِّرَ عَلَيْهِ﴾ أى: نضيق عليه فى بطن الحوت. يروى نحو هذا عن ابن عباس، ومجاهد، والضحاك، وغيرهم، واختاره ابن جرير، واستشهد عليه بقوله تعالى: ﴿وَمَنْ قُدِّرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ فَلْيُنْفِقْ مِمَّا آتَاهُ اللَّهُ لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَا آتَاهَا سَيَجْعَلُ اللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا﴾ [الطلاق: ٧]. وقال عطية العوفى: ﴿فَظَنُّ أَنْ لَنْ نُقَدِّرَ عَلَيْهِ﴾ أى: نقضى عليه، كأنه جعل ذلك بمعنى التقدير، فإن العرب تقول: قَدَرَ وقَدَّر بمعنى واحد ومنه قوله تعالى: ﴿فَالْتَقَى الْمَاءُ عَلَىٰ أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ﴾ [القمر: ١٢]، أى: قَدَّر. وقوله: ﴿فَنَادَىٰ فِي الظُّلُمَاتِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ قال ابن مسعود: ظلمة بطن الحوت، وظلمة البحر، وظلمة الليل. وكذا روى عن ابن عباس، وسعيد بن جبيرة، والحسن، وقتادة.

وقوله: ﴿فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الغَمِّ﴾ أى: أخرجناه من بطن الحوت، وتلك الظلمات ﴿وَكَذَلِكَ نُنْجِي الْمُؤْمِنِينَ﴾ أى: إذا كانوا فى الشدائد ودَعَوْنَا مَنِينِينَ إلينا، ولا سيما إذا دعوا بهذا الدعاء فى حال البلاء، فقد جاء الترغيب فى الدعاء بها عن سيد الأنبياء، روى الإمام أحمد عن سعد بن أبى وقاص قال: مررت بعثمان بن عفان فى المسجد، فسلمت عليه، فملا عينيه منى ثم لم يردد على السلام، فأتيت عمر بن الخطاب فقلت: يا أمير المؤمنين، هل حدث فى الإسلام شيء؟ مرتين، قال: لا، وما ذاك؟ قلت: لا، إلا أنى مررت بعثمان أنفا فى المسجد، فسلمت عليه، فملا عينيه منى، ثم لم يردد على السلام. قال: فأرسل عمر إلى عثمان فدعاه، فقال: ما منعك ألا تكون رددت على أخيك السلام؟ قال: ما فعلت. قال سعد: قلت: بلى. حتى حلف وحلفت، قال: ثم إن عثمان ذكر فقال: بلى، وأستغفر الله وأتوب إليه، إنك مررت بى أنفا وأنا أحدث نفسى بكلمة سمعتها من رسول الله ﷺ لا والله ما ذكرتها قط إلا تغشى بصرى وقلبى غشاوة. قال سعد: فأنا أثبتك بها، إن رسول الله ﷺ ذكر لنا أول دعوة ثم جاء أعرابى فشغله، حتى قام رسول الله ﷺ فاتبعته، فلما أشفقت أن يسقنى إلى منزله ضربت بقدمى الأرض، فالتفت إلى رسول الله ﷺ فقال: «من هذا؟ أبو إسحاق؟» قال: قلت: نعم، يا رسول الله. قال: «فمه؟» قلت: لا والله، إلا أنك ذكرت لنا أول دعوة، ثم جاء هذا الأعرابى فشغلك. قال: «نعم، دعوة ذى النون، إذ هو فى بطن الحوت: ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾، فإنه لم يدع بها مسلم ربه فى شيء قط إلا استجاب له». ورواه الترمذى، والنسائى (١).

﴿وَزَكَرِيَّا إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ رَبِّ لَا تَذَرْنِي فَرْدًا وَأَنْتَ خَيْرُ الْوَارِثِينَ﴾ (٨٩)
 ﴿فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَوَهَبْنَا لَهُ يَحْيَىٰ وَأَصْلَحْنَاهُ لَهُمْ زَوْجًا إِنَّهُمْ كَانُوا يُسْئِرُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا لَنَا خَشِيعِينَ﴾ (٩٠)

يخبر تعالى عن عبده زكريا، حين طلب أن يهبه الله ولدا، يكون من بعده نبيا. وقد تقدمت القصة مبسوطه فى أول سورة «مريم» وفى سورة «آل عمران» أيضا، وها هنا أخصر

(١) المسند (١٤٦٢) وقال الشيخ أحمد شاكر: «إسناده صحيح» والترمذى (٣٥٠٥) والنسائى فى الكبرى (١٠٤٩٢).

منهما ﴿إِذْ نَادَى رَبَّهُ﴾ أى: خفية عن قومه: ﴿رَبِّ لَا تَذَرْنِي فَرْدًا﴾ أى: لا ولد لى ولا وارث يقوم بعدي فى الناس، ﴿وَأَنْتَ خَيْرُ الْوَارِثِينَ﴾ دعاء وثناء مناسب للمسألة. قال الله تعالى: ﴿فَأَسْتَجِبْنَا لَهُ وَوَهَبْنَا لَهُ يُحْيَىٰ وَصَلَحْنَا لَهُ زَوْجَهُ﴾ أى: امرأته. قال ابن عباس، ومجاهد، وسعيد بن جبيرة: كانت عاقراً لا تلد، فولدت.

وقوله: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ﴾ أى: فى عمل القربات وفعل الطاعات ﴿وَيَدْعُونَنَا رَغْبًا وَرَهْبًا﴾ قال الثورى: ﴿رَغْبًا﴾ فيما عندنا، و﴿رَهْبًا﴾ مما عندنا ﴿وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ﴾ قال ابن عباس: أى مصدقين بما أنزل الله. وقال مجاهد: مؤمنين حقاً. وقال أبو العالية: خائفين. وقال أبو سنان: الخشوع هو الخوف اللازم للقلب، لا يفارقه أبداً. وقال الحسن، وقادة، والضحاك: ﴿خَاشِعِينَ﴾ أى: متذللين لله عز وجل. وكل هذه الأقوال متقاربة. وروى ابن أبى حاتم: عن عبد الله ابن حكيم قال: خطبنا أبو بكر، رضى الله عنه، ثم قال: أما بعد، فإنى أوصيكم بتقوى الله، وتشتوا عليه بما هو له أهل، وتخلطوا الرغبة بالرهبة، وتجمعوا الإلحاف بالمسألة، فإن الله عز وجل أثنى على زكريا وأهل بيته، فقال: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغْبًا وَرَهْبًا وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ﴾.

﴿وَالَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهَا مِنْ رُوحِنَا وَجَعَلْنَاهَا وَابْنَهَا آيَةً لِلْعَالَمِينَ﴾

﴿٩١﴾

هكذا يذكر تعالى قصة مريم وابنها عيسى، عليه السلام، مقرونة بقصة زكريا وابنه يحيى، عليهما السلام، فيذكر أولاً قصة زكريا، ثم يتبعها بقصة مريم؛ لأن تلك مربوطه بهذه، فإنها إيجاد ولد من شيخ كبير قد طعن فى السن، ومن امرأة عجوز عاقر لم تكن تلد فى حال شبابها، ثم يذكر قصة مريم وهى أعجب، فإنها إيجاد ولد من أنثى بلا ذكر. هكذا وقع فى سورة «آل عمران»، وفى سورة «مريم»، وها هنا ذكر قصة زكريا، ثم أتبعها بقصة مريم، بقوله: ﴿وَالَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا﴾ يعنى: مريم، عليها السلام، كما قال فى سورة التحريم: ﴿وَمَرْيَمَ ابْنَتَ عِمْرَانَ الَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِنْ رُوحِنَا﴾ [التحريم: ١٢].

وقوله: ﴿وَجَعَلْنَاهَا وَابْنَهَا آيَةً لِلْعَالَمِينَ﴾ أى: دلالة على أن الله على كل شىء قدير، وأنه يخلق ما يشاء، و﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ [يس: ٨٢]. وهذا كقوله: ﴿وَلِنَجْعَلَهُ آيَةً لِلنَّاسِ﴾ [مريم: ٢١]

﴿إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ﴾ ﴿٩٢﴾ وَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ كُلُّ الْإِنسَانِ رَاجِعٌ إِلَىٰ رَبِّهِمْ ﴿٩٣﴾ فَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا كُفْرَانَ لِسَعْيِهِ وَإِنَّا لَهُ كَنُوبٌ ﴿٩٤﴾

قال ابن عباس، ومجاهد، وسعيد بن جبيرة، وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم فى قوله: ﴿إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾، يقول: دينكم دين واحد. وقال الحسن البصرى فى هذه الآية: بين

لهم ما يتقون وما يأتون ثم قال: ﴿إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾ أى : سنتكم سنة واحدة . فقوله : ﴿إِنَّ هَذِهِ﴾ : إن واسمها، و﴿أُمَّتُكُمْ﴾ خبر إن، أى: هذه شريعتكم التى بينت لكم ووضحت لكم، وقوله : ﴿أُمَّةً وَاحِدَةً﴾ نصب على الحال؛ ولهذا قال : ﴿وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُون﴾ ، كما قال : ﴿يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ . وَإِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُون﴾ [المؤمنون : ٥١ ، ٥٢] ، وقال رسول الله ﷺ : « نحن معشر الأنبياء أولاد علات ديننا واحد» (١) ، يعنى: أن المقصود هو عبادة الله وحده لا شريك له بشرائع متنوعة لرسله، كما قال تعالى: ﴿لِكُلِّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾ [المائدة: ٤٨].

وقوله: ﴿وَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ﴾ أى: اختلفت الأمم على رسلها، فمن بين مَصَدَق لهم ومكذب؛ ولهذا قال: ﴿كُلُّ إِنَّا رَاجِعُونَ﴾ أى: يوم القيامة، فيجازى كل بحسب عمله، إن خيراً فخير، وإن شراً فشر؛ ولهذا قال: ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾ أى: قلبه مصدق، وعمل عملاً صالحاً ﴿فَلَا كُفْرَانَ لِسَعْيِهِ﴾ كقوله: ﴿إِنَّا لَا نَضِيعُ أجرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا﴾ [الكهف: ٣٠] أى: لا يكفر سعيه، وهو عمله، بل يشكر، فلا يظلم مثقال ذرة؛ ولهذا قال: ﴿وَأَنَا لَهُ كَاتِبُونَ﴾ أى: يكتب جميع عمله، فلا يضيع عليه منه شيء.

﴿وَحَرَامٌ عَلَى قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا أَنَّهُمْ لَا يَرْجِعُونَ﴾ ﴿٩٥﴾ حَقٌّ إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ وَهُمْ مِنْ كُلِّ حَدَبٍ يَنْسِلُونَ ﴿٩٦﴾ وَأَقْتَرَبَ الْوَعْدُ الْحَقُّ فَإِذَا هِيَ شَاخِصَةٌ أَبْصَرُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِبْوَالًا قَدْ كُنَّا فِي غَفْلَةٍ مِنْ هَذَا بَلْ كُنَّا ظَالِمِينَ ﴿٩٧﴾

يقول تعالى: ﴿وَحَرَامٌ عَلَى قَرْيَةٍ﴾ قال ابن عباس: قد قدر أن أهل كل قرية أهلكوا أنهم لا يرجعون إلى الدنيا قبل يوم القيامة . هكذا صرح به ابن عباس ، وقتادة، وغير واحد . وقوله: ﴿حَتَّى إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ﴾ : قد قدمنا أنهم من سلالة آدم، عليه السلام، بل هم من نسل نوح أيضاً، من أولاد يافث أبى الترك، والترك شردمة منهم، تركوا من وراء السد الذى بناه ذو القرنى وقال: ﴿هَذَا رَحْمَةٌ مِنْ رَبِّي فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ رَبِّي جَعَلَهُ دَكَّاءَ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقًّا . وَتَرَكَنَا بَعْضُهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجٌ فِي بَعْضٍ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَجَمَعْنَاهُمْ جَمْعًا﴾ [الكهف: ٩٨ ، ٩٩]، وقال فى هذه الآية الكريمة: ﴿حَتَّى إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ وَهُمْ مِنْ كُلِّ حَدَبٍ يَنْسِلُونَ﴾ أى: يسرعون فى المشى إلى الفساد.

والحدب: هو المرتفع من الأرض، قاله ابن عباس، وعكرمة، والثورى وغيرهم، وهذه صفتهم فى حال خروجهم، كأن السامع مشاهد لذلك، ﴿وَلَا يُبْنِكُ مِثْلَ خَبِيرٍ﴾ [فاطر: ١٤]: هذا إخبار عالم ما كان وما يكون، الذى يعلم غيب السموات والأرض، لا إله إلا هو .

وقد ورد ذكر خروجهم فى أحاديث متعددة من السنة النبوية:

روى الإمام أحمد: عن أبى سعيد الخدرى قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: يُفْتَحُ

يأجوجُ ومأجوجُ، فيخرجون [على الناس] كما قال الله عز وجل: ﴿وَهُمْ مِنْ كُلِّ حَدَبٍ يَسْلُونُ﴾، فيغشون الناس، وينحاز المسلمون عنهم إلى مدائنهم وحصونهم، ويضمون إليهم مواشيهم، ويشربون مياه الأرض، حتى إن بعضهم ليمر بالنهر، فيشربون ما فيه حتى يتركوه يبسا، حتى إن من بعدهم ليمر بذلك النهر فيقول: قد كان ها هنا ماء مرة، حتى إذا لم يبق من الناس أحد إلا أحد في حصن أو مدينة قال قائلهم: هؤلاء أهل الأرض، قد فرغنا منهم، بقي أهل السماء. قال: «ثم يهزأ أحدهم حربته، ثم يرمى بها إلى السماء، فترجع إليه مُخْتَضِبَةً دما؛ للبلاء والقتلة. فبينما هم على ذلك إذ بعث الله عز وجل دودا في أعناقهم كَنَغْفِ الجراد الذي يخرج في أعناقه، فيصبحون موتى لا يُسْمَعُ لهم حِس، فيقول المسلمون: ألا رجل يَشْرِى نفسه، فينظر ما فعل هذا العدو؟» قال: «فيتجرد رجل منهم محتسبا نفسه، قد أوطنها على أنه مقتول، فينزل فيجدهم موتى، بعضهم على بعض، فينادى: يا معشر المسلمين، ألا أبشروا، إن الله عز وجل قد كفاكم عدوكم، فيخرجون من مدائنهم وحصونهم ويُسَرِّحُونَ مواشيهم، فما يكون لها رعى إلا لحومهم، فَتَشْكُرُ عنه كاحسن ما شكرت عن شيء من النبات أصابته قط. ورواه ابن ماجه^(١).

وروى الإمام أحمد أيضا عن النَّوَّاسِ بْنِ سَمْعَانَ الكلابي قال: ذكر رسول الله ﷺ الدجال ذات غداة، فحَفَّضَ فيه ورفَع، حتى ظنناه في طائفة النخل فقال: «غير الدجال أخوفنى عليكم، فإن يخرج وأنا فيكم فأنا حَجِيجُهُ دونكم، وإن يخرج ولست فيكم فامرؤ حجيج نفسه، والله خليفتي على كل مسلم: إنه شاب جَعْدٌ قَطَطٌ عينه طافية، وإنه يخرج خَلَّةً بين الشام والعراق، فعات يمينا وشمالا، يا عباد الله اثبتوا». قلنا: يا رسول الله، ما لبثه في الأرض؟ قال: «أربعين يوما، يوم كسنة، ويوم كشهر، ويوم كجمعة، وسائر أيامه كأيامكم». قلنا: يا رسول الله، فذاك اليوم الذي هو كسنة، أتكفيناه فيه صلاة يوم وليلة؟ قال: «لا، اقدروا له قدره». قلنا: يا رسول الله، فما إسرعه في الأرض؟ قال: «كالغيث استدبرته الريح». قال: «فيمر بالحي فيدعوهم فيستجيبون له، فيأمر السماء فتمطر، والأرض فتنبت، وتروح عليهم سارحتهم وهي أطول ما كانت ذُرَى، وأمدته خواصر، وأسبغه ضروعا. ويمر بالحي فيدعوهم فيردون عليه قوله، فتتبعه أموالهم، فيصبحون مُمَحْلِينَ، ليس لهم من أموالهم. ويمر بالخرية فيقول لها: أخرجي كنوزك، فتتبعه كنوزها كيغاسيب النحل». قال: «ويأمر برجل فيقتل، فيضربه بالسيف فيقطعه جَزَلَتَيْنِ رَمِيَّةَ الغَرَضِ، ثم يدعوه فيقبل إليه يتهلل وجهه. فبينما هم على ذلك، إذ بعث الله عز وجل المسيح ابن مريم، فينزل عند المنارة البيضاء، شرقي دمشق، بين مَهْرُودَتَيْنِ واضعا يَدَهُ على أجنحة ملكين، فيتبعه فيدركه، فيقتله عند باب لُدَّ الشرقي».

قال: «فبينما هم كذلك، إذ أوحى الله عز وجل إلى عيسى ابن مريم: أنى قد أخرجت عابادا من عبادى لا يدان لك بقتالهم، فَحَوَّزَ عبادى إلى الطور، فبيعت الله عز وجل يأجوج

(١) المسند (٣ / ٧٧) وابن ماجه (٤٠٧٩)، وقال الالباني: «حسن صحيح»، وما بين المعقوفين ليس فى المطبوعة أو للمخطوطة، وأثبتناه من المسند.

ومأجوج، وهم كما قال الله: ﴿مَنْ كُلِّ حَدَبٍ يَنْسِلُونَ﴾، فيرغب عيسى وأصحابه إلى الله عز وجل، فيرسل الله عليهم نغفاً في رقابهم، فيصبحون فرسى، كموت نفس واحدة. فيهبط عيسى وأصحابه، فلا يجدون في الأرض بيتاً إلا قد ملاء زهمهم وتنتهم، فيرغب عيسى وأصحابه إلى الله، فيرسل عليهم طيراً كأعناق البخت، فتحملهم فتطرحهم حيث شاء الله.

قال ابن جابر: فحدثني عطاء بن يزيد السكسكى، عن كعب - أو غيره - قال: فتطرحهم بالمهبل. [قال ابن جابر: فقلت: يا أبا يزيد، وأين المهبل؟ (١)، قال: مطلع الشمس. قال: «ويرسل الله مطراً لا يكن منه بيت مدر ولا وبر أربعين يوماً، فيغسل الأرض حتى يتركها كالزلقة، ويقال للأرض: أنبتى ثمرتك، وردى بركتك». قال: «فيومئذ يأكل النفر من الرمانة ويستظلون بقحفها، ويبارك في الرسل، حتى إن اللقحة من الإبل لتكفى الفتام من الناس، واللقحة من البقر تكفى الفخذ، والشاة من الغنم تكفى أهل البيت». قال: «فبينما هم على ذلك، إذ بعث الله عز وجل ريحا طيبة تحت آباطهم، فتقبض روح كل مسلم - أو قال: كل مؤمن - ويبقى شرار الناس يتهارجون تهارج الحمير، وعليهم تقوم الساعة». انفرد بإخراجه مسلم دون البخارى، ورواه أهل السنن. وقال الترمذى: حسن صحيح (٢).

وقد تقدم في سورة الأعراف من رواية الإمام أحمد، عن ابن مسعود، عن رسول الله ﷺ قال: «لقيت ليلة أسرى بى إبراهيم وموسى وعيسى، عليهم السلام، قال: فتذكروا أمر الساعة، فردوا أمرهم إلى إبراهيم، فقال: لا علم لى بها، فردوا أمرهم إلى موسى، فقال: لا علم لى بها. أما وجبتها فلا يعلم بها أحد إلا الله، وفيها عهد إلى ربى أن الدجال خارج». قال: «ومعى قضيبان، فإذا رأنى ذاب كما يذوب الرصاص» قال: «فيهلكه الله إذا رآنى، حتى إن الحجر والشجر يقول: يا مسلم إن تحتى كافراً، فتعال فاقتله». قال: «فيهلكهم الله، ثم يرجع الناس إلى بلادهم وأوطانهم». قال: «فعند ذلك يخرج يأجوج ومأجوج وهم من كل حدب ينسلون، فيطؤون بلادهم، لا يأتون على شيء إلا أهلكوه، ولا يبرون على ماء إلا شربوه». قال: «ثم يرجع الناس إلى يشكونهم، فادعو الله عليهم، فيهلكهم ويميتهم، حتى تجوى الأرض من نتن ريحهم، وينزل الله المطر فيجترف أجسادهم، حتى يقذفهم فى البحر. ففيما عهد إلى ربى أن ذلك إذا كان كذلك، أن الساعة كالحامل المتئم، لا يدري أهلها متى تفجؤهم بولدها ليلاً أو نهاراً». ورواه ابن ماجه، ورواه ابن جرير (٣) والأحاديث فى هذا كثيرة جدا، والآثار عن السلف كذلك. وروى الإمام أحمد عن أبى سعيد قال: قال رسول الله ﷺ: «ليُحجَّنَّ هذا البيت، وليُعتمرنَّ بعد خروج يأجوج ومأجوج». انفرد بإخراجه البخارى (٤).

(١) فى المطبوعة فى الموضعين : «المهبل» بالياء المثناة التحتية بعد الهاء، وهو خطأ ، والصحيح ما أثبتته من المسند والمخطوطة ، بالياء الموحدة . ، وانظر النهاية فى غريب الحديث (٥ / ٢٤١) .
(٢) المسند (٤ / ١٨١) ومسلم (٢٩٣٧ / ١١٠) وأبو داود (٤٣٢١) والترمذى (٢٢٤٠) .
(٣) تفسير الطبرى (١٧ / ٧٢) .
(٤) المسند (٣ / ٢٧) والبخارى (١٥٩٣) .

وقوله: ﴿وَأَقْرَبَ الْوَعْدُ الْحَقُّ﴾ يعني: يوم القيامة، إذا حصلت هذه الأهوال والزلازل والبلابل، أزفت الساعة واقتربت، فإذا كانت وقعت قال الكافرون: ﴿هَذَا يَوْمٌ عَسِرٌ﴾ [القمر: ٨]. ولهذا قال تعالى: ﴿فَإِذَا هِيَ شَاخِصَةٌ أَبْصَارُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ أي: من شدة ما يشاهدونه من الأمور العظام ﴿يَا وَيْلَنَا﴾ أي: يقولون: ﴿يَا وَيْلَنَا قَدْ كُنَّا فِي غَفْلَةٍ مِنْ هَذَا﴾ أي: في الدنيا ﴿بَلْ كُنَّا ظَالِمِينَ﴾ يعترفون بظلمهم لأنفسهم، حيث لا ينفعهم ذلك.

﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنْتُمْ لَهَا وَارِدُونَ﴾
 ﴿لَوْ كَانَ هُوَ آلَاءَ إِلَهَةٍ مَا وَّرَدُوهَا وَكُلٌّ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ ﴿٩٩﴾ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ
 وَهُمْ فِيهَا لَا يَسْمَعُونَ ﴿١٠٠﴾ إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحُسْنَىٰ أُولَٰئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ
 لَا يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا وَهُمْ فِي مَا اشْتَهَتْ أَنفُسُهُمْ خَالِدُونَ ﴿١٠١﴾ لَا يَحْزَنُهُمْ
 الْفَرَعُ الْأَكْبَرُ وَنَلَقْنَاهُمُ الْمَلَائِكَةَ هَذَا يَوْمَئِذٍ الَّذِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ ﴿١٠٢﴾

يقول تعالى مخاطبا لأهل مكة من مشركي قريش، ومن دان بدينهم من عبدة الأصنام والوثان: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ﴾ قال ابن عباس: أي وقودها، يعني كقوله: ﴿وقودها الناس والحجارة﴾ [التحريم: ٦]. وقال مجاهد، وعكرمة، وقناة: حطبها. وقال الضحاك: ﴿حَصَبُ جَهَنَّمَ﴾ أي: ما يرمى به فيها. وكذا قال غيره. والجميع قريب. وقوله: ﴿أَنْتُمْ لَهَا وَارِدُونَ﴾ أي: داخلون ﴿لَوْ كَانَ هُوَ آلَاءَ إِلَهَةٍ مَا وَّرَدُوهَا﴾ يعني: لو كانت هذه الأصنام والأنداد التي اتخذتموها من دون الله آلهة صحيحة لما وردوا النار، وما دخلوها ﴿وَكُلٌّ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ أي: العابدون ومعبوداتهم، كلهم فيها خالدون، ﴿لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ﴾ كما قال: ﴿لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ﴾ [هود: ١٠٦]، والزفير: خروج أنفاسهم، والشهيق: ولوج أنفاسهم ﴿وَهُمْ فِيهَا لَا يَسْمَعُونَ﴾.

وقوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحُسْنَىٰ﴾: قال عكرمة: الرحمة. وقال غيره: السعادة ﴿أُولَٰئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ﴾، لما ذكر تعالى أهل النار وعذابهم بسبب شركهم بالله، عطف بذكر السعداء من المؤمنين بالله ورسوله، وهم الذين سبقت لهم من الله السعادة، وأسلفوا الأعمال الصالحة في الدنيا، كما قال: ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾ [يونس: ٢٦]. وقال ﴿هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَانِ إِلَّا الْإِحْسَانُ﴾ [الرحمن: ٦٠]، فكما أحسنوا العمل في الدنيا، أحسن الله مآلهم وثوابهم، فنجاهم من العذاب، وحصل لهم جزيل الثواب، فقال: ﴿أُولَٰئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ. لَا يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا﴾ أي: حريقها في الأجساد.

وقوله: ﴿وَهُمْ فِي مَا اشْتَهَتْ أَنفُسُهُمْ خَالِدُونَ﴾: فسلمهم من المحذور والمرهوب، وحصل لهم المطلوب والمحبوب. روى ابن أبي حاتم عن النعمان بن بشير قال - وسمر مع علي ذات ليلة، فقرأ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحُسْنَىٰ أُولَٰئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ﴾ قال: أنا منهم، وعمر منهم، وعثمان منهم، والزبير منهم، وطلحة منهم، وعبد الرحمن منهم - أو قال: سعد منهم - قال: وأقيمت الصلاة فقام، وأظنه يجر ثوبه، وهو يقول: ﴿لَا يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا﴾. وقال آخرون: بل نزلت

استثناء من المعبودين، وخرج منهم عزير والمسيح، كما قال ابن عباس: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ﴾، ثم استثنى فقال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحُسْنَى﴾، فيقال: هم الملائكة، وعيسى، ونحو ذلك مما يعبد من دون الله عز وجل. وكذا قال عكرمة، والحسن، وابن جريج. وقوله: ﴿لَا يَحْزَنُهُمُ الْفَزَعُ الْأَكْبَرُ﴾ قيل المراد بذلك الموت. وقيل: المراد بالفزع الأكبر: النفخة في الصور. وقيل: حين يُدْبَح الموت بين الجنة والنار. ﴿وَتَتَلَفَأَهُ الْمَلَائِكَةُ هَذَا يَوْمُكُمْ الَّذِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ﴾ يعني: تقول لهم الملائكة، تبشرهم يوم معادهم إذا خرجوا من قبورهم: ﴿هَذَا يَوْمُكُمْ الَّذِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ﴾ أى: فأملوا ما يسركم.

﴿يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ كَطَيِّ السِّجِلِّ لِلْكُتُبِ كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ وَعَدَّا عَلَيْهَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ﴾

يقول تعالى: هذا كائن يوم القيامة ﴿يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ كَطَيِّ السِّجِلِّ لِلْكُتُبِ﴾ كما قال تعالى: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [الزمر: ٦٧] وقد روى البخارى عن ابن عمر، عن رسول الله ﷺ، قال: «إن الله يقبض يوم القيامة الأرضين، وتكون السموات بيمينه». انفرد به من هذا الوجه البخارى (١). وقوله: ﴿كَطَيِّ السِّجِلِّ لِلْكُتُبِ﴾: قيل: المراد بالسجل الكتاب. وقيل: المراد بالسجل هاهنا: ملك من الملائكة. وقيل: المراد به اسم رجل صحابى، كان يكتب للنبي ﷺ الوحى . وقال ابن جرير: لا يُعْرَفُ فى الصحابة أحد اسمه السِّجِلُّ، وكتاب النبي ﷺ معروفون، وليس فيهم أحد اسمه السجل، وصدق رحمه الله فى ذلك، والله أعلم. والصحيح عن ابن عباس أن السجل هى الصحيفة، ونص على ذلك مجاهد، وقتادة، وغير واحد. واختاره ابن جرير؛ لأنه المعروف فى اللغة، فعلى هذا يكون معنى الكلام: ﴿يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ كَطَيِّ السِّجِلِّ لِلْكُتُبِ﴾ أى: على الكتاب، بمعنى المكتوب، كقوله: ﴿قَلَمًا أَسْلَمًا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ﴾ [الصفات: ١٠٣]، أى: على الجبين، وله نظائر فى اللغة، والله أعلم.

وقوله: ﴿كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ وَعَدَّا عَلَيْهَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ﴾ معنى: هذا كائن لا محالة، يوم يعيد الله الخلائق خلقاً جديداً، كما بدأهم هو القادر على إعادتهم، وذلك واجب الوقوع، لأنه من جملة وعد الله الذى لا يخلف ولا يبدل، وهو القادر على ذلك؛ ولهذا قال: ﴿إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ﴾. وروى الإمام أحمد عن ابن عباس قال: قام فينا رسول الله ﷺ بموعظة فقال: «إنكم محشورون إلى الله عز وجل حفاة عراة غرلاً كما بدأنا أول خلق نعيده، وعدأ علينا إنا كنا فاعلين»؛ وذكر تمام الحديث، أخرجاه فى الصحيحين (٢).

(١) البخارى (٧٤١٢).

(٢) المسند (٢٠٩٦) والبخارى (٤٦٢٥) ومسلم (٢٨٦٠ / ٥٨).

﴿ وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ
الصَّالِحُونَ ﴾ [١٠٥] إِنَّ فِي هَذَا لَبَلَاغًا لِقَوْمٍ عَكِيدٍ ﴿١٠٦﴾ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا
رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ ﴿١٠٧﴾

يقول تعالى مخبراً عما حتمه وقضاه لعباده الصالحين، من السعادة في الدنيا والآخرة، ووراثه الأرض في الدنيا والآخرة، كقوله تعالى: ﴿إِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [الأعراف: ١٢٨]. وقال: ﴿إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ﴾ [غافر: ٥١]. وقال: ﴿وَعَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ﴾ [النور: ٥٥].

وأخبر تعالى أن هذا مسطور في الكتب الشرعية والقدرية وهو كائن لا محالة؛ ولهذا قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ﴾ قال سعيد بن جبيرة الزبور: التوراة، والإنجيل، والقرآن وقال ابن عباس وقتادة، وغير واحد: الزبور: الذي أنزل على داود، والذكر: التوراة، وعن ابن عباس: الزبور: القرآن. وقال مجاهد: الزبور: الكتب بعد الذكر، والذكر: أم الكتاب عند الله. واختار ذلك ابن جرير رحمه الله.

وقال ابن عباس: أخبر الله سبحانه في التوراة والزبور وسابق علمه قبل أن تكون السموات والأرض، أن يورث أمة محمد ﷺ الأرض ويدخلهم الجنة، وهم الصالحون. وعن ابن عباس: ﴿أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ﴾ قال: أرض الجنة. وكذا قال مجاهد، وسعيد بن جبيرة، والشعبي، وقتادة، وغيرهم.

وقوله: ﴿إِنَّ فِي هَذَا لَبَلَاغًا لِقَوْمٍ عَابِدِينَ﴾ أي: إن في هذا القرآن الذي أنزلناه على عبدنا محمد ﷺ لبلاغاً؛ لمنفعة وكفاية لقوم عابدين، وهم الذين عبدوا الله بما شرعه وأحبه ورضيه، وآثروا طاعة الله على طاعة الشيطان وشهوات أنفسهم. وقوله: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾: يخبر تعالى أن الله جعل محمداً ﷺ رحمة للعالمين، أي: أرسله رحمة لهم كلهم، فمن قبل هذه الرحمة وشكر هذه النعمة، سعد في الدنيا والآخرة، ومن ردّها وجحدّها خسر في الدنيا والآخرة، كما قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَتَ اللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ. جَهَنَّمَ يَصَلُّونَهَا وَبَسَّ الْقِرَارِ﴾ [إبراهيم: ٢٨، ٢٩]، وقال تعالى في صفة القرآن: ﴿قُلْ هُوَ الَّذِي آمَنُوا هُدًى وَنُورًا وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى أُولَٰئِكَ يُنَادُونَ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ﴾ [فصلت: ٤٤]. وقال مسلم في صحيحه عن أبي هريرة قال: قيل: يا رسول الله، ادع على المشركين، قال: «إني لم أبعث لعناً، وإنما بعثت رحمة». انفراد بإخراجه مسلم (١).

فإن قيل: فأى رحمة حصلت لمن كفر به؟ فالجواب ما رواه ابن جرير عن ابن عباس في قوله: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ قال: من آمن بالله واليوم الآخر، كتبت له الرحمة في الدنيا

والآخرة، ومن لم يؤمن بالله ورسوله عُوفِيَ مما أصاب الأمم من الحسف والقذف .

﴿ قُلْ إِنَّمَا يُوحِي إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمُ اللَّهُ وَاحِدٌ فَهَلْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ ﴿١٠٨﴾
 فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُلْ ءَاذَنْتُكُمْ عَلَىٰ سَوَاءٍ وَإِنْ أَدْرِي أَقْرَبُ أَمْ بَعِيدٌ مَّا تُوعَدُونَ ﴿١٠٩﴾ إِنَّهُ
 يَعْلَمُ الْجَهْرَ مِنَ الْقَوْلِ وَيَعْلَمُ مَا تَكْتُمُونَ ﴿١١٠﴾ وَإِنْ أَدْرِي لَعَلَّهُ فِتْنَةٌ لَّكُمْ
 وَمَنْعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴿١١١﴾ قُلْ رَبِّ احْكُم بِالْحَقِّ وَرَبُّنَا الرَّحْمَنُ الْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ﴿١١٢﴾ ﴾

يقول تعالى أمراً رسوله ﷺ أن يقول للمشركين: ﴿إِنَّمَا يُوحِي إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمُ اللَّهُ وَاحِدٌ فَهَلْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ أي: متبعون على ذلك، مستسلمون منقادون له ﴿فَإِنْ تَوَلَّوْا﴾ أي: تركوا ما دعوتهم إليه ﴿فَقُلْ أَذَنْتُكُمْ عَلَىٰ سَوَاءٍ﴾ أي: أعلمتكم أنني حرب لكم، كما أنكم حرب لي، برىء منكم كما أنكم برء مني، كقوله: ﴿وَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقُلْ لِي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ أَنْتُمْ بَرِيءُونَ مِنَّا أَعْمَلُ وَأَنَا بَرِيءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ﴾ [يونس: ٤١] وقال: ﴿وَأَمَّا تَخَافَنَّ مِنْ قَوْمٍ خِيَانَةٌ فَانْبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَىٰ سَوَاءٍ﴾ [الأنفال: ٥٨] أي: ليكن علمك وعلمهم بنيد اليهود على السواء، وهكذا ها هنا ﴿فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُلْ أَذَنْتُكُمْ عَلَىٰ سَوَاءٍ﴾ أي: أعلمتكم ببراءتي منكم، وبرءاءتكم مني؛ لعلمي بذلك.

وقوله: ﴿وَإِنْ أَدْرِي أَقْرَبُ أَمْ بَعِيدٌ مَّا تُوعَدُونَ﴾ أي: هو واقع لا محالة، ولكن لا علم لي بقربه ولا ببعده ﴿إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ مِنَ الْقَوْلِ وَيَعْلَمُ مَا تَكْتُمُونَ﴾ أي: إن الله يعلم الغيب جميعه، ويعلم ما يظهره العباد وما يسرون، يعلم الظواهر والضمائر، ويعلم السر وأخفى، ويعلم ما العباد عاملون في أجهارهم وأسرارهم، وسيجزئهم على ذلك، على القليل والجليل. وقوله: ﴿وَإِنْ أَدْرِي لَعَلَّهُ فِتْنَةٌ لَّكُمْ وَمَنْعٌ إِلَىٰ حِينٍ﴾ أي: وما أدري لعل هذا فتنة لكم ومنع إلى حين، قال ابن جرير: لعل تأخير ذلك عنكم فتنة لكم، ومنع إلى أجل مسمى. وحكاه عون، عن ابن عباس، والله أعلم. ﴿قَالَ رَبِّ احْكُم بِالْحَقِّ﴾ أي: افصل بيننا وبين قومنا المكذبين بالحق، قال قتادة: كان الأنبياء، عليهم السلام، يقولون: ﴿رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ وَأَنْتَ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ﴾ [الأعراف: ٨٩]، وأمر رسول الله ﷺ أن يقول ذلك ﴿وَرَبُّنَا الرَّحْمَنُ الْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ﴾ أي: على ما يقولون ويفترون من الكذب، ويتنوعون في مقامات التكذيب والإفك، والله المستعان عليكم في ذلك.

تفسير سورة الحج

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ يَأْتِيهَا النَّاسُ آتِفُوا رَبِّكُمْ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ ﴿١﴾ يَوْمَ تَرَوُنَّهَا تُذْهِلُ كُلَّ مَرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمَلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَرَىٰ وَمَا هُمْ بِسُكَرَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ ﴿٢﴾ ﴾

ربع

يقول تعالى أمرا عباده بتقواه، ومخبرا لهم بما يستقبلون من أهوال يوم القيامة وزلازلها وأحوالها. وقد اختلف المفسرون في زلزلة الساعة: هل هي بعد قيام الناس من قبورهم يوم نشورهم إلى عرصات القيامة؟ أو ذلك عبارة عن زلزلة الأرض قبل قيام الناس من أجدانهم؟ كما قال تعالى: ﴿ إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزَالَهَا . وَأَخْرَجَتِ الْأَرْضُ أَثْقَالَهَا ﴾ [الزلزلة: ١ ، ٢]، وقال تعالى: ﴿ وَحَمَلَتِ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَاحِدَةً . فَيَوْمَئِذٍ وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ ﴾ [الحاقة: ١٤ ، ١٥]، وقال تعالى: ﴿ إِذَا رُجَّتِ الْأَرْضُ رَجًا . وَبُسَّتِ الْجِبَالُ بَسًا ﴾ [الواقعة: ٤ ، ٥]. فقال قائلون: هذه الزلزلة كائنة في آخر عمر الدنيا، وأول أحوال الساعة. وقال ابن جرير: عن علقمة في قوله: ﴿ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ ﴾، قال: قبل الساعة.

وقال الشعبي: هذا في الدنيا قبل يوم القيامة. وقد أورد ابن جرير مُسْتَدَنَّ مَنْ قَالَ ذَلِكَ فِي حَدِيثِ الصُّورِ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ لَمَّا فَرَّغَ مِنْ خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ خَلَقَ الصُّورَ، فَأَعْطَاهُ إِسْرَافِيلَ، فَهُوَ وَاضِعُهُ عَلَىٰ فِيهِ، شَاحِصٌ بِبَصَرِهِ إِلَى الْعَرْشِ، يَنْتَظِرُ مَتَى يَوْمُهُ». [وفيه]: « يَأْمُرُ اللَّهُ إِسْرَافِيلَ بِالنَّفْخَةِ الْأُولَىٰ فَيَقُولُ: انْفِخْ نَفْخَةَ الْفَرْعِ . فَيَفْرَعُ أَهْلَ السَّمَوَاتِ وَأَهْلَ الْأَرْضِ، إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ، وَيَأْمُرُهُ فِيمَدَّهَا وَيَطْوِلُهَا وَلَا يَفْتَرُ، وَهِيَ الَّتِي يَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿ وَمَا يَنْظُرُ هَؤُلَاءِ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً مِمَّا لَهَا مِنْ فَوَاقٍ ﴾ [ص: ١٥] فَيَسِيرُ اللَّهُ الْجِبَالَ، فَتَكُونُ سَرَابًا وَتُرْجُ الْأَرْضُ بِأَهْلِهَا رَجًا، وَهِيَ الَّتِي يَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿ يَوْمَ تَرْجُفُ الرَّاجِفَةُ . تَتَّبِعُنَّهَا الرَّادِفَةُ . قُلُوبٌ يَوْمَئِذٍ وَاجِفَةٌ ﴾ [النازعات: ٦-٨] قال أبو هريرة: فمن استثنى الله حين يقول: ﴿ فَفَرِّعْ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ ﴾ [النمل: ٨٧]؟ قال: أولئك الشهداء، وإنما يصل الفرع إلى الأحياء، أولئك أحياء عند ربهم يرزقون، وقاهم الله شر ذلك اليوم وآمنهم، وهو عذاب الله يبعثه على شرار خلقه، وهو الذي يقول الله: ﴿ يَأْتِيهَا النَّاسُ آتِفُوا رَبِّكُمْ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ . يَوْمَ تَرَوُنَّهَا تُذْهِلُ كُلَّ مَرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمَلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَىٰ وَمَا هُمْ بِسُكَارَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ ﴾ (١). والغرض منه: أنه دل على أن هذه الزلزلة كائنة قبل يوم الساعة، وأضيفت إلى

(١) تقدم الحديث وتخريجه عند الآية (٧٣) من سورة الأنعام.

الساعة لقربها منها، كما يقال: أشرط الساعة، ونحو ذلك، والله أعلم.

وقال آخرون: بل ذلك هول وفرع وزلزال وبلبال، كائن يوم القيامة فى العرصات، بعد القيام من القبور. واختار ذلك ابن جرير. واحتجوا بأحاديث: روى الإمام أحمد: عن عمران ابن حصين؛ أن رسول الله ﷺ قال وهو فى بعض أسفاره، وقد تفاوت بين أصحابه السير، رفع بهاتين الآيتين صوتة: ﴿يَأْيُهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ . يَوْمَ تُرَوَّنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَىٰ وَمَا هُمْ بِسُكَارَىٰ وَلَكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ ۖ﴾، فلما سمع أصحابه بذلك حثوا المطى، وعرفوا أنه عند قول يقوله، فلما تأشهو حوله قال: «أتدرون أى يوم ذاك؟ يوم ينادى آدم، عليه السلام، فيناديه ربه عز وجل، فيقول: يا آدم، ابعث بعثك إلى النار فيقول: يارب، وما بعث النار؟ فيقول: من كل ألف تسعمائة وتسعة وتسعون فى النار، وواحد فى الجنة». قال فأبلس أصحابه حتى ما أوضحوا بضاحكة، فلما رأى ذلك قال: «أبشروا واعملوا، فالذى نفس محمد بيده، إنكم لمع خليقتين ما كانتا مع شىء قط إلا كثرتاه: يأجوج ومأجوج، ومن هلك من بنى آدم وبنى إبليس» قال: فسرى عنهم، ثم قال: اعملوا وأبشروا، فالذى نفس محمد بيده، ما أنتم فى الناس إلا كالشامة فى جنب البعيرة، أو الرقمة فى ذراع الدابة». رواه الترمذى والنسائى . وقال الترمذى: حسن صحيح (١).

طريق أخرى لهذا الحديث: روى الترمذى عن عمران بن حصين؛ أن النبى ﷺ قال: لما نزلت: ﴿يَأْيُهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ﴾ إلى قوله: ﴿وَلَكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ﴾، قال: أنزلت عليه هذه، وهو فى سفر، فقال: «أتدرون أى يوم ذلك؟» فقالوا: الله ورسوله أعلم. قال: «ذلك يوم يقول الله لأدم: ابعث بعث النار. قال: يارب، وما بعث النار؟ قال: تسعمائة وتسعة وتسعون إلى النار، وواحد إلى الجنة» فأنشأ المسلمون يبيكون، فقال رسول الله ﷺ: «قاربوا وسددوا، فإنها لم تكن نبوة قط إلا كان بين يديها جاهلية» قال: «فيؤخذ العدد من الجاهلية، فإن تمت وإلا كملت من المنافقين، وما مثلكم والامم إلا كمثل الرقمة فى ذراع الدابة، أو كالشامة فى جنب البعير» ثم قال: «إنى لأرجو أن تكونوا ربع أهل الجنة فكبروا» ثم قال: «إنى لأرجو أن تكونوا ثلث أهل الجنة فكبروا، ثم قال: «إنى لأرجو أن تكونوا نصف أهل الجنة» فكبروا، قال: ولا أدرى أقال الثلثين أم لا؟ ورواه الإمام أحمد، ثم قال الترمذى أيضا: هذا حديث حسن صحيح (٢).

وروى البخارى عن أبى سعيد قال: قال رسول الله ﷺ: «يقول الله تعالى يوم القيامة: يا آدم، فيقول: لبيك ربنا وسعديك. فينادى بصوت: إن الله يأمرك أن تخرج من ذريتك بعثا إلى النار. قال: يارب، وما بعث النار؟ قال: من كل ألف - أراه قال - تسعمائة وتسعة وتسعين. فحينئذ تضع الحامل حملها، ويشيب الوليد، ﴿وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَىٰ وَمَا هُمْ بِسُكَارَىٰ وَلَكِنَّ﴾

(١) المسند (٤/٤٣٥) والترمذى (٣١٦٩) والنسائى فى الكبرى (١١٣٤٠).

(٢) الترمذى (٣١٦٨). وهو فى المسند (٤/٤٣٢).

عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ ﴿ فشق ذلك على الناس حتى تغيرت وجوههم ، قال النبي ﷺ : « من يأجوج ومأجوج تسعمائة وتسعة وتسعين ، ومنكم واحد ، ثم أنتم في الناس كالشعرة السوداء في جنب الثور الأبيض ، أو كالشعرة البيضاء في جنب الثور الأسود ، وإني لأرجو أن تكونوا ربع أهل الجنة » . فكبرنا ، ثم قال : « ثلث أهل الجنة » . فكبرنا ، ثم قال : « شطر أهل الجنة » فكبرنا . وقد رواه مسلم ، والنسائي في تفسيره (١) .

وروى الإمام أحمد عن عائشة ، عن النبي ﷺ قال : « إنكم تحشرون يوم القيامة حُفَاة عراة غرلا » . قالت عائشة : يارسول الله ، الرجال والنساء ينظر بعضهم إلى بعض ؟ قال : « يا عائشة ، إن الأمر أشد من أن يهتمهم ذاك » . أخرجاه في الصحيحين (٢) .

ولهذا قال تعالى : ﴿ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ ﴾ أى : أمر كبير ، وخطب جليل ، وطارق مقطع ، وحادث هائل ، وكائن عجيب . والزلازل : هو ما يحصل للنفس من الفزع ، والرعب كما قال تعالى : ﴿ هَٰئِلِكِ ابْتَلَى الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زَلْزَالًا شَدِيدًا ﴾ [الأحزاب : ١١] .

ثم قال تعالى : ﴿ يَوْمَ تَرَوُنَّهَا ﴾ : هذا من باب ضمير الشأن ؛ ولهذا قال مفسراً له : ﴿ تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ ﴾ أى : تشتغل لهول ما ترى عن أحب الناس إليها ، والتي هى أشفق الناس عليه ، تدهش عنه فى حال إرضاعها له ؛ ولهذا قال : ﴿ كُلُّ مُرْضِعَةٍ ﴾ ، ولم يقل : « مرضع » وقال : ﴿ عَمَّا أَرْضَعَتْ ﴾ أى : عن رضيعها قبل فطامه . ﴿ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا ﴾ أى : قبل تمامه لشدة الهول ﴿ وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَى ﴾ أى : من شدة الأمر الذى صاروا فيه قد دهشت عقولهم ، وغابت أذهانهم ، فمن رآهم حسب أنهم سُكَارَى ، ﴿ وَمَا هُمْ بِسُكَارَى وَلَكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ ﴾ .

﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطَانٍ مَّرِيدٍ ﴾
﴿ كُتِبَ عَلَيْهِ أَنَّهُ مَن تَوَلَّاهُ فَإِنَّهُ يَضِلُّهُ وَيَهْدِيهِ إِلَىٰ عَذَابِ السَّعِيرِ ﴾

يقول تعالى ذاماً لمن كذب بالبعث ، وأنكر قدرة الله على إحياء الموتى ، معرضاً عما أنزل الله على أنبيائه ، متبعاً فى قوله وإنكاره وكفره كل شيطان مرید ، من الإنس والجن ، وهذا حال أهل الضلال والبدع ، المعرضين عن الحق ، المتبعين للباطل ، يتركون ما أنزله الله على رسوله من الحق المبين ، ويتبعون أقوال رؤوس الضلالة ، الدعاة إلى البدع بالأهواء والآراء ، ولهذا قال فى شأنهم وأشباههم : ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ ﴾ أى : علم صحيح ﴿ وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطَانٍ مَّرِيدٍ ﴾ . كُتِبَ عَلَيْهِ ﴿ قال مجاهد : يعنى الشيطان ، يعنى : كتب عليه كتابة قدرية ﴿ أَنَّهُ مَن تَوَلَّاهُ ﴾ أى : اتبعه وقلده ﴿ فَإِنَّهُ يَضِلُّهُ وَيَهْدِيهِ إِلَىٰ عَذَابِ السَّعِيرِ ﴾ أى : يضلّه فى الدنيا ويقوده فى الآخرة إلى عذاب السعير ، وهو الحار المؤلم المزعج المقلق .

(١) البخارى (٣٣٤٨ ، ٤٧٤١ ، ٧٤٨٣) ومسلم (٣٧٩/٢٢٢) والنسائي فى الكبرى (١١٣٣٩) .

(٢) المسند (٥٣/٦) والبخارى (٦٥٢٧) ومسلم (٥٦/٢٨٥٩) .

﴿ يَأْتِيهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِّنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِنْ مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُّخَلَّقَةٍ لِّنُسَبِّنَ لَكُمْ وَنَقَرُّ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشَدَّكُمْ وَمِنْكُمْ مَّنْ يُتَوَفَّىٰ وَمِنْكُمْ مَّنْ يُرَدُّ إِلَىٰ أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنْ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئًا وَتَرَىٰ الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنْبَتَتْ مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ ﴿٥﴾ ذَلِكَ يَأْنِي اللَّهُ هُوَ الْحَقُّ وَأَنْتَ يُحْيِي الْمَوْتَىٰ وَأَنْتَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٦﴾ وَأَنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ لَا رَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ مَنْ فِي الْقُبُورِ ﴿٧﴾ ﴾

لما ذكر تعالى المخالف للبعث، المنكر للمعاد، ذكر تعالى الدليل على قدرته تعالى على المعاد، بما يشاهد من بدئه للخلق، فقال: ﴿يَأْتِيهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ﴾ أي: في شك ﴿مِنَ الْبَعْثِ﴾ وهو المعاد وقيام الأرواح والأجساد يوم القيامة ﴿فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ تُرَابٍ﴾ أي: أصل برئه لكم من تراب، وهو الذي خلق منه آدم، عليه السلام ﴿ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ﴾ أي: ثم جعل نسله من سلالة من ماء مهين، ﴿ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِنْ مُضْغَةٍ﴾ وذلك أنه إذا استقرت النطفة في رحم المرأة، مكثت أربعين يوما كذلك، يضاف إليه ما يجتمع إليها، ثم تنقلب علقة حمراء بإذن الله، فتمكث كذلك أربعين يوما، ثم تستحيل فتصير مضغة - قطعة من لحم لا شكل فيها ولا تخطيط - ثم يشرع في التشكيل والتخطيط، فيصور منها رأس ويدان، وصدر وبطن، وفخذان ورجلان، وسائر الأعضاء. فتارة تسقطها المرأة قبل التشكيل والتخطيط، وتارة تلقيها وقد صارت ذات شكل وتخطيط؛ ولهذا قال تعالى: ﴿ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِنْ مُضْغَةٍ مُخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ﴾ أي: كما تشاهدونها ﴿لِّنُسَبِّنَ لَكُمْ وَنَقَرُّ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ أي: وتارة تستقر في الرحم لا تلقيها المرأة ولا تسقطها، عن ابن مسعود قال: حدثنا رسول الله ﷺ وهو الصادق المصدوق -: «إن خلق أحدكم يجمع في بطن أمه أربعين ليلة، ثم يكون علقة مثل ذلك، ثم يكون مضغة مثل ذلك، ثم يبعث الله إليه الملك فيؤمر بأربع كلمات: بكتب عمله وأجله ورزقه، وشقى أو سعيد، ثم ينفخ فيه الروح»^(١). وروى ابن أبي حاتم عن حذيفة بن أسيد - يبلغ به النبي ﷺ - قال: «يدخل الملك على النطفة بعد ما تستقر في الرحم بأربعين أو خمس وأربعين، فيقول: أي رب، أشقى أم سعيد؟ فيقول الله، ويكتبان، فيقول: أذكر أم أنثى؟ فيقول الله ويكتبان، ويكتب عمله وأثره ورزقه وأجله، ثم تطوى الصحف، فلا يزداد على ما فيها ولا ينقص». ورواه مسلم بنحو معناه^(٢).

وقوله: ﴿ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا﴾ أي: ضعيفا في بدنه، وسمعه وبصره وحواسه، وبطشه وعقله. ثم يعطيه الله القوة شيئا فشيئا، ويلطفه، ويحنن عليه والديه في آناء الليل وأطراف النهار؛ ولهذا قال: ﴿ثُمَّ لِيَبْلُغُوا أَشَدَّكُمْ﴾ أي: يتكامل القوى ويتزايد، ويصل إلى عنفوان الشباب

(٢) مسلم (٢/٢٦٤٤).

(١) البخارى (٦٥٩٤) ومسلم (١/٢٦٤٣).

وحسن المنظر ﴿وَمِنْكُمْ مَنْ يُتَوَقَّى﴾ أى: فى حال شبابه وقواه ﴿وَمِنْكُمْ مَنْ يُودُّ إِلَىٰ أَرْضِ الْعُمُرِ﴾، وهو الشيخوخة والهَرَمَ وضعف القوة والعقل والفهم، وتناقص الأحوال من الحَرْفَ وضعف الفكر؛ ولهذا قال: ﴿لَكَيْلًا يَعْلَمَ مِنْ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئًا﴾، كما قال تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْئًا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْقَدِيرُ﴾ [الروم: ٥٤].

وقوله: ﴿وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً﴾: هذا دليل آخر على قدرته تعالى على إحياء الموتى، كما يحيى الأرض الميتة الهامدة، وهى القحلة التى لا نبت فيها ولا شىء ﴿فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَّتْ وَأَنْبَتَتْ مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ﴾ أى: فإذا أنزل الله عليها المطر ﴿اهْتَزَّتْ﴾ أى: تحركت وحييت بعد موتها ﴿وَرَبَّتْ﴾ أى: ارتفعت لما سكن فيها الثرى، ثم أنبت ما فيها من الألوان والفنون، من ثمار وزروع، وأشتات النباتات فى اختلاف ألوانها وطعومها، وروائحها وأشكالها ومنافعها؛ ولهذا قال تعالى: ﴿وَأَنْبَتَتْ مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ﴾ أى: حسن المنظر طيب الريح.

وقوله: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ﴾ أى: الخالق المدبر الفعال لما يشاء ﴿وَأَنَّهُ يُحْيِي الْمَوْتَى﴾ [أى: كما أحيا الأرض الميتة وأنبت منها هذه الأنواع ﴿إِنَّ الَّذِي أَحْيَاهَا لَمُحْيِي الْمَوْتَى إِنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [فصلت: ٢٣٩]، ف ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ [يس: ٨٢]. ﴿وَأَنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ لَا رَيْبَ فِيهَا﴾ أى: كائنة لا شك فيها ولا مرية ﴿وَأَنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ مَنْ فِي الْقُبُورِ﴾ أى: يعيدهم بعد ما صاروا فى قبورهم ربما، ويوجدتهم بعد العدم، كما قال تعالى: ﴿وَضُرْبٌ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ . قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ . الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ مِنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَا أَنْتُمْ مِنْهُ تُوقَدُونَ﴾ [يس: ٧٨ - ٨٠] والآيات فى هذا كثيرة. وروى الإمام أحمد عن أبى رزین العقيلى - واسمه لَقِيط بن عامر - أنه قال: يا رسول الله، أكلنا يرى ربه عز وجل يوم القيامة؟ وما آية ذلك فى خلقه؟ فقال رسول الله ﷺ: «اليس كلكم ينظر إلى القمر مخلصاً به؟» قلنا: بلى. قال: «فالله أعظم». قال: قلت: يا رسول الله، كيف يحيى الله الموتى، وما آية ذلك فى خلقه؟ قال: «أما مررت بوادى أهلك ممحلاً» قال: بلى. قال: «ثم مررت به يهتز خضراً؟». قال: بلى. قال: «فكذلك يحيى الله الموتى، وذلك آيته فى خلقه». ورواه أبو داود وابن ماجه (١).

﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُنِيرٍ﴾ ثَانِي ﴿عَظِيمِهِ لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ لَمَّا فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَنُذِيقُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَذَابَ الْحَرِيقِ﴾ ﴿ثَلَاثًا﴾ ﴿ذَلِكَ بِمَا قَدَّمْتَ يَدَاكَ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَمٍ لِلْعَبِيدِ﴾ ﴿ثَلَاثًا﴾

لما ذكر تعالى حال الضلال الجهال المقلدين فى قوله: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطَانٍ مُرِيدٍ﴾ ذكر فى هذه حال الدعاة إلى الضلال من رؤوس الكفر والبدع، فقال: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُنِيرٍ﴾، أى: بلا عقل صحيح، ولا نقل

صريح ، بل بمجرد الرأى والهوى .

وقوله : ﴿ثَانِي عَظْمِهِ﴾ قال ابن عباس وغيره : مستكبراً عن الحق إذا دعى إليه ، وقال مجاهد ، وقتادة : لاوى عتقه ، وهى رقبته ، يعنى : يعرض عما يدعى إليه من الحق رقبته استكباراً ، كقوله تعالى : ﴿وَلِي مَوْسَى إِذْ أَرْسَلْنَاهُ إِلَى فِرْعَوْنَ بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ . فَتَوَلَّى بِرُكْبِهِ وَقَالَ سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ﴾ [الذاريات : ٣٨ ، ٣٩] ، وقال تعالى : ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَى مَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ رَأَيْتِ الْمُنَافِقِينَ يَصُدُّونَ عَنْكَ صُدُودًا﴾ [النساء : ٦١] ، وقال : ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ اللَّهِ لَوَّا رُءُوسَهُمْ وَرَأَيْتَهُمْ يَصُدُّونَ وَهُمْ مُسْتَكْبِرُونَ﴾ [المنافقون : ٥] : وقال لقمان لابنه : ﴿وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ﴾ [لقمان : ١٨] أى : تميله عنهم استكباراً عليهم ، وقال تعالى : ﴿وَإِذَا تَلَّى عَلَيْهِ آيَاتِنَا وَلَّى مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا كَأَن فِي أُذُنِهِ قِرْبًا مُقْبَشًا﴾ [لقمان : ٧] . وقوله : ﴿لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ﴾ قال بعضهم : هذه لام العاقبة ؛ لأنه قد لا يقصد ذلك ، ويحتمل أن تكون لام التعليل . ثم إما أن يكون المراد بها المعاندين ، أو يكون المراد بها أن هذا الفاعل لهذا إنما جبلناه على هذا الخلق الذى يجعله ممن يضل عن سبيل الله .

ثم قال تعالى : ﴿لَهُ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ﴾ وهو الإهانة والذل ، كما أنه لما استكبر عن آيات الله لَقَّاهُ اللهُ المذلة فى الدنيا ، وعاقبه فيها قبل الآخرة ؛ لأنها أكبر هممه ومبلغ علمه ﴿وَوَدَّيْقَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَذَابَ الْحَرِيقِ . ذَلِكَ بِمَا قَدَّمْتَ يَدَكَ﴾ أى : يقال له هذا تقريعاً وتوبيخاً ﴿وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَامٍ لِلْعَبِيدِ﴾ ، كقوله تعالى : ﴿خُدُودُهُمْ فَأَعْتَلُوهُ إِلَى سَوَاءِ الْجَحِيمِ . ثُمَّ صَبُّوا فَوْقَ رَأْسِهِ مِنْ عَذَابِ الْحَمِيمِ . ذُقْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ . إِنَّ هَذَا مَا كُنْتُمْ بِهِ تَمْتَرُونَ﴾ [الدخان : ٤٧ - ٥٠] .

﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَى حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ انْقَلَبَ عَلَى وَجْهِهِ خَسِرَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ﴾ ﴿يَدْعُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُهُمْ وَمَا لَا يَضُرُّهُمْ وَمَا لَا يَنْفَعُهُمْ ذَلِكَ هُوَ الضَّلَالُ الْبَعِيدُ﴾ ﴿يَدْعُوا لِمَن ضَرُّهُ أَقْرَبُ مِنْ نَفْعِهِ لَيْسَ الْمَوْلَىٰ وَلَيْسَ الْعَشِيرُ﴾

قال مجاهد ، وقتادة ، وغيرهما : ﴿عَلَى حَرْفٍ﴾ : على شك ، وقال غيرهم : على طرف . ومنه حرف الجبل ، أى : طرفه ، أى : دخل فى الدين على طرف ، فإن وجد ما يحبه استقر ، وإلا انشمر . وروى البخارى عن ابن عباس قال : ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَى حَرْفٍ﴾ قال : كان الرجل يقدّم المدينة ، فإن ولدت امرأته غلاماً ، وتنجت خيله ، قال : هذا دين صالح . وإن لم تلد امرأته ، ولم تنتج خيله قال : هذا دين سوء (١) . وروى ابن أبى حاتم عن ابن عباس قال : كان ناس من الأعراب يأتون النبى ﷺ فيسألون ، فإذا رجعوا إلى بلادهم ، فإن وجدوا عام غيث وعام خصب وعام ولاد حسن ، قالوا : «إن ديننا هذا لصالح ، فتمسكوا به» . وإن وجدوا عام جدوبة وعام ولاد

سوء وعام قحط، قالوا: «ما في ديننا هذا خير». فأنزل الله على نبيه: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ﴾ الآية. وهكذا ذكر قتادة، والضحاك، وابن جرير، وغير واحد من السلف، في تفسير هذه الآية. وقال عبد الرحمن بن زيد ابن أسلم: هو المنافق، إن صلحت له دنياه أقام على العبادة، وإن فسدت عليه دنياه وتغيرت، انقلب فلا يقيم على العبادة إلا لما صلح من دنياه، فإن أصابته فتنة أو شدة أو اختبار أو ضيق، ترك دينه ورجع إلى الكفر. وقال مجاهد في قوله: ﴿انْقَلَبَ عَلَيَّ وَجْهِي﴾ أى: ارتد كافراً. وقوله: ﴿خَسِرَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ﴾ أى: فلا هو حصّل من الدنيا على شيء، وأما الآخرة فقد كفر بالله العظيم، فهو فيها في غاية الشقاء والإهانة؛ ولهذا قال: ﴿ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ﴾ أى: هذه هي الخسارة العظيمة، والصفقة الخاسرة.

وقوله: ﴿يَدْعُو مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُ وَمَا لَا نَفْعَ لَهُ﴾ أى: من الأصنام والأنداد، يستغيث بها ويستنصرها ويسترزقها، وهي لا تنفعه ولا تضره ﴿ذَلِكَ هُوَ الضَّلَالُ البَعِيدُ. يَدْعُو لَمَن ضَرُّهُ أَقْرَبُ مِن نَّفْعِهِ﴾ أى: ضرره في الدنيا قبل الآخرة أقرب من نفعه فيها، وأما في الآخرة فضرره محقق متيقن. وقوله: ﴿لَبِئْسَ المَوْلَى﴾ قال مجاهد: يعنى الوثن، يعنى: بشس هذا الذى دعا به من دون الله مولى، يعنى: ولياً وناصرأ، ﴿وَلَبِئْسَ العَشِيرُ﴾ وهو المخالط والمعاشر. واختار ابن جرير أن المراد: لبئس ابن العم والصاحب من يعبد الله على حرف، ﴿فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ انْقَلَبَ عَلَيَّ وَجْهِي﴾. وقول مجاهد: إن المراد به الوثن، أولى وأقرب إلى سياق الكلام، والله أعلم.

﴿إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ
إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ﴾

لما ذكر أهل الضلالة الأشقياء، عطف بذكر الأبرار السعداء، من الذين آمنوا بقلوبهم، وصدقوا إيمانهم بأفعالهم، فعملوا الصالحات من جميع أنواع القربات، وتركوا المنكرات، فأورثهم ذلك سكنى الدرجات العاليات، فى روضات الجنات. ولما ذكر أنه أضل أولئك، وهدى هؤلاء، قال: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ﴾.

﴿مَن كَانَ يَظُنُّ أَن لَّنْ يَنصُرَهُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى السَّمَاءِ
ثُمَّ لِيَقْطَعْ فَلْيَنْظُرْ هَلْ يُذْهِبَنَّ كَيْدَهُمُ مَا يُغِيظُ﴾ ﴿١٥﴾ وَكَذَلِكَ أَنزَلْنَاهُ ءَايَاتٍ يَبَيِّنَاتٍ
وَأَنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يُرِيدُ﴾

قال ابن عباس: من كان يظن أن لن ينصره الله محمداً ﷺ فى الدنيا والآخرة ﴿فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ﴾ أى: بحبل ﴿إِلَى السَّمَاءِ﴾ أى: سماء بيته ﴿ثُمَّ لِيَقْطَعْ﴾ يقول: ثم ليختنق به. وكذا قال مجاهد، وعكرمة، وعطاء، وأبو الجوزاء، وقتادة، وغيرهم. وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: ﴿فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى السَّمَاءِ﴾ أى: ليتوصل إلى بلوغ السماء، فإن النصر إنما يأتى محمداً من

السماء، ﴿ثُمَّ لَيَقَطَعَنَّ﴾ ذلك عنه، إن قدر على ذلك .

وقول ابن عباس وأصحابه أولى وأظهر في المعنى، وأبلغ في التهكم؛ فإن المعنى: من ظن أن الله ليس بناصر محمداً وكتابه ودينه، فليذهب فليقتل نفسه، إن كان ذلك غائظه، فإن الله ناصره لا محالة، قال الله تعالى: ﴿إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ . يَوْمَ لَا يَنْفَعُ الظَّالِمِينَ مَعَذرتُهُمْ وَلَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ﴾ [غافر: ٥١، ٥٢]؛ ولهذا قال: ﴿فَلْيَنْظُرْ هَلْ يُذْهِبَنَّ كَيْدَهُ مَا يَغِيبُ﴾ قال السدي: معنى: من شأن محمد ﷺ، وقال عطاء الخراساني: فليظن هل يشفي ذلك ما يجد في صدره من الغيظ .

وقوله: ﴿وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَاهُ﴾ أي: القرآن ﴿آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ﴾ أي: واضحات في لفظها ومعناها، حجة من الله على الناس ﴿وَأَنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يُرِيدُ﴾ أي: يضل من يشاء، ويهدي من يشاء، وله الحكمة التامة والحجة القاطعة في ذلك، ﴿لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ﴾ [الانبيا: ٢٣]، أما هو فلحكيمته ورحمته وعدله، وعلمه وقهره وعظمته، لا معقب لحكمه، وهو سريع الحساب .

﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِغِينَ وَالنَّصَارَى وَالْمَجُوسَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا﴾
إِنَّ اللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿١٧﴾

يخبر تعالى عن أهل هذه الأديان المختلفة من المؤمنين، ومن سواهم من اليهود والصابئين - وقد قدمنا في سورة «البقرة» التعريف بهم، واختلاف الناس فيهم - والنصارى والمجوس، والذين أشركوا فعبدوا مع الله غيره؛ فإنه تعالى ﴿يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾، ويحكم بينهم بالعدل، فيدخل من آمن به الجنة، ومن كفر به النار، فإنه تعالى شهيد على أفعالهم، حفيظ لأقوالهم، عليم بسرائرهم، وما تكن ضمائرهم .

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَمَن فِي الْأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالْدَّوَابُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ النَّاسِ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ وَمَن يَمُن بِاللَّهِ فَمَا لَهُ مِن مُّكْرِمٍ إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ﴾ ﴿١٨﴾

سجدة

يخبر تعالى أنه المستحق للعبادة وحده لا شريك له، فإنه يسجد لعظمته كل شيء طوعاً وكرهاً وسجود كل شيء مما يختص به، كما قال: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَىٰ مَا خَلَقَ اللَّهُ مِن شَيْءٍ يَتَّبِعُهُ ظَلَالُهُ عَنِ الْيَمِينِ وَالشَّمَائِلِ سُجَّدًا لِلَّهِ وَهُمْ دَاخِرُونَ﴾ [النحل: ٤٨] . وقال ها هنا: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَمَن فِي الْأَرْضِ﴾ أي: من الملائكة في أقطار السموات، والحيوانات في جميع الجهات، من الإنس والجن والدواب والطيور ﴿وَأَن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ﴾ [الإسراء: ٤٤] .

وقوله: ﴿وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ﴾: إنما ذكر هذه على التنصيص؛ لأنها قد عبدت من دون الله، فبين أنها تسجد لخالقها، وأنها مربوبة مسخرة ﴿لَا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي

خَلَقَهُنَّ إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾ [فصلت: ٣٧]. وفي الصحيحين عن أبي ذر قال: قال رسول الله ﷺ: «أتدرى أين تذهب هذه الشمس؟». قلت: الله ورسوله أعلم. قال: «فإنها تذهب فتسجد تحت العرش، ثم تستأمر فيوشك أن يقال لها: ارجعي من حيث جئت»^(١). وقال أبو العالية: ما فى السماء نجم ولا شمس ولا قمر، إلا يقع لله ساجداً حين يغيب، ثم لا ينصرف حتى يؤذن له، فيأخذ ذات اليمين حتى يرجع إلى مطلعته.

وأما الجبال والشجر فسجودهما بقاء ظللتهما عن اليمين والشمال: وعن ابن عباس قال: جاء رجل فقال: يا رسول الله، إني رأيتنى الليلة وأنا نائم، كأنى أصلى خلف شجرة، فسجدت فسجدت الشجرة لسجودى، فسمعتها وهي تقول: اللهم، اكتب لى بها عندك أجراً، وضع عنى بها وزراً، واجعلها لى عندك ذخراً، وتقبلها منى كما تقبلتها من عبدك داود. قال ابن عباس: فقرأ النبي ﷺ سجدة ثم سجد، فسمعتة وهو يقول مثل ما أخبره الرجل عن قول الشجرة. رواه الترمذى، وابن ماجه، وابن حبان فى صحيحه^(٢).

وقوله: ﴿وَالدُّوَابُّ﴾ أى: الحيوانات كلها. وقوله: ﴿وَكَثِيرٌ مِّنَ النَّاسِ﴾ أى: يسجد لله طوعاً مختاراً متعبداً بذلك، ﴿وَكَثِيرٌ حَقٌّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ﴾ أى: ممن امتنع وأبى واستكبر ﴿وَمَنْ يَهِنُ اللَّهُ فَعَمَلُهُ مِن مَّكْرَمٍ إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ﴾ قيل لعلى: إن ها هنا رجلاً يتكلم فى المشيئة. فقال له على: يا عبد الله، خلقت الله كما يشاء أو كما شئت؟ قال: بل كما شاء. قال: فيمرضك إذا شاء أو إذا شئت؟ قال: بل إذا شاء. قال: فيشفيك إذا شاء أو إذا شئت؟ قال: بل إذا شاء. قال: فيدخلك حيث شئت أو حيث يشاء؟ قال: بل حيث يشاء. قال: والله لو قلت غير ذلك لضربت الذى فيه عينك بالسيف. وعن أبى هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا قرأ ابن آدم السجدة اعتزل الشيطان يبكى يقول: يا ويله. أمر ابن آدم بالسجود فسجد، فله الجنة، وأمرت بالسجود فأبيت، فلى النار» رواه مسلم^(٣).

﴿هَذَا خِصْمَانِ اخْتَصَمُوا فِي رَبِّهِمْ فَالَّذِينَ كَفَرُوا قُطِعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِّن نَّارٍ يُصَبُّ مِن فَوْقِ رُءُوسِهِمُ الْحَمِيمُ ﴿١١﴾ يُصْهَرُ بِهِ مَا فِي بُطُونِهِمْ وَالْجُلُودُ ﴿١٢﴾ وَهُمْ مَقْلَعُونَ مِّن حَدِيدٍ ﴿١٣﴾ كُلَّمَا أَرَادُوا أَنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُوا فِيهَا وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ ﴿١٤﴾﴾

ثبت فى الصحيحين عن أبى ذر؛ أنه كان يقسم قسماً أن هذه الآية: ﴿هَذَا خِصْمَانِ اخْتَصَمُوا فِي رَبِّهِمْ﴾ نزلت فى حمزة وصاحبيه، وعتبة وصاحبيه، يوم برزوا فى بدر^(٤) - لفظ البخارى عند تفسيرها، ثم روى البخارى عن على بن أبى طالب أنه قال: أنا أول من يجتو بين يدى الرحمن

(١) البخارى (٤٨٠٣) ومسلم (٢٥٠/١٥٩).

(٢) الترمذى (٥٧٩) وابن ماجه (١٠٥٣) وابن حبان (٦٩١ موارد).

(٣) مسلم (١٣٣/٨١). (٤) البخارى (٤٧٤٣) ومسلم (٣٣٠٣٣/٣٤).

للخصومة يوم القيامة. قال قيس: وفيهم نزلت: ﴿هَذَا خِصْمَانِ اخْتَصَمُوا فِي رَبِّهِمْ﴾، قال: هم الذين بارزوا يوم بدر: على وحمزة وعبيدة، وشيبة بن ربيعة وعتبة بن ربيعة والوليد بن عتبة. انفرد به البخارى^(١). وقال مجاهد فى هذه الآية: مثل الكافر والمؤمن اختصما فى البعث. وقال - فى رواية: هو وعطاء فى هذه الآية - هم المؤمنون والكافرون. وقول مجاهد وعطاء: إن المراد بهذا الكافرون والمؤمنون، يشمل الأقوال كلها، ويتنظم فيه قصة يوم بدر وغيرها؛ فإن المؤمنين يريدون نصرة دين الله، والكافرون يريدون إطفاء نور الإيمان وخذلان الحق وظهور الباطل. وهذا اختيار ابن جرير، وهو حسن؛ ولهذا قال: ﴿فَالَّذِينَ كَفَرُوا قُطِعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِنْ نَارٍ﴾ أى: فصلت لهم مقطعات من نار. قال سعيد بن جبيرة: من نحاس وهو أشد الأشياء حرارة إذا حمى.

﴿يُصَبُّ مِنْ فَوْقِ رُؤُوسِهِمُ الْحَمِيمُ يُصْهَرُ بِهِ مَا فِي بُطُونِهِمْ وَالْجُلُودُ﴾ أى: إذا صب على رؤوسهم الحميم، وهو الماء الحار فى غاية الحرارة. وقال سعيد بن جبيرة: هو النحاس المذاب، أذاب ما فى بطونهم من الشحم والأمعاء. قاله ابن عباس، ومجاهد، وسعيد بن جبيرة، وغيرهم. وكذلك تذوب جلودهم. وسعيد: تساقط. وروى ابن جرير عن أبى هريرة، عن النبى ﷺ قال: «إن الحميم ليُصب على رؤوسهم، فينفذ الجمجمة حتى يخلص إلى جوفه، فيسلت ما فى جوفه، حتى يبلغ قدميه، وهو الصهر، ثم يعاد كما كان». ورواه الترمذى، وقال: حسن صحيح^(٢).

وقوله: ﴿وَلَهُمْ مَقَامِعٌ مِنْ حَدِيدٍ﴾ وقال ابن عباس يضربون بها، فيقع كل عضو على حياله، فيدعون بالشبور.

وقوله: ﴿كَلِمًا أَرَادُوا أَنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُوا فِيهَا﴾ قال سلمان: النار سوداء مظلمة، لا يضىء لها ولا جمرها، ثم قرأ: ﴿كَلِمًا أَرَادُوا أَنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُوا فِيهَا﴾. وقال الفضيل بن عياض: والله ما طمعوا فى الخروج، إن الأرجل لمقيدة، وإن الأيدي لموثقة، ولكن يرفعهم لها، وتردهم مقامعها. وقوله: ﴿وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ﴾ كقوله: ﴿وَقِيلَ لَهُمْ ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ﴾ [السجدة: ٢٠] ومعنى الكلام: أنهم يهانون بالعذاب قولاً وفعلاً.

﴿إِنَّ اللَّهَ يَدْخُلُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ يُكَلِّمُونَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ ﴿١٢﴾ وَهُدُوا إِلَى الطَّيِّبِ مِنَ الْقَوْلِ وَهُدُوا إِلَى صِرَاطٍ الْحَمِيدِ ﴿١٣﴾﴾

لما أخبر تعالى عن حال أهل النار، عياداً بالله من حالهم، وما هم فيه من العذاب والنكال والحريق والأغلال، وما أعد لهم من الثياب من النار، ذكر حال أهل الجنة - نسأل الله من فضله وكرمه أن يدخلنا الجنة - فقال: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَدْخُلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا

(١) البخارى (٤٧٤٤).

(٢) الطبرى (١٧/١٠٠) والترمذى (٢٥٨٢) وقال: «حسن صحيح غريب».

الأنهار ﴿ أى: تتخرق فى أكنافها وأرجائها وجوانبها، وتحت أشجارها وقصورها، يصرفونها حيث شاؤوا وأين أرادوا ﴾ **يُحَلُونَ فِيهَا** ﴿ من الحلية ﴾ **مِنَ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا** ﴿ أى: فى أيديهم، كما قال النبى ﷺ : **«تبلغ الحليّة من المؤمن حيث يبلغ الوضوء»** (١). وقوله: **﴿وَلِبَاسَهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ﴾** فى مقابلة ثياب أهل النار التى فصلت لهم، لباس هؤلاء من الحرير، إستبرقه وسنّدسه، كما قال: **﴿عَالِيَهُمْ ثِيَابٌ سُنْدُسٌ خُضْرٌ وَإِسْتَبْرَقٌ وَحُلُوا أَسَاوِرَ مِنْ فِضَّةٍ وَسَقَاهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا . إِنَّ هَذَا كَانَ لَكُمْ جَزَاءً وَكَانَ سَعْيُكُمْ مَشْكُورًا﴾** [الإنسان: ٢١، ٢٢]، وفى الصحيح: **«لا تلبسوا الحرير ولا الديقاج فى الدنيا، فإنه من لبسه فى الدنيا لم يلبسه فى الآخرة»** (٢).

وقوله: **﴿وَهُدُوا إِلَى الطَّيِّبِ مِنَ الْقَوْلِ﴾**، كقوله: **﴿وَأَدْخِلِ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ تَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ﴾** [إبراهيم: ٢٣]، وقوله: **﴿وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ . سَلَامٌ عَلَيْكُمْ بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ﴾** [الرعد: ٢٣، ٢٤]، وقوله: **﴿لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْتِيًا . إِلَّا قِيلًا سَلَامًا سَلَامًا﴾** [الواقعة: ٢٥، ٢٦]، فهدوا إلى المكان الذى يسمعون فيه الكلام الطيب، **﴿وَيُلْقُونَ فِيهَا تَاحِيَةً وَسَلَامًا﴾** [الفرقان: ٧٥]، لا كما يهان أهل النار بالكلام الذى يروعون به ويقرعون به، يقال لهم: **﴿وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ﴾**.

وقوله: **﴿وَهُدُوا إِلَى صِرَاطِ الْحَمِيدِ﴾** أى: إلى المكان الذى يحمدون فيه ربهم، على ما أحسن إليهم وأنعم به وأسدها إليهم، كما جاء فى الصحيح: **«إنهم يلهمون التسييح والتحميد، كما يلهمون النفس»** (٣). وقد قال بعض المفسرين فى قوله: **﴿وَهُدُوا إِلَى الطَّيِّبِ مِنَ الْقَوْلِ﴾** أى: القرآن. وقيل: لا إله إلا الله. وقيل: الأذكار المشروعة، **﴿وَهُدُوا إِلَى صِرَاطِ الْحَمِيدِ﴾** أى: الطريق المستقيم فى الدنيا. وكل هذا لا ينافى ما ذكرناه، والله أعلم.

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ الَّذِي جَعَلْنَاهُ لِلنَّاسِ سَوَاءً الْعَاكِفُ فِيهِ وَالْبَادِ وَمَنْ يُرِدْ فِيهِ بِالْحَكْمِ يُظَلِّمِ نَفْسَهُ مِنْ عَذَابِ أَلِيمٍ﴾

يقول تعالى منكرأ على الكفار فى صدّهم المؤمنين عن إتيان المسجد الحرام، وقضاء مناسكهم فيه: **﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾** أى: ومن صفتهم مع كفرهم أنهم يصدون عن سبيل الله والمسجد الحرام، أى: ويصدون عن المسجد الحرام من أراده من المؤمنين الذين هم أحق الناس به فى نفس الأمر.

وقوله: **﴿الَّذِي جَعَلْنَاهُ لِلنَّاسِ سَوَاءً الْعَاكِفُ فِيهِ وَالْبَادِ﴾** أى: يمنعون الناس عن الوصول إلى المسجد الحرام، وقد جعله الله شرعاً سواء، لا فرق فيه بين المقيم فيه والناتى عنه البعيد الدار منه، **﴿سَوَاءً الْعَاكِفُ فِيهِ وَالْبَادِ﴾** ومن ذلك استواء الناس فى رباح مكة وسكناها، كما قال ابن عباس فى

(٢) البخارى (٥٤٢٦) ومسلم (٤/٢٠٦٧).

(١) مسلم (٤٠/٢٥٠).

(٣) مسلم (١٨/٢٨٣٥).

قوله: ﴿سَوَاءُ الْعَاكِفُ فِيهِ وَالْبَادِ﴾ قال: ينزل أهل مكة وغيرهم في المسجد الحرام. وقال مجاهد: ﴿سَوَاءُ الْعَاكِفُ فِيهِ وَالْبَادِ﴾: أهل مكة وغيرهم فيه سواء في المنازل. وكذا قال أبو صالح، وعبد الرحمن بن سابط، وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم. وقال قتادة: سواء فيه أهله وغير أهله. وهذه المسألة اختلف فيها الشافعي وإسحاق بن راهويه بمسجد الخيف، وأحمد بن حنبل حاضر أيضاً، فذهب الشافعي إلى أن رباع مكة تملك وتورث وتؤجر، وبه قال طاوس، وعمرو بن دينار. وذهب إسحاق بن راهويه إلا أنها تورث ولا تؤجر. وهو مذهب طائفة من السلف، ونص عليه مجاهد وعطاء. وتوسط الإمام أحمد فقال: تملك وتورث ولا تؤجر، جمعاً بين الأدلة، والله أعلم.

وقوله: ﴿وَمَنْ يُؤَدِّ فِيهِ بِالْحَادِ يَظْلَمُ نَفْسَهُ مِنْ عَذَابِ أَلِيمٍ﴾: ﴿يَظْلَمُ﴾ أى: عامداً قاصداً أنه ظلم ليس بمتأول. قال على بن أبي طلحة، عن ابن عباس: ﴿يَظْلَمُ﴾: بشرك، وقال مجاهد: أن يعبد فيه غير الله. وكذا قال قتادة، وغير واحد، وقال العوفي، عن ابن عباس: ﴿يَظْلَمُ﴾: هو أن تستحل من الحرام ما حرم الله عليك من لسان أو قتل، فتظلم من لا يظلمك، وتقتل من لا يقتلك، فإذا فعل ذلك فقد وجب له العذاب الأليم. وقال سعيد بن جبيرة: شتم الخادم ظلم فما فوقه. وهذه الآثار، وإن دلت على أن هذه الأشياء من الإلحاد، ولكن هو أعم من ذلك، بل فيها تنبيه على ما هو أغلظ منها، ولهذا لما هم أصحاب القيل على تخريب البيت أرسل الله عليهم طيراً أبابيل ﴿تُرْمِيهِمْ بِحِجَارَةٍ مِنْ سِجِّيلٍ . فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَأْكُولٍ﴾ [الفيل: ٤، ٥]، أى: دمرهم

وجعلهم عبرة ونكالا لكل من أراده بسوء؛ ولذلك ثبت أن رسول الله ﷺ قال: «يغزو هذا البيت جيش، حتى إذا كانوا ببداء من الأرض خُسف بأولهم وآخرهم» الحديث (١). وروى الإمام أحمد عن إسحاق بن سعيد، عن أبيه قال: أتى عبد الله بن عمر عبد الله بن الزبير، فقال: يا بن الزبير، إياك والإلحاد في حرم الله، فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إنه سيلحد فيه رجل من قريش، لو توزن ذنوبه بذنوب الثقلين لرجحت»، فانظر لا تكن هو (٢). وروى أيضاً عن سعيد بن عمرو قال: أتى عبد الله بن عمرو بن الزبير، وهو جالس في الحجر فقال: يا بن الزبير، إياك والإلحاد في الحرم، فإني أشهد لسمعت رسول الله ﷺ يقول: «يحلها ويحل به رجل من قريش، ولو وزنت ذنوبه بذنوب الثقلين لوزنتها». قال: فانظر لا تكن هو (٣).

﴿وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ أَنْ لَا تُشْرِكْ بِي شَيْئًا وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ ﴿١١﴾ وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ ﴿١٢﴾﴾

هذا فيه تقريع وتوبيخ لمن عبد غير الله، وأشرك به من قريش، في البقعة التي أسست من أول يوم على توحيد الله وعبادته وحده لا شريك له، فذكر تعالى أنه بوأ إبراهيم مكان البيت،

(١) البخارى (٢١١٨) .

(٢) المسند (٦٢٠٠) وقال الشيخ أحمد شاکر: «إسناده صحيح على علة فيه» .

(٣) المسند (٧٠٤٣) وقال الشيخ أحمد شاکر: «إسناده صحيح» .

أى: أرشده إليه، وسلمه له، وأذن له فى بنائه. واستدل به كثير من قال: «إن إبراهيم، عليه السلام، هو أول من بنى البيت العتيق، وأنه لم يبن قبله»، كما ثبت فى الصحيح عن أبى ذر قلت: يا رسول الله، أى مسجد وُضع أول؟ قال: «المسجد الحرام». قلت: ثم أى؟ قال: «بيت المقدس». قلت: كم بينهما؟ قال: «أربعون سنة» (١).

وقد قال الله تعالى: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا﴾ [آل عمران: ٩٦، ٩٧]، وقال تعالى: ﴿وَعَهْدَنَا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَنَّ طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ﴾ [البقرة: ١٢٥]. وقد قدمنا ذكر ما ورد فى بناء البيت من الصحاح والآثار، بما أغنى عن إعادته هاهنا (٢). وقال تعالى هاهنا: ﴿أَنْ لَا تُشْرِكَ بِي﴾ أى: ابنه على اسمى وحدى ﴿وَوَطَّهَّرْ بَيْتِي﴾ قال مجاهد وقتادة: من الشرك ﴿لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ﴾ أى: اجعله خالصا لهؤلاء الذين يعبدون الله وحده لا شريك له، فالطائف به معروف، وهو أخص العبادات عند البيت، فإنه لا يفعل ببقعة من الأرض سواها، ﴿وَالْقَائِمِينَ﴾ أى: فى الصلاة؛ ولهذا قال: ﴿وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ﴾، فقرن الطواف بالصلاة؛ لأنهما لا يشرعان إلا مختصين بالبيت، فالطواف عنده، والصلاة إليه فى غالب الأحوال، إلا ما استثنى من الصلاة عند اشتباه القبلة وفى الحرب، وفى النافلة فى السفر، والله أعلم.

وقوله: ﴿وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ﴾ أى: ناد فى الناس داعيا لهم إلى الحج إلى هذا البيت الذى أمرناك ببنائه. فذكر أنه قال: يارب، وكيف أبلغ الناس وصوتى لا ينفذهم؟ قيل: ناد وعلينا البلاغ. فقام على مقامه، وقيل: على الحجر، وقيل: على الصفا، وقيل: على أبى قُبَيْس، وقال: يأبها الناس، إن ربكم قد اتخذ بيتا فحجوه، فيقال: إن الجبال تواضعت حتى بلغ الصوت أرجاء الأرض، وأسمع من فى الأرحام والأصلاب، وأجابه كل شىء سمعه من حَجَرٍ ومَدَرٍ وشجر، ومن كتب الله أنه يحج إلى يوم القيامة: «لييك اللهم لييك». هذا مضمون ما روى عن ابن عباس، ومجاهد، وسعيد بن جبيرة، وغير واحد من السلف، والله أعلم.

وقوله: ﴿يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ﴾ الآية: قد يستدل بهذه الآية من ذهب من العلماء إلى أن الحج ماشيا، لمن قدر عليه، أفضل من الحج راكبا؛ لأنه قدمهم فى الذكر، فدل على الاهتمام بهم وقوة همهم وشدة عزمهم، والذى عليه الأكثرون أن الحج راكبا أفضل؛ اقتداء برسول الله ﷺ، فإنه حج راكبا مع كمال قوته، عليه السلام. وقوله: ﴿يَأْتِينَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَنِي﴾ أى: طريق، كما قال: ﴿وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا سِيلًا﴾ [الانبيا: ٣١]. وقوله: ﴿عَمِيقٍ﴾ أى: بعيد. قاله مجاهد، وعطاء، وغير واحد. وهذه الآية كقوله تعالى إخبارا عن إبراهيم، حيث قال فى دعائه: ﴿فَأَجْعَلْ أُمَّتِي أُمَّةً مِّنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ﴾ [إبراهيم: ٣٧] فليس أحد من أهل الإسلام إلا وهو يحن إلى رؤية الكعبة والطواف، فالناس يقصدونها من سائر الجهات والأقطار.

(١) البخارى (٣٣٦٦) ومسلم (١/٥٢٠). (٢) راجع ذلك عند الآية (١٢٥) من سورة البقرة.

﴿لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَّعْلُومَاتٍ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُمْ
مِّنْ بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا الْبَائِسَ الْفَقِيرَ ﴿٢٨﴾ ثُمَّ لِيَقْضُوا تَفَثَهُمْ
وَلِيُوفُوا نُذُورَهُمْ وَلِيَطَّوَفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ ﴿٢٩﴾﴾

قال ابن عباس: ﴿لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ﴾ قال: منافع الدنيا والآخرة؛ أما منافع الآخرة فرضوان
تعالى الله، وأما منافع الدنيا فما يصيبون من منافع البدن والذبائح والتجارات. وكذا قال مجاهد،
وغير واحد: إنها منافع الدنيا والآخرة، كقوله: ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَبْتَغُوا فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ﴾
[البقرة: ١٩٨]

﴿وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَّعْلُومَاتٍ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُمْ مِّنْ بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ﴾ قال ابن عباس: الأيام
المعلومات: أيام العشر، وروى مثله عن أبي موسى الأشعري، ومجاهد، وعطاء، وسعيد ابن
جبير، وهو مذهب الشافعي، والمشهور عن أحمد بن حنبل. وروى البخاري عن ابن عباس،
عن النبي ﷺ قال: «ما العمل في أيام أفضل منها في هذه» قالوا: ولا الجهاد في سبيل الله؟
قال: «ولا الجهاد في سبيل الله، إلا رجل، يخرج يخاطر بنفسه وماله فلم يرجع بشيء» (١). وهذا
العشر مشتمل على يوم عرفة الذي ثبت في صحيح مسلم عن أبي قتادة قال: سئل رسول الله
ﷺ عن صيام يوم عرفة، فقال: «أحسب على الله أن يكفر السنة الماضية والآتية» (٢). ويشتمل
على يوم النحر الذي هو يوم الحج الأكبر، وقد ورد في حديث أنه أفضل الأيام عند الله (٣).
وبالجملة: فهذا العشر قد قيل: إنه أفضل أيام السنة، كما نطق به الحديث، ففضله كثير على
عشر رمضان الأخير؛ لأن هذا يشرع فيه ما يشرع في ذلك، من صيام وصلاة وصدقة وغيره،
ويمتاز هذا باختصاصه بأداء فرض الحج فيه. وقيل: ذاك أفضل لاشتماله على ليلة القدر، التي هي
خير من ألف شهر. وتوسط آخرون فقالوا: أيام هذا أفضل، وليالي ذاك أفضل. وبهذا يجتمع
شمل الأدلة، والله أعلم.

قول ثان في الأيام المعلومات: قال ابن عباس: الأيام المعلومات: يوم النحر وثلاثة أيام
بعده. ويروى هذا عن ابن عمر، وإبراهيم النخعي، وإليه ذهب أحمد بن حنبل في رواية عنه.
قول ثالث: أن ابن عمر كان يقول: الأيام المعلومات والمعدودات هن جميعهن أربعة أيام،
فالأيام المعلومات يوم النحر ويومان بعده، والأيام المعدودات ثلاثة أيام بعد يوم النحر. هذا إسناد
صحيح إليه، وقاله السدي: وهو مذهب الإمام مالك بن أنس، ويعضد هذا القول والذي قبله
قوله تعالى: ﴿عَلَىٰ مَا رَزَقَهُمْ مِّنْ بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ﴾ يعني به: ذكر الله عند ذبحها.

قول رابع: إنها يوم عرفة، ويوم النحر، ويوم آخر بعده. وهو مذهب أبي حنيفة.

(٢) مسلم (١١٦٢/١٩٧).

(١) البخاري (٩٦٩).

(٣) المسند (٣٥٠/٤) وأبو داود (١٧٦٥)، وصححه الألباني.

وقوله: ﴿عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّن بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ﴾ يعنى: الإبل والبقر والغنم، كما فصلها تعالى في سورة الأنعام وأنها ﴿ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ﴾ الآية [الأنعام: ١٤٣] . وقوله ﴿فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطِعُوا الْبَائِسَ الْفَقِيرَ﴾ استدل بهذه الآية من ذهب إلى وجوب الأكل من الأضاحى وهو قول غريب، والذي عليه الأكثرون أنه من باب الرخصة أو الاستحباب، كما ثبت أن رسول الله ﷺ لما نحر هديه أمر من كل بدنة ببضعة فتطبخ، فأكل من لحمها، وحسا من مرقها (١). قال مالك: أحب أن يأكل من أضحيته؛ لأن الله يقول: ﴿فَكُلُوا مِنْهَا﴾ : قال ابن وهب: وسألت الليث، فقال لى مثل ذلك . وقال مجاهد فى قوله ﴿فَكُلُوا مِنْهَا﴾ : هى كقوله: ﴿وَإِذَا حَلَلْتُمْ فَاصْطَادُوا﴾ [المائدة: ٢٠]، ﴿فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانْتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ﴾ [الجمعة: ١٠]. وهذا اختيار ابن جرير فى تفسيره، واستدل من نصر القول بأن الأضاحى يتصدق منها بالنصف بقوله فى هذه الآية: ﴿فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطِعُوا الْبَائِسَ الْفَقِيرَ﴾ فجزأها نصفين: نصف للمضحى، ونصف للفقراء. والقول الآخر: أنها تجزأ ثلاثة أجزاء: ثلث له، وثلث يهديه، وثلث يتصدق به؛ لقوله تعالى فى الآية الأخرى: ﴿فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطِعُوا الْقَانِعَ وَالْمُعْتَرَّ﴾ [الحج: ٣٦] وسيأتى الكلام عليها عندها، إن شاء الله، وبه الثقة.

وقوله: ﴿الْبَائِسَ الْفَقِيرَ﴾ قال عكرمة: هو المضطر الذى عليه البؤس، والفقير المتعفف. وقال مجاهد: هو الذى لا ييسط يده. وقال قتادة: هو الزمّن. وقال مقاتل بن حيان: هو الضرير. وقوله: ﴿ثُمَّ لِيَقْضُوا تَفَثَهُمْ﴾ قال ابن عباس: هو وضع الإحرام، من حلق الرأس ولبس الثياب وقص الأظفار، ونحو ذلك. وهكذا روى عطاء ومجاهد، عنه. وكذا قال عكرمة، ومحمد بن كعب القرظى. وقال عكرمة، عن ابن عباس: ﴿ثُمَّ لِيَقْضُوا تَفَثَهُمْ﴾ قال: التفت: المناسك. وقوله: ﴿وَلْيُوفُوا نُذُورَهُمْ﴾ قال ابن عباس: يعنى: نحر ما نذر من أمر البدن. وقال مجاهد: نذر الحج والهدى وما نذر الإنسان من شىء يكون فى الحج. وقال عكرمة: حجهم.

وقوله: ﴿وَلْيَطُوفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ﴾ : قال مجاهد: يعنى: الطواف الواجب يوم النحر. قلت: وهكذا صنع رسول الله ﷺ، فإنه لما رجع إلى منى يوم النحر بدأ يرمى الجمرة، فرماها بسبع حصيات، ثم نحر هديه، وحلق رأسه، ثم أفاض فطاف بالبيت. وفى الصحيح عن ابن عباس أنه قال: أمر الناس أن يكون آخر عهدهم بالبيت الطواف، إلا أنه خفف عن المرأة الحائض (٢).

وقوله: ﴿بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ﴾: فيه مستدل لمن ذهب إلى أنه يجب الطواف من وراء الحجر؛ لأنه من أصل البيت الذى بناه إبراهيم، وإن كانت قريش قد أخرجه من البيت، حين قصرت بهم النفقة؛ ولهذا طاف رسول الله ﷺ من وراء الحجر، وأخبر أن الحجر من البيت، ولم يستلم الركبتين الشاميين؛ لأنهما لم يتمما على قواعد إبراهيم العتيقة. وعن عكرمة أنه قال: إنما سُمى البيت العتيق؛ لأنه أعتق يوم الغرق زمان نوح. وقال خصيف: إنما سُمى البيت العتيق؛ لأنه لم

(١) مسلم (١٢١٨ / ١٤٧) .

(٢) البخارى (٣٢٩) ومسلم (١٣٢٨ / ٣٨٠) .

يظهر عليه جبار قط . وقال مجاهد: أعتق من الجبارة أن يسلطوا عليه . وكذا قال قتادة .

﴿ ذَلِكُمْ وَمَنْ يُعْظِمَ حُرْمَاتِ اللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُ عِنْدَ رَبِّهِ وَأَحَلَّتْ لَكُمْ
الْأَنْعَامَ إِلَّا مَا يَتْلَى عَلَيْكُمْ فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثَانِ وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ
الزُّورِ ﴿١٠﴾ حَفَاءَ لِلَّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخَطَفُهُ
الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ ﴿١١﴾ ﴾

يقول تعالى: هذا الذي أمرنا به من الطاعات في أداء المناسك، وما لفاعلها من الثواب الجزيل ﴿وَمَنْ يُعْظِمَ حُرْمَاتِ اللَّهِ﴾ أى: ومن يجتنب معاصيه ومحارمه ويكون ارتكابها عظيما فى نفسه ﴿فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُ عِنْدَ رَبِّهِ﴾ أى: فله على ذلك خير كثير وثواب جزيل، فكما على فعل الطاعات ثواب كثير وأجر جزيل، كذلك على ترك المحرمات واجتناب المحظورات. قال مجاهد الحرمة: مكة والحج والعمرة، وما نهى الله عنه من معاصيه كلها. وكذا قال ابن زيد.

وقوله: ﴿وَأَحَلَّتْ لَكُمْ الْأَنْعَامَ إِلَّا مَا يَتْلَى عَلَيْكُمْ﴾ أى: أحللنا لكم جميع الأنعام، وما جعل الله من بحيرة، ولا سائبة، ولا وصيلة، ولا حام. وقوله: ﴿إِلَّا مَا يَتْلَى عَلَيْكُمْ﴾ أى: من تحريم ﴿الْمَيْتَةِ وَالْدَّمِ وَلَحْمِ الْخِنزِيرِ وَمَا أَهْلَ لغيرِ اللَّهِ بِهِ وَالْمُنْحَنِقَةَ﴾ الآية [المائدة: ٣]، قال ذلك ابن جرير، وحكاه عن قتادة.

وقوله: ﴿فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثَانِ وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ﴾: «من» هاهنا لبيان الجنس، أى: اجتنبوا الرجس الذى هو الأوثان. وقرن الشرك بالله بقول الزور، كقوله: ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّي الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَّنَ وَإِثْمَ وَالْبَغْيِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَنْ تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [الاعراف: ٣٣]، ومنه شهادة الزور. وفى الصحيحين عن أبى بكر، أن رسول الله ﷺ قال: «ألا أنبئكم بأكبر الكبائر؟» قلنا: بلى، يا رسول الله. قال: «الإشراك بالله وعقوق الوالدين» وكان متكئا فجلس، فقال: - «ألا وقول الزور، ألا وشهادة الزور». فما زال يكررها، حتى قلنا: ليته سكت (١). وقوله: ﴿حَفَاءَ لِلَّهِ﴾ أى: مخلصين له الدين، منحرفين عن الباطل قصدا إلى الحق؛ ولهذا قال ﴿غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِ﴾.

ثم ضرب للمشرك مثلا فى ضلاله وهلاكه وبعده عن الهدى فقال: ﴿وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ﴾ أى: سقط منها، ﴿فَتَخَطَفُهُ الطَّيْرُ﴾ أى: تقطعه الطيور فى الهواء ﴿أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ﴾ أى: بعيد مهلك لمن هوى فيه؛ ولهذا جاء فى حديث البراء: «إن الكافر إذا توفته ملائكة الموت، وصعدوا بروحه إلى السماء، فلا تفتح له أبواب السماء، بل تطرح روحه طرحا من هناك». ثم قرأ هذه الآية، وقد تقدم الحديث فى سورة «إبراهيم» بحروفه وألفاظه وطرقه (٢).

(١) البخارى (٢٦٥٤) ومسلم (٨٧ / ١٤٣) .

(٢) وذلك عند الآية رقم (٢٧) .

وقد ضرب تعالى للمشرك مثلاً آخر في سورة «الأنعام»، وهو قوله: ﴿قُلْ أَدْعُو مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا وَنُرَدُّ عَلَىٰ أَعْقَابِنَا بَعْدَ إِذْ هَدَانَا اللَّهُ كَالَّذِي اسْتَهْوَتْهُ الشَّيَاطِينُ فِي الْأَرْضِ حَيْرَانٌ لَهُ أَصْحَابٌ يَدْعُونَهُ إِلَى الْهُدَىٰ امْتِنَا قُلْ إِنْ هَدَىٰ اللَّهُ فَمَا لَهُ هَادٍ إِلَّا إِلَى الْهَادِي ۗ﴾ الآية [الأنعام: ٧١].

﴿ذَلِكَ وَمَنْ يُعْظِمِ شَعَائِرَ اللَّهِ فَإِنَّهَا مِنْ تَقْوَى الْقُلُوبِ﴾ ﴿٢١﴾ لَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ مَحِلُّهَا إِلَى الْبَيْتِ الْعَتِيقِ﴾ ﴿٢٢﴾

يقول تعالى: هذا ﴿وَمَنْ يُعْظِمِ شَعَائِرَ اللَّهِ﴾ أى: أوامره ﴿فَإِنَّهَا مِنْ تَقْوَى الْقُلُوبِ﴾ ومن ذلك تعظيم الهدايا والبدن، كما قال ابن عباس: تعظيمها: استسمانها واستحسانها. وقال أبو أمامة ابن سهل: كنا نسمن الأضحية بالمدينة، وكان المسلمون يُسمنون. رواه البخارى (١).

وعن أبي سعيد: أن رسول الله ﷺ ضحى بكبش أقرن فحليل يأكل فى سواد، وينظر فى سواد، ويمشى فى سواد. رواه أهل السنن، وصححه الترمذى (٢)، أى: بكبش أسود فى هذه الأماكن. وعن على، قال: أمرنا رسول الله ﷺ أن نستشرف العين والأذن، وألا نضحى بمقابلة، ولا مدابرة، ولا شرقاء، ولا خرقاء. رواه أحمد، وأهل السنن، وصححه الترمذى (٣). وأما المقابلة: فهى التى قطع مقدم أذنها، والمدابرة: من مؤخر أذنها. والشرقاء: هى التى قطعت أذنها طولاً. والخرقاء: هى التى خرقت السمة أذنها خرقاً مدوراً، والله أعلم. وعن البراء قال: قال رسول الله ﷺ: «أربع لا تجوز فى الأضاحى: العوراء البين عورها، والمريضة البين مرصها، والعرجاء البين ظلعاها، والكسيرة التى لا تنقى». رواه أحمد، وأهل السنن، وصححه الترمذى (٤). وهذه العيوب تنقص اللحم، لضعفها وعجزها عن استكمال الرعى؛ لأن الشاء يسبقونها إلى المرعى، فلهدا لا تجزئ التضحية بها عند الشافعى وغيره من الأئمة، كما هو ظاهر الحديث. واختلف قول الشافعى فى المريضة مرضاً يسيراً، على قولين. وقال ابن عباس: البدن من شعائر الله. وقال ابن عمر: أعظم الشعائر البيت. وقوله: «لَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ﴾ أى: لكم فى البدن منافع، من لبنها، وصوفها وأوبارها وأشعارها، وركوبها «إلى أجل مسمى» قال ابن عباس: ما لم يسم بدناً. وقال آخرون: بل له أن ينتفع بها وإن كانت هدياً، إذا احتاج إلى ذلك، كما ثبت فى الصحيحين عن أنس: أن رسول الله ﷺ رأى رجلاً يسوق بدنة، قال: «اركبها». قال: إنها بدنة. قال: «اركبها، ويحك»، فى الثانية أو الثالثة. وفى رواية لمسلم، عن جابر، عن رسول الله ﷺ أنه قال: «اركبها بالمعروف إذا ألجئت إليها» (٥).

(١) البخارى (١٠ / ١١ فتح) معلقاً. وفى المطبوعة: «أبو أمامة عن سهل» وهو خطأ.

(٢) أبو داود (٢٧٩٦) والترمذى (١٤٩٦) وابن ماجه (٣١٢٨).

(٣) المسند (١ / ٨٠) وأبو داود (٢٨٠٤) والترمذى (١٤٩٨).

(٤) المسند (٤ / ٢٨٤) والترمذى (١٤٩٧).

(٥) البخارى (١٦٩٠) ومسلم (١٣٢٤ / ٣٧٥).

وقوله: ﴿ثُمَّ مَحَلِّهَا إِلَى الْبَيْتِ الْعَتِيقِ﴾ أى: محل الهدى وانتهاهؤه إلى البيت العتيق، وهو الكعبة، كما قال تعالى: ﴿هُدًى بَالِغَ الْكَعْبَةِ﴾ [المائدة: ٩٥]، وقال ﴿وَالْهُدَىٰ مَعَكُوفًا أَنْ يَبْلُغَ مَحَلَّهُ﴾ [الفتح: ٢٥]. وقد تقدم الكلام على معنى «البيت العتيق» قريبا (١). وقال ابن عباس: كل من طاف بالبيت، فقد حل، قال الله تعالى: ﴿ثُمَّ مَحَلِّهَا إِلَى الْبَيْتِ الْعَتِيقِ﴾.

﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنْسَكًا لِيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُمْ مِنْ بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ ۗ فَإِنَّهُمْ كَانُوا إِلَى اللَّهِ وَجِدًّا ۗ فَلَهُمْ أَسْلَامٌ ۗ وَيُنَشِّرُ الْمُخْبِتِينَ ﴿٢٤﴾ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَّت قُلُوبُهُمْ وَالصَّابِرِينَ عَلَىٰ مَا أَصَابَهُمُ وَالْمُقِيمِي الصَّلَاةِ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٢٥﴾﴾

يخبر تعالى أنه لم يزل ذبح المناسك وإراقة الدماء على اسم الله مشروعاً في جميع الملل. قال ابن عباس: ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنْسَكًا﴾ قال: عيداً. وقال عكرمة: ذبحاً. ﴿لِيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُمْ مِنْ بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ﴾، كما ثبت في الصحيحين عن أنس قال: أتى رسول الله ﷺ بكبشين أملحين أقرنين، فسَمَى وكبر، ووضع رجله على صِفَاحِهِمَا (٢).

وقوله: ﴿فَالَهُمْ اللَّهُ وَاحِدٌ فَلَهُ أَسْلَمُوا﴾ أى: معبودكم واحد، وإن تَوَعَّت شرائع الأنبياء ونَسَخ بعضها بعضاً، فالجميع يدعون إلى عبادة الله وحده، لا شريك له ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء: ٢٥] ولهذا قال: ﴿فَلَهُ أَسْلَمُوا﴾ أى: اخلصوا واستسلموا لحكمه وطاعته. ﴿وَيُنَشِّرُ الْمُخْبِتِينَ﴾ قال مجاهد: المطمئنين، وقال الضحاک، وقاتدة: المتواضعين، وقال السدى: الوجلين. وأحسن ما يفسر بما بعده وهو قوله: ﴿الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَّت قُلُوبُهُمْ﴾ أى: خافت منه قلوبهم، ﴿وَالصَّابِرِينَ عَلَىٰ مَا أَصَابَهُمْ﴾ أى: من المصابين «وَالْمُقِيمِي الصَّلَاةِ﴾ أى: المؤدين حق الله فيما أوجب عليهم من أداء فرائضه ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾ أى: وينفقون ما آتاهم الله من طيب الرزق على أهلهم وأرقاتهم وقرباتهم، وفقرائهم ومحاوليهم، ويحسنون إلى خلق الله مع محافظتهم على حدود الله.

﴿وَالْبَدَنَ جَعَلْنَاهَا لَكُمْ مِنْ شَعْتِيرِ اللَّهِ لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌ فَأَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا صَوَافٍ ۖ فَإِذَا وَجَبَتْ جُنُوبُهَا فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطِعمُوا الْقَنَاعَ وَالْمَعْدَرُ ۗ كَذَلِكَ سَخَّرْنَاهَا لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٢٦﴾﴾

يقول تعالى ممتنا على عبده فيما خلق لهم من البدن، وجعلها من شعائره، وهو أنه جعلها تهدي إلى بيته الحرام، بل هي أفضل ما يهدى إليه، كما قال تعالى: ﴿لَا تَحْلُوا شَعَائِرَ اللَّهِ وَلَا الشَّهْرَ الْحَرَامَ وَلَا الْهُدَىٰ وَلَا الْقَلَائِدَ [وَلَا آمِينَ الْبَيْتِ الْحَرَامِ]﴾ الآية: [المائدة: ٢]. قال عطاء:

(١) عند الآية (٢٩) من هذه السورة .

(٢) سبق تخريجه عند الآيتين (٣٢ ، ٣٤) من هذه السورة .

﴿وَأَبْدَنُ﴾: البقرة، والبعير. وكذا روى عن ابن عمر، وسعيد بن المسيب، والحسن البصرى. وقال مجاهد: إنما البدن من الإبل. قلت: أما إطلاق البدنة على البعير فمتفق عليه، واختلفوا فى صحة إطلاق البدنة على البقرة، على قولين، أصحهما أنه يطلق عليها ذلك ثم جمهور العلماء على أنه تُجزئ البدنة عن سبعة، والبقرة عن سبعة، كما ثبت به الحديث عند مسلم من رواية جابر بن عبد الله قال: أمرنا رسول الله ﷺ أن نشترك فى الأضاحى، البدنة عن سبعة، والبقرة عن سبعة^(١).

وقوله: ﴿لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌ﴾، أى: ثواب فى الدار الآخرة. وعن عائشة، أن رسول الله ﷺ قال: «ما عمل ابن آدم يوم النحر عملاً أحبَّ إلى الله من هراقه دم، وإنه لياتى يوم القيامة بقرونها وأظلافها وأشعارها، وإن الدم ليقع من الله بمكان، قبل أن يقع على الأرض، فطيبوا بها نفساً». رواه ابن ماجه، والترمذى وحسنه^(٢). وقال مجاهد: ﴿لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌ﴾ قال: أجر ومنافع. وقال إبراهيم النخعي: يركبها ويحلبها إذا احتاج إليها.

وقوله: ﴿فَاذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا صَوَافٍ﴾: عن جابر بن عبد الله قال: صليتُ مع رسول الله ﷺ عيد الأضحى، فلما انصرف أتى بكبش فذبحه، فقال: «باسم الله والله أكبر، اللهم هذا عنى وعن من لم يُضحَّ من أمتى». رواه أحمد، وأبو داود، والترمذى^(٣). وروى ابن إسحاق عن جابر قال: ضحى رسول الله ﷺ بكبشين فى يوم عيد، فقال حين وجههما: «وجهت وجهى للذى فطر السموات والأرض حنيفاً مسلماً، وما أنا من المشركين، إن صلاتى ونسكى ومحياى ومماتى لله رب العالمين. لا شريك له، وبذلك أمرت، وأنا أول المسلمين، اللهم منك ولك، وعن محمد وأمته». ثم سُمى الله وكبر وذبح^(٤).

وقال ابن عباس: ﴿صَوَافٍ﴾: قياماً على ثلاث قوائم، معقولة يدها اليسرى، يقول: «باسم الله والله أكبر، اللهم منك ولك». وفى الصحيحين عن ابن عمر: أنه أتى على رجل قد أناخ بدنته وهو ينحرها، فقال: ابعتها قياماً مقيدة سنة أبى القاسم ﷺ^(٥). وفى صحيح مسلم، عن جابر، فى صفة حجة الوداع، قال فيه: فنحر رسول الله ﷺ بيده ثلاثاً وستين بدنة، جعل يطعنُها بحربة فى يده^(٦). وقال ابن مسعود: «صوافن»، أى: مُعقَّلة قياماً. وقال سفيان الثورى، عن منصور، عن مجاهد: مَنْ قرأها «صوافن» قال: معقولة. ومن قرأها «صَوَافٍ»، قال: تصف بين يديها.

وقوله: ﴿فَإِذَا وَجَبَتْ جُنُوبُهَا﴾ قال مجاهد: يعنى: سقطت إلى الأرض. وهو رواية عن ابن عباس، وكذا قال مقاتل. وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: ﴿فَإِذَا وَجَبَتْ جُنُوبُهَا﴾ يعنى:

(١) مسلم (١٣١٨ / ٣٥٠) .

(٢) المسند (٣ / ٣٥٦) وأبو داود (٢٨١٠) والترمذى (١٥٢١) .

(٤) تقدم تخريجه عند الآية (١٦٢) من سورة الأنعام .

(٦) مسلم (١٢١٨ / ١٤٧) .

(٥) البخارى (١٧١٣) ومسلم (١٣٢٠ / ٣٥٨) .

ماتت. وهذا القول هو مُرَادُ ابن عباس ومجاهد، فإنه لا يجوز الأكل من البَدَنِ إذا نُحِرَتْ حتى تموت وتَبْرَدَ حركتها. وقد جاء فى صحيح مسلم: «إن الله كتب الإحسان على كل شيء، فإذا قتلتم فأحسنوا القِتْلَةَ، وإذا ذبحتم فأحسنوا الذبح، وليُحَدِّدْ أَحَدُكُمْ شَفْرَتَهُ، وليُبْرِحْ ذَبِيحَتَهُ»^(١). وعن أبي إسحاق الليثى قال: قال رسول الله ﷺ: «ما قُطِعَ من البهيمة وهى حية، فهو ميتة». رواه أحمد، وأبو داود، والترمذى وصححه^(٢).

وقوله: «فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا الْقَانِعَ وَالْمُعْتَرَّ» قال بعض السلف: قوله: «فَكُلُوا مِنْهَا» أمر بإباحة. وقال مالك: يستحب ذلك. وقال غيره: يَجِبُ. وهو وَجْهٌ لبعض الشافعية.

واختلف فى المراد بالقانع والمعتر، فقال ابن عباس: القانع: المستغنى بما أعطيته، وهو فى بيته. والمعتر: الذى يتعرض لك، ويُلِمُّ بك أن تعطيه من اللحم، ولا يسأل. وكذا قال مجاهد، ومحمد بن كعب القُرْطُبِيُّ. عن ابن عباس: القانع: المتعفف. والمعتر: السائل. وهذا قول قتادة، وإبراهيم النَّخَعِيِّ. وقال ابن عباس، وزيد بن أسلم وعكرمة، والحسن البصرى، وابن الكلبي، ومقاتل بن حيان، ومالك ابن أنس: القانع: هو الذى يَقْنَعُ إليك ويسألك. والمعتر: الذى يعتريك، يتضرع ولا يسألك. وهذا لفظ الحسن. وقال سعيد بن جبير: القانع: هو السائل، وقال زيد بن أسلم: القانع: المسكين الذى يطوف. والمعتر: الصديق والضعيف الذى يزور. وعن مجاهد: القانع: جارك الغنى الذى يبصر ما يدخل بيتك. والمعتر: الذى يعتريك من الناس. وعنه: أن القانع: هو الطامع. والمعتر: هو الذى يَعْتَرُّ بالبُدْنِ من غنى أو فقير. واختار ابن جرير أن القانع: هو السائل؛ لأنه من أفتق بيده إذا رفعها للسؤال، والمعتر من الاعتزار، وهو: الذى يتعرض لأكل اللحم.

وقد احتج بهذه الآية الكريمة من ذهب من العلماء إلى أن الأضحية تُجَزَأُ ثلاثة أجزاء: ثلث لصاحبها يأكله منها، وثلث يهديه لأصحابه، وثلث يتصدق به على الفقراء؛ لأنه تعالى قال: «فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا الْقَانِعَ وَالْمُعْتَرَّ». والقول الثانى: أن المضحى يأكل النصف ويتصدق بالنصف، لقوله فى الآية المتقدمة: «فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا الْبَائِسَ الْفَقِيرَ» [الحج: ٢٨]. فإن أكل الكل فقيل: لا يضمن شيئا. وبه قال ابن سريج من الشافعية. وقال بعضهم: يضمنها كلها بمثلها أو قيمتها. وقيل: يضمن نصفها. وقيل: ثلثها. وقيل: أدنى جزء منها. وهو المشهور من مذهب الشافعى.

وأما الجلود، ففى مسند أحمد عن قتادة بن النعمان فى حديث الأضاحى: «فكلوا وتصدقوا، واستمتعوا بجلودها، ولا تبيعوها»^(٣). ومن العلماء من رخص فى ذلك، ومنهم من قال: يقاسم الفقراء ثمنها، والله أعلم.

(١) مسلم (١٩٥٥ / ٥٧).

(٢) المسند (٥ / ٢١٨) وأبو داود (٢٨٥٨) والترمذى (١٤٨٠).

(٣) المسند (٤ / ١٥) وقال الهيثمى فى الزوائد (٤ / ٢٩): «وهو مرسل صحيح».

مسألة:

عن البراء بن عازب قال: قال رسول الله ﷺ: «إن أول ما نبأ به فى يومنا هذا أن نصلى، ثم نرجع فننحر. فمن فعل ذلك فقد أصاب سنتنا، ومن ذبح قبل الصلاة فإنما هو لحم لأهله، ليس هو من النسك فى شيء» أخرجاه (١). فلهذا قال الشافعى وجماعة من العلماء: إن أول وقت الأضحى إذا طلعت الشمس يوم النحر، ومضى قدر صلاة العيد والخطبتين. زاد أحمد: وأن يذبح الإمام بعد ذلك، لما جاء فى صحيح مسلم: «وَأَلَا تَذْبَحُوا حَتَّى يَذْبَحَ الْإِمَامُ» (٢). وقال أبو حنيفة: أما أهل السواد من القرى ونحوهم، فلهم أن يذبحوا بعد طلوع الفجر، إذ لا صلاة عيد عنده لهم. وأما أهل الأمصار فلا يذبحوا حتى يصلى الإمام، والله أعلم. ثم قيل: لا يشرع الذبح إلا يوم النحر وحده. وقيل: يوم النحر لأهل الأمصار، لتيسر الأضاحى عندهم، وأما أهل القرى فيوم النحر وأيام التشريق بعده، وبه قال سعيد بن جبير. وقيل: يوم النحر، ويوم بعده للجميع. وقيل: ويومان بعده، وبه قال أحمد. وقيل: يوم النحر وثلاثة أيام التشريق بعده، وبه قال الشافعى.

وقوله: «كَذَلِكَ سَخَرْنَاهَا لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ»: يقول تعالى: من أجل هذا «سَخَرْنَاهَا لَكُمْ» أى: ذللناها لكم، أى: جعلناها منقادة لكم خاضعة، إن شئتم ركبتم، وإن شئتم حلبتم، وإن شئتم ذبحتم، كما قال تعالى: «أَوْ لَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُمْ مِمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا أَنْعَامًا فَهُمْ لَهَا مَالِكُونَ. وَذَلَّلْنَاهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ» إلى قوله: «أَفَلَا يَشْكُرُونَ» [يس: ٧١-٧٣]، وقال فى هذه الآية الكريمة: «كَذَلِكَ سَخَرْنَاهَا لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ».

﴿لَنْ يَنَالَ اللَّهُ لُحُومَهَا وَلَا دِمَاؤَهَا وَلَكِنَّ يَنَالُهُ النُّقُوعُ مِنكُمْ كَذَلِكَ سَخَرَهَا لَكُمْ لِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَيْتُمْ وَيُبَشِّرِ الْمُحْسِنِينَ﴾

يقول تعالى: إنما شرع لكم نحر هذه الهدايا والضحايا، لتذكروه عند ذبحها، فإنه الخالق الرازق لا أنه يناله شيء من لحومها ولا دماؤها، فإنه تعالى هو الغنى عما سواه. وقد كانوا فى جاهليتهم إذا ذبحوها لألهتهم وضعوا عليها من لحوم قرابتهم، ونضحوا عليها من دماؤها، فقال تعالى: «لَنْ يَنَالَ اللَّهُ لُحُومَهَا وَلَا دِمَاؤَهَا» أى: يتقبل ذلك ويجزى عليه. كما جاء فى الصحيح: «إن الله لا ينظر إلى صوركم ولا إلى أموالكم، ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم» (٣) وما جاء فى الحديث: «إن الصدقة لتقع فى يد الرحمن قبل أن تقع فى يد السائل، وإن الدم ليقع من الله بمكان قبل أن يقع على الأرض» كما تقدم الحديث (٤). رواه ابن ماجه، والترمذى وحسنه عن عائشة مرفوعا. فمعناه: أنه سيق لتحقيق القبول من الله لمن أخلص فى عمله، وليس له معنى

(١) البخارى (٥٥٤٥) ومسلم (١٩٦١ / ٧).

(٢) انظر: مسلم (١٩٦٠ / ٣ - ١ / ٩ - ١).

(٣) مسلم (٢٥٦٤ / ٣٣). (٤) تقدم تخريجه عند الآية (٣٦) من هذه السورة.

يتبادر عند العلماء المحققين سوى هذا، والله أعلم .

وقوله: ﴿كَذَلِكَ سَخَّرَهَا لَكُمْ﴾ أى: من أجل ذلك سخر لكم البدن ﴿لِتَكْبِرُوا اللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَاكُمْ﴾ أى: لتعظموه كما هداكم لدينه وشرعه وما يحبه، وما يرضاه، ونهاكم عن فعل ما يكرهه ويأباه . وقوله: ﴿وَبَشِّرِ الْمُحْسِنِينَ﴾ أى: وبشر يا محمد المحسنين، أى: فى عملهم، القائمين بحدود الله، المتبعين ما شرع لهم، المصدقين الرسول فيما أبلغهم وجاءهم به من عند ربه عز وجل .

وأما مقدار سنِّ الأضحية، فقد روى مسلم عن جابر؛ أن رسول الله ﷺ قال: «لا تذبحوا إلا مُسنَّةً، إلا أن يعسر عليكم، فتذبحوا جذعة من الضأن» (١) . والذي عليه الجمهور: إنما يجزئ الثنئى من الإبل والبقر والمعز أو والجذع من الضأن، فأما الثنى من الإبل: فهو الذى له خمس سنين ، ودخل فى السادسة . ومن البقر: ما له ستان ودخل فى الثالثة، وقيل: ما له ثلاث ودخل فى الرابعة . ومن المعز: ما له ستان . وأما الجذع من الضأن فقيل: ما له سنة، وقيل: عشرة أشهر، وقيل: ثمانية أشهر، وقيل: ستة أشهر، وهو أقل ما قيل فى سنِّه، وما دونه فهو حَمَلٌ، والفرق بينهما: أن الحمل شعر ظهره قائم، والجذع شعر ظهره نائم، قد انعدل صدعين، والله أعلم .

﴿إِنَّ اللَّهَ يُدْفِعُ عَنِ الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ﴾

ربع

يخبر تعالى أنه يدفع عن عباده الذين توكلوا عليه وأنابوا إليه شر الأشرار وكيد الفجار، ويحفظهم ويكلوهم وينصرهم، كما قال تعالى: ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ﴾ [الزمر: ٣٦] وقال: ﴿وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ إِنَّ اللَّهَ بَالِغُ أَمْرِهِ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا﴾ [الطلاق: ٣] . وقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ﴾ أى: لا يحب من عباده من اتصف بهذا، وهو الخيانة فى العهود والمواثيق، لا يفى بما قال . والكفور: الجحد للنعم، فلا يعترف بها .

﴿أَذِنَ لِلَّذِينَ يُقْتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظَلَمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ﴾

أَخْرَجُوا مِنْ دِينِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَنْ يَقُولُوا رَبَّنَا اللَّهُ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَفَدَمَتِ صَوْمِعٌ وَبَيْعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدٌ يُذَكَّرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ

قال ابن عباس: نزلت فى محمد وأصحابه حين أخرجوا من مكة . وقال غير واحد من السلف كابن عباس ومجاهد وعروة بن الزبير وغيرهم: هذه أول آية نزلت فى الجهاد، واستدل بهذه الآية بعضهم على أن السورة مدنية ، وروى ابن جرير عن ابن عباس قال: لما أخرج النبي ﷺ من مكة قال أبو بكر: أخرجوا نبيهم . إنا لله وإنا إليه راجعون، ليهلكن . قال ابن عباس:

فأنزل الله عز وجل: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتِلُونَ بِأَنَّهُمْ ظَلَمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ﴾، قال أبو بكر، رضى الله تعالى عنه: فعرفت أنه سيكون قتال. ورواه الإمام أحمد، وزاد: قال ابن عباس: وهى أول آية نزلت فى القتال. ورواه الترمذى، والنسائى وقال الترمذى: حديث حسن (١).

وقوله: ﴿وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ﴾ أى: هو قادر على نصر عباده المؤمنين من غير قتال، ولكن هو يريد من عباده أن يبلى جهدهم فى طاعته، كما قال: ﴿فَإِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقَابِ حَتَّىٰ إِذَا أَثْخَمْتُمُوهُمْ فَشُدُّوا الْوَتَاقَ فَإِمَّا مَأْبُودٌ وَإِمَّا فَدَاءٌ حَتَّىٰ تَضَعَ الْحَرْبُ أَرْزَارَهَا ذَٰلِكَ وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَانْتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَكِن لِّيَبْلُوَ بَعْضَكُمْ بِبَعْضٍ وَالَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَلَنْ يُضِلَّ أَعْمَالَهُمْ . سَيَهْدِيهِمْ وَيُصَلِّحُ بِأَلْهِمُ وَيُدْخِلُهُمُ الْجَنَّةَ عَرَفَهَا لَهُمْ﴾ [محمد: ٤ - ٦]، وقال تعالى: ﴿قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبُهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِيهِمْ وَيُنْصِرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ . وَيُذْهِبُ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ وَيَتُوبُ اللَّهُ عَلَىٰ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ [التوبة: ١٤، ١٥]، وقال: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تُتْرَكُوا وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَلَمْ يَتَّخِذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَا رَسُولِهِ وَلَا الْمُؤْمِنِينَ وَلِجَنَّةٍ وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ [التوبة: ١٦]، وقال: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تُدْخَلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٢]، وقال: ﴿وَلَنبَلِّوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنْكُمْ وَالصَّابِرِينَ وَنَبْلُوَ أَخْبَارَكُمْ﴾ [محمد: ٣١]. والآيات فى هذا كثيرة؛ ولهذا قال ابن عباس فى قوله: ﴿وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ﴾: وقد فَعَلَ.

وإنما شرع الله تعالى الجهادَ فى الوقت الأليق به؛ لأنهم لما كانوا بمكة كان المشركون أكثر عدداً، فلو أمر المسلمون، وهم أقل من العشر، بقتال الباقيين لَشَقَّ عليهم؛ ولهذا لما بايع أهلُ يثرب ليلة العقبة رسول الله ﷺ، وكانوا نيفاً وثمانين، قالوا: يا رسول الله، ألا نغيب على أهل الوادى - يعنون أهل مِثَى - ليالى مِثَى فنقتلهم؟ فقال رسول الله ﷺ: «إنى لم أومر بهذا». فلما بَغَى المشركون، وأخرجوا النبی ﷺ من بين أظهرهم، وهموا بقتله، وشردوا أصحابه شَدَرَ مَدْرًا، فذهب منهم طائفة إلى الحبشة، وآخرون إلى المدينة. فلما استقروا بالمدينة، ووافاهم رسولُ الله ﷺ، واجتمعوا عليه، وقاموا بنصره، وصارت لهم دار إسلام ومَعْقلاً يلجؤون إليه - شرع الله جهاد الأعداء، فكانت هذه الآية أول ما نزل فى ذلك، فقال تعالى: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتِلُونَ بِأَنَّهُمْ ظَلَمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ . الَّذِينَ أَخْرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بَغْيٍ حَقٍّ﴾. قال ابن عباس: أخرجوا من مكة إلى المدينة بغير حق، يعنى: محمداً وأصحابه.

﴿إِلَّا أَن يَقُولُوا رَبَّنَا اللَّهُ﴾ أى: ما كان لهم إلى قومهم إساءة، ولا كان لهم ذنب إلا أنهم عبدوا الله وحده لا شريك له. وهذا استثناء منقطع بالنسبة إلى ما فى نفس الأمر، وأما عند المشركين فهو أكبر الذنوب، كما قال تعالى: ﴿يُخْرِجُونَ الرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَن تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ رَبِّكُمْ﴾ [المتحنة: ١]، وقال تعالى فى قصة أصحاب الأخدود: ﴿وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلَّا أَن يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ﴾ [البروج: ٨].

(١) الطبرى (١٧ / ١٢٣) والمسند (١٨٦٥) وقال الشيخ أحمد شاكر «إسناده صحيح» والترمذى (٣١٧١) والنسائى فى الكبرى (١١٣٤٥).

ثم قال تعالى: ﴿وَلَوْلَا دَفَعُ اللَّهُ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ﴾ أى: لولا أنه يدفع عن قوم بقوم، ويكشف شرّ أناس عن غيرهم، بما يخلقه ويقدره من الأسباب، لفسدت الأرض، وأهلك القوى الضعيف ﴿لَهْدِمَتْ صَوَامِعُ﴾: وهى المعابد الصغار للرهبان، قاله ابن عباس، ومجاهد، وعكرمة، وغيرهم. وقال قتادة: هى معابد الصابئين. وفى رواية عنه: صوامع المجوس، وقال مقاتل بن حيان: هى البيوت التى على الطرق. ﴿وَبِيعُ﴾: وهى أوسع منها، وأكثر عابدين فيها، وهى للنصارى أيضا، قاله أبو العالية، وقاتة، والضحاك وغيرهم. وحكى عن مجاهد وغيره: أنها كنائس اليهود. والله أعلم. وقوله: ﴿وَصَلَوَاتُ﴾ قال ابن عباس: الصلوات: الكنائس، وكذا قال عكرمة، والضحاك، وقاتة: إنها كنائس اليهود. وهم يسمونها صلوات. وقال أبو العالية، وغيره: الصلوات: معابد الصابئين. وقال ابن أبى نجيح، عن مجاهد: الصلوات: مساجد لأهل الكتاب ولأهل الإسلام بالطرق. وأما المساجد فهى للمسلمين. وقوله: ﴿يُذَكَّرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا﴾: فقد قيل: الضمير فى قوله: ﴿يُذَكَّرُ فِيهَا﴾ عائد إلى المساجد؛ لأنها أقرب المذكورات. وقال الضحاك: الجميع يذكر فيها اسم الله كثيرا. وقال ابن جرير: الصواب: لهدمت صوامع الرهبان وبيع النصارى وصلوات اليهود، وهى كنائسهم، ومساجد المسلمين التى يذكر فيها اسم الله كثيرا؛ لأن هذا هو المستعمل المعروف فى كلام العرب.

وقوله: ﴿وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ﴾، كقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَصْرُوهَا اللَّهُ يَنْصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ. وَالَّذِينَ كَفَرُوا فَتَعَسَا لَهُمْ وَأَصْلُ أَعْمَالِهِمْ﴾ [محمد: ٧، ٨]. وقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾: وَصَفَ نَفْسَهُ بِالْقُوَّةِ وَالْعِزَّةِ، فَبَقُوته خلق كل شىء فقدره تقديرا، وبعزته لا يقهره قاهر، ولا يغلبه غالب، بل كل شىء ذليل لديه، فقير إليه. ومن كان القوى العزيز ناصره فهو المنصور، وعدوه هو المقهور، قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ. إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنْصُورُونَ. وَإِنَّ جُنَدَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ﴾ [الصافات ١٧١ - ١٧٣] وقال تعالى: ﴿كَتَبَ اللَّهُ لأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ [المجادلة: ٢١]

﴿الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ﴾

قال عثمان بن عفان : فىنا نزلت : ﴿الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ﴾ ، فأخرجنا من ديارنا بغير حق ، إلا أن قلنا : « ربنا الله » ، ثم مكَّنَّا فى الأرض ، فأقمنا الصلاة ، وآتينا الزكاة ، وأمرنا بالمعروف ، ونهينا عن المنكر ، والله عاقبة الأمور ، فهى لى ولأصحابى . وقال الصباح بن سودة الكندى : سمعت عمر بن عبد العزيز يخطب وهو يقول : ﴿الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ﴾ الآية ، ثم قال : ألا إنها ليست على الوالى وحده ، ولكنها على الوالى والمولى عليه ، ألا أنبئكم بما لكم على الوالى من ذلكم ، وبما للوالى عليكم منه ؟ إن لكم على الوالى من ذلكم أن يأخذكم بحقوق الله عليكم ،

وأن يأخذ لبعضكم من بعض، وأن يهديكم للتي هي أقوم ما استطاع، وإن عليكم من ذلك الطاعة غير المبزوزة ولا المستكره بها، ولا المخالف سرها علانيتها. وقال عطية العوفى: هذه الآية كقوله: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ﴾ [النور: ٥٥].

وقوله: ﴿وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ﴾، كقوله تعالى ﴿وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [القصص: ٨٣]، وقال زيد بن أسلم: ﴿وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ﴾ وعند الله ثواب ما صنعوا.

﴿وَإِنْ يَكْذِبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَثَمُودٌ ﴿٤٢﴾ وَقَوْمُ إِبْرَاهِيمَ وَقَوْمُ لُوطٍ ﴿٤٣﴾ وَأَصْحَابُ مَدْيَنَ وَكَذَّبَ مُوسَىٰ فَأَمَلَيْتُ لِلْكَافِرِينَ ثُمَّ أَخَذْتَهُمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿٤٤﴾ فَكَأَيِّنْ مِن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ فِيهَا خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَيَبْنَؤُا مِعْطَلَةٌ وَقَصْرٌ مَّشِيدٌ ﴿٤٥﴾ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُون لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ ﴿٤٦﴾﴾

يقول تعالى مسلماً لنبى محمد ﷺ فى تكذيب من خالفه من قومه: ﴿وَإِنْ يَكْذِبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمٌ﴾ إلى أن قال: ﴿وَكَذَّبَ مُوسَىٰ﴾ أى: مع ما جاء به من الآيات البينات والدلائل الواضحات ﴿فَأَمَلَيْتُ لِلْكَافِرِينَ﴾ أى: انظرتهم واخرتهم ﴿ثُمَّ أَخَذْتَهُمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ﴾ أى: فكيف كان إنكارى عليهم، ومعاقبتى لهم؟! وفى الصحيحين عن أبى موسى، عن رسول الله ﷺ أنه قال: «إن الله ليملى للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته، ثم قرأ: ﴿وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَىٰ وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾ [١٠٠: ٢]» (١).

ثم قال تعالى: ﴿فَكَأَيِّنْ مِن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا﴾ أى: كم من قرية أهلكتها ﴿وَهِيَ ظَالِمَةٌ﴾ أى: مكذبة لرسولها، ﴿فِيهَا خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا﴾ قال الضحاك: سقفها، أى: قد خربت منازلها وتعطلت حواضرها. ﴿وَيَبْنَؤُا مِعْطَلَةٌ﴾ أى: لا يستقى منها، ولا يردّها أحد بعد كثرة واردتها والازدحام عليها ﴿وَقَصْرٌ مَّشِيدٌ﴾ قال عكرمة: يعنى المبيض بالحص. وروى عن على بن أبى طالب، ومجاهد، وعطاء، وسعيد بن جبير، وأبى المليلح، والضحاك، نحو ذلك وقال آخرون: هو المنيّف المرتفع. وقال آخرون: الشديد المنيع الحصين. وكل هذه الأقوال متقاربة، ولا منافاة بينها، فإنه لم يحم أهله شدة بنائه ولا ارتفاعه، ولا إحكامه ولا حصانته، عن حلول بأس الله بهم، كما قال تعالى: ﴿أَيَّمَا تَكُونُوا يُدْرِكُكُمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنْتُمْ فِي بُرُوجٍ مُّشِيدَةٍ﴾ [النساء: ٧٨].

وقوله: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ﴾ أى: بأبدانهم وبفكرهم أيضاً، وذلك كاف ﴿فَتَكُون لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا﴾ أى: فيعتبرون بها، ﴿فإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾ أى: ليس العمى عمى البصر، وإنما العمى عمى البصيرة، وإن كانت القوة الباصرة

سليمة فإنها لا تنفذ إلى العبر، ولا تدرى ما الخبر.

﴿ وَدَسْتَعْمِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَنْ يُخْلِفَ اللَّهُ وَعْدَهُ وَإِنَّ يَوْمًا عِنْدَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ ﴾ ﴿٤٧﴾ وَكَأَنِّ مِّن قَرِيَةٍ أَمَلَيْتُ لَهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ ثُمَّ أَخَذْتَهَا وَإِلَى الْمَصِيرِ ﴿٤٨﴾

يقول تعالى لنبيه، صلوات الله وسلامه عليه: ﴿وَدَسْتَعْمِلُونَكَ بِالْعَذَابِ﴾ أي: هؤلاء الكفار الملحدون المكذبون بالله وكتابه ورسوله واليوم الآخر، كما قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالُوا اللَّهُمَّ إِن كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَابًا مِنَ السَّمَاءِ أَوْ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [الأنفال: ٣٢]، ﴿وَقَالُوا رَبَّنَا عَجِّلْ لَنَا قِطْنَا قَبْلَ يَوْمِ الْحِسَابِ﴾ [ص: ١٦].

وقوله: ﴿وَلَنْ يُخْلِفَ اللَّهُ وَعْدَهُ﴾ أي: الذي قد وعد، من إقامة الساعة والانتقام من أعدائه، والإكرام لأولياته ﴿وَإِنَّ يَوْمًا عِنْدَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ﴾ أي: هو تعالى لا يعجل، فإن مقدار ألف سنة عند خلقه كيوم واحد عنده بالنسبة إلى حكمه، لعلمه بأنه على الانتقام قادر، وأنه لا يفوته شيء، وإن أجل وأنظر وأملى؛ ولهذا قال بعد هذا: ﴿وَكَأَنِّ مِّن قَرِيَةٍ أَمَلَيْتُ لَهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ ثُمَّ أَخَذْتَهَا وَإِلَى الْمَصِيرِ﴾.

روى ابن أبي حاتم: عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «يدخل فقراء المسلمين الجنة قبل الأغنياء بنصف يوم، خمسمائة عام». ورواه الترمذى والنسائى وقال الترمذى: حسن صحيح (١). وروى أبو داود عن سعد بن أبي وقاص، عن النبي ﷺ أنه قال: «إني لأرجو ألا تعجز أمتي عند ربها، أن يؤخرهم نصف يوم». قيل لسعد: وما نصف يوم؟ قال: خمسمائة سنة (٢).

﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا أَنَا كَارِهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴾ ﴿٤٩﴾ فَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٥٠﴾ وَالَّذِينَ سَعَوْا فِي آيَاتِنَا مُدْجِرِينَ أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ ﴿٥١﴾

يقول تعالى لنبيه ﷺ حين طلب منه الكفار وقوع العذاب، واستعجلوه به: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا أَنَا كَارِهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ أي: إنما أرسلني الله إليكم نذيراً لكم بين يدي عذاب شديد، وليس إلى من حسابكم من شيء، أمركم إلى الله، إن شاء عجل لكم العذاب، وإن شاء أخره عنكم، وإن شاء تاب على من يتوب إليه، وإن شاء أضل من كتب عليه الشقاوة، وهو الفعال لما يشاء ويريد ويختار ﴿لَا مَعْشَرَ لِحُكْمِهِ وَهُوَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ [الرعد: ٤١] و﴿إِنَّمَا أَنَا كَارِهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ فالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ أي: آمنت قلوبهم وصدقوا إيمانهم بأعمالهم ﴿لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ أي: مغفرة لما سلف من سيئاتهم، ومجازاة حسنة على القليل من حسناتهم قال محمد بن كعب القرظي: إذا سمعت الله تعالى يقول: ﴿وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ فهو الجنة.

(١) الترمذى (٢٣٥٤) والنسائى فى الكبرى (١١٣٤٨). (٢) أبو داود (٤٣٥٠) وصححه الألبانى.

وقوله : ﴿وَالَّذِينَ سَعَوْا فِي آيَاتِنَا مُعَاجِزِينَ﴾ : قال مجاهد : يُبْطِطُونَ النَّاسَ عَنْ مَتَابَعَةِ النَّبِيِّ ﷺ ﴿أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ﴾ : وهى النار الحارة الموجعة الشديدة عذابها ونكالها، أجازنا الله منها . قال الله تعالى : ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ زِدْنَاهُمْ عَذَابًا فَوْقَ الْعَذَابِ بِمَا كَانُوا يُفْسِدُونَ﴾ [النحل : ٨٨]

﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّا إِذَا تَمَنَّى أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ فَيَنْسَخُ اللَّهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ ثُمَّ يُحْكِمُ اللَّهُ ءَايَتَهُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٥٢﴾ لِيَجْعَلَ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ فِتْنَةً لِلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْقَاسِيَةَ قُلُوبُهُمْ وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ ﴿٥٣﴾ وَلَيَعْلَمَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَيُؤْمِنُوا بِهِ فَتُخْبِتَ لَهُمْ قُلُوبُهُمْ وَإِنَّ اللَّهَ لَهَادٍ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿٥٤﴾﴾

قد ذكر كثير من المفسرين هاهنا قصة الغرائيق ، وما كان من رجوع كثير من المهاجرة إلى أرض الحبش ، ظنا منهم أن مشركى قريش قد أسلموا . ولكنها من طرق كلها مرسله ، ولم أرها مسنده من وجه صحيح ، والله أعلم . وقد ذكرها محمد بن إسحاق فى السيرة والله أعلم . وقد ساقها البغوى فى تفسيره مجموعة من كلام ابن عباس ، ومحمد بن كعب القُرظى ، وغيرهما بنحو من ذلك ، ثم سأل هاهنا سؤالا : كيف وقع مثل هذا مع العصمة المضمونة من الله لرسوله ، صلوات الله وسلامه عليه؟ ثم حكى أجوبة عن الناس ، من الطفها : أن الشيطان أوقع فى مسامع المشركين ذلك ، فتوهموا أنه صدر عن رسول الله ﷺ ، وليس كذلك فى نفس الأمر ، بل إنما كان من صنيع الشيطان لا عن رسول الرحمن ﷺ ، والله أعلم .

وقوله : ﴿إِلَّا إِذَا تَمَنَّى أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ﴾ : هذا فيه تسلية له ، صلوات الله وسلامه عليه ، أى : لا يهدئك ذلك ، فقد أصاب مثل هذا من قبلك من المرسلين والأنبياء . قال ابن عباس : ﴿فِي أُمْنِيَّتِهِ﴾ إذا حَدَّثَ الْقَى الشَّيْطَانُ فِي حَدِيثِهِ ، فيبطل الله ما يلقي الشيطان ويحكم الله آياته . وقال مجاهد : ﴿إِذَا تَمَنَّى﴾ يعنى : إذا قال . وقال الضحاك : إذا تلا . قال ابن جرير : هذا القول أشبه بتأويل الكلام . وقوله : ﴿فَيَنْسَخُ اللَّهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ﴾ : حقيقة النسخ لغة : الإزالة والرفع . قال ابن عباس : أى فيبطل الله - سبحانه وتعالى - ما ألقى الشيطان . وقال الضحاك : نسخ جبريل بأمر الله ما ألقى الشيطان ، وأحكم الله آياته .

وقوله : ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ﴾ أى : بما يكون من الأمور والحوادث ، لا تخفى عليه خافية ﴿حَكِيمٌ﴾ أى : فى تقديره وخلقه وأمره ، له الحكمة التامة والحجة البالغة ؛ ولهذا قال : ﴿لِيَجْعَلَ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ فِتْنَةً لِلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ﴾ أى : شك وشرك وكفر ونفاق ، كالمشركين حين فرحوا بذلك ، واعتقدوا أنه صحيح ، وإنما كان من الشيطان .

قال ابن جريج : ﴿لِلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ﴾ هم : المنافقون ﴿وَالْقَاسِيَةَ قُلُوبُهُمْ﴾ : المشركون . وقال مقاتل ابن حيان : هم اليهود .

﴿وَأِنَّ الظَّالِمِينَ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ﴾ أى: فى ضلال ومخالفة وعناد بعيد، أى: من الحق والصواب. ﴿وَلْيَعْلَمَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَيُؤْمِنُوا بِهِ﴾ أى: وليعلم الذين أوتوا العلم النافع الذى يفرقون به بين الحق والباطل، المؤمنون بالله ورسوله، أن ما أوحينا إليك هو الحق من ربك، الذى أنزله بعلمه وحفظه وحرسه أن يختلط به غيره، بل هو كتاب حكيم ﴿لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ [فصلت: ٤٢].

وقوله: ﴿فَيُؤْمِنُوا بِهِ﴾ أى: يصدقوه ويتقادوا له ﴿فَتُخْبِتَ لَهُ قُلُوبُهُمْ﴾ أى: تخضع وتذل ﴿وَأِنَّ اللَّهَ لَهَادٍ الَّذِينَ آمَنُوا إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ أى: فى الدنيا والآخرة، أما فى الدنيا فيرشدهم إلى الحق واتباعه، ويوفقهم لمخالفة الباطل واجتنابه، وفى الآخرة يهديهم إلى الصراط المستقيم، الموصل إلى درجات الجنات، ويزحزحهم عن العذاب الاليم والدركات.

﴿وَلَا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي مَرِيرٍ مِّنْهُ حَتَّى تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً أَوْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ يَوْمَ عَقِيمٍ ﴿٥٥﴾ الْمَلِكُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ ﴿٥٦﴾ وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَاُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿٥٧﴾﴾

يقول تعالى مخبراً عن الكفار: أنهم لا يزالون فى مرية، أى: فى شك وريب من هذا القرآن، قاله ابن جريج، واختاره ابن جرير. وقال سعيد بن جبير، وابن زيد: ﴿منه﴾ أى: مما ألقى الشيطان. ﴿حَتَّى تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً﴾: قال مجاهد: فجأة. وقوله: ﴿أَوْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ يَوْمَ عَقِيمٍ﴾: قال أبى بن كعب: هو يوم بدر، وكذا قال عكرمة، وسعيد بن جبير، وقتادة وغير واحد. واختاره ابن جرير. وقال عكرمة، ومجاهد - فى رواية عنهما: هو يوم القيامة لا ليلة له. وكذا قال الضحاك، والحسن البصرى. وهذا القول هو الصحيح، وإن كان يوم بدر من جملة ما أوعدوا به، لكن هذا هو المراد؛ ولهذا قال: ﴿الْمَلِكُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ﴾، كقوله ﴿مَالِكُ يَوْمَ الدِّينِ﴾ [الفاتحة: ٤]، وقوله: ﴿الْمَلِكُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ لِلرَّحْمَنِ وَكَانَ يَوْمًا عَلَى الْكَافِرِينَ عَسِيرًا﴾ [الفرقان: ٢٦].

﴿فَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ أى: آمنت قلوبهم، وصدقوا بالله ورسوله، وعملوا بمقتضى ما علموا، وتوافق قلوبهم وأقوالهم وأعمالهم ﴿فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ﴾ أى: لهم النعيم المقيم، الذى لا يحول ولا يزول ولا يبسد.

﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا﴾ أى: كفرت قلوبهم بالحق، وجحدوا به وكذبوا به، وخالفوا الرسل، واستكبروا عن اتباعهم ﴿فَأُولَٰئِكَ نَهْمُ عَذَابٍ مُّهِينٍ﴾ أى: مقابلة استكبارهم وإعراضهم عن الحق، كقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ [غافر: ٦٠] أى: صاغرين.

﴿ وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ قَاتَلُوا أَوْ مَاتُوا لَيَرْزُقَنَّهُمُ اللَّهُ رِزْقًا حَسَنًا وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ ﴿٥٨﴾ لِيُدْخِلَنَّهُمْ مُدْخَلًا يَرْضَوْنَهُ وَإِنَّ اللَّهَ لَعَلِيمٌ حَلِيمٌ ﴿٥٩﴾ ذَلِكَ وَمَنْ عَاقَبَ بِمِثْلِ مَا عُوقِبَ بِهِ ثُمَّ بُغِيَ عَلَيْهِ لِيَنْصُرَهُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ لَعَفُوفٌ غَفُورٌ ﴿٦٠﴾ ﴾

ربع

يخبر تعالى عن من هاجر في سبيل الله ابتغاء مرضاته، وطلباً لما عنده، وترك الأوطان والأهلين والخلائق، وفارق بلاده في الله ورسوله، ونصرة لدين الله ﴿ثُمَّ قَاتَلُوا﴾ أى: فى الجهاد ﴿أَوْ مَاتُوا﴾ أى: حتف أنفسهم، أى: من غير قتال على فرسهم، فقد حصلوا على الأجر الجزيل، والثناء الجميل، كما قال تعالى: ﴿وَمَنْ يَخْرُجْ مِنْ بَيْتِهِ مُهَاجِرًا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكْهُ الْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ﴾ [النساء: ١٠٠].

وقوله: ﴿لَيَرْزُقَنَّهُمُ اللَّهُ رِزْقًا حَسَنًا﴾ أى: ليُجْرَبَ عليهم من فضله ورزقه من الجنة ما تقر به أعينهم ﴿وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ﴾ لِيُدْخِلَنَّهُمْ مُدْخَلًا يَرْضَوْنَهُ ﴿فَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ الْمُقْرَبِينَ﴾ فَرُوحٌ وَرِيحَانٌ وَجَنَّةٌ نَعِيمٌ ﴿[الواقعة: ٨٨، ٨٩] فأخبر أنه يحصل له الراحة والرزق وجنة نعيم، كما قال مهنا: ﴿لَيَرْزُقَنَّهُمُ اللَّهُ رِزْقًا حَسَنًا﴾، ثم قال: ﴿لِيُدْخِلَنَّهُمْ مُدْخَلًا يَرْضَوْنَهُ وَإِنَّ اللَّهَ لَعَلِيمٌ﴾ أى: بمن يهاجر ويجاهد فى سبيله، وبمن يستحق ذلك ﴿حَلِيمٌ﴾ أى: يحلم ويصفح ويغفر لهم الذنوب ويكفرها عنهم بهجرتهم إليه، وتوكلهم عليه. فاما من قتل فى سبيل الله من مهاجر أو غير مهاجر، فإنه حتى عند ربه يرزق، كما قال تعالى: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قَاتَلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْواتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرِزُقُونَ﴾ [آل عمران: ١٦٩]، والأحاديث فى هذا كثيرة، وأما من توفى فى سبيل الله من مهاجر أو غير مهاجر، فقد تضمنت هذه الآية الكريمة مع الأحاديث الصحيحة إجراء الرزق عليه، وعظيم إحسان الله إليه.

وقوله: ﴿ذَلِكَ وَمَنْ عَاقَبَ بِمِثْلِ مَا عُوقِبَ بِهِ ثُمَّ بُغِيَ عَلَيْهِ لِيَنْصُرَهُ اللَّهُ﴾ ذكر مقاتل وابن جريج أنها نزلت فى سرية من الصحابة، لقوا جمعاً من المشركين فى شهر محرم، فناشدهم المسلمون لثلاث يقاتلوهم فى الشهر الحرام، فأبى المشركون إلا قتالهم وبغوا عليهم، فقاتلهم المسلمون، فنصرهم الله عليهم ﴿إِنَّ اللَّهَ لَعَفُوفٌ غَفُورٌ﴾.

﴿ ذَلِكَ يَأْتِ اللَّهُ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُؤَلِّجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَإِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ ﴿٦١﴾ ذَلِكَ يَأْتِ اللَّهُ هُوَ الْحَقُّ وَأَنْتَ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ هُوَ الْبَاطِلُ وَأَنْتَ اللَّهُ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ ﴿٦٢﴾ ﴾

يقول تعالى منها على أنه الخالق المتصرف فى خلقه بما يشاء، كما قال: ﴿قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكُ الْمَلِكِ تُؤْتِي الْمَلِكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمَلِكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وَتُعْزِزُ مِمَّنْ تَشَاءُ وَتُذَلِّعُ مِمَّنْ تَشَاءُ بِإِذْنِكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾. تُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُؤَلِّجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَتُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَتَرْزُقُ مِمَّنْ تَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿[آل عمران: ٢٦، ٢٧] ومعنى إيلاجه الليل فى النهار، والنهار فى الليل: إدخاله من

الأمواج، تجرى الفلك بأهلها بريح طيبة، ورفق وتؤدة، فيحملون فيها ما شاؤوا من تجائر وبضائع ومنافع، من بلد إلى بلد، وقطر إلى قطر، ويأتون بما عند أولئك إلى هؤلاء، كما ذهبوا بما عند هؤلاء إلى أولئك، مما يحتاجون إليه، ويطلبونه ويريدونه ﴿وَيُمْسِكُ السَّمَاءَ أَنْ تَقَعَ عَلَى الْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾ أى: لو شاء لأذن للسماء فسقطت على الأرض، فهلك من فيها، ولكن من لطفه ورحمته وقدرته يمسك السماء أن تقع على الأرض إلا بإذنه؛ ولهذا قال: ﴿إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَوُوفٌ رَحِيمٌ﴾ أى: مع ظلمهم، كما قال فى الآية الأخرى: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِّلنَّاسِ عَلَى ظَلْمِهِمْ وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ [الرعد: ٦].

وقوله: ﴿وَهُوَ الَّذِي أَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ إِنَّ الْإِنْسَانَ لَكَفُورٌ﴾، كقوله: ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [البقرة: ٢٨]، وقوله: ﴿قُلِ اللَّهُ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يَجْمَعُكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ [الجاثية: ٢٦]، وقوله: ﴿قَالُوا رَبَّنَا آتِنَا اثْنَتَيْنِ وَأَحْيِثْنَا اثْنَتَيْنِ﴾ [غافر: ١١] ومعنى الكلام: كيف تجعلون مع الله أندادا وتعبدون معه غيره، وهو المستقل بالخلق والرزق والتصرف ﴿وَهُوَ الَّذِي أَحْيَاكُمْ﴾ أى: خلقكم بعد أن لم تكونوا شيئا يذكر، فأوجدكم ﴿ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ﴾ أى: يوم القيامة ﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ لَكَفُورٌ﴾ أى: جحود.

﴿لِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنْسَكًا هُمْ نَاسِكُوهُ فَلَا يُنذِرُكَ فِي الْأَمْرِ وَادْعُ إِلَى رَبِّكَ إِنَّكَ لَعَلىٰ هُدًى مُّسْتَقِيمٍ﴾ ﴿١٧﴾ وَإِنْ جَادَلُوكَ فَقُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٨﴾ اللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كُنتُمْ تَخْتَلِفُونَ ﴿١٩﴾

يخبر تعالى أنه جعل لكل قوم منسكا. قال ابن جرير: يعنى: لكل أمة نبي منسكا. قال: وأصل المنسك فى كلام العرب: هو الموضع الذى يعتاده الإنسان، ويتردد إليه، إما لخير أو شر. قال: ولهذا سميت مناسك الحج بذلك، لترداد الناس إليها وعكوفهم عليها. فإن كان كما قال من أن المراد: ﴿لِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنْسَكًا﴾ فيكون المراد بقوله: ﴿فَلَا يُنذِرُكَ فِي الْأَمْرِ﴾ أى: هؤلاء المشركون. وإن كان المراد: «لكل أمة جعلنا منسكا جعلنا قدريا كما قال: ﴿وَلِكُلِّ وُجْهَةٍ هُوَ مَوْلَاهَا﴾ [البقرة: ١٤٨] ولهذا قال هاهنا: ﴿هُم نَاسِكُوهُ﴾، أى: فاعلوه - فالضمير هاهنا عائد على هؤلاء الذين لهم مناسك وطرائق، أى: هؤلاء إنما يفعلون هذا عن قدر الله وإرادته، فلا تتأثر بمنارعتهم لك، ولا يصرفك ذلك عما أنت عليه من الحق؛ ولهذا قال: ﴿وَادْعُ إِلَىٰ رَبِّكَ إِنَّكَ لَعَلىٰ هُدًى مُّسْتَقِيمٍ﴾ أى: طريق واضح مستقيم موصل إلى المقصود. وهذه كقوله: ﴿وَلَا يَصُدُّكَ عَنِ آيَاتِ اللَّهِ بَعْدَ إِذْ أُنزِلَتْ إِلَيْكَ وَادْعُ إِلَىٰ رَبِّكَ﴾ [القصص: ٨٧].

وقوله: ﴿وَإِنْ جَادَلُوكَ فَقُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾، كقوله: ﴿وَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقُلِ لِي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ أَنْتُمْ بَرِيئُونَ مِمَّا أَعْمَلُ وَأَنَا بَرِيءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ﴾ [يونس: ٤١].

وقوله: ﴿اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ تهديد شديد، ووعيد أكيد، كقوله: ﴿هُوَ أَعْلَمُ بِمَا تُفِيضُونَ فِيهِ كَفَىٰ بِهِ

شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ﴾ [الاحقاف: ٨]؛ ولهذا قال: ﴿اللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾. وهذه كقوله: ﴿فَلِلَّذِكِّ فَادَعُ وَأَسْتَقِمَّ كَمَا أَمَرْتُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَقُلْ آمَنْتُ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنْ كِتَابٍ﴾ الآية [الشورى: ١٥]

﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّ ذَلِكَ فِي كِتَابٍ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾

يخبر تعالى عن كمال علمه بخلقه، وأنه محيط بما في السموات وما في الأرض، فلا يعزب عنه مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء، ولا أصغر من ذلك ولا أكبر، وأنه تعالى علم الكائنات كلها قبل وجودها، وكتب ذلك في كتابه اللوح المحفوظ، كما ثبت في صحيح مسلم، عن عبد الله بن عمرو قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله قدّر مقادير الخلائق قبل خلق السموات والأرض بخمسين ألف سنة، وكان عرشه على الماء» (١). وفي السنن، من حديث جماعة من الصحابة؛ أن رسول الله ﷺ قال: «أول ما خلق الله القلم، قال له: اكتب، قال: وما أكتب؟ قال: اكتب ما هو كائن. فجرى القلم بما هو كائن إلى يوم القيامة» (٢). وهذا من تمام علمه تعالى أنه علم الأشياء قبل كونها، وقدرها وكتبها أيضاً، فما العباد عاملون قد علمه تعالى قبل ذلك، على الوجه الذي يفعلونه، فيعلم قبل الخلق أن هذا يطبع باختياره، وهذا يعصى باختياره، وكتب ذلك عنده، وأحاط بكل شيء علماً، وهو سهل عليه، يسير لديه؛ ولهذا قال تعالى: ﴿إِنَّ ذَلِكَ فِي كِتَابٍ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾.

﴿وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَمْ يَنْزِلْ بِهِ سُلْطَانٌ وَمَا لَيْسَ لَهُمْ بِهِ عِلْمٌ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ نَصِيرٍ﴾ (٦١) وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ تَعْرِفُ فِي وُجُوهِ الَّذِينَ كَفَرُوا الْمُنْكَرَ يَكَادُونَ يَسْطُونَ بِالَّذِينَ تَتْلُونَ عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا قُلْ أَفَأَنْتُمْ بِشِرِّ مِنَ ذَلِكَُمْ النَّارُ وَعَدَهَا اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَيَسِّرُ الْمَصِيرَ﴾ (٦١)

يقول تعالى مخبراً عن المشركين فيما جهلوا وكفروا، وعبدوا من دون الله ما لم ينزل به سلطاناً، يعني: حجة وبرهانا، كقوله: ﴿وَمَنْ يَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ لَا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ فَإِنَّمَا حِسَابُهُ عِنْدَ رَبِّهِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ﴾ [المؤمنون: ١١٧]. ولهذا قال هاهنا: ﴿مَا لَمْ يَنْزِلْ بِهِ سُلْطَانٌ وَمَا لَيْسَ لَهُمْ بِهِ عِلْمٌ﴾ أي: ولا علم لهم فيما اختلقوه واتفكوه، وإنما هو أمر تلقوه عن آبائهم وأسلافهم، بلا دليل ولا حجة، وأعمله مما سول لهم الشيطان وزينه لهم؛ ولهذا توعدهم تعالى بقوله: ﴿وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ نَصِيرٍ﴾ أي: من ناصر ينصرهم من الله، فيما يحل بهم من العذاب والنكال.

ثم قال: ﴿وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ﴾ أي: وإذا ذكرت لهم آيات القرآن والحجج والدلائل

(١) مسلم (٢٦٥٣ / ١٦).

(٢) أبو داود (٤٧٠٠) والترمذي (٣٣١٩) وقال: «هذا حديث حسن غريب»، وصححه الألباني.

الواضحات على توحيد الله، وأنه لا إله إلا هو، وأن رسله الكرام حق وصدق ﴿يَكَادُونَ يَسْطُونَ بِالَّذِينَ يَتْلُونَ عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا﴾ أى: يكادون يبادرون الذين يحتجون عليهم بالدلائل الصحيحة من القرآن، ويسطون إليهم أيديهم والستهم بالسوء ﴿قُلْ﴾ أى: يا محمد لهؤلاء: ﴿أَفَأَنْتُمْ بِشِرِّ مَن ذَلِكُمُ النَّارُ وَعَذَابُ اللَّهِ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ أى: النار وعذابها ونكالها أشد وأشق وأطم وأعظم مما تخوفون به أولياء الله المؤمنين فى الدنيا، وعذاب الآخرة على صنيعكم هذا أعظم مما تنالون منهم، إن نلتهم بزعمكم وإرادتكم. وقوله: ﴿وَبَشِّرِ الْمَصِيرَةَ﴾ أى: وبشِّر النار منزلاً ومرجعاً وموتلاً ومقاماً ﴿إِنَّهَا سَاءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا﴾ [الفرقان: ٦٦].

﴿يَتَأْتِيهَا النَّاسُ ضُرْبٌ مِّثْلَ مَا سَمِعُوا لَهُ﴾ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَن يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوْ اجْتَمَعُوا لَهُ وَإِن يَسْأَلْتَهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لَّا يَسْتَنْقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبِ وَالْمَطْلُوبِ ﴿٧٣﴾ مَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿٧٤﴾

يقول تعالى منها على حقارة الأصنام وسخافة عقول عابديها: ﴿يَأْتِيهَا النَّاسُ ضُرْبٌ مِّثْلَ﴾ أى: لما يعبد الجاهلون بالله المشركون به ﴿فَأَسْمِعُوا لَهُ﴾ أى: أنصتوا وتفهموا ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَن يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوْ اجْتَمَعُوا لَهُ﴾ أى: لو اجتمع جميع ما تعبدون من الأصنام والأنداد على أن يقدروا على خلق ذباب واحد ما قدروا على ذلك. كما روى الإمام أحمد

عن أبى هريرة - مرفوعاً - قال: «ومن أظلم ممن ذهب عن خلق كخلقى، فليخلقوا مثل خلقى ذرة، أو ذبابة، أو حبة» (١) وأخرجه صاحبها الصحيح «قال الله عز وجل: ومن أظلم ممن ذهب يخلق كخلقى؟ فليخلقوا ذرة، فليخلقوا شعيرة» (٢).

ثم قال تعالى أيضاً: ﴿وَإِن يَسْأَلْتَهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لَّا يَسْتَنْقِذُوهُ مِنْهُ﴾ أى: هم عاجزون عن خلق ذباب واحد، بل أبلغ من ذلك عاجزون عن مقاومته والانتصار منه، لو سلبها شيئاً من الذى عليها من الطيب، ثم أرادت أن تستنقذه منه، لما قدرت على ذلك. هذا والذباب من أضعف مخلوقات الله وأحقرها ولهذا قال: ﴿ضَعُفَ الطَّالِبِ وَالْمَطْلُوبِ﴾. قال ابن عباس: الطالب: الصنم، والمطلوب: الذباب. واختاره ابن جرير، وهو ظاهر السياق. وقال السدى وغيره: الطالب: العابد، والمطلوب: الصنم.

ثم قال: ﴿مَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ﴾ أى: ما عرفوا قدر الله وعظمته حين عبدوا معه غيره، من هذه التى لا تقاوم الذباب لضعفها وعجزها ﴿إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ أى: هو القوى الذى بقدرته وقوته خلق كل شئ «وهو الذى يبدأ الخلق ثم يعيده وهو أهون عليه» [الروم: ٢٧]، ﴿إِن بَطَشَ رَبُّكَ تَشْدِيدًا إِنَّهُ هُوَ يُبْدِي وَيُعِيدُ﴾ [البروج: ١٢، ١٣]، ﴿إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرُّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ﴾ [الذاريات: ٥٨]. وقوله: ﴿عَزِيزٌ﴾

(١) المسند (٧٥١٣)، وقال الشيخ أحمد شاكر: «إسناده صحيح».

(٢) البخارى (٥٩٥٣) ومسلم (٢١١١ / ١٠١).

أى: قد عز كل شيء فقهره وغلبه، فلا يمانع ولا يغالب، لعظمته وسلطانه، وهو الواحد القهار.

﴿ اللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ ﴾
﴿ ٧٥ ﴾ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ ﴿ ٧٦ ﴾

يخبر تعالى أنه يختار من الملائكة رسلا فيما يشاء من شرعه وقدره، ومن الناس لإبلاغ رسالاته، ﴿ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ ﴾ أى : سميع لأقوال عباده، بصير بهم ، عليم بمن يستحق ذلك منهم ، كما قال : ﴿ اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ ﴾ [الانعام: ١٢٤]. وقوله : ﴿ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ ﴾ أى : يعلم ما يفعل برسله فيما أرسلهم به، فلا يخفى عليه من أمورهم شيء، كما قال : ﴿ عَالِمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِ أَحَدًا . إِلَّا مَنِ ارْتَضَىٰ مِنْ رَسُولٍ ﴾ إلى قوله ﴿ وَأَخْضَىٰ كُلَّ شَيْءٍ عِدْدًا ﴾ [الجن: ٢٦ - ٢٨]، فهو سبحانه رقيب عليهم، شهيد على ما يقال لهم، حافظ لهم، ناصر لجنابهم؛ ﴿ يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ ﴾ الآية [المائدة: ٦٧].

﴿ يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَرْكَعُوا وَاسْجُدُوا وَاعْبُدُوا رَبَّكُمْ وَأَفْعَلُوا الْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ ﴿ ٧٧ ﴾ ﴿ وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ وَفِي هَذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ هُوَ مَوْلَاكُمْ فَنِعْمَ الْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ النَّصِيرُ ﴾ ﴿ ٧٨ ﴾

سجدة

اختلف الأئمة ، فى هذه السجدة الثانية من سورة الحج : هل هو مشروع السجود فيها أم لا؟ على قولين .

وقوله : ﴿ وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ ﴾ أى : بأموالكم وألستكم وأنفسكم، كما قال تعالى : ﴿ اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ ﴾ [آل عمران: ١٠٢]. وقوله : ﴿ هُوَ اجْتَبَاكُمْ ﴾ أى : يا هذه الأمة، الله اصطفاكم واختاركم على سائر الأمم، وفضلكم وشرفكم وخصكم باكرم رسول، وأكمل شرع ﴿ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ ﴾ أى : ما كلفكم ما لا تطيقون، وما ألزمكم بشيء يشق عليكم إلا جعل الله لكم فرجا ومخرجا، فالصلاة - التى هى أكبر أركان الإسلام بعد الشهادتين - تجب فى الحضر أربعاً وفى السفر تُقصر إلى ثنتين، وفى الخوف ركعة، وتُصلى رجالاً وركبانا، مستقبلي القبلة وغير مستقبليها. والقيام فيها يسقط بعذر المرض، فيصليها المريض جالسا، فإن لم يستطع فعلى جنبه، إلى غير ذلك من الرخص والتخفيفات، فى سائر الفرائض والواجبات؛ ولهذا قال ﷺ لمعاذ وأبى موسى، حين بعثهما أميرين إلى اليمن: «بَشْرًا وَلَا تَفْرَأْ، وَيَسْرًا وَلَا تُعَسِّرَا» (١).

والأحاديث في هذا كثيرة؛ ولهذا قال ابن عباس في قوله: ﴿وَمَا جَعَلْ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾
يعنى: من ضيق.

وقوله: ﴿مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ﴾: حثهم وأغراهم على ما جاء به الرسول، صلوات الله وسلامه
عليه، بأنه ملة أبيهم إبراهيم الخليل، ثم ذكر منته تعالى على هذه الأمة بما نوه به من ذكرها
والثناء عليها في سالف الدهر وقديم الزمان، في كتب الأنبياء، يتلى على الأحيار والرهبان،
فقال: ﴿هُوَ سَمَّاكُمْ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ﴾ أى: من قبل هذا القرآن ﴿وَفِي هَذَا﴾ أى القرآن ﴿لِيَكُونَ الرَّسُولُ
شَهِيداً عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ﴾ أى: إنما جعلناكم هكذا أمة وسطا عدولا خيارا، مشهودا
بعدالتكم عند جميع الأمم، لتكونوا يوم القيامة ﴿شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ﴾ لأن جميع الأمم معترفة يومئذ
بسيادتها وفضلها على كل أمة سواها؛ فلهذا تقبل شهادتهم عليهم يوم القيامة، فى أن الرسل
بلغتهم رسالة ربهم، والرسول يشهد على هذه الأمة أنه بلغها ذلك.

وقوله: ﴿فَأَقِمْوَا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ﴾ أى: قابلوا هذه النعمة العظيمة بالقيام بشكرها، وأدوا
حق الله عليكم فى أداء ما افترض، وطاعة ما أوجب، وترك ما حرم. ومن أهم ذلك إقام
الصلاة وإيتاء الزكاة، وهو الإحسان إلى خلق الله، بما أوجب للفقير على الغنى، من إخراج
جزء نزر من ماله فى السنّة للضعفاء والمحاييج . ﴿وَأَعْتَصِمُوا بِاللَّهِ﴾ أى : اعتضدوا
بالله، واستعينوا به ، وتوكلوا عليه ، وتأيّدوا به ﴿هُوَ مَوْلَاكُمْ﴾ أى: حافظكم وناصركم ومُظفركم
على أعدائكم، ﴿فَنِعْمَ الْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ النَّصِيرُ﴾ يعنى: نعم الولى ونعم الناصر من الأعداء.

تفسير سورة المؤمنون

وهي مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الجزء
١٨

﴿ قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ﴿١﴾ الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ ﴿٢﴾ وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ ﴿٣﴾ وَالَّذِينَ هُمْ لِلرِّكْوَةِ فَعَلُونَ ﴿٤﴾ وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ ﴿٥﴾ إِلَّا عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ﴿٦﴾ فَمَنِ ابْتَغَىٰ وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْعَادُونَ ﴿٧﴾ وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمْتِنَتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ ﴿٨﴾ وَالَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴿٩﴾ أُولَٰئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ ﴿١٠﴾ الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿١١﴾ ﴾

قوله تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ﴾ أى: قد فازوا وسعدوا وحصلوا على الفلاح، وهم المؤمنون المتصفون بهذه الأوصاف ﴿الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ﴾ قال ابن عباس: خائفون ساكنون. وكذا روى عن مجاهد، والحسن، وقتادة، والزهرى وعن على بن أبى طالب: الخشوع: خشوع القلب. وقال الحسن البصرى: كان خشوعهم فى قلوبهم، فغضوا بذلك أبصارهم، وخَفَضُوا الجناح. والخشوع فى الصلاة إنما يحصل بمن فَرَّغَ قلبه لها، واشتغل بها عما عداها، وأثرها على غيرها، وحيث تكون راحة له وقرة عين، كما قال النبى ﷺ، فى الحديث الذى رواه الإمام أحمد والنسائى، عن أنس، عن رسول الله ﷺ أنه قال: «حَبَّبَ إِلَى الطَّيِّبِ والنِّسَاءِ، وجعلت قرة عينى فى الصلاة» (١). ﴿وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ﴾ أى: عن الباطل، وهو يشمل: الشرك - كما قاله بعضهم - والمعاصى وما لا فائدة فيه من الأقوال والأفعال، كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا مَرُوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا﴾ [الفرقان: ٧٢].

وقوله: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِلرِّكْوَةِ فَعَلُونَ﴾: الاكثرون على أن المراد بالزكاة هاهنا زكاة الأموال. وقد يحتمل أن يكون المراد بالزكاة هاهنا: زكاة النفس من الشرك والدنس، كقوله: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا. وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا﴾ [الشمس: ٩، ١٠] وكقوله: ﴿وَوَيْلٌ لِلْمُشْرِكِينَ. الَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ الزَّكَاةَ﴾ [فصلت: ٦، ٧] ، على أحد القولين فى تفسيرها، وقد يحتمل أن يكون كلا الأمرين مرادا، وهو زكاة النفوس وزكاة الأموال ؛ فإنه من جملة زكاة النفوس، والمؤمن الكامل هو الذى يتعاطى هذا وهذا، والله أعلم.

وقوله: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ. إِلَّا عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ. فَمَنِ ابْتَغَىٰ وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْعَادُونَ﴾

(١) المسند (٣ / ١٢٨) والنسائى (٣٩٤٠) ، وصححه الألبانى .

ابْتغَىٰ وَرَاءَ ذَلِكَ فَأَوْلَتْكَ هُمُ الْعَادُونَ ﴿١﴾ أى: والذين قد حفظوا فروجهم من الحرام، فلا يقعون فيما نهاهم الله عنه من زنا أو لواط، ولا يقربون سوى أزواجهم التي أحلها الله لهم، وما ملكت أيمانهم من السرارى، ومن تعاطى ما أحله الله له فلا لوم عليه ولا حرج؛ ولهذا قال: ﴿فَأَيْنَهُمْ غَيْرُ مُلْتَمِينَ . فَمَنْ ابْتغَىٰ وَرَاءَ ذَلِكَ﴾ أى: غير الأزواج والإماء ﴿فَأَوْلَتْكَ هُمُ الْعَادُونَ﴾ أى: المعتدون. وقد استدل الإمام الشافعى، رحمه الله، ومن وافقه على تحريم الاستمناء باليد بهذه الآية الكريمة ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ . إِلَّا عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ﴾ قال: فهذا الصنيع خارج عن هذين القسمين، وقد قال: ﴿فَمَنْ ابْتغَىٰ وَرَاءَ ذَلِكَ فَأَوْلَتْكَ هُمُ الْعَادُونَ﴾ .

وقوله: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ﴾ أى: إذا أوتمنوا لم يخونوا، بل يؤدونها إلى أهلها، وإذا عاهدوا أو عاقدوا أوفوا بذلك، لا كصفات المنافقين الذين قال فيهم رسول الله ﷺ: «آية المنافق ثلاث: إذا حدث كذب، وإذا وعد أخلف، وإذا أوتمن خان» (١).

وقوله: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَوَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ﴾ أى: يواظبون عليها فى مواعيتها، كما قال ابن مسعود: سألت النبى ﷺ فقلت: يا رسول الله، أى العمل أحب إلى الله؟ قال: «الصلاة على وقتها». قلت: ثم أى؟ قال: «برُّ الوالدين». قلت: ثم أى؟ قال: «الجهاد فى سبيل الله». أخرجاه فى الصحيحين. وفى مستدرک الحاكم قال: «الصلاة فى أول وقتها» (٢). وقد افتتح الله ذكر هذه الصفات الحميدة بالصلاة، واختتمها بالصلاة، فدل على أفضليتها.

ولما وصّفهم تعالى بالقيام بهذه الصفات الحميدة والأفعال الرشيدة قال: ﴿أَوْلَتْكَ هُمُ الْوَارِثُونَ . الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ وثبت فى الصحيحين أن رسول الله ﷺ قال: «إذا سألتكم الله الجنة فاسألوه الفردوس، فإنه أعلى الجنة وأوسط الجنة، ومنه تفرّج أنهار الجنة، وفوقه عرش الرحمن» (٣). وروى ابن أبى حاتم عن أبى هريرة، قال: قال رسول الله ﷺ: «ما منكم من أحد إلا وله منزلان: منزل فى الجنة ومنزل فى النار، فإن مات فدخل النار ورث أهل الجنة منزله، فذلك قوله: ﴿أَوْلَتْكَ هُمُ الْوَارِثُونَ﴾» (٤). فالؤمنون يرثون منازل الكفار؛ لأنهم خلقوا لعبادة الله تعالى، فلما قام هؤلاء المؤمنون بما وجب عليهم من العبادة، وترك أولئك ما أمرؤا به مما خلّقوا له - أحرز هؤلاء نصيب أولئك لو كانوا أطاعوا ربهم عز وجل، بل أبلغ من هذا أيضاً، وهو ما ثبت فى صحيح مسلم، عن أبى بردة، عن أبىه، عن النبى ﷺ قال: «يجىء يوم القيامة ناس من المسلمين بذنوب أمثال الجبال، فيغفرها الله لهم، ويضعها على اليهود والنصارى». وفى لفظ له: قال رسول الله ﷺ: «إذا كان يوم القيامة دَفَعَ اللهُ لكل مسلم يهودياً أو نصرانياً، فيقال: هذا

(١) البخارى (٣٣)، ومسلم (٥٩ / ١٠٧).

(٢) البخارى (٥٩٧٠) ومسلم (٨٥ / ١٣٧)، والحاكم (١ / ١٨٨) وقال: «صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه» .

(٣) البخارى (٢٧٩٠، ٧٤٢٣) ولم يعزه صاحب التحفة (١٠ / ٢٧٨) إلا للبخارى .

(٤) ابن ماجه (٤٣٤١) وفى الزوائد: « هذا إسناد صحيح على شرط الشيخين » ، وصححه الألبانى .

فَكَأَكُّكَ مِنَ النَّارِ». فاستحلف عمر بن عبد العزيز أبا بريدة بالله الذى لا إله إلا هو، ثلاث مرات، أن أباه حدثه عن رسول الله ﷺ، قال: فحلف له (١).

قلت: وهذه الآية كقوله تعالى: ﴿تِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي نُورِثُ مِنْ عِبَادِنَا مَنْ كَانَ تَقِيًّا﴾ [مريم: ٦٣]، وكقوله: ﴿وَتِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [الزخرف: ٧٣]. وقد قال مجاهد، وسعيد بن جبير: الجنة بالرومية هي الفردوس. وقال بعض السلف: لا يسمى البستان فردوساً إلا إذا كان فيه عنب، فالله أعلم.

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ طِينٍ ﴿١٢﴾ ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نَظْفَةً فِي قرارٍ مَكِينٍ ﴿١٣﴾ ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظْمًا فَكَسَوْنَا الْعِظْمَ لَحْمًا ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ ﴿١٤﴾ ثُمَّ إِنَّكُمْ بَعْدَ ذَلِكَ لَمَيْتُونَ ﴿١٥﴾ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ تُبْعَثُونَ ﴿١٦﴾﴾

يقول تعالى مخبراً عن ابتداء خلق الإنسان من سلالة من طين، وهو آدم، عليه السلام، خلقه الله من صلصال من حمأ مسنون. وقال ابن عباس: ﴿مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ طِينٍ﴾ قال: صفوة الماء. وقال مجاهد: ﴿مِنْ سُلَالَةٍ﴾ أى: من منى آدم. قال ابن جرير: وإنما سمي آدم طينياً لأنه مخلوق منه. وقال قتادة: استل آدم من الطين. وهذا أظهر فى المعنى، وأقرب إلى السياق، فإنه آدم، عليه السلام، خلق من طين لازب، وهو الصلصال من الحمأ المسنون، وذلك مخلوق من التراب، كما قال تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ إِذَا أَنْتُمْ بَشَرٌ تَنْتَشِرُونَ﴾ [الروم: ٢٠]. روى الإمام أحمد عن أبى موسى، عن النبى ﷺ قال: «إن الله خلق آدم من قبضة قبضها من جميع الأرض، فجاء بنو آدم على قدر الأرض، جاء منهم الأحمر والأسود والأبيض، وبين ذلك، والخبث والطيب، وبين ذلك». وقد رواه أبو داود والترمذى، وقال الترمذى: حسن صحيح (٢).

﴿ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نَظْفَةً﴾: هذا الضمير عائد على جنس الإنسان، كما قال فى الآية الأخرى: ﴿وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنْسَانِ مِنْ طِينٍ. ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ مَاءٍ مُهِينٍ﴾ [السجدة: ٧، ٨] أى: ضعيف، كما قال: ﴿أَلَمْ نَخْلُقْكُمْ مِنْ مَاءٍ مُهِينٍ. فَجَعَلْنَاهُ فِي قرارٍ مَكِينٍ﴾، يعنى: الرحم معد لذلك مهياً له ﴿إِلَى قَدَرٍ مَعْلُومٍ. فَقَدَرْنَا فَنِعْمَ الْقَادِرُونَ﴾ [المرسلات: ٢٢، ٢٣]، أى: إلى مدة معلومة وأجل معين حتى استحکم وتنقل من حال إلى حال، وصفة إلى صفة؛ ولهذا قال هاهنا: ﴿ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً﴾ أى: ثم صيرنا النطفة، وهى الماء الدافق الذى يخرج من صلب الرجل - وهو ظهره - وترائب المرأة - وهى عظام صدرها ما بين الترقوة إلى التندوة - فصارت علقه حمراء على شكل العلقه مستطيلة. قال عكرمة: وهى دم. ﴿فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً﴾: وهى قطعة كالبضعة من اللحم، لا شكل فيها ولا تخطيط ﴿فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظْمًا﴾ يعنى: شكلناها ذات رأس ويدين ورجلين بعظامها وعصبها

(١) مسلم (٢٧٦٧ / ٤٩).

(٢) المسند (٤ / ٤٠٠) وأبو داود (٤٦٩٣) والترمذى (٢٩٥٥).

وعروقها. ﴿فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا﴾ أى: وجعلنا على ذلك ما يستره ويشده ويقويه، ﴿ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ﴾ أى: ثم نفخنا فيه الروح، فتحرك وصار ﴿خَلْقًا آخَرَ﴾ ذا سمع وبصر وإدراك وحركة واضطراب ﴿فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ﴾.

روى الإمام أحمد عن عبد الله - هو ابن مسعود - قال: حدثنا رسول الله ﷺ، وهو الصادق المصدوق: «إن أحدكم ليُجمع خلقه بطن أمه فى أربعين يوماً، ثم يكون علقه مثل ذلك، ثم يكون مضغاً مثل ذلك، ثم يرسل إليه الملك فينفخ فيه الروح، ويؤمر بأربع كلمات: رزقه، وأجله، وعمله، وهل هو شقى أو سعيد، فوالذى لا إله غيره، إن أحدكم ليعمل بعمل أهل الجنة حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع، فيسبق عليه الكتاب، فيختم له بعمل أهل النار فيدخلها، وإن الرجل ليعمل بعمل أهل النار، حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع، فيسبق عليه الكتاب، فيختم له بعمل أهل الجنة فيدخلها». أخرجاه^(١). وروى الإمام أحمد عن حذيفة بن أسيد الغفارى قال: سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول: «يدخل الملك على النطفة بعد ما تستقر فى الرحم بأربعين ليلة، فيقول: يا رب، ماذا؟ أشقى سعيداً؟ أذكر أم أنثى؟ فيقول الله، فيكتب عمله، وأثره، ومصيبته، ورزقه، ثم تطوى الصحيفة، فلا يُزاد على ما فيها ولا ينقص». وقد رواه مسلم فى صحيحه نحوه^(٢).

وروى الحافظ أبو بكر البزار عن أنس؛ أن رسول الله ﷺ قال: «إن الله وكل بالرحم ملكاً فيقول: أى رب، نطفة. أى رب، علقه أى رب، مضغ. فإذا أراد الله خلقها قال: يا رب، ذكر أو أنثى؟ شقى أو سعيداً؟ فما الرزق والأجل؟» قال: «فذلك يكتب فى بطن أمه». أخرجاه فى الصحيحين^(٣).

وقوله: ﴿فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ﴾ يعنى: حين ذكر قدرته ولطفه فى خلق هذه النطفة من حال إلى حال، وشكل إلى شكل، حتى تصورت إلى ما صارت إليه من الإنسان السوى الكامل الخلق، قال: ﴿فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ﴾. وقوله: ﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ بَعْدَ ذَلِكَ لَمَيِّتُونَ﴾ يعنى: بعد هذه النشأة الأولى من العدم تصيرون إلى الموت ﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ تَبْعُونَ﴾ يعنى: النشأة الآخرة، ﴿ثُمَّ اللَّهُ يُنشِئُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ﴾ [العنكبوت: ٢٠] يعنى: يوم المعاد، وقيام الأرواح والأجساد، فيحاسب الخلائق، ويوفى كل عامل عمله، إن خيراً فخير، وإن شراً فشر.

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعَ طَرَائِقَ وَمَا كُنَّا عَنِ الْخَلْقِ غَافِلِينَ﴾

لما ذكر تعالى خلق الإنسان، عطف بذكر خلق السموات السبع، وكثيراً ما يذكر تعالى خلق السموات والأرض مع خلق الإنسان، كما قال تعالى: ﴿لَخَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرَ مِنْ خَلْقِ

(١) المسند (٣٦٢٤) والبخارى (٦٥٩٤) ومسلم (٢٦٤٣ / ١).

(٢) المسند (٦/٤) ومسلم (٢٦٤٤، ٢٦٤٥ / ٢، ٣).

(٣) البخارى (٣١٨) ومسلم (٢٦٤٦).

الناس﴾ [غافر: ٥٧]. وهكذا في أول ﴿آم﴾ السجدة، التي كان رسول الله ﷺ يقرأ بها صبيحة يوم الجمعة، في أولها خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ، ثم بيان خلق الإنسان من سلاله من طين، وفيها أمر المعاد والجزاء، وغير ذلك من المقاصد.

وقوله: ﴿سَبَّحَ طَرَاتِقَ﴾: قال مجاهد: يعنى السموات السبع، وهذه كقوله تعالى: ﴿تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَاوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ﴾ [الإسراء: ٤٤]، ﴿أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا﴾ [نوح: ١٥]، ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾ [الطلاق: ١٢]. وهكذا قال ههنا: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعَ طَرَائِقَ وَمَا كُنَّا عَنِ الْخَلْقِ غَافِلِينَ﴾ أى: ويعلم ما يلج في الأرض وما يخرج منها، وما ينزل من السماء وما يعرج فيها، وهو معكم أينما كنتم، والله بما تعملون بصير. وهو - سبحانه - لا يحجب عنه سماء سماء، ولا أرض أرضاً، ولا جبل إلا يعلم ما فى وعره، ولا بحر إلا يعلم ما فى قعره، يعلم عدد ما فى الجبال والتلال والرمال، والبحار والقفار والأشجار، ﴿وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٌ فِي ظِلْمَاتِ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾ [الأنعام: ٥٩].

﴿وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَّاهُ فِي الْأَرْضِ وَإِنَّا عَلَىٰ ذَهَابٍ بِهِ لَقَادِرُونَ﴾ ١٨ ﴿فَأَنْشَأْنَا لَكُمْ بِهِ جَنَّاتٍ مِّنْ نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ لَّكُم فِيهَا فَوَاكِهِ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ﴾ ١٩ ﴿وَشَجَرَةً تَخْرُجُ مِنْ طُورٍ سَيْنَاءَ تَنْبُتُ بِالذَّهْنِ وَصَبِغٍ لِلَّالِكِينَ﴾ ٢٠ ﴿وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً لِّتُسَمِّيَكُمْ مِمَّا فِي بَطُونِهَا وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ﴾ ٢١ ﴿وَعَلَيْهَا وَعَلَى الْفُلْكِ تُحْمَلُونَ﴾ ٢٢ ﴿

يذكر تعالى نعمه على عبده التى لا تعد ولا تحصى، فى إنزاله القَطْرَ من السماء ﴿بِقَدَرٍ﴾ أى: بحسب الحاجة، لا كثيراً فيفسد الأرض والعمران، ولا قليلاً فلا يكفى الزروع والثمار، بل بقدر الحاجة إليه من السقى والشرب والانتفاع به، حتى إن الأراضى التى تحتاج ماء كثيراً لزرعها ولا تحتمل دمنتها إنزال المطر عليها، يسوق إليها الماء من بلاد أخرى، كما فى أرض مصر، ويقال لها: «الأرض الجرز»، يسوق الله إليها ماء النيل معه طين أحمر يجترفه من بلاد الحبشة فى زمان أمطارها، فيأتى الماء يحمل طينا أحمر، فيسقى أرض مصر، ويقر الطين على أرضهم ليزدروا فيه، لأن أرضهم سباح يغلب عليها الرمال، فسبحان اللطيف الخبير الرحيم الغفور.

وقوله: ﴿فَأَسْكَنَّاهُ فِي الْأَرْضِ﴾ أى: جعلنا الماء إذا نزل من السحاب يخلد فى الأرض، وجعلنا فى الأرض قابلية له، تشربه ويتغذى به ما فيها من الحب والنوى. وقوله: ﴿وَإِنَّا عَلَىٰ ذَهَابٍ بِهِ لَقَادِرُونَ﴾ أى: لو شئنا ألا تمطر لفعلنا، ولو شئنا لصرفناه عنكم إلى السباح والبرارى والبحار والقفار لفعلنا، ولو شئنا لجعلناه أجاجاً لا ينتفع به لشرب ولا لسقى لفعلنا، ولو شئنا لجعلناه لا ينزل فى الأرض، بل ينجر على وجهها لفعلنا. ولو شئنا لجعلناه إذا نزل فيها يغور إلى مدى لا تصلون إليه ولا تتصفون به لفعلنا. ولكن بلطفه ورحمته ينزل عليكم الماء من السحاب عذباً

فراًتاً زللاً، ففسكنه فى الأرض وسلكه ینابیع فى الأرض، فافتح العیون والأنهار، فیسقى به الزروع والثمار، وتشربون منه ودوابكم وأنعامكم، وتغتسلون منه وتطهرون وتنظفون، فله الحمد والمنة .

وقوله: ﴿فَأَنْشَأْنَا لَكُمْ بِهِ جَنَّاتٍ مِّنْ نُخَيْلٍ وَأَعْنَابٍ﴾ معنى: فأخرجنا لكم بما أنزلنا من الماء ﴿جَنَّاتٍ﴾ أى: بساتین وحدائق ذات بهجة، أى: ذات منظر حسن. وقوله: ﴿مِنْ نُخَيْلٍ وَأَعْنَابٍ﴾ أى: فىها نخیل وأعناب. وهذا ما كان يألف أهل الحجاز، ولا فرق بین الشىء و بین نظیره، وكذلك فى حق كل أهل إقليم، عندهم من الثمار من نعمة الله عليهم ما يعجزون عن القيام بشكره. وقوله: ﴿لَكُمْ فِيهَا فَوَاكِهُ كَثِيرَةٌ﴾ أى: من جميع الثمار، كما قال: ﴿يُنْبِتُ لَكُمْ بِهِ الزَّرْعَ وَالزَّيْتُونَ وَالنَّخِيلَ وَالْأَعْنَابَ وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ﴾ [النحل: ١١]. وقوله: ﴿وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ﴾ كأنه معطوف على شىء مقدر، تقديره: تنظرون إلى حسنه ونضجه، ومنه تأكلون.

وقوله: ﴿وَشَجَرَةً تَخْرُجُ مِنْ طُورِ سَيْنَاءَ﴾ معنى: الزيتون. والطور: هو الجبل. وقال بعضهم: إنما يسمى طوراً إذا كان فيه شجر، فإن عرى عنها سُمى جبلاً لا طوراً، والله أعلم. وطور سيناء: هو طور سينين، وهو الجبل الذى كلم الله عليه موسى بن عمران، عليه السلام، وما حوله من الجبال التى فيها شجر الزيتون. وقوله: ﴿تَنْبِتُ بِالذَّهْنِ﴾ أى: تخرج بالدهن، أو تأتى بالدهن ﴿وَصَبِغٌ﴾ أى: آدم ﴿لِللَّالِئِينَ﴾ أى: فيها ما يتفجع به من الدهن والاصطباغ .

وقوله: ﴿وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِي بَطُونِهَا وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ. وَعَلَيْهَا وَعَلَى الْفُلْكِ تُحْمَلُونَ﴾ : يذكر تعالى ما جعل لخلقه فى الانعام من المنافع ، وذلك أنهم يشربون من ألبانها الخارجة من بين قرث ودم ، وياكلون من حمْلانها ، ويلبسون من أصوافها وأوبارها وأشعارها ، ويركبون ظهورها ويحملونها الأحمال الثقال إلى البلاد النائية عنهم، كما قال تعالى: ﴿وَتَحْمَلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَى بَلَدٍ لَّمْ تَكُونُوا بِالْغِيَةِ إِلَّا نَسَقُوا لِأَنْفُسِكُمْ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [النحل: ٧]، وقال تعالى: ﴿أَرَأَيْتُمْ يَوْمًا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُمْ مِمَّا عَمَلَتْ أَيْدِيَانَا أَنْعَامًا فَهَمُ لَهُا مَالِكُونَ. وَذَلَّلْنَاهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ. وَلَهُمْ فِيهَا مَنَافِعُ وَمَشَارِبٌ أَفَلَا يَشْكُرُونَ﴾ [يس: ٧١ - ٧٣].

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِن إِلَهِ غَيْرُهُ أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾
 ﴿١٤﴾ فَقَالَ الْمَلَأُوا الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَوْمِهِ مَا هَذَا إِلَّا بَشْرٌ مِّثْلُكُمْ يُرِيدُ أَنْ يَفْضَلَ عَلَيْكُمْ
 وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَنْزَلَ مَلَائِكَةً مَّا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي آبَائِنَا الْأُولَىٰ ﴿١٥﴾ إِنَّ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ بِهِ
 حِجَّةٌ فَرَّصُوا بِهِ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿١٥﴾

يخبر تعالى عن نوح ، عليه السلام ، حين بعثه إلى قومه ، لينذرهم عذاب الله وبأسه الشديد، وانتقامه ممن أشرك به وخالف أمره وكذب رسله ﴿فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِن إِلَهِ غَيْرُهُ أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ أى: ألا تخافون من الله فى إشراككم به؟! فقال الملائكة - وهم السادة والأكابر منهم: ﴿مَا هَذَا إِلَّا بَشْرٌ مِّثْلُكُمْ يُرِيدُ أَنْ يَفْضَلَ عَلَيْكُمْ﴾ يعنون: يترفع عليكم ويتعاطم بدعوى النبوة، وهو بشر

مثلكم، فكيف أوحى إليه دونكم ؟ ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَنْزَلَ مَلَائِكَةً﴾ أى : لو أراد أن يبعث نبياً، لبعث ملكاً من عنده ولم يكن بشراً! ﴿مَا سَمِعْنَا بِهَذَا﴾ أى : ببعثة البشر فى آبائنا الأولين. يعنون بهذا أسلافهم وأجدادهم والأمم الماضية. وقوله: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ بِهِ جِنَّةٌ﴾ أى : مجنون فيما يزعمه، من أن الله أرسله إليكم، واختصه من بينكم بالوحي ﴿فَتَرَبَّصُوا بِهِ حَتَّىٰ حِينٍ﴾ أى : انتظروا به ريب المنون، واصبروا عليه مدة حتى تستريحوا منه.

﴿قَالَ رَبِّ انصُرْنِي بِمَا كَذَّبُونَ ﴿٢٦﴾ فَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ أَنْ اصْنَعْ الْفُلَّكَ بِأَعْيُنِنَا
وَوَحَيْنَا فِإِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ فَاسْلُكْ فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا
مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ مِنْهُمْ وَلَا تَخْطِئُنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُغْرَقُونَ ﴿٢٧﴾ فِإِذَا
اسْتَوَيْتَ أَنْتَ وَمَنْ مَعَكَ عَلَى الْفُلِّ فَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي نَجَّانَا مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٢٨﴾ وَقُلْ رَبِّ
أَنْزِلْنِي مُنزَلاً مُّبَارَكاً وَأَنْتَ خَيْرُ الْمُنزِلِينَ ﴿٢٩﴾ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ وَإِن كُنَّا لَمُبْتَلِينَ ﴿٣٠﴾﴾

يخبر تعالى عن نوح، عليه السلام، أنه دعا ربه ليستنصره على قومه، كما قال تعالى مخبراً عنه فى الآية الأخرى: ﴿فَدَعَا رَبَّهُ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَانْتَصِرْ﴾ [القم: ١٠]، وقال ههنا: ﴿رَبِّ انصُرْنِي بِمَا كَذَّبُونَ﴾ فعند ذلك أمره الله تعالى بصنعه السفينة وإحكامها وإتقانها، وأن يحمل فيها من كل زوجين اثنين، أى: ذكراً وأنثى من كل صنف من الحيوانات والنباتات والثمار، وغير ذلك، وأن يحمل فيها أهله ﴿إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ مِنْهُمْ﴾ أى: سبق فيه القول من الله بالهلاك، وهم الذين لم يؤمنوا به من أهله، كابنه وزوجته، والله أعلم. وقوله: ﴿وَلَا تَخْطِئُنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُغْرَقُونَ﴾ أى: عند معاينة إنزال المطر العظيم، لا تأخذنك رافة بقومك، وشفقة عليهم، وطمع فى تأخيرهم لعلهم يؤمنون، فإنى قد قضيت أنهم مغرقون على ما هم عليه من الكفر والطغيان. وقد تقدمت القصة مبسوطه فى سورة هود (١).

وقوله : ﴿فِإِذَا اسْتَوَيْتَ أَنْتَ وَمَنْ مَعَكَ عَلَى الْفُلِّ فَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي نَجَّانَا مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ ، كما قال : ﴿وَجَعَلَ لَكُمْ مِنَ الْفُلِّ وَالْأَنْعَامِ مَا تَرْكَبُونَ . لَتَسْتَوُوا عَلَىٰ ظُهُورِهِ ثُمَّ تَذْكُرُوا نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا اسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَتَقُولُوا سُبْحَانَ الَّذِي سَخَّرْنَا هَذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ . وَإِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا لَمُنْقَلِبُونَ﴾ [الزخرف: ١٢ - ١٤]. وقد امثل نوح، عليه السلام، هذا، كما قال تعالى: ﴿وَقَالَ ارْكَبُوا فِيهَا بِسْمِ اللَّهِ مَجْرَاهَا وَمُرْسَاهَا﴾ [هود: ٤١]. فذكر الله تعالى عند ابتداء سيره وعند انتهائه، وقال تعالى: ﴿وَقُلْ رَبِّ أَنْزِلْنِي مُنزَلاً مُّبَارَكاً وَأَنْتَ خَيْرُ الْمُنزِلِينَ﴾. وقوله: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ﴾ أى: إن فى هذا الصنيع - وهو إنجاء المؤمنين وإهلاك الكافرين - ﴿لآياتٍ﴾ أى: لحججا ودلالات واضحات على صدق الأنبياء فيما جاؤوا به عن الله تعالى، وأنه تعالى فاعل لما يشاء، وقادر على كل شىء، عليم بكل شىء ﴿وَإِن كُنَّا لَمُبْتَلِينَ﴾ أى: لمختبرين للعباد بإرسال المرسلين.

﴿ ثُمَّ أَنْشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قَوْمًا آخَرِينَ ﴾ ﴿٣١﴾ فَأَرْسَلْنَا فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ أَفَلَا تَنْفَقُونَ ﴿٣٢﴾ وَقَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِإِلقاءِ الْآخِرَةِ وَآتَرَفْنَاهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا مَا هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ ﴿٣٣﴾ وَلَئِنْ أَطَعْتُمْ بَشَرًا مِثْلَكُمْ إِنَّكُمْ إِذَا لَخَسِرُونَ ﴿٣٤﴾ أَعِيدْكُمْ أَنْتُمْ إِذَا مِتُّمْ وَكُنْتُمْ تُرَابًا وَعِظَامًا أَنْتُمْ تُخْرَجُونَ ﴿٣٥﴾ ﴿ هَيَّاتَ هَيَّاتَ لِمَا تُوَعَّدُونَ ﴾ ﴿٣٦﴾ إِنَّ هِيَ إِلَّا حِكْمَانَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ ﴿٣٧﴾ إِنَّ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا وَمَا نَحْنُ لَهُ بِمُؤْمِنِينَ ﴿٣٨﴾ قَالَ رَبِّ انصُرْنِي بِمَا كَذَّبُونَ ﴿٣٩﴾ قَالَ عَمَّا قَلِيلٍ لَيُصْبِحُنَّ نَادِمِينَ ﴿٤٠﴾ فَأَخَذْتَهُمُ الصَّيْحَةَ بِالْحَقِّ فَجَعَلْنَاهُمْ عُثَاءً لِقَوْمٍ الظَّالِمِينَ ﴿٤١﴾ ﴿

ربع

يخبر تعالى أنه أنشأ بعد قوم نوح قرناً آخرين - قيل: المراد بهم عاد، فإنهم كانوا مستخلفين بعدهم. وقيل: المراد بهؤلاء ثمود؛ لقوله: ﴿فَأَخَذْتَهُمُ الصَّيْحَةَ بِالْحَقِّ﴾ - وأنه تعالى أرسل فيهم رسولا منهم، فدعاهم إلى عبادة الله وحده لا شريك له. فكذبوه وخالفوه، وأبوا عن اتباعه لكونه بشراً مثلهم، واستنكفوا عن اتباع رسول بشري، وكذبوا بقاء الله في القيامة، وأنكروا المعاد الجسماني، وقالوا: ﴿أَعِيدْكُمْ أَنْتُمْ إِذَا مِتُّمْ وَكُنْتُمْ تُرَابًا وَعِظَامًا أَنْتُمْ تُخْرَجُونَ﴾. هَيَّاتَ هَيَّاتَ لِمَا تُوَعَّدُونَ ﴿أى: بعيد بعيد ذلك. ﴿إِنَّ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا﴾ أى: فيما جاءكم به من الرسالة والنذارة والإخبار بالمعاد ﴿وَمَا نَحْنُ لَهُ بِمُؤْمِنِينَ﴾. قَالَ رَبِّ انصُرْنِي بِمَا كَذَّبُونَ ﴿أى: استفتح عليهم الرسول واستنصر ربه عليهم، فأجاب دعاءه ﴿قَالَ عَمَّا قَلِيلٍ لَيُصْبِحُنَّ نَادِمِينَ﴾ أى: بمخالفتك وعنادك فيما جنتهم به، ﴿فَأَخَذْتَهُمُ الصَّيْحَةَ بِالْحَقِّ﴾ أى: وكانوا يستحقون ذلك من الله بكفرهم وطغيانهم. والظاهر أنه اجتمع عليهم صيحة مع الريح الصرصر العاصف القوى الباردة ﴿تَدْمِيرُ كُلِّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا فَأَصْبَحُوا لَا يُرَى إِلَّا مَسَاجِدُهُمْ﴾ [الاحقاف: ٢٥].

وقوله: ﴿فَجَعَلْنَاهُمْ عُثَاءً﴾ أى: صرعى هلكى كعناء السيل، وهو الشيء الحقيقير النافه الهالك الذى لا ينتفع بشيء منه. ﴿فِعْبُدَا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾، كقوله: ﴿وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا هُمُ الظَّالِمِينَ﴾ [الزخرف: ٧٦] أى: بكفرهم وعنادهم ومخالفة رسول الله، فليحذر السامعون أن يكذبوا رسولهم.

﴿ ثُمَّ أَنْشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قَوْمًا آخَرِينَ ﴾ ﴿٤٢﴾ مَا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجْلَهَا وَمَا يَسْتَخِرُونَ ﴿٤٣﴾ ثُمَّ أَرْسَلْنَا رَسُولَنَا تَتْرًا كُلَّ مَا جَاءَ أُمَّةً رَسُولًا كَذَّبُوهُ فَأَتْبَعْنَا بَعْضَهُمْ بَعْضًا وَجَعَلْنَاهُمْ أَعَادِيثَ فِعْبُدَا لِلْقَوْمِ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٤٤﴾ ﴿

يقول تعالى: ﴿ثُمَّ أَنْشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قَوْمًا آخَرِينَ﴾ أى: أما وخلائق ﴿مَا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجْلَهَا وَمَا يَسْتَخِرُونَ﴾ يعن: بل يؤخرون حسب ما قدر لهم تعالى فى كتابه المحفوظ وعلمه قبل كونهم،

أمة بعد أمة، وقرنا بعد قرن، وجيلاً بعد جيل، وخلفاً بعد سلف ﴿ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَتْرَاءً﴾: قال ابن عباس: يعنى يتبع بعضهم بعضاً، وهذه كقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رُسُلًا أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ فَمِنْهُمْ مَنْ هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُمْ مَنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ﴾ [النحل: ٣٦].

وقوله: ﴿كُلَّمَا جَاءَ أُمَّةٌ رُسُلُهَا كَذَّبُوهُ﴾ يعنى: جمهورهم وأكثرهم، كقوله تعالى: ﴿يَا حَسْرَةَ عَلَى الْعِبَادِ مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ [يس: ٣٠]. وقوله: ﴿فَأَتَيْنَا بَعْضَهُمْ بَعْضًا﴾ أى: أهلكناهم، كقوله: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ الْقُرُونِ مِنْ بَعْدِ نُوحٍ﴾ [الإسراء: ١٧]. ﴿وَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ﴾ أى: أخباراً وأحاديث للناس، كقوله: ﴿فَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ وَمَزَقْنَاهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ﴾ الآية [سبا: ١٩] ﴿فَبَعْدُ لِقَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ﴾.

﴿ثُمَّ أَرْسَلْنَا مُوسَى وَأَخَاهُ هَارُونَ بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُبِينٍ ﴿٤٥﴾ إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا عَالِينَ ﴿٤٦﴾ فَقَالُوا أَتُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِكَ وَقَوْمُهُمَا لَنَا عِيدُونَ ﴿٤٧﴾ فَكَذَّبُوهُمَا فَكَانُوا مِنَ الْمُهْلَكِينَ ﴿٤٨﴾ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٤٩﴾﴾

يخبر تعالى أنه بعث رسوله موسى، عليه السلام، وأخاه هارون إلى فرعون وملته بالآيات والحجج الدامغات، والبراهين القاطعات، وأن فرعون وقومه استكبروا عن اتباعهما، والانقياد لأمرهما، لكونهما بشرين كما أنكرت الأمم الماضية بعثة الرسل من البشر، تشابهت قلوبهم، فأهلك الله فرعون وملاه، وأغرقهم فى يوم واحد أجمعين، وأنزل على موسى الكتاب - وهو التوراة - فيها أحكامه وأوامره ونواهيته، وذلك بعد ما قصم الله فرعون والقطب، وأخذهم أخذ عزيز مقتدر؛ وبعد أن أنزل الله التوراة لم يهلك أمة بعامته، بل أمر المؤمنين بقتال الكافرين، كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ مِنْ بَعْدِ مَا أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ الْأُولَى بَصَائِرَ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ [القصص: ٤٣].

﴿وَجَعَلْنَا ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ آيَةً وَآوَيْنَاهُمَا إِلَى رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ ﴿٥٠﴾﴾

يقول تعالى مخبراً عن عبده ورسوله عيسى ابن مريم، عليهما السلام، أنه جعلهما آية للناس: أى حجة قاطعة على قدرته على ما يشاء، فإنه خلق آدم من غير أب ولا أم، وخلق حواء من ذكر بلا أنثى، وخلق عيسى من أنثى بلا ذكر، وخلق بقية الناس من ذكر وأنثى.

وقوله: ﴿وَأَوَيْنَاهُمَا إِلَى رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ﴾: قال ابن عباس: الربوة: المكان المرتفع من الأرض، وهو أحسن ما يكون فيه النبات. وكذا قال مجاهد، وعكرمة، وسعيد بن جبيرة، وقتادة. قال ابن عباس: وقوله: ﴿ذَاتِ قَرَارٍ﴾ يقول: ذات خصب ﴿وَمَعِينٍ﴾ يعنى: ماء ظاهراً. وروى ابن أبى حاتم: عن ابن عباس: ﴿ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ﴾ قال: أنهار دمشق. وقال مجاهد: ﴿وَأَوَيْنَاهُمَا إِلَى رَبْوَةٍ﴾، قال: عيسى ابن مريم وأمه، حين أويا إلى غوطة دمشق وما

حولها: وأقرب الأقوال فى ذلك ما رواه العوفى، عن ابن عباس فى قوله: ﴿وَأَوْتَيْنَاهُمَا إِلَىٰ رُبُوعَةٍ ذَاتِ قُرْأَرٍ وَمَعِينٍ﴾، قال: المعين الماء الجارى، وهو النهر الذى قال الله تعالى: ﴿قَدْ جَعَلْنَا لَكَ ذَاتَ سُرٍّ﴾ [مريم: ٢٤]. وكذا قال الضحاك، وقتادة: هو بيت المقدس. فهذا والله أعلم هو الأظهر؛ لأنه المذكور فى الآية الأخرى. والقرآن يفسر بعضه بعضاً.

﴿يَأْتِيهَا الرُّسُلُ كُلُّوْا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَأَعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴿٥١﴾ وَإِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِ ﴿٥٢﴾ فَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ زُبُرًا كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ﴿٥٣﴾ فَذَرَهُمْ فِي عَمْرَتِهِمْ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿٥٤﴾ أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِ مِنْ مَّالٍ وَبَنِينَ ﴿٥٥﴾ نُسَارِعُ لَهُمْ فِي الْخَيْرَاتِ بَلْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٥٦﴾﴾

يأمر تعالى عباده المرسلين، عليهم الصلاة والسلام أجمعين، بالأكل من الحلال، والقيام بالصالح من الأعمال، فدل هذا على أن الحلال عون على العمل الصالح، فقام الأنبياء، عليهم السلام، بهذا أتم القيام، وجمعوا بين كل خير، قولاً وعملاً ودلالة ونصحاً، فجزاهم الله عن العباد خيراً. قال الحسن البصرى فى قوله: ﴿يَأْتِيهَا الرُّسُلُ كُلُّوْا مِنَ الطَّيِّبَاتِ﴾ قال: أما والله ما أمروا بأصفركم ولا أحمركم، ولا حلوكم ولا حامضكم، ولكن قال: انتهوا إلى الحلال منه. وقال سعيد بن جبير، والضحاك: ﴿كُلُّوْا مِنَ الطَّيِّبَاتِ﴾ يعنى: الحلال. وفى الصحيح: «ما من نبى إلا رعى الغنم». قالوا: وأنت يا رسول الله؟ قال: «نعم، كنت أرهاها على قرارىط لأهل مكة» (١). وفى الصحيح: أن داود، عليه السلام، كان يأكل من كسب يده (٢). وفى الصحيحين: «إن أحب الصيام إلى الله صيام داود، وأحب القيام إلى الله قيام داود، كان ينام نصف الليل، ويقوم ثلثه وينام سدسه، وكان يصوم يوماً ويفطر يوماً، ولا يفر إذا لاقى» (٣).

وقد ثبت فى صحيح مسلم، وجامع الترمذى، ومسنَد الإمام أحمد - واللفظ له - عن أبى هريرة، قال: قال رسول الله ﷺ: «يَأْيُهَا النَّاسِ، إِنَّ اللَّهَ طَيِّبٌ لَا يَقْبَلُ إِلَّا طَيِّبًا، وَإِنَّ اللَّهَ أَمْرَ الْمُؤْمِنِينَ بِمَا أَمَرَ بِهِ الْمُرْسَلِينَ، فَقَالَ: ﴿يَأْيُهَا الرُّسُلُ كُلُّوْا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَأَعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ﴾. وقال: «يَأْيُهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُّوْا مِنَ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ» [البقرة: ١٧٢]. ثم ذكر الرجل يطيل السفر أشعث أغبر، ومطعمه حرام، ومشربه حرام، وملبسه حرام، وغذى بالحرام، يمد يديه إلى السماء: يا رب، يا رب، فأنى يستجاب لذلك». وقال الترمذى: حسن غريب (٤).

وقوله: ﴿وَإِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾ أى: دينكم - يامعشر الأنبياء - دين واحد، وملة واحدة، وهو الدعوة إلى عبادة الله وحده لا شريك له؛ ولهذا قال: ﴿وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِ﴾، وقد تقدم

(٢) البخارى (٢٠٧٤).

(١) البخارى (٢٢٦٢)

(٣) البخارى (١١٣١) ومسلم (١١٥٩ / ١٨١).

(٤) مسلم (١٠١٥ / ٦٥) والترمذى (٢٩٨٩) والسند (٦ / ١٥٩).

الكلام على ذلك في سورة «الأنبياء».

وقوله: ﴿نَقَطَعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ زُبُرًا﴾ أي: الأمم الذين بُعث إليهم الأنبياء ﴿كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ﴾ أي: يفرحون بما هم فيه من الضلال؛ لأنهم يحسبون أنهم مهتدون؛ ولهذا قال متهدداً لهم ومتوعداً: ﴿فَذَرَهُمْ فِي غَمَرَتِهِمْ﴾ أي: في غيهم وضلالهم ﴿حَتَّىٰ حِينٍ﴾ أي: إلى حين حينهم وهلاكهم، كما قال تعالى: ﴿فَمَهْلِكُ الْكَافِرِينَ أَهْلَهُمْ رُيُونًا﴾ [الطارق: ١٧]، وقال تعالى: ﴿ذَرَهُمْ يَأْكُلُوا وَيَتَمَتَّعُوا وَيُلْهِمُهُمُ الْأُمَلُ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾ [الحجر: ٣].

وقوله: ﴿أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِ مِنْ مَّالٍ وَبَيْنٍ. نُسَارِعُ لَهُمْ فِي الْخَيْرَاتِ بَلْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ يعني: أيظن هؤلاء المغرورون أن ما نعطيهم من الأموال والأولاد لكرامتهم علينا ومعزتهم عندنا؟ اكلا، ليس الأمر كما يزعمون في قولهم: ﴿نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالًا وَأَوْلَادًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذِّبِينَ﴾ [سبا: ٣٥]، لقد أخطؤوا في ذلك وخاب رجاؤهم، بل إنما نفضل بهم ذلك استدراجاً وإنظاراً وإملاءً؛ ولهذا قال: ﴿بَلْ لَا يَشْعُرُونَ﴾، كما قال تعالى: ﴿فَلَا تَعْجَبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ الآية [التوبة: ٥٥]، وقال تعالى: ﴿إِنَّمَا نُمَلِّي لَهُمْ لِيُزَادُوا إِثْمًا﴾ [آل عمران: ١٧٨]، وقال تعالى: ﴿فَذَرْنِي وَمَنْ يُكَذِّبُ بِهِذَا النِّحْدِيثِ سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ . وَأُمَلِّي لَهُمْ﴾ الآية [القلم: ٤٤، ٤٥] وقال: ﴿ذَرْنِي وَمَنْ خَلَّفْتُ وَحِيدًا﴾ إلى ﴿عَبِيدًا﴾ [المدثر: ١١-١٦] وقال تعالى: ﴿وَمَا أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ بِالَّتِي تُقَرِّبُكُمْ عِندَنَا زُلْفَىٰ إِلَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا﴾ الآية [سبا: ٣٧] والآيات في هذا كثيرة.

قال قتادة في قوله: ﴿أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِ مِنْ مَّالٍ وَبَيْنٍ. نُسَارِعُ لَهُمْ فِي الْخَيْرَاتِ بَلْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ قال: مكرَ الله والقوم في أموالهم وأولادهم، يا ابن آدم، فلا تعتبر الناس بأموالهم وأولادهم، ولكن اعتبرهم بالإيمان والعمل الصالح.

﴿إِنَّ الَّذِينَ هُمْ مِنْ خَشْيَةِ رَبِّهِمْ مُشْفِقُونَ ﴿٥٧﴾ وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٨﴾ وَالَّذِينَ هُمْ بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ ﴿٥٩﴾ وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوْا وَقُلُوبُهُمْ وَجَلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ ﴿٦٠﴾ أُولَٰئِكَ يُسْرِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَهُمْ لَهَا سَابِقُونَ ﴿٦١﴾﴾

يقول تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ هُمْ مِنْ خَشْيَةِ رَبِّهِمْ مُشْفِقُونَ﴾ أي: هم مع إحسانهم وإيمانهم وعملهم الصالح، مشفقون من الله خائفون منه، وجلون من مكره بهم، كما قال الحسن البصري: إن المؤمن جمع إحسانا وشفقة، وإن الكافر جمع إساءة وأمنا ﴿وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ﴾ أي: يؤمنون بآياته الكونية والشرعية، كقوله تعالى إخباراً عن مريم، عليها السلام: ﴿وَصَدَقَتْ بِكَلِمَاتِ رَبِّهَا وَكُتِبَ﴾ [التحریم: ١٢]، أي: أيقنت أن ما كان إنما هو عن قدر الله وقضائه، ومشرعه الله فهو إن كان أمراً فمما يحبه ويرضاه، وإن كان نهياً فهو مما يكرهه ويأباه، وإن كان خيراً فهو حق، كما قال الله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ﴾ أي: لا يعبدون معه غيره، بل يوحدونه

ويعلمون أنه لا إله إلا الله أحداً صمداً، لم يتخذ صاحبة ولا ولداً، وأنه لا نظير له ولا كفاء له .

وقوله : ﴿وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوْا وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ﴾ أي : يعطون العطاء وهم خائفون ألا يتقبل منهم ، لخوفهم أن يكونوا قد قصروا في القيام بشرط الإعطاء . وهذا من باب الإشفاق والاحتياط ، كما روى الإمام أحمد عن عائشة ؛ أنها قالت : يارسول الله ، ﴿وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوْا وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ﴾ ، هو الذي يسرق ويزنى ويشرب الخمر ، وهو يخاف الله عز وجل؟ قال : «لا يابنت أبي بكر ، يابنت الصديق ، ولكنه الذي يصلى ويصوم ويتصدق ، وهو يخاف الله عز وجل » . وهكذا رواه الترمذى وقال : «لا يابنت الصديق ، ولكنهم الذين يصلون ويصومون ويتصدقون ، وهم يخافون ألا يقبل منهم ، ﴿أُولَٰئِكَ يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ﴾» (١) . وقد قرأ آخرون هذه الآية : «والذين يأتون ما أتوا وقلوبهم وجلة» أي : يفعلون ما يفعلون وهم خائفون والمعنى على القراءة الأولى - وهى قراءة الجمهور : السبعة وغيرهم - أظهر ؛ لأنه قال : ﴿أُولَٰئِكَ يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَهُمْ لَهَا سَابِقُونَ﴾ ، فجعلهم من السابقين . ولو كان المعنى على القراءة الأخرى لأوشك ألا يكونوا من السابقين ، بل من المتقصرين أو المقصرين ، والله تعالى أعلم .

﴿وَلَا تَكُلْفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا وَلَدَيْنَا كِتَابٌ يَنْطِقُ بِالْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ ﴿١٠﴾ بَلْ قُلُوبُهُمْ
فِي غَمْرَةٍ مِّنْ هَذَا وَلَهُمْ أَعْمَالٌ مِّنْ دُونِ ذَلِكَ هُمْ لَهَا عَامِلُونَ ﴿١٢﴾ حَتَّىٰ إِذَا أَخَذْنَا مُتْرَفِيهِمْ
بِالْعَذَابِ إِذَا هُمْ يَجْتَرُونَ ﴿١٤﴾ لَا يَجْتَرُوا يَوْمَئِذٍ الْيَوْمَ إِنَّا كُرْهًا لَّ نُصِرُونَ ﴿١٥﴾ فَذَكَرْنَا عَائِنِي
نُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَكُنْتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ تُنْكِرُونَ ﴿١٦﴾ مُسْتَكْبِرِينَ بِهِ سَمِرًا تَهْتَجِرُونَ ﴿١٧﴾

يقول تعالى مخبراً عن عدله في شرعه على عباده في الدنيا : أنه لا يكلف نفساً إلا وسعها ، أي : إلا ما تطبق حمله والقيام به ، وأنه يوم القيامة يحاسبهم بأعمالهم التي كتبها عليهم في كتاب مسطور لا يضيع منه شيء ؛ ولهذا قال : ﴿وَلَدَيْنَا كِتَابٌ يَنْطِقُ بِالْحَقِّ﴾ يعني : كتاب الأعمال ﴿وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ أي : لا يبخسون من الخير شيئاً ، وأما السيئات فيعفو ويصفح عن كثير منها لعباده المؤمنين . ثم قال منكرًا على الكفار والمشركين من قريش : ﴿بَلْ قُلُوبُهُمْ فِي غَمْرَةٍ﴾ أي : غفلة وضلالة ﴿مِنْ هَذَا﴾ أي : القرآن الذى أنزله على رسوله ﷺ .

وقوله : ﴿وَلَهُمْ أَعْمَالٌ مِّنْ دُونِ ذَلِكَ هُمْ لَهَا عَامِلُونَ﴾ : عكرمة ، عن ابن عباس : ﴿وَلَهُمْ أَعْمَالٌ﴾ أي : سيئة من دون ذلك ، يعني : الشرك ﴿هُم لَهَا عَامِلُونَ﴾ قال : لا بد أن يعملوها . وكذا روى عن مجاهد ، والحسن ، وغير واحد . وقال آخرون : ﴿وَلَهُمْ أَعْمَالٌ مِّنْ دُونِ ذَلِكَ هُمْ لَهَا عَامِلُونَ﴾ أي : قد كتب عليهم أعمال سيئة لا بد أن يعملوها قبل موتهم لا محالة ، لتحقق عليهم كلمة العذاب . وروى نحو هذا عن مقاتل بن حيان والسُّدِّي ، وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم . وهو ظاهر قوى حسن .
وقوله : ﴿حَتَّىٰ إِذَا أَخَذْنَا مُتْرَفِيهِمْ بِالْعَذَابِ إِذَا هُمْ يَجْتَرُونَ﴾ يعني : حتى إذا جاء مترفيهم - وهم

(١) المسند (٦ / ١٥٩) ، والترمذى (٣١٧٥) ، والحديث رواه ابن ماجه (٤١٩٨) وقال الألبانى : « حسن » .

السعداء المنعمون في الدنيا - عذابُ الله وبأسه ونقمته بهم ﴿إِذَا هُمْ يَجَارُونَ﴾ أى: يصرخون ويستغيثون، كما قال تعالى: ﴿وَذُرِّيَّ وَالْمُكْذِبِينَ أُولِي النِّعْمَةِ وَمَهْلَهُمْ قَلِيلًا . إِنَّ لَدَيْنَا أَنْكَالًا وَجَحِيمًا﴾ الآية [الزمل: ١١ - ١٣]، وقال تعالى: ﴿كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ قَرْنٍ فَنَادَوا وَاوَلَاتِ حَيْنٍ مَنَاصٍ﴾ [ص: ٣]. وقوله: ﴿لَا تَجَارُوا الْيَوْمَ مِنْكُمْ مَنَّا لَا تُنصِرُونَ﴾ أى: لا يجيركم أحد مما حل بكم، سواء جأرتكم أو سكتكم، لا محيد ولا مناص ولا وِزْرَ، لزم الأمر ووجب العذاب.

ثم ذكر أكبر ذنوبهم فقال: ﴿فَدَكَانَتْ آيَاتِي تَتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَكُنْتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ تَنكَبُونَ﴾ أى: إذا دعيتم أبيتم، وإن طلبتم امتنعتم ﴿ذَلِكُمْ بِأَنَّهُ إِذَا دُعِيَ اللَّهُ وَحْدَهُ كَفَرْتُمْ وَإِنْ يُشْرَكُ بِهِ تُؤْمِنُوا فَالْحُكْمُ لِلَّهِ الْعَلِيِّ الْكَبِيرِ﴾ [غافر: ١٢]. وقوله: ﴿مُتَكَبِّرِينَ بِهِ سَامِرًا تَهْجُرُونَ﴾: فى تفسيره قولان، أحدهما: أن متكبرين حال منهم حين نكوصهم عن الحق وإبائهم إياه، استكباراً عليه واحتقاراً له ولأهله، فعلى هذا الضمير فى ﴿بِهِ﴾ فيه ثلاثة أقوال: أحدها: أنه الحرم، أى: مكة، ذموا لأنهم كانوا يسمرون فيه بالهجر من الكلام. والثانى: أنه ضمير للقرآن، كانوا يسمرون ويذكرون القرآن بالهجر من الكلام: «إنه سحر، إنه شعر، إنه كهانة» إلى غير ذلك من الأقوال الباطلة. والثالث: أنه محمد ﷺ، كانوا يذكرونه فى سمرهم بالأقوال الفاسدة، ويضربون له الأمثال الباطلة، من أنه شاعر، أو كاهن، أو ساحر، أو كذاب، أو مجنون. وكل ذلك باطل، بل هو عبد الله ورسوله، الذى أظهره الله عليهم، وأخرجهم من الحرم صاغرين أذلاء. وقيل: المراد بقوله: ﴿مُتَكَبِّرِينَ بِهِ﴾ أى: بالبيت، يفتخرون به ويعتقدون أنهم أولياؤه، وليسوا به .

﴿أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا الْقَوْلَ أَمْ جَاءَهُمْ مَا لَمْ يَأْتِ آبَاءَهُمُ الْأَوَّلِينَ ﴿٦٨﴾ أَمْ لَمْ يَعْرِفُوا رَسُولَهُمْ فَهُمْ لَهُمْ مُنْكَرُونَ ﴿٦٩﴾ أَمْ يَقُولُونَ بِهِ جِنَّةٌ بَلْ جَاءَهُمُ بِالْحَقِّ وَكَذَّبُوا بِآيَاتِهِ كَذِبًا كَرِيمًا ﴿٧٠﴾ وَلَوْ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ بَلْ أَيْسَّرْنَا لِيُذَكِّرَهُمْ فَهُمْ عَنْ ذِكْرِهِمْ مُعْرِضُونَ ﴿٧١﴾ أَمْ تَسْأَلُهُمْ خَرْجًا فَخَرَجَ رَيْكٌ خَيْرٌ وَهُوَ خَيْرُ الرَّزْقِينَ ﴿٧٢﴾ وَإِنَّكَ لَتَدْعُوهُمْ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿٧٣﴾ وَإِنَّ الدِّينَ لَأَيُّمُونُكَ بِالْآخِرَةِ عَنِ الصِّرَاطِ لَنُنَكِّتَنَّكَ ﴿٧٤﴾ وَلَوْ رَحِمْنَاهُمْ وَكَشَفْنَا مَا بِهِمْ مِنْ ضُرِّ لَلْجُؤِ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿٧٥﴾﴾

يقول تعالى منكرا على المشركين فى عدم تفهمهم للقرآن العظيم، وتدبرهم له وإعراضهم عنه، مع أنهم قد خصوا بهذا الكتاب الذى لم ينزل الله على رسول أكمل منه ولا أشرف، لا سيما آباؤهم الذين ماتوا فى الجاهلية، حيث لم يبلغهم كتاب ولا أتاهاهم نذير، فكان اللاتق بهؤلاء أن يقابلوا النعمة التى أسداها الله عليهم بقبولها، والقيام بشكرها وتفهمها، والعمل بمقتضاها آتاء الليل وأطراف النهار، كما فعله النجباء منهم ممن أسلم واتبع الرسول ﷺ ورضى عنهم. وقال قتادة: ﴿أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا الْقَوْلَ﴾: إذا والله يجدون فى القرآن زاجرا عن معصية الله لو تدبره القوم وعقلوه، ولكنهم أخذوا بما تشابه، فهلكوا عند ذلك.

ثم قال منكراً على الكافرين من قريش : ﴿ أَمْ لَمْ يَعْرِفُوا رَسُولَهُمْ فَهُمْ لَهُ مُنْكَرُونَ ﴾ : أى : أفهم لا يعرفون محمداً وصدقه وأمانته وصيانيته التى نشأ بها فيهم ، أفقدرون على إنكار ذلك والمباهتة فيه؟ ولهذا قال جعفر بن أبى طالب للنجاشى ملك الحبشة : أيها الملك ، إن الله بعث فينا رسولا نعرف نسبه وصدقه وأمانته . وهكذا قال المغيرة بن شعبة لثائب كسرى حين بارزهم وكذلك قال أبو سفيان صخر بن حرب لملك الروم هرقل ، حين سأله وأصحابه عن صفات النبى ﷺ ونسبه وصدقه وأمانته ، وكانوا بعد كفاراً لم يسلموا ، ومع هذا لم يمكنهم إلا الصدق فاعترفوا بذلك .

وقوله : ﴿ أَمْ يَقُولُونَ بِهِ جِنَّةٌ ﴾ : يحكى قول المشركين عن النبى ﷺ أنه تقول القرآن ، أى : افتراه من عنده ، أو أن به جنونا لا يدرى ما يقول . وأخبر عنهم أن قلوبهم لا تؤمن به ، وهم يعلمون بطلان ما يقولونه فى القرآن ، فإنه قد أتاهم من كلام الله ما لا يطاق ولا يدافع ، وقد تحداهم وجميع أهل الأرض أن يأتوا بمثله ، فما استطاعوا ولا يستطيعون أبد الأبدين ؛ ولهذا قال : ﴿ بَلْ جَاءَهُم بِالْحَقِّ وَأَكْثَرُهُم لِلْحَقِّ كَارِهُونَ ﴾ : يحتمل أن تكون هذه جملة حالية ، أى : فى حال كراهة أكثرهم للحق ، ويحتمل أن تكون خبرية مستأنفة ، والله أعلم .

وقوله : ﴿ وَلَوْ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ ﴾ : قال مجاهد ، وأبو صالح والسدى : الحق هو الله عز وجل ، والمراد : لو أجابهم الله إلى ما فى أنفسهم من الهوى ، وشرع الأمور على وفق ذلك ﴿ لَفَسَدَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ ﴾ : أى : لفساد أهوائهم واختلافها ، كما أخبر عنهم فى قولهم : ﴿ لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِنَ الْقُرَيْتَيْنِ عَظِيمٍ ﴾ ، ثم قال : ﴿ أَهْمُ يَقْسُمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ ﴾ [الزخرف : ٣١ ، ٣٢] وقال تعالى : ﴿ قُلْ لَوْ أَنْتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَائِنَ رَحْمَةِ رَبِّي إِذًا لَأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ الْإِنْفَاقِ ﴾ [الإسراء : ١٠٠] وقال : ﴿ أَمْ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّنَ الْمَمْلَكِ فَإِذَا لَا يُؤْتُونَ النَّاسَ نَقِيرًا ﴾ [النساء : ٥٣] ، ففى هذا كله تبين عجز العباد واختلاف آرائهم وأهوائهم ، وأنه تعالى هو الكامل فى جميع صفاته وأقواله وأفعاله ، وشرعه وقدره ، وتدبيره لخلقه ، تعالى وتقدس ، فلا إله غيره ، ولا رب سواه . ثم قال : ﴿ بَلْ آتَيْنَاهُم بِذِكْرِهِمْ ﴾ : يعنى : القرآن ﴿ لَهُمْ عَن ذِكْرِهِمْ مُعْرِضُونَ ﴾ .

وقوله : ﴿ أَمْ تَسْأَلُهُمْ خَرْجًا ﴾ : قال الحسن : أجرا ﴿ فَخَرَجَ رَبُّكَ خَيْرٌ ﴾ : أى : أنت لا تسألهم أجرة ولا جعلاً ولا شيئاً على دعوتك إياهم إلى الهدى ، بل أنت فى ذلك تحتسب عند الله جزيل ثوابه ، كما قال : ﴿ قُلْ مَا سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ إِنَّ أَجْرِيْ إِيَّاهُ عَلَى اللَّهِ ﴾ [سبأ : ٤٧] ، وقال : ﴿ قُلْ مَا سَأَلْتُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ ﴾ [ص : ٨٦] ، وقال : ﴿ قُلْ لَأَسْأَلَنَّكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى ﴾ [الشورى : ٢٣] ، وقال تعالى : ﴿ وَجَاءَ مِنْ أَقْصَا الْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَى قَالَ يَا قَوْمِ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ . اتَّبِعُوا مَنْ لَا يَسْأَلُكُمْ أَجْرًا وَهُمْ مُهْتَدُونَ ﴾ [يس : ٢٠ ، ٢١] .

وقوله : ﴿ وَإِنَّكَ لَتَدْعُوهُمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ . وَإِنَّ الدِّينَ لَا يُزْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ عَنِ الصِّرَاطِ لَنَّا كِبُونَ ﴾ : روى الإمام أحمد عن ابن عباس ؛ أن رسول الله ﷺ أتاه - فيما يرى النائم - ملكان ، فقعده أحدهما

عند رجله، والآخر عند رأسه، فقال الذى عند رجله للذى عند رأسه: اضرب مثل هذا ومثل أمته. فقال: إن مثله ومثل أمته، كمثل قوم سَفَرُ انتهوا إلى رأس مَفَاة، فلم يكن معهم من الزاد ما يقطعون به المفاة ولا ما يرجعون به، فبينما هم كذلك إذ أتاهم رجل فى حلة حبرة، فقال: رأيتم إن أوردتكم رياضاً معشبة، وحياضاً رواءً تتبعونى؟ فقالوا: نعم: قال. فانطلق، فأوردهم رياضاً معشبة وحياضاً رواءً، فأكلوا وشربوا وسمنوا فقال لهم: ألم ألكم على تلك الحال، فجعلتم لى إن وردت بكم رياضاً معشبة وحياضاً رواءً أن تتبعونى؟ قالوا: بلى قال: فإن بين أيديكم رياضاً أعشب من هذه، وحياضاً هى أروى من هذه، فاتبعونى. قال: فقالت طائفة: صدق والله، لتتبعنه. وقالت طائفة: قد رضينا بهذا نقيم عليه (١).

وروى الحافظ أبو يعلى الموصلى: عن ابن عباس، عن عمر بن الخطاب، قال: قال رسول الله ﷺ: «إنى ممسك بحجزكم: هلم عن النار، هلم عن النار، وتغلبونى وتتقاحمون فيها تَقَاحُم الفِراش والجنادب، فأوشك أن أرسل حجزكم وأنا قَرَطُكم على الحوض، فتزدون على معا وأشتاتا، أعرفكم بسيماكم وأسمائكم، كما يعرف الرجل الغريب من الإبل فى إبله، فيذُهب بكم ذات اليمين وذات الشمال، فأناشد فيكم رب العالمين: أى رب، قومى، أى رب أمتى. فيقال: يامحمد، إنك لا تدري ما أحدثوا بعدك، إنهم كانوا يمشون بعدك القهقرى على أعقابهم، فلأعرفن أحدكم يأتى يوم القيامة يحمل شاة لها ثغاء، ينادى: يا محمد، يا محمد. فأقول: لا أملك لك شيئاً. قد بلغت، ولأعرفن أحدكم يأتى يوم القيامة يحمل بعيراً له رُغاء، ينادى: يامحمد، يامحمد. فأقول: لا أملك شيئاً، قد بلغت، ولأعرفن أحدكم يأتى يوم القيامة يحمل فرساً لها حمحمة، فينادى: يامحمد، يا محمد، فأقول: لا أملك لك شيئاً، قد بلغت، ولأعرفن أحدكم يأتى يوم القيامة يحمل سقاء من آدم، ينادى: يامحمد، يامحمد. فأقول: لا أملك لك شيئاً قد بلغت» (٢).

وقوله: «وَإِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ عَنِ الصِّرَاطِ لَنَّاكِبُونَ» أى: لعادلون جاثرون منحرفون. تقول العرب: نكب فلان عن الطريق: إذا زاغ عنها.

وقوله: «وَلَوْ رَحِمْنَاهُمْ وَكَشَفْنَا مَا بِهِمْ مِنْ ضُرٍّ لَلَّجُوا فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ» : يخبر تعالى عن غلظهم فى كفرهم بأنه لو أراح علكهم وأفهمهم القرآن، لما انقادوا له ولاستمروا على كفرهم وعنادهم وطغيانهم، كما قال تعالى: «وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَأَسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُعْرِضُونَ» [الأنفال: ٢٣]، وقال: «وَلَوْ تَرَى إِذْ وَقَفُوا عَلَى النَّارِ قَالُوا يَا لَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبُ بآيَاتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ . بَلْ بَدَأَ لَهُمْ مَا كَانُوا يُخْفُونَ مِنْ قَبْلٍ وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ . وَقَالُوا إِنَّمَا هِيَ إِلا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ» [الأنعام: ٢٧ - ٢٩] فهذا من باب علمه تعالى بما لا يكون لو كان كيف يكون.

(١) المسند (٢٤٠٢) ، وقال الشيخ أحمد شاکر : «إسناده صحيح» .

(٢) كشف الأستار (٩٠٠) ، وقال الهيثمى فى الزوائد (٨٥/٣) : « رواه أبو يعلى والبزار ، ورجال الجميع ثقات » .

﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَاهُمْ بِالْعَذَابِ فَمَا اسْتَكَانُوا لِرَبِّهِمْ وَمَا يَضُرُّعُونَ ﴿٧٦﴾ حَتَّىٰ إِذَا فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا ذَا عَذَابٍ شَدِيدٍ إِذَا هُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ ﴿٧٧﴾ وَهُوَ الَّذِي أَنشَأَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴿٧٨﴾ وَهُوَ الَّذِي ذَرَأَكُمْ فِي الْأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٧٩﴾ وَهُوَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ وَلَهُ اخْتِلَافُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٨٠﴾ بَلْ قَالُوا مِثْلَ مَا قَالَ الْأَوَّلُونَ ﴿٨١﴾ قَالُوا أَإِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظْمًا إِذَا نَا لَمَبْعُوثُونَ ﴿٨٢﴾ لَقَدْ وَعَدْنَا نَحْنُ وَآبَاءُ نَا هَذَا مِن قَبْلُ إِن هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴿٨٣﴾﴾

يقول تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَاهُمْ بِالْعَذَابِ﴾ أى: ابتليناهم بالمصائب والشدائد ﴿فَمَا اسْتَكَانُوا لِرَبِّهِمْ وَمَا يَضُرُّعُونَ﴾ أى: فما ردهم ذلك عما كانوا فيه من الكفر والمخالفة، بل استمروا على ضلالهم وغيهم ﴿فَمَا اسْتَكَانُوا﴾ أى: ما خشعوا ﴿وَمَا يَضُرُّعُونَ﴾ أى: ما دعوا، كما قال تعالى: ﴿فَلَوْلَا إِذْ جَاءَهُمْ بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا وَلَكِنْ قَسَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ الآية [الأنعام: ٤٣].

عن ابن عباس، أنه قال: جاء أبو سفيان إلى رسول الله ﷺ فقال: يا محمد، أنشدك الله والرحم، فقد أكلنا العلهز - يعنى: الوبر والدم - فأنزل الله: ﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَاهُمْ بِالْعَذَابِ فَمَا اسْتَكَانُوا﴾ الآية. وهكذا رواه النسائي (١) وأصله فى الصحيحين أن رسول الله ﷺ دعا على قريش حين استعصوا فقال: «اللهم أعنى عليهم بسبع كسبع يوسف» (٢).

وقوله: ﴿حَتَّىٰ إِذَا فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا ذَا عَذَابٍ شَدِيدٍ إِذَا هُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ﴾ أى: حتى إذا جاءهم أمر الله وجاءتهم الساعة بغتة وأخذهم من عقاب الله ما لم يكونوا يحتسبون، فعند ذلك أبلسوا من كل خير، وأيسوا من كل راحة، وانقطعت آمالهم ورجاؤهم.

ثم ذكر تعالى نعمه على عباده أن جعل لهم السمع والأبصار والأفئدة، وهى العقول والفهوم، التى يدركون بها الأشياء، ويعتبرون بما فى الكون من الآيات الدالة على وحدانية الله، وأنه الفاعل المختار لما يشاء. وقوله: ﴿قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾ أى: ما أقل شكركم لله على ما أنعم به عليكم، كقوله ﴿وَمَا أَكْثَرَ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ [يوسف: ١٠٣].

ثم أخبر تعالى عن قدرته العظيمة وسلطانه القاهر، فى بركة الخليفة وذريته لهم فى سائر أقطار الأرض، على اختلاف أجناسهم ولغاتهم وصفاتهم، ثم يوم القيامة يجمع الأولين منهم والآخرين لميقات يوم معلوم، فلا يترك منهم صغيرا ولا كبيرا، ولا ذكرا ولا أنثى، ولا جليلا ولا حقيرا، إلا أعاده كما بدأه؛ ولهذا قال: ﴿وَهُوَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ﴾ أى: يحيى الرمم ويميت الأمم، ﴿وَلَهُ اخْتِلَافُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ﴾ أى: وعن أمره تسخير الليل والنهار، كل منهما يطلب الآخر طلبا حثيثا، يتعاقبان لا يفتران، ولا يفترقان بزمان غيرهما، كقوله: ﴿لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ﴾ الآية [يس: ٤٠]. وقوله: ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ أى: أفليس لكم عقول تدلكم

على العزيز العليم، الذي قد قهر كل شيء، وعز كل شيء، وخضع له كل شيء.

ثم قال مخبراً عن منكري البعث، الذين أشبهوا من قبلهم من المكذبين: ﴿بَلْ قَالُوا مِثْلَ مَا قَالَ الْأَوَّلُونَ . قَالُوا أَتُذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَأَنْتَا لَمَبْعُوثُونَ﴾ يعني يستبعدون وقوع ذلك بعد صيرورتهم إلى البلى، ﴿لَقَدْ وَعِدْنَا نَحْنُ وَآبَاؤُنَا هَذَا مِنْ قَبْلُ إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾ يعنون: الإعادة محال، إنما يخبر بها من تلقاها عن كتب الأولين واختلافهم. وهذا الإنكار والتكذيب منهم كقوله تعالى إخباراً عنهم: ﴿أَءِذَا كُنَّا عِظَامًا نُخِرَةٌ . قَالُوا تِلْكَ إِذَا كُرَّةٌ خَاسِرَةٌ . فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ . فَإِذَا هُمْ بِالسَّاهِرَةِ﴾ [النازعات: ١١ - ١٤]، وقال تعالى: ﴿أَوْ لَمْ يَرِ الْإِنْسَانَ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ نُطْفَةٍ إِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ . وَضَرَبَ لَنَا مِثْلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ . قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ﴾ [يس: ٧٧ - ٧٩].

﴿قُلْ لِمَنِ الْأَرْضُ وَمَنْ فِيهَا إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ ﴿٨٤﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ ﴿٨٥﴾ قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَوَاتِ السَّبْعِ وَرَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ﴾ ﴿٨٦﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا نُنْفِئُكَ﴾ ﴿٨٧﴾ قُلْ مَنْ مِنْ يَدَيْهِ مَلَائِكَةٌ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ ﴿٨٨﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ فَأَنِّي تُسْحَرُونَ﴾ ﴿٨٩﴾ بَلْ أَتَيْنَهُمْ بِالْحَقِّ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ ﴿٩٠﴾

يقرر تعالى وحدانيته، واستقلاله بالخلق والتصرف والملك، ليرشد إلى أن الله الذي لا إله إلا هو، ولا تنبغي العبادة إلا له وحده لا شريك له؛ ولهذا قال لرسوله محمد ﷺ أن يقول للمشركين العابدين معه غيره، المعترفين له بالربوبية، وأنه لا شريك له فيها، ومع هذا فقد أشركوا معه في الإلهية، فعبدوا غيره معه، مع اعترافهم أن الذين عبدوهم لا يخلقون شيئاً، ولا يملكون شيئاً، ولا يستبدون بشيء، بل اعتقدوا أنهم يقربونهم إليه زلفى: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى﴾ [الزمر: ٣]، فقال: ﴿قُلْ لِمَنِ الْأَرْضُ وَمَنْ فِيهَا؟ أَى: من مالكتها الذي خلقها ومن فيها من الحيوانات والنباتات والشمرات، وسائر صنوف المخلوقات ﴿إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ . سَيَقُولُونَ لِلَّهِ﴾ أَى: فيعرفون لك بأن ذلك لله وحده لا شريك له، فإذا كان ذلك ﴿قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ أَى: لا تذكرون] أنه لا تنبغي العبادة إلا للخالق الرازق لا لغيره.

﴿قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَوَاتِ السَّبْعِ وَرَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ﴾ أَى: من هو خالق العالم العلوى بما فيه من الكواكب والنيرات، والملائكة الخاضعين له فى سائر الأقطار منها والجهات، ومن هو رب العرش العظيم، يعنى: الذى هو سقف المخلوقات . وقال الضحاك، عن ابن عباس: إنما سُمى عرشاً لارتفاعه. وقال مجاهد: ما السموات والأرض فى العرش إلا كحلقة فى أرض فلاة. وروى ابن أبى حاتم عن ابن عباس قال: العرش لا يقدر أحد قدره. وفى رواية: إلا الله عز وجل^(١). ولهذا قال ها هنا: ﴿وَرَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ﴾ يعنى: الكبير، وقال فى آخر السورة: ﴿رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ﴾ أَى: الحسن البهى. فقد جمع العرش بين العظمة فى الاتساع والعلو، والحسن الباهر؛ ولهذا قال من

(١) الحاكم فى المستدرک (٢ / ٢٨٢) وقال: «صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه». ووافقه الذهبى.

قال: إنه من ياقوته حمراء. وقال ابن مسعود: إن ربكم ليس عنده ليل ولا نهار، نور العرش من نور وجهه. وقوله: ﴿سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ أى: إذا كنتم تعترفون بأنه رب السموات ورب العرش العظيم، أفلا تخافون عقابه وتحذرون عذابه، فى عبادتكم معه غيره وإشراككم به؟

﴿قُلْ مَنْ بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ أى: بيده الملك ﴿مَنْ مِنْ دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا﴾ [هود: ٥٦] أى: متصرف فيها. وكان رسول الله ﷺ يقول: «لا، والذى نفسى بيده»، وكان إذا اجتهد فى اليمين قال: «لا، ومقلب القلوب»، فهو سبحانه الخالق المالك المتصرف، ﴿وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ كانت العرب إذا كان السيد فيهم فأجار أحداً، لا يُخَفَّرُ فى جواره، وليس لمن دونه أن يجير عليه، لثلا يفتات عليه، ولهذا قال الله: ﴿وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ﴾ أى: وهو السيد العظيم الذى لا أعظم منه، الذى له الخلق والأمر، ولا معقب لحكمه، الذى لا يمانع ولا يخالف، وما شاء كان، وما لم يشأ لم يكن، وقال الله: ﴿لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ﴾ [الانباء: ٢٣]، أى: لا يسئل عما يفعل؛ لعظمته وكبريائه، وقهره وغللبته، وعزته وحكمته، والخلق كلهم يُسألون عن أعمالهم، كما قال تعالى: ﴿قَوْمِ رَبِّكُمْ أَنْتُمْ أَجْمَعِينَ . عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [الحجر: ٩٢، ٩٣].

وقوله: ﴿سَيَقُولُونَ لِلَّهِ﴾ أى: سيعترفون أن السيد العظيم الذى يجير ولا يجار عليه، هو الله تعالى، وحده لا شريك له ﴿قُلْ فَأَنَّى تُسْعَرُونَ﴾ أى: فكيف تذهب عقولكم فى عبادتكم معه غيره مع اعترافكم وعلمكم بذلك. ثم قال تعالى: ﴿بَلْ أَتَيْنَاهُم بِالْحَقِّ﴾، وهو الإعلام بأنه لا إله إلا الله، وأقمنا الأدلة الصحيحة الواضحة القاطعة على ذلك، ﴿وَأَنَّهُمْ لَكَادِبُونَ﴾ أى: فى عبادتهم مع الله غيره، ولا دليل لهم على ذلك، كما قال فى آخر السورة: ﴿وَمَنْ يَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ لَا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ فَإِنَّمَا حِسَابُهُ عِنْدَ رَبِّهِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ﴾، فالمشركون لا يفعلون ذلك [عن دليل قادهم إلى ما هم فيه من الإفك والضلال، وإنما يفعلون ذلك اتباعاً لآبائهم وأسلافهم الحيارى الجهال، كما قالوا: ﴿إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِم مُّقْتَدُونَ﴾ [الزخرف: ٢٣].

﴿ مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِنْ وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ إِذَا لَدَّهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَّ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُصِفُونَ ﴿٩١﴾ عَلِيمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَتَعَلَّىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٩٢﴾ ﴾

ينزه تعالى نفسه عن أن يكون له ولد أو شريك فى الملك، فقال والتصرف والعبادة فقال تعالى: ﴿مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِنْ وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ إِذَا لَدَّهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَّ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ أى: لو قُدِّر تعدد الآلهة، لانفرد كل منهم بما خلق، فما كان ينتظم الوجود. والمشهد أن الوجود منتظم متسق، كل من العالم العلوى والسفلى مرتبط ببعضه بعض، فى غاية الكمال، ﴿مَا تَرَىٰ فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِنْ تَفَاوُتٍ﴾ [الملك: ٣] ثم لكان كل منهم يطلب قهر الآخر وخلافه، فيعلو بعضهم على بعض؛ ولهذا قال: ﴿وَلَعَلَّ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُصِفُونَ﴾ أى: عما يقول الظالمون المعتدون فى دعواهم الولد أو الشريك علواً كبيراً. ﴿عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ﴾ أى: يعلم ما يغيب عن

المخلوقات وما يشاهدونه، ﴿فَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ أى: تقدس وتنزه وتعالى وعز وجل عما يقول الظالمون والجاحدون.

﴿قُلْ رَبِّ إِمَّا تُرِيدُنِي مَا يُوعَدُونَ ﴿٩٤﴾ رَبِّ فَلَا تَجْعَلْنِي فِي الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٩٥﴾ وَإِنَّا عَلَىٰ أَنْ تُرِيكَ مَا نَعِدُهُمْ لَقَادِرُونَ ﴿٩٦﴾ أَدْفَعْ بِأَلْتِي هِيَ أَحْسَنُ السَّيِّئَةِ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ ﴿٩٧﴾ وَقُلْ رَبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَاتِ الشَّيْطَانِ ﴿٩٧﴾ وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَنْ يَحْضُرُونِ ﴿٩٨﴾﴾

يقول تعالى أمرًا نبيه محمداً ﷺ أن يدعو بهذا الدعاء عند حلول النقم: ﴿رَبِّ إِمَّا تُرِيدُنِي مَا يُوعَدُونَ﴾ أى: إن عاقبتهم - وأنا أشاهد ذلك - فلا تجعلنى فيهم، كما جاء فى الحديث الذى رواه الإمام أحمد والترمذى - وصححه: «وإذا أردت بقوم فتنه فتوفنى إليك غير مفتون» (١). وقوله: ﴿وَإِنَّا عَلَىٰ أَنْ تُرِيكَ مَا نَعِدُهُمْ لَقَادِرُونَ﴾ أى: لو شئنا لأريناك ما نحل بهم من النقم والبلاء والمحن.

ثم قال تعالى مرشداً له إلى التَّرياق النافع فى مخالطة الناس، وهو الإحسان إلى من يسيء، ليستجلب خاطره، فتعود عداوته صداقة وبغضه محبة، فقال: ﴿أَدْفَعْ بِأَلْتِي هِيَ أَحْسَنُ السَّيِّئَةِ﴾، وهذا كما قال فى الآية الأخرى: ﴿أَدْفَعْ بِأَلْتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ. وَمَا يُلْقَاهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا﴾ الآية [فصلت: ٣٤، ٣٥]: أى ما يلهم هذه الوصية أو الخصلة أو الصفة ﴿إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا﴾ أى: على أذى الناس، فعاملوهم بالجميل مع إسدانهم إليهم القبيح ﴿وَمَا يُلْقَاهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾ أى: فى الدنيا والآخرة.

وقوله: ﴿وَقُلْ رَبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَاتِ الشَّيْطَانِ﴾: أمره أن يستعيذ من الشياطين، لأنهم لا تفتح معهم الخيل، ولا يتقادون بالمعروف. وقوله: ﴿وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَنْ يَحْضُرُونِ﴾ أى: فى شىء من أمرى؛ ولهذا أمر بذكر الله فى ابتداء الأمور، وذلك لطرد الشيطان عند الأكل والجماع والذبح، وغير ذلك من الأمور؛ ولهذا روى أبو داود أن رسول الله ﷺ كان يقول: «اللهم إني أعوذ بك من الهرم، وأعوذ بك من الهدم ومن الغرق، وأعوذ بك أن يتخبطنى الشيطان عند الموت» (٢). وروى الإمام أحمد عن عمرو بن شعيب، عن أبيه، عن جده قال: كان رسول الله ﷺ يعلمنا كلمات يقولهن عند النوم، من الفزع: «باسم الله، أعوذ بكلمات الله التامة من غضبه وعقابه، ومن شر عباده، ومن همزات الشياطين وأن يحضرون» قال: فكان عبد الله بن عمرو يعلمها من بلغ من ولده أن يقولها عند نومه، ومن كان منهم صغيراً لا يعقل أن يحفظها، كتبها له، فعلقها فى عنقه. ورواه أبو داود، والترمذى، والنسائى، قال الترمذى: حسن غريب (٣).

(١) المسند (٥ / ٢٤٣) والترمذى (٣٢٣٥). (٢) أبو داود (١٥٥٢)، وصححه الألبانى.

(٣) المسند (٦٦٩٦) وأبو داود (٣٨٩٣) الترمذى (٣٥٢٨) والنسائى فى السنن الكبرى (١٠٦٠١).

﴿ حَقَّ إِذَا جَاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ ﴿٩٩﴾ لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ كَلَّا إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا وَمِنْ وَرَائِهِمْ بَرْزَخٌ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٠٠﴾ ﴾

يخبر تعالى عن حال المحتضر عند الموت، من الكافرين أو المفرطين في أمر الله تعالى، وقيلهم عند ذلك، وسؤالهم الرجعة إلى الدنيا، ليصلح ما كان أفسده في مدة حياته؛ ولهذا قال: ﴿ رَبِّ ارْجِعُونِ . لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ كَلَّا ﴾ كما قال تعالى: ﴿ وَأَنْفِقُوا مِنْ مَا رَزَقْنَاكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ ﴾ إلى قوله ﴿ وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾ [المنافقون: ١٠، ١١]، وقال تعالى: ﴿ وَأَنْذِرِ النَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ الْعَذَابُ ﴾ إلى قوله ﴿ مَا لَكُمْ مِنْ زَوَالٍ ﴾ [إبراهيم: ٤٤]، وقال تعالى: ﴿ يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلَهُ يَقُولُ الَّذِينَ نَسَوْهُ مِنْ قَبْلِ قَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ فَبُهِلَ لَنَا مِنْ شُعْمَاءٍ فِشْفَعُوا لَنَا أَوْ نُرْدُ فَنَعْمَلْ غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ ﴾ [الاعراف: ٥٣]، وقال تعالى: ﴿ وَلَوْ تَرَى إِذِ الْمُجْرِمُونَ نَاكَسُوا رُءُوسِهِمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَارْجِعْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ ﴾ [السجدة: ١٢]، وقال تعالى: ﴿ وَلَوْ تَرَى إِذِ النَّارِ فَقَالُوا يَا لَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبُ بَيَّاتٍ رَبَّنَا ﴾ إلى قوله ﴿ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴾ [الانعام: ٢٧، ٢٨]، وقال تعالى: ﴿ وَتَرَى الظَّالِمِينَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ يَقُولُونَ هَلْ لِي مِنْ مَرْدٍ مِنْ سَبِيلِ ﴾ [الشورى: ٤٤]، وقال تعالى: ﴿ قَالُوا رَبَّنَا أَمَتْنَا اثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا اثْنَتَيْنِ فَاعْتَرَفْنَا بِذُنُوبِنَا فَهَلْ إِلَى خُرُوجٍ مِنْ سَبِيلٍ ﴾ والآية بعدها [غافر: ١١، ١٢]، وقال تعالى: ﴿ وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَا أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ أَوْ لَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَنْ تَذَكَّرَ وَجَاءَكُمُ النَّذِيرُ فَذُوقُوا فَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ نَصِيرٍ ﴾ [فاطر: ٣٧]، فذكر تعالى أنهم يسألون الرجعة، فلا يجابون، عند الاحتضار، ويوم النشور وقت العرض على الجبار، وحين يعرضون على النار، وهم في غمرات عذاب الجحيم. وقوله هاهنا: ﴿ كَلَّا إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا ﴾ كلا: حرف ردع وزجر، أى: لا نجيبه إلى ما طلب ولا نقبل منه.

وقوله: ﴿ كَلَّا إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا ﴾: قال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: أى لا بد أن يقولها لا محالة كل محتضر ظالم. ويحتمل أن يكون ذلك علة لقوله: «كلا»، أى: لأنها كلمة، أى: سؤاله الرجوع ليعمل صالحا هو كلام منه، وقول لا عمل معه، ولو رد لما عمل صالحا، ولكان يكذب في مقالته هذه، كما قال تعالى: ﴿ وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴾. وقال قتادة: والله ما تمنى أن يرجع إلى أهل ولا إلى عشيرة، ولكن تمنى أن يرجع فيعمل بطاعة الله، فرحم الله امرأ عمل فيما يتمناه الكافر إذا رأى العذاب إلى النار. وقال أبو صالح وغيره فى قوله تعالى: ﴿ وَمِنْ وَرَائِهِمْ ﴾: يعنى: أمامهم، وقال مجاهد: البرزخ: الحاجز ما بين الدنيا والآخرة.

وفى قوله: ﴿ وَمِنْ وَرَائِهِمْ بَرْزَخٌ ﴾ تهديد لهؤلاء المحتضرين من الظلمة بعذاب البرزخ، كما قال: ﴿ مِنْ وَرَائِهِمْ جَهَنَّمُ ﴾ [الجاثية: ١٠] وقال: ﴿ وَمِنْ وَرَائِهِ عَذَابٌ غَلِيظٌ ﴾ [إبراهيم: ١٧]. وقوله: ﴿ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴾ أى: يستمر به العذاب إلى يوم البعث، كما جاء فى الحديث: «فلا يزال معدبا فيها» (١) أى: فى الأرض.

﴿ فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ فَلَا أَنْسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَاءَلُونَ ﴾ ﴿١٠١﴾ فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿١٠٢﴾ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فِي جَهَنَّمَ خَالِدُونَ ﴿١٠٣﴾ تَلْفَحُ وُجُوهُهُمُ النَّارَ وَهُمْ فِيهَا كَالِحُونَ ﴿١٠٤﴾

يخبر تعالى أنه إذا نفخ في الصور نفخة النشور، وقام الناس من القبور ﴿ فلا أنساب بينهم يومئذٍ ولا يتساءلون ﴾ أى: لا تنفع الأنساب يومئذ، ولا يرى والد لولده، ولا يلوى عليه، قال الله تعالى: ﴿ ولا يسأل حميمٌ حميماً. يُنصرونهم ﴾ [المعارج: ١٠، ١١] أى: لا يسأل القريب قريبه وهو يبصره، ولو كان عليه من الأوزار ما قد أثقل ظهره، وهو كان أعز الناس عليه فى الدنيا، ما التفت إليه ولا حمل عنه وزن جناح بعوضة، قال الله تعالى: ﴿ يومَ يقرُ المرءُ من أخيه . وأمه وأبيه . وصاحبه وبنيه ﴾ الآية [عبس: ٣٤ - ٣٦] .

وقال ابن مسعود: إذا كان يوم القيامة جمع الله الأولين والآخرين ثم نادى مناد: ألا من كان له مظلمة فليجئ فليأخذ حقه: قال: فيفرح المرء أن يكون له الحق على والده أو ولده أو زوجته وإن كان صغيراً، ومصدق ذلك فى كتاب الله: ﴿ فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ فَلَا أَنْسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَاءَلُونَ ﴾ . وروى الإمام أحمد: عن المسور - هو ابن مخزومة - قال: قال رسول الله ﷺ: فاطمة بضعة منى، يقبضنى ما يقبضها، ويسطنى ما يبسطها، وإن الأنساب تنقطع يوم القيامة غير نسبى وسببى وصهرى (١). هذا الحديث له أصل فى الصحيحين عن المسور بن مخزومة أن رسول الله ﷺ قال: «فاطمة بضعة منى، يرببى ما رابها، ويؤذنى ما آذاها» (٢).

وقوله تعالى: ﴿ فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ ﴾ أى: من رجحت حسناته على سيئاته ولو بواحدة، قاله ابن عباس ﴿ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ أى: الذين فازوا فنجوا من النار وأدخلوا الجنة. وقال ابن عباس: أولئك الذين فازوا بما طلبوا، ونجوا من شر ما منه هربوا. ﴿ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ ﴾ أى: ثقلت سيئاته على حسنات ﴿ فَأُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ ﴾ أى: خابوا وهلكوا، وباؤوا بالصفقة الخاسرة؛ ولهذا قال: ﴿ فِي جَهَنَّمَ خَالِدُونَ ﴾ أى: ماكثون، دائمون مقيمون لا يطعنون. ﴿ تَلْفَحُ وُجُوهَهُمُ النَّارَ ﴾، كما قال تعالى: ﴿ وَتَعَشَىٰ وُجُوهُهُمُ النَّارَ ﴾ [إبراهيم: ٥٠]، وقال: ﴿ لَوْ يَعْلَمُ الَّذِينَ كَفَرُوا حِينَ لَا يَكْفُونَ عَنْ وُجُوهِهِمُ النَّارَ وَلَا عَنْ ظُهُورِهِمْ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴾ [الانباء: ٣٩].

وقوله: ﴿ وَهُمْ فِيهَا كَالِحُونَ ﴾ قال ابن عباس: يعنى عابسون. وقال عبد الله بن مسعود: ﴿ وَهُمْ فِيهَا كَالِحُونَ ﴾، قال: ألم تر إلى الرأس والمشيطة الذى قد بدا أسنانه وقاصت شفتاه. وروى الإمام أحمد عن أبى سعيد الخدرى، عن النبى ﷺ قال: ﴿ وَهُمْ فِيهَا كَالِحُونَ ﴾، قال: «تشويه النار فتقلص شفته العليا حتى تبلغ وسط رأسه، وتسترخى شفته السفلى حتى تضرب سرتة» . ورواه الترمذى، وقال: حسن غريب (٣).

(١) المسند (٤ / ٣٢٣) ، والحاكم (٣ / ١٥٨) بنحوه وقال: « حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه ووافقه الذهبى » .

(٢) البخارى (٣٧١٤) ومسلم (٢٤٤٩ / ٩٣) . (٣) المسند (٣ / ٨٨) والترمذى (٣١٧٦) .

﴿ أَلَمْ تَكُنْ مِنْ آيَاتِي تُنَلِّىٰ عَلَيْكُمْ فَكُنْتُمْ بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴾ ﴿١٠٥﴾ قَالُوا رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْمًا ضَالِّينَ ﴿١٠٦﴾ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنَّا ظَالِمُونَ ﴿١٠٧﴾

هذا تقرير من الله وتوبيخ لأهل النار، على ما ارتكبه من الكفر والمآثم والمحارم والعظائم، التى أوبقتهم فى ذلك، فقال تعالى: ﴿أَلَمْ تَكُنْ مِنْ آيَاتِي تُنَلِّىٰ عَلَيْكُمْ فَكُنْتُمْ بِهَا تُكَذِّبُونَ﴾ أى: قد أرسلت إليكم الرسل، وأنزلت عليكم الكتب، وأزلت شبهكم، ولم يبق لكم حجة كما قال تعالى: ﴿لَوْلَا يَكُونُ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ﴾ [النساء: ١٦٥]، وقال تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ [الإسراء: ١٥]، وقال تعالى: ﴿كَلَّمَا أَلْقَىٰ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلْتَهُمْ خَزَنَتُهُمَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ﴾ إلى قوله: ﴿فَسُحْقًا لِأَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾ [الملك: ٨ - ١١]، ولهذا قالوا: ﴿رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْمًا ضَالِّينَ﴾ أى: قد قامت علينا الحجة، ولكن كنا أشقى من أن ننفاد لها ونتبعها، فضللنا عنها ولم نرزقها.

ثم قالوا: ﴿رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنَّا ظَالِمُونَ﴾ أى: رُدنا إلى الدار الدنيا، فإن عدنا إلى ما سلف منا، فنحن ظالمون مستحقون للعقوبة، كما قالوا: ﴿فَاعْتَرَفْنَا بِذُنُوبِنَا فَهَلْ إِلَىٰ خُرُوجٍ مِنْ سَبِيلٍ﴾ إلى قوله ﴿ذَلِكُمْ بِأَنَّهُ إِذَا دُعِيَ اللَّهُ وَحْدَهُ كَفَرْتُمْ وَإِنْ يُشْرَكَ بِهِ تُؤْمِنُوا فَالْحُكْمُ لِلَّهِ الْعَلِيِّ الْكَبِيرِ﴾ [غافر: ١١، ١٢] أى: لا سبيل إلى الخروج؛ لأنكم كنتم تشركون بالله إذا وحده المؤمنون.

﴿ قَالَ أَحْسَبُوا فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونَ ﴾ ﴿١٠٨﴾ إِنَّهُ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْ عِبَادِي يَقُولُونَ رَبَّنَا ءَأَمِنَّا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ ﴿١٠٩﴾ فَاتَّخَذْتُمُوهُمْ سِخْرِيًّا حَتَّىٰ أَنْسَوْكُمْ ذِكْرِي وَكُنْتُمْ مِنْهُمْ تَضْحَكُونَ ﴿١١٠﴾ إِنِّي جَزَيْتُهُمُ الْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوا أَنَّهُمْ هُمُ الْفَٰكِرُونَ ﴿١١١﴾

هذا جواب من الله تعالى للكفار إذا سألوا الخروج من النار والرجعة إلى هذه الدار، يقول: ﴿أَحْسَبُوا فِيهَا﴾ أى: امكثوا فيها صاغرين مهانين أذلاء ﴿وَلَا تُكَلِّمُونَ﴾ أى: لا تعودوا إلى سؤالكم هذا، فإنه لا جواب لكم عندى. قال ابن عباس: ﴿أَحْسَبُوا فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونَ﴾ قال: هذا قول الرحمن حين انقطع كلامهم منه.

ثم قال تعالى مذكراً لهم بذنوبهم فى الدنيا، وما كانوا يستهزئون بعباده المؤمنين وأوليائه، فقال: ﴿إِنَّهُ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْ عِبَادِي يَقُولُونَ رَبَّنَا ءَأَمِنَّا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ فَاتَّخَذْتُمُوهُمْ سِخْرِيًّا﴾ أى: فسخرتم منهم فى دعائهم إياى وتضرعهم إلى ﴿حَتَّىٰ أَنْسَوْكُمْ ذِكْرِي﴾ أى: حملكم بغضهم على أن نسيتم معاملتى ﴿وَكُنْتُمْ مِنْهُمْ تَضْحَكُونَ﴾ أى: من صنيعهم وعبادتهم، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ أَجْرَمُوا كَانُوا مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا يَضْحَكُونَ وَإِذَا مَرُّوا بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ﴾ [المطففين: ٢٩، ٣٠] أى: يلمزونهم استهزاء. ثم أخبر عما جازى به أوليائه وعباده الصالحين، فقال تعالى: ﴿إِنِّي جَزَيْتُهُمُ الْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوا﴾ أى: على أذاكم لهم واستهزائكم منهم ﴿أَنَّهُمْ هُمُ الْفَٰكِرُونَ﴾ بالسعادة والسلامة والجنة، والنجاة من النار.

﴿ قُلْ كَمْ لِيَشْرَ فِي الْأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ ﴿١١٦﴾ قَالُوا لَيْتَنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ فَتَشْرَى الْعَادِينَ ﴿١١٧﴾ قُلْ إِنْ لِيَشْرَ إِلَّا قَلِيلًا لَوْ أَنَّكُمْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١١٨﴾ أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنْتُمْ لَا تَرْجِعُونَ ﴿١١٩﴾ فَتَعَلَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ ﴿١٢٠﴾ ﴾

يقول تعالى منها لهم على ما أضاعوه فى عمرهم القصير فى الدنيا من طاعة الله تعالى وعبادته وحده، لو صبروا فى مدة الدنيا القصيرة لفازوا كما فاز أولياؤه المتقون، ﴿قَالَ كَمْ لِيَشْرَ فِي الْأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ﴾ أى: كم كانت إقامتكم فى الدنيا؟ ﴿قَالُوا لَيْتَنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ فَتَشْرَى الْعَادِينَ﴾ أى: الحاسبين ﴿قَالَ إِنْ لِيَشْرَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ أى: مدة يسيرة على كل تقدير ﴿لَوْ أَنَّكُمْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ أى: لما آثرتم الفانى على الباقي، ولما تصرّفتم لأنفسكم هذا التصرف السيئ، ولا استحققتم من الله سخطة فى تلك المدة اليسيرة، فلو أنكم صبرتم على طاعة الله وعبادته - كما فعل المؤمنون - لفزتم كما فازوا.

وقوله تعالى: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا﴾ أى: أفظننتم أنكم مخلوقون عبثاً بلا قصد ولا إرادة منكم ولا حكمة لنا، وقيل: للعبث، أى لتلعبوا وتعبثوا كما خلقت البهائم، لا ثواب لها ولا عقاب، وإنما خلقناكم للعبادة وإقامة أوامر الله عز وجل ﴿وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تَرْجِعُونَ﴾ أى: لا تعودون فى الدار الآخرة، كما قال تعالى: ﴿أَبَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَنْ يُتْرَكَ سُدًى﴾ [القيامة: ٣٦]، يعنى هملاً. وقوله: ﴿فَتَعَلَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ﴾ أى: تقدس أن يخلق شيئاً عبثاً، فإنه الملك الحق المنزه عن ذلك، ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ﴾، فذكر العرش؛ لأنه سقف جميع المخلوقات، ووصفه بأنه كريم، أى: حسن المنظر بهى الشكل، كما قال تعالى: ﴿فَأَنْبِئْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ﴾ [القمان: ١٠].

﴿ وَمَنْ يَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ لَا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ فَإِنَّمَا حِسَابُهُ عِنْدَ رَبِّهِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ ﴿١١٧﴾ وَقُلْ رَبِّ اغْفِرْ وَارْحَمْ وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ ﴿١١٨﴾ ﴾

يقول تعالى متوعداً من أشرك به غيره، وعبد معه سواه، ومخبراً أن من أشرك بالله ﴿لَا بُرْهَانَ لَهُ﴾ أى: لا دليل له على قوله، فقال تعالى: ﴿وَمَنْ يَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ لَا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ﴾ وهذه جملة معترضة، وجواب الشرط فى قوله: ﴿فَأِنَّمَا حِسَابُهُ عِنْدَ رَبِّهِ﴾ أى: الله يحاسبه على ذلك. ثم أخبر: ﴿إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ﴾ أى: لديه يوم القيامة، لا فلاح لهم ولا نجاة. وقوله: ﴿وَقُلْ رَبِّ اغْفِرْ وَارْحَمْ وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ﴾: هذا إرشاد من الله تعالى إلى هذا الدعاء، فالغفر - إذا أطلق - معناه: محو الذنب وستره عن الناس، والرحمة معناها: أن يسدده ويوفقه فى الأقوال والأفعال.

تفسير سورة النور

وهي مدنية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ سُوْرَةٌ أَنْزَلْنَاهَا وَفَرَضْنَاهَا وَأَنْزَلْنَا فِيهَا آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿١﴾ الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ وَلَا تَأْخُذْكُمْ بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَيْشَهِدَ عَدَايَهُمَا طَآئِفَةٌ مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٢﴾ ﴾

ربع

يقول تعالى : هذه ﴿ سُوْرَةٌ أَنْزَلْنَاهَا ﴾ فيه تنبيه على الاعتناء بها ولا ينفى ما عداها ﴿ وَفَرَضْنَاهَا ﴾ قال مجاهد وقتادة: أى : بينا الحلال والحرام ، والأمر والنهى ، والحدود ﴿ وَأَنْزَلْنَا فِيهَا آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ ﴾ أى : مفسرات واضحات ﴿ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾ .

ثم قال تعالى : ﴿ الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ ﴾ : هذه الآية الكريمة فيها حكم الزانى فى الحد ، وللعلماء فيه تفصيل ونزاع ؛ فإن الزانى لا يخلو إما أن يكون بكرًا ، وهو الذى لم يتزوج ، أو محصنا ، وهو الذى قد وطئ فى نكاح صحيح ، وهو حر بالغ عاقل . فأما إذا كان بكرًا لم يتزوج ، فإن حده مائة جلدة ، كما فى الآية ، ويزاد على ذلك أن يُغْرَبَ عاما عن بلده عند جمهور العلماء ، خلافا لأبى حنيفة ، رحمه الله ؛ فإن عنده أن التغريب إلى رأى الإمام ، إن شاء غرَّبَ وإن شاء لم يُغْرَبَ .

وحجة الجمهور فى ذلك ما ثبت فى الصحيحين عن أبى هريرة وزيد بن خالد الجهنيّ ، فى الأعرابيين اللذين أتيا رسولَ الله ﷺ ، فقال أحدهما : يا رسولَ الله ، إن ابنى كان عَسِيفًا - يعنى : أجيّرا - على هذا ، فزنى بامراته ، فافتديت ابنى منه بمائة شاة ووكيدة ، فسألت أهل العلم ، فأخبرونى أن على ابنى جلدة مائة وتغريب عام ، وأن على امرأة هذا الرجم . فقال رسول الله ﷺ : « والذى نفسى بيده ، لأقضين بينكما بكتاب الله : الوليدة والغنم ردّ عليك ، وعلى ابنك جلدُ مائة وتغريب عام . واغد يا أنيس - لرجل من أسلم - إلى امرأة هذا ، فإن اعترفت فارجمها » . فغدا عليها ، فاعترفت ، فرجمها (١) . وفى هذا دلالة على تغريب الزانى مع جلدة مائة إذا كان بكرًا لم يتزوج ، فأما إن كان محصنا فإنه يرجم ، كما روى الإمام مالك عن ابن عباس ، أن عمر ، قام فحمد الله وأثنى عليه ، ثم قال : أما بعد ، أيها الناس ، فإن الله بعث محمداً بالحق ، وأنزل عليه الكتاب ، فكان فيما أنزل عليه آية الرجم ، فقرأناها

(١) البخارى (٢٣١٤ ، ٦٦٣٣) ومسلم (١٦٩٧ ، ١٦٩٨ / ٢٥) .

وَوَعَيْنَاهَا ، وَرَجَمَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ وَرَجَمْنَا بَعْدَهُ ، فَأَخْشَى أَنْ يَطُولَ بِالنَّاسِ زَمَانٌ أَنْ يَقُولَ قَائِلٌ : لا نجد آية الرجم في كتاب الله ، فيضلوا بترك فريضة قد أنزلها الله ، فالرجم في كتاب الله حق على من زنى ، إذا أحصن ، من الرجال والنساء ، إذا قامت البينة ، أو الحبل ، أو الاعتراف . أخرجاه في الصحيحين مطولا ، وهذه قطعة منه ، فيها مقصودنا ههنا (١) .

وقد أمر رسول الله ﷺ بوجع هذه المرأة ، وهى زوجة الرجل الذى استأجر الأجير لما زنت مع الأجير . ورجم النبى ﷺ ماعزاً والغامدية . وكل هؤلاء لم يُنقل عن رسول الله ﷺ أنه جلداهم قبل الرجم . وإنما وردت الأحاديث الصَّحاح المتعددة الطرق والألفاظ ، بالاقتصار على رجمهم ، وليس فيها ذكر الجلد؛ ولهذا كان هذا مذهب جمهور العلماء ، وإليه ذهب أبو حنيفة ، ومالك ، والشافعى ، رحمهم الله . وذهب الإمام أحمد ، رحمه الله ، إلى أنه يجب أن يجمع على الزانى المحصن بين الجلد للآية ، والرجم للسنة ، كما روى عن أمير المؤمنين على بن أبى طالب ، رضى الله عنه ، أنه لما أتى بشرأحة ، وكانت قد زنت وهى مُحَصَّنَةٌ ، فجلدها يوم الخميس ، ورجمها يوم الجمعة ، ثم قال : جلدتها بكتاب الله ، ورجمها بسنة رسول الله ﷺ . وقد روى الإمام أحمد ومسلم ، وأهل السنن عن عبادة بن الصامت قال : قال رسول الله ﷺ : « خذوا عنى ، خذوا عنى ، قد جعل الله لهن سبيلا : البكر بالبكر ، جلد مائة وتغريب سنة ، والثيب بالثيب ، جلد مائة والرجم » (٢) .

وقوله : ﴿ وَلَا تَأْخُذْكُمْ بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ ﴾ أى : فى حكم الله . لا ترجموهما وترأفوا بهما فى شرع الله ، وليس المنهى عنه الرأفة الطبيعية على ترك الحد ، وإنما هى الرأفة التى تحمل الحاكم على ترك الحد ، فلا يجوز له ذلك .

قال مجاهد : ﴿ وَلَا تَأْخُذْكُمْ بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ ﴾ قال : إقامة الحدود إذا رُفعت إلى السلطان ، فتقام ولا تعطل . وكذا روى عن سعيد بن جبيرة ، وعطاء بن أبى رباح . وقيل : المراد : فلا تقيموا الحد كما ينبغى ، من شدة الضرب الزاجر عن المأثم ، وليس المراد الضرب المبرح . وقال عامر الشعبي : ﴿ وَلَا تَأْخُذْكُمْ بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ ﴾ قال : رحمة فى شدة الضرب . وقال عطاء : ضرب ليس بالمبرح . وعن عبيد الله بن عبد الله بن عمر : أن جارية لابن عمر زنت ، فضرب رجلها - قال نافع : أراه قال : وظهرها - قال : قلت : ﴿ وَلَا تَأْخُذْكُمْ بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ ﴾ ، قال : يا بنى ، ورأيتنى أخذتني بها رأفة ؟ إن الله لم يأمرنى أن أقتلها ، ولا أن أجعل جلدتها فى رأسها ، وقد أوجعت حيث ضربت .

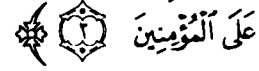
وقوله : ﴿ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ﴾ أى : فافعلوا ذلك ؛ أقيموا الحدود على من زنى ، وشددوا عليه الضرب ، ولكن ليس مبرحاً ؛ ليرتدع هو ومن يصنع مثله بذلك . وقد

(١) الموطأ (٢ / ٨٢٣) والبخارى (٦٨٢٩ ، ٦٨٣٠) ومسلم (١٦٩١ / ١٥) .

(٢) المسند (٥ / ٣١٧) ومسلم (١٦٩٠ / ١٢) وأبو داود (٤٤١٦) والترمذى (١٤٣٤) .

جاء فى المسند عن بعض الصحابة أنه قال : يا رسول الله ، إنى لأذبح الشاة وأنا أرحمها ، فقال : « ولك فى ذلك أجر » (١) . وقوله : ﴿ وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَائِفَةٌ مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ : هذا فيه تنكيل للزانيين إذا جُلِدوا بحضرة الناس ، فإن ذلك يكون أبلغ فى زجرهما ، وأنجع فى ردهما ، فإن فى ذلك تقريباً وتوبيخاً وفضيحة إذا كان الناس حضوراً . قال الحسن البصرى فى قوله : ﴿ وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَائِفَةٌ مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ يعنى : علانية . ثم قال ابن عباس : الطائفة : الرجل فما فوقه . وقال مجاهد : الطائفة : رجل إلى الألف . وكذا قال عكرمة ؛ ولهذا قال الإمام أحمد : إن الطائفة تصدق على واحد . وقال عطاء بن أبى رباح : اثنان . وقال الزهري : ثلاثة نفر فصاعداً . وقال الإمام مالك : الطائفة : أربعة نفر فصاعداً ؛ لأنه لا يكون شهادة فى الزنا دون أربعة شهداء فصاعداً . وبه قال الشافعى . وقال ربيعة : خمسة . وقال الحسن البصرى : عشرة . وقال قتادة : أمر الله أن يشهد عذابهما طائفة من المؤمنين ، أى : نفر من المسلمين ؛ ليكون ذلك موعظة وعبرة ونكالا .

﴿ الزَّانِي لَا يَنْكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَالزَّانِيَةُ لَا يَنْكِحُهَا إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ وَحُرِّمَ ذَلِكَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ ﴾



هذا خبر من الله تعالى بأن الزانى لا يطأ إلا زانية أو مشركة ، أى : لا يطاوعه على مراده من الزنا إلا زانية عاصية أو مشركة ، لا ترى حرمة ذلك ، وكذلك : ﴿ الزَّانِيَةُ لَا يَنْكِحُهَا إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ ﴾ أى : عاص بزناه ﴿ أَوْ مُشْرِكٌ ﴾ لا يعتقد تحريمه .

قال ابن عباس : ﴿ الزَّانِي لَا يَنْكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً ﴾ : ليس هذا بالنكاح ، إنما هو الجماع ، لا يبنى بها إلا زانٍ أو مشرك . وهذا إسناد صحيح عنه ، وقد روى عنه من غير وجه أيضاً . وقد روى عن مجاهد ، وعكرمة ، وسعيد بن جبيرة وغير واحد ، نحو ذلك .

وقوله تعالى : ﴿ وَحُرِّمَ ذَلِكَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ ﴾ أى : تعاطيه والتزويج بالبغايا ، أو تزويج العفائف بالفجار من الرجال . وعن ابن عباس قال : حرم الله الزنا على المؤمنين . وهذه الآية كقوله تعالى : ﴿ مُحْصَنَاتٍ غَيْرَ مُسَافِحَاتٍ وَلَا مُتَّخِذَاتِ أَخْدَانٍ ﴾ [النساء : ٢٥] ، وقوله : ﴿ مُحْصَنِينَ غَيْرَ مُسَافِحِينَ وَلَا مُتَّخِذِي أَخْدَانٍ ﴾ الآية [المائدة : ٥] . ومن ههنا ذهب الإمام أحمد بن حنبل إلى أنه لا يصح العقد من الرجل العفيف على المرأة البغى ما دامت كذلك حتى تستتاب ، فإن تاب صح العقد عليها وإلا فلا ، وكذلك لا يصح تزويج المرأة الحرة العفيفة بالرجل الفاجر المسافح ، حتى يتوب توبة صحيحة ؛ لقوله تعالى : ﴿ وَحُرِّمَ ذَلِكَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ ﴾ .

﴿ وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شَهَدَاءَ فَاجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً وَلَا تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةً أَبَدًا وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿٤﴾ إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٥﴾ ﴾

هذه الآية الكريمة فيها بيان حكم جلد القاذف للمحصنة ، وهي الحرة البالغة العفيفة ، فإذا كان المقدوف رجلا فكذلك يجلد قاذفه أيضاً ، وليس فى هذا نزاع بين العلماء . فاما إن أقام القاذف بيعة على صحة ما قاله ، ردّ عنه الحد ؛ ولهذا قال تعالى : ﴿ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شَهَدَاءَ فَاجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً وَلَا تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةً أَبَدًا وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ ، فأوجب على القاذف إذا لم يقيم بيعة على صحة ما قاله ثلاثة أحكام : أحدها : أن يجلد ثمانين جلدة . الثانى : أنه ترد شهادته دائما . الثالث : أن يكون فاسقاً ليس يعدل ، لا عند الله ولا عند الناس .

ثم قال تعالى : ﴿إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا﴾ الآية ، اختلف العلماء فى هذا الاستثناء : هل يعود إلى الجملة الأخيرة فقط فترفع التوبة الفسق فقط ، ويبقى مردود الشهادة دائما وإن تاب ، أو يعود إلى الجملتين الثانية والثالثة ؟ أما الجلد فقد ذهب وانقضى ، سواء تاب أو أصر ، ولا حكم له بعد ذلك بلا خلاف ، فذهب الإمام مالك والشافعى وأحمد بن حنبل إلى أنه إذا تاب قبلت شهادته ، وارتفع عنه حكم الفسق . ونص عليه سعيد بن المسيب وجماعة من السلف أيضاً . وقال الإمام أبو حنيفة : إنما يعود الاستثناء إلى الجملة الأخيرة فقط ، فيرتفع الفسق بالتوبة ، ويبقى مردود الشهادة أبداً . وعن ذهب إليه من السلف القاضى شريح ، وإبراهيم النخعى ، وسعيد بن جببر ، ومكحول ، وعبد الرحمن بن يزيد بن جابر . وقال الشعبى والضحاك : لا تقبل شهادته وإن تاب ، إلا أن يعترف على نفسه بأنه قد قال البهتان ، فحينئذ تقبل شهادته ، والله أعلم .

﴿ وَالَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَاجَهُمْ وَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ شَهَدَاءُ إِلَّا أَنْفُسُهُمْ فَشَهَدَةُ أَحْدِهِمْ أَرْبَعٌ شَهَدَاتٍ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّمَا لِمَنِ الصِّدْقُ ﴿٦﴾ وَالْخَمِيسَةَ أَنْ لَعْنَتُ اللَّهِ عَلَيْهِ إِنْ كَانَ مِنَ الْكَاذِبِينَ ﴿٧﴾ وَيَدْرَأُ عَنْهَا الْعَذَابَ أَنْ تَشْهَدَ أَرْبَعٌ شَهَدَاتٍ بِاللَّهِ إِنَّهُمْ لَمِنَ الْكَاذِبِينَ ﴿٨﴾ وَالْخَمِيسَةَ أَنْ غَضَبَ اللَّهِ عَلَيْهَا إِنْ كَانَ مِنَ الصِّدِّيقِينَ ﴿٩﴾ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ وَأَنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ حَكِيمٌ ﴿١٠﴾ ﴾

هذه الآية الكريمة فيها فرج للأزواج وزيادة مخرج ، إذا قذف أحدهم زوجته وتعسر عليه إقامة البيعة ، أن يلاعنها ، كما أمر الله ، عز وجل ، وهو أن يحضرها إلى الإمام ، فيدعى عليها بما رماها به ، فيحلفه الحاكم أربع شهادات بالله فى مقابلة أربعة شهداء ﴿إِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ﴾ أى : فيما رماها به من الزنا ، ﴿وَالْخَمِيسَةَ أَنْ لَعْنَتُ اللَّهِ عَلَيْهِ إِنْ كَانَ مِنَ الْكَاذِبِينَ﴾ . فإذا قال ذلك ، بانث منه بنفس هذا اللعان عند الشافعى وطائفة كثيرة من العلماء ، وحرمت عليه أبداً ،

ويعطيها مهرها ، ويتوجه عليها حد الزنا ، ولا يدرأ عنها العذاب إلا أن تلاعن ، فتشهد أربع شهادات بالله إنه لمن الكاذبين، أى: فيما رماها به ، ﴿وَالْخَامِسَةَ أَنَّ غَضَبَ اللَّهِ عَلَيْهَا إِنْ كَانَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ ولهذا قال : ﴿وَيَدْرَأُ عَنْهَا الْعَذَابَ﴾ يعنى : الحد ﴿أَنْ تَشْهَدَ أَرْبَعَ شَهَادَاتٍ بِاللَّهِ إِنَّهُ لَمِنَ الْكَاذِبِينَ . وَالْخَامِسَةَ أَنَّ غَضَبَ اللَّهِ عَلَيْهَا إِنْ كَانَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ فخصها بالغضب ، كما أن الغالب أن الرجل لا يتجشم فضيحة أهله ورميها بالزنا إلا وهو صادق معذور ، وهى تعلم صدقه فيما رماها به . ولهذا كانت الخامسة فى حقها أن غضب الله عليها . والمغضوب عليه هو الذى يعلم الحق ثم يحيد عنه .

ثم ذكر تعالى لطفه بخلقه ، ورأفته بهم ، فى شرعه لهم الفرج والمخرج من شدة ما يكون فيه من الضيق ، فقال : ﴿وَلَوْ لَا فَضَّلَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتَهُ﴾ أى : لخرجتم ولشق عليكم كثير من أموركم ، ﴿وَأَنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ﴾ أى: على عباده - وإن كان بعد الحلف والأيمان المغلظة - ﴿حَكِيمٌ﴾ فيما يشرعه ويأمر به وفيما ينهى عنه . وقد وردت الأحاديث بمقتضى العمل بهذه الآية ، وذكر سبب نزولها ، وفيمن نزلت فيه من الصحابة ، فروى الإمام أحمد عن عكرمة ، عن ابن عباس قال : لما نزلت : ﴿وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَاجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً وَلَا تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةً أَبَدًا﴾ قال سعد بن عبادة- وهو سيد الأنصار- : هكذا أنزلت يا رسول الله ؟ فقال رسول الله ﷺ : « يا معشر الأنصار، ألا تسمعون ما يقول سيدكم ؟ » قالوا : يا رسول الله ، لا تلمه فإنه رجل غيور ، والله ما تزوج امرأة قط إلا بكرًا ، وما طلق امرأة له قط فاجترأ رجل منا أن يتزوجها، من شدة غيرته . فقال سعد: والله - يا رسول الله - إنى لأعلم أنها حق، وأنها من الله ، ولكنى قد تعجبت أنى لو وجدت لكاعًا قد تفخّذها رجل ، لم يكن لى أن أهيجه ولا أحرکه حتى أتى بأربعة شهداء ، فوالله لا أتى بهم حتى يقضى حاجته . قال : فما لبثوا إلا يسيرًا حتى جاء هلال بن أمية - وهو أحد الثلاثة الذين تيب عليهم - فجاء من أرضه عشاء ، فوجد عند أهله رجلا ، فرأى بعينه، وسمع بأذنيه، فلم يهيجه حتى أصبح، فغدا على رسول الله ﷺ فقال : يا رسول الله ، إنى جئت أهلى عشاء، فوجدت عندها رجلا، فرأيت بعينى، وسمعت بأذنى . ففكر رسول الله ﷺ ما جاء به ، واشتد عليه ، واجتمعت الأنصار فقالوا : قد ابتلينا بما قال سعد بن عبادة ، الآن يضرب رسول الله ﷺ هلال بن أمية ، ويبطل شهادته فى المسلمين . فقال هلال : والله إنى لأرجو أن يجعل الله لى منها مخرجًا . وقال هلال : يا رسول الله ، إنى قد أرى ما اشتد عليك مما جئت به ، والله يعلم إنى لصادق . فوالله إن رسول الله ﷺ يريد أن يأمر بضربه ، إذا أنزل الله على رسول الله ﷺ الوحى - وكان إذا نزل عليه الوحى عرفوا ذلك، فى تربّد وجهه . يعنى : فأمسكوا عنه حتى فرغ من الوحى - فنزلت : ﴿وَالَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَاجَهُمْ وَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ شُهَدَاءُ إِلَّا أَنفُسُهُمْ فَشَهَادَةُ أَحَدِهِمْ﴾ الآية، فسرى عن رسول الله ﷺ ، فقال : « أبشر يا هلال ، قد جعل الله لك فرجًا ومخرجًا » . فقال هلال : قد كنت أرجو ذلك من ربى ، عز وجل . فقال رسول الله ﷺ : « أرسلوا إليها » . فأرسلوا إليها ، فجاءت ،

فتلاها رسول الله ﷺ عليهما ، وذكرهما وأخبرهما أن عذاب الآخرة أشد من عذاب الدنيا . فقال هلال : والله - يا رسول الله - لقد صدقتُ عليها . فقالت : كذب . فقال رسول الله ﷺ : « لا عنوا بينهما » . فقيل لهلال : اشهد . فشهد أربع شهادات بالله إنه لمن الصادقين ، فلما كان فى الخامسة قيل له : يا هلال ، اتق الله ، فإن عذاب الدنيا أهون من عذاب الآخرة ، وإن هذه الموجبة التى توجب عليك العذاب . فقال : والله لا يعذبنى الله عليها ، كما لم يجلدنى عليها . فشهد فى الخامسة أن لعنة الله عليه إن كان من الكاذبين . ثم قيل لها : اشهدى أربع شهادات بالله إنه لمن الكاذبين ، فلما كانت الخامسة قيل لها : اتقى الله ، فإن عذاب الدنيا أهون من عذاب الآخرة ، وإن هذه الموجبة التى توجب عليك العذاب . فتلكأت ساعة ، ثم قالت : والله لا أفضح قومى . فشهدت فى الخامسة أن غضب الله عليها إن كان من الصادقين . ففرق رسول الله ﷺ بينهما ، وقضى ألا يدعى ولدها لأب ولا يرمى ولدها ، ومن رماها أو رمى ولدها فعليه الحد ، وقضى ألا بيت لها عليه ولا قوت لها ، من أجل أنهما يتفرقان من غير طلاق ، ولا متوفى عنها . وقال : « إن جاءت به أصيَّب أريَّسح حمَّس الساقين فهو لهلال ، وإن جاءت به أورك جعداً جمالياً خدلج الساقين سايب الأليتين ، فهو الذى رميت به » . فجاءت به أورك جعداً جمالياً خدلج الساقين سايب الأليتين ، فقال رسول الله ﷺ : « لولا الأيمان لكان لى ولها شأن » . قال عكرمة : فكان بعد ذلك أميراً على مصر ، وكان يدعى لأمه ولا يدعى لأب . ورواه أبو داود نحوه مختصراً (١) .

ولهذا الحديث شواهد كثيرة فى الصحاح وغيرها من وجوه كثيرة ، فمنها ما روى البخارى عن ابن عباس ؛ أن هلال بن أمية قذف امرأته عند النبى ﷺ بشريك بن سحماء ، فقال النبى ﷺ : « البينة وإلا حد فى ظهرك » . فقال : يا رسول الله ، إذا رأى أحدنا على امرأته رجلاً ينطلق يلتمس البينة ؟ فجعل النبى ﷺ يقول : « البينة وإلا حد فى ظهرك » . فقال هلال : والذى بعثك بالحق إنى لصادق ، ولينزلن الله ما يُبرئ ظهرى من الحد . فنزل جبريل ، وأنزل عليه : « وَالَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَاجَهُمْ ﴾ ، فقرأ حتى بلغ : « إِنْ كَانَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴾ . فانصرف النبى ﷺ ، فأرسل إليهما ، فجاء هلال فشهد ، والنبى ﷺ يقول : « إن الله يعلم أن أحدكما كاذب ، فهل منكما تائب ؟ » ثم قامت فشهدت ، فلما كانت عند الخامسة وقَّوها وقالوا : إنها موجبة . قال ابن عباس : فتلكأت ونكصت حتى ظننا أنها ترجع ، ثم قالت : لا أفضح قومى سائر اليوم . فمضت ، فقال النبى ﷺ : « أبصروها ، فإن جاءت به أكحل العينين ، سايب الأليتين ، خدلج الساقين ، فهو لشريك بن سحماء » . فجاءت به كذلك ، فقال النبى ﷺ : « لولا ما مضى من كتاب الله ، لكان لى ولها شأن » . انفرد به البخارى من هذا الوجه (٢) .

وروى الإمام أحمد عن سعيد بن جبیر قال : سُئِلْتُ عن المتلاعنين أيفرق بينهما - فى إمارة

(١) المسند (٢١٣١) وقال الشيخ أحمد شاكر : « إسناده صحيح » وأبو داود (٢٢٥٦) .

(٢) البخارى (٤٧٤٧) .

ابن الزبير ؟ فما دَرَيْتُ ما أقول ، فقمتم من مكاني إلى منزل ابن عمر فقلتُ : يا أبا عبد الرحمن ، المتلاعنان أيفرق بينهما ؟ فقال : سبحان الله ، إن أول من سأل عن ذلك فلان بن فلان فقال : يا رسول الله ، رأيت الرجل يرى امرأته على فاحشة فإن تكلمتكم بأمر عظيم ، وإن سكت سكت على مثل ذلك . فسكت فلم يجبه ، فلما كان بعد ذلك أتاه فقال : الذي سألتك عنه قد ابتليت به . فأنزل الله تعالى هذه الآيات في سورة النور : ﴿ وَالَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَاجَهُمْ ﴾ حتى بلغ : ﴿ أَنْ غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهَا إِنْ كَانَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴾ . فبدأ بالرجل فوعظه وذكره ، وأخبره أن عذاب الدنيا أهون من عذاب الآخرة ، فقال : والذي بعثك بالحق ما كذبتك . ثم ثنى بالمرأة فوعظها وذكرها ، وأخبرها أن عذاب الدنيا أهون من عذاب الآخرة ، فقالت : والذي بعثك بالحق ، إنه لكاذب . قال : فبدأ بالرجل ، فشهد أربع شهادات بالله إنه لمن الصادقين ، والخامسة أن لعنة الله عليه إن كان من الكاذبين . ثم ثنى بالمرأة فشهدت أربع شهادات بالله إنه لمن الكاذبين ، والخامسة أن غضب الله عليها إن كان من الصادقين ، ثم فرَّق بينهما . رواه النسائي . وأخرجاه في الصحيحين (١) .

وروى الإمام أحمد عن عبد الله [بن مسعود] قال : كنا جلوساً عشية الجمعة في المسجد ، فقال رجل من الأنصار : أهدنا إذا رأى مع امرأته رجلاً إن قتلته قتلتموه ، وإن تكلم جلدتموه ، وإن سكت سكت على غيظ ؟ والله لئن أصبحت صحيحاً لأسألن رسول الله ﷺ . قال : فسأله . فقال : يا رسول الله ، إن أهدنا إذا رأى مع امرأته رجلاً إن قتلته قتلتموه ، وإن تكلم جلدتموه ، وإن سكت سكت على غيظ ؟ اللهم احكم . قال : فنزلت آية اللعان ، فكان ذلك الرجل أول من ابتلى به . انفرد بإخراجه مسلم (٢) . وروى الإمام أحمد أيضاً عن سهل بن سعد ، قال : جاء عويمر إلى عاصم بن عدى فقال : سل رسول الله ﷺ : رأيت رجلاً وجد رجلاً مع امرأته فقتله ، أيقتل به أم كيف يصنع ؟ فسأل عاصم رسول الله ﷺ ، فعاب رسول الله ﷺ المسائل . قال : فلقبه عويمر فقال : ما صنعت ؟ قال : ما صنعت ! إنك لم تأتني بخير ؛ سألت رسول الله ﷺ فعاب المسائل . فقال عويمر : والله لآتين رسول الله ﷺ فلا سأله . فاتاه فوجده قد أنزل عليه فيهما . قال : فدعا بهما فلا عن بينهما . قال عويمر : لئن انطلقتُ بها يا رسول الله لقد كذبت عليها . قال : ففارقها قبل أن يأمره رسول الله ﷺ ، فصارت سنة المتلاعنين ، فقال رسول الله ﷺ : « أبصروها ، فإن جاءت به أسحم أدعج العينين عظيم الأليتين ، فلا أراه إلا قد صدق ، وإن جاءت به أحيمر كأنه وحرّة فلا أراه إلا كاذباً » . فجاءت به على النعت المكروه . أخرجاه في الصحيحين وبقيّة الجماعة إلا الترمذى (٣) .

وروى الحافظ أبو يعلى عن أنس بن مالك ، قال : لأول لعان كان في الإسلام أن شريك

(١) المسند (٤٦٩٣) والبخارى (٥٣١٢) ومسلم (١٤٩٣ / ٤) والنسائي في الكبرى (١١٣٥٧) .

(٢) المسند (٤٠٠١) ومسلم (١٤٩٥ / ١٠) .

(٣) المسند (٣٣٤ / ٥) والبخارى (٤٧٤٥) ومسلم (١٤٩٢ / ١) وأبو داود (٢٢٤٥) .

ابن سَحْمَاءَ قَذَفَهُ هَلَالٌ بِنِ امِيَّةَ بِنِ امِيَّةَ ، فَرَفَعَهُ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : « أَرْبَعَةٌ شُهُودٌ وَإِلَّا فَحَدٌّ فِي ظَهْرِكَ » . فَقَالَ : يَا رَسُولَ اللَّهِ ، إِنْ اللَّهُ يَعْلَمُ أَنِّي لَصَادِقٌ ، وَلِيَنْزِلَنَّ اللَّهُ عَلَيْكَ مَا يَبْرِيءُ بِهِ ظَهْرِي مِنَ الْجُلْدِ . فَانزَلَ اللَّهُ آيَةَ اللِّعَانِ : ﴿ وَالَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَاجَهُمْ ﴾ إِلَى آخِرِ آيَةِ . قَالَ : فَدَعَاهُ النَّبِيُّ ﷺ فَقَالَ : « أَشْهَدُ بِاللَّهِ إِنَّكَ لَمِنَ الصَّادِقِينَ فِيمَا رَمَيْتَهَا بِهِ مِنَ الزَّانِ » فَشَهِدَ بِذَلِكَ أَرْبَعَ شَهَادَاتٍ ، ثُمَّ قَالَ لَهُ فِي الْخَامِسَةِ : « وَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَيْكَ إِنْ كُنْتَ مِنَ الْكَاذِبِينَ فِيمَا رَمَيْتَهَا بِهِ مِنَ الزَّانِ » ، فَفَعَلَ . ثُمَّ دَعَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ : « قَوْمِي فَاشْهَدُوا بِاللَّهِ إِنَّهُ لَمِنَ الْكَاذِبِينَ فِيمَا رَمَاكَ بِهِ مِنَ الزَّانِ » . فَشَهِدَتْ بِذَلِكَ أَرْبَعَ شَهَادَاتٍ ، ثُمَّ قَالَ لَهَا فِي الْخَامِسَةِ : « وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْكَ إِنْ كَانَ مِنَ الصَّادِقِينَ فِيمَا رَمَاكَ بِهِ مِنَ الزَّانِ » ، فَقَالَتْ : فَلَمَّا كَانَتْ الرَّابِعَةَ أَوْ الْخَامِسَةَ سَكَتَتْ سَكْتَةً ، حَتَّى ظَنُّوا أَنَّهَا سَتَعْتَرَفُ ، ثُمَّ قَالَتْ : لَا أَفْضَحُ قَوْمِي سَائِرَ الْيَوْمِ . فَضَمَّتْ عَلَى الْقَوْلِ ، فَفَرَّقَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بَيْنَهُمَا ، وَقَالَ : « انظُرُوا ، فَإِذَا جَاءَتْ بِهِ جَعْدًا حَمَشَ السَّاقِينَ ، فَهُوَ لِشَرِيكَ بْنِ سَحْمَاءَ ، وَإِنْ جَاءَتْ بِهِ أَيْضًا سَبَطًا ضَمِيقَ الْعَيْنِينَ فَهُوَ لَهَلَالِ بْنِ امِيَّةَ » . فَجَاءَتْ بِهِ جَعْدًا حَمَشَ السَّاقِينَ ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : « لَوْلَا مَا نَزَلَ فِيهِمَا مِنْ كِتَابِ اللَّهِ ، لَكَانَ لِي وَلِهَا شَانٌ » (١) .

﴿ إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنْكُمْ لَا نَحْسَبُهُمْ شَرًّا لَّكُمْ بَلْ هُوَ خَبِيرٌ لَّكُم لِكُلِّ أَمْرٍ مِّنْهُمْ مَا أَكْتَسَبَ مِنَ الْإِثْمِ وَالَّذِي تَوَلَّى كِبْرَهُ مِنْهُمْ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾

هذه العشر الآيات كلها نزلت في شأن عائشة أم المؤمنين ، رضى الله عنها ، حين رماها أهل الإفك والبهتان من المنافقين بما قالوه من الكذب البحت والفرية التي غار الله عز وجل لها ولنبيه ، صلوات الله وسلامه عليه ، فانزل الله تعالى براءتها صيانة لعرض الرسول ﷺ ، فقال : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنْكُمْ ﴾ أى : جماعة منكم ، يعنى : ما هو واحد ولا اثنان بل جماعة ، فكان المقدم في هذه اللعنة عبد الله بن أبى سلول رأس المنافقين ، فإنه كان يجمعه ويستوشيه ، حتى دخل ذلك في أذهان بعض المسلمين ، فتكلموا به ، وبقي الأمر كذلك قريباً من شهر ، حتى نزل القرآن ، وسياق ذلك في الأحاديث الصحيحة .

وروى الإمام أحمد عن عائشة زوج النبي ﷺ قالت : كان رسول الله ﷺ إذا أراد أن يخرج سَفَرًا أقرع بين نسائه ، فإيتهن خرج سهمها خرج بها رسول الله ﷺ معه ، قالت عائشة : فأقرع بيننا في غزوة غزاهما ، فخرج فيها سهمي ، وخرجت مع رسول الله ﷺ ، وذلك بعدما أنزل الحجاب ، فانا أحمل في هودجى وأنزل فيه ، فسرنا حتى إذا فرغ رسول الله ﷺ من غزوته تلك وقفل ودنونا من المدينة ، أذن ليلة بالرحيل ، فقمنا حين أذن بالرحيل ، فمشيت حتى جاوزت الجليش ، فلما قضيت شأني أقبلت إلى الرحل فلمست صدرى ، فإذا عقد من جَزَعِ ظَفَارٍ قد انقطع ، فرجعت فالتمست عقدى ، فحبسنى ابتغاؤه . وأقبل الرهط الذين كانوا

يرحلوننى فاحتملوا هودجى فرحلوه على بعيرى الذى كنت أركب - وهم يحسبون أنى فيه - قالت : وكان النساء إذ ذاك خفافاً لم يثقلن ولم يغشهن اللحم ، إنما يأكلن العُلقة من الطعام . فلم يستنكر القوم ثقل الهودج حين رفعوه وحملوه ، وكنت جارية حديثة السن ، فبعثوا الجمل وساروا ، ووجدت عقدى بعدما استمر الجيش ، فجئت منازلهم وليس بها داع ولا مجيب ، فتيممت منزلى الذى كنت فيه ، وظننت أن القوم سيفقدونى فيرجعون إلى . فبينما أنا جالسة فى منزلى ، غلبتنى عينى فمتم - وكان صفوان بن المعطل السلمى ثم الذكوانى قد عرس من وراء الجيش - فأدلىج فأصبح عند منزلى ، فرأى سواد إنسان نائم ، فأتانى فعرفنى حين رأتى . وقد كان رأتى قبل أن يضرّب على الحجاب ، فاستيقظت باسترجاعه حين عرفنى ، فحمرّت وجهى بجلبابى ، واللّه ما كلمنى كلمة ، ولا سمعت منه كلمة غير استرجاعه ، حتى أناخ راحلته ، فوطئ على يدها فركبها ، فانطلق يقود بى الراحلة حتى أتينا الجيش بعد ما نزلوا مؤغرين فى نحر الظهيرة . فهلك من هلك فى شائى ، وكان الذى تولى كبره عبد الله بن أبى ابن سلول . فقدمت المدينة فاشتكيت حين قدمناها شهرا ، والناس يفيضون فى قول أهل الإفك ، ولا أشعر بشيء من ذلك ، وهو يرينى فى وجعى أنى لا أرى من رسول الله ﷺ اللطف الذى كنت أرى منه حين أشتكى ، إنما يدخل رسول الله ﷺ فى سلم ، ثم يقول : « كيف تيكُم ؟ » فذلك الذى يرينى ولا أشعر بالشر ، حتى خرجت بعد ما نقيتُ وخرجت معى أم مسطح قبل المناصع - وهو متبرزنا - ولا نخرج إلا ليلا إلى ليل ، وذلك قبل أن تتخذ الكنف قريبا من بيوتنا ، وأمرنا أمر العرب الأول فى التنزه ، وكنا ننادى بالكنف أن تتخذها فى بيوتنا . فانطلقت أنا وأم مسطح - وهى ابنة أبى رهم بن المطلب بن عبد مناف ، وأمها ابنة ضخر ابن عامر ، خالة أبى بكر الصديق ، وابنها مسطح بن أثانة بن عبّاد بن المطلب - فأقبلت أنا وابنة أبى رهم قبل بيتى حين فرغنا من شأننا ، فعثرت أم مسطح فى مرطها فقالت : « تمس مسطح » . فقلت لها : بشما قلت . تسبين رجلا قد شهد بدرا ؟ قالت : أى هتاه ، ألم تسمعى ما قال ؟ قلت : وماذا قال ؟ فأخبرتني بقول أهل الإفك ، فازددت مرضاً إلى مرضى . فلما رجعت إلى بيتى دخل على رسول الله ﷺ فسلم ، ثم قال : « كيف تيكُم ؟ » فقلت له : أتأذن لى أن أتى أبوى ؟ - قالت : وأنا حينئذ أريد أن أتيقن الخبر من قبلهما - فأذن لى رسول الله ﷺ ، فجئت أبوى فقلت لأمى : يا أمّاه ، ما يتحدث الناس ؟ فقالت : أى بنية ، هوئى عليك ، فواللّه لقلما كانت امرأة قطّ وضيئة ، عند رجل يحبها ، ولها ضرائر إلا أكثرن عليها . قالت : فقلت : سبحان الله أو قد تحدث الناس بهذا ؟ قالت : فبكيك تلك الليلة حتى أصبحت ، لا يرقا لى دمع ولا أكتحل بنوم ، ثم أصبحت أبكى . فدعا رسول الله ﷺ علياً ، وأسامة بن زيد حين استلبت الوحى ، يستشيرهما فى فراق أهله ، قالت : فأما أسامة بن زيد فأشار على رسول الله ﷺ بالذى يعلم من براءة أهله ، وبالذى يعلم فى نفسه له من الود ، فقال : يا رسول الله ، هم أهلك ، ولا نعلم إلا خيرا . وأما على بن أبى طالب فقال : لم يضيّق الله

عليك ، والنساء سواها كثير ، وإن تسأل الجارية تصدقك الخبر . قالت : فدعا رسول الله ﷺ بـريرة ، فقال : « أئى بريرة ، هل رأيت من شئ يربيك من عائشة؟ » فقالت له بريرة : والذى بعثك بالحق إن رأيت عليها أمراً قط أغمصه عليها ، أكثر من أنها جارية حديثة السن ، تنام عن عجين أهلها ، فتأتى الداجن فتأكله ، فقام رسول الله ﷺ فاستعذر من عبد الله بن أبى بن سلؤل . قالت : فقال رسول الله ﷺ وهو على المنبر : « يا معشر المسلمين ، من يعذرني من رجل قد بلغنى أذاه فى أهل بيتى ، فوالله ما علمت على أهلى إلا خيراً ، ولقد ذكروا رجلاً ما علمت عليه إلا خيراً ، وما كان يدخل على أهلى إلا معى » . فقام سعد بن معاذ الأنصارى فقال : أنا أعذرک منه يا رسول الله ، إن كان من الأوس ضربنا عنقه ، وإن كان من إخواننا من الخزرج ، أمرتنا ففعلنا أمرک . قالت : فقام سعد بن عبادة - وهو سيد الخزرج ، وكان رجلاً صالحاً ، ولكن احتملته الحمية - فقال لسعد بن معاذ : لعمر الله لا تقتله ، ولا تقدر على قتله . فقام أسيد بن حضير - وهو ابن عم سعد بن معاذ - فقال لسعد بن عبادة : كذبت ! لعمر الله لنقتلنه ، فإنك منافق تجادل عن المنافقين . فتأور الحيان الأوس والخزرج حتى هموا أن يقتلوا ، ورسول الله ﷺ قائم على المنبر . فلم يزل رسول الله ﷺ يُخَفِّضُهُمْ حتى سكتوا وسكت رسول الله ﷺ ، قالت : وبكى يومى ذلك ، لا يرقأ لى دمع ، ولا أكتحل بنوم ، وأبواى يظنان أن البكاء فالتى كبدى . قالت : فبينما هما جالسان عندى وأنا أبكى ، استأذنت على امرأة من الأنصار ، فأذنت لها ، فجلست تبكى معى ، فبينما نحن على ذلك ، إذ دخل علينا رسول الله ﷺ فسلم ثم جلس - قالت : ولم يجلس عندى منذ قيل لى ما قيل ، وقد لبث شهراً لا يُوحى إليه فى شأنى شئ - قالت : فتشهد رسول الله ﷺ حين جلس ، ثم قال : أما بعد يا عائشة ، فإنه قد بلغنى عنك كذا وكذا ، فإن كنت بريئة فسيبرئك الله ، وإن كنت ألممت بذنب فاستغفرى الله ثم توبى إليه ، فإن العبد إذا اعترف بذنب ثم تاب ، تاب الله عليه . قالت : فلما قضى رسول الله ﷺ مقالته قلص دمعى حتى ما أحس منه قطرة ، فقلت لأبى : أجب عنى رسول الله ﷺ . فقال : والله ما أدرى ما أقول للرسول . فقلت لأمى : أجيبنى عنى رسول الله . فقالت : والله ما أدرى ما أقول لرسول الله . قالت : فقلت - وأنا جارية حديثة السن ، لا أحفظ كثيراً من القرآن - : إني والله لقد عرفت أنكم قد سمعتم بهذا ، حتى استقر فى أنفسكم وصدقتم به ، ولئن قلت لكم إني بريئة - والله يعلم إني بريئة - لا تصدقونى بذلك . ولئن اعترفت لكم بأمر والله عز وجل يعلم أنى بريئة تصدقونى ، وإنى والله ما أجد لى ولكم مثلاً إلا كما قال أبو يوسف : ﴿ فَصِيرٌ جَمِيلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ ﴾ [يوسف : ١٨] . قالت : ثم تحولت فاضطجعت على فراشى ، قالت : وأنا والله حينئذ أعلم أنى بريئة ، وأن الله مبرئى ببراءتى ، ولكن والله ما كنت أظن أن ينزل فى شأنى وحى يتلى ، ولشأنى كان أحقر فى نفسى من أن يتكلم الله فى بامر يتلى . ولكن كنت أرجو أن يرى رسول الله ﷺ فى النوم رؤيا يبرئنى الله بها . قالت : فوالله ما رام رسول الله ﷺ من مجلسه ، ولا خرج من أهل البيت أحد ، حتى أنزل الله على

نبيه ، فأخذه ما كان يأخذه من البرحاء عند الوحي ، حتى إنه لينحدر منه مثل الجمان من العرق في اليوم الشاتي ، من ثقل القول الذي أنزل عليه . قالت : فلما سرى عن رسول الله ﷺ وهو يضحك، كان أول كلمة تكلم بها أن قال : «أبشرى يا عائشة ، أما الله فقد برأك .» فقالت لى أمى: قومي إليه . والله لا أقوم إليه ولا أحمد إلا الله عز وجل ، هو الذى أنزل براءتى ، وأنزل الله عز وجل : ﴿إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنْكُمْ﴾ عشر آيات . فأنزل الله هذه الآيات براءتى قالت : فقال أبو بكر ، رضى الله عنه - وكان ينفق على مسطح لقرابته منه وفقره - : والله لا أنفق عليه شيئاً أبداً بعد الذى قال لعائشة . فأنزل الله عز وجل : ﴿وَلَا يَأْتَلِ أُولُو الْفَضْلِ مِنْكُمْ وَالسَّعَةِ﴾ إلى قوله : ﴿أَلَا تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ﴾ [النور : ٢٢] ، فقال أبو بكر : والله إنى لأحب أن يغفر الله لى ، فرجع إلى مسطح النفقة التى كان ينفق عليه . وقال : لا أنزعها منه أبداً . قالت عائشة : وكان رسول الله ﷺ سأل زينب بنت جحش - زوج النبى ﷺ - عن أمرى فقال: يا زينب ، ما علمت ، أو رأيت فقالت : يا رسول الله ، أحمى سمعى وبصرى ، والله ما علمت إلا خيراً . قالت عائشة : وهى التى كانت تُسامينى من أزواج النبى ﷺ ، فعصمها الله تعالى بالورع . وطفقت أختها حمنة بنت جحش تُحارب لها ، فهلكت فيمن هلك . أخرجه البخارى ومسلم فى صحيحيهما ، من حديث الزهرى (١) .

ثم روى البخارى عن عائشة ، رضى الله عنها ، قالت : لما ذُكرَ من شأنى الذى ذُكر وما علمتُ به ، قام رسولُ الله ﷺ فى خطيبا ، فتشهد فحمدَ الله وأثنى عليه بما هو أهله ، ثم قال : «أما بعد ، أشيروا علىّ فى أناس أبتوا أهلى ، وأيمُ الله ما علمت على أهلى إلا خيراً ، وما علمت على أهلى من سوء ، وأبتوهم بمنَ والله ما علمتُ عليه من سوء قط ، ولا يدخل بيتى قط إلا وأنا حاضر ، ولا غبت فى سفر إلا غاب معى .» فقام سعد بن معاذ الأنصارى فقال : يا رسول الله ائذن أن تضرب أعناقهم ، فقام رجل من الخزرج - وكانت أم حسان بنت ثابت من رهط ذلك الرجل - فقال: كذبت، أما والله لو كانوا من الأوس ما أحببت أن تضرب أعناقهم . حتى كاد أن يكون بين الأوس والخزرج شرٌّ فى المسجد ، وما علمتُ . فلما كان مساء ذلك اليوم ، خرجت لبعض حاجتى ومعى أم مسطح ، فعثرتُ فقالت: تعس مسطح ، فقلت : أى أم ، تسين ابنك ؟ فسكتت ، ثم عثرتُ الثانية فقالت : تعس مسطح . فقلت لها: أى أم ، تسين ابنك ؟ ثم عثرتُ الثالثة فقالت : تعس مسطح . فانتهرتها فقالت : والله ما أسبه إلا فيك ، فقلت : فى أى شأنى ؟ قالت : فبقرت لى الحديث . فقلت : وقد كان هذا ؟ قالت : نعم والله . فرجعتُ إلى بيتى كان الذى خرجت له لا أجد منه قليلا ولا كثيراً . ووعكت ، وقلت لرسول الله ﷺ : أرسلنى إلى بيت أبى . فأرسل معى الغلام ، فدخلتُ الدار ، فوجدت أم رومان فى السفلى ، وأبا بكر فوق البيت يقرأ ، فقالت أمى : ما جاء بك يا بنية ؟ فأخبرتها ، وذكرتُ لها الحديث ، وإذا هو لم يبلغ منها مثل ما بلغ منى ، فقالت : يا بنية ،

خَفَّفِي عَلَيْكَ الشَّانَ ؛ فَإِنَّهُ - وَاللَّهِ - لَقَلَّمَا كَانَتْ امْرَأَةٌ حَسَنَاءَ ، عِنْدَ رَجُلٍ يَجِبُهَا ، لَهَا ضُرَائِرُ إِلَّا حَسَدْنَهَا ، وَقِيلَ فِيهَا وَإِذَا هُوَ لَمْ يَبْلُغْ مِنْهَا مَا بَلَغَ مِنِّي ، فَقُلْتُ : وَقَدْ عَلِمَ بِهِ أَبِي ؟ قَالَتْ : نَعَمْ . قُلْتُ : وَرَسُولُ اللَّهِ ﷺ ؟ قَالَتْ : نَعَمْ ، وَرَسُولُ اللَّهِ ﷺ . فَاسْتَعْبَرْتُ وَبِكَيْتَ ، فَسَمِعَ أَبُو بَكْرٍ صَوْتِي ، وَهُوَ فَوْقَ الْبَيْتِ يَقْرَأُ ، فَتَزَلَّ فَقَالَ لِأُمِّي : مَا شَأْنُهَا ؟ قَالَتْ : بَلَغَهَا الَّذِي ذَكَرْنَا مِنْ شَأْنِهَا . فَفَاضَتْ عَيْنَاهُ وَقَالَ : أَقْسَمْتُ عَلَيْكَ - أَيُّ بُيُوتَةٍ - إِلَّا رَجَعْتُ إِلَى بَيْتِكَ . فَارْجَعْتُ ، وَلَقَدْ جَاءَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بَيْتِي ، فَسَأَلَ عَنِّي خَادِمَتِي ، فَقَالَتْ : لَا ، وَاللَّهِ مَا عَلِمْتُ عَلَيْهَا عَيْبًا ، إِلَّا أَنَّهُ كَانَتْ تَرْتَدُّ حَتَّى تَدْخُلَ الشَّاةُ فَتَأْكُلُ خَمِيرَهَا - أَوْ عَجِينَهَا - وَاتْتَهَرَهَا بَعْضُ أَصْحَابِهِ فَقَالَ : اصْدُقِي رَسُولَ اللَّهِ ﷺ ، حَتَّى أَسْقُطُوا لَهَا بِهِ ، فَقَالَتْ : سُبْحَانَ اللَّهِ . وَاللَّهِ مَا عَلِمْتُ عَلَيْهَا إِلَّا مَا يَعْلَمُ الصَّائِغُ عَلَى تَبْرِ الذَّهَبِ الْأَحْمَرِ . وَبَلَغَ الْأَمْرَ ذَلِكَ الرَّجُلَ الَّذِي قِيلَ لَهُ ، فَقَالَ : سُبْحَانَ اللَّهِ . وَاللَّهِ مَا كَشَفْتُ كَنَفَ أَنْثَى قَطْ - قَالَتْ عَائِشَةُ : فَقَتَلَ شَهِيدًا فِي سَبِيلِ اللَّهِ - قَالَتْ : وَأَصْبَحَ أَبُو بَكْرٍ عِنْدِي ، فَلَمْ يَزَالَا حَتَّى دَخَلَ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَقَدْ صَلَّى الْعَصْرَ ، ثُمَّ دَخَلَ وَقَدْ اِكْتَفَيْتُ أَبُو بَكْرٍ عَن يَمِينِي وَعَن شِمَالِي ، فَحَمَدَ اللَّهَ وَأَثْنَى عَلَيْهِ ، ثُمَّ قَالَ : « أَمَا بَعْدَ يَا عَائِشَةُ ، إِنْ كُنْتَ قَارِفَتْ سُوءًا أَوْ ظَلَمْتَ فَتَوْبِي إِلَى اللَّهِ ، فَإِنَّ اللَّهَ يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَن عِبَادِهِ » . قَالَتْ : وَقَدْ جَاءَتْ امْرَأَةٌ مِنَ الْأَنْصَارِ ، فَهِيَ جَالِسَةٌ بِالْبَابِ ، فَقُلْتُ : أَلَا تَسْتَحِي مِنْ هَذِهِ الْمَرْأَةِ أَنْ تَذَكَرَ شَيْئًا ؟ فَوَعَّظَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ ، فَالْتَفَتَ إِلَى أَبِي ، فَقُلْتُ لَهُ : أَجِبْهُ . قَالَ : فَمَاذَا أَقُولُ ؟ فَالْتَفَتُ إِلَى أُمِّي فَقُلْتُ : أَجِيبِيهِ . قَالَتْ : أَقُولُ مَاذَا ؟ فَلَمَّا لَمْ يَجِيبْهَا ، تَشَهَّدْتُ فَحَمَدْتُ اللَّهَ وَأَثْنَيْتُ عَلَيْهِ بِمَا هُوَ أَهْلُهُ ، ثُمَّ قُلْتُ : أَمَا بَعْدَ ، فَوَاللَّهِ لَأَنَّ قُلْتُ لَكُمْ إِنِّي لَمْ أَفْعَلْ - وَاللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ يَشْهَدُ إِنِّي لَصَادِقَةٌ - مَا ذَاكَ بِنَافِعِي عِنْدَكُمْ ، لَقَدْ تَكَلَّمْتُ بِهِ ، وَأَشْرَبْتَهُ قُلُوبَكُمْ ، وَإِنْ قُلْتُ : إِنِّي قَدْ فَعَلْتُ - وَاللَّهِ يَعْلَمُ أَنِّي لَمْ أَفْعَلْ - لَتَقُولُنَّ : قَدْ بَاءَتْ بِهِ عَلَى نَفْسِهَا ، وَإِنِّي - وَاللَّهِ - مَا أَجِدُ لِي وَلَكُمْ مِثْلًا - وَالتَّمَسْتُ اسْمَ يَعْقُوبَ فَلَمْ أَقْدِرْ عَلَيْهِ - إِلَّا أَبَا يُوسُفَ حِينَ قَالَ : « فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ » [يوسف : ١٨] ، وَأَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ ﷺ مِنْ سَاعَتِهِ ، فَسَكَنَّا ، فَرَفَعَ عَنْهُ وَإِنِّي لِأَتَّبِعُ السَّرُورَ فِي وَجْهِهِ ، وَهُوَ يَمْسَحُ جَبِينَهُ وَيَقُولُ : « أَبْشِرِي يَا عَائِشَةُ ، فَقَدْ أَنْزَلَ اللَّهُ بِرَاءَتَكَ » ، قَالَتْ : وَكُنْتُ أَشَدَّ مَا كُنْتُ غَضَبًا ، فَقَالَ لِي أَبُو بَكْرٍ : قَوْمِي إِلَيْهِ . فَقُلْتُ : لَا ، وَاللَّهِ لَا أَقُومُ إِلَيْهِ وَلَا أَحْمَدُهُ وَلَا أَحْمَدُكُمْ ، وَلَكِنْ أَحْمَدُ اللَّهَ الَّذِي أَنْزَلَ بِرَاءَتِي ، لَقَدْ سَمِعْتُمُوهُ فَمَا أَنْكَرْتُمُوهُ وَلَا غَيَّرْتُمُوهُ ، وَكَانَتْ عَائِشَةُ تَقُولُ : أَمَا زَيْنَبُ بِنْتُ جَحْشٍ فَقَدْ عَصَمَهَا اللَّهُ بِدَيْنِهَا ، فَلَمْ تَقُلْ إِلَّا خَيْرًا . وَأَمَا أُخْتُهَا حَمْنَةُ بِنْتُ جَحْشٍ ، فَهَلَكْتَ فِيمَنْ هَلَكَ . وَكَانَ الَّذِي يَتَكَلَّمُ فِيهِ مَسْطَحٌ وَحَسَانُ بْنُ ثَابِتٍ . وَأَمَا الْمُنَافِقُ عَبْدُ اللَّهِ بْنِ أَبِي بَكْرٍ سَلُولُ فَهُوَ الَّذِي كَانَ يَسْتَوْشِيهِ وَيَجْمَعُهُ ، وَهُوَ الَّذِي تَوَلَّى كِبْرَهُ مِنْهُمْ هُوَ وَحَمْنَةُ . قَالَتْ : وَحَلَفَ أَبُو بَكْرٍ أَلَّا يَنْفَعُ مَسْطَحًا بِنَافِعَةِ أَبَدًا ، فَانزَلَ اللَّهُ تَعَالَى : « وَلَا يَأْتَلِ أُولُوا الْفَضْلِ مِنْكُمْ » ، يَعْنِي : أَبَا بَكْرٍ « وَالسَّعَةِ أَنْ يُؤْتُوا أَوْلِي الْقُرْبَى وَالْمَسَاكِينَ » يَعْنِي : مَسْطَحًا ، إِلَى قَوْلِهِ : « أَلَا تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ » [النور : ٢٢] . فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ : بَلَى وَاللَّهِ يَا رَبَّنَا ،

إِنَّا لَنُحِبُّ أَنْ تَغْفِرَ لَنَا وَعَادَ لَه بِمَا كَانَ يَصْنَعُ . هَكَذَا رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ مِنْ هَذَا الْوَجْهِ مُعَلِّقًا بِصِيغَةِ الْجَزْمِ (١) . وَرَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ عَائِشَةَ قَالَتْ : لَمَّا نَزَلَ عُنْدِي قَامَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَذَكَرَ ذَلِكَ ، وَتَلَا الْقُرْآنَ ، فَلَمَّا نَزَلَ أَمَرَ بِرَجُلَيْنِ وَامْرَأَةٍ فَضْرَبُوا حُدُومَهُمْ . وَأَخْرَجَهُ أَهْلَ السَّنَنِ الْأَرْبَعَةَ ، وَقَالَ التِّرْمِذِيُّ : هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ . وَوَقَعَ عِنْدَ أَبِي دَاوُدَ تَسْمِيَتَهُمْ : حَسَانُ بْنُ ثَابِتٍ ، وَمَسْطُحُ بْنُ أَثَاثَةَ ، وَحَمْنَةُ بِنْتُ جَحْشٍ (٢) .

فهذه طرق متعددة عن أم المؤمنين عائشة، رضى الله عنها ، فى المسانيد والصحاح والسنن وغيرها . وقد روى من حديث أمها أم رومان ، رضى الله عنها ، فروى الإمام أحمد عن أم رومان قالت : بينا أنا عند عائشة ، إذ دخلت علينا امرأة من الأنصار فقالت : فعل الله - بابنها - وفعل . فقالت : ولم ؟ قالت : إنه كان فيمن حدث الحديث . قالت : وأى حديث ؟ قالت : كذا وكذا . قالت : وقد بلغ ذلك رسول الله ﷺ ؟ قالت : نعم ، وبلغ أبا بكر ؟ قالت : نعم ، فخرت عائشة ، رضى الله عنها ، مغشياً عليها ، فما أفاق إلا وعليها حمى بنافض . قالت : فقيمت فدفترتها ، قالت : وجاء النبى ﷺ فقال : « ما شأن هذه ؟ » قلت : يا رسول الله ، أخذتها حمى بنافض . قال : فلعله فى حديث تحدثت به . قالت : فاستوت له عائشة قاعدة فقالت : والله لئن حلفت لكم لا تصدقونى ، ولئن اعتذرت إليكم لا تُعذرونى ، فمثلى ومثلكم كمثلى يعقوب وبنيه حين قال « فَصَبِّرْ جَمِيلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ » [يوسف : ١٨] . قالت : فخرج رسول الله ﷺ ، وأنزل الله عذرها ، فرجع رسول الله ﷺ معه أبو بكر ، فدخل فقال : « يا عائشة ، إن الله تعالى قد أنزل عذرك » . فقالت : بحمد الله لا بحمدك . فقال لها أبو بكر : تقولين هذا لرسول الله ﷺ ؟ قالت : نعم . قالت : وكان فيمن حدث هذا الحديث رجل كان يعوله أبو بكر ، فحلف ألا يصله ، فأنزل الله : « وَلَا يَأْتِلِ أَوْلُوا الْفَضْلِ مِنْكُمْ وَالسَّعَةِ » إلى آخر الآية [النور : ٢٢] ، فقال أبو بكر : بلى . فوصله . تفرد به البخارى دون مسلم (٣) .

فقوله : «إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالْإِفْكِ» أى : بالكذب والبهت والافتراء «عُصْبَةٌ» أى : جماعة منكم «لَا تَحْسِبُوهُ شَرًّا لَكُمْ» أى : يا آل أبى بكر «بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَكُمْ» أى : فى الدنيا والآخرة ، لسان صدق فى الدنيا ورفعة منازل فى الآخرة ، وإظهار شرف لهم باعتبار الله بعائشة أم المؤمنين ، حيث أنزل الله تعالى براءتها فى القرآن العظيم الذى «لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ» [فصلت : ٤٢] ؛ ولهذا لما دخل عليها ابن عباس ، رضى الله عنه ، وهى فى سياق الموت ، قال لها : أبشرى ، فإنك زوجة رسول الله ﷺ ، وكان يحبك ، ولم يتزوج بكراً غيرك ، ونزلت براءتك من السماء (٤) .

(١) البخارى (٤٧٥٧) .

(٢) المسند (٦ / ٣٥) وأبو داود (٤٤٧٤) والترمىذى (٣١٨١) وحسنه الألبانى .

(٣) المسند (٦ / ٣٦٧) والبخارى (٤٧٥١) . (٤) البخارى (٤٧٥٣) .

وقوله : ﴿لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ مَا اكْتَسَبَ مِنَ الْإِثْمِ﴾ آى : لكل من تكلم فى هذه القضية ورمى أم المؤمنين عائشة ، رضى الله عنها ، بشيء من الفاحشة ، نصيب عظيم من العذاب ﴿وَالَّذِي تَوَلَّى كِبْرَهُ﴾ قيل : ابتداء به . وقيل : الذى كان يجمعه ويستوشيه ويذيعه ويشيعه ﴿لَهُ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ آى : على ذلك . ثم الاكثرون على أن المراد بذلك إنما هو عبد الله بن أبى ابن سؤل - قبحه الله ولعنه - وقيل : بل المراد به حسان بن ثابت ، وهو قول غريب ، ولولا أنه وقع فى صحيح البخارى ما قد يدل على ذلك لما كان لإيراده كبير فائدة ، فإنه من الصحابة الذين كان لهم فضائل ومناقب ومآثر ، وأحسن محاسنه أنه كان يذّب عن رسول الله ﷺ بشعره ، وهو الذى قال له رسول الله ﷺ : « هاجهم وجبريل معك » (١) .

﴿لَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنْفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُوا هَذَا إِفْكٌ مُّبِينٌ﴾
﴿لَوْلَا جَاءُوا عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا بِالشُّهَدَاءِ فَأُولَئِكَ عِنْدَ اللَّهِ هُمُ الْكَاذِبُونَ﴾

هذا تأديب من الله للمؤمنين فى قصة عائشة ، رضى الله عنها ، حين أفاض بعضهم فى ذلك الكلام السوء ، وما ذكر من شأن الإفك ، فقال تعالى : ﴿لَوْلَا﴾ يعنى : هلا ﴿إِذْ سَمِعْتُمُوهُ﴾ آى : ذلك الكلام الذى رميت به أم المؤمنين ﴿ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنْفُسِهِمْ خَيْرًا﴾ آى : قاسوا ذلك الكلام على أنفسهم ، فإن كان لا يليق بهم فأم المؤمنين أولى بالبراءة منه بطريق الأولى والأخرى . وقد قيل : إنها نزلت فى أبى أيوب خالد بن زيد الأنصارى وامراته ، رضى الله عنهما ، كما قال الإمام محمد ابن إسحاق ؛ أن أبى أيوب خالد بن زيد قالت له امراته أم أيوب : يا أبى أيوب ، أما تسمع ما يقول الناس فى عائشة ، رضى الله عنها ؟ قال : نعم ، وذلك الكذب . أكنت فاعلة ذلك يا أم أيوب ؟ قالت : لا ، والله ما كنت لأفعله . قال : فعائشة والله خير منك . قال : فلما نزل القرآن ذكر الله ، عز وجل ، من قال فى الفاحشة ما قال من أهل الإفك : ﴿إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِنْكُمْ﴾ [النور : ١١] ، وذلك حسان وأصحابه ، الذين قالوا ما قالوا ، ثم قال تعالى : ﴿لَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ﴾ الآية ، آى : كما قال أبو أيوب وصاحبه .

وقوله : ﴿ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ﴾ إلخ ، آى : هلا ظنوا الخير ، فإن أم المؤمنين أهله وأولى به ، هذا ما يتعلق بالباطن ﴿وَقَالُوا﴾ آى : بالسنتهم ﴿هَذَا إِفْكٌ مُّبِينٌ﴾ آى : كذب ظاهر على أم المؤمنين ، فإن الذى وقع لم يكن ريبة ، وذلك أن مجيء أم المؤمنين راجبة جهرة على راحلة صفوان بن المعطل فى وقت الظهيرة ، والجيش بكماله يشاهدون ذلك ، ورسول الله ﷺ بين أظهرهم ، لو كان هذا الأمر فيه ريبة لم يكن هذا جهرة ، ولا كانا يقدمان على مثل ذلك على رؤوس الأشهاد ، بل كان يكون هذا - لو قدر - خفية مستورا ، فتعين أن ما جاء به أهل الإفك مما رموا به أم المؤمنين هو الكذب البحت ، والقول الزور ، والرعونة الفاحشة ، والصفقة الخاسرة . قال الله تعالى :

﴿لَوْلَا﴾ أى : هلا ﴿جَاءُوا عَلَيْهِ﴾ أى : على ما قالوه ﴿بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءٍ﴾ يشهدون على صحة ما جاؤوا به ﴿فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا بِالشُّهَدَاءِ فَأَوَّلِكَ عِنْدَ اللَّهِ هُمُ الْكَاذِبُونَ﴾ أى : فى حكم الله كاذبون فاجرون .

﴿لَوْلَا فَضَّلَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ لَمَسَّكُمْ فِي مَا أَفَضْتُمْ فِيهِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ ١٤ إِذْ تَلَقَّوْنَهُ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُمْ مَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ وَتَحْسَبُونَهُ هَيِّنًا وَهُوَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمٌ﴾ ١٥

يقول تعالى : ﴿لَوْلَا فَضَّلَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ﴾ أيها الخائضون فى شأن عائشة ، بأن قبل توبتكم وإنابتكم إليه فى الدنيا ، وعفا عنكم لإيمانكم بالنسبة إلى الدار الآخرة ﴿لَمَسَّكُمْ فِي مَا أَفَضْتُمْ فِيهِ﴾ من قضية الإفك ﴿عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ . وهذا فىمن عنده إيمان يقبل الله بسببه التوبة ، كمسطح ، وحسان ، وحمئة بنت جحش . فأما من خاض فيه من المنافقين كعبد الله بن أبى ابن سلول وأضرابه ، فليس أولئك مرادين فى هذه الآية ؛ لأنه ليس عندهم من الإيمان والعمل الصالح ما يعادل هذا ولا ما يعارضه . وهكذا شأن ما يرد من الوعيد على فعل معين ، يكون مطلقاً مشروطاً بعدم التوبة ، أو ما يقابله من عمل صالح يوازئهُ أو يرجح عليه .

ثم قال تعالى : ﴿إِذْ تَلَقَّوْنَهُ بِأَلْسِنَتِكُمْ﴾ قال مجاهد ، وسعيد بن جبير : أى : يرويه بعضكم عن بعض ، يقول هذا: سمعته من فلان ، وقال فلان كذا، وذكر بعضهم كذا ﴿وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُمْ مَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ﴾ أى : تقولون ما لا تعلمون . ثم قال تعالى : ﴿وَتَحْسَبُونَهُ هَيِّنًا وَهُوَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمٌ﴾ أى : تقولون ما تقولون فى شأن أم المؤمنين، وتحسبون ذلك يسيراً، ولو لم تكن زوجة النبى ﷺ لما كان هيناً ، فكيف وهى زوجة النبى الأُمى ، خاتم الأنبياء وسيد المرسلين ، فعظيم عند الله أن يقال فى زوجة رسوله ما قيل ! الله يغار لهذا ، وهو ، سبحانه وتعالى ، لا يُقدَّر على زوجة نبى من أنبيائه ذلك، حاشا وكلاً ، ولما لم يكن ذلك ، فكيف يكون هذا فى سيدة نساء الأنبياء ، وزوجة سيد ولد آدم على الإطلاق فى الدنيا والآخرة !؟ ولهذا قال تعالى : ﴿وَتَحْسَبُونَهُ هَيِّنًا وَهُوَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمٌ﴾ ، وفى الصحيحين : «إن الرجل ليتكلم بالكلمة من سخط الله ، لا يدرى ما تبلىغ ، يهوى بها فى النار أبعد ما بين السماء والأرض» . وفى رواية : «لا يلقى لها بالاً» (١) .

﴿لَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُمْ مَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَتَكَلَّمَ بِهَذَا سُبْحَانَكَ هَذَا بُهْتَانٌ عَظِيمٌ﴾ ١٦ ﴿يَعْظَمُكُمْ اللَّهُ أَنْ تَعُودُوا لِمِثْلِهِ أَبَدًا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ ١٧ ﴿وَبَيْنَ اللَّهِ لَكُمْ آيَاتٍ﴾ ١٨

هذا تأديب آخر بعد الأول : الأمر بالظن خيراً ، أى : إذا ذكر ما لا يليق من القول فى شأن الخيرة ، فأولى ينبغى الظن بهم خيراً ، والا يشعر نفسه سوى ذلك ، ثم إن علق بنفسه

شئ من ذلك - وسوسة أو خيالاً - فلا ينبغي أن يتكلم به ، فإن رسول الله ﷺ قال : « إن الله تجاوز لأمتى عما حدثت به أنفسها ، ما لم تقل أو تعمل » . أخرجه فى الصحيحين (١) .
وقال الله تعالى : « **وَلَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُمْ مَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَتَكَلَّمَ بِهَذَا** » أى : ما ينبغي لنا أن نتفوه بهذا الكلام ولا نذكره لأحد « **سُبْحَانَكَ هَذَا بُهْتَانٌ عَظِيمٌ** » أى : سبحان الله أن يقال هذا الكلام على زوجة رسوله وحليلة خليله .

ثم قال تعالى : « **يَعِظُكُمُ اللَّهُ أَنْ تَعُودُوا لِمِثْلِهِ أَبَدًا** » أى : ينهاكم الله متوعداً أن يقع منكم ما يشبه هذا أبداً ، أى : فيما يستقبل . ولهذا قال : « **إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ** » أى : إن كنتم تؤمنون بالله وشرعه ، وتعظمون رسوله ﷺ ، فأما من كان متصفاً بالكفر فذاك له حكم آخر .

ثم قال تعالى : « **وَيُؤَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ الْآيَاتِ** » أى : يوضح لكم الأحكام الشرعية والحكم القدرية « **وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ** » أى : عليم بما يصلح عباده ، حكيم فى شرعه وقدره .

﴿ **إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَنْ تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ ءَامَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ** ﴾ (١٩)

هذا تأديب ثالث لمن سمع شيئاً من الكلام السيئ ، فقام بذهنه شئ منه ، وتكلم به ، فلا يكثر منه ولا يشيعه ويذيعه ، فقد قال تعالى : « **إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَنْ تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ ءَامَنُوا** » أى : يختارون ظهور الكلام عنهم بالقبيح « **لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا** » أى : بالحد ، وفى الآخرة بالعذاب « **وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ** » أى : فردوا الأمور إليه ترشّدوا .

﴿ **وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ وَأَنَّ اللَّهَ رءُوفٌ رَحِيمٌ** ﴾ (٢٠) ﴿ **يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا** رِيعَ لَا تَتَّبِعُوا خُطُوتَ الشَّيْطَانِ وَمَنْ يَتَّبِعْ خُطُوتَ الشَّيْطَانِ فَإِنَّهُ يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَلَكِنَّ اللَّهَ يُزَكِّي مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ (٢١)

يقول الله تعالى : « **وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ وَأَنَّ اللَّهَ رءُوفٌ رَحِيمٌ** » أى : لولا هذا لكان أمر آخر ، ولكنه تعالى رؤوف بعباده ، رحيم بهم ، فتاب على من تاب إليه من هذه القضية ، وطهر من طهر منهم بالحد الذى أقيم عليه . ثم قال تعالى : « **يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّبِعُوا خُطُوتَ الشَّيْطَانِ** » يعنى : طرائقه ومسالكه وما يأمر به « **وَمَنْ يَتَّبِعْ خُطُوتَ الشَّيْطَانِ فَإِنَّهُ يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ** » هذا تنفير وتحذير من ذلك بأفصح عبارة وأوجزها وأبلغها وأحسنها . قال ابن عباس : « **خُطُوتَ الشَّيْطَانِ** » عمله . وقال عكرمة : نزغاته . وقال قتادة : كل معصية فهى من خطوات الشيطان .

ثم قال تعالى : « **وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ أَبَدًا** » أى : لولا هو يرزق

من يشاء التوبة والرجوع إليه ، ويزكى النفوس من شركها وفجورها وفسادها وما فيها من أخلاق رديئة ، كل بحسبه ، لما حصل أحد لنفسه زكاة ولا خيرا ﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ يُزَكِّي مَن يَشَاءُ﴾ أى : من خلقه ، ويضل من يشاء ويرديه فى مهالك الضلال والغى . ﴿وَاللَّهُ سَمِيعٌ﴾ أى : سميع لأقوال عباده ﴿عَلِيمٌ﴾ بمن يستحق منهم الهدى والضلال .

﴿وَلَا يَأْتَلِ أُولُو الْفَضْلِ مِنكُمْ وَالسَّعَةِ أَن يُؤْتُوا أُولِي الْقُرْبَىٰ وَالْمَسْكِينِ وَالْمُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ ﴿١٤﴾

يقول تعالى : ﴿وَلَا يَأْتَلِ﴾ من الآلية ، وهى : الحلف ، أى : لا يحلف ﴿أُولُو الْفَضْلِ مِنكُمْ﴾ أى : الطول والصدقة والإحسان ﴿وَالسَّعَةِ﴾ أى : الجدة ﴿أَن يُؤْتُوا أُولِي الْقُرْبَىٰ وَالْمَسْكِينِ وَالْمُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ أى : لا تحلفوا ألا تصلوا قراباتكم المساكين والمهاجرين . وهذه فى غاية الترفق والعطف على صلة الأرحام ؛ ولهذا قال تعالى : ﴿وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا﴾ أى : عما تقدم منهم من الإساءة والأذى ، وهذا من حلمه تعالى وكرمه وطفه بخلقه مع ظلمهم لأنفسهم .

وهذه الآية نزلت فى الصديق ، حين حلف ألا ينفع مسطح بن أثانة بنافعة أبدا بعد ما قال فى عائشة ما قال ، كما تقدم فى الحديث . فلما أنزل الله براءة أم المؤمنين عائشة ، وطابت النفوس المؤمنة واستقرت ، وتاب الله على من كان تكلم من المؤمنين فى ذلك ، وأقيم الحد على من أقيم عليه ، شرع تبارك وتعالى ، يعطف الصديق على قريبه ونسيبه ، وهو مسطح بن أثانة ، فإنه كان ابن خالة الصديق ، وكان مسكينا لا مال له إلا ما يتفق عليه أبو بكر ، رضى الله عنه ، وكان من المهاجرين فى سبيل الله ، وقد وكنى ولقبة (١) تاب الله عليه منها ، وضرب الحد عليها . وكان الصديق ، رضى الله عنه ، معروفا بالمعروف ، له الفضل والأيدى على الأقارب والأجانب . فلما نزلت هذه الآية إلى قوله : ﴿أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ﴾ الآية ، أى : فإن الجزء من جنس العمل ، فكما تغفر ذنب من أذنب إليك يغفر الله لك ، وكما تصفح يصفح عنك . فعند ذلك قال الصديق : بلى ، والله إنا نحب أن تغفر لنا يا ربنا . ثم رجع إلى مسطح ما كان يصله من النفقة ، وقال : والله لا أنزعها منه أبدا ، فى مقابلة ما كان قال ، والله لا أنفعه بنافعة أبدا ، فلهذا كان الصديق هو الصديق رضى الله عنه وعن بنته .

﴿إِنَّ الَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ الْغَافِلَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ لُعُنُوا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ ﴿١٥﴾ يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٤﴾ يَوْمَ يُقِيمُ اللَّهُ دِينَهُمُ الْحَقَّ وَيَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ الْمُبِينُ ﴿١٥﴾

هذا وعيد من الله تعالى للذين يرمون المحصنات الغافلات المؤمنات - خرج مخرج الغالب -

فأمهات المؤمنين أولى بالدخول في هذا من كل محصنة ، ولاسيما التي كانت سبب النزول ، وهى عائشة بنت الصديق ، رضى الله عنهما . وقد أجمع العلماء ، رحمهم الله ، قاطبة على أن من سبها بعد هذا ورمأها بما رمأها به بعد هذا الذى ذكر فى هذه الآية ، فإنه كافر ؛ لأنه معاند للقرآن . وفى بقية أمهات المؤمنين قولان : أصحهما أنهن كهى ، والله أعلم .

وقوله تعالى : ﴿لُعِنُوا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ﴾ الآية ، كقوله : ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ الآية [الأحزاب : ٥٧] . وقد ذهب بعضهم إلى أنها خاصة بعائشة . وقد اختار ابن جرير عمومها ، وهو الصحيح ، ويعضد العموم ما رواه ابن أبى حاتم عن أبى هريرة ؛ أن رسول الله ﷺ قال : « اجتنبوا السبع الموبقات » . قيل : يا رسول الله ، وما هن ؟ قال : « الشرك بالله ، والسحر ، وقتل النفس التى حرم الله إلا بالحق ، وأكل الربا ، وأكل مال اليتيم ، والتولى يوم الزحف ، وقذف المحصنات الغافلات المؤمنات » . أخرجاه فى الصحيحين (١) .

وقوله : ﴿يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ عن أنس بن مالك قال : كنا عند النبي ﷺ فضحك حتى بدت نواجذهُ ، ثم قال : « أتدرون ممّ أضحك ؟ » قلنا : الله ورسوله أعلم . قال : « من مجادلة العبد ربه يوم القيامة ، يقول : يا رب ، ألم تُجِرْنِي مِنَ الظلم ؟ فيقول : بلى . فيقول : لا أجزى على شاهدًا إلا من نفسى . فيقول : كفى بنفسك اليوم عليك شهيدا ، وبالكرام عليك شهودا . فيختم على فيه ، ويقال لأركانهِ : انطقى ، فتتطق بعمله ، ثم يخلى بينه وبين الكلام ، فيقول : بُعداً لَكُنَّ وسُحُفًا ، فعنكُنَّ كنتُ أناضلُ » . وقد رواه مسلم والنسائى (٢) . وقال قتادة : ابن آدم ، والله إن عليك لشهودًا غير متهمة فى بدنك ، فراقبهم واتق الله فى سرِّك وعلانيتك ، فإنه لا يخفى عليه خافية ، الظلمة عنده ضوء ، والسر عنده علانية ، فمن استطاع أن يموت وهو بالله حسن الظن ، فليفعل ولا قوة إلا بالله .

وقوله : ﴿يَوْمَئِذٍ يُؤْفِكُهُمُ اللَّهُ دِينَهُمُ الْحَقَّ﴾ ، قال ابن عباس : أى : حسابهم ، وكل ما فى القرآن ﴿دِينَهُمُ﴾ أى : حسابهم . وكذا قال غير واحد . ثم إن قراءة الجمهور بنصب ﴿الْحَقَّ﴾ على أنه صفة لدينهم ، وقرأ مجاهد بالرفع ، على أنه نعت الجلالة . وقوله : ﴿وَيَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ الْمُبِينُ﴾ أى : وعده ووعدِهِ وحسابه هو العدل ، الذى لا جور فيه .

﴿الْخَيْثُوثُ لِلْخَيْثِثِينَ وَالْخَيْثُورُ لِلْخَيْثِثِ وَالطَّيِّبَاتُ لِلطَّيِّبِينَ وَالطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَاتِ
أُولَئِكَ مُبَرَّءُونَ مِمَّا يَقُولُونَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾

قال ابن عباس : الخيثات من القول للخيثين من الرجال ، والخيثون من الرجال للخيثات من القول . والطيبات من القول للطيبين من الرجال ، والطيبون من الرجال للطيبات

(١) البخارى (٢٧٦٦) ومسلم (١٤٥ / ٨٩) .

(٢) مسلم (٢٩٦٩ / ١٧) والنسائى فى الكبرى (١١٦٥٣) .

من القول . قال : ونزلت في عائشة وأهل الإفك . وهكذا روى عن مجاهد ، وعطاء ، وسعيد ابن جبير وغيرهم ، واختاره ابن جرير ، ووجهه بأن الكلام القبيح أولى بأهل القبح من الناس ، والكلام الطيب أولى بالطيبين من الناس ، فما نسبته أهل النفاق إلى عائشة هم أولى به ، وهى أولى بالبراءة والتزاهة منهم ؛ ولهذا قال تعالى : ﴿أُولَئِكَ مُبَرَّءُونَ مِمَّا يَقُولُونَ﴾ . وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم : الخبيثات من النساء للخبيثين من الرجال ، والخبيثون من الرجال للخبيثات من النساء ، والطيبات من النساء للطيبين من الرجال ، والطيبون من الرجال للطيبات من النساء . وهذا - أيضاً - يرجع إلى ما قاله أولئك باللازم ، أى : ما كان الله ليجعل عائشة زوجة لرسول الله ﷺ إلا وهى طيبة ؛ لأنه أطيّب من كل طيب من البشر ، ولو كانت خبيثة لما صلحت له ، لا شرعاً ولا قدراً ؛ ولهذا قال تعالى : ﴿أُولَئِكَ مُبَرَّءُونَ مِمَّا يَقُولُونَ﴾ أى : هم بُعداء عما يقوله أهل الإفك والعدوان ﴿لَهُمْ مَغْفِرَةٌ﴾ أى : بسبب ما قيل فيهم من الكذب ﴿وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ أى : عند الله فى جنات النعيم . وفيه وعد بأن تكون زوجة رسول الله ﷺ فى الجنة .

﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّى تَسْتَأْذِنُوا وَتَسَلِّمُوا عَلَىٰ أَهْلِهَا ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٧﴾ فَإِن لَّمْ تَجِدُوا فِيهَا أَحَدًا فَلَا تَدْخُلُوهَا حَتَّىٰ يُؤْذَنَ لَكُمْ وَإِن قِيلَ لَكُمْ آرْجِعُوا فَآرْجِعُوا هُوَ أَزْكَىٰ لَكُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴿٨﴾ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ مَسْكُونَةٍ فِيهَا مَتَعٌ لَّكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٩﴾﴾

هذه آداب شرعية ، أدب الله بها عباده المؤمنين ، وذلك فى الاستئذان ، أمرهم ألا يدخلوا بيوتاً غير بيوتهم حتى يستأمنوا ، أى : يستأذنون قبل الدخول ويسلموا بعده . وينبغى أن يستأذن ثلاثاً ، فإن أذن له ، وإلا انصرف ، كما ثبت فى الصحيح : أن أبا موسى حين استأذن على عمر ثلاثاً ، فلم يؤذن له ، انصرف . ثم قال عمر : ألم أسمع صوت عبد الله بن قيس يستأذن؟ ائذنوا له . فطلبوه فوجدوه قد ذهب ، فلما جاء بعد ذلك قال : ما أرجعك ؟ قال : إني استأذنت ثلاثاً فلم يؤذن لى ، وإني سمعت النبى ﷺ يقول : « إذا استأذن أحدكم ثلاثاً ، فلم يؤذن له ، فليانصرف » . فقال عمر : لَتَأْتِيَنَّ عَلَىٰ هَذَا بَيْنَهُ وَإِلَّا أوجعتك ضرباً . فذهب إلى ملا من الأنصار ، فذكر لهم ما قال عمر ، فقالوا : لا يشهد لك إلا أصغرنا . فقام معه أبو سعيد الخدرى فأخبر عمر بذلك ، فقال : الهانى عنه الصَّفْقُ بِالسَّوَابِ (١) .

ثم ليُعلم أنه ينبغى للمستأذن على أهل المنزل ألا يقف لتقاء الباب بوجهه ، ولكن ليكن الباب عن يمينه أو يساره ؛ لما رواه أبو داود عن عبد الله بن بسر ، قال : كان رسول الله ﷺ إذا أتى باب قوم ، لم يستقبل الباب من تلقاء وجهه ، ولكن من ركنه الأيمن أو الأيسر ، ويقول :

« السلام عليكم ، السلام عليكم » . وذلك أن الدور لم يكن عليها يومئذ ستور . تَفَرَّدَ به أبو داود (١) . وفي الصحيحين عن رسول الله ﷺ أنه قال : « لو أن امرأً اطّلع عليك بغير إذن فَخَذَفْتَهُ بحصاة ، ففقت عينه ، ما كان عليك من جُنَاحٍ » (٢) . وأخرج الجماعة عن جابر قال : أتيتُ النبي ﷺ في دَينٍ كان على أبي ، فدققتُ الباب ، فقال : « من ذا » ؟ قلت : أنا . قال : « أنا ، أنا » ، كأنه كرهه (٣) .

وإنما كره ذلك لأن هذه اللفظة لا يُعرَف صاحبها حتى يُفصح باسمه أو كنيته التي هو مشهور بها، وإلا ، فكل أحد يُعبر عن نفسه بـ « أنا » ، فلا يحصل بها المقصود من الاستئذان ، الذي هو الاستئناس بالمأمور به في الآية . وقد روى الإمام أحمد عن كَلْدَةَ بن الحنبل ، أن صفوان بن أمية بعثه في الفتح بِلَبِّاً وَجَدَايَةَ وَضَعَايِسَ ، والنبي ﷺ بأعلى الوادي . قال : فدخلتُ عليه ولم أسلم ولم أستأذن ، فقال النبي ﷺ : « ارجع فقل : السلام عليكم ، أَدْخَلَ ؟ » ، وذلك بعدما أسلم صفوان . ورواه أبو داود والترمذي ، وقال الترمذي : حسن غريب ، لا نعرفه إلا من حديثه (٤) .

وقال ابن عباس : ثلاث آيات جَعَدَهَا الناس : قال الله : ﴿ إِنْ أَكْرَمَكُمُ عِنْدَ اللَّهِ أَنْفَاكُمُ ﴾ [الحجرات : ١٣] ، قال : ويقولون : إن أكرمهم عند الله أعظمهم بيتاً . قال : والإذن كله قد جعده الناس . قال : قلت : استأذن على أخواتي أيتام في حجرى ، معى فى بيت واحد ؟ قال : نعم . فرددت ليرخص لى ، فأبى . قال : تحب أن تراها عريانة؟ قلت : لا . قال : فاستأذن . قال : فراجعته أيضاً ، فقال : أحب أن تطيع الله ؟ قلت : نعم . قال : فاستأذن . وقال طاووس : ما من امرأة أكره إلى أن أرى عريتها من ذات محرم . قال : وكان يشدد فى ذلك . وقال ابن مسعود : عليكم الإذن على أمهاتكم . وقال ابن جريج : قلت لعطاء : أيستأذن الرجل على امرأته ؟ قال : لا . وهذا محمول على عدم الوجوب ، وإلا فالأولى أن يعلمها بدخوله ولا يفاجئها به ، لاحتمال أن تكون على هيئة لا تحب أن يراها عليها . وروى ابن جرير عن زينب - امرأة عبد الله بن مسعود - قالت : كان عبد الله إذا جاء من حاجة فانتهى إلى الباب ، تنحنح ويزق ؛ كراهة أن يهجم منا على أمر يكرهه . إسناده صحيح .

وقال مجاهد : ﴿ حَتَّى تَسْتَأْنِسُوا ﴾ قال : تنحنحوا - أو : تَنَنَّمُوا . وعن الإمام أحمد بن حنبل ، أنه قال : إذا دخل الرجل بيته ، استحَب له أن يتنحنح ، أو يحرك نعليه . ولهذا جاء فى الصحيح عن رسول الله ﷺ : أنه نَسَى أن يطرق الرجل أهله طُروقاً - وفى رواية :

(١) أبو داود (٥١٨٦) .

(٢) البخارى (٦٩٠٢) ومسلم (٢١٥٨ / ٤٣) .

(٣) البخارى (٦٢٥٠) ومسلم (٢١٥٥ / ٣٨) وأبو داود (٥١٨٧) والترمذى (٢٧١١) .

(٤) المسند (٤١٤ / ٣) وأبو داود (٥١٧٦) والترمذى (٢٧١٠) وصححه الألبانى .

« لَيْلًا يَتَخَوَّنُهُمْ » (١) . وفي الحديث الآخر : أن رسول الله ﷺ قدم المدينة نهاراً ، فأناخ بظاهاها ، وقال : « انتظروا حتى تدخل عشاء - يعني : آخر النهار - حتى تمتشط الشعثة وتستحد المغيبة » (٢) . وقال قتادة في قوله : « حَتَّى تَسْتَأْذِنُوا » ، قال : هو الاستئذان ثلاثاً ، فمن لم يؤذن له فيهن ، فليرجع . أما الأولى : فليسمع الحى ، وأما الثانية : فليأخذوا حذرهم ، وأما الثالثة : فإن شاؤوا أذنوا وإن شاؤوا ردّوا . ولا تَقْفَنَ على باب قوم ردوك عن بابهم ؛ فإن للناس حاجات ولهم أشغال ، والله أولى بالعدر . وقال مقاتل بن حيان فى قوله : « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّى تَسْتَأْذِنُوا وَتَسَلِّمُوا عَلَى أَهْلِهَا » : كان الرجل فى الجاهلية إذا لقي صاحبه ، لا يسلم عليه ، ويقول : حَيِّتْ صَبَاحًا وَحَيِّت مَسَاءً كان ذلك تحية القوم بينهم . وكان أحدهم ينطلق إلى صاحبه فلا يستأذن حتى يقتحم ، ويقول : « قد دخلت » . فيشق ذلك على الرجل ، ولعله يكون مع أهله ، فعَبَّرَ الله ذلك كله ، فى ستر وعفة ، وجعله نقيًا نزهًا من الدنس والقذر والدرن ، فقال : « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّى تَسْتَأْذِنُوا وَتَسَلِّمُوا عَلَى أَهْلِهَا » . وهذا الذى قاله مقاتل حسن ؛ ولهذا قال : « ذَلِكَ خَيْرٌ لَّكُمْ » ، يعنى : الاستئذان خير لكم ، بمعنى : هو خير للطرفين : للمستأذن ولأهل البيت « لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ » .

وقوله : « فَإِنْ لَمْ تَجِدُوا فِيهَا أَحَدًا فَلَا تَدْخُلُوهَا حَتَّى يُؤْذَنَ لَكُمْ » : وذلك لما فيه من التصرف فى ملك الغير بغير إذنه ، فإن شاء أذن ، وإن شاء لم يأذن « وَإِنْ قِيلَ لَكُمْ ارْجِعُوا فَارْجِعُوا هُوَ أَزْكَى لَكُمْ » أى : إذا ردّوكم من الباب قبل الإذن أو بعده « فَارْجِعُوا هُوَ أَزْكَى لَكُمْ » أى : رجوعكم أزكى لكم وأظهر « وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ » . وقال قتادة : قال بعض المهاجرين : لقد طلبتُ عمري كلّه هذه الآية فما أدركتها : أن استأذن على بعض إخوانى ، فيقول لى : « ارجع » ، فأرجع وأنا مغتبط لقوله : « وَإِنْ قِيلَ لَكُمْ ارْجِعُوا فَارْجِعُوا هُوَ أَزْكَى لَكُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ » . وقال سعيد بن جبير : « وَإِنْ قِيلَ لَكُمْ ارْجِعُوا فَارْجِعُوا » أى : لا تقفوا على أبواب الناس .

وقوله : « لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ مَسْكُونَةٍ فِيهَا مَتَاعٌ لَّكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ » : هذه الآية الكريمة أخص من التى قبلها ، وذلك أنها تقتضى جواز الدخول إلى البيوت التى ليس فيها أحد ، إذا كان له فيها متاع ، بغير إذن ، كالبيت المعد للضيف ، إذا أذن له فيه أول مرة ، كفى .

وقال آخرون : هى بيوت التجار ، كالحانات ، ومنازل الأسفار ، وبيوت مكة ، وغير ذلك . واختار ذلك ابن جرير ، وحكاه عن جماعة . والأول أظهر ، والله أعلم .

﴿ قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَعْضُوا مِنْ أَبْصَرِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَلِكَ أَزْكَى لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ خَيْرٌ

بِمَا يَصْنَعُونَ ﴿٣٠﴾

(١) البخارى (٥٢٤٣ ، ٥٢٤٤) ومسلم (٧١٥ / ١٨٤) .

(٢) البخارى (٥٢٤٧) ومسلم (٧١٥ / ١٨١) .

هذا أمر من الله تعالى لعباده المؤمنين أن يغضوا من أبصارهم عما حرم عليهم ، فلا ينظروا إلا إلى ما أباح لهم النظر إليه ، وأن يغضوا أبصارهم عن المحارم ، فإن اتفق أن وقع البصر على مُحَرَّمٍ من غير قصد ، فليصرف بصره عنه سريعاً ، كما رواه مسلم عن جرير بن عبد الله البجلي قال : سألت النبي ﷺ عن نظرة الفجأة ، فأمرني أن أصرف بَصْرِي . وكذا رواه الإمام أحمد ورواه أبو داود والترمذي والنسائي ، وقال الترمذي : حسن صحيح (١) . وفى الصحيح عن أبي سعيد قال : قال رسول الله ﷺ : « إياكم والجلوس على الطرقات » . قالوا : يا رسول الله ، لا بد لنا من مجالسنا ، نتحدث فيها . فقال رسول الله ﷺ : « إن أبيتم ، فأعطوا الطريق حقَّه » . قالوا : وما حق الطريق يا رسول الله ؟ قال : « غَضُّ البصر ، وكَفُّ الأذى ، وردّ السلام ، والأمر بالمعروف ، والنهي عن المنكر » (٢) . وفى صحيح البخارى : « من يكفل لى ما بين لَحْيَيْهِ و ما بين رجليه ، أكفل له الجنة » (٣) .

ولما كان النظر داعية إلى فساد القلب ، كما قال بعض السلف : « النظر سهام سم إلى القلب » ؛ ولذلك أمر الله بحفظ الفروج كما أمر بحفظ الأبصار التى هى بواعث إلى ذلك ، فقال : ﴿ قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ﴾ . وحفظ الفرج تارة يكون بمنعه من الزنا ، كما قال : ﴿ وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَالِظُونَ . إِلَّا عَلَى أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ﴾ [المعارج : ٢٩ ، ٣٠] وتارة يكون بحفظه من النظر إليه ، كما جاء فى الحديث : « احفظ عورتك ، إلا من زوجتك أو ما ملكت يمينك » (٤) . ﴿ ذَلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ ﴾ أى : أظهر لقلوبهم وأتقى لدينهم ﴿ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴾ ، كما قال تعالى : ﴿ يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ ﴾ [غافر : ١٩] . وفى الصحيح ، عن أبى هريرة ، قال : قال رسول الله ﷺ : « كَتَبَ عَلَىٰ ابْنِ آدَمَ حَظَّهُ مِنَ الزَّانِ ، أَدْرَكَ ذَلِكَ لَا مَحَالَةَ . فَزَنَا الْعَيْنَيْنِ : النَّظْرُ ، وَزَنَا اللِّسَانِ : النَّطْقُ ، وَزَنَا الْأَذْنَيْنِ : الِاسْتِمَاعُ ، وَزَنَا الْيَدَيْنِ : الْبَطْشُ ، وَزَنَا الرَّجْلَيْنِ : الْخَطْيُ ، وَالنَّفْسُ تَمَنَّىٰ وَتَشْتَهَىٰ ، وَالْفَرْجُ يُصَدِّقُ ذَلِكَ أَوْ يُكَذِّبُهُ » . رواه البخارى تعليقاً ، ومسلم بنحو ما تقدم (٥) . وقد قال كثير من السلف : إنهم كانوا ينهون أن يحد الرجل بصره إلى الأرمدة . وقد شدّد كثير من أئمة الصوفية فى ذلك ، وحرّمه طائفة من أهل العلم ، لما فيه من الافتتان ، وشدّد آخرون فى ذلك كثيراً جداً .

(١) مسلم (٢١٥٩ / ٤٥) والمسند (٤ / ٣٦١) وأبو داود (٢١٤٨) والترمذي (٢٧٧٦) .

(٢) البخارى (٢٤٦٥) ومسلم (٢١٢١ / ١١٤) . (٣) البخارى (٦٤٧٤) .

(٤) المسند (٥ / ٣ ، ٤) ، وأبو داود (٤٠١٧) وابن ماجه (١٩٢٠) وصححه الألبانى .

(٥) البخارى (٦٣٤٣) ومسلم (٢٦٥٧ / ٢٠) .

﴿ وَقُلْ لِلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَلَا يَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَى جُيُوبِهِنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ آبَائِهِنَّ أَوْ آبَاءَ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنَاءِهِنَّ أَوْ أَبْنَاءَ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي أَخَوَاتِهِنَّ أَوْ نِسَائِهِنَّ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ أَوِ التَّابِعِينَ غَيْرَ أُولَى الْإِرْبَةِ مِنَ الرِّجَالِ أَوِ الطِّفْلِ الَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا عَلَى عَوَاتِبِ النِّسَاءِ وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِنْ زِينَتِهِنَّ وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهُ الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾

هذا أمرٌ من الله تعالى للنساء المؤمنات ، وغيره منه لأزواجهن ، عباده المؤمنين ، وتمييز لهن عن صفة نساء الجاهلية وفعال المشركات . وكان سبب نزول هذه الآية ما ذكره مقاتل بن حيان قال : بلغنا - والله أعلم - أن جابر بن عبد الله الأنصاري حدث : أن « أسماء بنت مرثدة » (١) كانت في محل لها في بنى حارثة ، فجعل النساء يدخلن عليها غير مُتزرات فيبدو ما في أرجلهن من الخلاخل ، وتبدو صدورهن وذواتهن ، فقالت أسماء : ما أقبح هذا . فأنزل الله تعالى : ﴿ وَقُلْ لِلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ ﴾ الآية .

فقوله تعالى : ﴿ وَقُلْ لِلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ ﴾ أى : عما حرمَّ الله عليهن من النظر إلى غير أزواجهن . ولهذا ذهب كثير من العلماء إلى أنه : لا يجوز للمرأة النظر إلى الرجال الأجانب بشهوة ولا بغير شهوة أصلاً . واحتج كثير منهم بما رواه أبو داود والترمذى ، عن أم سلمة : أنها كانت عند رسول الله ﷺ وميمونة ، قالت : فبينما نحن عنده أقبل ابنُ أمِّ مكتوم ، فدخل عليه ، وذلك بعدما أمرنا بالحجاب ، فقال رسول الله ﷺ : « احتجبا منه » . فقلت : يا رسول الله ، أليس هو أعمى لا يبصرنا ولا يعرفنا ؟ فقال رسول الله ﷺ : « أو عماوان أنتما؟ ألستما تبصرانه » . ثم قال الترمذى : هذا حديث حسن صحيح (٢) . وذهب آخرون من العلماء إلى جواز نظرهن إلى الأجانب بغير شهوة ، كما ثبت في الصحيح : أن رسول الله ﷺ جعلَ ينظر إلى الحبشة وهم يلعبون بحرابهم يوم العيد في المسجد ، وعائشة أم المؤمنين تنظر إليهم من ورائه : وهو يسترها منهم حتى ملَّت ورجعت (٣) .

وقوله : ﴿ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ ﴾ : قال سعيد بن جبيرة : عن الفواحش . وقال قتادة وسفيان : عما لا يحل لهن . وقال مقاتل : عن الزنا . وقال أبو العالية : كل آية أنزلت في القرآن يذكر فيها حفظ الفروج ، فهو من الزنا ، إلا هذه الآية : ﴿ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ ﴾ ألا يراها أحد . وقال تعالى : ﴿ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا ﴾ أى : ولا يُظْهَرَنَّ شيئاً من الزينة للأجانب ،

(١) في المطبوعة : « أسماء بنت مرثدة » وهو خطأ ، والصواب ما أثبتناه .

(٢) البخارى (٤٥٤) .

(٣) أبو داود (٤١١٢) والترمذى (٢٧٧٨) .

إلا ما لا يمكن إخفاؤه . قال ابن مسعود : كالرداء والثياب . وقال ابن عباس : وجهها وكفيها والخاتم . وروى عن ابن عمر ، وعطاء ، وعكرمة وغيرهم نحو ذلك . ويحتمل أن ابن عباس ومن تابعه أرادوا تفسير ما ظهر منها بالوجه والكفين ، وهذا هو المشهور عند الجمهور ، ويستأنس له بالحديث الذى رواه أبو داود فى سننه عن عائشة ، أن أسماء بنت أبى بكر دخلت على النبى ﷺ وعليها ثياب رقاق ، فأعرض عنها وقال : « يا أسماء، إن المرأة إذا بلغت المحيض لم يصلح أن يُرى منها إلا هذا » وأشار إلى وجهه وكفيه . لكن قال أبو داود: هذا. مرسل؛ خالد بن ذريك لم يسمع من عائشة (١) ، فالله أعلم.

وقوله : ﴿ وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ ﴾ يعنى : المقانع يعمل لها صَنَفَات ضاربات على صدور النساء ، لتوارى ما تحتها من صدرها وتراثبها ؛ ليخالفن شعارَ نساء أهل الجاهلية ، فإنهن لم يكن يفعلن ذلك ، بل كانت المرأة تمر بين الرجال مسفحة بصدرها ، لا يواريه شيء ، وربما أظهرت عنقها وذوائب شعرها وأقرطة آذانها . فأمر الله المؤمنات أن يستترن فى هيئاتهن وأحوالهن ، كما قال الله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لَأَزْوَاجِكُمْ وَبَنَاتِكُمْ وَنِسَاءَ الْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِنْ جَلَابِيبِهِنَّ ذَلِكَ أَدْنَىٰ أَنْ يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذَيْنَ ﴾ [الاحزاب : ٥٩] . وقال فى هذه الآية الكريمة : ﴿ وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ ﴾ والخبير : جمع خمار ، وهو ما يُخَمَّر به ، أى : يغطى به الرأس ، وهى التى تسميها الناس المقانع . قال سعيد بن جبير : ﴿ وَلْيَضْرِبْنَ ﴾ : وليشددن ﴿ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ ﴾ يعنى : على النحر والصدر، فلا يرى منه شيء . وروى البخارى عن عائشة ، قالت : يرحم الله نساء المهاجرات الأول ، لما أنزل الله : ﴿ وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ ﴾ شَقَقْنَ مَرُوطِهِنَّ فاختمرن بها (٢) .

وروى أيضا عن عائشة أنها كانت تقول : لما نزلت هذه الآية : ﴿ وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ ﴾ أخذن أزهرن فَشَقَقْنَهَا من قبل الخواشى ، فاختمرن بها (٣) .

وقوله تعالى : ﴿ وَلَا يُدْنِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ ﴾ يعنى : أزواجهن ﴿ أَوْ آبَائِهِنَّ أَوْ آبَاءَ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنَائِهِنَّ أَوْ أَبْنَاءَ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي أَخَوَاتِهِنَّ ﴾ كل هؤلاء محارم المرأة يجوز لها أن تظهر عليهم بزيتها ، ولكن من غير اقتصاد وتبهرج . وقال عكرمة فى هذه الآية : ﴿ وَلَا يُدْنِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ آبَائِهِنَّ أَوْ آبَاءَ بُعُولَتِهِنَّ ﴾ - حتى فرغ منها قال : لم يذكر العم ولا الخال؛ لأنهما ينعتان لأبنائهما ، ولا تضع خمارها عند العم والخال فأما الزوج فإنما ذلك كله من أجله ، فتتضع له ما لا يكون بحضرة غيره .

(١) أبو داود (٤١٠٤) . قلت : والحديث قد قواه البيهقى (٢ / ٢٢٦ ، ٧ / ٨٦) ، وقد جرى العمل عليه من النساء فى عهد النبى ﷺ ، حيث كن يكشفن عن وجوههن وأيديهن بحضرتة ﷺ ولا ينكر ذلك عليهن وفى ذلك عدة أحاديث . بتصرف عن : حجاب المرأة المسلمة لفضيلة الشيخ الالبانى ، وقد أفاد وأجاد فى التدليل على هذا . فليراجع .

(٣) البخارى (٤٧٥٩) .

(٢) البخارى (٤٧٥٨) .

وقوله : ﴿ أَوْ نِسَائِهِنَّ ﴾ يعني : تُظْهَرُ زَيْتُهَا أَيْضًا لِلنِّسَاءِ الْمُسْلِمَاتِ دُونَ نِسَاءِ أَهْلِ الذِّمَّةِ ؛ لثَلَا تَصْفِهْنَ لِرَجَالِهِنَّ ، وَذَلِكَ - وَإِنْ كَانَ مَحْذُورًا فِي جَمِيعِ النِّسَاءِ - إِلَّا أَنَّهُ فِي نِسَاءِ أَهْلِ الذِّمَّةِ أَشَدُّ ، فَإِنَّهُنَّ لَا يَمْنَعُهُنَّ مِنْ ذَلِكَ مَانِعٌ ، وَأَمَّا الْمُسْلِمَةُ فَإِنَّهَا تَعْلَمُ أَنَّ ذَلِكَ حَرَامٌ فَتَنْزَجِرُ عَنْهُ . وَقَدْ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : « لَا تَبَاشِرِ الْمَرْأَةَ الْمَرْأَةَ ، تَنْتَعَتْهُ لَزُوجِهَا كَأَنَّهُ يَنْظُرُ إِلَيْهَا » . أَخْرَجَاهُ فِي الصَّحِيحِينَ (١) .

وقوله تعالى : ﴿ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ ﴾ يعني : مِنْ نِسَاءِ الْمُشْرِكِينَ ، فَيَجُوزُ لَهَا أَنْ تَظْهَرَ زَيْتُهَا لَهَا وَإِنْ كَانَتْ مُشْرِكَةً ؛ لِأَنَّهَا أُمَّتُهَا . وَإِلَيْهِ ذَهَبَ سَعِيدُ بْنُ الْمُسَيَّبِ . وَقَالَ الْكَثْرُونَ : بَلْ يَجُوزُ لَهَا أَنْ تَظْهَرَ عَلَى رَقِيقِهَا مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ ، وَاسْتَدَلُّوا بِالْحَدِيثِ الَّذِي رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ عَنْ أَنَسٍ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ أَتَى فَاطِمَةَ بَعْدَ قَدْ وَهَبَهَا . قَالَ : وَعَلَى فَاطِمَةَ ثَوْبٌ إِذَا قَنَعَتْ بِهِ رَأْسَهَا لَمْ يَبْلُغْ رَجْلَيْهَا ، وَإِذَا غَطَّتْ بِهِ رَجْلَيْهَا لَمْ يَبْلُغْ رَأْسَهَا ، فَلَمَّا رَأَى النَّبِيُّ ﷺ مَا تَلْقَى قَالَ : « إِنَّهُ لَيْسَ عَلَيْكَ بَأْسٌ ، إِنَّمَا هُوَ أَبُوكَ وَغَلَامُكَ » (٢) .

وقوله تعالى : ﴿ أَوْ التَّابِعِينَ غَيْرِ أَوْلِيِ الْإِرْبَةِ مِنَ الرِّجَالِ ﴾ يعني : كَالْأَجْرَاءِ وَالْآتِبَاعِ الَّذِينَ لَيْسُوا بِأَكْفَاءٍ ، وَهَمَّ مَعَ ذَلِكَ فِي عَقُولِهِمْ وَكَلَهُ وَخَوَّثَ ، وَلَا هَمَّ لَهُمْ إِلَى النِّسَاءِ وَلَا يَشْتَهَوْنَهُنَّ . قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ : هُوَ الْمَغْفَلُ الَّذِي لَا شَهْوَةَ لَهُ . وَقَالَ مُجَاهِدٌ : هُوَ الْأَبْلَهُ . وَفِي الصَّحِيحِ عَنْ عَائِشَةَ ؛ أَنَّ مَخْتَنًا كَانَ يَدْخُلُ عَلَى أَهْلِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ ، وَكَانُوا يَعُدُّونَهُ مِنْ غَيْرِ أَوْلِيِ الْإِرْبَةِ ، فَدَخَلَ النَّبِيُّ ﷺ وَهُوَ يَنْعَتُ امْرَأَةً : إِنَّهَا إِذَا أَقْبَلَتْ أَقْبَلْتُ بِأَرْبَعٍ ، وَإِذَا أَدْبَرَتْ أَدْبَرْتُ بِثَمَانٍ . فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : « أَلَا أَرَى هَذَا يَعْلَمُ مَا هَاهُنَا ، لَا يَدْخُلُنَّ عَلَيْكُنَّ » فَأَخْرَجَهُ ، فَكَانَ بِالْبَيْدَاءِ يَدْخُلُ يَوْمَ كُلِّ جُمُعَةٍ يَسْتَطْعِمُ (٣) . وَرَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ أُمِّ سَلْمَةَ أَنَّهَا قَالَتْ : دَخَلَ عَلَيْهَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَعِنْدَهَا مَخْنَثٌ ، وَعِنْدَهَا عَبْدُ اللَّهِ بْنُ أَبِي أُمِيَّةٍ يَعْنِي أَخَاهَا ، وَالْمَخْنَثُ يَقُولُ : يَا عَبْدَ اللَّهِ ، إِنْ فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ الطَّائِفَ غَدًا ، فَعَلَيْكَ بِابْنَةِ غِيلَانَ ، فَإِنَّهَا تَقْبَلُ بِأَرْبَعٍ وَتَدْبِرُ بِثَمَانٍ . قَالَ : فَسَمِعَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ لِأُمِّ سَلْمَةَ : « لَا يَدْخُلُنَّ هَذَا عَلَيْكَ » . أَخْرَجَاهُ فِي الصَّحِيحِينَ (٤) . وَرَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ عَائِشَةَ ، قَالَتْ : كَانَ رَجُلٌ يَدْخُلُ عَلَى أَزْوَاجِ النَّبِيِّ ﷺ مَخْنَثٌ ، وَكَانُوا يَعُدُّونَهُ مِنْ غَيْرِ أَوْلِيِ الْإِرْبَةِ ، فَدَخَلَ النَّبِيُّ ﷺ يَوْمًا وَهُوَ عِنْدَ بَعْضِ نِسَائِهِ ، وَهُوَ يَنْعَتُ امْرَأَةً . فَقَالَ : إِنَّهَا إِذَا أَقْبَلَتْ أَقْبَلْتُ بِأَرْبَعٍ ، وَإِذَا أَدْبَرَتْ أَدْبَرْتُ بِثَمَانٍ . فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ : « أَلَا أَرَى هَذَا يَعْلَمُ مَا هَاهُنَا ؟ لَا يَدْخُلُنَّ عَلَيْكُمْ هَذَا » ، فَحَجَّبُوهُ . وَرَوَاهُ مُسْلِمٌ ، وَأَبُو دَاوُدَ ، وَالنَّسَائِيُّ (٥) .

وقوله : ﴿ أَوْ الطِّفْلِ الَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا عَلَى عَوْرَاتِ النِّسَاءِ ﴾ يعني : لِصَغَرِهِمْ لَا يَفْهَمُونَ أَحْوَالَ

(١) البخارى (٥٢٤١) ولم يعزه صاحب التحفة (٧ / ٤٠) لمسلم .

(٢) أبو داود (٤١٠٦) وصححه الألبانى . (٣) مسلم (٢١٨١ / ٣٣) .

(٤) المسند (٦ / ٢٩٠) والبخارى (٥٨٨٧) ومسلم (٢١٨٠ / ٣٢) .

(٥) المسند (٦ / ١٥٢) ومسلم (٢١٨١ / ٣٣) وأبو داود (٤١٠٨) .

النساء وعوراتهن من كلامهن الرخيم ، وتعطفهن في المشية وحركاتهن ، فإذا كان الطفل صغيراً لا يفهم ذلك ، فلا بأس بدخوله على النساء . فاما إن كان مراهقاً أو قريباً منه ، بحيث يعرف ذلك ويدريه ، ويفرق بين الشوهاء والحسنة ، فلا يمكن من الدخول على النساء . وقد ثبت في الصحيحين عن رسول الله ﷺ أنه قال : « إياكم والدخول على النساء » . قيل : يا رسول الله ، أفرأيت الحموم؟ قال : « الحموم الموت » (١) .

وقوله تعالى : ﴿ وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ ﴾ الآية : كانت المرأة في الجاهلية إذا كانت تمشي في الطريق وفي رجلها خلخال صامت - لا يعلم صوته - ضربت برجلها الأرض ، فيسمع الرجال طنينه ، فنهى الله المؤمنات عن مثل ذلك . وكذلك إذا كان شيء من زيتها مستوراً ، فتحركت بحركة لتظهر ما هو خفي ، دخل في هذا النهي ؛ لقوله تعالى : ﴿ وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ ﴾ إلى آخره . ومن ذلك أيضاً أنها تنهى عن التعطر والتطيب عند خروجها من بيتها فيشم الرجال طيبها ، فقد روى أبو عيسى الترمذى عن أبي موسى ، عن النبي ﷺ قال : « كل عين زانية ، والمرأة إذا استعطرت فمرت بالمجلس فهي كذا وكذا » يعنى زانية . قال : وفي الباب عن أبي هريرة ، وهذا حسن صحيح . رواه أبو داود والنسائي (٢) . وقوله : ﴿ وَتَوْبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعاً أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ أى : افعلوا ما أمركم به من هذه الصفات الجميلة والأخلاق الجليلة ، واتركوا ما كان عليه أهل الجاهلية من الأخلاق والصفات الرذيلة ، فإن الفلاح كل الفلاح فى فعل ما أمر الله به ورسوله ، وترك ما نهى عنه ، والله تعالى هو المستعان .

﴿ وَأَنكِحُوا الْأَيْمَىٰ مِنكُمْ وَالصَّالِحِينَ مِن عِبَادِكُمْ وَإِمَائِكُمْ إِن يَكُونُوا فُقَرَاءَ يُغْنِهِمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴾ (٢٤) **وَلَيْسَتَعَفِيفِ الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا حَتَّىٰ يُغْنِيَهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ وَالَّذِينَ يَبْتَغُونَ الْكُتُبَ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ فَكَاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا وَآتُوهُمْ مِّن مَّالِ اللَّهِ الَّذِي آتَاكُمْ وَلَا تُكْرِهُوا فَتِنَةَ اللَّهِ عَلَى الْبِغَاءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا لِّبَتْنَعُوا عَرْضَ الْحَيَوةِ الدُّنْيَا وَمَن يُكْرِهِنَّ فَإِنَّ اللَّهَ مِن بَعْدِ إِكْرَاهِهِنَّ غَفُورٌ رَّحِيمٌ** (٢٥) **وَلَقَدْ أَنزَلْنَا إِلَيْكُمْ آيَاتٍ مُّبِينَاتٍ وَمَثَلًا لِّلَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِكُمْ وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ** (٢٦)

اشتملت هذه الآيات الكريمات المبينة على جمل من الأحكام المحكمة ، والأوامر المبرمة ، فقوله تعالى : ﴿ وَأَنكِحُوا الْأَيْمَىٰ مِنكُمْ ﴾ إلى آخره : هذا أمر بالتزويج . وقد ذهب طائفة من العلماء إلى وجوبه ، على كل من قدر عليه . واحتجوا بظاهر قوله ﷺ : « يا معشر الشباب ، من استطاع منكم الباءة فليتزوج ، فإنه أغض للبصر ، وأحصن للفرج ، ومن لم يستطع فعليه

(١) البخارى (٥٢٣٢) ومسلم (٢١٧٢ / ٢٠) .

(٢) الترمذى (٢٧٨٦) وأبو داود (٤١٧٣) والنسائي (٥١٢٦) ، وصححه الألبانى .

بالصوم، فإنه له وجاء . أخرجاه (١) . الأياى: جمع أيم ، ويقال ذلك للمرأة التى لا زوج لها ، وللرجل الذى لا زوجة له . وسواء كان قد تزوج ثم فارق ، أو لم يتزوج واحد منهما .

وقوله تعالى : ﴿ إِنْ يَكُونُوا فُقَرَاءَ يُغْنِهِمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴾ قال ابن عباس : رغبتهم الله فى التزويج ، وأمر به الأحرار والعبيد ، ووعدهم عليه الغنى ، فقال : ﴿ إِنْ يَكُونُوا فُقَرَاءَ يُغْنِهِمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ ﴾ . وعن ابن مسعود : التمسوا الغنى فى النكاح ، يقول الله تعالى : ﴿ إِنْ يَكُونُوا فُقَرَاءَ يُغْنِهِمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ ﴾ . وعن أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « ثلاثة حق على الله عونهم : الناكح يريد العفاف ، والمكاتب يريد الأداء ، والغازى فى سبيل الله » . رواه الإمام أحمد ، والترمذى ، والنسائى ، وابن ماجه (٢) .

وقوله : ﴿ وَتَسْتَعْفِفِ الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا حَتَّى يُغْنِيَهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ ﴾ : هذا أمر من الله تعالى لمن لا يجد تزويجاً بالتعفف عن الحرام ، كما قال ﷺ : « يا معشر الشباب ، من استطاع منكم الباءة فليتزوج ، فإنه أغض للبصر ، وأحصن للفرج . ومن لم يستطع فعليه بالصوم فإنه له وجاء » . وهذه الآية مطلقة ، والتى فى سورة النساء أخص منها ، وهى قوله تعالى : ﴿ وَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ مِنْكُمْ طَوْلًا أَنْ يَنْكَحَ الْمُحْصَنَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ فَمَنْ مَأْمَلَكُمْ مِنْ قِيَاتِكُمُ الْمُؤْمِنَاتِ ﴾ ، إلى أن قال : ﴿ ذَلِكَ لِمَنْ خَشِيَ الْعَنَتَ مِنْكُمْ وَأَنْ تَصْبِرُوا خَيْرٌ لَكُمْ ﴾ [النساء : ٢٥] ، أى صبركم عن تزويج الإمام خير ؛ لأن الولد يجيء رقيقاً ﴿ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ .

وقوله : ﴿ وَالَّذِينَ يَبْتِغُونَ الْكِتَابَ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ فَكَاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا ﴾ : هذا أمر من الله تعالى للسادة إذا طلب منهم عبيدهم الكتابة أن يكتبوا ، بشرط أن يكون للعبد حيلة وكسب يؤدى إلى سيده المال الذى شارطه على أدائه . وقد ذهب كثير من العلماء إلى أن هذا الأمر أمر إرشاد واستحباب ، لا أمر تحتم وإيجاب ، بل السيد مخير ، إذا طلب منه عبده الكتابة إن شاء كاتبه ، وإن شاء لم يكتبه . وذهب آخرون إلى أنه يجب على السيد إذا طلب منه عبده ذلك ، أن يجيبه إلى ما طلب ؛ أخذاً بظاهر هذا الأمر . وقال ابن وهب : قال مالك : الأمر عندنا أن ليس على سيد العبد أن يكتبه إذا سأله ذلك ، ولم أسمع أحداً من الأئمة أكره أحداً على أن يكتب عبده . قال مالك : وإنما ذلك أمر من الله ، وإذن منه للناس ، وليس بواجب . وكذا قال الثورى ، وأبو حنيفة ، وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم ، وغيرهم . واختار ابن جرير قول الوجوب لظاهر الآية .

وقوله : ﴿ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا ﴾ قال بعضهم : أمانة . وقال بعضهم : صدقا . وقال بعضهم : مالا . وقال بعضهم : حيلة وكسب . وقوله : ﴿ وَأَتَوْهُمْ مِنْ مَالِ اللَّهِ الَّذِي آتَاكُمْ ﴾ اختلف المفسرون فيه ، فقال قائلون : معناه : اطرحوا لهم من الكتابة بعضها ، ثم قال بعضهم :

(١) البخارى (٥٠٦٦) ومسلم (١٤٠٠ / ١) .

(٢) المسند (٢ / ٢٥١) والترمذى (١٦٥٥) والنسائى (٣٢١٨) وابن ماجه (٢٥١٨) وحسنه الألبانى .

مقدار الربع . وقيل : الثلث . وقيل : النصف . وقيل : جزء من الكتابة من غير واحد . وقال آخرون : بل المراد من قوله : ﴿ وَأَتَوْهُمْ مِنْ مَالِ اللَّهِ الَّذِي آتَاكُمْ ﴾ : هو النصيب الذى فرض الله لهم من أموال الزكوات . وهذا قول الحسن ، وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم ، وأبيه ، ومقاتل واختاره ابن جرير .

وقوله : ﴿ وَلَا تُكْرَهُوا قِيَاتِكُمْ عَلَى الْبِغَاءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا لِيَبْتِغُوا عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ﴾ الآية : كان أهل الجاهلية إذا كان لأحدهم أمة ، أرسلها تزنى ، وجعل عليها ضريبة يأخذها منها كل وقت . فلما جاء الإسلام ، نهى الله المسلمين عن ذلك . وكان سبب نزول هذه الآية الكريمة - فيما ذكره غير واحد من المفسرين ، من السلف والخلف - فى شأن عبد الله بن أبى بن سلول المنافق ، فإنه كان له إماء ، فكان يكرهن على البغاء طلباً لخراجهن ، ورغبة فى أولادهن ، ورياسة منه فيما يزعم . قال السدى : أنزلت هذه الآية الكريمة فى عبد الله بن أبى ابن سلول رأس المنافقين ، وكانت له جارية تدعى معاذة ، وكان إذا نزل به ضيف أرسلها إليه ليواقعها ، إرادة الثواب منه والكرامة له . فاقبلت الجارية إلى أبى بكر ، رضى الله عنه ، فشكت إليه ذلك ، فذكره أبو بكر للنبي ﷺ ، فأمره بقبضها . فصاح عبد الله بن أبى : من يعذرنى من محمد ، يغلبنا على ملوكتنا ؟ فأنزل الله فيهم هذا .

وقوله : ﴿ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا ﴾ : هذا خرج مخرج الغالب ، فلا مفهوم له . وقوله : ﴿ لِيَبْتِغُوا عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ﴾ أى : من خراجهن ومهورهن وأولادهن . وقد نهى رسول الله ﷺ عن كسب الحجام ، ومهر البغى ، وحلوان الكاهن (١) . وقوله : ﴿ وَمَنْ يُكْرِهِنَّ فَإِنَّ اللَّهَ مِنْ بَعْدِ إِكْرَاهِهِنَّ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ أى : لهن ، وقال ابن عباس : فإن فعلتم فإن الله لهن غفور رحيم ، وإثمهن على من أكرههن . وفى الحديث عن رسول الله ﷺ أنه قال : « رُفِعَ عَنْ أُمَّتِي الْخَطَأُ وَالنِّسْيَانُ ، وَمَا اسْتَكْرَهُوا عَلَيْهِ » (٢) .

ولما فصل تعالى هذه الأحكام وبينها قال : ﴿ وَلَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ آيَاتٍ مُبَيِّنَاتٍ ﴾ يعنى : القرآن فيه آيات واضحة مفسرات ﴿ وَمَثَلًا مِنَ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ ﴾ أى : خبراً عن الأمم الماضية ، وما حل بهم فى مخالفتهم أوامر الله تعالى ، كما قال تعالى : ﴿ فَجَعَلْنَاهُمْ سَلَفًا وَمَثَلًا لِّلْآخِرِينَ ﴾ [الزخرف : ٥٦] . ﴿ وَمَوْعِظَةً ﴾ أى : زاجراً عن ارتكاب المآثم والمحارم ﴿ لِّلْمُتَّقِينَ ﴾ أى : لمن اتقى الله وخافه .

(١) البخارى (٢٢٣٧) ومسلم (١٥٦٧ / ٣٩) .

(٢) ابن ماجه (٢٠٤٣) وصححه الألبانى .

﴿ اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ مِثْلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِنْ شَجَرَةٍ مُبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ نُورٌ عَلَى نُورٍ يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَلَ لِلنَّاسِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾

قال ابن عباس : ﴿ اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ يقول : هادى أهل السموات والأرض . قال مجاهد وابن عباس فى قوله : ﴿ اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ : يدبر الأمر فيهما ، نجومهما وشمسهما وقمرهما . وقال أنس بن مالك : إن إلهى يقول : نورى هداى . واختار هذا القول ابن جرير . وقال السدى فى قوله : ﴿ اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ : فبنوره أضاءت السموات والأرض . وفى الصحيحين عن ابن عباس : كان رسول الله ﷺ إذا قام من الليل يقول : « اللهم لك الحمد ، أنت قيم السموات والأرض ومن فيهن ، ولك الحمد ، أنت نور السموات والأرض ومن فيهن » الحديث (١) .

وقوله : ﴿ مِثْلُ نُورِهِ ﴾ : فى هذا الضمير قولان : أحدهما : أنه عائد إلى الله ، عز وجل ، أى : مثل هداه فى قلب المؤمن ، قاله ابن عباس ﴿ كَمِشْكَاةٍ ﴾ . والثانى : أن الضمير عائد إلى المؤمن الذى دل عليه سياق الكلام : تقديره : مثل نور المؤمن الذى فى قلبه كمشكاة . فشبّه قلب المؤمن وما هو مفطور عليه من الهدى ، وما يتلقاه من القرآن المطابق لما هو مفطور عليه ، كما قال تعالى : ﴿ أَمَّنْ كَانَ عَلَىٰ بَيْتِهِ مِن رَّبِّهِ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِّنْهُ ﴾ [هود : ١٧] ، فشبّه قلب المؤمن فى صفاته فى نفسه بالقنديل من الزجاج الشفاف الجوهرى ، وما يستهديه من القرآن والشرع بالزيت الجيد الصافى المشرق المعتدل ، الذى لا كدر فيه ولا انحراف .

فقوله : ﴿ كَمِشْكَاةٍ ﴾ : قال ابن عباس وغير واحد : هو موضع الفتيلة من القنديل . هذا هو المشهور ؛ ولهذا قال بعده : ﴿ فِيهَا مِصْبَاحٌ ﴾ ، وهو الذبالة التى تضىء ﴿ الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ ﴾ أى : هذا الضوء مشرق فى زجاجة صافية . قال أبى بن كعب وغير واحد : وهى نظير قلب المؤمن ﴿ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ ﴾ من الدر ، أى : كأنها كوكب من در . قال أبى بن كعب : كوكب مضىء . وقال قتادة : مضىء مبین ضخم . ﴿ يُوقَدُ مِنْ شَجَرَةٍ مُّبَارَكَةٍ ﴾ أى : يستمد من زيت زيتون شجرة مباركة ﴿ زَيْتُونَةٍ ﴾ بدل أو عطف بيان ﴿ لَا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ ﴾ أى : ليست فى شرقى بقعتها فلا تصل إليها الشمس من أول النهار ، ولا فى غربها فيتقلّب عنها الفىء قبل الغروب ، بل هى فى مكان وسط ، تفرّعه الشمس من أول النهار إلى آخره ، فيجىء زيتها معتدلا صافيا مشرقا . وقال ابن عباس فى قوله : ﴿ زَيْتُونَةٍ لَا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ ﴾ قال : شجرة بالصحراء ، لا يظلمها جبل ولا شجر ولا كهف ، ولا يوارىها شىء ، وهو أجود لزيتها . وقال السدى :

ليست بشرقية يحوزها المشرق ، ولا غربية يحوزها المغرب دون المشرق ، ولكنها على رأس جبل ، أو فى صحراء ، تصيبها الشمس النهار كله . وقيل : المراد بقوله : ﴿ زَيْتُونَةٌ لَا شَرْقِيَّةٌ وَلَا غَرْبِيَّةٌ ﴾ : إنها فى وسط الشجر ، وليست بادية للمشرق ولا للمغرب . وأولى هذه الأقوال القول الأول ، وهو أنها فى مستوى من الأرض ، فى مكان فسيح بارز ظاهر ضاح للشمس ، تفرعه من أول النهار إلى آخره ، ليكون ذلك أصفى لزيبتها وألطف ، كما قال غير واحد ممن تقدم ؛ ولهذا قال : ﴿ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ ﴾ . قال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم : يعنى : لضوء إشراق الزيت .

وقوله : ﴿ نُورٌ عَلَى نُورٍ ﴾ قال ابن عباس : يعنى بذلك إيمان العبد وعمله . وقال مجاهد ، والسدى : يعنى نور النار ونور الزيت . وقال أبى بن كعب : ﴿ نُورٌ عَلَى نُورٍ ﴾ : فهو يتقلب فى خمسة من النور ، فكلامه نور ، وعمله نور ، ومدخله نور ، ومخرجه نور ، ومصيره إلى النور يوم القيامة إلى الجنة . وقال السدى فى قوله : ﴿ نُورٌ عَلَى نُورٍ ﴾ قال : نور النار ونور الزيت ، حين اجتماعا أعضاء ، ولا يضىء واحد بغير صاحبه ، كذلك نور القرآن ونور الإيمان حين اجتماعا ، فلا يكون واحد منهما إلا بصاحبه . ﴿ يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَن يَشَاءُ ﴾ أى : يرشد الله إلى هدايته من يختاره ﴿ وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ : لما ذكر تعالى هذا مثلا لنور هداة فى قلب المؤمن ، ختم الآية بقوله : ﴿ وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ أى : هو أعلم بمن يستحق الهداية ممن يستحق الإضلال . روى الإمام أحمد عن أبى سعيد الخدرى قال : قال رسول الله ﷺ : « القلوب أربعة : قلب أجرد فيه مثل السراج يزهر ، وقلب أغلف مربوط على غلافه ، وقلب منكوس ، وقلب مُصْفَحٌ : فأما القلب الأجرد فقلب المؤمن ، سراج فيه نوره . وأما القلب الأغلف فقلب الكافر . وأما القلب المنكوس فقلب المنافق ، عَرَفَ ثم أنكر . وأما القلب المُصْفَحُ فقلب فيه إيمان ونفاق ، ومثل الإيمان فيه كمثل البقلة يمدّها الماء الطيب ، ومثل النفاق فيه كمثل القرحة يمدّها القيح والدم ، فأى المدين غلبت على الأخرى غلبت عليه . »

إسناد جيد ولم يخرجوه (١) .

﴿ فِي بُيُوتٍ أُذِنَ لِلَّهِ أَنْ تَرْفَعَ وَيَذْكَرَ فِيهَا أَسْمُهُ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ
 رِجَالٌ لَا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ يَخَافُونَ يَوْمًا
 تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ ﴾ (١٧) لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِ
 وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ (١٨)

لما ضرب الله تعالى مثل قلب المؤمن ، وما فيه من الهدى والعلم ، بالمصباح فى الزجاجاة الصافية المتوقد من زيت طيب ، وذلك كالقنديل ، ذكر محلها وهى المساجد ، التى هى أحب

البقاء إلى الله تعالى من الأرض ، وهى بيوتها التى يعبد فيها ويوحّد ، فقال : ﴿ فِي بُيُوتٍ أُذِنَ لِلَّهِ أَنْ تَرْفَعَ ﴾ أى : أمر الله تعالى بتعاهدتها وتطهيرها من الدنس واللغو ، والأفعال والأقوال التى لا تليق فيها ، كما قال ابن عباس فى هذه الآية الكريمة: نهى الله سبحانه عن اللغو فيها. وكذا قال عكرمة ، وأبو صالح ، والضحاك ، وغيرهم من علماء المفسرين . وقال قتادة : هى هذه المساجد ، أمر الله ، سبحانه ، ببنائها وعمارتها ورفعها وتطهيرها .

وقد وردت أحاديث كثيرة فى بناء المساجد ، واحترامها وتوقيرها ، وتطيبها وتبخيرها . وذلك له محل مفرد يذكر فيه ، وقد كتبت فى ذلك جزءاً على حدة ، ولله الحمد والمنة . ونحن بعون الله تعالى نذكر هاهنا طرفاً من ذلك ، إن شاء الله تعالى ، وبه الثقة وعليه التكلان : فعن أمير المؤمنين عثمان بن عفان ، قال : سمعتُ رسول الله ﷺ يقول : « من بنى مسجداً يبتغى به وجه الله ، بنى الله له مثله فى الجنة » . أخرجاه فى الصحيحين (١) .

وعن بُرَيْدَةَ أَنَّ رَجُلًا أَشَدَّ فِي الْمَسْجِدِ ، فَقَالَ : مَنْ دَعَا إِلَى الْجَمَلِ الْأَحْمَرِ ؟ فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ : « لَا وَجِدْتُ ، إِنَّمَا بُنِيَ الْمَسَاجِدُ لِمَا بُنِيَ لَهُ » . رواه مسلم (٢) . وعن عمرو بن شعيب ، عن أبيه ، عن جده قال : نهى رسول الله ﷺ عن البيع والابتاع ، وعن تناشد الأشعار فى المساجد . رواه أحمد وأهل السنن ، وقال الترمذى : حسن (٣) . وعن أبى هريرة ، رضى الله عنه ، أن رسول الله ﷺ قال : « إِذَا رَأَيْتُمْ مِنْ يَبِيعُ أَوْ يَبْتَاغُ فِي الْمَسْجِدِ ، فَقُولُوا : لَا أُرِيحُ اللَّهَ تِجَارَتِكَ . وَإِذَا رَأَيْتُمْ مِنْ يَنْشُدُ ضَالَّةً فِي الْمَسْجِدِ ، فَقُولُوا : لَا رَدَّ اللَّهُ عَلَيْكَ » . رواه الترمذى ، وقال : حسن غريب (٤) .

وأما أنه لا يشهر فيه سلاح ، ولا ينبض فيه بقوس ، ولا ينثر فيه نبل ، فلما يخشى من إصابة بعض الناس به ، لكثرة المصلين فيه ؛ ولهذا أمر رسول الله ﷺ إذا مر أحد بسهام أن يقبض على نصالها ؛ لئلا يؤذى أحداً ، كما ثبت فى الصحيح (٥) . وأما أنه لا يتخذ سوقاً ، فلما تقدم من النهى عن البيع والشراء فيه ، فإنه إنما بنى لذكر الله والصلاة كما قال النبى ، عليه الصلاة والسلام ، لذلك الأعرابى الذى بال فى طائفة المسجد: « إن المساجد لم تبن لهذا ، إنما بنيت لذكر الله والصلاة فيها » . ثم أمر بسجّل من ماء ، فأهريق على بوله (٦) .

وروى البخارى عن السائب بن يزيد الكندى قال: كنت قائماً فى المسجد ، فحصبنى رجل ، فنظرت فإذا عمر بن الخطاب ، فقال : اذهب فائتنى بهذين . فجثته بهما ، فقال : من أنتما ؟ أو : من أين أنتما ؟ قالوا : من أهل الطائف . قال : لو كتتما من أهل البلد لأوجعتكما . ترفعان أصواتكما فى مسجد رسول الله ﷺ (٧) . وقد ثبت فى الصحيحين عن رسول الله ﷺ

(١) البخارى (٤٥٠) ومسلم (٥٣٣ / ٢٤) . (٢) مسلم (٥٦٩ / ٨٠) .

(٣) المسند (٦٦٧٦) وقال الشيخ أحمد شاكر : « إسناده صحيح » وأبو داود (٤٤٩) والترمذى (٣٢٢) .

(٤) الترمذى (١٣٢١) وصححه الألبانى . (٥) مسلم (٢٦١٥ / ١٢٤) .

(٦) مسلم (٢٨٤ / ١٠٠) . (٧) البخارى (٤٧٠) .

أنه قال : « صلاة الرجل فى الجماعة تُصَعَّف على صلاته فى بيته وفى سوقة ، خمساً وعشرين ضعفاً . وذلك أنه إذا توضأ فأحسن وضوءه ، ثم خرج إلى المسجد ، لا يخرجها إلا الصلاة ، لم يخطُ خطوة إلا رُفِع له بها درجة ، وحطَّ عنه بها خطيئته ، فإذا صلى لم تنزل الملائكة تصلى عليه ما دام فى مُصلَّاه : اللهم صل عليه ، اللهم ارحمه ، ولا يزال فى صلاة ما انتظر الصلاة » (١) .

وروى مسلم عن أبى حميد - أو : أبى أسيد - قال : قال رسول الله ﷺ : « إذا دخل أحدكم المسجد فليقل : اللهم افتح لى أبواب رحمتك ، وإذا خرج فليقل : اللهم إنى أسألك من فضلك » . ورواه النسائى (٢) . وعن أبى هريرة ، قال : قال رسول الله ﷺ : « إذا دخل أحدكم المسجد ، فليسلم على النبى ﷺ وليقل : اللهم افتح لى أبواب رحمتك . وإذا خرج فليسلم على النبى ﷺ وليقل : اللهم اعصمنى من الشيطان الرجيم » . ورواه ابن ماجه ، وابن خزيمة وابن حبان فى صحيحهما (٣) . فهذا الذى ذكرناه ، مع ما تركناه من الأحاديث الواردة فى ذلك كله محاذرة الطول داخل فى قوله تعالى : ﴿ فِي بُيُوتٍ أُذِنَ اللَّهُ أَنْ تُرْفَعَ ﴾ .

وقوله : ﴿ وَيُذَكَّرَ فِيهَا اسْمُهُ ﴾ أى : اسم الله ، كقوله : ﴿ يَا بَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ ﴾ [الأعراف : ٣١] ، وقوله : ﴿ وَأَقِيمُوا وُجُوهَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ ﴾ [الأعراف : ٢٩] ، وقوله : ﴿ وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا ﴾ [الجن : ١٨] . قال ابن عباس : ﴿ وَيُذَكَّرَ فِيهَا اسْمُهُ ﴾ يعنى : يتلى فيها كتابه .

وقوله تعالى : ﴿ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ ﴾ أى : فى البُكرات والعشيَّات . والآصال : جمع أصيل ، وهو آخر النهار . وقال سعيد بن جبیر ، عن ابن عباس : كل تسبيح فى القرآن هو الصلاة . وقال ابن عباس : يعنى بالغدو : صلاة الغداة ، ويعنى بالآصال : صلاة العصر ، وهما أول ما افترض الله من الصلاة ، فأحب أن يذكُرهما وأن يُذَكَّرَ بهما عباده . وكذا قال الحسن ، والضحاك : ﴿ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ ﴾ يعنى : الصلاة . فقوله : ﴿ رِجَالٌ ﴾ فيه إشعار بهمهم السامية ، ونياتهم وعزائمهم العالية ، التى بها صاروا عمَّاراً للمساجد ، التى هى بيوت الله فى أرضه ، ومواطن عبادته وشكره ، وتوحيده وتنزيهه ، كما قال تعالى : ﴿ مِنْ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ ﴾ [الأحزاب : ٢٣] .

فأما النساء فصَلَّاتهن فى بيوتهن أفضل لهن ؛ لما رواه أبو داود ، عن عبد الله بن مسعود عن النبى ﷺ قال : « صلاة المرأة فى بيتها أفضل من صلاتها فى حجرتها ، وصلاتها فى مخدعها أفضل من صلاتها فى بيتها » (٤) . هذا ويجوز لها شهود جماعة الرجال ، بشرط ألا تؤذى أحدًا من الرجال بظهور زينة ولا ريح طيب ، كما ثبت فى الصحيحين عن عبد الله بن

(١) البخارى (٦٤٧) ومسلم (٦٤٩ / ٢٧٢) .

(٢) مسلم (٧١٣ / ٦٨) والنسائى (٧٢٩) .

(٣) ابن ماجه (٧٧٣) وابن خزيمة (٤٥٢) وابن حبان (٢٠٤٨ إحصان) وصححه الألبانى .

(٤) أبو داود (٥٧٠) وصححه الألبانى .

عمر أنه قال : قال رسول الله ﷺ : « لا تمنعوا إماء الله مساجد الله ». رواه البخارى ومسلم (١) ،
ولأحمد وأبى داود : « بيوتهن خير لهن » (٢) ، وفى رواية : « وليخرجن وهن ثقلات » (٣)
أى : لا ربح لهن .

وقد ثبت فى صحيح مسلم ، عن زينب - امرأة ابن مسعود - قالت : قال لنا رسول الله ﷺ :
« إذا شهدت إحداكن المسجد فلا تمس طيباً » (٤) . وفى الصحيحين عن عائشة ، أنها
قالت : كان نساء المؤمنين يشهدن الفجر مع رسول الله ﷺ ، ثم يرجعن متلفعات بمروطهن ،
ما يعرفن من الغلَس (٥) . وفى الصحيحين أيضاً عنها أنها قالت : لو أدرك رسول الله ﷺ ما
أحدث النساء لمنعهن المساجد ، كما منعت نساء بنى إسرائيل (٦) .

وقوله : ﴿ رِجَالٌ لَا تُلْهِيمُ تِجَارَةً وَلَا بَيْعًا عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ ﴾ ، كقوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا
تُلْهِكُمْ أَمْوَالِكُمْ وَلَا أَوْلَادِكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ ﴾ الآية [المنافقون : ٩] ، وقوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا
نُودِيَ لِلصَّلَاةِ مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ وَذَرُوا الْبَيْعَ ﴾ الآية [الجمعة : ٩] .

يقول تعالى : لا تشغلهم الدنيا وزخرفها وزينتها وملاذ بيعها وريحها ، عن ذكر ربهم
الذى هو خالقهم ورازقهم ، والذين يعلمون أن الذى عنده هو خير لهم وأنفع مما بأيديهم ؛
لأن ما عندهم ينفد وما عند الله باق ؛ ولهذا قال : ﴿ لَا تُلْهِيمُ تِجَارَةً وَلَا بَيْعًا عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ
الصَّلَاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ ﴾ أى : يقدمون طاعته ومُرادَه ومحبته على مرادهم ومحبتهم . عن عبد الله بن
عمر ، أنه كان فى السوق فأقيمت الصلاة ، فأغلقوا حوانيتهم ودخلوا المسجد ، فقال ابن عمر :
فيهم نزلت : ﴿ رِجَالٌ لَا تُلْهِيمُ تِجَارَةً وَلَا بَيْعًا عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ ﴾ . وقال عمرو بن دينار الأعور : كنت
مع سالم بن عبد الله ونحن نريد المسجد ، فمرنا بسوق المدينة وقد قاموا إلى الصلاة وخمروا
متاعهم ، فنظر سالم إلى أمتعتهم ليس معها أحد ، فتلا سالم هذه الآية : ﴿ رِجَالٌ لَا تُلْهِيمُ
تِجَارَةً وَلَا بَيْعًا عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ ﴾ ، ثم قال : هم هؤلاء . وقال ابن عباس : ﴿ لَا تُلْهِيمُ تِجَارَةً وَلَا بَيْعًا عَنْ
ذِكْرِ اللَّهِ ﴾ يقول : عن الصلاة المكتوبة . وقال السُّدِّي : عن الصلاة فى جماعة .

وقوله : ﴿ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ ﴾ أى : يوم القيامة الذى تتقلب فيه القلوب
والأبصار ، أى : من شدة الفزع وعظمة الأهوال ، كما قال تعالى : ﴿ وَأَنْذَرْتَهُمْ يَوْمَ الْآزِفَةِ إِذِ
الْقُلُوبُ لَدَى النَّحَّاجِرِ كَاطْمِينٍ ﴾ [غافر : ١٨] ، وقال تعالى : ﴿ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ ﴾
[إبراهيم : ٤٢] ، وقال تعالى : ﴿ وَيُطْعَمُونَ الطَّعَامَ عَلَىٰ حَيْثُ مَسْكِنَاتِهِمْ وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا . إِنَّمَا نَنْعَمُكُمْ لَوَجْهِ اللَّهِ لَا
نُرِيدُ مِنْكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكْرًا . إِنَّا نَخَافُ مِنْ رَبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا . فَوَقَاهُمُ اللَّهُ شَرَّ ذَلِكَ الْيَوْمِ وَلَقَّاهُمْ نَضْرَةً

(١) البخارى (٩٠٠) ومسلم (٤٤٢ / ١٣٦) .

(٢) المسند (٤٥٦٨) وقال الشيخ أحمد شاكر : « إسناده صحيح » .

(٣) المسند (٤٣٨ / ٢) وقال الهيثمى فى المجمع (٣٦ / ٢) : « إسناده حسن » .

(٤) مسلم (٤٤٣ / ١٤٢) . (٥) البخارى (٥٧٨) ومسلم (٦٤٥ / ٢٣١) .

(٦) البخارى (٨٦٩) ومسلم (٤٤٥ / ١٤٤) .

وَسُرُورًا . وَجَزَاهُمْ بِمَا صَبَرُوا جَنَّةً وَحَرِيرًا ﴿ [الإنسان : ٨ - ١٢] . وقال هاهنا : ﴿ لِيَجْزِيَهِمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا ﴾ أى : هؤلاء من الذين يتقبل عنهم أحسن ما عملوا ويتجاوز عن سيئاتهم .

وقوله : ﴿ وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِ ﴾ أى : يتقبل منهم الحسن ويضاعفه لهم ، كما قال تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِن تَكَ حَسَنَةً يُّضَاعِفْهَا وَيُؤْتِ مِن لَّدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾ [النساء : ٤٠] ، وقال تعالى : ﴿ مَن جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ مِثَالِهَا ﴾ [الأنعام : ١٦٠] ، وقال : ﴿ مَن ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ أَضْعَافًا كَثِيرَةً ﴾ [البقرة : ٢٤٥] ، وقال : ﴿ وَاللَّهُ يُّضَاعِفُ لِمَن يَشَاءُ ﴾ [البقرة : ٣٦١] ، كما قال هاهنا : ﴿ وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ .

﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَلْتُم كُرْبًا بِقِيَعِهِ يَحْسَبُهُ الْظَّالِمَانُ مَاءً حَاقًّا إِذَا جَاءَهُمْ لَمْرٌ يَجِدُهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهُ عِنْدَهُمْ فَوْقَهُ حِسَابُهُ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴿٢١﴾ أَوْ كَظَلَمْتِ فِي بَحْرِ لَيْجِي يَغْشَاهُ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِ سَحَابٌ ظَلَمْتِ بَعْضَهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَا أَخْرَجَ يَكْدُ لَمْ يَكْدِ رَبُّهَا وَمَنْ لَمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِن نُّورٍ ﴿٢٢﴾ ﴾

هذان مثالان ضربهما الله تعالى لنوعى الكفار ، فاما الأول من هذين المثليين : فهو للكفار الدعاة إلى كفرهم ، الذين يحسبون أنهم على شىء من الأعمال والاعتقادات ، وليسوا فى نفس الأمر على شىء ، فمثلهم فى ذلك كالسراب الذى يرى فى القيعان من الأرض عن بعد كأنه بحر طام . والقية : جمع قاع ، كجار وجيرة . والقاع أيضاً : واحد القيعان ، كما يقال : جار وجيران . وهى : الأرض المستوية المتسعة المنبسطة ، وفيه يكون السراب ، يرى كأنه ماء بين السماء والأرض ، فإذا رأى السراب من هو محتاج إلى الماء ، حسبه ماءً فقصده ليشرب منه ، فلما انتهى إليه ﴿ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا ﴾ ، فكذلك الكافر يحسب أنه قد عمل عملاً ، وأنه قد حصل شيئاً ، فإذا وافى الله يوم القيامة وحاسبه عليها ، ونوقش على أفعاله ، لم يجد له شيئاً بالكلية قد قبل ، إما لعدم الإخلاص ، وإما لعدم سلوك الشرع ، كما قال تعالى : ﴿ وَقَدِمْنَا إِلَى مَا عَمِلُوا مِن عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُورًا ﴾ [الفرقان : ٢٣] . وقال هاهنا : ﴿ وَوَجَدَ اللَّهُ عِنْدَهُ فَوْقَهُ حِسَابُهُ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴾ . وهكذا روى عن أبى بن كعب ، وابن عباس ، ومجاهد ، وقتادة وغير واحد . وفى الصحيحين : أنه يقال يوم القيامة لليهود : ما كنتم تعبدون ؟ فيقولون : كنا نعبد عزير ابن الله . فيقال : كذبتم ، ما اتخذ الله من ولد ، ماذا تبغون ؟ فيقولون : أى ربنا ، عطشنا فاسقنا . فيقال : ألا ترون ؟ فتمثل لهم النار كأنها سراب يحطم بعضها بعضاً ، فينطلقون فيتهافتون فيها (١) .

وهذا المثال مثال لذوى الجهل المركب . فاما أصحاب الجهل البسيط ، وهم الأغشام المقلدون

(١) البخارى (٤٥٨١) ومسلم (١٨٣ / ٣٠٢) .

لائمة الكفر، الصم البكم الذين لا يعقلون ، فمثلهم كما قال تعالى : ﴿ أَوْ كَظُلُمَاتٍ فِي بَحْرٍ لُجِّيٍّ ﴾ قال قتادة : وهو العميق ﴿ يَغْشَاهُ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ سَحَابٌ ظَلَمَاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَا أَخْرَجَ يَدَهُ لَمْ يَكَدْ يَرَاهَا ﴾ أى : لم يقارب رؤيتها من شدة الظلام ، فهذا مثل قلب الكافر الجاهل البسيط المقلد الذى لا يدري أين يذهب ، ولا يعرف حال من يقوده ، بل كما يقال فى المثل للجاهل : أين تذهب ؟ قال : معهم . قيل : فإلى أين يذهبون ؟ قال : لا أدري . وقال ابن عباس : ﴿ يَغْشَاهُ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ سَحَابٌ ﴾ : يعنى بذلك : الغشاوة التى على القلب والسمع والبصر، وهى كقوله : ﴿ خَمَّ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ [البقرة : ٧] ، وكقوله : ﴿ أَفَرَأَيْتَ مَنْ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَى عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَى سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَى بَصَرِهِ غِشَاوَةً فَمَنْ يَهْدِيهِ مِنْ بَعْدِ اللَّهِ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴾ [الجنابة : ٢٣] . وقال أبى بن كعب فى قوله : ﴿ ظَلَمَاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ ﴾ : فهو يتقلب فى خمسة من الظلم : كلامه ظلمة ، وعمله ظلمة ، ومدخله ظلمة ، ومخرجه ظلمة ، ومصيره يوم القيامة إلى الظلمات ، إلى النار . وقال الربيع بن أنس ، والسدى نحو ذلك أيضاً .

وقوله : ﴿ وَمَنْ لَمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِنْ نُورٍ ﴾ أى : من لم يهده الله فهو هالك جاهل حائر باثر كافر ، كما قال تعالى : ﴿ مَنْ يُضِلِّ اللَّهُ فَلَا هَادِيَ لَهُ ﴾ [الاعراف : ١٨٦] ، وهذا فى مقابلة ما قال فى مثل المؤمنين : ﴿ يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَنْ يَشَاءُ ﴾ : فنسال الله العظيم أن يجعل فى قلوبنا نوراً ، وعن إيماننا نوراً ، وعن شمائلنا نوراً ، وأن يعظم لنا نوراً .

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجِجُ لَهُ مِنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالطَّيْرِ صَفَقَاتٍ كُلِّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُمْ وَتَسْبِيحَهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴿٤١﴾ وَ لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ ﴿٤٢﴾

يخبر تعالى أنه يسبح له من فى السموات والأرض ، أى : من الملائكة والأناسى ، والجان والحيوان، حتى الجماد، كما قال تعالى : ﴿ تَسْبِجُ لَهُ السَّمَوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ ﴾ الآية [الإسراء : ٤٤] . وقوله : ﴿ وَالطَّيْرِ صَافَاتٍ ﴾ أى : فى حال طيرانها تسبح ربها وتعبد بتسبح الهمها وأرشدها إليه ، وهو يعلم ما هى فاعلة ؛ ولهذا قال تعالى : ﴿ كُلِّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ ﴾ أى : كل قد أرشده إلى طريقته ومسلكه فى عبادة الله ، عز وجل . ثم أخبر أنه عالم بجميع ذلك ، لا يخفى عليه من ذلك شيء ؛ ولهذا قال تعالى : ﴿ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴾ .

ثم أخبر تعالى أن له ملك السموات والأرض ، فهو الحاكم المتصرف الذى لا معقب لحكمه ، وهو الإله المعبود الذى لا تنبغى العبادة إلا له ﴿ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ ﴾ أى : يوم القيامة ، فيحكم فيه بما يشاء ﴿ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسَاءُوا بِمَا عَمِلُوا وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى ﴾ [النجم : ٣١] ، فهو الخالق المالك ، ألا له الحكم فى الدنيا والأخرى ، وله الحمد فى الأولى والآخرة ؟ !

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُزْجِي سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُمْ ثُمَّ يُجْعَلُهُمْ رُكَّامًا فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ وَيُنزِلُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ جِبَالٍ فِيهَا مِنْ بَرَدٍ فَيُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَصْرِفُهُ عَنِ مَنْ يَشَاءُ يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِ يَذْهَبُ بِالْأَبْصَارِ ﴿٤٣﴾ يَقْلِبُ اللَّهُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لَأُولِي الْأَبْصَارِ ﴿٤٤﴾ ﴾

يذكر تعالى أنه يسوق السحاب بقدرته أول ما ينشئها وهي ضعيفة ، وهو الإرجاء ﴿ ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُ ﴾ أى : يجمعه بعد تفرقه ﴿ ثُمَّ يُجْعَلُهُمْ رُكَّامًا ﴾ أى : متراكماً ، أى : يركب بعضه بعضاً ﴿ فَتَرَى الْوَدْقَ ﴾ أى المطر ﴿ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ ﴾ أى : من خَلِّه . وكذا قرأها ابن عباس والضحاك .

وقوله : ﴿ وَيُنزِلُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ جِبَالٍ فِيهَا مِنْ بَرَدٍ ﴾ : قال بعض النحاة : « من » الأولى لابتداء الغاية ، والثانية للتبعض ، والثالثة لبيان الجنس . وهذا إنما يجيء على قول من ذهب من المفسرين إلى أن قوله : ﴿ مِنْ جِبَالٍ فِيهَا مِنْ بَرَدٍ ﴾ ومعناه : أن فى السماء جبالَ بَرَدٍ ينزل الله منها البرد . وأما من جعل الجبال هاهنا كناية عن السحاب ، فإن « من » الثانية عند هذا لابتداء الغاية أيضاً ، لكنها بَدَلٌ من الأولى ، والله أعلم . وقوله : ﴿ فَيُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَصْرِفُهُ عَنِ مَنْ يَشَاءُ ﴾ : يحتمل أن يكون المراد بقوله : ﴿ فَيُصِيبُ بِهِ ﴾ أى : بما ينزل من السماء من نوعى البرد والمطر ، فيكون قوله : ﴿ فَيُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشَاءُ ﴾ رحمة لهم ، ﴿ وَيَصْرِفُهُ عَنِ مَنْ يَشَاءُ ﴾ أى : يؤخر عنهم الغيث . ويحتمل أن يكون المراد بقوله : ﴿ فَيُصِيبُ بِهِ ﴾ أى : بالبرد نقمة على من يشاء لما فيه من نثر ثمارهم وإتلاف زروعهم وأشجارهم . ويصرفه عن من يشاء رحمة بهم . وقوله : ﴿ يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِ يَذْهَبُ بِالْأَبْصَارِ ﴾ أى : يكاد ضوء برقه من شدته يخطف الأبصار إذا اتبعته وتراءته .

وقوله : ﴿ يَقْلِبُ اللَّهُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ ﴾ أى : يتصرف فيهما ، فيأخذ من طول هذا فى قصر هذا حتى يعتدلا ، ثم يأخذ من هذا فى هذا ، فيطول الذى كان قصيراً ، ويقصر الذى كان طويلاً . والله هو المتصرف فى ذلك بأمره وقهره وعزته وعلمه ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لَأُولِي الْأَبْصَارِ ﴾ أى : للدليل على عظمته تعالى ، كما قال الله تعالى : ﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لآيَاتٍ لَأُولِي الْأَبْصَارِ ﴾ [آل عمران : ١٩٠] ، وما بعدها من الآيات الكريمة .

﴿ وَاللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِنْ مَاءٍ فَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى بَطْنِهِ وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى رِجْلَيْنِ وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى أَرْبَعٍ يَخْلُقُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٤٥﴾ ﴾

يذكر تعالى قدرته التامة وسلطانه العظيم ، فى خلقه أنواع المخلوقات ، على اختلاف أشكالها وألوانها ، وحركاتها وسكناتها ، من ماء واحد ، ﴿ فَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى بَطْنِهِ ﴾ كالحية وما شاكلها ﴿ وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى رِجْلَيْنِ ﴾ كالإنسان والطير ﴿ وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى أَرْبَعٍ ﴾ كالأنعام وسائر الحيوانات ؛ ولهذا قال : ﴿ يَخْلُقُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ ﴾ أى : بقدرته ؛ لأنه ما شاء كان ، وما لم

يشأ لم يكن ؛ ولهذا قال : ﴿ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ .

﴿ لَقَدْ أَنْزَلْنَا آيَاتٍ مُّبِينَاتٍ وَاللَّهُ يَهْدِي مَن يَشَاءُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ ﴿٤٦﴾

يقرر تعالى أنه أنزل في هذا القرآن من الحكم والحكم والأمثال البينة المحكمة، كثيراً جداً ، وأنه يرشد إلى تفهمها وتعلقلها أولى الأبواب والبصائر والنهي ؛ ولهذا قال : ﴿ وَاللَّهُ يَهْدِي مَن يَشَاءُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ .

﴿ وَيَقُولُونَ ءَأَمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالرَّسُولِ وَأَطَعْنَا ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ مِّنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَمَا أُولَٰئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ ﴾ ﴿٤٧﴾ وَإِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُمْ مُّعْرِضُونَ ﴿٤٨﴾ وَإِن يَكُنْ لَهُمُ الْحَقُّ يَأْتُوا إِلَيْهِ مُذْعِنِينَ ﴿٤٩﴾ أَفِي قُلُوبِهِمْ مَّرَضٌ أَمْ ارْتَابُوا أَمْ يَخَافُونَ أَن يَحِيفَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولَهُ بَلْ أُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴿٥٠﴾ إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٥١﴾ وَمَن يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَخْشَ اللَّهَ وَسَيِّئَةً فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ ﴿٥٢﴾

يخبر تعالى عن صفات المنافقين ، الذين يظهرون خلاف ما يظنون ، يقولون قولاً بالستهم : ﴿ ءَأَمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالرَّسُولِ وَأَطَعْنَا ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ مِّنْ بَعْدِ ذَلِكَ ﴾ أى : يخالفون أقوالهم بأعمالهم ، فيقولون ما لا يفعلون ؛ ولهذا قال تعالى : ﴿ وَمَا أُولَٰئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ ﴾ .

وقوله تعالى : ﴿ وَإِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ ﴾ الآية ، أى : إذا طلبوا إلى اتباع الهدى ، فيما أنزل الله على رسوله ، أعرضوا عنه واستكبروا فى أنفسهم عن اتباعه . وهذه كقوله تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا أَنْزَلَ إِلَيْكَ وَمَا أَنْزَلَ مِن قَبْلِكَ ﴾ إلى قوله : ﴿ وَرَأَيْتَ الْمُنَافِقِينَ يَصُدُونَ عَنكَ صُدُودًا ﴾ [النساء : ٦٠ ، ٦١] . وقوله : ﴿ وَإِن يَكُنْ لَهُمُ الْحَقُّ يَأْتُوا إِلَيْهِ مُذْعِنِينَ ﴾ أى : إذا كانت الحكومة لهم لا عليهم ، جاؤوا سامعين مطيعين وهو معنى قوله : ﴿ مُذْعِنِينَ ﴾ ، وإذا كانت الحكومة عليه أعرض ودعا إلى غير الحق ، وأحب أن يتحاكم إلى غير النبى ﷺ ليروج باطله ثم . فإذعانه أولاً لم يكن عن اعتقاد منه أن ذلك هو الحق ، بل لأنه موافق لهواه ؛ ولهذا لما خالف الحق قصده ، عدل عنه إلى غيره ؛ ولهذا قال تعالى : ﴿ أَفِي قُلُوبِهِمْ مَّرَضٌ أَمْ ارْتَابُوا أَمْ يَخَافُونَ أَن يَحِيفَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولَهُ ﴾ يعنى : لا يخرج أمرهم عن أن يكون فى القلوب مرض لازم لها ، أو قد عرض لها شك فى الدين ، أو يخافون أن يجور الله ورسوله عليهم فى الحكم . وأيا ما كان فهو كفر محض ، والله عليهم بكل منهم ، وما هو عليه منطو من هذه الصفات . وقوله : ﴿ بَلْ أُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴾ أى : بل هم الظالمون الفاجرون ، والله ورسوله مبرآن مما يظنون ويتوهمون من الحيف والجور ، تعالى الله ورسوله عن ذلك .

ثم أخبر تعالى عن صفة المؤمنين المستجيبين لله ولرسوله ، الذين لا يبيغون ديناً سوى كتاب الله وسنة رسوله ، فقال : ﴿ إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَنْ يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ﴾ أى : سمعاً وطاعة ؛ ولهذا وصفهم تعالى بفلاح ، وهو نيل المطلوب والسلامة من المهروب ، فقال : ﴿ وَأُوْرَتِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ . والأحاديث والآثار فى وجوب الطاعة لكتاب الله وسنة رسوله ، وللخلفاء الراشدين ، والأئمة إذا أمروا بطاعة الله أكثر من أن تحصر فى هذا المكان .

وقوله : ﴿ وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ ﴾ قال قتادة : يطع الله ورسوله فيما أمراه به وترك ما نهياه عنه ﴿ وَيَخْشَى اللَّهَ ﴾ فيما مضى من ذنوبه ﴿ وَيَتَّقَهُ ﴾ فيما يستقبل . وقوله : ﴿ فَأُوْرَتِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ ﴾ يعنى : الذين فازوا بكل خير ، وأمناً من كل شر فى الدنيا والآخرة .

﴿ وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِنِ أُمِرْتُمْ لَيَخْرُجُنَّ قُلْ لَا تُفْسِمُوا طَاعَةَ مَعْرُوفَةً إِنْ أَمَرَ اللَّهُ خَيْرٌ مِمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ ﴿ ٥٣ ﴾ قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ فَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيْكُمْ مَا حُمِّلْتُمْ وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلْغُ الْمُبِينُ ﴾ ﴿ ٥٤ ﴾

يقول تعالى مخبراً عن أهل النفاق ، الذين كانوا يحلفون للرسول ﷺ : لئن أمرتم بالخروج فى الغزو ليخرجن ، قال الله تعالى : ﴿ قُلْ لَا تُفْسِمُوا ﴾ أى : لا تحلفوا . وقوله : ﴿ طَاعَةَ مَعْرُوفَةً ﴾ قيل : معناه : طاعتكم طاعة معروفة ، أى : قد علم طاعتكم ، إنما هى قول لا فعل معه ، وكلما حلفتكم كذبتهم ، كما قال تعالى : ﴿ يَحْلِفُونَ لَكُمْ لِتَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِن تَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنَ اللَّهُ لَا يَرْضَىٰ عَنِ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ ﴾ [التوبة : ٩٦] ، وقال تعالى : ﴿ اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا عَنِ سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ [المنافقون : ٢] ، فهم من سجتهم الكذب حتى فيما يختارونه ، كما قال تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نَافَقُوا يَقُولُونَ لِإِخْوَانِهِمُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَئِن أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلَا نَطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا وَإِن قُوتِلْتُمْ لَنَنصُرَنَّكُمْ وَاللَّهُ شَهِيدٌ لِّإِثْمِهِمْ كَذَّابُونَ . لَئِن أُخْرِجُوا لَا يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ وَلَئِن قُوتِلُوا لَا يَنْصُرُونَهُمْ وَلَئِن نُّصِرُوهُمْ لَيُوَلِّنَنَّ الْأُذُنُ ثُمَّ لَا يَنْصُرُونَ ﴾ [الحشر : ١١ ، ١٢] . وقيل : المعنى فى قوله : ﴿ طَاعَةَ مَعْرُوفَةً ﴾ أى : ليكن أمركم طاعة معروفة ، أى : بالمعروف من غير حلف ولا إقسام ، كما يطيع الله ورسوله المؤمنون بغير حلف ، فكونوا أنتم مثلهم . ﴿ إِنَّ اللَّهَ خَيْرٌ مِمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ أى : هو خير بكم وبمن يطيع عن يعصى ، فالحلف وإظهار الطاعة - والباطن بخلافه ، وإن راج على المخلوق - فالخالق ، تعالى ، يعلم السر وأخفى ، لا يروج عليه شيء من التدليس ، بل هو خير بضمائر عبادته ، وإن أظهرها خلافها .

ثم قال تعالى : ﴿ قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ ﴾ أى : اتبعوا كتاب الله وسنة رسوله ﴿ فَإِن تَوَلَّوْا ﴾ أى : تتولوا عنه وتركوا ما جاءكم به ﴿ فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ ﴾ أى : إبلاغ الرسالة وأداء الامانة ﴿ وَعَلَيْكُمْ مَا حُمِّلْتُمْ ﴾ أى : من ذلك وتعظيمه والقيام بمقتضاه ﴿ وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا ﴾ وذلك

لأنه يدعو إلى صراط مستقيم ﴿ صِرَاطَ اللَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ أَلَا إِلَى اللَّهِ تَصِيرُ الْأُمُورُ ﴾ [الشورى: ٥٣] . وقوله: ﴿ وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ ﴾ كقولهِ: ﴿ فَأَنمَأَ عَلَيْكَ الْبَلَاغُ وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ ﴾ [الرعد: ٤٠] ، وقوله: ﴿ فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ . لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُصَيِّرٍ ﴾ [الغاشية: ٢١ ، ٢٢] .

﴿ وَعَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّن بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴾

هذا وعد من الله لرسوله ﷺ ، بأنه سيجعل أمته خلفاء الأرض ، أى : أئمة الناس والولاية عليهم ، وبهم تصلح البلاد ، وتخضع لهم العباد ، وليبدلهم من بعد خوفهم أمناً وحكما فيهم ، وقد فعله تبارك وتعالى ، وله الحمد والمنة ، فإنه ﷺ لم يميت حتى فتح الله عليه مكة وخيبر والبحرين ، وسائر جزيرة العرب وأرض اليمن بكما لها . وأخذ الجزية من مجوس هجر ، ومن بعض أطراف الشام ، وهاداه هرقل ملك الروم وصاحب مصر والإسكندرية - وهو المقوقس - وملوك عمان والنجاشى ملك الحبشة ، الذى تملك بعد أضحمة ، رحمه الله وأكرمه . ثم لما مات رسول الله ﷺ واختار الله له ما عنده من الكرامة ، قام بالأمر بعده خليفته أبوبكر الصديق ، فلم شعث ما وهى عند موته ، عليه الصلاة والسلام ، وأطد جزيرة العرب ومهداها ، وبعث الجيوش الإسلامية إلى بلاد فارس صحبة خالد ابن الوليد ، رضى الله عنه ، ففتحوا طرفا منها ، وقتلوا خلقا من أهلها . وجيشا آخر صحبة أبى عبيدة ، رضى الله عنه ، ومن معه من الأمراء إلى أرض الشام ، وثالثا صحبة عمرو بن العاص ، رضى الله عنه ، إلى بلاد مصر ، ففتح الله للجيش الشامى فى أيامه بصرى ودمشق ومخالفهما من بلاد حوران وما والاها ، وتوفاه الله ، عزوجل ، واختار له ما عنده من الكرامة . ومن على الإسلام وأهله بأن ألهم الصديق أن استخلف عمر الفاروق ، فقام فى الأمر بعده قيما تاما ، لم يدُر الفلك بعد الأنبياء عليهم السلام على مثله ، فى قوة سيرته وكمال عدله . وتم فى أيامه فتح البلاد الشامية بكما لها ، وديار مصر إلى آخرها ، وأكثر إقليم فارس ، وكسر كسرى وأهانه غاية الهوان ، وتقهرق إلى أقصى مملكته ، وقصر قيصر ، وانتزع يده عن بلاد الشام فانحاز إلى قسطنطينية ، وأنفق أموالهما فى سبيل الله ، كما أخبر بذلك ووعد به رسول الله ، عليه من ربه أتم سلام وأزكى صلاة .

ثم لما كانت الدولة العثمانية ، أمتدت الممالك الإسلامية إلى أقصى مشارق الأرض ومغاربها ، ففتحت بلاد المغرب إلى أقصى ما هنالك : الأندلس ، وقبرص ، وبلاد القيروان ، وبلاد سبته مما يلى البحر المحيط ، ومن ناحية المشرق إلى أقصى بلاد الصين ، وقتل كسرى ، وباد ملكه بالكلية . وفتحت مدائن العراق ، وخراسان ، والأهواز ، وقتل المسلمون من الترك

مقتلة عظيمة جدا ، وخذل الله ملكهم الأعظم خاقان ، وجبى الخراج من المشارق والمغارب إلى حضرة أمير المؤمنين عثمان بن عفان ، رضى الله عنه . وذلك ببركة تلاوته ودراسته وجمعه الأمة على حفظ القرآن ؛ ولهذا ثبت فى الصحيح عن رسول الله ﷺ أنه قال : « إن الله زوى لى الأرض ، فأريت مشارقتها ومغاربها ، وسيلغ ملك أمتى ما زوى لى منها » (١) . فها نحن نتقلب فيما وعدنا الله ورسوله ، وصدق الله ورسوله ، فنسأل الله الإيمان به ، وبرسوله ، والقيام بشكره على الوجه الذى يرضيه عنا .

روى الإمام مسلم عن جابر بن سمرة قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « لا يزال أمر الناس ما ضيا ما وليهم اثنا عشر رجلا » . ثم تكلم النبى ﷺ بكلمة خفيت عنى فسألت أبى : ماذا قال رسول الله ﷺ ؟ فقال : « كلهم من قريش » . ورواه البخارى (٢) . وهذا الحديث فيه دلالة على أنه لا بد من وجود اثنى عشر خليفة عادلا ، وليسوا هم بأئمة الشيعة الاثنى عشر فإن كثيرا من أولئك لم يكن إليهم من الأمر شىء ؛ فاما هؤلاء فإنهم يكونون من قريش ، يَلُون فيعدلون . وقد وقعت البشارة بهم فى الكتب المتقدمة ، ثم لا يشترط أن يكونوا متابعين ، بل يكون وجودهم فى الأمة متتابعا ومتفرقا ، وقد وُجِد منهم أربعة على الولاة ، وهم : أبوبكر ، ثم عمر ، ثم عثمان ، ثم على ، رضى الله عنهم . ثم كانت بعدهم فترة ، ثم وُجِد منهم ما شاء الله ، ثم قد يُوْجِد منهم من بقى فى وقت يعلمه الله . ومنهم المهدي الذى يطابق اسمه اسم رسول الله ﷺ ، وكنيته كنيته ، يملا الأرض عدلا وقسطا ، كما ملئت جورا وظلما .

وهذه الآية الكريمة كقوله تعالى : « **وَإِذْ كُرُوا إِذْ أَنْتُمْ لَلِيلٌ مُسْتَضْعَفُونَ فِي الْأَرْضِ تَخَافُونَ أَنْ يَتَخَفَتَكُمْ النَّاسُ فَاوَاكُمُ وَيَأْتِكُمْ بِنَصْرِهِ وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ** » [الانفال : ٢٦] .

وقوله : « **كَمَا اسْتَخَلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ** » كما قال تعالى عن موسى ، عليه السلام ، أنه قال لقومه : « **عَسَى رَبُّكُمْ أَنْ يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ** » [الاعراف : ١٢٩] ، وقال تعالى : « **وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ . وَنُكِنُّ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَنُرِي فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُودَهُمَا مِنْهُمْ مَا كَانُوا يَحْذَرُونَ** » [القصص : ٥ ، ٦] . وقوله : « **وَلْيُمَكِّنْ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ** » الآية ، كما قال رسول الله ﷺ لعدي بن حاتم ، حين وفد عليه : « **أتعرف الحيرة ؟** » قال : لم أعرفها ، ولكن قد سمعت بها . قال : « **فوالذى نفسى بيده ، ليؤمن الله هذا الأمر حتى تخرج الطعينة من الحيرة حتى تطوف بالبيت فى غير جوار أحد ، ولتفتحن كنوز كسرى بن هرمز** . قلت : كسرى بن هرمز ؟ قال : « **نعم ، كسرى بن هرمز ، وليؤذكن المال حتى لا يقبله أحد** . قال عدى بن حاتم : فهذه الطعينة تخرج من الحيرة فتطوف بالبيت فى غير جوار أحد ، ولقد كنت فىمن افتتح كنوز كسرى بن هرمز ، والذى نفسى بيده ، لتكون الثالثة ؛ لأن رسول الله ﷺ قد قالها (٣) .

(١) مسلم (٢٨٨٩ / ١٩) .

(٢) البخارى (٣٥٩٥) .

(٣) البخارى (٧٢٢٢) ومسلم (١٨٢١ / ٦) .

وقوله: ﴿يَعْبُدُونِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا﴾ روى الإمام أحمد عن أنس ، أن معاذ بن جبل حدثه قال : بينا أنا رديف رسول الله ﷺ ليس بيني وبينه إلا آخرة الرجل ، قال : « يا معاذ » ، قلت : لبيك يا رسول الله وسعديك . قال : ثم سار ساعة ثم قال : « يا معاذ بن جبل » ، قلت : لبيك يا رسول الله وسعديك . ثم سار ساعة ، ثم قال : « يا معاذ بن جبل » ، قلت : لبيك يا رسول الله وسعديك . قال : « هل تدري ما حق الله على العباد » ، قلت : الله ورسوله أعلم . قال : « حق الله على العباد أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئاً » . قال : ثم سار ساعة . ثم قال : « يا معاذ بن جبل » ، قلت : لبيك يا رسول الله وسعديك . قال : « فهل تدري ما حق العباد على الله إذا فعلوا ذلك ؟ » ، قال : قلت : الله ورسوله أعلم . قال : « فإن حق العباد على الله ألا يعذبهم » . أخرجاه في الصحيحين (١) .

وقوله : ﴿ وَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴾ أى : فمن خرج عن طاعتي بعد ذلك ، فقد فسقَ عن أمر ربه وكفى بذلك ذنباً عظيماً . فالصحابا ، رضى الله عنهم ، لما كانوا أقوم الناس بعد النبي ﷺ بأوامر الله ، عز وجل ، وأطوعهم لله - كان نصرهم بحسبهم ، وأظهروا كلمة الله فى المشارق والمغارب ، وأيدهم تأييداً عظيماً ، وتحكموا فى سائر العباد والبلاد . ولما قصرَ الناس بعدهم فى بعض الأوامر ، نقص ظهورهم بحسبهم ، ولكن قد ثبت فى الصحيحين ، من غير وجه ، عن رسول الله ﷺ أنه قال : « لا تزال طائفة من أمتى ظاهرين على الحق ، لا يضرهم من خذلهم ولا من خالفهم إلى يوم القيامة » (٢) .

﴿ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٥٦﴾ لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَمَا أُولَئِكَ إِلَّا فِي السَّمَاءِ مُنْجَبُونَ ﴿٥٧﴾ ﴾

يقول تعالى أمراً عباده المؤمنين بإقام الصلاة ، وهى عبادة الله وحده لا شريك له ، وإيتاء الزكاة ، وهى : الإحسان إلى المخلوقين ضعفائهم وفقرائهم ، وأن يكونوا فى ذلك مطيعين لرسول الله ﷺ ، أى : سالكين وراءه فيما به أمرهم ، وتاركين ما عنه رجزهم ، لعل الله يرحمهم بذلك . ولا شك أن من فعل ذلك أن الله سيرحمهم ، كما قال تعالى فى الآية الأخرى : ﴿ أُولَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ ﴾ [التوبة : ٧١] . وقوله : ﴿ لَا تَحْسَبَنَّ ﴾ ، أى : لا تظنن يا محمد ﴿ الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ أى : خالفوك وكذبوك ﴿ مُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ ﴾ أى : لا يعجزون الله ، بل الله قادر عليهم ، وسيعذبهم على ذلك أشد العذاب ؛ ولهذا قال : ﴿ وَمَا أُولَئِكَ ﴾ فى الدار الآخرة ﴿ النَّارُ وَلَيْسَ الْمَصِيرُ ﴾ أى : بس المآل مآل الكافرين ، وبس القرار وبس المهاد .

(١) المسند (٥ / ٢٤٢) والبخارى (٥٩٦٧) ومسلم (٣٠ / ٤٨) .

(٢) البخارى (٧٣١١) ومسلم (١٩٢٠ / ١٧٠) .

﴿ يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لِيَسْتَعْتِدَّ نَكُمْ الَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ وَالَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُوا الْحُلُمَ مِنْكُمْ تِلْكَ مَرْثٌ مِّنْ قَبْلِ صَلَوةِ الْفَجْرِ وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُمْ مِّنَ الظَّهِيرَةِ وَمِنَ بَعْدِ صَلَوةِ الْعِشَاءِ تِلْكَ عَوْرَاتُ لَكُمْ لَيْسَ عَلَيْكُمْ وَلَا عَلَيْهِمْ جُنَاحٌ بَعْدَهُنَّ طَوَافُوتٌ عَلَيْكُمْ بَعْضُكُمْ عَلَى بَعْضٍ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ الْآيَاتِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٥٨﴾ وَإِذَا بَلَغَ الْأَطْفَلُ مِنْكُمُ الْحُلُمَ فَلْيَسْتَعْتِدُوا كَمَا اسْتَعْتَدَ الَّذِينَ مِّنْ قَبْلِهِمْ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٥٩﴾ وَالْقَوَاعِدُ مِنَ النِّسَاءِ الَّتِي لَا يَرْجُونَ نِكَاحًا فَلَيْسَ عَلَيْهِنَّ جُنَاحٌ أَنْ يَضَعْنَ ثِيَابَهُنَّ غَيْرَ مُتَبَرِّجَاتٍ بِزِينَةٍ وَأَنْ يَسْتَعْفِفْنَ خَيْرٌ لَهُنَّ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٦٠﴾

هذه الآيات الكريمة اشتملت على استئذان الأقارب بعضهم على بعض . وما تقدم في أول السورة فهو استئذان الأجانب بعضهم على بعض . فأمر الله تعالى المؤمنين أن يستأذنهم خدَمهم بما مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ وأطفالهم الذين لم يبلغوا الحُلُمَ منهم في ثلاثة أحوال : الأول من قبل صلاة الغداة ؛ لأن الناس إذ ذاك يكونون نيامًا في فرشهم ، ﴿ وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُمْ مِنَ الظَّهِيرَةِ ﴾ أى : فى وقت القيلولة ؛ لأن الإنسان قد يضع ثيابه فى تلك الحال مع أهله ، ﴿ وَمِنَ بَعْدِ صَلَاةِ الْعِشَاءِ ﴾ ؛ لأنه وقت النوم ، فيؤمّر الخدم والأطفال ألا يهجموا على أهل البيت فى هذه الأحوال ، لما يخشى أن يكون الرجل على أهله ، أو نحو ذلك من الأعمال ؛ ولهذا قال : ﴿ ثَلَاثُ عَوْرَاتٍ لَكُمْ لَيْسَ عَلَيْكُمْ وَلَا عَلَيْهِمْ جُنَاحٌ بَعْدَهُنَّ ﴾ أى : إذا دخلوا فى حال غير هذه الأحوال فلا جناح عليكم فى تمكينكم إياهم من ذلك ، ولا عليهم إن رأوا شيئًا فى غير تلك الأحوال ؛ لأنه قد أذن لهم فى الهجوم ، ولأنهم ﴿ طَوَافُونَ ﴾ عليكم ، أى : فى الخدمة وغير ذلك ، ويغتفر فى الطوافين ما لا يغتفر فى غيرهم ؛ ولهذا روى الإمام مالك وأحمد بن حنبل وأهل السنن أن رسول الله ﷺ قال فى الهرة : « إنها ليست بنجس ؛ إنها من الطوافين عليكم - أو - والطوافات » (١) .

ولما كانت هذه الآية محكمة ولم تنسخ بشيء ، وكان عمل الناس بها قليلا جدًا ، أنكر عبد الله بن عباس ذلك على الناس ، [فعن] سعيد بن جبيرة قال : قال ابن عباس : ترك الناس ثلاث آيات فلم يعملوا بهن : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لِيَسْتَأْذِنَكُمْ الَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ وَالَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُوا الْحُلُمَ ﴾ إلى آخر الآية ، والآية التى فى سورة النساء : ﴿ وَإِذَا حَضَرَ الْقِسْمَةَ أُولُو الْقَرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينُ فَارْزُقُوهُمْ مِنْهُ ﴾ [النساء : ٨] ، والآية التى فى الحجرات : ﴿ إِنْ أَكَرَمَكُمْ عَبْدُ اللَّهِ أَنْتِقَاكُمْ ﴾ [الحجرات : ١٣] . وقال السُّدِّيُّ : كان أناس من الصحابة ، رضى الله عنهم ، يحبون أن يواقعوا نساءهم فى هذه الساعات ليتغسلوا ثم يخرجوا إلى الصلاة ، فأمرهم الله أن يأمرؤا المملوكين والغلمان ألا يدخلوا عليهم فى تلك الساعات إلا بإذن .

ومما يدل على أنها محكمة لم تنسخ ، قوله : ﴿ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ الْآيَاتِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ .
 ثم قال تعالى : ﴿ وَإِذَا بَلَغَ الْأَطْفَالُ مِنْكُمُ الْحُلُمَ فَلْيَسْتَأْذِنُوا كَمَا اسْتَأْذَنَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ ﴾ .
 بلغ الأطفال الذين إنما كانوا يستأذنون في العورات الثلاث ، إذا بلغوا الحلم ، وجب عليهم أن يستأذنوا على كل حال ، يعنى بالنسبة إلى أجانبيهم وإلى الأحوال التي يكون الرجل على امرأته ، وإن لم يكن في الأحوال الثلاث . قال يحيى بن أبى كثير : إذا كان الغلام رباعياً فإنه يستأذن في العورات الثلاث على أبويه ، فإذا بلغ الحلم فليستأذن على كل حال . وهكذا قال سعيد بن جبير . وقال فى قوله : ﴿ كَمَا اسْتَأْذَنَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ ﴾ يعنى : كما استأذن الكبار من ولد الرجل وأقاربه .
 وقوله : ﴿ وَالْفَوَاعِدُ مِنَ النِّسَاءِ ﴾ : قال سعيد بن جبير ، ومقاتل بن حيان ، وقتادة ، والضحاك : هن اللواتى انقطع عنهن الحيض ويشن من الولد ﴿ اللَّاتِي لَا يَرْجُونَ نِكَاحًا ﴾ أى : لم يبق لهن تشوق إلى التزويج ﴿ فَلَيْسَ عَلَيْهِنَّ جُنَاحٌ أَنْ يَضَعْنَ ثِيَابَهُنَّ غَيْرَ مُتَبَرِّجَاتٍ بِزِينَةٍ ﴾ أى : ليس عليها من الحرج فى التستر كما على غيرها من النساء . قال ابن مسعود فى قوله : ﴿ فَلَيْسَ عَلَيْهِنَّ جُنَاحٌ أَنْ يَضَعْنَ ثِيَابَهُنَّ ﴾ قال : الجلباب ، أو الرداء ، وكذا روى عن ابن عباس ، وابن عمر ، ومجاهد ، وغيرهم . وقال سعيد بن جبير : ﴿ غَيْرَ مُتَبَرِّجَاتٍ بِزِينَةٍ ﴾ يقول : لا يتبرجن بوضع الجلباب ، أن يرى ما عليها من الزينة . وقوله : ﴿ وَأَنْ يَسْتَعْفِفْنَ خَيْرٌ لَهُنَّ ﴾ أى : وترك وضعهن لثيابهن - وإن كان جائزاً - خيراً وأفضل لهن ، والله سميع عليم .

﴿ لَيْسَ عَلَى الْأَعْمَى حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْمَرِيضِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى أَنْفُسِكُمْ أَنْ تَأْكُلُوا مِنْ بُيُوتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ آبَائِكُمْ أَوْ بُيُوتِ إِخْوَانِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخَوَاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَعْمَامِكُمْ أَوْ بُيُوتِ عَمَّاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ إِخْوَانِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخْوَالَكُمْ أَوْ بُيُوتِ حَمَلَاتِكُمْ أَوْ مَا مَلَكَتْهُمُ مَفَاحِجُهُمْ أَوْ صَدِيقِكُمْ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَأْكُلُوا جَمِيعًا أَوْ أَشْتَاتًا فَإِذَا دَخَلْتُمْ بُيُوتًا فَسَلِّمُوا عَلَى أَنْفُسِكُمْ تَحِيَّةً مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُبْرَكَةٌ طَيِّبَةٌ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾

اختلف المفسرون - رحمهم الله - فى المعنى الذى رفع من أجله الحرج عن الأعمى والأعرج والمرضى هاهنا ، فقال عطاء الخراسانى ، وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم : نزلت فى الجهاد . وجعلوا هذه الآية هاهنا كالتى فى سورة الفتح . وتلك فى الجهاد لا محالة ، أى : أنهم لا إثم عليهم فى ترك الجهاد ؛ لضعفهم وعجزهم ، وكما قال تعالى فى سورة براءة : ﴿ لَيْسَ عَلَى الضُّعَفَاءِ وَلَا عَلَى الْمَرْضَى وَلَا عَلَى الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنْفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُوا لِلَّهِ وَرَسُولِهِ مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِنْ سَبِيلٍ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ . ولا على الذين إذا ما أتوك لتحملهم قلت لا أجد ما أحملكم عليه تولوا وأعينهم تفيض من الدمع حزناً ألا يجدوا ما ينفقون ﴿ [التوبة : ٩١ ، ٩٢] . وقيل : المراد هاهنا أنهم كانوا يتخرجون من

الأكل مع الأعمى ؛ لأنه لا يرى الطعام وما فيه من الطيبات ، فربما سبقه غيره إلى ذلك . ولا مع الأعرج ؛ لأنه لا يتمكن من الجلوس ، فيفتات عليه جلسه . والمريض لا يستوفى من الطعام كغيره ، فكروها أن يؤاكلوهم لثلا يظلموهم ، فانزل الله هذه الآية رخصة فى ذلك . وهذا قول سعيد بن جبير ، ومقسم . وقال الضحاك : كانوا قبل المبعث يتخرجون من الأكل مع هؤلاء تقذراً وتقزراً ، ولثلا يتفضلوا عليهم ، فانزل الله هذه الآية .

وقال السدى : كان الرجل يدخل بيت أبيه ، أو أخيه أو ابنه ، فتتحفه المرأة بالشىء من الطعام ، فلا يأكل من أجل أن رب البيت ليس ثم . فقال الله تعالى : ﴿ لَيْسَ عَلَى الْأَعْمَى حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْمَرِيضِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى أَنْفُسِكُمْ أَنْ تَأْكُلُوا مِنْ بُيُوتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ آبَائِكُمْ ﴾ ، إلى قوله : ﴿ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَأْكُلُوا جَمِيعًا أَوْ أَشْتَاتًا ﴾ .

وقوله تعالى : ﴿ وَلَا عَلَى أَنْفُسِكُمْ أَنْ تَأْكُلُوا مِنْ بُيُوتِكُمْ ﴾ إنما ذكر هذا - وهو معلوم - ليعطف عليه غيره فى اللفظ ، وليساوية ما بعده فى الحكم . وتضمن هذا بيوت الأبناء ؛ لأنه لم ينص عليهم . ولهذا استدل بهذا من ذهب إلى أن مال الولد بمنزلة مال أبيه ، وقد جاء فى المسند والسنن ، من غير وجه ، عن رسول الله ﷺ أنه قال : « أنت ومالك لأبيك » (١) .

وقوله : ﴿ أَوْ بُيُوتِ آبَائِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أُمَّهَاتِكُمْ ﴾ ، إلى قوله : ﴿ أَوْ مَا مَلَكَتْمْ مَفَاتِحَهُ ﴾ ، هذا ظاهر . وقد استدل به من يوجب نفقة الأقارب بعضهم على بعض ، كما هو مذهب أبى حنيفة والإمام أحمد بن حنبل ، فى المشهور عنهما .

وأما قوله : ﴿ أَوْ مَا مَلَكَتْمْ مَفَاتِحَهُ ﴾ : فقال سعيد بن جبير ، والسدى : هو خادم الرجل من عبد وقهرمان ، فلا بأس أن يأكل مما استودعه من الطعام بالمعروف . وعن عائشة قالت : كان المسلمون يرغبون فى النفير مع رسول الله ﷺ ، فيدفعون مفاتيحهم إلى ضمنائهم ، ويقولون : قد أحللتنا لكم أن تأكلوا ما احتجتم إليه . فكانوا يقولون : إنه لا يحل لنا أن نأكل ؛ إنهم أذنوا لنا عن غير طيب أنفسهم ، وإنما نحن أمناء . فانزل الله : ﴿ أَوْ مَا مَلَكَتْمْ مَفَاتِحَهُ ﴾ . وقوله : ﴿ أَوْ صَدِيقِكُمْ ﴾ أى : بيوت أصدقائكم وأصحابكم ، فلا جناح عليكم فى الأكل منها ، إذا علمتم أن ذلك لا يشق عليهم ولا يكرهون ذلك . وقال قتادة : إذا دخلت بيت صديقك فلا بأس أن تأكل بغير إذنه .

وقوله : ﴿ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَأْكُلُوا جَمِيعًا أَوْ أَشْتَاتًا ﴾ قال ابن عباس فى هذه الآية : وذلك لما أنزل الله : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُم بَيْنَكُم بِالْبَاطِلِ ﴾ [النساء : ٢٩] ، قال المسلمون : إن الله قد نهانا أن نأكل أموالنا بيننا بالباطل ، والطعام هو أفضل من الأموال ، فلا يحل لأحد منا أن يأكل عند أحد . فكف الناس عن ذلك ، فانزل الله : ﴿ لَيْسَ عَلَى الْأَعْمَى ﴾ إلى قوله : ﴿ أَوْ صَدِيقِكُمْ ﴾ . وكانوا أيضاً يأنفون ويتخرجون أن يأكل الرجل الطعام وحده ، حتى يكون معه غيره ، فرخص الله لهم فى ذلك ، فقال : ﴿ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَأْكُلُوا جَمِيعًا أَوْ أَشْتَاتًا ﴾ . فهذه رخصة من الله تعالى فى أن يأكل الرجل وحده ، ومع الجماعة ، وإن كان الأكل مع الجماعة أفضل وأبرك ، كما رواه الإمام أحمد

(١) المسند (٦٦٧٨) وقال الشيخ أحمد شاكر : « إسناده صحيح » وأبو داود (٣٥٣٠) وابن ماجه (٢٢٩٢) .

عن وَحْشَى بْنِ حَرْبٍ، عن أبيه، عن جده؛ أن رجلاً قال للنبي ﷺ: «إنا نأكل ولا نشبع». قال: «فلعلكم تأكلون متفرقين، اجتمعوا على طعامكم، واذكروا اسم الله يبارك لكم فيه» (١).

وقوله: ﴿فَإِذَا دَخَلْتُمْ بُيُوتًا فَسَلِّمُوا عَلَى أَنْفُسِكُمْ﴾ قال سعيد بن جبير، والحسن البصرى: فليسلم بعضهم على بعض. وقال جابر بن عبد الله: إذا دخلت على أهلك، فسلم عليهم تحية من عند الله مباركة طيبة. وقال مجاهد: إذا دخلت المسجد فقل: السلام على رسول الله. وإذا دخلت على أهلك فسلم عليهم، وإذا دخلت بيتاً ليس فيه أحد فقل: السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين.

وقوله: ﴿تَحِيَّةٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مَبَارَكَةٌ طَيِّبَةٌ﴾ عن ابن عباس أنه كان يقول: ما أخذت التشهد إلا من كتاب الله، سمعت الله يقول: ﴿فَإِذَا دَخَلْتُمْ بُيُوتًا فَسَلِّمُوا عَلَى أَنْفُسِكُمْ تَحِيَّةٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مَبَارَكَةٌ طَيِّبَةٌ﴾. وقوله: ﴿كَذَلِكَ يَبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾: لما ذكر تعالى ما فى هذه السورة الكريمة من الأحكام المحكمة والشرائع المتقنة المبرمة، نبه تعالى على أنه يبين لعباده الآيات بياناً شافياً، ليتدبروها ويتعللوا لعلمهم يعقلون.

﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَإِذَا كَانُوا مَعَهُ عَلَى أَمْرٍ جَامِعٍ لَمْ يَذْهَبُوا حَتَّى يَسْتَأْذِنُوهُ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ أُولَئِكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ فَإِذَا أَسْتَأْذَنُوكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ فَأَذَنَ لِمَنْ شِئْتَ مِنْهُمْ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ اللَّهُ إِنَّكَ اللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾

وهذا أيضاً أدب أرشد الله عباده المؤمنين إليه، فكما أمرهم بالاستئذان عند الدخول، كذلك أمرهم بالاستئذان عند الانصراف - لا سيما إذا كانوا فى أمر جامع مع الرسول ﷺ من صلاة جمعة أو عيد أو جماعة، أو اجتماع فى مشورة ونحو ذلك - أمرهم الله تعالى ألا يفرقوا عنه والحالة هذه إلا بعد استئذانه ومشاورته. وإن من يفعل ذلك فإنه من المؤمنين الكاملين. ثم أمر رسوله ﷺ إذا استأذنه أحد منهم فى ذلك أن يأذن له، إن شاء؛ ولهذا قال: ﴿فَأَذَنَ لِمَنْ شِئْتَ مِنْهُمْ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمْ﴾ الآية. وقد روى أبو داود عن أبى هريرة، قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا انتهى أحدكم إلى المجلس فليسلم، فإذا أراد أن يقوم فليسلم، فليست الأولى بأحق من الآخرة». وهكذا رواه الترمذى والنسائى، وقال الترمذى: حسن (٢).

﴿لَا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُمْ بَعْضًا قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الَّذِينَ يَسْتَلْطُونَ مِنْكُمْ لِيُؤَاذِنُوا فَالْحَضَرَ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾

(١) المسند (٣ / ٥٠١) وأبو داود (٣٧٦٤) وابن ماجه (٣٢٨٦) وصححه الالبانى.

(٢) أبو داود (٥٢٠٨) والترمذى (٢٧٠٦) والنسائى فى الكبرى (١٠٢٠١) وصححه الالبانى.

قال ابن عباس : كانوا يقولون : يا محمد ، يا أبا القاسم ، فنهاهم الله عز وجل ، عن ذلك ، إعظاماً لنبية ﷺ . قال : فقالوا : يا رسول الله ، يا نبى الله . وهكذا قال مجاهد ، وسعيد بن جبير . وقال قتادة : أمر الله أن يهاب نبيه ﷺ ، وأن يُجَلَّ وأن يعظم وأن يسود . هذا قول . وهو الظاهر من السياق ، كما قال تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقُولُوا رَاعِنَا وَقُولُوا انظُرْنَا وَاسْمَعُوا ﴾ [البقرة : ١٠٤] ، وقال : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ﴾ إلى قوله : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ ينادونك من وراء الحجرات أكثرهم لا يعقلون . ولو أنهم صبروا حتى تخرج إليهم لكان خيراً لهم ﴾ [الحجرات : ٢ - ٥] . فهذا كله من باب الأدب فى مخاطبة النبى ﷺ والكلام معه وعنده كما أمروا بتقديم الصدقة قبل مناجاته . والقول الثانى فى ذلك : أن المعنى : لا تعتقدوا أن دعاءه على غيره كدعاء غيره ، فإن دعاءه مستجاب ، فاحذروا أن يدعو عليكم فتهلكوا . حكاه ابن أبى حاتم ، عن ابن عباس ، والحسن البصرى ، وعطية العوفى ، والله أعلم .

وقوله : ﴿ قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الَّذِينَ يَسْتَلُونَ مِنْكُمْ لَوْ آذًا ﴾ قال مقاتل بن حيان : هم المنافقون ، كان ينقل عليهم الحديث فى يوم الجمعة - ويعنى بالحديث الخطبة - فيلذون ببعض أصحاب محمد ﷺ حتى يخرجوا من المسجد ، وكان لا يصلح للرجل أن يخرج من المسجد إلا بإذن من النبى ﷺ فى يوم الجمعة ، بعدما يأخذ فى الخطبة ، وكان إذا أراد أحدهم الخروج أشار بإصبعه إلى النبى ﷺ ، فيأذن له من غير أن يتكلم الرجل ، لأن الرجل منهم كان إذا تكلم والنبى ﷺ يخطب ، بطلت جمعته . قال السدى : كانوا إذا كانوا معه فى جماعة ، لاذ بعضهم ببعض ، حتى يتغيبوا عنه ، فلا يراهم . وقال قتادة فى قوله : ﴿ قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الَّذِينَ يَسْتَلُونَ مِنْكُمْ لَوْ آذًا ﴾ يعنى : لو آذا عن نبى الله وعن كتابه . وقال سفيان : ﴿ قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الَّذِينَ يَسْتَلُونَ مِنْكُمْ لَوْ آذًا ﴾ ، قال : من الصف . وقال مجاهد فى الآية : ﴿ لَوْ آذًا ﴾ : خلافاً .

وقوله : ﴿ فليحذر الذين يخالفون عن أمره ﴾ أى : عن أمر رسول الله ﷺ ، وهو سبيله ومنهاجه وطريقته وشريعته فتوزن الأقوال والأعمال بأقواله وأعماله ، فما وافق ذلك قبل ، وما خالفه فهو مردود على قائله وفاعله ، كائنا ما كان ، كما ثبت فى الصحيحين وغيرهما ، عن رسول الله ﷺ أنه قال : « من عمل عملاً ليس عليه أمرنا فهو رد » (١) . أى : فليحذر وليخش من خالف شريعة الرسول باطناً أو ظاهراً ﴿ أن تصيبهم فتنة ﴾ أى : فى قلوبهم ، من كفر أو نفاق أو بدعة ، ﴿ أو يصيبهم عذاب أليم ﴾ أى : فى الدنيا ، بقتل ، أو حد ، أو حبس ، أو نحو ذلك . روى الإمام أحمد عن أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « مثلى ومثلكم كمثلى رجل استوقد ناراً ، فلما أضاءت ما حولها ، جعل الفراش وهذه الدواب اللاتى يقعن فى النار يقعن فيها ، وجعل يحجزهن ويغلبهن ويتقحمن فيها » قال : « فذلك مثلى ومثلكم ، أنا آخذ بحجزكم

عن النار هلم عن النار ، فتغلبوني وتقتحمون فيها . أخرجه (١).

﴿ أَلَا إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمٰوٰتِ وَالْأَرْضِ قَدْ يَعْلَمُ مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ وَيَوْمَ رُجِعْتُمْ إِلَيْهِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا عَمِلْتُمْ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ [٦٤]

يخبر تعالى أنه مالك السموات والأرض ، وأنه عالم الغيب والشهادة ، وهو عالم بما العباد عاملون في سرهم وجهرهم ، فقال: ﴿ قَدْ يَعْلَمُ مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ ﴾ و « قد » للتحقيق ، كما قال قلبها: ﴿ قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الَّذِينَ يَسْتَلُونَ مِنْكُمْ لَوْ آذًا ﴾ ، وقال تعالى: ﴿ قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الْمُعْرِضِينَ مِنْكُمْ وَالْقَائِلِينَ لِإِخْوَانِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنَا ﴾ [الاحزاب : ١٨] . وقال تعالى: ﴿ قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ ﴾ [المجادلة : ١] : وقال: ﴿ قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لِيَحِزَنَّكَ الَّذِي يَقُولُونَ إِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴾ [الانعام : ٣٣] ، وقال: ﴿ قَدْ نَرَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ فَلَنُوَكِّلَنَّكَ قِبَلَهُ تَرْضَاهَا ﴾ [البقرة : ١٤٤] . فكل هذه الآيات فيها تحقيق الفعل بـ « قد » ، كما يقول المؤذن تحقيقًا وثبوتًا: « قد قامت الصلاة ، قد قامت الصلاة »: فقولته تعالى: ﴿ قَدْ يَعْلَمُ مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ ﴾ أى: هو عالم به ، مشاهد له ، لا يعزب عنه مثقال ذرة ، كما قال تعالى: ﴿ وَتَوَكَّلْ عَلَى الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ . الَّذِي يَرَاكَ حِينَ تَقُومُ . وَتَقَلِّبُكَ فِي السَّجْدِينَ . إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾ [الشعراء : ٢١٧ - ٢٢٠] . وقال: ﴿ وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُو مِنْهُ مِنْ قُرْآنٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ وَمَا يَعْزُبُ عَنْ رَبِّكَ مِنْ مِثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَلَا أَصْغَرَ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ ﴾ [يونس : ٦١] وقال تعالى: ﴿ أَفَمَنْ هُوَ قَائِمٌ عَلَى كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ ﴾ [الرعد : ٣٣] أى: هو شهيد على عبادهم بما هم فاعلون من خير وشر . وقال تعالى: ﴿ أَلَا حِينَ يَسْتَفْشُونَ ثِيَابَهُمْ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴾ [هود: ٥] وقال تعالى: ﴿ سَوَاءٌ مِنْكُمْ مَنْ أَسْرَ الْقَوْلَ وَمَنْ جَهَرَ بِهِ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍ بِاللَّيْلِ وَسَارِبٌ بِالنَّهَارِ ﴾ [الرعد: ١٠]: وقال تعالى: ﴿ وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقْرَمًا وَمُسْتَوْدَعًا كُلٌّ فِي كِتَابٍ مُبِينٍ ﴾ [هود : ٦] ، وقال: ﴿ وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٌ فِي ظِلْمَاتِ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٌ وَلَا يَابِسٌ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ ﴾ [الانعام : ٥٩] . والآيات والأحاديث فى هذا كثيرة جدًا .

وقوله: ﴿ وَيَوْمَ يُرْجَعُونَ إِلَيْهِ ﴾ أى: ويوم يرجع الخلائق إلى الله - وهو يوم القيامة ﴿ فَيُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا ﴾ أى: يخبرهم بما فعلوا فى الدنيا ، من جليل وحقيق ، وصغير وكبير ، كما قال تعالى: ﴿ يَبْنِئُ الْإِنْسَانَ يَوْمَئِذٍ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ ﴾ [القيامة : ١٣] . وقال: ﴿ وَوَضِعَ الْكِتَابَ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُسْتَغْفِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَا وَيْلَتَنَا مَا لِهَذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلَا يَظُنُّ رَبُّكَ أَحَدًا ﴾ [الكهف : ٤٩] . ولهذا قال هاهنا: ﴿ وَيَوْمَ يُرْجَعُونَ إِلَيْهِ فَيُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ والحمد لله رب العالمين .

تفسير سورة الفرقان

وهي مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا ﴾ ﴿١﴾ الَّذِي لَهُ مُلْكُ رُبْعِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَمْ يَخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمَلِكِ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَرَهُ نَقْدِيرًا ﴿٢﴾

يقول تعالى حامداً لنفسه الكريمة على ما نزله على رسوله الكريم من القرآن العظيم، كما قال تعالى : ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ عِوَجًا . قِيمًا لِيُنذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِمَّنْ لَدُنْهُ وَيُنشِرَ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَمْشُونَ الصَّالِحَاتِ ﴾ الآية [الكهف : ١ - ٣] . وقال ههنا : ﴿ تَبَارَكَ ﴾ ، وهو تفاعل من البركة المستقرة الدائمة الثابتة ﴿ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ ﴾ نزل : فَعَلٌ ، من التكرار والتكثير ، كما قال : ﴿ وَالْكِتَابَ الَّذِي نَزَّلَ عَلَى رَسُولِهِ وَالْكِتَابَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنْ قَبْلُ ﴾ [النساء : ١٣٦] ؛ لأن الكتب المتقدمة كانت تنزل جملة واحدة ، والقرآن نزل منجماً مفزلاً ، آيات بعد آيات ، وأحكاماً بعد أحكام ، وسوراً بعد سور . وهذا أشد وأبلغ ، وأشد اعتناء بمن أنزل عليه ، كما قال في أثناء هذه السورة : ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلًا . وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا ﴾ [الفرقان : ٣٢ ، ٣٣] . ولهذا سماه ههنا الفرقان ؛ لأنه يفرق بين الحق والباطل ، والهدى والضلال ، والغي والرشاد ، والحلال والحرام .

وقوله : ﴿ عَلَى عَبْدِهِ ﴾ : هذه صفة مدح وثناء ؛ لأنه أضافه إلى عبوديته ، كما وصفه بها في أشرف أحواله ، وهي ليلة الإسراء ، فقال : ﴿ سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا ﴾ [الإسراء : ١] ، وكما وصفه بذلك في مقام الدعوة إليه : ﴿ وَأَنَّهُ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُوا يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا ﴾ [الجن : ١٩] ، وكذلك وصفه عند إنزال الكتاب عليه ونزول الملك إليه ، فقال : ﴿ تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا ﴾ . وقوله : ﴿ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا ﴾ أي : إنما خصه بهذا الكتاب العظيم المبين المفصل المحكم الذي ﴿ لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴾ [فصلت : ٤٢] ، الذي جعله فرقاناً عظيماً - إنما خصه به ليخصه بالرسالة إلى من يستظل بالخضراء ، ويستقل على الغبراء ، كما قال ﷺ : « بعثت إلى الأحمر والأسود » (١) . وقال : « أعطيت خمسا لم يعطهن أحد من الأنبياء قبلي » ، فذكر منهن : أنه « كان النبي يبعث إلى قومه خاصة وبعثت إلى الناس عامة » (٢) ، وقال الله تعالى : ﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ﴾ الآية [الاعراف : ١٥٨] ، أي : الذي أرسلني هو مالك السموات والأرض ، الذي يقول للشئ كن

فيكون. وهو الذى يحيى ويميت، وهكذا قال ههنا: ﴿الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ﴾، فنزّه نفسه عن الولد، وعن الشريك. ثم أخبر أنه: ﴿خَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَرَهُ تَقْدِيرًا﴾ أى: كل شيء مما سواه مخلوق مربوب، وهو خالق كل شيء وربّه ومليكه وإلهه، وكل شيء تحت قهره، وتدييره وتقديره.

﴿وَأَتَّخِذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً لَا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ وَلَا يَمْلِكُونَ لِأَنْفُسِهِمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا حَيَاةً وَلَا نُشُورًا﴾ ﴿١٩﴾

يخبر تعالى عن جهل المشركين فى اتخاذهم آلهة من دون الله، الخالق لكل شيء، المالك لازمة الأمور، الذى ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن، ومع هذا عبدوا معه من الأصنام ما لا يقدر على خلق جناح بعوضة، بل هم مخلوقون، ولا يملكون لأنفسهم ضراً ولا نفعاً، فكيف يملكون لعباديتهم؟ ﴿وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا حَيَاةً وَلَا نُشُورًا﴾ أى: ليس لهم من ذلك شيء، بل ذلك مرجعه كله إلى الله عز وجل، الذى هو يحيى ويميت، وهو الذى يعيد الخلائق يوم القيامة أولهم وآخرهم، ﴿مَا خَلَقَكُمْ وَلَا يَحْيِيكُمْ إِلَّا نُفُوسٌ وَاحِدَةٌ﴾ [لقمان: ٢٨]، ﴿وَمَا أَمَرْنَا إِلَّا وَاحِدَةً كَلِمَةً بِالْبَصْرِ﴾ [القمر: ٥٠]، ﴿إِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ. فَإِذَا هُم بِالسَّاهِرَةِ﴾ [النارعات: ١٣، ١٤]، ﴿إِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ فَإِذَا هُم يَنْظُرُونَ﴾ [الصفافات: ١٩]، ﴿إِنْ كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُم جَمِيعٌ لَدَيْنا مُحْضَرُونَ﴾ [يس: ٥٣]، فهو الله الذى لا إله غيره ولا رب سواه، ولا تنبغى العبادة إلا له؛ لأنه ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن. وهو الذى لا ولد له ولا والد، ولا عدل ولا نديد ولا وزير ولا نظير، بل هو الأحد الصمد، الذى لم يلد ولم يولد، ولم يكن له كفواً أحد.

﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا إِفْكٌ افْتَرَاهُ وَأَعَانَهُ عَلَيْهِ قَوْمٌ آخَرُونَ فَقَدْ جَاءُوا ظُلْمًا وَزُورًا﴾ ﴿٢٠﴾ وَقَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ أَكْتَتَبَهَا فِيهِ تَمَلَّى عَلَيْهِ بُكْرَةٌ وَأَصِيلًا ﴿٢١﴾ قُلْ أَنْزَلَهُ الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا ﴿٢٢﴾

يقول تعالى مخبراً عن سخافة عقول الجهلة من الكفار، فى قولهم عن القرآن: ﴿إِنْ هَذَا إِلَّا إِفْكٌ﴾ أى: كذب ﴿افْتَرَاهُ﴾ يعنون: النبى ﷺ، ﴿وَأَعَانَهُ عَلَيْهِ قَوْمٌ آخَرُونَ﴾ أى: واستعان على جمعه بقوم آخرين، قال الله تعالى: ﴿فَقَدْ جَاءُوا ظُلْمًا وَزُورًا﴾ أى: فقد افتروا هم قولاً باطلاً، هم يعلمون أنه باطل، ويعرفون كذب أنفسهم فيما يزعمون.

﴿وَقَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ أَكْتَتَبَهَا﴾ يعنون: كتب الأوائل استنسخها، ﴿فِيهِ تَمَلَّى عَلَيْهِ﴾ أى: تُقرأ عليه ﴿بُكْرَةٌ وَأَصِيلًا﴾ أى: فى أول النهار وآخره. وهذا الكلام - لسخافته وكذبه وبهته منهم - كل أحد يعلم بطلانه، فإنه قد علم بالتواتر وبالضرورة: أن محمداً رسول الله لم يكن يعانى شيئاً من الكتابة، لا فى أول عمره ولا فى آخره، وقد نشأ بين أظهرهم من أول مولده إلى أن بعثه الله نحواً من أربعين سنة، وهم يعرفون مدخله ومخرجه، وصدقه، وبره وأمانته

ونزاهته من الكذب والفجور وسائر الأخلاق الرذيلة ، حتى إنهم لم يكونوا يسمونه فى صغره إلى أن بعث إلا الأمين ، لما يعلمون من صدقه وبره . فلما أكرمه الله بما أكرمه به ، نصبوا له العداوة ، ورموه بهذه الأقوال التى يعلم كل عاقل براءته منها ، وحاروا ماذا يقذفونه به ، فتارة من إنفكهم يقولون : ساحر ، وتارة يقولون : شاعر ، وتارة يقولون : مجنون ، وتارة يقولون : كذاب ، قال الله تعالى : ﴿ أَنْظِرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثَالَ فَضَلُّوا فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا ﴾ [الإسراء : ٤٨] .

وقال تعالى فى جواب ما عاندوا ها هنا وافتروا : ﴿ قُلْ أَنْزَلَهُ الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ أى : أنزل القرآن المشتمل على أخبار الأولين والآخرين إخباراً حقاً صدقاً مطابقاً للواقع فى الخارج ، ماضياً ومستقبلاً ﴿ أَنْزَلَهُ الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ ﴾ أى : الله الذى يعلم غيب السموات والأرض ، ويعلم السرائر كعلمه بالظواهر . وقوله : ﴿ إِنَّهُ كَانَ غَفُوراً رَحِيماً ﴾ : دعاء لهم إلى التوبة والإنابة ، وإخبار بأن رحمته واسعة ، وأن حلمه عظيم ، وأن من تاب إليه تاب عليه . فهؤلاء مع كذبهم وافترائهم وفجورهم وبهتهم وكفرهم وعنادهم ، وقولهم عن الرسول والقرآن ما قالوا ، يدعوهم إلى التوبة والإقلاع عما هم فيه إلى الإسلام والهدى ، كما قال تعالى : ﴿ لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَلَاثَةٌ وَنَا مِنْ آلِهِ إِلَهٌ وَاحِدٌ وَإِنْ لَمْ يَنْهَوا عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى اللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ [المائدة : ٧٣ ، ٧٤] ، وقال تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ فَتَنُوا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ لَمْ يَكُنْ لَهُمْ فِيهِمْ جَنَّةٌ بَدَلًا مِنْ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ [البروج : ١٠] ، قال الحسن البصرى : انظروا إلى هذا الكرم والجود ، قتلوا أولياءه وهو يدعوهم إلى التوبة والرحمة .

﴿ وَقَالُوا مَا لِيَ هَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ لَوْلَا أَنْزَلَ إِلَيْنَا مَلَكٌ فَيَكُونُ مَعَهُ نَذِيرًا ﴾ ﴿٧﴾ أَوْ يُلْقَىٰ إِلَيْنَا كَنْزٌ أَوْ تَكُونُ لَهُمْ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا وَقَالَ الظَّالِمُونَ إِنَّا تَسْتَعْتُونَ إِلَّا رَجُلًا مَسْحُورًا ﴿٨﴾ أَنْظِرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثَالَ فَضَلُّوا فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا ﴿٩﴾ تَبَارَكَ الَّذِي إِنْ شَاءَ جَعَلَ لَكَ خَيْرًا مِنْ ذَلِكَ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَيَجْعَلُ لَكَ قُصُورًا ﴿١٠﴾ بَلْ كَذَّبُوا بِالسَّاعَةِ وَأَعْتَدْنَا لِمَنْ كَذَّبَ بِالسَّاعَةِ سَعِيرًا ﴿١١﴾ إِذَا رَأَيْتَهُمْ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ سَمِعُوا لَهَا تَغَيُّظًا وَزَفِيرًا ﴿١٢﴾ وَإِذَا أَلْقَا مِنَهَا مَكَانًا ضَيِّقًا مُقَرَّبِينَ دَعَوْا هُنَالِكَ ثُبُورًا ﴿١٣﴾ لَا تَدْعُوا الْيَوْمَ ثُبُورًا وَجِدًّا وَادْعُوا ثُبُورًا كَثِيرًا ﴿١٤﴾

يخبر تعالى عن تعنت الكفار وعنادهم ، وتكذيبهم للحق بلا حجة ولا دليل منهم ، وإنما تعللوا بقوله : ﴿ مَا لِهَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ ﴾ يعنون : كما نأكله ، ويحتاج إليه كما نحتاج ﴿ وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ ﴾ ، أى : يتردد فيها وإليها طلباً للتكسب والتجارة ، ﴿ لَوْلَا أَنْزَلَ إِلَيْنَا مَلَكٌ فَيَكُونُ مَعَهُ نَذِيرًا ﴾ يقولون : هلا أنزل إليه ملك من عند الله ، فيكون له شاهداً على صدق ما يدعيه ! وهذا كما قال فرعون : ﴿ فَلَوْلَا أَلْقَىٰ عَلَيْهِ آسُورَةٌ مِنْ ذَهَبٍ أَوْ جَاءَ مَعَهُ الْمَلَائِكَةُ مُقَرَّرِينَ ﴾ [الزخرف : ٥٣] . وكذلك قال هؤلاء على السواء تشابهت قلوبهم ؛ ولهذا قال : ﴿ أَوْ يُلْقَىٰ إِلَيْنَا كَنْزٌ ﴾ أى : علم كنت ينفق

منه ، ﴿ أَوْ تَكُونُ لَهُ جَنَّةً يَأْكُلُ مِنْهَا ﴾ أى : تسير معه حيث سار . وهذا كله سهل يسير على الله ، ولكن الحكمة فى ترك ذلك ، وله الحجة البالغة . ﴿ وَقَالَ الظَّالِمُونَ إِن تَبُوءُونَ إِلَّا رَجُلًا مُّسْحُورًا ﴾ .

قال الله تعالى : ﴿ انظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثَالَ ﴾ أى : جاؤوا بما يقذفونك به ويكذبون به عليك ، من قولهم: « ساحر ، مسحور ، مجنون ، كذاب ، شاعر » . وكلها أقوال باطلة ، كل أحد ممن له أدنى فهم وعقل يعرف كذبهم وافتراءهم فى ذلك . ولهذا قال: ﴿ فَضَلُّوا ﴾ أى : عن طريق الهدى ، ﴿ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا ﴾ وذلك لأن كل من خرج عن الحق فإنه ضال حيثما توجه ؛ لأن الحق واحد ومنهج متحد ، يُصَدِّقُ بعضه بعضاً .

ثم قال تعالى مخبراً نبيه أنه لو شاء لآتاه خيراً مما يقولون فى الدنيا وأفضل وأحسن ، فقال : ﴿ تَبَارَكَ الَّذِي إِنْ شَاءَ جَعَلَ لَكَ خَيْرًا مِنْ ذَلِكَ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَيَجْعَلُ لَكَ قُصُورًا ﴾ . قال مجاهد : يعنى فى الدنيا ، قال : وقريش يسمون كل بيت من حجارة قصراً سواء كان كبيراً أو صغيراً . وقوله : ﴿ بَلْ كَذَّبُوا بِالسَّاعَةِ ﴾ أى : إنما يقول هؤلاء هكذا تكذيباً وعناداً ، لا أنهم يطلبون ذلك تبصراً واسترشادا ، بل تكذيبهم بيوم القيامة يحملهم على قول ما يقولونه من هذه الأقوال ، ﴿ وَأَعْتَدْنَا ﴾ أى : وأرصدنا ﴿ لِمَنْ كَذَّبَ بِالسَّاعَةِ سَعِيرًا ﴾ أى : عذاباً أليماً حاراً لا يطاق فى نار جهنم . وقال سعيد بن جبير: « السعير » : واد من فيح جهنم .

وقوله: ﴿ إِذَا رَأَيْتَهُمْ ﴾ أى: جهنم ﴿ مِنْ مَّكَانٍ بَعِيدٍ ﴾ ، يعنى: فى مقام المحشر . قال السدى : من مسيرة مائة عام ﴿ سَمِعُوا لَهَا تَغِيظًا وَزَفِيرًا ﴾ أى: حنقاً عليهم ، كما قال تعالى: ﴿ إِذَا أُلْقُوا فِيهَا سَمِعُوا لَهَا شَهيقًا وَهِيَ تَفُورٌ . تَكَادُ تَمَيِّزُ مِنَ الْغَيْظِ ﴾ [الملك : ٧ ، ٨] ، أى يكاد ينفصل بعضها من بعض ، من شدة غيظها على من كفر بالله . عن ابن عباس قال : إن الرجل ليُجْرَّ إلى النار ، فتنزوى وتنقبض بعضها إلى بعض ، فيقول لها الرحمن: مالك ؟ قالت : إنه يستجير منى . فيقول : أرسلوا عبدى . وإن الرجل ليُجْرَّ إلى النار ، فيقول : يارب ، ما كان هذا الظن بك؟ فيقول : فما كان ظنك ؟ فيقول : أن تَسْعَى رحمتك . فيقول : أرسلوا عبدى . وإن الرجل ليُجْرَّ إلى النار ، فتشهى إليه النار شهوق البغلة إلى الشعير ، وترفر زفرة لا يبقى أحد إلا خاف . وهذا إسناد صحيح .

وقوله: ﴿ وَإِذَا أُلْقُوا مِنْهَا مَكَانًا ضِيقًا ﴾ قال عبد الله بن عمرو: مثل الزج فى الرمح ، أى: من ضيقه . ﴿ مُقْرَبِينَ ﴾ قال أبو صالح: يعنى: مكتفين ﴿ دَعَا هُنَالِكَ ثُبُورًا ﴾ أى : بالويل والحسرة والخيبة ﴿ لَا تَدْعُوا الْيَوْمَ ثُبُورًا وَاحِدًا وَادْعُوا ثُبُورًا كَثِيرًا ﴾ . وقال ابن عباس: أى: لا تدعوا اليوم ويلاً واحداً ، وادعوا ويلاً كثيراً . وقال الضحاك : الثبور : الهلاك . والأظهر : أن الثبور يجمع الهلاك والويل والحسار والدمار ، كما قال موسى لفرعون: ﴿ وَإِنِّي لَأَظُنُّكَ يَا فِرْعَوْنُ مَثْبُورًا ﴾ [الإسراء: ١٠٢] ، أى: هالكا .

﴿ قُلْ أَدْرَأَيْكُمْ خَيْرٌ أَمْ جَنَّةُ الْخُلْدِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ كَانَتْ لَهُمْ جَزَاءً وَمَصِيرًا

﴿ ١٥ ﴾ لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَاءُونَ خَالِدِينَ كَانَتْ عَلَى رَبِّكَ وَعْدًا مَسْئُورًا ﴿ ١٦ ﴾

يقول تعالى : يا محمد ، هذا الذى وصفناه من حال أولئك الأشقياء ، الذين يحشرون على وجوههم إلى جهنم ، فتلقاهم بوجه عبوس وتغيظ وزفير ، ويلقون فى أماكنها الضيقة مقرنين ، لا يستطيعون حراكا ، ولا انتصارا ولا فكاكا مما هم فيه - : أهذا خير أم جنة الخلد التى وعدنا الله المتقين من عباده ، التى أعدها لهم ، وجعلها لهم جزاء على ما أطاعوه فى الدنيا ، وجعل مآلهم إليها ﴿ لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَاءُونَ ﴾ من الملاذ: من مآكل ومشرب وملابس ومسكن ، ومراكب ومناظر ، وغير ذلك ، مما لآعين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب أحد . وهم فى ذلك خالدون أبدا دائما سرمدا بلا انقطاع ولا زوال ولا انقضاء ، لا يبعثون عنها حولا . وهذا من وعد الله الذى تفضل به عليهم ، وأحسن به إليهم ، ولهذا قال : ﴿ كَانَ عَلَى رَبِّكَ وَعْدًا مُّسْتَوْلًا ﴾ أى : لا بد أن يقع وإن يكون ، كما حكاه أبو جعفر بن جرير عن بعض علماء العربية أن معنى قوله : ﴿ وَعْدًا مُّسْتَوْلًا ﴾ أى : وعدا واجبا . وقال ابن عباس : ﴿ كَانَ عَلَى رَبِّكَ وَعْدًا مُّسْتَوْلًا ﴾ يقول : سلوا الذى وعدتكم - أو قال : واعدناكم نُنجز .

وهذا المقام فى هذه السورة من ذكر النار، ثم التنبيه على حال أهل الجنة ، كما ذكر تعالى فى «سورة الصافات» حال أهل الجنة، وما فيها من النضرة والحبور، ثم قال : ﴿ أَذْكَ خَيْرٌ نُّزُلًا أَمْ شَجَرَةُ الزُّرُّومِ . إِنَّا جَعَلْنَاهَا فِتْنَةً لِلظَّالِمِينَ . إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فى أَصْلِ الْجَحِيمِ . طَلْحُهَا كَأَنَّ رءُوسَ الشَّيَاطِينِ . فَإِنَّهُمْ لَأَكَلُونَ مِنْهَا فَمَا لَئُونٌ مِنْهَا الْبَطُونُ . ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ عَلَيْهَا لَشَوْبًا مِّنْ حَمِيمٍ . ثُمَّ إِنَّ مَرْجِعَهُمْ لِإِلَى الْجَحِيمِ . إِنَّهُمْ أَلْفَوْا آبَاءَهُمْ ضَالِينَ . فَهُمْ عَلَى آثَارِهِمْ يُهْرَعُونَ ﴾ [الصافات: ٦٢ - ٧٠] .

﴿ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَيَقُولُ ءَأَنْتُمْ أَضَلَلْتُمْ عِبَادِى هَؤُلَاءِ أَمْ هُمْ ضَلُّوا السَّبِيلَ ﴾ ﴿١٧﴾ قَالُوا سُبْحَانَكَ مَا كَانَ يَنْبَغِي لَنَا أَنْ نَتَّخِذَ مِنْ دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَاءَ وَلَكِنْ مَتَّعْتَهُمْ وَعِبَاءَهُمْ حَتَّى نَسُوا الذِّكْرَ وَكَانُوا قَوْمًا بُورًا ﴿١٨﴾ فَقَدْ كَذَّبْتُمْ بِمَا تَقُولُونَ فَمَا تَسْتَطِيعُونَ صَرْفًا وَلَا نَصْرًا وَمَنْ يظْلِمِ مِنْكُمْ نُذِقْهُ عَذَابًا كَبِيرًا ﴿١٩﴾

يقول تعالى مخبرا عما يقع يوم القيامة من تقريع الكفار فى عبادتهم من عبدوا من دون الله من الملائكة وغيرهم ، فقال : ﴿ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ ﴾ ، قال مجاهد : عيسى ، والعزير ، والملائكة ﴿ فَيَقُولُ أَنْتُمْ أَضَلَلْتُمْ عِبَادِى هَؤُلَاءِ أَمْ هُمْ ضَلُّوا السَّبِيلَ ﴾ ، أى : يقول الرب تبارك وتعالى للمعبودين : أنتم دعوتهم هؤلاء إلى عبادتكم من دونى ، أم هم عبدوكم من تلقاء أنفسهم ، من غير دعوة منكم لهم ؟ كما قال الله تعالى : ﴿ وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ أَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمَّيى إِلَهَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقِّ إِنْ كُنْتَ قُلْتَهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعَلَّمَ مَا فى نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فى نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ . مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ ﴾ الآية [المائدة : ١١٦ ، ١١٧] . ولهذا قال تعالى مخبرا عما يجيب به المعبودون يوم القيامة : ﴿ قَالُوا سُبْحَانَكَ مَا كَانَ يَنْبَغِي لَنَا أَنْ نَتَّخِذَ مِنْ دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَاءَ ﴾ - قرأ الاكثرون بفتح « النون » من قوله : ﴿ نَتَّخِذَ مِنْ دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَاءَ ﴾

أى : ليس للخلائق كلهم أن يعبدوا أحدا سواك ، لا نحن ولا هم ، فتحن ما دعوناهم إلى ذلك ، بل هم فعلوا ذلك من تلقاء أنفسهم من غير أمرنا ولا رضانا ونحن برآء منهم ومن عبادتهم ، كما قال تعالى : ﴿ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَائِكَةِ أَهْلَاءَ إِبْرَاهِيمَ كَانُوا يَعْبُدُونَ . قَالُوا سُبْحَانَكَ ﴾ الآية [سبأ : ٤٠ ، ٤١] ، وقرأ آخرون : ﴿ مَا كَانَ يَنْبَغِي لَنَا أَنْ نَتَّخِذَ مِنْ دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَاءَ ﴾ ، أى : ما ينبغى لأحد أن يعبدنا ، فإننا عبيد لك ، فقراء إليك . وهى قريبة المعنى من الأولى . ﴿ وَلَكِنْ مَتَّعْتَهُمْ وَأَبَاءَهُمْ ﴾ أى : طال عليهم العمر ﴿ حَتَّى نَسُوا الذِّكْرَ ﴾ أى : نسوا ما أنزلته إليهم على السنة رسلك ، من الدعوة إلى عبادتك وحدك لا شريك لك . ﴿ وَكَانُوا قَوْمًا بُورًا ﴾ قال ابن عباس : أى هلكى . وقال الحسن البصرى ، ومالك عن الزهرى : أى لا خير فيهم .

قال الله تعالى : ﴿ فَقَدْ كَذَّبْتُمْ بِمَا تَقُولُونَ ﴾ أى : فقد كذبكم الذين عبدتكم فيما زعمتم أنهم لكم أولياء ، وأنكم اتخذتموهم قرباناً يقربونكم إليه زلفى ، كما قال تعالى : ﴿ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُو مِنْ دُونِ اللَّهِ مَنْ لَأِ يَسْتَجِيبَ لَهُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَهُمْ عَنِ دُعَائِهِمْ غَافِلُونَ . وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءً وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ ﴾ [الاحقاف : ٥ ، ٦] . وقوله : ﴿ فَمَا تَسْتَطِيعُونَ صَرْفًا وَلَا نَصْرًا ﴾ أى : لا يقدرون على صرف العذاب عنهم ولا الانتصار لأنفسهم ، ﴿ وَمَنْ يَظْلِمِ مَنكُمُ ﴾ أى : يشرك بالله ﴿ نُذِقْهُ عَذَابًا كَبِيرًا ﴾ .

﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِي الْأَسْوَاقِ وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَنْتَصِرُونَ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا ﴾

يقول تعالى مخبراً عن جميع من بعثه من الرسل المتقدمين : أنهم كانوا يأكلون الطعام ، ويحتاجون إلى التغذية به ﴿ وَيَمْشُونَ فِي الْأَسْوَاقِ ﴾ للتكسب والتجارة ، وليس ذلك بمناف لحالهم ومنصبهم ، فإن الله جعل لهم من السمات الحسنة ، والصفات الجميلة ، والأقوال الفاضلة ، والأعمال الكاملة ، والخوارق الباهرة ، والأدلة القاهرة ، ما يستدل به كل ذى لب سليم ، وبصيرة مستقيمة ، على صدق ما جاؤوا به من الله عز وجل . ونظير هذه الآية الكريمة قوله تعالى : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رَجَالًا نُوحِي إِلَيْهِمْ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى ﴾ [يوسف : ١٠٩] ، ﴿ وَمَا جَعَلْنَاهُمْ جَسَدًا لَأَيَّاكُلُونَ الطَّعَامَ وَمَا كَانُوا خَالِدِينَ ﴾ [الأنبياء : ٨] .

وقوله : ﴿ وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَنْتَصِرُونَ ﴾ أى : اخترنا بعضهم ببعض ، وبلونا بعضهم ببعض ، لنعلم من يطيع عن يعصى ، ولهذا قال : ﴿ أَنْتَصِرُونَ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا ﴾ أى : يمين يستحق أن يوحى إليه ، كما قال تعالى : ﴿ اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ ﴾ [الانعام : ١٢٤] ، ومن يستحق أن يهديه الله لما أرسلهم به ، ومن لا يستحق ذلك . وقال محمد بن إسحاق فى قوله : ﴿ وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَنْتَصِرُونَ ﴾ قال : يقول الله : لو شئت أن أجعل الدنيا مع رسلى فلا يخالفون ، لفعلت ، ولكنى قد أردت أن ابتلى العباد بهم ، وأبتليهم بهم .

وفى صحيح مسلم عن عياض بن حمار، عن رسول الله ﷺ : « يقول الله : إني مُبتليك ومُبتل بك » (١). وفى الصحيح أنه - عليه أفضل الصلاة والسلام - خير بين أن يكون نبياً ملكاً أو عبداً رسولاً (٢) ، فاختار أن يكون عبداً رسولاً .

الجزء

١٩

﴿ وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْنَا الْمَلَائِكَةُ أَوْ نَرَى رَبَّنَا لَقَدِ اسْتَكْبَرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ وَعَتَوْا عُتْوًا كَبِيرًا ﴿١١﴾ يَوْمَ يَرَوْنَ الْمَلَائِكَةَ لَا بُشْرَى يَوْمَئِذٍ لِلْمُجْرِمِينَ وَيَقُولُونَ حِجْرًا مَحْجُورًا ﴿١٢﴾ وَقَدِمْنَا إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُورًا ﴿١٣﴾ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا ﴿١٤﴾ ﴾

يقول تعالى مخبراً عن تَعَنَّتْ الكفار فى كفرهم ، وعنادهم فى قولهم : ﴿ لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْنَا الْمَلَائِكَةُ ﴾ أى : بالرسالة كما نزل على الانبياء ، كما أخبر عنهم تعالى فى الآية الأخرى : ﴿ قَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ حَتَّى تُنزِلَ عَلَيْنَا مِثْلَ مَا أَنْزِلَ رَسُولُ اللَّهِ ﴾ [الانعام : ١٢٤] ، ويحتمل أن يكون مرادهم ههنا : ﴿ لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْنَا الْمَلَائِكَةُ ﴾ فتراهم عياناً ، فيخبرونا أن محمداً رسول الله ، كقولهم : ﴿ أَوْ تَأْتِي بِاللَّهِ وَالْمَلَائِكَةُ قَبِيلًا ﴾ [الإسراء : ٩٢] . وقد تقدم تفسيرها فى « سورة سبحان » ، ولهذا قال : ﴿ أَوْ نَرَى رَبَّنَا ﴾ ؛ ولهذا قال الله تعالى : ﴿ لَقَدْ اسْتَكْبَرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ وَعَتَوْا عُتْوًا كَبِيرًا ﴾ . وقد قال تعالى : ﴿ وَلَوْ أَنَّا نَزَّلْنَا إِلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ الْمَوْتَى وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قَبْلًا مَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ وَلَكِنْ أَكْثَرُهُمْ يَجْهَلُونَ ﴾ [الانعام : ١١١] .

وقوله : ﴿ يَوْمَ يَرَوْنَ الْمَلَائِكَةَ لَا بُشْرَى يَوْمَئِذٍ لِلْمُجْرِمِينَ وَيَقُولُونَ حِجْرًا مَحْجُورًا ﴾ أى : هم لا يرون الملائكة فى يوم خير لهم ، بل يوم يرون الملائكة لا بشرى يومئذ لهم ، وذلك يصدق على وقت الاحتضار حين تبشرهم الملائكة بالنار، وغضب الجبار ، فتقول الملائكة للكافر عند خروج روحه : اخرجى أيتها النفس الخبيثة فى الجسد الخبيث ، اخرجى إلى سموم وحميم ، وظل من يحموم . فتأبى الخروج وتفرق فى البدن ، فيضربونه ، كما قال الله تعالى : ﴿ وَلَوْ تَرَى إِذِ يَتَوَلَّى الَّذِينَ كَفَرُوا الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ ﴾ [الانفال : ٥٠] . وقال : ﴿ وَلَوْ تَرَى إِذِ الظَّالِمُونَ فِي غَمْرَاتِ الْمَوْتِ وَالْمَلَائِكَةُ بَاسِطُوا أَيْدِيَهُمْ ﴾ ، أى : بالضرب ، ﴿ أَخْرَجُوا أَنْفُسَكُمْ الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنْتُمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ وَكُنْتُمْ عَنْ آيَاتِهِ تَسْتَكْبِرُونَ ﴾ [الانعام : ٩٣] . ولهذا قال فى هذه الآية الكريمة : ﴿ يَوْمَ يَرَوْنَ الْمَلَائِكَةَ لَا بُشْرَى يَوْمَئِذٍ لِلْمُجْرِمِينَ ﴾ ، وهذا بخلاف حال المؤمنين فى وقت احتضارهم ، فإنهم يشرون بالخيرات ، وحصول المسرات . قال الله تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ . نَحْنُ أَوْلِيَاؤُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهُى أَنْفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدْعُونَ . نَزَّلْنَا مِنْ غُفُورٍ رَحِيمٍ ﴾ [فصلت : ٣٠ - ٣٢] .

وفى الحديث الصحيح عن البراء بن عازب : أن الملائكة تقول لروح المؤمن : « اخرجى أيتها

(١) مسلم (٢٨٦٥ / ٦٣) . (٢) المسند (٧١٦٠) وقال الشيخ أحمد شاكر : « إسناده صحيح »

النفس الطيبة فى الجسد الطيب، كنت تعمريته، اخرجى إلى روح وريحان ورب غير غضبان .
وقد تقدم الحديث فى سورة « إبراهيم » . عند قوله تعالى : ﴿ يَثْبُتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ وَيَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ ﴾ [الآية : ٢٧] . وقال آخرون : بل المراد بقوله : ﴿ يَوْمَ يَرَوْنَ الْمَلَائِكَةَ ﴾ يعنى : يوم القيامة ، قاله مجاهد ، والضحاك ، وغيرهما . ولا منافاة بين هذا وبين ما تقدم ، فإن الملائكة فى هذين اليومين يوم الممات ويوم المعاد تتجلى للمؤمنين وللكافرين ، فتبشر المؤمنين بالرحمة والرضوان ، وتخبّر الكافرين بالخيبة والخسران ، فلا بشرى يومئذ للمجرمين .

﴿ وَيَقُولُونَ حِجْرًا مَّحْجُورًا ﴾ أى : وتقول الملائكة للكافرين حَرَامٌ محرم عليكم الفلاح اليوم . وأصل « الحجر » : المنع ، ومنه يقال : حَجَرَ القاضى على فلان ، إذا منعه التصرف إما لسفَهه ، أو فقس ، أو صغر ، أو نحو ذلك . ومنه سُمى « الحجر » عند البيت الحرام ؛ لأنه يمنع الطُوفَ أن يطوفوا فيه ، وإنما يطاف من ورائه . ومنه يقال للعقل : « حجر » ؛ لأنه يمنع صاحبه عن تعاطى ما لا يليق . والغرض أن الضمير فى قوله : ﴿ وَيَقُولُونَ ﴾ عائد على الملائكة . هذا قول مجاهد ، وعكرمة ، وقد حكى ابن جرير ، عن ابن جرير أنه قال : ذلك من كلام المشركين : ﴿ يَوْمَ يَرَوْنَ الْمَلَائِكَةَ ﴾ أى : يتعوذون من الملائكة ؛ وذلك أن العرب كانوا إذا نزل بأحدهم نازلة أو شدة يقول : ﴿ حِجْرًا مَّحْجُورًا ﴾ . وهذا القول - وإن كان له مأخذ ووجه - ولكنه بالنسبة إلى السياق فى الآية بعيد ، ولا سيما قد نص الجمهور على خلافه .

وقوله تعالى : ﴿ وَقَدِمْنَا إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُورًا ﴾ وهذا يوم القيامة ، حين يحاسب الله العباد على ما عملوه من خير وشر ، فأخبر أنه لا يتحصّل لهؤلاء المشركين من الأعمال - التى ظنوا أنها منجاة لهم - شىء ؛ وذلك لأنها فقدت الشرط الشرعى ، إما الإخلاص فيها ، وإما المتابعة لشرع الله . فكل عمل لا يكون خالصا وعلى الشريعة المرضية ، فهو باطل . فأعمال الكفار لا تخلو من واحد من هذين ، وقد نجمعهما معا ، فتكون أبعد من القبول حيثئذ ؛ ولهذا قال تعالى ﴿ وَقَدِمْنَا إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُورًا ﴾ . قال مجاهد ، والثورى : ﴿ وَقَدِمْنَا ﴾ أى : عمَدنا . وقال السدى : ﴿ قَدِمْنَا ﴾ : وعمَدنا . وبعضهم يقول : أتينا عليه .

وقوله : ﴿ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُورًا ﴾ عن على ، قال : شعاع الشمس إذا دخل فى الكوة . وروى مثله عن ابن عباس ، ومجاهد ، وعكرمة ، وغيرهم . وقال على بن أبى طلحة ، عن ابن عباس : ﴿ هَبَاءً مَنْثُورًا ﴾ قال : هو الماء المهرق . وعن الحارث ، عن على : ﴿ هَبَاءً مَنْثُورًا ﴾ قال : الهباء وهبج الدواب . وروى مثله عن ابن عباس أيضا ، والضحاك ، وقال قتادة فى قوله : ﴿ هَبَاءً مَنْثُورًا ﴾ قال : أما رأيت يَبَسَ الشجر إذا ذرته الريح ؟ فهو ذلك الورق . وحاصل هذه الأقوال التنبيه على مضمون الآية ، وذلك أنهم عملوا أعمالا اعتقدوا أنها شىء ، فلما عرضت على الملك الحكيم العدل الذى لا يجور ولا يظلم أحدا ، إذا إنها لا شىء بالكلية . وشبهت فى ذلك بالشىء التافه

الحقير المتفرق ، الذى لا يقدر منه صاحبه على شىء بالكلية ، كما قال تعالى : ﴿ مَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ أَعْمَالُهُمْ كَرَمَادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ ﴾ الآية [إبراهيم : ١٨] ، وقال تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَبْطُلُوا صَدَقَاتِكُمْ بِالْمَنِّ وَالْأَذَى ﴾ إلى قوله : ﴿ لَا يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ مِّمَّا كَسَبُوا ﴾ [البقرة : ٢٦٤] . وقال تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيَعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمَانُ مَاءً حَتَّى إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا ﴾ [النور : ٣٩] ، وتقدم الكلام على تفسير ذلك ، والله الحمد والمنة .

وقوله : ﴿ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا ﴾ أى : يوم القيامة : ﴿ لَا يَسْتَوِي أَصْحَابُ النَّارِ وَأَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمُ الْفَائِزُونَ ﴾ [الحشر : ٢٠] ، وذلك لأن أهل الجنة يصيرون إلى الدرجات العاليات ، والغرفات الأمنات ، فهم فى مقام أمين ، حسن المنظر ، طيب المقام ، ﴿ خَالِدِينَ فِيهَا حَسُنَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ﴾ [الفرقان : ٧٦] ، وأهل النار يصيرون إلى الدرجات السافلات ، والحسرات المتتابعات ، وأنواع العذاب والعقوبات ، ﴿ إِنَّهَا سَاءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ﴾ [الفرقان : ٦٦] أى : بشئ المنزل منظرًا ، وبشئ المقييل مقاما ؛ ولهذا قال : ﴿ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا ﴾ أى : بما عملوه من الأعمال المتقبلة ، ناولوا ما نالوا ، وصاروا إلى ما صاروا إليه ، بخلاف أهل النار فإنه ليس لهم عمل واحد يقتضى لهم دخول الجنة والنجاة من النار ، فنبه - تعالى - بحال السعداء على حال الأشقياء ، وأنه لا خير عندهم بالكلية ، فقال : ﴿ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا ﴾ . قال ابن عباس : إنما هى ضحوة ، فيقيل أولياء الله على الأسرة مع الحور العين ، ويقيل أعداء الله مع الشياطين مقرنين . وقال سعيد بن جبير : يفرغ الله من الحساب نصف النهار ، فيقيل أهل الجنة فى الجنة ، وأهل النار فى النار ، قال الله تعالى : ﴿ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا ﴾ . وقال عبد الله بن مسعود : لا يتتصف النهار حتى يقيل هؤلاء وهؤلاء ، ثم قرأ : ﴿ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا ﴾ وقرأ : ﴿ ثُمَّ إِنَّ مَرَجِعُهُمْ إِلَىَّ الْجَحِيمِ ﴾ [الصافات : ٦٨] . وقال ابن عباس فى قوله : ﴿ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا ﴾ قال : قالوا : فى الغرف من الجنة ، وكان حسابهم أن عرضوا على ربهم عرضة واحدة ، وذلك الحساب اليسير ، وهو مثل قوله تعالى : ﴿ فَأَمَّا مَنْ أُوْتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ . فَسَوْفَ يَحَاسِبُ حِسَابًا يَسِيرًا . وَيَنْقَلِبُ إِلَىٰ أَهْلِهِ مُسْرُورًا ﴾ [الانشقاق : ٧ - ٩] . وقال قتادة فى قوله : ﴿ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا ﴾ ، أى ماوى ومنزلا .

﴿ وَيَوْمَ تَشَقَّقُ السَّمَاءُ بِالْغَمَمِ وَيُزَلُّ الْمَلَكُ تَنْزِيلًا ﴿٢٥﴾ الْمَلِكُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ لِلرَّحْمَنِ وَكَانَ يَوْمًا عَلَى الْكَافِرِينَ عَسِيرًا ﴿٢٦﴾ وَيَوْمَ يَعْصُ الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ يَقُولُ يَلَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَيْلًا ﴿٢٧﴾ يَتَوَلَّىٰ لَيْتَنِي لِمَ أَخَذُوا عَلَيَّ خَلِيلًا ﴿٢٨﴾ لَقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ الذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَاءَنِي وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِلْإِنْسَانِ خَدُولًا ﴿٢٩﴾﴾

يخبر تعالى عن هول يوم القيامة ، وما يكون فيه من الأمور العظيمة ، فمنها انشقاق السماء

وتفطرها وانفراجها بالغمام ، وهو ظلُّ النور العظيم الذى يبهر الابصار، ونزول ملائكة السموات يومئذ ، فيحيطون بالخلائق فى مقام المحشر . ثم يجيء الرب تبارك وتعالى لفصل القضاء . قال مجاهد : وهكذا كما قال تعالى : ﴿ هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَهُمُ اللَّهُ فِي ظُلَلٍ مِنَ الْغَمَامِ وَالْمَلَائِكَةُ ﴾ الآية [البقرة : ٢١٠] . وقد قال الله تعالى : ﴿ قِيَوْمَئِذٍ وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ . وَانشَقَّتِ السَّمَاءُ فَهِيَ يَوْمَئِذٍ وَاهِيَةٌ . وَالْمَلَكُ عَلَى أَرْجَائِهَا وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَانِيَةٌ ﴾ [الحاقة : ١٥ - ١٧] ، قال شهر بن حوشب : حملة العرش ثمانية ، أربعة منهم يقولون : سبحانك اللهم وبحمدك ، لك الحمد على حلمك بعد علمك . وأربعة منهم يقولون : سبحانك اللهم وبحمدك ، لك الحمد على عفوك بعد قدرتك .

وقوله تعالى : ﴿ الْمَلِكُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ لِلرَّحْمَنِ وَكَانَ يَوْمًا عَلَى الْكَافِرِينَ عَسِيرًا ﴾ ، كما قال تعالى : ﴿ لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ ﴾ [غافر : ١٦] . وفى الصحيح : « إن الله يطوى السموات بيمينه ويأخذ الأرضين بيده الأخرى ، ثم يقول : أنا الملك ، أنا الديان ، أين ملوك الأرض ؟ أين الجبارون ؟ أين المتكبرون » (١) . ﴿ وَكَانَ يَوْمًا عَلَى الْكَافِرِينَ عَسِيرًا ﴾ أى : شديداً صعباً ؛ لأنه يوم عدل وقضاء فصل ، كما قال تعالى ﴿ فَذَلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ عَلَى الْكَافِرِينَ غَيْرُ يَسِيرٍ ﴾ [المدثر : ٩ ، ١٠] ، فهذا حال الكافرين فى ذلك اليوم . وأما المؤمنون فكما قال تعالى : ﴿ لَا يَحْزَنُهُمُ الْفَرَقُ الْأَكْبَرُ وَتَتَلَقَاهُمْ الْمَلَائِكَةُ هَذَا يَوْمُكُمْ الَّذِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴾ [الانبياء : ١٠٣] .

وقوله : ﴿ وَيَوْمَ يَعْصُ الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ يَقُولُ يَا لَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلًا ﴾ يخبر تعالى عن ندم الظالم الذى فارق طريق الرسول وما جاء به من عند الله من الحق المبين ، الذى لا مرية فيه ، وسلك طريقاً أخرى غير سبيل الرسول ، فإذا كان يوم القيامة ندم حيث لا ينفعه الندم ، وعض على يديه حسرة وأسفا .

وسواء كان سبب نزولها فى عقبة بن أبى معيط أو غيره من الأشقياء ، فإنها عامة فى كل ظالم ، كما قال تعالى : ﴿ يَوْمَ تَقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ يَقُولُونَ يَا لَيْتَنَّا أَطَعْنَا اللَّهَ وَأَطَعْنَا الرَّسُولَ . وَقَالُوا رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكِبَرَاءَنَا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلَ . رَبَّنَا آتِنَاهُمْ صِغْفِيرًا مِنَ الْعَذَابِ وَالْعَنَتُمْ لَنَا كَبِيرًا ﴾ [الاحزاب : ٦٦ - ٦٨] . فكل ظالم يندم يوم القيامة غاية الندم ، ويعض على يديه قاتلاً : ﴿ يَا لَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلًا . يَا وَيْلَتَى لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا ﴾ ، يعنى : من صرفه عن الهدى ، وعدل به إلى طريق الضلالة من دعاة الضلالة ، وسواء فى ذلك أمية بن خلف ، أو أخوه أبى ابن خلف ، أو غيرهما . ﴿ لَقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ الذِّكْرِ ﴾ وهو القرآن ﴿ بَعْدَ إِذْ جَاءَنِي ﴾ أى : بعد بلوغه إلى ، قال الله تعالى : ﴿ وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِلْإِنْسَانِ خَذُولًا ﴾ أى : يخذله عن الحق ، ويصرفه عنه ، ويستعمله فى الباطل ، ويدعوه إليه .

﴿ وَقَالَ الرَّسُولُ يَرَبِّ إِنَّا قَوْمِي اتَّخَذُوا هَذَا الْقُرْآنَ مَهْجُورًا ﴾ ﴿ ٢٠ ﴾ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ وَكَفَى بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا ﴿ ٢١ ﴾

يقول تعالى مخبراً عن رسوله ونبيه محمد ﷺ أنه قال : ﴿ يَا رَبِّ إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هَذَا الْقُرْآنَ مَهْجُورًا ﴾ ، وذلك أن المشركين كانوا لا يُصغون للقرآن ولا يسمعونه ، كما قال تعالى : ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْقَوَا فِيهِ ﴾ الآية [فصلت: ٢٦] ، وكانوا إذا تلى عليهم القرآن أكثروا اللغظ والكلام في غيره ، حتى لا يسمعه ، فهذا من هجرانه ، وترك الإيمان به وتصديقه من هجرانه ، وترك تدبره وتفهمه من هجرانه ، وترك العمل به وامثال أوامره واجتباب زواجره من هجرانه ، والعدول عنه إلى غيره من شعر أو قول أو غناء أو لهو أو كلام أو طريقة مأخوذة من غيره من هجرانه ، فنسأل الله الكريم المنان القادر على ما يشاء ، أن يخلصنا مما يُسخطه ، ويستعملنا فيما يرضيه ، من حفظ كتابه وفهمه ، والقيام بمقتضاه آناء الليل وأطراف النهار ، على الوجه الذى يحبه ويرضاه ، إنه كريم وهاب .

وقوله : ﴿ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ ﴾ أى : كما حصل لك - يا محمد - فى قومك من الذين هجروا القرآن ، كذلك كان فى الأمم الماضين ؛ لأن الله جعل لكل نبيّ عدوا من المجرمين ، يدعون الناس إلى ضلالهم وكفرهم ، كما قال تعالى : ﴿ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ ﴾ الآيتين [الانعام : ١١٢ ، ١١٣] ؛ ولهذا قال ههنا : ﴿ وَكَفَى بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا ﴾ أى : لمن اتبع رسوله وآمن بكتابه وصدقته واتبعه ، فإن الله هاديه وناصره فى الدنيا والآخرة ، وإنما قال : ﴿ هَادِيًا وَنَصِيرًا ﴾ لأن المشركين كانوا يصدون الناس عن اتباع القرآن ؛ لئلا يهتدى أحد به ، ولتغلب طريقتهم طريقة القرآن ؛ فلهذا قال : ﴿ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ ﴾ الآية .

﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلًا ﴿٢٣﴾ وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا ﴿٢٤﴾ الَّذِينَ يُحْشَرُونَ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ أُولَٰئِكَ شَرٌّ مَكَانًا وَأَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٢٤﴾ ﴾

يقول تعالى مخبراً عن كثرة اعتراض الكفار وتعنتهم وكلامهم فيما لا يعنيه ، حيث قالوا : ﴿ لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً ﴾ أى : هلا أنزل عليه هذا الكتاب الذى أوحى إليه جملة واحدة ، كما نزلت الكتب قبله جملة واحدة ، كالتوراة والإنجيل والزبور ، وغيرها من الكتب الإلهية . فأجابهم الله عن ذلك بأنه إنما أنزل منجماً فى ثلاث وعشرين سنة بحسب الوقائع والحوادث ، وما يحتاج إليه من الأحكام لتثبيت قلوب المؤمنين به كما قال : ﴿ وَقُرْآنًا فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَىٰ مُكْتٍ وَنُزْلَانَهُ تَرْتِيلًا ﴾ [الإسراء : ١٠٦] ؛ ولهذا قال : ﴿ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلًا ﴾ قال قتادة : وبيناه تبييناً . وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم : وفسرناه تفسيراً . ﴿ وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ ﴾ أى بحجة وشبهة ﴿ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا ﴾ أى : ولا يقولون قولاً يعارضون به الحق ، إلا أجبناهم بما هو الحق فى نفس الأمر وأبين وأوضح وأفصح من مقالتهم . قال ابن عباس : ﴿ وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ ﴾ أى : بما يلتمسون به عيب القرآن والرسول ﴿ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا ﴾ أى :

إلا نزل جبريلُ من الله بجوابهم . ثم في هذا اعتناء كبير؛ لشرف الرسول ﷺ حيث كان يأتيه الوحي من الله بالقرآن صباحا ومساء ، ليلا ونهارا ، سفرا وحضرا ، فكل مرة كان يأتيه الملك بالقرآن كإنزال كتاب مما قبله من الكتب المتقدمة ، فهذا المقام أعلى وأجل ، وأعظم من سائر إخوانه من الأنبياء ﷺ . فالقرآن أشرف كتاب أنزله الله ، ومحمد ﷺ أعظم نبي أرسله الله ، وقد جمع الله تعالى للقرآن الصفتين معا ، ففي الملائكة الأعلى أنزل جملة من اللوح المحفوظ إلى بيت العزة في سماء الدنيا ، ثم نزل بعد ذلك إلى الأرض منجما بحسب الوقائع والحوادث .

ثم قال تعالى مخبرا عن سوء حال الكفار في معادهم يوم القيامة وحشرهم إلى جهنم ، في أسوأ الحالات وأقبح الصفات: ﴿ الَّذِينَ يُحْشَرُونَ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ أُولَٰئِكَ شَرُّ مَكَانًا وَأَضَلُّ سَبِيلًا ﴾ . وفي الصحيح عن أنس : أن رجلا قال : يا رسول الله ، كيف يحشر الكافر على وجهه يوم القيامة ؟ فقال : « إن الذي أمشاه على رجليه قادر أن يمشيه على وجهه يوم القيامة » (١) .

﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَىٰ الْكِتَابَ وَجَعَلْنَا مَعَهُ أَخَاهُ هَارُونَ وَزِيْرًا ﴿٣٥﴾ فَقُلْنَا
 اذْهَبَا إِلَى الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا فَدَمْزَلْنَهُمْ نَدْمِيرًا ﴿٣٦﴾ وَقَوْمٌ نُوْحٌ لَّمَّا
 كَذَبُوا الرُّسُلَ أَغْرَقْنَاهُمْ وَجَعَلْنَاهُمْ لِلنَّاسِ آيَةً وَأَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ عَذَابًا أَلِيمًا
 ﴿٣٧﴾ وَعَادًا وَثَمُودًا وَأَصْحَابَ الرَّسِّ وَقُرُونًا بَيْنَ ذَلِكَ كَثِيرًا ﴿٣٨﴾ وَكُلًّا ضَرَبْنَا لَهُ
 الْأَمْثَلَ وَكُلًّا تَبَرْنَا تَنْبِيْرًا ﴿٣٩﴾ وَلَقَدْ آتَيْنَا عَلَى الْقَرْيَةِ الَّتِي أَمْطَرْنَا مَطَرَ السَّوْءِ
 أَفْكَمَ يَكُونُوا يَكْفُرُونَهَا بَلْ كَانُوا لَا يَرْجُونَ شُورًا ﴿٤٠﴾ ﴾

يقول تعالى متوعداً من كذب رسوله محمداً ﷺ من مشركي قومه ومن خالقه ، ومحذرهم من عقابه وأليم عذابه ، مما أحله بالأمم الماضية المكذبين لرسله ، فبدأ بذكر موسى ، عليه السلام ، وأنه ابتعثه وجعل معه أخاه هارون وزيراً ، أى : نبياً مؤازراً ومؤيداً وناصراً ، فكذبهما فرعون وجنوده ، ف ﴿ دَمَّرَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلِلْكَافِرِينَ أَمْثَالُهَا ﴾ [محمد : ١٠] ، وكذلك فعل بقوم نوح حين كذبوا رسوله نوحاً ، عليه السلام ، ومن كذب برسول فقد كذب بجميع الرسل ؛ إذ لا فرق بين رسول ورسول ، ولو فرض أن الله بعث إليهم كل رسول فإنهم كانوا يكذبونه ؛ ولهذا قال : ﴿ وَقَوْمٌ نُوْحٌ لَّمَّا كَذَبُوا الرُّسُلَ ﴾ ، ولم يبعث إليهم إلا نوح فقط ، وقد لبث فيهم ألف سنة إلا خمسين عاماً ، يدعوهم إلى الله ، ويحذرهم تقمه ، فما آمن معه إلا قليل . ولهذا أغرقهم الله جميعاً ، ولم يبق منهم أحد ، ولم يبق على وجه الأرض من بنى آدم سوى أصحاب السفينة فقط . ﴿ وَجَعَلْنَاهُمْ لِلنَّاسِ آيَةً ﴾ أى : عبرة يعتبرون بها ، كما قال تعالى : ﴿ إِنَّا لَمَّا طَغَا الْمَاءُ حَمَلْنَاكُمْ فِي الْجَارِيَةِ لَنَجِّمَنَّاهُمْ لَكُمْ تَذْكِرَةً وَتَعِيَهَا أذُنٌ وَأَعْيَةٌ ﴾ [الحاقة : ١١ ، ١٢] أى : وأبقينا لكم من السفن ما تركبون فى لُجج البحار ، لتذكروا نعمة الله عليكم فى إنجائكم من الغرق ، وجعلكم من ذرية من آمن به وصدق أمره .

وقوله : ﴿ وَعَادًا وَثَمُودَ ﴾ قد تقدم الكلام على قصتيهما فى غير ما سورة ، منها فى «سورة الأعراف» بما أغنى عن الإعادة . وأما أصحاب الرس فقال ابن جرير ، عن ابن عباس : هم أهل قرية من قرى ثمود . وقال عكرمة : أصحاب الرس بفلج وهم أصحاب يس . وقال قتادة : فلج من قرى اليمامة . وقال عكرمة عن ابن عباس فى قوله : ﴿ وَأَصْحَابَ الرَّسِّ ﴾ قال : بئر بأذربيجان . وقال عكرمة : الرس بئر رسوا فيها نبهم . أى : دفنوه فيها . واختار ابن جرير أن المراد بأصحاب الرس هم أصحاب الأخدود ، الذين ذكروا فى سورة البروج ، فالله أعلم .

وقوله : ﴿ وَفُرُونًا بَيْنَ ذَلِكَ كَثِيرًا ﴾ أى : وأما بين أضعاف من ذكر أهلكناهم كثيرة ؛ ولهذا قال : ﴿ وَكُلًّا ضَرَبْنَا لَهُ الْأَمْثَالَ ﴾ أى : بينا لهم الحجج ، ووضحنا لهم الأدلة - كما قال قتادة : أرحنا عنهم الأعدار ﴿ وَكُلًّا تَبَرْنَا تَبِيرًا ﴾ أى : أهلكنا إهلاكًا ، كقوله : ﴿ وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ الْقُرُونِ مِنْ بَعْدِ نُوحٍ ﴾ [الإسراء : ١٧] . والقرن : هو الأمة من الناس ، كقوله : ﴿ ثُمَّ أَنْشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قَرْنًا آخَرِينَ ﴾ [المؤمنون : ٣١] . وحده بعضهم مائة وعشرين سنة ، وقيل : بمائة سنة . وقيل : بثمانين سنة . وقيل : أربعين . وقيل غير ذلك . والأظهر : أن القرن هم الأمة المتعاصرون فى الزمن الواحد ؛ فإذا ذهبوا وخلفهم جيل آخر فهم قرن ثان ، كما ثبت فى الصحيحين عن رسول الله ﷺ - أنه قال : « خير القرون قرنى ، ثم الذين يلونهم ، ثم الذين يلونهم » الحديث (١) .

وقوله : ﴿ وَتَقَدَّرْنَا عَلَى الْقَرْيَةِ الَّتِي أَنْطَرَتْ مَطَرًا سَوِيًّا ﴾ يعنى : قرية قوم لوط ، وهى سدوم ومعاملتها التى أهلكها الله بالقلب ، وبالمر الحجارة من سجيل ، كما قال تعالى : ﴿ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا فَسَاءَ مَطَرُ الْمُنذَرِينَ ﴾ [الشعراء : ١٧٣] ، وقال : ﴿ وَإِن كُمْ لَتَمُرُونَ عَلَيْهِمْ مُصْحِحِينَ . وَبِاللَّيْلِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ [الصافات : ١٣٧ ، ١٣٨] ، وقال تعالى : ﴿ وَإِنَّهَا لَيْسَبِيلٌ مُّقِيمٌ ﴾ [الحجر : ٧٦] ، وقال : ﴿ وَإِنَّهَا لِيَأْمُرُ مُبِينٌ ﴾ [الحجر : ٧٩] ؛ ولهذا قال : ﴿ أَفَلَمْ يَكُونُوا يَرْتَوْنَهَا ﴾ ، أى : فيعتبروا بما حلّ بأهلها من العذاب والنكال بسبب تكذيبهم بالرسول ومخالفتهم أوامر الله . وقوله : ﴿ بَلْ كَانُوا لَا يَرْجُونَ نُشُورًا ﴾ يعنى : المارين بها من الكفار لا يعتبرون لأنهم لا يرجون نشورًا ، أى : معادًا يوم القيامة .

﴿ وَإِذَا رَأَوْكَ إِذْ يَنْخُذُونَكَ إِلَّا هُزُؤًا أَهْذَا الَّذِي بِعَثَ اللَّهُ رَسُولًا ﴿٤١﴾
 إِنَّ كَادَ لِيُضِلَّنَا عَنْ إِلَهِنَا لَوْلَا أَنْ صَبَرْنَا عَلَيْهَا وَسَوْفَ يَعْلَمُونَ حَيْثُ يَرُونَ
 الْعَذَابَ مَنْ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٤٢﴾ أَرَأَيْتَ مَنِ اخْتَدَ إِلَهُهُ هُوَنَهُ أَفَأَنْتَ تَكُونُ عَلَيْهِ
 وَكِيلًا ﴿٤٣﴾ أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ
 بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٤٤﴾

يخبر تعالى عن استهزاء المشركين بالرسول ﷺ إذا رآه ، كما قال : ﴿ وَإِذَا رَأَى الَّذِينَ كَفَرُوا
 إِنْ يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهْدَىٰ الَّذِي يَذُكُرُ إِلَيْكُمْ ﴾ [الأنبياء : ٣٦] ، يعنون بالعيب والتنقص ، وقال ههنا :
 ﴿ وَإِذَا رَأَوْكَ إِنْ يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهْدَىٰ الَّذِي بَعَثَ اللَّهُ رَسُولًا ﴾ ؟ أى : على سبيل التنقص والازدراء -
 قبحهم الله - كما قال : ﴿ وَلَقَدْ اسْتَهْزَىٰ بِرَسُولٍ مِنْ قَبْلِكَ فَأَمَلَيْتُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ ﴾
 [الرعد : ٣٢]

وقوله : ﴿ إِنْ كَادَ لَيُضِلَّنَا عَنْ آلِهَتِنَا لَوْلَا أَنْ صَبَرْنَا عَلَيْهَا ﴾ يعنون : أنه كاد يشيهم عن عبادة
 أصنامهم ، لولا أن صبروا وتجلدوا واستمروا على عبادتها . قال الله تعالى متوعداً لهم مهتدداً :
 ﴿ وَسَوْفَ يَعْلَمُونَ حِينَ يَرَوْنَ الْعَذَابَ ﴾ الآية . ثم قال تعالى لنبية ، منبهاً له أن من كتب الله عليه
 الشقاوة والضلال ، فإنه لا يهديه أحد إلا الله ﴿ أَرَأَيْتَ مَنْ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ ﴾ أى : مهما استحسنت من
 شيء ورآه حسناً فى هوى نفسه ، كان دينه ومذهبه ، كما قال تعالى : ﴿ أَفَمَنْ زَيْنَ لَهُ سُوءَ عَمَلِهِ
 فَرَآهُ حَسَنًا فَإِنْ لَمْ يَضِلُّ مِنْ بَشَاءٍ مِنْ بَشَاءٍ ﴾ الآية [فاطر : ٨] . ولهذا قال ههنا : ﴿ أَفَأَنْتَ تَكُونُ
 عَلَيْهِ وَكِيلًا ﴾ ، قال ابن عباس : كان الرجل فى الجاهلية يعبد الحجر الأبيض زماناً ، فإذا رأى
 غيره أحسن منه عبدَ الثانى وترك الأول .

ثم قال : ﴿ أَمْ تَحْسَبُ أَنْ أَكْثَرُهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴾ ، أى :
 أسوأ حالا من الأنعام السارحة ، فإن تلك تعقل ما خلقت له . وهؤلاء خلقوا لعبادة الله وحده
 لا شريك له ، وهم يعبدون غيره ويشركون به ، مع قيام الحجة عليهم ، وإرسال الرسل إليهم .

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ وَلَوْ شَاءَ لَجَعَلَهُ سَاكِنًا ثُمَّ جَعَلْنَا الشَّمْسَ
 عَلَيْهِ دَلِيلًا ﴿٤٥﴾ ثُمَّ قَبَضْنَاهُ إِلَيْنَا قَبْضًا يَسِيرًا ﴿٤٦﴾ وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ لَيَالٍ
 لِبَاسًا وَالنَّوْمَ سُبَاتًا وَجَعَلَ النَّهَارَ نُشُورًا ﴿٤٧﴾ ﴾

من ههنا شرع تعالى فى بيان الأدلة الدالة على وجوده ، وقدرته التامة على خلق الأشياء
 المختلفة والمتضادة ، فقال : ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ ﴾ ؟ قال ابن عباس ، وابن عمر ،
 ومجاهد ، وسعيد بن جبير: هو ما بين طلوع الفجر إلى طلوع الشمس . ﴿ وَلَوْ شَاءَ لَجَعَلَهُ سَاكِنًا ﴾
 أى : دائماً لا يزول ، كما قال تعالى : ﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ اللَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ ﴾ ، ﴿ قُلْ
 أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ النَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ ﴾ [القصص : ٧١ ، ٧٢] .

وقوله : ﴿ ثُمَّ جَعَلْنَا الشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلًا ﴾ أى : لولا أن الشمس تطلع عليه ، لما عرف ، فإن الضد
 لا يعرف إلا بضده . وقال قتادة ، والسدى : دليلًا يتلوه ويتبعه حتى يأتى عليه كله . وقوله : ﴿ ثُمَّ قَبَضْنَاهُ
 إِلَيْنَا قَبْضًا يَسِيرًا ﴾ ، أى : الظل . وقيل : الشمس . ﴿ يَسِيرًا ﴾ أى : سهلاً . قال ابن عباس : سريعاً .
 وقال السدى : قبضاً خفياً ، حتى لا يبقى فى الأرض ظل إلا تحت سقف أو تحت شجرة ، وقد
 أظلت الشمس ما فوقه . وقال أيوب بن موسى : ﴿ ثُمَّ قَبَضْنَاهُ إِلَيْنَا قَبْضًا يَسِيرًا ﴾ ، أى : قليلاً قليلاً .

وقوله : ﴿ وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ اللَّيْلَ لِيَأْسَ ﴾ أى : يلبس الوجود ويُعَشِيهِ ، كما قال : ﴿ وَاللَّيْلُ إِذَا يَغْشَى ﴾ [الليل : ١] ، ﴿ وَاللَّيْلُ إِذَا يَغْشَاهَا ﴾ [الشمس : ٤] . ﴿ وَالنُّومُ سُبَاتًا ﴾ أى : قَطْعًا للحركة لراحة الأبدان ، فإن الأعضاء والجوارح تكل من كثرة الحركة فى الانتشار بالنهار فى المعاش ، فإذا جاء الليل وسكن سكنت الحركات ، فاستراحت فحصل النوم الذى فيه راحة البدن والروح معاً . ﴿ وَجَعَلَ النَّهَارَ نُشُورًا ﴾ ، أى : يتنشر الناس فيه لمعاشيهم ومكاسبهم وأسبابهم ، كما قال تعالى ﴿ وَمِنْ رَحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمْ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ ﴾ الآية [القصص : ٧٣] .

﴿ وَهُوَ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً طَهُورًا ﴾ ﴿ ٤٨ ﴾ لِنُحْيِيَ بِهِ بَلْدَةً مَيْتًا وَنُسْقِيَهُ مِمَّا خَلَقْنَا أَنْعَامًا وَأَنْاسٍ كَثِيرًا ﴿ ٤٩ ﴾ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِيهِمْ لِيَذَكَّرُوا فَأَبَى أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كُفُورًا ﴿ ٥٠ ﴾

وهذا أيضاً من قدرته التامة وسلطانه العظيم ، وهو أنه تعالى يرسل الرياح مبشرات ، أى : بمجيء السحاب بعدها، والرياح أنواع ، فى صفات كثيرة من التسخير ، فمنها ما يثير السحاب ، ومنها ما يحمله ، ومنها ما يسوقه ، ومنها ما يكون بين يدي السحاب مبشراً ، ومنها ما يكون قبل ذلك يَقُمُّ الأرض ، ومنها ما يلقح السحاب ليمطر؛ ولهذا قال : ﴿ وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً طَهُورًا ﴾ أى : آلة يتطهر بها ، كالسحور والوقود وما جرى مجراه . فهذا أصح ما يقال فى ذلك . وقوله : ﴿ لِنُحْيِيَ بِهِ بَلْدَةً مَيْتًا ﴾ أى : أرضاً قد طال انتظارها للغيث ، فهى هامة لا نبات فيها ولا شىء . فلما جاءها الحيا عاشت واكتست رباها أنواع الأزاهير والألوان، كما قال تعالى : ﴿ فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَّتْ وَأَبْتَتَ مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ ﴾ [الحج : ٥] . ﴿ وَنُسْقِيَهُ مِمَّا خَلَقْنَا أَنْعَامًا وَأَنْاسٍ كَثِيرًا ﴾ أى : وليشرب منه الحيوان من أنعام وأناسٍ محتاجين إليه غاية الحاجة ، لشربهم وزروعهم وثمارهم ، كما قال تعالى : ﴿ وَهُوَ الَّذِي يَنْزِلُ الْغَيْثَ مِنْ بَعْدِ مَا قَنَطُوا وَيَنْشُرُ رَحْمَتَهُ وَهُوَ الْوَلِيُّ الْحَمِيدُ ﴾ [الشورى : ٢٨] ، وقال تعالى : ﴿ فَانظُرْ إِلَى آثَارِ رَحْمَتِ اللَّهِ كَيْفَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ ذَلِكَ لَمُنْحَى الْمَوْتَى وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [الروم : ٥٠] .

وقوله : ﴿ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِيهِمْ لِيَذَكَّرُوا ﴾ أى : أمطرنا هذه الأرض دون هذه ، وسقنا السحاب فمر على الأرض وتعداها وجاوزها إلى الأرض الأخرى فأمطرتها وكفتها فجعلتها عذقا، والتي وراها لم ينزل فيها قطرة من ماء، وله فى ذلك الحجة البالغة والحكمة القاطعة . قال ابن مسعود وابن عباس : ليس عام باكثُر مطراً من عام ، ولكن الله يصرفه كيف يشاء ، ثم قرأ هذه الآية : ﴿ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِيهِمْ لِيَذَكَّرُوا فَأَبَى أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كُفُورًا ﴾ . أى : ليذكروا بإحياء الله الأرض الميتة أنه قادر على إحياء الأموات والعظام الرفات . أو : ليذكر من منع القطر أنما أصابه ذلك بذنب أصابه ، فيقلع عما هو فيه .

وقوله : ﴿ فَأَبَى أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كُفُورًا ﴾ قال عكرمة : يعنى : الذين يقولون : مطرنا بنوء كذا

وكذا . وهذا الذى قاله كما صحَّحَ فى الحديث المخرج فى صحيح مسلم ، عن رسول الله ﷺ أنه قال لأصحابه يوماً ، على أثر سماء أصابتهم من الليل : « أتدرون ماذا قال ربكم ؟ » قالوا: الله ورسوله أعلم . قال : « قال : أصبح من عبادى مؤمن بى وكافر ، فأما من قال : مُطَرْنَا بِفَضْلِ اللَّهِ وَرَحْمَتِهِ فِذَكَ مُؤْمِنٌ بى كَافِرٌ بِالْكَوْكَبِ . وأما من قال : مُطَرْنَا بِبُؤَى كَذَا وَكَذَا . فِذَكَ كَافِرٌ بى ، مُؤْمِنٌ بِالْكَوْكَبِ » (١) .

﴿ وَلَوْ شِئْنَا لَبَعَثْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ نَذِيرًا ﴿٥١﴾ فَلَا تَطِيعُ الْكَافِرِينَ وَجَاهِدْهُمْ بِهِ جِهَادًا كَبِيرًا ﴿٥٢﴾ وَهُوَ الَّذِي مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخًا وَحِجْرًا مَحْجُورًا ﴿٥٣﴾ وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ مِنَ الْمَاءِ بَشَرًا فَجَعَلَهُ نَسَبًا وَصِهْرًا وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيرًا ﴿٥٤﴾ ﴾

ربع

يقول تعالى : ﴿ وَلَوْ شِئْنَا لَبَعَثْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ نَذِيرًا ﴾ يدعوهم إلى الله عز وجل ، ولكننا خصصناك - يا محمد - بالبعثة إلى جميع أهل الأرض ، وأمرناك أن تبلغ الناس هذا القرآن ، ﴿ لِأُنذِرْكُمْ بِهِ وَمَنْ بَلَغَ ﴾ [الانعام : ١٩] ، ﴿ وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ مِنَ الْأَحْزَابِ فَالنَّارُ مَوْعِدُهُ ﴾ [هود : ١٧] ، ﴿ لِنُذِرْ أُمَّ الْقُرَى وَمَنْ حَوْلَهَا ﴾ [الانعام : ٩٢] ، ﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ﴾ [الاعراف : ١٥٨] . وفى الصحيحين : « بعثت إلى الأحمر والأسود » (٢) ، وفيهما : « وكان النبى يبعث إلى قومه خاصة وبعثت إلى الناس عامة » (٣) ؛ ولهذا قال : ﴿ فَلَا تَطِيعُ الْكَافِرِينَ وَجَاهِدْهُمْ بِهِ ﴾ ، يعنى : بالقرآن ، قاله ابن عباس ﴿ جِهَادًا كَبِيرًا ﴾ ، كما قال تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ ﴾ [التوبة : ٧٣ ، التحريم : ٩] .

وقوله : ﴿ وَهُوَ الَّذِي مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ ﴾ أى : خلق الماءين : الحلو والمالح ، فالحلو كالأنهار والعيون والآبار ، وهذا هو البحر الحلو الفرات العذب الزلال ، قاله ابن جريج ، واختاره ابن جرير ، وهذا الذى لا شك فيه ، فإنه ليس فى الوجود بحر ساكن وهو عذب فرات . والله سبحانه إنما أخبر بالواقع لينبه العباد على نعمه عليهم ليشكروه ، فالبحر العذب هو هذا السارح بين الناس ، فرقه تعالى بين خلقه لاحتياجهم إليه أنهارا وعيونًا فى كل أرض بحسب حاجتهم وكفائتهم لأنفسهم وأراضيهم .

وقوله : ﴿ وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ ﴾ أى : مالح مرزعاق لا يستساغ ، وذلك كالبحار المعروفة فى المشارق والمغارب : البحر المحيط وما يتصل به من الزقاق ، وبحر القلزم ، وبحر اليمن ، وبحر البصرة ، وبحر فارس وبحر الصين والهند وبحر الروم وبحر الخزر ، وما شاكلها وشابهها من البحار الساكنة التى لا تجرى ، ولكن تموج وتضطرب وتغتلم فى زمن الشتاء وشدة الرياح ، ومنها ما فيه مد وجزر ، ففى أول كل شهر يحصل منها مد وفيض ، فإذا شرع الشهر فى التقصان جزرت ، حتى ترجع إلى غايتها الأولى ، فإذا استهل الهلال من الشهر الآخر شرعت فى المد إلى الليلة الرابعة عشرة ثم تشرع فى النقص ،

(١) مسلم (٧١ / ١٢٥) . (٢) ، (٣) سبق تخريجهما عند الآيتين (١ ، ٢) من سورة الفرقان .

فأجرى الله سبحانه وتعالى - وله القدرة التامة - العادة بذلك . فكل هذه البحار الساكنة خلقها الله سبحانه وتعالى مالحة الماء ، لثلا يحصل بسببها نتن الهواء، فيفسد الوجود بذلك ، ولثلا تجوى الأرض بما يموت فيها من الحيوان . ولما كان ماؤها ملحاً كان هواؤها صحيحاً وميتها طيبة ؛ ولهذا قال رسول الله ﷺ وقد سئل عن ماء البحر : أتوضأ به ؟ فقال : « هو الطهور ماؤه ، الحل ميتته » . رواه الأئمة : مالك ، والشافعى ، وأحمد ، وأهل السنن بإسناد جيد (١) .

وقوله : ﴿ وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخًا وَحِجْرًا ﴾ أى : بين العذب والمالح ﴿ بَرْزَخًا ﴾ أى : حاجزاً ، وهو اليَس من الأرض ، ﴿ وَحِجْرًا مَحْجُورًا ﴾ أى : مانعاً أن يصل أحدهما إلى الآخر ، كما قال : ﴿ مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ . بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَّا يَتَّصِيَانِ . فَبأى آيَةٍ رَّبُّكُمَا تَكْفُرَانِ ﴾ [الرحمن : ١٩ - ٢١] ، وقال تعالى : ﴿ أَمْ جَعَلَ الْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَالَهَا أَنْهَارًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَاسِي وَجَعَلَ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا إِنْ كُنَّا بِأَعْيُنِنَا لَفَنظُمُونَ ﴾ [النمل : ٦١] .

وقوله : ﴿ وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ مِنَ الْمَاءِ بَشَرًا فَجَعَلَهُ نَسَبًا وَصِهْرًا وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيرًا ﴾ ، أى : خلق الإنسان من نطفة ضعيفة ، فسواه وعدله ، وجعله كامل الخلقة ، ذكراً أو أنثى ، كما يشاء ، ﴿ فَجَعَلَهُ نَسَبًا وَصِهْرًا ﴾ ، فهو فى ابتداء أمره ولد نسيب ، ثم يتزوج فيصير صهراً ، ثم يصير له أصهار وأختان وقربات . وكل ذلك من ماء مهين ؛ ولهذا قال : ﴿ وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيرًا ﴾ .

﴿ وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُهُمْ وَلَا يَضُرُّهُمْ وَكَانَ الْكَافِرُ عَلَى رَبِّهِ ظَهِيرًا ﴿٥٥﴾ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٥٦﴾ قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِلَّا مَا سَاءَ أَن يَتَّخِذَ إِلَهًا لَهُ مَا فِي صَدْرِهِ سَيِّئًا ﴿٥٧﴾ وَتَوَكَّلْ عَلَى الْوَحْيِ الَّذِي لَا يَمُوتُ وَسَيَّحِ بِحِمْدِهِ وَكَفَى بِهِ يَذُنُوبِ عِبَادِهِ خَيْرًا ﴿٥٨﴾ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ الرَّحْمَنُ فَسَلِّ بِهِ خَيْرًا ﴿٥٩﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اسْجُدُوا لِلرَّحْمَنِ قَالُوا وَمَا الرَّحْمَنُ أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا وَزَادَهُمْ نُفُورًا ﴿٦٠﴾

سجدة

يخبر تعالى عن جهل المشركين فى عبادتهم غير الله من الأصنام، التى لا تملك لهم ضرا ولا نفعاً ، بلا دليل قادهم إلى ذلك ، ولا حجة أدتهم إليه ، بل بمجرد الآراء ، والتشهى والأهواء ، فهم يوالونهم ويقاتلون فى سبيلهم ، ويعادون الله ورسوله والمؤمنون فيهم ؛ ولهذا قال : ﴿ وَكَانَ الْكَافِرُ عَلَى رَبِّهِ ظَهِيرًا ﴾ أى : عوناً فى سبيل الشيطان على حزب الله ، وحزب الله هم الغالبون ، كما قال تعالى : ﴿ وَأَتَّخِذُوا مِن دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لَّهُمْ يُنصَرُونَ . لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَهُمْ وَهُمْ لَهُمْ جُنْدٌ مُّحَضَرُونَ ﴾ [يس : ٧٤ ، ٧٥] أى : آلهتهم التى اتخذوها من دون الله لا تملك لهم نصراً ، وهؤلاء الجهلة للأصنام جند محضرون يقاتلون عنهم ، ويذُبُّون عن حوزتهم ، ولكن العاقبة والنصرة لله ولرسوله وللمؤمنين فى الدنيا والآخرة . قال مجاهد : ﴿ وَكَانَ الْكَافِرُ عَلَى رَبِّهِ ظَهِيرًا ﴾ ، قال : يظاهر الشيطان

(١) سبق تخريجه عند تفسير الآية (٣٠) من سورة المائدة .

على معصية الله، يُعينه. وقال سعيد بن جبير: ﴿وَكَانَ الْكَافِرُ عَلَىٰ رَبِّهِ ظَهِيرًا﴾ يقول: عونًا للشيطان على ربه بالعداوة والشرك. وقال زيد بن أسلم: ﴿وَكَانَ الْكَافِرُ عَلَىٰ رَبِّهِ ظَهِيرًا﴾ قال: موالياً. ثم قال تعالى لرسوله ﷺ: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا﴾ أى: بشراً للمؤمنين ونذيراً للكافرين، مبشراً بالجنة لمن أطاع الله، ونذيراً بين يدي عذاب شديد لمن خالف أمر الله. ﴿قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ﴾ أى: على هذا البلاغ وهذا الإنذار من أجرة أطلبها من أموالكم، وإنما أفعل ذلك ابتغاء وجه الله، ﴿لَمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَسْتَقِيمَ﴾ [التكوير: ٢٨] ﴿إِلَّا مَنْ شَاءَ أَنْ يَتَّخِذَ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلًا﴾ أى: طريقاً ومسلماً ومنهجاً يقتدى فيها بما جئت به.

ثم قال: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَىٰ النَّحْيِ الَّذِي لَا يَمُوتُ﴾ أى: فى أمورك كلها كُن متوكلاً على الله الحى الذى لا يموت أبداً، الذى هو: ﴿الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [الحديد: ٣]، الدائم الباقي السرمدى الأبدى، الحى القيوم رب كل شىء ومليكه، اجعله ذُخْرَكَ وملجأكَ، وهو الذى يتوكل عليه ويفزع إليه، فإنه كافيك وناصرك ومؤيدك ومظفرك، كما قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ﴾ [المائدة: ٦٧]. عن شهر ابن حوشب قال: لقي سلمان رسول الله ﷺ فى بعض فجاج المدينة، فسجد له، فقال: «لا تسجد لى يا سلمان، واسجد للحى الذى لا يموت». وهذا مرسل حسن.

وقوله تعالى: ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِ﴾، أى: اقرن بين حمده وتسيحه؛ ولهذا كان رسول الله ﷺ يقول: «سبحانك اللهم ربنا وبحمدك» (١)، أى: أخلص له العبادة والتوكل، كما قال تعالى: ﴿رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَاتَّخِذْهُ وَكِيلًا﴾ [الزمل: ٩]. وقال: ﴿فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ﴾ [هود: ١٢٣]، ﴿قُلْ هُوَ الرَّحْمَنُ أَمَنَّا بِهِ وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا﴾ [الملك: ٢٩]. وقوله: ﴿وَكَفَىٰ بِهِ بَدْنُوبِ عِبَادِهِ خَيْرًا﴾ أى: لعلمه التام الذى لا يخفى عليه خافية، ولا يعزب عنه مثقال ذرة.

وقوله: ﴿الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾ أى: هو الحى الذى لا يموت، وهو خالق كل شىء وربّه ومليكه، الذى خلق بقدرته وسلطانه السموات السبع، فى ارتفاعها واتساعها، والأرضين السبع فى سفولها وكثافتها، ﴿فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ﴾، أى: يدبر الأمر، ويقضى الحق، وهو خير الفاصلين.

وقوله: ﴿ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ الرَّحْمَنُ فَاسْتَلْ بِهِ خَبِيرًا﴾ أى: استعلم عنه من هو خبير به عالم به فاتبعه واقتد به، وقد علم أنه لا أحد أعلم بالله به من عبده ورسوله محمد ﷺ سيد ولد آدم على الإطلاق، فى الدنيا والآخرة، الذى، لا ينطق عن الهوى، إن هو إلا وحى يوحى، فما قاله فهو حق، وما أجبر به فهو صدق، وهو الإمام المحكم الذى إذا تنازع الناس فى شىء وجب ردّ نزاعهم إليه، فما يوافق أقواله وأفعاله فهو الحق، وما يخالفها فهو مردود على قائله وفاعله، كائناً من كان، قال الله تعالى: ﴿فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ﴾ [النساء: ٥٩]. وقال: ﴿وَمَا اخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِنْ شَيْءٍ فَحُكْمُهُ إِلَى اللَّهِ﴾ [الشورى: ١٠]، وقال تعالى: ﴿وَوَعَّتْ كَلِمَتُ

رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا ﴿ [الانعام : ١١٥] أى : صدقا فى الإخبار وعدلا فى الأوامر والنواهى ؛ ولهذا قال : ﴿ فَاسْتَلِّ بِهِ خَيْرًا ﴾ ، قال مجاهد فى قوله : ﴿ فَاسْتَلِّ بِهِ خَيْرًا ﴾ ، قال : ما أخبرتك من شىء فهو كما أخبرتك . وكذا قال ابن جرير . وقال شمر بن عطية فى قوله : ﴿ فَاسْتَلِّ بِهِ خَيْرًا ﴾ ، قال : هذا القرآن خير به .

ثم قال تعالى منكرا على المشركين الذين يسجدون لغير الله من الأصنام والأنداد : ﴿ إِذَا قِيلَ لَهُمْ اسْجُدُوا لِلرَّحْمَنِ قَالُوا وَمَا الرَّحْمَنُ ؟ أَى : لا نعرف الرحمن . وكانوا ينكرون أن يسمّى الله باسمه الرحمن ، كما أنكروا ذلك يوم الحديبية حين قال النبى ﷺ للكاتب : « اكتب بسم الله الرحمن الرحيم » ، فقالوا : لا نعرف الرحمن ولا الرحيم ، ولكن اكتب كما كنت تكتب : باسمك اللهم ؛ ولهذا أنزل الله : ﴿ قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوْ ادْعُوا الرَّحْمَنَ أَيًّا مَا تَدْعُوا فَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى ﴾ [الإسراء : ١١٠] أى : هو الله وهو الرحمن . وقال فى هذه الآية : ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ اسْجُدُوا لِلرَّحْمَنِ قَالُوا وَمَا الرَّحْمَنُ ؟ أَى : لا نعرفه ولا نُقرّبه ، ﴿ أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا ﴾ ؟ ، أى : لمجرد قولك ﴿ وَزَادَهُمْ نُفُورًا ﴾ . أما المؤمنون فإنهم يعبدون الله الذى هو الرحمن الرحيم ، ويُقرّدونه بالإلهية ويسجدون له . وقد اتفق العلماء - رحمهم الله - على أن هذه السجدة التى فى الفرقان مشروع السجودُ عندها لقارئها ومستمعها ، كما هو مقرر فى موضعه ، والله أعلم .

﴿ نَبَارَكُ الَّذِي جَعَلَ فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَاجًا وَقَمَرًا مُنِيرًا ﴾ ﴿ ١١ ﴾ وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ خِلْفَةً لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا ﴿ ١٢ ﴾

يقول تعالى مجدا نفسه ، ومعظما على جميل ما خلق فى السماء من البروج - وهى الكواكب العظام - فى قول مجاهد ، وسعيد بن جبير . وقيل : هى قصور فى السماء للحرس ، يروى هذا عن على ، وابن عباس ، والقول الأول أظهر . اللهم إلا أن يكون الكواكب العظام هى قصور للحرس ، فيجتمع القولان ، كما قال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَجَعَلْنَاهَا رُجُومًا لِلشَّيَاطِينِ ﴾ [الملك : ٥] ؛ ولهذا قال : ﴿ تَبَارَكَ الَّذِي جَعَلَ فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَاجًا ﴾ وهى الشمس المنيرة التى هى كالسراج فى الوجود ، كما قال : ﴿ وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَاجًا ﴾ [النبا : ١٣] . ﴿ وَقَمَرًا مُنِيرًا ﴾ أى : مضيئًا مشرقا بنور آخر ونوع آخر وفن آخر ، غير نور الشمس ، كما قال : ﴿ هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسُ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا ﴾ [يونس : ٥] ، وقال مخبرا عن نوح ، عليه السلام ، أنه قال لقومه : ﴿ أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا . وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ الشَّمْسُ سِرَاجًا ﴾ [نوح : ١٥ ، ١٦]

ثم قال : ﴿ وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ خِلْفَةً ﴾ أى : يخلف كل واحد منهما الآخر ، يتعاقبان لا يفتران ، إذا ذهب هذا جاء هذا ، وإذا جاء هذا ذهب ذلك ، كما قال : ﴿ وَسَخَّرْنَا لَكُمْ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَائِبِينَ وَسَخَّرْنَا لَكُمْ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ ﴾ [إبراهيم : ٣٣] ، وقال : ﴿ يُغْشَى اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثًا وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِهِ ﴾ [الاعراف : ٥٤] ، وقال : ﴿ لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ

الْقَمَرِ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴿٤٠﴾ [يس : ٤٠] .

وقوله: ﴿لَمَنْ أَرَادَ أَنْ يَذُكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا﴾ ، أى : جعلهما يتعاقبان ، توقيتاً لعبادة عباده له ، فمن فاته عمل فى الليل استدركه فى النهار ، ومن فاته عمل فى النهار استدركه فى الليل . وقد جاء فى الحديث الصحيح : « إن الله تعالى ييسط يده بالليل ليتوب مسيء النهار ، وييسط يده بالنهار ليتوب مسيء الليل » (١) . وقال ابن عباس : قوله: ﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ خِلْفَةً﴾ يقول : من فاته شيء من الليل أن يعمل ، أدركه النهار ، أو من النهار أدركه بالليل . وكذا قال عكرمة ، وسعيد بن جبير ، والحسن . وقال مجاهد ، وقتادة : ﴿خِلْفَةً﴾ أى : مختلفين ، هذا بسواده ، وهذا بضيائه .

﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا ﴿٣٦﴾ وَالَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَامًا ﴿٣٥﴾ وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا اصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا ﴿٣٥﴾ إِنَّهَا سَاءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ﴿٣٦﴾ وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا ﴿٣٧﴾﴾

هذه صفات عباد الله ﴿الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا﴾ أى : بسكينة ووقار من غير جبرية ولا استكبار ، كما قال : ﴿وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا﴾ [الإسراء : ٣٧] ، فأما هؤلاء فإنهم يمشون من غير استكبار ولا مرح ، ولا أشر ولا بطر ، وليس المراد أنهم يمشون كالمرضى من التصانع تصنعاً ورياء ، فقد كان سيد ولد آدم ﷺ إذا مشى كأنما ينحط من صَبَب ، وكأنما الأرض تطوى له . وقد كره بعض السلف المشى بتضعف وتصنع ، حتى روى عن عمر أنه رأى شاباً يمشى رويداً ، فقال: ما بالك ؟ أنت مريض ؟ قال : لا ، يا أمير المؤمنين ، فعلاه بالدرّة ، وأمره أن يمشى بقوة ، وإنما المراد بالهون هاهنا السكينة والوقار ، كما قال رسول الله ﷺ : « إذا أتيتم الصلاة فلا تأتوها وأنتم تسعون ، وأتوها وعليكم السكينة ، فما أدركتم منها فصلوا ، وما فاتكم فاتموا » (٢) .

وقال الحسن البصرى فى قوله: ﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا﴾ ، قال : إن المؤمنين قوم ذُلل ، ذلت منهم - والله - الأسماع والأبصار والجوارح ، حتى تحسبهم مرضى وما بالقوم من مرض ، وإنهم لأصحاء ، ولكنهم دخلهم من الخوف مالم يدخل غيرهم ، ومنعهم من الدنيا علمهم بالآخرة ، فقالوا : الحمد لله الذى أذهب عنا الحزن . أما والله ما أحزنهم حزن الناس ، ولا تعاضم فى نفوسهم شيء طلبوا به الجنة ، أبكاهم الخوف من النار ، وإنه من لم يتعز بعزاء الله تَقَطَّعَ نَفْسُهُ عَلَى الدُّنْيَا حَسْرَاتٍ ، ومن لم ير الله نعمة إلا فى مطعم أو فى مشرب ،

(١) مسلم (٢٧٥٩ / ٣١) .

(٢) البخارى (٦٣٥) ومسلم (٦٠٣ / ١٥٥) .

فقد قل علمه وحضّر عذابه .

وقوله : ﴿ وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا ﴾ أى : إذا سَفِه عليهم الجاهل بالسئى ، لم يقابلوهم عليه بمثله ، بل يعفون ويصفحون ، ولا يقولون إلا خيراً ، كما كان رسول الله ﷺ لا تزيده شدة الجاهل عليه إلا حلماً ، وكما قال تعالى : ﴿ وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ وَقَالُوا لَنَا أَعْمَالُنَا وَلكُمْ أَعْمَالُكُمْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبَغَى الْجَاهِلِينَ ﴾ [القصص : ٥٥] . وروى الإمام أحمد عن النعمان بن مقرن المزنى قال : قال رسول الله ﷺ - وسب رجل رجلاً عنده ، قال : فجعل الرجل المسبوب يقول : عليك السلام - قال : فقال رسول الله ﷺ : « أما إن ملكا بينكما يذب عنك ، كلما شتمك هذا قال له : بل أنت وأنت أحق به . وإذا قال له : عليك السلام ، قال : لا ، بل عليك ، وأنت أحق به » . إسناده حسن ولم يخرجوه (١) . وقال مجاهد : ﴿ قَالُوا سَلَامًا ﴾ ، يعنى : قالوا : سداداً . وقال سعيد بن جبیر : ردوا معروفاً من القول . وقال الحسن البصرى : ﴿ قَالُوا سَلَامًا ﴾ قال : حلماً لا يجهلون ، وإن جهل عليهم حلموا : يصاحبون عباد الله نهارهم بما تسمعون ، ثم ذكر أن ليلهم خير ليل .

وقوله : ﴿ وَالَّذِينَ يَبْتَغُونَ لِرَبِّهِمْ سَجْدًا وَاقِيًا ﴾ أى : فى عبادته وطاعته ، كما قال تعالى : ﴿ كَانُوا قَلِيلًا مِنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ . وَبِالْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴾ [الذاريات : ١٧ ، ١٨] ، وقال : ﴿ تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ﴾ [السجدة : ١٦] ، وقال : ﴿ أَمِنْ هُوَ قَائِلٌ أَنَاءَ اللَّيْلِ سَاجِدًا وَقَائِمًا يَحْذَرُ الْآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ ﴾ الآية [الزمر : ٩] ، ولهذا قال : ﴿ وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا اصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا ﴾ أى : ملازمًا دائماً . ولهذا قال الحسن فى قوله : ﴿ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا ﴾ كل شئ يصيب ابن آدم ويزول عنه فليس بغرام ، وإنما الغرام اللارم ما دامت السموات والأرض . وكذا قال سليمان التيمى . وقال محمد بن كعب : ﴿ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا ﴾ يعنى : ما نعموا فى الدنيا؛ إن الله سأل الكفار عن النعمة فلم يردوها إليه ، فأغرهمم فأدخلهم النار . ﴿ إِنَّهَا سَاءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ﴾ ، أى : بئس المنزل منظرًا ، وبئس المقيلاً مقامًا .

وقوله : ﴿ وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا ﴾ أى : ليسوا بمبذرين فى إنفاقهم فيصرفون فوق الحاجة، ولا بخلاء على أهلهم فيقتصرون فى حقهم فلا يكفونهم، بل عدلاً خياراً، وخير الأمور أوسطها، لا هذا ولا هذا، ﴿ وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا ﴾ ، كما قال : ﴿ وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا ﴾ [الإسراء : ٢٩] . وقال إياس بن معاوية : ما جاوزت به أمر الله فهو سرف . وقال غيره : السرف : النفقة فى معصية الله . وقال الحسن البصرى : ليس النفقة فى سبيل الله سرف .

(١) المسند (٥/٤٤٥) وقال الهيثمى فى الزوائد (٧٨/٨) : «رجاله رجال الصحيح، غير أبى خالد الوالى وهو ثقة» .

﴿ وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا ﴿٦٨﴾ يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَانًا ﴿٦٩﴾ إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا فَأُولَئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا ﴿٧٠﴾ وَمَنْ تَابَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَإِنَّهُ يَتُوبُ إِلَى اللَّهِ مَتَابًا ﴿٧١﴾ ﴾

روى الإمام أحمد عن عبد الله بن مسعود ، قال : سئل رسول الله ﷺ : أى الذنب أكبر ؟ قال : « أن نجعل لله نداً وهو خالقك » . قال : ثم أى ؟ قال : « أن تقتل ولدك خشية أن يطعم معك » . قال : ثم أى ؟ قال : « أن تزاني حليلة جارك » ، قال عبد الله : وأنزل الله تصديق ذلك : ﴿ وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا ﴾ . وهكذا رواه النسائي ؟ (١) . وقد أخرجه البخارى ومسلم ، ولفظهما عن ابن مسعود قال : قلت : يا رسول الله ، أى الذنب أعظم ؟ الحديث (٢) . وروى الإمام أحمد عن المقداد بن الأسود قال : قال رسول الله ﷺ لأصحابه : « ما تقولون فى الزنا ؟ » . قالوا : حرّمه الله ورسوله ، فهو حرام إلى يوم القيامة ، فقال رسول الله ﷺ : « لأن يزنى الرجل بعشر نسوة أيسر عليه من أن يزنى بامرأة جاره » . قال : « ما تقولون فى السرقة ؟ » قالوا : حرّمها الله ورسوله ، فهى حرام . قال : « لأن يسرق الرجل من عشرة آيات أيسر عليه من أن يسرق بيت من جاره » (٣) .

وقوله : ﴿ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا ﴾ : روى عن عبد الله بن عمرو أنه قال : ﴿ أَثَامًا ﴾ : واد فى جهنم . وقال عكرمة : ﴿ يَلْقَ أَثَامًا ﴾ : أودية فى جهنم يعذب فيها الزناة . وكذا روى عن سعيد بن جبير ، ومجاهد . وقال قتادة : ﴿ يَلْقَ أَثَامًا ﴾ : نكالا ، كنا نحدث أنه واد فى جهنم . وقد ذكر لنا أن لقمان كان يقول : يا بنى ، إياك والزنا ، فإن أوله مخافة ، وآخره ندامة . وقال السدى : ﴿ يَلْقَ أَثَامًا ﴾ جزاء . وهذا أشبه بظاهر الآية ؛ ولهذا فسره بما بعده مبدلاً منه ، وهو قوله : ﴿ يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴾ ، أى : يكرر عليه ويغلظ ، ﴿ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَانًا ﴾ : أى : حقيراً ذليلاً . وقوله : ﴿ إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا ﴾ : أى : جزاؤه على ما فعل من هذه الصفات القبيحة ما ذكر ﴿ إِلَّا مَنْ تَابَ ﴾ فى الدنيا إلى الله من جميع ذلك ، فإن الله يتوب عليه . وفى ذلك دلالة على صحة توبة القاتل ، ولا تعارض بين هذه وبين آية النساء : ﴿ وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا ﴾ [النساء: ٩٣] . فإن هذه وإن كانت مدنية إلا أنها مطلقة ، فتحمل على من لم يتب ؛ لأن هذه مقيدة بالتوبة ، ثم قد قال تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ ﴾ [النساء: ٤٨ ، ١١٦] . وقد ثبتت السنة

(١) المسند (٣٦١٢) وقال الشيخ أحمد شاکر : « إسناده صحيح » والنسائي فى الكبرى (١١٣٨) .

(٢) البخارى (٦٨١١) ومسلم (٦٨ / ١٢٢) .

(٣) المسند (٨ / ٦) وقال الهيثمى فى الزوائد (٨ / ١٧١) : « رجاله ثقات » .

الصحيحة ، عن رسول الله ﷺ بصحة توبة القاتل ، كما ذكر مقررا من قصة الذى قتل مائة رجل ثم تاب ، وقبل منه . وغير ذلك من الأحاديث .

وقوله : ﴿ فَأُوْتِكَ يَدُلُّ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا ﴾ : فى معنى قوله : ﴿ يُدِلُّ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ ﴾ قولان :

أحدهما: أنهم بدلوا مكان عمل السيئات بعمل الحسنات ، قال ابن عباس فى قوله : ﴿ فَأُوْتِكَ يَدِلُّ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ ﴾ قال : هم المؤمنون ، كانوا من قبل إيمانهم على السيئات ، فرغب الله بهم عن السيئات فحولهم إلى الحسنات ، فأبدلهم مكان السيئات الحسنات . وقال عطاء بن أبى رباح : هذا فى الدنيا ، يكون الرجل على هيئة قبيحة ، ثم يبدله الله بها خيرا . وقال سعيد بن جبير : أبدلهم بعبادة الأوثان عبادة الله ، وأبدلهم بقتال المسلمين قتالا مع المسلمين للمشركين ، وأبدلهم بنكاح المشركات نكاح المؤمنات . وقال الحسن البصرى : أبدلهم الله بالعمل السيئ العمل الصالح ، وأبدلهم بالشرك إخلاصا ، وأبدلهم بالفجور إحصانا وبالكفر إسلاما . وهذا قول أبى العالية ، وقتادة ، وجماعة آخرين .

والقول الثانى : أن تلك السيئات الماضية تنقلب بنفس التوبة النصوح حسنات ، وما ذاك إلا أنه كلما تذكر ما مضى ندم واسترجع واستغفر ، فينقلب الذنب طاعة بهذا الاعتبار ، فيوم القيامة وإن وجده مكتوبا عليه لكنه لا يضره وينقلب حسنة فى صحيفته ، كما ثبتت السنة بذلك ، وصحت به الآثار المروية عن السلف رحمهم الله تعالى ، وهذا سياق الحديث : روى قال الإمام أحمد عن أبى ذر قال : قال رسول الله ﷺ : « إني لأعرف آخر أهل النار خروجا من النار ، وآخر أهل الجنة دخولا إلى الجنة : يؤتى برجل فيقول : نَحْوًا كَبَارَ ذُنُوبِهِ وَسَلُوهُ عَنْ صِغَارِهَا ، قال : فيقال له : عملت يوم كذا وكذا كذا ، وعملت يوم كذا وكذا كذا ؟ فيقول : نعم - لا يستطيع أن ينكر من ذلك شيئا - فيقال : فإن لك بكل سيئة حسنة . فيقول : يارب ، عملت أشياء لا أراها ههنا . قال فضحك رسول الله ﷺ حتى بدت نواجذه . وانفرد به مسلم (١) .

وقال على بن الحسين زين العابدين : ﴿ يُدِلُّ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ ﴾ قال : فى الآخرة .

وقال مكحول : يغفرها لهم فيجعلها حسنات .

ثم قال تعالى مخبرا عن عموم رحمته بعباده ، وأنه من تاب إليه منهم تاب عليه من أى ذنب كان ، جليل أو حقير ، كبير أو صغير : فقال : ﴿ وَمَنْ تَابَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَإِنَّهُ يَتُوبُ إِلَى اللَّهِ مَتَابًا ﴾ أى : فإن الله يقبل توبته ، كما قال تعالى : ﴿ وَمَنْ يَعْمَلْ سُوءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهَ يَجِدِ اللَّهَ غَفُورًا رَحِيمًا ﴾ [النساء : ١١٠] ، وقال : ﴿ أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَأْخُذُ الصَّدَقَاتِ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴾ [التوبة : ١٠٤] ، وقال : ﴿ قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا ﴾ [الزمر : ٥٣] ، أى : الذنب لمن تاب إليه .

﴿ وَالَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ الزُّورَ وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا ﴾ (٧٢) وَالَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا ﴾ (٧٣) وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا ﴾ (٧٤) ﴿

وهذه أيضًا من صفات عباد الرحمن، أنهم: ﴿ لا يشهدون الزور ﴾ قيل: هو الشرك وعبادة الأصنام، وقيل: الكذب، والفسق، واللغو، والباطل. وقال محمد بن الحنفية: هو اللغو والغناء. وقال أبو العالية والضحاك، والربيع بن أنس، وغيرهم: هي أعياد المشركين. وقال عمرو بن قيس: هي مجالس السوء والحنا. وقيل: المراد بقوله تعالى: ﴿ لا يشهدون الزور ﴾ أى: شهادة الزور، وهى الكذب متمعدًا على غيره، كما ثبت فى الصحيحين عن أبى بكره قال: قال رسول الله ﷺ: «ألا أنبئكم بأكبر الكبائر؟» ثلاثا، قلنا: بلى، يا رسول الله. قال: «الشرك بالله وعقوق الوالدين». وكان متكئا فجلس، فقال «ألا وقول الزور، ألا وشهادة الزور» فما زال يكررها، حتى قلنا: ليته سكت (١). والأظهر من السياق أن المراد: لا يشهدون الزور، أى: لا يحضرونه؛ ولهذا قال: ﴿ وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا ﴾ أى: لا يحضرون الزور، وإذا اتفق مرورهم به مروا ولم يتدنسوا منه بشيء، ولهذا قال: ﴿ مَرُّوا كِرَامًا ﴾.

وقوله: ﴿ وَالَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا ﴾ وهذه من صفات المؤمنين ﴿ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَّتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تَلَّيْتْ عَلَيْهِمْ آيَاتَهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴾ [الأنفال: ٢٠]، بخلاف الكافر، فإنه إذا سمع كلام الله لا يؤثر فيه ولا يقصر عما كان عليه، بل يبقى مستمرا على كفره وطغيانه وجهله وضلاله، كما قال تعالى: ﴿ وَإِذَا مَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُمْ مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَذِهِ إِيمَانًا فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فزَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ. وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ ﴾ [التوبة: ١٢٤، ١٢٥].

فقوله: ﴿ لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا ﴾ أى: بخلاف الكافر الذى ذكر آيات ربه، فاستمر على حاله، كان لم يسمعها أصم أعمى. قال مجاهد: قوله: ﴿ لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا ﴾ لم يسمعوا ولم يبصروا، ولم يفقهوا شيئا. وقال الحسن البصرى: كم من رجل يقرأها ويخر عليها أصم أعمى. وقال قتادة: قوله تعالى: ﴿ وَالَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا ﴾ يقول: لم يسموا عن الحق ولم يعموا فيه، فهم - والله - قوم عقلوا عن الله وانتفعوا بما سمعوا من كتابه.

وقوله: ﴿ وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ ﴾ يعنى: الذين يسألون الله أن يخرج من أصلابهم وذرياتهم من يطيعه ويعبده وحده لا شريك له. قال ابن عباس: يعنون: من يعمل بالطاعة، فتقر به أعينهم فى الدنيا والآخرة. وقال عكرمة: لم يريدوا بذلك صباحة ولا جمالا، ولكن أرادوا أن يكونوا مطيعين. وقال الحسن البصرى - وسئل عن هذه الآية - فقال:

أن يُرى الله العبدَ المسلم من زوجته ، ومن أخيه ، ومن حميمه طاعة الله . لا والله ما شيء أقر لعين المسلم من أن يرى ولدا ، أو ولد ولد ، أو أخا ، أو حميماً مطيعاً لله عزوجل . وقال ابن جريج فى قوله : ﴿ هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ ﴾ قال: يعبدونك ويحسنون عبادتك، ولا يجرون علينا الجرائر. وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: يعنى : يسألون الله لأزواجهم وذرياتهم أن يهديهم للإسلام .

وروى الإمام أحمد عن جبير بن نفير قال: جلسنا إلى المقداد بن الأسود يوماً ، فمر به رجل فقال: طوبى لهاتين العينين اللتين رأتا رسول الله ﷺ ! لوددنا أنا رأينا ما رأيت ، وشهدنا ما شهدت . فاستغضب المقداد ، فجعلت أعجب ، ما قال إلا خيراً ! ثم أقبل إليه فقال : ما يحمل الرجل على أن يتمنى محضراً غيبه الله عنه ، لا يدري لو شهده كيف كان يكون فيه ؟ والله لقد حضر رسول الله ﷺ أقوام أكههم الله على مناخرهم فى جهنم ، لم يجيئوه ولم يصدقوه ، أو لا تحمدون الله إذ أخرجكم من بطون أمهاتكم لا تعرفون إلا ربكم مصدقين لما جاء به نبيكم ، قد كفتيم البلاء بغيركم؟ لقد بعث الله النبي ﷺ على أشد حال بعث عليها نبياً من الأنبياء فى فترة من جاهلية ، ما يرون أن ديننا أفضل من عبادة الأوثان . فجاء بفرقان فرقَ به بين الحق والباطل ، وفرقَ بين الوالد وولده ، حتى إن كان الرجل ليرى والده وولده ، أو أخاه كافراً ، وقد فتح الله قفل قلبه للإيمان ، بعلم أنه إن هلك دخل النار ، فلا تقر عينه وهو يعلم أن حبيبه فى النار ، وإنها التى قال الله تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ ﴾ . وهذا إسناد صحيح ، ولم يخرجوه (١) .

وقوله: ﴿ وَأَجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا ﴾ ، قال ابن عباس ، والحسن ، وقتادة ، والسدى ، والربيع بن أنس : أئمة يقتدى بنا فى الخير . وقال غيرهم : هداة مهتدين ودعاة إلى الخير ، فأحبوا أن تكون عبادتهم متصلة بعبادة أولادهم وذرياتهم، وأن يكون هداهم متعدياً إلى غيرهم بالنفع، وذلك أكثر ثواباً ، وأحسن مآباً ؛ ولهذا ورد فى صحيح مسلم ، عن أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ: « إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث: ولد صالح يدعو له ، أو علم ينتفع به من بعده ، أو صدقة جارية » (٢) .

﴿ أُولَئِكَ يُجْزَوْنَ الْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُوا وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا نَجْوَةً وَسَلَامًا ﴿٧٥﴾ خَالِدِينَ فِيهَا حَسُنَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ﴿٧٦﴾ قُلْ مَا يَعْبَأُ بِكُمْ رَبِّي لَوْلَا دُعَاؤُكُمْ فَقَدْ كَذَّبْتُمْ فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَامًا ﴿٧٧﴾ ﴾

لما ذكر تعالى من أوصاف عباده المؤمنين ما ذكر من الصفات الجميلة ، والأفعال والأقوال الجليلة قال بعد ذلك كله : ﴿ أُولَئِكَ ﴾ أى : المتصفون بهذه ﴿ يُجْزَوْنَ ﴾ أى : يوم

القيامة ﴿ الْفُرْقَةَ ﴾ وهى الجنة . قال أبو جعفر الباقر ، وسعيد بن جبير ، والضحاك ، والسدى : سميت بذلك لارتفاعها ﴿ بِمَا صَبَرُوا ﴾ أى : على القيام بذلك ﴿ وَيُلْقُونَ فِيهَا ﴾ أى : فى الجنة : ﴿ تَحِيَّةً وَسَلَامًا ﴾ أى : يُتَدَرَّونَ فيها بالتحية والإكرام . ويلقون فيها التوقير والاحترام ، فلهم السلام وعليهم السلام ، فإن الملائكة يدخلون عليهم من كل باب ، سلام عليكم بما صبرتم ، فنعم عقبى الدار . وقوله : ﴿ خَالِدِينَ فِيهَا ﴾ أى : مقيمين ، لا يظعنون ولا يحولون ، ولا يموتون ، ولا يزولون عنها ولا يبعثون عنها حولاً ، كما قال تعالى : ﴿ وَأَمَّا الَّذِينَ سَعِدُوا فِى الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ عَطَاءٌ غَيْرَ مَجْدُوذٍ ﴾ [هود: ١٠٨] . وقوله : ﴿ حَسَنَتْ مَسَاقِرُهُمْ وَمَقَامًا ﴾ ، أى : حسنت منظرا وطابت مقبلا ومنزلا .

ثم قال تعالى : ﴿ قُلْ مَا يَعْزُبُ عَنْ رَبِّى ﴾ أى : لا يبالى ولا يكثرث بكم إذا لم تعبدوه ، فإنه إنما خلق الخلق ليعبدوه ويوحده ويسبحوه بكرة وأصيلا . وقال مجاهد ، وعمرو بن شعيب : ﴿ مَا يَعْزُبُ عَنْ رَبِّى ﴾ ، يقول : ما يفعل بكم ربه . وقال ابن عباس فى قوله : ﴿ قُلْ مَا يَعْزُبُ عَنْ رَبِّى لَوْلَا دُعَاؤُكُمْ ﴾ يقول : لولا إيمانكم ، وأخبر الله الكفار أنه لا حاجة له بهم إذ لم يخلقهم مؤمنين ، ولو كان له بهم حاجة لحبب إليهم الإيمان كما حببه إلى المؤمنين .

وقوله : ﴿ فَقَدْ كَذَّبْتُمْ ﴾ أى : أيها الكافرون ﴿ فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَامًا ﴾ أى : فسوف يكون تكذيبكم لزاماً لكم ، يعنى : مقتضياً لهلاككم وعذابكم ودماركم فى الدنيا والآخرة ، ويدخل فى ذلك يوم بدر ، كما فسره بذلك عبد الله بن مسعود ، وأبى بن كعب ، ومجاهد ، وقتادة ، وغيرهم . وقال الحسن البصرى : ﴿ فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَامًا ﴾ أى : يوم القيامة . ولا منافاة بينهما .

تفسير سورة الشعراء

وهي مكية . ووقع في تفسير مالك المروي عنه تسميتها : سورة الجامعة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ ١ ﴾ طَسَّرَ ﴿ ٢ ﴾ تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ ﴿ ٣ ﴾ لَعَلَّكَ بَخِعٌ نَفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا رِيعَ ﴿ ٤ ﴾ مُؤْمِنِينَ ﴿ ٥ ﴾ إِنْ نَشَأْ نُزِّلْ عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ آيَةً فَظَلَّتْ أَعْنَاقُهُمْ لَهَا خَاضِعِينَ ﴿ ٦ ﴾ وَمَا يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرِ مِنَ الرَّحْمَنِ مُحَدَّثًا إِلَّا كَانُوا عَنْهُ مُعْرِضِينَ ﴿ ٧ ﴾ فَقَدْ كَذَّبُوا فَسَيَأْتِيهِمْ أَنْبَاءٌ مِمَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿ ٨ ﴾ أَوْلَمْ يَرَوْا إِلَى الْأَرْضِ كَرَّمْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ ذَوْجٍ كَرِيمٍ ﴿ ٩ ﴾ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿ ١٠ ﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿ ١١ ﴾

أما الكلام على الحروف المقطعة ، فقد تكلمنا عليه في أول سورة البقرة .

وقوله : ﴿ تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ ﴾ أى : هذه آيات القرآن المبين ، أى : البين الواضح ، الذى يفصل بين الحق والباطل ، والغى والرشاد .

وقوله : ﴿ لَعَلَّكَ بَخِعٌ ﴾ أى : مهلك ﴿ نَفْسَكَ ﴾ أى : بما تحرص وتحزن عليهم ﴿ أَلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ ﴾ ، وهذه تسليية من الله لرسوله ﷺ فى عدم إيمان من لم يؤمن به من الكفار ، كما قال تعالى : ﴿ فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسْرَاتٍ ﴾ [فاطر : ٨] ، وقال : ﴿ فَلَعَلَّكَ بَخِعٌ نَفْسَكَ عَلَى آثَارِهِمْ إِنْ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِدَا الْحَدِيثِ آسَفًا ﴾ [الكهف : ٦] . قال مجاهد ، وعكرمة ، وقتادة ، وغيرهم : ﴿ لَعَلَّكَ بَخِعٌ نَفْسَكَ ﴾ أى : قاتل نفسك .

ثم قال الله تعالى : ﴿ إِنْ نَشَأْ نُزِّلْ عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ آيَةً فَظَلَّتْ أَعْنَاقُهُمْ لَهَا خَاضِعِينَ ﴾ أى : لو شئنا لأنزلنا آية تضطرهم إلى الإيمان قهرا ، ولكن لا نفعل ذلك ؛ لأننا لا نريد من أحد إلا الإيمان الاختيارى ؛ وقال تعالى : ﴿ وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَأَمَنَّ مِنَ فِي الْأَرْضِ كُلَّهُمْ جَمِيعًا أَفَأَنْتَ تُكْفِرُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ ﴾ [يونس : ٩٩] ، وقال تعالى : ﴿ وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ . إِلَّا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ ﴾ [هود : ١١٨ ، ١١٩] ، فننذ قدره ، ومضت حكمته ، وقامت حجته البالغة على خلقه بإرسال الرسل إليهم ، وإنزال الكتب عليهم .

ثم قال تعالى : ﴿ وَمَا يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرِ مِنَ الرَّحْمَنِ مُحَدَّثًا إِلَّا كَانُوا عَنْهُ مُعْرِضِينَ ﴾ أى : كلما جاءهم كتاب من السماء أعرض عنه أكثر الناس ، كما قال : ﴿ وَمَا أَكْثَرَ النَّاسَ لَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ ﴾ [يوسف : ١٠٣] ، وقال : ﴿ يَا حَسْرَةَ عَلَى الْعِبَادِ مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ ﴾ [يس : ٣٠] ، وقال : ﴿ ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَتْرًا كُلٌّ مَا جَاءَ أُمَّةً رَسُولُهَا كَذَّبُوهُ فَاتَّبَعْنَا بَعْضَهُمْ بَعْضًا وَجَعَلْنَاهُمْ أَجَادِيثَ لِقَوْمٍ لَا

يُؤْمِنُونَ ﴿ [المؤمنون : ٤٤] ؛ ولهذا قال تعالى ههنا : ﴿ فَقَدْ كَذَّبُوا فَسَيَاتِهِمْ أَنْبَاءُ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴾ أى : فقد كذبوا بما جاءهم من الحق ، فسيعلمون نبا هذا التكذيب بعد حين ﴿ وَسِعِلَّم الَّذِينَ ظَلَمُوا أَى مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ ﴾ [الشعراء : ٢٢٧] .

ثم نبه تعالى على عظمته فى سلطانه وجلالة قدره وشأنه ، الذين اجترؤوا على مخالفة رسوله وتكذيب كتابه ، وهو القاهر العظيم القادر ، الذى خلق الأرض وأنبث فيها من كل زوج كريم ، من زروع وثمار وحيوان ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً ﴾ أى : دلالة على قدرة الخالق للأشياء ، الذى بسط الأرض ورفع بناء السماء ، ومع هذا ما آمن أكثر الناس ، بل كذبوا به وبرسله وكتبه ، وخالفوا أمره وارتكبوا زواجره . وقوله : ﴿ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ ﴾ أى : الذى عزَّ كلَّ شئ وقهره وغلبه ﴿ الرَّحِيمُ ﴾ أى : بخلقه ، فلا يعجل على من عصاه ، بل ينظره ويؤجله ثم يأخذه أخذ عزيز مقتدر . قال أبو العالية ، وقتادة : العزيز فى نعمته وانتصاره من خالف أمره وعبد غيره . وقال سعيد بن جبير : الرحيم بمن تاب إليه وأتاب .

﴿ وَإِذْ نَادَى رَبُّكَ مُوسَىٰ أَنْ أَنْتِ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿١٠﴾ قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَلَا يَتَّقُونَ ﴿١١﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُكَذِّبُونِ ﴿١٢﴾ وَيَضِيقُ صَدْرِي وَلَا يَنْطَلِقُ لِسَانِي فَأَرْسِلْ إِلَىٰ هَرُونَ ﴿١٣﴾ وَلَهُمْ عَلَىٰ ذَنْبٍ فَأَخَافُ أَنْ يَقْتُلُونِ ﴿١٤﴾ قَالَ كَلَّا فَإِذْ مَا بَايَعْتُنَا إِنَّا مَعَكُمْ مُسْتَمِعُونَ ﴿١٥﴾ فَأَتَيْنَا فِرْعَوْنَ فَقُولَا إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦﴾ أَنْ أَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴿١٧﴾ قَالَ أَلَمْ تُرَبِّنَا فِيْنَا وَوَلَدْنَا وَلَبِثْتَ فِيْنَا مِنْ عُمْرِكَ سِنِينَ ﴿١٨﴾ وَفَعَلْتَ فَعَلْتَكِ الْتِي فَعَلْتَ وَأَنْتِ مِنَ الْكٰفِرِينَ ﴿١٩﴾ قَالَ فَعَلْنَاهَا إِذَا وَأَنَا مِنَ الضَّالِّينَ ﴿٢٠﴾ فَفَرَرْتُ مِنْكُمْ لَمَّا خِفْتُمْكُمْ فَوَهَبَ لِي رَبِّي حُكْمًا وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿٢١﴾ وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنَّا عَلَيَْا أَنْ عَبَّدتَّ بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴿٢٢﴾ ﴾

يخبر تعالى عما أمر به عبده ورسوله وكليمه موسى بن عمران ، عليه السلام ، حين ناداه من جانب الطور الأيمن ، وكلمه وناجاه ، وأرسله واصطفاه ، وأمره بالذهاب إلى فرعون وملئه ؛ ولهذا قال : ﴿ أَنْ أَنْتِ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ . قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَلَا يَتَّقُونَ . قَالَ رَبِّ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُكَذِّبُونِ . وَيَضِيقُ صَدْرِي وَلَا يَنْطَلِقُ لِسَانِي فَأَرْسِلْ إِلَىٰ هَرُونَ . وَلَهُمْ عَلَىٰ ذَنْبٍ فَأَخَافُ أَنْ يَقْتُلُونِ ﴾ هذه أعدار سأل من الله إزاحتها عنه ، كما قال فى سورة طه : ﴿ قَالَ رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي . وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي . وَاحْلِلْ عُقْدَةَ مِنِّي لِسَانِي . يَفْقَهُوا قَوْلِي . وَاجْعَلْ لِي وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِي . هَرُونَ أَخِي . اشْدُدْ بِهِ أَزْرِي . وَأَشْرِكْ فِي أَمْرِي . كَيْ نَسَبِحَكَ كَثِيرًا . وَنَذْكُرَكَ كَثِيرًا . إِنَّكَ كُنْتَ بِنَا بَصِيرًا . قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَا مُوسَىٰ ﴾ [طه : ٢٥ - ٣٦] .

وقوله : ﴿ وَلَهُمْ عَلَىٰ ذَنْبٍ فَأَخَافُ أَنْ يَقْتُلُونِ ﴾ أى : بسبب ماكان من قتل ذلك القبطى الذى كان سبب خروجه من بلاد مصر ﴿ قَالَ كَلَّا ﴾ أى : قال الله له : لا تخف من شئ من ذلك كما قال : ﴿ قَالَ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطٰنًا ﴾ أى : برهانا ﴿ فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا بِأَيَاتِنَا أَنْتُمَا وَمَنِ اتَّبَعَكُمَا ﴾

الْعَالَمِينَ ﴿ [القصص: ٣٥] . ﴿ فَاذْهَبَا بِآيَاتِنَا إِنَّا مَعَكُمْ مُسْتَمِعُونَ ﴾ كما قال تعالى : ﴿ إِنِّي مَعَكُمْ أَسْمَعُ وَأَرَى ﴾ [طه: ٤٦] أى : إننى معكما بحفظى وكلاءتى ونصرى وتأييدى . ﴿ فَأَتَا فِرْعَوْنَ فَقَوْلَا إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ ، وقال فى الآية الأخرى : ﴿ إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ ﴾ [طه : ٤٧] أى : كل منا رسول الله إليك ، ﴿ أَنْ أَرْسِلَ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴾ أى : أطلقهم من إسارك وقبضتك وقهرك وتعذيبك ، فإنهم عباد الله المؤمنون ، وحزبه المخلصون، وهم معك فى العذاب المهين . فلما قال له موسى ذلك أعرض فرعون عما هنالك بالكلية، ونظر بعين الازدراء والغمص فقال: ﴿ أَلَمْ نُؤْتِكَ فِينَا وَلِيَدًا وَبَلِّغْتَ فِينَا مِنْ عَمْرِكِ سِنِينَ. وَقَعَلْتَ فَعَلْتَكِ الَّتِي فَعَلْتَ وَأَنْتَ مِنَ الْكَافِرِينَ ﴾ أى: أما أنت الذى ربيناها فينا، وفى بيتنا وعلى فراشنا وغذيناها، وأنعمنا عليه مدة من السنين، ثم بعد هذا قابلت ذلك الإحسان بتلك الفعلة ، أن قتلت منا رجلا ، وجحدت نعمتنا عليك ؛ ولهذا قال : ﴿ وَأَنْتَ مِنَ الْكَافِرِينَ ﴾

أى : الجاحدين . قاله ابن عباس، وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم ، واختاره ابن جرير .

﴿ قَالَ فَعَلْتَهَا إِذَا ﴾ أى : فى تلك الحال ، ﴿ وَأَنَا مِنَ الضَّالِّينَ ﴾ أى : قبل أن يوحى إلى وينعم الله على بالرسالة والنبوته . قال ابن عباس ومجاهد ، وقتادة ، وغيرهم : ﴿ وَأَنَا مِنَ الضَّالِّينَ ﴾ أى : الجاهلين . ﴿ فَفَرَزْتُ مِنْكُمْ لَمَّا خِفْتُمْ فَوَهَبَ لِي رَبِّي حُكْمًا وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴾ أى : انفصل الحال الأول وجاء أمر آخر ، فقد أرسلنى الله إليك ، فإن أطعته سلمت ، وإن خالفته عَطَبت .

ثم قال موسى : ﴿ وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَيَّ أَنْ عَبَّدتَّ بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴾ أى : وما أحسنت إلى وريثتى مقابل ما أسأت إلى بنى إسرائيل ، فجعلتهم عبيداً وخدماء ، تصرفهم فى أعمالك ومشاق رعيتك ، أفقى إحسانك إلى رجل واحد منهم بما أسأت إلى مجموعهم ؟ أى : ليس ما ذكرته شيئاً بالنسبة إلى ما فعلت بهم .

﴿ قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴾ ﴿ ١٢ ﴾ قَالَ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ مُوقِنِينَ ﴿ ١٤ ﴾ قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُ أَلَا تَسْتَعِينُونَ ﴿ ١٥ ﴾ قَالَ رَبِّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ ﴿ ١٦ ﴾ قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمْ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ ﴿ ١٧ ﴾ قَالَ رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ ﴿ ١٨ ﴾

يقول تعالى مخبراً عن كفر فرعون ، وتمرده وطغيانه وجحوده ، فى قوله : ﴿ وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴾ ؟ وذلك أنه كان يقول لقومه : ﴿ مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي ﴾ [القصص: ٣٨] ، ﴿ فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فَاطَاعُوهُ ﴾ [الزخرف : ٥٤] ، وكانوا يجحدون الصانع - تعالى - ويعتقدون أنه لارب لهم سوى فرعون ، فلما قال له موسى : ﴿ إِنِّي رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ [الزخرف : ٤٦] ، قال له : ومن هذا الذى تزعم أنه رب العالمين غيرى ؟ هكذا فسره علماء السلف وأئمة الخلف ، حتى قال السدى : هذه الآية كقوله تعالى : ﴿ قَالَ فَمَنْ رُبُّكُمْ يَا مُوسَى . قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى ﴾ [طه: ٤٩ ، ٥٠] فعند ذلك قال موسى لما سأله عن رب العالمين : ﴿ قَالَ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ

وَمَا بَيِّنُهُمَا ﴿٢٩﴾ أى : خالق جميع ذلك ومالكة ، والمتصرف فيه وإلهه ، لاشريك له ، هو الله الذى خلق الأشياء كلها، العالم العلوى وما فيه من الكواكب الثابت والسيارات النيرات ، والعالم السفلى وما فيه من بحار وقفار ، وجبال وأشجار ، وحيوان ونبات وثمار ، وما بين ذلك من الهواء والطيور ، وما يحتوى عليه الجو ، الجميع عبيد له خاضعون ذليلون . ﴿٣٠﴾ **إِنْ كُنْتُمْ مُوقِنِينَ ﴿٣٠﴾** أى : إن كانت لكم قلوب موقنة ، وأبصار نافذة .

فعند ذلك التفت فرعون إلى مَنْ حوله من مَلَكه ورؤساء دولته قائلاً لهم ، على سبيل التهكم والاستهزاء والتكذيب لموسى فيما قاله : ﴿٣١﴾ **أَلَا تَسْتَمْعُونَ ﴿٣١﴾** أى : ألا تعجبون بما يقول هذا فى زعمه : أن لكم إلهاً غيرى ؟ فقال لهم موسى : ﴿٣٢﴾ **رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأُولِينَ ﴿٣٢﴾** أى : خالقكم وخالق آبائكم الأولين ، الذين كانوا قبل فرعون وزمانه . ﴿٣٣﴾ **قَالَ ﴿٣٣﴾** أى : فرعون لقومه : ﴿٣٤﴾ **إِنْ رَسُولُكُمْ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ ﴿٣٤﴾** أى : ليس له عقل فى دعواه أن ثم ربا غيرى . ﴿٣٥﴾ **قَالَ ﴿٣٥﴾** أى : موسى لأولئك الذين أوعز إليهم فرعون ما أوعز من الشبهة ، فأجاب موسى بقوله : ﴿٣٦﴾ **رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ تَقُولُونَ ﴿٣٦﴾** أى : هو الذى جعل المشرق مشرقاً وتطلع منه الكواكب ، والمغرب مغرباً تغرب فيه الكواكب ، ثوابتها وسياراتها ، مع هذا النظام الذى سخرها فيه وقدرها ، فإن كان هذا الذى يزعم أنه ربكم وإلهكم صادقا فليعكس الأمر ، وليجعل المشرق مغرباً ، والمغرب مشرقاً ، كما أخبر تعالى عن ﴿٣٧﴾ **الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُخْبِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أَحْيِي وَأُمِيتُ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالسَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿٣٧﴾** [البقرة: ٢٥٨] ؛ ولهذا لما غلب فرعون وانقطعت حجته ، عدل إلى استعمال جاهه وقوته وسلطانه ، واعتقد أن ذلك نافع له ونافذ فى موسى ، عليه السلام ، فقال ما أخبر الله تعالى عنه :

﴿٣٨﴾ **قَالَ لَئِنِ اتَّخَذَتِ إِيَّاهَا غَيْرِي لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ ﴿٣٨﴾** قَالَ أَوْلَوْ جِثَّتْ بِشْيءٍ مِّنْ مِّمِينَ ﴿٣٩﴾ قَالَ فَأْتِ بِهِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٣٩﴾ فَأَلْقَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ ﴿٤٠﴾ وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ لِلنَّاظِرِينَ ﴿٤١﴾ قَالَ لِلْمَلَإِ حَوْلَهُ إِنَّ هَذَا لَسِحْرٌ عَلِيمٌ ﴿٤٢﴾ يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ بِسِحْرِهِ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ ﴿٤٣﴾ قَالُوا أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَأَبْنَيْهِ فِي الدَّيَّانِ حَشِيرِينَ ﴿٤٤﴾ يَا تَوَكَّلْ بِكُلِّ سِحْرٍ عَلِيمٍ ﴿٤٥﴾

لما قامت الحجة على فرعون بالبيان والعقل ، عدل إلى أن يقهر موسى بيده وسلطانه ، فظن أنه ليس وراء هذا المقام مقال ، فقال : ﴿٣٨﴾ **لَئِنِ اتَّخَذَتِ إِيَّاهَا غَيْرِي لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ ﴿٣٨﴾** . فعند ذلك قال موسى : ﴿٣٩﴾ **أَوْلَوْ جِثَّتْ بِشْيءٍ مِّنْ مِّمِينَ ﴿٣٩﴾** أى : بغيره إن قاطع واضح ﴿٤٠﴾ **قَالَ فَأْتِ بِهِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٤٠﴾** فَأَلْقَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ ﴿٤٠﴾ أى : ظاهر واضح فى غاية الجلاء والوضوح والعظمة ، ذات قوائم وفم كبير ، وشكل هائل مزعج ﴿٤١﴾ **وَنَزَعَ يَدَهُ ﴿٤١﴾** أى : من جيبه ﴿٤٢﴾ **فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ لِلنَّاظِرِينَ ﴿٤٢﴾**

أى : تتلألاً كقطعة من القمر . فبادر فرعون بشقاوته إلى التكذيب والعدا ، فقال للملأ حوله : ﴿ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ ﴾ أى : فاضل بارع فى السحر . فَرَوَّجَ عَلَيْهِمُ فرعون أن هذا من قبيل السحر لا من قبيل المعجزة ، ثم هيجهم وحرصهم على مخالفته ، والكفر به . فقال : ﴿ يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ بِسِحْرِهِ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ ﴾ أى : أراد أن يذهب بقلوب الناس معه بسبب هذا ، فيكثر أعوانه وأنصاره وأتباعه ويغلبكم على دولتكم ، فيأخذ البلاد منكم ، فأشيروا على فيه ماذا أصنع به ؟ ﴿ قَالُوا أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَأَبْعَثْ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ . يَا تُوكَّ بِكُلِّ سَحَابٍ عَلِيمٌ ﴾ أى : أخره وأخاه حتى تجمع له من مدائن مملكته وأقاليم دولتك كل سحار عليم يقابلونه ، ويأتون بنظير ما جاء به ، فتغلبه أنت وتكون لك النصره والتأييد . فأجابهم إلى ذلك . وكان هذا من تسخير الله تعالى لهم فى ذلك ؛ ليجتمع الناس فى صعيد واحد ، ولتظهر آيات الله وحججه وبراهينه على الناس فى النهار جهرة .

﴿ فَجُمِعَ السَّحَرَةُ لِمِيقَاتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴿٣٨﴾ وَقِيلَ لِلنَّاسِ هَلْ أَنْتُمْ مُجْتَمِعُونَ ﴿٣٩﴾ لَعَلَّنَا نَتَّبِعَ السَّحَرَةَ إِنْ كَانُوا هُمُ الْغَالِبِينَ ﴿٤٠﴾ فَلَمَّا جَاءَ السَّحَرَةُ قَالُوا لِفِرْعَوْنَ أَإِنَّا لِنَأْتِي لَنَا لَأَجْرًا إِنْ كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ ﴿٤١﴾ قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ إِذَا لَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ ﴿٤٢﴾ قَالَ لَهُمْ مُوسَى أَلْقُوا مَا أَنْتُمْ مُلقُونَ ﴿٤٣﴾ فَأَلْقَوْا حِبَالَهُمْ وَعَصِيَّتَهُمْ وَقَالُوا بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ الْغَالِبُونَ ﴿٤٤﴾ فَأَلْقَى مُوسَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ ﴿٤٥﴾ فَأَلْقَى السَّحَرَةُ سِهْنِيذِينَ ﴿٤٦﴾ قَالُوا ءَأَمَّا رَبِّ الْمَالِيَيْنِ ﴿٤٧﴾ رَبِّ مُوسَى وَهَارُونَ ﴿٤٨﴾ ﴾

ذكر تعالى هذه المناظرة الفعلية بين موسى عليه السلام والقبط فى « سورة الأعراف » وفى « سورة طه » ، وفى هذه السورة : وذلك أن القبط أرادوا أن يطفثوا نور الله بأفواههم ، فأبى الله إلا أن يتم نوره ولو كره الكافرون . وهذا شأن الكفر والإيمان ، ما تواجهها وتقابلا إلا غلبه الإيمان ، ﴿ بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ وَكُمُ الْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ ﴾ [الأنبياء : ١٨] ، ﴿ وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا ﴾ [الإسراء : ٨١] ، ولهذا لما جاء السحرة ، وقد جمعوه من أقاليم بلاد مصر ، وكانوا إذ ذاك أسحر الناس وأصنعهم وأشدهم تخيلاً فى ذلك ، وكان السحرة جمعاً كثيراً ، وجملاً غفيراً ، والله أعلم بعدتهم .

واجتهد الناس فى الاجتماع ذلك اليوم ، وقال قائلهم : ﴿ لَعَلَّنَا نَتَّبِعَ السَّحَرَةَ إِنْ كَانُوا هُمُ الْغَالِبِينَ ﴾ ، ولم يقولوا : نتبع الحق سواء كان من السحرة أو من موسى ، بل الرعية على دين ملكهم ﴿ فَلَمَّا جَاءَ السَّحَرَةُ ﴾ أى : إلى مجلس فرعون وقد ضرب له وطاقاً ، وجمع حشمه وخدمه ووزراءه ورؤساء دولته وجنود مملكته ، فقام السحرة بين يدي فرعون ، يطلبون منه الإحسان إليهم والتقرب إليه إن غلبوا ، أى هذا الذى جمعتنا من أجله ، فقالوا : ﴿ أَأَنْ لَنَا لَأَجْرًا إِنْ كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ . قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ إِذَا لَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ ﴾ أى : وأخصص مما تطلبون أجعلكم من المقربين عندى وجلسائى . فعادوا إلى مقام المناظرة ﴿ قَالُوا يَا مُوسَى إِمَّا أَنْ تُلْقِيَ وَإِمَّا أَنْ نَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَى . قَالَ

بَلْ أَلْقُوا ﴿ طه: ٦٥ ، ٦٦ ﴾ ، وقد اختصر هذا ههنا . فقال لهم موسى : ﴿ أَلْقُوا مَا أَنْتُمْ مُلْقُونَ . فَأَلْقُوا حِبَالَهُمْ وَعَصِيهِمْ وَقَالُوا بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ الْغَالِبُونَ ﴾ ، وهذا كما يقوله الجهلة من العوام إذا فعلوا شيئاً : هذا بثواب فلان . وقد ذكر الله في «سورة الأعراف» : أنهم ﴿ سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ وَاسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَاءُوا بِسِحْرٍ عَظِيمٍ ﴾ [الأعراف: ١١٦] ، وقال في «سورة طه» : ﴿ فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِنْ سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَى . فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةَ مُوسَى . فَلَمَّا لَا تَخَفُ إِلَّا نَكَتُ الْأَعْلَى . وَأَلْقَى مَا فِي يَمِينِكَ تَلَقَّفَ مَا صَنَعُوا إِنَّمَا صَنَعُوا كَيْدُ سَاحِرٍ وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَى ﴾ [طه: ٦٦ - ٦٩] . وقال ههنا : ﴿ فَأَلْقَى مُوسَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ تَلَقَّفَ مَا يَأْكُفُونَ ﴾ أى : تختطفه وتجمعه من كل بقعة وتبتلعه فلم تدع منه شيئاً ، قال تعالى : ﴿ فَوَقَّعَ الْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ . فَلَقُوا هُنَالِكَ وَانْقَلَبُوا صَاعِرِينَ . وَأَلْقَى السَّحَرَةَ سَاجِدِينَ . قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ . رَبِّ مُوسَى وَهَارُونَ ﴾ [الأعراف: ١١٨-١٢٢] وكان هذا أمراً عظيماً جداً ، وبرهاناً قاطعاً للعذر وحجة دامغة ، وذلك أن الذين استنصر بهم وطلب منهم أن يغلبوا ، قد غلبوا وخضعوا وآمنوا بموسى فى الساعة الراهنة ، وسجدوا لله رب العالمين ، الذى أرسل موسى وهارون بالحق وبالمعجزة الباهرة ، فغلب فرعون غلباً لم يشاهد العالم مثله ، وكان وقحاً جريئاً عليه لعنة الله ، فعدل إلى المكابرة والعداوة ودعوى الباطل ، فشرع يتهددهم ويتوعددهم ، ويقول : ﴿ إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ ﴾ [طه: ٧١] ، وقال : ﴿ إِنَّ هَذَا لَمَكْرٌ مَكْرُتُمْ فِي الْمَدِينَةِ لِتُخْرِجُوا مِنْهَا أَهْلَهَا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴾ [الأعراف: ١٢٣] .

﴿ قَالَ أَمَأَمْتُمْ لَمْ قَبْلَ أَنْ أَدِّنَ لَكُمْ إِنَّكُمْ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ فَلَسَوْفَ تَعْمَلُونَ لَأَقْطَعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خَلْفٍ وَلَا صَلْبَتِكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٤٩﴾ قَالُوا لَا ضَيْرَ لَنَا إِنَّا رِبَّانَا مُتَقَلَّبُونَ ﴿٥٠﴾ إِنَّا نَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطِيئَاتِنَا أَنْ كُنَّا أَوَّلَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٥١﴾ ﴾

تهددهم فلم ينفع ذلك فيهم ، وتوعددهم فما زادهم إلا إيماناً وتسلماً . وذلك أنه قد كشف عن قلوبهم حجاب الكفر ، وظهر لهم الحق بعلمهم ما جهل قومهم ، من أن هذا الذى جاء به موسى لا يصدر عن بشر ، إلا أن يكون الله قد أيده به ، وجعله له حجة ودلالة على صدق ما جاء به من ربه ؛ ولهذا لما قال لهم فرعون : ﴿ آمَأَمْتُمْ لَمْ قَبْلَ أَنْ أَدِّنَ لَكُمْ ﴾ ؟ أى : كان ينبغي أن تستأذنونى فيما فعلتم ، ولا تفتاتوا على فى ذلك ، فإن أذنت لكم فعلتم ، وإن منعتكم امتنعتم ، فإنى أنا الحاكم المطاع ﴿ إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ ﴾ وهذه مكابرة يعلم كل أحد بطلانها ، فإنهم لم يجتمعوا بموسى قبل ذلك اليوم ، فكيف يكون كبيرهم الذى أفادهم صناعة السحر ؟ هذا لا يقوله عاقل .

ثم توعددهم فرعون بقطع الأيدي والأرجل والصلب ، فقالوا : ﴿ لَا ضَيْرَ ﴾ أى : لا حرج ولا يضرنا ذلك ولا نبالى به ﴿ إِنَّا إِلَى رَبِّنَا مُتَقَلَّبُونَ ﴾ أى : المرجع إلى الله ، وهو لا يضع أجر من أحسن عملاً ، ولا يخفى عليه ما فعلت بنا ، وسيجزينا على ذلك أتم الجزاء ؛ ولهذا قالوا : ﴿ إِنَّا نَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطَايَانَا ﴾ أى : ما قارفناه من الذنوب ، وما أكرهتنا عليه من السحر ﴿ أَنْ كُنَّا أَوَّلَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ أى : بسبب أننا بادرتنا قومنا من القبط إلى الإيمان . فقتلهم كلهم .

﴿ ٥١ ﴾ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِيٰ إِنَّكَ مُتَّبَعُونَ ﴿ ٥٢ ﴾ فَارْسَلْنَا فِرْعَوْنَ فِي الْمَلَأَيْنِ رِيعَ حَاشِرِينَ ﴿ ٥٣ ﴾ إِنَّ هَؤُلَاءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ ﴿ ٥٤ ﴾ وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَائِطُونَ ﴿ ٥٥ ﴾ وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَادِرُونَ ﴿ ٥٦ ﴾ فَأَخْرَجْنَاهُم مِّن جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴿ ٥٧ ﴾ وَكُنُوزٍ وَمَقَامِرٍ كَرِيمٍ ﴿ ٥٨ ﴾ كَذَٰلِكَ وَأَوْزَيْنَاهَا بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴿ ٥٩ ﴾

لما طال مقام موسى ، عليه السلام ، ببلاد مصر ، وأقام بها حجج الله وبراهينه على فرعون وملئه ، وهم مع ذلك يكابرون ويعاندون ، لم يبق لهم إلا العذاب والنكال ، فأمر الله موسى ، عليه السلام ، أن يخرج بني إسرائيل ليلا من مصر ، وأن يمضى بهم حيث يؤمر ، ففعل موسى ، عليه السلام ، ما أمره به ربه ، عز وجل . خرج بهم بعدما استعاروا من قوم فرعون حلياً كثيراً . وأن موسى ، عليه السلام ، سأل عن قبر يوسف ، عليه السلام ، فدلته امرأة عجوز من بني إسرائيل عليه ، فاحتمل تابوته معهم ، ويقال : إنه هو الذى حملة بنفسه ، عليهما السلام ، وكان يوسف قد أوصى بذلك إذا خرج بنو إسرائيل أن يحملوه معهم .

فلما أصبحوا وليس فى ناديبهم داع ولا محبيب ، غاظ ذلك فرعون واشتد غضبه على بنى إسرائيل ؛ لما يريد الله به من الدمار ، فأرسل سريعا فى بلاده حاشرين ، أى : من يحشر الجند ويجمعه ، كالنقباء والحجباب ، ونادى فيهم : ﴿ إِنَّ هَؤُلَاءِ ﴾ يعنى : بنى إسرائيل ﴿ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ ﴾ أى : لطائفة قليلة ﴿ وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَائِطُونَ ﴾ أى : كل وقت يصل لنا منهم ما يغيظنا ، ﴿ وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَادِرُونَ ﴾ أى : نحن كل وقت نحذر من غائلتهم وإنى أريد أن أستاصل شأفتهم ، وأبىد خضراءهم . فجوزى فى نفسه وجنده بما أراد لهم ، قال الله تعالى : ﴿ فَأَخْرَجْنَاهُم مِّن جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ . وَكُنُوزٍ وَمَقَامِرٍ كَرِيمٍ ﴾ أى : فخرجوا من هذا النعيم إلى الجحيم ، وتركوا تلك المنازل العالية والبساتين والأنهار والأموال والأرزاق والملك والجاه الوافر فى الدنيا ﴿ كَذَٰلِكَ وَأَوْزَيْنَاهَا بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴾ ، كما قال تعالى : ﴿ وَأَوْزَيْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضَفُونَ مَشَارِقَ الْأَرْضِ وَمَعَارِبَهَا الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا ﴾ الآية [الأعراف : ١٣٧] ، وقال تعالى : ﴿ وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضِعُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ ﴾ الآيتين [القصص : ٥ ، ٦] .

﴿ ٦٠ ﴾ فَأَتَّبَعُوهُمْ مُّشْرِقِينَ ﴿ ٦١ ﴾ فَلَمَّا تَرَاهُ الْجَمْعَانِ قَالِ أَصْحَابُ مُوسَىٰ إِنَّا لَمَدْرُكُونَ ﴿ ٦٢ ﴾ قَالَ كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ ﴿ ٦٣ ﴾ فَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنْ أَضْرِبْ بِعَصَاكَ الْبَحْرَ فَانفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ ﴿ ٦٤ ﴾ وَأَزَلْنَا تَمَّ الْآخِرِينَ ﴿ ٦٥ ﴾ وَأَجْنَيْنَا مُوسَىٰ وَمَنْ مَعَهُ أَجْمِينَ ﴿ ٦٦ ﴾ ثُمَّ أَعْرَفْنَا الْآخِرِينَ ﴿ ٦٧ ﴾ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُّؤْمِنِينَ ﴿ ٦٨ ﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿ ٦٩ ﴾

ذكر غير واحد من المفسرين : أن فرعون خرج فى محفل عظيم وجمع كبير ، هو عبارة

عن مملكة الديار المصرية فى زمانه ، أولى الحل والعقد والدول ، من الأمراء والوزراء والكبراء والرؤساء والجنود ﴿ فَاتَّبَعُوهُمْ مُشْرِقِينَ ﴾ أى : وصلوا إليهم عند شروق الشمس ، وهو طلوعها ﴿ فَلَمَّا تَرَاءَى الْجَمْعَانِ ﴾ أى : رأى كل من الفريقين صاحبه ، فعند ذلك ﴿ قَالَ أَصْحَابُ مُوسَى إِنَّا لَمُدْرِكُونَ ﴾ ، وذلك أنه انتهى بهم السير إلى سيف البحر ، وهو بحر القلزم ، فصار أمامهم البحر ، وفرعون قد أدركهم بجنوده ، فهذا قالوا : ﴿ إِنَّا لَمُدْرِكُونَ . قَالَ كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ ﴾ أى : لا يصل إليكم شئ مما تحذرون ، فإن الله ، سبحانه ، هو الذى أمرنى أن أسير ههنا بكم ، وهو لا يخلف الميعاد . وكان هارون ، عليه السلام ، فى المقدمة ، ومعه يوشع بن نون ، ومؤمن آل فرعون وموسى ، عليه السلام ، فى الساقة .

وأوحى الله إلى موسى : ﴿ أَنْ اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْبَحْرَ ﴾ ، فضربه بها ، ففياها سلطان الله الذى أعطاه ﴿ فَانْفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطُّورِ الْعَظِيمِ ﴾ أى : كالجبل الكبير . قاله ابن مسعود ، وابن عباس ، وقتادة ، وغيرهم . وقال عطاء الخراسانى : هو الفج بين الجبلين . وقال ابن عباس : صار البحر اثنى عشر طريقاً ، لكل سبط طريق ، وبعث الله الريح على قعر البحر فلفحته ، فسار ييساً كوجه الأرض ، قال الله تعالى : ﴿ فَاضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِي الْبَحْرِ يَبَسًا لَا تَخَافُ دَرْكًا وَلَا تَخْشَى ﴾ [طه : ٧٧] ، وقال فى هذه القصة : ﴿ وَأَزَلَفْنَا ﴾ أى : هنالك ﴿ الْآخِرِينَ ﴾ . قال ابن عباس ، وعطاء الخراسانى ، وقتادة ، والسدى : ﴿ وَأَزَلَفْنَا ﴾ أى : قربنا فرعون وجنوده من البحر وأدنيناهم إليه ﴿ وَأَنْجَيْنَا مُوسَى وَمَنْ مَعَهُ أَجْمَعِينَ . ثُمَّ أَغْرَقْنَا الْآخِرِينَ ﴾ أى : أنجينا موسى وبنى إسرائيل ومن معهم على دينهم فلم يهلك منهم أحد ، وأغرق فرعون وجنوده ، فلم يبق منهم رجل إلا هلك . ثم قال تعالى : ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً ﴾ أى : فى هذه القصة وما فيها من العجائب والنصر والتأييد لعباد الله المؤمنين ؛ للدلالة وحجة قاطعة وحكمة بالغة ﴿ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ . وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴾ تقدم تفسيره .

﴿ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنَّ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ ﴾ ﴿ ٧٥ ﴾ ﴿ قَالُوا نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَنْزِلُ لَهَا عَظْمًا ﴾ ﴿ ٧٦ ﴾ ﴿ قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ ﴾ ﴿ ٧٧ ﴾ ﴿ أَوْ يَنْفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ ﴾ ﴿ ٧٨ ﴾ ﴿ قَالُوا بَلْ وَجَدْنَا آبَاءَنَا كَذَلِكَ يَفْعَلُونَ ﴾ ﴿ ٧٩ ﴾ ﴿ قَالَ أَرَأَيْتُمْ مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ ﴾ ﴿ ٨٠ ﴾ ﴿ أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ الْأَقْدَمُونَ ﴾ ﴿ ٨١ ﴾ ﴿ فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِي إِلَّا رَبَّ الْعَالَمِينَ ﴾ ﴿ ٨٢ ﴾

هذا إخبار من الله تعالى عن عبده ورسوله وخليته إبراهيم إمام الخفاء ، أمر الله رسوله محمداً ، ﷺ أن يتلوه على أمته ، ليقننوا به فى الإخلاص والتوكل ، وعبادة الله وحده لا شريك له ، والتبرى من الشرك وأهله ؛ فإن الله تعالى أتى إبراهيم رشده من قبل ، أى : من صغره إلى كبره ، فإنه من وقت نشأ وشب ، أنكر على قومه عبادة الأصنام مع الله ، عز وجل ، فقال : ﴿ لِأَيِّهِ وَقَوْمِهِ مَا تَعْبُدُونَ ﴾ أى : ما هذه التماثيل التى أنتم لها عاكفون ؟ ﴿ قَالُوا نَعْبُدُ أَصْنَامًا

فَنظَّلْ لَهَا عَاكِفِينَ ﴿٧٨﴾ أى : مقيمين على عبادتها ودعائها ، ﴿ قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمُ إِذْ تَدْعُونَ . أَوْ يَنفَعُونَكُمُ أَوْ يَضُرُّونَ . قَالُوا بَلْ وَجَدْنَا آبَاءَنَا كَذَلِكَ يَفْعَلُونَ ﴾ يعنى : اعترفوا بأن أصنامهم لا تفعل شيئاً من ذلك ، وإنما رأوا آباءهم كذلك يفعلون ، فهم على آثارهم يُهرعون . فعند ذلك قال لهم إبراهيم : ﴿ أَفَرَأَيْتُمْ مَا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ . أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ الْأَقْدَمُونَ . فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِي إِلَّا رَبَّ الْعَالَمِينَ ﴾ أى : إن كانت هذه الأصنام شيئاً ولها تأثير ، فلتتخلص إلى بالمساءة ، فإنى عدو لها لا أباليها ولا أفكر فيها . وهذا كما قال تعالى مخبراً عن نوح ، عليه السلام : ﴿ فَاجْمِعُوا أَمْرَكُمْ وَشُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ اقْضُوا إِلَيَّ وَلَا تُنظِرُونِ ﴾ [يونس : ٧١] ، وقال هود ، عليه السلام : ﴿ إِنِّي أَشْهَدُ اللَّهَ وَأَشْهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ . مِنْ دُونِهِ فَكِيدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنظِرُونَ . إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ مَا مِنْ دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾ [هود : ٥٤ - ٥٦] . وهكذا تبرأ إبراهيم من آلهتهم وقال : ﴿ وَكَيْفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُم بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزَّلْ بِهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا ﴾ [الانعام : ٨١] . وقال تعالى : ﴿ قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَاءُ مِنْكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحَدَهُ ﴾ [المتحنة : ٤] ، وقال تعالى : ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ إِنَّنِي بَرَاءٌ مِمَّا تَعْبُدُونَ . إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُ سَيِّدِي . وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقِبِهِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾ [الزخرف : ٢٦ - ٢٨] يعنى : لا إله إلا الله .

﴿ الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ ﴾ (٧٨) ﴿ وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ ﴾ (٧٩) وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ﴿٨٠﴾ وَالَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ ﴿٨١﴾ وَالَّذِي أَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ ﴿٨٢﴾

يعنى : لا أعبد إلا الذى يفعل هذه الأشياء ﴿ الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ ﴾ أى : هو الخالق الذى قدر قدراً ، وهدى الخلائق إليه ، فكل يجرى على ما قدر ، وهو الذى يهدى من يشاء ويضل من يشاء ﴿ وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ ﴾ أى : هو خالقي ورازقى ، بما سخر ويسر من الأسباب السماوية والأرضية ، فساق الممزن ، وأنزل الماء ، وأحيا به الأرض ، وأخرج به من كل الثمرات رزقا للعباد ، وأنزل الماء عذبا زلالا لـ ﴿ نَسْفِيهِ مِمَّا خَلَقْنَا أَنْعَامًا وَأَنَاسِي كَثِيرًا ﴾ [الفرقان : ٤٩] .

وقوله : ﴿ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ﴾ أسند المرض إلى نفسه ، وإن كان عن قدر الله وقضائه وخلقه ، ولكن أضافه إلى نفسه أدبا ، كما قال تعالى أمراً للمصلى أن يقول : ﴿ اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ . صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينِ ﴾ [الفاتحة : ٦ ، ٧] فأسند الإنعام إلى الله ، سبحانه وتعالى ، والغضب حذف فاعله أدبا ، وأسند الضلال إلى العبيد ، كما قالت الجن : ﴿ وَأَنَا لَا نَدْرِي أَشْرٌ أُرِيدُ بِعِن فِي الْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشْدًا ﴾ [الجن : ١٠] ؛ وكذا قال إبراهيم : ﴿ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ﴾ أى : إذا وقعت فى مرض فإنه لا يقدر على شفائى أحد غيره ، بما يقدر من الأسباب الموصلة إليه ، ﴿ وَالَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ ﴾ أى : هو الذى يحيى ويميت ، لا يقدر على ذلك أحد سواه ، فإنه هو الذى يبدئ ويعيد ﴿ وَالَّذِي أَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لِي ﴾

حَطِيبَتِي يَوْمَ الدِّينِ ﴿٨٦﴾ أى : هو الذى لا يقدر على غَفْرِ الذُّنُوبِ فى الدنيا والآخرة ، إلا هو ، ومن يغفر الذنوب إلا الله ، وهو الفعال لما يشاء .

﴿ رَبِّ هَبْ لِي حُكْمًا وَالْحَقِّقَى بِالصَّالِحِينَ ﴾ ﴿٨٦﴾ وَأَجْعَلْ لِي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الآخِرِينَ ﴿٨٦﴾
 ﴿٨٦﴾ وَأَجْعَلْنِي مِنْ وَرَثَةِ جَنَّةِ النَّعِيمِ ﴿٨٥﴾ وَأَغْفِرْ لِأَيِّبِي إِنَّهُ كَانَ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿٨١﴾ وَلَا تُخْزِنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ ﴿٨٧﴾ يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنْ آتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٩﴾ ﴿٨٩﴾

وهذا سؤال من إبراهيم ، عليه السلام ، أن يؤتبه ربه حُكْمًا . قال ابن عباس : وهو العلم . وقال عكرمة : هو اللب . وقال مجاهد : هو القرآن . وقال السدى : هو النبوة . وقوله : ﴿ وَالْحَقِّقَى بِالصَّالِحِينَ ﴾ أى : اجعلنى مع الصالحين فى الدنيا والآخرة ، كما قال النبى ﷺ عند الاحتضار : « اللهم الرفيق الأعلى » قالها ثلاثاً (١) .

وقوله : ﴿ وَأَجْعَلْ لِي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الآخِرِينَ ﴾ أى : واجعل لى ذكراً جميلاً بعدى أذكر به ، ويقتدى بى فى الخير ، كما قال تعالى : ﴿ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الآخِرِينَ . سَلَامٌ عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ . كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴾ [الصافات : ١٠٨ - ١١٠] . قال مجاهد ، وقتادة : ﴿ وَأَجْعَلْ لِي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الآخِرِينَ ﴾ يعنى : الثناء الحسن . قال مجاهد : وهو كقوله تعالى : ﴿ وَآتَيْنَاهُ أَجْرَهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ ﴾ [العنكبوت : ٢٧] ، وكقوله : ﴿ وَآتَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَإِنَّهُ فِي الآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ ﴾ [النحل : ١٢٢] . قال ليث ابن أبى سليم : كل ملة تحبه وتتولاه . وكذا قال عكرمة . وقوله : ﴿ وَأَجْعَلْنِي مِنْ وَرَثَةِ جَنَّةِ النَّعِيمِ ﴾ أى : أنعم علىّ فى الدنيا ببقاء الذكر الجميل بعدى ، وفى الآخرة بأن تجعلنى من ورثة جنة النعيم .

وقوله : ﴿ وَأَغْفِرْ لِأَيِّبِي إِنَّهُ كَانَ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴾ كقوله : ﴿ رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيْ ﴾ [إبراهيم : ٤١] ، وهذا مما رجح عنه إبراهيم ، عليه السلام ، كما قال تعالى : ﴿ وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَّهَا إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ ﴾ [التوبة : ١١٤] . وقد قطع تعالى الإلحاق فى استغفاره لأبيه ، فقال : ﴿ قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ ﴾ إلى قوله : ﴿ وَمَا أَمَلِكُ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ ﴾ [الممتحنة : ٤] .

وقوله : ﴿ وَلَا تُخْزِنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ ﴾ أى : أجرنى من الحزى يوم القيامة ويوم بيعت الخلائق أولهم وآخرهم . روى البخارى عن أبى هريرة ، عن رسول الله ﷺ قال : « يلقى إبراهيم يوم القيامة أباه عليه العبرة والفترة » (٢) . وفى رواية أخرى عن أبى هريرة ، عن النبى ﷺ قال : « يلقى إبراهيم أباه ، فيقول : يا رب ، إنك وعدتني أن لا تخزني يوم يبعثون . فيقول الله تعالى : إنى حرمت الجنة على الكافرين » . هكذا رواه عند هذه الآية (٣) . وفى أحاديث الأنبياء بهذا

(١) البخارى (٦٥٠٩) ومسلم (٢١٩١ / ٤٦) . (٢) البخارى (٤٧٦٩) . (٣) البخارى (٤٧٦٩) .

الإسناد بعينه منفرداً به ، ولفظه : يلقى إبراهيم أباه آزر يوم القيامة، وعلى وجه آزر قترّةً وغبرةً ، فيقول له إبراهيم: ألم أقل لك: لاتعصني ؟ فيقول أبوه : فاليوم لا أعصيك . فيقول إبراهيم : يا رب ، إنك وعدتني ألا تخزيني يوم يبعثون ، فأى خزى أخزى من أبى الأبعد ؟ فيقول الله تعالى : إني حرمت الجنة على الكافرين . ثم يُقول: يا إبراهيم ، انظر تحت رجلك ؟ فينظر فإذا هو بذيخ متلطح ، فيؤخذ بقوائمه فيلقى في النار (١) .

والذيخ: هو الذكر من الضباع، كأنه حول أذر إلى صورة ذيخ متلطح بَعذرتَه، فيلقى في النار كذلك .

وقوله : ﴿يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ﴾ أى : لا يبقى المرء من عذاب الله ماله ، ولو افتدى بملء الأرض ذهباً ، ﴿وَلَا بَنُونَ﴾ ولو افتدى بمن فى الأرض جميعاً ، ولا ينفَعُ يومئذ إلا الإيمان بالله ، وإخلاص الدين له ، والتبرى من الشرك ؛ ولهذا قال : ﴿إِلَّا مَنْ آتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ أى : سالم من الدنس والشرك . قال محمد بن سيرين: القلب السليم أن يعلم أن الله حق ، وأن الساعة آتية لا ريب فيها ، وأن الله يبعث من فى القبور . وقال ابن عباس: ﴿إِلَّا مَنْ آتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ يعنى: يشهد أن لا إله إلا الله . وقال مجاهد ، والحسن ، وغيرهما : ﴿بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ يعنى : من الشرك . وقال سعيد بن المسيب : القلب السليم : هو القلب الصحيح ، وهو قلب المؤمن ؛ لأن قلب الكافر والمنافق مريض ، قال الله : ﴿فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ﴾ [البقرة : ١٠] . وقال أبو عثمان النيسابورى : هو القلب الخالى من البدعة ، المطمئن على السنة .

﴿وَأَزَلَّتْ الْجَنَّةُ لِلْمُفْسِقِينَ﴾ ٩٠ ﴿وَبُرِّزَتِ الْجَحِيمُ لِلْغَاوِينَ﴾ ٩١ وَقِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ ٩٢ ﴿مِنْ دُونِ اللَّهِ هَلْ يَنْصُرُونَكُمْ أَوْ يَنْصُرُونَ﴾ ٩٣ ﴿فَكَبِّكُوا فِيهَا هُمْ وَالْغَاوُونَ﴾ ٩٤ ﴿وَجَنُودُ إبْلِيسَ أَجْمَعُونَ﴾ ٩٥ قَالُوا وَهُمْ فِيهَا يَخْتَصِمُونَ ٩٦ ﴿تَاللَّهِ إِنْ كُنَّا لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ ٩٧ ﴿إِذْ نُسَوِّكُمْ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ ٩٨ ﴿وَمَا أَضَلَّنَا إِلَّا الْمُجْرِمُونَ﴾ ٩٩ ﴿فَمَا لَنَا مِنْ شَافِعِينَ﴾ ١٠٠ ﴿وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ﴾ ١٠١ ﴿قُلُوا أَنْ لَنَا كَرَّةٌ فَنَكُونُ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ ١٠٢ ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ ١٠٣ ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾ ١٠٤

﴿وَأَزَلَّتْ الْجَنَّةُ﴾ أى : قربت وأدنت من أهلها مزخرقة مزينة لناظرها ، وهم المتقون الذين رغبوا فيها ، وعملوا لها على ما فى الدنيا فى الدنيا ﴿وَبُرِّزَتِ الْجَحِيمُ لِلْغَاوِينَ﴾ أى : أظهرت وكُشف عنها ، وبدت منها عُنُقٌ ، فزفرت زفرة بلغت منها القلوب الخناجر ، وقيل لأهلها تقريبا وتوبيخا : ﴿أَيْنَ مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ . مِنْ دُونِ اللَّهِ هَلْ يَنْصُرُونَكُمْ أَوْ يَنْصُرُونَ﴾ ؟ أى : ليست الآلهة التى عبدتموها من دون الله، من تلك الأصنام والأنداد تغنى عنكم اليوم شيئاً ، ولا تدفع عن أنفسها ؛

فإنكم وإياها اليوم حصَبُ جهنم أنتم لها واردون .

وقوله : ﴿ فَكُتِبُوا فِيهَا هُمْ وَالْغَاوُونَ ﴾ قال مجاهد: يعنى: قد هوروا فيها . وقال غيره : كبروا فيها . والكاف مكررة ، والمراد : أنه ألقى بعضهم على بعض ، من الكفار وقادتهم الذين دعوهم إلى الشرك ﴿ وَجُنُودٌ يُبَلِّسُ أَجْمَعُونَ ﴾ أى: ألقوا فيها عن آخرهم ﴿ قَالُوا وَهُمْ فِيهَا يَخْتَصِمُونَ . تَاللَّهِ إِنْ كُنَّا لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ . إِذْ نَسُواكُمْ بَرَبَ الْعَالَمِينَ ﴾ أى : يقول الضعفاء الذين استكبروا : ﴿ إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَبَلَّغْنَا مَكْرَهُنَّ لَنْ نَرْتَدَّ فِعْلَهُنَّ لَنْ نَكُونَ لَكُم بَالِغِينَ ﴾ [غافر : ٤٧] . ويقولون وقد عادوا على أنفسهم بالملامة : ﴿ تَاللَّهِ إِنْ كُنَّا لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ . إِذْ نَسُواكُمْ بَرَبَ الْعَالَمِينَ ﴾ أى : نجعل أمركم مطاعاً كما يطاع أمر رب العالمين ، وعبدناكم مع رب العالمين ﴿ وَمَا أَضَلَّنَا إِلَّا الْمُجْرِمُونَ ﴾ أى : ما دعانا إلى ذلك إلا المجرمون ﴿ فَمَا لَنَا مِنْ شَافِعِينَ ﴾ قال بعضهم : يعنى من الملائكة، كما يقولون: ﴿ فَبَلَّغْنَا لَنَا مِنْ شُعَفَاءَ فَيَشْفَعُوا لَنَا أَوْ نُرَدِّدْ فَعَمَلٌ غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ ﴾ [الاعراف: ٥٣] . وكذا قالوا : ﴿ فَمَا لَنَا مِنْ شَافِعِينَ . وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ ﴾ أى : قريب . قال قتادة : يعلمون - والله - أن الصديق إذا كان صالحاً نفع ، وأن الحميم إذا كان صالحاً شفع . ﴿ فَلَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَكُونُ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ وذلك أنهم يتمنون أنهم يردون إلى الدار الدنيا ، ليعملوا بطاعة ربهم - فيما يزعمون - وهو ، سبحانه وتعالى ، يعلم أنه لو ردهم إلى الدار الدنيا لعادوا لما نهوا عنه وإنهم لكاذبون . وقد أخبر تعالى عن تخاصم أهل النار فى سورة « ص » ، ثم قال : ﴿ إِنَّ ذَلِكَ لَحَقٌّ تَخَاصُمُ أَهْلِ النَّارِ ﴾ [ص : ٦٤] .

ثم قال تعالى : ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ ﴾ أى : إن فى محاجة إبراهيم لقومه وإقامته الحجج عليهم فى التوحيد آية ودلالة واضحة جلية على أنه لا إله إلا الله ، ﴿ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ . وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴾ .

﴿ كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٠٥﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٠٦﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٠٧﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا ﴿١٠٨﴾ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٠٩﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا ﴿١١٠﴾ ﴾

هذا إخبار من الله ، عز وجل ، عن عبده ورسوله نوح ، عليه السلام ، وهو أول رسول بعثه الله إلى أهل الأرض بعد ما عبدت الأصنام والأنداد ، فبعثه الله ناهياً عن ذلك ، ومحذراً من وبيل عقابه ، فكذب قومه فاستمروا على ما هم عليه من الفعال الخبيثة فى عبادتهم أصنامهم مع الله تعالى ، ونزل الله تعالى تكذيبهم له منزلة تكذيبهم جميع الرسل؛ ولهذا قال: ﴿ كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ الْمُرْسَلِينَ . إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴾ أى : ألا تخافون الله فى عبادتكم غيره؟ ﴿ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴾ أى : أنى رسول من الله إليكم ، أمين فيما بعثنى به ، أبلغكم رسالة الله لا أزيد فيها ولا أنتقص منها ﴿ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا . وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ أى: لا أطلب منكم جزاء على نصحى لكم، بل أدخر ثواب ذلك عند الله ﴿ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا ﴾

فقد وضح لكم وبان صدقى ونصحى وأمانتى فيما بعثنى الله به واتمنى عليه .

﴿ قَالُوا أَتُؤْمِنُ لَكَ وَاتَّبَعَكَ الْأَرْذَلُونَ ﴾ ﴿١١١﴾ قَالَ وَمَا عَلِمِي بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١١٢﴾
 ﴿١١٣﴾ إِنْ حِسَابُهُمْ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّي لَوْ تَشْعُرُونَ ﴿١١٤﴾ وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١١٥﴾ إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿١١٦﴾

يقولون : لا تؤمن لك ولا تتبعك ، وتتأسى فى ذلك بهؤلاء الأردلين الذين اتبعوك وصدقوك، وهم أراذلنا ؛ ولهذا قالوا : ﴿ أَتُؤْمِنُ لَكَ وَاتَّبَعَكَ الْأَرْذَلُونَ . قَالَ وَمَا عَلِمِي بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ ؟
 أى : وأى شىء يلزمنى من اتباع هؤلاء لى ، ولو كانوا على أى شىء كانوا عليه لا يلزمنى التفتيح عنه والبحث والفحص ، إنما على أن أقبل منهم تصديقهم إياى ، وأكل سرائرهم إلى الله ، عز وجل ، ﴿ إِنْ حِسَابُهُمْ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّي لَوْ تَشْعُرُونَ . وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ ، كأنهم سألوا منه أن يبعدهم عنه ليتابعوه ، فأبى عليهم ذلك ، وقال : ﴿ مَا أَنَا بِطَارِدِ الْمُؤْمِنِينَ . إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴾ أى : إنما بعثت نذيراً ، فمن أطاعنى واتبعنى وصدقنى كان منى وكنت منه ، سواء كان شريفاً أو وضعياً ، جليلاً أو حقيراً .

﴿ قَالُوا لَيْنَ لَمْ تَنْتَهَ يَلْنُوحْ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمَرْجُومِينَ ﴾ ﴿١١٧﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّي قَوْمِي كَذَّبُونِ ﴿١١٨﴾ فَافْتَحْ بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ فَتْحًا وَنَجِّنِي وَمَنْ مَعِيَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١١٩﴾ فَافْتَحْنَا لَهُمْ قُلُوبَهُمْ فَفَتَحْنَا لَهُمْ أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٢٠﴾ ثُمَّ أَغْرَقْنَا بَعْدَ الْبَاقِينَ ﴿١٢١﴾ إِنْ فِي ذَلِكَ لَآيَةٌ وَمَا كَانُوا أَكْثَرَهُمْ مُّؤْمِنِينَ ﴿١٢٢﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿١٢٣﴾

لما طال مقام نبي الله بين أظهرهم يدعوهم إلى الله ليلاً ونهاراً ، وجهراً وإسراراً ، وكلما كرر عليهم الدعوة صمموا على الكفر الغليظ ، والامتناع الشديد ، وقالوا فى الآخر : ﴿ لَيْنَ لَمْ تَنْتَهَ ﴾ أى : عن دعوتك إيانا إلى دينك يا نوح ﴿ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمَرْجُومِينَ ﴾ أى : لترجمتك . فعند ذلك دعا عليهم دعوة استجاب الله منه ، فقال : ﴿ رَبِّ إِنِّي قَوْمِي كَذَّبُونِ . فَافْتَحْ بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ فَتْحًا وَنَجِّنِي وَمَنْ مَعِيَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ ، كما قال فى الآية الأخرى : ﴿ لَدَعَا رَبَّهُ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَانْتَصِرْ . فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ . وَفَجَرْنَا الْأَرْضَ عُيُونًا فَالْتَقَى الْمَاءُ عَلَىٰ أَمْرٍ قُدْرٍ . وَحَمَلْنَاهُ عَلَىٰ ذَاتِ الْأَوَّاحِ وَدُوسِرٍ . تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا جَزَاءَ لِمَنْ كَانَ كُفِرَ ﴾ [القمر : ١٠ - ١٤] ، وقال ههنا : ﴿ فَافْتَحْنَا لَهُمْ قُلُوبَهُمْ فَفَتَحْنَا لَهُمْ أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ . ثُمَّ أَغْرَقْنَا بَعْدَ الْبَاقِينَ ﴾ والمشحون : هو المملوء بالأمته والأزواج التى حمل فيه من كل زوجين اثنين ، أى : أنجينا نوحا ومن اتبعه كلهم ، وأغرقنا من كفر به وخالف أمره ﴿ إِنْ فِي ذَلِكَ لَآيَةٌ وَمَا كَانُوا أَكْثَرَهُمْ مُّؤْمِنِينَ . وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴾ .

﴿ كَذَّبَتْ عَادَ الْمُرْسَلِينَ ﴿١١٦﴾ إِذْ قَالَ لَهُمُ أَخُوهُمْ هُودٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١١٧﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١١٨﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا ﴿١١٩﴾ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٢٠﴾ أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ ءَايَةً تَعْبَثُونَ ﴿١٢١﴾ وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ ﴿١٢٢﴾ وَإِذَا بَطِشْتُمْ بَطِشْتُمْ جَبَارِينَ ﴿١٢٣﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا ﴿١٢٤﴾ وَاتَّقُوا الَّذِي أَمَدَّكُمْ بِمَا تَعْلَمُونَ ﴿١٢٥﴾ أَمَدَّكُمْ بِأَنْعَامٍ وَبَيْنَ وَجَنَّتِ وَعْيُونِ ﴿١٢٦﴾ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٢٧﴾ ﴾

وهذا إخبار من الله تعالى عن عبده ورسوله هود ، عليه السلام ، أنه دعا قومه عاداً ، وكانوا قوموا يسكنون الأحقاف ، وهي : جبال الرمل قريباً من بلاد حضرموت من جهة بلاد اليمن ، وكان زمانهم بعد قوم نوح ، وكانوا في غاية من قوة التركيب ، والقوة والبطش الشديد ، والطول المديد ، والأرزاق الدارة ، والأموال والجنات ، والأبناء والزروع والشمار ، وكانوا مع ذلك يعبدون غير الله معه ، فبعث الله إليهم رجلاً منهم رسولاً وبشيراً ونذيراً ، فدعاهم إلى الله وحده ، وحذرهم نعمته وعذابه في مخالفته ، فقال لهم كما قال نوح لقومه ، إلى أن قال : ﴿ أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ ءَايَةً تَعْبَثُونَ ﴾ ، اختلف المفسرون في الريع بما حاصله : أنه المكان المرتفع عند جواد الطرق المشهورة . تبنون هناك بنيانا محكما باهراً هائلاً ؛ ولهذا قال : ﴿ أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ ءَايَةً ﴾ أي : معلما بناء مشهوراً ﴿ تَعْبَثُونَ ﴾ وإنما تفعلون ذلك عبثاً لا للاحتياج إليه ؛ بل لمجرد اللعب واللهو وإظهار القوة ؛ ولهذا أنكروا عليهم نبيهم ، عليه السلام ، ذلك ؛ لأنه تضييع للزمان وإتعايب للأبدان في غير فائدة ، واشتغال بما لا يجدى في الدنيا ولا في الآخرة .

ولهذا قال : ﴿ وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ ﴾ قال مجاهد : المصانع : البروج المشيدة ، والبنيان المخلد . وفي رواية عنه : بروج الحمام . وقال قتادة : هي مأخذ الماء . قال قتادة : وقرأ بعض القراء : « وتتخذون مصانع كأنكم خالدون » . وفي القراءة المشهورة : ﴿ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ ﴾ أي : لكي تقيموا فيها أبداً ، وليس ذلك بحاصل لكم ، بل زائل عنكم ، كما زال عن من كان قبلكم . وروى ابن أبي حاتم ، أن أبا الدرداء ، لما رأى ما أحدث المسلمون في الغوطة من البنيان ونصب الشجر ، قام في مسجدهم فنادى : يا أهل دمشق ، فاجتمعوا إليه ، فحمد الله وأثنى عليه ، ثم قال : ألا تستحيون ! ألا تستحيون ! تجمعون مالا تأكلون ، وتبنون ما لا تسكنون ، وتأملون ما لا تدركون ، قد كانت قبلكم قرون ، يجمعون فيوعون ، ويبنون فيوثقون ، ويأملون فيطيلون ، فأصبح أملمهم غروراً ، وجمعهم بوراً ، وأصبحت مساكنهم قبوراً ، ألا إن عاداً ملكت ما بين عدن وعمان خيلاً وركاباً ، فمن يشتري منى ميراث عاد بدرهمين ؟

وقوله : ﴿ وَإِذَا بَطِشْتُمْ بَطِشْتُمْ جَبَارِينَ ﴾ : يصفهم بالقوة والغلظة والجبروت ﴿ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا ﴾ أي : اعبدوا ربكم ، وأطيعوا رسولكم . ثم شرع يذكرهم نعم الله عليهم فقال : ﴿ وَاتَّقُوا الَّذِي أَمَدَّكُمْ بِمَا تَعْلَمُونَ . أَمَدَّكُمْ بِأَنْعَامٍ وَبَيْنَ . وَجَنَّتِ وَعْيُونِ . إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾ أي : إن

كذبتهم ومخالفتهم ، فدعاهم إلى الله بالترغيب والترهيب ، فما نفع فيهم .

﴿ قَالُوا سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَوَعَضْتَ أَمْ لَمْ تَكُنْ مِنَ الْوَاعِظِينَ ﴾ ﴿١٣٦﴾ **إِنْ هَذَا إِلَّا خُلُقُ الْأَوَّلِينَ**
 ﴿١٣٧﴾ **وَمَا نَحْنُ بِمُعَذِّبِينَ** ﴿١٣٨﴾ **فَكَذَّبُوهُ فَأَهْلَكْنَاهُمْ** **إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ**
مُؤْمِنِينَ ﴿١٣٩﴾ **وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُو الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ** ﴿١٤٠﴾

يقول تعالى مخبراً عن جواب قوم هود له ، بعدما حذرهم وأنذرهم ، ورغبهم ورهبهم ، وبين لهم الحق ووضحه : ﴿ قَالُوا سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَوَعَضْتَ أَمْ لَمْ تَكُنْ مِنَ الْوَاعِظِينَ ﴾ أى : لا نرجع عما نحن فيه ، ﴿ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِي آلِهَتِنَا عَنْ قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴾ [هود : ٥٣] . وهكذا الأمر ؛ فإن الله تعالى قال : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أُنذِرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ [البقرة : ٦] ، وقال تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ . وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّى يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ ﴾ [يونس : ٩٦ ، ٩٧] .

وقولهم : ﴿ **إِنْ هَذَا إِلَّا خُلُقُ الْأَوَّلِينَ** ﴾ قرأ بعضهم : « إن هذا إلا خلقى » بفتح الخاء وتسكين اللام . قال ابن مسعود وابن عباس ، وعلقمة ، ومجاهد : يعنون ما هذا الذى جئتنا به إلا أخلاق الأولين . كما قال المشركون من قريش : ﴿ وَقَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ اكْتَبَتْهَا فِيهَا تَمَلَى عَلَيْهِ بُكْرَةٌ وَأَصِيلًا ﴾ [الفرقان : ٥] ، وقال : ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنَّ هَذَا إِلَّا إِفْكُ اقْتَرَاهُ وَأَعَانَهُ عَلَيْهِ قَوْمٌ آخَرُونَ فَقَدْ جَاءُوا ظُلْمًا وَزُورًا . وَقَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴾ [الفرقان : ٤ ، ٥] ، وقال : ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ مَاذَا أُنزِلَ رَبُّكُمْ قَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴾ [النحل : ٢٤] . وقرأ آخرون : ﴿ **إِنْ هَذَا إِلَّا خُلُقُ الْأَوَّلِينَ** ﴾ بضم الخاء واللام ، يعنون : دينهم وما هم عليه من الأمر هو دين الأوائل من الآباء والأجداد . ونحن تابعون لهم ، سالكون وراءهم ، نعيش كما عاشوا ، ونموت كما ماتوا ، ولا بعث ولا معاد ؛ ولهذا قالوا : ﴿ **وَمَا نَحْنُ بِمُعَذِّبِينَ** ﴾ قال ابن عباس : ﴿ **إِنْ هَذَا إِلَّا خُلُقُ الْأَوَّلِينَ** ﴾ يقول : دين الأولين . وقاله عكرمة ، وعطاء الخراسانى ، وقتادة ، وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم ، واختاره ابن جرير .

قال الله تعالى : ﴿ **فَكَذَّبُوهُ فَأَهْلَكْنَاهُمْ** ﴾ أى : فاستمروا على تكذيب نبي الله هود ومخالفته وعناده ، فأهلكهم الله ، وقد بين سبب إهلاكه إيهم فى غير موضع من القرآن بأنه أرسل عليهم ريحاً صرصراً عاتية ، أى : ريحاً شديدة الهبوب ذات برد شديد جداً ، فكان إهلاكهم من جنسهم ، فإنهم كانوا أعتى شىء وأجبره ، فسلط الله عليهم ما هو أعتى منهم وأشد قوة ، كما قال : ﴿ **أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ . إِرْمَ ذَاتِ الْعِمَادِ ﴾ [الفجر : ٦ ، ٧] ، وقال تعالى : ﴿ **وَأَمَّا عَادُ فَاهْلَكُوهَا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ . سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا** ﴾ [الحاقة : ٦ ، ٧] ، أى : كاملة ، ﴿ **فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَى كَأَنَّهُمْ أُعِجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ** ﴾ [الحاقة : ٧] ، أى : بقوا أبداناً بلا رؤوس ؛ وذلك أن الريح كانت تاتى الرجل منهم فتقتلعه وترفعه فى الهواء ، ثم تنكسه على أم رأسه فتشدخ دماغه ، وتنكسر رأسه ، وتلقيه ، كأنهم أعجاز نخل منقعر . وقد كانوا تحصنوا فى الجبال والكهوف والمغارات ، وحفروا لهم فى الأرض إلى أنصافهم ، فلم يغن عنهم ذلك من أمر الله شيئاً**

﴿ إِنَّ أَجَلَ اللَّهِ إِذَا جَاءَ لَا يُؤَخَّرُ ﴾ [نوح : ٤] ؛ ولهذا قال : ﴿ فَكَذَّبُوهُ فَأَهْلَكْنَاهُمْ ﴾ الآية .

﴿ أَتُرْكُونَ فِي مَا هَنَأْنَا مِنْكُمْ ﴿١٤١﴾ فِي جَنَّتٍ وَعَيْوُنِ ﴿١٤٧﴾ وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلَعُهَا هَضِيمٌ ﴿١٤٨﴾ وَتَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا فَرِهِينَ ﴿١٤٩﴾ فَأَتَقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا ﴿١٥٠﴾ وَلَا تَطِيعُوا أَمْرَ الْمُسْرِفِينَ ﴿١٥١﴾ الَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ ﴾ ﴿١٥١﴾

وهذا إخبار من الله ، عز وجل ، عن عبده ورسوله صالح ، عليه السلام : أنه بعثه إلى قوم ثمود ، وكانوا عربياً يسكنون مدينة الحجر ، التي بين وادي القرى وبلاد الشام ، فدعاهم نبهم صالح إلى الله ، عز وجل ، أن يعبدوه وحده لا شريك له ، وأن يطيعوه فيما بلغهم من الرسالة ، فأبوا عليه وكذبوه وخالفوه . فأخبرهم أنه لا يتبغى بدعوتهم أجرا منهم ، وإنما يطلب ثواب ذلك من الله ، عز وجل . ثم ذكرهم آلاء الله عليهم فقال :

﴿ كَذَّبَتْ ثَمُودُ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٤١﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ صَالِحٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٤٢﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٤٣﴾ فَأَتَقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا ﴿١٤٤﴾ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٤٥﴾ ﴾

يقول لهم واعظاً لهم ومحذراً إياهم نعم الله أن تحل بهم ، ومذكراً بانعم الله عليهم فيما رزقهم من الأرزاق الدارة ، وجعلهم في أمن من المحذورات ، وأنبت لهم من الجنات ، وفجر لهم من العيون الجاريات ، وأخرج لهم من الزروع والثمار ؛ ولهذا قال : ﴿ وَنَخْلٍ طَلَعُهَا هَضِيمٌ ﴾ قال العوفى ، عن ابن عباس : أئبع وبلغ ، فهو هضيم . وقال على بن أبى طلحة ، عن ابن عباس : ﴿ وَنَخْلٍ طَلَعُهَا هَضِيمٌ ﴾ يقول : معشبة . وقال عن ابن عباس ، فى قوله : ﴿ وَنَخْلٍ طَلَعُهَا هَضِيمٌ ﴾ قال : إذا رطب واسترخى . رواه ابن أبى حاتم . وقال أبو العلاء : ﴿ وَنَخْلٍ طَلَعُهَا هَضِيمٌ ﴾ قال : هو المذنب من الرطب . وقال مجاهد : هو الذى إذا يبس تهشم وتفتت وتناثر . وقال مجاهد : ﴿ وَنَخْلٍ طَلَعُهَا هَضِيمٌ ﴾ قال : حين يطلع تقبض عليه فتهضمه ، فهو من الرطب الهضيم ، ومن اليباس الهشيم ، تقبض عليه فتهشمه . وقال عكرمة ، وقتادة : الهضيم : الرطب اللين . وقال الضحاك : إذا كثر حمل الثمرة ، وركب بعضه بعضاً ، فهو هضيم . وقال مرة : هو الطلع حين يتفرق ويخضر . وقال الحسن البصرى : هو الذى لا نوى له . وقال أبو صخر : ما رأيت الطلع حين ينشق عنه الكم ، فترى الطلع قد لصق ببعضه ببعض ، فهو الهضيم .

وقوله : ﴿ وَتَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا فَارِهِينَ ﴾ قال ابن عباس ، وغير واحد : يعنى : حاذقين . وفى رواية عنه : شرهين أشرين . وهو اختيار مجاهد وجماعة . ولا منافاة بينهما ؛ فإنهم كانوا يتخذون تلك البيوت المنحوتة فى الجبال أشراً وبطراً وعبثاً ، من غير حاجة إلى سكنها ، وكانوا حاذقين متقنين لنحتها ونقشها ، كما هو المشاهد من حالهم لمن رأى منازلهم ؛ ولهذا قال :

﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا﴾ أى : أقبِلوا على عمل ما يعود نفعه عليكم فى الدنيا والآخرة ، من عبادة ربكم الذى خلقكم ورزقكم لتوحده وتعبدوه وتسبحوه بكرة وأصيلا ، ﴿وَلَا تُطِيعُوا أَمْرَ الْمُشْرِكِينَ . الَّذِينَ يَفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ﴾ يعنى : رؤساءهم وكبراءهم ، الدعاة لهم إلى الشرك والكفر ، ومخالفة الحق .

﴿ قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمُسْحَرِينَ ﴿١٥٧﴾ مَا أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا فَأْتِ بِآيَةٍ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿١٥٨﴾ قَالَ هَذِهِ نَاقَةٌ لَهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَعْلُومٍ ﴿١٥٩﴾ وَلَا تَمْسُوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ يُومِرُ عَظِيمٌ ﴿١٥٦﴾ فَعَقَرُوهَا فَاصْبَحُوا نَادِمِينَ ﴿١٥٧﴾ فَأَخَذَهُمُ الْعَذَابُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿١٥٨﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿١٥٩﴾﴾

يقول تعالى مخبراً عن ثمود فى جوابهم لنبىهم صالح ، عليه السلام ، حين دعاهم إلى عبادة ربهم أنهم ﴿ قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمُسْحَرِينَ ﴾ قال مجاهد ، وقتادة : يعنون من المسحورين . وروى أبو صالح ، عن ابن عباس : ﴿ مِنَ الْمُسْحَرِينَ ﴾ : يعنى من المخلوقين ، يعنى الذين لهم سُحُور ، والسُّحْر : هو الرثة . والأظهر فى هذا قول مجاهد وقتادة : أنهم يقولون : إنما أنت فى قولك هذا مسحور لا عقل لك .

ثم قالوا : ﴿ مَا أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا ﴾ يعنى : فكيف أوحى إليك دوننا ؟ كما قالوا فى الآية الأخرى : ﴿ أَوْلَقِيَ الذِّكْرَ عَلَيْهِ مِنْ بَيْنِنَا بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٌ . سَيَعْلَمُونَ غَدًا مِنَ الْكَذَّابِ الْأَشِرِ ﴾ [القم: ٢٥ ، ٢٦] .

ثم إنهم اقترحوا عليه آية يأتيهم بها ، ليعلموا صدقه بما جاءهم به من ربهم ، وقد اجتمع ملؤهم وطلبوا منه أن يخرج لهم الآن من هذه الصخرة ناقة عُشْرَاء - وأشاروا إلى صخرة عندهم - من صفتها كذا وكذا . فعند ذلك أخذ عليهم نبى الله صالح العهود والمواثيق ، لئن أجابهم إلى ما سألوا لَيُؤْمِنَنَّ به ، وليتبعنه ، فأنعموا بذلك . فقام نبى الله صالح ، عليه السلام ، فصلى ، ثم دعا الله ، عز وجل ، أن يجيبهم إلى سؤالهم ، فانفطرت تلك الصخرة التى أشاروا إليها عن ناقة عُشْرَاء ، على الصفة التى وصفوها . فآمن بعضهم وكفر أكثرهم ، ﴿ قَالَ هَذِهِ نَاقَةٌ لَهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَعْلُومٍ ﴾ يعنى : ترد ماءكم يوماً ، ويوماً تردونه أنتم ، ﴿ وَلَا تَمْسُوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ يُومِرُ عَظِيمٌ ﴾ فحذرهم نقمة الله إن أصابوها بسوء ، فمكثت الناقة بين أظهرهم حيناً من الدهر ترد الماء ، وتاكل الورق والمرعى . ويتنفعون بلبنها ، يحتلبون منها ما يكفيهم شرباً ورياً ، فلما طال عليهم الأمد وحضر شقاؤهم ، تمالؤوا على قتلها وعقرها ﴿ فَعَقَرُوهَا فَاصْبَحُوا نَادِمِينَ . فَأَخَذَهُمُ الْعَذَابُ ﴾ وهو أن أرضهم زلزلت زلزلاً شديداً ، وجاءتهم صيحة عظيمة اقتلعت القلوب من محالها ، وأتاهم من الأمر ما لم يكونوا يحتسبون ، وأصبحوا فى ديارهم جاثمين ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ . وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴾ .

﴿ كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ الْمُرْسَلِينَ ﴿١١٤﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ لُوطُ أَلَا نُنْقُونَ ﴿١١٥﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١١٦﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا ﴿١١٧﴾ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١١٨﴾ ﴾

يقول تعالى مخبراً عن عبده ورسوله لوط ، عليه السلام ، وهو : لوط بن هاران بن آزر ، وهو ابن أخى إبراهيم الخليل ، وكان الله تعالى قد بعثه إلى أمة عظيمة فى حياة إبراهيم عليهما السلام ، وكانوا يسكنون « سدوم » وأعمالها التى أهلكتها الله بها ، وجعل مكانها بحيرة منتنة خبيثة ، وهى مشهورة ببلاد الغور ، بناحية جبال البيت المقدس ، فدعاهم إلى الله ، عز وجل ، أن يعبدوه وحده لا شريك له ، وأن يطيعوا رسولهم الذى بعثه الله إليهم ، ونهاهم عن معصية الله ، وارتكاب ما كانوا قد ابتدعوه فى العالم ، مما لم يسبقهم أحد من الخلائق إلى فعله ، من إتيان الذكّران دون الإناث ؛ ولهذا قال تعالى :

﴿ اتَّاتَوْا الذُّكْرَانَ مِنَ الْعَالَمِينَ ﴿١١٥﴾ وَتَدْرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ أَرْوَاحِكُمْ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ ﴿١١٦﴾ قَالُوا لَيْن لَمْ تَنْتَه يَلُوطُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمُخْرَجِينَ ﴿١١٧﴾ قَالَ إِنِّي لِعَمَلِكُمْ مِنَ الْقَالِينَ ﴿١١٨﴾ رَبِّ نَجِّنِي وَأَهْلِي مِمَّا يَعْمَلُونَ ﴿١١٩﴾ فَنجَّيناهُ وأهلهُ أجمعين ﴿١٢٠﴾ إِلَّا عَجُوزًا فِي الْغَابِرِينَ ﴿١٢١﴾ ثُمَّ دَمَرْنَا الْآخَرِينَ ﴿١٢٢﴾ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا فَسَاءَ مَطَرُ الْمُنذِرِينَ ﴿١٢٣﴾ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿١٢٤﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿١٢٥﴾ ﴾

لما نهاهم نبي الله عن ارتكاب الفواحش ، وغشيانهم الذكور ، وأرشدهم إلى إتيان نسائهم اللاتي خلقهن الله لهم - ما كان جوابهم له إلا أن قالوا : ﴿لَيْن لَمْ تَنْتَه يَا لُوطُ ﴾ أى : عما جئنا به ، ﴿لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمُخْرَجِينَ ﴾ أى : نضفك من بين أظهرنا ، كما قال تعالى : ﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَخْرِجُوا آلَ لُوطٍ مِنْ قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أَنَاسٌ يَبْظَهْرُونَ ﴾ [النمل : ٥٦] ، فلما رأى أنهم لا يرتدعون عما هم فيه وأنهم مستمرّون على ضلالتهم ، تبرأ منهم وقال : ﴿ قَالَ إِنِّي لِعَمَلِكُمْ مِنَ الْقَالِينَ ﴾ أى : المبغضين ، لا أحبه ولا أرضى به ؛ فأناب برىء منكم . ثم دعا الله عليهم فقال : ﴿ رَبِّ نَجِّنِي وَأَهْلِي مِمَّا يَعْمَلُونَ ﴾ قال الله تعالى : ﴿ فَنجَّيناهُ وأهلهُ أجمعين ﴾ أى : كلهم ﴿ إِلَّا عَجُوزًا فِي الْغَابِرِينَ ﴾ وهى امرأته ، وكانت عجوز سوء بقيت فهلكت مع من بقى من قومها ، حين أمره الله أن يسرى بأهله إلا امرأته ، وأنهم لا يلتفتون إذا سمعوا الصيحة حين تنزل على قومه ، فصبروا لأمر الله واستمروا ، وأنزل الله على أولئك العذاب الذى عمّ جميعهم ، وأمطر عليهم حجارة من سجيل منضود؛ ولهذا قال : ﴿ ثُمَّ دَمَرْنَا الْآخَرِينَ . وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا ﴾ إلى قوله : ﴿ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴾ .

﴿ كَذَّبَ أَصْحَابُ الْمِرْثَلِ ۖ إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ أَلَا تَتَّقُونَ ۗ (١٧٧) إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٧٨﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا ۗ (١٧٩) وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٨٠﴾ ﴾

هؤلاء يعنى أصحاب الأيكة - هم أهل مدين على الصحيح . وكان نبي الله شعيب من أنفسهم ، وإنما لم يقل هنا أخوهم شعيب ؛ لأنهم نسبوا إلى عبادة الأيكة ، وهى شجرة . وقيل : شجر ملتف كالغيضة ، كانوا يعبدونها ؛ فلهذا لما قال : ﴿ كَذَّبَ أَصْحَابُ الْأَيْكَةِ الْمُرْسَلِينَ ﴾ ، لم يقل : « إذ قال لهم أخوهم شعيب » ، وإنما قال : ﴿ إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ ﴾ ، فقطع نسبة الأخوة بينهم ؛ للمعنى الذى نسبوا إليه ، وإن كان أخاهم نسباً . ومن الناس من لم يفتن لهذه النكتة ، فظن أن أصحاب الأيكة غير أهل مدين ، فزعم أن شعيباً ، عليه السلام ، بعثه الله إلى أمتين ، ومنهم من قال : ثلاث أمم .

والصحيح أنهم أمة واحدة ، وصفوا فى كل مقام بشيء ؛ ولهذا وعظ هؤلاء وأمرهم بوفاء المكيال والميزان ، كما فى قصة مدين سواء بسواء ، فدل ذلك على أنهم أمة واحدة .

﴿ وَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُخْسِرِينَ ﴿١٨١﴾ وَزِنُوا بِالْقِسْطِاسِ الْمُسْتَقِيمِ ﴿١٨٢﴾ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَعْتُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿١٨٣﴾ وَأَتَّقُوا الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالْجِلَّةَ الْأُولَىٰ ﴿١٨٤﴾ ﴾

يأمرهم عليه السلام بإيفاء المكيال والميزان ، وبنهاهم عن التطفيف فيهما ، فقال : ﴿ وَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُخْسِرِينَ ﴾ أى : إذا دفعتم إلى الناس فكمّلوا الكيل لهم ، ولا تبخسوا الكيل فتعطوه ناقصاً ، وتأخذوه - إذا كان لكم - تاماً وافياً ، ولكن خذوا كما تعطون ، وأعطوا كما تأخذون ﴿ وَزِنُوا بِالْقِسْطِاسِ الْمُسْتَقِيمِ ﴾ والقسطاس هو : الميزان ، وقيل : القبان . وقال قتادة : القسطاس : العدل . وقوله : ﴿ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ ﴾ أى : لا تنقصوهم أموالهم ، ﴿ وَلَا تَعْتُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴾ يعنى : قطع الطريق ، كما فى الآية الأخرى : ﴿ وَلَا تَعْدُوا بِكُلِّ صِرَاطٍ تُوعِدُونَ ﴾ [الاعراف : ٨٦] . وقوله : ﴿ وَأَتَّقُوا الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالْجِلَّةَ الْأُولَىٰ ﴾ : يخوفهم بأس الله الذى خلقهم وخلق آباءهم الأوائل ، كما قال موسى ، عليه السلام : ﴿ رَبِّكُمْ وَرَبَّ آبَائِكُمُ الْأُولَىٰ ﴾ [الصفات : ١٢٦] . قال ابن عباس ، ومجاهد : ﴿ وَالْجِلَّةَ الْأُولَىٰ ﴾ يقول : خلق الأولين .

﴿ قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ ﴿١٨٥﴾ وَمَا أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَإِنْ نَطْنُكَ لَمِنَ الْكَذِبِينَ ﴿١٨٦﴾ فَاسْقِطْ عَلَيْنَا كِسْفًا مِّنَ السَّمَاءِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿١٨٧﴾ قَالَ رَبِّيَ عَلَّمَ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٨٨﴾ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمْ عَذَابٌ يَوْمِ الظُّلَّةِ إِنَّهُ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٨٩﴾ إِنْ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةٌ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُّؤْمِنِينَ ﴿١٩٠﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿١٩١﴾ ﴾

يخبر تعالى عن جواب قومه له بمثل ما أجابت به ثمود لرسولها حيث قالوا: ﴿ إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمُسْحَرِينَ ﴾ يعنون : من المسحورين ﴿ وَمَا أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا وَإِنْ نُنْظِقُ لَكِنَّ الْكَاذِبِينَ ﴾ أى : تتعمد الكذب فيما تقوله ، لا أن الله أرسلك إلينا ، ﴿ فَأَسْقَطْ عَلَيْنَا كِسْفًا مِنَ السَّمَاءِ ﴾ قال الضحاك : جانباً من السماء . وقال قتادة : قطعاً من السماء . وقال السدى : عذاباً من السماء . وهذا شبيه بما قالت قريش فيما أخبر الله عنهم فى قوله تعالى : ﴿ وَقَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنْبُوعًا ﴾ ، إلى أن قالوا : ﴿ أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمَتْ عَلَيْنَا كِسْفًا أَوْ تَأْتِي بَالَهُ الْمَلَائِكَةُ قَبِيلاً ﴾ [الإسراء : ٩٠ - ٩٢] . وقوله : ﴿ وَإِذْ قَالُوا اللَّهُمَّ إِنْ كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَابَةً مِنَ السَّمَاءِ أَوْ آتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ [الأنفال : ٣٢] ، وهكذا قال هؤلاء الكفرة الجهلة : ﴿ فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسْفًا مِنَ السَّمَاءِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴾ . ﴿ قَالَ رَبِّي أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾ يقول : الله أعلم بكم ، فإن كنتم تستحقون ذلك جازاكم به غير ظالم لكم ، وكذلك وقع بهم كما سألوا ، جزاءً وفاقاً ؛ ولهذا قال تعالى : ﴿ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمْ عَذَابٌ يَوْمَ الظُّلَّةِ إِنَّهُ كَانَ عَذَابٌ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾ وهذا من جنس ما سألوا ، من إسقاط الكسف عليهم ، فإن الله ، سبحانه وتعالى ، جعل عقوبتهم أن أصابهم حر شديد جداً مدة سبعة أيام لا يكفهم منه شيء ، ثم أقبلت إليهم سحابة أظلتهم ، فجعلوا ينطلقون إليها يستظلون بظلها من الحر ، فلما اجتمعوا تحتها أرسل الله تعالى عليهم منها شرراً من نار ، ولهباً ووهجاً عظيماً ، ورجفت بهم الأرض وجاءتهم صيحة عظيمة أزهدت أرواحهم ؛ ولهذا قال : ﴿ إِنَّهُ كَانَ عَذَابٌ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾ .

وقد ذكر الله تعالى صفة إهلاكهم فى ثلاثة مواطن ، كل موطن بصفة تناسب ذلك السياق ، فى الأعراف ذكر أنهم أخذتهم الرجفة فأصبحوا فى دارهم جائمين ؛ وذلك لأنهم قالوا : ﴿ نُخْرِجُكَ يَا شُعَيْبُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَكَ مِنْ قَرْيَتِنَا أَوْ لَتَعُوذُنَّ فِي مِلَّتِنَا ﴾ [الأعراف : ٨٨] ، فأرجفوا بنى الله ومن اتبعه ، فأخذتهم الرجفة . وفى سورة هود قال : ﴿ وَأَخَذَتِ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةَ ﴾ [الآية ٩٤] (١) ؛ وذلك لأنهم استهزؤوا بنى الله فى قولهم : ﴿ أَصَلَاتُكَ تَأْمُرُكَ أَنْ تَتْرُكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا أَوْ أَنْ نَفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاءُ إِنَّكَ لَأَنْتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ ﴾ [هود : ٨٧] . قالوا ذلك على سبيل التهكم والازدراء ، فناسب أن تأتيهم صيحة تسكتهم ، فقال : (فأخذتهم الصيحة) . وههنا قالوا : ﴿ فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسْفًا مِنَ السَّمَاءِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴾ على وجه التعنت والعناد ، فناسب أن يحق عليهم ما استعدوا وقوعه : ﴿ فَأَخَذَهُمْ عَذَابٌ يَوْمَ الظُّلَّةِ إِنَّهُ كَانَ عَذَابٌ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾ . ﴿ إِنْ فِي ذَلِكَ لَآيَةٌ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ . وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴾ أى : العزيز فى انتقامه من الكافرين ، الرحيم بعباده المؤمنين .

﴿ وَإِنَّهُ لَنَزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٩٢﴾ نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ ﴿١٩٤﴾ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ ﴿١٩٥﴾ ﴾

(١) فى المطبوعة والمخطوطة : ﴿ فَأَخَذَتَهُمُ الصَّيْحَةُ ﴾ وهى فى سورة الحجر ، الآية (٧٣) و (٨٣) . وليست فى سورة هود كما ذكر الحافظ . واطنه وقع سهواً من الناسخ ، ولم يستدرکه الطابع ! فالله المستعان .

يقول تعالى مخبراً عن الكتاب الذى أنزله على عبده ورسوله محمد ﷺ: ﴿وَأَنَّهُ﴾ أى : القرآن الذى تقدم ذكره فى أول السورة فى قوله: ﴿وَمَا يَأْتِيهِمْ مِّنْ ذِكْرٍ مِّنَ الرَّحْمَنِ (١) مُحْدَثٍ﴾ [الآية : ٥] ﴿لِنُنزِّلَ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ أى: أنزله الله عليك وأوحاه إليك، ﴿نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ﴾ وهو جبريل، عليه السلام ، قاله غير واحد من السلف : ابن عباس ، ومحمد بن كعب، وقتادة ، وعطية العوفى ، والسدى ، والضحاك ، والزهرى ، وابن جريج . وهذا ما لا نزاع فيه . قال الزهرى: وهذه كقوله : ﴿ قُلْ مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَى قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ ﴾ [البقرة: ٩٧] . وقال مجاهد : من كلمه الروح الامين لا تأكله الارض . ﴿ عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ ﴾ أى: نزل به ملك كريم أمين ، ذو مكانة عند الله، مطاع فى الملائكة الأعلى ، ﴿ عَلَى قَلْبِكَ ﴾ يا محمد ، سالماً من الدنس والزيادة والنقص؛ ﴿ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ ﴾ أى : لتنذر به بأس الله ونقمته على من خالفه وكذبه ، وتبشر به المؤمنين المتبعين له .

وقوله: ﴿ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ ﴾ أى: هذا القرآن الذى أنزلناه إليك أنزلناه بلسانك العربى الفصحى الكامل الشامل ، ليكون بيتاً واضحاً ظاهراً ، قاطعاً للعدر ، مقبلاً للحجة ، دليلاً إلى المحجة .

﴿ وَإِنَّهُمْ لَفِي زُجْرٍ الْأُولِينَ ﴿١٩٦﴾ أَوْ لَوْ يَكُنْ لَهُمْ آيَةٌ أَن يَعْلَمَهُ عُلَمَاءُ بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴿١٩٧﴾ وَلَوْ نَزَّلْنَاهُ عَلَى بَعْضِ الْأَعْجَمِينَ ﴿١٩٨﴾ فَقَرَأَهُ عَلَيْهِمْ مَا كَانُوا بِهِ مُؤْمِنِينَ ﴾ ﴿١٩٩﴾

يقول تعالى : وإن ذكر هذا القرآن والتنويه به لموجود فى كتب الأولين الماثورة عن أنبيائهم الذين بشروا به فى قديم الدهر وحديثه ، كما أخذ الله عليهم الميثاق بذلك ، حتى قام آخرهم خطيباً فى ملته بالبشارة بأحمد : ﴿ وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِيهِ مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ ﴾ [الصف : ٦] ، والزبر ههنا هى الكتب وهى جمع زبرة ، وكذلك الزبور ، وهو كتاب داود . وقال تعالى : ﴿ وَكُلُّ شَيْءٍ فَعَلُوهُ فِي الزُّبُرِ ﴾ [القمر: ٥٢] أى : مكتوب عليهم فى صحف الملائكة . ثم قال تعالى : ﴿ أَوَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ آيَةٌ أَن يَعْلَمَهُ عُلَمَاءُ بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴾ أى : أو ليس يكفهم من الشاهد الصادق على ذلك : أن العلماء من بنى إسرائيل يجدون ذكر هذا القرآن فى كتبهم التى يدرسونها ؟ والمراد : العدول منهم ، الذين يعترفون بما فى أيديهم من صفة محمد ﷺ ومبعثه وأمته ، كما أخبر بذلك من آمن منهم كعبد الله بن سلام ، وسلمان الفارسى ، عمن أدركه منهم ومن شاكلهم . وقال الله تعالى : ﴿ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ ﴾ [الاعراف : ١٥٧] .

ثم قال تعالى مخبراً عن شدة كفر قريش وعنادهم لهذا القرآن ؛ أنه لو أنزله على رجل من الأعاجم، ممن لا يدري من العربية كلمة ، وأنزل عليه هذا الكتاب بيانه وفصاحته ، لا يؤمنون به؛ ولهذا قال : ﴿ وَلَوْ نَزَّلْنَاهُ عَلَى بَعْضِ الْأَعْجَمِينَ . فَقَرَأَهُ عَلَيْهِمْ مَا كَانُوا بِهِ مُؤْمِنِينَ ﴾ ، كما أخبر

عَنَّهُمْ فِي الْآيَةِ الْآخَرَى : ﴿ وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا مِّنَ السَّمَاءِ فَظَلُّوا فِيهِ يَعْرُجُونَ . لَقَالُوا إِنَّمَا سُكَّرَتْ أَبْصَارُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَّسْحُورُونَ ﴾ [الحجر : ١٤ ، ١٥] وقال تعالى : ﴿ وَلَوْ أَنَّا نَزَّلْنَا إِلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ الْمَسْمُوتِينَ وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قَبْلًا مَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ ﴾ [الأنعام : ١١١] ، وقال : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ . وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّى يَرَوْا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ ﴾ [يونس : ٩٦ ، ٩٧] .

﴿ كَذَلِكَ سَلَكْنَاهُ فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ ﴿٩٦﴾ لَا يُؤْمِنُونَ بِهِ حَتَّى يَرَوْا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ ﴿٩٧﴾ فَيَأْتِيهِمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٩٨﴾ فَيَقُولُوا هَلْ نَحْنُ مُنظَرُونَ ﴿٩٩﴾ أَفِعْدَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ ﴿١٠٠﴾ أَفَرَأَيْتَ إِنْ مَتَّعْنَاهُمْ سِنِينَ ﴿١٠١﴾ ثُمَّ جَاءَهُمْ مَا كَانُوا يُوعَدُونَ ﴿١٠٢﴾ مَا أَغْنَىٰ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يُمْتَعُونَ ﴿١٠٣﴾ وَمَا أَهْلَكْنَا مِن قَرَبَةٍ إِلَّا لَهَا مُنَدِرُونَ ﴿١٠٤﴾ ذَكَرْنَاهُ وَمَا كُنَّا ظَالِمِينَ ﴿١٠٥﴾ ﴾

يقول تعالى : كذلك سلكنا التكذيب والكفر والجحود والعدا ، أى : أدخلناه فى قلوب المجرمين ، ﴿ لَا يُؤْمِنُونَ بِهِ ﴾ أى : بالحق ﴿ حَتَّى يَرَوْا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ ﴾ أى : حيث لا ينفع الظالمين معذرتهم ، ولهم اللعنة ولهم سوء الدار ﴿ فَيَأْتِيهِمْ بَغْتَةً ﴾ أى : عذاب الله بغتة ﴿ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ . فَيَقُولُوا هَلْ نَحْنُ مُنظَرُونَ ﴾ أى : يتمنون حين يشاهدون العذاب أن لو أنظروا قليلا ليعملوا بطاعة الله ، كما قال تعالى : ﴿ وَأَنْذِرِ النَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ الْعَذَابُ فَيَقُولُ الَّذِينَ ظَلَمُوا رَبَّنَا أَخْرْنَا إِلَىٰ أَجْرٍ قَرِيبٍ نَّجِبْ دَعْوَتِكَ وَتَتَّبِعِ الرَّسُولَ أَوْ لَمْ تَكُونُوا أَقْسَمْتُمْ مِنْ قَبْلِ مَا لَكُمْ مِنْ زَوَالٍ ﴾ [إبراهيم : ٤٤] ، فكل ظالم وفاجر وكافر إذا شاهد عقوبته ، ندم ندماً شديداً هذا فرعون لما دعا عليه الكليم بقوله : ﴿ رَبَّنَا إِنَّكَ آتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُ زِينَةً وَأَمْوَالًا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ﴾ إلى قوله : ﴿ قَالَ قَدْ أُجِيبَتِ دَعْوَتُكُمَا ﴾ [يونس : ٨٨] ، [٨٩] ، فأثرت هذه الدعوة فى فرعون ، فما آمن حتى رأى العذاب الاليم ﴿ حَتَّى إِذَا أَدْرَكَهُ الْغَرَقُ قَالَ آمَنْتُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي آمَنْتُ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ . الْآنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنْتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ ﴾ [يونس : ٩٠ ، ٩١] ، وقال : ﴿ فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَكُفِّرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ . فَلَمْ يَكُ يَنْفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا ﴾ الآية [غافر : ٨٤ ، ٨٥] .

وقوله تعالى : ﴿ أَفِعْدَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ ﴾ : إنكار عليهم ، وتهديد لهم ؛ فإنهم كانوا يقولون للرسول تكذيباً واستبعاداً : ﴿ إِنَّمَا يَعَذَابُ اللَّهِ ﴾ [العنكبوت : ٢٩] ، كما قال تعالى : ﴿ وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ ﴾ [الآيات] [العنكبوت : ٥٣] . ثم قال : ﴿ أَفَرَأَيْتَ إِنْ مَتَّعْنَاهُمْ سِنِينَ . ثُمَّ جَاءَهُمْ مَا كَانُوا يُوعَدُونَ . مَا أَغْنَىٰ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يُمْتَعُونَ ﴾ أى : لو أخرناهم وأنظرناهم ، وأملىنا لهم برهة من الزمان وحيناً من الدهر وإن طال ، ثم جاءهم أمر الله ، أى شىء يجدى عنهم ما كانوا فيه من النعم ، ﴿ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَاهَا ﴾ [النازعات : ٤٦] ، وقال تعالى : ﴿ يَوْمَ أُحْذِرُهُمْ لَوْ يَعْمُرُ أَلْفَ سَنَةٍ وَمَا هُوَ بِمُزَحِّزِهِ مِنَ الْعَذَابِ أَنْ يُعْمَرَ ﴾ [البقرة : ٩٦] ، وقال تعالى : ﴿ وَمَا يُغْنِي عَنْهُ مَالُهُ إِذَا تَرَدَّى ﴾ [الليل : ١١] ؛ ولهذا قال : ﴿ مَا أَغْنَىٰ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يُمْتَعُونَ ﴾ . وفى الحديث الصحيح : « يؤتى

بالكافر فيغمس في النار غمسة، ثم يقال له : هل رأيت خيراً قط ؟ هل رأيت نعيماً قط ؟ فيقول : لا والله يا رب . ويؤتى بأشد الناس بؤساً كان في الدنيا، فيصبغ في الجنة صبغة، ثم يقال له : هل رأيت بؤساً قط ؟ فيقول : لا والله يا رب « أى : ما كان شيئاً كان (١) . ولهذا كان عمر بن الخطاب ، رضى الله عنه يتمثل بهذا البيت :

كَأَنَّكَ لَمْ تُوتِرِ مِنَ الدَّهْرِ لَيْلَةً إِذَا أَنْتَ أَدْرَكْتَ الذِّى كُنْتَ تَطْلُبُ

ثم قال الله تعالى مخبراً عن عدله فى خلقه : أَنَّهُ مَا أَهْلَكَ أُمَّةً مِنَ الْأُمَمِ إِلَّا بَعْدَ الْإِعْذَارِ إِلَيْهِمْ ، وَالْإِنْذَارِ لَهُمْ وَبِعِثَةِ الرُّسُلِ إِلَيْهِمْ وَقِيَامِ الْحُجُجِ عَلَيْهِمْ ؛ وَلِهَذَا قَالَ : ﴿ وَمَا أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْيَةٍ إِلَّا لَهَا مُنْذِرُونَ . ذِكْرِي وَمَا كُنَّا ظَالِمِينَ ﴾ كما قال تعالى : ﴿ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولًا ﴾ [الإسراء : ١٥] ، وقال تعالى : ﴿ وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَى حَتَّى يَبْعَثَ فِي أُمَمٍ رَسُولًا يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا ﴾ إلى قوله ﴿ وَأَهْلَاهَا ظَالِمُونَ ﴾ [القصص : ٥٩] .

﴿ وَمَا نَزَّلَتْ بِهِ الشَّيَاطِينُ ﴾ ﴿ وَمَا يَنْبَغِي لَهُمْ وَمَا يَسْتَطِيعُونَ ﴾ ﴿ إِنَّهُمْ عَنِ السَّمْعِ لَمَعزُونَ ﴾

يقول تعالى مخبراً عن كتابه العزيز ، الذى لا يأتية الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، تنزيل من حكيم حميد: أنه نزل به الروح الأمين المؤيد من الله ﴿ وَمَا نَزَّلَتْ بِهِ الشَّيَاطِينُ ﴾ . ثم ذكر أنه يمتنع عليهم ذلك من ثلاثة أوجه ، أحدها : أنه ما ينبغى لهم ، أى : ليس هو من بُغيتهم ولا من طلبتهم ؛ لأن من سجاياهم الفساد وإضلال العباد ، وهذا فيه الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، ونور وهدى وبرهان عظيم ، فبينه وبين الشياطين منافاة عظيمة ؛ ولهذا قال تعالى : ﴿ وَمَا يَنْبَغِي لَهُمْ ﴾ . وقوله : ﴿ وَمَا يَسْتَطِيعُونَ ﴾ أى : ولو انبغى لهم لما استطاعوا ذلك ، قال الله تعالى : ﴿ لَوْ أَنْزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُتَصَدِّعًا مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ ﴾ [الحشر : ٢١] .

ثم بين أنه لو انبغى لهم واستطاعوا حمله وتأديته ، لما وصلوا إلى ذلك ؛ لأنهم بمعزل عن استماع القرآن حال نزوله ؛ لأن السماء ملئت حرساً شديداً وشهباً فى مدة إنزال القرآن على رسوله ، فلم يخلص أحد من الشياطين إلى استماع حرف واحد منه ، لثلا يشتهب الأمر . وهذا من رحمة الله بعباده ، وحفظه لشرعه ، وتأيينه لكتابه ولرسوله ؛ ولهذا قال : ﴿ إِنَّهُمْ عَنِ السَّمْعِ لَمَعزُونَ ﴾ كما قال تعالى مخبراً عن الجن : ﴿ وَأَنَا لَمَسْنَا السَّمَاءَ فَوَجَدْنَاهَا مُلْتَأَةً حَرَساً شَدِيداً وَشُهَبًا . وَأَنَا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَاعِدَ لِلسَّمْعِ فَمَنْ يَسْمَعِ الْآنَ يَجِدْ لَهُ شُهَابًا رَصَدًا . وَأَنَا لَا نَدْرِي أَشْرًا أُرِيدُ بِمَنْ فِي الْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا ﴾ [الجن : ٨ - ١٠] .

﴿ فَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتَكُونُ مِنَ الْمَعذِبِينَ ﴾ (١١٦) وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ ﴿١١٤﴾ وَأَخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١١٥﴾ فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تَعْمَلُونَ ﴿١١٦﴾ وَتَوَكَّلْ عَلَى الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ ﴿١١٧﴾ الَّذِي يَرْزُقُكَ حِينَ تَقُومُ ﴿١١٨﴾ وَتَقْلُبَكَ فِي السَّجْدِينَ ﴿١١٩﴾ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿١٢٠﴾

يقول تعالى أمراً بعبادته وحده لا شريك له ، ومخبراً أن من أشرك به عذبه . ثم قال تعالى أمراً لرسوله ﷺ أن ينذر عشيرته الأقربين ، أى : الأدين إليه ، وأنه لا يخلص أحداً منهم إلا إيمانه بربه ، عز وجل ، وأمره أن يلين جانبه لمن اتبعه من عباد الله المؤمنين . ومن عصاه من خلق الله كائناً من كان فليتبرأ منه ؛ ولهذا قال تعالى : ﴿ فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ . وهذه النذارة الخاصة لا تنافى العامة ، بل هى فرد من أجزائها ، كما قال : ﴿ لَتُنذِرَ قَوْمًا مَّا أُنذِرَ آبَاؤُهُمْ فَهُمْ غَافِلُونَ ﴾ [يس : ٦] ، وقال : ﴿ لَتُنذِرَ أُمَّ الْقُرَى وَمَنْ حَوْلَهَا ﴾ [الشورى : ٧] ، وقال : ﴿ وَأَنْذِرْ بِهِ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْ يُحْشَرُوا إِلَىٰ رَبِّهِمْ ﴾ [الأنعام : ٥١] ، وقال : ﴿ لَتُبَشِّرَ بِهِ الْمُتَّقِينَ وَتُنذِرَ بِهِ قَوْمًا لُدًّا ﴾ [مريم : ٩٧] ، وقال : ﴿ لَأُنذِرَكُمْ بِهِ وَمَنْ بَلَغَ ﴾ [الأنعام : ١٩] ، كما قال : ﴿ وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ مِنَ الْأَحْزَابِ فَالنَّارُ مَوْعِدُهُ ﴾ [هود : ١٧] . وفى صحيح مسلم : « والذى نفسى بيده ، لا يسمع بى أحد من هذه الأمة ، يهودى ولا نصرانى ، ثم لا يؤمن بى إلا دخل النار » (١) . وقد وردت أحاديث كثيرة فى نزول هذه الآية الكريمة ، فلنذكرها :

الحديث الأول : روى الإمام أحمد عن ابن عباس قال : لما أنزل الله ، عز وجل : ﴿ وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ ﴾ ، أتى النبى ﷺ الصفا فصعد عليه ، ثم نادى : « يا صباحاه » . فاجتمع الناس إليه بين رجل يجىء إليه ، وبين رجل يبعث رسوله ، فقال رسول الله ﷺ : « يا بنى عبد المطلب ، يا بنى فهر ، يا بنى لؤى ، أرايتم لو أخبرتكم أن خيلاً بسفح هذا الجبل ، تريد أن تغير عليكم ، صدقتمونى ؟ » . قالوا : نعم . قال : « فإنى نذير لكم بين يدى عذاب شديد » . فقال أبو لهب : تبأ لك سائر اليوم ، أما دعوتنا إلا لهذا ؟ وأنزل الله : ﴿ تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ﴾ [سورة المسد] . ورواه البخارى ومسلم والنسائى والترمذى (٢) .

الحديث الثانى : روى الإمام أحمد عن عائشة قالت : لما نزلت : ﴿ وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ ﴾ ، قام رسول الله ﷺ فقال : « يا فاطمة ابنة محمد ، يا صفية ابنة عبد المطلب ، يا بنى عبد المطلب ، لا أملك لكم من الله شيئاً ، سلونى من مالى ما شئتم » . انفرد بإخراجه مسلم (٣) .

الحديث الثالث : روى الإمام أحمد عن أبى هريرة قال : لما نزلت هذه الآية : ﴿ وَأَنْذِرْ

(١) مسلم (١٥٣ / ٢٤٠) .

(٢) البخارى (٤٨٠١) ومسلم (٢٠٨ / ٣٥٦) والنسائى فى الكبرى (١١٧١٤) والترمذى (٣٣٦٣) .

(٣) المسند (٦ / ١٨٧) ومسلم (٢٠٥ / ٣٥٠) .

عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ ﴿١﴾ ، دعا رسول الله ﷺ قريشاً ، فعم وخص ، فقال : « يا معشر قريش ، أنقذوا أنفسكم من النار . يا معشر بنى كعب ، أنقذوا أنفسكم من النار . يا معشر بنى هاشم ، أنقذوا أنفسكم من النار . يا معشر بنى عبد المطلب ، أنقذوا أنفسكم من النار . يا فاطمة بنت محمد ، أنقذى نفسك من النار ، فإنى - والله - ما أملك لكم من الله شيئاً ، إلا أن لكم رَحِمًا سَأْبِلُهَا بِبِلَالِهَا » . ورواه مسلم (١) .

الحديث الرابع : روى الإمام أحمد عن قَبِيصَةَ بْنِ مُخَارِقٍ وَزُهَيْرِ بْنِ عَمْرٍو قَالَا: لما نزلت : ﴿وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾ ، صعد رسول الله ﷺ من جبل على أعلاها حجر ، فجعل ينادى : « يا بنى عبد مناف ، إنما أنا نذير ، إنما مثلى ومثلكم كرجل رأى العدو ، فذهب يربأ أهله ، يخشى أن يسبقوه ، فجعل ينادى ويهتف : يا صباحاه » . ورواه مسلم والنسائي (٢) .

الحديث الخامس : روى الإمام أحمد عن علي قال : لما نزلت هذه الآية : ﴿وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾ ، جمع النبي ﷺ من أهل بيته ، فاجتمع ثلاثون ، فأكلوا وشربوا قال : وقال لهم : « من يَضْمَنُ عَنِّي دِينِي وَمَوَاعِيدِي ، وَيَكُونُ مَعِيَ فِي الْجَنَّةِ ، وَيَكُونُ خَلِيفَتِي فِي أَهْلِي ؟ » . فقال رجل - لم يسمه شريك : يا رسول الله ، أنت كنت بحراً ، من يقوم بهذا ؟ قال : ثم قال الآخر ، قال : فعرض ذلك على أهل بيته ، فقال عليٌّ : أنا (٣) .

طريق أخرى بأبسط من هذا السياق : روى أحمد عن علي قال : جمع رسول الله ﷺ - أو دعا رسول الله ﷺ - بنى عبد المطلب ، وهم رَهْطٌ ، كلهم يأكل الجذعة ويشرب الفَرْقَ ، فصنع لهم مداً من طعام فأكلوا حتى شبخوا ، قال : وبقي الطعام كما هو كأنه لم يمس . ثم دعا بغمير فشربوا حتى رووا ، وبقي الشراب كأنه لم يمس - أو لم يشرب - وقال : « يا بنى عبد المطلب ، إنى بعثت إليكم خاصة وإلى الناس عامة ، وقد رأيتم من هذه الآية ما رأيتم ، فأيكم يبايعنى على أن يكون أخى وصاحبى ؟ » . قال : فلم يقم إليه أحد . قال : فقمتُ إليه - وكنت أصغر القوم - قال : فقال : « اجلس » . ثم قال ثلاث مرات ، كل ذلك أقوم إليه فيقول لى : « اجلس » . حتى كان فى الثالثة ضرب بيده على يدي (٤) .

(١) المسند (٨٧١١) ومسلم (٢٠٤ / ٣٤٨) .

(٢) المسند (٦٠ / ٥) ومسلم (٢٠٧ / ٣٥٣) والنسائي فى الكبرى (١١٣٧٩) .

(٣) المسند (٨٨٣) وقال الشيخ شاكر : « إسناده حسن » .

وقوله : « أنت كنت بحراً » هو فى المخطوطة هكذا : « إن كنت بحرى » وفى المطبوعة : « أنت كنت بحراء » وكلاهما خطأ لا معنى له ، صوابه ما أثبتناه كما فى المسند ، وهو - كما قال شاكر - كناية عن واسع كرمه وجوده ﷺ .

(٤) المسند (١٣٧١) وقال الشيخ شاكر : « إسناده صحيح » . و « الفَرْقَ » - بفتح الفاء والراء : مكيال يسع ستة عشر رطلاً ، وهى إثنا عشر مداً أو ثلاثة أصع عند أهل الحجاز كذا فى النهاية . و « الغَمْرُ » - بضم الغين وفتح الميم : القدح الصغير .

ومعنى سؤاله ﷺ لأعمامه وأولادهم أن يقضوا عنه دينه ، ويخلفوه فى أهله ، يعنى : إن قتل فى سبيل الله ، كانه خشى إذا قام بأعباء الإنذار أن يقتل ، فلما أنزل الله عز وجل : ﴿ يَا أَيُّهَا الرُّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ ﴾ [المائدة : ٦٧] ، فعند ذلك أمن . وكان أولا يحرس حتى نزلت هذه الآية : ﴿ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ ﴾ . ولم يكن أحد فى بنى هاشم إذ ذاك أشدَّ إيمانا وإيقانا وتصديقا لرسول الله ﷺ من على ، رضى الله عنه ؛ ولهذا بدرهم إلى التزام ما طلب منهم رسول الله ﷺ ، ثم كان بعد هذا - والله أعلم - دعاؤه الناس جهرًا على الصفا ، وإنذاره لبطون قريش عموما وخصوصا ، حتى سمى من سمى من أعمامه وعماته وبناته ، لينبه بالأدنى على الأعلى ، أى : إنما أنا نذير ، والله يهدى من يشاء إلى صراط مستقيم .

وقوله : ﴿ وَتَوَكَّلْ عَلَى الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ ﴾ أى : فى جميع أمورك ؛ فإنه مؤيدك وحافظك ومظفرك ومُعَلِّمُ كلمتك . وقوله : ﴿ الَّذِي يَرَاكَ حِينَ تَقُومُ ﴾ أى : هو معتن بك ، كما قال تعالى : ﴿ وَأَصْبِرْ ۗ (١) لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا ﴾ [الطور : ٤٨] . قال ابن عباس : ﴿ الَّذِي يَرَاكَ حِينَ تَقُومُ ﴾ يعنى : إلى الصلاة . وقال عكرمة : يرى قيامه وركوعه وسجوده . وقال الحسن : ﴿ الَّذِي يَرَاكَ حِينَ تَقُومُ ﴾ : إذا صليت وحدك . وقال الضحاك : ﴿ الَّذِي يَرَاكَ حِينَ تَقُومُ ﴾ أى : من فراشك أو مجلسك . وقال قتادة : ﴿ الَّذِي يَرَاكَ ﴾ : قائما وجالسا وعلى حالائك . وقوله : ﴿ وَتَقَلِّبْ فِي السَّاجِدِينَ ﴾ قال قتادة : فى الصلاة ، يراك وحدك ويراك فى الجمع . وهذا قول عكرمة ، وعطاء الخراسانى ، والحسن البصرى . وقال مجاهد : كان رسول الله ﷺ يرى من خلفه كما يرى من أمامه ؛ ويشهد لهذا ما صح فى الحديث : « سَوَّوْا صُفُوفَكُمْ ؛ فَإِنِى أَرَاكُمْ مِنْ وِرَاءِ ظَهْرِى » (٢) .

وقوله : ﴿ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾ أى : السميع لأقوال عباده ، العليم بحركاتهم وسكناتهم ، كما قال تعالى : ﴿ وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُو مِنْهُ مِنْ قُرْآنٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ ﴾ الآية [يونس : ٦١] .

﴿ هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَىٰ مَن تَنَزَّلُ الشَّيَاطِينُ ﴿١١١﴾ تَنَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ﴿١١٢﴾ يُنْفِقُونَ السَّمْعَ وَأَكْثُرُهُمْ كَاذِبُونَ ﴿١١٣﴾ وَالشُّعْرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْفَأْوَنُ ﴿١١٤﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ ﴿١١٥﴾ وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ ﴿١١٦﴾ إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَذَكَرُوا اللَّهَ كَثِيرًا وَانْتَصَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا ظَلَمُوا وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ ﴿١١٧﴾ ﴾

يقول تعالى مخاطبا لمن زعم من المشركين أن ما جاء به الرسول ليس بحق ، وأنه شىء

(٢) البخارى (٧٢٣) .

(١) فى المطبوعة والمخطوطة : « فاصبر » وهو خطأ واضح .

افتعله من تلقاء نفسه ، أو أنه أتاه به رثى من الجن ، فتره الله ، سبحانه ، جناب رسوله عن قولهم واقترائهم ، ونبه أن ما جاء به إنما هو من عند الله ، وأنه تنزيله ووحيه ، نزل به ملك كريم أمين عظيم ، وأنه ليس من قبَل الشياطين ، فإنهم ليس لهم رغبة فى مثل هذا القرآن العظيم ، وإنما ينزلون على من يشاكلهم ويشابههم من الكهان الكذبة ؛ ولهذا قال الله : ﴿ هَلْ أَنْبَيْتُمْ ﴾ أى : أخبركم ﴿ عَلَىٰ مَنْ نَزَّلَ الشَّيَاطِينُ . نَزَّلَ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ﴾ أى : كذوب فى قوله ، وهو الأفاك ، الأثيم ، أى : الفاجر فى أفعاله . فهذا هو الذى تنزل عليه الشياطين كالكهان وما جرى مجراهم من الكذبة الفسقة ، فإن الشياطين أيضا كذبة فسقة .

﴿ يُلْقُونَ السَّمْعَ ﴾ أى : يسترقون السمع من السماء ، فيسمعون الكلمة من علم الغيب ، فيزيدون معها مائة كذبة ، ثم يلقونها إلى أوليائهم من الإنس فيتحدثون بها ، فيصدقهم الناس فى كل ما قالوه ، بسبب صدقهم فى تلك الكلمة التى سمعت من السماء ، كما صح بذلك الحديث ، كما رواه البخارى ، عن عائشة قالت : سألت ناس النبى ﷺ عن الكهان ، فقال : « إنهم ليسوا بشيء » . قالوا : يا رسول الله ، فإنهم يحدثون بالشئ يكون حقا ؟ فقال النبى ﷺ : « تلك الكلمة من الحق يخطفها الجنى ، فيقرقرها فى أذن وليه كقرقرة الدجاجة ، فيخلطون معها أكثر من مائة كذبة » (١) . وروى البخارى عن أبى هريرة قال : إن نبى الله ﷺ قال : « إذا قضى الله الأمر فى السماء ، ضربت الملائكة بأجنحتها خضعاناً لقوله ، كأنها سلسلة على صفوان ، حتى إذا فرغ عن قلبهم قالوا : ماذا قال ربكم ؟ قالوا للذى قال : الحق وهو العلى الكبير . فيسمعها مسترقو السمع ، ومسترقو السمع ، هكذا بعضهم فوق بعض » . ووصف سفيان بيده فحرفها ، وبدد بين أصابعه « فيسمع الكلمة ، فيلقها إلى من تحته ، ثم يلقها الآخر إلى من تحته ، حتى يلقها على لسان الساحر - أو الكاهن - وربما أدركه الشهاب قبل أن يلقها ، وربما ألقاها قبل أن يدركه ، فيكذب معها مائة كذبة . فيقال : أليس قد قال لنا يوم كذا وكذا : كذا وكذا ؟ فيصدق بتلك الكلمة التى سمعت من السماء » . انفرد به البخارى (٢) . وروى البخارى عن عائشة ، عن النبى ﷺ أنه قال : « إن الملائكة تحدث فى العنان - والعنان : الغمام - بالأمر فى الأرض ، فتسمع الشياطين الكلمة ، فتقرها فى أذن الكاهن كما تقر القارورة ، فيزيدون معها مائة كذبة » (٣) .

وقوله : ﴿ وَالشُّعْرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْفَأْوُونَ ﴾ : قال على بن أبى طلحة ، عن ابن عباس : يعنى : الكفار يتبعهم ضلال الإنس والجن . وكذا قال مجاهد ، رحمه الله ، وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم ، وغيرهما . وقال عكرمة : كان الشاعران يتهاجيان ، فينتصر لهذا فنام من الناس ، ولهذا فنام من الناس ، فأنزل الله : ﴿ وَالشُّعْرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْفَأْوُونَ ﴾ . وقوله : ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ ﴾ قال ابن عباس : فى كل لغو يخوضون . وقال الضحاك عن ابن عباس : فى كل فن من الكلام . وكذا قال مجاهد وغيره . وقال الحسن البصرى : قد - والله - رأينا أوديتهم التى يهيمون فيها ،

(٣) البخارى (٣٢٨٨) .

(٢) البخارى (٤٨٠٠) .

(١) البخارى (٧٥٦١) .

مرة في شتيمة فلان ، ومرة في مديحة فلان . وقال قتادة : الشاعر يمدح قوماً بباطل ، ويذم قوماً بباطل . وقوله : ﴿ وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ ﴾ قال ابن عباس : أكثر قولهم يكذبون فيه . وهذا الذي قاله ابن عباس هو الواقع في نفس الأمر ؛ فإن الشعراء يتبجحون بأقوال وأفعال لم تصدر منهم ولا عنهم ، فيتكثرون بما ليس لهم . والمراد من هذا : أن الرسول ﷺ الذي أنزل عليه القرآن ليس بكاهن ولا بشاعر ؛ لأن حاله مناف لحالهم من وجوه ظاهرة ، كما قال تعالى : ﴿ وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشُّعْرَ وَمَا يَنْبَغِي لَهُ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْآنٌ مُبِينٌ ﴾ [يس : ٦٩] ، وقال تعالى : ﴿ إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ . وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلًا مَّا تُؤْمِنُونَ . وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍ قَلِيلًا مَّا تَذْكُرُونَ . نَزِيلٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ [الخاقعة : ٤٠ - ٤٣] ، وهكذا قال ههنا : ﴿ وَإِنَّهُ لَنَزِيلٌ رَبِّ الْعَالَمِينَ . نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ . عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ . بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ ﴾ إلى أن قال : ﴿ وَمَا نَزَّلَتْ بِهِ الشَّيَاطِينُ . وَمَا يَنْبَغِي لَهُمْ وَمَا يَسْتَظْهِرُونَ . إِنَّهُمْ عَنِ السَّمْعِ لَمْعَزُولُونَ ﴾ إلى أن قال : ﴿ هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَىٰ مَن نَّزَّلَ الشَّيَاطِينُ . نَزَّلَ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ . يُلْقُونَ السَّمْعَ وَأَكْثُرُهُمْ كَاذِبُونَ . وَالشُّعْرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ . أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ . وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ ﴾ .

وقوله : ﴿ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ﴾ قال ابن عباس ، وعكرمة ، ومجاهد ، وقاتدة ، وزيد ابن أسلم ، وغير واحد : إن هذا استثناء مما تقدم . ولا شك أنه استثناء ، ولكن هذا الاستثناء يدخل فيه شعراء الأنصار وغيرهم ، حتى يدخل فيه من كان متلبساً من شعراء الجاهلية بدم الإسلام وأهله ، ثم تاب وأناب ، ورجع وأقلع ، وعمل صالحاً ، وذكر الله كثيراً في مقابلة ما تقدم من الكلام السيئ ، فإن الحسنات يذهبن السيئات ، وامتنح الإسلام وأهله في مقابلة ما كذب بدمه ، كما قال عبد الله بن الزبير حين أسلم :

يَا رَسُولَ الْمَلِكِ ، إِنَّ لِسَانِي رَاتِقٌ مَا فَتَقْتُ إِذْ أَنَا بُورٌ
إِذْ أَجَارَى الشَّيْطَانَ فِي سَنَنِ الْغَدَاةِ سَى ، وَمَنْ مَالَ مَيْلَهُ مَثْبُورٌ

وكذلك أبو سفيان بن الحارث بن عبد المطلب ، كان من أشد الناس عداوة للنبي ﷺ ، وهو ابن عمه ، وأكثرهم له هجواً ، فلما أسلم لم يكن أحد أحب إليه من رسول الله ﷺ ، وكان يمدح رسول الله ﷺ بعد ما كان يهجوه ، ويتولاه بعد ما كان قد عاداه . وهكذا روى مسلم في صحيحه ، عن ابن عباس : أن أبا سفيان صخر بن حرب لما أسلم قال : يا رسول الله ، ثلاث أعطنين قال : « نعم » . قال : معاوية تجعله كاتباً بين يديك . قال : « نعم » . قال : وتؤمرني حتى أقاتل الكفار ، كما كنت أقاتل المسلمين . قال : « نعم » . وذكر الثلاثة (١) .

ولهذا قال تعالى : ﴿ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَذَكَرُوا اللَّهَ كَثِيرًا ﴾ قيل : معناه : ذكروا الله كثيراً في كلامهم . وقيل : في شعرهم ، وكلاهما صحيح مكفّر لما سبق .

وقوله : ﴿ وَأَنْتَصَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا ظَلَمُوا ﴾ قال ابن عباس : يردون على الكفار الذين كانوا

يهجون به المؤمنين . وكذا قال مجاهد ، وقتادة ، وغير واحد . وهذا كما ثبت فى الصحيح : أن رسول الله ﷺ قال لحسان : « اهجهم - أو قال : هاجهم - وجبريل معك » (١) . وقوله : ﴿ وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيُّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ ﴾ ، كما قال تعالى : ﴿ يَوْمَ لَا يَنْفَعُ الظَّالِمِينَ مَعذرتُهُمْ وَلَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ ﴾ [غافر : ٥٢] وفى الصحيح : أن رسول الله ﷺ قال : « إياكم والظلم ، فإن الظلم ظلمات يوم القيامة » (٢) . وقال قتادة بن دعامه فى قوله : ﴿ وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيُّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ ﴾ يعنى : من الشعراء وغيرهم . وقال عبد الله بن رباح ، عن صفوان بن محرز : أنه كان إذا قرأ هذه الآية - بكى حتى أقول : قد اندق قَضِيبُ زوره - : ﴿ وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيُّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ ﴾ . وقيل : المراد بهم أهل مكة . وقيل : الذين ظلموا من المشركين . والصحيح أن هذه الآية عامة فى كل ظالم ، كما روى ابن أبى حاتم عن عائشة ، قالت : كتب أبى وصيته سطرين : بسم الله الرحمن الرحيم ، هذا ما أوصى به أبو بكر بن أبى قحافة ، عند خروجه من الدنيا ، حين يؤمن الكافر ، وينتهى الفاجر ، ويصدق الكاذب : إنى استخلفت عليكم عمر بن الخطاب ، فإن يعدل فذاك ظنى به ، ورجائى فيه ، وإن يجُر ويبدل فلا أعلم الغيب ، ﴿ وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيُّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ ﴾ .

(١) البخارى (٦١٥٣) ومسلم (٢٤٨٦ / ١٥٣) .

(٢) مسلم (٢٥٧٨ / ٢٥٦) .

تفسير سورة النمل

وهي مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ طَسَّ تِلْكَ آيَاتُ الْقُرْآنِ وَكِتَابٍ مُبِينٍ ﴿١﴾ هُدًى وَبُشْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢﴾ الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ﴿٣﴾ إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ زَيْنًا لَمْ أَعْمَلْتَهُمْ فَهُمْ يَعْمَهُونَ ﴿٤﴾ أُولَئِكَ الَّذِينَ لَمْ يُرَوْا الْعَذَابَ وَهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمْ الْأَخْسَرُونَ ﴿٥﴾ وَإِنَّكَ لَتَلْقَى الْقُرْآنَ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ ﴿٦﴾ ﴾

ربع

قد تقدم الكلام في « سورة البقرة » على الحروف المقطعة في أوائل السور .

وقوله : ﴿ تِلْكَ آيَاتُ ﴾ أى : هذه آيات ﴿ الْقُرْآنِ وَكِتَابٍ مُبِينٍ ﴾ أى : بين واضح ﴿ هُدًى وَبُشْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ أى : إنما تحصل الهداية والبشارة من القرآن لمن آمن به واتبعه وصدقه ، وعمل بما فيه ، وأقام الصلاة المكتوبة ، وآتى الزكاة المفروضة ، وأيقن بالدار الآخرة والبعث بعد الموت ، والجزاء على الأعمال ، خيرها وشرها ، والجنة والنار ، كما قال تعالى : ﴿ قُلْ هُوَ الَّذِي آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءً وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ ﴾ الآية [فصلت : ٤٤] . وقال : ﴿ لَتُبَشِّرَنَّ بِهِ الْمُتَّقِينَ وَتُنذِرَ بِهِ قَوْمًا لُدًّا ﴾ [مريم : ٩٧] ؛ ولهذا قال ههنا : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ ﴾ أى : يكذبون بها ، ويستبعدون وقوعها ﴿ زَيْنًا لَمْ أَعْمَلْتَهُمْ فَهُمْ يَعْمَهُونَ ﴾ أى : حسنا لهم ما هم فيه ، ومددنا لهم فى غيهم يتبهون فى ضلالهم . وكان هذا جزاء على ما كذبوا به من الدار الآخرة ، كما قال تعالى : ﴿ وَتَقَلَّبُ أَفْعِدَتُهُمْ وَأَبْصَارُهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوْلَ مَرَّةٍ ﴾ الآية [الانعام : ١١٠] ، ﴿ أُولَئِكَ الَّذِينَ لَمْ يُرَوْا الْعَذَابَ ﴾ أى : فى الدنيا والآخرة ﴿ وَهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمُ الْأَخْسَرُونَ ﴾ أى : ليس يخسر أنفسهم وأموالهم سواهم من أهل المحشر .

وقوله : ﴿ وَإِنَّكَ لَتَلْقَى الْقُرْآنَ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ ﴾ أى : ﴿ وَإِنَّكَ ﴾ يامحمد - قال قتادة : ﴿ لَتَلْقَى ﴾ أى : لتأخذ ﴿ الْقُرْآنَ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ ﴾ أى : من عند حكيم عليم ، أى : حكيم فى أوامره ونواهيه ، عليم بالأمور جليلها وحقيرها ، فخيرها هو الصدق المحض ، وحكمه هو العدل التام ، كما قال تعالى : ﴿ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا ﴾ [الانعام : ١١٥] .

﴿ إِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِأَهْلِهِ إِنِّي آنستُ نَارًا سَاتِيكُمْ مِنْهَا بِخَبْرٍ أَوْ آيَاتِكُمْ بِشَهَابٍ مِّنَ السَّمَاءِ فَاصْبِرُوا لِحُكْمِ رَبِّكُمْ ۚ إِنَّكُمْ بِنُورِهِ بَارِقُونَ ﴾ ﴿٧﴾ فَلَمَّا جَاءَهَا نُودِيَ أَنْ بُورِكَ مَن فِي النَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا وَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٨﴾ يُوسَىٰ إِنَّهُ أَنَا اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٩﴾ وَأَلْقِ عَصَاكَ فَلَمَّا رَآهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ وَلَّى مُدْمِرًا ﴿١٠﴾ وَلَرَّ يُعْقَبُ يَمُوسَىٰ لَا تَخَفْ إِنِّي لَا يَخَافُ لَدَى الْمُرْسَلُونَ ﴿١١﴾ إِلَّا مَن ظَلَمَ ثُمَّ بَدَّلَ حُسْنًا بَعْدَ سُوءٍ فَأَبَى غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢﴾ وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخَرِّجْ يَصْفَاءَ مِمَّنْ غَيْرِ سَوِيٍّ فِي عَيْنِي إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ ﴿١٣﴾ فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ آيَاتُنَا مُبْصِرَةً قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿١٤﴾ وَحَمَدُوا بِهَا وَأَسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَطُلُوعًا فَأَنْظِرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ ﴿١٥﴾

يقول تعالى لرسوله محمد ﷺ مذكراً له ما كان من أمر موسى عليه السلام ، كيف اصطفاه الله وكلمه ، ونجاه وأعطاه من الآيات العظيمة الباهرة ، والأدلة القاهرة ، وابتعثه إلى فرعون وملته ، فجددوا بها وكفروا واستكبروا عن اتباعه والانقياد له ، فقال تعالى : ﴿ إِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِأَهْلِهِ ﴾ أى : اذكر حين سار موسى بأهله ، فأضل الطريق ، وذلك فى ليل وظلام ، فأنس من جانب الطور ناراً ، أى : رأى ناراً تاجج وتضطرم ، فقال ﴿ لِأَهْلِهِ إِنِّي آنستُ نَارًا سَاتِيكُمْ مِنْهَا بِخَبْرٍ ﴾ أى : عن الطريق ﴿ أَوْ آيَاتِكُمْ بِشَهَابٍ مِّنَ السَّمَاءِ فَاصْبِرُوا لِحُكْمِ رَبِّكُمْ ﴾ أى : تستدفنون به . وكان كما قال ، فإنه رجع منها بخبر عظيم ، واقتبس منها نوراً عظيماً ؛ ولهذا قال تعالى : ﴿ فَلَمَّا جَاءَهَا نُودِيَ أَنْ بُورِكَ مَن فِي النَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا ﴾ أى : فلما أتاها رأى منظراً هائلاً عظيماً ، حيث انتهى إليها ، والنار تضطرم فى شجرة خضراء ، لا تزداد النار إلا توقداً ، ولا تزداد الشجرة إلا خضرة ونضرة ، ثم رفع رأسه فإذا نورها متصل بعنان السماء . قال ابن عباس وغيره : لم تكن ناراً ، إنما كانت نوراً يتوهج . وفى رواية عن ابن عباس : نور رب العالمين . فوقف موسى متعجباً مما رأى ﴿ أَنْ بُورِكَ مَن فِي النَّارِ ﴾ قال ابن عباس : تقدس . ﴿ وَمَنْ حَوْلَهَا ﴾ أى : من الملائكة . قاله ابن عباس ، وعكرمة ، وسعيد بن جبير . وروى ابن أبى حاتم عن أبى موسى ، رضى الله عنه ، قال : قال رسول الله ﷺ : ﴿ إِنْ اللَّهُ لَا يَنَامُ ، وَلَا يَنبَغَى لَهُ أَنْ يَنَامَ ، يَخْفَضُ الْقَسَطَ وَيَرْفَعُهُ ، يَرْفَعُ إِلَيْهِ عَمَلَ اللَّيْلِ قَبْلَ النَّهَارِ ، وَعَمَلَ النَّهَارِ قَبْلَ اللَّيْلِ . ﴾ زاد المسعودى : « وحجابه النور - أو النار لو كشفها لأحرقت سبحات وجهه كل شئ أدركه بصره » . ثم قرأ أبو عبيدة : ﴿ أَنْ بُورِكَ مَن فِي النَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا ﴾ . وأصل هذا الحديث مخرج فى الصحيح لمسلم (١) .

وقوله : ﴿ وَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ أى : الذى يفعل ما يشاء ولا يشبه شيئاً من مخلوقاته ، ولا يحيط به شئ من مصنوعاته ، وهو العلى العظيم ، المبين لجميع المخلوقات ، ولا يكتفه الأرض والسموات ، بل هو الأحد الصمد ، المنزه عن مماثلة المحدثات . وقوله : ﴿ يَا مُوسَىٰ إِنَّهُ أَنَا اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾

الحكيم ﴿: أعلمه أن الذى يخاطبه ويتاجيه هو ربه الله العزيز، الذى عز كل شىء وقهره وغلبه، الحكيم فى أفعاله وأقواله .

ثم أمره أن يلقي عصاه من يده؛ ليظهر له دليلاً واضحاً على أنه الفاعل المختار، القادر على كل شىء. فلما ألقى موسى تلك العصا من يده انقلبت فى الحال حية عظيمة هائلة فى غاية الكبر، وسرعة الحركة مع ذلك ؛ ولهذا قال : ﴿ فَلَمَّا رَأَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ ﴾ والجان: ضرب من الحيات، أسرعه حركة ، وأكثره اضطراباً - وفى الحديث : نهى عن قتل جنَّان البيوت (١) - فلما عاين موسى ذلك ﴿وَلَّى مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ ﴾ أى: لم يلتفت من شدة فرقه ، ﴿ يَا مُوسَى لَا تَخَفْ إِنِّي لَا يَخَافُ لَدَى الْمُرْسَلُونَ ﴾ أى: لا تخف مما ترى، فإنى أريد أن أصطفيك رسولا، وأجعلك نبياً وجيهاً .

وقوله : ﴿ إِلَّا مَنْ ظَلَمَ ثُمَّ بَدَّلَ حَسُنَا بَعْدَ سُوءٍ فَإِنِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ : هذا استثناء منقطع ، وفيه بشارة عظيمة للبشر، وذلك أن من كان على عمل شىء ثم أقلع عنه ، ورجع وأتاب ، فإن الله يتوب عليه، كما قال تعالى : ﴿ وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِمَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ثُمَّ اهْتَدَى ﴾ [طه : ٨٢] ، وقال تعالى : ﴿ وَمَن يَعْمَلْ سُوءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهَ يَجِدِ اللَّهَ غَفُورًا رَحِيمًا ﴾ [النساء : ١١٠] والآيات فى هذا كثيرة جداً . وقوله : ﴿ وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجَ بَيْضًا مِّنْ غَيْرِ سُوءٍ ﴾ : هذه آية أخرى، ودليل باهر على قدرة الله الفاعل المختار، وصدق من جعل له معجزة ، وذلك أن الله - تعالى - أمره أن يدخل يده فى جيب درعه ، فإذا أدخلها وأخرجها خرجت بيضاء ساطعة، كأنها قطعة قمر، لها لمعان يتلألأ كالبرق الخاطف . وقوله : ﴿ فِي تِسْعِ آيَاتٍ ﴾ أى: هاتان ثنتان من تسع آيات أؤيدك بهن، وأجعلهن برهاناً لك إلى فرعون وقومه ﴿ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ ﴾ . وهذه هى الآيات التسع التى قال الله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى تِسْعَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ ﴾ [الإسراء: ١٠١] كما تقدم تقرير ذلك هنالك .

وقوله : ﴿ فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ آيَاتُنَا مُبْصِرَةً ﴾ أى: بينة واضحة ظاهرة ، ﴿ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴾ وأرادوا معارضته بسحرمهم فغلبوا وانقلبوا صاغرين ﴿ وَجَعَدُوا بِهَا ﴾ أى: فى ظاهر أمرهم ﴿ وَأَسْتَفْتَتْهَا أَنْفُسُهُمْ ﴾ أى : علموا فى أنفسهم أنها حق من عند الله ، ولكن جحدوها وعاندوها وكابروها ﴿ ظَلَمًا وَعُلُوًّا ﴾ أى: ظلما من أنفسهم ، سجية ملعونة ﴿ وَعُلُوًّا ﴾ أى: استكباراً عن اتباع الحق ؛ ولهذا قال : ﴿ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ ﴾ أى: انظر يا محمد كيف كان عاقبة كفرهم ، فى إهلاك الله إياهم ، وإغراقهم عن آخرهم فى صبيحة واحدة . وفحوى الخطاب يقول : احذروا أيها المكذبون بمحمد، الجاحدون لما جاء به من ربه، أن يصيبكم ما أصابهم بطريق الأولى والأخرى ؛ فإن محمداً ﷺ أشرف وأعظم من موسى، وبرهانه أدل وأقوى من برهان موسى، بما آتاه الله من الدلائل المقترنة بوجوده فى نفسه وشمائله، وما سبقه من البشارات من الأنبياء به، وأخذ الموثيق له ، عليه من ربه أفضل الصلاة والسلام .

﴿ وَقَدْ آتَيْنَا دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ عِلْمًا وَقَالَ الْخَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي فَضَّلْنَا عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ (١٥) وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُدَ وَقَالَ يَا أَيُّهَا النَّاسُ عُلِّمْنَا مَنْطِقَ الطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْفَضْلُ الْأَمِينُ ﴿١٦﴾ وَحِشْرَ لِّسُلَيْمَانَ جُنُودَهُ مِنَ الْبِحْرِ وَالْإِنْسِ وَالطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴿١٧﴾ حَتَّىٰ إِذَا أَتَوْا عَلَىٰ وَادِ النَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسْكِنَكُم لَّا يَحْطَمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٨﴾ فَنَبَسَهُ ضَاحِكًا مِّنْ قَوْلِهَا وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَالِدَتِي وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ ﴿١٩﴾

يخبر تعالى عما أنعم به على عبديه ونبيه داود وابنه سليمان ، عليهما من الله السلام ، من النعم الجزيلة ، والمواهب الجليلة ، والصفات الجميلة ، وما جمع لهما بين سعادة الدنيا والآخرة ، والملك والتمكين التام في الدنيا ، والنبوة والرسالة في الدين ؛ ولهذا قال : ﴿ وَقَدْ آتَيْنَا دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ عِلْمًا وَقَالَ الْخَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي فَضَّلْنَا عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ . قال ابن أبي حاتم : كتب عمر ابن عبد العزيز : إن الله لم ينعم على عبد نعمة فحمد الله عليها ، إلا كان حمده أفضل من نعمه ، لو كنت لا تعرف ذلك إلا في كتاب الله المنزل ؛ قال الله تعالى : ﴿ وَقَدْ آتَيْنَا دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ عِلْمًا وَقَالَ الْخَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي فَضَّلْنَا عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ ، وأي نعمة أفضل مما أوتى داود وسليمان ، عليهما السلام .

وقوله : ﴿ وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُدَ ﴾ أي : في الملك والنبوة ، وليس المراد وراثة المال ؛ إذ لو كان كذلك لم يخص سليمان وحده من بين سائر أولاد داود ، فإنه قد كان لداود مائة امرأة . ولكن المراد بذلك وراثة الملك والنبوة ؛ فإن الأنبياء لا تورث أموالهم ، كما أخبر بذلك رسول الله ﷺ في قوله : « نحن معشر الأنبياء لا نورث ، ما تركناه فهو صدقة » (١) .

وقوله : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ عُلِّمْنَا مَنْطِقَ الطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ ﴾ ، أي : أخبر سليمان بنعم الله عليه ، فيما وهبه له من الملك التام ، والتمكين العظيم ، حتى إنه سخر له الإنس والجن والطيور . وكان يعرف لغة الطير والحيوان أيضاً ، وهذا شيء لم يعطه أحد من البشر - فيما علمناه - مما أخبر الله به ورسوله . ومن زعم من الجهلة والرعاغ أن الحيوانات كانت تتطق كتنطق بنى آدم قبل سليمان بن داود - كما يتفوه به كثير من الناس - فهو قول بلا علم . ولو كان الأمر كذلك لم يكن لتخصيص سليمان بذلك فائدة ؛ إذ لم كلهم يسمع كلام الطيور والبهائم ، ويعرف ما تقول ، فليس الأمر كما زعموا ، ولا كما قالوا ، بل لم تنزل البهائم والطيور وسائر المخلوقات من وقت خلقت إلى زماننا هذا على هذا الشكل والمنوال . ولكن الله ، سبحانه وتعالى ، كان

قد أفهم سليمان، عليه السلام، ما يتخاطب به الطيور في الهواء، وما تنطق به الحيوانات على اختلاف أصنافها؛ ولهذا قال: ﴿عَلِمْنَا مَنْطِقَ الطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ﴾ أي: بما يحتاج إليه الملك ﴿إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْفَضْلُ الْمُبِينُ﴾ أي: الظاهر البين لله علينا. روى الإمام أحمد عن أبي هريرة، أن رسول الله ﷺ قال: «كان داود، عليه السلام، فيه غيرة شديدة، فكان إذا خرج أغلقت الأبواب، فلم يدخل على أهله أحد حتى يرجع». قال: «فخرج ذات يوم وأغلقت الأبواب، فأقبلت امرأته تطلع إلى الدار، فإذا رجل قائم وسط الدار، فقالت لمن في البيت: من أين دخل هذا الرجل، والدار مغلقة؟ والله لنتفضحن بداود، فجاء داود، عليه السلام، فإذا الرجل قائم وسط الدار، فقال له داود: من أنت؟ قال: الذي لا يهاب الملوك، ولا يمتنع من الحجاب. فقال داود: أنت والله إذاً ملك الموت. مرحباً بأمر الله، فتزمل داود، عليه السلام، مكانه حتى قبضت نفسه، حتى فرغ من شأنه وطلعت عليه الشمس، فقال سليمان، عليه السلام، للطير: أظلى على داود، فأظلت عليه الطير حتى أظلمت عليهما الأرض، فقال لها سليمان: اقبضي جناحاً جناحاً» قال أبو هريرة: يارسول الله، كيف فعلت الطير؟ فقبض رسول الله ﷺ يده، وغلبت عليه يومئذ المضرحية (١). قال أبو الفرج بن الجوزي: المضرحية: النسور الحمراء.

وقوله تعالى: ﴿وَحُشِرَ لِسُلَيْمَانَ جُنُودُهُ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ وَالطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ﴾ أي: وجمع لسليمان جنوده من الجن والإنس والطير، يعني: ركب فيهم في أبهة وعظمة كبيرة في الإنس، وكانوا هم الذين يلونه، والجن وهم بعدهم في المنزلة، والطير ومنزلتها فوق رأسه، فإن كان حر أظلتته منه بأجنحتها. وقوله: ﴿فَهُمْ يُوزَعُونَ﴾ أي: يكف أولهم على آخرهم؛ لكثلا يتقدم أحد عن منزلته التي هي مرتبة له. قال مجاهد: جعل على كل صنف وزعة، يردون أولها على آخرها؛ لكثلا يتقدموا في المسير، كما يفعل الملوك اليوم. وقوله: ﴿حَتَّىٰ إِذَا تَوَّأَوْا عَلَىٰ وَادِ النَّمْلِ﴾ أي: حتى إذا مر سليمان، عليه السلام، ممن معه من الجيوش والجنود على وادي النمل، ﴿قَالَتْ نَمْلَةٌ يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ أي: خافت على النمل أن تحطمها الخيول بحوافرها، فأمرتهم بالدخول إلى مساكنهم، ففهم ذلك سليمان، عليه السلام، منها ﴿فَتَبَسَّ ضَاحِكًا مِّنْ قَوْلِهَا وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَالِدِي﴾ أي: ألهمني أن أشكر نعمتك التي مننت بها علي، من تعليمي منطق الطير والحيوان، وعلى والدي بالإسلام لك، والإيمان بك ﴿وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ﴾ أي: عملاً تحبه وترضاه ﴿وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ﴾ أي: إذا توفيتني فألحقني بالصالحين من عبادك، والرفيق الأعلى من أوليائك. ومن قال من المفسرين: إن هذا الوادي كان بأرض الشام أو بغيره، وإن هذه النملة كانت ذات جناحين كالذباب، أو غير ذلك من الأقاويل، فلا حاصل لها.

(١) المسند (٢ / ٤١٩) وقال الهيثمي في الزوائد (٨ / ٢٠٦): «فيه المطلب بن عبد الله بن حنطب وثقه أبو زرعة وغيره، وبقية رجاله رجال الصحيح».

والغرض : أن سليمان ، عليه السلام ، فهم قولها، وتبسم ضاحكاً من ذلك ، وهذا أمر عظيم جداً. وقد ثبت في الصحيح - عند مسلم - عن أبي هريرة ، عن النبي ﷺ قال : « قرصت نيبا من الأنبياء نملة ، فأمر بقرية النمل فأحرقت ، فأوحى الله إليه ، أفي أن قرصتك نملة أهلكت أمة من الأمم تسبح ؟ فهلا نملة واحدة ! » (١) .

﴿ وَتَفَقَّدَ الطَّيْرَ فَقَالَ مَا لِيَ لَا أَرَى الْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ الْغَائِبِينَ ﴿١٠﴾
لَأُعَذِّبَنَّهُ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَأَذْبَحَنَّهُ أَوْ لِيَأْتِنِي سُلْطَانٌ مُّبِينٌ ﴿١١﴾ ﴾

قال مجاهد ، وسعيد بن جبير، وغيرهما، عن ابن عباس وغيره: كان الهدهد مهندساً ، يدل سليمان عليه السلام على الماء ، إذا كان بأرض فلاة طلبه فنظر له الماء في تخوم الأرض ، كما يرى الإنسان الشيء الظاهر على وجه الأرض، ويعرف كم مساحة بعده من وجه الأرض، فإذا دلهم عليه أمر سليمان ، عليه السلام ، الجان حفروا له ذلك المكان ، حتى يستنبط الماء من قراره ، فنزل سليمان ، عليه السلام يوماً ، بفلاة من الأرض، فتفقد الطير ليرى الهدهد ، فلم يره ﴿ فَقَالَ مَا لِيَ لَا أَرَى الْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ الْغَائِبِينَ ﴾ . حدث يوماً عبد الله بن عباس بنحو هذا ، وفي القوم رجل من الخوارج ، يقال له: « نافع ابن الأزرق » ، وكان كثير الاعتراض على ابن عباس ، فقال له : قف يا بن عباس ، غلبت اليوم ! قال: ولم؟ قال: إنك تخبر عن الهدهد أنه يرى الماء في تخوم الأرض، وإن الصبى ليضع له الحبة في الفخ ، ويحثو على الفخ تراباً ، فيجىء الهدهد ليأخذها فيقع في الفخ ، فيصيده الصبى . فقال ابن عباس : لولا أن يذهب هذا فيقول: رددت على ابن عباس ، لما أجبته . فقال له : ويحك ! إنه إذا نزل القدر عمى البصر، وذهب الحذر . فقال له نافع: والله لا أجادلك في شيء من القرآن أبداً .

وقوله: ﴿ لَأُعَذِّبَنَّهُ عَذَابًا شَدِيدًا ﴾ : قال ابن عباس: يعني نتف ريشه . وقوله: ﴿ أَوْ لَأَذْبَحَنَّهُ ﴾ يعني : أقتله ﴿ أَوْ لِيَأْتِنِي سُلْطَانٌ مُّبِينٌ ﴾ بعذر واضح بين .

﴿ فَمَكَتْ غَيْرَ بَعِيدٍ فَقَالَ أَحَطْتُ بِمَا لَمْ نَحْطُ بِهِ، وَجِئْتُكَ مِنْ سَبَإٍ بِنَبَأٍ يَقِينٍ ﴿١٢﴾
إِنِّي وَجَدْتُ أَمْرًا تَمَلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ ﴿١٣﴾
وَجَدْتُهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ ﴿١٤﴾
أَلَّا يَسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي يُخْرِجُ الْخَبْءَ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ ﴿١٥﴾
اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ ﴿١٦﴾ ﴾

يقول تعالى : ﴿ فَمَكَتْ ﴾ الهدهد ﴿ غَيْرَ بَعِيدٍ ﴾ أى : غاب زماناً يسيراً ، ثم جاء فقال

لسليمان: ﴿ أَحْطَتْ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ ﴾ أى : اطلعت على ما لم تطلع عليه أنت ولا جنودك ﴿ وَجِئْتُكَ مِنْ سَبَإٍ بِنِيَّ يَقِينٍ ﴾ أى : بخبر صدق حق يقين . وسبأ: هم حمير ، وهم ملوك اليمن . ثم قال : ﴿ إِنِّي وَجَدْتُ امْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ ﴾ قال الحسن البصرى: وهى بلقيس بنت شراحيل ملكة سبأ . وقوله : ﴿ وَأَوْتَيْتُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ ﴾ أى: من متاع الدنيا مما يحتاج إليه الملك المتمكن ﴿ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ ﴾ يعنى: سرير تجلس عليه عظيم هائل مزخرف بالذهب ، وأنواع الجواهر واللآلئ . قال علماء التاريخ: وكان هذا السرير فى قصر عظيم مشيد رفيع البناء محكم، قد وضع بناؤه على أن تدخل الشمس كل يوم من طاقة، تغرب من مقابلتها، فيسجدون لها صباحاً ومساءً؛ ولهذا قال : ﴿ وَجَدْتُهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ ﴾ أى: عن طريق الحق ﴿ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ ﴾ .

وقوله : ﴿ أَلَا يَسْجُدُوا لِلَّهِ ﴾ معناه : ﴿ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ أَلَا يَسْجُدُوا لِلَّهِ ﴾ أى: لا يعرفون سبيل الحق التى هى إخلاص السجود لله وحده دون ما خلق من شىء من الكواكب وغيرها، كما قال تعالى : ﴿ وَمَنْ آيَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ لَا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴾ [فصلت : ٣٧] . وقوله : ﴿ الَّذِي يُخْرِجُ الْخَبَاءَ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ : قال ابن عباس : يعلم كل خبيثة فى السماء والأرض . وكذا قال عكرمة ، ومجاهد، وسعيد ابن جبير، وقتادة ، وغير واحد . وقال سعيد بن المسيب: الخبء: الماء . وكذا قال عبد الرحمن بن زيد ابن أسلم: خبء السموات والأرض: ما جعل فيها من الأرزاق: المطر من السماء، والنبات من الأرض . وهذا مناسب من كلام الهدهد، الذى جعل الله فيه من الخاصية ما ذكره ابن عباس وغيره، من أنه يرى الماء يجرى فى تخوم الأرض ودواخلها .

وقوله : ﴿ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ ﴾ أى: يعلم ما يخفيه العباد، وما يعلنونه من الأقوال والأفعال . وهذا كقوله تعالى: ﴿ سَوَاءٌ مِنْكُمْ مَنْ أَسْرَ الْقَوْلَ وَمَنْ جَهَرَ بِهِ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍ بِاللَّيْلِ وَسَارِبٌ بِالنَّهَارِ ﴾ [الرعد: ١٠] . وقوله: ﴿ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ ﴾ أى: هو المدعو الله ، وهو الذى لا إله إلا هو رب العرش العظيم، الذى ليس فى المخلوقات أعظم منه . ولما كان الهدهد داعياً إلى الخير، وعبادة الله وحده والسجود له، نهى عن قتله ، كما روى عن أبى هريرة ، قال: نهى النبى ﷺ عن قتل أربع من الدواب: النملة والنحلة والهدهد والصراد . وإسناده صحيح (١) .

﴿ قَالَ سَنْظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْكَاذِبِينَ ﴾ ﴿٧﴾ أَذْهَبَ بِكِتَابِي هَذَا فَأَلْقَيْتَهُ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّى عَنْهُمْ فَانظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ ﴿٨﴾ قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُوْا إِلَيَّ الْغَيْبِ إِلَيَّ كَيْتُ كَرِيمٌ ﴿٩﴾ إِنَّكُمْ مِنْ سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴿١٠﴾ أَلَا تَعْلَمُونَ عَلَىٰ وَأَتَوْهُ مُسْلِمِينَ ﴿١١﴾ ﴿١٢﴾

ربع

(١) المسند (٣٠٦٧) وقال الشيخ أحمد شاكر : « إسناده صحيح » وأبو داود (٥٢٦٧) وابن ماجه (٣٢٢٤) .

يقول تعالى مخبراً عن قيل سليمان، عليه السلام، للهدهد حين أخبره عن أهل سبأ وملكتهم: ﴿ قَالَ سَنَنْظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ الْكَاذِبِينَ ﴾ أي أصدقت في إخبارك هذا ﴿ أَمْ كُنتَ مِنَ الْكَاذِبِينَ ﴾ في مقاتلك، فتخلص من الوعيد الذي أوعدتك؟ ﴿ أَذْهَبَ بِكِتَابِي هَذَا فَأَلْفَهٗ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّى عَنْهُمْ فَانظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ ﴾ وذلك أن سليمان، عليه السلام، كتب كتاباً إلى بلقيس وقومها. وأعطاه لذلك الهدهد فحملة، وجاء إلى بلادهم فجاء إلى قصر بلقيس، إلى الخلوة التي كانت تختلى فيها بنفسها، فآلقها إليها من كوة هنالك بين يديها، ثم تولى ناحية أدب رياسة، فتحيرت مما رأت، وهالها ذلك، ثم عمدت إلى الكتاب فأخذته، ففتحت ختمه وقراته، فإذا فيه: ﴿ إِنَّهُ مِنْ سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ أَلَا تَعْلَمُونَ عَلِيُّ وَأَتُونِي مُسْلِمِينَ ﴾ فجمعت عند ذلك أمراءها ووزراءها وكبراء دولتها ومملكتها، ثم قالت لهم: ﴿ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَيُّ إِلَهِي إِلَهِي كِتَابٌ كَرِيمٌ ﴾ تعنى بكرمه: ما رأيته من عجيب أمره، كون طائر أتى به فآلقها إليها، ثم تولى عنها أديباً. وهذا أمر لا يقدر عليه أحد من الملوك، ولا سبيل لهم إلى ذلك، ثم قرأته عليهم: ﴿ إِنَّهُ مِنْ سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ أَلَا تَعْلَمُونَ عَلِيُّ وَأَتُونِي مُسْلِمِينَ ﴾. فعرفوا أنه من نبي الله سليمان، وأنه لا قبل لهم به. وهذا الكتاب في غاية البلاغة والوجازة والفصاحة فإنه حصل المعنى بأيسر عبارة وأحسنها، قال العلماء: ولم يكتب أحد ﴿ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴾ قبل سليمان، عليه السلام. وقال ميمون بن مهران: كان رسول الله ﷺ يكتب: باسمك اللهم، حتى نزلت هذه الآية، فكتب: ﴿ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴾. وقوله: ﴿ أَلَا تَعْلَمُونَ عَلِيُّ ﴾ قال قتادة: يقول: لا تجبروا على ﴿ وَأَتُونِي مُسْلِمِينَ ﴾. قال ابن عباس: موحدين. وقال سفيان بن عيينة: طائعين.

﴿ قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَفْتُونِي فِي أَمْرِي مَا كُنتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّى تَشْهَدُونِ ﴾ ﴿٣٢﴾ قَالُوا نَحْنُ أَوْلُو قُوَّةٍ وَأُولُو بَأْسٍ شَدِيدٍ وَالْأَمْرُ إِلَيْكِ فَانظُرِي مَاذَا تَأْمُرِينَ ﴿٣٣﴾ قَالَتْ إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوا أَعْرَءَ أَهْلِهَا آذِلَّةً وَكَذَلِكَ يَفْعَلُونَ ﴿٣٤﴾ وَإِنِّي مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِمْ بِهَدِيَّةٍ فَنَاظِرَةٌ بِمَ يَرْجِعُ الْمُرْسَلُونَ ﴿٣٥﴾

لما قرأت عليهم كتاب سليمان استشارتهم في أمرها، وما قد نزل بها؛ ولهذا قالت: ﴿ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَفْتُونِي فِي أَمْرِي مَا كُنتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّى تَشْهَدُونِ ﴾ أي: حتى تحضرون وتشيرون ﴿ قَالُوا نَحْنُ أَوْلُو قُوَّةٍ وَأُولُو بَأْسٍ شَدِيدٍ ﴾ أي: منوا عليها بعددهم وعددهم وقوتهم، ثم فوضوا إليها بعد ذلك الأمر فقالوا: ﴿ وَالْأَمْرُ إِلَيْكِ فَانظُرِي مَاذَا تَأْمُرِينَ ﴾ أي: نحن ليس لنا عاقبة ولا بنا بأس، إن شئت أن تقصديه وتحاربيه، فما لنا عاقبة عنه. وبعد هذا فالأمر إليك، مرى فينا برأيك نمتله ونطيعه. قال الحسن البصري، رحمه الله: فوضوا أمرهم إلى عُلجة تضرب ثديها، فلما قالوا لها ما قالوا، كانت هي أحزم رأياً منهم، وأعلم بأمر سليمان، وأنه لا قبل لها بجنوده وجيوشه، وما سخر له من الجن والإنس والطير، وقد شاهدت من قضية الكتاب مع الهدهد أمراً عجيباً

بديعاً، فقالت لهم: إنى أخشى أن نحاربه ونمتنع عليه، فيقصدنا بجنوده، ويهلكنا بمن معه ، ويخلص إلى واليكم الهلاك والدمار دون غيرنا ؛ ولهذا قالت : ﴿ إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا ﴾ قال ابن عباس: أى إذا دخلوا بلداً عنوة أفسدوه، أى: خربوه ﴿ وَجَعَلُوا أَعْرَءَ أَهْلِهَا أَذْلَةً ﴾ أى: وقصدوا من فيها من الولاة والجنود، فأهانوهم غاية الهوان، إما بالقتل أو بالأسر . وقال ابن عباس: قالت بلقيس: ﴿ إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوا أَعْرَءَ أَهْلِهَا أَذْلَةً ﴾ قال الرب، عز وجل: ﴿ وَكَذَلِكَ يَفْعَلُونَ ﴾ . ثم عدلت إلى المهادنة والمصالحة والمسائلة والمخادعة والمصانعة، فقالت : ﴿ وَإِنِّي مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِمْ بِهَدِيَّةٍ فَنَظِرَةٌ بِمَ يَرْجِعُ الْمُرْسَلُونَ ﴾ أى : سأبعث إليه بهدية تليق به وأنظر ماذا يكون جوابه بعد ذلك، فلعله يقبل ذلك ويكف عنا، أو يضرب علينا خراجاً نحمله إليه فى كل عام ، ونلتزم له بذلك ويترك قتالنا ومحاربتنا. قال قتادة : رحمها الله ورضى عنها، ما كان أعقلها فى إسلامها وفى شركها !! علمت أن الهدية تقع موقعاً من الناس . وقال ابن عباس وغير واحد: قالت لقومها: إن قبل الهدية فهو ملك فقاتلوه، وإن لم يقبلها فهو نبي فاتبعوه .

﴿ فَلَمَّا جَاءَ سُلَيْمَانَ قَالَ أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٍ فَمَا آتَيْنِيَ اللَّهُ خَيْرٌ مِّمَّا آتَاكُمْ بَلْ أَنْتُمْ بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ ﴾
﴿ أَرْجِعْ إِلَيْهِمْ فَلَنَأْتِيَنَّهُمْ بِجُنُودٍ لَّا قِبَلَ لَهُمْ بِهَا وَلَنُخْرِجَنَّهُمْ مِّنْهَا أَذِلَّةً وَهُمْ صَاغِرُونَ ﴾

ذكر غير واحد من المفسرين، من السلف وغيرهم : أنها بعثت إليه بهدية عظيمة من ذهب وجواهر ولآلى وغير ذلك . والظاهر أن سليمان، عليه السلام، لم ينظر إلى ما جاؤوا به بالكلية، ولا اعتنى به، بل أعرض عنه، وقال منكراً عليهم: ﴿ أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٍ ﴾ أى: أتصانعونى بمال لا ترككم على شرككم وملككم؟! ﴿ فَمَا آتَانِي اللَّهُ خَيْرٌ مِّمَّا آتَاكُمْ ﴾ أى: الذى أعطانى الله من الملك والمال والجنود خير مما أنتم فيه ﴿ بَلْ أَنْتُمْ بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ ﴾ أى : أنتم الذين تنقادون للهدايا والتحف، وأما أنا فلا أقبل منكم إلا الإسلام أو السيف . قال ابن عباس : أمر سليمان الشياطين فموهوا له ألف قصر من ذهب وفضة. فلما رأت رسلها ذلك قالوا: ما يصنع هذا بهديتنا . وفى هذا دلالة على جواز تهيو الملوك وإظهارهم الزينة للرسل والقصاد .

﴿ أَرْجِعْ إِلَيْهِمْ ﴾ أى: بهديتهم، ﴿ فَلَنَأْتِيَنَّهُمْ بِجُنُودٍ لَّا قِبَلَ لَهُمْ بِهَا ﴾ أى : لا طاقة لهم بقتالهم ﴿ وَلَنُخْرِجَنَّهُمْ مِّنْهَا ﴾ أى: من بلدهم، ﴿ أَذِلَّةً وَهُمْ صَاغِرُونَ ﴾ أى: مهانون مدحورون .

فلما رجعت إليها رسلها بهديتها، وبما قال سليمان، سمعت وأطاعت هى وقومها، وأقبلت تسير إليه فى جنودها خاضعة ذليلة ، معظمة لسليمان ، نأوية متابعته فى الإسلام . ولما تحقق سليمان ، عليه السلام، قدومهم عليه ووفودهم إليه ، فرح بذلك وسره .

﴿ قَالَ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَيُّكُمْ يَأْتِينِي بِعَرْشِي قَبْلَ أَنْ يَأْتُونِي مُسْلِمِينَ ﴾ ﴿٣٨﴾ قَالَ عَفْرَيْتُ مِنْ لَجِنٍ
 أَنَا وَأَيْتِكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ تَقُومَ مِنْ مَقَامِكَ وَإِنِّي عَلَيْهِ لَقَوِيٌّ أَمِينٌ ﴿٣٩﴾ قَالَ الَّذِي عِنْدَهُ عِلْمٌ مِنَ الْكِتَابِ
 أَنَا وَأَيْتِكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ فَلَمَّا رآه مُسْتَقِرًّا عِنْدَهُ قَالَ هَذَا مِنْ فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوكَ
 ءَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ وَمَنْ شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ ﴿٤٠﴾

قال قتادة: لما بلغ سليمان أنها جاثية ، وكان قد ذكر له عرشها فأعجبه ، فكره أن يأخذه
 بعد إسلامهم . وقد علم نبي الله أنهم متى أسلموا تحرم أموالهم مع دنائهم فقال: ﴿ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ
 أَيُّكُمْ يَأْتِينِي بِعَرْشِي قَبْلَ أَنْ يَأْتُونِي مُسْلِمِينَ ﴾ . وهكذا قال عطاء الخراساني . ﴿ قَالَ عَفْرَيْتُ مِنْ لَجِنٍ ﴾
 قال مجاهد: أى مارد من الجن ﴿ أَنَا أَتَيْتُكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ تَقُومَ مِنْ مَقَامِكَ ﴾ قال ابن عباس: يعنى: قبل أن
 تقوم من مجلسك . وقال مجاهد: مقعدك ﴿ وَإِنِّي عَلَيْهِ لَقَوِيٌّ أَمِينٌ ﴾ قال ابن عباس: أى قوى على
 حمله ، أمين على ما فيه من الجوهر . فقال سليمان ، عليه السلام : أريد أعجل من ذلك . ومن
 ههنا يظهر أن النبي سليمان أراد بإحضار هذا السرير إظهار عظمة ما وهبه الله له من الملك ،
 وسخر له من الجنود ، الذى لم يعطه أحد قبله ، ولا يكون لأحد من بعده . وليتخذ ذلك حجة
 على نبوته عند بلقيس وقومها ؛ لأن هذا خارق عظيم أن يأتى بعرشها كما هو من بلادها قبل أن
 يقدموا عليه فلما قال سليمان: أريد أعجل من ذلك ﴿ قَالَ الَّذِي عِنْدَهُ عِلْمٌ مِنَ الْكِتَابِ ﴾ قال ابن
 عباس: وهو آصف كاتب سليمان .

وقوله: ﴿ أَنَا أَتَيْتُكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ ﴾ أى: ارفع بصرك وانظر مد بصرك مما تقدر عليه ،
 فإنك لا يكل بصرك إلا وهو حاضر عندك . وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم ، لم يشعر
 سليمان إلا وعرشها يحمل بين يديه فلما عاين سليمان وملؤه ذلك ، ورآه مستقراً عنده ، ﴿ قَالَ
 هَذَا مِنْ فَضْلِ رَبِّي ﴾ أى: هذا من نعم الله على ﴿ لِيَبْلُوكَ ﴾ أى: ليختبرنى ﴿ أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ وَمَنْ شَكَرَ
 فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ ﴾ ، كقوله : ﴿ مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا ﴾ [فصلت : ٤٦] ، وكقوله :
 ﴿ وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلْأَنْفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ ﴾ [الروم : ٤٤] . وقوله: ﴿ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ ﴾ أى: هو غنى عن
 العباد وعبادتهم ﴿ كَرِيمٌ ﴾ أى: كريم فى نفسه ، وإن لم يعبه أحد ، فإن عظمته ليست مفتقرة إلى
 أحد ، هذا كما قال موسى : ﴿ إِنْ تَكْفُرُوا أَنْتُمْ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا فَإِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ حَمِيدٌ ﴾ [إبراهيم : ٨] .
 وفى صحيح مسلم: « يقول الله تعالى : يا عبادى ، لو أن أولكم وآخركم ، وإنسكم وجنكم ، كانوا
 على أتقى قلب رجل منكم ، ما زاد ذلك فى ملكى شيئاً . يا عبادى ، لو أن أولكم وآخركم ،
 وإنسكم وجنكم ، كانوا على أفجر قلب رجل منكم ، ما نقص ذلك من ملكى شيئاً . يا عبادى ،
 إنما هى أعمالكم أحصيها لكم ثم أوفيكم إياها ، فمن وجد خيراً فليحمد الله ، ومن وجد غير
 ذلك فلا يلومن إلا نفسه » (١) .

﴿ قَالَ نَكُرُوا لَهَا عَرْشَهَا نَنْظُرَ أَتَهْتَدِي أَمْ تَكُونُ مِنَ الَّذِينَ لَا يَهْتَدُونَ ﴾ ﴿٤١﴾ فَلَمَّا جَاءَتْ قِيلَ أَهَكَذَا عَرْشُكِ قَالَتْ كَأَنَّهُ هُوَ وَأُوتِينَا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهَا وَكُنَّا مُسْلِمِينَ ﴿٤٢﴾ وَصَدَّهَا مَا كَانَتْ تَعْبُدُ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنَّهَا كَانَتْ مِنْ قَوْمٍ كَافِرِينَ ﴿٤٣﴾ قِيلَ لَهَا ادْخُلِي الصَّرْحَ فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً وَكَشَفَتْ عَنْ سَاقِهَا قَالَتْ إِنَّهُ صَرْحٌ مُّمَرَّدٌ مِّن قَوَارِيرَ قَالَتْ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٤٤﴾

لما جىء سليمان، عليه السلام، بعرش بلقيس قبل قدميها، أمر به أن يغير بعض صفاته، ليختبر معرفتها وثباتها عند رؤيته، هل تقدم على أنه عرشها أو أنه ليس به، فقال: ﴿ قَالَ نَكُرُوا لَهَا عَرْشَهَا نَنْظُرَ أَتَهْتَدِي أَمْ تَكُونُ مِنَ الَّذِينَ لَا يَهْتَدُونَ ﴾ قال ابن عباس : نزع عنه فصوصه ومرافقه. وقال مجاهد: أمر به بغير ﴿ فَلَمَّا جَاءَتْ قِيلَ أَهَكَذَا عَرْشُكِ ﴾ أى: عرض عليها عرشها ، وقد غير ونكر، وزيد فيه ونقص منه، فكان فيها ثبات وعقل، ولها لب ودهاء وحزم، فلم تقدم على أنه هو لبعده مسافته عنها، ولا أنه غيره، لما رأت من آثاره وصفاته وإن غير وبدل ونكر، فقالت: ﴿ كَأَنَّهُ هُوَ ﴾ أى: يشبهه ويقاربه. وهذا غاية فى الذكاء والحزم . وقوله: ﴿ وَأُوتِينَا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهَا وَكُنَّا مُسْلِمِينَ ﴾ قال مجاهد: سليمان يقول .

وقوله: ﴿ وَصَدَّهَا مَا كَانَتْ تَعْبُدُ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنَّهَا كَانَتْ مِنْ قَوْمٍ كَافِرِينَ ﴾ : هذا من تمام كلام سليمان، عليه السلام - فى قول مجاهد، وسعيد بن جبير- أى: قال سليمان: ﴿ وَأُوتِينَا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهَا وَكُنَّا مُسْلِمِينَ ﴾ ، وهى كانت قد صددها، أى: منعها من عبادة الله وحده ﴿ مَا كَانَتْ تَعْبُدُ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنَّهَا كَانَتْ مِنْ قَوْمٍ كَافِرِينَ ﴾ . وهذا الذى قاله مجاهد وسعيد حسن، وقاله ابن جرير أيضا. ثم قال ابن جرير: ويحتمل أن يكون فى قوله: ﴿ وَصَدَّهَا ﴾ ضمير يعود إلى سليمان، أو إلى الله ، عزوجل ، تقديره: ومنعها ﴿ مَا كَانَتْ تَعْبُدُ مِنْ دُونِ اللَّهِ ﴾ أى: صددها عن عبادة غير الله ﴿ إِنَّهَا كَانَتْ مِنْ قَوْمٍ كَافِرِينَ ﴾ . قلت: ويؤيده قول مجاهد: أنها إنما أظهرت الإسلام بعد دخولها إلى الصرح، كما سياتى .

وقوله: ﴿ قِيلَ لَهَا ادْخُلِي الصَّرْحَ فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً وَكَشَفَتْ عَنْ سَاقِهَا ﴾ وذلك أن سليمان، عليه السلام، أمر الشياطين فبنوا لها قصرأ عظيما من قوارير، أى: من زجاج، وأجرى تحته الماء، فالذى لا يعرف أمره يحسب أنه ماء، ولكن يحول بين الماشى وبينه . فلما دخلت وكشفت عن ساقها، رأى أحسن الناس وأحسنه قدماً، ولكن رأى على رجليها شعراً ؛ لأنها ملكة ليس لها بعل ، فأحب أن يذهب ذلك عنها فقبل لها: موسى؟ فقالت: لا أستطيع ذلك. وكره سليمان ذلك، وقال للجن: اصنعوا شيئاً غير موسى يذهب به هذا الشعر ، فصنعوا له النورة . وكان أول من اتخذت له النورة، قاله ابن عباس، ومجاهد، وعكرمة وابن جريج ، وغيرهم . ﴿ فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً وَكَشَفَتْ عَنْ سَاقِهَا ﴾ ، لاتشك أنه ماء تخوضه ، قيل لها : ﴿ إِنَّهُ صَرْحٌ مُّمَرَّدٌ مِّن قَوَارِيرَ ﴾ أصل الصرح فى كلام العرب : هو القصر، وكل بناء مرتفع، قال الله، سبحانه وتعالى، إخباراً

عن فرعون - لعنه الله - أنه قال لوزير هامان: ﴿ ابْنِ لِي صَرْحًا لَعَلِّي أَبْلُغُ الْأَسْبَابَ . أَسْبَابَ السَّمَوَاتِ فَاطَّلِعَ إِلَى إِلَهِ مُوسَى ﴾ الآية [غافر : ٣٦ ، ٣٧] ، والصرح : قصر فى اليمن على البناء ، والممرد ، أى : المبنى بناء محكما أملس ﴿ مِنْ قَوَارِيرَ ﴾ أى : زجاج . وتمريد البناء تمليسه . ومارد : حصن بدومة الجندل . والغرض أن سليمان ، عليه السلام ، اتخذ قصرًا عظيمًا منيماً من زجاج لهذه الملكة ؛ ليربها عظمة سلطانه وتمكنه ، فلما رأت ما آتاه الله ، تعالى ، وجلالة ما هو فيه ، وتبصرت فى أمره انقادت لأمر الله وعرفت أنه نبي كريم ، وملك عظيم ، فأسلمت لله ، عز وجل ، وقالت : ﴿ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي ﴾ أى : بما سلف من كفرها وشركها وعبادتها وقومها الشمس من دون الله ، ﴿ وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ أى : متابعة لدين سليمان فى عبادته لله وحده ، لا شريك له ، الذى خلق كل شىء فقدره تقديراً .

﴿ وَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ فَإِذَا هُمْ فَرِيقَانِ يَخْتَصِمُونَ ﴾ ﴿٤٥﴾ قَالَ يَنْقُورِ لِمَ تَسْتَعْجِلُونَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ لَوْلَا تَسْتَغْفِرُونَ اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٤٦﴾ قَالُوا اطَّيَّرْنَا بِكَ وَبِمَنْ مَعَكَ قَالَ طَائِرُكُمْ عِنْدَ اللَّهِ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ تُكْفِرُونَ ﴿٤٧﴾

يخبر تعالى عن ثمود وما كان من أمرها مع نبيها صالح ، عليه السلام ، حين بعثه الله إليهم ، فدعاهم إلى عبادة الله وحده لا شريك له ﴿ فَإِذَا هُمْ فَرِيقَانِ يَخْتَصِمُونَ ﴾ قال مجاهد : مؤمن وكافر ، كقوله تعالى : ﴿ قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لِلَّذِينَ اسْتُضْفِقُوا لِمَنْ آمَنَ مِنْهُمْ آتَعْلَمُونَ أَنَّ صَالِحًا مُرْسَلٌ مِنْ رَبِّهِ قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلَ بِهِ مُؤْمِنُونَ . قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا بِالَّذِي آمَنْتُمْ بِهِ كَاْفِرُونَ ﴾ [الاعراف : ٧٥ ، ٧٦] . ﴿ قَالَ يَا قَوْمِ لِمَ تَسْتَعْجِلُونَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ ﴾ أى : لم تدعون بحضور العذاب ، ولا تطلبون من الله رحمته ؟ ولهذا قال : ﴿ لَوْلَا تَسْتَغْفِرُونَ اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ قَالُوا اطَّيَّرْنَا بِكَ وَبِمَنْ مَعَكَ ﴾ أى : مارأينا على وجهك ووجوه من اتبعك خيراً . وذلك أنهم - لشقائهم - كان لا يصيب أحداً منهم سوء إلا قال : هذا من قبل صالح وأصحابه . قال مجاهد : تشاءموا بهم . وهذا كما قال تعالى إخباراً عن قوم فرعون : ﴿ فَإِذَا جَاءَتْهُمْ الْحَسَنَةُ قَالُوا لَنَا هَذِهِ وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا بِمُوسَى وَمَنْ مَعَهُ أَلَا إِنَّمَا طَائِرُهُمْ عِنْدَ اللَّهِ ﴾ [الاعراف : ١٣١] . وقال تعالى : ﴿ وَإِنْ تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِنْدِكَ قُلْ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ ﴾ [النساء : ٧٨] أى : بقضاء الله وقدره . وقال مخبراً عن أهل القرية إذ جاءها المرسلون : ﴿ قَالُوا إِنَّا نَطَّيَّرْنَا بِكُمْ لَئِن لَمْ نَنْتَهُوا لَنَرَجُمَنَّكُمْ وَلَيَمَسَّنَّكُمْ مِنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ قَالُوا طَائِرُكُمْ مَعَكُمْ ﴾ [يس : ١٨ ، ١٩] . وقال هؤلاء : ﴿ اطَّيَّرْنَا بِكَ وَبِمَنْ مَعَكَ قَالَ طَائِرُكُمْ عِنْدَ اللَّهِ ﴾ أى : الله يجازيكم على ذلك ﴿ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ تُكْفِرُونَ ﴾ قال قتادة : تبتلون بالطاعة والمعصية . والظاهر أن المراد بقوله : ﴿ تُكْفِرُونَ ﴾ أى : تستدرجون فيما أنتم فيه من الضلال .

﴿ وَكَانَ فِي الْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ ﴾ ﴿٤٨﴾ قَالُوا تَقَاسَمُوا بِاللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُ وَأَهْلَهُ ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِ مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ ﴿٤٩﴾ وَمَكْرُؤًا مَكَرًا وَمَكْرَانًا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٥٠﴾ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكْرِهِمْ إِنَّا دَمَرْنَاهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥١﴾ فِتْلِكَ يَبُوتُهُمْ خَاوِبَةٌ بِمَا ظَلَمُوا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٥٢﴾ وَأَنجَيْنَا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ ﴿٥٣﴾

يخبر تعالى عن طغاة ثمود ورؤوسهم، الذين كانوا دعاة قومهم إلى الضلالة والكفر وتكذيب صالح، وآل بهم الحال إلى أنهم عقروا الناقة، وهموا بقتل صالح أيضاً، بأن يبيتوه في أهله ليلاً فيقتلوه غيلة، ثم يقولوا لأوليائه من أقربيه: إنهم ما علموا بشيء من أمره، وإنهم لصادقون فيما أخبروهم به، من أنهم لم يشاهدوا ذلك، فقال تعالى: ﴿ وَكَانَ فِي الْمَدِينَةِ ﴾ أى: مدينة ثمود ﴿ تِسْعَةُ رَهْطٍ ﴾ أى: تسعة نفر ﴿ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ ﴾ وإنما غلب هؤلاء على أمر ثمود؛ لأنهم كانوا كباراً فيهم ورؤساءهم . قال ابن عباس: هؤلاء هم الذين عقروا الناقة، أى: الذين صدر ذلك عن آرائهم ومشورتهم - فبجهم الله ولعنهم - وقد فعل ذلك . قال الله تعالى: ﴿ فَتَادُوا صَاحِبَهُمْ فَتَعَاطَى فَعَقَرَ ﴾ [القمر : ٢٩] ، وقال تعالى: ﴿ إِذْ أَبْعَثْ أَشْقَاهَا ﴾ [الشمس : ١٢] . وقال عطاء بن أبى رباح: ﴿ وَكَانَ فِي الْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ ﴾ قال: كانوا يقرضون الدراهم ، يعنى: أنهم كانوا يأخذون منها، وكانهم كانوا يتعاملون بها عدداً، كما كان العرب يتعاملون . وقال سعيد بن المسيب: قطع الذهب والورق من الفساد فى الأرض . والغرض: أن هؤلاء الكفرة الفسقة، كان من صفاتهم الإفساد فى الأرض بكل طريق يقدرُونَ عليها، فمنها ما ذكره هؤلاء الأئمة وغير ذلك .

وقوله: ﴿ قَالُوا تَقَاسَمُوا بِاللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُ وَأَهْلَهُ ﴾ أى: تحالفوا وتبايعوا على قتل نبي الله صالح، عليه السلام، من لقيه ليلاً غيلة. فكادهم الله ، وجعل الدائرة عليهم . قال مجاهد: تقاسموا وتحالفوا على هلاكه، فلم يصلوا إليه حتى هلكوا وقومهم أجمعين . وقال ابن عباس: هم الذين عقروا الناقة، قالوا حين عقروها: لنبيتنَّ صالحاً وأهله فنقتلهم، ثم نقول لأوليائه صالح: ما شهدنا من هذا شيئاً، وما لنا به علم. فدمرهم الله أجمعين . وقال عبد الرحمن بن أبى حاتم: لما عقروا الناقة وقال لهم صالح: ﴿ تَصْعَقُوا فِي دَارِكُمْ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ ذَلِكَ وَعَدُّ غَيْرٍ مُّكَذَّبٍ ﴾ [هود : ٦٥] ، قالوا: زعم صالح أنه يفرغ منا إلى ثلاثة أيام، فنحن نفرغ منه وأهله قبل ثلاث. وكان لصالح مسجد فى الحجر عند شعب هناك يصلي فيه، فخرجوا إلى كهف، أى: غار هناك ليلاً، فقالوا: إذا جاء يصلى قتلناه، ثم رجعنا إذا فرغنا منه إلى أهله، وفرغنا منهم. فبعث الله صخرة من الهضب حيالهم، فخشوا أن تشدهم فتبادروا فانطبقت عليهم الصخرة وهم فى ذلك الغار، فلا يدرى قومهم أين هم. ولا يدرون ما فعل بقومهم. فعذب الله هؤلاء ههنا، وهؤلاء ههنا، وأنجى الله صالحاً ومن معه، ثم قرأ: ﴿ وَمَكْرُؤًا مَكَرًا وَمَكْرَانًا مَكَرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكْرِهِمْ إِنَّا دَمَرْنَاهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ فِتْلِكَ يَبُوتُهُمْ خَاوِبَةٌ ﴾ أى: فارغة ليس فيها أحد ﴿ بِمَا ظَلَمُوا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ وَأَنجَيْنَا

هم الانبياء ، قال : وهو كقوله تعالى : ﴿ سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ . وَسَلَامٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ . وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ [الصافات : ١٨٠ - ١٨٢] . وقال الثوري ، والسدي : هم أصحاب محمد ﷺ ورضى عنهم أجمعين ، وروى نحوه عن ابن عباس . ولا منافاة ، فإنهم إذا كانوا من عباد الله الذين اصطفى ، فالانبياء بطريق الأولى والأخرى ، والقصد أن الله تعالى أمر رسوله ومن اتبعه بعد ما ذكر لهم ما فعل بأوليائه من النجاة والنصر والتأييد ، وما أحل بأعدائه من الخزي والنكال والقهر ، أن يحمده على جميع أفعاله ، وأن يسلموا على عباده المصطفين الأخيار . وقوله : ﴿ اللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ : استفهام إنكار على المشركين في عبادتهم مع الله آلهة أخرى .

ثم شرع تعالى يبين أنه المنفرد بالخلق والرزق والتدبير دون غيره ، فقال : ﴿ أَمَّنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ ﴾ أى : تلك السموات بارتفاعها وصفائها ، وما جعل فيها من الكواكب النيرة والنجوم الزاهرة والافلاك الدائرة ، والأرض باستفالتها وكثافتها ، وما جعل فيها من الجبال والأوعار والسهول ، والفيافي والقفار ، والأشجار والزرور ، والثمار والبحور ، والحيوان على اختلاف الأصناف والأشكال والألوان وغير ذلك .

وقوله : ﴿ وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً ﴾ أى : جعله رزقاً للعباد ﴿ فَأَنْتَبِتْنَا بِهِ حَدَائِقَ ﴾ أى : بساتين ﴿ ذَاتَ بَهْجَةٍ ﴾ أى : منظر حسن وشكل بهي ﴿ مَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُنبِتُوا شَجَرَهَا ﴾ أى : لم تكونوا تقدرون على إنبات شجرها ، وإنما يقدر على ذلك الخالق الرازق ، المستقل بذلك المنفرد به دون ما سواه من الأصنام والأنداد ، كما يعترف به هؤلاء المشركون ، كما قال تعالى فى الآية الأخرى : ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ ﴾ [الزحرف : ٨٧] ، ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ مَنْ نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ اللَّهُ ﴾ [العنكبوت : ٦٣] أى : هم معترفون بأنه الفاعل لجميع ذلك وحده لا شريك له ، ثم هم يعبدون معه غيره مما يعترفون أنه لا يخلق ولا يرزق ، وإنما يستحق أن يفرد بالعبادة من هو المنفرد بالخلق والرزق ؛ ولهذا قال : ﴿ إِلَهُ مَعَ اللَّهِ ﴾ أى : إله مع الله يعبد . وقد تبين لكم ولكل ذى لب مما يعرفون به أيضاً أنه الخالق الرازق . ومن المفسرين من يقول : معنى قوله : ﴿ إِلَهُ مَعَ اللَّهِ ﴾ أى : إله مع الله فعل هذا . وهو يرجع إلى معنى الأول ؛ لأن تقدير الجواب أنهم يقولون : ليس ثم أحد فعل هذا معه ، بل هو المنفرد به . فيقال : فكيف تعبدون معه غيره وهو المستقل المنفرد بالخلق والتدبير ؟ كما قال : ﴿ أَفَمَنْ يَخْلُقُ كَمَنْ لَا يَخْلُقُ ﴾ [النحل : ١٧] . وقوله ههنا : ﴿ أَمَّنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ ﴾ : ﴿ أَمَّنْ ﴾ فى هذه الآيات كلها تقديره : أمن يفعل هذه الأشياء كمن لا يقدر على شيء منها ؟ هذا معنى السياق وإن لم يذكر الآخر .

ثم قال : ﴿ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ ﴾ أى : يجعلون لله عدلاً ونظيراً . وهكذا قال تعالى : ﴿ أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ آنَاءَ اللَّيْلِ سَاجِداً وَقَانِماً يُحَذِرُ الْآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ ﴾ [الزمر : ٩] أى : أمن هو هكذا كمن ليس كذلك ؟ ولهذا قال : ﴿ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو

الْأَبَابِ ﴿ [الزمر : ٩] ، ﴿ أَفَمَنْ شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِ فَوَيْلٌ لِلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ مِّن ذِكْرِ اللَّهِ أُوْلَئِكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴾ [الزمر : ٢٢] ، وقال : ﴿ أَفَمَنْ هُوَ قَانِمٌ عَلَىٰ كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ ﴾ [الرعد : ٣٣]
 أى : أمن هو شهيد على أفعال الخلق، حركاتهم وسكناتهم، يعلم الغيب جليله وحقيقه ، كمن هو لا يعلم ولا يسمع ولا يبصر من هذه الأصنام التي عبدوها ؟ ولهذا قال : ﴿ وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ قُلُوبُهُمْ ﴾ [الرعد : ٣٣] ، وهكذا هذه الآيات الكريمات كلها .

﴿ أَمَّنْ جَعَلَ الْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَالَهَا أَنْهَارًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَاسِيَ وَجَعَلَ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا أَوَّلَهُ مَعَ اللَّهِ مَعَ اللَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ ﴿ ١١ ﴾

يقول تعالى : ﴿ أَمَّنْ جَعَلَ الْأَرْضَ قَرَارًا ﴾ أى : قارة ساكنة ثابتة ، لا تميد ولا تتحرك لأهلها ولا ترجف بهم ، فإنها لو كانت كذلك لما طاب عليها العيش والحياة ، بل جعلها من فضله ورحمته مهاداً بساطاً ثابتة لا تتزلزل ولا تتحرك ، كما قال فى الآية الأخرى : ﴿ اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ الْأَرْضَ قَرَارًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً ﴾ [غافر : ٦٤] . ﴿ وَجَعَلَ خِلَالَهَا أَنْهَارًا ﴾ أى : جعل فيها الأنهار العذبة الطيبة تشقها فى خلالها، وصرفها فيها ما بين أنهار كبار وصغار وبين ذلك، وسيرها شرقاً وغرباً وجنوباً وشمالاً، بحسب مصالح عباده فى أقاليمهم وأقطارهم حيث زرأهم فى أرجاء الأرض ، سير لهم أرزاقهم بحسب ما يحتاجون إليه ، ﴿ وَجَعَلَ لَهَا رَوَاسِيَ ﴾ أى : جبالاً شامخة ترسى الأرض وتثبتها ؛ لثلا تميد بكم ﴿ وَجَعَلَ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا ﴾ أى : جعل بين المياه العذبة والمالحة حاجزاً، أى : مانعاً يمنعها من الاختلاط، لثلا يفسد هذا بهذا وهذا بهذا، فإن الحكمة الإلهية تقتضى بقاء كل منهما على صفته المقصودة منه، فإن البحر الحلو هو هذه الأنهار السارحة الجارية بين الناس . والمقصود منها: أن تكون عذبة زلالاً لا تسقى الحيوان والنبات والثمار منها . والبحار المالحة هى المحيطة بالأرجاء والأقطار من كل جانب ، والمقصود منها: أن يكون ماؤها ملحاً أحاجاً؛ لثلا يفسد الهواء بريحتها ، كما قال تعالى : ﴿ وَهُوَ الَّذِي مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخًا وَحِجْرًا مَّحْجُورًا ﴾ [الفرقان : ٥٣] ؛ ولهذا قال : ﴿ أَوَّلَهُ مَعَ اللَّهِ ﴾ أى : فعل هذا ؟ أو يعبد على القول الأول والآخر؟ وكلاهما متلازم صحيح ﴿ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ أى : فى عبادتهم غيره .

﴿ أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ ﴾ ﴿ ١٢ ﴾

ينبه تعالى أنه هو المدعو عند الشدائد، المرجو عند النوازل، كما قال : ﴿ وَإِذَا سَأَلَ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَنْ تَدْعُوْنَ إِلَّا إِلَٰهَهُ ﴾ [الإسراء : ٦٧] ، وهكذا قال هنا : ﴿ أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ ﴾ أى : من هو الذى لا يلجأ المضطر إلا إليه، والذى لا يكشف ضر المضرورين سواه .

روى الإمام أحمد عن رجل من بلهجم^(١) قال : قلت : يا رسول الله ، إلام تدعو ؟ قال : « أدعو إلى الله وحده ، الذى إن مسك ضر فدعوته كشف عنك ، والذى إن أضللت بأرض كفر فدعوته رد عليك ، والذى إن أصابتك سنة فدعوته أنبت لك » . قال : قلت : أوصنى . قال : « لا تسبن أحداً ، ولا تزهدن فى المعروف ، ولو أن تلقى أخاك وأنت منبسط إليه وجهك ، ولو أن تفرغ من دلوك فى إناء المستقى ، واتزر إلى نصف الساق ، فإن أبيت فإلى الكعبين . وإياك وإسبال الإزار ، فإن إسبال الإزار من المخيلة ، وإن الله - تبارك وتعالى - لا يحب المخيلة » (٢) .

وقوله تعالى : ﴿ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ ﴾ أى : يخلف قرنا لقرن قبلهم وخلفاً لسلف ، كما قال تعالى : ﴿ إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَسْتَخْلَفْ مِنْ بَعْدِكُمْ مَا يَشَاءُ كَمَا أَنْشَأَكُمْ مِنْ ذُرِّيَةِ قَوْمٍ آخَرِينَ ﴾ [الانعام : ١٣٣] ، وقال تعالى : ﴿ وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ الْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ ﴾ [الانعام : ١٦٥] ، وقال تعالى : ﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً ﴾ [البقرة : ٣٠] ، أى قوماً يخلف بعضهم بعضاً . وهكذا هذه الآية : ﴿ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ ﴾ أى : أمة بعد أمة ، وجيلاً بعد جيل ، وقوماً بعد قوم . ولو شاء لأوجدهم كلهم فى وقت واحد ، ولم يجعل بعضهم من ذرية بعض ، بل لو شاء لخلقهم كلهم أجمعين ، كما خلق آدم من تراب . ولو شاء أن يجعلهم بعضهم من ذرية بعض ولكن لا يبيت أحداً حتى تكون وفاة الجميع فى وقت واحد ، فكانت تضيق عليهم الأرض ، وتضيق عليهم معاشهم وأكسابهم ، ويتضرر بعضهم ببعض . ولكن اقتضت حكمته وقدرته أن يخلقهم من نفس واحدة ، ثم يكثروهم غاية الكثرة ، ويذراهم فى الأرض ، ويجعلهم قروناً بعد قرون ، وأما بعد أمم ، حتى ينتضى الأجل وتفرغ البرية ، كما قدر ذلك تبارك وتعالى ، وكما أحصاهم وعدهم عدداً ، ثم يقيم القيامة ، ويوفى كل عامل عمله إذا بلغ الكتاب أجله ؛ ولهذا قال تعالى : ﴿ أَمَّنْ يَجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ إِلَهُ مَعَ اللَّهِ ﴾ أى : يقدر على ذلك ، أو إله مع الله يعبد ، وقد علم أن الله هو المتفرد بفعل ذلك ﴿ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴾ أى : أقل تذكروهم فيما يرشدكم إلى الحق ، ويهديهم إلى الصراط المستقيم .

﴿ أَمَّنْ يَهْدِيكُمْ فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَنْ يُرْسِلُ الرِّيَّاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ ۗ أَلَمْ يَكُنْ مَعَ اللَّهِ تَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾

يقول : ﴿ أَمَّنْ يَهْدِيكُمْ فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ ﴾ أى : بما خلق من الدلائل السماوية والأرضية ، كما قال : ﴿ وَعَلَامَاتٍ وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ ﴾ [النحل : ١٦] ، وقال تعالى : ﴿ وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ النُّجُومَ لِتَهْتَدُوا بِهَا فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ ﴾ الآية [الانعام : ٩٧] . ﴿ وَمَنْ يُرْسِلُ الرِّيَّاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ ﴾

(١) وهو : جابر بن سليم الهجيمي ، كما صرح به فى المسند (٥ / ٦٣) .

(٢) المسند (٥ / ٦٤) وأبو داود (٤٠٨٤) وصححه الألبانى .

أى: بين يدى السحاب الذى فيه مطر، يغيث به عباده المجدين الأزلين القنطين ﴿ أَلَيْسَ مَعَ اللَّهِ تَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ .

﴿ أَمَّنْ يَبْدُوْا خَلْقَ ثَمْرٍ يُعِيْدُهُمْ وَمَنْ يَرْزُقُكُمْ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَلَيْسَ مَعَ اللَّهِ قُلٌّ كَاتِبَةٌ بُرْهَانِكُمْ إِنَّ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ ﴿١٤﴾

أى: هو الذى بقدرته وسلطانه يبدأ الخلق ثم يعيده، كما قال تعالى فى الآية الأخرى: ﴿ إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ إِنَّهُ هُوَ يُبْدِئُ وَيُعِيدُ ﴾ [البروج: ١٢، ١٣]، وقال: ﴿ وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْرُونُ عَلَيْهِ ﴾ [الروم: ٢٧] . ﴿ وَمَنْ يَرْزُقُكُمْ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ ﴾ أى: بما ينزل من مطر السماء، وينبت من بركات الأرض، كما قال: ﴿ وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الرَّجْعِ وَالْأَرْضِ ذَاتِ الصَّدْعِ ﴾ [الطارق: ١١، ١٢]، وقال: ﴿ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا ﴾ [الحديد: ٤]، فهو تبارك وتعالى، ينزل من السماء ماء مباركا فيسكنه فى الأرض، ثم يخرج به منها أنواع الزروع والشمار والأزاهير ، وغير ذلك من ألوان شتى ﴿ كُلُوا وَارْعَوْا أَنْعَامَكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِأُولِي النُّهَى ﴾ [طه : ٥٤]؛ ولهذا قال: ﴿ أَلَيْسَ مَعَ اللَّهِ ﴾ أى: فعل هذا . وعلى القول الآخر: يعبد ؟ ﴿ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ ﴾ على صحة ما تدعونه من عبادة آلهة أخرى ﴿ إِنَّ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ فى ذلك، وقد علم أنه لا حجة لهم ولا برهان، كما قال الله : ﴿ وَمَنْ يَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ لَا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ فَإِنَّمَا حِسَابُهُ عِنْدَ رَبِّهِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ ﴾ [المؤمنون : ١١٧] .

﴿ قُلْ لَا يَعْلَمُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ ﴾ ﴿١٥﴾ بَلِ أَدْرَاكَ عِلْمُهُمْ فِي الْآخِرَةِ بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِنْهَا بَلْ هُمْ مِنْهَا عَمُونَ ﴿١٦﴾

يقول تعالى أمراً رسوله ﷺ أن يقول معلماً لجميع الخلق: أنه لا يعلم أحد من أهل السموات والأرض الغيب. وقوله: ﴿ إِلَّا اللَّهُ ﴾ استثناء منقطع، أى: لا يعلم أحد ذلك إلا الله، عز وجل، فإنه المنفرد بذلك وحده، لا شريك له ، كما قال: ﴿ وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ ﴾ الآية [الانعام : ٥٩] ، وقال : ﴿ إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنزِلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴾ [لقمان: ٣٤]، والآيات فى هذا كثيرة .

وقوله: ﴿ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ ﴾ أى: وما يشعر الخلائق الساكنون فى السموات والأرض بوقت الساعة ، كما قال: ﴿ ثَقُلَتْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا تَأْتِيكُمُ إِلَّا بَغْتَةً ﴾ [الاعراف : ١٨٧] ، أى: ثقل علمها على أهل السموات والأرض . وروى ابن أبى حاتم عن عائشة قالت: من زعم أنه يعلم - يعنى النبى ﷺ - ما يكون فى غد فقد أعظم على الله الفرية؛ لأن الله تعالى يقول: ﴿ لَا يَعْلَمُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ ﴾ (١) . وقال قتادة: إنما جعل الله هذه النجوم لثلاث خصلات: جعلها زينة للسماء، وجعلها يهتدى بها ، وجعلها رجوماً للشياطين ، فمن تعاطى فيها غير

ذلك فقد قال برأيه ، وأخطأ حظه ، وأضاع نصيبه وتكلف ما لا علم له به . وإن ناساً جهلة بأمر الله ، قد أحدثوا من هذه النجوم كهانة : من أعرس بنجم كذا وكذا ، كان كذا كذا . ومن سافر بنجم كذا وكذا ، كان كذا وكذا . ومن ولد بنجم كذا وكذا ، كان كذا وكذا . ولعمري ما من نجم إلا يولد به الأحمر والأسود ، والقصير والطويل ، والحسن والدميم ، وما علم هذا النجم وهذه الدابة وهذا الطير بشيء من الغيب ! وقضى الله : أنه لا يعلم من السموات والأرض الغيب إلا الله ، وما يشعرون أيان يعثون . رواه ابن أبي حاتم عنه بحروفه ، وهو كلام جليل متين صحيح .

وقوله : ﴿ بَلْ أَدَارِكْ عَلَيْهِمْ فِي الْآخِرَةِ بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِنْهَا ﴾ (١) أى : انتهى علمهم وعجز عن معرفة وقتها . وقرأ آخرون : « بل أدرك (١) علمهم » أى : تساوى علمهم فى ذلك ، كما فى الصحيح لمسلم : أن رسول الله ﷺ قال لجبريل - وقد سأله عن وقت الساعة : ما المسؤول عنها بأعلم من السائل (٢) أى : تساوى فى العجز عن درك ذلك علم المسؤول والسائل . قال ابن عباس : ﴿ بَلْ أَدَارِكْ عَلَيْهِمْ فِي الْآخِرَةِ ﴾ أى : غاب . وقال قتادة : ﴿ بَلْ أَدَارِكْ عَلَيْهِمْ فِي الْآخِرَةِ ﴾ يعنى : يجهلهم ربهم ، يقول : لم ينفذ لهم إلى الآخرة علم ، هذا قول . وقال ابن جريج ، عن عطاء الخراسانى ، عن ابن عباس : ﴿ بَلْ أَدَارِكْ عَلَيْهِمْ فِي الْآخِرَةِ ﴾ حين لم ينفع العلم ، وبه قال عطاء الخراسانى ، والسدى : أن علمهم إنما يدرك ويكمل يوم القيامة حيث لا ينفعهم ذلك ، كما قال تعالى : ﴿ أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ يَوْمَ يَأْتُونا لَكِنِ الظَّالِمُونَ الْيَوْمَ فِي ضَلالٍ مُّبِينٍ ﴾ [مريم : ٣٨] .

وقوله تعالى : ﴿ بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِنْهَا ﴾ عائد على الجنس ، والمراد الكافرون ، كما قال تعالى : ﴿ وَعَرَضُوا عَلَىٰ رَبِّكَ صَفًّا لَقَدْ جِئْتُمونا كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ بَلْ زَعَمْتُمْ أَلَّنْ نَجْعَلَ لَكُمْ مَوْعِداً ﴾ [الكهف : ٤٨] أى : الكافرون منكم . وهكذا قال ههنا : ﴿ بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِنْهَا ﴾ أى : شاكون فى وجودها ووقوعها ، ﴿ بَلْ هُمْ مِنْهَا عَمُونَ ﴾ أى : فى عمية وجهل كبير فى أمرها وشأنها .

﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِذْا كُنَّا تَرابًا وَءِآبَاؤُنَا إِنَّا لَمُخْرَجُونَ ﴿١٧﴾ لَقَدْ وَعِدْنَا هَٰذَا نَحْنُ وَءِآبَاؤُنَا مِنْ قَبْلُ إِنْ هَٰذَا إِلاَّ أَساطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴿١٨﴾ قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ ﴿١٩﴾ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُنْ فِي ضَيْقٍ مِمَّا يَمْكُرُونَ ﴿٢٠﴾ ﴾

يقول تعالى مخبراً عن منكرى البعث من المشركين : أنهم استبعدوا إعادة الأجساد بعد صيرورتها عظاماً ورفاتاً وتراباً ، ثم قال : ﴿ لَقَدْ وَعِدْنَا هَٰذَا نَحْنُ وَءِآبَاؤُنَا مِنْ قَبْلُ ﴾ أى : ما زلنا نسمع بهذا نحن وآبائنا ، ولا نرى له حقيقة ولا وقوعاً . وقولهم : ﴿ إِنْ هَٰذَا إِلاَّ أَساطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴾ : يعنون : ما هذا الوعد بإعادة الأبدان ﴿ إِلاَّ أَساطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴾ أى : أخذه قوم عنم قبلهم ، من كتبهم يتلقاه بعض عن بعض ، وليس له حقيقة . قال الله تعالى مجيباً لهم عما ظنوه من الكفر وعدم المعاد :

(٢) مسلم (٩ / ٥) .

(١) قراءة أبى جعفر وابن كثير وأبى عمرو بن حميد .

﴿ قُلْ ﴾ يا محمد لهؤلاء: ﴿ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ ﴾ أي : المكذبين بالرسول وما جاؤوهم به من أمر المعاد وغيره، كيف حلت بهم نقم الله وعذابه ونكاله ونجى الله من بينهم رسله الكرام ومن اتبعهم من المؤمنين، فدل ذلك على صدق ما جاءت به الرسل وصحته .

ثم قال تعالى مسلماً لنبيه ﷺ : ﴿ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ ﴾ أي : المكذبين بما جئت به ، ولا تأسف عليهم وتذهب نفسك عليهم حسرات ﴿ وَلَا تَكُنْ فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ ﴾ أي : في كيدك ورد ما جئت به ، فإن الله مؤيدك وناصرك، ومظهر دينك على من خالفه وعانده في المشارق والمغارب .

﴿ وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ ﴿٧١﴾ قُلْ عَسَى أَنْ يَكُونَ رَدِفَ لَكُمْ بَعْضُ الَّذِي تَسْتَعْجِلُونَ ﴿٧٢﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٧٣﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴿٧٤﴾ وَمَا مِنْ غَائِبَةٍ فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ ﴿٧٥﴾

يقول تعالى مخبراً عن المشركين، في سؤالهم عن يوم القيامة واستبعادهم وقوع ذلك : ﴿ وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ قال الله مجيباً لهم : ﴿ قُلْ ﴾ يا محمد ﴿ عَسَى أَنْ يَكُونَ رَدِفَ لَكُمْ بَعْضُ الَّذِي تَسْتَعْجِلُونَ ﴾ قال ابن عباس: أن يكون قرب - أو : أن يقرب - لكم بعض الذي تستعجلون . وهكذا قال مجاهد ، وقتادة ، والسدى . وهذا هو المراد بقوله تعالى: ﴿ وَيَقُولُونَ مَتَى هُوَ قُلْ عَسَى أَنْ يَكُونَ قَرِيبًا ﴾ [الإسراء : ٥١] ، وقال تعالى : ﴿ يَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ ﴾ [العنكبوت : ٥٤] .

ثم قال تعالى: ﴿ وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ ﴾ أي : في إسباغه نعمه عليهم مع ظلمهم لأنفسهم، وهم مع ذلك لا يشكرونه على ذلك إلا القليل منهم ﴿ وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴾ أي : يعلم السرائر والضمائر ، كما يعلم الظواهر ، ﴿ وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴾ [الرعد : ١٠] ، ﴿ يَلْعَلُ السِّرُّ وَأَخْفَى ﴾ [طه : ٧] ، ﴿ مِنْهُ أَلَّا حِينَ يَسْتَفْشِنُونَ ثِيَابَهُمْ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴾ [هود : ٥] . ثم أخبر تعالى بأنه عالم غيب السموات والأرض، وأنه عالم الغيب والشهادة - وهو ما غاب عن العباد وما شاهدوه - فقال : ﴿ وَمَا مِنْ غَائِبَةٍ فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ ﴾ قال ابن عباس : يعنى : وما من شيء ﴿ فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ ﴾ وهذا كقوله تعالى : ﴿ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّ ذَلِكَ فِي كِتَابٍ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ﴾ [الحج : ٧٠] .

﴿ إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَفُضُّ عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَكْثَرَ الَّذِي هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴾ ﴿٧٦﴾ وَإِنَّهُ لَهْدَىٰ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٧٧﴾ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ بِحُكْمِهِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ ﴿٧٨﴾ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّكَ عَلَىٰ الْحَقِّ الْمُبِينِ ﴿٧٩﴾ إِنَّكَ لَا تَسْمَعُ الْمَوْتَىٰ وَلَا تَسْمَعُ الْأَلْهَمَ الْأَدْعَاءَ إِذَا وَلُوا مَدْرِينًا ﴿٨٠﴾ وَمَا أَنْتَ بِهَادِي الْعُمَىٰ عَن ضَلَالَتِهِنَّ إِنْ تَسْمَعُ إِلَّا مَن يُوْمِنُ بِآيَاتِنَا فَهُمْ مُسْلِمُونَ ﴿٨١﴾

يقول تعالى مخبراً عن كتابه العزيز، وما اشتمل عليه من الهدى والبيئات والفرقان: أنه يقص على بنى إسرائيل - وهم حملة التوراة والإنجيل ﴿ أَكْثَرَ الَّذِي هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴾ ، كاختلافهم في عيسى وتباينهم فيه ، فاليهود افتروا، والنصارى غلوا، فجاء القرآن بالقول الوسط الحق العدل: أنه عبد من عباد الله وأنبيائه ورسله الكرام، عليه الصلاة والسلام، كما قال تعالى : ﴿ ذَلِكَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ الْحَقِّ الَّذِي فِيهِ يَمْتَرُونَ ﴾ [مريم: ٣٤] .

قوله: ﴿ وَإِنَّهُ لَهْدَى وَرَحْمَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴾ أى: هدى لقلوب المؤمنين، ورحمة لهم . ثم قال: ﴿ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ ﴾ أى: يوم القيامة ﴿ بِحُكْمِهِ وَهُوَ الْعَزِيزُ ﴾ فى انتقامه ﴿ الْعَلِيمُ ﴾ بأفعال عباده وأقوالهم . ﴿ فَتَرَكْنَا عَلَى اللَّهِ ﴾ أى: فى أمورك ، وبلغ رسالة ربك ﴿ إِنَّكَ عَلَى الْحَقِّ الْمُبِينِ ﴾ أى : أنت على الحق المبين وإن خالفك ، ممن كتبت عليه الشقاوة وحققت عليهم كلمة ربك أنهم لا يؤمنون ، ولو جاءتهم كل آية ؛ ولهذا قال : ﴿ إِنَّكَ لَا تَسْمَعُ الْمَوْتَى ﴾ أى لا تسمعهم شيئاً ينفعهم ، فكذلك هؤلاء على قلوبهم غشاوة ، وفى آذانهم وقر الكفر؛ ولهذا قال: ﴿ وَلَا تَسْمَعُ الصَّمَّ الدُّعَاءَ إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ وَمَا أَنْتَ بِهَادِي الْعُمَى عَنْ ضَلَالَتِهِمْ إِنْ تَسْمَعُ إِلَّا مَنْ يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا فَهُمْ مُسْلِمُونَ ﴾ أى : إنما يستجيب لك من هو سميع بصير، السمع والبصر النافع فى القلب والبصيرة ، الخاضع لله ، ولما جاء عنه على السنة الرسل ، عليهم السلام .

﴿ وَإِذَا وَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَابَّةً مِّنَ الْأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ أَنَّ النَّاسَ كَانُوا بِآيَاتِنَا لَا يُوقِنُونَ ﴾ ﴿ ٨٢ ﴾

ربع

هذه الدابة تخرج فى آخر الزمان عند فساد الناس وتركهم أوامر الله وتبديلهم الدين الحق ، يخرج الله لهم دابة من الأرض - قيل : من مكة . وقيل: من غيرها - فتكلم الناس على ذلك . قال ابن عباس، والحسن، وقتادة - وروى عن على : تكلمهم كلاما ، أى : تخاطبهم مخاطبة . وقال عطاء الخراسانى : تكلمهم فتقول لهم : إن الناس كانوا بآياتنا لا يوقنون . ويروى هذا عن على، واختاره ابن جرير. وفى هذا القول نظر لا يخفى ، والله أعلم . وقال ابن عباس - فى رواية - : تجرحهم . وعنه رواية، قال : كلاً تفعل يعنى هذا وهذا، وهو قول حسن ، ولا منافاة ، والله أعلم .

وقد ورد فى ذكر الدابة أحاديث وآثار كثيرة ، منها : روى الإمام أحمد عن حذيفة بن أسيد الغفارى قال : أشرف علينا رسول الله ﷺ من غرفة ونحن نتذاكر أمر الساعة فقال : لا تقوم الساعة حتى تروا عشر آيات : طلوع الشمس من مغربها ، والدخان ، والدابة ، وخروج يأجوج ومأجوج ، وخروج عيسى ابن مريم ، والدجال ، وثلاثة خسوف: خسف بالمغرب ، وخسف بالمشرق ، وخسف بجزيرة العرب ، ونار تخرج من قعر عدن تسوق - أو : تحشر - الناس ، تبيت معهم حيث باتوا ، وتقبل معهم حيث قالوا . وهكذا رواه مسلم وأهل السنن ،

وقال الترمذى : حسن صحيح . ورواه مسلم موقوفاً والله أعلم (١) . وروى مسلم عن عبد الله ابن عمرو قال : حفظت من رسول الله ﷺ حديثاً لم أنسه بعد : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « إن أول الآيات خروجا طلوع الشمس من مغربها ، وخروج الدابة على الناس ضحى ، وأيتهما ما كانت قبل صاحبتهما ، فالأخرى على أثرها قريباً » (٢) . وروى مسلم عن أبى هريرة أن رسول الله ﷺ قال : « بادروا بالأعمال ستا : طلوع الشمس من مغربها ، أو الدخان ، أو الدجال ، أو الدابة ، أو خاصة أحدكم ، أو أمر العامة » . وفى رواية : « بادروا بالأعمال ستا : الدجال ، والدخان ، ودابة الأرض ، وطلوع الشمس من مغربها ، وأمر العامة وخويصة أحدكم » (٣) .

﴿ وَيَوْمَ نَحْشُرُ مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ فَوْجًا مِمَّنْ يُكَذِّبُ بِآيَاتِنَا فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴿٨٣﴾ حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُمْ قَالَ أَكَذَّبْتُمْ بِآيَاتِي وَلَمْ تُحِطُوا بِهَا عَلِمًا ۖ أَمَا ذَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٨٤﴾ وَوَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ بِمَا ظَلَمُوا فَهُمْ لَا يَنْطِقُونَ ﴿٨٥﴾ أَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا اللَّيْلَ لَيْسَكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا ۗ إِنَّا فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٨٦﴾ ﴾

يقول تعالى مخبراً عن يوم القيامة ، وحشر الظالمين المكذبين بآيات الله ورسله إلى بين يدى الله ، عز وجل ، ليسألهم عما فعلوه فى الدار الدنيا ، تقيعاً وتوبيخاً ، وتصغيراً وتحقيراً فقال : ﴿ وَيَوْمَ نَحْشُرُ مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ فَوْجًا ﴾ أى : من كل قوم وقرن فوجاً ، أى : جماعة ﴿ مِمَّنْ يُكَذِّبُ بِآيَاتِنَا ﴾ ، كما قال تعالى : ﴿ احْشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَرْوَاهُمْ ﴾ [الصفات: ٢٢] ، وقال تعالى : ﴿ وَإِذَا النُّفُوسُ زُوِّجَتْ ﴾ [التكوير: ٧] . وقوله : ﴿ فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴾ قال ابن عباس : يدفعون . وقال قتادة : وزعة ترد أولهم على آخرهم . وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم : يساقون .

﴿ حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُمْ ﴾ أى : أوقفوا بين يدى الله ، عز وجل ، فى مقام المساءلة ﴿ قَالَ أَكَذَّبْتُمْ بِآيَاتِي وَلَمْ تُحِطُوا بِهَا عَلِمًا ۖ أَمَا ذَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ أى : ويسألون عن اعتقادهم ، وأعمالهم فلما لم يكونوا من أهل السعادة ، وكانوا كما قال الله تعالى عنهم : ﴿ فَلَا صَدَقَ وَلَا صَلَّىٰ وَلَكِنْ كَذَّبُوتُوهُ ﴾ [القيامة : ٣١ ، ٣٢] ، فحينئذ قامت عليهم الحجة ، ولم يكن لهم عذر يعتذرون به ، كما قال تعالى : ﴿ هَذَا يَوْمُ لَا يَنْطِقُونَ ۗ وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ ۗ وَيَلَّ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴾ [المرسلات: ٣٥ - ٣٧] ، وهكذا قال ههنا : ﴿ وَوَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ بِمَا ظَلَمُوا فَهُمْ لَا يَنْطِقُونَ ﴾ أى : بهتوا فلم يكن لهم جواب ؛ لأنهم كانوا فى الدار الدنيا ظلمة لأنفسهم ، وقد ردوا إلى عالم الغيب والشهادة الذى لا تخفى عليه خافية .

ثم قال تعالى منهاً على قدرته التامة ، وسلطانه العظيم ، وشأنه الرفيع الذى تجب طاعته والانقياد لأوامره ، وتصديق أنبيائه فيما جاؤوا به من الحق الذى لا محيد عنه ، فقال : ﴿ أَلَمْ

(١) المسند (٤ / ٦ ، ٧) ومسلم (٢٩٠١ / ٣٩) والترمذى (٢١٨٣) .

(٢) مسلم (٢٩٤١ / ١١٨) . (٣) مسلم (٢٩٤٧ / ١٢٨) .

يَرَوْنَ أَنَّا جَعَلْنَا اللَّيْلَ لَيْسَكُنَا فِيهِ ﴿٨٧﴾ أَى: فيه ظلام تسكن بسببه حركاتهم ، وتهدا أنفاسهم ، ويستريحون من نصب التعب فى نهارهم ﴿٨٨﴾ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا ﴿٨٩﴾ أَى: منيراً مشرقاً، فبسبب ذلك يتصرفون فى المعاش والمكاسب، والأسفار والتجارات ، وغير ذلك من شؤونهم التى يحتاجون إليها ﴿٩٠﴾ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٩٠﴾ .

﴿٨٧﴾ وَيَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ فَفَزِعَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ وَكُلُّ أَتَوِّهٍ دَاخِرِينَ ﴿٨٧﴾ وَرَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ صُنِعَ اللَّهُ الَّذِي أَنْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ إِنَّهُمْ خَيْرٌ بِمَا تَفْعَلُونَ ﴿٨٨﴾ مَن جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِّمَّا وَهَمَّ مِّنْ فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ ءَأَمِنُونَ ﴿٨٩﴾ وَمَن جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَكُبَّتْ وَجُوهُهُمْ فِي النَّارِ هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٩٠﴾

يخبر تعالى عن هول يوم نفخة الفزع فى الصُّور، وهو كما جاء فى الحديث: « قرن ينفخ فيه» (١). وفى حديث (الصُّور) أن إسرائيل هو الذى ينفخ فيه بأمر الله تعالى ، فينفخ فيه أولاً نفخة الفزع ويطولها ، وذلك فى آخر عمر الدنيا ، حين تقوم الساعة على شرار الناس من الأحياء ، فيفزع من فى السموات ومن فى الأرض ﴿٨٧﴾ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ ﴿٨٨﴾، وهم الشهداء، فإنهم أحياء عند ربهم يرزقون . روى الإمام مسلم عن عبد الله بن عمرو ، وجاءه رجل فقال : ما هذا الحديث الذى تحدث أن الساعة تقوم إلى كذا وكذا ؟ فقال : سبحان الله - أو : لا إله إلا الله - أو كلمة نحوهما - لقد هممت ألا أحدث أحداً شيئاً أبداً ، إنما قلت : إنكم سترون بعد قليل أمراً عظيماً يخرب البيت ، ويكون ويكون . ثم قال: قال رسول الله ﷺ : « يخرج الدجال فى أمتى فيمكث أربعين - لا أدرى أربعين يوماً ، أو أربعين شهراً ، أو أربعين عاماً - فيبعث الله عيسى ابن مريم كأنه عروة بن مسعود ، فيطلبه فيهلكه . ثم يمكث الناس سبع سنين ، ليس بين اثنين عداوة ، ثم يرسل الله ريحاً باردة من قبل الشام، فلا يبقى على وجه الأرض أحد فى قلبه مثقال ذرة من خير أو إيمان إلا قبضته ، حتى لو أن أحدهم دخل فى كبد جبل لدخلته عليه حتى تقبضه » . قال : سمعتها من رسول الله ﷺ ، قال : « فيبقى شرار الناس فى خفة الطير وأحلام السباع ، لا يعرفون معروفاً ولا ينكرون منكراً ، فيتمثل لهم الشيطان فيقول : ألا تستحيون ؟ فيقولون: فما تأمرنا ؟ فيأمرهم بعبادة الأوثان، وهم فى ذلك دار رزقهم ، حسن عيشهم . ثم ينفخ فى الصور فلا يسمعه أحد إلا أصغى ليتها ورفع لينا » . قال : « وأول من يسمعه رجل يلوط حوض إبله » . قال : « فَيَصْعَقُ وَيَصْعَقُ النَّاسُ ، ثم يرسل الله - أو قال : ينزل الله مطراً كأنه الطل - أو قال : الظل - نعمان الشاك - فتبتت منه أجساد الناس ، ثم يُنْفَخُ فيه أخرى فإذا هم قيام ينظرون . ثم يقال : يا أيها الناس ، هلموا إلى ربكم ، وقفوهم إنهم مسؤولون . ثم يقال: أخرجوا بعث النار . فيقال : من كم ؟ فيقال : من كل ألف تسعمائة

(١) المسند (٦٥٠٧) وقال الشيخ أحمد شاكر : « إسناده صحيح » .

وتسعة وتسعين». قال : « فذلك يوم يجعل الولدان شيبا ، وذلك يوم يكشف عن ساق » (١) .
 وقوله : « ثم ينفخ فى الصور فلا يسمعه أحد إلا أصغى لينا ورفع لينا » ، الليت : هو صفحة العنق ، أى : أمال عنقه ليستمعه من السماء جيدا . فهذه نفخة الفزع . ثم بعد ذلك نفخة الصعق ، وهو الموت . ثم بعد ذلك نفخة القيام لرب العالمين ، وهو النشور من القبور لجميع الخلائق ؛ ولهذا قال : ﴿ وَكُلُّ أُنُوفٍ دَاخِرِينَ ﴾ أى : صاغرين مطيعين ، لا يتخلف أحد عن أمره ، كما قال تعالى : ﴿ يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِ ﴾ [الإسراء : ٥٢] ، وقال : ﴿ ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِنَ الْأَرْضِ إِذَا أَنْتُمْ تَخْرُجُونَ ﴾ [الروم : ٢٥] . وفى حديث الصور : أنه فى النفخة الثالثة يأمر الله الأرواح ، فتوضع فى ثقب فى الصور ، ثم ينفخ إسرافيل فيه بعد ما تثبت الأجساد فى قبورها وأماكنها ، فإذا نفخ فى الصور طارت الأرواح ، تتوهج أرواح المؤمنين نورا ، وأرواح الكافرين ظلمة ، فيقول الله ، عز وجل : وعزتى وجلالى لترجعن كل روح إلى جسدها . فتجىء الأرواح إلى أجسادها ، فتدب فيها كما يدب السم فى اللديغ ، ثم يقومون فيفيضون التراب من قبورهم ، قال الله تعالى : ﴿ يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ سِرَاعًا كَأَنَّهُمْ إِلَىٰ نُصُبٍ يُوفِضُونَ ﴾ [المعارج : ٤٣] .
 وقوله : ﴿ وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسِبُهَا جَمَادًا وَهِيَ تَمْرٌ مَرَّ السَّحَابِ ﴾ أى : تراها كأنها ثابتة باقية على ما كانت عليه ، وهى تمر مر السحاب ، أى : تزول عن أماكنها ، كما قال تعالى : ﴿ يَوْمَ تَمُورُ السَّمَاءُ مَوْرًا . وَتَسِيرُ الْجِبَالُ سِيرًا ﴾ [الطور : ٩ ، ١٠] ، وقال : ﴿ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْجِبَالِ فَقُلْ يَنْسِفُهَا رَبِّي نَسْفًا . فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا . لَا تَرَى فِيهَا عِوَجًا وَلَا أَمْتًا ﴾ [طه : ١٠٥ - ١٠٧] ، وقال تعالى : ﴿ وَيَوْمَ نَسِيرُ الْجِبَالُ وَتَرَى الْأَرْضَ بَارِزَةً ﴾ [الكهف : ٤٧] . وقوله : ﴿ صُنِعَ اللَّهُ الَّذِي أَنْتَقَنَ كُلَّ شَيْءٍ ﴾ أى : يفعل ذلك بقدرته العظيمة الذى قد أنقن كل ما خلق ، وأودع فيه من الحكمة ما أودع ﴿ إِنَّهُ خَبِيرٌ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴾ أى : هو عليم بما يفعل عباده من خير وشر فيجازيهم عليه .

ثم بين تعالى حال السعداء والأشقياء يومئذ فقال : ﴿ مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِنْهَا ﴾ قال قتادة : بالإخلاص . وقال زين العابدين : هى لا إله إلا الله ، وقد بين فى المكان الآخر أن له عشر أمثالها ﴿ وَهُمْ مَن فَرَعَ يَوْمَئِذٍ آمِنُونَ ﴾ ، كما قال فى الآية الأخرى : ﴿ لَا يَحْزَنُهُمُ الْفَزَعُ الْأَكْبَرُ ﴾ [الانبياء : ١٠٣] ، وقال : ﴿ أَفَمَن يَلْقَىٰ فِي النَّارِ خَيْرًا مِّنْ يَأْتِي آمِنًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴾ [فصلت : ٤٠] ، وقال : ﴿ وَهُمْ فِي الْعُرْفَاتِ آمِنُونَ ﴾ [سبأ : ٣٧] . وقوله : ﴿ وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَكُبَّتْ وَجُوهُهُمْ فِي النَّارِ ﴾ أى : من لقى الله مسيئا لا حسنة له ، أو : قد رجحت سيئاته على حسناته ، كل بحسبه ؛ ولهذا قال : ﴿ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ . وقال ابن مسعود وأبو هريرة وابن عباس ، وأنس بن مالك ، وعطاء ، وسعيد ابن جبير ، وعكرمة ، ومجاهد فى قوله : ﴿ وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ ﴾ يعنى : بالشرك .

﴿ إِنَّمَا أَمْرٌ أَنْ أُعْبَدَ رَبُّ هَذِهِ الْبَلَدَةِ الَّذِي حَرَّمَهَا وَلَهُ كُلُّ شَيْءٍ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴿٩١﴾ وَأَنْ أَتْلُوا الْقُرْآنَ فَمَنْ أَهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَقُلْ إِنَّمَا أَنَا مِنَ الْمُنذِرِينَ ﴿٩٢﴾ وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ سِيرِكُمْ آيَاتِهِ فَتَعْرِفُونَهَا وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٩٣﴾ ﴾

يقول تعالى مخبراً رسوله وأمرأ له أن يقول : ﴿ إِنَّمَا أَمْرٌ أَنْ أُعْبَدَ رَبُّ هَذِهِ الْبَلَدَةِ الَّذِي حَرَّمَهَا وَلَهُ كُلُّ شَيْءٍ ﴾ ، كما قال : ﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنْتُمْ فِي شَكٍّ مِنْ دِينِي فَلَا أَعْبُدُ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ أَعْبُدُ اللَّهَ الَّذِي يَتَوَقَّأكُمْ ﴾ [يونس : ١٠٤] . وإضافة الربوبية إلى البلدة على سبيل التشريف لها والاعتناء بها ، كما قال : ﴿ فليَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ . الَّذِي أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ وَآمَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ ﴾ [قريش : ٣ ، ٤] . وقوله : ﴿ الَّذِي حَرَّمَهَا ﴾ أى : الذى إنما صارت حراماً قدراً وشرعاً ، بتحريمه لها ، كما ثبت فى الصحيحين عن ابن عباس قال : قال رسول الله ﷺ يوم فتح مكة : « إن هذا البلد حرمه الله يوم خلق السموات والأرض ، فهو حرام بحرمة الله إلى يوم القيامة ، لا يعضد شوكة ، ولا ينفر صيده ، ولا يلتقط لقطته إلا لمن عرفها ، ولا يتخلى خلاها » الحديث بتمامه . وقد ثبت فى الصحاح والحسان والمسانيد من طرق جماعة تفيد القطع (١) .

وقوله : ﴿ وَلَهُ كُلُّ شَيْءٍ ﴾ : من باب عطف العام على الخاص ، أى : هو رب هذه البلدة ، ورب كل شىء ومليكه ﴿ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴾ أى : الموحدين المخلصين المنقادين لأمره المطيعين له . وقوله : ﴿ وَأَنْ أَتْلُوا الْقُرْآنَ ﴾ أى : على الناس أبلغهم إياه ، كقوله : ﴿ ذَلِكَ نَتْلُوهُ عَلَيْكَ مِنَ الْآيَاتِ وَالذِّكْرِ الْحَكِيمِ ﴾ [آل عمران : ٥٨] ، وكقوله : ﴿ نَتْلُو عَلَيْكَ مِنْ نَبَأِ مُوسَىٰ وَفِرْعَوْنَ بِالْحَقِّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ [القصص : ٣] أى : أنا مبلغ ومنذر ، ﴿ فَمَنْ أَهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَقُلْ إِنَّمَا أَنَا مِنَ الْمُنذِرِينَ ﴾ أى : لى سوية الرسل الذين أنذروا قومهم ، وقاموا بما عليهم من أداء الرسالة إليهم ، وخلصوا من عهدتهم ، وحساب أمهم على الله ، كقوله تعالى : ﴿ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ ﴾ [الرعد : ٤٠] ، وقال : ﴿ إِنَّمَا أَنْتَ نَذِيرٌ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ ﴾ [هود : ١٢] .

﴿ وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ سِيرِكُمْ آيَاتِهِ فَتَعْرِفُونَهَا ﴾ أى : لله الحمد الذى لا يعذب أحداً إلا بعد قيام الحجة عليه ، والإعذار إليه ؛ ولهذا قال : ﴿ سِيرِكُمْ آيَاتِهِ فَتَعْرِفُونَهَا ﴾ ، كما قال تعالى : ﴿ سَتَرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ ﴾ [فصلت : ٥٣] . وقوله : ﴿ وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ أى : بل هو شهيد على كل شىء . وقد ذكر عن الإمام أحمد أنه كان ينشد هذين البيتين ، إما له أو لغيره

إِذَا مَا خَلَوْتَ الدَّهْرَ يَوْمًا فَلَا تَقُلْ خَلَوْتُ وَلَكِنْ قُلْ عَلَىٰ رَقِيبُ
وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ يَغْفُلُ سَاعَةً وَلَا أَنْ مَا يَخْفَىٰ عَلَيْهِ يَغِيبُ

(١) البخارى (١٨٣٤) ومسلم (١٣٥٣ / ٤٤٥) وأبو دارد (٢٠١٨) . وهو فى المسند (٢٣٥٣) .

تفسير سورة القصص

وهى مكية

روى الإمام أحمد عن معد يكر ب قال : أتينا عبد الله فسألناه أن يقرأ علينا ﴿طسم﴾ المائتين ، فقال: ما هى معى ، ولكن عليكم من أخذها من رسول الله ﷺ : خبّاب بن الارت . قال : فأتينا خبّاب بن الارت ، فقرأها علينا (١) .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ طَسَمَ ﴾ ﴿١﴾ تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ ﴿٢﴾ نَتَلَوُا عَلَيْكَ مِنْ نَبَأِ مُوسَى وَفِرْعَوْنَ بِالْحَقِّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٣﴾ إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضِعُّ مِنْهُ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ يَذَّيْبُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِ نِسَاءَهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا مِنَ الْمُفْسِدِينَ ﴿٤﴾ وَتُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتَضَعُّوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَيْمَةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ ﴿٥﴾ وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَنُرِي فِرْعَوْنَ وَهَمْلَكَنْ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم مَّا كَانُوا يَحْذَرُونَ ﴿٦﴾

قد تقدم الكلام على الحروف المقطعة .

وقوله : ﴿ تِلْكَ ﴾ أى : هذه ﴿ آيات الكتاب المبين ﴾ أى : الواضح الجلى الكاشف عن حقائق الأمور ، وعلم ما قد كان وما هو كائن . وقوله : ﴿ نَتَلُو عَلَيْكَ مِنْ نَبَأِ مُوسَى وَفِرْعَوْنَ بِالْحَقِّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ ، كما قال تعالى : ﴿ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ ﴾ [يوسف: ٣] أى : نذكر لك الأمر على ما كان عليه ، كأنك تشاهد وكأنك حاضر .

ثم قال : ﴿ إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ ﴾ أى : تكبر وتجبّر وطغى ﴿ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا ﴾ أى : أصنافاً ، قد صرف كل صنف فيما يريد من أمور دولته . ﴿ يَسْتَضِعُّ مِنْهُمْ ﴾ يعنى : بنى إسرائيل . وكانوا فى ذلك الوقت خيار أهل زمانهم . هذا وقد سلب عليهم هذا الملك الجبار العنيد يستعملهم فى أخس الأعمال ، ويكذبهم ليلاً ونهاراً فى أشغاله وأشغال رعيته ، ويقتل مع هذا أبناءهم ويستحيى نساءهم ، إهانة لهم واحتقاراً ، وخوفاً من أن يوجد منهم الغلام الذى كان قد تخوف هو وأهل مملكته من أن يوجد منهم غلام ، يكون سبب هلاكه وذهاب دولته على يديه . وكانت القبط قد تلقوا هذا من بنى إسرائيل فيما كانوا يدرسونه من قول إبراهيم الخليل ، حين ورد الديار المصرية ، وجرى له مع جبارها ما جرى ، حين أخذ سارة

(١) المسند (٣٩٨٠) . وقال الشيخ شاکر : « إسناده صحيح » . ثم قال « طسم المائتين » هى سورة الشعراء ، وعدد آياتها ٢٢٧ آية فذكر عددها مع ترك كسر المائة .

ليتخذها جارية ، فصانها الله منه ، ومنعه منها بقدرته وسلطانته . فبشر إبراهيم ، عليه السلام ، ولده أنه سيولد من صلبه وذريته من يكون هلاك ملك مصر على يديه ، فكانت القبط تتحدث بهذا عند فرعون ، فاحترز فرعون من ذلك ، وأمر بقتل ذكور بنى إسرائيل ، ولن ينفع حذر من قدر ؛ لأن أجل الله إذا جاء لا يؤخر ، ولكل أجل كتاب ؛ ولهذا قال : ﴿ وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضِعُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ . وَنُكَلِّمُهُمْ فِي الْأَرْضِ وَنُرِي فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُمْ مَا كَانُوا يَحْذَرُونَ ﴾ . وقد فعل تعالى ذلك بهم ، كما قال : ﴿ وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضْعَفُونَ مَشَارِقَ الْأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا رَبِّكَ الْكَرِيمَ عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ بِمَا صَبَرُوا وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ وَمَا كَانُوا يَعْرِشُونَ ﴾ [الاعراف : ١٣٧] ، وقال : ﴿ كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا بِنِي إِسْرَائِيلَ ﴾ [الشعراء : ٥٩] ، أراد فرعون بحوله وقوته أن ينجو من موسى ، فما نفعه ذلك مع قَدْرَ الملك العظيم الذي لا يخالف أمره القدرى ، بل نفذ حكمه وجرى قلمه فى القدم بأن يكون إهلاك فرعون على يديه ، بل يكون هذا الغلام الذى احترزت من وجوده ، وقتلت بسببه الوفا من الولدان إنما منشؤه ومرباه على فراشك، وفى دارك ، وغذاؤه من طعامك ، وأنت تربيته وتدله وتتفاده ، وحفك، وهلاكك وهلاك جنودك على يديه ، لتعلم أن رب السموات العلاء هو القادر الغالب العظيم، العزيز القوى الشديد المحال، الذى ما شاء كان ، وما لم يشأ لم يكن .

﴿ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ أَنْ أَرْضِعِيهِ فِإِذَا خَفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكَ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴾ ﴿٧﴾ فَالْقَطْعَةُ ءَالَ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَمَانَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا خَاطِئِينَ ﴿٨﴾ وَقَالَتِ امْرَأَتُ فِرْعَوْنَ قَرَّتْ عَيْنِي لِىَ وَلَكَ لَا نَقْتُلُوهُ عَسَىٰ أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٩﴾

ذكروا أن فرعون لما أكثر من قتل ذكور بنى إسرائيل ، خافت القبط أن يفنى بنى إسرائيل، فيلوثون هم ما كانوا يلونه من الأعمال الشاقة . فقالوا لفرعون : إنه يوشك - إن استمر هذا الحال - أن يموت شيوخهم ، وغلمانهم لا يعيشون ، ونساؤهم لا يمكن أن يقمن بما يقوم به رجالهم من الأعمال، فيخلص إلينا ذلك . فأمر بقتل الولدان عاماً وتركهم عاماً ، فولد هارون ، عليه السلام ، فى السنة التى يتركون فيها الولدان ، وولد موسى ، عليه السلام ، فى السنة التى يقتلون فيها الولدان، فلما ضاقت ذرعاً به ألهمت فى سرها ، وألقى فى خلدتها ، ونفت فى روعها ، كما قال الله تعالى : ﴿ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ أَنْ أَرْضِعِيهِ فِإِذَا خَفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكَ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴾ . وذلك أنه كانت دارها على حافة النيل ، فاتخذت تابوتاً، ومهدت فيه مهداً، وجعلت ترضع ولدها، فإذا دخل عليها أحد ممن تخاف جعلته فى ذلك التابوت، وسيرته فى البحر، وربطته بحبل عندها. فلما كان ذات يوم دخل عليها من تخافه، فذهبت

فوضعت في ذلك التابوت، وأرسلته في البحر وذهلت عن أن تربطه، فذهب مع الماء واحتمله، حتى مر به على دار فرعون ، فالتقطه الجوارى فاحتملته ، فذهبن به إلى امرأة فرعون، ولا يدربن ما فيه، وخشين أن يفتتن عليهما في فتحه دونها . فأوقع الله محبته في قلبها حين نظرت إليه ، وذلك لسعادتها وما أراد الله من كرامتها وشقاوة بعلها ؛ ولهذا قال : ﴿ فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا ﴾ معناه: أن الله ، تعالى ، قيضهم لالتقاطه ليجعله لهم عدواً وحزناً فيكون أبلغ في إبطال حذرهم منه ؛ ولهذا قال : ﴿ إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا خَاطِئِينَ ﴾ .

وقوله تعالى : ﴿ وَقَالَتِ امْرَأَتُ فِرْعَوْنَ قُرْتُ عَيْنِي لِي وَلَكَ لَا تَقْتُلُوهُ عَسَىٰ أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴾ . يعنى: أن فرعون لما رآه هم بقتله خوفاً من أن يكون من بنى إسرائيل فجعلت امرأته آسية بنت مزاحم تُحاجُّ عنه وتُدبُّ دونه ، وتحببه إلى فرعون ، فقالت: ﴿ قُرْتُ عَيْنِي لِي وَلَكَ ﴾ فقال: أما لك فَنَعَم، وأما لى فلا . فكان كذلك ، وهداها الله به ، وأهلكه الله على يديه . وقوله : ﴿ عَسَىٰ أَنْ يَنْفَعَنَا ﴾ وقد حصل لها ذلك، وهداها الله به، وأسكنها الجنة بسببه . وقولها : ﴿ أَوْ نَتَّخِذُهُ وَلَدًا ﴾ أى : أرادت أن تتخذه ولداً وتبناه ، وذلك أنه لم يكن لها ولد منه . وقوله تعالى : ﴿ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴾ أى : لا يدرون ما أراد الله منه بالتقاطهم إياه ، من الحكمة العظيمة البالغة ، والحجة القاطعة .

﴿ وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَرِغًا إِنْ كَادَتْ لَتُبْدِي بِهِ لَوْلَا أَنْ رَبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ ﴿١٠﴾ وَقَالَتْ لِأُخْتِهِ قُصِّيهِ فَبَصُرَتْ بِهِ عَنْ جُنْبٍ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١١﴾ وَحَرَمْنَا عَلَيْهِ الْمَرَاضِعَ مِنْ قَبْلٍ فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ وَهُمْ لَهُمْ نَصِيحُونَ ﴿١٢﴾ فَرَدَدْنَاهُ إِلَىٰ آتِيهِ كَمَا تَفَرَّقَ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَلِنَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٣﴾

ربع

يقول تعالى مخبراً عن فؤاد أم موسى، حين ذهب ولدها في البحر، أنه أصبح فارغاً ، أى: من كل شيء من أمور الدنيا إلا من موسى . قاله ابن عباس ، ومجاهد ، وعكرمة ، وسعيد بن جبير ، وغيرهم . ﴿ إِنْ كَادَتْ لَتُبْدِي بِهِ ﴾ أى : إن كادت من شدة وجدها وحزنها وأسفها لتُظهر أنه ذهب لها ولد، وتخبر بحالها، لولا أن الله بُتَّها وصبرها ، قال الله تعالى : ﴿ لَوْلَا أَنْ رَبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ . وَقَالَتْ لِأُخْتِهِ قُصِّيهِ ﴾ أى : أمرت ابنتها - وكانت كبيرة تعى ما يقال لها - فقالت لها: ﴿ قُصِّيهِ ﴾ أى : اتبعي أثره ، وخذى خبره ، وتطلَّبي شأنه من نواحي البلد . فخرجت لذلك، ﴿ فَبَصُرَتْ بِهِ عَنْ جُنْبٍ ﴾ قال ابن عباس : عن جانب . وقال مجاهد: عن بعيد .

قال الله تعالى : ﴿ وَحَرَمْنَا عَلَيْهِ الْمَرَاضِعَ مِنْ قَبْلٍ ﴾ أى : تحريماً قديراً ، وذلك لكرامة الله له صانه عن أن يرتضع غير ثدى أمه؛ ولأن الله - سبحانه - جعل ذلك سبباً إلى رجوعه إلى أمه ، لترضعه وهى أمته، بعدما كانت خائفة . فلما رأتهم أخته حائرين فيمن يرضعه قالت : ﴿ هَلْ أَدُلُّكُمْ

عَلَىٰ أَهْلِ بَيْتِ يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ وَهُمْ لَهُ نَاصِحُونَ ﴿١٤﴾ . فأرسلوها ، فلما قالت لهم ذلك وخالصت من أذاهم ، ذهبوا معها إلى منزلهم ، فدخلوا به على أمه ، فأعطته ثديها فالتقمه ، ثم سألتها آسية أن تقيم عندها فترضعه ، فأبت عليها وقالت : إن لى بعلأ وأولادأ ، ولا أقدر على المقام عندك . ولكن إن أحببت أن أرضعه فى بيتى فعلت . فأجابتها امرأة فرعون إلى ذلك ، وأجرت عليها النفقة والصلات والكساوى والإحسان الجزيل . فرجعت أم موسى بولدها راضية مرضية ، قد أبدلها الله من بعد خوفها أمناً ، فى عز وجاه ورزق دار . فسبحان من بيديه الأمر ! ماشاء كان وما لم يشأ لم يكن ، الذى يجعل لمن اتقاه بعد كل هم فرجأ ، وبعد كل ضيق مخرجأ . ولهذا قال تعالى : ﴿ فَرَدَدْنَاهُ إِلَىٰ أُمِّهِ كَمَا تَفَرَّقْنَا عَنْهَا ﴾ أى : به ، ﴿ وَلَا تَحْزَنْ ﴾ أى : عليه ﴿ وَتَعْلَمُ أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ ﴾ أى : فيما وعدها من رده إليها ، وجعله من المرسلين . فحيثئذ تحققت برده إليها أنه كائن منه رسول من المرسلين ، فعاملته فى تربيته ما ينبغى له طبعأ وشرعأ .

وقوله : ﴿ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ أى : حكمَ الله فى أفعاله وعواقبها المحمودة ، التى هو المحمود عليها فى الدنيا والآخرة ، فرميا يقع الأمر كرها إلى النفوس ، وعاقبته محمودة فى نفس الأمر ، كما قال تعالى : ﴿ وَعَسَىٰ أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَعَسَىٰ أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ ﴾ [البقرة : ٢١٦] وقال تعالى : ﴿ فَعَسَىٰ أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَيَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا ﴾ [النساء : ١٩] .

﴿ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَاسْتَوَىٰ ءَأَنبَنَهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴾ ﴿١٥﴾ وَدَخَلَ الْمَدِينَةَ عَلَىٰ حِينِ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هَذَا مِنْ شِيعَتِهِ وَهَذَا مِنْ عَدُوِّهِ فَاسْتَغْنَىٰ الَّذِي مِنْ شِيعَتِهِ عَلَى الَّذِي مِنْ عَدُوِّهِ فَوَكَرَهُ مُوسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيْهِ قَالَ هَذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي فَغَفَرَ لَهُ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴿١٦﴾ قَالَ رَبِّ بِمَا أَنْعَمْتَ عَلَيَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا لِّلْمُجْرِمِينَ ﴿١٧﴾

لما ذكر تعالى مبدأ أمر موسى ، عليه السلام ، ذكر أنه لما بلغ أشده واستوى ، آناه الله حكماً وعلماً ، قال مجاهد : يعنى النبوة ﴿ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴾ .

ثم ذكر تعالى سبب وصوله إلى ما كان تعالى قدّر له من النبوة والتكليم فى قضية قتله ذلك القبطى ، الذى كان سبب خروجه من الديار المصرية إلى بلاد مدين ، فقال تعالى : ﴿ وَدَخَلَ الْمَدِينَةَ عَلَىٰ حِينِ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ ﴾ أى : يتضاربان ويتنازعان ﴿ هَذَا مِنْ شِيعَتِهِ ﴾ أى : إسرائيلى ﴿ وَهَذَا مِنْ عَدُوِّهِ ﴾ أى : قبطى ، قاله ابن عباس ، وقتادة ، والسدى ، ومحمد بن إسحاق . فاستغاث الإسرائيلي بموسى ، عليه السلام ، ووجد موسى فرصة ، وهى غفلة الناس ، فعمد إلى القبطى ﴿ فَوَكَرَهُ مُوسَىٰ ﴾ . قال مجاهد : وكزه ، أى : طعنه بجمع كفه ، وقال قتادة : وكزه بعضا كانت معه . ﴿ فَقَضَىٰ عَلَيْهِ ﴾ أى : كان فيها حتفه فمات ﴿ قَالَ ﴾ موسى : ﴿ هَذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ ﴾ . قال ربّ إني ظلمت نفسي فاعفر لي فغفر له إنه هو الغفور الرحيم . قال ربّ بما

أَنْعَمْتَ عَلَيَّ ﴿١٧﴾ أَي : بما جعلت لي من الجاه والعزة والمنعة ﴿ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا ﴾ أَي : معينا ﴿ لِلْمُجْرِمِينَ ﴾ أَي : الكافرين بك ، المخالفين لأمرك .

﴿ فَاصْبِحْ فِي الْمَدِينَةِ خَائِفًا يَتَرَقَّبُ فَإِذَا الَّذِي اَسْتَنْصَرُمُ بِالْأَمْسِ يَسْتَصْرِخُهُ قَالَ لَهُ مُوسَى إِنَّكَ لَغَوِيٌّ مُبِينٌ ﴿١٨﴾ فَلَمَّا أَنْ أَرَادَ أَنْ يَبْطِشَ بِالَّذِي هُوَ عَدُوٌّ لَهُمَا قَالَ يَا مُوسَى أَتُرِيدُ أَنْ تَقْتُلَنِي كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًا بِالْأَمْسِ إِنْ تُرِيدُ إِلَّا أَنْ تَكُونَ جَبَّارًا فِي الْأَرْضِ وَمَا تُرِيدُ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْمُصْلِحِينَ ﴿١٩﴾ ﴾

يقول تعالى مخبراً عن موسى لما قتل ذلك القبطي أنه أصبح ﴿ فِي الْمَدِينَةِ خَائِفًا ﴾ أَي : من مَعْرَةَ ما فعل ﴿ يَتَرَقَّبُ ﴾ أَي : يتلفت ويتوقع ما يكون من هذا الأمر ، فمر في بعض الطرق ، فإذا ذاك الذي استنصره بالأمس على ذلك القبطي يقاتل آخر ، فلما مر موسى ، استصرخه على الآخر ، فقال له موسى : ﴿ إِنَّكَ لَغَوِيٌّ مُبِينٌ ﴾ أَي : ظاهر الغواية كثير الشر . ثم عزم على البطش بذلك القبطي ، فاعتقد الإسرائيلي لخوره وضعفه وذلته أن موسى إنما يريد قصده لما سمعه يقول ذلك ، فقال يدفع عن نفسه : ﴿ يَا مُوسَى أَتُرِيدُ أَنْ تَقْتُلَنِي كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًا بِالْأَمْسِ ﴾ وذلك لأنه لم يعلم به إلا هو وموسى ، عليه السلام ، فلما سمعها ذلك القبطي لقفها من فمه ، ثم ذهب بها إلى باب فرعون فألقاها عنده ، فعلم بذلك ، فاشتد حنقه ، وعزم على قتل موسى ، فطلبوه وبعثوا وراءه ليحضره لذلك .

﴿ وَجَاءَ رَجُلٌ مِنَ أَقْصَا الْمَدِينَةِ يَسْعَى قَالَ يَا مُوسَى إِنَّ الْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَاخْرُجْ إِنِّي لَكَ مِنَ النَّاصِحِينَ ﴿٢٠﴾ ﴾

قال تعالى : ﴿ وَجَاءَ رَجُلٌ ﴾ وصفه بالرَجُولِيَّةِ لأنه خالف الطريق ، فسلك طريقاً أقرب من طريق الذين بعثوا وراءه ، فسبق إلى موسى ، فقال له : يا موسى ﴿ إِنَّ الْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ ﴾ أَي : يتشاورون فيك ﴿ لِيَقْتُلُوكَ فَاخْرُجْ ﴾ أَي : من البلد ﴿ إِنِّي لَكَ مِنَ النَّاصِحِينَ ﴾ .

﴿ فَخَرَجَ مِنْهَا خَائِفًا يَتَرَقَّبُ قَالَ رَبِّ نَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٢١﴾ وَلَمَّا تَوَجَّهَ تَلَقَّاءَ مَدْيَنَ قَالَ عَسَى رَبِّي أَنْ يَهْدِيَنِي سَوَاءَ السَّبِيلِ ﴿٢٢﴾ وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِنَ النَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِنْ دُونِهِمْ امْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ قَالَ مَا خَطْبُكُمَا قَالَتَا لَا نَسْقِي حَتَّى يُصْدِرَ الرِّعَاءُ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ ﴿٢٣﴾ فَسَقَى لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّى إِلَى الظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنْزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ ﴿٢٤﴾ ﴾

لما أخبره ذلك الرجل بما عملاً عليه فرعون ودولته في أمره ، خرج من مصر وحده ، ولم

يألف ذلك قلبه ، بل كان فى رفاهية ونعمة ورياسة ﴿فَخَرَجَ مِنْهَا خَائِفًا يَتَرَقَّبُ﴾ أى : يتلفت ﴿قَالَ رَبِّ نَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ أى : من فرعون وملكه . فالله أعلم . ﴿وَلَمَّا تَوَجَّهَ تَلْقَاءَ مَدْيَنَ﴾ أى : أخذ طريقاً سالكاً مهيباً فرح بذلك ﴿قَالَ عَسَىٰ رَبِّي أَن يَهْدِيَنِي سَوَاءَ السَّبِيلِ﴾ أى : إلى الطريق الأقوم . ففعل الله به ذلك، وهداه إلى الطريق المستقيم فى الدنيا والآخرة، فجعله هادياً مهدياً . ﴿وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ﴾ أى : ولما وصل إلى مدين وورد ماءها ، وكان لها بئر ترده رعاء الشاء ﴿وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةٌ مِنَ النَّاسِ﴾ أى : جماعة ﴿يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِنْ دُونِهِمُ امْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ﴾ أى : تكفكفان غنمهما أن ترد مع غنم أولئك الرعاء لثلا يؤذيا . فلما رأهما موسى ، عليه السلام ، رق لهما ورحمهما ﴿قَالَ مَا خَطْبُكُمَا﴾ أى : ما خبركما لا تردان مع هؤلاء ؟ ﴿قَالَتَا لَا نَسْقِي حَتَّىٰ يُصَدِرَ الرِّعَاءُ﴾ أى : لا يحصل لنا سقى إلا بعد فراغ هؤلاء ﴿وَأُوبُونَا شَيْخَ كَبِيرٍ﴾ أى : فهذا الحال الملجئ لنا إلى ما ترى .

قال الله تعالى : ﴿فَسَقَىٰ لَهُمَا﴾ : روى أبو بكر بن أبى شيبة عن عمر بن الخطاب ، أن موسى ، عليه السلام ، لما ورد ماء مدين ، وجد عليه أمة من الناس يسقون ، قال : فلما فرغوا أعادوا الصخرة على البئر، ولا يطبق رفعها إلا عشرة رجال ، فإذا هو بامرأتين تذودان ، قال : ما خطبكما ؟ فحدثناه ، فأتى الحجر فرفعه ، ثم لم يستق إلا ذنوباً واحداً حتى رويت الغنم . إسناد صحيح (١) . وقوله : ﴿إِلَى الظِّلِّ﴾ : قال ابن عباس ، وابن مسعود ، والسدى : جلس تحت شجرة .

﴿فَجَاءَتْهُ إِحْدَاهُمَا تَمْشِي عَلَىٰ اسْتِحْيَاءٍ قَالَتْ إِنَّكِ ابْنِي يَدْعُوكَ لِجَزْيِكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا فَلَمَّا جَاءَتْهُ وَقَصَّ عَلَيْهِ الْقِصَصَ قَالَ لَا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٥﴾﴾ قَالَتْ إِحْدَاهُمَا يَأْتِيكِ اسْتَجْرَةٌ إِنَّكِ خَيْرٌ مِّنْ اسْتَجْرَتِ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ ﴿١١﴾ قَالَ إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أُنكِحَكَ إِحْدَى ابْنَتَيَّ هَاتَيْنِ عَلَىٰ أَنْ تَأْجُرَنِي ثَمَنِي حِجَجًا فَإِنْ أَتَمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِنْدِكَ وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ سَتَجِدُنِي إِِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿١٧﴾﴾ قَالَ ذَلِكَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ أَيَّمَا الْأَجَلَيْنِ قَضَيْتُ فَلَا عُدْوَانَ عَلَيَّ وَاللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ ﴿١٨﴾﴾

لما رجعت المرأتان سريعا بالغنم إلى أبيهما ، أنكر حالهما ومجيئهما سريعا ، فسألتهما عن خبرهما ، فقصتا عليه ما فعل موسى ، عليه السلام . فبعث إحداهما إليه لتدعوه إلى أبيها قال الله تعالى : ﴿فَجَاءَتْهُ إِحْدَاهُمَا تَمْشِي عَلَىٰ اسْتِحْيَاءٍ﴾ أى : مشى الحائر ، كما روى عن أمير المؤمنين عمر ، رضى الله عنه ، أنه قال : كانت مستتره بكم درعها . روى ابن أبى حاتم عن عمرو بن ميمون قال : قال عمر : جاءت تمشى على استحياء ، قائلة بثوبها على وجهها ، ليست بسلفع خراجة ولاجة . هذا إسناد صحيح . قال الجوهري : السلفع من الرجال :

(١) ابن أبى شيبة فى مصنفه (١١ / ٥٣٠) .

الجسور ، ومن النساء : الجريئة السليطة ، ومن النوق : الشديدة .

﴿قَالَتْ إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرًا مَا سَقَيْتَ لَنَا﴾ وهذا تأدب فى العبارة ، لم تطلبه طلبا مطلقا لثلاث يوهم ربية ، بل قالت : ﴿إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرًا مَا سَقَيْتَ لَنَا﴾ يعنى : ليثيبك ويكافئك على سقيك لغنمنا ﴿فَلَمَّا جَاءَهُ وَقَصَّ عَلَيْهِ الْقَصَصَ﴾ أى : ذكر له ما كان من أمره ، وما جرى له من السبب الذى خرج من أجله من بلده ﴿قَالَ لَا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ يقول : طب نفسا وقر عيننا ، فقد خرجت من مملكتهم فلا حُكمَ لهم فى بلادنا ؛ ولهذا قال : ﴿نَجَوْتَ مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ . وقد اختلف المفسرون فى هذا الرجل : من هو ؟ على أقوال : أحدها أنه شعيب النبى ، عليه السلام ، الذى أرسل إلى أهل مدين . وهذا هو المشهور عند كثيرين ، وقد قاله الحسن البصرى وغير واحد وقال آخرون : بل كان ابن أخى شعيب . وقيل : رجل مؤمن من قوم شعيب . وقال آخرون : كان شعيب قبل زمان موسى ، عليه السلام ، بمدة طويلة ؛ لأنه قال لقومه : ﴿وَمَا قَوْمٌ لُوطٍ مِنْكُمْ بِبَعِيدٍ﴾ [هود : ٩٥] . وقد كان هلاك قوم لوط فى زمن الخليل ، عليه السلام ، بنص القرآن ، وقد علم أنه كان بين موسى والخليل ، عليهما السلام ، مدة طويلة تزيد على أربعمائة سنة ، كما ذكره غير واحد الإشكال ، ثم من المقوى لكونه ليس بشعيب أنه لو كان إياه لأوشك أن ينص على اسمه فى القرآن هاهنا . وما جاء فى بعض الأحاديث من التصريح بذكره فى قصة موسى ، لم يصح إسناده ، والله أعلم .

وقوله : ﴿قَالَتْ إِحْدَاهُمَا يَا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ﴾ أى : قالت إحدى ابنتى هذا الرجل . قيل : هى التى ذهبت وراء موسى ، عليه السلام ، قالت لأبيها : ﴿يَا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ﴾ أى : لرعية هذه الغنم . قال عمر ، وابن عباس ، وشريح القاضى ، وقتادة ، وغير واحد : لما قالت : ﴿إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ﴾ قال لها أبوها : وما علمك بذلك ؟ قالت : إنه رفع الصخرة التى لا يطيق حملها إلا عشرة رجال ، وإنه لما جثت معه تقدمت أمامه ، فقال لى : كونى من ورائى ، فإذا اجتنبت الطريق فاحذى لى بحصاة أعلم بها كيف الطريق لاهتدى إليه . وعن عبد الله - هو ابن مسعود - قال : أفرس الناس ثلاثة : أبو بكر حين تفرس فى عمر ، وصاحب يوسف حين قال : ﴿أَكْرَمِي مَثْوَاهُ﴾ [يوسف : ٢١] ، وصاحبة موسى حين قالت : ﴿يَا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ﴾ .

﴿قَالَ إِنِّي أُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ بِكَ وَإِنِّي هَاتِنِ﴾ أى : طلب إليه هذا الرجل الشيخ الكبير أن يرمى عنه ويوجه إحدى ابنتيه هاتين . وقوله : ﴿عَلَى أَنْ تَأْجُرَنِي ثَمَانِي حِجَجٍ فَإِنْ أَتَمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِنْدِكَ﴾ أى : على أن ترعى على ثمانى سنين ، فإن تبرعت بزيادة ستين فهو إليك ، وإلا ففى ثمان كفاية ، ﴿وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَمْسُقَ عَلَيْكَ سِجْدِنِي إِذْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ أى : لا أشاقتك ، ولا أواديتك ، ولا أماريتك .

وقوله تعالى إخباراً عن موسى ، عليه السلام : ﴿قَالَ ذَلِكَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ أَيَّمَا الْأَجَلِينَ فَضَيْتُ فَلَا عُدْوَانَ عَلَيَّ وَاللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ﴾ ، يقول : إن موسى قال لصهره : الأمر على ما قلت من

أنتك استأجرتنى على ثمان سنين ، فإن أتممت عشراً فمن عندى ، فأنا متى فعلت أقلهما فقد برئت من العهد ، وخرجت من الشرط ؛ ولهذا قال : ﴿أَيُّمَا الْأَجْلَيْنِ قَضَيْتُ فَلَا عُدْوَانَ عَلَيَّ﴾ أى : فلا حرج على مع أن الكامل - وإن كان مباحاً لكنه فاضل من جهة أخرى ، بدليل من خارج . كما قال الله تعالى : ﴿فَمَنْ تَعَجَّلَ فِي يَوْمَيْنِ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ وَمَنْ تَأَخَّرَ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ﴾ [البقرة : ٢٠٣] . هذا وقد دل الدليل على أن موسى ، عليه السلام ، إنما فعل أكمل الأجلين وأتمهما ؛ روى البخارى عن سعيد بن جبير قال : سألتى يهودى من أهل الحيرة : أى الأجلين قضى موسى ؟ فقلت : لا أدرى حتى أقدم على حبر العرب فأسأله . فقدمت فسألت ابن عباس ، رضى الله عنه ، فقال : قضى أكثرهما وأطيبهما ، إن رسول الله إذا قال فعل (١) .

﴿فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى الْأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِ آنَسَ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ نَارًا قَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا لَّعَلِّي آتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ جَذْوَةٍ مِنَ النَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ ﴿١١﴾ فَلَمَّا أَنهَا نُودِيَ مِنْ شَطِئِ الْوَادِ الْأَيْمَنِ فِي الْبُقْعَةِ الْمُبْرَكَةِ مِنَ الشَّجَرَةِ أَن يَمْسُكَ إِيَّيْنَا أَنَا اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿١٢﴾ وَأَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَلَمَّا رَآهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ وَلَّى مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ يَمْسُكُ أَقْبَلَ وَلَا يَخْفَ إِنَّكَ مِنَ الْأُمِينِ ﴿١٣﴾ أَسْلَكَ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ فَخَرَجَ يَمْسَاءً مِنْ غَيْرِ سُوءٍ وَأَضْمَمَ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ الرَّهْبِ فَذَلَّكَ بُرْهَنَانِ مِنْ رَبِّكَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ ﴿١٤﴾﴾

قد تقدم فى تفسير الآية قبلها أن موسى ، عليه السلام ، قضى أتم الأجلين وأوفاهما وأبرهما وأكملهما وأنقاهما ، وقد استفاد هذا أيضاً من الآية الكريمة حيث قال تعالى : ﴿فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى الْأَجَلَ﴾ أى : الأكمل منهما ، والله أعلم .

وقوله : ﴿وَسَارَ بِأَهْلِهِ﴾ قالوا : كان موسى قد اشتاق إلى بلاده وأهله ، فعزم على زيارتهم فى خفية من فرعون وقومه ، فتحمل بأهله وما كان معه من الغنم التى وهبها له صهره ، فسلك بهم فى ليلة مطيرة مظلمة باردة ، فنزل منزلاً فجعل كلما أورى زنده لا يضىء شيئاً ، فتعجب من ذلك ، فبينما هو كذلك إذ ﴿آنَسَ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ نَارًا﴾ أى : رأى ناراً تضىء له على بعد ، ﴿قَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا﴾ أى : حتى أذهب إليها ﴿لَّعَلِّي آتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ﴾ . وذلك لأنه كان قد أضل الطريق ، ﴿أَوْ جَذْوَةٍ مِنَ النَّارِ﴾ أى : قطعة منها ، ﴿لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ﴾ أى : تتدفؤون بها من البرد . قال الله تعالى : ﴿فَلَمَّا أَنهَا نُودِيَ مِنْ شَاطِئِ الْوَادِ الْأَيْمَنِ﴾ أى : من جانب الوادى مما يلى الجبل عن يمينه من ناحية الغرب ، كما قال تعالى : ﴿وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الْغَرْبِيِّ إِذْ قَضَيْنَا إِلَىٰ مُوسَى الْأَمْرَ﴾ ، فهذا مما يرشد إلى أن موسى قصد النار إلى جهة القبلة ، والجبل الغربى عن

يمينه ، والنار وجدها تضطرم فى شجرة خضراء فى لحف الجبل مما يلى الوادى ، فوقف باهتاً فى أمرها ، فناده ربه : ﴿مِن شَاطِئِ الْوَادِ الْأَيْمَنِ فِي الْبُقْعَةِ الْمُبَارَكَةِ مِنَ الشَّجَرَةِ﴾ روى ابن جرير عن عبد الله قال : رأيت الشجرة التى نودى منها موسى ، عليه السلام ، سمرة خضراء ترف . إسناده مقارب . وقوله تعالى : ﴿أَنْ يَا مُوسَى إِنِّي أَنَا اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ أى : الذى يخاطبك ويكلمك هو رب العالمين ، الفعال لما يشاء ، لا إله غيره ، ولا رب سواه ، تعالى وتقدس وتنزه عن ممانلة المخلوقات فى ذاته وصفاته ، وأقواله وأفعاله سبحانه !

وقوله : ﴿وَأَنْ أَلْقِ عَصَاكَ﴾ أى : التى فى يدك . كما قرره على ذلك فى قوله : ﴿وَمَا تَلْكَ بِيَمِينِكَ يَا مُوسَى . قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّأُ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَى غَنَمِي وَلِيَ فِيهَا مَآرِبُ أُخْرَى﴾ [طه : ١٧ ، ١٨] . والمعنى : أما هذه عصاك التى تعرفها ألقها ﴿فَأَلْقَاهَا فِإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَى﴾ ، فحرف وتحقق أن الذى يخاطبه ويكلمه هو الذى يقول للشيء : كن ، فيكون . وقال هاهنا : ﴿فَلَمَّا رَأَاهَا تَهْتَزُّ﴾ أى : تضطرب ﴿كَأَنَّهُا جَانٌ﴾ أى : فى حركتها السريعة مع عظم خلق قوائمها واتساع فمها ، واصطكاك أنيابها وأضراسها ، بحيث لا تمر بصخرة إلا ابتلعها ، فتتحدر فى فيها تتقعقع ، كأنها حادرة فى واد فعند ذلك ﴿وَلَّى مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ﴾ أى : ولم يكن يلتفت ؛ لأن طبع البشرية ينفر من ذلك . فلما قال الله له : ﴿يَا مُوسَى أَقْبِلْ وَلَا تَخَفْ إِنَّكَ مِنَ الْآمِنِينَ﴾ رجع فوقف فى مقامه الأول ، ثم قال الله له : ﴿اسْلُكْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضًا مِنْ غَيْرِ سَوْءٍ﴾ أى : إذا أدخلت يدك فى جيب درعك ثم أخرجتها فإنها تخرج تتلألا ، كأنها قطعة قمر فى لمعان البرق ؛ ولهذا قال : ﴿مِنْ غَيْرِ سَوْءٍ﴾ أى : من غير برص .

وقوله : ﴿وَأَضْمُمُ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ الرَّهْبِ﴾ قال مجاهد : من الفرع . وقال قتادة : من الرعب . وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم وابن جرير : مما حصل لك من خوفك من الحية . والظاهر أن المراد أعم من هذا ، وهو أنه أمر ، عليه السلام ، إذا خاف من شيء أن يضم إليه جناحه من الرهب ، وهى يده ، فإذا فعل ذلك ذهب عنه ما يجده من الخوف . وربما إذا استعمل أحد ذلك على سبيل الاقتداء فوضع يديه على فؤاده ، فإنه يزول عنه ما يجد أو يخف ، إن شاء الله ، وبه الثقة . وقوله : ﴿فَدَانِكَ بِرَهَانَانٍ مِنْ رَبِّكَ﴾ يعنى : إلقاء العصا وجعلها حية تسعى ، وإدخاله يده فى جيبه فتخرج بيضاء من غير سوء - دليلان قاطعان واضحان على قدرة الفاعل المختار ، وصحة نبوة من جرى هذا الخارق على يديه ؛ ولهذا قال : ﴿إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُ﴾ أى : وقومه من الرؤساء والكبراء والأتباع ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ﴾ أى : خارجين عن طاعة الله ، مخالفين لأمر دينه .

﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي قُلْتُ مِنْهُمْ نَفْسًا فَأَخَافُ أَنْ يَقْتُلُونِ﴾ ﴿١١﴾ وَأَخِي هَارُونَ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا فَأَرْسَلْهُ مَعِيَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِي إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُكَذِّبُونِ﴾ ﴿١٢﴾ قَالَ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطٰنًا فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا بِأَيِّتِنَا أَنْتَا وَمَنْ أَتَّبَعَكُمَا أَغْلِبُونَ﴾ ﴿١٥﴾

لما أمره الله تعالى بالذهاب إلى فرعون ، الذى إنما خرج من ديار مصر فراراً منه وخوفاً

من سطوته ﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّي قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْسًا ﴾ يعنى : ذلك القبطى ﴿فَأَخَافُ أَنْ يَقْتُلُونِ﴾ أى : إذا رأونى . ﴿وَأَخِي هَارُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا﴾ وذلك أن موسى ، عليه السلام ، كان فى لسانه لثغة ، بسبب ما كان تناول تلك الجمرة ، حين خيّر بينها وبين التمرة أو الدرّة ، فأخذ الجمرة فوضعها على لسانه ، فحصل فيه شدة فى التعبير ؛ ولهذا قال : ﴿وَأَحْتَلُّ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِي . يَقْفَهُوا قَوْلِي . وَاجْعَلْ لِّي وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِي . هَارُونُ أَخِي . اشْدُدْ بِهِ أَزْرِي . وَأَشْرِكْهُ فِي أَمْرِي﴾ [طه : ٢٧ - ٣٢] ، أى : يؤنسنى فيما أمرتنى به من هذا المقام العظيم ، وهو القيام بأعباء النبوة والرسالة إلى هذا الملك المتكبر الجبار العنيد . ولهذا قال : ﴿وَأَخِي هَارُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا فَأَرْسَلْهُ مَعِيَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِي﴾ ، أى : وزيراً ومعيناً ومقرباً لأمرى ، يصدقنى فيما أقوله وأخبر به عن الله عز وجل ؛ لأن خبر اثنين أشجع فى النفوس من خبر واحد ؛ ولهذا قال : ﴿إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُكَذِّبُونِ﴾ وقال محمد بن إسحاق : ﴿رِدْءًا يُصَدِّقُنِي﴾ أى : يبين لهم عنى ما أكلمهم به ، فإنه يفهم عنى ما لا يفهمون .

فلما سأل ذلك قال الله تعالى : ﴿سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ﴾ أى : سنقوى أمرك ، ونعز جانبك بأخيك ، الذى سألت له أن يكون نبياً معك . كما قال فى الآية الأخرى : ﴿قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَا مُوسَى﴾ [طه : ٣٦] ، وقال تعالى : ﴿وَوَهَبْنَا لَهُ مِن رَّحْمَتِنَا أَخَاهُ هَارُونَ نَبِيًّا﴾ [مريم : ٥٣] . ولهذا قال بعض السلف : ليس أحد أعظم منةً على أخيه ، من موسى على هارون ، عليهما السلام ، فإنه شفع فيه حتى جعله الله نبياً ورسولاً معه إلى فرعون وملته ، ولهذا قال الله تعالى فى حق موسى : ﴿وَكَانَ عِنْدَ اللَّهِ وَجِيهًا﴾ [الاحزاب : ٦٩] .

وقوله تعالى : ﴿وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَانًا﴾ أى : حجة قاهرة ﴿فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا بِآيَاتِنَا﴾ أى : لا سبيل لهم إلى الوصول إلى أذاكما بسبب إبلاغكما آيات الله ، كما قال الله تعالى لرسوله محمد ﷺ : ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ﴾ [المائدة : ٦٧] . وقال تعالى : ﴿الَّذِينَ يَلْفُفُونَ رِيسَالَاتِ اللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا اللَّهَ وَكَفَى بِاللَّهِ حَسِيبًا﴾ [الاحزاب : ٣٩] ، أى : وكفى بالله ناصرًا ومعيناً ومؤيداً . ولهذا أخيرهما أن العاقبة لهما ولمن اتبعهما فى الدنيا والآخرة ، فقال : ﴿أَنْتُمْ وَمَنِ اتَّبَعَكُمُ الْغَالِبُونَ﴾ ، كما قال تعالى : ﴿كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ [المجادلة : ٢١] ، وقال تعالى : ﴿إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ . يَوْمَ لَا يَنْفَعُ الظَّالِمِينَ مَعَذرتُهُمْ وَلَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ﴾ [غافر : ٥١ ، ٥٢] . ووجه ابن جرير على أن المعنى : ﴿وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَانًا فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا﴾ ، ثم يتدبّر فيقول : ﴿بِآيَاتِنَا أَنْتُمْ وَمَنِ اتَّبَعَكُمُ الْغَالِبُونَ﴾ ، تقديره : أنتم ومن اتبعكما الغالبون بآياتنا . ولا شك أن هذا المعنى صحيح ، وهو حاصل من التوجيه الأول ، فلا حاجة إلى هذا ، والله أعلم .

﴿ فَلَمَّا جَاءَهُمْ مُوسَى بِآيَاتِنَا يَبْتَئِنُونَ قَالُوا مَا هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّفْتَرَى وَمَا سَعَجْنَا بِهِذَا فِي مَا بَايَنَّا الْأَوَّلِينَ ﴾ ﴿٣٦﴾ وَقَالَ مُوسَى رَبِّيْ أَعْلَمُ بِمَنْ جَاءَ بِالْهُدَى مِنْ عِنْدِوهِ وَمَنْ تَكُونُ لَهُمْ عَاقِبَةُ الدَّارِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ ﴿٣٧﴾

يخبر تعالى عن مجيء موسى وأخيه هارون إلى فرعون وملئه ، وعرضه ما آتاهما الله من المعجزات الباهرة والدلالة القاهرة ، على صدقهما فيما أخبر عن الله عز وجل من توحيده واتباع أوامره . فلما عين فرعون وملؤه ذلك وشاهدوه وتحققوه ، وأيقنوا أنه من الله ، عدلوا بكفرهم وبغيهم إلى العناد والمباهة ، وذلك لطغيانهم وتكبرهم عن اتباع الحق ، فقالوا : ﴿ مَا هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّفْتَرٍ ﴾ أى : مفتعل مصنوع . وأرادوا معارضته بالحيلة والجاه ، فما صعد معهم ذلك . وقوله : ﴿ وَمَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي آبَائِنَا الْأُولَى ﴾ يعنون : عبادة الله وحده لا شريك له ، يقولون : ما رأينا أحداً من آبائنا على هذا الدين ، ولم نر الناس إلا يشركون مع الله آلهة أخرى . فقال موسى ، عليه السلام ، مجيباً لهم : ﴿ رَبِّیْ أَعْلَمُ بِمَنْ جَاءَ بِالْهُدَىٰ مِنْ عِنْدِهِ ﴾ يعنى : منى ومنكم ، وسيفصل بينى وبينكم . ولهذا قال : ﴿ وَمَنْ تَكُونُ لَهُ عَاقِبَةُ الدَّارِ ﴾ أى : المشركون بالله عز وجل .

﴿ وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَأْتِيهِمَا الْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهِ غَيْرِي فَأَوْقِدْ لِي يَهْمَنُنْ عَلَى الطَّيْنِ فَأَجْعَلَ لِي صَرَخًا لَعَلِّي أُطْعَمُ إِلَٰهَ إِلَهِ مُوسَىٰ وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ مِنَ الْكَاذِبِينَ ﴿٣٨﴾ وَأَسْتَكْبِرُ هُوَ وَجُنُودُهُ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ إِلَيْنَا لَا يُرْجَعُونَ ﴿٣٩﴾ فَأَخَذْتَهُ وَجُنُودَهُ فَنَبَذْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ فَاَنْظُرْ كَيْفَ كَانَتْ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ ﴿٤٠﴾ وَجَعَلْنَاهُمْ آيَةً يُدْعَوْنَ إِلَى التَّكْوِينِ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ لَا يُنصَرُونَ ﴿٤١﴾ وَاتَّبَعْنَاهُمْ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ هُمْ مِنَ الْمَقْبُوحِينَ ﴿٤٢﴾ ﴾

يخبر تعالى عن كفر فرعون وطغيانه وافتراءه فى دعوى الإلهية لنفسه القبيحة - لعنه الله - قال الله تعالى : ﴿ فاستخف قومهُ فأطاعوه ﴾ الآية [الزخرف : ٥٤] ، وذلك لأنه دعاهم إلى الاعتراف له بالإلهية ، فأجابوه إلى ذلك بقلة عقولهم وسخافة أذهانهم ؛ ولهذا قال : ﴿ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهِ غَيْرِي ﴾ ، وقال تعالى إخباراً عنه : ﴿ فحشر فنادى . فقال أنا ربكم الأعلى . فأخذه الله نكال الآخرة والأولى . إن في ذلك لعبرة لمن يخشى ﴾ [النازعات : ٢٣ - ٢٦] يعنى : أنه جمع قومه ونادى فيهم بصوته العالى مُصْرَحًا لهم بذلك ، فأجابوه سامعين مطيعين . ولهذا انتقم الله تعالى منه ، فجعله عبرة لغيره فى الدنيا والآخرة ، وحتى إنه واجه موسى الكليم بذلك فقال : ﴿ لئن اتَّخَذْتَ إِلَٰهًا غَيْرِي لأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ ﴾ [الشعراء : ٢٩] .

وقوله : ﴿ فَأَوْقِدْ لِي يَا هَامَانَ عَلَى الطَّيْنِ فَأَجْعَلَ لِي صَرَخًا لَعَلِّي أُطْعَمُ إِلَٰهَ إِلَهِ مُوسَى ﴾ أى : أمر وزيره هامان ومدبر رعيته ومشير دولته أن يوقد له على الطين ، ليتخذ له آجرًا لبناء الصرح ، وهو القصر المنيف الرفيع - كما قال فى الآية الأخرى : ﴿ وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا هَامَانَ ابْنِ لِي صَرَخًا لَعَلِّي أَبْلُغُ الْأَسْبَابَ . أَسْبَابَ السَّمَوَاتِ فَأَطَّلِعُ إِلَى إِلَهِ مُوسَى وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ كَاذِبًا وَكَذَلِكَ زَيْنَ لِفِرْعَوْنَ سُوءَ عَمَلِهِ وَصَدَّ عَنْ السَّبِيلِ وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِي تَبَابٍ ﴾ [غافر : ٣٦ ، ٣٧] ، وذلك لأن فرعون بنى هذا الصرح الذى لم ير فى الدنيا بناء أعلى منه ، إنما أراد بهذا أن يظهر لرعيته تكذيب موسى فيما زعمه من دعوى إله غير

فرعون؛ ولهذا قال : ﴿وَأَنِّي لِأَظُنُّهُ مِنَ الْكَاذِبِينَ﴾ أي : في قوله إنَّمَا رَبِّيَ غَيْرِي ، لا أنه كذبه في أن الله أرسله ؛ لأنه لم يكن يعترف بوجود الصانع ، فإنه قال : ﴿وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ [الشعراء : ٢٣] ، وقال : ﴿لَئِنِ اتَّخَذْتُ لَهَا غَيْرِي لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ﴾ [الشعراء : ٢٩] ، وقال : ﴿يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي﴾ وهذا قول ابن جرير .

وقوله : ﴿وَأَسْتَكْبِرُ هُوَ وَجُنُودُهُ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ إِلَيْنَا لَا يُرْجَعُونَ﴾ أي : طغوا وتجبروا ، وأكثروا في الأرض الفساد ، واعتقدوا أنه لا معاد ولا قيامة ، ﴿فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ . إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمُرْصَادِ﴾ [الفجر : ١٣ ، ١٤] ، ولهذا قال هاهنا : ﴿فَأَخَذْنَا هُوَ وَجُنُودَهُ فَنَبَذْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ﴾ أي : أغرقناهم في البحر في صبيحة واحدة ، فلم يبق منهم أحد ، ﴿فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ . وَجَعَلْنَاهُمْ أُمَّةً يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ﴾ أي : لمن سلك وراءهم وأخذ بطريقتهم ، في تكذيب الرسل وتعطيل الصانع ﴿وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ لَا يُبْصِرُونَ﴾ أي : فاجتمع عليهم خزي الدنيا موصولاً بذل الآخرة ، كما قال تعالى : ﴿أَهْلَكْنَاهُمْ فَلَا نَاصِرَ لَهُمْ﴾ [محمد : ١٣] . وقوله : ﴿وَاتَّبَعْنَاهُمْ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً﴾ أي : وشرع الله لعنتهم ولعنة ملكهم فرعون على السنة المؤمنين من عباده المتبعين رسله ، وكما أنهم في الدنيا ملعونون على السنة الأنبياء وأتباعهم ، كذلك ، ﴿وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ هُمْ مِنَ الْمَقْبُوحِينَ﴾ . قال قتادة : وهذه الآية كقوله تعالى : ﴿وَاتَّبَعُوا فِي هَذِهِ لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَنْسُو الرِّفْدَ الْمَرْفُودَ﴾ [هود : ٩٩] .

﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ مِنْ بَعْدِ مَا أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ الْأُولَى بَصَائِرَ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾

يخبر تعالى عما أنعم به على عبده ورسوله موسى الكليم ، عليه من ربه أفضل الصلاة والتسليم ، من إنزال التوراة عليه بعد ما أهلك فرعون وملاه .

وقوله تعالى : ﴿مِنْ بَعْدِ مَا أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ الْأُولَى﴾ يعني : أنه بعد إنزال التوراة لم يعذب أمة بعامة ، بل أمر المؤمنين أن يقاتلوا أعداء الله من المشركين ، كما قال تعالى : ﴿وَجَاءَ فِرْعَوْنُ وَمَنْ قَبْلَهُ وَالْمُؤْتَفِكَاتُ بِالْحَاظِلَةِ . فَعَصَوْا رَسُولَ رَبِّهِمْ فَأَخَذَهُمْ أَخْذَةً رَابِيَةً﴾ [الحاقة : ٩ ، ١٠] .

وعن أبي سعيد - رفعه إلى النبي ﷺ - قال : « ما أهلك الله قوماً بعد ما بعذاب من السماء ولا من الأرض إلا قبل موسى » ، ثم قرأ : ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ مِنْ بَعْدِ مَا أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ الْأُولَى﴾ (١) . وقوله : ﴿بَصَائِرَ لِلنَّاسِ﴾ أي : من العمى والغى ﴿وَهُدًى﴾ إلى الحق ﴿وَرَحْمَةً﴾ أي : إرشادا إلى الأعمال الصالحة ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ أي : لعل الناس يتذكرون به ، ويهتدون بسببه .

(١) البزار في مسنده (٢٢٤٨) وقال الهيثمي في الزوائد (٧ / ٩١) : « رواه البزار موقوفاً ومرفوعاً ورجالهما رجال الصحيح » .

﴿٤٤﴾ وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الْغَرْبِيِّ إِذْ قَضَيْنَا إِلَىٰ مُوسَى الْأَمْرَ وَمَا كُنْتَ مِنَ الشَّاهِدِينَ
وَلَكِنَّا أَنشَأْنَا قُرُونًا فَتَطَاوَلَ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ وَمَا كُنْتَ ثَاوِيًّا فِي أَهْلِ مَدْيَنَ
تَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا وَلَكِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ ﴿٤٥﴾ وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الطُّورِ إِذْ
نَادَيْنَا وَلَكِنْ رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّا أَتَتْهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ
يَتَذَكَّرُونَ ﴿٤٦﴾ وَلَوْلَا أَن نُّصِيبَهُمْ مُّصِيبَةً يَمَّا قَدَّمْتَ أَيْدِيَهُمْ لَفِيقُولُوا رَبَّنَا لَوْلَا
أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنُنَبِّئَ بِآيَاتِكَ وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٧﴾

يقول تعالى منبهاً على برهان نبوة محمد ﷺ حيث أخبر بالغيوب الماضية ، خبراً كان سامعه شاهد ورأه لما تقدم ، وهو رجل أمي لا يقرأ شيئاً من الكتب ، نشأ بين قوم لا يعرفون شيئاً من ذلك ، كما أنه لما أخبره عن مريم وما كان من أمرها ، فقال تعالى : ﴿ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَقُولُ أَفْلَاهُمْ أَنَّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ ﴾ [آل عمران : ٤٤] ، أى : ما كنت حاضراً لذلك ، ولكن الله أوحاه إليك . وهكذا لما أخبره عن نوح وقومه ، وما كان من إنجاء الله له وإغراق قومه . ثم قال تعالى : ﴿ تِلْكَ مِنْ آيَاتِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنْتَ تَعْلَمُهَا أَنْتَ وَلَا قَوْمُكَ مِنْ قَبْلِ هَذَا فَاصْبِرْ إِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ [هود : ٤٩] وقال فى آخر السورة : ﴿ ذَلِكَ مِنْ آيَاتِ الْقُرْآنِ نَقُصُّهُ عَلَيْكَ ﴾ [هود : ١٠٠] ، وقال بعد ذكر قصة يوسف : ﴿ ذَلِكَ مِنْ آيَاتِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوا أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ ﴾ [يوسف : ١٠٢] ، وقال فى سورة طه : ﴿ كَذَلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ آيَاتِ مَا قَدْ سَبَقَ وَقَدْ آتَيْنَاكَ مِنْ لَدُنَّا ذِكْرًا ﴾ [طه : ٩٩] ، وقال هاهنا - بعد ما أخبر عن قصة موسى من أولها إلى آخرها ، وكيف كان ابتداء إحياء الله إليه وتكليمه له - : ﴿ وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الْغَرْبِيِّ إِذْ قَضَيْنَا إِلَىٰ مُوسَى الْأَمْرَ ﴾ يعنى : يا محمد ، ما كنت بجانب الجبل الغربى الذى كلم الله موسى من الشجرة التى هى شرقية على شاطئ الوادى ، ﴿ وَمَا كُنْتَ مِنَ الشَّاهِدِينَ ﴾ لذلك ، ولكن الله سبحانه وتعالى أوحى إليك ذلك ، ليجعله حجة وبرهاناً على قرون قد تطاول عهدا ، ونسوا حجج الله عليهم ، وما أوحاه إلى الأنبياء المتقدمين .

وقوله تعالى : ﴿ وَمَا كُنْتَ ثَاوِيًّا فِي أَهْلِ مَدْيَنَ تَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا ﴾ أى : وما كنت مقيماً فى أهل مدين تتلو عليهم آياتنا ، حين أخبرت عن نبيها شعيب ، وما قال لقومه ، وما ردوا عليه ﴿ وَلَكِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ ﴾ أى : ولكن نحن أوحينا إليك ذلك ، وأرسلناك للناس رسولا . ﴿ وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا ﴾ قال مقاتل بن حيان : ﴿ إِذْ نَادَيْنَا ﴾ أمتك فى أصلاب آبائهم أن يؤمنوا بك إذا بعثت . وقال قتادة : ﴿ وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا ﴾ موسى . وهذا - والله أعلم - أشبه بقوله تعالى : ﴿ وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الْغَرْبِيِّ إِذْ قَضَيْنَا إِلَىٰ مُوسَى الْأَمْرَ ﴾ .

ثم أخبر هاهنا بصيغة أخرى أخص من ذلك ، وهو النداء ، كما قال تعالى : ﴿ وَإِذْ نَادَىٰ رَبُّكَ مُوسَىٰ ﴾ [الشعراء : ١٠] ، وقال : ﴿ إِذْ نَادَاهُ رَبُّهُ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى ﴾ [النازعات : ١٦] ، وقال : ﴿ وَنَادَيْنَاهُ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ الْأَيْمَنِ وَقَرَّبْنَاهُ نَجِيًّا ﴾ [مريم : ٥٢] . وقوله : ﴿ وَلَكِنْ رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ﴾

أى : ما كنت مشاهداً لشيء من ذلك، ولكن الله أوحاه إليك وأخبرك به، رحمة منه لك وبالعباد يرسلالك إليهم ﴿لَتُنذِرَ قَوْمًا مَّا أَتَاهُمْ مِن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ أى : لعلهم يهتدون بما جنتهم به من الله عز وجل ﴿وَلَوْلَا أَن تُصِيبَهُم مُّصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَيَقُولُوا رَبَّنَا لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ آيَاتِكَ وَنَكُونُ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ أى : وأرسلناك إليهم لتقيم عليهم الحجة ولتقطع عذرهم إذا جاءهم عذاب من الله بكفرهم، فيحتجوا بأنهم لم يأتهم رسول ولا نذير، كما قال تعالى بعد ذكره إنزال كتابه المبارك وهو القرآن : ﴿أَن تَقُولُوا إِنَّمَا أَنْزَلَ الْكِتَابُ عَلَيْنَا طَائِفَتَيْنِ مِن قَبْلِنَا وَإِن كُنَّا عَن دِرَاسَتِهِمْ لَغَافِلِينَ . أَوْ تَقُولُوا لَوْ أَنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْنَا الْكِتَابَ لَكُنَّا أَهْدَىٰ مِنْهُمْ فَقَدْ جَاءَكُمْ بَيْنَهُم مِّن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ﴾ [الأنعام : ١٥٦، ١٥٧]، وقال : ﴿رُسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ﴾ [النساء : ١٦٥] ، وقال تعالى : ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ عَلَىٰ فَتْرَةٍ مِّنَ الرُّسُلِ أَن تَقُولُوا مَا جَاءَنَا مِن بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍ فَقَدْ جَاءَكُمْ بَشِيرٌ وَنَذِيرٌ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [المائدة : ١٩] ، والآيات فى هذا كثيرة .

﴿ فَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ مِن عِنْدِنَا قَالُوا لَوْلَا أُوتِيَ مِثْلَ مَا أُوتِيَ مُوسَىٰ أَوْلَمَ يَكْفُرُوا بِمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ مِن قَبْلُ قَالُوا سِحْرَانِ تَظَاهَرَا وَقَالُوا إِنَّا بِكُلِّ كَافِرُونَ ﴿٤٨﴾ قُلْ فَاتَوْا يَكْتُوبُ مِّنْ عِنْدِ اللَّهِ هُوَ أَهْدَىٰ مِنْهُمَا أَتَّبِعُهُ إِن كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٤٩﴾ فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ وَمَن أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ يَغْيِرْ هُدَىٰ مِنَ اللَّهِ إِنَّكَ اللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿٥٠﴾ ﴾ * وَلَقَدْ وَصَّلْنَا لَهُمُ الْقَوْلَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٥١﴾ ﴾

ربع

يقول تعالى مخبراً عن القوم الذين لو عذبهم قبل قيام الحجة عليهم ، لاحتجوا بأنهم لم يأتهم رسول : أنهم لما جاءهم الحق من عنده على لسان محمد ﷺ ، قالوا على وجه التعنت والعناد والكفر والجهل والإلحاد : ﴿لَوْلَا أُوتِيَ مِثْلَ مَا أُوتِيَ مُوسَىٰ﴾ الآية ، يعنون - والله أعلم : من الآيات الكثيرة، مثل العصا واليد ، والطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم ، وتنقيص الزروع والثمار، مما يضيق على أعداء الله، وكفلق البحر وتظليل الغمام ، وإنزال المن والسلوى ، إلى غير ذلك من الآيات الباهرة ، والحجج القاهرة ، التى أجراها الله على يدى موسى ، عليه السلام ، حجة وبراهين له على فرعون وملئه وبنى إسرائيل ، ومع هذا كله لم ينجع فى فرعون وملئه ، بل كفروا بموسى وأخيه هارون ، كما قالوا لهما : ﴿أَجْتَنَّا لِنُلْفِتْنَا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا وَتَكُونُ لَكُمَا الْكِبْرِيَاءُ فِي الْأَرْضِ وَمَا نَحْنُ لَكُمَا بِمُؤْمِنِينَ﴾ [يونس : ٧٨] ، وقال تعالى : ﴿فَكَذَّبُوهُمَا فَكَانُوا مِنَ الْمُهْلَكِينَ﴾ [المؤمنون : ٤٨] . ولهذا قال هاهنا : ﴿أَوَلَمْ يَكْفُرُوا بِمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ مِن قَبْلُ﴾ أى : أو لم يكفر البشر بما أوتى موسى من تلك الآيات العظيمة . ﴿قَالُوا سِحْرَانِ تَظَاهَرَا﴾ أى : تعاونا ﴿وَقَالُوا إِنَّا بِكُلِّ كَافِرُونَ﴾ أى : بكل منهما كافرون . قال مجاهد بن جبر : أمرت اليهود قريشا أن يقولوا لمحمد ﷺ ذلك ، فقال الله : ﴿أَوَلَمْ يَكْفُرُوا بِمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ مِن قَبْلُ قَالُوا سِحْرَانِ تَظَاهَرَا﴾

قال: يعنى : موسى وهارون عليهما السلام ﴿ تَظَاهَرَا ﴾ أى : تعاونا وتناصرا وصدق كل منهما الآخر . وبهذا قال سعيد بن جبير وأبو رزين فى قوله: ﴿ سَاحِرَانِ ﴾ يعنون: موسى وهارون. وهذا قول جيد قوى ، والله أعلم .

وأما من قرأ ﴿ سَاحِرَانِ تَظَاهَرَا ﴾ فقال ابن عباس : يعنون : التوراة والقرآن . قال السدى : يعنى صدق كل واحد منهما الآخر . وقال عكرمة : يعنون : التوراة والإنجيل . واختاره ابن جرير . والظاهر على قراءة : ﴿ سَاحِرَانِ ﴾ أنهم يعنون : التوراة والقرآن ؛ لأنه قال بعده : ﴿ قُلْ فَأَتُوا بِكِتَابٍ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ هُوَ أَهْدَى مِنْهُمَا أَنْتَ بِمَا تُكْفِرُونَ بِهِ كَاذِبٌ ﴾ . وقال فى آخر السورة : ﴿ ثُمَّ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ تَمَامًا عَلَى الَّذِي أَحْسَنَ ﴾ ، إلى أن قال : ﴿ وَهَذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ بِمَبَرِّكَ ﴾ [الانعام: ٩١ ، ٩٢] ، وقال فى آخر السورة : ﴿ ثُمَّ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ تَمَامًا عَلَى الَّذِي أَحْسَنَ ﴾ ، إلى أن قال : ﴿ وَهَذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ بِمَبَرِّكَ فَاتَّبِعُوهُ وَاتَّقُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾ [الانعام : ١٥٥] ، وقد علم بالضرورة لذوى الألباب أن الله لم ينزل كتاباً من السماء فيما أنزل من الكتب المتعددة على أنبيائه أكمل ولا أشمل ولا أفصح ولا أعظم ولا أشرف من الكتاب الذى أنزل على محمد عليه السلام ، وهو القرآن ، وبعده فى الشرف والعظمة الكتاب الذى أنزله على موسى بن عمران ، عليه السلام ، وهو التوراة التى قال الله تعالى فيها : ﴿ إِنَّا أَنْزَلْنَا التَّوْرَةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ ﴾ [المائدة : ٤٤] ، والإنجيل إنما نزل متمماً للتوراة ومُحلاً لبعض ما حرّم على بنى إسرائيل ؛ ولهذا قال تعالى : ﴿ قُلْ فَأَتُوا بِكِتَابٍ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ هُوَ أَهْدَى مِنْهُمَا أَنْتَ بِمَا تُكْفِرُونَ بِهِ كَاذِبٌ ﴾ . فيما تدافعون به الحق وتعارضون به من الباطل .

قال الله تعالى : ﴿ فَإِنْ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ ﴾ أى : فإن لم يجيبوك عما قلت لهم ولم يتبعوا الحق ﴿ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يُتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ ﴾ أى : بلا دليل ولا حجة ﴿ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِنَ اللَّهِ ﴾ أى : بغير حجة مأخوذة من كتاب الله ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴾ . وقوله : ﴿ وَلَقَدْ وَصَّلْنَا لَهُمُ الْقَوْلَ ﴾ ، قال مجاهد: فصلنا لهم القول ، وقال السدى : بينا لهم القول . وقال قتادة : يقول تعالى : أخبرهم كيف صنع بمن مضى وكيف هو صانع ، ﴿ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴾ .

﴿ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِهِ هُمْ بِهِ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٢﴾ وَإِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ قَالُوا آمَنَّا بِهِ إِنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلِهِ مُسْلِمِينَ ﴿٥٣﴾ أُولَئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُمْ مَرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا وَيَدْرَءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٥٤﴾ وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ وَقَالُوا لَنَا أَعْمَلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَلُكُمْ سَلِّمْ عَلَيْكُمْ لَا تَبْغِي الْجَاهِلِينَ ﴿٥٥﴾ ﴾

يخبر تعالى عن العلماء الأولياء من أهل الكتاب أنهم يؤمنون بالقرآن ، كما قال تعالى : ﴿ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلَاوَتِهِ أُولَئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ ﴾ [البقرة : ١٢١] ، وقال : ﴿ وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَمَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا أَنْزَلَ إِلَيْكُمْ وَمَا أَنْزَلَ إِلَيْهِمْ خَاشِعِينَ لِلَّهِ ﴾ [آل عمران: ١٩٩] ، وقال : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ أُوْتُوا

الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهِ إِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ يَخْرُونُ لِلأَذْقَانِ سُجَّدًا . وَيَقُولُونَ سُبْحَانَ رَبِّنَا إِنْ كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا ﴿١٠٧﴾ [الإسراء : ١٠٧ ، ١٠٨] ، وقال : ﴿ وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُمْ مَوَدَّةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَى ذَلِكَ بَأَنَّ مِنْهُمْ قِسِيَسِينَ وَرَهْبَانًا وَآنَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ . وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَى أَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاكْتَبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ ﴾ [المائدة : ٨٢ ، ٨٣] . قال سعيد بن جبیر : نزلت فى سبعين من القسيسين بعثهم النجاشى ، فلما قدموا على النبى ﷺ قرأ عليهم : ﴿ يَس . وَالْقُرْآنَ الْحَكِيمَ ﴾ ، حتى ختمها ، فجعلوا يبكون وأسلموا ، ونزلت فيهم هذه الآية الأخرى : ﴿ الَّذِينَ آمَنُوا مِنَّا وَالَّذِينَ آمَنُوا مِن قَبْلِهِ هُمْ بِهِ يُؤْمِنُونَ . وَإِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ قَالُوا آمَنَّا بِهِ إِنَّهُ الْحَقُّ مِن رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلِهِ مُسْلِمِينَ ﴾ . يعنى : من قبل هذا القرآن كنا مسلمين ، أى : موحدين مخلصين لله مستحيين له .

قال الله : ﴿ أُوْلَئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُمْ مَرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا ﴾ أى : هؤلاء المتصفون بهذه الصفة الذين آمنوا بالكتاب الأول ثم بالثانى يؤتون أجرهم مرتين بإيمانهم بالرسول الأول ثم بالثانى ؛ ولهذا قال : ﴿ بِمَا صَبَرُوا ﴾ أى : على اتباع الحق ؛ فإن تحشم مثل هذا شديد على النفوس . وقد ورد فى الصحيحين عن أبى موسى الأشعري قال : قال رسول الله ﷺ : « ثلاثة يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُمْ مَرَّتَيْنِ : رجل من أهل الكتاب آمن بنبيه ثم آمن بى ، وعبد مملوك أدى حق الله وحق مواليه ، ورجل كانت له أمة فأدبها فأحسن تأديبها ثم أعتقها فزوجها » (١) .

وقوله : ﴿ وَيَذَرُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ ﴾ أى : لا يقابلون السيئ بمثله ، ولكن يعفون ويصفحون ﴿ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ﴾ أى : ومن الذى رزقهم من الحلال ينفقون على خلق الله فى النفقات الواجبة لأهلهم وأقاربهم ، والزكاة المفروضة والمستحبة من التطوعات ، وصدقات النفل والقربات . وقوله : ﴿ وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ ﴾ أى : لا يخالطون أهله ولا يعاشرونهم ، بل كما قال تعالى : ﴿ وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا ﴾ [الفرقان : ٧٢] . ﴿ وَقَالُوا لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِي الْجَاهِلِينَ ﴾ أى : إذا سَفِهَ عليهم سَفِيه ، وكَلَّمَهُم بما لا يليق بهم الجوابُ عنه ، أَعْرَضُوا عنه ولم يقابلوه بمثله من الكلام القبيح ، ولا يصدر عنهم إلا كلام طيب ؛ ولهذا قال عنهم : إنهم قالوا : ﴿ لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِي الْجَاهِلِينَ ﴾ أى : لا نريد طريق الجاهلين ولا نُحِبُّهَا .

﴿ إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ ﴾
 ﴿٥٦﴾ وَقَالُوا إِنْ نَتَّبِعِ الْهُدَى مَعَكَ تَنَخُّطُفَ مِن أَرْضِنَا أَوْلَمْ نُمْكِن لَّهُمْ حَرَمًا ءَامِنًا يُجِوِّعُ إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ وَرِزْقًا مِّن لَّدُنَّا وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٧﴾

يقول تعالى لرسوله ﷺ : إنك يا محمد ﴿ لا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ ﴾ أى : ليس إليك ذلك ، إنما عليك البلاغ ، والله يهدى من يشاء ، وله الحكمة البالغة والحجة الدامغة ، كما قال تعالى :

﴿ لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ ﴾ [البقرة : ٢٧٢] ، وقال : ﴿ وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ ﴾ [يوسف : ١٠٣] .

وهذه الآية أخص من هذا كله ؛ فإنه قال : ﴿ إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ ﴾ أى : هو أعلم بمن يستحق الهداية ممن يستحق الغواية ، وقد ثبت فى الصحيحين أنها نزلت فى أبى طالب عمّ رسول الله ﷺ ، وقد كان يحوطه وينصره ، ويقوم فى صفه ويحبه حباً شديداً طبعياً لا شريعياً ، فلما حضرته الوفاة وحن أجله ، دعاه رسول الله ﷺ إلى الإيمان والدخول فى الإسلام ، فسبق القدر فيه ، واختطف من يده ، فاستمر على ما كان عليه من الكفر ، ولله الحكمة التامة . وعن المسيب بن حزن المخزومى قال : لما حضرت أبا طالب الوفاة جاءه رسول الله ﷺ ، فوجد عنده أبا جهل بن هشام ، وعبد الله بن أبى أمية ابن المغيرة . فقال رسول الله ﷺ : « يا عم ، قل : لا إله إلا الله ، كلمة أشهد لك بها عند الله » . فقال أبو جهل وعبد الله بن أبى أمية : يا أبا طالب ، أترغب عن ملة عبد المطلب ؟ فلم يزل رسول الله ﷺ يعرضها عليه ، ويعودان له بتلك المقالة ، حتى قال آخر ما قال : هو على ملة عبد المطلب . وأبى أن يقول : لا إله إلا الله . فقال رسول الله ﷺ : « أما لأستغفرون لك ما لم أنه عنك » . فأنزل الله عز وجل : ﴿ مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أَوْلِيَّيَ قُرْبَى ﴾ [التوبة : ١١٣] ، وأنزل فى أبى طالب : ﴿ إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ ﴾ . أخرجاه (١) . ورواه مسلم ، والترمذى ، عن أبى هريرة قال : لما حضرت وفاة أبى طالب أتاه رسول الله ﷺ فقال : « يا عمّاه ، قل : لا إله إلا الله ، أشهد لك بها يوم القيامة » . فقال : لولا أن تعبرتنى بها قريش ، يقولون : ما حملة عليه إلا جزع الموت ، لا قررت بها عينك ، لا أقولها إلا لأقر بها عينك . فأنزل الله : ﴿ إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ ﴾ . وقال الترمذى : حسن غريب (٢) ورواه الإمام أحمد عن أبى هريرة ، فذكره بنحوه (٣) . وهكذا قال ابن عباس ، وابن عمر ، ومجاهد ، والشعبي ، وقتادة : إنها نزلت فى أبى طالب .

وقوله : ﴿ وَقَالُوا إِنْ تَتَّبِعِ الْهُدَى مَعَكَ تَخْطِفُ مِنْ أَرْضِنَا ﴾ : يقول تعالى مخبراً عن اعتذار بعض الكفار فى عدم اتباع الهدى حيث قالوا لرسول الله ﷺ : ﴿ إِنْ تَتَّبِعِ الْهُدَى مَعَكَ تَخْطِفُ مِنْ أَرْضِنَا ﴾ ، أى : نخشى إن اتبعنا ما جئت به من الهدى ، وخالفنا من حولنا من أحياء العرب المشركين ، أن يقصدونا بالأذى والمحاربة ، ويتخطفونا أينما كنا ، فقال الله تعالى مجيباً لهم : ﴿ أَوْلَمْ نُمَكِّنْ لَهُمْ حَرَمًا آمِنًا ﴾ يعنى : هذا الذى اعتذروا به كذب وباطل ؛ لأن الله جعلهم فى بلد أمين ، وحرّم معظم آمن منذ وُضع ، فكيف يكون هذا الحرم آمناً فى حال كفرهم وشركهم ، ولا يكون آمناً لهم وقد أسلموا وتابعوا الحق ؟

(٢) مسلم (٢٥ / ٤١) والترمذى (٣١٨٨) .

(١) البخارى (١٣٦٠) ومسلم (٢٤ / ٣٩) .

(٣) المسند (٢ / ٤٣٤) .

وقوله : ﴿ يُجِئِي إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ ﴾ أى : من سائر الثمار مما حوله من الطائف وغيره، وكذلك المتاجر والأمتعة ﴿ رِزْقًا مِّن لَّدُنَّا ﴾ أى : من عندنا ﴿ وَلَكِن أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ ولهذا قالوا ما قالوا .

﴿ وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ بَطَرَتْ مَعِيشَتَهَا فَنِلْنَاكَ مَسْكِنَهُمْ لَمْ تَسْكُنْ مِنْ بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيلًا وَكُنَّا نَحْنُ الْوَارِثِينَ ﴾ ﴿٥٨﴾ وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَى حَتَّى يَبْعَثَ فِي أُمَّهَاتِ رُسُلًا يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا وَمَا كُنَّا مُهْلِكِي الْقُرَى إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَالِمُونَ ﴿٥٩﴾

يقول تعالى مُعْرِضًا بأهل مكة فى قوله تعالى : ﴿ وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ بَطَرَتْ مَعِيشَتَهَا ﴾ أى : طغت وأشربت وكفرت نعمة الله، فيما أنعم به عليهم من الأرزاق ، كما قال فى الآية الأخرى : ﴿ وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقًا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعَمِ اللَّهِ فَأَذَانُهَا لِبَاسِ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ . وَلَقَدْ جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْهُمْ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمُ الْعَذَابُ وَهُمْ ظَالِمُونَ ﴾ [النحل : ١١٢ ، ١١٣] ولهذا قال : ﴿ فَتِلْكَ مَسَاكِينُهُمْ لَمْ تَسْكُنْ مِنْ بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ أى : ذُتت ديارهم فلا ترى إلا مساكينهم ﴿ وَكُنَّا نَحْنُ الْوَارِثِينَ ﴾ أى : رجعت خراباً ليس فيها أحد .

ثم قال الله مخبراً عن عدله ، وأنه لا يهلك أحداً ظالماً له ، وإنما يهلك من أهلك بعد قيام الحججة عليهم ، ولهذا قال : ﴿ وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَى حَتَّى يَبْعَثَ فِي أُمَّهَاتِ رُسُلًا يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا ﴾ فيه دلالة على أن النبى الأمى ، وهو محمد ﷺ المبعوث من أم القرى ، رسول إلى جميع القرى ، من عرب وأعجم ، كما قال تعالى : ﴿ لَتُنذِرُنَّ أُمَّ الْقُرَى وَمَنْ حَوْلَهَا ﴾ [الشورى : ٧] ، وقال تعالى : ﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ﴾ [الأعراف : ١٥٨] ، وقال : ﴿ لَأُنذِرَكُمْ بِهِ وَمَنْ بَلَغَ ﴾ [الأنعام : ١٩] ، وقال : ﴿ وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ مِنَ الْأَحْزَابِ فَالنَّارُ مَوْعِدُهُ ﴾ [هود : ١٧] . وتقام الدليل : ﴿ وَإِن مِّن قَرْيَةٍ إِلَّا نَحْنُ مُهْلِكُوهَا قَبْلَ يَوْمِ الْقِيَامَةِ أَوْ مُعَذِّبُوهَا عَذَابًا شَدِيدًا كَانَ ذَلِكَ فِي الْكِتَابِ مَسْطُورًا ﴾ [الإسراء : ٥٨] . فأخبر أنه سيهلك كل قرية قبل يوم القيامة ، وقد قال : ﴿ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رُسُلًا ﴾ [الإسراء : ١٥] . فجعل تعالى بعثة النبى الأمى شاملة لجميع القرى ؛ لأنه مبعوث إلى أمها وأصلها التى ترجع إليها . وثبت فى الصحيحين عنه ﷺ أنه قال : « بعثت إلى الأحمر والأسود » (١) . ولهذا ختم به الرسالة والنبوة ، فلا نبى بعده ولا رسول ، بل شرعه باق بقاء الليل والنهار إلى يوم القيامة .

﴿ وَمَا أُوْتِيسْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَمَتَّعُ الْحَيَوةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَى أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ ﴿٦٠﴾ أَفَمَن وَعَدَدْنَاهُ وَعَدًّا حَسَنًا فَهُوَ لَنَقِيهِ كَمَنْ مَتَّعْنَاهُ مَتَّعَ الْحَيَوةِ الدُّنْيَا ثُمَّ هُوَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنَ الْمُحْضَرِينَ ﴿٦١﴾

يقول تعالى مخبراً عن حقارة الدنيا ، وما فيها من الزينة الدنيئة والزهرة الفانية بالنسبة إلى ما أعدّه الله لعباده الصالحين فى الدار الآخرة من النعيم العظيم المقيم ، كما قال تعالى : ﴿ مَا عِنْدَكُمْ يَنْفَدُ وَمَا عِنْدَ اللَّهِ بَاقٍ ﴾ [النحل : ٩٦] ، وقال : ﴿ وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ لِلْأَبْرَارِ ﴾ [آل عمران : ١٩٨] ، وقال : ﴿ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا مَتَاعٌ ﴾ [الرعد : ٢٦] ، وقال : ﴿ بَلْ تُؤْتِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ خَيْرٌ وَأَبْقَى ﴾ [الأعلى : ١٦ ، ١٧] ، وقال رسول الله ﷺ : « والله ما الدنيا فى الآخرة ، إلا كما يغمس أحدكم إصبعه فى اليم ، فليُنظر ماذا يرجع إليه » (١) . وقوله : ﴿ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ أى : أفلا يعقل من يقدم الدنيا على الآخرة ؟

وقوله : ﴿ أَفَمَنْ وَعَدْنَاهُ وَعْداً حَسَناً فَهُوَ لَاقِيهِ كَمَنْ مَتَّعْنَاهُ مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ هُوَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنَ الْمُحْضَرِينَ ﴾ يقول : أفمن هو مؤمن مصدق بما وعده الله على صالح أعماله من الثواب الذى هو صائر إليه لا محالة ، كمن هو كافر مكذب بلقاء الله ووعدته ووعيده ، فهو ممتع فى الحياة الدنيا أياماً قلائل ﴿ ثُمَّ هُوَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنَ الْمُحْضَرِينَ ﴾ قال مجاهد ، وقتادة : من المعذبين . ثم قد قيل : إنها نزلت فى رسول الله ﷺ وفى أبى جهل . وقيل : فى حمزة وعلى وأبى جهل ، وكلاهما عن مجاهد . والظاهر أنها عامة ، وهذا كقوله تعالى إخباراً عن ذلك المؤمن حين أشرف على صاحبه ، وهو فى الدرجات وذاك فى الدرجات : ﴿ وَلَوْلَا نِعْمَةُ رَبِّى لَكُنْتُ مِنَ الْمُحْضَرِينَ ﴾ [الصافات : ٥٧] ، وقال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ عَلِمْتِ الْجِنَّةَ إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ ﴾ [الصافات : ١٥٨] .

﴿ وَيَوْمَ يناديهِمْ فيقولُ أئنَ شركاءِى الذينَ كنتمَ ترعُمونَ ﴿١١﴾ قالَ الذينَ حقَّ عليهمَ القولُ ربنا هؤلاءِ الذينَ أغويَنا أغويَناهمُ كما غويَنا تبرأنا إليك ما كانوا إيانا يعبدونَ ﴿١٢﴾ وقيلَ ادعوا شركاءَكمُ فدعوهم فترَ يستجيبوا لهمُ وراوا العذابَ لو أنهم كانوا يهتدونَ ﴿١٣﴾ ويومَ يناديهِمْ فيقولُ ماذا أجبتمُ المرسلينَ ﴿١٤﴾ فعصيتَ عليهمُ الأنبياءُ يومَئذٍ فهمُ لا ينسأونَ ﴿١٥﴾ فاما من تاب وامن وعملَ صالحاً فعسى أن يكونَ من المفلحينَ ﴿١٦﴾ ﴾

يقول تعالى مخبراً عما يوبخ به الكفار المشركين يوم القيامة ، حيث يناديهم فيقول : ﴿ أئنَ شركاءِى الذينَ كنتمَ ترعُمونَ ﴾ يعنى : أين الآلهة التى كنتم تعبدونها فى الدار الدنيا ، من الأصنام والأنداد ، هل ينصروكم أو ينتصرون ؟ وهذا على سبيل التقرير والتهديد ، كما قال : ﴿ وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فِرَادَى كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُمْ مَا خَوَّلْنَاكُمْ وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ وَمَا نَرَى مَعَكُمْ شُفَعَاءَ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَاءَ لَقَدْ تَقَطَّعَ بَيْنَكُمْ وَضَلَّ عَنْكُمْ مَا كُنْتُمْ تَرَعُمُونَ ﴾ [الانعام : ٩٤] .

وقوله : ﴿ قالَ الذينَ حقَّ عليهمَ القولُ ﴾ يعنى : من الشياطين والمردة والدعاة إلى الكفر ، ﴿ ربنا هؤلاءِ الذينَ أغويَنا أغويَناهمُ كما غويَنا تبرأنا إليك ما كانوا إيانا يعبدونَ ﴾ ، فشهدوا عليهم أنهم أغووهم فاتبعوهم ، ثم تبرؤوا من عبادتهم ، كما قال تعالى : ﴿ واتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لِيَكُونُوا لَهُمْ عِزًّا .

كَلَّا سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا ﴿٨١﴾ [مريم : ٨١ ، ٨٢] ، وقال : ﴿ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُو مِنْ دُونِ اللَّهِ لَمَّا لَيْسَتْ لَهُ إِيَّاهُ حُجَّةٌ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَهُمْ عَنِ دُعَائِهِمْ غَافِلُونَ . وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءً وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ ﴿٨٢﴾ [الاحقاف : ٥ ، ٦] ، وقال الخليل لقومه : ﴿ إِنَّمَا اتَّخَذْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا مَوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُمْ بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُمْ بَعْضًا وَمَأْوَاكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُمْ مِنْ نَاصِرِينَ ﴿٨٣﴾ [العنكبوت : ٢٥] ، وقال الله : ﴿ إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتُّبِعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا وَرَأَوُا الْعَذَابَ وَتَقَطَعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ . وَقَالَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا لَوْ أَنَّا كُنَّا نَدْرِكُهُمْ لَسَأَلْنَا مِنْهُمْ مِثْلَ الَّذِي نَسْأَلُكُمْ وَأَلَمَّا أَتَيْنَاهُمْ إِذْ طَبَعُوا أَعْيُنَهُمْ تَابِعُوا فَتَنَاهُمْ فَسَبَّوهُمْ وَمَا هُمْ بِمُعْتَدِينَ ﴿٨٤﴾ [البقرة : ١٦٦ ، ١٦٧] ؛ ولهذا قال : ﴿ وَقِيلَ ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ ﴾ أى : ليخلصوكم مما أنتم فيه ، كما كنتم ترجون منهم فى الدار الدنيا ، ﴿ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ وَرَأَوُا الْعَذَابَ ﴾ أى : وتيقنوا أنهم صابرون إلى النار لا محالة . وقوله : ﴿ لَوْ أَنَّهُمْ كَانُوا يَهْتَدُونَ ﴾ أى : فودوا حين عاينوا العذاب لو أنهم كانوا من المهتدين فى الدار الدنيا . وهذا كقوله تعالى : ﴿ وَيَوْمَ يَقُولُ نَادُوا شُرَكَائِيَ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ مَوْبِقًا . وَرَأَى الْمُجْرِمُونَ النَّارَ فَظَنُّوا أَنَّهُمْ مُوَاقِعُهَا وَلَمْ يَجِدُوا عَنْهَا مَصْرِفًا ﴾ [الكهف : ٥٢ ، ٥٣] .

وقوله : ﴿ وَيَوْمَ يناديهم فيقول ماذا أجبتم المرسلين ﴾ : النداء الأول عن سؤال التوحيد ، وهذا فيه إثبات النبوات : ماذا كان جوابكم للمرسلين إليكم؟ وكيف كان حالكم معهم؟ وهذا كما يسأل العبد فى قبره : من ربك؟ ومن نبيك؟ وما دينك؟ فأما المؤمن فيشهد أنه لا إله إلا الله ، وأن محمداً عبد الله ورسوله . وأما الكافر فيقول : هاه ، هاه . لا أدري ؛ ولهذا لا جواب له يوم القيامة غير السكوت ؛ لأن من كان فى هذه أعمى فهو فى الآخرة أعمى وأضل سبيلا ، ولهذا قال تعالى : ﴿ فَعَمِيَتْ عَلَيْهِمُ الْأَنْبَاءُ يَوْمَئِذٍ فَهُمْ لَا يَتَسَاءَلُونَ ﴾ . وقال مجاهد : فعميت عليهم الحجج ، فهم لا يتساءلون بالانساب . وقوله : ﴿ فَأَمَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ﴾ أى : فى الدنيا ﴿ فَعَسَىٰ أَنْ يَكُونَ مِنَ الْمُفْلِحِينَ ﴾ أى : يوم القيامة ، و « عسى » من الله موجبة ، فإن هذا واقع بفضل الله ومنه لا محالة .

﴿ وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ مَا كَانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ سُبْحَانَ اللَّهِ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿١٨﴾ وَرَبُّكَ يَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴿١٩﴾ وَهُوَ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لَهُ الْحَمْدُ فِي الْأُولَىٰ وَالْآخِرَةِ وَلَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٧٠﴾ ﴾

يخبر تعالى أنه المنفرد بالخلق والاختيار ، وأنه ليس له فى ذلك منازع ولا معقب ، قال تعالى : ﴿ وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ ﴾ أى : ما يشاء ، فما شاء كان ، وما لم يشأ لم يكن ، فالأمور كلها خيرها وشرها بيده ، ومرجعها إليه . وقوله : ﴿ مَا كَانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ ﴾ نفى على أصح القولين ، كقوله تعالى : ﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا لِمُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَىٰ اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ﴾ [الاحزاب : ٣٦] وقد اختار ابن جرير أن ﴿ مَا ﴾ هاهنا بمعنى « الذى » ، تقديره : ويختار الذى لهم فيه خيرة . والصحيح أنها نافية ، فإن المقام فى بيان انفراده تعالى بالخلق والتقدير والاختيار ، وأنه لا نظير له فى ذلك ؛ ولهذا قال : ﴿ سُبْحَانَ اللَّهِ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾

أى : من الأصنام والأنداد ، التى لا تخلق ولا تختار شيئاً .

ثم قال : ﴿وَرَبُّكَ يَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ﴾ أى : يعلم ما تكن الضمائر ، وما تنطوى عليه السرائر ، كما يعلم ما تبديه الظواهر من سائر الخلائق ﴿سَوَاءٌ مِنْكُمْ مَنْ أَسْرَ الْقَوْلِ وَمَنْ جَهَرَ بِهِ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍ بِاللَّيْلِ وَسَارِبٌ بِالنَّهَارِ﴾ [الرعد : ١٠] . وقوله : ﴿وَهُوَ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ أى : هو المنفرد بالإلهية ، فلا معبود سواه ، كما لا رب يخلق ويختار سواه ﴿لَهُ الْحَمْدُ فِي الْأُولَى وَالْآخِرَةِ﴾ أى : فى جميع ما يفعله هو المحمود عليه ، لعدله وحكمته ﴿وَلَهُ الْحُكْمُ﴾ أى : الذى لا معقب له ، لقهره وغلبته وحكمته ورحمته ﴿وَالِإِلَهِ تُرْجَعُونَ﴾ أى : جميعكم يوم القيامة فيجازى كل عامل بعمله ، من خير وشر ، ولا يخفى عليه منهم خافية فى سائر الأعمال .

﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ آيَاتٍ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِضِيَاءٍ أَوْ لَظَلَمَاتٍ﴾ [٧١] ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ النَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ أَوْ لَظَلَمَاتٍ تَبْصُرُونَ﴾ [٧٢] ﴿وَمِنْ رَحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [٧٣]

يقول تعالى ممتناً على عباده بما سخر لهم من الليل والنهار، اللذين لا قوامَ لهم بدونهما . وبين أنه لو جعل الليل دائماً عليهم سرمداً إلى يوم القيامة ، لأضر ذلك بهم ، ولسئمته النفوس وانحصرت منه ، ولهذا قال تعالى : ﴿مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِضِيَاءٍ﴾ أى : تبصرون به وتستأنسون بسببه ، ﴿أَوْ لَظَلَمَاتٍ تَبْصُرُونَ﴾ .

ثم أخبر أنه لو جعل النهار سرمداً دائماً إلى يوم القيامة ، لأضر ذلك بهم ، ولتعبت الأبدان وكثرت من كثرة الحركات والأشغال ؛ ولهذا قال تعالى : ﴿مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ﴾ أى : تستريحون من حركاتكم وأشغالكم ﴿أَوْ لَظَلَمَاتٍ تَبْصُرُونَ . وَمِنْ رَحْمَتِهِ﴾ أى : بكم ﴿جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ﴾ أى : خلق هذا وهذا ﴿لِتَسْكُنُوا فِيهِ﴾ أى : فى الليل ﴿وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ﴾ أى : فى النهار بالسفار والترحال ، والحركات والأشغال . وقوله : ﴿وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ أى : تشكرون الله بأنواع العبادات فى الليل والنهار ، ومن فاته شيء بالليل استدركه بالنهار ، أو بالنهار استدركه بالليل ، كما قال تعالى : ﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ خِلْفَةً لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا﴾ [الفرقان : ٦٢] ، والآيات فى هذا كثيرة .

﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَآئِيَ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ﴾ [٧٤] ﴿وَنَزَعْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا فَقُلْنَا هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ فَعَلِمُوا أَنَّ الْحَقَّ لِلَّهِ وَصَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ [٧٥]

وهذا أيضاً نداء ثان على سبيل التقرير والتوبيخ لمن عبد مع الله إلهاً آخر ، يناديهم الرب - تبارك وتعالى - على رؤوس الأشهاد فيقول: ﴿أَيْنَ شُرَكَائِي الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ﴾ أى: فى الدار الدنيا ﴿وَنَزَعْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيداً﴾ قال مجاهد : يعنى: رسولا ﴿فَقُلْنَا هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ﴾ أى : على صحة ما ادعيتموه من أن لله شركاء ﴿فَعَلِمُوا أَنَّ الْحَقَّ لِلَّهِ﴾ أى : لا إله غيره ، أى: فلم ينطقوا ولم يحيروا جواباً ﴿وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ أى: ذهبوا فلم ينفعوهم .

﴿إِنَّ قُرُونًا كَانَتْ مِنْ قَوْمِ مُوسَىٰ فَبَعَثْنَا عَلَيْهِمْ وَعَائِنَهُ مِنَ الْكُفْرِ مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَنُنَوِّسُ بِالْمَعْصِبَةِ أُولَى الْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لَا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ ﴿٧٦﴾ وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِنَ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ الْفُسَادَ فِي الْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ ﴿٧٧﴾﴾

عن ابن عباس قال : ﴿إِنَّ قَارُونَ كَانَ مِنْ قَوْمِ مُوسَى﴾ ، قال : كان ابن عمه . وهكذا قال إبراهيم النخعي، وقتادة ، وابن جرير ، وغيرهم : أنه كان ابن عم موسى ، عليه السلام . وزعم محمد بن إسحاق بن يسار : أن قارون كان عم موسى ، عليه السلام . قال ابن جرير : وأكثر أهل العلم على أنه كان ابن عمه ، والله أعلم . وقوله : ﴿وَأَتَيْنَاهُ مِنَ الْكُفْرِ مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتُنَوِّسُ بِالْمَعْصِبَةِ أُولَى الْقُوَّةِ﴾ أى : ليثقل حملها الفتنام من الناس لكثرتها ﴿إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لَا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ﴾ أى : وعظه فيما هو فيه صالح قومه ، فقالوا على سبيل النصح والإرشاد : لا تفرح بما أنت فيه ، يعنون : لا تبطر بما أنت فيه من الأموال ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ﴾ قال ابن عباس : يعنى : المرحين . وقال مجاهد : يعنى : الأشرين البطرين ، الذين لا يشكرون الله على ما أعطاهم .

وقوله : ﴿وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ﴾ أى : استعمل ما وهبك الله من هذا المال الجزيل والنعمة الطائلة ، فى طاعة ربك والتقرب إليه بأنواع القربات ، التى يحصل لك بها الثواب فى الدار الآخرة . ﴿وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا﴾ أى : بما أباح الله فيها من المأكول والمشرب والملابس والمسكن والمناكح ، فإن لربك عليك حقاً ، ولنفسك عليك حقاً ، ولاهلك عليك حقاً ، ولزورك عليك حقاً ، فأت كل ذى حق حقه ﴿وَأَحْسِنَ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ﴾ أى : أحسن إلى خلقه كما أحسن هو إليك ﴿وَلَا تَبْغِ الْفُسَادَ فِي الْأَرْضِ﴾ أى : لا تكن همتك بما أنت فيه أن تفسد به الأرض ، وتساء إلى خلق الله ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ﴾ .

﴿قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُمْ عَلَىٰ عِلْمٍ عِنْدِي أُولَٰئِكَ يَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ فَدَّ أَهْلَكَ مِنْ قَبْلِهِ مِنَ الْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا وَلَا يُسْئَلُ عَنْ ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ ﴿٧٨﴾﴾

يقول تعالى مخبراً عن جواب قارون لقومه ، حين نصحوه وأرشدوه إلى الخير ﴿قَالَ إِنَّمَا

أُوتِيَتْهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِنْدِي ﴿٧٩﴾ أى: أنا لا أفترق إلى ما تقولون ، فإن الله تعالى إنما أعطانى هذا المال لعلمه بأنى أستحقه ، ولحبه لى ، فتقديره : إنما أعطيته لعلم الله فى أنى أهل له ، وكقوله تعالى : ﴿فَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ ضُرٌّ دَعَانَا ثُمَّ إِذَا خَوَّلْنَاهُ نِعْمَةً مِّنَّا قَالَ إِنَّمَا أُوتِيْتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ ﴿٨٠﴾ من الله بى ، وكقوله تعالى : ﴿وَلَكِن أَدْقَاهُ رَحْمَةً مِّنَّا مِنْ بَعْدِ ضَرَأٍ مَسَّتْهُ لِيَقُولَنَّ هَذَا لِي ﴿٨١﴾ [فصلت : ٥٠]

أى : هذا أستحقه ؛ ولهذا قال الله تعالى - راداً عليه فيما ادعاه من اعتناء الله به فيما أعطاه من المال : ﴿أَوْ لَمْ يَعْلَمِ أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِنْ قَبْلِهِ مِنَ الْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا ﴿٨٢﴾ أى : قد كان من هو أكثر منه مالا وما كان ذلك عن محبة منا له ، وقد أهلكهم الله مع ذلك بكفرهم وعدم شكرهم ؛ ولهذا قال : ﴿وَلَا يُسْأَلُ عَنْ ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ ﴿٨٣﴾ أى : لكثرة ذنوبهم . وقد أجاد فى تفسير هذه الآية الإمام عبد الرحمن بن زيد بن أسلم ، فإنه قال فى قوله : ﴿قَالَ إِنَّمَا أُوتِيْتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِنْدِي ﴿٨٤﴾ قال : لولا رضا الله عنى ، ومعرفته بفضلى ما أعطانى هذا المال ، وقرأ : ﴿أَوْ لَمْ يَعْلَمِ أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِنْ قَبْلِهِ مِنَ الْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا وَلَا يُسْأَلُ عَنْ ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ ﴿٨٥﴾ وهكذا يقول من قل علمه إذا رأى من وسع الله عليه يقول : لولا أنه يستحق ذلك لما أعطى .

﴿فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ قَالَ الَّذِينَ يُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا يَا لَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونُ إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٧٩﴾ وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَيَلَكُمْ ثَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ لِمَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا وَلَا يُلْقَاهَا إِلَّا الصَّابِرُونَ ﴿٨٠﴾

يقول تعالى مخبراً عن قارون : إنه خرج ذات يوم على قومه فى زينة عظيمة ، وتجمل باهر ، من مراكب وملابس عليه وعلى خدمه وحشمه ، فلما رآه من يريد الحياة الدنيا ويميل إلى زخارفها وزينتها ، تمنوا أن لو كان لهم مثل الذى أعطى ، قالوا : ﴿يَا لَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونُ إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٧٩﴾ أى : ذو حظ وافر من الدنيا . فلما سمع مقالتهم أهل العلم النافع قالوا لهم : ﴿وَيَلَكُمْ ثَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ لِمَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ﴿٨٠﴾ أى : جزاء الله لعباده المؤمنين الصالحين فى الدار الآخرة خير مما ترون . كما فى الحديث الصحيح : « يقول الله تعالى : أعددت لعبادى الصالحين مالا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر ، واقروا إن شئتم : ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٨١﴾ [السجدة : ١٧] » (١) .

وقوله : ﴿وَلَا يُلْقَاهَا إِلَّا الصَّابِرُونَ ﴿٨٢﴾ : قال السدى : ولا يلقى الجنة إلا الصابرون . كأنه جعل ذلك من تمام كلام الذين أوتوا العلم . قال ابن جرير : وما يلقى هذه الكلمة إلا الصابرون عن محبة الدنيا ، الراغبون فى الدار الآخرة . وكأنه جعل ذلك مقطوعاً من كلام أولئك ، وجعله من كلام الله عز وجل وإخباره بذلك .

﴿ فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُ مِنْ فِئَةٍ يَنْصُرُونَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَتْ مِنَ الْمُتَنَصِّرِينَ ﴾ (٨١) وَأَصْبَحَ الَّذِينَ تَمَنَّوْا مَكَانَهُ بِالْأَمْسِ يَقُولُونَ وَيُكَافِّرُ اللَّهُ يَسْطُرُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَوْلَا أَنْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا وَيُكَافِّرُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ ﴿٨٢﴾

لما ذكر تعالى اختيال قارون في زينته ، وفخره على قومه وبغيه عليهم ، عقب ذلك بأنه خسف به وبداره الأرض ، كما روى البخارى عن ابن عمر أن رسول الله ﷺ قال : « بينا رجل يجر إزاره إذ خسف به ، فهو يتجلجل في الأرض إلى يوم القيامة » . ثم رواه عن أبى هريرة ، عن النبي ﷺ ، نحوه (١) . وروى الإمام أحمد عن أبى سعيد قال: قال رسول الله ﷺ : « بينا رجل فيمن كان قبلكم ، خرج في بُرْدَيْنِ أخضرين يختال فيهما ، أمر الله الأرض فأخذته ، فإنه ليتجلجل فيها إلى يوم القيامة » . تفرد به أحمد (٢) ، وإسناده حسن .

وقوله تعالى : ﴿ فَمَا كَانَ لَهُ مِنْ فِئَةٍ يَنْصُرُونَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُتَنَصِّرِينَ ﴾ أى : ما أغنى عنه ماله وما جمعه ، ولا خدمه وحشمه . ولا دفعوا عنه نعمة الله وعذابه ونكاله ، ولا كان هو فى نفسه منتصراً لنفسه ، فلا ناصر له من نفسه ، ولا من غيره .

وقوله تعالى : ﴿ وَأَصْبَحَ الَّذِينَ تَمَنَّوْا مَكَانَهُ بِالْأَمْسِ ﴾ أى : الذين لما رأوه فى زينته ﴿ قَالُوا يَا لَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونُ إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴾ ، فلما خسف به أصبحوا يقولون : ﴿ وَيُكَافِّرُ اللَّهُ يَسْطُرُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ ﴾ أى : ليس المال بدال على رضا الله عن صاحبه ؛ فإن الله يعطى ويمنع ، ويضيق ويوسع ، ويخفض ويرفع ، وله الحكمة التامة والحجة البالغة . ﴿ لَوْلَا أَنْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا ﴾ أى : لولا لطف الله بنا وإحسانه إلينا لخسف بنا ، كما خسف به ، لانا وددنا أن نكون مثله ﴿ وَيُكَافِّرُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ ﴾ : يعنون : أنه كان كافراً ، ولا يفلح الكافرون عند الله ، لا فى الدنيا ولا فى الآخرة . وقد اختلف فى معنى ﴿ وَيُكَافِّرُ ﴾ ، فقال بعضهم : معناها : «ويلك اعلم أن » ، وقيل : معناها : ويكاف ، أى : ألم تر أن . قاله قتادة . وقيل : معناها : « وى كان » ، قال ابن جرير : وأقوى الأقوال فى هذا قول قتادة .

﴿ تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ (٨٢) مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِمَّا مَنِهَا وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يَجْرَى الَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٨٤﴾

يخبر تعالى أن الدار الآخرة ونعيمها المقيم الذى لا يحول ولا يزول ، جعلها لعبادة المؤمنين

المتواضعين، الذين لا يريدون علواً في الأرض، أى : ترفعاً على خلق الله وتعاضماً عليهم وتجبراً بهم، ولا فساداً فيهم. كما قال عكرمة : العلو: التجبر. وقال سعيد بن جبير: العلو : البغى .
وقال ابن جرير: ﴿لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ﴾ تعظماً وتجبراً ﴿وَلَا فَسَادًا﴾: عملاً بالمعاصى .
وقال علي: إن الرجل ليعجبه من شراك نعله أن يكون أجود من شراك صاحبه ، فيدخل في قوله : ﴿تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ . وهذا محمول على ما إذا أراد بذلك الفخر والتطاول على غيره ؛ فإن ذلك مذموم ، كما ثبت في الصحيح ، عن النبي ﷺ أنه قال : « إنه أوحى إلى أن تواضعوا ، حتى لا يفخر أحد على أحد ، ولا يبغي أحد على أحد » (١) ، وأما إذا أحب ذلك لمجرد التجميل فهذا لا بأس به ، فقد ثبت أن رجلاً قال : يارسول الله ، إنى أحب أن يكون رداى حسناً ونعلى حسنة ، أفمن الكبر ذلك ؟ فقال : « لا ، إن الله جميل يحب الجمال » (٢) .

وقوله : ﴿مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ﴾ أى : يوم القيامة ﴿فَلَهُ خَيْرٌ مِنْهَا﴾ أى : ثواب الله خير من حسنة العبد ، فكيف والله يضاعفه أضعافاً كثيرة ، فهذا مقام الفضل . ثم قال : ﴿وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى الَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ ، كما قال في الآية الأخرى: ﴿وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَكَيْبَتْ وَجُوهُهُمْ فِي النَّارِ هَلْ تَجْزُونَ إِلَّا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [النمل: ٩٠] وهذا مقام الفضل والعدل .

﴿إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَادُكَ إِلَىٰ مَعَادٍ قُلْ رَبِّي أَعْلَمُ مَنْ جَاءَ بِالْهُدَىٰ وَمَنْ هُوَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٨٥﴾ وَمَا كُنْتَ تَرْجُو أَنْ يُلْقَىٰ إِلَيْكَ الْكِتَابُ إِلَّا رَحْمَةً مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ ظَهيرًا لِّلْكَافِرِينَ ﴿٨٦﴾ وَلَا يَصُدُّكَ عَنْ آيَاتِ اللَّهِ بَعْدَ إِذْ أُنزِلَتْ إِلَيْكَ وَادْعُ إِلَىٰ رَبِّكَ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿٨٧﴾ وَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ لَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٨٨﴾﴾

يقول تعالى أمراً رسوله ﷺ ببلاغ الرسالة وتلاوة القرآن على الناس ، ومخبراً له بأنه سيرده إلى معاد، وهو يوم القيامة، فيسأله عما استرعاه من أعباء النبوة ؛ ولهذا قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ﴾ أى : افترض عليك أداءه إلى الناس ﴿لَرَادُكَ إِلَىٰ مَعَادٍ﴾ أى : إلى يوم القيامة فيسألك عن ذلك ، كما قال تعالى : ﴿فَلَنَسْتَلْنَ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْتَلْنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ [الاعراف : ٦] ، وقال : ﴿يَوْمَ يَجْمَعُ اللَّهُ الرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَا أُجِبْتُمْ﴾ [المائدة : ١٠٩] ، وقال : ﴿وَجِيءَ بِالنَّبِيِّينَ وَالشَّاهِدَاءِ﴾ [الزمر: ٦٩]. وقال ابن عباس: ﴿إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَادُكَ إِلَىٰ مَعَادٍ﴾ يقول : لرادك إلى الجنة ، ثم سائلك عن القرآن وقال : إلى يوم القيامة. وقال: إلى الموت. ولهذا طُرِّقَ عن ابن عباس ، وفي بعضها : لرادك إلى معدنك من الجنة . وقال مجاهد : يحييك يوم القيامة . وكذا روى عن عكرمة، وعطاء ، وسعيد بن جبير ، وقال الحسن البصرى: أى والله ، إن له لمعاداً ، فيبعثه الله

يوم القيامة ثم يدخله الجنة . وقد روى عن ابن عباس غير ذلك ، كما روى البخارى عن ابن عباس : ﴿لَرَأَدُكَ إِلَىٰ مَعَادٍ﴾ قال : إلى مكة . وهكذا رواه النسائى وابن جرير (١) . وهكذا روى العوفى ، عن ابن عباس : ﴿لَرَأَدُكَ إِلَىٰ مَعَادٍ﴾ أى : لرادك إلى مكة كما أخرجك منها . وقال ابن إسحاق ، عن مجاهد فى قوله : ﴿لَرَأَدُكَ إِلَىٰ مَعَادٍ﴾ : إلى مولدك بمكة . قال ابن أبى حاتم : وقد روى عن ابن عباس ، ويحيى بن الجزار ، وسعيد بن جبير ، وعطية ، والضحاك ، نحو ذلك .

ووجه الجمع بين هذه الأقوال أن ابن عباس فسر ذلك تارة برجوعه إلى مكة ، وهو الفتح الذى هو عند ابن عباس أمارة على اقتراب أجله ﷺ ، كما فسره ابن عباس بسورة ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ . وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا . فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا﴾ أنه أجل رسول الله ﷺ نعى إليه ، وكان ذلك بحضرة عمر بن الخطاب ، ووافقه عمر على ذلك ، وقال : لا أعلم منها غير الذى تعلم . ولهذا فسر ابن عباس تارة أخرى قوله : ﴿لَرَأَدُكَ إِلَىٰ مَعَادٍ﴾ بالموت ، وتارة بيوم القيامة الذى هو بعد الموت ، وتارة بالجنة التى هى جزاؤه ومصيره على أداء رسالة الله وإبلاغها إلى الثقلين : الجن والإنس ، ولأنه أكمل خلق الله ، وأفصح خلق الله ، وأشرف خلق الله على الإطلاق .

وقوله : ﴿قُلْ رَبِّي أَعْلَمُ مَنْ جَاءَ بِالْهُدَىٰ وَمَنْ هُوَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ أى : قل محمد من قومك من المشركين ومن تبعهم على كفرهم : ربي أعلم بالمهتدى منكم ومنى ، وستعلمون لمن تكون عاقبة الدار ، ولمن تكون العاقبة والنصرة فى الدنيا والآخرة .

ثم قال تعالى مذكراً لنبيه نعمته العظيمة عليه وعلى العباد إذ أرسله إليهم : ﴿وَمَا كُنْتَ تَرْجُو أَنْ يُلْقَىٰ إِلَيْكَ الْكِتَابُ﴾ أى : ما كنت تظن قبل إنزال الوحي إليك أن الوحي ينزل عليك ﴿إِلَّا رَحْمَةً مِّنْ رَبِّكَ﴾ أى : إنما نزل الوحي عليك من الله من رحمته بك وبالعباد بسببك ، فإذا منحك بهذه النعمة العظيمة ﴿فَلَا تَكُونَنَّ ظَهِيرًا﴾ أى : معيناً ﴿لِلْكَافِرِينَ﴾ ، ولكن فارقهم ونابذهم وخالفهم . ﴿وَلَا يَصُدُّكَ عَنْ آيَاتِ اللَّهِ بَعْدَ إِذْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ﴾ أى : لا تتأثر لمخالفتهم لك وصددهم الناس عن طريقك ، لا تلوى على ذلك ولا تباله ؛ فإن الله مُعَلِّمُ كَلِمَاتِكَ ، ومؤيدُ دينك ، ومظهر ما أرسلت ، به على سائر الأديان ؛ ولهذا قال : ﴿وَادْعُ إِلَىٰ رَبِّكَ﴾ أى : إلى عبادة ربك وحده لا شريك له ﴿وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ .

وقوله : ﴿وَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ أى : لا تليق العبادة إلا له ولا تنبغى الإلهية إلا لعظمته ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ﴾ : إخبار بأنه الدائم الباقي الحى القيوم ، الذى تموت الخلائق ولا يموت ، كما قال تعالى : ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ . وَيَبْقَىٰ وَجْهَ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ﴾ [الرحمن : ٢٦ ، ٢٧] ، فعبر بالوجه عن الذات ، وهكذا قوله هاهنا : ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ﴾

أى: إلا إياه وقد ثبت فى الصحيح عن أبى هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: « أصدق كلمة قالها شاعر كلمة لبيد:

ألا كلُّ شَيْءٍ مَا خَلَا اللَّهَ بَاطِلٌ » (١)

وقال مجاهد والثورى فى قوله: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ﴾ أى: إلا ما أريد به وجهه ، وهذا القول لا ينافى القول الأول ، فإن هذا إخبار عن كل الأعمال بأنها باطلة إلا ما أريد بها وجه الله عز وجل من الأعمال الصالحة المطابقة للشريعة . والقول الأول مقتضاه أن كل الذوات فانية وهالكة وزائلة إلا ذاته تعالى ، فإنه الأول الآخر الذى هو قبل كل شىء وبعد كل شىء .
وقوله: ﴿لَهُ الْحُكْمُ﴾ أى: الملك والتصرف ، ولا معقب لحكمه ﴿وإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ أى: يوم معادكم ، فيجزىكم بأعمالكم ، إن خيرا فخير ، وإن شرا فشر .

تفسير سورة العنكبوت

وهي مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ ١ ﴾ اللَّهُمَّ أَحْسِبَ النَّاسَ أَنْ يَتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ﴿ ٢ ﴾ وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ ﴿ ٣ ﴾ أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ أَنْ يَسْبِقُونَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿ ٤ ﴾

ربع

أما الكلام على الحروف المقطعة فقد تقدم في أول سورة « البقرة » .

وقوله : ﴿ أَحْسِبَ النَّاسُ أَنْ يَتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ﴾ استفهام إنكار ، ومعناه : أن الله سبحانه وتعالى لا بد أن يبتلى عباده المؤمنين بحسب ما عندهم من الإيمان ، كما جاء في الحديث الصحيح : « أشد الناس بلاء الأنبياء ثم الصالحون ، ثم الأمتل فالأمتل ، يبتلى الرجل على حسب دينه ، فإن كان في دينه صلابة زيد في البلاء » (١) وهذه الآية كقوله : ﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَيَعْلَمِ الصَّابِرِينَ ﴾ [آل عمران : ١٤٢] ، وقال في البقرة : ﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ مَسْتَهْمِبِينَ ﴾ [البقرة : ٢١٤] ؛ ولهذا قال هاهنا : ﴿ وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ ﴾ أى : الذين صدقوا فى دعواهم الإيمان من هو كاذب فى قوله ودعواه . والله سبحانه وتعالى يعلم ما كان وما يكون ، وما لم يكن لو كان كيف يكون . وهذا مجمع عليه عند أئمة السنة والجماعة .

وقوله : ﴿ أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ أَنْ يَسْبِقُونَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴾ أى : لا يحسن الذين لم يدخلوا فى الإيمان أنهم يتخلصون من هذه الفتنة والامتحان ، فإن من ورائهم من العقوبة والنكال ما هو أغلظ من هذا وأطم ؛ ولهذا قال : ﴿ أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ أَنْ يَسْبِقُونَا ﴾ أى : يفوتونا ، ﴿ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴾ أى : بشس ما يظنون .

﴿ ٥ ﴾ مَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ اللَّهِ فَإِنْ أَجَلَ اللَّهُ لَاتٍ وَهُوَ السَّخِيعُ الْعَلِيمُ ﴿ ٦ ﴾ وَمَنْ جَاهَدَ فَإِنَّمَا يُجَاهِدُ لِنَفْسِهِ إِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ ﴿ ٧ ﴾ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَحْسَنَ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿ ٨ ﴾

(١) المسند (١٤٨١) وقال الشيخ أحمد شاكر : « إسناده صحيح » والترمذى (٢٣٩٨) .

(٢) فى المخطوطة : « أن تركوا » وهو خطأ ، وإنما موضعها الآية (١٦) من سورة التوبة .

يقول تعالى : ﴿ مَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ اللَّهِ ﴾ أى : فى الدار الآخرة ، وعمل الصالحات رجاء ما عند الله من الثواب الجزيل ، فإن الله سيحقق له رجاءه ويوفيه عمله كاملاً موفوراً ، فإن ذلك كائن لا محالة ؛ لأنه سميع الدعاء ، بصير بكل الكائنات ؛ ولهذا قال تعالى : ﴿ مَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ اللَّهِ فَإِنَّ أَجَلَ اللَّهِ لَآتٍ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾ . وقوله تعالى : ﴿ وَمَنْ جَاهَدَ فَإِنَّمَا يُجَاهِدُ لِنَفْسِهِ ﴾ ، كقوله : ﴿ مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ ﴾ [فصلت : ٤٦] أى : من عمل صالحاً فإنما يعود نفع عمله على نفسه ، فإن الله غنى عن أفعال العباد ، ولو كانوا كلهم على أتقى قلب رجل منهم ، ما زاد ذلك فى ملكه شيئاً ؛ ولهذا قال : ﴿ وَمَنْ جَاهَدَ فَإِنَّمَا يُجَاهِدُ لِنَفْسِهِ إِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ ﴾ . قال الحسن البصرى : إن الرجل ليجاهد ، وما ضرب يوماً من الدهر بسيف .

ثم أخير أنه مع غناه عن الخلائق جميعهم من إحسانه وبره بهم يجازى الذين آمنوا وعملوا الصالحات أحسن الجزاء ، وهو أنه يكفر عنهم أسوأ الذى عملوا ، ويجزيهم أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون ، فيقبل القليل من الحسنات ، ويثيب عليها الواحدة بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف ، ويجزى على السيئة بمثلها أو يعفو ويصفح ، كما قال تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِنْ تَكَ حَسَنَةً يضاعفها وَيؤت من لدنه أجراً عظيماً ﴾ [النساء : ٤٠] ، وقال هاهنا : ﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَحْسَنَ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ .

﴿ وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حَسَنًا وَإِنْ جَاهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا إِلَىٰ مَرْجِعِكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ ﴿٨﴾ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُدْخِلَنَّهُمْ فِي الصَّالِحِينَ ﴿٩﴾

يقول تعالى أمراً عباده بالإحسان إلى الوالدين بعد الحث على التمسك بتوحيده، فإن الوالدين هما سبب وجود الإنسان، ولهما عليه غاية الإحسان ، فالوالد بالإنفاق والوالدة بالإسفاق؛ ولهذا قال تعالى : ﴿ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا إِمَّا يَبُلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُلْ لَهُمَا أَفْ وَلَا تَنْهَرُهُمَا وَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا . وَأَخْفِصْ لَهُمَا جَنَاحَ الدُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُلْ رَبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا ﴾ [الإسراء : ٢٣ ، ٢٤] .

ومع هذه الوصية بالرفقة والرحمة والإحسان إليهما ، فى مقابلة إحسانهما المتقدم ، قال : ﴿ وَإِنْ جَاهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا ﴾ أى : وإن حرضا عليك أن تتابعهما فى دينهما إذا كانا مشركين ، فإياك وإياهما ، لا تطعهما فى ذلك ، فإن مرجعكم إلى يوم القيامة ، فأجزيك بإحسانك إليهما، وصبرك على دينك ، وأحشرك مع الصالحين لا فى زمرة والديك ، وإن كنت أقرب الناس إليهما فى الدنيا ، فإن المرء إنما يحشر يوم القيامة مع من أحب ، أى : حباً دينياً ؛ ولهذا قال تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُدْخِلَنَّهُمْ فِي الصَّالِحِينَ ﴾ . وروى الترمذى عن سعد ، قال : نزلت فى أربع آيات . فذكر قصة ، وقالت أم سعد : أليس قد

أمرك الله بالبر ؟ والله لا أطعمُ طعاماً ولا أشربُ شرباً حتى أموت أو تكفر ، قال : فكانوا إذا أرادوا أن يطعموها شَجَرُوا فاهها ، فأنزل الله ﴿ وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حُسْنًا وَإِنْ جَاهَدَاكَ ﴾ الآية. وهذا الحديث رواه أحمد ، ومسلم ، وأبو داود ، والنسائى ، وقال الترمذى : حسن صحيح (١) .

﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ ءَأَمَّنَّا بِاللَّهِ فَإِذَا أُوذِيَ فِي اللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ النَّاسِ كَعَذَابِ اللَّهِ وَلَئِن جَاءَ نَصْرٌ مِّن رَّبِّكَ لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ أَوْ لَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِمَا فِي صُدُورِ الْعَالَمِينَ ﴾
﴿ وَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ ءَأَمَنُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْمُنَافِقِينَ ﴾

يقول تعالى مخبراً عن صفات قوم من المكذبين الذين يدعون الإيمان بالسنتهم ، ولم يثبت الإيمان فى قلوبهم ، بأنهم إذا جاءتهم فتنة ومحنة فى الدنيا ، اعتقدوا أن هذا من نعمة الله تعالى بهم ، فارتدوا عن الإسلام؛ ولهذا قال تعالى : ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ ءَأَمَّنَّا بِاللَّهِ فَإِذَا أُوذِيَ فِي اللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ النَّاسِ كَعَذَابِ اللَّهِ ﴾ قال ابن عباس : يعنى : فتنته أن يرتد عن دينه إذا أُوذِيَ فى الله . وكذا قال غيره من علماء السلف . وهذه الآية كقوله تعالى : ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يُعِدُّ اللَّهُ عَلَىٰ حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ انْقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِ خَسِرَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ ﴾ [الحج : ١١] .

ثم قال عز وجل : ﴿ وَلَئِن جَاءَ نَصْرٌ مِّن رَّبِّكَ لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ ﴾ أى : ولئن جاء نصر قريب من ربك - يا محمد - وفتح ومغانم، ليقولن هؤلاء لكم : ﴿ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ ﴾ أى : كنا إخوانكم فى الدين ، كما قال تعالى : ﴿ الَّذِينَ يَتَرَبَّصُونَ بِكُمْ فَإِنْ كَانَ لَكُمْ فَتْحٌ مِّنَ اللَّهِ قَالُوا أَلَمْ نَكُنْ مَعَكُمْ وَإِنْ كَانَ لِلْكَافِرِينَ نَصِيبٌ قَالُوا أَلَمْ نَسْتَحِذْ عَلَيْكُمْ وَنَمْتَعُكُم مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ [النساء : ١٤١] ، وقال تعالى : ﴿ فَعَسَىٰ اللَّهُ أَن يَأْتِي بِالْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِّنْ عِنْدِهِ فَيُضْبِحُوا عَلَىٰ مَا أَسْرُوا فِي أَنفُسِهِمْ تَادِمِينَ ﴾ [المائدة : ٥٢] .

وقال تعالى مخبراً عنهم هاهنا : ﴿ وَلَئِن جَاءَ نَصْرٌ مِّن رَّبِّكَ لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ ﴾ . ثم قال تعالى : ﴿ أَوْ لَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِمَا فِي صُدُورِ الْعَالَمِينَ ﴾ أى : أو ليس الله بأعلم بما فى قلوبهم ، وما نُكِنَتْ ضمائرهم ، وإن أظهروا لكم الموافقة ؟

وقوله : ﴿ وَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ ءَأَمَنُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْمُنَافِقِينَ ﴾ أى : وليختبرن الله الناس بالضراء والسراء ؛ لتمييز هؤلاء من هؤلاء ، ومن يطيع الله فى الضراء والسراء ، إنما يطيعه فى حظ نفسه ، كما قال تعالى : ﴿ وَنَبِّئُوهُمْ حَتَّىٰ تَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنكُمْ وَالصَّابِرِينَ وَتَبْلُغُوا أَخْبَارَكُمْ ﴾ [محمد : ٣١] ، وقال تعالى بعد وقعة أحد ، التى كان فيها ما كان من الاختبار والامتحان : ﴿ مَا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ ﴾ الآية [آل عمران : ١٧٩] .

(١) المسند (١٥٦٧) ومسلم (١٧٤٨ / ٣٣) والترمذى (٣٠٧٩) وأبو داود (٢٧٤٠) وسعد : هو ابن أبى وقاص . وقوله : « شجروا فاهها » : الشَّجْرُ : مَفْتَحُ الفم ، والمعنى : ادخلوا فى مفتح فمها عودا حتى يفتحوه به . انظر : النهاية لابن الأثير ، مادة « شجر » .

﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا اتَّبِعُوا سَبِيلَنَا وَلْنَحْمِلْ خَطَايَكُمْ وَمَا هُمْ بِحَامِلِينَ مِنْ خَطَايَهُمْ مِنْ شَيْءٍ إِنَّهُمْ لَكَذِبُونَ ﴾ ﴿١٢﴾ وَلِيَحْمِلُوا أَثْقَالَهُمْ وَأَتْقَالًا مَعَ أَثْقَالِهِمْ وَلِيَسْتَلْنَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَمَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴿١٣﴾

يقول تعالى مخبراً عن كفار قريش : أنهم قالوا لمن آمن منهم واتبع الهدى : ارجعوا عن دينكم إلى ديننا ، واتبعوا سبيلنا ﴿ وَلْنَحْمِلْ خَطَايَاكُمْ ﴾ أى : وآثامكم - إن كانت لكم آثام فى ذلك - علينا وفى رقابنا ، كما يقول القائل : « افعِلْ هذا وخطيبتك فى رقبتي » . قال الله تكذيباً لهم : ﴿ وَمَا هُمْ بِحَامِلِينَ مِنْ خَطَايَاهُمْ مِنْ شَيْءٍ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴾ أى : فيما قالوه : إنهم يحملون عن أولئك خطاياهم ، فإنه لا يحمل أحد وزر أحد ﴿ وَإِنْ تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَىٰ حِمْلِهَا لَا يُحْمَلُ مِنْهُ شَيْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ ﴾ [فاطر : ١٨] ، وقال تعالى : ﴿ وَلَا يَسْأَلُ حَمِيمٌ حَمِيمًا . يُصْرُونَهُمْ ﴾ [المعارج : ١٠ ، ١١] .

وقوله تعالى : ﴿ وَلِيَحْمِلُنْ أَثْقَالَهُمْ وَأَتْقَالًا مَعَ أَثْقَالِهِمْ ﴾ : إخبار عن الدعاة إلى الكفر والضلالة ، أنهم يوم القيامة يحملون أوزار أنفسهم ، وأوزاراً آخر بسبب من أضلوا من الناس ، من غير أن ينقص من أوزار أولئك شيئاً ، كما قال تعالى : ﴿ لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ أَلَا سَاءَ مَا يَزُرُونَ ﴾ [النحل : ٢٥] . وفى الصحيح : « من دعا إلى هدى كان له من الأجر مثل أجور من اتبعه إلى يوم القيامة ، من غير أن ينقص من أجورهم شيئاً ، ومن دعا إلى ضلالة كان عليه من الإثم مثل آثام من اتبعه إلى يوم القيامة ، من غير أن ينقص من آثامهم شيئاً » (١) وفى الصحيح : « ما قتلت نفس ظلماً إلا كان على ابن آدم الأول كفل من دمها ؛ لأنه أول من سنَّ القتل » (٢) . وقوله : ﴿ وَلِيَسْأَلُنْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَمَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴾ أى : يكذبون ويختلقون من البهتان . وفى الصحيح : « إن الرجل لياتى يوم القيامة بحسنات أمثال الجبال وقد ظلم هذا ، وأخذ مال هذا ، وأخذ من عرض هذا ، فيأخذ هذا من حسناته ، وهذا من حسناته ، فإذا لم يبق له حسنة ، أخذ من سيئاتهم ، فطرح عليه » (٣) .

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا فَأَخَذَهُمُ الطُّوفَانُ وَهُمْ ظَالِمُونَ ﴾ ﴿١٤﴾ فَأَجْمَعْنَاهُ وَأَصْحَابَ السَّفِينَةِ وَجَعَلْنَاهَا آيَةً لِلْعَالَمِينَ ﴿١٥﴾

هذه تسليية من الله تعالى لعبده ورسوله محمد ﷺ يخبره عن نوح ، عليه السلام ، : أنه مكث فى قومه هذه المدة يدعوهم إلى الله ليلاً ونهاراً ، وسراً وجهاراً ، ومع هذا ما زادهم ذلك إلا فراراً عن الحق ، وإعراضاً عنه وتكذيباً له ، وما آمن معه منهم إلا قليل ؛ ولهذا قال : ﴿ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا فَأَخَذَهُمُ الطُّوفَانُ وَهُمْ ظَالِمُونَ ﴾ أى : بعد هذه المدة الطويلة ما نجح فيهم البلاغ والإنذار ، فانت - يا محمد - لا تأسف على من كفر بك من قومك ، ولا تحزن عليهم ؛

(١) تقدم تخريجه عند الآية (٢) من المائة .

(٢) تقدم تخريجه عند الآية (٣٠) من المائة .

(٣) مسلم (٢٥٨١ / ٩٩) .

فإن الله يهدي من يشاء ويضل من يشاء ، ويبدد الأمر وإليه ترجع الأمور ، ﴿ إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ . وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّى يَرَوْا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ ﴾ [يونس : ٩٦ ، ٩٧] ، واعلم أن الله سيظهرك وينصرك ويؤيدك ، ويدل عدوك ، ويكتبهم ويجعلهم أسفل السافلين . قال ابن عباس قال : بعث نوح وهو لأربعين سنة ، ولبث في قومه ألف سنة إلا خمسين عاما ، وعاش بعد الطوفان ستين عاما ، حتى كثر الناس وفشوا . وظاهر السياق من الآية أنه مكث في قومه يدعوهم إلى الله ألف سنة إلا خمسين عاما . وعن مجاهد قال : قال لى ابن عمر : كم لبث نوح في قومه ؟ قال : قلت : ألف سنة إلا خمسين عاما . قال : فإن الناس لم يزالوا في نقصان من أعمارهم وأحلامهم وأخلاقهم إلى يومك هذا .

وقوله تعالى : ﴿ فَأَجْنِبْنَاهُ وَأَصْحَابَ السَّفِينَةِ ﴾ أى : الذين آمنوا بنوح عليه السلام . وقد تقدم ذكر ذلك مفصلا فى سورة « هود » ، وتقدم تفسيره بما أغنى عن إعادته . وقوله : ﴿ وَجَعَلْنَاهَا آيَةً لِلْعَالَمِينَ ﴾ أى : وجعلنا تلك السفينة باقية ، إما عينها كما قال قتادة : إنها بقيت إلى أول الإسلام على جبل الجودي ، أو نوعها جعله للناس تذكرة لنعمه على الخلق ، كيف نجّاهم من الطوفان ، كما قال تعالى : ﴿ وَآيَةٌ لَهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِي الْفُلِّ الْمَشْحُونِ . وَخَلَقْنَا لَهُمْ مِنْ مِثْلِهِ مَا يَرْكَبُونَ . وَإِنْ نَشَأْ نُغْرِقْهُمْ فَلَا صَرِيحَ لَهُمْ وَلَا هُمْ يُنقَدُونَ . إِلَّا رَحْمَةً مِنَّا وَمَتَاعًا إِلَى حِينٍ ﴾ [يس : ٤١ - ٤٤] ، وقال تعالى : ﴿ إِنَّا لَمَّا طَعَا الْمَاءَ حَمَلْنَاكُمْ فِي الْجَارِيَةِ . لِنَجْعَلَهَا لَكُمْ تَذْكِرَةً وَتَعِبَهَا أذُنٌ وَعَیَّةٌ ﴾ [الحاقة : ١١] ، [١٢] ، وقال هاهنا : ﴿ فَأَجْنِبْنَاهُ وَأَصْحَابَ السَّفِينَةِ وَجَعَلْنَاهَا آيَةً لِلْعَالَمِينَ ﴾ .

﴿ وَإِذْ هَبْنَا دُورَهُمْ لِيَكُونَ لَهُمْ مَرْجِعًا إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ الَّذِينَ يَنْصُرُونَهُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ [١٦] ﴿ إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا إِنَّ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا فَابْتَغُوا عِنْدَ اللَّهِ الرِّزْقَ وَاعْبُدُوهُ وَاشْكُرُوا لَهُ إِنَّ إِلَهًا لِرُجْعَتِهِمْ ﴾ [١٧] ﴿ وَإِنْ تَكْذِبُوا فَقَدْ كَذَّبْتُمْ مِنْ قَبْلِكُمْ وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ ﴾ [١٨]

يخبر تعالى عن عبده ورسوله وخليله إبراهيم إمام الخنفاء : أنه دعا قومه إلى عبادة الله وحده لا شريك له ، والإخلاص له فى التقوى ، وطلب الرزق منه وحده لا شريك له ، وتوحيده فى الشكر ، فإنه المشكور على النعم ، لا يسدى لها غيره ، فقال لقومه : ﴿ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ ﴾ أى : اخلصوا له العبادة والخوف ﴿ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ أى : إذا فعلتم ذلك حصل لكم الخير فى الدنيا والآخرة ، واندفع عنكم الشر فى الدنيا والآخرة . ثم أخبرهم أن الأصنام التى يعبدونها والأوثان ، لا تضر ولا تنفع ، وإنما اختلقتم أنتم لها أسماء ، سميتوها آلهة ، وإنما هى مخلوقة مثلكم . هكذا روى العوفى عن ابن عباس . وبه قال مجاهد ، والسدى . وروى الوالى ، عن ابن عباس : وتصنعون إفكا ، أى : تحتونها أصناماً . وبه قال مجاهد - فى رواية - وعكرمة ، والحسن ، وقتادة وغيرهم ، واختاره ابن جرير .

وهى لا تملك لكم رزقا ﴿ فابتغوا عند الله الرزق ﴾ وهذا أبلغ فى الحصر، كقوله: ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ [الفاتحة : ٥] ، ﴿ رَبِّ ابْنِ لِي عِنْدَكَ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ ﴾ [التحريم : ١١] ؛ ولهذا قال : ﴿ فابتغوا ﴾ أى فاطلبوا ﴿ عند الله الرزق ﴾ أى : لا عند غيره ، فإن غيره لا يملك شيئاً ، ﴿ وَاَعْبُدُوهُ وَأَشْكُرُوا لَهُ ﴾ أى : كلوا من رزقه واعبدوه وحده ، واشكروا له على ما أنعم به عليكم ، ﴿ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ أى : يوم القيامة ، فيجازى كل عامل بعمله .

وقوله : ﴿ وَإِنْ تَكْذَبُوا فَقَدْ كَذَبَ أُمَّمٌ مِنْ قَبْلِكُمْ ﴾ أى : فبلغكم ما حل بهم من العذاب والنكال فى مخالفة الرسل ، ﴿ وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ ﴾ يعنى : إنما على الرسول أن يبلغكم ما أمره الله تعالى به من الرسالة ، والله يضل من يشاء ويهدى من يشاء ، فاحرصوا لأنفسكم أن تكونوا من السعداء .

﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا كَيْفَ يُبْدِئُ اللَّهُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ ۚ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ﴿١٩﴾ قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ اللَّهُ يُنشِئُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٠﴾ يُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَيَرْحَمُ مَنْ يَشَاءُ وَإِلَيْهِ تُقْلَبُونَ ﴿٢١﴾ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿٢٢﴾ وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِعَايِنَةِ اللَّهِ وَلِقَائِهِ أُولَٰئِكَ يَاسُوءُ مِنْ رَحْمَتِي وَأُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٣﴾ ﴾

يقول تعالى مخبراً عن الخليل، عليه السلام ، أنه أرشدهم إلى إثبات المعاد الذى ينكرونه ، بما يشاهدونه فى أنفسهم من خلق الله إياهم ، بعد أن لم يكونوا شيئاً مذكوراً ، ثم وجدوا وصاروا أناساً سامعين مبصرين ، فالذى بدأ هذا قادر على إعادته ؛ فإنه سهل عليه يسير لديه . ثم أرشدهم إلى الاعتبار بما فى الآفاق من الآيات المشاهدة من خلق الله الأشياء : السماوات وما فيها من الكواكب النيرة : الثوابت ، والسيارات ، والأرضين وما فيها من مهاد وجبال ، وأودية وبرارى وقفار ، وأشجار وأنهار ، وثمار وبحار ، كل ذلك دال على حدوثها فى أنفسها ، وعلى وجود صانعها ، الذى يقول للشئ : كن ، فيكون ؛ ولهذا قال : ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا كَيْفَ يُبْدِئُ اللَّهُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ ۚ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ﴾ ، كقوله : ﴿ وَهُوَ الَّذِي يُبْدِئُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ ﴾ [الروم : ٢٧] .

ثم قال تعالى : ﴿ قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ اللَّهُ يُنشِئُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ ﴾ أى : يوم القيامة ﴿ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ . وهذا المقام شبيه بقوله تعالى : ﴿ سَتَرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْأَفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَبَيِّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ ﴾ [فصلت : ٥٣] ، وكقوله تعالى : ﴿ أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ . أَمْ خَلَقُوا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بَلْ لَا يُوقِنُونَ ﴾ [الطور : ٣٥ ، ٣٦] . وقوله : ﴿ يُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَيَرْحَمُ مَنْ يَشَاءُ ﴾ أى : هو الحاكم المتصرف ، الذى يفعل ما يشاء ، ويحكم ما يريد ، لا معقب لحكمه ، ولا يسأل عما يفعل وهم يسألون ، فله الخلق والأمر ، مهما فعل فعلاً ؛ لأنه المالك الذى لا يظلم مثقال ذرة ، ولهذا قال تعالى : ﴿ يُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَيَرْحَمُ مَنْ يَشَاءُ وَإِلَيْهِ تُقْلَبُونَ ﴾ أى :

ترجعون يوم القيامة .

وقوله: ﴿ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ ﴾ أى: لا يعجزه أحد من أهل سماواته وأرضه، بل هو القاهر فوق عباده ، وكل شيء خائف منه ، فقير إليه ، وهو الغنى عما سواه ﴿ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ . وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَلِقَائِهِ أُولَئِكَ يَكْفُرُوا بِالْمَعَادِ ﴾ أولئك يسؤوا من رحمتي ﴿ أى: لا نصيب لهم فيها ﴾ وأولئك لهم عذاب أليم ﴿ أى: موجع فى الدنيا والآخرة .

﴿ فَمَا كَانَتْ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا اقْتُلُوهُ أَوْ حَرِّقُوهُ فَأَنْجَاهُ اللَّهُ مِنَ النَّارِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ (١٤) وَقَالَ إِنَّمَا اتَّخَذْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا مَوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا وَمَأْوَاكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُمْ مِنْ نَّاصِرِينَ ﴾ (١٥)

يقول تعالى مخبرا عن قوم إبراهيم فى كفرهم وعنادهم ومكابرتهم ، ودفعهم الحق بالباطل : أنهم ما كان لهم جواب بعد مقالة إبراهيم هذه المشتملة على الهدى والبيان ﴿ إِلَّا أَنْ قَالُوا اقْتُلُوهُ أَوْ حَرِّقُوهُ ﴾ وذلك لأنهم قام عليهم البرهان ، وتوجهت عليهم الحجة ، فعدلوا إلى استعمال جاههم وقوة ملكهم ﴿ قَالُوا ابْنَاهُ بُنْيَانًا فَأَلْقُوهُ فِي الْجَحِيمِ . فَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَسْفَلِينَ ﴾ [الصافات : ٩٧ ، ٩٨] ، وذلك أنهم حشدوا فى جمع أحطاب عظيمة مدة طويلة ، وحوطوا حولها ، ثم أضرموها فيها النار ، فارتفع لها لهب إلى عنان السماء، ولم توقد نار قط أعظم منها ، ثم عمدوا إلى إبراهيم فكتفوه وألقوه فى كفة المنجنيق، ثم قذفوا به فيها ﴿ فَأَنْجَاهُ اللَّهُ مِنَ النَّارِ ﴾ أى: سلمه منها ، بأن جعلها عليه برداً وسلاماً ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ . وَقَالَ إِنَّمَا اتَّخَذْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا مَوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ﴾ يقول لقومه مقرعاً لهم وموبخاً على سوء صنيعهم ، فى عبادتهم الأوثان : إنما اتخذتم هذه لتجتمعوا على عبادتها فى الدنيا ، صداقة وألفة منكم ، بعضكم لبعض فى الحياة الدنيا . وهذا على قراءة من نصب ﴿ مَوَدَّةَ بَيْنِكُمْ ﴾ ، على أنه مفعول له ، وأما على قراءة الرفع فمعناه : إنما اتخذكم هذا يحصل لكم المودة فى الدنيا فقط ، ﴿ ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴾ ، ينعكس هذا الحال ، فتبقى هذه الصداقة والمودة بغضةً وشنآنًا ، ف ﴿ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ ﴾ أى : تتجاهدون ما كان بينكم ، ﴿ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا ﴾ أى : يلعن الاتباع المتبوعين ، والمتبوعون الاتباع ، ﴿ كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَعْنَتْ أُخْتَهَا ﴾ [الاعراف : ٣٨] ، وقال تعالى : ﴿ الْأَخْلَاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ ﴾ [الزخرف : ٦٧] ، وقال ها هنا : ﴿ ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا وَمَأْوَاكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُمْ مِنْ نَّاصِرِينَ ﴾ أى: ومصيركم ومرجعكم بعد عرصات القيامة إلى النار ، وما لكم من ناصر ينصركم ، ولا منقذ ينقذكم من عذاب الله . وهذا حال الكافرين ، فأما المؤمنون فبخلاف ذلك .

﴿ فَآمَنَ لَهُ لُوطٌ وَقَالَ إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ ﴿١١﴾
 وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ الْأَنْبِيَاءَ وَالْكَتَبَ وَآتَيْنَاهُ آجْرَهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّا فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ ﴿١٧﴾

يقول تعالى مخبراً عن إبراهيم : أنه آمن له لوط ، يقال : إنه ابن أخى إبراهيم ، يعنى : ولم يؤمن به من قومه سواه ، وسارة امرأة الخليل . لكن يقال : كيف الجمع بين هذه الآية ، وبين الحديث الوارد فى الصحيح (١) : أن إبراهيم حين مرَّ على ذلك الجبار ، فسأل إبراهيم عن سارة : ما هى منه ؟ فقال : أختى ، ثم جاء إليها فقال لها : إنى قد قلت له : « إنك : أختى » ، فلا تكذبنى ، فإنه ليس على وجه الأرض مؤمن غيرك وغيرى ، فأنت أختى فى الدين . وكان المراد من هذا - والله وأعلم - أنه ليس على وجه الأرض زوجان على الإسلام غيرى وغيرك ، فإن لوطاً ، عليه السلام ، آمن به من قومه ، وهاجر معه إلى بلاد الشام . وقوله : ﴿ وَقَالَ إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّي ﴾ : يحتمل عود الضمير فى قوله : ﴿ وَقَالَ ﴾ ، على لوط ، لأنه أقرب المذكورين ، ويحتمل عوده إلى إبراهيم - قال ابن عباس ، والضحاك : هو المكنى عنه بقوله : ﴿ فَآمَنَ لَهُ لُوطٌ ﴾ أى : من قومه .

ثم أخبر عنه بأنه اختار المهاجرة من بين أظهرهم ، ابتغاء إظهار الدين والتمكن من ذلك ؛ ولهذا قال : ﴿ إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ ﴾ أى : له العزة ولرسوله وللمؤمنين به ﴿ الْحَكِيمُ ﴾ ، فى أقواله وأفعاله وأحكامه القدريّة والشريعة . روى الإمام أحمد عن عبد الله بن عمرو بن العاص قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « إنها ستكون هجرة بعد هجرة ، فينحاز الناس إلى مهاجر إبراهيم ، لا يبقى فى الأرض إلا شرار أهلها ، تلتفظهم أرضوهم ، تقدّروهم نفس الرحمن ، تحشرهم النار مع القردة والخنازير فتبيت معهم إذا باتوا ، وتقبل معهم إذا قالوا ، وتاكل منهم من تخلف » . قال : و سمعت رسول الله ﷺ يقول : « سيخرج أناس من أمتى من قبل المشرق ، يقرؤون القرآن لا يجاوز تراقيهم ، كلما خرج منهم قرن قطع ، كلما خرج منهم قرن قطع » حتى يخرج الدجال فى بقيتهم « (٢) .

وقوله : ﴿ وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ ﴾ ، كقوله تعالى : ﴿ فَلَمَّا اعْتَزَلْتَهُمْ وَمَا يُعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ وَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَكُلًّا جَعَلْنَا نَبِيًّا ﴾ [مريم : ٤٩] أى : إنه لما فارق قومه أقرّ الله عينه بوجود ولد صالح نبى وولد له ولد صالح فى حياة جده . وكذلك قال الله : ﴿ وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً ﴾ [الانبياء : ٧٢] أى : زيادة ، كما قال : ﴿ قَبَشْنَاَهَا بِإِسْحَاقَ وَمِن وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ ﴾ أى : ويولد لهذا الولد ولد فى حياتكما ، تقر به عينكما . وكون يعقوب ولد لإسحاق نص عليه

(١) مسلم (٢٣٧١ / ١٥٤) .

(٢) المسند (٦٨٧١ ، ٦٩٥٢) وقال الشيخ أحمد شاكر : « إسناده صحيح » . وانظر تفصيل ذلك هناك .

القرآن ، وثبتت به السنة النبوية ، قال الله : ﴿ أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ بَعْدِي قَالُوا نَعْبُدُ إِلَهَكَ وَإِلَهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلَهاً وَاحِداً وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴾ [البقرة : ١٣٣] ، وفي الصحيحين : « إن الكريم ابن الكريم ابن الكريم يوسف بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم » (١) .

وقوله : ﴿ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ ﴾ : هذه خلعة سنية عظيمة ، مع اتخاذ الله إياه خليلاً ، وجعله للناس إماماً ، أن جعل في ذريته النبوة والكتاب ، فلم يوجد نبي بعد إبراهيم عليه السلام ، إلا وهو من سلالة ، فجميع أنبياء بني إسرائيل من سلالة يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم ، حتى كان آخرهم عيسى ابن مريم ، فقام في ملتهم مبشراً بالنبي العربي القرشي الهاشمي ، خاتم الرسل على الإطلاق ، وسيد ولد آدم في الدنيا والآخرة ، الذي اصطفاه الله من صميم العرب العرباء ، من سلالة إسماعيل بن إبراهيم ، عليهم السلام : ولم يوجد نبي من سلالة إسماعيل سواه ، عليه أفضل الصلاة والسلام .

وقوله : ﴿ وَأَتَيْنَاهُ أَجْرَهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ ﴾ أى : جمع الله له بين سعادة الدنيا الموصولة بسعادة الآخرة ، فكان له في الدنيا الرزق الواسع الهنيئ والمنزل الرحب ، والمورد العذب ، والزوجة الحسنة الصالحة ، والثناء الجميل ، والذكر الحسن ، فكل أحد يحبه ويتولاه ، كما قال ابن عباس ومجاهد وقتادة وغيرهم ، مع القيام بطاعة الله من جميع الوجوه ، كما قال تعالى : ﴿ وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّى ﴾ [النجم : ٣٧] ، أى : قام بجميع ما أمر به ، وكمل طاعة ربه ؛ ولهذا قال تعالى : ﴿ وَأَتَيْنَاهُ أَجْرَهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ ﴾ ، كما قال تعالى : ﴿ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ . شَاكِرًا لِأَنْعَمِهِ اجْتَبَاهُ وَهَدَاهُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ . وَأَتَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَإِنَّهُ فِي الآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ ﴾ [النحل : ١٢٠ - ١٢٢] .

﴿ وَلَوْ كُنَّا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ إِنَّكُمْ لَنَا تُؤْمِنُونَ فَادِّعُوا مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعَالَمِينَ ﴾ (١٨) أَيْنَكُمْ لَنَا تُؤْمِنُونَ الرِّجَالُ وَقَتِّعُونَ السَّبِيلَ وَتَأْتُونَ فِي نَادِيكُمُ الْمُنْكَرَ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَتَيْنَا بِعَذَابِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿١٩﴾ قَالَ رَبِّ انصُرْنِي عَلَى الْقَوْمِ الْمُفْسِدِينَ ﴿٢٠﴾

يقول تعالى مخيراً عن نبيه لوط ، عليه السلام ، أنه أنكر على قومه سوء صنيعهم ، وما كانوا يفعلونه من قبيح الأعمال ، في إتيانهم الذكران من العالمين ، ولم يسبقهم إلى هذه الفعلة أحد من بني آدم قبلهم وكانوا مع هذا يكفرون بالله ، ويكذبون رسوله ويخالفون ويقطعون السبيل ، أى : يقفون في طريق الناس يقتلونهم ويأخذون أموالهم ﴿ وَتَأْتُونَ فِي نَادِيكُمُ الْمُنْكَرَ ﴾ أى : يفعلون ما لا يليق من الأقوال والأفعال في مجالسهم التي يجتمعون فيها ، لا ينكر بعضهم على بعض شيئاً من ذلك ، فمن قائل : كانوا يأتون بعضهم بعضاً في الملا ، قاله

(١) البخارى (٤٦٨٨) ولم يعزه صاحب التحفة (٥ / ٤٥٧) إلا للبخارى .

مجاهد . ومن قائل : كانوا يتضارطون ويتضاحكون ؛ قالته عائشة ، والقاسم . ومن قائل : كانوا يناطحون بين الكباش ، ويناقرون بين الديوك ، وكل ذلك كان يصدر عنهم ، وكانوا شراً من ذلك . وروى الإمام أحمد عن أم هانئ قالت : سألت رسول الله ﷺ عن قوله عز وجل : ﴿ وَتَأْتُونَ فِي نَادِيكُمُ الْمُنْكَرَ ﴾ ، قال : « يحذفون أهل الطريق ، ويسخرون منهم ، وذلك المنكر الذي كانوا يأتونه » . ورواه الترمذى ، ثم قال : هذا حديث حسن .

وقوله : ﴿ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا ائْتِنَا بِعَذَابِ اللَّهِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴾ ، وهذا من كفرهم واستهزائهم وعنادهم ؛ ولهذا استنصر عليهم نبي الله فقال : ﴿ رَبِّ انصُرْنِي عَلَى الْقَوْمِ الْمُفْسِدِينَ ﴾ .

﴿ وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَى قَالُوا إِنَّا مُهْلِكُوا أَهْلَ هَذِهِ الْقَرْيَةِ إِنَّ أَهْلَهَا كَانُوا ظَالِمِينَ ﴾ ﴿٢١﴾ قَالَ إِنَّ فِيهَا لُوطًا قَالُوا نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَن فِيهَا لَنُنَجِّيَنَّهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا أُمَّرَأَتَهُ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ ﴿٢٢﴾ وَلَمَّا أَنْ جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِوَى يَوْمِ وَصَّافٍ بِهِمْ ذُرْعًا وَقَالُوا لَا تَخَفْ وَلَا تَحْزَنْ إِنَّا مُنْجِيُكَ وَأَهْلِكَ إِلَّا أُمَّرَأَتَكَ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ ﴿٢٣﴾ إِنَّا مُنْزِلُونَ عَلَى أَهْلِ هَذِهِ الْقَرْيَةِ رِجْزًا مِّنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴿٢٤﴾ وَلَقَدْ تَرَكْنَا مِنْهَا آيَةً بَيِّنَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٢٥﴾

لما استنصر لوط ، عليه السلام ، الله عليهم ، بعث الله لنصرته ملائكة فمروا على إبراهيم ، عليه السلام ، في هيئة أضياف ، فجاءهم بما ينبغى للضيف ، فلما رأى أنه لا همة لهم إلى الطعام نكروهم وأوجس منهم خيفة ، فشرعوا يؤانسونه ويبشرونه بوجود ولد صالح من امرأته سارة - وكانت حاضرة - فتعجبت من ذلك ، كما تقدم بيانه في سورة « هود » و « الحجر » . فلما جاءت إبراهيم بالبشرى ، وأخبروه بأنهم أرسلوا لهلاك قوم لوط ، أخذ يدافع لعلهم يُنظرون ، لعل الله أن يهديهم ، ولما قالوا : ﴿ إِنَّا مُهْلِكُوا أَهْلَ هَذِهِ الْقَرْيَةِ ﴾ قال : ﴿ إِنَّ فِيهَا لُوطًا قَالُوا نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَن فِيهَا لَنُنَجِّيَنَّهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا أُمَّرَأَتَهُ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ ﴾ أى : من الهالكين ؛ لأنها كانت تماثلهم على كفرهم وبيعهم ودبرهم . ثم ساروا من عنده فدخلوا على لوط في صورة شباب حسان ، فلما رأهم كذلك ﴿ سِوَى بِهِمْ وَصَّافٍ بِهِمْ ذُرْعًا ﴾ أى : اغتم بأمرهم ، إن هو أضافهم خاف عليهم من قومه ، وإن لم يصفهم خشى عليهم منهم ، ولم يعلم بأمرهم فى الساعة الراهنة ﴿ قَالُوا لَا تَخَفْ وَلَا تَحْزَنْ إِنَّا مُنْجِيُكَ وَأَهْلِكَ إِلَّا أُمَّرَأَتَكَ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ ﴾ . إِنَّا مُنْزِلُونَ عَلَى أَهْلِ هَذِهِ الْقَرْيَةِ رِجْزًا مِّنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴾ ، وذلك أن جبريل عليه السلام اقتلع قراهم من قرار الأرض ، ثم رفعها إلى عتبان السماء ، ثم قلبها عليهم . وأرسل الله عليهم حجارة من سجيل منضود ، مسومة عند ربك وما هى من الظالمين ببعيد ، وجعل الله مكانها بحيرة خبيثة منتنة ، وجعلهم عبرة إلى يوم التناد ، وهم من أشد الناس عذابا يوم المعاد ؛ ولهذا قال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ تَرَكْنَا مِنْهَا آيَةً بَيِّنَةً ﴾ أى : واضحة ﴿ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ ، كما قال : ﴿ وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِمْ مُّصْبِحِينَ . وَبِاللَّيْلِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ [الصافات : ١٣٧ ، ١٣٨] .

﴿ وَإِلَىٰ مَدِينٍ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا فَقَالَ يَنْقُورُ أَعْبُدُوا اللَّهَ وَارْجُوا الْيَوْمَ الْآخِرَ وَلَا تَعْتَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٣٦﴾ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جِثْمِينَ ﴿٣٧﴾ ﴾

يخبر تعالى عن عبده ورسوله شعيب، عليه السلام، أنه أنذر قومه أهل مدين، فأمرهم بعبادة الله وحده لا شريك له، وأن يخافوا بأس الله ونقمته وسطوته يوم القيامة، فقال: ﴿ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَارْجُوا الْيَوْمَ الْآخِرَ ﴾ معناه: واخشوا اليوم الآخر، وهذا كقوله تعالى: ﴿ لِمَنْ كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ ﴾ [المتحة: ٦]. ثم نهاهم عن العيث في الأرض بالفساد، وهو السعى فيها والبنى على أهلها، وذلك أنهم كانوا ينقصون المكيال والميزان، ويقطعون الطريق على الناس، هذا مع كفرهم بالله ورسوله، فأهلكهم الله برجفة عظيمة زلزلت عليهم بلادهم، وصيحة أخرجت القلوب من حناجرها، وعذاب يوم الظلة الذي أزهق الأرواح من مستقرها، إنه كان عذاب يوم عظيم. وقوله: ﴿ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جِثْمِينَ ﴾ قال قتادة: ميتين. وقال غيره: قد ألقى بعضهم على بعض.

﴿ وَعَادًا وَثَمُودًا وَقَدْ تَبَيَّنَ لَكُمْ مِنْ مَسْكِنِهِمْ وَزَيْنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَكَانُوا مُسْتَبْصِرِينَ ﴿٣٨﴾ وَقُرُونِ وَفِرْعَوْنَ وَهَمَانَ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مُوسَىٰ بِالْبَيِّنَاتِ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ وَمَا كَانُوا سَابِقِينَ ﴿٣٩﴾ فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذُنُوبِهِ فَمِنْهُمْ مَنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُمْ مَنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُمْ مَنْ خَسَفْنَا بِهِ الْأَرْضَ وَمِنْهُمْ مَنْ أَغْرَقْنَا وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٤٠﴾ ﴾

يخبر تعالى عن هؤلاء الأمم المكذبة للرسول كيف أبادهم وتنوع في عذابهم، وأخذهم بالانتقام منهم؛ فعاد قوم هود، وكانوا يسكنون الأحقاف وهي قريبة من حضرموت بلاد اليمن، وثمود قوم صالح، وكانوا يسكنون الحجر قريباً من وادي القرى. وكانت العرب تعرف مساكنهما جيداً، وتمر عليها كثيراً. وقارون صاحب الأموال الجزيلة ومفاتيح الكنوز الثقيلة. وفرعون ملك مصر في زمان موسى ووزيره هامان القبطيان الكافران بالله ورسوله، ﴿ فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذُنُوبِهِ ﴾ أى: كانت عقوبته بما يناسبه ﴿ فَمِنْهُمْ مَنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا ﴾، وهم عاد، وذلك أنهم قالوا: من أشد منا قوة؟ فجاءتهم ريح صرصر باردة شديدة البرد، عاتية شديدة الهبوب جداً، تحمل عليهم حصباء الأرض فتقلبها عليهم، وتقتلعهم من الأرض فترفع الرجل منهم إلى عتات السماء، ثم تنكسه على أم رأسه فتشدخه فيبقى بدنأ بلا رأس، كأنهم أعجاز نخل منقعر ﴿ وَمِنْهُمْ مَنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ ﴾، وهم ثمود، قامت عليهم الحجة وظهرت لهم الدلالة، من تلك الناقة التي انفلقت عنها الصخرة، مثل ما سألوا سواء بسواء، ومع هذا ما آمنوا بل استمروا على طغيانهم وكفرهم، وتهددوا نبي الله صالحاً ومن آمن معه، وتوعدوهم بأن يخرجوهم ويرجموهم،

فجاءتهم صبيحة أخدمت الأصوات منهم والحركات . ﴿ وَمِنْهُمْ مَنْ خَسَفْنَا بِهِ الْأَرْضَ ﴾ وهو قارون الذى طغى وبغى وعتا ، وعصى الرب الأعلى ، ومشى فى الأرض مرحاً ، وفرح ومرح وتاه بنفسه ، واعتقد أنه أفضل من غيره ، واختال فى مشيته ، فخسف الله به وبداره الأرض ، فهو يتجلجل فيها إلى يوم القيامة ﴿ وَمِنْهُمْ مَنْ أَعْرَقْنَا ﴾ ، وهم فرعون ووزيره هامان ، وجنوده عن آخرهم ، أغرقوا فى صبيحة واحدة ، فلم ينج منهم مخبر ، ﴿ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُظْلِمَهُمْ ﴾ أى : فيما فعل بهم ، ﴿ وَلَكِنْ كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾ أى : إنما فعل ذلك بهم جزاء وفاقا بما كسبت أيديهم . وهذا الذى ذكرناه ظاهر سياق الآية ، وهو من باب اللف والنشر ، وهو أنه ذكر الأمم المكذبة ، ثم قال : ﴿ فَكَلَّا أَخَذْنَا بِذُنُوبِهِ ﴾ الآية ، أى : من هؤلاء المذكورين .

﴿ مَثَلُ الَّذِينَ أَخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ كَمَثَلِ الْعَنْكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَيْتًا وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْعَنْكَبُوتِ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾ إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٤٢﴾ وَتِلْكَ الْأَمْثَلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ ﴿٤٣﴾﴾

هذا مثل ضربه الله تعالى للمشركين فى اتخاذهم آلهة من دون الله ، يرجون نصرهم ورزقهم ، ويتمسكون بهم فى الشدائد ، فهم فى ذلك كبيت العنكبوت فى ضعفه ووهنه فليس فى أيدي هؤلاء من آلهتهم إلا كمن يتمسك ببيت العنكبوت ، فإنه لا يجدى عنه شيئاً ، فلو علموا هذا الحال لما اتخذوا من دون الله أولياء ، وهذا بخلاف المسلم المؤمن لله ، وهو مع ذلك يحسن العمل فى اتباع الشرع فإنه مستمسك بالعروة الوثقى لا انفصام لها ، لقوتها وثباتها . ثم قال تعالى متوعداً لمن عبد غيره وأشرك به : إنه تعالى يعلم ما هم عليه من الأعمال ، ويعلم ما يشركون به من الأنداد ، وسيجزئهم وصفهم إنه حكيم عليم .

ثم قال تعالى : ﴿ وَتِلْكَ الْأَمْثَلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ ﴾ أى : وما يفهمها ويتدبرها إلا الراسخون فى العلم المتضلعون منه . روى الإمام أحمد عن عمرو بن العاص ، قال : عَقَلْتُ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ أَلْفَ مَثَلٍ (١) . وهذه منقبة عظيمة لعمرو بن العاص - رضى الله عنه - حيث يقول الله تعالى : ﴿ وَتِلْكَ الْأَمْثَلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ ﴾ .

﴿ خَلَقَ اللَّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٤﴾ أَتَى مَا أَوْحَى إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ وَأَقْبِرَ الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ ﴿٤٥﴾﴾

يقول تعالى مخبراً عن قدرته العظيمة : أنه خلق السموات والأرض بالحق ، يعنى : لا

(١) المسند (٤ / ٢٠٣) وقال الهيثمى فى الزوائد (٨ / ٢٦٧) : « إسناده حسن » .

على وجه العيب واللعب ﴿ لِتُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَى ﴾ [طه : ١٥] ، ﴿ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسَاءُوا بِمَا عَمِلُوا وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى ﴾ [النجم : ٣١] . وقوله : ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴾ أى : لدلالة واضحة على أنه تعالى المتفرد بالخلق والتدبير والإلهية .

ثم قال تعالى أمرا رسوله والمؤمنين بتلاوة القرآن، وهو قراءته وإبلاغه للناس : ﴿ وَأَقِمِ الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ ﴾ . يعنى : أن الصلاة تشتمل على شيئين : على ترك الفواحش والمنكرات ، أى : إن مواظبتها تحمل على ترك ذلك . وروى الإمام أحمد عن أبى هريرة قال : جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال : إن فلانا يصلى بالليل فإذا أصبح سرق ؟ فقال : « إنه سينهاه ما يقول » (١) . وتشتمل الصلاة أيضاً على ذكر الله تعالى ، وهو المطلوب الأكبر ؛ ولهذا قال تعالى : ﴿ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ ﴾ أى : أعظم من الاول ﴿ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ ﴾ أى : يعلم جميع أقوالكم وأعمالكم .

وقال أبو العالية فى قوله : ﴿ إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ ﴾ قال : إن الصلاة فيها ثلاث خلال ، فكل صلاة لا يكون فيها شيء من هذه الخلال فليست بصلاة : الإخلاص ، والخشية ، وذكر الله . فالإخلاص يأمره بالمعروف ، والخشية تنهاه عن المنكر ، وذكر القرآن يأمره وينهاه . وقال ابن عَوْنُ الأنصارى : إذا كنت فى صلاة فأنت فى معروف ، وقد حجزتك عن الفحشاء والمنكر ، والذى أنت فيه من ذكر الله أكبر . وقال حماد بن أبى سليمان : ﴿ إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ ﴾ يعنى : ما دمت فيها . وقال على بن أبى طلحة ، عن ابن عباس فى قوله : ﴿ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ ﴾ ، يقول : ولذكر الله لعباده أكبر ، إذا ذكروه من ذكرهم إياه . وكذا روى غير واحد عن ابن عباس . وبه قال مجاهد ، وغيره . وعن ابن عباس فى قوله : ﴿ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ ﴾ ، قال : لها وجهان ، قال : ذكر الله عندما حرمه ، قال : وذكر الله إياكم أعظم من ذكركم إياه . وقال ابن جرير عن عبد الله بن ربيعة قال : قال لى ابن عباس : هل تدرى ما قوله تعالى : ﴿ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ ﴾ ؟ قال : قلت : نعم . قال : فما هو ؟ قلت : التسبيح والتحميد والتكبير فى الصلاة ، وقراءة القرآن ، ونحو ذلك . قال : لقد قلت قولاً عجيباً ، وما هو كذلك ، ولكنه إنما يقول : ذكر الله إياكم عند ما أمر به أو نهى عنه إذا ذكرتموه ، أكبر من ذكركم إياه . وقد روى هذا من غير وجه عن ابن عباس . وروى أيضاً عن ابن مسعود ، وأبى الدرداء ، وسلمان الفارسى ، وغيرهم . واختاره ابن جرير .

﴿ وَلَا تَجْدِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ وَقُولُوا عَمَّا بِالذِّمَى أَنْزَلَ إِلَيْنَا وَأَنْزَلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَهُنَا وَإِلَهُكُمْ وَاحِدٌ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴾ (١)

الجزء
٢١

قال قتادة وغير واحد : هذه الآية منسوخة بآية السيف ، ولم يبق معهم مجادلة ، وإنما هو الإسلام أو الجزية أو السيف . وقال آخرون : بل هى باقية أو محكمة لمن أراد الاستبصار منهم

(١) المسند (٢ / ٤٤٧) وقال الهيثمى فى الزوائد (٢ / ٢٦١) : « رجاله رجال الصحيح » .

فى الدين ، فيجادل بالتي هى أحسن ، ليكون أنجع فيه ، كما قال تعالى : ﴿ ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ ﴾ [النحل : ١٢٥] ، وقال تعالى لموسى وهارون حين بعثهما إلى فرعون : ﴿ فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَيِّنًا لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى ﴾ [طه : ٤٤] . وهذا القول اختاره ابن جرير ، وحكاه عن ابن زيد . وقوله : ﴿ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ ﴾ أى : حادوا عن وجه الحق ، وعموا عن واضح المحجة ، وعاندوا وكابروا ، فحينئذ ينتقل من الجدال إلى الجلاد ، ويقاثلون بما يردعهم ويمنعهم ، قال الله تعالى : ﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مِنْ بَصُرِهِ وَسُلْطَهُ بِالغَيْبِ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴾ [الحديد : ٢٥] . قال مجاهد : ﴿ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ ﴾ ، يعنى : أهل الحرب ، ومن امتنع منهم عن أداء الجزية .

وقوله : ﴿ وَقُولُوا آمَنَّا بِالَّذِي أُنزِلَ إِلَيْنَا وَأُنزِلَ إِلَيْكُمْ ﴾ يعنى : إذا أخبروا بما لا يعلم صدقه ولا كذبه ، فهذا لا تقدم على تكذيبه لأنه قد يكون حقاً ، ولا على تصديقه ، فلعله أن يكون باطلا ، ولكن نؤمن به إيمانا مجملا معلقا على شرط وهو أن يكون منزلا ، لا مبدلاً ولا مؤولاً . وروى البخارى عن أبى هريرة قال : كان أهل الكتاب يقرؤون التوراة بالعبرانية ، ويفسرونها بالعربية لأهل الإسلام ، فقال رسول الله ﷺ : « لا تصدقوا أهل الكتاب ولا تكذبوهم ، وقولوا : آمنا بالله وما أنزل إلينا وما أنزل إليكم ، وإلهانا وإلهكم واحد ، ونحن له مسلمون » : وهذا الحديث تفرد به البخارى (١) .

﴿ وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ فَالَّذِينَ ءَاتَيْنَهُمُ الْكِتَابَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَمِنْ هَؤُلَاءِ مَنْ يُؤْمِنُ بِهِ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا الْكَافِرُونَ ﴿٤٧﴾ وَمَا كُنْتَ تَسْمَعُ مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلَا تَخْطُهُ بِيَمِينِكَ إِذَا لَازَتْكَ الْمُبْتَلُونَ ﴿٤٨﴾ بَلْ هُوَ آيَاتٌ يَنْزِلُ فِي صُورِ الَّذِينَ أَوْتُوا الْعِلْمَ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا الظَّالِمُونَ ﴿٤٩﴾ ﴾

قال ابن جرير : يقول الله تعالى : كما أنزلنا الكتب على من قبلك - يا محمد - من الرسل ، كذلك أنزلنا إليك هذا الكتاب . وهذا الذى قاله حسن ومناسبة وارتباط جيد .

وقوله : ﴿ فَالَّذِينَ ءَاتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يُؤْمِنُونَ بِهِ ﴾ أى : الذين أخذوه فتلوه حتى تلاوته من أحبارهم العلماء الأذكىاء ، كعبد الله بن سلام ، وسلمان الفارسى ، وأشباههما . وقوله : ﴿ وَمِنْ هَؤُلَاءِ مَنْ يُؤْمِنُ بِهِ ﴾ يعنى : العرب من قريش وغيرهم ﴿ وما يجحد بآياتنا إلا الكافرون ﴾ أى : ما يكذب بها ويجحد حقها إلا من يستر الحق بالباطل ، ويغشى ضوء الشمس بالوصائل ، وهيهات . ثم قال تعالى : ﴿ وَمَا كُنْتَ تَسْمَعُ مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلَا تَخْطُهُ بِيَمِينِكَ ﴾ أى : قد لبثت فى قومك - يا محمد - ومن قبل أن تأتى بهذا القرآن عمراً لا تقرأ كتابا ولا تحسن الكتابة ، بل كل أحد من قومك

وغيرهم يعرف أنك رجل أمي لا تقرأ ولا تكتب . وهكذا صفته في الكتب المتقدمة ، كما قال تعالى : ﴿ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ ﴾ [الأعراف : ١٥٧] .

وقوله : ﴿ إِذَا لَارْتَابَ الْمُبْطِلُونَ ﴾ أى : لو كنت تحسنها لارتاب بعض الجهلة من الناس فيقول : إنما تعلم هذا من كُتُب قبله ماثورة عن الأنبياء ، مع أنهم قالوا ذلك مع علمهم بأنه أمي لا يحسن الكتابة : ﴿ وَقَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَى عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴾ [الفرقان : ٥] ، قال الله تعالى : ﴿ قُلْ أَنْزَلَهُ الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا ﴾ [الفرقان : ٦] ، وقال هاهنا : ﴿ بَلْ هُوَ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ ﴾ أى : القرآن آيات بينة واضحة فى الدلالة على الحق ، أمرا ونهيا وخبرا ، يحفظه العلماء ، يسره الله عليهم حفظاً وتلاوةً وتفسيراً ، كما قال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ ﴾ [القمر : ١٧] ، وقال رسول الله ﷺ : « ما من نبي إلا وقد أعطى ما آمن على مثله البشر وإنما كان الذى أوتيته وحياً أوحاه الله إلى ، فأرجو أن أكون أكثرهم تابعا » (١) . وفى حديث عياض بن حمار ، فى صحيح مسلم : « يقول الله تعالى : إني مبتليك ومبتل بك ، ومنزل عليك كتاباً لا يغسله الماء ، تقرؤه نائماً ويقظان » .

أى : لو غسل الماء المحل المكتوب فيه لما احتيج إلى ذلك المحل ، كما جاء فى الحديث الآخر : « لو كان القرآن فى إهاب ، ما أحرقته النار » لأنه محفوظ فى الصدور ، ميسر على الألسنة ، مهيمن على القلوب ، معجز لفظاً ومعنى ؛ ولهذا جاء فى الكتب المتقدمة ، فى صفة هذه الأمة : « أناجيلهم فى صدورهم » .

واختار ابن جرير أن المعنى فى قوله تعالى : ﴿ بَلْ هُوَ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ ﴾ ، بل العلم بأنك ما كنت تتلو من قبل هذا الكتاب كتاباً ولا تخطه يمينك ، آيات بينات فى صدور الذين أوتوا العلم من أهل الكتاب . ونقله عن قتادة ، وابن جرير . وحكى الأول عن الحسن البصرى فقط . قلت : وهو الذى رواه العوفى عن عبد الله بن عباس ، وقاله الضحاك ، وهو الأظهر ، والله أعلم . وقوله : ﴿ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا الظَّالِمُونَ ﴾ أى : ما يكذب بها ويبخس حقها ويردها إلا الظالمون ، أى : المعتدون المكابرون ، الذين يعلمون الحق ويحيدون عنه ، كما قال تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ . وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّى يَرَوْا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ ﴾ [يونس : ٩٦ ، ٩٧] .

﴿ وَقَالُوا لَوْلَا أَنْزَلَ عَلَيْهِ آيَاتٌ مِّن رَّبِّهِ قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِنْدَ اللَّهِ وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٥٠﴾ أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَى عَلَيْهِمْ إِنَّكَ فِي ذَلِكَ لَرَحْمَةٌ وَذِكْرَى لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٥١﴾ قُلْ كَفَى بِاللَّهِ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ شَهِيدًا يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا بِالْبَطْلِ وَكَفَرُوا بِاللَّهِ أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴿٥٢﴾ ﴾

يقول تعالى مخبراً عن المشركين في تعنتهم وطلبهم آيات - يعنون - ترشدكم إلى أن محمداً رسول الله كما جاء صالح بناقته، قال الله تعالى : ﴿ قُلْ ﴾ يا محمد : ﴿ إِنَّمَا الآياتُ عِنْدَ اللَّهِ ﴾ أى : إنما أمر ذلك إلى الله، فإنه لو علم أنكم تهتدون لأجابكم إلى سؤالكم؛ لأن ذلك سهل عليه ، يسير لديه، ولكنه يعلم منكم أنما قصدكم التعنت والامتحان، فلا يجيبكم إلى ذلك، كما قال تعالى : ﴿ وَمَا مَنَعَنَا أَنْ نُرْسِلَ بِالآياتِ إِلَّا أَنْ كَذَّبَ بِهَا الْأَوَّلُونَ وَآتَيْنَا ثَمُودَ النَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا بِهَا ﴾ [الإسراء : ٥٩] . وقوله : ﴿ وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴾ أى : إنما بعثت نذيراً لكم بين النذارة فعلى أن أبلغكم رسالة الله و ﴿ مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَنْ يُضِلِّ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ وَلِيًّا مُرْشِدًا ﴾ [الكهف : ١٧] ، وقال تعالى : ﴿ لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ ﴾ [البقرة : ٢٧٢] .

ثم قال تعالى مبينا كثرة جهلهم ، وسخافة عقلمهم ، حيث طلبوا آيات تدلهم على صدق محمد فيما جاءهم به - وقد جاءهم بالكتاب العزيز الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد، الذى هو أعظم من كل معجزة ، إذ عجزت الفصحاء والبلغاء عن معارضته ، بل عن معارضة عشر سور من مثله ، بل عن معارضة سورة منه - فقال تعالى : ﴿ أَوْ لَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ﴾ أى : أو لم يكفهم آية أنا أنزلنا عليك هذا الكتاب العظيم، الذى فيه خبر ما قبلهم، ونبا ما بعدهم ، وحكم ما بينهم ، وأنت رجل أسمى لا تقرأ ولا تكتب ، ولم تخالط أحدا من أهل الكتاب، فجتتهم بأخبار ما فى الصحف الأولى ، بيان الصواب مما اختلفوا فيه ، وبالحق الواضح البين الجلى ، كما قال تعالى : ﴿ أَوَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ آيَةٌ أَنْ يَعْلَمَهُ عُلَمَاءُ بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴾ [الشعراء : ١٩٧] وقال تعالى : ﴿ وَقَالُوا لَوْلَا يَأْتِينَا بِآيَةٍ (١) مِنْ رَبِّهِ أَوَلَمْ تَأْتِهِمْ بَيِّنَةٌ مَافِي الصُّحُفِ الْأُولَىٰ ﴾ [طه : ١٣٣] . وروى الإمام أحمد عن أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « ما من الأنبياء من نبي إلا قد أعطى من الآيات ما مثله آمن عليه البشر ، وإنما كان الذى أوتيته وحياً أوحاه الله إلى ، فأرجو أن أكون أكثرهم تابِعاً يوم القيامة » . أخرجاه من حديث الليث (٢) . وقال الله تعالى : ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ أى : إن فى هذا القرآن ﴿ لَرَحْمَةً ﴾ أى : بياناً للحق ، وإزاحة للباطل ﴿ وَذِكْرَى ﴾ بما فيه حلول النقمات ونزول العقاب بالمكذبين والعاصين ﴿ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ .

ثم قال تعالى : ﴿ قُلْ كَفَىٰ بِاللَّهِ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ شَهِيدًا ﴾ أى : هو أعلم بما تفيضون فيه من التكذيب، ويعلم ما أقول لكم من إخبارى عنه، بأنه أرسلنى، فلو كنت كاذبا عليه لانتقم منى ، كما قال تعالى : ﴿ وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضُ الْأَقَاوِيلِ . لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ . ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ . فَمَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ ﴾ [الحاقة : ٤٤ - ٤٧] ، وإنما أنا صادق عليه فيما أخبرتكم به ، ولهذا أيدنى بالمعجزات الواضحات ، والدلائل القاطعات . ﴿ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ أى : لا تخفى عليه خافية ﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا بِالْبَاطِلِ وَكَفَرُوا بِاللَّهِ أُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴾ أى : يوم معادهم سيجزيهم

(١) فى المخطوطة : « وقالوا لولا أنزل عليه آية » وهو خطأ ، صوابه ما أثبتناه .

(٢) مضى تخريجه فى الصفحة السابقة .

على ما فعلوا، ويقابلهم على ما صنعوا ، من تكذيبهم بالحق واتباعهم الباطل ، كذبوا برسول الله مع قيام الأدلة على صدقهم ، وآمنوا بالطواغيت والأوثان بلا دليل ، سيجازيهم على ذلك ، إنه حكيم عليهم .

﴿ وَسَتَعْلَمُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَوْلَا أَجَلٌ مُّسَمًّى لَجَاءَهُمُ الْعَذَابُ وَلَيَأْتِيَنَّهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴾ ﴿٥٣﴾ يَسْتَعْلَمُونَكَ بِالْعَذَابِ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ ﴿٥٤﴾ يَوْمَ يَغْشَاهُمْ الْعَذَابُ مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ وَيَقُولُ ذُوقُوا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٥٥﴾

يقول تعالى مخبراً عن جهل المشركين في استعجالهم عذاب الله أن يقع بهم ، وبأس الله أن يحل عليهم ، كما قال تعالى : ﴿ وَإِذْ قَالُوا اللَّهُمَّ إِن كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِنَ السَّمَاءِ أَوْ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ [الانفال : ٣٢] ، وقال هاهنا : ﴿ وَسَتَعْلَمُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَوْلَا أَجَلٌ مُّسَمًّى لَجَاءَهُمُ الْعَذَابُ ﴾ أى : لولا ما حتم الله من تأخير العذاب إلى يوم القيامة لجاءهم العذاب قريباً سريعاً كما استعجلوه . ثم قال ﴿ وَلَيَأْتِيَنَّهُمْ بَغْتَةً ﴾ أى : فجأة ﴿ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ . يَسْتَعْلَمُونَكَ بِالْعَذَابِ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ ﴾ أى : يستعجلون بالعذاب ، وهو واقع بهم لا محالة . قال شعبة ، عن سماك ، عن عكرمة قال فى قوله : ﴿ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ ﴾ ، قال : البحر .

ثم قال عز وجل : ﴿ يَوْمَ يَغْشَاهُمْ الْعَذَابُ مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ ﴾ ، كقوله تعالى : ﴿ لَهُمْ مِنْ جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِنْ فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ ﴾ [الاعراف : ٤١] ، وقال تعالى : ﴿ لَهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِنَ النَّارِ وَمِنْ تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ ﴾ [الزمر : ١٦] ، وقال تعالى : ﴿ لَوْ يَعْلَمُ الَّذِينَ كَفَرُوا حِينَ لَا يَكْفُرُونَ عَنْ وُجُوهِهِمُ النَّارَ وَلَا عَنْ ظُهُورِهِمْ ﴾ [الانبياء : ٣٩] ، فالنار تغشاهم من سائر جهاتهم ، وهذا أبلغ فى العذاب الحسى .

وقوله تعالى : ﴿ وَيَقُولُ ذُوقُوا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ تهديد وتقريع وتوبيخ ، وهذا عذاب معنوى على النفوس ، كقوله تعالى : ﴿ يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِي النَّارِ عَلَى وُجُوهِهِمْ ذُوقُوا مَسَّ سَقَرَ . إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ ﴾ [القمر : ٤٨ ، ٤٩] ، وقال : ﴿ يَوْمَ يُدْعَوْنَ إِلَى نَارِ جَهَنَّمَ دَعَاً . هَذِهِ النَّارُ الَّتِي كُنْتُمْ بِهَا تَكْذِبُونَ . أَفَسِحْرٌ هَذَا أَمْ أَنْتُمْ لَا تُبْصِرُونَ . اصْلَوْهَا فَاصْبِرُوا أَوْ لَا تَصْبِرُوا سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ إِنَّمَا تُجْرُونَ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ [الطور : ١٣ - ١٦]

﴿ يَبْعَادَى الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنِ ارْتَضَىٰ وَسِيعَةٌ فَاِتَىٰ فَاَعْبُدُونِ ﴾ ﴿٥٦﴾ كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ ثُمَّ اِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ﴿٥٧﴾ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُبَوِّئَنَّهُمْ مِنَ الْجَنَّةِ غُرَفًا تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْاَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا نِعْمَ اَجْرُ الْعَمِلِينَ ﴿٥٨﴾ الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٥٩﴾ وَكَانَ مِنْ دَابَّةٍ لَا تَحْمِلُ رِزْقَهَا اللَّهُ يَرْزُقُهَا وَاِيَّاكُمْ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٦٠﴾

هذا أمر من الله لعباده المؤمنين بالهجرة من البلد الذى لا يقدرين فيه على إقامة الدين ،

إلى أرض الله الواسعة، حيث يمكن إقامة الدين، بأن يوحدوا الله ويعبدوه كما أمرهم؛ ولهذا قال تعالى: ﴿يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ أَرْضِي وَاسِعَةٌ فَإِيَّايَ فَاعْبُدُون﴾. ولهذا ضاق على المستضعفين بمكة مقامهم بها ، خرجوا مهاجرين إلى أرض الحبشة ، ليؤمنوا ، على دينهم هناك ، فوجدوا هناك خير المنزلين، أصحمة النجاشي ملك الحبشة، رحمها الله ، آواهم وأيدهم بنصره ، وجعلهم سيوما ببلاده . ثم بعد ذلك هاجر رسول الله ﷺ وأصحابه الباقون إلى المدينة النبوية يثرب المطهرة .

ثم قال تعالى : ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ ثُمَّ إِلَيْنَا تُرْجَعُونَ﴾ أي : أينما كنتم يدرككم الموت ، فكونوا في طاعة الله وحيث أمركم الله، فهو خير لكم ، فإن الموت لا بد منه ، ولا محيد عنه ، ثم إلى الله المرجع ، فمن كان مطيعا له جازاه أفضل الجزاء ، ووفاه أتم الثواب ؛ ولهذا قال : ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُبَوِّئَنَّهُمْ مِنَ الْجَنَّةِ غُرَفًا تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ أي : لنسكنهم منازل عالية في الجنة تجري من تحتها الأنهار، على اختلاف أصنافها ، من ماء وخمر ، وعسل ولبن ، يصفونها ويجرونها حيث شاؤوا ﴿خَالِدِينَ فِيهَا﴾ أي : ماكين فيها أبدا لا يبغون عنها حولا ﴿نِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ﴾ : نعمت هذه الغرف أجرا على أعمال المؤمنين ، ﴿الَّذِينَ صَبَرُوا﴾ أي : على دينهم ، وهاجروا إلى الله ، ونابذوا الأعداء ، وفارقوا الأهل والأقرباء ، ابتغاء وجه الله ، ورجاء ما عنده وتصديق موعوده ﴿وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ في أحوالهم كلها ، في دينهم ودنياهم .

ثم أخبرهم تعالى أن الرزق لا يختص ببقعة، بل رزقه تعالى عام لخلقه حيث كانوا وأين كانوا ، بل كانت أرزاق المهاجرين حيث هاجروا أكثر وأوسع وأطيب ، فإنهم بعد قليل صاروا حكام البلاد في سائر الاقطار والأمصار؛ ولهذا قال : ﴿وَكَايِنٍ مِنْ دَابَّةٍ لَّا تَحْمِلُ رِزْقَهَا﴾ أي : لا تطيق جمعه وتحصيله ولا تدخر شيئا لغد ، ﴿اللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ﴾ أي : الله يقيض لها رزقها على ضعفها ، ويسره عليها، فيبعث إلى كل مخلوق من الرزق ما يصلحه ، حتى الذر في قرار الأرض ، والطير في الهواء والحيتان في الماء، قال الله تعالى : ﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعُهَا كُلٌّ فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾ [هود : ٦] . وقوله تعالى : ﴿وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ أي : السميع لاقوال عباده ، العليم بحركاتهم وسكناتهم .

﴿وَلَيْنَ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لِيَقُولَنَّ اللَّهُ فَإِنِّي يُؤْفِكُونَ﴾ ﴿١١﴾ **اللَّهُ يَسُطُّ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ**

﴿١٢﴾ **وَلَيْنَ سَأَلْتَهُمْ مَنْ نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِ مَوْتِهَا لِيَقُولَنَّ اللَّهُ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ** ﴿١٣﴾

يقول تعالى مقرا أنه لا إله إلا هو ؛ لأن المشركين - الذين يعبدون معه غيره - معترفون بأنه المستقل بخلق السموات والأرض والشمس والقمر، وتسخير الليل والنهار ، وأنه الخالق الرازق لعباده، ومقدر آجالهم، واختلافها واختلاف أرزاقهم ففاوت بينهم، فمنهم الغنى والفقير ،

وهو العليم بما يصلح كلا منهم ، ومن يستحق الغنى بمن يستحق الفقر ، فذكر أنه المستبد بخلق الأشياء المتفرد بتدبيرها ، فإذا كان الأمر كذلك فلم يُعبد غيره ؟ ولم يتوكل على غيره ؟ فكما أنه الواحد في ملكه فليكن الواحد في عبادته ، وكثيراً ما يقرر تعالى مقام الإلهية بالاعتراف بتوحيد الربوبية . وقد كان المشركون يعترفون بذلك، كما كانوا يقولون في تليبتهم: « لبيك لا شريك لك ، إلا شريكاً هو لك ، تملكه وما ملك » .

﴿ وَمَا هَذِهِ الْحَيَوةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَهُوٌّ وَلَعِبٌ وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴿١٤﴾ فَإِذَا رَكِبُوا فِي السَّمَاءِ دَعَاُ اللهُ الْمُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ ﴿١٥﴾ لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ وَلِيَتَمَنَّعُوا فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿١٦﴾ ﴾

يقول تعالى مخبراً عن حقارة الدنيا وزوالها وانقضائها ، وأنها لا دوام لها ، وغاية ما فيها لهو ولعب : ﴿ وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ ﴾ أى : الحياة الدائمة الحق الذى لا زوال لها ولا انقضاء ، بل هى مستمرة أبد الأباد ﴿ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴾ أى : لآثروا ما يقضى على ما يفنى . ثم أخبر تعالى عن المشركين أنهم عند الاضطراب يدعونه وحده لا شريك له ، فهلا يكون هذا منهم دائماً ﴿ فَإِذَا رَكِبُوا فِي السَّمَاءِ دَعَاُ اللهُ الْمُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ ﴾ ، كقوله : ﴿ وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَنْ تَدْعُونَ إِلَّا إِلَهُهُ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ ﴾ [الإسراء : ٦٧] . وقال هاهنا : ﴿ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ ﴾ . وقد ذكر محمد بن إسحاق ، عن عكرمة بن أبى جهل : أنه لما فتح رسول الله ﷺ مكة ذهب فاراً منها ، فلما ركب فى البحر ليذهب إلى الحبشة ، اضطربت بهم السفينة ، فقال أهلها : يا قوم ، اخلصوا لربكم الدعاء ، فإنه لا ينجى ههنا إلا هو . فقال عكرمة : والله إن كان لا ينجى فى البحر غيره ، فإنه لا ينجى غيره فى البر أيضاً ، اللهم لك على عهد لئن خرجت لأذهبن فلاضعن يدي فى يد محمد فلاجدنه رؤوفاً رحيماً ، وكان كذلك .

وقوله : ﴿ لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ وَلِيَتَمَنَّعُوا ﴾ : هذه اللام لام العاقبة ؛ لأنهم لا يقصدون ذلك ، ولا شك أنها كذلك بالنسبة إليهم ، وأما بالنسبة إلى تقدير الله عليهم ذلك وتقيضه إياهم لذلك فهى لام التعليل . وقد قدمنا تقرير ذلك فى قوله : ﴿ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا ﴾ [القصص : ٨] .

﴿ أَوْلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا ءَامِنًا وَنُحِطُّهُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ أَفَبِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِعِصْمَةِ اللَّهِ يَكْفُرُونَ ﴿١٧﴾ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَافِرِينَ ﴿١٨﴾ وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ ﴿١٩﴾ ﴾

يقول تعالى ممتناً على قریش فيما أحلهم من حرمة ، الذى جعله للناس سواء العاكف فيه والباد ، ومن دخله كان آمناً ، فهم فى أمن عظيم ، والأعراب حوله ينهب بعضهم بعضاً

ويقتل بعضهم بعضا، كما قال تعالى ﴿ لِإِيلَافِ قُرَيْشٍ ﴾ إلى آخر السورة [قريش : ١ - ٤] .
 وقوله تعالى : ﴿ أَفَبِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ اللَّهِ يَكْفُرُونَ ﴾ أى : أفكان شكرهم على هذه النعمة
 العظيمة أن أشركوا به ، وعبدوا معه الأصنام والأنداد ، و ﴿ بَدَلُوا نِعْمَتَ اللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ
 الْبُورِ ﴾ [إبراهيم : ٢٨] ، وكفروا بنبى الله وعبده ورسوله، فكان اللائق بهم إخلاص العبادة لله ،
 وألا يشركوا به ، وتصديق الرسول وتعظيمه وتوقيره ، فكذبوه وقتلوه وأخرجوه من بين
 ظهرهم ؛ ولهذا سلبهم الله ما كان أنعم به عليهم ، وقتل من قتل منهم بيدى ، وصارت الدولة
 لله ولرسوله وللمؤمنين ، ففتح الله على رسوله مكة ، وأرغم آنافهم وأذل رقابهم .

ثم قال تعالى : ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُ ﴾ أى : لا أحد أشد
 عقوبة ممن كذب على الله فقال : إن الله أوحى إليه شىء ولم يوح إليه شىء . ومن قال :
 سأنزل مثل ما أنزل الله . وهكذا لا أحد أشد عقوبة ممن كذب بالحق لما جاءه ، فالأول مفتر ،
 والثانى مكذب ؛ ولهذا قال : ﴿ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَافِرِينَ ﴾ . ثم قال ﴿ وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا ﴾
 يعنى : الرسول ، صلوات الله وسلامه عليه ، وأصحابه وأتباعه إلى يوم الدين ، ﴿ لَنَهْدِيَنَّهُمْ
 سُبُلَنَا ﴾ أى : لنُبصِّرَنَّهُمْ سبُلَنَا ، أى : طرقتنا فى الدنيا والآخرة ﴿ وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ ﴾ قال ابن
 عباس : الذين يعملون بما يعلمون ، يهديهم لما لا يعلمون . قال أحمد بن أبى الحوارى :
 فحدثت به أبا سليمان الدارانى فأعجبه ، وقال : ليس ينبغى لمن ألهم شيئا من الخير أن يعمل به
 حتى يسمعه فى الأثر ، فإذا سمعه فى الأثر عمل به ، وحمد الله حين وافق ما فى قلبه .

تفسير سورة الروم

وهي مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

ربع

﴿ ١ ﴾ اَلَمْ غَلَبَتْ الرُّومُ ﴿ ٢ ﴾ فِي اَدْنَى الْاَرْضِ وَهُمْ مِنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ ﴿ ٣ ﴾ فِي بِضْعِ سِنِينَ ﴿ ٤ ﴾ لِلّٰهِ الْاَمْرُ مِنْ قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ ﴿ ٥ ﴾ يَنْصُرُ اللّٰهُ يَنْصُرُ مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿ ٦ ﴾ وَعَدَّ اللّٰهُ لَا يَخْلِفُ اللّٰهُ وَعْدَهُ وَلٰكِنَّ اَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿ ٧ ﴾ يَعْلَمُونَ ظَهْرًا مِنَ الْحَيٰوةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غٰفِلُونَ ﴿ ٧ ﴾

نزلت هذه الآيات حين غلب سابور ملك الفرس على بلاد الشام وما والاها من بلاد الجزيرة واقاصى بلاد الروم ، فاضطر هرقل ملك الروم حتى اُجاء إلى القسطنطينية ، وحاصره فيها مدة طويلة ، ثم عادت الدولة لهرقل كما سيأتى .

روى الإمام أحمد عن ابن عباس فى قوله تعالى : ﴿ اَلَمْ غَلَبَتْ الرُّومُ . فى اَدْنَى الْاَرْضِ ﴾ ، قال : غَلَبَتْ وَغَلَبَتْ . قال : كان المشركون يحبون أن تظهر فارس على الروم ؛ لأنهم أصحاب أوثان ، وكان المسلمون يحبون أن تظهر الروم على فارس ؛ لأنهم أهل كتاب ، فذكر ذلك لأبى بكر ، فذكره أبو بكر لرسول الله ﷺ ، فقال رسول الله ﷺ : « أما إنهم سيغلبون » . فذكره أبو بكر لهم ، فقالوا : اجعل بيننا وبينك أجلا ، فإن ظهرنا كان لنا كذا وكذا ، وإن ظهرتم كان لكم كذا وكذا . فجعل أجلا خمس سنين ، فلم يظهروا ، فذكر ذلك أبو بكر لرسول الله ﷺ فقال : « ألا جعلتها إلى دُونِ » أراه قال : « العشر » . قال سعيد بن جبير : البضع ما دون العشر . ثم ظهرت الروم بعد ، قال : فذلك قوله : ﴿ اَلَمْ غَلَبَتْ الرُّومُ . فى اَدْنَى الْاَرْضِ وَهُمْ مِنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ ﴾ إلى قوله : ﴿ وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴾ . هكذا رواه الترمذى والنسائى جميعا ، وقال الترمذى : حسن غريب (١) .

وعن مسروق قال : قال عبد الله : خمس قد مضين : الدخان ، واللزام ، والبطشة ، والقمر ، والروم . أخرجه (٢) .

وروى ابن جرير عن عبد الله بن مسعود قال : كانت فارس ظاهرة على الروم ، وكان المشركون يحبون أن تظهر فارس على الروم ، وكان المسلمون يحبون أن تظهر الروم على فارس ؛ لأنهم أهل كتاب وهم أقرب إلى دينهم ، فلما نزلت : ﴿ اَلَمْ غَلَبَتْ الرُّومُ . فى اَدْنَى الْاَرْضِ وَهُمْ مِنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ ﴾ إلى قوله : ﴿ وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴾ .

(١) المسند (٢٧٦/١) وقال الشيخ أحمد شاكر : « إسناده صحيح » والترمذى (٣١٩٣) والنسائى فى الكبرى (١١٣٨٩) .

(٢) البخارى (٤٧٦٧) ومسلم (٢٧٩٨ / ٣٩) .

بَعْدَ غَلْبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ . فِي بَضْعِ سِنِينَ ﴿ ، قالوا : يا أبا بكر، إن صاحبك يقول: إن الروم تظهر على فارس في بضع سنين؟! قال : صدق . وقالوا : هل لك إلى أن نقامرك ؟ فبايعوه على أربع قلائص إلى سبع سنين ، فمضت السبع ولم يكن شيء ففرح المشركون بذلك وشق على المسلمين ، فذكر ذلك للنبي ﷺ ، فقال : « ما بضع سنين عندكم ؟ » قالوا : دون العشر . قال : « اذهب فزايدهم وازدد سنتين في الأجل » . قال : فما مضت الستان حتى جاءت الركبان بظهور الروم على فارس ، ففرح المؤمنون بذلك ، وأنزل الله تعالى : ﴿ آتَمَّ . غَلَبَتِ الرُّومُ ﴾ ، إلى قوله : ﴿ وَعَدَّ اللَّهُ لَا يُخْلِفُ اللَّهُ وَعْدَهُ ﴾ (١) .

وروى أبو عيسى الترمذى عن نيار بن مكرم الأسلمى قال : لما نزلت ﴿ آتَمَّ . غَلَبَتِ الرُّومُ ﴾ . فِي أَدْنَى الْأَرْضِ وَهُمْ مِنْ بَعْدِ غَلْبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ . فِي بَضْعِ سِنِينَ ﴿ ، فكانت فارس يوم نزلت هذه الآية قاهرين للروم ، وكان المسلمون يحبون ظهور الروم عليهم ؛ لأنهم وإياهم أهل كتاب ، وفي ذلك قوله : ﴿ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ . بِنَصْرِ اللَّهِ يَنْصِرُ مَنْ يُشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴾ ، وكانت قريش تحب ظهور فارس لأنهم وإياهم ليسوا بأهل كتاب ولا إيمان بيعت ، فلما أنزل الله هذه الآية خرج أبو بكر يصيح في نواحي مكة : ﴿ آتَمَّ . غَلَبَتِ الرُّومُ ﴾ . فِي أَدْنَى الْأَرْضِ وَهُمْ مِنْ بَعْدِ غَلْبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ ﴿ فقال ناس من قريش لأبي بكر: فذاك بيننا وبينكم ؟ زعم صاحبكم أن الروم ستغلب فارس في بضع سنين ، أفلا نراهنك على ذلك ؟ قال : بلى - وذلك قبل تحريم الرهان - فارتهن أبو بكر والمشركون ، وتواضعوا الرهان، وقالوا لأبي بكر : كم تجعل البضع : ثلاث سنين إلى تسع سنين ، فسمّ بيننا وبينك وسطاً تنتهى إليه . قال : فسموا بينهم ست سنين . قال : فمضت ست السنين قبل أن يظهروا ، فأخذ المشركون رهن أبى بكر ، فلما دخلت السنة السابعة ظهرت الروم على فارس ، فعاب المسلمون على أبى بكر تسمية ست سنين ، قال : لأن الله قال : في بضع سنين . قال : فأسلم عند ذلك ناس كثير . هكذا ساقه الترمذى، ثم قال: هذا حديث حسن صحيح (٢) ، وقد روى نحو هذا مراسلا عن جماعة من التابعين، مثل عكرمة، والشعبى، ومجاهد ، وقتادة ، وغيرهم .

ولتكلم على كلمات هذه الآيات الكريمة، فقله تعالى: ﴿ آتَمَّ . غَلَبَتِ الرُّومُ ﴾ قد تقدم الكلام على الحروف المقطعة فى أوائل السور ، فى أول سورة « البقرة » . وأما الروم فهم من سلالة العيص بن إسحاق بن إبراهيم، وهم أبناء عم بنى إسرائيل ، ويقال لهم : بنو الأصفر . وكانوا على دين اليونان ، واليونان من سلالة يافث بن نوح، أبناء عم الترك . وكانوا يعبدون الكواكب السيارة السبعة، ويقال لها : المتحيرة ، ويصلون إلى القطب الشمالى، وهم الذين أسسوا دمشق ، وبنوا معبدها ، وفيه محاريب إلى جهة الشمال ، فكان الروم على دينهم إلى بعد مبعث المسيح بنحو من ثلاثمائة سنة، وكان من ملك الشام مع الجزيرة منهم يقال له: قيصر . فكان أول من دخل فى دين النصرى من الملوك قسطنطين بن قسطنس ، وأمه مريم الهيلانية الشدقانية من أرض

حران ، كانت قد تنصرت قبله ، فدعته إلى دينها ، وكان قبل ذلك فيلسوفا ، فتابعها - يقال : تَقِيَّةٌ - واجتمعت به النصارى ، وتناظروا في زمانه مع عبد الله بن أريوس ، واختلفوا اختلافا كثيرا منتشرًا منتشرًا لا ينضب ، إلا أنه اتفق من جماعتهم ثلاثمائة وثمانية عشر أسقفًا ، فوضعوا لقسطنطين العقيدة ، وهي التي يسمونها الأمانة الكبيرة ، وإنما هي الخيانة الحقيرة ، ووضعوا له القوانين - يعنون : كتب الأحكام من تحليل وتحريم وغير ذلك مما يحتاجون إليه ، وغيروا دين المسيح عليه السلام ، وزادوا فيه ونقصوا منه . وفصلوا إلى المشرق واعتاضوا عن السبت بالأحد ، وعبدوا الصليب وأحلوا الخنزير . واتخذوا أعيادا أحدثوها كعيد الصليب والقداس والغطاس ، وغير ذلك من البواعيث والشعائين ، وجعلوا له الباب وهو كبيرهم ، ثم البتاركة ، ثم المطارنة ، ثم الأساقفة والقساوسة ، ثم الشمامسة . وابتدعوا الرهبانية . وبنى لهم الملك الكنائس والمعابد ، وأسس المدينة المنسوبة إليه وهي القسطنطينية ، يقال : إنه بنى في أيامه اثني عشر ألف كنيسة ، وبنى بيت لحم بثلاثة محاريب ، وبنيت أمه القمامة ، وهؤلاء هم الملكية ، يعنون الذين هم على دين الملك .

ثم حدثت بعدهم اليعقوبية أتباع يعقوب الإسكاف ، ثم النسطورية أصحاب نسطورا ، وهم فرق وطوائف كثيرة ، كما قال رسول الله ﷺ : « إنهم افرقوا على اثنتين وسبعين فرقة » (١) . والغرض أنهم استمروا على النصرانية ، كلما هلك قيصر خلفه آخر بعده ، حتى كان آخرهم هرقل . وكان من عقلاء الرجال ، ومن أحزم الملوك وأدهاهم ، وأبعدهم غورا وأقصاهم رأيا ، فتملك عليهم في رياسة عظيمة وأبهة كبيرة فناواه كسرى ملك الفرس ، وملك البلاد كالعراق وخراسان والري ، وجميع بلاد العجم ، وهو سابور ذو الأكتاف . وكانت مملكته أوسع من مملكة قيصر . وله رياسة العجم وحماقة الفرس ، وكانوا مجوسا يعبدون النار . والمشهور أن كسرى غزاه بنفسه في بلاده فقهره وكسره وقصره ، وحتى لم يبق معه سوى مدينة قسطنطينية . فحاصره بها مدة طويلة حتى ضاقت عليه ، وكانت النصارى تعظمه تعظيمًا زائدًا ، ولم يقدر كسرى على فتح البلد ، ولا أمكنه ذلك لحصانتها ؛ لأن نصفها من ناحية البر ونصفها الآخر من ناحية البحر ، فكانت تأتيهم الميرة والمدد من هنالك ، فلما طال الأمر دبر قيصر مكيدة ، ورأى في نفسه خديعة ، فطلب من كسرى أن يقلع عن بلاده على مال يصلحه عليه ، ويشترط عليه ما شاء . فأجابته إلى ذلك ، وطلب منه أموالا عظيمة لا يقدر عليها أحد من ملوك الدنيا ، من ذهب وجواهر وأقمشة وجوار وخدام وأصناف كثيرة . فطاوعه قيصر ، وأوهمه أن عنده جميع ما طلب ، واستقل عقله لما طلب منه ما طلب ، ولو اجتمع هو وإياه لعجزت قدرتهما عن جمع عُشره ، وسأل كسرى أن يمكنه من الخروج إلى بلاد الشام وأقاليم مملكته ، ليسعى في تحصيل ذلك من

(١) أبو داود (٤٥٩٦) وابن ماجه (٣٩٩٢) وفي الزوائد : « إسناده عوف بن مالك فيه مقال ، وراشد بن سعد قال فيه أبو حاتم : صدوق . وعبادة بن يوسف لم يخرج له أحد سوى ابن ماجه ، وليس له عندي سوى هذا الحديث ، قال ابن عدى : روى أحاديث تفرد بها . وذكره ابن حبان في الثقات وبقى رجال الإسناد ثقات » .

ذخائره وحواصله ودفائنه ، فأطلق سراحه ، فلما عزم قيصر على الخروج من مدينة قسطنطينية ، جمع أهل ملته وقال : إني خارج فى أمر قد أبرمته ، فى جند قد عينته من جيشى ، فإن رجعت إليكم قبل الحول فأنا ملككم ، وإن لم أرجع إليكم قبلها فأنتم بالخيار ، إن شئتم استمررتم على بيعتى ، وإن شئتم وليتم عليكم غيرى . فأجابوه بأنك ملكنا ما دمت حياً ، ولو غبت عشرة أعوام . فلما خرج من القسطنطينية خرج جريدة فى جيش متوسط ، هذا وكسرى مُخيم على القسطنطينية ينتظره ليرجع ، فركب قيصر من فوره وسار مسرعا حتى انتهى إلى بلاد فارس ، فعاث فى بلادهم قتلا لرجالها ومن بها من المقاتلة ، أولا فأولا ، ولم يزل يقتل حتى انتهى إلى المدائن ، وهى كرسى مملكة كسرى ، فقتل من بها وأخذ جميع حواصله وأمواله ، وأسر نساءه وحريمه ، وحلق رأس ولده ، وركبه على حمار وبعث معه من الأساورة من قومه فى غاية الهوان والذلة ، وكتب إلى كسرى يقول : هذا ما طلبتَ فخذهُ . فلما بلغ ذلك كسرى أخذه من الغم ما لا يحصيه إلا الله عز وجل ، واشتد حنقه على البلد ، فاشتد فى حصارها بكل ممكن قلم يقدر على ذلك . فلما عجز ركب لياخذ عليه الطريق من مخاضة جيحون ، التى لا سبيل لقيصر إلى القسطنطينية إلا منها ، فلما علم قيصر بذلك احتال بحيلة عظيمة لم يسبق إليها ، وهو أنه أرصد جنده وحواصله التى معه عند فم المخاضة، وركب فى بعض الجيش، وأمر بأحمال من التبن والبعر والروث فحملت معه ، وسار إلى قريب من يوم فى الماء مصعدا ، ثم أمر باللقاء تلك الأحمال فى النهر ، فلما مرت بكسرى ظن هو وجنده أنهم قد خاضوا من هنالك ، فركبوا فى طلبهم فشغرت المخاضة عن الفرس ، وقدم قيصر فأمرهم بالنهوض فى الخوض ، فخاضوا وأسرعوا السير ففاتوا كسرى وجنوده ، ودخلوا القسطنطينية . وكان ذلك يوماً مشهوداً عند النصارى ، وبقي كسرى وجيوشه حائرين لا يدرون ماذا يصنعون لم يحصلوا على بلاد قيصر ، وبلادهم قد خربتها الروم وأخذوا حواصلهم ، وسبوا ذراريهم ونساءهم . فكان هذا من غلب الروم فارس ، وكان ذلك بعد تسع سنين من غلب الفرس الروم .

وكانت الواقعة الكائنة بين فارس والروم حين غلبت الروم بين أذرعات وبصرى ، على ما ذكره ابن عباس وعكرمة وغيرهما ، وهى طرف بلاد الشام مما يلي بلاد الحجاز . وقال مجاهد : كان ذلك فى الجزيرة، وهى أقرب إلى بلاد الروم من فارس ، فالله أعلم . ثم كان غلب الروم لفارس بعد بضع سنين ، وهى تسع ؛ فإن البضع فى كلام العرب ما بين الثلاث إلى التسع : وكذلك جاء فى الحديث الذى رواه الترمذى وابن جرير وغيرهما عن ابن عباس : أن رسول الله ﷺ قال لأبى بكر فى مُناجبة ﴿ اَلَمْ . غَلِبَتِ الرُّومُ ﴾ : « ألا احتطت يا أبا بكر ، فإن البضع ما بين ثلاث إلى تسع ؟ » ثم قال : هذا حديث حسن غريب من هذا الوجه (١) . وروى عن عبد الله ابن عمرو أنه قال ذلك .

وقوله تعالى : ﴿ لِلَّهِ الْأَمْرُ مِنْ قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ ﴾ أى : من قبل ذلك ومن بعده ، فبنى على الضم

لما قُطِعَ المضاف ، وهو قوله ﴿ قَبْلُ ﴾ عن الإضافة ، ونُوت . ﴿ وَيَوْمَئِذٍ يَقَرُّحُ الْمُؤْمِنُونَ . بِنَصْرِ اللَّهِ ﴾ أى : للروم أصحاب قيصر ملك الشام ، على فارس أصحاب كسرى ، وهم المجوس ، وقد كانت نصرة الروم على فارس يوم وقعة بدر فى قول طائفة كبيرة من العلماء ، كابن عباس ، والثورى ، والسدى ، وغيرهم . وقال آخرون : بل كان نصرة الروم على فارس عام الحديبية ؛ قاله عكرمة ، والزهرى ، وقتادة ، وغيرهم . ووجه بعضهم هذا القول بأن قيصر كان قد نذر لئن أظفره الله بكسرى ليمشين من حمص إلى إيليا - وهو بيت المقدس - شكراً لله - عز وجل - ففعل ، فلما بلغ بيت المقدس لم يخرج منه حتى وافاه كتاب رسول الله ﷺ ، الذى بعثه مع دحية بن خليفة . فأعطاه دحية لعظيم بصرى ، فدفعه عظيم بصرى إلى قيصر . فلما وصل إليه سأل من بالشام من عرب الحجاز ، فأحضر له أبو سفيان صخر بن حرب الأموى فى جماعة من كفار قريش كانوا فى غزة ، فجىء بهم إليه ، فجلسوا بين يديه ، فقال : أيكم أقرب نسباً بهذا الرجل الذى يزعم أنه نبي ؟ فقال أبو سفيان : أنا ، فقال لأصحابه - وأجلسهم خلفه - : إني سائل هذا عن هذا الرجل ، فإن كذب فكذبوه . فقال أبو سفيان : فوالله لولا أن يأتروا على الكذب لكذبت . فسأله هرقل عن نسبه وصفته ، فكان فيما سأله أن قال : فهل يغدر ؟ قال : قلت : لا ، ونحن منه فى مدة لا ندرى ما هو صانع فيها - يعنى بذلك الهدنة التى كانت قد وقعت بين رسول الله ﷺ وكفار قريش يوم الحديبية على وضع الحرب بينهم عشر سنين ، فاستدلوا بهذا على أن نصر الروم على فارس كان عام الحديبية ؛ لأن قيصر إنما وفى بنذره بعد الحديبية ، والله أعلم .

ولأصحاب القول الأول أن يجيبوا عن هذا بأن بلاده كانت قد خربت وتشعثت ، فما تمكن من وفاء نذره حتى أصلح ما ينبغى إصلاحه وتفقد بلاده ، ثم بعد أربع سنين من نصرته وفى بنذره ، والله أعلم . والأمر فى هذا سهل قريب ، إلا أنه لما انتصرت فارس على الروم ساء ذلك المؤمنين ، فلما انتصرت الروم على فارس فرح المؤمنون بذلك ، لأن الروم أهل كتاب فى الجملة ، فهم أقرب إلى المؤمنين من المجوس ، كما قال تعالى : ﴿ لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُمْ مَوَدَّةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَى ﴾ إلى قوله : ﴿ رَبَّنَا آمَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ ﴾ [المائدة : ٨٢ ، ٨٣] ، وقال تعالى ها هنا : ﴿ وَيَوْمَئِذٍ يَقَرُّحُ الْمُؤْمِنُونَ . بِنَصْرِ اللَّهِ يَنْصُرُ مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴾ .

وقوله تعالى : ﴿ وَهُوَ الْعَزِيزُ ﴾ أى : فى انتصاره وانتقامه من أعدائه ، ﴿ الرَّحِيمُ ﴾ بعباده المؤمنين . وقوله تعالى : ﴿ وَعَدُّ اللَّهُ لَا يُخْلِفُ اللَّهُ وَعْدَهُ ﴾ أى : هذا الذى أخبرناك به - يا محمد - من أنا سننصر الروم على فارس ، وعد من الله حق ، وخير صدق لا يخلف ، ولا بد من كونه ووقوعه ؛ لأن الله قد جرت سننه أن ينصر أقرب الطائفتين المقتلتين إلى الحق ، ويجعل لها العاقبة ، ﴿ وَلَكِنْ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ أى : بحكم الله فى كونه وأفعاله المحكمة الجارية على وفق العدل .

وقوله تعالى : ﴿ يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ ﴾ أى : أكثر الناس ليس لهم علم إلا بالدنيا وأكسابها وشؤونها وما فيها ، فهم حذاق أذكاء فى تحصيلها ووجوه مكاسبها ،

وهم غافلون في أمور الدنيا عما يفهمهم في الدار الآخرة، كأن أحدهم مُغفل لا ذهن له ولا فكرة. قال الحسن البصري : والله ليلعب من أحدهم بديناه أنه يقلب الدرهم على ظهره ، فيخبرك بوزنه ، وما يحسن أن يصلى . وقال ابن عباس في قوله تعالى : ﴿ يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ ﴾ ، يعني : الكفار ، يعرفون عمران الدنيا ، وهم في أمر الدين جهال .

﴿ **أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنفُسِهِمْ مَا خَلَقَ اللَّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَإِحْسَانٍ مُّسْتَسْتَأْذِنًا كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ بِلِقَائِي رَبِّهِمْ لَكَافِرُونَ** ﴾ ﴿٨﴾ **أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا الْأَرْضَ وَعَمَرُوهَا أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانُوا لِيُظْلَمَهُمْ وَلَكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ** ﴾ ﴿٩﴾ **ثُمَّ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ اسْتَوُوا السُّوَاءَ إِنَّ كَذِبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَكَانُوا بِهَا يَسْتَهْزِئُونَ** ﴾ ﴿١٠﴾

يقول تعالى منها على التفكير في مخلوقاته ، الدالة على وجوده وانفراذه بخلقها ، وأنه لا إله غيره ولا رب سواه ، فقال : ﴿ **أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنفُسِهِمْ** ﴾ يعني به : النظر والتدبر والتأمل لخلق الله الأشياء من العالم العلوي والسفلي ، وما بينهما من المخلوقات المتنوعة ، والأجناس المختلفة ، فيعلمون أنها ما خلقت سُدًى ولا باطلا ، بل بالحق ، وأنها مؤجلة إلى أجل مسمى ، وهو يوم القيامة ؛ ولهذا قال تعالى : ﴿ **وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ بِلِقَائِ رَبِّهِمْ لَكَافِرُونَ** ﴾ .

ثم نبههم على صدق رسله فيما جاءوا به عنه ، بما أيدهم به من المعجزات ، والدلائل الواضحات ، من إهلاك من كفر بهم ، ونجاة من صدقهم ، فقال تعالى : ﴿ **أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ** ﴾ أى : بأفهامهم وعقولهم ونظرمهم وسماع أخبار الماضين ؛ ولهذا قال : ﴿ **فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً** ﴾ ، أى : كانت الأمم الماضية والقرون السالفة أشد منكم - أيها الميعوث إليهم محمد ﷺ وأكثر أموالا وأولادا ، وما أوتيتم معشار ما أوتوا ، ومكنوا في الدنيا تمكيناً لم تبلغوا إليه ، وعمروا فيها أعماراً طويلاً ، فعمروها أكثر منكم ، واستغلوها أكثر من استغلالكم ، ومع هذا لما جاءتهم رسلهم بالبينات وفرحوا بما أوتوا ، أخذهم الله بذنوبهم ، وما كان لهم من الله من واق ، ولا حالت أموالهم ولا أولادهم بينهم وبين بأس الله ، ولا دفعوا عنهم مثال ذرة ، وما كان الله ليظلمهم فيما أحل بهم من العذاب والنكال ، ﴿ **وَلَكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ** ﴾ أى : وإنما أوتوا من أنفسهم حيث كذبوا بآيات الله ، واستهزؤوا بها ، وما ذلك إلا بسبب ذنوبهم السالفة وتكذيبهم المتقدم ؛ ولهذا قال تعالى : ﴿ **ثُمَّ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ اسْتَوُوا السُّوَاءَ إِنَّ كَذِبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَكَانُوا بِهَا يَسْتَهْزِئُونَ** ﴾ ، كما قال تعالى : ﴿ **وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَنزِلُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ** ﴾ [الأنعام : ١١٠] ، وقوله : ﴿ **فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ** ﴾ [الصف : ٥] ، وقال تعالى : ﴿ **فَإِن تَوَلَّوْا فَعَلَّمَ إِنَّمَا يَرِيدُ اللَّهُ أَن يُصِيبَهُمْ بِعَظِيمٍ ذُنُوبِهِمْ** ﴾ [المائدة : ٤٩] . وعلى هذا تكون السوأي

منصوبة مفعولا لاساؤوا ، وقيل : بل المعنى فى ذلك : ﴿ ثُمَّ كَانَ عَاقِبَةَ الَّذِينَ أَسَاءُوا السُّوأى ﴾ ،
أى : كانت السوأى عاقبتهم ، لأنهم كذبوا بآيات الله وكانوا بها يستهزئون .

﴿ اللَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ ﴿١١﴾ وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُبْسِئُ
الْمُجْرِمُونَ ﴿١٢﴾ وَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ مِنْ شُرَكَائِهِمْ شُفَعَاءٌ وَكَانُوا بِشُرَكَائِهِمْ كَافِرِينَ
﴿١٣﴾ وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُنْفِرُونَ ﴿١٤﴾ فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا
الصَّالِحَاتِ فَهُمْ فِي رَوْضَةٍ يُحْبَرُونَ ﴿١٥﴾ وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَلِقَاءِ
الْآخِرَةِ فَأُولَئِكَ فِي الْعَذَابِ مُحْضَرُونَ ﴿١٦﴾

يقول تعالى: ﴿اللَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ﴾ أى: كما هو قادر على بدءته فهو قادر على إعادته ،
﴿ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ أى : يوم القيامة ، فيجازى كل عامل بعمله . ثم قال : ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ
يُبْسِئُ الْمُجْرِمُونَ﴾ ، قال ابن عباس : يبأس المجرمون . وقال مجاهد : يفتضح المجرمون . وفى
رواية : يكتب المجرمون . ﴿وَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ مِنْ شُرَكَائِهِمْ شُفَعَاءٌ﴾ أى : ما شفعت فيهم الآلهة التى
كانوا يعبدونها من دون الله تعالى ، وكفروا بهم وخانواهم أحوج ما كانوا إليهم . ثم قال تعالى :
﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُنْفِرُونَ﴾ قال قتادة : هى - والله - الفرقة التى لا اجتماع بعدها . يعنى :
إذا رفع هذا إلى عليين ، وخفض هذا إلى أسفل السافلين ، فذلك آخر العهد بينهما ؛ ولهذا قال
تعالى : ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَهُمْ فِي رَوْضَةٍ يُحْبَرُونَ﴾ ، قال مجاهد وقتادة : ينعمون .

﴿ فَسَبَّحَنَّا اللَّهَ حِينَ نُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ ﴾ ﴿١٧﴾ وَلَهُ الْحَمْدُ فِي السَّمَوَاتِ
وَالْأَرْضِ وَعَشِيًّا وَحِينَ تُظْهِرُونَ ﴿١٨﴾ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَيُحْيِي
الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَكَذَلِكَ تُخْرَجُونَ ﴿١٩﴾

هذا تسييح منه تعالى لنفسه المقدسة ، وإرشاده لعباده إلى تسييحه وتحميده ، فى هذه الأوقات
المتعاقبة الدالة على كمال قدرته وعظيم سلطانه : عند المساء ، وهو إقبال الليل بظلامه ، وعند
الصباح وهو إسفار النهار عن ضيائه . ثم اعترض بحمده ، مناسبة للتسييح وهو التحميد ، فقال
تعالى : ﴿لَهُ الْحَمْدُ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أى : هو المحمود على ما خلق فى السموات والأرض .
ثم قال تعالى : ﴿وَعَشِيًّا وَحِينَ تُظْهِرُونَ﴾ ، فالعشاء هو : شدة الظلام ، والإظهار : قوة الضياء .
فسبحان خالق هذا وهذا ، فالق الإصباح وجاعل الليل سكنا ، كما قال تعالى : ﴿وَالنَّهَارَ إِذَا جَلَّاهَا .
وَاللَّيْلَ إِذَا يَغْشَاهَا﴾ [الشمس : ٣ ، ٤] ، وقال تعالى : ﴿وَاللَّيْلَ إِذَا يَغْشَى . وَالنَّهَارَ إِذَا تَجَلَّى﴾ [الليل : ١
- ٢] ، وقال تعالى : ﴿وَالضُّحَى . وَاللَّيْلَ إِذَا سَجَى﴾ [الضحى : ١ ، ٢] ، والآيات فى هذا كثيرة .
وروى الإمام أحمد عن معاذ بن أنس الجهنى عن رسول الله ﷺ ، أنه قال : «ألا أخبركم لم سمى
الله إبراهيم خليله الذى وفى ؟ لأنه كان يقول كلما أصبح وكلما أمسى : سبحان الله حين تمسون

وحين تصبحون، وله الحمد في السموات والأرض وعشياً وحين تظهرون» (١). وروى الطبراني عن عبد الله بن عباس، عن رسول الله ﷺ قال: « من قال حين يصبح : ﴿ فَسُبْحَانَ اللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ . وَلَهُ الْحَمْدُ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَعَشِيًّا وَحِينَ تُظْهِرُونَ ﴾ الآية بكاملها ، أدرك ما فاتته في يومه ، ومن قالها حين يمسي أدرك ما فاتته في ليلته » إسناد جيد ، ورواه أبو داود في سننه (٢).

وقوله تعالى : ﴿ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ ﴾ : هو ما نحن فيه من قدرته على خلق الأشياء المتقابلة ، وهذه الآيات المتتابعة الكريمة كلها من هذا النمط ، فإنه يذكر فيها خلقه الأشياء وأضدادها ، ليدل خلقه على كمال قدرته ، فمن ذلك إخراج النبات من الحب ، والحب من النبات . والبيض من الدجاج ، والدجاج من البيض ، والإنسان من النطفة ، والنطفة من الإنسان ، والمؤمن من الكافر ، والكافر من المؤمن . وقوله تعالى : ﴿ وَيُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ﴾ ، كقوله تعالى : ﴿ وَآيَةٌ لَهُمُ الْأَرْضُ الْمَيِّتَةُ أَحْيَيْنَاهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ ﴾ إلى قوله : ﴿ وَقَفَّجْنَا فِيهَا مِنَ الْعُيُونِ ﴾ [يس : ٣٣ ، ٣٤] ، وقال تعالى : ﴿ وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنْبَتَتْ مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ ﴾ إلى قوله : ﴿ وَأَنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ مَنْ فِي الْقُبُورِ ﴾ [الحج : ٥ - ٧] ، وقال تعالى : ﴿ وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَّاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ حَتَّى إِذَا أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا ﴾ إلى قوله : ﴿ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾ [الاعراف : ٥٧] ؛ ولهذا قال هاهنا : ﴿ وَكَذَلِكَ تُخْرَجُونَ ﴾ .

﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ إِذَا أَنْتُمْ بَشَرٌ تَنْتَشِرُونَ ﴾ ﴿ ١١ ﴾ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿ ١٢ ﴾

يقول تعالى : ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ ﴾ الدالة على عظمته وكمال قدرته أنه خلق أباكم آدم من تراب ، ﴿ ثُمَّ إِذَا أَنْتُمْ بَشَرٌ تَنْتَشِرُونَ ﴾ ، فأصلكم من تراب ، ثم من ماء مهين ، ثم تصور فكان علقه ، ثم مضغة ، ثم صار عظاماً شكله على شكل الإنسان ثم كسا الله تلك العظام لحماً ، ثم نفخ فيه الروح ، فإذا هو سمع بصير . ثم خرج من بطن أمه صغيراً ضعيف القوى والحركة ، ثم كلما طال عمره تكاملت قواه وحركاته حتى آل به الحال إلى أن صار بيني المدائن والحصون ، ويسافر في أقطار الأقاليم ، ويركب متن البحور ، ويدور أقطار الأرض ويتكسب ويجمع الأموال ، وله فكرة وغور ، ودهاء ومكر ، ورأى وعلم ، واتساع في أمور الدنيا والآخرة كل بحسبه . فسبحان من أقدرهم وسيّرهم وسخرهم وصرفهم في فنون المعاش والمكاسب، وفأوت بينهم في العلوم والفكرة ، والحسن والقيبح ، والغنى والفقر ، والسعادة والشقاوة ، ولهذا قال تعالى : ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ إِذَا أَنْتُمْ بَشَرٌ تَنْتَشِرُونَ ﴾ . وروى الإمام أحمد عن أبي موسى قال : قال رسول الله ﷺ : « إن الله خلق آدم من قبضة قبضها من جميع الأرض ، فجاء بنو آدم على قدر الأرض ،

(١) المسند (٣ / ٤٣٩) .

(٢) الطبراني في المعجم الكبير (١٢ / ٢٣٩) وأبو داود (٥٠٧٦) .

جاء منهم الأبيض والأحمر والأسود وبين ذلك ، والخبيث والطيب ، والسهل والحزن ، وبين ذلك « . ورواه أبو داود والترمذى . وقال الترمذى: هذا حديث حسن صحيح (١) .

وقوله تعالى : ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا ﴾ ، أى : خلق لكم من جنسكم إناثًا يَكُنْ لَكُمْ أَزْوَاجًا ، ﴿ لَتَسْكُنُوا إِلَيْهَا ﴾ ، كما قال تعالى : ﴿ هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا ﴾ [الاعراف : ١٨٩] ، يعنى بذلك : حواء ، خلقها الله من آدم من ضلعه الأقصر الأيسر . ولو أنه تعالى جعل بنى آدم كلهم ذكورا وجعل إناثهم من جنس آخر من غيرهم من جان أو حيوان ، لما حصل هذا الائتلاف بينهم وبين الأزواج ، بل كانت تحصل نفرة لو كانت الأزواج من غير الجنس . ثم من تمام رحمته بنى آدم أن جعل أزواجهم من جنسهم ، وجعل بينهم وبينهن مودة : وهى المحبة ، ورحمة : وهى الرأفة ، فإن الرجل يمسك المرأة إما لمحبتة لها أو لرحمة بها ، بأن يكون لها منه ولد ، أو محتاجه إليه فى الإنفاق ، أو للألفة بينهما ، وغير ذلك ، ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُفَكِّرُونَ ﴾ .

﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِلْعَالَمِينَ ﴾ (١١) وَمِنْ آيَاتِهِ مَنَامُكُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَابْتِغَاؤُكُمْ مِنْ فَضْلِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُسْمِعُونَ ﴿ (١٢) ﴾

يقول تعالى : ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ ﴾ الدالة على قدرته العظيمة ﴿ خَلْقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ أى : خلق السموات فى ارتفاعها واتساعها ، وشفوف أجرامها وزهارة كواكبها ونجومها الثابتة والسيارات ، والأرض فى انخفاضها وكثافتها وما فيها من جبال وأودية ، وبحار وقفار ، وحيوان وأشجار .

وقوله تعالى : ﴿ وَاخْتِلَافِ أَلْسِنَتِكُمْ ﴾ يعنى: اللغات، فهؤلاء بلغة العرب، وهؤلاء تتر لهم لغة أخرى، وهؤلاء كرج، وهؤلاء روم، وهؤلاء إفرنج، وهؤلاء بربر، وهؤلاء تكرر، وهؤلاء حبشة، وهؤلاء هنود، وهؤلاء عجم ، وهؤلاء صقالبة ، وهؤلاء خزر ، وهؤلاء أرمن ، وهؤلاء أكراد ، إلى غير ذلك مما لا يعملها إلا الله تعالى فى اختلاف بنى آدم ، واختلاف ألوانهم وهى حلاهم ، فجميع أهل الأرض بل أهل الدنيا - منذ خلق الله آدم إلى قيام الساعة: كل له عينان وحاجبان، وأنف وجبين ، وفم وخدان ، وليس يشبه واحد منهم الآخر ، بل لا بد أن يفارقه بشيء من السمات أو الهيئة أو الكلام، ظاهرا كان أو خفيا ، يظهر عند التأمل ، كل وجه منهم أسلوب بذاته وهيئة لا تشبه الأخرى . ولو توافق جماعة فى صفة من جمال أو قبح ، لا بد من فارق بين كل واحد منهم وبين الآخر، ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِلْعَالَمِينَ . وَمِنْ آيَاتِهِ مَنَامُكُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَابْتِغَاؤُكُمْ مِنْ فَضْلِهِ ﴾ أى: ومن الآيات ما جعل لكم فى صفة النوم فى الليل والنهار، فيه تحصل الراحة وسكون الحركة ، وذهاب الكلال والتعب . وجعل لكم الانتشار والسعى فى الأسباب والأسفار فى النهار ، وهذا ضد النوم ، ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُسْمِعُونَ ﴾ أى : يعون .

﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ يُرِيكُمْ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنزِلُ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَيُحْيِي بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿١٤﴾ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ تَقُومَ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ بِأَمْرِهِ ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِنَ الْأَرْضِ إِذَا أَنْتُمْ تَخْرُجُونَ ﴿١٥﴾ ﴾

يقول تعالى: ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ ﴾ الدالة على عظمته أنه ﴿ يُرِيكُمْ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا ﴾ ، أى : تارة تخافون مما يحدث بعده من أمطار مزعجة ، أو صواعق متلفة ، وتارة ترجون وميضه وما يأتى بعده من المطر المحتاج إليه ؛ ولهذا قال تعالى : ﴿ وَيُنزِلُ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَيُحْيِي بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ﴾ ، أى : بعد ما كانت هامدة لا نبات فيها ولا شئ ، فلما جاءها الماء ﴿ اهْتَزَّتْ وَرَبَّتْ وَأَنْبَتَتْ مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ ﴾ [الحج : ٥] . وفى ذلك عبرة ودلالة واضحة على المعاد وقيام الساعة ؛ ولهذا قال : ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ .

ثم قال تعالى: ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ تَقُومَ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ بِأَمْرِهِ ﴾ كقوله تعالى: ﴿ وَيُسَبِّحُ السَّمَاءُ أَنْ تَقَعَ عَلَى الْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِ ﴾ [الحج : ٦٥] ، وقوله : ﴿ إِنَّ اللَّهَ يُسَبِّحُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنْ تَزُولَا ﴾ [فاطر : ٤١] وكان عمر بن الخطاب إذا اجتهد فى اليمين يقول: « لا ، الذى تقوم السماء والأرض بأمره » . أى : هى قائمة بأمره وتسخيره إياها ، ثم إذا كان يوم القيامة بُدلت الأرض غير الأرض والسماوات ، وخرجت الأموات من قبورها أحياء بأمره تعالى ودعائه إياهم ؛ ولهذا قال تعالى : ﴿ ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِنَ الْأَرْضِ إِذَا أَنْتُمْ تَخْرُجُونَ ﴾ ، كما قال تعالى : ﴿ يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِ وَتَظُنُّونَ إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ [الإسراء : ٥٢] . وقال تعالى : ﴿ فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ . فَإِذَا هُمْ بِالسَّاهِرَةِ ﴾ [النازعات : ١٣ ، ١٤] ، وقال تعالى : ﴿ إِنْ كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَدَيْنَا مُحْضَرُونَ ﴾ [يس : ٥٣] .

﴿ وَلَهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلُّ لَمٍ قَانِتُونَ ﴿١٦﴾ وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ وَلَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلَىٰ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿١٧﴾ ﴾

يقول تعالى : ﴿ وَلَهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ أى : ملكه وعبده ، ﴿ كُلُّ لَمٍ قَانِتُونَ ﴾ أى : خاضعون خاشعون طوعا وكرها .

وقوله : ﴿ وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ ﴾ قال ابن عباس : يعنى أيسر عليه . وقال مجاهد : الإعادة أهون عليه من البداءة ، والبداءة عليه هين . وكذا قال عكرمة وغيره . وروى البخارى عن النبى ﷺ قال : « قال الله تعالى : كَذَّبَنِي ابْنُ آدَمَ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ ذَلِكَ ، وَشْتَمَنِي وَلَمْ يَكُنْ لَهُ ذَلِكَ . فأما تكذيبه إياى فقولته : لن يعيدنى كما بدأنى ، وليس أول الخلق بأهون على من إعادته . وأما شتمه إياى فقولته : اتخذ الله ولدا وأنا الأحد الصمد ، الذى لم يلد ولم

يولد ، ولم يكن له كفواً أحد » . منفردا بإخراجه البخارى (١) . وقد رواه الإمام أحمد منفردا به بنحوه ، أو مثله (٢) . وقال آخرون : كلاهما بالنسبة إلى القدرة على السواء . وقال العوفى ، عن ابن عباس : كل عليه هين . وكذا قال الربيع بن خثيم . ومال إليه ابن جرير ، وذكر عليه شواهد كثيرة ، قال : ويحتمل أن يعود الضمير فى قوله : ﴿ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ ﴾ إلى الخلق ، أى : وهو أهون على الخلق .

وقوله : ﴿ وَلَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلَىٰ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ قال ابن عباس كقوله تعالى : ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ ﴾ [الشورى : ١١] . وقال قتادة : مثله أنه لا إله إلا هو ، ولا رب غيره . ﴿ وَهُوَ الْعَزِيزُ ﴾ الذى لا يغالب ولا يمانع ، بل قد غلب كل شىء ، وقهر كل شىء بقدرته وسلطانه ﴿ الْحَكِيمُ ﴾ فى أفعاله وأقواله ، شرعاً وقَدراً . وعن مالك فى تفسيره المروى عنه ، عن محمد بن المنكدر ، فى قوله تعالى : ﴿ وَلَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلَىٰ ﴾ قال : لا إله إلا الله .

﴿ ضَرَبَ لَكُمْ مَثَلًا مِّنْ أَنفُسِكُمْ هَلْ لَّكُمْ مِّنْ مَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ مِّنْ شُرَكَاءَ فِي مَّا رَزَقْنَاهُمْ فَأَنْتُمْ فِيهِ سَوَاءٌ تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنفُسَكُمْ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٢٨﴾ بَلِ اتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَهْوَاءَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ فَمَنْ يَهْدِي مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ وَمَا لَهُمْ مِّنْ نَّاصِرِينَ ﴿٢٩﴾ ﴾

هذا مثل ضربه الله - تعالى - للمشركين به ، العابدين معه غيره ، الجاعلين له شركاء وهم مع ذلك معترفون أن شركاءهم من الأصنام والأنداد عبيد له ، ملك له ، كما كانوا فى تلبيتهم يقولون : لبيك لا شريك لك ، إلا شريكاً هو لك ، تملكه وما ملك . فقال تعالى : ﴿ ضَرَبَ لَكُمْ مَثَلًا مِّنْ أَنفُسِكُمْ ﴾ أى : تشهدونه وتفهمونه من أنفسكم : ﴿ هَلْ لَّكُمْ مِّنْ مَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ مِّنْ شُرَكَاءَ فِي مَّا رَزَقْنَاهُمْ فَأَنْتُمْ فِيهِ سَوَاءٌ ﴾ أى : لا يرتضى أحد منكم أن يكون عبده شريكاً له فى ماله ، فهو وهو فيه على السواء ، ﴿ تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنفُسَكُمْ ﴾ أى : تخافون أن يقاسموكم الأموال . قال أبو مجلز : إن مملوكك لا تخاف أن يقاسمك مالك ، وليس له ذاك ، كذلك الله لا شريك له . والمعنى : أن أحدكم يأنف من ذلك ، فكيف تجعلون الله الأنداد من خلقه . وهذا كقوله تعالى : ﴿ وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ مَا يَكْرَهُونَ ﴾ [النحل : ٦٢] ، أى : من البنات ، حيث جعلوا الملائكة الذين هم عباد الرحمن إناثاً ، وجعلوها بنات الله ، وقد كان أحدهم إذا بشر بالأنثى ظل وجهه مسوداً وهو كظيم . يتوارى من القوم من سوء ما بشر به ، أيمسكه على هون أم يدسه فى التراب ، فهم يأنفون من البنات وجعلوا الملائكة بنات الله ، فنسبوا إليه مالا يرتضونه لأنفسهم ، فهذا أغلظ الكفر . وهكذا فى هذا المقام جعلوا له شركاء من عبيده وخلقته ، وأحدهم يأبى غاية الإباء ويأنف غاية الأنفة من ذلك ، أن يكون عبده شريكه فى ماله ، يساويه فيه ، ولو شاء لقاسمه عليه . تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً .

ولما كان التنبيه بهذا المثل على براءته تعالى ونزاهته بطريق الأولى والأحرى ، قال تعالى : ﴿ كَذَلِكَ نَفْصِلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ . ثم قال تعالى مبيناً أن المشركين إنما عبدوا غيره سَفَهًا من أنفسهم وجهلاً ﴿ بَلِ اتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا ﴾ أى : المشركون ﴿ أَهْوَاءَهُمْ ﴾ أى : فى عبادتهم الأنداد بغير علم ، ﴿ فَمَنْ يَهْدِي مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ ﴾ أى : فلا أحد يهديهم إذا كَتَبَ اللهُ إضلالهم ، ﴿ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ ﴾ أى : ليس لهم من قدرة الله منقذ ولا مجير ، ولا محيد لهم عنه ؛ لأنه ما شاء كان ، وما لم يشأ لم يكن .

﴿ فَأَوَمَّ إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ لِيُنذِرَ الْكَافِرَ الْكَبِيرَ ﴾
 ﴿ فَآوَمَّ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾ ﴿ مُنِيبِينَ إِلَيْهِ وَاتَّقُوهُ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿٣١﴾ مِنَ الَّذِينَ فَرَقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيعًا كُلٌّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ﴿٣٢﴾ ﴾

يقول تعالى : فسدد وجهك واستمر على الدين الذى شرعه الله لك ، من الحنيفية ملة إبراهيم ، الذى هدك الله لها ، وكملمها لك غاية الكمال ، وأنت مع ذلك لازم فطرتك السليمة ، التى فطر الله الخلق عليها ، فإنه تعالى فطر خلقه على معرفته وتوحيده ، وأنه لا إله غيره ، كما تقدم عند قوله تعالى : ﴿ وَأَشْهَدُهُمْ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ ﴾ [الاعراف : ١٧٢] . وفى الحديث : « إني خلقت عبادى حنفاء ، فاجتالتهم الشياطين عن دينهم » (١) . وسنذكر فى الأحاديث أن الله - تعالى - فطر خلقه على الإسلام ، ثم طرأ على بعضهم الأديان الفاسدة كاليهودية أو النصرانية أو المجوسية .

وقوله تعالى : ﴿ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ﴾ ، قال بعضهم : معناه لا تبدلوا خلق الله ، فتغيروا الناس عن فطرتهم التى فطرهم الله عليها . فيكون خبراً بمعنى الطلب ، كقوله تعالى : ﴿ وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا ﴾ [آل عمران : ٩٧] ، وهذا معنى حسن صحيح . وقال آخرون : هو خبر على بابه ، ومعناه : أنه تعالى ساوى بين خلقه كلهم فى الفطرة على الجبلَّة المستقيمة ، لا يولد أحد إلا على ذلك ، ولا تفاوت بين الناس فى ذلك ؛ ولهذا قال ابن عباس ، وإبراهيم النخعى ، وسعيد بن جبير ، ومجاهد ، وعكرمة ، وقتادة فى قوله : ﴿ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ﴾ ، أى : لدين الله . وقال البخارى : قوله : ﴿ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ﴾ : لدين الله ، خَلَقُ الأولين : دين الأولين ، والدين والفطرة : الإسلام . وعن أبى هريرة قال قال رسول الله ﷺ : « ما من مولود يولد إلا على الفطرة ، فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه ، كما تنتج البهيمة بهيمة جمعاء ، هل تحسون فيها من جدعاء ؟ » ، ثم يقول : ﴿ فَطَرَتِ اللَّهُ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ ﴾ . ورواه مسلم (٢) .

وفى معنى هذا الحديث قد وردت أحاديث عن جماعة من الصحابة : روى الإمام أحمد عن

(١) مسلم (٢٨٦٥ / ٦٣) وأحمد ٤ / ١٦٢ .

(٢) البخارى (٤٧٧٥ ، ٦٥٩٩) ومسلم (٢٦٥٨ / ٢٢) .

جابر بن عبد الله قال: قال رسول الله ﷺ: « كل مولود يولد على الفطرة، حتى يعرب عنه لسانه، فإذا عبر عنه لسانه إما شاكراً وإما كفوراً » (١). وروى الإمام أحمد عن ابن عباس أن رسول الله ﷺ سئل عن أولاد المشركين فقال: « الله أعلم بما كانوا عاملين إذ خلقهم ». أخرجاه (٢).

وقد روى أحمد أيضاً عن ابن عباس قال: أتى على زمان وأنا أقول: « أولاد المسلمين مع أولاد المسلمين، وأولاد المشركين مع المشركين »، حتى حدثنى فلان عن فلان: أن رسول الله ﷺ سئل عنهم فقال: « الله أعلم بما كانوا عاملين » قال: فلقيت الرجل فأخبرنى فأمسكت عن قولى (٣).

وروى الإمام أحمد عن عياض بن حمار، أن رسول الله ﷺ خطب ذات يوم فقال فى خطبته: « إن ربي عز وجل أمرنى أن أعلمكم ما جهلتم مما علمنى فى يومى هذا: كل مال نحلته عبادى حلال. وإنى خلقت عبادى حنفاء كلهم، وإنهم أتتهم الشياطين فأضلّتهم عن دينهم، وحرمت عليهم ما أحللت لهم، وأمرتهم أن يشركوا بى ما لم أنزل به سلطاناً، ثم إن الله عز وجل نظر إلى أهل الأرض فمقتهم، عربهم وعجمهم، إلا بقايا من أهل الكتاب، وقال: إنما بعثتك لأبتيك وأبتي بك، وأنزلت عليك كتاباً لا يغسله الماء، تقرؤه نائماً ويقظان. ثم إن الله أمرنى أن أحرق قريشاً، فقلت: يارب، إذا يئثلغوا رأسى فيدعوه حُجْرَة. قال: استخرجهم كما استخرجوك، واغزهم نُغْرَكَ، وأنفق عليهم فسنفق عليك، وابعث جيشاً تبعث خمسة مثله، وقاتل بمن أطاعك من عصاك ». قال: « وأهل الجنة ثلاثة: ذو سلطان مُقْسَط متصدق موفق، ورجل رحيم رقيق بكل ذى قرىبى ومسلم، ورجل عفيف فقير متصدق. وأهل النار خمسة: الضعيف الذى لا زبر له، الذين هم فيكم تبعاً، لا يبتغون أهلاً ولا مالاً، والحائن الذى لا يخفى له طمع وإن دق إلا خانته، ورجل لا يصبح ولا يمسى إلا وهو يخادعك عن أهلك ومالك »، وذكر البخيل، أو الكذاب، والشنظير: الفحاش ». انفرد بإخراجه مسلم (٤).

وقوله تعالى: ﴿ ذَلِكَ الَّذِينَ أُقِيمُوا ﴾ أى: التمسك بالشريعة والفطرة السليمة هو الدين القويم المستقيم ﴿ وَلَكِنْ أَكْثَرُ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ أى: فلهذا لا يعرفه أكثر الناس. فهم عنه ناكبون، كما قال تعالى: ﴿ وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ ﴾ [يوسف: ١٠٣]، ﴿ وَإِنْ تَطَّعْ أَكْثَرُ مَنْ فِي الْأَرْضِ يَضْلُوكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ ﴾ الآية [الأنعام: ١١٦]. وقوله تعالى: ﴿ مُنِيبِينَ إِلَيْهِ ﴾ قال ابن زيد، وابن جريج: أى راجعين إليه، ﴿ وَأَتَّقُوهُ ﴾ أى: خافوه وراقبوه. ﴿ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ ﴾ وهى الطاعة العظيمة، ﴿ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾ أى: بل من الموحدین المخلصين له العبادة، لا يريدون بها سواه.

(١) المسند (٣/ ٣٥٣) وقال الهيثمى فى الزوائد (٧/ ٢١٨): « وفيه أبو جعفر الرازى وهو ثقة وفيه خلاف، وبقية رجاله ثقات ».

(٢) المسند (١/ ٣٢٨) والبخارى (١٣٨٣) ومسلم (٢٦٦٠).

(٣) المسند (٥/ ٧٣) وقال الهيثمى فى الزوائد (٧/ ٢٢١): « رجاله رجال الصحيح ».

(٤) المسند (٤/ ١٦٢) ومسلم (٢٨٦٥/ ٦٣).

وقوله تعالى : ﴿ مِنَ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِعْمًا كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ﴾ أى : لا تكونوا من المشركين الذين قد فرقوا دينهم ، أى : بدلوه وغيروه وآمنوا ببعض وكفروا ببعض . وقرأ بعضهم : « فارقوا دينهم » ، أى : تركوه وراء ظهورهم ، وهؤلاء كاليهود والنصارى والمجوس وعبدة الأوثان ، وسائر أهل الأديان الباطلة ، مما عدا أهل الإسلام ، كما قال تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِعْمًا لَسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ إِنَّمَا أَمْرُهُمْ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُمْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴾ [الأنعام : ١٥٩] ، فأهل الأديان قبلنا اختلفوا فيما بينهم على آراء وممل باطلة ، وكل فرقة منهم تزعم أنهم على شىء .

﴿ وَإِذَا مَسَّ النَّاسَ ضُرٌّ دَعَاوَاهُمْ مُنِيبِينَ إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا أَذَقَهُمْ مِنْهُ رَحْمَةً إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُمْ بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ ﴾ (٢٢) ﴿ لِيَكْفُرُوا بِمَا ءَلَيْنَهُمْ فَمَتَّعُوا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴾ (٢٤) أم أنزلنا عليهم سلطاناً فهو يتكلم بما كانوا يؤيدون ﴿ وَإِذَا أَذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً فَرِحُوا بِهَا وَإِن تُصِيبَهُمْ سَيِّئَةٌ يَمَّا قَدَّمْت أَيْدِيهِمْ إِذَا هُمْ يَقْنَطُونَ ﴾ (٢٦) ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ (٢٧)

يقول تعالى مخبراً عن الناس أنهم فى حال الاضطرار يدعون الله وحده لا شريك له ، وأنه إذا أسبغ عليهم النعم إذا فريق منهم فى حالة الاختيار يشركون بالله ، ويعبدون معه غيره .

وقوله تعالى : ﴿ لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ ﴾ هى لام العاقبة عند بعضهم ، ولام التعليل عند آخرين ولكنها تعليل لتقيض الله لهم ذلك . ثم توعدهم بقوله : ﴿ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴾ قال بعضهم : والله لو توعدنى حارس درب لحفت منه ، فكيف والمتوعد ها هنا الذى يقول للشىء : كن ، فيكون . ثم قال تعالى منكرآ على المشركين فيما اختلفوه من عبادة الأوثان بلا دليل ولا حجة ولا برهان : ﴿ أم أنزلنا عليهم سلطاناً ﴾ أى : حجة ، ﴿ فهو يتكلم ﴾ أى : ينطق : ﴿ بما كانوا به يشركون ﴾ ؟ وهذا استفهام إنكار ، أى : لم يكن لهم شىء من ذلك .

ثم قال تعالى : ﴿ وَإِذَا أَذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً فَرِحُوا بِهَا وَإِن تُصِيبَهُمْ سَيِّئَةٌ يَمَّا قَدَّمْت أَيْدِيهِمْ إِذَا هُمْ يَقْنَطُونَ ﴾ هذا إنكار على الإنسان من حيث هو إلا من عصمه الله ووفقه؛ فإن الإنسان إذا أصابته نعمة بطر وقال : ﴿ ذَهَبَ السَّيِّئَاتُ عَنِّي إِنَّهُ لَفَرِحَ فَخُورٌ ﴾ [هود : ١٠] ، أى : يفرح فى نفسه ويفخر على غيره ، وإذا أصابته شدة قنط وأيس أن يحصل له بعد ذلك خير بالكلية ، قال الله تعالى : ﴿ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ﴾ [هود : ١١] ، أى : صبروا فى الضراء ، وعملوا الصالحات فى الرخاء ، كما ثبت فى الصحيح : « عجباً للمؤمن . لا يقضى الله له قضاء إلا كان خيراً له ، إن أصابته سراء شكر فكان خيراً له ، وإن أصابته ضراء صبر فكان خيراً له » (١) . وقوله تعالى : ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ ﴾ ، أى : هو المتصرف الفاعل لذلك بحكمته وعدله ، فيوسع على قوم ويضيق على آخرين ، ﴿ إن فى ذلك لآياتٍ لقوم يؤمنون ﴾ .

﴿ فَتَاتِذَا الْقُرْبَىٰ حَقْمُ وَالْمَسْكِينِ وَأَبْنِ السَّبِيلِ ذَلِكَ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ (٢٨) ﴿ وَمَا آتَيْتُم مِّن رَّبًّا لِّرَبْوًا فِي أَمْوَالِ النَّاسِ فَلَا يَرْتَوُوا عِنْدَ اللَّهِ وَمَا آتَيْتُم مِّن زَكَاةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُضْعِفُونَ ﴾ (٢٩) ﴿ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُعِيْبُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ هَلْ مِن شُرَكَائِكُمْ مَن يَفْعَلُ مِن ذَٰلِكُمْ مَن شَاءَ سُبْحٰنَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ (٤٠)

يقول تعالى آمراً بإعطاء ذى ﴿ الْقُرْبَىٰ حَقْمُ ﴾ أى : من البر والصلة ﴿ وَالْمَسْكِينِ ﴾ وهو : الذى لا شىء له ينفق عليه ، أو له شىء لا يقوم بكفايته ، ﴿ وَأَبْنِ السَّبِيلِ ﴾ وهو المسافر المحتاج إلى نفقة وما يحتاج إليه فى سفره ، ﴿ ذَلِكَ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ ﴾ أى : النظر إليه يوم القيامة ، وهو الغاية القصوى ، ﴿ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ أى : فى الدنيا وفى الآخرة .

ثم قال تعالى : ﴿ وَمَا آتَيْتُم مِّن رَّبًّا لِّرَبْوًا فِي أَمْوَالِ النَّاسِ فَلَا يَرْتَوُوا عِنْدَ اللَّهِ ﴾ أى : من أعطى عطية يريد أن يرد الناس عليه أكثر مما أهدى لهم ، فهذا لا ثواب له عند الله - بهذا فسرہ ابن عباس ، ومجاهد ، والضحاك ، وقتادة ، وعكرمة ، ومحمد بن كعب ، والشعبى - وهذا الصنيع مباح ، وإن كان لا ثواب فيه ، إلا أنه قد نهى عنه رسول الله ﷺ خاصة ، قاله الضحاك ، واستدل بقوله تعالى : ﴿ وَلَا تَمُنَّ بِتَسْكِينِكُمْ ﴾ [المدثر : ٦] أى : لا تعط العطاء تريد أكثر منه . وقال ابن عباس : الربا رباؤان ، فربا لا يصح ، يعنى : ربا البيع وربا لا بأس به ، وهو هدية الرجل يريد فضلها وأضعافها . ثم تلا هذه الآية : ﴿ وَمَا آتَيْتُم مِّن رَّبًّا لِّرَبْوًا فِي أَمْوَالِ النَّاسِ فَلَا يَرْتَوُوا عِنْدَ اللَّهِ ﴾ . وإنما الثواب عند الله فى الزكاة ، ولهذا قال تعالى : ﴿ وَمَا آتَيْتُم مِّن زَكَاةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُضْعِفُونَ ﴾ أى : الذين يضاعف الله لهم الثواب والجزاء ، كما جاء فى الصحيح : « وما تصدق أحد بعدل تمرة من كسب طيب إلا أخذها الرحمن بيمينه ، فيرببها لصاحبها كما يربى أحدكم فلوّه أو فصيله ، حتى تصير التمرة أعظم من أحد » (١) .

وقوله عز وجل : ﴿ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ﴾ أى : هو الخالق الرازق ، يخرج الإنسان من بطن أمه عرياناً لا علم له ولا سمع ولا بصر ولا قوى ، ثم يرزقه جميع ذلك بعد ذلك ، والرياش واللباس والمال والأملك والمكاسب . ﴿ ثُمَّ يُعِيْبُكُمْ ﴾ أى : بعد هذه الحياة ، ﴿ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ﴾ أى : يوم القيامة .

وقوله تعالى : ﴿ هَلْ مِن شُرَكَائِكُمْ ﴾ أى : الذين تعبدونهم من دون الله ، ﴿ مَن يَفْعَلُ مِن ذَٰلِكُمْ مَن شَاءَ ﴾ أى : لا يقدر أحد منهم على فعل شىء من ذلك ، بل الله - سبحانه وتعالى - هو المستقل بالخلق والرزق ، والإحياء والإماتة ، ثم يعث الخلائق يوم القيامة ؛ ولهذا قال بعد هذا كله : ﴿ سُبْحٰنَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ أى : تعالى وتقدس وتنزه وتعظم وجل وعز عن أن يكون له شريك أو نظير

أو مساو ، أو ولد أو والد ، بل هو الأحد الفرد الصمد ، الذى لم يلد ولم يولد ، ولم يكن له كفواً أحد .

﴿ ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾ ﴿٤١﴾ قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلُ كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُشْرِكِينَ ﴿٤٢﴾

قال ابن عباس ، وعكرمة ، والضحاك ، والسدى ، وغيرهم : المراد بالبر ها هنا : الفياض ، وبالبحر : الأمصار والقرى . وفى رواية عن ابن عباس وعكرمة : البحر : الأمصار ، والقرى : ما كان منها على جانب نهر . وقال آخرون : بل المراد بالبر : هو البر المعروف ، وبالبحر : البحر المعروف . وقال زيد بن رُفيع : ﴿ ظَهَرَ الْفَسَادُ ﴾ يعنى : انقطاع المطر عن البر يعقبه القحط، وعن البحر تعمى دوابه . وعن مجاهد : ﴿ ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ ﴾ قال : فساد البر : قتل ابن آدم ، وفساد البحر : أخذ السفينة غضبا . وقال عطاء الخراسانى : المراد بالبر : ما فيه من المدائن والقرى ، وبالبحر : جزائره . والقول الأول أظهر ، وعليه الأكثر ، ويؤيده ما ذكره محمد بن إسحاق فى السيرة : أن رسول الله ﷺ صَالَحَ مَلِكَ أَيْلَةَ ، وكتب له ببحره يعنى : ببلده . ومعنى قوله تعالى : ﴿ ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ ﴾ أى : بان النقص فى الثمار والزروع بسبب المعاصى . وقال أبو العالية : من عصى الله فى الأرض فقد أفسد فى الأرض ، لأن صلاح الأرض والسماء بالطاعة، ولهذا إذا نزل عيسى ، عليه السلام ، فى آخر الزمان فحكم بهذه الشريعة المطهرة فى ذلك الوقت ، من قتل الخنزير وكسر الصليب ووضع الجزية ، وهو تركها - فلا يقبل إلا الإسلام أو السيف، فإذا أهلك الله فى زمانه الدجال وأتباعه ويأجوج ومأجوج، قيل للأرض : أخرجى بركاتك . فياكل من الرمانة الفثام من الناس ، ويستظلون بقحفها ، ويكفى لبن اللقحة الجماعة من الناس . وما ذاك إلا ببركة تنفيذ شريعة رسول الله ﷺ ، فكلما أقيم العدل كثرت البركات والخير. ولهذا ثبت فى الصحيح : « إن الفاجر إذا مات تستريح العباد والبلاد ، والشجر والدواب » (١) .

وقوله تعالى : ﴿ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾ أى : يبتليهم بنقص الأموال والأنفس والثمرات ، اختباراً منه ، ومجازاة على صنيعهم ، ﴿ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾ أى : عن المعاصى ، كما قال تعالى ﴿ وَبَلَّوْنَاهُمْ بِأَلْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾ [الاعراف : ١٦٨] . ثم قال تعالى : ﴿ قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلُ ﴾ ، أى : من قبلكم ، ﴿ كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُشْرِكِينَ ﴾ أى : فانظروا ماذا حل بهم من تكذيب الرسل وكفر النعم .

﴿ فَأَقْرَ وَجْهَكَ لِلدِّينِ الْقَنِيمِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا مَرَدَّ لَهُ مِنَ اللَّهِ يَوْمَئِذٍ يُصَدِّعُونَ ﴿٤٣﴾ مَنْ كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلَأَنْفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ ﴿٤٤﴾ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْ فَضْلِهِ إِنَّهُمْ لَا يُحِبُّونَ الْكٰفِرِينَ ﴿٤٥﴾ ﴾

يقول تعالى أمراً عباده بالمبادرة إلى الاستقامة في طاعته ، والمبادرة إلى الخيرات : ﴿ فَأَقْرَ وَجْهَكَ لِلدِّينِ الْقَنِيمِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا مَرَدَّ لَهُ مِنَ اللَّهِ ﴾ أى : يوم القيامة ، إذا أراد كونه فلا راد له ، ﴿ يَوْمَئِذٍ يُصَدِّعُونَ ﴾ أى : يتفرقون ، ففريق في الجنة وفريق في السعير ، ولهذا قال تعالى : ﴿ مَنْ كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلَأَنْفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْ فَضْلِهِ ﴾ أى : يجازيهم مجازاة الفضل : الحسنة بعشر أمثالها ، إلى سبعمائة ضعف ، إلى ما يشاء الله ، ﴿ إِنَّهُمْ لَا يُحِبُّونَ الْكٰفِرِينَ ﴾ . ومع هذا هو العادل فيهم ، الذى لا يجور .

﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ يُرْسِلَ الرِّيحَ مُبَشِّرَاتٍ وَلِيَذِيقَكُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ وَلِتَجْرِيَ الْفُلُكُ بِأَمْرِهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٤٦﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ رُسُلًا إِلَى قَوْمِهِمْ فَجَاءَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَأَنْتَقَمْنَا مِنَ الَّذِينَ أَجْرَمُوا وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٧﴾ ﴾

يذكر تعالى نعمه على خلقه ، فى إرساله الرياح مبشرات بين يدي رحمته ، بمجىء الغيث عقبها ، ولهذا قال تعالى : ﴿ وَلِيَذِيقَكُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ ﴾ أى : المطر الذى ينزله فيحى به العباد والبلاد ﴿ وَلِتَجْرِيَ الْفُلُكُ بِأَمْرِهِ ﴾ ، أى : فى البحر ، وإنما سيرها بالريح ، ﴿ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ ﴾ أى : فى التجارات والمعاش ، والسير من إقليم إلى إقليم ، وقطر إلى قطر ، ﴿ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ أى : تشكرون الله على ما أنعم به عليكم من النعم الظاهرة والباطنة ، التى لا تعد ولا تحصى .

ثم قال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ رُسُلًا إِلَى قَوْمِهِمْ فَجَاءَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَأَنْتَقَمْنَا مِنَ الَّذِينَ أَجْرَمُوا ﴾ ، هذه تسلية لله لعبده ورسوله محمد ﷺ ، بأنه وإن كذبه كثير من قومه ومن الناس ، فقد كذبت الرسل المتقدمون مع ماجاؤوا أمهم به من الدلائل الواضحات ، ولكن الله انتقم . من كذبهم وخالفهم ، وأنجى المؤمنين بهم ، ﴿ وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ هو حق أوجبه على نفسه الكريمة ، تكراً وتفضلاً ، كقوله تعالى : ﴿ كَتَبَ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ ﴾ [الانعام : ٥٤] .

﴿ اللَّهُ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيحَ فَتُبْرِئُ سَحَابًا فَيَبْسُطُهُ فِي السَّمَاءِ كَيْفَ يَشَاءُ وَيَجْعَلُهُ كِسْفًا فَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ فَإِذَا أَصَابَ بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿٤٨﴾ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلِ أَنْ يُنْزَلَ عَلَيْهِمْ مِنَ قَبْلِهِ لَمُبْلِسِينَ ﴿٤٩﴾ فَانظُرْ إِلَى آثَارِ رَحْمَتِ اللَّهِ كَيْفَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ ذَلِكَ لَمُنْحَى الْمَوْقُوتِ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٥٠﴾ وَإِن أَرْسَلْنَا رِيحًا فَرَأَوْهُ مُصْفَرًّا لَظَلُّوا مِنْ بَعْدِهِ يَكْفُرُونَ ﴿٥١﴾ ﴾

يبين تعالى كيف يخلق السحاب الذى ينزل منه الماء فقال تعالى : ﴿ اللَّهُ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَّاحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا ﴾ ، إما من البحر على ما ذكره غير واحد ، أو مما يشاء الله عز وجل ، ﴿ فَيَسْطُوهُ فِي السَّمَاءِ كَيْفَ يَشَاءُ ﴾ ، أى : يمدّه فيكثره وينميه ، ويجعل من القليل كثيراً ، ينشئ سحابه فترى فى رأى العين مثل الترس ، ثم يسطها حتى تملأ أرجاء الأفق ، وتارة يأتى السحاب من نحو البحر ثقالا مملوءة ماء ، كما قال تعالى : ﴿ وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَّاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ حَتَّى إِذَا أَقْلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا سُقْنَاهُ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَنْزَلْنَا بِهِ الْمَاءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ كَذَلِكَ نُخْرِجُ الْمَوْتَى لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾ [الاعراف : ٥٧] ، وكذلك قال هاهنا : ﴿ اللَّهُ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَّاحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَيَسْطُوهُ فِي السَّمَاءِ كَيْفَ يَشَاءُ وَيَجْعَلُهُ كِسْفًا ﴾ . قال مجاهد ، وأبو عمرو بن العلاء ، ومطر الوراق ، وقتادة : يعنى قطعاً . وقال غيره : متراكماً ؛ قاله الضحاك . وقال غيره : أسود من كثرة الماء ، تراه مدلهما ثقيلًا قريباً من الأرض . وقوله تعالى : ﴿ فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ ﴾ أى : فترى المطر - وهو القطر - يخرج من بين ذلك السحاب ، ﴿ فَإِذَا أَصَابَ بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَشِيرُونَ ﴾ أى : لحاجتهم إليه يفرحون بنزوله عليهم ووصوله إليهم .

وقوله تعالى : ﴿ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلِ أَنْ يُنْزَلَ عَلَيْهِمْ مِنَ قَبْلِهِ لَمُبْسِينَ ﴾ ، معنى الكلام : أن هؤلاء القوم الذين أصابهم هذا المطر كانوا قنطين أزليين من نزول المطر إليهم قبل ذلك ، فلما جاءهم ، جاءهم على فاقة ، فوقع منهم موقعاً عظيماً . ثم نبه بذلك على إحياء الأجساد بعد موتها وتفرقها وتمزقها ، فقال تعالى : ﴿ إِنَّ ذَلِكَ لَمُحْيِي الْمَوْتَى ﴾ أى : إن الذى فعل ذلك لقادر على إحياء الأموات ، ﴿ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ .

ثم قال تعالى : ﴿ وَلَئِنْ أَرْسَلْنَا رِيحًا فَرَأَوْهُ مُصْفَرًّا لَظَلُّوا مِنْ بَعْدِهِ يَكْفُرُونَ ﴾ ، يقول تعالى : ﴿ وَلَئِنْ أَرْسَلْنَا رِيحًا ﴾ يابسة على الزرع الذى زرعه ، ونبت وشب واستوى على سوقه ، ﴿ فَرَأَوْهُ مُصْفَرًّا ﴾ أى : قد اصفر وشرع فى الفساد ، لظلوا من بعده ، أى : بعد هذا الحال يكفرون ، أى : يجحدون ما تقدم إليهم من النعم ، كما قال تعالى : ﴿ أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَحْرُثُونَ ﴾ إلى قوله : ﴿ بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ ﴾ [الواقعة : ٦٣ - ٦٧]

﴿ فَإِنَّكَ لَا تَسْمَعُ الْمَوْتَى وَلَا تَسْمَعُ الصُّمَّ الدُّعَاءَ إِذَا وَلُوا مَدْبِرِينَ ﴿٥١﴾ وَمَا أَنْتَ بِهَادٍ الْعَمَىٰ عَنِ ضَلَالِهِمْ إِنْ تُسْمِعُ إِلَّا مَنْ يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا فَهُمْ مُسْلِمُونَ ﴿٥٢﴾ ﴾

يقول تعالى : كما أنك ليس فى قدرتك أن تسمع الأموات فى أجدانها ، ولا تبلغ كلامك الصم الذين لا يسمعون ، وهم مع ذلك مدبرون عنك ، كذلك لا تقدر على هداية العميان على الحق ، وردهم عن ضلالتهم ، بل ذلك إلى الله تعالى ، فإنه بقدرته يسمع الأموات أصوات الأحياء إذا شاء ، ويهدى من يشاء ، ويضل من يشاء ، وليس ذلك لأحد سواه ، ولهذا قال تعالى : ﴿ إِنْ تُسْمِعُ إِلَّا مَنْ يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا فَهُمْ مُسْلِمُونَ ﴾ أى : خاضعون مستجيبون مطيعون ، فأولئك هم الذين يستمعون الحق ويتبعونه ، وهذا حلال المؤمنين ، والأول مثل الكافرين ، كما قال تعالى :

﴿ إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ الَّذِينَ يَسْمَعُونَ وَالْمَوْتَىٰ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ ﴾ [الانعام : ٣٦] .

وقد استدلت أم المؤمنين عائشة - رضى الله عنها - بهذه الآية : ﴿ فَإِنَّكَ لَا تَسْمَعُ الْمَوْتَى ﴾ على توهيم عبد الله بن عمر فى روايته مخاطبة النبى ﷺ القتلى للذين ألقوا فى قلب بدر ، بعد ثلاثة أيام ، ومعابته إياهم وتقريعه لهم ، حتى قال له عمر : يا رسول الله ، ما تخاطب من قوم قد جِئُوا ؟ فقال : « والذى نفسى بيده ، ما أنتم بأسمع لما أقول منهم ، ولكن لا يجيبون » . وتأولته عائشة على أنه قال : « إنهم الآن ليعلمون أن ما كنت أقول لهم حق » . وقال قتادة : أحياهم الله حتى سمعوا مقالته وتوبيخاً ونقمة . والصحيح عند العلماء رواية ابن عمر ، لما لها من الشواهد على صحتها من وجوه كثيرة ، من أشهر ذلك ما رواه ابن عبد البر مصححاً له ، عن ابن عباس مرفوعاً : « ما من أحد يمر بقبر أخيه المسلم ، كان يعرفه فى الدنيا ، فيسلم عليه ، إلا رد الله عليه روحه ، حتى يرد عليه السلام » (١) . وثبت عنه ﷺ أن الميت يسمع قرع نعال المشيعين له ، إذا انصرفوا عنه (٢) ، وقد شرع النبى ﷺ لأمته إذا سلموا على أهل القبور أن يسلموا عليهم سلام من يخاطبونه فيقول المسلم : « السلام عليكم دار قوم مؤمنين » (٣) ، وهذا خطاب لمن يسمع ويعقل ، ولولا هذا الخطاب لكانوا بمنزلة خطاب المعدوم والجماد ، والسلف مجمعون على هذا .

وقد شرع السلام على الموتى ، والسلام على من لا يشعر ولا يعلم بالمسلم محال ، وقد علم النبى ﷺ أمته إذا رأوا القبور أن يقولوا : « سلام عليكم أهل الديار من المؤمنين ، وإننا إن شاء الله بكم لاحقون ، يرحم الله المستقدمين منا ومنكم والمستأخرين ، نسأل الله لنا ولكم العافية » ، فهذا السلام والخطاب والنداء لموجود يسمع ويخاطب ويعقل ويرد ، وإن لم يسمع المسلم الرد ، والله أعلم .

﴿ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْقَدِيرُ ﴾

ربع

بنيه تعالى على تنقل الإنسان فى أطوار الخلق حالا بعد حال ، فأصله من تراب ، ثم من نطفة ، ثم من علقه ، ثم من مضغة ، ثم يصير عظاماً ثم تكسى لحماً ، وينفخ فيه الروح ، ثم يخرج من بطن أمه ضعيفاً نحيفاً واهن القوى ، ثم يشب قليلاً قليلاً حتى يكون صغيراً ، ثم حدثاً ، ثم مراهقاً ، ثم شاباً . وهو القوة بعد الضعف ، ثم يشرع فى النقص فيكتهل . ثم يشيخ ثم يهرم ، وهو الضعف بعد القوة ، فتضعف الهمة والحركة والبطش ، وتشيب اللمة ، وتتغير

(١) الاستذكار (٢ / ١٦٥) ، ونصه : « ما من أحد يمر بقبر أخيه المؤمن كان يعرفه فى الدنيا ، فسلم عليه ، إلا عرفه ورد عليه السلام » .

(٢) مسلم (٢٨٧٠ / ٧٠ ، ٧١) وأبو داود (٣٢٣١) وأحمد (٢ / ٣٤٧ ، ٤٤٥) .

(٣) مسلم (٢٤٩ / ٣٩) وأبو داود (٣٢٣٧) وأحمد (٢ / ٣٠٠ ، ٣٧٥) .

الصفات الظاهرة والباطنة ، ولهذا قال : ﴿ ثُمَّ جَعَلْنَا مِنْ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلْنَا مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ ﴾ أى : يفعل ما يشاء ويتصرف فى عبيده بما يريد ، ﴿ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْقَدِيرُ ﴾ .

﴿ وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُقْسِمُ الْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا غَيْرَ سَاعَةٍ كَذَلِكَ كَانُوا يُؤْفَكُونَ ﴾ ﴿٥٥﴾ وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَالْإِيمَانَ لَقَدْ لَبِثْنَا فِي كِتَابِ اللَّهِ إِلَى يَوْمِ الْبَعْثِ فَهَذَا يَوْمَ الْبَعْثِ وَلَكِنَّكُمْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٥٦﴾ فَيَوْمَئِذٍ لَا يُنْفَعُ الَّذِينَ ظَلَمُوا مُعْذِرَتُهُمْ وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ ﴿٥٧﴾

يخبر تعالى عن جهل الكفار فى الدنيا والآخرة ، وفى الدنيا فعلوا ما فعلوا من عبادة الأوثان ، وفى الآخرة يكون منهم جهل عظيم أيضاً ، فمنه إقسامهم بالله أنهم ما لبثوا فى الدنيا إلا ساعة واحدة ، ومقصودهم هم بذلك عدم قيام الحجة عليهم ، وأنهم لم يُنظروا حتى يُعذَر إليهم . قال الله تعالى : ﴿ كَذَلِكَ كَانُوا يُؤْفَكُونَ . وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَالْإِيمَانَ لَقَدْ لَبِثْنَا فِي كِتَابِ اللَّهِ إِلَى يَوْمِ الْبَعْثِ ﴾ أى : فإرد عليهم المؤمنون العلماء فى الآخرة ، كما أقاموا عليهم حجة الله فى الدنيا ، فيقولون لهم حين يحلفون ما لبثوا غير ساعة : ﴿ لَقَدْ لَبِثْنَا فِي كِتَابِ اللَّهِ ﴾ أى : فى كتاب الأعمال ﴿ إِلَى يَوْمِ الْبَعْثِ ﴾ أى : من يوم خلقتم إلى أن بعثتم ، ﴿ وَلَكِنَّكُمْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾ . قال الله تعالى : ﴿ فَيَوْمَئِذٍ ﴾ أى : يوم القيامة ﴿ لَا يُنْفَعُ الَّذِينَ ظَلَمُوا مُعْذِرَتُهُمْ ﴾ أى : اعتذارهم عما فعلوا ، ﴿ وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ ﴾ أى : ولا هم يرجعون فى الدنيا . كما قال تعالى : ﴿ وَإِنْ يُسْتَعْتَبُوا فَمَا هُمْ مِنَ الْمُعْتَبِينَ ﴾ [فصلت : ٢٤] .

﴿ وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ وَلَئِنْ جِئْتَهُمْ بِآيَةٍ لَيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا مُبْطَلُونَ ﴾ ﴿٥٨﴾ كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٩﴾ فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَا يَسْتَخِفُّكَ الَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ ﴿٦٠﴾

يقول تعالى : ﴿ وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ ﴾ أى : قد بينا لهم الحق ، ووضحناه لهم ، وضربنا لهم فيه الأمثال ليتبينوا الحق ويتبعوه . ﴿ وَلَئِنْ جِئْتَهُمْ بِآيَةٍ لَيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا مُبْطَلُونَ ﴾ أى : لو رأوا أى آية كانت ، سواء كانت باقتراحهم أو غيره ، لا يؤمنون بها ، ويعتقدون أنها سحر وباطل ، كما قالوا فى انشقاق القمر ونحوه ، كما قال تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ . وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّى يَرَوْا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ ﴾ [يونس : ٩٦ ، ٩٧] ، ولهذا قال هاهنا : ﴿ كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ . فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ ﴾ أى : اصبر على مخالفتهم وعنادهم ، فإن الله منجز لك ما وعدك من نصره إياك ، وجعله العاقبة لك وعن اتباعك فى الدنيا والآخرة ، ﴿ وَلَا يَسْتَخِفُّكَ الَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ ﴾ أى : بل اثبت على ما بعثك الله به ، فإنه الحق الذى لا مرية فيه ، ولا تعدل عنه وليس فيما سواه هدى يتبع ، بل الحق كله منحصر فيه .

ما روى فى فضل هذه السورة الشريفة ، واستحباب قراءتها فى الفجر : روى الإمام أحمد

عن شبيب أبي روح ، يحدث عن رجل من أصحاب النبي ﷺ أن رسول الله ﷺ صلى بهم الصبح فقرأ فيها الروم فأوهم ، فلما انصرف ، قال : « إنه يلبس علينا القرآن ، فإن أقواماً منكم يصلون معنا لا يحسنون الوضوء ، فمن شهد الصلاة معنا فليحسن الوضوء » (١) . وهذا إسناد حسن ومتم حسن ، فيه سر عجيب . ونبأ غريب . وهو أنه ﷺ تأثر بنقصان وضوء من ائتم به ، فدل ذلك أن صلاة المأموم متعلقة بصلاة الإمام .

فهرس الموضوعات

الصفحة

الموضوع

الصفحة	الموضوع
	سورة الأعراف (٧)
٥	ربع : ﴿ اَلَمْحَصَّ ۝ كِتَابٌ اُنزِلَ اِلَيْكَ فَلَا يَكُنْ لِي حُدُوكَ حَرَجٌ مِنْهُ ﴾
٥	إهلاك القرى لما كذبوا رسلهم
٧	وزن الأعمال يوم القيامة
٨	﴿ لَقَدْ مَكَّنَّاكُمْ فِي الْاَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ قَلِيلًا مَا تَشْكُرُونَ ﴾
٨	شرف آدم ، وعداوة إبليس
٩	امتناع إبليس من السجود لآدم
١٠	هبوط إبليس وإنذار الله له
١٠	معاندة إبليس وتمرده وإغواؤه بنى البشر
١١	﴿ اَخْرَجْنَا مِنْهَا مَذْمُومًا مَذْحُورًا لَمَنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكُمْ اَجْمَعِينَ ﴾
١٢	إباحة الله تعالى لآدم ﷺ وزوجته سكنى الجنة والاكل من جميع ثمارها
	أكل آدم ﷺ وزوجته من ثمار الجنة وظهور عورتها وتغطيتها لها ، ونهى الله لهما عن
١٢	الاكل من الشجرة وندمهما على ذلك
١٣	امتنان الله تعالى على عباده بما جعل لهم من اللباس والرياش
١٤	تحذير الله بنى آدم من إبليس وقبيله
١٤	طواف المشركين بالبيت عراة وقولهم: ﴿ وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَا وَاللَّهُ اَمْرًا نَبِيهَا ﴾
١٦	ربع: ﴿ يَا بَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ ﴾
١٦	أمر الله بنى آدم بأخذ الزينة عند كل مسجد وبالاكل والشرب دون إسراف
١٨	﴿ قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللّٰهِ الَّتِي اَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ ﴾
١٨	﴿ قُلْ اِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّي الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَّنَ ﴾
١٩	﴿ نَكَلُ اُمَّةٍ اَجَلٍ ﴾ وإنذار الله تعالى بنى آدم ببعثه إليهم رسلا مبشرين ومنذرين
١٩	﴿ قَالَ ادْخُلُوا فِي اُمَّمٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ مِنَ الْجِنِّ وَالْاِنْسِ فِي النَّارِ ﴾
	المكذبون بآيات الله والمستكبرون عنها لا تفتح لهم أبواب السماء ولا يدخلون الجنة حتى يلج
٢٠	الجمل فى سم الخياط
٢٣	ذكر حال السعداء فى الجنة
٢٤	خطاب أهل الجنة أهل النار إذا استقروا فى الجنة
٢٥	بين الجنة والنار حجاب ومخاطبة أهل الأعراف أصحاب الجنة

- ٢٥ ربيع : ﴿وَإِذَا صُرِفَتْ أَبْصَارُهُمْ تِلْقَاءَ أَصْحَابِ النَّارِ﴾
- ٢٦ مخاطبة أهل الأعراف صناديد قريش وقادتهم
- ٢٧ سؤال أهل النار أهل الجنة شرابهم وطعامهم
- ٢٧ ﴿وَلَقَدْ جِئْنَاهُمْ بِكِتَابٍ فَصَّلْنَاهُ عَلَىٰ عِلْمٍ﴾
- ٢٨ خلق الله تعالى السموات والأرض في ستة أيام واستوازه على العرش
- ٢٩ ﴿ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً﴾
- ٣١ الله تعالى هو الذى يرسل الرياح وأنه وحده الرزاق ، وأنه يعيد الموتى يوم القيامة
- ٣٢ ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ﴾
- ٣٣ ﴿أَوْ عَجِبْتُمْ أَنْ جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ﴾
- ٣٣ ربيع : ﴿وَأَلَىٰ عَادِ أَخَاهُمْ هُودًا﴾
- ٣٣ دعوة هود عليه السلام قومه إلى عبادة الله وحده
- ٣٥ تمرد وعناد وطغيان عاد على هود عليه السلام
- ٣٦ دعوة صالح عليه السلام قومه إلى عبادة الله وحده
- ٣٨ عقر ثمود ناقة صالح عليه السلام
- ٣٩ تقريع صالح عليه السلام لقومه بعد هلاكهم
- ٣٩ ﴿وَلَوْطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ الْعَالَمِينَ﴾
- ٤٠ جواب قوم لوط له ، وإنجاء الله إياه وقومه إلا امرأته
- ٤١ دعوة شعيب عليه السلام قومه إلى عبادة الله وحده
- ٤٢ نهى شعيب عليه السلام قومه عن قطع الطريق الحسى والمعنوى
- ٤٢ الجزء - ٩ : ﴿ قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِن قَوْمِهِ لَنُخْرِجَنَّكَ يَا شُعَيْبُ﴾
- ٤٣ إخبار الله تعالى عن شدة قوم شعيب وتمردهم وعتوهم
- ٤٤ ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّبِيٍّ إِلَّا أَخَذْنَا أَهْلَهَا بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ﴾
- ٤٥ ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾
- ٤٥ ﴿أَوْ لَمْ يَهْدِ لِلَّذِينَ يَرْتُونَ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِ أَهْلِهَا أَنْ لَوْ نَشَاءُ أَصْبَأَهُم بِذُنُوبِهِمْ﴾
- ٤٦ قصص الله تعالى على نبيه محمد صلى الله عليه وسلم أخبار القرى بعد إهلاكه الكافرين وإنجائه المؤمنين
- ٤٧ ﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِم مُّوسَىٰ بِآيَاتِنَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ﴾
- ٤٨ مناظرة موسى عليه السلام لفرعون
- ٤٨ عصا موسى عليه السلام تنقلب إلى ثعبان ، والملا من قوم فرعون يتهمون موسى بالسحر
- ٤٩ ﴿قَالُوا أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَأَرْسِلْ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ﴾
- ٤٩ السحرة يسألون فرعون الأجر إن هم غلبوا ، ومبارزتهم موسى كلاميا
- ٥٠ عصا موسى عليه السلام تلقف ما يأفكون ، وهزيمة منكرة للسحرة وإيمانهم بالله تعالى
- ٥٠ ربيع : ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ﴾
- ٥٠ وعيد فرعون لسحرته لما آمنوا بالله ربا وبموسى عليه السلام نبيا

- ٥٠ ما تمالا عليه فرعون وملؤه وما أضمره موسى ﷺ
- ٥٢ ﴿ وَقَدْ أَخَذْنَا آلَ فِرْعَوْنَ بِالسِّتِينَ وَنَقَصْنَا مِنَ الثَّمَرَاتِ ﴾
- ٥٢ إخبار الله تعالى عن تمرد قوم فرعون وعتوهم وعنادهم للحق وإصرارهم على الباطل
- ٥٣ إغراق الله تعالى لفرعون وجنوده في اليم، وإيراث الله بنى إسرائيل مشارق الأرض ومغاريها
- ٥٤ بعض أصحاب موسى ﷺ يطلبون منه أن يجعل لهم آلهة بعد أن أنجاهم الله من فرعون وقهره
- ٥٤ ﴿ قَالَ أَغْيِرَ اللَّهُ أٰبْعِيكُمْ إِلٰهًا وَهُوَ فَضَّلَكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴾
- ٥٤ ربيع: ﴿وَوَاعَدْنَا مُوسَى ثَلَاثِينَ لَيْلَةً وَأَتَمَمْتَاهَا بَعَثْرًا ﴾
- ٥٥ موسى ﷺ يسأل ربه الرؤيا
- ٥٧ اصطفاء الله تعالى لموسى ﷺ برسالته وبكلامه
- ٥٨ ﴿ سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ ﴾
- ٥٩ ضلال من ضل من بنى إسرائيل في عبادتهم العجل
- ٥٩ ﴿وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَىٰ إِلَىٰ قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفًا قَالَ بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِي مِن بَعْدِي ﴾
- ٦٠ الذين عبدوا العجل من بنى إسرائيل لم يقبل الله لهم توبة وكتب عليهم الذل والصغار
- ٦١ سكوت الغضب عن موسى ﷺ، واختياره سبعين رجلا
- ٦١ ربيع: ﴿ وَآكُتِبْنَا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ ﴾
- ٦٢ رحمة الله تعالى وسعت كل شيء
- ٦٣ صفة الرسول النبي الأمي ﷺ في التوراة والإنجيل
- ٦٥ ﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ﴾
- ٦٧ من قوم موسى ﷺ أمة يتبعون الحق ويعدلون به
- ٦٧ ﴿ وَقَطَعْنَا لَهُمُ اثْنَيْ عَشَرَ نَبِيطًا بِأَمْرٍ ﴾
- ٦٨ اليهود يحتالون على المخالفة لامر الله تعالى في الصيد يوم السبت
- ٦٨ ﴿ وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِنْهُمْ لِمَ تَعْبُدُونَ قَوْمًا لَّهُمْ مَهْلِكُهُمْ ﴾
- ٧٠ ﴿ وَقَطَعْنَا لَهُمُ فِي الْأَرْضِ أُمَّةً ﴾
- ٧١ ربيع: ﴿ وَإِذْ نَفَخْنَا الْجِبَلُ فَوَقَّهُمْ كَأَنَّهُ ظُلَّةٌ ﴾
- ٧٢ استخراج الله تعالى ذرية بنى آدم من أصلابهم وشهودهم أن الله ربهم ومليكنهم
- ٧٥ ﴿ وَأَتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانْسَلَخْنَا مِنْهَا ﴾
- ٧٧ من هداه الله فإنه لا مضل له، ومن أضله فقد خاب وخسر
- ٧٧ ﴿ وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالإِنسِ ﴾
- ٧٩ أسماء الله الحسنى
- ٨٠ توبيخ الله للمكذبين الذين لا ينظرون في ملكوت السموات والأرض
- ٨١ ﴿ مَن يَضِلَّ اللَّهُ فَلَا هَادِيَ لَهُ ﴾
- ٨١ علم الساعة لا يعلمه إلا الله
- ٨٥ ﴿ قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلَا ضَرًّا ﴾

- ٨٦ ربيع: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ﴾
 ٨٨ إنكار الله تعالى على المشركين الذين عبدوا غيره
 ٨٩ ﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾
 ٩١ المتقون إذا مسهم طائف من الشيطان تذكروا الله فاستقاموا وصحوا
 ٩٣ أمر الله تعالى المسلمين بالإنصات عند تلاوة القرآن إعظماً له واحتراماً
 ٩٥ ذكر الله تعالى أول النهار وآخره

سورة الأنفال (٨)

- ٩٦ ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفَالِ قُلِ الْأَنْفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ﴾
 ٩٩ صفات المؤمنين
 ١٠٠ ﴿كَمَا أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنْ بَيْتِكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقًا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ لَكَارِهُونَ﴾
 ١٠٤ مناقشة النبي ﷺ ربه في غزوة بدر
 ١٠٦ نعم الله تعالى على المؤمنين في غزوة بدر
 ١٠٩ توعد الله تعالى للفارين من الزحف بالنار
 ١١١ أفعال العباد مخلوقة ، والله تعالى المحمود على جميع ما صدر عنهم من خير
 ١١٢ ﴿إِنْ تَسْتَفْتِحُوا فَقَدْ جَاءَكُمْ الْفَتْحُ﴾
 ١١٢ ربيع: ﴿إِنْ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الصَّمُّ الْبُكْمُ﴾
 ١١٣ نداء الله تعالى للمؤمنين بالاستجابة له ولرسوله ﷺ
 ١١٤ ﴿وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبُنَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً﴾
 ١١٥ تكثير الله للمؤمنين بعد قتلهم وتقويته ونصره لهم بعد ضعفهم وخوفهم
 ١١٦ ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَخُونُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ وَتَخُونُوا أَمَانَاتِكُمْ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾
 ١١٧ تقوى الله تعالى تجعل للإنسان مخرجاً من كل ضيق وتكفر السيئات وتغفر الذنوب
 ١١٨ محاولة تقييد النبي ﷺ أو قتله أو إخراجه من مكة
 ١١٩ تمرد قريش وعتوهم عند سماع آيات القرآن الكريم
 ١١٩ لم يعذب الله قريشاً لبركة مقام الرسول ﷺ بين أظهرهم
 ١٢٣ الكافرون ينفقون أموالهم ليصدوا عن سبيل الله
 ١٢٤ ﴿قُلِ لِلَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ يَتَّهَمُوا يُفْتَرُ لَهُمْ مَا قَدْ سَلَفَ﴾
 الجزء - ١٠ : ﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ﴾
 ١٢٩ المسلمون بالعدوة الدنيا والمشركون بالعدوة القصوى
 ١٣١ المشركون قليل في أعين المسلمين والمسلمون كثير في أعين المشركين
 ١٣٢ طريق الشجاعة عند مواجهة الأعداء
 أمر الله المؤمنين بالإخلاص في القتال في سبيله وكثرة ذكره، ناهيهم عن التشبه بالمشركين في
 خروجهم من ديارهم

- فهرس الموضوعات _____ ١٣٣
- ١٣٤ _____ الملائكة تضرب وجوه الكفار وأدبارهم حين تتوفاهم
- ١٣٥ _____ ﴿كَذَابَ آلِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ _____
- ١٣٥ _____ الله تعالى لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم
- ١٣٦ _____ شر الدواب على وجه الأرض هم الذين كفروا فهم لا يؤمنون
- ١٣٦ _____ ﴿وَأَمَّا تَخْلِفُ مِنْ قَوْمٍ خِيَانَةً فَانْبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَى سَوَاءٍ﴾ _____
- ١٣٧ _____ الكفار تحت قهر قدرة الله تعالى وفي قبضة مشيئته فلا يعجزونه
- ١٣٨ _____ ريع : ﴿وَأَنْ جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْتَحِبْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ﴾ _____
- ١٣٩ _____ تحريض الله تعالى نبيه ﷺ والمؤمنين على القتال فهو كافيتهم وناصرهم
- ١٤٠ _____ ﴿مَا كَانَ لِنَبِيِّ أَنْ يَكُونَ لَهُ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يَشْفِيَ فِي الْأَرْضِ﴾ _____
- ١٤٠ _____ ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِمَنْ فِي أَيْدِيكُمْ مِنَ الْأَسْرَىٰ إِنْ يَعْلَمِ اللَّهُ فِي قُلُوبِكُمْ خَيْرًا يُؤْتِكُمْ خَيْرًا﴾ _____
- ١٤٢ _____ المؤمنون صنفان : مهاجرون وأنصار
- ١٤٣ _____ ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ﴾ _____
- ١٤٤ _____ جزاء الله تعالى للمؤمنين بالمغفرة والصفح عن الذنوب وبالرزق الكريم في الآخرة

سورة التوبة (٩)

- ١٤٥ _____ ﴿بَرَاءَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ _____
- ١٤٦ _____ ﴿وَأَذَانٌ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى النَّاسِ يَوْمَ الْحَجِّ الْأَكْبَرِ﴾ _____
- ١٤٧ _____ ﴿إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ _____
- ١٤٨ _____ الأشهر الحرم ، وانسلاخها وقتال المشركين بعدها
- ١٤٩ _____ إن طلب المشرك الأمان في بلاد الإسلام فأجره حتى يسمع كلام الله
- ١٥٠ _____ ﴿كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ عِنْدَ اللَّهِ وَعِنْدَ رَسُولِهِ إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾ _____
- المشركون لا يراعون للمسلمين قرابة ولا عهدا، ويشترون بآيات الله ثمنا قليلا ، وعلى المؤمنين
- ١٥٠ _____ قتالهم إن نكثوا إيمانهم وطعنوا في الدين
- ١٥١ _____ تهيج وتحضيض المؤمنين على قتال المشركين الناكثين لإيمانهم
- ١٥٣ _____ لا ينبغي للمشركين أن يعمروا مساجد الله
- ١٥٣ _____ ريع : ﴿أَجْعَلْتُمْ مَقَابِلَةَ الْحَاجِّ وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ كَمَنْ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ _____
- ١٥٤ _____ النهى عن موالاة الكفار ومبايعتهم وإن كانوا آباء أو أبناء
- ١٥٥ _____ فضل الله وإحسانه على المؤمنين في غزوة حنين
- ١٥٧ _____ المشركون نجس ديناً لا يحل لهم أن يقربوا المسجد الحرام بعد سنة تسع
- ١٦٠ _____ إغراء الله للمؤمنين على قتال الكفار حينما قالوا : عزيز ابن الله والمسيح ابن الله
- ١٦١ _____ الكفار يريدون إطفاء نور الله بأفواههم ولن يستطيعوا
- ١٦٢ _____ ريع : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ كَثُرَ مِنَ الْأَحْيَارِ وَالرَّهْبَانِ لَيَأْكُلْنَ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ﴾ _____
- ١٦٤ _____ عدة الشهور عند الله اثنا عشر شهرا

- ١٦٦ ﴿ إِنَّمَا النَّسِيءُ زِيَادَةٌ فِي الْكُفْرِ ﴾
- ١٦٧ عتاب من تخلف عن رسول الله ﷺ في غزوة تبوك
- ١٦٨ ﴿إِلَّا تَتَصَرَّوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ ﴾
- ١٦٩ نفير المؤمنين العام مع الرسول ﷺ في غزوة تبوك
- ١٧٠ توبيخ الله تعالى للذين تخلفوا عن النبي ﷺ في غزوة تبوك
- ١٧٠ ﴿عَفَا اللَّهُ عَنْكَ لِمَ أَذْنَتْ لَهُمْ ﴾
- ١٧١ ربيع: ﴿ وَلَوْ أَرَادُوا الْخُرُوجَ لِأَعْدَا لَهُ عُدَّةٌ ﴾
- ١٧٢ تحريض الله تعالى لنبيه ﷺ على المنافقين
- ١٧٢ الجذ بن قيس يسأل رسول الله ﷺ عدم الخروج معه في غزوة تبوك
- ١٧٣ المنافقون يسوؤهم فتح ونصر وظفر المسلمين على أعدائهم ، ويفرحون بمصائبهم
- ١٧٣ ﴿ قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَا إِلَّا إِحْدَى الْحُسَيْنِ ﴾
- ١٧٤ ﴿ فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ ﴾
- ١٧٤ المنافقون يحلفون أنهم من المؤمنين وما هم كذلك
- ١٧٤ ﴿ وَمِنْهُمْ مَنْ يَلْمِزُكَ فِي الصَّدَقَاتِ ﴾
- ١٧٥ ربيع: ﴿ إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسْكِينِ ﴾
- ١٧٧ المنافقون يؤذون رسول الله ﷺ بالكلام ويقولون: هو أذن
- ١٧٨ ﴿ يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ لِيُرْضَوْكُمْ ﴾
- ١٧٨ ﴿ يَحْذَرُ الْمُنَافِقُونَ أَنْ تَنْزَلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ ﴾
- اثنان من المنافقين هما: ودیعة بن ثابت ومخشن بن حمير وما قالاه في أثناء خروجه ﷺ
- ١٧٨ إلى تبوك
- ١٧٩ المنافقون والمنافقات وصفاتهم المذمومة
- ١٧٩ ﴿ كَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْكُمْ قُوَّةً ﴾
- وعظ الله تعالى للمنافقين المكذبين بإهلاكه المكذبين من قوم نوح وعاد وثمود وإبراهيم ومدين
- ١٨٠ والمؤتفكات
- ١٨٠ المؤمنون والمؤمنات وصفاتهم المحمودة ومكاتبهم في الجنة
- ١٨٢ أمر الله تعالى رسوله ﷺ بجهاد الكفار والمنافقين والغلظة عليهم
- ١٨٤ ربيع: ﴿ وَمِنْهُمْ مَنْ عَاهَدَ اللَّهُ لَنْ آتَانَا مِنْ فَضْلِهِ لَنُصَدِّقُنَّ ﴾
- ١٨٤ من صفات المنافقين: اللمز من المتفقين المؤمنين والسخرية منهم
- ١٨٥ المنافقون ليسوا أهلاً للاستغفار
- ١٨٦ ذم الله تعالى للمنافقين المختلفين عن غزوة تبوك
- ١٨٧ عدم الإذن للمنافقين بالمشاركة في غزوة أخرى مع الرسول ﷺ وإن طلبوا ذلك
- ١٨٧ أمر الله تعالى إلى رسوله ﷺ بالبراء من المنافقين إلا يصلى على أحدهم إذا مات
- ١٨٩ ﴿ وَإِذَا أَنْزَلَتْ سُورَةٌ أَنْ آمَنُوا بِاللَّهِ وَجَاهَدُوا مَعَ رَسُولِهِ ﴾

- فهرس الموضوعات ٨٣٥
- ١٩٠ ثناء الله تعالى للمؤمنين المشاركين في غزوة تبوك
- ١٩٠ ﴿ وَجَاءَ الْمُعَذَّرُونَ مِنَ الْأَعْرَابِ لِيُؤْذَنَ لَهُمْ ﴾
- ١٩٠ الجزء - ١١ : ﴿ إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ وَهُمْ أَغْنَاءُ ﴾
- ١٩٢ ﴿ يَحْتَدِرُونَ إِلَيْكُمْ إِذَا رَجَعْتُمْ إِلَيْهِمْ ﴾
- ١٩٢ في الأعراب كفار و منافقون و مؤمنون
- ١٩٣ رضا الله عز وجل عن المهاجرين و الأنصار و التابعين لهم بإحسان
- ١٩٣ ﴿ وَمِمَّنْ حَوْلَكُمْ مِنَ الْأَعْرَابِ مُنَافِقُونَ ﴾
- ١٩٤ بيان حال المذنبين المتأخرين عن الجهاد كسلاً و ميلاً إلى الراحة مع إيمانهم و تصديقهم بالحق
- ١٩٥ ﴿ خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا ﴾
- ١٩٦ ﴿ وَقُلْ أَعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ ﴾
- ١٩٦ الثلاثة الذين خلفوا عن غزوة تبوك
- ١٩٧ مسجد الضرار و الهدف من بنائه
- ١٩٩ ﴿ أَقْمِنَ أُنْسٌ بِبَيَاتِهِ عَلَى تَقْوَى مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٍ ﴾
- ١٩٩ ربيع : ﴿ إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ ﴾
- ٢٠٠ صفات المؤمنين الذين اشترى الله تعالى منهم أنفسهم و أموالهم
- ٢٠١ نهى الله تعالى للمؤمنين عن الاستغفار للمشركين ولو كانوا أولى قربى
- ٢٠٢ ﴿ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًا بَعْدَ إِذْ هَدَاهُمْ حَتَّى يُبَيِّنَ لَهُمْ مَا يَتَّقُونَ ﴾
- ٢٠٢ ﴿ لَقَدْ تَابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ ﴾
- ٢٠٣ ﴿ وَعَلَى الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ خَلَفُوا ﴾
- ٢٠٧ عتاب الله تعالى للمتخلفين عن غزوة تبوك من أهل المدينة و من حولها
- ٢٠٧ ﴿ وَلَا يَطْفِقُونَ لَفْظَةً صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً وَلَا يَقْطَعُونَ وَادِيًا إِلَّا كُنِبَ لَهُمْ ﴾
- ٢٠٧ ربيع : ﴿ وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنْفِرُوا كَآفَّةً ﴾
- ٢٠٨ أمر الله تعالى المؤمنين أن يقاتلوا الكفار أولاً بأول و الغلظة عليهم
- ٢١٠ ﴿ وَإِذَا مَا أَنْزَلْنَا سُورَةً فَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ أَكُنْمُ زَادَتْهُ هَذِهِ إِيمَانًا ﴾
- ٢١٠ المنافقون اختبروا مرة أو مرتين في كل عام ثم لا يتوبون من ذنوبهم
- ٢١١ ﴿ لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ ﴾

سورة يونس (١٠)

- ٢١٢ خلق الله تعالى السموات و الأرض في ستة أيام و استوازه على العرش
- ٢١٣ مرجع الخلائق كلهم يوم القيامة إلى الله تعالى
- ٢١٣ ﴿ هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسُ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا ﴾
- ٢١٤ حال الأشقياء الذين كفروا بقاء الله يوم القيامة و الذين لا يرجون لقاءه
- ٢١٥ حال السعداء الذين آمنوا بالله تعالى فصدقوا المرسلين و عملوا الصالحات

- ٢١٥ ربيع: ﴿ وَلَوْ يَعْلَمُ اللَّهُ لِلنَّاسِ الشَّرَّ اسْتَعْجَلَهُمْ بِالْخَيْرِ لَفُضِيَ إِلَيْهِمْ أَجْلُهُمْ ﴾
- ٢١٦ ضجر الإنسان وقلقه إذا مسه الشر
- ٢١٦ ما حل بالقرون الماضية في تكذيبهم الرسل بالرغم من وضوح البينات والحجج
- ٢١٧ الكفار والجاحدون الحق إذا قرئ عليهم القرآن قالوا للنبي ﷺ: اثنا بغيره
- ٢١٧ المفترون على الله تعالى كذباً لا يفلحون
- ٢١٩ المشركون يظنون أن آلهتهم تنفعهم شفاعتها عند الله تعالى ورد ذلك عليهم
- ٢٢٠ ﴿ وَيَقُولُونَ لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ ﴾
- ٢٢١ الناس إذا أصابتهم رحمة من الله تعالى بعد ضراء استهزؤوا وكذبوا
- ٢٢٢ ﴿ إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَطَبَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ ﴾
- ٢٢٣ ربيع: ﴿ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ ﴾
- ٢٢٤ عدل الله تعالى في الأشقياء فإنه يجازيهم على السيئة بمثلها
- ٢٢٤ ﴿ وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا مَكَانَكُمْ أَنْتُمْ وَشُرَكَائِكُمْ ﴾
- ٢٢٥ ﴿ قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَمْ يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ ﴾
- ٢٢٦ ﴿ قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَدْعُوا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعْبُدُ ﴾
- ٢٢٧ القرآن الكريم معجز ، عجز البشر على أن يأتوا بمثل سورة منه
- ٢٢٩ ﴿ وَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقُلْ لِي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلِكُمْ ﴾
- ٢٢٩ ﴿ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ كَأَن لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا سَاعَةً مِنَ النَّهَارِ ﴾
- ٢٣٠ ﴿ وَإِنَّمَا نُزِّيكَ بِغَضِّ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَعُوقِكَ ﴾
- ٢٣٠ المشركون يستعجلون العذاب وسؤالهم عن وقته قبل التعمين مما لا فائدة لهم فيه
- ٢٣١ ربيع: ﴿ وَيَسْتَعْجِلُونَكَ أَحَقُّ هُوَ قُلْ إِي وَرَبِّي إِنَّهُ لَنَقِي ﴾
- ٢٣١ الله تعالى مالك السموات والأرض ووعده حق واقع لا محالة
- ٢٣٢ ﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ لَكُمْ مِنْ رِزْقٍ فَجَعَلْتُمْ مِنْهُ حَرَامًا وَحَلَالًا ﴾
- ٢٣٣ أحوال جميع الخلائق يعلمها الله تعالى في كل ساعة وأوان ولحظة
- ٢٣٣ صفات أولياء الله
- ٢٣٥ ﴿ وَلَا يَحْزَنُكَ قَوْلُهُمْ إِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا ﴾
- ٢٣٥ ﴿ قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا سُبْحَانَ اللَّهِ هُوَ الْعَلِيِّ ﴾
- ٢٣٦ ربيع: ﴿ وَأَتَىٰ عَلَيْهِمْ نَبَأُ نُوحٍ ﴾
- ٢٣٧ ﴿ ثُمَّ بَحَثْنَا مِنْ بَعْدِهِ رَسُولًا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ ﴾
- ٢٣٧ ﴿ ثُمَّ بَحَثْنَا مِنْ بَعْدِهِم مُوسَىٰ وَهَارُونَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلِكِهِ ﴾
- ٢٣٨ سحرة فرعون وموسى عليه السلام
- ٢٣٩ ما آمن بموسى عليه السلام إلا قليل من قوم فرعون
- ٢٣٩ ﴿ وَقَالَ مُوسَىٰ يَا قَوْمِ إِنْ كُنْتُمْ آمَنْتُمْ بِاللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا ﴾
- ٢٤٠ ﴿ وَأَرْحَمِنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ وَأَخِيهِ أَنْ تَبُوءُوا لِلْقَوْمِ كَمَا بِمِصْرَ بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴾

- ٢٤٠ دعاء موسى عليه السلام على فرعون وملئه لما استمروا على ضلالهم وكفرهم
- ٢٤١ ربيع: ﴿ وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتَيْنَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودَهُ ﴾
- ٢٤٢ نعم الله تعالى على بني إسرائيل الدينية والدنيوية
- ٢٤٤ ﴿ فَإِنْ كُنْتَ فِي شكٍ مِمَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ فَاسْأَلِ الَّذِينَ يُقْرَأُونَ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكَ ﴾
- ٢٤٤ ﴿ فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةً آمَنَتْ فَتَفْعَمَهَا إِيمَانُهَا إِلَّا قَوْمُ يُونُسَ ﴾
- ٢٤٥ ﴿ وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَأَمَنَّ مِنَ فِي الْأَرْضِ كُلَّهُمْ جَمِيعًا ﴾
- ٢٤٦ دعوة الله تعالى إلى خلقه للنظر في آلائه وما في السموات والأرض
- ٢٤٦ ﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي شكٍ مِّنْ دِينِي فَلَا أَعْبُدُ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ ﴾
- ٢٤٧ ﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ الْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ ﴾

سورة هود (١١)

- ٢٤٨ ﴿ أَلَا إِنَّهُمْ يَشْتُونَ صُدُورَهُمْ لَيَسْتَخِفُّوا مِنْهُ ﴾
- ٢٤٩ الجزء - ١٢: ﴿ وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا ﴾
- ٢٤٩ الله تعالى متكفل بأرزاق جميع الدواب
- ٢٥٠ ﴿ وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ﴾
- ياس الإنسان وقنوطه إذا أصابته شدة بعد نعمة وكفره وجحوده لماضى الحال كأنه لم ير
- ٢٥٢ خيراً قط
- ٢٥٢ ﴿ فَلَمَّا تَرَاكَ بَعْضُ مَا يُوْحَىٰ إِلَيْكَ وَصَاتِقٌ بِهِ صَدْرُكَ ﴾
- ٢٥٣ المرازون يعطون بحسناتهم في الدنيا
- ٢٥٤ ﴿ أَقْمَنُ كَانَ عَلَى بَيْتِهِ مِنْ رَبِّهِ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِنْهُ ﴾
- ٢٥٥ حال المفترين وفضيحتهم في الدار الآخرة على رؤوس الخلائق
- ٢٥٦ ربيع: ﴿ مِثْلُ الْفَرِيقَيْنِ كَالْأَعْمَى وَالْأَصْمَ وَالْبَصِيرَ وَالسَّمِيعَ ﴾
- ٢٥٧ نوح عليه السلام ودعوة قومه إلى عبادة الله تعالى الواحد
- ٢٥٨ إخبار نوح عليه السلام قومه بأنه على نبوة صادقة ورحمة عظيمة
- ٢٥٨ ﴿ وَيَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مَالًا ﴾
- نوح عليه السلام يخبر قومه أنه لا يقدر على التصرف في خزائن الله تعالى ولا يعلم الغيب
- ٢٥٨ إلا ما أطلعه الله عليه، وليس بملك من الملائكة
- ٢٥٩ استعجال قوم نوح نقمة الله وعذابه وسخطه
- ٢٥٩ ﴿ أَمْ يَقُولُونَ اقْرَأْ قُلْ إِنْ اقْرَأْتَهُ لَعَلِّي أُجْرَمِي ﴾
- ٢٥٩ ﴿ وَأَوْحِي إِلَيَّ نُوحٍ أَنَّهُ لَنْ يُؤْمِنَ مِنْ قَوْمِكَ إِلَّا مَنْ قَدْ آمَنَ ﴾
- ٢٦٠ مواءمة الله تعالى لعبده نوح عليه السلام إذا جاء أمره من الامطار المتتابعة
- ٢٦٠ ربيع: ﴿ وَقَالَ ارْكَبُوا فِيهَا بِسْمِ اللَّهِ مَجْرَاهَا وَمُرْسَاهَا ﴾
- ٢٦٠ نوح عليه السلام وسفيته وولده الغريق

- ﴿ وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكَ وَيَا سَمَاءُ أَقْلِعِي ﴾ ٢٦١
- نوح ﷺ يسأل ربه ولده ، ورد الله تعالى عليه في ذلك ٢٦٢
- سلام الله تعالى على نوح عليه السلام حين رست السفينة على الجودي ٢٦٢
- ﴿ تِلْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ ﴾ ٢٦٣
- هود ﷺ يدعو قومه إلى عباده الواحد الأحد ٢٦٣
- ﴿ قَالُوا يَا هُوْدُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِي آلِهَاتِنَا عَنْ قَوْلِكَ ﴾ ٢٦٣
- ﴿ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ مَا أُرْسِلْتُ بِهِ إِلَيْكُمْ ﴾ ٢٦٤
- ريع : ﴿ وَإِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا ﴾ ٢٦٥
- مناظرة بين صالح عليه السلام وبين قومه ٢٦٥
- ﴿ وَيَا قَوْمِ هَذِهِ نَاقَةٌ لَكُمْ آيَةٌ فذُرُّوْهَا تَأْكُلُ فِي أَرْضِ اللَّهِ ﴾ ٢٦٥
- ﴿ وَوَلَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبَشْرَى قَالُوا سَلَامًا قَالَ سَلَامٌ ﴾ ٢٦٦
- ذهاب الروح عن إبراهيم عليه السلام وبشرى الملائكة له بالولد ٢٦٧
- ﴿ وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِيسَى بِهِمْ وَضَاقُ بِهِمْ ذَرْعًا ﴾ ٢٦٧
- لوط عليه السلام يتوعد قومه ، وإخبار الملائكة له بأنهم عضده من الله تعالى ٢٦٨
- ﴿ فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا ﴾ ٢٦٩
- ريع : ﴿ وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا ﴾ ٢٦٩
- نهى شعيب عليه السلام قومه عن نقص المكيال والميزان ، وأمرهم بوفاء الكيل والوزن بالقسط ٢٧٠
- ﴿ قَالُوا يَا شُعَيْبُ أَصْلَاتِكَ تَأْمُرُكَ أَنْ تَتْرُكَ مَا يَعْهَدُ آبَاؤُنَا ﴾ ٢٧١
- ﴿ قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَرَزَقَنِي مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا ﴾ ٢٧١
- ﴿ وَيَا قَوْمِ لَا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِي ﴾ ٢٧٢
- قوم شعيب يتهمونه بالذلة والصغار ، وردة عليه السلام عليهم ٢٧٢
- ﴿ وَيَا قَوْمِ اعْمَلُوا عَلَى مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَامِلٌ سَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴾ ٢٧٣
- رسالة موسى عليه السلام إلى فرعون وملئه ٢٧٣
- ﴿ ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْقُرْآنِ نَقُصُّ عَلَيْكَ ﴾ ٢٧٤
- ﴿ وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرْآنَ وَهِيَ ظَالِمَةٌ ﴾ ٢٧٤
- ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِمَنْ خَافَ عَذَابَ الْآخِرَةِ ﴾ ٢٧٥
- حال الأشقياء في الآخرة ٢٧٥
- ريع : ﴿ وَأَمَّا الَّذِينَ سَعَدُوا فِي الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا ﴾ ٢٧٦
- ﴿ فَلَا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِمَّا يَعْهَدُ هَؤُلَاءِ مَا يَعْهَدُونَ إِلَّا كَمَا يَعْهَدُ آبَاؤُهُمْ مِنْ قَبْلُ ﴾ ٢٧٧
- أمر الله تعالى عباده المؤمنين بالثبات والدوام على الاستقامة ٢٧٧
- الحسنات يذهبن السيئات ٢٧٨
- ﴿ فَلَوْلَا كَانَ مِنَ الْقُرُونِ مِنْ قَبْلِكُمْ أُولُوا بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ الْفَسَادِ فِي الْأَرْضِ ﴾ ٢٧٩
- ﴿ وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً ﴾ ٢٧٩

٨٣٩	فهرس الموضوعات
٢٨٠	الغرض من قص أبناء الرسل تثبيت الفؤاد
٢٨٠	﴿وَقُلْ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ أَعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَاتِكُمْ إِنَّا عَامِلُونَ﴾
٢٨١	لا يعلم الغيب إلا الله وإليه يرجع الأمر كله

سورة يوسف (١٢)

٢٨٢	رؤيا يوسف عليه السلام وقصها على أبيه
٢٨٣	يعقوب عليه السلام ينصح يوسف بعدم قص رؤياه على إخوته
٢٨٣	اختيار الله تعالى ليوسف عليه السلام وتعليمه من تأويل الأحاديث
٢٨٤	ربع: ﴿لَقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِ آيَاتٍ لِلْسَّائِلِينَ﴾
٢٨٤	حسد إخوة يوسف ليوسف عليه السلام
٢٨٤	﴿قَالُوا يَا أَبَانَا مَا لَكَ لَا تَأْمَنَّا عَلَىٰ يُوسُفَ﴾
٢٨٥	﴿قَالَ إِنِّي لَمَحْزُونٌ أَنْ تُذْهِبُوا بِهِ وَأَخَافُ أَنْ يَأْكُلَهُ الذَّنْبُ﴾
٢٨٥	﴿فَلَمَّا ذُهِبُوا بِهِ وَاجْتَمَعُوا أَن يُجْهَلُوهُ فِي غِيَابِ الْجَبِّ﴾
٢٨٦	أخوة يوسف يفترون على أبيهم يعقوب أكل الذئب لأخيهم يوسف
٢٨٧	بيع يوسف عليه السلام بثمن بخس
٢٨٧	عزير مصر يأمر امرأته بإكرام مثنوى يوسف عليه السلام
٢٨٨	امراة العزيز تراود يوسف عليه السلام عن نفسه فى بيتها بمصر
٢٨٩	﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَا أَن رَأَىٰ بُرْهَانَ رَبِّهِ﴾
٢٨٩	امراة العزيز تقد قميص يوسف عليه السلام من دبر ، وشهادة الشاهد
٢٩٠	ربع: ﴿وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي الْمَدِينَةِ امْرَأَتُ الْعَزِيزِ تُرَاوِدُ فَتَاهَا عَنْ نَفْسِهِ﴾
٢٩٢	تصميم القوم على سجن يوسف عليه السلام بعد علمهم براءته
٢٩٢	ساقى الملك وخبازه يدخلان السجن ورؤياهما
٢٩٣	يوسف عليه السلام يدعو الفتیان إلى عبادة الله وحده
٢٩٤	تأويل يوسف عليه السلام لرؤيا ساقى الملك وخبازه
٢٩٤	ملك مصر يرى رؤيا كانت سبباً فى خروج يوسف عليه السلام من السجن
٢٩٥	يوسف عليه السلام يمتنع من الخروج من السجن حتى يرى ساحته من حال النسوة وظهور براءته
٢٩٥	﴿وَمَا أَهْرَىٰ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي﴾
٢٩٧	ملك مصر جعل يوسف عليه السلام من خاصته وأهل مشورته
٢٩٧	﴿وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ يَتَّبِعُونَ مِنْهَا حَيْثُ يَشَاءُ﴾
٢٩٧	أخوة يوسف يدخلون عليه وقصة الوزن
٢٩٨	﴿فَلَمَّا رَجَعُوا إِلَىٰ أَبِيهِمْ قَالُوا يَا أَبَانَا مُنِعَ مِنَّا الْكَيْلُ﴾
٢٩٩	﴿وَلَمَّا فَتَحُوا مَتَاعَهُمْ وَجَدُوا بِضَاعَتَهُمْ وَرَدَّتْ إِلَيْهِمْ﴾
٢٩٩	يعقوب عليه السلام يخاف على أولاده الحسد من أهل مصر

- ٢٩٩ ————— إخوة يوسف يدخلون عليه ومعهم أخوهم بنيامين
- ٣٠٠ ————— ﴿ فَلَمَّا جَهَّزَهُمْ بِجَهَّازِهِمْ جَعَلَ السَّقَايَةَ فِي رِجْلِ أَخِيهِ ﴾
- ٣٠٠ ————— الفتيان يتهمان إخوة يوسف بالسرقة ودرء ذلك
- ٣٠١ ————— ربيع: ﴿ قَالُوا إِنْ يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَهُ مِنْ قَبْلُ ﴾
- ٣٠٢ ————— ﴿ قَالُوا يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ إِنَّ لَهُ أَبًا شَيْخًا كَبِيرًا فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُ ﴾
- ٣٠٢ ————— ﴿ فَلَمَّا اسْتَأْذَنُوا مِنْهُ خُلُّوا نَجِيًّا ﴾
- ٣٠٣ ————— ترجى يعقوب عليه السلام عودة بنه الثلاثة : يوسف وبنيامين وروبييل
- ٣٠٣ ————— ﴿ يَا بَنِي إِدْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا مِنْ يُوسُفَ وَأَخِيهِ ﴾
- ٣٠٤ ————— ﴿ قَالَ هَلْ عَلِمْتُمْ مَا فَعَلْتُمْ بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ ﴾
- يوسف عليه السلام يعطى إخوته القميص ويأمرهم بإلقائه على وجه أبيهم الذي عمى من كثرة البكاء
- ٣٠٥ —————
- ٣٠٥ ————— ﴿ فَلَمَّا أَنْ جَاءَ الْبَشِيرُ آتَاهُ عَلَىٰ وَجْهِهِ فَارْتَدَّ بَصِيرًا ﴾
- ٣٠٥ ————— ورود يعقوب عليه السلام وتقدمه بلاد مصر
- ٣٠٦ ————— ربيع: ﴿ رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمَلِكِ وَعَلَّمْتَنِي مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ ﴾
- ٣٠٨ ————— ﴿ ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ ﴾
- ٣٠٨ ————— ﴿ وَكَأَيِّنْ مِنْ آيَةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ ﴾
- ٣٠٩ ————— ﴿ قُلْ هُدَىٰ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي ﴾
- ٣١٠ ————— رسل الله تعالى من الرجال لا من النساء وأنه سبحانه لم يوح إلى امرأة من بنات آدم
- ٣١١ ————— نصر الله تعالى ينزل على رسله عليهم السلام عند ضيق الحال
- ٣١٢ ————— ﴿ لَقَدْ كَانَ فِي قَصصِهِمْ عِبْرَةً لِأُولِي الْأَلْبَابِ ﴾

سورة الرعد (١٣)

- ٣١٣ ————— رفع السموات بغير عمد من كمال قدرة الله تعالى وعظيم سلطانه
- ذكر قدرته تعالى وحكمته وإحكامه للعالم السفلى بمداه الأرض وإرسائه الجبال وإجرائه الأنهار والعيون
- ٣١٤ —————
- ٣١٥ ————— ربيع: ﴿ وَإِنْ تَعْجَبَ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ ﴾
- ٣١٥ ————— ﴿ وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ ﴾
- ٣١٦ ————— كفر وعناد المشركين في قولهم : لولا يأتينا بأية من ربه كما أرسل الأولون
- ٣١٦ ————— ﴿ اللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنْثَىٰ وَمَا تَغِيصُ الْأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ ﴾
- ٣١٨ ————— إحاطة علمه تعالى بجميع خلقه
- ٣١٩ ————— ﴿ هُوَ الَّذِي يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنشِئُ السَّحَابَ الثِّقَالَ ﴾
- ٣٢٠ ————— ﴿ لَهُ دَعْوَةُ الْحَقِّ ﴾
- ٣٢١ ————— ﴿ وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا ﴾

- ٣٢١ الألهة المزعومة لا تملك لانفسها ولا لعابديها نفعاً ولا ضرراً ؛ لان الله تعالى هو النافع الضار —
- ٣٢١ الحق دائماً فى ثبات وبقاء والباطل دائماً فى اضمحلال وفناء _____
- ٣٢٣ مآل السعداء والاشقياء فى الآخرة _____
- ٣٢٣ ريع : ﴿ أَلَمْ نَعْلَمْ أَنَّكَ أَنْزَلْنَا مِنَ رَبِّكَ الْحَقَّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَى ﴾ _____
- ٣٢٤ ﴿ الَّذِينَ يُؤْفُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَلَا يَقْضُونَ الْمِيثَاقَ ﴾ _____
- ٣٢٥ حال الاشقياء فى الآخرة وذكر مآلهم ومصيرهم _____
- ٣٢٥ الرزق بيده سبحانه يوسعه على من يشاء من عباده ويقتره على من يشاء _____
- ٣٢٦ ﴿ وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ ﴾ _____
- ٣٢٧ ﴿ كَذَلِكَ أَرْسَلْنَاكَ فِي أُمَّةٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهَا أُمَمٌ ﴾ _____
- ٣٢٨ منزلة القرآن الكريم وفضله على سائر الكتب المنزلة قبله _____
- ٣٢٩ ﴿ وَتَقَدَّ اسْتَهْزِئَ بِرُسُلٍ مِنْ قَبْلِكَ ﴾ _____
- ٣٢٩ ﴿ أَلَمْ نَكُنْ هُوَ قَاتِمٌ عَلَىٰ كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ ﴾ _____
- ٣٣٠ ريع : ﴿ لَهُمْ عَذَابٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ﴾ _____
- ٣٣١ ﴿ وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَفْرَحُونَ بِمَا أَنْزَلَ إِلَيْكَ ﴾ _____
- ٣٣٢ ﴿ وَتَقَدَّ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِنْ قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَاجًا وَذُرِّيَّةً ﴾ _____
- ٣٣٣ ﴿ وَإِنْ مَا تُرِيدُكَ بِمَعْضِ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ تَوَلَّيْنَاكَ ﴾ _____
- ٣٣٤ ﴿ وَقَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلِلَّهِ الْمَكْرُ جَمِيعًا ﴾ _____
- ٣٣٤ ﴿ وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَسْتَ مُرْسَلًا ﴾ _____

سورة إبراهيم (١٤)

- ٣٣٦ من لطف الله تعالى على عباده أن أرسل إليهم رسله بلغاتهم ليفهموا عنهم ما يريدون _____
- ٣٣٧ ﴿ وَتَقَدَّ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا أَنْ أَخْرِجَ قَوْمَكَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ ﴾ _____
- ٣٣٨ موسى عليه السلام يذكر قومه بأيام الله ونعمه عليهم _____
- ٣٣٩ ﴿ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ ﴾ _____
- ٣٣٩ ريع : ﴿ قَالَتْ رَسُولُهُمْ أَلَيْسَ اللَّهُ شَكَّ فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ _____
- ٣٤٠ الأمم الكافرة تتوعد الرسل بالإخراج من أرضهم والنفى من بين أظهرهم _____
- ٣٤٢ مثل أعمال الكفار يوم القيامة كرماد اشتدت به الريح فى يوم عاصف _____
- ٣٤٢ قدرة الله تعالى فى إعادة الأبدان يوم القيامة وخلقه السموات والأرض _____
- ٣٤٣ ﴿ وَبَرَزُوا لِلَّهِ جَمِيعًا فَقَالَ الضُّعَفَاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا ﴾ _____
- ٣٤٤ إبليس لعنه الله يخاطب أتباعه بعد قضاء الله تعالى بين عباده يوم القيامة _____
- ٣٤٥ مثل الكلمة الطيبة والكلمة الخبيثة _____
- ٣٤٦ ﴿ يَثْبُتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ ﴾ _____
- ٣٤٩ ريع : ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَتَ اللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ ﴾ _____

- الامر بإقامة الصلاة والإنفاق في السر والعلانية ٣٤٩
- الله تعالى يُعِدُّ نِعْمَهُ عَلَى خَلْقِهِ ٣٥٠
- ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِنًا ﴾ ٣٥١
- ﴿ رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بُرَادًا غَيْرَ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ ﴾ ٣٥٢
- ﴿ رَبَّنَا إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نُخْفِي وَمَا نُعْلِنُ ﴾ ٣٥٢
- ﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهُ غَافِلًا عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ ﴾ ٣٥٣
- ﴿ فَيَقُولَ الَّذِينَ ظَلَمُوا رَبَّنَا أَخْرِنَا إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ ﴾ ٣٥٣
- ﴿ فَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهُ مُخَلَّفًا وَعَدَّهُ رَسُولًا ﴾ ٣٥٤
- ﴿ وَتَرَى الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ مُّقْرَنِينَ فِي الْأَصْفَادِ ﴾ ٣٥٥
- ﴿ هَذَا بَلَاغٌ لِلنَّاسِ وَلِيُنذِرُوا بِهِ وَيَلْعَلُوا آثِمًا هُوَ إِلَهُ وَاحِدٌ ﴾ ٣٥٦

سورة الحجر (١٥)

- الجزء - ١٤ : ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ الْكُتَابَ وَقُرْآنَ مُبِينٍ ﴾ ٣٥٧
- ﴿ وَمَا أَهْلَكْنَا مِنْ قَرِيْبَةٍ إِلَّا وَلَهَا كِتَابٌ مَعْلُومٌ ﴾ ٣٥٧
- ﴿ وَقَالُوا يَا أَيُّهَا الَّذِي نَزَّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ ﴾ ٣٥٨
- ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ فِي شِعْبِ الْأَوَّلِينَ ﴾ ٣٥٨
- لو فتح الله تعالى للكافرين المكذبين باباً من السماء فصعدوا فيه لما صدقوا بذلك ٣٥٨
- السماء جعلها الله تعالى بروجاً وحفظها من الشياطين ومد الأرض وجعل فيها رواسي وأثبت فيها كل شيء ٣٥٩
- ﴿ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنزِلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَعْلُومٍ ﴾ ٣٦٠
- ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْتُونٍ ﴾ ٣٦١
- خلق الله تعالى لآدم عليه السلام وسجود الملائكة له وطرد إبليس من الجنة ووعد الله تعالى له ٣٦١
- ريح : ﴿ نَبِيَّ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴾ ٣٦٢
- إبراهيم عليه السلام وخبر ضيفه ٣٦٣
- ﴿ فَلَمَّا جَاءَ آلَ لُوطٍ الْمُرْسَلُونَ ﴾ ٣٦٤
- لوط عليه السلام وأصحاب اللوطية وما حل بهم ٣٦٥
- انتقام الله تعالى من قوم شعيب عليه السلام (أصحاب الأيكة) ٣٦٦
- انتقام الله تعالى من قوم صالح (ثمود) ٣٦٦
- ﴿ وَمَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ ﴾ ٣٦٧
- ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعًا مِنَ الْمَثَانِي وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ ﴾ ٣٦٧
- ﴿ وَقُلْ إِنِّي أَنَا النَّذِيرُ الْمُبِينُ ﴾ ٣٦٨
- الصدع بالحق والجهر بالدعوة ٣٦٩

سورة النحل (١٦)

- ٣٧١ ربيع: ﴿ أَنَّى أَمَرَ اللَّهُ فَلَا تَسْتَعِجَلُوهُ سُبْحَانَهُ ﴾
- ٣٧١ ﴿ يَنْزِلُ الْمَلَائِكَةُ بِالرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ عَلَىٰ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ ﴾
- ٣٧٢ خلق الله تعالى للعالمين العلوى والسفلى
- ٣٧٢ خلق الله تعالى للأنعام وما فيها من المصالح والمنافع
- ٣٧٣ ﴿ وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً ﴾
- ٣٧٤ ﴿ وَعَلَى اللَّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ وَمِنْهَا جَائِرٌ ﴾
- ٣٧٤ نعمة الله تعالى على عباده فى إنزاله المطر عليهم من السماء
- ٣٧٤ تسخير الله تعالى الليل والنهار والشمس والقمر والنجوم
- ٣٧٥ تذليل الله تعالى البحر المتلاطم الامواج للناس وتسخيره للركوب فيه والاكل منه
- الله تعالى يعلم الضمائر والسرائر كما يعلم الظواهر وسيجزي على الخير خيرا وعلى الشر شرا
- ٣٧٦ ﴿ إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ قُلُوبُهُمْ مُنْكَرَةٌ ﴾
- ٣٧٦ ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ مَاذَا أَنْزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوا آسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴾
- ٣٧٧ ﴿ قَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَآتَى اللَّهُ بُنْيَانَهُمْ مِنَ الْقَوَاعِدِ ﴾
- ٣٧٨ ﴿ الَّذِينَ تَوَلَّوْهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ ﴾
- ٣٧٨ ربيع: ﴿ وَقِيلَ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا مَاذَا أَنْزَلَ رَبُّكُمْ ﴾
- ٣٧٩ ﴿ هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمُ الْمَلَائِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ أَمْرٌ رَبِّكَ ﴾
- ٣٨٠ اغترار المشركين بما هم فيه من الشرك واعتذارهم محتجين بالقدر
- ٣٨١ المشركون يغلظون الايمان بالله: لا يبعث الله من يموت
- ٣٨١ ﴿ وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا ظَلَمُوا لَنُبَوِّئَنَّهُمْ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً ﴾
- ٣٨٢ ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُوحِي إِلَيْهِمْ ﴾
- ٣٨٣ إنظار الله تعالى وحلمه بالعصاة الذين يعملون السيئات ويدعون إليها
- ٣٨٤ عظمة الله تعالى وجلاله وكبرياؤه الذى خضع له كل شىء ودانت له كل المخلوقات
- ٣٨٤ ربيع: ﴿ وَقَالَ اللَّهُ لَا تَتَّخِذُوا إِلَهِينَ اثْنَيْنِ إِذْ مَا هُوَ إِلَهُ وَاحِدٌ ﴾
- ٣٨٥ ﴿ وَيَجْعَلُونَ لِمَا لَا يَفْعَلُونَ نَصِيبًا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ ﴾
- حلم الله تعالى بخلقهم مع ظلمهم ، وأنه سبحانه لو يؤاخذ الناس بما كسبوا ما ترك على ظهرها
- ٣٨٦ من دابة
- ٣٨٦ ﴿ تَاللَّهِ لَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَىٰ أُمَمٍ مِنْ قَبْلِكَ فَوَجَدْنَاهُمْ لِشَيْطَانٍ أَغْمَالَهُمْ ﴾
- ٣٨٧ ﴿ وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً ﴾
- ٣٨٧ إلهام الله تعالى إلى النحل باتخاذ الجبال والشجر والعُرش بيوتا
- ٣٨٩ ﴿ وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ ثُمَّ يَتَوَلَّكُمْ ﴾

- ٣٨٩ _____ تفضيل الله تعالى بعض عباده على بعض فى الرزق
- ٣٩٠ _____ من نعم الله تعالى على الإنسان أن جعل لهم من أنفسهم أزواجاً من شكلهم وجنسهم
- ٣٩٠ _____ ﴿وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَهُمْ رِزْقًا مِنَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ شَيْئًا﴾
- ٣٩٠ _____ ربيع: ﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا عَبْدًا مَمْلُوكًا لَا يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ﴾
- ٣٩١ _____ ﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَجُلَيْنِ أَحَدُهُمَا أَبْكَمُ لَا يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ﴾
- ٣٩١ _____ اختصاص الله تعالى بعلم غيب السموات والأرض
- ٣٩٢ _____ ﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ بُيُوتِكُمْ سَكَنًا﴾
- ٣٩٣ _____ ﴿وَيَوْمَ نَبِّئُ مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا ثُمَّ لَا يُؤْذِنُ لَّذِينَ كَفَرُوا﴾
- ٣٩٤ _____ ﴿وَيَوْمَ نَبِّئُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِمْ مِنْ أَنْفُسِهِمْ﴾
- ٣٩٥ _____ ربيع: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَىٰ﴾
- ٣٩٦ _____ الوفاء بالمهود والمواثيق والمحافظة على الأيمان المؤكدة
- ٣٩٧ _____ ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾
- ٣٩٨ _____ ﴿مَنْ عَمِلْ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أَنْفَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهٗ حَيَاةً طَيِّبَةً﴾
- ٣٩٩ _____ الأمر بالاستعاذة بالله من الشيطان الرجيم لمن أراد قراءة القرآن الكريم
- ٣٩٩ _____ ﴿وَإِذَا بَدَأْنَا آيَةً مَكَانَ آيَةٍ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنزِلُ﴾
- ٤٠٠ _____ المشركون يتهمون النبي ﷺ بأن الذى يعلمه بشر
- ٤٠٠ _____ الله تعالى لا يهدى من أعرض عن ذكره وتغافل عما أنزله على رسوله ﷺ
- ٤٠١ _____ عمار بن ياسر رضِيَ اللهُ عَنْهُ لما نطق بكلمة الكفر مكرهاً
- ٤٠١ _____ ربيع: ﴿يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ تَجَادُلُ عَنْ نَفْسِهَا﴾
- ٤٠٢ _____ ﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِنْ كُلِّ مَكَانٍ﴾
- ٤٠٣ _____ أمر الله تعالى عباده المؤمنين بأكل رزقه الطيب الحلال وشكره على ذلك
- ٤٠٣ _____ ﴿وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا مَا قَصَصْنَا عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ﴾
- ٤٠٤ _____ مدح الله تعالى عبده ورسوله وخليله إبراهيم عليه السلام
- ٤٠٤ _____ ﴿إِنَّمَا جُعِلَ السَّبْتُ عَلَى الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ﴾
- ٤٠٥ _____ الدعوة إلى الله تعالى بالحكمة والموعظة الحسنة والمجادلة بالتي هي أحسن
- ٤٠٥ _____ العدل فى الاقتصاص والمائلة فى استيفاء الحق

سورة سبْحَانَ (١٧)

- ٤٠٧ _____ الجزء - ١٥: ﴿سَبْحَانَ الَّذِي أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ لَيْلًا﴾
- ٤٠٩ _____ رواية أنس بن مالك عن مالك بن صعصعة فى الإسراء
- ٤١١ _____ رواية أنس بن مالك عن أبى ذر فى الإسراء
- ٤١٢ _____ رواية أنس بن مالك عن أبى بن كعب الأنصارى فى الإسراء
- ٤١٣ _____ رواية جابر بن عبد الله رضِيَ اللهُ عَنْهُ فى الإسراء

- ٤١٣ رواية عبد الله بن عباس رضي الله عنه في الإسراء _____
- ٤١٥ رواية عبد الله بن مسعود رضي الله عنه في الإسراء _____
- ٤١٦ رواية عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها في الإسراء _____
- ٤١٨ التوراة جعلها الله هدى لبني إسرائيل وهي كتاب موسى عليه السلام _____
- ٤١٩ ﴿ وَقَضَيْنَا إِلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ فِي الْكِتَابِ لَتُفْسِدُنَّ فِي الْأَرْضِ مَرَّةً مَّرَّةً ﴾ _____
- ٤٢٠ القرآن الكريم يهدي لأقوم الطرق وأوضح السبل _____
- ٤٢١ عجلة الإنسان ودعاؤه في بعض الأحيان على نفسه أو ولده أو ماله بالموت أو الهلاك _____
- ٤٢١ الليل والنهار آيتان من آيات الله تعالى لعباده _____
- ٤٢٢ ﴿ وَكُلُّ إِنْسَانٍ أَلْمَنَاتُهُ طَائِرُهُ فِي عُنُقِهِ ﴾ _____
- ٤٢٣ ﴿ مَن اهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ ﴾ _____
- ٤٢٥ ﴿ وَإِذَا أَرَدْنَا أَن نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَلِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا ﴾ _____
- ٤٢٥ ﴿ وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ الْقُرُونِ مِن بَعْدِ نُوحٍ ﴾ _____
- ٤٢٦ من أراد الدنيا سعى إليها ونالها ومن أراد الآخرة سعى لها ونالها _____
- ٤٢٧ ﴿ لَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتَقْعُدَ مَذْمُومًا مَّخْذُولًا ﴾ _____
- ٤٢٧ ربيع: ﴿ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ ﴾ _____
- ٤٢٨ ﴿ رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِي نُفُوسِكُمْ ﴾ _____
- ٤٢٨ الإحسان إلى القرابة وصلة الأرحام _____
- ٤٢٩ الاقتصاد في العيش ودم البخل _____
- ٤٣٠ ﴿ وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ حَشِيَّةً بِإِمْلاقٍ ﴾ _____
- ٤٣٠ نهى الله عباده عن الزنا وعن مقاربتة وأسبابه ودواعيه _____
- ٤٣١ النهى عن قتل النفس بغير حق شرعى _____
- ٤٣١ ﴿ وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُ ﴾ _____
- ٤٣٢ ﴿ وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ ﴾ _____
- ٤٣٢ النهى عن التجبر والتبختر في المشية _____
- ٤٣٢ ﴿ ذَلِكَ مِمَّا أَرْحَىٰ إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ الْحِكْمَةِ ﴾ _____
- ٤٣٣ رد الله تعالى على المشركين زعمهم أن الملائكة بنات الله _____
- ٤٣٣ ﴿ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَذَا الْقُرْآنِ لِيَذَكَّرُوا ﴾ _____
- ٤٣٣ ﴿ قُلْ لَوْ كَانَ مَعَهُ آلِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذًا لَأَبْتَوْا إِلَىٰ ذِي الْعَرْشِ مِجْبِلًا ﴾ _____
- ٤٣٤ السموات السبع والأرض وما فيهن تسبح له تعالى _____
- ٤٣٤ ﴿ وَإِذَا قُرَأَتِ الْقُرْآنُ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ حِجَابًا مَّسُورًا ﴾ _____
- ٤٣٥ رؤساء قريش يصفون رسول الله صلى الله عليه وسلم بالسحر حين سماعهم القرآن _____
- ٤٣٦ ربيع: ﴿ قُلْ كُونُوا حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا ﴾ _____
- ٤٣٧ ﴿ وَقُلْ لِعِبَادِي يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ﴾ _____

- ٤٣٨ ﴿ رَبِّكُمْ أَعْلَمُ بِكُمْ إِنَّ يَشَأُ يُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حُمْرًا مُّطَوَّرًا ﴾
- ٤٣٨ ﴿ قُلْ ادْعُوا الَّذِينَ رَعَيْتُمْ مِنْ دُونِهِ ﴾
- ٤٣٩ ﴿ وَإِنْ مِنْ قَرْيَةٍ إِلَّا نَحْنُ مُهْلِكُوهَا قَبْلَ يَوْمِ الْقِيَامَةِ ﴾
- ٤٤٠ ﴿ وَإِذْ قُلْنَا لَكَ إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِالنَّاسِ ﴾
- ٤٤١ عداوة إبليس لعنه الله لأدم عليه السلام وذريته قديمة منذ خلق آدم
- ٤٤١ ﴿ قَالَ أَذْهَبَ فَمَنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَاءُكُمْ ﴾
- ٤٤٣ تسخير الله تعالى لعباده الفلك في البحر وتسهيله لمصالحهم
- ٤٤٣ ﴿ وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَنْ تَدْعُونَ إِلَّا إِلَهُهُ ﴾
- ٤٤٣ ﴿ فَأَمَّا نِسْوَةٌ فِي الْبَعْرِ أَنَّهَا تُغْتَابُ بِكُمْ فَالَّذِينَ كَفَرُوا هُمْ بِهَا مُشْتَبِهُونَ وَلَكِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا لَمْ يَلْبَسُوا الْحُلُمَ إِنَّهُمْ كَانُوا خَائِفِينَ ﴾
- ٤٤٣ ﴿ أَمْ أَمْتُمُ أَنْ يَمْدُكُمْ فِيهِ تَارَةً أُخْرَى ﴾
- ٤٤٤ ربع : ﴿ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ ﴾
- ٤٤٤ ﴿ يَوْمَ نَدْعُوا كُلَّ أُنَاسٍ بِإِسْمِهِمْ ﴾
- ٤٤٥ عصمة الله تعالى وتبنيته لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم من شر الأشرار وكيد الفجار
- ٤٤٥ هم كفار قريش بإخراج الرسول صلى الله عليه وسلم من بين أظهرهم
- ٤٤٦ ﴿ أَمِ السَّلَاةُ لِلذَّكَاءِ الشَّمْسِ إِلَى غَسَقِ اللَّيْلِ ﴾
- ٤٤٧ الأحاديث الواردة في المقام المحمود
- ٤٥٠ ﴿ وَقُلْ رَبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ ﴾
- ٤٥١ القرآن الكريم شفاء ورحمة للمؤمنين
- ٤٥١ نقص الإنسان من حيث هو في حالة السراء والضراء
- ٤٥٢ الروح من أمر الله تعالى
- ٤٥٣ ﴿ وَكَيْفَ نُنزِّلُ الْغَيْثَ بِالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ ﴾
- ٤٥٣ ﴿ وَقَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَنْجِرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَبْرُوعًا ﴾
- ٤٥٦ ﴿ وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَىٰ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَبَعَثَ اللَّهُ بَشَرًا رَسُولًا ﴾
- ٤٥٧ ﴿ قُلْ كَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ ﴾
- ٤٥٧ الله تعالى هو الهادي وحده فمن هداه فلا مضل له
- ٤٥٧ ربع : ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ قَادِرٌ عَلَىٰ أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ ﴾
- ٤٥٨ ﴿ قُلْ لَوْ أَنَّكُمْ تَمْلِكُونَ خَزَائِنَ رَحْمَةِ رَبِّي إِذًا لَأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ الْإِنْفَاقِ ﴾
- ٤٥٨ آيات موسى عليه السلام التسع
- ٤٥٩ ﴿ وَبِالْحَقِّ أَنْزَلْنَاهُ وَبِالْحَقِّ نَزَّلَ ﴾
- ٤٦٠ ﴿ قُلْ آمَنُوا بِهِ أَوْ لَا تُؤْمِنُوا ﴾
- ٤٦٠ ﴿ قُلْ ادْعُوا اللَّهَ أَوْ ادْعُوا الرَّحْمَنَ أَيًّا مَا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ ﴾

سورة الكهف (١٨)

- ٤٦٢ ذكر ما ورد في فضلها والعشر الآيات من أولها وآخرها وأنها عصمة من الدجال
- ٤٦٢ ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ الْكِتَابَ ﴾
- ٤٦٣ ﴿ فَلَمَّا بَايَعْتُمْ نَفْسَكُمْ عَلَىٰ آثَارِهِمْ إِنْ لَمْ يُؤْمِنُوا ﴾
- ٤٦٤ قصة أصحاب الكهف
- ٤٦٧ ربيع : ﴿ وَتَرَى الشَّمْسَ إِذَا طَلَعَتْ تَرَاوِرُّ عَن كَهْفِهِمْ ذَاتَ الْيَمِينِ ﴾
- ٤٦٨ ﴿ وَتَحْسَبُهُمْ آيَاتًا وَهُمْ رُقُودٌ ﴾
- ٤٦٩ ﴿ وَكَذَلِكَ بَخَّسْنَا لَيْسَاءَ لَوْلَا بَيْنَهُمْ ﴾
- ٤٦٩ ﴿ وَكَذَلِكَ أَخْرَجْنَا عَلَيْهِمْ لِيَعْلَمُوا أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ ﴾
- ٤٧٠ ﴿ سَيَقُولُونَ ثَلَاثَةٌ رَّابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ ﴾
- ٤٧١ ﴿ وَلَا تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَلِكِ غَدًا ﴾
- ٤٧٢ مقدار ما لبث أصحاب الكهف في كهفهم منذ رقدتهم إلى أن بعثهم الله تعالى
- ٤٧٢ ﴿ وَأَتْلُ مَا أُوْحِيَ إِلَيْكَ مِنْ كِتَابِ رَبِّكَ لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ ﴾
- ٤٧٣ ﴿ وَقُلِ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيُكْفُرْ ﴾
- ٤٧٣ ثناء الله تعالى على السعداء الذين آمنوا به وصدقوا رسله
- ٤٧٤ ربيع : ﴿ وَأَضْرِبْ لَهُمْ مَثَلًا رَجُلَيْنِ جَعَلْنَا لأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَابٍ ﴾
- ٤٧٥ ﴿ قَالَ لَهُ صَاحِبُهُ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَكَفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ مِنْ تُرَابٍ ﴾
- ٤٧٦ ﴿ وَأَحْيَطَ بِسَمْعِهِ فَاصْبِرْ يَقْبَلُ كَلِمَةَ عَلَىٰ مَا أَنْفَقَ فِيهَا ﴾
- ٤٧٧ مثل الحياة الدنيا كماء أنزل من السماء فاختلط به نبات الأرض
- ٤٧٨ أهوال يوم القيامة وما يكون فيه من الأمور العظام
- ٤٧٩ ﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ ﴾
- ٤٨٠ ربيع : ﴿ مَا أَشْهَدُهُمْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَا خَلَقَ أَنْفُسِهِمْ ﴾
- مخاطبة الله تعالى المشركين يوم القيامة موبخا ومقرعا لهم : نادوا شركائى الذين اتخذتموهم
- ٤٨١ آلهة دونى
- ٤٨١ ﴿ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَذَا الْقُرْآنِ لِلنَّاسِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ ﴾
- ٤٨٢ تمرد الكفار فى قديم الزمان وحديثه وتكذيبهم بالحق بالرغم من وضوح الدلالات لهم
- ٤٨٢ ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ فَأَعْرَضَ عَنْهَا ﴾
- ٤٨٣ موسى عليه السلام وفتاه يوشع بن نون
- ٤٨٥ موسى عليه السلام ومصاحبة الخضر
- ٤٨٦ ﴿ فَانطَلَقَا حَتَّىٰ إِذَا رَكِبَا فِي السَّفِينَةِ خَرَقَهَا ﴾
- ٤٨٦ الجزء - ١٦ : ﴿ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكَ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ﴾
- ٤٨٦ ﴿ فَانطَلَقَا حَتَّىٰ إِذَا آتَىٰ أَهْلَ قَرْيَةٍ اسْتَطَعْنَا أَهْلَهَا فَبَرَأْنَا أَن يُضَيَّرُوهَا ﴾

- ٤٨٧ _____ تفسير ما أشكل على موسى من أمر السفينة والغلام والجدار
- ٤٨٩ _____ خبر ذى القرنين
- ٤٩٠ _____ ﴿ فَاتَّعِ سَبِيًّا (٨٥) حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ مَرْغَبَ الشَّمْسِ ﴾
- ٤٩١ _____ ﴿ ثُمَّ اتَّعِ سَبِيًّا (٨٦) حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ مَطْلِعَ الشَّمْسِ ﴾
- ٤٩١ _____ ﴿ ثُمَّ اتَّعِ سَبِيًّا (٨٧) حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ بَيْنَ السَّدَّيْنِ ﴾
- ٤٩٢ _____ ربع: ﴿ وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجٌ فِي بَعْضٍ ﴾
- ٤٩٣ _____ جهنم تعرض على الكافرين عرضا يوم القيامة
- ٤٩٤ _____ ﴿ قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا ﴾
- ٤٩٥ _____ السعداء لهم جنات الفردوس فى الآخرة
- ٤٩٥ _____ لو جعلت مياه البحر مدادا للقلم الذى يكتب به كلمات الله وحكمه لنفد الماء قبل أن تنفذ
- ٤٩٥ _____ بشرية الرسول ﷺ

سورة مريم (١٩)

- ٤٩٧ _____ ﴿ كَتَبْنَا صِدْقًا (١) ذِكْرًا رَحِمْتَ رَبِّكَ عَبْدَهُ زَكَرِيَّا ﴾
- ٤٩٨ _____ زكريا عليه السلا وبشرى الملائكة له يبحى عليه السلا وتعجبه من ذلك وعلامته
- ٤٩٩ _____ ﴿ يَا يَحْيَىٰ خُذِ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ ﴾
- ٥٠٠ _____ مريم عليها السلام ومعجزة عيسى
- ٥٠١ _____ ربع: ﴿ فَحَمَلَتْهُ فَانْتَبَدَتْ بِهِ مَكَانًا قَصِيًّا ﴾
- ٥٠٢ _____ ﴿ فَأَادَاهَا مِنَ تَحْتِهَا الْأُتْرُقِيَّ ﴾
- ٥٠٣ _____ مريم عليها السلام تأتى بصبيها ، ومعجزة عيسى عليه السلام بكلامه وهو صبي
- ٥٠٤ _____ ﴿ ذَلِكَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ الْحَقِّ الَّذِي فِيهِ يَمْتَرُونَ ﴾
- ٥٠٥ _____ ﴿ أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ يَوْمَ يَأْتُونَنَا ﴾
- ٥٠٦ _____ إبراهيم عليه السلام ونصحه لآبيه واستغفاره له
- ٥٠٧ _____ هبة الله تعالى نبيه إبراهيم عليه السلام إسحاق ويعقوب بعد أن اعتزل أباه
- ٥٠٨ _____ تعضيد الله تعالى لموسى بأخيه هارون بعد مناداته تعالى له وإخلاصه
- ٥٠٩ _____ ثناء الله تعالى على عبده ورسوله إسماعيل عليه السلام
- ٥١٠ _____ ثناء الله تعالى على عبده ورسوله إدريس عليه السلام
- ٥١٠ _____ ﴿ أُولَئِكَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ مِن ذُرِّيَةِ آدَمَ ﴾
- ٥١١ _____ ربع: ﴿ فَخَلَّفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلَاةَ ﴾
- ٥١٢ _____ النَّابِثُونَ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى يَدْخُلُونَ جَنَاتِ عَدْنِ ، وَلَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا
- ٥١٣ _____ ﴿ وَمَا نَسْتَعِزُّ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ ﴾
- ٥١٤ _____ تعجب الإنسان واستعباده إعادته بعد الموت وقسم الله تعالى بحشره وإعادته
- ٥١٥ _____ بنو البشر واردون كلهم على ظهر جهنم

- فهرس الموضوعات ٨٤٩
- ﴿ وَإِذَا تَطَلَّى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٌ ﴾ ٥١٦
- ﴿ قُلْ مَنْ كَانَ فِي الضَّلَالَةِ فَلْيَمْدُدْ لَهُ الرَّحْمَنُ مَدًّا ﴾ ٥١٧
- المهتدون يزيدهم الله هدى ٥١٧
- ﴿ أفرعيت الذي كفر بآياتنا وقال لأوتين مالا وولدا ﴾ ٥١٨
- الكفار المشركون يوهمون أنفسهم بأن الآلهة المزعومة عز لهم ونصر ورد ذلك عليهم ٥١٨
- المتقون يحشرون يوم القيامة ركبانا ، والمجرمون يساقون عضا ٥١٩
- ﴿ وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا ﴾ ٥٢٠
- ﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وُدًّا ﴾ ٥٢٠

سورة طه (٢٠)

- ربع: ﴿ طه ١٠ ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى ﴾ ٥٢٢
- ذكر قصة موسى عليه السلام ٥٢٣
- عصا موسى عليه السلام وانقلابها حية تسعى ٥٢٣
- إرسال الله تعالى موسى إلى فرعون وتعضيده بهارون له ويرا ٥٢٥
- ﴿ قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَا مُوسَى ﴾ ٥٢٧
- ﴿ فَلَبِثَ سِنِينَ فِي أَهْلِ مَدْيَنَ ثُمَّ جِئَ عَلَىٰ قَدَرٍ يَا مُوسَى ﴾ ٥٢٨
- خوف موسى وهارون عليهما السلام من بطش فرعون ، وحماية الله تعالى لهما ٥٢٨
- بين موسى عليه السلام وبين فرعون في شأن الله تعالى ٥٢٩
- ربع: ﴿ مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَى ﴾ ٥٣٠
- فرعون يتهم موسى عليه السلام بالسحر ، وتوعده له بالإتيان بسحر مثله ٥٣١
- ﴿ قَوْلِي لِرَعُونَ فَجَمَعَ كَيْدَهُ ثُمَّ أَتَى ﴾ ٥٣١
- بين موسى عليه السلام وبين سحرة فرعون وإيمانهم برب هارون وموسى ٥٣٢
- فرعون يهدد سحرته بتقطيع الأيدي والأرجل وبالعذاب الشديد ، وتحدى السحرة لتهديده ،
وتفضيلهم الله تعالى عليه ٥٣٣
- وعظ السحرة لفرعون ٥٣٤
- ﴿ وَلَقَدْ أَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي ﴾ ٥٣٥
- نجاة الله تعالى لبني إسرائيل من بطش فرعون وإنزاله عليهم المن والسلوى ٥٣٥
- ربع: ﴿ وَمَا أَعْجَلَكَ عَنْ قَوْمِكَ يَا مُوسَى ﴾ ٥٣٦
- ﴿ وَلَقَدْ قَالَ لَهُمْ هَارُونُ مِنْ قَبْلُ يَا قَوْمِ إِنَّمَا فُتِنْتُمْ بِهِ ﴾ ٥٣٨
- ﴿ قَالَ يَا هَارُونُ مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوا ﴾ ٥٣٨
- موسى عليه السلام والسامري ٥٣٩
- ﴿ كَذَلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ مَا قَدْ سَبَقَ ﴾ ٥٣٩
- ﴿ يَوْمَ يَنْفُخُ فِي الصُّورِ وَنَحْشُرُ الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا ﴾ ٥٤٠

- ٥٤١ _____ ﴿ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْجِبَالِ فَقُلْ يَنْسِفُهَا رَبِّي نَسْفًا ﴾
 ٥٤١ _____ ربع: ﴿ وَعَسَىٰ أَنزَلْنَاهُ لَكُمُ الْقُرْآنَ ﴾
 ٥٤٢ _____ ﴿ وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا ﴾
 ٥٤٣ _____ سجود الملائكة لآدم عليه السلام واستكبار إبليس، وأكل آدم وزوجته من شجرة الجنة
 ٥٤٤ _____ ﴿ قَالَ اهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ﴾
 ٥٤٥ _____ ﴿ وَكَذَلِكَ نَجْزِي مَنْ أَسْرَفَ وَلَمْ يُؤْمِنْ بِآيَاتِ رَبِّهِ ﴾
 ٥٤٥ _____ ﴿ أَفَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنَ الْقُرُونِ ﴾
 ٥٤٦ _____ ﴿ وَلَا تُمَدِّدْ عَيْنِيكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ ﴾
 ٥٤٧ _____ ﴿ وَقَالُوا لَوْلَا يَا آتِنَا بآيَةً مِنْ رَبِّهِ ﴾

سورة الأنبياء (٢١)

- الجزء - ١٧ : ﴿ اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ ﴾ ٥٤٩ _____
 ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا رِجَالًا نُوْحِي إِلَيْهِمْ ﴾ ٥٥٠ _____
 ﴿ لَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ كِتَابًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ ﴾ ٥٥١ _____
 المشركون لا يحيون موتى ولا ينشرونهم من الارض ٥٥٢ _____
 ﴿ أَمْ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً ﴾ ٥٥٣ _____
 ربع: ﴿ وَمَنْ يُقُلْ مِنْهُمْ إِنِّي إِلَهٌ مِنْ دُونِهِ فَلَذِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ ﴾ ٥٥٣ _____
 قدرة الله تعالى وسلطانه العظيم فى خلقه الاشياء وقهره لجميع المخلوقات ٥٥٤ _____
 ﴿ وَمَا جَعَلْنَا لِشَرِّهِمْ مِنْ قَبْلِكَ الْخَلْدَ ﴾ ٥٥٥ _____
 ﴿ وَإِذَا رَأَوْا الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ لَيُخَذُّونَكَ إِلَّا هِزْوًا ﴾ ٥٥٦ _____
 ﴿ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ ٥٥٦ _____
 ﴿ وَلَقَدْ اسْتَهْزَيْتُمْ بِرُسُلٍ مِنْ قَبْلِكَ ﴾ ٥٥٧ _____
 ﴿ بَلْ مَتَّعْنَا هَؤُلَاءِ وَأَبَاءَهُمْ حَتَّىٰ طَالَ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ ﴾ ٥٥٧ _____
 ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَىٰ وَهَارُونَ الْفُرْقَانَ وَضِيَاءً وَذِكْرًا لِّلْمُتَّظِنِينَ ﴾ ٥٥٩ _____
 ربع: ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا بِهِ عَالِمِينَ ﴾ ٥٥٩ _____
 إبراهيم عليه السلام يقسم على تكسير الأصنام، وذكر ما دار بينه وبين قومه ٥٦٠ _____
 إبراهيم عليه السلام يتأفف مما يعبده قومه ٥٦١ _____
 قوم إبراهيم عليه السلام يلقونه فى النار، وإعجاز الله تعالى فى ذلك ٥٦٢ _____
 ﴿ وَنَجَّيْنَاهُ وَلُوطًا إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا لِلْعَالَمِينَ ﴾ ٥٦٣ _____
 استجابة الله تعالى لعبده ونبيه نوح عليه السلام حين دعا على قومه لما كذبوه ٥٦٣ _____
 داود وسليمان عليهما السلام وحكهما فى الحرب ٥٦٣ _____
 ربع: ﴿ وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ ﴾ ٥٦٥ _____
 ﴿ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِدْرِيسَ وَذَا الْكِفْلِ ﴾ ٥٦٦ _____

- ٥٦٦ يونس بن متى عليه السلام واستجابة الله تعالى لدعائه
- ٥٦٧ ﴿وَوَكِّرِيَا إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ رَبِّ لَا تَذَرْنِي فَرْدًا﴾
- ٥٦٨ مريم البتول وابنها عيسى عليه السلام
- ٥٦٨ ﴿إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُون﴾
- ٥٦٩ ﴿وَحَرَامٌ عَلَىٰ قَوْمٍ أَهْلَكْنَاهَا أَنَّهُمْ لَا يرجعون﴾
- ٥٦٩ أحاديث متعددة فى ذكر يأجوج ومأجوج
- ٥٧٢ ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ﴾
- ٥٧٣ يوم القيامة تطوى السماء كطى السجل للكتب
- ٥٧٤ ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِن بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ﴾
- ٥٧٥ ﴿قُلْ إِنَّمَا يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمُ اللَّهُ وَاحِدٌ﴾

سورة الحج (٢٢)

- ٥٧٦ أهوال يوم القيامة
- ٥٧٨ ذم الله تعالى للمكذبين بالبعث والمنكرين قدرته على إحياء الموتى
- ٥٧٩ ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِّن تَرَابٍ﴾
- ٥٨٠ حال الدعاة إلى الضلال من رؤوس الكفر والبدع
- ٥٨١ ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ﴾
- ٥٨٢ الأبرار السعداء وسكنى الدرجات العاليات فى رياضات الجنات
- ٥٨٢ ﴿مَن كَانَ يَظُنُّ أَن لَّن يَبْصُرَهُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى السَّمَاءِ﴾
- ٥٨٣ ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِغِينَ وَالنَّصَارَىٰ وَالْمَجُوسَ﴾
- ٥٨٣ كل من فى السموات والارض يسجد لله تعالى
- ٥٨٤ ربع: ﴿هَذَانِ خَصْمَانِ اخْتَصَمُوا فِي رَبِّهِمْ﴾
- ٥٨٥ ذكر حال أهل الجنة
- ٥٨٦ ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾
- ٥٨٧ ﴿وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ أَن لَّا تُشْرِكْ بِي شَيْئًا﴾
- ٥٨٩ ﴿لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَّعْلُومَاتٍ﴾
- ٥٩١ ﴿ذَلِكَ وَمَن يُعْظِمِ حُرْمَاتِ اللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ عِنْدَ رَبِّهِ﴾
- ٥٩٢ ﴿ذَلِكَ وَمَن يُعْظِمِ شَعَائِرَ اللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى الْقُلُوبِ﴾
- ٥٩٣ لم يزل ذبح المناسك وإراقة الدماء على اسم الله مشروعاً فى جميع الملل
- ٥٩٣ ذبح البدن من شعائر الله
- ٥٩٦ ﴿لَن يَبَالَ اللَّهُ لِحُومِهَا وَلَا دِمَائِهَا وَلَكِن بِئَالِهِ النَّفْسِ مِلكُمْ﴾
- ٥٩٧ ربع: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُدَافِعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا﴾
- ٥٩٧ ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتِلُونَ بِأَنفُسِهِمْ ظَلَمُوا﴾

- ٥٩٩ ﴿ الَّذِينَ إِنْ مَكَانَهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ ﴾
- ٦٠٠ ﴿ وَإِنْ يَكْذِبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ ﴾
- ٦٠١ ﴿ وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَنْ يُخْلِفَ اللَّهُ وَعْدَهُ ﴾
- ٦٠١ الكفار يستعجلون وقوع العذاب بهم
- ٦٠٢ قصة الغرائق
- ٦٠٣ ﴿ وَلَا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي مَرِيَّةٍ مِنْهُ حَتَّى تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً ﴾
- ٦٠٤ ربيع: ﴿ ذَلِكَ وَمَنْ عَاقَبَ بِمِثْلِ مَا عَرَّفَ بِهِ ثُمَّ بَغِيَ عَلَيْهِ لَيَصْرَثَهُ اللَّهُ ﴾
- ٦٠٤ ﴿ ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ ﴾
- ٦٠٥ ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَتَصْبِحُ الْأَرْضُ مُخْضَرَةً ﴾
- ٦٠٦ جعل الله تعالى لكل قوم منسكا
- ٦٠٧ إحاطة علم الله تعالى بمن في السموات ومن في الأرض
- ٦٠٧ ﴿ وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَمْ يَنْزَلْ بِهِ سُلْطَانًا ﴾
- ٦٠٨ حقارة الأصنام وسخافة عقول عابديها
- ٦٠٩ ﴿ اللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ النَّاسِ ﴾
- ٦٠٩ ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ارْكَعُوا وَاسْجُدُوا وَاعْبُدُوا رَبَّكُمْ ﴾

سورة المؤمنون (٢٣)

- الجزء - ١٨: ﴿ قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ﴾ ٦١١
- ٦١١ صفات المؤمنين
- ٦١٣ ابتداء خلق الإنسان من سلالة من طين
- ٦١٤ ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا قَوْمَكُمْ سَبْعَ طَرَائِقٍ وَمَا كُنَّا عَنِ الْخَلْقِ غَافِلِينَ ﴾
- ٦١٥ تذكير الله تعالى عباده بنعمه التي لا تعد ولا تحصى فى إنزاله المطر
- ٦١٦ نوح ﷺ ودعوته قومه إلى عبادة الله وحده
- ٦١٧ صنع نوح ﷺ السفينة وإنجاءه الله تعالى المؤمنين معه وإهلاك الكافرين
- ٦١٨ ربيع: ﴿ هِيَئَاتِ هِيَئَاتِ لِمَا تُوعَدُونَ ﴾
- ٦١٨ ﴿ ثُمَّ أَنشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قُرُونًا آخَرِينَ ﴾
- ٦١٩ موسى وهارون عليهما السلام وبعثهما إلى فرعون وقومه
- ٦١٩ جعل الله تعالى عيسى ابن مريم وأمه آية للناس
- ٦٢٠ أمر الله تعالى عباده المرسلين عليهم السلام بالاكل من الحلال والقيام بصالح الأعمال
- ٦٢١ من صفات المؤمنين
- ٦٢٢ من عدل الله تعالى أنه لا يكلف نفساً إلا وسعها
- ٦٢٣ ربيع: ﴿ وَلَوْ رَحِمْنَاهُمْ وَكَشَفْنَا مَا بِهِمْ مِنْ ضُرٍّ لَلَجُوا فِي طُغْيَانِهِمْ بِعَمَهُونَ ﴾
- ٦٢٦ ﴿ وَلَقَدْ أَخَذْنَاهُمْ بِالْعَذَابِ فَمَا اسْتَكَانُوا لِرَبِّهِمْ وَمَا يَتَضَرَّعُونَ ﴾

- ﴿ لَقَدْ أَنْزَلْنَا آيَاتٍ مُبِينَاتٍ وَاللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾ ٦٧٠
- صفات المنافقين ٦٧٠
- ربع : ﴿ وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِنْ أَمَرْتَهُمْ لَيَخْرُجُنَّ ﴾ ٦٧١
- وعد الله تعالى لامة الرسول ﷺ بأنهم خلفاؤه فى الارض وبهم تصلح البلاد وتخضع لهم العباد وليبدلتهم من بعد خوفهم أمنا ٦٧٢
- ﴿ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ ﴾ ٦٧٤
- استئذان الاقارب بعضهم على بعض ٦٧٥
- ﴿ لَيْسَ عَلَى الْأَعْمَى حَرْجٌ وَلَا عَلَى الْأَعْرَجِ حَرْجٌ وَلَا عَلَى الْمَرِيضِ حَرْجٌ ﴾ ٦٧٦
- الاستئذان عند الانصراف ٦٧٨
- ﴿ لَا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُمْ بَعْضًا ﴾ ٦٧٨
- الله تعالى مالك السموات والارض وأنه عالم الغيب والشهادة ٦٨٠

سورة الفرقان (٢٥)

- ربع : ﴿ تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا ﴾ ٦٨١
- ﴿ وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً لَا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴾ ٦٨٢
- سخافة عقول الجهلة من الكفار فى قولهم عن القرآن: إنه إفك ٦٨٢
- تعنت الكفار وعنادهم وتكذيبهم للحق بلا حجة ٦٨٣
- ﴿ قُلْ أَذْكَاءٌ خَيْرٌ أَمْ جِنَّةٌ الْخُلْدِ الَّتِي وَعَدَ الْمُظَنُّونَ ﴾ ٦٨٤
- ﴿ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ ﴾ ٦٨٥
- ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِي الْأَسْوَاقِ ﴾ ٦٨٦
- الجزء - ١٩ : ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا تَوَلَّوْنَا نَزَّلْنَا عَلَيْنَا الْمَلَائِكَةَ أَوْ نَرَى رَبَّنَا ﴾ ٦٨٧
- من أهوال يوم القيامة : تشقق السماء وتفطرها وانفراجها بالغمام ٦٨٩
- ﴿ وَقَالَ الرَّسُولُ يَا رَبِّ إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هَذَا الْقُرْآنَ مَهْجُورًا ﴾ ٦٩٠
- كثرة اعتراض الكفار وتعنتهم وكلامهم فيما لا يعنيههم ٦٩١
- ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَجَعَلْنَا مَعَهُ أَخَاهُ هَارُونَ وَزَيْرًا ﴾ ٦٩٢
- استهزاء المشركين بالرسول ﷺ إذا رأوه ٦٩٣
- ذكر الأدلة الدالة على وجوده سبحانه على خلقه الاشياء المختلفة والمتضادة ٦٩٤
- ﴿ وَهُوَ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ ﴾ ٦٩٥
- ربع : ﴿ وَهُوَ الَّذِي مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ ﴾ ٦٩٦
- ﴿ وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُهُمْ وَلَا يَضُرُّهُمْ ﴾ ٦٩٧
- ﴿ تَبَارَكَ الَّذِي جَعَلَ فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَاجًا وَقَمَرًا مُنِيرًا ﴾ ٦٩٩
- صفات عباد الرحمن ٧٠٠
- جزاء عباد الرحمن فى الآخرة ٧٠٥

سورة الشعراء (٢٦)

- ٧٠٧ ريع : ﴿ طَسَمَ ١ تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ ﴾
- ٧٠٨ موسى عليه السلام وفرعون والمحاورة التي دارت بينهما
- ٧٠٩ كفر فرعون وتمرده وطغيانه وجحوده
- ٧١٠ فرعون يهدد موسى عليه السلام بالسجن ومعجزة العصا واليد
- ٧١١ مناظرة فعلية بين موسى عليه السلام وبين سحرة فرعون، وسجود السحرة وإيمانهم بالله تعالى
- ٧١٢ تهديد ووعيد فرعون لسحرته المؤمنين حديثا وتحذيرهم له
- ٧١٣ ريع : ﴿ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي إِنَّكُمْ مُتَّبِعُونَ ﴾
- ٧١٣ ضرب موسى عليه السلام البحر وعصاه وإنجاء الله تعالى للمؤمنين وإغراقه لفرعون وجنده
- ٧١٤ ﴿ وَأَتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَاهِيمَ ﴾
- ٧١٥ ﴿ الَّذِي خَلَقْنَاهُ مِن نُّورٍ يُهْدِينِ ﴾
- ٧١٦ سؤال إبراهيم عليه السلام ربه أن يؤتیه حكماً
- ٧١٧ ﴿ وَأَزَلَّكَ الْجَنَّةَ لِلْمُتَّقِينَ ٢٥ وَبَرَزْتَ الْجَحِيمَ لِلْغَاوِينَ ﴾
- ٧١٨ دعوة نوح عليه السلام قومه إلى تقوى الله تعالى
- ٧١٩ ريع : ﴿ قَالُوا أَنْتُمْ لَكُمْ وَاتَّبَعَكَ الْأَرْذَلُونَ ﴾
- ٧١٩ ﴿ قَالُوا لَئِن لَّمْ تَنْتَهِ يَا نُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمَرْجُومِينَ ﴾
- ٧٢٠ دعوة هود عليه السلام قومه إلى تقوى الله تعالى وتذكيره لهم بنعم الله تعالى عليهم
- ٧٢١ جواب قوم هود له بعدما حذرهم وأنذرهم ورغبهم ورهبهم
- ٧٢٢ دعوة صالح عليه السلام قومه إلى تقوى الله تعالى ووعظه وتحذيره إياهم
- ٧٢٣ جواب قوم صالح له ووصفهم له بأنه من المسحرين وقصة الناقة وعقرها
- ٧٢٤ دعوة لوط عليه السلام قومه إلى تقوى الله تعالى
- ٧٢٤ لوط عليه السلام ينهى قومه عن ارتكاب الفواحش وغشيانهم الذكور
- ٧٢٥ دعوة شعيب عليه السلام قومه إلى تقوى الله تعالى
- ٧٢٥ ريع : ﴿ أَوْفُوا الْكَيْلَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُخْسِرِينَ ﴾
- ٧٢٦ جواب قوم شعيب له بعد نصحه لهم بإيفاء الكيل والميزان
- ٧٢٦ ﴿ وَإِنَّهُ لَنَزَّلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾
- ٧٢٧ ﴿ وَإِنَّهُ لَفِي زُبُرِ الْأَوَّلِينَ ﴾
- ٧٢٨ ﴿ كَذَلِكَ سَلَكْنَاهُ فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ ﴾
- ٧٢٩ ﴿ وَمَا نَزَّلَتْ بِهِ الشَّيَاطِينُ ﴾
- ٧٣٠ ﴿ فَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتَكُونَ مِنَ الْمُعَذِّبِينَ ﴾
- ٧٣٢ ﴿ هَلْ أَنْتُمْ عَلَىٰ مِنَ نَّزَّلِ الشَّيَاطِينِ ﴾

سورة النمل (٢٧)

- ٧٣٦ ريع : ﴿ طَسَّتْ تِلْكَ آيَاتُ الْقُرْآنِ وَكِتَابِ مُبِينٍ ﴾
- ٧٣٧ ﴿ إِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِأَهْلِهِ إِنِّي آنَسْتُ نَارًا سَاءَتِ كَلِمَاتُهَا يُبْخِرُ ﴾
- النعيم الجزيلة والمواهب الجليلة والصفات الجميلة التي أعطاها الله لعبده ونبيه داود وابنه سليمان عليهما السلام
- ٧٣٩ ﴿ وَتَقَفَّ الطَّيْرُ فَقَالَ مَا لِيَ لَا أَرَى الْهُدُودَ ﴾
- ٧٤١ الهدهد يأتي سليمان عليه السلام بأخبار ملكة سبأ وسجودها وقومها للشمس من دون الله
- ٧٤٢ ريع : ﴿ قَالَ سَنَنْظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ الْكَاذِبِينَ ﴾
- ٧٤٣ ملكة سبأ تطلب الفتوى من أهل حاشيتها لما قرأت كتاب سليمان عليه السلام عليهم
- ٧٤٤ ﴿ فَلَمَّا جَاءَ سُلَيْمَانَ قَالَ أَتُمِدُّونَ بِمَالِ اللَّهِ خَيْرًا مِمَّا آتَاكُمْ ﴾
- ٧٤٥ ﴿ قَالَ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَيُّكُمْ يَأْتِينِي بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَنْ يَأْتُونِي مُسْلِمِينَ ﴾
- ٧٤٦ ﴿ قَالَ نَكْرَهُوا لَهَا عَرْشَهَا نَنْظُرُ أَتَهْتَدِي أَمْ تَكُونُ مِنَ الَّذِينَ لَا يَهْتَدُونَ ﴾
- ٧٤٧ ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ ﴾
- ٧٤٨ ﴿ وَكَانَ فِي الْمَدِينَةِ تِسْمَةٌ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصَلِحُونَ ﴾
- ٧٤٩ الجزء - ٢٠ : ﴿ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَخْرِجُوا آلَ لُوطٍ مِّنْ قَرْيَتِكُمْ ﴾
- ٧٤٩ ﴿ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَامٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَىٰ ﴾
- ٧٥١ ﴿ أَمَّنْ جَعَلَ الْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَالَهَا أَنْهَارًا ﴾
- ٧٥١ الله تعالى هو المدعو عند الشدائد ، المرجو عند النوازل
- ٧٥٢ ﴿ أَمَّنْ يَهْدِيكُمْ فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ ﴾
- ٧٥٣ ﴿ أَمَّنْ بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَمَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ ﴾
- ٧٥٣ ﴿ قُلْ لَا يَعْلَمُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ ﴾
- ٧٥٤ استبعاد منكرى البعث إعادة الأجساد ورد الله تعالى عليهم ذلك
- ٧٥٥ ﴿ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَذَا الْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴾
- ٧٥٥ ﴿ إِنَّ هَذَا الْقُرْآنُ يَنْقُصُ عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَكْثَرَ الَّذِي هُمْ فِيهِ يَخْتَفُونَ ﴾
- ٧٥٦ ريع : ﴿ وَإِذَا وَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَابَّةً مِّنَ الْأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ ﴾
- ٧٥٧ ﴿ وَيَوْمَ نَحْشُرُ مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ فَوْجًا مِّمَّنْ يُكَذِّبُ بِآيَاتِنَا ﴾
- ٧٥٨ ﴿ وَيَوْمَ يَفْخُ فِي الصُّورِ فَفَرَعٌ مِّنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ ﴾
- ٧٦٠ ﴿ إِنَّمَا أَمِرتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَذِهِ الْبَلَدَةِ الَّذِي حَرَّمَهَا وَلَهُ كُلُّ شَيْءٍ ﴾

سورة القصص (٢٨)

- ٧٦١ ﴿ طَسَمَ ﴿١﴾ تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ ﴾
- ٧٦٢ ﴿ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ أَنْ أَرْضِعِيهِ ﴾

- فهرس الموضوعات ٨٥٧
- ٧٦٣ ريع: ﴿ وَحَرَمْنَا عَلَيْهِ الْمَرَاضِعَ مِنْ قَبْلَ ﴾
- ٧٦٤ إعطاء الله تعالى موسى الحكمة والعلم وقصة القبطى الذى قتله موسى عليه السلام
- ٧٦٥ ﴿ وَجَاءَ رَجُلٌ مِنْ أَقْصَا الْمَدِينَةِ يَسْعَى قَالَ يَا مُوسَى إِنَّ الْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ ﴾
- ٧٦٥ ﴿ فَخَرَجَ مِنْهَا خَائِفًا يَتَرَقَّبُ ﴾
- ٧٦٦ ﴿ فَبَجَاءَتْهُ إِحْدَاهُمَا تَمْشِي عَلَى اسْتِحْيَاءٍ قَالَتْ إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا ﴾
- ٧٦٨ ﴿ فَلَمَّا قَضَى مُوسَى الْأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِ آنَسَ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ نَارًا ﴾
- ٧٦٩ ﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّي قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْسًا فَأَخَافُ أَنْ يَقْتُلُونِ ﴾
- ٧٧٠ ﴿ فَلَمَّا جَاءَهُمْ مُوسَى بِآيَاتِنَا بَيِّنَاتٍ قَالُوا مَا هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُفْتَرَى ﴾
- ٧٧١ كفر فرعون وافتراؤه وطغيانه فى دعوى الإلهية لنفسه القبيحة
- ٧٧٣ ﴿ وَمَا كُنْتُ بِجَانِبِ الْغُرَيْبِ إِذْ قُضِيَتْ إِلَى مُوسَى الْأَمْرُ وَمَا كُنْتُ مِنَ الشَّاهِدِينَ ﴾
- ٧٧٤ ريع: ﴿ وَلَقَدْ وَصَلْنَا لَهُمْ الْقَوْلَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴾
- ٧٧٥ العلماء الاولياء من أهل الكتاب آمنوا بالقرآن
- ٧٧٦ ﴿ إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ ﴾
- ٧٧٨ تعريض الله تعالى بأهل مكة
- ٧٧٩ حقارة الدنيا بالنسبة لما أعده الله تعالى لعباده الصالحين فى الآخرة من النعيم العظيم المقيم
- ٧٧٩ ﴿ وَيَوْمَ يناديهِمْ لِقَوْلِ أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَرَعُمُونَ ﴾
- ٧٨٠ الله تعالى هو المنفرد بالخلق والاختيار ليس له فى ذلك منازع ولا معقب
- ٧٨١ امتنان الله تعالى على عباده بما سخر لهم من الليل والنهار اللذين لا قوام لهم بدونهما
- ٧٨٢ ريع: ﴿ إِنَّ قَارُونَ كَانَ مِنْ قَوْمِ مُوسَى فَبَغَى عَلَيْهِمْ ﴾
- ٧٨٢ ﴿ قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتهُ عَلَى عِلْمٍ عِنْدِي ﴾
- ٧٨٣ ﴿ فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ ﴾
- أمر الله تعالى لرسوله محمد ﷺ بإبلاغه الرسالة وتلاوة القرآن على الناس ، وأنه سيرده إلى
- ٧٨٥ معاد وهو يوم القيامة

سورة العنكبوت (٢٩)

- ٧٨٨ ريع: ﴿ أَلَمْ نَحْصِبِ النَّاسَ أَنْ يَمُرُّوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ﴾
- ٧٨٨ ﴿ مَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ اللَّهِ فَإِنَّ أَجَلَ اللَّهِ لَآتٍ ﴾
- ٧٨٩ الإحسان إلى الوالدين
- ٧٩٠ صفات قوم من المكذبين ادعوا بالإيمان بالسنتهم ولم يثبت الإيمان فى قلوبهم
- ٧٩١ ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا اتَّبِعُوا سَبِيلَنَا وَلنَحْمِلَ خَطَايَاكُمْ ﴾
- ٧٩١ تسلية الله تعالى لعبده ورسوله محمد ﷺ بقصة نوح عليه السلام وطول فترة مكثه فى قومه
- ٧٩٢ ﴿ وَإِبْرَاهِيمَ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ ﴾
- ٧٩٣ ﴿ أَوْ لَمْ يَرَوْا كَيْفَ يُبْدِئُ اللَّهُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ ﴾

- ﴿ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا اقْتُلُوهُ أَوْ حَرِّقُوهُ فَأَنجَاهُ اللَّهُ مِنَ النَّارِ ﴾ ٧٩٤
- ربع : ﴿ قَاتِنَ لَهُ لُوطٌ وَقَالَ إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّي ﴾ ٧٩٥
- إنكار لوط عليه السلام على قومه سوء صنيعهم في إتيانهم الذكران من العالمين ٧٩٦
- ﴿ وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبَشْرَىٰ قَالُوا إِنَّا مَهْلِكُوا أَهْلَ هَذِهِ الْقَرْيَةِ ﴾ ٧٩٧
- شعيب عليه السلام يأمر قومه (مدين) بعبادة الله وحده ، ويحذرهم بأسه ونقمته سبحانه ٧٩٨
- ﴿ وَعَادًا وَثَمُودَ وَقَدْ تَبَيَّنَ لَكُمْ مِنْ مَسَآئِبِهِمْ وَزَيْنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ ﴾ ٧٩٨
- مثل المشركين في اتخاذهم آلهة من دون الله لا ينصرونهم ولا يرزقونهم كمثل بيت العنكبوت
- في ضعفه ٧٩٩
- ﴿ خَلَقَ اللَّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ ﴾ ٧٩٩
- الجزء - ٢١ : ﴿ وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ﴾ ٨٠٠
- ﴿ وَكَذَلِكَ أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ فَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يُؤْمِنُونَ بِهِ ﴾ ٨٠١
- ﴿ وَقَالُوا لَوْلَا أَنْزَلَ عَلَيْهِ آيَاتٍ مِنْ رَبِّهِ ﴾ ٨٠٢
- استعجال جهلة المشركين وقوع العذاب بهم ٨٠٤
- أمر الله تعالى للمؤمنين المضطهدين بالهجرة إلى أرضه الواسعة ٨٠٤
- ﴿ وَكَيْنَ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لِيَقُولُنَّ اللَّهُ ﴾ ٨٠٥
- غاية ما في الدنيا لهو ولعب ومصيرها إلى زوال وانقضاء ٨٠٦
- ﴿ أَوْ لَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا مَحْرَمًا آمِنًا وَتَحْتَفِلُ فِيهِ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ ﴾ ٨٠٦

سورة الروم (٣٠)

- ربع : ﴿ أَلَمْ يَغْلِبِ الرُّومَ ﴾ ٨٠٨
- ﴿ أَوْ لَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنفُسِهِمْ مَا خَلَقَ اللَّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ ﴾ ٨١٣
- ﴿ اللَّهُ بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ ٨١٤
- تسيح الله تعالى لنفسه المقدسة وإرشاد عباده إلى تسيحه وتحميده ليلا ونهارا ٨١٤
- ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ إِذَا أَنْتُمْ بَشَرٌ تَنْتَشِرُونَ ﴾ ٨١٥
- من آيات الله تعالى خلق السموات والأرض واختلاف الألوان والانسنة والالوان ومتامكم بالليل والنهار ٨١٦
- ﴿ مِنْ آيَاتِهِ يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا ﴾ ٨١٧
- ﴿ وَلَهُ مِنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلُّ لَهٍ قَاتِنُونَ ﴾ ٨١٧
- ﴿ حَرَبَ لَكُمْ مَثَلًا مِنْ أَنفُسِكُمْ ﴾ ٨١٨
- ربع : ﴿ مُبِينٍ إِلَيْهِ وَثِقُوا وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ ﴾ ٨١٩
- الناس في حالة الاضطراب يدعون الله وحده فإذا أسبغ عليهم النعم إذا فريق منهم يشركون بالله ٨٢١
- ﴿ فَآتَ ذَا الْقُرْبَىٰ حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ ﴾ ٨٢٢
- ﴿ ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ ﴾ ٨٢٣
- المبادرة إلى الاستقامة في طاعة الله تعالى والمبادرة إلى الخيرات ٨٢٤

٨٥٩	فهرس الموضوعات
٨٢٤	من نعم الله تعالى على خلقه إرسال الرياح مبشرات بين يدي رحمته
٨٢٤	﴿ اللَّهُ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيحَ فَتُبْرِئُ سَحَابًا ﴾
٨٢٥	﴿ فَإِنَّكَ لَا تَسْمَعُ الْمُوتِينَ وَلَا تَسْمَعُ الصُّمَّ الدُّعَاءَ ﴾
٨٢٦	ربع : ﴿ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ﴾
٨٢٧	جهل الكفار في الدنيا والآخرة
٨٢٧	﴿ وَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ ﴾
٨٢٧	فضل سورة الزوم واستحباب قراءتها في الفجر
٨٢٩	فهرس الموضوعات